أ. د. وهبة الزحيلي

التفسير الوسيط

الجزء الأول

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان
دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي: ١ - ١٤٠٠,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-818-8

الرقم الموضوعي: ٢٢٠

الموضوع: القرآن وعلومه

العنوان: التفسير الوسيط

التأليف: أ. د. وهبة الزحيلي

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: مطابع المستقبل-بيروت

التجليد الفني: مؤسسة البساط-بيروت

عدد الصفحات: ج١ ٩٣٦ ص

قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم

عدد النسخ: ٣٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

http://www.fikr.com/

e-mail: info@fikr.com

الطبعة الأولى

محرم ١٤٢٢هـ

نيسان (أبريل) ٢٠٠١م

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير الوسيط

الجزء الأول

التفسير الوسيط / وهبة الزحيلي .- دمشق: دار الفكر،
٢٠٠٠ .- ٣ج؛ ٢٤سم.

١- ٢١٢,٩ ز ح ي ت ٢- العنوان
٣- الزحيلي
مكتبة الأسد

ع: ٢٠٠٠/١٠/١٧٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله تعالى المتفضِّل المنعم، حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، وكما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، فإني وتالله لمدين بالنعم الوافرة الكثيرة لله عزّ وجلّ، ولا أملك إلا لسان الحمد والشكر بكل ما أُوتيت من قوة، وما أملك من حواس وأعصاب وعقل ووعي، وفي كل حين وآن، وفاء ببعض الواجب لشكر نعم الله سبحانه. والصَّلاة والسَّلام الأتمان الأكملان على النَّبي المنقذ من الضَّلالة والجهالة والرّدى، إلى نور الحق والإيمان والهدى، وعلى آله وأصحابه الغرّ الميامين، الذين هم قدوتنا، ولهم الفضل على جميع الأمة إلى يوم القيامة، وبعد:

ما كنت لأحسب أني في حياتي أخطُّ كلمة واحدة في تفسير كتاب الله وكلامه الذي أوحاه لنبيِّه؛ لأنه لا يمكن لأي عالم مهما أُوتي من العلم أن يجزم بما هو المراد من كلام الله، لأن مراد الله تعالى لا يحصره بيان، ولا يقطع أحد على الإطلاق بما هو المقصود من شرع الله تعالى، ولكنها المحاولة في التبيان والتبسيط والتيسير وتقريب البعيد، وجمع المفيد، وتحقيق المتلابسات، وربط التالي لكتاب الله تعالى بما هو المطلوب منه، والمفروض شرعاً عليه، من العمل بما أنزل الله حكماً عربياً [١] قائماً بين الناس، وصلة بالله تعالى، وحفاظاً على أمة القرآن إلى يوم الدِّين.

---

(١) أي فصلاً للأمر، على وجه الحق باللسان العربي، أو حاكماً بالعربية أو حكمة.

وبما أن أقدار الناس وهممهم تتفاوت، ومستويات العلم تختلف، فقد يسَّر الله الكريم لي أن أُفسِّر القرآن الكريم ثلاث مرات متعاقبة، ليأخذ كل إنسان بأي مستوى يتفق مع رغباته وإمكاناته، وكانت ولله الحمد التفاسير الثلاثة، وأصبحت لأول مرة هذه التفاسير في متناول الناس في كل مكان:

- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (١٦ مجلداً)، لأهل الاختصاص.
- التفسير الوجيز، للعامة وأكثرية الناس.
- التفسير الوسيط، لمتوسطي الثقافة (٣ مجلدات).

والتفسير الوسيط هذا هو الأحاديث الإذاعية التي سجَّلتها، وأُذيعت في الإذاعة السورية العامة، ثم في إذاعة صوت الشعب، صباح كل يوم من أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة في مبدأ الأمر، لمدة ست دقائق، بعنوان (قصص من القرآن) ثم في أيام السبت والاثنين والأربعاء في إذاعة صوت الشعب، الساعة السادسة والربع، لمدة عشرة دقائق في زاوية (القرآن والحياة). وكان كل موضوع في هذا التفسير يقرع آذان السامعين، لمدة سبعة أعوام من عام (١٩٩٢-١٩٩٨ م) شاغلاً حديث الصباح بمقدار الزمن المخصص له، لكني ابتدأت الأحاديث بالقصة القرآنية، وطبع بعنوان مستقل: (القصة القرآنية-هداية وبيان)، ثم شرعت في التفسير الشامل حتى نهاية القرآن الكريم.

وربما يتساءل بعض الناس عن أوجه الشبه والاختلاف بين هذه التفاسير الثلاثة، فأقول:

- تتفق التفاسير الثلاثة في بيان مدلول الآيات بدقة وشمول، وأسلوب مبسط ميسَّر، وفي معرفة أسباب نزول الآيات الصحيحة الثابتة، والاستشهاد ببعض الآيات والأحاديث الصحيحة، المناسبة في موضوعها ومغزاها مع الآية المفسَّرة،

وفي البُعد عن القصص والرِّوايات الإسرائيليّة التي لا يخلو منها تفسير قديم، وفي التزام أصول التفسير بالمأثور والمعقول معاً، وبالاعتماد على أمهات كتب التفسير الكبرى، بمختلف مناهجها.

- وينفرد (التفسير المنير) ببيان أوسع وأجلى للآيات، وبالتعرف على مضامين كل سورة في بدء تفسيرها في الجملة، وعلى فضائل السُّور القرآنية مما يصح من أخبارها، واستبعاد الموضوع والضعيف، وعلى مناسبات السُّور القرآنية والآيات بعضها مع بعض، وعلى تفصيل وتحقيق القصص والأحداث التار يخية القديمة، ووقائع السِّيرة النَّبوية، واستنباط الأحكام الشَّرعية بالمعنى الواسع للحكم بحيث يشمل العقيدة والعبادة، والأخلاق والآداب، والعبر والعظات، ونظام الحياة والمعاملات، وأصول الحياة الإسلامية العامة. كما يمتاز ببيان المفردات اللغوية بياناً كافياً شافياً، وبمعرفة وجوه البلاغة والإعراب، وكل ذلك مع تعقيبات وملاحظات ومقارنات وتنويه بالمعجزات، والإعجاز العلمي للقرآن الكريم بحسب تقدم العلوم العصرية.

- ويقتصر (التفسير الوجيز) على بيان المقصود بكل آية، بعبارة شاملة غير مخلّة بالمعنى المراد، ولا مبتورة، ومن غير استطراد ولا تطويل، وشرح بعض الكلمات الغامضة غموضاً شديداً، وبيان أسباب النزول مع كل آية أثناء شرحها.

- وأما (التفسير الوسيط) هذا، فقد يزاد فيه تفسير بعض الآيات عما هو مذكور في (التفسير المنير)، ويشتمل على إيضاح معاني أهم الكلمات الغامضة، مع التَّعرض لأسباب النزول مع كل آية. وحينئذ قد تتطابق عبارات التفاسير الثلاثة، وقد تختلف بحسب الحاجة، وبما يقتضيه المقام في تسليط الأضواء على بعض الألفاظ والجمل، وقد يذكر الوجه الإعرابي الضروري للبيان. وتميّز هذا التفسير ببساطته وعمقه في آن واحد، وبإيراد مقدمة عن كل مجموعة من الآيات، تكوّن موضوعاً واحداً.

إن ما عملته في مجال التفسير، وفي غيره من المصنفات العلمية الكثيرة، إنما هو بقصد تيسير العلم بأسلوب واضح متّزن، وبعبارات لا إشكال فيها ولا غموض. وقد سعدت كل السعادة أن أقبل الناس على التفسيرين السابقين: المنير والوجيز، لأنهم وجدوا فيهما ما يحقق بغيتهم، وما تصبو إليه نفوسهم. والله أسأل أن يديم النفع بما يعلِّمنا من فضله، وأن يزيدنا علماً، فإن على العالم أمانة البيان والتبليغ، على قدر الوسع والطاقة، وهو خادم العلم، وتقريبه للناس، تقبَّل الله منا، وجعله في ميزان حسناتنا، وثقَّل به الموازين، والله لا يضيع أجر المحسنين.

أ.د.: وهبة مصطفى الزحيلي

فاتحة القرآن الكريم

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ١-٧]

الفاتحة المعروفة، المكّية النزول (النازلة قبل الهجرة)، من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، قال ابن عباس:

«أول ما نزل به جبريل عليه السّلام على النّبي ﷺ: يا محمد، استعذ، ثم قل: بسم الله الرّحمن الرّحيم».

والاستعاذة مستحبة في بداية تلاوة القرآن وفي بداية الصلاة، قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النّحل: ١٦/ ٩٨]

وكان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل، فاستفتح صلاته وكبّر، قال:

«سبحانك اللهم و بحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله غيرك، ثم يقول: لا إله إلا الله-ثلاثاً -، ثم يقول: أعوذ بالله السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم من همزه ونفخه ونفثه» والهمز: الخنق، والنفخ والنفث بالشيء الضّال.

ثم يقرأ الإنسان البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ وهي آية فاصلة بين السُّور القرآنية، ونزلت مع كل سورة كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما، ولم

توضع في أول سورة التَّوبة (براءة) بأمر الوحي؛ لأن هذه السورة نزلت في الحرب والجهاد والبراءة من المشركين بعد غزوة تبوك.

ثم يقرأ المصلِّي الفاتحة، عن أبي ميسرة عن علي بن أبي طالب: أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع منادياً يناديه: يا محمد، فإذا سمع الصوت انطلق هارباً، فقال له ورقة بن نوفل: إذا سمعت النداء فاثبت حتى تسمع ما يقول لك، قال: فلما برز سمع النداء: يا محمد، فقال: لبيك، قال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال: قل: (الحمدُ لله ربِّ[١] العالمين، الرَّحمن الرَّحيم، مالكِ يومِ الدِّين[٢]، إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعين، اهدِنا الصِّراط المستقيم[٣]، صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم، غير المغضوبِ عليهم ولا الضَّالِّين[٤]».

نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش، فهي سورة مكِّية بالإجماع، لعظم مكانتها وعلوِّ شرفها، من بين سور القرآن، قال الرسول ﷺ لأُبي بن كعب، رضي الله عنه، بعد أن قرأ أمّ القرآن:

«والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلَها، إنها لهي السَّبعُ المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيته».

وكان رسول الله ﷺ لا يصلِّي إلا بفاتحة الكتاب.

وسميت (الفاتحة) لأنها أول ما يفتتح بها كتابة القرآن الكريم في المصاحف، وبها تفتتح القراءة في جميع الصلوات، ولها أربعة عشر اسماً منها: أم الكتاب، وأساس القرآن، وسورة الحمد، والسَّبع المثاني، أي تثنى وتعاد كل ركعة.

---

(١) مربِّي الإنس والجنّ ومالكهم ومدبِّر أمورهم. (٢) يوم الجزاء والحساب. (٣) وفقنا للثبات على الطريق القويم. (٤) المنحرفون عن طريق الاستقامة من أتباع الملل الأخرى.

جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«قال الله عزّ وجلّ: قسمتُ الصّلاة (أي قراءة الفاتحة) بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قال الله: مجدني عبدي أو فوّض إلي عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال الله: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال الله: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل».

ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها (آمين) أي اللهم استجب لنا.

قال ﷺ في فضل الفاتحة:

«إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد، فقد أمنت من كل شيء إلا الموت».

تفسير سورة البقرة
موقف الناس من القرآن الكريم

ابتدأ الله تعالى سورة البقرة، المدنيّة النزول (ما بعد الهجرة ولو في مكّة)، ببيان موقف الناس من القرآن الكريم، وذكر أنهم ثلاثة أصناف، فمنهم من آمن به وعمل صالحاً، وأولئك هم المفلحون، ومنهم من كفر به واستكبر عن الحق قولاً وعملاً، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. ومنهم من آمن بالله وباليوم الآخر قولاً باللسان فقط، وبقي قلبه مملوءاً بالكفر والضّلال، وأولئك لهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون، وهم المنافقون.

قال مجاهد: أربع آيات من أول البقرة نزلت في المؤمنين، وآيتان في الكفار، وثلاث عشرة آية في المنافقين.

أما المؤمنون المتّقون فلهم أوصاف أربعة: الإيمان الصادق بالغيب الذي أخبر الله عنه، وقام الدليل عليه، فلا يقتصرون على المادّيات والمحسوسات، وإنما يؤمنون بما وراء المادة، ويقيمون الصلاة باعتبارها عماد الدين، ويؤتون الزكاة للفقراء والمساكين، والزكاة أساس بناء المجتمع، كما أن الصلاة أساس بناء الفرد، ويؤمنون بجميع ما أنزل الله على رسله من الكتب السماوية ويؤمنون بالآخرة إيماناً يقينياً لا شبهة فيه، ولا شك.

قال الله تعالى مبيِّناً منزلة القرآن السامية وأنه الكتاب الكامل، وواصفاً هؤلاء المؤمنين:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ(١) لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ(٢) هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ(٣) ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٢/ ١-٥].

ثم ذكر الله صفات الكافرين كأبي جهل وأبي لهب ونحوهما ممن جاهر بتكذيب القرآن، فاستوى عندهم الإنذار وعدمه، إذ لا ينتفعون به، فقلوبهم مغلقة لا يصل إليها النور الإلهي المتمثل في آيات القرآن، ويحجبون أسماعهم وأبصارهم عن هذه الآيات ويتعامون عنها، فأولئك لهم عذاب عظيم شديد خاص بهم، وكان العيب فيهم وفي أطباعهم لا في القرآن، لذا ختم الله على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم بكفرهم وعنادهم، قال الله تعالى مبيناً صفات هؤلاء الكافرين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ(٤) عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ(٥) وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة: ٢/ ٦-٧].

إن البصير العاقل هو الذي يتأمل في مستقبله وفي الحق الذي ينفعه، وينفر من الباطل والضلال، ويوازن بين صفات المؤمنين البنّاءة التي هي إيمان بالغيب وإقامٌ الصلاة وإيتاء الزكاة وإيمان باليوم الآخر، وصفات الكفار الهدامة التي هي دمار وخراب، وابتعاد عن هداية الله الحقّة، وانكباب في نار جهنم، والمؤمن هو المواطن الصالح الأمين، والكافر هو العدو الخائن لنفسه وأمته ومجتمعه.

---

(١) القرآن العظيم. (٢) لا شك في أنه من عند الله. (٣) الذين امتثلوا الأوامر وأدّوا الفرائض وتجنّبوا المعاصي (٤) طبع الله تعالى عليها. (٥) غطاء وسِتْر.

أوصاف المنافقين

في أوائل سورة البقرة نزلت ثلاث عشرة آية في المنافقين (٨-٢٠) والنفاق جبن وخيانة، وكذب وضلال، ومرض وخداع، لذا سرعان ما ينكشف شأن المنافقين، ويحتقرهم المجتمع، وتنبذهم الأمة. والنفاق واليهودية شيئان متلازمان؛ لأنه ينشأ عن جبن وضعف حقيقي ولؤم طبعي، فالمنافق يلتوي مع الناس في أقواله وأفعاله، واليهودي يخادع الناس ويتآمر عليهم. وكثيراً ما لاقى النَّبي ﷺ من النفاق والمنافقين، وكم كان للنفاق في المجتمعات من أضرار بالغة، والجاسوس المتآمر على وطنه وأمته منافق، والتَّجسس الذي يخدم العدو مظهر من مظاهر النفاق.

والمنافقون أشد خطراً على الإسلام من الكفار صراحة؛ لأنهم أعداء في داخل الأمة، ولا يقتصر وجود المنافقين على عصر النَّبي ﷺ فقط، بل يمكن ظهور المنافقين ووجودهم في كل عصر ومكان.

ذكر الله صفات المنافقين، وأولها إظهار الإيمان بالله واليوم الآخر، وإبطان الكفر والضلال، ومخادعة الله، مع أن الله عالم بهم لا تجوز عليه مخادعتهم، وليس خداعهم إلا وبالاً عليهم، قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ[1] ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ[2] فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ٢/٨-١٠].

والمنافقون قوم يثيرون الفتن والتجسس لحساب الأعداء وتأليبهم على المسلمين فهم مفسدون في الأرض ويزعمون أنهم مصلحون، فهم لا يدركون الواقع

(١) يعملون عمل المخادع. (٢) شك ونفاق وتكذيب.

المحسوس، ولا يشعرون بحالهم. وإذا دعوا إلى الإيمان سخروا من المؤمنين ووصفوهم بأنهم سفهاء ضعفاء العقول جهلاء، وهم السفهاء في الواقع. قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١١-١٣].

ومن صفات المنافقين: إظهار الإيمان استهزاء، وإذا خلوا إلى شياطينهم وزعمائهم من اليهود وأهل الفساد قالوا لهم: إنا معكم. قال ابن عباس: «توجه أبو بكر وعمر وعلي، رضي الله عنهم، إلى عبد الله بن أبي وأصحابه من اليهود، فلما رآهم ابن أبي قال لأصحابه: انظروا كيف أردُّ هؤلاء السفهاء عنكم بمعسول القول، فلما حضروا أخذ يمدحهم الواحد بعد الآخر في الدين والسَّبق إلى الإسلام، فقال لأبي بكر: مرحباً بالصِّدّيق شيخ الإسلام، وقال لعمر: مرحباً بسيد بني عدي الفاروق القوي في دين الله، وقال لعلي: مرحباً بابن عم رسول الله وخَتَنه (صهره) سيد بني هاشم، ثم قال لأصحابه بعد أن انصرف هؤلاء الصحابة: كيف رأيتموني فعلت؟ فأثنوا عليه خيراً[١]، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ[٢] قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[٣] ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٤-١٦].

ثم ضرب الله مثلَيْن للمنافقين:

---

(١) قال السيوطي: هذا الإسناد واه جداً. (٢) انصرفوا إليهم وانفردوا معهم. (٣) أي يتحيرون يترددون في تجاوزهم الحدّ وغلوهم في الكفر.

المثل الأول شبّههم بحال جماعة استضاؤوا بنار زمناً يسيراً ثم أطفأها الله.

والمثل الثاني صوّر انتهازيتهم وشبّههم بحال جماعة أصابهم مطر غزير، وفرحوا بالبرق والنور وقتاً ما، ثم وقعوا حيارى مبهوتين حينما أظلم الأفق. فقال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا(١) فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ(٢) عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ(٣) مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ(٤) كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ(٥) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢/١٧-٢٠].

إثبات الألوهية ورسالة النّبي ﷺ

أوضح القرآن الكريم الفرق بين عبادة المؤمنين وعبادة المشركين، أما المشركون الذين يتخذون مع الله إلهاً آخر من الأصنام والأوثان، فيعبدون ما لا يضرّ ولا ينفع، ولا يغني من الحق شيئاً، ويتركون عبادة الله الرَّب الذي خلقهم، وخلق آباءهم من قبل، وأوجد هذا الكون؛ سماءَه وأرضَه، برَّه و بحرَه، فهل يليق بهم أن يتخذوا أنداداً أو أمثالاً لله عزّ وجلّ، مع أنه خلقهم وأمدّهم بنعم لا تعدّ ولا تحصى؟!

أما المؤمنون فيتميزون بالعقل والبصيرة، والوفاء وعرفان الحق والجميل، ففي عبادتهم لله وحده تتحقق عبوديتهم المطلوبة لله، ومحبّتهم إياه، وتقواهم واستقامتهم على النَّهج الصحيح، وشكرهم لربِّهم الذي جعل لهم الأرض ممهدة للإقامة عليها

(١) أوقدها . (٢) خرس لا ينطقون . (٣) كمطر . (٤) يستلبها . (٥) وقفوا وثبتوا في أماكنهم متحيرين .

مع أنها تتحرك وتدور، وجعل السماء كالقبة تظلّهم بالخير والبركة، وهي بناء محكم مع ما فيها من ملايين النجوم والكواكب، وعوالم الأفلاك والأجرام السماوية، لا يسقط منها شيء، ولا يختلّ لها نظام، وأنزل الله لخير العباد في صحتهم وزراعتهم ماءً مباركاً طيِّباً يُنبت به لهم الكلأ والزرع والشجر، ويغسل الجو من الغبار والجراثيم، فإله خالق هذا شأنه، ومنعم متفضل هذا ديدنه، هو المستحق للعبادة والخضوع والانقياد له؛ لأنه مصدر الخلق والتكوين والرزق.

قال الله تعالى دالاً على ألوهيَّته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا(١) وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ(٢) وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا(٣) وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١-٢٢].

ثم أثبت الله صحة رسالة محمد ﷺ بما أنزل الله عليه من معجزة القرآن، وأن القرآن معجز، وأنه من عند الله، ودليل إعجازه: أن الله تحدى العرب الذين نزل بلغتهم أن يأتوا بسورة تماثله في البلاغة والفصاحة، ومتانة التشريع الصالح لكل زمان ومكان، ومطابقته لمكتشفات العلوم المختلفة، وإخباره بالمغيبات في الماضي والمستقبل. فإذا شك إنسان في أن القرآن ليس من كلام الله فليأت بمثله، والقرآن كلام عربي من جنس ما يتكلم به العرب في خطبهم وأشعارهم وكلامهم العادي، وهم فرسان البلاغة والفصاحة، وأعلام البيان. وإذا عجزوا عن الإتيان بمثل سورة من القرآن، وهم عاجزون إلى الأبد، فليرجعوا إلى الحق، وليؤمنوا بمحمد وبما أنزل الله عليه من القرآن، وفي ذلك وقاية لهم من النار. قال الله تعالى مبيِّناً إعجاز القرآن وإثبات رسالة النبي محمد ﷺ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ

---

(١) بساطاً للاستقرار عليها. (٢) سقفاً مرفوعاً. (٣) أمثالاً من الآلهة تعبدونها.

وَٱدْعُواْ (١) شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣-٢٤].

فائدة ضرب الأمثال للناس

يحرص القرآن الكريم على توضيح المعاني الدينية وأصول الإيمان بإيراد الأمثال والتشبيهات بالأمور المادية المحسوسة، لترسيخ المعاني في الأذهان، فإن كان المضروب له المثل عظيماً كالحق والإسلام ضُرب مَثَله بالنور والضياء، وإن كان ضعيفاً حقيراً كالأصنام، ضرب مثله بما يشبهه كالذباب والبعوض والعنكبوت، فيكون المثَل لكشف المعنى وتوضيحه بما هو معروف مشاهَد لا سبيل إلى إنكاره.

فأما المؤمنون الذين في قلوبهم نور، فيهديهم الله إلى التصديق بأن هذا كلام الله، ويكون جزاؤهم جنان الخلد، والاستمتاع بنعيمها، ففيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها أنهار جارية تحت الأشجار، وفيها الثمار اليانعة الشهية مما لم يروه في الدنيا أبداً، وإن كان متشابهاً ليأنسوا به ويأكلوه، وفي الجنة حُور عين، مقصورات في الخيام، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانّ، مطهرات من كل دنس ورجس كالحيض والنفاس وشرور النفس والهوى، قال الله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥].

(١) أحضروا آلهتكم ونصراءكم.

وأما موقف الكفار الجاحدين من أمثال القرآن، فهم في حيرة من أمرهم، فيتعجبون ويقولون: ماذا يريد الله بهذا المثل؟ ككل متخبِّط لا يدري ماذا يفعل. قال ابن عباس: لما ضرب الله سبحانه هذين المثلَين للمنافقين، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ٢/١٧] وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1] قالوا: الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾

وقال الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين المثل، ضحكت اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله هذه الآية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٦-٢٧].

فالتمثيل بالبعوضة ونحوها ضلَّ به كثير من الناس، واهتدى به كثير من الناس، ولا يَضِلّ به إلا الخارجون عن طاعة الله، الذين ينقضون ما عاهدوا الله عليه من الإيمان بمحمد والتصديق به، وهَمُّ هؤلاء الضالِّين الإفساد بين الناس، وإثارة الفتن والشكوك، وقلب الحقائق، وتصديع جبهة الأمة الداخلية، والتآمر مع الأعداء، إذ لا مبدأ عندهم يردعهم عن موالاة الأعداء، فخسروا الدنيا بافتضاحهم والآخرة بغضب الله عليهم، وذلك هو الخسران المبين.

(١) أي كالمطر الكثير الغزير.

بعض مظاهر قدرة الله

يناقش القرآن الكريم أولئك الكفار الذين أنكروا ربوبية الله تعالى مرة بعد مرة، لأن موقفهم وحالهم مدعاة للعجب والاستغراب، والله تعالى يريد أن يرشدهم إلى سواء الصراط، ويدلهم على طريق النجاة، وطريق الإقناع بسيط مادي محسوس، مأخوذ من الواقع القريب المشاهَد، ومن التأمل في وضع الإنسان ومراحل تغيره وانتقاله من عالم إلى عالم آخر.

فلو فكر الإنسان في نفسه وبمقتضى فطرته الصحيحة السوية، لعرف أن سبب وجوده في هذا العالم هو قدرة الله، وأن الله أنعم علينا بنعمة الوجود، ووهب لنا عقلاً، وكرَّمنا فجعل حدّاً لآجالنا، وتركنا أحراراً في هذه الحياة لنعمل بقناعة ووعي بما يرضي الله، ويحقق الخير لأنفسنا وأمتنا، ثم نرجع إلى الله ليجزي كلاً منا على ما قدَّمت يداه، ويحاسبنا على النّعمة التي أنعم بها علينا. قال ابن عباس وغيره من المفسرين: كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تُخلقوا، ثم خلقتم وأخرجتم إلى الدنيا، فأحياكم، ثم أماتكم الموت المعهود، ثم يحييكم للبعث يوم القيامة. فهناك إماتتان، وإحياءان، الإماتة الأولى قبل الوجود في الدنيا، والإماتة الثانية بعد الحياة، والحياة الأولى بعد الولادة، والحياة الثانية بعد البعث يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ[1] ﴿١١﴾﴾ [المؤمن: ٤٠/١١].

وقال الله سبحانه:

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٨].

---

(١) أي خروج من نار جهنم .

وهذا التَّنقل بين موتتين وحياتين دليل على قدرة الله تعالى، ودليل على وجود ما يسمى بالبرزخ: وهو الحدّ الفاصل بين الدنيا والآخرة، والبرزخ حياة ذات طبيعة خاصة في عالم القبور.

ثم ذكَّرنا القرآن الكريم بمظهر آخر من مظاهر قدرة الله، عزّ وجلّ، وهو خلق جميع ما في الأرض لخدمة الإنسان، بما فيها من كنوز وخيرات وتمكّن من استخدام موجودات الدنيا من ذرة وكهرباء وأثير، نمتطي به عالم الطيران ونحلّق في سفن الفضاء، ونكتشف عوالم النجوم والكواكب السَّيارة كالقمر والزهرة والمريخ. ومن مظاهر قدرة الله وعظمته خلق السموات السبع التي رفعها الله بقدرته، وأودع فيها دقائقه وأسراره، وعلَّم الله مخلوقاته تلك الأسرار، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ(١) إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ(٢) سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩].

وهذه الآية تقتضي أن الأرض وما فيها خلقت قبل السماء، وذلك صحيح، ثم دُحيت الأرض بعد خلق السماء. وعلى الناس أن يتأملوا في عظمة الكون ليتوصلوا إلى الإيمان بربِّ السماوات والأرض وما فيهن، وأن الله على كل شيء قدير.

الإنسان خليفة الأرض وسجود الملائكة لآدم

كرَّم الله تعالى الإنسان باختيار آدم خليفة في الأرض، وتعليمه اللغات التي لا تعلمها الملائكة، وأمر الملائكة بالسجود له سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتعظيم. وكل ذلك لتكريم النوع الإنساني، وتكليفه وتشريفه بعمارة الدنيا وتقدم

(١) قصد إليها بإرادته . (٢) أتمهن وقوّمهن .

الحياة البشرية. وقد جرى حوار صوّره القرآن الكريم بين الله تعالى والملائكة لإظهار دور آدم وذريته في الأرض، وجعلهم خلفاء فيها، يخلف بعضهم بعضاً. قال الله تعالى واصفاً ذلك:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ(١) وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ(٢) وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ(٣) قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ(٤) لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠-٣٤].

اذكر أيها النّبي لقومك قصة خلق أبيهم آدم، حين قال الله للملائكة: إني متخذ في الأرض خليفة، يقوم بعمارتها وسكناها، وينفذ أحكامي فيها بين الناس، فتساءل الملائكة مستعلمين: كيف تستخلف هذا الخليفة، وفي ذرّيته من يفسد في الأرض بالمعاصي، ويريق الدماء عدواناً وبغياً؛ لأن أفعالهم عن اختيار وإرادة، وقد خلقوا من طين، والمادة جزء منهم، ومن كان كذلك فهو إلى الخطأ أقرب. وقد عرفوا ذلك لأنهم هم المعصومون، وكل من عداهم ليسوا على صفتهم، أو قاسوا ذلك الْخَلْق وهم الإنس على الجن الذين سكنوا الأرض، فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة.

ونحن الملائكة أولى وأحق بالاستخلاف، لأن أعمالنا مقصورة على تسبيحك وتقديسك، وطاعتك وتمجيدك، والثناء عليك والحمد لك. فأجابهم الله تعالى: إني

---

(١) يريقها عدواناً. (٢) ننزهك عن كل ما لا يليق بك مع الثناء عليك والحمد. (٣) نمجدك ونعظمك.
(٤) تقديساً وتنزيهاً لك عن الاعتراض عليك.

أعلم من المصلحة في استخلافه ما هو خفي عنكم، وأعلم كيف تصلح الأرض وكيف تعمر، ومن هو أصلح لعمارتها.

وعلَّم الله آدم أسماء الأشياء والأجناس المادية، من نبات وجماد وإنسان وحيوان، مما تعمر به الدنيا، ثم عرض مجموع المسميات على الملائكة، أو عرض نماذج منها، لقوله ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ لأن العرض لا يصح في الأسماء. وقال لهم: أخبروني بأسماء هؤلاء، إن كنتم صادقين في ادِّعائكم أنكم أحقُّ بالخلافة من غيركم، فعجزوا، وقالوا: يا ربّ سبحانك، لا علم لنا إلا ما علَّمتنا، إنك أنت العليم بكل شيء، الحكيم في كل صنع وتدبير.

وهذا يدلُّ على تفضيل آدم على الملائكة واصطفائه، بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، فلا يكون لهم فخر عليه.

ثم طلب الله من آدم، عليه السّلام، بقوله: أخبرهم يا آدم بأسماء الأشياء التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بقصورهم عن معرفتها، فلما أخبرهم بكل الأسماء، أدركوا السِّرَّ في خلافة آدم وذرِّيته، وأنهم لا يصلحون للاشتغال بالماديات، والدنيا لا تقوم إلا بها، فإنهم خلقوا من نور، وآدم من طين، والمادة جزء منه.

وحينئذ قال الله تعالى للملائكة: ألم أقل لكم: إني أعلم ما غاب في السموات والأرض عنكم، وما حضر أيضاً، ولا أجعل الخليفة الأرضية عبثاً، وأعلم ما ظهر وما بطن، وأعلم بما تظهرون وما تكتمون في صدوركم.

واذكر أيضاً أيها النَّبي لقومك حين قلنا للملائكة الأطهار: اسجدوا لآدم سجود خضوع وتحية، لا سجود عبادة وتأليه، كما يفعل الكفار مع أصنامهم، فسجد الملائكة جميعاً له غير إبليس، فإنه امتنع من السجود وتكبر عنه قائلاً: أأسجد له،

وأنا خير منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين؟! فصار بإبائه واستكباره، وتعاليه، وغروره من الكافرين، الذين استحقّوا اللعنة والطّرد من رحمة الله إلى يوم الدين.

سكنى آدم وحواء الجنة

من ألوان التكريم الإلهي للإنسان إسكان آدم وحواء في الجنة في بدء الخلق، ليكون تمهيداً لمصير أهل الاستقامة في نهاية الخلق. ولكن الحكمة الإلهية اقتضت إعاشة الإنسان في الأرض، لتعمير الكون، وتكاثر النوع الإنساني، وإظهار مزيته في جهاد النفس والهوى والشيطان.

وهذه قصة آدم وحواء في الجنة والأرض:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا[١] حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ[٢] عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٥-٣٩].

واذكر أيها النّبي لقومك حين أمر الله تعالى آدم وزوجه حواء بسكنى الجنة-الجنة الحقيقية العلوية، والتمتع فيها حيث شاءا، والأكل منها أكلاً هنيئاً لا عناء فيه، أو واسعاً لا حدَّ له. ونهاهما عن الأكل من شجرة معيَّنة، ويكون الأكل منها ظلماً لأنفسهما، وتجاوزاً لأمر الله ومخالفة نهيه.

(١) أكلاً واسعاً هنيئاً من غير عناء. (٢) أوقعهما في الزّلة وأبعدهما عنها.

-ولكن الشيطان عدوهما أزلهما عنها، أي أذهبهما وأبعدهما عن الجنة، وأخرجهما من ذلك النعيم، بعد أن أغواهما بالأكل من الشجرة، فحوَّلهما من الجنة، قائلاً لهما:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠-٢١].

فتغلبت عليهما وساوس الشيطان، وخرجا من الجنة إلى الأرض، وشقاء الدنيا، وقد نشأت بعدها العداوة بين البشر والشيطان:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٦].

وقال الله لهما: اهبطوا من الجنة إلى الأرض، بعضكم عدوّ بعض، ولكم استقرار في الأرض وتمتّع بنعمها وخيراتها إلى مدة معينة من الزمان. فألهم الله آدم كلمات، فعمل بها هو وزوجته، فقالاها، وتابا توبة خالصة، والكلمات هي قوله تعالى:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٣].

وتقبل الله منهما التَّوبة، لأنه كثير القبول لتوبه عباده، واسع الرحمة بالعباد، والمغفرة لهم.

وكرر الله تعالى الأمر بالهبوط من الجنة هو وزوجه للتأكيد، وصار الناس في الأرض صنفين: صنف المؤمنين بالله العاملين بطاعته، المتبعين هداه وشرائعه، فهؤلاء آمنون في جنان الخلد في الآخرة، ولا خوف عليهم من مخاوفها وعذابها، ولا يجدون فيها حزناً أو كآبة، أو كرباً على ما فاتهم من النعيم في الدنيا.

وصنف الكافرين المكذبين بما أنزل الله في كتبه، الجاحدين برسالات الله وأنبيائه، فهؤلاء لا غيرهم مخلدون في نار جهنم، مقيمون فيها على الدوام، لا يموتون فيها ولا يحيون حياة طيبة، ولا يخرجون منها.

إن هذه القصة تثير تساؤلات ومشكلات عديدة، عن مكان الجنة والأكثرون على أنها في السماء، وعن نوع الشجرة وهي إما الكرم من العنب أو الحنطة أو التين، وعن عصيان آدم مع أن الأنبياء معصومون من الذنوب، والواقع أنها خطيئة من الصغائر، لا من الكبائر، صدرت من آدم قبل النبوة، وعن دخول إبليس الجنة بعد طرده منها، ولكن الخروج لا يمنع وصول وسوسته ابتلاء لآدم وحواء، وعن أفعال العباد أهي مخلوقة؟ والصحيح أنها من خلق الله تعالى، لقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ وعن التفضيل بين الملائكة والبشر، والظاهر أن عموم الملائكة أفضل من عموم البشر، وخواص البشر وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة، كما قال جماعة. والتوقف عن الخوض في ذلك أولى وأكثر أدباً وتسليماً لله تعالى.

مطالبة بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن

لقد طالب الله الناس جميعاً بالإيمان بشريعة القرآن وبما أنزل فيه، ومنهم بنو إسرائيل الذين أنعم الله عليهم بنعم كثيرة.

ذكّر الله بني إسرائيل المعاصرين للنَّبي محمد ﷺ بهذه النعم العشر ليبادروا إلى الإيمان بالله وكتبه وبمحمد الذي أخبر عن هذا كله بوحي الله في قرآنه، فقال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[1] ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ

(١) إسرائيل: لقب يعقوب عليه السلام.

فَٱرْهَبُونِ(١) ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟(٢) ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٤٠-٤٣].

ثم عدَّد الله تعالى نعماً عشراً عليهم تحملهم إذا أنصفوا وعقلوا على الإيمان بما أنزل الله في كتابه الذي صدَّق ما أنزل عليهم في التوراة. وقد عدَّد الله هذه النعم العشر في سورة البقرة في الآيات (٤١-٦٠) وهي:

﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

(١) أي خافون في نقض العهد. (٢) لا تخلطوا.

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٤١-٦٠]

وهي إنجاؤهم من فرعون وقومه، وعبورهم البحر سالمين من تهديد فرعون وجنوده، وقبول توبتهم وعفو الله عنهم، وإيتاء موسى التوراة الأصلية الفارقة بين الحق والباطل، والحلال والحرام ليهتدوا بها، وأمْر موسى لهم بالتّخلي عن عبادة العجل التي فعلوها في مدة صومه وغيابه عنهم أربعين يوماً (ميقات ربّه)، وإحياؤهم بعد موتهم ليستوفوا آجالهم المقدرة لهم بعد أن طلبوا من موسى أن يروا الله جهرة عياناً، فأماتهم الله يوماً وليلة ثم بعثهم من بعد الموت، وإظلالهم بسحاب رقيق يقيهم حرّ الشمس حين مكثوا أربعين سنة حيارى تائهين في وادي التّيه بين الشام ومصر، وإنزال المنّ والسّلوى عليهم، وهو طعام مكوّن من حلوى وطير مطهو يقيهم غائلة الجوع، وأمرهم بدخول القرية المعلومة لهم للسكنى والأكل والشرب الهني فيها، ودخول الباب خاضعين مبتهلين إلى الله وحده، وطالبين المغفرة وحطّ الذنوب عنهم، فخالفوا وعصوا وقالوا بدل كلمة ﴿حِطَّةٌ﴾ : حبة في شعرة أي حنطة في زكائب شعر، ودخلوا زاحفين على مقاعدهم غير خاضعين لله، فعذبهم الله عذاباً شديداً من السماء بسبب فسقهم وعصيانهم وهلك منهم سبعون ألفاً، والنعمة العاشرة انفجار الحجر والصّخر اثنتي عشرةِ عيناً بضرب موسى عصاه الحجر، فكان لكل جماعة منهم عين يشربون منها.

ولم يمتثل علماء بني إسرائيل لأمر الله بالإيمان بالقرآن، وكانوا يأمرون غيرهم بالصدقة والثبات على الإسلام، ودين محمد-فإنه حق -، وينسون أنفسهم، فلامهم الله، وحذَّرهم وعلَّمهم أن يستعينوا على أنفسهم الأمارة بالسوء وشياطينهم بالصبر والصلاة، فإنهما جلاء القلوب والأرواح، وأمرهم باتِّقاء مخاطر يوم القيامة، حيث لا تقبل شفاعة شافع، ولا فداء من أحد ولا هم ينصرون. قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ(١) وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ(٢) وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ(٣) إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ(٤) أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ(٥) ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى(٦) نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ(٧) وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٤٤-٤٨].

بعض قبائح اليهود وجزاؤهم

لقد أنصف القرآن الكريم أهل الكتاب، فأثاب أهل الإيمان والعمل الصالح منهم، وبشَّرهم بأنهم لا خوف عليهم أبداً، ولا هم يحزنون في الدنيا والآخرة، فقال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٦٢].

نزلت هذه الآية في سلمان الفارسي وأشراف قومه الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وآمنوا بالقرآن وبالنَّبي محمد ﷺ، وفي مقابل الثناء على مؤمني أهل الكتاب،

---

(١) أي الخير والطاعة لله. (٢) هذا خطاب لأهل الكتاب، وهو مع ذلك أدب لجميع العباد. (٣) لشاقة ثقيلة. (٤) يعلمون. (٥) أي عالَمي زمانهم في الماضي. (٦) لا تؤدي نفس. (٧) فدية.

ذكر الله تعالى بعض قبائح اليهود، ومنها أنهم قالوا لموسى: لا يمكننا أن نستمرّ على طعام واحد، وهو المنّ والسّلوى، وطلبوا أطعمة أخرى من الخضروات والبقول كالحنطة والعدس، والبصل والقثاء، ومن قبائحهم كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، كزكريا ويحيى وغيرهما، فجعل الله الذِّلة والمسكنة محيطة بهم كما تظلل الخيمة من فيها، ولا يعدّ وجودهم في فلسطين متناقضاً مع إذلال الله لهم؛ لأنه وجود عنصري متعصِّب قائم على الحقد والبغضاء والكراهية، وعلى الاغتصاب والظلم والشَّر والتّآمر مع قوى البغي والعدوان، وزوال كل ذلك سريع بإذن الله.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا[١] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ[٢] وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ[٣] ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٦١].

وهدَّد الله بني إسرائيل برفع جبل الطور فوقهم كأنه ظلّة تخويفاً وإرهاباً، حينما لم يؤمنوا بالتوراة ورفضوا العمل بها، فقبلوا ذلك إلى حين، ثم أعرضوا بعد ذلك عن التوراة ونبذوها وراء ظهورهم. وكانوا يعظِّمون يوم السبت، فلا يعملون أي عمل فيه، فاحتالوا على ذلك بحيلة مفضوحة وهي بناء حواجز وأحواض تمنع ردَّ السمك إلى الماء في حال الجزر، بعد أن كان السمك يأتي كثيراً يوم السبت قرب الساحل في أثناء المدّ البحري، وكان لا يأتيهم السمك في غير يوم السبت، فارتكبوا خطيئة الصيد يوم السبت بالحيلة المذكورة، فحكم الله عليهم أن يكونوا كالقردة مبعدين عن رحمة الله والناس؛ لأنهم لم يحترموا العهد ولم يلتزموا الطاعة، وتخلوا عن شرف

(١) الفوم: الحنطة أو الثوم. (٢) أي المذلة والفقر والحاجة. (٣) رجعوا متلبسين به.

الإنسانية والكرامة وعزة النفس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ[١] وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ[٢] مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ[٣] ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا[٤] لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٦٢-٦٦].

الأمر بذبح البقرة

اختبر الله تعالى بني إسرائيل بأمرهم بذبح بقرة، ليُظهر مدى مصداقيتهم وامتثالهم أوامر الله تعالى، وذلك بسبب قتل رجل عمه الذي كان ابن الأخ الوارث الوحيد له، ومن أجل التعرف على القاتل، بدلاً من اقتتال بعضهم مع بعض، وكان يجزئهم ذبح أي بقرة، إلا أنهم تشدَّدوا في بيان أوصاف البقرة، فشدَّد الله عليهم، بعد أن اشتروها بملء جلدها ذهباً، فذبحوها متردِّدين، ثم ضربوا القتيل ببعضها، فعاش حيّاً، فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا، لابن أخيه، ثم عاد ميتاً، فلم يُعط من ماله شيئاً، لأنه قاتل، وصار ذلك حكماً دائماً. وهذه هي قصة ذبح البقرة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا[٥] قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا

(١) صاروا يهوداً. (٢) عبدة النجوم والكواكب، أو عبدة الملائكة. (٣) مطرودين صاغرين. (٤) عقوبة.
(٥) سخرية.

فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ(١) عَوَانٌ(٢) بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا(٣) تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾
قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ(٤) تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ(٥) وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ(٦) مُسَلَّمَةٌ(٧) لَّا شِيَةَ(٨) فِيهَا قَالُواْ
ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا(٩) وَٱللَّهُ
مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ
ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ(١٠) ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ
مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٦٧-٧٤].

واذكروا أيها الإسرائيليون وقت قول موسى لقومه أسلافكم أمر الله لكم بذبح أي بقرة، فلم يمتثلوا، وشدَّدوا، فشدَّد الله عليهم، وقالوا: أتهزأ أو تسخر منا يا موسى؟ نسألك عن أمر القتل، فتأمرنا بذبح بقرة! قال: ألتجئ إلى الله من الهزء والسخرية بالناس في موضع الجد وتبليغ أحكام الله تعالى، فأكون من الجهلة المفرطين بأمر الله.-قالوا: ادع الله لنا لبيان لونها؛ فقال: إنها بقرة صفراء اللون، شديدة الصفرة، تبهج الناظرين إليها. فسألوه عن سنِّها، فقال: إنها ليست صغيرة ولا كبيرة، بل وسط بين الأمرين، فامتثلوا الأمر ولا تشددوا، قالوا: ادع الله لنا يبين حقيقتها ومزاياها، لتشابه البقر علينا، وإنا إن شاء الله لمهتدون إلى الصواب والمطلوب.

قال: إن الله يقول: إنها بقرة لم تذلل بالعمل في الحراثة والسَّقي، وهي سالمة من

(١) لا مسنّة ولا فتية. (٢) وسط بين السِّنين. (٣) شديد الصفرة. (٤) ليست سهلة الانقياد. (٥) تقلب الأرض للزراعة بالفلاحة. (٦) الزرع. (٧) مبرأة من العيوب. (٨) لا يخالطها لون آخر غير الصفرة. (٩) تدافعتم وتخاصمتم فيها. (١٠) يتفتح بسعة وكثرة.

العيوب، لا يخالطها لون آخر غير الصفرة، قالوا: إنك الآن جئت بإظهار الحقيقة الواضحة، فطلبوها، فلم يجدوها إلا عند يتيم صغير بارّ بأمه، فساوموه، فتغالى، حتى اشتروها بملء جلدها ذهباً، وما كان امتثالهم قريب الحصول.

واذكروا أيها اليهود المعاصرون حين قتل أسلافكم نفساً، وأنتم تنتسبون إليهم، راضون بفعلهم، وأسند القتل للأمة والقاتل واحد، لتضامن الأمة، وهي في مجموعها كالشخص الواحد، فيؤخذ المجموع بجريرة الواحد. وفيه توبيخ ولوم. وكنتم تتخاصمون وتتدافعون في شأن القتل، فكل واحد يدرأ القتل عن نفسه، ويدَّعي البراءة، ويتَّهم سواه، والله مظهر حتماً ما كنتم تكتمونه وتسترونه من أمر القتل.

فقلنا لكم: اضربوا القتيل ببعض أجزاء البقرة المذبوحة، فضربوه، فأحياه الله، وأخبر عن القتلة، ومثل ذلك الإحياء العجيب، يحيي الموتى يوم القيامة، فيجازي كل إنسان بعمله، وكذلك يريكم الله آياته الواضحة الدّالة على صدق القرآن والنَّبي، الذي يخبر بالغيبيات، لكي تعقلوا وتؤمنوا بالله ورسوله.

ثم قست قلوبكم وامتنعت عن قبول الحق، فهي تشبه الحجارة في الصلابة، بل هي أشد قسوة منها، لأن بعض الحجارة قد يتفجر الماء منه، ويسيل أنهاراً تحيي الأرض وتنفع النبات، وقد يتشقق بعضها، فيسيل منها ماء، يكون عيناً لا نهراً، وفي هذه منفعة للناس، وقد يتساقط بعضها من أعالي الجبال، بالرياح الشديدة ونحوها من الزلازل، فتكسر الصخور، وتدمِّر الحصون، وليس في هذا منفعة للناس.

ولكن لم يزدد اليهود إلا عناداً وفساداً، والله تعالى حافظ لأعمالهم ومحصيها لهم، ثم يجازيهم بها، ولا يغفل عن شيء منها، صغيراً كان أو كبيراً.

تناقضات اليهود وأكاذيبهم

لا خير ولا أمل في قوم متناقضين يفترون على الله الكذب، ويحرِّفون كلام الله ويغيِّرونه ويبدِّلونه على وفق أهوائهم وشهواتهم، لذا استبعد الله الخير والإيمان من اليهود برسالة محمد ﷺ ، فقد كان منافقوهم حين يتقابلون مع المؤمنين يقولون: نحن مؤمنون بالله والنَّبي محمد، إذ هو المبشَّر به عندنا فنحن معكم، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: كيف تحدِّثون أتباع محمد بما أنزل الله عليكم في التوراة؟ كيف تفعلون هذا فيحتجّون به عليكم، و يخاصمونكم به عند ربّكم يوم القيامة؟ أتذيعون أسراركم فهذا خطأ وضرر؟

فيردّ الله عليهم أيحسبون أن هذا سرّ لا يطَّلع عليه أحد؟ أو لا يعلمون أن الله سبحانه يعلم السِّر وأخفى، ويعلم ما يقولون، سواء أضمروا الحقائق أم أعلنوها؟ وسيجازيهم على ذلك كله. هذا موقف علماء اليهود وأحبارهم، أما الأُمِّيون فلا يعرفون عن دينهم إلا أكاذيب سمعوها ولم يعقلوها مثل الزعم القائل بأنهم شعب الله المختار وأن الأنبياء منهم يشفعون لهم، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً قليلة.

قال مجاهد: قام النَّبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم فقال: يا إخوان القردة، ويا إخوان الخنازير، ويا عبدة الطاغوت، فقالوا: من أخبر بهذا محمداً، ما خرج هذا إلا منكم، أتحدِّثونهم بما فتح الله عليكم ليكون لهم حجة عليكم، فنزلت الآية:
﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ[١] مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا[٢] بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ[٣] عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

---

(١) يبدلونه أو يؤولونه تأويلاً باطلاً . (٢) انفرد معه . (٣) قصه عليكم .

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ(١) لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ(٢) وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٧٥-٧٨].

وروي أن أوصاف الرسول ﷺ كانت مكتوبة عندهم في التوراة فغيروها وكتبوا بدلها، فإذا سئلوا من العوام عن وصف محمد المعروف لديهم، ذكروا ماكتبوه هم، فيكذِّب العوام النبي ﷺ.

وتجرؤوا أكثر من هذا، فافتروا على الله مالم يقله، ليأخذوا على كذبهم ثمناً دنيوياً حقيراً من مال أو رياسة أو جاه، فويل لهم مما كسبوا. ومن مخازيهم وافتراءاتهم: أنهم ادعوا أن النار لاتمسهم إلا في أيام قليلة معدودة هي أربعون يوماً مدة عبادتهم العجل، فرد الله عليهم بأنه لاأصل لهذا الادعاء، ولا عهد لهم من الله فيه، وسيخلدون في النار بسبب معاصيهم الشنيعة، كقتل الأنبياء بغير حق، وعصيان أوامر الله، وتكذيبهم برسالة النبي محمد. أما من آمن منهم وعمل صالحاً، فلهم الجنة خالدين فيها، قال الله تعالى في أحبار اليهود: ﴿فَوَيْلٌ(٣) لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ(٤) سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ(٥) فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٧٩-٨٢].

---

(١) عوام جهلة بكتابهم (٢) أي أكاذيب لا دليل عليها . (٣) هلاك وشدة عذاب ، أو واد في جهنم .

(٤) هنا أي كفر . (٥) أحدقت به .

مخالفات اليهود ومنكراتهم

سجَّل القرآن الكريم على اليهود مخالفات خطيرة ومنكرات شنيعة، مع أنهم يدعون الإيمان بالتوراة، وأول هذه المخالفات: نقضهم المواثيق والمعاهدات التي واثقهم الله بها، وهي عبادة الله وحده، والإحسان إلى الوالدين والقرابة واليتامى والمساكين، والقول الحسن للناس، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم تخلى أكثرهم عن هذه الأوامر والوصايا التي تكفل سعادة المجتمع، وتحقق له الحياة الهادية الهنيئة. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٨٣].

ومن مخالفاتهم المواثيق: سفكهم دماء بعضهم بعضاً، وإيمانهم ببعض التوراة وكفرهم بالبعض الآخر، وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم، مع أنهم إخوانهم في الدين واللغة والنسب، متعاونين مع الغير على ارتكاب الذنب والعدوان ومعصية الرسول، والإخراجُ والقتل محرَّم عليهم في التوراة، فكيف يفعلونه؟ وليس لهم جزاء على هذه المخالفات والأعمال الشنيعة إلا ذلّ وهوان في الدنيا، وعذاب أليم دائم في الآخرة. وهذا جزاء كل أمة تؤدي بعض أحكام دينها كالصلاة والصوم والحجّ، ولا تؤدي بعض أحكامه الأخرى كالامتناع عن الزّنا والرِّبا والرّشوة والسَّرقة وخيانة الأمانة، ولم تتعاون على الخير والمعروف، ولم تؤدّ الزكاة بسبب بخل أغنيائها على فقرائها. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ[1] عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ

(١) تتعاونون عليهم.

تُفَـٰدُوهُمْ(١) وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ(٢) فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٨٤-٨٦].

ومن مخالفات اليهود ومنكراتهم: تكذيبهم بالرُّسل، وقتلهم رسلاً آخرين، وكفرهم برسالة خاتم النَّبيين مع أنهم كانوا يقولون: اللهم انصرنا بالنَّبي المبعوث آخر الزمان الذي نجد نعته في التوراة، فهم يعرفون حقّاً أن محمداً ﷺ هو النَّبي المبشَّر به في التوراة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٦] ولكنهم لم يؤمنوا حسداً وبغياً، فقد باعوا حظّهم الحقيقي وهو الإيمان بالله ورسوله، وأخذوا بدله كفرُهم بما أنزل الله، وسبب ذلك كله: حرصهم على الرياسة والمال في أيديهم.

ومن مخالفاتهم: كفرهم بغير التوراة، وعبادتهم العجل واتخاذه إلهاً، وحرصهم الشديد على الحياة الدنيا أشد من حرص المشركين بالله، يودُّ أحدهم لو يعمَّر ألف سنة حتى يجمع ذهب العالم. ومن طبائعهم: حبّهم الاستعلاء على العالم، وإثارتهم الفتن والشرور بين الناس، ومن سوء مواقفهم: معاداتهم جبريل وميكال والملائكة والرُّسل الكرام، كما سيأتي بيانه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٩٧-٩٨].

---

(١) أسرى تبادلونهم بالمفاداة أو الفدية. (٢) هوان وفضيحة.

موقف اليهود من الرسل والكتب والأنبياء

من أعظم جرائم اليهود: تكذيب الرسل والكتب الإلهية المنزلة، وقتل الأنبياء بغير حق، وكفرهم بجميع ما أنزل الله على الرسل الآخرين غير رسولهم، مع أنهم قبل بعثة النّبي ﷺ كانوا يستنصرون بنبي آخر الزمان، فلما بعث وجاءهم ما عرفوا صفاته، كفروا به وتنكروا له. وهذا ما دوَّنته الآيات التالية:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا[1] مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ[2] وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ[3] ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ[4] ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ[5] عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ[6] أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا[7] أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو[8] بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٨٧-٩١].

الآيات تذكير لبني إسرائيل بإعطاء موسى الكتاب (التوراة) وأن الله أتبعه بالرسل من بعده، وهم يوشع، وداود، وسليمان، وعزير، وإلياس، واليسع ويونس وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السّلام، وكانوا كلهم يحكمون بشريعة موسى عليه السّلام. إلا أن الله آتى عيسى عليه السّلام الإنجيل، مخالفاً التوراة في بعض الأحكام، وأيّده الله

---

(١) أتبعنا على أثره الرسل على منهاج واحد. (٢) المعجزات. (٣) جبريل عليه السلام. (٤) عليها أغطية. (٥) يستنصرون ببعثه النبي ﷺ. (٦) باعوا به أنفسهم. (٧) حسداً. (٨) رجعوا متلبسين به.

بالمعجزات الباهرات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، كما أيَّده بروح القدس جبريل عليه السّلام. أفكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم، ولا تميل إلى الخير دائماً، كفروا به واستكبروا عليه تجبُّراً وبغياً، فمنهم من كذبوه كعيسى ومحمد عليهما السّلام، ومنهم من قتلوه كزكريا ويحيى عليهما السّلام، فلا يستغرب ترك إيمانهم بدعوة محمد ﷺ.

ومن قبائحهم أو مثالبهم: قولهم للنَّبي ﷺ : قلوبنا مغطاة بأغشية، فلا تعي ما تقول، ولا تفقه ما تتكلم به، فيردّ الله عليهم: لستم كذلك، فقلوبكم خلقت مستعدة بالفطرة للإقرار بالحق، لكن الله أبعدهم عن رحمته، بسبب كفرهم بالأنبياء وعصيانهم التوراة، وقليلاً جدّاً اتجاههم للإيمان، أو أنهم لم يؤمنوا أصلاً.

ولما جاءهم كتاب من عند الله وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، مصدق لما معهم من التوراة، وكانوا من قبل ذلك يستنصرون ببعثة نبي آخر الزمان، لما جاءهم كفروا برسالته حسداً للعرب، وجحدوا ما كانوا يقولون به، وتبشِّر به توراتهم، فالطرد والإبعاد أو اللعنة من الله على كل كافر من اليهود وأمثالهم، لكفرهم بدعوة الإسلام . قال ابن عباس: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلما التقوا، هزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء: (اللهم إنا نسألك بحق محمد النَّبي الأمِّي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم) فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان، فلما بعث النَّبي ﷺ، كفروا به، فأنزل الله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بك يا محمد، إلى قوله: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

بئسما باعوا به أنفسهم باختيارهم الكفر على الإيمان، وبذل أنفسهم فيه، وجحودهم برسالة النَّبي محمد ﷺ حسداً للعرب، وكراهة أن ينزل الله الوحي من

فضله على من يختاره من عباده، فرجعوا متلبِّسين بغضب من الله جديد، لكفرهم بهذا النَّبي، بعد كفرهم بموسى عليه السلام، وبمن جاء بعده من الأنبياء، وللكافرين جميعاً عذاب فيه إهانة وإذلال في الدنيا والآخرة.

وإذا قال النَّبي ﷺ وأصحابه ليهود المدينة: آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله، قالوا: إنما نؤمن بالذي أنزل علينا في التوراة، ونكفر بما سواه، وهو القرآن الذي جاء مصدقاً لها، وهو الحق الذي لا شك فيه، فيرد الله عليهم: إن القرآن مصدق للتوراة، وكلاهما من عند الله، فكيف تكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض؟ بل إنكم لم تؤمنوا بالتوراة التي فيها تحريم القتل، وقد قتلتم الأنبياء بغير حق، فلم قتلتموهم إن كنتم بالتوراة مؤمنين؟!

عبادة العجل عند اليهود وحبّ الحياة وعداوة الملائكة والرُّسل

تمكَّن الكفر والطغيان، والمادية الطاغية، وحبّ الحياة، وعداوة جبريل والملائكة والرُّسل من قلوب اليهود، فهم أعداء الدين الإلهي كله، وأعداء الرُّسل جميعاً، وأحرص الناس على الحياة الدنيوية، وتراهم لا يهمهم إلا أهواؤهم وعنصريتهم ومزاعمهم أنهم أولياء الله ومحبوبوه، والناجون في الآخرة، وأنهم الشعب المختار لله تعالى، فكذب الله جميع ادِّعاءاتهم، بل إنهم وقعوا في الوثنية والشرك، وعبدوا العجل، كما تقرر الآيات التالية:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ[1] مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ

(١) جعلتموه إلهاً معبوداً.

﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ۖ
قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ
إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن
دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ
لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ(١) وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ
﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ
فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ [البقرة: ٢/ ٩٢-٩٨].

تالله لقد جاءكم يا بني إسرائيل موسى بالمعجزات القاطعة الدّالة على صدق نبوّته ورسالته، كالعصا واليد، وبقية الآيات التّسع: وهي الطوفان والجراد والقمّل والدّم والضّفادع، وفَرْق البحر، والسُّنون (القحط) ولم تزدهم تلك الآيات إلا توغلاً في الشِّرك والوثنية، ولم تشكروا نعمة الله، وإنما على العكس قابلتموها بالجحود والإنكار، واتِّخاذ العجل إلهاً معبوداً من دون الله، والعجل: هو الذي صنعه لهم السّامري من حليِّهم التي أخذوها من مصر، وجعلوه إلهاً يُعبد، وهم ظالمون كافرون بوضع الشيء في غير موضعه، وأي ظلم أعظم من الإشراك بالله تعالى؟!

واذكر أيها النَّبي لليهود وقت أن أخذ الله على أصولهم العهد بأن يعملوا بما في التوراة، ويأخذوا بما فيها بقوة، فخالفوا الميثاق وأعرضوا عنه، حتى خوّفهم الله برفع جبل الطور فوقهم كأنه مظلّة إرهاباً لهم، فقبلوه، ثم خالفوه، وقالوا: سمعنا وعصينا، ثم أوغلوا في المخالفة ووقعوا في الشِّرك، واتخذوا العجل إلهاً، وخالط حبّه

(١) لو يطول عُمُره.

قلوبهم، فقل لهم أيها النَّبي: بئس هذا الإيمان الذي يوجه إلى هذه الأعمال التي تفعلونها، كعبادة العجل، وقتل الأنبياء، ونقض الميثاق، إن كنتم تدعون الإيمان الصحيح برسالة موسى عليه السلام وبالتوراة.

قل أيها النَّبي لليهود: إذا صدقتم في ادِّعائكم أن الآخرة والجنة لكم خالصة عند الله من دون الناس، وأن النار لن تمسَّكم إلا أياماً معدودات، وأنكم شعب الله المختار، فاطلبوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم الذي لا ينازعكم فيه أحد، إذ لا يرغب الإنسان عن السعادة و يختار الشقاء. قال ابن عباس: ولو تمنّوا الموت لشرق أحدهم بريقه. أخرج ابن جرير الطبري عن أبي العالية قال: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، فأنزل الله: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة..﴾ [البقرة: ٢/ ٩٤].

ولن يتمنى الموت أحد منهم أبداً، بسبب ما اقترفوا من الكفر والفسوق والعصيان، كتحريف التوراة، وقتل الأنبياء والأبرياء، وإنكار رسالة النَّبي محمد ﷺ، مع البشارة به في كتابهم، والله يعلم أنهم ظالمون في حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم.

وتالله لتجدن اليهود أحرص الناس على حياة طويلة، بل وأحرص من جميع الناس، حتى المشركين بالله، فإن أحدهم يتمنى أن يعيش ألف سنة أو أكثر -والعرب تضرب الألف مثلاً للمبالغة في الكثرة- لأنه يتوقع عقاب الله في الآخرة، فيرى أن الدنيا خير من الآخرة، وما بقاؤه في الدنيا وإن طال بمبعده عن العذاب الأليم، والله عليم بما يصدر عنهم من أعمال، ومجازيهم عليه.

قل أيها النَّبي: من كان عدوّاً لجبريل، فهو عدوّ لوحي الله الذي يشمل التوراة وغيرها، فإن الله نزله بالوحي والقرآن على قلبك أيها النَّبي بإذن الله وأمره، مؤيداً

وموافقاً لما تقدمه من الكتب، كالتوراة والإنجيل وغيرهما التي تدعو إلى توحيد الله وأصول الأخلاق والعبادات، وهداية من الضلالة، وبشرى لمن آمن به بالجنة، فكيف يكون طريق الخير سبباً للبغض والكراهية؟

أخرج الترمذي أن اليهود قالوا للنَّبي ﷺ: إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملَك من الملائكة من عند ربِّه بالرِّسالة والوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال، ذاك عدوّنا! لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر والرحمة تابعناك، فأنزل الله الآية، إلى قوله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ .

من كان عدوّاً لله بمخالفة أوامره، وعدم إطاعته، وللملائكة بكراهة العمل بما ينزلون به من وحي، وعدوّاً للرُّسل الكرام بتكذيبهم في رسالاتهم، وعدوّاً لجبريل وميكائيل، بادِّعاء أن جبريل يأتي بالإنذارات، فإن الله عدوّ لكل كافر، ومجازيه.

كفر اليهود بالقرآن ونقضهم العهد واشتغالهم بالسِّحر

من عادات اليهود واعتقاداتهم، بالإضافة لما سبق، التكذيب بآيات الله ومنها القرآن الكريم، وترك الوفاء بالعهود أو المعاهدات، وتكذيب الرُّسل، والإعراض عن القرآن، كما أنهم يشتغلون بالسِّحر والشَّعوذة والطَّلاسم، مما يدل على تجاوز الدين الحق والمبادئ الصحيحة، وهذا ما أثبته القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ[1] فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا

(١) طرحه ونقضه .

يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ[(١)] عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ[(٢)] فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ[(٣)] وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٩٩-١٠٣].

تالله لقد أنزلنا إليك أيها الرسول آيات ودلائل واضحات تدلُّ على صدق رسالتك، ولا يكفر بها إلا المتمرِّدون على آياتها وأحكامها من الفسقة المتجاوزين الحدود، والذين استحبّوا العمى على الهدى، حسداً وعناداً ومكابرة.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن عبد الله بن صوريا قال للنبي ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بيِّنة، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

إنهم كفروا بالله، وكلما عاهدوا عهداً مع الله، أو مع رسول الله، نقضه فريق منهم، بل نقضه أكثرهم ولم يوفوا به، وأكثرهم لا يؤمنون بالتوراة، وليسوا من الدين في شيء، ولن يؤمنوا بالقرآن ونبي الإسلام.

وسبب نزول هذه الآية: أن مالك بن الصيف حين بُعث رسول الله، وذكر ما أُخذ عليهم من الميثاق، وما عُهد إليهم في محمد قال: والله ما عُهد إلينا في محمد، ولا أخذ علينا ميثاقاً، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا..﴾ الآية.

---

(١) تقرأ أو تكذب. (٢) اختبار وابتلاء. (٣) نصيب من الخير.

ولما جاءهم النَّبي ﷺ بكتاب مصدق ومؤيد للتوراة في أصول الدين العامة، كتوحيد الله، وإثبات البعث، والتصديق بالوحي والرُّسل، ترك فريق من اليهود كتاب الله وراء ظهورهم، وهو تمثيل لتركهم وإعراضهم عنه، ولم يؤمنوا به بحق، كأنهم لا يعلمون أن من لم يؤمن بالقرآن الموافق للتوراة لا يكون مؤمناً بكل منهما.

واتبع فريق من أحبار اليهود وعلمائهم الذين نبذوا التوراة، السِّحر والشَّعوذة في زمن ملك سليمان، لأن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، ويضمون إليه أكاذيب، ثم يلقنونها الكهنة، فيعلِّمونها الناس، ويقولون: هذا علم سليمان، وقام ملك سليمان بهذا. فردَّ الله تعالى عليهم بأن سليمان ما فعل ذلك، وما عمل سليمان بالسِّحر، ولكن الشياطين هم الذين كفروا باتِّباع السِّحر وتدوينه وتعليمه الناس على وجه الإضرار والإغواء، ونسبته إلى سليمان على وجه الكذب وجحد نبوته.

قال ابن إسحاق: قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون من محمد، يزعم أن سليمان كان نبيّاً، والله ما كان إلا ساحراً، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾.

ويعلمونهم ما أنزل على الملكين ببلدة بابل (في العراق في أرض الكوفة) والملَكان: بشران صالحان قانتان، صاحبا هيبة ووقار يجلّهما الناس وشبّهوهما بالملائكة، وهما هاروت وماروت.

وكان هذان الرجلان الملَكان يعلِّمان الناس السِّحر الذي كثرت فنونه الغريبة في عصرهم، وكانت معرفتهم بالسِّحر بالإلهام دون معلم، وهو المقصود بالإنزال، وما ألهموا به كان من جنس السِّحر، لا عينه.

وكان هذان الملكان يتبعان في تعليم السِّحر طريق الإنذار والتحذير، فلا يعلِّمان أحداً من الناس، حتى يقولا له: إنما نحن ابتلاء واختبار من الله، فلا تعمل بالسِّحر وإلا كنت كافراً، وذلك حفاظاً على حسن اعتقاد الناس فيهما.

ويتعلم الناس منهما ما يفرِّقون به بين المرء وزوجه، وليس للسحر ونحوه من الحسد والعين والمرض المعدي ضرر بذاته، إلا بإذن الله ومراده، وذلك على وفق قانون السببية، أي إنه مجرد وسيلة أو سبب قد يرتبط المسبب أو النتيجة به، ويتحقق الأذى، إذا شاء الله، فالله هو الذي يوجد المسببات، حين حصول الأسباب، وقد لا تتحقق النتائج بمراد الله تعالى. قال الحسن البصري: من شاء الله منعه، فلا يضرّه السِّحر، ومن شاء خلّى بينه وبينه فضرَّه.

ومن تعلم السِّحر وعمل به، فإنه يتعلم ما يضرّه ولا ينفعه، لأنه سبب في إضرار الناس، ولأنه قصد الشَّر، فيكرهه الناس لإيذائه، ويعاقبه الله في الآخرة لإضرار غيره، وإفساده المصالح.

وتالله لقد علم اليهود بأنّ من ترك كتاب الله، وأهمل أصول الدين وأحكام الشريعة التي تُسعد في الدارين، واستبدل به كتب السِّحر، ليس له في الآخرة إلا العذاب، وكأن هذه عملية بيع الآخرة بالدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب من الخير.

ولبئس ما باعوا به أنفسهم باتخاذ السِّحر محل التوراة، فهم جهلة لا يعلمون حرمة السِّحر علماً صحيحاً.

ولو أن اليهود آمنوا الإيمان الحق بالتوراة، وفيها البشارة بنبي آخر الزمان، وآمنوا بالقرآن، وتركوا كتب السِّحر والشَّعوذة، واتَّقوا الله بالمحافظة على أوامره واجتناب نواهيه، لاستحقّوا الثواب العظيم من عند الله، جزاء على أعمالهم الصالحة، وهو خير لهم لو كانوا يعلمون العلم الصحيح النافع.

مصدر النُّبوة والأدب مع النَّبي ﷺ

اليهود قوم مخادعون، يتلاعبون بالألفاظ، وينشرون الأذى على الناس كما تنشر الأفعى سمومها، ويحقدون على الآخرين، ولا سيما العرب، وكانوا يتوقعون أن يكون نبي آخر الزمان منهم، فلما بعث من العرب عادوه وآذوه. وقد حذّر القرآن الكريم المؤمنين من محاكاة ألفاظهم واتِّباع أساليبهم، وهذا ما صرَّحت به الآيات التالية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا(١) وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا(٢) وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٤-١٠٥].

قال ابن عباس في رواية عطاء: وذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها، فلما سمعهم اليهود يقولونها للنَّبي ﷺ أعجبهم ذلك، وكان قول (راعنا) في كلام اليهود سبّاً قبيحاً، فقالوا: إنا كنا نسبُّ محمداً سرّاً، فالآن أعلنوا السَّبّ لمحمد، فإنه من كلامه، فكانوا يأتون نبي الله ﷺ فيقولون: يا محمد راعنا، ويضحكون، ففطن بها رجل من الأنصار، وهو سعد بن معاذ، وكان عارفاً بلغة اليهود، وقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفس محمد بيده، لئن سمعتها من رجل منكم لأضربنَّ عنقه، فقالوا: ألستم تقولونها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ الآية.

كان اليهود يستعملون كلمة (راعنا) بقصد السَّبّ ونسبة الجهل والحمق للمخاطب، وكانوا يقولون إذا ألقى عليهم النَّبي ﷺ شيئاً من العلم: راعنا سمعك،

(١) كلمة سبّ وطعن من اليهود، من المراعاة، يراد بها الجهل والحمق. (٢) انظر إلينا أو انتظرنا وتأنَّ بنا.

أي اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه، ونراجعك القول لنفهم عنك. وهم يقصدون بها معنى السَّب والشَّتم، وأصلها في العبرية: (راعينو) أي شرِّير، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة، وأمرهم بكلمة تماثلها في المعنى، وتختلف في اللفظ، وهي (انظرنا) التي يراد بها النظر إلينا، أو الإنظار والإمهال، أي أقبل علينا وانظر إلينا.

واسمعوا أيها المؤمنون القرآن سماع قبول وتدبُّر وإمعان، وللكافرين ومنهم اليهود عذاب مؤلم شديد. وهذا دليل على أن ما صدر منهم من سوء أدب في خطاب النَّبي ﷺ كفر، لأن من يصف النَّبي بأنه (شرير) فقد أنكر نبوّته، فصار هذا أدباً للمؤمنين، وتشنيعاً على اليهود.

واحذروا أيها المؤمنون خبائث اليهود وألوان مكرهم وكيدهم، فما يودُّ أهل الكتاب ومشركو العرب أن ينزل عليكم من خير، من ربّكم، كالقرآن والرِّسالة النَّبوية، والكتاب الكريم أعظم الخيرات، فهو الهداية العظمى، وبه جمع الله شملكم ووحَّد صفوفكم، وطهَّر عقولكم من زيغ الوثنية، وأقامكم على سنن الفطرة، وهم يودّون نزول الشَّر بكم، وانتهاء أمركم، وزوال دينكم.

وحسد الحاسد لا يمنع نعم الله، والله العليم القدير الحكيم يختص بالنُّبوة والرحمة والخير من يشاء من عباده، لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٤] ويعلم من يؤدي واجبه بشأنها خير أداء، فلا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً على خير أصابه، وفضل أُوتيه من عند ربِّه، فالله وحده صاحب الفضل العظيم.

قال المفسّرون في بيان سبب نزول هذه الآية: إن المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود: آمنوا بمحمد ﷺ، قالوا: هذا الذي تدعوننا إليه، ليس بخير مما نحن عليه، ولوددنا لو كان خيراً، فأنزل الله تعالى تكذيباً لهم.

هذا اللفظ المستخدم (راعنا) وهذا الحسد في منح النُّبوة لعربي: يدلان على أن اليهود ذوو مشاعر حاقدة وبغيضة نحو غيرهم من قديم الزمان، فينبغي الحذر منهم ومن نواياهم العدوانية، وأفعالهم القبيحة، ولا يتوقع منهم خير، لا في فلسطين ولا في غيرها من بلاد العالم، ولا يفهمون بغير لغة القهر والرُّعب، والكبت والنَّيل منهم بمختلف الوسائل.

نسخ بعض الأحكام الشرعية في حال حياة النَّبي

هناك طائفة قليلة من الأحكام الشرعية قررت لزمان معين وظرف محدد، ثم نسخت وأبطلت، مراعاة لمصالح الناس، وانسجاماً مع ظروف التطور والتبدل التي تطرأ على المجتمع، وتذكيراً بنعمة الله حيث ينتقل بالتشريع من حكم إلى حكم أفضل، ويتدرج بالناس تبعاً للظروف والأحوال، فلم يكن النسخ لجهل المشرِّع الحكيم بالحكم الأخير الذي يستقرّ تشريعاً دائماً إلى يوم القيامة، وإنما يعالج الشَّرع الأمور حسبما تقتضي الحكمة ويلائم الأوضاع والحاجات الآنية والمستقبلية، والله وحده هو القادر على كل شيء، فيقرر حكماً لفترة زمنية محددة، ثم يقرر حكماً آخر لترويض المكلفين وإعدادهم لتحمُّل التكليف تدريجاً. قال الله تعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ[١] مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا[٢] نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ[٣] وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/١٠٦-١٠٧].

ثم ردَّ الله على اليهود الذين ينكرون وجود النسخ في الشريعة فقال:

---

(١) ما نرفع من حكم آية. (٢) نمحها من القلوب. (٣) مالك أو متولّ لأموركم.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢/١٠٨].

أي بل أيها اليهود المنكرون للنَّسخ أتريدون أن تطلبوا من رسولكم كما طلب آباؤكم اليهود من موسى عليه السّلام؟ فقد طلبوا منه أن يريهم الله جهرة. ومن يترك الثقة في القرآن ويشكّ في أحكامه، ويطلب غيرها فقد ضلَّ السَّبيل السّوي.

ومن أمثلة النّسخ في الشريعة: أن الصلاة شرعت أولاً ركعتين بالغداة (صباحاً) وركعتين بالعشي (مساء) رأفة بالناس ورحمة بهم، لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم يكونوا قد تذوقوا حلاوة الصلاة، ولا عرفوا لذّة المناجاة فيها، فلما اطمأنّت نفوسهم بالصلاة، زادها الله على النحو التالي المعروف على حسب ما اقتضته الحكمة الإلهية العالية.

وأول ما نسخ من القرآن: القبلة، قال الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ فصلى رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله تعالى إلى البيت العتيق.

ومن أمثلة النّسخ: تحريم الخمر على مراحل أربع، فقد نفَّر القرآن منها أولاً بقوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ﴾ [النّحل: ١٦/٦٧] فوصف تناول العنب والتمر على سبيل التفكّه بالحسن، ولم يوصف الشراب المسكر بتلك الصفة. ثم وصف الله الخمر والميسر (القمار) بأن فيهما إثماً كبيراً، وإن كان فيهما منافعُ مادّيةٍ تجارية ومكاسب رابحة، ثم منع الله السّكارى من الصلاة حال السُّكر، ثم حرَّم الله الخمر تحريماً قاطعاً دائماً إلى يوم القيامة.

وكانت عقوبة الزّانيات الحبس في البيوت حتى الموت، وعقوبة الزُّناة التعيير

باللسان والتوبيخ والضرب بالنّعال، ثم قرر الله الحكم الأخير وهو جلد الزانية والزاني مئة جلدة.

ولما كان عدد المسلمين في بدء الإسلام قليلاً، وهم ضعاف لا يقوون على قتال المشركين، أُمروا بالعفو والصفح، والصبر على الأعداء والإعراض عنهم، وترك مقاتليهم، حسبما تقتضي المصلحة، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٩].

ثم شرع الله القتال وأباح الجهاد للدفاع عن النفس وحرمات الإسلام، وإدراك لذّة النصر والظفر، قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٩].

موقف أهل الكتاب من المؤمنين ومن بعضهم بعضاً

لا يقتصر اليهود على كراهية العرب والشعوب الأخرى، وإنما يتمنّون أن يرتدّ المسلمون عن دينهم، وأن يعودوا لفوضويّتهم وضلالاتهم، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا هم، وقابلهم النصارى بالمقولة نفسها بأنه لن يدخل الجنة إلا هم. وطعن كل من اليهود والنصارى بالآخرين، ونفوا أن يكون كل فريق على شيء صحيح من الدين، ونحو ذلك من الاتهامات المتبادلة، وإنكار الثقافات الأخرى. وهذا ما قررته الآيات التالية:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ

ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا(١) أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ(٢) قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ(٣) وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢/١٠٩-١١٣].

تمنّى كثير من اليهود والنصارى أن يصرفوا المسلمين عن دينهم، وأن يعودوا كفّاراً بعد أن كانوا مؤمنين، حسداً لهم، عن طريق التشكيك في الدين، وإلقاء الشبهات على المؤمنين، وطلب بعضهم من بعض أن يؤمنوا أول النهار، ويكفروا آخره، ليتأسى بهم ضعاف الإيمان.

فاعفوا أيها المسلمون واصفحوا عن أفعالهم، واصبروا حتى يأتي نصر الله لكم، ويأذن الله بالقتال، ويأتي أمره فيهم: وهو قتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، والله هو القادر على تحقيق النصر.

قال ابن عباس: نزلت في نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد أُحد: ألم تروا إلى ما أصابكم، ولو كنتم على الحق، ما هُزمتم، فارجعوا إلى ديننا، فهو خير لكم.

ومن أهم موجبات النصر: أداء الصلاة على وجه التمام والكمال، وإيتاء الزكاة للمستحقين، وتقديم الخير، فكل ما تعملونه من خير، تجدون جزاءه الوافي عند ربّكم، والله عالم بجميع أعمالكم، بصير بقليلها وكثيرها، لا تخفى عليه خافية، من خير أو شرّ، فالصلاة والزكاة من أهم أسباب النصر في الدنيا، وكذلك من أسباب السعادة في الآخرة.

---

(١) أي يهوداً. (٢) متمنياتهم الباطلة. (٣) أخلص القصد والعبادة لله تعالى.

وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، وكل فئة تكفِّر الأخرى، تلك تمنّياتهم الباطلة التي لا أساس لها، ولا فائدة منها، وإلا فهاتوا البرهان على ما تزعمون أيها الفريقان، إن كنتم صادقين في ادِّعائكم.

ثم ردَّ الله تعالى عليهم بقوله: (بلى) جواباً لإثبات نفي سابق، وردّاً لما زعموه، فإن الذي يدخل الجنة: هو كل من انقاد لله تعالى، وأخلص في عمله، وهو محسن في عبادته وعمله واعتقاده، وهؤلاء لهم الأجر عند ربِّهم، بلا خوف ولا حزن في الآخرة، خلافاً لعبدة الأوثان والأصنام الذين هم في خوف مما يستقبلهم، وحزن مما ينزل بهم.

وحدث الخصام بين أهل الكتاب، فلم يكتفوا بما سبق، بل قالت اليهود: ليست النصارى على شيء من الدين يعتدّ به، فلا يؤمنون بالمسيح الذي بشرت به التوراة، والمسيح المبشَّر به لَمَّا يأتِ بعد، وينتظرون ظهوره، وإعادته الملك لشعب إسرائيل. وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء من الدين الصحيح، فأنكروا كون المسيح متمماً لشريعة اليهود. قالوا ذلك، والحال أنهم أصحاب كتاب، يدّعون تلاوته ويؤمنون به، وقال المشركون الوثنيون الذين لا يعلمون شيئاً مثل هذا القول لأهل كل دين: لستم على شيء، والله يحكم بين الجميع يوم القيامة، بقضائه العدل، فيما اختلفوا فيه، وتنازعوا في شأنه.

نزلت هذه الآية في يهود أهل المدينة، ونصارى أهل نجران، وذلك أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أحبار اليهود، فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والإنجيل، وقالت لهم النصارى: ما أنتم على شيء من الدين، فكفروا بموسى والتوراة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

تخريب المساجد وهدمها وأدب الخطاب

دأب اليهود على الاعتداء على حرمات المساجد وترويع المصلِّين الآمنين ومحاولة هدمها من قديم، فلم تكن محاولتهم إحراق المسجد الأقصى في ٢١ آب سنة ١٩٦٩ م والحفريات حوله منذ عام ١٩٤٨ أمراً جديداً، فهم يريدون تدمير كل معالم الإسلام، وصروحه ومبانيه لتهويد المناطق العربية الإسلامية، ومنع أداء الصلاة في المساجد، كما فعل مشركو العرب في مبدأ الدعوة الإسلامية، حيث منعوا النَّبي وأصحابه من دخول مكة ومن ذكر الله تعالى في المسجد الحرام، وقد غزا بختنصّر والروم فلسطين وخرَّبوا بيت المقدس، وأغار الصليبيون على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين والعرب، وصدوا المسلمين عن المسجد الأقصى، وخرَّبوا كثيراً من المساجد، واستمر اليهود في تخريب المساجد في فلسطين بعد الاحتلال، مع أنه ليس هناك ظلم أكبر من تخريب المساجد ومنع الناس من الصلاة فيها، ولا أحد أظلم ممن منع ذكر الله في المساجد بأي طريق من الطرق، وسعى في تعطيلها عن القيام بوظائفها، وأولئك لهم الذّل والخزي في الدنيا، وفي الآخرة عذاب شديد عظيم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ[1] وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١١٤-١١٥].

فإذا منع الناس من الصلاة في المساجد ففي أي مكان تصح الصلاة فيه، ويتم التوجه فيه إلى الله، فإن الله مع عباده، لا يَحُدُّه مكان.

---

(١) ذلّ وصَغار.

وكان من سوء أدب خطاب اليهود مع النَّبي ﷺ كما تقدم أنهم يقولون له: (راعنا) اسم فاعل من الرُّعونة، وكان ذلك سبّاً قبيحاً عند اليهود، فقالوا: إنا كنّا نسبّ محمداً سرّاً، والآن نعلن سبّه، فكانوا يأتون نبي الله ﷺ فيقولون: يا محمد راعنا، ويضحكون، ففطن بها رجل من الأنصار، وهو سعد بن معاذ، وكان عارفاً بلغة اليهود، وقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفس محمد بيده لئن سمعتها من رجل منكم لأضربنَّ عنقه، فقالوا: ألستم تقولونها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٤].

وكان المسلمون إذا قالوا لحلفائهم من اليهود: آمنوا بمحمد ﷺ ، قالوا: هذا الذي تدعوننا إليه ليس بخير مما نحن عليه، ولوددنا لو كان خيراً، فأنزل الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٥].

الادِّعاءات الفارغة والافتراءات الكاذبة

الألوهية والربوبية صفتان تقتضيان الكمال المطلق والتّفرد الذاتي والقدرة الشاملة على كل شيء من الْخَلْق والإبداع، والرزق والإنعام، والدقة المتناهية والإحكام، وذلك لا يعقل أن يتصف به بشر من جنس الناس؛ لأنه عاجز مثلُهم، وقاصر غير قادر، وناقص غير كامل، وإنما الذي يحق أن يوصف بهذه الصفات الفريدة هو الله جلَّ جلاله الذي خلق فسوَّى، وقدَّر فهدى، وله جميع ما في السماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً، وتخضع لهيمنته وسلطانه كل شيء، أبدع السماء والأرض

والوجود كله من غير سابقة شيء، ولا استعانة بأحد، إذا أراد أمراً، أوجده في الحال من غير امتناع ولا إباء.

ومن كان هذا شأنه، فلا يحتاج إلى الوالد والولد، ولا يشبهه شيء من خلقه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ولا يوجد شيء من جنسه في الوجود، هو الله الواحد الأحد، الفرد الصمد (المقصود في الحوائج على الدوام) لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

هذا ما يقرره العقل الإنساني في أبسط محاكماته، فهل يُعقل أن يتخذ هذا الإله ولداً له من خلقه؟ وهو خالق الخلق المتصف بالكمال والمنزه عن كل نقص، وهو الرّازق المنعم عليهم بجلائل المنعم وصغائرها، وإن أساؤوا له وجحدوا به، روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: «ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليَدْعون له ولداً ويجعلون له أنداداً[١]، وهو مع ذلك يعافيهم ويرزقهم».

لذا ارتكب بعض البشر خطأ كبيراً حين نسبوا إلى الله الولد، فهذا مجرد ادِّعاء أجوف، وحين طلبوا أن يكلمهم الله مباشرة كما يكلم الملائكة وموسى عليه السّلام استكباراً منهم وعتوّاً وعناداً، وطلبوا أن تأتيهم آية مادِّية محسوسة استخفافاً منهم بآيات القرآن البيِّنات، فهذا من الافتراءات الكاذبة، تنزه الله عن طلبهم، وأبان الآيات أحسن بيان وأتمه، ولكن لا يفهمها إلا العقلاء المنصفون.

ردَّ الله تعالى على هذه الادِّعاءات الفارغة والافتراءات الواهية، فقال سبحانه:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ[٢] بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ[٣] ﴿١١٦﴾

(١) نظراء وأمثال. (٢) تنزيهاً له تعالى عن اتِّخاذ الولد وكل ما لا يليق به. (٣) منقادون خاضعون.

بَدِيعُ(١) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا(٢) فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ(٣) ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة: ٢/١١٦-١١٩].

نزلت هذه الآيات في اليهود حين قالوا: عزير ابن الله، وفي نصارى نجران حيث قالوا: المسيح ابن الله، وفي مشركي العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله. أسأل الله الهداية لجميع البشرية وأن يوفقهم لما فيه خيرهم ونجاتهم. ثم أنزل الله في أصحاب السفينة الذين أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة، كانوا أربعين رجلاً من الحبشة وأهل الشام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة: ٢/١٢١].

ثم أكّد الله تعالى تذكير اليهود بالنعم التي أنعم بها عليهم، لتجديد ثقتهم ونشاطهم، وأمرهم بالخوف من الآخرة في قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ(٤) ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ(٥) عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢/١٢٢-١٢٣].

أيها الإسرائيليون الجاحدون: اذكروا نعمي الكثيرة الدينية والدنيوية التي أنعمت بها عليكم وعلى آبائكم، من الإنقاذ من أيدي الأعداء، وإنزال المنّ والسّلوى، والتمكُّن في البلاد بعد المذلّة والقهر، وإرسال الأنبياء والرُّسل منكم، والتفضيل على عالمي زمانكم، حتى تطيعوا الرُّسل، وتتركوا الضّلال.

---

(١) أي مبدعهما وموجدهما . (٢) أراد شيئاً أو أحكم أمراً وحتّمه . (٣) أحدُث فيحدث . (٤) عالمي زمانكم . (٥) لا تقضي ولا تؤدي نفس .

واتّقوا الله ربّكم وخافوا من عذاب يوم القيامة، بسبب تحريف التوراة، والتكذيب برسالة النّبي ﷺ ، ذلك اليوم الذي لا تؤدي نفس عن نفس شيئاً من الحقوق التي لزمتها، فلا تؤاخذ بذنب نفس أخرى، ولا تدفع عنها شيئاً، ولا يؤخذ منها فدية لتنجو من النار، ولا تنفعها شفاعة أحد ولا نصرة ناصر.

خصائص البيت الحرام وتكريم أهله

رغّب القرآن الكريم قبيلة قريش وغيرها من أهل الكتاب بالإيمان برسالة النّبي ﷺ، وزجرهم عن الكفر والعصيان، ببيان فضائل البيت الحرام حيث جعله الله مثابة للناس (أي مرجعاً ومآباً لهم) وقت الحج يجتمعون فيه ويتفرقون عنه، وجعله الله آمناً مطمئناً، من دخله كان آمناً، ويتخطف الناس من حوله، وأمر الله المسلمين أمر ندب لا وجوب باتخاذ مكان إقامة إبراهيم مصلّى مفضَّلاً على غيره في الصلاة لشرفه بقيام إبراهيم فيه. وأمر سبحانه إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من الأوثان والأدناس والأرجاس لمن يطوف به، ويقيم عنده، ويركع فيه ويسجد.

ودعا إبراهيم ربَّه أن يجعل مكة البلد الحرام في أمن وطمأنينة، وأن يرزق أهله أطيب الثمرات وأحسن خيرات الأرض، وخصَّ إبراهيم طلب الرزق بالمؤمنين، فأجابه الرَّب تعالى بأنه أيضاً يرزق الكافر ويمتعه زمناً قليلاً، ثم يلجئه إلى عذاب النار، قال الله تعالى مكافئاً بالإمامة إبراهيم الذي كلفه بأداء تكاليف أدّاها خير أداء، ومبيّناً ما دعا لأهل مكة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ[1] إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[2] فَأَتَمَّهُنَّ[3] قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً[4] لِّلنَّاسِ

---

(١) اختبر وامتحن . (٢) بأوامر ونواه . (٣) أداهنَّ على وجه الكمال . (٤) مرجعاً وملجأ .

وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى[(١)] وَعَهِدْنَآ[(٢)] إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْعَٰكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ الثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ[(٣)] إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٤-١٢٦].

ويلاحظ أن إبراهيم خصَّ طلب الرزق بالمؤمنين، فأجابه الله بأنه يرزق الكافر أيضاً ويمتِّعه في الدنيا زماناً ثم يعذِّبه في النار. وكان من دعاء إبراهيم عليه السّلام أثناء بنائه البيت الحرام مع ابنه إسماعيل أن يتقبَّل الله منهما، وأن يجعلهما منقادَيْن لله خاضعَيْن له، ومخلصَيْن، وأن يجعل من ذرِّيتهما جماعة مخلصة منقادة، وأن يبصرهما بأسرار العبادة ومناسك الحج، وأن يقبل توبتهما، وأن يرسل في ذرية إبراهيم رسولاً منهم يتميز بالصدق والأمانة، يتلو عليهم آيات الدين، ويعلمهم كتاب الله، والحكمة (وهي كل ما تكمل به النفوس من العلوم والمعارف وأحكام الشرع) وأن يطهرهما من رجس الوثنية والشرك، فإنك يا ربّ العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم في كل صنع، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ[(٤)] لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا[(٥)] وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ[(٦)] إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٧-١٢٩].

قال النَّبي ﷺ موضحاً معنى هذه الآية الأخيرة: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى

(١) وافق عمر ربَّه في ثلاث كما روى البخاري وغيره: اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، وحجاب نساء النَّبي، وقوله لنساء النَّبي: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾. (٢) وصينا أو أوحينا. (٣) أدفعه وأسوقه. (٤) منقادين لأمرك. (٥) عرفنا معالم حجّنا وشرائعه. (٦) يطهِّرهم من الشِّرك والمعاصي.

أخي عيسى، ورؤيا أمي» وقد تحققت هذه الدعوة الكريمة من إبراهيم عليه السّلام، وكان النَّبي ﷺ هو موضع تحقيق هذه الدعوة، وأهل الكتاب يعرفون ذلك، لولا بغيهم وحسدهم وظلمهم.

اتِّباع ملّة إبراهيم عليه السّلام

كان أبو الأنبياء خليلُ الرحمن إبراهيم عليه السلام على ملَّة التوحيد الخالصة لله، وهي الملَّة الحنيفية، وكان نبيّنا ﷺ قبل البعثة يتعبَّد على ملَّة إبراهيم، واستمر على اتِّباع تلك الملّة بعد البعثة بأمر الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا[1] وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النّحل: ١٦/ ١٢٣].

روي أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه: سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، فقال لهما: قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة: إني باعث من ولد إسماعيل نبيّاً، اسمه أحمد، فمن آمن به فقد اهتدى، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة، وأبى مهاجر، فنزلت فيه الآية: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ[2] وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ[3] قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ[4] فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٠-١٣٢].

لقد أمر الله إبراهيم بالانقياد والطاعة لله، فما كان منه إلا أن أسرع بالانقياد والامتثال شأن المصطفين الأخيار، قال: أسلمت لله ربِّ العالمين ومالك يوم الدِّين.

---

(١) أي مسلماً مائلاً عن أديان الشِّرك إلى دين التوحيد. (٢) جهلها وامتهنها وأهلكها. (٣) اخضع.
(٤) دين الإسلام.

ولقد كان إبراهيم متكملاً بالمِلَّة الحنيفية وأرادها لأولاده، فوصّى بها بنيه، وكذلك يعقوب قائلاً: يا بَني إن الله اختار لكم هذا الدين، وهو كدين محمد ﷺ في أصول الدين العامة، فاثبتوا على الإسلام ولا تفارقوه. فهل يتبع اليهود آباءهم إبراهيم ويعقوب أو لا؟! ثم قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٣].

نزلت في اليهود حين قالوا للنبي ﷺ: ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية. فرد الله تعالى عليهم:

ماكنتم أيها اليهود المكذبون بالنبي محمد ﷺ حاضرين حين احتُضر يعقوب، فلا تكذبوا عليه، فإني ماأرسلت إبراهيم وبنيه إلا بالحنيفية وهي ملة التوحيد والإسلام، وبه أوصوا ذرياتهم، بدليل أن يعقوب قال لأولاده: أي شيء تعبدون بعد موتي؟ فقالوا: نعبد إلهك الله الواحد وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ونحن له منقادون خاضعون لحكمه.

وقد ردَّ الله على اليهود ادِّعاءهم أنهم نسل الأنبياء وحفدتهم، فلا يدخلون النار إلا أياماً معدودات، ومضمون الرَّد أن كل إنسان مسؤول مسؤولية شخصية عن نفسه، والأمة الماضية لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، لا ينتفع بعملها أحد ولا يتضرَّر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ٣٥/١٨] فلا ينفع السابقين إلا عملهم، كذلك من بعدهم لا ينفعهم إلا عملهم، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ(١) لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٤].

حدث مرة أن رؤوس يهود المدينة (كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأبو

(١) مضت .

ياسر بن أخطب) ونصارى أهل نجران، خاصموا المسلمين في الدين، كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله تعالى من غيرها. فقالت اليهود: نبيّنا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان. وقالت النصارى: نبيّنا عيسى أفضل الأنبياء، وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا، فلا دين إلا ذلك، ودعوهم إلى دينهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ(١) وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٥].

ثم أمر الله المؤمنين باتّباع جميع الأنبياء دون تفريق بين أحد منهم فقال: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ(٢) وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٦-١٣٧].

صبغة الله (شريعته وسنّته وفطرته)

أمر الله عزّ وجلّ المسلمين بأمرَيْن أساسيَّيْن جوهريَّيْن وهما: أن يقولوا: إنما نؤمن بالله وكتبه ورسله، لا نفرّق بين أحد من رسله وكتبه، وأن يقولوا: صَبَغَنا الله بصبغة الإيمان والدين الذي فطر الناس عليه، وبتطهير النفوس من أدران الوثنية والشرك، والرياء والأحقاد والضغائن، فالمسلم يعلن التزامه بوحدانية الله دين الفطرة، ويصفي نفسه من كل ما يؤدي إلى زرع الحقد والضغينة في القلوب، فهو

(١) مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق. (٢) أولاد يعقوب وأحفاده.

صافي النفس والفؤاد، مهذّب المشاعر والإحساسات، قال الله تعالى: ﴿صِبْغَةَ[١] ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٨].

ثم أمر الله نبيَّه بأمر خاص به: وهو أن يقول لأتباع الأديان الأخرى الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحبّاؤه، وادَّعوا أنهم أولى بالله من المسلمين، لِقِدَم أديانهم وكتبهم: أتجادلوننا في دين الله، والدين واحد، وتدَّعون أن دينه الحق ما أنتم عليه، وتظنون أن دخول الجنة والاهتداء مقصور عليكم، فالله ربُّ الجميع، ودخول الجنة مرتبط بالأعمال الصالحة الصادرة من أي إنسان دون تعصب ولا تفريق ولا حجر على فضل الله ورحمته، الله ربّنا وربّكم، لا فرق بيننا وبينكم في العبودية لله، فهو مالك أمرنا وأمركم، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم الحسنة والسّيئة، ونحن لله مخلصون في تلك الأعمال، لا نقصد بها إلا وجهه، فكيف تدَّعون أن لكم الجنة والهداية دون غيركم؟

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٩].

ثم حدَّد القرآن هُوِّية الأنبياء السابقين، وأنهم يلتقون مع خاتم النَّبيِّين على دعوة واحدة هي دعوة التوحيد الخالص لله عزَّ وجلَّ، وعبادةُ الله وحده، والعمل بالفضائل، والبعد عن الرَّذائل، وكل أمة مسؤولة عن أعمالها الحسنة والسيئة، والجيل المتأخر لا يسأل عن أعمال الجيل المتقدم، ولا داعي للافتخار بالآباء والاتّكال على الماضي، فهذا شأن العاجز الضعيف الذي ينظر إلى الماضي، ولا يتّجه إلى المستقبل. وأما العاقل فهو الذي يبني مجده بنفسه، وينجز الأعمال الطيِّبة بذاته، ويعيش عصامياً معتمداً على ما يقدم، لا عظامياً يعيش على أمجاد غيره. هذا طريق

(١) الزموا دين الله وفطرته .

البناء والتَّحضر، وسبيل التفوق والاحترام وكسب السمعة وتحقيق مجد الأمة والوطن، قال الله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ[1] كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٠-١٤١].

إذا كان الآباء أولياءَ وأصفياءَ، أو عظماءَ وعباقرةً، وأنت الوارث لم تعمل شيئاً، أفينفعك هذا أم لا؟ إن مبدأ الإسلام واضح معروف وهو:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النَّجم: ٥٣/ ٣٩-٤٠].

وسطية الإسلام

الإسلام وسط بين أمرين، فلا تشديد فيه ولا تساهل، ولا إفراط ولا تفريط، ولا غلو فيه ولا تعصب ولا تهاون، يقرن في تشريعه بين المادة والروح ويحرص على التوازن وتحقيقه في جميع الأمور، فيشرع ما يحقق التواءم والانسجام بين مطالب الروح ومطالب الجسد، ويقيم التوازن بين مصالح الفرد والجماعة، فلا رهبانية في الإسلام، ولا تضييع لمصلحة الفرد والأمة.

والمسلمون أمة وسط عدول خيار، بلا إفراط ولا تفريط في أي شأن من شؤون الدنيا والدين، جاء في الأثر ومعناه صحيح ثابت في الكتاب والسُّنة: (خير الأمور أوساطها) أي خيارها، وقد أهّلت هذه الوسطية المسلمين العدول أن يكونوا شهداءَ

---

(١) أي أولاد يعقوب وحفدته وذرِّيته.

على الأمم يوم القيامة، ويكون الرسول عليهم شهيداً، روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء عليهم السلام لهم برسالة الله والتوحيد، فيطالب الله الأنبياء بالبيِّنة على أنهم قد بلَّغوا -والله أعلم بكل شيء- فيؤتى بأمة محمد العدول، فيشهدون، وتقول الأنبياء: أمة محمد تشهد لنا، فتقول الأمم لهم: من أين عرفتم ذلك؟ فيقولون: عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق، على لسان نبيِّه الصادق، فيؤتى عند ذلك بالنَّبي ﷺ، ويسأل عن حال أمته، فيزكِّيهم، ويشهد لهم، وذلك قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النِّساء: ٤/ ٤١].

ويقول الله للأمة الإسلامية العادلة: كيف شهدتم على ما لم تحضروا؟ فيقولون: أي ربَّنا جاءنا رسولك، ونزل إلينا كتابك، فنحن نشهد بأنك عهدت إلينا، وأعلمتنا به، فيقول الله تعالى: صدقتم.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا[1] لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

وردت هذه الآية بين آيتين تدلان على مقدمات تحويل القبلة، لأن صلاة المسلمين أولاً إلى بيت المقدس ثم تحويلهم إلى الكعبة المشرفة، دليل على هذا التوسط والجمع بين أحكام الدين قديمه وجديده، والربط بين مشاعر المؤمنين الأولين والمتأخرين، فالدين واحد لله تعالى، والجهات كلها ملكه، فلا اختصاص لناحية دون أخرى، ولا مزية لها، وإنما الأمر بيده يختار ما يشاء، فأينما تولوا فثم وجه الله، قال الله

(١) خياراً، أو متوسطين معتدلين.

تعالى منكراً الاعتراض على حكم تحول القبلة: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ(١) مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٢].

ثم بعد أن ذكر تعالى في الآية التالية مزية وسطية المسلمين والإسلام، قال مبيِّناً الحكمة من التَّوجه إلى الكعبة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ(٢) ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً(٣) إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ(٤) ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

ومعنى الجزء الأخير من الآية بيان قاطع بقبول عبادة الذين ماتوا قبل تحويل القبلة، ردّاً على المرجفين القائلين: ما حال المسلمين قبل التحويل، وكيف نحكم على صلاتهم وإيمانهم؟ فأجابهم الله بأنه يقبل صلاتهم وثباتهم على الإسلام، ولا يضيع أعمالهم وعبادتهم، لأن الله بالناس رؤوف رحيم بهم.

حكمة تحويل القبلة

بيَّنا في حديث سابق أن النَّبي ﷺ ، كان يتشوَّف لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، لتثبيت ذاتية الإسلام، ولأنها قبلة أبيه إبراهيم، ولأنها أدعى إلى إيمان العرب المعوّل عليهم في نشر الرسالة، ولا يعد تطلُّعه إلى تحويل القبلة متعارضاً مع أمر ربِّه؛ لأن صفاء روحه وقوة يقينه يجعله يتطلع إلى ما يظنه خيراً، ويعتقد أن فيه الرِّضا والخير والمصلحة، لذا أجابه الله إلى طلبه، فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى

(١) أي خفاف العقول ، المضطربون في الرأي والفكر والخلق ، والمراد بهم هنا المنكرون تغيُّر القبلة من اليهود والمشركين والمنافقين . (٢) يرتدّ عن الإسلام عند تحويل القبلة . (٣) لشاقة ثقيلة على النفوس .
(٤) أي صلاتكم المسببة عن الإيمان إلى بيت المقدس .

ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ(١) وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٤].

ثم ذكر الله تعالى سبب الفتنة وإعراض أكثر أهل الكتاب عن الإسلام وإيمان بعضهم فقال:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ(٢) ﴿١٤٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٥-١٤٧].

ولئن جئت اليهود والنصارى بكل برهان وحجة على أن الحق وهو تحويل القبلة من ربِّهم، أملاً في اتِّباع قبلتك، ما اقتنعوا ولا صدَّقوا به، ولا اتَّبعوك، عناداً منهم ومكابرة، فهم لن يتبعوا قبلتك، ولست أنت بتابع قبلتهم بعد اليوم، قطعاً لأطماعهم في الاتجاه إلى بيت المقدس، وكيف يرجى ذلك؟ فهم ليست لهم قبلة واحدة، ولئن اتَّبعت أهواءهم أيها النَّبي، مداراة لهم، وحرصاً على اتِّباعك والإيمان بك، بعد ما جاءك من الحق الثابت والعلم القاطع: وهو الدلائل الدّالة على اليقين، لتكونن من الظالمين أنفسهم، المستحقّين للعقاب في الدنيا والآخرة.

والدليل على أن أهل الكتاب يعرفون الحق: أنهم يعرفون النَّبي ﷺ بما بشَّرت به كتبهم، وذكرته من صفات لا تنطبق على غيره، فهم يعرفون النَّبي ﷺ كمعرفتهم التامة بأبنائهم، وإن فريقاً منهم عاندوا وكتموا الحق الواضح الذي يعلمونه من

(١) تلقاء الكعبة المشرفة. (٢) الشاكّين في كتمانهم الحق مع العلم به.

كتبهم، وهو نبوّة محمد ﷺ ، وأن الكعبة قبلة له. والحق ما كان من عند الله وحده، لا من غيره، وذلك ما أمر الله به في قرآنه، فلا تكونن من الشّاكّين في صدق ما أنت عليه، وهو ما أتاك من ربّك من الوحي . نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه، كانوا يعرفون رسول الله ﷺ بنعته وصفته وبعثه في كتبهم، كما يعرف أحدهم ولده، إذا رآه مع الغلمان.

ثم أبان الله تعالى أن لكل فريق من الأمم قِبلة هو موليها، فلليهود قبلة، وللنصارى قبلة، وللمسلمين قبلة، فليس هناك جهة واحدة قبلة لكل الأمم، وليست القبلة ركناً من أركان الدين، وإنما المهم هو وجود التسابق إلى الخيرات، وإعلان الإيمان بما أنزل الله، واحترامه والدفاع عنه، سواء نزل في شريعة قوم أم في شريعة أخرى، فقال الله تعالى:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٨-١٤٩].

ثم بيَّن الله تعالى ثلاث حِكَم لتحويل القبلة، الحكمة الأولى: لئلا يحتج أحد على الله، فأهل الكتاب يعرفون أن النّبي المبشّر به عندهم، قبلته الكعبة، فَجَعْلُ القبلة إلى البيت المقدس دائماً على مدى الزمان طعن في نبوّته. وكان المشركون العرب يرون أن نبيّاً من ولد إبراهيم عليه السّلام جاء لإحياء ملّته، فلا يعقل أن يتّجه إلى غير قبلته وبيت ربّه الذي بناه إبراهيم، فكان التحويل متفقاً مع ما يرى كلا الفريقين: أهل الكتاب والمشركون. ثم استثنى الله سبحانه الذين ظلموا أنفسهم، فهم سفهاء لا يهتدون بكتاب، ولا يقتنعون بحجة وبرهان، وهؤلاء لا يخشاهم أحد، لأن الخشية تكون لأصحاب الحق والمنطق السليم.

والحكمة الثانية في تحويل القبلة: هي إتمام النعمة على العرب المسلمين، فإن محمداً ﷺ عربي من ولد إبراهيم، والقرآن المنزل عليه عربي، وإذا آمن العرب أحبّوا أن تكون وجهتهم الكعبة، وأن يحيوا سنّة إبراهيم الخليل في تعظيم الكعبة، لأنه معبدهم وموطن عزّهم وفخارهم.

والحكمة الثالثة: إعداد المسلمين بتحويل القبلة للاهتداء إلى الطريق الأقوم، والثبات على الحق، وقبول ما يريده الله.

قال الله تعالى مبيّناً هذه الحكَم الثلاث:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٠].

ثم ذكّر الله تعالى المؤمنين بأن إتمام نعمته عليهم بتحويل القبلة، كإتمام نعمته بإرسال رسول من العرب يتلو عليهم القرآن بلسان عربي مبين، فقال سبحانه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ(١) وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥١-١٥٢].

الصَّبر والقتل في سبيل الله

يتعرَّض دائماً أهل الحق والفضيلة والدين لإيذاء غيرهم واعتداء أعدائهم عليهم بقصد تغليب الشَّر على الخير، ونصرة الفساد على الصلاح، والضّلال على الهدى،

(١) الكتاب: القرآن، والحكمة: السُّنة النَّبوية والفقه في الدين.

وتأييد الباطل على الحق، والانحراف عن جادة الاستقامة والرشاد. وبما أن هذا الصراع بين الخير والشَّر يدوم طويلاً، ويريد الله لمصلحة الناس إعلاء كلمة الحق والخير، أمر الله المؤمنين في مسيرة الحياة أن يستعينوا بأمور ثلاثة: هي الصبر، والصلاة، والشهادة في سبيل الله.

أما الصبر فهو نصف الإيمان، ودرع أهل العزيمة والإرادة القوية، وهو طريق النصر والغلبة والفلاح، والله أكَّد في آيات كثيرة أنه مع الصابرين، يؤيدهم بولايته ورعايته، وينصرهم بتوفيقه وتثبيته، ويجيب دعاءهم، ويعزِّز موقفهم ويحميهم من الأذى.

وأما الصّلاة والاستعانة بها فلأنها أمّ العبادات، وصلة العبد بالله تعالى، وطريق الفرج بعد الكرب، واليسر بعد العسر، وهي تعصم المؤمنين من الانحراف، وتهذِّب النفوس، وتنهى أصحابها الخاشعين فيها عن الفحشاء والمنكر.

وأما القتال في سبيل الله فهو طريق الحفاظ على الحقوق، والظفر بالجنة والشهادة، وأساس تحقيق المجد والعزة والكرامة واستقلال الأوطان، وصدّ عدوان المعتدين، واسترداد الحقوق المغتصبة كاغتصاب الصهاينة بلاد فلسطين العزيزة. وقد صحح القرآن الكريم مفاهيم الناس عن الشهداء، فهم خالدون على مدى التاريخ، ولهم الدرجات العليا عند الله تعالى. لما قتل بضعة عشر رجلاً من قتلى بدر، ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين، كان الناس يقولون للرجل يقتل في سبيل الله: مات فلان، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذّتها، فأنزل الله في قرآنه بياناً قاطعاً بأن الشهداء أحياء في قلوب الناس والتاريخ، وأحياء في قبورهم، وأرواحهم الطاهرة في حواصل طير خضر تعلّق من ثمر الجنة. وجمع الله في آيات خمس بين الصبر والصلاة والاستشهاد في سبيل الله، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم(١) بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ(٢) مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢/١٥٣-١٥٧].

أخبر الله بأن المؤمنين يتعرضون للمصاب بشيء قليل من الخوف والجوع ونقص الأموال بضياعها، والأنفس بموتها، والثمرات بقلّتها، لتهدأ القلوب وتسكن، وتستسلم إلى الله، راضين بقضائه وقدره إذا ما أصابهم شيء من ذلك في الدنيا، محتسبين الأجر والثواب عند الله، قائلين: إنا لله وإنا إليه راجعون. والصابرون يوفون أجورهم بغير حساب، والشهداء تنزل عليهم المغفرة والرحمة من ربّهم الذي ربّاهم وتولّى أمورهم، وأولئك هم المهتدون إلى الأفعال النافعة وخير البلاد والوطن.

السَّعي بين الصّفا والمروة وحكم كتمان آيات الله

من المعلوم أن السَّعي بين الصَّفا والمروة من شعائر الحج ومناسكه، وهو ركن لدى بعض الفقهاء لقوله ﷺ فيما رواه الحاكم وغيره: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السَّعي» . وهو أيضاً من أعمال العمرة، فمن قصد البيت الحرام للحج أو العمرة، فلا إثم عليه أن يسعى بين الصَّفا والمروة، ويُسنُّ أن يدعو الله متّجهاً إلى الكعبة، ويرتفع الحاجُّ والمعتمر فوق الصَّفا الذي كان عليه في الجاهلية صنم على صورة رجل يقال له: (إساف) وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى (نائلة). زعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة، فمسخهما الله تعالى حجرَيْن، ووضعهما على الصَّفا والمروة

(١) لنختبرنّكم . (٢) ثناء ومغفرة من الله تعالى .

ليعتبر بهما، فلما طالت المدة، عُبِدا من دون الله، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مسحوا الوثنين، فلما جاء الإسلام وكسّرت الأصنام، كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصّنمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ(١) فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ(٢) فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ(٣) بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢/١٥٨].

وقد فهم عروة بن الزبير خطأ أن السّعي بين الصّفا والمروة غير مطلوب شرعاً، فقال لخالته عائشة رضي الله عنها: «أرأيتِ قول الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: بئس ما قلتَ يا بن أختي، إنها لو كانت على ما أوّلتها عليه، كانت (فلا جناح عليه أن لا يطّوف بهما) ولكنها إنما أنزلت لأن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يُهلّون لمناة الطاغية(٤)، وكان من أهلَّ لها يتحرَّج أن يطوف بالصّفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرَّج أن نطوف بالصّفا والمروة في الجاهلية، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية.

ثم بيّن الله تعالى جزاء أحبار اليهود وأمثالهم على كتمان ما أنزل الله وإخفائه على الناس مع شدة الحاجة إليه، أو وضع شيء مكذوب من عندهم مكانه، وذلك الجزاء هو الطّرد من رحمة الله وغضب الله عليهم، إلا من تاب منهم ورجع عن كتمان كلام الله، وأصلح ما أفسده بأن أزال ما وضعه من عنده، وأعلن الأصل الصحيح،

---

(١) معالم دينه في الحجّ والعمرة. (٢) زار البيت الحرام. (٣) يكثر الطواف والسعي بينهما. (٤) أي يرفعون صوتهم بإحرامهم ملبّين بحجّ أو عمرة.

وبلّغ ما أنزل الله من غير تحريف ولا تبديل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ[١] وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ[٢] ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ[٣] أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ[٤] ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢/١٥٩-١٦٢].

وهذا حكم عام في كل من كتم حكماً شرعيّاً أو علماً نافعاً، أو رأياً خالصاً لوجه الله ولمصلحة الوطن؛ لأن كتمان المعارف والعلوم خيانة للأمة والمجتمع.

وحدانية الله ورحمته وبرهان ذلك

أقام الله تعالى الأدلة الكثيرة على وحدانيته ورحمته وفضله، بما لا يدع مجالاً للشّك والشُّبهة، ويعرف العقلاء المتأملون فيها صحة البراهين وصدق الأدلّة. قال عطاء: أنزلت بالمدينة على النّبي ﷺ:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢/١٦٣].

فقالت كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ[٥] وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢/١٦٤].

---

(١) يطردهم من رحمته. (٢) أي الملائكة والناس جميعاً. (٣) أي لم يتوبوا وعاندوا، وظلّوا يغيّرون، ويحرّفون حتى الموت. (٤) يؤخّرون لحظة عن العذاب. (٥) تقليبها في مهابها

وقال أبو الضحى: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ تعجَّب المشركون، وقالوا: إله واحد؟ إن كان صادقاً فليأتنا بآية، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية المذكورة.

أرشدت آية التوحيد السابقة إلى أن الإله الذي يُعبد هو واحد لا شريك له، فلا معبود بحق في الوجود إلا هو، وهو الرَّحمن الرَّحيم بخلقه، اللطيف بعباده، الذي يتولى شأن مخلوقاته من النشأة أو الولادة إلى العدم أو الموت. ولا يدرك عظمة الله ورحمته إلا إنسان عاقل يدرك مدى عجزه وحاجته إلى ربِّه، فإذا كان المريض يسعد سعادة عظمى بمساعدة غيره من الأطباء والممرضات، فكيف بعون الله ورعايته للإنسان في كل لحظة وثانية من لحظات وثواني العمر المديد، وفي تقلُّبات الحياة الخطيرة الرَّهيبة.

وأدلَّة وحدانية الله ورحمته ملموسة واضحة في الكون الْمُشاهَد، ألم يرَ الإنسان أن الله هو الذي خلق السموات وما فيها من عوالم وأفلاك، وكواكب ومجرّات، ذاتِ نظام دقيق، تسير في مداراتها دون تصادم مع غيرها بقدرة الله الذي أودع فيها ما يسمى بالجاذبية؟

والله هو الذي خلق الأرض وما فيها من إنسان وحيوان ونبات، ومعادن وأنهار وجبال ووديان، تسير فينا كأننا في سفينة، وتدور بنظام محكم، لا اضطراب فيه، مما يدلُّ على وحدانية الله ورحمته الواسعة. والله الذي أوجد الليل والنهار، وجعلهما متعاقبَيْن، متفاوتَيْن طولاً وقصراً على مدى العام، ومختلفَيْن برودة وحرارة، وحركةً وهدوءاً، وأوجد فصول السَّنة، مما يدلُّ على وحدانية الرَّحمن الرَّحيم.

والله الذي ألهم الإنسان صناعة السفن، وعلَّمه كيفية تسييرها في البحر بعد معرفة

طبيعة الماء وقانون ثقل الأجسام، وطبيعة الهواء والرياح والبخار والكهرباء، مما يرشد إلى وجود إله واحد رحمن رحيم.

والله أنزل المطر لإحياء الأرض بعد موتها، فأنعش النبات والإنسان، فمن تأمَّل في تكاثف البخار، وتكوُّن السُّحب ومناظرها الخلابة التي يراها كل من ركب الطائرات، وتسييرها بالرياح لإنزال المطر بحكمة الله وتقديره، مما يدل على الإله الواحد الأحد الرَّحمن الرَّحيم.

إن هذه الظواهر والمخلوقات والأسرار المودعة في المواد آيات دالات على الوحدانية والرحمة بالعباد، ولا يعرفها إلا العقلاء.

علاقة المشركين بآلهتهم

الشِّرك بالله وثنية وخرافة ووهم، والشِّرك وكر الخرافات والأباطيل، وعلاقة المشركين بآلهتهم من الأصنام والأوثان والملائكة والجنّ علاقة ضعيفة واهية أوهن من بيت العنكبوت، لا تفيدهم شيئاً ولا تضرّهم، وتتبدَّد جميع الآمال المعقودة عليهم في الآخرة، وتنقطع الصلات والأنساب، ويتبرأ المتبوعون من الأتباع، والأتباع من المتبوعين، يتبرأ كل معبود من الملائكة والجنّ المتبوعين من الذين اتَّبعوهم وعبدوا غير الله.

ويُظهر المشركون حبّاً وتعاطفاً وتفانياً في خدمة آلهتهم المزعومة ويحبونهم كحب الله، مع أن الله واحد لا شريك له، لا إله إلا هو ولا نِدَّ ولا نظير له، ولا شريك معه، فعلاقة المشركين علاقة واهية كاذبة. على عكس علاقة المؤمنين المخلصين بربِّهم، فهم أشد حبّاً لله، وأكثر حبّاً لله، ومن تمام محبَّتهم وتعظيمهم لربِّهم أنهم لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده، ويلجؤون إليه في جميع أمورهم قائلين دائماً:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ١/ ٥].

والمشرك متناقض مع نفسه، عاجز عن جلب النفع لنفسه ودفع الضَّرر والسوء، فتراه إذا وقع في محنة أو أزمة لجأ إلى الله، ثم نسيه، وإذا ركب المشركون في السفن دعوا الله مخلصين لكي ينجيهم من المخاطر والأهوال، فإذا ما نزلوا على الأرض، اتجهوا إلى آلهتهم، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فهم في الشِّدة مع الله، وفي الرّخاء يُسَوُّون بالله غيره، فإذن هم يحبّون آلهتهم كحبِّ الله، والذين آمنوا لا يحبّون إلا الله وحده لا شريك له.

حكى القرآن أحوال المشركين مع آلهتهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا(١) يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ۝١٦٥ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ(٢) ۝١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً(٣) فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ(٤) عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٥-١٦٧].

وأتبع ذلك بمناسبة كون أوضاع المشركين خبيثة المنافع، أمر الله بالطيب النافع فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٨-١٦٩].

---

(١) أي نظراء وأمثالاً مخالفين من الآلهة يعبدونها. (٢) الأسباب: الصلات والعلاقات. (٣) أي رجعة إلى الدنيا. (٤) أي ندامات شديدة.

يا أيها الناس كافّة كُلوا مما يوجد في الأرض حلالاً أحلَّه الله لكم، طيباً لا شبهة فيه ولا إثم، ولا يتعلق به حق الغير، وألا تأكلوا الخبائث التي منها ما يأخذه الرؤساء من الأتباع، فهو حرام خبيث لا يحل أكله. وألا تتبعوا طرق الشيطان بالإغواء والإضلال والوسوسة، فهو يوسوس بالشَّر والمنكر، وهو لكم عدوّ ظاهر العداوة من عهد أبينا آدم عليه السَّلام، فلا يأمر بالخير أصلاً، ولا يأمر إلا بالقبيح من الذنوب، فاحذروه ولا تتبعوه، ويأمركم أن تقولوا على الله في دينه ما لا تعلمون يقيناً أنه شرع الله في العقائد والشعائر الدينية، أو تقدموا على تحليل الحرام وتحريم الحلال، للتوصل لإفساد العقيدة وتحريف الشريعة.

ثم حكى الله عن المشركين وبعض اليهود ما هم عليه من التقليد الأعمى، قال ابن عباس: دعا رسول الله اليهود إلى الإسلام، ورغَّبهم فيه، وحذَّرهم عذاب الله ونقمته، فقال رافع بن حرملة ومالك بن عوف: بل نتَّبع ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيراً منا، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ[1] بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ[2] عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٠-١٧١].

أي إن هؤلاء الكفار في تقليدهم الأعمى آباءهم كالببغاوات وكرعاة السّوائم التي لا تعي ولا تفقه ما يقال لها، فكل من الفريقين لا يعي شيئاً مما يسمع، وإنما يسمع بجَرْس اللفظ ورنينه فقط؛ لأن الله قد ختم على قلوب الكفار، وجعل على أسماعهم وأبصارهم غشاوة.

---

(١) يصوِّت ويصيح. (٢) خُرْس عن النُّطق بالحق.

إباحة الطَّيبات وتحريم الخبائث

أذن الله لعباده المؤمنين وغير المؤمنين أن يتناولوا الحلال الطيب المفيد الذي لا شبهة فيه ولا إثم، ولا يتعلق به حق للغير مهما كان، ونهاهم عن اتِّباع الأهواء والشياطين الذين يوسوسون بالشَّر، ويزيِّنون المنكر، ويوقعون الناس في الإثم والضلال، فالشيطان لا يأمر إلا بالقبيح، فكل ما يأباه الطبع السليم والعقل الراجح وينكره الشَّرع هو من أعمال الشيطان وأماراته، فيجب الحذر منه وتجنُّب ما يوهمه من الخير، والشيطان يأمر الناس عادة أن يقولوا على الله ما لا يعلمون من أمور الشرع والدين، قال الله تعالى مبيِّناً هذا كما تقدّم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢/١٦٨-١٦٩] .

ثم أكّد الله تعالى في الآيات التالية إحلال الطَّيبات بلا إسراف ولا تقتير، وأمر عباده بشكر نعمة الله، وإخلاص الشكر لله إن كانوا يعبدونه حقّاً، فذلك غذاء الروح ووفاء المعروف. قال الله سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٢].

ثم أبان القرآن الكريم تحريم المضارّ والخبائث مما لا يفيد الجسم، وإنما يضرّه ويؤذيه، إما في صحته وعافيته، وإما في روحه وعقيدته، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ(١) فَمَنِ ٱضۡطُرَّ(٢) غَيۡرَ

(١) أي ما ذكر عليه اسم غير اسمه تعالى، والإهلال رفع الصوت بهذا . (٢) ألجأته الضرورة لتناول المحرَّم .

بَاغٍ(١) وَلَا عَادٍ(٢) فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٣].

إن تحريم الميتة: بسبب ما فيها من الدم المحتبس الضّار، الذي قد يكون ملوّثاً بالأمراض والسُّمّيات في الغالب، والنفوس تعاف الميتة التي قد يمضي عليها ساعات أو يوم فتتلوث بالجراثيم والميكروبات وتفترسها الديدان. وحرَّم الله الدّم السائل المسفوح لما فيه من السُّميات ولتلوثه بالأمراض وكونه مباءة الجراثيم والميكروبات.

وحرَّم الإسلام تناول لحم الخنزير وشحمه لأنه حيوان قذر لا يتمثل الطعام ولا يهضمه، ولا يأكل إلا من القاذورات والنجاسات حتى وإن رُبِّي في أرقى الحظائر، وينقل الدودة الوحيدة للإنسان، والطب، وشرع الله القديم كاليهودية، والجديد كالإسلام، يحرِّم الخنزير وينفِّر منه.

وحرَّم القرآن الكريم ما ذبح لغير الله وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى عند الذبح، فقد كان المشركون يذبحون في الجاهلية للأصنام، ويقولون عند ذبحها باسم اللات والعزى، وبما أن الذَّبح تعظيم، وتعظيم غير الله لا يجوز، ويسيء إلى العقيدة النَّقية، فإن الله حرَّم كل ما ذبح لغير الله حماية لمبدأ الإيمان بالله تعالى، وإبعاداً للناس من التَّقرب للأصنام ونحوها. ثم راعى الشرع حالة الضرورة حفاظاً على النفس البشرية فأباح أكل شيء من الميتة والدّم والخمر والمذبوح لغير الله إذا لم يجد الإنسان شيئاً من المباحات يأكله، بشرط ألا يكون طالباً المحرَّم لذاته ولا باغياً، ولا متجاوزاً الحدّ في سدِّ جوعه، فيأكل بقدر الضرورة فقط؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات، والضرورة تقدر بقدرها.

(١) غير طالب للحرام للذّة . (٢) ولا متجاوز حدود الضرورة .

جزاء كتمان آيات الله

إن العلماء أمناء على ما يقولون وعلى ما ينقلونه و يخبرون عنه من شرع الله ودينه، فإذا خان العالِم الأمانة، وغيَّر وبدَّل، وحرَّف وشوَّه الحقائق، فَقَدَ الثقة به من العالَم أجمع، واستحقّ العذاب في نار جهنم.

ولقد هدد الله تعالى في قرآنه بعض علماء أهل الكتاب وأحبارهم وأنذر المشركين الذين حرَّموا بعض الحلال، وابتدعوا في الدين أموراً ليست منه، فقال الله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا[1] أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ[2] وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ[3] ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٤-١٧٦].

قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في رؤساء اليهود وعلمائهم، كانوا يصيبون من أتباعهم الهدايا، وكانوا يرجون أن يكون النَّبي المبعوث منهم، فلما بعث من غيرهم خافوا ذهاب مأكلتهم وزوال رياستهم، فعمدوا إلى صفة محمد ﷺ فغيَّروها، ثم أخرجوها إليهم، وقالوا: هذا نعت النَّبي الذي يخرج في آخر الزمان، لا يشبه نعت هذا النَّبي الذي بمكة، فإذا نظرت الأتباع إلى النعت المتغيِّر، وجدوه مخالفاً لصفة محمد ﷺ، فلا يتَّبعونه.

إن سبب نزول هذه الآيات كما ذكر عن ابن عباس يبين المقصود من الآيات ويحدد المراد منها، ومعناها: إن الذين يكتمون ما أنزل الله في الكتاب المنزل عليهم من وصف النَّبي ﷺ وبيان زمانه وغير ذلك مما يشهد بصدق نبوّته وكمال رسالته

---

(١) أي يبيعونه بثمن قليل. (٢) أي لا يطهِّرهم من دنس الذنوب. (٣) أي في مخالفة شديدة ومنازعة.

وكونه خاتم النَّبيين، هم قوم بعيدون عن الحق، مغرقون في الضّلال، ففعلهم هذا بقصد الحفاظ على رياسة كاذبة، والحصولِ على الأموال والهدايا أشدّ المنكرات، إنهم باعوا الخير والهدى بثمن بخس قليل لا ينفع، ولا يأكلون في بطونهم على التحريف والتغيير إلا ما يؤدي بهم لدخول النار، وهم بهذا الفعل الشنيع يستحقون غضب الله ولعنته، ولا يكلمهم الله يوم القيامة كلام رحمة، ولا يثني عليهم بالخير كما يفعل مع أهل الجنة، وللكافرين عذاب شديد مؤلم في الدنيا والآخرة.

وأكَّد الله تعالى على سوء صنعهم بأنهم استبدلوا الضّلالة بالهدى، واستحقّوا العذاب بدل المغفرة، فما أجرأهم على الضَّلال، وما أصبرهم على نار جهنم، فإنهم ارتكبوا ما يوجب دخول النار من غير مبالاة منهم، والله أراد من إنزال الكتاب السماوي إقرارَ الحق، ودحر الباطل، وهدايةَ الناس، فمن منع ذلك عن الناس حارب الله، وإن الذين اختلفوا في كتب الله، فقالوا: بعضها حقٌّ، وبعضها باطل، لفي مخالفة بعيدة عن الحق.

هذه الآيات التي تحرِّم كتمان أحكام الله تشمل أيضاً علماء المسلمين إذا كتموا الحقَّ مختارين لذلك، لسبب دنيا يصيبونها أو مصلحة دنيوية يحققونها.

حقيقة البر

يظن بعض الناس خطأً أن الدين أو البر والخير هو في العبادة وحدها دون ما سواها، وهذا غير صحيح، فإن البر والدين بناء متكامل وميزان شامل، يشمل العقيدة والعبادة والأخلاق وتنظيم العلاقات الاجتماعية، وقد أنزل الله تعالى آية في القرآن الكريم جمعت أصول البر كلها، وخاطبت المؤمنين بأنه ليس البر الصلاة وحدها، كما خاطبت غير المؤمنين الذين اختلفوا في التوجُّه إلى القبلة، فاليهود

يتّجهون إلى الغرب وبيت المقدس، والنصارى يتّجهون إلى المشرق ومطلع الشمس، وتكلموا في تحويل قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وفضّلت كل فرقة تولّيها واتّجاهها إلى قبلتها.

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً سأل نبي الله ﷺ عن البر، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ(١) أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ(٢) وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ(٣) وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ(٤) فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ(٥) وَحِينَ ٱلْبَأْسِ(٦) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧].

وقال قتادة: وقد كان الرجل قبل الفرائض(٧) إذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ثم مات على ذلك، وجبت له الجنة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

أراد الله تعالى أن يبين للناس كافّة أن مجرّد التوجه نحو قبلة معينة ليس من جوهر الدين، وليس هو البر المقصود، وإنما البر وهو اسم جامع للخير ولكل فعل مرضٍ محبوب هو شيء آخر، ليس في الاتجاه جهة المشرق والمغرب، إنما هو إيمان بالله ورسوله مقرون بالعمل الصالح.

البر إذن: إيمان كامل بالله ورسوله واليوم الآخر على أنه محل الجزاء والثواب، وإيمان بالملائكة على أنهم من خلق الله لهم مهام عديدة كإنزال الوحي، وحمل العرش، وإنزال المطر، وقبض الأرواح، وطاعة الله، وإيمان بالأنبياء جميعاً لا فرق

---

(١) جميع الطاعات وأعمال الخير. (٢) المسافر الذي انقطع عن أهله. (٣) في تحريرها من الرّق أو الأسر.
(٤) هذا منصوب على المدح، أي وأمدح الصابرين وأخصّهم بالذكر، أو منصوب بإضمار فعل.
(٥) الفقر، والوجع. (٦) وقت القتال. (٧) أي قبل الإلزام بالتكاليف المفروضة وبيان الحلال والحرام.

بين نبي ونبي، وإيمان بالكتب المنزلة من عند الله، سواء كان الكتاب المنزل زبوراً أم توراة أم إنجيلاً أم قرآناً، نؤمن بما نزل فيه كله، ولا يقتصر الإيمان على بعضه والكفر بالبعض الآخر، كما يفعل الذين جزّؤوا الدين، وقطعوا الصلة بين الدين الأول والآخر، فالدين كله لله، ومن عند الله تعالى.

ولا بد مع الإيمان من العمل الصالح، كإقامة الصلاة تامة الأركان والشروط مع الخشوع واستحضار القلب، وإيتاء الزكاة المفروضة لمستحقيها على نحو دقيق شامل جميع أموال الزكاة من النقود والمواشي والزروع وأموال التجارة، وإيتاء المال للمستحق مع حبِّه له، وهو إيتاؤه ذوي القرابة، واليتامى والمساكين وأبناء السبيل (المنقطعين في السفر) والسائلين وتحرير الرقاب وفكاك الأسرى، ففي المال حق آخر سوى الزكاة.

ومن أعلى درجات البر: الوفاء بالعهد والوعد وتنفيذ المعاهدات، والصبر في البأساء (شدة الفقر) والضّراء (المرض والمصائب في المال والأهل) وحين البأس (وقت شدة القتال).

هؤلاء الموصوفون بما ذُكِر هم الصادقون في إيمانهم، المتّقون عذاب الله، الفائزون بثوابه وجنَّته ورضوانه.

عقوبة القصاص

المنازعات والمخاصمات والاعتداءات ظاهرة اجتماعية مستمرة بين الناس بسبب الأطماع وحبّ السيطرة والتفوق والغلبة، أو بسبب الشِّجار وشدة الغضب وفَقْدِ الوعي، أو حبّاً للانتقام وأخذ الثأر، وغير ذلك من الأسباب التي لا تتفق في شيء مع الخُلُق الكريم، والدين والفضيلة، أو الإنسانية، فإن الخلق الكريم يأبى الإيذاء

والاعتداء، والدين يحرِّم الظلم والبغي والإساءة إلى كرامة الآخرين، والإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره، فلا يظلمه ولا يؤذيه ولا ينتقصه ولا يعتدي عليه.

وقد أراد الله سبحانه أن ينظم شأن العداوات والاعتداءات بين الناس، ففرض تشريع القصاص، وألزم الوقوف عند جانب الحق والعدل، دون تجاوز في العقاب، أو معاقبة غير المتّهم المسيء، فتجب المساواة الدقيقة التّامة بين الجريمة والعقوبة، ولا يجوز بحال قتل غير القاتل، أو قتل أكثر من شخص بجريمة قتل واحدة.

قال الشعبي: كان بين حيَّين من أحياء العرب قتال، وكان لأحد الحيَّين طَوْل(١) على الآخر، فقالوا: نقتل بالعبد منا الحرّ منكم، وبالمرأة الرجل، فنزلت آية القصاص.

وقال سعيد بن جبير: إن حيَّين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، وكان بينهم قتل وجراحات، حتى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيَّين يتطاول على الآخر في العدد والأموال، فحلفوا ألا يرضوا حتى يُقتل بالعبد منا الحرّ منهم، وبالمرأةِ منا الرجلُ منهم، فنزل فيهم الحرُّ بالحرِّ، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ(٢) لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة: ٢/١٧٨-١٧٩].

خاطب الله تعالى الناس في هذه الآية بوصف الإيمان، مبيّناً لهم فرضية القصاص

(١) أي قدرة وترفع وغلبة. (٢) تُرك له.

بسبب القتلى، يقتصّ من القاتل بمثل ما فعل مع ملاحظة الأوصاف، فيقتل الحرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبدِ، والأنثى بالأنثى، وعلى ولي القتيل أن يترك التَّعدي على غيره كما كانت العرب تتعدى، وتقتل بقتيلها الرجل من قوم قاتله ولو لم يكن قاتلاً، وعلى الحكام أولي الأمر تطبيق القصاص وإقامة الحدود، بشرط ألا يتجاوز القصاص إلى اعتداء. ولولي الدم أن يعفو عن القصاص مجاناً أو يأخذ الدية، فذلك مباح، فإذا عفا ولي الدم عن بعض الدم للقاتل أو عفا بعض الورثة عن القصاص، سقط القصاص ووجبت الدية، وحينئذ يُطالَب القاتل بالدية بالمعروف من غير شدة ولا عنف، وعلى القاتل الأداء بالمعروف من غير مماطلة ولا تسويف.

وتشريع القصاص والدية والعفو عن كليهما أو أحدهما تخفيف من الله لنا ورحمة بنا، فمن تجاوز ذلك وقتل بعد العفو والدِّية، فله عذاب مؤلم في نار جهنم. وفي تشريع القصاص حياة متحققة للجماعة، فيرتدع سفّاكو الدماء إذا علموا أن من قتل غيره يقتل به، ويَمنعُ القصاص انتشار الفوضى والظلم في القتل، ويتخلص الناس من عادة الأخذ بالثأر أو حبِّ الانتقام، وتمتنع الجريمة ويوضع الحدّ للشَّر.

ثم ذكر الله تعالى حالة وجوب الوصية بقوله:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا[1] ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا[2] أَوْ إِثْمًا[3] فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٠-١٨٢].

فرض عليكم أيها المؤمنون حال ظهور علامات الموت بمرض مخوف أو حادث خطير ونحوهما، إن ترك الواحد منكم مالاً كثيراً لورثته، أن يوصي للوالدين

(١) ترك مالاً كثيراً . (٢) ميلاً عن الحق خطأ وجهلاً . (٣) ظلماً عمداً .

والأقربين من هذا المال، وصية عادلة، في حدود ثلث التركة، حقّاً مقرّراً على أهل التقوى الخائفين من الله وحسابه، فمن غيَّر الإيصاء من شاهد ووصي بعد سماعه، فإنما ذنب هذا التغيير عليه، وبرئت منه ذمّة الموصي، وثبت له الأجر عند ربِّه، إن الله سميع لأقوال عباده المبدِّلين، عليم بأفعالهم وتصرفاتهم، ونياتهم. فمن خاف من موصٍ ميلاً عن منهج الشّرع والحق خطأً، أو وقوعاً في المعصية عمداً، فأصلح بين الموصي والموصى له، بردِّ الوصية إلى العدل والمقدار المحدد لها شرعاً، فلا إثم عليه، والله غفور لمن بدَّل للإصلاح، رحيم به.

فرضية الصيام

الصيام أحد فرائض الإسلام وأركانه، تهذيباً للنفس البشرية وتقويماً لها، وحفاظاً على البنية الجسدية، وتقويةً للإرادة والصحة، روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ البيت، وصوم رمضان».

الصيام في تقدير الإسلام رياضة روحية، وطريق لإعداد النفس لتقوى الله عزّ وجلّ في السِّر والعلن، ومدرسة للصبر والجهاد وتحمل المشاق، لذا ورد في السُّنة النَّبوية فيما رواه ابن خزيمة والبيهقي أن «الصوم شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة».

ليس الصيام مفروضاً على المسلمين وحدهم، وإنما هو عبادة قديمة مفروضة في مختلف الشرائع الإلهية، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٣].

والصيام مطهرة للنفس، ومرضاة للرَّب، وليس فيه مشقة شديدة أو شيء لا يحتمل، وإنما هو أيام معدودات قلائل في العام، شهر واحد: «لو علمت أمتي ما في رمضان من الخير، لتمنَّت أن يكون السَّنة كلها». وقال الله سبحانه عن الصوم: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ(١) فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا(٢) فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٤].

وقد يسَّر الله أداءه على الناس، فأباح قضاء الصيام في أيام أُخر للمسافر والمريض والحامل والمرضع، قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥].

أما الذين يتحملون الصوم بمشقة شديدة كالشيخ الفاني والمريض مرضاً مزمناً فعليهم فدية، إطعام مسكين (نصف صاع أو مدّان من حنطة عند الحنفية، ومدّ عند الجمهور)، ومن تطوع وزاد في الفدية على طعام مسكين فهو خير له وأكثر ثواباً، وصوم هؤلاء المعذورين خير لهم إن علموا وجه الخيرية فيه وكونه لمصلحة المكلفين، إذا لم يتضرَّروا.

وقد تميز شهر رمضان بفضائل وميزات عديدة، أهمها أن ابتداء نزول القرآن حدث في رمضان، قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا

(١) يتحملونه بمشقة وشدة. (٢) زاد في الفدية.

أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥].

ومن مزايا رمضان: أن فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ(١) فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ . . ﴾ [القدر ٩٧/ ١-٣] إلى آخر السورة المعروفة.

ومن مزايا رمضان: أنه شهر العبادة وإجابةِ الدعاء والتقربِ إلى الله، والإحساس بقوة النفس والروح، وصفاء الفكر، والترفع عن الماديات والشهوات الدنيوية، والتشبه بالملائكة الأطهار الأبرار الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ولا تتحقق فوائد الصيام إلا بعفة اللسان، والتزام حدود الله تعالى واتِّباع أوامره، واجتناب نواهيه، لذا ختم الله تعالى آيات الصيام بقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٧].

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم: «ألا وإن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه» «ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه».

---

(١) أي القرآن .

مشروعية الدعاء وآدابه
وحدود الصوم وما يباح فيه ليلاً

الدعاء إلى الله تعالى نوع من العبادة والخضوع والتّذلل، فإن الداعي يشعر دائماً بالحاجة الملحة إلى ربّه، والاستعانة بعزّته وقوته، وطلب المدد والعون في المحن والبلايا، أو الاستزادة من الخير والتوفيق في وقت الرخاء والنعمة. ثبت عن النّبي ﷺ أنه قال في حديث صحيح: «الدعاء هو العبادة» «الدعاء سلاح المؤمن». والدعاء مفيد في مصارعة القضاء والقدر، وفي تخفيف المصاب، وفي رفع البلاء وجلب الرزق، قال النّبي ﷺ: «الدعاء يرد القضاء، وإن البر يزيد في الرزق، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» «الدعاء ينفع بما نزل، ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء»[١].

والدعاء إلى الله أمر مباشر بين العبد وربّه، يسمع صوت عبده مهما كثرت أدعية العباد، ومهما اختلفت الألسنة، وإن كان الوقت واحداً واللحظة واحدة، وسواء أكان الدعاء سرّاً أم جهراً، جاء أعرابي إلى النّبي ﷺ، فقال: أقريب ربّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت عنه فأنزل الله:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٦].

وسأل أصحاب رسول الله ﷺ النّبي ﷺ: أين ربّنا؟ فأنزل الله الآية السابقة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

الله قريب من عباده، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، يعلم أعمالهم، ويراقب أحوالهم، يجيب دعوة من دعاه مخلصاً له، قد شفع دعاءه بالعمل الخالص لوجه الله سبحانه.

---

(١) انظر الجامع الصغير: حرف الدال.

روي أن المشركين قالوا لما نزل: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾: كيف يكون قريباً مَنْ بيننا وبينه على قولك سبعُ سموات في غلظ سَمْك (سقف) كل واحدة خمس مئة عام، وفيما بين كل سماء مثل ذلك، فنزلت: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي فإني قريب بالإجابة والقدرة، أجيب إن شئت. وإذا استجاب الله دعاء عبده، فإما أن تظهر الإجابة في الدنيا، وإما أن يُكَفَّر عن العبد خطاياه وذنوبه، وإما أن يُدَّخر له أجر في الآخرة، أخرج الإمام مالك في موطئه عن زيد بن أسلم أنه كان يقول: «ما من داع يدعو إلا كان بين إحدى ثلاث: إما أن يستجاب له، وإما أن يُدخر له، وإما أن يُكفَّر عنه» وهذا حديث في حكم المرفوع، أيّده حديث جابر المرفوع إلى النَّبي ﷺ بالنَّص السابق.

والدعاء بالسوء والأذى والاعتداء ممنوع، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٥].

وإذا سبق القدر بشيء فلا يجاب الدعاء، فهذا أفضل البشر المصطفى محمد ﷺ قد «دعا أن لا يجعل بأس أمته بينهم» فلا يتنازعون ولا يتخاصمون، ولا يتفرقون شيعاً وأحزاباً، فَمُنع ذلك لأن القدر سبق بغير ذلك. سئل عبد الله بن جابر بن عتيك في بني معاوية، وهي قرية من قرى الأمصار: «هل تدري ما الثلاث التي دعا بهن رسول الله؟ فقال: دعا بألا يُظهر عليهم عدوّاً من غيرهم، ولا يهلكهم بالسنين فأعطيهما، ودعا بألا يجعل بأسهم بينهم، فَمُنِعها، قال ابن عمر: صدقت، ثم قال ابن عمر: فلن يزال الهرج إلى يوم القيامة» والهرج: الفتنة والانقسام والاختلاط في الأمور.

ومن أهم آداب الدعاء: الأدب مع الله وخشوع القلب وصدق الطلب، والاستقامة واستجابة ما دعا الله إليه من الإيمان بالطاعة والعمل، فاستجابة الله للعبد مرتبطة باستجابة العبد لله فيما أمره به، وفيما نهاه عنه.

ثم ذكر تعالى ما يحلُّ في ليالي الصوم وحدود الصوم نهاراً، فقال:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ(١) إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ(٢) عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ(٣) فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ(٤) ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ(٥) فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٧].

يباح لكم في ليالي الصيام وقاع زوجاتكم، فهنّ ستر لكم عن الحرام، علم الله أنكم كنتم تخونون أنفسكم بالجماع ليلة الصيام، فتاب الله عليكم وعفا وصفح عنكم، والآن أباح الله لكم بأن تباشروا نساءكم، واطلبوا ما أباحه الله لكم من الاستمتاع لإنجاب الذرِّية. ويباح لكم الأكل والشرب أثناء الليل كله، حتى يطلع الفجر الصادق، ثم أتموا الصيام إلى غروب الشمس. ولا تجوز مباشرة النساء أثناء الإقامة في المساجد للعبادة بالاعتكاف. وتلك الأحكام المذكورة للصيام والاعتكاف هي حدود الله، أي محظوراته وممنوعاته، فلا تقربوها بالمخالفة، وبمثل هذا التوضيح يبين الله أحكام دينه للناس ليتّقوا ربّهم، ويبتعدوا عن المحرمات. أخرج أحمد وأبو داود والحاكم عن معاذ بن جبل قال: كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء مالم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال: قيس بن صِرْمة صلّى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب، حتى أصبح، فأصبح مجهوداً، وكان عمر أصاب من النساء بعد ما نام، فأتى النّبي ﷺ ، فذكر ذلك له، فأنزل الله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾.

(١) الوقاع. (٢) هنّ ستر لكم عن الحرام. (٣) تخونون. (٤) أي طلوع الفجر الصادق، شبه الفجر والليل بخيطين: أبيض وأسود لامتدادهما. (٥) محرّماته.

الرشوة وأخذ أموال الناس بالباطل

المال قوام الحياة المعيشية، وأساس تقدم الدول والجماعات، فبه تنهض الأمة، وهو المعوّل عليه في الحرب والسلم وبناء النهضات والحضارات. لذا صانه الإسلام، وجعل تحرُّكه وانتقاله بين الناس مرهوناً بالحق والعدل، فلا غشّ ولا غبن ولا ظلم ولا استغلال ولا اغتصاب، ولا يجوز لأحد أن يأخذ مال أحد إلا بإذنه ورضاه، قال النَّبي ﷺ في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام» «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه» فالأموال لجميع الناس، وقد قسمها الله بينهم قسمة عادلة لا جور فيها.

ومن أهم القضايا التي تثار أمام المحاكم القضائية: قضايا المال والاقتصاد، وإذا أصدر القاضي حكماً في الدعوى أو الخصومة، فإن حكمه لا يحلُّ الحرام ولا يحرِّم الحلال، ويظل الواجب على المحكوم له أن يراقب الله تعالى، ولا يأخذ من خصمه إلا الحق الثابت الشرعي الذي يطمئن إلى أنه ماله بحق، قال سعيد بن جبير: إن امرأ القيس بن عابس وعبدان بن أشوع الحضرمي اختصما في أرض، وكان امرؤ القيس هو المطلوب، وأراد أن يحلف، وعبدان هو الطالب، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ[1] بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٨] فحكم عبدان في أرضه ولم يخاصم الخصم الآخر، وتنازل له عن حقِّه.

نهانا الله سبحانه في هذه الآية أن نأكل أموال بعضنا بالباطل وبدون وجه حق، ونهانا أن نُلقي بالأموال إلى الحكام مستعينين في ذلك بالدفاع بالباطل، والآية تشمل أخذ مال الآخرين بغير حق بمختلف الوسائل، كالرشوة والقمار، والخداع

(١) تلقوا فيها بالخصومة (الدعوى) ظلماً إلى الحكام.

والغصب وجحد الحقوق والأمانات، والمعاصي والملاهي وشرب المسكرات، والإكراه والغبن مع الاستغلال، والغش وكتمان العيوب، وأكل أموال اليتامى ظلماً، والتحايل والاختلاس والانتهاب، والخيانة والسرقة والرِّبا وتطفيف الكيل والميزان بأخذ زيادة عن الحق أو نقص حق الآخرين، فتكون الآية الكريمة عامّة في الأشخاص والأموال، فلا يحق لأي شخص أخذ مال غيره مهما كان صغيراً أم كبيراً، ولا يجوز الباطل في سائر المعاملات المالية وغير المالية.

إن كثرة التقاضي بالباطل وشيوع الرشوة في الأمة خطر عليها وعلى اقتصادها وأخلاقها ووجودها. كيف يحلُّ لإنسان أن يأخذ مال إنسان آخر بالإثم والزور، والبهتان والرشوة، وهو يعلم أنه حرام، ولا يأكل في بطنه إلا النار.

إن قضاء القاضي لا يُحل ما حرّمه الله كما ذكرت، وإن كان هناك بيِّنة أو شهود أو أيمان، وقاعدة القضاء الشهيرة: الحديث النَّبوي الثابت: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن[1] بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع منه، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار» . ولما سمع خصمان بهذا الحديث في عهد النَّبي ﷺ بكيا وقال كل واحد منهما: حقي لصاحبي.

الشهور القمرية والعادات الحسنة

القرآن الكريم معلِّم البشرية في جميع أحوالها، في دينها وعبادتها ومعاملاتها وعقائدها وعاداتها، فلا يرشد إلا إلى خير، ولا يدل إلا على معروف، ولا يشرع إلا

(١) أي أفطن وأعلم .

ما ينسجم أو يتّفق مع العقول السليمة، والعادات المألوفة المستحسنة الموافقة للغرض العقلاني والتقلب المفيد في شؤون الحياة.

لقد سأل العرب المسلمون عن أشكال الهلال وتبدُّلاته في دورته الشهرية أو عن العلّة في أن القمر يبدو دقيقاً كالخيط في مطلع الشهر، ثم لا يزال يكبر حتى يصير بدراً في وسط الشهر، ثم يصغر ويتضاءل حتى ينمحي، وكان الغرض من السؤال بيان السبب أو فائدة الشهور القمرية، وكان السائل معاذ بن جبل وثعلبة بن عنمة، وهما رجلان من الأنصار، قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو، فيطلع دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدقّ، حتى يكون كما كان، لا يكون على حالة واحدة، فنزلت الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٩] وقال ابن عباس: نزلت على سؤال قوم من المسلمين النّبي ﷺ عن الهلال، وما فائدة محاقه وكماله ومخالفته لحال الشمس؟

لقد أجاب الله تعالى عن هذا السؤال ببيان فائدة القمر وأسباب أطواره التي يمر بها، وهي ضبط الزمان وحساب الأيام لمعرفة أوقات حلول الديون وآجال العقود، وتواريخ استحقاق الأجور والأكرية، وزمن انقضاء العِدد للنساء وما أشبه ذلك من بيان مصالح العباد، ولمعرفة مواقيت الحج أيضاً يعرف بها وقته وأشهره. والتوقيت بالسَّنة والشهور القمرية سهل في الحساب ومناسب للعرب، يؤقتون بدورات القمر أعمالهم وتجارتهم ومزارعهم وعبادتهم من صوم وحج وعدّة وغيرها.

وتضمنت الآية أيضاً الكلام عن شأن العادة المستحسنة في دخول البيوت والخروج منها، فقال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٩].

وسبب نزول هذه الآية: تغيير عادة العرب في الجاهلية في الدخول إلى البيوت بعد الإحرام بالحج أو العمرة، فقد كان أناس من الأنصار إذا أحرموا بحج أو عمرة لم يدخلوا الدور من الباب، فإن كان من أهل المدر (أي المدن) نقب نقباً في ظهر بيته، وإن كان من أهل الوبر (البدو) دخل من خلف الخباء، فقيل لهم في القرآن الكريم: ليس البر هذا، ولكن البر من اتَّقى الله وخاف عقابه، ثم أمرهم الله بأن يأتوا البيوت من أبوابها، ويتّقوا الله في كل شيء، رجاء أن يكونوا من المفلحين.

لقد سوّى القرآن الكريم بين جميع الناس في الدخول إلى البيوت والخروج منها، سواء أكانوا من أهل المدينة أم من الأعراب والبدو، فلا يكون الإحرام بالحج أو العمرة سبباً في تغيير المألوف والمعروف والعادات، لأن تقوى الله في القلوب والنفوس، وليست التقوى في المظاهر والشكليات التي لا معنى لها، إن الإسلام يقرّ ما ينسجم مع العقل والمنطق، وينبذ كل المظاهر الجوفاء، والأشكال التي لا معنى لها، فأي ارتباط بين الإحرام بالحج وبين الدخول من الباب الخلفي للبيت؟ ولماذا يسمح للقرشيين بالدخول من الأبواب الأمامية ولا يسمح لغيرهم بذلك؟ إن الدين واحد، والهدي واحد، والناس جميعاً سواسية في أحكام الشريعة.

قواعد القتال

علّمنا القرآن الكريم في سورة البقرة في ستّ آيات ستّ قواعد في القتال في سبيل الله، لمعرفة أسباب مشروعية القتال وغاياته وآدابه وزمنه. وأول هذه القواعد: أن القتال في سبيل الله أَذن به الشَّرع لردِّ العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين ونشره في العالم، قال الله تعالى:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠]

نزلت هذه الآية لما صدَّ المشركون رسول الله وأصحابه عن البيت الحرام في السنة السادسة من الهجرة، ثم صالحوه صلح الحديبية على أن يرجع عامه، ثم يأتي في العام القابل، على أن يُخلوا له مكة ثلاثة أيام، فيطوف بالبيت الحرام ويفعل ما شاء، وخاف المسلمون أن لا تفيَ لهم قريش بذلك، وأن يصدّوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ يعني قريشاً.

القاعدة الثانية في القتال: أن القتال حين الاعتداء يجوز في أي مكان، قال الله تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ(١) وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ(٢) أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩١] أي قاتلوهم إذا أدركتموهم وصادفتموهم على أي حال، وأخرجوهم من مكة حيث أخرجوكم منها، وفتنتهم المسلمين في الحرم عن دينهم بالإيذاء والتعذيب ومصادرة الأموال، والإخراج من الوطن، كما يفعل الصهاينة الآن بعرب فلسطين، أشدّ قبحاً من القتال في الحرم؛ لأن الإيذاء والاضطهاد على العقيدة أمر خطير وشرّ وبيل.

القاعدة الثالثة: أنه لا يبدأ المسلمون قتال غيرهم في المسجد الحرام(٣) في مكة حتى يبدأهم الأعداء، فإن قاتلهم أعداؤهم، جاز القتال وردُّ العدوان، حتى ينتهي المعتدون عن عدوانهم؛ لأن الشّر بالشّر، والبادئ أظلم، قال الله تعالى:

﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ

(١) وجدتموهم. (٢) الشّرك بالله وهم في الحرم. (٣) في الحرم.

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٩١-١٩٢].

القاعدة الرابعة: أن غاية القتال المشروع في الإسلام شيئان: منع الفتنة في الدين، وضمان حريته، وإقرار السِّلم واستتباب الأمن والطمأنينة، قال الله تعالى:

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٣].

القاعدة الخامسة: أن الإذن بالقتال في الشهر الحرام: ذي القعدة من قبيل القصاص والمعاملة بالمثل، فإن مشركي مكة انتهكوا حرمة هذا الشهر الحرام، وردّوا المسلمين عن العمرة يوم الحديبية، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء، وكراهتهم القتال في الأشهر الحرم: الشهر الحرام بالشهر الحرام وهتكه بهتكه، فمن عظّمه عظّمناه، ومن انتهك حرمته انتهكناه، والقتال فيه في هذا العام كالقتال من المشركين في العام السابق، فالواجب القصاص والأخذ بالمثل، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ (١) قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٤].

القاعدة السادسة والأخيرة: أن القتال في سبيل الله يتطلب التضحية بالنفس والمال، ويتوقف القتال كغيره على المال، فيجب الإنفاق في سبيله؛ لأن الإنفاق في الحروب وسيلة النصر وطريق الفوز والغلبة، وترك الإنفاق مهلكة للأمة، مَضْيعة للجماعة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ (٢) ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٥].

---

(١) ما تجب المحافظة عليه يعتمد على المعاملة بالمثل. (٢) الهلاك بترك الجهاد وترك الإنفاق فيه.

فرضية الحج وأحكامه

الحج على المستطيع أحد فرائض الإسلام الخمس وأحد أركانه الأساسية فرض سنة ست من الهجرة، والعمرة فريضة أيضاً مثل الحج في بعض المذاهب الإسلامية، لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ(١) فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ(٢) وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ(٣) فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة: ٢/١٩٦].

والحج فضلاً عن كونه عبادة شخصية تقرّب إلى الله تعالى، ويكفّر المعاصي والذنوب، ويجدد المسلم العهد مع ربّه على الطاعة والاستقامة، هو أيضاً مظهر اجتماعي ومؤتمر إسلامي عام، به يتعارف المسلمون بعضهم على بعض، ويتذاكرون في شؤونهم العامة والخاصة، وفي مصائر أمتهم وأحوال دنياهم وآخرتهم.

ويبدأ الحج بالإحرام به في هيئة مخصوصة وفي مواقيت مكانية وزمانية معلومة، ويكون أداء الحج والعمرة بإحدى صور ثلاث: الإفراد بأن يحرم بالحج وحده ثم بالعمرة بعد انتهائه، والتّمتع بتقديم العمرة على الحج، والقِران بالإحرام بالحج والعمرة معاً، وأوقات الحج: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، فلا تصح نية الحج إلا في هذا الوقت، وتنتهي أعماله في أيام عبد الأضحى التي تسمى أيام التشريق. أما العمرة فوقتها السنة كلها.

(١) منعتم عن البيت بعد الإحرام. (٢) ما تيسر مما يهدى إلى الحرم من الأنعام. (٣) مكان وجوب نحره وهو الحرم أو مكان الإحصار.

ومن أحرم بحج أو عمرة ثم حيل بينه وبين إتمامه بسبب مانع مرضي أو إداري أو خوف من عدو، وجب عليه التَّحلل في مكانه وذبح الهدي (أي شاة)، ويجب الهدي أيضاً على المتمتع والقارن شكراً لله على تيسيره وفضله، فمن عجز عن الهدي صام ثلاثة أيام في الحج قبل اليوم الثامن من ذي الحجة، وسبعة أيام في وطنه إذا لم يكن الشخص من سكان الحرم المكي (المسجد الحرام).

وعلى الحاج التزام آداب وقواعد معينة في أثناء الحج ومنها الابتعاد عن الصلة الخاصة بالزوجات، وعن فحش الكلام وعن الفسوق والخروج عن طاعة الله بفعل أي شيء محرَّم كالصيد والطيب والزينة ولبس المخيط من الثياب والأحذية، والتَّنابز بالألقاب، والجدال والمراء والخصام؛ لأن الحاج في طاعة وعبادة وتقشف لايناسبه هذه الأمور، لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ(١) وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ(٢) وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ٢/١٩٧].

ويجوز للحاج والمعتمر التجارة بعد الانتهاء من أعمال الحج والعمرة، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ(٣) أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢/١٩٨].

ويكثر الحاج والمعتمر من التلبية والتهليل والدعاء عند المشعر الحرام بالمزدلفة، ومن ذكر الله ذكراً كثيراً حسناً، اعترافاً بفضل الله الذي هدى المؤمن هداية حسنة، وعلَّمه كيف يذكر ربَّه، وكان قبل ذلك ضالاً جاهلاً لا يعرف كيف يكون ذكر الله. ويستمر في الحج وبعده ذكر الله والاستغفار والدعاء بالخير للمؤمن نفسه ولوطنه وأمته، فمن دعا الله لأمر دنيوي فقط، فلا نصيب له في الآخرة، والأفضل الدعاء بالتوفيق والرزق والصحة في الدنيا، وبالثواب والجنة في الآخرة، وتجنب الأعمال

---

(١) لا وقاع ولا إفحاش في القول. (٢) لا خصام ولا ملاحاة. (٣) إثم وحرج.

التي تؤدي إلى النار، ويتأكد ذكر الله في أيام التشريق الثلاث، فيكثر من التهليل والتكبير عقب الصلاة وعند رمي الجمار أثناء المبيت بمنى ليلتين أو ثلاثاً، تخفيفاً من الله، وعلى الحاج والمعتمر التزام تقوى الله والاستعداد للآخرة، قال الله تعالى:

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم(١) مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ(٢) وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ(٣) فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ(٤) ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ(٥) وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ(٦) فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة: ٢/١٩٨-٢٠٣].

بعض مظاهر العصيان والنِّفاق وبعض نماذج الإيمان الصادق

الناس بالنسبة لدين الله وشرعه صنفان: منافق عاص، ومؤمن طائع، قلب المنافق مظلم مملوء كفراً ومعصية، وقلب المؤمن مضيء بالإيمان مشرق بنور الله، سائر بتوفيق الله.

---

(١) دفعتم أنفسكم وسرتم. (٢) المزدلفة كلها أو جبل قُزَح. (٣) عبادات الحج. (٤) أي نصيب.
(٥) الحسنة: التوفيق والصحة والرزق. (٦) أي في المبيت بمنى ورمي الجمرات في يومين من أيام التشريق.

وعلائم الإيمان والنِّفاق معروفة واضحة من خلال المواقف والتصرفات والكلام المنطوق، بعض الناس يروقك قوله، ويعجبك طلاقة لسانه، وقوة بيانه، ولكنه يخادع ويداهن، ويتملق ويكذب، ولا يتكلم إلا ليحظى بشيء من الدنيا وزخارفها وأطماعها، ويحاول زخرفة كلامه إما بحلف الأيمان، وإما بأن يشهد الله على ما في قلبه، فكلما قال قولاً شفعه وقرنه بقوله: يعلم الله هذا، ويشهد أني صادق، والله يعلم أنه أشد الناس خصومة وعداوة، وأقواهم جدلاً، وأكثرهم حقداً وبغضاء.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ(١) ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ(٢) وَٱلنَّسۡلَۚ(٣) وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ(٤) ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٤-٢٠٦].

قال السّدي: نزلت هذه الآيات في الأخنس بن شُرَيق الثقفي، وهو حليف بني زهرة، أقبل إلى النَّبي ﷺ في المدينة، فأظهر له الإسلام، وأَعْجَب النَّبي ﷺ ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم إني لصادق، وذلك قوله: ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾. ثم خرج من عند رسول الله ﷺ، فمرَّ بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر، فأحرق الزرع، وعقر الْحُمُر، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا * وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾.

هذا أنموذج من عناصر التخريب والفساد والنِّفاق، لم يُكرِهه أحد على ما صنع، ولكنه ارتضى لنفسه موقف الخبث، وإضمارَ السوء والعملَ على هدم مقومات أمته، وتدمير أمجاد مجتمعه ومفاخرهم.

---

(١) أي شديد الخصومة والعداوة. (٢) الحرث: الزرع. (٣) أي ما تناسل من الحيوان. (٤) لبئس الفراش والمضجع.

وفي مقابل هذا العنصر الخبيث نجد في الأمة أنموذجاً طيباً آخر، هو صهيب بن سنان وأمثاله من المجاهدين المخلصين، أراده المشركون على الكفر، فأبى، وأخذوا ماله، وفرَّ بدينه إلى المدينة، فأنزل الله في شأنه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ[١] ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٠٧] أي رؤوف بعباده حيث كلفهم الجهاد في سبيل الله، فعرَّضهم بذلك لثواب الشهداء. قال سعيد بن المسيب: أقبل صهيبٌ مهاجراً نحو رسول الله ﷺ، فاتّبعه نفر من قريش من المشركين، فنزل عن راحلته، ونثر ما في كنانته[٢]، وأخذ قوسه، ثم قال: «يا معشر قريش، لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً، وايم الله لا تَصِلون إلي حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم. قالوا: دلَّنا على بيتك ومالك بمكّة ونخلِّي عنك، وعاهدوه إن دلَّهم أن يَدَعوه، ففعل، فلما قدم على النَّبي ﷺ قال: «أبا يحيى، ربح البيع، ربح البيع» وأنزل الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

وقال المفسِّرون: أخذ المشركون صهيباً فعذَّبوه، فقال لهم صهيب: إني شيخ كبير، لا يضرّكم، أَمِنكم كنت أمَّن من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني؟ ففعلوا ذلك، وكان قد شرط عليهم راحلة ونفقة، فخرج إلى المدينة، فتلقاه أبو بكر وعمر ورجال، فقال له أبو بكر: ربح بيعك أبا يحيى، فقال صهيب: وبيعك، فلا بخس، وما ذاك؟ فقال: أنزل الله فيك كذا، وقرأ عليه هذه الآية.

(١) يبيعها ببذلها في طاعة الله تعالى. (٢) أي أخرج ما في جعبة السهام من سهام.

اتِّباع جميع أحكام الدِّين

الإسلام وأحكامه دين الله وشرعه الذي لا يتجزّأ ولا يختلط بغيره، فهو بمثابة المظلة الواقية من الضلال والانحراف والشَّر والسوء، والعاصم من كل أذى وضرر، فمن كان مسلماً بحق اتَّبع جميع أحكام الدين، والتزم كل ما شرعه القرآن الكريم، فأحلَّ حلاله، وحرَّم حرامه.

لذا أمر الله المسلمين وغيرهم أن يستسلموا لله تعالى ويطيعوه في الظاهر والباطن، وأن يدخلوا في الإسلام كله، ولا يخلطوا به غيره. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ(١) كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ(٢) إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٨].

والمراد بالسِّلم في الآية: الإسلام، فعلى من آمن بالإسلام ديناً العمل بجميع فروعه وأحكامه، فلا يؤمن من يعمل ببعض أحكامه كالصلاة والصيام مثلاً، ويترك بعض الأحكام الأخرى كالزكاة والجهاد والحكم بكتاب الله وحدوده، وترك الحرام كله ومنع الخمر والرِّبا والزِّنا والرشوة والظلم. قال ابن عباس: نزلت هذه في عبد الله بن سلام وأصحابه، وذلك أنهم حين آمنوا بالنَّبي ﷺ، آمنوا بشرائعه وشرائع موسى، فعظَّموا السبت، وكرهوا لحوم الإبل (الجمال) وألبانها بعدما أسلموا، فأنكر ذلك عليهم المسلمون، فقالوا: إنا نقوى على هذا وهذا، وقالوا للنَّبي ﷺ: إن التوراة كتاب الله، فدعنا فلنعمل بها، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً..﴾.

ثم هدَّد الله تعالى في الآيات التالية بالانتقام من المائلين عن الحق، المبتعدين عن

(١) الإسلام وشرائعه كلها. (٢) طرقه وآثاره.

الإسلام، بعدما جاءتهم الآيات الواضحات والحجج البيِّنات، وهل ينتظر هؤلاء المبتعدون عن شرع الله، الخارجون عن أمر الله إلا أن يأتيهم عذاب الله، وتأتيهم الملائكة بما قدَّر الله وأراده لهم.

ثم قرَّع الله ووبَّخ بني إسرائيل على تركهم الآيات التي جاءت بها الرُّسل الكرام السابقون، و بخاصة موسى وعيسى، ووبَّخهم أيضاً على عدم الإيمان بشريعة الإسلام، مع إقامة البراهين والمعجزات الدّالة على صدق النَّبي محمد ﷺ ، فكل من يغيِّر نعمة الله التي تَوصَّل بها إلى الهداية والخير، فيستعملها في الكفر والضلال والعصيان، فليستعدّ لعقاب الله الشديد الصارم.

وأرشدت آيات القرآن إلى أن سبب عدم اتباع أحكام الدين هو الحرص على الدنيا، ومحبّتها، وتحسينها في أعين الكفار، والافتتان بها، والاستهزاء بالمؤمنين والسخرية منهم، مع أن للمؤمنين الدرجة العالية يوم القيامة، وهم فوق الكفار في الدرجة والقدر، إذ هم في أعلى علّيِّين، والكفار في أسفل السّافلين، ونبَّه القرآن الكريم إلى أن الرزق ليس على قدر الإيمان والكفر، وإنما يرزق الله من يشاء، ولو كان كافراً عاصياً، ويقتّر الرزق على من يشاء، ولو كان مؤمناً طائعاً؛ لأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة. قال الله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم[١] مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ[٢] وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[٣] ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٠٩-٢١٢].

---

(١) ضللتم عن الحق . (٢) مظلات من السحاب الرقيق . (٣) بلا نهاية ولا عد لما يعطيه .

الحاجة إلى الأنبياء والرُّسل

لقد ثبت في التاريخ الإنساني أن الناس لم يتمكّنوا بمجرد عقولهم وخبراتهم وتجاربهم وفطرتهم البدائية أن يعرفوا الحلّ الأمثل والتشريع الأفضل الذي يحتكمون إليه في منازعاتهم وخلافاتهم، ليتوصلوا إلى الوحدة والانسجام، والسكينة والاطمئنان، والسعادة والاستقرار. فكان من الضروري وجود الهداية الإلهية والإرشادات الرَّبانية لإنقاذ الناس من الضلالة والانحراف إلى نور الحق والإيمان، وصار من المؤكد أن الاهتداء بهدي الأنبياء والرُّسل ضروري للبشر، وتبين فعلاً أن الدين الإلهي هو السبب الوحيد لسعادة النوع الإنساني، والمصلح لأمر الحياة، والمقوِّم لاعوجاج البشر، يوحِّد بين الآراء، ويجمع العقول والأفكار، وينبِّه إلى ما فيه المصلحة الحقيقية، ويبعد عما فيه شرّ وفساد، وزيغ وانحراف.

قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا[1] بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢/٢١٣].

ومعنى الآية أن الناس كانوا في بداية أمرهم على السواء على الفطرة الساذجة، والبدائية العقلية، يتصرفون في حياتهم ومعايشهم وعلاقاتهم الاجتماعية بحسب الرغبات الذاتية والغرائز البشرية، لا يعرفون منهج الحياة الأفضل، ولا مستوى المدنية والحضارة الأرقى، ولا شيئاً عن الأنظمة والشرائع التي تنظم علاقات الناس، وتجعلهم يعيشون في راحة وطمأنينة، بعيدين عن المنازعات والخلافات التي تهدِّد وجودهم وتضعف شأنهم، فجاءت الشرائع الإلهية على يد الأنبياء والرُّسل يبشِّرون

---

(١) حسداً وظلماً.

الناس بالخير والسعادة، وينذرونهم من الشَّر والأهواء، و يخرجونهم من الظلمات إلى النور، لأن استسلام الناس إلى عقولهم بلا هدي إلهي مما يدعو إلى الشقاق والنزاع والانحراف والاضطراب والقلق، فكثيراً ما حالت الأوهام والمصالح الذاتية بين الناس وبين الوصول إلى المراد من العقائد والأحكام التشريعية المنظمة لشؤون المجتمع.

وأنزل الله تعالى مع الأنبياء والرُّسل الكتب الإلهية القائمة على الحق والعدل والرحمة والمصلحة الحقيقية، ليحكم الله بين الناس فيما اختلفوا فيه من أمور دنياهم ودينهم، ولم يقع الاختلاف في الدين بين العلماء وأهل النظر في الكتاب الإلهي إلا بسبب البغي والحسد والطمع في الدنيا وزينتها، أما الذين آمنوا وأخلصوا دينهم لله، وعملوا صالحاً من أنفسهم، وثابوا لرشدهم فهداهم ربّهم للحق بإذنه وإرادته، والله مصدر الخير يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

عاقبة الصَّبر على الدعوة إلى الله

تعرَّض النَّبي ﷺ والمؤمنون من أصحابه لمختلف أنواع الأذى والاضطهاد والتعذيب، فصبروا وصابروا، وكافحوا وجاهدوا، حتى ظفروا وانتصروا، وتحققت لهم الآمال الكبرى والغايات السامية. قال الله تعالى مبيِّناً هذا الموقف المشرّف للرسول وصحابته: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟(١) مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ(٢) وَزُلْزِلُوا۟(٣) حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٤].

---

(١) حال الذي مضوا من المؤمنين . (٢) الفقر ، والمرض . (٣) أزعجوا بالبلايا الشديدة .

ذكر العلماء سببَيْن لنزول هذه الآية، فقال قتادة والسّدّي: نزلت في قصة الأحزاب، حين حاصر المشركون رسول الله ﷺ وأصحابَه في المدينة. نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين من الجهد والشدة، والحرّ والبرد وسوء العيش وأنواع الأذى، وكان كما قال الله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١٠].

وقال عطاء وجماعة: نزلت الآية تسلية للمهاجرين الذين أصيبت أموالهم بعدهم في بلادهم، وفُتِنوا هُم قبل ذلك. لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، اشتدَّ الضُّر عليهم، بأنهم خرجوا بلا مال، وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ ، وأسرَّ قوم من الأغنياء النفاق، فأنزل الله تعالى تطييباً لقلوبهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ . .﴾ الآية.

خوطب الرسول ﷺ والمؤمنون معه بهذه الآية، حثّاً لهم على الثبات والمصابرة على مخالفة الكفار، وتحمل المشاق، مع بيان عاقبة الصبر. وكان ذلك من قول الرسول ﷺ بقصد استعجال النصر، لا لسبب الشَّك والارتياب في وعد الله وعدله.

ومعنى الآية أتظنون أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة، ولما تتعرفوا على أخبار من مضى من قبلكم من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين؟ فأنتم لم تتعرضوا للمحنة والبلاء مثل ابتلائهم، مسَّتهم الشدة والخوف والفقر والألم والأمراض، تعرضوا للبأساء أي الفقر، وللضَّراء أي المرض والمصائب، وزلزلوا أي أُزعجوا إزعاجاً شديداً بأنواع البلايا، حتى اضطرهم الألم والكرب إلى أن يقول الرسول -وهو أعلم الناس بصدق وعد الله، وأوثقهم بنصره- ويقول المؤمنون المقتدون به من غير أي شك بإنجاز وعد الله: متى يأتي نصر الله للمؤمنين؟ فكاد صبرهم ينفد من هول ما لاقوا، فأجيبوا:

ألا إن نصر الله قريب الحصول، مؤكد الوقوع، ولكن في الوقت الذي يريده الله، وبحسب مقتضى الحكمة الإلهية التي يعلم بها الله، وقُدِّم الرسول في الرتبة لمكانته، ثم قُدِّم قول المؤمنين؛ لأنه المتقدم في الزمان والحدوث قبل قول الرسول ﷺ ذلك القول.

ترشيد الإنفاق

المال حصيلة الجهد الإنساني، وأمانة عند صاحبه، فلا يجنيه إلا من كسب حلال مباح، ولا ينفقه إلا في موضع مشروع يفيد المالك والمجتمع. فإذا ما أنفق الإنسان ماله في طرق غير مشروعة وبذَّر ماله ذات اليمين وذات الشمال، خسر وندم، وأضاع ماله، وخان الأمانة، ولم يرع حق الله في ماله.

والعاقل الرشيد الذي ينفق ماله فيما يجب عقلاً وعرفاً وشرعاً، و يختار الأفضل، ويراعي الألزم والأوجب لمن يحتاج للنفقة، وهؤلاء العقلاء الراشدون يسألون عادة عن وجوه الإنفاق السليمة وعمن هو أحق الناس بالنفقة، وقد سأل جماعة من المؤمنين النَّبي ﷺ عن مقدار ما ينفقون وعن بيان الجهة التي ينفقون فيها، نفقة التطوع، لا الزكاة الواجبة المفروضة. وكان أحد السائلين عمرو بنَ الجموح الأنصاري، وكان شيخاً كبيراً ذا مال كثير، فقال: يا رسول الله، بماذا يُتصدق، وعلى من يُنفَق؟ فنزلت الآية الكريمة في سورة البقرة:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٥].

ومعنى الآية: أيُّ مقدار تنفقونه قليلاً كان أو كثيراً من المال، فهو لكم وثوابه خاص بكم، ومن أفضل ما تنفقون العطاء للوالدين والأولاد والزوجات؛ لأنهم

القرابة القريبة، ثم للأقارب الأباعد، الأقرب فالأقرب، ثم لليتامى والمساكين وابن السّبيل، يعطون من هذا المال، وما تنفقو من خير مطلقاً، فإن الله سيجازي به؛ لأنه عليم بكل شيء.

إن النفقة على الوالد والولد والزوجة وغيرهم له ثواب عند الله في الدار الآخرة، وإن كان واجباً شرعاً وعرفاً على الإنسان، وهذا من مزايا الإسلام وفضائله: أن المرء يقوم بواجبه، ومع ذلك يثاب عليه ويعدُّ ذلك في سجل حسناته.

وقد بيَّن النَّبي ﷺ أولويات النفقة وترتيب المستحقين لها فقال فيما أخرجه مسلم: «دينارٌ أنفقتَه في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقتَ به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقتَه على أهلك».

وذكر الرّواة الثِّقات سبباً آخر للآية السابقة، قال عطاء: نزلت الآية في رجل أتى النَّبي ﷺ فقال: إن لي ديناراً، فقال: أنفقه على نفسك، فقال: إن لي دينارَيْن، فقال: أنفقهما على أهلك، فقال: إن لي ثلاثة، فقال: أنفقها على خادمك، فقال: إن لي أربعة، فقال: أنفقها على والديك، فقال: إن لي خمسة، فقال: أنفقها على قرابتك، فقال: إن لي ستة، فقال: أنفقها في سبيل الله، وهو أخسُّها، أي أقلُّها أجراً. يدلُّ هذا الحديث على أن الإنفاق على الأسرة أفضل وجوه الإنفاق.

وتكون نفقة التطوع بعد النفقات الواجبة مما هو زائد عن الحاجة وهي سنة، لقوله تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٩].

تشريع القتال وثوابه

أبان القرآن الكريم أن القتال أو الجهاد في سبيل الله، وإن كان مكروهاً للنفس البشرية، ففيه خير كبير للأمة، لأنه إعلاء لكلمة الله والإسلام، ودفع للظلم، ورفع لمنارة الحق والعدل، وسبيل لطرد المعتدين واسترداد الحقوق المغتصبة، وعسى أن يحب الناس شيئاً، والواقع أنه شر مستطير عليهم، وعسى أن يكره الناس شيئاً والواقع أن فيه خيراً عظيماً لهم، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ(١) لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٦].

ثم بيّن القرآن الكريم أن انتهاك حرمة الشهر الحرام أخف من فتنة الناس عن دينهم، والأشهر الحرم: ذو القَعْدة وذوالحِجّة والمحرم ورجب. وصدُّ الناس عن سبيل الله وعن الإسلام، وقتلُ المسلمين وإخراجهُم من ديارهم وأموالهم، ومنعُهم عن المسجد الحرام وعن أداء الحج والعمرة وإخراجُ أهله منه، وهم النبي ﷺ وأصحابه، كل واحدة من هذه الجرائم التي ارتكبها المشركون، أكبر إثماً، وأعظمُ جرماً عند الله والناس، من القتال في الشهر الحرام. قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ(٢) أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٧].

أوضح الزهري سبب نزول هذه الآية فقال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن

---

(١) مكروه لكم في الطبع . (٢) الشرك والكفر بالله.

جحش، ومعه نفر من المهاجرين، فقَتَل عبد الله بن واقد الليثي عمروَ بن الحضرمي في آخر يوم من رجب، وأسروا رجلين، واستاقوا العير (الإبل) فوقف على ذلك النبي ﷺ وقال: «لم آمركم بالقتال في الشهر الحرام». وقالت قريش: استحل محمد الشهر الحرام، فنزلت هذه الآية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ..﴾ الآية، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ أي قد كانوا يقتلونكم وأنتم في حَرَم الله بعد إيمانكم، وهذا أكبر عند الله من أن تقتلوهم في الشهر الحرام مع كفرهم بالله.

ثم أوضح القرآن المجيد ثواب المجاهدين في سبيل الله كعبد الله بن جحش وصحبه في القصة السابقة، فهؤلاء الذين آمنوا بالله ورسله، وفارقوا الأهل والأوطان لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه ونصرة الحق والعدل، ولحقوا بالنبي ﷺ، وجاهدوا في الله حق جهاده، هؤلاء لهم الدرجات العلا عند الله، والله يكافئهم ويجازيهم أحسن الجزاء، ويغفر لهم خطاياهم ويرحمهم بفضله وإحسانه، وهو الغفور الرحيم، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٨].

هنيئاً لهؤلاء المجاهدين المقاتلين أعداءهم لدفع العدوان، واسترداد الحق السليب.

حكم الخمر وبيان مضارها

التدرج في التشريع في صدر الإسلام من خصائص التشريع الإسلامي أخذاً بالمبدأ التربوي الذي يعالج الأمر شيئاً فشيئاً، لإعداد النفس على تقبل الأحكام، والانتقال تدريجاً من الأيسر والأسهل إلى الوسط ثم إلى الأشد الأكمل. وهكذا كان تحريم

الخمر، فإنها حرمت بالمدينة وكانت تصنع من العسل والزبيب، والتمر والشعير والقمح، وأنزل الله في الخمر آياتٍ أربعاً تدرجت بالعرب لتنقلهم مما ألفوه إلى حكم الشرع النهائي. وأول آية بدأت بالتعريض بالخمر قول الله تعالى:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: ١٦/٦٧].

وُصف تناول العنب والتمر على سبيل التفكه الطازج بالْحُسْن ولم يوصف السَّكر بذلك مما يدل على التفرقة بينهما. ثم جاء عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر، فإنهما مَذْهَبة للعقل، مَسْلبَة للمال، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ(١) قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ(٢) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢/٢١٩].

ويلاحظ أن الإثم في الخمر: ذهاب العقل والسبابُ والافتراءُ وإيذاءُ الآخرين، والتعدي عليهم في أعراضهم وكراماتهم، والمقصود بالمنافع: كسب الأثمان والنفع التجاري، ولما أخبر الله عز وجلّ أن الإثم أكبر من النفع أو اللذة، وأعود بالضرر في الآخرة، كان ذلك تقدمة أو تمهيداً للتحريم.

ثم منع الله المصلين من أداء الصلاة حال السكر، لأنهم لا يعقلون ما يقولون، فقال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤/٤٣].

---

(١) القمار . (٢) ما فضل عن قدر الحاجة .

ثم أنزل الله تعالى آية تحريم الخمر تحريماً قاطعاً، مع بيان أسباب التحريم فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٩٠-٩١].

والأمر باجتناب الخمر والميسر يدل على التحريم وزيادة: وهو التنفير من الاقتراب منها، والبعد عنها بعداً شديداً، لأن تناول الخمر مضيعة للمال، مذهبة للعقل، تدمير للصحة، فهي كما أثبت الأطباء تلحق أضراراً شديدة بجميع أجزاء جهاز الهضم، فضلاً عن أضرارها الأدبية حيث يصير السكران موضع استهزاء وسخرية واحتقار لما يصدر عنه عادة من كلام الهذيان، بسبب ضياع عقله واهتزاز أفكاره، وفقد توازن شخصيته، لذا حرّم الله الخمر والمخدرات كالأفيون والحشيش والهراوين، لما فيها من الأضرار، وقال النبي ﷺ: «مدمن الخمر كعابد الوثن» «الخمر أم الخبائث» والكبائر، و «كل مسكر خمر وكل خمر حرام» و «ما أسكر كثيره فقليله حرام» و «لعن الله الخمر ولعن معها عشرة: بائعها ومبتاعها، والمشتراة له، وعاصرها، والمعصورة له، وساقيها، وشاربها، وحاملها والمحمولة إليه، وآكل ثمنها».

فهذه آثام كثيرة، وكل من ساعد في شرب الخمر حكمه وإثمه كحكم وإثم الشارب تماماً، وهكذا يتبين ما للخمر من أضرار شخصية واجتماعية ومالية، ففيها ضرر للفرد والجماعة وفي شرائها تبديد للثروة والمال من غير أي نفع.

تحريم الميسر (القمار) وأضراره

حرم الله الميسر (القمار) كما حرم الخمر، وقرن في آيات التحريم بين الخمر والميسر، لما فيهما من تضييع الأموال وإتلاف الثروات، فقال الله تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٩].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٠].

وكان تعامل العرب في الجاهلية بالميسر على النحو التالي، كانت سهام الميسر عندهم عشرة، سبعة لها حظوظ، لكل منهانصيب معلوم، وثلاثة لا نصيب لها، وكان لكل واحد منها اسم، أكثرها حظاً الْمُعَلّى، وأقلها حظاً الفذّ، فإذا جاء الشتاء واشتد البرد على الفقراء، اشتروا الجزور (الجمل) وضمن الأغنياء (الأيسار) الثمن، ثم تنحر الجزور، ثم يجعلون السهام (الأعواد) العشرة في كيس أو ربابة، ثم يحركها أمين المقامرين مرتين أو ثلاثاً، فيخرج منها الأقداح (الأعواد) فمن خرج له قِدْح من ذوات الأنصباء أخذ نصيبه، ومن خرج له قِدْح مما لا نصيب له، لم يأخذ شيئاً، وغرم ثمن الجزور كله، وكانوا يدفعون الأنصباء الرابحة إلى الفقراء، ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك، ويذمون من لم يشترك معهم، وذلك هو الميسر عند العرب، ويشبه ما يسمى باليانصيب الخيري اليوم.

حرم الله الميسر تحريماً قاطعاً كتحريم الخمر، لأن الميسر إثم كبير، يؤدي إلى اليسار والغنى الطارئ من غير تعب ولا جهد، ويلحق الضرر بالخاسر، فهو غرم مجهد ثقيل، ويثير العداوة بلا سبب، ويزرع الحقد والكراهية من غير مسوغ، ويضيع الوقت من غير فائدة، ويصرف العقل عن جادة التفكير النافع، ومع ذلك فهو مدعاة للكسل والخمول، واصطياد الثروة والمال من غير عناء ولا مشقة، فلا يكون فيه بركة

ولا خير، وإثمه أكبر من نفعه، وهو أكل لأموال الناس بالباطل بغير حق، فيكون الميسر ولعب الموائد والسباق -على شرط من الطرفين- حراماً.

والميسر أحد أنواع الاستقسام بالأزلام الذي حرمه الله تعالى بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٥/٣].

أي معرفة ما قسم للشخص بواسطة الأزلام (أعواد لا نصل لها). وسميت سهام قبل أن تنصل وتراش أزلاماً، لأنها زُلمت أي سويت فلم يكن نتوء بها أو انخفاض.

وكانت الأزلام ثلاثة أنواع في الجاهلية:

نوع هو قداح الميسر وعددها عشرة، سبعة منها فيها حظوظ، وثلاثة غُفْل لا حظوظ لها كما بينت.

ونوع كان مع الشخص وعدده ثلاثة، مكتوب على واحد: افعل أو أمرني ربي، والثاني لا تفعل أو نهاني ربي، والثالث غُفْل، يضعها في كيس، ثم يسحب واحداً منها، فيعمل بما جاء فيه من الإذن بالفعل أو المنع من الفعل، مثل عادة التطير.

ونوع ثالث-سبعة قِداح (سهام) كانت عند زعيم الأصنام (هبل) في جوف الكعبة، مكتوب عليها ما يدرو بين الناس من النوازل أو الحوادث، فإذا أراد أحدهم أن يقدم على عمل أو سفر، ذهب إلى الكعبة، فاستشار الأزلام الموجودة عند هبل زعيم الآلهة المنصوب على بئر، فيتحاكم الجاهليون إلى هذه الأزلام، فما خرج منها، رجعوا إليه.

وعادة اليوم لمعرفة الحظ من الاستقسام بورق الشَّدّة، والودَع والفنجان والمسبحة والمصحف، كل ذلك منكر شرعاً، لا يعرفه الشرع ولا القرآن ولا يقره العقل وقد حلّ محلّ ذلك في الإسلام: الاستخارة.

الولاية على مال اليتيم

راعى التشريع الإسلامي ظروف الأيتام وضعفهم، وانعدام خبرتهم بسبب صغرهم في إدارة وتنمية وحفظ أموالهم، فشرع أحكاماً خاصة بهم، منها أنه جعل الولاية على أموالهم لأقاربهم الكبار الراشدين كالأب والجد، حفاظاً على ثرواتهم، ورفع الشرع الحرج عن الأولياء في مخالطة الأيتام.

كان العرب يخلطون أموالهم بأموال اليتامى، قال سعيد بن جبير لما نزلت آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٠] . عزل الأولياء أموالهم، أي تحاشى الصحابة عن اختلاط أموالهم بأموال اليتامى، وجعلوها وحدها قائمة بذاتها، وكان في ذلك ضرر لمال اليتيم في بعض الأحوال، فنزلت آية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ[1] ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٠].

لما سأل الصحابة رسول الله ﷺ: أيخالطون اليتامى أم يجنّبون أموالهم؟ فقال لهم: إن كان في التجنيب إصلاح لأموال اليتامى فذلك خير، وإن كان في مخالطتهم إصلاح لهم ومنفعة، فذلك خير؛ لأنهم إخوانكم في الدين والنسب، فعليكم أن

(١) لكلفكم ما يشق عليكم .

تراعوا أموالهم بالإحسان، والله سبحانه يعلم المحسن والمسيء وسيجازي كلاً على عمله. ولو شاء الله أن يضيق عليكم ويشدد بأن يوجب التجنيب أو المخالطة، لفعل ذلك، ولكنه ينظر لمصلحة اليتيم، ولا يشدد عليكم، وهو سبحانه العزيز القوي الذي لا يغالَب، الحكيم في أحكامه وتصرفاته، لا يشرع إلا ما فيه الحكمة والخير، ويضع الأمور في مواضعها الصحيحة.

وكان هذا الحكم تيسيراً على الأولياء، فخلطوا طعامهم بطعام الأيتام، وشرابهم بشرابهم، والمهم في ذلك مراعاة العدل ومراقبة الله.

فليس هذا الخلط لأموال اليتامى مع أموال الأولياء إلا لفترة زمنية محددة هي حال الصغر، فإذا بلغ الأيتام، وجب إيتاء أموالهم إليهم. وحذر القرآن من أخذ الجيد من مال اليتيم وجعل الرديء من مال الولي مكانه ولا يجوز ضم أموال الأيتام نهائياً لأموال الأولياء، فمن فعل ذلك، فقد ارتكب ذنباً (حوباً) عظيماً، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ٢]. أي إثماً عظيماً.

ولا بد قبل دفع الأموال إلى اليتامى من تدريبهم على حسن التصرف بالمال واختبارهم قبل البلوغ في دينهم وتصرفهم في أموالهم، فإن بلغوا واستكملوا سن الخامسة عشرة، ووجد الأولياء في الأيتام رشداً أي صلاحاً في دينهم ومالهم، دفعت إليهم أموالهم، ولا يحل للولي أن يبادر إلى إنفاق مال اليتيم قبل بلوغه سن الرشد، ويجوز للولي الفقير أن يأكل بالمعروف بقدر أجرة عمله من مال اليتيم، وعلى الغني أن يتعفف عن مال اليتيم ويمتنع عن أكله، وإذا سلمت الأموال إلى الأيتام يندب الإشهاد على ذلك لئلا يقع اختلاف، قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ

غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ [النساء: ٤/ ٦]. أي كفى بالله حافظاً لأعمال خلقه ومحاسبهم.

الزواج بالمشركات الوثنيات وأحكام الحيض

حارب الإسلام كل قواعد الشرك والوثنية، وقطع أي صلة بين المسلمين والمشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ويعبدون الأصنام، والأوثان، أو يعتقدون بأديان غير سماوية ذات طقوس وهياكل معينة من وضع البشر.

لذا نهى الله سبحانه وتعالى المسلم أن يتزوج المشركة التي لا تدين بدين سماوي، ولا كتاب لها، حتى تؤمن بالله ورسوله، ولأَمَة مؤمنة رقيقة خير من مشركة أعجبتك بمالها وجمالها وحسبها ونسبها، ولو لم تعجبك فالنهي عنها من باب أولى.

ولا يجوز تزويج المؤمنات من المشركين حتى يؤمنوا أو يتركوا ما هم عليه من الشرك، ولعبد مؤمن خير من مشرك مع ماله من العز والجاه، أعجبكم بفضله أو لم يعجب.

والسر في التحريم، أن أولئك المشركين يدعون إلى الكفر وكل ما هو شر يوصل إلى النار، إذ ليس لهم دين يردعهم، ولا كتاب يهديهم، وتختلف الطبائع بين المؤمن والمشرك، فقلب المؤمن فيه نور، وقلب المشرك فيه ظلام وضلال.

والله يدعو بوساطة عباده المؤمنين إلى ما يوصل إلى الجنة ونعيمها، وإلى المغفرة بإذنه وإرادته، ويبين الله تعالى آياته القرآنية وأحكامه النافعة للمسلمين في دنياهم وأخراهم، ليتذكروا ويتعظوا، فيُقدمون على الخير، ويتركون الشر، ويأتمرون بأمر الله، ويجتنبون وساوس الشيطان.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢١].

قال السُّدِّي عن ابن عباس: نزلت هذه الآية بالنسبة للأمة المؤمنة في عبد الله بن رواحة، وكانت له أَمَة سوداء، وإنه غضب عليها فلطمها، ثم إنه فزع، فأتى النبي ﷺ، فأخبره خبرها، فقال له النبي ﷺ: ما هي يا عبد الله؟ فقال: يا رسول الله، هي تصوم وتصلي، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله، فقال: يا عبد الله، هذه مؤمنة، قال عبد الله: فوالذي بعثك بالحق لأعتقنَّها ولأتزوجنها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، فقالوا: نكح أَمَة. وكانوا يريدون أن يَنْكحوا إلى المشركين ويُنكحوهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ الآية.

وقال ابن عباس أيضاً بالنسبة للمشركة: أرسل النبي ﷺ مرثد بن أبي مرثد الغَنَوي إلى مكة في مهمة، ليخرج ناساً من المسلمين بها أسراء، فلما قدمها سمعت به امرأة يقال لها (عَنَاق) وكانت خليلة له في الجاهلية، فلما أسلم أعرض عنها، فأتته فقالت: ويحك يا مرثد، ألا نخلو؟ فقال لها: إن الإسلام قد حال بيني وبينك وحرمه علينا، ولكن إن شئتِ تزوجتك على أن أستأذن رسول الله ﷺ، فأنزل الله في شأنها ينهاه عن ذلك: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ..﴾ الآية.

ثم ذكر الله تعالى أحكام الحيض والرد على الشذوذ الجنسي في الجاهلية، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ

حَرۡثٞ(١) لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ(٢) وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٢-٢٢٣].

يسألونك -أيها النبي- عن حكم الحيض ووقاع الحائض، فقل لهم: الجماع في الحيض أذى، أي قذر وضرر، فاجتنبوهن في زمن الحيض، والمراد ترك المجامعة، لا ترك المجالسة والاستمتاع بما دون الفرج عند الحنابلة، وما دون الإزار عند الجمهور، ولا تقربوهن بالجماع حتى يطهرن من الحيض بانقطاع الدم، فإذا اغتسلن بالماء حينئذٍ، فأتوهن في مكان إنجاب الذرية وهو القبل، إن الله يرضى عن التائبين ويثيبهم، ويرضى عن المتطهرين من الجنابة والحيض ونحوهما. قال أنس بن مالك فيما أخرجه مسلم والترمذي: كان اليهود إذا حاضت المرأة منهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل الأصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت الآية، فقال: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح».

زوجاتكم موضع الإنجاب وإلقاء النُّطف، فأتوهن على أية كيفية تريدون قائمة أو قاعدة، أو جالسة نائمة، أو مضطجعة، إذا كان ذلك في موضع النسل، وقدموا عملاً صالحاً تجدونه لأنفسكم، عند الله، وخافوا الله من الوقوع بالمحرَّمات، واعلموا أنكم ملاقو الله يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، وبشر المؤمنين بالجنة، قال جابر فيما أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي: كانت اليهود تقول إذا جامعها في القبل من ورائها: إن الولد يكون أحول، فنزلت الآية ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ..﴾ الآية.

(١) محل إنجاب الذرية. (٢) كيف كان من الهيئات ولكن في القبل، لا في الدبر.

أحكام اليمين بالله تعالى وحكم الإيلاء

تعظيم الله تعالى واجب، والقسم بالله سبحانه تقديس وتعظيم، فعلى المسلم أن يحترم مقتضى يمينه، ويبرّ بما حلف، ولا ينقض ما أكّد به إرادته وعزمه بالحنث باليمين ومخالفة ما أقسم عليه. ولكن قد يتسرع الإنسان فيحلف أنه لا يفعل كذا من زيارة فلان أو الكلام معه، أو التصدق بشيء من ماله أو الصلح بين الناس، أو يفعل شيئاً هو شر عليه، وضرر في دينه وأخلاقه، والله أرشدنا إلى ما هو خير لنا، ونهانا أن نجعل اسمه الكريم مانعاً من الخير، أو داعياً إلى الشر، فمن حلف ألا يفعل خيراً، أو يفعل شراً، فليحنث في يمينه، وليكفّر عنها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ(١) أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٤]. وورد عن النبي ﷺ ما يوضح معنى هذه الآية، فقال فيما رواه أحمد ومسلم والترمذي: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليكفّر عن يمينه». وجاءت آية أخرى تؤكد ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ(٢) أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور: ٢٤/ ٢٢].

وفسر بعضهم آية ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ بالمنع من كثرة الحلف، تقديساً لاسم الله، ومنعاً من ابتذال اليمين والتهاون بترداد اسم الجلالة على الألسن؛ لأن الحلاف (الكثير الحلف) مجترئ على الله، غير معظم له، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ١٠].

---

(١) أي مانعاً معترضاً من البر والتقوى والإصلاح بين الناس إذا حلفتم. (٢) أي لا يحلفوا أن لا يؤتوا ذوي القرابة والمساكين شيئاً من أموالهم.

وليس كل يمين يجب الوفاء بها، وإنما الوفاء واجب في اليمين المنعقدة: وهي أن يحلف المسلم على أمر في المستقبل ممكن حصوله، فعلاً أو تركاً، أما اليمين الغموس وهي اليمين الكاذبة قصداً، والتي تغمس صاحبها في النار، فهذه تستوجب العقاب في الآخرة في نار جهنم، ولا كفارة لها في رأي أغلب العلماء، لأن حالفها يقتطع بها مال امرئ مسلم، هو فيها كاذب.

وأما اليمين اللغو: وهي التي تجري على اللسان عفواً دون قصد اليمين، ولا تخرج عمداً من القلب، مثل لا والله وبلى والله، فهذه لا حنث فيها ولا كفارة، كما لا كفارة على من حلف على شيء يظنه حصل، فبان خلافه، فلا شيء عليه. قال الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ(١) وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ(٢) وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٥]. أي أن المؤاخذة في الأيمان هي بعقوبة الآخرة في اليمين الغموس الكاذبة، وبعقوبة الدنيا في إلزام الكفارة في رأي بعض الفقهاء.

وسبب نزول آية ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ هو أن عبد الله بن رواحة حلف على قطيعة خَتَنة (صهره زوج بنته) بأن لا يدخل عليه أبداً، ولا يكلمه، ولا يصلح بينه وبين امرأته، ويقول: قد حلفت بالله أن لا أفعل، ولا يحل إلا أن أبرّ في يميني، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٤].

ثم ذكر الله تعالى حكم الإيلاء بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ(٣) مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ(٤) أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٦-٢٢٧].

للذين يحلفون ألا يطؤوا نساءهم انتظار أربعة أشهر، فإن رجعوا عن يمين الإيلاء

---

(١) فسره بعضهم كالحنفية: بأن يحلف على الشيء ظاناً صدقه أو حصوله، وهو بخلافه. (٢) قصدت وتعمدت حلفه. (٣) يحلفون على ترك الوقاع لزوجاتهم مدة أربعة أشهر فأكثر. (٤) انتظار.

المذكورة-فإن رجعوا عن يمينهم في المدة عما حلفوا عليه، والفيء: الجماع لمن لا عذر له-فإن الله كثير المغفرة للزوج عما حلف بقصد الإضرار، رحيم بالتائبين. أخرج مسلم: أن النبي ﷺ آلى وطلق، وسبب إيلائه: سؤال نسائه إياه من النفقة ما ليس عنده. وقال ابن عباس: كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، فوقّت الله أربعة أشهر.

وإن صمموا على الطلاق، فالله سميع لأقوالهم، عليم بمقاصدهم.

حقوق النساء وواجباتُهن الزوجية

نظَّم الإسلام الحنيف العلاقة بين الزوجين بما يكفل دوام العشرة الزوجية ويحقق سعادة الطرفين، ويرعى الأسرة في بدايتها وأثناء وجودها وبعد انتهاء الرابطة الزوجية.

ومن أهم حقوق الزوج: الحفاظ على النسب، وحقه في نسبة الولد إليه، فإذا انتهت الزوجية، وجب على المرأة شرعاً ما يسمى بالعدة، وعدة الطلاق ثلاث حيضات، وعدة الحامل بوضع الحمل، وعدة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام، وذلك تقديراً لنعمة الزواج، وإظهاراً للأسى والحزن على الفراق، وللتعرف على براءة الرحم من الولد، حتى لا تختلط الأنساب.

ولا يحل للمرأة أن تكتم شيئاً مما في رحمها من حمل أو حيض إن كانت مؤمنة بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً، وفي ذلك إبطال لعادة النساء في الجاهلية، قال قتادة: كانت عادتهن في الجاهلية أن يكتمن الحمل ليُلحقن الولد بالزوج الجديد، ففي ذلك نزلت الآية الكريمة: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ[1] وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ

(١) أي حيضات أو أطهار .

مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ(١) أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ(٢) ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٨]. أي إن أزواجهن في الطلاق الرجعي أحق برد الزوجات وإرجاعهن إلى بيت الزوجية، لأن الشرع الحكيم حريص على بقاء رباط الزوجية، وليس أبغض عند الله من الطلاق، وإن يكن حقاً حلالاً للزوج في حال الضرورة أو الحاجة، وعلى الزوجة أن تستجيب لطلب الزوج بشرط أن يكون المقصود بالرجعة الإصلاح والخير للزوجين، أما إذا كان المراد الإضرار والانتقام فليس من الدين في شيء أن يعطل الزوج مطلقته، ويلحق بها الضرر.

وتتمة الآية السابقة هي في بيان الحقوق والواجبات المشتركة بين الزوجين، فقال الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٨]. فللنساء حقوق وعليهن واجبات، مثل الرجال، لهم حقوق وعليهم واجبات، لأن لكل مخلوق شخصيته وحريته وكرامته، وتفكيره ورغباته، وواجبات المرأة تتفق مع طبيعتها، فعليها شؤون البيت، وواجبات الرجل الكفاح والعمل والإنفاق على الأسرة، وهذا حكم النبي ﷺ بين علي وفاطمة رضي الله عنهما، إذ جعل فاطمة في البيت تديره وترعاه، وعلياً خارج البيت، عليه الجهاد والعمل والبحث عن الرزق.

وليس في هذا إهمال للمرأة أو إنقاص من أهليتها أو الطعن في كفايتها وعقلها وعلمها، وإنما قسمة الواجبات كما فعل النبي ﷺ يتفق مع طبيعة وفطرة وقدرة كل من الرجل والمرأة، بل إن الإسلام في هذا أراد صون المرأة والحفاظ على كرامتها وعدم تعريضها للأذى والسوء، والدرجة الزائدة للرجل هي درجة القوامة،

---

(١) أزواجهن. (٢) منزلة وفضيلة بقوتهم وإنفاقهم.

والقوامة ليست استبداداً أو تعسفاً أو تسلطاً وترفعاً، وإنما هي تكليف بالإدارة والرعاية والولاية والنفقة. وهذا التكليف عبء على الرجال أكثر من النساء، قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٤/ ٣٤].

أحكام الطلاق

- ١ -

أوجب الإسلام على الرجال المعاشرة الطيبة للنساء دون إساءة ولا تنفير، كما أوجب التزام حدود الله وأحكامه في أثناء الحياة الزوجية، أو عند الإقدام على أبغض الحلال إلى الله وهو الطلاق، فلا يجوز بحال من الأحوال التلاعب بعواطف المرأة أو بالطلاق؛ لأن الطلاق يقع على المرأة سواء في حال الجد أو في حال الهزل أو في حال المزاح، ولا يجوز أيضاً أن يستخدم حق الرجعة بعد الطلاق بقصد الإضرار والإيذاء، لما كان العرب يفعلون في الجاهلية.

كان الرجل إذا طلّق امرأته، ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها، كان ذلك له، وإن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأة له، فطلّقها ثم أمهلها، حتى إذا شارفت انقضاء عدتها ارتجعها، ثم طلقها، وقال: والله لا آويك إلي ولا تحلين أبداً، أي أنه يتلاعب بالطلاق والرجعة، فلا يجعل المرأة مستقرة على حال واحدة، فلا هي زوجة مستمرة في زواجها، ولا هي مطلقة تستطيع أن تتزوج بزوج آخر بعد انقضاء عدتها، فأنزل الله عز وجل مبيناً العدد المسموح به في الطلاق والرجعة: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ(١) وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن

(١) طلاق مع أداء الحقوق وترك الإضرار .

يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ(١) فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٩-٢٣٠].

ألا فليتق الله الرجالُ الذين تتكرر منهم ألفاظ الطلاق في أوقات متعددة، لتهديد المرأة، وحملِها على فعل شيء أو ترك شيء، فإن العلاقة بينه وبين امرأته تعتمد على مبدأ أساسي وهو الحل والحرمة، فإذا كانت العلاقة حراماً، حَرُم كل شيء، وكان الأولاد أولاد زنا، إن تشريع الطلاق إنما هو للضرورة أو الحاجة الشديدة إذا استعصت الحلول الطيبة، ووقع النشوز والنفور أو الانحراف، ولم يعد هناك مجال للصلح والاستقامة، وأصبحت الحياة الزوجية جحيماً لا يطاق، وحينئذ يجوز الإقدام بعد التروي والتعقل على طلاق واحد، له حق الرجعة بعده، وله طلاق آخر يراجع امرأته في العدة بعده، فإن وقع الطلاق الثلاث، بانت المرأة بينونة كبرى، لا تحل له إذا إلا بعد زوجية ثانية جديدة دائمة، ثم إذا تصدعت زوجيته الجديدة بشكل طبيعي، فيمكن حينئذ للزوج الأول تجديد عقد الزواج على هذه المرأة بعد انقضاء عدتها، أما التحليل المؤقت فحرام وهو زنا وتلاعب بشرف الرابطة الزوجية، وليذكر الرجل دائماً قول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

---

(١) أحكامه .

آداب الطلاق

- ٢ -

لا يبيح الإسلام إلحاق الضرر والأذى بأحد من الناس، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، جاراً أم غير جار، قريباً أم بعيداً، زوجة أم زوجاً؛ لأن الإضرار اعتداء وظلم وبغي، والظلم مرتعه وخيم، والعدوان أو الاعتداء شر مستطير، لا يورّث خيراً، بل يكون سبباً للقضاء على الظالم نفسه.

لهذا أمر الله تعالى في العلاقات الزوجية الإمساكَ بالمعروف أو التسريح بالإحسان، والإمساكُ بالمعروف: هو ارتجاع الزوجة بعد الطلقة الأولى أو الثانية إلى حسن المعاملة والعشرة، والتزام حقوق الزوجية، وإزالة أسباب الكراهية أو الخصومة، والتسريح بإحسان: ترك المرأة المطلقة تُتم عدتها بعد الطلقة الثانية، وتكون أملك لنفسها، فلا يراجعها زوجها بقصد الإيذاء وجعلها معلقة، لا زوجة ولا مطلقة، ومن التسريح بإحسان: تطليق المرأة طلاقاً ثالثاً، فيسرحها الرجل بذلك، وقد أكد القرآن الكريم على هذه الأحكام، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا[١] لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ[٢] وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣١].

هذا نهي للرجل أن يطوّل العدة على المرأة، مضارّة منه لها، بأن يرتجعها قرب انقضاء عدتها، ثم يطلقها بعد ذلك، فهذا إضرار واضح بإطالة العدة، وجعل المرأة

---

(١) مضارة لهن . (٢) استهزاء بالتهاون في الحفاظ عليها .

مضطربة قلقة، لا في حال زواج ولا في حال طلاق، فلا يحل للرجل أن يمسك المرأة ويراجعها ضراراً.

ولا يجوز أيضاً لولي المرأة المطلقة أن يمنعها من الرجوع إلى زوجها السابق، إذا انتهت عدتها، أو يمنعها من الزواج بزوج آخر، إذا حصل التراضي بينهما والتوافق، قال الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ[١] فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ[٢] إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ[٣] لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٢].

نزلت هذه الآية في معقل بن يسار وأخته، أو في جابر بن عبد الله، وذلك أن رجلاً طلق أخته، أو بنت عمه، وتركها حتى تمت عدتها، ثم أراد ارتجاعها، فغار جابر، وقال: تركْتَها وأنت أملك بها، لا زوجتكها أبداً، فنزلت الآية. وقال معقل: كنت زوَّجت أختاً لي من رجل، فطلقها، حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوَّجتك وأفرشتك وأكرمتك، فطلَّقتَها، ثم جئتَ تخطبها، لا والله، لا تعود إليك أبداً. قال معقل عن صهره: وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ..﴾ فقلت أي معقل: الآن أفعل يا رسول الله، فزوجتها إياه. فإذا كانت الكفاءة متوافرة بين الزوجين ووجد مهر المثل، فلا يصح لولي المرأة منعُها من الزواج، ورب فقير كريم الخلق شريف النسب خير من غني سيء الخلق كثير المال.

---

(١) أي انتهت عدتهن. (٢) أي لا تمنعوهن من الزواج بزوج آخر أو تضيقوا عليهن. (٣) أنفع وأنمى لكم.

أحكام الرضاع

ليس هناك شيء أنفعُ مادياً ومعنوياً للطفل من الرضاع من أمه، فبلبنها يتكون جسده وتنتقل إليه طباعها، ويتربى على أخلاقها ومزاجها، فإذا كانت الأم في عصمة الأب، فعليها الإرضاع، عملاً بالأعراف السائدة، وأما إذا كانت مطلَّقة، فيكون الرضاع مندوباً لها على سبيل الاستحباب، إلا إذا امتنع الطفل عن الرضاع من غيرها، أو لم يجد الوالد من يرضع لفقر أو لغيره من الأسباب، فيكون الرضاع واجباً عليها.

ويجب على الوالد أجرة الإرضاع لتلك المرأة المطلقة، وتقدير الأجرة بحسب ظروف كل من الوالد والوالدة المرضعة، يساراً وإعساراً غنى أو فقراً.

ويحرم على الوالد إضرار الوالدة بسبب ولدها، بأن تُمنع من الرزق والكسوة، أو يؤخذ منها ولدها قهراً، أو تكرَه على إرضاع، ولا يضارّ الوالد بأن يطلب منه ما ليس في طاقته من رزق أو كسوة، أو تستغل الأم عاطفة الأبوة، فتفرط في شأن الولد وغير ذلك من ألوان الإيذاء والمضايقات، والمراد ألا يحصل ضرر لواحد من الوالدين بسبب الولد.

وإذا مات الوالد وجب على الوارث النفقة والكسوة، فإذا لم يكن للوالد مال، تؤخذ النفقة ممن يرث الطفل لو مات.

ومدة الرضاع الكاملة حولان (سنتان) فإن أراد الوالد والمرضعة فطاماً للطفل دون الحولين برضاهما وتشاورهما في مصلحة الطفل، فلا إثم عليهما في ذلك، حيث اقتضت المصلحة العامة هذا.

وإذا أراد الوالدن استرضاع الطفل من مرضعة أجنبية (غير قريبة) بسبب حمل أو مرض، أو عدم إنفاق، فلا جناح (ولا إثم) عليهما بشرط إعطاء المرضعة أجرها بالمعروف، فإن ذلك أدعى للعناية والمحافظة على الولد.

ثم أحاط الله تعالى أحكام الرضاع بالأمر بالتقوى ورقابة الله سبحانه في السر والعلن، لأن الله بصير بكل عمل، خبير بأي تدبير، ومجازٍ كل إنسان على عمله، وفي هذا وعيد وتحذير كاف لمنع الانحراف. قال الله تعالى مبيناً أحكام الرضاع المذكورة: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ(١) لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا(٢) عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٣].

هذه الأحكام المقررة شرعاً من أجل حماية الولد ورعايته والحفاظ على وجوده ومستقبله، وكل انحراف عن هذه الأحكام يستوجب الوقوع في الإثم والمؤاخذة الأخروية، لأن الإسلام رحمة عامة بجميع العالمين، صغارهم وكبارهم.

أحكام المرأة المتوفى عنها زوجها

تظل بعض آثار الزواج باقية بعد انتهائه أو انحلاله، صوناً لسمعة المرأة وحماية لشرفها وكرامتها، وتذكيراً بنعمة الزواج، وحفاظاً على حقوق الزوج من إلحاق نسب الولد الذي قد يولد به، ومنع خطبتها من رجل آخر خلال فترة زمنية محددة تسمى بالعدة، وعدم جواز إبرام عقد زواج جديد مع رجل آخر حتى تنتهي العدة.

وشرعت العدة في الإسلام الحنيف لمعرفة براءة الرحم، وللحداد على الزوج، وتقتضي العدة فقط الامتناع عن الزينة ولبس الثياب المصبوغة الجميلة، والطيبِ

(١) طاقتها . (٢) فطاماً للولد قبل الحولين .

ونحوه من شؤون التجميل ولبس الحلي، والتزام المبيت في المسكن الذي كانت فيه المرأة وقت وفاة الزوج وهو مسكن الزوج إلا لعذر يتطلب الانتقال إلى بيت آخر هو بيت الأهل مثلاً.

ومدة عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام، فإذا انتهت العدة فلا تمنع المرأة من الزينة، والخروج من البيت والتعرض لخطبة الرجال بالمعروف شرعاً، أي من غير مخالفة للشرع، والله عليم وخبير وبصير بما يعمل النساء والرجال، فالجميع مؤاخذون على الانحراف والتهتك والتبرج. قال الله تعالى مبيناً هذه الأحكام: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٤].

وأباح الشرع الشريف للرجل في العدة التعريض بخطبة المرأة المتوفى عنها زوجها أو المطلقة طلاقاً بائناً، كأن يمدح الرجل نفسه، ويذكر مآثره على جهة التعريض بالزواج، أو أن يقدم هدية إلى المعتدة، أو يصفها بأنها أهل وكفء للزواج وتكوين أسرة جديدة، ولكن دون مواعدة سراً، أو تواطؤ أو اتفاقات سرية غير معلنة، فهذا مما يضر، ولا يليق أدباً وذوقاً في حال من الأحوال، إلا القول المعروف غير المنكر شرعاً: وهو ما يعهد مثله بين الناس المهذبين من القول العف والإشارة الخفيفة، كما فعل النبي ﷺ مع أم سلمة بعد وفاة زوجها، حيث ذكر لها منزلته عند الله تعالى.

ولا يجوز بحال إبرام عقد زواج على أي معتدة في أثناء العدة، وإنما يجوز ذلك بعد انقضاء العدة، وعلى الناس مراقبة الله والحذر منه والخوف من عقابه، فإنه تعالى يعلم ما في النفوس من السر وأخفى، والله غفور رحيم لما يقع من الذنوب خطأً،

حليم لا يعجل بالعقوبة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم[١] بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ[٢] فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ[٣] وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٥]. والخلاصة: يحرم التصريح بخطبة المعتدة، ويحرم قطعاً العقد على المعتدة قبل انقضاء العدة، مراعاة لحقوق الزوجية، ولطهارة الرحم وبراءته ومنع اختلاط الأنساب.

متعة الطلاق ومهر غير المدخول بها

لم يهمل الإسلام جانباً من جوانب الحياة الزوجية، وإنما قرر لها أحكاماً شرعية معينة، سواء في حال التفاهم والتوادد أم في حال النفرة والتباعد، إبقاءً على المودة والمحبة بين الناس، وتخفيفاً لأثر الفرقة والخصام، فالحب ينبغي أن يكون معتدلاً متزناً لا طيش فيه، ولا تهور، والكراهية أو البغضاء يلزم أن تكون مؤقتة غير منفرة، وفيها تسامح وتساهل، لا تشديد ولا تنفير، ولا تقاطع ولا تدابر.

وفي هذا الجو من الاعتدال في الحب والفراق، قرر الشرع ما يسمى بمتعة الطلاق أي الهدية التي يقدمها الرجل لامرأته بعد طلاقها، وكانت تقدر بثلاثة دنانير أو بثلاثين درهماً، وهي عبارة عن كسوة كاملة: قميص داخلي-وخمار رأس وملحفة أي الثوب الظاهري، ويمتِّعُ كل إنسان على قدره و بحسب ثرائه أو يساره وتوسطه وإعساره، هذا بثوب، وهذا بنفقة، وقد متَّع الحسن بن علي رضي الله عنهما بعشرين

(١) كلام بالتعريض والإشارة لا التصريح. (٢) أسررتم وأخفيتم. (٣) المفروض من العدة.

ألفاً وزِقاقٍ من عسل، ومتَّع شريح القاضي التابعي بخمس مئة درهم، فهي إذن تتم باتفاق الزوجين على حسب قدرتهما، فإن اختلفا قدّرها القاضي، وتكون المتعة تطييباً لنفس المرأة المطلقة، وجبراً لخاطرها.

وتستحب المتعة لسائر المطلقات بالوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة، وهذا الحق على الذين يحسنون المعاملة، وينظرون إلى المستقبل لتحسين السمعة والعلاقة، قال الله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤١].

وتجب المتعة للمرأة التي لم يسم لها شيء من الصداق (المهر) فتحِل المتعة محلَّ ما كان ينبغي تحديده وتسميته للمرأة التي طلقت قبل الدخول، وقد أجمع العلماء على أن التي لم يفرض لها مهر ولم يُدخل بها، لا شيء لها غير المتعة، قال الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ(١) وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ(٢) قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٦].

نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار تزوج امرأة، ولم يسم لها صداقاً، ثم طلقها قبل أن يمسها، فقال له ﷺ: «متعها ولو بقلنسوتك». وسبب المتعة أن النبي ﷺ نهى عن التزوج لمعنى الذوق وتحقيق مآرب النفس، فقال فيما يرويه الطبراني عن أبي موسى: «تزوجوا ولا تطلقوا، فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات». وأمر النبي بالتزوج لطلب العفة والعصمة، والتماس ثواب الله، وقصد دوام الصحبة، فظن صلحاء المؤمنين أن الطلاق موقع في الإثم، فنزلت هذه الآية ترفع الحرج عن المطلِّق قبل الدخول.

أما المرأة التي سمي لها مهر في عقد الزواج، وقد طلقت قبل الدخول، فالواجب لها نصف المهر، تأخذه في كل حال، إلا إذا عفَتِ المرأة المطلقة عن ذلك وأسقطت

(١) قدر إمكانه. (٢) الفقير الحال.

حقها، أو عفا وليها الذي بيده عقدة النكاح عن هذا الواجب، والعفو أقرب للتقوى، وعلى الرجل والمرأة إحسان المعاملة، وهما مندوبان إلى المجاملة، فلا ينسى الناس الفضل بينهم بالإحسان والعفو، قال مجاهد: الفضل إتمام الزوج الصداق كله، أو تركُ المرأة النصف الذي لها، والله بصير بأعمال العباد، فيجازي كلاً على حسب نيته وعمله، قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٣٧].

الحفاظ على الصلاة
والإيصاء بالعدة والأمر بمتعة الطلاق

الصلاة عماد الدين، وأساس العمل الصالح، فهي أول عمل يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وهي الركن العملي الذي يتكرر في اليوم والليلة خمس مرات، لما لها من الأثر الفعال في تطهير النفس، وغسل الخطايا، فهي كالنهر أو البئر الذي يغتسل به الإنسان خمس مرات في اليوم والليلة، فلا يبقى عليه شيء من الدرن أو الوسخ.

والصلاة صلة بين العبد وربه، وسبب للفوز برضا الله تعالى، وطريق لتفريج الكروب والهموم، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة.

والصلاة تهذِّب النفس، وتُعلِّم الأخلاق، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وتقوِّم الإعوجاج والانحراف، وتذكّر بالواجبات، وتؤدي إلى راحة النفس والفكر، من الهموم والقلاقل والاضطرابات، وتزرع في النفس الطمأنينة، وتحقق السعادة، وتملأ القلب خشية لله تعالى.

لكل هذا تكررت أوامر الله في قرآنه بإقامة الصلاة، والأمر يدل على وجوب المأمور به، وجاء الأمر الإلهي الصريح بالمحافظة على إقامة الصلوات في أوقاتها، بجميع أركانها وشروطها، واتباع الآداب والسنن المشروعة فيها.

قال الله تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ(١) وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ(٢) ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا(٣) فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٣٨-٢٣٩].

والصلاة الوسطى في رأي جماهير الناس: هي صلاة العصر، لتوسطها بين صلاتين قبلها وصلاتين بعدها، ولانشغال الناس في آخر اليوم لإنهاء أعمالهم والفراغ من واجباتهم، قال رسول الله ﷺ: «الصلاة الوسطى: صلاة العصر». وتواتر الحديث عن النبي ﷺ أنه قال يوم وقعة الأحزاب (الخندق): «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً». والقنوت في الصلاة ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ معناه طول الركوع والسجود، والخشوع، وغض البصر، وخفض الجناح (التواضع) وإحضار الخشية والتفكير في الوقوف بين يدي الله تعالى.

ودلت الآية السابقة على خطورة الصلاة وأهميتها، فأبانت أنه لا عذر لأحد في ترك الصلاة، مقيماً أو مسافراً، صحيحاً أو مريضاً، حتى في حال الخوف على النفس أو المال أو العرض، فيستطيع المصلي أن يصلي على أي كيفية كانت، راكباً أو ماشياً، سائراً أو واقفاً على أي وضع كان، احتراماً لوقت الصلاة، فإذا زال الخوف فعلى المؤمنين أن يذكروا الله في الصلاة ويشكروه، كما علمهم ما لم يكونوا يعلمونه، من كيفية الصلاة في حال الأمن والخوف، ففي الحالة الغالبة من الأمن والطمأنينة أمر

---

(١) صلاة العصر. (٢) مطيعين لله خاشعين. (٣) صلوا مشاة.

الله بالقيام له في الصلاة، بحالة قنوت، وهو الوقار والسكينة، وهدوء الجوارح، وفي حالة الخوف الطارئة كما في ساحة المعركة، رخص الله لعباده أداء الصلاة مشاة على الأقدام، أو ركباناً على الخيل والإبل ونحوهما، بطريق الإيماء والإشارة بالرأس حسبما يتوجه الإنسان.

ثم ذكر الله حكم الوصية بالعدة وحكم متعة الطلاق، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا[1] إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ[2] بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٠-٢٤٢].

والذين تحضرهم الوفاة، ويتركون زوجات، فليوصوا وصية لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم بالنفقة والسكنى سنة كاملة، من غير إخراج من بيوت الأزواج، فإن خرجن باختيارهن قبل انتهاء السنة، فلا إثم على الولي وغيره فيما فعلن بالخروج وترك الحداد على أزواجهن، وباتباع المعروف في الشرع، مما يدل على تخيير النساء في سكنى العام (الحول) في العدة، والله قوي غالب في ملكه، حكيم في صنعه وتدبير مصالح خلقه، وهذا الحكم منسوخ بآيات المواريث، وبإيجاب عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام.

نزلت في رجل من أهل الطائف قدم المدينة، فمات فيها، فأعطى النبي ﷺ ميراثه لوالديه وأولاده بالمعروف، وأمرهم بأن ينفقوا على المرأة من تركة زوجها إلى الحول.

وللمطلقات عموماً المدخول بهن وغير المدخول بهن متعة واجبة أو مستحبة، وقيل: المراد نفقة العدة، بالقدر المستطاع للأزواج، حقاً مقرراً على الأتقياء. قال

(١) ليعطوهن ما يتمتعن به من النفقة والكسوة إلى تمام الحول من موتهم. (٢) متعة الطلاق في العدة.

ابن زيد: لما نزلت ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٦] قال رجل: إن أحسنت فعلت، وإن لم أرد ذلك لم أفعل، فأنزل الله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ . .﴾.

حياة الأمم والشعوب

إن عزة الأمم وحياة الشعوب الكريمة تتطلب أمرين مهمين لهما الأثر البالغ في الحياة، وهما الجهاد والكفاح في سبيل الله والحق، والإنفاق السخي في سبيل المصلحة العامة للوطن والأمة، فإذا ضعفت الأمة وتخلفت عن هذين الأمرين، أصابهما الذل والهوان، وتغلّب عليها الأعداء، وعاشت عيشة العبيد، فلا حرية ولا كرامة، ولا ملكية لشيء، وإنما المُلْك للسيد الظلوم الغاشم الذي تسلط على هؤلاء المتخاذلين الجبناء.

وتصبح الأمة في هذه الحالة أشبه بالأموات، لأن موت الأمم غالباً له سببان: الجبن وضعف العزيمة والتخاذل، والثاني-البخل وعدم الإنفاق في سبيل الله والأمة والصالح العام.

وقد أخبر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ إخباراً في غاية التحذير والتنبيه عن قوم من البشر، خرجوا من ديارهم فراراً من الموت، إما بسبب الخوف من العدو، أو بسبب وباء عام كالطاعون ونحوه، فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم، ليروا هم وكل من خَلَف بعدهم أن الإماتة إنما هي بيد الله تعالى لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف، ولا لاغترار مغتر، وأنزل الله تعالى آيات قرآنية تمهد أمره للمؤمنين من أمة محمد بالجهاد والإنفاق في سبيل الله، حتى لا يكونوا كالأمم الميتة الذين تولوا عن الإنفاق وأعرضوا عن الجهاد وانتحلوا المعاذير الواهية.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ

فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا(١) فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ(٢) وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٤٣-٢٤٥]. وكان عدد هذه الألوف كثيراً، قال ابن عباس: كانوا ثمانية آلاف. ويلاحظ أن الله تعالى أمر المسلمين بالقتال بعد التحذير من خوف الموت، فالله وحده هو المميت، وبيده حياة كل إنسان، فلا بد من القتال في سبيل الله: وهو الذي ينوي به المقاتل أن تكون كلمة الله هي العليا. وسبيل الله: هي سبيل الحق والعدل وتوحيد الله والقيم العليا. والقتال يتطلب إعداد الجيش المقاتل وتدريبه، ودعَمه بأمضى الأسلحة المناسبة لكل عصر وزمان، والإنفاق المستمر في هذا الدعم الضروري لحياة الأمة، وقد بادر المؤمنون الأوائل للقيام بواجب الجهاد والإنفاق في سبيل الله، فهذا صحابي جليل هو أبو الدحداح، لما نزلت هذه الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً . .﴾ قال: يا رسول الله، أو أن الله يريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: فإني أقرضت حائطي (بستاني) بيرحاء، فيه ست مئة نخلة، ثم جاء الحائط، وفيه أم الدحداح فقال: اخرجي فإني قد أقرضت ربي حائطي هذا، فكان رسول الله ﷺ يقول: «كم من عَذْق رداح(٣) ودار فياح، لأبي الدحداح».

صموئيل وطالوت

هذه قصة النبي صموئيل والملك طالوت في ختام الكلام عن بني إسرائيل في سورة البقرة، تبين أن القتال كان مشروعاً في الأمم السابقة، وأن الدفاع عن الحقوق

---

(١) يحتسب الأجر عند الله بطيب نفس . (٢) يضيِّق على قوم، ويوسع على آخرين . (٣) العَذْق: النخلة

واجب شرعي، وأن لقائد الجيش اختبار مدى إخلاص الجنود وتضحياتهم، وأن إيتاء الملك والسلطة بيد الله تعالى لمن يستحقها من عباده، كما تعرض الآيات التالية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ[1] مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ[2] إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ[3] لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً[4] فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٦-٢٤٧].

ألم تعلم بقصة جماعة من بني إسرائيل هم وجوه القوم وكبراؤهم، بعد موسى في عصر داود عليهما السلام، حين قالوا لنبيهم (صموئيل): اخْتَرْ لنا قائداً للحرب، وجمع الكلمة، فقد صممنا على طرد أعدائنا واسترداد حقوقنا المغتصبة. فقال لهم نبيهم بحكم خبرته وتجربته معهم: أتوقع منكم التخلي عن القتال إن فرض عليكم، فردوا عليه بقولهم: أي شيء يدعونا إلى ترك القتال، وقد أخرجنا من ديارنا وأوطاننا، ومنعنا من أبنائنا، واغتربنا عنهم؟!.

فلما فرض عليهم القتال كما طلبوا، تخلفوا عنه وجبنوا وأعرضوا إلا جماعة قليلة منهم، عبروا النهر مع طالوت، وثبتوا على العهد، والله عالم بمن نقض العهد، وظلم نفسه، فأخلف الوعد.

---

(١) أشراف القوم وسادتهم. (٢) قاربتم. (٣) كيف أو من أين يكون. (٤) سعة وفضيلة.

قال لهم نبيهم صموئيل: إن الله أرسل لكم طالوت ملكاً، فعليكم بالطاعة، والقتال معه، فاعترضوا عليه قائلين: كيف يكون ملكاً علينا، وهو لا يستحق الملك؟ لأنه ليس من سلالة الملوك، ولا من سلالة الأنبياء، ونحن أصحاب السلطة والسيادة أحق بالملك منه؟ وأضافوا أيضاً: إنه فقير لم يؤت رزقاً واسعاً ومالاً وفيراً، يستعين به على إقامة الملك؟ فقال نبيهم: إن الله اختاره لكم ملكاً، وزاده سعة في العلم، وقوة في الجسد، فكان قوياً في دينه وتدبيره الأمور، كما كان قوياً في بدنه، ليقاوم الأعداء في الحروب، والله واسع الفضل والإنعام، عليم بمن هو أهل للملك وأصلح له، وبمن هو أقدر على قيادة الجيش وتحقيق الفوز والنصر.

ثم ذكر الله تعالى ما حققه طالوت أثناء ملكه، فقال:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ[١] فِيهِ سَكِينَةٌ[٢] مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ[٣] قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ[٤] فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ[٥] غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا[٦] ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ[٧] قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟[٨] لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ

---

(١) صندوق التوراة . (٢) فيه طمأنينة لقلوبكم. (٣) انفصل عن بيت المقدس. (٤) مختبركم . (٥) أخذ بيده .
(٦) لا قدرة ولا قوة لنا . (٧) جماعة . (٨) ظهروا .

ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٤٨-٢٥٢].

وقال لهم نبيهم صموئيل: إن علامة ملك طالوت أن يأتيكم صندوق التوراة الذي أخذه منكم أعداؤكم في فلسطين، فيه طمأنينة لقلوبكم وسكون للنفس، فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت، وفيه بقية: قطع من ألواح التوراة، ومخلّفات أو آثار آل موسى وآل هارون، كعصا موسى، تحمله الملائكة حتى تضعه في بيت طالوت، إن في ذلك علامة على ملكه، إن كنتم مؤمنين بالله حقاً، فاسمعوا لطالوت وأطيعوه. قال ابن عباس: كانت العماليق قد سَبَوا التابوت من بني إسرائيل، فجاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه، حتى وضعوه عند طالوت، فلما رأوا ذلك قالوا: نعم، فسلَّموا له وملَّكوه، وكانت الأنبياء إذا حضروا قتالاً، قدموا التابوت بين أيديهم.

فلما خرج طالوت عن بلده بيت المقدس، مع جنوده، لقتال العمالقة، قال لهم طالوت: إن الله مختبركم بنَهَر: هو نهر الأردن، فمن شرب منه، فليس من جنودي أو أصحابي، ومن لم يذقه أو لم يشرب منه، فإنه من أتباعي وجنودي، إلا من أخذ منه بمقدار ملء الكف، بالاغتراف غرفة واحدة، فشربوا منه، وعصوا أمر الملك، إلا عدداً قليلاً منهم، بعدد أصحاب بدر (٣١٤). فلما اجتاز طالوت النهر وجماعته المؤمنون القلة الطائعون، قال ضعفاء الإيمان منهم: لا قدرة لنا على قتال جالوت: أكبر طاغية وثني، كان قد احتل مع أتباعه فلسطين، ولا قوة لنا على قتال جنوده لكثرتهم وقلة عددنا، قال الذين يتيقنون أنهم ملاقو ربهم في الآخرة: قد تغلب الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة، بإرادة الله ونصره وتأييده، والله مع الصابرين بالعون، وإن النصر مع الصبر، وليس بكثرة العدد.

ولما ظهروا لقتال جالوت (أمير العمالقة) وجنوده، قالوا: ربنا صبّرنا كثيراً، وثبتنا وقوّنا على الجهاد وعدم الفرار، وانصرنا على أعدائنا الكفار: جالوت وجنوده، ومدَّنا بالعون حتى نتغلب عليهم.

فاستجاب الله دعاءهم، وهزموا العمالقة بأمر الله وإرادته، وقتل داود بن إيشا- أحد جنود عسكر طالوت-جالوت الجبار الكافر، وأعطى الله داود النبوة وهي الحكمة، وجعله ملكاً على بني إسرائيل أثناء حياة طالوت، بعد أن كان راعياً، وعلّمه ربه من علومه، كصناعة الدروع، ومعرفة منطق الطير. ولولا مدافعة بعض الناس ببعضهم، ومقاومة الأشرار، لتغلب المفسدون، وقتلوا المؤمنين، وأهلكوا الحرث والنسل والناس الآمنين، ولكن الله صاحب الفضل على العالمين، يتولى رعايتهم وحفظهم.

هذه آيات الله في هذه القصة، نقصّها عليك أيها النبي بالحق: وهو الخبر الصحيح من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف، وإنك يا محمد النبي: من جملة رسل الله، يأتيك وحي الله تعالى، وتخبر به الناس، وهذا تقوية لقلبه وإيناس وتثبيت لشأنه.

درجات الأنبياء وموقف الناس من رسالاتهم

ليس كل الناس على درجة أو مرتبة واحدة، وإنما يتفاوتون في درجاتهم ومراتبهم عند الله وعند الناس بمقدار قيامهم بالواجب، وتفانيهم في أداء الحق، والتزامهم أوامر الله، وتباينهم في العمل الصالح.

وشاءت حكمة الله أن يتفاوت الأنبياء والرسل أيضاً في الدرجات بمقدار تضحياتهم وتفاوت آثارهم أو تأثيراتهم في الحياة الإنسانية، فكان ذلك سبباً في تفضيل بعض الأنبياء على بعض، بتخصيصه بمفخرة ليست لغيره، وأفضل الرسل:

هم أولو العزم، قال أبو هريرة رضي الله عنه: خير ولد آدم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وهم أولو العزم. وقد سئل رسول الله ﷺ عن آدم: أنبي مرسل هو؟ فقال: «نعم نبي مُكَلَّم» ولكن كان تكليم آدم في الجنة، لا في الدنيا.

رفع الله بعض الأنبياء على من عداه درجات في الفضل والشرف، وكلم موسى عليه السلام ربه في الدنيا، فهو كليم الله، وآتى الله عيسى ابن مريم الآيات الواضحات، كتكليمه في المهد وهو طفل، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه (الذي ولد أعمى) والأبرص بإذن الله، وأيده الله بروح القدس جبريل عليه السلام مع روحه الطاهرة ونفسه الصافية، وتلك هي منزلته دون تفريط ولا إفراط، فاليهود حطت من شأنه واتهمته واتهمت أمه، وغير اليهود رفعوه إلى درجة الألوهية، وواقعه أنه مخلوق بإذن الله وبنفخ الروح فيه من عند الله من غير أب، ومرَّ بأدوار الحمل والطفولة كغيره من الناس، وعاش يأكل ويشرب، ويدعو إلى وحدانية الله، واتباع أوامر الله، والاستعداد لجنان الخلد، والبعد عن المعاصي والمنكرات، كغيره من البشر الأنبياء، فهو رسول كريم على الله، لا يرقى إلى درجة الألوهية.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ[1] وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ[2] وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ إشارة إلى محمد ﷺ، فهو أفضل الأنبياء والرسل، لأنه بعث إلى الناس كافة، وأرسل رحمة للعالمين، وكان خاتم الأنبياء

(١) وهو موسى عليه السلام. (٢) جبريل عليه السلام.

والمرسلين، وهو أعظم الناس أمة، ومعجزته القرآن، وتميز بالخلق العظيم الذي أعطاه الله، وأُعطي خمس خصال لم يُعطها أحد قبله، وهذه الخصال كما قال: «أعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحد من قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

أما موقف الناس من اتّباع الأنبياء فهو موقف متناقض، فإنهم اختلفوا فمنهم من آمن بهم ومنهم من كفر، واقتتلوا من بعد ما جاءتهم البينات والرسل والمعجزات، ولو شاء الله ما اقتتلوا، ولكنهم تُركوا أحراراً ليتميز الصالح من الفاسد، ويُجْعَلَ قبولُ الدين منبعثاً من التفكير والنظر، والله يفعل ما يريد من الحكمة الإلهية السديدة.

الترغيب في الإنفاق

إن بناء الأمجاد في الأمة، وطريق الحفاظ على استقلالها وعزتها وكرامتها يحتاج إلى تعاون أفرادها وتضامن أبنائها، فلا يتحقق تقدم ولا تسمو أمة من دون التضحية بالمال والنفس.

والآخرة ميزان الأعمال الصالحة، وفيها رصيد خالد دائم لكل من يعمل خيراً أو يؤدي واجباً.

ولكن الناس في التعاون وفعل الخير متفاوتون، فمنهم من يُقدم على الخير لذاته حباً فيه، ومنهم من يفعل الخير خوفاً من العقاب وطلباً للثواب، وهؤلاء هم المحتاجون للتذكير والخطاب الإلهي الآمر بالإنفاق في سبيل المصلحة العامة وقوة الجماعة وتحقيق التكافل الاجتماعي.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَـٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ[١] وَلَا شَفَـٰعَةٞۗ وَٱلۡكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٤]. هذه الآية -كما قال ابن جريج- شاملة الزكاة المفروضة والتطوع، وهذا صحيح، فالزكاة واجبة، والتطوع في وجوه الخير مندوب إليه. وظاهر الآية يراد بها جميع وجوه البّر: من سبيل خير، وصلة رحم، وبناء مسجد أو مشفى أو مدرسة، وإحسان إلى فقير، وتسليح جيش وإغاثة ملهوف، وإعانة منكوب، وإعطاء مفلس أو ابن سبيل منقطع عن السفر إلى بلاده، يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود في مراسليه: «حَصِّنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة».

ندب الله تعالى بهذه الآية إلى إنفاق شيء مما أنعم به، وحذر تعالى من البخل أو الإمساك إلى أن يجيء يوم لا يمكن فيه بيع ولا شراء ولا استدارك نفقة في ذات الله ومن أجل رضوان الله، ذلك اليوم الذي لا يجد فيه الإنسان ما ينجيه أو يؤازره غير عمله الصالح، وعقيدته الصحيحة، لا تنفع فيه الصداقة والمحبة أو الخُلَّة، ولا تفيد فيه شفاعة الشفعاء والوسطاء، فهذا يوم الجزاء والثواب والعقاب، يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. يوم يظهر فيه فقر العباد إلى الله الواحد القهار، والكافرون بنعم الله الجاحدون حقوق المال المشروعة هم الظالمون لأنفسهم فقط، والظالمون: واضعو الشيء في غير موضعه، قال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلۡكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: الظالمون هم الكافرون، أي لأن معنى الآية أن كل كافر ظالم، وليس كل ظالم كافراً، ولو قال: والظالمون هم الكافرون، لكان قد حكم على كل ظالم (وهو من يضع الشيء في غير موضعه) بالكفر.

إن الشفاعة المعدومة يوم القيامة هي الشفاعة الصادرة من الناس بغير إذن الله

(١) مودة وصداقة .

تعالى مثل شفاعة الدنيا، ولكن توجد شفاعة بإذن الله تعالى، وحقيقتها رحمة من الله سبحانه، شرِّف بها الذي أذن له الله في أن يشفع.

والخلاصة: إن الله تعالى ندب أغنياء الأمة لمؤازرة المصالح العامة، ومعاونة المحتاجين، والإسهام في تخليص الأمة من الفقر والجهل والمرض، وذلك لا يكون إلا بالإنفاق المشروع المعقول الذي يحقق المنفعة العامة، وليس بالتبذير بإنفاق المال على موائد اللهو والقمار والشهوات الذاتية.

آية الكرسي

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ(١) ٱلۡقَيُّومُۚ(٢) لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ(٣) وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ(٤) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ(٥) حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥].

هذه هي آية الكرسي التي يعنى الناس بها عادةً، فيحفظونها، ويقرؤونها صباح مساء، ويعالجون بها المرضى بالرقية، لما فيها من أسرار عظيمة، ومعان بليغة، وعقائد شاملة، وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة، منها حديث صحيح الإسناد رواه أبو عبد الله الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية، سيدة آي القرآن، لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه: آية الكرسي».

آية الكرسي إذن هي سيدة آي القرآن، وورد أنها تعدل ثلث القرآن، وروى

(١) الدائم الحياة. (٢) الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه. (٣) نعاس. (٤) الكرسي نؤمن به كما ورد وهو غير العرش، والعرش أكبر منه، وقيل: إنه علم الله. (٥) لا يثقله ولا يشق عليه.

النسائي وأبو يعلى وابن حبان عن أُبَي بن كعب أن النبي ﷺ قال عنها: «من قرأها أولَ لَيْله لم يقربْه شيطان».

ومشتملاتها أن الله لا إله يُعبد بحق في الوجود إلا هو، وما عداه من الآلهة المزعومة تعبد بغير حق، فالله متفرد بالألوهية، موصوف بالحياة الأبدية، واجب الوجود، الحي الذي لا يموت، القائم بذاته على تدبير خلقه، المخالف لهم في كل صفاتهم، لا يشبهه شيء من خلقه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا تغلبه ولا تستولي عليه سِنَةٌ (نعاس) ولا نوم، مالك الملك، ذو العرش والجبروت، له ما في السماوات والأرض، ذو البطش الشديد، فعَّال لما يريد، لا يملك أحد الكلام يوم القيامة إلا بإذنه، ولا يشفع أحد إلا بأمره، يعلم بالكليات والجزيئات، ولا يُطلع على علمه أحداً إلا من شاء، ولا يحيط بعلمه أحد إلا بما شاء، واسع الملك والقدرة، الأرض جميعاً في قبضته، والسماوات مطويات بيمينه، وسع كرسيه أي علمه السماوات والأرض، فالكرسي: العلم كما قال ابن عباس، والذي تقتضيه الأحاديث: أن الكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش، والعرش أعظم منه، روى ابن جرير الطبري عن ابن زيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس».

والمهم أن قدرة الله عظيمة شاملة، لا يشغله شأن عن شأن، ولا يشق عليه أمر دون أمر، القاهر لا يغلب، العظيم الذي لا تحيط به الأفهام والعقول جلَّ شأنه، لا يعرف كنهه إلا هو سبحانه وتعالى.

هذه الآية منبئة عن عظم الله تعالى وعظم مخلوقاته، وعظم قدرته، فلا يؤوده ولا يثقله حفظ هذا الأمر العظيم، قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: سمعت نبيكم ﷺ على أعواد المنبر، وهو يقول: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة، لم

يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صدِّيق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه، آمنه الله على نفسه وجاره، وجار جاره، والأبيات حوله».

الحرية الدينية في الإسلام

من المعلوم أن انتشار الإسلام كان بالإقناع والبرهان، وبالحجة والبيان، لا بالقهر والإكراه والإجبار، فلم يثبت في تاريخ الإسلام أن أحداً من الناس أكره أحداً على دين الإسلام، وإنما كان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً بحرية وقناعة، وطواعية واختيار.

قال مسروق: كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان فتنصرا قبل أن يبعث النبي ﷺ، ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يحملون الطعام، فأتاهما أبوهما فلزمهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا أن يسلما، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أيدخل بعضي النار، وأنا أنظر؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ(١) مِنَ ٱلْغَيِّۚ(٢) فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ(٣) وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ(٤) لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ(٥) وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦]. أي إن الإكراه في الدين ممنوع، ولا جبر ولا إلجاء، على الدخول في الدين، ولا يصح الإلجاء والقهر بعد أن بانت الأدلة والآيات الواضحة الدالة على صدق محمد ﷺ فيما يبلّغه عن ربه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. فقول العوام وأمثالهم من المستشرقين: «إن الإسلام قام بالسيف» دعوى باطلة غير صحيحة ولا ثابتة. أما حروب المسلمين فكانت دفاعية حتى يكف المشركون عن فتنة المسلمين، ويتركوا

---

(١) الهدى والإيمان. (٢) الضلال والكفر. (٣) أي الأصنام، وكل ما عُبد من دون الله راضياً بذلك فهو طاغوت مثل فرعون ونمرود ونحوهما. (٤) بالعقيدة المحكمة. (٥) لا انقطاع لها ولا زوال.

الناس أحراراً، ولا مانع من وجود ما يسمى بالتعايش الديني السلمي بين الإسلام وأهله وغيره من أهل الأديان، ومن يكفر بالأصنام وكل ما يعبد من دون الله، ويؤمن بالله واجب الوجود، الإله الواحد من غير شريك، فقد بالغ بالتمسك بالعروة الوثقى المأمون انقطاعها، والله سميع لأقوال الناس، عليم بمعتقداتهم وأفعالهم.

ثم بيَّن الله تعالى أنه يتولى أمور المؤمنين بالتوفيق والهداية لأقوم الطريق، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧]. أي إن الله تعالى يتولى شؤون عباده المؤمنين، فهو يرشدهم إلى الصراط المستقيم، و يخرجهم من ظلمات الشك والشبهة إلى نور العلم والمعرفة واليقين، أما الذين كفروا بالله ورسوله، فيتولى الطاغوت (أي الشيطان) أمورهم، وينقلهم من نور الحق والإيمان إلى ظلمات الكفر والنفاق، والشك والضلال، وهؤلاء الكفار هم الذين بعدوا عن الهدى والصواب، وتمادوا في الغي والضلال، وهم أصحاب النار الملازمون لها، الخالدون فيها.

هذه مقارنة عملية مثمرة بين فئتين من الناس، فمن آمن بربه ورسله جميعاً وبكل ما أنزل من كتاب وحكمة، فالله وليه، يخرجه من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن كفر بعد وجود النبي المرسل والقرآن المنزَّل، فوليه شيطانه، وهو الذي يُغويه، ويخرجه من دائرة الإيمان إلى ظلمة الكفر والضلال.

قصة النمرود وإبراهيم والعزير وحماره

ضرب الله تعالى مثلاً واضحاً للمؤمن الواعي اليقظ، وللكافر الغبي المتسلط، بإبراهيم عليه السلام، ليبين أدلة الإيمان الفطرية، وحجج الكفر المتهافتة الساقطة،

ثم أعقب ذلك بقصة العزير وحماره لإثبات وجود الله وقدرته على إحياء الأنفس والبعث بعد الفناء، وذلك في هذه الآيات الكريمة التالية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ[١] الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا[٢] قَالَ أَنَّى يُحْيِي[٣] هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[٤] وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا[٥] ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٨-٢٦٠].

ألم تعلم قصة النمرود الملك المتجبر ملك بابل في العراق، الذي عارض إبراهيم عليه السلام وجادله في ربوبية الله تعالى، بسبب ملكه وسلطانه وما أعقبه من كبرياء وغرور، فكفر بأنعم الله، حين قال: يا إبراهيم من ربك؟ فقال: ربي هو الذي يحيي الناس ويميتهم، قال نمرود: أنا أيضاً أحيي وأميت، قال ابن عباس: أتى برجلين، فقتل أحدهما وعفا عن الآخر، وادعى أنه أحيا وأمات، وذلك مغالطة، لأن إبراهيم أراد أن الله هو الذي يخلق الحياة والموت في الأشياء، فقال له إبراهيم عليه

---

(١) غُلب وتحير. (٢) ساقطة على سقوفها. (٣) كيف يحيي أو متى؟ (٤) لم يتغير مع مرور السنين عليه.
(٥) نرفعها من الأرض لنؤلفها مرة أخرى.

السلام: إن الله يطلع الشمس من المشرق، فأطلعها من المغرب، وتلك حجة لا تقبل المغالطة، فتحير ودهش الكافر، والله لا يوفق الكافرين إلى طريق الهداية، لابتعادهم عنه.

وهل رأيت أيها النبي مثل العزير من بني إسرائيل، حين مرّ على أهل قرية من أرض بيت المقدس، بعد تخريب بختنصّر لها، فصارت خاوية من السكان، والبيوت قائمة، أو أن المساكن ساقطة على سقوفها المدمرة، فقال: كيف يحيى الله أهل هذه القرية، أو كيف تعود فيها الحياة بالبناء والعمارة والسكان؟ فأماته الله بنفسه، مئة سنة، ثم بعثه حياً بعد موته، فقال له: كم مكثت هنا ميتاً؟ قال بحسب ظنه: مكثت يوماً أو بعض يوم، معتقداً أنه نام وأفاق، قال له ربه: بل مكثت ميتاً مئة سنة، فانظر إلى ما كان معك من طعام وشراب لم يتغير مع طول المدة بقدرة الله، وانظر إلى حمارك الذي مات كيف نحييه بعد تفرق أجزائه، ولنجعلك مثالاً على البعث بعد الموت، ودليلاً على قدرتنا، وانظر إلى العظام، كيف نرفع بعضها من الأرض، ونضم أجزاءها، ثم نردها إلى أماكنها، ثم نسترها باللحم، فلما اتضح له ذلك عياناً، بعد تعجب، قال: أعلم واطمئن أن الله قادر على كل شيء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

واذكر أيها النبي حين قال إبراهيم الخليل عليه السلام: رب أرني رؤية عين، لا رؤية قلب، ليطمئن قلبي، كيف تعيد الموتى أحياء، فقال الله له: أولم تصدق بقدرتي على الإحياء حتى ترى؟ قال: بلى يا رب، علمت وآمنت بقدرتك، ولكن سألت ذلك ليزداد يقيني باجتماع المعاينة إلى الاستدلال على الإيمان، قال: فخذ أربعة طيور، وضمهن واجمعهن إليك، ثم قطّعهن، واجعل في كل جبل من كل واحد منهن جزءاً، ثم نادهن، يجئن إليك مسرعات في الطيران، واعلم يا إبراهيم أن الله قوي غالب لا يعجزه شيء، حكيم في صنعه وتدبيره.

الإنفاق في سبيل الله وآدابه

الكثير من الناس ينفقون أموالهم بسخاء وفير على مصالحهم الخاصة وأهوائهم الذاتية ومآربهم المادية، والقليل من الناس من ينفق شيئاً من ماله في سبيل الله والمصلحة العامة العليا للأمة، لذا رغّب القرآن الكريم بالإنفاق في سبيل الله، وأبان أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦١]. هذا تصوير مادي محسوس لثواب الإنفاق في سبيل الله وزيادته وأجره، يدل على أن الأجر يكون بمقدار سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء أضعافاً مضاعفة، إذ هو الواسع الفضل، الكريم العليم بكل شيء، وهذه الآية في نفقة التطوع، وسبل الله كثيرة، وهي جميع ما هو طاعة وعائد بمنفعة على المسلمين والملّة، وأشهرها وأعظمها غَناء: الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا.

قال ابن عمر: لما نزلت هذه الآية قال النبي عليه الصلاة والسلام -فيما يرويه ابن حبان في صحيحه وغيره- ربِّ زد أمتي، فنزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ فقال: رب زد أمتي، فنزلت: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ومن أهم آداب الإنفاق: الإنفاق سراً قاصداً به صاحبه وجه الله لا رياء ولا سمعة ولا شهرة، ومن آداب الإنفاق الذي يستحق مضاعفة الثواب المذكور إنما هو لمن لم يُتْبع إنفاقه منّاً ولا أذى، فهذا هو الذي يريد وجه الله تعالى ويرجو ثوابه، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا[1] وَلَآ أَذًى ۙ[2] لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٢].

---

(١) تعداد الإحسان وإظهاره. (٢) تطاولاً وتفاخراً بالعطاء .

والمن: ذِكْر النعمة والإشادة بها على معنى التعديد لها والتقريع بها. والأذى: السب والتشكي، وهو أعم من الْمَنّ، لأن المنّ جزء من الأذى.

وإذا لم يرد الإنسان الصدقة، فليكن رده طيباً، وقوله حسناً معروفاً، دون إساءة، فالكلام الجميل تهدأ به نفس السائل، وهو خير للسائل والمسؤول من صدقة يتبعها أذى وضرر، إذ شرعت الصدقة لتقريب الناس من بعضهم بعضاً، وتخفيف حدة الحسد والحقد بين فئات الناس، والأذى والمن يخرجها عن وضعها الصحيح، قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٣].

ثم خاطب الله المؤمنين بوصف الإيمان، ليكون ذلك أدعى للقبول والامتثال، فحرَّم عليهم المن والأذى صراحة، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ(١) ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ(٢) عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ(٣) فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ(٤) لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٦٤﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٤].

قال العلماء: إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمّن أو يؤذي، فإنه لا يَتقبَّل صدقته. وذلك لأن من منَّ أو آذى غيره كمن ينفق ماله للرياء والسمعة، والذي يرائي كمثل حجر أصم عليه تراب، وقد نزل عليه مطر شديد، فذهب التراب، وبقي الحجر أملس، وهكذا الذي يمنّ أو يرائي يلبس ثوباً غير ثوبه، ثم لا يلبث أن ينكشف أمره، فيكون ما يلبس به كالتراب على الصفوان: (الحجر الأملس) الذي يذهب به الوابل (المطر الشديد) فلا يبقى من أثره شيء.

---

(١) مراءاة لهم وسُمعة . (٢) حجر كبير أملس . (٣) مطر شديد . (٤) أجرد نقياً من التراب .

حال المنفق في سبيل الله والمنفق في سبيل الشيطان

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٢]. نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، أما عبد الرحمن بن عوف: فإنه جاء إلى النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة، وقال: كان عندي ثمانية آلاف درهم، فأمسكت منهم لنفسي ولعيالي أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها ربي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت، وفيما أعطيت». وأما عثمان رضي الله عنه فقال: علي جهاز من لا جهاز له، في غزوة تبوك، فجهز المسلمين بألف بعير بأقتابها وأحلاسها (أي بما يوضع على ظهورها) وتصدق ببئر رَوْمة التي كانت قريبة من المدينة على المسلمين، فنزلت فيهما هذه الآية المتقدمة، وقال النبي عن عثمان: «يا رب إن عثمان بن عفان رضيت عنه، فارض عنه».

ثم بيَّن الله تعالى حال المنفق لله وفي سبيل الله وبقصد تثبيت نفسه على الخير، فمثلُه كمثل الأرض الطيبة التربة، الخصبة النماء، فهو يجود بقدر سعته وما في يده، فإن أصابه خير كثير أنفق كثيراً، وإن أصابه قليل، أنفق على قدر سعته، فخيره دائم وبره لا ينقطع، كالبستان الذي يثمر بصفة دائمة، سواء نزل عليه مطر كثير أو قليل. قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا(١) مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ(٢) أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا(٣) ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ(٤) وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٥].

ثم أورد الله سبحانه مثلاً ثانياً لمن ينفق ماله في سبيل الشيطان ومرضاة لنفسه وهواه، وللرياء والسمعة والمباهاة، فقال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ

---

(١) تصديقاً وتيقناً بثواب الإنفاق. (٢) بستان بمرتفع من الأرض. (٣) ثمرها المأكول. (٤) مطر خفيف.

﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ(١) فِيهِ نَارٌ(٢) فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٦]. من أساليب فصاحة القرآن أنه يأتي فيه بيان نقيض ما تقدم ذكره، لتستبين حال التضاد بعرضها على الذهن، فلما ذكر الله تعالى مثل الذين ينفقون أموالهم بقصد مرضاة الله، ذكر مثلاً آخر لنفقة الرياء، والمعنى: أيها المنفق لغير الله، مَثَلك كمثل من له بستان فيه نخيل وأعناب وزروع من كل صنف، تجري الأنهار فيما بينها، وفيها من كل الثمرات التي تشتهيها، وأنت رجل كبير مسنّ أدركتك الشيخوخة، وأصابك ضعف الكِبَر، ولك ذرية ضعفاء صغار لا يقدرون على الكسب، وليس لك غير هذا البستان، فأصابه بأمر الله ريح شديدة عاصفة، وسموم كالنار أو أشد، فاحترق الشجر، وأباد الثمر، وأنت في أشد الحاجة إلى نتيجة عملك، وثمرة جهدك في شبابك.

إن من ينفق في سبيل الشيطان والهوى والرياء يظن أنه ينتفع بإنفاقه، ثم يفاجأ بأنه لا يجد نتيجة لعمله، لتبدد أثره، وضياع فائدته، فهو مثل ذلك الرجل المسن صاحب تلك الجنة (أي البستان) يأتي يوم القيامة، فلا يجد لعمله إلا الحسرة والندامة، لقد علّق الشيخ الكبير المسن -كالمتقاعد اليوم- الأمل على دخل معين في آخر الحياة، ثم لا يجد هذا الشيخ هذا الدخل، نجده كيف يعتصر الألم كبده، ويموت حرقة وأسفاً على فقدان دخله وضياع ماله بعاصفة من السماء، إن المنفق رياء أو في سبيل الشيطان مثله مثل هذا المسن الذي فقد المال في الدنيا، وضاع عليه النعيم في آخر حياته، فيموت كمداً وحسرة وألماً، بسبب سوء تصرفه وخبث نيته وقصده.

---

(١) ريح عاصف. (٢) سَموم شديدة أو صاعقة.

أصول الإنفاق

المال أمانة في يد الإنسان، يتردد بين الدخل والنفقة، وكما أن الحصول على المال أمر صعب غير يسير، لأنه يتطلب الكسب المشروع الحلال، كذلك الإنفاق ليس أمره هيناً، فمن السهل جمع المال، ولكن من الصعب المحافظة على المال أو ادخار ثواب إنفاقه على المحرومين، فالإنسان ابن مجتمعه، يقصده المحتاجون إن كان موسراً غنياً، ويتطلع إلى ما ائتمنه الله عليه الفقير المسكين، وينبغي أن يكون الإنفاق ضمن أصول معينة:

الأصل الأول -الإنفاق من الطيب (أي الجيد الحسن) وعدم إعطاء الرديء أو الخبيث، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ(١) مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ(٢) وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٧]. فلا يصح للمتصدق سواء في الزكاة المفروضة أم في التطوعات المالية أن يتعمد إعطاء الفقير الخبيث الرديء، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وليس من الأدب أو الإحسان أن يجعل الإنسان لله ما يكره من المال.

وسبب نزول هذه الآية ما قال جابر: أمر النبي ﷺ بزكاة الفطر بصاع من تمر، فجاء رجل بتمر رديء، فنزل القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ..﴾ الآية.

أي أنفقوا من جياد أموالكم ولا تقصدوا الخبيث الرديء أو الفاسد أو الخاسر، فتجعلوا صدقتكم منه خاصة دون الجيد، فهذا نهي عن تعمد الصدقة من الخبيث دون الطيب، وكما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٢].

---

(١) أي لا تقصدوا الرديء. (٢) أي تتساهلوا في أخذه.

الأصل الثاني -مقاومة نوازع الشح والبخل: فعلى الإنسان أن يقاوم غريزة البخل لديه، وألا يخشى فقراً بصدقة مالية يتصدق بها، فالله يعوض المنفق خيراً، ويزيده فضلاً ونعمة، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٨-٢٦٩].

فبعد أن رغَّب الله سبحانه في الإنفاق الطيب، حذَّر من وسوسة الشيطان وعداوته في ذلك، وأخبر سبحانه بمغفرته للمنفق وفضله عليه وسعة خزائنه لتعويضه، وعلمه بقصده الحسن، وإيتائه الحكمة لمن يشاء في وضع المال في موضعه الصحيح المفيد، والله ذو الفضل العظيم، والمغفرة: الستر على العباد في الدنيا والآخرة، والفضل: هو الرزق في الدنيا، والنعيم في الآخرة، وأي خير في الدنيا والآخرة بعد توفيق الله وهدايته في فهم الأمور على حقيقتها، وإدراك الأشياء على وضعها الصحيح، ومنها أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

والأصل الثالث -مشروعية الإنفاق سراً وعلانية: على المؤمن أن يقصد في عمله وجه الله، و يخلص في إعطاء الصدقة للمحتاجين، وسيجد ثواب ذلك حتماً في الآخرة فلا يضيع، وكل شيء يعلم به الله، ويدخر لصاحبه فيه الأجر، ولا مانع بعد توافر الإخلاص وحسن القصد إبداء الصدقة لتشجيع الآخرين أو الإسرار بها منعاً من الرياء وحب السمعة، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٠-٢٧١].

ويرى العلماء كابن عباس وغيره أن إبداء الصدقة الواجبة (أي الزكاة) خير

وأفضل من إسرارها وإخفائها، وأما الصدقة المندوبة أو صدقة التطوع فإخفاؤها أفضل وخير من إعلانها؛ لأن ذلك أدعى لعدم الرياء، وأحفظ لكرامة الفقير.

صفات المستحقين للصدقة

بيّن القرآن الكريم صفات مستحقي الصدقة، حتى تقع في موقعها الصحيح وعلى الوجه الذي يرضي الله تعالى.

أما الصفة الأولى -فيجوز للمسلم أن يتصدق على المحتاج الفقير، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، احتراماً لإنسانيته، ودفعاً لحاجته، قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٢] . ذكر سعيد بن جبير سبب نزول هذه الآية: إن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة غير المسلمين، فلما كثر فقراء المسلمين، قال رسول الله ﷺ : «لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من أهل دين الإسلام.

والصفات الأخرى لمن تعطى الصدقة لهم كثيرة، أهمها: إعطاء الصدقة لمن حبس نفسه على الجهاد في سبيل الله ولم يقم بالكسب المعيشي كغيره من الناس، قال الله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ(١) لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ(٢) يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ(٣) تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ(٤) لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ(٥) وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٣].

---

(١) أي حَبَسوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله وامتنعوا من الكسب . (٢) سفراً للتكسب . (٣) الترفع عن السؤال . (٤) بعلامتهم أو هيئتهم الدالة على الفاقة والحاجة . (٥) إلحاحاً في السؤال .

نزلت هذه الآية في أهل الصُّفَّة، وهم فقراء المهاجرين الذين هاجروا مع رسول الله، وتركوا مالهم في مكة، وكان عددهم زهاء أربع مئة رجل، ولم يكن لهم مأوى، فكانوا يأكلون عند النبي ﷺ ، ثم يبيتون في المسجد تحت مكان مسقوف يقال له (الصفة) وكانوا متخصصين للجهاد وحفظ القرآن الكريم والخروج مع السرايا التي يرسلها النبي ﷺ، فهم جنود الجيش وطلاب العلم.

ومن صفات المعطى لهم الصدقة: العجز عن العمل أو التجارة والكسب، بسبب ضَعْف أو كبر أو ضرورة، ومن صفاتهم التعفف، فهم الذين يحسبهم الذي يجهل حالهم أغنياء من عفتهم وصبرهم وقناعتهم، فعندهم عزة المؤمنين وتوكل المتوكلين. ومن صفاتهم وعلاماتهم: الضمور والنحول والضعف، ورثاثة الثياب، وهذا متروك لفراسة المؤمن، فربَّ فقير مظهرُه حسن، وغني ذو ثياب رثة. ومن صفاتهم: عدم الإلحاح في السؤال، فهم لا يسألون ولا يستجدون أصلاً، أو لا يسألون الناس ملحين أو ملحفين في المسألة، قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد والنسائي: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّة سوي» أي قادر على العمل.

ثم سوَّى القرآن الكريم بين صدقة السر وصدقة العلانية في الأجر والثواب، فقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٤].

قال الكلبي: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ . .﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٠] قالوا: يا رسول الله، صدقة السر أفضل أم صدقة العلانية؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية . فمن تصدق بشيء لله سراً أو علناً، فله الأجر الكامل عند ربه الذي رباه وتعهده في بطن أمه وبعد ولادته، ولا خوف عليه أصلاً في الدنيا ولا في الآخرة، ولا هو يحزن أبداً، وهكذا كل من سار على نهج القرآن واهتدى بهديه، فأولئك هم المفلحون.

ثواب الصدقة وخطر الربا

الإسلام دين الرحمة والعطف والتعاون، أوجب على الناس أن يتآزروا في وقت الشدة والضيق، وأن يتراحموا في وقت العسر والمشقة، فإذا احتاج الواحد إلى مبلغ من المال، فعلى الآخرين مساعدته بالصدقة أو غيرها من ألوان المساعدة، ولا يرهقه بإقراضه مبلغاً من المال مع زيادة معينة أو نسبية تتزايد مع مرور الزمان، لأن الله تعالى يبارك للغني فيما يتصدق به ويعوضه خيراً عما أنفق، وينمي له ماله بوسائل مختلفة، ويكون المتصدق محبوباً عند الله والناس أجمعين، فلا حسد ولا بغضاء، ولا غش ولا احتيال، ولا سرقة ولا اغتصاب، ولا تآمر ولا إيذاء، وهذا كله مما يساعد على نمو المال وزيادته، قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا(١) وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ(٢) وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ(٣) ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٦]. وآيات الربا هي: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٥-٢٨١].

---

(١) يهلك المال الحرام. (٢) أي يزيد ويبارك. (٣) مقيم على كفره بتحليل الربا، فاجر فاسق بأكله الربا.

وإذا أقرض الإنسان أخاه مبلغاً من المال لمدة من الزمان، ثم تعذر على المدين المقترض الوفاء بالدين في أجله المحدد له، فعلى المقرض إمهاله وانتظاره لمدة أخرى يتمكن فيها من الوفاء، وينتظره حينئذ لوقت اليسر والرخاء، وهذه هي نَظِرة (انتظار) المعسر إلى وقت الرخاء، قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ[1] إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٠-٢٨١]. والمعنى: إن تعاملتم مع فقير معسر، فانتظار منكم إلى يسر ورخاء، عسى الله أن يفرج عليكم جميعاً، قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم: «من نفَّس عن مؤمن كُربَة من كُرَب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة» . ومن تصدق بالتأجيل أو بترك الدين كله أو بعضه، فهو خير له وأحسن.

ولا يجوز لمسلم بحال من الأحوال أن يأكل الربا أو يأخذ من المدين المقترض زيادة عن أصل رأسماله، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطي فيه سواء، ولعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه.

والتعامل بالربا يقضي على روح الأخوة والتعاون بين الناس، ويؤدي غالباً إلى الفقر والأزمة الاقتصادية، وفقد أصل المال أو الأرض التي تباع عادة في نهاية الأمر لتسديد القرض وفوائده المتراكمة، والربا في الواقع استغلال لحاجة المضطر، وقسوة، وأكل للمال بالباطل، وربح من غير جهد ولا عمل، وهو يوجب غضب الله وانتقامه، لذا حرم الله الربا بكل أنواعه، وأنذر صاحبه بأنه يقوم من قبره يوم القيامة، يتخبط كالذي مسّه الجن، أما المحسنون المؤمنون الذين يقرضون من غير فائدة، فهم يوم القيامة في أمان واطمئنان ولا خوف عليهم ولا حزن فيهم، ولا قلق

---

(١) فإمهال وتأخير .

ولا ألم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ(١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٥]. ثم قال الله تعالى مبيناً حال المؤمنين الصالحين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٧].

آية الدَّيْن

نظّم الإسلام شؤون المعاملات والعقود بين الناس على أساس من الحق والعدل والحكمة، وصان حقوق الناس وحفظ أموالهم وندبهم إلى توثيق عقودهم ومعاملاتهم المؤجلة بالكتابة والسندات، والشهادة والشهود، على سبيل الاحتياط للناس، وتجنباً من احتمال إنكار أصل الحق أو عدم الاعتراف به، بسبب قلة التدين، وضعف اليقين، وفساد الذمة، واستبداد الطمع والجشع.

جاء تنظيم المعاملات في أطول آية في القرآن الكريم، عنايةً بها، وحرصاً على المصالح، ومنع المنازعات والخصومات بسبب المال، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ(٢) ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ(٣) مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ(٤) هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا

(١) الجنون والخبل. (٢) الإملال هو الإملاء، أي وليمل وليقر. (٣) لا ينقص. (٤) أن يملي ويقر.

يَأْبَ[١] الشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ[٢] أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ[٣] عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ[٤] لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ[٥] أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ[٦] بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٢].

أرشدت هذه الآية الكريمة إلى مجموعة قواعد وأحكام في المعاملات الجارية بين الناس، أولها -الندب إلى كتابة الدين المؤجل في الذمة، سواء أكان تأجيله من طريق القرض أم البيع أم عقد السَّلَم (وهو بيع شيء موصوف مؤجل تسليمه إلى المستقبل).

وعلى الكاتب أن يكتب بالعدل، وأن يكون عالماً بأصول الكتابة وشروطها، وألا يمتنع عن الكتابة ما دام يمكنه ذلك، وعليه أن يكتب كما علَّمه الله، دون زيادة ولا نقص، ولا إضرار بأحد.

وعلى المدين الذي يملي على الكاتب الإملاء بالحق، فلا يزيد ولا ينقص من الحق شيئاً عند الإملاء.

وإذا كان المدين الذي عليه الحق سفيهاً لا يحسن التصرف في ماله لنقص عقله أو تبذيره، أو كان ضعيفاً لصغر سنه أو شيخوخته، أو لا يستطيع الإملاء لجهله أو لكنة في لسانه، فيتولى الإملاء وليه القريب أو البعيد الذي يتولى أموره من قيّم أو وكيل أو مترجم، ويكون إملاؤه بالعدل والإنصاف والشهادة على الحق: إما بشهادة رجلين عدلين عاقلين بالغين، أو شهادة رجل وامرأتين، بسبب قلة عناية النساء بالأمور المالية، وقلة ضبطهن، لانشغالهن بأمور المنزل وتربية الأولاد، فيكون تذكرهن

---

(١) لا يمتنع . (٢) لا تملّوا ولا تضجروا . (٣) أعدل . (٤) أثبت لها وأعدل على أدائها . (٥) أقرب .
(٦) خروج عن الطاعة .

للمعاملات قليلاً. وعلى الشهود أداء الشهادة إذا دعوا إليها، لأن كتمان الشهادة معصية ومضيعة للحقوق، وليس لكاتب أو شاهد أن يضر أحداً من المتعاملين بزيادة أو نقص. ولا حاجة لكتابة العقد في البيوع التجارية السريعة التي يتم فيها تسلم المبيع، وتسليم الثمن في الحال، وعلى جميع المتعاملين اتقاء الله في جميع ما أمر الله به أو نهى عنه.

الرهن والائتمان

تضمنت آية الدين وآية الرهن في سورة البقرة أمرين خُلقيين أساسيين لزرع الثقة بين الناس، والاطمئنان إلى أماناتهم، ودرء الشكوك عنهم، وهما الائتمان، والتقوى، فإذا توفرت الثقة وتحقق الائتمان، فعلى المؤتمن أداء الحق دون مماطلة ولا تسويف، ولا تهرب ولا تحريف، ولا نقص ولا زيادة، وهذا دليل على أن الأمر بكتابة الدين للندب والإرشاد، لا للحتم والوجوب، فمن وثق بغيره ثقة تامة يطمئن بها، فلا حاجة له ولا ضرورة للوثائق والسندات، وكتابة الديون والإشهاد عليها من أجل حفظ الأموال والديون.

وأما تقوى الله فهي بمثابة الدرع الواقي الذي يمنع المؤمن من أكل المال بالباطل، والزيادة والنقص في الإقرار بالحقوق، والتقوى أيضاً سبيل التذكر التام بالحق، وطريق الحصول على العلوم والمعارف المفيدة في الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٢].

وإذا تعذرت كتابة الدين، بسبب السفر أو فقدان الكاتب أو عدم توافر أدوات الكتابة، قام تقديم الرهن مقام الكتابة، والرهن مشروع ثابت في القرآن والسنة النبوية في جميع الأحوال، وفي السفر والحضر. ويتطلب الرهن احتباس العين المرهونة

وثيقة بالحق ليستوفى الحق من ثمنها، من طريق القضاء، عند تعذر أخذ الحق من الغريم (المدين). وهذا يشمل الرهن الحيازي بحيازة المنقولات، والرهن الرسمي بوضع إشارة الرهن على العقار في صحيفته المخصصة لها في السجلات العقارية عند الدولة.

قال الله تعالى مبيناً مشروعية الرهن: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٣].

فالخوف على خراب ذمة الغريم (المدين) أو مماطلته في أداء الدين عذر يجيز طلب الرهن، وقدْ رَهَن النبي ﷺ درعه عند يهودي، في مقابل شعير اقترضه منه، فقال اليهودي: «إنما يريد محمد أن يذهب بمالي، فقال النبي ﷺ في الصحيحين: «كذَب، إني لأمين في الأرض، أمين في السماء، ولو ائتمنّي لأديت، اذهبوا إليه بدرعي».

فإن صدف أن ائتمن شخص غيره على شيء من غير رهن، فعلى المؤتمن، أن يؤدي الأمانة كاملة في ميعادها، وليتق الله ربه، فلا يخون في الأمانة، فالله هو الشاهد الرقيب عليه، وكفى بالله شاهداً وحسيباً. ويحرم كتمان الشهادة على الديون أو الحقوق، وكتمان الشهادة وشهادة الزور من الكبائر، ومن كتم الشهادة فإنه عاصٍ آثم قلبه، وخص الله تعالى ذكر القلب، لأن الكتم من أفعال القلوب.

وتظل هيمنة الله على كل أعمال الناس وعلمه بأفعالهم خير رقيب وباعث على أداء الحقوق والأمانات والوفاء بالعهود، وأداء الشهادة دون كتمان، وإذا كان الله عليماً بكل شيء من أفعالنا، فهو يجازي عليها في الآخرة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

من أدلة القدرة الإلهية

إن قدرة البشر محدودة ضعيفة، مهما ظن الإنسان بقوته وقدرته، فتراه مبهوتاً عاجزاً مشدوهاً أمام المخلوقات الكونية العظمى، لا يستطيع الإحاطة بها، أو إيجاد مثلها، أو التأثير فيها إيجاداً وإعداماً، أو تغييراً وتبديلاً لمسيرتها وحركتها.

أما قدرة الله جلّ جلاله فهي شاملة غير محدودة، كاملة تامة غير منقوصة، أوجد الكون بقدرته، وسيَّره وصرّفه بعلمه، ووجّهه الوجهة الصالحة بحكمته، ويعلم كل شيء عنه، سواء أكان دقيقاً صغيراً أم عظيماً كبيراً، لأن مالك الشيء وخالقه يعلم كل شيء عنه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ١٤].

إن جميع ما في السماوات وما في الأرض ملك لله ومخلوق لله، فهو المالك وهو الخالق، وهو المتصرف، وهو العليم بكل شيء، لأنه الموجد المخترع المبدع، لا إله غيره ولا رب سواه، وهو سبحانه يعلم بأحوال جميع المخلوقات، من جماد وحيوان لا يعقل، وأجناسٍ ثلاثة تعقل وهي الملائكة والإنس والجن.

ويعلم الله تعالى جميع ما تضمره النفوس وتكتمه أو تخفيه من النوايا والوساوس والخواطر التي لا يتأتى للإنسان دفعها أو السيطرة عليها، ويعلم سبحانه أيضاً ما تظهره النفوس ويستقر فيها من الأفكار والأخلاق والأدواء الباطنة، والأفعال والأعمال الظاهرة، ويحاسب الإنسان عليها، ويجازيه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قال الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٤] . قال جماعة من الصحابة والتابعين كابن عباس وأبي هريرة والشعبي: إن هذه الآية لما نزلت، شقَّ ذلك على أصحاب محمد ﷺ ، وقالوا: هلكنا يا رسول الله، إن حوسبنا بخواطر أنفسنا، يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما

نطيق كالصلاة والصيام، والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ لهم: أتريدون أن تقولوا كما قالت بنو إسرائيل: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، فقالوها، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فكَشَف عنهم الكربة، وفرَّج عنهم.

لقد ظن بعض الصحابة خطأ أن الله تعالى يحاسب العباد على الوساوس والخواطر التي لا يمكن للإنسان دفعها أو التخلص منها، فأنزل الله لهم بياناً نصاً واضحاً على حكمه أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، والخواطر ليست مما يدخل في الوسع دفعها، فلا حساب عليها.

والواقع أن هذه الآية ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ ليس المراد بها الحساب على الوساوس والخواطر، وإنما المقصود بها أن الله تعالى يعلم ويحاسب على ما استقر في النفوس من الخُلُق الراسخ الثابت كالحب والبغض، وكتمان الشهادة، وقصد الخير والسوء، مما هو مقدور للإنسان، وتكون آية ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ليست ناسخة لهذه الآية، وإنما هي موضحة. والله تعالى يغفر لمن يشاء ذنبه، بتوفيقه إلى التوبة والعمل الصالح الذي يمحو السيئة، ويعذب من يشاء، لأنه لم يعمل خيراً يكفر عنه سيئاته، ولم يتب إلى الله، والله على كل شيء أراده قدير.

أركان الإيمان

تتردد كلمة الإيمان على بعض الألسنة دون بيان مضمونها أو تحديد عناصرها، فهناك إيمان أجوف فاقد المحتوى، وإيمان ناقص، وإيمان مشوَّه، وإيمان سيء، وإيمان باطل قائم على الأوهام والخرافات كإيمان الوثنيين.

إن الإيمان كلمة مقدسة عظيمة ذات مدلول عميق وخطير، وهو التصديق الخاص بأمور معينة، وهي التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، حلوه ومُرِّه.

والإيمان بالله: هو التصديق به وبصفاته ورفض الأصنام وكل معبود سواه، إنه التصديق بأن الله سبحانه موجود موصوف بصفات الجلال والكمال، منزه عن صفات النقص، وأنه واحد حق صمد، فرد خالق جميع المخلوقات، متصرف فيما يشاء، ويفعل في ملكه ما يريد.

والإيمان بالملائكة: هو اعتقاد وجودهم وأنهم عباد الله، ورفض معتقدات الجاهلية فيهم كقولهم: الملائكة بنات الله، لكن الملائكة هم عباد الله المكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون.

والإيمان بالكتب الإلهية: هو التصديق بكل ما أنزل الله على الأنبياء من الوصايا والحِكَم والأحكام والشرائع والآداب والأخلاق، وعدد هذه الكتب والصحف مئة وأربعة، والأربعة هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن.

والإيمان بالرسل -رسل الله -: هو الاعتقاد بأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى، الذي أيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، وأنهم بلّغوا عن الله ورسالاته، وبيّنوا للمكلفين ما أمرهم الله به، وأنه يجب احترامهم، وأن لا يُفرَّق بين أحد منهم.

والإيمان باليوم الآخر: هو التصديق بيوم القيامة، وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت، والحشر والنشر من القبور، والحساب والميزان، والصراط، والجنة والنار، وأنهما دار ثوابه وجزائه للمحسنين والمسيئين.

والإيمان بالقدر: هو التصديق بأن الله تعالى قدَّر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده عز وجل، وحاصل الإيمان بالقدر ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٩٦] وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٩]. ونحو ذلك، والله تعالى خلق الخير والشر، وقدر مجيئه إلى العبد في أوقات معلومة، يكون الإنسان فيها هو المختار لما يعمله أو يتركه.

وقد أبان القرآن الكريم أصول الإيمان وأركانه، فقال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ[1] رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥]. والمعنى: صَدَّق الرسول بالذي أنزل إليه من ربه من الآيات والأحكام، وصدّق معه المؤمنون، كلهم آمنوا بوجود الله ووحدانيته وبوجود عنصر الملائكة، وبإنزال الكتب من الله، وبإرسال الرسل الكرام، لا نفرِّق نحن المؤمنين بين رسله، إذ كل الأنبياء المرسلين سواء في الرسالة والتشريع، لا يختلف واحد عن واحد، وهذه مزية المسلمين يؤمنون بكل الأنبياء، دون تفرقة بين نبي وآخر، نؤمن بكل ما ذكر، ونقول: سمعنا القول سماع وعي وقبول، وأطعنا ما أُمرنا به طاعة إذعان وانقياد، معتقدين أن كل أمر ونهي إنما هو لخيري الدنيا والآخرة، ونسأل الله دائماً أن يغفر لنا خطايانا، وإليه المرجع والمآب. ولما سئل النبي ﷺ عن الإيمان قال في الصحيحين: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

(١) نسألك المغفرة .

يسر التكاليف الشرعية

الإسلام دين اليسر والسماحة، فلا عناء ولا مشقة في تكاليفه، ولا حرج في جميع ما أمر به أو نهى عنه، ليكون المسلمون في راحة وطمأنينة، ويداوموا على الأعمال من غير مضايقة ولا سأم أو ملل. وهذا من فضل الله تعالى على الأمة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ .[البقرة: ٢/ ١٨٥]. وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٨]. وقال سبحانه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٦].

ومن مزيد فضل الله علينا أن علّمنا الدعاء بطلب اليسر والتيسير في أداء الواجبات، والتكليف بالأحكام الشرعية، وصيغة هذا الدعاء كما جاء في أواخر سورة البقرة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا(١) لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا(٢) كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ(٣) لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦].

قال السدّي: لما نزلت هذه الآية فقالوها، أي ودعوا بها، قال جبريل للنبي ﷺ: «قد فعل الله لهم ذلك يا محمد». فهذا دلالة على أن هذه الدعوات السبع مستجابة بحمد الله.

وأول هذه الدعوات وثانيها: ربنا لا تؤاخذنا على النسيان الغالب، والخطأ غير المقصود، إذ تركنا ما ينبغي فعله، أو فعلنا ما ينبغي تركه، وأكّد النبي ﷺ رفع ثواب الخطأ والنسيان والإكراه، فقال فيما رواه ابن ماجه وغيره: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

---

(١) طاقتها ومقدرتها. (٢) أي حملاً ثقيلاً يشق علينا. (٣) لا قدرة.

وثالث هذه الدعوات: ربنا ولا تحمل علينا شيئاً أو حملاً ثقيلاً ننوء بحمله، ونعاني المشاق والمتاعب الشديدة من القيام به. ولقد كانت الأمم السابقة لعنادهم وعتوهم، تكاليفهم شاقة، فتوبتهم من الذنب مثلاً بقتل النفس، وإزالة النجاسة بقطع موضعها، ونحو ذلك من الأمور الثقيلة والأعمال الشاقة.

ورابع هذه الدعوات: ربنا ولا تحمّلنا ما لا قدرة لنا عليه من العقوبة والفتن، ولا تشدِّد علينا كما شدَّدت على من كان قبلنا، ولا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق.

وخامس هذه الدعوات وسادسها وسابعها: ربنا اعف عنا فيما واقَعْناه وارتكبناه وسامحنا عن تقصيرنا، واستر علينا ما علمت، واغفر لنا ما بيننا وبين عبادك، فلا تطلعهم ولا تظهرهم على عيوبنا وأعمالنا القبيحة، وتفضل علينا برحمة سابغة شاملة منك لنا، بأن تُوَفِّقَنا حتى لا نقع في ذنب آخر، فأنت يا رب متولي أمورنا، وناصرنا، وعليك توكلنا، وإليك أنبنا ورجعنا، ولا حول ولا قوة إلا بك، وانصرنا على القوم الكافرين، يا رب العالمين.

هذه الأدعية السبعة ذات غرض واحد وهو دخول الجنة، فليحرص المؤمن والمؤمنة على تكرار الدعاء بها، روى البخاري وبقية الجماعة عن ابن مسعود: عن النبي أنه قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتاه». أي عن قيام الليل، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما أظن أحداً عقل وأدرك الإسلام ينام حتى يقرأهما». وروى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «أعطيت هؤلاء الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يعطهن أحد قبلي».

تفسير سورة آل عمران

صفات الله وإنزال الكتب الإلهية

افتتح الله تعالى أول سورة آل عمران المدنية النزول ببيان صفاته العليا، وقدرته الخارقة، وعلمه الدقيق الشامل، وخلقِه بني آدم ورعايته لهم، وإنزالِه الكتب الإلهية لترشد الناس إلى طريق الحق والخير، وتهديهم إلى الصراط المستقيم، فقال سبحانه:

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ(١) ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ(٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ(٣) ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: ٣/ ١-٦].

الله الإله بحق، لا معبود بحق في الوجود إلا هو، فليس في الوجود صاحبُ سلطة قادرة على قهر النفوس وإخضاعها لهيمنته، وبيدها الخير ومنْعُ الضر إلا الله وحده دون سواه، هو الحي الدائم الحياة التي لا أول لها، فلو تعرض لموت ولو ساعة، أو لقهر من غيره، لم يكن إلهاً، وهو القيوم أي القائم على خلقه بالتدبير والتصريف، فبقدرته قامت السماوات والأرض، ودوامها مقصور على إرادته ومشيئته وقدرته.

(١) دائم الحياة، والدائم القيام بتدبير خلقه. (٢) أي ما يفرق بين الحق والباطل كالدلائل والبراهين.
(٣) قوي غالب لا يُغْلَب.

والله الإله بحق هو الذي أنزل القرآن على قلب النبي ﷺ إنزالاً مقروناً بالحق، أي باستحقاق أن يُنَزَّل، لما فيه من المصلحة الشاملة، ومشتملاً على الحقائق الثابتة من خبر وأمر ونهي ومواعظ، وهذا القرآن مصدِّق لما تقدمه من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله، ومؤكد ما أخبرت به وبشرت، والله هو الذي أنزل التوراة على عبده ونبيه موسى، والإنجيل على عبده ونبيه عيسى، فليس المُنَزِّل للكتب على الأنبياء بشراً عادياً من الناس. وتتضمن هذه الكتب الإلهية هداية الناس وإرشادهم إلى الطريق السوي، وإلى الوحي الحكيم وتشريع الشرائع، وأنزل الله في هذه الكتب الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل بالدلائل والبراهين، ووهب الله العقل والفهم للناس ليدركوا ما هو حق ثابت، ويقاوموا ما هو شر زائل.

فكيف يكون إلهاً من ليس متصفاً بهذه الصفات، وإن الذين كفروا بآيات الله الواضحة التي تدل على كمال وصفه وسمو نعته بكل صفات الجمال والجلال والألوهية والربوبية، لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب في الآخرة، وبما كانوا يظلمون، والله قوي لا يغلب، منتقم جبار ممن يشرك به شريكاً آخر، وهو الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ومن مظاهر قدرة الله التي لا تتوافر إطلاقاً لغيره: أنه هو الذي يصوِّر ويكوِّن البشر في الأرحام كيف يشاء من ذكورة وأنوثة، وخصائص وطباع وطول وقصر، وألوان من سواد وبياض ونحو ذلك، وكل ذلك دليل قاطع على أن هذا الخالق المبدع هو الله الذي لا إله إلا هو العزيز (الغالب) الحكيم (ذو الحكمة أو المحكم في مخلوقاته).

أفيعُقل بعد هذا أن يدعي أحد أنه هو الله، أو يوصف من أحد أنه هو الله، إن ذلك هو الافتراء المبين، والضلال الواضح، والإفك والكذب القاطع.

المحكم والمتشابه في القرآن

آيات القرآن نوعان: محكمات أي ظاهرات الدلالة لا خلاف في معناها، ومتشابهات: أي التي لم يظهر معناها ولم يتضح، بل خالف ظاهر اللفظ المعنى المراد. أما الآيات المحكمات: فهي جميع الآيات المتعلقة بالتكاليف الشرعية التي تخص العباد، فهذه لا غموض فيها ولا التباس، مثل فرائض الصلاة والصيام، والحج والزكاة، والإحسان إلى الوالدين وتحريم المحرمات من النساء وتحريم بعض المطعومات والمشروبات كالميتة والدم، والخمر ولحم الخنزير والمذبوح لغير الله، ومثل عبودية الرسل والأنبياء لله وكونهم بشراً في غير النبوة والوحي مثل نوح وإبراهيم وعيسى وموسى ومحمد عليهم السلام، وأما الآيات المتشابهات: فهي التي لا تتعلق بالتكاليف الشرعية، والعلم بها نوع من الترف العقلي والفلسفات التي تختص بالعلماء وأهل النظر والفكر، وهي أنواع، منها لا يمكن العلم به إطلاقاً كأمر الروح، وأوقات الأشياء الغيبية التي قد أعلم الله بوقوعها واختص بمعرفتها، مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج، وقيام دابة من الأرض تكلم الناس، ومجيء الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، ونحو الحروف المقطّعة في أوائل السور، ومن الآيات المتشابهة ماله أكثر من معنى في اللغة ووجوه ومناحٍ في كلام العرب، كقوله تعالى في شأن عيسى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ٤/ ١٧١]. وقوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٥]. وكقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٢٠/ ٥]. وقوله سبحانه: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٠].

فهذه آيات متشابهات تحتمل عدة معان، و يخالف ظاهر اللفظ فيها المعنى المراد، فهي مما استأثر الله بعلمها لأنها من أحوال الآخرة، أو يعلم الله تعالى بها علماً تاماً على الاستيفاء والشمول، وقد يعلم بعضَ جوانبها دون استيفاء الراسخون في

العلم إذا كانت ذات ظواهر علمية دنيوية، ودور العلماء فيها: إدراك بعض النواحي منها المتعلقة بالحس والعقل، وترك حقيقة المغيبات إلى الله تعالى، سبيلهم التسليم إلى الله، قائلين: آمنا بذلك، كل من عند ربنا. وهكذا فإن المحكم: ما لا يحتمل إلا تأويلاً واحداً. والمتشابه: ما احتمل من التأويل أوجهاً.

قال الله تعالى مبيناً المحكم والمتشابه وموقف الناس منهما: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ[(١)] هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ[(٢)] وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ[(٣)] فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ[(٤)] فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ[(٥)] قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٧-٩].

والسبب في اشتمال القرآن على بعض الآيات المتشابهات: هو تمييز الصادق الإيمان من ضعيفه، وإعطاء الفرصة لعقل المؤمن، من أجل البحث، والنظر والتأمل حتى يصل إلى حد العلم الناضج، فيكون الناس على درجات، كلٌ يفهم بقدر عقله وإدراكه، ولكن لا يصح لأحد أن يتصيد من القرآن أو من المتشابهات ما يتفق مع هواه وزيغه، وضلاله وانحرافه، فعلى أهل العلم والعقول الصافية التزام جانب العقيدة الصحيحة المتفقة مع ظواهر القرآن وآياته المحكمة، وهم يقولون: ربنا لا تمل قلوبنا عن الحق بعد هدايتك لنا، وهب لنا من لدنك رحمة ترحمنا وتوفقنا إلى الخير والسداد، إنك أنت الوهاب. ربنا إنك جامع الناس يوم القيامة، يوم لا شك فيه، فاغفر لنا ووفِّقْنا واهدنا، إنك لا تخلف الميعاد.

---

(١) واضحات الدلالة من غير أي اشتباه. (٢) أصله الذي يرد إليه. (٣) خفيات لا تتضح إلا بنظر دقيق.
(٤) ميل وانحراف عن الحق. (٥) لا تملها عن الحق والهدى.

عاقبة الاغترار بالمال والولد

يغتر بعض السطحيين من الناس بما لديهم من ثروات وأموال وأولاد وذرية، ويظنون أنهم أرفع من غيرهم في الدنيا، وأحسن حالاً وعاقبة في الآخرة، ولم يدروا أن المال والولد عرض زائل وظل مائل، وأن الخير في اتباع سبيل الهدى والعمل الطيب، وقد انخدع أعداء المسلمين في بداية عهد الإسلام وسيطر عليهم غرور المال وكثرة الولد والاعتزاز بالقبيلة، فأبان الله سبب عنادهم وغرورهم الزائف في أموالهم وأولادهم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٥]. وردَّ الله عليهم في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، كما في هذه الآيات التالية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ(١) ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ(٢) ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً(٣) لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠-١٣].

قال ابن عباس: إن يهود أهل المدينة قالوا: لما هزم الله المشركين يوم بدر: هذا والله النبي الأمي الذي بشرنا به موسى، ونجده في كتابنا بنعته وصفته، وأنه لا ترد له راية، فأرادوا تصديقه واتّباعه، ثم قال بعضهم لبعض: لا تَعجّلوا حتى ننظر إلى وقعة له أخرى. فلما كان يوم أحد ونُكب أصحاب رسول الله ﷺ شكّوا، وقالوا: والله، ما هو به. وغلب عليهم الشقاء، فلم يُسلموا، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة، فنقضوا ذلك العهد، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة

(١) كعادة وشأن . (٢) بئس الفراش والمضجع جهنم . (٣) لعظة ودلالة .

-أبي سفيان وأصحابه- فوافقوهم وأجمعوا أمرهم، وقالوا: لتكونن كلمتنا واحدة، ثم رجعوا إلى المدينة، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾.

وقال محمد بن إسحاق: لما أصاب رسولُ الله ﷺ قريشاً ببدر، فقدم المدينة، جمع اليهود وقال: «يا معشر اليهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم» فقالوا: يا محمد، لا يغرنَّك أنك لقيت قوماً أغماراً (جهلاء) لا علم لهم بالحرب، فأصبت فيهم فرصة!! أما والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس، فأنزل الله تعالى: قل للذين كفروا -يعني اليهود- ستغلبون -تهزمون- وتحشرون إلى جهنم في الآخرة.

ومعنى الآيات: إن الذين كذبوا بآيات الله ورسله، لن تكون أموالهم ولا أولادهم بدلاً لهم من الله ورسوله تغنيهم يوم القيامة، فإن استمروا في غيهم وضلالهم، فأولئك البعيدون في درجات العتو والفساد وهم وأصحابهم وقود النار الذي توقد به من حطب أو فحم؛ لأن حالهم كحال آل فرعون وقبائل عاد وثمود، كانوا قد كذبوا بآيات الله، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، والله شديد قوي العقاب، سريع الحساب. قل لهم يا محمد: ستغلبون أيها اليهود في الدنيا عن قريب، كما حدث في معاركهم مع المسلمين، وستحشرون في الآخرة إلى جهنم، وبئس المهاد: الفراش الممهَّد، وتالله لقد كان لكم آية عظيمة دالة على صدق القرآن فيكم في لقاء فئتين في موقعة بدر، فئة معتزة بكثرة مالها وعددها، كافرة بالله، والأخرى فئة قليلة العدد، صابرة، مؤمنة بالله، تقاتل في سبيل الله، انتصرت على الفئة الكثيرة من المشركين الذين يقاتلون في سبيل الشيطان.

حب الدنيا وما هو خير منها

الإسلام دين الاعتدال والاتزان والوسطية، فليس العمل في مجاله مقصوراً على الدنيا، ولا مقصوراً على الزهد والآخرة، وليس هو دين رهبنة وتقشف وإهمال للدنيا، ولا دين أخلاق وعبادة وعقيدة فحسب، وإنما هو دين شامل لمصالح الدنيا والآخرة، ويقترن فيه العمل والاعتقاد، والعبادة والاحتراف، والمادة والروح، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٢].

ليس ممنوعاً على المسلم حب الدنيا ومظاهرها، ولكن الممنوع المبالغة والإسراف فيها، والاقتصار عليها، حتى تطغى على الناحية الدينية، وتُهمل أمور الآخرة. ولذا وبّخ الله سبحانه وتعالى الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، ويقصرون هممهم عليها، فقال عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ(١) مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ(٢) مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ(٣) وَٱلْأَنْعَٰمِ(٤) وَٱلْحَرْثِۗ(٥) ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ(٦) ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤].

والمعنى: قد زيّن الله حب الدنيا للناس وغرس حبها في قلوبهم حتى صار غريزة عندهم، وذلك من أجل تعمير الدنيا وتقدمها، فلو لم يحبها الناس لأهملوها وقصّروا في بناء معالمها، وشهوات الدنيا كثيرة تشتمل على حب النساء والأبناء وتكديس الأموال، وجمع الخيول المسومة أي المُعْلَمة أو السائمة التي ترعى في المروج والمراعي، واقتناء الأنعام (المواشي) وزرع الحبوب وإعداد البساتين، وذلك كله متاع الحياة الدنيا وزينتها أي ما يستمتع به وينتفع به لمدة معلومة محصورة، وتذم هذه الأشياء إن

---

(١) المشتهيات طبعاً. (٢) المضاعفة. (٣) المُعْلَمة. (٤) الإبل والبقر والغنم والمعز. (٥) المزروعات.
(٦) المرجع الحسن.

كانت سبباً للشر والبعد عن الله، وعند ذلك تكون خطراً على صاحبها، أما إن كانت سبباً في الخير، ولم تمنع صاحبها من القيام بواجباته الدينية والخيرية والإنسانية، فتكون خيراً له، وعند الله حسن المرجع والمآب.

ثم نبَّه القرآن الكريم إلى ما هو خير من الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ(١) وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ(٢) بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥-١٧]. فالذي هو خير من الدنيا وزينتها هو ما عند الله للمتقين الأبرار من الجنات التي تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار، ماكثين فيها على الدوام أبداً، لا يرغبون في بديل عنها، ولهم زوجات طاهرات من دنس الفواحش والشوائب، وهذا هو الجزاء المادي، وهناك جزاء روحي أرفع منه وهو رضوان الله على عباده الأتقياء، وهو أكبر وأعظم من كل نعمة، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٧٢].

وهذا الجزاء المادي والروحي هو للمتقين الله حقيقة الذين يقولون: ربنا إننا آمنا بك وبرسلك وكتبك إيماناً حقيقياً صادقاً يملأ قلوبنا، فاغفر لنا ذنوبنا، وقنا عذاب النار. وهؤلاء المؤمنون الأتقياء صابرون على تقوى الله وعلى قضاء الله وعلى كل مكروه، وقانتون خاشعون لله متضرعون إليه، ومنفقون أموالهم في سبيل الله ندباً ووجوباً، ومستغفرون الله بالأسحار أي قبل طلوع الفجر، وفي هذا الوقت يكون

(١) المطيعين لله الخاشعين. (٢) الاستغفار: طلب المغفرة من الله تعالى، والأسحار أواخر الليل إلى طلوع الفجر.

الدعاء مستجاباً، ورحمة الله شاملة للتائبين من العصيان. قال النبي ﷺ : «ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر»[١].

الشهادة بوجود الله ووحدانيته وبأحقية دينه

قامت الأدلة الكثيرة والبراهين القطعية من خَلْق الكون وتدبيره على وجود الله وتوحيده، وشهدت العوالم المخلوقة شهادة إقرار وعلم ويقين وإظهار وبيان أن الله تعالى واحد لا شريك له، وأنه قائم موجود بالعدل والحق في كل شيء، في الدين والشريعة والكون والطبيعة، وفي العبادات والمعاملات والآداب، أتقن الله نظام الكون وأحكمه، وعدل بين القوى الروحية والمادية، وكانت الأحكام الشرعية مبنية على أساس التوازن الدقيق بين الفرد والأمة، وبين الفرد والخالق، وبينه وبين نفسه، وبينه وبين أخيه، وبين الأغنياء والفقراء، وبين الدنيا والآخرة، والعقيدة والعمل، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ[٢] لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/١٨].

قال الكلبي مبيناً سبب نزول هذه الآية: لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة، قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام، فلما أبصرا المدينة، قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان. فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم، قالا: وأنت أحمد؟ قال: نعم. قالا: إنا نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدّقناك.

---

(١) أخرجه الصحيحان وغيرهما. (٢) بالعدل.

فقال لهما رسول الله ﷺ : سلاني، فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى على نبيه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ فأسلم الرجلان، وصدّقا برسول الله ﷺ.

وبما أن الله يحب عباده، ويرغب لهم بالخير، أورد عقب الآية السابقة ما ارتضاه وأحبه لعباده منذ أن خلق الخلق وإلى يوم القيامة وهو الإسلام، أي الخضوع والانقياد لله والإيمان به والطاعة، ولا خلاف بين جميع الأنبياء والمرسلين في جوهر الدين وهو الإسلام والسلام والإخاء والمحبة، والتوحيد والعدل في كل شيء، ولم يقع الخلاف بين أهل الكتاب وأتباع الأديان إلا بسبب الحسد والبغي أو الظلم والحفاظ على المراكز القائمة والمصالح المادية، والحرص على الدنيا وما فيها، فمن يكفر بآيات الله الدالة على وجوده وتوحيده وصدق أنبيائه، فإنه ظلم نفسه، والله مجازيه وهو سريع الحساب وشديد العقاب.

وإن حدث جدال بين النبي أو أتباعه وبين أهل الأديان الأخرى، فليقل المؤمن: قد أسلمت وجهي لله وانقدت له وأقبلت عليه بعبادتي مخلصاً لله وحده، معرضاً عما سواه، فإن أسلم هؤلاء المعارضون لهدي الله وقرآنه، فقد اهتدوا إلى الطريق المستقيم، وإن تولوا وأعرضوا فما على الداعية أو الرسول إلا الإبلاغ فقط، والله بصير بخلقه، عليم بحالهم، فيحاسبهم ويجازيهم، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ(١) وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا(٢) بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ(٣) لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ(٤) ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ

(١) الشرع القائم على التوحيد مع التصديق والعمل به. (٢) حسداً. (٣) أخلصت نفسي وعبادتي لله.
(٤) مشركي العرب.

أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩-٢٠].

جزاء قتل الأنبياء وحكم الإعراض عن بيان الله

لن يغتفر التاريخ جرائم قتلة أهل الحق والدفاع عن القيم الدينية وعن مصالح الأوطان وحماية البلاد، ولن ينجو قتلة الأنبياء وقتلة أهل المعروف من العقاب الشديد في الآخرة، وهؤلاء المجرمون بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة، ومالهم في الآخرة من ناصرين ولا شفعاء، لأنهم حرموا المجتمع والأمة من الخير والاهتداء بهدي الله ودينه، وصدّوا الأنبياء عن قول الحق وتبليغ الرسالة، وآذوا بالقتل وغيره كل من آزرهم ونصرهم، ونصحهم وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر من أهل العلم والعدل، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ[١] مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ[٢] أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٢١-٢٢].

روى ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبياً، أو قتل من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ ثم قال الرسول: «يا أبا عبيدة قتلت بنو

---

(١) أي بالعدل . (٢) أي بطلت أعمالهم .

إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار، في ساعة واحدة، فقام مئة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر، فقتلوهم جميعاً من آخر النهار، من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عز وجل».

ثم أبان الله تعالى فى قرآنه حكم المعرضين عن بيان الله وهديه، والمعرضين عن القرآن وإرشاده، فقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا(١) لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ(٢) فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ(٣) ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٣-٢٥].

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بسبب أن رسول الله ﷺ دخل بيت المِدْراس(٤) على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد من يهود بني قينقاع: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ : أنا على ملة إبراهيم، فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً، فقال لهما النبي عليه السلام: «فهلموا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم» فأبيا عليه، فنزلت هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾.

إن هؤلاء المعادين يترددون في قبول حكم الله، ثم يعرضون عن قبول كتاب الله، وشأنهم دائماً الإعراض والعناد، وما شجعهم على هذا العناد والجحود إلا اعتقادهم الباطل أنهم لا تصيبهم النار إلا أياماً قليلة، ثم يدخلون الجنة في زعمهم، وهذا مجرد وَهْم وافتراء، فلقد غرهم ما كانوا يختلقون في الدين، كقولهم: إن الأنبياء ستشفع

(١) أي اليهود. (٢) خدعهم وأطمعهم في غير مطمع. (٣) أي يختلقون ويكذبون على الله. (٤) المِدْراس: الموضع الذي يدرس فيه كتاب الله.

لنا، ونحن أولاد الأنبياء، وأحباء الله، وشعب الله المختار، وستتبدد كل هذه الدعاوى إذا جمعهم الله يوم القيامة الذي لا شك فيه، وتوفى كل نفس ما كسبت من خير أو شر، وهم لا يظلمون.

من أدلة قدرة الله تعالى

كان المشركون ينكرون النبوة لشخص بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وأنكر أهل الكتاب النبوة في غير بني إسرائيل، وتعجب المنافقون واليهود من بشائر النبي ﷺ لأمته، روى الواحدي عن ابن عباس وأنس بن مالك قالا: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، ووعد أمته مُلْك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد مُلْك فارس والروم؟ هم أعز وأمنع من ذلك[1]، ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم، فأنزل الله تعالى هذه الآية:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ[2] ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[3] ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٦-٢٧].

وقال قتادة: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ..﴾ الآية.

هذه بعض الأدلة على قدرة الله تعالى وعظمته، فهو مالك الملك، وهو المعطي والمانع، يؤتي الملك والنبوة من يشاء من عباده كآل إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٥٤].

---

(١) أي هم أشد وأقوى من ذلك. (٢) تدخل. (٣) بلا نهاية في العطاء.

وقد يعطي الله ملكاً فقط كسائر الملوك الدنيويين القدامى والمعاصرين، وقد ينزع الله الملك ممن يشاء من الأفراد والأمم بسبب ظلمهم وفسادهم وسوء سياستهم، كما نزع الملك من كثير من الدول والأشخاص، والله سبحانه يعز من يشاء ويذلّ من يشاء، والعزة والذلة لا تتوقف على الملك أو المال، فكل إنسان معرض للذل والعز بمقتضى إرادة الله، والله وحده بيده الخير، فكل ما كان أو يكون لا يخلو من خير ونعمة، لصاحبه نفسه أو لغيره من الناس، إن الله قدير تام القدرة على كل شيء، ولا يفعل شيئاً إلا بمقتضى الحكمة والمصلحة والعدل.

ومن أدلة قدرة الله تعالى وتمام مُلْكه وعظمته: أن الله يدخل الليل في النهار فيزيد منهما وينقص، ويدخل النهار في الليل زيادة ونقصاً، بيده الأمر، والكون في قبضته، والسماوات والأرض مطويات بيمينه. وهو سبحانه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي حياة مادية واضحة كإخراج النبات الرطب من الحب اليابس وعلى العكس، وحياة معنوية ملحوظة كإخراج العالِم من الجاهل، والجاهل من العالم، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

ومن أدلة قدرة الله أنه يرزق جميع المخلوقات في الدنيا والآخرة، يرزق من يشاء بغير حساب يُطلب منه، ولا رقيب عليه، وبغير تعب ولا مشقة، فله سبحانه خزائن السماوات والأرض، التي لا تنفَد ولا تغيض، ولا تفنى ولا تنقص، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وهو الخالق لكل شيء.

موالاة الأعداء

المسلم قاعدة صلبة وأمينة في بنية المجتمع الإسلامي، فلا يفرِّط في حق من حقوق أمته، ولا يغدر ولا يخون ولا يغش أحداً، ولا يكون جاسوساً للأعداء، ولا يظهر

اللطف لهم والميل إليهم إلا بمقدار ما تقتضيه المصلحة العامة العليا، ولا يناصر الأعداء، أو يعمل ضد مصلحة أمته المؤمنة.

وهذا ما حذّر منه القرآن الكريم في آيات كثيرة، وهدد المخالفين المتواطئين على مصلحة الأمة ومصيرها، فقال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً(١) وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ(٢) وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾ [آل عمران: ٣/٢٨]. فلا تجوز موالاة الأعداء ومناصرتهم فهذا أمر يُنَفِّر منه الشرع ولا يقره الدين في أي حال، إلا في حال الخوف منهم واتقاء أمر يجب اتقاؤه كالقتل وقطع الأعضاء والضرب بالسوط والسجن والتهديد والوعيد وسائر أنواع التعذيب. وذلك إذا كان المرء في دار الأعداء، فإذا داراهم الإنسان أحياناً باللسان فقط وتحاشى أذاهم، فذلك أمر جائز شرعاً، ويكون المؤمن في هذه الحال مكرهاً، والله تعالى يقول: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ .[النحل: ١٦/١٠٦].

وسبب نزول آية النهي عن موالاة الأعداء: هو ما قاله الكلبي: نزلت هذه الآية في المنافقين عبد الله بن أبّي وأصحابه، كانوا يتولون اليهود والمشركين، ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم.

وهناك سبب آخر ذكره ابن عباس، فقال: نزلت الآية في عبادة بن الصامت الأنصاري، وكان بدرياً نقيباً(٣)، وكان له حلفاء من اليهود، فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال عبادة: يا نبي الله، إن معي خمس مئة رجل من اليهود، وقد رأيت

(١) تخافوا من جهتهم أمراً . (٢) يخوفكم الله . (٣) أي حضر موقعة بدر الكبرى، وحضر بيعة العقبة وكان أحد النقباء (العرفاء) الاثني عشر الذين اختارهم النبي عرفاء على قومهم.

أن يخرجوا معي، فأستظهر بهم على العدو، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية. ثم هدد الله المخالفين المتواطئين على مصير أمتهم بقوله: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا[(١)] وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ[(٢)] ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/٢٩-٣٠].

والمعنى: إن الله تعالى يعلم كل ما يخفيه الناس في صدورهم، أو يظهرونه، والله يعلم أيضاً جميع ما يحدث في السماوات والأرض، ومن ذلك الميل إلى الأعداء أو البعدُ عنهم، والله تام القدرة على كل شيء.

وليحذر الإنسان يوم القيامة الرهيب، ففيه يجد كل إنسان ما قدمه من عمل خير أو شر، قليل أو كثير، فإن كان العمل خيراً سُرَّ صاحبه، وإن كان شراً ودَّ صاحبه أن يكون بينه وبين عمله بُعْدُ ما بين المشرقين. ويحذر الله الناس عقابه الصارم إن خالفوا، والله رؤوف بالعباد إن أطاعوا والتزموا الأوامر واجتنبوا النواهي.

والخلاصة: حرَّم الله إفشاء الأسرار للأعداء التي تضر الجماعة الإسلامية، ولا مانع من معاملة غير المسلمين معاملة حسنة إذا لم يتآمروا علينا أو يضرونا بضرر، وأما الأعداء الذين أخرجوا المسلمين من بلادهم كفلسطين وغيرها، فلا تحل موالاتهم، بل تجب معاداتهم حتى نحرر الأراضي المحتلة.

---

(١) مشاهداً في الصحف. (٢) يخوفكم الله ذاته.

الطاعة والولاء أساس المحبة

يزعم بعض الناس أنهم يحبون الله ورسوله، ولكنهم لا يتبِّعون شيئاً من أوامر الله ورسوله، ولا يلتزمون جادة الطاعة، وتراهم في واد وأحكام الشرع في واد آخر، ومثل هذا الموقف لون من ألوان التناقض الذي لا يقره شرع ولا عقل، ونوع من أنواع الازدواجية الممقوتة التي يلبس فيها الإنسان لباسين ويتحلى بحلتين.

فمن أهم ركائز المحبة إظهار الطاعة، والانقيادُ للأوامر الإلهية، لذا قال الإمام الشافعي:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع

لو كنت تظهر حبه لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وتكررت أوامر القرآن الكريم بالطاعة، فقال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٠]. ووبَّخ أولئك الذين يدَّعون محبة الله ورسوله، ويعصون أوامرهما، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١-٣٢].

ذكر العلماء عدة أسباب متشابهة لنزول هذه الآية، ولا مانع من تكرار الأسباب، واتحاد الجواب، قال الحسن البصري وابن جريج، زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، فقالوا: يا محمد، إنا نحب ربنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن عباس: وقف النبي ﷺ على قريش، وهم في المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامهم، وعلَّقوا عليها بَيْض النَّعام، وجعلوا في آذانها الشنوف(١)، وهم يسجدون

(١) أي حلي الآذان .

لها، فقال: يا معشر قريش، لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل، ولقد كانا على الإسلام، فقالت قريش: يا محمد، إنما نعبد هذه حباً لله، ليقربونا إلى الله زلفى. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ وتعبدون الأصنام لتقربكم إليه، ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فأنا رسوله إليكم وحجته عليكم، وأنا أولى بالتعظيم من أصنامكم.

وقال ابن عباس أيضاً: إن اليهود لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، أنزل الله تعالى هذه الآية، فلما نزلت عرضها رسول الله ﷺ على اليهود، فأبوا أن يقبلوها.

ومضمون الآيتين: قل لهم يا محمد: إن كنتم تحبون الله حقيقة، فاتبعوني فإن ما جئت به هو من عند الله، والمحب المخلص الصادق حريص على إرضاء المحبوب، وامتثال أمره واجتناب نهيه، فإن اتبعتموني يحببكم الله ويوفقكم للخير، ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم.

قل لهم يا محمد: أطيعوا الله باتباع كلامه، واتبعوا الرسول باتباع منهجه وسنته، والاهتداء بهديه واقتفاء أثره، فإن تولوا وأعرضوا ولم يجيبوا دعوتك غروراً منهم بدعوى أنهم محبون لله وأنهم أبناؤه، فاعلم أن الله لا يحب الكافرين الذين لا يتأملون في آيات الله، ولا يهتدون إلى الدين الحق والشرع الحنيف، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنه يعذبهم ويعاقبهم على كفرهم بالله وبرسوله، وهذا وعيد وتهديد يستحق التأمل والتعقل.

اصطفاء الأنبياء

يختار الله عز وجلَّ أنبياءه ورسله، لما يجده فيهم من مقومات عظيمة ومؤهلات عالية، ولما يراه مناسباً لقومهم، ويلائم عصرهم وزمانهم. وهذا منهج يتبعه القادة والحكام، فإنهم يبعثون الرسل والسفراء إلى أمراء العالم وحكامهم، ويختارونهم

اختياراً موفقاً يؤدون فيه مهامهم أداء حسناً. غير أنه مع الأسف الشديد يرفض بعض الجهلاء هذا المبدأ العقلي السليم، فهؤلاء المشركون وأهل الكتاب كانوا ينكرون على النبي محمد ﷺ نبوته؛ لأنه بشر مثلهم، وليس من بني إسرائيل، فيرد الله عليهم: إن الله اصطفى آدم أبا البشر ونوحاً الأب الثاني، واصطفى من ذريتهما آل إبراهيم، ومن آل إبراهيم آل عمران.

والمشركون الوثنيون يعترفون باصطفاء آدم ونوح وآل إبراهيم، لأنهم من سلالته، وبنو إسرائيل يعترفون بهذا وباصطفاء آل عمران، لأنهم من سلالة (إسرائيل) يعقوب حفيد إبراهيم.

وإذا كان الله اصطفى هؤلاء على غيرهم من غير مزية سبقت، فما المانع من اصطفاء محمد ﷺ بعد ذلك على العالمين، كما اصطفى آل عمران على غيرهم. واصطفى: أي اختار صفو الناس.

لقد أوضح القرآن الكريم سنة الله تعالى في اختيار الرسل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ(١) ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٣-٣٤].

والمعنى: إن الله اختار آدم أبا البشر، فجعله نبياً إلى بنيه، واختار الله نوحاً وجعله أول رسول بُعث إلى الناس لما عبدوا الأوثان، وانتقم الله بإغراقهم، ونجاتِه هو ومن اتبعه. واختار الله للنبوة والرسالة آل إبراهيم الخليل، ومنهم سيد البشر وخاتم النبيين محمد. واصطفى الله من ذرية إبراهيم آل عمران، وعمرانُ هذا: هو أب مريم وجدّ عيسى عليه السلام.

---

(١) اختار.

اختار الله هؤلاء وجعلهم صفوة الخلق وخيارهم، وجعل فيهم النبوة والرسالة. ثم ذكر الله تعالى قصة مريم، فكما أنها وُلدت من أم عاقر، على خلاف المألوف أو المعهود، وقبلت في خدمة البيت أو هيكل العبادة، بالرغم من أنها أنثى، فلِمَ يستغرب المشركون واليهود أن يرسل الله نبياً عربياً ليس من ذرية إسرائيل (يعقوب).

وأم مريم بنت عمران: هي حنة بنت قاذوذ، وقصتها في القرآن هي:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا[١] فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ[٢] وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا[٣] بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ[٤] وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

[آل عمران: ٣/ ٣٥-٣٧].

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام واصطفاء مريم

تعجب زكريا عليه السلام من حال مريم البتول القانتة المتفرغة للعبادة، وما يجده عندها من رزق وفير، فدعا ربه أن يرزقه ولداً صالحاً من ولد يعقوب عليه السلام، فبشرته الملائكة وهو يصلي في المحراب بيحيى عليه السلام، وهذا ما قصّته علينا الآيات التالية:

---

(١) أي معتقاً خالصاً للعبادة وخدمة المسجد. (٢) أي العابدة خادمة الرب. (٣) أي أحصّنها وألجأ إليك لحمايتها وصونها. (٤) المحراب: المبنى الحسن كالغرف الخاصة والعلالي ونحو ذلك، ومحراب القصر: أشرف ما فيه، وموقف الإمام أشرف ما في المصلى.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨
فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ
وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا(١) وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ(٢) لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ
ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ(٣) قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ
ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ(٤) وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ(٥)
وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ
نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ(٦) أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ
يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٨-٤٤].

دعا زكريا عليه السلام أن يرزقه الله ولداً صالحاً، مثل مريم، من ولد يعقوب عليه السلام، قائلاً: يا رب أعطني من عندك أولاداً طيبين، لأنهم فرحة العين، ومجلى القلب، إنك سميع قول كل قائل، مجيب دعوة كل دعاء صالح.

فخاطبته الملائكة شفاهاً، والمخاطِب: هو جبريل عليه السلام، وذلك أثناء قيامه للصلاة، يدعو الله، ويصلي في المحراب، وقالت له: إن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى، مصدقاً بعيسى الذي ولد ونشأ بكلمة الله: (كن) لا بالطريقة المعتادة من الولادة من أب وأم. ويكون سيد قومه، وزاهداً مانع نفسه من الشهوات، ونبياً يوحى إليه.

وبشارة أخرى أن يحيى عليه السلام سيد قومه، والمحصَّنُ والمعصومُ من الذنوب،

---

(١) لا يأتي النِّساء مع القدرة تعففاً وزهداً. (٢) كيف يكون؟ (٣) عقيم لا تلد لبلوغها ٧٨ سنة.
(٤) تعجز عن مكالمتهم بغير آفة إلا إيماء وإشارة. (٥) صلِّ من الزوال إلى الغروب. (٦) يطرحون سهامهم للاقتراع بها.

والمانع نفسه من شهواتها، وهو نبي صالح يوحى إليه، وهذه بشارة أخرى بنبوة يحيى، بعد البشارة بولادته.

تعجب زكريا عليه السلام من هاتين البشارتين، فقال: كيف يكون لي غلام، وقد أصبحتُ كبير السن، وامرأتي عقيم لا تلد، فأجابته الملائكة: كذلك الله يفعل ما يشاء، أي مثل ذلك الخلق غير المعتاد الحاصل مع امرأة عمران، يفعل الله ما يشاء في الكون. فطلب زكريا من ربه أن يجعل له علامة تدل على الحمل ووجود الولد منه، استعجالاً للسرور، أو ليشكر تلك النعمة، فجعل الله علامة ذلك ألا يقدر على كلام الناس مدة ثلاثة أيام متوالية، إلا بالإشارة والرمز بيد أو رأس أو نحوهما. وأمره الله أن يذكر ربه ويكبره ذكراً كثيراً، ويسبّحه أو ينزهه عما لا يليق به طوال الوقت، ولا سيما عند الصباح والمساء.

واذكر أيها النبي حين قالت الملائكة لمريم: يا مريم، إن الله لكثرة عبادتك وزهدك اختارك رمزاً لسمو الأخلاق والصفات، وطهرك من الأكدار والعيوب، والوساوس والدناءات، وطهرك من عادات النساء كالحيض والنفاس والولادة من غير جماع، وفضلك على نساء العالمين في زمانك.

يا مريم، الزمي الطاعة والخضوع والخشوع لله، واسجدي له مع التعظيم، وصلّي جماعة مع المصلين.

تلك القصص التي أخبرناك عنها أيها النبي، من أخبار زكريا ويحيى ومريم: هي من أخبار الغيب التي لم تطلع عليها أنت ولا أحد من قومك، وإنما هي بالوحي الذي أوحينا به على يد جبريل الأمين، ولم تكن حاضراً معهم حينما جاءت امرأة عمران، وألقت مريم في بيت المقدس، وتنافس الأحبار في رعايتها وخدمتها.

ولم تكن حاضراً حين تنازعوا في كفالتها، وأخذوا يقترعون في شأن الكفالة، لأنك أمي، فلم يبق لك طريق للعلم إلا الوحي من الله تعالى.

قصة عيسى عليه السلام
-ولادته وبعثته ومعجزاته-

قصص القرآن العجيبة مدعاة للإيمان والاعتبار والاتعاظ، وهي غالباً قصص للأنبياء والمرسلين تتضمن المعجزات والدلائل الدالة على صدق الوحي والرسالة والنبوة، وتظل ناطقة بقدرة الله تعالى على الاستثناءات كما هي في الأحوال المعتادة، حيث يخلق الله تعالى المعجزة على يد نبي أو رسول، لتدل على صدقه في دعواه الرسالة أو النبوة، ومن هذه القصص ما مرَّ سابقاً من قصص زكريا ويحيى ومريم، وما يذكر هنا من قصة ولادة عيسى من غير أب، ومعجزاته، وتعليم الله له الكتاب (الكتابة) والحكمة (العلم النافع) والتوراة والإنجيل، كما في الآيات التالية:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ[(١)] ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا[(٢)] فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ[(٣)] وَكَهْلًا[(٤)] وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا[(٥)] فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ[(٦)] وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ[(٧)] لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ[(٨)] وَٱلْأَبْرَصَ[(٩)] وَأُحْىِ

(١) المراد بها عيسى، سمي بالكلمة لأنه وجد بكلمة (كن فيكون) من غير وسائط. (٢) ذا جاه وشرف. (٣) في السرير وقت الرضاع. (٤) عهد اكتمال القوة. (٥) أراد شيئاً أو حتّمه. (٦) الصواب في القول والعمل. (٧) أصور وأقدر. (٨) الذي ولد أعمى. (٩) الذي به برص أي بياض في الجلد منفر.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ[١] فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٤٥-٥١].

اذكر أيها النبي حين قالت الملائكة: يا مريم، إن الله يبشرك بمولود منك من غير أب هو الكلمة، أي وجد بكلمة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ من الله، من غير واسطة بشر، اسمه المسيح عيسى ابن مريم، فهو منسوب إليك، ولقب بالمسيح، لمسحه بالبركة أو بالدهن الذي يمسح به الأنبياء، وهو ذو جاه في الدنيا بالنبوة، وفي الآخرة بالشفاعة وعلو الدرجة، ومن المقربين إلى الله يوم القيامة.

ويكلم الناس وهو طفل صغير في المهد: مضجع الطفل حين الرضاع، وفي الكهولة: ما بعد الثلاثين أو الأربعين إلى الشيخوخة، أي يكلم الناس في الحالين بالوحي والرسالة، وهو من العباد الصالحين.

قالت مريم مستبعدة الأمر بحكم العادة: كيف يكون لي ولد، ولم يقربني رجل؟ فأجابها الوحي بالإلهام: مثل ذلك يخلق الله ما يشاء من العدم بمقتضى قدرته وحكمته، وإذا أراد أمراً أو شيئاً ممكناً، أوجده بكلمة ﴿كُن﴾ فيكون كما أراد.

ويعلّم الله عيسى الكتابة والخط، والعلم النافع وفهم أسرار الأشياء، والتوراة التي أنزلها على موسى، والإنجيل: الكتاب الذي أوحي إليه من بعد ذلك.

ويرسله الله رسولاً إلى بني إسرائيل: أني أنبئكم بعلامة دالة على صدق نبوتي ورسالتي، وهي أنني أصورّ لكم من الطين شيئاً كهيئة الطير، فأنفخ فيه، فيصير حياً

(١) ما تتركونه مخبأ للأكل في المستقبل .

كهيئة سائر الطيور، بإرادة الله، فالخلق الحقيقي من الله، وأبرئ الأكمه: الذي ولد أعمى، والأبرص الذي به البرص: وهو بياض يظهر في الجلد منفّر، وخصّ هذان المرضان، لاستحالة الشفاء منهما في العادة الغالبة، وأحيي الموتى، وكل ذلك بإرادة الله تعالى، وأخبركم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم من الحبوب وغيرها، مما لا يطلع عليه الناس عادة، إن في جميع ما ذكر دليلاً قاطعاً، وحجة ظاهرة على صدق رسالتي، إن كنتم مصدقين بالرسالات الإلهية.

وجئتكم مصدقاً لما سبقني من التوراة، عاملاً بها، مخففاً بعض أحكامها، أحل من الطيبات بعض ما حرم عليكم في التوراة، كلحوم كل ذي ظفر كالأوز والإبل، وشحوم الأنعام، وجئتكم بحجة شاهدة على صدقي من الله، فخافوا عذابه، وأطيعوني فيما دعوتكم إليه، وتابعوني في ديني ودعوتي لتوحيد الله. إن الله ربي وربكم، لا إله غيره ولا رب سواه، وأنا عبده، فاعبدوه وحده لا شريك له، هذا هو الطريق القويم الواضح الذي لا اعوجاج فيه.

عيسى عليه السلام مع قومه

دعا عيسى عليه السلام قومه الإسرائيليين إلى عبادة الله وحده، فآمن به بعضهم، وأعرض آخرون، وتلقى منهم الأذى والتهديد بالقتل، فأنجاه الله، وجوزي المؤمنون بمرضاة الله، وأنذر الله الكافرين بعذاب شديد، ورد على من زعم ألوهية عيسى، فليس مَثَله إلا مثل آدم، وجد بكلمة الله التكوينية، ودعي الخصوم إلى المباهلة (الدعاء باللعنة على الكاذبين) وذلك في الآيات التالية:

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ[1] نَحْنُ

(١) أنصار عيسى وخلصاؤه .

أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ(١) وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ(٢) وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ(٣) عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ(٤) ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ(٥) نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ(٦) فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٢-٦٣].

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال: أتى رسول الله ﷺ راهبا نجران، فقال أحدهما: من أبو عيسى؟ وكان رسول الله ﷺ لا يعجل حتى يؤامر ربه، فنزل عليه: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾

وقال المفسرون: إن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ : مالك تشتم صاحبنا؟ قال: وما أقول؟ قالوا: تقول: إنه عبد، قال: أجل، إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فإن

(١) دبر تدبيراً محكماً . (٢) آخذك وافياً تاماً بروحك وبدنك . (٣) حاله وصفته العجيبة . (٤) الشاكين .
(٥) أقبلوا عازمين . (٦) ندع باللعنة .

كنت صادقاً فأرنا مثله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾

لما شعر عيسى من قومه بني إسرائيل بالتصميم على الكفر، قال: من ينصرني ويعينني في الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة إلى الناس؟ قال الحواريون (أنصاره وتلاميذه) الاثنا عشر رجلاً: نحن أنصار دين الله ورسلِه، آمنا بالله وحده، واشهد يا عيسى بأننا مخلصون في إيماننا، منقادون لرسالتك، مطيعون لأوامرك.

ربنا إننا صدقنا بما أنزلت من الوحي على نبيك، وامتثلنا أوامر رسولك، فاجعلنا من الشاهدين يوم القيامة لك بالوحدانية، ولرسولك بالصدق.

- ومكر كفار بني إسرائيل، أي دبروا تدبيراً خفياً لقتل عيسى، وأبطل الله مكرهم ودبر تدبيراً محكماً بإلقاء شبه عيسى على أحد الحواريين، ورفع عيسى إلى السماء، حياً بجسده وروحه، والله خير وأنفذ وأقوى المدبرين.

- واذكر أيها النبي حين قال الله تعالى: يا عيسى، إني مستوفٍ أجلك في الدنيا، وقابضك، والتوفي: الإماتة العادية، ورافعك إلي بروحك وبدنك، بجعلك في منزلة رفيعة كإدريس والصالحين، ومخلّصك من خبث الكافرين ومكرهم، ومبعدك من سوء عملهم، وجاعل أتباعك الذين آمنوا برسالتك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وهي فوقية قدر، وعلو فضائل، وقوة حجة، ومن هؤلاء: المسلمون الذين آمنوا بعيسى رسولاً وبما يستحقه من دون غلو، ثم يكون إلي رجوعكم جميعاً، فأحكم بين المؤمنين الأتباع وبين الكفار به، فيما تختلفون فيه من شأن المسيح وصلبه وأمور الدين كلها.

- فأما الكفار فلهم عذاب شديد في الدنيا بأنواع العقاب، وفي الآخرة بنار جهنم، وليس لهم أنصار ينصرونهم ويمنعون عنهم العذاب.

وأما المؤمنون الذين يعملون صالح الأعمال التي أمر الله بها، فيعطيهم الله ثواب أعمالهم كاملاً وافراً، والله يعاقب الظالمين أنفسهم، الذين كفروا بالله ورسله، وعصوا أوامر ربهم.

- ذلك المذكور من أخبار عيسى ومريم، نقصه عليك أيها النبي، من جملة الآيات والعلامات الدالة على صدق نبوتك، ومن القرآن المحكم الذي لا خلل فيه.

- إن شأن عيسى الغريب كشأن آدم الذي خلقه الله من التراب، ثم أوجده بقوله: كن بشراً، فكان، بل أمر آدم أغرب، فإنه لا أب له ولا أم، لخلقه من التراب.

- هذا الذي أوحي إليك أيها النبي، هو الحق الثابت من ربك، فلا تكن من الشاكين فيه، والنهي للرسول ﷺ لزيادة التثبيت والتأكيد، ومثله كل سامع متأمل.

- فمن جادلك في شأن عيسى بغير حق، من بعد ما جاءك من الوحي والخبر بحقيقة الأمر، فقل لهم: هلموا لنجتمع جميعاً مع الأولاد والنساء، ثم ندعوا الله خاشعين، ونقول: اللهم العن الكاذب في شأن عيسى.

- إن هذا الذي ذكرت من أمر عيسى، لهو القصة الواقعية لولادة عيسى عليه السلام، ونشأته ومنهجه في دعوته، ولا يوجد إله يعبد بحق غير الله تعالى وحده، خالق كل شيء، وإن الله لهو القوي الغالب في هذا الكون، الحكيم في صنعه وتدبيره.

- فإن أعرضوا عن هذا الحق المبين واتباع عقيدة التوحيد التي دعا إليها جميع الأنبياء، فهذا الإعراض هو الفساد بعينه، لأنه شرك وكفر، والله عليم بالمفسدين، وسيعاقبهم على إفسادهم.

دعوة الأمم إلى توحيد الله من عهد إبراهيم

أراد الله سبحانه وتعالى أن يجمع الأمم على ملة واحدة وهي ملة التوحيد لله عز وجل، فلا يكون هناك تعدد بين الآلهة، ولا شرك ولا وثنية، ولا أبوة ولا بنوة لله تعالى، وهذا أمر سهل يسير، وله أهداف سامية عالية، من أهمها منع التنازع والخصام بين الناس، وإشاعة المودة والمحبة بين الأفراد، لذا أمر الله نبيه أن يدعو الناس إلى العدل والوسط والكلمة السواء: وهي ألا نعبد جميعاً إلا الله، وألا نشرك به شيئاً، وألا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من غير الله، فكل دين سماوي لا يختلف عن الآخر في إثبات الوحدانية والربوبية لله تعالى. وإذا كان الأمر على هذا المنهج المعتدل الوسط، فهيّا بنا جميعاً إلى إعلانه واتباعه وإذابة الفوارق وتوحيد العقيدة، وإن اعترضنا شيء من سوء التفاهم والخلاف، وجب أن نرده إلى أصل التوحيد وكلمته، فلا نقول: إن أحد البشر هو ابن الله، فإن تولى المشركون وأهل الكتاب عن هذه الدعوة الصريحة وأعرضوا عن قبولها، فقولوا أيها المؤمنون: اشهدوا بأنا مسلمون حقاً منقادون لله، نعبده وحده مخلصين له الدين، وأما أنتم فلستم هكذا.

قال الله تعالى مقرراً هذا المنهج المعتدل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ[1] بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤].

التزم النبي ﷺ بالكلمة السواء هذه، وكتب بها إلى هرقل عظيم الروم وإلى غيره من أمراء وملوك العالم، ودعا بها أهل الكتاب في الجزيرة العربية، وكذلك ينبغي أن يُدعى بها أهل الكتاب إلى يوم القيامة.

ثم أوضح القرآن حقيقة ملة إبراهيم عليه السلام، وهي ملة التوحيد، ورد على

---

(١) كلمة عدل ووسط.

المحاجة في شأن إبراهيم، وأنه كان قبل نزول التوراة والإنجيل، فلم يكن إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً أي مائلاً عن الشرك بالله والوثنية، وكان مسلماً أي منقاداً لله سبحانه وتعالى، وما كان من المشركين كمشركي العرب.

وإن أحق الناس وأجدرهم بشرف الانتماء إلى إبراهيم هو محمد رسول الله والمؤمنون بدعوته، وهؤلاء هم أتباع إبراهيم حقاً، لاتفاقهم معه في الوحدانية والألوهية لله تعالى، والله ولي المؤمنين وناصرهم، قال الله تعالى مبيناً القول الفصل في ملة إبراهيم وفي المحاجة التي أثيرت حوله:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا[1] مُّسْلِمًا[2] وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ[3] ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٥-٦٨].

وسبب نزول هذه الآية: أن اليهود سألوا النبي ﷺ فقالوا: والله يا محمد، لقد علمت أنّا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك، وأنه كان يهودياً، وما بك إلا الحسد، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . .﴾ قال النبي ﷺ فيما رواه سعيد بن منصور عن ابن مسعود: «لكل نبي ولاة من النبيين، وإن وليي منهم أبي، وخليل ربي عز وجل» ثم قرأ هذه الآية.

---

(١) مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق. (٢) منقاداً لله مطيعاً موحداً. (٣) ناصرهم ومجازيهم بالحسنى.

التلاعب بالدين

لقد أدى بزوغ فجر الإسلام إلى حدوث تشنجات ومواقف تعصبية من أهل الكتاب، ومحاولات إضلال المسلمين، ومعارضتهم آيات الله في التوراة والإنجيل، وترك العمل بمقتضاها، وخلط الحق بالباطل، والإيمان ببعض الكتاب أو القرآن والكفر ببعضه الآخر، وخلط كلام الله بكلام البشر المخترع الباطل، وكتمان الحق الصريح الواضح، وهو البشارة بالنبي محمد ﷺ التي هي في الكتب السابقة.

سجّل القرآن الكريم هذه المواقف لأهل الكتاب، وروي أن معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، دعاهم اليهود إلى دينهم، وترك دين الإسلام، فنزلت الآية التالية: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٩]. وهذا دليل على حبهم العميق فتنة المسلمين وإضلالهم.

ثم وبخهم الله تعالى على لسان نبيه ﷺ قائلاً لهم: لأي سبب تكفرون بآيات الله التي هي آيات القرآن، وأنتم تشهدون أن أمر محمد وصفته آيتان في كتابكم؟ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ(١) ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٠-٧١]. أي أنكم تعلمون شأن محمد ﷺ، وتقفون معه موقف العناد الظاهر.

ثم أخبر الله تعالى عن موقف متعصب آخر لليهود، وهو أن طائفة من أحبارهم من يهود خيبر أرادوا خديعة المسلمين، فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ(٢) وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ(٣) أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ

---

(١) تخلطون . (٢) أي أول النهار . (٣) وهذا اعتراض بين أجزاء كلام اليهود ، وهو من كلام الله وقوله لنبيه .

يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٢-٧٤].

والمعنى: قالت جماعة من أهل الكتاب لأتباعهم: آمنوا بمحمد أول النهار، واكفروا آخره، فإن سئلتم عن السبب، قولوا: آمنا، حتى إذا رجعنا إلى التوراة والإنجيل، عرفنا أنه ليس النبي المبشر به في التوراة، فلعل ذلك يكون مدعاة لرجوع من آمن بمحمد عن دينه، وقالوا لأتباعهم أيضاً: ولا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم، فلا تظهروا ما عندكم للمسلمين حتى يتعلموه منكم، أو يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم، فتتغلب حجتهم عليكم في الدنيا والآخرة، فرد الله عليهم بأن الله هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان، بما يُنزل على رسوله من الآيات البينات، أي ليس إظهاركم للحق أو إخفاؤكم، له دخل في الهداية، بل الهداية من الله وتوفيقه، والفضل بيد الله، يؤتيه من يشاء، و يختص برحمته من يشاء، كإعطاء النبوة لمحمد، والله دائماً ذو الفضل العظيم.

وهذا تكذيب لليهود في قولهم: نبوة موسى مؤبدة، ولن يؤتي الله أحداً مثل ما آتى بني إسرائيل من النبوة والشرف. إن النبوة اصطفاء واختيار من الله، لا من أجل مصلحة أحد، وإنما للمصلحة العامة.

الأمانة والأيمان عند اليهود

لقد أنصف القرآن الكريم اليهود، فأخبر أنهم قسمان في الأمانة وحلف الأيمان، فمنهم من يتصف بالأمانة التامة، ومنهم من يتصف بالخيانة وعدم الوفاء بالعهد

واستحلالهم أكل أموال العرب. ومنهم من يحلف بالله صدقاً، ومنهم من يحلف بالله كذباً وافتراء.

وأنزل الله تعالى آيات في كتابه المجيد تعبر عن حقيقة الفئتين، وتتحدث عن صفة الأمانة والخيانة، وعن الكذب في الأيمان ونقض العهد.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا[(١)] ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ[(٢)] سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ[(٣)] لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ[(٤)] إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ[(٥)] وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٥-٧٧].

أما الآية الأولى فتذكر أن بعض أهل الكتاب من اليهود يستحلون أكل أموال غير اليهود، زاعمين أن التوراة لم تنههم إلا عن خيانة إخوانهم الإسرائيليين، وأما الأميون العرب وغير العرب فليس عليهم ذنب في أكل أموالهم، إذ هم شعب الله المختار، ومن سواهم لا حرمة له عند الله، فهو مبغوض ولا حق ولا حرمة له، وعند ذلك يحل أكل ماله وهم يفترون على الله الكذب في هذا، لأن كل الشعوب والأمم سواء في صون الحقوق الإنسانية، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣].

وسبب نزول هذه الآية: أن جماعة من العرب كانت لهم ديون في ذمم قوم من أهل الكتاب، فلما أسلم أولئك العرب، قالت لهم اليهود: نحن لا نؤدّي إليكم شيئاً

---

(١) أي مطالباً بالحق ملازماً للمدين. (٢) أي في العرب المشركين. (٣) لا نصيب لهم من الخير. (٤) لا يرحمهم ويسخط عليهم. (٥) لا يطهرهم ولا يثني عليهم.

حين فارقتم دينكم (أي الدين الوثني) الذي كنتم عليه، فنزلت الآية في ذلك. وروي أيضاً: كان بنو إسرائيل يعتقدون استحلال أموال العرب لكونهم أهل أوثان، فلما جاء الإسلام، وأسلم من أسلم من العرب، بقي اليهود فيهم على ذلك المعتقد، فنزلت الآية حامية من ذلك.

ثم رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي لا صحة لما قالوا ولا حجة لهم في استحلال أموال غيرهم، وعليهم صيانة الحقوق والوفاء بالذمم والعهود، فمن أوفى بالعهد واتقى عقوبة الله في نقضه، فإنه محبوب عند الله.

ثم ذكر الله سبحانه وعيده وتهديده لمن فعل هذه الأفاعيل، فجحد الحقوق، ونقض المواثيق، وحلف الأيمان الكاذبة، وهؤلاء هم أهل الغدر والخيانة، وجزاؤهم أنه لا نصيب لهم في الآخرة أصلاً، ولا يكلمهم الله يوم القيامة كلام رحمة، غضباً عليهم، ولا ينظر إليهم نظرة عطف ورحمة، ولا يزكيهم بالثناء عليهم أصلاً ولهم عذاب أليم، قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ -فيما رواه أصحاب الكتب الستة -: «من حلف على يمين، وهو فيها فاجر[1] ليقطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان» . فقال الأشعث بن قيس: فيّ والله نزلت الآية، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فجحدني، فقدَّمته إلى النبي ﷺ، فقال: لك بينة؟ قلت: لا، فقال لليهودي: أتحلف؟ قلت: إذن يحلف، فيذهب بمالي، فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية.

(١) أي كاذب .

إحقاق الحق وإبطال الشرك

إن منهج الإسلام الأساسي في إصلاح العقيدة: هو إحقاق الحق وتثبيت معالمه وصرحه، وإبطال الشرك وهدم معاقله وحصونه، وليس هناك أخطرُ على الأمة من تشويه عقيدتها، وتحريف كتاب الله، وتأويل الكلام تأويلاً باطلاً، وليس هناك أيضاً أضر على الإنسان من الشرك والوثنية واتخاذ الأرباب مع الله ظلماً وزوراً، وافتراء وبهتاناً.

وقد ضل جماعة من علماء أهل الكتاب وأحبارهم، فلووا ألسنتهم في كتاب الله، ليميلوها عن الآيات المُنْزلة الصحيحة إلى العبارات المبدلة المحرّفة، فزادوا في كلام الله، أو نقصوا، أو حرفوا الكلم عن مواضعه، أو قرؤوا كلامهم بأنغام وتراتيل، ليوهموا الناس بأنه من التوراة، وأن الكتاب جاء بذلك ليحسبه المسلمون حقاً وصدقاً، والواقع أنه ليس من كلام الله، ويقولون على الله الكذب، وهم يعلمون أنه مخترع مبدَّل محرَّف، ليس من عند الله، وإنما هو من عند الشيطان والهوى، وهذا ليس تلميحاً أو إيماء، وإنما يصرحون بذلك لقسوة قلوبهم وجرأتهم على الله.

قال الله تعالى مبيناً هذا الموقف: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم(١) بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٨].

ثم قرر الله موقفاً آخر لإثبات عقيدة التوحيد لله، ونبذ الشرك، وهدم كل معالمه ومظاهره، فقال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ(٢) بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَٰبَ

---

(١) يميلونها عن الصحيح إلى الكلام المحرَّف. (٢) فقهاء في الدين تعلّمون الناس بإخلاص.

وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ[(١)] ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٩-٨٠].

وسبب نزول هذه الآية كما ذكر ابن عباس، قال: إن أبا رافع القرظي قال للنبي ﷺ حين اجتمعت الأحبار من اليهود ووفد نصارى نجران: يا محمد، أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن يُعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني» فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الحسن البصري: بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله، نسلِّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لا ينبغي أن يُسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحق لأهله» فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فلا يصح لبشر امتن الله عليه بإنزال الكتاب، والهداية إلى الحكمة والصواب في فهم ما أنزل الله عليه، وإيتائه النبوة والرسالة، ثم يطلب من الناس أن يعبدوه وحده، أو يعبدوه مع الله، فهذا هو الشرك بعينه، ولكن يقول: كونوا أيها الناس ربانيين، أي متمسكين بالدين، مطيعين لله أتم طاعة، بسبب كونكم تعلِّمون الكتاب لغيركم، وبسبب كونكم تدرسونه وتتعلمونه. ولا يعقل أن يأمر نبي باتخاذ الملائكة والأنبياء آلهة تعبد من دون الله، فكل هذا كفر وفسوق وعصيان، لا يتفق مع الإسلام، والانقياد لله بالطبيعة والفطرة، التي فُطر الناسُ عليها.

ميثاق النبيين

إن الأديان المنزلة من الله تعالى واحدة في أصولها، فهي متفقة على الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، وأصول الأخلاق والفضائل، وأسس التشريع الناظم لمصالح

---

(١) تقرؤون الكتاب .

الناس وحاجاتهم، والأنبياء مهمتهم واحدة، ودينهم واحد، وهم إخوة يؤمن كل واحد منهم برسالة الآخر وشريعته، لذا أخذ الله تعالى ميثاق كل نبي بأنه يلتزم هو ومن آمن به الإيمانَ بمن أتى بعده من الرسل، الظاهرةِ براهينهم، ويلتزم نصرةَ بعضهم بعضاً.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ[1] ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ[2] وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى[3] قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٨١-٨٢].

قال ابن عباس: إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم، فهو أخذ لميثاق الجميع، وقال طاوس: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً. وقال علي بن أبي طالب: ما بعث الله نبياً-آدم فمن بعده-إلا أخذ عليه العهد في محمد، لئن بعث وهو حي، ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره بأخذه على قومه، ثم تلا هذه الآية.

هذه الآية تذكير للأمم والشعوب بما تضمنه الكتاب الإلهي والنبوة من وجوب إيمان كل نبي وكل فرد من أتباعه برسالات الأنبياء جميعاً، ومنها رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله، فهو الرسول المصدق لمن تقدمه من الكتب والأنبياء، وعلى أتباع أولئك الأنبياء الإيمان به ومناصرته، فذلك نصر لكل نبي سابق.

وقال الله تعالى لمن أخذ عليهم الميثاق من الأنبياء وأقوامهم: أأقررتم وقبلتم ذلك الذي ذكر من الإيمان بالرسول المصدق لما معكم ونصرته، أقبلتم عهدي وميثاقي المؤكد؟! قالوا: أقررنا وصدقنا، فقال الله تعالى: فليشهد بعضكم على بعض، وأنا معكم جميعاً، لا يغيب عن علمي شيء.

---

(١) الميثاق: العهد المؤكد. (٢) الإقرار بالشيء: النطق بما يدل على ثبوته. (٣) الإصر: العهد المؤكد الذي يمنع من التهاون.

فمن تولى بعد هذا الميثاق المأخوذ قديماً، ولم يؤمن بالنبي المبعوث في آخر الزمان، المصدق لمن تقدمه، ولم ينصره، فأولئك هم الفاسقون الخارجون من ميثاق الله، الناقضون عهده.

ثم أنكر القرآن على أولئك الذين يطلبون غير دين الله الذي هو الإسلام، ولله استسلم جميع من في السماوات والأرض، وخضعوا له وانقادوا لتصرفه بالتكوين والإيجاد، سواء طوعاً واختياراً، أم إكراهاً وجبراً، ثم يكون المرجع والمآب إلى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ(١) مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٣].

وسبب نزول هذه الآية هو ما قال ابن عباس: اختصم أهل الكتابين إلى رسول الله ﷺ فيما اختلفوا فيه بينهم من دين إبراهيم، كل فرقة زعمت أنها أولى بدينه، فقال النبي ﷺ: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم» فغضبوا وقالوا: والله ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ..﴾ أي يطلبون أو يرغبون.

يفهم من الآية ميثاق النبيين أن دين الله واحد، وإن تعدد الأنبياء، فرسالات جميع الأنبياء تلتقي في جذع واحد، وهو الدعوة إلى توحيد الله جل جلاله، وتحقيق العبودية لله تعالى، والحث على التمسك بمكارم الأخلاق، والتزام الفضائل التي لا بد منها لصلاح الفرد والجماعة.

وإذا كانت رسالات الأنبياء واحدة، فما على البشرية ولا سيما المؤمنون بالكتب الإلهية إلا أن يتحدوا ويتضامنوا تحت لواء واحد، وينبذوا الفرقة والخلاف والتنازع على أي شيء في الدين ومصالح الدنيا.

---

(١) انقاد وخضع.

وإذا كانت أمتنا مطالبة في الدرجة الأولى بإيمان ذي مضمون واحد، وبكتاب سماوي واحد، فعليها أن توحد الصفوف، وتتماسك لبناتها، وتتجاوز خلافاتها، وتتناسى أحقادها وخصوماتها، لتكون أمة مهيبة مرهوبة الجانب في أنظار العالم قاطبة، قال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾

الإيمان بجميع الأنبياء وجزاء المخالف

يتميز المسلمون بأنهم يؤمنون ويصدِّقون بجميع الرسل والأنبياء، دون تفرقة، امتثالاً لأمر الله في قرآنه حيث قال لنبيه: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ(١) وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٤]. والمعنى: قل يا محمد أنت وأمتك: نحن آمنا بالله الواحد الأحد، وما أنزل علينا في القرآن الذي هو مصدر المعرفة الثابت الشامل لجميع الشرائع والأحكام، وآمنا بما أنزل على الأنبياء السابقين: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده الأسباط، وما أوتي موسى من التوراة، وعيسى من الإنجيل، وما أوتي النبيون الآخرون كداود وسليمان عليهم السلام، مما لا يعلمهم إلا الله سبحانه وتعالى.

نحن نؤمن بشيئين: بالله رباً وإلهاً، ونؤمن بكل الأنبياء إيماناً لا نفرق فيه بين أحد منهم، بل نؤمن بالكل على أن كل واحد نبي مرسل من الله لأمته، يهديها إلى سواء السبيل، ولا نفعل كما يفعل غير المسلمين من الإيمان ببعض الرسل والكفر بالبعض الآخر، ونحن له مسلمون منقادون.

---

(١) الأسباط: أولاد يعقوب أو أحفاده الاثنا عشر .

وقد أنكر الله تعالى على من يبتغي ديناً غير الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء، وهو الدين الذي ارتضاه لعباده، ومن يطلب غيره ديناً، فلن يقبل منه قطعاً، وهو في الآخرة من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم ولم يزكّوها بالإسلام الشامل، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ[1] دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٥].

ثم ذكر الله تعالى جزاء الكفر بعد الإيمان برسالات الأنبياء فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ[2] ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٦-٨٩].

قال ابن عباس ومجاهد فيما ذكره ابن جرير وغيره: نزلت هذه الآيات في الحارث بن سويد الأنصاري، كان مسلماً ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ فنزلت الآيات السابقة التي مطلعها: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ فبعث بها قومُه إليه، فلما قرئت عليه قال: والله ما كذبني قومي على رسول الله ﷺ، ولا كذب رسول الله على الله، والله عز وجل أصدق الثلاثة، فرجع ثانياً إلى الإسلام، فقبل منه رسول الله ﷺ وتركه.

وتنطبق الآية أيضاً على أهل الكتاب المعاصرين للنبي، لما رأوا نعت النبي ﷺ في كتابهم، وأقروا بذلك، وشهدوا أنه حق، وكانوا يستفتحون ويستنصرون به على المشركين، فلما بعث هذا النبي من غيرهم، حسدوا العرب وأنكروه، وكفروا به بعد إيمان.

---

(١) عقيدة الإسلام القائمة على التوحيد وشرائعه . (٢) يؤخرون عن العذاب لحظة .

والذين يكفرون بعد الإيمان: جزاؤهم لعنة الله (أي الطرد من رحمته) ولعنة الملائكة والناس أجمعين، وهم مخلّدون ماكثون دائماً في نار جهنم، لا يخفف عنهم العذاب، ولا يمهلون ولا يؤخرون عن العذاب، إلا الذي تابوا منهم بعد كفرهم، ورجعوا إلى الله وأصلحوا أعمالهم وقلوبهم، فإن الله غفور لما سبق، رحيم بعباده، حيث يقبل توبة التائب.

إذا كنا بأمر الله في قرآنه نؤمن بجميع الأنبياء، فما على المؤمنين حقاً إلا أن يكونوا متسامحين، مبتعدين عن العصبية الدينية التي تزرع الأحقاد وتولد الخصومات، وأن يعلموا أن الله تعالى قادر على هداية العالم إلى دين واحد، وأن اختلاف الناس لحكمة بالغة هي معرفة الحق في مقارنته مع غيره من الباطل، وهذا يدعونا إلى أن نعمل معاً صفاً واحداً لخير البلاد والأمة، تاركين الحساب على الإيمان وغيره إلى الله تعالى في عالم الآخرة.

أصناف الكفار

صنَّف الله تعالى الكفار في قرآنه أصنافاً ثلاثة بحسب أحوالهم من الإصرار على الكفر ثم الموت، أو التوبة بعد الكفر في الحياة العادية، أو في آخر لحظات العمر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٠-٩١].

هؤلاء الكفار أصناف ثلاثة:

صنف كفر بعد إيمان، ثم تاب توبة صادقة من بعد ذلك، فأولئك يقبل الله توبتهم، إنه هو الغفور الرحيم، إن هذا الصنف من اليهود كفروا بعيسى والإنجيل،

ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، أو ازدادوا كفراً بالذنوب التي أصابوها من الافتراء على النبي والمسلمين، فإذا تابوا من كفرهم، فالله يقبل التوبة عن جميع العباد ما دامت قبل الغرغرة ولن تقبل توبتهم عند معاينة الموت.

وصنف كفر بالله، ثم تاب ورجع، ثم عاد إلى الكفر، فلن تقبل توبته عن بعض الذنوب مع بقائه على الكفر، وهذا يشمل فئة المرتدين عن الإسلام، وصنف كفروا بالله وماتوا وهم كفار، فلن يقبل من هؤلاء فدية عن كفرهم، مهما كثرت الفدية، ولو كانت ملء الأرض ذهباً، أولئك لهم عذاب أليم شديد، ومالهم في الآخرة من ناصر ولا شفيع.

ثم أقام الله الدليل على عدم إيمان هؤلاء الكفار: وهو شح نفوسهم و بخلهم بالإنفاق في وجوه الخير، فإن الإنفاق أكبر دليل على صدق الإيمان، قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ[1] حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٢].

والمعنى لن يصل أحد إلى البر الحقيقي، ولن يكون باراً بالله إلا إذا أنفق ما يحب من كريم ما يملك، فإن شحت النفوس ولم تنفق شيئاً أو أنفقت رديء المال، فهم بعيدون عن الصدق في دعواهم الإيمان والطاعة لمولاهم، وما ينفق الناس من شيء، سواء كان كريماً جيداً أو رديئاً، فإن الله به عليم، ولا يخفى إخلاص المنفقين ورياؤهم.

وهذه الآية خطاب عام لجميع المؤمنين، فلا قيمة لإنفاق في وجوه الخير، ما لم يستند إلى قاعدة الإيمان الصحيح، وأرضية الدين القويم، وسبب نزول هذه الآية وقائع طيبة من إنفاق صحابة رسول الله، تصدق أبو طلحة الأنصاري بأكرم أمواله

(١) الإحسان وكمال الخير.

وهو بستان بيرحاء في المدينة، وتصدق زيد بن حارثة بفرس كان يحبها، فأعطاها رسول الله ﷺ ابنه أسامة، فكأن زيداً شق عليه، فقال له النبي: «أما إن الله قد قبل صدقتك» وأعتق عمر بن الخطاب أكرم جارية لديه من سبي جلولاء. فالصدقة المقبولة هي من رغائب الأموال التي يُضَن بها أو يُستأثر بها، فيكون إخراجها مغالبة للنفس، وتخليصاً من شحها و بخلها.

يتبين من الآيات السابقة أن الله تعالى يحب عباده أشد الحب، وهو لا يرضى لهم إلا الخير، وإبعادهم عن أسباب الشقاوة والشر، وهو يحذرهم مما يضرهم في دنياهم وآخرتهم، ويرغبهم في ترك ماهم عليه من الضلالة والانحراف، والمبادرة إلى ساحة الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، ليعيشوا في سعادة واطمئنان، وبُعْد عن القلق النفسي وتعذيب الروح والضمير، وكل ذلك تنبيه لأمتنا أيضاً فإن الإيمان مدعاة للوفاق والمحبة والتعاون، والكفر بيئة للتفرق والتشتت والضياع، والله دائماً بالنصر والتأييد مع المؤمنين، غاضب ساخط على غير المؤمنين، وهو سبحانه أحكم الحاكمين في عالم الحساب.

تحريم إسرائيل على نفسه بعض الأطعمة

كان يعقوب بن إبراهيم عليهما السلام وهو الملقب بإسرائيل (أي الأمير المجاهد مع الله) قد أصيب بوجع عرق النَّسَا، وطال سقمه منه، وكان يحب لحوم الإبل وألبانها، فجعل تحريم ذلك على نفسه، شكراً لله تعالى إن شفي، بقصد ترك الترفه والتنعم والزهد في الدنيا، وكان هذا سائغاً في شريعته، واستمر هذا التحريم في بني إسرائيل، وهذا يدل على أن للأنبياء أن يحرموا باجتهادهم على أنفسهم ما اقتضاه النظر لمصلحة أو قربة أو زهد، ومن هذا على جهة المصلحة تحريم نبينا ﷺ العسل على

نفسه، أو تحريم جاريته مارية القبطية أم إبراهيم على نفسه، فعاتبه الله تعالى في ذلك من تحريم المباح بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [التحريم: ٦٦/ ١] ولم يعاتب يعقوب.

وزعم اليهود أن تحريم الإبل وألبانها هو ملة إبراهيم وشريعة التوراة، قال أبو روق والكلبي: حين قال النبي ﷺ: «أنا على ملة إبراهيم» قالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال النبي ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم، فنحن نحلّه» فقالت اليهود: كل شيء أصبحنا اليوم نحرمه، فإنه كان محرماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا، فأنزل الله عز وجل تكذيباً لهم: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ(١) وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٣-٩٥].

والمعنى: كل أنواع المطعومات كانت حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه خاصة، وهو لحوم الإبل وألبانها، من قبل نزول التوراة، وليس في شريعة التوراة شيء من هذا التحريم، وقل لهم يا محمد: فأتوا بالتوراة كتابكم، فاتلوها إن كنتم صادقين في دعواكم، لا تخافون تكذيبها لكم. فكل من افترى على الله الكذب، وادعى ما لم ينزله الله في كتاب، فأولئك هم الظالمون بتحويل الحق وتغييره، والكذب على الله وادعاء تحريمه ما لم يحرمه.

وقل يا محمد أيضاً: صدق الله فيما أنبأني به من أني على دين إبراهيم، وأني أولى الناس به، وأنه لم يحرم الله شيئاً على إسرائيل قبل التوراة. وإذا كان الأمر كذلك، فاتبعوا ملة إبراهيم التي أدعوكم إليها، وهي الملة الوسط التي لا إفراط فيها ولا تفريط، وما كان إبراهيم من المشركين مع الله غيرَه.

(١) مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق .

وفي هذا دليل ظاهر على صحة نبوة محمد ﷺ ، وأنه يعلم ما في التوراة، وأنها مؤيدة لما في القرآن، وأن النبي أولى بإبراهيم وملته، لا تختلف عن ملته، فكل من إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام مائل عن الباطل إلى الحق، وما كان حلالاً عند إبراهيم فهو حلال عند المسلمين.

واستمر تحريم لحوم الإبل وألبانها عند اليهود استناناً بما فعله يعقوب نفسه، ثم حرم الله عليهم في التوراة بعض الطيبات عقوبة لهم على أفعالهم، قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٠]. وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٦].

إن إباحة الطعام وتحريمه في البيان الإلهي يقوم على مبدأ واحد لا يتغير، فما كان طيباً نافعاً غير ضار فهو الحلال، وما كان خبيثاً ضاراً بصحة الإنسان، فهو الحرام، ومن هنا لا يوجد اختلاف بين منهج الإسلام وبين منهج أي دين آخر في التحليل والتحريم، وهذا سبب آخر يدعو البشرية إلى التوافق والتقارب والتآخي والتعاون، والبعد عن موجبات الفرقة والخصام والنزاع، وليس لأمة القرآن من باب أولى إلا أن تتحد مشاعر أبنائها، وتتعاطف مع بعضها، وتترك كل ما يصدع وحدتها ويسيء إلى كرامتها وعزتها.

مكانة البيت الحرام

كان من الطبيعي بعد بعثة النبي ﷺ أن يشتد الحوار بين النبي وبين أهل الكتاب، فإنهم أتباع دين سابق، ولهم أعرافهم وتقاليدهم، فكانوا يثيرون الشبهات مثل شبهة تحريم الإبل وألبانها، ومثل المفاضلة بين بيت المقدس والبيت الحرام.

قال أهل الكتاب للنبي محمد ﷺ : كيف تدعي أنك على ملة إبراهيم وأنك أولى الناس به، وإبراهيم وإسحاق والأنبياء بعدهم كانوا يعظمون بيت المقدس، ويصلون إليه، فلو كنت على ما كانوا لعظَّمته، ولما تحولت إلى الكعبة، فخالفت الجميع.

وقال مجاهد: تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة، لأنه مَهَاجِر[1] الأنبياء، وفي الأرض المقدسة، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى هذه الآية:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ[2] مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٦-٩٧].

دلت هاتان الآيتان على مكانة البيت الحرام وما تميز به من مميزات: أولها -أنه أقدم بيت وضع للعبادة، والأولية في الزمان تستلزم الأولية في الشرف والمكانة. بناه إبراهيم وإسماعيل كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ .[البقرة: ٢/ ١٢٧].

ثم بُني المسجد الأقصى بعد ذلك بعشرات السنين، وقد جَدَّد بناءه بعد قرون سليمان بن داود. سأل أبو ذر النبي ﷺ قائلاً: «يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة»[3].

الميزة الثانية -أن البيت الحرام بيت مبارك: كثير الخيرات والبركة المادية، إذ هو بصحراء جرداء، وتجبى إليه ثمرات كل شيء، وتحمل إليه بضائع الدنيا، وهو أيضاً كثير البركة في الثواب والأجر.

---

(١) أي مواضع الهجرة. (٢) بكة أي مكة. (٣) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي ذر.

والميزة الثالثة: أنه موطن هداية للناس، حيث دعي العالمون إليه فأجابوا ويتجهون إليه في أدعيتهم وصلواتهم، وتهواه أفئدتهم على أنه مصدر لهداية النفوس التي تحجه وتعتمر فيه.

والميزة الرابعة: فيه آيات واضحات لا تخفى على أحد، منها: مقام إبراهيم للصلاة والعبادة، وفيه صخرة فيها أثر قدمه الشريف. ومن دخل البيت الحرام كان آمناً على نفسه، مطمئناً على ماله، حتى ولو كان مطلوباً للثأر، وذلك معروف للعرب في الجاهلية والإسلام. أما ما وقع فيه من مخالفات أو اقتتال فذلك جناية عظيمة من العصاة والجهلاء. وفيه الحجر الأسود المعروف مبدأُ الطواف حول الكعبة، وفيه ماء زمزم المبارك النافع لما شرب له.

والميزة الخامسة: أنه مكان الحج والعمرة، وحج البيت فرض على المستطيع وهو ركن من أركان الدين، والاستطاعة نوعان: بدنية صحية، ومالية، فلا يجب إلا على من تمكن من الركوب، وأمن الطريق، وقدر على السفر.

ومن جحد هذه المزايا وكفر بها ولم يمتثل أمر الله في الحج وغيره، فإن الله غني عن العالمين جميعاً، لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية. أخرج الترمذي والبيهقي عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً وراحلة، فلم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً».

وأهم ميزة للبيت الحرام أنه سبب وحدة المسلمين في أنحاء العالم، لاتجاههم إليه في صلاتهم، وأنه موضع أمن وسلام لمن دخله. وإذا كانت قبلة المسلمين واحدة في أقدس معتقداتهم وهو الصلاة بعد الإيمان فهل يقبل منهم الصراع والتخاصم والاختلاف؟ وهل يليق بهم وهم أمة القرآن أن يتحاربوا، وينضم بعضهم لصف

الأعداء؟ وإذا اختلفوا فلِمَ لا يبادرون إلى إزالة سبب الخلاف، ورأب الصدع وتناسي الماضي، حتى يحققوا لأنفسهم العزة والكرامة ومهابة الأعداء؟!

موقف أهل الكتاب من الإسلام وتحذير المسلمين من إطاعتهم

وبخَّ الله تعالى في القرآن الكريم أهل الكتاب على عدم الإيمان برسالة محمد ﷺ، بعد أن قامت العلامات الظاهرة والمعجزات الباهرة والأدلة القاطعة على صدق نبوته، وهم مع هذا الموقف يحاولون صدّ الناس عن الإسلامِ والإيمان بالقرآن.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا[1] وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٨-٩٩].

ومطلع الآية عتاب رقيق، ودعوة رشيدة للإيمان بالقرآن، فيا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بدلائل الله الظاهرة على يدي محمد ﷺ ؟! هاتوا برهانكم على صحة ما تسيرون عليه، وإذا لم يكن عندكم برهان ولا دليل مقبول عقلاً وديناً، فاعلموا أن الله شهيد عليكم، عالم مطّلع عليكم، وسيجازيكم على ما تعملون. يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن بمحمد؟ قاصدين بصدكم أن تكون سبيل الله معوجة، غير مستقيمة ولا رشيدة، تطلبون لدين الله الإعوجاج والانحراف عن الحق والقصد الصحيح، والحال أنكم تشهدون في أعماق نفوسكم بصدق محمد، وأنتم الشهود العدول عند قومكم، وما الله بغافل عن خبايا نفوسكم وأعمالكم وسيجازيكم عليها.

---

(١) تطلبونها معوجّة .

ثم حذّر الله المؤمنين من مؤامرات كيد أهل الكتاب، ومحاولتهم إيقاع العداوة والبغضاء بينهم، وبذر بذور التفرقة في صفوفهم، وردهم كافرين بالله والدين والخلُق: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٩]. كيف تكفرون بالله أيها المؤمنون، وكيف تطيعون غيركم فيما يشيرون به ويقولون، والحال أنكم تتلى عليكم آيات الله التي فيها الهداية والخير والمحبة والوئام وبيان أصول الإيمان، وبينكم رسول الله رسول المحبة والخير والألفة والرشاد، فكيف يليق بكم أن تتبعوا أهواء قوم آخرين لا يريدون الخير لكم، ومن يعتصم بالله وبكتابه ورسوله، فقد تحققت هدايته، لا يضل أبداً، وكان على الطريق المستقيم.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم(١) بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٠-١٠١].

وسبب نزول هاتين الآيتين: أن شاس بن قيس اليهودي مرّ بمجلس فيه نفر من الأوس والخزرج يتحدثون، فجلس معهم وغاظه اتحادهم وتآلفهم بعد أن كانوا متفرقين مختلفين في الجاهلية، فقال في نفسه: مالنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأرسل شاباً من اليهود كان معه، وأمره أن يذكّرهم بيوم بُعاث(٢)، وما قيل فيه من الأشعار، فتنازع القوم وتفاخروا واحتكموا إلى السيوف والسلاح. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم ومعه المهاجرون، وقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ ووعظهم، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان،

(١) يلتجئ إليه، ويستمسك بدينه وقرآنه. (٢) وهو اليوم الذي اقتتلت فيه الأوس والخزرج في الجاهلية، وكان الظفر فيه للأوس.

فألقوا السلاح وبكوا، وتعانقوا، وانصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع هذه الآيات.

إن هذه الإثارة وتأجيج الفتنة وبذر بذور التفرقة بين المسلمين من قبل غيرهم تعطينا دليلاً واضحاً وعبرة وعظة وهو أن معطيات العقل والتجربة والمصلحة أسباب تقتضي الحذر من الأعداء، والتنبه للمخاطر وألوان المكر والمؤامرات، فإن سوء الظن قد يكون أحياناً عصمة من الوقوع في الشرور، وحسن الظن ورطة، والغفلة عن مكائد الأعداء نوع من البله والسذاجة، فهل نعتبر ونتعظ من حادث واحد، فضلاً عن تكرار العبر والدروس في تعاملنا مع الآخرين؟

الاعتصام بالقرآن والسنة

ليس هناك في السياسة العامة أسوأُ من تفرق الأمة وتمزقِ صفوفها وانقسامِها فرقاً وأحزاباً، لذا حرَص الإسلام إبان عهده الأول على وحدة الصف، واجتماع الكلمة، وتحقيق الألفة، وإشاعة المحبة، والسبيل التي وحّد الله بها الأمة هو اتحاد دستورها، واعتصامُها بكتاب الله وسنة نبيه، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ(١) جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ(٢) مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٢-١٠٣].

قال ابن عباس مبيناً سبب النزول: كان بين الأوس والخزرج شر في الجاهلية،

(١) تمسكوا بدينه . (٢) طرف حفرة .

فذكروا ما بينهم، فثار بعضهم إلى بعض بالسيوف، فأتى النبي ﷺ ، فذُكر ذلك له، فذهب إليهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ..﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠١] ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

أعدَّ الله الأمة للاجتماع والاتحاد، فأمر الجميع بتقوى الله تعالى، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله اتقاء حقاً شاملاً فيما استطعتم، أي بالغوا في التقوى، وأدوها كاملة حتى لا تتركوا شيئاً من المستطاع، وذلك بالتزام أوامر الله واجتناب نواهيه، بأن يطاع الله فلا يعصى، ويشكر فلا يكفَر، ويذكر فلا ينسى، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ : دوموا على الإسلام حتى يوافيكم الموت وأنتم عليه، والإسلام: هو المعنى الجامع للتصديق في القلب وأداء الأعمال، وهو الدِّين عند الله، وهو الذي بني على خمس معروفة.

وبعد توحيد العقيدة والعمل، أمر الله تعالى بالتمسك بكتاب الله وعهده واتباع سنة نبيه، وهذا هو حبل الله، وتسمى العهود والمواثيق حبالاً، وحبل الله الذي أمر باتباعه: هو القرآن، أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «كتاب الله: هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض».

ثم نهى الله عن التفرق أبداً، فإن الداء العضال في الفرقة والانحلال. ويكون التزام الجماعة بعد الاعتصام بالكتاب والسنة هو سبيل الوحدة، والبعد عن التفرق. أخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «إن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة قيل: يا رسول الله، وما هذه الواحدة؟ فقبض يده وقال: الجماعة، ثم قرأ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

وقد كان العرب الجاهليون في حروب مستعرة وعداوات وأحقاد، وبخاصة

الأوس والخزرج، فلما جاء الإسلام، انتزع من قلوبهم الحقد، وطهرهم من العداوة، وأصبحوا بنعمة الله إخواناً متحابين متعاطفين، يؤثرون إخوانهم على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة (أي حاجة) وكانوا على وشك الوقوع في النار بسبب شركهم ووثنيتهم إذا ماتوا، فأنقذهم الله بالإسلام والتوحيد، والإيمان والطاعة، ومثل هذا البيان والتوجيه والتذكير، يبين الله آياته للناس، ليهتدوا إلى الطريق المستقيم، أو ليكونوا بالاستقامة والسداد راجين الهداية.

والجامع بين المسلمين هو المبدأ العظيم في القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠] والحديث النبوي الذي رواه أحمد ومسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

إن عزة العرب والمسلمين تتطلب منهم أولاً وقبل كل شيء الاستغناء عن غيرهم في كل شيء عسكري واقتصادي، لأن الحاجة تقتضي المذلة والهوان، وسبيل تحقيق وحدة الصف لهذه الأمة: هو الحفاظ على شخصيتها المتماسكة، وتميزها الذاتي، ورفض تبعتها لغيرها من الأمم التي لاتبغي لها إلا الشر، وينبغي أن تكون لنا استراتيجيتنا الذاتية وخطتنا الخاصة وعقليتنا الواعية، فلا نطمئن لمشورة غيرنا، ولنتأمل جيداً في مصداقية ما ينصحوننا به، كيلا نقع كما وقعنا كثيراً في شَرَك خداعهم، وإلحاق أفدح الخسائر والمحن والبلايا في مصالحنا وبناء أمجاد وطننا وأمتنا.

جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنهجهم

قد يتعرض الأفراد والجماعات للنسيان أو الضعف أو التورط في معصية، فيكون التذكير بالخير والنصح والإرشاد خير سبيل لاستدراك الخطأ، والعودة إلى جادة الاستقامة والصواب، لذا تكررت وسائل التذكير في الإسلام بخطب الجمعة

والعيدين والمناسبات الإسلامية، وأمر الله تعالى بتخصيص جماعة أو فئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الانقسام والتفرّق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من فروض الكفاية، إذا قام به قائم، سقط عن الباقي. قال الله تعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٤-١٠٩].

أوجب الله تعالى على المسلمين جميعاً تكوين أمة منظمة موحدة، لا ترهب أحداً، وتقول الحق، وترفع الظلم، ولا تخشى في الله لومة لائم، وعلى هذه الأمة أو الجماعة المنظمة مهمة الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف الذي يقره الشرع والعقل، والنهي عن المنكر الذي يقبّحه الشرع والعقل، وحماية الدين، وحفظ الحقوق، وإقامة العدل، وأداء الأمانات، وأسلوب هذه الجماعة كما جاء في قول النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(١).

وتتميز هذه الجماعة بالعلم والمعرفة لأحكام الشريعة، والتقوى، والتخلق بأخلاق الأنبياء، وأن يكونوا المثل الأعلى في الخلق والفضيلة، وهم لا غيرهم الكمل المفلحون في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي سعيد الخدري.

ثم حذر القرآن الكريم من التفرق والاختلاف كما حدث لمن قبلنا، من بعد ما جاءت الآيات الواضحات التي تهدي إلى سواء السبيل، لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستحقوا العذاب الشديد في الآخرة.

إن هذا العذاب العظيم يوم تبيض وجوه المؤمنين وتشرق بالسعادة، وتسودُّ وتكتئب وجوه المختلفين الذين لم يتواصوا بالحق والصبر من الكفار والمنافقين حينما يرون ما أعدّ لهم من العذاب الدائم، ويقال لهؤلاء الذي اسودت وجوههم تأنيباً وتوبيخاً: أكفرتم بالرسول محمد بعد إيمانكم به، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون.

وأما الذين ابيضت وجوههم: ففي رحمة الله وجنته ورضوانه خالدون، هذه آيات الله المتقدمة المتضمنة تعذيب الكفار وتنعيم المؤمنين، تتلى علينا بالحق الثابت، فلا عذر بعد هذا للمتفرقين المختلفين، ولا يريد الله بهذه التوجيهات والنصائح والأحكام ظلماً في حكمه لأحد من العباد، وإنما هي لمصلحتهم في الدنيا والآخرة، ولإقرار الحق وتثبيته، ولا يعترض أحد على الحق، فلله ما في السماوات وما في الأرض ملكاً وخلقاً وتصرفاً وحكماً، وإلى الله وحده لا غير ترجع أمور الخلائق قاطبة.

الخلاصة: إن الدعوة الإسلامية ونشرها في أنحاء العالم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الإسلام الكفائية؛ لأن الإسلام دعوة الحق والخير والسعادة والتوحيد للعالم أجمع، ولأن الإسلام حريص على نقاوة المجتمعات من عوامل الدمار والانحطاط، وجعل المجتمع قوياً ناضجاً متماسكاً، ليتفرغ لبناء الحضارة، وإرساء معالم المدنية الحقة القائمة على التقدم المادي والمعنوي.

منزلة الأمة الإسلامية

ليست الأمة الإسلامية أمة متعصبة لأفرادها، منغلقة على نفسها، وإنما هي أمة منفتحة على الشعوب، متسامحة مع الناس، تحب الخير لجميع البشر، وتدرأ الشر والسوء عن الأمم، فهم خير الناس للناس.

وقد حدد القرآن الكريم معيار تفضيل الأمة الإسلامية على غيرها، وهو حرصها على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله تعالى وحده، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠].

قال عكرمة ومقاتل: نزلت هذه الآية في ابن مسعود، وأُبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة، وذلك أن مالك بن الصيف ووهب بن يهوذا اليهوديين قالا لهم: إن ديننا خير مما تدعونا إليه، ونحن خير وأفضل منكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وفحوى الآية: أنكم أيها المسلمون خير أمم الأرض، بشيء واحد، وهو أنكم تأمرون بالمعروف المنقذ للأمم، وتنهون عن المنكر المدمر للشعوب، وتؤمنون بالله إيماناً صادقاً كاملاً لا ينقص منه شيء، ولو أن أهل الكتاب آمنوا بما آمنتم به، لكان خيراً لهم وأكرم وأفضل من الإيمان ببعض الكتب الإلهية وببعض الرسل كموسى وعيسى، والكفر بالبعض الآخر، وهو محمد ﷺ. وبعض أهل الكتاب مؤمنون حقيقة كعبد الله بن سلام وجماعته، وكثير منهم فاسقون خارجون عن حدود دينهم وكتبهم.

ثم هوَّن القرآن الكريم من شأن عداوة اليهود وقوتهم، فقال الله تعالى:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى[1] وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ[2] ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ[3] أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟[4] إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ[5] وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ[6] مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ[7] ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١١-١١٢].

قال مقاتل مبيناً سبب النزول: إن رؤوس اليهود: كعب و بحرى والنعمان، وأبو رافع وأبو ياسر وابن صوريا، عمدوا إلى مؤمنهم عبد الله بن سلام وأصحابه، فآذوهم لإسلامهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾.

والمعنى: لن يصيبكم من اليهود ضرر في الأبدان، ولا في الأموال، وإنما هو مجرد أذى بالألسنة، كالهجاء والطعن بالنبي ﷺ، والتنفير من الإسلام.

فإن قاتلوكم انهزموا أمامكم وولوا الأدبار، وصفهم القرآن بثلاث صفات: عدم الضرر، والفرار في الحرب، وعدم النصر.

وهم قوم أذلة إلى الأبد، ورثوا ذل النفس وضعف القلب، وهم دائمو الفقر والحاجة، لا يشبعون من مال، ولا قوة لهم وإن كانوا أغنياء، إلا بمدد مؤقت من الله ومدد من الناس.

وسبب اتصافهم بهذه الصفات أنهم يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء معتقدين أنهم على غير حق فيما يفعلون. وما جرَّأهم على ذلك إلا فعل المعاصي والعدوان على قيم الآخرين وحقوقهم، قال قتادة مفسراً هذه الآية: «اجتنبوا المعصية والعدوان، فإن بها أُهلك من كان قبلكم من الناس».

---

(١) ضرراً يسيراً. (٢) ينهزمون. (٣) الذل والصغار. (٤) وُجدوا. (٥) بعهد منه وهو الإسلام.
(٦) رجعوا متلبسين به. (٧) الفقر والشح.

أجل! إن الأمة الإسلامية خير الأمم بسبب إيمانها الصحيح التام بما أنزل الله في كتبه، وبسبب قيامها بمهمة إصلاح المجتمع وحرصها على الفضيلة، وأصول الإصلاح ثلاثة كما ذكرت آية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾: وهي الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومنه الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، والأمر بالمعروف المتفق مع الشرع والعقل والعرف الصحيح والنهي عن المنكر، وهو كل قبيح ينهى عنه الشرع ويستقبحه العقل السليم والعرف الصحيح.

مؤمنو أهل الكتاب

لا نجد في الإسلام أي سمة للتعصب والميل والمحاباة للمسلمين على حساب غيرهم، لأن الإسلام ذو قيمة ذاتية خالدة، ورسالة سامية، يترفع عن التأثير بالعصبيات، أو ممالأة الأتباع على حساب الحق والعدل.

لذا أنصف القرآن أهل الكتاب إنصافاً عالياً رفيع المستوى، فأقرت آيات القرآن بوجود فئة أمينة من أهل الكتاب تؤتمن على القليل والكثير، وأعلنت آي القرآن عن وجود جماعة مؤمنة صالحة مستقيمة عادلة، تؤمن بالله واليوم الآخر، وترعى الذمم، وتحترم القيم، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتبادر إلى فعل الخيرات، وهؤلاء الصالحون هم الذين ماتوا قبل مجيء الإسلام وظهور شرائعه، أو أدركوا الإسلام، فدخلوا فيه. وغيرهم جماعة فاسقون خارجون عن حدود الله.

قال الله تعالى: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ[(١)] يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ[(٢)] وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

(١) أي مستقيمة عادلة. (٢) أي ساعات الليل.

ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ(١) ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٣-١١٥].

وسبب نزول هذه الآيات في أصح التأويلات: ما قاله ابن عباس رضي الله عنه: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سَعنة، وأُسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من اليهود، قالت أحبار اليهود: ما آمن لمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائنا. وقالوا لهم: لقد خنتم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ﴾ الآية.

والمعنى: ليس أهل الكتاب متساوين في العقيدة والأفعال، فمنهم أمة مستقيمة على طاعة الله، ثابتة على أمره، يتلون آيات الله، ويقرؤون القرآن في ساعات الليل، ويصلون والناس نيام، ويناجون ربهم وغيرهم غافلون، وهم يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً خالصاً، و يخشون الله، ويرجون ثوابه وتجارةً لن تبور، فهؤلاء مؤمنون حقاً.

وهم في مجال الأخلاق والعمل الاجتماعي، يأمرون بالفضيلة والمعروف، وينهون عن الرذيلة والمنكر، ويبادرون إلى فعل الخيرات بسرعة وبلا تلكؤ أو إمهال، وهم قوم صالحون مثل عبد الله بن سلام وصحابته الذين أسلموا وصلحت أحوالهم وارتفعت درجاتهم. فهم بإسلامهم خيار، لا أشرار كما زعم اليهود، وأتقياء لا فجار، وعقلاء لا مجانين، إذ اختاروا الإيمان وتركوا الضلال.

وما يفعلون من الطاعات، فلن يحرموا ثوابه ويمنعوا جزاءه، ولا يتصور غير هذا في شريعة الإسلام العادلة، وعدل الله الشامل، فالله شكور لفعل عباده الأتقياء،

(١) أي يمنعوا أو يحرموا ثوابه .

عليم بهم، لا ينساهم ولا يهملهم، فالجزاء الحسن لهم حق، والله القادر على كل شيء، البصير بأعمال العباد، فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ وعد ووعيد.

إن عدل الله الشامل أن يُظهر الأخيار ويتولاهم برعايته وتأييده، ويبعد من ساحته الفجار والأشرار والحاقدين والمعاندين، لذا أنصف الإسلام غير المسلمين، فحكم بإيمان بعضهم بالقرآن، وأشاد بقيامهم بالأعمال الصالحة، حيث أصلحوا أنفسهم، وجاهدوا في إصلاح غيرهم، وقاوموا دعوة الفساد والانحراف، وكانوا دعاة حق وخير، وبناة صالحين لمجد أمتهم، وتقدم دولة الحق والخير والتوحيد.

جزاء الضلال

أقام الله السماوات والأرض وأوجد من فيهما بالحق والعدل، والعادل لا يقبل الظلم ولا جحود النعمة وكفرانها، وإنما يطلب الله العادل من عباده أن يشكروه على نعمه الكثيرة فلا يكفروه، وأن يؤمنوا به لأنه الخالق المبدع، لا أن يكذّبوا بوجوده وعدله ووحدانيته.

فالمؤمن الصادق الإيمان يقرّ بوجود الله ويشكر نعمة الله عليه لأنه أوجده وسوّاه، ورزقه وصانه في حياته، وأما الكافر الذي ينكر وجود الله أو وحدانيته ولم يشكر نعم الله عليه، فهذا منتكس الفطرة، ليس لديه وفاء للمعروف ولا تقدير للمنعم.

وكثيراً ما عقد القرآن الكريم المقارنة بين المؤمنين والكفار، والأتقياء والفجار، والمصلحين والمفسدين، لينبّه العباد ويحذرهم، ويرغب الناس بالإيمان والصلاح، وينفرهم من الكفر والفساد.

وكثيراً ما افتخر الكفار ويفتخرون بقولهم: نحن أكثر أموالاً وأولاداً وزينة في

الحياة الدنيا، وما نحن بمعذَّبين، والكفار: هم كل من لم يؤمن بالله رباً واحداً لا شريك له، ولا ندّ له ولا نظير، وليس له والد ولا ولد، ولا يشبهه أحد من خلقه، وقد ردَّ الله على هؤلاء الكفار جميعاً بقوله تعالى مبيناً جزاءهم في الآخرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ(١) أَصَابَتْ حَرْثَ(٢) قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٦-١١٧].

ومعنى الآية: إن الكفار لن تجزي عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً من الإجزاء يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٨]. وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾. [سبأ: ٣٤/ ٣٧].

وهؤلاء الكفار الذين لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم هم ملازمون للنار، لا ينفكون عنها، وماكثون فيها أبداً على الدوام، الله أعلم به.

ثم ضرب الله مثلاً رائعاً صور فيه الأموال التي ينفقها الكفار، ظانين أنها قربة وحسبة وعبادة، وهي في الواقع للرياء والسمعة والمفاخرة وكسب الثناء، أو للصد عن سبيل الله، مثل هذا المال الذي ينفقونه كمثل ريح فيها برد شديد أتت على الزرع، فأهلكت الأخضر واليابس. إن هذا المال أفسد عقولهم بما صرفهم عن النظر الصحيح والتفكير في عواقب الأمور، وإنهم مع إنفاقه ظلموا أنفسهم بمعاصي الله، فكانت النقمة إليه أسرع وفيه أقوى.

---

(١) الصر: البرد الشديد. (٢) الحرث: إثارة الأرض للزرع، والمراد هنا فيها نبات مزروع أي زرعهم.

إنهم إذا أنفقوا المال في سبيل الشيطان والهوى والفساد، ورجوا منه الثواب والنفع، فهم لن يجدوا في الآخرة إذا قدموها إلا الحسرة والندامة، ومثلهم مثل من زرع زرعاً، وتوقع منه خيراً ونفعاً، فأصابته ريح، فأحرقته، فوقف مبهوتاً حائراً، إن الله يتقبل من المؤمنين المتقين، ويثيب المخلصين، وما ظلم الله الكافرين، بل جازاهم وكافأهم على عملهم الشر بالشر، وكانوا هم الظالمين لأنفسهم.

إن الانحراف عن هدي الله وضلال الاعتقاد أساس بلاء الإنسان في الآخرة، وهو أيضاً سبب ضياع ثمرة الأعمال الصالحة التي عملها الشخص على أرضية غير مؤمنة، ويكون مصيره الخزي والذل والندامة والزج به في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً.

اتخاذ بعض الأعداء مستشارين

يحرص القرآن الكريم على تماسك الأمة وتناصحها، ويحذرها من التعثر ومداخل الشر والسوء، ويحميها من استشارة المشبوهين والمعادين، ومن اتخاذ فئة من الأعداء في مواطن السر والاطلاع على دخائل الأمور وأسرار الدولة والولاة والحكام، لذا قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً[١] مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا[٢] وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ[٣] قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ[٤] عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ[٥] ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ

---

(١) بطانة الرجل: خاصته وأهل مشورته وأمناء سره. (٢) أي لا يقصرون في إيصال الخبال: وهو الشر والفساد إليكم. (٣) أي تمنوا إيقاعكم في العنت، أي المشقة والحرج. (٤) انفردوا. (٥) أشد الغضب.

ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٨-١٢٠].

قال ابن عباس ومجاهد: نزلت هذه الآيات في قوم من المؤمنين، كانوا يُصافُون المنافقين، ويواصلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من القرابة والصداقة، والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، ينهاهم عن مباطنتهم، خوف الفتنة منهم عليهم.

ينهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآيات عن أن يتخذوا من الأعداء أخلاء وأمناء، يأنسون بهم في الباطن من أمورهم، ويفاوضونهم في الآراء، ويطمئنون إلى آرائهم ونصائحهم. فإياكم أيها المؤمنون من اتخاذ فئة من غيركم أمناء أسراركم، تطلعونهم على أموركم، وتودونهم، فهم لا يقصرون في إيصال الفساد والشر لكم، ويحرصون على إيقاع الضرر بكم، ويؤيد هذا المعنى قول النبي ﷺ: «ما من خليفة ولا ذي إمرة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم: من عصم الله»[1].

هؤلاء الأعداء يتمنون كل شر ومشقة لكم، فإن لم يستطيعوا حربكم وإيذاءكم ودوا من صميم قلوبهم كل فساد وألم وسوء بكم.

ألم تظهر البغضاء لكم والحسد عليكم من فلتات ألسنتهم، وما تخفي صدورهم: من الحسد وإرادةِ الشر أكبر وأكثر، قد بينا لكم أيها المؤمنون العقلاء الآيات والعبر التي ترشدكم إلى الخير وتحذركم من الشر، وهذا تحذير خطير وتنبيه شديد يهز النفوس، لتحذر من منافقي اليهود التي نزلت هذه الآيات فيهم لا في منافقي العرب. إنكم أيها المؤمنون مخطئون في حبهم وإحسان الظن بهم، فهم لا يحبونكم مع أنكم

(١) أخرجه البخاري والنسائي وغيرهما عن أبي سعيد الخدري .

تؤمنون بالكتب السماوية كلها، ومنها كتابهم، وتصدقون بكل الرسل ومنهم رسولهم، ومع هذا هم لا يحبونكم، وهم إذا قابلوكم أظهروا الإيمان بدينكم وجاملوكم، وإذا خلوا إلى أنفسهم وشياطينهم، أظهروا شدة الغيظ والحقد عليكم، فليموتوا بغيظهم، فإن الله عليم بما تنطوي عليه نفوسهم.

إنهم إذا أصابكم خير وخصب ونصر ووحدة ساءهم، وإذا أصابكم شر فرحوا، بسبب شدة العداوة والحسد لكم، فإن تصبروا أيها المؤمنون على كيدهم وتآمرهم وعلى كل حال، واتقيتم الله واتخذتم الوقاية من كيد عدوكم، فإن الله ضمن لكم السلامة والنجاة من شرهم وضررهم، وسيرد كيدهم في نحورهم، ويجازيهم على كل ذلك، أي إن صبرتم واتقيتم.

إن أسوأ ما يصدّع بناء الدولة والأمة ويكون أداة هدم وتدمير لوجودها وتحطيم كيانها هو اتخاذ بعض الأعداء مستشارين في قضايا الأمة الخطيرة ورسم سياستها ووضع الخطط الاقتصادية والتربوية والاجتماعية لها، لأن الإخلاص للأمة ومحبة الخير لها ينبعان من الإيمان برسالة الأمة، والاعتقاد بأهليتها للقيادة وإظهار قوتها وعزتها ومنعتها أمام الأمم الأخرى.

فضيلة الصبر والتقوى في المعارك وغيرها

قارن الله تعالى بين موقفين متعارضين للمؤمنين في معركتي بدر وأحد، ففي معركة بدر الكبرى التي وقعت يوم الجمعة في السابع عشر من رمضان بعد ثمانية عشر شهراً من الهجرة، صبر المؤمنون القلة أمام الفئة الكثيرة من المشركين، وتضرعوا وأنابوا إلى الله، والتزموا جانب التقوى لله، واستنصروا بربهم، فنصرهم الله تعالى، وأمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين أي مُعْلَمين.

وفي غزوة أو معركة أحد التي وقعت بين المسلمين والمشركين المكيين في السنة الثالثة من الهجرة بعد ٣١ شهراً من الهجرة يوم الأربعاء في الثاني عشر من شوال، في هذه المعركة التي أشرف النبي ﷺ على إدارتها وتنظيم العسكر في مواقع معينة، لم يصبر المؤمنون، ولم يتقوا الله حق تقاته، ولم يلتزموا بطاعة النبي القائد وخالفوه، فلم يمدهم الله بالملائكة كما وعدهم النبي في بدء القتال، لأنه لم يتحقق الشرط المطلوب للنصر، وهُزم المسلمون أمام المشركين، ولو أمدهم الله بالملائكة كما حدث في معركة بدر، لهزموا الكفار من فورهم، فعاتب الله المؤمنين في أمر أحد، وذكّرهم بفضله ونعمته يوم بدر، ونزلت هذه الآيات مبتدءاً فيها الخطاب للنبي:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ(١) مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ(٢) ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ(٣) وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا(٤) وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ(٥) رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ(٦) هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ(٧) ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا(٨) مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ(٩) فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢١-١٢٩].

والمعنى الإجمالي للآيات: اذكر يا محمد وقت قولك للمؤمنين يوم أحد، وانخذال جماعة المنافقين وهم ثلاث مئة بقيادة عبد الله بن أُبي: سيمدكم الله بثلاثة آلاف من

---

(١) خرجت أول النهار. (٢) تنزل. (٣) مواطن ومواقف له يوم أحد. (٤) تجبنا عن القتال. (٥) يقويكم يوم بدر. (٦) ساعتهم فوراً. (٧) مُعْلمين أنفسهم بعلامات. (٨) ليهلك طائفة. (٩) يخزيهم بالهزيمة.

الملائكة، والله منجز وعد رسوله لكم إن صبرتم على الجهاد ولم تطمعوا بالغنائم، واتقيتم الله وأطعتم أمر نبيكم، وكادت طائفتان من الأنصار وهما بنو سلمة وبنو حارثة ألا يخرجوا إلى القتال في أحد، ثم وفقهم الله فخرجوا، وكان هذا الوعد من النبي للمؤمنين بشرى لهم لتطمئن قلوبهم وتهدأ نفوسهم بالوعد بالنصر. والنصر من عند الله وحده بعد اتخاذ الأسباب ومن أهمها الثبات في المعركة ووحدة الصف، ونبذ الفرقة والخلاف، وإطاعة القائد وترك الغرور بالنفس. وأدى ترك هذه الأمور في أحد للهزيمة، على عكس الحال في بدر، تحقق النصر من الله، وتم الإمداد الفعلي بالملائكة، ليُهلك ويقطع الله طائفة من رؤوس الكفر والشرك بالقتل والأسر، أو الكبت والإغاظة، والخزي، فانقلبوا خائبين غير ظافرين، أو يتوب الله عليهم إن أسلموا ورجعوا إلى الله، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر والشقاق، فإنهم ظالمون لأنفسهم، أما أنت يا محمد فليس لك من الأمر شيء، إنما عليك البلاغ، وعلى الله الحساب، فلا تجزع ولا تتألم منهم، ولا تدعُ عليهم، فربما يتوب الله على بعضهم كما تاب على أبي سفيان وأمثاله، والأمر كله بيد الله، فلله ملك السماوات والأرض، يغفر لمن يشاء بفضله، ويعذب من يشاء بحكمته وعدله.

إن تحقيق الانتصارات الحاسمة في المعارك مرهون بمدى الصبر والثبات في لقاء الأعداء، فإذا ما دبّ الخوف وسادت روح الانهزام في الجيش تضعضعت قواه وانهارت معنوياته، لذا كان الفرار من الزحف من الكبائر العظمى في شرعة الله، وبما أن النصر بيد الله فهو صانع النصر، والجنود أدوات وأسباب للنصر، فإن الاستقامة على أمر الله، واجتناب المعاصي أمر ضروري للفوز والغلبة، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠].

إرشاد المؤمنين للخير

اشتملت آيات القرآن الكريم على إرشادات ومواعظ للمؤمنين، تدلهم على ما هو خير وفضيلة، وتمنعهم عما هو شر ورذيلة، إحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل، وبناءً للمجتمع الفاضل، وهذه مجموعة أوامر ونواه مع بيان الجزاء الكريم لامتثال الأمر واجتناب النهي، قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ(١) وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ(٢) وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ(٣) وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً(٤) أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٠-١٣٦].

في مطلع هذه الآيات نهى الله المؤمنين عن التشبه باليهود وعرب الجاهلية الذين كانوا يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، فكانوا إذا حل أجل الدين، وعجز المدين عن سداد دينه، قال الدائن للمدين: إما أن تَقْضي أو تُربي، فيلجأ المدين إلى القبول اضطراراً بتضعيف الربا أو الفائدة، وتأجيل الدين عاماً آخر، فهذا فعل شنيع، واستغلال قبيح، وقد حرَّم الله جميع أنواع الربا قليله وكثيره، وكل قرض جرّ نفعاً للمقرض في مقابل التأخير فهو ربا، سواء كانت المنفعة نقداً أو عيناً كثيرة أو قليلة،

(١) كثيرة. (٢) اليسر والعسر. (٣) الحابسين غيظهم في نفوسهم. (٤) معصية كبيرة.

لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٤٠].

ثم أمر الله تعالى باتقاء النار التي أعدت للعصاة والكافرين، واتقاؤها يكون بطاعة الله وامتثال أوامره وترك المعاصي والمنكرات، والنار سبع طبقات، العليا منها وهي جهنم للعصاة، والخمس للكفار، والدرك الأسفل للمنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

ثم أمر الله بطاعته وطاعة رسوله، والطاعة موافقة الأمر كما أراد الآمر، كي يرحمنا الله في الدنيا بصلاح الحال وانتظام الأمر، وفي الآخرة بحسن الجزاء، قال النبي ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله..»(١).

والطاعة تتطلب المبادرة إلى فعل ما يوجب مغفرة الله، وجزاء المطيعين جنات فسيحات واسعات عرضها كعرض السماء والأرض، أعدت للمتقين الذين وَقَوْا أنفسهم من عذاب الله بالعمل الصالح، وأوصاف المتقين هي:

الذين ينفقون في السراء والضراء، في الشدة والرخاء، ويكتمون غيظهم، ويملكون أنفسهم عند الغضب، فلا يعتدون على الآخرين إذا كانوا في قوة ومنعة، قال النبي ﷺ: «من كظم غيظاً، وهو يقدر على إنفاذه، ملأه الله أمناً وإيماناً»(٢).

وهم أيضاً يعفون عن مساوئ الناس ويتجاوزون عن ذنوبهم بطيب خاطر وطواعية، والعفو عن الناس من أجلّ أفعال الخير، وهم أيضاً يحسنون إلى من أساء إليهم، والله يحب المحسنين، وهؤلاء المتقون إذا فعلوا فاحشة أو ذنباً كبيراً يضر كالزنا والربا، والغيبة والنميمة، أو ذنباً صغيراً لا يتعدى إلى غيرهم، ذكروا عقاب

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة . (٢) حديث حسن أخرجه ابن ماجه عن ابن عمر .

الله، وما أعده للظالمين والعاصين، فيرجعون ويتوبون إلى الله، ويندمون على ما فعلوا، وينصرفون عن مهاوي الشيطان، ويعملون بأخلاق الرحمن. أولئك الموصوفون بما ذكرهم: أهل الكمال والتوفيق الإلهي، وجزاؤهم مغفرة من الله ورضوان من ربهم، وجنات تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً، ولهم نعيم مقيم دائم، ونعم ثواب العاملين المخلصين.

والخلاصة: قد يتحقق النصر للفئة الضالة المنحرفة امتحاناً لأهل الإيمان، وليكون ذلك النصر باعثاً المؤمنين على إعادة الحساب وتصحيح الأخطاء، والتفكير الجادّ في إعادة البناء، وسد الثغرات وإزالة عوامل الضعف، والانهزام، وإيجاد جيل قوي واع يدرك الأخطار، ويلتزم بقانون النصر والغلبة الإلهية القائم على الحق والعدل، وتحقيق التمكين في الأرض لأهل الصلاح المتوحدين المتضامنين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٥].

اتخاذ الأسباب لتحقيق العاقبة الطيبة

يقرر القرآن الكريم قاعدة ثابتة دائمة في الحياة، وهي أن مشيئة الله تسير على نظم ثابتة، ربطت فيها الأسباب بالمسبَّبات والنتائج، مع أن الله قادر على كل شيء، ففي الحرب أو السلم، أو الزرع أو التجارة أو التخطيط أو الدراسة العلمية مثلاً إذا سار فيها الإنسان على الطرق السليمة، نجح، وإن كان شريراً مجوسياً، وإن خرج الإنسان عن المعقول والمألوف، واتبع طريقاً غير معقولة، أو تكاسل وأهمل، كان من الخاسرين، ولو كان شريفاً حسيباً، أو رجلاً عظيماً.

وأحق الناس بالتزام المعقول، والاستفادة من هدي القرآن، هم المؤمنون. قال

الله تعالى مبيناً سنته الدائمة في الخلق وأن العاقبة للمتقين: ﴿قَدْ خَلَتْ(١) مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ(٢) فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا(٣) وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ(٤) فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا(٥) بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ(٦) ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ(٧) ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٧-١٤١].

والمعنى: انظروا أيها المسلمون في الماضي والحاضر إلى من سبقكم من الأمم، وتعرفوا على أخبار الماضين، فستجدون منهجاً واحداً لا يتغير، وطريقاً واحداً لا يتخلف، وهو إن سرتم سير الطائعين الموفقين، نجحتم، وإن سرتم سير العصاة المكذبين خسرتم، إنكم سلكتم طريقاً معتدلاً يوم بدر فانتصرتم، وسلكتم طريقاً خطأ بمخالفة نبيكم يوم أحد فانهزمتم. وهكذا كل ما نتعرض له من هزائم إنما هو بسبب من أنفسنا.

والقرآن بيان واضح للناس عامة، وهدى وموعظة للمتقين خاصة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢].

وإياكم أيها المؤمنون من الوهن والضعف بعد الانهزام في أحد وغيرها، ولا تحزنوا على ما حدث، ولا على من قُتل، فإن يمسسكم قتل وجراح في معركة أحد مثلاً، فقد مسَّ غيركم مثله، فشهداؤكم مكرمون عند الله، وما وقع للأعداء ليس نصراً، ولكنه درس بليغ تتعظون به، لذا قال النبي ﷺ يوم أحد: «لو خيرت بين الهزيمة والنصر يوم أحد لاخترت الهزيمة» . لما في تلك المعركة من تربية وعظة وعبرة، أهمها أن مخالفة أمر النبي خروج على سنة الله في تحقيق الظفر.

---

(١) مضت . (٢) وقائع . (٣) لا تضعفوا عن القتال . (٤) القرح : القتل والجراح . (٥) نصرفها بأحوال مختلفة . (٦) ليختبر . (٧) يهلك ويستأصل .

لا يصح لكم أيها المؤمنون أن تضعفوا أو تحزنوا أو تستسلموا للوهن والحزن، فأنتم الأعلون بمقتضى سنة الله في جعل العاقبة للمتقين، وعلو كلمة الإسلام، وقتلاكم في الجنة، وقتلاهم في النار، فالحرب سجال والأيام دول نداولها بين الناس، فنجعل للباطل دولة في يوم، وللحق دولة في أيام، والعاقبة والنصر في النهاية للمتقين الصابرين.

والمعارك وساحة الحياة ميدان للاختبار والامتحان، ففيها يعلم الله علم مكاشفة وظهور، لا العلم الطارئ بعد الجهل، لأن علم الله سابق ومطابق للواقع لا يتغير، فالله يعلم الذين يؤمنون من الأزل، ثم يظهر في الوجود إيمانهم في الواقع، ويكرِّم أناساً بالشهادة والقتل في سبيل الله، وللشهادة درجة عظيمة عند الله والناس، وفي هذه المحن العصيبة يمحِّص وينقي الله الذين آمنوا، ويظهر الإيمان الخالص من الإيمان المشوه، ويتضح في الواقع المشاهد إيمان الذين قد علم الله أزلاً أنهم يؤمنون، وذلك حتى تصفو النفوس، وتستعد للعودة إلى الطريق الأسلم وخوض معارك ناجحة، يتم بها محق الكافرين أو ذهابهم شيئاً فشيئاً، وانتصار المؤمنين وتنقية المخلصين وتمييزهم عن المنافقين، وعلى هذا إذا انتصر الأعداء طغوا وبغوا، فيكون هلاكهم مرة واحدة، وإذا انهزموا ضعفوا وهلكوا شيئاً فشيئاً وأبيدوا، والعاقبة في النهاية للمتقين.

والخلاصة: إن اتخاذ الأسباب المهيئة للرزق والنصر مثلاً أمر متفق مع مبدأ الإيمان بقدرة الله الشاملة في إيجاد ما يشاء؛ لأن الله يريد للناس أن يثبتوا ذاتيتهم، ويظهروا أعمالهم، ليتميز المحسن من المسيء، والمجاهد من المتقاعس، والقوي من الضعيف، وإذا كنا نريد أن يتحقق كل شيء بأمر الله التكويني ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فذلك إلغاء لوجود الإنسان، وإهمال لدوره وفعاليته في الحياة، وإن عزيز النفس لا

يقبل عادة أن يمنح من غيره كل شيء، وهو منتظر التقاط النتائج، وتقديم الانتصارات على طبق من ذهب، لذا فالعمل شرف، والجهاد فضيلة وإثبات الذات مظهر تكريم وإعزاز.

عتاب المقصرين والمخالفين يوم أحد وبدر

يبين الله تعالى أن سبيل العزة والنصر والكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، منوط بالجهاد والقتال، والصبر والتضحية، فليست الحياة العزيزة مفروشة بالورود، وليس الفوز والنصر مجرد منحة إلهية من غير عمل وجهاد، فلا بد للفوز في الدنيا من الصلاح والاستقامة ونصر دين الله وإقامة العدل، ومنع الظلم، وسلوك الطرق السوية المألوفة، وتلك هي سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير.

أبان الله تعالى هذه السنة وعرَّفنا هذا المنهاج القويم، فقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٢-١٤٤].

والمعنى: لا يصح لكم أيها المؤمنون أن تصابوا بداء الغرور، فتفهموا أن دخول الجنة يكون من غير جهاد في سبيل الله، وصبر على المعارك الرهيبة، والجهاد أنواع: جهاد العدو الظاهر بالسلاح والإعداد لطرده من الأوطان والبلاد، وجهاد النفس بمنعها من الأهواء والشهوات وحملها على الطاعة والفضيلة والعمل الصالح، وجهاد باللسان بالحرب الإعلامية الموجهة المدروسة، وجهاد حب المال عند البذل في

الأعمال العامة النافعة، وإذا لم يعلم الله وقوع الجهاد والصبر، فذلك دليل على عدم وقوعه بالفعل من المؤمنين.

ثم عاتب الله بعض المؤمنين الذين يعتمدون على الأماني والتمنيات، فلقد تمنى المتخلفون من المؤمنين يوم بدر حضور قتال المشركين مع النبي ﷺ، لينالوا منزلتهم العالية، فلما جد الجد، وجاء يوم أحد، واحتدمت المعركة، لم يصدُق كل المؤمنين في القتال، وتوانوا وقصّروا، وانحازوا إلى الجبل والرسول يدعوهم إلى الصمود والقتال، فلا يجيبه أحد.

قال الحسن البصري: بلغني أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون، أي يوم بدر: لئن لقينا مع النبي ﷺ لنفعلن ولنفعلن، فابتلوا بذلك أي يوم أحد، فلا والله ما كلهم صادق، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

وفي غزوة أحد أشيع خبر مقتل النبي ﷺ، فقال بعض المنافقين: لو كان نبياً ما قتل، من لنا برسول إلى عبد الله بن أبي (زعيم المنافقين) ليأخذ لنا الأمان عند أبي سفيان؟ وتبرأ أنس بن النضر إلى الله من مثل هذا الكلام، وجعل يقاتل حتى يقتل دفاعاً عن الدين، وكانت هذه الإشاعة سبباً في انفضاض بعض الناس عن مناصرة النبي ﷺ، فعاتبهم الله بقوله: وما محمد إلا رسول كغيره من الرسل السابقين، إن مات كموسى وعيسى، أو قتل كزكريا ويحيى، فإن ديانتهم بقيت كما هي، وتمسك أتباعهم بها، فالمعقول والمطلوب أن تظلوا مؤمنين مجاهدين مخلصين كما كنتم، ثابتين على المبدأ ولو مات أو قتل، عاملين بمضمون رسالته على الدوام، فإن الرسول بشر كسائر الأنبياء، يموت كما مات الرسل قبله، وله في الدنيا مهمة مؤقتة تنتهي بانتهاء أجله، والله باق دائم، فمن كان يعبد الله فإن الله حي باق، ومن كان يعبد محمداً

فإن محمداً قد مات. ومن يرتد عن دينه، فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه، ومن ثبت على دينه فهو من الصابرين المجاهدين الشاكرين، وسيجزيهم الله جزاء حسناً على ثباتهم والتزامهم دين الله.

إن العتاب الإلهي لون من ألوان التربية والإعداد والتصحيح، وذلك دليل من الله على محبته لعباده وإرادته الخير لهم، فإذا أخطؤوا لم يسكت الله على الخطأ، وإن قصروا نبههم لما فيه صلاحهم، حتى يبادروا للعمل البنّاء من جديد، بروح قوية، وعزيمة صادقة، وجرأة وشجاعة نادرة، وإيجابية لا تعرف التقهقر أو التردد، وهذا سبيل العزة والكرامة، وتحقيق الغايات الكبرى.

أجل الموت بإذن الله

هناك أمور حتمية مقدَّرة للإنسان لا تزيد ولا تنقص، مردها إلى الله جل جلاله، كالحياة والموت، والعز والذل، والرزق والأجل، اختص الله بعلمها، وما على الإنسان إلا الرضا بالقضاء والقدر، وهذا يعدّ حافزاً قوياً للبطولة والشجاعة، والإقدام على خوض معارك الجهاد وغمار الموت، بنفس قوية، لا تخور ولا تتردد، ولا تضعف ولا تجبن ولا تتقاعس؛ لأن الأجل محتوم، فليست المعارك والمخاطر مسرِّعة للموت، وليس النوم في المنازل ولا على الأسِرَّة بمطيل للأجل، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٤]. وقال سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٤/ ٧٨].

قال عطية العوفي لما كانت يوم أحد، انهزم الناس، فقال بعض الناس: قد

أصيب محمد، فأعطوهم بأيديكم[١]، فإنما هم إخوانكم، وقال بعضهم: إن كان محمد قد أصيب ألا تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به؟ فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٤]. إلى أن قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن[٢] مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ[٣] فَمَا وَهَنُوا[٤] لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا[٥] وَمَا اسْتَكَانُوا[٦] وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٥-١٤٨].

أوضحت الآيات أن محمداً -كبقية الرسل- بشر معرض للموت، لم يطلب لنفسه العبادة، وإنما كان يأمر بعبادة الله وحده، والله حي لم يمت، ومهمة الرسول البلاغ فقط، فليس لوجوده دخل في استمرار عبادة الله.

وأبانت الآيات أيضاً أنه ليس من شأن النفوس ولا من سنة الله فيها أن تموت بغير إذن الله أو مشيئته، فالله وحده هو المتصرف في كل شيء، فيأذن للملَك بقبض الروح في الموت العادي وغير العادي، كتب الله هذا كتاباً محكماً محدداً بوقت لا يتعداه، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها. وإذا كان العمر بيد الله، فكيف يصح الجبن والضعف؟

ومن يرد ثواب الدنيا بجهاده وعمله، أعطاه الله شيئاً منها، ومن يرد بعمله ثواب

(١) أي استسلموا لهم قبل أن يأخذوكم قهراً. (٢) كم من نبي. (٣) أي جماعات كثيرة. (٤) عجزوا. (٥) أي لقتل نبيهم. (٦) ما خضعوا.

الآخرة وجزاءها، أعطاه الله شيئاً منها، على حسب إرادته وحكمته ومشيئته في كلا الحالين.

وكثير من الأنبياء السابقين قاتل معه في سبيل الله جماعات كثيرة، فما وهنوا ولا ضعفوا ولا خضعوا للدنيا ومتاعها، بل ظلوا صابرين ثابتين على المبدأ، والله يحب الصابرين، وما كان قول أولئك المجاهدين إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، وإسرافنا وتجاوزنا أمرك، وثبِّت أقدامنا على صراطك المستقيم وأمام عدوك، وانصرنا على القوم الكافرين، فآتاهم الله ثواب الدنيا بالرضا والسعادة والعزة والنصر، وثواب الآخرة وهو الجنة والرضوان، والله يرضى عن المحسنين ويكافئهم بالفوز العظيم.

وما دام الأجل محتوماً ومحدداً، فيكون ذلك باعثاً على الإقدام والتضحية والاستبسال في سبيل إحراز النصر في الحياة على الأهواء والشهوات أم على الأعداء ووساوس الشياطين.

وإن الجهل بالأجل أو العمر فيه الخير والمصلحة، فيبقى الإنسان في أمل وتفاؤل، ويبتعد عن اليأس والإحباط، أما إذا علم الإنسان بوقت أجله، فيفقد الأمل ويعيش منتظراً الأجل المعلوم، وكم رأينا بعض المرضى الذين يخبرهم الأطباء بألا أمل من شفائهم يعيشون بائسين حزينين مكروبين، قلقين في أنفسهم، ومزعجين لغيرهم.

عاقبة ولاء الكفار

يمتحن الله تعالى عادة عباده بأنواع مختلفة من الاختبارات، في السلم والحرب، أو في الرخاء والشدة، أو في الغنى والفقر، أو في الصحة والمرض، أو في الحياة والموت، أو في الفرح والمصيبة، ليُعرف المؤمن الصامد الثابت على العقيدة والمبدأ،

ويُكشف الكافر والمنافق الذي لا هم له إلا النفع المادي الدنيوي، والمطمع المالي والمصلحة السريعة.

وحرصاً من الله على استقامة عباده المؤمنين، حذرهم من موالاة الكافرين ومناصرتهم ومتابعتهم وتقليدهم في عملهم وموقفهم، فقال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ(١) وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ(٢) بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا(٣) وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى(٤) الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٩-١٥١].

وسبب نزول هذه الآيات أن بعض المنافقين حينما أذيع خبر مقتل النبي ﷺ في غزوة أحد، قال: من لنا برسول إلى ابن أبي (أي زعيم المنافقين) يأخذ لنا أماناً عند أبي سفيان، فقال بعضهم: لو كان نبياً ما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم، وهذا أبو سفيان ينادي: العُزَّى (وهو الصنم المعروف) لنا، ولا عُزّى لكم، فنزلت هذه الآيات.

وقال السدّي: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد، متوجهين إلى مكة، انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق، ثم إنهم ندموا وقالوا: بئس ما صنعنا، قتلناهم، حتى إذا لم يبق منهم إلا الشرذمة(٥) تركناهم؟ ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك، ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب، حتى رجعوا عما هَمُّوا به، وأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ..﴾ الآية.

وكان رسول الله ﷺ قد أرسل علي بن أبي طالب يتعرف خبر المشركين بعد أُحد، عائدين إلى مكة أم إلى المدينة؟ ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجهز جيشاً، وتابع

---

(١) ناصركم. (٢) الخوف. (٣) حجة وبرهاناً. (٤) مأوى ومُقَام. (٥) الطائفة القليلة من الناس.

المشركين، حتى بلغ (حمراء الأسد) وأخبر معبد بن أبي معبد الخزاعي وهو على كفره أبا سفيان بما صمم عليه رسول الله، وأنه خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم، قد اجتمع إليه من كان تخلَّف عنه، وندموا على ما صنعوا، فوقع الرعب في قلوب الكفار، وأسرعوا بالعودة إلى مكة.

هذه الآيات تحذر المؤمنين من إطاعة الذين كفروا كأبي سفيان وعبد الله بن أبي وأتباعهما، فإنهم إن أطاعوهم ردوهم خاسرين في الدنيا بالذلة بعد العزة، وتحكّم العدو فيهم، وحرمانِهم من السعادة والملك الذي وعد الله به المؤمنين بالاستخلاف في الأرض والتمكن فيها، وكذلك يخسرون الآخرة بالعذاب الشديد في نار جهنم، إن الله مولاكم وناصركم أيها المؤمنون، فإياكم أن تفكروا في ولاية أبي سفيان أو غيره، واحذروا كلام المنافقين الجبناء، فالله نعم المولى والناصر وهو خير الناصرين.

وسيلقي الله في قلوب الذين كفروا الرعب الشديد بسبب شركهم بالله أصناماً وحجارة، لا حجة ولا برهان على صواب عبادتها وتعظيمها، وتوِّرث عبادتهم الأصنام خبالاً في عقولهم وضعفاً في نفوسهم، ويزداد رعبهم كلما وجدوا المسلمين متمسكين بدينهم، ومأواهم النار في الآخرة، وبئس القرار فإنهم الظالمون المشركون العابثون، وهذا الترهيب يستدعي زيادة شجاعة المؤمن الموعود بالنصر. وضَعْفَ المشرك وخوارَ عزيمته، لأنه مبشر بالعذاب والعقاب.

إن الأمة الواعية هي التي تعتمد على نفسها، وعلى من يشاركها بحرارة وصدق في آلامها وآمالها، وإن أخطأ البعض لا يصح أن يكون سبباً للارتماء في أحضان العدو، فما عند الأعداء إلا الخطط المدمرة، والكيد لنا، وإبقائنا أذلة أتباعاً لهم، وإن ما نشاهده أعقاب حرب الخليج ١٩٩٠م من اعتماد على مساندة الأعداء وتضييع للمصالح الكبرى دليل واضح على صدق التحذير القرآني من إطاعة الآخرين الذين لا صدق ولا إخلاص في دعمنا ومساندتنا.

أسباب الهزيمة في غزوة أحد

للنصر أسباب وللهزيمة أسباب، والمؤمن المتبصر هو الذي يدرك ما يجب عليه الحالين. وقد أبان القرآن أسباب هزيمة المسلمين في غزوة أحد، للرد على المنافقين المشككين في نبوة الرسول ﷺ، قال محمد بن كعب القرظي: لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ(١) حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ(٢) وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ(٣) وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٢].

أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه قد نصر المؤمنين أولاً في بداية أمر المعركة وقت أن أخذوا يقتلون المشركين قتلاً، ويفتكون بهم فتكاً، ولكنهم لما طمعوا في الغنائم وانقسموا فريقين: فريق الرماة فوق الجبل تركوا أماكنهم حينما رأوا انهزام المشركين، وفريق ثبت مكانه وقالوا: لا نخالف أمر الرسول أبداً، وهم القائد عبد الله بن جبير مع نفر قليل من أصحابه، والفريق الأول وهم الرماة هم الذين أرادوا الدنيا وتركوا أماكنهم طلباً للغنيمة، والفريق الثاني هم الذين أرادوا الآخرة وثبتوا في مكانهم ولم يخالفوا أمر الرسول ﷺ، ثم تحول النصر إلى هزيمة، وعفا الله عن المخالفين، وصرف المؤمنين عن المشركين ليمتحن إيمانهم ويَظْهر الصادقون من المنافقين، وتاب الله بفضله العظيم على المؤمنين.

ثم ذكّر الله المؤمنين حيث انهزموا ولم يلتفتوا إلى ما وراءهم، والحال أن الرسول

---

(١) أي تقتلونهم بأمر الله وإرادته. (٢) أي جبنتم وضعفتم. (٣) ليختبر صبركم.

يدعوهم لمناصرته قائلاً: «إلي عباد الله، إلي عباد الله، أنا رسول الله، من يكر فله الجنة». فقال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ[(١)] وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ[(٢)] وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ[(٣)] فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ[(٤)] لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٣].

أي إن الله جازاكم على صنيعكم، وألقى عليكم الغم والحزن بسبب الغم الذي أدخلتموه على الرسول وسائر المؤمنين بعصيانكم أمره ورأيه، وما فعل بكم ذلك إلا ليمرنكم ويدربكم على الشدائد، ولئلا تحزنوا على شيء فات، ولا ما أصابكم من عدوكم، والله خبير بأعمالكم ومجازيكم عليها.

ثم بيّن الله فضله على المؤمنين الصادقين الملتفين حول الرسول بإلقاء النعاس عليهم، وكشف زيف المنافقين الذين لا يثقون بنصر الله، قائلين: لن يأتي النصر لنا، وإن محمداً ليس نبياً، إذ لو كان نبياً ما هزم، رابطين بين النبوة والنصر، ومضمرين الحقد والعداوة لبقية المؤمنين، فرد الله عليهم بأن النصر من عند الله، والأمر كله لله، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً[(٥)] نُّعَاسًا[(٦)] يَغْشَىٰ[(٧)] طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ[(٨)] وَلِيَبْتَلِىَ[(٩)] ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ[(١٠)] مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٤]. فالنصر من عند الله، وهذا رد على

(١) تهربون في الوادي. (٢) أي تبعدون في الذهاب، ولا تلتفتون لأحد. (٣) أي جماعتكم المتأخرة التي وقفت تدافع عن النبي. (٤) حزناً متصلاً بحزن. (٥) أمناً. (٦) سكوناً، ومقاربة للنوم. (٧) يحيط كالغشاء. (٨) أي لخرج المقدر موتهم إلى مصارعهم التي يموتون فيها. (٩) ليختبر. (١٠) ليخلّص ويزيل.

المنافقين القائلين: هل لنا من الأمر والنصر نصيب، ولو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا، أي إن الخروج للقتال خطأ، ولو لم يخرج المسلمون لم يقتل أحد.

ثم أوضح الله تعالى أن الذين تركوا أماكنهم أو انهزموا إنما أوقعهم الشيطان في هذا الخطأ بسبب أفعالهم وذنوبهم السابقة، ولكن عفا الله عنهم لما تابوا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ(١) ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٥]. أي إن الله غفور للذنوب حليم لا يعجل بالعقوبة.

لقد كان انهزام المسلمين في أحد بسبب الحرص على المادة والغنائم، ومخالفة أوامر الرسول ﷺ، والإصغاء لوساوس الشيطان، واقتراف الخطايا والذنوب، وإن الاستفادة من دروس الهزيمة أهم من فوائد النصر والغلبة، فلا يمكن تحقيق النصر إلا بتجنب وسائل الضعف والهزيمة، والله برحمته ينبّه هؤلاء المخطئين كيلا يقعوا في الخطأ المماثل إلى الأبد.

تبديد مخاوف الموت

يشيع بين الناس -بسبب وسوسة الشيطان- خطأ فاسد ومعتقد باطل أن الأمان في البقاء في البيوت والمدن، وأن الموت في السفر والارتحال، أو الحرب والقتال، وأن من سافر في تجارة ونحوها، ومن قاتل فقُتل، لو قعد في بيته لعاش ولم يمت في ذلك الوقت الذي عرَّض فيه نفسه للسفر أو للقتال.

فندّد الله تعالى في قرآنه هذا الاعتقاد الفاسد، وأبان حقيقة أمر الموت، وأنه بيد

(١) حملهم على الزلة بالوسوسة .

الله وحده، وأن الاستشهاد في سبيل الله طريق لغفران الله والتعرض لرحمته، فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ(١) أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى(٢) لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٦-١٥٨].

أبطل الله في هذه الآيات ما يوسوس به الشيطان من أن السفر أو الجهاد عرضة للقتل أو الموت، فيا أيها المؤمنون بالله ورسوله، لا تكونوا كأولئك المنافقين الكفار الذين لا يهتدون إلى صواب الرأي وسلامة الاعتقاد، فهم يقولون في شأن إخوانهم في الدين، الذين يسافرون للتجارة، أو يجاهدون في سبيل الله، فيموتوا أو يقتلوا: لو كانوا عندنا مقيمين، لم يبرحوا مكانهم، ما ماتوا وما قتلوا.

إن هذا المعتقد خطأ واضح، فليست المنايا ترسل بلا حساب، وأن الهلاك بالسفر أو الحرب، والمنافق أو الجبان هو الذي يعتقد أنه لو قعد في بيته لم يمت، وحينئذ يتحسر أو يتلهف لو سافر أو جاهد، أما المؤمن الشجاع فهو الذي يتيقن أن كل موت أو قتل بأجل سابق، فيسلم الأمر لله، ويكون التسليم لله تعالى برداً وسلاماً على قلبه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٥].

احذروا أيها المؤمنون أن تكونوا مثل الكفار والمنافقين، وثقوا بالله واعتقدوا حق الاعتقاد أن الله هو الذي يحيي ويميت، والله بما تعملون بصير، فلا تخفى عليه

---

(١) سافروا . (٢) أي غزاة مقاتلين .

خافية من خبايا نفوسكم ومعتقداتكم، وفي هذا ترغيب للمؤمنين بتسليم الأمر لله، وتهديد للكافرين بسبب سوء الاعتقاد.

ووالله أيها المسلمون لئن قتلم في سبيل الله أومتم، فإن مغفرة الله لكم ورضوانه عليكم خير من كل ما تجمعون من حطام الدنيا الفانية. وكل ميت أو قتيل يحشر إلى الله، فيحاسبه على ما قدم في دنياه، وأجره على الله. وهذا وعظ بالآخرة والحشر، وتزهيد في الدنيا والحياة، وإفهام واضح لحقيقة الموت والحياة.

إن هذا التصحيح لأخطاء الناس عن أجل الموت يبعث في النفس روح التضحية والفداء، والإقدام والجهاد من أجل إرضاء الله ورفع لواء الإسلام والذود عن حياض الوطن الغالي، فكل من يقتل في سبيل الله حي يرزق عند ربه، وحي على ألسنة الناس بالذكر الطيب والثناء الحسن.

وإن الجبن والاستضعاف في الأمة وتهيب مخاطر الموت يوقع الأمة والبلاد برمتها في ذل وقهر أبدي، يجعل الناس عبيداً أو كالعبيد للقوي المستبد، والسيد الظالم. ولقد ذاقت بلاد المسلمين والعرب ويلات الاستعمار، وأدركت بتجربة قاسية مدى الظلم والذل والنكال الذي يلحق بالكرامة والثروة والقيم والأعراض، فهل من متعظ مدرك ما نعانيه من وجود الصهاينة في بلادنا والمستعمرين الجدد في منطقة الخليج تحت مظلة ما يسمى بالنظام العالمي الجديد؟

الأخلاق النبوية

أعد الله تعالى نبيه محمداً ﷺ إعداداً طيباً يتناسب مع مهمة الرسالة، وسياسة الدعوة، وصلاح الناس، وترغيبهم في الإسلام وذلك بتليين قلب النبي وغرس

خصلة الرحمة في قلبه، ومشاورة أصحابه، ومحبته الخير لهم بالدعاء والاستغفار لهم والعفو عنهم، والتوكل على الله وطلب المعونة والنصر منه سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ(١) لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا(٢) غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟(٣) مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ(٤) وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩-١٦٠].

اشتملت هذه الآيات على مقومات نجاح الدعوة النبوية وأصول الحكم الإسلامي ومنهج التعامل مع الناس. وأول هذه المقومات: إلانة قلب النبي ورحمته الشاملة بالناس، فالله تعالى جعل نبيه سهل المعاملة، ليِّن الكلام والإرشاد، شديد العطف، إذ لو كان شديد النفس غليظ القلب، لانفض الناس من حوله، ولكن الله جعله رحمة مهداة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٧]. وجعله المثل الأعلى الكامل في الخلق والمعاملة، حتى امتدحه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٤].

ومن هذه المقومات التي أمر الله بها نبيه: أن يعفو ويصفح عن أخطاء قومه، فلا يجازيهم على معاملتهم السيئة له، وإنما يقابل الإساءة بالإحسان، ويستغفر الله لهم فيما وقعوا به من تبعات وأخطاء.

ومن مقومات الإسلام ودعوته: الشورى، فهي من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٨].

---

(١) لاينتهم بخلق سمح. (٢) جافياً في المعاشرة. (٣) لتفرقوا. (٤) فلا قاهر لكم.

وقال النبي ﷺ : «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار»[١]. وقال عليه السلام: «المستشار مؤتمن»[٢] . والاستشارة مطلوبة في جميع شؤون الدنيا والدين، أما أمور الدين فالقرآن هو الحكم فيها، وأما أمور الدنيا فالعقل والتجربة والحُنكة والود أساسها.

ومن مقومات العقيدة الإسلامية: التوكل على الله، وتفويض الأمر والشأن له، ولكن بشرط اتخاذ الأسباب، واقتران التوكل بالجد في الطاعة، والعمل والحزم وبذل الجهد بحسب مقتضى الحكمة وواقع الأمور.

ثم نبّه الله المؤمنين إلى عقيدة النصر بقوله: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ أي الزموا الأمور التي أمركم بها ووعدكم النصر معها، فما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، لأن جميع ما في الكون بتدبيره ومشيئته، وإذا خذل الله قوماً بأن تركهم وتخلى عنهم في مواطن الحاجة والشدة، فلن يجدوا ناصراً لهم من بعده، لذا وجب عليهم أن يتوكلوا على الله وحده بعد اتخاذ الأسباب، لأنه لا ناصر لهم سواه، ولا معين لهم غيره، ونصر الله مرهون بشرط نصرة دين الله، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد: ٤٧/٧].

إن هذه القيم الخلقية القرآنية-النبوية تعد اللبنة الأولى لبناء الأمجاد والحفاظ على حرمة الديار والبلاد، وإن تخلق النبي ﷺ بأخلاق القرآن يعد دليلاً حسياً وترجمة عملية للالتزام بالأخلاق القائمة على حماية الكرامة الإنسانية والحرية والعدالة والمساواة.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك. (٢) أخرجه أصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة ، والترمذي عن أم سلمة ، وابن ماجه عن ابن مسعود .

بعض المقومات الإسلامية

من المعلوم أن رسالة الإسلام رسالة إنقاذ وإصلاح للمجتمع، وغرس لمبادئ الفضيلة والخصال الكريمة في النفوس المسلمة، وإيجاد رابطة قوية وثيقة بين الأفراد، وتنمية الشعور بالواجب، وحماية الحقوق العامة والخاصة لكل إنسان. ومن أهم هذه المبادئ والمقومات: الحفاظ على حقوق الجماعة بصون الأمانة وتحريم الخيانة، سواء من المغانم أو غيرها، واتباع ما يرضي الله والتزام أوامره، والبعد عما يسخط الله ويوجب العذاب، وليس الناس في الجنة في درجة واحدة، وإنما هم في درجات، ومهمة النبي ﷺ تبليغ الأحكام والشرائع لأمته، وتلاوة آيات القرآن الكريم عليها وإفهامها لهم، وتعليمهم جميع ما في القرآن، والسنة النبوية، فإذا ما امتثلوا هذه التعاليم كانوا مثال المجتمع الفاضل، وتخلصوا من مفاسد الجاهلية البدائية وضلالاتها الموروثة، وبنوا حضارة جديدة قائمة على الحق والعدل والإحسان والأخلاق الفاضلة.

قال الله تعالى مبيناً هذه المقومات: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ(١) وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ(٢) مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ(٣) وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦١-١٦٤].

وسبب نزول آية الإغلال: أنه قيل للرماة الذين تركوا أماكنهم يوم أحد: لم

---

(١) يخون في الغنيمة، والإغلال: الخيانة وأخذ بعض الغنائم الحربية قبل قسمتها بين الغانمين. (٢) رجع متابساً بغضب. (٣) يطهرهم من أدناس الجاهلية

تركتم أماكنكم؟ فقالوا: نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئاً من مغنم فهو له، وألا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر، فقال لهم النبي ﷺ: ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري؟ فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال لهم: بل ظننتم أننا نغُل -أي نخون- ولا نقسم، أي الغنيمة.

ومعنى الآيات: أن الله قد عصم أنبياءه من ارتكاب بعض الدناءات، فلا يصح ولا يليق بمكانة نبي أن يأخذ شيئاً من الغنائم، لأن النبي هو المثل الأعلى في الخلق والكرامة للناس جميعاً، ومن أخذ شيئاً في الدنيا بغير حق، عوقب عليه في الآخرة، ولا يظلم ربك أحداً بمؤاخذة من غير ذنب.

ولا يعقل في ميزان الحق والعدل أن يسوّى بين الطائع والعاصي، والمحسن والمسيء: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٢]. والعدل يقضي أيضاً بتفاوت درجات المحسنين، وتباين منازلهم، فمنازلهم في الجنة بعضها أعلى من بعض في المسافة أو التكرمة، وكذلك المسيئون يعذبون في جهنم بألوان مختلفة من العذاب بحسب تفاوتهم في السوء وارتكاب الفواحش والمنكرات، فهم في دركات متفاوتة من النار.

وكان من أعظم النعم على المؤمنين: بعثة النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، إذ أرسله ربه رحمة للعالمين، وكان من بين العرب قومه، فهو من جنسهم، وهو عربي من ولد إسماعيل، فجدير بقومه العرب أن يكونوا سبّاقين إلى الإسلام، والتصديق برسالة النبي ﷺ، ورسالته إصلاح وإنقاذ لهم وللبشرية جمعاء، يرشدهم إلى الإيمان الحق بالله عز وجل وينقذهم من ظلمات العقائد والأخلاق الفاسدة إلى نور الهداية الربانية والخصال الكريمة والمبادئ القويمة، ويتلو عليهم آيات القرآن الدالة على قدرة الله تعالى ووحدانيته وعلمه وكمال صفاته، مثل قوله سبحانه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠].

والرسول يزكّي النفوس، ويطهرها من كل دنس وفحش ورذيلة وكفر ومعصية، واستطاع أن يخرج من العرب الجاهليين أمة لها نظام وحكم وسياسة وإدارة فاقت كل نظام سابق، ويعلّم الرسول أمته القرآن والكتابة والحكمة والسنة النبوية حتى صار منهم الكتّاب والعلماء والحكماء والقادة في جميع العلوم والمعارف، وإن كانوا سابقاً في متاهة وضلال مبين.

والخلاصة: إن رسالة السماء تتطلب من الناس الحفاظ على الحقوق فلا سرقة ولا خيانة من المغنم، وهم أمة الحضارة والمدنية إن اتبعوا تعاليم القرآن وفهموا أسرار التشريع وعملوا بمنهج النبي ﷺ وسيرته العطرة.

إرشاد المؤمنين ببيان قبائح المنافقين

يظن بعض الناس خطأً أن النصر على العدو ينبغي أن يكون دائماً في جانب المسلمين مهما كان وضعهم، ومهما خالفوا وعصوا أوامر دينهم، ويظن آخرون خطأً أيضاً أن الدفاع عن الوطن وتخليص الأراضي المحتلة من الغاصب المحتل ليس جهاداً في سبيل الله، وأن الشهداء من أجل ذلك ليسوا شهداء في الجنة.

لقد أجاب القرآن عن هذين الخطأين، وردَّ تلك الشبهتين بما يبين الحقيقة والصواب، ويرشد إلى واجب المؤمنين في الأخذ بالأسباب وتصحيح الأخطاء بين التصور وواقع الأمر، فقال الله تعالى، معلّماً ومبيناً وجه الحق والاستفادة من الأحداث، ومعرِّفاً لهم أن ما أصابهم من قلق للمصيبة التي نزلت بهم بعد أُحد إنما كان ذلك لسبب من أنفسهم، قال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا

قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا(١) قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟(٢) عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٥-١٦٨].

ترشد هذه الآيات الكريمات أهل الإيمان والحق إلى معرفة أسباب الهزيمة في أحد من خلال هذا العتاب الإلهي، فإن كنتم أيها المؤمنون هُزمتم في معركة أحد وقتل منكم سبعون، فقد هَزَمتم المشركين في معركة بدر وقتلتم من المشركين سبعين وأسرتم سبعين، على أن هزيمتكم في أحد كنتم أنتم سببها، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٥] علماً بأن الله قادر على نصركم لأنه سبحانه القادر على كل شيء، فلا يقع شيء خارج عن قدرته، ولكنه سبحانه أراد أن يعلِّمكم من دروس الهزيمة ما تتمكنون به من تجنب أسبابها في معارك أخرى. وما أصابكم من مصيبة وقلق يوم أُحد، وقتل سبعين من المسلمين، يوم التقى الجمعان والجيشان، جيش المسلمين وجيش المشركين، فبإذن الله وإرادته وتقديره؛ لأن كل شيء في الوجود خاضع لإرادته وحكمته.

لقد حدثت الهزيمة في معركة أحد، ليُعلَم إيمان المؤمنين، ويعلم نفاق الذين نافقوا، أي ليتحقق في الظاهر والواقع والتطبيق موقف أهل الإيمان وموقف أهل النفاق، ويتميز أعيان المؤمنين من أعيان المنافقين، لقد قيل للمنافقين: تعالوا قاتلوا في سبيل الله وجاهدوا للدفاع عن الدين والحق والعدل، ابتغاء مرضاة الله، لا

(١) من أين لنا هذا الخذلان؟ (٢) فادفعوا .

لمكسب دنيوي، أو تعالوا قاتلوا دفاعاً عن النفس والأهل والوطن، فما كان من هؤلاء المنافقين إلا أن قعدوا وتكاسلوا قائلين للمؤمنين: لو نعلم أنكم تتعرضون للقتال لا تبعناكم وسرنا معكم، ولكننا نعلم أنكم لا تقاتلون، إنهم بهذه المقالة وتخلفهم عن جيش المسلمين هم يومئذ للكفر أقرب منهم للإيمان، فإن من يقعد عن الجهاد في سبيل الله، أو الدفاع عن الأوطان، ليس من المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٥].

إن هؤلاء الذين تخلفوا عن المشاركة في القتال يوم أحد هم جماعة تظاهروا بالإيمان بأفواههم فقط، ولم يؤمنوا حقاً بالإسلام، فهم المنافقون. إنهم قالوا لأمثالهم المنافقين المشاركين في المعركة، وقعدوا هم عن الجهاد: لو أطاعونا ولم يسيروا مع المسلمين ما قتلوا، وكأنهم يظنون أن الموت والهلاك فقط بسبب الذهاب إلى ساحات القتال. إنهم جبناء. فلو أن أجل الموت جاءهم في السِلْم، وهم في بيوتهم، هل يستطيعون أن يدفعوا الموت عن أنفسهم؟ لا، فهم أينما وجدوا يدركهم الموت، ولو كانوا في بروج مشيدة.

والخلاصة: إن النصر ليس لازماً أن يكون دائماً في صف المسلمين، و بخاصة إذا خالفوا أوامر دينهم، والجهاد كما يكون من أجل إعلاء كلمة الله والدين والحق، يكون من أجل البلاد والديار والأوطان، وتخليص الأراضي من أيدي المعتدين.

منزلة الشهداء والمجاهدين وجزاؤهم

إن الصراع قائم منذ القديم بين أتباع الدين الحق وبين الأعداء الذين يقاومون دعوة الأنبياء، ويحرصون على حفظ مصالحهم الدنيوية وزعاماتهم ومناصبهم، ولا

يسمحون للمستضعفين أن تكون لهم عزة وكرامة، وقوة ومنعة. لذا تنشأ الحروب بين الفريقين، ويصبح الجهاد وردُّ العدوان أمراً واجباً وفريضة لازمة، ويكون تقديم الشهداء وبذل التضحيات في الأمة عملاً مفروضاً. وقد جعل الإسلام للشهداء منزلة عالية في الدنيا بتخليد ذكرهم والثناء الحسن عليهم، وفضلوا في قبورهم بالرزق من الجنة من وقت القتل، حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم، إذ لا يرزق إلا حي.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ[(١)] ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٩-١٧٥].

تضمنت هذه الآيات الشريفة الكلام عن منزلة الشهداء، وعن بطولات المجاهدين في سبيل الله المخلصين أعمالهم ابتغاء مرضاة الله.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خُضْر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلَّقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم وشربهم وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم»، فنزلت هذه الآية.

(١) أي الألم الشديد والجراح يوم أحد.

آية الشهداء هذه تحث المؤمنين على الجهاد ونصر الإسلام وإعلاء كلمة الله، وترغب في الاستشهاد في سبيل الله، لأن للشهداء مكانة عالية عند ربهم، فهم أحياء عند ربهم حياة من نوع خاص، في عالم الغيب، يمدهم الله برزق من الجنة، قال النبي ﷺ فيما يرويه الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس: «أرواح الشهداء على نهر بباب الجنة يقال له بارق، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً».

هؤلاء الشهداء فرحون بما رأوه من نعيم واسع وفضل كبير وإكرام جليل من الله، وهم مسرورون بإخوانهم المجاهدين الذين يتبعونهم على درب الجهاد والاستشهاد، لما شاهدوه من الجزاء العظيم لهم: وهو حياة أبدية ونعيم دائم، لا خوف عليهم من مكروه، ولا حزن على ما فاتهم في الدنيا، وهم يستبشرون بما يتجدد لهم من نعمة الحياة عند ربهم، ورزقه لهم، وحفظ ثوابهم العظيم.

والمجاهدون الذين يحظون بشرف الشهادة هم المؤمنون الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم الألم الشديد والجراح في غزوة أحد، فلبوا نداء الرسول ﷺ حينما طلبهم فوراً بعد أُحد للقاء أبي سفيان في غزوة حمراء الأسد، للذين أحسنوا منهم العمل واتقوا ربهم وخافوا عقابه لهم أجر عظيم يتناسب مع جهادهم وتضحياتهم.

وهم الذين قال لهم بعض الناس (نعيم بن مسعود): إن الناس وهم قريش قد جمعوا جموعهم فاخشوهم ولا تخرجوا إليهم، وذلك في غزوة بدر الصغرى، فزادهم قول الناس المثبِّطين إيماناً بالله وثقة به ويقيناً في دينه، فخافوا الله، ولم يخافوا الناس، واعتمدوا على نصره وعونه قائلين: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ . أي كافينا الله وهو نعم الناصر المتولي أمورنا، وهذه الكلمة هي التي قالها إبراهيم الخليل حينما ألقي في النار، وقالها النبي محمد ﷺ حين قال الناس: إن الناس قد جمعوا لكم. ولما

فوض أولئك المؤمنون المجاهدون أمورهم لربهم، أعطاهم من الجزاء أربعة معان: النعمة، والفضل، وصرف السوء، واتباع الرضى الإلهي، والله صاحب الفضل العظيم.

إنما ذلكم الشيطان وهو نعيم بن مسعود المثبِّط للمسلمين قبل إسلامه، أو هو إبليس يخوفكم -أيها المؤمنون- أنصارهَ وهم المنافقون وقريش ومن معهم من صناديد الكفار، فلا تخافوهم وخافوني باتباع أمري وجاهدوا مع رسولي إن كنتم مؤمنين حقاً.

ومجمل القول: إن المؤمن القوي لا يكون جباناً، وإن الشهداء أحياء بعد قتلهم حياة غيبية خاصة، ورزقهم في الدنيا من الجنة، والخوف يجب أن يكون من الله فقط لا من الأعداء، وعلى المؤمن أن يثق بتأييد الله وعونه ونصره، ويتخطى كل أسباب الخوف من غير الله.

استبعاد الخوف من الأعداء

الخوف غريزة في البشر، وتزداد المخاوف حين لقاء الأعداء في المعارك، ولكن الإيمان بالله يلقي في النفس الطمأنينة، ويقوِّي النفوس المؤمنة، فترى المؤمن قوياً شجاعاً مقداماً، والكافر ضعيفاً جباناً متقهقراً، ولا يتغير هذا الموقف في القديم والجديد، فأهل الإيمان هم الشجعان، وغير المؤمنين هم الجبناء عادة.

وجاء القرآن لتربية نفوس المؤمنين، وتبديد المخاوف من ملاقاة الأعداء، وغرس الثقة والقوة في صفوف الدعاة إلى الله، لأن إرادة الله هي الغالبة، والله سبحانه هو القوي الغالب القاهر. ومن مقتضى الإرادة الإلهية تمييز أهل الإيمان عن غيرهم، لتعرف مكانتهم ومنزلتهم عند الله تعالى.

قال الله عز وجل مبيناً الفارق بين صف المؤمنين وبين صف الكافرين:

- ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى[1] لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

- ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى[2] مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٦-١٧٩].

والمراد من هذه الآيات توصية النبي ﷺ وأمته من بعده بما يجب أن يكونوا عليه حين لقاء أعدائهم. فلا تجعل أيها النبي نفسك حزينة كئيبة من موقف المسارعين في نصرة الكفار، إن هؤلاء لا يحاربونك ويضرونك، إنما يحاربون الله، فهم لا يضرون الله شيئاً، وإنما يضرون أنفسهم، والدمار عليهم، يريد الله ألا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من الثواب، لفساد طبيعتهم، وميلهم إلى الشر والضرر، ولهم في الآخرة عذاب شديد، لمساعدتهم في نصرة الكفر وتأييده.

وإن الذين بدلوا الكفر بالإيمان، فاختاروا الكفر، وآثروه على الإيمان، لن يضروا الله شيئاً، بل الضرر واقع عليهم، ولهم عذاب مؤلم جداً في الآخرة. ولا يغترن هؤلاء الكفرة بإمهال العذاب عنهم، فليس ذلك الإمهال خيراً لهم، بل هو شر عليهم، لأن إمهالهم وتركهم مدة أخرى من الزمان ليزدادوا إثماً على إثم، ويمعنوا في الضلال والباطل، ولهم عذاب بالغ الإهانة والذل.

(١) أي نمهل ونتركهم يفعلون ما شاؤوا مع كفرهم. (٢) يصطفي و يختار.

وما كان الله ليترك المؤمنين على حالهم، حتى يميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، لأن بهذا التمييز والغربلة يعرف المخلصون، وينقّى المجتمع من بذور الشر والفتنة والفساد، ويكون هذا التمييز لاختبار المؤمنين بالشدائد والمصائب، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٣١].

وما كان الله ليعلمكم حقيقة أنفسكم بطريق الغيب، وإنما يعلمكم بالحقائق في ميدان التجربة والممارسة والتكاليف، فذلك الميدان هو الدليل القاطع على إخلاص المؤمن، وتردد المنافق وجبنه.

لا بد من أن يمر الناس في عالم الدنيا بمرحلة الابتلاء والاختبار ليظهر الصادقون من الكاذبين، أما مرتبة الاطلاع على الغيب فهي مختصة بمن يختارهم الله من خلقه للرسالة والنبوة، وإذا أطلع الله رسوله على بعض الغيب، وأخبر به الناس، فيكون منهم الذين يؤمنون بالغيب ومنهم الكافرون، والإيمان بالله ورسله وغيبياته وتقوى الله محقق للثواب العظيم والرضوان الإلهي. والغيب: كل ما غاب عن البشر، مما هو في علم الله من الحوادث التي تحدث، والأسرار التي يبطنها المنافقون، والأقوال التي يقولونها إذا غابوا عن الناس.

تبين لدينا: أن تآمر الأعداء على المؤمنين لن يحقق فائدة تذكر، وأن الخوف منهم يتصادم مع شرف الإيمان، والإيمان والتقوى أمران أساسيان في تحقيق الظفر والنصر في الدنيا، والأجر العظيم في الآخرة.

البخل بالمال والإنفاق في سبيل الله

إن بناء المجد والحضارة للأمة، والدفاع عن شرفها وعزتها وكيانها يتطلب جانباً مهماً في الحياة العملية ألا وهو الإنفاق في سبيل الله، والبعد عن البخل والشح، والتضحية بشيء من المال كالتضحية بالنفس والنفيس.

فالإنفاق بسخاء في سبيل المصلحة العامة ضرورة وفضيلة، والبخل والتقصير في الإسهام بالقضايا العامة ممنوع ورذيلة بل وداء وبيل. ولذا رغب القرآن الكريم بالإنفاق، وحذر من البخل، وتوعدّ الكانزين والبخلاء بالعذاب في نار جهنم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ(١) مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ(٢) إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ(٣) تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ(٤) وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٠-١٨٤].

قال ابن عباس وغيره: إنما نزلت الآية في أهل الكتاب و بخلهم ببيان ما علّمهم الله من أمر محمد ﷺ.

والمعنى: لا يظنن أحد أن البخل وكنز المال مفيد في الملمات، وأن الجود يفقر والإقدام قتال، لا، فإن البخل شر مستطير على الأمة والفرد، فمن قصر بأداء الزكاة المفروضة أو أهمل واجبه في دعم مصلحة الأمة العليا، استحق العذاب الشديد في نار جهنم في الآخرة، وكان محل نقد وذم وتشنيع عليه من أبناء مجتمعه في الدنيا. أخبر النبي ﷺ: أن من كان له مال، فلم يؤد زكاته، مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع(٥) يأخذ بلِهزميته(٦)، ثم يقول له: أنا مالك، أنا كنزك.

---

(١) سيجعل طوقاً في أعناقهم. (٢) أمرنا وأوصانا. (٣) هو ما يتقرب به إلى الله تعالى، وتأكله النار: تحرقه. (٤) كتب المواعظ. (٥) أي ثعباناً عظيماً. (٦) أي شدقيه.

وكيف يجوز البخل، والله مالك السماوات والأرض هو الرزاق، والمطلع على أعمال العباد، لا تخفى عليه خافية، لذا أمر الله بالإنفاق في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٧] ، وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣].

وقد وبخ الله اليهود حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قال ابن عباس: أتت اليهود رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٥] فقالوا: يا محمد، أفقير ربك؟ يسأل عباده القرض، ونحن أغنياء، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

ووبخهم أيضاً على جرمهم الخطير الشنيع، وهو قتل الأنبياء بغير حق، ويقال لهم يوم القيامة: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي المحرق والمؤلم، وذلك بسبب ارتكابهم الذنوب والفواحش، وليس الله بظالم أحداً من عباده، فيؤاخذه بلا ذنب.

هؤلاء اليهود الذين حاولوا أيضاً قتل النبي ﷺ بدس السم في طعامه يوم خيبر، وهم المانعون للزكاة القائلون كذباً: إن الله عهد إلينا ألا نؤمن برسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، ويفترون على الله الكذب بزعمهم أن الله أوحى إليهم ذلك في التوراة. فرد الله عليهم بأن هذه معجزة، وقد سبق أن أرسلت لكم الأنبياء الكثُر ومعهم المعجزات، وأتوكم بالأدلة الواضحة الدالة على صدقهم، فلِمَ كذبتموهم، ولَمْ تصدقوهم، ولِمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين؟

فإن كذبوك أيها النبي محمد بعد هذا كله، فقد كُذبت رسل كثيرون قبلك، جاؤوا بالمعجزات والكتب الإلهية مثل التوراة ذات الهدى والنور، والإنجيل الكتاب المنير، ومع ذلك لم يؤمنوا حق الإيمان.

أجل! إن أداء الزكاة المفروضة، والإنفاق بالصدقات المطلقة سبيل واضح من

سبل التعاون الإنساني البناء وتحقيق التكافل الاجتماعي الواجب عقلاً وديناً وقانوناً، وإن البخل والشح داء مدمر للأمة، ومعوق نهضتها، ومقوض بنية عزتها وكرامتها.

الموت أمر حتمي والدنيا دار ابتلاء

الحياة الإنسانية مدرسة كبرى، وميدان لتسابق الأعمال الخيرية، والتنافس الشريف، والعمل والعطاء، والبذلِ والبناء، ولا بد من طي صحيفة العمر الإنساني بالأجل المحتوم والموت المحقق، فمن عمل خيراً سعد في الدنيا والآخرة، ومن قصَّر في واجبه كان مغروراً مخدوعاً. ولا تخلو الحياة من مصاعب ومشاق، ومحن وبلايا، ومصائب وفتن في الأموال والأنفس، ويتعرض أهل الإيمان لحملة مكثَّفة دائمة وسلسلة من ألوان الأذى والشر، ولكن لا بد من صبر واعتماد على الله، مقدِّرِ الأشياء، والفعالِ لما يريد.

لذا حذر القرآن الكريم من تفويت الفرصة قبل مفاجأة الموت، فقال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ(١) ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ(٢) فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٥-١٨٦].

هذه الآيات الكريمات وعظ للنبي ﷺ ولأمته في شأن الدنيا وأهلها، ووعد كريم

(١) تمتع الخداع. (٢) لتختبرن بالمحن، والبلاء: الاختبار، والمراد: لتعاملن معاملة المختبرين، حتى تظهر أحوالكم على حقيقتها.

في الآخرة، فبالتفكر في الموت تهون الأمور، ولا يعبأ أحد بما يلقاه في الدنيا من مصاعب ومشكلات ومؤذيات، فكل إنسان إلى الموت سائر، فمن كان مسيئاً لنفسه ودينه وأمته فإساءته محدودة موقوتة، لا داعي للتضجر منها ولا التألم، وسيجازى عليها جزاء أوفى. ومن كان مؤمناً عاملاً الخير، يوفى جزاءه وحقه كاملاً غير منقوص يوم القيامة.

ومن نُحِّي عن النار وأدخل الجنة، فقد فاز فوزاً عظيماً، لأن روحه سمت وغلبت صفاته الطيبة على نوازعه الشريرة، واتجه بعمله لإرضاء الله سبحانه.

وما حياتنا الدنيا التي نحياها ونشغلها بالماديات كالطعام والشراب، أو بالمعنويات كالجاه والمنصب إلا أوضاع زائلة نتمتع وننتفع بها، ثم تزول بسرعة، والمفتون بالدنيا ومظاهرها مغرور مخدوع دائماً، لأن الحياة الدنيا وكل ما فيها من الأموال هي متاع قليل، تخدع المرء وتمنِّيه بالأباطيل، فالواجب على العاقل ألا يغتر بالدنيا وألا يسرف في حبها، وإلا أصابه شررها عند فراقها، إنما الدنيا جسر للآخرة، فمن أحسن العبور بالعمل الطيب لنفسه وأمته، فقد أصاب الهدف، وكان متعقلاً واعياً.

وليست الدنيا خالية من المصاعب والمتاعب، ولا بد من أن يتعرض المرء فيها لألوان من الأذى والشدائد، سواء في داخل الأمة والبلاد، أم في خارج الديار من الأعداء، لذا كان لا بد من الامتحان العسير في الحياة في الأموال والأنفس، والاختبارُ في المال يكون من الله بطلب بذله في جميع وجوه الخير وفيما يعرض من حوائج وآفات، والاختبار في النفس يكون بطلب الدفاع والجهاد في سبيل الله والتعرض للقتل والموت في الحرب وغيرها من أجل إسعاد الأمة برمتها.

ويتعرض المسلمون في كل عصر لألوان من المحن والمؤامرات من المشركين وأهل الكتاب، ويُلحقون بهم الأذى الكثير في الاعتبار والكرامة والديار والطعنِ في الدين

والقرآن والنبي ﷺ ، كما نشاهد في تصريحات المسؤولين من قادة الأعداء، وفي الكتب والمجلات والإذاعات، ولكن السلاح الأمضى والعلاج النافع هو الصبر والتقوى، الصبر على المكائد ومحاولة التخلص منها، وتقوى الله في السر والعلن بالتزام المأمورات واجتناب المنهيات، ومن يصبر ويتق الله يؤته الله أجرين من رحمته، ويكون التصبر والتقوى من عزائم الأمور، أي مما يجب العزم عليه من الأمور، فذلك دليل الإرادة القوية والحكمة والعقل والاتزان.

وفي الجملة: إن هدف الحياة هو العمل والبناء، والإنجاز والعطاء، وإعداد العدة اللازمة لخيري الدنيا والآخرة، وعوامل النجاح في هذا العالم: الصبر والإرادة، والتقوى والإخلاص في العمل.

أمانة الإعلام الديني

إن من أقدس واجبات العلماء في الدين أن يكونوا أمناء على ما يعلمون من الكتب الإلهية، لإبلاغها للناس والعمل بها، فلا يكتمون شيئاً منها، لأنها أحكام الله وشرائعه التي أنزلها للإصلاح والإسعاد، وتحقيق الأمن والسلام وصون الحقوق العامة والخاصة. وهذا يعد عهداً مؤكداً على أهل العلم مثل العهود والمواثيق التي يعقدها الناس فيما بينهم، والعهد واجب الاحترام والتنفيذ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ[1] وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٧].

هذه الآية خطاب لمعاصري النبي ﷺ وخبر عام لهم ولغيرهم، مضمونه أن يذكر

(١) طرحوه .

النبي محمد ﷺ خبر الميثاق: وهو العهد المؤكد الذي أخذه الله على أهل الكتاب بوساطة الأنبياء، وأقسم عليها ليبيُّن الكتاب الإلهي للناس ويظهرونه ولا يحرفونه عن موضعه حتى يفهم الناس ويعملوا بما جاء فيه. ولكن نبذ أهل الكتاب هذا الميثاق وراء ظهورهم، وبدلوا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا الفانية كالرياسة والمال الزائل، فكانوا في هذه الصفقة مغبونين، حيث جعلوا العرض الفاني بدل النعيم الباقي في الآخرة، فبئس الشراء شراؤهم، وبئست هذه المبادلة، قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد وغيره عن أبي هريرة: «من سُئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار».

وإذا أخبر العالم الديني بحكم شرعي فعليه أن يكون أميناً في نقله؛ حاذقاً في فهمه، فلا يحرّفه ولا يبدله، ولا يبتر منه شيئاً، ولا يدلّس ويعمّي الأمور ويغطّي الحقائق، ولا يطلب الثناء على ما فعل من بيان الخبر المشوه أو الحكم المبدل، وهو في هذا كاذب دجّال، قال الله تعالى عقب الآية السابقة: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ[1] مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٨-١٨٩].

وسبب نزول هذه الآية كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري: أن رجالاً من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو، تخلفوا عنه، فإذا قدم اعتذروا إليه، وقالوا: كانت لنا أشغال ونحو هذا، فيظهر رسول الله ﷺ القبولَ ويستغفر لهم، ففضحهم الله تعالى بهذه الآية، فكانوا يفرحون بما يأتونه ويفعلونه من التخلف والاعتذار، ويحبون أن يقال لهم: إنهم في حكم المجاهدين، لكن العذر حبسهم، أي منعهم عن الجهاد.

---

(١) بفوز ونجاة.

وقال جماعة كثيرة من المفسرين: إنما نزلت الآية في أهل الكتاب أحبارِ اليهود، لقول ابن عباس: إن الآية نزلت في قوم سألهم النبي عليه السلام عن شيء، فكتموه الحق، وقالوا له غير ذلك، ففرحوا بما فعلوا، وأحبوا أن يحمدوا بما أجابوا، وظنوا أن ذلك قد قنِع به واعتقد صحته.

لقد كان هؤلاء من أهل الكتاب يفرحون بما أتوا من التأويل والتحريف للكتاب، ويرون لأنفسهم شرفاً فيه وفضلاً بأنهم قادة وأئمة يهتدى بهم، وهذا فرح في غير محله وتضليل وقلب للحقائق، وكانوا يحبون أن يحمدوا بأنهم حفاظ الكتاب وعلماؤه، وهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، لذا أخبر القرآن الكريم أنهم معذبون في الآخرة، وعذابهم شديد مؤلم جداً.

فما على العلماء إلا أن يبينوا للناس حقيقة الكتاب الإلهي، وحكم الشرع الصحيح، فإن فعلوا الواجب وأخبروا بالحق، يكفهم الله تعالى ما أهمهم وينصرهم على أعدائهم، ويُغنهم عن هذه المسالك المشبوهة التي لا تليق بمراكزهم، فهم قدوة الناس، ومحل التقدير والاحترام، والله الذي يكفيهم ما أهمهم هو مالك السماوات والأرض، يعطي ويمنع، و يخفض ويرفع وهو على كل شيء قدير، قادر على نصر من نصر دينه وشرعه، وهلاك من ضيَّع دينه وشرعه.

بان لك أن واجب العلماء مقدس، وهو تبيين الدين والتعريف بحقيقته لغير المؤمنين بأسلوب واضح سهل، وفهم لروح التشريع، حتى يهتدوا به، وتبيين الدين أيضاً للمسلمين حتى يهتدوا به ويفهموه على حقيقته، دون بتر ولا تشويه، ودون إخلال وتجهيل، وبصراحة وإخلاص.

أسلوب القرآن في بيان العقيدة

أرشد البيان الإلهي في القرآن الكريم إلى مواضع التأمل والتفكر، والنظر والعبرة، في أبسط الأشياء الكونية، وأوضحها للناس، فأقام الدليل القاطع على وجود الإله الصانع الخالق بوجود السماوات والأرضين، فالمخلوقات دليل واضح على العلم، ومحال أن يوجد شيء من غير موجد، وأن يكون هذا الموجد غير عالم ولا مريد ولا حي. قال الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا(١) سُبْحَانَكَ فَقِنَا(٢) عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ(٣) وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾
رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ(٤) عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾
رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾
فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۖ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠-١٩٥].

روى ابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «هل لك يا عائشة أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟ فقلت: يا رسول الله، إني لأحب قربك، وأحب هواك (أي ما تهوى وتريد) وقد أذنت لك، فقام إلى قربة من ماء في البيت، فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن،

(١) عبثاً من غير حكمة. (٢) احفظنا من عذابها. (٣) أهنته. (٤) أزل عنا واستر.

وجعل يبكي حتى بلغت الدموع حِقويه[١]، ثم جلس، فحمد الله وأثنى عليه، وجعل يبكي، ثم رفع يديه، فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلّت الأرض، فأتاه بلال ليؤذن بصلاة الغداة (أي الصبح) فرآه يبكي، فقال له: يا رسول الله، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا بلال، أفلا أكون عبداً شكوراً. ثم قال: ومالي لا أبكي؟ وقد أنزل الله علي في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ..﴾ الآيات، ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

هذه الآيات ترشد إلى أدلة وجود الله سبحانه، وهي خلق السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، ففي السماء بدائع الكواكب والنجوم وأفلاكها ومداراتها، وفي الأرض خزائن الرزق من زروع وأشجار وأنهار ومعادن جامدة وسائلة، والليل والنهار يتعاقبان بانتظام، ويتفاوتان بحسب الفصول طولاً وقصراً، و يختلفان نوراً وظلاماً، إن في هذا كله لعلامات لأولي الأبصار على وجود الله، وأولو الأبصار: هم الذين ينظرون ويتأملون في السماء والأرض وما فيهما، ويذكرون نعم الله وفضله في كل حال من قيام وقعود واجتماع وافتراق، ويكون ذكرهم بالقلب والعقل حتى تطمئن النفس ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٨] ثم يذكرون معتقدهم باللسان، ذاكرين الله كثيراً، ومسبحين إياه بكرة وأصيلاً.

ويردد هؤلاء الذاكرون وقلبهم ممتلئ خشية وعبرة: ربنا ما خلقت هذا الخلق عبثاً، بل لا بد لهذا الخلق من نهاية للجزاء والحساب، ربنا اصرف عنا عذاب النار بعنايتك وتوفيقك، فمن أدخلته النار فقد أهنته وأخزيته، وليس للظالمين الكافرين من أعوان ولا أنصار، ربنا إننا سمعنا رسول الهدى يدعو للإيمان، فآمنا بربنا وصدّقنا برسالة رسوله، ربنا فاغفر لنا الذنوب وكفر عنا السيئات، وأمتنا واحشرنا مع أهل

---

(١) الحِقو: الخصر.

البر والخير والاستقامة، واجعلنا معهم في كل أحكامهم وأفعالهم. ربنا وانصرنا على أعدائنا وأعطنا ما وعدتنا من حسن الجزاء والنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة، فأنت الصادق الوعد الذي لا تخلف الميعاد.

فأجاب الله أدعية هؤلاء المؤمنين بأن أعطى كل عامل جزاء عمله كاملاً غير منقوص، لا فرق بين ذكر وأنثى، بل العدل والمساواة التامة في الجزاء، والرجل مولود من الأنثى، والأنثى من جنس الرجل في الخلقة والتكوين، وللمهاجرين الذين تركوا الديار والأموال، وتعرضوا للأذى والقتل، وعد قاطع بتكفير سيئاتهم وغفران ذنوبهم وإدخالهم جنات النعيم، فضلاً من الله ونعمة، والخلاصة أن الجزاء منوط بالعمل، ولا فرق بين الرجل والأنثى في العمل والثواب.

جزاء المؤمنين وغيرهم في الآخرة

وعد الله تعالى عباده االمؤمنين بالثواب العظيم، ثم واساهم وصبَّرهم على ما يتعرضون له من شدائد ومصاعب في الحياة، ليدوموا على العمل الصالح، ويستمروا على ما هم عليه من الإيمان القوي الذي لا يتأثر بالأحداث. فقال الله تعالى في أواخر سورة آل عمران: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ(١) تَقَلُّبُ(٢) ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ(٣) ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا(٤) مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

(١) لا يخدعنك . (٢) تصرف . (٣) بئس الفراش والمضجع . (٤) ضيافة وتكرمة .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ[1] وَرَابِطُواْ[2] وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

[آل عمران: ٣/ ١٩٦-٢٠٠].

ذكر بعض الرواة: أن بعض المؤمنين قالوا: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾.

والمراد من الآيات أنه لا تغتر أيها المخاطب بما تراه في الدنيا من ظواهر الأشياء، ولا تظن أن حال الكفار حسنة بما تراه عندهم من مظاهر الثراء والسعادة، ولا تنزعج لذلك، فإنهم يتقلبون في البلاد ويترددون في شؤون التجارة والكسب، ويتمتعون بزخارف الدنيا، وينتفعون بخيراتها، ولكن تمتعهم بما لديهم قليل، فهو قصير الأمد وزائل، وكل زائل قليل. ثم يكون مصيرهم القاتم المدمر: وهو دخول جهنم، وبئس المكان الممهد الموطأ لهم كالفراش، وهذا على سبيل التهكم بوصف بلاط جهنم كأنه الفراش.

وفي مقابل فئة الكفار نجد فئة المؤمنين الذين إذا قورن حالهم في الدنيا والآخرة بحال غيرهم، ظهر الفرق جلياً، ليعرف المسلمون أنهم أسعد حالاً في دنياهم، وآخرتهم. هؤلاء المؤمنون الذين اتقوا ربهم بفعل الطاعات واجتناب المنهيات لهم جنات المأوى والنعيم، تجري من تحت غرفها وبساتينها الأنهار، نزلاً معداً لهم كما يعد النزل للضيف من زاد وغيره، وما أعد الله لهم خير لأهل البر الذين فعلوا الخير وأخلصوا فيه، أي إنه خير مطلق محض لا يقارن به سواه، ولا تفاضل بينه وبين غيره، لأن ما أعد للكفار شر محض لا خير فيه.

وإنصافاً للحقيقة وإبرازاً للحق والعدل، أخبر القرآن الكريم أن بعض أهل

---

(١) غالبُوا في الصبر. (٢) أقيموا في الثغور الحدود المجاورة للأعداء مستعدين للجهاد.

الكتاب الذين آمنوا بالله إيماناً حقيقياً خالصاً لا شبهة فيه، لهم كالمسلمين الأجر الكامل عند ربهم، والله سريع الحساب يحاسب الناس في مدة قصيرة، تعادل نصف يوم، وذلك الأجر الممنوح إذا تحققت فيهم الأوصاف التالية: وهي الإيمان بالله إيماناً صادقاً، والإيمان بالقرآن المنزل على نبي الإسلام والمسلمين، والإيمان بما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، والخشوع لله والخضوع له بالعبادة والإخلاص، فإن القلب متى كان خاشعاً ممتلئاً بخوف الله، خضعت جميع الأعضاء لله وأوامره، ومتى جمعوا هذه الصفات استحال عليهم تبديل كتابهم، وإيثارهم كسب الدنيا الذي هو ثمن قليل على آخرتهم وعلى آيات الله تعالى.

نزلت هذه الآية الدالة على إيمان بعض الكتابيين بسبب أصحمة الحبشي النجاشي سلطان الحبشة، فإنه كان مؤمناً بالله وبمحمد ﷺ، فلما مات عرَف خبر موته رسولُ الله ﷺ في ذلك اليوم، فقال لأصحابه كما ثبت في الصحيحين: «إن أخاً لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه» أي صلاة الغائب، فصلى عليه رسول الله بالناس الموجودين.

ثم ختمت سورة آل عمران بوصية جامعة يوصي الله فيها المؤمنين أن يصبروا على تكاليف الدين، وعلى ما يتعرضون له من مصائب وشدائد، وعليهم أن يصابروا الكفار ويغلبوهم في الصبر، فيكونوا أكثر تحملاً لشدائد الحرب وويلاتها، وواجبهم أن يرابطوا في الثغور أي الاستعداد للقاء الأعداء في المواضع الاستراتيجية المهمة المجاورة لبلاد الأعداء، وأن يخافوا الله ويحذروه ويراقبوه في السر والعلن ليفلحوا ويفوزوا. هذا هو جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين وبيان سبب الجزاء لكلا الفريقين.

تفسير سورة النساء

وحدة الإنسانية

خلق الله تعالى هذا العالم ليكون كبقية الآيات الكونية دليلاً على وجود الله سبحانه، وعلى اتصافه بصفات القدرة المتناهية والحكمة العالية والإتقان الباهر، والإبداع الذي لا نظير له.

ومن حكمته تعالى أنه جعل العالم بمثابة الأسرة الواحدة، المترابطة العناصر، المتعاونة فيما بينها، المتحابة المتوادة بين أفرادها. يحب كل إنسان أخاه، ويريد الخير له، فالإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، لأن المعيشة واحدة، والهدف والمقصد واحد، والمصير المحتوم هو واحد أيضاً حينما ينتهي هذا العالم، ويعود لعالم آخر للحساب والجزاء، وتحقيق العدل والإنصاف التام بين البشر.

والقرآن الكريم نص صراحة على وحدة الإنسانية، ووحدة الأسرة، ووحدة الأخوة الإيمانية بين المؤمنين بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر. أما الوحدة الإنسانية التي تجعل البشرية بمثابة الجسد الواحد والنفس الواحدة فقد جاء الإعلان عنها في مطلع سورة النساء المدنية النزول، إذ يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ(١) مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ(٢) إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(٣) ﴿١﴾﴾ [النساء: ٤/ ١].

---

(١) نشر وفرّق. (٢) اتقوا قطع الأرحام. (٣) مطلعاً وحافظاً لأعمالكم.

في هذه الآية تنبيه واضح على وجود الإله الخالق الصانع المدبر المتقن، وعلى افتتاح الوجود الإنساني بخلق العالم في الأصل من نفس واحدة هي آدم عليه السلام أبو البشر الذي خلقه الله وسوّاه بيديه وقدرته من طين، ونفخ فيه من روحه، فكان إنساناً كامل الخلقة والتكوين. ثم خلق الله تعالى حواء من جنس آدم في الطبيعة والتركيب، والبنية والغريزة، والأخلاق والصفات المتشابهة.

ومن أجل الحفاظ على الوحدة الإنسانية بين جميع البشر، أمر الله تعالى وأوصى عباده أن يتعاونوا ويتضامنوا ويتراحموا، فهم متجاورون في العيش، شركاء في الانتفاع بثمرات وخير هذا العالم كله السماوي منه والأرضي ويكون التعاون بالقيام بالواجبات واحترام حقوق الآخرين، وهذا المعنى هو المعبر عنه في الاصطلاح القرآني بالتقوى: وهي امتثال الأوامر واجتناب المنهيات في كل ماله صلة وثقى بالله وحده لا شريك له، أو بالنفس البشرية، أو بحقوق العباد الآخرين، ويؤكد النص القرآني الأمر بالتقوى بما يحمل على الامتثال بذكر الربوبية المضافة إلى المخاطبين، فالله هو رب الجميع الذي ربّاهم بنعمه، وأفاض عليهم من إحسانه، وأمدهم بكل وسائل الحياة العزيزة الكريمة، وذكّرهم بأنهم من أصل واحد، كلهم لآدم وآدم من تراب، وأنه خلق من تلك النفس الأولى زوجها، وتناسل منهما البشر والنوع الإنساني ذكوراً وإناثاً، وجعل من تلك الذرية خلية أصغر ووحدة أضيق وهي رابطة الأسرة القائمة على الرحم الواحدة، وصلة الدم والقرابة، مما يدعوهم إلى التراحم والتعاون. وكل ذلك دليل على القدرة الإلهية الباهرة التي تستوجب وتتطلب التقوى من أجل الحفاظ على علاقات البشر الطيبة في المستوى الثنائي والجماعي.

وأكد الله تعالى الأمر بتقوى الله لتحسين العلاقات الإنسانية من جانبين: الجانب الأول: الإحساس الفطري العميق في كل نفس وإن كانت كافرة غير مؤمنة-

الإحساس بتعظيم الله جل جلاله، وشعوره الذاتي بأن الله وحده هو الذي ينقذه في أثناء تعرضه للمحن والشدائد، أو عند تعرضه للمصائب والكوارث، فيقول الواحد لأخيه الإنسان: أسألك بالله أن تفعل كذا، وأسألك بإيمانك وتعظيمك له أن تقوم بكذا.

والجانب الثاني: تقوية بنية الأسرة وصلة الرحم بتذكير الناس بضرورة صلة الأرحام بالمودة والإحسان، وتجنب قطع العلاقات الأسرية، وتأكيد المحبة والتواصل فيما بين أبناء الأسرة الواحدة، وقد أخبر الله بأن الناس بإحساسهم الداخلي الذاتي يتساءلون بالأرحام، فيقول الواحد لقريبه: أسألك بما بيننا من قرابة أن تفعل كذا.

ثم ختم الله تعالى الآية بخاتمة رائعة تدل على وجوب تذكر وحدة الإنسانية ووحدة الأسرة بأن الله تعالى مطلع على كل شيء من أعمالنا، رقيب حفيظ لكل عمل وحال، وأنه سبحانه لا يشرع لنا إلا ما فيه حفظنا ومصلحتنا، وهو الخبير بنا، البصير بأحوالنا.

حقوق الأيتام وتعدد الزوجات في الإسلام

الإسلام دين العفة والطهر، وهو أيضاً دين العدل والحق، فكما أن هذا الدين يحرص على نقاوة المجتمع وطهر الرجل والمرأة من الفواحش والعلاقات غير المشروعة، كذلك هو أيضاً يحرص على إقامة صرح العدالة في العلاقات الاجتماعية، ويقاوم الظلم ويحرم الجور لأن بالظلم خراب المدنيات ودمار الأمم، وبالعدل يتحقق الاستقرار والاطمئنان، فبالعدل قامت السماوات والأرض، وبالعفة والطهر والتخلص من الفواحش يصفو المجتمع، وتتجانس الطبائع، ويتعاون الجميع على أسس واضحة لا نشاز فيها ولا شذوذ.

ومن أهم مظاهر العدل: إيتاء اليتامى حقوقهم، والتسوية والعدالة في معاملة الزوجات، أما الأول فقد أمر الله تعالى به في قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا(١) كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ٢].

أي أعطوا أيها الأولياء والأوصياء اليتامى أموالهم وأدوا حقوقهم إذا بلغوا سن الرشد. (واليتيم: من فقد أباه دون البلوغ). ولا تأخذوا الطيب من أموال اليتامى، وتضعوا مكانه الخبيث من أموالكم، ولا تأخذوا أموالهم لتضموها إلى أموالكم، إن ذلك الفعل إثم عظيم.

نزلت في رجل من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم، طلب المال، فمنعه عمه، فترافعا إلى النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية.

ومشروعية تعدد الزوجات للضرورة أو الحاجة في الإسلام يقصد به تحقيق أمرين: أولهما: تحقيق رغبة بعض الناس من طريق الحلال، وإبعادهم عن سلوك طرق الحرام، فبدلاً من وجود ظاهرة الفاحشة أو الزنا، أوجد الإسلام البديل وهو تعدد الزوجات. والأمر الثاني: هو أن نظام التعدد مرتبط ارتباطاً جذرياً بمراعاة العدل المطلق في معاملة الزوجات، فلا يقبل شرعاً وجود التعدد من غير عدل في المعاملة بين الزوجات.

ومن هنا ربط الشرع بين إباحة تعدد الزوجات وبين ضرورة الترفع عن الظلم الذي يلحقه الأولياء أو الأوصياء بالبنات اليتامى، فقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟(٢) فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ(٣) لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ(٤) أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ(٥) نِحْلَةً ۚ(٦) فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣-٤].

---

(١) إثماً وذنباً. (٢) لا تعدلوا. (٣) أبيح لكم. (٤) ذلك أقرب ألا تجوروا أو لا تكثر عيالكم.
(٥) مهورهن. (٦) أي عطية وهبة.

سبب نزول آية التعدد: هو ما ورد في الصحيحين عن عروة بن الزبير: أنه سأل خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن هذه الآية، فقالت: يا بن أختي، هذه اليتيمة تكون في حِجْر وليها يشركها في مالها، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها، فلا يعطيها مثل ما يعطي أترابها من الصداق، فنهوا عن ذلك، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع.

ومعنى الآية: إن خفتم أيها الأولياء من الظلم أو عدم العدل في أموال اليتامى وتحرجتم من أكلها بالباطل، فخافوا من الوقوع في ظلم آخر أشد ضرراً وهو ظلم النساء بالتزوج بنساء كثيرات، فكان العربي في الجاهلية يتزوج العشر وأكثر وأقل، وفي هذا ظلم مؤكد، وطريق إنهاء هذا الظلم هو بالاقتصار على الزواج عند الحاجة أو الضرورة على أربع كحد أقصى دون تجاوز، بشرط توافر العدل المادي في المعاملة، وبشرط توافر القدرة على الإنفاق. وبما أن تحقق العدل بين النساء أمر صعب ونادر، فإن الشريعة أمرت بالاقتصار على زوجة واحدة، وهذا هو الأصل العام في الإباحة كما قال الله تعالى هنا: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢٩].

ومن الظلم في مجال الزواج ما يفعله كثير من الرجال من إلجاء المرأة للتنازل عن مهرها كله أو بعضه ليوافق على طلاقها، فالله تعالى أمر بإعطاء النساء كامل مهورهن دون أخذ شيء منه، المعجل والمؤجل، فإن حدث التنازل عن بعض المهر من الزوجة أو من وليها تلقائياً وبرضا مطلق واختيار، دون إكراه مادي أو أدبي، جاز ذلك.

إن تعدد الزوجات جائز مباح في الإسلام، وليس كل مباح مرغوباً فيه، فهو غير

مرغوب فيه إلا لحاجة أو ضرورة، مثل معالجة ظرف طارئ عقب الحروب وقتل الرجال وكثرة النساء الأرامل، فيكون التعدد عملاً إنسانياً وإنقاذاً. وقد يكون التعدد بسبب عقم المرأة، أو بسبب نهم الرجل، أو لأغراض تتعلق بنشر الدعوة الإسلامية مثل تعدد زوجات الرسول ﷺ.

رعاية اليتيم في الإسلام

حقاً إن الإسلام هو دين الرحمة العامة بجميع الناس، ورسالته إنقاذ وإصلاح، وبناء ومحافظة على القيم، ورعاية لمصالح الناس جميعاً، و بخاصة الضعفاء والأيتام، واليتيم: هو من فقد والده حال الصغر.

رعى الإسلام شؤون الأيتام رعاية تامة تشمل النفس والمال، وفرض تنصيب الأولياء الكبار الراشدين من الأقارب كالأب والجد للإشراف على مصالح اليتامى في حال الصغر، والولاية نوعان: ولاية على النفس وولاية على المال. أما الولاية على النفس: فهي إلقاء المسؤولية الشديدة على قريب اليتيم كالجد والأخ والعم لتربية اليتيم وحفظه وتعليمه وتطبيبه وتنشئته نشأة صالحة قوية محصّنة، حتى يكون سوياً لا يقل عن أمثاله، ويحظى بما يحظى به غيره من الأولاد بالبر والعطف والإحسان.

روى الطبراني في حديثه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق، لا يعذِّب الله يوم القيامة من رَحِم اليتيم، ولان له في الكلام، ورحم يُتْمه وضَعْفه..» . أي رأف باليتيم وساعده، وحادثه بطيب القول، واستعمل البشاشة واللطف في المعاملة، واختار الألفاظ الحلوة العذبة في محادثته، واجتنب القسوة والغلظة، وكان قلبه مليئاً بالحنان والعطف والإحسان والجود على اليتيم. وقد بشَّر النبي ﷺ ولي اليتيم وكفيله بالجنة، فقال فيما رواه البخاري: «أنا وكافل اليتيم

في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما» . وروى النسائي بإسناد جيد أن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أحرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة» وروى البخاري أيضاً حديثاً آخر: «هل تنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم».

هذه وصايا نبوية كريمة في الإشراف على نفس اليتيم والعناية بشخصيته وتربيته، وجاء النص القرآني لبيان ضرورة الإشراف على شؤون اليتيم فيما هو أخطر وأهم وهو الأمور المالية، فيجب على ولي اليتيم حفظ مال اليتيم وتنميته واستثماره ورعايته والبعد عن أكل مال الأيتام أو إهمال المحافظة عليها، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا(١) ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٠].

وأوجب القرآن الكريم -كما تقدم بيانه- وإيتاء اليتامى أموالهم عند بلوغهم الرشد، من غير تلكؤ ولا إهمال، فقال الله سبحانه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا(٢) كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ٢].

نزلت هذه الآية في رجل من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب المال، فمنعه عمه، فترافعا إلى النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية، فلما سمعها العم قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول، نعوذ بالله من الحوب الكبير، أي الإثم العظيم، فدفع إليه ماله، فقال النبي ﷺ : من يوق شح نفسه، ورجع به هكذا، فإنه يحلُّ داره، يعني جنته. فالآية إذن خطاب لأوصياء الأيتام.

وقال ابن زيد: هذه الآية والمخاطبة هي لمن كانت عادته من العرب ألا يورّث الصغير من الأولاد مع الكبير، فقيل لهم: ورِّثوهم أموالهم، ولا تتركوا أيها الكبار حظوظكم حلالاً طيباً، وتأخذوا الكل ظلماً حراماً خبيثاً، فيجيء فعلكم ذلك تبديلاً.

---

(١) أي جهنم . (٢) أي إثماً وذنباً عظيماً .

وعلى كل حال في بيان سبب النزول، تطالب هذه الآية إعطاء الأيتام حقوقهم كاملة، سواء من إرث غيرهم، أو بتسليم مالهم إليهم عند البلوغ، فيجب على الأولياء والأوصياء دفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة، ينهى عن أكلها وضمها إلى أموال الأوصياء، أيها الأوصياء إياكم أن تتمتعوا أو تنتفعوا بمال اليتيم في موضع يجب أن تتمتعوا فيه بمالكم. فإنكم إن أخذتم من ماله، وتركتم مالكم، تكونوا قد استبدلتم الخبيث بدل الطيب، والحرام بدل الحلال، وهذا منهي عنه شرعاً، وموقع في الإثم والذنب العظيم.

هذا مظهر من مظاهر رعاية اليتيم في الإسلام، وهو يدل على جانب تشريعي مهم جداً هو ألا يستغل القوي الضعيف، والكبير الصغير وأن يراقب الإنسان ربه في كل عمل، لأن الله تعالى سائل كل إنسان عن كل صغيرة وكبيرة.

إعطاء الضعفاء أموالهم

المال نعمة وثروة للفرد والجماعة، فتجب المحافظة عليه وتنميته والبعد عن إهدار الثروة المالية في غير فائدة، وليس الحق في المال خاصاً بصاحبه، وإنما للأمة والجماعة حق الإشراف على كيفية استعمال المال واستثماره وتنميته بالوجوه المشروعة المحققة للمصالح الخاصة والعامة، لذا لم يجز الإسلام تسليم المال لتنميته وإنفاقه لمن ليس أهلاً لرعايته وحفظه، مثل السفهاء المبذرين الذين لا يحسنون التصرف في المال، والأيتام الذين تنقصهم الخبرة في إدارة المال وتشغيله واستثماره، وإنما يترك المال بيد القُوَّام المشرفين بمقتضى الولاية الشرعية على أحوال هؤلاء المتخلفين بسبب الطيش أو بسبب الصغر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ(١) أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ(٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم(٣) مِّنْهُمْ رُشْدًا(٤) فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟(٥) ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ(٦) ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا(٧) ۝﴾ [النساء: ٤/ ٥-٦].

نزلت آية السفهاء في وُلْد الرجل الصغار وامرأته، أي في النساء، والأصح أنها نزلت في المحجورين السفهاء، أي المبذرين.

نهى الله تعالى الأمة ممثلة في أولياء السفهاء الذين لا يحسنون التصرف في أموالهم من تسليم أموالهم إليهم، حتى لا يبددوها ويصبحوا عالة على المجتمع، وإنما يبقى المال بيد القيّم المشرف على المبذر الذي يعيّنه القضاة، حتى يتم تمرين السفيه المبذر على المحافظة على الأموال التي هي قوام الحياة لأصحابها وللأمة أو الجماعة. ويقوم الولي بتثمير المال وتشغيله في وجوه مشروعة معقولة ويُنفِق على السفيه المبذر إنفاقاً معتدلاً من ثمرة المال وكسبه، لا من أصل المال وذاته، وتكون النفقة بحسب الحاجة من أكل وكسوة وتعليم وتمريض، لأنها مظاهر خارجية، وعلى الولي أن يحسن إلى السفيه أدبياً أوخلقياً، فيقول له قولاً ليناً، لا خشونة فيه، ويعامله معاملة أولاده بالعطف واللين، ويشعره بالعزة والكرامة، ويعلمه أن ما ينفقه عليه من ماله، وليس من مال القيم المشرف، وسيأخذه بعد الرشد والصلاح.

ونزلت آية الحجر على الأيتام من أجل المحافظة على أموالهم وتنظيم العلاقة بينهم وبين الأوصياء عليهم، فعلى الأوصياء اختبار اليتيم عند البلوغ-بلوغ سن الزواج

---

(١) السفهاء: هم المبذرون المضطربون في كيفية صرف المال. (٢) اختبروهم في المعاملات المالية. (٣) تبينتم. (٤) حسن تصرف في الأموال. (٥) مبادرين كِبرهم. (٦) فليمتنع عن أكل أموالهم. (٧) محاسباً لكم.

والاكتمال العقلي، فيدرّبه على كيفية تشغيل المال وحسن التصرف فيه، فإن تحقق الوصي من رشد اليتيم سلَّم ماله إليه كاملاً غير منقوص، ويشهد عليه حين التسليم منعاً من الإنكار وادعاء بقاء شيء من المال عند الوصي.

ومخالطة اليتيم من قبل وصيه أو قريبه خير من اعتزاله وعيشه منفرداً، فليس للوصي أن يبادر إلى أخذ شيء من مال اليتيم، فيسرف ويبذر في أكله؛ لأن طبيعة النفس محبة التبذير في مال الآخرين، وليس له أخذ شيء من مال اليتيم مسرعاً قبل وصول اليتيم إلى مرحلة البلوغ.

أما أكل الوصي من مال اليتيم من غير إسراف ولا تبذير، فيجوز في حال الحاجة والاعتدال بمثابة أجر له بقدر عمله وخدمته، فإن كان الوصي غنياً فلا يأكل منه، وعليه أن يتعفف، وإن كان فقيراً محتاجاً فليأكل الوصي بالمعروف شرعاً وعرفاً بلا إسراف ولا تبذير، قال عمر رضي الله عنه: «إني أنزلت نفسي من مال الله (أي مال الأمة) منزلة والي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن احتجت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت».

المال إذن أمانة عند صاحبه وعند الأمة، وبالمال تقام المدنيات وتبنى الحضارات، وهو أساس قوة الأمة وتقدمها، لذا وصف المال في القرآن بأنه قوام الحياة، فيجب على الأولياء والأوصياء المحافظة على أموال اليتامى والسفهاء المبذرين حتى لا يصبح اليتيم أو المبذر فقيراً محتاجاً عالة على المجتمع.

الحقوق المالية للنساء واليتامى

حرم الإسلام كل أنواع الظلم والجور، ومن أخطر المظالم: أكل أموال الآخرين بالباطل، وعدم توريث النساء من تركات أقاربهم، وأكل مال اليتيم. ولقد أنصف

الإسلام المرأة، فجعل لها ذمة مالية مستقلة بنفسها، فلها حق التصرف الكامل بمالها، سواء كانت أماً أو زوجة أو بنتاً أو أختاً، ولها الحق التام في دخلها وكسبها وإرثها من أقاربها.

وإنصاف المرأة في التشريع القرآني كان للرد على ما كان سائداً في عرب الجاهلية من حرمان المرأة من حقها في الميراث.

ثبت في تاريخ التشريع: أن أوس بن الصامت الأنصاري توفي وترك امرأته أم كُحلة وبنات له، فمنع ابنا عمه سويد وعرفطة ميراث أوس عن زوجته وبناته، فشكت إلى رسول الله ﷺ، فدعاهما رسول الله، فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كلاً (أي عاجزاً من الأولاد) ولا ينكى عدواً، نكسب عليها ولا تكسب، فنزلت هذه الآية، فأثبتت لهن الميراث، ثم نزلت آية المواريث، فجعلت لكل حقه.

قال الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا[1] ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا[2] ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا[3] ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[4] ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ٧-١٠].

توجب هذه الآيات إعطاء كل وارث حقه في مال مورثه من الوالدين والأقربين، من غير تفرقة بين الذكور والإناث، والصغار والكبار، سواء أكان المال المتروك بعد الوفاة للمورث قليلاً أم كثيراً.

---

(١) واجباً. (٢) جميلاً بأن تعتذروا إليهم أنكم لا تملكونه. (٣) صواباً وعدلاً. (٤) سيدخلون ناراً موقدة.

وحفاظاً على تماسك الأسرة، وتقوية للصلات فيما بين أفرادها، وإبقاء للمحبة والوداد، والتعاون والتآلف، وامتصاص النقمة والحسد من النفوس البشرية، أوصى القرآن الكريم عند حضور قسمة التركات إعطاء الأقارب غير الوارثين واليتامى والمساكين شيئاً من مال التركة ولو قليلاً، ويسترضى هؤلاء الأقارب ويقال لهم قول حسن، ويعتذر إليهم اعتذاراً جميلاً يهدّئ النفوس، ويستل الضغائن والأحقاد، ويمنع الحزازات ونشوء العداوات أو استمرارها، وظهور الانتقادات وتردد الألسنة في التعييب والطعن، والترفع عن البخل والشح، والمخاطب المطالب بتنفيذ هذا الأمر والأدب القرآني هم الورثة أو المحتضرون الذين يقسمون أموالهم بالوصية. وإعطاء هؤلاء الأصناف الثلاثة من التركة، وهم القرابة غير الوارثين والأيتام والمساكين نوع من الأدب غير الواجب شرعاً، ولكنه أمر محبب مرغب فيه، وفيه خير ومصلحة. والقول الحسن المعروف الذي يقال لهم: هو كل ما يؤنس به من دعاء أو عدة أو اعتذار لطيف أو غير ذلك.

وذكّر الله تعالى أولئك الأولياء أو الأوصياء في معاملة اليتامى بأمر جميل يهز المشاعر والنفوس للبعد عن القسوة على اليتيم، وهو أن هؤلاء الكبار الأوصياء مفارقون أولادهم، وربما تركوا ذرية ضعفاء صغاراً يخافون على مصالحهم، فليتقوا الله في أيتام الآخرين، كما يحبون أن يتقي الله في أيتامهم أوصياءُ غيرهم، وليقولوا لهم قولاً حسناً سديداً طيباً يجبر خواطرهم، ويمنع الضر عنهم، ويتفق مع آداب الدين وأخلاق الصالحين، بكل ما يحسن إليهم ويسر قلوبهم، ويعوضهم حنان الأب المتوفى، فكل أولياء الأيتام مطالبون بالإحسان إلى الأيتام، وسداد القول لهم، وإحسان معاملتهم ومعاشرتهم، وتقوى الله في أكل أموالهم كما يخافون تماماً على ذريتهم أن يفعل بهم خلاف ذلك.

إن أكلة أموال اليتامى ظلماً وأخذها بغير حق، أو تبديدها أو التقصير في رعايتها وحفظها إنما يأكلون في بطونهم أموالاً تؤدي بهم إلى نار جهنم، وسيحرقون بها إحراقاً شديداً بسبب ظلمهم.

والتحذير من أكل أموال اليتامى ظلماً كالتحذير من حرمان النساء أو الإناث من حقوقهم المقررة شرعاً في المواريث من تركات أقاربهم.

قواعد الميراث في الشريعة

نظمت الشريعة الإسلامية قواعد الميراث على أساس من الحق والعدل ومنع الجور بين الورثة، مراعية في ذلك قوة القرابة من المتوفى، وتوزيع المسؤولية وتحمل عبء النفقة في مجال الأسرة. والإرث يعتبر حقاً شرعياً لتفتيت الثروة ومنع تكدس الأموال في أيدي فئة قليلة من الناس، بناء على اعتراف الإسلام بمبدأ الملكية الشخصية ومراعاة قواعد الفطرة والجهد الإنساني، فإن الإنسان يحب أن يذهب ماله لأحب الناس وأقربهم لديه.

وكان تنظيم قواعد الميراث في ثلاث آيات من سورة النساء وهي الآيتان (١١، ١٢) وآية الكلالة (وهو من لا والد له ولا ولد) آخر آية في سورة النساء (١٧٦) وأوضحت السنة النبوية هذه القواعد وأضافت عليها بالوحي الإلهي.

وسبب نزول آيات المواريث: أن امرأة سعد بن الربيع جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالاً، ولا تنكحان إلا ولهما مال. فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية المواريث، فأرسل رسول الله إلى عمهما،

فقال: أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمّهما الثمن، وما بقي فهو لكم، وهذه أول تركة قسمت في الإسلام.

تضمنت آيات المواريث حقوق الأولاد، وحقوق الوالدين، وحقوق الأزواج، وحقوق الكلالة (من مات وليس له أصل ولا فرع وارث) وذلك في الآيتين التاليتين: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ٤/١١-١٢].

أما حقوق الأولاد فقال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ(١) ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: ٤/١١]. أي يعطى الولد الذكر ضعف الأنثى، لأنه المسؤول عن الإنفاق على نفسه وأولاده وزوجته وأخته غير المتزوجة، ولا تطالب المرأة بالإنفاق على أحد، سواء كانت أماً أو زوجة أو بنتاً أو أختاً. وتأخذ البنت الثلث مع أخيها، وتدخره لنفسها، وتأخذ البنتان أو الأختان أو البنت مع الأخت الثلثين، وتأخذ

---

(١) يأمركم ويفرض عليكم .

البنت الواحدة المنفردة نصف ما ترك أبوها، والباقي للورثة العصبة الأباعد نسبياً إذا قورنوا مع الولد. والبنات يحجبن بنات الابن.

وأما حقوق الوالدين: فلكل من الأب والأم السدس؛ لأن علاقتهما ومحبتهما بالنسبة للمتوفى الولد سواء، إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد ولا ولد ابن، وورثه أبواه فلأمه الثلث من التركة، والباقي للأب. فإن كان للمتوفى إخوة من ذكور أو إناث، رجعت الأم من الثلث إلى السدس، سواء كانت الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم.

ويقدم أولاً ما يحتاجه الميت من نفقات التكفين والتجهيز والدفن، ثم يقضى الدين الذي كان على المتوفى في حال الحياة، ثم تنفذ وصايا الميت في حدود الثلث، ثم تقسم التركة، قال الله تعالى بعد بيان حقوق الأولاد والوالدين: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ(١) مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٤/ ١١] وتقديم الوصية على الدّين في الذِّكْر للتنويه بها والعناية بتنفيذها، لأن الورثة قد يتثاقلون في تنفيذ الوصية، ولكنهم لا يستطيعون التلكؤ في سداد الدين الذي يكون للدائن حق المطالبة به، وهذا دليل واضح على إلغاء ما كان في الجاهلية من حرمان الأنثى والولد الصغير.

وأما حقوق الأزواج: فللزوج نصف تركة زوجته المتوفاة إن لم يكن لها ولد ولا ولد ابن، من الزوج أو من غيره، سواء كانت الزوجة مدخولاً بها أو مجرد معقود عليها من غير دخول، فإن كان للزوجة ولد أو ولد ابن فلزوجها الربع، والباقي للأقارب الآخرين من بعد أداء الدين وتنفيذ الوصية.

وللزوجة ربع تركة زوجها المتوفى إن لم يكن له ولد، ولا ولد ابن، ولها الثمن إن كان لزوجها ولد، والباقي للورثة الآخرين من بعد الدين والوصية.

---

(١) مفروضة عليكم .

وأما الكلالة: (الميت الذي لا ولد له ولا والد) فهو من مات وليس له وارث من أب أو جد، ولا فرع وارث من ولد وولد ابن، وكان له أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس، ويلاحظ وجود التسوية بين الذكر والأنثى هنا، لأن قرابتهما للميت على درجة متساوية واحدة وطريق الصلة واحد وهو الأم، فإن كان الإخوة لأم اثنين فأكثر فلهم الثلث كالأم، وهذا كله من بعد سداد الدين وتنفيذ الوصايا. وإن كان لهذا الرجل الكلالة أخت شقيقة أو لأب فلها النصف، وللأختين الثلثان، وللأخت الثلث مع أخيها.

هذه قواعد الإرث في شرع الله ودينه في غاية العدالة والإنصاف، والرحمة ومراعاة مسؤوليات الحياة، فيجب التزامها ولا يجوز تجاوزها، ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه.

ضوابط الإرث وعقاب المخالفين
وعقوبة الزناة في صدر الإسلام

أوضح القرآن الكريم بعض القيود والضوابط التي يجب التزامها في تشريع الإرث وقسمة الحقوق المتعلقة بالتركة، وتوزيع الأنصباء بين الورثة، وجعل الإسلام نظام الإرث من قواعد النظام العام التي لا يجوز مخالفتها، أوتخطي الحدود المرسومة من الله تعالى، لأن الله سبحانه أرحم الرحماء بعباده، وأحكم الحاكمين، وأعدل المشرعين.

وأول هذه الضوابط والقيود: التقيد بشرع الله وترك ما كان عليه الناس في الجاهلية من حرمان الأنثى والصغير، لأن الناس لا يعرفون النافع حقيقة من الضار على المدى البعيد، فيلزم التقيد بما أمر الله به، فهو أعلم بالمصلحة من عباده، وأدرى بما هو أقرب نفعاً للبشر، لذا فرض الله أحكام الميراث فريضة محكمة لا هوادة في وجوب العمل بها،

فريضةً من الله، إنه كان عليماً بأحوال الناس، حكيماً فيما يشرع لهم، يضع الأمور في موضعها الصحيح المناسب، قال الله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .[النساء: ٤/ ١١].

والقيد الثاني والضابط الآخر لقواعد الإرث: هو ترك الإضرار في الوصية، فلا يجوز للموصي الإيصاء بأكثر من الثلث: «الثلث والثلث كثير» كما صح في الحديث. ولا الوصية لوارث لقوله ﷺ في الحديث المتواتر: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث».

ولا يجوز الإيصاء بمعصية، ولا يحل للإنسان إضرار الورثة بأن يقر بدين غير ثابت لم يقبضه من الدائن أو يكون الدين المُقَرُّ به مستغرقاً المال كله، ولا تجوز الوصية بالثلث فراراً من وارث محتاج، ولا يصح حرمان الوارث من حقه في الميراث، وهكذا فوجوه الإضرار كثيرة، قال النبي فيما رواه أبو داود عن أبي هريرة: «من ضارّ في وصية ألقاه الله تعالى في واد في جهنم».

وقال أيضاً فيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم في التفسير عن ابن عباس: «الضرار في الوصية من الكبائر» . ويجمع كل أوجه الضرر في الوصية والدين قول الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ .[النساء: ٤/ ١٢].

الضابط العام الثالث لنظام الإرث الشرعي: التزام أحكام الله كما شرع، لأن التزامها مانع من الوقوع في المعصية، وطاعة الله ورسوله موجبة لدخول الجنة، ومعصية الله ورسوله وتعدي حدوده ومحارمه مقتضٍ لدخول نار جهنم والتعرضِ للعذاب المهين المذل. قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ(١) وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

(١) شرائعه وأحكامه .

وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٣-١٤].

الآيات تشير إلى ما سبقها من أحكام، فإن الأحكام المتعلقة برعاية الضعفاء من الأيتام والنساء، وأحكام العدل والإنصاف بين الزوجات والحجر على السفهاء المبذرين واليتامى قبل البلوغ، وأحكام المواريث، كل تلك الأحكام هي حدود الله ومحارمه التي لا يجوز لمسلم أن يتخطاها ويتجاوزها. ومن يطع الله ورسوله فيما شرع وبيَّن، يدخله جنات تجري من تحت غرفها وبساتينها الأنهار العذبة، مع الخلود الأبدي فيها، من غير انقطاع ولا تحول عنها ولا موت آخر، وهو جزاء المحسنين، وذلك هو الفوز العظيم. وهذا وعد قاطع من الله، والله لا يخلف الميعاد.

وهناك وعيد على عصيان هذه الأحكام بسبب إنكار عرب الجاهلية لقسمة الميراث، فقد كلم فيها النبي ﷺ عُيينةُ بنُ حصن وغيره، ويشتمل الوعيد لمن يتعدى حدود الله، أي أحكامه في الميراث وغيره، وينتهك حرمة الله ويعصي الله ورسوله: إدخالَه ناراً وقودها الناس والحجارة، خالدين فيها إلى ما شاء الله، وله عذاب مهين ومذل له، فهو عذاب مادي وروحي.

هذه الضوابط لقواعد الميراث تعد مؤيدات شرعية مانعة من مخالفتها وإهمالها. قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٣-١٤].

أي إن أحكام المواريث السابقة هي أحكام الله وشرائعه، فلا تعتدوها ولا

تتجاوزوها، ومن يطع الله باتباع ما شرعه من الدين وأنزله على رسوله الكريم، ويطع الرسول باتباع ما جاء به عن ربه من أحكام، يدخله جنات (بساتين) تجري الأنهار من تحت قصورها، وذلك هو الظفر والفلاح الذي لا مثيل له في الدنيا.

ومن يخالف أوامر الله ورسوله، ويتجاوز الأحكام المشروعة، يدخله ناراً، ماكثاً فيها على الدوام، وله عذاب مقترن بالإهانة والإذلال.

ثم ذكر الله تعالى عقاب الزناة في مبدأ الإسلام، فقال: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ[1] مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ[2] فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ[3] فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٥-١٦].

أي والنساء اللاتي يرتكبن الزنا، فأشهدوا على زناهن أربعة من الرجال، فإن شهدوا فاحبسوهن في المنازل، حتى الموت، أو يجعل الله لهن مخرجاً مما أتين به.

والرجلان اللذان يأتيان الزنا، فآذوهما بالقول، وعيروهما ووبخوهما على فعلهما إذا لم يتوبا، فإن تابا وأصلحا عملهما وغيّرا أحوالهما، فاتركوا عقابهما، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، إن الله كان وما يزال كثير القبول لتوبة عباده، رحيماً بهم.

وقد نسخت هذه العقوبة بآية النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾[النور: ٢٤/ ٢]. بالنسبة للأبكار، وبأحاديث الرجم للمحصنين والمحصنات في السنة القولية والعملية.

(١) يفعلن الزنا . (٢) احبسوهن . (٣) عاقبوهما عقاباً مناسباً .

وقت قبول التوبة وأحكامها

إن الإنسان تتنازعه عوامل الخير والشر، وتطرأ عليه حالات الضعف الإنساني أحياناً، فيندفع مع أهوائه وشهواته ويستجيب لوساوس شيطانه، فيقع في المعاصي والمخالفات، ثم يندم ويتراجع ويبحث عن طريق الإنقاذ والتخلص من أخطاء الماضي، لأن نفسه معذبة وضميره يوبخه ويؤنبه، وقد فتح الله باب الأمل أمام المخطئين النادمين ألا وهو التوبة الصادقة ما بين الإنسان وربه، من غير وساطة أحد، لا عالم ولا قريب ولا معلم، وقد وضع الشرع للتوبة شروطاً وأحكاماً.

وشروط التوبة أربعة: الإقلاع عن الذنب، والعزم على ترك الخطيئة في المستقبل، حتى لا يكون هناك إصرار لا توبة معه، والندم على الفعل في الماضي، ورد الحقوق المالية إلى أصحابها، وطلب المسامحة من الآخرين الذين أخطأ الإنسان معهم في الحقوق الأدبية. والتوبة: الندم على ارتكاب معصية الله تعالى.

وأحكام التوبة نصت عليها آيتان قرآنيتان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ[1] بِجَهَٰلَةٍ[2] ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ٤/١٧-١٨].

التوبة فرض على جميع المؤمنين بإجماع الأمة لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٢٤/٣١] وذلك بأن يدرك المؤمن المذنب قبح فعله السابق، ويندم ندماً حقيقياً مصمماً، على ألا يعود إلى الذنب أبداً.

---

(١) السوء: العمل القبيح الذي يسوء فاعلَه. (٢) الجهالة: التورط في المعصية عند شهوة أو غضب جهلاً وسفهاً من غير تقدير عواقب الأمور.

وقبول التوبة والمغفرة أوجبه الله على نفسه تفضلاً ورحمة وبياناً لصدق إنجاز الوعد، ولسابق وعد الله الكريم في قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٦/٥٤]. والله الذي أوجب قبول التوبة على نفسه عليم بخلقه، لأن النفس الإنسانية قد تشذ ويغويها الشيطان، فتقع في المعصية، فلولا باب التوبة ليئس الناس وضاقت بهم الدنيا، وظلوا على حالهم.

وقال قتادة: اجتمع أصحاب النبي ﷺ على أن كل معصية، فهي بجهالة، عمداً كانت أو جهلاً وخطأ.

وأحسن أوقات التوبة: أن يبادر الإنسان المخطئ إلى الإقرار بها من قريب، أي بعد وقوع الخطيئة مباشرة وبسرعة، حتى لا يفوت الأوان، وتتراكم السيئات، أي المعاصي. ويظل باب التوبة مفتوحاً إلى ما قبيل مجيء وقت الموت أو الاحتضار، فمدة الحياة كلها وقت قريب، لما رواه أحمد والترمذي عن بشير بن كعب والحسن أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد، ما لم يغرغر[1] ويُغلب على عقله». وذلك لأن الرجاء فيه باق، ويحتاج الأمر إلى وقت يصح منه الندم والعزم على ترك الفعل، حتى يظهر دور الإنسان الاختياري والإرادة البشرية، فإذا غُلب الإنسان على عقله، تعذرت التوبة لعدم توافر الندم والعزم على الترك. والله عليم بمن يتوب، وييسره هو للتوبة، حكيم فيما ينفذه من الأمر والقبول، وفي تأخير من يؤخِّر عن التوبة حتى يهلك ويموت.

وأما توبة اليأس فغير مقبولة، مثل أولئك الذين يواظبون على اقتراف المعاصي، ويستمرون في غيهم وضلالهم حتى إذا أدركهم الموت وساعته، تابوا عند العجز عن

---

(١) أي ما لم تصل الروح إلى الحلقوم والغرغرة.

المعصية، والخوف من العقاب، وذلك مثل توبة فرعون حينما حضره الموت، وأدركه الغرق، وصار في غمرة الماء، وفي حيِّز اليأس، فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان.

ولا يقبل الله توبة الذين يموتون وهم كفار، ولا توبة من يؤجل التوبة حتى تحضره الوفاة، لأنها تكون حينئذ قسرية، والأعمال المقبولة لا تكون إلا عند التكليف والاختيار، وأولئك الذين يرجئون التوبة ويؤخرونها عن وقتها المناسب هيأ الله لهم عذاباً مؤلماً ومذلاً في الآخرة، لأنهم أصروا على أخطائهم، واستعبدهم الشيطان إلى الموت.

معاملة النساء

من المعلوم أن المرأة نصف المجتمع، وهي في حكم الله وتقديره تشارك الرجل في تحمل أعباء الحياة، وتعاونه في تحقيق المهام والمعايش، ولقد أنصف الإسلام المرأة وكرمها ورفع مكانتها، وأنزلها منزلة لائقة بها، تتفق مع فطرتها ومهماتها، لأنها شريكة في الحياة، وهي إنسان حي له كرامة وشخصية، وأعطاها من الحقوق المناسبة لطبيعتها وتركيبها وإمكاناتها النفسية والبدنية.

وكانت المرأة في الجاهلية وفي عصور الرومان واليونان تعد من قبيل المتاع، وكان أقارب الزوج المتوفى عند العرب يستولون عليها كرهاً عنها. روى البخاري أنه كان إذا مات الرجل منهم، كان أولياؤه أحق بامرأته: إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، أي منعوها الزواج، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت الآية الآتية. وكان من عادات العرب في الجاهلية أيضاً إذا أرادوا فراق امرأة، رموها بفاحشة، حتى تخاف وتشتري نفسها منه بالمهر الذي دفعه إليها، فنزلت آية أخرى. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ

كَرْهًا(١) وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ(٢) لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا(٣) وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ(٤) وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(٥) ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٩-٢١].

يخاطب الله المؤمنين بصفة الإيمان الباعثة على الالتزام والطاعة، فيذكر أنه لا يليق بكم أن تعاملوا المرأة كالمتاع، فتستولون عليها وترثونها وهي كارهة، ولا يحل لكم أن تضيقوا عليهن وتضاروهن، حتى يضطررن إلى الافتداء بالمال أو التنازل عن الصداق (المهر). قال النبي ﷺ في حجة الوداع فيما رواه الترمذي وغيره: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عوانٍ عندكم(٦)، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» أي بعقد الزواج المشروع. لكن ارتكاب الفاحشة أي الزنى مسقط لحق المرأة في المهر. وعليكم أيها المؤمنون و بخاصة الشباب أن تعاشروا نساءكم وتخالطوهن بالمعروف بما تألفه الطباع السليمة، ولا ينكره الشرع والعقل والعرف، من غير تضييق في النفقة ولا إسراف، وكلمة (المعاشرة) تقتضي المشاركة والمساواة، أي كل واحد يعاشر صديقه من جانبه بالمعروف، معرضاً عن الهفوات، جالباً السرور، حافظاً الود، معيناً على الشدائد، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١].

فإن كرهتم النساء لعيب خلقي أو قبح أو تقصير في أمر أو مرض أو لأسباب

(١) بإكراه منكم، أي مكرهين لهن. (٢) أي لا تمنعوهن من الزواج، ولا تضيقوا عليهن. (٣) باطلاً وظلماً. (٤) أي تكاشفتم واختلطتم وباشر بعضكم بعضاً واطلع على أسراره، وهو كناية عن الوقاع. (٥) الميثاق الغليظ: عقدة الزواج، أي عهداً وثيقاً. (٦) أي كالأسرى.

أخرى فربما كرهتم شيئاً، وفيه الخير الكثير لكم. قال السدِّي: الخير الكثير في المرأة: الولد. أي أن الصبر في معاملة النساء أمر مطلوب شرعاً؛ لأن الكمال لله، وقد تنجب هذه المرأة أولاداً نجباء، وقد يكون لها مزايا وخصال أخرى تغطي الخصال المذمومة، لذا قال النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم عن أبي هريرة: «لا يفرَك مؤمن مؤمنة -أي لا يبغضها- إن ساءه منها خلُق، سرَّه منها خلق آخر».

وإذا أردتم أيها الزوجان الفراق -وهو أبغض الحلال إلى الله- وكان بينكما نشوز وإعراض وسوء عشرة، فلا يجوز أخذ شيء من مهر المرأة، ولو بلغ قنطاراً من الذهب، وكيف تأخذونه بهتاناً (كذباً) وأخذه إثم واضح وذنب كبير؟ وكيف تأخذونه بعد إبرام العقد الخطير وهو الميثاق الغليظ، وبعد مكاشفة الأسرار، وحدوث الاختلاط والمباشرة، إن هذا أمر مستنكر شرعاً لا يليق بمؤمن.

خطب عمر بن الخطاب فقال: «ألا لا تغالوا بمهور نسائكم، فإن الرجل يُغالي حتى يكون ذلك في قلبه عداوةً للمرأة، يقول: تجشمت إليك أي تحملت الشدائد، فكلمته امرأة من وراء الناس، كيف هذا؟ والله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ فأطرق عمر ثم قال: «كل الناس أفقه منك يا عمر» «امرأة أصابت، ورجل أخطأ» والله المستعان، وترك الإنكار.

محارم النساء

راعى الإسلام ما تستوجبه رابطة الدم من حرمة وتعظيم، فحرم الزواج على الرجال ببعض الأقارب القريبين جداً، وفي ذلك رفع للحرج، وجعل العيش في بيئة الأسرة الواحدة أمراً ميسوراً لا حرج فيه، علماً بأن بعض قبائل العرب قد اعتادوا أن يخلف الرجل على امرأة أبيه، فإذا توفي الرجل عن امرأته، كان ابنه أحق بها،

يتزوجها إن شاء إن لم تكن أمه، أو يزوجها من شاء. ووجدت أمثلة فعلية لبعض الرجال الذين تزوجوا من زوجات الآباء، لا داعي لذكر أسمائهم هنا، وكان في العرب من تزوج ابنته، وهو حاجب بن زرارة، تمجّسَ وفعل هذه الفِعْلة. فنهى الله المؤمنين عما كان عليه آباؤهم من هذه السير والمثالب المستنكرة.

قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يحرّمون ما يحرم إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين، فنزلت هاتان الآيتان: قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا[1] وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم[2] مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ[3] وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ[4] ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ٢٢-٢٣].

سمى الله تعالى الزواج بامرأة الأب نكاح المقت، أي الكراهية والاحتقار لأنه نكاح ذو مقت يلحق فاعله، وكانت العرب تسمي الولد الذي يجيء من زوجة الوالد: المقتي. لذا قال الله تعالى بعد ذكره: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي بئس الطريق والمنهج لمن يسلكه، إذ عاقبته إلى عذاب الله. فلا يحل الزواج في الإسلام بزوجة الأب، روى ابن جرير الطبري: كل امرأة تزوجها أبوك، دخل بها أو لم يدخل بها فهي حرام. وكما يحرم الزواج بامرأة الأب، يحرم أيضاً الزواج بامرأة الجد، وفاعل

---

(١) أي ممقوتاً مبغوضاً، والمقت: البغض والاحتقار بسبب رذيلة يفعلها. (٢) أي بيوتكم، والربائب: بنات زوجاتكم من غيركم. (٣) فلا إثم عليكم. (٤) زوجاتهم.

ذلك يستحق العقاب لنكاحه ما نكح الآباء أو الأجداد، إلا ما مضى في الجاهلية، فهو معفو عنه. إن هذا الزواج كان فاحشة يأباه العقل، ويمقته الشرع، وبئس ذلك الطريق في العرف، ثم أبان الله تعالى تحريم النساء من جهات ست، وتلك هي أنواع المحرمات:

١- نكاح الأصول: فقد حرم الله نكاح الأمهات والجدات.

٢- ونكاح الفروع: فقد حرم الله زواج البنات: بنات الصلب وبنات الأبناء.

٣- ونكاح الحواشي: فقد حرم الله نكاح الأخت، سواء كانت شقيقة أو لأب أو لأم، وحرم الله نكاح العمات والخالات القريبة والبعيدة، كعمة الأب، وخالة الأم.

٤- والتحريم بسبب الرضاع: يحرم من الرضاع ما يحرم بالنسب، فالأمهات المرضعات، والأخوات من الرضاعة يحرم التزوج بهن، فإذا رضع طفل من امرأة، فهي أُمّه تحرم عليه، وزوجها أبوه، وأولادها إخوته، وأقاربها أقاربه.

٥- التحريم بسبب المصاهرة: تحرم أم الزوجة التي تم الدخول بها أو العقد عليها، والجدة كالأم، وتحريم ابنة الزوجة من غيرك، وهي الربيبة بشرط الدخول بأمها، ويَحرم أيضاً أولاد أولادها، فإن لم يحدث دخول بها، لا يحرم عليه بناتها، وزوجةُ الابن وزوجة ابن الابن تحرم على الأب والجد بمجرد العقد عليها. قال الله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ أما الابن المتبنّى ممن ليس للصلب فلا تحرم زوجته على من تبناه.

٦- ما يحرم بسبب عارض: يحرم مؤقتاً الجمع بين الأختين أو بين المرأة وقريباتها المحارم كالمرأة وعمتها وخالتها، وتظل الحرمة قائمة ما دام الزواج قائماً بالأخت فعلاً أو في العدة، وعفا الله عما سلف، فلا مؤاخذة على من تزوج في الجاهلية بأختين أو بأخت وعمتها أو خالتها.

هذه هي المحرّمات من النساء أوضحها القرآن الكريم، فيجب على من أراد الزواج تحري الأمر بين النساء، حتى لا يقع في زواج حرام، وخاصة التحريم من جهة الرضاع.

حلائل النساء بشرط المهر

أحل الإسلام الزواج بكل امرأة ليست من المحرمات بسبب النسب أو الرضاع أو المصاهرة أو بسبب عارض كأخت الزوجة وعمتها وخالتها، ولو كانت في العدة.

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ(١) إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ(٢) وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ(٣) غَيْرَ مُسَافِحِينَ(٤) فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ(٥) فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)﴾ [النساء: ٤/ ٢٤].

حرم الله التزوج بالمتزوجات من النساء، إلى أن تطلّق الواحدة وتنتهي عدتها، وسميت المرأة المتزوجة محصنة، لأنها دخلت في حصن الزوج وعصمته وحمايته، فتحرم المحصنات المتزوجات ما دمن في عصمة رجل أو في العدة بعد الطلاق منه، إلا السبايا -في الماضي- وهن المملوكات بسبب الحرب المشروعة، لا كحروب الاستعمار والاستغلال، فقد كان يجوز للمسلم الزواج بالمسبية من غنائم الحرب إذا فرض الإمام عليها الرق وتمت قسمة الغنائم وآلت ملكيتها إلى ملك مسلم، وذلك بشرط براءة رحمها من زوجها الأول، ويكون الاستبراء بانتظار حيضة تأتيها بعد

(١) أي ذوات الأزواج . (٢) أي الزموا كتاب الله، فهو منصوب على المصدر المؤكد، وهذا إشارة إلى التحريم الذي قرره الإسلام . (٣) متعففين عن المعاصي . (٤) غير زناة . (٥) أي مهورهن خلافاً لما كانت العرب تفعله .

السبي، وذلك تعويضاً لها عن زوجها السابق، حتى لا تكون أداة فساد أو عالةً على المجتمع.

كتب الله علينا هذه المحرمات، وأحل لنا ما عدا المذكور في آية المحارم من النساء، وما عدا المطلّقة ثلاثاً حتى تنكح زوجاً آخر غير زوجها الأول بزواج عادي، وليس بتحليل مؤقت، وما عدا المشركة الوثنية حتى تسلم.

والزواج بمن أحل الله مشروط بتقديم المهر للزوجة، ويسمى المهر أحياناً في العربية أجراً، ومشروط أيضاً بتوافر قصد الإحصان والإعفاف، لا بقصد سفح الماء والزنى، محصنين أنفسكم وزوجاتكم، غير مسافحين ولا زانين.

أحل الله الزواج بالنساء ما وراء أو ما عدا من حُرِّم من سائر القرابة، فهن حلال لكم تزوجهن، والقصد الصحيح المشروع من الزواج هو الإعفاف، وحفظ الماء، وإيجاد النسل الطاهر، فيختص كل رجل بأنثى، وكل أنثى برجل، دون تعدد الأزواج كما هو حادث الآن في أوربا وأمريكا أحياناً، أما الزاني فلا يريد تحقيق المقاصد المشروعة الدائمة من الزواج، وإنما يريد فقط قضاء شهوته، وسفح الماء، استجابة للطبيعة الحيوانية فيه.

وما استمتعتم به من النساء بعد وجود عقد زواج مشروع دائم، فآتوا النساء مهورهن التي فرضها الله عليكم، والمهر تكريم للمرأة، وليس ثمن شيء ولا عوضاً عن شراء، وهو ليس في مقابلة التمتع بالمرأة، ولكنه لتحقيق العدل والمساواة، ودليلُ المحبة والإخلاص، لذا سماه الله نحلة وعطية، ولا مانع بعد تسمية مهر معين في عقد الزواج، التراضي والاتفاق بعد العقد على زيادة المهر أو نقصه أو تنازل الزوجة عن شيء من مهرها لمصلحة الحياة الزوجية، وعلامة على الإخلاص والتعاون، ويدفع المهر للزوجة بعد العقد أو الدخول، وهو حق خاص بالمرأة وليس لوليها أو قريبها

أي حق في المهور، إن الله عليم بكل نيه وقصدٍ، حكيم في كل تشريع يضعه للعباد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ يراد به الاستمتاع بطريق عقد الزواج الدائم، كما ذكرتُ، وليس المراد به ما يسمى بالمتعة، فقد كانت المتعة في صدر الإسلام مباحة لم يتعلق بها تحريم؛ لأن الأصل في الأشياء والأفعال الإباحة، ثم نهى عنها القرآن وحصر العلاقة المشروعة بين الرجل والمرأة في الزواج أو ملك اليمين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥-٦] ونهى النبي ﷺ عن المتعة نهياً دائماً إلى يوم القيامة، ولا تختلف المتعة كثيراً عن الزنى بعينه، لأنها تتم بلا إذن ولي ولا شهود، والزنى لا يباح قط في الإسلام، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: «لا أُوتى برجل تزوج متعة إلا غيَّبته تحت الحجارة».

إن تنظيم العلاقة بين الجنسين: الرجل والمرأة على أساس واضح دائم من الزواج الصحيح الذي يقصد به الدوام هو في الواقع خير ومصلحة لكل من الطرفين. ثم ذكر الله تعالى حكم حالة العجز عن المهر فقال:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا(١) أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ(٢) ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ(٣) ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ(٤) بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ(٥) غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ(٦) وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ(٧) فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ(٨) مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٥﴾ [النساء: ٤/ ٢٥].

أي ومن لم يجد منكم غنى وسعة في ماله للتزوج بحرة مسلمة مؤمنة، فيحل له أن يتزوج أمة مؤمنة غير مشركة ولا كتابية، والله أعلم بحقيقة إيمانكم، فلا تأبوا الزواج

(١) غنى وسعة. (٢) الحرائر. (٣) إمائكم. (٤) مهورهن. (٥) عفائف. (٦) غير مجاهرات بالزنا. (٧) متخذات أصدقاء للزنا سراً. (٨) خاف الزنا.

بالإماء عند الضرورة، بعضكم من جنس بعض، سواء في الدين، فتزوجوا الإماء بإذن أوليائهن، وأدوا إليهن مهورهن بالمعروف شرعاً وعادة بحسب التراضي، حال كونهن عفيفات غير مجاهرات بالزنا، ولا متخذات أصحاب يزنون بهن سراً، وإذا صارت الإماء محصنات بالزواج، فعليهن بالزنا الجلد بمقدار نصف عقوبة الحرائر، أي خمسين جلدة فقط، لأن حد الحرة مئة جلدة، أما الزانية غير المحصنة من الإماء فلا تجلد، وإنما تعزر تأديباً في رأي ابن عباس، والمعتمد رأي الجمهور أن الحد واجب على الأمة المسلمة إذا لم تتزوج، لما ثبت في الصحيحين من حدها، ذلك الترخيص بالزواج من الإماء لمن خاف منكم الوقوع في الزنا، وأن تصبروا عن نكاح الإماء خير وأفضل لكم، حتى لا يصير الولد رقيقاً، والله غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم حين يسر لهم ذلك. وهذا كله حيث كان الرق قائماً، وبعد الاتفاق الدولي عام ١٩٥٢ على منعه، لم يعد هناك مجال لتطبيق هذا الحكم.

أهداف التحريم والإباحة للنساء

أخرج البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ثماني آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، وعدّ منها الآيات ٢٦ و٢٧ و٢٨ من هذه السورة، والرابعة ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ والخامسة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤/ ٤٠] والسادسة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٠] والسابعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/ ٤٨] والثامنة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ .[النساء: ٤/ ١٥٢]

أما الآيات ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ من سورة النساء فهي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ[1] ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٤/٢٦-٢٨].

بعد أن ذكر الله تعالى الأحكام المتعلقة بالبيوت والنساء والزواج حلاله وحرامه، ذكر الحكمة من تشريع تلك الأحكام.

وأول هذه الحكَم التشريعية: أن الله يريد أن يبين لنا ما خفي عنا، ويرشدنا إلى ما فيه مصلحتنا، ويهدينا مناهج أو طرق من كان قبلنا من الأنبياء والصالحين، وطرقهم: هي التي سلكوها في دينهم ودنياهم، وأن دينهم الذي ارتضاه لهم سابقاً لا يبعد عما اختاره الله لهذه الأمة في القرآن المجيد. وهذا دليل على أن شرعنا كشرع من قبلنا، في توجيه الأوامر والنواهي وإيراد القصص، وفي ضرورة توافر السمع والطاعة لما يشرعه الله تعالى.

يريد الله من بيان الأحكام التشريعية في قضايا الزواج ومحارم النساء ومن يباح منهن: أن يرشدنا إلى الطاعات والأعمال التي إذا أديناها وقمنا بها على وجهها الصحيح، كانت سبيلاً ممهدة لقبول الله التوبة، فالأعمال الصالحة كفّارات للسيئات، والله بفضله يتوب علينا ويكفر عنا سيئاتنا، إن فعلنا تلك الأعمال، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١/١١٤] ، والله عليم بكل قصد حسن أو سيء، حكيم في كل عمل وتشريع يسنُّه لعباده، عليم بسنن الشرائع ومصالح العباد، مصيب بوضع الأشياء في مواضعها الصحيحة بحسب الحكمة والإتقان.

---

(١) طرق ومناهج .

والذين من قبلنا: هم المؤمنون في كل شريعة، المتبعون ما أنزله الله منها، وتوبة الله على عبده: هي رجوعه به عن المعاصي إلى الطاعات، وتوفيقه له، ثم كرر الله إظهار إرادته التوبة على عباده لتأكيد الإخبار الأول، وقدمت إرادة الله توطئة مظهرة لفساد إرادة متبعي الشهوات، يريد الله أن يتوب على عباده -وهذا تفضل ورحمة منه- يتوب عليهم بما كلفهم به من الأعمال التي تطهرهم وتزكي نفوسهم، فيتوب الله عليهم بعد هذا، وأما المفسدون فلا يتوب الله عليهم لإصرارهم على الإفساد، فهؤلاء المفسدون مبتعو الشهوات الذين يجرون وراءها إنما يريدون بالإضافة لإفساد نفوسهم إفساد المؤمنين الصالحين، يريدون أن يميلوا معهم ميلاً عظيماً، لأن مرتكب الإثم يهمه جداً ويحرص أن يشاركه غيره في فساده، إرضاءً لنفسه وتستيراً عليها، واطمئناناً لسلوكها.

يريد الله أيضاً من بيان أحكام التشريع في قضايا الزواج وغيرها التخفيف والتيسير على عباده، وبيان كون هذه الشريعة سمحة سهلة لا مشقة ولا ضيق ولا حرج في أحكامها، لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ . .﴾ [الحج: ٢٢/٧٨]. وبيان التخفيف والسماحة أمر ضروري في أمور الزواج، قال طاوس: ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء.

لذا أراد الله تعالى أن يبين سبب هذا التخفيف وهو أن الإنسان خلق ضعيفاً عن مقاومة الشهوات، والتأثر بإغراءات النساء، وهذا مقصد تشريعي عام في الإسلام، فإن هذه الشريعة قامت على مبدأ التخفيف والتيسير والبعد عن المشقة والمضايقة، والله تعالى بكرمه خفف عن عباده، وجعل الدين يسراً سمحاً سهلاً، ولم يجعله ضيقاً حرجاً، وضعف الإنسان ناشئ عن ضعف نفسه، ولأن هواه يستميله في الأغلب، لذا راعى التشريع هذا الضعف ويسّر الصعب، وشرع السهل.

أكل أموال الناس بالباطل والتوبة من المعاصي

نظم الإسلام طريق التعامل مع الآخرين، والحفاظ على الأموال من غير اعتداء عليها، ولا أخذ مال الآخرين إلا بالتراضي، لأن المال حق لصاحبه، وهو قرين الروح، وأكثر الخصومات والمنازعات تقع بسبب الأموال، والإسلام يريد تحقيق الاستقرار والحفاظ على المودة والحقوق بين الناس، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ[(١)] إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ[(٢)] وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ٢٩-٣٠].

حرمت الآية الاعتداء على المال والنفس، فلا يحل أكل مال الآخرين بالباطل، وهو الطريق غير المشروع والمأخوذ من أعيان الأموال أو منافع الأشياء ظلماً من غير مقابل، ويشمل ذلك كل ما يؤخذ من الأموال عوضاً في عقد فاسد أو باطل، كبيع الإنسان ما لا يملك، وثمن المأكول الفاسد غير المنتفع به حقيقة كالجوز والبيض والبطيخ الفاسد، وثمن ما لا قيمة له ولا منفعة معتبرة شرعاً كالقرد والخنزير والذباب والدَّبور والميتة والخمر وأجر النائحة وآلة اللهو، فمن باع بيعاً فاسداً وأخذ ثمنه، كان ثمنه حراماً خبيثاً، وعليه رده لصاحبه.

لكن يجوز أخذ أموال الآخرين بطريق التراضي في العقود الصحيحة شرعاً كالإعارة والهبة والبيع والإجارة، ولكن بالطريق الذي أذن به الشرع لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ أي كلوا الأموال من طريق التجارة القائمة

---

(١) بما يخالف الحكم الشرعي . (٢) ندخله ناراً ونحرقه بها .

على الرضا المتبادل بيعاً أو إجارة. وليس كل تراض معترفاً به شرعاً، وإنما التراضي ضمن حدود الشرع، فلا يحل المال الربوي في بيع أو قرض جر نفعاً، ولا المال المأخوذ بالقمار والرّهان من الجانبين، حتى وإن تراضى عليه الطرفان؛ لأن رضاهما مصادم لأمر الشرع الإلهي.

وتمام التراضي: أن يعقد البيع بالألسنة بالإيجاب والقبول، فتنتقل ملكية المبيع للمشتري، ويجب على المشتري الوفاء بالثمن دون تلكؤ، ولا يجوز نقض هذا البيع من أحد الطرفين دون موافقة الآخر، ولا يحل السوم على السوم، والبيع على البيع، والخطبة على الخطبة، لقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «لا يسُم الرجل على سوم أخيه، ولا يبيع الرجل على بيع أخيه». وفي حديث آخر: «ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه».

ثم حرمت الآية قتل النفس بطريق الانتحار: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ وقال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده، يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبداً» . لأن الاعتداء على النفس اعتداء على صنع الله، ولا يملك الإنسان نفسه، كذلك يحرم علينا أن يقتل بعضنا بعضاً، فمن قتل غيره فكأنما قتل نفسه، فيستحق القصاص أو الإعدام؛ لأنه اعتدى على الأمة كلها، قال الله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ * فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٥/ ٣٢] فدم الإنسان على الإنسان حرام إلا من ارتد أو زنى وهو محصن أو قتل عمداً. وعقوبة قاتل النفس عمداً وظلماً في الآخرة: هو إصلاؤه نار جهنم وإدخاله فيها إلا أن يتوب، وبئس المصير المشؤوم الذي يرجع إليه هذا القاتل المعتدي، وذلك العقاب أمر سهل يسير على الله، لأنه القادر على كل شيء.

ثم أورد الله تعالى آية أخرى عقب ذلك فقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا[1] ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣١].

والمعنى: إن تتركوا أيها الناس المعاصي الكبائر، يغفر الله لكم الذنوب الصغائر، ويدخلكم مكاناً طيباً مكرماً وهو الجنة. والكبائر: هي كل معصية اقترنت بالوعيد الشديد، أو أوجب الشرع عليها حداً من الحدود المقدرة في الكتاب والسنة، وفي حديث الصحيحين عن أبي هريرة تعداد الكبائر، قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». ولا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، والذنوب الصغائر: هي التي لم تقترن بوعيد شديد أو بحدّ مقدر، كالنظر إلى امرأة أجنبية غير محرم، والقبلة.

واجتناب الكبائر يكفّر الصغائر إذا تم ذلك بالقدرة والاختيار لا بالإكراه، وكان الممتنع عن الكبيرة يؤدي الفرائض من صلاة وصيام وحج وزكاة وغيرها.

الحث على العمل وإعطاء الحقوق لمستحقيها

اعتنى الإسلام الحنيف بتطهير الظاهر والباطن لكل إنسان، فكما أن الله حرم أكل أموال الناس بالباطل وقتل النفس، وذلك من الأفعال الظاهرة لتطهير الظاهر والمحسوسات، كذلك حرم ما تنطوي عليه النفوس من أمراض فتاكة ضارة كالحسد والحقد والبغضاء، وتمني أخذ ما لدى الآخرين من نِعم وثروات، وما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال.

(١) مكاناً حسناً، وهو الجنة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣٢].

نزلت هذه الآية بسبب أن النساء قلن: ليتنا استوينا مع الرجال في الميراث، وشركناهم في الغزو، أي الجهاد، وقال الرجال: ليت لنا في الآخرة حظاً زائداً على النساء، كما لنا عليهن في الدنيا، فنزلت الآية.

وقال ابن عباس: أتت امرأة النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل، أفنحن في العمل هكذا؟ إن عملت المرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ . .﴾ الآية.

يتبين من سبب النزول المذكور أن الأطماع البشرية هي المسيطرة على النفوس، فالمرأة تريد مساواة الرجل في كل شيء، ولو كان ذلك مغايراً للطبيعة الإنسانية، أو فيه جور وظلم، وإخلال بميزان النفقات المقرر في هذه الشريعة، حيث إن الرجل هو المكلف بعبء الإنفاق على الأسرة، ولا تكلف المرأة بشيء من النفقة.

وبما أن الشرع حكَم عدل محايد، فقد نهانا الله تعالى أن يتمنى كل إنسان منا ذكراً كان أو أنثى ما فضل الله به غيره عليه، بل الواجب على كل منا أن يعمل ويكتسب ويجد ويجتهد، ويُتقن عمله، ويحسن القصد والنية، ويعمل في المجال المناسب لطبيعته، فالرجل بتكوينه هو الذي يجاهد، والمرأة بحكم أنوثتها وضعفها لها مهام أخرى في التربية وإعداد الأجيال ورقابة الأولاد من الانحراف، ولا يجوز التحاسد، لأن ذلك التفضيل بين المرأة والرجل قسمة مقدرة من الله، صادرة عن حكمة وتدبير سديد، وعلم بأحوال العباد، وبما يصلح له كل شخص من بسط الرزق له أو تقتيره

عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٧].

فعلى كل إنسان أن يرضى بما قسم الله له، ولا يحسد غيره، لأن الحسد أشبه شيء بالاعتراض على من أتقن كل شيء وأحكمه. والتفضيل بين الجنسين الذكر والأنثى يشمل النواحي الْخَلْقية البدنية، والقدرات والمواهب والخبرات، فليس من المعقول أن يتمنى الإنسان أن يكون كغيره قوي البنية أو صحيح الجسم، ذكراً أو أنثى، ويُسلب غيره تلك القدرة، وليس من اللائق طلب التساوي في المواهب والخبرات والمعارف كالعلم وتحصيل المال أو الجاه مثلاً، ويحرم غيره منها، ولكن على الإنسان أن يطلب من الله وحده الخير والإحسان والنعم الكثيرة: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ والله عليم بما يحقق المصلحة لكل إنسان، فلا يجوز أن يتمنى أحد زوال ما لدى الآخرين من نعمة، وأن تكون إليه، وهذا هو الحسد: وهو تمني ما لدى الآخرين من النعم، أما الغبطة وهي أن يكون لكل واحد مثل ما لغيره دون زوال النعمة عنه فهي جائزة، فالله سبحانه مقسم الأرزاق ومصدر الفضل والإحسان، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لحكمة ومصلحة للعبد نفسه.

ثم أوصى الله تعالى بإعطاء الحقوق لأصحابها، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ(١) مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ(٢) فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣٣].

نزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنّون رجالاً غير أبنائهم ويورثونهم، فأنزل الله تعالى فيهم أن يُجعل لهم نصيب في الوصية، وردّ الله تعالى الميراث إلى الأقارب

(١) أي ورثة مستحقين من العصبات. (٢) حالفتوهم وعاهدتموهم على التوارث، وهذا عند الحنفية خلافاً لغيرهم باق مشروعيته.

العصبات أو الورثة، ومنع الله تعالى أن يجعل للمتبني ميراث المتبنى، ولكن جعل له نصيباً في الوصية.

ومعنى الآية: لكل من الرجال والنساء ورثة، لهم الحق في تركتهم، والموالي: هم الوالدان والأقربون والأزواج، فآتوا أيها المورثون حقوق الورثة كاملة من غير نقصان، أما الذين كنتم تتبنونهم في الجاهلية -والآن حرم عليكم التبني في الإسلام- فلكم إعطاؤهم شيئاً من أموالكم بطريق الوصية، لا بطريق الميراث، والله رقيب على أفعالكم، شهيد على أعمالكم، فيجازيكم عليها يوم القيامة، فلا يحملنكم الطمع والحسد على أن يأخذ واحد منكم شيئاً من نصيب غيره في الميراث، سواء أكان ذكراً أم أنثى.

تنظيم حياة الأسرة

نظم الإسلام الحياة الزوجية وشؤون الأسرة تنظيماً عادلاً، يتفق مع الحكمة الرشيدة، والأوضاع السديدة، فجعل تدبير أمر المنزل في قضاياه العامة للرجل، وجعل له القوامة على المرأة، أي القيام بأمرها والمحافظة عليها بعناية ورعاية تامة، دون استبداد ولا استعلاء ولا ترفع أو ظلم، كما كلف الله الرجل مقابل هذه الدرجة من القوامة بالجهاد، وحماية الأوطان، والإنفاق على النساء المستوجب إعطاء الذكور ضعف حظ النساء، فإذا كان للرجل درجة القوامة، فعليه في مقابلها مسؤوليات جسام أخرى؛ لأنه أقدر على تحمل المسؤولية والمشاق ومزاحمة الناس في الحياة العملية، والتعرض للمخاطر، والانفراد أحياناً في أماكن لا يجد فيها معيناً ولا مؤنساً.

لذا قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ[1] بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ[2] حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ[3] فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣٤-٣٥].

قال الحسن البصري: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تستعدي على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ﷺ: القصاص، فأنزل الله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ..﴾ الآية، فرجعت المرأة بغير قصاص، أي لم يعاقب الزوج على لطم زوجته. وقال ابن عباس: الرجال أمراء على النساء، أي إن الآية نزلت مبيحة للرجال تأديب نسائهم.

فالرجل قيّم على المرأة، أي هو الرئيس والكبير والحاكم والمؤدب إذا اعوجت، وهو القائم عليها بالحماية والرعاية، فعليه الجهاد دونها، وله من الميراث ضعف نصيبها؛ لأنه هو المكلف بالنفقة عليها. وسبب هذه القوامة أمران:

أولاً -وجود مقومات جسدية، فهو أقوى وأكمل إدراكاً وخبرة ومعرفة بشؤون الحياة، ومعتدل العاطفة.

ثانياً -أنه المنفق على البيت والزوجة والقريبة، ويلزمه المهر رمزاً لتكريم المرأة، وتعويضاً أدبياً لها، ومكافأة على مشاركته في حصن الزوجية، وفيما عدا ذلك فالرجل والمرأة متساويان في الحقوق والواجبات، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ .[البقرة: ٢/ ٢٢٨]

---

(١) لهم القوامة بالتدبير والتسيير والقيادة . (٢) مطيعات . (٣) الخروج عن الطاعة .

أي إن الزوجين متساويان بالمعروف الذي يقره الشرع، دون تجاوز الحدود المشروعة، وللرجال درجة القوامة، لتسيير شؤون هذا المجتمع الصغير، الخلية الأولى للمجتمع، وهو الأسرة. والعجز عن النفقة يسقط حق القوامة للرجل. وللنساء حالتان: فالصالحات منهن قانتات مطيعات لأزواجهن، حافظات للأسرار المنزلية والأعراض والخلوات، ولهن ثواب عظيم على ذلك، روى البيهقي وغيره عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «خير النساء: امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها» وهؤلاء النساء الصالحات ليس عليهن إلا المعاشرة بالمعروف.

وأما النساء الشاذات الناشزات غير المطيعات للأزواج، وهن اللاتي يترفعن عن حدود الزوجية وحقوقها وواجباتها، فيسلك معهن الرجال المراحل الأربع الآتية:

١- الوعظ والإرشاد إذا أثّر في نفوسهن: بأن يقول الرجل للزوجة: اتقي الله، فإن لي عليك حقاً.

٢- الهجر والإعراض في مضجع المبيت من غير خروج من المنزل: وهو ترك المبيت مع الزوجة في فراش واحد، ولا يحل هجر الكلام أكثر من ثلاثة أيام.

٣- الضرب غير المبرّح، أي غير المؤذي كالضرب الخفيف باليد على الكتف ثلاث مرات، أو بالسواك أو بعود خفيف، لا بالكف على الوجه، ولا بالعصا ونحوها مما يؤذي، لأن المقصود هو الإصلاح لا غير، والضرب أمر رمزي فقط.

٤- التحكيم: فإن اشتد الخلاف والعداوة، أرسل حكمان: أحدهما من أهل الزوج والآخر من أهل الزوجة، للسعي في إصلاح ذات البين بعد استطلاع حقيقة الحال بين الزوجين، ومعرفة سبب الخلاف، ومتى حسنت النية والنصح لوجه الله،

يوفق الله الحكمين للقيام بالصلح والهداية إلى الخير، وتحقيق الوفاق والتفاهم، والعودة إلى التوادد والتراحم والألفة بين الزوجين.

ومن أهم أسباب الوفاق: ترك الغلو والعصبية، والتواضع وتقوى الله، والاحترام المتبادل، وتقدير إنسانية المرأة، والاتصاف بصفة الرحمة والخوف من الله حال الغطرسة والتجبر، والله عليم خبير ببواعث الخلاف، يجازي كل إنسان بعمله.

مبادئ الحياة الاجتماعية في الإسلام

وضع الإسلام مبادئ العلاقات الاجتماعية على أسس ثلاثة: عبادة الله وحده لا شريك له والخوف منه سبحانه، وتوثيق العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة والمجتمع بدءاً من الجار وانتهاء بابن السبيل، والسخاء في الإنفاق والبذل في المعروف ومقاومة الشح والرياء والبخل؛ لأنه رذيلة وتدنيس للمروءة والكرامة.

قال الله تعالى مبيناً هذه الأسس أو الأطر: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ(١) وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ(٢) وَابْنِ السَّبِيلِ(٣) وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا(٤) فَخُورًا(٥) ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ(٦) النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا(٧) فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾

[النساء: ٤/ ٣٦-٣٩].

---

(١) البعيد في السكن. (٢) الرفيق مؤقتاً في مشروع. (٣) المسافر المنقطع. (٤) متكبراً. (٥) متفاخراً بطراً متطاولاً. (٦) مراءاة الناس. (٧) صاحباً.

وآيات البخل والرياء نزلت في علماء بني إسرائيل الذين كانوا يبخلون بما عندهم من العلم، وينصحون الأنصار ألا ينفقوا أموالهم، خوفاً من الوقوع في الفقر.

أرشد الله تعالى الناس جميعاً في المجتمع إلى بعض خصال الخير والإحسان، وأولها: عبادة الله وحده دون إشراك أحد معه، والعبادة: هي الخضوع التام لله، مع إشعار القلب بتعظيم الله وإجلاله في السر والعلن، والخشية منه وحده، وتكون عبادة الله بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه، سواء في الشؤون القلبية كالحسد والحقد، أو في ممارسة الأعضاء بعض الأفعال، والأمر أولاً بعبادة الله لأنها مصدر الإلهام بكل خير وترك كل شر، والإقدام على الفضائل.

والواجب الثاني: الإحسان إلى الوالدين وبرهما أي طاعتهما في معروف، والقيام بخدمتهما، وتحقيق مطالبهما، والبعد عن كل ما يؤذيهما؛ لأنهما سبب وجود الولد، وتربيته برحمة وإخلاص، وحب دائم، وتضحية من الأهل.

والواجب الثالث: الإحسان إلى القرابة؛ وهو صلة الأرحام كالأخ والأخت والعم والخال وأبنائهم، وذلك بمودتهم ومواساتهم المادية والمعنوية.

والواجب الرابع: الإحسان إلى اليتامى، ومنهم الذين فقدوا آباءهم واستشهدوا في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله أو الدفاع عن الأوطان، لأن هؤلاء الأيتام والمستضعفين، ومثلُهم المعاقون فقدوا الناصر والمعين وهو الأب، والمعاق: فقد القدرة الجسدية على ممارسة حياة كريمة صحيحة.

والواجب الخامس: الإحسان إلى المساكين والفقراء: وهم المحتاجون الذين لا يجدون ما يكفيهم، والإحسان إليهم بالتصدق عليهم، أو بردّهم رداً جميلاً، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: ٩٣/ ١٠] وهذا يحقق مبدأ التكافل الاجتماعي في الإسلام.

والواجب السادس-الإحسان إلى الجيران، وهم كما ذكرت الآية ثلاثة أنواع: الجار القريب في المكان أو النسب أو الدين، والجار البعيد غير القريب المجاور في السكن، والصاحب بالجنب: وهو الرفيق في السفر، والإحسان إلى الجيران يحقق مبدأ التعاون والتواصل والتوادد والشعور بالسعادة ويكون الإحسان للجيران بكف الأذى، وحسن العشرة، وتبادل الهدايا والزيارة، والوليمة والعيادة حال المرض ونحو ذلك.

والواجب السابع: الإحسان إلى ابن السبيل: وهو المسافر المنقطع عن ماله، أو الضيف بإكرامه ومساعدته للوصول إلى بلده. ومثله الإحسان للأرقاء في الماضي والخدم والأعوان في الحاضر.

ثم حذرت الآيات القرآنية من أمرين قبيحين هما البخل والرياء في الإنفاق من المال، أما البخل فهو داء وخصلة رذيلة، قال النبي ﷺ : «إياكم والشح، فإنه هلك من كان قبلكم بالبخل، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا» . وقد توعد الله البخلاء بالعقاب في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾.

وأما الرياء فهو أمر ذميم محبط ومبطل للأجر والثواب، لأن المرائي لا يقصد بعمله وجه الله، وإنما يقصد بإعطائه المال السمعة والشهرة والتظاهر، لا شكراً لله على نعمة، ولا اعترافاً لعباد الله بحق، والرياء كالبخل يعاقب الله عليه، وهو شرك خفي يقصد به التقرب لغير الله، أما المؤمن حقاً بالله واليوم الآخر فهو سخي غير بخيل، ينفق ماله بنية حسنة، وبقصد التقرب إلى الله وحده، والله عليم بالنيات.

الترغيب في الامتثال والتحذير من العصيان

التربية الدينية القرآنية قائمة على الترغيب من الله تعالى بامتثال أوامره والتحذير من المخالفة والمعاصي والتورط في المنهيات، وذلك كله من أجل خير الإنسان والأخذ بيده نحو الأهداف المثلى والمصالح والمنافع الأبدية له في الدنيا والآخرة.

لذا بشر الله عباده بأنه لا يظلم مثقال ذرة، ويضاعف الحسنات ويمنح الثواب العظيم على العمل القليل، ويوبخ الله تعالى المقصرين المعرضين عن الطاعة والإيمان، ويذكر أن مواقفهم مدعاة للعجب يوم القيامة، وعندها يندمون ويودون أنهم لم يبعثوا أحياء، وأن يبقوا في قبورهم أمواتاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ[1] وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ[2] وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ٤٠-٤٢].

يخبر الله تعالى أنه لا يظلم في الحساب أحداً من خلقه يوم القيامة مثقال ذرة، ولا حبة خردل، بل يوفيها له، ويضاعفها له، إن كانت حسنة، كما قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٧]. ومع أنه تعالى لا ينقص أحداً من أجر عمله، ولو مثقال (وزن) ذرة، يضاعف ثواب الحسنة إلى عشرة أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، بل إنه سبحانه أيضاً يعطي عباده أجراً عظيماً من غير مقابل له من الأعمال، فهو سبحانه واسع الفضل والجود، كثير الإحسان. والأجر العظيم: الجنة والرضوان الإلهي. والآية تعم المؤمنين وغير المؤمنين، فأما المؤمنون فيجازون في الآخرة على مثاقيل الذر فما زاد، وأما غير

---

(١) مقدار أصغر نملة . (٢) يدفنون في الأرض فلا يبعثون .

المؤمنين فيما يفعلون من خير فتقع المكافأة عليه بنعَم الدنيا، ويجيئون يوم القيامة ولا حسنة لهم.

ثم يذكر الله الخالق موقفاً لغير المؤمنين يستدعي العجب، وهو تمنيهم الدفن في التراب، وذلك حينما يكون الناس في موقف الحساب، ويستحضر الله الشهود على الأمم وهم الأنبياء بما يكون منهم من تصديق وتكذيب، ويجاء بالنبي محمد ﷺ شاهداً على هؤلاء المكذبين، من قريش وغيرهم. روي أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فاضت عيناه وذرفت الدموع؛ لأن شهادة أمة محمد ﷺ على الأمم تُعد من حالات الإعزاز والتكريم، ولأن شهادة النبي على أمته والأمم السابقة شهادة قاطعة لا تقبل النقض والرفض.

في هذا الموقف الاتهامي والوضع الرهيب لأهل المحشر يود الذين كفروا وعصوا الرسول ويتمنون لو يدفنون في التراب، فتسوى بهم الأرض، كما تسوى بالموتى، وهم لا يستطيعون كتمان حديث أو كلام عن الله لأن جوارحهم (أعضاءهم) تشهد عليهم، بعد أن يختم الله على أفواههم، وتتكلم أيديهم وأرجلهم بتكذيبهم والشهادة عليهم بالشرك، فلشدة الأمر يتمنون الدفن تحت التراب، وشهادة الأعضاء بإنطاقها من الله سبحانه، كما قال جل جلاله في كتابه المجيد: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ[(١)] إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ[(٢)] ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ[(٣)] أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ١٩-٢٣].

---

(١) وهم المكذبون برسالات الرسل. (٢) يساقون بعنف إلى جهنم. (٣) تستخفون.

هذه إنذارات شديدة الوقع على النفوس تقابل تلك البشائر التي زفَّها الله تعالى للمؤمنين الطائعين.

تحريم الصلاة حال السكر ورخصة التيمم

الصلاة المفروضة في الإسلام هي معراج النفس المؤمنة إلى الله تعالى، وهي محراب التقوى وصفاء النفس وراحة القلب وقرة العين، لذا كان المطلوب فيها استحضار الخشوع والطمأنينة وسكون الأعضاء، وتوافر العقل والإدراك ووعي الأقوال والأفعال المتكررة في الصلاة، وطهارة البدن فلا تصح صلاة السكران والجنب والمحدث وهي باطلة. ولقد يسر القرآن الكريم أداء الصلاة ما دام العقل والوعي متوافراً، وراعى حال الضعف والمرض وفقد الماء من أجل السفر، فأجاز التشريع ما يسمى بالتيمم وهو ضربتان على التراب أو الغبار المتناثر على جدار أو متاع، ومسح الوجه والأيدي إلى المرافق بهما. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ(١) حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ(٢) أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ(٣) فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا(٤) فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ٤٣].

وسبب نزول ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ﴾ ما قال علي رضي الله عنه: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً وشراباً، فدعانا وسقانا من الخمر حين كانت الخمر مباحة لم تكن حرِّمت بعد، فأكلنا وشربنا، وأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدموني للصلاة، فقرأت: (قل: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون،

(١) مسافرين. (٢) أي أحدث بالبول أو الغائط أو الريح. (٣) جامعتم، أو لمستم بشرتهن. (٤) تراباً طاهراً.

ونحن نعبد ما تعبدون) فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾. وذكر ابن جرير الطبري أن الإمام كان يومئذ عبد الرحمن بن عوف، وأن الصلاة صلاة المغرب، وكان ذلك قبل أن تحرَّم الخمر.

وهذا دليل واضح على أن السكر يغطي العقل، ويؤدي إلى الهذيان وتخليط الكلام، والإخلال بالعقيدة والعبادة، فتكون الصلاة باطلة حال السكر، كما أن الصلاة باطلة حال الجنابة، بل يحرم على الجنب دخول المساجد، إلا عبوراً من غير مكث ولا توقف أو استقرار في جميع أجزاء المسجد. وقد منع النبي ﷺ توجيه البيوت نحو المسجد، وقال في حديث صحيح رواه أبو داود عن عائشة: «وجهوا هذه البيوت عن المسجد، فإني لا أحل المسجد لجنب ولا حائض» .وذكرت الآية: لا تقربوا الصلاة حال الجنابة إلا إذا كنتم عابري سبيل، أي مجتازي الطريق.

وسبب نزول آية: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ هو ما قال علي رضي الله عنه: نزلت هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ في المسافر تصيبه الجنابة، فيتيمم ويصلي، وكان نزول آية التيمم في غزوة المريسيع، فكان صدر الآية في حادثة الخمر، وعجزها في حادثة السفر.

وتشريع التيمم رخصة ميسّرة للناس؛ لأن الصلاة تتكرر خمس مرات في اليوم، ولا يجوز تركها بحال، إلا أن الطهارة بالوضوء بالماء قد تتعذر على المسلم المصلي لمرض أو عذر، فرخص الشرع الحكيم الرحيم بالناس في التيمم بالتراب بنحو رمزي، حتى لا تترك الصلاة من أي إنسان، وليس الهدف نقل التراب إلى الوجه واليدين، وإنما أن يقصد الإنسان أرضاً طاهرة لا نجاسة فيه، فيها غبار، أو حتى على حجر صلب، أو متاع كمخدة يتناثر منها الغبار، وكيفية التيمم: نية فرض التيمم وضربتان على تراب ونحوه مما ذكر، الضربة الأولى للوجه، والثانية لليدين.

يتيمم مريد الصلاة إذا كان مريضاً مرضاً يتعذر معه استعمال الماء، أو يضر الجرح أو يؤدي إلى بطء الشفاء، أو كان مسافراً في صحراء أو غيرها على الطرقات العامة، وتعذر استعمال الماء لفقده أو لمشقة السفر، سواء أكان المريض أم المسافر محدثاً حدثاً أصغر، أم حدثاً أكبر، فيكون التيمم جائزاً بدلاً عن الوضوء أو الغسل لأعذار ثلاثة: السفر، والمرض، وفقد الماء.

وهذا مظهر من مظاهر التسامح والتيسير في أداء الصلاة، ودليل على أن الإسلام يدفع الحرج والمشقة عن الناس، لذا ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ يعفو حيث سهّل الصلاة للمعذور من دون وضوء ولا غسل، والله يقبل العفو أي السهل، ويغفر الذنب أي يستر عقوبته، فلا يعاقب المصلحين التائبين، ومن كان عفواً غفوراً آثر التسهيل، ولم يشدد؛ لأن الله رؤوف رحيم بعباده.

تحريف الكتب الإلهية وإهمال الهداية

من المعلوم أن الأديان السماوية كلها متفقة في أصولها العامة ومبادئها الأساسية، كتوحيد الله ونفي الشرك، والدعوة إلى كريم الأخلاق، وسمو الفضائل، وإصلاح المجتمع الإنساني، وإسعاد الفرد والجماعة، والقرآن الكريم مصدق لموسى وعيسى عليهما السلام فيما أنزل الله عليهما من الوحي الإلهي في التوراة والإنجيل، وإذا كان الإنسان المتزن متسامحاً في نظرته، مبتعداً عن التعصب والانغلاق، فعليه أن يؤمن ويصدق بجميع ما جاء من عند الله، وكيف لا يؤمن أهل الكتاب وغيرهم بالقرآن الكريم، مع أنه جاء مصدقاً لما معهم، وموافقاً لملة إبراهيم الخليل عليه السلام -ملة التوحيد، فمن أخلص للحقيقة، فعليه أن يقتنع بها، ويلتزم بمضمونها،

ويدافع عنها، ويستجيب لنداء الله في الوحي الإلهي الثابت، وهو القرآن الكريم الذي لم يبق غيره معبراً عن إرادة الله وتشريعاته وأحكامه.

أما المعادي للقيم الدينية الإنسانية، فيتهرب من مواجهة الحقيقة إما بالتحريف والتأويل، وإما بالإنكار والجحود، وإما بالاستهزاء والطعن، وصرف الكلام عن إرادة الخير إلى إرادة الشر، لذا وبَّخ الله سبحانه في القرآن المجيد أولئك الذين يبدلون كلام الله، بدافع التطور والمعاصرة، أو بدافع نفعي مادي وحفاظاً على المصالح الذاتية والمراكز والمناصب باسم الدين، وبباعث التعصب. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ(١) وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ(٢) وَرَٰعِنَا(٣) لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ(٤) وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ(٥) وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا(٦) فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء: ٤/ ٤٤ -٤٧].

نزلت هذه الآيات في يهود المدينة، قال ابن إسحاق: كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود، وإذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه، وقال: أرْعِنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام وعابه، فأنزل الله فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ . .﴾ الآيات.

والمعنى: ألم تنظر إلى الذين أوتوا جزءاً من الكتاب، يستبدلون الضلالة بالهدى،

---

(١) يغيرونه ويتأولونه بالباطل . (٢) أي لا سمعت، وهو دعاء على النبي ﷺ . (٣) كلمة سب وطعن .
(٤) تحريفاً بألسنتهم . (٥) أعدل وأصوب . (٦) نمحوها .

ويأخذون الكفر بدل الإيمان، ويريدون منكم أن تضلوا معهم الطريق المستقيم، والله أعلم بأعدائكم أيها المؤمنون، فامتثلوا أمره، واحذروا الأعداء، وكفى بالله ناصراً يتولى أموركم، ويصلح حالكم، وكفى به نصيراً ينصركم إن نصرتموه، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٣٠/٤٧].

وبعض الكتابيين يبدلون كتبهم، ويؤولونها تأويلاً غير صحيح، وهم يقولون: سمعنا وعصينا، بدل قولهم: سمعنا وأطعنا، وكانوا يقولون حسداً وحقداً للنبي ﷺ: اسمع لا سمعت، أي لا أسمعك الله ولا أجاب قولك، وقالوا للنبي أيضاً: راعنا من الرعونة والحمق، وهي كلمة سب، تحريفاً بألسنتهم وطعناً في الدين وفتلاً بالألسنة عن الحق والصواب والأدب. وهذا منتهى الجرأة في الباطل والعدوان على الحق، ولو قالوا: سمعنا وأطعنا، بدل: سمعنا وعصينا، لكان خيراً لهم وأهدى سبيلاً، ولكنهم لم يقولوا ذلك، فخذلهم الله ولعنهم وطردهم من رحمته، فهم لا يوفّقون أبداً للخير، ولا يؤمنون إيماناً صحيحاً إلا إيماناً قليلاً لا إخلاص فيه، ثم دعاهم الله للإيمان بالقرآن قبل تدميرهم وتشويههم، ولعنهم كلعنة أصحاب السبت المتحايلين على صيد السمك الممنوع عليهم بأخذ الأسماك من الأحواض التي بنوها، وذلك في يوم الأحد، وكان أمر الله التكويني بإيقاع شيء ما نافذ المفعول لا محالة، متى أراده أوجده، فليحذر الناس وعيد الله وعقابه.

ما يغفره الله تعالى

إن الإنسان بحكم ضعفه وميله للشهوات دون وعي وتقدير للعواقب، تراه يقع في أخطاء ومعاصٍ أو ذنوب تغضب الله تعالى، لأن الخطأ أو العصيان ليس في الواقع في صالح الإنسان نفسه، وإنما هو ضرر في ذاته ولمصالحه، يجرّ عليه أسوأ النتائج

وأخطر الأمور، في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا ضرر في الصحة والسمعة والاعتبار الأدبي، وفي الآخرة ضرر دائم محقّق بالعذاب في نيران جهنم.

ومن أجل خير الإنسان ونفعه والحفاظ على مصلحته وكرامته حرّم الشرع المعاصي والمنكرات، وأوعد مرتكبيها بالجزاء الشديد والعقاب الأليم، غير أن الله الرحيم بعباده فتح لهم باب الأمل وأزال من النفوس رواسب اليأس والإحباط، ورغب في العودة إلى الجادة المستقيمة، والالتزام بمرضاة الله تعالى، فوعد سبحانه التائبين المحسنين أعمالهم بالمغفرة، أي ستر الذنب وإسقاطه وجعل للمغفور له أن يدخله الجنة بلا عذاب ولا عقاب، لكن من شاء عذّبه من المؤمنين بذنوبه، ثم يدخله الجنة.

قال الله تعالى مبيناً دستوره في الوعد والوعيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤/ ٤٨].

هذه الآية مسوقة للرد على أولئك الذي يحلمون بمغفرة الله من دون الإيمان، قائلين: (سيغفر لنا) بالرغم مما يفعلون ويرتكبون.

وسبب نزولها كما جاء عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام، قال: وما دينه؟ قال: يصلي ويوحد الله، قال: استوهب منه دينه، فإن أبى فابتعه منه، فطلب الرجل ذلك منه، فأبى عليه، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: وجدته شحيحاً على دينه، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾.

وهذه الآية مخصصة لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣].

أي إن كل الذنوب والمعاصي قابلة للغفران ما عدا جريمة الشرك، أي نسبة الولد والشريك والصاحبة لله عز وجل، فالشرك أعظم الجرائم عند الله تعالى؛ لأنه يمنع

نور الإيمان من الوصول إلى القلب، وهو منتهى ما تهبط إليه عقول البشر، ومنه تتولد سائر الرذائل التي تهدم كيان الأفراد والجماعات، ولا غرابة في ذلك فالمشرك يظن أن في الصنم أو البشر مثلِه تأثيراً في الكون والحياة. أما التوحيد والإيمان الخالص لله عز وجل من كل شوائب الشرك، فيسمو بالنفس إلى عبادة الرب، والاعتماد عليه وحده، والتوكل عليه والإخلاص له، وفي هذا نور القلب، وصفاء الروح، ونور البصيرة، والعزة الكاملة، لذا كانت المعاصي كلها بعد الإيمان قابلة للمغفرة وقبول التوبة، لأن نور الإيمان يسترها، غير أن المغفرة مرتبطة بمشيئة الله، وهي للعباد التائبين الذين يعملون الصالحات التي أمر الله بها، وانتهوا عما نهى الله عنه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١/ ١١٤].

والناس أمام السيئات أربعة أصناف:

١- كافر مات على كفره، فهذا مخلد في النار بالإجماع.

٢- ومؤمن محسن لم يذنب قط، ومات على ذلك، فهذا في الجنة بالإجماع.

٣- وتائب مات على توبته: وهذا لاحق بالمؤمن المحسن، ولكن بمشيئة الله.

٤- ومذنب مات قبل توبته، ومرد هذا ومصيره إلى الله تعالى، إن شاء عذبه وإن شاء سامحه، للآية السابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. أي إن غفران ما دون الشرك إنما هو لقوم دون قوم، فمن شاء الله المغفرة له غفر له، ومن شاء أن يعذبه عذبه، وكل ذلك بحكمة إلهية عالية، نترك الأمر في معرفتها لله رب العالمين.

بعض الممارسات السيئة

الأخلاق الشخصية والاجتماعية عنوان التدين الصحيح، ورمز تقدم الأمم والجماعات، وإذا ساءت الأخلاق لا سيما في الأمور التي تمس قدسية الدين، كان التدين خطأ، والاستنكار والشناعة أظهر ما يلاحظ من الآخرين، ومن هذه الأخلاق المنكرة: تزكية الإنسان نفسه والافتراء على الله كذباً، والإيمان بالأصنام والطواغيت: وهي كل ما عبد من دون الله والشياطين، والبخل والشح، والحسد للآخرين، وتفضيل الكفار الجاهلين على المؤمنين المخلصين، وادعاء أن أولئك الكفار أهدى سبيلاً وأقوم طريقاً ومنهجاً من الذين آمنوا.

قال الله تعالى موبخاً كل من يتصف بهذه الأخلاق المرذولة والممارسات المغلوطة:
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم[1] بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[2] (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ[3] وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا[4] (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)﴾ [النساء: ٤/٤٩-٥٥].

قال ابن عباس مبيناً سبب نزول هذه الآيات: كان اليهود يقدّمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب، فأنزل الله:
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾.

---

(١) يمدحونها. (٢) بقدر خيط النواة. (٣) كل ما يعبدون من دون الله. (٤) النقير: النقرة التي تكون في ظهر النواة، أي البزرة، وهذا رمز للقلة والحقارة.

وقال عكرمة: انطلق كعب بن الأشرف إلى المشركين في مكة يؤلبهم على النبي ﷺ ويأمرهم أن يغزوه قائلاً: إنا معكم نقاتله، فقالوا: إنكم أهل كتاب مثله، ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم. فإن أردت أن تخرج معنا، فاسجد لهذين الصنمين، فسجد، ثم قالوا: نحن أهدى أم محمد ﷺ فنحن ننحر الكوماء (الناقة الضخمة) ونسقي الحاج، ونقري الضيف، ومحمد قطع رحمه، وخرج من بلده، فقال كعب: بل أنتم خير وأهدى سبيلاً، فنزلت الآيات.

والمعنى: ألم تعلم وتنظر إلى حال الذين يمدحون أنفسهم، ويدّعون ما ليس فيهم، ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن شعب الله المختار، ولا تمسنا النار إلا أياماً معدودات، ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وإن أبناءنا توفوا وهم لنا قربة، وآباؤنا يشفعون لنا، لكرامتهم على الله، فرد الله دعواهم بأنه لا قيمة لتزكية أنفسهم، فإن التزكية تكون بالعمل الصالح، لا بالإدّعاء، والله هو الذي يزكي من يشاء من عباده، بتوفيقه للعمل الصالح، وهدايته للإيمان والآداب الفاضلة.

إنهم بهذه الادعاءات يفترون على الله الكذب، وكفى بالكذب إثماً واضحاً ومعصية كبيرة، إنهم يعبدون غير الله من الشياطين والأصنام، ويصفون الكفار بأنهم أرشد من المؤمنين. وهم الذين لعنهم الله وطردهم من رحمته، والمطرود من رحمة الله لا نصير ولا معين له، بل ليس لهم نصيب من الملك والسلطان، ولو كان لهم نصيب من الملك، فلا يأتون الناس إلا أحقر شيء وأبسطه وأقله، لأنهم مطبوعون على الأنانية حب الذات وحب المادة، والغرور الكاذب، بأنه لن يعطى أحد مثلما يعطون، ولا يستحق أحد أي شيء.

بل إنهم يحسدون الناس كمحمد النبي ﷺ على ما آتاه الله من فضله كالنبوة والقرآن والحكمة، وهذا لا غرابة فيه ولا حق لهم بالحسد فيه، فقد آتى الله آل

إبراهيم الكتاب والحكمة والنبوة، وآتاهم الله ملكاً عظيماً، ومن أسلافهم من آمن بما أُعطي إبراهيم، ومنهم من كفر به وصدّ الناس عن رسالته، وكفى بجهنم التي تتوقد نيرانها، وتستعر وتلتهب بهم، وهذا وعيد شديد لكل من لا يؤمن بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن المجيد كتاباً إلهياً، وبمشتملات القرآن من العقائد الصحيحة والآداب الفاضلة.

عقاب الكفار وثواب المؤمنين

لقد كان القرآن الكريم واضحاً كل الوضوح في بيان المصير المرتقب لأهل الكفر والإيمان في عالم الآخرة، وهذا الإيضاح والتصريح القرآني دليل على أن الله تعالى يحب عباده، ويحب الخير لهم، حين رغّبهم في العمل الصالح الذي يسعدهم في الدنيا والآخرة، وحذَّرهم ونفّرهم من كل عقيدة باطلة أو عمل فاسد يؤديان إلى الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، وقد تكررت الآيات القرآنية المصرحة بأن جزاء الكفر والكفار هو نار جهنم، وأن جزاء الإيمان والمؤمنين الظفر بجنان الخلد التي تجري من تحتها الأنهار، ورضوان لهم من الله أكبر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا(١) كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم(٢) بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا(٣) ٥٧﴾ [النساء: ٥٦-٥٧].

هذه الآيات تشتمل على وعد ووعيد، بلفظ جلي لكل الناس، المؤمنين منهم

---

(١) ندخلهم ناراً. (٢) احترقت. (٣) دائماً، لا حر فيه ولا برد.

والكفار، في كل زمان ومكان. أما الوعيد فهو للكفار، فالذين كفروا بآيات الله المنزلة على أنبيائه، و بخاصة القرآن الذي هو خاتم الكتب الإلهية وأكملها وأبينها، سوف يحرقون بنار جهنم، وهذا العذاب أو العقاب والنكال دائم لا ينقطع ولا يفتر، وكلما نضجت جلودهم بالحرق، أي احترقت وتلاشت، ولم تعد صالحة للإحساس بالألم، بدلهم الله بجلود أخرى حية تشعر بالألم، وتحس بالعذاب، جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تبدّل جلودهم كل يوم سبع مرات».

ثم أكد الله تعالى علة العقاب، وبيّن مدى القدرة التامة عليه، فذكر سبحانه أنه عزيز، أي قادر قوي قاهر لا يُغلب، ولا يمتنع عليه شيء، مما يريده بالمجرمين، حكيم لا يعذب إلا بحق وعدل، ولا يعاقب إلا على وفق الحكمة السديدة، ومن مقتضيات العدل: أن الكفر والمعاصي سبب للعذاب والعقاب، وأن الإيمان والعمل الصالح سبب للنعيم والجنة، فلكل عملٍ ما يناسبه، لذا قرن الله في هذه الآيات وغيرها بين ثواب المؤمن وجزاء الكافر، لإظهار الفرق بينهما، والجمع بين الترغيب والترهيب كالشأن العام في الآيات القرآنية. وهذه سنة حميدة، للمقارنة أو الموازنة، وفي هاتين الآيتين، لما ذكر الله وعيد الكفار، عقّب بوعد المؤمنين بالجنة على الإيمان والأعمال الصالحة. فالذين آمنوا بالله ورسله وقرآنه، وعملوا صالح الأعمال التي أمر الله بها، سيدخلهم ربهم سريعاً جنات تجري من تحت غرفها وبساتينها الأنهار العذبة، يتمتعون فيها بالنعيم الدائم، وهم خالدون فيها أبداً لا يحوّلون ولا يزولون، ولا يرغبون بديلاً عنها، فلا ملل ولا سأم ولا ضجر، جزاءً مطابقاً لعملهم الصالح، إذ لا يكفي الإيمان وحده بغير العمل الصالح.

ولهؤلاء المؤمنين الصادقين في إيمانهم زوجات بريئات من العيوب الجسدية، والخُلقية أو الطباع الردية، فليس فيهن ما يعكر المزاج، أو يكدر الصفو، وهم يعيشون على الدوام في مكان ممتع ظليل، لا حرّ فيه ولا برد، وتلك نعمة كاملة،

ورفاهية تامة، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان. وقد أخبر النبي ﷺ عن صفة ظل الجنة وامتداده، فقال فيما أخرجه ابن جرير الطبري عن أبي هريرة: «إن في الجنة شجرة، يسير الراكب الجواد المضمر في ظلها مئة سنة ما يقطعها» قال ابن كثير في معنى الظل الظليل: أي ظلاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً.

وهذا الجزاء الطيب لأهل الإيمان من فضل الله ورحمته وإحسانه وجوده، إذ لا يدخل أحد الجنة بمجرد عمله، لأن عمله قليل بجانب فضل الله ونعمه، وإنما يدخل برحمة الله وإكرامه.

المنهاج العام للمسلمين

نظم الإسلام الحقوق الخاصة والحقوق العامة والدستورية، وقيد الأمة بقيود من أجل ضبط النظام وصون الحريات، وحفظ الأموال، وإعلاء كرامة الإنسان، ومن أهم هذه القيود النظامية: أداء الأمانات والحقوق المالية إلى أصحابها، وإصدار الحكم بالعدل والحق، وإطاعة الله والرسول فيما شرع وأمر، وإطاعة ولاة الأمور من العلماء والحكام في قضايا الدين وسياسة الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ[١] إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم[٢] بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا[٣] ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء: ٤/٥٨-٥٩].

نزلت الآية الأولى في أداء الأمانات في عثمان بن طلحة بن عبد الدار، الذي كان

---

(١) حقوق الله وحقوق العباد. (٢) نعم الذي يعظكم به وهو ما ذكر. (٣) أجمل عاقبة.

سادن الكعبة، فحينما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب الكعبة، وصعد إلى السطح، وأبى أن يدفع المفتاح إليه، وقال: لو علمت أنك رسول الله لم أمنعك، فأخذه علي بن أبي طالب بالقوة، وفتح الباب، ودخل رسول الله، وصلى ركعتين في الكعبة، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح، ويجمع له السقاية والسدانة، أي خدمة الكعبة، فنزلت الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا..﴾ فأمر النبي علياً أن يرد مفتاح الكعبة إلى عثمان، ويعتذر إليه.

ورد الأمانات لا يقتصر على هذه الحالة، لأن الأمر بذلك عام لكل مسلم في كل أمانة في ذمته، سواء أكانت عامة للأمة، أم خاصة لشخص معين، والأمانة ورعايتها مطلوبة في كل شيء، في النفس، ومال الآخرين، ورد الودائع، وترك الغش في المعاملات، والجهاد والنصيحة، وعدم إفشاء أسرار الناس وعيوبهم، والأمانة في الدين بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه. والأمانة في النفس: بألا يفعل الإنسان إلا ما ينفعه في الدين والدنيا والآخرة، وألا يقدم على عمل يضره في آخرته أو دنياه، ويتوقى أسباب المرض، ويعمل بالقواعد الصحية، ولا يعرض نفسه للهلاك، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: ٢/١٩٥] وقوله ﷺ فيما رواه البخاري: «إن لنفسك عليك حقاً».

وكما أن أداء الأمانات واجب، العدل في القضاء والحكم بين الناس واجب أيضاً، حتى يتحقق التناصف، ويأخذ الضعيف أو المظلوم حقه، ولا يبغي القوي على الضعيف، ويسود الأمن والاستقرار والنظام، ونِعْم الشيء الذي يعظ الله به من أداء الأمانات والحكم بالعدل، والله سميع لكل شيء، بصير بالمرئيات، ويحاسب الناس ويجازيهم على أعمالهم، والتعقيب على أداء الأمانات والعدل بالسمع والبصر أمر حسن، يدفع الإنسان المأمور لفعل ما أمر به.

ونزلت آية الأمر بإطاعة الله والرسول في خالد بن الوليد وعمار بن ياسر اللذين تسابا وتشاتما أمام الرسول، فقال الرسول ﷺ: «يا خالد، لا تسب عماراً، فإنه من سب عماراً سبّه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله، ومن لعن عماراً لعنه الله» فغضب عمار وذهب، فتبعه خالد واعتذر إليه، وتراضيا، فنزلت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾.

فطاعة الله والرسول واجبة، بتنفيذ أحكام الله، واتباع سنة رسول الله، وكذلك تجب طاعة ولاة الأمر من أهل الحل والعقد في الأمة، أي السلطة التنفيذية في الأمة، وأولي الاجتهاد في التشريع من العلماء والحكام والولاة العدول، فإن حدث تنازع واختلاف في وجهات النظر، فالواجب رد الأمر إلى نظيره ومثيله في القرآن والسنة، ولايفهم ذلك إلا العلماء الأعلام المخلصون لله ورسوله، وعليكم أيها المختلفون العمل بهذه الوصايا وامتثال أوامر الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فذلك خير لكم في الدنيا والآخرة، وأحسن تأويلاً، أي مآلاً وعاقبة.

أبرز مواقف المنافقين من القرآن الكريم

ابتليت هذه الأمة بفئة جبانة ضعيفة، تدس في الخفاء، وتطعن في الخلف، وهم المعروفون بالمنافقين، الذين أظهروا الإسلام خداعاً، وأبطنوا الكفر والعداوة والتحيز لفئة المشركين وصف غير المؤمنين من الكتابيين. وكان أبرز موقف للمنافقين تجاه القرآن الكريم: هو تجاوز القرآن والتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، وذلك مع الإصرار والعناد والمجاهرة بالفسق والضلال.

قال الله تعالى واصفاً أحوال هؤلاء المنافقين: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ

ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ[1] وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ٦٠-٦٣].

نزلت في رجل من المنافقين اسمه: بِشْر، كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: انطلق بنا إلى محمد ليفصل بيننا في هذه القضية، وقال المنافق: بل نأتي كعب بن الأشرف، وهو الذي سماه الله تعالى ﴿ٱلطَّـٰغُوتُ﴾ فأبى اليهودي إلا الاحتكام إلى محمد بن عبد الله ﷺ، فقضى رسول الله لليهودي، فلم يرض المنافق بهذا الحكم، وقال: ننطلق إلى عمر بن الخطاب، فجاء إليه، فلما علم بأن المنافق لم يرض بحكم رسول الله، أحضر سيفه، وضرب به المنافق حتى مات، وقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله، وهرب اليهودي، ونزلت هذه الآية، وقال جبريل عليه السلام: إن عمر فرق بين الحق والباطل، فسمي الفاروق.

لقد كشف الله في هذه الآيات موقف المنافقين الذين لا يطيعون الرسول، ولا يرضون بحكمه، بل يريدون حكم غيره كالكاهن أبي بَرْزة الأسلمي، أو الطاغية كعب بن الأشرف.

والمراد بالذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل على محمد هم المنافقون، والذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل من قبله هم اليهود، وقد أمر الفريقان بالكفر بالطاغوت وهو الكاهن أبو بَرْزة الأسلمي، أو كعب بن الأشرف، وهو الذي تراضى به

(١) الطاغية: الضال كعب بن الأشرف اليهودي .

الخصمان في الاحتكام إليه، وسمي ابن الأشرف طاغوتاً لإفراطه في الطغيان، وعداوة الرسول ﷺ والبعد عن الحق.

والآية تأنيب للصنفين المذكورين اللذين أمرا في القرآن الكريم والكتب السابقة أن يكفرا بالطاغوت ويجتنباه، لقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦/١٦] وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦].

إن الإيمان بالله ورسله يتنافى مع الاحتكام لغير كلام الله، أو الإيمان بالطاغوت، وإيثار حكمه على حكم الشرع الشريف، ولكن الشيطان بوسوسته وشروره يريد أن يضل المنافقين وأمثالهم ضلالاً بعيداً عن الحق والصواب.

وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول للاحتكام والقضاء، فهو الصراط المستقيم، رأيت المنافقين يصدّون عن محمد وعن دعوته صدوداً مؤكداً، ويعرضون عن قبول حكمه إعراضاً شديداً، بكل ما أوتوا من قوة وحجة، والدافع لهم إلى ذلك: هو اتباع شهواتهم ومآربهم الخاصة.

ثم أنذر القرآن هؤلاء المنافقين وحذرهم في حال تعرضهم لمصيبة من المصائب، وافتضاح أمرهم، وظهور حالهم، وانكشاف سترهم بما قدمته أيديهم، كيف يكون حالهم؟! هذا إنذار بالخطر الواقع بهم حتماً، وحينئذ يأتون إلى النبي ﷺ يحلفون بالله وهم الكاذبون، قائلين: ما أردنا بأعمالنا هذه إلا إحساناً في المعاملة، وتوفيقاً بين الخصوم بالصلح، ولكن حيلتهم مكشوفة، فهم الذين لعنهم الله، وعلم ما في قلوبهم من الكيد والحقد والحسد، وانتظار الشر بالمؤمنين، ويكون جزاؤهم الإعراض عنهم ومجافاتهم وترك الترحاب بهم، وتعنيفهم بالقول المؤثر البليغ في أنفسهم، لعلهم يتدبرون ويتفكرون في إصلاح شؤونهم، وتغيير مواقفهم.

وجوب طاعة الرسول ﷺ

أرسل الله الرسل والأنبياء لإسعاد البشرية، وإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، وتصحيح العقيدة، والإرشاد إلى الفضائل الكريمة والأخلاق القويمة، ولتحقيق الاستقرار والأمن وإشاعة المحبة والمودة بين الناس، وانتزاع الأحقاد، والقضاء على المنازعات والخصومات، ولئلا يحتج أحد يوم القيامة بأنه لم يكن يعلم الحق من الباطل، والخير من الشر، والعبادة الصحيحة المرضية لله تعالى من العبادة الباطلة أو الفاسدة، قال الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٥].

وإرسال الرسل من أجل هذه الغايات والمصالح الكبرى يتطلب وجوب طاعتهم فيما أمروا به، وترك كل ما نهوا عنه، علماً بأنهم لا يأمرون إلا بخير، ولا يمنعون إلا من شر، وإذا حدث خصام أو نزاع في حال حياة رسول، وجب الاحتكام إليه، وتنفيذ حكمه؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل، وبعد وفاة أي رسول يجب الاحتكام إلى الشرع الذي تركه والكتاب الذي علّمه للناس. لذا قال الله تعالى مبيناً وجوب طاعة النبي المصطفى ﷺ ووجوب الاحتكام إليه وإلى قرآنه وسنته من بعد وفاته: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ[1] ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا[2] مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ٦٤-٦٥].

نزلت هذه الآيات فيمن أراد التحاكم إلى الطاغوت: كعب بن الأشرف، ونزلت أيضاً في رجل خاصم الزبير بن العوام في السقي بماء الحرَّة (ماء السيل) فقال لهما

(١) فيما حدث فيه نزاع والتباس في الأمور. (٢) ضيقاً ومشقة.

رسول الله ﷺ فيما ثبت في الصحيحن: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك» فغضب ذلك الرجل وقال: أن كان ابن عمتك؟! فغضب رسول الله ﷺ، واستوعب للزبير حقه فقال: احبس يا زبير حت يبلغ الجَدْر[١]، ثم أرسل الماء، فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . .﴾ وكان هذا الرجل في الصحيح رجلاً من الأنصار من أهل بدر، وقيل: هو حاطب بن أبي بلتعة.

توجب الآية إطاعة الرسول في كل أمرٍ ونهي، فالله يخبرنا أنه لم يرسل رسولاً إلا وطاعته واجبة، بإذن الله وأمره، فالطاعة في الأصل لله، ثم لمن يأمر الله بطاعته، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن يعص الرسول فقد عصى الله.

وفي آية تالية ذكر الله تعالى ثواب الطائعين لله والرسول، وحرض على الطاعة، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٤/٦٩-٧٠]. فكل من يطع الله فيما أمر ونهى، وأطاع النبي فيما بشّر وأنذر، وبلّغ عن ربه، فأولئك يحشرون يوم القيامة مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسنت رفقة هؤلاء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

روى الطبراني وغيره: قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك، عرفتُ أنك إذا دخلت الجنة، رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة، حسبت ألا أراك، فلم يرد عليه المصطفى ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم . .﴾ وقال النبي له فيما رواه الطبراني والضياء: من أحب قوماً حشر معهم.

(٣) الجدر: معناه ما رفع حول الأرض المزروعة، فصار كالجدار.

ثم أرشد الله العصاة والمذنبين إذا أذنبوا بأن يبادروا في المجيء إلى رسول الله ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويبالغوا في التوبة وطلب المغفرة، حتى يستغفر لهم الرسول، فإن فعلوا ذلك تاب الله عليهم، إنه قابل التوبة واسع الرحمة، ونفى الله الإيمان الكامل عن أناس حتى يحكّموا الله ورسوله في كل أمورهم، وقضاياهم ومنازعاتهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم أي ضيق أو تضجر من حكم الله في القرآن والسنة، ويعلنوا الاستسلام والانقياد التام لأمر الله ورسوله، وحَصْر الاحتكام إلى القرآن والسنة يؤدي إلى وحدة الأقضية والأحكام في الأمة، وإلى إشاعة العدل، والتزام الحق والخير في كل مشكلة.

حب الوطن وامتثال أوامر الدين

قد يتعرض الإنسان في كل زمان إلى أزمة أو مشكلة داخلية، يضطر فيها إلى إجراء موازنة أو مقارنة أو مفاضلة بين أمرين خطيرين: هما حب الأوطان، وامتثال أوامر الدين الذي يدين به الإنسان ويعتقد بصحته، وهنا يحار ويضطرب، وقد فصل القرآن الكريم في هذه المسألة، وأخبر عن الحل الأمثل، ألا وهو طاعة الله والرسول، وإن كان أكثر الناس يؤثرون حب الوطن والبقاء في مواقعهم، على حساب أداء شعائر الدين، وتلك هي ا سارة والتفريط بما هو الأهم والأقدس.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٤/ ٦٦-٦٨].

سبب نزول هذه الآيات: أن اليهود قالوا: لما لم يرض منافق بحكم النبي ﷺ ما رأينا أسخف من هؤلاء، يؤمنون بمحمد ويتبعونه، ويطؤون عقبه، ثم لا يرضون

بحكمه، ونحن قد أُمِرنا بقتل أنفسنا، ففعلنا، وبلغ القتل فينا سبعين ألفاً، فقال ثابت ابن قيس: لو كتب ذلك علينا لفعلناه، فنزلت الآية معلمة حال أولئك المنافقين، وأنه لو كتب ذلك على الأمة، لم يفعلوه، وما كان يفعله إلا قليل مؤمنون محققون، كثابت ابن قيس وغيره، وقال النبي ﷺ: «ثابت بن قيس، وعمار، وابن مسعود من القليل».

والواقع أنه لو فرض على أمتنا قتل النفس من أجل التوبة لفعلوه، قال رجل مؤمن وهو أبو بكر الصديق حين نزول هذه الآية: لو أُمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إن من أمتي رجالاً، الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي» وقال عمار بن ياسر وابن مسعود وثابت بن قيس: لو أن الله أمرنا أن نقتل أنفسنا أو نخرج من ديارنا لفعلنا، فقال النبي ﷺ فيما رواه السيوطي في الدر المنثور والزبيدي في اتحافه: «الإيمان أثبت في قلوب الرجال من الجبال الرواسي».

إن هذه الآيات تتطلب إطاعة الأوامر الإلهية إيماناً راسخاً كالجبال الراسيات الثوابت، والطاعة: حمل النفس على فعل ما تكره، لا على ما تحب، وصحيح أن التزام الأوامر الإلهية وطاعة الرب إطاعة تامة لا يفعلها إلا فئة قليلة من الناس، ولكن لو فعل هؤلاء المأمور به، وتركوا ما يُنهون عنه، لكان لهم خيراً في الدنيا والآخرة، ودليلاً على الثبات على الحق، وسبباً لاستحقاق الثواب العظيم في الآخرة؛ لأن الجنة حُفَّت بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات. وفي قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ إشارة صريحة إلى تعلق النفوس البشرية ببلادها، وإلى أن حب الوطن متمكن في النفوس ومتعلقة به، لأن الله سبحانه جعل الخروج من الديار والأوطان معادلاً ومقارناً قتل النفس، فكلا الأمرين عزيز، ولا يفرط أغلب الناس بذرة من تراب الوطن مهما تعرضوا للمشاق والمتاعب والمضايقات.

لكن هناك شيئاً أسمى وأخلد وأعظم من حب الأوطان وقتل الأنفس ألا وهو المحافظة على العقيدة والإيمان، وامتثال أوامر الرحمن، فإذا حدث تصادم أو تعارض بين ما يقتضي البقاء في الوطن، وبين التخلي عن أوامر الله، والعجز عن إقامة وتطبيق شعائر الله، كان تقديم ما يؤدي للحفاظ على الشعائر وأمور الدين أولى وأوجب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٤/٩٧-٩٩]. وإذا كان الواجب هو الهجرة من الوطن إلا لعذر أمراً مقرراً في شرع الله، فمن باب أولى يجب على المقيمين في بلاد أجنبية أن يعودوا إلى أوطانهم بمجرد الانتهاء من أعمالهم، أو تحقيق أهم مصالحهم وغاياتهم، و بخاصة إذا كانت هناك مضايقة في تطبيق أحد أحكام شرعهم ودينهم.

قواعد القتال في الإسلام

القرآن الكريم كتاب إلهي خالد شامل لكل ما يحتاجه الناس في حياتهم الدينية والاجتماعية والعلاقات الدولية، فإذا آثر الآخرون السلم والصلح والمهادنة فنحن مع السلم والعهد، وإذا اضطر المسلمون إلى الدفاع عن وجودهم وكرامتهم وبلادهم وجب عليهم أن يكونوا قدوة عالية في الانضباط وحب النظام وطاعة القائد، والتضحية والتفاني في سبيل الله والقيم العليا، ليعيشوا أعزة كراماً وأحراراً مستقلين.

وقد علمنا القرآن الكريم أهم قواعد الحرب والقتال مثل أخذ الحذر والاحتراس من الأعداء، والاستعداد الدائم لملاقاتهم، وتعليم الجيل فنون الحرب والتدرب على

حمل السلاح، وبناء الجبهة الداخلية بناء قوياً، بحيث تتنظف من الجبناء والضعفاء والمنافقين الذين يمالئون العدو، ولا بد من التضحية بالنفس والنفيس والغالي والرخيص من أجل إحراز الغلبة والنصر، أو الظفر بالشهادة الخالدة الأثر في سبيل الله والوطن.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ(١) فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ(٢) أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ(٣) فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ(٤) ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ(٥) فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٤/ ٧١-٧٦].

حددت هذه الآيات قواعد القتال، وأوجبت أن تكون الحرب لغرض شريف، وأول هذه القواعد: التزام الحذر، ومراقبة تحركات العدو، والإعداد اللازم لملاقاته في أي وقت، فقد يباغتنا العدو في أي لحظة، ويستغل بعض الظروف والأزمات، وعندها يكون الاستعداد السابق مفوتاً لأغراضه الدنيئة، وملحقاً به الهزيمة المنكرة.

والمؤمن الصادق الإيمان لا يخشى الموت واقتحام المعارك؛ لأن أجل الإنسان لا يتقدم ساعة ولا يتأخر، لكن ينبغي مع الإقدام أخذ الحذر، لأن الحذر داخل في القدر.

---

(١) احذروا بحمل السلاح وغيره. (٢) أي جماعات متتالية. (٣) ليتثاقلن عن الجهاد. (٤) يبيعون.
(٥) الشيطان.

والنهوض للقتال وسياسة المعارك قد يكون جماعة إثر جماعة، فصائل وفرقاً وسرايا، و١قد يكون انقضاضاً جماعياً تتآزر وتتلاحم فيه كل القوى البشرية والآلية العسكرية.

وقد لا تخلو الجبهة الداخلية من بعض الجبناء والجواسيس ودعاة الهزيمة، فلا يشتركون في القتال، ويفرون من الزحف، ويمالئون الأعداء، ويُشِيعون الإشاعات الكاذبة المغرضة، ويثبِّطون الهمم والعزائم، وهؤلاء ينبغي الحذر منهم كالأعداء تماماً، وكشفهم، وتراهم إذا تعرض المجاهدون المخلصون لمصيبة في الحرب كالهزيمة أو القتل مثلاً أو تهديم بعض المنشآت والديار، قالوا: أنعم الله علينا حيث لم نكن مع المجاهدين محاربين، وإذا ظفر المجاهدون بنصر وتوفيق في التغلب على العدو، تطلعوا إلى الغنائم، مع أنهم كانوا متجهمين في وجه غيرهم، قاطعين الصلة الطيبة من ود وتعاون مع غيرهم، وكان الواجب عليهم المشاركة في السراء والضراء.

إن أولئك المقاتلين الصامدين أو المرابطين المستعدين للقتال في خطوط الجبهة ينتظرون إحدى الحسنيين: إما النصر والغلبة على الأعداء، وإما الشهادة في سبيل الله، وفي كلا الحالين سوف يؤتيهم الله أجراً حسناً، وثواباً عظيماً.

وللمجاهدين الشرف الأعظم إن دافعوا عن حرمات بلادهم، أو قاتلوا من أجل المضطهدين والمستضعفين الذين يتمنون الخروج من البلدة الظالم أهلها، ويستعينون بالله أن يكون لهم ولياً ناصراً، يتولى أمورهم ويحمي وجودهم وينصرهم على أعدائهم.

والقتال المشروع في الإسلام ليس قتال الاستعباد والاستعمار والتعدي والظلم والتوسع في الملكية وبسط النفوذ والسيطرة على أسواق العالم، وإنما هو قتال في سبيل الله ولإعلاء كلمة الحق وإنصاف الشعوب والأمم، فالذين آمنوا يقاتلون في سبيل

الله، وأما الذين كفروا فيقاتلون في سبيل الطاغوت الذي هو الظلم والجبروت والاستكبار والطغيان والتعدي على حقوق الأمم والجماعات، وهو قتال لإرضاء الشيطان، وكيد الشيطان وتدبيره كان ضعيفاً واهياً، وحزب الله هم الغالبون.

تفاوت الناس في تنفيذ الواجبات

يتفاوت الناس في القيام بالواجب بحسب استعداداتهم وطبائعهم، وبمقدار درجة تأثير الإيمان ومحبة الديار والأوطان في نفوسهم، كما أنهم يتفاوتون بسبب وجود ظاهرة الخوف وغريزة حب البقاء والحياة. ولكن المؤمن الواعي لمستقبله وبناء مجد أمته وتحقيق الدرجة العالية له عند ربه هو الذي يبادر إلى أداء الواجب، وصون الكرامة، والحفاظ على العزة ورفع منار البلاد. وقد أخبر القرآن الكريم عن أحوال المتقاعسين الخائفين، والمتخلفين عن واجب الجهاد ورد العدوان من المعتدين. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا[1] (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ[2] وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ [النساء: ٤/ ٧٧-٧٩].

نزلت في فئة من المؤمنين أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا نبي الله، كنا في عز، ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة؟ قال: إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم، فلما

---

(١) الفتيل: الخيط الدقيق الرقيق بين شقي النواة (البزرة) وهو مثل في البساطة والقلة. (٢) حصون محكمة.

حوّله الله إلى المدينة، أي بعد الهجرة، أمره بالقتال، فكفّوا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ..﴾ الآيات.

ومعنى الآيات: ألم تنظر إلى أولئك الذين قيل لهم في مكة في ابتداء الإسلام: التزموا السلم والسلام، وامنعوا أنفسكم عن حروب الجاهلية، وأتموا الصلاة كاملة الأركان، بخشوع واطمئنان، وأدوا الزكاة التي توجد التراحم بين الخَلْق، وتقوي الأمة والجماعة، ولكن حينما فرض عليهم القتال ضد المشركين بعد الهجرة، إذا فريق منهم، وهم المنافقون والضعفاء، يخافون لقاء المشركين كخوفهم من الله أو أشد خوفاً، ويفرون من الحرب. ويقولون معترضين: ربنا لِمَ فرضت علينا القتال؟ وهلا أخرت فرضية القتال إلى مدة أخرى، فإن في القتال سفك الدماء، وتيتيم الأولاد، وتأيم أو ترمل النساء.

أجابهم الله بقوله: قل لهم يا محمد: إن التمتع بالحياة الدنيا الذي حرصتم عليه قليل فانٍ زائل، والآخرة نعيم باق دائم، فهي خير وأبقى لمن أطاع الله وامتثل أوامره، واتقاه بترك ما يغضبه، فأنتم محاسبون على أعمالكم: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولا تظلمون أي شيء ولو كان قليلاً تافهاً. واعلموا أيها الناس جميعاً أن الموت أمر محتم لا مفر منه، وهو مقيد بأجل معلوم لا يزيد ولا ينقص، وأينما تكونوا في المنزل أو في السوق أو في ساحة القتال أو في قصور عالية مشيدة، يدرككم الموت، فملَك الموت لا تحجزه الحواجز، ولا يقبض الروح إلا بأجل معلوم، وكم من محارب نجا، وقاعد عن الحرب متخلف مات سريعاً.

ومن أعجب العجب قول جماعة المنافقين للنبي ﷺ: إذا أصابتك حسنة من غنيمة أو خصب أو رزق من ثمار وزروع وأولاد قالوا: هذه الحسنة من عند الله ومن فضله وإحسانه، لا بجهد أحد، وإن أصابتك سيئة من هزيمة أو قحط وجدب، ونقص في

الثمار والزروع وموت الأولاد قالوا: هذا بسبب شؤمك يا محمد، وبسب اتباعنا لك، فرد الله عليهم بأن كلاً من الحسنة والسيئة من عند الله، فالله هو الخالق والموجد لكل شيء، فما لعقول هؤلاء القوم لا يكادون يفهمون حديثاً أو خطاباً، والأمور مرتبطة بأسبابها، فما أصابك أيها الإنسان من حسنة فمن فضل الله ونعمته وتوفيقه لك للخير والنجاة، وما أصابك من سيئة فمن نفسك وتقصيرك وإهمالك، حيث لم تسلك سبيل العقل والحكمة.

وأما أنت يا محمد فمجرد رسول أرسلناك للناس، تبلغهم شرائع الله وأحكامه، وليس عليك إلا البلاغ، وإن كان إيجاد الشر والخير وخلقه من عند الله، وكفى بالله شاهداً على صدق رسالتك وأداء مهامك وواجباتك.

مرد طاعة الرسول وتدبر القرآن

الوحي الإلهي هو مصدر الشريعة الإسلامية جميعها، سواء كان الحكم أو التكليف الشرعي وارداً من الله تعالى مباشرة بنص صريح، أم من الرسول ﷺ، فحكم الله وحكم رسوله واحد، وطاعة الرسول طاعة لله تعالى، ووحدة المصدر أمر ضروري لوحدة العقيدة والتشريع والأحكام، وقد أرشد القرآن الكريم لهذا المبدأ العام، وأبان أن القرآن لمن تدبره وتأمل في جميع آياته يجدُه واحداً منسجماً في جميع أحكامه لا ينقض حكم حكماً، ولا يتناقض حكم مع حكم، فكل أحكام القرآن الكريم منسجمة مع بعضها، بالرغم من أن نزوله كان على مدى ثلاث وعشرين سنة.

قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ

حَفِيظًا(١) ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا(٢) مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ(٣) مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ٨٠-٨٢].

سبب نزول هذه الآيات ما روى مقاتل: أن النبي ﷺ كان يقول: «من أحبَّني فقد أحب الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله» فقال المنافقون: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل؟ لقد قارف الشرك، وقد نهى أن نعبد غير الله، ويريد أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى، فأنزل الله هذه الآية: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ . .﴾.

أخبر القرآن المجيد أن إطاعة الرسول ﷺ إطاعة لله تعالى، لأن الآمر والناهي في الواقع هو الله، والرسول مبلغ للأمر والنهي، فليست الطاعة له بالذات، وإنما هي لمن بلَّغ عنه، وهو الله عز وجل.

وأكدت آيات أخرى هذا المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٣-٥]. وكان الصحابة يسألون النبي عن الأمر، أوحي هو يا رسول الله، أم رأي؟ فإن كان وحياً أطاعوا بلا تردد، وإن كان رأياً بشرياً، أشاروا بخلافه بمقتضى الحكمة والمصلحة، وقد يرجع الرسول ﷺ إلى رأي الصحابة، كما حدث في غزوة بدر وأحد.

ومن تولى أو أعرض عن طاعة الرسول، فقد خاب وخسر، فلا تحزن عليهم أيها النبي، إن عليك إلا البلاغ، ولست عليهم بمسيطر، وما أرسلناك عليهم رقيباً موكلاً بتطويعهم.

---

(١) حافظاً ورقيباً . (٢) خرجوا . (٣) دبرت في الليل .

لكن هؤلاء المنافقون يقولون في الظاهر أمام الرسول: أمرك طاعة، أي مطاع، فإذا خرجوا من مكانك وتواروا عنك، دبروا ليلاً رأياً آخر فيما بينهم، غير ما أظهروا لك، والله يكتب ويسجل عليهم ما يبيتونه ليلاً، ويضمرونه سراً، فإنا مجازوهم، ولا تأبه بهم، واصفح عنهم وأعرض عن عتابهم، وتوكل على الله وفوض أمرك إليه، فإن الله كافيك شرهم، وكفى بالله ناصراً ومعيناً وموكلاً في الأمور، لمن توكل عليه وأناب إليه.

هؤلاء المنافقون الضالّون حمقى وقصيرو النظر وعُمْي عن حقيقة النبوة والرسالة، فهلا تفكروا وتأملوا في معاني القرآن وألفاظه البديعة، فهو الكفيل بتصحيح خطئهم ومنهجهم، والقرآن يخبرهم أنه لا اختلاف فيه، ولا اضطراب ولا تعارض، لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق، قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ٨٢]. ولو كان القرآن مختلقاً من عند غير الله، كما يزعم المشركون والمنافقون في سرهم، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، أي اضطراباً وتضاداً كثيراً، فهو سالم من الاختلاف، لكونه من عند الله تعالى.

وسلامة القرآن من الاختلاف تشمل لفظه ومعانيه، فألفاظه في مستوى بلاغي واحد، ومعانيه في العقيدة والشريعة والأخلاق والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تخدم وتقرر هدفاً واحداً، وتبني أمة واحدة، وترمي إلى تحقيق مقصد واحد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩]. وقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٣].

إشاعة الأخبار الكاذبة

إن الأمة المتماسكة في جبهتها الداخلية أمة قوية واعية منصورة، وأما الأمة المفككة التي لا رابطة تربط بين أفرادها أمة ضعيفة مهزومة. وقد حذر القرآن الكريم من تمزق الأمة وإشاعة الأخبار الكاذبة والدعايات المغرضة التي تفرق ولا تجمع، وتسيء ولا تحسن، وتخدم العدو وتحقق أهدافه الخبيثة، ولا بد حينئذ من وعي شامل، وقيادة حازمة، وتجاوز لمرحلة الضعف والانهزام الداخلي، وذلك بالإقدام على الجهاد، وتحريض المؤمنين على القتال، لاستئصال أنشطة المتخاذلين الجبناء الذين ينافقون ويكيدون لأمتهم في السر والخفاء.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ(١) وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ(٢) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ(٣) ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا(٤) ﴿٨٤﴾﴾ [النساء: ٤/ ٨٣-٨٤].

إن الآية الأولى في المنافقين، ونازلة في سرايا رسول الله ﷺ وبعوثه إلى الأعداء، فقد كان جماعة من المنافقين أو ضعفاء المؤمنين يشيعون الأخبار الكاذبة حول بعوث النبي، فإذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ من أمن وسلامة، أو خوف وخلل، أذاعوا به، وكانت إذاعتهم مفسدة للرأي العام. وهذا النوع من النشاط فيما يتعلق بالحروب تخريب وتهديم داخلي، سواء بقصد سيء كما يفعل المنافقون، أو بقصد حسن كما يفعل عامة الناس، لذا أرشدنا القرآن الكريم إلى أن الأمور التي تتعلق بالأمن أو الخوف يجب أن يترك الحديث فيها إلى قائد الأمة أو رئيس

---

(١) أفشوه وأشاعوه. (٢) يستخرجونه من النصوص. (٣) نكاية وبطش. (٤) أشد تعذيباً.

الدولة، أو لأهل الحل والعقد والخبرة والرأي في الأمة، فهم أدرى الناس بها وبالكلام فيها.

ذلك أن الأخبار الشائعة إما أن تكون صحيحة أو كاذبة، وترويج الكذب حرام مثل اختلاق الكذب تماماً، روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدِّث بكل ما سمع» وفي الصحيح: «من حدّث بحديث، وهو يرى أنه كذب، فهو أحد الكاذبين» . ونهى الرسول ﷺ أيضاً في حديث متفق عليه عن قيل وقال، أي الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس، من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين أو تحقق. وفي سنن أبي داود: «بئس مطية الرجل: زعموا».

إن التحدث بكل ما يسمع الإنسان، ونقل الأخبار من غير تثبت أمر ضار بالدولة والأمة، لذا أوجب القرآن ترك التحدث عن أحوال السلم والحرب إلى المسؤولين والمستشارين والخبراء، وعقبت الآية على ذلك بأنه لولا فضل الله عليكم ورحمته بكم أيها المؤمنون إذ هداكم لطاعة الله والرسول، ووفقكم للرجوع إلى المصدر العلمي الصحيح، لولا ذلك لاتبعتم وساوس الشيطان، وتورطتم في إشاعة ما يضر بالمصلحة العامة.

ثم حسم الله تعالى في الآية الثانية: ﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أمر الله باتخاذ القرار في الجهاد، وأمر نبيه بأن يقاتل في سبيل الله وامتثال أوامره، ولو بنفسه أو وحده إذا أراد الظفر بالأعداء، فلا تكلف أيها الرسول إلا بفعل نفسك فقط، وتطالب بتحريض المؤمنين على القتال، دون تعنيفهم ولا توبيخهم، وليس المقصود من الآية أن يفرض القتال على النبي ﷺ وحده دون الأمة، وإنما المراد أن يستشعر كل مجاهد أنه يجاهد ولو وحده كما قال النبي ﷺ: «والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي» . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقت الردة: «ولو خالفتني يميني لجاهدتها بشمالي».

وهذا التصميم من قائد الأمة ينعكس أثره الحماسي الطيب على الجيش، فيقدم ولا يحجم، ويتفانى ويضحي ويسجل أرفع البطولات، ولا ينهزم أو يتردد. وحينئذ يكون النصر الإلهي، كما جاء في الآية: عسى الله أن يرد عنك أيها النبي بأس (أي شدة وقوة) الذين كفروا وهم قريش، والله أشد بأساً أي قوة، وأشد تنكيلاً أي تعذيباً ومعاقبة، وهو قادر عليهم في الدنيا والآخرة، لكفرهم وجرأتهم على الحق، وقد تحقق ذلك فعلاً فقد كان النصر لنبي الله وصحبه حينما خرج في بدر الصغرى في السنة الثالثة بعد غزوة أحد، ومعه سبعون فقط، فلما سمع أبو سفيان قائد قريش بخروج النبي، رجع من الطريق، وعاد إلى مكة، وتحقق النصر للمؤمنين، وصرفه الله عن النبي ﷺ.

الشفاعة والتحية

يتكل الناس عادة بعضهم على بعض في كثير من الأمور، لا سيما في طلب الحوائج والوظائف أو في القيام بعمل من الأعمال أو التفكير في تحقيق مشروع من المشروعات، ويهملون في أغلب الأحوال طلب النصرة والعون من الله تعالى، والله سبحانه هو الذي ينبغي الاعتماد عليه في كل شيء، وتفويض جميع الأمور إليه بعد اتخاذ الأسباب العادية من جِدّ واجتهاد، وأداء عمل، وقيام بفعل، أما إنجاز النتائج وتحقيق الغايات فمتروك للفاعل المؤثر في الحياة وهو الله عز وجل.

وفي الاتكال على البشر ونسيان جانب الله: صنوف من المذلة والهوان أحياناً، والتماس الحلول بالوساطة أو الشفاعة غير المشروعة أحياناً أخرى، ذلك أن الشفاعة أو التوسط في أمر ما نوعان: شفاعة حسنة وشفاعة سيئة، والشفاعة الحسنة: ما كانت فيما استحسنه الشرع ورضيه، ولا ضرر فيه لآخرين، والشفاعة السيئة: ما كرهه الشرع أو حرمه ونهى عنه، وكان فيه ضرر للناس.

قال الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا(١) ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا(٢) ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٤/ ٨٥-٨٧].

الآية الأولى: ﴿مَّن يَشْفَعْ﴾ هي في شفاعات الناس-أي وسائطهم-بينهم في حوائجهم، فمن يشفع لينفع فله نصيب وثواب لشفاعته الحسنة، ومن يشفع ليضر، فله كفل، أي نصيب. فهي تتضمن التحريض على الشفاعة في أمور الخير، كبناء مسجد أو مشفى أو مدرسة أو جهاد في سبيل الله أو إحسان إلى المحتاجين أو إنقاذ الضعفاء والمساكين أو تحقيق مصلحة عامة للمجتمع في القرية أو المدينة أو الدولة. والشفاعات في هذا الاتجاه مطلوبة، لأنها تعاون على البر والتقوى، وإبعاد للناس عن الشر والضرر، وتحقيق البناء الاجتماعي المتين، قال النبي ﷺ عن الشفاعة في الخير فيما رواه أصحاب الكتب الستة إلا ابن ماجه: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء».

أما الشفاعة السيئة في الأمور الضارة، فقد نهى القرآن الكريم عنها، لضررها وإفسادها الضمائر والنفوس، والإساءة فيها للمصلحة العامة، ومن أمثلة الشفاعة السيئة: التوسط لإيذاء شخص، أو الاعتداء على عرضه أو ماله، أو السعي بالإفساد بين الناس، أو دفع الرشاوى لتضييع الحقوق أو الاستيلاء على مال الآخرين، أو محاولة تعطيل حد من حدود الله، أو تبرئة ظالم أو جان أو متهم باختلاس أو تزوير أو محاولة إهدار أو إنقاص حق من الحقوق المالية أو الأدبية، كتجاوزات الجيران بعضهم على بعض في الأرض أو السكن أو العمل، فكل هذه

---

(١) أي قديراً حفيظاً. (٢) أي محاسباً على العمل ومكافئاً له.

الأمثلة من أنواع الشفاعة السيئة، ومن شفع شفاعة سيئة فقد وقع في الإثم الكبير وعرّض نفسه لسخط الله تعالى.

ومن الطريف أن آية الشفاعة جاء بعدها آية التحية، والتحية نوع من الشفاعة الحسنة؛ لأنها تقرب الناس بعضهم من بعض، وتنشر المحبة وتقوي أواصر المودة، وتقتلع الأحقاد وسوء التفاهم، وتمنع التحية شراً كبيراً أو تآمراً عظيماً إذا توافرت النيات الحسنة، واستنارت القلوب بنور الإيمان الحق بالله ورسله وكتبه.

وآداب وواجبات التحية كثيرة منها أن الواجب ردها بأحسن منها أو بمثلها، فإذا حيّا الإنسان أخاه بقوله: مرحباً أو السلام عليكم أجابه بقوله: مرحباً وأهلاً وسهلاً، أو بقوله: (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته) وإحسان الرد يكون أيضاً بزيادة معنوية طيبة كريمة كالبشاشة وحسن الاستقبال وكرم الضيافة والسؤال عن الحال والأهل والعمل، والله سبحانه يحاسب على كل شيء ويمنح الفضل والرحمة والثواب على كل خير من التحية أو ردها، والضيافة والبشاشة وترك التجهم والعبوس في وجوه الآخرين، قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم وغيره: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم». وجاء في نهاية آية التحية بيان جزائها فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي يحاسبكم على كل شيء من التحية وغيرها.

ثم كانت الآية الثالثة متوّجة أعمال الناس بضرورة اللجوء إلى الله وحده، ومحددة لهم المقاصد الحسنة في الدنيا، ومحذرة لهم من حساب الآخرة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهذه الآية تقرر ركنين أساسيين للدين وهما: إثبات توحيد الله، فهو الذي يقصد بحق في كل عمل، وإثبات البعث والجزاء في الآخرة لحمل الناس على الاستعداد للقاء الله بالأعمال الصالحة، لأن الله يجازي كل عامل بعمله.

أوصاف المنافقين

النفاق مظهر من مظاهر الضعف والجبن والغدر وفقد الثقة بالذات، وهو دليل على اضطراب صاحبه وقلقه وحيرته، فلا يستقر على حال بسبب ضعف في إيمانه أو تفكيره، أو بسبب الحرص على مصالحه التي يريد تحقيق أكبر قدر نفعي منها على حساب الجماعات القوية في المجتمع.

والنفاق نوعان: نفاق شرعي: وهو إبطان الكفر وإظهار الإيمان، أو هو نفاق في الإسلام وادعائه. وأصحاب هذا النوع هم الذين كانوا مع النبي ﷺ في المدينة، ونزل في شأنهم آيات النفاق الكثيرة في سورة البقرة وسورة (المنافقون) بدليل أن النبي ﷺ لم يقتلهم أينما وجدوا، وكان زعيمهم عبد الله بن أبيّ يتردد بين المسلمين وبين اليهود والمشركين، وهؤلاء لا يجوز بحال اتخاذهم أولياء وأنصاراً حتى يهاجروا ويأتوا إلى المدينة مع المجتمع المسلم بعد أن خرجوا منها. إن هؤلاء المنافقين نافقوا في الولاء للإسلام، وادعوا أنهم مع المسلمين، والواقع أنهم عليهم، وهم شر خلق الله، ولا يجوز الاختلاف في الحكم عليهم، فهم كفار مردة. لذا عاتب الله المؤمنين وأنكر عليهم انقسامهم في شأن كفر المنافقين فئتين: فئة تزكيهم وتشهد لهم بالخير، وفئة تطعن بهم وتشهد لهم بالكفر، والحال أنهم كافرون، وقعوا في الضلال بسبب عصيانهم أوامر الرسول ومخالفتهم إياه، قال الله تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم [(١)] بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ [(٢)] فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [النساء: ٤/ ٨٨-٨٩].

---

(١) أي ردهم إلى الكفر والقتال. (٢) سبيل الله، أي طريق مرضاة الله، و هي طاعاته كلها، والهجرة في سبيل الله تتضمن الإيمان.

قال السدّي: نزلت هاتان الآيتان في قوم منافقين كانوا بالمدينة، فطلبوا الخروج عنها نفاقاً وكفراً، وقالوا: اجتويناها أي أصابتنا حمى المدينة ووخمها، وكرهنا المقام فيها، وإن كانوا في نعمة.

والمعنى: لا داعي للاختلاف في شأن هؤلاء المنافقين على فرقتين للحكم عليهم، فهم في الواقع قوم ضالون، اختاروا الضلال، فأبعدهم الله عن الحق والهدى، فلا يجوز اتخاذهم أنصاراً للمسلمين، ولا يعتمد عليهم حتى يهاجروا في سبيل الله هجرة خالصة لوجه الله، فإن أعرضوا وتولوا عن الهجرة، ولزموا مواضعهم، فيقتلون حيث وجدوا في أي مكان وزمان، في الحل أو في الحرم. وهم يتمنون الضلالة لسائر المسلمين، ليتساووا معهم ويقضوا على الإسلام كله، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم للمسلمين، وتماديهم في الضلال والكفر، هذا هو النوع الأول من النفاق وهو الأشهر والأخطر.

والنوع الثاني من النفاق: هو النفاق العرفي أو النفاق العملي: وهو أن يكون سر الإنسان خلاف علانيته. وهذا قد يصدر من بعض المسلمين، وهو الذي أخبر عنه الرسول ﷺ بقوله فيما رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

والمراد: أن صاحب كل خصلة من هذه الخصال منافق، وليس المراد أنه لا بد من اجتماع الخصال الثلاث في شخص واحد، فمن تخلّق بواحدة من هذه الخصال فهو شبيه بالمنافق، متخلق بأخلاقه، في حق من حدثه، أو وعده، أو ائتمنه. ولا يكون منافقاً من وقع مرة في الكذب، أو خلف الوعد، أو خيانة الأمانة، وإنما المنافق هو الذي يكون ديدنه وشأنه وخلقه الكذب أو نقض العهد والوعد، أو خيانة الأمانة، فهذا الشخص إذا حدث في كل شيء كذب فيه، وإن عاهد أو وعد، أخلف الوعد

ونقض العهد دائماً، وإن ائتمن على أمانات الناس، خان الأمانة، وتكرر منه ذلك.

وجاء في بعض الروايات: «آية المنافق أربع» بزيادة «وإذا عاهد غدر» . والواقع أن الأربع ترجع إلى ثلاث؛ لأن نقض العهد صورة أخرى من صور إخلاف الوعد، أو صورة من خيانة الأمانة.

والوقوع في النفاق يحدث كما جاء في رواية مسلم بزيادة: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» أي إن مدمن الكذب ومن تكرر منه خلف الوعد ونقض العهد، أو خيانة الأمانة يعد منافقاً، وإن عمل أعمال المسلمين من صوم وصلاة وغيرهما من العبادات.

وجزاء النفاق بنوعيه هو نار جهنم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٤٥-١٤٦].

احترام المعاهدات وحالة الحياد

لم نجد كالإسلام ديناً عظَّم العهود، وأوجب الوفاء بالمعاهدات والاتفاقات الخاصة والعامة، أو الدولية الخارجية، لأن احترام الكلمة دليل الرجولة والبأس والجزم، ولأن الوفاء بالعهد من الإيمان. فالمؤمن لا يخلف وعداً ولا ينقض عهداً، ولا يخل بشرط من شروط المعاهدات، أو يحاول التخلص من بنود المعاهدة بالتأويلات الباطلة، والتفسيرات المغلوطة، واتخاذ لون من ألوان المخادعة والمخاتلة.

ووقوف بعض الناس أو الدول موقف الحياد لون من ألوان العهود لأن الحياد يتطلب الاعتراف به من بقية الدول الأخرى، فمن أقر أو اعترف بحياد جماعة أو

دولة، فمعنى ذلك أنه رضي بهذه الحالة، وأصبح الحياد حالة داخلة في المواثيق والعهود الدولية.

ولقد حذر القرآن الكريم من نقض المعاهدات، وجعل الله ورسوله خُلْف الوعد ونقض العهد من مظاهر النفاق، وهذا يستدعي احترام أوضاع المعاهدين والمحايدين كما جاء في قوله تعالى حين يستثني من موالاة ومناصرة المنافقين طائفتين أو صنفين، وهو قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ[1] أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ[2] فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ٨٩-٩٠].

تضمنت هذه الآية استثناء فئتين من الناس، تُحترم عهودهم وأحوالهم وهما:

أولاً: الذين يتصلون -أي لهم صلة- بقوم معاهدين للمسلمين بينهم وبينهم ميثاق وعهد بعدم الاعتداء، من مهادنة أو صلح وغيره، فينضم هؤلاء إلى أولئك الأقوام المعاهَدين، فيأخذون حكم المعاهَدين، وإن لم يكونوا قد تعاهدوا صراحة مع المسلمين، قال أبو بكر الرازي: إذا عقد الإمام عهداً بينه وبين قوم من الكفار، فلا محالة يدخل فيه من كان في حيِّزهم ممن ينسب إليهم بالرحم أو الحلف أو الولاء، بعد أن يكونوا في حيِّزهم ومن أهل نصرتهم، وأما من كان من قوم آخرين، فإنه لا يدخل في العهد ما لم يشرِط، ومن شرط من أهل قبيلة أخرى دخوله في عهد المعاهدين، فهو داخل فيهم إذا عقد العهد على ذلك، كما دخلت بنو كنانة في عهد قريش.

(١) ضاقت. (٢) الاستسلام والرضا بالصلح.

والفئة الثانية: هم المحايدون الذين جاؤوكم أيها المسلمون، وقد ضاقت صدورهم بقتالكم، وأبغضوا أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم ولا عليكم، وأعلنوا الحياد، فلا يجوز قتالهم، حفاظاً على ما التزموه من الوقوف على الحياد والمسالمة أو الموادعة، دون عدوان ولا اعتداء، ودون انضمام إلى قوم معتدين.

وكل من هاتين الفئتين ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠]. وكان من رحمة الله وفضله أن سالم هؤلاء المسلمين، وكفوا عن إيذائهم ولو شاء الله لسلطهم علينا بأن يلهمهم القتال، فيقاتلوننا.

إن هؤلاء المجدّين في احترام السلم والموادعة أصحاب النية الحسنة، هم الذين نحترم مبدأ المسالمة معهم، أما غيرهم من أصحاب النوايا الخبيثة فينبغي الحذر منهم، لذا نبّه القرآن الكريم بعد الآية السابقة إلى الحذر من طائفة مخادعة، يريدون اللعب على الحبلين، وإظهار المودة للمسلمين وللمشركين معاً، فقال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ[1] أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ[2] فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ[3] وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء: ٤/ ٩١] أي حجة واضحة.

نزلت هذه الآية في قوم هم بنو أسد وغطفان كانوا يجيئون من مكة إلى النبي عليه الصلاة والسلام رياءً، يظهرون الإسلام، ثم يرجعون إلى قريش فيكفرون، ففضح الله تعالى هؤلاء، وأعلم أنهم مذبذبون معادون، يجوز قتلهم وقتالهم في كل مكان.

---

(١) أي إلى الشرك والضلال والاضطراب. (٢) أي وقعوا في حمأة الكفر والشرك. (٣) وجدتموهم.

جزاء القتل الخطأ والعمد

تتكرر حوادث القتل الخطأ كثيراً في الحياة العملية، وأكثرها في عصرنا الحاضر حوادث السير والمرور والسيارات وما يترتب عليها من دهس وتصادم ولا تخلو جميع حوادث القتل الخطأ من تقصير أو إهمال أو ترك التثبت والاحتياط في الأفعال، لذا لم يعف الشرع القاتل خطأ من المسؤولية وأوجب عليه الدية والكفارة بإعتاق رقبة مؤمنة عند القدرة، أو صيام شهرين متتابعين عند العجز عن الرقبة، كما هو الحاصل في عصرنا حيث حرم الرق في العالم. وكذلك من باب أولى حرم الشرع القتل العمد وأوجب على القاتل عمداً القصاص في الدنيا إلا أن يعفو ولي الدم قريب المقتول، والخلود في نار جهنم في الآخرة إلى أن يتوب.

قال الله تعالى مبيناً حكم القتل الخطأ والقتل العمد: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ٩٢-٩٣].

نزلت آية القتل الخطأ في شأن الحارث بن يزيد الذي خرج مهاجراً إلى النبي ﷺ، فلقيه عياش بن أبي ربيعة بالحرَّة -أرض ذات حجارة سوداء- فعلاه بالسيف، وهو يحسب أنه كافر، ثم جاء إلى النبي ﷺ فأخبره، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا..﴾ الآية.

ونزلت آية القتل العمد في رجل من الأنصار قتل أخا مِقْيس بن صُبابة، فأعطاه

النبي ﷺ الدية، فقبلها، ثم وثب على قاتل أخيه، فقتله، فقال النبي ﷺ : لا أؤمنه في حل ولا حرم، فقتل يوم الفتح-فتح مكة، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا..﴾.

ومعنى الآيتين: أن من شأن إيمان المؤمن بالله ورسوله أن يمنعه من ارتكاب الفواحش والمنكرات، ومن أخطرها الاعتداء على النفوس البشرية بغير حق، والمؤمن يشعر بحقوق الله عليه وبحقوق إخوانه المؤمنين، ويدرك أن سفك الدم الحرام جريمة عظمى، واعتداء خطير، وكأنه قتل للناس جميعاً. قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٥/ ٣٢].

لكن إذا حدث القتل خطأ، فعلى القاتل عقاب، لأن الخطأ ينشأ من التهاون وعدم الاعتناء والاحتياط، وعقاب القتل الخطأ شيئان: كفارة للقتل وهي عتق رقبة مؤمنة، لأنه أعدم نفساً فيحيي نفساً أخرى بالتحرير، والعقاب الثاني: تسليم دية إلى ورثة القتيل عوضاً عن دمه، وإطفاءً لنار الغيظ والحقد، وإزالةً للعداوة والبغضاء، والدية مئة من الإبل، أو ألف دينار ذهباً، أو عشرة آلاف درهم فضة، وهذا رقم مالي كبير في عصرنا الحاضر. فإن لم يجد الشخص الرقبة أو ثمنها كما في وقتنا الحاضر حيث اتفق العالم بمعاهدات دولية على إنهاء الرق وتحريمه، فحينئذ يجب على القاتل خطأ كما في حوادث السيارات صيام شهرين متتابعين، رعاية لحق الله تعالى أو الحق العام، والدية واجبة لكل مسلم أو غير مسلم معاهد، أما القتيل المؤمن المقيم مع الأعداء، فلا يعطى لورثته مال حتى لا يحاربونا به، ويكتفى بالكفارة وهي عتق رقبة مؤمنة أو صيام شهرين متتابعين، فإن كان القتيل مقيماً في دولة معاهدة كحال العلاقات الدولية الآن، فالواجب دية مسلَّمة إلى أهله، احتراماً للعهود والدماء، وكفارة.

أما جزاء القاتل عمداً فهو القصاص أو عقوبة الإعدام إذا لم يصدر عفو من ورثة القتيل، وله في الآخرة جهنم خالداً فيها، وغضب الله عليه، وطرده من رحمته، وأعدَّ له عذاباً عظيماً شديداً إلا أن يتوب، فالمقرر عند أكثر العلماء أن التوبة مقبولة من قاتل النفس، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ٤/١١٦] ، وثبت أن الله تعالى قبل توبة القاتل مئة نفس كما في الصحيحين.

التثبت في الأحكام ونقل الأخبار

المسلم في كل أحكامه وتقديراته، وظنونه وأحواله، وسماعه الأخبار كأنه قاضٍ عدل مهيب، لا يتسرع في الاتهام ولا يصدق كل خبر، ويتأنى في فهم الأشياء بعقل واع وبصيرة نافذة، سواء في معاملته مع الأعداء في الحرب، أو في معاملة إخوانه في داخل البلد المسلم. وقد نبّه القرآن إلى ضرورة الحذر الشديد في هاتين الحالتين، ليكون المؤمن محل ثقة واحترام وتقدير وإعظام. قال الله تعالى مبيناً ضرورة التثبت في الحكم على أشخاص العدو إيماناً وكفراً، سلماً وحرباً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ(١) فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ(٢) لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا(٣) فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: ٤/ ٩٤].

قال ابن عباس مبينا سبب نزول هذه الآية -فيما رواه البخاري والترمذي والحاكم -: مرّ رجل من بني سُليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنماً له،

---

(١) سافرتم . (٢) الاستسلام أو تحية السلام والإسلام . (٣) الغنيمة .

فسلَّم عليهم، فقالوا: ما سلَّم علينا إلا ليتعوذ منا -أي يحتمي ويتحصن- فعمدوا إليه، فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ..﴾ وفي رواية أخرى عند الثعلبي: أن أسامة بن زيد أو المقداد بن الأسود قتل رجلاً من الأعداء بعد أن أعلن إسلامه، فقال له النبي ﷺ: «كيف لك بلا إله إلا الله غداً» وأنزل الله هذه الآية.

والمعنى: يا أيها الذين صدَّقُوا بالله ورسوله إذا انطلقتم في الأرض للجهاد، فتمهلوا في الحكم على الأشخاص، أهم مسالمون أم محاربون، مؤمنون أم كافرون، ولا تتعجلوا بقتل أحد، ولا تقولوا لمن استسلم ولم يقاتلكم وأظهر أنه مسلم: إنك لست مؤمناً، فأنتم مأمورون بالعمل بالظاهر، والله أعلم بالسرائر.

وكأنكم باستعجال القتل تريدون الحصول على عرض الدنيا الفاني من المال أو الغنيمة، فعند الله أرزاق كثيرة ونعم وفيرة لا تحصى، وعنده خزائن السماوات والأرض، فلا يليق بكم أن تفعلوا فعلاً جنائياً أو عدوانياً، وتتسرعوا في الحكم على ما في قلوب الناس، وتتهموهم بالمصانعة والمداراة والخوف من السيف، واذكروا تاريخكم في الماضي، آمنتم سراً، ثم أظهرتم الإسلام علناً، فصرتم في عداد المؤمنين، ومنَّ الله عليكم بالأمان والاطمئنان، إن الله بما تعملون خبير بصير، يجازيكم على أعمالكم وأحوالكم كلها.

وكذلك الأمر في العلاقات الاجتماعية الداخلية يجب على المسلم التثبت في الحكم على الأقوال والأخبار، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات: ٤٩/٦].

سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق

مصدِّقاً[١]، فرجع من بعض الطريق ظاناً أنهم خرجوا للاعتداء عليه، وقال للنبي ﷺ: إنهم قد منعوا الصدقة، وطردوني وارتدوا، فغضب النبي ﷺ، وهمَّ بغزوهم، وبعث خالد بن الوليد إليهم، فورد وفدهم للنبي منكرين لما حدث، وأظهروا حسن نواياهم واستعدادهم لإيتاء الزكاة.

ومعنى الآية: أيها المؤمنون بالله ورسوله إن أتاكم فاجر لا يبالي بالكذب، بخبر من الأخبار فيه إضرار بأحد، فتثبتوا في تصديق الخبر، وتبصروا في الأمر الواقع والخبر الوارد، حتى تتضح حقيقته وتظهر، لئلا تمسوا قوماً بضرر لا يستحقونه، فتصبحوا نادمين مغتمين على ما فعلتم بهم من إصابتهم بالخطأ، وتعجيل اتهامهم بالسوء. أخرج ابن جرير الطبري وعبد بن حميد عن قتادة: أن رسول الله ﷺ قال حينما نزلت هذه الآية: «التثبت من الله، والعجلة من الشيطان». والآية تعد قانوناً عاماً لجميع الناس تطالبهم بضرورة التبين قبل قبول الكلام المنقول والخبر المروي، تحسيناً للظن، أو بعداً عن إساءة الظن بأحد من الناس، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

درجات الناس في المشاركة بالجهاد

الإسلام دين الواقع العملي والظروف الإنسانية المواتية، فلا يكلف الناس بتكاليف لا يطيقونها أو لا يتحملونها، فهو أي الإسلام إن فرض الجهاد على الرجال القادرين على حمل السلاح، يستثني أصحاب الأعذار وأولي الضرر، ولا يعقل أن يكون هناك مساواة بين المجاهدين البواسل ذوي الجرأة والإقدام، وبين المتقاعسين

(١) أي جابي الزكاة أو الصدقات .

المتخلفين عن القيام بالواجب والمشاركة بالجهاد وخوض المعارك من غير عذر شرعي.

قال الله تعالى مقرراً هذا المبدأ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ[1] وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٤/ ٩٥-٩٦].

روى البخاري وغيره أن الآية لما نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جاء عبد الله بن أم مكتوم -وكان أعمى- حين سمعها، فقال: يا رسول الله، هل من رخصة، فإني ضرير البصر؟ فنزلت عند ذلك ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ فاستدعى النبي ﷺ أحد كتاب الوحي، فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف، فقال: اكتب ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾.

والآية تقرر أنه لا مساواة في الشرع والطبع والعقل بين المؤمنين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم وبين القاعدين بأنفسهم، المتكاسلين حرصاً على الراحة والنعيم والبعد عن المخاطر والتضحيات. وقوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ هي الغاية في كمال الجهاد، لقد فضل الله المجاهدين على القاعدين بالأجر العظيم، ومنحهم الدرجات العالية في الجنان، والظفر بالمغفرة الكبيرة الواسعة من الله تعالى بسبب ما قدموا من جهود وتحملوا من أعباء ومتاعب، وتعرضوا للظمأ والعطش، والجوع في سبيل الله، وأغاظوا الأعداء، ودافعوا عن البلاد والحرمات، وقمعوا العدوان، وأحبطوا مكائد المعتدين، وردوا كيدهم في نحورهم، وحققوا لواء العزة والمجد للمؤمنين وديارهم فلا غرابة أن يستحقوا الرضوان الإلهي، وتعمهم نفحات الرحمة والفضل الواسع.

(١) أصحاب الأعذار المانعة من الجهاد.

ومن فضل الله وكرمه أنه استثنى أصحاب الأعذار من تكليف الجهاد، وهم أولو الضرر، أي المرض ونحوه، كالعُميان والعُرْجان والزمنى (المصابين بمرض مزمن) وغيرهم من ذوي العاهات والأعذار المبيحة لترك الجهاد، فهؤلاء لا لوم عليهم ولا عتاب لهم، لتوافر نياتهم الطيبة بالجهاد عند القدرة، روى البخاري وأحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال عند دخوله المدينة بعد غزوة تبوك: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟! قال: نعم وهم بالمدينة، حبسهم العذر» فهذا تزكية من النبي ﷺ وقبول لعذر هؤلاء المعذورين.

وحينئذ يكون القعود عن الجهاد مذموماً حيث لا عذر يمنع منه، ويكون للمجاهدين المخلصين في جهادهم منازل رفيعة في غرف الجنان العاليات، يصعب في تقدير الناس في الدنيا حصرها وعدها، كما قال الله تعالى: ﴿أَنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢١].

والتفاضل في الدرجات مبني على مدى قوة الإيمان، وإيثار رضا الله على الراحة والنعيم، وترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من رمى بسهم فله أجره درجة، فقال رجل: يا رسول الله، وما الدرجة؟ فقال: أما إنها ليست بعتبة أمك، ما بين الدرجتين مئة عام».

فضيلة الهجرة في سبيل الله

المسلم في هذا العالم مطالب بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وإظهار شعائر الله والاعتزاز بمظاهر الإسلام، فإذا لم يتمكن المسلم من أداء شعائر الله في بلد من البلدان، كأن تمنع حرية التدين في بعض الأقطار، فيجب عليه الهجرة من ذلك البلد، وطلب الإقامة أو الاستيطان في بلد آخر يسمحُ له بذلك.

قال الله تعالى مبيناً وجوب الهجرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا(١) كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ٩٧-١٠٠].

روى البخاري عن ابن عباس أن أناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثِّرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، فيأتي السهم يُرمى به، فيصيب أحدهم فيقتلُه، أو يضرب فيُقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

وروى ابن أبي حاتم وأبو يعلى بسند جيد عن ابن عباس قال: خرج ضمرة بن جندب من بيته مهاجراً، فقال لأهله: احملوني، فأخرجوني من أرض المشركين إلى رسول الله ﷺ ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي ﷺ، فنزل الوحي: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ . . ﴾.

من المعلوم أن الهجرة من مكة في مبدأ الإسلام قبل الفتح كانت واجبة، فهاجر

(١) أي مكاناً للهجرة ومأوى يجد فيه الخير .

بعض المسلمين الهجرة الأولى إلى الحبشة، وهاجر آخرون مع النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، لكن بعض المسلمين قعد في مكة حُبّاً في وطنه، وإيثاراً للدنيا وعَرَضها، ومنهم من كان ضعيفاً لا يقدر على الهجرة لمرض أو كبر سن أو جهل بالطريق، ومنهم من هاجر ومات في الطريق، فنزلت هذه الآيات تبين حكم هؤلاء جميعاً.

فالصنف الأول: الذين ماتوا في ديار الشرك في مكة، قبضت الملائكة أرواحهم حالة كونهم ظالمي أنفسهم برضاهم الإقامة في دار الشرك، وإيثارهم الدنيا وعرضها الفاني على نصرة الحق وتأييد رسول الله، وقبولهم الظلم والتضييق عليهم وعدم السماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية، هؤلاء قالت لهم الملائكة توبيخاً وتأنيباً عند قبض أرواحهم: في أي شيء كنتم من أمور دينكم؟ ولماذا تركتم الهجرة لنصرة الإسلام وأنتم قادرون عليها؟ قالوا معتذرين بعذر غير حقيقي: كنا مستضعفين ومستذلين في مكة، فلم نتمكن من إقامة الدين وواجباته، فردت عليهم الملائكة: ألم تكن أرض الله التي يمكنكم إظهار الدين فيها واسعة فتهاجروا؟! نعم هي واسعة، ولكنكم رضيتم بالذل، وآثرتم الدنيا على نصرة الحق، فأولئك مأواهم جهنم، وبئس المصير مصيرهم.

وهذا يدلنا على أن المسلم يجب عليه أن يفر بدينه إلى حيث يتمكن من إقامة حدود دينه وواجباته حسبما أمر الله، فمن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مأوى مناسباً، فيه الخير والسعة والرزق والعزة، وفي هذا ترغيب في الهجرة.

والصنف الثاني: وهم المستضعفون حقيقة وهم الذين لهم عذر حقيقي كالشيوخ الضعفاء والعجزة من النساء والولدان الصغار المراهقين، هؤلاء يغفر الله لهم، ولا يؤاخذهم بالإقامة في دار الشرك وترك الهجرة وهذا يدلنا على أن ترك الهجرة ذنب كبير.

والصنف الثالث: هم الذين عزموا على الهجرة إلى الله ورسوله، ولإعزاز دينه وأهله، لكنهم ماتوا في أثناء الطريق كضمرة بن جُندب، قبل الوصول إلى المدينة، فقد ثبت أجرهم على الله، والله غفور للطائعين، رحيم بهم، والله هو الذي أوجب الهجرة، وهو الذي يغفر الذنوب ويرحم العباد تفضلاً وإحساناً إذا كانوا ممن صدق النية، وشحذ العزيمة، وأخلص القصد لله جل جلاله، قال النبي ﷺ فيما أخرجه الصحيحان: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

صلاة القصر في السفر وصلاة الخوف

لا يجوز بحال من الأحوال ترك الصلاة المفروضة، ما دام الإنسان المسلم واعياً عاقلاً، ولا تسقط عنه الصلاة إطلاقاً حتى في حال المرض إلا أن يفقد الشخص الوعي ويصبح مغمى عليه، أو مغشياً لا يدرك شيئاً.

ولكن يسَّر الإسلام في كيفية أداء الصلاة الفريضة في أثناء السفر أو الخوف، كالاشتراك في معركة حربية، ففي السفر يجوز بل يستحب أو يجب قصر الصلاة الرباعية وهي الظهر والعصر والعشاء، فتصلى هذه الصلاة ركعتين فقط بدلاً من أربع ركعات تخفيفاً وتيسيراً على المسافر، ودفعاً للحرج والمشقة التي يتعرض لها المسافر في غالب الأوقات، ولا يكون عنده متسع من الوقت، وكذلك المحارب في أثناء المعركة يؤدي الصلاة الرباعية مقصورة، بل وفي جماعة مع الإمام القائد، على أن يُقسم الجنود فئتين، تصلي كل فئة ركعة واحدة مع الإمام، وتُكمل وحدها الركعة الأخرى.

قال الله تعالى مبيناً مشروعية قصر الصلاة الرباعية وكيفية صلاة الخوف: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ[(١)] فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ[(٢)] أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ[(٣)] الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ[(٤)] فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ[(٥)] وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ[(٦)] عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا[(٧)] ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٠١-١٠٣].

روى ابن جرير الطبري عن علي رضي الله عنه قال: سأل قومُ بني النجار رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول (عام) غزا النبي ﷺ فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في أثرها -أي صلاة أخرى وهي العصر- فأنزل الله بين الصلاتين كيفية صلاة الخوف: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

فالآية الأولى تدل على مشروعية صلاة القصر، أي قصر الصلاة الرباعية لا

---

(١) أي سافرتم فيها. (٢) أي إثم وحرج. (٣) يؤذوكم. (٤) أي أيها الرسول. (٥) يحذروا العدو.
(٦) تَسْهون. (٧) مفروضة في أوقات محددة.

الثنائية ولا الثلاثية، وذلك في أثناء السفر إذا سافر الإنسان عن بلده إلى بلدة أخرى تبعد عنها حوالي (٨٦ كم) أو (٨١ كم)، وحينئذ يجوز للمسافر بمجرد خروجه عن بلده، ومجاوزته آخر حدود العمران أن يصلي الصلاة الرباعية ركعتين فقط، ترخيصاً من الله تعالى، وتيسيراً على المسافر، ودفعاً للحرج والمشقة عنه، والسفر يبيح القصر سواء أكان المسافر آمناً أم خائفاً، وأما قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فهو كما يقول العلماء: قيد لبيان الواقع، أي إنه تصوير للحالة الواقعية التي كان عليها المسلمون في الماضي، في ظرف معركة من المعارك. وعلى المصلي أن يكون حذراً من مباغتة الأعداء أثناء الصلاة والسفر والإقامة.

وأما صلاة الخوف جماعة فتكون بأن يقسم الإمام القائد الجيش طائفتين، طائفة تصلي ركعة مع الإمام ثم تكمل الصلاة وحدها، مع حملها السلاح أثناء الصلاة للدفاع والرد على الأعداء إن استغلوا هذا الظرف، وباغتوا المصلين ثم تأتي الطائفة الأخرى التي كانت حارسة فتصلي مع الإمام الذي ينتظرها في أول الركعة الثانية في القيام، فتصلي معه ركعة، وينتظرها الإمام في التشهد الأخير حتى تصلي الركعة الثانية لها، ثم يسلم الإمام مع هذه الطائفة التي يجب عليها أيضاً التنبه والحذر وحمل السلاح إلا إذا كان هناك عذر كمطر أو مرض، فلا يحمل السلاح في أثناء الصلاة.

ثم نبه القرآن إلى ضرورة مداومة ذكر الله بالحمد والتكبير والدعاء بعد أداء صلاة الخوف، لتذكر نعمة الله وتقوية القلوب للصمود في وجه الأعداء، ولتحقيق الانتصار الحاسم، لأن الصلاة مفروضة على المسلمين في كل وقت وفي كل زمان ومكان بأوقات معلومة، فلا تترك حتى في حالة الحرب وساعة الخوف.

الغاية من القتال

ليس تحقيق العزة والمنعة والاستقلال أمراً يحدث بالصدفة أو المسالمة، وإنما لا بد من القيام بتضحيات نادرة، وبطولات خارقة، وحماية للحقوق وتوفير الهيبة بخوض معارك القتال، ورد عدوان المعتدين. وهذه حقيقة تاريخية ثابتة وهي أن نفوذ الكلمة للقوة والأقوياء، وأن الدمار والهلاك والهزيمة للضعفاء والجبناء.

لذا حرَّض القرآن الكريم على قتال الأعداء عند وجود البغي والاعتداء، أو محاولة الانتقاص من كرامة الأمة، أو سلب بعض الحقوق، أو التغلب على بعض أجزاء البلاد، وتراب الوطن الغالي. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا(1) فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٠٤].

نزلت هذه الآية في أعقاب معركة أحد، حيث أمر النبي ﷺ بالخروج في آثار المشركين، وكان بالمسلمين جراحات، وقد أمر ألا يخرج معه إلا من كان في الوقعة، أي مشتركاً في غزوة أحد.

يرشدنا الله تعالى إلى أنه لا يصح أن نضعف في قتال الأعداء ولا نتواكل، ونستعد للقتال دائماً بعد الفراغ من الصلاة المفروضة، ولا نتردد في خوض المعارك الفاصلة مع الأعداء الذين ناصبونا العداء، وجاهروا بالبغضاء، وعلينا أن نطاردهم ونلاحقهم ونطلب البحث عن مخابئهم، وتدمير آلياتهم العسكرية وتخريب حصونهم ومعاقلهم.

ولا يصح بحال أن نتذرع أو نحتج بما يصيب بعضنا من حوادث القتل وآلام

---

(١) لا تضعفوا .

الجراح، فذلك أمر مشترك بين كل فريقين متحاربين، لأنهم بشر مثلنا يتألمون كما نتألم، ويصبرون على الشدائد والقتال كما نصبر، فما لنا لا نصبر ونحن أولى وأحق بالصبر والثبات وترك الفرار؟!

ولكن يظل الفرق واضحاً بين المؤمنين وغير المؤمنين في تحديد الغاية من القتال، وهي أن الأعداء يقاتلون على الباطل، والباطل زائل، ونحن نقاتل على الحق، والحق دائم خالد، والله وعدنا بالنصر، ووعد الأعداء بالهزيمة والغلبة، ولا ثواب ولا أجر لقتالهم، وقتلاهم في النار، ولنا الثواب العظيم في الآخرة، وقتلانا في الجنة، وليس لهم ملجأ يستمدون منه العون والنصر إلا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، أو تحقيق الشعارات الباطلة التي ليس لها مستند شرعي صحيح، ونحن بعبادتنا الله وحده لا شريك له نلجأ إليه في طلب النصر والرحمة؛ لأن الله هو القوي القاهر، ولأن النصر من عند الله وحده.

ونحن في قتالنا ننتظر إحدى الحسنيين: إما النصر، وإما الشهادة، وكان الله عليماً بأحوالنا ونياتنا، حكيماً فيما يأمرنا به، وينهانا عنه.

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا[1] وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ[2] إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ[3] وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٥١-٥٢].

وكل هذه المرغبات برهان بيِّن، وحجة قاطعة على أنه يجب أن تتقوى نفوس المؤمنين، وتخوض ميادين المعارك الحربية والقتال بجرأة وشجاعة، وبإقدام لا يعرف التردد والإحجام.

---

(١) أي ناصرنا. (٢) أي تنتظرون. (٣) أي النصر أو الشهادة والجنة.

وقد بشَّر القرآن الكريم شهداء أمتنا بالجنة والرضوان في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٩-١٧١].

وروى أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن معاذ ابن جبل رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من قاتل في سبيل الله فُواق ناقة[١]، فقد وجبت له الجنة، ومن سأل الله القتل من نفسه صادقاً[٢] ثم مات، أو قتل، فإن له أجر شهيد، ومن جُرح جُرْحاً في سبيل الله، أو نُكب نكبة، فإنها تجيء يوم القيامة كأغزرِ[٣] ما كانت، لونُها لون الزعفران، وريحها ريح المسك».

المساواة أمام القضاء

لا يعرف الإسلام في أحكامه وقضائه ومحاكمه التفرقة بين مسلم وغير مسلم، فالكل أمام الحق والعدل سواء، ولا محاباة لمسلم على حساب غير المسلم في أي مظهر أو وضع من مظاهر القضاء وأوضاعه.

والدليل القاطع على هذا: ما نزل في القرآن الكريم في شأن يهودي أراد المنافقون أن يلصقوا به تهمة سرقة ارتكبها بعضهم، وهي أن طُعمة بن أبيرق من بني ظَفَر، سرق درعاً من جار له في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه، وخبأها عند زيد بن السمين من اليهود، فالتمسوا الدرع عند طعمة، فلم يجدوها وحلف

(١) هو مابين رفع يدك عن الضرع حال الحلب ووضعها. (٢) أي مخلصاً لربه نيته. (٣) أي أوفر وأكثر.

بالله ما أخذها، فساروا في أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي، فأخذوها، فقال: دفعها إلي طعمة، -وكان من المنافقين- وشهد له أي لليهودي ناس من اليهود بذلك، ولكن طعمة أنكر ذلك، فقالت بنو ظَفَر: انطلقوا بنا إلى رسول الله، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا إن لم تفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودي، فهمّ النبي ﷺ أن يفعل، وأن يعاقب اليهودي، فنزلت آيات تسع في هذه الحادثة، وأما طعمة فهرب إلى مكة وارتد، وقد سقط عليه حائط في سرقة، فمات.

هذه الآيات من سورة النساء هي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا[1] ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ[2] أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ[3] مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا[4] ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا[5] وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴿

[النساء: ٤/ ١٠٥-١١٣].

تشتمل هذه الآيات على موضوعات أربعة: أولها تقرير مبدأ الحق والعدل

---

(١) مخاصماً ومدافعاً عنهم. (٢) يخونونها بالعصيان. (٣) يدبرون بليل. (٤) محامياً نائباً عنهم يدافع عن مصالحهم. (٥) أي كذباً يبهت الآخر ويحيره، لأنه لا علم له به.

المطلق، لأن العدل لا يتجزأ، ولا ينحاز القاضي المؤمن الحر النزيه إلى أحد الخصمين، حتى ولو كان متفقاً معه في الدين، أو قريباً أو أباً أو ابناً أو زوجاً، وفي ثنايا تقرير مبدأ العدل هذا عتاب للنبي ﷺ على ما همّ عليه وتصحيح لموقفه، وتأنيب ما على قبول ما رفع إليه في أمر بني أبيرق بسرعة دون تثبت. وهذا يقتضي طلب الاستغفار منه على ما همّ عليه، وتحذيره من الجدال أو الدفاع عن القوم من بني أبيرق الذين يخونون أنفسهم بالمعاصي. والله لا يخفى عليه شيء من نواياهم وتآمرهم وتبييتهم ما لا يرضى الله من القول الباطل، واتهام الأبرياء لرفع التهمة عنهم.

والموضوع الثاني: تنديد وتوبيخ للذين يدافعون عن غيرهم بالباطل وهم أقارب طعمة، فإذا جادلوا عن المتهم بغير حق في الدنيا، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة، ومن يجرؤ أن يكون يوم القيامة محامياً وكيلاً أمام الله الذي يعلم الحقائق ولا تنطلي عليه الحيل والأكاذيب.

والموضوع الثالث: ترغيب وترهيب: ترغيب المسيء أو الظالم بالعدول عن إساءته وطلب المغفرة من الله على تورطه بالخطايا والذنوب، فإن وبال الذم أو الإثم على نفسه، وترهيب من محاولة إلصاق التهمة بالأبرياء، فذلك أعظم البهتان (أي الكذب) وأوضح الإثم والمعصية.

والموضوع الرابع: بيان واضح لعصمة النبي ﷺ من الوقوع في الخطأ القولي والعملي فضلاً من الله ورحمة، ومنع أذى الأشرار الذين يحاولون إضلاله وتلبيس الحق بالباطل وإخفاءه عليه، فالله محبط تآمرهم وراد كيدهم وكاشف حيلهم، والواقع أنهم لا يضرون إلا أنفسهم، فإن نبي الله معصوم من كل مكروه، أنزل الله عليه القرآن والحكمة: وهي فقه مقاصد الدين وأسراره، وعلّمه ما لم يكن يعلم، وفضل الله عليه عظيم جداً، لأنه رسول للناس كافة وخاتم الأنبياء والمرسلين،

وشاهد على أمته بالتبليغ، وجعل أمته وسطاً خياراً عدولاً لا يحكمون إلا بالحق والعدل.

أنواع الحديث السرِّي

ينبغي أن يكون ظاهر المسلم وباطنه سواء، فلا يتكلم بشيء في الظاهر، ويضمر خلافه في القلب والباطن، وإلا كان منافقاً مخادعاً، ويلاحظ أن كثيراً من الناس يحلو لهم أن يكون أغلب كلامهم مع الآخرين سراً لا جهراً، وخفاء لا علناً، وهذا اللون من الحديث السري منه ما هو خير، ومنه ما هو شر، والخير: هو كل ما يحقق النفع العام للناس، والشر: هو كل حديث فيه إضمار السوء والأذى والضرر بالنفس أو بالآخرين.

وقد صنف القرآن الكريم ألوان الأحاديث السرية، فقال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ(١) إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ(٢) ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ(٣) وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ(٤) وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ١١٤-١١٥].

نزلت هذه الآيات في تناجي أهل طعمة بن أبيرق الذي سرق درعاً، فقاموا يتناجون ليلاً ويتسارّون الحديث بالفساد وتعاونهم على الشر وإلصاق تهمة السرقة بيهودي. وروي أن طعمة لما حكم عليه النبي ﷺ بقطع يده بسبب السرقة، هرب إلى مكة، وارتد عن الإسلام، ومات مشركاً، فنزلت آية ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ . .﴾.

---

(١) أي مسارّتهم بالحديث، فالنجوى: المسارة . (٢) أي من يعادي ويخالف . (٣) نتركه وما اختاره لنفسه . (٤) ندخله فيها .

أبان الله تعالى أن كل حديث سري أو تدبير خفي أو مناجاة لا خير فيه إلا ما كان بقصد التعاون على الخير والتصدق على المحتاجين، أو الأمر بالمعروف أو الإصلاح بين الناس؛ لأن حديث السر يغلب فيه ارتكاب الإثم وإضمار السوء. أما التناجي في الأمور العادية كالزراعة والصناعة والتجارة ونحوها من المنافع والمصالح فلا بأس به، ولا يوصف ذلك بالشر، ولا ينهى عنه الشرع.

والخيرية إنما تكون في هذه الأشياء الثلاثة، في السر دون الجهر، لأن تحقيق جدواها أو منفعتها إنما يكون في حال السر، وهذه الأشياء هي كما تقدم بذل الصدقات للفقراء والمحتاجين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس لإزالة الخصومة وتقريب وجهات النظر وإزالة سوء التفاهم. ومن يفعل أحد هذه الأشياء بقصد طلب الرضا من الله والإخلاص في العمل فسوف يؤتيه الله ثواباً عظيماً، الله أعلم به.

وجاء في السنة النبوية الشريفة ما يؤيد هذه الآية القرآنية، أخرج الترمذي وغيره عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه، لا له، إلا ذكرُ الله عز وجل، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر».

ثم حذرت آية ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ الناس من الشذوذ ومخالفة الجماعة، ومن معاداة الرسول ﷺ بالارتداد عن دينه، بعدما ظهر للمؤمن الحق والهدى، وجعلت الآية اتباع غير سبيل المؤمنين، ومخالفة إجماعهم واتفاقهم مثل معاداة الرسول تماماً، وجزاء المعادي أو مخالف الجماعة: أن يتركه الله تعالى يتخبط في دياجير الظلام والضلال، وأن يدخله نار جهنم، وبئس ذلك المصير أو المرجع مصير هؤلاء المرتدين أو الشاذين عن طريق الجماعة.

دلت هاتان الآيتان على وجوب أمرين خطيرين:

أولهما -تضامن الأمة كلها في سرها وعلنها في أعمال الخير والبناء والمعروف، والعمل على تقوية الأواصر الاجتماعية، وتحقيق تكافل الجماعة، وتمتين الروابط، وتوجيه الجهود والطاقات نحو تحقيق النفع العام، وإشاعة المحبة والمودة والإصلاح بين الناس، وإصلاح أهل الفساد، والأخذ بيد الضعفاء.

والأمر الثاني -وجوب التفاف الأمة حول الوحدة: وحدة العقيدة والفكر، واتباع النبي ﷺ ، واتباع ما تسير عليه الجماعة والأكثرية في دروب الخير والنفع، ومقاومة كل ألوان الشر والفساد، وإضعاف المسيرة الخيرة في الجهاد وتحرير البلاد، وتقدم المجتمع، وبناء صرح العزة والحضارة.

خطر الشرك والشيطان

لقد حذر القرآن الكريم من أخطر شيئين على الإنسان، لما فيهما من عاقبة سيئة وآثار وخيمة، ألا وهما الشرك والشيطان، أما الشرك بالله بنسبة الولد والصاحبة والصنم والمَلَك له فهو أعظم الجرائم في الإسلام؛ لأنه وكر الخرافات والأباطيل، وأما الشيطان وهو مخلوق حي موجود فإنه أعدى أعداء الإنسان؛ لأنه لا يوسوس له إلا بالشر، ولا يزين له إلا بالسوء، والوقوع في المهالك من طريق المال أو الجاه أو النساء أو فساد العقيدة والعمل.

قال الله تعالى مبيناً هذين الخطرين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا[(١)] وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا[(٢)] ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ

---

(١) أصناماً يجعلونها كالنساء . (٢) متمرداً .

نَصِيبًا مَّفْرُوضًا[١] ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ[٢] ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا[٣] ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا[٤] ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا[٥] ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النساء: ٤/١١٦-١٢٢].

الشرك: هو منتهى فساد الروح، وضلال العقول، والانحراف عن أخطر قضية في هذا العالم وهو الإيمان بالله الواحد الأحد، فهو ظلم وافتئات على الحقيقة، وإيغال في الكفر وجحود نعمة الله على المخلوقات جميعاً. لذا أعلن القرآن الكريم أن الله عز وجل لا يغفر جريمة الشرك بالله أصلاً، ويغفر غيره من الذنوب والخطايا لمن يشاء، وهذا تحذير لأهل الضلال، وإطماع لأهل الإيمان بفضل الله وإحسانه، ومن أشرك بالله بالقول أو الفعل أو الاتجاه أو التقديس، فقد ضل ضلالاً بعيداً عن الخير والرشد.

وأما الشيطان: فهو داعية الشر والفساد، ورأس الكفر والضلال، طرده الله من رحمته، وعباد الأوثان والأصنام لا يعبدون بدعائهم إياها إلا أسماء مؤنثة كاللات والعزى، ومناة، ونائلة، وهي مؤنثات ضعيفات لا تعقل، وجمادات وأخشاب لا تدرك، وما يعبدون بتعظيمها إلا شيطاناً متمرناً على الإيذاء، متدرباً على الخبائث، متمرداً على القيم الخيرة، فهو الذي أمر الوثنيين بعبادة تلك الأصنام، فكانت طاعتهم للشيطان عبادة له.

---

(١) مقطوعاً لي به . (٢) أي يقطعن آذان الأنعام لتميزها للآلهة . (٣) خداعاً . (٤) أي مهرباً ومخلصاً .
(٥) أي قولاً .

ومهام الشيطان كثيرة كما ذكرت الآيات: أولها: محاولة اتخاذ جزء معلوم من الناس تلامذة له، وخلصاء وأعواناً بإغوائه وإضلاله، وهم الكفرة والعصاة.

ثانياً: إضلال الناس، أي صرفهم عن الحق وطريق الهدى وعن الاعتقاد الصحيح.

ثالثاً: الوعد بالأماني الباطلة، والعيش في خيال الآمال الوهمية، والأمر بالتسويف والتأخير، وتزيين اللذات، وترك التوبة.

رابعاً: الأمر بتقطيع وتشقيق آذان الأنعام (المواشي) للآلهة الأصنام كالبحيرة التي يتركون الحمل عليها بوسمها بعلامة معينة، والناقة السائبة التي يسيبونها للأصنام إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث، والوصيلة التي ولدت جَدْياً وعَنَاقاً، فلا يذبحون أخاها من أجلها وصلتها.

خامساً: أمر الناس بتغيير خلق الله وفطرته التي فطر الناس عليها: وهي الاهتداء إلى الحق والدين الصحيح، والتغيير يكون بإخصاء البهائم والوشم في الوجه ونحوهما مما فيه تشويه الفطرة وتغييرها عما فطرت عليه.

ثم أوضح الله تعالى أن وعود الشيطان وأمانيه المعسولة كلها خيالات وأوهام وأباطيل، فهو يعدهم بالمال والجاه وأن لا بعث ولا عقاب ونحو ذلك، لكل أحد ما يليق بحاله، وما تلك الأماني الواسعة الكاذبة إلا تغرير وباطل لا حقيقة له ولا استقرار ولا وجود.

وبعد أن حذر القرآن من ألوان وساوس الشيطان وتفنيد مهامه ومخططاته، رغّب المؤمنين بالإيمان الصادق الخالص، وحرَّضهم على العمل الصالح: وهو فعل ما أمر الله به من الأعمال الطيبة والأمور الخيرية، وترك ما نهى عنه من المنكرات. ووعد هؤلاء المؤمنين العاملين بجنان الخلد إلى الأبد التي تجري الأنهار من تحت غرفها

وبساتينها، وذلك الوعد الإلهي وعدٌ حق، وصدق قاطع، ومن أصدق من الله حديثاً ووعداً؟ أي لا أحد أصدق منه خبراً؛ لأنه القادر على كل شيء.

الأماني والعمل

ينخدع كثير من الناس في هذه الحياة، فيظنون أن تحقيق الآمال في الدنيا أو في الآخرة بمجرد التمنيات والأماني النفسية، ويتركون العمل الصالح الطيب ويركنون إلى الكسل والتقاعس، ويطمئنون إلى وعود الشيطان بالباطل التي يمنّي فيها بعض الناس بالأماني الكاذبة.

وقد نزل القرآن مفنداً الاعتماد على مثل هذه التمنيات، وباعثاً حب العمل، ومحركاً النفوس البشرية للإقبال على العمل الصالح، ليظفروا بالسعادة والغايات السامية، وتحقيق المطالب المنشودة.

قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا[(١)] ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ[(٢)] وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ[(٣)] وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢٣-١٢٦].

تعدَّد سبب نزول هذه الآيات، فقال ابن عباس: قالت اليهود والنصارى: لا يدخل الجنة غيرنا، وقالت قريش: إنا لا نبعث يوم القيامة. فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ..﴾ أي فالخطاب لكفار قريش.

---

(١) النقير: هو قدر النقرة في ظهر النواة، ويضرب بها المثل في القلة. (٢) أخلص نفسه لله. (٣) مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق.

وقال مسروق وغيره: سبب الآية أن المؤمنين اختلفوا مع قوم من أهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: ديننا أقدم من دينكم وأفضل، ونبينا قبل نبيكم، فنحن أفضل منكم، وقال المؤمنون: كتابنا يقضي على الكتب، ونبينا خاتم النبيين، فنزلت الآية، أي فالخطاب لأمة محمد ﷺ.

والمعنى: ليس تحقيق المطالب ومنها الثواب يوم القيامة يحصل بالأماني منكم أيها المسلمون، ولا أنتم أهل الكتاب وكفار قريش، ولكن الجزاء منوط بالعمل، والثواب المعد في الآخرة مرتبط بالاعتقاد الصحيح، والعمل الصالح، والعبرة بطاعة الله عز وجل واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام.

فمن يعمل سوءاً يجز به؛ لأن الجزاء أثر للعمل، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ٧-٨].

وفاعل السوء لا نجاة له يوم القيامة، ولا يجد له شفيعاً ينقذه، ولا ولياً يتولى أمره، ولا ناصراً ينصره ويدفع عنه شيئاً من عذاب الله.

وهذا كله لمن كفر بالله وجحد بنعمه، فجزاء السوء أمر حتمي لكل كافر، كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٧]. أما المؤمنون الصالحون فإن الله وعد المؤمنين أن يكفر عنهم سيئاتهم إذا تابوا وأنابوا، وقد تكون بعض الحوادث مكفرة الخطايا لأهل الإيمان، مثل الأمراض والبلايا والمصائب في الدنيا، وهموم الحياة ومخاوفها.

وتكون العقيدة: أن الكافر مجازى على سيئات أعماله، والمؤمن يجازى في الدنيا غالباً على سوء عمله، فمن بقي له سوء إلى الآخرة فهو متروك إلى مشيئة الله تعالى، يغفر الله لمن يشاء، ويجازي من يشاء. وقانون القرآن في قبول الله تعالى الأعمال

الصالحة والأفعال الخيرة مرتكز على قاعدة الإيمان الصحيح بالله تعالى، فمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وعمل صالح الأعمال التي أمر الله بها، لا فرق بين ذكر وأنثى، فأولئك لا غيرهم يدخلون الجنة، دون أن ينقص من ثواب عملهم شيء مهما كان قليلاً، والله أرحم الراحمين لا يظلم العباد، ولا يزيد في عقاب المقصرين.

وبعد أن بين الله سبحانه أن الجزاء منوط بالعمل والإيمان، لا بالأماني المعسولة والتمنيات الموهومة الكاذبة، أوضح لجميع الناس أنه لا أحسن ديناً ممن أخلص مقصده وتوجهه لله، وأحسن في أعماله، واتبع ملة التوحيد الحنيفية التي هي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد سمى الله إبراهيم خليلاً لإخلاصه لربه في عبادته، واجتهاده في مرضاة خالقه، وتفانيه في حب الله والإيمان به.

ثم أعلمنا القرآن الكريم عن إحاطة علم الله بكل شيء في هذا العالم، يعلم بأعمال جميع العباد، وهو سبحانه واسع الملك، له جميع ما في السماوات والأرض ملكاً وخلقاً وتصريفاً وعبيداً، فهو القادر على جزاء العاملين خيراً وشراً، إذ الكل ملكه، ولا يخرج أحد عن سلطانه وملكوته، وهو وحده المستحق للطاعة والعبادة لأنه المالك، وما عداه مملوك.

رعاية اليتامى والضعفاء

إن من أخص ما تميزت به شريعة الإسلام أنها شريعة المستضعفين من النساء والأولاد والكبار العاجزين والفتيان المعاقين والمشوهين وأصحاب العاهات والأمراض، لأنها شريعة الرحمة العامة بالعالمين من الجن والإنس، وشريعة الإنقاذ والأخذ بيد الضعيف، ليصبح في رتبة مساوية أو مقاربة لغيره، لا ينتقصه أحد شيئاً من حقوقه، وإنما ينال حظه المقرر له في هذه الدنيا.

أما المستكبرون والمتجبرون أو العتاة والظلمة، فالقرآن يشفق عليهم، ويعالج أمراضهم إما بالتهديد والوعيد أحياناً، وإما بتذكيرهم بحقوق الآخرين عليهم، وإما بإثارة العواطف الإنسانية الخفية في مشاعرهم وإحساساتهم.

ومن مظاهر الظلم الدفين الذي يشيع أحياناً، ولا يحس الناس بخطره ولا نجد له علاجاً اجتماعياً حاسماً: إلحاق الظلم بحقوق النساء من الزوجات والبنات والأخوات في المواريث واقتسام التركات، فيكاد المستأثر بالحظ الأوفى هم الرجال، وحرمان النساء أو انتقاص حقوقهن، لذا قال الله تعالى مبيناً علاج هذه الظاهرة:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ(١) وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢٧].

نزلت هذه الآية بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في المواريث وغير ذلك.

روى البخاري عن عائشة في سبب نزول هذه الآية قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها، قد شَرِكَتْه في مالها، حتى في العَذْق (النخلة بحَمْلها) فيرغب عن أن ينكحها، ويكره أن يزوجها رجلاً، فيشركه في مالها، فيعضلها (يمنعها عن الزواج) فنزلت. وروى ابن أبي حاتم عن السدّي: كان لجابر بنت عم دميمة، ولها مال ورثته عن أبيها، وكان جابر يرغب عن نكاحها، ولا ينكحها خشية أن يذهب الزوج بمالها، فسأل النبي ﷺ عن ذلك، فنزلت.

(١) بالعدل .

ومعنى الآية: يطلب الفتوى منك أيها النبي النساء، في حقوقهن الشاملة للميراث وحقوق الزوجية المالية وغيرها، كالعدل في المعاملة بين الزوجات، والعشرة الطيبة، وعلاج حالة النشوز، فأمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ أي يبين لكم حكم ما سألتم عنه، ويوضح لكم أيضاً أحكاماً أخرى في المتلو عليكم في القرآن الكريم، مثلما تقدم في أوائل سورة النساء من وحدة الناس في الإنسانية، ما داموا قد خلقوا من نفس واحدة هي آدم عليه السلام، وأحكام معاملة النساء في المواريث، وتعدد الزوجات في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ [النساء: ٤/ ٣] وأحكام إيتاء أموال اليتامى عند البلوغ من غير تردد ولا تباطؤ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢﴾ [النساء: ٤/ ٢] أي إثماً عظيماً.

ويبين الله لكم ما يتلى عليكم في شأن اليتيمات المستضعفات اللاتي لا تعطونهن ما فرض لهن من ميراث ومهر (صداق). وهذا نهي صريح وتحريم لما كانت العرب تفعله من ضم اليتيمة الجميلة الغنية من دون ما تستحقه من المهر، ومن منع (عضل) الدميمة الفقيرة أو الغنية من الزواج أبداً حتى تموت، فيرثها الولي العاضل (المانع لها من الزواج) بقصد تحقيق منفعة نفسه، لا نفع اليتيمة. والذي كتب (فرض) الله لهن: هو توفية ما تستحقه من مهر، وإلحاقها بأقرانها.

ويبين الله لكم كذلك ما يتلى عليكم في شأن المستضعفين من الأولاد الذين لا تعطونهن حقهم في الميراث في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: ٤/ ١١].

والله يرشدكم إلى القيام بأداء حقوق هؤلاء اليتامى من هؤلاء النساء، والولدان الضعفاء بالحق والعدل، وأن تعتنوا بهم عناية خاصة، وما تفعلوا من خير قليل أو

كثير، فإن الله به عليم، فسيجازيكم عليه أحسن الجزاء، وما تفعلوا من شر قليل أو كثير، فإن الله به عليم أيضاً، ومجازيكم عليه.

يذكّر الله تعالى بالآيات السابقة ليتدبر الناس معناها، ويوجب عليهم معاملة اليتامى والضعفاء بمبدأ العدل، والإسلام في كل ما شرع وحكم: دين العدل والإنصاف، وعلى المؤمنين التزام هذا المبدأ في القضاء والأحكام وفي المعاملات الخاصة بالإشراف على شؤون المستضعفين والصغار والنساء.

الإصلاح بين الزوجين والعدل بين النساء

كثيراً ما يقع النزاع وسوء التفاهم بين الزوجين، لا سيما في السنة الأولى وما بعدها عقب الزواج، وطريق إزالة الخلاف تقريب وجهات النظر والإصلاح بين الزوجين من قبل أنفسهما أو غيرهما بالحكمة والحق والعدل دون إلحاق جور بأحدهما أو ميل له، فإن العدل أساس سلامة الحل ودوام العشرة الزوجية دون نزاع أو خصام يذكر.

كذلك تعد المعاملة الطيبة الكريمة والكلمة الحسنة اللطيفة أمراً مطلوباً شرعاً لا يستغنى عنه.

والله تعالى أنزل في القرآن الكريم ما يرشد إلى الصلح والعدل في معاملة النساء، فقال سبحانه: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا(١) نُشُوزًا(٢) أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ(٣) عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ(٤) وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ(٥) بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ

---

(١) زوجها . (٢) نفوراً ظلماً . (٣) أي لا إثم . (٤) البخل مع الحرص. (٥) لن تتمكنوا من العدل التام .

فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ(١) وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ٤/١٢٨-١٣٠].

وسبب نزول آية ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾: ما روى الترمذي عن ابن عباس أنها نزلت بسبب سودة بنت زمعة -زوجة النبي ﷺ، قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: لا تطلقني وأمسكني، واجعل يومي منك لعائشة، ففعل، فنزلت: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ فما اصطلحا عليه فهو جائز.

هذه الآية حكم من الله تعالى في أمر المرأة التي تكون متقدمة في السن أو دميمة أو نحو ذلك مما يرغب زوجها عنها، فإذا أرادت المرأة الصبر والبقاء في عصمة الزوج، ولا تتضرر بذلك، فلها أن تتصالح مع الرجل على أمر ما، لإبقاء رابطة الزواج المقدسة، ولأن الطلاق أبغض الحلال إلى الله، وقد يكون الصلح بتنازل المرأة عن بعض حقوقها أو كل حقوقها، لتبقى في عصمة زوجها، أو تمنحه شيئاً من مالها ليطلقها من طريق مايسمى بالخلع أو عوض الخلع: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ﴾ والصلح خير من الفراق والطلاق، أو من النشوز والإعراض وسوء العشرة، بل هو خير من الخصومة في كل شيء حفاظاً على الرابطة الزوجية، ومنعاً من هدم كيان الأسرة وإلحاق الضرر بالأولاد.

وإن تحسنوا أيها الأزواج البقاء مع نسائكم وإن كرهتموهن، وتصبروا على ماتكرهون، مراعاة لحق الصحبة، وتحسنوا المعاشرة فيما بينكم، وتتقوا النشوز والإعراض، وما يؤدي إلى الأذى والخصومة، فإن الله كان بما تعملون من الإحسان والتقوى خبيراً عليماً لايخفى عليه شيء، فيجازيكم ويثيبكم عليه.

---

(١) لا هي زوجة ولا مطلقة.

ثم أبان الله تعالى أن الإنسان عاجز عن تحقيق العدل التام على الإطلاق، المستوي في الأفعال والأقوال والمحبة وغير ذلك، فخفف الله التكليف بالعدل التام، وطالب الرجال بقدر الاستطاعة، ففي الأمور المادية كالمبيت والنفقة والكسوة والكلمة الطيبة يتمكن الرجل من تحقيق العدل فيها، أما الأمور غير المادية كالحب والميل لامرأة دون أخرى وغير ذلك مما يرجع إلى الشعور النفسي وميل القلب، فلا يستطيع الرجل تحقيق العدل فيها، فكلف الله الرجال بما يستطيعونه وهو العدل المادي، ورفع عنهم الحرج والمشقة فيما لا يستطيعونه من الحب والاشتهاء والأمور النفسية، فإن الحب والبغض غير مقدور للإنسان، فلا يكون مكلفاً به، قال النبي ﷺ فيما رواه أصحاب السنن الأربعة: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك».

ولكن لا تميلوا كل الميل أيها الرجال، بحيث تترك المرأة الثانية كالمعلّقة لا هي مطلقة، ولا هي متزوجة، بل عليكم إرضاؤها وحسن عشرتها ومحاربة الميول الجارفة لضَرّتها، حتى لا تتألم.

وإن لم ينفع الصلح وعلاج سوء التفاهم واستعصت الحلول، فلا مانع من الفراق، والله يتكفل كلاً من الزوجين بالتعويض عما لحق به من أذى، فيغني الرجل عن المرأة، ويغنيها عنه، بأن يعوضه الله من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه، وكان الله واسع الفضل، عظيم المن والإكرام والإحسان، حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

كمال القدرة الإلهية

لا يمكن للعقل الإنساني أن يحيط بتمام وكمال القدرة الإلهية؛ لأن عقل الإنسان محدود، والقدرة الإلهية غير محدودة، والعقل قاصر، وقدرة الله تامة شاملة، وإنما

قرّب القرآن الكريم كيفية تصور القدرة الإلهية بما يحيط بنا من العالم المشاهد المحسوس الذي ندركه، ونتعامل معه ونحس به، ويكفينا تقريب المفاهيم لنعلم أن الله جل جلاله هو خالق الكون، المتصف بالتوحيد، القوي القادر القاهر الذي لا يُغلب، المحيط علمه بجميع المخلوقات صغيرها وكبيرها.

قال الله تعالى مدللاً على عظمته وقدرته التامة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٣١-١٣٤].

يخبر الله تعالى: أنه مالك السماوات والأرض، والحاكم المتصرف فيهما، وأن جميع ما فيهما له سبحانه ملكاً وخلقاً وإيجاداً وتصريفاً وعبيداً، له الحكم المطلق ولله الأمر جميعاً، والخلق في نهاية العالم راجعون إليه للحساب والجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ولقد أمر الله أهل الكتاب أصحاب التوراة والإنجيل والزبور، وأمر جميع المسلمين والمؤمنين في هذا العالم بتقوى الله عز وجل، بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وهذا الأمر لعباد الله أو الوصية الإلهية بالتقوى لم يزل ولم تزل موجودين، فالوصية بذلك قائمة منذ أوجد الله الخلق، وهذا دليل واضح على أن الأديان كلها متفقة على مبدأ التوحيد وتقوى الله، ومختلفة في الجزئيات والفروع تبعاً للزمان والمكان.

ثم هدد الله جميع العباد بأنهم إن كفروا بالله، فليعلموا أن لله جميع ما في

السماوات والأرض، وهو سبحانه الغني عن خلقه وعن كل شيء، وعن عبادتهم جميعاً، وهو المستحق لأن يحمد بذاته وكمال صفاته لكثرة نعمه، وإن لم يحمد أحد منهم: قال الله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٧-٥٨].

ثم أكد الله تعالى القول والتنبيه للعباد بأنه المالك المتفرد لجميع السماوات والأرض خلقاً وملكاً يتصرف فيهما كيف شاء إيجاداً وإعداماً، إحياء وإماتة، وكفى بالله وكيلاً، أي قائماً بالأمور كلها، المنفذ فيها ما رآه في سائر شؤون العباد.

والمراد بقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي أن من كان بسعيه وعمله وجهاده يريد ثواب الدنيا، أي نعيمها بالمال والجاه والمتع الدنيوية، ولا يعتقد أن هناك نعيماً سواه، فليس الأمر كما يظن، بل عند الله ثواب الدارين: الدنيا والآخرة، فمن قصد الدنيا فقط، أعطاه الله من الدنيا ما قدّر له، وكان له في الآخرة العذاب، كالمجاهد الذي يريد بجهاده الغنيمة فقط أو نصرة راية غير إسلامية، فيأخذ الغنيمة ويحقق المطمع الدنيوي الرخيص، وليس له في عالم القيامة إلا النار، وكان الله سميعاً لكل قول، بصيراً بكل قصد وعمل، فعلى الإنسان أن يخلص في عمله لله تعالى، ويكون قصده إرضاء الله عز وجل، ولا مانع أن يقصد بعمله وجهاده معاً ثواب الدنيا ومكافأتها، وثواب الآخرة ونعيمها الخالد في الجنة.

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ[1] ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ

(١) أي نصيب.

ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٠-٢٠٢]. وقال سبحانه أيضاً: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٠].

والدعوة للعمل لخيري الدنيا والآخرة دليل على أن الإسلام كفل لأتباعه وكل من سار على هديه سعادة الدنيا والآخرة، وهذا المنهاج المتوازن والخط المعتدل هو قوام الحياة الإسلامية-القرآنية التي تعتمد الدنيا وسيلة ومزرعة، والآخرة مقصداً وغاية، والله يحب المحسنين أعمالهم في دنياهم، وينشدون ثواب الله في آخرتهم.

واجب الشهود في شهاداتهم

لم نجد كالإسلام ديناً يركز على مبدأ الحق والعدل في كل شيء، في المعاملة والتعاقد، والقضاء والشهادة، والحكم بين الناس؛ لأن قوام المجتمع لا يكون إلا بالعدل، وسعادة الأفراد والجماعات لا تتوفر إلا بالعدل، ولن يحفظ النظام وتنضبط شؤون الملك والدنيا وأحوال أهلها إلا بالعدل، فالعدل أساس الملك الدائم، وقاعدة الاطمئنان والاستقرار.

والعدل في القرآن الكريم قائم على قاعدة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إذ لا ثواب عند الله تعالى ولا احترام لمبدأ الحق والعدل إلا إذا كان العمل كله مبنياً على أصول الإيمان التي ذكرناها.

قال الله تعالى آمراً القضاة والشهود بالعدل، ومذكِّراً بالإيمان وقواعده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ[1] بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن

(١) مبالغين في القيام بالشيء على أتم وجه .

يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا(١) وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا(٢) فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٣٥-١٣٦].

قال السّدِّي: لما نزلت آية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ﴾ في النَّبي ﷺ اختصم إليه رجلان: غني وفقير، وكان ﷺ مع الفقير، يرى أن الفقير لا يظلم الغني، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير.

الأمر بالعدل إذن عام شامل الناس جميعاً، لا فرق بين غني وفقير، ولا بين عالم وجاهل، ولا بين مسلم وغير مسلم، ولا بين كبير وصغير، يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يلتزموا العدل في كل شيء، في أقوالهم وأفعالهم، وأن يتعاونوا ويتعاضدوا في إقامة العدل، دون أن تأخذهم في الله لومة لائم.

ومن أخصّ ما يطلب فيه العدل: الحكم بين الناس، والقضاء في الخصومات، وأداء الشهادات أمام القاضي وغيره، فعلى القائمين بهذه الوظائف أن يعملوا بالحق، ويشهدوا بالحق، ويتحرّوا الحق الذي يرضي الله تعالى، ويؤدّوا العمل أو الشهادة ابتغاء وجه الله، لتكون الشهادة صحيحة عادلة حقّاً، من غير مراعاة أحد ولا محاباة.

إن نبراس العمل وأساس الشهادة بالحق المجرد، ولو كانت الشهادة على النفس والأقربين، ويكون ذلك بالإقرار بالحق وعدم كتمانه، فمن أقرَّ على نفسه بحق، فقد شهد عليها؛ لأن الشهادة إظهار الحق.

---

(١) كراهة أن تعدلوا عن الحق. (٢) تتركوا إقامتها.

والشهادة بالحق على النفس والوالدين والأقارب أمر واجب، ولو عاد ضررها على هؤلاء؛ لأن الإحسان إلى النفس والقرابة وبرّ الوالدين، لا يكون بالظلم والانحراف عن الحق، بل الإحسان والخير والبر وصلة القرابة في الحق والمعروف.

وليس للشاهد أن يراعي غنياً لغناه أو يرحم فقيراً لفقره، بل يترك الأمر كله لله، فالله يتولى أمر الغني والفقير.

وليس للشهود اتّباع الهوى والمحاباة، لئلا يعدلوا عن الحق إلى الباطل، إذ في الهوى والمحاباة الزَّلل والضَّرر، فلا يجوز أن تؤدي العصبية وهوى النفس وبغض الناس إلى الظلم وترك العدل في الأمور والشؤون كلها، وإنما الواجب التزام العدل على أي حال، كما قال تعالى مبيّناً وجوب العدل حتى مع الأعداء: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ[1] عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ .[المائدة: ٥/ ٨].

وإن تلووا ألسنتكم بالشهادة وتحرِّفوها أو تعرضوا عن إقامة الشهادة وتكتموها، فاعلموا أن الله خبير بأعمالكم ومجازيكم عليها.

ثم أمر الله المؤمنين بالثبات والدوام على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، دون تفرقة بين الكتب السابقة والقرآن العظيم؛ لأن جميع الكتب الإلهية مُنَزَّلة من عند الله تعالى، ومن يجحد وينكر وجود الله ووحدانيته، ولا يصدق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً، وانحرف عن جادة الحق، ونور الهدى، وخرج عن المطلوب خروجاً شديداً وبعيداً كل البعد عن الصواب والسّداد.

---

(١) أي لا يحملنكم كراهية قوم على ترك العدل معهم .

صفات المنافقين

قصَّ الله تعالى علينا في قرآنه المجيد أخبار المنافقين وذكر صفاتهم، حتى نحذرها ولا نتشبّه بهم ولا نتورّط بمثل أعمالهم الشنيعة، فمن صفات المنافقين التي هي أشدّ ضرراً على المؤمنين: موالاتهم ومناصرتهم الكفار، وتركهم ومعاداتهم المؤمنين، نبَّه سبحانه على فساد ذلك ليدعه من يقع في نوع منه غفلة أو جهالة أو مسامحة. وأرشد الله تعالى إلى سبب توبيخهم ونقطة ضعفهم: وهو طلب العزة والاستكثار والتقوّي بغير المؤمنين، والأمر ليس كذلك، بل العزّة كلها لله تعالى، يؤتيها من يشاء، وقد وعد بها المؤمنين، وجعل العاقبة للمتقين.

قال الله تعالى مبيّناً صفات المنافقين القبيحة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ[(1)] فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ[(2)] فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ[(3)] مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ[(4)] عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ٤/١٣٧-١٤١].

عجيب وغريب أمر هؤلاء المنافقين، لا يحترمون أنفسهم، وكأنهم وحدهم يعيشون في هذا العالم، في سطحية وسذاجة، فهم أغرار وجهلاء بالحقيقة، يتذبذبون ويتردَّدون بين أهل الإيمان وأهل الكفر، لا مرة واحدة، بل مرات متعددة، فتراهم

---

(١) المنعة والقوة . (٢) ينتظرون بكم الأحداث . (٣) نصر. (٤) نغلبكم .

يؤمنون أحياناً بالله ورسوله، ثم يكفرون، ثم يؤمنون ثم يكفرون، ثم يزدادون كفراً ويتغالون ويتمادون في الكفر، ثم يموتون على الكفر، فهؤلاء طبعاً وعقلاً وشرعاً لا يغفر الله لهم، ولا يرشدهم ولا يهديهم إلى الخير.

وأنذِرْ يا محمد هؤلاء المنافقين بأن لهم عذاباً مؤلماً في الدّرك الأسفل من النار، وإنما قال الله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ والمراد أنذر، وذلك على سبيل التّهكم بهم.

ومن صفاتَ المنافقين أيضاً: أنهم كانوا يتخذون الكافرين أولياء وأنصاراً وأعواناً، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها، ظنّاً منهم أن الغلبة ستكون للكفار، ولم يدروا أن العاقبة للمتقين؛ لأن الله معهم، أيطلبون الاعتزاز والاستكثار بالكفار؟ ليس الأمر كذلك، لقد كذبوا وافتروا، بل العزة كلها لله، أي القوة والمنعة والمجد لله في الدنيا والآخرة، وهو يؤتيها من يشاء، والمراد أن العزة في النهاية تكون لأولياء الله الذين كتب لهم العز والغلبة والنصرة على الأعداء.

ثم حذَّر الله جميع الناس من تجاوز آيات الله وأحكامه، فقد أنزل الله على جميع من أظهر الإيمان من محقق صادق ومنافق كاذب أنه ينبغي عليهم عند سماع الاستهزاء بآيات الله والكفر بها أن لا يجلسوا في مجالس الكافرين، ولا يتكلموا معهم حتى يتحدثوا في حديث آخر، فإنهم إن جلسوا في هذه المجالس، كانوا شركاء في الكفر، لرضاهم بكلامهم، وسكوتهم عن إنكار منكرهم، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٨]. إن هذا التحذير من مجالسة المستهزئين بآيات الله تنبيه مخلص لأهل الإيمان الحق، لأن الله جامع الكافرين والمنافقين في جهنم جميعاً.

ومن صفات المنافقين: أنهم ينتظرون ما يحدث للمؤمنين من خير أو شرّ، فإن تحقق نصر للمؤمنين وفتح وغنيمة قالوا زاعمين: إنا كنا معكم مؤيِّدين ومظاهرين،

فأعطونا من الغنائم، وإن كان للكافرين نصيب من الظفر، كما حصل يوم أُحد، قالوا لهم: ألم نغلبكم على أمركم ونتمكّن من قتلكم وأسركم، فأبقينا عليكم، وحميناكم ومنعناكم من المؤمنين بتخذيلهم وإذاعة الأخبار التي تثبط قلوبهم وتلقي الرّعب فيهم، لكن ذلك لا يخفى على الله، فالله يحكم بينكم يوم القيامة، فيجازي كلاً على عمله، فريق في الجنة، وفريق في السعير، ثم بشَّرنا الله بأنه لن يمكِّن الكافرين من استئصال المؤمنين، والتَّغلب على أمرهم. وهذا يعني أنه إن تحقق الإيمان الحق، تحقق وعد الله بالنصر والغلبة على الأعداء، والله مع الصابرين.

أسباب ذمّ المنافقين

الإيمان بالله والإسلام قوة ورجولة، والكفر والنفاق ضعف وانهزام، وليس أسوأ على الرجل من فقد الرجولة وضعف الشخصية، وانعدام الأصالة والجرأة، لذا وجّه الله تعالى أقبح وأشدّ اللوم للمنافقين، وكانت أهم المطاعن فيهم افتقاد الهوية الشخصية والرجولة والكرامة والإباء، بالإضافة إلى معايب أخرى تتمثل في أنهم يخادعون الله والناس، وهم لا يدركون أن خداعهم مكشوف مفضوح، وأنهم سطحيون بلهاء، وكسالى لا يغطّون انهزامهم الداخلي بشيء من إثبات الذات وسلامة الأفعال، وقوة المواقف، قال الله تعالى مبيِّناً سطحية المنافقين وسذاجتهم، وكسلهم وخمولهم، وتذبذب مواقفهم، وضعف شخصيتهم ومراءاتهم في أعمالهم:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ(١) بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٤٢-١٤٣].

---

(١) مردَّدين بين الكفر والإيمان .

إن هؤلاء المنافقين لجهلهم وقلّة علمهم وسوء تقديرهم يفعلون ما يفعل المخادع، حيث يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، كما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٩/٢] ولم يدروا أن الله تعالى مطّلع على أعمالهم وسرائرهم ونيّاتهم الخبيثة، فيعاقبهم عقاباً أليماً شديداً لأن الله لا يخادَع؛ لأنه سبحانه العالم بالسّر وأخفى، والمراد بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي مجازيهم على خداعهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، والله يستدرجهم في ضلالهم وطغيانهم، و يخذلهم ويبعدهم عن الحق والهداية والنور؛ لأنهم آثروا الانحراف والابتعاد عن جادة الاستقامة، فاستحقوا العقاب والتعذيب، والطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى.

ومن عيوب المنافقين: سيطرة الكسل والخمول على نفوسهم، فتراهم متباطئين متثاقلين في القيام بأشرف الأعمال وأفضلها: وهي الصلاة التي تقرِّبهم إلى الله، وتهذِّب نفوسهم، وتبعدهم عن الفواحش والمخازي والمنكرات.

وإذا كانت ظواهرهم فاسدة، فكذلك بواطنهم وقلوبهم ونواياهم فاسدة أيضاً، فهم لا يخلصون في أعمالهم، ويراءون الناس في أفعالهم، ويستخفون من الناس، والله معهم، لذا فإنهم يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يُرون فيها غالباً كصلاة العشاء وصلاة الصبح، كما قال رسول الله ﷺ فيما يرويه أحمد: «أثقل الصلاة على المنافقين: صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً».

وإذا قاموا إلى الصلاة خشية من الناس، لا يذكرون الله إلا قليلاً، فلا خشية في صلاتهم، ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون عابثون، قلوبهم مقفرة من الإيمان، وألسنتهم لا تتحرك بذكر الله إلا قليلاً، فإذا لم يرهم أحد لم يصلّوا. وهم ضعاف الشخصية، مذبذبون، مضطربون دائماً، مترددون بين الإيمان والكفر، فليسوا مع المؤمنين حقيقة، ولا مع الكافرين حقيقة، بل ظواهرهم مع

المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين، ويميلون مع الطرف الأقوى، فإن رأوا الكفار أقوياء مالوا إليهم وتعاطفوا معهم، وتواطؤوا معهم ضدّ المؤمنين، وإن رأوا المؤمنين أقوياء، تظاهروا بالانضمام إليهم، للمنفعة المادية، والمساهمة في الغنائم الحربية، والاستفادة من مظاهر الدنيا وزخارفها.

ومثل هؤلاء، هل ينتظرون هداية وتوفيقاً من الله تعالى؟ إنهم بانحراف سلوكهم، وانغماسهم في مستنقع الضلالة، لن يتعرضوا لفضل الله ورحمته، وكانوا أجدر بالضلال، والخذلان والبعد عن توفيق الله، ومن يصرفه الله عن الهداية، بسبب أعماله وشذوذه وانحرافه، فلن تجد له طريقاً إلى الخير والسّداد والرشاد.

إن هذه الآيات تحذير للمؤمنين من الاتِّصاف بأخلاق المنافقين، وجاءت الوصايا النَّبوية تؤيِّد هذا التحذير، قال ابن مسعود -فيما رواه الطبراني في الكبير -: «لا يكونن أحدكم إمَّعة، تقول: إنما أنا مع الناس، إن اهتدوا اهتديت، وإن ضلّوا ضللت، ألا ليوطنن أحدكم نفسه، ألا إن كفر الناس أن لا يكفر».

التَّحذير من موالاة المنافقين

الإيمان عصمة ومنعة وقوة، والمؤمنون أجدر الناس بأن يتحصنوا بحصن الاعتزاز بإيمانهم، والاعتماد على ربِّهم، والبعد عن ذوبان الشخصية، والاختلاط بالمنافقين والانهزاميين؛ لأن في ذلك تضييعاً لوجودهم واهتزازاً لكيانهم، وصهراً لقيمهم وعقائدهم وأخلاقهم.

وجاءت التحذيرات القرآنية الكثيرة من موالاة المنافقين والكافرين ومناصرتهم من أجل الحفاظ على كرامة المؤمنين وتوفير العزّة والقوة لهم، قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ[١] مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا[٢] مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ[٣] وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٤٤-١٤٧].

لقد حذَّر الله المؤمنين في هذه الآيات من أن يفعلوا فعل المنافقين، وأن يوالوا الكافرين والمعادين، أي لا تتخذوهم نصراء وأعواناً تصادقونهم وتصاحبونهم، وتصافونهم، وتسرّون إليهم بالمودة، وتفشون إليهم بأسراركم وأموركم الذاتية، تبغون من ذلك الاعتزاز بهم، ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين، وهذا ليس من أخلاق المؤمنين، وإنما هو من أخلاق المنافقين.

أتريدون بهذه المصانعة والمداراة والمجاملة أن تجعلوا لله على أعمالكم حجة بيِّنة في استحقاق العذاب، إذا اتخذتم المنافقين أولياء وأعواناً؟! إن هذا التَّملق لا يصدر إلا من منافق، والمنافقون لسوء أعمالهم، وفساد عقائدهم وأرواحهم ونيّاتهم، يكونون يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار، والنار سبع دركات سفلية، والجنة درجات علوية بعضها أعلى من بعض، والمنافقون في الطبقة السفلى من النار. ولن تجد لهم ناصراً أبداً ينصرهم وينقذهم من العذاب أو يخففه عنهم، فهو عذاب أبدي دائم.

والمؤمنون العارفون المخلصون بعيدون عن موالاة الكافرين، وأما المنافقون فلم يهملهم القرآن، وإنما فتح أمامهم باب الأمل وطريق الإصلاح، وذلك بالتوبة من النِّفاق بشروط أربعة ذكرتها الآية في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ * وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي لا بدّ من الندم على الفعل السابق، والاجتهاد في

(١) أصدقاء وأنصاراً . (٢) حجة ظاهرة في العذاب . (٣) الطبقة السفلى .

صالح الأعمال التي تغسل أدران النفاق، والاعتصام بالله، أي الثقة به والتمسك بكتابه والاهتداء بهدي نبيِّه المصطفى، صلوات الله وسلامه عليه، والشرط الرابع هو إخلاص الدين والعمل لله، بأن يدعوه الإنسان وحده، ويتجه إليه اتِّجاهاً خالصاً، لا يستمدّ العون من غيره، ولا يلجأ لأحد سواه في كشف الضُّر، وجلب النفع، كما قال الله تعالى محدداً شعار الإخلاص: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

هذه شروط قبول توبة المنافق، أما الكافر فشرط توبته فقط هو الانتهاء عن الكفر، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٨/٣٨]. والمنافق: هو من أظهر الإيمان وأبطن الكفر، والكافر: من أعلن الكفر صراحة.

هؤلاء التائبون هم مع المؤمنين، أي أصحاب المؤمنين ورفاقهم في الدنيا والآخرة، وفي زمرتهم ولهم ثوابهم يوم القيامة.

وسوف يعطي الله المؤمنين أجراً عظيماً لا يعرف قدره، فيشاركونهم فيه، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السَّجدة: ٣٢/ ١٧].

ثم أبان الله تعالى سبب تعذيب المنافقين والكفار: وهو كفرهم بأنعم الله، فقال سبحانه مستفهماً استفهاماً إنكارياً: ماذا يريد الله بعذابكم أيها الناس؟ إنه يعذبكم لا من أجل الانتقام والثأر، ولا من أجل دفع ضرّ وجلب خير له؛ لأن الله غني عن كل الناس، وهو الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك، لتنزهه عن كل صفات النقص، وهو الذي لا يثأر ولا يريد الشَّر لعباده، ولكنه أيضاً عادل حكيم، لا يسوي بين الصالح والطالح، والمؤمن والكافر، فمن شكر نعم الله تعالى، وأدّى حقوق الله

وواجباته، وآمن بالله ربّاً واحداً لا شريك له، شكر الله له صنعه وأثابه ثواباً عظيماً، والله شاكر، يجازي من شكر، عليم بخلقه، لا يخفى عليه شيء، قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٧].

الجهر بالسوء

إن عفّة اللسان وطيب القول والكلام هو من شأن الإنسان القوي المؤمن، فلا يكون المؤمن طعّاناً ولا لعّاناً ولا سبّاباً، ولا يؤذي غيره بفحش القول، وخبث الكلام، وكلما ضبط الإنسان لسانه وأمسك عن النطق، كلما كان حكيماً عاقلاً، فلا يندم يوماً على فلتات لسانه، ولا يحتاج إلى الاعتذار من غيره، ويظل كريماً على الناس، مهيباً ذا وقار واحترام، ومحبة وتقدير من الآخرين. وكم من عثرة لسان وتكلم بكلمة قبيحة فاحشة أعقبت ندماً طويلاً، وولّدت أحقاداً وبغضاء وخصومات ومنازعات.

وكان من أهم مقاصد الدين وشريعة الله حملُ الناس على التكلم بالكلمة الطيبة، وتجنُّب التّفوه بالكلمة الخبيثة. قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ٤/١٤٨-١٤٩].

سبب نزول هاتين الآيتين: ما قاله مجاهد-فيما أخرجه هنّاد بن السّري -: أنزلت آية ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ في رجل أضاف رجلاً بالمدينة، فأساء قراه، فتحوّل عنه، فجعل يثني عليه بما أولاه، فرخّص له أن يثني عليه بما أولاه، أي نزلت هذه الآية رخصة في أن يشكو.

والمعنى: يعاقب الله تعالى المجاهر بسوء القول، أي بذكر عيوب الناس وتعداد سيئاتهم؛ لأنه يؤدي إلى إثارة العداوة، والكراهة والبغضاء، ويزرع الأحقاد، ويسيء أيضاً إلى السامعين، فيجرّئهم على اقتراف المنكر، وتقليد المسيء، ويوقعهم في الإثم؛ لأن سماع السّوء كعمل السّوء.

وكذلك الإسرار بسوء القول محرَّم ومعاقب عليه أيضاً كالجهر بالقبيح، إلا أن الآية نصّت على حالة الجهر؛ لأن ضرره أشد، وفحشه أكبر، وفساده أعم وأخطر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩/٢٤].

ثم استثنى الله تعالى حالة يجوز فيها إعلان السوء من القول: وهي حالة الشكوى المحقة من ظلم الظالم أمام حاكم أو قاض أو غيرهما ممن يرجى منه رفع الظلامة وإغاثة المظلوم، ومساعدته في إزالة الظلم، والشكوى على الظالم أمر جائز شرعاً، إذ لا يحبّ الله لعباده أن يسكتوا على الظلم، أو أن يخضعوا لصنوف الأذى والضيم، أو أن يقبلوا المهانة، ويسكتوا على مضض على الذُّل والتَّحقير. روى الإمام أحمد حديثاً: «إن لصاحب الحق مقالاً» . والشكوى حينئذ تكون من قبيل ارتكاب أخفّ الضَّرَرَيْن، ودفع أعظم الشَّرَّين.

وكل من حالتي جواز الجهر بالسوء من القول، وعدم الجواز، في ظل رقابة دقيقة من الله تعالى، فهو سبحانه سميع لكل ما يقال، مطَّلع على البواعث والنِّيات المؤدية للأقوال، عليم بكل ما يصدر عن المخلوقات من أفعال وتصرُّفات، فيثيب الله المحق، ويعاقب المبطل، ويعين على دفع الظلم، ويجازي كل ظالم على ظلمه.

ولا مانع أيضاً من العفو عن المسيء، والتَّرفع عن المؤذي، بل إن العفو أفضل عند الله من الجزاء، ومرغب فيه شرعاً، ليظهر ميدان الإحسان ويتعلم الناس أن من

أحسن إلى غيره ولم يقابله بإساءته، فهو أرفع درجة عند الله وعند خلقه، لذا ذكرت الآية الثانية: أن إبداء الخير من قول أو فعل، أو إخفاءه، أو العفو عمن أساء، يجازي الله تعالى عليه خيراً، بل يرغّب فيه، فالله تعالى يحبّ فعل الخير، ويعفو عن السّيئات، وهذا وعد كريم من الله بإثابة العافين عن الناس، والمحسنين إليهم؛ لأن الله سبحانه قادر تمام القدرة على معاقبة المسيء في الدنيا والآخرة، لكن يظل للعفو مكانته، وما أجمل الجمع في نهاية الآية بين العفو والمقدرة في قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ وهو إرشاد إلى أن القدرة على العقاب لا تمنع العفو والمغفرة، ويكون التّخلق بأخلاق الله تعالى أمراً حسناً مرغّباً فيه، ففي العفو خير وبركة وإحسان.

ضابط الكفر والإيمان

الكفر والإيمان أمران متعارضان لا يجتمعان عند إنسان، فإما أن يكون الإنسان مؤمناً أو غير مؤمن؛ لأن الإيمان لا يتجزأ، وليس هناك أنصاف حلول في قضايا الإيمان وترك الإيمان، فكل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه، فهو مؤمن، وكل من كفر وجحد بأحد هذه الأركان أو العناصر السّتة، فهو كافر غير مؤمن ولا يقبل من أحد بعد هذا: الادّعاء بأنه مؤمن إذا افتقد ركناً من هذه الأركان، وعليه أن يُسْلِمَ قلبه لله تعالى، فيقرّ بوجوده ووحدانيته، ويصدق بجميع الملائكة والكتب الإلهية المنزلة والرّسل والأنبياء الكرام جميعهم، ومن آمن ببعض هؤلاء وكفر بالبعض الآخر، فهو غير مؤمن في ميزان الدين الإلهي والعدل الرَّباني.

قال الله تعالى مبيّناً ضابط الإيمان والكفر صراحة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النِّساء: ٤/ ١٥٠-١٥٢].

نزلت هذه الآيات في شأن من آمن ببعض الرُّسل، وكفر بمحمد ﷺ، فمن كفر بخاتم الأنبياء، فكأنه كفر بجميع الرُّسل، والكفر بالرُّسل كفر بالله، وتفريق بين الله ورسله في أنهم قالوا: نحن نؤمن بالله، ولا نؤمن بفلان وفلان من الأنبياء.

يتوعَّد الله تعالى في هذه الآيات الكافرين به وبرسله، حيث فرَّقوا في الإيمان بين الله ورسله، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، تعصُّباً وتمسُّكاً بالموروث، واعتصاماً بالأهواء والشهوات، وحفاظاً على المراكز والمصالح.

ومن أنكر وجود الله، أو أقرَّ بوجوده ولكنه كفر بالرُّسل وكتبهم، ولم يعترف بوجود ظاهرة الوحي من الله لبعض عباده الذين اصطفاهم، فهؤلاء أيضاً من فئة الكفار.

وإن من آمنوا بنبي أو رسول، وجحدوا نبوّة أو رسالة رسول آخر، فهم كفار، فرَّقوا بين الله ورسله في الإيمان، واتَّخذوا سبيلاً وسطاً بين الإيمان والكفر، واخترعوا ديناً مبتدعاً بين الأديان، إنهم هم الكافرون الكاملون في الكفر، الراسخون في الضلال، فالدين دين الله، وما يقرّه الله فهو الحق، وما يبطله فهو الباطل، ولو كان هؤلاء مؤمنين حقّاً بما أمر الله به، لما أوجدوا هذه التفرقة ولا تلك الضلالة، وأعتد الله وهيّأ للكافرين جميعاً من هؤلاء وأمثالهم عذاباً فيه ذلّ وإهانة لهم في الدنيا والآخرة، جزاء كفرهم.

يتبين من هذا أن الكفر بالرسل نوعان: كفر بجميع الرُّسل، وأصحابه لا يؤمنون بأحد من الأنبياء، لإنكارهم النُّبوات، وكفر ببعض الرُّسل دون بعض، وكلا

الفريقين سواء في استحقاق العذاب، فمن آمن برسول وجب عليه الإيمان ببقية الرُّسل؛ لأن الإيمان ليس بحسب الهوى والمزاج، وإنما بحسب ما يرتضيه الله، ومن كان محبّاً للناس، رحيماً بهم، حرص على سعادتهم وإيمانهم، لإنقاذهم من العذاب. ولا يتصور إيمان بالله، وكفر بالرُّسل كلهم أو بعضهم.

وأما أهل الإيمان: فهم الذين صدقوا وآمنوا بالله ورسله، ولم يفرِّقوا بين أحد من رسله إيماناً خالصاً لله سبحانه، كما قال جلَّ وعلا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥].

هؤلاء المؤمنون الصادقون في إيمانهم الذين آمنوا بالله ورسله جميعاً، ومنهم محمد ﷺ، وعدهم الله تعالى وعداً قاطعاً بجنان الخلد والرِّضوان الإلهي، وسوف يؤتيهم ربهم أجورهم كاملة يوم القيامة، وكان الله وما يزال غفوراً لمن يأتي بهفوة مع الإيمان الصحيح، رحيماً بعباده التائبين، حيث أرسل الله لهم الرُّسل لهدايتهم، وقبلوا عن الله ما أراده وما وضعه لهم من مناهج الإيمان لتحقيق سعادتهم الأبدية.

تعنُّت اليهود

التَّعنُّت والعناد شأن الذين يعرفون الحق والصواب، ثم يحيدون عنه، وهذا الوصف واضح في الكفار لا في المنافقين الجبناء الذين شأنهم التذبذب بين الكفر والإيمان دون استقرار على حال واحدة، فلا تعنُّت عندهم، وإنما يوصفون بالاضطراب والقلق.

وقد حكى القرآن الكريم بعض أخبار أهل التَّعنت والعناد، فقال الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ

فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ(١) فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ(٢) بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ(٣) وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا(٤) ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ(٥) بَلۡ طَبَعَ(٦) ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا(٧) عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾ [النساء: ٤/١٥٣-١٥٩].

نزلت هذه الآيات في ناس من أهل الكتاب طلبوا من النَّبي محمد ﷺ بعض المطالب التعجيزية، طلبوا منه أن يأتي بالألواح من عند الله كما أتى بها موسى، وأن يأتي بكتاب من السماء جملة، إن كان نبيّاً صادقاً وأن يصعد في السماء، وهم يرونه، فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدَّعيه على صدقه دفعة واحدة، كما أتى موسى بالتوراة، تعنُّتاً له ﷺ.

طالبوا النَّبي أن ينزل عليهم كتاباً مكتوباً بخط سماوي يشهد أن محمداً رسول الله، وكانوا قد سألوا موسى أعظم من هذا، فقالوا: أرنا الله جهرة عياناً، بلا حواجز ولا حُجُب، ظانِّين أن الله جسم محدود تدركه الأبصار.

وكان عقابهم على هذا الطلب المصحوب بالتعجيز والمراوغة: نزولَ الصاعقة التي أماتتهم، ثم أحياهم الله للعبرة والاتِّعاظ. وبعد هذا الإحياء اتَّخذوا العجل إلهاً من

(١) عياناً بالرؤية البصرية . (٢) نار نزلت عليهم من السماء . (٣) لا تعتدوا بالاصطياد فيه . (٤) عهداً وثيقاً بطاعة الله . (٥) مغطاة بأغطية لا تعي . (٦) ختم عليها . (٧) كذباً وافتراء .

بعدما رأوا الآيات الباهرة ومعجزات موسى الظاهرة من عبور الإسرائيليين البحر، وإغراق عدوّهم فرعون وجنوده، وانقلاب العصا حية، واليد البيضاء، وذلك سلطان مبين لموسى عليه السلام أي حجة ظاهرة، ثم عفا الله عنهم بما امتحنهم به من القتل لأنفسهم وقتل بعضهم بعضاً، حتى قيل لهم: كفّوا، فكان ذلك شهادة للمقتول، أي استشهاداً، وتوبة للحي.

وكان من عجائب أحوالهم وأساليب تأديبهم: أن الله تعالى رفع فوقهم جبل طور سيناء، كأنه ظلّة، وهم في واد، بسبب ميثاقهم أن يعملوا بالتوراة، فامتنعوا من التزام أحكام الشريعة، وأبوا إطاعة موسى عليه السّلام، فأجبروا على الطاعة قهراً، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط الجبل عليهم. وأمروا أن يدخلوا باب بلدة سجّداً طائعين خاضعين، شكراً لله تعالى على نعمه وأفضاله، وهو نوع من سجدة الشكر التي فعلها كثير من العلماء، ورويت مشروعيتها عن نبيِّنا محمد ﷺ. وأوصاهم الله بالتزام حرمة يوم السبت، فلا يعملوا فيه عملاً دنيوياً، ولا يتجاوزوا حرمته، فخالفوا واحتالوا بحيلتهم المعروفة في صيد الأسماك، من طريق بناء الأحواض على شاطئ البحر ليبقى السمك محجوزاً فيها أثناء المدّ والجزر البحري. وأخذ الله عليهم ميثاقاً غليظاً: وهو ما جاء على لسان موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء بأنهم يأخذون التوراة بقوة ويعملون بجميع ما فيها، فخالفوا وعصوا وتحايلوا على ارتكاب ما حرم الله عليهم.

وقد عذَّبهم الله ولعنهم وأذلَّهم بمجموع عدة أمور: هي نقض ميثاق العمل بالتوراة، وكفرهم بآيات الله الدّالة على صدق أنبيائه، وقتلُهم الأنبياء بغير ذنب كزكريا ويحيى عليهما السلام، وقولهم: قلوبنا مغلفة بغلاف، فلا يصل إليها شيء من دعوة الأنبياء، ولكن الله ختم عليها فلا يصلها خير، ولا ينفذ إليها الإيمان،

وكفروا بعيسى عليه السّلام وبالإنجيل، واتّهموا أمه مريم البتول العذراء الطاهرة بالفاحشة، وزعموا أنهم صلبوا المسيح، وما صلبوه وما قتلوه ولكن شبّه لهم، وإنما أنجاه الله من أيديهم، وتوفّاه ورفعه إليه، والله قوي قاهر لا يغلب، حكيم في صنعه وتدبيره وتقديره، وظل الخلاف قائماً بين المحاولين لأخذه أهو عيسى أم غيره؟ وما من أحد من أهل الكتاب قبل موته إلا ليؤمنن بعيسى إيماناً صحيحاً لا انحراف فيه، ويعلم أنه نبي بشر، لكنه إيمان لا ينفع حينئذ، ويوم القيامة يشهد عيسى عليه السّلام على من كذبه أو وصفه بغير حقيقته.

تحريم الرِّبا وبعض الطَّيبات على اليهود

إن مصدر التشريع في الأديان ومنبع بيان الحلال والحرام هو واحد غير متعدد، وهو الله جلّ جلاله الذي يشرع لكل قوم ولكل زمان ومكان ما يناسب ويحقق مصالح العباد، وقد تتفق الشرائع الإلهية في بعض الأحكام وهي الأحكام الأساسية المتعلقة بأصول العقيدة والفضائل والأخلاق، كالإيمان بالله وحده لا شريك له، والصدق والوفاء بالعهد، وتحريم الظلم والرِّبا والكذب والغدر والخيانة، وقد تختلف الشرائع الإلهية في بعض الأحكام الجزئية، كتحريم بعض المطعومات على من قبلنا، وإباحتها في شرعنا، والمؤمن حقاً يؤمن بكل ما شرع الله وأنزل في كتبه على أنبيائه ورسله.

وهذا أنموذج من أحوال الوفاق والاختلاف بين الشرائع، قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ[1]

(١) أي أخصّ وأعني المقيمين الصلاة، وأمدحهم.

وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٠-١٦٢].

يخبر الله تعالى أنه بسبب ظلم الذين هادوا بما اقترفوا من آثام عظيمة، ومنكرات قبيحة، وبسبب صدِّهم الناس وأنفسهم عن اتِّباع الحق، حرَّم الله عليهم طيِّبات كانت حلالاً لهم، لعلهم يرجعون إلى جادة الاستقامة وطريق الهداية القويمة. لقد حرَّم الله عليهم كل ما له ظفر من الحيوانات كالإبل والأوز والبط، وحرَّم عليهم شحوم الأبقار والأغنام، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ(١) أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٦] أي إنما حرَّمنا عليهم ذلك، لأنهم يستحقون التحريم بسبب بغيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه.

ومن ألوان ظلمهم: صدُّهم أنفسهم وغيرهم من الناس عن الإيمان بالله، وعنادُهم وعصيانُهم موسى عليه السّلام، وأمرهم بالمنكر، ونهيهم عن المعروف، وكتمانهم البشارة بالنَّبي محمد ﷺ، وجحدهم أمره وإنكارهم رسالته.

ومن مظالمهم: أخذهم الرِّبا الذي نهاهم الله عنه على ألسنة أنبيائهم، والرِّبا: هو بيع الدرهم بدرهمين إلى أجل في المستقبل، ونحو ذلك مما هو مفسدة ومضرّة واستغلال، نهوا عن ذلك، فاحتالوا عليه بأنواع الحيل، وأكلوا أموال الناس بالباطل كالرّشاوى والخيانات وأنواع الغشّ والنّصب وغير ذلك مما لا مقابل له، كما قال الله تعالى يصفهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٢] والسُّحت: المال أو الكسب الحرام.

(١) أي الأمعاء.

وكان جزاؤهم على تلك المظالم وظلمهم أنفسهم وغيرهم: أن الله هيّأ لهم ولأمثالهم من الكافرين عذاباً مؤلماً ذا إهانة وذلّ في نار جهنم.

ثم استثنى الله تعالى من استحقاق العذاب فئة متنورة مؤمنة هم الراسخون في علم التوراة الذين اطَّلعوا على حقائق الدين، وتحققوا من أمر محمد عليه الصلاة والسلام وعلاماته، وآمنوا إيماناً صادقاً بالله، وبما أنزل إلى محمد وبقية الرُّسل الكرام قبله كموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وهي القرآن والتوراة والإنجيل، وصدقوا بالبعث بعد الموت وبالجزاء العادل على الأعمال، وأدّوا زكاة أموالهم للمستحقين، وأطاعوا أوامر ربّهم، وأقاموا الصلاة على وجهها الصحيح المشروع، تامة الأركان، مستوفية الشروط القلبية بالخشوع والاطمئنان، والشروط العضوية بممارسة الأركان القولية والفعلية، هؤلاء الموصوفون بما تقدم من الصفات وهي صفات المؤمنين إيماناً حقيقيّاً في هذا العالم، سيؤتيهم ربّهم أجراً عظيماً هو الجنة، لا يدرك حقيقته ووصفه إلا الله تعالى.

روى ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أن الآية: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ..﴾ أنزلت في عبد الله بن سلام، وأُسيد بن سَعْية، وثعلبة بن سَعْية، وأسد بن عبيد، حين فارقوا اليهود وأسلموا، أي دخلوا في الإسلام، وآمنوا بالقرآن وبما أرسل الله به محمداً ﷺ. ومنهم مخيريق أيضاً، كان هؤلاء من علماء اليهود وأحبارهم، وكان مخيريق غنياً كثير الأموال، أسلم وأوصى بأمواله للنّبي ﷺ، مات في غزوة أُحد. فرضي الله عن مواكب الإيمان، وفتيان الإسلام، وجند الحق والفضيلة والاستقامة إلى يوم الدين.

أسباب إرسال الرُّسل ووحدة رسالاتهم

إن أعظم هدية من الله تعالى على بني الإنسانية نعمتان جليلتان: وهما إنزال الكتب الإلهية، وإرسال الرُّسل، لإنقاذ الناس من ضلالاتهم، والأخذ بأيديهم وتوجيههم نحو طريق السعادة والنجاة والطمأنينة في عالم الدنيا والآخرة.

ومن البديهي أن تتّحد الكتب ورسالات الرُّسل والأنبياء؛ لأن مصدرها واحد، ومهمتها واحدة، ومقاصدها واحدة، وهي إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته، والإرشاد لعبادته الصحيحة المخلصة لله سبحانه، والدعوة إلى أصول الأخلاق الكريمة والفضائل القويمة، وتصحيح المعاملات، وتنمية العلاقات الاجتماعية وجعلها سامية كريمة.

وهذا ما نبَّه إليه القرآن المجيد في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ[١] وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا[٢] ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النّساء: ٤/١٦٣-١٦٦].

رُوي عن عبد الله بن عباس: أن سبب هذه الآية (الأولى) أن سُكَيْناً الحبر وعَديّ بن زيد قالا: يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل على بشر شيئاً بعد موسى، ولا أوحى إليه، فنزلت هذه الآية تكذيباً لقولهما.

---

(١) أولاد يعقوب وأحفاده الاثني عشر . (٢) كتاباً للمواعظ .

وحقيقة الوحي الإلهي: عرفان يجده الشخص من نفسه، مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة. وقد أبانت الآيات أن الإيحاء لنبيِّنا محمد ﷺ مثل الإيحاء للأنبياء السابقين، كالمشهورين مثل نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب المسمى إسرائيل، والأسباط (وهم أولاد يعقوب وذريته) وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وداود الذي أنزل الله عليه كتاب الزّبور: وهو مئة وخمسون سورة ليس فيها أحكام، وإنما هي حكم ومواعظ وتمجيد وثناء على الله تعالى.

ومن هؤلاء الرسل المكرمين عند الله تعالى: موسى الذي خصّه الله بتكليمه وشرفه بكلامه مباشرة من غير واسطة، وذلك بكيفية وخواص، الله أعلم بها، فهو كلام دون تكييف ولا تحديد ولا تجويز حدوث ولا حروف ولا أصوات. وكلام الله هو المعنى القائم في النفس، و يخلق الله لموسى أو جبريل إدراكاً من جهة السمع يتحصل به الكلام، وكما أن الله تعالى موجود لا كالموجودات، معلوم لا كالمعلومات، فكذلك كلامه لا كالكلام المعهود المألوف بين البشر.

والرُّسل منهم من أخبر الله نبيّه محمداً ﷺ بأسمائهم ومعجزاتهم ومنهم من لم يخبره بشيء عن سيرتهم وزمانهم ومكانهم.

ومهمة الرُّسل والأنبياء واحدة هي تبشير من آمن بالله وأطاع بالجنة، وإنذار من كفر وعصى بالنار. والحكمة من إرسالهم إرشاد الناس إلى طريق الحق والإيمان والاستقامة، وأراد الله تعالى أن يقطع بالرسل احتجاج من يقول: لو بُعث إلي لآمنت، والله تعالى عزيز لا يغالبه شيء، ولا حجة لأحد عليه، وهو مع ذلك حكيم تصدر أفعاله عن حكمة بالغة، يضع الشيء في موضعه المناسب، فلذلك تحقق بهذا الإرسال للرُّسل قطع الحجة، وكان إرسال الرُّسل حكمة من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ..﴾ سببه قول اليهود: (ما أنزل

الله على بَشَر من شيء) وقال بعضهم لمحمد عليه الصلاة والسلام: ما نعلم يا محمد أن الله أرسل إليك ولا أنزل عليك شيئاً، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾. كفى بشهادة الله وشهادة ملائكته على صدق إنزال القرآن على النَّبي محمد ﷺ، أنزله الله بعلمه الخاص الذي لا يعلمه سواه، كما قال سبحانه في مطلع سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢/٢]. وهو الذي تحدى الله به البشرية أن يأتوا بمثله فعجزوا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٨٨]. وقوله سبحانه: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ دليل قاطع واضح على إثبات علم الله تعالى، فهو يعلم إنزال القرآن ونزوله، وعجيب قول المعتزلة: عالم بلا علم، ومعنى الآية عندهم: أنزله مقترناً بعلمه، أي فيه علمه من غيبيات وأوامر ونحو ذلك، فالعلم عندهم: عبارة عن المعلومات التي في القرآن.

ضلال الكافرين وجزاؤهم

ليس في هذا العالم بالنسبة للهدي الإلهي إلا طريقان: طريق الضلال والكفر، وطريق الهداية والإيمان، فمن سلك طريق الضلالة فَقَدَ رُشْدَهُ ودمر نفسه، ومن أخذ بطريق الهداية وآمن بما أنزل الله على رسله الكرام، سار في منهج صحيح، وأعمل عقله وفكره السوي، وأنقذ نفسه من أخطر العواقب الوخيمة.

وحرصاً من الله تعالى على مصلحة عباده، وحبّاً لهم وإرادة لجلب الخير لأنفسهم، أنذر الضّالين المنحرفين بالعذاب الشديد، ودعا إلى الإيمان الصحيح برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين.

قال الله تعالى منذراً ومبيِّناً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء: ٤/١٦٧-١٧٠].

أخبر الله تعالى عن الكافرين الذين يصدّون عن سبيل الله: أنهم قد بعدوا عن الحق، وضلّوا ضلالاً بعيداً عن الصواب، لا أمل في رجوعهم عنه، ولا تخلصهم منه، إنهم بكفرهم وجحودهم بالله ورسوله، وصدهم أنفسهم وغيرهم عن ساحة الإيمان، ومقاومتهم لسبيل الدعوة الصحيحة إلى الله، إنهم بهذا أخطؤوا الطريق.

وهم أيضاً ظلموا أنفسهم باتباعهم الشيطان ووضعهم الشيء في غير موضعه، وهو الكفر بالله وجحود نعمته عليهم، سواء النعمة الظاهرة أو الباطنة.

لقد صاروا بكفرهم وصدّهم عن سبيل الله وظلمهم أنفسهم في وضع سيء، وفي شأن وحال لم يكن الله تعالى ليغفر لهم، فالله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. واستحقوا بإصرارهم على كفرهم ألا يهديهم الله ولا يوفقهم إلى خير أبداً؛ لأنهم ملؤوا أنفسهم وقلوبهم بظلام الكفر والضلال، حتى لم يعد يتسع للنور والهداية الإلهية.

ولا يوفقهم ويدلّهم إلا على طريق جهنم الذي سلكوه، فكانوا في النار خالدين فيها أبداً على الدوام، جزاء ما قدموا من أعمال قبيحة، وما اختاروا في حياتهم من سلوك دروب الغواية والانحراف، وكان إدخالهم جهنم أمراً هيناً وسهلاً ويسيراً كل اليسر على الله تعالى، فلا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء، ولا يبالي الله بهم، كما ورد في الحديث عند البخاري: «يذهب الصالحون، الأول فالأول، ويبقى

حُفالة كَحُفالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله بالة» والحفالة: النفاية والرديء من كل شيء، والبالة: المبالاة.

وبعد هذا الإنذار الشديد لأهل الضلالة وبيان جزائهم، دعا القرآن إلى الإيمان الحق، تذكيراً للناس، وهذا من أسلوب القرآن الذي يقرن بين الأشياء المتعارضة، وبضدّها تتميز الأشياء. والدعوة إلى الإيمان عامة شاملة للناس جميعاً دون تمييز ولا تعصب ولا انغلاق، وإنما بانفتاح ومحبة الخير للجميع. ومضمون هذه الدعوة:

يا أيها الناس جميعاً، قد جاءكم الرسول محمد بالقرآن والحق والخير والهدى والفلاح، فآمنوا برسالته، يكن الإيمان خيراً لكم؛ لأنه يزكيكم ويطهركم من الأدناس والأرجاس، ويرشدكم لما فيه السعادة في الدنيا والآخرة، والحق الذي أتى به محمد من ربّه: هو القرآن المعجز، والدعوة إلى عبادة الله وحده، والإعراض عن غيره.

وإن تكفروا أيها الناس، فإن الله غني عنكم وعن إيمانكم، وقادر على عقابكم، ولا يتضرر بكفرانكم، فإن لله جميعَ ما في السماوات والأرض ملكاً وخلقاً وتصريفاً وعبيداً، وشأن العبيد الخضوع لحكم الله، وأمره، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: ١٤/٨].

والله تعالى معذبكم ومجازيكم على كفركم في الآخرة. فليس وراء الموت إلا الجنة أو النار، والله سبحانه عليم بشؤون خلقه، حكيم في صنعه، لا يحكم إلا بالحق والعدل، ولا يجازي إلا من ظلم وكفر، وعصى وجحد.

أوصاف المسيح في القرآن

ينبغي أن تسود في الوسط العلمي الحقائق العلمية المجردة، دون تميز ولا تعصب ولا تأثر بميراث معين، ولقد أبرز القرآن المجيد الحقائق في كل شيء، سواء ما يتعلق منها بأصول العقيدة، وإنزال القرآن، أم ما يتصل بالأحكام الشرعية، والوقائع التاريخية، إظهاراً للحق، وبياناً للصدق والواقع.

وهذا هو شأن القرآن العظيم في تبيان أوصاف المسيح عيسى ابن مريم عليه السّلام، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ(١) فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ(٢) ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٧١-١٧٣].

يطالب القرآن الكريم أهل الكتاب بترك المغالاة في الدين وتجاوز الحدود فيه، وألا يقولوا على الله إلا القول الحق الثابت الموافق للواقع، فما المسيح عيسى ابن مريم إلا رسول مرسل من عند الله إلى بني إسرائيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويأمرهم بعبادة الله وحده، ووجود المسيح إنما كان بكلمة من الله التكوينية وهي (كن) لا بمادة أخرى كبقية الناس، ألقاها الله سبحانه إلى مريم الطاهرة البتول القديسة، وهو البشارة التي بُعث المَلَك بها إليها، ونفخ الله فيه الروح من عنده، فهو

(١) لا تتجاوزوا الحدّ. (٢) لن يترفّع.

من جملة مخلوقات الله، ونفخة من الله، بواسطة جبريل عليه السلام، لا جزءاً ولا بعضاً من الله تعالى، ووُصف بهاتين الصّفتين (كلمة الله وروح منه) على وجه التشريف والتكريم، وهو مجرد رسول كبقية الرُّسل الكرام، علماً بأن جميع البشر من روح الله.

فآمنوا أيها الناس بالله تعالى وحده، وبرسله جميعاً دون تفرقة، فهم جميعاً عبيد لله، لهم مهام وخصائص، فوضهم الله بها لتبليغها إلى الناس من أجل إسعادهم وتوضيح طريق الحق والهداية لهم.

ولا تقولوا: الله ثالث ثلاثة، أو الآلهة ثلاثة أو أكثر، إنما الله خالق الكون والمخلوقات إله واحد، تنزه وتعاظم وتقدّس أن يكون له ولد، فهو الواحد الفرد الصّمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وهو مالك السماوات، والأرض وما فيهما، الكل ملكه وخَلْقه، وجميع ما فيهما عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء وقدير، وبيده سلطان كل شيء، لا فرق في ذلك بين الملائكة والنَّبيين أجمعين، وكفى بالله سبحانه متصرفاً في هذا العالم ومهيمناً عليه.

لن يتكبر أو يأنف المسيح أن يكون عبداً من عباد الله، ولا عن العبودية لله، ولا عن عبادة الله وحده، لعلمه بعظمة الله، وما يستحقه من العبودية والشكر، وكذلك الملائكة المقرَّبون لن يترفَّعوا عن أن يكون أحدهم عبداً لله تعالى. ومن يتكبر عن عبادة الله، ويمتنع من طاعة الله، فسيجمعهم الله جميعاً في المحشر يوم القيامة، ويعذبهم عذاباً مؤلماً شديداً في النار حسبما يستحقون، ولا يجدون لهم من غير الله تعالى ناصراً ينصرهم أو يمنعهم من بأس الله وعذابه.

وأما المؤمنون بالله ورسله، الذين يعملون الأعمال الصالحة وهي التي أمر الله بها، فيعطيهم أجورهم وثواب أعمالهم كاملة غير منقوصة، على قدر أعمالهم،

ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه، ورحمته وامتنانه، فهو سبحانه واسع الفضل والرحمة، كثير الخير والمنّة والنعمة، وهو ولي التوفيق.

التَّمسك بالنّور المبين

تعددت ألوان الهداية للبشرية في القرآن الكريم، فهناك في آية سابقة هداية التوفيق والإرشاد إلى الإيمان الصحيح المأمور به في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النساء: ٤/ ١٧٣].

وفي هذه الآية التالية هداية طريق الجنان، بالتَّمسك بالنّور المبين: وهو القرآن المجيد. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٧٤-١٧٥].

أوضح الله تعالى للناس قاطبة في هاتين الآيتين طريق الإنقاذ والنجاة، وأخبرهم أنه قد جاءهم برهان واضح وحجة نيِّرة تعطي اليقين التام، وتبين حقيقة الإيمان بالله، وهو النَّبي محمد ﷺ النَّبي العربي الأُمّي، الذي لم يتعلّم في مدرسة ولا جامعة، ولكن الله سبحانه أعدّه إعداداً خاصّاً لتبليغ أعظم رسالة في الوجود إلى كل إنسان.

ومعنى الآية: لقد جاءكم أيها الناس محمد مقترناً ببرهان من الله تعالى على صحة ما يدعوكم إليه، وفساد ما أنتم عليه من النِّحَل الدينية والملل الوثنية. وذلكم البرهان الإلهي على صدق دعوته هو القرآن الكريم، أو هو النَّبي محمد نفسه، والقرآن هو النّور المبين، أي الضياء الواضح على الحق، فيه بيان كل شيء، وهو الواعظ الزاجر، الناهي الآمر.

جاء هذا القرآن لتصحيح العقيدة والنظام، فقرَّر مبدأ التوحيد الخالص لله،

وحارب الوثنية والشِّرك، وأبان زيف الديانات الشائعة، وأوضح طريق العبادة الصحيحة لله تعالى، ووضع أسس الأخلاق وأنظمة الحياة الرشيدة في السياسة والاقتصاد، والحرب والسِّلم، والاجتماع والحضارة والعمران وعلوم الكون، فكان القرآن المحكَمُ التَّنزيل بهذه الشرائع برهاناً واضحاً للنَّبي ﷺ على كون رسالته رسالة الحق، ودينِه دين الحق الذي لا معدل عنه ولا مثيل له.

وكانت هذه المقومات لكتاب الله الخالد سبباً في إيجاد أنموذج واضح لأمة الإيمان ومواكب المؤمنين في العالم. وإذا كان الله تعالى قد أوعد بالنار والعذاب الأليم في آية سابقة كل من كفر به وجحد بتعاليمه، فإنه في هذه الآية: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ..﴾ وعد المؤمنين بالله، المعتصمين به، المتمسكين بالقرآن دستوراً ومنهج حياة بإدخالهم جنان الخلد وإحاطتِهم برحمة الله، وإسباغ الفضل العظيم عليهم، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم والمنهج القويم في الحياة، فمن يعمل بالقرآن وأحكامه وشرائعه، فاز بالسعادة الأبدية، وكانت له العزّة الكاملة في الدنيا، وتمتع في الآخرة بالجنة والرِّضوان الإلهي، والسلامة من كل سوء أو مكروه.

والمراد بالبرهان العظيم من الله لعباده: هو محمد ﷺ ، وسمي برهاناً؛ لأن معه البرهان وهو المعجزة أو الحجة، فإن معجزاته كلها حجة نيِّرة واضحة على صدق رسالته واليقين التام بصحة دعوته.

والنور المبين: أهم معجزات النَّبي ﷺ وهو القرآن الكريم، وسمي نوراً؛ لأن به تتبين الأحكام التشريعية السديدة، ويهتدى به من الضلالة، فهو نور مبين، أي واضح بيِّن مشرق كالشمس، قال النَّبي ﷺ مفسِّراً ذلك فيما ورد في كنز العمال ورواه الترمذي عن علي رضي الله عنه: «القرآن حبل الله المتين، من تمسك به عُصم».

والاعتصام بالله: هو التمسك بما دلَّ عليه، والاعتزاز به، وطلب النجاة والمنعة به، فهو سبحانه يعصم من الأخطاء والمعاصي كما تعصم المعاقل والحصون.

والمراد بالرحمة في قوله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ : الجنة، وأما الفضل: فهو ما يتفضل به الله على المؤمنين في الجنة من النعيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

والهداية إلى الصراط المستقيم: هي هداية طريق الجنان، والهداية إلى هذا الفضل الإلهي العميم كما قال تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾. جعلنا الله تعالى ممن يظفرون برحمته وفضله وجنّته، ومن الموفقين إلى طريقه القويم.

ميراث الكلالة أو الإخوة

لقد أنزل الله تعالى في أوائل سورة النِّساء وأواخرها نظاماً مفصّلاً للميراث، فيه الحق والخير والعدل، يعتمد على قوة القرابة من نسب وزواج، والنَّسب يشمل الآباء والأجداد، والأبناء والبنات، والإخوة والأخوات، والأعمام وأولادهم والعمات، والأخوال والخالات. ورابطة الزوجية تقتصر على الزوجين: الرجل والمرأة. وفي آخر سورة الأنفال بيان ميراث ذوي الأرحام.

قال الخطابي: أنزل الله في الكلالة آيتين: إحداهما في الشتاء وهي التي في أول سورة النِّساء وفيها إجمال وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ [النساء: ٤/ ١٢] ، ثم أنزلت الأخرى في الصيف، وفيها كمال البيان، وقيل: إنها من آخر الآيات نزولاً، وهي قوله تعالى:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ(١) إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا

(١) الميت، لا ولد ولا والد .

نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾ [النساء: ٤/ ١٧٦].

روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السُّنن عن جابر بن عبد الله قال: «دخل علي رسول الله ﷺ ، وأنا مريض لا أعقل، ثم صبَّ علي فعقلت، فقلت: إنه لا يرثني إلا كلالة[1]، فكيف الميراث؟ فنزلت آية الميراث» يريد هذه الآية. وفي رواية: اشتكيت، فدخل علي رسول الله ﷺ وعندي سبع أخوات.

وكان أمر الكلالة عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه مشكلاً، فقال: «ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء مراجعتي إياه في الكلالة، ولوددت أن رسول الله ﷺ لم يمت حتى يبيِّنها» وقال على المنبر -فيما أخرجه ابن ماجه وعبد الرزاق والطيالسي والبيهقي والحاكم والسعدني والساجي وابن جرير- : «ثلاث لو بيَّنها رسول الله ﷺ لكان أحب إلي من الدنيا: الجد والكلالة والخلافة، وأبواب من الرِّبا».

ومعنى هذه الآية، وهي آية الصيف، : يطلب الفتيا منك أيها الرسول أناس فيمن يورث كلالة، وهي ما عدا الوالد والولد، أي الإخوة الأشقاء أو لأب والأخوات الشقيقات أو لأب، كجابر بن عبد الله الذي لم يكن له عند وفاته والد ولا ولد، وإنما له إخوة أشقاء من أب وأم، وهم عصبات لم يفرض لهم شيء من فرائض الإرث، فإن كان للمتوفى أخ لأُم فقط، فنصيبه السُّدس، وإن زاد عن ذلك فكانوا إخوة لأُم، فنصيبهم الثُّلث فقط كنصيب الأُم، سواء كانوا، اثنين فأكثر، وقد تقدَّم بيان نصيبهم في الآية (١١) من أوائل سورة النِّساء.

(١) أي إخوة وأخوات .

وإن كان للمتوفى أُخت شقيقة أو لأب، فلها نصف التّركة (ما ترك) مع عدم الولد، والرجل يرث أخته بالتّعصيب إن لم يكن لها ولد ذكر أو أنثى، وهو يستغرق جميع التّركة إن كان أخاً شقيقاً أو لأب، فإن كان أخاً لأُم، فلا يستغرق الميراث، وإنما فرضه السُّدس.

فإن كان للمتوفى أُختان فأكثر شقيقتان أو لأب، فلهما الثُّلثان مما ترك أخوهما، أما الأُختان لأُم فأكثر فلهما الثُّلث فقط، والباقي لمن يوجد من العصبة.

وإن كان الإخوة الوارثون ذكوراً وإناثاً، فللذكر مثل حظّ الأُنثيين، أما الإخوة لأُم فهم شركاء في الثُّلث.

ثم أبان الله تعالى سبب هذا التوزيع وقيامه على الحق والعدل، فذكر أنه سبحانه يبين لكم أيها المؤمنون أمور دينكم وجميع الأحكام الشرعية من حلال وحرام، لتعرفوها وتعملوا بها، لئلا تضلّوا عن الحق بعد البيان في قسمة التّركات وغيرها، وإن ما شرعه الله لكم من الأحكام فيه الخير والمصلحة لكم، وهو صادر عن علم واسع لله، فيكون بيانه حقّاً، وتعريفه صدقاً، فعليكم الالتزام بهذه الأحكام؛ لأنها قائمة على الحق والخير والبركة لكم، وتقدير مسؤولية الرجال في الإنفاق على النِّساء والأسرة، دون أن تطالب المرأة بشيء من النَّفقات.

ألا إن الهدى والخير فيما شرعه الله، والضلال والشَّرّ في الإعراض عن شرع الله، والله على كل شيء رقيب.

تفسير سورة المائدة

الوفاء بالعقود

من أهم وأخطر ما تميزت به شريعة القرآن: هو الوفاء بالعقود والعهود مع الناس ومع الله، وتعظيم شعائر الله وأحكامِه وحرماتِه، فذلك دليل الأصالة والقوة والشجاعة والثقة بالنفس، ولم يسوغ الشّرع نقض عقد أو عهد حتى مع الأعداء، احتراماً للالتزام والمعاهدة، وليكون المؤمنون قدوة حسنة للبشرية في صيانة المعاهدات واحترام العقود. قال الله تعالى في مطلع سورة المائدة المدنية النزول، أي النازلة بعد الهجرة في حجة الوداع، أو في عام فتح مكة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ(١) أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ(٢) إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ(٣) وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ(٤) إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ(٥) وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ(٦) وَلَا ٱلۡهَدۡيَ(٧) وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ(٨) وَلَآ ءَآمِّينَ(٩) ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ(١٠) قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: ٥/ ١-٢].

---

(١) بالعهود المؤكدة ومنها عقود المعاملات . (٢) الإبل والبقر والغنم والمعز . (٣) غير مستحلّين .
(٤) محرمون بحج أو عمرة . (٥) لا تنتهكوا مناسك الحج . (٦) الأشهر الأربعة الحرم . (٧) ما يهدى من الأنعام للحرم . (٨) ما يقلّد به الهدي . (٩) قاصدين . (١٠) لا يحملنكم بغضهم .

نادى الله المؤمنين بصفة الإيمان ليحثّهم على امتثال ما يكلفهم به، قائلاً: يا من اتّصفتم بالإيمان وتركتم دعاوى الشيطان أوفوا بالعقود، سواء عقود الشّرع من حلال وحرام وفرائض، وعقود الناس بعضهم مع بعض من عقود البيع والمعاملات وعقود الزواج وغير ذلك، لقول النَّبي ﷺ فيما رواه الحاكم عن أنس وعائشة: «المسلمون عند شروطهم» فيجب الوفاء بالعهود والعقود على حسب الشروط المتفق عليها ما لم تصادم أوامر الشرع، وتشمل العقود كل الارتباطات بقول موافق للحق والشرع.

ومن هذه العهود المأخوذة علينا من الله، وهي نِعَم من الله: إحلال جميع بهائم الأنعام من إبل وبقر وغنم إلا ما يتلى عليكم من المحرمات العشر الآتية، وغير سِباعِ البهائم وكل ما له ناب يعتدي به على غيره، وكل ما له مخلب من الطيور، حال كونكم غير محلِّي الصَّيد البري في أثناء الإحرام بحج أو عمرة، فيحرم الصيد في الإحرام، ويحرم في الحرَمَيْن: المكّي والمدني، ولو في غير حالة الإحرام، إن الله يحكم ما يريد من الأحكام، ويعلم أنه حكمة ومصلحة.

وقد نزلت آية ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ حينما عزم نفر من المهاجرين والأنصار على الاعتداء على الْحُطَم بن هند البكري الذي قدم المدينة، فبايع النَّبي ﷺ وأسلم، ثم ارتدَّ عن الإسلام لما قدم اليمامة.

ونزلت آية ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ..﴾ عام فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة حينما كان النَّبي ﷺ بالحديبية في السنة السادسة مع أصحابه، فصدَّهم المشركون عن البيت الحرام، فمرَّ بهم أناس من المشركين من أهل المشرق، يريدون العمرة، فقال الصحابة: نصدّ هؤلاء، كما صدّوا أصحابنا.. فقيل للمؤمنين عام الفتح وهو سنة ثمان: لا يحملنّكم البغض من أجل أن صدّوكم على أن تعتدوا عليهم.

ومعنى الآية: يا أيها المؤمنون بالله ورسوله لا تحلّوا معالم الله، ولا تتعدّوا حدود الله وطاعاته في أمر من الأمور، و بخاصة مناسك الحج ومشاعره، فلا تتهاونوا بحرمتها، ولا تخلّوا بأحكامها، ومكّنوا جميع المسلمين من أداء مناسك الحج. فالمراد بشعائر الله: مناسك الحج، وجميع ما أمر الله به أو نهى عنه، وما حَدَّ تحريمه في الإحرام.

ولا تنتهكوا بالقتال والعدوان حرمة الأشهر الحرم، وهي أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم ورجب، فلا تقاتلوا المشركين فيها، ولا تبدِّلوها بغيرها، كما كان العرب يفعلون في الجاهلية من عملية النَّسِيء، أي تأخير حرمة شهر حرام إلى غيره، ولا تُحْدِثوا في أشهر الحج ما تصدّون به الناس عن الحج. ولا تعترضوا الهدي (الشاة ونحوها) المهدي للحرم أو المسوق له، بالغصب أو الأخذ، أو المنع من بلوغ محلّه، حتى لا يصل إلى الكعبة. وسمي شهراً حراماً لتحريم القتال فيه في الماضي.

ولا تنتهكوا حرمة ذوات القلائد: وهي ما قُلِّد به الهدي مما يعلق في عنق البعير ونحوه من قلادة ليعلم أنه هدي، فلا يتعرَّض له، وذلك يشمل الهدي المقلّد والذي لم يقلّد. ولا تحلّوا حرمة قوم قاصدين المسجد الحرام فتغيروا عليهم، حالة كونهم يطلبون من الله الفضل، أي الرزق والثواب، والرضوان، أي رضا الله عنهم. وإذا فرغتم من إحرامكم وحللتم منه، وأنتم في غير أرض الحرم، جاز لكم ما كان محرَّماً عليكم في حال الإحرام وهو الصيد، فاصطادوا حينئذ كما تشاؤون. ولا يحملنكم بغض قوم وكراهيتهم، كانوا قد صدّوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية، على أن تتعدوا حكم الله، فتعتدوا عليهم. وتعاونوا على البر: وهو كل ما أمر به الشَّرع أو نهى عنه، ولا تتعاونوا على الإثم، أي الذنب والمعصية: وهي كل ما منعه الشرع، واتَّقوا الله بفعل ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، إن الله شديد

العقاب لمن عصى وخالف. والبر والتّقوى كما قال قوم: هما لفظان بمعنى واحد، وكرر باختلاف اللفظ تأكيداً ومبالغة، إذ كل برّ تقوى، وكل تقوى برّ.

المحرَّمات العشر من المطعومات

لم يشرع الله شيئاً في القرآن الكريم إلا لمصلحة الناس، فلم يبح الشرع أو يوجب إلا النافع المفيد، ولم يحرم إلا الضّار الخبيث ضرراً مادّياً محسوساً أو معنوياً يمسّ العقيدة. وقد أحلَّ الله لنا من المطعومات أكل بهيمة الأنعام (المواشي) وسائر الطيبات من الحيوان الذي يعيش في البر والبحر والجو، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٧] وقال سبحانه: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: ٥/ ١].

وحرَّم الله علينا أربعة أنواع بالإجمال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾ [النّحل: ١٦/ ١١٥] وفي سورة المائدة ذكر الله بالتفصيل عشرة أنواع من المحرمات، قال الله تعالى:

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ(١) وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ(٢) وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ(٣) وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ(٤) وَٱلنَّطِيحَةُ(٥) وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ(٦) وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ(٧) وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ(٨) ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ(٩) ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ(١٠) غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ(١١) فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣﴾ [المائدة: ٥/ ٣].

(١) ما ذكر عليه اسم غير الله. (٢) الميتة بالخنق. (٣) الميتة بالضرب. (٤) الميتة بالسقوط من علو. (٥) الميتة بالنَّطح. (٦) ما ذبحتم وهو في حال الحياة. (٧) حجارة الأصنام حول الكعبة. (٨) تطلبوا معرفة المقسوم لكم بالقداح المُعْلَمة. (٩) خروج عن طاعة الله إلى معصيته. (١٠) الجوع في مجاعة شديدة. (١١) مائل إليه عمداً.

روى ابن منده في كتاب الصحابة عن حِبّان قال: كنا مع رسول الله ﷺ ، وأنا أوقد تحت قدر فيها لحم ميتة، فأُنزل تحريم الميتة، فأكفأت القدر.

والمحرمات العشر المذكورة تفصيلاً وتفسيراً لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هي ما يأتي:

١- الميتة: وهي ما مات من الحيوان حتف أنفه، من غير ذبح ولا اصطياد، وقد حرَّم الشّرع أكلها، لما فيها من ضرر أو مرض، أو احتباس الدم فيها، وتعافها النفس وتنفر منها وتأنف من أكلها، فهي ضارّة للبدن والدين، ما عدا ميتة السمك والجراد لعدم وجود الدم فيهما.

٢- الدّم: وهو الدّم المسفوح السائل، لا الجامد كالكبد والطحال، وتحريم الدّم؛ لأنه مباءة تفريخ وتكاثر الجراثيم الفتاكة والسموم الضّارة، كما أنه مستقذر طبعاً، وعسر الهضم، ومن فضلات الجسم الضّارة كالبراز، ولاختلاف فصائل أو زمر الدّم، ولا تناسب فصيلة غيرها، فهو قذر يضرّ الأجسام.

٣- لحم الخنزير وشحمه وجلده وعظمه، وتحريمه لأنه حيوان قذر لا يأكل إلا القاذورات والفضلات العفنة، ولأنه يحتوي غالباً على الديدان كالدودة الوحيدة والشعرة الحلزونية والدودة الشريطية، ولأنه عسير الهضم لكثرة شحم أليافه العضلية ومواده الدهنية، كما أنه ينقل طباعاً سيئة مثل فقدان الغيرة على أنثاه. والكلب مثل الخنزير حرام أكله عند أكثر العلماء لما فيهما من الضّرر والخطر.

٤- ما أُهِلَّ لغير الله به، أي ما ذبح وذكر عليه اسم غير الله، والإهلال: رفع الصوت، وكان العرب في الجاهلية يرفعون صوتهم عند الذبح باسم اللات والعزى وهُبَل وغيرها من الأصنام، وقد حرّم الشرع أكله لمساسه بالعقيدة، وتعظيم غير الله، ومشاركة المشركين والكفار في عبادة غير الله، والتقرب لآلهتهم بالذبائح.

٥- المنخنقة: وهي التي تموت خنقاً: وهو حَبْس النَّفَس في الحلقوم، فهي نوع من الميتة، وضررها ضرر الميتة؛ لأنها لا تذبح، والتذكية الشرعية شرط لحلِّ المذبوح.

٦- الموقوذة: وهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد كالعصا أو الحجر أو الحصاة حتى تموت بلا ذكاة شرعية، فهي ميتة وضررها كالميتة. والوقذ حرام؛ لأنه تعذيب للحيوان. أما المقتول بالسلاح أو الرصاص فيجوز أكله شرعاً على الصحيح.

٧- المتردِّية: هي ما سقطت من مكان عالٍ كجبل أو سطح، أو الهاوية، في بئر، فتموت بذلك، فلا تحل كالميتة إلا أن تذكى أي تذبح، فإن عقرت في البئر في أي مكان من جسمها، حلّ أكلها للضرورة.

٨- النّطيحة: وهي التي نطحتها بهيمة أخرى، فماتت، وهي حرام كالميتة.

٩- ما أكل السَّبع: وهي التي افترسها حيوان كالذئب والنّمر والسّبع، فتموت، فلا تؤكل لأنها ميتة، وتأنفها الطّباع. لكن ما أدركتموه حيّاً بطرف عين أو رفس رجل أو يد مما سبق من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنَّطيحة وأكيلة السَّبع، فذبحتموه، جاز أكله شرعاً.

١٠- ما ذبح على النُّصب، أي الحجارة التي كانت حول الكعبة، وكان عددها ٣٦٠ حجراً أي صنماً، لا يؤكل، لأنه مما ذكر اسم غير الله عليه.

وحرم الله الاستقسام بالأزلام أي العيدان أو قداح الميسر على هيئة السهم الذي لا نصل فيه، وهو الذي يجرح الصيد، وهو محاولة معرفة الحظ أو القمار على بعير ونحوه، وهو حرام لأنه كسب يعتمد على المغامرة والمقامرة، لذا وصفه الشَّرع بأنه فسق، كما أن كل هذه المحرَّمات فسق أيضاً، أي خروج عن منهج الدين. وعلى المؤمنين التَّقيُّد بحرمات الدين وخشية الله وترك خشية الكفار، فإنهم يئسوا من أن ترجعوا إلى دينهم.

والله سبحانه أكمل لنا الدين، وهو الإسلام، بإحلال الحلال وتحريم الحرام وبيان الشرائع والأحكام، ورضي الله بالإسلام ديناً للبشرية، وأتم علينا النِّعمة بالنَّصر على المشركين، وقد نزلت هذه البشارات الثلاث يوم عرفة.

ومن اضطرّ إلى تناول شيء من المحرَّمات المذكورة، فله أن يأكل منها إذا لم يوجد غيرها، وتعرَّض لخطر الموت أو الهلاك جوعاً بسبب المخمصة أي المجاعة، ولم يتجاوز قدر الضرورة، والله غفور له، رحيم بخلقه.

المطعومات الحلال وإباحة الزواج بالكتابيات

جعل الله الإسلام ديناً سمحاً سهلاً غير معقَّد ولا صعب، فأحلَّ لنا كثيراً من الأشياء، ولم يحرِّم علينا إلا القليل، فالأصل في الأشياء الإباحة، أحلَّ الله الطَّيبات النافعة غير المحرَّمات العشر المتقدمة وغير المستخبثات، وأباح لنا ما تقتضيه الضرورة أو الحاجة في الاصطياد بالكلاب المعلَّمة والطيور الجارحة المروَّضة، وأقام جسوراً من التلاقي وهمزة الوصل بين المسلمين وأهل الكتاب (اليهود والنَّصارى) فأجاز لكل فريق تناول طعام الفريق الآخر، وأباح الزواج بالنِّساء المؤمنات، والكتابيات الحرائر العفيفات بشرط دفع المهر.

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ[١] مُكَلِّبِينَ[٢] تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ[٣] وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ

---

(١) التي تجرح بأنيابها من السِّباع، وبمخالبها من الطيور. (٢) المكلب: معلِّم الكلاب الصيد ومُضْريها، ويقال أيضاً لمن يعلِّم غير كلب. (٣) هذا إشارة إلى الزمن والأوان، وهو إباحة ما تستطيبه النفس.

وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ(١) مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ(٢) مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ(٣) وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ(٤) وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ(٥) فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ(٦) وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾ [المائدة: ٥/ ٤-٥].

نزلت الآية الأولى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ حينما سأل عاصم بن عدي، وسعد بن خيثمة، وعويم بن ساعدة، فقالوا: يا رسول الله، ماذا يحلّ لنا من هذه الكلاب؟ بعد أن أمر النّبي ﷺ بقتل الكلاب، وكان أبو رافع هو المتولّي لقتلها. وسأل عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيان رسولَ الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله، قد حرَّم الله الميتة، فماذا يحلُّ لنا؟ فنزلت الآية. وسأل رجل عن صيد الكلاب، فنزلت هذه الآية: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾.

والمعنى: يسألك المؤمنون أيها الرسول عما أحلَّ لهم من المطاعم واللحوم، قل لهم: أحلَّ لكم ما تستطيبه النفوس السليمة الفطرة، وهي غير الخبائث، قال الإمام الشافعي: الطيّبات: الحلال المستلَذّ، وكل مستقذر كالوزغ والخنافس وغيرها فهي من الخبائث حرام.

وأحلَّ لكم صيد الجوارح المعلَّمة، كالكلاب والفهود، والبزاة والصقور والعقبان والنُّسور ونحوها من الطيور، فكل ما صاد بعد تعليم فهو جارح، أي كاسب. تعلِّمونهن من الحيلة في الاصطياد والتّأني لتحصيل الحيوان، وهذا جزء مما علَّمه الله الإنسانَ. ويجوز الأكل من الصيد الذي أمسكه الكلب ونحوه، قال عدي بن حاتم: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال في الحديث المتفق عليه بين أحمد والشيخين: «إذا أمسك عليك فكُلْ». وذلك بشرط أن تكون الكلاب الجوارح

---

(١) العفائف الحرائر. (٢) مهورهن. (٣) متعفِّفين بالزواج غير مجاهرين بالزّنا. (٤) أي صديقات أو خليلات للزّنا سرّاً. (٥) ينكر شرائع الإسلام. (٦) بطل ثواب عمله.

والطيور معلَّمة، ومرسلة من الصائد لا من نفسها، حتى يكون قتل الجارح للصيد ذكاة شرعية، بأن ترسل الكلب أو الطير فيُرسَل، وتزجره فينزجر، وأن يذكر الصياد اسم الله فيقول: (باسم الله، الله أكبر) وذلك شرط عند الجمهور غير الشافعية، وبشرط ألا يأكل الكلب المعلم شيئاً من الصيد في رأي الجمهور غير المالكية.

ثم أمر الله تعالى بالتقوى في الجملة وهي التزام الأوامر، وذكَّر سبحانه بسرعة الحساب لأنه تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، فلا يحتاج إلى محاولة عدّ، ويحاسب جميع الخلائق دَفْعة واحدة.

أحلَّ الله من لحظة نزول هذه الآية الطيبات المستطابات، وأحلّ للمسلمين أكل ذبائح أهل الكتاب، وللكتابيين ذبائح المسلمين، ولا تحل ذبائح المشركين عبدة الأصنام والأوثان، ولا ذبائح المجوس ونحوهم ممن لا يدين بدين سماوي، ولا التزوج بنسائهم.

وأباح الله لكم أيها المؤمنون التزوج بالحرائر المؤمنات، والكتابيات العفيفات من اليهود والنصارى، إذا آتيتموهن أجورهن، أي مهورهن، ويطلق لفظ الأجر في اللغة والشرع على المهر، فيشترط إيتاء مهورهن، وأن يقصد الإحصان والإعفاف، لا سفح الماء عن طريق الزنى العلني، ولا عن طريق الزنى السّري وهو اتِّخاذ الأخدان. وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أي متزوِّجين على السُّنة بعقد زواج صحيح.

ثم حذّر الله من المخالفات، ورغَّب فيما تقدم من أحكام الحلال، فذكر أن من يكفر وينكر شرائع الإسلام وتكاليفه، ويجحد أصول الإيمان وفروعه، فقد أبطل ثواب عمله، وخاب في الدنيا، وخسر في الآخرة، أما في الدنيا فتضيع أعماله ولا يستفيد منها، وأما في الآخرة فخسارته بالهلاك في نار جهنم. وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ معناه من يكفر بالأمور التي حقّها أن يقع الإيمان بها.

فرائض الوضوء ومشروعية التَّيمم

حرص الإسلام على نظافة الإنسان وطهارته، فجعل فريضة الوضوء أمراً متجدِّداً في اليوم أكثر من مرة لغسل الأعضاء التي تتعرض للأوساخ والغبار، كلما أدى فرائض الصلوات الخمس، كما فرض القرآن الكريم الغسل من الجنابة باحتلام أو وقاع لتنظيف جميع البدن في مناسبات تتكرر في الأسبوع، وإذا لم يوجد الماء بسبب السفر، أو أضرَّ الماء بالجسم بسبب المرض، جاز للمؤمن التيمم بالغبار عن الوضوء أو عن الغسل، أو عن الحدث الأصغر والأكبر، والتَّيمم رخصة اضطرارية بضربتين على التراب: ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين، والمهم في ذلك: قصد الطهارة، لا أن يُنقَل التراب للأعضاء. قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ[(١)] أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ[(٢)] فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا[(٣)] فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ[(٤)] وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [المائدة: ٥/٦-٧].

نزلت هذه الآية في التَّيمم، وكان الوضوء مفروضاً في مكة قبل الهجرة، فكأن الآية لم تزد المؤمنين فيه إلا تلاوته، وإنما أعطتهم الفائدة والرخصة في التَّيمم. نزلت في غزوة المريسيع، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت في هذه

(١) موضع قضاء الحاجة. (٢) واقعتموهن أو لمستم بشرتهن. (٣) تراباً طاهراً. (٤) ضيق في دينه ومشقة.

الغزوة: «.. ثم إن النَّبي ﷺ استيقظ وحضرت الصبح، فالتمسَ الماء، فلم يوجد» فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ..﴾ الآية.

وروى أحمد والبيهقي عن جابر -وهو حديث حسن- أن النَّبي ﷺ قال: «مفتاح الجنة الصلاة، ومفتاح الصلاة الطُّهور». وكان كثير من الصحابة، منهم ابن عمر وغيره يتوضؤون لكل صلاة، انتداباً إلى فضيلة. وكذلك كان يفعل رسول الله ﷺ، ثم جمع بين صلاتين بوضوء واحد، وفي فتح مكة جمع بين الصلوات الخمس بوضوء واحد. روى أبو داود والترمذي وابن ماجه أن النَّبي ﷺ قال: «من توضّأ على طهر، كتب له عشر حسنات».

ومعنى الآيتين: يا أيها المؤمنون، إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وأنتم محدثون، فعليكم بالوضوء، فإنه فرض أو شرط، إذ لا يقبل الله صلاة بغير طُهور.

وإذا كان المرء متوضئاً كان الوضوء مندوباً، لما روى رزين من حديث: «الوضوء على الوضوء نور».

وفرائض الوضوء في الآية أربعة: هي غسل الوجه من أعلى منابت شعر الرأس إلى أسفل الذقن، وما بين الأذنين عرضاً، وغسل اليدين من رؤوس الأصابع إلى المرفقين، والمرفق أعلى الذراع وأسفل العضد، ويجب غسل المرفق. ومسح بعض الرأس كالربع، أو كل الرأس، وهو المطلوب عند المالكية والحنابلة، وغسل الرجلين مع الكعبين: وهما العظمان الناتئان عند مَفْصِل السّاق والقدم من الجانبين. وتطلب النِّية والترتيب والموالاة والدَّلك والمضمضة والاستنشاق على خلاف في فرضيتها عند أئمة المذاهب.

وينتقض الوضوء بالغائط والبول والريح والنوم، ولمس المرأة بشهوة، ومسّ الفرج بباطن الكف عند الجمهور غير الحنفية.

فإن كنتم مرضى أو مسافرين أو أحدثتم أو واقعتم النساء، ولم تجدوا ماء، أو تضررتم باستعمال الماء، فعليكم بالتيمم بأن ينوي الشخص فرض التَّيمم ويمسح بوجهه ويديه إلى المرفقين، والتَّيمم مشروع لكل من الحدث الأصغر والأكبر.

ويجب الغسل: وهو تعميم البدن والرأس بالماء الطاهر، في حال الجنابة باحتلام أو جماع أو ولادة أو حيض أو نفاس، وتجب النِّية في الغسل، لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾.

والمراد من تشريع الوضوء والتَّيمم والغسل هو التيسير على الناس، وإتمام النعمة ببيان طريق العبادة الصحيح المفضل، وتطهير الأعضاء المعرضة عادة للتلوث بالوضوء، وغسل جميع الجسم حال الجنابة ونحوها وهو ما يسمى بالحدث الأكبر؛ لأنه يعتري الجسم بعد هذا الحدث استرخاء وفتور يزولان، بالغسل، والنظافة من الإيمان، فبالغسل تنظُّف، وتجديد الحيوية والنشاط.

وهذه الأحكام المشروعة نعمة عظمى من الله تعالى لصالح المؤمن، تستوجب الشكر والتقدير؛ لأن فيها طهارة الأبدان وطهارة الأرواح معاً، ونِعَم الله كثيرة علينا أن نذكرها، ومن أهمها التوفيق للإسلام وهداية القرآن وجمع الكلمة، وعزّة الحياة، كما علينا أن نذكر العهد المؤكد الذي أقررنا به أمام الله، حينما كنا في عالم الذَّر، ومضمونه: الإيمان بالله والرسول، والسمع والطاعة، وتقوى الله بالتزام الأوامر واجتناب النواهي، والله عليم بخفيات الأمور من الأسرار والنوايا التي في الصدور. وفي ذلك توجيه للإخلاص والبُعد عن الرِّياء في جميع الأعمال الدينية.

أداء الشهادات والحقوق بالعدل

الإسلام دين الحق والعدل في كل شيء، مع النفس والأهل والقرابة، وجميع الناس حتى الأعداء، والعدل قائم على الخشية من الله، وتقوى الله في السّر والعلن، والإيمانُ منبع كل فضيلة، وللمؤمنين الصلحاء جنان الخلد، وللكافرين المكذبين بآيات الله نيران الجحيم، والتقوى والتّوكل على الله حصن ودرع متين من كل شرّ أو سوء، وشكر النعمة الإلهية على العافية والأمن أمر واجب شرعاً وعقلاً وأدباً، وكتمان الشهادة وشهادة الزور من أكبر الكبائر.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ(١) وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ(٢) قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا(٣) إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾ [المائدة: ٥/٨-١١].

نزلت الآية الأخيرة في رأي الجمهور حينما ذهب النّبي ﷺ إلى يهود بني النّضير يستعينهم في دية رجلين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري ورجل آخر معه حينما أخبراهما أنهما من الأعداء رهط عامر بن الطفيل الذي جنى على المسلمين وقتلهم في بئر معونة، فنزل الرسول في ظل جدار، فتآمر بنو النضير بينهم على قتله بإلقاء الجدار عليه، فجاء جبريل عليه السّلام وأخبره بخطتهم، فقام من المكان وتوجّه إلى المدينة، ونزلت الآية في ذلك.

ومعنى الآيات: يا أيها المؤمنون، أتقنوا الأعمال وأخلصوا فيها لله ورسوله،

---

(١) شاهدين بالعدل. (٢) أي لا يحملنكم بغض أو كراهية قوم. (٣) يبطشوا بكم بالقتل.

وكونوا قائمين بالحق لله تعالى، لا لأجل الناس والرياء، وأدّوا الشهادة بالعدل التّام الذي لا محاباة فيه لقريب أو صديق، ولا جور؛ لأن العدل ميزان الحقوق، وبه سعادة الأمم، وطمأنينة الناس، وبالظلم والجور تنتشر المفاسد و يختل النظام والأمن.

ولا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم على ترك العدل فيهم، بل التزموا العدل مع كل الناس، الصديق أو العدو.

والعدل أقرب لاتِّقاء الله والبعد عن المهالك والمعاصي، واحذروا عقاب الله إن وقع منكم الجور والمحاباة، فإن الله بصير بأعمالكم، ومجازيكم عليها خيراً أو شرّاً.

ثم بيَّن الله جزاء المستقيمين، وجزاء العصاة، أما جزاء الأولين، فإن الله وعد الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا صالح الأعمال التي أُمروا بها مغفرة لذنوبهم، أي ستراً لها، وأجراً عظيماً وهو الجنة ذات الخلود الدائم في نعيمها. وأما العصاة الذين كفروا بالله وتوحيده، وكذَّبوا بالآيات الكونية والآيات التنزيلية على الرُّسل وأهمها آيات القرآن، فهم أصحاب النار الملازمون لها على الدوام.

والجمع بين هذا الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين هو من أسلوب القرآن الرائع، ليظل الإنسان على وعي وتذكر تامّ لمصير الفريقين، فيرغب في الإيمان والعمل الصالح، ويرهب الوقوع في الكفر وتكذيب آيات الله.

ثم ذكَّر الله المؤمنين والنبي ﷺ بنعمة مخصوصة تستوجب التّذكر الدائم على ممرّ الزمان وهي نعمة إنقاذ النَّبي القائد ونجاته من مكر الأعداء وتآمرهم والتخطيط للفتك به، سواء من يهود بني النضير، أو من بني ثعلبة وبني محارب في بطن نخل، في الغزوة السابعة: غزوة ذات الرقاع، أو من غورث بن الحارث الذي شهر سيف النَّبي الذي أخذه منه، وهمَّ بقتله، وهو لا يخاف منه قائلاً له: يمنعني الله منك وهو حديث صحيح.

فيا أيها المؤمنون، اذكروا نعم الله الكثيرة عليكم، بعد التزام التقوى، ومن أعظم تلك النعم أن الله تعالى حمى نبيّكم من فتك الأعداء، وصانكم من القتل حيث كنتم قلة، وأعداؤكم كثرة وقوة، فمدّوا إليكم وإلى نبيِّكم أيديهم وألسنتهم بالسوء، ولكن الله أيَّد رسوله ونصر دينه وأتم نوره، وكفاكم الشَّر والعدوان في أمر بني النضير وفي هزيمة الأحزاب في غزوة الخندق وغيرها، فاتخذوا من تقوى الله وحده عدةً وحصناً، تنفعكم وتحميكم من الفتن والشرور وعذاب الله، وتوكلوا على الله وحده حق التوكل، بعد اتِّخاذ الأسباب الدنيوية الواقية من السوء، فمن اتَّقى الله وتوكَّل عليه، حماه من شر الناس وعصمه، وكفاه الله ما أهمه، ولا تخشوا الأعداء ولا يغرنكم كيدهم وتفننهم في أساليب الخراب والدمار، فالله معكم وناصركم إن كنتم مؤمنين.

نقض أهل الكتاب المواثيق والعهود الدينية

إن الوفاء بالعهود الدينية وتنفيذ الواجبات الإلهية سبب لتكفير السيئات ودخول الجنات، والظفر برضوان الله تعالى؛ لأنه دليل الإيمان الصحيح وصدق التَّدين وقوة الوازع الديني، والإخلال بهذه العهود مؤد للعنة الإلهية والطرد من رحمة الله، وقسوة القلوب وجمود النفوس، ونشوب الخصومات والعداوات وإيقاع البغضاء بين خائني العهد في الدنيا، والجزاء الأليم في نار جهنم في عالم الآخرة.

قال الله تعالى مبيِّناً هذه الظواهر بين أهل الكتاب ليتّعظ بها المسلمون وغيرهم:
﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ[1] وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ[2]

(١) النقيب: كبير القوم المتكفل بالوفاء بالعهد والذي يعنى بشؤون قومه ورعاية مصالحهم. (٢) عزرتموهم: نصرتموهم ومنعتم عنهم الأعداء.

وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا[١] لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ[٢] عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا[٣] مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ[٤] مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا[٥] بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ١٢-١٤].

يخبر الله تعالى في هذه الآيات عن نقض الإسرائيليين مواثيق الله تعالى، فلقد أخذ الله العهود والمواثيق على بني إسرائيل بواسطة نبيِّهم موسى عليه السّلام، ليعملُن بالتوراة، وأمرناه أن يختار اثني عشر نقيباً منهم، يتولون شؤون الأسباط (ذرية يعقوب) ويرعونهم، ويتحسسون أخبار أعدائهم ليقاتلوهم، فخان عشرة منهم العهد، وبقي اثنان، وأخبر الله على لسان موسى: أني مؤيِّدكم وناصركم على عدوكم، ومطّلع عليكم ومجازيكم على أعمالكم.

ومضمون الميثاق أو العهد الإلهي الشامل: لئن أقمتم الصلاة بشروطها وأدّيتموها أداءً كاملاً تامّاً، وآتيتم الزكاة للمستحقّين وهو شيء من المال كان مفروضاً عليهم، وآمنتم إيماناً صادقاً برسلي وناصرتموهم، وأقرضتم القرض الحسن من غير ربا ولا فائدة، لأكفرن عنكم سيئاتكم، ولأدخلنكم جنات تجري من تحت غرفها وبساتينها الأنهار، فمن جحد منكم شيئاً من هذه الأوامر، وخالف مقتضى الميثاق بعد عقده

(١) إقراضاً بطيب النفس . (٢) يغيرونه أو يؤولونه بالباطل . (٣) تركوا نصيباً وافياً . (٤) خيانة وغدر .
(٥) أوقعنا وهيَّجنا .

وتوكيده، فقد أخطأ الطريق الواضح المستقيم الذي هو الدين المشروع من الله، وعدل عن الهدى إلى الضلال.

وبسبب نقضهم ميثاقهم الذي أخذناه عليهم، أبعدناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى ورحمة الله، وغضبنا عليهم، وجعلنا قلوبهم غليظة قاسية شديدة، لا تقبل الحق ولا تتعظ بموعظة، وفسدت أفهامهم وساء تصرفهم في آيات الله، وتأوّلوا كلام الله على غير وجهه الصحيح وحرَّفوه وبدَّلوه بالتقديم والتأخير والزيادة والنقص، ونسوا نصيباً مهمّاً مما أُمروا به في كتابهم، وهو الإيمان بمحمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وتركوا العمل به، رغبة عنه، مما يدلُّ على سوء فعلهم بأنفسهم، ولا تزال أيها النَّبي في مستقبل الزمان تطَّلع على خيانات متكررة منهم، إلا قليلاً منهم ممن آمن، وحسن إيمانه كعبد الله بن سلام وأصحابِه.

فاعف واصفح عما صدر منهم من إساءات، وعاملهم بالإحسان، إن الله يحب المحسنين ويثيبهم على إحسانهم، والعفو دليل النصر والظفر.

وأخذ الله أيضاً من الذين قالوا: إنا نصارى ميثاقهم على مؤازرة النَّبي محمد ﷺ ومناصرته والإيمان برسالته، ففعلوا كما فعل اليهود قبلهم، وتركوا العمل بأصول دينهم، ونسوا نصيباً مهمّاً من تعاليمهم، فكان جزاؤهم إيقاع العداوة والبغضاء بين صفوفهم، فصاروا فرقاً متعادين وفئات مختلفين، وستظل العداوة بينهم مستمرة لازمة إلى يوم القيامة، وسوف يخبرهم الله بما صنعوا، ويجازيهم على ما اقترفوا بقدر ما يستحقون في عالم الآخرة.

وهذا وعيد واضح توعَّدهم الله بعقاب الآخرة، وتوبيخ متقدم للعذاب، إذ صُنْعهم كفر يوجب الخلود في النار.

والعبرة من هذه الأخبار: تحذير المؤمنين من التَّشبه بهم وترك تعاليم دينهم، فإن الله بالمرصاد لكل من خالف أوامر الله وعصى أحكام ربِّه.

مقاصد القرآن والرِّسالة النَّبوية

لكل كتاب إلهي أهداف عامّة ومقاصد تشريعية، ولكل رسول مهام وخصائص معينة، وقد أبان القرآن الكريم مقاصده وخصائص الرسول المصطفى ﷺ بإيجاز، وحصر وصف الرسول بأمرَيْن اثنَيْن: هما البيان الإلهي، والعفو عن كثير مما يكتمه أهل الكتاب، ووصف القرآن بأنه نور وبأنه الهادي إلى الصِّراط المستقيم، وبأنه يخرج الناس من الظُّلمات إلى النُّور.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: ٥/ ١٥-١٦].

أخرج ابن جرير الطبري في بيان سبب النزول عن عكرمة قال: إن نبي الله ﷺ أتاه اليهود يسألونه عن الرَّجم، فقال: أيكم أعلم؟ فأشاروا إلى ابن صُوريا، فناشده بالذي أنزل التوراة على موسى، والذي رفع الطور، والمواثيق التي أخذت عليهم، حتى أخذته رعدة من الخوف، فقال: لما كثر فينا جَلَدنا مئة، وحلقنا الرؤوس، فحكم عليهم بالرَّجم، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا..﴾ الآية.

والمعنى يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالهدى

ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل.
ووصف الرسول هنا بصفتَيْن:

الأولى- أنه يبين لهم كثيراً مما يخفون من أحكام الكتاب الإلهي وهو التوراة، قال ابن عباس: «أخفوا صفة محمد ﷺ، وأخفوا أمر الرّجم، وعفا عن كثير مما أخفوه، فلم يفضحهم ببيانه». والإخفاء أدب جمّ من القرآن، لأن المهم أن يؤمنوا بالقرآن، ولا داعي للإثارة المبعدة عن الإيمان وإعلان الحق.

الصفة الثانية- ويعفو عن كثير، أي يترك كثيراً ولا يُظهر ما تكتمونه أنتم، إبقاء عليكم، وإنما لم يظهره لعدم الحاجة إليه في الدين. وهذا يدعوهم إلى أن يكونوا صرحاء جريئين في بيان أحكام الشرع الإلهي دون كتمان شيء، ولا تهرُّب من إظهار الحقائق. وإذا كان العفو من النّبي عليه الصّلاة والسّلام فبأمر ربّه. وإذا كان من الله تبارك وتعالى فعلى لسان نبيّه ﷺ. والمعنيان متقاربان.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ يعني محمداً ﷺ، وفي الآية الدلالة على صحة نبوّة محمد، لأن إعلامه أهل الكتاب بخفي ما في كتبهم، وهو أُمّي لا يقرأ ولا يكتب دليل على أن ذلك إنما هو وحي يأتيه من عند الله تعالى.

ثم وصف الله تعالى ما جاء به من عنده بأن محمداً الرسول أو القرآن نور يضيء درب الحق، وأن القرآن كتاب واضح يهدي به الله من أقبل عليه، واتّبع الدين الذي يرضى به الله تعالى، يهدي إلى طريق النَّجاة والسَّلامة ومناهج الاستقامة، وينجّي الناس من المهالك، و يخرجهم من ظلمات الكفر والضَّلال إلى نور الحق والإيمان، ويرشدهم إلى الطريق القويم؛ وهو الدين الحق الذي يوصل الناس إلى خيري الدنيا والآخرة. وذلك لأن طريق الحق واحد لذاته، وطريقه مستقيم واحد، لا اعوجاج فيه ولا غموض، أما الباطل فله شعاب كثيرة، وكلها معوجّة.

يظهر مما تقدم أن مقاصد القرآن الكريم ثلاثة:

١- إن المتّبع لما يرضي الله والمقبل على مراده يهديه القرآن إلى طريق النَّجاة والسّلامة من الشّقاء والعذاب في الدنيا والآخرة، باتّباع الإسلام، والإسلام دين الحق والعدل والإخلاص والإنقاذ.

٢- إن القرآن المجيد يخرج المؤمنين به من ظلمات الكفر والشِّرك والوثنية، والوهم والخرافة، وانحراف التفكير، إلى نور التوحيد الخالص.

٣- إن القرآن العظيم يهدي الناس ويرشدهم إلى الطريق الصحيح الموصل إلى الهدف السديد من الدين، وإلى خيري الدنيا والآخرة.

وكل هذه المقاصد القرآنية الموجهة إلى العالم بأجمعه إكمال لرسالات الأنبياء المتقدمين، وبناء وتقدُّم وحضارة ومسيرة في الطريق الصحيح، وخير للبشرية جمعاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٩-١٠].

ادِّعاء النَّجاة في الآخرة

هذا العالَم الكبير من ملكوت السماوات والأرض والوجود يشتمل على خالق قديم أزلي لم يتقدمه شيء، ومخلوق حادث أوجده الخالق، ومن المستحيل عقلاً أن تكون صفات الخالق مثل صفات المخلوقات، وإلا كان مثلها واحتاج إلى من يُوجده، فنقع في سلسلة من الافتراضات لا حصر لها، وهذا ممنوع في المنطق السليم. وحينئذ لا يتصور أن يكون أحد من المخلوقات له صفات الخالق المبدع أو حظّ من الألوهية،

ولا يقبل من بشر أن يدَّعي أنه أقرب إلى الله إلا بعبادته وطاعته، فالقرب من الله قرباً معنوياً لا مادياً محسوساً يكون بمقدار الطاعة والتزام شرائع الله المشرِّع.

ومن هنا وجدنا في القرآن إنكاراً شديداً للشِّرك أو وصف أحد من المخلوقات بالألوهية، قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ (١) مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ٥/١٧-١٩].

روى ابن جرير الطبري وغيره عن ابن عباس قال: أتى رسولَ الله ﷺ جماعة من اليهود، فكلموه وكلمهم، ودعاهم إلى الله، وحذَّرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد، نحن والله أبناء الله وأحبّاؤه، كقول النصارى، فأنزل الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ الآية.

وروى ابن جرير أيضاً وغيره عن ابن عباس قال: دعا رسولُ الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، فرغَّبهم فيه وحذَّرهم، فأبوا عليه، فقال لهم معاذ بن جبل وآخرون: يا معشر اليهود، اتّقوا الله، فوالله لتعلمنَ أنه رسول الله، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل

---

(١) فتور وانقطاع .

مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حُريمة ووهب بن يهودا: إنا ما قلنا لكم هذا، وما أُنزل من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل الله بشيراً ولا نذيراً بعده، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا..﴾ الآية.

لقد دعا جميع الرُّسل والأنبياء ومنهم المسيح إلى توحيد الله وتمجيده، فلا يصح أن يوصف أحد من الرُّسل بأنه هو الله، والله قادر على أن يهلك أي بشر، فلا مالك ولا رادّ لإرادة الله تعالى في المسيح ولا في غيره، ومن تنفذ فيه الإرادة الإلهية تقضي العقول بأنه ليس بإله، والله هو مالك السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات، والمتصرِّف في كل شيء، وجميع الموجودات ملكه وخلقه، والله صاحب القدرة التامة المطلقة على كل شيء، فكيف يكون المملوك المخلوق إلهاً خالقاً؟ إن هذا لَكُفْرٌ صريح.

وإذا ادَّعى أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحبّاؤه، سُئلوا: فلِمَ يعذِّبكم الله بذنوبكم في الدنيا والآخرة؟! وأنتم قد أقررتم أنه يعذِّبكم. والتعذيب على الذنوب ينافي أنهم أبناء الله وأحبّاؤه، فأنتم بشر كسائر الناس، وأكرم الناس عند الله أتقاهم.

والله هو المالك المطلق والمتصرِّف في السماوات والأرض وما بينهما، وصاحب الملك يفعل في ملكه ما يشاء، لا رادّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، وإليه مصير العالم بالحشر والمعاد يوم القيامة، وجميع العباد عبيد له، قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: ١٩/ ٩٣].

وسيعذِّب الله الكافر والعاصي بحق، ويثيب الطائع المؤمن والصالح بفضل منه ورحمة. وتكرار جملة ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ للتأكيد وتقرير المعنى في الأذهان وهو أن المالك قادر على إهلاك المملوك.

يا أهل الكتاب لا حجة لكم فيما تقولون وتدَّعون من النجاة في الآخرة، فلقد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بعد فترة من انقطاع الرُّسل والوحي، يبيِّن لكم ما اندثر وضاع من الأحكام الشرعية، وقد بشَّرت به كتبكم، وهو مصدِّق لما معكم من التوراة والإنجيل، ومكمل للشرائع، وخاتم للرُّسل، أرسله ربّه بالهدى، ودين الحق، لئلا تقولوا: ما جاءنا من بشير يبشِّر بالجنة من أطاع، ولا نذير يحذِّر و يخوِّف من عصى بالنار، فقد جاءكم البشير والنذير، وقامت الحجة عليكم، والله على كل شيء تام القدرة، نافذ الإرادة والسلطان، فهو المنعم والمعذِّب، والمحاسب والراحم، والمنتقم والغفار، لا ربَّ غيره، ولا إله سواه، الكل في الدنيا والآخرة وجميع السماوات والأرض في قبضته وإرادته وتصرُّفه، فليعقل الناس ما هم عليه من الحقائق البشرية، ولا يدَّعي أحد أنه فوق منازل البشر، أو أنه إله، فالإله خالق، ولا خالق غيره.

ألوان من النِّقاش بين موسى وقومه

أقام الله تعالى في قرآنه أدلة قاطعة من التاريخ على تحقق نبوّة محمد ﷺ، وأمره بالإخبار بها، حيث لا يوجد مصدر علمي آخر موثوق به يدلُّ عليها، ومن تلك الأدلة: إيراد تفصيلات دقيقة من النقاش والجدل بين موسى عليه السَّلام وبين قومه، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ

﴿يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ(١) بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ(٢) ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٢٠-٢٦].

والمعنى: اذكر لهم يا محمد أخبار موسى مع قومه، ليصدِّقوا بدعوتك ويتحققوا نبوّتك، إذ لا يوجد مصدر آخر لهذه الأخبار من غير طريق الوحي إليك. ومشتملات هذه الأخبار: تعداد أهم النِّعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل في زمان موسى، وهي نِعم ثلاث:

قال موسى لقومه: تذكروا نعمة الله عليكم بتتابع الأنبياء فيكم، من عهد إبراهيم إلى عيسى عليهم السَّلام، وتذكروا أن الله جعلكم ملوكاً أحراراً بعد أن كنتم مملوكين في أيدي القِبْط المصريين، والملوك شرف الدنيا، فعندكم ما يكفيكم من الأزواج والخدم والدور والأراضي المشجرة وغير المشجرة، وأمدكم الله في زمان أسلافكم الذي كانوا فيه بالخيرات وآيات موسى مثل المنّ والسلوى، والتَّظليل بالغمام، وفلق البحر أو فرقه، وإنجاؤكم وغرق عدوكم فرعون وجنودِه في البحر.

ويا قوم ادخلوا الأرض المطهرة من عبادة الأوثان، المباركة؛ لأنها أرض الأنبياء الخالية من القحط والجوع ونحوه، لتجاهدوا أعداءكم في الطّور وما حوله كما قال مجاهد، وهي التي قسمها لكم وسماها، ولا تتراجعوا وتنهزموا من خوف أهلها الجبارين، ولا تتخلفوا عن الجهاد، فتصبحوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة.

---

(١) فافصل بحكمك. (٢) يسيرون فيها متحيِّرين.

قالوا: يا موسى، إن في تلك الأرض قوماً جبارين، أي طوالاً عتاة، يجبرون الناس على ما أرادوا، وكانوا من الكنعانيين، وإنا لن ندخلها أبداً حتى يخرجوا منها، فإن خرجوا منها، فإنا داخلون فيها. قالوا هذا على سبيل الاستبعاد والتَّعنت والتخلف عن الجهاد، وهذه طبيعتهم الحالية لجبنهم وتقاعسهم.

لذا استنكر بعضهم هذا الموقف المتخاذل، فقال رجلان من الذين يخافون الله تعالى، وأنعم الله عليهما بالإيمان الصحيح وقوة البأس والعزيمة والثبوت في الحق، وهما من قوم موسى النُّقباء الأشراف: ادخلوا عليهم باب المدينة، ففي ذلك إرهاب لهم وتخويف وذعر، فإذا دخلتم الباب، فإنكم غالبون منصورون، وعلى الله توكّلوا إن كنتم مصدِّقين به وبوعده بالنصر.

فأجابوا وقالوا مصرِّين على الرّفض والعناد والتَّمرد، ولم تنفعهم عظة الرجلين الصالحين شيئاً: يا موسى، إنا لن ندخلها أبداً ما دام فيها هؤلاء الجبابرة، فاذهب أنت وربُّك الذي أمرك بالجهاد، فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون عن الجهاد، منتظرون ما يحدث. وفي هذا غاية الجبن والتقاعس وقلة الأدب مع الله، والتَّنكر لموسى عليه السَّلام.

فقال موسى غاضباً حزيناً: ربِّي إني لا أملك إلا نفسي وأخي هارون فلا يطيعني أحد منهم، لامتثال أمر الجهاد، فافصل واقض بيني وبين هؤلاء القوم الفاسقين الخارجين عن طاعتك.

قال الله تعالى: فإن تلك الأرض المقدسة محرَّم عليهم دخولها مدة أربعين سنة، واتركهم خلالها يتيهون في الأرض، فلا تحزن يا موسى على القوم المتمرِّدين فيما حكمت به عليهم، جزاء ما يستحقون، فتلك أفعالهم الخبيثة سجية موروثة عندهم.

أول جريمة قتل في الدنيا

الحق في الحياة حق مقدس، فلا يجوز سفك دم حرام، أو الاعتداء على إنسان بغير مسوغ ولا سبب مشروع؛ لأن الإنسان صنيعة الله في هذا العالم، وكل اعتداء عليه اعتداء على فعل الله وتجاوز لحكمته وتحدٍّ لإرادته.

لذا استنكر القرآن العظيم أول جريمة قتل حدثت في الدنيا، وهي قتل قابيل لأخيه هابيل، قال الله تعالى:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ[1] بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي[2] وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ[3] لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي[4] فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٢٧-٣٢].

والمعنى: اقرأ واسرد على مسامع القوم خبر ابني آدم: قابيل وهابيل، ببيان صحيح واقعي لا زيادة فيه ولا نقص، حين قرَّبا قرباناً إلى الله تطوُّعاً وتعبُّداً، وكان قابيل صاحب زرع، فعمد إلى أردأ ما عنده فقرَّبه، وكان هابيل صاحب غنم، فقصد إلى

(١) أي قابيل وهابيل. (٢) ترجع بإثم قتلي. (٣) زيّنت له. (٤) جثّته أو عورته.

أفضل كباشه فقرَّبه، وكانت العادة أن يقرِّب المقرِّب قربانه، ويقوم يصلي ويسجد، فإذا نزلت نار وأكلت القربان، فذلك دليل القبول. فنزلت النار، فالتهمت كبش هابيل ورفعته وسترته عن العيون، وتركت زرع قابيل، فحقد قابيل على أخيه هابيل، وهدَّده بالقتل، فقال هابيل: وما ذنبي في أن الله لم يتقبَّل منك، فأصلح نفسك، فإنما يتقبَّل الله من المتّقين أعمالهم.

يا أخي، لئن مددت إلي يدك بسوء لتقتلني ظلماً وعدواناً، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك أبداً؛ لأني أخاف الله ربَّ العالمين، الذي ربّانا وتعهَّدنا بالعناية والرِّعاية، فمن يقتل الآخر أو يعتدي عليه، استحقَّ العذاب الشديد.

يا أخي، لا أريد مقابلة الجريمة بمثلها، فإنك إن قتلتني وابتعدت عن معاملتك بالمثل، أريد أن تتحمل إثمي بقتلي، وإثمك قبل الاعتداء علي، فتكون من أهل النار، وذلك جزاء الظالمين أنفسهم المعتدين على غيرهم، أي أنه حذَّره من القتل بثلاث مواعظ: الخوف من الله، وتحمل الإثمَيْن: إثم القتل وإثم نفسه، وكونه من الظالمين أصحاب النار.

فحسَّنت وسوَّلت له نفسه قتل أخيه، فقتله، فأصبح من الخاسرين أنفسهم في الدنيا والآخرة بسبب جريمة القتل هذه.

ثم حار القاتل قابيل وضاقت به الدنيا، ولم يدر كيف يفعل بجثة أخيه، فبعث الله غراباً حيّاً إلى غراب ميت، فجعل يبحث ويحفر في الأرض حفرة، ويُلقي التراب على الغراب الميت، ليعلِّمه كيف يواري عورة أخيه أي جثَّته، فقال: يا فضيحتي -وهذا اعتراف منه باستحقاق العذاب- أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب؟! فأُواري جثّة أخي، فأصبح نادماً على ما فعل، لكنه لم تقبل توبته؛ لأنه لم يندم ولم يتب من المعصية، وإنما كان ندمه على قتل أخيه؛ لأنه لم ينتفع بقتله، وسخط عليه أبواه

وأختاه، فكان من الذين سنّوا سنّة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده إلى يوم القيامة.

وكان قابيل من العصاة لا من الكفار، روى البخاري ومسلم حديثاً عن ابن مسعود: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم كِفْل -أي نصيب- من دمها؛ لأنه أول من سنَّ القتل».

وبسبب هذه الجريمة النكراء كتب الله على بني إسرائيل في التوراة ومن بعدهم في ديانة عيسى وشريعة محمد عليهما الصلاة والسلام: أنه من قتل نفساً بغير نفس أي بغير سبب موجب للقصاص، أو قتل بغير سبب فساد في الأرض بالإخلال بالأمن والطمأنينة كقطّاع الطرق أو المحاربين، فاستحلَّ القتل بلا سبب، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحيا نفساً، أي امتنع من قتلها، فكأنما أحيا الناس جميعاً بتوفير الأمن والطمأنينة لهم؛ إذ كل نفس عضو في المجتمع الإنساني، وحق الحياة مقدس ومصون لجميع البشر. ولقد جاءت رسل الله الكرام بني إسرائيل بالبينات الواضحات كالشمس على الحلال والحرام، ولكن كثيراً من الناس بعد ذلك لمتجاوزون الحدود، يُسرفون في القتل والمعاصي.

عقوبة المحاربين (قطّاع الطرق)

العقوبة في الإسلام والقوانين كلها حق وعدل، لإصلاح الجناة وزجر المجرمين وردعهم، والعقوبة تتفاوت بتفاوت الجريمة ومقدار خطرها، وإخلالها بأمن المجتمع وراحتهم، فإذا كانت عقوبة اللصوص السارقين قطع اليد؛ لأن جريمتهم شخصية خاصة، فإن عقوبة المحاربين قطّاع الطرق أشدّ وأنكى، فهي إما النَّفي من الأرض أو

قطع اليد والرجل من خلاف، أو القتل والصَّلب، أو القتل فقط؛ لأن جريمتهم تهدِّد أمن المجتمع برمّته، وتنشر الذعر والإرهاب في جميع الأماكن.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ[1] ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ[2] فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٣٣-٣٤].

سبب نزول آية المحاربة: ما روى البخاري ومسلم عن أنس: أن ناساً من عُكْل وعُرَيْنة[3] قدموا على النَّبي ﷺ، وتكلموا بالإسلام، فاستوخموا المدينة[4]، فأمر لهم النَّبي ﷺ بزَوْد من الإبل[5] وراعٍ، وأمرهم أن يخرجوا إلى الصحراء، فيشربوا من أبوالها وألبانها، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرَّة[6]، كفروا بعد إسلام، وقتلوا الراعي، ومثّلوا به، واستاقوا الزَّوْد من الإبل، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فبعث في طلبهم، فأتوا فأمر بهم، فسملوا أعينهم[7]، وقطعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتُركوا حتى ماتوا، فنزلت الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ..﴾.

هذه الآية في المحاربين من أهل الإسلام: وهم الذين خرجوا على الناس بقصد أخذ أموالهم أو قتلهم أو لإرهابهم، فيختلّ الأمن والسِّلْم، وتنتشر الرهبة والذّعر في كل مكان، أو يعتدون على الحقوق الشرعية كمنع الزكاة مثلاً، كما حدث في عهد أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، حيث حارب المرتدِّين المانعين للزّكاة بقوة وبأس.

أ- فإن أخافوا الطريق فقط، ولم يقتلوا نفساً ولم يأخذوا مالاً، كانت عقوبتهم

---

(١) يبعدوا أو يسجنوا. (٢) ذلّ وعقوبة. (٣) قبيلتان مشهورتان. (٤) وجدوها رديئة المناخ. (٥) الزّود: من ثلاثة إلى تسعة. (٦) الحرّة: أرض ذات حجارة سوداء نخرة كأنها أحرقت بالنار. (٧) كحّلوها بمسامير الحديد المحماة.

النَّفي من الأرض، أي الحبس في مكان عند الحنفية، أو الإبعاد إلى بلد آخر ليسجن فيه عند الجمهور.

ب- وإن أخذوا المال فقط تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أي تقطع اليد اليمنى من الرّسغ والرِّجل اليسرى من المفصل.

ج- وإن قتلوا المارّة قتِّلوا، أي إن عقوبة القتل أمر محتوم لا يسقط، ولو عفا أولياء الدّم، أي أقارب المقتول، فهذه عقوبة لا تقبل العفو أو الإسقاط. وعلى المسلمين التعاون مع الدولة لقتال هؤلاء المحاربين وكفِّهم عن أذى الناس.

د- وإن قتلوا وأخذوا المال، قتلوا وصلبوا بعد موتهم، نكالاً لغيرهم، في قول الإمام الشافعي، ويكون صلبهم أحياء لمدة ثلاثة أيام ثم يقتلون بالطعن على الخشبة في رأي جمهور العلماء، وهذا هو الأنكى في النّكال والتّعذيب.

ذلك العقاب خذلان وذلّ وفضيحة، وخزي وعار في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم مع العقوبة لمن شاء الله تعذيبه، وهذا يختلف عن بقية الحدود على المعاصي المرتكبة في حديث عبادة بن الصامت المتفق عليه من قول النّبي ﷺ: «فمن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقب به، فهو كفَّارة له».

ثم استثنى الله من العقوبة التائبين الذين أقلعوا عن الجريمة وندموا على ما فعلوا، فإن تاب المحارب قبل القدرة عليه، أي قبل إلقاء القبض عليه من السلطة (الدولة) فقد سقط عنه حكم الحرابة، ولا عقاب عليه، لكن يطالب بحقوق الآدمين، أي بالحقوق الشخصية الخاصة، فيقتصّ منهم بسبب الاعتداء على النفس والجراح، وكان عليهم ضمان ما أتلفوه أو استهلكوه من مال، أو أراقوا من دم. ويجوز لولي الدّم حينئذ العفو عنه كسائر الجناة غير المحاربين، وهذا ما عبَّرت عنه الآية في قوله

تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن توبتهم قبل القدرة عليهم دليل على أنها توبة خالصة لله تعالى.

أما إن تابوا بعد القدرة عليهم، فيقام عليهم حدّ الحرابة، ويكون تطبيق الحدّ عليهم أمراً حتمياً واجباً بسبب العصيان والفساد، وعلى المسلمين وغيرهم إعانة الحكام في مطاردتهم وكفِّهم عن عدوانهم؛ لأنهم متَّهمون بالكذب في توبتهم والتَّصنع فيها إذا نالتهم يد الحاكم وألقي القبض عليهم أثناء عدوانهم، ولا يظلم ربُّك أحداً.

أساس النَّجاة في الآخرة

انزجار الناس وارتداعهم عن المعاصي والجرائم يكون بأحد أمور ثلاثة: إما بتطبيق العقوبة على الجاني، فينزجر ويرتدع، أو برؤية الجناة متلبسين بالمكاره وألوان التعذيب، فيرق الرائي والسامع و يخشع قلبه، أو بالوعظ والإرشاد والترهيب من أصناف العذاب في الدار الآخرة في نار جهنم.

والحال الثانية وهي رؤية التعذيب أبلغ من الوعظ؛ لورودها على النفوس وهي خائفة وجلة، وقد اعتمد القرآن عليها إذ أورد آيات التخويف بين حدّين من الحدود المقررة شرعاً وهما حدّ الحرابة وحدّ السّرقة، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ[1] وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٣٥-٣٧].

---

(١) الزّلفى بفعل الطاعات وترك المخالفات.

تأمر الآية الأولى المؤمنين بأوامر ثلاثة: وهي تقوى الله، وهي إذا قرنت بالطاعة تعني الكفّ عن المحارم وترك المنهيات، والأمر الثاني: طلب القربة إلى الله وهي ابتغاء الوسيلة، والوسيلة: القربة أي ما يتوصل به إلى تحصيل المقصود والنجاح، والأمر الثالث: الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ودينه، وخصّ هنا الأمر بالجهاد لأمرَيْن: أولهما -رفعة شأنه بين أعمال البر وأنه قاعدة الإسلام، والثاني -أنه الطريق إلى الجنة والعبادة التي هي بديل عن المحاربة أو قطع الطريق.

وأما الوسيلة المطلوبة للنَّبي محمد ﷺ في دعائنا بعد الأذان بإيتاء الوسيلة والفضيلة، فمعناها درجة في الجنة، وأعلى منزلة في الجنة. والفضيلة: هي الشفاعة العظمى له في المقام المحمود بجميع الخلائق ليُقدَّم الناس إلى الحساب، تخلُّصاً من أهوال يوم القيامة.

ومعنى الآية: يا من آمنتم بالله ورسوله، اتَّخذوا الوقاية لأنفسكم من عذاب الله، بامتثال أمره واجتناب نهيه، وتقرَّبوا إلى الله بالطاعة والعمل بما يرضيه، وجاهدوا أعداء الإسلام حتى يكون الدين كله لله، ومن أجل نصرة الحق والخير والحرية للبشرية.

ثم أخبر الله عما أعدَّ لأعدائه الكفار من العذاب الشديد يوم القيامة، وأوضح أن الذين كفروا أو جحدوا بالله ربّاً واحداً لا شريك له، وأنكروا آياته الدّالة على وجوده ووحدانيته وقدرته الشاملة، وكذبوا رسله، لو جاؤوا بملء الأرض ذهباً، ومثله أو ضعفه معه، ليفتدوا بهذا الفداء من عذاب الله، على كفرهم وعنادهم، ما تُقبِّل منهم ذلك، ولهم عذاب ثابت دائم مستمر لا خروج لهم منه، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢/٢٢].

نعود إلى قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ لنحقق معنى التَّوسل، فقد استدلَّ

بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة والتّوسل بالصالحين، وجعلهم وسطاء ووسائل بينهم وبين الله تعالى. ولكن الله لا يحتاج إلى هذه الوسائل والوسائط لقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ .[غافر: ٤٠/ ٦٠] وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ٥٠/ ١٦].

وتحقيق القول في التّوسل ما ذكره الألوسي في تفسيره حيث قال: جاء لفظ التوسل بثلاثة معانٍ:

أولاً- التوسل بمعنى التّقرب إلى الله بطاعته وفعل ما يرضيه، وهو المراد بالآية ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾. وقد توسّل أهل الصخرة الثلاثة إلى الله عزّ وجلّ بصالح الأعمال، أي طلبوا الفرج بصلاح أعمالهم، لا بالولي الفلاني أو الشيخ الفلاني.

ثانياً- التّوسُّل بالمخلوق والاستغاثة، بمعنى طلب الدعاء منه، لا شك في جوازه، إن كان المطلوب منه حيّاً، كالتّوسل بالنّبي ﷺ حال حياته، أو بعمّه العباس في صلاة الاستسقاء. أما إذا كان المطلوب منه الدعاء ميتاً أو غائباً فغير جائز.

ثالثاً- القسم على الله تعالى بأحد من خلقه، مثل أن يقال: اللهم إني أقسم عليك، أو أسألك بفلان إلا ما قضيت لي حاجتي. أجازه العزّ بن عبد السّلام في النّبي ﷺ، لأنه سيّد ولد آدم، دون غيره من الأنبياء والملائكة والأولياء، ومنع أبو حنيفة وأبو يوسف وابن تيمية التّوسل بالذات والقسم على الله تعالى بأحد من خلقه.

جزاء السّارق

السّرقة من الأموال الخاصة أو من الأموال العامة كأموال الدولة أو القطاع العام أو الخاص من أعظم الجرائم في الإسلام، فهي حرام حرمة شديدة، ومنكر عظيم، وأكل لأموال الناس بالباطل، لا يحل في شرع ولا دين ولا قانون في الدنيا؛ لأن إباحة السرقة تخل بأمن الناس في أموالهم وتهز مبدأ الثقة والطمأنينة، وتزعزع استقرار الاقتصاد والتجارة وغيرها من موارد الرزق. والغصب والخيانة والنهب ونحو ذلك كالسرقة أخذ ملك الآخرين بغير حق.

لذا كانت جريمة السرقة مستوجبة الحدّ وهو قطع اليد في شريعة القرآن، وهذه العقوبة، وإن كانت قاسية، فهي العقوبة الوحيدة الزاجرة للاعتداء على الأموال وأخذها بغير حق. قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٣٨-٤٠].

نزلت هذه الآية في طعمة بن أبيرق حين سرق درع جار له، يدعى قتادة بن النعمان في جراب دقيق به خرق، وخبّأها عند زيد بن السمين اليهودي، فتناثر الدقيق من بيت قتادة إلى بيت زيد هذا، فلما تنبَّه قتادة للسرقة، التمسها -أي الدرع- عند طعمة، فلم يجدها، وحلف ما أخذها، وماله بها علم، ثم تنبهوا إلى الدقيق المتناثر، فتبعوه حتى وصلوا إلى بيت زيد، فأخذوا الدرع منه، فقال: دفعها إلي طعمة، وشهد ناس من اليهود بذلك، وهَمَّ رسول الله ﷺ أن يجادل عن طعمة؛ لأن الدرع وجد عند غيره، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النّساء: ٤/ ١٠٧] ثم نزلت آية السّرقة لبيان حكمها.

وروى أحمد وغيره عن عبد الله بن عمرو: أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ، فقطعت يدها اليمنى، فقالت: هل لي من توبة يا رسول الله؟ فأنزل الله في سورة المائدة: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

والمعنى: فيما فُرض عليكم أو يتلى عليكم حكم السارق والسارقة، فمن سرق من ذكر أو أنثى، فاقطعوا يا ولاة الأمور أيديهما أي من الرّسغ كما أوضحت السُّنة النَّبوية، جزاءً لهما على سرقتهما وما كسبَت أيديهما، ولانتهاك حرمة مال الآخرين، لأن السرقة قد تجرُّ إلى الدفاع عن المال وإلى القتل، وتنكيلاً وإهانة وتحقيراً لهما من الله؛ لأن فعلهما خسيس ودنيء يستوجب الإذلال، والزجر عن العودة للسرقة، وإيقاع عبرة لغيرهما، والله قوي غالب في تنفيذ أوامره، حكيم في تدبيره وصنعه وتشريعه، لا يشرع إلا ما فيه الحكمة والمصلحة، واختيار الأنسب للجريمة.

أما من تاب من بعد ظلمه بالسرقة، وأناب إلى الله، ورجع عن السرقة، وردّ أموال الناس إليهم، وأصلح نفسه وزكّاها بعمل البر والتقوى، فإن الله يقبل توبته، فلا يعذِّبه في الآخرة، وإن الله غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم إذا صلحوا.

ألم تعلم أيها الرسول وكل مؤمن أن الله هو المالك لجميع السماوات والأرض ومن فيهما، يتصرف في ذلك بالعدل والحكمة والعلم الواسع والفضل العظيم، ومن فضله ورحمته أنه يقبل التوبة عن عباده، ويرحم التائبين، ومن حكمته وعدله أنه وضع حدّاً للسرقة لزجر اللصوص وردعهم، توفيراً للأمن والاستقرار، وتحقيقاً لمصالح العباد، والله هو القادر على كل شيء من التعذيب والرحمة.

ومن خلال التجربة والتطبيق تبين أن الحدود الشرعية هي المحققة لمصلحة الناس العامة والخاصة، فلا مانع من الجريمة أحكم وأعدل وأصلح من حدود الله المقررة في القرآن المجيد.

لكن ينبغي أن نعلم أن حدَّ السرقة لا يقام على السراق إلا بشروط كثيرة، فيشترط أن يكون السارق بالغاً عاقلاً، لا صبياً ولا مجنوناً، وألا يكون مأذوناً له في الدخول إلى مكان الأموال، لا ضيفاً أو خادماً، ولا قريباً ذا رحم محرم من المسروق منه، ولا مالكاً للمسروق، وأن يكون المسروق مقدّراً بنصاب شرعي وهو دينار ذهبي فأكثر في رأي الحنفية، أو ربع دينار في مذهب الجمهور، وأن يكون المسروق مالاً متقوماً، أي يباح الانتفاع به شرعاً، لا كنحو خمر أو خنزير أو كلب أو ميتة أو دم مثلاً.

وهناك شرط عام في الحدود كلها وهو ألا توجد شبهة؛ فالحدود تدرأ بالشبهات، وباب الشبهة واسع يجعل إمكان تطبيق الحدّ نادراً، وينتقل حينئذ إلى عقوبة تعزيرية أخرى غير الحدّ، كالحبس والضرب والتوبيخ. ومن تاب من فعله وأصلح نفسه، سقطت عقوبته، والله يحبُّ التائبين.

المسارعة في الكفر

أنزل الله تعالى الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والقرآن متضمنة الشرائع الإلهية لتنظيم الحياة البشرية؛ لأن الحياة التي لا يضبطها تشريع أو قانون هي حياة فوضوية تشبه حياة الغابة، لا سعادة ولا أمن ولا قرار فيها، القوي يأكل الضعيف، والكبير يستبدّ بالصغير، والمتنفِّذ يظلم غيره ويجور في حكمه وتعامله معه بحسب أهوائه ونزواته ومطامعه وشهواته. لذا استنكر القرآن الكريم معاداة الشرائع والكتب الإلهية، ووصف المتجاوزين لأحكامها بأنهم يسارعون في الكفر ويبادرون إلى الضلال ويعملون بالأخلاق المرذولة، فقال الله تعالى مسرّياً ومقوّياً نفس نبيِّه محمد ﷺ بسبب ما كان يلقى من طوائف المنافقين وبني إسرائيل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ(١) مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ(٢) فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ(٣) وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ(٤) فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ(٥) إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ(٦) ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ(٧) مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٤١-٤٣].

نزلت آية المسارعة في الكفر-كما روى أبو داود-في رجل وامرأة من اليهود زنيا، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا إلى هذا النّبي فإنه نبي بعث بالتخفيفات، فإن أفتى بفتيا دون الرجم قبلناها، واحتججنا بها عند الله، وقلنا: فتيا نبي من أنبيائك قال. فأتوا النّبي ﷺ، وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما ترى في رجل وامرأة زنيا؟ فلما سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، نهض في جملة من أصحابه إلى بيت المدْراس(٨)، فجمع الأحبار هنالك، وسألهم عما في التوراة من حكم الزُّناة المحصنين أي المتزوجين، فقالوا: يحمم وجه الزّاني، أي يطلى وجهه بالسّواد من فحم أو قار (زفت) ويُجَبَّه الزانيان(٩)، وقالوا أيضاً: إنا لا نجد الرّجم في التوراة، فقال رسول الله ﷺ: إن فيها الرَّجم، فانشروها، فنشرت، ووضع أحدهم يده على آية

(١) يغيّرونه أو يؤولونه بالباطل. (٢) ضلاله وكفره. (٣) ذلّ وعقاب. (٤) السُّحت: المال الحرام والخبيث من المكاسب. (٥) بالعدل. (٦) العادلين فيما حكموا به. (٧) يعرضون عن حكمك. (٨) المدراس: بيت الدراسة والتعليم عندهم. (٩) أي يحملان على بعير أو حمار بحيث يجعل قفا أحدهما إلى قفا الآخر.

الرَّجم، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرّجم، فحكم رسول الله ﷺ فيها بالرجم وأنفذه.

والآية تحذير عام وتذكير، وتثبيت وتقوية لنفس النَّبي ﷺ ، ومعناها: قد وعدناك أيها النَّبي النصر والغلبة على هؤلاء المنافقين واليهود، فلا يحزنك ما يقع منهم خلال بقائهم، ولا يهمنك أمر الذين يسرعون بالوقوع في الكفر، فإنهم أحد فريقين: إما أنهم منافقون يظهرون الإيمان بألسنتهم، دون أن تؤمن قلوبهم، وإما أنهم يهود يبالغون في سماع الكذب من أحبارهم، الذين يلقون إليهم الأخبار الكاذبة في حقِّ النَّبي ﷺ، وفيما يتعلَّق بأحكام دينهم، ويبالغون في سماع أقوام آخرين من اليهود هم يهود فدَك لم يأتوا مجلسك يا محمد لشدة كراهيتك والحسد عليك، أو هم بمعنى كونهم جواسيس يتنصتون للكلام لينقلوه لقوم آخرين.

وهم أيضاً يحرِّفون كلام التوراة من بعد أن وضع الله مواضعه؛ ببيان فروضه وإحلال حلاله وتحريم حرامه، يقولون لمن أرسلوهم للنَّبي ﷺ لسؤاله عن حكم الزانيين: إن أفتاكم بالتسخيم أو التحميم (تسويد الوجه) والجلد، فاقبلوا منه وارضوا به، وإن أفتاكم بالرّجم فاحذروا قبوله، ولا ترضوا به، ثم يقطع الله لنبيِّه الرجاء منهم، قائلاً له: لا تُتْبع نفسك أمرهم، فهم في مرصد الاختبار، والامتحان بالكفر والتعذيب في الآخرة، وقد اختاروا الضّلال، وسبق في علم الله ألا يطهِّر قلوبهم من السّوء، وأن يكونوا مُدَنَّسين بالكفر، فقرَّر الله لهم الخزي في الدنيا، أي الذُّل والمسكنة، وقرَّر لهم العذاب في الآخرة بكفرهم.

ثم أكَّد الله تعالى اتِّصافهم بصفة دائمة أنهم سماعون للكذب، أكّالون للسُّحت أي المال الحرام من أخذ الرّشوة وغيرها، فإن جاؤوك أيها النَّبي وكل حاكم بعدك للاحتكام أو التَّقاضي، فأنت مخيَّر بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم، وإن

أعرضت عنهم فلن يلحقك شيء من ضررهم وعداوتهم؛ لأن الله حافظك وعاصمك من الناس، وإن حكمت بينهم في قضية، فاحكم بينهم بالعدل الذي أمرك الله به، وهو شريعة القرآن، إن الله يحبُّ العادلين ويرضى عنهم. وتخيير الحكام باقٍ، وهو الأظهر إن شاء الله كما قال ابن عطية.

وكيف يحكِّمونك أيها النَّبي في قضية مثل الزّانيين؟ وعندهم التوراة فيها شريعتهم وحكم الله، ثم يتولون ويعرضون عن حكمك بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين أبداً.

أجل! إن التّلاعب بأحكام الله وشرائعه ومحاولة التهرُّب منها لا تفيد شيئاً، فإن الحقائق ناصعة، ومن تنكَّر للحقيقة تعرَّض للخزي والهوان في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، وقانا الله تعالى من الانحراف وألهمنا الاستقامة على شرعه ودينه.

تشريع القصاص

تميَّز القرآن الكريم بالحيدة والموضوعية وإظهار الحقائق في بيان الأحكام التشريعية فلا تعصُّب فيه لشريعة أو اتِّباعها على حساب شريعة أخرى؛ لأن مصدر التشريع الإلهي واحد وهوْ الله عزّ وجلّ، فكما أن القرآن المجيد نور وهداية دائمة، كذلك التوراة والإنجيل هدى ونور، وكما أن القصاص أو عقوبة الإعدام أمر مقرر في الشريعة الإسلامية، فهو كذلك مقرر واجب في الشريعة الموسوية، وإنكار ذلك كفر وظلم وفسق.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟(١) لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ(٢) وَٱلْأَحْبَارُ(٣) بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟

(١) انقادوا لحكم التوراة. (٢) العلماء: الفقهاء والعبّاد. (٣) علماء اليهود.

عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ(١) أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا(٢) عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٤٤- ٤٧].

نزلت هذه الآيات في اليهود الذين بدَّلوا حكم التوراة في الرجم، فجعلوا مكانه الجلد والتسخيم، أي تسويد الوجه وطلاءه.

والمعنى العام: إنا أنزلنا التوراة على موسى عليه السّلام، مشتملة على الهدى والنور، والهدى: الإرشاد في المعتقدات والشرائع، والنور: ما يستضاء به من أوامرها ونواهيها. وهي قانون يحكم بها الأنبياء المخلصون لله من عهد موسى بن عمران عليه السّلام إلى مدة مجيء محمد ﷺ، يحكمون بمقتضى التوراة لبني إسرائيل وعليهم، ويحكم بها أيضاً الرَّبانيّون، وهم العلماء الحكماء الذين يسوسون الناس بالعلم، ويحكم بها الأحبار: وهم العلماء رجال الدين، بسبب مااستحفظوا على كتاب الله شهداء ورقباء وحفاظاً يحمونه من التغيير والتحريف.

وإذا كان الحال كما ذكر فلا تخافوا الناس أيها الأحبار، ولا تكتموا الحق، من صفة النَّبي والبشارة به، طمعاً في نفع دنيوي عاجل، وخافوا الله وحده، فلا تحرِّفوا كتابه، خوفاً من أحد أو مجاملة لأحد، فتسقطوا الحدود الواجبة عليهم، ولا تستبدلوا بآياتي وأحكامي منفعة قليلة عاجلة تأخذونها من الناس، من رشوة أو طمع

(١) أي في التوراة . (٢) أتبعنا على آثار الأنبياء .

في مال أو جاه أو رضا الآخرين، فمتاع الدنيا قليل، والرشوة سحت حرام لا بقاء لها ولا بركة فيها، واعلموا أيها العلماء أن من لم يحكم بما أنزل الله، فأولئك هم الكافرون الذين ستروا الحق.

واعلموا أيها الأحبار العلماء أننا أنزلنا التوراة، وفرضنا فيها على بني إسرائيل عقوبة القصاص من القتلة، على أساس المساواة والمماثلة، فتقتل النفس بالنفس، وتفقأ العين بالعين، ويجدع الأنف بالأنف، وتقطع الأذن بالأذن، ويقلع السِّن بالسِّن، ويجري القصاص أي التماثل في الجروح والاعتداءات على الأعضاء. لكن من عفا عن الجاني وتصدق بحقه في القصاص، فالتَّصدق كفارة له، يستر الله بها ذنوبه ويعفو عنه، والعفو أفضل، قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧]. ومن أعرض عن تشريع القصاص القائم على العدل والمساواة بين الناس، ولم يحكم به في القضاء، فأولئك هم الظالمون أنفسهم وغيرهم، الذين يتعدون حدود الله، ويضعون الشيء في غير موضعه.

ثم ذكر الله تعالى في قرآنه أن التوراة شريعة أنبياء بني إسرائيل، فقال: وأتبعنا مجيء النَّبيين وذهابهم والسَّير على آثارهم بعيسى ابن مريم عليه السَّلام، فهو آخر نبي لبني إسرائيل، مصدِّقاً للتَّوراة التي تقدمته قولاً وعملاً، أي مقرّاً بأنه كتاب من عند الله وأنه حق واجب العمل به، يعمل بها فيما لم يغاير الإنجيل، وأخبر الله تعالى أنه أعطى عيسى الإنجيل فيه الهدى، أي الإرشاد والدعوة إلى توحيد الله وإحياء أحكامه وشرائعه، وفيه النّور: وهو أن ما فيه مما يستضاء به، وأن الإنجيل مصدق ومؤيد لما جاء في التوراة، وهو أيضاً سبب للاهتداء به وإرشاد الناس في المستقبل لما يأتي بعد الإنجيل وهو القرآن، ونبي الإسلام، والإنجيل كذلك موعظة حسنة للمتقين لاشتماله على النصائح والإرشادات البليغة، وخصَّ المتقون بالذكر؛ لأنهم المقصودون به في

علم الله، ولأنهم الذين ينتفعون بتلك المواعظ. ثم أمر الله تعالى بأن يعمل أهل الإنجيل بالأحكام التي أنزلها الله فيه، ومن لم يحكم بما جاء في الإنجيل فأولئك هم الفاسقون، أي المتمرِّدون الخارجون عن حكم الله وشرعه.

شريعة القرآن

الشرائع الإلهية حلقة متصلة الروابط، متكاملة متساندة فيما بينها، يؤكد بعضُها بعضاً، ويكمل آخرها أولها، لتتآزر فيما بينها وبين أتباعها على تحقيق مراد الله تعالى فيما يحقق المصالح ويدفع المضارّ والمفاسد، وينقل الناس إلى ما هو الأفضل والأمثل بحسب مقتضيات الحاجة ومراعاة قانون التطور ومنجزات الحضارة والتقدم، لذا جاء القرآن الكريم مؤيداً ما سبقه من التوراة والإنجيل، فقال الله تعالى مخاطباً نبيَّه محمداً ﷺ:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا(١) عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا(٢) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ(٣) فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ(٤) عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥/٤٨-٥٠].

نزلت آية ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ..﴾ في جماعة من اليهود، قال ابن

---

(١) رقيباً مؤتمناً عليها. (٢) شريعة وطريقاً واضحاً في الدين. (٣) ليختبركم. (٤) يصرفوك.

عباس: قال كعب بن أسيد، وعبد الله بن صُوريا، وشاس بن قيس: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه، فجاؤوه، فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتَّبعناك اتَّبعتنا يهود، ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك، فأبى ذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ..﴾ إلى آخر الآية وما بعدها وهي قوله: ﴿لِقَوۡمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ومعنى الآيات الكريمات: وأنزلنا إليك أيها النَّبي القرآن الكريم الذي أكملنا به الدين، مشتملاً أو متضمّناً الحقائق من الأمور، وهي تمثل الحق في نفسه، وصلاح العباد جميعاً، والقرآن مصدق ومؤيد ما تقدمه من الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور، وهو أيضاً مهيمن عليها، أي حاكم عليها، وشاهد لها وعليها ومبيِّناً حقيقة ما جاء فيها وما طرأ عليها، فهو أمين مؤتمن عليها.

وإذا كان هذا شأن القرآن ومنزلته، فاحكم يا محمد ومن جاء بعدك بما أنزل الله إليك فيه من الأحكام، دون ما أنزله إليهم، ولا تتبع أهواءهم، أي آراءهم التي اصطلحوا عليها، ولا تعدل عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء وشهوات أولئك الذين يريدون الميل عما أُنزل إليك، والعدول عن حكم الرجم والقصاص في القتلى.

فلكل أمة من الأمم جعلنا شريعة أوجبنا عليهم إقامة أحكامها، ومنهاجاً وطريقاً واضحاً فرضنا عليهم سلوكه، بحسب مراعاة الأحوال والأوضاع والتطورات، وهذا كله في الأحكام الفرعية، وأما في المعتقد فالدين واحد لجميع العالم، توحيد وإيمان بالبعث (اليوم الآخر) وتصديق للرُّسل، والله قادر على جعل الناس على ملّة واحدة أو دين واحد، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة بحسب عصره وزمانه، وأراد الله اختبار العالم فيما شرع لهم من الشرائع.

وإذا كان الأمر كذلك، فسارعوا أيها الناس إلى الخيرات، أي الطاعات وجِدّوا في التسابق في الأعمال الصالحات، لخيركم وصلاحكم وإنقاذكم، ولإحراز الفضل والرضا الإلهي، والبدار البدار فإنه إلى الله معادكم ومصيركم، يوم القيامة، فيخبركم إخبار إيقاع بما كنتم تختلفون فيه من الحق، وسيجازيكم عليه كله، وحينئذ يُظهر الله الثواب والعقاب. وقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ آية بارعة الفصاحة، جمعت المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة، كسائر كتاب الله تعالى.

ثم أكّد الله تعالى لنبيِّه الأمر بالحكم بما أنزل الله، فقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ..﴾ أي اقضِ بما أمر الله به، ولا تتبع أهواء المعاندين أو المعارضين فيما يخبرونك من أمور، ويقترحون من حلول، واحذر أيها النَّبي أن يفتنك أعداؤك عن بعض ما أنزل الله إليك، أي يميلوا بك من الحق إلى الباطل، فإن تولوا وأعرضوا عما تحكم به من الحق، وخالفوا شرع الله، فلا تبالِ بهم، واعلم أن الله يريد أن يعذِّبهم في الدنيا قبل الآخرة على ذنوبهم ومعاصيهم وتركهم أحكام الشريعة، ولا غرابة في ذلك فكثير من الناس لفاسقون، أي خارجون عن حدود الحق والدين والعقل الرشيد.

والعجب كل العجب من هؤلاء الذين يريدون إحياء فوضى الجاهلية والأخذ بالثأر وترك الدين الحق والحكم العادل في القصاص وعقاب الزّناة والتميز الطبقي وإضاعة الحقوق وإشاعة الجور والظلم وحماية المجرمين، ولا حكم أعدل من حكم الله لقوم يدركون الحق، ويوقنون أنه لا أعدل من الله، ولا أحسن حكماً من شرعه القويم.

موالاة غير المؤمنين

أوجب القرآن الكريم التعاون بين أبناء أمة الإيمان وحدهم، والاعتماد على أنفسهم، وإشاعة الثقة والمناصرة فيما بينهم، وتكوين أمة واحدة قوية متعاضدة متآزرة في السَّراء والضَّراء، لها شخصيتها المستقلة، وكيانها الذاتي المتين؛ لأن تكامل الأمة يقتضي الاحتفاظ بأسرارها، ومنع تسرُّبها إلى أعدائها، وبناء وجودها بناءً حصيناً يمنع اختراقه وتمكين الآخرين من إضعافه، قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ(١) بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ(٢) فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ(٣) أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ(٤) إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ(٥) أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥١-٥٣].

نزلت هذه الآيات في شأن رجلين أحدهما -عبادة بن الصامت الذي تبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وتولى الله ورسوله، والثاني -عبد الله بن أُبي زعيم المنافقين الذي أصرَّ على موالاة يهود قائلاً: إني رجل أخاف الدوائر.

نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآيات الشريفات عن اتِّخاذ اليهود والنّصارى أولياء في النُّصرة والخلطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة. فإياكم أيها المؤمنون أن تتحالفوا معهم، أو تسرّوا إليهم بأسراركم، ولا تطمئنّوا إلى صداقتهم ومحبّتهم أو موادتهم، إذ لن يخلصوا أو ينفِّذوا العهد لكم، فبعضهم أولياء أو أنصار بعض، ومن يناصرُهم أو يعينهم أو يستنصر بهم، فإنه في الحقيقة من جملتهم وكأنه مثلهم، وليس من صف

(١) أي أنصاراً وحلفاء توالونهم وتوادونهم . (٢) نتعرض لنوائب الدهر . (٣) بنصر رسوله . (٤) آكد أيمانهم . (٥) بطلت .

المؤمنين الصادقين، وإن الله لا يوفق إلى الحق والخير القوم الظالمين أنفسهم بموالاة أعدائهم والاعتماد عليهم أيّاً كان السبب.

وهذا النهي متعلق في شأن تعميق الصّلات والرّوابط والأحلاف مع غير المؤمنين، أما مجرد المعاملة والمتاجرة من غير مخالطة عميقة الجذور، فلا تدخل في النّهي، فقد عامل رسول الله ﷺ يهودياً، ورهنه درعاً.

ثم ميَّز الله تعالى بين المُوالي لأمّته وبين المعادي لها، المنضمّ إلى صفّ الأعداء، فأخبر الله نبيَّه بقوله: ترى يا محمد أولئك المنافقين الذين في قلوبهم شك ونفاق، وإيمانهم ضعيف غير صحيح، ترى هؤلاء يبادرون في موالاة الأعداء، ويرغبون فيها رغبة أكيدة خالصة للشيطان، ويتصادقون معهم صداقة حميمة، ويقولون معتذرين بسبب انهزام نفوسهم وضعفها: نخاف أن نتعرض لدائرة تدور علينا، من دوائر الدهر، وأن تكون لهم الغلبة والتّفوق، وأن تكون لنا الهزيمة والضعف، والدائرة معناها: النازلة من الزمان، والحادثة من الحوادث التي تحوجنا إلى موالينا وأنصارنا من اليهود الأعداء.

ولكن هؤلاء المنافقين الانهزاميين نسوا جانب الله وتركوا مقتضى الإيمان، فالله يَعِدُ المؤمنين وعداً جازماً بالنصر والغلبة، والفصل بين أهل الإيمان وجند الشيطان، فيصبح المتواطئون مع الأعداء نادمين على ما أسرّوا في أنفسهم من مناصرة أهل الباطل وجند الشيطان وأعداء أهل الإيمان. وقوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ وعد قاطع من الله؛ لأن ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة التحقيق.

وظاهرة الفتح في هذه الآية: علو كلمة الإسلام، وتغلُّب رسول الله ﷺ على أعدائه الذين يخططون للقضاء على دعوته وإضعاف أنصاره.

لذا يقول الذين آمنوا متعجِّبين من فعل المنافقين ومخاطبين الأعداء: أهؤلاء الذين

أقسموا بالله وحلفوا الأيمان المغلَّظة المؤكَّدة: إنهم معكم، وإنهم مناصروكم على أعدائكم، ثم انكشفوا على حقيقتهم، وتبينت عداوتهم كما قال الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٥٦].

أي إنهم جماعة خائفون يظهرون الإسلام تقية أو مناورة أو سياسة، لا حقيقة. ثم يضيف المؤمنون قائلين: هؤلاء المنافقون بطلت أعمالهم، التي يؤدّونها نفاقاً من صلاة وصيام وحج وجهاد، فخسروا بذلك الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة.

وهكذا الزمن كفيل بإظهار الأمور على حقيقتها، فلا بد من أن ينهزم أهل الشَّر والباطل، وينتصر أهل الحق وجند الإيمان بعد الاستعداد الصحيح والتفافهم مع بعضهم، وإعزاز إيمانهم ودينهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصّافات: ٣٧/ ١٧١-١٧٣].

تهديد المرتدِّين

إن الثَّبات على الحق والإيمان بالله تعالى مهما حدث من الحوادث والكوارث هو شأن المؤمن العاقل، الصحيح العقيدة، فلا يتزحزح عن إيمانه مهما اختلفت المصالح، أو تعرَّض للإغراءات والمصائب، ويظل ثابتاً على العهد والدين كأنه الجبل الأشمّ والصخرة العاتية. أما ضعاف الإيمان، والانهزاميون والمتذبذبون الجبناء، فهم الذين لا يصمدون للمحنة أو الأزمة، وتراهم سريعي التَّبدل والتَّحول من ساحة الإيمان إلى بؤرة الكفرة ومستنقع الشيطان وأعوانه.

لذا هدَّد المرتدِّين بأنهم لن يضرّوا إلا أنفسهم، فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ(١) عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ(٢) عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ(٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ(٤) عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ(٥) ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤-٥٦].

من المعلوم أنه ارتدَّ عن الدِّين إحدى عشرة فئة، ثلاث قبائل أيام النَّبي ﷺ: وهم بنو مُدْلج بزعامة الأسود العنسي، وبنو حنيفة بزعامة مسيلمة الكذاب، وبنو أسد بزعامة طليحة بن خويلد، وسبع قبائل في عهد أبي بكر الصِّديق، وهم غطفان وفزارة وبنو سليم، وبنو يربوع، وبعض بني تميم بزعامة سجاح الكاهنة، وكندة، وبنو بكر. وارتدَّ جبلة بن الأيهم من الغساسنة وتنصَّر ولحق بالشام والروم.

فنزلت هذه الآيات السابقة خطاباً للمؤمنين عامة إلى يوم القيامة، وأشارت إلى القوم الذين قاتلوا أهل الرِّدة والذين يأتي الله بهم وهم: أبو بكر الصِّديق وأصحابه رضوان الله عليهم.

ومعنى الآيات الكريمات: أن الله وعد هذه الأمة أن من ارتدَّ منها، فإنه تعالى يجيء بقوم ينصرون الدين، ويُستغنى بهم عن المرتدِّين، فكان أبو بكر وأصحابه ممن صدق فيهم الخبر في ذلك العصر السابق في صدر الإسلام. فمن يرتد عن دينه في المستقبل، فسوف يأتي الله بقوم بديل عنهم، وصفهم القرآن الكريم بستّ صفات:

أ- إنهم أناس يحبّهم الله تعالى، أي يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم، ويرضى عنهم.

---

(١) متواضعين رحماء بهم. (٢) أشدّاء عليهم. (٣) اعتراض معترض. (٤) كثير الفضل والجود.
(٥) ناصركم.

٢- ويحبّون الله تعالى باتّباع أوامره واجتناب نواهيه.

٣- وهم أذلَّة على المؤمنين، متواضعون لهم، متفاهمون معهم، متعاونون.

٤- وهم أعزّة على الكافرين، أي أشدّاء متعالون عليهم، معادون لهم كما قال الله تعالى في وصف المؤمنين في آية أخرى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٩].

٥- وشأنهم أنهم يجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله ودينه، ومن أجل مناصرة الحق والخير والفضيلة وتوحيد الإله، ويدافعون عن الأوطان والأهل والديار والبلاد.

٦- وهم لا يخافون في الله لومة لائم، أي لا يخشون لوم أحد واعتراضه ونقده، لصلابتهم في دينهم، ولأنهم يعملون لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، على نقيض المنافقين الذين يخافون لوم حلفائهم وأنصارهم من الأعداء.

هذه الصفات السِّت التي اتَّصف بها هؤلاء المؤمنون المخلصون هي من فضل الله العظيم، والله سبحانه يؤتي فضله من يشاء، ويوفق إليه من يريد، والله واسع عليم، أي ذو سعة فيما يملك ويعطي، كثير الأفضال، عليم بمن هو أهلها، يمنح فضله وإحسانه ونعمه على من يجد فيهم الاستعداد الطيب لها.

وبعد أن نهى الله تعالى عن موالاة الأعداء، أمر بموالاة ومناصرة الله ورسوله والمؤمنين، فأنتم أيها المؤمنون إنما وليُّكم وناصركم بحق هو الله ومعه رسوله والمؤمنون الذين يقيمون الصلاة، أي يؤدّونها كاملة تامّة الأركان والشروط، ويؤتون الزّكاة، أي يعطونها بإخلاص وطيب نفس لمن يستحقّها، وهم خاضعون لأوامر الله، بلا ضجر ولا رياء. وإيتاء الزّكاة هنا لفظ عامّ يشمل الزّكاة المفروضة والتّطوع

بالصَّدقات والقيام بكل أفعال البر؛ إذ هي تنمية للحسنات، مطهرة للمرء من دنس الذنوب. وهذه الآية في جميع المؤمنين.

ثم أوضح القرآن المجيد مبدأ عاماً، مفاده: أن من يناصر دين الله بالإيمان به والتوكل عليه، ويؤازر رسول الله والمؤمنين دون أعدائهم، فإنه هو الفائز النّاجي، وهو الذي يحقق النّصر والغلبة على المناوئين، وحزب الله بحق، دائماً هو غالب، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢١] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢٢].

العلاقة مع غير المؤمنين

من الطبيعي أن تحتفظ كل أمة أو جماعة بأسرارها فيما بينها، ولا تبيح بشيء منها لأعدائها، وإلا كانت جماعة حمقاء طائشة، سرعان ما يهدِّد وجودها الضَّياع والذَّوبان وتسلُّط الأعداء عليها، لهذا حذَّر القرآن الكريم هذه الأمة من اتِّخاذ الأنصار والأعوان من غيرها، منعاً من التَّشتُّت والهزيمة، وحفاظاً على العزّة والقوة والمجد، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ(١) وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا(٢) وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ(٣) مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً(٤) عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ(٥) أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن

---

(١) أي أنصاراً ومؤيدين. (٢) سخرية. (٣) تعيبون. (٤) جزاء وعقوبة.

(٥) الطاغوت: كل ما عُبد من دون الله، أي أطيع، من وثن أو شيطان أو آدمي يرضى ذلك.

سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ[(١)] ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ[(٢)] لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ[(٣)] وَٱلْأَحْبَارُ[(٤)] عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥٧-٦٣].

قال ابن عباس مبيّناً سبب نزول هذه الآيات: كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا، وكان رجل من المسلمين يوادّهما، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾.

نهى الله تعالى المؤمنين عن اتّخاذ أعدائهم أولياء، أي حلفاء وأنصاراً، فوسمهم بوسم يحمل النفوس على تجنُّبهم، وذلك اتّخاذهم دين المؤمنين ومشاعرهم هزواً ولعباً، أي سخرية وازدراء، ومظهراً من مظاهر اللعب والعبث، حتى وإن تظاهروا بالمودة والمحبة والعطف، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٤].

وشدّد الله على قطع الموالاة، فأمر الناس المؤمنين بتقوى الله وخشية عذابه ووعيده على الموالاة مع الأعداء، إن كنتم صادقي الإيمان تحترمون أحكامه وتلتزمون حدوده، وكل من الأمر بالتقوى والتذكير بالإيمان للتّنفير والتّحذير من أفاعيل الأعداء وشرورهم ومكرهم، وتنبيه النفوس إلى أن الإيمان الحق يقتضي البعد من العدو.

ومن أفاعيل الأعداء وسوء فعلهم ومظاهر شرّهم: أنكم أيها المؤمنون إذا ناديتم

(١) الطريق المعتدل وهو الإسلام. (٢) المال الحرام كالرّشوة والربا. (٣) العبّاد والعلماء. (٤) علماء اليهود.

إلى الصلاة بالأذان، اتّخذوا النِّداء والصلاة هزواً ولعباً، فقالوا: قد قاموا لا قاموا، إلى غير هذا من الألفاظ التي يستخفّون بها في وقت الأذان وغيره. وفعلهم هذا؛ لأنهم لا يعقلون معاني عبادة الله وشرائعه، وهم أشبه بالشيطان الذي يفرُّ ويدبر إذا سمع الأذان.

ولكنهم مع الأسف لا يقدِّرون تأثير الأذان في القلوب، وتطهير النفوس وتزكيتها وربطها بعظمة الله وكبريائه، وتذكيرها بضرورة الخوف من الله في السِّر والعلن.

ثم أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول لأهل الكتاب: هل تعدّون ذنباً أو نقيصة إيمانَنا الثابت الراسخ بالله ورسله، وإيماننا بما أنزل إلينا وبما أنزل من الكتب السابقة على الرُّسل الكرام، والحق أنهم بهذا الهزء واللعب أكثرهم فاسقون، أي خارجون عن حدود الدين الصحيح والرأي السليم والعقل الرشيد. وليس لهم من الدِّين إلا التَّعصب والحقد، والمظاهر والتقاليد الجوفاء.

ثم أجابهم الله تعالى عن استهزائهم، فقل لهم يا محمد: هل أخبركم أيها المستهزئون بديننا، الواصفون ديننا بأنه شرّ، إنه لا شرَّ ولا ضلال أشدّ من دين الملعونين الذين لعنهم الله وغضب عليهم بسبب سوء أفعالهم، وطَرَدَهم من رحمته، وغضب عليهم غضباً أبدياً، وجعل منهم القردة والخنازير، وأطاع الشيطان، وعبد الأصنام والعجل، أولئك المتّصفون بتلك الصفات من الأجداد والأحفاد شرٌّ مكاناً مما تظنون بنا؛ لأن مكانهم النار، وهم أضلُّ الناس عن طريق الاستقامة والاعتدال والحق الواضح.

وبلغ من سوء الأعداء وخاصة المنافقين منهم أن الكفر ملازم لهم، فإذا جاؤوا إلى الرسول والمؤمنين، قالوا: آمنّا بالرّسول وبما أنزل عليه، والحال أنهم دخلوا وهم كفار، وخرجوا كذلك، لم تنفعهم الموعظة، ولم يؤثر فيهم التذكير، والله أعلم بما

يكتمون حين الدخول من النفاق، وعند الخروج من العزم على الكيد والمكر، فهم جميعاً أغبياء وشذاذ. وترى أيها النَّبي كثيراً من هؤلاء المستهزئين بدينك، يبادرون إلى ارتكاب الإثم والظلم والمعاصي، ويأكلون السُّحت (المال الحرام) فبئس الاعتداء اعتداؤهم، وقبح الفعل سوء فعلهم. ثم عاتب الله علماءهم على تقصيرهم، ووبَّخهم على سكوتهم على الباطل، فهلا نهوا أتباعهم عن قولهم الإثم والكذب، وأكلهم الأموال بالباطل، تالله لبئس ما كان يصنع أولئك الأحبار (العلماء) من ترك النُّصح والرِّضا بالمنكر.

بعض أوصاف اليهود

من المعلوم أن البشر جميعاً هم عباد الله الذين خلقهم وأراد لهم الخير، ولا فرق بين إنسان وآخر، ولا فضل لأحد على آخر إلا بما يقتضي التفاضل ويستدعي التفريق. واليهود كسائر الناس ميزانهم بحسب أعمالهم وأفعالهم وما يظهرونه من طبائع قبيحة وخصال سيئة، والحكم عليهم بمقدار إساءتهم للخالق المعبود والمخلوقات البشرية.

قال الله تعالى مبيِّناً بعض أوصاف اليهود الذميمة مع ربِّهم ومع عباد الله:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ(١) غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ

(١) مقبوضة عن العطاء.

﴿٦٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ(١) وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ٦٦﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤-٦٦].

سبب نزول الآيات ما قال ابن عباس -فيما أخرجه الطبراني وابن إسحاق- قال رجل من اليهود يقال له: النباش بن قيس للنَّبي: إن ربَّك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وفي رواية أخرى سمي الرجل بأنه فَنْحاص رأس يهود بني قينقاع.

هذه الآيات تعداد لألوان من الكبائر، ووصف لأقوال وأفعال في غاية القبح والإساءة، والخزي والجرأة على الله تعالى، وأشد هذه الأوصاف شناعة وسوءاً وصْفُهم الله تعالى بما لا يتفق مع ميزان العقل، ويأباه الواقع المشاهد، إنهم وصفوا الله تعالى بأنه فقير وهم أغنياء، وأنه بخيل في تعبيرهم المجازي: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وهو مجاز عن البخل والإمساك، فردَّ الله عليهم بالدُّعاء عليهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ إنه دعاء عليهم بالبخل والنّكد والإمساك عن الخير، فكانوا أبخل خلق الله وأنكدهم، والرَّد الواقعي: أن يدي الله مبسوطتان، أي هو الجواد الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من شيء لأي مخلوق إلا عنده خزائنه ومنه الرزق وحده، فهو المنعم المتفضِّل.

وتالله أيها النَّبي ليزيدن ما أنزل إليك من آيات القرآن الواضحات طغياناً، أي تجاوزاً للحدّ في الأشياء، وكفراً، أي تكذيباً، أي أن نعمة القرآن تكون نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم؛ لأنها تكشف زيفهم وتفضح أوضاعهم، وكان من جزاء الله لهم على نكدهم وتمرُّدهم إلقاء العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة، وإن تظاهروا بوحدة الصّف وتماسك الكلمة، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى، فلا يهمنّك

(٢) معتدلة، وهم من أسلم منهم.

أمرهم وتآمرهم، ولا تغتر بما هم عليه الآن في فلسطين المحتلة، وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله في الخارج والداخل بإثارة الفتنة ومحاولة التفرقة وإثارة العداوة، وهم في مساعيهم يسعون في الأرض فساداً، فمن سجيّتهم وطبعهم دائماً الإفساد لا الإصلاح، والتّهديم لا البناء، والله لا يحبُّ المفسدين، وإنما يبغضهم ويعاقبهم ويسخط عليهم.

ثم فتح الله تعالى باب الأمل والتوبة والإصلاح أمامهم، فهم لو آمنوا بالله ورسوله، واتّقوا ما يتعاطونه من المآثم والمعاصي، لكفَّر الله عنهم سيئاتهم التي اقترفوها، وأدخلهم جنات النعيم التي ينعمون بها. وهذا دليل واضح للبشرية جمعاء على أن العمل الصالح مع الإيمان الكامل سبب لرضوان الله وتوسيع الرزق، وزيادة النعم وإفاضة الخيرات، والتوفيق لسعادة الدنيا والآخرة.

ولو أنّهم نفّذوا تعاليم التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم، لكفَّر الله عنهم سيِّئاتهم، وغاصوا في نعم الله من فوقهم وجوانبهم وتحتهم.

لكن من اليهود أو غيرهم جماعة معتدلة، تؤمن بما أنزل الله، ويحبون الخير، ولكن الكثيرين منهم فاسقون خارجون عن الطاعة، فبئس ماعملوا وكذبوا وحرَّفوا، وأكلوا الحرام، وظلموا العباد.

تبليغ رسالة الوحي الإلهي

الكتب الإلهية والوحي الرَّبّاني نداء دائم من الله تعالى لعباده في أن يصلحوا أمرهم، ويوحِّدوا ربّهم، ويقبلوا على الله بطاعته وعبادته، دون إهمال ولا تقصير، والرُّسل الكرام الذين بعثهم الله تعالى مهمتهم تبليغ الرسالة الإلهية، وإقناعُ الناس بجدواها وضرورتها في حياتهم، وترغيبُ الناس بالعمل بها، وتحذيرُهم من تعطيلها أو إهمالها.

والرسول محمد ﷺ خاتم الرُّسل والأنبياء جميعاً، أمره ربُّه بمهمة التَّبليغ والبيان والجهاد في سبيل دعوته، فقال الله تعالى له:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ(١) عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ(٢) وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: ٦٧-٦٩].

نزلت آية الأمر بالتبليغ كما ذكر الحسن البصري رحمه الله حين قال رسول الله ﷺ: إن الله بعثني برسالة، فضِقت بها ذَرْعاً، وعرفت أن الناس مكذِّبي، فوعدني لأُبلِّغن أو ليُعذِّبني، فنزلت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ..﴾.

وروى ابن مردويه عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ: أي آية من السماء أنزلت أشدُّ عليك؟ فقال: كنت بمنى أيام موسم، واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس (أي لا يُعلم ممن هم) فنزل علي جبريل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ..﴾ الآية، فقمت عند العقبة، فقلت: أيها الناس، من ينصرني على أن أبلغ رسالات ربي، ولكم الجنة؟ أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله، وأنا رسول الله إليكم، تفلحوا، ولكم الجنة، قال ﷺ: فما بقي رجل ولا أَمَة ولا صبي إلا يرمون علي بالتُّراب والحجارة، ويقول: كذاب صابئ، فعرَض علي عارض، فقال: اللّهم اهدِ قومي، فإنهم لا يعلمون، وانصرني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك، فجاء العباس عمه، فأنقذه منهم، وطردهم عنه.

يأمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بالتَّبليغ على وجه الاستيفاء والكمال، والاستمرار والدوام في ذلك؛ لأنه كان قد بلَّغ وبدأ بإبلاغ الرسالة الإلهية إلى قومه،

---

(١) فلا تحزن. (٢) عبدة الكواكب أو الملائكة، وهو مبتدأ خبره (كذلك).

فقام بواجبه أتم القيام، بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، فجزاه الله خير الجزاء. والمعنى: أيها الرسول، بلّغ جميع ما أنزل إليك من ربّك، لا تخش أحداً، ولا تخف من شيء، فإنك إن لم تبلّغ كل المنزل إليك، فما بلّغت رسالة الله، فالتّبليغ حتم لازم، وفوري لا يتأخر، ولا يجوز تأجيل شيء عن وقته. ولا داعي لأحد يحرسك، فالله يحميك ويحفظك من شرّ الناس، والله لا يوفق الكافرين للإساءة إليك، ولا يمكّنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك.

قالت عائشة رضي الله عنها: من زعم أن محمداً كتم شيئاً من الوحي، فقد أعظم الفِرْية، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾ الآية. وقال عبد الله بن شقيق: كان رسول الله ﷺ يتعقبه أصحابه يحرسونه، فلما نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ خرج فقال: «يا أيها الناس، الحقوا بملاحقكم، فإن الله قد عصمني».

ثم أمر الله تعالى محمداً عليه الصّلاة والسّلام أن يقول لأهل الكتاب المعاصرين له:

لستم على شيء مستقيم حتى تقيموا وتطبّقوا التوراة والإنجيل في الأمر بتوحيد الله الخالص والعمل الصالح، والإيمان بمحمد ﷺ، والعمل بالقرآن، المنزل إليكم من ربّكم، ونحن المسلمون من باب أولى: لسنا على شيء أبداً حتى نعمل بأحكام القرآن. ثم أقسم الله قسماً مفاده أنه ليزيدن القرآن المنزل إليك من ربّك طغياناً أو تجاوزاً للحدّ في الظلم على طغيان، وكفراً على كفر، بسبب الحسد الكامن، فلا تحزن يا محمد ولا تتأسّف عليهم، لزيادة طغيانهم وجحودهم، فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك، وفي نصرة المؤمنين بك غنى عنهم. والقليل منهم يزيدهم القرآن هدى ورشاداً وتوفيقاً للسعادة.

والقانون العام الإلهي: هو أن الله تعالى يغفر لكل مؤمن، فالذين صدقوا بالله

ورسوله وهم المسلمون، واليهود والصّابئون (فرقة من النصارى المحايدين) والنّصارى أتباع عيسى عليه السّلام، من آمن منهم بالله ربّاً وإلهاً واحداً، وآمن برسله، وباليوم الآخر يوم القيامة، وعمل صالحاً فأقام الطاعات، فلا خوف عليهم أبداً من عذاب القيامة، ولا هم يحزنون أبداً على شيء من لذّات الدنيا ونعيمها، بل هم في جنّات النعيم، جعلنا الله منهم وألهمنا رشدنا وصوابنا.

علاقة أهل الكتاب برسلهم

الأنبياء والرُّسل عليهم السّلام مندوبون موفدون مكلفون من الله تعالى بتبليغ رسالات ربّهم وكتبه ووصاياه، فما على البشر إلا الأخذ بتعاليمهم وتصديقُهم في دعوتهم، واحترامُهم وتأييدُهم جميعاً، دون تفرقة ولا تمييز، ولا اختيارِ لأحدهم أو بعضهم وترك البعض الآخر. غير أن أهل الكتاب لم يلتزموا هذا الموقف المحايد، وإنما صدَّقوا بعض الرُّسل، وكذَّبوا بعضهم الآخر، بل قتلوا فريقاً منهم، أو وصفوه بصفة مخالفة للحقيقة، ومغايرة للواقع. قال الله تعالى مبيِّناً هذا الموقف:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ[1] فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ

(١) ابتلاء وعذاب .

إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ(١) مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ(٢) كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ(٣) ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة: ٥/ ٧٠-٧٥].

تضمَّنت هذه الآيات الكريمات أخباراً مثيرة ووقائع حدثت من أوائل الكتابيين، الخبر الأول- يقسم الله تعالى بذاته على أنه أخذ العهد المؤكد الموثق على بني إسرائيل في التوراة على السمع والطاعة لله ورسله: موسى وعيسى ومحمد عليهم الصَّلاة والسَّلام، فيؤمنوا بالله وحده لا شريك له، ويتَّبعوا أحكام الله وشرائعه، ولكنهم نقضوا العهد والميثاق وعاملوا الرُّسل بحسب أهوائهم، فكذَّبوا بعضهم وأعرضوا عن رسالته، وقتلوا بعضهم ظلماً وعدواناً.

والخبر الثاني- أنهم ظنّوا وتيقّنوا ألا يترتب على ما صنعوا شرّ وضرر، وألا تقع بهم فتنة، أي اختبار وابتلاء لهم بما فعلوا من الفساد، لزعمهم أنهم أبناء الله وأحبّاؤه، ولجُّوا في شهواتهم، واختُبروا بالشدائد، ولكنهم لم يتّعظوا ولم يعتبروا، وعموا عن الحق، ولم يتبصّروا طريق الهدى، فشُبِّهوا بالعمي، وصمُّوا آذانهم عن استماع الحق وعن تدبر آيات الله، فشُبِّهوا بالصُّمّ، فلم يهتدوا إلى الخير، وتسلط عليهم البابليّون ونهبوا أموالهم، وسبوا أولادهم ونساءهم، ثم تاب الله عليهم مما كانوا فيه، أي رجع بهم إلى الطاعة والحق، حين أنابوا لربّهم وتركوا الفساد والشَّرّ وعبادة العجل، ثم أعادوا الكرة للانغماس في الشهوات، فعموا عن المواعظ، وصموا آذانهم عن آيات الله ولم يعتبروا بالإنذارات ولم يتّعظوا بالشدائد والحجج

---

(١) مضت . (٢) كثيرة الصدق مع الله تعالى . (٣) أي يصرفون عن الحق مع قيام البرهان .

والآيات البيِّنات، وكان أكثرهم عصاة، عصوا أوامر الله والرُّسل، فسلَّط الله عليهم الفرس، ثم الرّومان، فدمَّروا ملكهم وسلبوا استقلالهم. والله مطَّلع على أحوالهم، عليم بمكائدهم ومكرهم برسلهم وبالرسول محمد ﷺ، وكان أقلّهم مؤمنين صالحين.

والخبر الثالث- يقسم الله تعالى أيضاً أنه كفر الذين ألَّهوا المسيح، وضلّوا ضلالاً شديداً خارجاً عن حدود العقل والدين، مع أن المسيح حذَّرهم عاقبة الشِّرك والوثنية، وأعلمهم بأن من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار، وليس للظالمين أنفسهم من نصير ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم وينقذهم.

والخبر الرابع- قسم آخر مؤكد من الله تعالى كالذي قبله بأنه كفر الذين قالوا بالتَّثليث، وأنه لا يوجد في هذا الكون والعالم إلا إله واحد، فرد صمد، وهو خبر صادق بالحق، وذلك الإله هو الله تعالى، وإن لم ينتهوا عما يزعمون، ليتعرضُنّ لعذاب شديد مؤلم في الآخرة.

وفي أعقاب هذه الأخبار اقتضت رحمة الله وألطافه بعباده أن يحضّهم على الإيمان الصحيح، ويدعوهم إلى التَّوبة والاستغفار مما وقعوا فيه من الكفر والعصيان، فالله غفور للتّائبين، رحيم بهم، ستّار للذنوب.

والخبر الخامس -عن حقيقة المسيح وأنه رسول بشر كالرُّسل المتقدِّمة قبله، وأن أمّه مريم صِدِّيقة، أي مؤمنة بحقيقة عيسى، ومصدِّقة له، ومعترفة برسالته على الوجه الصحيح، ولها مرتبة تلي مرتبة الأنبياء والمرسلين. وهي وابنها مجرد بشرَيْن كانا يشربان ويأكلان الطعام، للحفاظ على معيشتهما وحياتهما.

ثم أمر الله تعالى نبيَّه محمداً ﷺ وأمته من بعده بالنظر في ضلال هؤلاء القوم، وبُعْدهم عن سنن الحق، وأن الآيات والدلائل الواضحة تُبيِّن لهم، وتوضِّح في غاية

الوضوح، ثم هم بعد ذلك يُصرفون عن الحق، أي تصرفهم دواعيهم وأهواؤهم وحرصهم على تكسُّبهم عن الحق الأبلج والطريق الإيماني الأقوم والأسلم.

أسباب الفساد والانحراف في غير المؤمنين

كان من رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن حذَّرهم وأنذرهم وأبان أسباب انحرافهم وضلالهم، قبل أن يفاجئهم بالحساب العسير والعقاب الأليم على زيغهم، وكان هذا التحذير والإنذار شاملاً جميع غير المؤمنين إيماناً صحيحاً، وهم كل من عبد غير الله من الأصنام والأوثان، وخرج عن مقتضيات أوامر الله وتعاليمه في الكتب الإلهية السابقة، ولم يلتزم بمبدأ وحدة الأديان القائمة على توحيد الله عزّ وجلّ، والاستقامة على أوامره وطاعته، والعمل على وحدة الانتماء إلى أمة التوحيد، وترك موالاة غير المؤمنين ومناصرتهم.

وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم في وصف أخطاء غير المؤمنين بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟[1] فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ[2] ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٧٦-٨١].

---

(١) لا تتجاوزوا الحدّ ولا تُفرِطوا. (٢) غضب الله عليهم بما فعلوا.

أوضحت هذه الآيات الكريمة أسباب انحراف غير المؤمنين عن الإيمان الحق وحصرتها في خمسة أسباب: وهي عبادة غير الله تعالى، والغلو في الدين بغير حق، وعصيان الأوامر الإلهية، والسكوت عن المنكر أو الضلال والرِّضا به، وموالاة غير المؤمنين بالله ورسوله محمد ﷺ.

أما سبب الانحراف الأول وهو الأهم: فهو عبادة غير الله الذي لا يقدر على دفع ضرّ، ولا جلب نفع لأوليائه العابدين له، ولغير العابدين على السواء، فلم تستطع الأصنام والأوثان نفع المشركين ولا إضرارهم، ولم يستطع عيسى عليه السّلام إصابة أعدائه اليهود بضرّ، مع أنهم حاولوا قتله وصلبه، ولم يتمكّن عيسى أيضاً من تقديم نفع لأتباعه وأنصاره، سواء في الدنيا أو في الآخرة، بالرغم مما تعرَّضوا له من تعذيب وطرد. والله وحده هو السميع لكل صوت أو همسة، العليم بكل شيء، فهو الذي يستحق العبادة وحده دون سواه.

والسبب الثاني للانحراف والفساد هو المغالاة في الدين وتجاوز الحدود في وصف عيسى، واتِّباع أهواء قوم وآرائهم الواهية من غير حجة ولا برهان، أولئك القوم المتَّبَعون الذين ضلّوا من قبل، وأضلّوا كثيراً من الناس، وضلّوا عن السّبيل الوسط، والرأي المعتدل.

وسبب الانحراف الثالث: هو عصيان أوامر الله واعتداؤهم على خلقه، وتماديهم في العصيان والمخالفة، فاستحقّوا اللعن، أي الطرد من رحمة الله، وما على من جاء بعدهم من الأجيال إلا الحذر من المعاصي والمنكرات، والحرص على الاستقامة على أوامر الله وترك منهياته ومخالفاته.

وسبب الانحراف الرابع: هو الرِّضا بالجريمة والسكوت عن المنكر؛ لأن الساكت راضٍ عن الفعل، وهو شيطان أخرس، ولذا كان من أهم حصون الدين الحفاظ على

دائرة الحق والعدل فيه، وترك المنكر حتى لا يفشو كالنار في الهشيم أو الزرع اليابس، ومن الواجب تكتل الأفراد والجماعات والسَّعي لاستئصال شأفة الفساد الديني، والخلقي والاجتماعي في مظلّة السلطة المؤمنة.

وسبب الانحراف الخامس: هو ترك موالاة ومناصرة الذين كفروا، فإن كثيراً من أهل الكتاب كانوا في صدر الإسلام يتولون مشركي مكّة، ويتآزرون معهم، ويتركون موالاة المؤمنين.

ولكنهم بهذه الموالاة لغير جند الإيمان أساؤوا لأنفسهم، وتعرَّضوا لسخط الله وغضبه عليهم، وكانوا خالدين في النار وعذابها الشديد. ولو عقلوا وفكَّروا جيداً، وآمنوا بالله تعالى الإله الواحد، وبالنَّبي محمد ﷺ خاتم النَّبيين، وآمنوا بالقرآن الكريم المنزل إليه من ربِّه، ما اتَّخذوا المشركين والكفّار أولياء وأنصاراً، وأصدقاء وأعواناً، ولكن كثيراً منهم في الواقع فاسقون، أي خارجون عن دائرة الدين الحق، وعن طاعة الله ورسوله، وأصول دينه، لأنهم أرادوا تحقيق زعامة كاذبة، والحصول على عَرَض دنيوي زائل، فأضاعوا الدنيا والآخرة.

علاقة أهل الكتاب بالمؤمنين

من الطبيعي أن يلتقي أهل الأديان وأن تتَّحد كلمتهم؛ لأنهم يؤمنون إيماناً متماثلاً بوجود الخالق ووحدانيته، وبوجود البعث والجنة والنار، وأن تكون أخلاقهم ومعايير سلوكهم واحدة مقتبسة من تعاليم الله وإرشاداته، وليس من المنتظَر الالتقاء مع المشركين والوثنيين أو الماديين الملحدين؛ لأن هؤلاء لا يؤمنون بالدين الإلهي، وإنما يؤمنون بمبادئ وهمية، أوجدها الزعماء والقادة، وقلَّدهم الأتباع والأدنياء من غير تأمل ولا تعقل.

لذا خاطب الله تعالى في القرآن الكريم اليهود والنصارى بصفة أهل الكتاب، وخاطب غير المؤمنين بالدين الإلهي أصلاً بلفظ المشركين. وكانت علاقة المؤمنين ببعض أهل الكتاب علاقة ودّ وصداقة، وعلاقة المسلمين بالمشركين تتّسم بالعداوة والجفاء والبغضاء.

قال الله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ[1] مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٢-٨٦].

نزلت هذه الآيات في قوم من النصارى من الحبشة أو من نجران أو من غيرهم وصفهم القرآن بأنهم أهل وُدّ لأهل الإيمان بالله ورسوله، وهم بالنسبة للمؤمنين أقرب من اليهود والمشركين المتباعدين عن ساحة الإيمان، وهذا خبر مطلق منسحب على الزمن كله، وهكذا هو الأمر حتى الآن؛ لأن اليهود مَرَنوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم، ولازمهم العتو والمعاصي، وكذلك المشركون عبدة الأوثان من العرب، وعبدة النِّيران من المجوس عادَوْا الدين مطلقاً عداءً شديداً، وأنكروه وحاربوا أهله.

والمعنى: تالله إن أقرب الناس محبة ومودة للمؤمنين هم النصارى أتباع عيسى ابن مريم رسول الله، لما في نفوسهم من الرِّقة والرَّأفة والرحمة، والبعد عن التَّعصب الديني إذا قورنوا باليهود والمشركين الذين دأبوا على الحسد وهضم الحقوق، وسبب

---

(١) تمتلئ به.

مودة النصارى للمؤمنين: وجود قسِّيسين (علماء) ورهبان (عبَّاد) يدعون للإيمان والفضيلة والتّواضع والزهد والتَّقشف، ولا يستكبرون عن سماع الحق والإنصاف والانقياد له.

وإذا سمع هؤلاء النصارى شيئاً من القرآن، بكوا بكاءً حارّاً تعاطفاً مع كلام الله وتأثُّراً به وبما عرفوا وعلموا من الحق، والبشارة ببعثة محمد ﷺ ، وتراهم يبادرون بصحة دعوة محمد ﷺ وبوحدانية الله.

ثم أكَّدوا قولهم فقالوا: ولا مانع يمنعنا من الإيمان بالله واتِّباع الحق الذي نجده في القرآن، ونطمع أن يدخلنا ربّنا الجنّة، بصحبة الصالحين أتباع خاتم النَّبيين الذين ثبت صلاحهم وصحة إيمانهم.

وكانت هذه المبادرة الطيبة منهم في الماضي والمتكررة أحياناً في كل عصر سبباً لإثابة الله لهم ومجازاتهم بدخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلّها، وذلك جزاء المحسنين أعمالهم في اتِّباعهم الحق وانقيادهم له، مهما كان مصدره. ونعيم الآخرة نعيم لا نتمكَّن في دنيانا من معرفة حقيقته وأوصافه، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدة: ٣٢/ ١٧].

أما الذين كفروا بوجود الله ووحدانيته وكذّبوا بآيات الله وخالفوها، وعادوا رسالة القرآن والتوحيد، فأولئك هم أهل النار الداخلون فيها، والمقيمون فيها إقامة دائمة.

يلاحظ كل إنسان بعيدِ النظر راجحِ العقل والفكر الفرقَ الواضح بين ثواب المؤمنين الصالحين وهو جنان الخلد، وجزاء الكافرين العصاة وهو الخلود في نار جهنم، وذلك الفرق وحده كفيل بالرَّدع والرَّهبة والخوف الذي يملأ النفوس خشية من سوء المصير الذي ينتظر كل من لم يؤمن بالقرآن العظيم وبرسالة الإسلام المجيدة.

إباحة الطيّبات

الإسلام دين الوسطية والاعتدال، فلا تهاون فيه في الأعمال الخيرية أو النافعة للإنسان والجماعة، ولا تشدُّد ولا إرهاق في جميع الأعمال التكليفية التي أمر الله تعالى بها، وإنما الإسلام دين سمح سهل، قليل التكاليف والمطالب، يبيح الحلال الطيب، ويمنع الحرام الخبيث، ولا إفراط فيه ولا تفريط، ولا تجاوز للحدود المعقولة والضوابط والقيود الشرعية المشروعة لمراعاة مصالح الناس وتحقيق منافعهم، ودفع المفاسد والمضارّ والمؤذيات عنهم.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٨٧-٨٨].

نزلت الآيتان في حق جماعة أرادوا التشدُّد في الدين والقيام بأعمال كثيرة بقصد مرضاة الله ودخول جناته، أخرج ابن جرير الطبري وغيره عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في رهط من الصحابة، منهم عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما تفعل الرهبان، فبلغ ذلك النّبي ﷺ، فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النّبي ﷺ : «لكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنّتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنّتي فليس مني».

والمعنى: يا أيها المؤمنون لا تحرِّموا على أنفسكم ولا تمنعوها من الطيبات وهي المستلذات المستطابات للنفس، لما فيها من المنافع، بأن تتركوا التمتع بها تقرُّباً إلى الله تعالى، ولا تقولوا: حرمنا على أنفسنا كذا وكذا، مما هو حلال لكم ومباح. لا تفعلوا هذا تنسُّكاً وزهداً وتقرُّباً إلى الله، فإن الله لا يرضى عن ذلك، بل ينهى عنه،

كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٢]. والرِّزق: ما صح الانتفاع به.

ولا تتجاوزوا حدود ما أحلَّ الله لكم إلى ما حرَّم عليكم من الخبائث، ومن الإسراف والتقتير، وكلا الأمرين اعتداء، وهما تجاوز الحلال الطيب إلى الحرام الخبيث، والإسراف في تناول المباح، كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣١].

والتزام الوسط في الإنفاق دون إسراف ولا تقتير، ولا نَهَم مادي ولا ترفُّع عن الماديّات والانشغال بالرّوحانيات هو الذي يحقق مبدأ وسطية الإسلام واعتداله.

وسبب النّهي عن تجاوز الحدود الشرعية: أن الله يبغض كل أولئك الذين يتعدون حدود الله، وأن من تجاوز الحدّ الشرعي، هان عليه اقتراف جميع المنكرات والوقوع في المعاصي والسَّيئات، فمن سرق مثلاً تجرّأ على القتل والفتك والإرهاب ونشر الرعب في كل مكان، وسهل عليه ارتكاب جميع المحرَّمات. ولذا حصَّن الشّرع سلوك المسلم وصانه من الانحراف بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطّلاق: ٦٥/ ١]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النّساء: ٤/ ١٤].

ثم وضع لنا القرآن الكريم قانون الانتفاع بالأشياء والأمور المعاشية المعتادة فقال: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي تناولوا الحلال الذي لا إثم فيه كالرِّبا والرّشوة وأكل مال الآخرين بالباطل، فإنه إثم وفسوق، وكلوا الطيب غير المستقذر في نفسه كالميتة والدم، أو الطارئ كالفاسد المتغير بطول المدة، أو المذبوح لغير الله من الأصنام والأوثان. واتَّقوا الله بالتزام أوامره واجتناب نواهيه في الأكل واللباس والنساء وغيرها، فلا تحرِّموا ما أحلَّ الله

ولا تحلّوا ما حرَّم الله، ظنّاً منكم أن هذا خير، فإن كل ما لم يشرعه الله هو شرّ لا خير فيه، وهو إما تشدُّد في الدين من غير مسوّغ، أو تهاون وتقصير وتجاوز لشريعة الله. والأمر بالتقوى بعد بيان الحلال الطيب من المطاعم للإرشاد إلى أنه لا منافاة ولا تغاير بين الاستمتاع بطيبات الرزق وبين التقوى أو الوصول إلى أرقى درجات القرب المعنوي من الله تعالى والظفر برضوانه.

كفارة اليمين

على المؤمن أن يحترم عهد الله وميثاقه، ويعظِّم ذات الله وجلاله، فيبتعد عن كل مظاهر الإخلال بهيبة الله وقدسيّته، وإذا حلف بالله تعالى وجب عليه صون يمينه إذا كان الأمر المحلوف عليه قربة أو طاعة، وجاز له مخالفة مقتضى اليمين بل يجب إذا كان المحلوف عليه معصية، ولا مؤاخذة في الأيمان التي تجري عفواً على اللسان دون قصد اليمين، مثل: لا والله وبلى والله لتأكل أو تشرب أو تجلس أو تزورنا، وإنما المؤاخذة الشرعية على الأيمان المتعمدة التي يقصدها الحالف مريداً التزامها، فإذا ندم عليها، فإن الشّرع يسّر عليه الأمر، ورخَّص له عند الحنث بيمينه إخراج ما يسمى بكفارة اليمين.

قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ(١) وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ(٢) فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٨٩].

---

(١) ما يجري على لسان الحالف دون قصد اليمين أو الحلف على ما يعتقد صدقه وهو بخلافه . (٢) قصدتم الحلف .

روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٧] في القوم الذين كانوا حرَّموا النساء واللحم على أنفسهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ . .﴾ الآية. علّق الطبري على ذلك بقوله: فهذا يدلُّ على ما قلنا من أن القوم كانوا حرَّموا ما حرَّموا على أنفسهم بأيمان حلفوا بها، فنزلت هذه الآية بسببهم.

والمعنى: لا مؤاخذة بالأيمان التي تحلف بلا قصد، ولا يتعلَّق بها حكم، وهي اليمين اللغو: وهي التي تسبق على لسان الحالف من غير قصد، قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ قال: «هو كلام الرجل في بيته: لا والله، وبلى والله».

ولكن المؤاخذة باليمين المنعقدة: وهي التي يحدث الحلف فيها على أمر في المستقبل بتصميم وقصد أن يفعله أو لا يفعله. وتكون بالحلف فيها بالله أو بصفة من صفاته، لقوله ﷺ فيما رواه الجماعة عن ابن عمر: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت» . ولا تنعقد اليمين بغير الله من المخلوقات كنبي أو ولي، بل إنه حرام.

ونوع المؤاخذة في اليمين المنعقدة: هو إيجاب الكفارة عند الحنث باليمين أي عدم البر ومخالفة مقتضى اليمين، وعلى الحانث الكفارة سواء كان عامداً أو ساهياً أو ناسياً أو مخطئاً، أو نائماً ومغمى عليه ومجنوناً أو مكرهاً.

والكفارة على الموسر مخيَّر فيها بين ثلاث خصال: إطعام عشرة مساكين مدّ طعام (قمح) أي ٦٧٥ غم من النوع المتوسط الغالب أكله على أهل البلد، ليس بالأجود الأعلى ولا بالأردأ الأدنى، وهو أكلة واحدة: خبز ولحم، وتقدير المدّ بالقيمة حوالي ٢٥ أو ٣٠ ل. س في عصرنا. هذه خصلة.

والخصلة الثانية: كسوة المساكين بحسب اختلاف البلاد والأزمنة كالطعام، يعطى لكل فقير رداء متوسط كالجلابية والسروال ونحوهما.

والخصلة الثالثة: عتق رقبة حين كان الرِّق موجوداً، بشرط أن تكون الرقبة مؤمنة عند جمهور العلماء، مثل كفارة القتل الخطأ أو الظهار، ولم يشترط فقهاء الحنفية كون الرقبة مؤمنة، فيجزئ إعتاق الكافرة، عملاً بإطلاق النَّص القرآني أي ﴿رَقَبَةٍ﴾. هذه كفارة الموسر الذي يملك ما يزيد على إطعام أهله يوماً وليلة.

أما كفارة المعسر الذي لم يستطع إطعاماً أو كسوة أو عتق رقبة، فعليه صيام ثلاثة أيام متتابعة في رأي الحنفية والحنابلة، ولا يشترط التتابع عند غيرهم.

ولا وقت للكفارة، وإنما يستحب تعجيلها، فإن مرض صام عند القدرة، وإن استمرَّ العجز يرجى له عفو الله ورحمته، وللوارث أن يتبرع بالكفارة.

هذه كفارة الأيمان إذا حلفتم بالله أو بأحد أسمائه الحسنى أو صفاته العليا، وحنثتم، ويطلب منكم حفظ أيمانكم: وهو البر بها وترك الحنث، أي المخالفة، ومثل ذلك اليمين يبين الله لكم أحكام شريعته ودينه، لتقوموا بشكر النعمة فيما يعلِّمكم القرآن، ويسهل عليكم المخرج من إثم الحنث في اليمين. ويحرم الحنث في اليمين إذا كانت على فعل واجب وترك حرام، ويندب الوفاء ويكره الحنث إذا تم الحلف على فعل مندوب أو مباح، ويجب الحنث في اليمين والكفارة إذا كانت اليمين على معصية أو حرام.

أما اليمين الغموس: وهي اليمين الكاذبة قصداً، التي تكون لتضييع حق مسلم أو غش أو خيانة، فلا كفارة لها في رأي جمهور العلماء، وإنما فيها الإثم وتغمس صاحبها في النار، وأجاز الإمام الشافعي رحمه الله تكفير هذه اليمين، تيسيراً على الناس، وإنقاذاً لهم من الوقوع في نار جهنم، والله المستعان.

تحريم الخمر والميسر ونحوهما

إن دائرة الحرام في الإسلام ضيقة، ودائرة الحلال أوسع منها بكثير، والمحرَّمات في الإسلام هي التي تؤدي إلى الضرر بالنفس أو المال أو الناحية الأدبية، أو تكون مستقذرة في نفسها، ومن هذه المحرمات المنكرات بالنص القطعي اليقيني في القرآن الكريم: الخمر والميسر (القمار)، والأنصاب، أي الحجارة التي كانت حول الكعبة المشرفة التي يذبحون عندها قرابينهم، والأزلام: وهي قطع رقيقة من الخشب كالسهم كانوا يستقسمون بها في الجاهلية، تفاؤلاً أو تشاؤماً، وكانت إما عند الكهان وإما عند الأصنام، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ(١) وَٱلۡأَزۡلَٰمُ(٢) رِجۡسٞ(٣) مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ(٤) فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٩٠-٩٣].

نزلت هذه الآيات فيما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدِم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ..﴾ الآية، فقال الناس: ما حرّم علينا إنما قال: إثم كبير، وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوم من الأيام، أمّ رجل من المهاجرين أصحابه في المغرب، فخلط في قراءته، فأنزل الله آية أشدّ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤/ ٤٣].

---

(١) الأصنام حول الكعبة. (٢) قداح الاستقسام في الجاهلية. (٣) خبيث نجس. (٤) إثم وحرج.

ثم نزلت آية أشدّ في ذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قالوا: انتهينا ربّنا، فقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله، وماتوا على فراشهم، وكانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ . .﴾ إلى آخر الآية.

وقال أبو ميسرة: نزلت هذه الآيات بسبب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه ذكر للنَّبي ﷺ عيوب الخمر، وما ينزل بالناس من أجلها، ودعا إلى الله في تحريمها، وقال: اللَّهم بيِّن لنا فيها -أي في الخمر- بياناً شافياً، فنزلت هذه الآيات فقال عمر: انتهينا انتهينا.

وقد مرَّ تحريم الخمر للتَّرويض وبالتدريج في مراحل أربع، وهذه الآيات في سورة المائدة تحرِّم تحريماً قاطعاً الخمر وهو المتَّخذ من ماء العنب النَّيء، وتشمل كل شراب مسكر خامر العقل وغطّاه، وتحرِّم أيضاً الميسر (القمار) والأنصاب وهي كما تقدم حجارة حول الكعبة كان العرب في الجاهلية يعظِّمونها، ويذبحون القرابين عندها. وتحرِّم أيضاً الأزلام وهي كما تقدّم أعواد ثلاثة كالسهام، كتب على أحدها: لا، وعلى الآخر: نعم، والثالث: غفل لا شيء مكتوباً عليه، وقد دلَّت الآيات على تحريم هذه الأشياء الأربعة من نواح أربع: وهي أولاً وصفت بكونها رجساً أي قذراً، حسّاً ومعنى، عقلاً وشرعاً، ووصفت ثانياً بأنها من عمل الشيطان وذلك غاية القبح، وأمر الله ثالثاً باجتنابها، والأمر بالاجتناب أشدّ تنفيراً من مجرد النَّهي عنها أو القول بأنها حرام، فهو يفيد الحرمة وزيادة وهو التنفير ورابعاً جعل الله اجتنابها سبباً للفرح والفوز والنجاة في الآخرة.

ثم بيَّن الله تعالى مضارّ الخمر والقمار المعنوية: الشخصية والاجتماعية، فهما سبب إيقاع الناس في العداوة والبغضاء، وسبب الصَّدّ والإعراض عن ذكر الله وعن

أداء الصلاة، ثم حرَّض الله تعالى على الانتهاء عن الخمر والميسر بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ هذا فضلاً عن أن الخمر والميسر يؤدّيان إلى إتلاف الأموال وتبديدها في الوجوه الضارّة غير النافعة، ولهما مخاطر مؤكدة على أعصاب الإنسان وإيقاعِه في القلق والاضطراب.

ثم أمر الله سبحانه بطاعته وبطاعة رسوله، وحذَّر من مخالفتهما، فإن أعرضتم أيها الناس، فإن رسولنا عليه مجرد الإبلاغ الواضح، ومن أنذر فقد أعذر. ثم أوضح الله تعالى حكم الذين شربوا الخمر وماتوا قبل تحريمها، وهو أنه لا حرج ولا إثم عليهم ما داموا قد آمنوا واتّقوا عذاب النار وعملوا صالح الأعمال التي أمر الله بها، ثم داوموا على التزام جانب التقوى والإيمان، ثم لازموا التقوى وأحسنوا أعمالهم، والله يثيب المحسنين المتقنين أعمالهم، ويرضى عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم السابقة فضلاً منه ورحمة، والله مع المحسنين المتّقين بالعون والرضوان.

وتكرار كلمة ﴿اتَّقَوا﴾ في الآية يقتضي في كل واحدة زيادة على التي قبلها، وفي ذلك مبالغة في هذه الصفات لهم.

حكم الصَّيد في حال الإحرام

الإنسان العربي ميّال بطبعه إلى الصيد، ومحتاج إليه بحكم قلة موارد الحياة في الماضي، وهو لا يكاد يستغني عن الاصطياد في كل زمان ومكان؛ لأن الصيد طعام لذيذ، إلا أن الشّرع تجاوب مع هذا الميل الطبيعي للصيد، فأباح منه صيد البحر في حال الإحرام بحج أو عمرة، وحرَّم منه صيد البر في تلك الحالة أو الآونة. وأوجب الشّرع على الحاج أو المعتمر المخالف هذا التحريم فدية مماثلة للحيوان المصيد، أو إطعامَ مساكين، أو صياماً معادلاً أو مساوياً للمصيد حجماً أو قيمة.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ(١) ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ(٢) ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ(٣) أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ(٤) ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ(٥) أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ(٦) ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٩٤-٩٦].

أخرج ابن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية عن مقاتل: أنها نزلت في عُمْرة الحديبية، حيث ابتلاهم الله بالصيد، وهم محرمون، فكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، وكانوا متمكنين من صيدها، أخذاً بأيديهم، وطعناً برماحهم، وذلك قوله تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ فهمّوا بأخذها، فنزلت هذه الآية.

والمعنى: يا من اتَّصفتم بالإيمان، وصدَّقتم بالله ورسوله، وآمنتم بالقرآن، ليختبرنكم الله بإرسال كثير من الصيد، تأخذونه بالأيدي أو تصطادونه بالرماح، وسبب الاختبار لإظهار ما علمه الله أزلاً من أهل طاعته ومعصيته أنه حاصل منهم في حال الحياة، فيعلم الله علم ظهور وانكشاف من يخافه بالغيب حيث لا يراه الناس، ومن يخافه أمام الناس فقط، فمن اعتدى، أي تجاوز حدود الله بعد هذا البيان الشافي في الصيد، فله عذاب شديد الألم في الآخرة؛ لأنه لم يبال باختبار الله له في الدنيا.

ثم حرَّم الله تعالى صيد البر حال الإحرام بحج أو عمرة، سواء في داخل الحرم المكي وخارجه، ليتفرَّغ النُّسّاك والعُبّاد للعبادة، فإن قتل المحرم عمداً أو خطأ شيئاً

(١) ليختبرنكم. (٢) محرمون بحج أو عمرة. (٣) واصل الحرم لذبحه فيه. (٤) معادله. (٥) سوء عاقبة ذنبه.
(٦) للمسافرين.

من الصيد البري، فعليه جزاء من الأنعام، يماثل ما قتله في الهيئة والصورة إن وجد، وإن لم يوجد المثيل، فتجب القيمة.

فمن قتل نعامة مثلاً فعليه بدنة (جمل أو ناقة)، ومن قتل حماراً وحشيّاً فعليه بقرة، ومن قتل ظبياً فعليه شاة، ومن قتل طائراً، فعليه قيمته إلا حمام مكة ففيه شاة.

ويتم تقدير الجزاء من قِبَل شخصَيْن مؤمنَيْن عدلَيْن. ويذبح الشيء المماثل في حرم مكة دون سواه، ويوزع لحمه على مساكين الحرم، لقوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾.

ويخير قاتل الأنعام (الإبل والبقر والغنم ونحوها) بين تقديم مماثل من النَّعَم، وبين إخراج كفارة: هي طعام مساكين لكل مسكين مدّ (٦٧٥ غم) بقدر قيمة الصيد، بأن يقوَّم الصيد الذي أصابه، وينظر كم ثمنه من الطعام (الحنطة) فيُطْعِمُ لكل مسكين مدّاً، أو يصوم مكان كل مدّ يوماً. والسبب في تشريع الجزاء على قتل الصيد: أن يذوق القاتل وبال أمره، أي ثقل فعله، وسوء عاقبة أمره، وهتكه لحرمة الإحرام. وأما الماضي قبل هذا التحريم فهو معفو عنه، لقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي لا إثم فيما وقع منكم في زمن الجاهلية، أو قبل هذا التحريم من قتل الصيد في حال الإحرام، ولم يؤاخذكم عليه. ومن عاد إلى قتل الصيد البري وهو مُحْرِم بعد هذا النهي والتحريم، فإن الله ينتقم منه في الآخرة لإصراره على المخالفة والذنب، والله عزيز، أي قوي غالب على أمره فلا يغلبه العاصي، والله جبّار منتقم بحق وعدل، يعاقب من اقترف الذنب بعد النهي عنه.

والآية دليل واضح على أن الجزاء الدنيوي يمنع عقاب الآخرة إذا لم يتكرر الذنب، فإن تكرر استحق المذنب جزاء الدنيا (الكفارة) وجزاء الآخرة وهو نار جهنم.

وأباح الله للمحرم بحج أو عمرة اصطياد البحر، وطعامه الذي يلقيه البحر، فيجوز للمحرم تناول ما صيد من البحر، سواء كان حيّاً أو ميتاً، قذفه البحر أو طفا على وجه الماء، أو انحسر عنه الماء، وحكمة إباحة صيد البحر: هي أن ينتفع به المؤمنون المقيمون والمسافرون على السواء، لقوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾.

وأما صيد البحر من الوحش والطير: وهو ما يكون توالده ومثواه في البر، فيحرم تناوله من المحرم بحج أو عمرة إذا صاده بنفسه، ولا مانع ما صاده غير المحرم، أو اصطاده الشخص في غير الإحرام، واتَّقوا الله أيها الناس فيما نهاكم عنه من الصيد أو الخمر والميسر ونحوهما، فإنكم ستعرضون عليه يوم الحشر، ومصيركم ومرجعكم إليه، فيحاسبكم حساباً عسيراً على القليل والكثير، يعاقب العاصي، ويثيب الطائع.

مكانة البيت الحرام والشهر الحرام

للبيت الحرام، أي الكعبة المشرفة مكانة عظيمة عند الله تعالى في شريعة إبراهيم الخليل عليه السّلام، وفي شريعة الإسلام، لاعتبارات معنوية سامية، ولكونها مقرّاً لتوحيد الله تعالى من قبل جميع الناس، وكذلك عظَّم الله الشهر الحرام كالمحرَّم ورجب، وكل ما يهدى لأهل الكعبة من أنعام أو مواش، وعظَّم الله ذوات القلائد من الهدي، وهي الأنعام التي كانوا يضعون القلادة على أعناقها إذا ساقوها هدياً مقدَّماً لذبحه وتوزيعه على فقراء الحرم. قال الله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ(١) قِيَٰمًا(٢) لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ(٣) وَٱلْقَلَٰٓئِدَ(٤) ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٩٧].

(١) الكعبة ، والمراد جميع الحرم . (٢) قواماً لمصالحهم الدينية والدنيوية . (٣) ما يهدى من الأنعام للحرم .
(٤) ما يقلد به الهدي علامة له .

الكعبة: بيت مكة، وهو أول بيت وضع للعبادة في الأرض، وسمي كعبة لتربيعه، قال أهل اللغة: كل بيت مربع فهو مكعب وكعبة، وقال قوم: سميت كعبة لنتوئها ونشوزها على الأرض. وقد بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام بمكّة المكرمة.

والله سبحانه عظَّم الكعبة وجعلها مقرّاً موحّداً للعبادة، وصيّرها محطة يقوم بها أمر الناس وإصلاح شأنهم في أمر دينهم بالحج إليها، وفي أمر دنياهم بتوفير الأمن فيه لداخله، وتحقيق المنافع وجباية الثمرات المختلفة من كل شيء إليها، وهي تشبه الملك الذي هو قوام الرَّعية وقيامُهم، ورمزُ تفوقِهم وعزِّتِهم، وأساسُ قوتهم ومنعتهم.

وجعل الله الكعبة مثابة للناس وأمناً، فيه يأمن الخائف، وينجو اللاجئ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٧]. وصيَّر الله الكعبة مهوى الأفئدة والقلوب، فهي في كل مكان وزمان تهوي القلوب إليها. وهي أيضاً سبب لزيادة الرزق والثمرات، فيقوم أمر العباد ويصلح شأنهم في الدنيا والآخرة، وهكذا يجد كل من حج حاجته أو مطلبه، إجابة لدعاء إبراهيم عليه السّلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٧].

والله سبحانه جعل الكعبة أيضاً مقرّاً لالتفاف المسلمين حولها، والقيام بأداء المناسك والتَّعبدات، وتهذيب الأخلاق وضبط النفوس وتزكيتها، وتوحيد وجهات نظر المسلمين في شؤونهم العامة والخاصة، وتأكيد رابطة الأخوة الإيمانية، وبعث القوة في النفوس، وإحياء روح الجهاد، وتذكير الوحي الإلهي، وتجديد الإسلام في الأعماق.

وجعل الله الأشهر الحرم فترة سلام وأمان، وتلك الأشهر هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي هو شهر مضر، وهو رجب الأصم؛ لأنه لا يسمع فيه صوت السلاح، فيأمن الناس على أنفسهم وأموالهم ومعايشهم وتجاراتهم، وتهدأ النفوس، وتخمد نار الحروب، وينصرفون إلى العبادة والحج وصلة القرابة، وتحصيل الأقوات كفاية العام.

وكذلك الهدي (وهو كل ما يقدم من الأنعام حين زيارة البيت الحرام) والقلائد أي الإبل المقلّدة المُعْلَمة بلحاء الشجر، جعلها الله قياماً للناس أي أماناً، فالهدي أمان لمن يسوقه؛ لأنه يُعْلَم أنه في عبادة، لم يأتِ لحرب، وكذلك القلائد من الإبل التي تقلّد بلحاء الشجر أو غيره، فتكون أماناً لمن قلّدها، وكان هذا التقليد أو العادة المتَّبعة محلّ تعظيم شديد في نفوس العرب، حتى إن من ليس بمحرم لا يقدر أن يتقلّد شيئاً خوفاً من الله، وكان هؤلاء الزّوار للكعبة إذا انصرفوا، تقلّدوا من شجر الحرم.

قال سعيد بن جبير رحمه الله: جعل الله هذه الأمور للناس وهم لا يرجون جنة ولا يخافون ناراً، ثم شُدِّد ذلك بالإسلام.

فعل الله وجعل هذه الأمور معالم أمن ونفع، لتعلموا أيها الناس أن الله تعالى يعلم تفاصيل أمور السماوات والأرض، ويعلم مصالحكم أيها الناس قبل وبعد، فانظروا لطفه بالعباد على حال كفرهم. والله تعالى علاّم بكل شيء صغير أو كبير، سرٍّ أو علن، باطنٍ أو ظاهر. وعلمه تعالى علم تامّ بالجزئيات ودقائق الموجودات، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٩].

أسباب التَّرغيب والتَّرهيب

يحرص القرآن الكريم على اتِّباع منهج الجمع بين الترغيب والترهيب، ليكون الترغيب دافعاً إلى البناء والعمل الإيجابي، ويكون الترهيب والتخويف سبباً في البعد عن الهدم والانهزام وسلبيات الأمور والأوضاع.

ويفهم الإنسان المؤمن العاقل حين اقتران الترغيب بالترهيب ضرورة الموازنة والتفكير الجدي والعمل الحاسم بتوجيه نفسه وغيره نحو الخير، واجتناب الشَّر والمنكر. وسرعان ما تظهر نتيجة الموازنة والمقارنة سواء في الدنيا أو في الآخرة، ففي الدنيا يظفر فاعل الخير بالسعادة وتحقيق السمعة الطيبة، ويسقط الشرير من أعين الناس، ويَحْذَرونه وينأون عنه، وفي الآخرة يحظى المؤمن الصالح بالخلود في جنّات النعيم، والنجاة والفلاح في الحساب بين يدي الله تعالى، ويتلقى الكافر والفاسق والعاصي في الآخرة صفعة موجعة مؤلمة، ويتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً. قال الله تعالى:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٩٨-١٠٠].

وسبب نزول آية: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ..﴾ فيما أخرج الواحدي والأصفهاني عن جابر رضي الله عنه: أن النَّبي ﷺ ذكر تحريم الخمر، فقام أعرابي فقال: إني كنت رجلاً كانت هذه تجارتي، فاعتقبت منها مالاً، فهل ينفع ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله تعالى؟ فقال النَّبي ﷺ: إن الله لا يقبل إلا الطيب، فأنزل الله تعالى تصديقاً لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

خوَّف الله تعالى عباده ورجَّاهم، وأرهبهم ورغَّبهم في قوله سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾. وهذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه حال الناس، فجدير بالإنسان أن يكون خائفاً، عاملاً بحسب الخوف، متّقياً متأنساً بحسب الرجاء؛ لأن الله لم يخلقنا عبثاً، ولم يتركنا هملاً، بل لا بد من جزاء العاصي، وإثابة الطائع، والله سبحانه شديد العقاب لمن خالف أوامره، فأشرك بالله وفسق وعصى ربّه، وهو تعالى غفار رحيم (كثير المغفرة والرحمة) لمن أطاعه، ونفّذ أوامره، واجتنب نواهيه، يرحم التّائبين المصلحين أعمالهم من وقت قريب قبل أن يدركهم الموت، وهذه الآية تقتضي أن الإيمان لا يتم إلا بالرجاء والخوف. وأن الاعتدال هو بخشية العذاب، وحسن الظن بالله تعالى معاً. وفي تقديم العقاب على المغفرة دليل على أن جانب الرحمة أغلب؛ لأن رحمته تعالى سبقت غضبه كما صح في الحديث النَّبوي، وكما قال تعالى: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ٥/ ١٥].

وليس من وظيفة الرسول حمل الناس على الهداية والتوفيق للإيمان، وإنما عليه التبليغ وأداء الرسالة، ثم يتولى الله إثابة المطيع، ومعاقبة العاصي، لأنه سبحانه يعلم ما ينطوي عليه صدر العبد، ويعلم ما تبدون وما تكتمون، ويعلم السِّر وأخفى، وإلى الله المرجع والمآب.

ثم أمر الله نبيَّه بأن يُعلم الناس: أنه لا يستوي الخبيث والطيب، والكافر والمؤمن، والضّار والنافع، والفاسد والصالح، والظالم والعادل، والحرام والحلال، ولو أعجبك أيها المشاهد كثرة الخبيث من الناس أو كثرة المفسدين أو الأموال الحرام عند شخص ما كالرِّبا والرّشوة والخيانة، أو ولو تعجبت من قلّة الطيب من الصالحين الأبرار. قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٢٨].

فاتَّقوا الله يا أهل العقول، واحذروا تسلُّط الشيطان عليكم، فتغتروا بكثرة أهل الباطل والفساد، أو كثرة المال الحرام، لعلكم تنجون من العذاب، ولأن العاقل هو الذي يتذكر ويعي ويحذر، وتقوى الله: هي سبيل الفلاح والفوز والنجاة وإحراز خيري الدنيا والآخرة. والأمر بالتقوى تأكيد لما سبق، من الترغيب في الطاعة والتحذير من المعصية.

السؤال فيما لم ينزل به وحي

الوحي الإلهي التشريعي لتنظيم حياة المسلمين شيء واحد متكامل، لا يهمل منه شيء، وما كان ربُّك نسيّاً، وإنما كان نزول القرآن الكريم تدريجاً، فينزل الحكم الإلهي في المكان والزمان المناسبين، ويأتي الجواب الشافي للمسائل الطارئة أو المشكلات المختلف فيها بحسب الحكمة الإلهية، وبمقتضى الحق والعدل الإلهي والمصلحة العامة، لذا فإنه ليس من الأدب أو اللياقة استعجال الجواب عن بعض الأمور، ويترك كل تفصيل ضروري لله المشرّع، فهو من شأن الوحي وحده، لا بحسب الأمزجة والتَّطلعات، ويكون السؤال عما لم ينزل فيه وحي مكروهاً، أو حراماً، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١٠١-١٠٢].

تعددت أسباب نزول هذه الآية حول المنع من الأسئلة، منها سؤال اختبار وتعجيز أو تعنُّت واستهزاء، ومنها سؤال استفهام واسترشاد عن أحوال الفرائض، فمن أمثلة النوع الأول وهو سؤال الاختبار: سؤال بعض الناس رسول الله ﷺ عن

اسم أبيه، أو عن مكان ناقته الضّالة أي الضائعة، وعن مصيره في الآخرة، فتنزل الآية بالنهي عن تلك الأسئلة السخيفة، ومن أمثلة النوع الثاني، وهو سؤال الاسترشاد: ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج، فحجّوا» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ : «لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم» فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ . .﴾.

والمعنى: يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله، لا تسألوا عن أشياء غيبية أو خفية لا فائدة منها، أو عن أمور دقيقة في الدين، أو عن تكاليف سكت عنها الوحي، فيشق التكليف بها على بقية المؤمنين، فيكون السؤال سبباً في التشديد والإساءة والكثرة.

وإن تسألوا عن جنس تلك الأشياء المسكوت عنها أو المعقدة أو الشائكة، أو التكاليف الصعبة حين ينزل القرآن، يظهرها الله لكم على لسان رسوله، فيكون السؤال سبباً في التشديد أو التضييق، ويوضح هذا المعنى ما رواه مسلم عن عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أعظم المسلمين جُرْماً مَن سأل عن شيء لم يحرّم، فحرِّم من أجل مسألته». ولكن إذا كان السؤال في بيان المراد من مجمل القرآن أو غوامضه، فلا بأس به، للحاجة إليه، مثل السؤال عن إيضاح حكم الخمر بعد نزول آيات تعرِّض بتحريمه، وتنبِّه إلى مخاطره وكثرة مآثمه.

أما السؤال عما لا يفيد، أو عما لا حاجة للسؤال فيه، وكان في الإجابة عنه زياد كلفة ومشقة، فهو حرام. عفا الله عما لم يذكره في كتابه، فكل ما سكت عنه القرآن، فاسكتوا عنه كما سكت، والله غفور لمن أخطأ في السؤال وتاب، حليم لا

يعاجلكم بالعقوبة على ما تورّطتم به. وهذا معنى الحديث النَّبوي الذي رواه الدارقطني وغيره عن أبي ثعلبة الخشني حيث قال النَّبي ﷺ: «إن الله تعالى فرض فرائض، فلا تضيِّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء، رحمةً لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها».

ثم ذكر الله بعض الأمثلة الواقعية من سجل الأقوام السابقين، وهم قوم صالح الذين سألوا عن مسائل، ثم أهملوا حكمها، فقال سبحانه: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ﴾ أي قد سأل هذه المسائل المنهي عن السؤال فيها قوم من قبلكم، فأجيبوا عنها، ثم لم يؤمنوا بها، فأصبحوا بها كافرين؛ لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، بل على وجه الاستهزاء والعناد، وكذلك الذين طلبوا إنزال المائدة من السماء من عيسى عليه السّلام، ثم لم يؤمنوا به ولا برسالته. ومثل بني إسرائيل الذين سألوا عن أحوال البقرة المأمور بذبحها، فإياكم أيها المؤمنون من أسئلة تكون سبباً للتَّشدُّد فيشدِّد الله عليكم، فإن الدين يُسر، ولن يُشادّ الدين أحد إلا غلبه، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرةُ مسائلهم، واختلافُهم على أنبيائهم».

حقّ التَّشريع لله لا للنّاس

ليس لأحد من البشر في شريعة القرآن حق في التحليل والتحريم، أو الإباحة والمنع، وإنما الحق التشريعي في ذلك لله سبحانه منزل الشرائع، ومبيِّن الحلال والحرام، والأنظمة والأحكام؛ لأن التشريع الإلهي القرآني دائم خالد، لا يتأثر بمصالح شخصية أو زمنية أو مكانية، وإنما هو دستور الحياة الدائمة، والمنهج الأمثل

المفضّل لإصلاح الحياة، ونفع الفرد والجماعة، لذا أنكر القرآن الكريم على عرب الجاهلية إقدامهم على سنِّ الشرائع وتقرير عبادة الأصنام، وتحليل أو تحريم بعض الأنعام (المواشي) فقال سبحانه:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ(١) وَلَا سَآئِبَةٍ(٢) وَلَا وَصِيلَةٍ(٣) وَلَا حَامٍ(٤) وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا(٥) مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ٥/١٠٣-١٠٤].

سأل قوم عن أحكام الجاهلية، أهي باقية، وهل تلحق بحكم الله في تعظيم الكعبة والحرم؟ فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لم يجعل شيئاً منها ولا سنَّة أو شرّعه لعباده، ولكن الكفار فعلوا ذلك، إذ أكابرهم ورؤساؤهم كعمرو بن لُحَيّ وغيرِه يفترون على الله الكذب، فيشرعون للناس عبادة الأصنام، ويحرمون بعض المواشي ويقولون: هذه قربة إلى الله، وأمر يرضيه، وأكثر الأتباع لايعقلون شيئاً، بل يتبعون هذه الأمور تقليداً وضلالاً بغير حجة.

والمعنى: ما سنَّ الله ولا شرع لعباده شيئاً من أحكام العرب في الجاهلية، ولا أمر بالتبحير والتّسييب وغير ذلك، ولكنهم يفترون ويقلِّدون في تحريمها كبارهم. وأكثر هؤلاء الأتباع لا يدركون أو لا يعقلون أن ذلك افتراء على الله، وتعطيل لموهبة العقل والفكر، وأنه مجرد وثنية وشرك، والله لا يأمر بالكفر ولا يرضاه لعباده. وكان أول من حرَّم هذه المحرمات، وشرَّع للعرب عبادة الأصنام هو عمرو بن

(١) الناقة تشق أذنها إذا ولدت خمسة أبطن آخرها ذكر، وتخلى للأصنام. (٢) الناقة تسيب للأصنام لنحو برء من مرض أو نجاة في حرب. (٣) الناقة التي بكّرت بأنثى ثم ثنّت بأنثى. (٤) الفحل إذا لقح ولد ولده فلا يركب ولا يحمل. (٥) كافينا.

لحي الخزاعي، فهو الذي غيَّر دين إبراهيم، و بحر البحيرة وسيَّب السائبة وحمى الحامي.

أما البحيرة: فهي الناقة التي كانوا يبحرون أذنها، أي يشقونها شقّاً واسعاً، إذا ولدت خمسة أبطن إناثاً، فإن كان آخرها أنثى حرم على النساء لحمها ولبنها، وإن كان آخرها ذكراً نحروه وأكلوه. والسّائبة: هي النّاقة التي كانت تسيب بنذرها لآلهتهم الأصنام، فتعطى للسّدنة (الخدم) وترعى حيث شاءت، ولا يحمل عليها شيء، ولا يجزّ صوفها، ولا يحلب لبنها إلا لضيف. والوصيلة: هي الشّاة أو النّاقة التي تصل أخاها بأن تلد ذكراً وأنثى، فيقال: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم كما كانوا يفعلون لو ولدته وحده. والحامي: الفحل الذي يضرب في مال صاحبه، فيولد من ظهره عشرة أبطن، فيقولون: حمى ظهره، فلا يُحمل عليه، ولا يُمنع من ماء ولا مرعى.

هذه أنظمة تحريم بعض المواشي مما كان يفعله عرب الجاهلية الوثنيون، وهي أنظمة مفتراة مكذوبة، لم يأذن الله بها، زاعمين أن الله أمر بذلك وتراهم متناقضين، فإذا قيل لهم: تعالوا إلى العمل بما أنزل الله من الأحكام المؤيدة بالبراهين، وإلى الرسول المبلِّغ لها، والمبيِّن لمجملها، أجابوا: يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا، فهم لنا أئمة قادة مشرِّعون، ونحن لهم تبع، أي إنهم مقلّدون لأسلافهم تقليداً أعمى.

لذا أنكر عليهم القرآن هذا التقليد المجافي للصواب، الذي لا دليل عليه، فهل يقبل منهم مثل هذا التقليد، أيكفيهم مستنداً مجرد ذلك للعمل به، ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً أبداً من الشرائع، ولا يهتدون إلى مصلحة أو خير أصلاً في الدين والدنيا، فهم يتخبطون في ظلمات الوثنية وخرافة المعتقدات، ويشرِّعون لأنفسهم

بحسب أهوائهم، من وأد البنات، وشرب الخمور، وظلم الأيتام والنساء، وارتكاب الفواحش والمنكرات، وشنّ الحروب لأتفه الأسباب، وإثارة العداوة والبغضاء. وهذا إنكار صريح وتنديد بالتقليد الأعمى والتَّعصب الموروث من غير وعي ولا إدراك، وكأنهم يقولون بعد هذا التوبيخ: نعم لو كان آباؤنا كذلك، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٠].

أداء الواجب بالكلمة الطيبة

الإسلام دين الحق والصراحة في القول والعمل، وهو يريد الخير والسعادة للناس جميعاً، فلا يكتفي من أتباعه الانطواء على النفس وإيثار العزلة، وإبقاء الآخرين يترددون في متاهات الخطأ والضّلال، وزيغ العقيدة والانحراف في الفكر والخلق والسلوك.

ولكن بعد محاولة التصحيح والتنبيه إلى الأخطاء الواقعة من الآخرين يظل المؤمن محتفظاً بقيمه وعقيدته وأخلاقه، ولا يتشكك في شيء منها، ويلتزم شرعه بما فيه من أمر بالجهاد وقول بمعروف، ولا يضره ضلال غيره إذا اهتدى؛ لأن كل إنسان مسؤول عن نفسه، ولا يتحمل امرؤ تبعة أعمال امرئ آخر، فذلك هو العدل؛ لأن المؤاخذة على فعل الآخرين جور وظلم.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ[(١)] لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٥].

(١) الزموها وتجنّبوا المعاصي.

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال فيما أخرجه أحمد وغيره: ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ما قُبِل منكم، فإذا رُدَّ عليكم فعليكم أنفسكم.

والمعنى: يا أيها المؤمنون عليكم أنفسكم، كَمِّلوها بالعلم والعمل، وأصلحوها بالقرآن وآداب السُّنة النَّبوية، وانظروا فيما يقرِّبها إلى الله تعالى، حتى تكون في رفقة الأنبياء والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، وبعد هذا لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم.

لا يضرّكم شيء إذا قمتم بواجب الإرشاد والنُّصح، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكرات، فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٤]. ثم إلى الله المرجع والمآب، وسيجازي كل إنسان على عمله، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وجملة ما قرَّره أهل العلم في هذا أن النُّصح أو الأمر بالمعروف متعيِّن إن رُجي القبول، أو رُجي ردّ المظالم، ما لم يخف المرء ضرراً يلحقه في خاصته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، فإذا خيف هذا، فعليكم أنفسكم بِحُكم واجب الوقوف عنده.

وقد فهم خطأً هذه الآية بعض الناس في عهد أبي بكر الصِّدِّيق، وتأوّلوها أنها لا يلزم معها أمر نصح وإرشاد بمعروف ولا نهي عن منكر، فصعد أبو بكر المنبر فقال: أيها الناس، لا تغترّوا بقول الله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فيقول أحدكم: علي نفسي، لقد سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحّاً مطاعاً، وهوى متَّبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياماً: الصّابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهنّ أجر خمسين رجلاً، يعملون كعملكم»، وفي رواية: قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين منكم» قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح.

وهذا دليل واضح على أن المسلم يكمل نفسه بالعمل الصالح، ويكمل غيره بالنصح والإرشاد أو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا فرض لا يسقط إلا إذا وصل المرء إلى حال شديدة من الأذى، بحيث يتعرَّض للهلاك لو وعظ غيره.

ولا غرابة في هذا التوجه، فإن الحياة مدرسة، يستفيد الإنسان كثيراً من الأشياء من مجتمعه، فإذا كان جاهلاً بقواعد وآداب المجتمع ازدراه الناس، فلا بدّ من أن يفيد ويستفيد، لتبادل المعلومات، وإقرار الأعراف الحسنة التي لا تتصادم مع الشريعة في شيء، ولا يجزع الإنسان أو يتألم بعدئذ إذا لم يجد لكلمة الحق أذناً صاغية، فإن القرار في النهاية والخلود للحق وأهله. وما أروع ما تضمنته الآية: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية، فهي تذكير بالحشر والحساب والسؤال عن الأعمال، وفي هذا تزهيد بأمور الدنيا ومكروهها ومحبوبها، والهداية والتوفيق إلى صالحات الأعمال أمر متروك لله عزّ وجلّ، خالق الخليقة، والقاضي العدل بينهم يوم القيامة، وهو سبحانه ربّ العباد أجمعين.

حكم الشَّهادة على الوصيّة

تُطلَب الشهادة ندباً في جميع العقود الزمنية التي يتطلب تنفيذها أجلاً معيناً، حفظاً للحقوق، ومنعاً من ضياعها، وبُعداً عن الظلم والفساد، ويتأكد طلب شهادة اثنين عدلَيْن على الوصيّة منعاً من إنكارها أو التَّلكؤ في تنفيذها والتقصير في أداء حقّها للمستحقين، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ[1] فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ

(١) سافرتم فيها.

بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ[1] فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٦-١٠٧].

اتّفق المفسّرون على أن سبب نزول هذه الآية -فيما رواه البخاري وغيره عن ابن عباس- هو تميم الداري وأخوه عدي النّصرانيان حين خرجا إلى الشام للتجارة، ومعهما بُدَيل بن أبي مريم مولى عمرو بن العاص، الذي كان مسلماً مهاجراً، فمات في الطريق وقبل موته أوصى بوصية من غير إشهاد عليها، فأخذ رفيقاه إناء فضيّاً منقوشاً بالذهب، وأنكرا أخذه وردَّه إلى أهل بُديل المتوفى، ثم أسلم تميم، فكان يقول: صدق الله ورسوله، أنا أخذت الإناء، فنزلت الآية في طلب الشهادة على الوصية في السفر، ولو كان الشاهدان غير مسلمين.

ومعنى الآية كما ذكر ابن عطية: أن الله تعالى أخبر المؤمنين أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا حضر الموت أن تكون شهادة عدلَين، فإن كان في سفر-وهو الضّرب في الأرض-ولم يكن معه من المؤمنين أحد، فليُشهد شاهدين ممن حضره من غير المسلمين، فإذا قدما إلى البلد وأدّيا الشهادة على وصيته، حلفا بعد صلاة العصر أنهما ما كذبا ولا بدّلا، وأن ما شهدا به حقّ، ما كتما فيه شهادة الله، ويحكم بشهادتهما.

فإن عُثر أو تبيّن بعد أنهما كذبا أو خانا في الشهادة ونحو هذا مما هو إثم ومعصية، حلف رجلان في السفر من أولياء (أقارب) الموصي الذين هم أحق بالإرث، بأن شهادتنا أي يميننا أحقّ وأصدق من شهادة (يمين) غيرهما، وما اعتدينا

(١) الأقربان إلى الميت .

في طلب هذا المال، وفي الحكم على الشاهدين بالخيانة، إنا إذا اعتدينا أو خوناهما، وهما ليسا بخائنين لمن الظالمين، أي المبطلين الكاذبين.

والمراد بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ أي من الذين استحقت عليهم الوصية، أو استحق عليهم الإيصاء، الأوليان بالميت أي الأقربان منه. وحكمة تشريع هذه الشهادة وهذه الأيمان هي مطابقة الشهادة واليمين للواقع، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي أقرب أن يؤدي الشهداء الشهادة على وجهها الحقيقي بلا تبديل ولا تغيير، خوفاً من عذاب الله، وهذه حكمة تغليظ الشهادة بكونها بعد صلاة العصر؛ لأنه وقت القضاء والفصل في الدعاوى، فتكون الصلاة مذكِّرة للشهود بالحق والعدل. أو خوفاً من ردّ اليمين على الورثة، وفي ذلك الخزي والفضيحة بين الناس، فيظهر كذبهم بين الناس، وهكذا يكون الخوف من عذاب الله أو من ردِّ اليمين مدعاة الصدق والبعد عن الخيانة. ثم حثَّ القرآن الكريم على مراقبة الله وتقواه، فقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي راقبوا الله واحذروا عقابه في أيمانكم أن تحلفوا بها أيماناً كاذبة، وأن تأخذوا مالاً عليها، وأن تخونوا من ائتمنكم، واسمعوا سماع تدبُّر وقبول لهذه الأحكام واعملوا بها، وإلا كنتم من الفاسقين، المتمرِّدين الخارجين عن دائرة حكم الله وشرعه، المطرودين من هدايته ورحمته، المستحقِّين لعقابه، والله لا يوفق كل من فسق عن أمر ربِّه، فخالفه وأطاع الشيطان.

هذه دقائق الأحكام الشرعية في حال من أحوال الحياة تعدُّ أنموذجاً لكل حال، والآيات تحضُّ على الوصية في السفر والحضر، وتتطلب الإشهاد عليها لإثباتها وتنفيذها، والأصل في الشهود أن يكونوا عدولاً مسلمين، وتجوز شهادة غير المسلم على المسلم للضرورة أو الحاجة، والله مع المتّقين.

التّذكير بنعم الله على عيسى ابن مريم عليه السّلام

إن حساب الأنبياء والرُّسل عليهم السّلام يوم القيامة على مهامهم وأعمالهم يكون بالتذكير بنعم الله عليهم، وسؤالهم عن القيام بواجباتهم، والمراد بذلك أممهم، فيقول لهم مثلاً على سبيل التوبيخ والتأديب لأقوامهم: هل فعلتم ما أمرتكم به؟ كما إذا وجه السؤال للبنت الموءودة في جاهلية العرب، والمراد سؤال من وأدها ودفنها حيّة. وقد يوجّه السؤال للأمم مباشرة مثل قوله تعالى:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: ٧/ ٦].

وهنا نجد صورة واضحة لسؤال الرُّسل، والمراد التعريض بأممهم. قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١٠٩ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ(١) تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ(٢) وَكَهْلًا(٣) وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ(٤) مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ(٥) وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١١٠ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ(٦) أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۝١١١﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٩-١١١].

والمعنى: تذكّروا واحذروا أيها الناس حين يجمع الله يوم القيامة الرُّسل والأمم والخلائق المرسلين إليهم، فيكلم الله الرُّسل أولاً، والمراد بذلك أقوامهم، فيقول

---

(١) جبريل عليه السّلام. (٢) في المضجع زمن الرّضاعة. (٣) من الثلاثين إلى الأربعين وقت القوة.
(٤) تصور وتقدّر. (٥) الأعمى خلقة. (٦) أنصار عيسى عليه السّلام.

الحق لهم: ماذا أجابت به الأمم من إيمان وطاعة وإقرار، أو كفر وإنكار واستكبار وعصيان، وهذا السؤال للأنبياء الرُّسل إنما هو لتقوم الحجة على الأمم، ويبتدئ حسابهم على نحو واضح بيِّن.

فيجيب الرُّسل على سبيل الأدب والذُّهول بسبب هول الحال وعالم الحساب: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك، فأنت تعلم السِّر وأخفى، إنك أنت علام الغيوب، أي ما خفي وغاب، مثلما تعلم المشهودات الحاضرة المعروفة لكل إنسان، فليس علمنا بكاف ولا محقق للغاية الكاملة مثل علمك الواسع المحيط بكل شيء.

قال ابن عباس -ورأيه الصواب-: معنى الآية: لاعلم لنا إلا علماً أنت أعلم به منا.

واذكر يا محمد حين قال الله تعالى لعيسى عليه السّلام معدداً معجزاته ونعمه عليه: تذكَّر نعمتي عليك وعلى والدتك حين أيَّدتك بجبريل روح القدس عليه السّلام، وجعلتك نبيّاً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، تكلم الناس في فراش المهد وأنت طفل صغير رضيع، أنطقتك في هذه الحال حيث لا ينطق إنسان، فشهدتَ ببراءة أُمِّك وطهارتها، وكان ذلك معجزة بقدرة الله وتيسيره: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٣٠-٣١].

ثم علَّمتك التّوراة والإنجيل والعلم النافع الذي هو الحكمة، وجعلتك قادراً على الكتابة والخط والفهم السّديد.

واذكر يا عيسى حين مكَّنتك من صناعة الطيور وخلقها، فتصوَّر من الطين صورة كصورة الطائر، فتنفخ فيها، فتكون طيراً له روح وحركة بإذن الله وإرادته، لا بقدرتك البشرية، ولكنها معجزة تحققت على يديك، كسائر معجزات الرُّسل. والإذن

المتكرر في هذه الآيات معناه التمكين من الله، مع العلم بما يصنع عيسى، بقصد دعوة الناس إلى الإيمان برسالته، لا من أجل المباهاة مثلاً.

واذكر حين كنت تشفي المرضى وتبرئ الأكمه (الذي ولد أعمى) والأبرص بإذن الله تعالى، وحين تخرج الموتى من قبورهم أحياء بإذن الله وتقديره. وحين كففت ورددت عنك بني إسرائيل، فحميتك من أذاهم ومكرهم، وأتيتهم بالبراهين القاطعة الدّالة على صدق نبوّتك ورسالتك من الله، فكذّبوك واتّهموك بأنك ساحر، وهمّوا بصلبك وقتلك، فنجّيتك منهم، ورفعتك إلي، وكفيتك شرّهم.

واذكر يا عيسى حين ألهمت أصحابك الحواريين أن يؤمنوا بي وبرسولي عيسى، فأعلنوا إيمانهم قائلين: آمنّا بالله وبرسوله، واشهد بأنّا مسلمون منقادون لله سرّاً وعلانية. إن المقصود من التذكير في عالم الحساب يوم القيامة بمعجزات عيسى عليه السّلام، هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وإظهار عيسى بأنه مجرد بشر رسول موحى إليه من ربّه، والتذكير بتصحيح العقائد الفاسدة، وفهم المعجزة الجارية على يد نبي أو رسول أنها بفعل الله حقيقة، ولكنها تعلن وتظهر في الظاهر على يد الرسول. وهذه نِعَم ثمان تعدُّ معجزات لسيدنا عيسى عليه السّلام لحمل الناس على التَّصديق بنبوّته ورسالته.

مائدة عيسى عليه السّلام

إن العقل البشري عاجز محصور محدود، فلا يصح لعقلاء البشر أن يفهموا مقدورات الله العظمى ومعجزات الأنبياء بالمعايير المألوفة المشاهدة بحسب العادة؛ لأن قدرة الله أعظم وأشمل وأكبر من مجرد استيعاب الإنسان العادي، وإذا كان الله تعالى يرزق عباده بالمواد الأولية من الأرزاق التي تحتاج إلى طبخ وطهي أحياناً،

والأرزاق التي لا تحتاج إلى طبخ كالفواكه والثمار، فإن الله تعالى قادر إتمام عملية الطبخ والتصنيع البسيطة جداً بتأثيرات الحرارة الجوية أو الأرضية مثلاً، وهذا ما حدث في قصة المائدة الجاهزة للأكل التي أنزلها الله على عيسى وقومه.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً[1] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا[2] لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١١٢-١١٥].

هذه نعمة تاسعة بعد النِّعم الثمانية التي أوردها الحق تعالى في آيات سابقة وأنعم بها على عيسى عليه السّلام.

ومضمون الإخبار بهذه النعمة: إخبار محمد عليه الصلاة والسلام وأمَّته بنازلة الحواريين في المائدة، وهي تقتضي تأدُّب كل أمة مع نبيّها، فلا تطلب شيئاً من المعجزات المادّية التي لا معنى لها، فذلك امتحان يتعالى الله عنه، فهو القادر المقتدر على كل شيء. ومع ذلك فإن الله قد يتنزل لمستوى عقول البشر وطلباتهم، فيجيبهم عما طلبوا أو سألوا.

والمعنى: اذكر يا محمد حين طلب الحواريون أصحاب عيسى منه إنزال مائدة من السماء ليأكلوا منها، وتكون دليلاً مادّياً يؤكد صدق عيسى.

فقالوا: يا عيسى، هل يفعل ربُّك ويرضى أن ينزل علينا مائدة طعام من السماء،

(١) خواناً عليه طعام. (٢) يوم نعظِّمه ونسرُّ به.

وهل تقع منه تعالى إجابة لهذا الطلب؟ وليس ذلك من الحواريين تشكيكاً بقدرة الله، فهم مؤمنون. فأنكر عيسى قولهم ذلك من ناحيتين:

الأولى: بشاعة هذا اللفظ، والثانية: إنكار طلب الآيات والتَّعرض لسخط الله بها، فإن النُّبوات ليست مبنية على تعنُّت الناس ومكابرتهم. قال لهم عيسى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فشأن المؤمن أن يلتزم الأدب مع الله، ولا يطلب ما قد يشعر بالتَّعنُّت والتَّشدّد. ولذا قال الحواريون معتذرين عن الطلب بهذه الصورة: نريد أن نأكل منها، فنحن في حاجة إلى الطعام، وإذا أكلنا تطمئن قلوبنا وتهدأ نفوسنا، ونعلم أن قد صدقتنا في أن الله أرسلك نبيّاً، وجعلنا أصحاباً أعواناً لك، وقد رضي عنا بإجابة سؤالنا. ونحن قبل ذلك وبعد المائدة نكون من الشاهدين لله بالوحدانية، ولك بالنُّبوة والرِّسالة، وما هذه المائدة إلا دليل حسي على ذلك.

فطلب عيسى من الله إنزال المائدة، لتكون مصدر فرح وسرور، ويوم عيد، يجتمع فيه الناس للعبادة والشكر، ويعود عليهم كل عام باليمن والبركة والسعادة، وآية على صحة دعوى النُّبوة، وتذكيراً بالدعاء وطلب الرزق من الله تعالى، فهو خير الرازقين، يرزق من يشاء بغير حساب.

فأجاب الله دعاء عيسى مقروناً بالتهديد بالجزاء حين مخالفة أوامر الله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ..﴾ أي من يكفر بالله بعد نزول هذه المائدة، فإني أعذِّبه عذاباً شديداً، لا أعذب مثله أحداً من سائر كفّار العالمين في زمانهم؛ لأنهم لم يبق بعد هذا الدليل الحسي (إنزال المائدة) عذر لمن يكفر أو يستهزئ بآيات الله وأدلّته الدّالة على وجوده وقدرته. ولا حاجة للبحث عن شكل المائدة ولونها ونوع طعامها، فذلك لا فائدة منه، وعلينا التزام حدود البيان القرآني.

الأُلوهيّة والرُّبوبيّة لله تعالى

يتجاوز بعض الناس حدودهم وإمكاناتهم البشرية، فيصفون أنفسهم أو غيرهم بوصف الإله أو الرَّبّ، بدافع الغرور والجهل، والمبالغة والخطأ القطعي في التقدير، ويستمر الخطأ بالوراثة في الأجيال المتلاحقة والأبناء والبنات، وقلَّ أن تجد إنساناً يُعمل فكره ويتأمّل بعقله في حقائق الأشياء، وفي ذات الإله وما يتميز به عن سائر المخلوقات من قدرات هائلة لا حدود ولا نظير لها، وذلك لا يستحقُّه إلا الله جلَّ جلاله، خالق الْخَلْق، ومبدع الكون، وفالق الحبّ والنّوى. وقد حكى القرآن الكريم وضعاً من الأوضاع الشّاذّة في إضفاء صفة الأُلوهية على بشر، ولد وعاش، ومات كما يولد ويعيش ويموت سائر البشر، وإن كان متّصفاً ببعض المزايا، ولكنها لا تؤهّله لأن يصير إلهاً أو يحتلَّ محلَّ الإله، فقال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ(١) مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى(٢) كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ٥/١١٦-١٢٠].

ومعنى الآيات: اذكر يا محمد للناس يوم يكون الحشر، فيسأل الله تعالى عيسى ابن مريم سؤالاً مفاده: أأنت قلت للناس، اتّخذوني وأُمّيَ إلهيْن معبودَيْن من غير

(١) تنزيهاً لك عما لا يليق بك. (٢) أخذتني وافياً برفعي إلى السماء.

الله؟ والسؤال ليس لمجرد الاستفهام، وإنما بقصد الإنكار والتوبيخ لمن ادَّعى أُلوهية عيسى، فيرون تبرؤ عيسى من هذه النسبة أو الصفة، ويعلمون أن ما كانوا فيه باطل محض البطلان، لأن عيسى عليه السّلام يستجير من هذا الادِّعاء قائلاً: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي أُنزِّهك عما لا يليق بك، من ادِّعاء الشريك أو الابن والولد، وليس هذا من شأني، ولا مما يصح أن يقع مني أن أقول قولاً لا حقَّ لي بقوله، فإن قلته على سبيل الافتراض، فأنت تعلم قولي وما في نفسي، وسرِّي وعلانيتي، ولا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية في نفسك، إنك أنت المحيط بالغيبيات، والحسِّيّات المشاهَدات، ما كان منها وما سيكون.

لم أقل لهم إلا ما أمرتني به بعبادة الله ربّي وربّكم، وإني عبد من عبادك مثلُهم، وكنت المراقب على أحوالهم، أشهد على ما يفعلون، وأمنعهم من القول الباطل، وأُطالبهم بقول الحق، فلما توفَّيتني أي قبضتني إليك، كنت أنت المراقب لأعمالهم وأقوالهم، الحافظ عليهم، المحاسب لهم، وأنت الشهيد على كل شيء، فتشهد لي حين كنت فيهم.

وأنت يا ربّ المفوض في الأمور كلها، تعذِّب المسيء بعدلك، وترحم المقصِّر بفضلك ورحمتك، وتغفر لمن تشاء بإرادتك، فالملك ملكُك، وأنت القوي القادر على الثواب والعقاب، الحكيم الذي لا تجازي إلا بحكمة وصواب.

قال الله: هذا يوم القيامة هو اليوم الذي ينفع فيه صدق الصادقين في إيمانهم وشهاداتهم وسائر أقوالهم وأفعالهم في الدنيا. وجزاء الصادقين جنات تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها على الدوام، ثواباً خالصاً من الله، والله راضٍ عنهم رضا لا يغضب بعده أبداً، وهم راضون عن الجزاء الذي أثابهم الله به، ذلك الظفر هو الظفر العظيم الذي عظم خيره وكثر، وارتفعت منزلة صاحبه.

والله هو صاحب الملك الشامل، مالك السماوات والأرض، وكل ما فيهما من موجودات ومخلوقات، وهو سبحانه قادر تام القدرة على كل شيء، وشأن المملوك وهم العباد أن يكونوا عباداً لله وحده لا شريك له.

تفسير سورة الأنعام

إثبات القدرة الإلهية بالمحسوسات

الله سبحانه وتعالى إله غيبي غير مشاهد لنا في الدنيا بالأبصار والمرئيات، وإنما يمكن الاستدلال عليه بسهولة فيما نشاهده ونلمسه في هذا الكون من إبداع السماوات والأرض وإيجاد الليل والنهار، وخَلْق الإنسان من بداية معينة وتقدير أجل محدد لوجوده في الحياة، وإحاطة علمه سبحانه بدقائق الأشياء، السّرية منها والجهرية. قال الله تعالى في مطلع سورة الأنعام المكّية:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ(١) ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(٢) ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا(٣) وَأَجَلٌ مُّسَمًّى(٤) عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ(٥) ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام: ٦/ ١-٣].

هذه حملة إلهية قوية على أولئك المشكّكين في وجود الله وقدرته ووحدانيته، وتمكّنه من بعث الأجساد مرة أخرى، من غير مشقة ولا صعوبة، وهذه الحملة تذكرنا بضرورة تخصيص كل أنواع الحمد والثناء والشكر لله تعالى، فهو أهل للمحامد كلها على أنواعها، وله الحمد الشامل للشكر المختص بأنه على النعم، إنه سبحانه جدير

---

(١) أنشأ وأبدع . (٢) يسوون به غيره في العبادة . (٣) قدر زماناً للموت . (٤) للبعث اختص بعلمه هو .
(٥) تشكون في البعث .

بالحمد ولو لم يكن منه إنعام، لأنه المبدع وخالق السماوات والأرض وما فيهما من العوالم العلوية والسفلية، وما اشتملتا عليه من التقدير والإحكام بوجود الله سبحانه، وسبقهم المؤمنون إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٥].

أما ترتيب خلق السموات والأرض، فالمفهوم من مجموع آي القرآن: أن الله تعالى خلق الأرض ولم يَدْحها أو يبسطها، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض ومدَّدها بعد ذلك.

ولم يخلق السماوات والأرض على شكل واحد، وإنما جعل فيهما التنويع والتَّبدل، والحركة والتَّغير، وذلك آية الجمال والقدرة التامة الشاملة، فجعل الله العالم متبدلاً، يلفّه الليل والنهار، والظلمة والنور يتعاقبان ويتبادلان، وهو وضع تجديدي يطرد السأم والملل، ويمنح النشوة والأمل، فلو كانت الحياة كلها على منوال واحد، ليلٍ مظلم أو نهار مضيء دائم، لتضايق الإنسان، ولم يَرُقْ له العيش الهني ولم يدرك الارتياح النفسي. ومع هذه التبدلات والتغيرات، ووجود الأرض والسماوات، يجحد الكفار نعمة الله الصانع، ويجعلون لله عديلاً مساوياً له في العبادة، وهو الشريك، مع أن هذا الشريك ضعيف عاجز غير خالق، ولا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ توبيخ للناس على سوء فعلهم بعد قيام الحجج ووضوحها.

والظلمات في الكون كثيرة، تشمل المحسوس والمعنوي، فالمحسوس هو ظلمة الليل وأعماق الأرض والبحر، والمعنوي فيها ظلمات الشِّرك والكفر. والنُّور يشمل النهار المحسوس، والإيمان والعلم وسائر فنون المعرفة.

ومرجع العالم في النهاية إلى الله تعالى وهو سبحانه القادر التام القدرة على إعادة

الحياة في الآخرة بعد الموت في الدنيا؛ لأنه الذي خلقنا في مبدأ الخليقة من طين، فأوجد أبانا آدم عليه السّلام، ثم تكاثرت ذرّيته في المشارق والمغارب، كما خلق سائر أحياء الأرض، وجعل الحياة مقيدة بين بداية معينة من الميلاد، ونهاية محددة بالوفاة. وصار قضاء الله أجلين: الأول: ما بين أن يخلق الإنسان إلى أن يموت، والثاني: ما بين الموت والبعث، وهو حياة البرزخ، حياة القبر. وبالرغم من قيام هذه الدلائل على وحدانية الله والبعث، يشكّ الكفار في إعادة الخلق أو البعث يوم القيامة مرة أخرى. وهيّأ الله تعالى للإنسان في حياته ظروف المعيشة مع ضعفه وعجزه، ومن قدر على ابتداء الخلق من الطين، فهو على الإعادة أقدر وأهون عليه.

وهناك دليل آخر على وجود الله ووحدانيته: أن الله لم تنته مهمته بخلق السماوات والأرض، وإنما هو دائم الوجود والهيمنة والسيطرة، والقائم في السماوات والأرض المعبود فيها، المعروف بالألوهية، يعبده ويوحّده كل من في السماوات ومن في الأرض، ويسمّونه الله، ويدعونه رغباً ورهباً إلا من كفر من الجن والإنس: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ يعلم السّر والجهر، ويستوي في علمه سبحانه الخفاء والعلانية، ويعلم جميع أعمالكم خيرها وشرّها، ويجازي الناس جميعاً عليها، فهل بعد هذه الأدلة والبراهين أي شك في توحيد الله وقدرته على البعث والحياة الثانية بعد الأولى، بل والخلود في عالم الآخرة.

أسباب كفر الناس بالله تعالى

العقل والواقع يقضيان بأنه لا يوجد سبب مقبول ولا برهان واضح يسوّغ جحود الناس وكفرهم بوجود الله ووحدانيته، وإنما الكفر والجحود لون من ألوان المكابرة

والعناد، والسذاجة والسطحية، والهروب من الحقيقة بعد تبيُّنها وظهورها، ومعاداة ما تدل عليه البراهين العلمية والمشاهدات الحسية والتأملات الفكرية.

فبالرغم من وجود الآيات الكونية التي تدلُّ على إثبات الوحدانية لله، وكمال الألوهية والربوبيّة، وبالرغم من وجود الآيات القرآنية التي تنادي الناس للإيمان والتصديق بها، فإن بعض الناس يتّجهون إلى التكذيب والإنكار والكفر. قال الله تعالى:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟(١) مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ(٢) مَّكَّنَّٰهُمْ(٣) فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ(٤) عَلَيْهِم مِّدْرَارًا(٥) وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٤-٦].

يذمُّ الله تعالى أولئك الكفار الذين يعدلون بالله سواه، ويجعلون الشركاء مثل الله، يذمّهم بأنهم يعرضون عن كل آية ترد عليهم، فكلما أتتهم معجزة أو حجة واضحة من دلائل وحدانية الله وصدق رسله الكرام، أعرضوا عنها، ولم ينظروا فيها، ولم يبالوا بها، وكلما ذكّرهم القرآن العظيم بآيات ربّهم الذي ربّاهم، وتعهّدهم في حالتي الضعف والقوة، وأمدّهم بالرزق، وأعطاهم كل شيء، وخلق لهم جميع ما في الأرض، فإنهم مع ذلك كله يعرضون عن النظر في آيات الله، كما قال سبحانه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢-٣].

(١) أخبار العقوبات . (٢) أمة من الناس . (٣) أمددناهم من القوة . (٤) المطر . (٥) غزيراً .

وسبب ذلك الإعراض عن النظر في آيات الله: تكذيبُهم بالحقّ الذي جاءهم، وهو دين الإسلام والقرآن ومحمد عليه الصَّلاة والسّلام.

إنهم لم ينظروا في الوجود نظرة تأمُّل وتفكُّر واعتبار، ولم يحرِّروا أنفسهم من رقّ التقليد الأعمى للآباء والأجداد، ولم يترفعوا عن سيطرة العصبية وحماقة الجاهلية، فهم إذا جاءتهم رسالة التجديد والحياة الأفضل أعرضوا وقالوا: سحر مستمر، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٢].

والإعراض عن الحق، والجمود على الباطل، استدعى تهديد هؤلاء الكفار على تكذيبهم بالحقّ، فلا بدّ من أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وسيجدون عاقبة أمرهم واستهزائهم بالإسلام والقرآن، فإنهم سيتعرضون في الدنيا للقتل والدمار بمختلف الأسباب، وفي الآخرة يجدون العذاب في نار جهنم يطوّق أعناقهم ويلازمهم إلى الأبد، قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [النَّحل: ١٦/ ٣٤].

ثم أبان الله تعالى أن الوعيد بالعذاب سنّة الله في المكذِّبين، ألم يروا في قلوبهم وينظروا في عقولهم أن الله أهلك كثيراً من الأمم السابقة قبلهم، مثل قوم عاد وثمود وقوم فرعون وإخوان لوط الذين كذَّبوا رسلهم، بالرغم مما كانوا يتمتعون به من أسباب القوة والسِّعة في الرزق، والاستقلال والمُلك، ما لم نعطهم مثله، وما لم نمكِّن لهم شبيهاً به.

لقد كان قوم عاد وثمود وقوم فرعون وإخوان لوط في سعة كبيرة من العيش، وشدة في السلطان، وقوة في الحياة، وسَّع الله عليهم الرزق، وأرسل عليهم الأمطار الغزيرة، وجعل الأنهار تجري من تحت بيوتهم ووسط مزارعهم، فلما كفروا بأنعُم

الله، أهلكهم الله بسبب ذنوبهم وبسبب تكذيبهم رسلهم، وأوجد الله من بعدهم قوماً آخرين، وجيلاً جديداً يعمرون البلاد، ويكونون أجدر بشكر النعمة.

إن هذه الإنذارات والتهديدات للكفار كفيلة بتذكير العقلاء في أنهم أخطؤوا الطريق، وإنهم سيتعرضون لعقاب مماثل لعقاب الكفار من الأمم السابقة: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ٨٥/ ١٢-١٦].

مطالب الكفّار المادّية وشبهاتهم الواهية

إن موقف المشركين الذين عارضوا دعوة الإسلام يتمثّل في شيء من العناد الشديد، والمكابرة في المحسوسات، والمطالبة بألوان من المعجزات المادّية لا من أجل الإيمان والتصديق، وإنما للإعنات والمضايقة والإحراج، والتّهرب من مواجهة الحقائق. ولكنهم بهذا الأسلوب في المقاومة، والاستهزاء الذي هو أمارة الإفلاس والعجز، سيتعرضون لأشد أنواع العذاب، والوقوع في أسوأ العواقب بسبب تكذيبهم برسالة الحق والقرآن، وإنكارهم دعوة النّبي ﷺ إلى النجاة والسعادة. قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ(١) فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ(٢) ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا(٣) عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ(٤) ۝٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ(٥) بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ [الأنعام: ٦/ ٧-١١].

---

(١) أي في صحيفة مكتوبة كالورق ونحوه. (٢) لا يمهلون لحظة. (٣) لخلطنا. (٤) ما يخلطون على أنفسهم. (٥) أحاط ونزل.

سبب نزول هذه الآيات: ما ذكره الثِّقات من العلماء، منها: إن مشركي مكة قالوا: يا محمد، والله، لا نؤمن لك، حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله، وأنك رسول الله، فنزلت آية: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾.

وقال جماعة من المشركين كالنضر بن الحارث: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٠].

وروى ابن المنذر وغيره عن ابن إسحاق قال: «دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام، وكلمهم فأبلغ إليهم، فقال له زَمْعة بن الأسود بن المطلب وآخرون: لو جُعل معك يا محمد ملَك يحدِّث عنك الناس، ويُرى معك» فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

تحدِّثنا هذه الآيات أنه لو جاء محمد ﷺ المشركين بأشد وأشنع مما جاء به من الإخبار بعقوبات الأمم السابقة، لكذَّبوا به، وفي هذا مبالغة تؤكد عنادهم وموقفهم المتعنِّت، إنهم اقترحوا اقتراحَيْن:

أولهما- أن ينزل الله عليهم كتاباً مسطوراً من السماء يخبرهم بصدق نبوة محمد ﷺ ويطالبهم بالإيمان به، قال عبد الله بن أبي أمية: «لا أومن لك حتى تصعد إلى السماء، ثم تنزل بكتاب فيه: من ربِّ العزّة إلى عبد الله بن أبي أمية، يأمرني بتصديقك، وما أراني مع هذا كنت أصدِّقك». ثم أسلم بعد ذلك عبد الله هذا، وقُتل شهيداً في الطّائف. إن عبد الله وأمثاله من المشركين لو جاءهم كتاب إلهي مسجَّل من الله، والتقطوه بأيديهم، لقالوا: هذا سحر واضح. وذلك يمثِّل غاية التَّعنُّت والمكابرة، وهذا جواب اقتراحهم الأول.

والاقتراح الثاني- أن ينزل الله ملَكاً من السماء يرونه ويكون مؤيِّداً لرسول الله

ﷺ، فيكون معه نذيراً، ومؤيِّداً له ونصيراً، فردَّ الله عليهم أولاً بأنه لوأنزل الله معه ملَكاً كما اقترحوا، لقضي الأمر بإهلاكهم، ثم لا يمهلون ليؤمنوا، بل لجاءهم من الله العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٨].

وردَّ الله عليهم ثانياً بأنه لوأنزل الله مع الرسول البشر ملكاً، لكان متمثِّلاً بصورة الرجل، ليخاطبهم و يخاطبوه، وينتفعوا به، ثم يعود الأمر كما كان، ويقعون في اللَّبْس والاشتباه نفسه، و يختلط الأمر عليهم، لأنه سيقول: إني رسول الله كما قال محمد ﷺ، ثم يكذِّبونه فلا يؤمنون ولا يصدِّقون برسالة القرآن والنَّبي والإسلام. قال ابن عباس في الآية: لوأتاهم ملك، ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النُّور.

ثم أخبر الله تعالى أن اقتراحات بعض كفار مكة بإنزال كتاب مدوّن من السماء، أو بإنزال ملَك من الملائكة، صادرة على سبيل الاستهزاء، ولكنه قد نزل وأحاط بهم من العذاب مثلما كانوا به يستهزئون أو يسخرون. وإن ارتاب المشركون في إمكان وقوع العقاب، فليسيروا وينتقلوا في الأرض ليقفوا بأنفسهم على الحقيقة من تاريخ عاد وثمود وطسَم وجديس وقوم فرعون وإخوان لوط، كيف عذَّبهم الله، وكيف كانت عاقبة المكذِّبين لرسالات أنبيائهم، وكيف أحاط بهم جزاء ما استهزؤوا وسخروا به.

أدلَّة واضحة على إثبات البعث

تضافرت الآيات الدّالة على إثبات أصول الدين الثلاثة: وهي إثبات وجود الله وتوحيده، وإثبات البعث والمعاد والجزاء، وإثبات النُّبوة ورسالة محمد ﷺ، وكل هذه البراهين الواقعية والحجج الدامغة من أجل خير الإنسان وإسعاده وإفهامه حقيقة

الوجود الدنيوي والأُخروي، وأن رحلة الحياة الحاضرة لتنتهي بصاحبها إلى عالم الخلود الأبدي القائم على أمور يسيرة هي الإقرار بوجود الله ووحدانيته، والاعتقاد بقدرة الله التّامة على جمع الناس وحشرهم، والتّصديق بصحة الوحي إلى الرُّسل والأنبياء الكرام وختمهم برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قال الله تعالى:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ(١) عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ(٢) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ(٣) وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ(٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢-١٦].

حاور الله تعالى من علياء سمائه المشركين آمراً نبيّه بهذا السؤال، وهو: من مالك جميع ما في السماوات وما في الأرض؟ ولمن هذا الكون والوجود وما فيه؟ والمقصود من السؤال التّبكيت والتوبيخ، لأن المشركين في الجاهلية كانوا يعتقدون بأن الله هو الخالق، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٥].

أمر الله عزّ وجلّ محمداً عليه الصّلاة والسّلام بهذه الحجة الساطعة، والبرهان القطعي الذي لا يستطيع أحد نقضه، فيا أيها الكافرون بربّهم: لمن ما في السماوات والأرض، ثم سبقهم في الجواب، فقال: الله، إذ لا يستطيع أحد إنكار ذلك، ومن صفات الله: صفة الرحمة بجميع عباده، فإنه تعالى أوجب على ذاته الرحمة بخلقه، ومن

---

(١) قضى وأوجب تفضيلاً. (٢) مبدع. (٣) يرزق عباده. (٤) خضع لله وانقاد له.

مقتضيات رحمته: حشر الخلائق جميعهم يوم القيامة، بلا شك، للثواب والعقاب، والجزاء على الأعمال، وإقامة العدل المطلق بين الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النّجم: ٥٣/ ٣١].

وليعلم البشر أن الذين خسروا أنفسهم ممن يُجْمَعون يوم القيامة، هم الذين لا يؤمنون أبداً بالبعث والثواب والعقاب.

ثم يؤكد الله تعالى ملكيته المطلقة لجميع الكون، فيذكر أنه تعالى مالك جميع المتحرِّك والساكن في الليل والنهار، وأنه المتصرِّف تصرُّفاً كاملاً في كل شيء، وهو السميع لكل ما يحدث، العليم بكل ما يقع، المحيط علمه بكل ما دقَّ وعظم، وبكل فعل ونيّة، والشامل سمعه كل مسموع من الأقوال والأصوات والحركات.

وهل يصح لذي عقل اتِّخاذ ولي أو ناصر غير مبدع السماوات والأرض على غير مثال سبق: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزُّمر: ٣٩/ ٦٤].

وهل يتصور عاقل استمداد القوة والعون من غير الرازق المطعم لجميع خلقه، ولا يطعمه أحد ولا يحتاج لأحد؟ يقول النبي بأمرربه: إنني أنا نبي الله ورسوله أُمرت أن أكون أول من خضع وانقاد لعظمة الله وجلاله، وألا أكون من المشركين مع الله إلهاً آخر، أيّاً كان نوع الشِّرك، ومنه شرك الجاهلية القائم على اتِّخاذ الأصنام واسطة ووسيلة تقرِّب إلى الله زلفى. إنني أنا نبي الله أخشى إن عصيت الله ربِّي أن يصيبني عذاب يوم عظيم الهول والخطر، وهو يوم القيامة الذي يحاسب الله فيه الخلائق حساباً شديداً على أعمالهم، ويجازيهم على ما يستحقّون. إن من يُدفع عنه عذابُ يوم القيامة وينجو من نار جهنم، فقد رحمه الله وحماه، وذلك هو الفوز السّاحق الذي لا فوز أعظم منه، كما قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا

تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٥].

كاشف الضّر وأصدق الشهود

يتعرَّض الإنسان في حياته لأحداث كثيرة في النفس والأهل والمال، ويلتمس طرق النجاة والفرج من الكرب، وينتظر إزالة الضّر بمختلف الوسائل، فيبذل أقصى ما لديه من جهود، وأغلى ما لديه من أموال، ولا يجد المضرور أو المكلوم أو المصاب باباً يطرقه غير باب الله الكريم في أوقات السَّحَر وخفوت الأصوات وسكون الليل، وهذا أمر يقع بالفطرة من المؤمن والكافر والبرّ والفاجر، وكذلك إذا كُذِّب النَّبي وتجهّم الناس في وجه دعوته لن يجد ملاذاً له يصدق قوله ويشهد له بالحق سوى الله تعالى. قال الله عزّ وجلّ مبيّناً هاتين الحالتين:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ(١) أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٧-١٩].

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس قال: جاء النّحام بن زيد، وقروم ابن كعب، و بحري بن عمر، فقالوا: يا محمد، ما نعلم مع الله إلهاً غيره، فقال: لا إله إلا الله، بذلك بُعثت، وإلى ذلك أدعو، فأنزل الله في قولهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . .﴾ الآية.

---

(١) من بلغه القرآن إلى يوم القيامة .

ومعنى الآيات: الإخبار عن أن الأشياء كلَّها بيد الله، إن ضرَّ فلا كاشف لضُرِّه غيره، وإن أصاب بخير فكذلك أيضاً لا رادَّ ولا مانع منه. والضُّرّ -بضم الضّاد: سوء الحال في الجسم وغيره، والضَّرّ -بفتح الضّاد: ضدّ النفع، وناب الضُّر في هذه الآية مناب الشَّر، وإن كان الشَّر أعم منه، فقابل الخير.

يخبر الله بأنه: إن يصبْك أيها الإنسان ضرر أو شدة من ألم أو فقر أو مرض أو أي مصيبة تحصل، أو حزن أو ذلّ ونحوه، فلا صارف له عنك ولا مزيل له إلا الله تعالى؛ لأنه القادر على كل شيء، أي على كل شيء جائز أن يوصف الله تعالى بالقدرة عليه. وكذلك إن يحصل لك أيها الإنسان خير من صحة أو غنى أو عزّ ونحوه، فهو أيضاً من الله سبحانه، لكمال قدرته على كل شيء، ولأنه القاهر الغالب صاحب العزّة والمجد والسلطان، والقاهر: أي المستولي المقتدر، ولأنه سبحانه الحكيم في جميع أفعاله، يضع كل شيء في موضعه المناسب له، وهو عزّ وجلّ الخبير بمواضع الأشياء، فلا يعطي إلا من يستحق، ولا يمنع إلا من يستحق، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢].

وفي مقابلته تعالى الخير بالضّر إشارة إلى أن ما يصيب الإنسان في الدنيا ليس شرّاً، بل قد يكون فيه نفع. وإذا كان الله تام القدرة والسلطان والتَّصرف، فلا سبيل للعبد إلا اللجوء إليه ودعوته رغباً ورهباً. والفوقية في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ فوقية استعلاء بالقهر والغلبة لا فوقية مكان.

ثم أيّد الله نبيَّه محمداً ﷺ بشهادة هي أعظم الشهادات وأجلّها، وأصحّها وأصدقها، وهي شهادة الله بالحق بين نبيّه محمد وبين المشركين، شهادة تدلُّ على صدق النَّبي ﷺ وتكشف حال أعدائه. وتتضمن هذه الآية أن الله تعالى يقال عليه:

شيء، كما يقال عليه: موجود، ولكن ليس كمثله تبارك وتعالى شيء، فالله شيء لا كالأشياء. وهذه الآية للرَّد على المشركين القائلين للنَّبي ﷺ: من يشهد لك بأنك رسول الله؟ فنزلت الآية.

وأردفها الله بأمر نبيِّه بأن يخبر قومه: بأنه أُوحي إلي هذا القرآن لأُخوِّفكم به العقاب والآخرة على تكذيبي، وأُخوف به كل من بلغه هذا القرآن من العرب وغير العرب (العجم) فهو نذير لكل من بلغه وعلم به، ينذر من عصاه بالنار، ويبشِّر من أطاعه وآمن به بالجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ [البقرة: ٢/ ١١٩]. روى عبد الرّزاق عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ : إن رسول الله ﷺ قال: «بلِّغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله». وفي رواية أخرى: «يا أيها الناس، بلِّغوا عني ولو آية، فإنه من بُلِّغ آية من كتاب الله تعالى، فقد بلغه أمر الله تعالى، أخذه أو تركه».

ومن أهم خصائص دعوة النَّبي ﷺ التصريح بأن الإله إله واحد، وهو الله عزّ وجلّ، وأن هذا النَّبي بريء مما يشرك به العرب وغيرهم من الأصنام والأوثان وغيرها.

إقرار غير المؤمنين بالحق والتوحيد

من المعلوم أن الحقيقة مُرّة، وأن الاعتراف بها يحتاج إلى جرأة وصراحة، وقوة إيمان وصفاء نفس، ولكن هذا الإقرار تحجبه أحياناً كثيرة المؤثراتُ المصلحية والعواملُ المادِّية والتَّخوفُ من فقدان المنصب والجاه، وضياعِ الذّاتِ، وخسارةِ ولاء الأتباع والأنصار، والدليل على حجب الحقيقة الدينية الكبرى: اعتراف أهل الكتاب بصدق محمد ﷺ في دعوته، وإعلان المشركين في الآخرة أنهم ما كانوا مشركين، قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ[(١)] إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ[(٢)] عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ[(٣)] ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٠-٢٤].

ذكر المؤرِّخون أن كفار قريش سألوا أهل الكتاب (اليهود والنّصارى) عن رأيهم في النَّبي ﷺ وفي دينه، فقالوا: ليس في التوراة والإنجيل شيء يدلُّ على نبوّته. ولكنهم في هذا لم يكونوا صادقين؛ لأنهم يعرفونه بالنُّبوة والرسالة كما يعرفون أبناءهم، لما روي أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر لعبد الله بن سلام: أنزل الله على نبيِّه هذه الآية، فكيف هذه المعرفة؟ فقال: يا عمر، لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني، ولأنا أشدّ معرفة بمحمد مني بابني؛ لأني لا أدري ما صنع النساء، وأشهد أنه حقّ من الله تعالى.

ومعنى الآيات: إن الذين آتيناهم الكتاب قبل القرآن وهم اليهود والنصارى يعرفون أن محمداً ﷺ نبي، وأنه خاتم الرُّسل، كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن الرُّسل المتقدِّمين والأنبياء السابقين، فإن صفته في كتبهم واضحة، ودلائل نبوَّته التي ظهرت معه مؤيدة للأوصاف السابقة، ولكنهم أنكروا، كما أنكر المشركون.

وسبب إنكارهم ناشئ من أنهم خسروا (أي غبنوا) أنفسهم، حين لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ، ولا بالقرآن، لعنادهم وحسدهم، لا لجهلهم به. وليس أحد أظلم

(١) معذرتهم أو شركهم . (٢) غاب وزال عنهم . (٣) يكذبون .

ممن افترى (أي اختلق) على الله كذباً، أو كذب بعلامات الصدق ومعجزات النَّبي ونحو ذلك، ثم قرَّر الله تعالى قراراً حاسماً وهو أنه لا يفلح الظالمون أبداً، أي لا يبلغون الأمل ولا ينجحون في مخططاتهم في الدنيا والآخرة. والآية تدلُّ على أن المشركين جمعوا بين الكذب على الله، والتكذيب بآيات الله الدّالة على التوحيد وعلى إثبات رسالة النَّبي محمد ﷺ.

وزيادة في الإيلام والتأنيب والتَّبكيت يُسأل المشركون يوم القيامة والحشر سؤال تقريع وتوبيخ: أين شركاؤكم من الأصنام والأوثان الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لله، وتَدْعونهم كما تدعون الله؟ والزَّعم: القول الأميل إلى الباطل والكذب في أكثر كلامهم.

ثم لم تكن فتنتهم، أي لم تكن حجتهم أو قولهم عند اختبار الله إياهم اعتذاراً عما سلف منهم من الشِّرك بالله إلا أن أقسموا بالله يوم القيامة: ما كنا مشركين، أي لم نكن مقرِّين بالشِّرك ولا معتزين به ولا بدين الآباء والأجداد.

وذلك موقف لهم في غاية التَّخاذل والخزي والحيرة، وتأمل أيها الإنسان وتعجب من تناقضهم، فتارة يصدقون وتارة يكذبون، وإنكارهم الشِّرك يوم القيامة كذب صريح، فانظر كيف كذبوا على أنفسهم، بعد الاعتداد بدين الشِّرك والوثنية، وتعجب كيف ضلَّ عنهم أي غاب عنهم ما كانوا يفترونه من الإشراك، حتى إنهم بادروا إلى نفي حدوث الشِّرك في الدنيا، مع أنهم كانوا أساطين الشِّرك، وذلك مثل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا..﴾ [غافر: ٤٠/ ٧٣-٧٤].

إن هذا الموقف المتناقض من المشركين يتَّسم بالكذب والخزي والعار، ولكن بعد فوات الأوان وضياع الفرصة، فإن دار الدنيا هي دار التكليف بالإيمان والفرائض،

وأما دار الآخرة فهي للجزاء من ثواب وعقاب فقط، فلا يقبل فيها إيمان أو إقرار بصدق رسالة القرآن ونبي الإسلام.

موقف المشركين من القرآن الكريم

كان الموقف الرسمي المعلن للمشركين القرشيين من القرآن الكريم هو الرفض والإنكار جملةً وتفصيلاً، لأنهم قدروا بانضمامهم للإسلام أنهم يفقدون مركز الزعامة والسيادة بين العرب، الذي كانوا يتميزون به في الجاهلية، ولكنهم بهذا الموقف التاريخي كانوا سُبَّة الدهر، وخسروا برفضهم الدنيا والآخرة، فقد زالت زعامتهم وانتقلت للمسلمين، وكانوا حطب جهنم وبئس المصير، قال الله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا[١] وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ[٢] ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ[٣] وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٥-٢٦].

أبان ابن عباس رضي الله عنهما سبب نزول هاتين الآيتين فقال: إن أبا سفيان ابن حرب، والوليد بن المغيرة، والنّضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأمية وأبيّاً ابني خلف استمعوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا للنَّضر: يا أبا قُتَيْلة، ما يقول محمد؟ قال: والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول، إلا أني أراه يحرِّك شفتيه يتكلم بشيء، وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدِّثكم عن القرون الماضية،

(١) أي صمماً وثقلاً في السمع. (٢) أكاذيبهم المسطرة في كتبهم. (٣) يتباعدون عنه.

وكان النَّضر كثير الحديث عن القرون الأُوَل، وكان يُحدِّث قريشاً، فيستملحون حديثه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والمعنى والمقصد من هذه الآية أن مشركي مكة كانوا في أعجز موقف، حين حاولوا ردّ الحق القرآني بالدعوى المجردة، ومنهم فريق كانوا يستمعون للنَّبي ﷺ وهم في أشدِّ حالات الغباء وصمم الآذان، يرون الآيات الناطقة بالحق فلا يؤمنون بها، وإذا جاؤوا للمجادلة أي المقابلة في الاحتجاج، قابلوا بدعوى مجردة فارغة من البرهان المقبول، والعقل السليم؛ لأن الله تعالى-بسبب عنادهم وإصرارهم على شركهم-جعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن، وفي آذانهم ثقلاً أو صمماً عن السماع النافع لهم، كما شبَّههم القرآن بحال الطيور الناعقة بما لا تعي ولا تفهم، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ٢/ ١٧١]. لقد حُجزوا عن فهم القرآن وقبوله وتدبُّر معانيه بسبب التقليد الأعمى للأسلاف، وإعراضهم الناشئ عن تصميم وعناد وحزم ألا ينظروا فيما يسمعون نظرة تأمُّل وإمعان، ليميزوا بين الحق والباطل.

فمهما رأوا من الآيات البيِّنات والبراهين الصادعة بالحق لا يؤمنوا بها، وصاروا بلا فهم ولا إنصاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٣].

وإذا جاؤوا يحاجّون النَّبي ويناظرونه في الحق وفي دعوته، قالوا قولاً تافهاً: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من أخبار الأولين وأقاصيصهم التي تسطر وتحكى ولا تحقق كالتواريخ، وما هي إلا نوع من خرافات وأباطيل القدماء.

وهم بهذا الموقف اللاعقلاني والدعائي بمجرد الأقاويل المبطلة، ينهون الناس عن

اتِّباع الحق الأبلج وتصديق الرسول ﷺ والانقياد للقرآن، ويَبْعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين، لا ينتفعون، ولا يتركون غيرهم ينتفع.

وعاقبة ذلك أنهم ما يضرّون وما يهلكون إلا أنفسهم بهذا الكفر أو الصنيع الذي يدخلهم جهنم، ولا يعود وباله إلا عليهم، وهم لا يشعرون بذلك، بل يظنّون أنهم يضرّون رسول الله ﷺ. وقد أهلك الله أولئك المعادين الجاحدين، إما بالقتل في ساحات الحرب، وإما بالبلاء والانتقام الذي سيتبعه هلاك الآخرة. وهذا من إعجاز القرآن الذي أخبر عن المغيبات في المستقبل، ووقع ما أخبر به، لقد انمحى ذكرهم من التاريخ وصاروا مثلاً للتخليط الذي لا حجة فيه، والبلاهة التي لا حدود لها، فخسروا الدنيا والآخرة.

أحوال المشركين في الآخرة

للمشركين حالتان محرجتان ورهيبتان يوم القيامة، الحال الأولى: يوم عرضهم على النار وما يطرأ عليهم من ذعر وندم على ماضيهم في الدنيا، والحال الثانية: يوم حسابهم ووقوفهم بين يدي ربّهم حيث يناقشهم الله على أعمالهم، فتستولي عليهم الحيرة والدهشة وهول الأمر.

قال الله تعالى واصفاً الحال الأولى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ(١) فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٧-٢٩].

---

(١) حُبسوا عليها .

والمعنى: ولو ترى يا محمد وكل سامع هؤلاء المشركين يوم القيامة، حين عرضهم على النار، لرأيت عجباً وهولاً أو مشقّات، وذلك حين تعرضهم الملائكة على النار، فيدخلونها ويعاينون شدَّتها، فيندمون ويتمنّون العودة إلى الدنيا قائلين: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فردَّ الله عليهم بأن حالهم لم تتغير، إنما ظهر حقيقة ما كانوا يخفون من قبل في الدنيا من الكفر والعناد والتكذيب بالبعث والمعاد والجزاء، وهم ليسوا صادقين في تمنّي العودة للدُّنيا، فإنهم لو رُدّوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما نهاهم الله عنه من الكفر والعناد والعصيان، ولو رُدّوا إلى الدنيا لأنكروا مرة أخرى البعث والحساب والجزاء والنار الموقدة، وإنهم لكاذبون في جميع الأحوال، سواء حال وجودهم في الدنيا قبل موتهم أو في وعدهم بالإيمان والاستقامة.

ثم أخبر الله تعالى عن عقيدة المشركين الكفار المتأصِّلة فيهم وهي تكذيبهم بالحشر والعودة إلى الله وإنكار الآخرة، فإنهم يقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا فقط، وليست لنا حياة أُخروية أبداً، وما نحن بمبعوثين، ولا ثواب ولا عقاب في الآخرة، بل لا آخرة ولا معاد، وهؤلاء هم الماديّون الدّهريون الملحدون الذين لا يؤمنون بالغيب.

ثم ذكر الله تعالى حالاً ثانية للكفار أمام الله حين وقوفهم للحساب، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ(١) قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً(٢) قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ(٣) عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٠-٣٢].

---

(١) حبسوا على حكمه تعالى للسؤال. (٢) فجأة. (٣) ذنوبهم.

والمعنى: ولو ترى أيها النَّبي هؤلاء المشركين حينما توقفهم الملائكة بين يدي ربِّهم، لوجدت هولاً عظيماً وأمراً خطيراً مدهشاً لا يحدّه وصف، وهو مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف الجاني بين يدي الحاكم ليعاتبه، فيقول الله لهم على لسان الملائكة: أليس هذا الحشر أو المعاد بحقّ، وليس بباطل كما كنتم تظنّون؟ فأجابوا: بلى وربِّنا، أي إنه الحق الذي لا شكّ فيه، وأكّدوا قولهم باليمين بالله، فشهدوا على أنفسهم بالكفر، وكون البعث حقّاً، فردَّ الله عليهم: فذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم وتكذيبكم الذي دمتم عليه، ولم تفارقوه في الدنيا حتى الموت. ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنفسكم بهذا الإقرار منكم بأن العذاب حقّ.

ثم أخبر الله تعالى خبراً عامّاً مفاده: تعظيم المصاب الذي حلَّ بهم، وهو: خسارة الذين كذبوا بلقاء الله، أي بإنكار القيامة وبالرجوع إلى الله وإلى أحكامه وقدرته، حتى إذا جاءتهم ساعة القيامة فجأة، قالوا: يا حسرتنا على فرَّطنا من العمل للآخرة، وما أسلفنا من العمل القبيح. وهؤلاء الخاسرون يأتون للحساب يوم القيامة، وهم حاملون ذنوبهم وخطاياهم على ظهورهم، ألا ما أسوأ تلك الأثقال المحمولة، وبئس شيئاً الحمل الذي حملوه وهو الذنوب، فقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ إخبار عن سوء ما يأثمون، مضمَّن التعظيم لذلك والإشادة به.

ثم أخبر الله عن حال الدنيا بأنها إذا كانت فانية منقضية لا طائل لها، أشبهت اللعب واللهو الذي لا طائل له إذا انقضى، فغالب أعمال الدنيا لعب لا يفيد، ولهو يشغل عن المصلحة الحقيقية، ومتاعها قليل زائل قصير الأجل، وأما العمل للآخرة فله منافع عظيمة، والآخرة خير وأبقى للذين يتّقون الكفر والمعاصي، ونعيمها نعيم دائم خير من نعيم الدنيا الفاني، أفلا تعقلون وتفهمون هذه الحقائق وهي أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزوال ومزرعة للآخرة، فتؤمنوا وتعملوا عملاً صالحاً.

حزن النَّبي ﷺ على تكذيب قومه

لقد كان الرُّسل والأنبياء ومنهم خاتم النَّبيِّين على درجة كبيرة من الإخلاص في دعوتهم لتوحيد ربِّهم وإخلاص العبادة له، وكانوا في حرج عظيم أمام الله بسبب إعراض أقوامهم عن دعوتهم وتكذيبهم إياهم، ولكنهم صبروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا حتى أتاهم نصر الله، ولا مناص من الصبر على الأذى واحتمال المكروه والرِّضا بالواقع؛ لأن الهداية بيد الله وحده، فلا يصح لرسول الجهل بهذا، قال الله تعالى مبيِّناً ذلك:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ(١) وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ(٢) إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا(٣) فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/٣٣-٣٥].

نزلت آية ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ﴾ فيما روى الترمذي والحاكم عن علي رضي الله عنه: أن أبا جهل قال للنَّبي ﷺ: إنا لا نكذِّبك، ولكن نكذِّب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

ليس هناك أعظم ولا أروع ولا أقدس من هذه المواساة أو ما يسمّونه المشاركة الوجدانية، يواسي الله تعالى من علياء سمائه نبيّه على ما ألَمَّ به من حزن شديد وألم عميق بسبب تكذيب قومه له ومعارضتهم دعوته، وصدِّهم الناس عنها، فالله يعلم بذلك تمام العلم، كما في آية أخرى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/٦].

---

(١) أنظمته بنصر رسله. (٢) شق. (٣) سَرَباً ومنفذاً.

ومنشأ هذا التكذيب في الظاهر: هو العناد والجحود، إذ إنهم لا يتّهمونك بالكذب في الواقع، فأنت الصادق الأمين في نظرهم، فما جرَّبوا عليك كذباً ولا خيانة، ولكنهم يعاندون الحق، ويجحدون بآيات الله أي علاماته وشواهد نبيِّه محمد ﷺ، ويصدّون عنها، فالقضية محاربة لدعوة الله لا لشخص نبيّه، فلست بكاذب في حقيقتك، وتكذيبك لايعد تكذيباً. لهذا فلا تحزن أيها الرسول عليهم، واصبر على تكذيبهم وإيذائهم، كما صبر رسل قبلك وكما أُوذوا، حتى ينصرك الله عليهم، وينتقم من أعدائك المكذِّبين، كما نصر رسله الكرام. وهذا الوعد بالنصر أمر حتمي محقق، فلا تغيير ولا خُلْف في وعد الله ووعيده، ولا مكذّب لما أخبر به، فوعد الله بنصر رسله والمؤمنين نافذ في الدنيا والآخرة، وكذا وعيده لاحق بالكافرين، وتلك هي أنباء أوأخبار الرُّسل المرسلين قبل نبيّنا عليهم الصّلاة والسّلام، لقد أنزلناها عليك أيها النَّبي وقصصناها عليك، ومفادها ما أخبرناك به من تكذيب الناس لهم وصبرهم ثم نصرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ..﴾ آية فيها إلزام الحجة للنَّبي ﷺ وتقسيم الأحوال عليه، حتى يتبيَّن أنه لا وجه إلا الصبر والمضي لأمر الله تعالى. والمعنى: إن كنت أيها النَّبي تعظِّم تكذيبهم وكفرهم على نفسك وتحزن عليه، فإن كنت تقدر على دخول سرب في أعماق الأرض، أو على ارتقاء سُلّم إلى السماء، فدونك وشأنك به، أي إنك لا تقدر على شيء من هذا، ولا بدَّ لك من التزام الصبر واحتمال المشقة ومعارضتهم بالآيات التي أقامها الله تعالى للناظرين المتأملين. فالله لا إله إلا هو لم يرد أن يجمعهم على الهدى، وإنما أراد ترك الحرِّية للناس في النظر والتأمل في آياته، ليهتدي بها الأسوياء العقلاء، ويضل آخرون. وهناك عوامل تساعدهم على الوصول إلى الحق، فقد خلقهم الله على الفطرة الإسلامية النقية وهي

توحيد الله، والهداية إلى السبيل السوي، وسبقت رحمته غضبه، ولله ذلك كلُّه بحقِّ ملكه، فلا تكونن أيها الرسول من الجاهلين، في أن تأسف وتحزن على أمر أراده الله وأمضاه وعلم المصلحة فيه.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذّكْر الأول.

وهذا كله دليل واضح على حرية الإنسان في اختيار الإيمان أو الكفر، وعلى أن الحساب والثواب والعقاب منوط بما اختاره الإنسان لنفسه من إيمان أو ضلال، وخير أو شرّ.

قدرة الله تعالى وعلمه

يؤكِّد الله تعالى مواساته لنبيِّه ﷺ على حزنه بسبب إعراض قومه عن دعوته؛ لأن قضية الإيمان والكفر يتعلق بها أصول ثلاثة: هي حرية الإنسان، وتمام قدرة الله تعالى، وكمال علمه بالأشياء قبل وقوعها، وهذه الأُسس الثلاثة تحدَّثت عنها آيات قرآنية كثيرة منها قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا(١) فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٣٦-٣٩].

---

(١) ما تركنا.

هذا لون آخر من مواساة الله لنبيّه محمد ﷺ عما ألَمَّ به من حزن بسبب إعراض قومه عن رسالته، فإذا كان الناس صنفين: صنف يختار الهداية، وصنف يختار الضّلالة، أبان الله تعالى هنا في الآية الأولى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ. .﴾ أن الصنف الأول هم الذين يسمعون الدلائل والبيّنات سماع تدبُّر وفهم، وأن الصنف الثاني لا يفقهون ولا يسمعون، وإنما هم كالأموات. فلا تحفل أيها النَّبي بمن أعرض عنك وعن دعوتك لتوحيد ربِّك والإقرار بنبوّتك، فإنما يستجيب لداعي الإيمان الذين يسمعون الآيات سماع تعقُّل وتفهم ويتلقّون البراهين بالقبول. أما الكفار غير المؤمنين، فهم كالموتى في الصَّمم عن وعي كلمات الله، والعمى عن نور الله، لا يفقهون قولاً، ولا يفكرون تفكيراً صحيحاً فيما أنزل الله، أي إنهم موتى القلوب، يشبهون موتى الأجساد.

هذا مع العلم بأن الله قادر على كل شيء، فكما أنه قادر على بعث الموتى من القبور يوم القيامة، والرجوع إليه للجزاء، هو سبحانه قادر على إحياء قلوب الجاحدين بالإيمان، وأنت أيها النَّبي لا تقدر على هدايتهم. لكنهم -أي هؤلاء المشركين- قوم معاندون يرفضون دعوة الحقّ القرآني كبراً وحسداً وعناداً. ومن مظاهر عنادهم: مطالبتهم بإنزال آية مادِّية محسوسة من السماء، خارقة للعادة على النَّبي محمد ﷺ كعصا موسى، ومائدة عيسى، وملَك يشهد له، وتفجير الينابيع، وإنشاء البساتين أو الإتيان بكنز، أو غير ذلك من الشّطط، ولكن أكثر هؤلاء الكفار لا يعلمون أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية، ولكن حكمته اقتضت الامتناع من إنزالها؛ لأنها لو نزلت ولم يرمنوا لعوجلوا بالعذاب، فإنزال آية مادِّية مما اقترحوا يكون سبباً في هلاكهم إن لم يؤمنوا.

ثم نبّه الله سبحانه على قدرته وعلى آيات الله الموجودة في أنواع مخلوقاته، لمن شاء

أن يتأمل، ويريد الاستدلال على عظمة الله ومقدرته في كل شيء، فالله قادر بسهولة على أن ينزل آية، لكن عدم إنزالها لحكمة لا تعلمون وجهها، وإنما يحيل الله على الآيات الموجودة لمن فكر واعتبر، كالدّواب والطّير وهي أُمم، أي جماعات مماثلة للناس في الخلق والرزق والحياة والموت والحشر، والله تعالى يدبرها ويرعى شأنها ويحسن إليها، فإذا كان الله يفعل هذا بالبهائم، فأنتم أحرى إذ أنتم مكلفون عقلاء.

ولم يترك الله شيئاً أبداً إلا ذكره في الكتاب: وهو اللوح المحفوظ: وهو شيء مخلوق في عالم الغيب دُوِّن فيه كل ما كان وما سيكون من مقادير الخلق إلى يوم القيامة، فهذا دليل آخر على إحاطة علم الله بكل شيء، وجد أو سيوجد لحكمة يعلمها، ثم يبعث الله جميع تلك الأُمم من الناس والحيوان ويجمعها إليه يوم القيامة، ويجازي كلاً منها، أفليس في هذا الحشر ما يدلُّ على قدرته تعالى ووحدانيته؟!

وإذا كان ما من دابَّة ولا طائر ولا شيء إلا وفيه آية دالّة على قدرة الله ووحدانيته، فهلا تؤمنوا! ولكن الكافرين الذين كذبوا بآيات الله صمٌّ وبُكْمٌ لا يتلقون ذلك ولا يقبلونه، ولا يسمعون دعوة الحقّ والهدى سماع قبول، ولا ينطقون بما عرفوا من الحق، وهم يتخبَّطون في ظلمات الشِّرك والوثنية وعادات الجاهلية القبيحة والجهل والأُميّة، فكيف يهتدون إلى الطريق الصحيح؟ والله هو المتصرِّف في شؤون خلقه، ويعلم حال كل مخلوق، فمن يشأ الله إضلاله أضلَّه ولم يلطف به؛ لأنه ليس أهلاً للطف، ومن يشأ هدايته وفَّقه وهداه إلى الصراط المستقيم: وهو الإسلام، لأنه من أهل اللطف، فيكون معيار الهداية والإضلال بما علم الله أزلاً من استعدادات المخلوقات للخير والحق أو الشَّر والباطل. ذلك حكم الله ومشيئته في خلقه.

الالتجاء إلى الله وحده في الشَّدائد

هناك أدلَّة لا شعوريّة أو لا إراديّة على قدرة الله عزّ وجلّ، مغروسة في الفطرة الإنسانية، وهي اللجوء إلى الله تعالى من المؤمنين والكفرة إذا نزلت بهم نازلة أو بلية أو محنة، فلا يجدون ملاذاً ولا مفزعاً يلوذون به أو يفزعون إليه سوى الله سبحانه القادر القاهر، المتصرِّف في الكون حسبما يشاء، يقدر المقدورات، ويهيء الأسباب، أو يقول للشيء: كن فيكون. قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ[(١)] إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ[(٢)] لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ[(٣)] ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا[(٤)] تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً[(٥)] فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ[(٦)] ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ[(٧)] ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٠-٤٥].

هذه ردود قاطعة الدلالة على الكفار الجاعلين لله شركاء، ترشدهم إلى وحدانية الله، وتدلُّهم على أنهم لا بدّ من لجوئهم إلى الله طوعاً أو كرهاً. والمعنى: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: أخبروني عما أنتم فاعلون، أرأيتم إذا أتاكم أمارات عذاب الله، مثلما نزل بالأمم السابقة كالخسف والريح الصّرصر العاتية، والصاعقة، والطُّوفان، أو خفتم هلاكاً، أو خفتم الساعة وأتتكم القيامة بأهوالها ومخازيها، أتدعون أصنامكم وتلجؤون إليها في كشف ذلك إن كنتم صادقين في قولكم: إنها آلهة؟!

(١) أخبروني عن أمركم العجيب. (٢) الفقر والمرض. (٣) يتذلَّلون ويتوبون. (٤) أتاهم عذابنا.
(٥) عذَّبناهم فجأة. (٦) آيسون من الرَّحمة. (٧) آخرهم.

ثم بادر الله إلى الجواب بقوله: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ..﴾ أي بل تدعون الله الخالق الرازق، فيكشف ما خفتموه إن شاء، وتنسون أصنامكم، أي تتركونهم، ولا تذكرون في ذلك الوقت إلا الله، فكيف يجعل إلهاً من هذه حاله في الشدائد والأزمات؟! الواقع: أنه لا ملجأ لكم إلا الله، وأصنامكم مهجورة منسية!

وذلك أن الله تعالى أودع في فطرة الإنسان شعوره بالضعف وتوحيد الله والإذعان التّام للخالق المبدع، مالك الأرض وباسط السماء. وأما الشِّرك فهو شيء موروث في البدائيين، وعبث وظلم، وانحراف عن الفطرة السّوية، وانشغال بما لا يفيد. ثم ذكّر الله المشركين الكفرة بضرب الأمثال بالأمم السابقة، مبيِّناً أنه أرسل الرُّسل للأمم المتقدمة، قبل النّبي محمد ﷺ، فدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فلم يستجيبوا، فاختبرهم الله بالبأساء والضّراء، أي بالفقر وشدة العيش، والمرض والألم، لعلهم يدعون الله ويتضرّعون إليه و يخشعون؛ لأن الشّدائد تنبت الرجال وتصحِّح المواقف.

والتّرجي في (لعلّ) إنما هو في معتقد البشر، فلو رأى أحد أمارات العذاب لرجا تضرُّعهم بسببه. ثم أكّد تعالى الحضّ على التّضرع لله، وألا سبيل للناس إلا إلى الله، فهلا إذا نزل بهم أوائل البأس والعذاب ومقدمات الشدائد تضرّعوا إلى الله خاشعين تائبين؟!! ولكنهم لم يفعلوا وصلبت قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وزيّن لهم الشيطان أفعالهم من الشِّرك والعصيان، ووسوس لهم حتى حسّن لهم الكفر في قلوبهم، ورغّبهم في سوء أعمالهم. فلما تركوا ماأنزل الله، وأصروا على كفرهم، فتحنا عليهم أبواب الرزق، استدراجاً لهم منه تعالى، حتى إذا فرحوا بما أوتوا من الأموال والأولاد، أخذناهم على غفلة بعذاب الاستئصال.

فهلك القوم الظالمون أنفسهم بالكفر وتكذيب الرُّسل، وقطع دابر القوم، أي آخر الأمر الذي يأتي من خلفه، ولم يبق منهم أحد، وهذا كناية عن استئصال شأفتهم

ومحو آثارهم، وأصبح الحمد لله والشكر له واجباً؛ لأن إبادة القوم المفسدين نعمة من الله ربِّ العالمين، وأن في الضّراء والسّراء عبرة وعظة للناس، وإنما يتذكر أولو العقل والألباب. وهذا دليل على أن حمد الله ينبغي أن يختم كل فعل وكل مقالة، لا إله غيره، ولا ربّ سواه. روى الطبراني والبيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج».

الاحتجاج على الكفار لإثبات التّوحيد

هناك أدلّة كثيرة على قدرة الله ووحدانيّته، منها ما نشاهده في هذا الكون من مشاهد ناطقة بوجود الله وقدرته وتوحيده، ومنها سلب وسائل المعرفة والحس والإدراك، وتسليط العذاب الشامل بغتة على الظلمة. غير أن الإنسان الواعي يتأمل في مقدورات الله، فيؤمن بالله ربّاً واحداً، ويصدّق برسالات الرُّسل الدّالة على الخير، والمنفِّرة من الشّر. قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ[1] إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ[2] ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ[3] ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ[4] إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً[5] هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٤٦-٤٩].

(١) أخبروني. (٢) نكررها بأوجه مختلفة. (٣) أي يُعْرِضون عن ذلك. (٤) أخبروني. (٥) معاينة.

هذه الآيات ابتداء احتجاج على الكفار بأدلّة قريبة حسّية تثبت قدرة الله ووحدانيته، والله تعالى هو المحتجّ المبرهن، والوسيط هو الرسول ﷺ ، وأسلوب ذلك: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذِّبين المعاندين: أخبروني عما تفعلون، إن سلبكم الله نعمة السّمع والبصر والفؤاد، فتصيرون صُمّاً عُمْياً بُلْهاً، لا تسمعون قولاً، ولا تبصرون طريقاً، ولا تعقلون نفعاً ولا ضرراً، وتنغلق قلوبكم، فلا تنفذ إليها هداية الله، ولا تعقل الأمور، ماذا تفعلون مع آلهتكم التي تعبدونها؟ أكنتم تدعونها لكشف الضُّرّ عنكم، وترجون شفاعتهم لو فعل الله بكم ذلك، أم كنتم تدْعون الله ليردّ عليكم السمع والبصر والفؤاد؟! معنى هذا الاستفهام أنه ليس هناك إله سواه، فما بال تعلُّقكم بالأصنام وتمسُّككم بها، وهي لا تدفع ضرراً ولا تأتي بخير؟ انظر أيها النّبي وكل عاقل، كيف نقلِّب الآيات ونكررها على أساليب متعددة ووجوه مختلفة لإقناعهم بوحدانية الله، ثم هم يعرضون عن دلالاتها وإشاراتها، ويبقون في ضلالهم سادرين منغمسين، ولا يتأملون في الآيات بعين مبصرة بعيدة عن التقليد والعصبية.

قل لهم على سبيل الوعيد والتّهديد: أخبروني إن أتاكم عذاب الله فجأة من غير شعور ولا مقدمات، كما أتى الذين من قبلكم من المكذِّبين كالخسف والغرق والزّلزال، أو أتاكم العذاب جهاراً نهاراً وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه، أخبروني ماذا أنتم فاعلون؟ هل يُهلك بهذا العذاب الشامل إلا القوم الظالمون أنفسهم بالشِّرك والاعتقاد الباطل، وأصرّوا على الكفر والعناد؟!

ثم أوضح الله تعالى مهام الأنبياء والمرسلين ليتأثّروا بها، ويفيدوا من عطائها ونفعها، فما نرسل الرُّسل إلا ليبشِّروا بإنعامنا ورحمتنا لمن آمن، وبالجنة لمن أسلم، وينذروا بعذابنا وعقابنا من كذّب وكفر، ولسنا نرسلهم ليُقترح عليهم الآيات،

ويتابعوا شذوذ كل متعسِّف أو معاند، وما عليهم إلا إبلاغ الرسالة، سواء آمن الناس أو كفروا.

ومصير الفريقين من المؤمنين والكافرين برسالات الأنبياء واضح وقاطع الوعد، ومحقق الجزاء، فمن آمن وأصلح عمله بامتثال الطاعات، واتِّباع الرُّسل، فلا خوف عليهم من مخاطر المستقبل، ولا هُم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ولا على شيء يصادفهم يوم لقاء الله. وهذا وعد ثابت محقق، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٣].

ومن كذّب بآيات الله التي أرسل الله بها الرُّسل، وفسق، أي خرج عن الحدّ في كفرانه وعصيانه، ولم ينفِّذ أوامر الله، وارتكب المنهيات المحظورات، يمسّهم العذاب، أي يباشرهم ويلتصق بهم، بسبب كفرهم وفسقهم، وكان جزاؤهم أنواع النقمة في الدنيا، والتّلظّي بنار جهنم في الآخرة. فإن أصاب الكافر خير في الدنيا فهو متاع قليل، والعبرة بالمصير الدائم والخلود الأبدي في العذاب في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين، والضّلال البعيد.

مصدر المعرفة للنّبي ﷺ

تتنوع مصادر المعرفة بالنسبة للبشر، فمنها العلوم المكتسبة المتلقاة من الآخرين، ومنها الأعراف والعادات السائدة، ومنها الخبرات والتجارب، وأهم مصادر المعرفة وأوثقها وأدقها: الوحي الإلهي الذي يزوِّد البشرية بمعلومات ومعارف ضرورية وأساسية في تكوين ثقافاتهم، ويبقى أمام الإنسان بعد الوحي ساحة المعرفة الدنيوية المستمدة من الآخرين ومن الإبداع البشري. والوحي الإلهي مقصور على الأنبياء

والرُّسل عليهم الصّلاة والسّلام، وقد صرّح القرآن الكريم بهذا في تعليم نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام، فقال الله تعالى:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٠-٥١].

ثم أورد القرآن الكريم دليلاً قطعياً على كون القرآن من مصدر إلهي لا بشري، حين أوصى بالضعفاء الملازمين للنّبي ﷺ، وفضّلهم على الزعماء وكبار الأشراف، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ(١) يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا(٢) بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٢-٥٣].

تحصر الآيتان الأوليان مصدر معارف النّبي ﷺ بالوحي الإلهي، ردّاً على المشركين الذين كانوا يطلبون من النّبي ﷺ معجزات مادّية قاهرة، فأجابهم بأني: لا أملك خزائن الله وأرزاقه، ولا أقدر على التصرُّف فيها وتوزيعها كما أشاء، ولا أدّعي علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، فلم يطلع عليه أحداً، كما قال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٦-٢٧].

ولا أقول لكم: إني أحد الملائكة، إنما أنا بشر يوحى إلي من الله عزّ وجلّ ما يريد و يختار، والمراد من هذا أني لا أدّعي الألوهية، ولا علم الغيب، ولا الملكية، إنما

(١) أول النهار وآخره. (٢) اختبرنا

أنا بشر أتبع ما يوحى إلي من ربِّي، كسائر الأنبياء والرُّسل من قبلي، فمعرفتي وعلمي ومعلوماتي كلها مستمدة من الوحي، وذلك يستوجب التأمل في وحي الله وملكوته، لأنه لا يستوي الناظر المفكِّر في الآيات مع المعرض الكافر المهمل للنظر، فالأعمى والبصير مثالان للمؤمن والكافر، أي ففكِّروا أنتم وانظروا، لتميِّزوا بين ضلال الشرك وهداية الإسلام، وتعقلوا ما في القرآن من أدلة توحيد الله واتِّباع رسول الله، وهذا يدلُّ على إثبات القدرة المطلقة والعلم الشامل لله سبحانه.

ثم أمر الله نبيّه بأن ينذر و يخوِّف جميع الخلائق بالوحي القرآني، وهم أهل الملل السماوية الثلاثة الذين يخافون من الحشر وأهواله، وشدة الحساب يوم القيامة، وما يتبع ذلك من الجزاء على الأعمال عند لقاء الله، في حال من ليس له ولي ناصر ولا شفيع شافع، أنذرهم بهذا أيها النّبي لعلهم -أي البشر- يتّعظون ويتّقون، فيمتثلون الأوامر وينتهون عن الكفر والمعاصي.

ثم ذكر القرآن مثلاً رائعاً في مجاملة الضعفاء، فمنع من تقريب أشراف القوم من قريش، وحذّر من طرد ضعفاء الناس المؤمنين الموحِّدين الذين يعبدون الله في الصباح والمساء، ويدعونه سرّاً وعلانية، و يخلصون في طاعتهم وعبادتهم، فلا يقصدون إلا إرضاء الله تعالى، المستحق وحده للعبادة، وهؤلاء هم الذين يختص الله بحسابهم، وليس لك أيها النّبي محاسبتهم على شيء، ولم تكلف شيئاً غير دعائهم للدين، لا ترزقهم ولا يرزقونك، وإن طردتهم من مجلسك كنت من الظالمين أنفسهم. فأي دليل بعد هذا الإنذار الموجّه للنّبي يدلُّ على أن القرآن لا يتصور إلا أن يكون كلام الله، وليس بكلام بشر ولو كان نبيّاً.

ثم أماط القرآن اللثام عن حقيقة جوهرية هي تعدد الأديان: من إسلام وشرك، ولقد ابتلى الله المؤمنين بالمشركين وعلى العكس واختبرهم بذلك، وابتلاء المؤمنين

بالمشركين: هو ما يلْقون منهم من الأذى، وابتلاء المشركين بالمؤمنين: هو أن يرى أشراف المشركين مدى تعظيم الله لقوم لا سمعة ولا مكانة لهم، وكانت عاقبة هذا الاختبار: أن قال المشركون: أهؤلاء الضعفاء الذين منّ الله عليهم من بيننا بالخير والتقدم؟ فردّ الله عليهم: بأن الله أعلم بمن يؤمن ويشكر الله، فيوفّقه للإيمان، وَهو سبحانه أعلم بمن يصمّم على الكفر، فيخذله ويحجب عنه اللطف والتوفيق.

وقد نزلت آية النّهي عن طرد الضعفاء من مجلس النّبي في ستة أنفار كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود، طالب المشركون بطردهم من مجلس النّبي، قائلين: اطردهم، فإنا نستحي أن نكون تبعاً لك كهؤلاء، فنهى الله نبيّه عن ذلك، إعلاء لدرجة الإيمان، وإدناء لمرتبة الشّرك أو الكفر.

مظاهر الرّحمة الإلهيّة

لا يستغني الإنسان عن رحمة الله طرفة عين، فإن وجوده وبقاءه، وسعادته وشقاءه، وأفراحه وأحزانه وغير ذلك مرهون برحمة الله وفضله، وإحسانه ولطفه، فالله لطيف رحيم بعباده، ويزيد اللطف بعبّاده، يمنح لهم الخير، ويحميهم من الشّر ما داموا على جادة الاستقامة قائمين، وبهدي الله عاملين، بل إنه يرحم العصاة والكافرين به، لأن رحمته سبقت غضبه، ولولا الرّحمة الإلهية ما بقي في هذا العالم كافر ولا مشرك. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ(١) عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٤-٥٥].

---

(١) قضى وأوجب على نفسه تفضُّلاً منه ورحمة.

نزلت هاتان الآيتان -في رأي جمهور المفسِّرين- في القوم الذين طلب المشركون طردهم من مجلس النّبي ﷺ حتى يؤمنوا ويتفرّدوا بالجلوس، فنهى الله عزّ وجلّ عن طردهم، وضمّ إلى ذلك النهي الأمر بأن يسلِّم النّبي ﷺ عليهم ويؤنسهم. قال عكرمة: نزلت في الذين نهى الله تعالى نبيّه ﷺ عن طردهم، فكان إذا رآهم النّبي ﷺ بدأهم بالسلام، وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسّلام».

وقال الفضيل بن عياض: قال قوم للنّبي ﷺ : إنا قد أصبنا ذنوباً فاستغفر لنا، فأعرض عنهم، فنزلت الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

والمعنى: وإذا جاءك أيها الرسول الذين يؤمنون بالله ورسله، ويصدقون بكتبه تصديقاً قلبيّاً وعمليّاً، ويؤمنون بآيات القرآن وعلامات النُّبوة كلها، فقل لهم: أمان لكم من عذاب الله في الدنيا والآخرة؛ لأن الله سبحانه أوجب على نفسه الكريمة الرحمة بعباده، تفضُّلاً منه وإحساناً وامتناناً، فهو واسع الفضل والمغفرة، يغفر الذنوب بعد التوبة، ويعفو عن السّيئات بالحسنات. جاء في الصحيحين وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى كتب كتاباً، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي».

فمن ارتكب منكم ذنباً أو خطيئة بجهالة كغضب شديد، أو شهوة جامحة، وخفة عارمة، وطيش بيِّن، ثم تاب إلى الله وندم على ذلك الذنب، وصمّم على عدم العودة إلى المعصية في المستقبل، وأصلح عمله، فالله يغفر له ذنبه، لأنه واسع المغفرة والرحمة، ونظير هذه الآية الدّالة على غفران السيئات الواقعة عن جهالة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النّساء: ٤/ ١٧]. قال بعض السّلف: «كل من عصى الله فهو جاهل» وقال مجاهد: «من الجهالة:

ألا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته أن يركب الأمر». والجهل الذي هو ضدّ العلم يعذر به المرء في الذنوب الخفيفة، ولا يعذر به في الذنوب الكبائر كالشِّرك بالله وعقوق الوالدين وأكل الرِّبا وأكل مال اليتيم.

والتّوبة: الرجوع، وصحتها مشروطة باستدامة الإصلاح بعدها في الشيء الذي تيب منه، والإصلاح يكون بشروط أربعة: النّدم الحقيقي على الذنب، والعزم على عدم العودة إليه في المستقبل، وردّ المظالم إلى أهلها، وإتباعها بالعمل الصالح. وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم وضع القرآن الكريم قاعدة عامة في البيان: وهي أنه سبحانه يبين لعباده بياناً بديعاً كل ما يتعلق بدلائل التوحيد والنُّبوة والقضاء والقدر، ومثل ذلك التبيان والتفصيل يفصل الآيات كلها، ويوضح حقائق الشريعة، ليهتدي بها العقلاء، ويعرف الحق من الباطل، ويتّضح للمؤمنين طريق المجرمين، وإذا اتّضح سبيلهم كان كل ما عداه وما خالفه هو سبيل المؤمنين، لأنه متى استبانت طريقة المجرمين المنحرفين عن الهدي الإلهي، فقد استبانت طريقة أهل الحق والإيمان أيضاً لا محالة، إذ لا وسيط بين الحق والباطل.

وهل يتأمل الناس من ربّهم غير البيان والتفصيل، فذلك غاية الفضل والإحسان، ومنتهى الرحمة والإعذار؟ ولا يبقى أمام الإنسان بما أُوتي من عقل وخبرة وترجيح للمصلحة على المفسدة، إلا أن يختار طريق الخير ويتجنّب سبيل الشّر؛ لأن فعل الخير أمان وسلام، وعافية واطمئنان، وفعل الشّر ضلال وخسران.

حسم الموقف مع المشركين

تستمر محاولات الإصلاح عادة بين المصلحين وأقوامهم، وقد صبر الأنبياء كثيراً صبراً طويلاً في سبيل هداية أقوامهم وإصلاحهم، ولكن لا يعقل أن تظلَّ الأمور سائرة من غير حسم، فلا بدَّ في النهاية من اتِّخاذ موقف حاسم، تتبلور به الأحوال، ويتبين للأجيال ضرورة العمل على سلوك طريق الحق، وترك طريق الشَّر، وهذا المنهج هو ما عبَّر عنه القرآن الكريم بين النَّبي محمد ﷺ وقومه المشركين في الآيات الآتية:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ(١) وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ(٢) ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام: ٦/٥٦-٥٨].

نزلت آية: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي..﴾ في النّضر بن الحارث ورؤساء قريش، كانوا يقولون: يا محمد، ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به استهزاء منهم، فنزلت هذه الآية.

أمر الله تبارك وتعالى نبيَّه ﷺ أن يجاهر قومه بالتَّبري مما هم فيه، والمعنى: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: إني نهيت من ربِّي ومنعت من عبادة ما تدعونهم وتطلبون منهم الخير ودفع الضُّر، من صنم أو وثن أو عبد صالح مهما كان شأنه، أو ملَك من الملائكة، لقد حُجزت أو صُرفت عن هذا كله بالآيات القرآنية والأدلة العقلية والحسِّية، فأُلوهيّة غير الله وعبادتهم باطلة بأبسط فكرة وأدنى تأمُّل.

---

(١) يبيِّنه بياناً شافياً. (٢) خير الفاصلين بين الحق والباطل.

إني لا أتَّبع أهواءكم أو شهواتكم في سلوك طريقتكم القائمة على اتِّباع الهوى دون اتِّباع الدليل، وليس لكم إلا تقليد الآباء ووراثة الأسلاف من غير بصيرة كما تصرِّحون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزُّخرف: ٤٣/٢٣]. إني إن اتبعت أهواءكم فأنا ضالّ، وما أنا من الحق والهدى على شيء، وفي هذا تبيان بأنهم ليسوا من الهداية في شيء، وليسوا في اعتقادهم على بصيرة.

فإن عبادة غير الله ضلال وشرك، يترفَّع عنها العقلاء، وعبادة الله تدلُّ عليها الحجة البالغة والبرهان الواضح، ويرشد إليها الفكر الصحيح.

قل لهم أيها النَّبي: إني على أمر بيِّن، وإني فيما أخالفكم فيه على بصيرة من شرع الله الذي أوحاه إلي، وعلى حجة واضحة، وهو هذا القرآن المعجزة الخالدة على صدق اتجاهي ومنهجي، فهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أما أنتم أيها المشركون فقد كذَّبتم بالقرآن وكفرتم بالرحمن، ورفضتم الحقّ الذي جاءني من عند الله، واتَّبعتم الشيطان، والهوى والضلال، وقلَّدتم الآباء من غير روية ولا تفكير.

وليس الأمر بيدي كما تتوهمون، وليس عندي الذي تستعجلون به وهو العذاب، فلا أقدر على إنزاله بكم، وما الحكم الفاصل والقضاء المبرم إلا لله، إليه يرجع الأمر كله، إن شاء عجَّل لكم ما سألتم من العذاب، وإن شاء أجَّلكم إلى أجل معين بمقتضى علمه ومشيئته وحكمته العظيمة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرَّعد: ١٣/٨]. والله يقضي بالحق، ويقصُّ على رسوله القصص الحق في وعده ووعيده وجميع أخباره، وهو خير الفاصلين، أي خير الحاكمين الذين يفصلون في القضايا بين عباده، ويُنفذ أمره متى شاء إصدار الحكم العادل.

قل لهم أيها النَّبي: لو كان عندي ما تستعجلون به من نزول العذاب، ولو كان

بمقدوري إيقاع العذاب بكم، لأوقعته عليكم، ولَتَمَّ فصل القضاء بيني وبينكم، والله قد وعدني النصر، ووعد الله حق منجز، والله تعالى أعلم بالظالمين الكافرين الذين لا أمل في صلاحهم ورجوعهم إلى الحق والإيمان، والصلاح والاستقامة، فيكون إنزال العذاب بيده تعالى لا بيدي، والله أعلم كيف يعاقب، ومتى يعاقب، وعلى أي نحو يجازي، قال الله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٤].

عالِمُ الغيب

يتأثَّر الإنسان عادة بما هو مشاهد محسوس أمامه، ويهمل أو يتناسى مغيبات الأمور، سواء في الماضي أو في المستقبل، وهذا دليل على نقص علم الإنسان، وبرهان واضح على كمال علم الله تعالى واطّلاعه على كلّ شيء صغير أو كبير، وعلم الغيب مقصور على الله تعالى، لا يستطيع أحد من العقلاء ادّعاء العلم بالغيب؛ لأن الواقع يكذِّبه، وقد تورَّط بعض السُّذّج والجهلة، فادَّعوا معرفتهم بالغيبيات، فجاءت الأحداث والوقائع مكذِّبة لهم، مما أثبت للناس صدق ما أخبر به القرآن من حصر الغيب بالله، والتأكد من صحة الوحي والنُّبوَّة التي هي طريق الإخبار عن عالَم الغيب، قال الله تعالى:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم (١) بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى

(١) كسبتم فيه من المآثم.

ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ(١) ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/٥٩-٦٢].

اختصَّ الله تعالى بالعلم بمغيبات الأمور، فهو سبحانه عنده خزائن الغيب ومفاتيحها، وهذه استعارة، عبارة عن التوصل إلى الغيوب، كما يتوصل في الأشياء المشاهدة بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، أي عالم الخفيات والمحسوسات المرئية، ولا يعلم بالغيب أحد سواه.

والغيبيات التي اختصَّ الله بها خمس، وهي مذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤].

ويعلم سبحانه حديث النفس، ويعلم السّر وأخفى، ويعلم دقائق الأشياء المشاهدة للبشر، كما يعلم الغيبيات، فيعلم كل ما هو كائن في البر والبحر، ويعلم سقوط أي ورقة من أوراق الشجر في أي مكان وزمان، سواء في البر أو في البحر، ويعلم ما تسقط من حبّة في ظلمات الأرض وأعماقها، سواء بفعل الإنسان كالزارع، أو بفعل الحيوان كالنَّمل، أو بغير فعل الإنسان كالساقط من النبات في شقوق الأرض، ويعلم ما يسقط من الثمار الرطبة أو اليابسة، الحية أو الميتة، فعلم الكائنات كلها ثابت مستقر في كتاب واضح هو اللوح المحفوظ.

وينضم إلى علم الله الشامل قدرة الله التامة على الإحياء والإماتة، والبعث والحشر، والمثل المشاهد للبعث من القبور: مسألة النوم واليقظة، فذلك إماتة وبعث على نحو ما، فالله هو الذي يتوفاكم توفّياً أصغر بالنوم كل ليلة، ويعلم كل ما كسبتم

---

(١) لا يقصِّرون .

أو عملتم أيها الناس من الأعمال بالنهار، في حال السكون وحال الحركة، ثم بعد التَّوفِّي بالنّوم والعلم بالأعمال في النهار، يبعثكم في النهار، أي يرسلكم ويوقظكم فيه، وهذا التَّقلُّب في الليل والنّهار لأجل أن يقضى وينفذ الأجل المسمّى الذي علمه الله تعالى لكل واحد منكم، فإن الآجال والأعمار محدودة ومقدرة، مكتوبة سابقاً.

ثم إلى الله مرجعكم يوم القيامة بعد تمام الآجال، ثم يخبركم بأعمالكم التي قمتم بها في الدنيا، ويجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

والله هو الذي يقهر كل شيء، و يخضع لعظمته وجلاله وكبريائه كل شيء، وهو القادر على بعث الأجساد والأرواح؛ لأن من قدر على بعث من توفِّي بالنوم قادر على بعث من توفِّي بالموت، وهو المتصرِّف بعباده، يفعل ما يشاء، إيجاداً وإعداماً، وإحياء وإماتة. ويرسل الله الملائكة الكرام الموكلين بكتب الأعمال، في الليل والنهار، يحفظون بدن الإنسان، ويحصون أعماله، ولا يفرطون بشيء منها. وكتابة الملائكة الحفظة أعمال الإنسان من أجل الإتيان بدليل مادِّي محسوس، لإقامة الحجة على الإنسان.

فإذا حان أجل الإنسان، قبضت روحه الرُّسل الموكلون بذلك من الملائكة، حال كونهم غير مقصِّرين في حفظ أرواح الموتى، بل يحفظونها حيث شاء الله تعالى، ثم يرد هؤلاء الذين تتوفاهم الرُّسل إلى حكم الله وجزائه، والله هو مولى الناس ومالكهم الذي يلي أمورهم، له وحده سبحانه الحكم يوم القيامة، لا حكم فيه لغيره، ولا رادّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، وهو أسرع الحاسبين، يحاسب الكل في أسرع وقت وأقصره، ولا يشغله حساب عن حساب.

بعض مظاهر القدرة الإلهيّة

اقتضت رحمة الله بعباده أن يعدِّد لهم في مناسبات مختلفة بعض مظاهر قدرته ليرشدهم إلى الإيمان به لأنه القادر الرازق المنجي والمنتقم، وذلك سواء في حالات الشِّدة والأزمة ليعرفهم من بيده الأمر المطلق، أو في حال التهديد والوعيد بالعذاب حين تكذيبهم برسالات الرُّسل وانحرافهم عن طريق الاستقامة وانغماسهم في حمأة الرَّذيلة والضّلالة، ومن هذه المظاهر قوله تعالى:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً(١) لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ(٢) شِيَعًا(٣) وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ(٤) ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ(٥) لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٣-٦٧].

هذه الآيات الأولى لتوبيخ عبدة الأوثان، وتعريفهم بسوء فعلهم في عبادة الأصنام، وتركهم الذي ينجّي من المهلكات، ويلجأ إليه في الشدائد.

ومعناها: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الغافلين عن آيات التوحيد: من الذي ينجِّيكم من شدائد البر والبحر، وأهوال السفر ومخاوفه إذا ضللتم في أنحاء الأرض البرية والبحرية، فإنكم في وقت المحنة لا تجدون غير الله ملجأ تدعونه علانيةً وسرّاً، بخشوع وخوف، ومبالغة في الضّراعة والتّذلل والخضوع، حال كونكم تقسمون: لئن أنجانا الله من هذه الشدائد والظلمات وضوائق الأمور، لنكونن من شاكري النعمة، المقرِّين بتوحيد الله، المخلصين له في العبادة، دون إشراك.

---

(١) سرّاً. (٢) يخلطكم في المعارك. (٣) فرقاً مختلفة. (٤) شدّة بعض في القتال. (٥) نكرِّرها بأوجه مختلفة.

قل أيها النَّبي: الله تعالى هو الذي ينجيكم مراراً من هذه الأهوال، ومن كل كرب أي غم وشدة، ثم مع ذلك أنتم بعدئذ تشركون بالله غيره، فتُخلفون وعدكم بالإيمان، وتخونون العهد مع الله سبحانه، وتحنثون بالقسم الذي حلفتموه. وهذا مع الأسف الشديد طبع أغلب الناس، يلجأ الإنسان عادة إلى الله في الشِّدة والمكروه، ثم بعد النَّجاة ينسى العهد، ويعود إلى الجهل والكفر، فلا يقدُر الله حقّ قدره، ولا يعظم جناب ربِّه.

قل أيها النَّبي لهؤلاء المشركين على سبيل التهديد والوعيد والإنذار: الله هو القادر على أن ينزل عليكم ألوان العذاب المختلفة، كالرَّجم بالحجارة أو الصواعق، أو البراكين والزلازل، أو الطوفان أو أعاصير الريح أو الخسف المعهود في الأمم السابقة، أو إيقاع الفرقة والفتن والاختلاط والاختلاف والاضطراب، حتى تصير الأمة شيعاً وأحزاباً وجماعات، كل فرقة لها اتجاه ومنهاج، فيقع التقاتل والتحارب، ويذيق بعض الناس بأس بعض وشدته، حتى يقتل بعضهم بعضاً. والتَّفرق والاقتتال أهون وأخفّ من عذاب الاستئصال.

انظر أيها النَّبي على سبيل التعجيب كيف ننوِّع أساليب الكلام، وكيف نبيّن الدلائل بوجوه مختلفة، إما بطريق محسوس أو بطريق معقول، لعلهم يفهمون الإنذارات ويتدبرون عن الله الحجج والبيِّنات، فتحدث عندهم العبرة والعظة وتصحيح الأحوال. والمراد بذلك صرف أولئك الغواة المشركين عن غيِّهم، وتوجيههم نحو ما يسعدهم وينجيهم.

ولكن أولئك المشركين من قريش وأمثالهم كذَّبوا بالقرآن الذي جاء به محمد رسول الله، وبالهدى والبيان وبالعذاب الذي هدِّدوا به، والحال أن القرآن وإنذاراته حق

وصدق ليس وراءه أصدق منه. قل أيها النَّبي للمشركين: لست بموكل بكم ولا حفيظ، ولا بمدفوع إلى أخذكم بالإيمان وإجباركم على الهدى، فأنتم بملء حرِّيتكم تختارون الإيمان وتتركون الضلالة والكفر.

ثم أعلن القرآن قاعدة عامة في التَّهديد والوعيد على التكذيب بالقرآن أو بالعذاب، فقال الله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي لكل خبر غاية ونهاية يعرف عندها صدقه من كذبه، وسوف تعلمون يقيناً صدق الخبر وحقيقة الوعد والوعيد، وهو وَعْدُ الله رسوله بالنصر على أعدائه، ووعيده لهم بالعذاب في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلت: ٤١/٥٣].

وإذا تفضَّل الله على هذه الأمة المؤمنة برفع عذاب الاستئصال إكراماً لنبيِّها، فلم يبق بينهم داء إلا الفرقة والشّتات، والنِّزاع والخلاف، فليحذروه ليكونوا أمة مهابة بين الأمم، وعنواناً طيباً رفيعاً لرسالة الحقّ والقرآن.

جزاء المستهزئين بالقرآن

يوجد في كل أمّة أناس يعادون القيم الدينية والإنسانية والحضارية، لسوء في طباعهم، وانحراف في سلوكهم، وتأثُّراً بأهوائهم وشهواتهم، ومن هؤلاء نفر من المشركين المكيِّين كانوا يستهزئون بالقرآن المجيد، ويناصرون الأوثان والأصنام، وذلك منتهى التَّردي في الإنسانية وإهدار الكرامة وإهمال العقل، ومثل هؤلاء لا يفيدهم نقاش ولا جدال، وأفضل شيء معهم هو التَّرفع والإعراض عنهم، وإهمالهم وتركهم سادرين في ضلالهم، انتظاراً لعذاب الله الذي يوقعه بهم في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ[١] فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ[٢] الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ[٣] بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ[٤] لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا[٥] بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ[٦] وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/٦٨-٧٠].

ذكر الطبري عن السّدّي سبب نزول هذه الآيات، فقال: كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين، وقعوا في النّبي ﷺ والقرآن، فسبُّوه واستهزؤوا به، فأمرهم الله ألا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره. والخائضون في آيات الله: هم المكذِّبون بها.

هذه الآيات أمر بترك هؤلاء العابثين وتهديد ووعيد لهم، فإذا رأيت أيها النّبي وكل مؤمن الذين يخوضون في آيات القرآن بالتكذيب والاستهزاء، فأعرض عنهم ولا تجالسهم، حتى ينتقلوا إلى التّحدث بحديث آخر، فإذا فعلوا فلا مانع من مجالستهم والتّحدث إليهم. وإن أنساك الشيطان قبح مجالسهم والمنع منها أو النّهي عنها، فجلست مع الخائضين ناسياً، فلا تقعد بعد التّذكر مع القوم الظالمين أنفسهم بالتكذيب والاستهزاء.

وليس نهيكم أيها المؤمنون المتّقون عن القعود، وأمركم بالإعراض عن الخائضين، لأن عليكم شيئاً من حسابهم، وإنما هو ذكرى لكم وموعظة، لعلهم يتّقون الخوض في آيات الله، ويذكرون الله وعظمته وجلاله.

---

(١) يطعنون ويستهزئون. (٢) خدعتهم. (٣) أي لئلا تبسل أي تؤاخذ وتجزى وتُسلَم إلى الهلاك. (٤) تفتد بكل فداء. (٥) حُبِسوا في النار. (٦) ماء شديد الحرارة.

ثم أكّد الله تعالى ترك المستهزئين بآيات القرآن بقوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا..﴾ أي اترك أيها الرسول والمؤمنون الذين اتّخذوا دينهم مجالاً للعب واللهو، فإنهم يتلاعبون بدينهم بعبادة الأصنام، يصنعونها بأيديهم ثم يأكلونها، فقد أضاعوا عمرهم فيما لا يفيد، وهذا هو اللعب، وشغلوا أنفسهم عن العمل المفيد، وهذا هو اللهو، وغرَّتهم أي خدعتهم الدنيا الفانية، وآثروها على الحياة الباقية، واشتغلوا بلذّات الدنيا الحقيرة، فخاضوا في آيات الله بدلاً عما كان يجب عليهم من فهمها وامتثالها، كما قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: ١٥/ ٣].

وذكِّر أيها الرسول الناس بالقرآن وعِظْهُمْ به، لئلا تبسل نفس، أي تجازى وتسلّم إلى الهلاك وتتحمل سوء عملها الذي صدر منها في الدنيا، وذلك في حال لا قريب منها ولا شفيع لها ولا ناصر ينصرها، بل ولا ينفعها عَدْل أي فداء تفتدي به، فإن بذلتْ كل فداء، لم يقبل منها، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٣].

وهذا إبطال لمبدأ وثني: وهو رجاء النّجاة في الآخرة، كما في الدنيا بتقديم الفدية لله تعالى، أو بشفاعة الشفعاء، ووساطة الوسطاء عند الله تعالى.

إن جزاء المستهزئين بآيات الله وهو العذاب في نار جهنم، كان بسبب سوء صنيعهم، فأولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا، أي أولئك المتّخذون دينهم لعباً ولهواً هم الذين جوزوا وعذّبوا بسبب عملهم في الدنيا، وجزاؤهم شراب من حميم، أي من ماء شديد الحرارة، يحرق البطون، ويقطع الأمعاء، ثم ينبت بدلها لتكرار العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٥]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٦﴾ [النساء: ٤/ ٥٦].

محاربة الشِّرك

إن من أهم أصول شريعة الإسلام وشرائع الأنبياء السابقين القضاء على الشِّرك وتصفية معاقله وإنهاء وجوده وآثاره بين الناس؛ لأن عقيدة الشِّرك صفة بدائية غير حضارية، تسيء إلى الإنسان وتقديره، وتجعله يرتع في مخازي الخرافات والأباطيل، وتكون سبباً لتدميره وتعذيبه عذاباً شديداً في الدار الآخرة.

قال الله تعالى مبيِّناً مخازي الشِّرك وضلالات المشركين: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ[١] فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ[٢] عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧١-٧٣].

هذه حملة شديدة من الجدال والنقاش واللوم على الشِّرك والمشركين، قال السّدّي مبيِّناً سبب النزول: قال المشركون للمسلمين: اتّبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا..﴾ الآيات.

والمعنى: قل أيها النّبي في احتجاجك على المشركين: أنطيع رأيكم في أن نعبد من دون الله ما لا قدرة له على نفعنا ولا على ضرِّنا؛ لأنها أصنام صماء جمادات لا حياة فيها ولا حركة، ثم نردُّ على أعقابنا إلى الشِّرك والكفر، بعد أن أنقذنا الله منه،

---

(١) أوقعته في الأهواء والضلال. (٢) القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل.

وهدانا للإسلام دين المجد والحضارة، والرُّقي واحترام العقل والكرامة الإنسانية، فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، وذهبت بعقله، وأصبح حيران تائهاً، لا يدري كيف يسير؟ والحال أن له أصحاباً مخلصين، على الجادّة المستقيمة، يدعونه إلى طريق الهدى، قائلين له: ﴿ٱئْتِنَا﴾ أي بادر إلى اتِّباع طريقتنا، فهي حقّ وخير ورشد.

وبعبارة أخرى: أيصلح أن يكون بعد الهدى أن نعبد الأصنام، فيكون ذلك منا ارتداداً على العقب، فيكون كرجل على طريق واضح، فاستهوته عنه الشياطين، فخرج عنه إلى دعوتهم، فيكون حائراً؟

ادع أيها الرسول أولئك المشركين لدين الحق، وقل لهم: إن هدى الله في قرآنه هو الهدى، وطريق الإسلام هو الحق، وهو الصراط المستقيم، لا ما تدعون إليه من أهوائكم، فليس ذلك بهدي، بل هو في نفسه كفر وضلال. وقل لهم: وأمرنا بأن نسلم لله ربِّ العالمين، أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له، فأسلمنا.

وأمرنا أيضاً بإقامة الصلاة: وهي الإتيان بها على الوجه الأكمل، الذي شرعت من أجله: وهو تزكية النفس بمناجاة الله، والنَّهي أو المنع عن الفحشاء والمنكر.

وأمرنا كذلك بتقوى الله، أي اتِّقاء ما يترتَّب على مخالفة دين الله وشرعه، فنكون مأمورين بأمور ثلاثة: هي الإخلاص لله دون إشراك، وإقامة الصلاة وعبادة الله وحده دون غيره، والتقوى في جميع الأحوال سرّاً وعلناً. والسبب في هذه الأوامر الثلاثة إعداد النفوس للمستقبل، والخلود الأبدي في الآخرة، لأن الله يحاسبنا، وهو الذي إليه تحشرون، أي تجمعون يوم القيامة، فيحاسب الخلائق على أعمالهم، ويجازيهم عليها.

والله الذي نعبده هو خالق السماوات والأرض ومالكهما ومدبرهما بالحق

والعدل والحكمة، والخلق معناه: الابتداع والإخراج من العدم إلى الوجود، ومعنى الخلق بالحق: أنه لم يخلق السماوات والأرض باطلاً من غير معنى، بل لمعان مفيدة ولحقائق بيِّنة، منها الاستدلال بها على وجود الصانع الخالق ونزول الأرزاق وغير ذلك.

واذكر أيها الرسول الخلق والإعادة يوم يقول الله للشيء يوم القيامة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ويوم ينفخ في الصور، فيصعق كل من في السماوات والأرض، ويهلك كل مخلوق حتى المَلَك الذي نفخ فيه. وقول الله هو الحق، أي قضاؤه هو الحق، والله سبحانه صاحب الملك المطلق في الدنيا والآخرة. ومن صفات الله تعالى أنه عالم الغيب والشهادة، أي ما غاب عنّا، وعالم المحسوسات الذي نراه، وهو سبحانه الحكيم في خلقه، فلا يفعل ولا يشرع لعباده إلا ما فيه الخير والحكمة والمصلحة، وهو الخبير بأحوالهم، المطَّلع على سرائرهم ونيّاتهم وضمائرهم. وإذا كان الله هو المتَّصف بهذه الصفات، فهو الأحقّ بالعبادة، فلا يصحّ لعاقل أن يدعو أو يعبد غير الله تعالى، لذا قال سبحانه: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٧٢/ ١٨] ، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٤١].

مجادلة إبراهيم الخليل لأبيه

لقد تحمَّل الأنبياء والرُّسل عليهم الصلاة والسّلام عناءً كبيراً وجهداً عظيماً من أجل ترك الناس عبادة الأصنام والأوثان من قديم الزمان، وكان لسيِّدنا إبراهيم الخليل عليه السّلام قدرة بارعة على جدال الوثنيين، ومنهم أبوه آزر، الذي تلطَّف في مجادلته، وحاول إقناعه بكل الوسائل، فلم يستجب آزر لدعوة التوحيد، بل هدَّد إبراهيم عليه السَّلام بالقتل رجماً بالحجارة إن لم يكف عن دعوته، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ[١] أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ[٢] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ[٣] رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ[٤] قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا[٥] قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ[٦] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا[٧] وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٤-٧٩].

هذه الآيات للاحتجاج بها على مشركي العرب الذين يدَّعون أنهم على ملَّة أبيهم إبراهيم، من أجل إبطال الوثنية، والمعنى: اذكر أيها النَّبي حين قال إبراهيم عليه السّلام لأبيه آزر: أتتخذ هذه الأصنام والأوثان الجمادات آلهة، تعبدها من دون الله، مع أن الله هو الذي خلقها وخلقك، فهو المستحق للعبادة دونها، إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام في ضلال واضح، أي تائهين حيارى جهلاء، وأي ضلال أوضح من عبادتكم صنماً من حجر أو شجر أو معدن، تنحتونه بأيديكم، ثم تعبدونه وتقدّسونه؟! كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصّافّات: ٣٧/ ٩٥-٩٦].

وكما هدينا إبراهيم إلى الدعاء إلى الله وإنكار الكفر وعبادة الأصنام، أريناه مرة بعد أخرى ملكوت السماوات والأرض، أي عرفناه طريق إدراك أسرار الكون، ليستدلَّ بذلك على وحدانيتنا وعظيم قدرتنا وسعة علمنا، وليكون ممن تيقن أن شيئاً

---

(١) لقب والد إبراهيم. (٢) مُلْك. (٣) ستره بظلامه. (٤) غاب. (٥) طالعاً. (٦) أبدع وأنشأ.
(٧) مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق.

من الأصنام والشمس والقمر والكواكب لا يصح أن تكون إلهاً، لأنها حادثة، فوراءها محدث أحدثها، وصانع أوجدها.

ثم أوضح الله تعالى ما رآه إبراهيم من ملكوت السماوات والأرض، أي تبيان وجه الدلالة في خلقهما على وحدانية الله في ملكه وخلقه، فلما أظلم عليه الليل، رأى كوكباً عظيماً متميِّزاً عن سائر الكواكب بإشراقه ولمعانه، وهو كوكب المشتري أو الزهرة، فقال موهماً قومه في مقام المناظرة والحجاج: هذا ربِّي، على سبيل الفرض، فلما غرب هذا الكوكب، قال إبراهيم: ما هذا بإله، ولا أحب ما يغيب ويختفي؛ لأن للإله السيطرة على الكون، فكيف يغيب الإله ويستتر؟

ثم انتقل إبراهيم من إبطال ألوهية الكوكب إلى إبطال ألوهية القمر الأكثر إضاءة، فلما رأى القمر بازغاً طالعاً عم ضوءه الأرض، قال: هذا ربِّي، فلما غاب كما غاب الكوكب في الليلة الماضية، قال إبراهيم مسمعاً قومه: ما هذا أيضاً بإله، ولئن لم يهدني ربِّي ويوفّقني لإصابة الحق في توحيده، لأكونن من القوم الضّالين المخطئين الطريق، فلم يصيبوا الهدى، وعبدوا غير الله.

ولما رأى إبراهيم الشمس بازغة طالعة، وهي أعظم الكواكب المرئية لنا، قال إبراهيم: هذا هو الآن ربِّي، هذا أكبر من الكواكب والقمر قدراً، وأعظم ضوءاً ونوراً، فلما غابت الشمس كما غاب غيرها، صرح إبراهيم بعقيدته، وتبرأ من شرك قومه، قائلاً: إني توجَّهت في عبادتي لخالق الأرض والسماء، وخالق هذه الكواكب، إني بريء مما تشركون، باتخاذ إله آخر مع الله، وإنما أعبد خالق هذه الأشياء ومدبِّرها الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء. ومثَّل إبراهيم لقومه بهذه الأمور؛ لأنهم كانوا أصحاب علم نجوم ونظر في الأفلاك.

قال إبراهيم: إني أقبلت بقصدي وعبادتي وتوحيدي وإيماني للذي أبدع السماوات

والأرض، حنيفاً أي مستقيماً، ولست أنا من المشركين مع الله إلهاً آخر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٤].

لقد استطاع إبراهيم عليه السّلام هدم أساس الشِّرك أولاً، ثم إعلان عقيدته بتوحيد الله ثانياً، ليكون قومه على بيِّنة من الأمر، قال تعالى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٥٦].

الجدال بين إبراهيم وقومه

اشتدَّ الصراع والنزاع بين إبراهيم الخليل عليه السّلام وبين قومه المشركين عبدة الأصنام، وانصبَّ الجدل على ترك الشِّرك والوثنية، والإقرار بوحدانية الله خالق الأشياء، وراجعوه في الحجة في توحيد الله، ولما أفحمهم في المناظرة وإيراد الأدلة العقلية القطعية، لم يجدوا أمامهم سوى التَّمسك بتقليد الآباء، وخوّفوه بالبلايا لما طعن في ألوهية الأصنام، واستهجنوا جعل الآلهة إلهاً واحداً.

قال الله تعالى مبيِّناً هذه المناظرة: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ(١) قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ(٢) فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ(٣) إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ(٤) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٠-٨٣].

هذا لون من الجدل الحادّ في مبدأ التوحيد بين إبراهيم عليه السّلام وبين قومه،

(١) خاصموه في التوحيد. (٢) حجة وبرهاناً. (٣) لم يخلطوا. (٤) بشرك أو كفر.

فحينما أقام لهم الأدلة القاطعة على توحيد الله ووجوب عبادته وحده، حاجّوه ببيان شبهاتهم في الشِّرك، فقالوا: إن تعدُّد الآلهة لا ينافي الإيمان بالله؛ لأن تلك الآلهة شفعاء عند الله، وتمسكوا بتقليد الآباء، فقال لهم: أتحاجّوني وتجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا الله، وقد هداني إلى الحق، ولا أخاف ولا أرهب الآلهة التي تعبدونها ولا أبالي بها ولا أخاف ضرّاً، إلا إذا شاء الله شيئاً في أن يريدني بضرّ أو مكروه، فإنه يقع حتماً، لأنه لا يضرّ ولا ينفع غير الله عزّ وجلّ، ولأن الله أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا تخفى عليه خافية، فلربما أنزل بي مكروهاً بسبب الدعوة إلى نبذ الأصنام وتحطيمها، أفلا تتذكرون هذا وما بيَّنته لكم فتؤمنوا وتبطلوا عبادة هذه الآلهة المزعومة، وتنزجروا عن عبادتها، وفي هذا إظهار لموضع التقصير منهم.

وكيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، ولا تخافون إشراككم بالله خالقكم، ما لم ينزل به حجة بيِّنة بوحي ولا نظر عقل، تثبت لكم جعله شريكاً في الخلق والتدبير أو في الوساطة والشفاعة؟

فأي الفريقين: فريق الموحِّدين وفريق المشركين أحقّ بالأمن من عذاب الله يوم القيامة، وأجدر بألا يخاف على نفسه في الدنيا. إن كنتم تعلمون، أي على علم وبصيرة بهذا الأمر، فأخبروني بذلك، وفي هذا دفع لهم إلى الاعتراف بالحق.

ثم أبان الله تعالى من هو أحقّ بالأمن والنّجاة والسّلام، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي الذين صدقوا بوجود الله ووحدانيته، وأخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يخلطوا إيمانهم بمعصية توقعهم في الفسق، إنهم الآمنون من العذاب يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

ذكر ابن أبي حاتم عن بكر بن سوادة قال: حمل رجل من العدو على المسلمين، فقتل رجلاً، ثم حمل فقتل آخر، ثم قال: أينفعني الإسلام بعد هذا؟ فقال رسول

اللهﷺ : نعم، فضرب فرسه، فدخل فيهم، ثم حمل على أصحابه، فقتل رجلاً، ثم آخر، ثم آخر، ثم قتل، قال الراوي: فيرون أن هذه الآية نزلت فيه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم..﴾ الآية. وليس هناك ظلم أشد من الشرك بالله.

وتلك الحجة القوية التي احتج بها إبراهيم عليه السلام على قومه، وهي إبطال عبادة الكواكب والشمس والقمر، آتيناها إبراهيم وأرشدناه إليها ووفقناه، لإقناع قومه بها، إننا نرفع درجات في الدنيا من نشاء من عبادنا، وهي درجة الإيمان، ودرجة العلم، ودرجة الحكمة والتوفيق، ودرجة النبوة، ما لم يحظ بها غيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٣]. ونرفع درجات بعضهم أيضاً في الآخرة بالجنة والثواب، إن ربك حكيم في قوله وفعله وصنعه، عليم بشؤون خلقه، وبمن يهديه ومن يضله، وإن قامت عليهم الحجج والبراهين، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩٦-٩٧]. والدرجات وإن كان الأصل استعمالها في المحسوسات فهي هنا في المراتب والمنازل المعنوية.

ورفع الدرجات لبعض الناس كالمخلصين الأتقياء يكون بمقتضى الحكمة والعلم، لا بموجب الشهوة والمجازفة، فإن أفعال الله منزهة عن العبث والباطل، والتفضيل ورفع المنازل إنما هو بفضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. وقوله سبحانه في نهاية الآية ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان تليق بهذا الموضع، إذ هو موضع مشيئة واختيار، فيحتاج ذلك إلى العلم والإحكام أو الإتقان.

خصائص رسالات الأنبياء عليهم السّلام

إن النُّبوات قديمة في البشرية، وهي لخير الإنسان وإسعاده، وقد اتَّصل أولهم بآخرهم في دعوة واحدة هي الدعوة إلى توحيد الله وتركُ الشِّرك والوثنية، والأمر بمكارم الأخلاق، وتنظيم الحياة الإنسانية على نحو من المودّة والمحبّة والألفة والتعاون، وجمع الكلمة وتوحيد الصَّف، والتَّرفع عن الخلافات والمنازعات. وكان أغلب الأنبياء من ذرِّيّة إبراهيم الخليل عليه السّلام، لذا لقِّب بأنه (أبو الأنبياء)، وكان الفضل في الحفاظ على النوع الإنساني والحيواني لسيدنا نوح عليه السّلام، فلقِّب بأنه (أبو البشر الثاني).

قال الله تعالى مبيِّناً مهام مجموعة من الأنبياء:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ(١) وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ(٢) عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ(٣) وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٤-٩٠].

أكرم الله نبيَّه إبراهيم عليه السّلام، فوهب له ولدَيْن صالحَيْن إسحاق ويعقوب، وجعلهما من الأنبياء، وهداهما كما هدى إبراهيم أباهما بالنُّبوة والحكمة والفطنة إلى الحجة الدامغة.

---

(١) اخترناهم للنُّبوة . (٢) بطل وسقط . (٣) الفصل بين الناس بالحق

وإبراهيم من سلالة نوح، وكما هداه الله إلى الحق، هدى جدَّه نوحاً قبله، فآتاه النُّبوة والحكمة، وهي من أعظم النِّعم، فإبراهيم سليل نبي، وأولاده أنبياء، فجعل من ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، فهي ذرِّية طيِّبة، وشجرة مباركة الأصول والفروع. وهؤلاء جمعوا بين النُّبوة والملك والحكم.

وأما لوط فهو ليس من ذرِّية إبراهيم عليه السَّلام، بل هو ابن أخيه، ويمكن نسبته لإبراهيم على رأي من يرى الخال أباً، فدخل في ذرِّية إبراهيم تغليباً.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وعد من الله عزّ وجلّ لمن أحسن في عمله، وترغيب في الإحسان.

وهدى الله إلى النُّبوة والحكمة جماعة آخرين من ذرِّية إبراهيم وهم زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وكل منهم من الصالحين قولاً وعملاً، وهؤلاء جمعوا بين نعمة الدنيا والرِّياسة، وبين هداية الدِّين وإرشاد الناس.

وهدى الله أيضاً من ذرِّية إبراهيم إسماعيل ابنه الصُّلبي الذَّبيح، وجد المصطفى ﷺ، واليسع وهو يوشع بن نون، ويونس بن متى، ولوطاً، وكل واحد من هؤلاء فضَّله الله على العالمين في عصره، فكل واحد أفضل من قومه.

ذكرت الآيات السابقة ثمانية عشر نبياً، وجعلتهم متميزين بصفات معينة كما ذكرت.

ثم ذكر الله تعالى فضله على هؤلاء الأنبياء في أنه هدى بعض آبائهم وذرِّياتهم وإخوانهم إلى الحق والخير، لا كلهم، واصطفاهم الله واختارهم وخصّصهم بمزايا كثيرة، وهداهم إلى الصراط المستقيم: وهو الدين الحقّ القويم.

ذلك الهدى هو هدى الله الخالص وتوفيقه دون هداية من عداه، والهداية نوعان: هداية محضة لا تنال إلا من الله وهي النُّبوة، وهداية تنال بالسَّعي والكسب أو الاختيار مع التوفيق الإلهي لنيل المراد.

ولو أشرك هؤلاء المهتدون بربّهم، مع فضلهم وارتفاع درجاتهم، لبطل أجر عملهم كغيرهم في إحباط أعمالهم، أي تلفها وذهابها لسوء غلب عليها. وهذا غاية العدل وإحقاق الحقّ في محاربة الشِّرك والمشركين.

أولئك المذكورون من الأنبياء السابقين، رسالتهم واحدة وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وقد آتاهم الله الكتب السماوية وهي الصّحف والتوراة والإنجيل والزّبور، وأعطاهم الله الحكم أي الحكمة وهي الفطنة والفقه في دين الله والعلم النافع، ومنحهم ربّهم النُّبوة: وهي إنزال الوحي عليهم لتبليغ أمر الله ودينه، فإن يكفر بالكتاب والحكم والنُّبوة هؤلاء المشركون من أهل مكة، فقد وكَّل الله برعايتها والإيمان بها قوماً كراماً ليسوا بها بكافرين، آمنوا بها وعملوا بأحكامها ودعوا الناس إليها.

أولئك الأنبياء ومن معهم من المؤمنين المهديين هم الذين هداهم الله، فاقتدِ بهم، أيها النَّبي الرّسول واتَّبع آثارهم في القول والفعل والسِّيرة، وأمْر الرسول باتِّباع الأنبياء أمر لأمّته، وقل أيها النَّبي لمن أرسلناك إليهم: لا أطلب على تبليغ القرآن أجراً من مال ولا غيره من المنافع الخاصة، وما هذا القرآن إلا تذكير وموعظة للعالمين من الإنس والجنّ، وإرشاد وهدى للمتّقين.

إثبات ظاهرة الوحي للأنبياء

ظاهرة الوحي للأنبياء والرُّسل على ممرِّ التاريخ حقيقة واضحة ملموسة، كان يشاهدها الأصحاب والأتباع أمام أعينهم، ويسهل التصديق بوجود الوحي على كل من عرف قدرة الله على إيجاد الأشياء وخلقها، فليس الوحي مجرد أوهام، أو تقمُّصات روحانية، أو وساوس شيطانية؛ لأن هذه الأحوال لا ثبات لها، ولا تنتج

شيئاً ذا موضوع مهم، أما الوحي فذو حقيقة موضوعية لا يمكن إنكارها أو التَّحكُّم فيها، وإنما تحدث من قبل الله تعالى بوساطة جبريل عليه السّلام، أو بغيره كالرؤيا الصادقة في النوم، وإتيان الملك بصورة بشر مألوف. قال الله تعالى مبيِّناً هذه الظاهرة:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ(١) إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ(٢) تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ(٣) يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ(٤) مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ(٥) وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٩١-٩٢].

ذكر ابن أبي حاتم وغيره عن سعيد بن جبير -في بيان سبب نزول هاتين الآيتين- قال: جاء رجل من اليهود يقال له: مالك بن الصيف، فخاصم النَّبي ﷺ، فقال له النَّبي: «أُنشدُك بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد في التوراة أن الله يبغض الْحَبْر السّمين؟» وكان حَبراً سميناً، فغضب، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه: ويحك، ولا على موسى، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ..﴾ الآية.

الله سبحانه هو القادر على كل شيء، والعالم بكل شيء، والرَّحيم بخلقه، فأرسل الرُّسل، وأنزل الكتب، وأوحى إلى الأنبياء شرائعه لهداية الناس وإرشادهم، أما منكرو الوحي الذين يكفرون برسل الله من الوثنيين والملاحدة فما عرفوا الله حقَّ معرفته، وما عظَّموه حقّ تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم، وقالوا: ما أنزل الله كتاباً من السّماء.

---

(١) ما عظَّموه ولا عرفوه. (٢) أوراقاً مكتوبة. (٣) باطلهم. (٤) كثير المنافع. (٥) أهل مكة.

والرَّد على هؤلاء المنكرين للوحي بأمر مشهور لهم، لم يكذِّبه العرب قاطبة، وهو ما أمر الله به نبيّه محمداً أن يقول لهم: مَنْ أنزل كتاب التّوراة على موسى بن عمران؟ وأنتم تعترفون بالتوراة إذ قلتم: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٧]. والتوراة نور للمؤمنين، وهداية للمسترشدين، وأنتم يا بني إسرائيل تجعلون التوراة قراطيس، أي قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم، وتحرِّفون منها ما تحرِّفون، وتبدِّلون منها ما تبدِّلون، وتقولون: هذا من عند الله، أي في كتابه المنزل، وما هو من عند الله. وأنتم أيضاً تخفون دلائل نبوة محمد ﷺ والبشارة به وبعض الأحكام التشريعية كحكم الزِّنى، فيجدر بكم أيها المشركون ألا تثقوا بأقوال المعادين للنَّبي ﷺ عداءً شديداً بقصد إبطال رسالته.

ويا معشر العرب عُلِّمتم من الهدايات والتوحيد والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين به ولا آباؤكم، وقد أصبح للعرب بالإسلام مجد وعزّة ودولة، بعد أن كانوا قبائل شتى، وفي جهالة عمياء.

ثم أمر الله تعالى نبيَّه بالمبادرة إلى موضع الحجة والرَّد الحاسم، فقل لهم: الله تعالى هو الذي أنزل الكتاب على موسى، وأنزل علي هذا الكتاب وهو القرآن، ثم أمره تبارك وتعالى بترك من كفر وأعرض بقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي ثم دعهم واتركهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم الموت الذي يطوي صحيفة هؤلاء المعاندين المكابرين. ومعنى الخوض: الذهاب فيما لا تعرف حقائقه.

ثم أبان الله تعالى أوصاف القرآن بأنه كتاب كثير البركة والخير، أنزله الله مؤيِّداً لما تقدمه من الكتب، ومهيمناً عليها، يبشِّر بالجنّة والثواب والمغفرة من أطاع الله، وينذر بالنار والعقاب من عصى الله، و يخوِّف أهل مكة: أمّ القرى ومركز قطب الدائرة في العالم، ومن حولها من سائر الناس، من أحياء العرب ومن سائر طوائف

بني آدم، من عرب وعجم، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨/٧] وقال سبحانه: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٩].

وكل من آمن بالآخرة والمعاد وقيام الساعة يؤمن ويصدّق بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن، هؤلاء المؤمنون هم الذين يحافظون على صلواتهم، أي يقيمون ما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها، ويسرعون إلى كل أمر آخر أمروا به.

جزاء المفترين على الله الكذب

إن هناك أنواعاً من الظلم القبيح، ولكن أشدّ أنواع الظلم قبحاً هو افتراء الكذب على الله، وادّعاء نزول الوحي، مثل فئة المتنبّئين الذين ادَّعوا النُّبوة كمسيلمة الكذّاب والأسود العَنْسي، فإنهم جماعة حمقى، اقتحموا مجالاً يسهل كشف حقيقته، وزيف ادّعاءاته؛ لأن الوحي لا يكون بسخف القول، وتفاهة الكلام الذي يأباه العقلاء، ويرفضه أبسط الناس وأدناهم تأمُّلاً وتفكُّراً، لذا أنكر الله تعالى هذا الظلم الذي ارتكبوه، وفضح هذا المسلك الذي ادَّعوه واختلقوا فيه الأكاذيب، فقال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ(١) وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ(٢) بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ

(١) سكراته وشدائده. (٢) الهوان والذُّل.

ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ[1] وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ[2] وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٣-٩٤].

نزلت آية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ -فيما رواه الطبري عن عكرمة- في مسيلمة، وأما آية ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فنزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، كان يكتب للنَّبي ﷺ، فيملي عليه: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيكتب ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم يقرأ عليه، فيقول: نعم سواء، فرجع عن الإسلام ولحق بقريش.

وقال عكرمة في آية ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ قال النَّضر بن الحارث: سوف تشفع إلي اللات والعزى، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾

هذه الآيات لإثبات النُّبوة، فيها وعيد من ادَّعى النُّبوة والرِّسالة، على سبيل الكذب والافتراء، وهذا الوعيد يتضمن الشهادة بصدق النَّبي ﷺ؛ لأن نفي النُّبوة عن مدَّعيها إثبات لمن أُعطيها حقاً. ولقد ادَّعى النُّبوة أناس أغرار حمقى، كمسيلمة الكذّاب في اليمامة، والأسود العَنْسي في صنعاء اليمن، وطُليحة الأسدي في بني أسد، والمختار بن أبي عبيد وسواهم.

والمعنى: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فجعل له شريكاً أو ولداً، أو ادَّعى النُّبوة والرِّسالة، ولم يرسله الله إلى الناس، أو قال: أوحي إلي ولم يوح إليه شيء، وهذا القول الأخير فيه كذبان: ادِّعاء النُّبوة ونفيها عن غيره، أو قال وهو النّضر بن الحارث ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وقال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣١]، وكان يقول في القرآن: إنه من أساطير الأولين، وإنه شعر، لو نشاء لقلنا مثله.

---

(١) ما أعطيناكم من متع الدنيا . (٢) تفرق الاتِّصال بينكم .

وعاقبة هؤلاء المفترين: تعذيبهم عند قبض أرواحهم وفي الآخرة، فليتك تبصر أيها الرسول وكل مؤمن حين يكون الظالمون في سكرات الموت وشدائده، لرأيت أمراً عجباً عظيماً لا سبيل إلى وصفه، حين تبسط الملائكة أيديهم إليهم، لقبض أرواحهم بالضرب والشِّدّة والعنف، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٧].

وتقول الملائكة لهم توبيخاً وتهكُّماً: أخرجوا أرواحكم إلينا من أجسادكم، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي إنكم اليوم تهانون أشد الهوان، كما كنتم تكذِّبون على الله، وتستكبرون عن اتِّباع آياته، والانقياد لرسله، فلا تؤمنون بالآيات والرُّسل، وتفترون على الله غير الحق. وعذاب الهون: هو عذاب الهوان الشديد.

ثم يقال لهم بعد قبض أرواحهم يوم القيامة: ولقد أتيتمونا منفردين عن الأنداد والشركاء والشفعاء وانعدام النصراء، كالانفراد الأول في وقت الخلْقة عند ولادتكم من بطون أمهاتكم، وتركتم وراء ظهوركم في الدنيا ما أعطيناكم من مال وولد وخدم وأثاث وقصور وغيرها من النعم والأموال التي جمعتموها، ولم تنتفعوا بها هنا، فهي لا تغني عنكم شيئاً.

ليس معكم في القيامة ما زعمتم من الأصنام أنها شفعاؤكم عند الله وشركاء له، وفي هذا تبيان الخطأ الشديد في عبادة الأصنام وتعظيمها، لقد تقطَّع بينكم، أي لقد تقطع يوم القيامة وصلكم بينكم، وما كان من صلات وصداقات مزعومة، وغاب عنكم ما كنتم تفترونه من شفاعة الشفعاء، ونداء الأوثان والشركاء، ورجاء الأصنام، ويناديهم الرَّب جلَّ جلاله على رؤوس الأشهاد: ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ

كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٢] ويقال لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٩٢-٩٣].

مظاهر القدرة الإلهية في الكون

تتوالى الآيات القرآنية تفضُّلاً من الله ورحمة في إيراد الأدلة القاطعة الحاسمة على إثبات وجود الإله الصانع الخالق، بما يشاهده الإنسان ويجاوره ويلمسه في هذا الكون العجيب من السماء والأرض، وتتلخص تلك الأدلة في لفت الأنظار إلى صاحب الخلْق والإيجاد، والإحياء والإماتة، والتقدير والتدبير لحركة الكواكب والنجوم، وتقلُّب الليل والنهار، وإنبات الأشجار من كروم النَّخيل والعنب والزيتون والرمان، وحمل الثمار اليانعة والفواكة الدانية، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ(١) ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ(٢) وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا(٣) ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ(٤) وَمُسْتَوْدَعٌ(٥) قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا(٦) نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا(٧) وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا(٨) قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ(٩) وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ(١٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٥-٩٩].

---

(١) أي تصرفون. (٢) شاق ظلمته عن بياض النهار. (٣) يجريان بحساب مقدر في أفلاكهما. (٤) في الأصلاب أو الأرحام. (٥) في الأرحام ونحوها. (٦) نباتاً أخضر. (٧) متراكماً. (٨) أول ما يخرج من ثمر النّخل. (٩) عناقيد قريبة التّناول. (١٠) نضجه وإدراكه.

هذه الآيات الكريمات تنبيه على مواطن العبرة والنظر، وضرورة التأمُّل في آفاق الكون الزاخرة بالبراهين الحسية على وجود الله تعالى، فهي ترشدنا إلى حقيقة بالغة واضحة، وهي أن الله سبحانه لا هذه الأصنام وبقية المخلوقات، هو فالق الحبّ والنّوى أي البزر، يشقّها بقدرته في التراب، فتنفلق منها النَّبتة الصغيرة ذات الجذر الضعيف والوريقة الدقيقة، ويبين بعضها عن بعض، فيُخرج منها -أي (من تلك النّوى)- الزرع على اختلاف أصنافه من الحبوب، والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها، ويظهر النبات الحيّ المتحرِّك من الحبِّ والنَّوى الذي هو جماد كالميت، ويُوجد الحبّ والنَّوى الميت من النبات الحيّ، والنطفة والبيضة من الحيوان، والإفرازات مثل اللبن من الحيوان الحيّ، ويتحقق النمو والتكاثر بين الحي والميت، والميت والحي، وهذا في المادِّيات، وكذلك في المعنويات يخرج الله المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ذلكم الفاعل هذا هو الله المتَّصفُ بكمال القدرة، وبالغُ الحكمة، المحيي والمميت، والموجد والمعدم، فكيف تُصْرَفون أيها البشر عن إدراك الحق، وتعدلون عنه إلى الباطل، فتعبدون معه غيره، وتشركون به شريكاً آخر عاجزاً، لا يقدر على شيء من ذلك.

وتأمَّل أيها الإنسان أيضاً، فإن الله هو فالق الإصباح الذي يشقُّ فجر النُّور من أوساط الظلام، فهو خالق الضياء والظلام، وهو سبحانه الموجد سكون الليل وهدوءه، المبدع نظام الشمس والقمر طريقاً للحساب ومعرفة عدد الشهور والسنوات، وكلاهما يجري بحساب دقيق لا يتقدم ولا يتأخر، ذلك الإبداع الشامل حاصل بتقدير الله القوي القاهر الذي لا يمانع ولا يغالب، العليم بكل شيء، فلا يغيب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء.

والله سبحانه هو الذي أوجد النجوم والكواكب الأخرى غير الشمس والقمر،

للاهتداء بها في الأسفار وفي ظلمات الليل والماء في البر والبحر، قد بيَّن الله لكم الآيات القرآنية والآيات الكونية لأهل العلم والنظر الذين يدركون سرّ عظمة هذه الآيات، ويستدلون بها على وجود الله وقدرته ووحدانيته وعلمه.

وبعد بيان آيات الله في الأرض والسماء، ذكر الله تعالى آياته في الأنفس، فهو سبحانه الذي خلقكم جميعاً أيها الناس في الأصل من نفس واحدة هي آدم عليه السّلام، وهو الإنسان الأول الذي تناسل منه سائر البشر بالتّوالد والتّزاوج عن طريق الاستقرار في الأرحام والاستيداع في الأصلاب، قد أبان الله العلامات الدّالة على قدرته وإرادته، وعلمه وحكمته لقوم يفهمون ما يتلى عليهم.

والله هو الذي أنزل بقدرته وتصريفه من السحاب ماء بقدر، مباركاً ورزقاً للعباد، فأخرج بالمطر أصناف النبات المختلف الشكل والخواص والآثار، وأخرج به زرعاً وشجراً أخضر، وجعل من النبات حبّاً متراكماً بعضه على بعض كالسّنابل ونحوها، وجعل من طلع النّخل عناقيد قريبة التّناول، وأخرج من الخضِر بساتين من العنب والزيتون والرّمان، متشابهاً في الورق والشكل، قريباً بعضه من بعض، ومتخالفاً في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً، حلواً وحامضاً، انظروا وتأمّلوا إلى الثمار إذا أثمرت وإلى نضجها كيف صارت وأينعت، إن في ذلك لعلامات لقوم يصدقون بالله ويتّبعون رسله، وذلك هو الإيمان المطلوب، وتلك براهينه الدّالة عليه.

بعض المزاعم الباطلة
بنسبة الجنّ والولد والصّاحبة لله تعالى

ليس هناك شيء أشدُّ افتراءً وكذباً على الله من نسبة الشركاء لله، من الجنّ والولد واتّخاذ الصّاحبة، فالله أسمى وأعلى وأغنى من كل ذلك، فلا حاجة له إلى الأعوان،

سواء من عالم الجنّ أو من عالم الإنس، وسواء من الذكور والإناث، لأن الألوهية والرّبوبية فوق هذه الأوضاع التي يحتاج إليها البشر، ويستغني عنها الخالق القادر، العلي القاهر، ومثل هذه المزاعم والافتراءات الباطلة ما هي إلا لون من سخف المشركين، وسطحية الوثنيين، وضلال الكافرين. قال الله تعالى مبيّناً هذا اللون من التفكير الديني الوثني:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ[1] وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا[2] لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ[3] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ[4] لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ[5] وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٠-١٠٣].

هذه الآيات تشير إلى العادلين بالله عزّ وجلّ، والقائلين: إنّ الجنّ تعلم الغيب، وتتصرَّف في الأشياء، وتُعبدُ الجنّ، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك وتستجير بجنّ الأودية في أسفارها. وهناك طائفة من الكتابيّين نسبوا إلى الله الابن كعزير والمسيح، وطائفة أخرى من العرب وصفوا الملائكة بأنهم بنات الله.

والآيات ردّ على فئات المشركين المختلفة الذين عبدوا مع الله غيره، عبدوا الجنّ حين صيَّروا لله شركاء له في العبادة، ولم تكن عبادتهم الأصنام إلا بطاعة الجنّ وأمرهم إياهم بذلك، إنهم جعلوا الجنّ من الملائكة أو الشياطين شركاء لله، مع أن الله هو الذي خلق المشركين وغيرهم، فكيف يكون المخلوقون شركاء لله؟! إنهم اختلقوا أكاذيب، وأباطيل، بجعل البنين والبنات لله جهلاً بغير علم، تنزه الله

---

(١) الشياطين حيث أطاعوها . (٢) أي اختلقوا له الأولاد كذباً وزوراً . (٣) مبدع . (٤) كيف يكون . (٥) لا تحيط به سبحانه .

وتعاظم وتقدَّس عما يصفه هؤلاء الجهلة الضّالّون من الأولاد والأنداد والشركاء؛ لأنه الخالق المدبِّر لها، وليس كمثله شيء. والله مبدع السماوات والأرض وخالقهما ومنشئهما على غير مثال سبق، وكيف يكون له ولد، والحال أنه لم تكن له صاحبة، والولد إنما يكون متولِّداً بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه، لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد، وهو مبدع الكائنات في السماء والأرض، وهو المتسبب في إيجاد الذُّرِّية من طريق التّوالد والتّناسل ونفخ الرّوح في الأجنّة في بطون الأمهات.

لقد خلق الله الكون، وأوجد كل شيء من العدم، فليس الله بوالد ولا مولود، كما تزعمون، فما اخترعتم له من الولد، فهو مخلوق له لا مولود منه، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه؟ وهو الذي لا نظير له. والله محيط علمه بكل شيء، وعلمه ذاتي له، لم يعلّمه أحد، ولا يعلم أحد مثل علمه، فلو كان له ولد، لكان هو أعلم به، وأرشد إليه، فتكون نسبة الولد لله كذباً وافتراء بلا دليل عقلي ولا وحي ثابت.

وإذ ثبت أن الله لا ولد له، فذلكم الإله الحق هو الله ربّكم، الذي لا إله إلا هو، والذي خلق كل شيء، ولا ولد له ولا صاحبة، فما عليكم إلا أن تعبدوه وحده لا شريك له، وتُقرّوا له بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو، وهو الوكيل على كل شيء، الحافظ المتصرِّف في الأشياء، المدبِّر لها، فلا يصح أن تعبدوا غير الله، وعليكم أن تعبدوا الله المتَّصف بصفات العظمة والقدرة والإرادة، والتَّصرف المطلق في الأشياء، والمستقلّ بإبداع الأشياء وإيجادها.

ثم إن الله سبحانه غير محصور في مكان، ولا محددٌ في موضع معين، لا تستطيع الأبصار إدراكه والإحاطة الكلية به، ولا يتمكّن أحد من رؤيته في الدنيا، وإنما هو

الذي يرى العيون الباصرة رؤية إدراك وإحاطة وشمول، وهو الرفيق بعباده، الخبير بهم، المطّلع على جميع أحوالهم، ولا يخفى عليه شيء إلا يراه ويعلمه. أما في عالم الآخرة فإن المؤمنين الصالحين أهل الجنة يرون ربّهم رؤية لا تحيط به ولا تحدّده أو تحصره في مكان معين، كما قال الله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٢٢-٢٣]. ويؤيِّد ذلك ما جاء في الصَّحيحين أنه ﷺ قال: «إنكم سترون ربّكم يوم القيامة، كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب» فالمؤمنون يرون ربّهم، ويحرم الكافرون من تلك الرّؤية.

أهداف الوحي

الهدف الواضح الجلي من ظاهرة الوحي على الأنبياء والرُّسل: هو إرشاد الناس وتبصيرهم بالحق، وإعانتهم على إدراكه، وتجنُّب طرائق الضّلال والزّيغ والانحراف، وهذا كله حبّ للإنسان ومصلحته، ورعاية له وأخذ بيده إلى السّعادة الحقّة، لذا كان عقلاء الناس هم المتّبعين للوحي الإلهي، المستفيدين منه في توجُّهات الحياة، فهم أدركوا الحق فاتّبعوه، وعرفوا الباطل بالإرشاد الإلهي فاجتنبوه، قال الله تعالى مبيّناً مبصِّرات الوحي:

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ(١) ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ(٢) وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ(٣) وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٤-١٠٧].

---

(١) برقيب. (٢) نكررها بأساليب مختلفة. (٣) قرأت وتعلمت من أهل الكتاب.

هذه الآيات الكريمات تبين خواص الوحي الإلهي وطبيعة الرسالة النَّبوية وما تستلزمه من ضرورة التَّبليغ وإعلام الناس. وفحوى الآيات: قد جاءكم أيها الناس في القرآن والآيات طرائق إبصار الحق والمعينة عليه، وهي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول من البراهين العقلية والنقلية التي تثبت لكم العقيدة الحقّة، وتبيِّن منهاج الحياة الأقوم، وقوام النظام الأمثل، وأصول الأخلاق والآداب.

فمن أبصر الحق فآمن فلنفسه، ومن عمي عن الحق وضلَّ وأعرض عن سبيله، فعلى نفسه جنى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [يونس: ١٠/١٠٨]. إن وبال العمى عن الحق يعود على صاحبه، ولست أنا نبي الله عليكم بحافظ ولا رقيب، بل إنما أنا مبلِّغ ومنذر، والله يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء بحسب ما يعلم من ميول الإنسان.

وكما فصَّلنا الآيات في هذه السورة من بيان التوحيد وإثبات وجود الله الخالق المبدع، هكذا نوضح جميع الآيات ونرددها ونفسِّرها في كل موطن، بسبب جهالة الجاهلين، وليؤول الأمر بأن يقول المشركون والكافرون المكذِّبون: درست هذا وقرأته على غيرك، وليس ذلك وحياً من الله، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النَّحل: ١٦/١٠٣].

وإنزالنا الوحي لنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتّبعونه، والباطل فيجتنبونه، أي إن البيان إنما يفيد أهل العلم المدركين، الذين يستخدمون بصائرهم في مدلولات القرآن. أما الجاهلون الذين لم يفهموا آيات القرآن، فلا ينتفعون به.

وإذا كان الوحي لخير الإنسان وإرشاده، فعليك أيها النَّبي وأمتك اتِّباع ما يوحى

به إليك من ربِّك الذي لا إله إلا هو، واعف عن المشركين وأعرض عنهم واصفح، حتى يفتح الله عليك وينصرك عليهم، واعلم أنه إلى الله المرجع والمآب.

ثم أبان الله حقيقة أبدية ثابتة، وهي أن كل شيء في هذا الكون إنما يحدث بإرادة الله ومشيئته، ولا يقع شيء في ملكوت الله جبراً عنه، فلو شاء الله ما أشرك المشركون، بل لله المشيئة المطلقة فيما يشاؤه و يختاره، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، له الحكمة في ظهور الضَّلال والشِّرك، ولو شاء لهدى الناس جميعاً، بأن يخلقهم مستعدين للإيمان، لكنه خلقهم مستعدين للكفر، وترك لهم حرية الاختيار في أعمالهم. ولا يصحّ للمشركين أن يزعموا أن إشراكهم وغيره وقف على مشيئة الله عزّ وجلّ، فهم لا يعرفون مشيئة الله، وعليهم أن يعملوا بما أمرهم الله به من التوحيد والعبادة الخالصة لله، فإن قصروا في هذا، كانوا محاسبين مسؤولين عنه.

وهناك حقيقة أخرى تتعلق بالنَّبي وهي أنه لا سلطان له على قهر أحد من الناس وجبره على الدخول في الإسلام، فما جعلناك أيها النَّبي حافظاً تحفظ أقوال الناس وأعمالهم، وما أنت بموكل على أرزاقهم وأمورهم والتصرف في قضاياهم، ولست عليهم بمسيطر، وليس لك صفة الملوك القاهرين، بل أنت بشير ونذير، والله يجازيهم ويحاسبهم.

المنع من سبِّ الأصنام والأوثان

إن توجيه القرآن العظيم في غاية الإحكام والإتقان، والنظر إلى آفاق المستقبل نظرة فاحصة عميقة بعيدة عن التَّعصب، تقدر النتائج بالتقدير السليم البعيد عن مضاعفة المشكلات، وتسدُّ كل الذرائع والوسائل المؤدِّية إلى الضلالات واتِّباع الأهواء والشهوات. والمثل الرائع لهذا: هو النَّهي عن سبِّ الأصنام والأوثان والمنع منه،

وإن كان سبّها حقّاً متقرّراً موافقاً للواقع، لكن إذا كان السَّب ذريعة محرِّضة إلى سبِّ الإله الحق، كان البعد عن المتسبِّب لذلك هو الواجب شرعاً وعقلاً وسياسةً ووعياً.

قال الله تعالى مبيِّناً هذه الحقيقة: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا(١) بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ(٢) لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍۢ وَنَذَرُهُمْ(٣) فِى طُغْيَٰنِهِمْ(٤) يَعْمَهُونَ(٥) ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٠٨-١١٠].

قال قتادة مبيِّناً سبب نزول هذه الآية: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟..﴾: كان المسلمون يسبّون أصنام الكفّار، فيسبّوا -أي الكفار- الله، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وبعبارة أخرى: قال كفار قريش لأبي طالب: إما أن ينتهي محمد وأصحابه عن سبِّ آلهتنا والغضِّ منها، وإما أن نسُبَّ إلهه ونهجوه، فنزلت الآية.

الآية خطاب للمؤمنين وللنَّبي ﷺ، وحكمها على كل حال باق في الأمة، فمتى كان الكافر في منعة، وخيف أن يسب الإسلام أو النَّبي ﷺ، أو الله عزّ وجلّ، فلا يحلُّ للمسلم أن يسبَّ دينهم ولا صلبانهم ولا يتعرَّض إلى ما يؤدي إلى ذلك ونحوه.

ينهاكم الله تعالى أيها المؤمنون عن سبِّ آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبِّ إله المؤمنين، وهو ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كما قال ابن عباس.

والمعنى: لا تسبّوا أيها المسلمون آلهة المشركين التي يدعونها دون الله؛ لأنه ربما ينشأ عن ذلك سبّهم الله عزّ وجلّ ظلماً وعدواناً، لإغاظة المؤمنين، جهلاً منهم

(١) اعتداءً وظلماً. (٢) أوكدها. (٣) نتركهم. (٤) تجاوزهم الحدّ بالكفر. (٥) يتحيّرون ويتردّدون

بقدرة الله تعالى وعظمته. وهكذا كل طاعة أو مصلحة أدَّت إلى معصية أو منكر أو مفسدة تترك. وكما زيَّن الله للمشركين حبّ الأصنام والانتصار لها، زيَّن لكل أمة من الأمم سوء عملهم من الكفر والضلال، فتلك سنة الله في خلقه، يستحسنون العادات والتقاليد القبيحة عن تقليد وجهل، أو عن معرفة وعناد، والله يتركهم وشأنهم. وهذا التّزيين للمنكر والضّلال أثر لاختيارهم دون جبر ولا إكراه، لا أن الله خلق في قلوبهم تزييناً للكفر والشَّر، كما زيَّن الله في قلوب الآخرين الإيمان والخير. ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا يتضمن وعداً جميلاً للمحسنين، ووعيداً ثقيلاً للمسيئين.

ثم أوضح الله تناقض المشركين في أقوالهم وخيانتهم في أفعالهم، فإنهم حلفوا أيماناً مؤكّدة بالله: لئن جاءتهم آية، أي معجزة مادِّية محسوسة، وخارقة للعادة من الآيات الكونية التي يقترحونها، ليصدقن بها أنها من عند الله، وأنك رسول الله، غير أنهم قوم معاندون، فإذا جاءتهم الآيات أو المعجزات لم يؤمنوا بشيء منها. وردّ الله عليهم.

قل يا محمد لهؤلاء الطالبين آياتٍ تعنُّتاً وعناداً وكفراً: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، وهو القادر عليها، إن شاء أتى بها، وإن شاء ترككم فلا ينزلها إلا على موجب الحكمة. وما يدريكم إيمانهم إذا جاءتهم الآيات، فهو لا يؤمنون بها، لسبق علم الله أنهم لن يؤمنوا.

وما يدريكم أننا -نحن الله- نحوّل قلوبهم عن إدراك الحق، والإيمان، ونصرف أبصارهم عن إبصار الحق، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة حين أتتهم الآيات التي عجزوا عن معارضتها مثل القرآن وغيره، لتمام إعراضهم عن إدراك الحقائق، وما يشعركم أيضاً أننا نذرهم ونخلِّيهم وشأنهم

في طغيانهم وتجاوزهم الحق يتردّدون متحيّرين فيما سمعوا ورأوا من الآيات، فلم يصلوا إلى الحقيقة.

تعنُّت المشركين

لقد اشتدَّ المشركون كفّار قريش في عداوتهم للنَّبي ﷺ بسبب الحفاظ على مراكز الزعامة والسيادة، والاستكبار، الذي جعلهم في أشد حالات العناد والتَّصلب واتِّخاذ موقف المعارضة العنيفة التي لا ترتكز على أساس من الحجة، ولا تحترم كلمة العقل والفكر والنِّقاش القائم على الحق والعدل، ومن هنا ظهر اليأس من إيمانهم، وعزَّ الأمل في إسلامهم، قال الله سبحانه موضِّحاً هذا الموقف الصعب منهم:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا[1] عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا[2] مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ[3] غُرُورًا[4] وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ[5] إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟[6] مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١١١-١١٣].

روي عن ابن عباس في بيان سبب نزول الآيات: أن رسول الله ﷺ أتى جماعة من كفار مكة وزعمائها، فقالوا له: أرنا الملائكة يشهدون بأنك رسول الله، أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم: أحقّ ما تقول أم باطل، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً، فنزلت الآية.

---

(١) جمعنا. (٢) مقابلة ومواجهة. (٣) باطله. (٤) خداعاً. (٥) لتميل لزخرف القول. (٦) ليكتسبوا من الآثام.

أخبر الله عزّ وجلّ في هذه الآية الأولى: أنه لوأتى بجميع ما اقترحوه من إنزال الملائكة، وإحياء سلفهم حسبما كان من اقتراح بعضهم أن يحشر قصي بن كلاب وغيره، فيخبر بصدق محمد، أو يجمع كل شيء يعقل أن يحشر عليهم، ما آمنوا إلا بالمشيئة واللطف الذي يخلقه الله، ويخترعه في نفس من شاء.

لوأننا نزَّلنا إليهم الملائكة، فرأوهم بأعينهم مرة بعد أخرى، وسمعوا شهادتهم لك بالرسالة، ولو كلمهم الموتى إذ أحييناهم، وأخبروهم بصدق ما جاء به النَّبي محمد ﷺ كما طلبوا، وجمعنا كل شيء من الآيات والدلائل معاينة ومواجهة، فيخبرونهم بصدق النَّبي، لو حدث كل هذا، ما كان شأن هؤلاء القرشيين المكّيين أن يؤمنوا، وليس عندهم الاستعداد أن يصدّقوا؛ لأنهم لا ينظرون في الآيات نظر تأمُّل وهداية وعظة، وإنما ينظرون إليها نظر معاداة واستهزاء، إنهم لا يؤمنون إلا بمشيئة الله، على سبيل الاختيار، وليس الإيمان الاضطراري، ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن الإيمان إليهم والكفر بأيديهم، متى شاؤوا آمنوا، ومتى شاؤوا كفروا، وليس ذلك كما يظنّون، لا يؤمن أحد منهم إلا من هديته ووفقته للإيمان، ولا يكفر إلا من خذلته عن الرُّشد فأضللته.

ومن أجل التَّخفيف من الله على نبيِّه ومواساته، أبان سبحانه أن سنَّته في الخلق أن يكون للأنبياء عدوّ من الجنّ والإنس، لا ينفرد به نبيّنا، وإنما كان هذا أمراً عامّاً امتحن به غيره من الأنبياء، ليبتلي الله أولي العزم منهم. وأعداء الأنبياء يلقي بعضهم إلى بعض القول المزيّن المزخرف الذي يخدع بعض السامعين، ويموّه عليهم الحقائق، ويغريهم بالمعاصي والأباطيل، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ أي إن ذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبيٍّ عدوّ من الشياطين.

فدعهم أيها الرّسول النَّبي وما يفترون أي يكذِّبون، واتركهم يخوضون في إفكهم

وكذبهم، ليغروا غيرهم بالفساد، ولتصغى إليه قلوب الكفار والفسّاق، فإنها تميل إلى الشّر والسّوء، وإنهم لا يؤمنون بالآخرة وليرضوا لأنفسهم هذا الموقف الخاسر، وليترتب على ذلك أن يكتسبوا ما هم مكتسبون من المعاصي والآثام بغرورهم به ورضاهم عنه. إن إغراءات هؤلاء المتمرِّدين تؤثر في المُضَلَّلين، وتوهمهم أنهم على شيء، والأمر بخلاف ذلك. أما المؤمنون الواعون الذين ينظرون في عواقب الأمور، فلا ينخدعون بأباطيل الأقوال، ولا تغرنّهم الزخارف. وبه يتبيَّن أن الكفار يؤثر بعضهم في بعض، ويحمل بعضهم بعضاً على الإثم والعصيان، على عكس أهل الإيمان الذين ينظرون ويتأملون ولا ينجرفون بأضاليل الأقوال وسوء الأفعال.

القرآن برهان النُّبوة

من حقِّ الناس أن يطلبوا برهاناً على صدق الأنبياء، من غير عناد ولا تعنُّت، غير أن البرهان أو الدليل المؤيّد للنُّبوة والرسالة، ليس كما يطلب الناس من إنزال برهان حسّي أو علامة مادِّية، فإن الله تعالى جلَّت حكمته يعلم علماً تامّاً ما يناسب، فينزل من الآيات والمعجزات التي يظهرها على يد نبي أو رسول ما يكون موافقاً للحكمة وكافياً في إثبات النُّبوة والرِّسالة.

والدليل الدّال على صدق نبوة محمد ﷺ حصل من وجهين: الأول -أنه أنزل إليه القرآن الكريم مبيِّناً مختلف الشرائع والأحكام بأسلوب بياني معجز وببلاغة وفصاحة عالية تدلُّ على إعجازه وكونه من كلام الله.

الثاني -اشتمال التوراة والإنجيل في صورتهما الأصلية على الآيات الدّالة على أن محمداً رسول حق، وأن القرآن كتاب الله الحق القاطع. قال الله تعالى مبيِّناً الاكتفاء بالقرآن دليلاً:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا[١] وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ[٢] ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٤-١١٥].

يأمر الله نبيَّه أن يقول للمشركين: ليس لي أن أطلب قاضياً بيني وبينكم، لأنه لا حُكْم أعدل من حكم الله، ولا أصدقَ من قوله، فلا فائدة من طلبكم دليلاً مادّياً على صدق نبوّتي، فهناك دليلان واضحان يؤيّدان رسالتي، وهما الآية الكبرى وهي القرآن المعجز الدّال بإعجازه على أنه كلام الله، واشتمال التوراة والإنجيل على ما يدل على أني رسول الله حقّاً، وأن القرآن كتاب حقّ من عند الله تعالى.

وإن أنكر المشركون أحقّيّة القرآن وكذّبوا به، فإن اليهود والنّصارى أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من ربّك بالحق، بما ورد لديهم من البشارات بنبوّة خاتم الأنبياء، كما أبان الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٦].

فلا تكونن يا محمد من المتردّدين الشّاكّين، وهذا تعريض بمن يتردّد أو يشكّ، كما في آية أخرى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩٤]. فالواقع أن النّبي لم يشكّ وإنما قال: «لا أشكُّ ولا أسأل».

وتم كلام الله وهو القرآن، فلا يحتاج إلى إضافة شيء فيه، وأصبح كافياً وافياً بإعجازه وشموله، ودلالته على الصدق، فهو صادق فيما يقول، عدل فيما يحكم، صدقاً في الإخبار عن الغيب، وعدلاً في الطلب، فكل ما أخبر به فهو حق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فهو

(١) أي قاضياً بيني وبينكم . (٢) أي من الشّاكّين المتردّدين .

باطل أو شرّ، فإنه لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن مفسدة وشرّ، كما قال الله تعالى عن نبيِّه في الكتب السابقة: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧].

وكل ما ورد في القرآن من أمر ونهي، ووعد ووعيد، وقصص وخبر، لا تغيير فيه، ولا تبديل لكلمات الله: وهي كل ما نزَّل على عباده، وهو السَّميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازي كل عامل بعمله.

وقوله تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ معناه: لا تغيير في معاني الوحي المنزل، بأن يُبيِّن أحد أن خبره بخلاف ما أخبر به، أو يبيِّن أن أمره لا ينفذ. ومن أمثلة ذلك: أن الله منع المنافقين من الخروج إلى الجهاد بعد تخلُّفهم عن غزوة تبوك، ولم يبح لهم الخروج(١)، فقال المنافقون بعد ذلك للنَّبي ﷺ وللمؤمنين: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٥] ، فقال الله تعالى لنبيِّه ﷺ : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٥]. واستقرَّ التشريع على منعهم من الخروج كما قال تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التَّوبة: ٩/ ٨٣].

المنع من اتِّباع ضلالات المشركين ومن أكل ذبائحهم

لا تلاقي بحال من الأحوال بين شرع الله المحكم والأعدل وبين أنظمة الجاهليين المشركين، فإن الله تعالى أراد الحق والخير لعباده، وحذَّر من كل معالم الضّلال والشِّرك، لذا أبان سبحانه الحلال والحرام، ومنع من أكل ذبائح المشركين التي لا يذكر اسم الله عليها، فإن تلك الذَّبائح فسق أي معصية وخروج عن دائرة

(١) التَّوبة : ٩/ ٨٣ .

الدين، ونهى الله جلَّ جلاله عن مختلف أنواع الإثم، أي القبيح الذي حرَّمه الله، في الظاهر والباطن، خلافاً لما كان عليه أهل الجاهلية من اقتراف ألوان المحارم والمنكرات، وكل ذلك من أجل إقامة معالم المجتمع الفاضل، وتصفية كل أشكال المجتمع المتخلِّف.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(١) ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟(٢) ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ(٣) ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ(٤) وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ٦/١١٦-١٢١].

نزلت آية: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ كما قال ابن عباس: أتى ناس النَّبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، أنأكل ما نقتل، ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ نزل حينما قال المشركون: يا محمد، أخبرنا عن الشّاة إذا ماتت، من قتلها؟ قال: الله قتلها، قالوا: فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابُك حلال، وما قتل الكلب والصقر حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

---

(١) أي يحدسون و يخمّنون ويكذّبون فيما ينسبونه إلى الله . (٢) اتركوا . (٣) يكتسبون من الإثم .
(٤) خروج عن الطاعة ، وهو معصية .

والمعنى: فامض يا محمد لما أُمرت به، وأنفذ رسالتك وأبلغ دعوتك، فإنك إن تطع أكثر من في الأرض من الكفار والمشركين في أمور الدين، وتخالف ما أنزل الله عليك، يضلّوك عن دين الله ومنهجه وسبيله، سبيل الحق والعدل والاستقامة، لأنهم لا يتّبعون إلا الأهواء والظُّنون الباطلة أو الكاذبة، ولا يحترمون الموازين الفكرية والأدلّة العقلية، وما هم إلا يحزرون و يخمِّنون تخميناً عارياً عن الصحة والحقيقة، كخارص (مخمن) ثمر النَّخل والعنب وغيرهما، فاعتقادهم قائم على الحَدْس والتَّخمين، لا على البرهان والدليل.

وإن ربَّك عليم بالضّالّين عن سبيله القويم، وعليم أيضاً بالمهتدين السالكين سبيل الاستقامة، وليس كما يزعم المشركون.

ثم أمر الله تعالى بأكل ما ذكر اسم الله عليه، وأن يكون الأكل مقصوراً على ذلك، إن كنتم أيها المسلمون مؤمنين بآيات الله، والحذر كل الحذر مما ذبح للأصنام والأوثان ولغير الله.

وأي شيء لكم في ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، وترك الأكل مما ذبح للأصنام، فليس هناك شيء يمنعكم من هذه المآكل، والحال أن الله قد بيَّن لكم المحرَّم عليكم وهي الميتة والدم ولحم الخنزير والمذبوح لغير الله كالأصنام والأنبياء والأولياء والزعماء، لكن الذي اضطررتم إلى أكله مما هو محرَّم عليكم، فإنه يباح لكم ما وجدتم حال الضرورة. وإن كثيراً من الكفّار ليضلّون الناس بتحريم الحلال، وتحليل الحرام، بأهوائهم وشهواتهم الباطلة، وبغير علم أصلاً، إنما هو محض الهوى، والله أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم، وسيجازيهم على هذا الاعتداء والتجاوز، لا محالة.

ثم أمر الله تعالى بترك جميع الآثام والمعاصي المعلنة والسّرية، سواء ما صدر عن الأعضاء كالسّرقة والغصب، أو كان من أفعال القلوب كالحقد والحسد، إن الذين

يقترفون المعاصي الظاهرة أو الخفية، سيجازيهم الله على عصيانهم إذا ماتوا ولم يتوبوا.

وتأكيداً للأمر بأكل ما ذكر اسم الله عليه، نهى الله تعالى المؤمنين عن أكل البهيمة التي ماتت ولم يذكر اسم الله عليها، والمذبوح لغير الله، وهو ما كان المشركون يذبحونه لأصنامهم، وهذا المذبوح فسق ومعصية. وإن شياطين الإنس والجنّ ليوسوسون إلى أعوانهم من المشركين، ليجادلوا المؤمنين، فإن وافقهم أحد من المؤمنين على ضلالهم، فهو مثل المشركين؛ لأنهم عدلوا عن أمر الله وشرعه إلى قول غيره، وهذا هو الشِّرك، عافانا الله من جميع حالاته، وجعل أعمالنا خالصة لوجه الله الكريم.

مثل المهتدي والضّالّ

الناس في عهد النُّبوة وفي كل عهد صنفان إما مؤمن مهتدٍ، وإما كافر ضالٌّ، والله يحبُّ المؤمنين ويحبُّ لهم الخير والسعادة، ويبغض الكافرين وما يؤول إليه أمرهم من دمار وشرّ وخسران مبين، لذا تعددت الآيات القرآنية المرغبة في الإيمان، والمنفِّرة من الكفر والضَّلال إما من طريق التَّشبيه بصورة حسِّية مرئية، وإما بتقرير العذاب الشديد في الدنيا والآخرة أو وصف النعيم، وإما بالتهديد والإنذار والتوبيخ أو التبشير والرِّضا والظفر بفضل الله ورحمته وإحسانه وإنعامه.

من هذه الآيات تشبيه المؤمن بالنّور والكافر بالظلمة، قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٢-١٢٣].

نزلت هذه الآية -كما ذكر ابن عباس- في عمر وأبي جهل، الأول يمثّل الإيمان، والثاني يمثّل الكفر والضّلال، وكل منهما رمز لفئة. شبَّه الله تعالى الذين آمنوا بعد كفرهم بأموات أُحيوا، وشبَّه الكافرين وحيرة جهلهم بقوم في ظلمات يتردَّدون فيها، ولا يمكنهم الخروج منها، ليُبيِّن الله عزّ وجلّ الفرق بين الطائفتين والبون بين المنزلتين.

هذه مقارنة أو موازنة بين أهل الإيمان وجماعة الكفر، أفمن كان ميتاً بالكفر والجهل، فأحييناه بالإيمان، وجعلنا له نوراً يضيء له طريقه بين الناس، وهو نور القرآن المؤيّد بالحجة والبرهان، وهو أيضاً نور الهدى والإيمان، أهذا الفريق مثل الفريق السائر في الظلمات: ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر، وهو ليس بخارج منها، أي لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما فيه، كما قال الله تعالى في آيات أخرى، منها: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٢].

وبما أن الاهتداء إلى الإيمان، والانغماس في ظلمات الكفر والضّلال بسبب من الإنسان واختيار منه، فإن الله تعالى يزيد المؤمنين توفيقاً إلى الخير، ويترك الكافرين سائرين في متاهات الكفر، لذا ختمت الآية بهذه الحقيقة وهي: كما زيَّن الله الإيمان للمؤمنين، زيَّن للكافرين الكفر والمعاصي، أي حسَّن لكل فريق عمله، فحسَّن الإيمان في أنظار المؤمنين، وحسَّن الكفر والجهالة والضّلالة في أعين الكافرين، كعداوة النَّبي ﷺ وذبح القرابين لغير الله، وتحريم ما لم يحرِّمه الله، وتحليل ما حرَّمه.

ثم أورد الله تعالى ما يدلُّ على سنّة ثابتة في البشر، وهم الذين يعيشون في الظلمات كأبي جهل بن هشام وحالهم وحال أمثالهم، فمثلهم جعل الله في كل قرية أكابرَ مجرميها رؤساءَها ودعاتها إلى الكفر والصَّدّ عن سبيل الله، ليمكروا فيها بالصَّد عن

سبيل الله؛ لأنهم أقدر على المكر والخداع وترويج الباطل بين الناس بحكم نفوذهم وسيادتهم وسيطرتهم. وهذه الآية تتضمن إنذاراً بفساد حال الكفرة.

وهكذا يثور في كل وقت الصِّراع بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر، ولكل اتِّجاه أعوانه وأنصاره، وسادته وكبراؤه، ولكن ما يمكر هؤلاء الأكابر المجرمون المعادون للرُّسل إلا بأنفسهم؛ لأن وبال مكرهم عليهم، وعاقبة إفسادهم تلحق بهم، لكنهم عديمو الشعور والإحساس الصادق، فما يعلمون حقيقة أمرهم.

ويستمر النِّزاع بين أهل الإيمان والخير، وبين أهل الكفر والشَّر، وهذه هي نظرية تنازع البقاء وبقاء الأصلح، والعاقبة والنصر للمؤمنين في النهاية، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرَّعد: ١٣/١٧].

وواقع هؤلاء الضَّالِّين أسوأ من البهائم، فإن البهائم تعلم علوم الحسّ، وأما الضّالُّون فهم مغرقون في الجهل لا يدركون الحقيقة، وكأن الذي لا يشعر نفي عنه أن يعلم علم حسّ. إن الذين مكروا وضلّوا حفاظاً على مراكزهم ونفوذهم، لم يشعروا بأن عاقبة مكرهم تحيق بهم، لجهلهم بسنن الله في خلقه، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ٣٥/٤٣].

مطالبة المشركين بالنُّبوة

النُّبوة أو الرِّسالة إنما تمنح لمن هو مأمون عليها وموضع لها، وأقدر على تحمل أعبائها، وليست هي مثل مناصب الدنيا التي تعتمد على الشهرة والنفوذ، والسلطة والجاه أو المال، أو النَّسب، أو كثرة الأعوان والأولاد.

ولقد استبدَّ الغرور والشَّطط بمشركي مكة، فأرادوا أن تكون لهم النُّبوة والرسالة، وأن يكونوا متبوعين سادة، لا تابعين، وقالوا: لولا نزِّل هذا القرآن على

رجل من القريتين عظيم، أي مكة والطائف، الوليد بن المغيرة من مكة أو عروة بن مسعود الثقفي من الطائف، وذلك حسداً منهم وغروراً، وظنّاً منهم أن الرِّسالة الإلهية كمراكز الدنيا تعتمد على المال أو السلطة.

قال الله تعالى منددّاً بهذه المطامع والآمال: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ(١) عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا(٢) كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ(٣) كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ(٤) عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٤-١٢٥].

نزلت الآية الأولى في الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النُّبوة حقّاً، لكنت أولى بها من محمد؛ لأني أكبر منه سنّاً، وأكثر منه مالاً وولداً.

الآية الأولى ذمّ للكفار وتوعُّد لهم، فإنهم إذا جاءتهم علامة ودليل على صحة الشَّرع الإلهي، اشتطّوا واغتروا، وطلبوا أن يؤتوا مثلما أوتي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وقالوا: إنما يفلق لنا البحر، إنما يحيي لنا الموتى ونحو ذلك، أي إنهم طلبوا المستحيل، وعلقوا إيمانهم على ممتنع، وقصدوا بذلك أنهم لا يؤمنون أبداً.

والمعنى: إذا جاءت المشركين آية وبرهان وحجة قاطعة من القرآن تتضمن صدق الرسول ﷺ في تبليغ وحي ربِّه، قالوا حسداً منهم، وتعنُّتاً وغروراً: لن نؤمن حتى يكون لنا مثل محمد، منصب عند الله، وتظهر على أيدينا آية كونية أو معجزة مثلما أُوتي رسل الله، كفلق البحر لموسى، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى؛ لأنهم أكثر أموالاً وأولاداً، وأعزّ جانباً ورفعة بين الناس.

---

(١) ذلّ وهوان. (٢) شديد الضِّيق. (٣) يتكلف صعودها. (٤) أي العذاب.

فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي أن الله أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، فالرسالة منصب ديني له مقومات خاصة، وفضل من الله يمنحه من يشاء من عباده، لا ينالها أحد بخصائص دنيوية عادية، كالمال والولد والزّعامة والنفوذ، وإنما تؤتى من هو أهل لها، لسلامة فطرته، وطهارة قلبه، وقوة روحه، وحسن سيرته وحبِّه الخير والحق.

ثم أعلن الله وعيده الشديد لكل المتخلِّفين عن الإيمان برسالة القرآن ودعوة النَّبي ﷺ، فسيلحق المجرمين يوم القيامة ذلٌّ وهوانٌ دائمان، ويدركهم العذاب المؤلم الشديد، جزاء بما كانوا يمكرون، وعقوبة لتكبُّرهم عن اتِّباع الرُّسل، والانقياد لهم فيما جاؤوا به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠] أي صاغرين ذليلين حقيرين.

ثم جاء قرار الحسم وهو أنه لا داعي للتأسُّف على إعراض المشركين عن دعوة الإسلام، فمن يرد الله أن يوفِّقه للحق والخير والإسلام، ومن كان أهلاً بإرادة الله وتقديره لقبول دعوة القرآن، فإنه يشرح صدره له، وييسره وينشطه ويسهله لذلك، ومن فسدت فطرته بالشِّرك، ولم يكن مستعدّاً للإيمان، ولا أهلاً، يجعل الله صدره ضيِّقاً شديداً عازلاً عن قبول الإيمان، كاتماً له عن نفاذ الخير إليه، مثله كمثل من يصَّعَّد إلى السماء في طبقات الجو العليا، حيث يشعر بضيق شديد في التنفس، وكأنما يزاول أمراً غير ممكن؛ لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد عن الاستطاعة، وتضيق عنه المقدرة. وكما يضيِّق الله صدر المعاندين، كذلك يسلِّط الله العذاب أو الشيطان عليهم وعلى أمثالهم ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصدّه عن سبيل الله سبيل الحق.

والهدي في هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ : هو خلق الإيمان في القلب

واختراعه، وشرح الصدر: هو تسهيل الإيمان وتحبيبه وإعداد القلب لقبوله وتحصيله. والهدي لفظ مشترك قد يأتي بمعنى الدعوة لشيء مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٢/٥٢] وقد يأتي بمعنى إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق والأعمال المؤدية إليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ [محمد: ٤٧/٤-٥].

الطريق القويم وجزاء المستقيمين

تتعدَّد طرق النجاح في الحياة بحسب ما ترتئيه الأفكار والعقول الإنسانية، ولا يعرف الصواب منها إلا بعد تجارب عديدة، وطويلة الأمد، يمر فيها المجتمع، فتدرك الأخطاء، وتعرف أوجه الفائدة والمصلحة، من هنا أراد الله تعالى اختصار الطريق والمدة على الناس، فأبان لهم سلفاً ما يحقق لهم الخير والنفع، ويمنع عنهم الشَّر والانحراف. وترغيباً في سلوك طريق الشَّرع القويم وَعَد الله متَّبعيه بالجنة دار السّلام، وأوعد مخالفيه بالنّار مثوى الظالمين خالدين فيها أبداً بمشيئة الله. قال الله تعالى:

﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٢٧ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ(١) خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٢٩﴾ [الأنعام: ٦/١٢٦-١٢٩].

يخبر الله تعالى أن هذا القرآن والشَّرع الذي جاء به محمد عليه الصَّلاة والسَّلام

(١) مأواكم ومستقرّكم.

وهو شرع الإسلام: هو طريق ربِّك السّوي الذي ارتضاه للناس واقتضته الحكمة، لا زيغ ولا انحراف فيه، وهو العلاج المفيد والدواء النافع لكل داء، كما قال النَّبي ﷺ في وصف القرآن -فيما يرويه التِّرمذي وأحمد عن علي-: «هو صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، وهو الذِّكر الحكيم، والنُّور المبين».

فما عليكم أيها المؤمنون إلا اتِّباعه إن أردتم النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، قد وضحنا الآيات وبيَّنّاها لقوم لهم فهم ووعي يعقلون عن الله ورسوله..

ولهؤلاء القوم الفاهمين الملتزمين طريق الشّرع: دار السلامة والطمأنينة وهي الجنة، يوم القيامة، والله متولِّي أمورهم وكافيهم، جزاء على صالح أعمالهم.

واذكر أيها النَّبي فيما نقصُّه عليك، يوم نحشر الإنس والجنّ جميعاً ونقول: يا جماعة الجن قد استكثرتم من إغواء الإنس وإضلالهم، فيجيب الإنس الذين أطاعوا الجنّ واستمعوا إلى وسوستهم وتولّوهم: ربّنا انتفع كلٌّ منا بالآخر، انتفع الإنس بالشياطين حيث دلّوهم على الشهوات وعلى أسباب التَّوصل إليها، وانتفع الجنّ بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم، وبلغنا أجلنا الذي أجَّلت لنا، أي الموت أو يوم البعث والجزاء، اعترفنا بذنوبنا، فاحكم فينا بما تشاء، وأنت أحكم الحاكمين، ولقد أظهرنا الحسرة والنَّدامة على ما فرَّطنا في الدّنيا.

فأجابهم الله الحق تعالى بقوله: النار مأواكم ومنزلكم أنتم وإياها وأعوانكم، وأنتم ماكثون فيها مخلدون على الدوام، إلا من شاء الله من الخروج خارج النار لشرب الحميم، أو الانتقال من عذاب النار، إلى عذاب الزمهرير، وفي كلا الحالَيْن انتقال من عذاب إلى عذاب. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾. وقال ابن عباس فيما رواه ابن جرير الطَّبري وغيره: «إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا يُنزلهم جنَّةً ولا ناراً».

ثم أبان الله تعالى أمراً اجتماعياً مهمّاً: وهو أنه مثل تولّي الجن والإنس بعضهم لبعض، نولّي الظالمين بعضهم ببعض، بأن نجعل بعضهم أنصار بعض، بمقتضى التقدير والسُّنة الكونية، بسبب ما كانوا يكسبون من أعمال الظلم المشتركة بينهم، فكل فريق يتولى ويرعى شبيهه في الخُلق والعمل وينصره على غيره، قال ابن عباس: «إذا رضي الله على قوم ولّى أمرهم خيارهم، وإذا سخط على قوم ولّى أمرهم شرارهم». وهذا تهديد عامّ لكل ظالم ظلماً اجتماعياً عامّاً أو خاصّاً. والتعاون بين الفئات المتشابهة في سلوكها ظاهرة قائمة في المجتمعات، سواء فئات المؤمنين الصلحاء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١]. أو فئات الكافرين الأشقياء، كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ [الأنفال: ٨/ ٧٣] أي أعوانهم ونصراؤهم.

تقريع الظَّلمة على كفرهم

إن العدل الإلهي أمر مطلق شامل جميع أحوال الناس في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يرسل الله الإنذارات المتوالية من الكتب والرُّسل لتبليغ الأحكام وشرائع الله، والتحذير من مستقبل الحساب والجزاء الأُخروي. وفي الآخرة لا يجد الظَّلمة مناصاً من الاعتراف بتقصيرهم وامتناعهم من الإيمان واقترافهم السيئات. ويظهر العدل في الآخرة على أتم وجه وأحكم مظهر، حيث يوفَّى كل إنسان بما عمل من خير أو شرّ. قال الله تعالى موضّحاً أصول العدل وطرائق التزامه:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ(١) ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ

(١) خدعتهم.

كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٠-١٣٢].

هذه الآيات تقريع للظالمين، وتهديد شديد للكافرين من الجنّ والإنس، وبيان حالهم يوم القيامة، حيث يسألهم ربُّهم، وهو أعلم بما فعلوا، قائلاً: هل بلَّغتكم الرُّسل رسالات الله؟ يخبرونكم بآيات الإيمان والأحكام والآداب، وينذرونكم لقاء يوم الحشر الرهيب، وما فيه من الحساب والجزاء لمن يكفر بها ويجحدها؟!

فأجابوا عن السؤال، وقالوا يوم القيامة: أقررنا بأن الرُّسل قد بلَّغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم يوم القيامة كائن لا محالة، ونظير هذه الآية: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ٩]. وهذا إقرار منهم بالكفر والتقصير.

وخدعتهم الحياة الدنيا بزينتها ومتاعها من الشهوات والأموال والأولاد وحبِّ السلطة ورفعة الجاه، ففرَّطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرُّسل، وإنكار المعجزات، كِبراً وعِناداً.

وشهدوا على أنفسهم يوم القيامة أنهم كانوا كافرين في الدنيا، بما جاءتهم به الرُّسل عليهم السّلام.

ذلك الإرسال للرُّسل وإنذارهم الناس سلفاً، وإنزال الكتب الإلهية في عالم الحياة الحاضرة، بسبب أن من سنّة الله ألا يُؤاخَذ أحد بِظُلْمِه إذا لم تبلغه الدعوة الإلهية من طريق صحيح، وألا تهلك الأمم والشعوب بعذاب الاستئصال وهم غافلون عما يجب عليهم، بل لا بدّ من إرسال الرُّسل إليهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٥]، فالله لا يظلم أحداً من خلقه، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فمن

أطاع الله وآمن به وعمل صالحاً، استحقَّ الثواب والمكافأة الحسنة، ومن جحد وكفر وعمل شرّاً، استحقَّ العقاب والجزاء الشديد. وكل ما نزل وينزل بالمسلمين اليوم إنما هو لسوء أعمالهم، وتقصيرهم في تطبيق أمور دينهم. ولقد أخطأ كل الخطأ من نسب التَّخلف للدين، وترك أمر الناس الذين أصبحوا بلا دنيا ولا دين.

وما الدين إلا دافع لكل فضيلة وتقدُّم، ومانع من كل رذيلة وتخلُّف، ولا نجد مثل الإسلام يرغِّب في الطاعة والعمل والعطاء، ويرهِّب من العصيان والخمول والأخذ والاعتماد على جهود الآخرين؛ لهذا جعل القرآن تفاوتاً في المنازل والدّرجات بحسب تفاوت الأعمال، فذكر أن لكل عامل في طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله، يبلِّغه الله إياها، ويثيبه بها، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

والله مطَّلع رقيب على كل الأعمال، فما من عمل للعباد إلا يعلمه، وهو محصيه ومثبته لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائه إياهم، ومعادهم إليه.

وهذا دليل على أن مناط السعادة والشقاء: هو عمل الإنسان وإرادته، وكسبه واختياره، وإن كان لا يقع شيء في ملك الله إلا بإرادته، وإلا كان ذلك قهراً، يتنافى مع ملك المالك وهو الله سبحانه، تنزه الله عن كل نقص، وتبرأ من كل عيب، والله مع المحسنين أعمالهم، المقبلين على ربِّهم.

تهديد كفّار قريش وإنذارهم

لم يترك الله تعالى في قرآنه وسيلة لدفع الناس إلى الإيمان وترك الكفر إلا ذكرها، ولم يهمل طريقة إصلاحية إلا سلكها، سواء بالترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى، وهذا الحرص التربوي رحمة من الله بعباده، وفضل وإحسان لا نجد له نظيراً عند علماء التربية أو الحكماء والفلاسفة، والسبب في ذلك أن تربية القرآن غير مشوبة

بنفع مادّي، وهي مجردة من أجل الفضيلة ذاتها، ولتحقيق السعادة الأبدية للناس قاطبة. أما المربّون البشر فهم متأثّرون بالجانب النفعي، ولا تجد لديهم الحرص الشديد على تحقيق الثمرات والنتائج، وإنما منهجهم الغالب: (قل كلمتك وامش).
قال الله سبحانه مهدِّداً كفار قريش بعذاب الاستئصال ومنذرهم بعذاب الآخرة:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ(١) إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٣-١٣٥].

أخبر الله تعالى عن نفسه بأنه ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ فهو غير محتاج إلى طاعة المطيعين، ولا يتضرَّر بمعصية المذنبين، فإنه تعالى غني لذاته عن جميع العالمين، لا تنفعه طاعة ولا تضرُّه معصية، ولا يفتقر إلى شيء من جهة من الجهات، وهو سبحانه مع غناه ذو رحمة عامّة كاملة، وقادر على وضع الرحمة في هذا الخلق أو في خلق جديد بديل عنهم، ولكنه فوّض الأمر إلى خلقه على سبيل التهديد.

ومعنى الآيات: وربُّك أيها النَّبي هو الغني عن جميع خلقه وعن عبادتهم من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، وهو مع ذلك ذو الرحمة الشاملة بهم، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٥]. وقال في بيان غناه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٥].

إن يشأ الله يذهبكم ويستأصلكم أيها الكفار المعاندون في مكة وغيرها بعذاب الاستئصال الشامل، كما أهلك من عاند الرُّسل كعاد وثمود، ويأتِ بخلق جديد

(١) أقصى ما يمكنكم .

غيركم أفضل منكم وأطوع، كما قدر على إنشائكم من ذرِّية قوم آخرين، فهو سبحانه قادر على الإهلاك والإنشاء معاً، وقد حقق ذلك، فأهلك زعماء الشِّرك المعاندين، واستخلف من بعدهم قوماً آخرين، وهم المهاجرون والأنصار الذين كانوا مظهر رحمة الله للبشر في سلمهم وحربهم.

وبعد توجيه هذا الإنذار بالإهلاك في الدنيا، أتبعه الله إنذاراً آخر في الآخرة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ أي أخبرهم أيها النَّبي أن الذي توعدون به من الجزاء الأُخروي كائن لا محالة، ولستم بمعجزين الله بهرب ولا امتناع مما يريد، فهو القادر على إعادتكم، وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظاماً بالية، وهو القاهر فوق عباده.

ثم أردف الله تعالى الإنذارَيْن السابقَين بتهديد آخر شديد، وهو أخبِرهم أيها النَّبي بقولك: استمرّوا على طريقتكم وحالتكم التي أنتم عليها، إن كنتم تظنّون أنكم على هدى، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: ١١/ ١٢١-١٢٢].

إنكم سوف تعلمون أيّنا تكون له العاقبة المحمودة، أنحن أم أنتم؟ وعاقبة الدار: العاقبة الحسنى التي خلق الله تعالى هذه الدار لها. إنه لا يفلح الظالمون، أي لا يسعد ولا ينجح الظالمون أنفسهم بالكفر بنعم الله تعالى واتّخاذ الشُّركاء له في أُلوهيّته، كما ورد في آية أخرى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٣-١٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ معناه: إنكم سترون عاقبة عملكم الفاسد، وهذا وعيد وتهديد، وقوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ معناه: على حالكم وطريقتكم. ثم جزم الله الحكم بأنه ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي لا ينجح سعيهم، ولا يظفرون بشيء مفيد.

ومن أدب القرآن العالي اللطف في الإنذار حين قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي العقبى يوم القيامة، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤/٢٤].

نماذج من أنظمة الجاهليّة

قرر عرب الجاهلية مجموعة من الأنظمة والشرائع بمحض الأهواء والتّخيلات ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعقيدة الوثنية والشِّرك وعبادة الأصنام والأوثان، وكل ذلك لا يتقبّله العقل الإنساني السّوي ولا المصلحة العامة للنّظام القبلي، لأنه يفرّق ولا يجمع، ويهدم ولا يبني. ومن هذه الأنظمة الواهية ما يتعلّق بالصدقات والقرابين، ومنها ما يتعلّق بالأولاد، ومنها ما يتّصل بقسمة الأنعام. قال الله تعالى واصفاً هذا التشريع الفاسد والافتراء الكاذب:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ(١) مِنَ ٱلْحَرْثِ(٢) وَٱلْأَنْعَٰمِ(٣) نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ(٤) وَلِيَلْبِسُواْ(٥) عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(٦) ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ(٧) لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ

---

(١) خلق. (٢) الزرع. (٣) المواشي وهي الإبل والبقر والغنم والمعز. (٤) ليوقعوهم في الهلاك.

(٥) ليخلطوا عليهم. (٦) يختلقونه من الكذب. (٧) أي ممنوعة حرام.

وَصْفَهُمْ(١) إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٣٦-١٤٠].

سبب نزول هذه الآيات: أن العرب كانت تجعل من غلاتها وزرعها وثمارها ومن أنعامها جزءاً تسمّيه لله، وجزءاً تسمّيه لأصنامها، وكانوا يعنون بنصيب الأصنام أكثر منها بنصيب الله، لأن الله غني والأصنام فقيرة.

فهذه ألوان ثلاثة من شرائع الجاهلية العربية قبل الإسلام، ابتدعها المشركون بأهوائهم وآرائهم الفاسدة، ومن وساوس الشيطان وإيحاء إبليس. أما اللون أو الأنموذج الأول فهو كيفية قسمة القرابين من الحرث والأنعام، أي الزروع والمواشي، فجعلوا منها نصيباً مخصّصاً للأوثان والأصنام، ونصيباً لله، قائلين: هذا لله بزعمهم الذي لا دليل عليه، وهذا لشركائنا ومعبوداتنا نتقرَّب به إليها، أما نصيب الله فيطعمونه الفقراء والمساكين ويكرمون به الضِّيفان والصِّبيان، ونصيب الآلهة المزعومة يعطى لسدنتهم وخدمهم وينفقون منه على معابدهم، وما كان لشركائهم وأوثانهم يصرف لها، وما كان لله فهو واصل إلى شركائهم، وفي الحالين لا يصل إلى الله شيء، ألا ساء الحكم حكمهم، وبئس ما يصنعون.

والأنموذج الثاني الذي زيّن به الشيطان لهم أفعالهم: أن كثيراً من المشركين أقدموا على فعل شنيع جدّاً، وهو قتل أولادهم الذكور والبنات، وكان شركاؤهم وهم سدنة الآلهة وخدمها والشياطين زيَّنوا لهم قتل هؤلاء البنات، وأفهموهم أن قتلهم أولادهم قربى إلى الآلهة، كما فعل عبد المطّلب حين نذر قتل ابنه عبد الله، ومنشأ هذا التّزيين: أنهم خوّفوهم الفقر العاجل، وأوهمهم أن بقاء البنات عار وخزي

(١) وصف التحليل والتحريم كذباً.

وهوان، فأنكر القرآن الكريم عليهم ذلك الفعل، والتَّذرع بهذا السبب، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣١]. وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨١/ ٨ -٩].

وغاية هذا التَّزيين هي أن يُرْدوا المشركين ويهلكوهم بالإغواء، و يخلطوا عليهم أمر دينهم -دين إبراهيم وإسماعيل- دين التوحيد الذي لا شيء فيه من هذا، ولو شاء الله ما فعلوا هذا أبداً، فاتركهم أيها النَّبي وما يدينون ويفترون من الكذب والضلال، وما عليك إلا البلاغ، فإنهم بأنفسهم اختاروا هذا الطريق المعوج دون جبر ولا إكراه. والأنموذج الثالث من شرائع الجاهلية: أنهم قسموا أنعامهم ثلاثة أقسام:

أ- أنعام محبوسة على معبوداتهم وأوثانهم الآلهة، قائلين: لا يطعمها ولا يأكل منها إلا من نشاء بحسب زعمهم من غير حجة وبرهان، وهم خدم الأوثان والرجال دون النساء.

ب- وأنعام ممنوعة ظهورها، فلا تركب ولا يحمل عليها، وهي البحيرة والسائبة والحامي، إذا ولد منها نتاج معين.

ج- وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام، ولا ينتفعون بها حتى في الحج.

هذه القسمة الجائرة مجرد افتراء على الله، فالله لم يشرع ذلك، وليس لهم أن يحلِّلوا أو يحرِّموا شيئاً لم يأذن الله به، وسيجازيهم الله الجزاء الذي يستحقونه بسبب افترائهم.

ومما قال هؤلاء المشركون: إن أجنّة وألبان هذه الأنعام (المواشي) حلال خاص برجالنا، ومحرَّم على نسائنا، فإذا ولدت الشّاة ذكراً، فلبنها للذكور دون الإناث،

وإذا ولدت أنثى تركت للنّتاج فلم تذبح، وإذا كان المولود ميتاً اشترك فيه -أي في أكله- الذكور والإناث، والله يجزيهم على قولهم ووصفهم الكذب في ذلك، إنه سبحانه حكيم في صنعه وتدبيره، عليم بأفعال وأقوال خلقه.

ثم حكم الله تعالى على المشركين بالخسارة الفادحة حين قتلوا أولادهم ووأدوا بناتهم، سفهاً أي حماقةً وجهلاً، خوفاً من ضرر موهوم وهو الفقر، وحين حرموا على أنفسهم طيّبات الرزق افتراء وكذباً على الله، إنهم ضلّوا ضلالاً واضحاً بعيداً عن الحق، ولم يهتدوا إلى الصواب، ولم يرشدوا إلى خير أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة.

الرَّد على المشركين لإثبات قدرة الله تعالى

التَّشريع في الإسلام منوط بمن يملك القدرة اللامتناهية على خَلْق الأشياء وإيجادها، وبما أن الله تعالى هو وحده مبدع الكائنات كلها، وصاحب النِّعم الجليلة، فهو مصدر التشريع من إباحة وتحريم، وإيجاب ومنع، وليس للبشر الحق في أن يحرِّموا أو يحلِّلوا ما شاؤوا من غير حجة بيِّنة ولا برهان واضح، لذا نبَّه القرآن الكريم إلى هذه القضية المهمة الخطيرة، فلما افترى المشركون على الله الكذب، وأحلّوا وحرّموا، دلَّهم على قدرته ووحدانيَّته تعالى، وأوضح لهم أن الخالق المبدع هو صاحب الحق في التحليل والتحريم، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ(١) وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ(٢) وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا

(١) محتاجه للتَّعريش كالكرم . (٢) مستغنية عنه كالنّخل .

أُكُلُهُۥ(١) وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً(٢) وَفَرْشًا ۚ(٣) كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ(٤) إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ(٥) ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤١-١٤٤].

هذه الآيات تنبيه على مواضع الاعتبار والاتّعاظ، وقد تضمَّنت الأمر بفريضة الزكاة على الزروع والثمار، أخرج ابن جرير الطبري عن أبي العالية قال: كان المشركون يعظّمون شيئاً سوى الزّكاة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وقال أبو العالية: كانوا يعظّمون يوم الحصاد شيئاً سوى الزكاة، ثم تباروا فيه وأسرفوا، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾

ومعنى الآيات أن الله تعالى هو الذي أوجد البساتين والكروم المشجرة، سواء منها المعروش، أي الذي يحمل على عرش وهو السقف الذي يوضع عليه كروم العنب، وغير المعروش: وهو البساتين وما يلقى على وجه الأرض من غراس الشجر في الجبال والصحراء ونحو ذلك، وخلق سبحانه أيضاً النّخل والزّرع المختلف الطعم واللون والرائحة والشكل، وخصص الله إيراد النّخل لكثرته عند العرب ولجماله

(١) ثمره في الطعم والجودة والرّداءة. (٢) ما يحمل الأثقال كالإبل. (٣) ما يفرش للذّبح كالغنم. (٤) طرقه وأعماله. (٥) أمركم الله.

وكثرة منافعه ودوام ورقه، دون سقوط في مختلف الفصول، وأنشأ الله أيضاً مع هذا: الزيتون والرّمان متشابهاً في المنظر وغير متشابه في الأكل والطَّعْم، وذلك كله مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى وحكمته ووحدانيته في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله. بدليل أن التربة واحدة والماء واحد، و يخرج منهما أصناف الأشجار والثمار والزروع من طعام وعسل ومسك ونباتات وأعشاب طبية وغير طبية، وكل ذلك لمنفعة الإنسان وخدمة أغراضه.

فكلوا أيها الناس من ثمر هذه الزروع والبساتين، واشكروا نعمته عليكم بإيتاء الفقراء والمساكين جزءاً من الناتج والغلّة يوم الحصاد أو القطاف، وهذه هي الزّكاة المفروضة المطلقة في بدء صدر الإسلام، ثم حددت أصناف الزكاة في آيات مدنية. ولا تسرفوا أيها الناس، فالإسراف خطأ مطلقاً ولو في الشيء الحلال، ولا تسرفوا في الأكل، ولا في التَّصدق، إنه سبحانه لا يحبُّ المسرفين في أي شيء، وإنما يحب التوسط.

وخلق الله لكم من الأنعام أنواعاً مختلفة، منه ما يصلح للحمل والعمل والركوب، ومنه الصغار الذي يتخذ فرشاً أي يفرش على الأرض للذبح، كلوا مما رزقكم الله، وانتفعوا بلحوم الأنعام وألبانها وأوبارها وشعرها وصوفها، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ومزالقه بتحريم ما أحلَّ الله، أو إحلال ما حرَّم الله، فإن الشيطان عدوّ ظاهر العداوة للإنسان.

وهذه الأنعام ثمانية أصناف وأزواج وهي الإبل والبقر والغنم والمعز، وكل منها ذكر وأُنثى: كبش ونعجة، وتيس وعنزة، وجمل وناقة، وثور وبقرة.

فما الذي حرَّم الله عليكم أيها المشركون: أحرَّم الذَّكرين من الجمل والثور أم حرَّم الأُنثيين من الناقة والبقرة أم حرَّم ما اشتملت عليه أرحام الأُنثيين؟ لم يحرِّم الله

شيئاً من ذلك إذا ذبح، فأخبروني عن دليل لكم في التحريم والتحليل إن كنتم صادقين في ادِّعائكم، إنكم لكاذبون فيما زعمتم، وهل كنتم حضوراً شهوداً شاهدتم ربّكم، فوصّاكم وأمركم بهذا التشريع، فمن أظلم ممن افترى على الله الكذب لإضلال الناس جهلاً بغير علم، والله تعالى جزاء لهذا الظلم لا يوفق للرَّشاد من افترى عليه الكذب، ولا يهديه إلى الحق والعدل.

المقارنة بين المحرَّمات في شريعتنا وبين شريعة اليهود

ذكر القرآن الكريم مقارنة لطيفة بين المطعومات المحرَّمة في شريعتنا وبين المحرَّمات على اليهود، ليظهر الفارق الواضح بين أسباب التحريم، ففي شريعتنا كان سبب التحريم في المطعومات الحرام ما فيها من ضرر وأذى للصحة أو العقيدة، وفي شريعة اليهود كان سبب التحريم هو البغي والعدوان وتجاوز حدود الوحي الإلهي، فاستحقوا بذلك المكايدة والمضايقة في الدنيا وإنزال العذاب عليهم في الآخرة. قال الله تعالى:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا(١) أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ(٢) أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ(٣) فَمَنِ ٱضْطُرَّ(٤) غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ(٥) فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ(٦) وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ(٧) أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ(٨) عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٥-١٤٧].

---

(١) سائلاً. (٢) خبيث نجس. (٣) ذكر عند ذبحه اسم غير الله. (٤) أُلجئ لأكله. (٥) غير طالب الحرام للذة، ولا متجاوز ما يسدّ الرمق. (٦) ماله إصبع. (٧) الأمعاء. (٨) لا يدفع عذابه.

أخرج عبد بن حميد في بيان سبب نزول آية ﴿قُل لَّآ أَجِدُ..﴾ عن طاوس قال: إن أهل الجاهلية كانوا يحرِّمون أشياء، ويستحلُّون أشياء، فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا..﴾ الآية.

ذكرت هذه الآية المكِّية أنواع المحرَّمات في الجملة، وفصَّلتها آية المائدة (٣) المدنية، ثم حرَّم رسول الله ﷺ أكل كل ذي ناب من السِّباع وكل ذي مِخْلب من الطير. وتحريم المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة في المدينة؛ لأنها في حكم الميتة، وإن كان موتها بسبب وليس حتف الأنف.

أمر الله نبيَّه أن يعلن أنه لا يوجد في شريعة القرآن تحريم شيء على طاعم وآكل يأكله إلا أربعة أنواع: هي الميتة التي ماتت حتف أنفها بغير ذبح شرعي، والدّم المسفوح أي الدّم السائل الذي يتدفَّق من عروق المذبوح، ولحم الخنزير ومثله شحمه وسائر أجزاء جسده، فإنه نجس ينبغي اجتنابه، والفسق وهو المذبوح لغير الله ولم يذكر اسم الله عليه، وهو ما يتقرَّب به إلى الأصنام والأوثان. أما الدّم الجامد وهو الكبد والطِّحال فحلال أكله، لقوله ﷺ -فيما يرويه الحاكم والبيهقي عن ابن عمر-: «أُحِلَّت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت (السمك) والجراد، وأما الدّمان فالكبد والطِّحال».

وتحريم هذه الأشياء الأربعة لما فيها من ضرر صحي يؤذي الجسد، أو ضرر يمسُّ الاعتقاد وهو القرابين المذبوحة التي يتقرَّب بها إلى الأصنام والأوثان. ثم استثنى الله تعالى من هذه المحرَّمات حال الضرورة: وهي احتمال الوقوع في خطر الموت أو الهلاك جوعاً أو عطشاً إذا لم يتناول الممنوع، فمن أصابته ضرورة ملجئة إلى أكل الحرام، فهو حلال له بشرط ألا يكون باغياً، أي قاصداً له، ولا متجاوزاً حدّ الضرورة، فضلاً من الله ورحمة، ويغفر الله للآكل حينئذ ويرحمه حفاظاً على حقّ

الحياة، ما دام يتناول ما يسدُّ به رمقه، أو يدفع ضرر هلاكه. وهذه المحرَّمات تحريمها دائم مستمرّ؛ لأن التحريم لأسباب ذاتية.

وأما الأشياء التي حرَّمها الله على اليهود فهو تحريم مؤقت، عقوبة لهم، لا لذات الأشياء، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٠].

وانصبَّ التَّحريم عند اليهود على شيئين: الأول-كل ما له ظفر: وهو ما ليس منفرج الأصابع كالإبل والنَّعام والأوز والبط. والثاني-الشحوم الزائدة التي تنتزع بسهولة، على البقر والغنم دون غيرهما، وهي ما على الكَرِش والكُلى فقط، أما شحوم الظَّهر (السَّنام) والذَّيل (الألية) فليست محرَّمة، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾. والحوايا: الأمعاء. وهذا التحريم بسبب الظلم والبغي -وخبر الله صادق يقيناً- وظلمهم: هو قتل الأنبياء بغير حق، وصدِّهم عن سبيل الله، وأخذهم الرِّبا، وأكل أموال الناس بالباطل. وهذا تكذيب لليهود في قولهم: إن الله لم يحرِّم علينا شيئاً، وإنما حرَّمنا على أنفسنا ما حرَّمه إسرائيل على نفسه، فإن كذبوك يا محمد بما أخبرتك به، فقل لهم على سبيل التَّعجب من حالهم والتعظيم لافترائهم الكذب: إن الله ذو رحمة واسعة، إذ لايعاجلكم بالعقوبة مع شدة جُرْمكم، ولا تغتروا أيضاً بسعة رحمته، فإنَّ لله عذاباً لا يردُّ عن المجرمين إما في الدنيا وإما في الآخرة. وهذا جمع بين أسلوب الترغيب والترهيب في آن واحد، ترغيب في امتثال أمر الله، وترهيب من مخالفة الله والرّسول.

الاحتجاج بالقدر الإلهي والمشيئة

زعم المشركون أن شركهم بالله وتحريمهم الأشياء المباحة إنما هو بقدر الله، فقالوا: «لولا المشيئة لم نكفر» و«لو شاء الله منا ألا نكفر لمنعنا عن هذا الكفر، وحيث لم يمنعنا عنه، ثبت أنه مريد لذلك، فإذا أراد الله ذلك منا، امتنع منا تركه، فكنا معذورين فيه» فردّ الله هذا الزعم الباطل، وذم الله تعالى ظن المشركين أن ماشاء الله لايقع عليه عقاب، فقال الله تعالى حاكياً قولهم:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(١) ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ(٢) ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(٣) ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٤٨-١٥٠].

هذه شبهة تمسّك بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرّموا، فإن الله مطّلع على ما هم فيه من الشّرك وتدخُّلهم في التحريم، إنهم يقولون: إن شركهم وشرك آبائهم، وتحريم ما أحلّ الله من الحرث (الزرع) والأنعام (المواشي) هو قائم بمشيئة الله وإرادته، ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك، كمذهب الجبرية تماماً.

فردَّ الله عليهم شبهتهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وفي الكلام حذف يدلُّ عليه السياق، أي سيقول المشركون كذا وكذا، وليس في ذلك حجة لهم، ولا شيء يقتضي تكذيبك، ولكن كذلك كذب الذين من قبلهم بنحو هذه الشبهة، من

(١) تكذبون على الله تعالى. (٢) أحضروا أو هاتوا. (٣) يسوون به غيره في العبادة.

ظنهم أن ترك الله لهم دليل على رضاه بحالهم. فتكذيبهم وتكذيب من قبلهم لا أساس له من العلم والعقل؛ لأنهم كذبوا الرُّسل، ولو كان قولهم صحيحاً لما عاقبهم الله تعالى على كفرهم؛ لأن الله عادل. والله سبحانه أذاقهم بأسه، أي عذابه بناء على اختيارهم وإرادتهم، وإن كان كل شيء لا يقع في الكون إلا بإرادة الله ومشيئته.

ثم أمر الله نبيَّه أن يطالبهم بالبرهان على ما زعموا بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ . .﴾ أي هل لديكم أمر معلوم وبرهان واضح يصحُّ الاحتجاج به فيما قلتم، فتظهرونه وتبيِّنونه لنا لنفهمه. وحقيقة حالهم هي أنه لا حجة ولا برهان على ما يقولون، وما يتَّبعون إلا الوهم والخيال والاعتقاد الفاسد، وما هم إلا يكذبون على الله فيما ادَّعوه.

ثم أورد الله تعالى الدليل القاطع على الدين الحق بقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ والمعنى: قل أيها الرّسول لهؤلاء المشركين الجاهلين بعد بطلان حجتهم: لله تعالى الحجة الكاملة على ما أراد من إثبات الحقائق وإبطال الباطل، وحجته بالغة غاية المقصد في الأمر المحتجّ به، فإن مشيئة الله تعالى لا تعني رضاه عن أعمالهم، والله بيَّن الآيات، وأيَّد الرُّسل بالمعجزات، وألزم أمرُه كل مكلف، وإرادتُه وعلمه وكلامُه غيب لا يُطْلع عليه أحداً إلا مَن ارتضى من رسول، وليس الإنسان مجبراً على الإيمان أو الكفر والمعصية، وإنما هو بنفسه الذي يختار عمله ومنهاجه، ولو كان المكلف مجبراً لما اقتضى العدل الإلهي تكليفه بشيء، وإثابته وعقابه في الآخرة. والله قادر على هداية الناس أجمعين.

ومن أدلة إبطال تذرُّع المشركين بشبهتهم: مطالبتهم بأن يأتوا بشهود يشهدون على صحة ما يدَّعونه من تحريم الله هذه المحرمات، وهذا هو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي أحضروا شهداءكم الذين يشهدون لكم عن عيان أن الله حرَّم عليكم هذا الذي زعمتم تحريمه وكذبتم وافتريتم على الله فيه.

فإن شهدوا على سبيل الفرض فلا تشهد معهم، أي لا توافقهم على أقوالهم، ولا تصدِّقْهم ولا تقبلْ شهادتهم، فهم شهود زور كذبة، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآيات الله الدّالة على وحدانيته وربوبيته، ومنها حقّه في التشريع والتحليل والتحريم، ولا تتبع أهواء هؤلاء الجاهلين المتّبعين لأهوائهم الذين لا يوقنون بمجيء الآخرة وما فيها من حساب، وهم يشركون بربّهم، ويجعلون له عديلاً يشاركه في جلب الخير، ودفع الضُّر، والحساب والجزاء.

وبهذا بطل ادِّعاء المشركين واحتجاجهم بالمشيئة الإلهية، فإن المشيئة أمرها لله، وما على الناس إلا تنفيذ التكليف الإلهي، لأنهم لا علم ولا اطّلاع لهم على مراد الله وعلمه ومشيئته.

الوصايا العشر

أورد القرآن الكريم الوصايا العشر المتّفق عليها في الأديان كلها، في التوراة والإنجيل والفرقان، وأمر الله نبيَّه محمداً ﷺ أن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرَّم الله بشرع الإسلام الخالد المبعوث به إلى جميع الناس -الأسود والأحمر والأبيض- قال الله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ[1] مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ[2] نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ[3] مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم[4] بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ[5] وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ[6] لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[7] وَإِذَا قُلْتُمْ

(١) أقرأ. (٢) أي فقر. (٣) الكبائر من المعاصي. (٤) أمركم. (٥) يرشد ويقوى. (٦) بالعدل.
(٧) طاقتها.

فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥١-١٥٣].

قال ابن عباس: في الأنعام آيات محكمات هنّ أُمّ الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾

تضمنت هذه الآيات الثلاث الوصايا العشر التي وردت خمس منها بصيغة النَّهي، وخمس بصيغة الأمر.

الوصية الأولى -نبذ الشِّرك بالله تعالى، فالشِّرك أعظم جريمة في الدين، لأنه نسبة الشريك إلى الله في الألوهية، وهذا مرفوض عقلاً؛ لأن الشُّركاء، سواء أكانوا من الكواكب كالشمس والقمر، أم من الملائكة والنَّبيين، أم من الجمادات كالأصنام والأوثان، كلهم مخلوقون لله، والمخلوق مهما عظم عبدٌ للخالق، والخالق وهو الله تعالى هو المستحق للعبادة والتعظيم والتقديس.

والوصية الثانية -الإحسان إلى الوالدين إحساناً كاملاً، بإخلاص وشعور قلبي بالاحترام والتزام أوامرهما بالمعروف، ومعاملتهما معاملة كريمة قائمة على المحبة والمودّة والبر، لا الخوف والرّهبة. وبرّهما سلف ودين، فكما تبر أبويك يبرك أولادك، قال النَّبي ﷺ فيما رواه الطبراني عن ابن عمر: «برّوا آباءكم تبركم أبناؤكم، وعِفّوا تعفّ نساؤكم».

والوصية الثالثة -تحريم وأد البنات وقتل الأولاد خشية الفقر أو العار، فالله يرزقكم أيها الآباء وإياهم رزقاً مكفولاً دائماً، فلا تخشوا الفقر المتوقَّع ولا العار اللاحق؛ لأن الله يرزق العباد ويحفظ البنات إذا حسنت التربية، ودانت البنات بالدين الحق والخلق الكريم.

والوصية الرابعة -تحريم اقتراف الفواحش: وهي كل ما عظُم جُرْمه وإثمه وقبحه من الأقوال والأفعال كالزِّنى والقذف والنظر إلى الأجنبية والاختلاط بها والمنكرات السِّرية التي يمارسها بعض الناس في خفية وتستُّر، فإن الله حرَّم الفواحش الظاهرة والباطنة، وكانوا في الجاهلية لا يرون بأساً في الزِّنى سرّاً، أما في العلانية فكانوا يعدّونه قبيحاً، فحرَّم الله النوعَيْن، لضرر الزِّنى وقبحه شرعاً وعقلاً.

والوصية الخامسة -منع قتل النفس بغير حق، لأن قتل النفس المسلمة والمعاهَدة جريمة كبرى ومنكر عظيم، واعتداء شنيع على صنع الخالق، ولا يحل القتل إلا عقاباً قانونياً بالحق على أحوال ثلاث: زنا المحصن المتزوج، والقتل العمد، والرِّدة عن الإسلام، لما فيه من خروج على قواعد النظام العام في المجتمع، ذلكم أمركم الله به لتعقلوا وتتدبروا المخاطر والسيئات.

والوصية السادسة -المحافظة على مال اليتيم، فلا يجوز أخذ شيء منه إلا بحق، كمقابل الإشراف على الاستثمار والتنمية، والمحافظة والإنفاق للتربية والتعليم وكان الولي فقيراً محتاجاً. فإن بلغ الولد رشيداً، وجب دفع ماله إليه من غير تلكؤ ولا تردُّد، لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ.. ﴾ [النساء: ٤/ ٦].

والوصية السابعة والثامنة -إيفاء الكيل والميزان بالقسط أي بالعدل، دون زيادة ولا نقص في البيع والشراء والقرض والإيفاء والاستيفاء؛ لأن العدل أساس الحقوق، والتطفيف بالكيل والميزان هضم للحق وضياع للمال.

والوصية التاسعة -العدل في القول، أي الشهادة والحكم والقضاء؛ لأن العدل ميزان الحقوق، وأساس القبول والرِّضا دون أحقاد ولا عداوات.

والوصية العاشرة -الوفاء بالعهد الإلهي، سواء أكان عهداً مع الله، أم مع الناس. ذلكم وصاكم وأمركم الله بهذا لعلكم تتذكرون وتتعظون بهذا.

وختم الله تعالى هذه الوصايا العشر ببيان أنها منهاج الحق وطريق الاستقامة، فمن اتَّبعها وفق ورشد، ومن أعرض عنها ضلَّ وغوى، وحاد عن سبل الهداية وطريق الله المستقيم، وقد وصّاكم الله بهذا وأمركم لتحققوا تقوى الله، وتميزوا المنافع والمضارّ في الدين، وتحققوا الفضائل وتتركوا الرذائل. وبما أن المحرَّمات الأوائل مخاطر لا يقع فيها عاقل ختمت الآية الأولى بالتعقل، وجاء بعد المحرَّمات الأخر التي هي شهوات الأمر بالتذكر، وختمت الآيات بالتَّقوى؛ لأن امتثال الوصايا يتضمن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوى.

خصائص التَّوراة والقرآن

أخبر القرآن الكريم بكل حَيدة وموضوعية عن خصائص التوراة والقرآن الكريم، والغاية المقصودة من إنزال كلٍّ منهما، وخصَّص الله تعالى كلاماً عن التوراة لاشتهارها عند مشركي العرب وسماعهم أخبارها، ثم ذكر الله تعالى مكانة القرآن العظيم وكونه كتاب هداية ورحمة للعالمين، قال الله سبحانه:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ[1] عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٤-١٥٧].

(١) أعرض عنها .

من المعلوم أن موسى عليه السَّلام متقدِّم في الزمان على محمد ﷺ، فكتابه متقدِّم وفيه تلاوة ما حرَّم الله تعالى، فالتحريم والتحليل وبيان أحكام التشريع قديم في البشرية، والتوراة أشبه بالقرآن من الإنجيل والزّبور لاشتمالها كثيراً على الأحكام أو التكاليف الشرعية، لذا أمر الله نبيَّه بأن يخبر المشركين بما أنزل الله على موسى عليه السّلام وإيتائه التوراة تماماً للكرامة والنعمة على الذي أحسن في اتِّباعه والاهتداء به وهو موسى ومن تبعه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧٣]. وفي التوراة تفصيل لكل شيء محتاج إليه من أحكام الشريعة: عبادتها ومعاملتها، وهدى لمن اهتدى به، ورحمة لمن تمسَّك به، فينجيه من الضلالة، ليجعل قومه يؤمنون بلقاء ربِّهم، أي لقاء ما وعدهم الله به من ثواب وعقاب في دار الكرامة والسّلام.

ثم وصف الله تعالى القرآن الكريم بقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ..﴾ أي وهذا القرآن كتاب عظيم الشأن، كثير الخير والنَّفع في الدين والدنيا، ثابت لا ينسخ، جامع لأسباب الهداية الدائمة والنجاة والفلاح، فاتَّبعوا أيها الناس ماجاء فيه، واتَّقوا النار والجحود بما نهاكم عنه ومنعكم منه، لتظفروا برحمة الله الواسعة في الدنيا والآخرة.

لقد أنزلنا إليك القرآن أيها النَّبي محمد، فيه إرشاد للتوحيد وتزكية النفوس وتطهيرها من لوثات الشِّرك والفسوق، لئلا تقولوا معشر العرب يوم الحساب: لوأنزل علينا مثل ما أنزل على اليهود والنصارى من قبلنا بغير لساننا، لكنّا أهدى منهم فيما أوتوه، لأننا أكثر وعياً وتفهُّماً وأعمق بصيرة وأشدّ عزيمة، وإبطالاً لتلك التعللات ومحاولات التهرب من مسؤولية العمل بشرع الله، فقد جاءكم على لسان رسولنا النَّبي العربي محمد ﷺ قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما في القلوب، ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه، ويقتفون ما فيه، ففيه العقيدة والآداب والأحكام.

ثم أوضح الله تعالى سوء عاقبة من كذب بالقرآن، فذكر أنه لا أحد أظلم ممن كذَّب بهذه الآيات البيِّنات، بعد أن عرف صحتها وصدقها، وأعرض عنها، ومنع الناس عن التفكير فيها والإيمان بها، كما كان يفعل زعماء مكة، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٢٦].

ثم هدَّد الله وأوعد بالعقاب لكل معرض عن القرآن العظيم، فذكر أنه سبحانه سيجازي المعرضين الحائدين عن آيات الله أشدّ العذاب بسبب حجب عقولهم ونفوسهم وغيرهم عن هداية الله والإعراض عنها؛ لأنهم يتحملون وزرهم ووزر من منعوهم عن الحق، وحالوا بينهم وبين هداية الله، والإيمان بما أنزل الله، كما جاء في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النّحل: ١٦/٨٨].

أي زدناهم عذاباً غير عذابهم، بسبب إفسادهم وصدِّهم عن سبيل الحق. وبهذا يتبيَّن أنه لا عذر لأحد في الجهل بما جاء عن الله من أحكام وشرائع، ففي القرآن بيان كافٍ من الله، وهدى للزائغين، ورحمة للمؤمنين. ومن اهتدى بهدي الله فاز ونجا، ومن استنكف خسر وهلك، ولا يضرنّ إلا نفسه، وسيجزي الله الشاكرين.

تهديد المعاندين وترغيب المحسنين

رسالة القرآن المجيد رسالة إصلاح وتغيير شامل للفرد والجماعة، تبدأ بالعقيدة فالعبادة فالمعاملة، وتنتهي بنظام المجتمع والأمة، وإذا أراد الناس بأنفسهم خيراً، استمعوا لتوجيهات الله تعالى في الحياة، وبما أن القرآن منبر تربية وتوجيه حكيم حذر من ترك الإيمان بالله تعالى ربّاً واحداً لا شريك له، وحذَّر من الفرقة

والاختلاف ورغّب بفعل الحسنات والأعمال الصالحات، ونفّر من اقتراف السيئات وقبائح الأعمال، قال الله تعالى مبيّناً هذا المنهج السّديد:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا(١) لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٥٨-١٦٠].

كان القرآن الكريم صريحاً واضحاً مع مشركي العرب حين أعرضوا عن دعوة الله ورسوله لإصلاح العقيدة والحياة والأخلاق، فبعد أن أنذرهم بسوء العقاب وتعجيل العذاب، وصف موقفهم بأنهم ما ينتظرون إلا أحد أمور ثلاثة، وهي مجيء الملائكة أو مجيء الرَّب، أو مجيء الآيات القاهرة من الله تعالى، هل ينتظرون لإنزال العذاب إلا أن تأتيهم ملائكة الموت الذين يصحبون عزرائيل المختصّ بقبض الأرواح، فتخلع رقابهم وتعصف بهم، أم هل ينتظرون مجيء الرَّب تبارك وتعالى لموقف الحساب يوم القيامة، أم هل ينتظرون مجيء بعض آيات ربِّك الدّالة على قرب قيام الساعة؟ يوم يأتي بعض آيات الله القاهرة الموجبة للإيمان الاضطراري، كطلوع الشمس من مغربها، لا ينفع هذا الإيمان نفساً لم تكن آمنت من قبل، فإن الإيمان تكليف اختياري في وقت عادي غير قهري، ولا يقبل إيمان اليأس مثل إيمان فرعون حينما أحدق به الغرق. كما لا ينفع في وقت الأزمة الخانقة ومجيء أمارات العذاب توبة لم تكن حدثت في وقت السَّعة والرَّخاء قبل الغرغرة ووصول الروح إلى الحلقوم.

قل: يا محمد على سبيل التهديد والوعيد، سترون من يحقّ كلامه، ويتضح ماأخبر

(١) فرقاً وأحزاباً ضالِّين.

به، وانتظروا وقت نزول العذاب الساحق، إننا منتظرون أمر ربنا ووعده الصادق لنا بالنصر، ووعيده المتحقق لأعدائنا، إنكم تنتظرون الهزيمة لنا ولفكرنا وعقيدتنا، ونحن ننتظر مجيء العذاب الشديد على بغيكم وعدوانكم وإعراضكم عن صراط ربّكم.

ثم أخبر الله تعالى عن عاقبة التفرُّق والتمزُّق، فذكر أن الذين فرقوا دينهم، وهم أهل البدع والشُّبهات، وأهل الضّلالة من هذه الأمة، والقائمون على تفريق الأمة، هؤلاء لا تتعرض لهم يا محمد ودعهم وشأنهم ولا تقاتلهم، وإنما عليك تبليغ الرسالة، وإعلان شعائر الدين الحق، إنك أيها النَّبي بريء منهم وهم برآء منك، والله يتولى أمرهم وحسابهم، ثم يخبرهم في الآخرة، ويجازيهم على تجزئة الدين، بالإيمان ببعضه والكفر ببعضه الآخر.

والجزاء على الأعمال واضح وأمر حتمي، فمن جاء يوم القيامة بالخصلة الحسنة والفعلة الطيبة من الطاعات وأداء الفرائض والتزام شرائع الله، فله جزاؤها عشر حسنات أمثالها، والمضاعفة بعدئذ إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة بحسب فضل الله وبمقتضى مشيئته وحكمته وعلمه بأحوال المحسنين. ومن جاء بالسيئة فاقترف منكراً أو ارتكب ذنباً، فله عقوبة مماثلة لها فقط لا يظلمون، أي لا ينقصون من أعمالهم شيئاً. جاء في الحديث النَّبوي عند أحمد والبخاري وغيرهما عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى: «إن ربَّكم عزّ وجلّ رحيم، من هَمَّ بحسنة فلم يعملها، كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها، كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يمحوها الله عزّ وجلّ، ولا يهلك على الله إلا هالك» والملائكة الكرام هم الموكلون بكتابة الحسنات والسيئات، بأمر الله لهم.

اتِّباع ملَّة إبراهيم عليه السّلام

ربط القرآن الكريم عقيدة المسلمين بعقيدة التوحيد وهي ملَّة أبينا إبراهيم الخليل عليه السّلام، وألزم بضرورة الإخلاص في الاعتقاد والعمل، وحاسب كل امرئ على ما عمل بنفسه فلا يسأل عن عمل غيره، وردّ جميع الأعمال للحساب والجزاء يوم القيامة، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا حاسب الله عليها، قال الله تعالى مبيِّناً هذه الأصول العامة:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا(١) مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا(٢) وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي(٣) وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ(٤) ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ(٥) وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ(٦) فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦١-١٦٥].

لكل شيء بعيدِ الآثار كثير الجوانب منهج عملي واضح، وخطة تفصيلية تجمع الوسائل مع الغايات، وتربط الفروع بالأصول، وتجمع بين العقيدة والقول والعمل، وهذا هو منهاج القرآن المجيد.

أمر الله عزّ وجلّ نبيَّه عليه الصّلاة والسّلام بإعلان شريعته، ونبذ ما سواها من أضاليل المشركين، ووصف الشريعة بما هي عليه من الحسن والفضل والاستقامة، لقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يخبر بما أنعم الله عليه من الهداية إلى الطريق القويم الذي لا عوج فيه ولا انحراف وهو الدين القيِّم المؤدي إلى سعادة الدنيا والآخرة،

---

(١) مستقيماً لا اعوجاج فيه . (٢) مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق . (٣) عبادتي . (٤) لا تحمل نفس آثمة .
(٥) يخلف بعضكم بعضاً فيها. (٦) ليختبركم .

القائم بالحق، الثابت الأصول، القائم على التزام ملّة إبراهيم الخليل عليه السّلام الذي كان مائلاً عن جميع أنواع الشّرك والضلالة إلى ملّة التوحيد الخالص، ولم يكن يوماً من الأيام من زمرة المشركين المنحرفين، كما قال الله سبحانه في آية أخرى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً(١) قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النّحل: ١٦/ ١٢٠]. أي لم يكن أبداً من المشركين، وإنما كان مؤمناً بالله، موحداً إياه، مخلصاً له عبادته.

ثم أمر الله نبيَّه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه: بأنه مخالف لهم في ذلك كله، فإن صلاته لله، ونسكه أي الذبائح والعبادة وأداء شعائر الحج وغيرها كله لله، والمعنى: إن مقصده في صلاته وطاعته في ذبيحة وغيرها، وتصرفه مدة حياته، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته، إنما هو لله عزّ وجلّ، وإرادةِ وجهه وطلب رضاه، فإن عاش فلله، وإن جاهد فلله، وإن صلّى وحجّ واعتمر فلله، وإن مات فلله، له الحكم وله الأمر، وبيده مقاليد أمور الخلائق والعوالم كلها.

وفي هذا إرشاد للمؤمنين وإلزام بالتّأسي به، حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عزّ وجلّ. والله واحد لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في ربوبيته، فله العبادة وحده، والتشريع منه وحده، بذلك أمر الله ربّي، ويقول الرسول ﷺ بأمر الله عن نفسه: وأنا أول المسلمين، أي الخاضعين المنقادين إلى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، هذا إثبات لتوحيد الألوهية.

ثم أعقبه بتوحيد الرُّبوبية، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا . .﴾ أي أغير الله أطلب ربّاً سواه، مع أنه هو مالك كل شيء، خلقه ودبَّره، وهو مصدر النفع ومنع الضّر، فكيف أجعل مخلوقاً آخر ربّي؟!

(١) رجلاً جامعاً للخير كله.

وما من عمل يكسبه الإنسان إلا عليه جزاؤه دون غيره، ولا تتحمل نفس حاملة حِمْل نفس أخرى وثقلها، فكل إنسان مجزي بعمله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطُّور: ٥٢/ ٢١] وسيجزى كل عامل بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، والرجوع في نهاية المصير من الذين يلقبون أنفسهم بالحنفاء إلى الله وحده دون غيره، فهو الذي يخبركم بجميع أحوال اختلاف الناس في الدين والمعاش، ومجازيكم عليه بحسب علمه وإرادته، ويعلِّمكم أن العقاب على الاعوجاج تبيين لموضع الحق.

ثم فتح الله للناس ميدان العمل، مطلقاً لهم الحرية والخلافة في الأرض، يخلف بعضهم بعضاً فيها، بعد إهلاك جيل وإحياء جيل آخر، وهم متمايزون يرفع الله بعضهم فوق بعض درجات في الغنى والفقر، والشّرف والجاه، والعلم والجهل، والخلق والشكل، والعقل والرزق، لاختبار الناس في مواهبهم وما أعطاهم الله، وبعد هذا الإفساح في ميدان العمل، والحضّ على الاستباق إلى الخير، توعَّد الله ووعد، تخويفاً منه وترجية، فالله سريع العقاب إما في الدنيا وإما في الآخرة، وكل آت يحكم عليه بالقرب ويوصف به، وإن الله غفور لمن أذنب وأراد التوبة، رحيم بالعباد.

تفسير سورة الأعراف

اتِّباع القرآن الكريم وحده

القرآن الكريم وما تضمنه من أحكام وتشريعات هو آخر الكتب السماوية، وخاتمة الشرائع الإلهية التي ضمها بين جناحيه، وأصبح هو الكتاب الإلهي الوحيد الواجب الاتِّباع دون غيره من الكتب السابقة، ومن خالف هذا، وعصى أمر الله تعرَّض للعقاب في الدنيا والعذاب في الآخرة، قال الله تعالى مبيِّناً هذا الحكم المبرم في مطلع سورة الأعراف المكِّية:

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ(١) مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ(٢) أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا(٣) بَيَٰتًا(٤) أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ(٥) ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١-٥].

الحروف المقطعة: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾﴾ في أول سورة الأعراف كغيرها من بعض السُّور للتنبيه والتحدي بالإتيان بمثل القرآن الكريم، ما دام مكوّناً من الحروف العربية مادة صياغة الكلام العربي الذي يفتخر العرب بأنهم سادة البلاغة فيه. لذا اقترنت هذه الحروف بالتّنويه بالقرآن الكريم، وهنا يصفه الله بأنه كتاب عظيم الشأن، أنزله الله

---

(١) ضيق من تبليغه . (٢) كثير من القرى . (٣) أي عذابنا وهلاكنا . (٤) أي ليلاً . (٥) مستريحون نصف النهار .

على نبيّه محمد ﷺ، للدلالة على عظيم قدرة الله تعالى، فلا يكن أيها النَّبي وكل عالم بعده ضيق ومشقة من الإنذار به وتبليغه للناس، وتذكير أهل الإيمان به ذكرى تنفعهم وتؤثر فيهم. وفي هذا إثبات للوحدانية والبعث، والنُّبوة والوحي.

وبما أن هذا القرآن العظيم ذو مهام خطيرة، فاتبعوا أيها الناس جميع ما فيه مما أنزل إليكم من ربكم مربيكم وخالقكم ومدبر أموركم، والمشرع لكم الحلال والحرام، والعبادة والأحكام، ولا تتبعوا من دون الله أعواناً ونصراء، كأنفسكم أو الشياطين التي توسوس لكم ما فيه الضّرر والضّلال، والشَّر والفساد، والإيهام بأن الأصنام شركاء ذات تأثير عند الله، مع أنها إما جمادات صماء لا نفع فيها، وإما مخلوقون أو مخلوقات عاجزة عن جلب الخير لنفسها أو دفع الضَّرر عنها، فمن ألَّهها أو عبدها وقع في الضَّلال والانحراف عن حكم الله إلى حكم الشيطان والأهواء، ولكنكم تتذكرون قليلاً، وتنسون الواجب عليكم نحو ربّكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٣].

وضماناً وتأييداً لوجوب امتثال أحكام الله، هدَّد الحق تعالى العباد بالعقاب الشديد على المخالفة والعصيان، من أمثال عقوبات الأمم السابقة، وما جرى على المثيل يجري على مثله. يذكر الله تعالى أن كثيراً من القرى التي أرسل إليها الرُّسل مبشِّرين ومنذرين، عصوا رسلهم، وخالفوا أمرهم، وكذبوهم، فجاءهم العذاب أو الهلاك مرة ليلاً كقوم لوط، ومرة نهاراً كقوم شعيب، أتاهم العذاب فجأة وقت القيلولة وسط النهار، وهم غافلون لاهون، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ(١) فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٩٧-٩٩].

---

(١) أي تدبيره الخفي.

ولم يكن موقفهم وقولهم أو ادّعاؤهم حين نزل العذاب بهم بالهلاك إلا أن أقروا بذنوبهم واعترفوا بمعاصيهم وقالوا: إنا كنا ظالمين، وأنهم حقيقون بهذا، أي لم يصدقوا بوحدانية الله، ولم يقروا بصدق الأنبياء والرسل عند الإهلاك إلا الإقرار بأنهم كانوا ظالمين، وفي هذه عبرة وعظة.

قال ابن جرير الطبري: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم».

ولنا في واقعنا المعاصر أصدق الشواهد، فإن المسلمين لما أعرضوا عن كتاب الله، وانشغلوا بملاذ الدنيا، ضعفت نفوسهم وفقدوا الثقة بوجودهم، فهانوا على أئمة الاستكبار العالمي والظلم العنصري والتعصب الحاقد ضد أهل الإسلام تحت شعارات واهية وافتراءات كاذبة.

عاقبة الكفر والعصيان في الآخرة

التهديد بالعقاب والإنذار بالجزاء الرادع في كل نظام من أهم العوامل لتقليل الجريمة ومحاربة الانحراف، لذا لم تخل دولة من الدول من قوانين جزائية رادعة، تنصُّ على الجرائم والعقوبات المقررة لها، لينزجر المواطنون، ويبتعدوا عن المساس بالأمن، وهكذا شأن الأحكام الإلهية بأشد الحاجة إلى مؤيدات رادعة وزواجر قامعة، كي يصلح حال الناس، وتستقيم أوضاع البشر، فلا جريمة، ولا إخلال بالأمن والاستقرار. قال الله تعالى مبيِّناً وجوب السؤال عن الأعمال وحساب الناس عليها:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ

خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ(١) فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ(٢) قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٦-١٠].

هذا وعيد من الله عزّ وجلّ لجميع العالم، تضمن أن الله تعالى يسأل الأمم أجمع يوم القيامة عما بَلَغ إليهم عنه، وعن جميع أعمالهم، وعما أجابوا به الرُّسل المرسلين إليهم، ويسألون الرُّسل أيضاً عما بلَّغوا من الرسالات. والسؤال يوم القيامة صعب وعسير؛ لأنه موقف الفصل الحاسم في مصير دائم للناس، فيشتد الخوف ويعظم الرجاء وتكثر الأعذار، حتى ينجو الإنسان من هول الحساب وشدة العذاب.

يسأل الله في الآخرة كل إنسان عما أجاب به الرسل، وعن مدى قبول دعوة الأنبياء، وعما صدر منه من إيمان أو كفر، ويسأل الله الأنبياء المرسلين عما بَلَّغوا. والمراد بالسؤال تقريع الكفار وتوبيخهم، لأنهم لما أقروا بأنهم كانوا ظالمين مقصِّرين، سئلوا بعد ذلك عن سبب ذلك الظلم والتقصير.

وليس السؤال عن الذنب الواقع، وإنما عن الأسباب والدواعي التي دعت الناس إلى العصيان، وعن الموانع التي حالت بينهم وبين امتثال الأحكام والتكاليف الشرعية. وأكَّد الله تعالى أنه عالم بما وقع علماً تامّاً، فيخبر عن علم وإحاطة تامة الرسل وأقوامهم بكل ما حدث منهم، فلا يغيب عنه شيء قليل أو كثير، وإن كان مثقال ذرة من خردل في أعماق الأرض أو في عالم السماء. وكل ذلك يدلُّ على أن سؤال الناس يوم القيامة ليس للاستعلام والاستفهام عن شيء مجهول عن الله تعالى، بل للإخبار بما حدث منهم توبيجاً وتقريعاً على تقصيرهم وإهمالهم. والمخبر عنه هو المحاسب عنه، وهو الذي يعقبه الجزاء.

(١) جعلنا لكم مكاناً وقراراً . (٢) ما تعيشون به

ووزن الأعمال للرسل وأقوامهم والتمييز بين راجحها وخفيفها يوم القيامة يكون على أساس من الوزن الحق والعدل التام، وعبَّر تعالى عن نتيجة الحساب بالوزن والميزان، لأن البشر لا يعرفون أمراً أكثر دقّة منه وأقرب إلى العدل والإنصاف. فمن ثقلت موازينه ورجحت صحائف حسناته على سيئاته، فأولئك هم الفائزون بالجنة، الناجون من العذاب. ومن خفت موازين أعماله وغلبت سيئاته بسبب كفره ومعاصيه، فأولئك الخاسرون أنفسهم؛ إذ حرموها السعادة والظفر بالنعيم الأبدي، وصيّروها إلى عذاب النار. والفريق الأول وهم المؤمنون إيماناً صحيحاً، على تفاوت درجاتهم في الأعمال، هم المفلحون، وإن عذّب بعضهم بقدر ذنوبه. والفريق الثاني وهم الكافرون، على تفاوت دركاتهم ومراتبهم في النار هم الخاسرون حقّاً.

ثم ذكَّر الله تعالى بجلائل نعمه على الناس، ليحملهم الإقرار بالنعمة على الوفاء للخالق المنعم، فأقسم سبحانه بأنه مكّن في الأرض للنوع الإنساني، وخلق للبشر جميع المنافع والخيرات، وجعل لهم أمكنة يستقرّون بها في الدنيا، وجعل لهم في المعايش التي تقوم عليها حياتهم من خلق النبات والزرع، والفاكهة والثمر، والماء والشجر، والسمك والجوهر، والحيوان المسخَّر المذلَّل لهم، ليسهل أمر المعيشة، وكل ذلك يقتضي الشكر وعرفان الجميل، ولكن الشكر من العباد قليل، كما أخبر سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبا: ٣٤/ ١٣].

أمر الملائكة بالسُّجود لآدم

نبَّه الله تعالى على موضع العبرة، والتعجيب من غريب الصنعة وإساءة النعمة، فبدأ بالخلق الذي هو الإيجاد بعد العدم، ثم بالتصوير في هذه البنية المخصوصة للبشر، وإظهاراً لتفضيل البشر على سائر المخلوقات وإبداء لتكريمهم، أمر الله تعالى الملائكة

بالسجود لآدم أبي البشر عليه السَّلام ونبَّه على عداوة الشيطان لذرِّيته، فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ(١) أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ(٢) ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي(٣) إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي(٤) لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا(٥) مَدْحُورًا(٦) لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١١-١٨].

هذا تمجيد وتكريم لا مثيل له للعنصر البشري يتمثَّل في إيجاد الله وخلقه للبشر، بدءاً من أبينا آدم عليه السّلام من الماء والطين المتحجِّر، ثم تصويره في أحسن شكل وتقويم بصورة البشر السّوي، والنَّفخ فيه من روح الله، ثم أمر الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم.

وبادر الملائكة لتنفيذ أمر الله، فسجدوا جميعاً لآدم عليه السّلام، إلا إبليس من الجنّ أبى واستكبر وكان من الكافرين الفاسقين الخارجين عن أمر الله. فسئل من قبل الله تعالى: ما منعك من السجود؟ فأجاب معتذراً: إني أنا خير منه، خلقتني من النّار، وخلقته من الطّين، والنّار بما فيها من خاصية الارتفاع والنّور أشرف -في زعمه- من الطين الراكد الخامل، والشريف لا يعظم من دونه. وهذا قياس فاسد باطل، إذ لا يستدلُّ بطبائع الأشياء على الأفضلية، وإنما تكون بالمعاني والخواص، لا بالنظر إلى المادّة.

(١) ما دعاك. (٢) الأذلاء المهانين. (٣) أخِّرني. (٤) أضللتني. (٥) مذموماً. (٦) مطروداً.

وكان جزاء المخالفة من إبليس وعصيانه أن أمر الله تعالى إبليس بالهبوط من الجنّة التي خلقه الله فيها، وكانت على مرتفع من الأرض، وما ينبغي لأحد أن يتكبّر في جنّة الكرامة والسعادة التي لا مجال فيها للتّكبُّر والشّقاء والعصيان. وأخرجه الله من الجنّة صاغراً ذليلاً مهيناً، معاملة له بنقيض مقصوده، ومكافأة له بضدّ مراده.

ثم استدرك إبليس على الطّرد من الجنّة بطلب إنظاره (إمهاله) إلى يوم البعث الذي يبعث الله فيه آدم وذرّيّته، ليتمكّن من الثّأر من البشر بالإغواء والوسواس، وليشهد حياة البشر وانقراضهم، ثم بعثهم للحساب والجزاء. فأمهله الله وأجّله إلى وقت النّفخة الأولى حيث تصعق الخلائق، وهي نفخة الفزع والرعب، وعندها يموت إبليس أي بعد النفخة الأولى.

ولما أمهل الله إبليس إلى يوم البعث، لجأ إلى العناد والتّمرد، وإضلال الناس، فصمم على تنفيذ غرضه، لئلا يعبد الناس ربهم ولا يوحّدوه بسبب إضلال الله له، ووسيلته هي التزيين للمعاصي. وقال إبليس: لأقعدن للبشر على الطريق القويم، ثم لا أدع جهة من الجهات الأربع إلا أتيتهم منها، ولا تجد أكثرهم شاكرين لنعمة الله، ولا مطيعين أوامر الله، وذلك مجرد وهم وتأمُّل وتمنّيات باطلة.

ثم أكّد الله تعالى إنزال اللعنة على إبليس، والحكم عليه بالطّرد والإبعاد مذموماً (معيباً) مدحوراً (مطروداً مبعداً من رحمة الله). وأقسم الله تعالى على أن من تبع إبليس من الآدميين فيما يزينه من الشرك والفسوق والعصيان، لتُملأن منهم جهنّم، هم وأتباعهم جميعاً دون استثناء ولا تخفيف إلا عباد الله المخلصين الذين لا يصغون لنداء الشيطان، ويتمسكون بأمر الرحمن. وذلك كما ورد في آية أخرى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٣-٦٥].

إن جزاء المخالفين لأمر الله هو جزاء عادل، وواحد، لأن العصيان فيه معنى التحدي، والطاعة فيها معنى الامتثال والانقياد.

سكنى آدم في الجنّة وخروجه منها

اقتضت عدالة الله أن ترتبط المسبّبات بالأسباب والنتائج بالمقدّمات، وعملاً بهذا المبدأ أمر الله آدم عليه السّلام بسكنى الجنّة واختباره فيها بامتثال الأمر الإلهي، فلما خالف وعصى، أمره ربُّه بالخروج منها عدلاً وجزاءً موافقاً لمخالفته وعصيانه، وهذه التجربة تصلح عنواناً لكل قضية في العالم، النعمة فيها مرتبطة بالموافقة، والنقمة فيها ملازمة للمخالفة. قال الله تعالى واصفاً هذه القصّة:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ(١) لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ(٢) عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا(٣) وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ(٤) إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ(٥) فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ(٦) عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩-٢٥].

---

(١) ألقى إليهما الوسوسة . (٢) ما سُتر وأُخفي . (٣) السّوءة: العورة لأنه يسوء الإنسان ظهورها، أي عوراتهما . (٤) حلف لهما . (٥) أزلّهما عن الطاعة بخداع . (٦) شرعا وأخذا يلزقان .

يراد بهذه القصة إرشاد الناس إلى طرق الهداية، وتحذيرهم من وساوس الشّياطين، فإن الشيطان بسبب حسده لآدم وحواء، سعى في إخراجهما من الجنّة بمكره وخديعته، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة. قال الحسن البصري: كان يوسوس من الأرض إلى السماء، وإلى الجنّة بالقوة الفوقية التي جعلها الله تعالى فيه.

والمعنى: أباح الله تعالى لآدم وحواء سكنى الجنة والأكل من جميع ثمارها إلا من شجرة واحدة. والجنّة هي جنّة الخلد، والشجرة: نوع معين لم تعرف في القرآن، والنّهي عن الأكل من الشجرة لحكمة معينة هي اختبار الإنسان ومعرفة مدى امتثال التكليف الإلهي، فإنهما إن أكلا من تلك الشجرة، كانا من الظالمين لأنفسهما. فحسدهما الشيطان، وسعى في خديعة آدم وحواء، ليسلبهما نعمة السكنى في الجنّة، فوسوس لهما لتصير عاقبة أمرهما إبداء ما سُتر من عورتهما، وقال لهما: ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا لئلا تكونا ملَكَيْن، أو تكونا خالدَيْن في الجنّة. وأقسم لهما قسماً مغلَّظاً شديداً: إني لكما لمن الناصحين المخلصين. ثم تابع في خداعهما بالترغيب في الأكل، وبالوعد وبالقسم، حتى نسيا أمر الله إليهما وإخباره أن الشيطان عدوّ لهما، ثم تمكّن من إسقاطهما عما لهما من المنزلة عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١١٥]. وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ معناه: فنزَّلهما إلى الأكل من الشجرة، بما غرَّهما به من القسم بالله، أي غرَّهما بقوله وخدعهما بمكره.

فلما ذاقا ثمرة الشجرة، ظهرت عوراتهما، وزال عنهما النور، وشرعا يستران العورة بورق أشجار الجنة العريض. وعاتبهما ربُّهما موبِّخاً: ألم أمنعكما من الاقتراب من هذه الشجرة، والأكل منها، وأقل لكما: إن الشيطان ظاهر العداوة لكما، فإن أطعتماه أخرجكما من دار النّعيم وهي الجنّة إلى دار الدنيا وهي دار الشقاء والتعب

في الحياة، فاحذروا الشيطان كما ورد في آية أخرى: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١١٧].

قال آدم وزوجته: ربَّنا ظلمنا أنفسنا بمخالفتك وطاعة الشيطان، عدوّنا وعدوّك، وإن لم تستر ذنبنا وترضَ عنا وتقبل توبتنا، لنكونن من الذين خسروا الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٧].

ثم أمر الله آدم وحواء بالهبوط أو النزول من الجنة، في حال من التَّعادي، يعادي بعض الذُّرية بعضاً في الدنيا، ويستقرّون فيها إلى أجل مسمى عند الله، ويكون لهم فيها تمتُّع إلى أجل محدود، وفي الأرض يحيون ويموتون، ثم يخرجون منها إلى دار البعث والجزاء بعد الموت حسبما يريد الله تعالى، وقد وصف ذلك في آية أخرى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طه: ٢٠/ ٥٥].

ويظل الحذر من الشيطان واجب الإنسان لينجو من وساوسه وغوائله، ويستقيم في حياته ويسعد في الدنيا والآخرة.

رُوي أن آدم عليه السّلام أُهبط بالهند، وحواء بِجُدَّة، وتمنّاها بمنى، وعرف حقيقة أمرها بعرفة، ولقيها بِجَمْع[1]، وأُهبط إبليس بِمَيْسان[2].

(١) الجَمْع: هو المزدلفة، وأيام منى تسمى أيام جَمْع، ويوم عرفة يسمى يوم جَمْع. (٢) ميسان: أرض واسعة كثيرة القرى والنخيل بين البصرة وواسط، مركزها مَيْسان.

أهمية اللباس

اللباس للإنسان مظهر تحضر وتمدن وعنوان احترام للآخرين، أما العُرْي وإظهار الأعضاء فهو مظهر من مظاهر البدائية والتخلف، يتفق مع حالة الإنسان البدائي وطريقة عيشه في الصحارى والوديان، لذا امتن الله تعالى بإنعامه على البشرية، إذ أوجد لهم أنواع الألبسة لستر العورات والعيوب، ومختلف الرياش والأصواف للتنعم والراحة، وحذر القرآن من فتنة الشيطان ووساوسه التي هي سبب من أسباب نزع اللباس وإزالة النعمة، فقال الله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا(١) عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي(٢) سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ(٣) وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ(٤) ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ(٥) عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ(٦) مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/٢٦-٢٧].

ابتُدئت الآيات بقوله تعالى ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وهو خطاب لجميع الأمم وقت النبي عليه الصلاة والسلام، والمراد بهذا الخطاب: قريش ومن كان من العرب يتعرى في طوافه بالبيت، وهذه الآية امتنان من الله تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس الساتر للعورات، والريش: وهو ما يتجمل به من الثياب أو المعيشة. إن نعمة اللباس والثياب والاستمتاع بالزينة والجمال، واتقاء الحر والبرد من أجلّ النعم على البشرية، وإنزال اللباس: معناه الخلق والإيجاد للخليقة، وهذا من فضل الله على عباده إذ حماهم بإيجاد الألبسة والأمتعة من السوء والتعرض للمتاعب والمخاطر، وهذا من ضرورات المعيشة والرخاء في الدنيا.

---

(١) أعطيناكم . (٢) يستر عوراتكم . (٣) الريش: كل ما ستر من اللباس أو المعيشة . (٤) الفتنة الابتلاء والاختبار ، ولا يفتنكم أي لا يخدعنكم . (٥) يزيل عنهما . (٦) القبيل: الجماعة والجنود .

إلا أن الله تعالى فضّل اللباس المعنوي وهو التقوى: أي الإيمان والعمل الصالح على اللباس المادي؛ لأن أثره خالد، وحافظ للقيم والأخلاق التي تسعد المجتمع وتنشر الأمن والرخاء والاطمئنان، وتكفل الاستقرار ودوام الحياة الكريمة.

إن خَلْق اللباس والريش وهما عبارة عن سعة الرزق ورفاهة العيش والتمتع بالحياة من آيات الله الدالة على قدرته وفضله وإنعامه ورحمته بعباده، وإن هذه النعم تؤهل البشر لتذكُّر فضل الله عليهم، وتحملهم على الشكر وتقدير المنعم، والبعد عن فتنة الشيطان (محاولة الإيقاع في البلاء) وإبداء العورات.

والوفاء للمنعم وشكرُه نتيجة طبيعية لكل معروف وصاحبه، فمن قدم جميلاً لغيره استحق الشكر وتقدير المعروف، لذا ذكّر الله تعالى المؤمنين بما هو خير لهم: وهو ألا يغفلوا عن أنفسهم، ولا يصرفنهم الشيطان عن وصايا الله وشرعه ودينه. وفتنة الشيطان: الاستهواء والغَلَبة على النفس. والمعنى في قوله تعالى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ نهيهم أنفسهم عن الاستماع للشيطان وإطاعة أمره، فإن للشيطان فتنة ومحاولة لإغراء الناس، كما فتن أبوينا آدم وحواء بالإخراج من الجنة، فإن وسوسته أدت بسبب مخالفتهما أمر الله إلى التسبب في الطرد من الجنة، ونزع اللباس عن عوراتهما، وهو ورق الجنة، وإظهار سوءاتهما أي عوراتهما. وزيادة في التحذير والإعلام بأن الله عز وجل قد مكَّن الشيطان من ابن آدم، أخبرنا الله سبحانه بأن الشيطان يرى المؤمنين هو وجماعته، وهم لا يرونه، فيجب التخلص من وساوسه بكثرة الطاعة والقناعة برزق الله وفضله، علماً بأن للشيطان أعواناً وأنصاراً، والشياطين هم أعوان الكفار الذين لا يؤمنون بالله تعالى إيماناً حقاً تزكو به نفوسهم، وتصلح به أعمالهم، بسبب استعدادهم لقبول وسواس الشيطان، كاستعداد ضعفاء الأجسام لاستقبال الأمراض الفتاكة بسرعة كبيرة وتورط شديد.

هذه الآية تنبيه لنا بأن الشيطان عدو الإنسان، فيجب التنبه لمخاطره وتذكر عهد الله وميثاقه بأن نعبده وحده لا شريك له، ونزكي النفس بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة، وتهذيب الطباع، لنحقق السعادة الأبدية في الآخرة، ونؤدي الرسالة في هذه الحياة على الوجه الأكمل.

تقليد الآباء وتشريع الله

ليس التشريع العام للمجتمع أمراً سهلاً؛ لأن به قوام المجتمعات وحياة الأمم والشعوب، فإذا كان التشريع سديداً صالحاً، صلحت الجماعة وإذا كان التشريع هشاً بدائياً، فسدت الجماعة وانحدرت. لذا كان مصدر التشريع في الإسلام هو الله عز وجل، من أجل إسعاد الفرد والجماعة، أما عرب الجاهلية المشركون فكانوا يعتمدون في تشريعاتهم وتنظيماتهم على تقليد الآباء والأجداد، وتوارث الأنظمة دون تجديد ولا تصحيح ولا إدراك للخطأ.

ونجد في القرآن الكريم بياناً للفرق بين تشريع الجاهلية وتشريع الإسلام، قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً(١) قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ(٢) ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ(٣) عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ(٤) وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٨/ ٣٠].

---

(١) أتوا فعلة متناهية في القبح. (٢) بالعدل. (٣) توجهوا لعبادته. (٤) في وقت كل سجود ومكانه.

وبّخ الله تعالى المشركين على ارتكابهم الفاحشة: وهي الفعلة المتناهية في القبح، والمراد بها طوافهم حول البيت الحرام عرايا رجالاً ونساء، وملازمتهم لعقيدة الشرك والوثنية. وإذا عوتبوا في ذلك قالوا: نحن في هذا مقلدون للآباء، متبعون للأسلاف، وتوهموا أن مايفعلونه طاعات، وأن الله أمرهم بها، مع أن تلك الأمور فواحش. وهذا أبطل الباطلات، وقل لهم أيها النبي: إن الله لايأمر بالفحشاء أصلاً، وإنما الذي يأمركم بذلك هو الشيطان.

وأما تقليد الآباء والأجداد فهو عمل ظاهر الفساد؛ لأن لكل إنسان عقلاً ووعياً يميز بين الصحيح والخطأ، والهدى والضلال، وليس الآباء حجة في التشريع، ولا طريقهم أو منهجهم بمنأى عن الخطأ، والتقليد في الأوضاع الفاسدة إلغاء للذات الإنسانية، وإهدار للفكر والعقل البشري الذي منحه الله تعالى للإنسان ليميز به بين الخطأ والصواب.

وإذا أخطأ العقل، وجد في الهداية الإلهية أو الوحي الرباني عاصماً عن الخطأ، ومرشداً إلى الصواب، وموجهاً إلى الحق والحقيقة.

فإن الله لايأمر إلا بالعدل والاستقامة والتوسط في الأمور، ومن أوامره: إيفاء العبادة حقها، والتوجه بكامل القلب وصحة القصد إلى الله وحده دون غيره عند كل صلاة، وأداء العبادة في وقتها، والإخلاص لله في العبادة من غير مراءاة ولا سمعة، ولا إشراك أحد مع الله، فإنه سبحانه وتعالى لايتقبل عملاً من الأعمال إلا إذا توافر فيه ركنان:

الركن الأول: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، والركن الثاني: أن يكون خالصاً من الشرك بإدخال أحد من المخلوقات البشرية أو السماوية أو الأصنام شريكاً في قصد العبادة والتعظيم. إن إخلاص الدين لله تعالى هو جوهر العبادة، لأن مصائر

الخلائق جميعاً إلى الله تعالى، كما أنشأ هذه المخلوقات من العدم ابتداء يعيدها مرة أخرى، فيجازي كل إنسان على عمله، وهذا في ميزان العقل والمصلحة يتطلب إخلاص العبادة لله.

وعند العودة إلى الله وحال البعث والحساب الناس فريقان: فريق هداه الله ووفقه للعبادة والإيمان والإخلاص، وهم المؤمنون المسلمون الخاضعون المنقادون لله وأوامره، وفريق الضلالة الذين استوجبوا العذاب بسوء صنيعهم واختيارهم، واتباعهم وسواس الشيطان، إن هذا الفريق هم الذين اتخذوا الشياطين أنصاراً وأعواناً من دون الله، فقبلوا مادعوهم إليه، ولم يميزوا بين الحق والباطل، ويظنون أنهم سائرون على درب الهداية والصواب، مع أنهم هم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. وهذا من فساد الرأي وسوء الفكر وضعف العقل، فإن الحق أحق أن يتبع، وإن من الحماقة والبلاهة أن يخطئ الإنسان ويزعم أنه على حق وسداد وهدى.

إباحة الزِّينة والطَّيِّبات

إن الإسلام دين الوسطية والواقعية والاعتدال، فلا يمنع النافع الموافق للطباع السليمة، والملائم للأعراف الصحيحة، والمنسجم مع مقتضيات الصحة والقوة، والمدنية والحضارة. وإنما الذي يمنعه الإسلام هو الضّار أو الشيء القبيح الذي يؤذي النفوس، ويناقض المصلحة، ويسيء إلى الفرد والجماعة. وهذا هو منهاج القرآن الكريم الذي يبيح الزِّينة وهي الثياب الساترة، والمطعومات والمشروبات النافعة. قال الله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ(١) عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف: ٧/ ٣١-٣٢].

سبب نزول الآيتين هو: الأمر بارتداء الثياب الساترة، وهو ما رواه مسلم عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت في الجاهلية، وهي عُريانة، وعلى فرجها خرقة، وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحلّه

فنزلت الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ ونزلت بعدها: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾. وفي صحيح مسلم عن عروة قال: كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الْحُمْس، والْحُمْس: قريش وما ولدت.

والآيتان خطاب عام لجميع العالم، وأمر بهذه الأشياء بسبب عصيان مشركي العرب فيها. إن القرآن الكريم يأمر بكل ما فيه فضيلة ومدنية وتحضُّر ونظافة ومروءة من الطِّيب والسِّواك والثياب الساترة، وكل مستحسن في الشريعة لا يقصد به الخيلاء. والأمر بالسّتر عند كل مسجد: معناه عند كل موضع سجود، وهذا يشمل جميع الصلوات التي يجب فيها ستر العورة، ويدخل مع الصلاة: مواطن الخير كلها.

وتختلف الزينة باختلاف الزمان والمكان والشخص والعمل. وكان هذا الأمر بارتداء الثياب والتَّزين سبباً لارتقاء العرب وانتقالهم من مظاهر القبلية المتوحشة إلى أرقى مظاهر المدنية والحضارة.

---

(١) البسوا ثيابكم لستر العورات .

ثم وجّه القرآن الكريم إلى قاعدة أساسية في الطّب وتناول المباحات النافعة، وهي: الأكل والشرب من غير إسراف ولا تقتير، فالإسراف مذموم لتجاوزه حدود الحاجة والاعتدال، والتقتير مذموم لأنه بخل وشحّ، وكفى بالبخل داء، والمطلوب هو الاعتدال في المأكل والمشرب من غير تجاوز الحلال إلى الحرام، ولا الحاجة إلى التّخمة، ولا التقصير في الإنفاق لأنه مضرّة و بخل. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «كُلوا واشربوا، والبسوا، وتصدّقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وليس أضرّ على الإنسان والأمة من الإسراف، فإنه ضرر وخطر بل وحرام وبطر، كما أنه ليس من الحكمة والخير تحريم الزينة والطَّيبات من الرزق التي خلق الله موادها لعباده، وعلمهم كيفية الانتفاع بها، فهي مستحقّة مخلوقة لعباد الله من المؤمنين وغيرهم عدلاً من الله وفضلاً ونعمة.

لذ أنكر القرآن الكريم على من يحرّم الانتفاع بالمباحات زهداً وترفُّعاً، فهذا خطأ، فإن الطَّيبات من الرزق حلال للناس جميعاً في الدنيا، وخالصة خاصة للمؤمنين يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرَّمة على الكافرين.

ومثل هذا التفصيل التّام والبيان لحكم الزينة والطَّيبات، يفصل الله تعالى الآيات الدّالة على كمال الشّرع والدِّين، وصدق النَّبي والقرآن وإتمام الشريعة لقوم يعلمون العلوم النافعة كعلوم الاجتماع والنفس والطِّب والمصالح.

وهذا الاتجاه القرآني في الاعتدال في اللباس والطعام والشراب والانتفاع بمنافع الدنيا الحسنة دليل على أن الإسلام دين الكمال والسّمو، والقوة والمدنيّة والحضارة، والتَّقدم والاعتدال، والله ولي المتّقين.

أصول المحرَّمات في الإسلام

بعد أن ذكر القرآن الكريم ما حرَّمه الكفار المشركون على أنفسهم مما لم يأذن الله به، أتبعه ذِكْر ما حرَّم الله عزّ وجلّ، ليميِّز المخاطب بين الحق والباطل، ويدرك أن التَّحريم مرتبط بالضرر والأذى للإنسان نفسه، وليس التحريم أمراً اعتباطياً أو عبثاً لا يخدم هدفاً ولا يؤدي مصلحة أو يدرأ مفسدة، قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ(١) مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ(٢) بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا(٣) وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٣].

لما لبس المسلمون الثياب بأمر الله وتشريعه وطافوا بالبيت الحرام بالزينة التّامة، عيَّرهم المشركون بذلك، فقال الله لنبيِّه المصطفى ﷺ : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين حرموا ما أحلّ الله من الطَّيبات والرزق واللباس: ما حرم ربِّي هذا، وإنما حرَّم خمسة أشياء هي أصول المحرَّمات الضّارة بالفرد والجماعة وهي ما يأتي:

١- حرَّم الله تعالى الفواحش الظاهرة والباطنة، الجهرية والسِّرية: وهي كل ما فحش وقبح من الأعمال المفرطة في الشَّناعة، ما ظهر منها للناس وما بطن أو خفي عنهم، وتشمل المعاصي الكبائر لتفاحش قبحها، مثل الزِّنى والرِّبا والسَّرقة والقتل وخيانة الوطن وإذاعة السوء، والخروج على الجماعة، وتفتيت وحدة الأمة، وتهديم بنيتها وحضارتها، وغير ذلك من كل ذنب خطير أو إساءة بالغة. ويعدُّ كل ما حرَّمه الشَّرع فهو فاحش، وإن كان العقل لا ينكره كلباس الحرير والذهب ولو خاتماً للرجال ونحوه مما يرتكبه الإنسان ظاهراً أو باطناً.

٢- وحرَّم الله تعالى الإثم: وهو لفظ عام يشمل جميع الأقوال والأفعال التي

---

(١) كبائر المعاصي. (٢) الظلم. (٣) حجة وبرهاناً.

يتعلّق بمرتكبها إثم أو ذنب، وهو الذنوب الصغائر، وقال بعض الناس: الإثم هي الخمر، محتجّاً بقول الشاعر:

شربت الإثم حتى ضلَّ عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول

٣- وحرَّم الله أيضاً البغي: وهو الظلم وتجاوز الحدّ في الفساد والحقوق بالاعتداء على حقوق الناس الآخرين أفراداً وجماعات، سواء أكان التَّعدي مبتدءاً أو كان صاحبه منتصراً، فإذا جاوز الحدّ في الانتصار فهو باغ. وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة بيان، إذ لا يتصور بغي بغير حق؛ لأن ما كان بحق فلا يسمى بغياً.

٤- وحرَّم الله تعالى الشِّرك بالله: وهو أقبح الفواحش، وهو أن تجعل مع الله إلهاً آخر من صنم أو وثن أو كوكب أو ملك أو إنسان، لم تقم عليه حجة من عقل ولا برهان من وحي، وسميت الحجة سلطاناً: لأنها ترجح قول الخصم على غيره، ويكون لها تأثير على قول السامع وفكره. والشرك لا دليل ولا حجة عليه من عقل ولا نقل، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٧].

وهذا يشعرنا أو يدلّنا أن الاقتناع بالبرهان والحجة الساطعة أساس بناء العقيدة، وأن الإيمان لا يقبل بغير وحي من الله، يدعمه الدليل والبرهان.

٥- وحرَّم الله سبحانه التَّقول على الله بغير حجة ولا علم، كالافتراء والكذب على الله، بادِّعاء أن له ولداً أو شريكاً من الأوثان، وكتحريم بعض المواشي من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام، وتحليل الحرام وتحريم الحلال بلا سند ولا حجة، وهو القول بالرأي المحض من دون دليل من الشّرع، وهو سبب تحريف الأديان، والابتداع في الدين الحق، واتباع الهوى والشيطان، واستحسان الأنظمة المنافية لتعاليم الدين والشرع، وهذا منهج أدعياء التجديد، وتخطي الشريعة باسم الاجتهاد، روى

البخاري ومسلم أن النَّبي ﷺ قال: «لتَتَّبِعُنّ سنن من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضبٍّ لتبعتموهم، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟».

إن هذه الآية شملت تحريم جميع الجنايات وهي الجنايات على الأنساب كالزِّنى والقذف، والجنايات على العقول كشرب الخمر وتناول المخدرات، والجنايات على الأعراض والكرامات كتجاوز حقوق الإنسان والمساس بكرامته، والجنايات على النفوس والأموال كإلحاق الظلم بالآخرين والغصب والسّرقة والنَّهب والسَّلب، والجنايات على الأديان كالطَّعن في توحيد الله تعالى وسبِّ الله والرسول ووصف بعض الأنبياء بصفات لا تليق بهم، فهم المعصومون من الأخطاء الكبائر منها والصغائر.

آجال الأُمم والرُّسل المرسلين إليها

الأُمم والشعوب والأفراد ترتبط حياتهم بأزمان معينة وتواريخ محددة، والزمان والتاريخ سجل أمين حافل بأعمال البشر، فهم إن ملؤوا صفحة الحياة بأفعال مجيدة تفيد البلاد والأوطان، كانوا مؤدِّين رسالة الحياة بأمانة وشرف وكرامة، وهم إن شغلوا أعمارهم وأوقاتهم بالمظالم وتوافه الأمور، كانوا خونة الأمانة وعالة على التاريخ، فالعقلاء هم الذين يعمرون حياتهم بجلائل الأعمال المفيدة للأمة والديار، قال الله تعالى مبيِّناً قيمة الحياة ومهمّة رسل الإصلاح:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

[الأعراف: ٧/ ٣٤-٣٦].

إن للوقت قيمة كبرى وأهمية عظمى، والأجيال المتلاحقة تشغل فترة من التاريخ والزمن المحدّد لها والمقدَّر لوجودها وأعمالها، فلكل أمة أي قرن وجيل، ولكل فرد وشيء في الوجود أجل محدد معلوم، وهو الوقت الذي قدره الله تعالى لكل كائن حيّ، فإذا انقضى هذا الوقت، وانتهى هذا الأجل المقدَّر للأُمم والأفراد، انطوت صفحات الأعمال، ولا يتأخَّرون عن الأجل ساعة أو أقل، ولا يتقدَّمون عنها بساعة وأقل منها.

وإن عزّة الأُمم وسعادتها، وخلود تاريخ الرجال أو النِّساء مرتبط بامتثال شرع الله والتَّمسك بالفضيلة، والبعد عن الفاحشة والرذيلة. وشقاء الأمم ونكبتها وطي صفحة أبنائها يكون بالبعد عن أوامر الله ودينه، والانغماس في المنكرات، واقتراف جرائم الغش والرشوة والفساد والإسراف والظلم، والتخريب السّري أو العلني.

وإذا كانت الأمم المعاصرة قد تقدَّمت فبسبب إصلاح شؤون حياتها، وإذا كانت الأمة الإسلامية متخلِّفة فبسبب بُعْدها عن شرائع ربِّها، ومن أخصِّها الوحدة والبناء والعمل والتَّخطيط والحزم وضبط الموارد وصرفها في أولويات الحياة العزيزة الكريمة. وأمّتنا هي أولى الأُمم بالتمسك بالمثل العليا والقيم الكريمة، لأن دينها يأمرها بذلك. والله بهذه الآية ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يهدِّد ويوعد كل من يخالف الأمر ويسير على غير هدى من الله.

وهداية الله تعالى تتمثَّل في الكتب المنزلة والرُّسل المرسلة، وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ خطاب لجميع العالم، وهو إنذار وتحذير للبشر، فإن أتاكم أيها الناس رسل من جنسكم يخبرونكم بما أوجبته عليكم وما شرعته لكم من نظم العبادة والمعاملة والأخلاق، وما نهيتكم عنه من الشِّرك وقبائح الأفعال، فأنتم حينئذ فريقان:

فمن اتَّقى الله وأصلح العمل، وترك الحرام وفعل الطاعات، والتزم الفضيلة

واجتنب الرذيلة، فلا خوف عليهم من عذاب الآخرة، ولا يطرأ عليهم حزن على ما فات، ولا جزع على ما مضى. وهذا الفريق هم أهل السعادة والنجاة، وهم الذين شغلوا أعمارهم وأوقاتهم بالنافع المفيد.

والفريق الثاني وهم الذين كذبوا بآيات الله التَّنزيلية والكونية، ولا سيما آيات القرآن المجيدة، وجحدوا بدلائل التوحيد والأُلوهية، والأحكام والشرائع الدينية، ورفضوا العمل بآيات الله واستكبروا عن قبولها والعمل بها كبراً وعناداً، فأولئك أصحاب النار، ماكثون فيها على الدوام، ومخلَّدون فيها إلى الأبد بمشيئة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ فيه حالتان تعمُّ جميع من يصدُّ عن رسالة الرَّسول ﷺ، فإما أن يكذب بحسب اعتقاده، وإما أن يستكبر فيكذب، وإن كان غير مصمم في اعتقاده على التكذيب. وفي كلا الحالين يكون المكذب عن عقيدة، والمستكبر عن غير عقيدة في التكذيب من الهالكين الخاسرين الذين ضلّوا الطريق، وأساؤوا القصد والعمل، وانحرفوا عن منهاج الحق الإلهي.

عاقبة الكذب على الله تعالى

ليس هناك أسوأ عاقبة ولا أشدُّ افتراء من الكذب على الله تعالى، بأن يتقوّل المرء على الله ما لم يقله، أو يكذِّب ما قاله الله، وكأن المكذّب لا يحس في أعماق نفسه بوجود الله وعظمته، بسبب غيابه الحسي عنه، ويفتقر في ذاته إلى رصيد كبير من الإيمان يعوضه فراغ القلب، وإقفار النفس، وليته أدرك مصيره المشؤوم ومستقبله المظلم، وهذا ما نبّه إليه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا

وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ[1] فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا[2] مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٧-٣٩].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ هذا وعيد واستفهام على جهة التقرير، أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب، بأن أوجب ما لم يوجبه، أو حرَّم ما لم يحرِّمه، أو نسب إلى دينه حكماً لم ينزله، أو نسب إلى الله ولداً أو شريكاً، أو كذَّب بآيات الله المنزلة، فأنكر القرآن مثل كفار العرب والعجم، أو لم يؤمن بالنَّبي محمد ﷺ، أو استهزأ بالآيات أو تركها مفضلاً عليها غيرها.

أولئك الكفرة جميعاً ينالهم نصيبهم من الكتاب المقدّر، وهو الشقاء والسعادة التي كتبت له أو عليه، بحسب علم الله وعمل هذا المخلوق، حتى إذا جاءتهم الرُّسل وهم ملائكة الموت يتوفونهم ويقبضون أرواحهم، سألتهم الرُّسل تأنيباً وتوبيخاً: أين الشركاء الذين كنتم تدعونهم وتعبدونهم في الدنيا من دون الله؟! ادعوهم يخلِّصونكم مما أنتم فيه، فأجابوهم: لقد غابوا عنا وذهبوا، فلا ندري مكانهم، ولا نرجو منهم النفع والخير، ولا دفع الضُّر. وأقروا واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا بدعائهم وعبادتهم إياهم كافرين. وهذا الحوار عند قبض الأرواح زجر للكفار عن كفرهم، ودفع لهم إلى النظر والتأمل في عواقب أمورهم.

ثم أخبر الله تعالى عن جواب الملائكة لهؤلاء المشركين المفترين الكذب على الله والمكذبين بآياته: ادخلوا النار مع أمم أمثالكم وعلى صفاتكم، من فئة الجنّ والإنس.

(١) تتابعوا فيها . (٢) مضاعفاً .

وكلما دخلت جماعة منهم النار، ورأت العذاب والخزي والنكال، لعنت أُختها في الملّة والدِّين التي ضلّت بالاقتداء بها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٥]. حتى إذا تداركوا (أدرك بعضهم بعضاً) وتلاحقوا في النار، واجتمعوا فيها كلهم، قالت الفئة الأخيرة دخولاً وهم الأتباع والسِّفْلة، للفئة المتقدِّمة دخولاً، وهم المتبوعون والقادة: يا ربَّنا هؤلاء السّادة أضلّونا عن الحقّ، فأعطهم عذاباً مضاعفاً من النار، فأجابهم الله تعالى: لكلٍ منكم ومنهم عذاب مضاعف، وقد فعلنا ذلك، أما مضاعفة العذاب للسّادة فبسبب إضلال غيرهم وحملهم الآخرين على اتِّباعهم والأخذ بآرائهم، وأما مضاعفة العذاب للأتباع فبسبب ترويجهم أضاليل السّادة وإهمال عقولهم وأفكارهم. فالعذاب مشدَّد على الأول والآخر من الفئتين، ولكن لا تعلمون المقادير وصور التضعيف. وقالت فئة السّادة المتبوعين للأتباع: إذا كنا قد أضللناكم، فليس لكم فضل علينا، فقد ضللتم كما ضللنا، فنحن وأنتم سواء في استحقاق العذاب المضاعف أو المشدَّد، فإنكم كفرتم وفعلتم كما فعلنا، فلا تستحقون تخفيفاً من العذاب، فذوقوا وتَلَقّوا العذاب الإلهي بما تسبَّبتم به من الكفر والضّلال.

جزاء الكافرين المكذبين

يخطئ الإنسان كثيراً حينما لا يقدر عواقب الأمور، ولا يدرك حقيقة ما عليه حاله من انحراف أو ضلال، حتى وإن تأثر بالتقليد أو عمل بتوجيه بعض المعلمين، لأن مراجعة الحساب أمر مطلوب لكل عاقل، وليس كل ما يقوله المعلم صواباً أو صحيحاً، فبعض المعلمين يتأثرون بأفكار دخيلة مغشوشة، ويخطئون في فهم الأمور،

ثم ينقلون الخطأ إلى التلاميذ والأتباع، وهذا يتطلب الحذر الشديد من تناقل الأفكار وتوارث الآراء عن طريق المعلمين، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ(١) فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ(٢) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ(٣) وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ(٤) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٠-٤١].

هذه الآية عامة في جميع الكفرة قديمهم وحديثهم، وهي تضع قراراً حاسماً منكوداً، وتقرر حكماً مبرماً لا رجعة فيه، وتوضح أن احتمال دخول الكفار الجنة مستحيل أبداً، لا يحدث بحال، فلا يطمع أحد كفَر بالله في دخول الجنة، ولا يتأمل إنسان كذَّب بآيات الله الوصول إلى مستقر رحمة الله في الآخرة.

إن الذين كذبوا بآيات الله الدالة على وحدانيته وصدق نبيه وصحة النبوات وإثبات المعاد، لا يصعد لهم عمل صالح، لخبث أعمالهم، ومثلهم الذين تكبروا عن آيات الله في قرآنه لا تفتحّ لأرواحهم وأعمالهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة أبداً بحال، فهم مطرودون من رحمة الله، فدخولهم الجنة مستحيل، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة، وهذا أسلوب شائع بين العرب للدلالة على الاستحالة.

ومثل ذلك الجزاء الشديد الشنيع يجزي الله كل من أجرم في حق الله، وفي حق نفسه، وفي حق إخوانه المسلمين، ليدل على أن الإجرام هو السبب المؤدي إلى العقاب، وأن كل من أجرم عوقب، ثم كرر ذلك في آخر الآية التالية، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لأن كل مجرم ظالم لنفسه.

(١) يدخل الجمل ، وهذا تعبير عن الاستحالة . (٢) ثقب الإبرة . (٣) فراش أي مستقر .

ولهؤلاء المجرمين من نار جهنم فراش يفترشونه من تحتهم، وأغطية من فوقهم، والمراد أن النار محيطة بهم، مطبقة عليهم من كل جانب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الهمزة: ١٠٤/ ٨]. وقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٤٩] وقال سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٦].

ومثل ذلك الجزاء نجزي الظالمين أنفسهم وغيرهم من الناس، وهذا دليل على أن المجرمين والظالمين هم الكافرون، لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٤].

إن هذا الجزاء الحاسم للكفار يتطلب التأمل والاعتبار والاتعاظ، فلا يقبل لهم عمل صالح في الآخرة، لأن قبول العمل مرتكز على قاعدة صحيحة هي الإيمان والتقوى، والله إنما يتقبل من المتقين، ويقبل العمل الصالح لا الفاسد، ويرفَع إليه الكلم الطيب، لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠] وقوله سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٨].

وفي قوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ تشبيه المعنويات بصور المحسوسات، فإن جهنم فراش لهم ومسكن ومضجع يتمهدونه، وهي لهم غواش: جمع غاشية، وهي ما يغشى الإنسان، أي يغطّيه ويستره من جهة فوق، فكأن النار التي من تحتهم ومن فوقهم ومن جميع جوانبهم مثل الفراش المفترش، واللحاف الذي يتغطى به النائم، نعوذ بالله من الخذلان ومن شدة نار جهنم.

جزاء المؤمنين المصدّقين

إن أسعد ما يُفرح قلوب العاملين في الدنيا والآخرة: هو الظفر بالأجر والثواب، لأن العدل يقتضي ذلك، ولأنه يشعر العامل أن عمله محفوظ محترم، وثمرة جهوده لم

تضع سدىً. ولهذا تكرر في القرآن المجيد الإخبار بمكافأة العاملين، والوعد بأحسن المنازل، والجزاء في الدار الآخرة بجنان الخلد التي تجري من تحتها الأنهار، قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا(١) أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ(٢) تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٢-٤٣].

جرت سنة القرآن الجمع بين الوعد والوعيد، فبعد أن ذكر الله تعالى وعيد الكافرين والعصاة، أتبعه بوعد المؤمنين الطائعين، وهذه الآية وعد وإخبار قاطع بأن جميع المؤمنين هم أصحاب الجنة، ولهم الخلد فيها.

والموعودون: هم الذين صدقوا بالله ورسله، وعملوا الصالحات، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، فهم أهل الجنة دون سواهم، وهم المخلّدون فيها أبداً، وتجري الأنهار من تحت غرفهم وبساتينهم النضرة.

وجاء قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة اعتراضية، للتنبيه على أن الجنة مع عظم مكانها، يسهل الوصول إليها، فقاعدتها الإيمان الصحيح، وطريقها العمل الصالح المؤدي إلى الجنة، وهو أمر سهل هيِّن على النفوس، لا مشقة فيه ولا حرج، ولا زيادة فيه على مقدور الإنسان، ومعنى الوسع: ما يقدر الإنسان عليه في حال السعة والسهولة، لا في حال الضيق والشدة.

ومن نعم الله تعالى التي أخبر بها على أهل الجنة: صفاء نفوسهم، وسلامة

---

(١) طاقتها. (٢) حقد وضغن.

صدورهم، ينقِّي الله قلوب ساكني الجنة من الغل والحقد، حتى لا يكدِّرهم مكدِّر، ولا يؤلمهم ألم، ولا يحزنهم فزع، ولا يحدث بينهم شرّ، وذلك أن صاحب الغل أو الحقد متعذِّب به، ولا عذاب في الجنة، وورد في الحديث الذي ذكره القرطبي: «الغلّ على باب الجنّة كمبارك الإبل، وقد نزعه الله تبارك وتعالى من قلوب المؤمنين».

وذكر قتادة أن علياً رضي الله عنه قال: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾».

ويقول المؤمنون قولتين في الجنّة شاكرين نعمة الله وفضله: القولة الأولى: الحمد لله الذي هدانا في الدنيا للإيمان الصحيح والعمل الصالح، الذي كان جزاؤه هذا النَّعيم. وما كان من شأننا وتفكيرنا أن نهتدي إليه بأنفسنا، لولا هداية الله وتوفيقه إيانا لاتِّباع رسله.

والقولة الثانية: لقد جاءت رسل الله ربِّنا بالحقّ الثابت والكلام الصادق، وهذا مصداق وعد الله على لسان رسله.

وتناديهم الملائكة قائلين لهم: سلام عليكم طبتم، فادخلوها خالدين، هذه الجنة التي أورثكم الله إياها جزاء أعمالكم الصالحة.

وإذا كان القانون العام بمقتضى العدل الإلهي هو أن دخول الإنسان الجنة بعمله، فإن العمل قليل بجانب فضل الله، لذا احتاج الإنسان إلى أن يكون دخول الجنة بمجرد رحمة الله تعالى، جاء في الحديث الصحيح: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله بفضله ورحمته».

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠].

حوار أهل الجنّة والنار

الحوار أو المناظرة بين أهل الجنة وأهل النار أمر ثابت واقع، يدل على وجود الحرية وحقّ الدفاع عن وجهات النظر في ساحات المحاكمة التي يكون قاضيها ربُّ العالمين. والإخبار عن هذا الحوار في القرآن الكريم دليل آخر على صدق توقُّعات المؤمنين وهزيمة الكافرين في الدار الآخرة، قال الله تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ(١) بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا(٢) وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ(٣) وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ(٤) رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ(٥) وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٤-٤٧].

هذا إخبار من الله عزّ وجلّ عما يكون بين فريقي المؤمنين والكافرين في الآخرة، وخبر الله صدق واقع لا محالة، عبَّر عن معان مستقبليّة بصيغة ماضية، لإفادة تحقق وقوعه، واستقرار حدوثه، حتى لكأنه أصبح حديثاً يتناقله الناس عن الماضي، وهذا النداء من أهل الجنة لأهل النار تقريع وتوبيخ وزيادة في الكرب. ويحصل النداء بعد استقرار الفريقين في الجنة والنار.

والنداء الصادر من أهل الجنة لأهل النار يحصل بصفة جماعية أو فردية، ومضمون النِّداء: أن أصحاب الجنة يقولون لأهل النار: قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا على ألسنة الرُّسل من النعيم والتكريم حقّاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربُّكم من الخزي والنكال حقّاً؟ فقالوا: نعم، فنادى منادٍ أو مؤذِّن بين الفريقين: أن لعنة الله على الظالمين،

(١) نادى مناد. (٢) يطلبونها معوجّة. (٣) حاجز، وهو السّور. (٤) أعالي السُّور. (٥) بعلامتهم.

أي إن اللعنة وهي الطرد من رحمة الله مستقرة على الظالمين أنفسهم بعدم الإيمان. وهذا المنادي أو المؤذن إما مالك خازن النار أو ملَك آخر غيره.

وأوصاف هؤلاء الظالمين: هي أنهم الذين يمنعون الناس عن اتِّباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويطلبون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد.

ومن أوصاف الظالمين: أنهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون، أي جاحدون مكذِّبون بذلك، لا يصدِّقونه ولا يؤمنون به، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر القول والعمل.

وبين فريقي الجنة والنار حجاب حاجز مانع من وصول أهل النار، وهو السّور الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٣]. وأعالي السّور: هي الأعراف، وأهل الأعراف على أعالي ذلك السّور رجال يرون أهل الجنّة وأهل النّار، ويعرفون كلاًّ منهم بعلامتهم من بياض وجوه المؤمنين وسواد وجوه الكافرين. وأهل الأعراف: هم قوم استوت حسناتهم وسيِّئاتهم، فلم يتأهَّلوا للجنّة، ولم يستحقّوا النّار، وقفوا هناك على السّور حتى يقضي الله فيهم.

ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة قائلين لهم: سلام عليكم، والحال أنهم لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها، لما بدا لهم من يُسْر الحساب، ولاعتمادهم على سعة فضل الله ورحمته.

والناس جميعاً في ذلك الموقف بين الخوف والرجاء. روى أبو نعيم الأصفهاني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لو نادى منادٍ: يا أهل الموقف، ادخلوا النار إلا رجلاً واحداً، لرجوت أن أكون ذلك الرجل، ولو نادى: ادخلوا الجنّة إلا رجلاً واحداً، لخشيت أن أكون ذلك الرجل.

وتكميلاً للمشهد أخبر الله تعالى عن أهل الأعراف: أنه إذا حولت أبصارهم نحو أهل النار من غير قصد، فرأوا وجوههم مسودّة، وأعينهم مزرقّة، قالوا متضرِّعين إلى الله تعالى: ربّنا لا تجعلنا مع هؤلاء القوم الظّالمين أنفسهم.

وهكذا ترى الفارق واضحاً في نظرات أهل الأعراف، فهم إن نظروا إلى أهل الجنة سلَّموا عليهم، وتاقت نفوسهم إلى اللقاء بهم، وإن نظروا إلى أهل النار، استغاثوا وتضرَّعوا ألا يكونوا معهم. وهذا توقُّع طبيعي.

حوار آخر بين أهل الأعراف وأهل النّار

في الآخرة ألوان متعددة من الحوار بين أهل الجنة وأهل النار، وبين أهل الأعراف وأهل النار، الغرض منها كما أخبر القرآن الكريم تبيان الحق لأهل الاستقامة، ومعرفة الباطل لأهل الضّلالة، وكل ذلك أخبر عنه القرآن المجيد سلفاً في عالم الدنيا ليحتاط الإنسان ويكون على بيِّنة من أمره. قال الله تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ(١) قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/٤٨-٤٩].

هذا لون من النداء أو المناظرة والحوار بين أهل الأعراف وأهل النار يراد به توبيخ الكفار وتأنيبهم على غرورهم وتكبُّرهم واحتقارهم ضعفاء المؤمنين لفقرهم وحاجتهم.

وتصوير الحوار أن أهل الأعراف: وهم قوم من البشر مذنبون على أعالي السُّور

---

(١) السِّيما: العلامة.

بين الجنّة والنار ينادون رجالاً من المشركين من أهل النار، يعرفون كلاً منهم بسيماهم، أي بعلامتهم: وهي سواد الوجوه وقبحها في أهل النار وما عليها من الغبرة، وزرقة العيون وتشويه الخلقة، قائلين لهم: أي شيء أغناكم عنه جمع المال، أو اجتماعكم وكثرتكم، واستكباركم عن الإيمان برسالة النّبي محمد ﷺ، وتكبُّركم على المستضعفين والفقراء من المسلمين كصهيب وبلال وآل ياسر؟ لم يمنع عنكم ذلك كله شيئاً من العقاب، ولا أفادكم شيئاً من الثواب، بل صرتم إلى ما أنتم عليه من العذاب والنّكال. وتبدّدت مزاعمكم التي كنتم تردّدونها أن من أغناه الله في الدنيا، وجعله قويّاً هو الذي له نعيم الآخرة، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٤-٣٥].

ثم سألوهم سؤال توبيخ وتقريع عن حال المستضعفين الذين كانوا يضطهدونهم في الدنيا بسبب إيمانهم وإسلامهم كآل ياسر وخبيب وصهيب وبلال الحبشي، فقالوا لهم: أهؤلاء الذين أقسمتم أو حلفتم في الدنيا ألا ينالهم الله أبداً برحمة لفقرهم وضعفهم وقلة أتباعهم، وهم الآن في رياض الجنّة ونعيمها ويتمتّعون بخيراتها، وغيرهم من جبابرة الكفار وزعماء الشرك يتقلّبون في حرِّ جهنّم ويتلظّون في سعيرها.

أهؤلاء الضعفاء في الدنيا الذين حلفتم أن الله لا يعبأ بهم، قيل لهم من الله أو من الملائكة: ادخلوا الجنة من غير خوف على ما يأتي، ولا حزن على ما فات؟!

وأقسم أهل النار من المشركين: أن أهل الأعراف داخلون النار معهم، فنادتهم الملائكة: إن أهل الأعراف الموقوفين على السّور يقال لهم: ادخلوا الجنّة، لا خوف عليكم في المستقبل، ولا يطرأ عليكم حزن في الحاضر ولا تأسُّف على ما فات في الماضي.

وذكر الطبري من طريق حذيفة: أن أهل الأعراف يرغبون في الشفاعة، فيأتون آدم، فيدفعهم إلى نوح، ثم يتدافعهم الأنبياء عليهم السّلام، حتى يأتوا محمداً ﷺ ليشفع لهم، فيشفع، فيدخلون الجنّة، فيلقون في نهر الحياة، فيبيضّون ويُسمَّون مساكين الجنّة.

وفائدة الحوار المذكور بين أهل الأعراف وأهل النار: تبيان أن الجزاء على قدر العمل، والترغيب في التسابق في أعمال الخير، وأن المعول عليه ليس هو المال والغنى والقوة، وإنما المنظور إليه هو العمل الصالح، وأن الطائعين يتميَّزون بالنُّضرة، وأن العصاة يعرفون بالغَبرة والزُّرقة وتشوُّه الخلقة.

وإن أساس السعادة والنجاة في عالم الآخرة هو الإيمان والعمل الصالح، وسبب الهلاك والعذاب في النار هو الشِّرك أو الكفر، أو التَّكبر عن اتِّباع رسالة الحق رسالة النَّبي ﷺ.

وفضل الله ورحمته يشملان المقصِّرين أهل الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهذا ترغيب في تفادي التقصير في العمل، حتى لا يتعرَّض المقصِّرون لشيء من الحسرة والألم، والمهلة والانتظار، والقلق والاضطراب، ويستفاد من ذلك أن على الإنسان أن يكون بصيراً بالعواقب، شديد الخوف من سوء المصير، عظيم الرجاء في إحسان الله وفضله ورحمته، والله يغفر لمن يشاء، ويرحم من يشاء.

استغاثة أهل النار بأهل الجنة

إذا اشتد الكرب، وعظم البلاء، وأطبق العذاب بأهل النار لم يجدوا ملجأً إلا الاستغاثة والاستنجاد بأهل الجنة لإمدادهم بالطعام والشراب، وإنقاذهم مما يتعرضون له من النكال والشدة وسوء التقلب في نار جهنم، فترتفع أصواتهم بالنداء

لعلمهم بأن أهل الجنة يسمعون نداءهم، وكأنهم يظنون أن أصحاب الجنة قادرون على نجدتهم والإشفاق عليهم، وقد حكى القرآن الكريم خبر هذا النداء فقال الله تعالى:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا(١) عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ(٢) ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ(٣) كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٠-٥١].

هذا مشهد من مشاهد أهل النار يوم القيامة، يعبر عن سوء حالهم، ويدل على مدى الذل والانكسار الذي يسيطر عليهم، فيطلبون من أهل الجنة أن يمدوهم بشيء من الطعام والشراب، طمعاً في الفرج، وأملاً في النجاة. والأشنع على الكافرين في مقالتهم لأهل الجنة: أن بعضهم يرى بعضاً، وذلك أخزى وأنكى للنفس.

إنهم يطلبون من أقاربهم أن يفيضوا عليهم من الماء للإبراد، أو مما رزقهم الله من الأطعمة والأشربة غير الماء. إنهم يستغيثون ويستجيرون مع علمهم بأنهم لايجابون أبداً، بسبب حيرتهم في أمرهم، وشدة حاجتهم إلى الماء، كما يفعل كل مضطر كالغريق وغيره، يستنجد ويصرخ وهو يعلم أنه لاأمل في النجاة، وأن اليأس هو الغالب.

ويؤكد ذلك أي فقد الأمل: أن أهل الجنة يبادرون إلى الجواب قائلين: إن الله تعالى منع الكفار شراب الجنة وطعامها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة، طمع أهل

(١) صبوا. (٢) خدعتهم بزخارفها. (٣) نتركهم في العذاب كالمنسيين.

النار بفرج بعد اليأس، فقالوا: ياربنا، إن لنا قرابات من أهل الجنة، فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم، فأمر الله الجنة فتزحزحت، ثم نظر أهل جهنم إلى قراباتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فعرفوهم، ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم، وقد اسودّت وجوههم، وصاروا خلقاً آخر، فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وقالوا: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾. وإنما طلبوا الماء خاصة لشدة مافي بواطنهم من الاحتراق واللهيب، بسبب شدة حر جهنم.

ثم وصف الله تعالى الكافرين أهل النار بأنهم استحقوا النار لاتخاذهم الدِّين لعباً ولهواً، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفتها، عما أمروا به من العمل للآخرة، وجعلوا دينهم أعمالاً لاتزكي الأنفس ولا تفيد، بل هي لهو يشغل الإنسان عن الجد، أو لعب لايقصد منه فائدة صحيحة، فهي كأعمال الأطفال.

إنهم اغتروا في حياتهم الدنيوية بالشهوات والزخارف والزينة واللذات من الحلال والحرام، وسخروا بالدين وأهله، وأعرضوا عن هدي الله في قرآنه، فكان جزاؤهم أن يعاملوا معاملة المنسي من الخير؛ لأن الله تعالى لايخرج شيء عن علمه ولا ينساه، ويتركوا في نار جهنم، كما تناسوا لقاء الله ولم يعملوا له، وأنكروا ماجاءت به الرسل وآيات الله. إن الله يتركهم في عذاب النار، كما تركوا العمل في الدنيا للقاء الله يوم القيامة، وكما جحدوا بآيات الله التنزيلية والكونية.

وقد سمى الله جزاء نسيانهم نسياناً من قبيل المشاكلة والمشابهة لأفعالهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٢/٤٠] مع أن الجزاء حق وعدل وليس سيئة، والمراد من كل هذا أنهم يهملون، وأن نسيان الله لهم معناه: أنه لايجيب دعاءهم ولا يرحمهم، وأن النسيان في قوله سبحانه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ هو بمعنى الترك، أي تركهم في العذاب، كما تركوا النظر للقاء الله يوم القيامة.

إن هذا لون من الإنذار الموجب للخوف وضرورة الاحتراس والحذر من عواقب الكفر والعصيان.

حيرة الكفّار وندمهم في الآخرة

لم يترك الله البشر يسيرون في الحياة هائمين على وجوههم، عاملين بشهواتهم وأهوائهم، وإنما اقتضت رحمته وسوابغ أفضاله تبشيرهم وتحذيرهم، وبيان ما يصلحهم ويرشدهم إلى أفضل السُّبل وَأقوم المناهج والطرق، وذلك بالقرآن المجيد الكامل البيان، الوافر العطاء والتوجيه، المشحون بالحكم والمواعظ، والقصص والعِبَر، والوعد والوعيد، والشرائع والأحكام، قال الله تعالى مبيِّناً خواصّ قرآنه ومزايا كتابه:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ[1] يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ[2] ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٢-٥٣].

القاعدة المعروفة: لقد أعذر من أنذر، والله أراد أن يقطع معاذير المشركين وتمسُّكهم بأعذار واهية لا قيمة لها في الميزان العلمي والعقلي، فأقسم الله سبحانه بما معناه: لقد جئنا أهل مكة وغيرهم من المشركين بكتاب واضح مبين، فصَّلناه وأوضحنا آياته بالحكَم والمواعظ والقصص والأحكام والوعد والوعيد، على علم تامّ بما فصلناه، من أجل تصحيح عقيدتهم، وتطهير نفوسهم، وإسعاد حياتهم،

(١) عاقبته ومآله . (٢) يكذبون من الشِّرك .

وجعلناه هدىً وإنقاذاً من الضلالة، ورحمة سابغة لمن يؤمن به، ويعمل بأحكامه. أما غير المؤمنين به فلا ينتفعون منه بشيء.

أوضح هذا القرآن أصول الدين، وندَّد بالشِّرك والوثنية، ووضع الأنظمة الصالحة للبشر، وحضَّ على البناء والعمل، والتقدم والتحضُّر، بدفع العقول والأفكار للتفكير والإنجاز، وذمّ التقليد وتوارث الأنظمة والمعتقدات من غير بحث ولا نظر، ولا تمحيص في آيات الله الكثيرة.

هل ينظرون؟ أي أما ينتظر هؤلاء الكفار إلا تأويل القرآن وإنجاز ما جاء فيه ومآل الحال في هذا الدين وما دعوا إليه وما صدّوهم عنه، وهم يعتقدون مآله جميلاً لهم، فأخبر الله أن مآله يوم يأتي، يقع معه ندمهم، ويقولون تأسُّفاً على ما فاتهم من الإيمان: لقد صدقت الرُّسل وجاؤوا بالحق.

يقول الذين جعلوا القرآن كالمنسي المتروك: قد جاءت رسل ربِّنا بالحق، أي صدقوا في كل ما قالوا، وصحّ أنهم جاؤوا بالحق، وظهر أنه متحقق ثابت، ولكنا نحن الذين أعرضنا عنه، فجوزينا هذا الجزاء.

وأصبحوا يتمنّون الخلاص بكل ما يمكن من أحد أمرين: إما شفاعة الشافعين، وإما الرجوع إلى الدنيا لإصلاح العمل، وتجديد السلوك والمنهج الذي يرضي الله تعالى.

والسبب في تمنّي الشفعاء: هو أن هؤلاء الكفار تذكروا أساس الشرك المغلوط، وهو أن النَّجاة عند الله إنما تكون بوساطة الشفعاء، فحينما أفلسوا وعرفوا أن النَّجاة بالإيمان والعمل الصالح الذي أوضحه القرآن وهو أداء الفرائض وترك المحظورات، حينما أفلسوا تمنّوا الرجوع إلى الدنيا ليعملوا بما أمر به الرُّسل غير عملهم السابق، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا

نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٧-٢٨].

وهذه كالآية في سورة الأعراف التي ذكرناها: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي إنهم ضيَّعوا أنفسهم وغبنوها بدخولهم النار وخلودهم فيها، وذهب عنهم ما كانوا يفترون من خبر الشفعاء (أي الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله) قائلين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠/ ١٨] فلا يشفعون فيهم، ولا ينصرونهم، ولا ينقذونهم مما هم فيه من العذاب. ولا يتمكّنون من الرجوع للدنيا، لأنهم لو عادوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون، كما أخبر الله جلّ جلاله.

أدلة إثبات الأُلوهيّة

يتساءل كثير من الناس عن الأدلّة القطعية التي تثبت وجود الله تعالى ووحدانيته في الرُّبوبيّة والأُلوهيّة، لتطمئن النفس البشرية، ويكون الإيمان مستقرّاً فيها عن قناعة واطمئنان، لا عن مجرد تقليد وحكايات، واكتفى القرآن العظيم بدليل واحد يدل على وجود الله ووحدانيته، ألا وهو الخلق والإيجاد، والإبداع والأمر النافذ الذي يترتب عليه وجود الأشياء فوراً دون تلكؤ ولا تأخُّر. وهذا ما نصّت عليه الآية القرآنية التالية:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى(١) ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا(٢) وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ(٣) وَٱلْأَمْرُ(٤) ۗ تَبَارَكَ(٥) ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٤].

---

(١) يغطّي النهار بالليل، فيذهب ضوءه. (٢) يطلب الليلُ النهار طلباً سريعاً. (٣) إيجاد الأشياء من العدم.
(٤) التدبير والتّصرف كما يشاء. (٥) تنزه وكثر خيره.

إن مدار القرآن الكريم وغايته الجوهرية في العقيدة إثبات أسس أربعة: وهي التوحيد لله، والنُّبوة، والمعاد، والقضاء والقدر، وإثبات المعاد متوقِّف على إثبات التوحيد والقدرة والعلم، وإثبات هذه الأصول يتمثَّل في خلق الإنسان وخلق السماوات والأرض.

وهذه الآية خطاب عام لجميع البشر، يقتضي التوحيد وإقامة الحجة عليه بدلائله، فالله سبحانه هو الرَّب، أي المالك والسيد المطلق ومتولِّي جميع شؤون المخلوقات، فيستحقّ العبودية له وحده، والعبادة وحده، والاستعانة به وحده؛ لأنه هو الذي خلق الكون والعالم كله، خلق السماوات السبع والأراضي السبع وما بين ذلك من الموجودات والكائنات الحيّة، خلقها في ستة أيام، واليوم في رأي مجاهد وأحمد بن حنبل كألف سنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٧]. وأما يوم القيامة فقال الله في وصفه: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤].

ولو أراد الله خلق السماوات والأرض في لحظة لفعل، ولكنه سبحانه له حكمة بالغة في ذلك، انفرد بعلمها عزّ وجلّ كسائر أحوال الشرائع، وكأن الحكمة في تصوُّرنا تعليم العباد التّأني والتَّثبُّت في الأمور، والاعتماد في كل شيء على الإتقان والإحكام، ولإعلام الناس أن خلق السماوات والأرض أمر عظيم ليس بالشيء الهيِّن، كما قال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٧].

وكان خلق الأرض في يومين، وخلق الجبال الرواسي وأنواع النبات والحيوان في يومين آخرين، وخلق السماوات وما فيها من عوالم وأفلاك، وكواكب وأبراج في يومين.

والعرش أحد المخلوقات بل هو أعظم المخلوقات، لذا خصّ بالذِّكر، وهو مخلوق معين، وجسم ما، وقد استوى الله على عرشه بعد خلق السماوات والأرض، يدبِّر الأمر، ويصرِّف النظام، ويمارس السلطان، ويستولي على زمام الأمور استيلاءً شاملاً، ونحن نؤمن كإيمان الصحابة باستواء الله على العرش بكيفية تليق به، من غير تشبيه ولا تجسيد ولا تكيف، أي من غير تحديد بجهة، ولا تقدير بوصف، وتترك معرفة الحقيقة إلى الله تعالى، قال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء معلوم (أي في اللغة) والكيف (أي كيفية الاستواء) مجهول، والسؤال عنه بدعة.

ثم أبان الله تعالى بعض مظاهر تدبيره الكون، وهو أنه سبحانه جعل الليل يلحق النهار بسرعة دون تأخُّر ولا فاصل، يغشاه بظلمته، ويستره بلباسه، حتى يذهب ضوء النهار، لإتمام قوام الحياة، ففي تعاقب الليل والنهار منافع كثيرة، وتحقيق مصالح عديدة للناس، فالليل للسكون والهدوء والنوم والراحة، والنهار للمعاش والعمل والكدح ولقاء الناس وتبادل المنافع وتأمين المصالح.

ومن مظاهر التدبير الإلهي للكون: خلق الله الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب، وكونها جميعاً تحت قهره وتسخيره ومشيئته، فهي خاضعة لأمره وتصرُّفه، وكل كوكب يدور في فلكه إلى أجل مسمى وموعد محدد. واكتمل لله المادّة والمعنى في قوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ﴾ أي فهو الموجد الخالق لكل شيء، وهو المتصرِّف والمدبِّر لكل شيء ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تعاظم وتنزه، وانفرد بالرُّبوبية والأُلوهية، فوجب على العباد شكره على نعمه وخيراته، وعبادته دون غيره. والعالمين جمع عالم يشمل الإنس والجنّ. أسند الطبري إلى النَّبي ﷺ أنه قال: «من زعم أن الله تبارك وتعالى جعل لأحد من العباد شيئاً من الأمر، فقد كفر بما أنزل الله لقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ﴾» قال النقاش: ذكر الله الإنسان في

القرآن في ثمانية عشر موضعاً، في جميعها أنه مخلوق، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً، ليس في واحد منها إشارة إلى أنه مخلوق.

آداب الدُّعاء

الله سبحانه وتعالى كامل الملك والسلطان، والقدرةِ والتدبير، والتَّصرفِ والهيمنة على كل شيء، فهو الجدير وحده بالسؤال واللجوءِ إليه، وطلبِ الحوائج، وقصدِه في الأمور كلها، كإفراده بالعبادة والخضوع، والتَّذلل والمسكنة، ولا يصلح مقصداً في أي أمر غير الله، ولا يستحقُّ التَّعبد والعبادة غير الإله الخالق، والآمرِ النَّاهي، النَّافذِ أمره ونهيه.

لكن للعبادة أصول، وللدُّعاء آداب وقواعد، من هذه الآداب ما جاء في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا(١) وَخُفْيَةً(٢) إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٥-٥٦].

هذا أمر بالدُّعاء وتعبُّد به، ثم قرن الله عزّ وجلّ بالأمر به صفات تحسن معه وتليق بالمتعبِّد الدّاعي ربَّه بإخلاص وصدق. أرشد الله تعالى عباده إلى دعائه الذي فيه صلاحهم في دنياهم وأُخراهم، فقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي ادعوا الله بخضوع واستكانة، وخوف وتذلُّل ومسكنة، وإسرار وإخفاء، لأن في إسرار الدعاء وإخفائه بُعداً عن الرِّياء، وأدباً كريماً مع الله الذي هو ربُّ كل شيء ومليكه ومتولِّي

---

(١) مظهرين الضّراعة والذِّلة . (٢) سرّاً في قلوبكم .

أمور العباد والمنعم عليهم والسميع لكل شيء. والأمر بالدعاء لأنه مخّ العبادة، وسبيل اللطف الإلهي والبعدِ عن الأحداث والمصائب.

جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدُّعاء، فقال رسول الله ﷺ : «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم(١)، فإنكم لا تَدْعون أصمّ ولا غائباً، إنكم تَدْعون سميعاً قريباً، وهو معكم».

وروى أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري في الثواب عن أنس رضي الله عنه: «دعوة في السِّر تعدل سبعين دعوة في العلانية» . وهذا يدلُّ على أن الإسرار بالدعاء إذا لم يقصد به التعليم هو الأولى، إلا ما ورد فيه رفع الصوت كالتَّلبية في الحج، وتكبير العيدين. والله تعالى لا يحبُّ المعتدين ولا يرضى عنهم، والاعتداء في الدعاء بالجهر الكثير والصياح، وتجاوز الحدّ، وارتكاب الحظر.

ومن صيغ الدُّعاء المأثورة أن يقول الإنسان ويكفيه ذلك: «اللَّهم إني أسألك الجنّة وما قرَّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النّار وما قرَّب إليها من قول أو عمل».

ومن ألزم شروط الدعاء بعد شرط التَّضرع والخفية: استقامة الدّاعي وصلاحه وبُعده عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، والهداية إلى الانتفاع بها، وتسخيرها لمصالح العباد. والإفساد شامل إفساد الأديان بالكفر والابتداع في الدين، وإفساد النفوس بالقتل وقطع الأعضاء، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة والاحتيال، وإفساد العقول بشرب المسكرات ونحوها، وإفساد الأنساب بالإقدام على الزِّنى والقذف وغيرهما من الفواحش والموبقات.

---

(١) ارفقوا بأنفسكم .

ويتطلب الدعاء أيضاً ما قاله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي ادعوا الله خوفاً من عقابه، وطمعاً في جزيل ثوابه. فإذا دعا الإنسان متذلّلاً لربّه خاضعاً لجنابه، معتقداً ذلك في قلبه، خائفاً من عذاب الله، طامعاً في فضله وثوابه، كان دعاؤه أقرب إلى الإجابة، قال الله تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إن رحمة الله وإجابته قريبة من المحسنين أعمالهم، وهي مرصدة للمحسنين الذين يتَّبعون أوامره ويتركون زواجره، فمن أحسن الدعاء أعطي خيراً مما طلب أو مثله، أو دفع عنه من الشّر مثله. كما قال الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النَّجم: ٥٣/ ٣١].

وحذف التاء من قوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في صفة الرَّحمة إما على جهة النَّسب أي ذاب قرب، كأنه قال: إنَّ رحمة الله ذات قرب، وإما على أن كلمة (قريب) إذا استعملت في قرب المسافة أو قرب الزمن، فإنها تجيء مع المؤنث بتاء، وقد تجيء بغير تاء. والمعنى أن إجابة الدعاء تكون قريبة الحصول في زمان يسير إذا كان الدّاعون محسنين في دعائهم، غير معتدين بالإفساد أو الظلم أو مخالفة أوامر الله ونواهيه. ويفهم منه: ليس لله في حقِّ الكافر رحمة ولا نعمة في الآخرة.

إثبات البعث والمعاد

لكل شيء في هذا العالم غاية ومقصد، وحكمة وهدف، وإذا كان الناس في الحياة الدنيا يعيشون ويموتون، ويتفاوتون في أعمالهم ومدى استقامتهم وعصيانهم، ثم لا يكون هناك عالم آخر يحقق التَّناصف بينهم، فلا طعم لهذه الحياة، ولا عدل في الإيجاد والخلق والوجود في الدنيا. والله تعالى منزه عن الظلم، متّصف بالقسط التّام والعدل الدقيق الشامل، فاقتضى عدله وإنصافه جمع الناس ليوم المعاد والآخرة

للقصاص والعقاب والثواب. وأقام الله تعالى في قرآنه الأدلة الكثيرة على قدرته العظيمة على البعث والقيامة، من هذه الأدلة قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرًۢا(١) بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا(٢) ثِقَالًا(٣) سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ(٤) فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ(٥) كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ(٦) ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَشۡكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٧-٥٨].

هذه آية اعتبار واستدلال على وجود البعث، وفهمُ الدليل بسيط جداً، فإن الله تعالى كما أنه يحيي الأرض وينبتها نباتاً حسناً بالمطر فإنه قادر على إعادة الموتى أحياء يوم القيامة، كإحياء الأرض بعد موتها، علماً بأن الرياح حيث وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرحمة، وأما الريح بمقترنة بالعذاب. جاء في الحديث: «أن رسول الله ﷺ كان إذا هبَّت الريح يقول فيما رواه الإمام الشافعي: اللَّهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً».

وعملية إنزال المطر تكون بإرسال الرياح لسوق السحب الثقيلة المشحونة بالرطوبة و بخار الماء، إلى مواضع نزول الغيث، فينزله الله تعالى في المكان القفر، والبلد الميت الذي لا نبات فيه، فترتوي الأرض، فيخرج الله بالمطر أنواع النبات والثمار من الأرض، على اختلاف ألوانها وأشكالها، وطعومها وروائحها، وهذا دليل حسّي واضح يدل على قدرة الله وتمام رحمته، كما قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٣٣].

وتنوُّع الناتج من الأرض بالرغم من كون التربة واحدة والماء واحداً دليل حسّي آخر على عظمة القدرة الإلهية، كما قال الله سبحانه: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ

---

(١) مبشِّرات برحمته وهي الغيث. (٢) حملته الرِّياح. (٣) مثقلة بِحَمْل الماء. (٤) مجدب لا نبات فيه.
(٥) عَسِراً. (٦) نكرِّرها بأساليب مختلفة.

وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرّعد: ١٣/ ٤].

وإحياء الأرض بعد موتها بالنباتات يحدث بقدرة الله الخالق، فكذلك إعادة الحياة إلى الأجساد يكون بقدرة الله أيضاً: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي مثل هذا الإخراج لأنواع النبات من الأرض الميتة الجدبة بالماء، نخرج الموتى ونبعثهم، فالله على كل شيء قدير، يخرج الحيّ من الميت، و يخرج الميت من الحيّ، وقد بيّنا هذا الشَّبه لكم أيها العباد لتتذكروا وتتّعظوا، فتؤمنوا بالبعث أو اليوم الآخر.

ولكن استعداد الناس للإيمان بالبعث مختلف باختلاف الطبائع والنفوس، كالأرض تماماً، منها الطَّيب المنبت، ومنها السَّبِخة أو الملحة غير الصالحة للنبات. والأرض الطيبة التربة يخرج نباتها سريعاً حسناً، والأرض الخبيثة التربة كالسبخة ونحوها، لا يخرج نباتها القليل إلا بعسر وصعوبة.

وهكذا الناس مثل الأرض، منهم المستعدّ للإيمان، القويم الفطرة، السليم الفهم والإدراك، فيبادر إلى الإيمان بالبعث، كالأرض الطيبة المعدن والبلد الطيب الأصل، ومنهم من ينكر البعث بعد وجود أماراته وتوافر دلائله كالأرض الخبيثة التي لا تنبت بسبب الملوحة أو الأحجار أو الأشواك ونحوها، وبمثل هذه المقارنة وبيان الأشباه والأمثال، والتصريف البديع، يصرف الله الآيات ويردِّدها ويبيِّنها لقوم يشكرون نعمة الله، وهم المؤمنون المفكِّرون فيها، المعتبرون بها من غير صعوبة في الفهم أو عسر في الإدراك.

رسالة نوح عليه السّلام لقومه

كان رسل الله الكرام المثل الأعلى لحبِّ الإنسانيّة والإنسان، فكان كل رسول يدعو قومه إلى سلوك طرق الهداية والسعادة بتوحيد الله واتِّباع شرعه، لإنقاذهم من الضّلالة إلى الهدى، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومع ذلك كان القوم يقابلون الإحسان بالإساءة، والمعروف بالإعراض والإنكار، والجحودِ والعداوة، وأما الرسول فكان يصبر على الأذى والطَّرد، وفي مقدمة هؤلاء الرُّسل نوح عليه السّلام، قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ(١) مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ(٢) ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٩-٦٤].

أقسم الله تبارك وتعالى أنه أرسل نوحاً إلى قومه لإنذارهم، ودعوتهم إلى توحيد الله وعبادته دون سواه، قائلاً لهم: توجَّهوا بعبادتكم إلى الله وحده لا شريك له؛ لأنه ليس لكم إله غير الله، تتجهون إليه بالعبادة والدُّعاء وطلب الخير، إني أخشى عليكم بسبب الشِّرك والوثنية عذاب يوم عظيم من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله، أو من عذاب الدنيا وهو الطُّوفان.

قال الملأ من قومه أي أشرافهم وقادتهم ورؤساؤهم: إنا لنراك في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة الأصنام لفي غمرة من الضلال تحيط بك، وهكذا حال الفجّار يرون

(١) السّادة والأشراف . (٢) عُمْي القلوب عن الحق .

الأبرار في ضلالة، وهم دائماً أعداء الهداة والمصلحين. والأظهر أن قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ هي رؤية القلب.

فأجابهم نوح عليه السَّلام على سبيل الأدب الجمّ والإعراض عن جفائهم، وسعة الصدر التي تتميز بها أخلاق الأنبياء: لست بهدايتكم إلى توحيد الله ودعوتكم إلى سعادة الدنيا والآخرة ممن اتَّصف بالضّلالة والانحراف، ولكني رسول من عند الله ربِّ العالمين. وقوله: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ﴾ تعرض لمن يريد النظر والبحث والتأمل، في المعجزة النَّبوية. ولا شكّ بأن نوحاً عليه السّلام وكل نبي مبعوثٍ إلى الخلق كانت له معجزة تخرق العادة، فمنهم من عرفنا معجزته، ومنهم من لم نعرف.

أبلغكم ما أرسلني به ربِّي من الدعوة إلى التوحيد الخالص، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما اشتمل عليه من جنّة ونار، وثواب وعقاب، وأُبيِّن لكم أصول العبادات والمعاملات وأحكامها العامة وفضائل الأخلاق والآداب. وأنصح لكم نصحاً خالصاً من شوائب المصلحة والمكر، بتحذيركم من عقاب الله على كفركم وتكذيبكم لي. وأنا في هذا التَّبليغ والنُّصح أعلم من الله ما لا تعلمون، أي أعلم المعلومات المخوّفات عليكم، لا سيما وهم لم يسمعوا بأمة قط عذّبت، فاللفظ فيه معنى الوعيد والتخويف.

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هذا الاستفهام بمعنى التقرير والتوبيخ على ما وقع منهم على جهة الاستبعاد، أي كيف تتعجَّبون من مجيء تذكير إلهي يذكِّركم، ووعظ من ربّكم، على لسان رجل منكم، ليحذِّركم عاقبة كفركم، وينذركم عاقبة الشِّرك في العبادة، وليحملكم على تقوى الله بالتزام الأوامر الإلهية واجتناب النَّواهي، للنَّجاة من العذاب، ولكي يرحمكم الله بتقواه إن وجدت منكم.

فالوحي من الله إلى رجل من جنسكم رحمة بكم، ولطف وإحسان إليكم،

لتستقيموا وتتقوا عذاب الله بتجنّب الشّرك، وليرحمكم ربُّكم بطاعته والإيمان برسله.

لكنهم تجاهلوا هذا الإنذار، وكذبوا برسالة نوح عليه السّلام، فأنجاه الله والذين آمنوا معه بركوب السفينة، وهكذا ينجي الله المؤمنين، بوعد الله في قرآنه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٥١]. وأغرق الله قوم نوح المكذّبين بالطُّوفان، بسبب كفرهم وتماديهم في الضّلال والشّرك، وإعراضهم عن الحقّ، وتركهم هداية الله تعالى.

وفي التفاسير: إن الذين كانوا مع نوح في السفينة ثمانون، منهم أولاده: يافث وسام وحام، وفي كتب الحديث للتّرمذي وغيره: «إن جميع الخلق الآن من ذرّية نوح عليه السّلام».

رسالة هود عليه السّلام إلى قومه

يستمر الفضل الإلهي على البشرية في مراحل التاريخ ولكل الأقوام، فكان الله يرسل الرُّسل إلى جميع الأقوام وفي كل العصور والأزمان، ليبقى النُّور الإلهي مضيئاً حياة البشرية، وكيلا يبقى هناك عذر لأحد بترك هداية الله، لذا أرسل الله هوداً عليه السّلام إلى قومه قبيلة عاد التي كانت منازلهم أو مساكنهم في اليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل، فيما بين عُمان إلى حضرموت باليمن، وكانوا مع ذلك مفسدين في الأرض كلها، وقهروا أهلها، بفضل قوتهم التي خلقها الله لهم. قال الله تعالى:

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ[1] وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

(١) خفة عقل.

﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي
وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ
وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ(١) فَٱذۡكُرُوٓاْ
ءَالَآءَ(٢) ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ
ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ
رِجۡسٞ(٣) وَغَضَبٌۖ(٤) أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن
سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا
دَابِرَ(٥) ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٦٥-٧٢].

تُشْبِه قصة هود عليه السّلام مع قومه قصة نوح عليه السّلام مع قومه، إلا أن قوم هود كانوا كما تدلُّ هذه الآيات أشدّ عناداً واستبداداً، وأكثر جدالاً وإصراراً على تقليد الآباء والتّمسك بالوثنية والضّلال. قال هود: يا قوم، اعبدوا الله وحده، فليس لكم إله غيره، أفلا تتقون عذاب الله، وتبتعدون عن الشِّرك والعصيان؟! وأخوة هود لقومه أخوة جنس وقرابة وقوم لا أخوة إيمان.

فقال أشراف القوم وهم الملأ الكفار: إنا يا هود لنراك سفيهاً أي سخيفاً طائشاً خفيف العقل، وإنا لنظن أنك أحد الكاذبين الذين يكذبون على الله في ادِّعائهم الرسالة من الله.

قال لهم هود بأدب حسن وخلق عظيم مترفِّعاً عن مجاراتهم في سوء الأدب: ليس بي سفاهة أي ضلالة وحماقة، ولكني بحق رسول من ربِّ العالمين، أرسلني إليكم لتبليغكم ما أرسلت به من التكاليف الإلهية، وأنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه، أمين فيما أبلغكم إياه، فلا أكذب على الله، وهذه صفات الرُّسل: التّبليغ والنُّصح والأمانة.

(١) قوةً وعِظَماً . (٢) نِعَمه . (٣) عذاب . (٤) لعن وطرد . (٥) آخر أي الجميع.

ولا تتعجَّبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من جنسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، معه ذِكْر من ربّكم، والذِّكْر: المواعظ والأوامر والنّواهي. واذكروا فضل الله عليكم ونعمته، حين جعلكم ورثة نوح أو خلفاءه، ومنحكم طولاً في القامة وقوة في الجسد تفوق أمثالكم من أبناء جنسكم وعصركم، واذكروا آلاء الله، أي نعمه وأفضاله، واهجروا الأوثان والأصنام، لتكونوا من النّاجين المفلحين السعداء.

فردّوا عليه متمرِّدين بقولهم: أجئتنا لأجل أن نعبد الله وحده، ونترك عبادة الآباء للأصنام شركاءِ الله، فهم يقرّون بوجود الإله الخالق المبدع، لكنهم لا يفردونه بالعبادة، وتمادوا في طغيانهم، واشتطّوا في الحماقة والتَّحدي، فطلبوا إنزال العذاب عليهم، قائلين: استعجِلْ إنزال العذاب علينا إن كنت صادقاً في تهديدك ووعيدك. أجابهم هود عليه السّلام بقوله: إنه قد وجب عليكم وحق بمقالتكم هذه نزول عذاب من ربّكم، وسخط وطرد من رحمة الله، أتحاجّونني في هذه الأصنام، وتخاصمونني في أن تسمى آلهة، وهي لا تضرّ ولا تنفع؟ إنكم تسمّونها آلهة، وهي تسمية باطلة، ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان أو دليل على عبادتها، فانتظروا نزول العذاب الشديد من الله الذي طلبتموه، إني معكم أحد المنتظرين لنزوله بكم.

ونزل بقوم عاد العذاب الشديد وهو الريح العاتية التي دمَّرتهم ودمَّرت كل شيء أتت عليه، وتم استئصال الكافرين الذين كذبوا بآيات الله، ولم يكونوا مؤمنين بالله إلهاً واحداً لا شريك له، ونجى الله هوداً والذين آمنوا معه برحمة عظيمة من الله، وكذلك ينجي الله المؤمنين.

رسالة صالح عليه السّلام إلى قومه

قد يوجد في عصر واحد أكثر من رسول في قبائل شتّى وأُمم مختلفة؛ لأن كل رسول سابق كان يبعث لقومه خاصة، وتميّز رسولنا محمد ﷺ بأنه بعث للناس كافّة، ولكي تتضافر جهود الأنبياء والرُّسل السابقين، ويتحقق الإصلاح الشامل بسبب عيش كل قبيلة في بلد بعيد عن البلد الآخر، والاتّصالات كانت صعبة وبطيئة. لذا أرسل الله صالحاً عليه السّلام إلى قومه قبيلة ثمود، كما أرسل من قبله هوداً عليه السّلام إلى قومه قبيلة عاد. قال الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً[(١)] ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ[(٢)] فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ[(٣)] اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا[(٤)] فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا[(٥)] عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ[(٦)] فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ[(٧)] ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٣-٧٩].

---

(١) معجزة دالّة على صدقي. (٢) أسكنكم. (٣) نعمه وأفضاله. (٤) لا تفسدوا إفساداً شديداً.
(٥) استكبروا. (٦) الزّلزلة الشّديدة. (٧) موتى قعوداً بدون حركة.

هناك تشابه واضح بين رسالتي هود وصالح عليهما السّلام اللذين كانا عربيَّين كإسماعيل وشعيب، وبين أقوامهما وهم عاد وثمود من سلالة نوح عليه السّلام، ومن العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السّلام. وكانت ثمود تسكن بعد عاد بالحِجْر بين الحجاز والشّام. وأخوة صالح لقومه ثمود كأخوة هود لقومه عاد أخوة قرابة ودم لا أخوة دين وإيمان، وكانت قبيلة ثمود مثل قوم نوح وعاد تدين بعبادة الأصنام يشركونها مع الله في العبادة، وآتاهم الله نِعَماً كثيرة، فأرسل الله إليهم صالحاً نبيّاً ورسولاً عليه السّلام، واعظاً ومذكِّراً لهم بنعم الله وآياته الدّالة على توحيده، وأنه يجب إفراده بالعبادة.

قال صالح لقومه: يا قوم اعبدوا الله، ليس لكم إله غيره، قد جاءتكم حجة أو موعظة واضحة من ربّكم تدلُّ على صدق رسالتي، وهي هذه الناقة بناء على اقتراحكم، لكم آية خاصة دالّة على صدقي، لأنكم المشاهدون لها وحدكم، فاتركوها تأكل في أرض الله، ولا تتعرَّضوا لها بسوء، فيصيبكم عذاب أليم. وكانت هذه النّاقة تقاسم ثمود في الماء يوماً بيوم، فكانت ترد ماء بئر فتشربه كله، ويحلبون منها ما شاؤوا، ثم تمكث يوماً، وترد بعد ذلك غِبّاً، فاستمرَّ ذلك ما شاء الله، حتى ملَّتها ثمود وقالوا: ما نصنع باللبن؟ الماء أحبّ إلينا منه، فتمالؤوا على قتل النّاقة.

وأضاف صالح قائلاً لقومه: تذكروا نعمة الله عليكم حين جعلكم خلفاء في الأرض، من بعد قوم عاد في الحضارة والعمران، وأورثكم أرضهم، فبنيتم القصور الشاهقة في السهول، وتنحتون البيوت في الجبال، وآتاكم القوة والصَّبر، فاذكروا نعم الله عليكم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها.

فأجابه الملأ (وهم أشراف القوم) المتكبِّرون من قومه للمستضعفين الذين آمنوا منهم: أتعلمون أن صالحاً مرسل من عند ربّه؟ والعادة المتَّبعة: أن الأنبياء يتبعهم

الضعفاء، ويكفر بهم القادة والزعماء. فقال المستضعفون المؤمنون: إننا مؤمنون مصدِّقون بما أرسل به صالح من ربِّه. قال أشراف القوم المستكبرون: إننا كافرون بما آمنتم به، ولم يصرِّحوا بالرسالة التي جاء بها صالح، حتى لا يقرّوا بها ظاهراً.

وأظهروا أفعالهم المكفرة، فعقروا الناقة بتواطؤ بينهم، وعقرها قدار بن سالف الأحمر الأزرق أشقى ثمود، وتمرَّدوا واستكبروا عن امتثال أمر ربِّهم الذي أمرهم به صالح، وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا به من العذاب إن كنت رسولاً من عند الله، فأخذتهم الرجفة أو الصيحة أو الصاعقة أو الطاغية وهي صيحة شديدة القوة، اضطربت الأرض من هولها وتصدَّعت مبانيها، وارتجفت لها الأفئدة، فأصبحوا في ديارهم موتى جثثاً هامدة لا حراك لها.

فأعرض عنهم صالح عليه السّلام بعد أن أبصرهم جاثمين، يملأ قلبه الحزن والتَّحسر على ما أصابهم، وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربِّي وبذلت غاية جهدي في نصحكم، ولكنكم لا تحبّون النّاصحين، فوجب لكم العذاب، وحقَّ عليكم العقاب. وهذا تقريع لهم على تمرُّدهم ليكون ذلك عبرة لغيرهم.

رسالة لوط عليه السّلام إلى قومه

لم يترك الله تعالى قوماً أو أمة من غير رسول ينذرهم ويبشِّرهم: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٤] لذا أرسل الله تعالى لوطاً عليه السَّلام في عصر إبراهيم عليه السّلام، لإنذار أمة تسمى سَدُوم قرب البحر الميت أو بحر لوط، ومن أجل استئصال المفاسد والمنكرات التي شاعت فيهم، قال الله تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ

جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ(١) ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ(٢) ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٠-٨٤].

لوط عليه السّلام: هو لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السّلام، آمن بإبراهيم واهتدى بهديه، كما قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٦] وتبع إبراهيم في رحلاته فيما بين النّهرين، ثم مصر، ثم بلاد الشّام، حيث فارق إبراهيم عمه، وسكن في سدوم في شرقي الأردن.

وكان أهل سدوم يعملون الخبائث دون حياء ولا عفّة، وأمام الناس، ويقطعون الطريق على التُّجار، ويأخذون بضائعهم، كما قال الله تعالى على لسان لوط عليه السّلام لقومه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٩].

وابتدأت القصة على هذا النحو: واذكر يا محمد لوطاً حين قال لقومه باستفهام على جهة التوبيخ والتشنيع: أتأتون الفاحشة: وهي إتيان الرجال في الأدبار؟! وروي: أنه لم تكن هذه المعصية في أمم قبلهم، لذا قال لهم: ما فعلها أحد قبلكم في أي زمان، بل هي مبتدعة منكم، وعليكم وزر كل من يفعلها في المستقبل؛ لأنَّ من سنَّ سنّة سيئة كان عليه وزرها ووز من عمل بها إلى يوم القيامة، وهذا دليل على أن تلك الفاحشة أمر مناقض للفطرة.

وأكّد لوط عليه السّلام قوله مقرِّعاً وموبِّخاً توبيخاً شديداً: إنكم لتأتون الرجال شهوةً متجاوزين النّساء اللواتي هنَّ محل قضاء الشهوة بحسب الفطرة السليمة، بل إنكم لا تستحون من فعلكم، فإنكم قوم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل

---

(١) يدَّعون الطهارة مما نأتي. (٢) الباقين في العذاب.

شيء، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشُّعراء:٢٦/١٦٦] أي في جمعكم إلى الشِّرك والوثنية هذه الفاحشة. وفي آية ثالثة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النَّمل: ٢٧/ ٥٥] وهذا دليل على إسرافهم في اللذات، وتجاوزهم حدود الفطرة والعقل، وجهالتهم عواقب الأمور، فهم لا يقدرون ضرر ذلك على الصحة والحياة، فهو مرض مميت، كما دلَّت إحصاءات موتى الإيدز (فقد المناعة) في الحاضر أكثر من مئة ألف، وفي نهاية القرن العشرين أربعة ملايين، دون اكتشاف علاج له.

وما كان جواب القوم على إنكار لوط عليه السّلام ونصحه لهم يدلُّ على النَّدم والرجوع عن الخطأ والضّلال وإنكار الفاحشة وتعظيم أمرها، وإنما هموا بإخراج لوط ونفيه ومن معه من المؤمنين تضجُّراً منهم ومن سماع مواعظهم قائلين: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي أخرجوا لوطاً وأتباعه من البلد، فإنهم أناس يتنزهون عن مشاركتكم في فعلكم وعن الفواحش وعن أدبار الرجال والنساء. وهذا صادر منهم على سبيل السخرية بهم والتَّهكم، والافتخار بما كانوا فيه من القذارة.

وكانت العاقبة أن الله تعالى نجّى لوطاً وأهل بيته الذين آمنوا معه، إلا امرأته، فإنها لم تؤمن، فكانت من جماعة الهالكين الباقين مع قومها في العذاب؛ ولأنها كانت على دين قومها الوثني، تمالئهم عليه، وتخون لوطاً بإعلامهم بمن يقدم عليه من الضيوف بإشارات بينها وبينهم.

والعذاب هو إمطارهم بمطر كثير عجيب أمره وهو الحجارة التي رموا بها، فانظر أيها السامع كيف كان عاقبة الذين أجرموا واجترؤوا على معاصي الله عزّ وجلّ، وتكذيب رسله، وكل ذلك للعظة والعبرة، قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ١١/ ٨٢-٨٣].

رسالة شعيب عليه السّلام إلى قومه

كانت بلاد الشام والعرب مهبط الأنبياء والرُّسل والكتب الإلهية، فهي بلاد مباركة في وسط العالم القديم، من أجل جعلها مركز إشعاع بالقيم العليا للعالم أجمع، ولتنقية الأجواء والمناخ والتهيئة لشريعة الإسلام وخاتمة الشرائع الإلهية، لذا أرسل الله شعيباً عليه السّلام الرّسول العربي إلى أهل مدين قرب معان جنوب شرقي الأردن على طريق الحجاز من الشام. قال الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟(١) ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ(٢) تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ(٣) وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٥-٨٧].

أرسل الله تعالى شعيباً الملقب بخطيب الأنبياء عليه السّلام، ومن أنبياء العرب إلى بلد أو قُطْر مدين، وتميَّزت رسالته الإصلاحية الاجتماعية بمميزات كثيرة، ومعنى الآيات: لقد أرسلنا إلى قبيلة مدين شعيباً نبيّاً فيهم وواحداً منهم، فقال لهم: ياقوم اعبدوا الله وحده لاشريك له، فليس لكم إله غيره، وهو الذي خلقكم وخلق كل شيء لكم. وهم أصحاب الأيكة في رأي ابن كثير الدِّمشقي من المفسرين.

---

(١) لا تنقصوا. (٢) طريق. (٣) تطلبونها معوجة.

لقد جاءتكم آية بيِّنة واضحة من ربِّكم، دالَّة على صدقي ونبوّتي، فأوفوا الكيل والميزان بالحق والعدل، ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم، في بيع أو شراء، أو حق ماديّ أو معنوي، وإياكم أن تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها بأي نوع من أنواع الفساد كالظلم والرّشوة وأكل أموال الناس بالباطل وارتكاب الفواحش وإشاعة الانحلال الخلقي، ذلكم المنهي عنه إذا تركتموه نافع لكم عند الله، مكسب الفوز والرِّضوان، بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عمل بدون إيمان.

وإياكم أن تقعدوا في الطرقات لصدِّ الناس عن دين الله، فإنهم كما قال ابن عباس: كانوا يجلسون في الطريق، فيقولون لمن أتى إليهم: إن شعيباً كذّاب، فلا يفتننكم عن دينكم، ويقولون أيضاً: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٩٠].

لا تصدوا عن سبيل الله من آمن به من الناس، ولا تطلبوا اعوجاجاً لسبيل الله ودينه بما تصفون وبما تكذبون وتشوهون الحقائق.

واذكروا نعم الله عليكم حين كنتم قلة في المال والرجال والسّطوة، فكثَّركم بعد قلّة، وأغناكم بعد فقر، ومنحكم القوة والجاه بعد الضعف والمذلّة، واتَّعظوا بمن كان قبلكم، وانظروا كيف كان مصير المفسدين الظالمين من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط.

وإذا كان جماعة منكم آمنوا برسالتي وصدقوا بنبوتي، واعتقدوا بوحدانية الله تعالى، وجماعة آخرون لم يؤمنوا برسالتي، كما هو شأن أتباع كل نبي، إن كان هذا فاصبروا أيها الكفرة حتى يحكم الله بيني وبينكم، بأن ينصر المحقِّين على المبطلين، والله خير الحاكمين بالعدل، وهذا تهديد ووعيد لهم بانتقام الله منهم، وجعله العاقبة للمتقين والدَّمار للكافرين؛ لأن حكم الله حقّ وعدل، لا يخاف فيه الحيف أو الظلم.

وحكم الله بين عباده نوعان: حكم يوحي به إلى رسله، كما في قوله تعالى في أول سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ وحكم يفصل فيه بين الخلائق إما في الدنيا وإما في الآخرة، كما في قوله تعالى في آخرة سورة يونس: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

وحكم الله مبرم، لا رادّ له، ولا نقض له ولا تراجع عنه، فهو حكم نهائي حاسم، وكفى بذلك تهديداً وإنذاراً للعصاة والكفار، حيث لا عدول عن حكم الله الباتّ فيهم. نسأل الله العفو والعافية.

مصير قوم شعيب

لم يقتصر شعيب عليه السّلام على مجرد عرض دعوته السّمحة: دعوة الإنقاذ، وإنما كان يحاور القوم ويحاول إقناعهم بشتى الوسائل، حتى يعودوا لطريق الاستقامة، والإقلاع عن عقيدة الوثنية والشِّرك وإصلاح النظام الاجتماعي والاقتصادي القائم بين القوم على الظلم والغبن والاستغلال وإنقاص المكيال والميزان، ولكنهم أصرّوا على ما هم عليه من الضّلال، فعوقبوا بالاستئصال والزّلزلة. قال الله تعالى:

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ(١) بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ(٢) فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ

(١) احكم واقض بيننا . (٢) الزّلزلة الشديدة .

جَٰثِمِينَ(١) ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ(٢) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٨-٩٣].

تضمنت هذه الآيات أمرين: الأول -محاورة شعيب لأشراف قومه، والثاني -بيان عاقبة الكافرين بإنزال العذاب العامّ عليهم. أما المحاورة بعد دعوة شعيب قومه لعبادة الله وحده، والوفاء بالكيل والميزان، وترك الفساد في الأرض، فإن زعماء القوم المتكبّرين عن الإيمان بالله ورسله هدّدوا شعيباً وجماعة المؤمنين معه بالطّرد من البلاد، أو بالعودة مكرهين إلى ملّة الوثنية التي عليها القوم، فقال شعيب مستنكراً ومستهجناً: أتفعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه من الطرد أو اعتناق ملَّتكم؟.

ثم أعلن شعيب رفضه التّام العودة إلى ملّة الكفر قائلاً: إنا إذا رجعنا إلى ملَّتكم واتَّبعنا دينكم القائم على الشِّرك، فقد وقعنا في الفرية العظيمة على الله في جعل الشركاء معه أنداداً، بعد أن نجانا الله من تلك الملَّة الباطلة، وهدانا إلى ملّة التوحيد وطريق الاستقامة.

وما ينبغي لنا وليس من شأننا أن نعود في ملَّتكم أبداً، لاعتقادنا الجازم أننا على الحقّ والصواب، وأنتم على الملَّة الباطلة: ملّة الشِّرك والضَّلال، لكن إيماناً منّا بمشيئة الله يجعلنا نفوض الأمر لله، فإن سبق علينا من الله في ذلك سابق سوء، ونفذ منه قضاء لا يرد، فالله هو المتصرِّف في أمورنا، وهذا رفض أبلغ. إن الله تعالى أحاط علمه بكل شيء، فهو واسع العلم، كثير الفضل، يتصرف بحكمة، ولا يشاء إلا الخير للناس، على الله توكَّلنا في أُمورنا، وتوكَّلنا عليه في التثبيت على الإيمان، والتوفيق لزيادة اليقين.

(١) موتى. (٢) لم يقيموا في ديارهم.

ثم دعا شعيب على قومه لما يئس منهم فقال: ربَّنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق، وانصرنا عليهم، وأنت العادل الذي لا يجور أبداً، تحكم بالحق في كل نزاع وبين كل محق ومبطل، وأنت خير الحاكمين عدلاً وإحاطة ونزاهة.

وبعد أن يئس قوم شعيب من إعادة المؤمنين إلى ملَّتهم، لجؤوا إلى التهديد والوعيد، فقال أشرافهم لأتباع شعيب: تالله لئن اتَّبعتم شعيباً فيما يقول وآمنتم به، إنكم لخاسرون خسارة كبرى في ترك ملّة الآباء والأجداد العظماء!!

ولما استبدَّ القوم في عنادهم وكفرهم، عاقبهم الله بإنزال عذاب الاستئصال، وأُبيدوا بالرَّجفة، أي الزَّلزلة الشديدة التي توقع الإنسان في ذعر شديد واضطراب وارتعاد، وحُرم الذين كذبوا شعيباً من ديارهم وأوطانهم، كأن لم يقيموا فيها، وكان هؤلاء الكافرون هم الذين خسروا خسراناً عظيماً في الدنيا والآخرة، دون المؤمنين.

وأما شعيب عليه السّلام فتولىّ وأعرض عنهم قائلاً وموبِّخاً: يا قوم لقد أدَّيت لكم ما أرسلت به من ربِّي، وبلَّغتكم ما فيه صلاحكم، ونصحتكم نصحاً مخلصاً، فكيف أحزن على قوم أنكروا وحدانية الله وكذبوا رسوله، وكانوا في عداد التاريخ من الكافرين الجاحدين. قال الكلبي: خرج شعيب من بين أظهرهم، ولم يعذب قوم نبي حتى أخرج من بينهم.

سنّة الله في ترويض الشعوب على الإيمان

إن رحمة الله تسبق عادة غضبه، وحلمه بالناس والتّأني بهم هو القاعدة، فلا يتعجَّل الله بعذاب قوم إلا بعد متابعة الإنذارات، والتَّدرج بهم من التّضييق عليهم بالفقر أحياناً، والمرض أحياناً أخرى، ثم يغمرهم بالسّعة والرّخاء والرّفاه، ليقارنوا بين الحالين، فإذا لم يعتبروا بشيء ولم يتّعظوا بالأحوال التي يمرّون فيها، ينزل العذاب

بهم فجأة، من غير شعور بمجيئه، ولا استعداد لتفاديه، وهذا اللون من التربية الفعلية الميدانية هو السائد المتّبع في إهلاك الشعوب الكافرة السابقة كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وشعيب. قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ(١) لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ(٢) ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ(٣) وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً(٤) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٩٤-٩٥].

هذه الآية خبر من الله عزّ وجلّ أنه ما بعث نبياً في مدينة وهي القرية، إلا أخذ أهلها المكذِّبين له بالبأساء وهي المصائب في الأموال والهموم وعوارض الزمان من حرب أو فقر أو غيره، والضَّراء: وهي المصائب في البدن أو المعيشة كالأمراض ونحوها، وذلك لكي يتضرّعوا، أي يدعو الله و يخشعوا، أو يظهروا الضّراعة والخضوع والابتهال إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم. هذه سنّة الله في الخلق والشعوب، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، يرسل الله الشدائد لعلها تعيد الإنسان إلى ربّه، وتردّه عن غيّه، فإن اتّعظ وانزجر، ربح، وإن أبى واستكبر، خسر، وهؤلاء هم كثير من الناس، لا تردعهم الرّوادع. وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ترجّ بحسب اعتقاد الناس وظنونهم، أو تعليل لما سبق، فيكون ذلك مدعاة إلى انقيادهم إلى الإيمان، وهذا هو شأن العقلاء الواعين.

واقتضت رحمة الله وتربيته أنه سبحانه يأتي بالفرج بعد الشِّدة، وباليُسر بعد العُسر، فبعد إنزال البأساء والضَّراء، يحوّل الله الشّراع من شدّة إلى رخاء، ومن فقر إلى غنى، ومن مرض إلى صحة وعافية، ليشكروا الله على ذلك، ولكنهم لم يفعلوا.

إنه سبحانه يبدِّل مكان السيئة الحسنة، أي مكان البأساء والضَّراء من فقر ومرض

---

(١) الفقر والمرض . (٢) يتذلّلون و يخضعون . (٣) كثروا . (٤) فجأة .

ونحوهما، يجعل السَّراء والنعمة، وهذا بحسب ما عند الناس، وإلا فقد يكون العكس، ينعم الله على بعض العباد بالبلوى العظيمة لتخليصهم من الدّاء، ويبتلي الله بعض القوم بالنِّعم ليختبرهم فيما يفعلون. والسَّيئة: كل ما يسوء صاحبه، والحسنة: ما يستحسنه الطبع والعقل.

إن الله تعالى يبدِّل مكان السيئة الحسنة لحكمة هي التَّذكر والاتِّعاظ، وتكون الحسنة عامّة شاملة، فتستمر الحسنة حتى عفوا، أي حتى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء: إذا كثر، لأن الرّخاء يكون عادةً سبباً في كثرة النَّسل.

والعبرة تكون حين يقول العصاة بعد الرَّخاء: قد أصابنا من البأساء والضَّراء وما بعده من الرّخاء، مثلما أصاب آباءنا في قديم الزمان، فهؤلاء آباؤنا قد مسَّتهم الضَّراء والسَّراء، وحلَّ بهم الضيق والفرج، والعسر واليسر، وما نحن إلا مثلهم، أي إن هذا التَّقلب له سابقة في الزمن، فلا شيء فيه، وهذا قول من لم يتَّعظ ولم يتأمل في أحداث الزمان. والواقع أن إرسال النعمة بعد النقمة استدراج واختبار، وكان مصير هؤلاء الذين لم يعتبروا بالأحداث هو إنزال العقاب الشديد بهم، وكان عاقبة أمرهم أن الله عاقبهم فجأة، من غير شعور منهم بما ينزل بهم من العقاب، ليكون أكثر حسرة، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٤] أي آيسون من الرَّحمة.

وأما المؤمن فليس هذا حاله، إنه كما جاء في حديث الصحيحين: «عجباً لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضرّاء صبر، فكان خيراً له، وإن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له» أي أن المؤمن يتنبَّه لما ابتلاه به من الضَّراء (الضَّرر) والسَّراء (السرور).

سنّة الله في تأديب القرى

تتعدَّد الأساليب الإلهية في إصلاح البشر، وإصلاح أهل القرى أو المدن، وحملهم على الإيمان باختيار وطواعيه دون قسر ولا إكراه، وذلك كله من أجل خير الإنسان وإسعاده. ومن هذه الأساليب: الابتلاء بالشدة والمصائب في المكاسب والأموال، وربط الرخاء والخير بالاستقامة والإيمان بالله ورسله. قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا[(١)] بَيَاتًا[(٢)] وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ[(٣)] فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ[(٤)] لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ[(٥)] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/٩٦-١٠٠].

أبان الله تعالى في آية سابقة أن الذين عصوا وتمردوا من أهل القرى والمدن أخذهم الله بغتة أي فجأة، وأبان في هذه الآيات أنهم لوأطاعوا ربَّهم لفتح الله عليهم أبواب الخير، ثم جاء الجميعَ الإنذار بالعذاب المبكِّر ليلاً أو نهاراً إذا كذبوا الرُّسل دعاةَ الإصلاح والإيمان بالله وحده لا شريك له.

هذا إخبار عن نظام الله في الكون وسنّته تعالى في الْخَلْق في الماضي والحاضر والمستقبل، ليتَّعظ الناس ويعتبروا، وذلك النظام وتلك السنّة: أنه لوآمن أهل القرى والمدن كأهل مكّة وغيرهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واتّقوا ما نهى الله عنه وحرَّمه من الشِّرك والفساد في الأرض بارتكاب الفواحش والآثام؛ لوآمنوا وأطاعوا واتَّصفوا بالتّقوى، لتبع ذلك توارُدُ أفضال الله ورحماتِه، وإنعامُه وإنزالُ

(١) ينزل بهم عذابنا . (٢) ليلاً . (٣) عقوبته . (٤) لم يبين . (٥) نختم .

الخيرات الكثيرة من السماء عليهم كالمطر، وإخراجُ النباتات والمعادنِ والكنوز، وإيتاؤهم مختلف العلوم والمعارف والإلهامات الرَّبانية لفهم أسرار الكون واستخراج مختلف الثروات. لوآمنوا وأطاعوا ليسَّر الله لهم كل خير من كل جانب من فوقهم ومن تحتهم ومن ذواتهم وأفكارهم. وفي هذا دلالة على أن الإيمان الصحيح سبب للسعادة والرخاء. وفتح البركات: إنزالها على الناس. والبركات: الزيادة والنَّماء.

ولكن أهل القرى والمدن كذبوا رسلهم ولم يؤمنوا ولم يتّقوا، فعاقبهم الله تعالى بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم والشِّرك المفسد لنظام الحياة. وفي هذا دلالة على أن العقاب نتيجة لازمة لكسب المعاصي، هذا في الأمم الخالية.

ثم تابع الله تهديده ووعيده للكفار المعاصرين لمحمد ﷺ فهل يأمن هؤلاء أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك؟! وهذه الاستفهامات على سبيل التعجب من حالهم وغفلتهم، والإنكار عليهم، ومضمونها: أبعد ذلك يأمن أهل القرى الكافرة في الماضي كأهل مكة وأمثالهم وفي كل زمان نزول العذاب والنّكال بهم في حال الغفلة وهو النوم ليلاً. فقوله سبحانه: ﴿بَيَـٰتًا﴾ أي وقت مبيتهم بالليل.

أو أيأمن أهل القرى والمدن أن يأتيهم العذاب ضحى، وهم مشغولون باللعب واللهو في النهار، وفي هذا إشارة إلى أن انشغالهم في أعمالهم التي لا فائدة منها كأنها ألعاب أطفال.

وذلك سواء في إنزال العذاب ليلاً أو نهاراً: تخويف في أوقات الغفلة.

وأكّد الله تهديده وتوبيخه فقال: أفأمن أهل القرى والمدن مكر الله، أي تدبيره الخفي وإنزال بأسه ونقمته، وعقابه وجزائه من حيث لا يشعر العباد؟ إنهم إن ظنّوا ذلك فقد أخطؤوا، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ثم أبان الله تعالى أن الغاية من ذكر هذه الإنذارات تحقيق العبرة والعظة لجميع

الناس في كل عصر وزمان، فقال: أوَ لم يتبين ويتّضح للناس، وخصوصاً كفار قريش في عصر النَّبي ﷺ الذين يخلفون غيرهم في سكنى الأرض ووراثتها مع الديار، بعد إهلاك الأقوام الآخرين قبلهم: أن الله لو شاء أصابهم وعذَّبهم بذنوبهم وأعمالهم السيئة، كما عذَّب أمثالهم ممن قبلهم، فإن لم يهلكهم الله بعذاب الاستئصال ختم على قلوبهم أو طبع عليها، فلم تعد تسمع الموعظة والتذكير سماع تدبُّر وقبول، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ١٠١].

العبرة من قصص الماضين

لم يكن إيراد قصص الأقوام الماضين، وهم قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، مجرد حكاية وتسلية، وإنما كان الهدف من ذلك إيراد أمثلة عملية للأمم والشعوب في كل زمان، وتحقيق العبرة والعظة من إهلاك أولئك الأقوام بسبب تكذيبهم الرُّسل، وإغراقهم في العمى والضّلالة والكفر، فكان الجزاء عدلاً؛ لأنه من جنس العمل، قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠١-١٠٢].

المعنى: تلك قرى الأقوام الخمسة (قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب) أخبر الله بها نبيَّه، كيف أهلكت ليتَّعظ الحاضرون بالماضين، ولأنها أمثلة حسِّية قريبة في المكان والذاكرة، حيث كانت تلك القرى (أي المدن) في بلاد العرب، وكان أهل مكة يتناقلون بعض أخبارها، وهي جميعاً متشابهة في تكذيب الرُّسل، وعذاب الاستئصال، فكانت العبرة منها واحدة.

وسبب عقاب تلك الأقوام هو تكذيب الرُّسل، فبالرغم من أنهم أقاموا لهم الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرُّسل بسبب تكذيبهم بالحقّ من قبل مجيء الرُّسل وعند ورودهم عليهم، في بدء الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله، ومن قبل مجيء المعجزات، فظلّوا على حالهم، ولم تؤثر فيهم الآيات الدّالة على صدق الرُّسل، ولم يؤمنوا لآخر أعمارهم بما كذَّبوا به أولاً حين جاءتهم الرُّسل، أي إنهم استمرّوا على التكذيب من وقت مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرِّين على كفرهم وعنادهم، مع تكرار المواعظ عليهم وتتابع الآيات.

وكما طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية، يطبع الله على قلوب الكافرين الذين سبق في علم الله ألا يؤمنوا أبداً.

إن اللَّجاج في الكفر والإصرار عليهم هو الذي حجب عنهم النور الإلهي، ولم يوفقهم الله إلى الإيمان بسبب أنهم كذبوا من قبل، فكان تكذيبهم سبباً لأن يُمنعوا الإيمان بعد.

ثم أخبر الله تعالى أنه لم يجد لأكثر الناس ثباتاً على العهد الذي أخذه على ذرية آدم، وقت استخراجهم من ظهره، ولم يُعملوا عقولهم في الآيات الدّالة على وجود الله وتوحيده وصدق رسله، ولم يشكروا نعم الله، ولا قادتهم معجزات الأنبياء إلى الإقرار بالحق والاعتراف بالواقع.

لم يجد الله لأكثر البشر التزام عهد، وقبولَ وصية، ووفاءً بما أقرّوا به سابقاً وهم في عالم الذَّر، وبما أودع فطرتهم وعقولهم من الوسائل الكفيلة بإرشادهم إلى الحقِّ والصّواب والإيمان بالله واليوم الآخر، إنهم لم يوفوا بعهد الفطرة الذي عاهدهم الله وهم في صلب آدم، ولا بعهد الشَّرع الإلهي بالإيمان وأداء التكاليف، ولا بالعهد المتعارف عليه بأداء الالتزامات والشروط واحترام العقود التي يبرمونها فيما بينهم،

ولقد وجد الله أكثر الناس فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. وفي التعبير بالأكثر إشارة إلى أن بعضهم قد آمن، ونفد كل عهد مع الله أو مع الناس.

ومخالفة عهد الفطرة السليمة القائم على الإقرار بتوحيد الله وأنه لا إله إلا هو، وعبادةُ غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع، كان كلاهما بتأثير البيئة والتقاليد الموروثة الباطلة. جاء في صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم» وفي الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه».

بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون
إثبات نبوته بالمعجزة

بعث الله تعالى موسى عليه السلام رسولاً إلى فرعون وقومه في مصر، بعد بعثة لفيف من الأنبياء السابقين، مثل نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، وأيده ربه كما أيدهم بالآيات، أي الحجج والبينات الدالة على صدق النبوة وصحة الرسالة الإلهية، لأن كل رسول يتطلب برهاناً يظهره للناس يدل على أنه نبي مرسل، وذلك البرهان هو المعروف بالمعجزة التي قد تكون واحدة أو أكثر، وهذه بعض معجزات موسى عليه السلام في القرآن المجيد، قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ[1] بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ[2] عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ

---

(١) فكفروا بالآيات. (٢) حريص على.

إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ(١) ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠٣-١٠٨].

هذه بداية قصة موسى عليه السلام، بدأت بتكليف إلهي هي تبليغ رسالة الله ودعوته إلى فرعون وقومه ليوحدوا الله، وبدء البعثة لكل رسول بداية عهد جديد في حياته، وانتقال من كونه شخصاً عادياً إلى صيرورته نبياً ورسولاً مبلغاً أوامر الله ونواهيه إلى الناس. أرسل الله تعالى موسى عليه السلام رسولاً بالآيات والمعجزات الدالة على صدقه ورسالته إلى فرعون وملئه فظلموا بها وكفروا، والظلم والكفر مقترنان عادة، إنهم ظلموا أنفسهم وغيرهم بالتنكر لرسالة الله والإعراض عنها، وصد الناس أيضاً عنها، فكان طبيعياً أن يحذِّر الله تعالى من عاقبة المفسدين الظالمين، وجعلهم مثالاً يتوعد به كفرة عصر النبي محمد ﷺ وما بعده من العصور والدهور.

ابتدأ موسى عليه السلام حواره مع فرعون بإعلان واضح أنه رسول مرسل من رب العالمين. وفرعون: اسم كل ملك لمصر في زمان غابر، في عهد الفراعنة، كالنماردة في اليونان، وقيصر في الروم، وكسرى في فارس، والنجاشي في الحبشة.

تابع موسى قوله مع فرعون لإثبات صدقه في رسالته قائلاً: جدير بي ألا أقول على الله إلا الحق، فإن الرسول لا يكذب على الله الذي بيده ملكوت كل شيء، لذا فإني لا أخبر عن الله إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه، قد جئتكم يا قوم ببينة وحُجّة من ربكم، لا من نفسي، بل من الرب سبحانه الواحد الأحد رب السماوات والأرض، ورب فرعون وهامان، وربي هو الذي أمرني بهذه الدعوة إليكم، فأرسل يا فرعون معنا بني إسرائيل، ولا تعذبهم.

(١) ظاهر أمره لا يشك فيه .

فأجابه فرعون بقوله: إن كنت يا موسى مؤيداً بآية أو معجزة من عند ربك، فأظهرها لنراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

فأجابه موسى على الفور بالفعل لا بالقول، فألقى موسى عصاه، فإذا هي ثعبان ظاهر واضح يتحرك، ويسير من مكان إلى مكان، وهَمّ بفرعون فهرب منه. وأخرج موسى يده من جيب قميصه بعدما أدخلها فيه، فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض كالشمس المضيئة، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: ٢٧/١٢].

ولا داعي للاسترسال في أوصاف الثعبان والعصا واليد بأكثر مما دلت عليه الآيات القرآنية، إذ ليس لها سند يوثق به، وإنما هي من الروايات الإسرائيلية التي دسّها بعض الدخلاء غير المتورعين ولا المتدققين، مثل كعب الأحبار الإسرائيلي، ووهب بن منبِّه الفارسي الأصل.

والمهم أن انقلاب العصا ثعباناً عظيماً، وتحول اليد العضوية إلى قوة إشعاعية كالشمس المضيئة معجزة لموسى عليه السلام، تخرس الألسنة، وتثبت رسالته، وهي تفوق كل ما عرف في الأوساط الشعبية من السحر، والعلمية من الطب وعلوم الفيزياء العادية والنووية، وكل ذلك بقدرة الله عز وجل وإرادته وخلقه، والله على كل شيء قدير.

الاحتكام للسحر والسحرة

بعد أن أظهر موسى عليه السلام معجزته بانقلاب العصا حية أو ثعباناً عظيماً، واليد ذات قوة إشعاعية كالشمس المضيئة، بعد هذا فَهِم فرعون وقومه أن معجزة موسى لون من ألوان السحر، فحشد فرعون جماعة السحرة المهرة لإبطال ادعاءات

موسى، فكان الخذلان للمبطلين، وانتصر الإيمان وعلت كلمة الحق، وآمن السحرة بموسى ورسالته، قائلين: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قال الله تعالى واصفاً هذا المشهد الرائع: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ[1] وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ[2] ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ[3] وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ[4] وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ[5] مَا يَأْفِكُونَ[6] ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ[7] وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

[الأعراف: ٧/١٠٩-١٢٢].

كان السحرة في عهد فرعون أعظم الرجال وفي أعلى المراتب، فقال السادة من قوم فرعون وبطانته لما رأوا معجزات موسى: إن هذا لساحر ماهر خبير بفنون السحر وأنواعه، وقد يستميل السحرة، وله خطره فربما سلب ملككم، وأخرجكم من أرضكم ووطنكم بسحره، كما جاء في آية أخرى مخاطبين موسى وأخاه هارون: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ١٠/٧٨].

فقال فرعون لحاشيته: ماذا تشيرون، وبِمَ تأمرون؟ فأجابوا بأن يؤخر موسى وهارون، ويؤجل النظر في أمرهما، ويجمع السحرة من كل مكان، حتى يغلبوا موسى

---

(١) أخر عقوبتهما. (٢) أي جامعين لك السحرة. (٣) خيّلوا لها ما يخالف الحقيقة. (٤) خوفوهم تخويفاً شديداً. (٥) تبتلع. (٦) يكذبون ويموهون. (٧) ظهر وتبين.

بحجة واضحة وتَفَوُّق بيِّن. وتوهموا أن ما جاء به موسى عليه السلام من قبيل السحر، فجمعوا له السحرة، ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات. جاء في آية أخرى: ﴿قَالَ[1] أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٢٠/٥٧-٦٠].

توافد السحرة من كل جهة، وقالوا لفرعون: أئن لنا لأجراً إذا تغلبنا على موسى؟ فقال فرعون: نعم لكم أجر عظيم، وتصبحون من المقربين إلي في المركز والمجلس. وهذا إغراء بالمركز المالي والأدبي.

قال السحرة في مكان المباراة: يا موسى إما أن تلقي بسحرك، وإما أن نكون نحن الملقين. وفي هذا اعتزاز بأنفسهم وثقة بخبرتهم وترك المبالاة بعمله. فأجاب موسى جواب الذكي الخبير المتكل على تأييد ربه ونصره الواثق أيضاً بغلبته في النهاية: ألقوا ما أنتم ملقون، وجاء في آية أخرى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٨١].

ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، فسحروا أعين الناس، وأرهبوهم بأباطيلهم وأفزعوهم، وخيّلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه، له حقيقة واقعة، ولم يكن في الواقع إلا مجرد صنعة وخيال، قال الزجاج: إنهم جعلوا في الحبال والعصي الزئبق، فكانت لا تستقر. وقوله سبحانه: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ دليل واضح على أن السحر خيال لا حقيقة فيه، والفرق بين السحر والمعجزة: أن المعجزة تظهر على يد مدعي النبوة وتستمر متحدية مختلف ألوان السحر، والسحر يظهر على يد رجل فاسق، ويظهر أثره السطحي سريعاً.

---

(١) أي فرعون .

وأوحى الله إلى موسى وأمره بإلقاء عصاه، فكانت ثعباناً ظاهراً، وعظم حتى كان كالجبل، فإذا هي تبتلع وتزدرد ما ألقوه وموهوا به أنه حق، وهو باطل، ثم رجعت بعد ذلك عصاً. فظهر الحق كالشمس، وفسد ما كان السحرة يعملون، من الحيل والتخييل، وذهب تأثيره، وأدركوا أن فعل موسى فوق السحر وغُلب السحرة في ذلك الجمع العظيم بأمر الله وقدرته، وانقلب فرعون وقومه صاغرين أذلة، بما لحقهم من عار الهزيمة والخيبة والخذلان. وعلم السحرة حينئذ أن ذلك ليس من عند البشر، فخروا سجداً مؤمنين بالله ورسوله. وقالوا: آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون، لأن الحق بهرهم، وتيقنوا من نبوة موسى عليه السلام بقلوبهم، وتلاشت من أذهانهم فكرة ربوبية فرعون وتبددت أوهام الجهال من أنه رب الناس، وكان هارون أخو موسى أسنَّ منه بثلاث سنين.

تهديد فرعون للسحرة

بعد أن تغلب موسى على سحرة فرعون، وظهر الحق واندحر الباطل، آمن السحرة بالله رب العالمين، وكان إيمانهم قوياً راسخاً كالجبال، واتكلوا على الله، ووثقوا بما عنده، ولكن فرعون اتهمهم بالتواطؤ مع موسى، وهددهم بتقطيع الأيدي والأرجل والقتل والصلب على جذوع النخل، فما لان مؤمنو السحرة للتهديد والوعيد، ولم يبالوا بالتعذيب، لأنهم آمنوا إيماناً صلباً ملأ نفوسهم برهبة الله والخوف من عذابه يوم القيامة. وصف الله تعالى موقف فرعون من السحرة، فقال:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟

إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ(١) مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٣-١٢٦].

لقد أُسقط في يد فرعون، وطاش صوابه، فلجأ إلى التهديد والتخويف والوعيد وجعل ذنب السحرة المبادرة إلى الإيمان بإله غيره من دون إذن منه ولا رضا، فقال لهم: كيف آمنتم برسالة موسى واتبعتموه قبل أن آذن لكم؟ وإن ما تظاهرتم به أولاً بعداوة موسى، والاعتداد بالسحر ثانياً، وإرادة الغلبة لموسى ثالثاً، هذا كله مكر خفي منكم وتدبير خبيث وتواطؤ مع موسى قبل المباراة، لقد دبرتم العمل بالمدينة، وتآمرتم لإخراج الناس من البلد، فسوف تعلمون عاقبة ما أفعل بكم. إن فرعون يعلم يقيناً أن الاتهام بالمكر والمؤامرة غير صحيح، فهو الذي أرسل جنوده في سائر أقاليم مصر، ووعدهم بالعطاء، ولم يلتقوا بموسى، ولم يعرف موسى أحداً منهم، ولا رآه ولا اجتمع به.

وعقابي لكم: تقطيع الأيدي والأرجل، ثم القتل والصلب على جذوع النخل، والتنكيل بأشد العذاب والعقاب، حتى تكونوا عبرة للمعتبر، والقصد من هذا التهديد حماية مزاعمه بادعاء الألوهية، وسد الباب أمام الناس الذين يريدون الإيمان بالله تعالى، وترك الولاء والعبودية لفرعون.

ولكن فريق السحرة لم يأبهوا بالتهديد والوعيد، لثقتهم بالله، وقالوا: إن الأمر كله لله، وإننا راجعون إلى ربنا مهما طال العمر، وما تنقم منا وما تكره من أفعالنا إلا أننا آمنا بالله ورسوله لما ظهرت الآيات والمعجزة، وعرف الحق، وتبدد الباطل. وهذا إعلان لقرار لا رجعة فيه، وكأنهم يقولون: لا أمل لنا في رجوعنا عن الإيمان بالله رباً واحداً لا شريك له.

(١) ما تكره وما تعيب منا .

ربنا هب لنا صبراً فسيحاً واسعاً، وثبِّتنا على دينك وشرعك، واغمرنا بالصبر حتى يفيض علينا كما يغمر الماء الأشياء، وأمتنا مسلمين خاضعين لأوامرك، منقادين خاضعين لعظمتك، ثابتين على الدين الحق: دين الإسلام متابعين لنبيك موسى عليه السلام.

والظاهر أن فرعون نفّذ تهديده ووعيده فعلاً، لقوله تعالى في بداية القصة: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: فرعون أول من صلب وقطع من خلاف. وقال ابن عباس وغيره في السحرة: أصبحوا سحرة وأمسَوْا شهداء، وأما التوعد فلجميعهم. وقال السحرة لفرعون في آية أخرى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٧٢-٧٥].

وإذا كان الإيمان بالدين الحق والصبر على الشدائد من خَلْق الله تعالى، كما يقول أهل السنة، فإن اتجاه إرادة الإنسان للأخذ بهما، والاستعانة بالله للثبات على الإسلام، دليل على استحقاق العبد الثواب على ما اتجهت إليه إرادته، إذ لو كان الإيمان مجرد منحة من الله، لما كان هناك داعٍ لإثابة المؤمن، وتعذيب الكافر.

وإيمان السحرة وإعلان إسلامهم بجرأة وصراحة وسرعة يدل على أن الإنسان إذا تجرد عن هواه، وأذعن للعقل والفكر السليم، بادر إلى الإيمان عند ظهور الأدلة عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما آمنت السحرة، اتبع موسى ست مئة ألف من بني إسرائيل. وقال مقاتل: مكث موسى بمصر بعد إيمان السحرة عاماً أو نحوه يريهم الآيات.

التحريض على قتل موسى وقومه

لما انضم السحرة وجماعة معهم إلى موسى عليه السلام، وآمنوا به، على مرأى عام أمام الجموع الغفيرة، وحينما أصروا على إيمانهم دون مبالاة بتهديد فرعون لهم بالقتل، اتجه فرعون بتحريض من قومه إلى إنزال النكال والعذاب بموسى وقومه، مستغلاً سلطته وبغيه وطغيانه، وأما موسى فأخذ يصبِّر قومه، ويعدهم بالفوز والنهاية السعيدة، والاستخلاف في الأرض، على أن يكونوا صلحاء شرفاء، قائمين على الحق والاستقامة.

وصف الله تعالى هذين الوضعين: وضع فرعون مع موسى وقومه، ووضع موسى مع قومه بني إسرائيل، فقال سبحانه:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ[1] نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/١٢٧-١٢٩].

يخبر الله تعالى في هذه الآيات عن أمرين محرجين لموسى عليه السلام: الأمر الأول -أن قوم فرعون تمالؤوا مع فرعون على موسى وقومه، وأضمروا لهم الأذى والبغضاء، وحرضوا على قتلهم والتخلص منهم، بعد إيمان السحرة بموسى وانضمامهم له على مشهد من الناس قاطبة.

قال أشراف قوم فرعون لفرعون: أتترك موسى وقومه أحراراً، فيتمكنوا من

---

(١) نبقيهم أحياء للخدمة .

إفساد رعيتك، بإدخالهم في دينهم، أو جعلهم تحت سلطانهم وقيادتهم، ودعوتهم إلى عبادة ربهم دونك، وتركك مع آلهتك، فلا يعبدونك ولا يعبدونها كما أمرت وشرعت؟!

فقال فرعون متأثراً بهذا التحريض: سنقتل أبناء الإسرائيليين، ونبقي نساءهم أحياء للمتعة والخدمة، فلا يتكاثرون، كما كنا نفعل قبل ولادة موسى، ليعلموا أننا عليهم قادرون، وفوقهم قاهرون، وهذا يقتضي تحقير أمرهم، أي هم أقل من أن يؤبه بهم. جاء في آية أخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٤٠/٢٦].

الأمر الثاني- أنه حين سمع الإسرائيليون بتهديد فرعون، فزعوا وجزعوا وتضجروا، فقال لهم موسى مطمئناً ومثبتاً ومقوياً نفوسهم وواعدهم ما عند الله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ فالله هو المعين على الشدائد، الدائم الباقي، القادر على كل شيء، والصبر سلاح المؤمن، واعلموا أن الأرض أرض الدنيا يورثها من يشاء من عباده، وأن العاقبة للمتقين ربهم، الخائفين من عذابه، الطامعين في رحمته، والنصر للمؤمنين، لا كما يظن فرعون وقومه. والصبر في هذه الآية يعمّ الانتظار الذي هو عبادة، والصبر في المناجزات والأزمات.

لكن الوصية لم تؤثر في الإسرائيليين، لشدة فزعهم من فرعون وقومه، فقالوا لموسى: أوذينا من قبل مجيئك وقبل ولادتك، ومن بعد إرسالك، وفعلوا بنا ما رأيت من الذل والهوان، فقتلوا أولادنا، وعذبونا، وتعود المأساة اليومَ بعد مجيئك، كما تسمع من الوعيد والتهديد.

فأجابهم موسى بما يتناسب مع قلة يقينهم وصبرهم على الدين: لعل الله ينصركم ويهلك عدوكم فرعون، ويستخلفكم بعده في الأرض، ويجعلكم سادة. وهذا كله

لتأليف نفوسهم النافرة واضطرابهم مع أنبيائهم، ثم حضهم على الاستقامة والصلاح، مذكراً إياهم بأن الله تعالى ناظر كيف تعملون، ومجازيكم على عملكم: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

إن موسى أراد من قومه شد عزائمهم على الشكر عند النعمة، وزوال النقمة، وتدريبهم على تحمل ألوان المشاق والمعاناة، وممارسة أعمال الطاعة، والاتكال على الله وحده. ولكن القوم ضجروا وتبرموا وأتعبوا موسى تعباً شديداً، وبالرغم من ذلك فقد تحقق ما وعدهم به موسى، وأغرق الله فرعون وقومه، وكانوا هم الخلفاء على أرض الفراعنة في زمن داود وسليمان، إلا أنهم عادوا إلى العصيان والعناد، والتضجر من موسى عليه السلام، فعوقبوا بألوان مختلفة من العقاب، كما يبين في الآيات التالية.

الآيات التسع

يتميز التشريع الجزائي الإلهي بأنه يرسل الإنذارات أولاً، ليراجع الناس حساباتهم ويصلحوا أعمالهم من قريب دون تمادٍ في البغي والعدوان والمخالفة والعصيان، فإذا استبد العناد بالقوم، وظهر منهم التعنت والتحدي لرسالات الأنبياء، ولم يبق أمل في إصلاحهم وإنما تحقق اليأس منهم، فإن الله ينزل بهم العقاب الصارم أو الاستئصال جزاء بما كسبوا، وزجراً لهم وردعاً لأمثالهم. وقد أرسل الله تعالى تسع آيات مع موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه لعلهم يرجعون عما هم فيه من جحود وعناد، فقال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ(١) وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا

(١) الجدب والقحط.

جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ(١) بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ(٢) عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ(٣) وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ(٤) وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٠-١٣٣].

أقسم الله سبحانه وتعالى عنايةً بالناس وتربيةً للنفوس أنه أرسل مع موسى تسع آيات من العقاب لقوم فرعون، ذكر منها هنا سبع آيات عقاب، عوقب بها فرعون وجنوده: وهي أعوام الجدب (السّنون) ونقص الثمار، وطوفان الماء، والجراد (طائر معروف يأكل النبات) والقُمَّل (سوس القمح: حيوان صغير جداً أسود، أو الدود الذي يأكل الزرع) والضفادع التي ملأت القدور والبيوت، والدم الذي نشأ من تحول ماء البئر، فكان الرجل منهم إذا استقى من البئر، وارتفع الدلو، صار دماً.

وذكر الله تعالى إضافة على هذه الآيات السبع آيتين أخريين في سورة يونس، وهما الطمس على الأموال، أي محقها وهلاكها، والتشديد على القلوب .[الآية: ٨٨].

هذه عقوبات تسع وأنواع من العذاب بعثها الله على قوم فرعون، وأخذها بهم، وقد استعمل القرآن كلمة (أخذ) في العذاب والشدة. وسبب أخذهم بها التوصل إلى إصلاحهم، لعلهم بها يتذكرون ويتعظون. فإن من سنته تعالى أن يرسل الزواجر من الآفات والمصائب تنبيهات لعل أصحابها ترجع وتثوب إلى الله، فإن ثابت واهتدت، كان الخير، وإلا وقع الهلاك المحتوم. لكن المصائب زادت آل فرعون عتواً وبغياً، فإذا جاءت أمةَ فرعون الحسنةُ، أي الخصب ونماء الرزق من الثمار والمواشي قالوا: لنا هذا نستحقه بعلمنا ومعرفتنا وتفوقنا، وإن تعرّضوا لسيئة: وهي ما يسوءهم من

(١) يتشاءموا . (٢) معناه حظهم ونصيبهم من العقاب في الآخرة . (٣) الماء الكثير . (٤) القُرَاد .

جدب وقحط، تشاءموا بموسى ومن معه، وقالوا: هذا بسببهم وما جاؤوا به، وغفلوا عن واجب شكر نعمة الله وعن سيئاتهم وفساد أعمالهم، وشرور أنفسهم.

فردّ الله عليهم بأن كل ما يصيبهم من خير أو شر، فهو بقضاء الله وقدره، فالله جعل الخير ابتلاء ليعرف الشاكر من الجاحد، وجعل الشر ابتلاء أيضاً، ليعرف الصابر من الساخط، وليرجع أهل الغي والفساد عن غيهم وفسادهم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة الله في تصريف الكون، ولا كيفية الارتباط بين الأسباب والمسبَّبات، والأمور تجري بالمقادير، وكل شيء عنده بمقدار.

ومع هذه الإنذارات والآيات قال قوم فرعون لموسى: مهما تأتنا به من آية تستدل بها على صدقك في دعوتك، من أجل أن تسحرنا بها، وتصرفنا عما نحن عليه من ديننا بلطف وحذاقة، فلسنا نحن بمصدقين لك أبداً، ولا متبعين رسالتك.

فأنزل الله بهم عقاباً على كفرهم وتكذيبهم وجرائمهم، أرسل عليهم الطوفان من الماء: وهو ما غلبهم وطاف بهم من مطر أو سيل، فأغرقهم وأتلف مزروعاتهم وأرسل عليهم الجراد الذي يأكل الأخضر واليابس من الثمار والزروع، وأتلف زراعتهم، وأرسل عليهم القُمَّل (وهو سوس القمح أو كبار القراد) ونحوها من الآفات الزراعية، وبعث الله تبارك وتعالى عليهم الضفادع، فتدخل في فرشهم وقدورهم وأواني الطبخ، وبين ثيابهم. وكذلك أرسل الله عليهم الدم حيث تتحول مياههم إلى دم. كل هذه آيات واضحات بينات ظاهرات، لا يشكل على عاقل أنها من عند الله، ولا يقدر عليها غيره، وكانت عبرة ضاحكة، لا تخفى على عاقل أنها من عند الله، ولكن بالرغم من هذه الآيات، فإن قوم فرعون تكبروا عنها وعن الإيمان برسالة موسى، وكانوا قوماً مجرمين في حق أنفسهم وحق الله تعالى وعباده.

عاقبة الكفر المصحوب بالعناد

إذا لم تفلح وسائل الإصلاح الهادئة أو المقترنة بشيء من الإنذارات والتحذيرات، واعتصم الكافرون بالتحدي والعناد، فإن العاقبة تكون وخيمة، والعقاب واقع حتماً لا محالة، إما في الدنيا أو في الآخرة يقع الندم حينئذ، وهكذا كان الحال مع فرعون وقومه، حذرهم موسى، وأتى لهم بالبينات والحجج الدالة على صدقه في رسالته، وكانت الإنذارات تتعاقب فيهم وهي الآيات التسع أو أنواع العقوبات وألوان العذاب التي بعثها الله عليهم ليزدجروا ويُنيبوا، فلم يرتدعوا، فاستحقوا عذاب الاستئصال والإغراق في البحر، قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ(١) قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ(٢) ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ(٣) بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٤-١٣٦].

حين نزل العذاب الشديد وتواترت ألوان العقاب على فرعون وقومه الكافرين من الجراد والضفادع والدم وطوفان الماء وغيرها من الآيات التسع، حينئذ اضطرب قوم فرعون واشتد فزعهم، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو ربه، بسبب ما عهد الله عنده من النبوة والرسالة والكرامة والمحبة وصلة العهد مع الله من طاعة موسى ونعمه عليه، وأقسموا له: لئن كشفت عنا بدعائك ذلك العذاب، لنصدقن برسالتك، ونؤمنن بما جئت به من عند ربك، ولنرسلن معك بني إسرائيل إلى حيث تتوجه وتريد، ليتمكنوا من عبادة ربهم كما شاؤوا. وهذا عهد من فرعون وملئه الذين بيدهم الحل والعقد. ولكن قوم فرعون لما كشف الله عنهم العذاب، وأزال

(١) العذاب الشديد الشامل . (٢) ينقضون عهدهم . (٣) أي البحر الأحمر .

عنهم العقاب مرة بعد مرة، مؤقتاً إلى أجل محدود، منتهون إليه حتماً، فمعذبون فيه، وهو الغرق، إذا هم ينقضون العهد ويحنثون في كل مرة، ولم ينفعهم ما تقدم في حقهم من الإمهال. ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي غاية كل واحد منهم بما يخصه من الهلاك والموت، في الغرق المنتظر. روي أنهم كانوا يمكثون في العذاب الواحد من الطوفان والجراد ونحوهما أسبوعاً، ثم يطلبون من موسى الدعاء برفعه، ويَعِدونه بالإيمان بالله تعالى، ثم ينقضون العهد.

ولما كشف الله العذاب (وهو الرجز) عن قوم فرعون من قبلُ مرات ومرات، ولم يقلعوا عن كفرهم وجهلهم، ثم حان الأجل المؤقت لعذابهم، انتقم الله منهم، بأن أهلكهم بالغرق في البحر، بسبب تكذيبهم بآيات الله التي نزلت عليهم كلها، وكانوا غافلين عنها وعما يتبعهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

والمراد بغفلتهم عن آيات الله: إعراضهم عن الآيات، وعدم الالتفات إليها، فهم أعرضوا عنها، حتى صاروا كالغافلين عنها. إنهم غفلوا عما تتضمنه الآيات من الهدى والنجاة.

أغرق الله الكافرين منهم في اليم إغراقاً شنيعاً شديداً، ونجى الله المؤمنين الذين كانوا يكتمون إيمانهم، أغرقهم في اليم، وهو البحر الذي فَرَقه لموسى، فجاوزه هو وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما أصبحوا في وسط البحر، أطبقه الله عليهم، فغرقوا عن آخرهم بسبب تكذيبهم بآيات الله، وتغافلهم عنها، وعما يعقبها من العذاب في الدنيا والآخرة.

تُبين لنا هذه الآيات مدى انتهازية بعض الناس، ولجوئهم إلى المكر والخديعة، فإن قوم فرعون لما تعرضوا للعذاب، هرعوا إلى موسى عند الشدة والضيق، وهذا شأن غالب الناس، لا يجدون في وقت المحنة غير الله ملجأً وملاذاً.

وكان من عادة قوم فرعون تكرار نقض العهود وخُلْف الوعود، وتمرير المصالح إلى وقت محدود.

والعذاب الذي استحقوه هو عذاب الاستئصال بالإغراق في البحر.

والآيات تستدعي الوقوف أمامها بحذر وتعمق وإطالة فكر وتأمل، والواجب النظر فيها وتدبرها والتأمل بأسبابها ونتائجها، ولذلك ذمهم الله بأن غفلوا عنها، وهو منهج يدل على أن التقليد طريق مذموم. وأن الواجب يستدعي بحق إعمال الفكر والتأمل، والاعتماد على القناعة الذاتية، وتكوين هذه القناعة بالبرهان والحجة، لا بمجرد التوارث للآباء، والسير في فلك الأجداد، حتى وإن وجدوا الحق في غير طريقهم، أو في شريعة محكمة، لا تبديل فيها ولا تغيير.

نصرة المستضعفين بعد إغراق فرعون

اقتضت حكمة الله ورحمته وعدله وفضله أن ينصر الضعفاء والمستضعفين، وينتقم من الأقوياء المتغطرسين والأشداء الظالمين، وميزان العدل لا يتغير، والفضل الإلهي لا يختلف بين جيل وجيل. وحينما طغى فرعون وبغى وأفسد في الأرض وتأله وتجبر، كان مصيره الإذلال والهلاك، ونصر الله الذين كانوا يستضعفون في المشرق والمغرب من قوم موسى، وأمدهم الله بنعم كثيرة قصها القرآن الكريم علينا، فقال الله تعالى:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا[1] مَا كَانَ يَصْنَعُ

(١) أهلكنا .

فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ(١) ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ(٢) مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا(٣) وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ(٤) سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ(٥) وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ(٦) مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٧-١٤١].

قارن الله تعالى بين مصير فرعون وجنوده العتاة الظلمة، وبين المستعبدين الضعفاء الصابرين من بني إسرائيل، أغرق الله أولئك، وأنعم على موسى وقومه بالنعم العظمى الثلاث الآتية:

النعمة الأولى -وراثة الأرض: بعد أن كان الإسرائيليون يستضعفون في عهد فرعون بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم، وإسامتهم سوء العذاب، أورث الله هؤلاء المستضعفين الأرض في المشرق والمغرب، التي بارك الله فيها بالخصب والنماء، وسعة الأرزاق والخيرات والأمطار ووفرة الأنهار، وتمت وتحققت كلمة الله الحسنى ونفذت ومضت على بني إسرائيل أي ما سبق لهم في علمه وكلامه في الأزل من النجاة من عدوهم والظهور عليه، ونفذ وعد الله الأسمى، بسبب صبرهم على أذى فرعون وملئه. وإنجاز هذا الوعد حدث مرة واحدة حين استقام الإسرائيليون، ولم يتكرر وعد آخر لهم بالعودة إلى أرض فلسطين.

ودمر الله تعالى كل ما يصنع فرعون وقومه من العمائر والمزارع، وما كانوا ينصبونه من العرائش والسقُف في البساتين، وما بنوه من القصور الشاهقة.

---

(١) العرائش من الجنات أو يرفعون الأبنية . (٢) مهلك مدمرّ . (٣) أطلب لكم إلهاً . (٤) يذيقونكم . (٥) يبقونهم أحياء للخدمة . (٦) اختبار .

والنعمة الثانية -الإنقاذ من الغرق والاضطهاد: نجى الله تعالى بني إسرائيل من فرعون وملئه ومن الغرق في البحر الأحمر، وجاوز بهم البحر آمنين، وأغرق فرعون وقومه، ولكنهم قابلوا النعمة بالجحود والعصيان والكفران، ولم يقوموا بما يجب عليهم من الشكر والطاعة، كشأنهم في كل عصر وزمان، وطلبوا من موسى عليه السلام اتخاذ إله من الأصنام حينما رأوا قوماً من الكنعانيين يعبدون أصناماً لهم على صور البقر، وقالوا لموسى: اجعل لنا صنماً إلهاً نفرده بالعبادة ونكفر بربك، كما يؤله هؤلاء القوم أصنامهم.

فرد عليهم موسى رداً شديداً مفعماً بالتعجب بقوله: إنكم قوم جهلة، تجهلون حقيقة توحيد الله الخالص له، وتسألون أمراً حراماً فيه الإشراك في العبادة، والله تعالى ليس بحاجة إلى شفيع أو شريك أو وسيط، بل هو أقرب إلى عبده من حبل الوريد، إن هؤلاء العاكفين على أصنامهم عبدة الأوثان محكوم عليهم بالدمار والهلاك والزوال، وباطل عملهم في الدنيا والآخرة وكيف تطلبون إلهاً غير الله، وهو فضّلكم على عالمي زمانكم؟!.

والنعمة الثالثة -الإنجاء من آل فرعون: نجى الله أيضاً بني إسرائيل من ظلم آل فرعون، وأنقذهم من ذل العبودية، وخلصهم من إسامتهم سوء العذاب وتكليفهم مشاق الأعمال، ومن تقتيل أبنائهم الذكور، وترك نسائهم أحياء، حتى ينقرض نسلهم. وفي ذلكم الإنجاء من كيد فرعون وقومه، والإنعام عليهم بهذه النعم بلاء واختبار عظيم من الله لهم.

والمراد من ذلك كله حملهم على شكر الله تعالى، وتخصيصه بالعبادة والتقديس وإفهامهم أن في إنجائهم امتحاناً لهم واختباراً لسلوكهم، هل يكون منهم وفاء بحسب النعمة، أو جحود وتنكر للمعروف؟ والواقع أنهم قابلوا النعمة بالكفران، والطاعة بالعصيان، فاستحقوا غضب الديان.

مناجاة موسى ربه

تميز موسى عليه السلام عن سائر الأنبياء والرسل بأنه كليم الله، كلمه ربه في طور سيناء، وأنزل عليه التوراة المتضمنة للرسالة والتشريع وأحكام الحلال والحرام ودستور الحياة. وتمت المكالمة بعد أن أخبر الله تعالى موسى عليه السلام عن موعد محدد لها، يتهيأ فيه للمناجاة بعد ثلاثين ليلة، ثم زاده الله في الأجل بعد ذلك عشر ليال، فتم ميقات ربه أربعين ليلة، أي الموعد المحدد للمناجاة بعد هذه المدة، قال الله تعالى:

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ(١) رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا(٢) وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ(٣) فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ(٤) تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٢-١٤٥].

تصف هذه الآيات كيفية نزول التوراة على موسى عليه السلام التي هي دستور الشريعة، وتذكر أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر: إن أهلك الله عدوهم، أتاهم بكتاب من عند الله، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون، سأل موسى ربه الكتاب.

وتضمنت الآيات أربعة موضوعات: تحديد موعد لموسى لمكالمة ربه، واستخلاف

---

(١) بدا له شيء من نور الله. (٢) مدكوكاً مفتتاً. (٣) مغشياً عليه. (٤) تنزيهاً لك عن مشابهة المخلوقات.

هارون على بني إسرائيل في غياب موسى، وطلب موسى رؤية الله عز وجل، وإنزال التوراة المتضمة أصول الشريعة.

أما موضوع المواعدة: فهو أن الله تعالى واعد موسى مكالمته، بعد تمام ثلاثين ليلة وهي شهر ذي القعدة، وأمره بصومها، فصامها وتهيأ فيها للمناجاة واستعد، ثم أمره الله تعالى أن يكمل صيام عشرة أيام أخرى من ذي الحجة، وأن يلقى الله صائماً، فأصبح موعد اللقاء بعد تمام أربعين ليلة. قال ابن كثير: فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٣].

والموضوع الثاني -هو استخلاف هارون: قال موسى لأخيه هارون الأكبر منه ثلاث سنوات حين أراد الذهاب إلى جبل الطور لميقات ربه: كن خليفتي في القوم مدة غيابي، وأصلح أمر دينهم، ولا تتبع سبيل أهل الفساد والضلال.

والموضوع الثالث -طلب موسى رؤية ربه، لما جاء موسى لميقات الله تعالى المحدد في جبل الطور للكلام مع ربه وإعطائه الشريعة، كلمه ربه بلا واسطة كلاماً سمعه من كل جهة، وسمعه سبعون رجلاً اختارهم معه للميقات، وفي المكالمة رغب موسى برؤية الله تعالى، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أي أنظر إلى ذاتك المقدسة، وقوّني على النظر إليك، فقال الله له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي الآن ولا في المستقبل في الدنيا، إذ ليس لبشر القدرة على النظر إلي، لقوله ﷺ فيما رواه مسلم: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه -أنواره- ما انتهى إليه بصره من خلقه».

ولكن انظر إلى الجبل، فإن ثبت مكانه عند التجلي الأعظم عليه، فسوف تراني، وإذا كان الجبل في قوته وثباته لم يستطع أن يثبت، فكيف أنت يا موسى؟! فلما تجلى

ربه للجبل، جعله تراباً مدكوكاً، وسقط موسى مغشياً عليه، فلما أفاق من إغماءته وغشيانه أو صعقته، قال: سبحانك، أي تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراك أحد في الدنيا إلا مات. إني تبت إليك من التعجيل في طلب الرؤية، وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. وامتناع رؤية الله هو في الدنيا، أما في الآخرة فالراجح أن رؤية العباد لربهم في الآخرة ممكنة وجائزة.

والموضوع الرابع -إنزال التوراة: قال الله لموسى: يا موسى إني اخترتك على ناس زمانك، وآثرتك عليهم بتكليمي إياك وبإعطائك رسالاتي المتنوعة، فخذ ما أعطيتك من الشريعة وهي التوراة، وكن من جماعة الشاكرين نعمي. وكتبت لك في ألواح التوراة التي أعطيتها إياك المواعظ وتفاصيل الأحكام المبينة للحلال والحرام وأصول العقيدة والآداب، وكانت هذه الألواح أول ما أوتيه موسى من التشريع. والموعظة: تشمل كل ما يوجب الرغبة في الطاعة والنفرة من المعصية. والتفصيل: بيان أقسام الأحكام. فخذ يا موسى هذه الأحكام بقوة وجد وعزيمة، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها، أي يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهي، ويتدبروا الأمثال والمواعظ، سترون دار الفاسقين، أي عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي، وكيف يصير إلى الهلاك والدمار.

الصرف عن آيات الله

العقيدة المقررة في الإسلام أن الله تعالى يهدي إلى الخير والرشد، ويحذر من سلوك طرق الغواية والشر، ولا يمنع أحداً من خير وهداية، ولا يرضى لعباده الكفر والفحشاء، وإنما الناس هم الذين يختارون الإيمان والتزام الاستقامة، ويقدمون على الكفر والانحراف والمخالفة بعقولهم وإرادتهم. فإن تكبَّر الجاحدون والعصاة عن امتثال

أوامر الله، كان الكِبْر سبباً لصرف الإنسان عادة عن النظر في الحق، والغَفلة عن الآيات الدالة عليه. قال الله تعالى مبيناً صرف المتكبرين عن التفكير والنظر في آيات الله:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ[1] لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ[2] يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ[3] هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦-١٤٧].

الصرف: هو المنع والصدّ، والآيات هنا: كل كتاب منزل من الله، والمعنى: أن الله تعالى يبين في هذه الآيات سبب الطغيان والكفر والظلم والفساد، ويقرر سبحانه أنه سيمنع قلوب المتكبرين عن طاعته واتباع رسله عن النظر والتفكير والاستدلال بآيات الله، ويمنعهم عن فهم الأدلة والبراهين، الدالة على عظمته، ويحجبهم عن الإيمان بالآيات، مثل قوم فرعون الذين قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ٢٧/ ١٤] ومثل كفار قريش كأبي جهل وأبي لهب وعتبة بن ربيعة الذين حجبهم الكِبر عن النظر في الآيات مع يقينهم بصدق محمد.

ويتصف هؤلاء المتكبرون بصفات، منها: أنهم لا يؤمنون بأي آية تدل على الحق وتُثبته، إذ لا تفيد الآيات إلا من كان مستعداً للفهم وقبول الحق.

ومنها: أنهم يبتعدون عن طريق الهدى والرشاد، وهي الطريق الممهدة المؤدية إلى النجاة، فإذا رأى أحدهم هذه السبيل لا يسلكها ويسلك غيرها، وهذا يكون عن تعمد وعناد، أو عن جهل وطيش، وحكم الفريقين واحد.

(١) طريق الرشد. (٢) طريق الضلال. (٣) بطلت أعمالهم لكفرهم.

ومنها: أنهم إذا ظهر لهم سبيل الغي والضلال والفساد، بادروا إليه مسرعين، بما تزينه لهم أهواؤهم ونفوسهم الأمارة بالسوء، وهؤلاء أسوأ ممن قبلهم. وعلة هؤلاء المتكبرين واحدة وهي تكذيبهم بآيات الله المنزلة على رسله، وغفلتهم عن النظر بما فيها، وإعراضهم عن العمل بها، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٦١/ ٥].

ومجمل حال هؤلاء المتكبرين: أن الله لم يخلقهم مطبوعين على الكفر والضلال، ولم يجبرهم عليه، بل حدث ذلك باختيارهم؛ إذ إنهم هم الذين كذبوا بالآيات المنزلة التكر نية والتشريعية، وانغمسوا بأهوائهم وشهواتهم في بؤر الضلال والانحراف، وحجبوا أفهامهم عن إدراك الحق والهدى وسلوك سبيل السعادة والنجاة، فهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩].

ومآل أعمال هؤلاء المتكبرين الكافرين هو إحباطها وإبطالها وتلاشي آثارها، وعدم ترتيب الثواب عليها، كما ذكر في هذه الآيات، فذكر الله تعالى مصير عمل الكفار: وهو أن الذين كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله الكرام، ولم يؤمنوا بها، ولم يصدقوا بالآخرة وما فيها من جزاء على الأعمال من ثواب الخير وعقاب الشر، واستمروا على هذه الحال إلى الموت، هؤلاء بطلت أعمالهم وذهبت سدى، لفقد شرط القبول، وهو الإيمان، ولأن من سنته تعالى جعل الجزاء في الآخرة بحسب الأعمال السالفة في الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكما تدين أيها الإنسان تدان، فقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ دليل على أن الجزاء من جنس العمل، فمن آمن وعمل الصالحات فله الجنة، ومن كفر وعمل السيئات فله النار.

لكن عمل الخير من الكافر يفيده في الدنيا، كالتصدق على الفقراء، وصلة الأرحام، وترك الفواحش والمنكرات، واستقامة السيرة والسلوك، فبسبب هذه الأعمال الخيرة، يدفع الله عن الكافر الشرور والمصائب، ويقيه من عظائم الأحداث، ومهاوي الشر والضرر.

اتخاذ السامري العجل

في كل قوم أناس ضالون ومهدِّمون للعقائد والقيم والأخلاق، ومن هؤلاء موسى السامري الذي اتخذ عجلاً من حلي النساء تقليداً للمصريين في عهد فرعون الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من شمس وغيرها، ثم اتخذه الإسرائيليون إلهاً في غيبة موسى لمناجاة ربه، وعبدوه من دون الله. قال الله تعالى واصفاً هذه القصة:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا(١) لَّهُۥ خُوَارٌ(٢) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ(٣) وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

[الأعراف: ٧/ ١٤٨-١٤٩].

يمر بعض الناس في فترة ضعف، ويعودون أحياناً إلى العقلية البدائية إما جهلاً وغباء، وإما عناداً وتكبراً وسوء نية، وإما تأثراً بالبيئة والأعراف السائدة، وقد وقع بنو إسرائيل في هذه الحالة، فطلبوا مرة من موسى أن يجعل لهم إلهاً من الأصنام، كما للكنعانيين آلهة من الأوثان، فزجرهم موسى وأبان لهم أنهم جهال في هذا المطلب.

واستغل موسى السامري فرصة غياب موسى عليه السلام لمناجاة ربه، فصنع

(١) مجسَّداً من ذهب. (٢) صوت كصوت البقر. (٣) ندموا ندماً شديداً.

عجلاً من الحلي له خوار، متأثراً بداء التقليد، حيث شاهد المصريين يعبدون الأصنام والأوثان والكواكب من شمس وغيرها، وتم الصنع كما حكى يحيى بن سلام عن الحسن البصري أنه قال: استعار بنو إسرائيل حلي القبط ليوم الزينة، فلما أمر موسى أن يسري بهم ليلاً، تعذر عليهم رد العواري (الأشياء المستعارة) وخشوا أيضاً أن يفتضح سرهم، ثم إن الله نفّلهم إياه.

ويروي أن السامري -واسمه موسى بن ظفر من قرية سامرة- قال لهارون حين ذهب موسى إلى المناجاة: يا هارون، إن بني إسرائيل قد بددوا الحلي الذي استعير من القبط، وتصرفوا فيه، وأنفقوا منه، فلو جمعته حتى يرى موسى فيه رأيه، فجمعه هارون، فلما اجتمع قال للسامري: أنت أولى الناس بأن يختزن عندك، فأخذه السامري -وكان صائغاً- فصاغ منه صورة عجل، وهو ولد البقرة، جسداً، أي جثة وجماداً، وقيل: كان جسداً بلا رأس، وقيل: إن الله جعل له لحماً ودماً. قال ابن عطية: وهذا (أي جعل اللحم والدم له) ضعيف؛ لأن الآثار في أن موسى بَرَده بالمبارد، تكذب ذلك.

وكان لهذا العجل خوار: وهو صوت البقر، اتخذه السامري بحيله صناعية، ثم اتخذه بنو إسرائيل إلهاً لهم، ثم عبدوه. وبالرغم من أن المتخذ واحد منهم وهو السامري، إلا أن هذا الاتخاذ نسب إليهم جميعاً؛ لأنه عمل برأي جمهورهم، ولم يحصل منهم إنكار عملي، فكأنهم راضون به مجمعون عليه.

رد الله على هؤلاء رداً عقلياً مبسطاً واضحاً، مضمونه أن هذا العجل المتخذ من حلي الذهب أو الفضة إلهاً لا يستحق التأليه، بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي ألم ينظروا ويتأملوا أنه فاقد لمقومات الإله، فلا هو يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولا يهديهم سبيل

السعادة، اتخذوه بلا دليل ولا برهان، بل عن جهل وتقليد لغيرهم كالمصريين الذين يعبدون العجل (أبيس) والكنعانيين في فلسطين، فكانوا بذلك ظالمين لأنفسهم أن عبدوا ما لا ينفعهم، وإنما يضرهم.

ولما عاد موسى من مناجاة ربه في الميقات الذي خصص له، وكان قد أخبره الله تعالى، وهو على جبل الطور، باتخاذ قومه عبادة العجل، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٥] لما عاد موسى، ندم بنو إسرائيل على ما فعلوا، وهذا هو معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ ورأوا أنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً بعبادة العجل، فتابوا واستغفروا ربهم، وتبينوا وجه الحق في أن الله هو الإله المعبود بحق، لا هذا العجل وغيره من الأصنام، وقالوا: إن لم يرحمنا ربنا، بقبول توبتنا، ومغفرة ذنبنا، لنكونن من القوم الهالكين، ومن الذين خسروا سعادة الدنيا وهي الحرية والاستقلال في الأرض، ومن الذين خسروا أيضاً سعادة الآخرة، وهي الإقامة في جنات النعيم، وهذا اعتراف صريح منهم بذنبهم، والتجاء إلى الله عز وجل في أن يتقبل منهم التوبة، ويعفو عما وقعوا فيه من الذنب الكبير، وهو اتخاذ العجل إلهاً.

وهذا مثل واضح للانحراف، وبيان لطريق العدول عنه، وهو التوبة الخالصة لله عز وجل، والندم على ما حدث، والإصرار على عدم العودة إلى مثل ذلك الذنب في المستقبل.

إجراءات موسى حول اتخاذ العجل إلهاً

إن مهمة كل نبي أو رسول أن يبادر إلى إصلاح أخطاء قومه، وإرشادهم إلى صواب الأمور، إما بالوعظ والإرشاد، وإما باقتلاع المنكر من جذوره، وتصحيح الأوضاع والأحوال، وإما بعتاب المقصر أو المخطئ، وقد فعل موسى عليه السلام

كل ذلك، فنصح وأرشد، وزجر وأوعد، وتخلص من العجل الذي اتُّخذ إلهاً في غيبته، وعاتب أخاه هارون عتاباً شديداً على سلبيته -بحسب ظنه- أو موقفه من مسألة العجل. قال الله تعالى واصفاً هذه الأحداث:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا(١) قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ(٢) أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ(٣) بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٠-١٥١].

كان اتخاذ العجل إلهاً في بني إسرائيل صدمة عنيفة لموسى عليه السلام، فحينما رجع من المناجاة، وقرب من محلة بني إسرائيل، سمع أصواتهم، فقال: هذه أصوات قوم لاهين، فلما تحقق عكوفهم على عبادة العجل، داخله الغضب والأسف، وألقى الألواح (ألواح التوراة). بل إنه حينما أخبره الله تعالى قبل رجوعه أنهم قد فتنوا بالعجل، رجع وهو غاضب، والأسف قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأكثر ما يكون بمعنى الحزن، والمعنيان متوافران هنا.

كان موسى الشديد الشكيمة القوي العزيمة في فهم التوحيد الخالص ذا موقف مغاير لأخيه هارون الذي كان ليّن العريكة، غير حازم في أمره، فقال موسى للقوم: أسابقتم قضاء ربكم واستعجلتم إتياني قبل الوقت الذي قدر به. أي فلم أرجع إليكم عند تمام الثلاثين ليلة، فتحدثتم بموتي وغيرتم عقيدتكم، كما غيرت الأمم بعد موت أنبيائها، وطرح موسى ألواح التوراة من يده فتكسرت، لما اعتراه من فرط الدهشة وشدة الضجر عند استماعه حديث العجل، غضباً لله، وحمية لدينه، وأخذ بشعر أخيه يجره إليه بذؤابته، لشدة ما استفزه من الأمر، وذهب بفطنته، وظناً بأخيه أنه

(١) شديد الغضب حزيناً . (٢) أسبقتم بعبادة العجل . (٣) لا تسرهم بمكروه بي .

قصر في خلافته، وفرط في كفّ القوم عن عبادة العجل، وعلى الخليفة اتباع سيرة سلفه الذي استخلفه، كما جاء في آية أخرى: ﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٩٢-٩٣]. أي أن تتبعني إلى جبل الطور.

فأجابه هارون قائلاً: يا بن أمي، لا تتعجل بلومي وتوبيخي واتهامي بالتقصير في واجبي نحو الله تعالى، فإني أنكرت عليهم، ونصحتهم، ولكن القوم استضعفوني فوجدوني فرداً واحداً، ولم يلتفتوا إلى كلامي، بل قاربوا أن يقتلوني، فلا تشمت بي الأعداء بالاستهانة بي والإساءة إلي، ولا تجعلني بظنك في عداد الظالمين أنفسهم، أي الذين عبدوا العجل، مع براءتي منهم ومن ظلمهم. ولما اعتذر هارون مستعطفاً قلب أخيه موسى، قال موسى: رب اغفر لي ما قد فرط مني من قول أو فعل فيهما غلظة وجفوة لأخي، واغفر لأخي ما قد فرط أثناء خلافته عني، من مؤاخذة القوم على ما ارتكبوه من جرم وإثم، وأدخلنا في رحمتك الواسعة، فأنت أرحم الراحمين، أي اجعل رحمتك ملازمة لنا، لا تفارقنا في الدنيا والآخرة.

دعا موسى عليه السلام بهذا الدعاء لاسترضاء أخيه، وإظهار رضاه عنه أمام الشامتين، فلا يشمتون به، واستغفر ربه من عجلته في إلقاء الألواح. ودل اعتذار هارون أنه بريء من جريمة اتخاذ العجل إلهاً، وأنه لم يقصر في نصحهم والإنكار عليهم، وقد غفر الله له. وهذا تصريح مخالف لما في التوراة الحالية أن هارون هو الذي صنع العجل لهم، واتخذه إلهاً.

وفي الجملة: لا يمكن بحال أن يصدر من نبي شيء من التقصير في أداء واجبه في تبليغ العقيدة والرسالة، ومقاومة كل ما يعارضهما، وكان موسى وأخوه هارون نبيين. فكل منهما على حق فيما صدر منه، أما هارون فأنكر على القوم اتخاذ العجل إلهاً إنكاراً شديداً، وأما موسى فاشتد أكثر منه في الإنكار وإظهار الغضب، وتصفية

آثار المنكر ولكن شخصية الاثنين متفاوتة، فموسى أقوى شخصية وأشد تأثيراً، وكان هو المتميز بين بني إسرائيل عن أخيه، فكانت استجابتهم له أسرع وأفضل، والله الموفق لما يريد.

نهاية قصة اتخاذ العجل إلهاً

الجزاء العادل في كل دين حق وواجب، حق للمجتمع حتى يتم استئصال دابر الجريمة وتصفية آثارها وانعكاساتها على مشاعر الناس وما تحدثه من هزات واضطرابات، والجزاء واجب أيضاً لكل جان مخالف أجرم في حق نفسه وأمته، لذا لم يهمل التشريع الإلهي الإشارة إلى عقاب المسيء الذي اتخذ العجل لقومه إلهاً وشايعه ضعفاء العقيدة والإيمان، بالرغم من إنهاء موسى عليه السلام وتحطيمه العجل المصنوع وإلقائه في البحر، قال الله تعالى مقرراً عقاب المسيء:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٢-١٥٤].

خاطب الله تعالى موسى عليه السلام مبيناً له ما يجب اتخاذه مع صانع العجل والراضين به. وهو أن الذين اتخذوا العجل إلهاً ومعبوداً بعد غيبة رسولهم موسى عليه السلام، واستمروا في تأليهه وعبادته كالسامري وأتباعه، سيصيبهم عذاب شديد من ربهم، وينالهم غضب الله وسخطه، وتلحقهم ذلة وصغار في الحياة الدنيا، بإخراجهم من ديارهم وتشريدهم، وهوانهم على الناس واحتقارهم لهم، والغضب والذلة: هو أمر بقتل أنفسهم، وقتل بعضهم بعضاً، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَتُوبُوٓاْ

إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ٥٤].

ومثل ذلك الجزاء الذي نزل بالظالمين من بني إسرائيل في الدنيا، نجزي القوم المفترين على الله في كل زمان، والمعنى: أن كل مفتر في دين الله جزاؤه غضب الله والذلة في الدنيا، ويشمل ذلك كل من افترى بدعة تصادم أصول الدين، وتخالف هدي الله وإرشاده، قرأ أبو قُلابة الجرمي هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ فقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة.

ويمتاز أسلوب القرآن في الجمع بين الأشياء المتضادة في وقت واحد، قارناً بين الترغيب والترهيب في مقام واحد، فناسب هنا أنه تعالى بعد أن ذكر جزاء الظالمين، فتح باب الأمل والتوبة والإصلاح أمام التائبين، فنبه الله تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبتهم من أي ذنب كان، حتى ولو كان الذنب كفراً أو شركاً أو نفاقاً أو شقاقاً ونزاعاً، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن الذين ارتكبوا الأعمال السيئة والمعاصي المنكرة شرعاً، وعلى رأسها الكفر والشرك، ثم تابوا، أي رجعوا من بعدها إلى الله، بأن آمن الكافر، وأقلع العاصي عن عصيانه، واستقام المؤمن على منهج ربه، وآمنوا إيماناً خالصاً من الشوائب، وقرنوا الإيمان بالعمل الصالح، إن ربك أيها النبي من بعد تلك الفعلة القبيحة لغفور لهم، ستار لذنوبهم، رحيم بهم، يجزي بالحسنة عشر أمثالها، ويكافئ على القليل بالجليل الكثير. وهذا دليل واضح على أن جميع السيئات قابلة للغفران بالتوبة النصوح.

ثم تحدث القرآن العظيم عن حال موسى وهدأته من غضبه، فذكر أنه لما سكن غضب موسى على قومه، وهدأت نفسه بتوبة أكثر قومه، أخذ الألواح التي كتبت فيها

التوراة، والتي كان قد ألقاها من شدة الغضب على عبادة قومه العجل، غيرةً لله وغضباً له، ففي تلك الألواح هداية للحيارى، ورحمة بالعصاة المذنبين التائبين الذين يخافون من ربهم أشد الخوف على ما يصدر منهم من ذنوب، و يخشون عذابه وحسابه، وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ حيث عدّى ﴿يَرْهَبُونَ﴾ باللام والأصل أن يقال: يرهبون ربهم، لأنه ضمن الرهبة معنى الخضوع.

ذكر ابن عباس: أنه لما تكسرت الألواح، صام موسى أربعين يوماً، فردّت عليه، وأعيدت له تلك الألواح في لوحين، ولم يفقد منها شيئاً. قال القشيري: فعلى هذا: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى﴾ أي وفيما نسخ من الألواح المتكسرة، ونقل إلى الألواح الجديدة هدى ورحمة.

مناجاة موسى عليه السلام ربه

إن كل عجيب وفريد يهتز الإنسان له ويطرب لمعرفته، ومن أعاجيب ما حدث في التاريخ مناجاة موسى عليه السلام ربه وتكليمه إياه مباشرة دون واسطة، وقد سجّل القرآن العظيم تفاصيل هذا الحدث البارز وما دار فيه من حوار بين الحق سبحانه وتعالى وبين أحد الرسل أولي العزم ألا وهو موسى عليه السلام، وهذا هو الحدث. قال الله تعالى:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ[1] قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ[2] تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا

(١) الزلزلة الشديدة أو الصاعقة . (٢) محنتك واختبارك .

حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ[1] إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

[الأعراف: ٧/ ١٥٥-١٥٦].

كل شأن عظيم يجب الاستعداد له بما يناسبه، وكان الإعداد لمناجاة موسى ربه: أنه اختار من قومه سبعين رجلاً، وأمرهم بالصيام والتطهر، ليذهب بهم إلى موضع عبادة وابتهال ودعاء، ليكون منه ومنهم اعتذار إلى الله عز وجل من خطأ بني إسرائيل في عبادة العجل، وطلبٌ لكمال العفو عمن بقي منهم. وكان ذلك عن توقيت من الله عز وجل ووعد (أوعِدَة) في الوقت والموضع ثم خرج بهم إلى طور سيناء، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، وقال للقوم: ادنوا فدنوا، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجداً، وسمعوا المولى جل شأنه، وهو يكلم موسى بأمره ونهيه، ثم انكشف الغمام، فأقبلوا على موسى، وطلبوا منه رؤية الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه، فأخذتهم رجفة الجبل وصَعَقُوا حينما ألحوا في طلب الرؤية، ولم تكن تلك الرجفة موتاً، ولكنها رعدة من هيبة الله تعالى وجلاله، واهتزاز وتقلقل للهول العظيم.

فقال موسى حينئذ متأسفاً عليهم: رب لو شئت أهلكت هؤلاء القوم حين عبدوا العجل وحين طلبوا رؤيتك، وأهلكتني معهم أيضاً قبل أن أرى ما رأيت من رعدتهم. يا رب، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ حيث طلبوا رؤيتك جهراً لسماعهم كلامك. وما هي إلا فتنتك أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك حين كلمتني، فسمعوا كلامك وطلبوا الرؤية، فليس الأمر إلا أمرك، وما الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل بالمحنة من تشاء من عبادك وهم الجاهلون غير المتثبتين في معرفتك، ولستَ

(١) تبنا ورجعنا إليك .

بالظالم لهم أبداً، بل هو موافق لطبعهم وكسبهم واختيارهم، وتهدي بالمحنة أيضاً من تشاء من عبادك، وهم المؤمنون المتثبتون في معرفتك، ولستَ بالمحابي لهم في توفيقك للهداية، بل هذا متفق مع طبعهم وكسبهم واختيارهم، ولو ترك كل فريق وشأنه لاختار ما هو كائن فعلاً.

ثم قال موسى مؤيداً كلامه بالتفويض لله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي المتولي أمورنا والمهيمن علينا، فاغفر لنا، أي استر ذنوبنا ولا تؤاخذنا بها، وارحمنا وإن قصرنا وفرطنا، وأنت خير الغافرين، أي الساترين ذنوب العباد، العافي عن السيئات، ورحمتك وسعت كل شيء، ومغفرته ورحمته محضة ليست لمصلحة أو نفع ذاتي كحب الثناء ودفع الضرر، أنت سبحانك تغفر لمحض الفضل والجود والكرم، أنت حقاً وقطعاً خير من غفر وستر، قال ابن كثير: والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها ألاّ يُوقَع العبد في مثل الذنب في المستقبل.

وتتمة دعاء موسى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ . .﴾ أي أوجب وأثبت لنا بفضلك ورحمتك حسنة، أي حياة طيبة في الدنيا بتوفير نعمة الصحة والعافية وسعة الرزق، والتوفيق في العمل، والاستقلال في الأمور، وأثبت لنا كذلك مثوبة حسنة في الآخرة بدخول جنتك والظفر برضوانك وفيض إحسانك ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ أي تبنا ورجعنا وأنبنا إليك وندمنا على اتخاذ قومنا عبادة العجل، وطلب رؤية الله جهرة، ونحو ذلك من فعل السفهاء، ورجعنا إلى الإيمان المقرون بالعمل.

قال الله مجيباً موسى: إن عذابي أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة، ورحمتي وسعت كل شيء في العالمين، فسأكتب هذه الرحمة لكل من يتقون الشرك والمعاصي، ويؤتون الزكاة التي تزكي النفس والمال، والذين يصدقون بآياتنا الدالة على توحيدنا، ويصدقون بكفاية شريعتنا وسموها وصلاحيتها للعمل والتطبيق، وصدق رسلنا،

هؤلاء المؤمنون الصادقون هم أهل الرحمة المستحقون لها، لا أولئك الذين يعتمدون على الأماني والتمنيات المعسولة دون إيمان ولا عمل صالح.

تبشير موسى بمحمد عليهما الصلاة والسلام

وصل الله تعالى بين الرسالات السماوية وبين الأنبياء والرسل عليهم السلام، فكان رسل الله الكرام يبشر بعضهم ببعض، ويبشرون بالذات برسالة محمد ﷺ، لربط مهام الرسل بعضها ببعض، وإكمال آخرها لأولها، وقانون الربط والصلة: أن الله وضع قانوناً عاماً لمن يستحق رحمته وفضله وهم المؤمنون الأتقياء الصلحاء الذين يتبعون رسالة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله الذي وصف الله رسالته بالأوصاف الآتية، قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ(١) وَالْأَغْلَالَ(٢) الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ(٣) وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧].

وصف الله تعالى رسالة النبي محمد ﷺ بالأوصاف السبعة التالية:

١- إن مستحقي الرحمة الإلهية هم الذين يتبعون محمداً الرسول النبي الأمي، أي الذي لم يقرأ ولم يكتب، وإنما جاء بالقرآن المنزل عليه من ربه دليلاً على صدقه، فالأمية من آيات نبوته، ليبقى التنزيل الإلهي القرآني المصدر التشريعي المستقل الذي لم

(١) حملهم الثقيل. (٢) التكاليف الشاقة في التوراة. (٣) وقرّوه وعظّموه.

يتأثر ولم يختلط بشيء من عند بشر. هذا القرآن المعجز دستور شريعة الإسلام ونبيه الكريم في كل شيء من العقيدة والعبادة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والأعمال. واتباع نبي الإسلام: باعتقاد نبوته والعمل برسالته. فهو رسول مرسل من الله إلى الخلق لتبليغ التكاليف الإلهية، وهو نبي رفيع القدر عند الله تعالى، والرسول أخص من النبي، وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب.

٢- الصفة الثانية لرسولنا: أن الأمم السابقة يجدون اسمه وصفته مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فبادَرَ إلى الإيمان به بعض أحبارهم وعلمائهم، مثل عبد الله بن سلام من اليهود، وتميم الداري من النصارى، أما المستكبرون منهم عن الإيمان فكانوا يكتمون البشارات به في كتبهم ويؤولونها بأهوائهم.

٣، ٤- ومن صفات رسولنا: أنه يأمر بالمعروف: وهو كل ما تعرفه العقول الرشيدة وتألفه الطباع السليمة، وورد به الشرع الإلهي، وينهى الأمة عن المنكر: وهو ما تنكره النفوس الصافية ذات السمو العقلي والروحي، فهو عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر.

٥، ٦- ومن خصائص رسولنا المجتبى: أنه يحل للناس الطيبات: وهي كل ما تستطيبه الأنفس من الأطعمة والأشربة، ويحرم عليهم الخبائث: وهي كل ما تستخبثه النفوس الكريمة السليمة، كالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، وما يؤخذ من الأموال بغير حق كالربا والرشوة والغصب والخيانة، وكل ذلك ضار بمصلحة الإنسان أو بمصلحة المجتمع.

٧- ومن خواص رسالة رسولنا: أنه يضع عنا الإصر والأغلال، أي يرفع عنا التكاليف الشاقة كالقصاص من غير تمكين من العفو أو دفع الدية، وقتل النفس عند التوبة، أي بالتقاتل وإهدار الدماء، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب،

وتحريم العمل يوم السبت، وهذا ما تميزت به رسالة رسول الإسلام من الأخذ باليسر والسماحة، والبعد عن الحرج والمشقة وإرهاق النفس.

هذه هي خواص الرسالة المحمدية، فالذين آمنوا بالنبي العربي الأمي وبرسالته، وعزروه، أي منعوه من الأعداء، ونصروه، أي عظموه ووقروه، وأيدوه باللسان والجهاد، واتبعوا النور الإلهي الذي أنزل معه، وهو القرآن الكريم والوحي المبين له في السنة، فالنور كناية عن جملة الشرع، أولئك لا غيرهم هم المفلحون السعداء الفائزون ببغيتهم في الدنيا والآخرة، الناجون الفائزون بالرحمة والرضوان، دون من سواهم من حزب الشيطان الذين يخذلهم الله في الدنيا والآخرة؛ لإعراضهم عن هدي القرآن واتباع شريعة الإسلام ذات المصدر الإلهي.

عموم رسالة الإسلام

إن خلود الشريعة الإسلامية وبقاءها إلى يوم القيامة، وكونها خاتمة الشرائع الإلهية، وأنها الشريعة التي لا يقبل سواها بعد مجيئها، كل ذلك اقتضى أن تكون شريعة عامة لجميع أبناء البشر، في العقيدة والعبادة والمعاملة وعقود الأسرة والمواريث والجنايات والعلاقات الداخلية والخارجية، وكونها عامة إنما هو من أجل خير البشر وإسعادهم في الدنيا والآخرة، لا لعصبية أو نزعة فوقية أو عرقية، قال الله تعالى مبيناً هذا العموم والشمول ومقتضياته:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٨].

أوضحت هذه الآية مزية الرسالة الإسلامية، وهي أنها عامة شاملة، وأن بعثته

ﷺ للناس كافة، يدعوهم فيها إلى الإيمان به وبشريعته، وأن كل من يتبعه تشمله تلك السعادة. وهذا ليس مجرد إخبار، بل إنه أمر من الله عز وجل لنبيه بإشهار الدعوة والحض على الدخول في الشرع الإلهي، لأن متبعيها أهل لرحمة الله وتكريمه كما ذكر في آية سابقة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

والمعنى: قل: يا محمد لجميع البشر من عرب وعجم، بيض أو سود، حمْرٍ أو صفر، إني رسول الله إليكم جميعاً، لا إلى قومي العرب خاصة، وعموم رسالتي في كل وقت وزمان إلى يوم القيامة، فهو عموم يقتضي بعثته لجميع الناس، وعموم في الزمان، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٣٤/ ٢٨] وقال سبحانه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٩] أي وأنذر به كل من بلغه. وقال جل جلاله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١].

وأكدت الأحاديث النبوية الثابتة عموم الرسالة الإسلامية وعالميتها، مثل حديث الصحيحين والنسائي عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، منها: وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة». أي فكان كل نبي يبعث إلى فرقة خاصة دون العموم.

وأردف الله تعالى بيان العموم بما يقتضي الإذعان له، وهي أنه مالك السماوات والأرض بالخلق والإبداع، والإحياء والإماتة، لا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

تضمنت هذه الآية عناصر العقيدة الثلاثة: وهي توحيد الربوبية بالإيمان، وتوحيد الألوهية بالإيمان والعمل، أي بعبادة الله وحده، ثم الإيمان برسالة النبي محمد ﷺ، ثم الإيمان بالبعث بعد الموت، وذلك معنى الإحياء والإماتة.

ورتب على هذا البيان الدعوة العلنية الصريحة إلى الإيمان، أي التصديق بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، في ربوبيته وألوهيته، والتصديق برسوله النبي الأمي الذي بعثه ربه إلى الخلق من الإنس والجن أجمعين. إن هذا النبي هو الذي يؤمن بوحدانية الله وكلماته التشريعية التي أنزلها الله عز وجل لهداية البشر، وكلماته التكوينية الدالة على قدرته وإرادته وحكمته، ويصدق قولَه عملُه، ويؤمن بما أنزل إليه من ربه، مما تضمنته الكتب الإلهية من التوراة والإنجيل والقرآن من أحكام وإرشادات وأدلة على وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته.

وهذا الأمر بالإيمان بالله، أتبعه بالأمر بالإسلام، أي اتبعوا منهج هذا النبي، واسلكوا طريقه في كل ما جاء به، لتهتدوا إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه، أو رجاء أن تهتدوا بالإيمان واتباع الشرع، إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة.

الحق في هذا القرآن، والخير في هذا الدين، والسعادة باتباع شريعة خاتم النبيين، وبمقدار الالتزام بالشريعة يكون النجاح في الدنيا والآخرة. وإن من أهم مقومات عموم رسالة الإسلام ترفعَها عن العصبية والقومية والحقد الطائفي، وكونها ذات نزعة إنسانية شاملة تبغي الخير للجميع، وتنشد السعادة لجميع البشر، ليعيشوا في أمان وسلام، وحُبّ واستقرار، وتعاون وإخاء، وتقدم وتحضر شامل.

نعم الله على قوم موسى عليه السلام

إن منهاج الهدي الإلهي في التربية الترهيب أحياناً، والترغيب والتذكير بنعم الله أحياناً أخرى، فالغافل يستيقظ، والمقصر يتذكر، والمخالف أو المعرض يتنبه، والكل يعملون في حقل الإرشادات الإلهية لتحقيق الخير لهم، وإشاعة الود والمحبة والأخوة في ربوعهم، وأما المستقيم فيزداد استقامة، ويبادر إلى شكر الله تعالى على ما أنعم

عليه، ولا يأس في صلاح الناس، ولا ينقطع الأمل في توجه الإنسان إلى الخير، والله يراقب الجميع، فيشيد بأهل الحق، وينذر أهل الباطل، قال الله تعالى:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ(١) ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ(٢) ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا(٣) أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ(٤) مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ(٥) وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ(٦) وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ(٧) كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/١٥٩-١٦٠].

هذه ثلاث أحوال لقوم موسى الذين رغبهم الله تعالى باتباع ملة محمد ﷺ. الحال الأولى: أن بعضهم اتبعوا موسى بحق واتبعوا أيضاً محمداً ﷺ ، وهذه شهادة صريحة من الله تعالى تبين أن من قوم موسى جماعة تهدي بالحق، وتؤمن بالإيمان الحق، وترشد الناس إلى الإيمان الصحيح والخير، وتدل على منهج الاستقامة، وتحكم بمقتضى العدل الإلهي الواجب اتباعه في القضاء دون جور أو ظلم، هؤلاء الجماعة اهتدوا واتقوا وعدلوا. فأشاد القرآن بهم.

والحال الثانية لبني إسرائيل: أن الله تعالى في عهد موسى صيرهم اثنتي عشرة فرقة أو قبيلة، تسمى أسباطاً، أي أمماً وجماعات، وتمتاز كل جماعة منهم بنظام خاص بها في المعيشة وممارسة شؤون الحياة.

والحال الثالثة لهم: حال الأسباط إزاء نعم الله تعالى عليهم وهم في صحراء التيه، يذكّر الله أجيالهم بما أنعم به على أصولهم، ليشكروا النعمة ويستقيموا على أمر الله تعالى. والله أنعم عليهم بنعم فريدة ثلاث:

(١) يحكمون بالخصومات بالحق . (٢) فرّقناهم . (٣) جماعات كالقبائل العربية . (٤) فانفجرت . (٥) عينهم الخاصة بهم . (٦) السحاب الأبيض الرقيق . (٧) المن: مادة حلوة . والسلوى: طائر وهو السُّماني .

النعمة الأولى: أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يضرب بعصاه الحجر أو الصخر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بمقدار عدد أسباطهم، كل سبط له عين خاصة به، ومشرب مستقل بفرقته، قد علم كل سبط مشربهم منه. ومن المعلوم أن السبط في ولد إسحاق كالقبيلة في ولد إسماعيل. وانبجاس الماء: خروجه بقلة وهدوء، أما انفجار الماء فهو خروجه بكثرة وتدفق، الانبجاس أخف من الانفجار.

النعمة الثانية: تظليل الغمام، فكانوا إذا اشتد عليهم الحر في الصحراء، يسخر الله تعالى لهم الغمام، أي السحاب، يظلهم بظله الظليل، رحمة من الله تعالى.

والنعمة الثالثة: إنزال المن والسلوى، فكان الطعام الشهي ينزل عليهم بسهولة، دون عناء ولا مشقة، وهو المن الذي كان يقوم مقام الخبز عندهم، وهو مادة حلوة الطعم، يجتمع كالندى على ورق الشجر وغيره صباحاً. والسلوى: يقوم مقام سائر اللحوم، وهو طير أكبر من السُّماني.

سخّر الله تعالى هذه النعم لقوم موسى وهنأهم بها، وأذن لهم بالانتفاع بها، فقال الله لهم: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي تمتعوا وانتفعوا بهذه اللذائذ المستطابات، فهي نعم خصصناها بكم، فما عليكم إلا شكر النعمة، ولكن القوم جحدوا النعمة وبطروا بها وتكبروا عنها ولم يشكروها، فظلموا أنفسهم وأضروها فقط، وما ظلموا المنعم عليهم أبداً، لأن الإنسان إذا أقدم على المعصية، فهو ما أضر إلا نفسه، حيث عرّض نفسه للعقاب الشديد، ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم، ومن ضيّع مجده كان لمجد أمته أضيع. ولو صلح القوم على أمر الله، لكان لهم شأن آخر، وكانت ألوان النعم الكثيرة كالسيل الهادر يغدقها الله عليهم.

عناد قوم موسى عليه السلام

استمرت مظاهر العناد وألوان المخالفة والتمرد والعصيان بين قوم موسى، ولم يقتصر ذلك على جحود النعم الإلهية، وظلم أنفسهم، وترك شكران المنعم المتفضل عليهم، وإنما تمادوا في الرفض وإهمال الأوامر الإلهية، سواء ما كان منها متعلقاً بحقوق الله تعالى أو المصلحة العامة، أو تعلق بحقوق العباد الشخصية، لتطهير النفوس وصقلها وجعلها صافية كالمرآة، فكانوا بهذا الجحود والعناد أهلاً لنزول العذاب عليهم بسبب ظلم أنفسهم، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ[١] وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا[٢] مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦١-١٦٢].

إن عالم الدنيا عالم ابتلاء واختبار لأهل الإيمان، يختبر الله تعالى عباده بألوان مختلفة من البلايا، إما في مجال النعمة، فيغدقها عليهم، وإما في مجال النقمة أو المحنة، فيسلطها عليهم، ليعرف المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، والساخط والصابر، وهذا أنموذج من اختبارات بني إسرائيل.

يذكّر الله تعالى بني إسرائيل المعاصرين لنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام بما حصل من أسلافهم، وهم في الواقع ملومون مثل أصولهم لرضاهم بأفعال السلف، وإقرارهم بما صنعوا، ولو أُمروا بمثل تلك الأوامر لخالفوا وعصوا مثل أسلافهم، أمرهم الله تعالى بأن يدخلوا قرية من القرى أي مدينة، والعرب تسمي المدينة قرية،

(١) أي حُطَّ عنا ذنوبنا . (٢) عذاباً .

داعين الله أن يغفر ذنوبهم، ومظهرين الخضوع والخشوع لله تعالى قائلين: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي أمرنا حطة، والمعنى: حط عنا أوزارنا وخطايانا، ووعدهم الله على الطاعة بشيئين: الغفران وزيادة الإحسان. قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٠/٢٦] أي الجنة والنظر لوجه الله تعالى الكريم.

أمرهم الله أن يسكنوا القرية، والسكنى أخص من الدخول، فمن يسكن يدخل قطعاً، ولا عكس. والدخول لأجل الأكل يعقبه الأكل، والمراد الإذن بالانتفاع بخيرات المدينة أو القرية، حيث شاؤوا، حضراً أو سفراً، ليلاً ونهاراً. ولكن طبيعة الإسرائيليين الغريبة التي يغلب عليها العصيان والتمرد، أبت عليهم إلا تحدي الأمر الإلهي والتنكر له، والتجرؤ على المخالفة بالقول والفعل، فقالوا وهم داخلون إلى القرية: «حَبّة في شعرة» أو «حنطة في شعيرة» بدل ﴿حِطَّةٌ﴾ وزحفوا على أستاهم (أدبارهم) بدل تنكيس رؤوسهم وخشوعهم وتواضعهم لله، شكراً على نِعَمه عند دخول القرية، والتنعم بخيراتها من طعام وفاكهة وشراب.

وبدّل القوم الظالمون أنفسهم القول غير القول الذي قيل لهم. ومعنى (بدل) غير اللفظ دون أن يذهب بجميعه، وأبدل: إذا ذهب وجاء بلفظ آخر.

والمراد قول بني إسرائيل: «حبة في شعرة أو حنطة في شعيرة» فكانت النتيجة أن الله تعالى صب عليهم عذاباً من السماء صباً، بسبب ظلمهم أنفسهم وغيره، وبسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى، إلى طاعة أهوائهم وشياطينهم، ولسخريتهم من أوامر الله تعالى.

لقد أُمر قوم موسى بدخول قرية في الأرض المقدسة، وقتال أهلها من العمالقة وإخراجهم منها، فتمردوا على الأمر الإلهي، وردوا على موسى عليه السلام فابتلوا بالتشرد والضياع أربعين سنة في صحراء التيه.

إنهم فسقوا عن أمر الله ونقضوا ميثاقه، فعاقبهم الله على سوء أعمالهم، وسلط عليهم من الظالمين من يسومهم سوء العذاب، هؤلاء هم الأسلاف، وخلَف من بعدهم أخلاف يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكّروا به، ويتساهلون في أمر الدين، و يخرجون عن الصراط المستقيم، وكل هذه الأمثلة والقصص للعظة والعبرة، ليتأمل بها كل جيل وكل جماعة وكل فرد، فمن امتثل أمر الله نجا وفاز، وسعد واطمأن. ومن تنكر لأمر الله خسر وهلك، وعاش قلقاً حيران، مضطرب النفس، يعيش في صراع مع الأحداث، ولا يهنأ له قلب، ولا يرتاح له فكر أو عقل.

حيلة اصطياد الأسماك يوم السبت

يخطئ كثير من الناس أنهم يظنون بذكائهم التحايل على أحكام الدين أو أن الله تعالى لا يعلم بمكرهم وحيلهم ودخائل نفوسهم، وهذا لون من الغباء أو الحماقة، لأن أحكام الشرع قويمة واضحة لا التواء فيها. والله تعالى يعلم السر وأخفى، وهو سبحانه أدرى بكل صغيرة وكبيرة، فينبغي إدراك هذا إدراكاً واضحاً صريحاً، والعمل على التزام جانب الصراحة، قال الله تعالى:

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ[1] إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ[2] إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا[3] وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ[4] لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم[5] بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ[6] وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا

(١) قريبة من البحر. (٢) يعتدون بالصيد المحرَّم فيه. (٣) ظاهرة طافية على الماء. (٤) في غير يوم السبت.
(٥) نختبرهم بالشدة. (٦) نذكرهم بالموعظة اعتذاراً إلى الله.

﴿الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ(١) بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا(٢) عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ(٣) ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٣-١٦٦].

هذه حيلة أخرى لقوم موسى، فبعد أن ذكروا عبارة تهكمية عند دخولهم القرية، احتالوا على صيد السمك الذي كان يأتي يوم السبت الذي حرِّم عليهم العمل فيه وأمروا بتعظيمه، حتى لا يرى الماء من كثرته، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم الأسماك في قرية مدين أو أيلة، فلم يصبروا على ذلك، واتخذوا أحواضاً على الشاطئ يوم الجمعة تقف فيها الأسماك الآتية بالمد البحري، ولا تستطيع العودة إلى الماء في عملية الجزر، فصار أهل القرية أثلاثاً: ثلث نهوا عن هذه الحيلة، وثلث قالوا: لم تعظون قوماً الله مهلكهم، وثلث هم أصحاب الخطيئة.

والمراد بالآية توبيخ وتقريع أهل هذه القرية على أعمالهم، وحملهم على الإقرار بخطئهم، وبيان أن العناد والعصيان شيء موروث في أتباع موسى، الحاضر يقر عمل الماضي ويرضى به.

والمعنى: واسأل يا محمد جماعة اليهود في عصرك عن قصة أصحاب تلك القرية البحرية على شاطئ البحر الأحمر، كانت حاضرة البحر أي المتحضرة بين مدن البحر أو القريبة من البحر وكان البحر فيها حاضراً، حين اعتدوا وتجاوزوا حدود الله يوم السبت الذي أمروا بتعظيمه وترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة، ولكن الأسماك كانت تأتيهم كثيراً ظاهرة على سطح الماء في هذا اليوم، ويمكن صيدها بسهولة، وفي غير أيام السبت تختفي الأسماك ولا تظهر، فاحتالوا على صيدها بإقامة الأحواض على الشاطئ حيث يأتي المد بالسمك، ثم إذا انحسر الماء بعملية الجَزْر، تبقى الأسماك في الأحواض، فيأخذونها يوم الأحد.

---

(١) شديد . (٢) استكبروا . (٣) أذلاء مبعدين .

مثل ذلك الابتلاء بظهور السمك يوم السبت المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في بقية الأيام التي يحل لهم صيده فيها، نبلو، أي نختبر السابقين والمعاصرين، ليجازى كل واحد على عمله، بسبب فسقهم المستمر وخروجهم عن طاعة الله. وحين ظهرت هذه المعصية، انقسم أهل تلك القرية أثلاثاً ببين مؤيد ومعارض واعظ، ومحايد قائل لهم: لِمَ تعظون قوماً قضى الله بإهلاكهم وإفنائهم وعقابهم في الدنيا والآخرة.

فأجابهم الواعظون: نعظهم لنبرئ أنفسنا من السكوت عن المنكر، ونعتذر إلى ربنا بأننا أدّينا واجبنا في الإنكار عليهم، ونحن لا نيأس من صلاحهم وامتثالهم للحق، ولعلهم بهذا الإنكار عليهم يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويتوبون إلى الله تعالى.

فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة، أنجينا الناهين عن السوء، وهم فريق الواعظين وفريق اللائمين، وعذبنا الظالمين الذين ارتكبوا المعصية بعذاب شديد، بسبب فسقهم وعقوبة عليهم. وذلك العذاب أنهم لما عتوا، أي تمردوا وتكبروا عن ترك ما نهوا عنه، وأبوا سماع نصيحة الواعظين، جعلهم الله قردة صاغرين أذلاء منبوذين مبعدين عن الناس، هذا عذاب الدنيا، ولعذاب الآخر أشد وأبقى، والعتو: الاستعصاء وقلة الطواعية.

والذي رآه أكثر المفسرين أنهم مسخوا قردة على الحقيقة، روي أن الشباب منهم مُسخوا قردة، والرجال الكبار مسخوا خنازير، لمخالفتهم الأوامر وتماديهم في العصيان، لا لمجرد اصطياد الأسماك. وقال مجاهد: أصبحوا كالقردة في سوء الطباع والطيش والشر والإفساد، بسبب جناياتهم.

وعلى أية حال، إن جزاء مخالفة أوامر الله شديد في الدنيا والآخرة، وهو جزاء

حق وعدل، لذا ختمت أواخر الآيات بعبارة: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وعبارة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. والفسق: الخروج عن حدود الله، والتذكير بالتقوى والامتثال دليل على المخالفة والعصيان.

ألوان التهديد والعقاب لقوم موسى

التهديد الإلهي لقوم في الدنيا، أو إنزال العقاب المؤقت عليهم قد يكون سبباً للصلاح وتقويم الاعوجاج، وزجر العباد عن التمادي في الانحراف، وإعادتهم للحياة السوية، وفي هذا خير للإنسان وتربية له وتهذيب، وهذا الاتجاه التربوي فعله الله تعالى مع قوم موسى مراراً وتكراراً، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ(١) رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ(٢) سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم(٣) بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ(٤) مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى(٥) وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا(٦) مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا(٧) الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ(٨) وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٧-١٧١].

هذه الآيات إخبار لرسول الله ﷺ بما أوجبه الله على بني إسرائيل من ألوان

---

(١) أعلم . (٢) يذيقهم . (٣) اختبرناهم . (٤) بدل سوء، والخلْف بسكون اللام يستعمل في الأشهر في الذم، والخلَف بفتح اللام يستعمل في الأشهر في المدح . (٥) ما يعرض لهم من الدنيا . (٦) قرؤوا . (٧) رفعناه . (٨) غمامة .

العذاب المعنوي والمادي قبل مجيء الإسلام. والمعنى: اذكر يا محمد ما قضى الله على الإسرائيليين بسبب مخالفاتهم من تسليط قوم عليهم يذيقونهم سوء العذاب الشديد وهو الإذلال وفرض الإتاوة إلى يوم القيامة، إن ربك لسريع العقاب لمن عصاه وخالف شرعه، وإنه لغفور لمن تاب إليه وأناب، ورحيم بأهل الطاعة والإنابة. وهذا تنبيه على سرعة عقاب الله، والتخويف بذلك تخويفاً عاماً لجميع الناس. هذا هو العقاب الأول، وقد تحقق في الماضي وعلى مراحل التاريخ، ويكفيهم الآن خضوعهم لأمريكا في الواقع، وإن أظهروا أحياناً الاعتماد على الذات.

والعقاب الثاني: هو تفريقهم وتمزيقهم جماعات وطوائف وفرقاً في أنحاء الأرض، وتبعتهم لدول مختلفة، ومنهم الصالحون المحسنون الذين يؤمنون برسالات الأنبياء بعد موسى عليه السلام، ومنهم من هو دون غيره في الصلاح، ومنهم الفسقة الفجرة الكفرة الذين قتلوا الأنبياء بغير حق، ومنهم السماعون للكذب وأكلة الربا وأموال الناس بالباطل، والله يختبرهم جميعاً بالحسنات أي بالنعم كالصحة والرخاء، أو بالسيئات، أي بالنقم كالمرض والفقر وغيرهما من المحن والمصائب. لعلهم يرجعون إلى الطاعة أو الاستقامة، ويتوبون من المعصية ومخالفة أوامر الله.

ثم ظهرت بعد الصالحين والطالحين أجيال وأخلاف ورثوا التوراة عن أسلافهم، وتلقفوا ما فيها من الأحكام والشرائع، لكنهم تاجروا بها، فأخذوا الرشاوى والمكاسب الخبيثة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي يأخذون عروض عيش الدنيا الدنية، ولكنهم قوم مغترون بأنفسهم، يقولون أو يزعمون أن الله سيغفر لهم ذنوبهم، ولا يؤاخذهم على أفعالهم السيئة، قائلين: إننا أبناء الله وأحباؤه وسلائل الأنبياء، وهم مقيمون على المعاصي، غير متورعين عن الحرام، وإن يأتهم عرض آخر من عروض الدنيا مثل الذي أخذوه أولاً بالباطل، يأخذوه

بلهف دون تعفف، وهم يعلمون أن وعد الله بالمغفرة مختص بالتائبين المقلعين عن الذنوب والمعاصي.

رد الله تعالى مزاعمهم هذه وأنكر عليهم صنيعهم، فإنه قد أخذ عليهم العهد والميثاق ألا يقولوا على الله إلا الحق وهو أن مغفرة الذنوب في التوراة مشروطة بالتوبة النصوح، ومن بنود الميثاق: تبيان الحق للناس وعدم كتمانه، والبعد عن تحريف الكلم وتغيير الشرائع لأجل الرشوة. وهم قد درسوا كتاب التوراة، وفهموا ما فيه، من تحريم أكل مال الآخرين بالباطل والكذب على الله.

ثم رغّبهم الله في جزيل ثوابه، وحذرهم من وبيل عقابه، وأمرهم بالاستعداد للآخرة، فإن الدار الآخرة وما فيها من نعيم خالد خير للذين يتقون المعاصي والمحارم، ويتركون الأهواء، ويُقْبلون على الطاعات، أفلا تعقلون هذه الترغيبات، وتدركون فحوى الإنذارات. وفي الجملة: إن الدار الآخرة خير من عرض الدنيا الفاني. ثم أثنى الله تعالى على من تمسك بكتابه الذي يوجهه للإيمان بجميع الأنبياء ومنهم خاتم الأنبياء والرسل محمد صلوات الله وسلامه عليهم، فالذين يتمسكون بأوامر الكتاب الإلهي ويعتصمون به، وأقاموا الصلاة-وخصها بالذكر لأهميتها-إنا لا نضيع أجر المصلحين أعمالهم.

ثم ذكّر الله تعالى بحادثة رفع جبل الطور فوق بني إسرائيل، حتى صار كأنه سقيفة قائمة في الهواء، لما أبوا قبول التوراة، وأيقنوا أنه ساقط عليهم، وفي ذلك الجو الرهيب قال الله لهم: خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بجد واجتهاد، وحزم وعزم على احتمال المشاق والتكاليف، وتذكروا ما في التوراة من الأوامر والنواهي، ولا تنسوها، لعلكم تتقون ربكم، ورجاء أن تتحقق التقوى في قلوبكم، فتصبح أعمالكم متفقة مع دين الله وشرعه.

هذه التهديدات والإنذارات ينتفع بها كل قوم أرادوا الخير لأنفسهم ولأمتهم.

عهد الله على بني آدم

اقتضى العدل الإلهي والعناية الربانية ببني البشر أن يخلقهم جميعاً من غير استثناء على الفطرة السليمة المقرة بأن الله هو ربهم وأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، رباً واحداً، وإلهاً خالقاً، فإذا شذ الإنسان بعدئذ، فكفر بالله أو أشرك به إلهاً آخراً، فهو ظلم واضح، وانحراف بيّن، وقد عبر الله تعالى عن هذه الفطرة التي خلق عليها الناس قاطبة بإبرام عهد قاطع بين الله الخالق والبشر المخلوقين، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٢-١٧٤].

والمعنى: اذكر أيها الرسول محمد للناس جميعاً ما أخذه الله تعالى على البشر كافة من ميثاق في بدء الخلق، يتضمن الاعتراف على أنفسهم أن الله ربهم ومالكهم وأنه لا إله إلا الله، وذلك حين خلق آدم وأخذ من ظهور ذريته ذريتهم في عالم الذرة، وأحياهم، وجعل لهم عقلاً وإدراكاً كنملة سليمان عليه السلام، وأخذ عليهم العهد أو الميثاق بأنه ربهم وأنه لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم أنه سيبعث الرسل إليهم مذكرة وداعية، وشهد بعضهم على بعض، قائلاً لهم قول إرادة وتكوين، لا قول وحي وتبليغ: ألست بربكم؟ فقالوا بلسان الحال، لا بلسان المقال: بلى أنت ربنا المستحق وحدك للعبادة، لا إله غيرك. وإشهاد الناس بعضهم على بعض في ذلك العالم عالم الذر سببه: ألا يعتذروا يوم القيامة إذا أشركوا قائلين: إنا كنا عن التوحيد غافلين، أي لم ينبهنا إليه أحد، فلا عذر لكم بعد إقامة الأدلة على وحدانية الله، ووجود العقل، وتكوين الفطرة.

وخَلْق الناس على فطرة الإقرار بوجود الله وتوحيده مقرر في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٠]. وأيدت السُّنة مدلول هذه الآية، جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء -أي التي لم يذهب من بدنها شيء- هل تحسون فيها من جدعاء» أي مقطوعة الأنف أو الأذن أو اليد أو الشفة ونحو ذلك، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم».

وكان خلق بني آدم على فطرة التوحيد لهدفين: الأول -إبطال ادعائهم الشرك وتمسكهم به، والهدف الثاني -إبطال تمسكهم بتقليد الآباء والأجداد في الشرك، قائلين: إن آباءنا أشركوا من قبلنا، ونحن خلْف لهم، نجهل بطلان الشرك، وقد قلدناهم في أعمالهم واعتقادهم مع حسن الظن بهم، ولم نهتد إلى التوحيد. أفتهلكنا بالعذاب، وتؤاخذنا بما فعله المبطلون من آبائنا؟! ولكن الله لا يقبل عذرهم أبداً؛ لأن التقليد في الاعتقاد وأصول الدين لا يجوز أبداً بحال من الأحوال، بل لا بد لكل إنسان أن يعتمد في إثبات عقيدته على قناعته الذاتية والبراهين الدالة على صحة عقيدة التوحيد.

ومثل ذلك التفصيل البليغ الواضح للميثاق، نفصل للناس الآيات البينات، ليتدبروها بعقل وبصيرة، ولعلهم يرجعون بها عن شركهم وجهلهم وتقليدهم الآباء والأجداد.

وبعبارة أخرى: معنى الآيات أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد، ولا جاءهم رسول مذكر بما تضمنه العهد من توحيد الله وعبادته، لكانت لهم حجتان:

إحداهما: كنا غافلين عن الأدلة والبراهين الصحيحة المثبته لتوحيد الإله. والأخرى: كنا تبعاً لأسلافنا، فكيف نهلك؟ والذنب إنما هو ذنب من بدأ طريق الانحراف وأضلنا، فوقعت شهادة بعضهم على بعض أو شهادة الملائكة عليهم بالإقرار السابق بتوحيد الله، لتنقطع لهم هذه الحجج، ويزول اعتذارهم بمثل هذه الأعذار الواهية.

مثل المكذب الضال - بلعام بن عابر

تتكرر أمثال القرآن الكريم للعبرة والعظة، والتأمل والزجر، وتذكر الأمثال إما بحال الأمم والجماعات، وإما بحال بعض الأفراد، وفي قمة هؤلاء رجل من بني إسرائيل اسمه بلعام بن باعوراء أو عابر دعا على موسى مقابل هدية من اليهود، فصار مثلاً شهيراً في التاريخ بسبب ضلاله وتكذيبه، حكى القرآن الكريم قصته في قوله تعالى:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ[١] مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ[٢] ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ[٣] وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ[٤] عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ[٥] أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٥-١٧٧].

أراد الله في قرآنه تربية الأجيال والأشخاص تربية إيمانية صلبة، لا تتأثر بإغراءات الحياة والمادة والمال، وإنما تظل وفية للمبدأ، مخلصة للعقيدة، دون أن

---

(١) خرج منها بكفره . (٢) الضالين الهالكين . (٣) ركن إلى الدنيا . (٤) تشدُد عليه . (٥) يخرج لسانه بالنفس .

تضعف أو تتردد أو تنحرف أمام شهوات الدنيا ومفاتنها، ومن هؤلاء بلعام بن باعوراء أو عابر، كان من علماء بني إسرائيل أو أنه كان من جملة الجبارين الذين غزاهم موسى عليه السلام، فلما قرب منهم موسى لجؤوا إلى بلعام وكان صالحاً مستجاب الدعوة، فدعا على موسى مقابل هدية مالية، فاستجيب له، ووقع موسى وقومه في صحراء التيه بدعائه.

والمعنى: واتل أو اقرأ يا محمد على الحاضرين في عصرك من الكفار وغيرهم خبر ذلك الرجل الذي علمناه آياتنا، ولكنه تركها ولم يعمل بها، وتجرد منها إلى الأبد، فلحقه الشيطان وأدركه، وصار قريناً له، ومصغياً لوسوسته، فأصبح من الضالين المكذبين الغاوين الكافرين، لميله إلى الدنيا واتباعه الهوى والشيطان. وكان مصيره أن موسى عليه السلام قتل ذلك الرجل المنسلخ عن آيات الله.

وبخه الله وأبان أنه تعالى لو شاء لرفع هذا الرجل بالآيات وجعل له منزلة عظيمة من منازل العلماء الأبرار، بأن يوفقه ربه للهداية والعمل بالآيات المنزلة.

ولكنه ركن إلى الدنيا ومال إليها وشغف بلذائذها واتبع هواه، فلم يوجه همّه إلى نعيم الآخرة ولم يهتد بآيات ربه، ولم يشكر نعمة الله عليه، ولم تتجه نفسه إلى ذرا الكمال الروحي، مع أنه قد أوتي علماً، وتدنى إلى مغريات الأرض، وإمهال الله له، وأصبح مثله في الذلة والحقارة والخسة والدناءة كمثل أو صفة الكلب في أخس الأحوال وأذلها، وهي حال دوام اللهث به، سواء طورد وقوتل أو ترك دون طرد، بسبب تجرده من العمل بآيات الله والتزام معرفتها. لقد عوقب في الدنيا بأنه كان يلهث كما يلهث الكلب، أو أنه كان ضالاً قبل أن يؤتى الآيات، وبعد أن أوتيها أيضاً، فلم تنفعه الآيات.

ذلك المثل الواضح في الغرابة هو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، واستكبروا عنها، ولم تنفعهم الموعظة، إنهم كانوا ضالين قبل أن تأتيهم رسالة محمد ﷺ بالهدى والرسالة، وبعد أن جاءتهم، فبقوا على ضلالتهم ولم ينتفعوا بذلك، فمثلهم كمثل الكلب مذموم في حال إقباله وإدباره، فاشرد عليهم أيها النبي ما يعلمون أنه من المغيبات التي لا يعلمها إلا أهل الكتب الماضية، لعلهم يتفكرون فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله أعلمهم بصفة محمد ﷺ وبرسالته، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته، لعلهم يتفكرون في مصير الكاذب الغاوي الضال، فيؤمنون إيماناً صحيحاً بالله وبكتبه ورسله.

لقد ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، وقبح فعلهم أشد القبح لإعراضهم عن النظر في آيات الله، إنهم بهذا الإعراض كانوا ظالمين أنفسهم بالتكذيب، فما ظلمهم الله، ولكن كانوا هم الظالمين أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى وطاعة المولى عز وجل.

حقاً، إن موقف المعرضين عن آيات الله بترك الإيمان والعمل الصالح موقف يستدعي العجب والتأمل، فإنهم تركوا ما يدعو إليه العقل الرشيد، وتقتضيه مصلحة الإنسان، وإذا كان وضع الرافض أو المعارض لا يستند إلى منطق ولا إلى وعي، كان خاسراً منهزماً في الحياة، ومضيعاً على نفسه فرصة النجاة والسعادة. قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

[الكهف: ١٨/ ٥٧].

أسباب الاهتداء والإضلال

يخلق الله تعالى الإنسان على إحدى صفتين: إما مهتد موفق للخير، وإما ضال غارق في الشر، والله يعلم قبل هذا الخلق حال كل إنسان وما يؤول إليه أمره وتجني يداه، فإن استعمل وسائل الهداية من العقل والعين والسمع في الطريق الصحيح، كان مهتدياً، وإن استعمل تلك الوسائل المعرفية في متاهات الانحراف والضلال، كان جاحداً ضالاً، قال الله تعالى متوعداً أهل الضلال، ومرغباً أهل الاستقامة:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا(١) لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ(٢) فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٨-١٨٠].

هذا خبر من الله تعالى أنه خلق لسكنى جهنم والاحتراق فيها كثيراً من الإنس والجن، وهو خبر متضمن وعيد الكفار، والمعنى: من يوفقه الله للإيمان والخير واتباع القرآن والشريعة باستعمال عقله ورشده، فهو المهتدي حقاً لا سواه، ومن يخذله ويضله ولا يوفقه ربه ولا يهديه إلى الخير واتباع القرآن الكريم، بسبب تعطيل عقله وحواسه في فهم الآيات الكونية والشرعية، فهو الخاسر البعيد عن الهدى، الذي خسر الدنيا والآخرة، ثم أقسم الله تعالى أنه خلق وأوجد خلقاً كثيراً من الجن والإنس مستعدين لعمل يستحق دخول جهنم، وخلق أيضاً خلقاً آخرين مستعدين لعمل يدخلهم الجنة، كما قال الله سبحانه: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٧]. وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١١/ ١٠٥].

(١) خلقنا أو أوجدنا . (٢) يميلون إلى الباطل .

وأسباب استحقاق أهل الضلالة دخول جهنم: هي أنهم عطلوا وسائل المعرفة الصحيحة التي توصلهم إلى الخير والإيمان، والخير فيما أمر الله به، والشر فيما نهى الله عنه، فهم معرضون عن آيات الله؛ لأن لهم قلوباً لا تفقه ولا تفهم، وأعيناً لا تبصر الحقائق، وآذاناً لا تسمع سماع تدبر وإصغاء لآيات الله المنزلة على أنبيائه. وليس الغرض من ذلك نفي هذه الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض نفيها وعدم استعمالها في الطريق الصحيح، فكأن هؤلاء القوم، لما لم ينفعهم النظر بالقلب ولا بالعين ولا ما سمعوه من الآيات والمواعظ، استوجبوا الوصف بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون. إنهم لا يفقهون في قلوبهم شيئاً من أمر الآخرة، ولا يبصرون بأعينهم الهدى، ولا يسمعون بآذانهم الحق.

هؤلاء المتصفون بهذه الأوصاف، الذين عطلوا عقولهم وحواسهم هم كالأنعام السائمة، لا هَمَّ لهم إلا التمتع بلذائذ الحياة الدنيوية، بل هم أضل سبيلاً منها؛ لأن الأنعام تحرص على ما ينفعها، وتنفر مما يضرها، ولا تسرف في أكلها وشربها، وهؤلاء قوم متهورون يقدمون على النار معاندة، يسرفون في جميع اللذات، ولا يهتدون إلى ثواب، فتكون غفلتهم بمعنى ترك التدبر والاتعاظ، والإعراض عن الجنة والنار.

أما أهل الفطنة والعقل المتدبر المتأمل في المستقبل، فهم الذين عملوا للآخرة، ولم يهملوا ما تتطلبه الدنيا، ولقد أرشدهم الله إلى الإيمان والمزيد من الاستقامة، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ أي لله تعالى أسماء تسعة وتسعون تطلق عليه، للدلالة على أوصافه، وهي أسماء منصوص عليها، ولا يسمى الله تعالى إلا باسم قد أطلقته الشريعة، ودلت عليه. والله يأمرنا بالدعاء بهذه الأسماء كالحي القيوم، الرحمن الرحيم، الحليم العظيم الغفور، السميع البصير، وغير ذلك، وهي

عبارة عن كون الله تعالى على أوصاف شتى، منها صفات لذاته، ومنها صفات لأفعاله، قال النبي ﷺ فيما رواه الحاكم أبو الشيخ وغيرهما عن أبي هريرة: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها كلها دخل الجنة..».

والسبب في نزول هذه الآية: أن أبا جهل سمع بعض أصحاب النبي ﷺ يقرأ فيذكر الله في قراءته، ومرة يقرأ فيذكر الرحمن، ونحو هذا، فقال: محمد يزعم أن الإله واحد، وهو إنما يعبد آلهة كثيرة، فنزلت هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي اتركوا الذين يميلون بها عن الطريق الحق بصرف الألفاظ عن معانيها الصحيحة إلى معان أخرى من تأويل أو شرك أو تكذيب أو زيادة ونقصان، سيجازون بما افتروا، ويعاقبون بما يعملون من سوء الاعتقاد والعمل، وهذا وعيد محض بعذاب الآخرة.

أهل الهداية والضلال

إن أمة الدعوة المحمدية فريقان: فريق المهتدين الذين يقضون بالحق والعدل، وفريق المكذبين الضالين. والانقسام على هذا النحو ليس جديداً، بل هو قائم في الأمم السابقة كقوم موسى وعيسى عليهما السلام. وهذا الانقسام أمر طبيعي في البشر، والكلام عنه للترغيب والتحذير، قال الله تعالى:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١) ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم (٢) مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي (٣) لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا

(١) يحكمون بالحق في الخصومات. (٢) سندنيهم للهلاك بالإنعام والإمهال. (٣) أمهلهم في العقوبة.

بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ(١) إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ(٢) يَعْمَهُونَ(٣) ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨١-١٨٦].

إن الله تعالى بعث نبيه محمداً للناس كافة، فدعاهم إلى الإيمان بالله رباً واحداً لا شريك له، وحذرهم من الشرك والوثنية، وانقسم هؤلاء الناس أمةُ الدعوة المحمدية فريقين. أما الفريق الأول فهم قوم قائمون بالحق قولاً وعملاً، يرشدون الناس ويدعونهم إليه، ويعملون بالحق ويقضون بالعدل، دون ميل ولا جور. قال أبو جعفر النحاس: فلا تخلو الدنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق.

إن الاعتدال في الأمور من غير زيادة ولا نقصان، والقضاء بالحق والعدل من غير محاباة ولا جور هو شأن أهل الملة المستقيمة والتوسط والنجاة، قال علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه: لتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة، يقول الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ فهذه هي التي تنجو من هذه الأمة.

هذا هو الفريق الأول من أمة الدعوة المحمدية، والفريق الثاني: هم الذين كذبوا بالقرآن وهم أهل مكة وأمثالهم، وهم الذين يتركهم الله في ضلالهم، ويستدرجهم إلى العذاب من حيث لا يعلمون ما يراد بهم، ويقربهم إلى الهلاك بإمدادهم بالنعم عليهم والإمهال لهم، حتى يغتروا ويظنوا أنهم لا ينالهم عقاب. وينذرهم الله تعالى بأنه سيملي ويطول لهم ما هم فيه، ولكن كيد الله متين، أي تدبيره الخفي قوي شديد، محكم مسدّد النتائج، وهذا كله من الاستدراج والإمهال عقوبةٌ من الله على التكذيب بالآيات.

---

(١) جنون . (٢) تجاوزهم الحد في الكفر . (٣) يتحيرون ويترددون .

يتبين من هذا أن الإمداد بالنعم والخيرات والأرزاق المادية والمعنوية ليس دليلاً على صلاح الإنسان، وإنما قد يكون استدراجاً، أي سوقاً شيئاً بعد شيء، ودرجة بعد درجة بالنعم والإمهال، كما يستدرج العدو إلى مكان محكم للقضاء عليه. فإذا ترك الظالم فترة من الزمان دون عقاب فوري، فعليه ألا ينخدع بذلك ولا يغتر بظلمه وانحرافه، وهذا تهديد للمعرضين عن آيات الله.

ثم وبخ الله تعالى هؤلاء الكفرة الظلمة بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم . .﴾ أي أولم يتفكر ويتأمل بإنصاف هؤلاء المكذبون بآيات الله أنه ليس بصاحبهم محمد ﷺ من جنون، إذ كانوا يقولون: شاعر مجنون، مع أنهم يعرفون حاله من بدء نشأته، ويعلمون حقيقة دعوته ودلائل رسالته، فهو ليس بمجنون وإنما رسول الله حقاً، والداعية إلى الحق، والمنذر الناصح الواضح، والمبلّغ الأمين.

وسبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ صعد ليلاً على الصفا، فجعل يدعو قبائل قريش: يا بني فلان، يا بني فلان، يحذرهم ويدعوهم إلى الله، فقال بعض الكفار حين أصبحوا: هذا مجنون، بات يصوت حتى الصباح.. فنفى الله ما قالوه من ذلك.

وإذا لم يتفكر هؤلاء القوم من قريش في شأن محمد النبي وشأن دعوته، أفلا يتأملون وينظرون في الملك العظيم من السماوات والأرض، وفي مخلوقات الله ومختلف الأشياء، فذلك مدعاة للإيمان، فلو نظروا فيما خلق الله من كبير وصغير، لأداهم النظر الصحيح إلى وجود الله ووحدانيته، ثم ألم ينظروا في احتمال مجيء الموت، فربما يموتون عما قريب. ويكفيهم مفاجأة الموت لحملهم على النظر وتأمل الحقيقة وطلب الحق، والإيمان برسول الله، والإنابة إلى طاعته. وإذا ماتوا ندموا ولا أمل بعدئذ في النجاة ولا يقبل منهم إيمان يوم القيامة، إذا لم يؤمنوا بالقرآن العظيم في

الدنيا، فبأي كلام أو حديث بعد القرآن يؤمنون به؟ وبأي تخويف وتحذير بعد تحذير رسول الله وترهيبه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا القرآن الذي جاءهم به محمد بن عبد الله من ربه؟

ثم ذكر الله تعالى قاعدة الضلال والإضلال: وهي أن من فقد الاستعداد للإيمان بالنبي محمد ﷺ والعمل بالقرآن، فإن الله يتركه متردداً متحيراً في ضلاله، حائراً في سبيله، لتجاوزه الحد في ظلمه وطغيانه، ولن يجد لنفسه هادياً أو مرشداً آخر غير الله عز وجل.

علم القيامة والمنذر بها

يتكرر السؤال قديماً وحديثاً عن وقت القيامة ومعرفة أخبارها وأهوالها، ولا يكون سؤال بعض الناس عادة إلا عناداً وتحدياً أو تهكماً وسخرية، كشأن الكفرة والمشركين، كانت اليهود تقول للنبي ﷺ : «إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم؟» وأخرج ابن جرير الطبري عن قتادة: أن المشركين قالوا ذلك، لفرط الإنكار.

وجاء القرآن المجيد يسجل هذه الأحداث في قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا(١) قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا(٢) لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ(٣) فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا(٤) قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٧-١٨٨].

نزلت هذه الآية على الراجح كما تقدم في مشركي قريش؛ لأن الآية مكية،

---

(١) متى وقوعها . (٢) لا يظهرها . (٣) عظمت لشدتها . (٤) باحث عنها عالم بها .

ومعناها: يسألونك أيها النبي عن وقت الساعة (القيامة) متى يكون، ومتى يحصل ويستقر؟ ومضمون السؤال اليأس من السائلين ومقتهم والسخط عليهم. قل لهم أيها الرسول: إن علم الساعة مقصور على الله وحده، فلا يطّلع عليه أحد من الخلق، فإنه هو الذي يعلم جلية أمرها ويظهرها ويكشفها، ومتى يكون على التحديد، ولا يظهرها في وقتها المحدود إلا الله، ولا يعلم بها أحد حتى ولو كان ملكاً مقرّباً أو نبياً مرسلاً، كما قال الله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ [فصلت: ٤١/٤٧] فكل من الساعة العامة (القيامة) والساعة الخاصة (أجل الإنسان) من الغيبيات التي اختص الله بعلمها، لتكون فترة الاختبار صحيحة وعامة، غير متأثرة بدافع العلم بها أو بقصد النفعية، ولا مختصة بزمن معين يطلع عليه البشر وكل مخلوق، ولتبقى رهبتها مهيمنة على النفوس.

لقد خفي علمها على أهل السماوات والأرض، ولم يعلم بها أحد من الملائكة والأنبياء، ثقل أن تُعلم ويوقف على حقيقة وقتها وكل ما خفي علمه فهو ثقيل على النفس. وهي لا تأتي إلا فجأة، وعلى غفلة، والناس مشغولون في شأن الدنيا ومصالحها.

يسألك أيها النبي هؤلاء المشركون كفار قريش عن وقت حدوث القيامة، كأنك معني بشأنها، مبالغ في السؤال عنها، وعالم بها، قل لهم: لست أعلمها، إنما علمها عند الله الذي يعلم الغيب في السماوات والأرض، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن أمر القيامة لا يعلمه إلا الله، بل يظن أكثرهم أنه مما يعلمه البشر. والقليلون من الناس وهم المؤمنون بالقرآن وبما أخبر به النبي ﷺ هم الذين يعلمون أن الله تعالى هو المختص وحده بمعرفة الوقت المعين لمجيء القيامة.

قال الرازي: السبب في إخفاء الساعة عن العباد: هو أن يكونوا على حذر منها، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية.

ثم أبان القرآن حقيقة وضع النبي ﷺ ومدى معرفته بالغيب فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ والمعنى: قل أيها الرسول للناس: إني لا أملك لنفسي ولا لغيري جلب أي نفع، ولا أستطيع دفع أي ضرر عني ولا عن غيري، إلا بمشيئة الله وقدرته، فيلهمني إياه، ويوفقني له. وهذا يدل على إظهار العبودية، والتبري من ادعاء العلم بالغيوب، ومنصب الرسالة لا يقتضي علم الساعة وغيرها من علم الغيب، فالغيب لله وحده، وإنما وظيفة الرسول تبليغ الوحي المنزل عليه من ربه، والتعليم والإرشاد، فإن الرسول بشر كسائر الناس، قال الله سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ..﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠].

والله أمر نبيه أن يعلن: لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير كالمال ونحوه من المنافع، ولما أصابني السوء وتجنبت الشر، ليس لي مزية عن البشر إلا بتبليغ الوحي عن الله بالإنذار والتبشير، فما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة، إنذار العصاة بالنار، وتبشير المؤمنين بالجنات، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾ [مريم: ١٩/ ٩٧].

الخلق من نفس واحدة

يذكّرنا القرآن الكريم في مناسبات متعددة بقدرة الله وعلمه الغيبي، وليس هناك أروع من التعريف بأن ملايين البشر من قديم وإلى يوم القيامة مخلوقون من نفس واحدة، فما على الإنسان إلا الاستسلام لربه الخالق، والتجرد من المشاركة في قدرة الله وغيبه، وأن يعلن عجزه أمام القدرة الخارقة، فهو حري ألا يعلم غيباً ولا يدعيه، قال الله تعالى مبيناً هذا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا(١) حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ(٢) فَلَمَّآ أَثْقَلَت(٣) دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا(٤) لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا(٥) لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٣].

يذكّر القرآن الكريم أن الإنسان ضعيف، لا يملك من منافع نفسه ومضارها إلا ما شاء الله ويسّر، والله وحده هو صاحب القدرة المطلقة والإرادة النافذة غير المقيدة، والعالم بما غاب وحضر، ودليل القدرة الإلهية: أن الله هو الذي خلقنا جميعاً من نفس واحدة في الأصل، وهي آدم عليه السلام، ثم خلق منه زوجته حواء، ثم تكاثر الناس منهما. وخلق الزوجة من جنس الزوج ليسكن إليها ويأنس بها ويطمئن معها ويألفها ويتعاون معها، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١].

وثمرة الزواج بين الرجل والمرأة بعد غشيان مشترك بينهما، أي استمتاع هو وجود الحمل الخفيف، أي الجنين، وهو أول الحمل الذي لا تجد فيه المرأة في البداية ثقلاً ولا ألماً، إنما مراحل الجنين: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ويرتفع الحيض عادة ببدء الحمل، وتستمر المرأة في متابعة أعمالها المعتادة دون مشقة، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي استمرت بذلك الحمل الخفيف. فلما صارت المرأة ذات ثقل بحملها لكبر الولد في بطنها، وحان وقت الوضع، دعا الزوجان الوالدان مقسمين،

(١) واقعها. (٢) فاستمرت به من غير مشقة. (٣) صارت ذا ثِقَل بكبر الحمل. (٤) بشراً سوياً مِثلنا.
(٥) أي الصنفان من النسل.

لئن آتيتنا ولداً صالحاً تام الْخَلْق، سليم الفطرة، لنكونن لك من الشاكرين نعمتك وفاء وعرفاناً بالجميل.

فلما آتاهما الله ما طلبا، ورزقهما ولداً صالحاً سوياً كامل الخلقة، جعل الزوجان أي بعض بني آدم لله شركاء فيما آتاهما وأعطاهما، بأن سمياه عبد الحارث، والحارث: اسم إبليس، أو سمياه عبد العزى أو عبد مناة أو عبد شمس أو اللات، فتعالى الله عما يشركون، أي تعاظم وتنزه الله عما نسبوا له من الولد والشريك، هذه صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم واعتقادهم بالشرك.

ثم ناقش الله هؤلاء المشركين وفنّد أقوالهم، ونقض الشرك من جذوره، فقال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ أي أيشركون ما لا يستطيع خلق شيء، وإنما الله هو الخالق لهم ولأولادهم ولكل مخلوق، وهذه الأصنام أو الشياطين مخلوقة مصنوعة، لا يستطيعون لعابديهم تحقيق أي معونة أو نصر، بل إنهم لا يتمكنون من نصر أنفسهم على أعدائهم، بإهانة أو سب أو أخذ شيء مما عندهم من طيّب أو حلي، فلا نصر لأنفسهم على من أرادهم بسوء.

هذا كله إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله، مربوبة، مصنوعة لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تنتصر لعابديها، لكونها جمادات، بل إن هذه الأصنام إن دعاها عبّادها إلى ما هو هدى ورشاد، لا يستجيبون لهم ولا ينفعونهم، فهم في كلا الحالين: حال عبادتها وترك عبادتها عديمو النفع، سواء عليكم أيها المشركون دعاؤكم إياهم، أو سكوتكم عن دعائهم في أنه لا فلاح معهم، ولا خير يرتجى منهم، إذ هم لا يفهمون الدعاء، ولا يسمعون الأصوات، ولا يعقلون الكلام.

ومثل من كانت هذه صفته، لا يصلح رباً معبوداً، وإنما الرب المعبود هو السميع

البصير، العليم الخبير، الناصر القادر، النافع من يعبده، الضار من يعصيه، الهادي إلى الرشاد، المنقذ من الردى، المجيب المضطر إذا دعاه، وهو الله العلي القدير.

حقيقة المعبودات من دون الله

إذا انحدر العقل البشري لازمه السخف والسطحية، والبلاهة والسخرية، وليس هناك أشد انحداراً للعقل من عبادة الأصنام والأوثان المخلوقة المحدثة، التي هي جمادات وأجسام وأجرام، لا تنفع ولا تضر، فهي متعبدة، أي متملكة، مملوكة غير مالكة. وهكذا كان شأن الأقوام البدائيين لا يجدون أمامهم سوى هذه الأحجار، فعظموها وعبدوها من دون الله، فكانوا أسوأ مثل لانحدار الفكر وانحطاط الكرامة الإنسانية، قال الله تعالى واصفاً صنيع هؤلاء البدائيين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ(١) ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ(٢) ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٤-١٩٨]

أراد الله سبحانه بهذه الآيات وأمثالها إثبات التوحيد وإبطال الشرك، من طريق كشف حقيقة الأصنام والأوثان ونحوها من المعبودات من دون الله، وإظهار تحقير شأنها ونفي مماثلتها للبشر، بل هم أقل وأحقر، إذ هم جمادات لا تفهم ولا تعقل.

(١) لا تمهلوني ساعة. (٢) لفقد قدرتهم على الإبصار.

والمعنى: إن تلك الأصنام التي تعبدونها أيها المشركون وتسمونها آلهة من دون الله، وتدعونها لدفع الضر أو جلب النفع هم عباد متعبدون، أي متملكون، يشبهون عبّادهم في كونهم مخلوقات مملوكين لله أمثالهم، وهم خاضعون لإرادته وقدرته، بل الناس العابدون أكمل منهم؛ لأنهم يسمعون ويبصرون ويبطشون، وتلك المعبودات لا تفعل شيئاً، فكيف يصح عقلاً تقديسها وعبادتها من مخلوق مثلها، بل أسمى وأكمل منها، وليجربوها، فإن دعوها أو طلبوا منها شيئاً، لا تستطيع الإجابة، إن كانوا صادقين في تأليهها، واستحقاقها العبادة، والتماس النفع أو الضر منها.

إن أبسط التجارب تدر على رفض مطلق لعبادة الأصنام، مما يوجب البحث عن المعبود الصحيح، ولا معبود يستحق العبادة سوى الله الرب الخالق الذي خضعت له جميع الكائنات، ودانت له الموجودات.

ألهذه الأصنام أرجل يمشون بها، أم أيد يبطشون بها، أم أعين يبصرون بها، أم آذان يسمعون بها؟ والغرض من ذلك: ألهم حواس الحي وأوصافه؟! إنهم حجارة صماء أو طين وماء أو عجوة وحلاوة كصنم بني حنيفة. ومزيداً في التحدي والاختبار العملي قل: يا محمد الرسول لهؤلاء الوثنيين: نادوا شركاءكم وآلهتكم من دون الله، واستنصروا بها علي، وتعاونوا معها على كيدي وإضراري دون تأخير ولا إمهال، أنتم وشركاؤكم، فلا أبالي بكم.

ووصفت الأصنام بأنها عباد، وأشير إليها بضمير العقلاء في قوله: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ ولم يقل: التي، مع أنها جمادات غير عاقلة، إنزالاً لها منزلة العقلاء بحسب اعتقاد المشركين.

ثم أعلن النبي ﷺ ثقته الكاملة بالله تعالى وتحقير هذه المعبودات، مع قلة الأعوان والنصراء في مكة، فقال بأمر ربه: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ أي إن الله حسبي وكافيني، وهو

عوني ونصيري، ومتولي أمري في الدنيا والآخرة، عليه اتكالي، وإليه ألجأ، وهو سبحانه الذي نزّل علي تدريجاً القرآن الذي يدعو إلى التوحيد، وينبذ الشرك، وأعزني برسالته، وهو الذي يتولى كل صالح بعدي. وهو كل من صلحت عقيدته، وسلمت من الخرافات والأوهام، وصلحت أعماله.

ثم أكد الله تعالى خيبة الأصنام في تحقيق النصر، فالذين تدعون من دون الله وتعبدونهم وتطلبون منهم نصركم ودفع الضر عنكم، إنهم عاجزون، لا يستطيعون نصركم، ولا نصر أنفسهم ضد من يحتقرهم أو يسلبهم شيئاً، أو يريدهم بسوء.

وكما أن تلك الأصنام عاجزة عن النصر هي عاجزة أيضاً من باب أولى عن الإرشاد والهداية، فإن تدعوا هذه الأصنام إلى أن يهدوكم إلى سواء السبيل وتحقيق النصر، لا يسمعوا دعاءكم، فضلاً عن المساعدة والإمداد، وتراهم أيها المخاطب الناظر إليهم يقابلونك بعيون مصورة صناعية من زجاج أو خزف أو فيروز أو عقيق، وهم جماد لا يبصرون شيئاً، ولا يدركون المرئيات، لأن لهم صورة الأعين لا حقيقتها، فلا يرون شيئاً، وهم فاقدو السمع والبصر.

أصول الأخلاق في الإسلام

لا تصلح حياة اجتماعية ولا تقوم مدنية ولا حضارة بغير أخلاق قويمة، وآداب سليمة، لذا اقترنت رسالات السماء والكتب الإلهية بالدعوة إلى الأخلاق النبيلة والقيم الإنسانية السوية، لأن الإنسان جسد وروح، وغذاء الروح واستدرار العواطف وصلاح البشر بالأخلاق، والخلق يلازم العقيدة، وهو دعوة الدين. وقد أمر القرآن الكريم بمجموعة من القيم والأخلاق، هذه أصولها وأسس المعاملة الحسنة، في قوله تعالى:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ(١) وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ(٢) وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ(٣) مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ(٤) مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ(٥) ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ(٦) ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٩-٢٠٢].

هذه وصية من الله لنبيه ﷺ تعم جميع أمته، وهي أمر بجميع مكارم الأخلاق. وقد جمعت الآية الكريمة أصول الفضائل الثلاث وهي أولاً -الأخذ بالعفو: وهو السهل من أخلاق الناس وأعمالهم، دون تكليفهم بما يشق عليهم ومن غير تجسس. فلا تشدد في شيء من الحقوق المالية والأدبية، ولا غلظة ولا فظاظة. ويكون معنى قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي اقبل من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أتى عفواً دون تكلف. فالعفو هنا: الفضل والصفو الذي تهيأ دون تحرج.

والفضيلة الثانية -الأمر بالعرف وهو المعروف والجميل من الأفعال: وهو كل ما أمر به الشرع، وتعارفه الناس من الخير، واستحسنه العقلاء. المعروف: اسم جامع لكل خير من طاعة وبر وإحسان إلى الناس. روي أن النبي ﷺ قال لجبريل: «ما هذا العرف الذي أُمر به؟ قال: لا أدري حتى أسأل العالم، فرجع إلى ربه فسأله، ثم جاءه فقال له: يا محمد، هو أن تعطي من حرَمَك، وتصل من قطَعك، وتعفو عمن ظلمك».

ولا يذكر المعروف في القرآن إلا في الأحكام المهمة، مثل قوله تعالى في وصف الأمة الإسلامية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٤]، وفي بيان الحقوق الزوجية ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٨] وفي

---

(١) مبدأ العفو والتيسير من أخلاق الناس. (٢) بالمعروف حسنه شرعاً وعقلاً. (٣) يصيبنك صارف أو وسوسة. (٤) أصابتهم لِمَّة أي وسوسة. (٥) تتعاون معهم الشياطين في الضلال. (٦) لا يكفّون عن إغوائهم.

الحفاظ على الرابطة الزوجية: ﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٩].

والفضيلة الثالثة -الإعراض عن الجاهلين: وهو حكم مترتب محكم مستمر في الناس ما بقوا، وهو قول جمهور العلماء كما ذكر ابن عطية في تفسيره. ويكون الإعراض عن الجهلة بعدم مقابلة السفهاء والجهال بمثل فعلهم، وترك معاشرتهم وصيانة النفس عنهم، وعدم مماراتهم والحلم معهم، والصبر على سوء أخلاقهم والغض عن إساءاتهم. فإذا تكلم الجاهل الأحمق بما يسوء الإنسان، فليُعْرض عنه، ويقابله بالعفو والصفح، عملاً بقوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٤] وقوله تعالى في فضيلة العفو: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧].

هذه المبادئ الثلاثة هي أصول الفضائل ومكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان مع الآخرين، قال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه: أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

ثم ذكر الله تعالى وصية أخرى لنبيه تعم جميع أمته أيضاً رجلاً رجلاً، تناسب فضيلة الإعراض عن الجاهلين السفهاء، وهي الأمر بالاستعاذة من الشياطين، تجنباً للوقوع في مفاسدهم وشرورهم. ومعنى ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾[فصلت: ٤١/ ٣٦] أي إما يعرض لك الشيطان بوسوسته، والنزغ: حركة فيها فساد، كالغضب والشهوة، فعليك بالتحصن من الشيطان باللجوء إلى الله وطلب النجاة منه، والاستجارة بالله من نزغه، وذكر الله في القلب واللسان، فيصرف عنك وساوس الشيطان، والله سميع للقول من جهل الجاهلين، والاستعاذة بالله من نزغ الشيطان وغير ذلك من كلام الخلق، وهو عليم بالفعل وبما يُذهب عنك نزغ الشيطان وأمور الخلق.

وطريق التخلص من وساوس الشيطان هو ما ذكر الله: إن الذين اتقوا الله

فأطاعوه فيما أمر، وتركوا ماعنه زجر، إذا ألمت بهم لمة من الشيطان، تذكروا ما أمر الله به ونهى عنه، وذكروا عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فأبصروا السداد، وعرفوا الحق والخير، فإذا هم مبصرون عارفون طريق الحق والخير.

ثم أخبر الله تعالى عن مدى تأثير الشيطان على الجاهلين المفسدين: وهو أن إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين يمدهم الشياطين في الضلال، ويتمكنون من إغوائهم، ولا يقصرون أبداً في حملهم على المعصية ولا يكفّون عن إفسادهم. حمانا الله من الشرور وحفظنا من إغواء الشيطان.

خصائص القرآن والأذكار

القرآن الكريم كلام الله المنزل على قلب نبيه محمد ﷺ، لبيان الأحكام والشرائع والآداب، فهو وحي إلهي لا يجوز ولا يقبل بحال من الأحوال التعديل فيه، أو اختيار شيء منه دون باقيه، وإنما يجب التزامه والإصغاء لتلاوته والتدبر في معانيه، وتعظيمه، كتعظيم الله تعالى في ذِكْره وتسبيحه وتحميده كما يفعل الملائكة الكرام أمام الحق تعالى في العبادة والتقديس، قال الله تعالى مبيناً هذه الخصائص:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا[١] قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا[٢] وَخِيفَةً[٣] وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[٤] وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ[٥] ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٣-٢٠٦].

---

(١) اخترعتها من عندك. (٢) مظهراً الضراعة والذلة. (٣) خوفاً من عقابه. (٤) أول النهار وآخره، أي كل وقت. (٥) يصلون ويعبدون.

هذه جملة من أحكام القرآن وخصائصه، يتميز بها؛ لأنه كلام الله عز وجل، وأول هذه الخصائص: أنه لا يجوز تعديله ولا اختلاقه واختراعه، وقد حاول المشركون وقت نزول الوحي محاولات خائبة في هذا المجال، نصت عليها الآية، وسببها: أن الوحي كان يتأخر على النبي ﷺ أحياناً، فكان الكفار يقولون: (هلا اجتبيتها).

ومضمونها: إذا لم تأت أيها الرسول أهل مكة بآية مما اقترحوا حدوثه، قالوا: هلا اختلقتها وتقوّلتها من تلقاء نفسك، لزعمهم أن القرآن من عند محمد، أو أنه متمكن من الإتيان بالآيات الكونية والمعجزات المخصوصة. فقل لهم أيها النبي قولاً حاسماً فاصلاً: إنما أنا متبع وحي ربي فقط، ولا قدرة لي على افتعال أو اختلاق الآيات وإيجادها، أو اقتراحها، مثلما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٠/ ١٥].

ثم أرشد القرآن الكريم أولئك الكفرة إلى خواص ثلاث أخرى، وهي أن القرآن العظيم أعظم المعجزات، فيه مبصرات للقلوب، وحجج بينات، وبراهين نيرات، على أنه من عند الله، وهو هاد للحيارى إلى طريق الاستقامة، ورحمة في الدنيا والآخرة لمن يؤمن به، فمن آمن به وعمل بأحكامه، فهو من المفلحين دون سواهم.

وطريق الاستفادة من القرآن: أنه إذا تلي على الأسماع وجب الإصغاء إليه والإنصات عند سماعه، لتفهم آياته، وليتعظ المؤمنون بمواعظه، ويتوصل إلى رحمة الله بسبب تفهمه وتدبر معانيه والعمل بما جاء فيه، سواء أكانت التلاوة في الصلاة أم في خارجها إلا بمقدار قراءة الفاتحة للمقتدي عند جماعة من العلماء.

وثواب الاستماع للقرآن كثواب التلاوة، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي

الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة».

وتعظيم القرآن واجب كتعظيم الله في ذكره وتسبيحه، وتهليله، وتحميده، وتكبيره، وطريق الذِّكر كما نصت الآية: اذكر ربك في نفسك سراً، بذكر أسمائه وصفاته، وشكره واستغفاره، اذكره بقلبك بتضرع أي بذلة وخضوع، وخوف من الله رجاء ثوابه وفضله، وأن يكون الذكر باللسان مقروناً باستحضار القلب والوجدان وملاحظة المعاني، من غير جهر شديد بالأصوات، فقد نزلت هذه الآية حينما كان الصحابة بمكة يتكلمون بحوائجهم أثناء ترداد الآيات، ويصيحون عند آيات الرحمة والعذاب في الصلاة وغيرها. وأوقات الذكر دائمة من غير ملل، و بخاصة وقت الغدو والآصال، أي عند الصباح والمساء. فللذِّكر تأثير في تربية النفس وهو غذاء للروح، وإسكان للنفس من القلق والانزعاج، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٨].

ثم أكد الله تعالى المطالبة بالذكر، بالنهي عن الغفلة عن ذكر الله، وجعل القلب ذا صلة دائمة مع الله، كما أكده ببيان أن الملائكة الأبرار لا يتكبرون عن عبادة الله، وينزهونه عن كل ما يليق بعظمته وجلاله وكبريائه، وله سبحانه وحده يصلون ويسجدون، فلا يشركون معه أحداً، وعلى المؤمنين أن يتشبهوا بأفعال الملائكة، وأن يقتدوا بهم في كثرة الطاعة والأذكار والتسبيح والتقديس. وهذا مثال من اجتهاد الملائكة يبعث على الجدّ في طاعة الله عز وجل.

تفسير سورة الأنفال

حكم الأنفال

يترتب على المعارك الحربية آثار كثيرة في الأموال والأشخاص، ولكل حالة حكم معين في القرآن الكريم، ومن هذه الأحكام حكم الأنفال أي الغنائم الحربية، وكانت أول مشكلة نشأت في موضوع الأنفال بعد معركة بدر، تساءل الناس عن مستحقيها وكيفية قسمتها. أخرج الإمام أحمد وابن حبان والحاكم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي قسمتها، فسألوا الرسول ﷺ، كيف تقسم؟ ولمن الحكم فيها، أهي للمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعاً؟ فنزلت الآية التالية في مطلع سورة الأنفال المدنية ما عدا (٣٠-٣٦) فمكية:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ[١] قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ[٢] وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ[٣] قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[٤] ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ١-٤].

الأنفال: هي الغنائم، وهي جمع نَفْل أو نَفَل، وهو الزيادة على الواجب، وسميت

---

(١) الغنائم والمراد هنا غنائم بدر. (٢) أحوالكم الاجتماعية. (٣) خافت وفزعت. (٤) يفوضون أمورهم إلى الله.

الغنيمة نفلاً؛ لأنها زيادة على القيام بالجهاد وحماية الدين والدعاء إلى الله عز وجل.
ومعنى الآية: يسألك الناس أيها الرسول عن حكم الأنفال لمن هي وكيف تقسم؟ فقل لهم: إن حكمها لله أولاً يحكم فيها بما يريد، ثم للرسول يقسمها بينكم كما أمر الله، فأمرها مفوض إلى الله ورسوله، ثم جاء تبيان تفصيلي لمصارف الغنيمة في آية أخرى وهي: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤١] أي إن الخمس لهؤلاء المحتاجين المذكورين في هذه الآية، والأربعة الأخماس الباقية للغانمين، أما اليوم بعد تنظيم الجيوش النظامية ودفع رواتب دائمة للجند، فتكون الغنائم للدولة.

وإذا كان أمر الغنائم لله ورسوله، فاتقوا الله سبحانه في أقوالكم وأفعالكم، وأصلحوا ذات بينكم من الأحوال حتى تتآلف النفوس، وأطيعوا الله ورسوله في الغنائم وغيرها من كل أمر أو نهي، أو قضاء وحكم.

هذه الأمور الثلاثة: تقوى الله، وإصلاح ذات البين وإطاعة أوامر الله ورسوله يتوقف عليها صلاح الجماعة الإسلامية، إن كنتم مؤمنين، أي مصدقين كلام الله وكاملي الإيمان، فإن التصديق يقتضي الامتثال، وكمال الإيمان يوجب هذه الخصال الثلاث.

ثم ذكر الله تعالى صفات المؤمنين بحق الذين يلتزمون هذه الخصال الثلاث، هذه الصفات هي:

١- الذين إذا ذكر الله أمامهم خافت قلوبهم، وامتلأت خشية لجلاله وعظمته، وهابت وعيده وتذكرت وعده للمحسنين أعمالهم.

٢- والذين إذا قرئت عليهم آيات القرآن، زادتهم إيماناً وتصديقاً، وإقبالاً على العمل الصالح؛ لأن كثرة الأدلة والتذكير بها يوجب زيادة اليقين وقوة الاعتقاد.

٣- والذين هم يتوكلون على ربهم وحده، وإليه يلجؤون ولا يرجون غيره، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولكن ذلك التوكل ليس بمعنى التواكل وإنما التوكل يكون بعد اتخاذ الأسباب من عمل وسعي وجِدّ واجتهاد، أما ترك الأسباب أو الوسائل المطلوبة عقلاً وعادة فهو جهل بمفهوم التوكل.

٤- والذين يقيمون الصلاة، أي يؤدونها كاملة الأركان والشروط من قيام وركوع وسجود وتلاوة وأذكار، في مواقيتها المحددة لها شرعاً، مع خشوع القلب، وسكون النفس، ومناجاة الرحمن، وتدبر قراءة القرآن.

٥- والذين ينفقون بعض أموالهم في سبيل الله، سبيل الخير ومن أجل مصلحة الأمة وفي سبيل تقويتها وانتشال المحتاجين من وهدة الفقر وألم الحرمان، والإنفاق يكون بإخراج الزكاة المفروضة، وأداء الصدقات التطوعية، والنفقات الواجبة على الأهل والقرابة القريبة كالآباء والأمهات، والمندوبة للقرابة البعيدة ومن أجل تحقيق مصالح الأمة وجهاد العدو، فإن الأموال ودائع وأمانات ثقيلة عند الإنسان، لا بد أن يفارقها يوماً ما.

وجزاء هؤلاء المؤمنين المتصفين بالأوصاف الخمسة المتقدمة أنهم دون غيرهم المؤمنون حق الإيمان، ولهم درجات أي منازل متفاوتة في الجنان بحسب أعمالهم ونواياهم ولهم مغفرة، أي يغفر الله لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات، ولهم رزق كريم وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة، والكريم: وصف لكل شيء حسن.

خروج المسلمين إلى موقعة بدر

من الطبيعي أن يتهيب المسلمون في أول لقاء لهم مع معسكر قريش، بسبب قلتهم وضعف استعدادهم وقلة إمكاناتهم، وكثرة عدوهم وقوته ووفرة أسلحته، لذا كان

خروجهم لمعركة بدر الكبرى على كراهية وتردد، لكن الله تعالى أعلم بما يريد، فهو الذي يهيئ الأسباب، ويدبر الأمور، وما على المؤمنين إلا الامتثال ومجاهدة النفس وتخطي حاجز الخوف أو الوهم. وصف الله حالة المؤمنين في الخروج إلى غزوة بدر بقوله:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ[١] تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ[٢] ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٥-٨].

سبب النزول فيما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة، وبلغه أن عِير[٣] أبي سفيان قد أقبلت: ما تَرَون فيها، لعل الله يغنمناها ويسلّمنا؟ فخرجنا فسرنا يوماً أو يومين، فقال: ما ترون فيهم؟ فقلنا: يا رسول الله، ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للعير، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون، فأنزل الله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾

والمعنى: إن كراهية بعض الصحابة لحكم الأنفال وإن رضوا به، مثل كراهيتهم لخروجك أيها النبي من بيتك بالحق إلى القتال في بدر، فهم رضوا بحكم الأنفال على كره، كما رضوا بخروجك للقتال في بدر على كره أيضاً. أي إن بعض صحابتك كانوا كارهين للأمرين معاً: قسمة الغنائم أو الأنفال، والخروج للقتال في بدر. وكانت

(١) أي البأس والسلاح الذي فيه الحدة والقوة. (٢) آخرهم. (٣) العير: الإبل التي تحمل الميرة.

الكراهية من الشبان فقط، لأنهم هم الذين قاتلوا وغنموا، فكرهوا قسمة الغنائم بين المجاهدين بالتساوي. وكرهوا قتال قريش لخروجهم من المدينة بقصد الغنيمة. غير مستعدين للقتال، لكن في امتثال أمر النبي ﷺ الخير والمصلحة والرشاد.

يجادلك هؤلاء الشبيبة المؤمنون في الحق وهو قتال مشركي قريش، مفضلين عليه أخذ العير، أي قافلة أبي سفيان المحملة بالميرة والحبوب والقادمة من الشام، بعدما تبين الصواب وظهر لهم الحق، بإخبارك أنهم سينتصرون على كل حال، وأن الله وعدك إحدى الطائفتين: العير أو النفير، وبما أن العير أي الإبل قد نجت، فلم يبق إلا النفير، أي قتال المشركين. وكأنهم لشدة فزعهم ورعبهم من قتال الأعداء سائرون إلى الموت، وهم يشاهدون أسبابه وينظرون إليها.

لكن أيها المؤمنون اذكروا حين وعدكم الله إحدى الطائفتين: العير أو النفير، لكي تكون السلطة والغلبة لكم. وتتمنون أن تكون لكم غير ذات الشوكة، أي السلاح والقوة والمنعة وهي قافلة العير، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، وعبر القرآن عن هذه القافلة بهذا التعبير أو الوصف لكراهتهم القتال وطمعهم في المال. والشوكة وهي القوة كانت في النفير، أي جيش قريش لكثرة عددهم وتفوق عدتهم وأسلحتهم.

ويريد الله لكم أيها المؤمنون غير هذا الذي تريدون من أخذ تجارة القافلة، وهو مقابلة النفير الذي له الشوكة والقوة وهو جيش المشركين، لينهزموا وتنتصروا، ويثبّت الله الحق ويعليه بكلماته، أي بآياته المنزلة على رسوله في محاربة المشركين ذوي الشوكة والمنعة، ويعليه بإمداد المؤمنين بالملائكة لنصرة المسلمين وكتائب المجاهدين المؤمنين. ويريد الله أيضاً أن يهلك المعاندين، ويستأصل شأفة وآخر المشركين، ويمحق قوتهم ويبدد آثارهم.

فعل الله ما فعل ودبر، ووعد بما وعد، وأنجز النصر للمؤمنين، ليحق الحق ويبطل الباطل، أي ليثبت الإسلام ويظهره، ويمحق الكفر والشرك ويزيله، ولو كره المجرمون، أي المعتدون الطغاة، ولا يكون ذلك بمجرد الاستيلاء على العير، قافلة الإبل، بل بقتل أئمة الكفر وزعماء الشرك.

وتكرار إحقاق الحق في آيتين متواليتين ليس تكراراً خالياً من المعنى، وإنما هناك معنيان متباينان، المعنى الأول: لبيان مراد الله وأن هناك تفاوتاً بنيه وبين مراد الصحابة. والمعنى الثاني: لبيان الداعي والغرض من التوجيه نحو القتال وهو إظهار الغلبة للمؤمنين القلائل على الكافرين الكثيرين ذوي القوة والبأس.

أهم أسباب النصر في معركة بدر

أراد الله سبحانه وتعالى تثبيت أركان الإسلام وقواعده في بداية تكوين دولته وإعلاء كلمته، بإعلاء الحق وإبطال الباطل في قوله سبحانه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ * وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٨] وبعد هذا الإعلان الإلهي، أبان الله تعالى أن نصر المؤمنين في موقعة بدر لأسباب أهمها ثلاثة: هي الإمداد بالملائكة، وإلقاء النعاس للراحة بعد عناء السفر، وإنزال المطر لتطهير نفوس المسلمين مادياً ومعنوياً، وكل نصر يحتاج لأسباب مادية ومعنوية، قال الله تعالى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ[1] ﴿٩﴾
وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ[2] أَمَنَةً مِّنْهُ[3] وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ

(١) أي متبعين بعضهم بعضاً. (٢) يجعله كالغشاء أو الغطاء. (٣) أمناً من الله.

وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ(١) ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ(٢) وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ(٣) فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ(٤) ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟(٥) ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٩-١٤].

سبب نزول هذه الآيات: ما رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاث مئة ونيف (أو وبضعة عشر رجلاً) ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة -الجماعة- من أهل الإسلام، فلا تعبد في الأرض أبداً» قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فردّاه (أو فألقاه على مَنْكبيه) ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فلما كان يومئذ، التقوا، فهزم الله المشركين، فقُتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً.

والمعنى: اذكروا أيها المؤمنون حين استغاثتكم ربكم، قائلين: «اللهم انصرنا على عدونا، يا غياث المستغيثين أغثنا» فأجاب الله دعاءكم بأني ممدكم بألف من أعيان الملائكين، يتبع بعضهم بعضاً، ألفاً بعد ألف، حتى صاروا خمسة آلاف.

وما جعل الله إرسال الملائكة إلا بشرى لكم معشر المؤمنين بأنكم منصورون،

---

(١) الرجز: العذاب، والمراد به هنا وساوس الشيطان التي تمقت. (٢) يشدّ ويقوي. (٣) الخوف والفزع.
(٤) كل الأطراف. (٥) خالفوا وعصوا.

ولتسكن قلوبكم من الاضطراب أو القلق العارض لكم، وليس النصر الحقيقي إلا من عند الله، لا من عند غيره أبداً، إن الله عزيز أي قوي لا يغالب، حكيم، لا يضع شيئاً في غير موضعه.

والأشهر أن الملائكة قاتلت بالفعل يوم بدر، وهو الراجح في السنة النبوية، وهذا لا يقلل من أهمية قتال المؤمنين ببسالة وشجاعة تامة، واستماتة وإيمان متين، خلّد ذكرهم، وجعلهم أمثولة البطولات النادرة، هذه هي النعمة الأولى على المسلمين يوم بدر وهي إمدادهم بالملائكة.

واذكروا نعمتين أخريين هما إلقاء النعاس تخفيفاً من عناء التعب وتحقيقاً للأمن من مخاوف العدو الذي هالهم كثرته وقلتهم، وذلك في ليلة القتال من الغد، ثم إنزال المطر عليكم من السماء للتطهير من الدنس والرجس وإذهاب وساوس الشيطان ولإرواء العطش، لأن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى النزول حول ماء بدر، وبقي المؤمنون لا ماء لهم، وحقق الله بهاتين النعمتين تسكين القلوب واطمئنان النفوس وحملها على الصبر، وتثبيت الأقدام على أرض الرمال من غير غوص فيها.

واذكروا أيها المؤمنون أيضاً حين يوحي الله إلى الملائكة: أني مع المؤمنين بالإعانة والنصر، فانصروهم وثبّتوهم وقووا عزائمهم، وأني سألقي في قلوب الكفار الرعب والهلع، فاضربوا رؤوسهم التي فوق الأعناق واقطعوها، وابتُروا الأصابع والمفاصل والأطراف: وهي الأيدي والأرجل ذات البنان أي الأصابع. وهذا تعليم لكيفية القتال بضرب المَقَاتِل وغير المَقَاتل.

ذلك المذكور من النصر والتأييد للنبي والمؤمنين بسبب أن المشركين شاقّوا الله ورسوله، أي عادوهما وخالفوهما، حيث صاروا في شق أو جانب والمؤمنون في الجانب الآخر، ومن يعادي الله والرسول، و يخالف أوامرهما، فإن له عدا الهزيمة

والخزي في الدنيا العذابَ الشديد في الآخرة، وذلكم العقاب أو العذاب من الضرب والقتل الذي عجلته لكم أيها الكافرون بسبب معاداتكم الله ورسوله، فذوقوه عاجلاً، ولكم في الآخرة عذاب جهنم إن أصررتم على الكفر. والتعبير بذوق العذاب لمعرفة أن ما نالهم في الدنيا من هزيمة وآلام هو يسير بالنسبة للعذاب العظيم المعدّ لهم في الآخرة.

قواعد وتوجيهات حربية

القرآن الكريم دستور المسلمين العام وقانونهم الأساسي في كل شيء، فهو كما اشتمل على أحكام التشريع من عقائد وعبادات ومعاملات، اشتمل أيضاً على الأخلاق والآداب الاجتماعية، وعلى التوجيهات الحربية والسلمية، وقواعد القتال بمناسبة معركة بدر الكبرى، مثل الثبات أمام العدو، وتحريم الفرار من الزحف في مواجهة الأعداء إلا لمصلحة حربية، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا[1] فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ[2] أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ[3] فَقَدْ بَآءَ[4] بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ[5] ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ[6] كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ[7] فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ١٥-١٩].

(١) زاحفين نحوكم لقتالكم. (٢) مظهراً الانهزام ثم يكرّ. (٣) منضماً إليها لقتال العدو. (٤) رجع متلبساً به. (٥) لينعم عليهم بالنصر والأجر. (٦) مُضْعِف. (٧) تطلبوا النصر لفئة.

المقصود من هذه الآيات: يا أيها المصدقون بالله ورسوله، إذا اقتربتم من عدوكم حال كونهم زاحفين نحوكم لقتالكم، أي متقابلي الصفوف والأشخاص فلا تفرّوا منهم أبداً، مهما كثر عددهم، وأنتم قلة، بأن كانوا مثلي أو ضِعْف المؤمنين، واثبتوا لهم وقاتلوهم، فالله معكم عليهم.

لا يجوز الانهزام أمامهم بحال إلا لمصلحة حربية بأن يتحرف المقاتل لقتال، أي يُظهر أنه منهزم، ثم يكِرّ أو ينعطف عليه مرة أخرى ليقتله، وهذه مكيدة حربية مشروعة، أو يتحيز المقاتل لفئة أخرى من جماعته، أي ينضم لجماعة إسلامية أخرى تؤيده وتساعده، لمقاتلة العدو معاً، وما عدا هاتين الحالتين يحرم الفرار من الزحف أمام العدو، ومن يخالف هذا وينهزم، يرجع مصحوباً بغضب الله وسخطه، ومأواه في الآخرة جهنم، وبئس المصير أي المرجع هي. وهذا دليل على أن الفرار من الزحف أمام العدو من كبائر المعاصي، ويؤيده ما جاء في حديث البخاري ومسلم: «اجتنبوا السبع الموبقات -أي المهلكات- وذكر منها التولي يوم الزحف».

ثم أبان القرآن الكريم أمراً مهماً في عقيدة الإسلام في القتال ألا وهي أن المقاتلين لا يستقلون بقتل العدو، وإنما الْخَلْق والاختراع في جميع حالات القتل إنما هي لله تعالى، ليس للقاتل فيها شيء، وإنما هو مجرد وسيلة وأداة، فالفعّال الحقيقي هو الله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ أي إن افتخرتم بقتلهم في بدر، فأنتم لم تقتلوهم بقوتكم وعُدتكم، ولكن الله قتلهم بأيديكم، لأنه هو الذي أنزل الملائكة، وألقى الرعب في قلوبهم، وحقق النصر والظفر لكم.

وسبب نزول هذه الآية: أن أصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا (رجعوا) عن بدر، ذكر كل واحد منهم ما فعل، فقال: قتلت كذا، وفعلت كذا، فجاء من ذلك

تفاخر، ونحو ذلك، فنزلت الآية: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي إن الله هو المؤثر الحقيقي الفعال في تحقيق النتائج. وأما فعل البشر فهو القيام بالأسباب الظاهرة المقدورة لهم، التي كلفهم بها ربهم، كجميع أفعال العباد الاختيارية. بل وما رميت به أيها النبي مشركي قريش حين رميت في بدر، ولكن الله رماهم.

نزلت هذه الآية حين رمى النبي ﷺ يوم بدر قبضات من حصى وتراب، رمى بها في وجوه القوم وتلقاءهم ثلاث مرات، وقال المشركون: شاهت الوجوه، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء.

وتكررت هذه الفعلة أيضاً يوم حنين. رمى الله المشركين وقتلهم ليكبتهم، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً، أي ليعرّف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم، مع كثرة عدوهم وقلة عددهم، ليعرفوا حقه وفضله، ويشكروا بذلك نعمته، ويصيبهم ببلاء حسن، أي يختبرهم بما حققه لهم من النصر والغنيمة والعزة. إن الله سميع لكل قول، ومنه استغاثتكم ودعاؤكم، عليم بوجه الحكمة في جميع أفعاله، لا إله إلا هو.

ذلكم الأمر المتقدم من قتل الله الأعداء ورميه إياهم لإعلامهم أن الله موهن كيد الكافرين، أي مضعف كيد الكافرين في المستقبل، ومحبط مكرهم وتدبيرهم ومدمر جميع أوضاعهم.

ثم خاطب الله الكفار أهل مكة على سبيل التهكم والسخرية قائلاً لهم: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ أي إن تستنصروا وتطلبوا نصر الفئة المحقة على الفئة المبطلة، فقد جاءكم ما سألتم، وتم النصر للأعلى والأهدى، وحدث الهلاك والذلة للأدنى والأضل، ثم حذرهم الله وأنذرهم بأنه إن تنتهوا عن الكفر والتكذيب بالله والرسول، وعداوة النبي، فهو خير لكم في الدنيا والآخرة وأجدى من الحرب التي

جربتموها وما أحدثت من قتل وأسر، وإن تعودوا لمحاربته وقتاله، وإلى ما كنتم من الكفر والضلالة، نعد إلى نصر النبي وهزيمتكم، ولن تفيدكم جماعتكم شيئاً ولو كثرت، لأن الكثرة ليست دائماً من وسائل النصر أمام القلة، فقد يحدث العكس، والله مع المؤمنين بالنصر والتأييد والتوفيق إلى النجاح، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٧٣].

وجوب الطاعة لله والرسول

هناك تلازم واضح في شريعة القرآن بين الإيمان أو التصديق بالله تعالى وبرسوله، وبين وجوب طاعة الله والرسول، فلا يعقل بحال من الأحوال أن يكون هناك شيء من التناقض أو المخالفة، فكل من آمن بشيء وأحبه وجب عليه طاعته واحترام أوامره، ومما لا شك فيه أن الإيمان مصدر خير، فيكون داعياً إلى كل خير، ومن مستلزمات كون الشيء خيراً الإقبال عليه وملازمته، لذا جاءت الآيات القرآنية مقترنة دائماً بين الخطاب بصفة الإيمان وما يدعو إليه ويقتضيه من طاعة الآمر ومحبته، كما في هذه الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ[1] عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٠-٢٣].

يتعهد الحق تبارك وتعالى عباده بالتربية والتوجيه، والتذكير وعقد المقارنات أو

(١) الدوابّ: كل ما يدبّ على الأرض، فهو يشمل أنواع الحيوان بجملته.

الموازنات بين أهل الإيمان وأهل الكفر والعصيان، فإذا كان الشأن في غير المؤمنين ألا يسمعوا لأوامر الله ورسوله، وألا يطيعوا مطالبهما، فإن شأن المؤمنين والامتثال والطاعة، تحقيقاً للسعادة، وللظفر برضوان الله وجنته، لذا أمر الله عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، وزجر عن مخالفته والتشبه بالكافرين المعاندين.

ومعنى الآية: يا أيها المتصفون بالإيمان، المصدقون بالله والرسول، أطيعوا الله والرسول في كل ما دعاكم إليه من أحكام التشريع في الدنيا والآخرة، والدعوة إلى جهاد الأعداء وترك الركون إلى الراحة والمال والشهوات والأهواء. ولا تتركوا الطاعة بحال، فإذا أمركم الله بالجهاد وبذل المال وغيرهما، امتثلتم، والحال أنكم تسمعون كلامه ومواعظه، وتعلمون ما دعاكم إليه القرآن من الأحكام والآداب والمواعظ، والمراد بالسماع: هو ما يفيد ويدفع إلى العمل، وهو سماع تدبر وفهم وتأمل في المسموع، وهذا هو شأن المؤمنين، بأن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥]. وشأن غير المؤمنين أن يقولوا: سمعنا وعصينا.

فاحذروا أن تكونوا مثل غير المؤمنين الذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون، وهم المنافقون والمشركون، فإنهم يتظاهرون بالسماع والاستجابة، والواقع أنهم لا يسمعون أبداً.

ثم أخبر الله تعالى عن هؤلاء العتّاة المتمردين غير السامعين لأوامر الله والرسول بأنهم شر الناس أو المخلوقات عند الله عز وجل، وأنهم أخس المنازل لديه، وأشبه بالدواب، وشرُّ المخلوقات التي تدب على الأرض عند الله الصمُّ الذين لا يسمعون الحق فيتبعونه، ولا ينطقون بالحق ولا يفهمونه، ولا يعقلون الفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والإسلام والكفر، أي فكأنهم لتعطيلهم وسائط المعرفة وهي الحواس التي تكون طريقاً للنفع والفائدة والخير،

فقدوا هذه القوى والمشاعر المدركة، وهم لو استخدموا عقولهم متجردين عن التقليد والعصبية الجاهلية، لاهتدوا إلى الحق والصواب، وأدركوا الصالح المفيد لهم وهو الإسلام، إلا أنهم في الواقع فقدوا صفة الإنسان، لأنهم لا يعقلون الأمور والمصالح الدائمة، ووصفهم الله بالصمم والبَكَم وسلب العقول.

روي أن هذه الآية نزلت في طائفة من بني عبد الدار، وظاهرها العموم فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بهذه الأوصاف.

ثم أخبر الله تعالى بأن عدم سمعهم وهداهم إنما هو بما علمه الله منهم وسبق من قضائه عليهم، بما عرفه من اختيارهم وتوجههم. فلو علم الله في نفوسهم ميلاً إلى الخير والاستعداد للإيمان والاهتداء بنور الإسلام والنبوة لأفهمهم، وأسمعهم بتوفيقه كلام الله ورسوله سماع تدبر وتفهم واتعاظ، ولكن لا خير فيهم؛ لأنه تعالى يعلم أنه لو أسمعهم أي أفهمهم، لتولوا عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك، وهم معرضون عنه من قبل ذلك، بقلوبهم والعمل به، فهم في الواقع لا خير فيهم أصلاً. وإذا سُلب الإنسان أهليته واستعداده وخواصه في إدراك الخير والعمل بمقتضاه، لم يعد كفئاً لأي شيء، ولم يرج منه نفع أو خير، وكان أحق باتصافه بالصفة غير الإنسانية، وهذا هو تشبيه القرآن لهؤلاء بالدواب الذين لا يعقلون ولا يفهمون.

الاستجابة لدعوة القرآن

القرآن الكريم دعوة صريحة حاسمة للسعادة الدائمة، والحياة الأبدية، لأنه تضمن نظام الدين الذي هو أساس الأنظمة وسبب الفلاح والصلاح وقاعدة التحضر والتمدن والاجتماع الفاضل، ولقد كان القرآن العظيم سبب عزة العرب والمسلمين قاطبة، وباعث نهضتهم وطريق الحفاظ على وجودهم وكرامتهم واستقلالهم، ودَحْر

كل أساليب الاستعمار الحاقد البغيض، قال الله تعالى مبيناً مقصد القرآن العام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ(١) فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٤-٢٦].

تتضمن الآيات الأمر القاطع للمؤمنين بإجابة الله والرسول بالإصغاء والطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه، لأن دعوة الله والرسول دعوة لما يحييكم حياة طيبة أبدية مشتملة على سعادة الدنيا والآخرة، وفيها صلاحكم وخيركم، وفيها كل حق وصواب، وذلك شامل القرآن والإيمان والجهاد وكل أعمال البر والطاعة، والأمر للوجوب، ومن لم يمتثل أحكام القرآن فهو ميت لا حياة فيه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٢]. والغارق في الضلال والكفر والجهل ميت مجازاً وإن كان في الظاهر حياً.

إن دعوة القرآن دعوة إحياء بالعزة والغلبة والظفر، فسمي ذلك حياة، والحياة العزيزة الكريمة في الدنيا بالتزام أحكام القرآن متصلةٌ بحياة الآخرة. ثم حذر القرآن الكريم من التراخي في طاعة أوامر الله ورسوله، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال العقل، وقد أراد بالقلب العقل؛ أي يحول بين المرء وعقله، حتى لا يدري ما يصنع.

وهذا دليل حسي واضح على أن قدرته وإحاطته وعلمه تتداخل بين المرء وقلبه،

(١) يستلبوكم .

وتحول بين الإنسان وفكره. والمصير في النهاية أن جميع الناس مجموعون إلى الله في الآخرة للحساب.

وبعد هذا التحذير حذر الله تعالى من الفتن فقال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ أي احذروا الوقوع في الفتنة وهي الاختبار والمحنة التي يعم فيها البلاء المسيء وغيره، ولا يخص بها أهل المعاصي أو مرتكبي الذنوب، بل يعمهم وغيرهم والله شديد العذاب لمن عصاه . قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله ﷺ، وقال: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر فيما بينهم، فيعمهم الله بالعذاب. والمراد بها عموم الناس، فالله يريد أن يُحذر جميع المؤمنين من فتنة إن أصابت لم تخص الظلمة فقط، بل تصيب الكل من ظالم وبريء، وهذا وعيد لكل من تأول آية أو حكماً قرآنياً، أو خالف هدي الله وشرعه.

ثم نبّه الله المؤمنين والعرب خاصة قبل الإسلام إلى ما أنعم به عليهم، وعدَّد نعمه وإحسانه عليهم، قائلاً: واذكروا حالكم حين كنتم قلائل فكثّركم، ومستضعفين خائفين، فقواكم ونصركم، وفقراء فرزقكم من الطيبات، وهذا كان حال المؤمنين قبل الهجرة من مكة إلى المدينة، لقد كان أولئك المؤمنون قلة مستضعفين في مكة، والمشركون أعزة كثرة يذيقون المؤمنين سوء العذاب، وكان المؤمنون خائفين غير مطمئنين، يخافون أن يتخطفهم الناس، أي يأخذهم المشركون بسرعة خاطفة للقتل والسلب، كما كان يتخطف بعضُهم بعضاً خارج الحرم المكي، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٧].

ثم امتن الله عليكم أيها المؤمنون، فجعل لكم مأوى تتحصنون به في المدينة، وأيدكم، أي أعانكم يوم بدر وغيره بنصره المؤزر، وسيؤيدكم بنصره على من سواكم خارج الجزيرة العربية بالغلبة على الروم والفرس، ورزقكم من الطيبات رزقاً حسناً

مباركاً فيه، وأحل لكم الغنائم، كي تشكروا هذه النعم الجليلة. والغرض من الآيات التذكير بالنعمة لتكون حاملاً لهم على إطاعة الله وشكر الفضل الإلهي.

تحريم الخيانة وفضل التقوى

خيانة الله والرسول والأمانات العامة والخاصة من أخطر الانحرافات التي تهدد مصير الأمة ووحدتها وإشاعة الثقة فيما بين أبنائها، لذا حذر القرآن الكريم من أنواع الخيانة مطلقاً، وألزم الناس بتقوى الله، لأن بالتقوى حفاظاً على الوجود الإنساني الكريم ونصراً ونجاة، قال الله تعالى مبيناً تحريم الخيانة وفضل التقوى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ[(١)] وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا[(٢)] وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٧-٢٩].

نزلت الآية ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ في أبي لبابة مروان بن عبد المنذر، وكان حليفاً لبني قريظة من اليهود، وقد بعثه النبي ﷺ إلى بني قريظة، لينزلوا على حكمه، فاستشاروه، فأشار عليهم أنه الذبح، لأن عياله وماله وولده كانوا عندهم، وذلك بعد أن حاصرهم النبي ﷺ إحدى وعشرين ليلة، بعد أن نقضوا العهد وحاربوا النبي في غزوة الخندق، وأدرك أبو لبابة أنه خان الله والرسول.

قال الزهري: فلما نزلت الآية شد نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال:

(١) ابتلاء ومحنة. (٢) نجاة ومخرجاً.

والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث تسعة أيام أو سبعة أيام، لا يذوق فيها طعاماً حتى خرّ مغشياً عليه. ثم تاب الله عليه.

وقال عطاء عن جابر بن عبد الله -فيما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ-: سبب نزول الآية: أن رجلاً من المنافقين كتب إلى أبي سفيان بن حرب بخبر من أخبار رسول الله ﷺ، فنزلت الآية. وعلى أي حال فإن الآية نزلت في خيانة بعض الخائنين.

ومعناها: يا أيها الذين أظهروا الإيمان، أو يا أيها المصدقون بالله ورسوله وقرآنه، لا تخونوا الله بتعطيل فرائضه وإهمال أوامره في السر، وتعدي حدوده ومحارمه، ولا تخونوا الرسول بتجاوز أوامره ومخالفة نواهيه، وتضييع ما استحفظ لديكم من أسرار، ولا تخونوا أماناتكم التي تؤتمنون عليها، بأن لا تحفظوها، وذلك يشمل الودائع المالية والأسرار العامة والخاصة بفرد من الأفراد. والأمانة تشمل كل ما يؤتمن الإنسان عليه من دينه وعبادته وحقوق الآخرين، فكل من أخل بواجبه فقد خان الأمانة، فلا تخونوا أيها المؤمنون أمانات غيركم، سواء كانت معاملات مالية، أو شؤوناً أدبية أو سياسية أو عهداً من العهود، أو مصلحة وطنية، والحال أنكم تعلمون خطر الخيانة وسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة.

ولما كان سبب الإقدام على الخيانة هو حب المال والنفس والولد، نبّه الله تعالى على أنه يجب الاحتراز عن مضار ذلك الحب، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ أي إن الأموال والأولاد محنة من الله وابتلاء، أي اختبار من ربكم، ليَرى كيف العمل في جميع ذلك، ويقيم الدليل عليكم مع علمه تعالى بما يصدر منكم سلفاً، فاحذروا التفريط في حدود الله وشرائعه، واعلموا أن ثواب الله وعطاءه الجزيل وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم

لا يغني عنكم شيئاً، فعليكم أن تؤثروا ثواب ربكم، بمراعاة شرعه ودينه في الأموال والأولاد، وألا تحملكم على توريط أنفسكم في مخاطر الخيانة وأضرارها.

والعاصم لكم من الوقوع في المضار والمخاطر هو تقوى الله، أي اتباع أوامره، واجتناب نواهيه، ثم وعد الله المؤمنين بشرط الاتقاء وإطاعة الله، فإن تتقوا الله، يؤتكم فرقاناً، أي فرقاً بين حقكم وباطل من ينازعكم أي بالنصرة والتأييد عليهم، وإن تتقوا الله يمح عنكم ذنوبكم وسيئاتكم السابقة، ويسترها عن الناس، ويطهركم من الآثام والخطايا، ويؤتكم الثواب الجزيل، والله صاحب الفضل الواسع والعطاء العظيم، وما أكثر الأوامر القرآنية بالتقوى، فهذه الآية مثل آية أخرى هي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٨].

كيد المشركين في مكة للنبي ﷺ

لم يترك المشركون القرشيون نوعاً من الأذى إلا ألحقوه بالنبي ﷺ ، ومن أشد وأخطر ألوان الأذى تلك المؤامرة الخطيرة التي أجمعوا عليها في اجتماع قريش في دار الندوة بمحضر إبليس في صورة شيخ نجدي، على ما نص ابن إسحاق في سيرته وهي اتفاقهم على قتل الرسول عليه الصلاة والسلام على يد زمرة من مختلف القبائل العربية، وصف الله لنا هذه المكائد والمؤامرات بقوله سبحانه:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ(١) بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ(٢) أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ

(١) المكر: المخاتلة والتداهي والتآمر. (٢) أي يحبسوك بالقيد حتى لا تتحرك.

وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ[1] ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٠-٣١].

نزلت الآية الأولى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ في شأن اجتماع قريش في دار الندوة. أخرج ابن أبي حاتم وابن إسحاق عن ابن عباس قال: إن نفراً من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمعت بما اجتمعتم له، فأردت أن أحضُركم، ولن يعدمكم مني رأي أو نصح، قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، فقال قائل: احبسوه في وَثاق، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير ونابغة، فإنما هو كأحدهم.

فقال عدو الله الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، والله ليخرجن رائد من مجلسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يَثِبُوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم، ثم يمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، فانظروا في غير هذا الرأي.

فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم، واستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع.

فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه، والله لئن فعلتم -ثم استعرض العرب- ليجتمعُن عليه، ثم ليسيرَن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم، ويقتل أشرافكم.

قالوا: صدق والله، فانظروا غير هذا، فقال أبو جهل: والله لأشيرنّ عليكم

---

(١) أكاذيبهم المسطورة في كتبهم.

برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره، قالوا: وما هذا؟ قال: تأخذون من كل قبيلة وسيطاً شاباً جَلْداً (أي قوياً) ثم نعطي كل غلام منهم سيفاً صارماً يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن أن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلهم، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل (أي الدية) واسترحنا وقطعنا أذاه عنا.

فقال الشيخ النجدي: هذا والله هو الرأي، القول ما قال الفتى، لا أرى غيره، فتفرقوا على ذلك، وهم مُجمعون له، فأتى جبريل النبي ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله عند ذلك في الخروج، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة، يذكّره نعمته عليه: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهذه أسباب الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

ومعنى الآية: واذكر أيها النبي حينما اجتمع المشركون لتدبير مؤامرة خطيرة عليك وعلى دعوتك، فذلك أمر يستحق الشكر على النعمة، ويدعو للعبرة والعظة، ويدل على صدق دعوتك وتأييد ربك لك في وقت المحنة.

لقد دبروا لك إحدى مكائد ثلاث: إما الحبس الذي يحول بينك وبين دعوة الناس، وإما القتل بطريق جميع القبائل، وإما الطرد والإخراج من البلاد. إنهم يمكرون بك، أي يخفون المكائد لك، و يخفي الله ما أعد لهم من الجزاء والعذاب على مكرهم، والله خير المدبرين وأمضى المخططين والمنفذين وأقدرهم وأعزهم جانباً، لأن تدبيره نصر للحق وعدل مطلق. هذا مكرهم بالنبي ﷺ.

وهناك مكر بالدين والقرآن وهو ما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾ أي إذا تليت آيات القرآن الواضحة، قالوا جهلاً وعناداً وسفهاً واستكباراً: لو نشاء لقلنا مثل هذا من القصص والأنبياء، فإن هذه إنما هي أساطير من قد تقدم، أي قصصهم المكتوبة المسطورة من دون تمحيص ولا نظام، يتعلم منها ويتلوها على الناس. نزلت

هذه الآية في النضر بن الحارث الذي كان يقول في كتاب الله ما يقول، ومن أقاويله: ما جاء في هذه الآية: ما هذا إلا أساطير القدماء، ونسب هذا القول للقرشيين، لأن النضر كان من أنبلهم وأفهمهم والمأخوذ بقوله، فكان إذا قال قولاً، ردده كثير منهم واتبعوه عليه، حسبما يفعل الناس دائماً بعلمائهم وفقهائهم.

إكرام العرب بالنبي ﷺ

قد يظن بعض الأذكياء أنهم بذكائهم واغترارهم بفهمهم يستطيعون إدراك كل شيء، وفهمَ وقولَ كل شيء، متناسين أن القدرة العقلية البشرية محدودة متناهية، لا تتجاوز نطاقاً معيناً، ومن هؤلاء المغرورين بذكائهم ومعرفتهم بعضُ العرب مثل النضر بن الحارث الذي كان كثير السفر إلى فارس والحيرة، وكان يسمع قصص الرهبان والأناجيل، ويسمع أخبار رستم واسبنديار، فلما سمع القرآن، ورأى فيه من أخبار الأنبياء والأمم قال: لو شئت لقلت مثل هذا. وقال عن القرآن: إن هذا إلا أساطير الأولين، فقال له النبي ﷺ: ويلك إنه كلام رب العالمين، فقال: اللهم إن كان هذا هو الحق فأمطر علينا حجارة من السماء، فنزلت الآيات التالية تحكي قوله وترده إلى صوابه وتبين فضل النبي على العرب:

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ

صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً[(١)] فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ [الأنفال: ٧/ ٣٢-٣٥].

لقد تعددت ألوان المكر من المشركين بالنبي ﷺ حتى اضطر إلى الهجرة، وتمادوا في غيهم وضلالهم وحاولوا المكر في دين محمد، سواء بادعاء القدرة على الإتيان بمثل القرآن أو بوصفه بأنه أساطير الأولين، أي قصص السابقين المسطورة في الكتب دون تمحيص ولا تثبُّت من صحتها.

وهذه الآيات إخبار من الله تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وادعائهم الباطل حين سماع آيات الله تتلى عليهم، فقالوا حسداً لمحمد على لسان زعمائهم مثل النضر بن الحارث وأبي جهل بن هشام: لو شئنا لقلنا مثل القرآن، فأمر الله نبيه أن يقول: واذكر يا محمد حين قالت قريش: اللهم إن كان هذا هو الحق المنزل من عندك، فعاقبنا بإنزال حجارة ترجمنا بها من السماء، كما عاقبت أصحاب الفيل، أو ائتنا بعذاب أليم أي مؤلم، سوى ذلك.

ولكن الله تعالى جلت حكمته ورحمته أمهلهم بالعذاب إكراماً لنبي الله محمد ﷺ، وأخبرهم معلناً فضله عليهم: وما كان من مقتضى سنة الله ورحمته وحكمته أن يعذبهم، والرسول موجود بينهم، لأنه إنما أرسله رحمة للعالمين، لا عذاباً ونقمة، وما عذّب الله أمة ونبيها فيها، وكذلك ما كان الله ليعذبهم عذاب الاستئصال في الدنيا الذي عذَّب بمثله بعض الأمم السالفة، وهم يستغفرون، أي إن بعض المؤمنين ما يزالوا يجاورون الكفار في مكة بعد الهجرة وهم يطلبون من الله المغفرة، أو أن بعض أولاد الكفار المولودين منهم يؤمنون بالله ويستغفرونه، أو أنهم في أثناء طوافهم بالكعبة كانوا يقولون: غفرانك، ولا عذاب في الدنيا مع الاستغفار.

---

(١) أي صفيراً وتصفيقاً .

ويمكن أن يعذبهم الله بعذاب دون عذاب الاستئصال، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي من الممكن القريب أن يعذبهم الله بعذاب آخر غير الاستئصال، بسبب أنهم يمنعون الناس عن المسجد الحرام، ولو لأداء مناسك الحج وتعظيم البيت الحرام.

ومن كانت هذه حالته بصد الناس عن المسجد الحرام لم يكن ولياً نصيراً للمسجد، ولا يستحق تولي أمره، وإنما هم يستحقون القتل بالسيف والمحاربة، وهذا رد لمزاعم قريش الذين كانوا يقولون: نحن أولياء البيت الحرام، نصد من نشاء، ونُدخل من نشاء، سلب الله منهم الولاية على البيت الحرام، وأعلمهم أنهم ليسوا أولياءه، فما أولياؤه وأحباؤه وحُماتُهُ إلا المتقون المؤمنون المسلمون، ولكن أكثر الكفار المشركين حمقى جهلاء لا يعلمون أنهم ليسوا بأولياء البيت الحرام، بل يظنون أنهم أولياؤه.

وسبب عدم أهلية المشركين لولاية البيت الحرام: هو عدم تعظيمهم له في الحقيقة، فلم تكن صلاتهم عند البيت وتقرُّبهم وعبادتهم إلا تصفيراً وتصفيقاً، لا يحترمون حرمة البيت، ولا يعظمونه حق التعظيم، قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفِّر وتصفِّق.

ومن كان هذا شأنه فهو أحق بسلب الولاية منه على البيت الحرام، وأجدر بالعقاب والعذاب، فليذوقوا القتل والأسر يوم معركة بدر، بسبب كفرهم وأفعالهم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة، وهذا هو العذاب الذي طلبوه سفهاً منهم وطيشاً وتحدياً وعناداً.

عاقبة الإنفاق الخاسرة

يُقدم كثير من الناس أحياناً على أعمال مادية طائشة لا تحقق مصلحة، ولا تجلب منفعة، بسبب الحمق والسفه، أو بسبب التعصب الأعمى والحقد الدفين، فيذهب المال هدراً، وتتبدد الثروة هباء منثوراً، وعندها يقع الندم، وكل ذلك سهل في أمور الدنيا، فإن الإنفاق للصد عن سبيل الله ومقاومة شرعه ومحاربة القيم التي نزلت بها شرائع الله، يكون أسوأ عاقبة، وأشد وبالاً في الآخرة، لأن فيها العذاب الشديد، قال الله تعالى واصفاً بعض تصرفات مشركي قريش في هذا المجال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً(١) ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ(٢) ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا(٣) فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٦-٣٧].

سبب نزول هذه الآية -فيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم- أن أبا سفيان أنفق في غزوة أحد على الأحابيش (الجنود المرتزقة) وغيرهم أربعين أوقية من الذهب، أو نحو هذا. والأوقية: أربعون مثقالاً من الذهب، والمثقال (٤,٢٥غم).

وقال الضحاك وغيره: إن هذه الآية نزلت في نفقة المشركين الخارجين إلى بدر، الذين كانوا يذبحون يوماً عشراً (من الإبل) ويوماً تسعاً من الإبل.

فالمشركون بقيادة أبي سفيان أنفقوا المال الكثير في بدر وأحد، وقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم (نقصكم) وقتل رجالكم، فأعينونا بهذا المال (أي مال العير الذي نجا قبل موقعة بدر) على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً.

---

(١) ندماً وتأسفاً. (٢) أي يساقون ويجمعون إلى جهنم، والحشر: جمع الناس وغيرهم. (٣) فيجمعه ملقى بعضه على بعض.

ولكن الله تعالى أخبرهم بأن هذه النفقة ستكون وبالاً عليهم في الدنيا والآخرة، وتصف الآية ذلك، ومعناها: إن الذين كفروا بالله ورسوله يقصدون من الإنفاق صدّ الناس عن اتّباع محمد، وهو سبيل الله تعالى، وحين ينفقون أموالهم تكون عاقبة هذا الإنفاق في النهاية لحرب النبي ﷺ والصدِّ عن دينه ندماً وحسرة، فكأنها في ذاتها تصير ندماً وتنقلب حسرة، أي أنها لا تحقق المقصود، وإنما تؤدي إلى عكسه، وهو الوقوع في الحسرة والندامة، كما قال الله تعالى في شأن صاحب الجنة (البستان) التي أحرقها الله بسبب كفره: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٢] لأنه مال ضائع في سبيل الشيطان، ولا يؤدي إلى النصر، وإنما على العكس مصيره إلى الهزيمة، فهم يغلبون وينكسرون، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢١].

هذا عذابهم في الدنيا: ضياع المال والهزيمة: وعذابهم في الآخرة: أنهم يساقون إلى جهنم، إذا أصرّوا على كفرهم وماتوا وهم كفار، لأن منهم من أسلم وحسن إسلامه.

أما المسلمون المؤمنون إذا أنفقوا أموالهم في سبيل الله، فيتحقق إما النصر في الدنيا، وإما الثواب في الآخرة، أو الأمران معاً وسعادة الدارين.

هذه مقارنة واضحة تبين فائدة الإنفاق في سبيل الخير، وضرر الإنفاق في سبيل الشر والشيطان، والله تعالى في قضائه وقدره وعلمه الأزلي كتب النصر للمؤمنين، والهزيمة للكافرين وضياع أموالهم، وإيقاع الحسرة والألم في قلوبهم، ليميز أي يفصل الفريق الخبيث من الفريق الطيب، أي يفرّق بين الفريقين وهما فريق الكافرين، وفريق المؤمنين، أو فريق أهل الشقاء وفريق أهل السعادة، ويجعل الخبيث بعضه متراكماً فوق بعض في جهنم، أولئك هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

أوضحت الآيتان حصاد أهل الإيمان، فهم بجهادهم الصادق، وعملهم المخلص يتبوؤون الدرجات العالية في جنان الخلد، وأهل الكفر والضلال يطوي التاريخ صفحتهم من الوجود، ويعتبرهم مثلاً للتخلف والانزواء والضياع في الدنيا، ووقوداً للنار في الآخرة، بسبب سوء أعمالهم وقبح أفعالهم، ومقاومتهم رسالة الحق والخير والإصلاح.

الترغيب في الإيمان

إن من الخطأ الكبير أن يتعجل المصلحون عقاب المنحرفين، ويتجهموا في وجههم ويتنكروا لهم، ولكن الحكمة والمصلحة أنه لا بد من الصبر والحلم، والعفو والصفح، والترغيب والتشويق، ليقبل الناس على الخير عن طواعية واختيار. وهذا الاتجاه هو الذي سلكه القرآن في تربية الدعاة إلى الله والإسلام، حيث رغّب غير المؤمنين بالإيمان بوسائل مختلفة، وفتح لهم باب الرحمة الواسعة والفضل الكبير، بتجاوز الماضي والعفو عن السيئات السابقة، فقال الله تعالى مقرراً هذا المنهج التربوي الأصيل:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ(١) ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ(٢) وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٨-٤٠].

هذا أمر من الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى الذي تضمنته ألفاظ

---

(١) عادة الله في مكذبي الرسل. (٢) شرك أو اختبار.

قوله سبحانه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ والمقصود: قل أيها الرسول للذين كفروا كأبي سفيان وأصحابه القرشيين: إن ينتهوا عما هم فيه من الكفر والمقاومة والعناد ومعاداة الإسلام ونبيه، ويدخلوا في الإسلام ويؤمنوا حق الإيمان، يغفر لهم ما قد سبق من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحسن في الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخذ بالأول والآخر» وفي حديث صحيح آخر: أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجب ما كان قبلها».

فإن عاندوا وأصروا على الكفر، خسروا الدنيا والآخرة، لذا حذرهم الله وأعلمهم أنهم إن يعودوا إلى حظيرة الكفر والصد عن سبيل الله والعناد وقتال أهل الحق والإيمان، ويستمروا على ما هم عليه، طبِّقت عليهم سنة الله المطردة في الأمم السابقة وهي تدمير وإهلاك المكذبين السابقين الذين كذبوا الأنبياء وتحزبوا ضدهم، كما حدث لقريش يوم بدر وغيره، وظهر وعد الله القائل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٥١].

إذا لم ينفع الترغيب جاء الوعيد الشديد بالدمار لكل من عتا وتكبر، وبغى وتجبر. إن أولئك الذين بقوا متحصنين في خندق الكفر ولم تنفعهم الموعظة والكلمة الطيبة جديرون بالعقاب وهو القتال، لذا أمر الله بقتالهم إذا أصروا على كفرهم، فقال سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ . .﴾ أي وقاتلوا أيها المسلمون قتالاً عنيفاً أعداءكم المشركين المعاندين، حتى لا يبقى شرك أبداً، والفتنة هي الشرك كما قال ابن عباس وغيره، وحتى لا يعبد إلا الله وحده، ولا يُفتن مؤمن عن دينه، ويَخْلُص التوحيد لله، فتعلن كلمة: لا إله إلا الله، وتمتد ظلال الحرية في آفاقها،

ويتمكن الناس من النظر الطليق والفكر الحر غير المقيد بما يحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة، وهذا تحديد دقيق للغرض من القتال: وهو التمكين من حرية التدين، وإزالة حواجز الفكر، وقيود الظلم والاضطهاد، فلا يكره أحد على ترك عقيدته، وإنما يكون قبوله الإسلام عن طواعية وحرية واختيار، عملاً بالتوجيه القرآني: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦].

فإن انتهوا عن الكفر وعن قتال المؤمنين والدعاة إلى الله، فكُفّوا عنهم وإن لم تعلموا بواطنهم، فإن الله بما يعملون بصير، أي فإن الله عليم بأعمالهم، يجازيهم عليها بحسب علمه.

وإن تولوا وأعرضوا عن سماع دعوتكم، ولم ينتهوا عن كفرهم، فلا تعتنوا بأمرهم، واعلموا أن الله متولي أموركم وناصركم أيها المؤمنون، فلا تبالوا بهم، ومن كان الله مولاه وناصره، فلا يخشى شيئاً، إنه نعم المولى ونعم النصير، فلا يضيع من تولاه، ولا يُغلَب من نصره الله، ولكن نصر الله مرهون بأمرين: الأول -الإعداد المادي والمعنوي للجهاد كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠]. والثاني -نصرة دين الله وتطبيق شرعه وتنفيذ أحكامه، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٤٧/ ٧].

كيف كانت تقسم الغنائم؟

كانت الجيوش في الماضي غير نظامية، تعتمد على التطوع بالجهاد بالنفس والمال والسلاح، فكان المجاهد هو الذي يُعدّ فرسه وسلاحه وينفق على نفسه أثناء الجهاد مع الأعداء، وكان هذا الوضع مستمراً في العصور الإسلامية حيث كان القتال بما يسمى اليوم بالسلاح الأبيض. فكان من العدل وضرورة التعويض والمكافأة أن يأخذ

المجاهدون أربعة أخماس الغنائم الحربية، ويوزع الخمس على خمسة أصناف من غير المجاهدين هم جزء من الأمة، والأمة الإسلامية متعاونة فيما بينها في السراء والضراء، قال الله تعالى مبيناً حكم الغنيمة: وهي ما أخذ من الأعداء عنوة، والفيء ما أخذ صلحاً:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ(١) يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤١﴾ [الأنفال: ٨/ ٤١].

أبان الله تعالى في مطلع سورة الأنفال أن حكم الغنائم أو الأنفال لله تعالى يحكم بها بمقتضى الحكمة والعدل، ويقسمها الرسول ﷺ على ما أمره الله تعالى به. وجاءت هذه الآية في السورة نفسها مفصّلة لحكم الغنائم التي اختص الله هذه الأمة بإباحتها، أما قبل ذلك فكانت الغنائم لا تحل للمقاتلين، وإنما تنزل نار من السماء فتحرقها، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي».

وحكم الغنائم في شريعتنا أنها تقسم أخماساً، فيجعل الخمس لمن ذكرتهم هذه الآية، والأربعة الأخماس الباقية للغانمين المقاتلين كما أوضحت السنة النبوية فيما رواه الشافعي وابن أبي شيبة: «إنما الغنيمة لمن شهد الوقعة».

والغنيمة: هي ما دخلت في أيدي المسلمين من أموال الأعداء المشركين على سبيل القهر أو العنوة.

والراجح أن خمس الغنائم كان يقسم بموجب هذه الآية على خمسة أصناف. وقوله

(١) يوم بدر يوم الفرقان بين الحق والباطل.

سبحانه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ افتتاح كلام للتبرك وتفخيم الأمور بذكر اسم الله وتعظيمه، و بحسب أمره وتفويضه شأن القسمة لرسوله، لأن كل شيء مفوض لله، فهو يحكم بما يشاء، ولله كل الدنيا والآخرة.

والأصناف الخمسة المذكورة في الآية هي ما يأتي:

١- سهم الرسول ﷺ ، يضعه حيث يشاء في سبيل الله.

٢- سهم ذوي القربى: أي قرابة الرسول ﷺ ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل.

٣- سهم اليتامى: وهم أطفال المسلمين الذين هلك آباؤهم في سن الصغر، واليُتْم في بني آدم من قبل الآباء، وفي البهائم: من قِبل الأمهات.

٤- سهم المساكين: وهم أهل الحاجة من المسلمين.

٥- ابن السبيل: وهو المجتاز سفراً قد انقطع به في الطريق، واحتاج إلى المال، سواء كان غنياً في بلده أو فقيراً، فإنه ابن السبيل، يسمى بذلك لملازمته السبيل. والتوزيع لهؤلاء الأصناف الخمسة مثل واضح لتضامن الأمن من أجل تحقيق التكافل الاجتماعي بين المؤمنين. وهؤلاء أهم من يدفع إليهم، وللإمام بالإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إن رأى ذلك.

وأربعة أخماس ما غُنم يقسمه الإمام الحاكم على الجيش، حينما كان الجهاد تطوعاً، وأما اليوم بعد تكوين الجيوش النظامية ودفع رواتب شهرية دائمة للجنود والضباط، فإن الغنائم الحربية تكون من حق الدولة.

ثم قال الله تعالى بعد بيان مصرف خمس الغنيمة: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي امتثلتم ما شرعنا لكم من اقتطاع الخمس للمحتاجين إن كنتم آمنتم بالله واليوم

الآخر، واقنعوا بالأخماس الأربعة الباقية إن صدقتم بالله وبما أنزله على رسوله يوم بدر الذي سمي بيوم الفرقان، أي يوم الفرق بين الحق والباطل، بإعزاز الإسلام وإذلال الشرك، فنصرنا المؤمنين يوم التقى الجمعان، أي فريقا المسلمين والكافرين، لسبع عشرة خلت من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وهو أول قتال شهده الرسول ﷺ، وهو يوم الوقعة التي قتل فيها صناديد قريش ببدر، والله على ذلك وغيره قادر مقتدر، يقدر على نصركم وأنتم قلّة، ولا يمتنع عليه شيء أراده، وينجز وعده لرسوله.

والمقصود من هذه الآية التحذير من تجاوز حدود الله في أي وقت، وليس المراد أخذ العلم فقط، بل العلم المقترن بالعمل والاعتقاد. والإيمان الحق بالله والرسول والمنزّل عليه وباليوم الآخر من دواعي العلم بأن لله حق التصرف في الأشياء، وله تفويض قسمة الغنائم وغيرها إلى رسوله؛ لأن النصر من عند الله، وهو صاحب التشريع، يفعل ما يشاء بمقتضى الحكمة والمصلحة العامة.

فضل الله على المسلمين بنصرهم يوم بدر

إن من مقتضيات الأمانة ووحدة تاريخ المسلمين أن تظل الأمة تشعر بارتباطها الوثيق بالماضي ليكون عدة للحاضر والمستقبل، فتعلم مدى أفضال الله عز وجل على الفئة القليلة المؤمنة في صدر الإسلام، حيث نصرها ربها على الفئة الكثيرة الباغية الكافرة، ولا حجْر على فضل الله، فإنه سبحانه يجدد منح هذا الفضل في كل زمان إذا كانت الأمة صامدة مجاهدة، صابرة قوية، عازمة على انتزاع النصر من الأعداء، مخلصة في القول والعمل، وهذه صفحة مشرقة تذكرنا بما تم من نصر يوم معركة بدر الكبرى، في قول الله تعالى:

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا[١] وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ[٢] وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ[٣] وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٢-٤٤].

يذكّرنا الله بالنعم العظيمة التي أمدنا بها، فاذكر أيها النبي حين التقى المؤمنون والمشركون في بدر، ذلك اللقاء الحاسم، واشكروه على نصره إياكم فيه، حينما كنتم في مواجهة رهيبة مع الأعداء، إذا كنتم معشر المسلمين في العُدوة الدنيا، أي في شفير أو جانب الوادي القريبة من المدينة، الذي يتعذر المشي فيه، لأنها أرض رملية تسيخ فيها الأقدام، والمشركون نازلون في العُدوة القصوى، أي في جانب الوادي الأخرى، البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة، وهي قريبة من الماء، ووادي بدر آخذ بين الشرق والقبلة منحرف إلى البحر، والركب أي عير أو قافلة أبي سفيان المحملة بالتجارة المحروسة بأربعين من قريش أسفل منكم، أي مما يلي جانب البحر أو ساحله، ولو تواعدتم أنتم والمشركون في مكان للقتال، لاختلفتم في الميعاد، خوفاً من القتال، لقلتكم وقوة أعدائكم في العَدَد والعُدَد، ولكن تلاقيكم عن غير موعد ولا رغبة في القتال، ليقضي الله ما أراد بقدرته وحكمته وعلمه من إعزاز الإسلام ونصر أهله، وإذلال الشرك وخذلان أهله، ولينفذ ويحقق الله أمراً كان مبرماً وواجباً أن يفعل، وهو نصر أوليائه المؤمنين، وقهر أعدائه الكافرين من بعد ذلك اللقاء، فيزداد المؤمنون إيماناً، وامتثالاً لأمر الله، ويظهروا الشكر له.

---

(١) بحافة الوادي القريبة من المدينة . (٢) بناحية الوادي البعيدة من المدينة . (٣) لجبنتم عن القتال .

وكان لهذا اللقاء أثر آخر على المدى البعيد، وهو أن يموت من يموت من الكفار عن حجة بينة عاينها بالبصر، تثبت حقيقة الإسلام، ويعيش من يعيش من المؤمنين عن حجة، شاهدها بإعزاز الله دينه، لئلا يكون له حجة ومعذرة، أو ليُقتل من قتل من كفار قريش وغيرهم ببيان من الله وإعذار بالرسالة، ويحيا أيضاً ويعيش من عاش عن بيان منه أيضاً، وإعذار لا حجة لأحد عليه، فالهلاك والحياة -على هذا التأويل- حقيقتان، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة التي ترسخ الإيمان، وتدفع إلى صالح الأعمال، وإن الله لسميع عليم، أي لا يخفى عليه شيء من أقوال الكافرين والمؤمنين، ولا من عقائدهم وأفعالهم، فهو سبحانه سميع لما قاله الكافرون، وعليم بأحوالهم، وسميع لدعاء المؤمنين وتضرعهم واستغاثتهم، وعليم بهم وبأنهم يستحقون النصر على أعدائهم، ويجازي كلاً بما يسمع ويعلم.

واذكر أيها النبي فضلاً آخر، إذ يريك الله الكفار في منامك قليلاً، أي ضعفاء، فتخبر أصحابك بذلك، فتثبت قلوبهم، وتطمئن نفوسهم، ولو أراكهم كثيراً، أي أقوياء في الواقع لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، وتنازعتم في شأن القتال، فمنهم القوي الإيمان والعزيمة، ومنهم الضعيف الذي يخشى لقاء العدو.

ولكن الله سلّم من ذلك الفشل (الجبن) والتنازع، بأن أراكهم قليلاً، إنه تعالى عليم بذات الصدور، أي بما تخفيه الصدور، وتنطوي عليه النفوس من شعور الضعف والجزع الذي يؤدي إلى الإحجام عن القتال، وعليم بالإيمان والكفر، فيجازي بحسب ذلك. واذكر أيها الرسول والمؤمنون الوقت الذي يريكم الله الكفار قبل القتال عدداً قليلاً، في رأي العين المجردة، حتى تجرأتم وارتفعت معنوياتكم، ويجعلكم بالفعل قلة في أعين الكفار، فيغتروا ولا يُعدّوا العدة لكم، حتى قال أبو جهل: «إنما أصحاب محمد أَكَلة جزور، خذوهم أخذاً، واربطوهم بالحبال».

﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي فعل الله كل ذلك ليمهد للحرب، فتكون سبيلاً في علمه تعالى لنصرة المؤمنين وإعزاز الإسلام، وهزيمة الكافرين وإذلال الكفر والشرك، ثم إلى الله مصير الأمور ومردها.

آداب القتال وقواعده

يتطلب القتال التقيد بقواعد وآداب معينة كثيرة، لتحقيق النصر، والعز، ولأنه موقف حاسم حساس يحتاج لضوابط لها أهميتها في الموقف القتالي، وآثارها في صفوف المقاتلين، ومن المعلوم أن القرآن الكريم ليس كتاباً دينياً فحسب، وإنما هو دستور رصين متين في العقيدة والعبادة، والأخلاق والأنظمة، والسلم والحرب، لذا اشتملت توجيهاته على وصايا حكيمة، ومبادئ قويمة في الجهاد، فقال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ(١) وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا(٢) وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٥-٤٧].

هذه طائفة من الإرشادات والوصايا الإلهية تعدُّ من ركائز قواعد القتال وأسسه الضرورية النابعة أصالة من وعاء الإيمان، لذا افتتحت بخطاب المؤمنين المصدقين بالله ورسوله، حتى وإن كانوا قلائل ضعفاء، والإيمان يمنح القوة ويرفع المعنويات، أما الكفر فشأن أهله الجبن وضعف المعنويات، حتى وإن انتصروا أحياناً.

وسبب نزول الآيات فيما رواه الطبري عن محمد بن كعب القرظي قال: لما

---

(١) أي قوتكم أو دولتكم . (٢) طغياناً وأشراً .

خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ..﴾.

وأول هذه القواعد الحربية: الثبات أمام الأعداء، فإذا حاربتم أيها المؤمنون أعداءكم والتقيتم معهم في ميدان القتال، فالواجب عليكم أن تثبتوا في قتالهم، وتصمدوا للقائهم، وإياكم والفرار من الزحف، فالثبات فضيلة وركيزة أساسية، والفرار كبيرة موجبة للعقاب. ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى: أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

والقاعدة الثانية: ذكر الله كثيراً في القلب واللسان، والتضرع والدعاء بالنصر والظفر، لأن النصر لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى، وذكر الله في أثناء القتال يحقق معنى العبودية لله، ويشعر بمعنى الإيمان والتفويض لله والتوكل عليه، ويرفع الروح المعنوية، ويكون عوناً على تحقيق النصر، لذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي إن هذا الثبات وذكر الله من وسائل الفوز بالأجر والثواب، والنصر على الأعداء، فإنكم بالثبات والذكر تنالون بغيتكم وتحققون آمالكم.

وذكر الله هنا ذِكْر خفي؛ لأن رفع الأصوات في موطن القتال رديء مكروه، فأما إن كان من الجميع عند الحملة فحسن يهدئ، ويفت في عضد العدو.

روى أبو القاسم الطبراني عن زيد بن أرقم: أن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة» وكان الصحابة يكرهون الصوت في هذه المواطن الثلاثة.

والقاعدة الثالثة: طاعة الله والرسول في كل ما أمر به أو نهى عنه؛ وهذا يستتبع

طاعة القائد؛ لأن الطاعة من أسباب انتزاع النصر في القتال وغيره، فهي وسيلة الانضباط، وتوفير النظام، وقمع الفوضى، وتوقيت الأحداث بحسب ما يناسبها. وإن من أهم قواعد الحرب في العصر الحاضر طاعة القائد، والمعروف لدى العسكريين: (نفِّذ ثم اعترض).

والقاعدة الرابعة: وحدة الصف والكلمة والهدف، وترك التنازع والاختلاف، فإن وحدة الصف قوة وصلابة، والتنازع والاختلاف مدعاة للجبن والفشل والخيبة والهزيمة وتضييع القوة. قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٦١/ ٤].

والقاعدة الخامسة: الصبر على الشدائد والمحن وتحمل بأس العدو، فإن الصبر سلاح القوي المقدام، والله يؤيد الصابرين ويعينهم وينصرهم، لذا قيل: «الشجاعة: صبر ساعة».

والقاعدة السادسة: ترك التكبر والبطر: وهو الأشر وغمط النعمة وإهمال شكرها، وترك الرياء، وهو المباهاة والتصنّع بما يراه غيرك، وقد نهى الله المؤمنين عن التشبه بكفار قريش الذين خرجوا متبخترين متكبرين مرائين للقتال في بدر، دفعاً للحق، وصداً عن سبيل الله والإسلام، وإظهاراً للفخر والاستعلاء بنعمة القوة والغنى والزعامة، ومن أجل مراءاة الناس، أي المفاخرة والتكبر عليهم، يتمثل ذلك في قول أبي جهل، لما قيل له: إن العير (إبل الميرة) قد نجت فارجعوا، فقال: لا والله، لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجزُر، ونشرب الخَمْر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً.

هذه النصائح التي هي دليل على الإخلاص في النية والعمل تكفل النصر للمسلم أبداً، لذا تقيدت الآية بزجر المؤمنين عن التشبه بخصال الكفار، وذلك في قوله

تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي عالم بما جاؤوا به ولأجله، فيجازيهم عليه شر الجزاء في الدنيا والآخرة. وهذا وعيد وتهديد لمن بقي من الكفار، وتوضيح بأن القدر نافذ فيمن مضى بالقتل.

موقف الشيطان من الكفار

تتوالى نعم الله وأفضاله على المؤمنين الصادقين بالإمداد والعون والنصر، وإضعاف موقف العدو وتحطيم معنوياته، وبيان مصائر الأعداء حين القتل أو الموت بسبب سوء ما قدموا من أعمال، وما جنوا من سيئات بوضع العراقيل أمام مسيرة الحق والإيمان، وأساؤوا لأنفسهم وأتباعهم، قال الله تعالى مبيناً موقف الشيطان من الأعداء في المعارك:

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ(١) لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ(٢) وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ(٣) وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: ٨/٤٨-٥١].

روي أن الشيطان يوم بدر تمثل لكفار قريش في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم، من بني بكر بن كنانة، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من

---

(١) أي مجير لكم، فأنتم في ذمتي وحمايتي. (٢) رجع إلى الوراء مدبراً. (٣) أي اغتر هؤلاء المسلمون بدينهم وظنوا أنهم متغلبون على قريش، مع قلة عددهم وكثرة عُدَد قريش.

ورائهم، لأنهم قتلوا رجلاً منهم، قال الضحاك: جاءهم إبليس يوم بدر برايته وجنوده، وألقى في قلوبهم أنهم لن ينهزموا، وهم يقاتلون على دين آبائهم.

والمعنى: واذكروا أيها المؤمنون المواقف المدهشة والعبر من مشاهد يوم بدر، وفي ذلك مشاهد ثلاثة: موقف الشيطان وهو إبليس نفسه كيف وسوس لكفار قريش ثم تخلص من المشركين وقت اشتداد المحنة، وموقف المنافقين الذين سخروا من المؤمنين لتهورهم قائلين: غرّ هؤلاء دينهم، وحال الكفار حين موتهم حيث تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم.

المشهد الأول -أن الشيطان أتى بنفسه لمعسكر قريش بمكة، أو جاءهم وهم في طريقهم إلى بدر، وقد لحقهم خوف من بني بكر وكنانة لحروب كانت بينهم، جاءهم إبليس في صورة سراقة بن مالك من بني بكر، وهو سيد من ساداتهم، وقال لهم: إني مجير لكم، ولن تخافوا من قومي، وهم لكم أعوان على مقصدكم، ولن يغلبكم أحد، فسُرّوا عند ذلك، ومضوا لطِيّتهم[١]، وقال لهم: «أنتم تقاتلون عن دين الآباء ولن تعدموا نصراً» فلما التقى الجمعان كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما رأى الملائكة نكص على عقبيه، أي رجع هارباً إلى الوراء، أي أحجم، فقال له الحارث: أتفِرُّ يا سراقة؟ فلم يَلْو عليه، أي لم يُقِم معه ولم ينتظره، ودفع في صدر الحارث، وذهب، فوقعت الهزيمة، وقال: إني أرى ما لا ترون من جند الملائكة، وأظهر الخوف من الله قائلاً: إني أخاف الله، والله شديد العقاب في الدنيا والآخرة. وكان خوفه من الملائكة حتى لا تحرق جنوده. هذا موقف الشيطان من كفار قريش.

والمشهد الثاني -هو موقف المنافقين من المسلمين: فإن المنافقين والذين في قلوبهم مرض، أي شك ونفاق وحسد وحقد وبطر، قالوا عن المسلمين: اغتر هؤلاء

---

(١) أي نيتهم وحاجتهم.

المسلمون بدينهم، وتقووا به، وظنوا أنهم ينصرون من أجله، فخرجوا وهم ثلاث مئة وبضعة عشر إلى لقاء زهاء ألف من قريش، وهذا صحيح في موازين القوى العسكرية الظاهرية في أنظار الناس عادة، ولكنه في ميزان الله وتقديره قد يختلف التقدير، فقد تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة، ولم يعلم المنافقون أن من يتوكل على الله حق التوكل، فهو حسبه وناصره ومؤيده، فإن الله عزيز قوي غالب على أمره، يُعز أولياءه، ويذل أعداءه، حكيم في فعله، عليم بخلقه.

والمشهد الثالث -حال الكفرة وقت الموت، وهو حال يستدعي التعجب مما حلّ بالكفار يوم بدر، وفي ذلك وعيد لمن بقي منهم، إنه مشهد رهيب مذهل لا يوصف، حيث تقوم الملائكة بضرب الكفرة بعنف وسخط، يضربون وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد، وينزعون أرواحهم من أجسادهم بشدة وعنف قائلين لهم: ذوقوا عذاب الحريق، أي عذاب النار في الآخرة، وهو إنذار لهم بذلك العذاب. إن ذلك العذاب الشديد والضرب الأليم بسبب ما قدموا من أعمال سيئة، وارتكبوا من منكرات كالكفر والظلم في الدنيا، وهو جزاء حق وعدل، لا ظلم فيه؛ لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، ولا يظلم أحداً من خلقه، فهو سبحانه، الحكَم العدل الذي لا يجور أبداً.

الموازنة بين عذاب المشركين وعذاب آل فرعون

يعقد القرآن الكريم مقارنة أو موازنة بين ألوان العذاب أو العقاب الذي يوقعه بأهل الضلال والكفر بسبب ما اقترفوا من آثام وسيئات، وهذه مقارنة بين عذاب المشركين المكيين وعذاب آل فرعون؛ لأن الجزاء واحد والأسباب متشابهة، وفي ذلك عبرة للمعتبر، وموعظة لكل عاقل. قال الله تعالى:

﴿كَدَأْبِ(١) ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٢-٥٤].

هذه الآيات تدل دلالة واضحة على عدالة الله وقوته وشدة عقابه، فإن الجزاء يكون من جنس العمل، وسنة الله ونظامه واحد في الأقوام، فكما عاقب الله آل فرعون بسبب كفرهم وذنوبهم، عاقب مشركي قريش الذين كذبوا بآيات الله وصدوا الناس عن دين الله، فإن عادة الله واحدة، فما حل بالعذاب بمشركي قريش بسبب كفرهم يشبه ما حل من عذاب بقوم فرعون والأمم المكذبة قبلهم، فجوزي المشركون بالقتل والسبي، كما جوزي من قبلهم بالإغراق أو الزلزال والخسف أو الصيحة أو الريح الصرصر العاتية، من قوم فرعون وآل عاد وثمود وقوم صالح ولوط والمؤتفكات.

إن هؤلاء الذين أهلكهم الله كفروا بآيات الله، وكذبوا برسل الله، فأخذهم الله بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر، لأن الله قوي لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب، قوي عذابه، شديد عقابه لمن يستحق ذلك بظلمه. روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلته».

ثم أخبر الله تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، فذكر سبحانه: أن ذلك العذاب الناجم عن سوء

(١) أي كعادة، والمعنى كسنن آل فرعون أو كعادة الله فيهم.

العمل في الأقوام الغابرة، وإهلاك قريش بسبب كفرها بأنعم الله عليها، لأن سنة الله وحكمته اقتضت ألا يغير نعمته على قوم، حتى يغيروا ما بهم من الحال، فيكفروا النعمة، ويبطروا بها، فاستحقوا تبديل الأوضاع، كتبديل أهل مكة إطعامهم من جوع، وأمنهم من خوف، إن الله سميع لأقوال المخلوقات قاطبة، ولا سيما مكذبو الرسل، عليم بمن يستحق العقاب وبما يفعلون، فجميع الناس تحت رقابة الله وتصرفه.

وفي هذا تبيان واضح أن استحقاق النعم منوط بصلاح العقائد وحسن الأعمال والأخلاق، وأن زوال النعم يكون بسبب الكفر والفساد وسوء الأخلاق، إلا أن يكون الإنعام أحياناً استدراجاً لأهل المعصية حتى يقعوا في بؤرة لا نجاة لهم منها، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٤].

ثم أكد الله تعالى قانونه العام وسنته المطردة في إهلاك العصاة، وأن سبب العذاب المذكور أولاً هو الكفر بآيات الله، أي إنكار الدلائل الإلهية الدالة على وحدانية الله، والسبب الثاني المذكور في الآية التالية هو التكذيب بآيات ربهم، أي إنكار وجوه التربية والإحسان والنعمة، مع كثرتها وتواليها عليهم، فقوله سبحانه: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق.

لقد أهلك الله تعالى الأمم السابقة العاصية بذنوبهم، وأغرق آل فرعون بكفرهم وضلالهم، وكان كل من مشركي قريش وآل فرعون ظالمي أنفسهم بالكفر والمعصية، وظالمي سائر الناس بسبب الإيذاء، وأن الله أهلكهم بسبب ظلمهم وذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، أي كانوا هم الظالمين الذين عرّضوا أنفسهم لعذاب الله تعالى، ولا يظلم ربك أحداً.

وكان عذاب مشركي قريش مقصوراً على القتل والسبي وسلب النعمة، وأما عذاب من قبلهم، فكان عذاب استئصال كإغراق آل فرعون، وتدمير قوم عاد بالريح العاتية، وإهلاك قوم ثمود بالصيحة الشديدة وهي الطاغية.

حال الذين ينقضون المعاهدات

إن الكلمة التي يلتزم بها الإنسان عهد وميثاق، وشرف وكرامة، وإنسانية سامية وحضارة عريقة وثقة بالذات، فإذا ما نقض الإنسان عهده وخان التزامه ولم يوف ببنود العهد والميثاق كان هابطاً عن المستوى الإنساني، بل إن الدواب الذميمة تكون أفضل منه، وقد حكى القرآن الكريم حال بعض الناقضين عهودهم، والكافرين الذين تحتم عليهم بأنهم لا يؤمنون، فقال الله سبحانه:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ(١) فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم(٢) مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ(٣) عَلَىٰ سَوَآءٍ(٤) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ(٥) إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

[الأنفال: ٨/ ٥٥-٥٩].

نزلت الآية في بني قريظة، قال ابن عباس: إنهم بنو قريظة نقضوا عهد رسول الله ﷺ، وأعانوا عليه بالسلاح في بدر، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا، فعاهدهم الثانية، فنقضوا العهد ومالؤوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وركب زعيمهم كعب ابن الأشرف إلى مكة، فحالفهم على محاربة النبي ﷺ.

---

(١) تصادفنهم وتظفر بهم. (٢) ففرّق وبدّد. (٣) فاطرح إليهم عهدهم. (٤) على استواء في العلم بنبذه. (٥) نجَوْا من العذاب.

ومعنى الآيات: إن شر ما دبّ على وجه الأرض في حكم الله وعدله هم الذين كفروا ونقضوا العهد، فهم شر خلق الله لاتصافهم بصفتين: الإصرار على الكفر الدائم والعناد، ونقض العهد الذي عاهدوه وأكدوه بالأيمان. ولهم صفة ثالثة هي أنهم لا يتقون الله ولا يخافون منه في شيء ارتكبوه من الآثام، ولا يتقونه في غدرهم ونقض العهد.

إنهم كما وصفتهم الآية الكريمة شر من الدواب، لعدم وجود نفع منهم، فهم لا يؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، وتكرر منهم نقض العهد في كل مرة يعاهدون النبي ﷺ، وهو لا يتقون الله ربهم ولا يخافون حسابه، و يخرجون عن أحكام الله. هذا حالهم عند الله، وأما من نقض العهد منهم، فإن أمكنتك الفرصة منهم، وصادفتهم أو ظفرت بهم في الحرب، فاضربهم ضربة قاصمة تفرق بها جمع كل ناقض للعهد حتى يخافك من وراءهم من أهل مكة وغيرهم، افعل ذلك بهم لعل من خلفهم يتعظون ويرتدعون بهم.

ثم أبان الله حكم من ظهرت منهم بوادر الخيانة ونقض العهد بأمارة من الأمارات، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي إن ظهرت أمارات الخيانة ونقض العهد من قوم، فألغ عهدهم، وأعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، وذلك حتى تستوي أنت وهم في العلم بنقض العهد حتى لا يتهموك بالغدر والخيانة. والنبذ: الرمي والرفض. والسواء: المساواة والاعتدال. وحينئذ فإن التزموا السلم لم يتعرض لهم، وإلا حوربوا. وبنو قريظة نقضوا العهد مرتين.

إن هذا الإخبار المكشوف بنقض العهد دليل على ثقة المسلمين بأنفسهم، وأنهم يترفعون عن الخيانة والغدر، وأن الغدر حطة ومذلة، والله لا يحب الخائنين، أي يجازيهم على الخيانة.

ثم أنذر الله تعالى الخائنين بما يحل بهم من عقاب، وبيّن حال من فات النبي ﷺ يوم بدر وغيره، لئلا يبقى حسرة في قلب هذا النبي الذي آذوه. ومضمون الإنذار: لا يظنن الذين كفروا أنهم فاتوا وأفلتوا من الظفر بهم. ونجوا من عاقبة خيانتهم، وأنهم فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، كما جاء في آية أخرى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤] أي بئس ما يظنون. والمراد بذلك تطمين النبي ﷺ أنه منتقم ممن كفروا وآذوه، وقطع لأطماعهم بالتغلب على المؤمنين، وإنذار لهم بسوء المصير، وتعرضهم لشديد العقاب، فما عليك أيها النبي إلا الصبر، والله مع الصابرين.

الإعداد الحربي للعدو وإيثار السلم

القرآن الكريم دستور الأمة وهو يعلّمها ويرشدها لضرورة الاستعداد الحربي الدائم لقتال الأعداء، حتى في حال المسالمة والمعاهدة أو الصلح، لأن العدو لا يؤمن جانبه، ويجب الحذر الدائم من أعماله ومخططاته، فإن آثر الحرب كنا مستعدين له، وإن رغب في السلم سالمناه، ويلزم في كل حال الاستعانة بالله إذا راوغ العدو وحاول الخداع، قال الله تعالى مبيناً هذه القواعد:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ(١) وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ(٢) تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ(٣) فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ

(١) كل قوة في الحرب. (٢) خيول الجهاد. (٣) مالوا للمسالمة والمصالحة.

ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ(١) ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠-٦٢].

تضمنت الآيات قواعد أو مبادئ أربعة مهمة في العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم، وهي خطاب لجميع المؤمنين:

القاعدة الأولى: الاستعداد الدائم لمواجهة الأعداء، بجميع أوجه الإعداد المادي والمعنوي والفني والمالي، بما يناسب كل عصر وزمان، لأن الجيش المقاتل درع البلاد وسياج الوطن، به يدفع العدوان، وتدحر قوى البغي والشر والتسلط، ولا يعقل أن نواجه الأعداء إلا بنفس المستوى الحربي والسلاح المتطور الذي تعتمد عليه الجيوش المحاربة، وبالقوى المماثلة المناظرة عند الآخرين، لذا وردت كلمة ﴿قُوَّةٍ﴾ نكرة في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وهي تشمل مختلف أنواع القوى البرية والبحرية والجوية، من حيوان وسلاح وألبسة وآلات ونفقات وتقنيات متطورة، ولما كانت الخيول في الماضي هي أصل الحروب وأقوى القوى وحصون الفرسان، خصها الله بالذكر تشريفاً لها، وإذا تغيرت الوسائل الحربية، تغير الواجب لإرهاب عدو الله وعدو المؤمنين الظاهر والعدو الخفي الذي نعلمه أو لا نعلمه وإنما يعلمه الله، فالإرهاب سبب الإعداد، وطريق تحصين البلاد وتوفير الأمن والسلامة.

والقاعدة الثانية: الإنفاق الضروري للتسليح؛ لأن تحقيق النصروالإعداد الملائم لا يكون إلا بالمال، والإنفاق السخي هو سبيل توفير الأموال، وفيه ثواب عظيم عند الله تعالى في الدنيا والآخرة، سواء كان المال قليلاً أو كثيراً في سبيل الله، فقد يجازي الله بعض المؤمنين المنفقين في الدنيا مجازاة مضافة إلى مجازاة الآخرة. وإذا توافر

(١) كافيك في رد خديعتهم.

المال الضروري لكل إعداد ومعركة، أمنت البلاد وأهلها، ولم يقعوا في ظلم الجوار وتسلط الأعداء، وكان للمنفقين في سبيل الله والجهاد الدرجة العليا في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٢].

والقاعدة الثالثة: إيثار السلم، فبعد توافر الإعداد الحربي والاستعداد التام للجهاد إن مال العدو إلى طلب الصلح أو المعاهدة، ورغب في السلم وآثره على الحرب والقتال، فالحكم قبول الصلح حسبما يرى الإمام الحاكم من المصلحة للإسلام والمسلمين، وإذا لم يغتصب العدو بلادنا وديارنا، فإنه في حال الغصب وتوافر القوة لا يجوز إقرار الغاصب على ظلمه، وإبقاء الديار في حوزته وتحت سلطانه، وإذا تم الاتفاق على الصلح، وجب التوكل على الله والثقة به، وتفويض الأمر إليه، دون خوف من مكر العدو وخديعته، فإن الله يحمي المؤمنين من مكيدة العدو أو مكره وغدره في جنوحه إلى السلم، والله سميع لما يقولون، عليم بما يفعلون. وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أمر في ضمنه وعيد.

والقاعدة الرابعة: الاعتماد على الله في كل حال: فإن أراد العدو بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا، وأظهروا السلم وأبطنوا الغدر والخيانة، فلا تأبه أيها النبي بنياتهم الفاسدة، واجنح إلى السلم، فإن الله كافيك ومؤيدك بالنصر والغلبة، كما يؤيدك المؤمنون المخلصون وهم الأنصار. وهذا وعد محض من الله بالتأييد، وحسن ظن بمؤازرة المؤمنين، فعلى المؤمنين أن يكونوا دائماً أقوياء العزم والعزيمة، ثابتي الجنان، فإن الله معهم بالنصر والمعونة إن نصروا دينه وشرعه، ولا شك أن هذا يقوي الروح المعنوية في الصف الإسلامي والجيش المؤمن، الذي نذر نفسه للجهاد في سبيل الله والحق والعدل وإعلاء كلمة الله، وأرخص النفس والمال النفيس من أجل إعلاء بناء المجد والحفاظ على صرح الإيمان وكيان المؤمنين.

توحيد الأمة وتحريضها على القتال

إن من أصعب الأمور الجسام توحيدَ الأمة وتوجيهَها نحو هدف واحد، وكانت هذه المشكلة من أهم القضايا التي واجهها النبي ﷺ في بدء الدعوة الإسلامية، واستطاع بإلهام من الله وحكمة وتوفيق أن يتغلب على هذه المعضلة، وأن يجعل من القبائل العربية أمة موحدة الصف، قوية البنيان، تتجه نحو هدف واحد وعدو واحد، وصف الله تعالى طريق الوصول إلى وحدة الأمة في قوله تعالى:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ[1] الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٣-٦٦].

آية التأليف بين قلوب المؤمنين إشارة إلى العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج في حروب بعاث، فألف الله تعالى قلوبهم على الإسلام، وردهم متحابين في الله، وهذا تذكير بنعمة الله على نبيه ولطفه به، فكما لطف به ربه أولاً، فكذلك يفعل آخراً. لقد أيد الله رسوله بجند الإيمان من المهاجرين والأنصار، الذين دافعوا عنه دفاع الأبطال الشرفاء، والله بفضله هو الذي ألف بين قلوبهم، وجمعهم على كلمة الحق والشهادة، وغرس في قلوبهم التحابّ والتوادد بعد العداوة والبغضاء في الماضي الجاهلي، وصار كل تآلف في الله تابعاً لذلك التآلف الكائن في صدر الإسلام، روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن مألف، لا خير فيمن

(١) حثهم حثاً بالغاً.

لا يألف ولا يؤلف». والتشابه في الصفات والأفعال هو سبب الألفة، فمن كان من أهل الخير ألف أشباهه وألفوه.

وكان التأليف بفعل الله، فلو أنفقت أيها النبي جميع ما في الأرض من أموال، ما استطعت تأليف قلوب العرب، وجمع كلمتهم، ولكن الله بهدايتهم للإيمان، وتوحيدهم على طريق سوي، حقق التأليف بينهم بقدرته وحكمته، إن الله قوي لا يغلب، حكيم في أفعاله. ومعلوم أن من أهم أسباب النصر هو التآلف واتحاد الكلمة. ولم يقتصر التأليف على تسوية المنازعات الجاهلية القديمة، وإنما شمل تسوية المنازعات الناشئة بعد الإسلام، كالخلاف في شأن قسمة الغنائم.

وكما وعد الله رسوله بالنصر عند مخادعة الأعداء، وعده بالنصر والظفر في جميع الحالات في الدين والدنيا، لذا أخبر الله سبحانه بأنه كافٍ نبيه كل ما يهمه من شؤون وناصره ومؤيده على أعدائه، وإن كثرت أعدادهم وتزايدت أمدادهم، وكان عدد المؤمنين قليلاً وعُدتهم ضعيفة. ويؤيده أيضاً أتباعه المؤمنون الذين بايعوه على الإيمان والجهاد والدفاع عنه وعن الإسلام. وقد نزلت آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال.

ولكن توحيد الأمة وإن كان أساس القوة وبناء الجبهة الداخلية، فعليك أيضاً أيها النبي أن تحرِّض المؤمنين على القتال، ولما كان المؤمنون قلةً في صدر الإسلام، أُمر الواحد منهم أن يثبت في الحرب أمام عشرة من الكفار، فإن يكن منكم عشرون صابرون في القتال، ثابتون في مواقعهم، يغلبوا بإيمانهم وصبرهم وفقههم مئتين من الأعداء، ليست عندهم هذه الخصال الثلاث، وإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفاً من الكفار، والسبب في هزيمتهم أنهم قوم جهلة لا يدركون حكمة الحرب، كما يدركها المؤمنون، فهم إنما يقاتلون بقصد مجرد التفوق والاستعلاء، والمؤمنون

يقاتلون لإعلاء كلمة الله، من إصلاح العقيدة، والتطهر من الوثنية، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، وإظهار العبودية لله عز وجل بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم خفف الله عن المؤمنين، فأمر الواحد منهم أن يثبت أمام اثنين من الأعداء، والمعنى: الآن خفف الله عنكم لمرتبة أقل من المرتبة الشديدة الأولى، فإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله وقوته ومشيئته، والله دائماً مع الصابرين بالمعونة والتأييد والرعاية.

وسبب النزول ما رواه البخاري وابن إسحاق عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ شقّ ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفرّ الواحد من عشرة، فجاء التخفيف فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ..﴾ الآية. قال: فلما خفف الله عنهم من العِدّة، نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.

أحكام الأسرى

تحتاج كل دولة في بدء تكوينها إلى بعض الأحكام الانتقالية الصارمة، لتثبيت وجودها ومنعتها وإظهار هيبتها وقوتها، فيرهبها العدو، ولا يطمع بها الصديق، ويخضع لها أتباعها في الداخل دون تباطؤ أو محاولة التهرب من سلطانها أو تنفيذ أوامرها، وهذا ما احتاجه المسلمون في مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية، وإشادة الدولة في المدينة المنورة، وذلك بالنسبة لمعاملة أسرى العدو، بعد أول معركة حاسمة، سميت يوم الفرقان وهو يوم بدر الكبرى، قال لله تعالى مبيناً هذه المعاملة:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ(١) فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا(٢)

(١) الإثخان: الإكثار في القتل والمبالغة فيه. (٢) حطامها بأخذ الفداء.

وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ[1] مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٧-٧١]

سبب نزول هذه الآيات يظهر فيما رواه الإمام أحمد وغيره عن أنس بن مالك قال: استشار النبي ﷺ في الأسارى يوم بدر، فقال: إن الله قد أمكنكم منهم، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم، فأعرض عنه، فقام أبو بكر فقال: نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء، فأنزل الله: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ الآيات.

هذه الآيات في رأي ابن عطية معاتبة من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ.

والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي أسرى قبل الإثخان (الإكثار في القتل) والإخبار هُوَ لهم، ولذلك استمر الخطاب بـ ﴿تُرِيدُونَ﴾ والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قط عرَض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب. ودخل النبي ﷺ في العتاب حين لم يَنْه عن ذلك، وعذره أنه كان مشغولاً بظهور النصر، فترك النهي عن استبقاء الأسرى.

والرأي عند كثير من المفسرين: أن هذا التوبيخ إنما كان بسبب إشارة من أشار على النبي ﷺ بأخذ الفدية، كما ذكر في سبب النزول المتقدم.

وعلى كل حال، فإن معنى الآيات في الظاهر: ما صح لنبي وما استقام له الأمر

(١) فمكّنك منهم يوم بدر.

باتخاذ الأسرى حتى يكثر القتل في الكفار ويبالغ فيه، لإظهار عزة الإسلام والمسلمين، وإرهاب الدولة أعداءها، واشتداد أمرها، فلا يتجرأ عليها أحد، ولا يتجسس عليها أحد من الأسرى العائدين لديارهم بفداء مالي. فالذين يرون قبول الفداء المالي إنما يريدون الحصول على عرض الدنيا، أي منافعها وأمتعتها، والله يريد لكم ثواب الآخرة الدائم، وما يؤدي إلى الجنة من أحكام زاجرة لإعزاز الدين وإرهاب الأعداء، وإعلاء كلمة الحق والعدل، وإقامة النظام الأصلح للبشرية، والله قوي يغلِّب أولياءه على أعدائه، ويمكنهم منهم قتلاً وأسراً، حكيم في أفعاله وأوامره، يشرع لكل حال ما يليق به و يخصه به.

لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح -وهو ألا يعاقب المخطئ في اجتهاده- لنالكم أيها المؤمنون فيما أخذتم من الفداء يوم بدر عذاب عظيم وقعه، وفي هذا تهويل خطر ما فعلوا.

وبعد هذا العتاب الإلهي على أخذ الفداء، أباح الله تعالى للمسلمين الانتفاع بالغنائم الحربية وهي الفدية المالية وغيرها، حال كون الشيء المغنوم حلالاً طيباً بنفسه، لا حرمة فيه لذاته. واتقوا الله في مخالفة أوامره، ولا تعودوا لشيء من المخالفة، إن الله غفور للذنوب ومنها أخذ الفداء، رحيم بكم بإباحته لكم ما أخذتم، وقبوله التوبة عن عباده.

ثم أمر الله نبيه أن يخاطب الأسرى بقوله استمالة لهم وترغيباً لهم في الإسلام: إن يعلم الله في قلوبكم الآن أو في المستقبل خيراً، أي إيماناً وإخلاصاً وتوبة عن الكفر وجميع المعاصي، يؤتكم خيراً مما أخذ منكم من الفداء، ويغفر لكم ما كان منكم من الشرك والسيئات، والله غفور لمن تاب من معاصيه، رحيم بالمؤمنين، فهو يُمدهم بعونه وتوفيقه، وفي هذا حَضّ على إعلان الإسلام وقبول دعوته.

وأما هؤلاء الأسرى فإن يريدوا خيانتك أيها النبي بإظهار الإسلام والمسالمة، ثم نقض ما عاهدوك عليه، فلا تخف خيانتهم، فإنهم قد خانوا الله من قبل بَدْر بالكفر، فأمكنك منهم يوم بدر، وإن عادوا إلى الخيانة فسيمكّنك الله منهم، ويسلّطك عليهم فتهزمهم، والله عليم بنواياهم، حليم في تدبيره وصنعه، فينصر المؤمنين على الكافرين.

الروابط الإسلامية

استأصل الإسلام منذ فجر دعوته الإصلاحية الكبرى كل المعاني والروابط القبلية والعنصرية والعرقية، وأحل محلها روابط أخلد وأقوى وأمتن، وهي روابط الإيمان والهجرة والجهاد والإيواء والنصرة وقرابة النسب أو الدم، وكان المسلمون في صدر الدعوة الإسلامية أصنافاً أربعة في مواجهة الأعداء وهم:

١- المهاجرون الأولون قبل معركة بدر وقبل صلح الحديبية.

٢- الأنصار: أهل المدينة الذين آووا إخوانهم المهاجرين ونصرهم.

٣- المؤمنون الذين لم يهاجروا.

٤- المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية.

وهذا التصنيف هو ما ذكرته أواخر سورة الأنفال في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
(٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ[1] بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٧٢-٧٥].

نزلت آية: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ..﴾ فيما روى الطبري وغيره في رجل قال: «نورّث أرحامنا المشركين». ونزلت آية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ فيما روى الطبري أيضاً في إلغاء التوارث بالتعاقد والولاء، فكان الرجل يعاقد الرجل فيقول له: ترثني وأرثك.

ومقصد هذه الآيات تبيين منازل المهاجرين والأنصار والمؤمنين الذين لم يهاجروا، والكفار، والمهاجرين بعد صلح الحديبية، وبيان نسب بعضهم من بعض، حيث أحلّ الله قرابة الإسلام محل قرابة النسب والكفر، فقدم الله تعالى التنويه بالمهاجرين من مكة إلى المدينة، وهم أصل الإسلام، واتصفوا أي المهاجرون بصفات أربع: صفة الإيمان الصادق بالله ورسوله، والهجرة في سبيله من أوطانهم، والجهاد بالمال والنفس والنفيس في سبيل الله، وأولية الإقدام على هذه الأفعال.

وهم أصحاب الهجرة الأولى قبل غزوة بدر إلى صلح الحديبية سنة ست من الهجرة، فهم الأفضل والأكمل في الإسلام، لأنهم خرجوا من ديارهم وأموالهم، وتركوها في مكة، وجاؤوا لنصرة الله ورسوله وإقامة دينه، وفروا بدينهم من فتنة المشركين، إرضاء لله تعالى ونصراً لرسوله ﷺ، جاهدوا بأموالهم فأنفقوها في التعاون والدفاع عن دين الله، وجاهدوا بأنفسهم، فقاتلوا الأعداء، وصبروا على الأذى والشدائد.

(١) أصحاب القرابة.

ويأتي الأنصار في المرتبة الثانية بعد المهاجرين، فهم آووا الرسول والمهاجرين ونصروهم وأيدوهم، وقاتلوا معهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل مرضاة الله. واستحق المهاجرون والأنصار أن يوصفوا بأن بعضهم يتولى أمر البعض الآخر، كما يتولى أمر نفسه، ويكون كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، لأن حقوقهم ومصالحهم مشتركة، لذا آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، وكانوا يتوارثون بهذا الإخاء المقدم على قرابة النسب، حتى تقوى المهاجرون بالتجارة وغيرها، فنسخ الله تعالى ذلك بآيات المواريث في سورة النساء.

ثم ذكر الله تعالى الصنف الثالث وهم المؤمنون الذين لم يهاجروا، وظلوا مقيمين مع المشركين في أرض الشرك في مكة قبل الفتح، وهؤلاء لا يجب على المسلمين مناصرتهم حتى يهاجروا إلى المدينة. وإذا طلبوا المناصرة على الأعداء، فينصرون إلا إذا كان الكفار المعادون معاهدين، فيجب الوفاء بعهدهم؛ لأن الإسلام لا يبيح الغدر والخيانة، والله عليم مطلع على جميع الأعمال، فيجب التزام حدود الله وترك مخالفة أوامره.

وكان الكفار صفاً واحداً في مواجهة المؤمنين، فلا توارث بين الفريقين، ويلزم احترام أحكام شرع الله، فإن لم تفعلوا أيها المؤمنون ما شرع الله لكم من موالاة المسلمين ومناصرتهم، تحصل فتنة عظيمة في الأرض: هي ضعف الإيمان وقوة الكفر، ويحصل فساد كبير: وهو سفك الدماء. وهذا يتطلب تماسك المؤمنين في مواجهة أعدائهم. والمؤمنون والمهاجرون والمجاهدون والأنصار هم أهل الإيمان الحق لهم مغفرة من ربهم ورزق وافر كريم في الجنة، وهو الدائم الذي لا ينقطع أبداً.

والصنف الرابع: هم الذين آمنوا وهاجروا بعد صلح الحديبية، وهم مع المؤمنين ومن المؤمنين، في الموالاة والتعاون والتناصر والفضل والجزاء، لكنهم في المرتبة دون السابقين الأولين من أهل الإيمان.

ثم ذكر الله تعالى ولاية الرحم والقرابة بعد ولاية الإيمان والهجرة، أي إن رابطة القرابة في الدم والنسب تكون سبباً للتوارث والتناصر، وصارت هي المقدمة على رابطة الهجرة في عهدها السابق، وذلك في حكم الله الذي كتبه على عباده المؤمنين، والله عليم بكل الأشياء، ومحيط علمه بكل شيء من مصالح الدنيا والآخرة، وما على المؤمنين إلا الطاعة، فإن أخوة النسب والدم والإيمان صارت أخيراً سبباً للتوارث، وإن كانت الأخوة في الله أولى وأحكم، وأبقى وأخلد. ووجب بهذه الآية الأخيرة آية أولي الأرحام: أن يرث الرجل قريبه وإن لم يكن مهاجراً معه.

تفسير سورة التوبة

نقض عهود المشركين

اختصت سورة التوبة أو سورة براءة المدنية النزول بترك البسملة في أولها؛ لأنها نزلت في السنة التاسعة من الهجرة في غزوة تبوك لرفع الأمان ونقض العهود مع المشركين بسبب نقض الكثيرين منهم عهودهم مع النبي ﷺ. قال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ أمان وبشارة، و﴿بَرَاءَةٌ﴾ نزلت بالسيف ونبذ العهود، فلذلك لم تبدأ بالأمان. قال الله تعالى:

﴿بَرَاءَةٌ(١) مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي(٢) اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢ وَأَذَانٌ(٣) مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ(٤) أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ(٥) فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا(٦) عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة: ٩/ ١-٤].

كان النبي ﷺ والمسلمون عاهدوا المشركين العرب من أهلة مكة وغيرهم في صلح الحديبية سنة ست هجرية، ثم بادر المشركون إلى نقض العهد إلا بني ضَمْرة وبني

(١) تبرؤ ظاهر معلن. (٢) غير فائتين من عذابه بالهرب. (٣) إعلان. (٤) يوم الوقوف بعرفة ويوم النحر.
(٥) أي ورسوله بريء منهم. (٦) لم يعاونوا.

كنانة، فأمر الله تعالى بإعلان انتهاء المعاهدات مع المشركين الناكثين عهودهم، وإمهالِهم أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤوا، فإذا انتهت هذه المدة وانقضت الهدنة قاتلوهم في أي مكان.

هذه الآية حكم من الله عز وجل بنقض العهود والموادعات التي كانت بين رسول الله ﷺ، وبين طوائف المشركين الذين ظهر منهم بوادر نقض العهد. واستمر حكم العهد والميثاق مع المشركين الذين لم ينقضوا العهد.

ومعنى الآية: تبرؤ وتخلص صادر من الله ورسوله واصل إلى الذين عاهدتم من المشركين، ونسبت البراءة إلى الله والرسول؛ لأنها تشريع جديد من الله، وأمر لرسوله بتنفيذه. والمقصود: أن الله في حكمه وشرعه بريء من عهود المشركين وأديانهم براءة عامة تقتضي المحاربة وإعمال السيف، بعد أن رفضوا أمان الإسلام، ونقضوا عهدهم مع المسلمين. وبادر النبي ﷺ إلى إعلام المشركين بنقض العهد، فأمّر أبا بكر في السنة التاسعة على إمارة الحج، وقام علي رضي الله عنه بإعلام الناس يوم عرفة بهذه الآية، إثر خطبة أبي بكر، ثم رأى الرسول أنه لم يَعْلم الناس بالإعلان، فتتبعهم بالأذان بهذه الآية وإعلامِهم بها يوم النحر، وبعث أبو بكر مع علي من يعينه بذلك كأبي هريرة رضي الله عنه وغيره، فأعلموهم بها في أسواق العرب كذي المجاز وغيره، وحددت لهم مدة الهدنة بأربعة أشهر وهي عشرون من ذي الحجة والمحرّم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من ربيع الآخر. وكان تحديد هذه المدة ليفكروا في أمرهم، فيختاروا إما الإسلام وإما القتال. وأنذرهم الله بأن يعلموا علم اليقين أنهم لن يفلتوا من عذاب الله بالهرب والتحصين إن بقوا على الشرك وعداوة الإسلام، وأن الله مخزيهم، أي مذلهم في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالعذاب في النار.

وتضمنت الآية إعلان براءتين: البراءة الأولى مختصة بالمعاهدين والناقضين العهد

منهم، والبراءة الثانية المعبر عنها بالأذان من الله ورسوله عامة لجميع الناس، من عاهد ومن لم يعاهد، ومن نكث عهده من المعاهدين ومن لم ينكث، وكان إعلان البراءتين يوم الحج الأكبر وهو يوم عرفة، حيث وقع أول الأذان أي الإعلام، ثم يوم النحر حيث وقع إكمال الأذان.

وصيغة الإعلان هي كما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: «بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: «ألا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان» وقال علي أيضاً: «ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد، فأجله أربعة أشهر، وأن يُتَم إلى كل ذي عهده عهدُه».

ثم أكد الله تعالى الإعلام أو التبليغ الفوري فقال: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ..﴾ أي فإن تاب المشركون بعد هذا الإعلان عن الشرك فهو خير لهم، أي أنفع لهم في الدنيا والآخرة، وإن تولوا عن الإيمان وأعرضوا عن الإسلام، فليعلموا أنهم غير معجزي الله، أي غير فائتي عذابه، فإنهم لن يفلتوا منه، فإنه محيط بهم، ومنزل عقابه عليهم، ولا طاقة لهم بحرب الله في الدنيا، وأُمر النبي أن يبشرهم -على سبيل التهكم- بعذاب مؤلم شديد في الآخرة.

ثم استثنى الله تعالى من مدة الأربعة الأشهر أصحاب العهود المؤقتة بمدة معينة، فإن عهدهم ينتهي بانتهاء المدة التي عوهدوا عليها، فهؤلاء تحترم عهودهم، ما داموا لم يُخلّوا بشيء من شروط العهد، ولم يعاونوا على المسلمين عدواً، كبني ضَمْرة وبني كنانة، لأن الله يحب المتقين، أي الموفين بعهدهم. قال ابن عباس: بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر، فأتم إليهم عهدُهم.

قتال مشركي العرب وأمانهم

أوجب الله تعالى على المؤمنين قتال مشركي العرب في أي مكان إذا لم يؤمنوا لأنهم عدة الإسلام وقاعدته، ومنطلق الدعوة الإسلامية إلى الناس قاطبة وعليهم مسؤولية تبليغ الرسالة الإلهية، فإما أن يكونوا على مستوى المسؤولية أو يبادوا، ويتحمل الأمانة جيل آخر يكون أقدر على فهم الواجب والتفاعل مع متطلبات المهام الكبرى المنوطة بهم، وقد فتح الله باب الأمل أمامهم، فسمح لهم بالمجيء إلى ساحة القرآن والوحي الإلهي ليفكروا فيما أنزل الله، عن طريق منح الأمان المشروع لكل طالبِ سماع كلام الله، قال الله تعالى مبيناً هذين الحكمين المتلازمين: وهما القتال والأمان:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ(١) الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ(٢) وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ(٣) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٥-٦].

تسمى الآية الأولى ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ..﴾ آية السيف، إذ جاء فيها الأمر بالقتال العام، ومعناها إذا انقضت الأشهر الأربعة الحرُم، أي التي حرم فيها القتال بين المسلمين والمشركين، وهي مدة الهدنة، من يوم النحر (الأضحى) إلى العاشر من ربيع الآخر، فافعلوا أيها المؤمنون مع المشركين ما يحقق المصلحة، ويهيئ للمسؤولية والمهام العظمى الملقاة على عاتق الأمة العربية، واتّخذوا معهم أحد التدابير الآتية:

إما القتال والقتل في أي مكان وجدوا فيه، من حرم مكة أو غيره، وإما أخذهم أسرى إن شئتم، وإما محاصرتهم في قلاعهم وحصونهم ومنعُهم من الخروج منها حتى

(١) انقضت ومضت. (٢) حاصروهم وضيقوا عليهم. (٣) كل طريق ومعبر.

يسلموا، وإما القعود لهم في كل مرصد، أي مراقبتهم في كل موضع حتى يختاروا إما الإسلام أو القتال، وهذا خاص بمشركي العرب فقط. فإن تابوا عن الشرك الذي حملهم على قتال المسلمين وعداوتهم، وأعلنوا الإسلام وأدوا أركانه من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فخلّوا سبيلهم، واتركوهم وشأنهم واعلموا أن الله غفور لمن استغفره، رحيم بمن تاب إليه، وهذا وعد بالمغفرة في صيغة الخبر عن أوصافه تعالى، لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

والتنبيه بالذات على إقامة الصلاة، لأنها أشرف أركان الإسلام الذاتية بعد الشهادتين، وبعدها أداء الزكاة التي هي أشرف الأفعال الاجتماعية، التي تحقق مضمون التكافل أو التضامن الاجتماعي، وتعالج مشكلة الفقر، حتى تتقوى الأمة كلها. قال أنس بن مالك: هذا هو دين الله الذي جاءت به الرسل، وهو من آخر ما نزل قبل اختلاف الأهواء، وفيه قال النبي ﷺ فيما رواه ابن ماجه والحاكم عن أنس: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لاشريك له، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راض».

وليست العلاقة مع البلاد الإسلامية مغلقة، تحكم من وراء ستار حديدي، وإنما هي مفتوحة، فمطالبة المشركين بعد انتهاء مهلة الهدنة أو الأمان مدة أربعة أشهر بالإسلام أو القتال، لا تعني عدم تمكين المشركين من سماع أدلة الإيمان، فلو طلب أحد من المشركين الدليل على الإيمان والحجة على الإسلام، أو جاء طالباً استماع القرآن، أو جاء برسالة أو سفارة لإمام المسلمين، أو أراد الدخول بقصد التجارة، فإنه لا يمنع ويجب إمهاله، ويحرم قتله، ويسمح له بالتنقل في ديار الإسلام، ويجب بعد انتهاء مدة أمانه إيصاله إلى مأمنه، أو دياره ووطنه، ليكون على بيِّنة من أمره، مختاراً حراً فيما يقرره؛ لأن المهم نشر الدعوة الإسلامية بالطرق السلمية، وبالإقناع

العقلي، والحجة والبرهان، لأنه ليس الهدف من تشريع الجهاد سفك الدماء، أو جلب الغنائم، وإنما المهم الوصول إلى الإيمان بالله وتوحيده، وتركُ الكفر والجحود، وإقرار السلم والأمن، ونشر ألوية الحرية، وتهيئة مناخ المعرفة والعلم، وإطلاق حرية الفكر والرأي. وهذا الاتجاه السلمي وإيثار الأمن والسلام وإعلان مبدأ التسامح والمحبة وترك التعصب والانغلاق بسبب أن هؤلاء المشركين قوم جهلة، لا يعلمون حقيقة الإسلام وما يدعو إليه، ومن جهل شيئاً عاداه، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا كلام الله، ويفهموا الحق الذي أنزله.

وهذه الآية آية منح الأمان لغير المسلمين ذات حكم عام تشمل جميع الأهداف الدينية والسياسية والتجارية، وتعلُّمَ وسائل المعرفة والبراهين العلمية، والاسترشاد بالأدلة العقلية الناصعة.

أسباب البراءة من عهود المشركين

لا نجد في شرعة الإسلام أي حكم تشريعي غير قائم على أسس عقلية سليمة، وحجج منطقية رصينة، فالإسلام كله دين المنطق والعقل والحكمة، فهو حين يقرر حكماً نجده منسجماً مع الفطرة والأصول الفكرية والمنهجية السديدة، وحين يشتد أحياناً على قوم فبسبب ظلم هؤلاء الناس وخروجهم على مقتضى الحكمة والمصلحة، بل إنهم يعادون أنفسهم حين يتركون ما يسعدها، ويسيرون في فلك أهوائهم وشهواتهم حين يعطلون مفاتيح المعرفة والإدراك والحواس، لذا أبان القرآن أسباب إعلان البراءة من معاهدات المشركين، ورتّب على ذلك قتالهم، وتتلخص تلك الأسباب في تهورهم ومبادرتهم لنقض عهودهم، قال الله تعالى:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ(١) فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ
وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ(٢) لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً(٣) يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ
وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾
[التوبة: ٩/٧-١٠].

هذه الآيات الكريمة بيان سبب البراءة من عهود المشركين وإمهالهم أربعة أشهر، ثم مناجزتهم بكل أنواع القتال، لتطهير الجزيرة العربية من الوثنية والفوضى والهمجية، والسبب واضح من جانب المشركين وهو نقضهم العهود ومعاملتهم بالمثل.

وجاء البيان على سبيل الاستفهام الإنكاري والتعجب والاستِبْعاد لأن يكون لهم عهد، وهم أعداء حاقدون، مضمرون الغدر، مشركون بالله، كافرون به وبرسوله، والشرك وِكْر الخرافات والأباطيل، ومهد التخلف والفوضى، أي محال أن يثبت لهم عهد، فلا تطمعوا أيها المؤمنون في ذلك. وعلى أي وجه يكون للمشركين عهد، وهم قد نقضوا العهود، وجاهروا بالتعدي.

ثم استثنى الله من نبذ العهد مع عموم المشركين: الذين عُوهدوا عند المسجد الحرام، وهو الحرم كله، أي في ناحيته وجهته، وهم قبائل بني بكر وبني ضَمْرة الذين لم ينقضوا عهودهم المعقودة معهم يوم الحديبية، فهؤلاء حكمهم أنهم ما استقاموا لكم فاستقيموا لهم، أي حافظوا على عهدهم ما داموا محافظين عليه، قائمين على الوفاء به. فأما من لا عهد له، فقاتلوه حيث وجدتموه إلا أن يتوب.

---

(١) فما أقاموا على العهد معكم. (٢) يظفروا بكم. (٣) أي لا يراعوا حِلْفاً وجواراً وعهداً، ولا يحافظوا عليها ولا على القرابة، الإل: العهد والقرابة، والذمة: الأمان.

ثم أكد الله تعالى ضرورة الحفاظ على العهد والوفاء بالعقد لهؤلاء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي يرضى عن الذين يوفون بالعهد، ويتقون الغدر ونقض العهد. وهذا تعليل لوجوب امتثال المؤمنين لما يأمرهم به ربهم، وتبيان بأن مراعاة العهد من باب التقوى، حتى وإن كان المعاهد مشركاً.

وكرر الله تعالى في قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ..﴾ استبعاد ثبات المشركين على العهد، فكيف يكون لهم عهد محترم، والحال أنهم إن يظفروا بكم، لم يراعوا حلفاً ولا قرابة ولا عهداً، وهذا تحريض للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم، بل وأكثر من هذا، فمن خبثهم وضغينتهم أنهم قوم مخادعون، يظهرون الكلام الحسن بأفواههم، وقلوبهم مملوءة حقداً وحسداً وكراهية: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ٤٨/١١] وأكثرهم فاسقون، أي متمردون لا عقيدة تزعهم، ولا مروءة تردعهم، خارجون من أصول الدين والمروءة والأخلاق. وعبر تعالى بقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ لأن نقض العهد كان من الأكثرين.

وأردف الله تعالى بيان سببين آخرين للبراءة من عهود المشركين وإيجاب قتالهم وهما أولاً -أنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، أي استبدلوا بآيات الله الدالة على الحق والخير والتوحيد عوضاً قليلاً حقيراً من متاع الدنيا، وهو اتباع الأهواء والشهوات، والطمعُ بالأموال متاع الدنيا الخسيسة، فمنعوا الناس من اتباع الدين الحق فبئس العمل عملهم، وقبح ما ارتضوه لأنفسهم من الكفر والضلالة وترك الإيمان.

وثانياً -أنهم من أجل كفرهم لا يراعون في شأن مؤمن قدروا على الفتك به حلفاً ولا قرابة ولا عهداً على الإطلاق، وأولئك هم المعتدون، أي المجاوزون الغاية في الظلم والشر، فأصبحوا لا يفهمون بغير لغة السيف، والخضوع للقوة، لا للعهد والذمة، والقيم والأخلاق والمبادئ.

مستقبل المشركين العرب

أبان الله تعالى مصير المشركين العرب وحالهم في المستقبل بعد إعلان عداوتهم للإسلام، فإما أن يختاروا التوبة وقبول الإسلام، أو يلجؤوا إلى القتال. ودخولهم في الإسلام إيثار للسلام وحقن للدماء وبناء مستقبل زاهر حافل بالأمجاد والمفاخر، واحتكامهم للقتال انتحار ودمار وتحطيم لقواهم المادية والمعنوية، قال الله تعالى مبيناً كيفية معاملتهم في كلا الحالين:

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم(١) مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ(٢) ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١١-١٥].

أوضح الله تعالى حال الكفار المشركين بعد أن اختاروا موقف العداء للمسلمين، فهم بين أمرين:

أحدهما: التوبة عن كفرهم والرجوع عن حالهم، والتوبة تتضمن معنى الإيمان بالله ورسوله ودينه، ثم قرن الله تعالى مع إيمانهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. إن فعلوا ذلك، فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، ونبين الآيات لقوم يعلمون، أي نوضح الأدلة والبراهين على وجودنا الحق، لقوم يعلمون ما نبين لهم،

(١) نقضوا عهودهم المؤكدة بالأيمان . (٢) غضبها ووَجْدها .

فيفهمون ويتفقهون. والأخوة في الدين: هي أخوة الإسلام وهي أقوى من أخوة النسب.

والأمر الثاني: القتال بعد نكث أيمانهم، أي بعد نقض عهودهم، وطعنهم في الدين، أي بالتعييب والاستنقاص والحرب وغير ذلك مما يفعله المشرك. وحينئذ فقاتلوا أئمة الكفر، أي رؤوسهم وأعيانهم الذين يقودون الناس إليه، والمراد بهذا أبو جهل بنُ هشام وعتبة بن ربيعة وغيرهم، إنهم لا عهود لهم ولا ذمة، لعلهم بالقتال ينتهون عن كفرهم وباطلهم وإيذائهم المسلمين، والصحيح أن الآية عامة لمشركي العرب ولغيرهم، كما ذكر ابن كثير، والمراد بقوله: ﴿لَآ أَيۡمَـٰنَ لَهُمۡ﴾ أي لا أيمان لهم يوفّى بها ويُبَرّ.

ثم حرض الله تعالى على قتال مشركي العرب، قال قتادة فيما رواه أبو الشيخ: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في خزاعة حين جعلوا يقتلون بني بكر بمكة، وأسباب التحريض على قتالهم ثلاثة:

الأول- نكثهم العهد والأيمان التي أقسموا عليها. والعهد الذي نقضوه هو صلح الحديبية، لمناصرة قريش حلفاءهم بني بكر على خزاعة حلفاء النبي ﷺ ليلاً بالقرب من مكة، على ماء يسمى (الهجير) فسار إليهم الرسول وفتح مكة سنة ثمان هجرية في العشرين من رمضان.

والسبب الثاني- إخراجهم الرسول ﷺ من مكة، فقد أخرجوه من بلده: مكة، أي إنهم هموا وفعلوا.

والسبب الثالث- إنهم بدؤوا بقتال المؤمنين يوم بدر حين صمموا على المعركة، وفي مكة، وعاونوا بني بكر حلفاءهم على خزاعة حلفاء المؤمنين، فكان هذا بدء النقض. وكذلك في أُحد والخندق وغيرهما.

ثم ذكر الله بعد هذه الأسباب الثلاثة دواعي أربعة للقتال: وهي تعداد موجبات القتال، والتحريض على الإغارة في قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ وكون الله أحق بالخشية لأنه صاحب القدرة المطلقة التي تدفع الضرر المتوقع وهو القتل، والإيمان بقوله ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فالإيمان قوة دافعة على الإقدام، والخلاصة: لا تخشوا أيها المؤمنون أعداءكم، واخشوا الله وحده، فهو أحق بالخشية منهم، إن كنتم مؤمنين بالله.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بالقتال أمراً صريحاً حاسماً بقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ أي قاتلوا أيها المؤمنون أعداءكم، فإن قاتلتموهم يعذبهم الله بأيديكم، و يخزهم بالقتل والأسر والهزيمة، وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين امتلأت غيظاً من أفعال المشركين بهم في مكة، وهم بنو خزاعة حلفاء الرسول ﷺ الذين بيتهم بنو بكر والمشركون ليلاً، وأعملوا فيهم السيف قتلاً وذبحاً بالوتير، قائمين وقاعدين، راكعين وساجدين.

وبالرغم من شناعة فعل المشركين بالمؤمنين، فإن الله تعالى يقبل توبة من يتوب عن كفره منهم، وقد حدث ذلك فعلاً، فأسلم أناس منهم، وحسن إسلامهم، مثل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل، وسليم بن أبي عمرو. والله عليم بما يصلح عباده، حكيم في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحكيم الذي لا يجور أبداً، ولا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة، ويجازي كل إنسان بما قدم من خير أو شر، في الدنيا والآخرة.

التحريض على الجهاد وعمارة المساجد

إن إعداد الأمة إعداداً قوياً، وبناء قوتها الذاتية، يتطلب عملاً متواصلاً من الجهاد، والاعتماد على الذات وثقاتِ الناس، والإقبال على عمارة المساجد عمارة مادية بالبناء والترميم، ومعنوية بالصلاة والعبادة والخدمة، وعقد حلقات العلم

والإرشاد والتوجيه، والإخلاص في العمل وبناء العقيدة الراسخة في النفوس. قال الله تعالى مبيناً هذه الخطوات البناءة لإصلاح الفرد والجماعة:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً[1] وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ[2] وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ٩/١٦-١٨].

تضمنت الآيات الكريمة طريق الحفاظ على كيان الأمة وصدِّ عدوان المعتدين عليها، وبناءِ شخصيات المؤمنين بروحانية عالية ومعنويات رفيعة بالصلاة والزكاة، ليظفروا بجنان الخلد، وينعموا بالهداية والرشاد.

ليعلم المؤمنون أن الجهاد طريق الجنة، ولن يصح في موازين الأشياء ترك جماعة المسلمين من دون تمحيص ولا اختبار، ففي الجهاد يتبين أهل العزم والإخلاص الذين يجاهدون بالأموال والأنفس، ولم يتخذوا بطانة (أمناء سر) من الأعداء، يسرِّون إليهم بأحوال المسلمين وأمورهم وأسرارهم، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، وبه يتميزون عن المنافقين الذين يُطْلعون الأعداء على أسرار الأمة وسياستها وخططها، فلا بد من اختبار أهل الإيمان في عالم الدنيا، ولا سيما عند فرض القتال وفي كل شؤون الحياة، كما جاء في آية أخرى: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ[3] ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/١-٢].

والله خبير في كل وقت بأعمالكم أيها الناس، فيجازيكم عليها، ومن المعلوم أن

---

(١) أي بطانة وصاحب سر. (٢) بطلت وضاعت أجورها. (٣) أي يختبرون.

التكليف الشاق على الأنفس كالجهاد هو الذي يحقق الغرض من الاختبار، ويظهر المخلص من المنافق.

ففي الحفاظ على الأسرار الخاصة بالأمة دليل على صدق الإيمان، لذا حذر القرآن من تسريب الأخبار إلى العدو، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . .﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٨].

ثم أناط الله تعالى أهلية عمارة المساجد بالمؤمنين، وسلبَها من المشركين، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ . .﴾ أي ما ينبغي وما يصح لهم وما يستقيم أن يعمروا مساجد الله ومنها المسجد الحرام بالإقامة فيه للعبادة، أو للخدمة والولاية عليه، ولا أن يدخلوه حجاجاً أو عُمّاراً، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، بشهادة الحال والمقال، بعبادة الأصنام، والطواف بالبيت الحرام عراة، وكلما طافوا بالكعبة شوطاً سجدوا لها. فهم بهذا جمعوا بين الضدين: عمارة بيت الله والكفر به. أولئك المشركون بالله حبطت أعمالهم بشركهم، فلا ثواب لهم، وهم في نار جهنم خالدون لعظم ما ارتكبوه، فإن الكفر محبط للعمل، ولا ثواب لصاحبه في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٣].

وإذا كان المشركون غير أهل لعمارة المساجد، بسبب كفرهم، فإنما الذي يستحق عمارة المساجد بالحق والواجب وهو أهل لها من اتصف حقاً بالإيمان بالله تعالى إيماناً صحيحاً، بالاعتراف بوجوده وتوحيده، وتخصيصه بالعبادة والتوكل عليه، وآمن أيضاً باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه العباد، ويجزي فيه بالثواب للمحسنين وبالعقاب للمسيئين، وأقام الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل بأركانها وشروطها

وتدبر تلاوتها وأذكارها، وخشوع القلب لله فيها، وآتى الزكاة المفروضة لمستحقيها المعروفين، كالفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ولم يخش في قوله إلا الله وحده، دون غيره من الأصنام والعظماء الذين لا ينفعون ولا يضرون في الحقيقة، وإنما النفع والضر بيد الله، وهؤلاء هم الذين يرجى بحق أن يكونوا من المهتدين إلى الخير دائماً، وإلى ما يحب الله ويرضيه، المستحقون الثواب على أعمالهم، لا أولئك المشركون الضالون الذين يجمعون بين الأضداد، فيشركون بالله، ويكفرون بما جاء به رسوله، ويسجدون للطواغيت (الأصنام) ثم يقدمون بعض الخدمات للمسجد الحرام كسقاية الحاج وتأمين الحرم. أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان».

فضل الإيمان بالله والجهاد

ليس هناك أفضل ولا أكرم ولا أولى من الإيمان الخالص بالله تعالى، والجهاد في سبيله لإعلاء كلمة الحق ونشر دعوة الله في الأرض، فبالإيمان تنتعش النفوس وتسعد، وتُقْدِم على الحياة بروح وثابة عالية ومنهج عقلاني صحيح، وبالجهاد تعتز الأمة وتعلو كلمتها وتُرهب أعداءها الطامعين في خيراتها، وسلب مقدراتها وإذلالها، لذا حرّض القرآن على الإيمان أولاً والجهاد ثانياً في قوله تعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ[1] وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم

---

(١) سقي الحجاج الماء.

بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ٩/١٩-٢٢].

سبب نزول الآية-فيما رواه مسلم وغيره عن النعمان بن بشير-قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتُم، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليتُ الجمعة، دخلت على رسول الله ﷺ ، فاستفتيته فيما اختصمتم، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ..﴾ الآية.

ومن المعلوم أن السقاية والحجابة أفضل مآثر قريش، وقد أقرهما الإسلام، وكانت سقاية الحاج في بني هاشم، وكان العباس يتولاها، ولما نزلت هذه الآية قال العباس: ما أُراني إلا أترك السقاية، فقال النبي ﷺ: «أقيموا عليها فإنها لكم خير».

وعمارة المسجد: هي حفظه من الظلم فيه أو يقال هُجْراً، وكان ذلك إلى العباس. أو هي السدانة: وهي خدمة البيت خاصة، وكانت في بني عبد الدار، وكان يتولاها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة، وهما اللذان دفع إليهما رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة في ثاني يوم الفتح بعد أن طلبه العباس وعلي رضي الله عنهما. وقال ﷺ لعثمان وشيبة: «يوم وفاء وبرّ، خذوها خالدة تالدة، لا ينازعكموها إلا ظالم» . والراجح أن عمارة المسجد الحرام هي السدانة.

ومعنى الآيات: أجعلتم أهل السقاية وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد في سبيل الله سواءً في الفضيلة والدرجة؟! فإن السقاية والعمارة، وإن كانتا من أعمال الخير، فأصحابهما لا يساوون في المنزلة أهل الإيمان

والجهاد، ثم بيّن تعالى عدم تساوي الفريقين بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يهدي القوم الكافرين في أعمالهم إلى ما هو الأفضل والأرقى رتبة، إذ قد طمس على قلوبهم، والآية إنكار صريح على تشبيه المشركين وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم المثبتة، وأن يسوى بينهم، وجعل تسويتهم ظلماً، بعد ظلمهم بالكفر. فالإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس أفضل وأعظم درجة عند الله من أعمال السقاية والسِدانة أو العمارة.

ثم بيّن الله مراتب التفاضل بين المؤمنين أنفسهم، فإنها تتفاوت بحسب التفاوت في الإيمان، والهجرة، والجهاد بالمال والنفس، وحكم الله أن أهل هذه الخصال أعظم درجة عند الله من جميع الخلق، ثم حكم لهم بالفوز برحمته ورضوانه، والفوز: بلوغ البُغية، إما في نيل رغبة، أو نجاة من مهلكة.

وهذا الفوز: هو أنه تعالى يبشرهم في كتابه المنزل على رسوله برحمة واسعة، ورضوان كامل، وجنات لهم فيها نعيم دائم، وهم في هذا النعيم خالدون على الدوام إلى ما شاء الله تعالى.

وإن الله عنده الثواب العظيم على الإيمان والعمل الصالح ومنه الهجرة، والجهاد في سبيل الله ومن أجل مرضاته، كما جاءفي آية أخرى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٧٢]. والرضوان: نهاية الإحسان، وهو شيء روحي، والنعيم في الجنة شيء مادي، فهو لين العيش ورغده.

والصحب الكرام سلف هذه الأمة هم أصحاب هذه الخصال، فعلى سيوفهم انبنى الإسلام، وهم ردوا الناس إلى الشرع، وأشادوا صرح الأمة ورفعوا عزة مجدها، لذا قال النبي ﷺ -فيما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه:

«دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهباً ما بلغتم أعمالهم» فهل يجوز لأحد النيل من أصحاب الرسول أو سبهم أو الطعن بهم؟! فمن فعل ذلك فهو من أفسق الفاسقين وأجهل الجاهلين والحاقدين.

ترك موالاة الآباء والإخوة غير المؤمنين

أراد الحق سبحانه وتعالى تجميع قوى المؤمنين في بلد واحد في صدر الإسلام حتى يكونوا قوة متماسكين مرهوبين أمام الأعداء، فحضَّ على الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة، ورفض بلاد الكفر والشرك والإقامة مع المشركين، وجَعَل الجهاد مفضلاً على ثمانية أشياء لإعزاز الدين وأهله، والتخطيط لبناء الأمة والمجتمع في المستقبل. قال الله تعالى موضحاً هذه الخطة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ(١) ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا(٢) وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا(٣) وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ(٤) حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٢٣-٢٤].

نزلت الآية الأولى الناهية عن موالاة القرابة غير المؤمنة في شأن المؤمنين، قال الكلبي: لما أُمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من يتعلق به زوجتُه وعياله وولده، فيقولون: نشدناك الله أن تدعنا إلى غير شيء فنضيع، فيرقّ،

(١) اختاروا . (٢) اكتسبتموها . (٣) بوارها . (٤) فانتظروا .

فيجلس معهم، ويدع الهجرة، فنزلت يعاتبهم سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ﴾ الآية.

وفي شأن الذين تخلفوا بمكة ولم يهاجروا منها نزلت آية: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ . .﴾ إلى قوله ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ يعني القتال وفتح مكة. والمقصود من الآيتين الحض على الهجرة.

اقتضت حكمة إقامة الدين ومصلحة المسلمين حين نزول القرآن أن تكون هناك قطيعة تامة بين المؤمنين وأقاربهم الكافرين، حتى يبقى الدين سليماً، فلا يتجزأ الانتماء وتتوزع العواطف، ولأن رابطة الدين أسمى وأولى وأقوى من رابطة القرابة أو العصبية أو القبلية أو الأسرية. والمراد بالإخوان في الآيتين إخوان النسب. وبدئت الآية بخطاب المصدقين المؤمنين بالله ورسوله، ومفادها: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء تنصرونهم في القضايا العامة، وتكونون تبعاً لهم في سكنى بلاد الكفرة، وتطلعونهم على أسرار المؤمنين في السلم والحرب، إن اختاروا الكفر على الإيمان، وآثروا الشرك على الإسلام، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون لأنفسهم وأمتهم، لأنهم خالفوا الله ورسوله، بموالاة الكافرين بدلاً من التبرؤ منهم.

والنهي عن مخالطة غير المؤمنين للتحريم لا للتنزيه، لوصف من تولاهم أو خالطهم بأنهم هم الظالمون. وفي معنى هذه الآية آيات كثيرة، منها: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: ٦٠/٩].

ثم توعد الله من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله، وترك الهجرة والجهاد، مفضلاً الجهاد على ثمانية أشياء. والمعنى: إن كنتم تؤثرون هذه

الأشياء الثمانية، وتفضلون الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة (القرابة الاجتماعية القريبة) والأموال، والتجارة، والمساكن، تؤثرونها على حب الله ورسوله، أي على طاعتهما، والجهاد في سبيل الله الذي يحقق السعادة الأبدية في الآخرة، فانتظروا حتى يأتي الله بعقابه العاجل أو الآجل.

ويلاحظ كيف بدأ الله تعالى بإيراد هذه الأشياء، مبتدئاً بالأشد تعلقاً والأدعى إلى المخالطة وهي مخالطة القرابة، ثم الحرص على المال، ثم طريق اكتسابه بالتجارة، ثم الرغبة في البناء في الأوطان بإشادة الدور والمساكن، وأبان الله تعالى أن رعاية الدين ومصالحه خير من رعاية جملة هذه الأمور، بالرغم من محبتها والميل الفطري إليها بالطبيعة.

فإن العبرة للأخلد والأبقى والأدوم نفعاً، وإيثار حب الله ورسوله وطاعتهما والجهاد في سبيله يحقق مصالح كبرى وسعادة دائمة؛ لأن الله تعالى مصدر جميع النعم، وملجأ دفع كل الكروب والمحن، وكذلك حب الرسول وطاعته خير؛ لأنه المنقذ من الضلالة إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ولأن الجهاد طريق إعزاز الأمة وإعلاءِ هيبتها وقوتها.

ثم ختم الله تعالى الآية بوعيد المخالفين وتهديد المعرضين بعقوبة عاجلة أو آجلة، فقال: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ أي فانتظروا العقاب الآتي عاجلاً أو آجلاً. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يرشد العصاة الخارجين عن حدود الدين ومقتضى العقل والحكمة، أو عن طاعة الله إلى معصية.

النصر من عند الله

يربط الله تعالى دائماً أحداث العالم بالفاعل المؤثر الحقيقي فيها، الخالق لها، لتوجيه الناس إلى حقيقة الاعتقاد وإدراك أن الله هو القادر المطلق في صنع الأشياء، وأما الأفعال المعتادة التي نمارسها فما هي إلا مجرد أسباب ظاهرية لا بد من القيام بها، لتصح نسبتها إلينا، ونستحق ثوابها وجزاءها. ومن أخطر الأفعال التي نقوم بها الجهاد والقتال، فإننا نحن الذين نقارع الأعداء ونخوض المعارك بحسب النظام المعتاد، وأما تحقيق النتائج والنصر أو الظفر فهو بيد الله تعالى وحده. قال الله سبحانه:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ(١) ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٢٥-٢٧].

أخرج البيهقي في الدلائل أن رجلاً قال يوم حُنين: «لن نُغلب اليوم من قلة» وكانوا اثني عشر ألفاً، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ..﴾ الآية.

هذه الآية مخاطبة لجميع المؤمنين، يعدّد الله نعمه عليهم، ويذكّرهم بأفضاله عليهم في مواقف مصيرية حاسمة، ويؤكد لهم بالقسَم أنه منحهم مجداً لا يمحى، وأعزهم إلى الأبد. ومضمون الآية: لقد نصركم الله أيها المؤمنون في مواقع حربية كثيرة مثل بدر والحديبية والخندق ومكة وقريظة والنضير، حيث كنتم متوكلين على

(١) بما وسعت.

الله، معتمدين على أن النصر من عند الله. والمواطن الكثيرة: غزوات الرسول ﷺ، وهي ثمانون موطناً، أو أقل من ثمانين في رأي بعضهم. وكان النصر فيها كلها من عند الله تعالى، إما نصراً كاملاً وهو الأكثر، وإما نصراً جزئياً، للتربية والتعليم، كما حدث في معركة أحد، حينما تحقق النصر في بداية المعركة، والهزيمة في نهايتها، حينما خالف جماعة من الصحابة أوامر النبي ﷺ، وتركوا جبل الرماة، وكما حدث في حنين حينما اعتمدوا على الكثرة العددية، وغاب عنهم أن الله هو الناصر، لا كثرة الجنود، فانهزموا. وحنين: واد بين مكة والطائف، قريب من ذي المجاز، على ثلاثة أميال من الطائف. ونصركم الله أيضاً في يوم حنين حين أعجبتكم كثرتكم فيه، إذ بلغتم اثني عشر ألفاً، وكان الكافرون أربعة آلاف فقط، ففي بدء المعركة وقعت الهزيمة عليكم، لاعتمادكم على أنفسكم، واغتراركم بقوتكم، وترككم اللجوء إلى ربكم واهب النصر، فلم تغن عنكم كثرتكم شيئاً من قضاء الله، وضاقت عليكم الأرض بما اتسعت من الخوف، ثم وليتم مدبرين منهزمين، ثم نصركم الله في نهاية الأمر حين اتكلتم على ربكم وثبتم في المعركة. حدث اقتتال شديد يوم حنين، فانهزم المسلمون في بداية الأمر أمام ثقيف وهوازن، حينما كمنت هوازن في وادي حنين، ثم بادروا المسلمين بالقتال، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم سيدهم، فولى المسلمون مدبرين.

وثبت رسول الله ﷺ، وهو راكب يومئذ على بغلة شهباء، ثم نزل عن بغلته حينما رأى شدة الحال، واستنصر الله عز وجل قائلاً: «يا رب ائتني بما وعدتني» وأخذ قبضة من تراب وحصى، فرمى بها في وجوه الكفار، وقال: «شاهت الوجوه» ونزلت الملائكة لنصره، ونادى: «يا للأنصار» وأمر الرسول العباس أن ينادي: أين أصحاب الشجرة؟ أين أصحاب سورة البقرة؟ فأجابوه: لبيك لبيك، ورجعوا إليه عُنُقاً واحداً، أي جماعة واحدة، وثبت معه من أصحابه قريب من مئة، وقال: «الآن حمي الوطيس» أي استعرت الحرب، وقاتلوا صفاً واحداً، فانهزم المشركون.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ..﴾ أي أفرغ الله طمأنينته وثباته على رسوله وعلى المؤمنين الذين كانوا معه، وأنزل جنوداً لم تروها، وهم الملائكة، وعذّب الذين كفروا بسيوفكم بالقتل والسبي والأسر، وذلك هو جزاء الكافرين في الدنيا، إلا أن الملائكة لم تقاتل في هذه الموقعة، كما قاتلت يوم بدر.

وبما أن الإسلام دين الرحمة، فإن الله تعالى فتح باب الأمل أمام الكفار مبيناً لهم أنه يتوب الله بعد هذا التعذيب الذي حدث في الحرب على من يشاء ممن عصى وكفر، بأن يزيل عن قلبه الكفر، و يخلق فيه الإسلام، والله غفور لمن تاب، رحيم بمن آمن وعمل صالحاً، وقد تاب الله على بقية هوازن، فأسلموا، وقدموا على النبي ﷺ مسلمين، ولحقوه، وقد قارب مكة عند الجِعْرانة[1] بعد الوقعة من عشرين يوماً، ورد عليهم سبيهم وكانوا ستة آلاف، ما بين صبي وامرأة، وقسم النبي أموالهم بين الغانمين، وتحقق النصر بفضل الله، وفي ذلك اليوم قُتل دُريد بن الصمة القتلة المشهورة، قتله ابن الدُّغُنَّة، والله يؤيد بنصره من يشاء.

موقف المسلمين من المشركين وأهل الكتاب

تميز موقف المسلمين من غيرهم بما يناسب حال أعدائهم، أما المشركون الوثنيون فلم يقبل الإسلام منهم عهداً ولا وعداً، وحرّم عليهم دخول المسجد الحرام، تطهيراً من رجس الوثنية، وأما أهل الكتاب الذين يلتقون في الجملة مع المؤمنين بعقيدة الإيمان باليوم الآخر، فقبل الإسلام منهم العهد والمسالمة، والتعايش السلمي في ديار المسلمين، دون إزعاج ولا إكراه على الدين، قال الله تعالى مبيناً هذين الموقفين:

(١) موضع على سبعة أميال من مكة إلى الطائف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ(١) فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً(٢) فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ(٣) عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ(٤) ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٩/٢٨-٢٩].

نزلت الآية الأولى المتعلقة بمنع المشركين من دخول الحرم المكي-كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس-قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت، ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه، فلما مُنعوا عن أن يأتوا البيت، قال المسلمون: من أين لنا الطعام؟ فأنزل الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾

نص الله تعالى في هذه الآية على المشركين (عبدة الأوثان) وعلى المسجد الحرام، والمعنى: يا أيها المؤمنون بالله ورسوله، إن المشركين الوثنيين أنجاس الاعتقاد، لخبث باطنهم وفساد معتقدهم، بسبب عبادة الأصنام والأوثان، فلا تمكّنوهم من دخول المسجد الحرام بعد العام التاسع من الهجرة. والمقصود بالمسجد الحرام هنا الحرم كله في رأي جماعة من العلماء كالشافعية والحنابلة. والمراد بالنهي: منع المشركين من الحج والعمرة بعد حج عامهم هذا وهو العام التاسع من الهجرة؛ لأنهم يفسدون قدسية الحرم وطهر العبادة وشرفها وسموها.

ثم ألقى الله الطمأنينة في قلوب المسلمين، وأزال من نفوسهم مخاوف انقطاع الموارد التموينية التي كانت تأتي إلى الحرم بتجارة المشركين، وأعلمهم أنه إن خفتم أيها المسلمون فقراً، بسبب قلة جلب الأقوات وأنواع التجارات التي كان المشركون

(١) شيء نجس الاعتقاد وخبيث. (٢) أي فقراً بانقطاع تجارتهم عنكم. (٣) الضريبة المقدرة على الأشخاص.
(٤) خاضعون لأحكام الإسلام والدولة.

يجلبونها، ومنعوا من دخول الحرم بعد هذا العام، فسوف يغنيكم الله من فضله وعطائه بوجه آخر، وييسر لكم موارد العيش والرزق والكسب، إن الله عليم بأحوالكم، وبما يكون في المستقبل من غنى وفقر، حكيم فيما يشرعه لكم من أمر ونهي، وسماح ومنع، وأما أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر على النحو القرآني، ولا يحرمون ما حرمه القرآن وسنّه الرسول ﷺ، ولا يعتقدون بصحة دين الإسلام، فهؤلاء يقاتلون بسبب عدوانهم، وغاية القتال إقرار السلم وعقد المعاهدة السلمية معهم، حتى يطمئن المسلمون لجانبهم، فلا يكونون خطراً يهدد الدولة من الداخل. فإن قبلوا الإقامة في ديار المسلمين بموجب عهد أو عقد بيننا وبينهم، والتزموا بتطبيق أحكام الإسلام المدنية والجنائية، أي في المعاملات وعقوبات الجرائم، وأدوا ضريبة الجزية وهي دينار عن كل رجل غني، كسائر الضرائب المباشرة وغير المباشرة، التي يدفعها المواطنون في العصر الحاضر، وهي بديل عن خدمة العلم أو المشاركة في الجهاد والدفاع عن أراضيهم وممتلكاتهم وأموالهم، فإن شاركوا في المعارك، سقطت هذه الضريبة عنهم.

وقد كان هذا النظام مألوفاً في معاملات الشعوب، وليس الصغار الإذلال والإهانة، وإنما هو التزام الأحكام، أي القوانين الإسلامية السائدة وإذا انعقدت المعاهدة مع الكتابيين، وجب تنفيذ أحكامها واحترامها من الجانبين، وحرم ظلمهم وتكليفهم ما لا يطيقون.

وتسميتهم بأهل الذمة ليس بمعنى الذم والاحتقار، وإنما الذمة العهد والحماية؛ لأن حقوق المساواة والعدل في معاملتهم بمقتضى ذمة الله ورسوله، أي عهده وميثاقه. ويسمون أيضاً بالمعاهدين: وهم من بيننا وبينهم عهد محترم من الجانبين. والتاريخ أصدق شاهد على أن التعايش السلمي وتبادل الود والوئام بين المسلمين

وغيرهم من الكتابيين كان هو الصفة البارزة على مدى الأعوام والسنين. لكن نهى الله المشركين عن دخول المسجد الحرام بعد العام الهجري التاسع.

عقيدة أهل الكتاب وصفة رسالة الإسلام

إن أصول العقائد في الأديان كما أنزلها الله تعالى واحدة؛ لأنها من مصدر واحد، ولها غاية واحدة، فمصدرها هو الله عز وجل، وغايتها تثبيت العقيدة الحقة في النفوس، وإصلاح المجتمع وإسعاد البشر، وإذا التزم أتباع الأديان الأصول الصحيحة التي أنزلها على أنبيائه الكرام، سهل لقاؤهم، واتحدت أفكارهم، وزالت العصبية والأحقاد فيما بينهم، وهذا ما يريده القرآن الكريم ويدعو إليه من ضرورة الإيمان برب واحد وإله واحد، وأن يؤمن جميع الناس بدين واحد؛ لأن الدين الإلهي في أصله واحد، ولا يعقل أن تتعارض تعاليم الدين الإلهي المنزل. قال الله تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ[1] قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ[2] ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ[3] وَرُهْبَـٰنَهُمْ[4] أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ[5] عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٣٠-٣٣].

---

(١) يشابهون في الكفر. (٢) كيف يصرفون. (٣) علماء اليهود. (٤) عباد النصارى ورجال الدين.
(٥) ليعليه.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ سلاَّم بن مِشْكَم، ونُعمان بن أبي أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبّعك وقد تركت قبلتنا؟ وأنت لا تزعم أن عزيراً: ابن الله، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ الآية. وقال النقّاش: لم يبق يهودي يقولها بل انقرضوا.

كان بعض اليهود يقول: عزير: ابن الله، لأنه يعدّ ناشر اليهودية، بعد أن نسيت، فقدسه اليهود ووصفوه بأنه: ابن الله. وقالت النصارى: المسيح: ابن الله، واتفقوا على أن الموحد ليس نصرانياً، وليس لقولهم أي دليل ولا برهان غير ما قرره أحبارهم، يشبهون بهذا الاعتقاد قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم، ضلّوا كما ضل هؤلاء، وهم الوثنيون البراهمة والبوذيون في الهند والصين واليابان، وقدماء الفرس والمصريين واليونان والرومان، كما أن مشركي العرب كانوا يقولون: الملائكة بنات الله.

لعنهم الله، كيف يصرفون عن الحق، وهو توحيد الله وتنزيهه إلى غيره، وهو الشرك الباطل، فما المسيح وعزير إلا مخلوقان عبدان لله، ولا يعقل أن يكون المخلوق خالقاً، وهو كسائر المخلوقات يأكل ويشرب ويتعب ويألم، وقدراته محدودة، وكيف يصرفون عن الحق إلى غيره مع قيام الدليل؟

ووجه مضاهاة من كفروا قبلهم أنهم اتخذوا رؤساء الدين فيهم أرباباً من دون الله، يقومون بحق التشريع، فيحلّون الحرام، ويحرمون الحلال، ويطيعونهم في ذلك، تاركين حكم الله تعالى. واتباعهم في التحليل والتحريم: عبادة لهم وتعظيم.

والحال أنهم ما أمروا إلا أن يعبدوا إلهاً واحداً على لسان موسى وعيسى، وهو الله الذي شرع لهم أحكام الدين، وهو ربهم ورب كل شيء فهو الذي إذا حرّم الشيء فهو الحرام، وما حلّله فهو الحلال، وما شرعه اتُّبع، وما حكم به نفذ. إنه الله تعالى الإله

وحده شرعاً وعقلاً، لا يوجد إله غيره، وتنزه وتقدس عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو بحق، ولا رب سواه في الواقع ومقتضى العدل.

ولكن هؤلاء المشركين والكتابيين يريدون أن يطفئوا نور الإسلام، الذي بعث الله به رسوله محمداً، فيضل الناس أجمعون، ويأبى الله إلا أن يتم نوره بتثبيته وحفظه والعناية به وإكماله وإتمامه، ولو كره الجاحدون ذلك بعد تمامه، كما كرهوه حين بدء ظهوره. والجاحد الكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه.

وأما النور الإسلامي فهو الذي أرسل الله به رسوله بالهدى ودين الحق الذي لا يغيّره ولا يبطله شيء آخر، وهو هدى الله الصادر عن القرآن والشرع المثبت في قلوب الناس، والهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع. ودين الحق: هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة. والله تعالى يريد إعلاء دين الحق على جميع الأديان، ولو كره المشركون ذلك الإظهار، وقد تحقق وعد الله ونصره، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها».

وإذا كانت اليهودية توصف بالتعصب والانغلاق، والمسيحية بالتسامُح والمحبة، فإن أدق وصف يوصف به الإسلام أنه دين الحق والعدل والميزان، الذي لا يتجاوز الواقع، ويوجب الاعتدال في الأمور، والتزام الإنصاف في العقيدة والشريعة والمنهج الأخلاقي والسلوكي.

يتبين مما ذكر أن الله تعالى أراد أن يستمر حبل الرسالات الإلهية ويظل موصولاً في البشر، قبل ختم النبوات برسالة خاتم النبيين والمرسلين محمد بن عبد الله، عليهم صلوات الله وسلامه، واستمرار هذا الخير من أجل الإنسان ووحدة الإنسانية، لا للتفرق والاختلاف والتمزق والانقسام.

وتتجسد وحدة الأديان في الدعوة إلى الاعتقاد برب واحد لا شريك له، وبالإيمان بعالم الآخرة بما فيه من حشر ونشر وحساب وميزان وصراط وجنة ونار وثواب وعقاب، وبالدعوة إلى أصول الفضائل والأخلاق الكريمة، وتصحيح مسيرة الحياة الإنسانية، القائمة على الحق والصدق والعدل والوفاء والمساواة والحرية والتضامن والتعاون بين البشر، مع مقاومة كل أسباب الاضطراب والقلق واهتزاز الثقة بسبب الاعتداء على الحقوق وأكل أموال الناس بالباطل والكذب والخيانة والغدر والتفرقة وحرمان الناس من التعبير عن آرائهم ورغباتهم، ضمن أصول النظام الإلهي والعدل الرباني.

وإن التلاعب بالأديان جريمة لا تغتفر، وتحريف النصوص عن المراد بها خيانة للأجيال، لذا يتبوأ المحرِّفون والقادة المضللون مكاناً عظيماً من نار جهنم بسبب إساءتهم لغيرهم، ومحاولتهم تفريق الناس وصرفهم عن صراط الهداية الربانية الحميد.

ومع هذا التضليل الموروث لن يعفى العقلاء المفكرون من التبصر والتأمل ودراسة أصول الدين والحق والاعتقاد الصحيح، وإذا لم يفعلوا لن يكونوا بمنجاة من العقاب أو العذاب في الآخرة لإهمالهم نعمة العقل التي تبصّرهم بمدى صدق الموروثات وأصالة الاعتقادات المنقولة، دون تفكر بمصداقيتها.

مسؤولية رجال الدين

إن دور القيادة أمر خطير في تاريخ البشرية، وإن مسؤولية رجال العقيدة والفكر والأخلاق والسلوك هي أشد خطراً في التاريخ من أي شيء سواها، فكان لزاماً على القادة والمفكرين ورجال الدين أن يكونوا أمناء على عقيدة الأجيال وفكر البشرية،

فلا يقررون لهم إلا الحق، ولا يلقنونهم إلا الأصل الإلهي الصحيح الذي أراده الله هدى لعباده، ومنهجاً لخلقه، وميزاناً للحياة السوية. لذا شنَّع القرآن الكريم على قادة الفكر المنحرف ورجال الدين المضللين، فقال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

[التوبة: ٩/ ٣٤-٣٥].

قال الواحدي: نزلت (آية الأحبار) في العلماء والقرّاء من أهل الكتاب، كانوا يأخذون الرشا من سَفِلتهم، وهي المأكل الذي كانوا يصيبونه من عوامهم. وآية كنز الذهب والفضة هي-كما قال الضحاك-عامة في أهل الكتاب والمسلمين.

والمراد بالآية: بيان نقائص هؤلاء الأحبار، ونهي المؤمنين عن تلك النقائص. والمعنى: يا أيها المؤمنون بالله ورسوله، اعلموا أن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأخذون أموال الناس بالباطل، أي من أتباعهم بصفة ضرائب وفروض لدور العبادة، يوهمونهم أن النفقة في ذلك من الشرع والتزلف إلى الله، ولكنهم يضمونها إلى جيوبهم، وقد يأخذون الرشاوى في الأحكام القضائية، ويأكلون الربا وهو محرم عليهم، ويأخذون الهدايا والنذور والأوقاف المخصصة لقبور الأنبياء والصالحين، وقد يستحل بعضهم أموال كل من عداهم من أتباع الأديان الأخرى، ولو بالخيانة أو السرقة، وكل ذلك أكل لأموال الناس بالباطل وسحت حرام.

وقد يضم هؤلاء الأحبار إلى قبائحهم صد الناس ومنعهم عن اتباع الدين الحق، إما بتكذيب رسالة الإسلام، أو بالطعن بالقرآن الكريم أو بالنبي ﷺ.

وهناك صفة عامة عند هؤلاء القادة وعند غيرهم من المسلمين: وهي البخل الشديد ومنع أداء حقوق الله في أموالهم، فيكنزون في بيوتهم الذهب والفضة، أي يجمعون المال ويدخرونه، ولا يؤدون منه الحقوق الواجبة شرعاً كالزكاة، ولا ينفقون منه في سبيل الله، فيستحقون العذاب الشديد المؤلم في نار جهنم، وعبر عن الوعيد بهذا العذاب بلفظ البشارة على سبيل التهكم والتهديد.

ومن المقرر شرعاً: أن الكنز: هو المال الذي لا تُؤدى زكاته، وإن كان ظاهراً غير مخفي، وأما المال المدفون إذا أخرجت زكاته فليس بكنز، لما أخرجه ابن عدي والخطيب عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيّ مال أدّيت زكاته، فليس بكنز».

ويوضح ذلك الآية الكريمة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣/٩] فإن الذم في منع الزكاة فقط، لا في مجرد حبس المال وادخاره. ثم هدد الله تعالى الكانزين وأخبرهم بنوع العذاب الذي يتعرضون له في الآخرة، وهو أنه يحمى على ما جمعوه من الأموال المكنوزة غير المزكاة في النار، أي توضع فيها ويوقد عليها حتى تحمى، ثم يحرق بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، أي جميع أجسادهم ويقال لهم من قبل الملائكة: هذا جزاء ما كنزتم، فذوقوا وبال ما كنزتم لأنفسكم، أي إن ما توهمتم فيه نفعاً أصبح ضرراً محضاً، ووبالاً شديداً عليكم.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جُعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه

الله مالاً، فلم يؤد زكاته، مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع[١]، له زبيبتان[٢] يُطَوَّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه[٣]، ثم يقول له: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٠].

والخلاصة: إن من أعظم الجرائم الاجتماعية أكل أموال الناس بالباطل كالرشاوى والغصوبات وخيانة الأمانات، والصدُّ عن دين الله الحق المتمثل في القرآن، واكتناز المال أو ادخاره وحبسه من غير إنفاق ولا أداء زكاة عنه.

تلاعب العرب بالأشهر

إذا كان الناس يسيرون في دروب حياتهم بمقتضى أهوائهم وشهواتهم، وبمحض عقولهم وآرائهم الشاذة، فلا يستغرب عنهم الوقوع في غرائب الأفكار، والخروج عن الأعراف العامة، وهذا ما أوقع ذوي العقلية البدائية في الجاهلية العربية في مهاوي الانحراف والعبث بالقيم الإنسانية، بل تغيير حركة الزمان ونظامه، وهذا هو النسيء في الجاهلية أي تأخير حرمة الأشهر الحرم إلى وقت آخر حسبما يروق لهم وينسجم مع مصالحهم في الاستمرار في الحروب ودوام الاقتتال والمنازعات، لذا شنع القرآن الكريم على أولئك العابثين بنظام الشهور في قول الله تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ[٤] زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟[٥] عِدَّةَ مَا

(١) أي حنشاً حية كبيرة. (٢) نقطتان منتفختان في شدقيه. (٣) أي شدقيه. (٤) النسيء: تأخير حرمة شهر إلى آخر. (٥) ليوافقوا.

حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٦-٣٧].

أخرج ابن جرير الطبري عن أبي مالك-لبيان سبب نزول الآية-قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، فيجعلون المحرم صفر، فيستحلون فيه المحرمات، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ..﴾

هاتان الآيتان تتضمنان ما كانت العرب شرعته في جاهليتها من تحريم شهور الحل، وتحليل شهور الحُرمة. والذي أكدته الروايات أن العرب كانت لا عيش لأكثرها إلا من الغارات وإعمال سلاحها، فكانوا إذا توالت عليهم حرمة ذي القعدة وذي الحجة والمحرم، صعب عليهم ووقعوا في مشكلة الفقر، فيتواطؤون على إنساء شهر، أي تأخير حرمة المحرم وجعله في صفر، ليكون لديهم فاصل زمني للغارات، فيحلون المحرم ويغيرون فيه بقصد المعيشة، ثم يلتزمون حرمة شهر آخر وهو صفر، ثم يسمون ربيعاً الأول صفراً، وربيعاً الثاني ربيعاً الأول، وهكذا في سائر الشهور، يستقبلون سنتهم من المحرم الموضوع لهم، فيسقط على هذا حكم المحرم الذي حُلِّل لهم، وتصبح السنة ثلاثة عشر شهراً أولها المحرم المحلل، ثم المحرم المصطنع وهو صفر، ثم إتمام السنة على هذا النحو المغيَّر. ففي هذا العبث والتلاعب بالأشهر نزلت هاتان الآيتان.

أخبر الله سبحانه أن عدد أشهر السنة القمرية في كتاب الله أي في نظامه وحكمه التشريعي اثنا عشر شهراً، لسهولة الحساب بها، وتوقفها على رؤية الهلال، فإن كل إنسان متعلم أو غير متعلم، بدوي أو حضري، يراه ويراقب تحركاته بسهولة، وذلك منذ بدء خلق السماوات والأرض وإلى كل زمان، ومن تلك الأشهر أربعة حرم: ثلاثة سرد وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب، أي ذات حرمة وتعظيم تتميز به عن بقية الشهور، فلم يكن يحل فيها القتال وسفك الدماء.

وتحريم هذه الأشهر الأربعة في السنة هو الدين القيم، أي الدين والشرع المستقيم

دين إبراهيم الخليل وإسماعيل الذبيح، فلا يجوز نقل تحريم المحرم إلى صفر، خلافاً لما كان أهل الجاهلية يفعلون، من تقديم بعض أسماء الشهور وتأخير البعض. فلا تظلموا أيها الناس أنفسكم في تلك الأشهر الأربعة، باستحلال حرامها، فإن الله عظّمها، والمراد بذلك النهي عن جميع المعاصي بسبب ما لهذه الأشهر من تعظيم الثواب والعقاب فيها، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٧]. والمعاصي وإن كانت حراماً في غير الأشهر الحرم أيضاً، إلا أنه أكد الله تعالى فيها المنع زيادة في شرفها، ثم أباح الله تعالى قتال المشركين المعتدين في جميع الأشهر، حتى الأشهر الحرم، وعلى المؤمنين قتالهم مجتمعين موحّدين، كما يقاتلون المسلمين على هذا النحو، واعلموا أن الله مع المتقين.. ومعنى الآية: الحض على قتال المشركين صفاً واحداً وعلى قلب رجل واحد.

والنسيء وهو تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر لا حرمة له: زيادة في الكفر أي جارٍ مع كفرهم بالله، وخلاف منهم للحق، وزيادة في أصل كفرهم القائم على الشرك وعبادة الأصنام، وتغيير لملة إبراهيم بسوء التأويل، يوقع أهل النسيء الذين كفروا في ضلال، زيادة على ضلالهم القديم، يحلون المحرم عاماً، ويحرمونه عاماً آخر، ليوافقوا في مجرد العدد الأربعة الأشهر الحرم، حسّن الشيطان لهم أعمالهم السيئة، فظنوا ما كان سيئاً حسناً، وتوهموا شبهتهم الباطلة أنها صواب، والله لا يوفق ولا يرشد القوم الضالين المنحرفين الذين يختارون السيئات، إلى الحكمة والخير والصواب وفهم حكمة الشرع.

وتم تصحيح وضع الأشهر بحسب الواقع في عصر النبي ﷺ، فقال هذا النبي فيما رواه البخاري وأحمد وغيرهما: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات الأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان».

التحريض على الجهاد ومعجزة الهجرة

لا يمكن لأمة الدعوة الإسلامية إلى العالم قاطبة أن تتخلى عن اتخاذ كل أسباب القوة والعزة، ولا أن تترك الجهاد في سبيل الله؛ لأنها بسبب نشر دعوة الإسلام بين الناس لا بد أن يتعرض فيها الدعاة المؤمنون وأمتهم التي تساندهم للاعتداء والصد عن سبيل الله، والكيد والقمع والطرد والقتل، فتحتاج هذه الأمة لدفع الظلم ورد العدوان، لذا حرّض القرآن الكريم على الجهاد الخالص لله تعالى، وأعلم المؤمنين أن الله ينصر عباده المستضعفين المعتدى عليهم، كما نصر الله نبيه في ليلة الهجرة حين اختبأ مع صاحبه أبي بكر في غار جبل ثور، فقال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ[1] فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ[2] إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ **[التوبة: ٩/٣٨-٤٠].**

لا خلاف في أن هذه الآيات نزلت عتاباً على تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، في السنة التاسعة من الهجرة بعد الفتح (فتح مكة) بعام واحد، غزا فيها الروم في عشرين ألفاً بين راكب وراجل، وتخلف عنه قبائل من الناس منهم مؤمنون ومنهم منافقون، وقد اشترك مع الروم قبائل عربية متنصرة من لخم وجذام وغيرهم، حيث جهزوا جيشاً كثيفاً من أربعين ألفاً لغزو المدينة.

(١) اخرجوا للجهاد كغزوة تبوك . (٢) تباطأتم وأخلدتم .

لقد دعا الرسول ﷺ إلى غزوة تبوك، وكانوا في عُسْرة وضيق، وشدة حر، وقد حان قطاف التمر عندهم حين طابت الثمار، فشق ذلك عليهم، فأبان الله تعالى أنه لا يصح ترك سعادة الآخرة والخير الكثير الخالد، من أجل ترف الدنيا وطيباتها، فذلك جهل وسفه، وخص الله تعالى بالعتاب ثلاثة من المؤمنين: وهم كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، بسبب مكانهم من الصحبة، إذ هم من أهل بدر وممن يقتدى بهم، وكان تخلفهم لغير علة.

اشتد الله في عتاب المؤمنين المتخلفين عن الجهاد في غزوة تبوك قائلاً لهم: يا أيها المؤمنون بالله ورسوله، ما لكم تثاقلتم وتباطأتم عن الجهاد، حين قال لكم الرسول الأمين: انفروا في سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم ومهاجمتكم؟! فأي شيء يمنعكم عن الجهاد؟ أرضيتم بلذات الحياة الدنيا بدلاً من الآخرة وسعادتها ونعيمها؟ إن كنتم فعلتم ذلك، فقد تركتم الخير الكثير في سبيل الشيء الحقير، فما تتمتعون به في الدنيا متاعاً مقترناً بالهم والألم، ولفترة مؤقتة، إذا قيس بنعيم الآخرة الدائم، إلا شيء حقير قليل، لا يصلح عوضاً عن العطاء الكثير في الآخرة. قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم والترمذي: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم يرجع؟» وأشار بالسبابة.

ثم توعد الله تعالى من ترك الجهاد، فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ..﴾ أي إن لم تخرجوا مع النبي ﷺ إلى ما دعاكم إليه، يعذبكم الله عذاباً مؤلماً في الدنيا كالهلاك بالقحط وغلبة العدو، ويستبدل بكم قوماً غيركم، لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٨] إنكم بتوليكم عن الجهاد لا تضروا الله شيئاً؛ لأنه هو القاهر فوق عباده، والله قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

ثم رغب الله المؤمنين في الجهاد مرة ثانية، وحثهم على مناصرة النبي ﷺ ، مشيراً لنجاح الهجرة، فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ . .﴾ أي إن لم تنصروا رسول الله، أو تركتم نصره ومؤازرته، فالله متكفل به، إذ قد نصره في موضع القِلّة والانفراد وكثرة العدو، فنَصْره إياه اليوم يوم الهجرة أحرى منه حينئذ، وذلك حين أخرجه المشركون الكافرون من مكة إلى المدينة، وفعلوا من الأفاعيل ما أدى إلى خروجه وفي صحبته أبو بكر رضي الله عنه. إنهما في الطريق إلى المدينة دخلا في غار ثور ومكثا فيه مدة ثلاثة أيام، ليرجع الطلب -الباحثون عنه- إلى ديارهم، ثم يسيروا بعدها إلى المدينة، ففزع أبو بكر على النبي ﷺ لما رأى المشركين حانقين متجمهرين، حال كون النبي أحد اثنين، فقال لصاحبه أبي بكر: لا تخف ولا تحزن، إن الله معنا، يؤيدنا بنصره وعونه وحفظه ولطفه.

فأنزل الله طمأنينته وتأييده على رسوله، أو على أبي بكر، قيل: إن الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على أبي بكر: لأن النبي ﷺ لم يزل ساكن النفس ثقةً بالله عز وجل. وهذا قول من لم ير السكينة إلا سكينة النفس والجأش، وقال الجمهور: الضمير عائد على النبي ﷺ، وهذا أقوى، والمراد بالسكينة: ما ينزل الله على أنبيائه من الصيانة (أو الحياطة) لهم، والخصائص التي لا تصلح إلا لهم، والنصرة والفتوح عليهم.

وقد أيد الله نبيه وقواه وآزره أثناء الهجرة بالملائكة، وجعل كلمة الشرك والكفر هي السفلى، أي المغلوبة، وكلمة الله التي هي لا إله إلا الله أو الشرع بأسره هي العليا الغالبة، والله عزيز غالب في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، حكيم في أقواله وأفعاله.

النفير العام
وتوبيخ المتخلفين عن غزوة تبوك

كان من أهم أهداف الإسلام التربوية إعداد الأمة لتحمل مسؤولياتها الكبرى في العزة والسيادة وإقرار السلام ودفع العدوان، وتتجلى طرق الإعداد في المواقف الحاسمة بالأمر بالنفير العام عند الحاجة والمصلحة، ولوم المنافقين الذين يتذرعون بأوهى الأسباب للتهرب من الجهاد، وهذا مرض خطير تأصل في نفوس المنافقين الانهزاميين، وأراد القرآن الكريم التخلص من هذا المرض، فقال الله تعالى:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا[1] وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا[2] وَسَفَرًا قَاصِدًا[3] لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ[4] وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٤١-٤٥].

نزلت آية الأمر بالجهاد والنفير العام في المؤمنين الذين اعتذروا بالضيعة والشغل والحاجة والكهولة وأعباء الأسرة والأولاد، فأبى الله أن يعذرهم، دون أن ينفروا على ما كان منهم، وبالرغم من أعذارهم، فلا يتخلفوا عن غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة لقتال الروم المعتدين.

---

(١) على أية حال كنتم وهو النفير العام. (٢) أي مايعرض من منافع الدنيا وهو الغنيمة القريبة. (٣) مغنماً سهل التناول. (٤) المسافة البعيدة التي تحتاج لمشقة.

ومعنى الآية: اخرجوا إلى الجهاد على كل حال من يسر أو عسر، صحة أو مرض، غنى أو فقر، شغل أو فراغ منه، كهولة أو شباب، نشاط وغير نشاط، خفاف في النفر لنشاطكم له، وثقال عنه لمشقته عليكم، وقاتلوا أعداءكم الذين يقاتلونكم، من أجل كلمة الله ورفعة الدين الحق والقيم العليا المتمثلة فيه، وذلكم المأمور به وهو النفير العام إلى الجهاد خير لكم في الدنيا والآخرة، إن كنتم تعلمون ذلك وأنه خير، فانفروا ولا تتثاقلوا، وهذا بمثابة قانون التجنيد العام، وتنبيه وهز للنفوس للقيام بواجب الجهاد.

وظهر في خلال الأمر بالنفير العام لوم المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك، فأبان الله تعالى: أن ما دعوتهم إليه من الخروج للجهاد لو كان غنيمة أو منفعة قريبة المنال، أو سفراً سهلاً قريباً لا عناء فيه، لا تبعوك أيها النبي وجاؤوا مسرعين معك، ولكنَّ هؤلاء المنافقين تخلفوا حينما رأوا مشقة السفر إلى بلاد الشام، وأن القتال لأكبر قوة في العالم حينذاك وهم الروم، فآثروا الجبن والراحة والسلامة، والتفيؤ في ظلال الأشجار وقطف الثمار. وسيحلفون بالله اليمين الكاذبة عند رجوعك أيها الرسول من غزوة تبوك قائلين: لو استطعنا الخروج لخرجنا معكم، فإنهم لم يكونوا ذوي أعذار، وإنما كانوا أقوياء الأجسام، وأصحاب ثراء ويسار، إنهم يهلكون أنفسهم في العذاب باليمين الكاذبة أو بالكذب والنفاق.

ثم عاتب الله نبيه محمداً ﷺ في إذنه لطائفة من المنافقين بالتخلف، قائلاً له: سامحك الله بإذنك لهم، لِمَ أذنت لهم بالتخلف، هلا تمهلت لتظهر لك الحقيقة، ويتبين لك الفريقان: الذين صدقوا والذين كذبوا في إبداء الأعذار، وهلا تركتهم لتعلم الصادق منهم من الكاذب، فإنهم كانوا مصرين على التخلف، وإن لم تأذن لهم فيه، على أن الله كره خروجهم، لما فيه من الخطر والضرر.

هذه الآية نزلت في الإذن للمنافقين، وكان الأولى من النبي تركه، مثل قبوله الفداء من أسرى بدر.

لايستأذنك أيها الرسول في القعود عن الجهاد أحد من الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، بل يقدمون على الجهاد من غير استئذان؛ لأنهم يرون أن الجهاد قربة وسبيل إلى الجنة، فليس من شأن المؤمنين الصادقين أن يستأذنوك في الجهاد، والله خبير بمن خافه واتقاه، باجتناب مايسخطه، وفعل مايرضيه. هذه الآية تبين منزلة المؤمنين وتميزهم عن المنافقين، لذا جاءت الآية بعدها توضح هذا الفرق الجوهري.

فإذا كان أهل الإيمان لايستأذنون لترك الجهاد عادة، فإن الذي يستأذنك في التخلف عن الجهاد من غير عذر، إنما هم المنافقون الذين لايصدقون بالله واليوم الآخر، ولا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، وشكّت قلوبهم في صحة ماجئتهم به، فهم في شكهم أو ريبهم يتحيرون، ليس لهم ثبات على شيء، فهم قوم حيارى هلكى. روي أن عدد هؤلاء المنافقين المستأذنين كذباً كان تسعة وثلاثين رجلاً. نسأل الله تعالى أن يثبت الإيمان في قلوبنا، وأن يحببنا في الجهاد لقمع العدوان وتحقيق العزة والمكانة اللائقة بنا.

تخلف المنافقين عن تبوك بغير عذر

ليس في منهج القرآن المجيد اتهام أحد بغير سبب أو عذر؛ لأن القرآن شريعة الحق والعدل والإنصاف، والله سبحانه يغفر ويرحم، ولكنه يمهل ولا يهمل، ويترك الفرصة لعباده أن يتوبوا ويصلحوا أنفسهم، ويحاسب دائماً بعد إيراد الأدلة والبراهين وأسباب الطاعة والعصيان، قال الله تعالى مبيناً هذا المنهج في مناسبة بيان كون تخلف المنافقين عن غزوة تبوك بغير عذر صحيح:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ(١) فَثَبَّطَهُمْ(٢) وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا(٣) وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ(٤) يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ(٥) وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ(٦) الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ٤٦-٤٨].

هذه الآيات دليل واضح على أن تخلف المنافقين عن المشاركة في غزوة تبوك كان بغير عذر واضح ولا صحيح، وهذا الدليل المنطقي والواقعي: هو تركهم الاستعداد للمشاركة في هذه المعركة الخطيرة، ومع هذا فإن خروجهم مع الرسول ﷺ ما كان مصلحة، وإنما يؤدي إلى مفاسد ثلاث: هي الإفساد والشر، وتفريق كلمة المؤمنين بالنميمة، والتسبب في سماع بعض ضعفاء الإيمان كلامهم وقبول قولهم.

إن المنافقين المعاصرين للنبي ﷺ لو قصدوا الخروج معك إلى القتال، لاستعدوا وتأهبوا له بإعداد السلاح والزاد والراحلة ونحوها، وقد كانوا مستطيعين ذلك، ولكن كره الله انبعاثهم، أي أبغض خروجهم مع المؤمنين، لما فيه من أضرار، فثبَّطهم، أي أخرهم بما أحدث في قلوبهم من المخاوف، وفي نفوسهم من الكسل والاسترخاء، وقيل لهم من الرسول ﷺ : اقعدوا مع القاعدين من النساء والأطفال والمرضى والعَجَزة الذين شأنهم القعود في البيوت، كما قال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٩/ ٨٧] أي القاعدين المتخلفين خوفاً وجبناً ثم ثبَّت الله المؤمنين وبيَّن أن عدم خروج المنافقين معهم لتبوك مصلحة للجيش، فلو خرج هؤلاء المنافقون ما زادوا المؤمنين شيئاً من القوة والمنعة، بل زادوهم اضطراباً في الرأي

---

(١) نهوضهم للخروج معكم. (٢) حبسهم وعوقهم عن الخروج. (٣) شراً وفساداً. (٤) أسرعوا بالإفساد بينكم بالنميمة. (٥) يطلبون إيقاع الفتنة. (٦) دبروا لك الحيل والمكائد.

وفساداً في العمل، ولأسرعوا بالسعي بين المؤمنين بالنميمة والبغضاء، وتفريق الكلمة، وبذر بذور التفرقة والاختلاف، وإشاعة الخوف والأراجيف من الأعداء، وتثبيط الهمة.

هذا مع العلم بأن بين المؤمنين قوماً ضعافَ العقل والإيمان والعزيمة يسمعون كلامهم، ويصدِّقون أقوالهم، ويطيعونهم، فتفتر عزائمهم عن الجهاد، وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير، وهذا لا يتفق في المواقف الخطرة مع المصلحة. والله عليم علم إحاطة بأحوال الظالمين الظاهرة والباطنة، فهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن، ومجازيهم على أعمالهم كلها. وفي هذا دلالة واضحة على أن خروج المنافقين لتبوك شر لا خير فيه، وضعف لا قوة.

وتذكيراً واقعياً للمؤمنين، بموقف من الماضي، ذكر الله تعالى نوعاً آخر من مكر المنافقين وخبث باطنهم تحقيراً لهم، وإبطالاً لسعيهم، فقال سبحانه: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْـنَةَ مِن قَبْـلُ . .﴾ أي لقد أرادوا إيقاع الفتنة بين المسلمين من قبل ذلك، في غزوة أحد، حين اعتزل المؤمنين عبدُ الله بن أبي زعيم المنافقين بثلث الجيش في موضع يسمى الشوط بين المدينة المنورة وأحد، ثم قال للناس: أطاع النبي الولدان ومن لا رأي له، فعلامَ نقتل أنفسنا؟! وكاد يتبعه بنو سلمة وبنو حارثة، ولكن الله عصمهم من الهوان، لقد أراد المنافقون إيقاع الفتنة في أُحد بين أهل الإيمان، وأرادوا تدبير الحيل والمكايد للنبي، وفكروا في إبطال أمره، حتى جاء النصر والتأييد، وظهر أمر الله، أي غلب دينه وعلا شرعه، بالتنكيل بالأعداء من اليهود، وإبطال الشرك بفتح مكة، وانتشار الإسلام، وكل هؤلاء الأعداء كارهون انتصار المؤمنين، وظهور دعوة الإسلام.

شماتة المنافقين بالمؤمنين

لقد كشف القرآن الكريم عيوب المنافقين وأخلاقهم المرذولة وقبائحهم الباطنة ومكائدهم الخائبة، في مناسبات متعددة ومواقف كثيرة، فهم قوم متآمرون جبناء، خبثاء الباطن، ينتحلون الأعذار الواهية لترك الجهاد، ويشمتون بالمؤمنين إذا أصيبوا بمصيبة، ويحزنون إذا تعرضوا لحسنة، وهذه آيات كريمة تسجل عليهم هذه النقائص، قال تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ[1] إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ[2] وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٤٩-٥٢].

الآية الأولى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي..﴾ نزلت في منافق اسمه: الجَدّ بن قيس، روى الطبراني وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك قال للجدّ بن قيس: يا جد بن قيس: ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟ -أي الروم- فقال: يا رسول الله، إني امرؤ صاحب نساء، ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتتن، فأْذَنْ لي، ولا تفتني، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ أي لا تفتني بصباحة وجوههن.

ومعنى الآية: ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد ائذن لي في القعود والتخلف عن القتال، ولا توقعني في الإثم والهلاك بالخروج معك، حتى لا أفتتن بنساء الروم،

(١) ما تنتظرون بنا. (٢) إما النصر أو الشهادة.

منتحلين الأعذار الواهية، مظهرين التمسك بالفضيلة، فيرد الله عليهم مكذباً دعواهم، كاشفاً حقيقتهم بأنهم بهذه المقالة وقعوا فعلاً في الفتنة، حين انتحلوا الأعذار الكاذبة، وقعدوا عن الجهاد، إنهم سقطوا في الفتنة أي إنهم في الإثم والمعصية وقعوا. وإن نار جهنم لمحيطة بهم، لا يجدون عنها محيداً ولا مهرباً، وهذا وعيد شديد لهم بأنهم أهل جهنم، لكثرة خطاياهم.

وأما آية ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ..﴾ فإنها نزلت-كما روى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه-قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة، يُخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء، يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جَهِدوا في سفرهم-أي إلى تبوك-وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم، وعافية النبي ﷺ وأصحابه، فساءهم ذلك، فأنزل الله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ..﴾.

هذا لون آخر من طبائع المنافقين المتشبعة بالكيد والخبث واستغلال الفرص لإظهار الشماتة بالمؤمنين، فإن عرضت لك أيها النبي في بعض الغزوات (المعارك الحربية) حسنة، أي فتح ونصر وغنيمة كيوم بدر، ساءهم ذلك، وإن أصابتك مصيبة، أي نكبة وشر وشدة كانهزام وتراجع في معركة كمعركة أُحد، قالوا: قد اتخذنا ما يلزم من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم، واحترزنا من متابعته من قبل ما وقع، إذ تركنا القتال ولم نتعرض للهلاك، لأنا متوقعون هذه الهزيمة، وانصرفوا إلى أهاليهم عن موضع التحدث والمفاخرة بآرائهم هذه، وهم مسرورون للنتيجة.

والحسنة: ما يسرّ النفس حصوله، والسيئة: ما يسوء النفس وقوعه. فأمر الله نبيه أن يجيبهم عن شماتتهم وانتهازيتهم: لن يصيبنا أبداً إلا ما كُتب وخُط لنا في اللوح المحفوظ، فنحن تحت مشيئة الله وقدره، هو مولانا، أي ناصرنا ومتولي أمورنا ونتولاه، وهذا إفساد لفرحهم بإعلامهم أن الشيء الذي يعتقدونه مصيبة ليس كما

اعتقدوه، بل جميع الأحداث مما قد كتبه الله للمؤمنين. والمؤمنون إذن متوكلون على الله.

ويجاب بجواب آخر للمنافقين: هل تنتظرون بنا إلا إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة، أما نحن فننتظر بكم إحدى العاقبتين السيئتين: إما تعذيبكم من الله بعذاب أو بأيدينا: وهو السبي أو القتل.

إبطال ثواب المنافقين

قبول الأعمال عند الله تعالى مشروط بقاعدة أساسية وطيدة وهي ارتكاز الأعمال الصالحة على قاعدة الإيمان بالله تعالى، فيكون الكفر والنفاق كل منهما سبباً لإحباط الثواب ورد العمل في وجه صاحبه، وعدم الإفادة منه في الدار الآخرة، فيقع الكافر والمنافق في ندم شديد، لا مجال للتخلص منه، قال الله تعالى عن أعمال الكافرين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٣]. وقال سبحانه عن أعمال المنافقين:

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ[1] أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٥٣-٥٥].

نزلت الآية-كما روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال: قال الجَدّ بن قيس: إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أُفتتن، ولكن أُعينك بمالي، قال: ففيه

---

(١) تخرج أرواحهم.

نزلت: ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أي لقوله: أعينك بمالي. فهذه الآية نزلة في الجَدّ بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول الله ﷺ: هذا مالي أعينك به، فاتركني.

والمعنى: قل أيها النبي للمنافقين: مهما أنفقتم من نفقة في سبيل الله ووجوه البر طائعين أو مكرهين، لن يتقبل منكم، لأنكم كفرتم بالله ورسوله، وما زلتم في شك مما جاء به الرسول من الدين والجزاء على الأعمال في الآخرة، ولأنكم قوم فاسقون، أي عتاة متمردون خارجون عن الإيمان، والأعمال إنما تصح بالإيمان و﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٢٧].

وما منع قبول نفقات المنافقين إلا مجموع هذه الأمور الثلاثة: وهي الكفر بالله ورسوله، وعدم الإتيان بالصلاة إلا في حال الكسل، والإنفاق على سبيل الكراهية والبغض. فالمنافقون كفروا بالله ورسوله وبما جاء به بالفعل، والأعمال إنما تصح بالإيمان، وهم لا يصلون أمام الناس إلا وهم كسالى، لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثواباً، ولا يخشون بتركها عقاباً، فهي ثقيلة عليهم، كما قال تعالى: ﴿وإنها -أي الصلاة- لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ [البقرة: ٢/ ٤٥]. ولا ينفقون نفقة في سبيل الجهاد وغيره إلا وهم كارهون لها، لا تطيب بها أنفسهم، لأنهم لا ينفقون لغرض الطاعة، بل رعاية للمصلحة الظاهرة، وستراً للنفاق، ويعدون الإنفاق مغرماً وخسارة بينهم.

فلا تعجبك أيها النبي وكل مشاهد أو سامع أموال المنافقين ولا أولادهم ولا سائر نعم الله عليهم، فإنما هي من أسباب المحن والآفات عليهم. والكلام بهذا الأسلوب أو اللفظ تحقير شأن المنافقين، فإن إعطاء الله لهم الأموال والأولاد بإرادته تعذيبهم بها.

أما أموالهم في الدنيا فهي سبب تعذيبهم بها حيث يتعبون في جمعها، ويصحبها

الهم والقلق، ثم ينفقونها كارهين في الجهاد والزكاة وتقوية غيرهم وكذلك أولادهم ربما كانوا سبب ألم وكرب، وفي الآخرة يعذبون عذاباً شديداً، حيث تزهق أنفسهم أي يموتون على الكفر الذي يحبط العمل الصالح، وتكون النتيجة أنهم خسروا الدنيا والآخرة، والحال أنهم ماتوا وهم كافرون، وذلك هو الخسران المبين. فما يظن المنافقون في صدر الإسلام أنه من منافع الدنيا هو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم.

والخلاصة: إن النفاق مرض خطير جالب لجميع الآفات في الدين والدنيا ومبطل لجميع الخيرات فيهما، وإن أفعال الكافر والمنافق إذا كانت بِرّاً كصلة الرحم وإطعام الفقير والمسكين وإغاثة المظلوم ينتفع بها في الدنيا، فترد عنه بعض المصائب، أما أن ينتفع بها في الآخرة فلا دليل عليه، قالت عائشة أم المؤمنين للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت عبد الله بن جُدعان -وهو الذي تم في منزله في الجاهلية عقد حلف الفضول الإنساني- أينفعه ما كان يطعم ويصنع من خير؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين». وأما أفعال الكافر والمنافق القبيحة فإنها تزيد في عذابه، وبذلك يكون التفاضل بين الكفار في عذاب جهنم بحسب قبح أفعالهم.

نموذج من صفات المنافقين وأخلاقهم

طويت نفوس المنافقين وطبائعهم على أخس الصفات وأحط مظاهر الجبن والضعف والغدر لحماية موقفهم المتخاذل والتستر على كفرهم وترددهم بين الإسلام والجحود والإنكار وموالاة غير المسلمين، فأقدموا على الأيمان الكاذبة مراراً، ولم يتركوا فرصة إلا استغلوها للطعن بالنبي ﷺ مثل أخذ النبي ﷺ الصدقات من الأغنياء وتوزيعها بين المستحقين، متهمين النبي بالجور والمحاباة وعدم مراعاة العدل، وصف الله تعالى في قرآنه هذه الأخلاق بقوله سبحانه:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ[1] ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً[2] أَوْ مَغَارَاتٍ[3] أَوْ مُدَّخَلًا[4] لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ[5] ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ[6] فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٩/٥٦-٥٩].

روى البخاري والنسائي في بيان سبب نزول آية اللمز في الصدقات عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ يقسم قَسْماً، إذا جاءه ذو الخُوَيصرة التميمي -وهو حرقوص بن زهير أصل الخوارج- فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: وَيْلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب: ائذن لي أن أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: دَعْه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يَمْرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيّة»، فنزلت فيهم الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ..﴾ الآية.

هذه صور من أخلاق المنافقين تبين حقيقتهم، وتنبئ عن قلقهم ومخاوفهم المسيطرة على نفوسهم الضعيفة وتذبذبهم، فهم يحلفون بالله الأيمان الكاذبة بأنهم لمنكم، أي من جملة المسلمين، وهم في الواقع ليسوا منكم، فهم على غير دينكم، بل هم أهل شك وريبة ونفاق، ولكنهم قوم جبناء يخافونكم أيها المؤمنون فيحلفون، مظهرين الإيمان، مبطنين الكفر، ومسرِّين النفاق، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ٢/١٤].

---

(١) أي يخافون خوفاً شديداً. (٢) حصناً. (٣) مغاور في الجبال. (٤) موضعاً يدخلونه أو سرباً يلجون فيه. (٥) يسرعون في دخوله سرعة لا تقاوم. (٦) يعيبك.

ومن مظاهر خوفهم: أنهم يتمنون الهرب والفرار من الأرض الإسلامية والعيش بعيدين عن المسلمين، فلو وجدوا ملجأ، أي مكاناً يتحصنون فيه، أو مغارة، أي كهفاً في الجبال، أو سرباً في الأرض، أو مسلكاً للدخول فيه بمشقة، لولوا إليه، أي رجعوا إليه، وهم يجمحون، أي يسرعون في ذهابهم عنكم على نحو لا يقاوم، لأنهم إنما يعيشون معكم كرهاً، لا محبة وودّاً، وضرورة لا اختياراً، فهم في هم وقلق، وحزن وغم، لتقدم الإسلام ورفعته، وانحدار الشرك وهزيمة المشركين.

بل وأوقح من هذا، فمن المنافقين من يعيب عليك ويطعن بك أيها النبي الرسول في قسمة الصدقات صدقات الأغنياء وزكواتهم أو الغنائم الحربية، فيطالب ذو الخويصرة رأسُ الخوارج رسول الله بالعدل قائلاً: اعدل يا رسول الله، فقال صلوات الله وسلامه عليه: ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟! ثم يقول رسول الله: احذروا هذا وأصحابه، فإنهم منافقون.

ثم وصفهم الله تعالى العالم بالخفيات والأسرار بأن رضا هؤلاء المنافقين وسخطهم لمصلحة أنفسهم، لا للدين والحق والعدل وصلاح أهله؛ لأن رسول الله ﷺ تألف واستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم، فضجر المنافقون منه، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي إن أعطوا من الزكاة أو من الغنائم، ولو بغير حق رضوا، وإن لم يعطوا منها أعلنوا التبرم والسخط، حتى وإن لم يستحقوا العطاء، فهم إنما يغضبون لأنفسهم ومنافعهم، لا للمصلحة العامة. ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الله والرسول من الغنائم وطابت به أنفسهم، وقالوا: كفانا فضل الله وعطاؤه وصنعه، وكفانا ما أخذناه، وسيرزقنا الله غنيمة أخرى، ويعطينا رسول الله أكثر مما أعطانا اليوم، إنا إلى الله في طلب فضله ورضاه لراغبون، لا نرغب إلى غيره أبداً، لو أنهم رضوا بذلك وقالوا هذا القول الجميل لكان خيراً لهم وأولى وأكرم.

مصارف الزكاة

الزكاة أحد أركان الإسلام شرعت إغناء للفقراء وأخذاً بيد الضعفاء وتحقيقاً لما يسمى بمبدأ التكافل الاجتماعي؛ لأن الإسلام يحض على التعاون ويكره التباعد والتنافر بين الناس، لذا حدد القرآن الكريم مصارف الزكاة تحديداً دقيقاً واضحاً لغاية معينة وهي علاج الفقر، ومواساة الضعفاء والعاجزين، وجاء هذا التحديد في الآية القرآنية الكريمة التالية:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا(١) وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ(٢) وَفِي ٱلرِّقَابِ(٣) وَٱلۡغَٰرِمِينَ(٤) وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ(٥) وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ(٦) فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦٠﴾ [التوبة: ٩/ ٦٠].

حصر الله تعالى بكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ في مطلع هذه الآية مصارف الزكاة، والمعنى: إنما الزكوات المفروضة مستحقة لهؤلاء المسلمين المعدودين دون غيرهم، وهذا رد على المنافقين الذين عابوا النبي ﷺ في الصدقات، لبيان مصارفها من غير نقد من أحد، ولا مجال للاعتراض أو الطعن في الرسول عليه الصلاة والسلام في قسمة الزكوات الواجبة، فهي مقصورة على ثمانية أصناف من المسلمين، وإنما اختلف العلماء في صورة القسمة، فرأى جماعة كالإمام مالك وأبي حنيفة وابن حنبل: أن ذلك على قدر اجتهاد الإمام و بحسب أهل الحاجة ولو لصنف واحد. ورأى آخرون كالإمام الشافعي: أن الزكاة ثمانية أقسام على ثمانية أصناف، لا يُخَلُّ بواحد منها إلا أن إعطاء المؤلفة قلوبهم يكون عند وجود الداعي إلى التأليف، ولا يجوز صرف الزكاة لأقل من ثلاثة أشخاص من كل صنف؛ لأن أقل الجمع ثلاثة.

---

(١) جباة الزكاة والكتّاب والحراس. (٢) الذين نتألفهم على الإسلام. (٣) تحرير الأرقاء وفكاك الأسرى.
(٤) المدينين. (٥) في الجهاد. (٦) المسافر المنقطع عن ماله.

الصنف الأول: هم الفقراء المُعْدِمُون المحتاجون الذين لا يجدون كفايتهم، ولا يملكون شيئاً من مال ولا كسب يغطي حوائجهم.

والصنف الثاني: هم المساكين الذين يملكون أقل من كفايتهم، أي أن لديهم شيئاً من المال أو الدخل، ولكنه أقل من الحاجة، أو المصاريف الضرورية اللازمة للأسرة من زوجين وأولاد. وهذا يتغير بتغير الزمان وأحوال المدخولات وأسعار الأشياء وظروف المعيشة المتوسطة المعتادة.

وأجمع العلماء على أن من له دار وخادم لا يستغني عنهما أن له أن يأخذ من الزكاة، وللمعطي أن يعطيه، ويرى الإمام أبو حنيفة: أن من ملك نصاب الزكاة وهو يقدر اليوم بـ ٣٩٠٠٠ ل. س، فلا يأخذ من الزكاة، ويعطى من الزكاة في رأي المالكية والشافعية من لم يجد من المال كفاية السنة. ولا تنقل الزكاة من بلد المال الذي تجب فيه الزكاة إلى بلد آخر إلا لضرورة أو حاجة، كأن لم يوجد فقراء في البلد، أو لقريب محتاج، أو لفقير أحوج إلى المال، أو أصلح أو أورع أو أنفع للمسلمين.

الصنف الثالث: هم العاملون على جباية الزكاة من أهلها، وهم السعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام الحاكم لتحصيل الزكاة بالتوكيل على ذلك، ويشمل ذلك في عصرنا القائمين على مؤسسات أو صناديق الزكاة في البلدان الإسلامية. ويعطى هؤلاء بقدر كفايتهم بصفة أجر على عملهم وإن كانوا أغنياء.

الصنف الرابع: هم المؤلفة قلوبهم وهم غير المسلمين لتأليف قلوبهم على الدخول في الإسلام، أو المسلمون الذين أظهروا الإسلام، ولكنهم ضعاف النية واليقين، والعزيمة والاستقرار في ساحة هذا الدين، يعطون من الزكاة لتثبيت وتقوية إسلامهم وعزائمهم، أو لأنهم شرفاء في قومهم يتوقع بإعطائهم من الزكاة استمالة أتباعهم ونظرائهم. ويستمر هذا المصرف عند الحاجة.

الصنف الخامس: وهم الأرقاء أو العبيد المكاتبون المسلمون الذين كاتبهم أو تعاقد معهم أسيادهم على التحرير إذا قدموا أقساطاً من المال في فترة زمنية معينة، ولم يعد لهم وجود الآن بعد الاتفاق العالمي على إنهاء الرق من العالم عام ١٩٥٢.

الصنف السادس: وهم الغارمون، أي المدينون الذين ركبهم الدَّيْن ولا وفاء عندهم به، أو الذين استدانوا مبلغاً من المال لإصلاح ذات البين بين فريقين من الناس، ولو كانوا غير مسلمين.

الصنف السابع: في سبيل الله، وهم المجاهدون الذين لا حق لهم في ديوان الجند، يعطون ما ينفقون في معاركهم، ولو كانوا أغنياء، ترغيباً لهم في الجهاد.

الصنف الثامن: ابن السبيل وهو المسافر المحتاج المنقطع في أثناء الطريق عن بلده، أو الذي يريد السفر في طاعة غير معصية، فيعجز عن بلوغ مقصده إلا بمعونة. والطاعة تشمل الحج والجهاد والزيارة المندوبة، وليست المباحة فقط كالرياضة والسياحة. هؤلاء الأصناف الثمانية هم مستحقو الزكاة دون غيرهم.

أوصاف أخرى للمنافقين

كان القرآن الكريم حكيماً معتدلاً في حكمه على المنافقين عند نزول الوحي، سكت عنهم في مبدأ الأمر، ثم كشف عن زيفهم وسوء أخلاقهم وطبائعهم، وأظهر خبث أعمالهم وتصرفاتهم، وفحش أقوالهم وكلامهم، وموقفهم العدائي من نبي الله ومن المؤمنين، وهذه أوصاف أخرى لهم، قال الله تعالى:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ[1] قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ[2] يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ

---

(١) سمَّاع لكل قول. (٢) يسمع الخير لا الشر.

وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ(١) اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَالِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٦١-٦٣].

نزلت آية إيذاء النبي ﷺ -فيما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس- قال: كان نَبْتل بن الحارث يأتي رسول الله، فيجلس إليه، فيسمع منه، وينقل حديثه إلى المنافقين، فأنزل الله: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ الآية.

هذا لون آخر من جهالات المنافقين وحماقتهم، فمنهم من كان يقول في رسول الله ﷺ: إنه أُذُن، أي سَمّاع لكل قول، على وجه الطعن والذم، وإنه يصدق كل من حلف له، فهو أذن سامعة، يسمع كل ما يقال له، ويصدقه، فإذا جئنا إليه وحلفنا له صدَّقنا، أي أنه سليم القلب، يغتر بكل ما يسمع، دون أن يتدبر فيه ويميز بين الأمور. فرد الله عليهم بأن النبي أذن خير، لا أذن شر، أي مستمع خير، لا مستمع شر، فيسمع ما يجب استماعه، ولكنه يعرف الصادق من الكاذب، ويعامل المنافقين بأحكام الشريعة وآدابها بناء على الظاهر منهم، ولا يكشف أسرارهم.

إن نبي الله قوي الإيمان، صافي القلب، لا يريد مجابهة المسيء بإساءته، فهو خير شامل ووجه الخيرية أنه يصدق بالله تصديقاً جازماً، ويؤمن بما أوحي إليه من ربه، ويصدق كلام المؤمنين الخلَّص من المهاجرين والأنصار، لا غيرهم، وهو رحمة لأهل الإيمان، يقبل الإيمان الظاهر ولا يكشف الأسرار، مراعاة للمصلحة، وإعطاءً للفرصة باستقامة واعتدال المنحرفين، ولا يصدق خبر المنافقين، ويعرف حقيقة أمرهم، وهو رحمة للعالمين، بهدايتهم لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) من يعاد .

وحينما تمادى المنافقون في غيهم وضلالهم، نزلت سورة التوبة (براءة) تفضح شأنهم، فسميت بالفاضحة أو الكاشفة فاضحة المنافقين وكاشفتهم، وكان يقال لها المنبئة؛ لأنها أنبأت بمثالبهم وعوراتهم وقبائحهم.

ومن قبائحهم جميعاً أنهم يحلفون كثيراً الأيمان الكاذبة ليرضى المؤمنون عنهم، ويعتذروا عن أفعالهم، ويحاولوا إعلان أنهم من المسلمين في الدين، والحال أن الله تعالى يعلم كذبهم، وأن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين، فعليهم إظهار الإيمان الصادق والطاعة الحقيقية، إن كانوا مؤمنين بحق.

ثم وبخهم الله تعالى مبيناً خطورة هذا الموقف، ومضمون التوبيخ: ألم يعلم هؤلاء المنافقون ويتحققوا أن من عادى الله ورسوله وخالفه بتجاوز حدوده أو الطعن برسوله في أعماله أو أقواله، فجزاؤه جهنم خالداً فيها أبداً، مهاناً معذباً فيها إلى الأبد، وذلك العذاب هو الخزي العظيم، أي الذل الكبير والشقاء الشنيع.

وسبب نزول آية ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ فيما روى ابن المنذر عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال في شأن المتخلفين عن غزوة تبوك الذين نزل فيهم ما نزل من آي القرآن: والله، إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم شر من الحمير، فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت شر من الحمار، وسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه، فقال: ما الذي حملك على الذي قلت؟ فجعل يتلعن (يلعن نفسه) ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدِّق الصادق، وكذِّب الكاذب، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾.

إن كثرة الحلف من المنافقين كانت بقصد إبعاد التهم والشبهات عنهم، ولكن الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ويعلم ما تكنه الصدور، كشف أكاذيب المنافقين

وأظهر أنهم قوم يبطنون غير ما يظهرون، والله تعالى لهم بالمرصاد، يعاقبهم في الدنيا والآخرة.

تخوف المنافقين من نزول القرآن فاضحاً لهم

إن إحساس المنافقين بنفاقهم هو الذي جعلهم يحذرون من نزول آيات قرآنية تتلى في حقهم، تكشف أمرهم، وتهتك سترهم، وتعلن للملأ حقيقة أمرهم، وهذا الإحساس في محله، وقد وقع ما كانوا يتخوفون منه، فنزلت الآيات التالية:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ[(١)] قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٦٤-٦٦].

نزلت آية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ..﴾ -فيما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عمر- قال: قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قرآن هؤلاء، ولا أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء!! فقال له رجل: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله، ونزل القرآن. وسمي الرجل في رواية أخرى: عبد الله بن أُبي، أو وديعة بن ثابت، وهذا هو الأصح، لأن عبد الله لم يشهد تبوك.

هذه الآيات تخبر عن حال قلوب هؤلاء المنافقين، فهم يحذرون أن تتلى سورة في شأنهم، وهل تنزل آيات فيهم أو لا؟ فذلك معتقدهم الظاهر من الآية، فرد الله

---

(١) نتلهى بالحديث .

عليهم على سبيل التهديد والوعيد بقوله: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي استهزئوا بآيات الله كما يحلو لكم وكما تريدون فإن الله مظهر ما كنتم تحذرونه من إظهار نفاقكم. قال الطبري: كان المنافقون إذا عابوا رسول الله ﷺ، وذكروا شيئاً من أمره قالوا: «لعل الله لا يفشي سرنا» فنزلت الآية في ذلك. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٩-٣٠].

ثم أقسم الله تعالى بأنه إن سألتهم أيها الرسول عن أقوالهم هذه وهزئهم بالقرآن أو بالنبي محمد، لاعتذروا عنها بأنهم لم يكونوا جادّين فيها، بل هازلين لاعبين خائضين في اللغو بقصد التسلي واللهو، فوبخهم الله وأنكر عليهم بقوله: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي إن المجال ليس مجال استهزاء، فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسول كفر محض وشر مستطير.

فردَّ الله عليهم: قل لهم يا محمد ليس قولكم عذراً مقبولاً، وقل لهم على جهة التوبيخ، لا تعتذروا أبداً بهذا وغيره، ولا تفعلوا ما لا ينفع، للتخلص من هذا الجرم العظيم، فإنكم قد كفرتم وظهر كفركم، كما أظهرتم إيمانكم، وتبين أمركم للناس قاطبة.

فإن نعف عن بعضكم أو طائفة منكم لتوبتهم الخالصة، وهو رجل واحد اسمه مَخشّ بن حُمَيِّر، نعذب طائفة، أي جماعة أخرى لبقائهم على النفاق، وارتكابهم الآثام، وإجرامهم في حق أنفسهم وغيرهم، فتعذيبكم بسبب إجرامكم.

إن هذه الآيات الكريمة تدل دلالة واضحة على أن الهزل في الدين وأحكامه،

والخوض في كتاب الله ورسله وصفاته بغير علم يعد جهلاً وكفراً، لأن الهزل أخو الباطل والجهل، والإيمان يتطلب الأدب والعلم وتعظيم الله وآياته وأنبيائه.

ولا يقتصر الكفر على القلب، وإنما يشمل الأقوال والأفعال المكفرة. وإذا كان المنافقون كفاراً قبل نزول هذه الآيات بسبب نفاقهم، فإن استهزاءهم كفر بعد كفر؛ لأن الكفر يتجدد، وقد كفروا بعد أن كانوا مؤمنين في الظاهر.

ولا طريق للمنافقين لإصلاح شأنهم إلا بالتوبة الشاملة من النفاق، والتوبة عن الكفر أو النفاق مقبولة في كل وقت، فمن تاب عفي عنه، ومن أصر على الكفر أو النفاق عوقب في جهنم. وهذا أمر من أساسيات العقيدة، فلا يصح الهزل أو الهزء في قضايا العقائد، ومثل ذلك في العقود الزواج والطلاق، لقول النبي ﷺ -فيما رواه أبو داود والترمذي والدارقطني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «ثلاث جِدهن جد، وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة» . أما الهزل في بقية العقود كالبيع والإجارة والشركة فلا يترتب عليه أثر، ولا ينعقد العقد في حال الهزل.

المنافقون قوم هدامون لبنية المجتمع

لم يقتصر سوء خلق المنافقين على أنفسهم وتكوينهم القبيح، وإنما تعدى ضررهم وقبح أخلاقهم إلى المجتمع، بقصْد هدم بنيته وتقويض وجوده من طريق ترويج الرذيلة والمنكر، ومحاربة الفضيلة والمعروف، وهذا يشبه اتجاه بعض الحركات الهدامة المعاصرة، كالصهيونية في (بروتوكولات حكماء صهيون). ولا شك بأن الضرر العام أسوأ أثراً من الضرر الخاص، قال الله تعالى مبيناً تحركات المنافقين في هدم القيم الإنسانية:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ

وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ(١) نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ(٢) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ(٣) وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ(٤) فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ(٥) كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ(٦) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ(٧) أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: ٩/٦٧-٧٠].

الآيات الكريمة تقرير حاسم بأن الخبيث لا يلد إلا خبيثاً، كما أن الطيب لا يلد إلا طيباً، وفي المثل العربي: «إنك لا تجني من الشوك العنب» ومطلع الآيات إخبار وحكم من الله تعالى بأن المنافقين والمنافقات بعضهم يشبه بعضاً في الحكم والمنزلة من الكفر، وفي صفة النفاق والبعد عن الإيمان، وفي الأخلاق والأعمال، فهم سلالة خبيثة يأمرون بهدم قيم المجتمع، يأمرون الناس بالمنكر: وهو ما أنكره الشرع ونهى عنه واستقبحه العقل السليم والعرف الصحيح، كالكذب والخيانة ونقض العهد وخُلْف الوعد، وينهون الناس عن المعروف: وهو كل ما أمر به الشرع وأقره العقل والطبع السليمان كالجهاد وبذل المال في سبيل الله. وأهل النفاق أيضاً قوم بخلاء، يقبضون أيديهم عن الإنفاق لمصلحة عامة أو عن الجهاد، وعن كل ما يرضي الله، ونسوا ذكر الله، وأغفلوا تكاليف الشرع، مما أمر الله به ونهى عنه، فنسيهم الله، أي جازاهم بمثل فعلهم، وعاملهم معاملة المنسيين، بحرمانهم من لطفه ورحمته،

---

(١) يكفون أيديهم عن الخير. (٢) أهمل توفيقهم وهدايتهم. (٣) تكفيهم عقاباً على كفرهم. (٤) فتمتعوا بنصيبهم من ملاذ الدنيا. (٥) دخلتم في الباطل. (٦) بطلت وذهب ثوابها. (٧) أصحاب قرى قوم لوط المنقلبات.

وفضله وتوفيقه في الدنيا، ومن الثواب في الآخرة، إن المنافقين هم الفاسقون، أي الخارجون عن طريق الحق والاستقامة، الوالغون الداخلون في طريق الضلالة، المتمردون في الكفر، المنسلخون عن كل خير.

ثم أكد الله تعالى وعيده السابق للمنافقين بمجازاتهم وضمهم إلى الكفار، فأوعدهم نار جهنم يدخلونها، ماكثين فيها أبداً، وخالدين مع الكفار الأصليين، هي حسبهم، أي كفايتهم في العذاب، ولعنهم الله، أي طردهم وأبعدهم من رحمته، ولهم عذاب دائم مستمر غير عذاب جهنم والخلود فيها.

وأوضح الله تعالى بعدئذ وجود الشبه بين المنافقين والكفار السابقين، فهم مثلهم مغرورون بالدنيا، لكنَّ السابقين كانوا أشد من المنافقين قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، وتمتع الفريقان بملاذ الدنيا، وخاضوا في مشاغلها ولذائذها وحظوظها الزائلة، وشغلوا عن التمتع بكلام الله وهدي أنبيائه، ولم ينظروا في عواقب الأمور، ولم يعملوا على طلب الفلاح في الآخرة، والفرق بين الفريقين أن دواعي الخير توافرت لدى المنافقين، ولكن كانت دواعي الشر عند الكفار السابقين، فكان المنافقون أسوأ حالاً من الكفرة السابقين، وأولئك الكفار حبطت وبطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة. وكانوا هم الخاسرين، فيكون المنافقون مثلهم.

ثم وعظ الله المنافقين المكذبين الرسل وأنذرهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ..﴾ أي ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل وهم قوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان وعاد قوم هود الذين أهلكوا بالريح العقيم، وثمود قوم صالح الذين أخذتهم الصيحة وقوم إبراهيم الذين سلبهم الله النعمة وقتل ملكهم النمرود بالبعوضة، والمؤتفكات أصحاب قرى قوم لوط في مدائن الذين أهلكهم الله بالخسف والزلزلة،

وما كان الله ليهلك أولئك الأقوام ظلماً وجوراً، ولكن كانوا يظلمون أنفسهم بسبب أفعالهم القبيحة وتكذيبهم الرسل، ومخالفة الحق، والعمل بالباطل.

والخلاصة: إن المنافقين يعملون على هدم قيم المجتمع، ويعادون الحضارة الإنسانية، فاستحقوا التدمير والمحق من الوجود، والعذاب في الآخرة.

المؤمنون بناة المجتمع الفاضل

بعد أن أبان الله تعالى صفات المنافقين والمنافقات، وأنهم هدامون لبنية المجتمع، وأعداءٌ للحضارة الإنسانية الرشيدة، أعقب ذلك ببيان صفات المؤمنين والمؤمنات، وأنهم بناة المدنية والمجتمع المتحضر الفاضل، وعمار الكون وذوو الأهلية لإعلاء مجد الحضارة من الناحيتين المادية والمعنوية، وذلك لأنهم يشيدون صرح الفضيلة، ويقاومون الرذيلة، فاستحقوا البقاء والخلود في جنان الخلد، قال الله تعالى مبيناً هذه الصفات الحميدة:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)﴾

[التوبة: ٩/ ٧١-٧٢].

هذه هي صفات أهل الإيمان، إنها صفات إيجابية سامية، تخدم الفرد والجماعة، والأمة والمجتمع، ذكرها الله تعالى ترغيباً في الإيمان، وتنشيطاً له، تلطفاً من الله تعالى، مع مقارنة واضحة بين المؤمنين والمنافقين، فبين المؤمنين ولاية في الله خاصة ومناصرة لمبدأ الحق والعدل والفضيلة، وتعاون فيما بينهم وجزاؤهم الجنة، وأما

المنافقون فلا ولاية بينهم ولا شفاعة لهم، ولا يدعو بعضهم لبعض، وجزاؤهم نيران جهنم.

وهكذا شأن القرآن يذكر المتقابلات والأضداد، للعبرة والعظة، وإظهار الفروق، لاختيار الإنسان ما فيه المصلحة، وتجنب ما فيه المضرة والمفسدة، وليعلم المؤمنون أنهم يسيرون في طريق الهدى والرشاد، وأن المنافقين غير مؤمنين في الحقيقة، وهم سائرون في طريق الغواية والضلال.

تبين الآيات أن أهل الإيمان من الذكور والإناث متناصرون متعاضدون على الخير والمعروف والفضيلة وتقدم المجتمع، متآزرون في المواقف الصعبة كالهجرة والجهاد، الرجال يعتصمون بالعفة وغض البصر، والنساء يلتزمن الأدب الجم والحشمة والحياء والتعفف وغض البصر وقوة الحديث وستر اللباس وحسن العمل. الجميع يرتبطون برابطة الأخوة والإيمان، وتسودهم المحبة والمودة والتراحم والتعاطف، على عكس المنافقين الذين لا رابطة تجمعهم، ولا عقيدة تؤلف بينهم، وإنما هم أتباع بعضهم بعضاً في الشك والجبن والبخل والانهزام والتردد.

المؤمنون نقيض المنافقين يأمرون بالمعروف الذي أقره الشرع وهو عبادة الله وتوحيده وتوابع ذلك، لا بالمنكر الذي نهى عنه الشرع، وينهون عن المنكر الذي يفسد ويضر، ويمزق ويفرق بين الأخ وأخيه وهو عبادة الأوثان وتوابعها، ويقيمون الصلوات الخمس المفروضة على الوجه الأكمل بقلوب خاشعة، وعقول واعية، وأفئدة ذاكرة، ويؤتون الزكاة الواجبة مع التطوع بالصدقات والنوافل لتحسين أوضاع المجتمع وترقية أحواله، ويطيعون الله ورسوله في جميع المأمورات والمندوبات، أولئك الموصوفون بهذه الصفات الجليلة ستغمرهم رحمة الله وفضله في الدنيا والآخرة. والتعبير بالسين في قوله تعالى: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ إعداد النفوس

للتهيؤ والتنعم برجاء الله والثقة بوعده وفضله، ووعد الله ناجز، والله متكفل بإنجازه، والله قوي لا يغلب ولا يمتنع عليه شيء من وعد ولا وعيد، حكيم يضع الأمور في موضعها المناسب على وفق العدل والحكمة والصواب.

ثم صرح الله تعالى بمضمون وعده لأهل الإيمان، مفصلاً ثمرات الإيمان من التعرض لرحمة الله وفضله، والظفر بجنان الخلد التي تجري الأنهار من تحت أشجارها، فتزيدها متعة وحيوية وجمالاً، وهم ماكثون في الجنات إلى الأبد، ولهم فيها مساكن طيبة، أي حسنة البناء، طيبة القرار، وجناتهم جنات عدن هي اسم مكان ومنزل من منازل الجنة كالفردوس، كما قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ [مريم: ١٩/ ٦١] وللمؤمنين أيضاً رضوان من الله أكبر وأعظم من الجنان، أي إن رضا الله عنهم أجل مما هم فيه من النعيم المادي المحسوس، وذلك دليل قاطع على أن السعادة الروحية أكمل وأشرف وأهنأ من السعادة الجسدية.

وهذه الأمور الثلاثة: الجنات والمساكن الطيبة في جنات عدن، والرضوان الإلهي الأكبر، هي جزاء أهل الإيمان، وذلك النعيم الجسدي والروحي هو الفوز العظيم وحده، دون ما يعده الناس فوزاً من طيبات الحياة الدنيا الفانية التي يحرص عليها المنافقون والكفار ويطلبونها دائماً.

بهذا يتميز أهل الإيمان والتحضر عن المنافقين دعاة الفوضى والتخلف، ولا شك بأن البقاء للأصلح، والدمار والفناء للأفسد.

أسباب جهاد غير المؤمنين

لقد تعرض المسلمون في صدر الدعوة الإسلامية لأنواع مختلفة من الأذى والتنكيل، بالقول والفعل، بالكيد والمؤامرة أحياناً، وبالسب والشتم أحياناً،

وبالطعن في الدين تارة، وبالحملات العسكرية المتكررة في كثير من الأوقات. ومع كل هذا هادنهم التشريع القرآني، وصبر المسلمون على إيذاء غيرهم ردحاً طويلاً من الزمان، ثم أذن الحق سبحانه وتعالى بإنذار الأعداء وقتالهم بسبب كثرة اعتداءاتهم، فقال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ[١] وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟[٢] إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٧٣-٧٤].

أصح ما روي في سبب نزول هذه الآية: ما رواه ابن جرير الطبري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة، فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكَلّموا، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال له: علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فتجاوز عنهم، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ . .﴾ الآية.

لم يبدأ المسلمون غيرهم بقتال، وإنما ابتدأ القرآن الكريم بتهديد الكفار وإنذارهم بالجهاد، وتنوعت أساليب الجهاد بحسب الأعداء المجاهَدين، فكان جهاد الكافر المعلن عداوته بالسيف، وجهاد المنافق المتستر باللسان والتعنيف. وأسباب الجهاد: إظهار الأعداء العداوة والمجاهرة بالكفر والتحدي، وحلف الأيمان الكاذبة، والتكلم بالكلمات الشنيعة الفاسدة، والجهاد ثلاثة أنواع: جهاد العدو الظاهر، وجهاد

(١) شدِّد عليهم . (٢) ما كرهوا وما عابوا .

الشيطان، وجهاد النفس والهوى، لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٨] وقوله سبحانه: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ٩/ ٤١]. وقال النبي ﷺ فيما رواه أحمد وغيره عن أنس: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» وما رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه عن فضالة بن عبيد: «المجاهد: من جاهد نفسه للهَ أو في الله عز وجل».

ومعنى الآية التي أودُّ بيانها هنا: يا أيها النبي جاهد كلاً من الكفار والمنافقين، وعاملهم بالشدة والخشونة، إرهاباً لهم، وقمعاً لمحاولات اعتدائهم، ولهم عذابان: عذاب الدنيا بالجهاد وعذاب الآخرة في جهنم. وذلك لأنهم يظهرون العداوة والتحدي، ويجاهرون بالكفر صراحة، ويهمّون بالفتك برسول الله ﷺ، ويستهزئون بآيات الله وبالنبي وبالمؤمنين، ويحلفون الأيمان الكاذبة، ويتلاعبون بالدين، مظهرين الكفر بعد أن أظهروا الإسلام، وهموا بما لم ينالوا ولم يتحقق مأربهم وهو اغتيال الرسول في العقبة، بعد رجوعه من غزوة تبوك. ولم يكن لأولئك المنافقين عذر في موقفهم المعادي بالرغم من أن الله تعالى أغناهم من فضله، ورسولُه أيضاً بإعطائهم من الغنائم الحربية بعد أن كانوا فقراء في المدينة.

ومع كل هذا لم يبادرهم المسلمون بالقتال، وفتح الإسلام لهم باب التوبة والأمل، فإن يتوبوا من النفاق ومساوئ الأقوال والأفعال، يكن ذلك خيراً لهم وأصلح، ويفوزوا بالخير، ويقبل الله توبتهم إن صدقوا في كلامهم. وإن يتولوا عن التوبة بالإصرار على النفاق، يعذبهم الله عذاباً مؤلماً في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فهو القتل وسبي الأولاد والنساء واغتنام الأموال، والعيش في حال شديدة من القلق والخوف والهمّ، وما لهم في الأرض كلها من ولي يتولى أمورهم ويدافع عنهم، ولا نصير ينصرهم وينجيهم من ألوان العذاب، وهم في صف معادٍ للمسلمين،

والمسلمون المؤمنون يوالي بعضهم بعضاً ويناصره، وأما المنافقون فلا ولاية لهم ولا نصرة بينهم، لا بجلب خير لهم، ولا بدفع شر عنهم، والآية تضمنت إحاطة علم الله بهم، وتوبيخهم على ما كانوا عليه من شرور وآثام، ومواقف وتحركات مشبوهة.

بخل المنافقين

يتميز المؤمن عن المنافق بسخائه وجوده وإنفاقه المال بصدق وإخلاص في سبيل الله ومن أجل إعزاز أمته وإعلاء شأن بلاده ودينه، منتظراً من الله تعالى الثواب الجزيل، وتعويض النفقة، وإخلاف الرزق، أما المنافق الذي لا أثر للإيمان في قلبه، ولا ينتظر من الله الخير، فتراه بخيلاً ممسكاً المال، يخاف الفقر خوفاً شديداً، من غير إحساس بانتمائه للأمة، ولا إسهام في سبيل إعزازها والذود عن حياضها، قال الله تعالى مبيناً خصلة البخل المتأصلة في نفوس المنافقين:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ(١) وَنَجْوَىٰهُمْ(٢) وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٥-٧٨].

ذكر بعض المفسرين كالطبري أن سبب نزول هذه الآية هو ثعلبة بن حاطب، وهو غير صحيح؛ لأن ثعلبة هذا بَدْري أنصاري، شهد غزوة بدر الكبرى، وناصر النبي والمسلمين نصراً مؤزراً، وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان، قال ابن عبد

(١) ما أسروه في قلوبهم من النفاق. (٢) ما يتناجون به من المطاعن.

البر: ولعل قول من قال في ثعلبة: إنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح، والله أعلم.

وقال الضحاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين: نَبْتَل بن الحارث وجَدّ بن قيس، ومُعَتِّب بن قُشَير، قال القرطبي: وهذا أشبه بنزول الآية فيهم، إلا أن قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ يدل على أن الذي عاهد الله تعالى لم يكن منافقاً من قبل، إلا أن يكون المعنى: زادهم نفاقاً ثبتوا عليه إلى الممات، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

فتكون الآية في بعض المنافقين الذي عاهد الله ورسوله: لئن أغناه الله من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين الذين ينفقون أموالهم في مرضاة الله، كصلة الرحم والجهاد.

فلما رزقهم الله تعالى، وأعطاهم من فضله ما طلبوا، لم يوفوا بما قالوا، ولم يصدقوا فيما وعدوا، وإنما بخلوا به وأمسكوه، فلم يتصدقوا منه بشيء ولم ينفقوا منه شيئاً في مصالح الأمة، كما عاهدوا الله عليه، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة عن العهد وطاعة الله، وأعرضوا إعراضاً تاماً عن النفقة وعن الإسلام، بسبب تأصل طبع النفاق في نفوسهم.

ولما أمدهم الله بالرزق من فضله وإحسانه، بخلوا بإعطاء الصدقة وبإنفاق المال في الخير، وبالوفاء بما تعهدوا والتزموا، وتولوا مدبرين معرضين عن الإسلام والإيمان والإحسان. فهذه صفات ثلاث لهؤلاء المنافقين: البخل: وهو منع الحق، والتولي عن العهد وتنفيذ الالتزام، والإعراض عن تكاليف الله وأوامره. والعهد الذي كان من المنافقين إنما كان بالنية لا بالقول، فأعقبهم الله تعالى نفاقاً في قلوبهم، أي صير عاقبة أمرهم نفاقاً دائماً في قلوبهم، أي زادهم نفاقاً، أو أعقب بخلهم نفاقاً، واستمر فيهم

ذلك النفاق ثابتاً متمكناً ملازماً قلوبهم إلى يوم الحساب في الآخرة، أي أنهم ماتوا منافقين.

وذكر الله تعالى سببين للموت على النفاق: وهما إخلاف الوعد والكذب، فقال سبحانه: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ لقد أخلفوا ما وعدوا الله تعالى من التصدق والصلاح، وكذبوا بنقضهم العهد وترك الوفاء بما التزموه. ثم وبخ الله تعالى هؤلاء المنافقين بأن الله يعلم السر وأخفى، ويعلم ما يسرونه من الكلام، وما يتناجون أو يتحدثون به من الطعن في الدين، والله أعلم بما في نفوسهم مما يضمرونه من حقد وكراهية، يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، وينطبق عليهم تماماً قوله ﷺ فيما يرويه ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عمر: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان» وهذا الحديث وأمثاله في المنافقين الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، الذين شهد الله عليهم. وصدور هذه الخصال من بعض المسلمين باعتبار النفاق اللغوي أو الاجتماعي، وأنها معاصٍ لا نفاق في العقيدة، وأن هذه الخصال تشبه أفعال المنافقين.

جزاء المنافقين في الدنيا والآخرة

ينفر المجتمع وأهل الطبع السليم النقي من النفاق والمنافقين، لأن النفاق مرض خبيث وآفة خطيرة تجمع في مضمونها ضعف النفس ولؤم الطبع، وتبييت الغدر ومحاولة الطعن بغيرهم من المجتمع والأفراد، فلا يطمئن لهم إنسان، ولا يُحمد لهم فِعال، وهم أعداء الباطن والداخل، فيجب الحذر منهم والبعد عنهم، قال الله تعالى واصفاً طباعهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ(١) ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ(٢) فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: ٩/٧٩-٨٠].

سبب نزول الآية: هو ما روى البخاري ومسلم عن أبي مسعود البدري قال: لما نزلت آية الصدقة، كنا نُحامل على ظهورنا(٣)، فجاء رجل (هو أبو عقيل واسمه الْحَبْحَاب) بشيء كثير، فقالوا: مرائي، فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ..﴾ الآية، أي يعيبونهم.

هذا لون من ألوان طبائع المنافقين وأعمالهم القبيحة، وهو لمزهم (أي عيبهم) المتطوعين الذين يأتون بالصدقات طوعاً واختياراً. وهو موقف غريب يدل على تأصل النفاق في قلوبهم، وأنه لا يرجى منهم الخير أبداً. فهم لا يكتفون بالامتناع عن الإنفاق في سبيل الله، بل ويعيبون من ينفق من المسلمين المتطوعين بسخاء في الصدقات، بل والذين يبذلون أقصى جهدهم، فلا يجدون عندهم ما ينفقونه في سبيل الله إلا القليل، وتراهم لا هَمَّ لهم إلا الطعن والهزء والسخرية، فيهزؤون من جميع المتطوعين في الصدقات بالقدر القليل أو الكثير، وخصص الله تعالى المقلّين بعد المكثرين، من قبيل عطف الخاص على العام؛ لأن السخرية منهم كانت أشد وأوقع.

فكان جزاؤهم المحقق أن الله جازاهم على سخريتهم وهزئهم بمثل ذنبهم، حيث صاروا إلى النار، وتعرضوا للعذاب المؤلم الشديد الإيلام. وعبّر الحق تعالى عن ذلك بقوله: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ وهذا من قبيل ما يسمى في اللغة العربية

---

(١) المنافقون الذين يعيبون. (٢) طاقتهم. (٣) أي نستأجر في الأعمال، ونحمل الأحمال على ظهورنا بالأجرة، ونتصدق منها أو بها.

بالمشاكلة أو المشابهة، فهم يستهزئون بالمنفقين ويستخفّون منهم، فيعاقبون بما يناسب فعلهم، سخر الله منهم وهو تسمية العقوبة باسم الذنب، وهي عبارة عما حلّ بهم من المقت والذل في نفوسهم، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم، وهذا وعيد محض.

وهناك حكم آخر متعلق بالمنافقين، وهو أنهم كالكفار ليسوا أهلاً للاستغفار، ولا ينفعهم الدعاء، فسواء استغفر لهم الرسول أم لم يستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم، ولن يستر عليهم ذنوبهم بالعفو عنها، وترك المساءلة، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٥٣] ولو فرض أن النبي ﷺ استغفر لهم سبعين مرة، أي مرات كثيرة، فلن يغفر الله لهم ولن يعفو عنهم، والآية كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٦]. وليس المراد بالسبعين في الآية التحديد بعدد معين، فيكون ما زاد بخلافها، أي لا يصح أن يفهم أن الزيادة على السبعين يُغفر معها، وإنما المراد المبالغة والتكثير في الكلام بحسب أسلوب العرب. والسبب في عدم قبول الاستغفار والدعاء للمنافقين هو ما صرح به القرآن الكريم: أنهم كفروا وجحدوا بالله ورسوله، فلم يقروا بوحدانية الله تعالى، ولم يعترفوا ببعثة النبي ﷺ، وأصروا على الجحود والإنكار، فلم تعد قلوبهم مستعدة لقبول الخير والنور، وسنةُ الله وقانونه ألا يوفق للخير القوم المتمردين في الكفر، الخارجين عن الطاعة، الذين فقدوا الاستعداد للإيمان والتوبة، وذلك هو سبب اليأس من الغفران لهم وامتناعه عنهم.

فرح المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك

تمتحن الأمة والجماعات والأفراد بالمحن والمواقف الصعبة أو الحرجة، فيعرف المحسن من المسيء، والمخلص من الخائن، والصادق من الكاذب، فيكون للمحنة

فضل أو ميزة بكشف أحوال الناس، وتعرضهم للامتحان والاختبار، وهكذا غربلت الأحداث الجسام مواقف المعاصرين للنبي ﷺ، ومن تلك الأحداث الحاسمة غزوة تبوك التي حدثت في الصيف، ومن أجل مجابهة عدو قوي، كثير العَدَد، متفوق العُدد والسلاح، وهذا ما سجَّله القرآن الكريم، ليكون عبرة للأجيال، ودرساً بليغاً للجماعات والأفراد، قال الله تعالى:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ(١) وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ(٢) فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٨١-٨٢].

ذكر المفسرون روايات في بيان سبب نزول الآية، أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجال: يا رسول الله، الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا ننفر في الحر، فأنزل الله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾.

وأخرج ابن جرير أيضاً عن محمد بن كعب القرظي قال: خرج رسول الله ﷺ في حر شديد إلى تبوك، فقال رجل من بني سلمة: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ الآية.

هذه آية تتضمن وصف حال المنافقين على جهة التوبيخ واللوم لهم، بسبب فرحهم بالقعود وكراهتهم الجهاد، وفي ضمنها وعيد.

وقد نزلت الآية أثناء السفر، بقصد الذم، والإخبار عن مصير المنافقين في الآخرة، وتلك عبرة لكل متخلف عن الجهاد.

---

(١) بعد خروجه أو لمخالفته. (٢) لا تخرجوا للجهاد.

والمعنى: فرح أولئك المنافقون المتخلفون، أي المتأخرون عن الجهاد القاعدون في المدينة في بيوتهم، بعد أن تركهم رسول الله ﷺ عند خروجه إلى غزوة تبوك. وسبب فرحهم عدم إيمانهم بأن في الجهاد خيراً، وسبب آخر هو كراهيتهم الجهاد مع النبي ﷺ بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والفرح بالإقامة يدل على كراهة الذهاب، أي أنهم فرحوا لأمرين: التخلف والبقاء في المدينة، وكراهة الذهاب إلى الجهاد. ومنشأ هذين الأمرين هو الشُّحّ إذ لا يؤمنون بالثواب في سبيل الله، مما جعلهم يضنون بالدنيا.

ولم يقتصر الأمر على فرحهم بأنفسهم، بل أغروا غيرهم بعدم الخروج، وقال بعضهم لبعض: لا تخرجوا للجهاد؛ لأن غزوة تبوك في شدة الحر، وقد طابت الثمار والظلال المتفيأ بها. فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ﴾ أي إن نار جهنم التي أعدت للعصاة أشد حراً مما فررتم منه من الحر، فلو كانوا يعقلون ذلك ويعتبرون به، لما خالفوا وقعدوا، ولما فرحوا بل حزنوا، فأقيمت عليهم الحجة بأن قيل لهم: فإذا كنتم تجزعون من حر القيظ، فنار جهنم التي هي أشد أحرى أن تجزعوا منها لو فهمتم.

والأولى بهم أن يضحكوا ويفرحوا قليلاً، ويبكوا كثيراً، وهذا إشارة إلى مدة العُمْر في الدنيا، وإلى تأبيد الخلود في النار، أي إن ما هم عليه من الخطر مع الله وسوء الحال بحيث ينبغي أن يكون ضحكهم قليلاً، وبكاؤهم من أجل ذلك كثيراً. وهذا خبر عن حالهم وارد بصيغة الأمر: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ﴾ يقصد به التهديد وانتظار ما سيلاقون من عذاب شديد، جزاء على ما اقترفوه أو اكتسبوه من الجرائم والنفاق. وقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ متعلق بالمعنى المقدر، وهو: وليبكوا كثيراً إذ هم معذَّبون جزاءً. وقوله ﴿يَكْسِبُونَ﴾ نص في أن التكسب هو الذي يتعلق به الثواب

والعقاب. وهذا غاية العدل الإلهي، فإن الجزاء على قدر العمل، وكل إنسان مجازى بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولا يحق لأحد الاعتراض ما دام العمل المكتسب هو أساس الجزاء، وميزان الأعمال، وسبب الثواب والعذاب.

معاملة النبي ﷺ أهل النفاق

إذا انكشف الموقف العدائي لقوم أو شخص، وجب الحذر منه، ومعاملته بما يستحق من اتخاذ موقف حاسم يدرأ الخطر، ويكشف العدو، ويمنع الاسترسال في عدوانه وأذاه. وإذا كان المنافقون في داخل الأمة أخطر من العدو الخارجي، وجب نبذهم وتحييدهم حتى لا يفسدوا غيرهم. ووجب إظهارهم أنهم غير مؤمنين، ولم يصح لأحد الاغترار بمظاهرهم الفاتنة في الدنيا من مال وثراء، أو ولد وجاه وغير ذلك، وهذه المواقف هي التي قررها القرآن في معاملة المنافقين، فقال الله تعالى:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ[1] ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ[2] وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٨٣-٨٥].

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أُبي (زعيم المنافقين) جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام ليصلي عليه، فقام عمر بن الخطاب، وأخذ

(١) أي المتخلفين من النساء والولدان وأهل الأعذار. (٢) تخرج أرواحهم.

بثوبه، وقال: يا رسول الله، أتصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي على المنافقين؟ قال: إنما خيرني الله، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وسأزيده على السبعين، فقال: إنه منافق، فصلى عليه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ فترك الصلاة عليهم.

وقد فهم عمر ذلك من قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ على أنه تقدم نهي صريح، وقوله ﷺ: «إنما خيرني الله» يراد به أنه مجرد استغفار لساني لا ينفع، وغايته تطييب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفر له.

هذه الآيات الكريمة تبين حكم معاملة زعماء النفاق، وهي تأمر النبي ﷺ بأنه إن ردك الله من سفرك بالرجوع من غزوة تبوك إلى طائفة من المتخلفين المنافقين، فاستأذنوك للخروج معك إلى غزوة أخرى، فقل لهم تعزيراً وعقوبة: لن تخرجوا معي أبداً على أية حال، ولن تقاتلوا معي أبداً عدواً بأي وضع كان؛ لأنكم معشر المنافقين اخترتم القعود عن أول مرة، وتخلفتم بلا عذر، وكذبتم في أيمانكم الفاجرة، وفرحتم بالقعود، وأغريتم غيركم بالتخلف عن الجهاد، فاقعدوا أبداً مع الخالفين، أي مع فئة النساء والصبيان والعجزة وأهل الأعذار.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يبرأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل كافر أو منافق لا يُدعى له ولا يستغفر له، لأنه كافر بالله ورسوله، ومات على الكفر أو النفاق، والفسق، أي الخروج من دين الإسلام والتمرد على أحكامه، وتجاوز حدوده وأحكامه من أوامر ونواه.

ثم خاطب الله تعالى نبيه، والمراد أمته، ممن لا تفتنه زخارف الدنيا، فلا تستحسن أيها النبي وكل مؤمن ما أنعمنا به على المنافقين وأمثالهم من الأموال

والأولاد، فلا يريد الله بهم الخير، إنما يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بالمصائب، وتخرج أرواحهم، ويموتوا على الكفر، وهم مشغولون بالتمتع بالدنيا عن النظر في عواقب الأمور.

أكد القرآن الكريم على هذا المعنى في هذه الآية؛ لأن الناس كانوا وما زالوا يفتتنون بصلاح حال المنافقين والكافرين في دنياهم، وهذا خطأ؛ لأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وليس الغنى أو الثراء دليلاً على رضوان الله على الغني أو الثري، فقد يكون ذلك فتنة، وقد يكون عدلاً إلهياً أن يمتّع المنافق أو الكافر في الدنيا، ليحرم من نعيم الآخرة، وقد يكون ذلك حجة بالغة على المنحرف، فبالرغم من فضل الله عليه ورحمته به وإمداده بالمال والولد، يجحد نعم ربه، ويكفر بخالقه، فيكون ذلك سبباً لتشديد عذابه وعقابه.

موقف المنافقين والمؤمنين من الجهاد

تتبين مواقف الرجال وتتجلى خصالهم العالية في أحوال تحتاج لقدر كبير من التضحية بالنفس والمال، لذا كان هذا الأمر محكّ اختبار الصادقين من الكاذبين، وبه انكشف حال الجماعة المنافقين، وتميّز شأن المؤمنين المخلصين المشاركين في الجهاد، في مواجهة تخلص أهل النفاق من القيام بالواجب بمختلف الأعذار الواهية، وقد وازن القرآن الكريم بين موقفي الفريقين في الآيات التالية:

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ[1] مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ[2] وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ

(١) أصحاب الغنى والسعة من المنافقين. (٢) الخوالف: أخسّة الناس وأخلافهم ومن لا خير فيهم كالنساء المتخلفات عن الجهاد.

لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: ٩/٨٦-٨٩].

ذم الله تعالى في هذه الآيات فريقاً وامتدح فريقاً آخر، ذم المتخلفين عن الجهاد مع القدرة عليه، وتوافر الثروة والغنى، فاستأذنوا الرسول ﷺ في القعود عن الجهاد، وأما المؤمنون فهم الذين يبادرون لخوض المعارك بهمة قعساء وعزيمة مضّاء.

لقد كانت عادة المنافقين التهرب من الجهاد، فكلما أنزلت سورة أو آية فيها الأمر بالإيمان والجهاد مع الرسول ﷺ، استأذن أولو الطول، أي أصحاب الغنى والسعة وأولو المقدرة على القتال والجهاد بالمال والنفس في التخلف بأعذار واهية، قائلين للنبي: اتركنا مع القاعدين في بيوتهم من النساء والصبيان والعجزة والضعفاء، وهذا غاية الجبن والمذلة والهوان، وطعن برجولتهم، ومساس بكرامتهم وعزتهم.

إنهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف المتخلفة من النساء، وفي هذا تقريع شديد وتشنيع ولوم واضح، إذ يأبى الرجل العزيز أن يكون مثل المرأة في مواقف الرجولة. واستحقوا بهذا أن يختم أو يطبع على قلوبهم حتى لا ينفذ إليها النور والعرفان والهداية والعلم، فأصبحوا لا يفقهون، أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم، فيفعلونه، ولا ما فيه مضرّة فيجتنبونه، ولا يدركون أسرار حكمة الله في الأمر بالجهاد.

ثم قارن الله تعالى وضع المنافقين الذين لم يجاهدوا بوضع المؤمنين، وهو أن الرسول وأهل الإيمان معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقاموا بواجبهم خير قيام، فنالوا الخيرات (أي المستحسن من كل شيء) في الدنيا كالنصر وهزيمة الكفر، وفي الآخرة بالاستمتاع في جنات الفردوس والدرجات العالية، وأولئك هم

الفائزون بالسعادتين: سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، على عكس المنافقين الذين حرموا منهما تماماً. والسبب واضح: وهو إيمان المؤمنين الخالص المستقر في نفوسهم، وافتقاد ذلك في قلوب المنافقين، فاستحق المؤمنون الفلاح أي إدراك البغية من الجنة، وتعرض المنافقون للخسران والهلاك.

وأدى ذلك إلى أن يهيّئ الله الجنة والنعيم وأن يظفر المؤمنون بجنان الخلد التي تجري الأنهار من تحت أشجارها، ماكثين فيها على الدوام، متمتعين بالبقاء في عالم الأبد، وذلك هو الفوز العظيم، أي المرتبة العليا التي لا مرتبة فوقها والحصول على الأمل والبغية، وهم أهل السعادة الأبدية، كما أنهم في الدنيا أهل الفلاح بالاستمتاع بالنصر والعزة، والثروة والكرامة، وانتصار الإيمان على الكفر، والهداية على الضلالة.

والتفاوت الواضح بين مرتبة المؤمنين في الدنيا والآخرة ومرتبة المنافقين الكافرين منشؤه التضحية والعمل المشرّف، وهذا حق وعدالة، فلا يعقل أن يسوى بين المُجِدّ والمتقاعس، وبين العامل والقاعد، ومقتضى العدل في ميزان الشرع والعقل أن يكافأ المحسنون بأفضل أنواع الإحسان، وأن يهمل المسيئون ويتعرضوا لمختلف ألوان الذل والهزيمة والتعرض للعقاب الشديد؛ لأن بناء الأمجاد وتحقيق السيادة لا يقومان إلا على سواعد العاملين المخلصين.

حكم أهل الأعذار في الجهاد

ليس الجهاد فرضاً إلا على القادرين على حمل السلاح، من الرجال البالغين الأشداء، أصحاب القوة البدنية والمالية، فهم المكلفون أصالة بهذا الواجب المقدس، أما أصحاب الأعذار من النساء والضعفاء والمرضى والعاجزين عن النفقة، فلا حرج عليهم بترك الجهاد، وهذا ما أبانه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ(١) مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ(٢) إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ(٣) حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٩٠-٩٢].

تضمنت الآيات الكريمة الكلام عن أربع فئات من الناس: وهم المعتذرون بحق من الأعراب، والمنافقون، والمعاقون العاجزون بالفعل، والبكاؤون. أما المعتذرون بأعذار هي حق من الأعراب البدو فهم قوم مؤمنون غير كافرين وهو رأي ابن عباس بدليل أن التقسيم في الآية يقتضي ذلك، وأنه ذكر بعدهم فريق القاعدين المكذبين، فلو كان الجميع كفاراً، لم يكن لوصف الذين قعدوا بالكذب اختصاص، وتعرض الكل للعذاب الأليم، هؤلاء المعتذرون بعذر مقبول: هم كما قال الضحاك: رهط عامر بن الطفيل أو نفر من بني غفار، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا إن غَزَوْنا معك، أغارت أعراب طيّ على أهالينا ومواشينا، فقال ﷺ: سيغنيني الله عنكم. جاء هؤلاء المعتذرون الأعراب بهذا العذر يطلبون الإذن من النبي ﷺ في التخلف عن غزوة تبوك، فقال لهم: «قد أنبأني الله من أخباركم، وسيغنيني الله عنكم» . وهؤلاء صادقون غير مذمومين ولا محمودين كما يظهر من الآية.

والصنف الثاني: هم الذين قعدوا عن الجهاد، الذين كذبوا الله ورسوله بادّعائهم الإيمان، وهم منافقو الأعراب الذين جاؤوا ولم يعتذروا، وظهر بذلك أنهم كاذبون، هؤلاء توعدهم الله بالعذاب المؤلم في نار جهنم لأنهم قوم كافرون غير مؤمنين.

(١) المعتذرون بالأعذار الكاذبة. (٢) إثم. (٣) تمتلئ بالدمع.

والصنف الثالث: هم أصحاب الأعذار الحقيقية القاهرة بسبب عجزهم وضعفهم أو مرضهم أو عماهم وعرجهم، أو افتقادهم نفقة الجهاد، وهؤلاء لا إثم ولا ذنب عليهم في تركهم الجهاد إذا نصحوا لله ورسوله بنياتهم وأقوالهم سراً وجهراً، بأن أخلصوا الإيمان بالله، وأطاعوا الرسول في السر والعلن، وعرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه، وحافظوا على مصلحة الأمة العليا من كتمان السر، وعدم ترويج الإشاعات الكاذبة أو المغرضة، فما على المحسنين من سبيل، أي ليس عليهم جناح ولا مؤاخذة، ولا مجال لعتابهم، ولا إثم عليهم لقعودهم عن الجهاد، والله غفور: كثير المغفرة لهم ولأمثالهم، رحيم بهم، فلا يكلفهم ما لا طاقة لهم به. أما العصاة والمنافقون فلا يغفر الله لهم إلا إذا تابوا وأقلعوا عن العصيان والنفاق الذي كان سبباً في الإثم.

وترك التكليف بالجهاد عن أصحاب الأعذار بسبب ضعف البدن أو المرض أو الزمانة أو عدم النفقة تقرَّر في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ(١)..﴾ [النور: ٢٤/ ٦١]. وروى أبو داود عن أنس ابن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم سيراً، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه، قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: حبَسهم العذر».

والصنف الرابع والأخير: هم كما ذكر ابن إسحاق في سياق غزوة تبوك جماعة البكّائين، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف أو هم ستة أو سبعة إخوة من بني مُقَرِّن، وهو رأي جمهور المفسرين، جاؤوا إلى النبي ﷺ في غزوة تبوك ليحملهم، أي يُعدّ لهم وسائل الركوب، فلم يجد ما يحملهم عليه، فتولوا

(١) أي إثم.

وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون في سفر الجهاد، وما يتطلبه في الماضي والحاضر من وسائط النقل، لحمل الأثاث والركوب، فهؤلاء في هذه الحال لا إثم ولا ذنب عليهم، وهم قوم محمودون غير مذمومين، بسبب ظهور إخلاصهم، واعتذارهم بما هو حق وعذر مقبول.

حكم المتخلفين عن الجهاد بغير عذر

من الطبيعي أن يؤاخذ الله المتخلفين عن الجهاد بغير عذر، وأن ينذر بالعذاب والعقاب أولئك المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ثم يحاولون الاعتذار للمؤمنين بالأعذار الكاذبة، والأساليب الملتوية، والأيمان الملفقة، قاصدين بذلك إرضاء المؤمنين، وهم غافلون تمام الغفلة عن إرضاء الله رب العالمين، وهذا بيان القرآن الكريم في شأن الفريقين، قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ(١) ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٩٣-٩٦].

أبان الله تعالى في آية سابقة أنه لا مؤاخذة على المؤمنين المحسنين وهم ذوو الأعذار

---

(١) قذر وخبث.

بحق، إنما المؤاخذة على من كان مستأذناً لترك الجهاد من المنافقين الأغنياء القادرين على إعداد العدة من زاد وراحلة وسلاح وغير ذلك، ولا عذر لهم مطلقاً، وسبب استحقاقهم المؤاخذة: أنهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف من النساء والصبيان والعجزة والمرضى وأهل الأعذار الحقيقية، وترتب على تقصيرهم وتقاعسهم أن طبع (ختم) الله على قلوبهم، حتى لا يصل إليها الخير، ولا ينفذ إليها النور، فهم لذلك لا يهتدون، ولا يعلمون ما في الجهاد من منافع الدين والدنيا، ولا يعلمون الخير حتى يتجهوا إليه، وهكذا تظلم قلوب أهل المعاصي وتقسو، فلا تفتح لخير أو رضوان.

ذكر ابن عباس أن آيات المعتذرين المنافقين وهم ثمانون رجلاً نزلت فيهم، وأمر النبي ﷺ المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة بأن لا يجالسوهم ولا يكلموهم.

لقد أخبر القرآن الكريم في هذه الآيات بما سيكون من أمر المنافقين المتخلفين في المدينة وما حولها عن تبوك. إنهم حين رجوع المؤمنين من تبوك سيعتذرون للمؤمنين عن تخلفهم عن الجهاد بغير عذر، فرد الله عليهم آمراً نبيه بإخبارهم: لا تعتذروا بالأعذار الكاذبة؛ لأنا لن نصدقكم أبداً، ولأن الله أخبرنا سلفاً بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم وأحوالكم، وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد ومناقضة الحقائق، وسيظهر الله أعمالكم للناس في الدنيا، وسوف يكون مصيركم إلى الله عالم الغيب والشهادة، بعد البعث من القبور، فيعلم ما تكتمون وما تعلنون، فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها، ويجزيكم عليها. وهذا تصريح بتوبيخ المنافقين والعقاب على أعمالهم، والتخويف من الله.

ثم أخبر الله تعالى عن تأصّل الكذب في المنافقين، إنهم سيحلفون لكم الأيمان الكاذبة معتذرين، لتعرضوا عنهم أيها المؤمنون، فأعرضوا عنهم ولا تعاتبوهم ولا

توبخوهم، احتقاراً لهم؛ لأنهم رجس البواطن أخباث الاعتقادات، لا يقبلون التطهير، لأنهم منافقون، ومسكنهم جهنم، جزاءً بما اكتسبوه في الدنيا من الآثام والخطايا، فلا ينفع معهم التوبيخ أو اللوم في الدنيا والآخرة.

وحقيقة أيمانهم الكاذبة أنها ليست لوجه الله وإنما لمجرد استرضاء لكم معشر المؤمنين لتستمروا في معاملتهم كالمسلمين. وإنكم إن رضيتم عنهم، فلا ينفعهم رضاكم، إذا كانوا في سخط الله، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين، أي الخارجين عن طاعة الله والرسول، فليكن همهم إرضاء الله ورسوله، لا إرضاؤكم، كما وصفهم الله بقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ٤/ ١٠٨] وقوله عز وجل: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/١٣]. وهذا إرشاد ونهي للمؤمنين عن الرضا عن المنافقين، والاغترار بأيمانهم الكاذبة، وكفى بالله عليماً ومعلماً للمؤمنين منهج الحياة الاجتماعية وطريق معاملة المنافقين وغيرهم من أصحاب البدع المنكرة، فعلى المؤمنين أن يبغضوا المنافقين، وألا يرضوا عنهم لسبب دنيوي، من غير تفرقة بين منافق حضري أو بدوي.

كفر بعض الأعراب ونفاقهم

من المعلوم أن العيش في المدن والحواضر أقرب للمدنية والعلم بالأحكام الشرعية، وأن البداوة سبب للجهل والوقوع في الكفر والنفاق، فعلى سكان البوادي أو الصحارى أن يتنبهوا لهذا النقص، ويحاولوا تدارك ما هم عليه من بُعْد عن المدن ومواضع العلم والثقافة، فيسألوا العلماء، ويترددوا على مجالس العلم بقدر

الإمكان، حتى لا يبقوا في غمرة الجهل، أو التورط في الكفر والنفاق، قال الله تعالى واصفاً بعض سكان البوادي وهم الأعراب:

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا[1] وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ[2] عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ[3] وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ[4] أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٩٧-٩٩].

قال الواحدي: نزلت آية ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾ في أعاريب من أسد وغطفان ومن أعاريب حاضري المدينة. وقال ابن جرير الطبري فيما يرويه عن مجاهد: نزلت آية: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ..﴾ في بني مُقَرِّن الذين نزلت فيهم آية: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ..﴾ [التوبة: ٩/ ٩٢]. وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ لفظة عامة، ومعناها الخصوص فيمن استثناه الله عز وجل، وهم جماعة من المنافقين كانوا في البوادي، وصفوا بالكفر والنفاق، لبُعدهم عن المدن ومواضع العلم وأحكام الشرع.

والمعنى: أن بعض الأعراب سكان البادية كفرُهم ونفاقهم أعظم وأشد من غيرهم، وأولى وأحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله من فرائض الشرع؛ لأنهم أغلظ طبعاً، وأقسى قلباً، وأكثر جهلاً وبعداً عن العلماء والعلم، ولانشغالهم بتربية الحيوان ورعي الأنعام، والمراد بالحدود هنا: السنن والأحكام ومعالم الشريعة. هذه إحدى صفات البدو.

وهناك صفة أخرى للبدو، فبعضهم منافق، ينفق ماله رياءً وسمعة وتقرباً

(١) غرامة وخسراناً. (٢) ينتظر بكم مصائب الدهر. (٣) الضرر والشر. (٤) دعواته واستغفاره.

للمسلمين، ويَعُدُّ ذلك مغرماً وخسارة؛ لأنه لا يرجو به ثواباً عند الله تعالى، وينتظر الأحداث والآفات والمصائب بالمؤمنين التي لا مخلص للإنسان منها، فهي تحيط به كما تحيط الدائرة، وهم بنو أسد وغطفان. فرد الله عليهم بأن دائرة السَّوْء ووقوع المصيبة تدور بهم وحدهم، وتلازمهم ولا تفارقهم. وهذا وإن كان بلفظ الدعاء من الله عز وجل عليهم، فالمراد به إيجاب الشيء وتحققه ولحوقه بهم: لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهم في قبضته، مثل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١٠٤/١] وقوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين: ٨٣/١] فهي كلها أحكام تامة، تضمنها خبره تبارك وتعالى، وقد وقعت فيهم، وأصيبوا بالهزيمة والخذلان. والله سميع لما يقولون عند الإنفاق، عليم بما يضمرون وبمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

وهاتان الصفتان في بعض الأعراب لا تعني أنهم جميعاً متصفون بهما، فمنهم مؤمنون، أي فبعض آخر من الأعراب يؤمنون إيماناً صحيحاً بالله والرسول ويؤمنون باليوم الآخر، مثل جُهينة ومُزَينة، وبني أسلم وغفار، وينوون بنفقتهم في سبيل الله القُرْبة عند الله عز وجل، والتوصل لدعاء الرسول ﷺ، ففي دعائه لهم خير الآخرة في النجاة من النار، وخير الدنيا في أرزاقهم ومنح الله لهم، ومن المعلوم أن الصلاة من الله على عباده رحمة، ومن النبي والملائكة دعاء، ومن الناس عبادة.

إن هذه النفقات التي ينفقها بعض الأعراب بإخلاص وحسن نية، ستكون قربة خالصة ودرجة رفيعة يتقربون بها عند الله تعالى، وسيدخلهم الله بها في رحمته، أي في جنته ورضوانه، إن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة للمخلصين في أعمالهم، فهو سبحانه يستر لهم ما فرط منهم من ذنب أو تقصير، ويرحمهم بهدايتهم إلى صالح الأعمال المؤدية إلى حسن الختام والمصير، ويجعلهم أهلاً لرضوانه وفضله، وإحسانه ومدده.

فئات الناس في مجتمع المدينة

يتركب المجتمع المدني من فئات مختلفة وأصناف شتى، فهناك المستقيم المحسن، والمعوج المسيء، والمتوسط المحايد، وهكذا كان أصناف الناس في المدينة المنورة في عهد النبي ﷺ، فمنهم الطبقة العليا من أهل الإيمان، ومنهم الفئة الدنيا الوالغة في الكفر والضلال، ومنهم الفئة المتوسطة التي جمعت بين الخير والشر، وخلطت العمل الصالح بالسيئ، وهذا التركيب الفئوي ذكره القرآن الكريم بصريح نصوصه، فقال تعالى:

﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ[1] لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ[2] ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

[التوبة: ٩/ ١٠٠-١٠٢].

هذه الآية تبين المنزلة الرفيعة التي تبوأها الصحابة الكرام من السابقين الأولين في الهجرة والنصرة للنبي والإسلام، من المهاجرين من مكة إلى المدينة والأنصار في المدينة، ومن التابعين الذين اتبعوهم بإحسان، رضي الله عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم، ورضوا عن الله بما أسبغ عليهم من نعمه الدينية والدنيوية، فأنقذهم من الشرك والضلال، ووفقهم إلى الخير، وهداهم إلى الحق، وأعزهم وأغناهم، وأعزّ بهم الإسلام، وأعد وهيأ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبداً على الدوام، وذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز غيره، وهو فوز شامل، كما أن نعيم الجنة نعيم مادي وروحاني معاً.

---

(١) تمرنوا عليه وتدربوا . (٢) أي شديد .

والصحابة الكرام: هم كل من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام، وهم في الفضل درجات، وأفضلهم الذين سبقوا إلى الإسلام والهجرة ونصرة نبي الله. والتابعون لهم بإحسان، أي بالإيمان والطاعة: هم الذين أدركوا أصحاب رسول الله ﷺ. وهذا التعبير يشمل جميع الأتباع إلى يوم القيامة، كما نبَّه إليه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

والحكم بالرضا عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم: هو الحكم بالرضا عنهم من الله بإدخالهم الجنة وغَفْر ذنوبهم، والحكم برضاهم عن ربهم في شكرهم وحمدهم على نعمه، وإيمانهم به وطاعتهم له، جعلنا الله من الفائزين برحمته وفضله ومنِّه. والاتباع المطلوب: هو الإتباع بإحسان، أي إحسان الأعمال والنيات والظواهر والبواطن، وأما الاكتفاء بظاهر الإسلام فلا يحقق شرط الإحسان، والمتبعون بإحسان مع الصحابة هم خير أمة أخرجت للناس، وهم الأمة الوسط العدول الخيار. ومرتبة هؤلاء في الإسلام في القمة لا يعلوها مقام.

وكان يجاور هؤلاء الوسط الخيار فئة من المنافقين كانوا في المدينة المنورة وما حولها، من أهل البدو والحضر. وهم جُهينة ومُزَينة وأشجع وأسلم وغفار وعُصيّة ولَحْيان وغيرهم من القبائل المجاورة للمدينة، كان منهم وليسوا كلهم قوم منافقون، مرنوا على النفاق ومردوا عليه وتأصلوا فيه، لا تعلمهم ولا تعرفهم بأعيانهم أيها النبي، ولا تعلم عاقبة أمورهم، وإنما نحن نختص بعلمهم ومعرفتهم، وهؤلاء سنعذبهم مرتين: مرة في الدنيا بفضيحتهم وهتك سترهم وتكليفهم بتكاليف الإسلام من جهاد وزكاة دون أن يستفيدوا منها، ومرة في الآخرة نردهم إلى عذاب شديد مناسب لعملهم هو النار. وعذاب المرة الأولى هو القتل والجوع. ولا خلاف بين المتأولين أن العذاب العظيم الذي يردون إليه هو عذاب الآخرة، وأكثر الناس أن

العذاب المتوسط هو عذاب القبر، وإذا كان النبي ذاته لم يعلم بأعيان المنافقين في عصره، فما بال أقوام يتكلفون علم الناس: فلان في الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري.

وهناك فريق آخر حول المدينة أقروا بمعاصيهم واعترفوا بها لربهم، ولهم أعمال أخر صالحة، خلطوا أعمالهم الصالحة وهي التوبة والندم بالسيئة وهو التخلف عن غزوة تبوك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه، لعل الله أن يتوب عليهم، إن الله غفور لمن تاب، رحيم بمن أحسن وأناب. وهؤلاء ثلاثة أشخاص أو سبعة تخلفوا عن غزوة مع الرسول ﷺ وهم أبو لبابة الأنصاري ورجلان معه، تفكروا وندموا، ثم أوثقوا أنفسهم بسواري المسجد، ولم يطلقوها، وظلوا على هذه الحال في حر شديد سبعة أيام، وأقسموا ألا يَطْعَمُوا ولا يَشْرَبوا حتى يعفو الله عنهم أو يموتوا، فنزلت هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ..﴾ فلما نزلت أطلقهم النبي ﷺ بنفسه وعذرهم . وهذا يدلنا على أن الكثير من الناس الذين يخلطون العمل الصالح بالفاسد، يجب عليهم ألا يقنطوا من رحمة الله، وعليهم المبادرة إلى التوبة، فإن رحمة الله قريب من المحسنين.

أثر التوبة النصوح

إذا انحرف الإنسان عن أوامر الله ونواهيه، ثم تاب وأناب وأحسن العمل، توقف قبول أعماله على إذن الله ورضاه، وهذا ما كان عليه الحال في صدر الإسلام. فإن الجماعة التائبة التي ربطت أنفسها بسواري المسجد، وخلطت العمل الصالح بالسيئ، جاءت رسول الله ﷺ لما تيب عليها، فقالت: يا رسول الله، إنا نريد أن

نتصدق بأموالنا زيادة في توبتنا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أعرض لأموالكم إلا بأمر الله» فتركهم حتى نزلت هذه الآية:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا[1] وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ[2] وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ٩/١٠٣-١٠٥].

وبعد نزول هذه الآية، روي أن رسول الله ﷺ أخذ ثلث أموالهم، أي أموال التائبين لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾. وقال جماعة من الفقهاء: المراد بهذه الآية: الزكاة المفروضة، فيكون الضمير على هذا الرأي شاملاً جميع الناس. وهو عموم يراد به الخصوص إذ يخرج من الأموال الأنواع التي لا زكاة فيها، كالثياب والدور السكنية ونحوها. وكذلك ضمير ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ عموم يراد به خصوص، إذ يخرج منه العبيد وسواهم.

والمعنى: خذ أيها النبي ومن بعدك من الحكام من أموال هؤلاء التائبين وغيرهم صدقة مقدرة بمقدار معين، تطهرهم من داء البخل والطمع والذنوب، وتزكي أنفسهم وتطهرها بها، وتنمي بها حسناتهم، وترفعهم إلى منازل المخلصين. والتزكية: مبالغة في تطهير المال وزيادة فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال، أي إن الله تعالى يجعل النقصان الحاصل بسبب إخراج قدر الزكاة سبباً للإنماء، ويوضح ذلك الحديث النبوي عند أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة: «ما نقصت صدقة من مال».

وصل عليهم أيها النبي، أي ادع لهم واستغفر، فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم وطمأنينة ووقاراً، والله سميع يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم، وسميع

(١) تنمي بها حسناتهم وأموالهم. (٢) طمأنينة.

لدعائك سماع قبول وإجابة، عليم بما في ضمائرهم وإخلاصهم في توبتهم وصدقاتهم، وبما فيه الخير والمصلحة لهم.

ألم يعلم أولئك التائبون وجميع المؤمنين أن الله هو الذي يقبل التوبة عن عباده، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويأخذ الصدقات، أي يقبلها ويثيب عليها ويضاعف أجرها، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧/٦٤].

وألم يعلموا أيضاً أن الله هو التواب الذي من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم، وهو الرحيم بعباده التائبين بإثابتهم على أعمالهم الصالحة، كما هو مبين في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٢]. والتوبة مفيدة جداً في تجديد همة النفس والعهد ومحو الذنب، والتخلص من أوزار الماضي والشعور بالارتياح من تعذيب الضمير ومساوئ الذنب.

وقل أيها الرسول لهؤلاء التائبين وغيرهم: اعملوا العمل الصالح، فإن عملكم لا يخفى على الله وعباده، خيراً كان أو شراً، فالعمل أساس السعادة، وطريق الأمن والراحة وعزة النفس، وسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون بإطلاعه إياهم على أعمالكم. وهذا وعيد للمذنبين، وتحذير من عاقبة الإصرار على الذنب، والذهول عن التوبة، وليعلم كل العصاة ومخالفو أوامر الله بأن أعمالهم ستعرض على الله تعالى وعلى الرسول وعلى المؤمنين، وذلك لا محالة في يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١٨] قال جابر بن عبد الله فيما رواه الطبراني وغيره: قال رسول الله ﷺ : «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك».

وستردون أيها الناس جميعاً يوم القيامة إلى الله الذي يعلم سرائركم وعلانيتكم، يعلم الغائب والحاضر، والباطن والظاهر، فيعرّفكم أعمالكم، ثم يجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذا كلام بليغ يتضمن الترغيب والترهيب.

قصة الذين خُلِّفوا وتأخروا عن التوبة

الناس في مجال العلاقة مع الله ثلاثة أصناف: صنف متمرد، مكابر معاند لا يؤمن ولا يتوب، وصنف آخر يخطئ ثم يتوب إلى ربه، وصنف ثالث متحير محايد، مؤمن بالله تعالى، لكنه لا يظهر التوبة عن خطئه، ولا يحاول إصلاح نفسه، ولكل امرئ شأنه وحريته، وسيلقى كل إنسان جزاء ما قدم، وهكذا كان المتخلفون عن غزوة تبوك أصنافاً ثلاثة:

١- المنافقون الذين مَرَدوا على النفاق، وهم أكثر المتخلفين، وجزاؤهم النار.

٢- التائبون المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا، فتاب الله عليهم، وهم الذين ربطوا أنفسهم بالسواري سبعة أيام، وهم أبو لُبابة الأنصاري وأصحابه، فنزلت توبتهم من السماء ورضي الله عنهم.

٣- الذين بقوا متوقفين، وهم المؤمنون الحيارى في أمرهم، فلم يعتذروا إلى النبي ﷺ عن تخلفهم، وأرجؤوا توبتهم، فأرجأ الله الحكم في أمرهم، فتوقف أمرهم خمسين ليلة، وهجرهم الناس، حتى نزلت توبتهم بعد، وهم الثلاثة المذكورون في هذه الآية من سورة التوبة التي نزلت فيهم، وهي قوله سبحانه:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ [التوبة: ٩/١١٨]

وتقدمت آية أخرى في شأنهم وهي موضوع البحث هنا وهي:

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ(١) لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [التوبة: ٩/١٠٦].

هؤلاء النفر الثلاثة موقوفون مُرْجَون، أي مرجؤون مؤخرون لأمر الله في شأنهم، ولا يدري الناس ما ينزل فيهم، هل يتوب الله عليهم أو لا؟ وقد نهى الرسول ﷺ عن مجالستهم، وأمرهم باعتزال نسائهم وإرسالهن إلى أهلهن، إلى أن نزلت آية التوبة عليهم في قوله سبحانه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ..﴾ إلى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟..﴾ أي تخلفوا عن التوبة.

وهم مُرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ، وطيب الثمار والظلال، لا شكاً ونفاقاً.

وقد تردد في هذه الآية البت في شأنهم بين أمرين: التعذيب والتوبة. وترك أمرهم غامضاً، لا للشك، فالله تعالى منزه عنه، وإنما ليكون أمرهم على الخوف والرجاء، وإثارة الغم والحزن في قلوبهم، ليقدموا على التوبة، ويصير أمرهم عند الناس على الرجاء، فجعل أناس يقولون: هلكوا إذا لم ينزل الله تعالى لهم عذراً، وآخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم.

ومما لا شك فيه أن القوم كانوا نادمين على تأخرهم عن غزوة تبوك، فلم يحكُمِ الحق تعالى بكونهم تائبين؛ لأن الندم وحده لا يكون كافياً في صحة التوبة، ثم ندموا على المعصية لكونها معصية، فصحت توبتهم. والله عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، وبما يصلح عباده ويربّيهم، حكيم في أفعاله وأقواله، وفيما يشرعه لهم من الأحكام المؤدية لهذا الصلاح. ومن حكمته تعالى: إرجاء النص على توبتهم.

---

(١) مؤخرون لا يقطع لهم بتوبة .

والله عليم بمن يهدي إلى الرشد، وحكيم فيما ينفذه من تنعيم من شاء، وتعذيب من شاء، لا رب غيره ولا معبود.

وقوله سبحانه: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أنه لا حكم إلا أحد هذين الأمرين: وهو إما التعذيب وإما التوبة، أما العفو عن الذنب من غير توبة فغير معتبر ولا منتظر، إلا إذا اقتضت الرحمة الإلهية أن تشمل بعض الخلائق، فهذا مرده إلى الله تعالى من قبيل الفضل والرحمة، لا بحسب منهج الحق والعدل.

بل إن الثواب ودخول الجنان لا يكون بغير فضل الله ورحمته، لأن أعمال الناس مهما عظمت لا تساوي شيئاً أمام أفضال الله ونعمه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى. روى البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «لن يُدخِل أحداً منكم عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة» وفي رواية أخرى عن عائشة: «سدِّدوا وقاربوا، واعلموا أنه لن يُدخل أحدكم عملُه الجنة، وأن أحبَّ الأعمال إلى الله أدومُها وإن قل». ومعنى: سددوا: اقصدوا السداد من الأمر، وهو الصواب، وقاربوا: اطلبوا المقاربة وهي الاعتدال في الأمر الذي لا غلو فيه ولا تقصير.

مسجد الضرار ومسجد التقوى

يعقد الحق تعالى في العادة مقارنة بين الأوضاع والأشياء المتضادة، لتحقيق العبرة، والتوصل إلى الإصلاح، ومحاربة الفساد، وتخليد آثار الصالحين، والاتعاظ بجرائم المفسدين الضالين. ومن هذه المقارنات بيان أغراض المنافقين في بناء مسجد الضرار في المدينة، والتعريف بغايات المؤمنين الأتقياء في بناء مسجد التقوى: مسجد قباء في أول عمل قام به النبي ﷺ بعد هجرته مع صحبه إلى المدينة المنورة، قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا[١] وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا[٢] لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ[٣] هَارٍ[٤] فَانْهَارَ بِهِ[٥] فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ[٦] إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ[٧] وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: ٩/١٠٧-١١٠].

نزل النبي ﷺ قباء بعد هجرته إلى المدينة، على كلثوم بن الهدم شيخ بني عمرو بن عوف، وهم بطن من الأوس، وقباء قرية جنوب المدينة على بعد ميلين، وأقام فيها أربعة أيام أسس فيها مسجد قباء، بمعونة بني عمرو بن عوف، وبعثوا للنبي ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم وصلى فيه.

فحسدهم بنو غُنْم بن عوف من الخزرج، وبنوا مسجداً آخر، وأتوا النبي ﷺ، وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، قد بنينا مسجداً لذي الحاجة، والعِلّة، والليلة المطيرة، ونحبّ أن تصلّي لنا فيه وتدعو بالبركة، فوعدهم النبي بذلك بعد عودته من تبوك، فلما أقبل ونزل بذي أوان، نزل عليه القرآن في شأن مسجد الضرار، فدعا رسول الله ﷺ أربعة من صحابته، وأمرهم بهدم هذا المسجد وإحراقه.

أبان القرآن أربعة أسباب لهدم مسجد المنافقين: مسجد الضرار، وهي:

١- إنهم اتخذوا بقصد مضارة المؤمنين الذين بنوا مسجد قباء.

---

(١) إضراراً للمؤمنين. (٢) انتظاراً وترقباً. (٣) على حرف بئر لم تبن بالحجارة. (٤) هائر أو منهدم.
(٥) فسقط البنيان. (٦) شكاً ونفاقاً في قلوبهم. (٧) تتقطع أجزاء بالموت.

٢- أقاموه ليكون معقلاً للكفر والنفاق، والتآمر على المسلمين، فصار مركز الفتنة وبيت النفاق ومأوى المنافقين.

٣- قصدوا ببنائه أيضاً تفريق كلمة المؤمنين، وتوهين المودة والألفة بينهم.

٤- جعلوه مرصداً ومقراً لمحاربة الله ورسوله، بقيادة أبي عامر الراهب من الخزرج الذي ذهب إلى هرقل ليأتي بجنود يحارب بهم النبي وصحبه.

وصار المنافقون يحلفون: ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الفعلة الحسنى والتوسعة علينا وعلى من عجز أو ضعف عن المسير إلى مسجد قباء، والله يعلم خبث ضمائرهم ويشهد على أنهم كاذبون فيما حلفوا عليه.

لكل هذه الأسباب القائمة على الضرر والإساءة، نهى الله تعالى نبيه عن الصلاة في هذا المسجد: مسجد الضرار: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾. ثم أذن له وحضه على الصلاة في مسجد قباء لأمرين:

الأول- أنه بني على التقوى وهي طاعة الله ورسوله، وقصد به إرضاء الله تعالى، وإخلاص العبادة فيه، وجمع المؤمنين، والعمل على وحدة الإسلام، وظلت هذه المزية له، وأصبح من السنة صلاة ركعتين فيه على الدوام، لما جاء في الحديث الصحيح عن أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أسيد بن ظهير: «الصلاة في مسجد قباء كعمرة».

والأمر الثاني الدال على مزية مسجد قباء: أن فيه رجالاً يحبون أن يتطهروا طهارة معنوية: وهي التطهر من الذنوب والمعاصي، وطهارة حسية للثوب والبدن والمكان، بإتباع الماء الحجر في الاستنجاء، والحرص على التنظف بالوضوء والغسل. والله يحب أهل النظافة والطهارة المعنوية والجسدية، ويرضى عنهم، وَيُقَرِّبُهُم من جنابه تعبيراً عن المحبة والرضا.

ثم وضع القرآن قاعدة عامة للمقارنة بين المسجدين وأي بناءين، وتلك القاعدة: أنه لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وهذا مصيره الانهيار والسقوط في قعر جهنم، والله لا يوفق الظالمين ولا يهديهم للحق والصواب والصلاح، ما داموا قد قصدوا المعصية والكفر، وقد صار هذا مثلاً للأجيال.

ولمسجد الضرار آثار ومعانٍ سيئة على ممر التاريخ، فهو لا يزال سبب حزازة وأثر سوء، وشك من المنافقين في الدين، وزيادة نفاقهم إلى أن يفارقوا حياتهم بالموت والله عليم بأعمال خلقه، حكيم في إيقاع الجزاء العادل بهم من خير أو شر، ومن حكمته تعالى إظهار حال المنافقين لمعرفة الحقائق وإنصاف التاريخ.

صفات أهل الجنة

إن رسالة الإسلام هي رسالة بناء وإصلاح واستقامة في الدين والعقيدة والعمل، فمن التزم بأصولها وعمل بموجبها، وجاهد الأعداء الذين يريدون إبطالها والقضاء عليها، ظفر بخير الدنيا والآخرة، ففي الدنيا كان له العزة والسيادة، وفي الآخرة كان من الخالدين السعداء في جنان الخلد والنعيم، ومن أجل الوصول لهذه الغاية حدد القرآن المجيد صفات أهل الجنة، ووعد بها وعداً مؤكداً أوجبه على نفسه، وصيره حقاً ثابتاً لازماً في التوراة والإنجيل والقرآن، قال الله تعالى مبيناً هذا الوعد وأسبابه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

﴿التَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ(١) ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ(٢) وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التوبة: ٩/١١١-١١٢].

نزلت هذه الآية في البيعة الثالثة، وهي بيعة العقبة الكبرى، لما بايع النبي ﷺ الأنصار وكان عددهم يزيد عن السبعين، وكان أصغرهم سناً عقبة بن عمرو، وذلك أنهم اجتمعوا مع رسول الله ﷺ عند العقبة، فقالوا: اشترط لك ولربك، وكان القائل عبد الله بن رواحة، فاشترط رسول الله ﷺ حمايته مما يحمون منه أنفسهم، واشترط لربه التزام الشريعة، وقتال الأحمر والأسود في الدفاع عن الحوزة، فقالوا: ما لنا على ذلك؟ قال: الجنة، فقالوا: نعم، ربح البيع، لا نُقيل ولا نقال، فنزلت الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ..﴾.

جعل الله تعالى أول عمل يبوئ صاحبه الجنة، هو الجهاد في سبيل الله، ببذل المؤمنين أنفسهم وأموالهم من أجل إعلاء كلمة الله، وثمن هذا البذل هو الجنة، يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون الأعداء، أو يستشهدون في سبيل الله، وفي كلتا الحالتين يكون لهم الجنة، وأكد الله تعالى وعده لهم بها، وجعل لهم ما هو خير من هبة أنفسهم وأموالهم، وصيره وعداً واجب الوفاء على نفسه، وحقاً ثابتاً لأصحابه، مقرراً لهم به في التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد عليهم الصلاة والسلام.

ولا أحد أوفى بعهده وأصدق في إنجاز وعده من الله، فإن الله لا يخلف الميعاد، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤/٨٧] ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ٤/١٢٢]. ومن وُعد بمثل هذا الوعد المؤكد، فليظهر السرور والفرح على ما فاز به من الجنة، وليستبشر بمدى الربح العظيم في هذه الصفقة أو المبايعة، ثواباً من الله وفضلاً

---

(١) المجاهدون أو الصائمون. (٢) لأحكامه من أوامر ونواه.

وإحساناً على بذل الأرواح والمهج ونفائس الأموال في سبيل مرضاة الله، وذلك هو الفوز الأكبر الذي لا فوز أعظم منه.

وأوصاف هؤلاء المؤمنين المجاهدين: أنهم التائبون عن الكفر بمختلف أنواعه، الراجعون إلى الله من الشر إلى الخير وفي جميع أحوالهم، التاركون كل ما ينافي مرضاة الله، العابدون ربهم بحق وإخلاص وإحسان كأنهم يرون الله، الحامدون لنعماء الله وأفضاله في السراء والضراء، الذاكرون الله بأوصافه الحسنى في كل حال، وحمده تعالى لأنه أهل لذلك، والحمد أعم من الشكر، إذ الشكر إنما هو على النعم الخاصة بالشاكر، الصائمون أو السائحون في الأرض للجهاد أو طلب العلم أو الارتزاق بالحلال الطيب أو الجائلون بأفكارهم في قدرة الله وملكوته، الراكعون الساجدون، أي المؤدون صلواتهم المفروضة على أكمل وجه، وفي خشوع وخضوع دائم، الآمرون بالمعروف بالدعوة إلى الإيمان والطاعة، والناهون عن المنكر بمقاومة الشرك والمعاصي، والحافظون لحدود الله بإقامة فرائضه وشرائعه وأحكامه والانتهاء عما نهى الله عنه، وهذا وصف شامل مجمل الفضائل، وما قبله مفصل لها.

وثمرة هذه الأوصاف: نعم الله العظمى في جنان الخلد، والتي أمر الله نبيه أن يبشر بها أمته جميعاً، وتشمل هذه البشارة كل الخير من الله تعالى، وأن الإيمان مخلّص من النار، فتكون النجاة بالإيمان بالله، ودليله الجهاد في سبيل الله، ومظاهره العبادات الحقة لله تعالى.

الاستغفار للمشركين

لا بأس في منهج القرآن الإصلاحي من إيمان أحد من الناس، ما دام هناك استعداد أو أمل في الإصلاح وقبول دعوة الإيمان والإسلام، فإذا وقع اليأس من

الإيمان، ختم الله على القلوب وسد منافذ الخير إليها، واستحق المعاندون التوبيخ، ومُنع النبي أو المصلح وأعوانه من الاستغفار لهم، لذا ونهى الله نبيه من الاستغفار للمشركين ولو كانوا أقرباء، حال اليأس من إيمانهم، وتحجرِ قلوبهم وعقولهم، قال الله تعالى مبيناً هذا النهي:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ(١) حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة: ٩/١١٣-١١٦].

روى الترمذي والحاكم عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه، وهما مشركان، فقلت له: أتستغفر لأبويك، وهما مشركان؟ فقال: استغفر إبراهيم لأبيه، وهو مشرك، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ..﴾. وقال ابن عباس وقتادة وغيرهما: إنما نزلت الآية بسبب جماعة من المؤمنين قالوا: نستغفر لموتانا كما استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه، فنزلت الآية في ذلك.

وعلى كل حال، ففي ورود النهي عن الاستغفار للمشركين موضعُ الاعتراض بقصة إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه، فنزل رفع الاعتراض في الآية التي بعدها.

والمعنى: ما ينبغي ولا يصح للنبي والمؤمنين أن يَدْعوا الله بالمغفرة للمشركين، وهذا خبر بمعنى النهي، لأن النبوة والإيمان مانعان من الاستغفار للمشركين،

(١) كثير التأوه خوفاً من الله.

وسبب المنع اليأس من إيمانهم وتبين أنهم من أصحاب الجحيم، أي ظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب النار؟! بأن ماتوا على الكفر، وفي هذا لا تفرقة بين الأقارب والأباعد، فكيف يصح لهم طلب المغفرة لأناس من بعد الموت على الكفر، والمعرفة بأنهم من سكان النار، والاستغفار للمشرك الحي جائز إذ يرجى إسلامه. وكذلك لا تجوز الصلاة على المشركين ولا تنفعهم بعد الموت على الشرك.

أما موضوع استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه المشرك آزر، فكان بسبب صدور وعد سابق به قبل المنع منه، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، بسبب موته على الكفر، تبرأ منه وتركه وقطع استغفاره له، إن إبراهيم لأوّاه، أي لكثير التأوه والتحسر والتفجع، أو كثير التضرع والدعاء، حليم، أي صبور على الأذى، محتمل للضرر، عظيم العقل.

ثم رفع الله المؤاخذة عن الذين استغفروا للمشركين قبل نزول آية المنع هذه، وبيَّن أنه تعالى لا يؤاخذهم بعمل، إلا بعد أن يبين لهم أنه يجب عليهم أن يتقوه ويحترزوا عنه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ..﴾ أي ما كان من سنة الله في خلقه ولا في رحمته وحكمته أن يصف قوماً بالضلال، أو يؤاخذهم مؤاخذة الضالين، بعد أن هداهم للإيمان أو الإسلام، حتى يبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من الأقوال والأفعال، وما كان الله بعد أن هدى للإسلام وأنقذ من النار، ليحبط ذلك ويضل أهله لارتكابهم ذنباً لم يتقدم منه نهي عنه، فأما إذا بيَّن لهم ما يتقون من الأمور، ويتجنبون من الأشياء، فحينئذ من ارتكب ذنباً بعد النهي عنه، استوجب العقوبة. إن الله تعالى عليم بكل شيء وبأحوال الناس وحاجتهم إلى البيان. وفي هذا دلالة واضحة على أن لا مؤاخذة ولا عقاب إلا بعد إنذار وبيان.

وبعد أن أمر الله تعالى بالبراءة من الكفار، بيَّن أن النصر لا يكون إلا من عند

الله؛ لأن لله ملك السماوات والأرض، وهو تعالى مالك كل موجود ومتولي أمره، والغالب المهيمن عليه، بيده الأمر كله يحيي ويميت، لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتبرؤوا مما عداه، ولا تهمُّهم القرابة ومناصرة الأقرباء؛ لأن الولي المعين والناصر هو الله تعالى، ولا ناصر سواه، وذهب الطبري إلى أن قوله سبحانه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ﴾ إشارة إلى أنه يجب أيها المؤمنون ألا تجزعوا من عدو وإن كثر، ولا تهابوا أحداً، فإن الموت المخوف والحياة المحبوبة، هما بيد الله تبارك وتعالى.

التوبة العامة والخاصة

كان من فضل الله ورحمته وإحسانه أن تاب توبة عامة على أناس كثيرين وتوبة خاصة على عدد قليل، أما أهل التوبة العامة فهم الذين جاهدوا مع رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار في غزوة تبوك، وأما أهل التوبة الخاصة فهم نفر ثلاثة، صدقوا توبتهم مع الله وعلموا علم اليقين أن مصيرهم إلى الله، فلا بد من حسن الاعتقاد والعمل، وصِدْق الاتجاه إلى الله تعالى، قال الله سبحانه مبيناً فضله على أهل التوبة:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ[١] مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ[٢] قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ[٣] وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ

(١) وقت الشدة والضيق . (٢) يميل للتخلف عن الجهاد . (٣) مع وسعها ورُحْبها .

ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ٩/١١٧-١١٩].

التوبة من الله: رجوعه بعبده من حالة إلى أرفع منها، فقد تكون في الأكثر رجوعاً من حال المعصية إلى حال الطاعة، وقد تكون رجوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها. وهذه توبته تعالى في هذه الآية على النبي ﷺ، لأنه رجع به من حاله قبل الظفر بأجر الغزوة وتحمل مشاقها إلى حاله بعد ذلك كله، وأما توبته تعالى على المهاجرين والأنصار فحالها تحمل النقلة من تقصير إلى طاعة، وجِدّ في القتال، ونصرة الدين. وأما توبته تعالى على الفريق الثلاثة الذين كادوا أن يزيغوا، فرجوع من حالة محطوطة إلى غفران ورضا.

والمعنى: لقد تفضل الله بمزيد بالرضا عن نبيه، وعلى أصحابه المؤمنين الذين صاحبوه في تبوك وقت الشدة والضيق، وهي غزوة العسرة، والتزموا أمر النبي ولم يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، لقد رضي الله عن نبيه وعطف عليه، وقبل التوبة من الصحابة ووفقهم للعمل بمقتضاها. وحدثت هذه التوبة على المؤمنين، من بعد ما كاد يزيغ أو يميل بعضهم عن الحق والإيمان، وهم الذين تخلفوا عن تبوك لغير سبب النفاق.

ثم أكد الله تعالى التوبة على المؤمنين، بأن رزقهم الإنابة إلى ربهم، والثبات على دينه، إن ربهم رؤوف رحيم بهم، فلا يتركهم بعد صبرهم على الجهاد، وإنما يزيل ضررهم، ويديم نفعه لهم، ويحقق المصلحة لهم، وهذا معنى الرأفة، أي السعي في إزالة الضر، والرحمة، أي السعي في إيصال النفع.

وفائدة تأكيد ذكر التوبة مرة أخرى تعظيم شأنهم، وإزالة الشك من نفوسهم، والتجاوز عن وساوسهم التي كانت تقع في قلوبهم في ساعة العسرة. قال مجاهد

وقتادة: إن العسرة بلغت بهم في تلك الغزوة وهي غزوة تبوك، إلى أن قسموا التمرة بين رجلين، ثم كان النفر يأخذون التمرة الواحدة، فيمضغها أحدهم ويشرب عليها الماء، ثم يفعل كلهم بها ذلك، وقال عمر رضي الله عنه: وأصابهم في بعضها عطش شديد، حتى جعلوا ينحرون الإبل، ويشربون ما في كروشها من الماء.. حتى استسقى لهم رسول الله ﷺ، فرفع يديه يدعو، فما أعادهما حتى انسكبت سحابة، فشربوا وادّخروا، ثم ارتحلوا، فإذا السحابة لم تخرج عن العسكر.

وتاب الله أيضاً على الثلاثة الذين خُلِّفوا، أي تخلفوا عن غزوة تبوك، لا بسبب النفاق، وإنما كسلاً وإيثاراً للراحة والقعود. وصاروا خلفاء عن الغازين: الذين ذهبوا إلى الغزو، وتأخروا عن المنافقين، فلم يقض فيهم شيء، وهم المرجون لأمر الله، وهم كعب بن مالك الشاعر، وهلال بن أمية الواقفي الذي نزلت فيه آية اللعان، ومُرارة بن الربيع العامري، وكلهم من الأنصار، ووصفوا بصفات ثلاث: ضاقت عليهم الأرض بما رحبت واتسعت بالخلق جميعاً، وضاقت صدورهم بسبب الهم والغم، وعلموا ألا ملجأ ولا ملاذ من غضب الله إلا بالتوبة. ثم أمر الله تعالى المؤمنين أمراً عاماً بتقوى الله والصدق في القول والعمل. والتقوى: التزام الأوامر واجتناب النواهي، والصدق: الثبات على دين الله وشرعه، وتنفيذ أوامره، وطاعة رسوله ﷺ.

إيجاب الجهاد على أهل المدينة ومن حولها

ليس تكوين الأمة وإقامة الدولة بالأمر الهيِّن السهل، وإنما يحتاج لبذل أقصى الجهد في التضحية، والبناء والعمل، ومجاهدة الأعداء ورد غارات المعتدين، والصبر في سبيل ذلك صبراً شديداً، سواء في حال الإقامة، أم في الأسفار، واقتحام

الأخطار للقاء العدو، وهذا أمر طبيعي وحقيقة أساسية، لذا أمر الله أهل المدينة ومن حولها في بدء الإسلام بالجهاد الدائم مع رسول الله، وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، فقال تعالى مبيناً فرضية الجهاد:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ(١) عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ(٢) وَلَا مَخْمَصَةٌ(٣) فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ(٤) وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا(٥) إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٠-١٢١].

هذا عتاب من الله للمؤمنين من أهل المدينة والقبائل العربية المجاورة لها على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوه، وقسوةُ الكلام تدل على ضرورة مصاحبة النبي في الغزوات وبذل النفوس دونه.

ومعنى الآية: ما كان يصح ولا ينبغي لأهل المدينة المؤمنين ومن حولهم من قبائل العرب المجاورة لهم كمزينة وجُهينة وأشجع وغفار وأسلم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، بل عليهم أن يصحبوه، فإن النفير كان فيهم، ومختصاً بهم حال قلة الإسلام، وفي بدء تكوين الدولة وإعلاء مجد الأمة، ولا يصح لهم إيثار أنفسهم على نفس الرسول ﷺ ، فلا يرضوا لأنفسهم بالدعة والراحة، والرسول في المشقة والعناء.

لم يكن لهم حق التخلف، بل يجب عليهم الإتباع والجهاد، ففي الجهاد عز وأجر

(١) لا يترفعون بها ولا يضنون بأنفسهم في نصرة نبيهم . (٢) تعب . (٣) مجاعة . (٤) يغضبهم . (٥) شيئاً من قتل أو أسر أو غنيمة .

عظيم، بسبب أن كل ما يتعرضون له أثناء جهادهم مثابون عليه، من معاناة ومكابدة ومشاق، كالعطش والتعب والجوع والألم في سبيل الله، ووطء جزء من أرض الكفر يغيظ الكفار، والنيل من الأعداء بالأسر أو القتل أو الهزيمة أو الغنيمة، كل ذلك يستحق الثواب الجزيل المكافئ لما قدموه وزيادة، وذلك مما يوجب المشاركة في الجهاد، إن الله لا يضيع أجر المحسنين، أي لا يدع لهم شيئاً من الثواب على إحسانهم إلا كافأهم به، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٠].

وكذلك لا ينفق هؤلاء المجاهدون في سبيل الله نفقة صغيرة ولا كبيرة، أي قليلاً ولا كثيراً، ولا يقطعون وادياً، أي في أثناء السير إلى الأعداء، إلا أثبت لهم الجزاء الأوفى. وإذا كتبت الصغيرة فالكبيرة أحرى. والوادي: ما بين الجبلين، سواء كان فيه ماء أو لم يكن، والله أراد لهم أن يجزيهم أحسن الجزاء على عملهم، لأن الجهاد في سبيل الله إعلاء لكلمة الإسلام، وصونٌ لصرح الإيمان، وحفظ لحرمة الأوطان، وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا واستعبدوا. أخرج ابن جرير الطبري حديثاً عن رسول الله ﷺ قال: «ما ازداد قوم من أهليهم في سبيل الله بعداً إلا ازدادوا من الله قرباً».

والحاصل: إن فرضية الجهاد على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب كانت فرض عين؛ لأنهم نواة الدولة، وقاعدة الإسلام، وعلى كواهلهم بناء المجد والعزة والسيادة. فلما كثر المسلمون، أباح الله التخلف عن الجهاد مع الحكام لمن شاء. قال قتادة: كان هذا خاصاً بالنبي ﷺ، إذا غزا بنفسه، فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر، فأما غيره من الأئمة والولاة، فلمن شاء أن يتخلف خَلْفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة. قال القرطبي: قول قتادة حسن، بدليل غزاة تبوك.

فرضية الجهاد الدائمة

إن إيجاب الجهاد على الأمة يختلف بحسب الأحوال والظروف والحاجات، ففي وقت الشدة والأزمة الخانقة والخطر المحدق يكون الجهاد فرضاً عينياً، وفي وقت قلة المؤمنين في بدء إيجاد الأمة والدولة يكون أيضاً فرض عين. فإذا زالت الظروف الخطرة المحدقة وكثر المؤمنون، واستقرت الأحوال وهدأت البلاد، صار الجهاد فرض كفاية على فئة من الناس، وكان على الباقين مناصرتهم، والتفرغ لشؤون الحياة، والإسهام في إقامة صرح المدنية والحضارة، من طريق تنمية العلوم والمعارف، وازدهار الحقل العلمي بالمتابعة والتأمل والتجربة والتجديد. قال الله تعالى مبيناً هذه الأصول الحضارية ولفت النظر لأهمية العلم:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً(١) فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً(٢) وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٢-١٢٣].

نظَّمت هذه الآية أحوال الجهاد، ونبهت إلى ضرورة طلب العلم والتفقه في أحكام الدين والشرع.

وسبب نزولها: أن المؤمنين الذين كانوا بالبادية سكاناً ومبعوثين لتعليم الشرع، لما سمعوا قول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ..﴾ أهمهم ذلك، فنفروا إلى المدينة، إلى رسول الله ﷺ، خشية أن يكونوا مذنبين في التخلف عن الغزو، فنزلت هذه الآية في نفرهم ذلك.

(١) ليجاهدوا جميعاً. (٢) شدة وبأساً.

إن هذه الآية لا توجب الجهاد على جميع المؤمنين في أحوال الاستقرار وإنما يجب على المؤمنين طلب العلم؛ لأن الجهاد يعتمد على العلم، ولأن نشر الإسلام في الأصل يتوقف على البيان والإقناع بالحجة والبرهان. وهذا يتطلب التنظيم والتقسيم، فتكون فئة من المؤمنين للتفقه والتعلم، وفئة أخرى للجهاد، فإنه بحسب النظام العام الدائم فرض كفاية على الناس، كما أنّ طلب العلم فرض كفاية أيضاً.

ومعنى الآية: ما كان من شأن المؤمنين أن ينفروا جميعاً، ويتركوا النبي ﷺ وحده، فإن الجهاد فرض كفاية، متى قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، وليس هو فرض عين على كل مسلم بالغ عاقل، وإنما يصبح فرض عين إذا خرج الرسول للجهاد واستنفر الناس إليه.

لذا حضّ الله تعالى على طلب العلم الذي هو أداة التقدم والرفعة، فهلا نفر في أثناء النهضة من كل جماعة كالقبيلة أو البلد طائفة قليلة منهم للتفقه في الدين، ومعرفة أحكام الشريعة وأسرارها، حتى إذا مارجع المجاهدون من المعركة، أنذروهم من الأعداء، وحذروهم من غضب الله وعرفوهم أحكام الدين، لكي يخافوا الله، ويحذروا عاقبة عصيانه، ومخالفة أمره.

ثم أوضح الله تعالى بعض قواعد الجهاد، قبل الأمر بقتال الأعداء كافة، على سبيل التدرج في التشريع في أول الإسلام. وأول هذه القواعد أن يبتدئ المجاهدون بالأقرب فالأقرب، ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد، وطبق النبي ﷺ هذه الخطة، فبدأ بقتال قومه في مكة، ثم قاتل سائر العرب، ثم انتقل إلى قتال الروم في الشام، ثم اتجه أصحابه لدخول العراق.

فيا أيها المؤمنون قاتلوا الأقرب فالأقرب منكم إلى ديار الإسلام، فإن فيه التحصن، وهم أولى بالرعاية والهداية، وبهم توجد الأتباع بسبب قرب الجوار،

وقرب الاتصال أو النسب أحياناً. وإذا قاتلتم الأعداء فليجدوا فيكم غلظة، أي شدة وخشونة، وقوة وحمية، وصبراً على القتال، وجرأة على خوض المعارك، وهذه طبيعة الحرب، ومصلحة القتال، واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والحراسة والإعانة، والمتقون: هم المتبعون أوامر الله، المجتنبون نواهيه.

موقف المنافقين من سور القرآن

يتحدد موقف الناس من آيات القرآن الكريم وسوره بحسب الإيمان وعدمه، فأهل الإيمان يفرحون بالآيات والسور المنزلة، وتزيدهم إيماناً وبهجة وطمأنينة، وأهل الكفر يرفضون القرآن جملة وتفصيلاً، والمنافقون العابثون المترددون بين الكفر والإيمان يقفون من القرآن المجيد موقف المستهزئ الساخر، فتزيدهم سور القرآن رجساً (أي كفراً ونفاقاً) إلى رجسهم، ويموتون في النهاية كفرة ألداء. قال الله تعالى مصوراً موقف المؤمنين وموقف المنافقين من السور القرآنية:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا[1] إِلَىٰ
رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ[2] فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ
مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ
بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ
﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٤-١٢٧].

نزلت هذه الآية في شأن المنافقين، وموقفهم من آيات القرآن وسوره، وهو موقف

(١) نفاقاً. (٢) يمتحنون بالشدائد.

شنيع وخطير، يتمثل في استهزائهم بالقرآن وتهربهم من أحكامه حين سماعه، وطعنهم فيه كلما نزل جديد، فتراهم يتغامزون ويتضاحكون في سبيل الطعن والهزء من كل موضوع يمسهم أو لا يمسهم.

فإذا نزلت سورة وبلغت المنافقين، قال بعضهم لبعض: أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ أي تصديقاً بأن القرآن من عند الله، وأن محمداً صادق في نبوته. والاستخفاف والتحقير لشأن السورة في قوله تعالى: «سورة».

فأما المؤمنون الصادقون فيزيدهم نزول القرآن يقيناً وتصديقاً وقوة دافعة إلى العمل به، ويفرحون بنزول السورة، لأنها تزكي أنفسهم، وترشدهم إلى سعادة الدنيا والآخرة. وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما يرى أكثر العلماء. والواقع أن الإيمان الذي هو نفس التصديق لا يقبل الزيادة والنقص في ذاته، وإنما تقع الزيادة في المصدَّق به، وما تضمنته السورة من أخبار وأمر ونهي، زائد على الذي كان عندهم قبلُ.

وتقع الزيادة أيضاً في الأدلة الدالة على معرفة الله، فيكون المؤمن قد عرف الله بعدة أدلة، فإذا نزلت السورة زادت في أدلته، وهذه جهة أخرى من الزيادة، وكلها خارجة عن نفس التصديق، إذا حصل تاماً، فإنه لا يبقى فيه موضع زيادة، هذا موقف المؤمنين من السور.

وأما الذين في نفوسهم شك وكفر ونفاق، فتزيدهم السورة كفراً ونفاقاً مضموماً إلى كفرهم ونفاقهم السابق، ويتحكم ذلك فيهم إلى أن يموتوا وهم كافرون بالقرآن وبالنبي ﷺ ، وهذا مناقض للهدف من إنزال السورة، فهي في الحقيقة هدى ونور، وشفاء لما في الصدور، وجلاء لما في القلوب، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٢].

وبعد بيان كون المنافقين يموتون كفاراً، أوضح الله تعالى أنهم يتعرضون أيضاً لعذاب الدنيا كل عام مرة أو مرتين، حين يختبرون بالأمر بالجهاد وبأنواع الاختبار العديدة من محنة اجتماعية كالزكاة والقحط والمرض، وهي التي تذكر الإنسان بالله، وتجعله ميالاً إلى الإيمان وترك الكفر، ولكنهم مع ذلك لا يتوبون من ذنوبهم السابقة، ولا يتعظون فيما يستقبل من أحوالهم، أفلا يزدجر هؤلاء الذين تفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين، ويتذكرون وعد الله ووعيده؟!

وإذا أنزلت سورة قرآنية فيها فضيحة أسرارهم، تعجبوا وتأملوا وتسللوا من مجلس النبي ﷺ، وتلفتوا متغامزين قائلين: هل يراكم الرسول أو المؤمنون إذا خرجتم؟! ثم ينصرفون عن طريق الاهتداء، ويتولون عن الحق، فهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه، ولا يفهمون شيئاً عن الله ولا عن رسوله، ومن أعرض عن ساحة الإيمان والخير، أعرض الله عنه، وصرف الله قلوبهم عن الحق والإيمان، وعن الخير والنور، وهذا إما دعاء عليهم به، أو إخبار عن أحوالهم، وذلك الصرف الإلهي بسبب أنهم قوم لا يفهمون الآيات التي يسمعونها، ولا يريدون فهمها، ولا يتدبرون فيها حتى يفقهوا، بل هم في شغل عن الفهم ونفور منه، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٦١/٥].

صفات الرسول ﷺ المتعلقة بأمته

ليس من الوفاء ولا من الأخلاق أن يكون هناك تنكر أو مجافاة لدعوة النبي ﷺ من أمته العربية، فدعوته شرف خالد وعز دائم لهم، وقد جاء بلسانهم العربي، وبما يفهمونه من الأغراض، وبما يعشقونه من الفصاحة والبلاغة، فكان جديراً بهم أن يؤازروه ويبادروا إلى الدخول في دينه، ومناصرته والدفاع عنه، ولقد تميز أهل المدينة

المنورة بهذا الموقف العقلاني الحكيم، وسارعوا إلى تأييد النبي ﷺ ونشر دعوته والدفاع عنه ضد كل من يريده بسوء، أو يعرقل مسيرته في تبليغ الوحي الإلهي، وإسماع نداء القرآن العظيم، قال الله تعالى مبيناً خصائص النبي ﷺ المتعلقة بأمته، والتي هي مدعاة للإيمان برسالته:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ[1] مَا عَنِتُّمْ[2] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ٩/١٢٨-١٢٩].

هذه الآية خطاب صريح للعرب، على جهة تعداد النعم عليهم في ذلك، حيث جاءهم النبي العربي محمد ﷺ بلغتهم ومن جنسهم وبما يألفون من أغراض البيان، وفصاحة الكلمة والجمل، وبما يشرفون به على مدى الأيام والأزمان، ووصفه الله بصفات خمس ذات جذور عربية قوية:

أول هذه الصفات: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من الجنس العربي، والمقصود منه ترغيب العرب في نصرته، من غير إشادة بنزعة عرقية أو عصبية، قال ابن عباس: إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي ﷺ مضريّها وربيعيها ويمانيها، أي إن نسبه تشعب في جميع قبائل العرب.

والصفة الثانية: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي شديد عسير عليه وقوعكم في العَنت، أي المشقة، والتعرض للمكروه في الدنيا والآخرة، إذ هو منكم، يتألم لألمكم، ويفرح لفرحكم، فكل ما يقع منكم من كفر وضلال بسبب الحق، أو من قتل وإسار وامتحان بسبب الحق، يسوؤه ذلك.

---

(١) صعب عليه . (٢) ما يوقعكم في المشقة .

الصفة الثالثة: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي حريص على هدايتكم وإيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة، أو حريص على إيمانكم وهداكم.

الصفة الرابعة والخامسة: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سماه الله تعالى باسمين من أسمائه. والرؤوف: المبالغ في الشفقة، والرأفة أرق وأخص من الرحمة.

فإن أعرضوا يا محمد بعد هذه الحال المتقررة التي منّ الله تعالى عليهم بها، فقل: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي اللهم كافٍ في النصر على الأعداء. وأنا مفوض أمري إلى اللهِ، ومتوكل عليه، وجادّ في قتال الأعداء والله هو رب العرش العظيم، ومالك المخلوقات كلها في السماوات والأرض وما بينهما، وخص العرش بالذكر، لأنه أعظم المخلوقات، فيدخل فيه ما دونه إذا ذكر، إذ عليه تدبير أمور الخلق، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣/١٠]. روى أبو داود عن أبي الدرداء قال: «من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله، لا إله إلا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، كفاه الله ما أهمه، صادقاً كان بها أو كاذباً».

قال الطبري في كتابه: كان عمر لا يثبت آية في المصحف إلا أن يشهد عليها رجلان، فلما جاء خزيمة بن ثابت بهاتين الآيتين قال: «والله لا أسأل عليهما بينة أبداً، فإنه هكذا كان ﷺ».

والمراد صفة النبي ﷺ التي تضمنتها الآية. ومن المعلوم أن خزيمة بن ثابت هو المعروف بذي الشهادتين، وعرف بذلك لأن رسول الله ﷺ أمضى شهادته وحده في ابتياع فرس، وحكم بها لنفسه ﷺ. وهذه خصوصية لرسول الله ﷺ خص بها خزيمة. وذكر النقاش عن أُبي بن كعب أنه قال: أقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة.

تفسير سورة يونس

ظاهرة الوحي

ظاهرة الوحي هي همزة الوصل بين الإله وبعض الناس من أنبيائه ورسله، فلولاها لم يكن هناك وجود للدين وأحكام الشرع ونظام الإله الذي شرعه لعباده. ولولا الوحي لم نعرف شيئاً عن الغيبيات في عالم الآخرة وما بعد الموت من حساب وعذاب وصراط وجنة ونار، ولولا الوحي الإلهي لكانت حياة البشرية بمثابة حياة الغابة يتحكم فيها القوي بالضعيف، دون خوف من حساب أو تقدير لمسؤولية، والتعجب من ظاهرة الوحي منشؤها انعدام الإيمان بالله تعالى وسيطرة الفكر المادي، وغلبة الأهواء والشهوات، من غير تقدير ومعرفة لمدى قدرة الله عز وجل، وخلقِه الملائكة وسائط نقل الكلام الإلهي لرسل الله الكرام، وقد صور القرآن الكريم مدى العجب في نزول الوحي بما لا يصح في قاموس الإيمان، فقال الله تعالى في مطلع سورة يونس المكية:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ[1] عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: ١٠/١-٢].

أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً رسولاً،

(١) سابقة فضل.

أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر ذلك منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية، وأنزل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٩] فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا: وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣١] يكون أشرف من محمد، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف. فأنزل الله رداً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٢].

ابتدأ الله تعالى هذه السورة (سورة يونس) بقوله ﴿الٓر﴾ كابتداء البقرة بـ ﴿الٓمٓ ۝١﴾ والقصد من هذه الحروف المقطعة التنبيه إلى ما يتلى بعدها ليعتني المرء بفهم ما يسمع أو يقرأ، وتعديد الحروف على طريق تحدي العرب بأن يأتوا بشيء من مثل هذه السورة أو بغيرها من القرآن، وحيث إنهم عجزوا، دل ذلك على أن القرآن كلام الله تعالى. تلك آيات القرآن المحكم، أو ذات الحكمة لاشتماله عليها، أو تلك آيات السورة الحكيمة، التي أحكمها الله وبيَّنها لعباده، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى (هذه). و ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد به القرآن، وهو الأظهر.

وقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ يراد به الإنكار على من تعجب من الكفار على إرسال المرسلين من البشر، أي عجيب أمر بعض الناس الذين ينكرون إيحاءنا إلى رجل من جنسهم من البشر، قال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾.

هذا التعجب في غير محله؛ لأن كل الرسل من البشر، من جنس المرسل إليهم ليكون ذلك أدعى إلى قبول دعوتهم والتفاهم معهم.

ومهمة هذا النبي الموحى إليه هي الإنذار من الناس: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي أوحينا إليه بأن أنذر الناس، وخوِّفهم من عذاب النار يوم البعث، إذا ظلوا كافرين ضالين عاصين، والمهمة الثانية: تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم قدم صدق عند ربهم، أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة عند الله في جنات النعيم، وأجراً حسناً بما قدموا. والأعمال الصالحة: هي صلاتهم وصومهم وصدقهم في القول والفعل وتسبيحهم.

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ فيه حذف يدل الظاهر عليه تقديره: فلما أنذر وبشر، قال الكافرون كذا وكذا. أو: ومع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم رجلاً من جنسهم، بشيراً ونذيراً، قال الكفار: إن هذا القرآن سحر ظاهر بيِّن، وهم الكاذبون في ذلك. ووصفوه بالسحر: لما رأوا من تأثيره القوي في القلوب. ثم تبين لعقلاء العرب وحكمائهم أن القرآن ليس سحراً؛ لأنهم جربوا السحر وعرفوه، فلم يجدوه مطابقاً له؛ وإنما هو وحي من عند الله على قلب نبيه، مشتمل على أحكام سامية عالية في التشريع والقضاء، والسياسة والاجتماع والعلوم والأخلاق والآداب، معجزة في أسلوبه ونظمه ومعانيه، يفوق قدرة البشر على محاكاته أو الإتيان بشيء مثله.

أدلة توحيد الله وإثبات البعث

أقام القرآن الكريم الأدلة الواضحة والبراهين القاطعة على أصلين أو ركنين من أركان الدين: وهما أولاً -التوحيد الخالص لله في العبادة والدعاء، وثانياً -إثبات البعث والجزاء. وتوحيد الله يتضمن إثبات وجود إله قادر نافذ الحكم بالأمر والنهي، وإثبات البعث يقتضي إثبات حياة الآخرة بما فيها من حشر ونشر ومعاد

وقيامة، ليحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر بهما الأنبياء، ولإحقاق الحق وإظهار العدل المطلق. وهذه آيات كريمة تبين هذين الأصلين:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ(١) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ(٢) وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)﴾ [يونس: ١٠/ ٣-٤].

الآية الأولى ابتداء دعوة إلى الإقرار بوجود الله وتوحيده وعبادته والإعلام بصفاته، وفي هذا ردّ على إنكار الوحي ووصف النبي ﷺ بأنه ساحر. ومضمون الرد: أن الله تعالى رب العالم والكون جميعه، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، قيل: هي من أيام الآخرة، وقال الجمهور وهو الصواب: بل من أيام الدنيا، ثم استوى ربنا تبارك وتعالى استواء يليق بعظمته وجلاله، ولا يعلم كيفيته إلا هو، والعرش أعظم المخلوقات، واستوى بقهره وغلبته، وقد سئل الإمام مالك: كيف استوى؟ فقال: «الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

والله تعالى في استوائه على العرش يدبر أمر الخلائق والكون بما يتفق مع حكمته وعلمه، ويقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته، وسبقت به كلمته. والسلطان المطلق لله تعالى في الدنيا والآخرة، ففي الآخرة لا يستطيع شفيع أن يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه، أي إرادته ومشيئته، كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] فلا تشفع الأصنام والملائكة أو البشر الذين يزعمون

(١) بالعدل. (٢) ماء شديد الحرارة.

أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وإنما الشفاعة لمن أذن له الرحمن ورضي له قولاً. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية من الخلق والتقدير والحكمة والتدبير والتصرف في الشفاعة: وغيرها هو ربكم المتولي شؤونكم، لا غيره؛ إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي فأفردوه بالعبادة وحده لا شريك له: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ أي أفلا تتفكرون أدنى تفكر في أمركم أيها المشركون، فتتوصلون إلى أن الله وحده هو المستحق للربوبية والعبادة، لا ما تعبدونه من الآلهة، وأنتم تقرون بوجود الله وتفرده بالخلق، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٤٣/٨٧]. ومع إيمان العرب بوحدة الربوبية، كما تدل هذه الآية وغيرها، إلا أنهم كانوا يشركون معه غيره في الألوهية، وهذا ضلال يستدعي التصحيح والرجوع عنه.

ثم أثبت الله تعالى أصلاً آخر من أصول الإيمان بعد إثبات التوحيد في العبادة والدعاء، وهو البعث والجزاء، فيخبر الله تعالى أن إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة، بعد الموت، لا يترك أحداً منكم أبداً، ووعد الله بإيجاد المعاد في الآخرة وعداً حقاً ثابتاً لا خُلْف فيه ولا نقص.

والدليل على البعث أنه تعالى كما بدأ الخلق وأنشأه حين التكوين، كذلك يعيده في النشأة الأخرى، والإعادة في ميزان الإنسان أهون من البدء، وهما سواء بالنسبة لله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/٢٧].

وفائدة المعاد واضحة هي أن يجزي الله الذين آمنوا بالله ورسله وما أنزل إليهم، وعملوا الأعمال الطيبة الصالحة، بالعدل في رحمتهم وحسن جزائهم، فهو الجزاء الأوفى، حيث يعطي كل عامل ما يستحقه من الثواب. والجزاء بالعدل لا يمنع

التفضل بمضاعفة أجر المحسنين. وأما الذين كفروا بالله ورسله وأنكروا البعث، وتعجبوا من الإيحاء لبشر ينذرهم ويبشرهم، فلهم من الجزاء شراب ساخن شديد الحرارة، يقطّع الأمعاء، ويشوي البطون، فبئس الشراب شرابهم، ولهم أيضاً يوم القيامة عذاب موجع مؤلم أشد الألم بسبب كفرهم، من سَموم وحميم وظل من يحموم، بسبب ما كانوا يكفرون أو يجحدون من توحيد الله وإنكار البعث والجزاء.

إثبات القدرة الإلهية

ما من شيء معقول أو محسوس أو ملموس أو مشاهد إلا ويدل دلالة قاطعة على قدرة الله تعالى الخارقة والزائدة على أية قدرة؛ لأن قدرة الله تعالى تتميز في إيجاد الموجودات وما يكون بينها من نِسَب ومقادير يقتضيها إبداع التسوية والتركيب وإتقان الأشياء. أما قدرة البشر مثلاً فهي مقصورة على معرفة ظواهر القدرة الإلهية والاستفادة منها في التصنيع والتعديل والتطوير وتغيير الشكل، مع العجز التام عن إيجاد المعدوم وخلق الأشياء، قال الله تعالى واصفاً بعض الظواهر الكونية الدالة على قدرته الفائقة:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ(١) لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٥-٦].

هذه الآية تصف آيات الله، وتنبه على صنعته الدالة على الصانع المتقن، من خلال بيان أحوال الشمس والقمر الدالة على التوحيد من جهة الخلق والإيجاد، وعلى إثبات

(١) جعله ذا منازل يسير فيها .

المعاد من جهة كونهما أداة لمعرفة السنين والحساب، ثم ذكر المنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وما أبدع الله في السماوات والأرض.

الله سبحانه جعل الشمس في النهار ضياء للكون، ومصدراً للحياة وإشعاع الحرارة الضرورية للحياة، في النبات والحيوان، وجعل القمر نوراً في الليل يبدد الظلمات، وقدر مسيره في فلكه منازل، ينزل كل ليلة في واحدة منها، وهي ثمانية وعشرون منزلاً معروفة لدى العرب، يرى القمر فيها بالأبصار: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٦/ ٣٩] وهي البروج.

وهذه الآية تقتضي أن الضياء أعظم من النور وأبهى، بحسب الشمس والقمر، والضياء أشد تأثيراً على الأبصار، وأما نور القمر فهو أهدأ وأقرب للتفاعل والتجاوب معه. لذا شبه الله تعالى هداه ولطفه بخلقه بالنور، فهداه في الكفر كالنور في الظلام، فيهتدي قوم ويضل آخرون. ولو شبه الله هداه بالضياء لوجب ألا يضل أحد، فيصبح الهدى مثل الشمس التي لا تبقى معها ظلمة.

ومن فوائد الشمس والقمر: معرفة حساب الأوقات والأزمان، فبالشمس تعرف الأيام، وبالقمر تعرف الشهور والأعوام، وفي كل من الحساب الشمسي والقمري فوائد، فالحساب الشمسي ثابت، والحساب القمري أسهل على البدوي والحضري، لذا أنيطت به الأحكام الشرعية، وبكلا الحسابين رفق بالناس، وتسهيل لمعرفة شؤون المعاش والتجارة والإجارة وغير ذلك مما يحتاج لمعرفة التواريخ.

ما خلق الله ذلك المذكور من الشمس والقمر إلا خلقاً ملتبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة، ولم يخلقه عبثاً بل لحكمة وفائدة، فمعنى قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي للفائدة لا للعب والإهمال، فيحق أن تكون كما هي.

يبين الله الآيات الكونية الدالة على عظمته وقدرته، والآيات القرآنية المرشدة

للإيمان ونظام الحياة، لقوم يعلمون طرق الدلالة على الخالق ومنافع الحياة، ويميزون بين الحق والباطل. وإنما خص تفصيل ذلك بالعلماء، لأن نفع التفصيل وإدراكه فيهم ظهر، وعليهم أضاء.

ودليل آخر على قدرة الله تعالى وهو تعاقب الليل والنهار، إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، وفي تفاوتهما أيضاً عبرة، فيظهر طولهما وقصرهما بحسب مواقع الأرض من الشمس، وماهما من نظام دقيق، وما فيهما من برودة وحرارة، يعود نفع كل ذلك للإنسان الذي جعل الله له الليل لباساً وسكناً، والنهار معاشاً وحركة وتقلباً، ويعود نفعه أيضاً للحيوان والنبات.

ومن أدلة القدرة الإلهية أيضاً: ما خلق الله في السماوات والأرض من أحوال الجماد والنبات والحيوان، وأحوال الرعود والبروق والسحب والأمطار، وأحوال البحار من مد وجزر، وأحوال المعادن من خواص وتركيب ومنافع في البناء والحياة وتقدم المدينة والحضارة.

إن في ذلك كله لآيات ودلائل دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته، وحكمته وعظمته، وكمال علمه، لقوم يتقون مخالفة سنن الله في التكوين، وسننه في التشريع، فسنة الحياة المادية الحفاظ على الصحة، وسنة الحياة المعنوية الاستقامة، من أفسدها وخالفها أساء لنفسه، وكل من لم يتق عقاب الله وسخطه وعذابه، بارتكابه المعاصي ومخالفة السنن، عوقب على ذلك في الدنيا والآخرة. وخص الله تعالى هنا القوم المتقين تشريفاً لهم؛ إذ الاعتبار فيهم يقع، وتأملهم فيها أدق وأفضل من تأملات من لم يهتد ولا اتقى.

جزاء المؤمن والكافر

العدالة التامة هي ميزان الجزاء الواقع في الآخرة، وهذا مقتضى المنطق وأمل المحرومين والمعذبين والمظلومين في عالم الدنيا، فلا ترتاح النفس ولا تهدأ إلا بإنصاف الخلائق، والشعور بأن هناك رَباً عادلاً ينصف أهل الحق والعمل الصالح، ويجازي أهل الباطل والضلال والفساد، وهذا المنهج الإلهي هو ما فاضت به دلالات آيات القرآن المجيد في كل مناسبة من مناسبات الترغيب لأهل الإيمان، وترهيب أهل الجحود والعصيان، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا[1] وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

[يونس: ١٠/٧-١٠].

هذه الآيات تقارن بين مصير أهل الجحود والكفر، وأهل التصديق والإيمان، لتحذير الكافرين منكري البعث، وتثبيت المؤمنين، ومعناها ما يأتي: إن الذين لا يتوقعون لقاء الله في الآخرة، ولا يحسنون الظن بذلك، ولا أمل لهم بالنجاة، ولا خوف عندهم من الحساب والعقاب والجزاء على الأعمال، لإنكارهم البعث والمعاد، ورضوا بالحياة الدنيا بدل الآخرة، لغفلتهم عنها، واطمأنوا بها وسكنوا إلى لذائذها فهي آخر همهم ومنتهى غرضهم، وكانوا غافلين عن آيات الله الكونية والشرعية، فلا يتفكرون في الكون ولا يأتمرون بأحكام الشرع، هؤلاء المذكورون مقامهم ومقرهم في نار جهنم، وذلك بسبب كسبهم السيئات واجتراحهم الآثام

(١) لا يتوقعونه .

والخطايا، مع كفرهم بالله ورسوله واليوم الآخر. وفي هذا رد واضح على الجبرية القائلين بأن الإنسان مجبر مكره على المعصية، ونص صريح على تعلق العقاب بما يكسبه الإنسان من السيئات.

هذا جزاء الكافرين الأشقياء الذين أنكروا البعث ولم يريدوا إلا الحياة الدنيا ومتعتها، وألهتهم الدنيا عن التأمل في الآخرة والإعداد لها. ولما قرر الحق تبارك وتعالى حالة الفرقة الهالكة في الآخرة، عقّب ذلك ببيان حال الفرقة الناجية، ليتضح الطريقان، ويرى الناظر فرق ما بين الهدى والضلال، وهذا كله من الله لطف بعباده وتعريف سابق للمصير المرتقب في المستقبل الأخروي.

وحال الفريق الثاني هو ما قررته الآية: إن الذين صدقوا بالله ورسله، وامتثلوا ما أمروا به، فعملوا الصالحات، ولم يغفلوا عن آيات الله في الكون والشريعة، يرشدهم ربهم إلى طرق الجنان في الآخرة، وهي التي تجري الأنهار من تحت أشجارها ومن تحت غرفها، فيكون مستقرهم جنات الخلد والنعيم الأبدي، جعلنا الله منهم ونجانا من عذاب النار. وعطْفُ العمل الصالح على الإيمان دليل على استقلال كل منهما عن الآخر، فلا يكفي الإيمان القلبي، بل لا بد للنجاة من العمل الصالح الذي هو كالتابع للإيمان والدليل عليه والتتمة له. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ قال: حدثنا الحسن قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «المؤمن إذا خرج من قبره، صوّر له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك عين امرئ صدق، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة، وأما الكافر فإذا خرج من قبره، صوِّر له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك عين امرئ سوء، فيقول: أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار».

ويكون دعاء المؤمنين في الجنة مبدوءاً بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي تنزيهاً وتقديساً لك يا الله، أو اللهم إنا نسبحك، وتكون تحيتهم في الجنة عبارة (السلام) الدالة على السلامة من كل مكروه، كما جاء في آية أخرى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٢٥-٢٦] وهي تحية المؤمنين في الدنيا، وتحية الله تعالى حين لقائه لأهل الجنة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٤] وتحية الملائكة لهم عند دخول الجنة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٣] وآخر دعائهم الذي هو التسبيح: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ أي إن خاتمة كلامهم شكر الله تعالى وحمده على سابغ نعمه، والحمد أعم من الشكر، وهو أول ثناء على الله حين دخول الجنة، كما في آية أخرى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر ٣٩/ ٧٤].

عجلة الإنسان في تقرير المصير

يتعجَّل الإنسان عادة تقرير المصير وتحقيق النتائج، سواء في حال الخير أو الشَّر، وهذا دليل القصور في التفكير، وسوء التقدير، ولو فكر الإنسان تفكيراً مليّاً هادئاً، وتأمّل في أحداث الدنيا، لتوقف عن العجلة، وبادر إلى الحلم والأناة، والصبر والإيمان، وتفويض الأمر للخالق الدَّيان. ولو لم يفعل ذلك في حال المكروه أو الشَّر، لوقع في أسوأ العواقب، ودمَّر نفسه ووجوده لطيشه وعجلته، وهذا الطبع يصفه القرآن الكريم للتحذير والتنبيه، فقال الله تعالى:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ[1] فَنَذَرُ الَّذِينَ

(١) لأهلكوا.

لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ(١) ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ(٢) دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ(٣)
أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٠/ ١١-١٢].

قال مجاهد: «نزلت في دعاء الرجل على نفسه أو ماله أو ولده ونحو هذا، فأخبر الله تعالى أنه لو فعل مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابتهم إلى الخير لأهلكهم». وقيل: إن هذه الآية نزلت بمناسبة قوله تعالى واصفاً طيش المشركين: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢]. وقيل: نزلت في قوله تعالى: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٧] وما جرى مجراه.

والمعنى: إن الإنسان كما يتعجَّل الخير، لأنه يحبُّه، يتعجَّل الشَّر حين يغضب ويضجر، فلو استجاب الله للناس دعاءهم في حال الشَّر، كاستعجالهم تحقيق الخير، لأميتوا وهلكوا، مثل استعجال مشركي مكة إنزال العذاب عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ [الرَّعد: ١٣/ ٦].

وسمى الله تعالى العذاب شرّاً في هذه الآية؛ لأنه أذى في حقِّ المعاقب، ومكروه عنده، كما سماه سيِّئة في آية: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ ولكنه سبحانه وتعالى بحلمه ولطفه بعباده لا يستجيب للناس دعاءهم في الشَّر، إمهالاً لهم وتركاً لفرصة التّأمل والتفكير، إذ لوأجابهم لانتهى أمر وجودهم وهلكوا، كما هلك الذين كذبوا الرُّسل، وربما آمن بعضهم بالله. وأما عذاب سائر الكفار فيتركه إلى يوم القيامة، فيترك الذين لا يتوقعون لقاء الله ولا يؤمنون بالبعث، في طغيان الكفر والتكذيب،

---

(١) في تجاوزهم الحدّ في الكفر يتحيّرون . (٢) استغاث بنا لكشفه في حال الاتكاء على جنبه . (٣) استمر على حالته الأولى .

يترددون فيه متحيرين، ولا يعجل لهم في الدنيا عذاب الاستئصال تكريماً لخاتم النَّبيِّين محمد ﷺ.

وكذلك اقتضت رحمته تعالى بعباده ألا يستجيب لهم دعاءهم على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشَّر، في حال الضَّجر والغضب؛ لأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك. روى أبو داود والبزار عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَدْعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تَدْعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة، فيستجيب لكم».

ومن عجلة الإنسان أيضاً أنه إذا أصابه ضرّ من مرض أو فقر أو خطر، بادر إلى دعاء ربّه بإلحاح في كشف ضرّه وإزالته، حالة كونه مضطجعاً على جنبه، أو قاعداً، أو قائماً، وفي جميع أحواله، فإذا فرَّج الله شدَّته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء، ومضى في طريقه من الغفلة عن ربّه وفي إشراكه بالله وقلّة توكُّله عليه، كأنه لم يدع ربَّه إلى شيء، ومثلُ ذلك العملِ القبيح المنكر، أو التَّزيين من الله بخلقه الكفر لهم واختراعِه في نفوسهم، أو من الشيطانِ بالوسوسة والمخادعة، مثلُ ذلك زُيِّن للمشركين طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشِّرك، والإعراض عن القرآن والعبادات، واتِّباع الشَّهوات.

والضُّرّ عند اللُّغويين: لفظ عام لجميع الأمراض والرَّزايا في النفس والمال والأحبّة، وقيل: هو مختصّ برزايا البدن: الهزال والمرض.

وقوله: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ﴾ وإن نزلت في الكفار، فهي تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر أو عاص. والمراد بالإنسان في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ هو الكافر؛ لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم. والخلاصة: المراد من الآية النَّهي عن العجلة في الدعاء، والأمر بالتسليم إلى الله تعالى، والضَّراعة إليه في كل حال.

السُّنّة الإلهيّة في تعاقب الأجيال

في القرآن الكريم تقرير جلي لسنن الله في الكون والنفس والحياة، يقصد من بيانها تربية النّفس الإنسانية على أساس من الإصلاح الجذري، والبعد عن المزالق والمهالك، أو الوقوع في البلايا والمصائب. فهناك سنّة إلهيّة في الهداية والضّلال، وسنّة إلهيّة في المؤمنين والظالمين من الكافرين والمنافقين، وسنّة إلهية في المسؤولية الشخصية والمسؤولية الجماعية، وسنّة إلهيّة في الدعاء والعبادة والجهاد والمعاملة، والابتلاء والمصيبة، والرزق والإنفاق، والحياة الدنيوية والأُخروية.

وهذه السُّنن الإلهية تقرر قوانين محددة، وتتصف بأنها دائمة خالدة، وثابتة غير متغيرة، ومستمرة غير متحولة، تشمل الأولين والآخرين. وهذا منهاج الله تعالى في قرآنه كما حكى في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٢].

ومن سنن الله تعالى في النفس وتعاقب الأجيال ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ(١) مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ(٢) مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ١٣-١٤].

هذه آية وعيد وتهديد بعذاب الاستئصال والإهلاك للكفار مقرونة بضرب الأمثال لهم، في تعذيب الأمم السابقة، ليرتدعوا عما هم فيه من تحدٍّ لموكب الإيمان أو مطلب متسرع في تعجيل العذاب، مع أن القانون الإلهي واحد، فكما فعل السابقون أفعالاً منكرة فعذِّبوا، كذلك يفعل بالأجيال المتلاحقة بسبب التّشابه في الأسباب واقتراف السَّيئات.

---

(١) القرون أي الأمم. (٢) استخلفناكم بعد إهلاك الماضين.

يخبر الله تعالى أهل مكة وغيرهم في هذه الآية بأنه أهلك كثيراً من الأمم بسبب ظلمهم وتكذيبهم الرُّسل فيما جاؤوهم به من البيِّنات والحجج الواضحة كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٩] والإهلاك إما بعذاب الاستئصال لأقوام الرُّسل الذين كذبوا بهم مثل نوح وعاد وثمود، وإما بإذلالهم واستيلاء الأمم القوية عليهم، بسبب ظلم بعضهم بالفسق والفجور.

لقد أهلك الله الأمم العاتية لما ظلموا أنفسهم، وأصروا على الكفر، وكذبوا بالبيِّنات الدّالة على صدق الرُّسل، فلم يؤمنوا بهم وعارضوهم وقاوموهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ إخبار عن قسوة قلوبهم، وشدة كفرهم، وإفراطهم في العناد والتَّحدي، فلم يعد هناك أمل في إصلاحهم، ولا فائدة في إمهالهم، بعد إقامة الحجج عليهم ببعثة الرُّسل.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ معناه: مثل ذلك الجزاء أي الإهلاك، نجزي كل مجرم. وهذا إعلان واضح ووعيد لأهل مكة المشركين على جريمتهم بتكذيب نبيّهم ورسولهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

وليس عذاب الاستئصال العام لقوم إفناءً للنوع البشري، وإنما هو مجرد وعيد وإنذار، فيعوِّض الله جيلاً بجيل، لذا خوطب مشركو مكة بأن جعلهم الله خلفاء في الأرض، بعد تلك القرون أو الجماعات المهلكة، ليبين في الوجود ما علمه أزلاً في القديم الذي لا أول له، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن الله تعالى إنما جعلنا خلفاء لينظر كيف عملنا، فأَرُوا الله حسن أعمالكم في السِّر والعلانية» وكان عمر يقول أيضاً: «قد استُخلفتَ يا بن الخطاب، فانظر كيف تعمل».

وتقرير وجود المشركين المكِّيين عقب إهلاك الظالمين المتقدِّمين إشعار بأن دورة

الزمان ستتحول قريباً، فتكون أمّة القرآن هي صاحبة العزّة والسِّيادة، والخلافةِ في الأرض، إذا لازمت الطاعة، واتَّبعت هدي القرآن وسنّة رسول الإسلام، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النّور: ٢٤/ ٥٥]. وقد تحقق هذا الوعد على مدى التاريخ الماضي، ويمكن أن يتحقق مرة أخرى إذا أحسن المسلمون أعمالهم، وساروا في فلك الهداية الرَّبانيّة، واستظلّوا بظلِّ راية القرآن المجيد.

مطالب المشركين العجيبة

لقد أبدى المشركون في عهد نزول الوحي الإلهي رغبات غريبة ومطالب عجيبة للتَّهرب من الحقيقة، والعبث بالشريعة، فطالبوا بتبديل القرآن من أجل إقرار شركهم والرِّضا عن كفرهم ووثنيتهم، ولم يدروا بأن إنزال القرآن من عند الله الذي يفعل ما يشاء، ويأمر بما يريد، و يختار ما هو حقّ وصواب، ويهدم ما كان باطلاً وخطأ. وليس أبطل مما أعلنه المشركون من التشكك في القرآن والطعن في نبوة الرسول المنزل عليه كلام الله، وصف القرآن هذا الموقف العجيب بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم(١) بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ(٢) ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

(١) لا أعلمكم به .(٢) لا يفوزون بمطلوب .

مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ [يونس: ١٠/ ١٥-١٨].

هذه الآيات إظهار للحجة القاطعة من الله على المشركين في التكذيب بالقرآن، والعكوف على عبادة الأصنام، وبيان واضح أن القرآن ليس من قِبَل النَّبي محمد ولا هو من عنده، وإنما هو من عند الله، ولو شاء الله ما بعثه به، ولا تلاه عليهم، ولا أعلمهم به. فقولهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أي من نمط آخر ليس فيه عيب آلهة المشركين، إنهم يريدون تبديل القرآن على حسب مزاجهم، بجعل آية مكان آية في الوعيد والطعن بهم. ومنشأ هذا المطلب: هو إنكارهم البعث والحساب، وتكذيبهم بالثواب والعقاب في الآخرة.

فردَّ الله عليهم معلِّماً نبيّه أن يقول: ما يصح لي ولا من شأني أن أبدِّل هذا القرآن من قِبَل نفسي، فليس هو كلامي، وإنما هو كلام الله، وإني لا أتبع فيه إلا ما يوحى إلي، وهو ما أبلّغكم به، إني أخشى إن خالفت وحي ربِّي وأمرَه عذاب يومٍ عظيم الهول، شديد الوقع، وهو عذاب النار يوم القيامة.

بل قل لهم أيها الرّسول: لو شاء الله ألا أتلو هذا القرآن عليكم ما تلوته، ولو شاء الله ألا أُعلمكم به أو أخبركم بأحكامه، وأنتم أعلم الناس بسيرتي، ولم تجرِّبوني في كذب، بدليل أني مكثت بينكم أربعين سنة من قبل نزول القرآن، لا أتلو شيئاً منه ولا أعلمه، أفلا تستعملون عقولكم وتتفكرون في أن من عاش أُمِّيّاً أربعين عاماً، لم يقرأ كتاباً ولا تعلّم من أحد، لا يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن المعجز في بلاغته وفصاحته وعلومه وشرائعه، ولم تستطيعوا معارضته أو الإتيان بمثل أقصر سورة منه، وهذا دليل على أن القرآن يتميّز بإعجازه التّام؛ لأنه كلام الله، وليس كلام بشر.

فلا أحد في البشر أظلم من رجلين: أحدهما -من افترى على الله الكذب بنسبة الشَّريك أو الولد لله، أو بتبديل كلامه على النَّحو الذي اقترحتموه، والثاني -من كذب بآيات الله البيِّنة، فكفر بها، إنه لا يفوز المجرمون (أي الكافرون) في الآخرة. وهذا دليل على عِظَم جُرْم المفتري على الله بعد بيانه الساطع بأن القرآن كلام الله، ودليل أيضاً على أنه لا نجاة للكفار من العذاب الأخروي، ولن يحققوا أي فوز، بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى.

وأي الموقفين أصحّ عقلاً وأسلم عاقبة وأبين حقيقة: موقف الإيمان بربٍّ واحد خالق رازق، نافع مانع للضُّر، أو موقف المشركين الذين يعبدون الأصنام، ويزعمون أن شفاعتها تنفعهم عند الله، أو أنهم وسطاء لهم بين يدي الله. فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ..﴾ أي قل لهم أيها الرّسول: لا دليل لكم على ما تدَّعون، أتخبرون الله بما لا وجود له في السَّماوات ولا في الأرض، وما لا يعلم من وجود هؤلاء الشفعاء المزعومين، تنزه الله عن أن يكون له شريك أو معين، وتعاظم وتعالى علوّاً كبيراً عما يشركون به من الشُّفعاء والوسطاء، ويستحيل على الله وجود شيء من الشِّرك أو الشُّركاء الذين يشركونهم به.

وهذا تقريع وتوبيخ للمشركين في زعمهم وافترائهم بوجود أنباء في السماوات والأرض، لا يعلمها الله ولا وجود لها في الواقع.

وحدة المعبود والسُّلطان الإلهي

تدلُّ الفطرة الإنسانيّة الأصليّة في جميع البشر على الإقرار بوجود إله واحد، والإذعان لربّ واحد، له السُّلطان الغيبي المطلق والتَّصرف الشّامل في الكون

والإنسان، والرحمة والشدة، والنفع والضّر، فإذا تركت هذه الفطرة على مساقها السليم، كان الإنسان موحِّداً، عابداً لله وحده، فهو المعبود بحق، وكل مايصدر عن الإنسان من شرك، وانحراف، وتصورات شاذّة عن الإله خالق الكون، فإنما هو من منشأ طارئ، يعكِّر صفو الاتجاه الصحيح نحو الله تعالى. قال الله سبحانه مصوِّراً حقيقة الفطرة السَّوية في أقدم العصور:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ(١) إِذَا لَهُم مَّكْرٌ(٢) فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا(٣) ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس: ١٠/١٩-٢١].

إن توحيد الله تعالى أمر قديم في البشر، وهو الأصل العام في كل إنسان، وما الشِّرك في العبادة أو الوثنية وعبادة الأصنام إلا أمر طارئ دخيل، ومذهب فاسد حادث في الناس، بسبب اتِّباع الأهواء والتصورات المخطئة. فقد كان الناس كلهم على دين واحد وملّة واحدة هو دين التوحيد، وفطرة الاعتراف بربٍّ واحد. وذلك كما جاء في آية أخرى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٣] ويوضح هذا الحديث الصحيح: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه».

لقد طرأ الاختلاف في توحيد الله تعالى على عقول البشر وتصوراتهم بعد الخَلْق السّوي والتكوين القويم، ولكن حلم الله ورحمته اقتضيا إمهال الإنسان ليراجع

(١) نائبة أصابتهم . (٢) دفع وطعن . (٣) أعجل جزاء .

حسابه ويصحح خطأه، ولولا ما تقدم من الله تعالى من كلمة حق في جعل الجزاء الفاصل بين الناس يوم القيامة، لعجَّل العذاب للناس في الدنيا بإهلاك المبطلين، وتعذيب العصاة بسبب اختلافهم، ولقضي بينهم في منازعاتهم أو خلافاتهم. وفي هذا وعيد للمنحرفين وإمهال للظالمين الكافرين.

ثم أورد الله شبهة يتمسك بها الكفار في كفرهم وزعمهم، وهي أنهم يقولون: هلا أنزل على النَّبي محمد ﷺ آية كونية حسِّية مُشاهدة كالتي نزلت على نوح وشعيب وهود وصالح وموسى وعيسى، تلك الآية تضطر الناس إلى الإيمان بالله، فردَّ الله عليهم بأن يقول نبيّه لهم: إنما سلطان الغيب وتقديره أو معرفته وتوجيهه لله تعالى، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، لا يطَّلع على غيبه أحد، والله وحده هو المختصّ بعلم الغيب، فلا يعلم به إلا هو، والأمر كله لله، يعلم عواقب الأمور، فإن قدر وشاء، أنزل آية كونية أو عقلية أو غيرهما، وإن شاء لم ينزلها، ويعلم الوقت المناسب لكل شيء. ثم قال تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ وهذا وعيد واضح، فإن كنتم لا تؤمنون بي حتى تشاهدوا ما سألتم من نزول الآيات المقترحة، فانتظروا حكم الله فِيَّ وفيكم، وهو ما سيحلُّ بكم من العذاب جزاء عنادكم وجحودكم بالآيات. وقد حقق الله تعالى وعيده، بنصر عبده محمد ﷺ في معركة بدر وغيرها.

وهناك جواب آخر على طلب إنزال آية غير القرآن، وهو أن الله تعالى إذا أذاق الناس وهم الكفار رحمة، ورزقهم فضلاً، من بعد ضرّاء مسَّتهم، كالرّخاء بعد الشّدة، والخصب بعد الجدب، والأمن بعد الخوف، والصحة بعد المرض، إذا هم يسرعون بالمفاجأة الغريبة وهي المكر، أي الاستهزاء والطعن في مقام الحمد والشكر، والتَّنكر للجميل والمعروف بعد زوال المكروه عنهم، وعدم الارتداع عن المعاصي، وذلك في الناس كثير. وإزاء هذا الموقف قل لهم يا محمد: الله تعالى أسرع مكراً، أي

تدبيراً محكماً، وجزاءً عدلاً على أفعالكم، قبل أن تدبروا مكيدة أو خطة لإطفاء نور الإسلام، وكل آتٍ قريب، إن رسلنا وهم الملائكة الحفظة الكرام يكتبون أو يسجّلون جميع ما تفعلونه وتدبرونه، أو تخطّطون له، ويُحصونه عليكم، ثم يعرضونه على الله عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، فيجازي كل واحد على فعله بما يستحق.

مقابلة النِّعمة بالجحود

يختلف الناس في تقدير نعمة الله الخالق عليهم، فالمؤمن يشكر الله تعالى على أفضاله ونعمه الكثيرة في الحياة والصحة والرزق والجاه والمال، والكافر أو المشرك يقابل النعمة بالجحود، ويتنكر للمعروف، وينسى ما تفضّل به الله عليه من نجاة بعد خوف، وأمن بعد قلق، وعافية بعد مرض، وغنى بعد فقر، وعزّ بعد ذلّ. والشأن في الإنسان السّوي المنصف أن يقرَّ بهذه الأفضال الإلهية، ويشكرَ المنعم في جميع الأحوال. قال الله تعالى واصفاً حال الجاحدين المتنكِّرين للجميل والخير:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ(١) وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ(٢) دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ(٣) فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٢٢-٢٣].

هذه الآية تتضمن تعداد النِّعم على الناس، ثم تزجرهم عن الجحود وتذمّ بغيهم وتجاوزهم الحدود، ومن أعظم النعم تحقيق الأمن بعد الخوف، والنَّجاة من المخاطر

---

(١) شديدة الهبوب . (٢) أحدق بهم الهلاك . (٣) يفسدون ويظلمون .

بعد التَّعرض لها، فالله تعالى هو الذي يمكِّن الناس من السير وتجاوز المسافات في البر والبحر بوسائط النقل المعروفة، من الدّواب والبواخر والسيارات والطائرات والقطارات، وتلك نعم جليلة، حتى إنه إذا كان الناس راكبين في السُّفُن الشراعية وجرت فوق الماء بريح هادئة لينة، ثم تعرَّضت للاضطرابات ومخاطر الغرق بتغيُّر الريح واشتدادها، فتهبّ عاصفة قوية، ويعتقد الركاب أنهم غارقون هالكون بسبب الأعاصير والأمواج العاتية التي تحيط بهم من كل جهة، في تلك الحالة الرهيبة لا يجد الركاب ملجأ إلا الله، فيتّجهون إلى دعائه مخلصين له الدعاء والعبادة والتَّضرع، ولا يتّجهون لغير الله ربهم، ويقولون بصدق وحرارة وإخلاص: لئن أنجانا الله من هذه المخاطر والدّواهي لنكونن من جماعة الشاكرين نعمة الله، الموحِّدين له، العابدين إياه. ولكن سرعان ما يتبدل الموقف، وينقض هؤلاء الركاب العهد أو الوعد، فحينما ينجيهم الله من تلك الورطة، وينقذهم من خطر الغرق أو الهلاك، إذا هم يعودون إلى سيرتهم الأولى، من نكران وجود الله وتوحيده، والوقوع في الظلم والبغي، والعصيان والفسوق، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٧].

ثم زجر الله أهل البغي والإسراف، والجحود والإنكار، والمعصية والضَّلال، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ أي إنما وبال هذا البغي وجزاؤه وإثمه على أنفسكم في الدنيا والآخرة، ولا تضرّون به أحداً غيركم، تتمتعون في الدنيا متاعاً زائلاً لا قرار له، من توبيخ الضمير والوجدان، أو التعرض لأنواع البلايا والأمراض والقلاقل أو الخسران في نهاية الأمر، وفي الآخرة أيضاً جزاء محقق على البغي والانحراف؛ لأن مصير جميع الخلائق ومآلهم إلى الله يوم القيامة، فيخبرهم

بجميع أعمالهم، ويجازيهم عليها الجزاء الأوفى المناسب، بسبب ما كانوا يعملون. وفي هذا تهديد كافٍ، ووعيد قاطع شاف. جاء في حديث أحمد والبخاري: «ما من ذنب أجدر أن يعجِّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يُدَّخر له في الآخرة، من البغي وقطيعة الرّحم».

وقال سفيان بن عيينة: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تعجّل لكم عقوبته في الحياة الدنيا، وعلى هذا قالوا: البغي يصرع أهله.

والحقّ أن إنذارات القرآن وألوان التهديد والوعيد بالعذاب لها هدف تربوي سامٍ، فهي من أجل توجيه الإنسان نحو الخير، والصلاح، والهدى والنّور، والاستقامة على أمر الله وشكره باستعمال القوى الإنسانية في مرضاته، وهي أيضاً تحذير من الشَّر وتنبيه إلى مغبَّته وسوء عاقبته، فالويل كل الويل لمن بغى على نفسه وظلم غيره، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٦٣].

أروع مثل للحياة الدنيا

تتميز تشبيهات القرآن الكريم لبعض الأوضاع الجسيمة أو الخطيرة بالواقعية والإيجاز، والتصوير السريع البليغ، ليسهل إدراك الأمور على وجهها الصحيح، ولتكون الأحوال المشاهدة خير دليل معبِّر عن الواقع، وعبرة للمتأمِّل المتَّعظ. فإذا تفاعل الإنسان مع منظور المستقبل وتأثَّر بما يؤول إليه، أحسَّ بمسؤوليته، وبادر إلى العمل والبناء، والعطاء والإنتاج، قبل أن يفوت الأوان وتضيع الفرصة. وهذا مثل بليغ للحياة الدنيا تصوِّره الآية القرآنية التالية كأن رساماً ماهراً يرسم مشاهدها:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ

وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا(١) وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا(٢) كَأَن لَّمْ تَغْنَ(٣) بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٢٤].

هذه الآية العظيمة تصوير للحياة والفناء العاجل، وقد تكرر هذا التشبيه أو التمثيل في القرآن الكريم في مناسبات عديدة، مثل قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوٓا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٠].

وتوضيح هذا المثل كما يبدو فيما يأتي:

إنما مثل التَّفاخر في الحياة الدنيا وزينتِها بالمال والبنين، ثم أيلولتها إلى الفناء السريع، كمطر نزل من السماء، فاختلط بالتراب والنبات، فأنبت نباتات شتى، تشابكت واختلط بعضها ببعض، منها ما يأكله الناس من زروع وحبوب وثمار، ومنها ما تأكله الأنعام من علف ومراعٍ وغير ذلك.

حتى إذا تكامل نمو النبات وازدهر، وأخذت الأرض حسنها وزينتها الفانية، وتزيَّنت بأبهى أنواع الزينة، واكتست الجبال والوديان والسهول بالأشجار الباسقة، والأزهار النّضرة، والحبوب والثمار اليانعة، مما يأكل الناس من الزروع والأشجار ونحو ذلك من المراعي والأعلاف، وازّيّنت، أي ظهرت زينتها، وأيقن أهلها الذين زرعوها أو غرسوها أنهم قادرون على جذاذها وحصادها والانتفاع بها. وبينما هم كذلك، مفتونون بحسن النّبات والثّمر والزهر، جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة،

(١) نضارتها بالنباتات . (٢) كالنبات المحصود . (٣) لم تمكث زروعها .

فيبست أوراقها وتلفت ثمارها، ونزل بها القضاء المقدَّر لهلاكها ليلاً أو نهاراً، فجعلها الله تعالى كالأرض المحصودة، لا خضرة ولا نضرة فيها، كأن لم تنبت، وكأنها لم تكن في حال حياة قبل ذلك، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي كأن لم تنعم ولم تنضر ولم تُغْرِ بغضارتها، وفي تفسير أُبي بن كعب: وما كنا لنهلكها إلا بذنوب أهلها.

ثم ختم الله تعالى هذا المثل الرائع بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي كهذا المثل المبيَّن الذي يوضح حال الدنيا وسرعة زوالها، نبيِّن الحجج والأدلّة الدّالة على إثبات التوحيد والجزاء وكل ما فيه صلاح الناس في معاشهم ومعادهم، لقوم يتفكرون في آيات الله، أي يستعملون تفكيرهم وعقولهم في الاتّعاظ والاعتبار بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها زوالاً سريعاً، مع اغترارهم بها، وتمكُّنهم من خيراتها، علماً بأن من طبع الدنيا الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها.

والغرض الواضح من هذه الآية التحذير من الاغترار بالدنيا، إذ هي معرَّضة للتَّلف والزّوال بموت أو غيره من رزايا الدنيا. وخصّ المتفكّرين بالذِّكر تشريفاً للمنزلة، وليقع التَّسابق إلى هذه الرتبة. فجدير بكل عاقل ألا يغتر بالدنيا، فإنها غرّارة زائلة، وليبادر إلى اغتنام أيام عمره فيها، فيعمل العمل الصالح، ويصحح العقيدة، ويؤمن بالله حقَّ الإيمان، وينفع نفسه وأمَّته ووطنه، و يخلّد سمعة طيبة إما بكلمة طيبة، أو بخير يفعله، أو منع من شرّ يدمِّر حياته وحياة غيره.

التَّرغيب في الجنّة والتَّرهيب من النّار

لم يترك القرآن المجيد خيراً إلا دعا إليه جميع البشر في كل زمان ومكان، ولم ير في شيء شرّاً إلا حذَّر منه ونفَّر، وأعلن وأنذر، وجعل القرآن غاية للخير ومقصداً عامّاً

ألا وهو الجنّة، كما جعل مصير الشَّر مصيراً شاملاً ومحقّقاً ألا وهو النار. وهذا دليل واضح على حبّ الله الخير والمصلحة لعباده، وإرادته تعالى إبعادهم من الشرور والمفاسد والمساوئ، لما فيها من ضرر مؤكد وتدمير محقق. قال الله تعالى مبيِّناً هذا المنهج الإلهي في شرعة القرآن:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ(١) وَلَا ذِلَّةٌ ۚ(٢) أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ(٣) كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ(٤) قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٢٥-٢٧].

إذا كانت دعوة الإسلام إلى الإيمان بالله وحده دعوة عامّة لكل أجناس البشر، فإن الهداية التي هي الإرشاد مختصّةٌ بمن قُدِّر إيمانه. ومعنى الآية: والله يدعو إلى الإيمان والعمل الصالح المؤدِّيين إلى دار السّلام وهي الجنّة، وسميت الجنة بدار السلام؛ لأن من دخلها ظفر بالسّلامة والكمال، وأمن الفناء والآفات، وسلم من الشوائب والنقائص والأكدار.

ودعوة الله إلى دار السّلام وأمره بالإيمان عام لكل البشر، ولكنه سبحانه يختص أهل الإيمان بالهداية، أي بالإرشاد والتوفيق إلى الطريق القويم الموصّل إلى الجنة، ولا أقوم ولا أهدى من شرعة القرآن والإسلام المتضمنة أصول العقائد والأخلاق والشرائع والأحكام. ومن المعلوم أن الهداية نوعان: هداية دلالة عامّة، وهي عامة لجميع الناس، وهي الدعوة إلى الإيمان والإسلام، وهداية توفيق وعناية، وهي خاصة بالمؤمنين، يوفقهم الله إلى طريق الاستقامة، ويعينهم على القيام بواجباتها وآدابها.

---

(١) غبار مع سواد. (٢) أثر هوان. (٣) مانع يمنع عذابه. (٤) كُسيت وغُطِّيت.

ودعوة القرآن إلى الدين الحق كالدعوة إلى مأدبة فاخرة، أخرج ابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رِجْلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمِعَتْ أُذنك، واعقل عَقَل قلبك، إنما مثلك ومَثل أُمتك كمثل ملِك اتَّخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله المَلِك، والدّار الإسلام، والبيت الجنّة، وأنت يا محمد الرّسول، من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنّة، ومن دخل الجنّة أكل منها».

والسبب في دعوة القرآن إلى الإسلام هو مراعاة مصلحة المدعوين، فإن للذين أحسنوا العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: المثوبة الحسنى في الدار الآخرة، ولهم أيضاً زيادة وهي النظر إلى وجه الله عزّ وجلّ. ولا يغشى وجوه أهل الجنّة شيء مما يغشى وجوه الكفرة من الغبرة التي فيها السواد، والهوان والصغار: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ والقَتَر: الغبار المسودّ. أولئك هم مستحقّو الجنّة وأصحابها حقّاً ووجوباً، ويقيمون فيها على الدوام من غير زوال، وهذا على جهة المدح لهم والتشريف.

وفي مقابل هؤلاء صنف آخر وهم الأشقياء الذين اقترفوا السَّيئات وارتكبوا المنكرات من الكفر والشِّرك والظُّلم، فلهم جزاء عادل سيِّئة مثل سيِّئتهم، أي جزاء مناسب لمعاصيهم، وتعمّ السَّيئات هنا الكفر والمعاصي، فسيِّئة الكفر التَّخليد في النار، وسيِّئة المعاصي مرجع الجزاء فيها إلى الله تعالى، وتحيط بالكافرين والعاصين مذلّة وهوان لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه، كأنما أُلبست وجوههم أغشية من سواد الليل المظلم، لفرط سوادها وظلمتها، أولئك المتّصفون بتلك الصفات هم

لا غيرهم أصحاب النّار هم فيها خالدون، أي دائمون فيها، لا يزحزحون عنها.

والحاصل: أن مصير المؤمنين إلى نعيم في الجنان وخلود فيها، ومصير الكافرين إلى عذاب شديد في النِّيران وتخليد فيها، والمرجع في أهل المعاصي إلى مشيئة الله تبارك وتعالى، إن شاء عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم.

مشهد من مشاهد الحشر

جميع مشاهد القيامة عجيبة مذهلة، رهيبة مخوفة مؤلمة؛ لأن المصير مجهول، والحساب عسير، والنهاية أبدية، فإما إلى جنّة عرضها السماوات والأرض، وإما إلى نار شديدة اللهب والإحراق. ومن أبرز تلك المشاهد الفصل النهائي بين المشركين وآلهتهم المزعومة، والحوار الحادّ بين الفريقين، وهذا ما أوضحه القرآن المجيد في قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ[1] وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا[2] كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: ١٠/٢٨-٣٠].

هذا مشهد رهيب من مشاهد الحشر يوم القيامة، حيث يجتمع الناس في صعيد واحد، وتحسم فيه المواقف، وتتبدَّد مزاعم المبطلين. يقول الله لنبيِّه: اذكر أيها الرسول يوم نجمع أهل الأرض كلهم من الجنّ والإنس، والبرّ والفاجر، والمحسن والمسيء، ثم نقول لأهل الشِّرك: الزموا مكانكم، وذلك مقترن بحال الشِّدة والخزي،

---

(١) أي فرقنا بينهم في الحجة والمذهب . (٢) تختبر أو تعلم .

أنتم وشركاؤكم، لا تبرحوا المكان حتى تنظروا ماذا يفعل بكم، ففرقنا بين الشركاء والمشركين، وقطعنا ما كان بينهم من الصِّلات والعلاقات.

يقف المشركون عبدة الأوثان يوم القيامة، في موقف الخزي، مع أصنامهم، ثم يُنطق الله الأصنام بالتَّبري منهم، فيقول الشُّركاء وهم الذين يزعم الوثنيّون أنهم شركاء لله، يقولون لعابديهم: ما كنتم تخصوننا بالعبادة، إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً، فوافقتموهم وأطعتموهم. وفي هذا تهديد ووعيد، وبيان انقطاع الأمل في شفاعة الشركاء.

والشُّركاء: إما الملائكة أو عيسى أو الأصنام التي ينطقها الله تعالى، وكل ما عبد من دون الله تعالى، من صنم أو وثن أو شمس وقمر، أو ملَك وإنسيّ وجنّي. فكفى بالله شاهداً وحَكَماً عدلاً بيننا وبينكم أنّا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك. وهذا تبكيت عظيم للمشركين، وتهديد في حقِّ العابدين.

إننا كنّا في غفلة تامّة عن عبادتكم، لا ندري بها، ولا ننظر إليها، ولا نرضى عنها.

هنالك في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتذوق وتعلم ما قدمت من العمل من خير وشرّ، فتعرف كيف هو، أقبيح أم حسن؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرفه، ليتبين حاله.

وأُرجعوا إلى عقاب الله وشديد بأسه، ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكَم العدل، الحقّ الثابت الدّائم، ففصّلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، دون تلك الشركاء والأنداد الأصنام. وهذا يبين أن الله مولى المشركين في الملك والإحاطة لا في الرحمة والنصر ونحوه.

وذهب عن المشركين افتراؤهم وما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه،

ويتخذون تلك الأنداد آلهة مزعومة، ولم يبق لهم نصير ولا شفيع، والأمر كله يومئذ لله تعالى. وهذا تنبيه على زوال ما يدعون أن تلك الشركاء شفعاء لهم عند الله، وأن عبادتهم تقرِّب إلى الله تعالى.

إن ما يلاقيه المشركون من خيبة الأمل بالأصنام ونحوها من المعبودات تبرهن للعقلاء أن السلطان في الحساب والثواب والعقاب لله وحده. وإذا كان الله وحده هو المحاسب للناس، فهو المعبود بحق، وما على الناس قاطبة إلا أن يوجهوا أنفسهم نحو ما يفيد، ويمنع الضَّرر، وأنه لا شفاعة إطلاقاً للأصنام ونحوها، فهي تعلن البراءة من عابديها ومن عبادتهم الباطلة.

ألا فليستيقظ الضمير والعقل البشري، وليعلم أن من بيده الخلق والرزق، والإحياء والإماتة، والحساب والثواب والعقاب، هو الجدير بالعبادة والتعظيم، والتَّنزيه والتَّقديس، وطلب المدد منه سبحانه وتعالى.

مناقشة المشركين في وحدانيّة الله

ما من إنسان سوي عاقل إلا ويحسّ في أعماق نفسه بوجود الله الخالق، ولا بدّ من أن يمرَّ في خاطره يوماً ما ومضة من تفكير أو شعور مرهف بأنه بأشد الحاجة إلى قدرة الله في تفريج كربه، ونجاته من محنته، وهذا ما كان مستقرّاً في أذهان المشركين الوثنيِّين وعقائدهم، فإنهم كانوا يقرّون بوجود الله تعالى، ولكنهم كانوا يسيئون التَّصوُّر، فلا يوحِّدون الله، وإنما ينسبون إليه الشُّركاء من الأوثان والأصنام وغيرها، وهذا غاية الانحدار والهبوط في الفكر والتَّصور والاعتقاد، لذا ردَّ الله عليهم في هذه الآيات لإثبات توحيد الأُلوهية وتوحيد الرُّبوبية معاً من غير انفصال:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ(١) فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ(٢) ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ(٣) كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٣١-٣٣].

هذه الآيات مناقشة حادّة، وتوبيخ وإلزام في الحجة لأولئك المشركين الذين يقرّون بوجود الله، ولكنهم خطأً لا يعتقدون بوحدانية الله، قل أيها النّبي لمشركي مكّة وأمثالهم: من الذي ينزل المطر من السماء، فينبت به الزرع والشجر ومختلف النباتات والثمار والفاكهة، فيكون ذلك رزقاً لكم أيها البشر، بسبب خيرات السماء وبركات الأرض، ومن الذي أوجد لكم السمع والأبصار، وهذا لفظ يعم جملة الإنسان ومعظمه، حتى إن ما عداهما تبع، ومن الذي يهب الحياة، ويزيلها بالموت، فيخرج الحي من الميت كالجنين من النطفة، والطائر من البيضة، والنبات من الأرض؛ إذ له نمو شبيه بالحياة الحركية. ومن الذي يخرج الميت من الحي مثل البيضة من الطائر، والحبّ والنّوى من الزرع والشّجر، وهناك أمثلة علمية أخرى لإخراج الحيّ من الميت كالغذاء المحروق الذي يتناوله الإنسان، فيتولّد منه الدّم، وإخراج الميت من الحيّ كالخلايا الميتة في الدم والجلد التي يطرحها مع البخار والعرق. ومن الذي يدبّر أمور العالم ويسيطر على شؤون الكون، ويتصرّف في المخلوقات حسبما يشاء، من غير عوائق ولا موانع؟!

هذه الأسئلة الخمسة لا يملك المشركون إلا أن يقولوا: إن الفاعل هو الله، فهو موجود من غير شكٍّ ولا مندوحة لهم عن هذا الإقرار، بسبب إيجاد الرزق، وإحياء الإنسان، وهبة الحياة، وإحداث الموت والفناء، وتدبير الأمور كلها. وإذا اعترف الإنسان بوجود الله، فما باله ينكر وحدانية الله؟ وقل لهم أيها الرسول: أفلا تتّقون

(١) الثابت الوجود بالبرهان. (٢) تعدلون عنه إلى الكفر. (٣) ثبتت ووجبت.

أنفسكم عقاب الله بالإشراك وعبادة غير الله، أفلا تتّقون في افترائكم وجعلكم الأصنام آلهة؟!

فذلكم المتّصف بالقدرة الخلاقة والإرادة المبدعة هو الله الخالق المربِّي والمدبِّر، وهو الحق الثابت بذاته الذي لا شك فيه، وهو الواحد القهار الذي لا يصلح معه مخلوق في الأُلوهية والرُّبوبية، ومن كانت هذه صفاته هو الرَّب الحقّ، أي المستوجب للعبادة والأُلوهية، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق. وليس فيما وراء الحقّ إلا الضّلال والباطل، ومن يتجاوز الحق الذي هو عبادة الله وحده، وقع في الضّلال.

فكيف تصرفون عن الحق إلى الضّلال، وكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال؟ ذلك ما لا يقبله عقل ولا منطق.

وكما كانت صفات الله كما وصف، وعبادته واجبة كما تقرر، وحقت الرُّبوبية لله والأُلوهية لله، أي ثبتت واستقرَّت في الواقع، كذلك حقَّت وثبتت كلمة الله وحكمه على الذين فسقوا، أي تمرّدوا في الكفر، وأصرّوا على الضّلال: أنهم لا يؤمنون، أي حقَّ عليهم واستقرَّ انتفاء الإيمان في قلوبهم، وتحقَّق منهم البعد عن الإيمان الحق. وإذا لم يؤمنوا بالرغم من استقرار هذه الصفات الإلهية التي لا مجال لإنكارها، فإنهم يكونون من أصحاب النار.

والخلاصة: إن المنطق يقضي بالتّسوية بين الإقرار بوجود الله، وبين الاعتراف بوحدانية الله، ولا يعقل التفريق بينهما، ومن آمن بوجود الله، فعليه أن يؤمن بتوحيد الله، وهذا أسلوب في إثبات التوحيد من طريق العقل والفكر المجرد، لأن توحيد الأُلوهية والرُّبوبية متلازمان.

إثبات البعث

إن إثبات التوحيد لله يقتضي إثبات البعث من القبور، لأن من ابتدأ الخلق، قادر على إعادة الخلق، والإعادة أهون من الابتداء، ووجود البعث أمر ضروري لإقامة العدل المطلق بعد اختبار الناس في عالم الدنيا المملوء بالمظالم والانحرافات، فيكون إيجاد عالم الآخرة ضرورياً للتناصف وإحقاق الحق، ودحر الباطل، وإنجاز الوعد الإلهي الحق بتحقيق الآمال، والظفر بدار الخلود.

قال الله تعالى مقيماً الدليل على وجود البعث: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ[1] ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ[2] إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٣٤-٣٦].

هذا وصف آخر لقصور الأصنام وعجزها، وتنبيه على قدرة الله عزّ وجلّ، وبدء الخلق يراد به إنشاء الإنسان في أول مرة، وإعادة الخلق: هي البعث من القبور.

قل أيها الرسول للمشركين: من الذي بدأ خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات؟ هل يستطيع أحد غير الله ذلك، سواء كان صنماً أو ملكاً أو كوكباً أو رسولاً ونحو ذلك؟ ومن الذي يقدر أن يعيد إيجاد الخلق مرة أخرى، فيكون خلقاً جديداً؟

إنه لا مجال أن يكون غير الله هو الذي يبعث من القبور، قل لهم أيها الرسول: الله هو القادر وحده على بدء الخلق وإعادته؛ لأن القادر على البدء قادر على

(١) تصرفون عن طريق الرُّشد. (٢) لا يهتدي بنفسه، أصله يهتدي، فأدغم التاء بالدال، وفتحت الهاء بحركة التاء.

الإعادة، فهو سبحانه وتعالى الذي يفعل ذلك، ويستقل به وحده لا شريك له، لأنه ليس من الممكن للبشر بحال، لا عقلاً ولا عادة أن يعيد إنساناً أو حيواناً إلى الوجود بعد الموت، وليس أدلّ على ذلك من الواقع، فإن الإنسان حريص على بقاء الأحياء، ولكنه عاجز عن إعادة ميت إلى الحياة مرة أخرى. وإذا كان لا بدّ من الاعتقاد بحصر القدرة على البعث بالله وحده، فكيف تصرفون أيها المشركون عن طريق الرشد إلى الباطل، وعن الحق وهو التوحيد إلى الضلال، وهو الإشراك وعبادة الأصنام؟!

قل لهم أيها الرسول أيضاً: هل يستطيع أحد من شركائكم هداية الضّال والحيران، إما بالفطرة والغريزة، وإما بالحواس من سمع وبصر ونحوهما، وإما بالعقل والتفكير، وإما بهداية كتب السماء والرسل، أو هم عاجزون عن ذلك كله؟!

هذه الهداية إلى طريق الصواب، والدعوة إلى العدل هي تماماً كالقدرة على الخلق والتكوين، لا يستطيعها أحد سوى الله وحده.

وبما أن المشركين يدركون تمام الإدراك أن شركاءهم لا يستطيعون شيئاً من الخلق والهداية التشريعية، فلم يجدوا جواباً، فأجابهم الله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ أي إن الله وحده هو الذي يهدي إلى الحق والصواب بما أوجد من الأدلة والبراهين، وبما أرسل من الرسل، وأنزل من الكتب، وبما منح الإنسان من التوصل للإيمان بطريق العقل والحواس التي هي مفاتيح المعرفة.

ومن أحق باتّباع قوله وطاعة أمره؟ أهو الذي يقدر على الهداية إلى الحق والرشاد والإيمان، أم الذي لا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره، وهو الله تعالى؟ إن الأصنام كما وصفها الله لا تستطيع هداية أحد، فكيف يصح عبادتها، وما لكم أيها المشركون كيف تحكمون بالتسوية بين الله وبين خلقه؟ وهذا تعجب شديد من حكمهم الجائر بالمساواة بين عبادة الله مباشرة، وعبادة الشركاء العاجزين عن كل شيء.

وكلمة ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾ يراد بها الأصنام لا تستطيع أن تهتدي بنفسها إلا أن تُهدى من قبل غيرها.

لقد آن الأوان إلى الاعتراف بأن أكثر المشركين لا يتَّبعون في اعتقادهم بشفاعة الأصنام وعبادتها إلا مجرد ظنّ خطأ، ووَهْم فاسد، إن الظنّ الفاسد لا يفيد في إثبات الحق شيئاً، إن الله عليم تامّ العلم بأفعالهم، فيجازيهم عليها، فمن كذب القرآن والرسول، واتَّبع الآباء والأجداد من دون دليل ولا حجة، يعاقب عقاباً شديداً في نار جهنم. وهذا تهديد لهم ووعيد شديد.

إثبات كون القرآن كلام الله

إن أعظم هدية دائمة الأثر من الله لعباده هي هدية القرآن وحي الله وكلامِه المنزل على رسوله محمد ﷺ، فليس هو بالحديث المفترى، وآية ذلك إعجازه نظماً ومعنى، وتحدي العرب بأن يأتوا بمثله في بيانه المحكم وتشريعه المبرم. فأجدر بالبشر قاطبة أن يحتفلوا على الدوام بهذه الهدية الرّبانية، وأن يبادروا لقبول هذا التنزيل ليحققوا لأنفسهم عزّ الدنيا وسعادة الآخرة. وهذا ما وصف الله تعالى به كتابه العزيز لإثبات كونه كلام الله ومعجزة النَّبي:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ(١) كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: ١٠/٣٧-٣٩].

---

(١) بيان عاقبته.

هذا نفي قول من قال من قريش: «إن محمداً يفتري القرآن، وينسبه إلى الله تعالى» وهو تشنيع لقولهم وإعظام للأمر، فإن القرآن الكريم هو المعجزة الباقية الخالدة، الدّالّة على صدق النّبي ﷺ. وهو كلام الله قطعاً، وإعجازُه وتحدّي العرب به دليل على ذلك.

ومعنى الآية: ما من شأن القرآن أن يختلق ويصاغ من غير الله تعالى؛ لأن تميُّزه بأرق درجات البلاغة والفصاحة، وإحكام تشريعه، وإخباره عن المغيبات، وإعجازه العلمي، واشتماله على المعاني الشاملة الخصبة النافعة في الدنيا والآخرة، كل ذلك برهان قاطع على أن القرآن من الله سبحانه، فهو كلامه الذي لا يشبه كلام المخلوقين في جملته وتراكيبه، ولا يقدر أحد أن يجاريه أو يعارضه.

لقد ثبت أن أبا جهل فرعون هذه الأمة قال: إن محمداً لم يكذب على بشر قط، أفيكذب على الله؟!

إنه -أي القرآن- مصدّق ومؤكد ما تقدمه من الكتب الإلهية المنزلة على الرسل، كإبراهيم وموسى وعيسى وداود من الصحف والتوراة والإنجيل والزبور، وموافق لها في أصول الدعوة إلى توحيد الله، والإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر، وتقرير صالح الأعمال، وبيان فضائل الأخلاق، وهو أيضاً مهيمن عليها، ومبيِّن ما لها وما عليها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨].

ومعنى قوله سبحانه: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي وفي القرآن بيان الأحكام والشرائع، والحلال والحرام، والعبر والمواعظ، والآداب والأخلاق بياناً شافياً كافياً. ولا شك في ذات القرآن أبداً، وإن ارتاب مبطل فيه، فلا يلتفت إليه، إنه كلام ربُّ العالمين المنزل بالوحي على نبيِّه الأمين، بدليل سلامته عن الاضطراب والاختلاف.

ثم جاء الكلام بصيغة الاستفهام والإضراب عن الكلام السابق في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ..﴾ أم هنا بمعنى الألف والاستفهام، أيقولون: اختلقه محمد؟! ومحمد بشر مثلكم، فأتوا بسورة مثل سور القرآن في الفصاحة والقوة والإحكام، واستعينوا على ذلك بمن تريدون من الإنس والجنّ، إن كنتم صادقين في ادِّعائكم أن القرآن من عند محمد.

والواقع: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ..﴾ أي بل سارع هؤلاء إلى تكذيب القرآن، من قبل الإحاطة بما فيه، والتدبر لآياته، وفهم مراميه، والتعرف على تأويله وإدراك ما جاء فيه من الإخبار بالمغيبات، وكذلك أصرّوا على تكذيبه بعد معرفته والعلم بإعجازه. ومثل ذلك التكذيب بالقرآن من المشركين، كذبت الأمم السابقة بمعجزات الأنبياء قبل النظر فيها وقبل تقييمها وتدبُّرها، من غير إنصاف من أنفسهم، ولكن تقليداً للآباء وعناداً. فانظر أيها الرسول كيف كانت عاقبة أولئك الظالمين لأنفسهم بتكذيبهم رسلهم، وطلبهم الدنيا، وترك الآخرة، وتلك العاقبة أن الله تعالى أهلكهم ودمَّر ديارهم بسبب تكذيبهم رسلهم وأنبياءهم.

موقف قريش من القرآن والنَّبي

حينما صدع النَّبي محمد ﷺ بدعوة قومه في مكة إلى الإسلام، انقسمت قريش في شأن القرآن والنَّبي فريقين: فريق يصدِّق بالقرآن ذاته وأنه كلام الله ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند ويكابر، وفريق لا يصدق به ويشكّ فيه لفرط الغباء والجهل، فيصرّ على تكذيب النَّبي، لفقده الاستعداد للإيمان به، فلا يكون هناك أمل في إصلاحه وهدايته، مما يقتضي إعطاء الفرصة للفريق الأول للإيمان بالقرآن دون التعجيل بعذاب الاستئصال. وقد حكى القرآن خبر الفريقين في قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ(١) إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٤٠-٤٤].

هذا إخبار عن موقف مشركي مكة من القرآن والنَّبي، فهم فريقان: من هؤلاء القوم من سيؤمن في المستقبل ويتبع النَّبي، وينتفع بما أرسل به. ومنهم من يصرّ على كفره ولا يؤمن أبداً، ويموت على ذلك، وربُّك أعلم بمن يفسد في الأرض بالشرك والظلم، فلا أمل في إصلاحه، وسيعذِّبه الله في الدنيا والآخرة. وهذا تهديد ووعيد.

وإن كذبك هؤلاء المشركون أيها النَّبي، فتبرأ منهم ومن عملهم، وقل لهم: لي عملي: وهو الإيمان بالله وتبليغ رسالته وطاعته، وأنا مسؤول عنه، وسيجازيني الله عليه. ولكم عملكم: وهو الظلم والشرك والفساد، وسيجازيكم الله عليه. أنتم بريئون مما أعمل، وأنا بريء من عملكم، فلا تُؤاخَذون بعملي، ولا أؤاخَذُ بعملكم، وأنتم مسؤولون عنه. وهذه آية مناجزة لهم ومتاركة، وفي ضمنها وعيد وتهديد. والآية في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . .﴾ [الكافرون: ١٠٩/ ١-٦].

وأما موقف المشركين المكِّيين منك أيها النَّبي فهم أصناف، منهم من يستمعون إليك بآذانهم إذا قرأت القرآن وعلَّمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وإنما يسمعون دون تدبُّر ولا فَهم، وحينما لا يؤمنون ولا ينتفعون بسماع القرآن، كأنهم

(١) يعاين أدلّة نبوّتك الواضحة .

لا يسمعون، وأنت أيها الرسول لا تستطيع الإسماع النافع لقوم صموا آذانهم عن سماعك، ولا يعقلون ما يسمعون ولا يفهمون معناه، فينتفعون به، فلا تكترث بهؤلاء، لفساد العقل والدماغ، ولا سبيل لأن يعقلوا حجةً ولا دليلاً أبداً.

ومنهم من ينظر إليك أيها النَّبي عند قراءة القرآن نظرة إعجاب، ولكنهم لا يبصرون نور الإيمان والقرآن، وهداية الدين القويم والخلق السليم، ولا تقدر على هدايتهم؛ لأنهم وإن كانوا مبصرين بأعينهم في الظاهر، فهم غير مبصرين بقلوبهم في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٦].

وهذان الفريقان لا تستطيع يا محمد هدايتهم، لفقدهم الاستعداد للفهم والانتفاع بنور الهداية؛ لأن فائدة السمع والبصر هي الانتفاع، فإذا لم ينتفعوا فكأنهم عطلوا حواسهم، وفقدوا حاستي السمع والبصر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٣٧].

ثم ختمت هذه الآيات بخاتمة تعدُّ مبدءاً عظيماً في الحساب والمسؤولية، وهي إقرار العدل ومنع الظلم والترفع عنه، فإن الله تعالى لا يجور أبداً، بسلب الحواس والعقول التي تدرك بها الأشياء، ويُهتدى بها إلى الحق والصواب، ولكن الناس هم الظالمون لأنفسهم وحدها دون غيرها؛ لأنهم يعرِّضونها لعقاب الكفر والتكذيب والمعاصي، بتعطيل نعمة العقل، والتَّنكر لهداية الدين. وهذا وعيد واضح للمكذبين، ويكون عذابهم يوم القيامة حقّاً وعدلاً، لا ظلم فيه.

تهديد المشركين على تكذيبهم

توالت تهديدات القرآن الكريم للمشركين على تكذيبهم برسالة النَّبي ﷺ وبكل ما جاء فيها من وعد ووعيد، وتنوعت أساليب التهديد، فمرة ينذرهم القرآن بزوال الدنيا السريع، ومرة يبين لهم أن تعذيبهم سيكون في الدنيا وفي الآخرة، وأحياناً يحذِّرهم بالقضاء الحاسم بينهم وبين رسولهم، ويوضح أن إنزال العذاب مقصور على إرادة الله ومشيئته، وهذا ما أوضحته الآيات التالية:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ(١) كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ(٢) وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٤٥-٤٧].

هذه ألوان من تهديدات مشركي مكة وأمثالهم بالعذاب، والتهديد الأول يشتمل على وعيد بالجزاء في الآخرة والحشر وخزيهم فيه وتلاوم بعضهم لبعض، وأن قيام الساعة والحشر قريب، وزوال الدنيا سريع.

والمعنى: اذكر لهم أيها الرسول وأنذرهم يوم يجمعهم الله بالبعث بعد الموت في موقف الحساب والجزاء، فيقدِّرون أنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا مدة يسيرة، وكأنهم ما لبثوا في الحياة الدنيوية إلا مقدار ساعة بالنسبة لعالم الآخرة. إنهم أضاعوا الدنيا والعمر في اللهو والفساد، ولم يعملوا لما ينفعهم في الآخرة. والساعة التي قضوها في الدنيا هي مقدار تعارفهم فيما بينهم، ثم تنقطع المعرفة بينهم والأسباب.

لذا أعلن الله تعالى خسارة المكذِّبين بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي

(١) الحشر: الجمع من كل جانب إلى موقف واحد. (٢) بالعدل يوم الجزاء.

إن هؤلاء الكفرة المكذِّبين بالبعث في الآخرة، قد خسروا ثواب الجنة خسارة كبرى، حين بدَّلوا الإيمان بالكفر، ولم يكونوا مهتدين لأوجه الربح والنفع بعمل الصالحات، فما أخسرهم. وهذا تعجُّب شديد من أفعالهم.

والتهديد الثاني أن بعض عذاب المشركين المكذِّبين برسالة النَّبي ﷺ سيكون في الدنيا وبعضه سيكون في الآخرة، فقل لهم أيها الرسول لمن يستعجل العذاب استهزاء واستبعاداً: إما أن ننتقم منهم حال حياتك لتقرَّ عينك كما حدث في معركة بدر وحنين وغيرهما، وإما أن نعذبهم بعد رجوعهم إلينا في الآخرة وبعد وفاتك، فنطلعك على أفعالهم، ونجازيهم عن علم وشهادة حق، فإن الله شاهد على ما يفعلون، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝٤٠﴾ [الرَّعد: ١٣/ ٤٠]. ويدلُّ هذا على أن الله تعالى يري رسوله ألواناً من ذلّ الكافرين وخزيهم في الدنيا، وسيزيد عليه بعد وفاة النَّبي، وفي عالم الآخرة.

فتكون الآية وعيداً بالرجوع إلى الله تعالى، فإن أريناك أيها النَّبي عقوبتهم، أو لم نُرِكَها، فهم على كل حال راجعون إلى الحساب والعذاب في الآخرة، والله شهيد من أول تكليفهم على جميع أعمالهم.

والتهديد الثالث إخبار من الله تعالى بالقضاء الفصل في مصير المشركين يوم القيامة، فإن لكل أمة رسولاً، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم، صُيِّر قوم للجنّة وقوم للنّار، فذلك القضاء بينهم بالقسط أي بالعدل، وهم لا يظلمون في قضائه شيئاً، ولا عذاب بغير ذنب مرتكب، ولا مؤاخذة بغير حجة، من آمن بالرسول فاز ونجا، ومن لم يؤمن هلك وعُذِّب، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٥].

هذه التهديدات الثلاثة كفيلة بردع أهل الغواية والشّر والضّلالة والكفر، فإن العاقل يدرك المخاطر، ويتجنّب المآخذ والسّيئات، ويرسم لنفسه طريق النّجاة. ويتفاقم الخطر حين يعلم الإنسان أن العذاب لمن كفر بالله شديد مضاعف في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فذلّ وهزيمة وخزي وقلق، وأما في الآخرة فنيران ملتهبة تحرق الأجساد، ويتجدد العذاب على الدوام من غير انقطاع، لأن الكافرين مخلدون في النار.

استعجال المشركين العذاب الدنيوي

ليس هناك أقبح جرماً ولا أشنع موقفاً من التّحدي والعناد والتّكبر، وهذا الأسلوب من المعارضة كان منهج المشركين في مقاومة دعوة النّبي ﷺ، فاستعجلوا نزول العذاب الذي هددهم به، استهزاء وإصراراً على الشرك والوثنية، فأمهلهم القرآن وناقش مطالبهم وأنذرهم بقرب العذاب والعقاب. قال الله تعالى واصفاً موقف مشركي مكّة:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ(١) إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا(٢) أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ(٣) وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٤٨-٥١].

لقد طالب مشركو قريش تحديد وقت العذاب الذي هددهم به النّبي ﷺ، فقالوا: متى يقع هذا الوعيد، إن كنتم صادقين في تهديدكم وقولكم؟ أي إن هذا الذي توعدنا به حدِّد لنا فيه وقته، لنعلم الصدق في ذلك من الكذب.

---

(١) أخبروني. (٢) ليلاً. (٣) هل الآن تؤمنون بوقوع العذاب؟

فأجابهم الله تعالى ردّاً للحجة: قل لهم يا محمد، إني بشر، لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً من دون الله، ولا أنا إلا في قبضة سلطانه وفي مظلة الحاجة إلى لطفه وتوجيهه، إلا ما شاء الله أن يقدرني و يخبرني، فإذا كنت هكذا، فأحرى ألا أعرف غيبه، ولا أتعاطى شيئاً من أمره، ولكن لكل أمة أجل، انفرد الله تبارك وتعالى بعلم حدِّه ووقته، فإذا جاء ذلك الأجل في موتٍ أو هلاكِ أمة، لم يتأخّروا ساعة، ولا أمكنهم التقديم عن حدِّ الله عزّ وجلّ. إن تعيين وقت الوعيد وإنزال العذاب مرجعه إلى الله تعالى وحده. وأما الرسول فمهمته مقصوره على تبليغ ما جاء من عند الله سبحانه. وهذا يبين الحدّ الفاصل بين سلطان الله ونطاق معرفة البشر وخبرتهم.

ثم أجابهم الله تعالى بجواب آخر: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي قل لهم أيها الرّسول: أخبروني عن حالكم وما يمكنكم أن تفعلوه، إن أتاكم عذابه ليلاً وقت مبيتكم، أو نهاراً وقت شغلكم، فماذا تستعجلون منه، وأنتم لا قبل لكم به؟ أي عذاب وقع فهو شديد، وكل ما تطلبون تعجيله هو جهل وحماقة.

أتنتظرون مجيء هذا العذاب لتؤمنوا بالله ربّكم؟ فإذا وقع بالفعل آمنتم به، في وقت لا ينفع الإيمان، ويقال لكم حينئذ توبيخاً: آلآن آمنتم بالله والرّسول اضطراراً وقسراً، مع أنكم كنتم قبل ذلك تستعجلون العذاب على سبيل السخرية والاستهزاء والتكذيب والاستكبار؟! والمراد أنه إذا وقع العذاب وآمنتم بالله، فذلك غير نافعكم.

ثم يجيء الوعيد الأعظم بالخلود لأهل الظلم الأخصّ وهو ظلم الكفر، لا ظلم المعصية. فيقال لأولئك الكفار المعاندين الظالمين أنفسهم، المكذبين الرسول ووعيده: تذوقوا وتجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبداً، لا تجزون إلا ما كنتم تكسبون وتعملون

باختياركم من الكفر والمعاصي. وقوله سبحانه: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ توبيخ وبيان لقانون الجزاء: وهو أن الجزاء في الآخرة، إنما يكون على تكسب العبد، وإقدامه على الفعل بحرية واختيار وجرأة على مخالفة أوامر الله. وذكر هذه العلة: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بعد ذكر العذاب: دليل على أن جانب الرَّحمة الإلهية راجح غالباً، وجانب العذاب مرجوح مغلوب. لكن الرحمة الإلهية منوطة بإرادة الله، أما قانون العدل فهو أن الجزاء من جنس العمل، ويوجب العمل، لأن الجزاء واجب بحكم الوعد المحض، ولله سبحانه المشيئة المطلقة، يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد.

تحقُّق المشركين من وقوع العذاب الأُخروي

استبطأ المشركون لجهلهم وحماقتهم وقوع العذاب في الدنيا، فأخرسهم القرآن، وأبان لهم أن توقيت العذاب بأمر الله وحكمته، ثم تشكّكوا في وقوع عذاب الآخرة، فبدؤوا يتساءلون عن مدى صحته ومصداقية الوعيد به؛ لأنهم قوم ينكرون البعث والآخرة جملة، ويعتقدون بأن الموت في الدنيا نهاية دائمة، لا عودة بعدها إلى الحياة مرة أخرى. وهذا ما صوره القرآن الكريم تصويراً دقيقاً وبياناً صريحاً بقوله تعالى:

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ(١) أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي(٢) إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ(٣) ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ(٤) لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس: ١٠/٥٣-٥٦].

(١) يستخبرونك. (٢) نعم وربي. (٣) بفائتين من العذاب بالهرب. (٤) أخفوا الغم والحسرة.

إن آثار الشِّرك خطيرة، ومزالقه كثيرة، ومن أخطرها إنكار عالم الآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب، وحساب وجنّة ونار، لذا بادر المشركون إلى التشكيك فيما أخبر به القرآن من وجود الآخرة قطعاً. فطلبوا الأخبار، ولَجّوا في الجواب، كما تصور الآية التي مفادها: ويستخبرونك أيها الرسول عن وقوع عذاب الخلد في الآخرة، أحقٌّ أنه سيقع على جرائم الدنيا، أم أنه مجرد تخويف وترهيب؟ فقل لهم أيها الرسول: نعم إنه والله واقع، إنه لحقٌّ ثابت ماله من دافع، والوعيد صدق قائم، وما أنتم بمعجزين، أي بفائتين العذاب، أو متخلِّصين منه، وليس صيرورتكم تراباً بمعجزٍ الله عن إعادتكم كما بدأكم، فإن قدرة الله شاملة وافية بتحقيق أي شيء ممكن.

لكن إذا جاءت القيامة فلا أمل بالفرار منها، وإذا قامت القيامة يودُّ الكافر الظالم أن يفتدي نفسه من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي أخفى الكفار الندامة وهي: ما يعانونه في أنفسهم من الألم والحسرة على أفعالهم الشنيعة وأعمالهم الضّارة، لّما عاينوا العذاب الشديد، فصاروا مبهوتين متحيرين، علماً بأنه لا ظلم في الحساب يوم القيامة، فإن الله تعالى يحكم بين الظالمين والمظلومين بالعدل؛ لأن الكفار وإن اشتركوا في العذاب، فإنه لا بد من أن يقضي الله تعالى بينهم بالحق، رفعاً لما ظلم به بعضهم بعضاً في الدنيا، فيكون في القضاء تخفيفُ عذاب بعضهم، وتثقيل عذاب الباقين. وهذا إخبار للكفار في سياق إخبارهم بأن وعد الله بالبعث ووعيده حق.

وأتبع الله ذلك الإخبار أو الإعلام بأن الملك كله لله، وأنه المعاقب، فإن الله مالك السماوات والأرض، وكل الأشياء في ملكه وفي سلطانه، وأكّد سبحانه أن وعده حقّ كائن لا محالة، ولكن أكثر الكفار منكري البعث والجزاء لا يعلمون أمر الآخرة والمعاد، لغفلتهم عنها، وعدم إيمانهم بالإله القادر الحكيم، وتلك حقيقة

أبانها الله بوضوح، ليعلموا علم اليقين بأن الملك المطلق لله، وأن كل ما سواه مملوك له.

ومن أدلّ الأدلة على قدرة الله تعالى على البعث والجزاء والثواب والعقاب: أنه تعالى هو المحيي والمميت، وإليه مرجع الخلائق حين يحييهم بعد موتهم، فيحشرهم للحساب والجزاء على أعمالهم، يحيي من النطفة، ويميت بالأجل، ثم يجعل المرجع إليه بالحشر يوم القيامة. قال ابن عطية: وفي قوة هذه الآيات ما يستدعي الإيمان وإجابة دعوة الله عزّ وجلّ.

وتتجلى القوة والرّهبة في عالم الحساب في أمور ثلاثة:

الأمر الأول -ذلك الصراع العنيف في داخل نفوس الكفار وإظهار الندامة على ما فاتهم من الفوز والخلاص من العذاب، ولهذا يقولون: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠٦].

الأمر الثاني -معاينة العذاب الذي لا يوجد أشد منه، ولا يتصور الإنسان في الدنيا مدى إيلامه وقسوته، وتنوعه ورهبته.

الأمر الثالث -اليأس من النجاة والشفاعة، لأن الملك المطلق والسلطان النافذ لله تعالى، فهو وحده القادر على ما يريد، العليم بما يستحقه كل إنسان من العقاب العادل. قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٩].

مقاصد القرآن وشرائعه

أراد القرآن المجيد بالناس خيراً، فزوَّدهم بما فيه النفع والسعادة، وشفى نفوسهم من أمراض القلوب، وهداهم إلى الحق، وأبعدهم عن كل أنواع الضلال والانحراف، وشرع لهم الشرائع بفضل من الله ورحمة منه، فكان جديراً بالناس جميعاً الإيمان به والتزام أحكامه والبعد عن أسباب الشقاوة والعذاب، وعدم التورُّط بالتحليل والتحريم بمجرد الهوى والشهوة، من غير ميزان العقل والحكمة كشأن أهل الجاهلية، قال الله تعالى مبيِّناً مقاصد القرآن وأسباب تشريعاته:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم[(١)] مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ[(٢)] ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٥٧-٦٠].

جمعت هذه الآيات بين خطاب جميع العالم، وبين توبيخ عرب الجاهلية على التحليل والتحريم بسبب الأهواء والمزاعم. أما الخطاب العام لجميع البشر فمضمونه: يا أيها الناس، قد جاءكم كتاب جامع لكل المواعظ التي يراد بها إصلاح الأخلاق والأعمال، والزَّجر عن الفواحش، وشفاء الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، والهداية إلى الحق واليقين والطريق القويم المؤدي إلى سعادة الدنيا والآخرة. وسمي القرآن الكريم موعظة لأن الوعظ إنما هو بقولٍ يأمر بالمعروف، ويزجُر، ويرقِّق النفوس، ويوعد ويعد، وهذه صفة الكتاب العزيز. وهي موعظة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لم يختلقها محمد ﷺ ولا غيره، بل هي من عند الله عزّ وجلّ.

---

(١) أخبروني . (٢) تكذِّبون .

وهذا الخطاب العام اشتمل على بيان مقاصد أربعة للقرآن الكريم وهي:

١- كونه موعظة حسنة من عند الله تعالى، يجمع بين الترغيب والترهيب، وبين الحثّ على فعل الحسن وترك القبيح.

٢- وكونه شفاء لما في القلوب من الشبهات والشكوك، والنفاق والكفر، وسوء الاعتقاد وشراسة الخلُق، والتَّخلص من الجهل والعتو عن النظر في آيات الله تعالى.

٣- كونه هادياً إلى الحق الأبلج واليقين الساطع والصراط المستقيم المحقق لسعادة الدنيا والآخرة.

٤- إن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين خاصة، ينجيهم من ظلمات الضلال، إلى نور الإيمان، ويبعدهم عن النِّيران، ويرقى بهم إلى درجات الجنان.

قل أيها الرسول للمؤمنين: ليفرحوا بفضل الله ورحمته بما جاءهم من الهدى ودين الحقّ، فإنه أولى ما يفرحون به. والفضل كما قال ابن عطية: هو هداية الله تعالى إلى دينه، والتوفيق إلى اتِّباع شريعته، والرَّحمة: هي عفوه وسكنى جنَّته التي جعلها جزاء على الإيمان والإسلام. والفرح بهذا الفضل وبهذه الرحمة هو أجدى وأنفع من كل ما يجمعه الناس من الأموال وسائر خيرات الدنيا؛ لأنه يؤدي لسعادة الدارين.

ثم أوضح الله تعالى بخطابه الخاص بعرب الجاهلية: أن التشريع بالتحليل والتحريم هو حقّ الله تعالى، وليس للناس الحق في التشريع، فما قام به العرب من تحريم البحائر والسَّوائب والوصايل من المواشي وغير ذلك مجرد اختلاق وكذب منهم، ولم يأذن الله به. وهذا توبيخ شديد على إعطاء الجاهليين أنفسهم حقّ التَّحليل والتَّحريم، فمن أحلَّ برأيه أو حرَّم بمجرد هواه، فإنه مفترٍ على الله، ومتجاوز حدوده، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١٦/١١٦].

وأي شيء ذلك الظَّن الصادر من المفترين على الله الكذب فيما يصنع بهم من الجزاء يوم القيامة؟! أيظنّون أنهم يتركون بغير عقاب على جريمة الافتراء والكذب على الله؟ إن ظنَّهم في غاية الرَّداءة بحسب سوء أفعالهم. وهذا وعيد عظيم مقتضاه التَّهكم وتأكيد العقاب.

إن الله تعالى صاحب الفضل العميم على الناس، حيث أنعم عليهم بنعمة العقل، ورحمهم بالوحي، وأبان لهم الحلال والحرام، وشرائع الدين، ورزقهم من الطَّيبات، ولكن أكثر الناس لا يشكرون هذه النعمة ولا ذلك الفضل، فاستحقّوا العذاب، والعتاب، وإهمالهم في الآخرة.

شمول العلم الإلهي وجزاء الأولياء

يذكِّرنا الله تعالى في مناسبات مختلفة أن علمه شامل كل شيء في السماوات والأرض، ليحملنا على الطاعة والشكر، والعبادة والاستقامة، والبعد عن المعصية، لأن العلم الإلهي بالأشياء، يسرُّ به الطائعون، ويحذره المذنبون. وأهل الطاعة وأولياء الله مشمولون بالرِّعاية الإلهية وبالأفضال الرَّبانيّة، وليس هناك أعظم من الفوز بالنَّجاة من العقاب في عالم الآخرة، وصف الله تعالى إحاطة علمه وتبشيره أولياءه بهذه الآيات:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ(١) وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ(٢) وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ(٣) مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ(٤) فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ

(١) في أمر معتنى به. (٢) أي تأخذون وتنهضون بجِدّ. (٣) أي لا يبعد عنه ولا يغيب عن علمه. (٤) أي وزن نملة أو أصغر.

أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٦١-٦٤].

القصد من الآية تبيان إحاطة علم الله بكل شيء، والإخبار بأنه يعلم جميع أحوال الناس، ومعنى اللفظ: وما تكون يا محمد وغيرك في شأن من جميع الشؤون، وأمر من الأمور الخاصة والعامة، وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن ينزل عليك، لنشر دعوة الله في الأرض، إلا ونحن شهود عليكم، حين تفيضون فيه، أي تقومون فيه بِجِدّ ونشاط. ولا يغيب عن علم الله شيء حتى يخفى عليه، ولو كان مثقال ذرة، أي وزن نملة، أو هباء، ولا أصغَر من ذلك ولا أكبر كالعرش، إلا في كتاب مبين، أي إلا ومعلوم له، ومدون في اللوح المحفوظ، الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها. وقوله سبحانه: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ جعله الله مثالاً، إذ لا يعرف في الحيوان المتغذّي المتناسل المشهور النوع والموضع أصغر منه.

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٩].

وبعد أن أعلم الله عباده بإحاطة علمه بجميع الأشياء والأعمال، ليبعثهم على الشكر والعبادة، ذكر حال الشاكرين المتّقين الذين حسن جزاؤهم في الآخرة، وهم أولياء الله، أي أحبّاؤه وأصفياؤه، وهم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة، فكل من آمن بالله واتّقى ربّه، فهو داخل في أولياء الله. وهؤلاء الأولياء المقرَّبون إلى الله لا خوف عليهم في الدنيا من مكروه يتوقع، ولا حزن عليهم في الآخرة من مخاوف القيامة، فهم لا يخافون عذاباً ولا عقاباً ولا يحزنون لذلك، روى البزار

وغيره عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، من أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكِر الله».

ولهم البشارة في الحياة الدنيا بالنصر والتَّمكن في الأرض، ما داموا على شرع الله ودينه، يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: ٢٤/ ٥٥].

ولهم البشارة أيضاً في الحياة الأخروية بحسن الثواب والنعيم المقيم في الجنة، كما قال الله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التَّوبة: ٩/ ٢١].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تغيير لأقواله، ولا خلف لمواعيده، ولا ردَّ في أمره، كقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٥٠/ ٢٩] ومن كلماته تعالى: تبشير المؤمنين بالجنّة، وذلك المذكور وهو البشارة للمؤمنين المتقين أولياء الله في الدّارين بالسعادة: هو الفوز العظيم الذي لا فوز غيره؛ بالنعيم المبشر به؛ لأنه ثمرة الإيمان والعمل الصالح.

إن هاتين البشارتين للأولياء العاملين بأوامر الله، المجتنبين نواهيه لهما أعظم البشائر وأجلُّها وأكرمها، فما أكرمَ المبشَّر وأحبَّه عند ربِّه، وما أسعد المبشَّرين، نسأل الله العظيم أن يجعلنا في زمرتهم.

العزّة لله جميعاً

لقد أيَّد الله نبيَّه تأييداً مطلقاً، وسرّى عنه في أوقات الشدة والمحن، وأخبره بالسلامة، وبشَّره بالغلبة على المشركين المغترين بالقوة والمال، وأعلمه بأن العزّة لله جميعاً، فهم لا يقدرون لك أيها النّبي على شيء، ولا يؤذونك إلا بما شاء الله، وهو

القادر على عقابهم وإيقاع العذاب الشديد بهم. وفي هذا تقوية لعزيمة الرَّسول ﷺ، لكي يظلَّ قائماً بدعوته، ماضياً في تبليغ رسالته، غير آبهٍ بما يلقى من المصاعب، ولا خائف من أحد. وهذه المعاني تتمثل في الآيات التالية:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ(١) لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٢) ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٦٥-٦٧].

لم يترك المشركون في مكة وسيلة لإيذاء النَّبي ﷺ إلا ارتكبوها، فحينما بدَّد القرآن شبهاتهم الفكرية وردَّ عليها، لجؤوا إلى طريق آخر، وهو التَّهديد والتَّخويف بأنهم أصحاب السلطة والمال، والقوة والنفوذ، فلا مجال للضعفاء والفقراء بينهم، ولا سبيل لمحاولة بسط النفوذ عليهم من خلال أي شيء في دنيا العرب، لا بدعوة إلى الدين الجديد، ولا بغير ذلك من وسائل الهيمنة كما يتصورون.

فجاءت آيات الوحي القرآني تواسي محمداً ﷺ، وتشدّ عزيمته، ومعناها: لا يهمّك ولا يحزنك أيها الرسول قول المشركين أبداً: لست مرسلاً، وغير ذلك من المعارضة والإصرار على الشِّرك والتَّكذيب لرسالتك، والتهديد بأنهم أصحاب القوة والمال، واستعن بالله عليهم، وتوكَّل عليه، فإن العزّة، أي الغلبة والقوة والقهر لله تعالى جميعاً، جميعها له، فهو مصدرها ومانحها لمن يشاء من عباده، كما جاء في آية أخرى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٨].

والله سبحانه هو السميع لجميع ما يقولون، والعليم بما في نفوسهم من ذلك، وفي ضمن هذه الصفات تهديد.

---

(١) إن القهر والغلبة لله تعالى. (٢) أي يحسدون و يخمنون ويكذبون فيما ينسبونه إلى الله تعالى.

ودليل تفرد الله بالعزة أنه مالك السماوات والأرض وما بينهما ومن فيهما، لا ملك لأحد فيهما سواه، فكان هو صاحبَ السلطان المطلق والتَّصرف الشامل، ولا يتّبع الذين أشركوا الشُّركاء لله فيما زعموا إلا بمحض الظَّن الفاسد، أي الوهم الخطأ، من غير أي دليل، ولا حقيقة واقعية، فليس لله شريك أبداً، ولا تصلح الأصنام وغيرها آلهة؛ لأنها مملوكة لله، ولا قدرة لها على شيء من أمور العباد، سواء النفع أو الضُّر، بل لا تستطيع دفع الضُّر عن نفسها، ولا جلب الخير أو النفع لذاتها.

ما يتّبع هؤلاء المشركون فيما زعموا إلا الأوهام والتَّخرصات أي التَّخمينات وألوان الكذب فيما ينسبون إلى الله. وإذا لم تكن معبودات الوثنيين آلهة، فلا تصلح وسطاء أو شفعاء لعابديها عند الله؛ لأن جميع من في السماوات والأرض مملوك لله تعالى، والمملوك لا شأن له أمام المالك، قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٩٣-٩٤].

ودليل آخر على تفرُّد الله بالعزّة التّامة، وانعدام أي دور للشُّركاء أنه تعالى خالق الليل والنّهار، وجاعل الليل للاستراحة والسَّكن والاطمئنان فيه بعد عناء النهار والاشتغال فيه، وجاعل النّهار مضيئاً للمعاش والعمل والسَّفر وقضاء الحوائج والمصالح، إن في ذلك (وهو كون الليل مظلماً يُسكن فيه، والنّهار مبصراً يتصرّف فيه) لدلالاتٍ وعلامات على قدرة الله وعزّته وكونه الإله المعبود بحق، لقوم يسمعون هذه الأدلة، ويَعُون ما فيها ويتدبَّرون ما يسمعون، ويستدلّون على عظمة خالقها ومقدِّرها ومسيِّرها.

والحاصل: آن للعقل البشري في القرن العشرين بعد نضجه واكتماله أن يدرك إدراكاً صحيحاً أن الله وحده هو الإله المعبود، وكل من سواه من المخلوقات ليس لها

إطلاقاً مقوّمات الألوهيّة والرُّبوبية، وبرهان ذلك أنها مخلوقة وعاجزة عن خلق غيرها ورفدها بالرِّزق وإمدادها بمقومات الحياة. أما توارث المعتقدات فيحتاج لإعادة نظر وتأمُّل صحيح وفهم لطبيعة ذات الإله، ولا يعذر الإنسان في خطئه الاعتقادي.

إبطال نسبة الولد لله تعالى

إن من أعظم المفتريات وأبطل الباطلات نسبة الولد لله تعالى، سواء كان ذلك من المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله، أو من الزاعمين أن بعض البشر المقرَّبين أو الرُّسل الكرام أبناء الله تعالى. فليس لله حاجة على الإطلاق لاتِّخاذ الولد والصاحبة والشَّريك؛ لأنه المتعالي عن صفات البشر، ولأن الله غني، والمخلوقون عاجزون، والعاجز يحتاج لمساعدة غيره، ومن استغنى عن غيره، كان غضاضة ومنقصة أن تنسبَ إليه شيئاً من صفات النَّقص. لكل هذا قال الله تعالى:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ(١) بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٦٨-٧٠].

إن القرآن العظيم أثبت عظمة الله تعالى بأدلة مختلفة، منها خلق السماوات والأرض ومن فيهما، ومنها أفعاله المبينة لعظمته كخلق الليل والنهار وإيجاد تعاقب بينهما. وما دامت العظمة المطلقة ثابتة لله سبحانه فلا بدّ من الإنكار على المشركين

(١) أي حجة وبرهان .

وغيرهم الذين ادَّعوا أن لله تعالى ولداً. وموضوع الآيات هو هذا الإنكار الشديد على نسبة الولد لله سبحانه. ومعناها: زعم بعض المشركين أن الملائكة بنات الله، وزعم غيرهم أن رسولاً نبيّاً أو وليّاً مقرَّباً صالحاً هو ابن الله. تنزه الله وتقدَّس عن الولد والشريك، لأنه هو الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه، ولا حاجة له للولد.

وكيف يكون لله ولد مما خلق؟ وكل شيء مملوك له وعبد له، وهو خالق السماوات والأرض ومن فيهما، ولا شبيه له ولا نظير، ولا يحتاج لأحد من خلقه، ولا يشاركه في ملكه وسلطانه وتصرُّفه وتدبيره أحد، فكيف يتخذ ولداً مخلوقاً موهوباً له، محتاجاً إليه في كل شيء مادِّي كالرزق والمعيشة، أو معنوي كالإعانة والنُّصرة؟! والولد جزء مما هو غني عنه، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ٣٥/١٥].

وليس عندكم أيها المشركون أي سلطان أو دليل على ادِّعائكم وجود ولد لله، وما تقولونه محض الكذب والافتراء والبهتان، أتقولون على الله قولاً لا حقيقة له، وتنسبون إليه تعالى ما لا يصح عقلاً وواقعاً نسبة الولد إليه؟! وقوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهام يراد به التوبيخ والتقريع، والتَّهديد الشَّديد.

ثم توعَّد الله تعالى الكاذبين عليه المفترين الزّاعمين أن لله ولداً بأنهم قوم خاسرون، لا يفوزون بخير في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فيستدرجهم ربُّهم ويمتِّعهم قليلاً، وأما في الآخرة فيضطرُّهم إلى عذاب غليظ شديد، فهم لا يظفرون ببغية، ولا يبقون في نعمة.

وهذا ما قررته الآية هنا ﴿مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي لهم تمتع في الدنيا قليل ولمدة قصيرة، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي ثم بعد الموت يرجعون إلى ربِّهم بالبعث يوم

القيامة، وما فيه من أهوال المحشر والحساب والعقاب. ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي ثم يلقون الشقاء المؤبّد، ويعذّبون في نار جهنّم العذاب المؤلم الموجع الشديد الألم، بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيما نسبوه إليه زوراً وبهتاناً. وهذا توعُّد بحقّ.

وفي الآية دليل واضح على تعرُّض الكافرين للخسارة المحققة، فإن ما يتوهَّمون أنه نجاح في الدنيا بالحصول على المنافع المادِّية والمعنوية، والثروة والجاه، لا قيمة ولا وزن له أصلاً في مقابلة ما فاتهم في الآخرة من ثواب عظيم ونعيم مقيم في جنان الخلد، فإن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة. وهذا يشعرنا بأن وجود الثروة أو المال والجاه عند بعض الجاحدين الكافرين لا يدلُّ على حسن الحال، أو ارتقاب النَّجاة والسَّعادة في عالم الآخرة.

قصة نوح عليه السَّلام مع قومه

ليس هناك أناس صبروا على إيذاء أقوامهم، وجاهدوا في سبيل نشر دعوتهم، مثل الرُّسل والأنبياء عليهم السّلام، ومن أسبقهم نوح عليه السّلام أبو البشر الثاني، وأولُ الرُّسل أولي العزم، دعا قومه إلى توحيد الإله من غير أجر ولا مقابل، فكذَّبوه وآذوه، فأنجاه الله ومن آمن معه، وأغرق المكذِّبين بالطُّوفان. وهذا ما قصد القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى[١] وَتَذْكِيرِى[٢] بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ[٣] وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً[٤]

(١) المَقام: وقوف الرجل لكلام أو لخطبة أو نحوه. والمُقام: إقامته ساكناً في موضع أو بلد. (٢) التَّذكير: الوعظ والزَّجر. (٣) اعزموا وصمموا. (٤) مبهماً، والغمّة: أي الخفي المشكل.

ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ(١) وَلَا تُنظِرُونِ(٢) ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ(٣)
وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٧١-٧٣].

ذكر الله تعالى في قرآنه مجموعة من قصص الأنبياء، مواساة للنّبي ﷺ ليتأسى بهم، ويأنس بسيرتهم، فتهون عليه الشدائد والمكائد، ويتّعظ مشركو مكة بعاقبة المكذِّبين رسلهم قبلهم.

وتتعدد أساليب بيان القصة بحسب المناسبات وما يقتضيه المقام، وهذه الآيات وصف سريع لقصة نوح عليه السّلام مع قومه، معناها: أخبر أيها الرسول كفار مكة الذين يكذِّبونك بخبر قوم نوح الذي كذَّبوه، كيفَ أهلكهم الله بالغرق، فيعاملون بمثل ما عومل به من تقدُّمهم.

اذكر لهم حين قال نوح لقومه: يا قوم إن كان قد شقَّ أو عظم عليكم قيامي بوعظكم من كلام ونحوه، وتذكيري إياكم بالوعظ والزجر بالأدلة والبراهين الدَّالة على وحدانية الله وعبادته، فإني توكلت على الله وفوّضت أمري إليه ووثقت به، فلا أبالي بعدئذ بما أوذيت، ولا أكفّ عن دعوتي ورسالتي، فاعزموا على ما تريدون من أمر تفعلونه بي، أنتم وشركاؤكم الذين تعبدونهم من دون الله من الأصنام والأوثان. ولا تجعلوا أمركم الذي تعتزمونه خفيّاً مشكلاً بل أظهروه لي، وتبصروا فيه، ثم نفِّذوا ذلك الأمر بالفعل، ولا تؤخِّروني ساعة واحدة عن تنفيذ هذا الحكم المقضي، فإني لا أبالي بكم ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء، والله عاصمني وحاميني ومسلّمني من أذاكم.

---

(١) اقضوا: أدّوا إلي . (٢) لاتمهلوني. (٣) يخلفون الذين أغرقوا.

وهذا غاية الثقة بالله والاعتماد عليه، والاستهانة والاستخفاف بمن دونه، فعلى المؤمن أن يعتصم بالله ويثق بوعده، ويعتمد على ربِّه، فإن العاقبة في النهاية له.

فإن أعرضتم عن تذكيري، وكذبتم، ولم تؤمنوا برسالتي، ولم تطيعوني فيما أدعوكم إليه من توحيد الله وعبادته، فإني لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً من أجر أو جزاء، إن ثواب عملي وجزائي على الله ربِّي الذي أرسلني إليكم، وأمرني أن أكون من المسلمين، أي المنقادين الطائعين الممتثلين لما أُمرت به من الإسلام والخضوع لله عزّ وجلّ. والإسلام بالمعنى العام وهو الانقياد لله وطاعته والالتزام بالدين الحنيف وهو توحيد الله وإطاعته والإعداد للقائه، هو مضمون رسالات الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم.

ثم أخبر الله عن مصير قوم نوح المكذبين، وفي ضمن ذلك الإخبار توعُّد للكفار بمحمد ﷺ، وضرب المثال لهم، فحالكم من التكذيب تشبه حال الأقدمين بالنقمة والتعذيب. لقد أصرّوا على تكذيب نوح عليه السّلام، فنجّاه الله هو والمؤمنين به، بحملهم في السفينة التي صنعها بأمر الله، وجعل الله النّاجين مع نوح خلائف أولئك الهالكين في عمارة الأرض وسكناها من بعدهم، وأغرق الله بالطُّوفان الذين كذَّبوا نوحاً، فانظر أيها الرّسول محمد كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذِّبين المنذَرين الذين أنذرهم رسولهم بالعذاب قبل وقوعه، فلم يرتدعوا، وأصرّوا على تكذيبه. وهذه هي العاقبة الوخيمة لكل المصرِّين على تكذيب الأنبياء، وهذه هي العاقبة الحميدة للمؤمنين المصدِّقين بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وشرعةً ومنهاجاً.

قصة موسى عليه السّلام مع قومه

- ١ -

الحوار بين موسى وفرعون

استمرَّ تكذيب الأنبياء بين الأمم من بعد نوح عليه السّلام، فمنع الله عنهم الخير والإيمان، ومن أمثلة ذلك قصة موسى مع فرعون وقومه، وفيها يشتدُّ الحوار بين رسول الحق موسى، وبين زعيم الباطل فرعون، فموسى عليه السّلام يعلو صوته بالدعوة إلى توحيد الله وإبطال ألوهية من دونه، وفرعون يدافع عن عرشه وسلطانه وادِّعاء أُلوهيته، لتظلَّ له الهيمنة، ويكون الهدف من إيراد القصة في هذه الآيات ضرب المثل لحاضري محمد ﷺ، ومضمونه: كما حلَّ بهؤلاء يحلُّ بكم معشر قريش. وهذه آيات تصوِّر صولة الحق مع موسى وهزيمة الباطل مع فرعون، قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ[١] رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ[٢] فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ[٣] عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا[٤] عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٧٤-٧٨].

هذا موكب النور الإلهي، بعث الله من بعد نوح عليه السّلام رسلاً إلى أقوامهم، مثل هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السّلام بالمعجزات الدّالة على صدقهم، والبراهين الواضحة على صدق نبوّتهم ورسالتهم، فلم تؤمن تلك الأقوام

---

(١) أي بعد نوح عليه السلام . (٢) البيِّنات: المعجزات والبراهين الواضحة . (٣) نختم . (٤) لتصرفنا .

بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم بالوحي والرسالة الإلهية، كما كذَّب المتقدمون من قبلهم، ممن كانوا على شاكلتهم في الكفر ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي هذا فعلنا بهؤلاء الذين تجاوزوا طورهم، واجترحوا مالا يجوز لهم، كما فعلنا بأمثالهم، ختمنا على قلوب المعاندين، فلم يعد الخير نافذاً إليها، ولا ينتظر إيمانهم حتى يروا العذاب الأليم. وهذا إنذار شديد لمشركي العرب بأنهم يستحقون عذاباً مثل عذاب الأمم السابقة إذا استمروا في تكذيبهم الرُّسل ومعارضة دعوة النَّبي ﷺ.

ثم بعث الله تعالى من بعد أولئك الرُّسل موسى وأخاه هارون عليهما السّلام إلى فرعون ملك مصر وأشرافِ قومه وأتباعِهم، بعثهما الله بالآيات البيِّنات الدّالة على صدقهما كالعصا واليد، فاستكبر فرعون وأتباعه عن قبول الحق والانقياد له، وعن الإيمان بموسى وهارون، وكانوا قوماً مجرمين، أي معتادي الإجرام كفاراً ذوي آثام عظام، والغين في الجريمة، ممعنين في الكفر والضلال.

فلما جاءهم موسى عليه السّلام بدليل الحق على الرُّبوبية والألوهية لله تعالى، قالوا عناداً وعتوّاً: إن هذا لسحر واضح، أي إن عصا موسى التي تنقلب حية، ويده التي تضيء كالشمس هما في زعم فرعون وملئه سحر بيِّن.

فأجابهم موسى منكراً عليهم وموبِّخاً لهم: أتقولون للحق الواضح البعيد عن السحر الباطل: إنه سحر، والحال أنكم تعرفون أن السحر تخييل وتمويه، ولو كان هذا سحراً لانكشف واضمحلّ وزال، ولم يبطل سحر السحرة، فهو إذن معجزة إلهية، لا سحر وشعوذة ولا تمويه.

فقال قوم فرعون لموسى قول صاحب الحجة الضعيفة بالتمسك بالتقليد للآباء والأجداد: أجئتنا يا موسى لتصرفنا وتردّنا عن دين آبائنا وأجدادنا؟ ولتكون لكما، أي لك ولهارون أخيك الكبرياء في الأرض، أي الرياسة الدينية والسلطة الدنيوية

وهي الملك والسلطان، وما نحن لكما بمصدِّقين فيما تدَّعيانه من دين جديد، يبطل دين الأسلاف والآباء.

وهذا إعلان صريح من فرعون وقومه بأنهم مكذبون برسالة موسى وأخيه هارون، إلا أنهم خاطبوا موسى أولاً بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ ؛ لأنه كان هو الدّاعي لهم للإيمان بما جاء به، والإقرار بتوحيد الإله، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان. ثم أشركوا معه أخاه في قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأنه كان رسولاً شريكاً في الدعوة، وفي الإفادة من ثمراتها، وهي في زعمهم تحقيق النفوذ والسلطة والعظمة.

وهذه ذريعة للتكذيب برسالة موسى وأخيه هارون، وإغراء للمستفيدين من حكم فرعون بمقاومة هذه الرسالة، ومطاردة موسى وأخيه، حفاظاً على كرسي الحكم الملكي والسلطة في أراضي مصر.

- ٢ -

الاحتكام للسحرة في عهد فرعون

زعم فرعون أو ظنّ أن ما جاء به موسى من معجزة العصا واليد مجرد سحر ظاهر، فدعا إلى الاحتكام للسَّحرة ليبطل دعوة موسى عليه السّلام، ولينقذ موقفه أمام الناس، وليحافظ على هيلمانه وسلطانه، ولكن الله غالب، والمعجزة الإلهية هي التي ستبطل إفك السحرة، ويظهر الحق، وتعلو كلمة الله والإيمان به، حتى ولو كره المجرمون ذلك. وهذا ما صوَّرته الآيات القرآنية التالية:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٧٩-٨٢].

أراد فرعون بكل إصرار وعناد التمويه على الناس وصدِّهم عن اتِّباع موسى، ومعارضة ما جاء به عليه السّلام من دعوة الحق المبين إلى توحيد الله، فاعتمد على زخارف السَّحرة والمشعوذين، فانعكس الأمر عليه، وظهرت البراهين الإلهية على الملأ العام، وآمن السحرة بالله تعالى، وخسر فرعون.

ومعنى الآيات: قال فرعون لخدمته وحاشيته لما رأى معجزة العصا واليد البيضاء: ائتوني بكل ساحر حاذق عالم، ظنّاً منه ألا فرق بين المعجزة الإلهية والسحر، فأتوا به، فلما جاء السحرة وتجمعوا، قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون من أفانين السحر، ليظهر الحق، ويبطل الباطل.

فلما ألقوا حبالهم وعصيهم، وخيَّلوا بها، وظنّوا أنهم قد ظهروا وانتصروا، قال لهم موسى واثقاً غير مبال بهم: ما أتيتم به هو السِّحر بعينه، لا ما سماه فرعون سحراً مما جئتُ به من المعجزة من عند الله. وهذا السحر الذي أظهرتموه إن الله سيبطله ويمحقه ويظهر زيفه قطعاً أمام الناس، بما يفوقه من المعجزة التي هي آية خارقة للعادة، تفوق السحر وأشكاله المختلفة. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ عدة بالإبطال من الله تبارك وتعالى.

وعلة ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي لا يثبته ولا يقويه، ولا يجعله صالحاً للبقاء؛ لأنه محض افتراء، والسِّحر تخييل وتمويه، يتبدد ويفنى أمام المعجزة الرَّبانية المجراة على يد موسى عليه السّلام.

وتابع موسى عليه السَّلام قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي ويريد الله أن يؤيِّد الحق ويظهره، ويثبِّته ويقويه، وينصره على الباطل بأوامره ووعده موسى، وذلك ولو كره المجرمون، أي الظالمون كفرعون وملئه. والمجرم: المجترم الراكب للخطر. وتحقق بالفعل انتصار الحق على الباطل، كما جاء في

آية أخرى: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف: ٧/ ١١٨] ، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٦٩].

هذا اختيار صعب قاس لكل من المعجزة والسحر، فالمعجزة آية إلهية خارقة للعادة، يؤيد الله تعالى بها صدق الأنبياء، لإقناع الناس وتصديق دعوتهم. وأما السحر فهو إفساد وتمويه وتزييف، لا حقيقة له ثابتة، لذا لم يصمد أمام الشيء الحقيقي الثابت، الذي لا تمويه فيه.

وهذا المعنى هو ما تضمنته آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي لا يضرّ أحداً كيدُ ساحر، لذا قال العلماء: لا تُكْتَب هذه الآية على مسحور إلا دفع الله عنه السِّحر.

وكان في برمجة أو خطة موسى عليه السّلام بأن يبدأ السَّحرة أولاً بالإلقاء براعة وثقة بما لديه من المعجزة، وعدم الاكتراث بالسَّحرة، فإن كل ما فعلوه من لفت أنظار الناس وإخافتهم، حينما ألقوا حبالهم وعصيهم، مُحق وأبطل بإلقاء العصا التي انقلبت ثعباناً عظيماً، التهم جميع الحبال والعصي، وصدق موسى فيما أعلنه قبل المبارزة: ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾.

وحينئذ، حين التهمت العصا جميع الحبال والعصي، أدرك السَّحرة خسارتهم، وعرفوا أن فعل موسى ليس من قبيل السِّحر، فهم أعرف الناس بأساليبه وفنونه، فلم يعاندوا، وشرح الله صدورهم للإيمان، فآمنوا دون خشية من فرعون وبأسه وتهديده، وأُسقط في يد فرعون وملئه، وخابوا وخسروا، وانتصر الحق وزهق الباطل.

- ٣ -

إيمان طائفة بموسى عليه السّلام

بالرغم من الجهود المباركة المضنية من موسى عليه السّلام في دعوة الناس في مصر إلى الإيمان برسالته وبوحدانية الله، لم يؤمن به إلا طائفة قليلة من قومه بني إسرائيل، وهم فتيان وشباب أكثرهم أولو آباءٍ كانوا تحت خوف من فرعون وأعوانه. وفي ذلك تسرية عن هموم نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام بسبب اغتمامه من إعراض قومه عنه وإصرارهم على الكفر، فله أسوة بسائر الأنبياء. وهذا ما أبانته الآيات القرآنية التالية:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ(١) وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً(٢) وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٨٣-٨٧].

هذه هي حصيلة دعوة موسى عليه السّلام في أول أمره، فلم يصدق بدعوته بادئ الأمر إلا قليل من قومه بني إسرائيل، مع ما جاء به من البيّنات الواضحة الدّالة على صدقه، وهم طائفة من الشباب الخاضعين للحكم الفرعوني، على خوف من فرعون وجنوده أن يردوهم إلى الكفر؛ لأن فرعون كان جبّاراً عنيداً، شديد البطش بخصومه، مستعلياً في أرض مصر، متجاوزاً الحدَّ بادِّعاء الرُّبوبية واسترقاق أسباط الأنبياء.

---

(١) الفتنة: الاختبار والابتلاء بالشدائد، والمراد هنا: موضع عذاب .(٢) اتّخذوا بيوتكم مساجد ومصلى .

وتابع موسى رعاية المؤمنين، فقال لهم حينما لمس خوفهم من الاضطهاد: إن كنتم آمنتم، أي صدقتم بالله وآياته حقّاً، فعليه توكّلوا وفوّضوا أموركم إليه، وثقوا بنصره وحمايته لكم إن كنتم مسلمين، أي خاضعين لله وطاعته، منقادين لأحكامه وأوامره، لأن التوكُّل على الله لا يختلط بغيره. فالمراد من قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ أهل طاعة مع إيمان، فيكون ذكر الإسلام فيه زيادة معنى. فقالوا فوراً: على الله توكّلنا واعتمدنا، وبه وثقنا واستعنّا على أعدائنا، ربّنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، أي لا تنزل بنا بلاءً بأيدينا أو بغير ذلك، مدة مجاورتنا لأتباع فرعون، فيعتقدون أن إهلاكنا إنما هو لسوء ديننا، وصلاح دينهم، وأنهم أهل الحق. فهذا الدعاء يتضمن دفع أمرين: أحدهما -القتل والبلاء الذي توقعه المؤمنون. والآخر -ظهور الشّرك باعتقاد أهله أنهم أهل الحق، وفي ذلك فساد الأرض.

وتابعت طائفة الإيمان دعاءها بقولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي خلّصنا برحمتك وإحسانك وعفوك من تسلُّط الكافرين بك، الظّالمين الطُّغاة، الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد أعلناه وآمنّا بك وتوكّلنا عليك.

ثم أوضح الحقّ تعالى سبب إنجاء بني إسرائيل من فرعون وقومه، فقال: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا..﴾ أي أمرنا موسى وأخاه هارون عليهما السّلام أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، تكون مساكن للاعتصام فيها، وأمر القوم أن يتخذوا البيوت مساجد متّجهة نحو القبلة في بيت المقدس، وأن يقيموا جميعاً الصلاة في تلك البيوت، أي أتموها وافية بشروطها، لئلا يطّلع عليهم الكفرة، فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم. وبشر يا موسى المؤمنين برسالتك بالصون والنصر على أعدائهم في الدنيا، وبالجنة في الآخرة.

ولا شك بأن الإيمان الطوعي الاختياري هو الإيمان الحق، وهو المطلوب والذي

يفيد صاحبه في الدّارين. وخطاب بني إسرائيل بالصلاة بعد الإيمان كان قبل نزول التوراة، لأنها لم تنزل إلا بعد إجازة البحر وإهلاك فرعون وجنوده في اليم.

ومن ثمار الإيمان الحق: التّفاني في مرضاة الله وتقديم الدين على الدنيا، لذا قدمت الطائفة المؤمنة بموسى عليه السّلام الحماية من الفتنة الإيمانية وعدم المحنة في الدين، على نجاة أنفسهم من ظلم القوم الظالمين، فقالوا أولاً: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ثم قالوا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

- ٤ -

دعاء موسى على فرعون وملئه

حينما ييأس الرّسول النّبي من إجابة دعوته عند قومه، قد يدعو عليهم بإذن من ربّه، وهذا ما فعله موسى عليه السّلام الذي دعا قومه في مصر لتوحيد الإله، زمناً طويلاً، فدعا الله عليهم بالهلاك والإبادة حتى تتهيأ الأرض لجيل آخر يستجيب لدعوة الإيمان. وكان دعاء موسى عليه السّلام متميزاً ببيان سبب الدعاء، وهذا ما وصفه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ (١) وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ (٢) فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ١٠/٨٨-٨٩].

غضب موسى عليه السّلام من أقباط مصر، فدعا عليهم، وقدم للدعاء تقرير نعم

---

(١) أتلفها وأزلها. (٢) اطبع عليها.

الله عليهم وكفرهم بها، قائلاً: ربَّنا آتيت فرعون وأشراف قومه من الدنيا والنعمة ما أبطرهم، وهو الزينة الشاملة من حلي ولباس وأثاث ورياش وأموال كثيرة ومتاع الدنيا ونحوها من الزروع والأنعام، وأدى التَّرف والنعيم بهم أن تكون عاقبة أمرهم إضلال عبادك عن الدين، والطغيان في الأرض، والإسراف في الأمور كلها.

واللام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ تسمى لام العاقبة والصيرورة، أي إن النعمة آلت بهم وصارت إلى الضَّلال والانحراف، مثل اللام في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ(١) ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ والمعنى: آتيتهم تلك النِّعم، فصار أمرهم إلى كذا، وكان عاقبة قوم فرعون من النِّعم هو الضّلال والكفر وتأليه فرعون.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي ربَّنا امحق وأزل آثار أموالهم وأهلكها، واختم على قلوبهم واجعلها قاسية، حتى لا تنشرح للإيمان، فيستحقّوا شديد العقاب، ولا يؤمنوا حتى يشاهدوا العذاب المؤلم الشديد الإيلام. وجعل موسى في دعائه رؤية العذاب نهاية وغاية، وذلك لعلمه من قبل الله تعالى أن المؤمن عند رؤية العذاب لا ينفعه إيمانه في ذلك الوقت ولا يخرجه من كفره، وكان دعاء موسى مشتملاً على عقابين: مادي ومعنوي. أما المادي فهو تدمير أموالهم وإهلاكها. وأما المعنوي: فهو الطبع والختم على قلوب قوم فرعون بالكفر ومنع نفاذ الخير إليها.

ثم أجاب الله هذه الدعوة في فرعون نفسه وقومه معه، بالغرق، وروي عن ابن جريج ومحمد بن علي والضَّحاك: أن الدعوة لم تظهر إجابتها إلا بعد أربعين سنة، وحينئذ كان أمر الغرق. وروي أيضاً أن هارون كان يؤمِّن على دعاء موسى عليه السّلام؛ فلذلك نسب الدعاء إليهما.

لقد أجيبت دعوتكما يا موسى وهارون، وقبلنا دعاءكما كما سألتما من تدمير آل

(١) أي الطفل موسى في التّابوت .

فرعون، فاستقيما، أي فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة لدين الحق، وإلزام الحجة، ولا تستعجلا الأمر قبل ميقاته، فإن ما طلبتما كائن، ولكن في وقته، ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون، أي طريق الجهلة في الاستعجال، أو عدم الثقة والاطمئنان بوعد الله تعالى، فإن وعدي لا خلف فيه.

ولا يدلُّ هذا النَّهي عن الجهل أن مقتضاه صدر من موسى وهارون عليهما السّلام، كما في خطاب نبيّنا ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمر: ٣٩/ ٦٥] لا يدلُّ على صدور الشِّرك منه.

ومن المقرر أن إجابة الدعاء يصادف مقدوراً، ودعاء موسى وهارون على هذا النحو، وهذا معنى إجابة الدعاء.

وإجابة الدعاء لها وقت مخصوص في علم الله وتقديره، وليس ذلك بحسب مراد العبد الداعي، وإنما بحسب مراد الله تعالى. فتعجل الإجابة جهل لا يليق مع الأدب مع الله تعالى. وهو أيضاً شك في الثقة بوعد الله تعالى بإجابة الداعي إذا دعاه. لهذا أمر الله موسى وهارون عليهما السّلام بالاستقامة وترك سلوك طريق من لا يعلم حقيقة الوعد والوعيد.

لقد طويت صفحة الطاغية فرعون وقومه من التاريخ بتدبير من الله وعدل؛ لأن ادّعاء الأُلوهية وممارسة ألوان البغي والجور، غير مقبول بحال في منهج الحكم الإلهي.

- ٥ -

إغراق فرعون وإنجاء الإسرائيليين

اشتطّ فرعون وقومه في الظلم، وبالغوا في إيذاء بني إسرائيل واستعبادهم وتسخيرهم في الأعمال الشاقة، ولكن البغي والجور لا يدوم في شرع الله وقدره.

وحينما آن وقت العذاب بحسب حكمة الله، صمم فرعون وجنوده على استئصال بني إسرائيل فتابعوهم حينما خرجوا من مصر، وصمموا على إبادتهم، وإنهاء دعوة موسى عليه السّلام، حتى لا يكون هناك مضايق أو معارض. وتحققت المعجزة الكبرى بتدبير الله، قال الله تعالى واصفاً مصير فرعون وأتباعه وعاقبة بني إسرائيل:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا[١] حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ[٢] وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً[٣] وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا[٤] بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ[٥] وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٠-٩٣].

هذه نهاية الطاغية فرعون وقومه، روي أن فرعون كان في ثمان مئة ألف أدهم[٦]، حاشا ما بقي من ألوان الخيل، وروي أقل من هذه الأعداد. كما روي أن بني إسرائيل الذين جاوزوا البحر كانوا ست مئة ألف.

والمعنى: تجاوزونا ببني إسرائيل البحر بقدرتنا وحفظنا، فلحقهم فرعون وجنوده ظلماً وعَدْواً، أي باغين وعادين عليهم، فلما أشرف فرعون على الغرق قال: آمنت بأنه لا إله بحق إلا الله الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين، أي المنقادين المذعنين لأمره.

كرر فرعون هذه العبارة ثلاث مرات، فلم يقبل منه الإيمان، لأنه إيمان عند الإكراه والاضطرار، وليس فيه اختيار. لذا ردَّ الله تعالى عليه عن طريق جبريل أو

---

(١) ظلماً واعتداء . (٢) أفي هذه اللحظة تؤمن حين أيقنت الهلاك ؟ (٣) عبرة . (٤) أنزلنا وأسكنا .
(٥) منزلاً صالحاً مرضياً . (٦) أي أسود .

بإلهام من الله بقوله: أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق، وأيست من نفسك، وقد عصيت الله من قبل هذا الوقت، وكنت من الضّالّين المضلّين عن الإيمان، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً..﴾ أي فاليوم ننقذ جسدك من الغرق والارتماء في قاع البحر، لتكون لبني إسرائيل دليلاً أو علامة على موتك وهلاكك؛ لأنه كان في أنفس المصريين الأقباط: أن فرعون أعظم شأناً من أن يغرق، ولتكون عبرة لمن بعدك من الناس يعتبرون بك، فينزجرون عن الكفر والفساد في الأرض وادِّعاء الرُّبوبية. وفي هذا دليل على كمال قدرة الله تعالى وعلمه وإرادته.

وليس الأمر مقصوراً على فرعون وجنوده في إهمال النظر في الكون وآياته، للدلالة على وجود الله وتوحيده، وإنما أكثر الناس غافلون عن حجج الله وأدلّته على أن العبادة لله وحده، فلا يتّعظون بها ولا يعتبرون، لعدم تفكُّرهم في أسبابها ونتائجها. وفي هذا دلالة على ذمِّ الغفلة وترك أو إهمال الفكر والنظر في أسباب الحوادث وعواقبها.

وقد كان هلاكهم يوم عاشوراء من شهر المحرم، كما صحَّ في حديث البخاري عن ابن عباس.

وفي مقابل إغراق فرعون وأتباعه، أنعم الله على بني إسرائيل نعماً أخرى، فأنزلهم منزلاً صالحاً للعيش فيه، ورزقهم من الطيبات، أي اللذائذ المستطابة المباحة فيها، وأنعم الله عليهم فيها بكثير من الخيرات، من الثمار والغلال والأنعام وصيد البر والبحر. ولكنهم جحدوا هذه النعم، فلم يستحقوا التكريم، ووقعوا في المنازعات والخلافات في التوراة وفي شأن رسالة محمد ﷺ، بعدما علموا أحكام التوراة وأوصاف نبي آخر الزمان فيما هو مسطر في كتابهم، فكفر به بعضهم، وآمن آخرون. إن ربَّك يفصل ويحكم بينهم يوم القيامة في شأن ما اختلفوا فيه، فيميز المحق

من المبطل، بإنجاء أهل الحق من النار، وإدخالهم الجنة، وإهلاك المبطلين وتعذيبهم في نار جهنم.

الدَّعوة إلى تصديق القرآن

إن مهام الداعية لتصديق القرآن دقيقة وشاقة، وتتطلب صبراً وحكمة، وعزيمة وإرادة، وهي بالتالي يسيرة غير عسيرة؛ لأن تصديق القرآن فرع من الإيمان بالله تعالى، فمن آمن بوجود الله وتوحيده، سهل عليه الإيمان بالقرآن الذي أنزله ربُّ العزّة بواسطة الوحي على قلب النَّبي ﷺ ، ومن هنا كان مطلع أول السورة الثانية في سورة البقرة من القرآن الكريم: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢/ ١-٢]. وكانت مهمة النَّبي ﷺ في بدء دعوته المشركين للتصديق بالقرآن الكريم صعبة للغاية، لأنها في وسط وثني، لا يعرف غالباً غير عقيدة الوثنية، وتأليه الأصنام والأوثان. قال الله تعالى مبيِّناً صدق النَّبي ﷺ في دعوته للإيمان بالقرآن مبتدئاً به عليه السَّلام على سبيل المبالغة: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ(١) ۝٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ١٠/ ٩٤-٩٧].

جمهور العلماء والصواب في معنى الآية: أنها مخاطبة للنَّبي ﷺ ، والمراد بها سواه من كل من يمكن أن يشك أو يعارض. ومطلعها: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ..﴾ له مثال في قوله تعالى لعيسى عليه السّلام: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي..﴾.

---

(١) الشاكِّين.

ومعنى الآيات: إن وقع منك شك أيها النَّبي في صدق النُّبوة والقرآن وإنزاله إليك. والمراد بذلك قومُه، على سبيل الافتراض والمبالغة، فاسأل علماء أهل الكتاب الذين يقرؤون الكتاب، أي التوراة من قبلك، فهم على علم تامّ بصحة ما أنزل إليك، فلا تكونن من الشّاكين. فالخطاب للسامع ويراد به غيره، وهو تعبير مألوف بين العرب، على طريقة المثل العربي: «إياك أعني واسمعي يا جارة».

فالنَّبي ﷺ لا يوصف بالشَّك، قال ابن عباس: لا والله ما شَكَّ طرفة عين، ولا سأل أحداً منهم، وقال: «لا أشك ولا أسأل، بل أشهد أنه الحق» كما ذكره قتادة وسعيد بن جبير والحسن البصري.

وتتمة الآية: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي والله لقد جاءك الحق واضحاً، لا مرية فيه ولا ريب، بما أخبرناك في القرآن، وبأنك رسول الله، وأن اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك، لما يجدون في كتبهم من نعتك وأوصافك، فلا تكونن من الشّاكين في صدق ما نقول، وفي بيان الوعد والوعيد. وفي هذا تثبيت للأمة، وإعلام لكل فرد أن صفة نبيّهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما جاء في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٧]. والنَّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ تعريض بالشّاكّين والمكذّبين للنَّبي ﷺ من قومه.

قال البيضاوي في تفسيره: وفي الآية تنبيه على أن كل من خالجته شبهة في الدِّين ينبغي أن يسارع إلى حلِّها بالرجوع إلى أهل العلم.

ثم أورد القرآن في مجال تأكيد تصديقه ما هو أشد مما سبق، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي ولا تكونن

أيها النَّبي وكل سامع ممن كذب بآيات الله الدّالة على وحدانيته وقدرته على إرسال الرُّسل لهداية البشر، فتكون ممن خسروا الدنيا والآخرة.

وهذا أيضاً من باب التَّهييج والتَّثبيت وقطع الأطماع عنه عليه السّلام في مساومته على حلول وسط، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٢٨/٨٦]. وفي الآية هنا تعريض بالكفار الخاسرين الضّالّين.

وأنهى القرآن المشكلة في عناد الكفار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي إن الَّذينَ ثبتت عليهم كلمة الله، أي قضاؤه وحكمه بالعذاب، لا يؤمنون أبداً، لفقدهم الاستعداد للإيمان، وتصميمهم على الكفر، وليس المراد منعهم من الإيمان، وإنما بيان لحقيقة اختيارهم بحسب علم الله عزّ وجلّ المحيط بكل شيء. وهؤلاء الذين علم الله أنهم لا يؤمنون سيبقون على كفرهم وجحودهم، ولو جاءتهم كل آية كونية حسِّية أو علمية أو قرآنية، كآيات موسى التِّسع، وتفجير الأنهار والصعود في السماء، وآيات إعجاز القرآن، لو جاءهم أي شيء من ذلك وغيره لا يؤمنون حتى يروا العذاب المؤلم الموجع الذي يطبق عليهم، وحينئذ لا ينفعهم الإيمان، لأنه إيمان اليأس كإيمان فرعون.

متى يصحُّ الإيمان؟

الإيمان جوهر وكنز يملأ النفس والقلب، ويلازم العقل والفكر، ويظل رأس مال المؤمن في جميع أدوار الحياة حتى يفارق الدنيا، ولا ينجي الإنسان سواه بعد الموت والرحيل إلى عالم الآخرة. لذلك كان قائماً على الإرادة والاختيار، ولا فائدة منه، ولا بقاء له إذا فرض بالإكراه أو نشأ حال الاضطرار أو اليأس من الحياة. والإيمان

الجماعي مثل الإيمان الفردي لا بدَّ فيه من الطواعية والرِّضا والاختيار، وقد وصف الله تعالى حالة الإيمان المقبول في الآيات التالية:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ(١) عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس: ١٠/٩٨-١٠٠].

تتضمن هذه الآيات أموراً أربعة: ارتباط الإيمان بالاختيار والرِّضا، والإشارة لقصة يونس مع قومه، ومنع الإكراه على الدِّين، وكون الإيمان حاصلاً بمشيئة الله وإرادته وإذنه.

أما ارتباط الإيمان بالاختيار والرِّضا فقد حثَّ القرآن عليه في مطلع هذه الآيات، ومضمون ذلك: فهلا آمن أهل قرية من قرى الرُّسل المرسلين إليهم، بإرادتهم، وبعد دعوتهم للإيمان وإقامة الحجة عليهم، وقبل نزول العذاب واستحالة الإيمان، فنفعهم إيمانهم.

والأمر الثاني- قصة يونس عليه السّلام، فإن قومه في أرض نينَوى بمقاطعة الموصل شمال العراق، كانوا قد كفروا، ثم لما رأوا أمارات العذاب، تضرَّعوا إلى الله تعالى، وأخلصوا التوبة، وأظهروا الإيمان، فرحمهم الله وتقبَّل منهم إيمانهم على سبيل الاستثناء، وكشف عنهم العذاب، ومتَّعهم إلى أجل، تعليماً وتوجيهاً ليونس عليه السّلام. والفرق بين إيمانهم وإيمان فرعون: أنهم آمنوا قبل وقوع العذاب بهم بالفعل، وإن كان بعد ظهور أماراته. وأما إيمان فرعون فكان عند اقتراب الموت ومعاينة الغرق وحين اليأس من النجاة. وفي هذا تعريض بأهل مكة، وحضّ شديد لهم على

(١) العذاب .

أن يكونوا على الأقل، مثل قوم يونس، آمنوا قبل أن يصلوا إلى درجة اليأس، مع احتمال حدوث العذاب كما وقع في قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وجنوده. وهذا كله بقضاء الله ومشيئته فيهم.

والأمر الثالث في الآيات: منع الإكراه على الإيمان. فلو شاء ربُّك يا محمد أن يأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان برسالتك، والاستجابة لدعوتك، لفعل، ولو شاء الله تعالى لكان الجميع مؤمنين، كما جاء في آية أخرى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرَّعد: ١٣/٣١]. وكلمة ﴿كُلُّهُمْ﴾ تفيد الإحاطة والشمول. وكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ تفيد حدوث الإيمان في وقت واحد، دون تباطؤ ولا تعاقب.

وإذا كان هذا بمقدور الله تعالى، أفأنت يا محمد تكره الناس بالقتال وتلزمهم أو تلجئهم إلى الإيمان، حتى يكونوا مؤمنين موحِّدين. فالإيمان لا يتم ولا يطلب إلا بالاختيار والطواعية، ولا يحدث بالإكراه والقسر والإرهاب الملجئ، وما أكثر الآيات المانعة من الإكراه على الدين والإيمان، في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦].

والأمر الرابع والأخير في الآيات ردّ الأمر في الإيمان لإرادة الله ومشيئته. فليس لنفس أن تؤمن إلا بمراد الله وتوفيقه، أو بقضائه وقدره، والنفس مختارة في الدخول في الإيمان اختياراً غير مطلق، حتى لا يتنافى ذلك مع سلطان الله في كونه، فلا يتم شيء قهراً عنه، ويكون الإيمان مقيداً بسنّة الله في الخلق. ويجعل الله الرّجس أي العذاب على الذين لا يتدبرون حجج الله وبيِّناته وبراهينه، ويسيئون في تفكيرهم، ولا يستعملون عقولهم في النظر بما يرشدهم إلى الحق من آيات الله في الكون والحياة، ويتأمَّلون في آيات القرآن. فإذا عطّلوا منافذ المعرفة والحواس الهادية إلى

الصواب، واتَّبعوا الهوى، وانقادوا لمؤثرات البيئة وتقليد الآباء والأجداد، كانوا هم المسيئين لأنفسهم، المؤثرين الكفر على الإيمان، والضّلالة على الهدى والرّشاد، وكانوا بهذا الاختيار وإهمال العقل غير معذورين في كفرهم.

النَّظر والتَّفكُّر

الطريق إلى تصحيح العقيدة بالله وجوداً وتوحيداً أمر مبسط يسير، وهو لا يعدو أن يكون تأمُّلاً حرّاً من غير تأثر ببيئة ووراثة وتقاليد، وتقديراً من النهج القرآني للعقل الإنساني والإرادة البشرية وجّه الإسلام نحو إعمال العقل والفكر في مكنونات الكون وأسراره، وأوجب الدين النظر والتفكر وجعله فريضة إسلامية شاملة، من أجل التوصل إلى الحق، والتخلُّص من العقائد الفاسدة والموروثات الضّالّة. وهذا هو صريح الآيات القرآنية:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠/ ١٠١-١٠٣].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أمر صريح للناس، والأمر للوجوب، بإيجاب الاعتبار والنظر في المصنوعات الدّالة على الصانع، وغير ذلك من آيات السماوات وأفلاكها وكواكبها وسحابها، وعجائب المخلوقات فيها وفي الأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك. والمعنى: انظروا في ذلك نظراً صحيحاً ينبِّهكم إلى المعرفة بالله والإيمان بوحدانيته.

إن النظر في الأكوان وما فيها من أسرار يرشد الإنسان الضّال أو الكافر إلى وجود

الخالق وتوحيده، ويدعو إلى التصديق بالرُّسل، والإيمان بالقرآن والوحي المخبر عن هذه الآيات العظام.

ولكن ما تغني أو تفيد هذه الآيات أو الدلائل الكونية والقرآنية، والأنبياء المنذرون، أو الإنذارات الإلهية، قوماً لا يتوقع إيمانهم بالله والرُّسل، وقضى الله أنهم لا يؤمنون بحسب علمه المحيط بإرادة الإنسان واختياره، وكل شيء لا يقع إلا بمشيئة الله، لأن ما في الوجود في ملك الله، ولا يحدث أمر في ملكوت الله إلا بإرادته، حتى لا يكون هناك قهر أو تجاوز لإرادة المالك.

وإذا أهمل الكفار والمشركون المكذبون المعاندون النظر في آيات الله وأسراره، حتى ولو كانوا بسطاء أو أُمّيين، فهل ينتظرون أو يتوقعون إلا نزول العذاب المماثل لوقائع الأمم الماضية المكذبة لرسلهم، وهي وقائع العذاب في قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي وقائع الماضين، والأيام هنا بمعنى الوقائع، كما في آية أخرى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٥]، وكل ما مضى لك من خير أو شرّ فهو أيام.

قل أيها الرسول للمشركين منذراً ومهدداً: انتظروا عذاب الله وعقابه، إني من المنتظرين هلاككم، أو فانتظروا هلاكي، إني معكم من المنتظرين الهلاك، أو موعد ربِّي به. والآية وعيد محض لمن كفر، فإذا أصرّوا على الكفر، حلَّ بهم العذاب، وإذا آمنوا نجوا، هذه سنّة الله في الأمم الخالية، فهل عند مشركي مكة وأمثالهم غير ذلك؟.

وإذا وقع العذاب بقوم في الدنيا، فإن من سنّة الله المقررة إنجاءَ الرُّسل ومتَّبعيهم المؤمنين، كما في آية أخرى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مريم: ١٩/ ٧٢] ، ومثل هذا الإنجاء للرُّسل السابقين ومن آمن معهم، ننجي المؤمنين معك أيها الرَّسول، ونهلك المكذبين بالرُّسل. وهذا حق أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة، كما جاء في آية أخرى:

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٤]. وكما ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب كتاباً، فهو عنده فوق العرش، إنَّ رحمتي سبقت غضبي».

الخلاصة: دلَّت الآيات على وجوب النظر في الكون، والبحث عما فيه للعظة والاعتبار، وتحقيق الخشية من الله تعالى والإيمان به، والحثّ على العلم والبحث والتأمُّل، فمن دون العلم لا تتقدم البشرية، ومن غير العلم والنظر لا توجد عقيدة الإيمان بالله تعالى، وبغير العلم لا تنتظم شؤون الدنيا، ولا يقتنع الناس بعدالة الله في الحساب، وإذا لم يوجد العلم حلَّ الجهل والفوضى. كل ذلك لتقرير أن الإسلام دين علم وعمل، وأن الرسول ﷺ هو المعلِّم الأول، والموجِّه الأول للبشرية نحو السعادة.

أصول الدين والعبادة والدعاء

يوجِّه القرآن الكريم الناس جميعاً إلى ما ينفعهم ويسعدهم، ويبعدهم عن كل ما يضرّهم ويشقيهم، وليس الدين إلا مجرد مدرسة تربوية عالية، تأمر بأصول الحياة الصحيحة، وبمكارم الأخلاق العالية، وتنهى وتمنع عن انحراف الفكر والسلوك. ومن أخصّ مقتضيات النظام الأصلح أن تكون العبادة والدُّعاء لله عزّ وجلّ وحده، دون إشراك أحد معه سواه. وهذا ما قررته الآيات التالية:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ(١) حَنِيفًا(٢) وَلَا

(١) اصرف ذاتك كلها للدين الحق. (٢) مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق.

تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠/ ١٠٤-١٠٧].

هذه الآيات الكريمة قانون خالد عام، وخطاب مختصر شامل للناس أجمعين إلى يوم القيامة. فبعد أن أقام القرآن الكريم الأدلة الواضحة على صحة الدين ووحدانية الخالق وصدق النُّبوة والوحي، أمر الله بإظهار دينه، وإيضاح الفوارق بين الدين الحق والشِّرك الباطل، حيث يعبد المشركون أصناماً وأوثاناً لا تضر ولا تنفع.

والمعنى: قل يا محمد للناس جميعاً: يا أيها الناس إن كنتم تشكون في ديني فأنتم مخطئون، فإن الله لا يُشَك فيه، وإنما الشَّك في دينكم، ولا تعبدون الله، وإني لا أعبد أحداً غيره، فلا أعبد شيئاً على الإطلاق مما تعبدون من دون الله، من الأصنام والأوثان، من حجارة ومعادن وغيرها؛ لأنها لا تضرُّ ولا تنفع، وإنما أعبد الله الخالق البارئ القادر الذي يتوفّاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم، وأمرني ربِّي أن أكون من المصدِّقين به تصديقاً تامّاً، عارفاً به تمام المعرفة. وقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ تذكير بالموت الذي قهر الله به العباد، وفزَّع النفوس به، وإيضاح أن المصير إلى الله بعد الموت. والتَّوفي دليل على بدء الخلق والإعادة جميعاً.

وفي هذا النَّص الصريح تعريض بأن الدين الحق لا يُشكّ فيه، وترتاح إليه العقول السليمة، وأما عبادة الأصنام فهي عبادة باطلة، لأن الأصنام لا تعقل ولا تضرّ ولا تنفع، ويستنكرها كل عاقل؛ لأنها أحجار صماء.

ثم يأمر الله نبيَّه أي وبقيةَ الناس بأن يخلص العبادة لله وحده، حنيفاً أي مائلاً عن الشِّرك والباطل إلى الدين الحق، وألا يكون من جماعة المشركين الذين يشركون في عبادة الله إلهاً آخر، فالعبادة تتطلب الاستقامة والدوام والإخلاص في التَّوجُّه لله

سبحانه، وترك كل ما سواه، والبعد عن أي توجُّه ذات اليمين أو ذات الشمال، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٩]. فمن توجه بقلبه أو مال إلى غير الله في عبادة أو دعاء، فهو عابد غير الله تعالى.

ولم يقتصر القرآن الكريم على الأمر بعبادة الله وحده، وإنما نهى عن عبادة ما سواه، ومضمون النَّهي: لا تَدْعُ ولا تعبد أيها الرسول أحداً سوى الله، متجاوزاً الله تعالى إلى غيره، متَّجهاً إلى ما لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة إن دعوته، ولا يضرّك أصلاً إن تركت دعاءه.

فإن فعلت هذا على سبيل الافتراض والمبالغة وعبدت غير الله ودعوته، كنت من الظالمين نفسك، والظالم: الذي يضع الشيء في غير محلّه. ولا ظلم أكبر ولا أشد من الشّرك بالله تعالى، ومن الظلم: وضع العبادة في غير موضعها.

ثم أخبر الله تعالى أن الحول والقوة لله، بدليل ما يحسّ به الناس من أنفسهم، وليس لأحد غير الله قدرة على نفع ولا ضرّ. فإن تتعرض أيها النَّبي وكل إنسان لضرر في جسمك كالمرض والألم أو مالك كالفقر والتَّلف، فلا كاشف ولا رافع له إلا الله، وإن يردك أو يخصك الله بخير منه في الدين والدنيا من نصر ورخاء ونعمة وعافية، فلا دافع لفضل الله إلا الله، لأنه لا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه، ولا مانع لفضله أحد، يصيب بالخير من يشاء، وهو سبحانه الغفور لمن تاب إليه، الرحيم بعباده. والضُّرُّ لفظ جامع لكل ما يكرهه الإنسان، سواء كان ذلك في المال أو في البدن. وهذه الآية تظهر فساد حال الأصنام، وإن كان كل مميز يعرف يقيناً أنها لا تكشف ضرّاً ولا تجلب نفعاً.

الإسلام دين الحق

أبان القرآن المجيد في سورة يونس أُسس الدين العامة، وعقائده الكبرى التي طالب بها مشركي العرب والناسَ جميعاً إلى يوم القيامة، من توحيد الله تعالى، وإثبات البعث والجزاء، والوحي والنُّبوة والرِّسالة، وما شملته من هداية وخير للبشرية جمعاء، لأن القرآن أكمل الله به النعمة وأتم به الدين، وأصبح هو منار الطريق مدى الدهر، وهذه هي خاتمة سورة يونس، كما قال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠/١٠٨-١٠٩].

تعددت شرائع الله تعالى وبيِّناته، ورسالاته ونبواته، منذ عهد آدم عليه السّلام إلى خاتمة الشرائع، وانتهاء النُّبوات، في نبوة ورسالة محمد ﷺ والكتاب الذي أُنزل عليه من ربِّه في مدى ثلاث وعشرين سنة، وكان القصد من هذه الشرائع إسعاد البشرية وإنقاذها من الضَّلالة إلى النور، وتقرير مبدأ وحدانية الله، وإثبات عالم المعاد والآخرة، وما فيها من جنة ونار، عن طريق ظاهرة الوحي.

وهاتان الآيتان قرار نهائي حاسم، خاطب الله بهما جميع الناس والجنّ إلى يوم القيامة أبد الدهر، والمعنى الواضح منهما: قل أيها الرّسول للناس قاطبة، من حَضَرَ ومن يأتي: قد جاءكم الحقُّ المبين من ربِّكم، يبيِّن حقيقة هذا الدين، وكمال هذه الشريعة، على لسان رجل منكم، بلسان عربي مبين.

أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله تعالى هو الحقُّ الذي لا شكَّ ولا شبهة ولا ريب فيه.

والحق هو القرآن والشَّرع الذي جاء به محمد ﷺ من عند ربِّه. فمن اهتدى أي اتَّبع

الحق وأذعن له، وصدَّق بالقرآن ورسول الله، فإنما يهتدي لنفسه ويسعى لها، أي يعود نفع عمله وثواب اهتدائه واتِّباعه على ذاته، ويجد خير رشده في مصيره وآخرته؛ لأنه يوجب لها رحمة الله ويدفع عذابه.

ومن ضلَّ، أي حاد عن طريق الحق، ولم ينظر بعين الحقيقة، وحاد عن منهج الله، وكفر بربِّه عزّ وجلّ، فإنما يضلُّ على نفسه، أي يرجع وبال عمله عليه. والدنيا مزرعة الآخرة، فمن زرع نباتاً حسناً استفاد منه، ومن زرع نباتاً سيِّئاً، حصد منه الشَّر والضَّرر.

ثم يؤكد القرآن عنصر الإرادة والاختيار وترك الإجبار في قوله تعالى لرسوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أنا بموكل بكم من عند الله بأموركم حتى أجعلكم مؤمنين، وأكرهكم أو أجبركم على الإيمان، وإنما أنا نذير منذر لكم عذاب الله لمن أعرض وكذب، وبشير أيضاً، أي مبشِّر من اهتدى، والهداية على الله تعالى.

والرسول مجرَّد مبلِّغ وحي ربِّه، لا يأتي بشيء من عند نفسه، لذا تعدد الأمر القرآني لرسوله بأن يعلن أنه ما عليه إلا البلاغ، وأنه مأمور بالتبليغ، وهنا قال الله له: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ. .﴾ أي اتَّبع يا محمد ما أنزل الله عليك، وأوحاه إليك عن طريق جبريل، وتمسَّك به أشدّ التَّمسك، واصبر على دعوتك وأذى قومك ومخالفة من خالفك من الناس المعاندين والمستكبرين، حتى يحكم الله، أي يقضي بالفصل بينك وبينهم، أي المكذِّبين من قومك، فينصرك الله عليهم ويحقق لك الغلبة، وهو خير الحاكمين، أي أعدل الحكام وأحكمهم، يقضي بالعدل التام والحكمة الصحيحة، والواقع الحقيقي. وقد أنجز الله وعده لنبيِّه ﷺ، فنصره مع الجند المؤمنين، على تكتُّلات المشركين العرب ومؤامراتهم، واستخلف الله أهل الإيمان في الأرض، وجعلهم الأئمة الوارثين.

وفي هذا الكلام تسرية عن هموم النَّبي ﷺ مما لقيه من أذى قومه، ووعد له وللمؤمنين بأن يغلِّبهم وينصرهم، ووعيد للأعداء الكافرين بأن يخذلهم ويهزمهم، ويطوي صفحتهم من التاريخ إلى الأبد.

تفسير سورة هود

عبادة الله تعالى

في أوائل سورة هود المكّية ركّزت الآيات على إحكام القرآن الكريم، فهو لا يشتمل على أي نقض أو تناقض، كما أمرت بعبادة الله وحده باعتبار أن العبادة هي المقصود الديني الأعظم من خلق الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريات: ٥١/٥٦]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البيّنة: ٩٨/٥].

والعبادة الخالصة لله تعالى تتطلب الاستغفار والتوبة من الذنوب السابقة وعلى رأسها الكفر، قال الله تعالى مبيّناً هذه الأصول المبدئية والتكليفية في مطلع سورة هود المكّية: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ(١) ثُمَّ فُصِّلَتْ(٢) مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [هود: ١١/١-٤].

افتتحت سورة هود بالحروف المقطعة ﴿الٓرۚ﴾ للتنبيه وتحدّي العرب بأن يأتوا بمثل القرآن، ما دام مكوَّناً من حروف لغتهم التي ينطقون بها ويكتبون بها. ثم قررت هذه

---

(١) ذات نظم محكم. (٢) فُرِّقت في التنزيل بحسب المناسبات والأحوال.

الآيات أصول الدين: وهي إحكام القرآن وتفصيله، والدعوة إلى عبادة الله وتوحيده والإنابة إليه، والإيمان بالبعث والجزاء في عالم الآخرة.

والمعنى: هذا القرآن كتاب عظيم الشأن، جليل القدر، محكم النظم والمعنى، لا خلل فيه ولا نقص، فهو كامل الصورة والمبنى والمعنى؛ لأنه صادر من عند الله الحكيم في أقواله وأفعاله، الخبير بحوائج عباده، وبعواقب الأمور.

نزل هذا الكتاب بألا تعبدوا غير الله، ولا تشركوا به شيئاً، فالعبادة لله تحقق معنى العبودية والانقياد لله تعالى، مع قيامها على الحبِّ، لا على القهر والقسر، وإنني أنا رسول الله مرسل من عند الله، نذير من العذاب إن عصيتموه أو خالفتموه، وبشير مبشِّر بالثواب إن أطعتموه. وفي هذا تبيان مهمة الرسول ﷺ ووظيفته وهي الإنذار لمن عصاه بالنّار، والتَّبشير لمن أطاعه بالجنة.

ومن مهامي أنا النَّبي المرسل أن آمركم بالاستغفار من الذنوب السابقة، وهي الشِّرك والكفر والمعاصي والمنكرات، وأن تتوبوا منها إلى الله عزّ وجلّ بالإقلاع عنها وبالنَّدم على ما مضى، والعزم على عدم العودة إلى أي ذنب في المستقبل، فإن استغفرتم وندمتم، وتبتم من كفركم وشرككم، يمتِّعكم الله متاعاً حسناً في الدنيا، بإطالة النفع فيها بمنافع حسِّية مُرْضِية، وعيشة طيبة هنيّة، ورزق واسع متتابع، ويظل هذا التمتع الهني في الدنيا إلى أن يأتي الأجل المعين وهو الموت.

فالمطلوب للتَّخلي عن سيرة الكفر السابقة أمران: الاستغفار من الشِّرك، ثم التوبة المخلصة والرجوع إلى الله بالطاعة والعبادة، فتصفو النفس من آثار الشِّرك، وتقبل على حياة الدينونة لله عزّ وجلّ بالانقياد لأوامره وعبادته على وفق مراده.

وثمرة إطاعة الله لا تقتصر على توفير الحياة الهانئة السعيدة في الدنيا، وإنما تشمل أيضاً في الآخرة إعطاء كل ذي فضل في العمل جزاء فضله وإحسانه، لا يبخس منه

شيء، فيجمع الله بين الجزاءين: التَّمتيع في الدنيا، والثواب في الآخرة. ولكن متاع الدنيا قليل فانٍ، ومتاع الآخرة كثير خالد.

فإن أعرضتم أيها الناس عما دعوتكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، فإني أخشى عليكم وأحذِّركم من عذاب يوم كبير هو يوم القيامة. ووصف هذا اليوم بالكبر، لما فيه من السَّعة والأهوال، كما وصف بالعظم والثِّقل لما فيه من العظائم والشدائد، والأثقال والآلام. وهذا توعُّد بيوم القيامة.

وأضاف الله تعالى إليه توعُّداً آخر وهو تفرُّد الله بسلطان الحساب في الآخرة، فجميع الناس مرجعهم وطريقهم إلى الله، أي إلى عقابه وجزائه، وهو سبحانه القادر الذي لا يضرّه شيء، ولا يجير عليه مجير، ولا وقاية من قضائه وحكمه، فالله قادر تمام القدرة على ما يشاء من الإحسان إلى أوليائه وأحبّائه وعبّاده، والانتقام من أعدائه. وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ يفيد الحصر، يعني أن مرجعنا إلى الله، لا إلى غيره.

فضل الله وعلمه وقدرته

عجيب أمر هذا الإنسان، إنه مغمور بأفضال الله التي لا تحصى، مضمون له رزقه، محوط بعلم الله في سرِّه وعلانيته، مقدور عليه في كل تحرُّكاته، لا يستطيع النَّفاذ أو الهرب من سلطان الله وعزَّته، وإنما مصيره ومرجعه إلى الله، يحاسبه على كل ما قدم وأخَّر، وهو مع ذلك معرض عن ربِّه المنعم عليه، القادر الرّازق. وما ذلك إلا لضعفه وقصور عقله وسوء تقديره في فهم الأشياء. وهذه دلائل قدرة الله على كل مخلوق وفضله عليه في قوله سبحانه:

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ(١) لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ(٢) يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا(٣) وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ(٤) كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧﴾ [هود: ١١/ ٥-٧].

نزلت الآية الأولى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ..﴾ في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم رسول الله ﷺ ثنوا صدورهم، أي طووها على الحقد والعداوة والحسد، كالمستتر، وردُّوا إليه ظهورهم، وغطّوا وجوههم بثيابهم تباعداً عنه، وكراهية للقائه، وهم يظنّون أن ذلك يخفى عليه وعلى الله عزّ وجلّ.

والمعنى: ألا إن الكفار المشركين حين يسمعون الدعوة إلى الله وتوحيده، يعرضون عن النّبي ﷺ بصدورهم، كيلا يراهم هو ولا غيره، إمعاناً في العناد والكفر. ألا حين يتغطون بثيابهم ليستخفوا أو يتواروا من محمد أو من الله، يظنّون أن الله لا يراهم، مع أن الله تعالى يعلم ما يسرّونه في قلوبهم، وما يعلنونه من أقوال وأفعال، إنه سبحانه علاّمة بالأسرار ذات الصدور، و بخواطر القلوب، ويرصد الله عليهم كل أمورهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ [النّساء: ٤/ ١٠٨].

ومن مظاهر علم الله وفضله أنه سبحانه تكفل برزق كل ما يدب على الأرض أو في البحر أو في الجو، ويعلم مستقر كل دابّة ومستودعها، أي يعلم منتهى سيرها في

(١) يطوونها على الكفر والعداء. (٢) يتغطون بها مبالغة في الستر. (٣) موضعها في الأصلاب والأرحام ونحوها. (٤) موضعها في الأرحام والأصلاب ونحوها.

الأرض حيث تأوي إليه، وهو مستقرّها، وموضع إيوائها ومكان موتها ودفنها، وهو مستودعها، وكل ما يتعلق بمخلوقات الأرض من أحوال وأرزاق وتحرُّكات وسكنات: ثابت مكتوب في اللوح المحفوظ الذي كتب فيه جميع مقادير المخلوقات، وتوضَّح فيه كل شؤونها. وهذا دليل واضح على تكفل الله بأرزاق المخلوقات كلها، غير أن ذلك مرتبط بقانون السببية أو مبدأ ارتباط الأسباب بالمسبِّبات والغايات، أي إن تحصيل الرزق منوط بالسَّعي والعمل، موجه بالإلهام الإلهي، مشمول بهداية الله إلى الطلب والتحصيل، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٥٠].

وبعد إثبات كون الله عالماً تمام العلم بالمعلومات، أثبت تعالى كونه قادراً قدرة تامة بخلقه السماوات والأرض، خلقها في ستة أيام بمقدار أيام الدنيا في رأي أكثر المفسرين. وكان العرش: وهو أعظم المخلوقات، فوق الماء، وكان موجوداً قبل أن يخلق الله شيئاً. ومقتضى استواء الله على العرش أنه صاحب السلطان المطلق في التَّصرف والملك والأمر والحكم. قال جماعة من العلماء: خلق الله تعالى هذه المخلوقات في ستة أيام، مع قدرته على خلقها في لحظة، نهجاً إلى طريق التّؤدة والمهلة في الأعمال، ليُحكم البشر أعمالهم.

وعلّة الخلق الإلهي العجيب للسماوات والأرض: هي نفع العباد الذين خلقهم الله ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وليعاملهم معاملة المبتلي المختبر لأحوالهم، لينظر كيف تعملون، ويُظهر أيّكم أحسن عملاً، فيقوم الدليل الواقعي على أفعال الإنسان ومعرفة من يقابل النِّعم بالشكران أو بالكفران.

ولئن أقمت يا محمد الأدلة على البعث بعد الموت، وذكرت ذلك للمشركين، لقال الكافرون: ما هذا إلا سحر واضح، أي غرورٌ باطل، لأن السِّحر في مفهومهم

باطل. فهم يرون أن التحدث عن البعث كالسحر في الخديعة أو البطلان. وهذا موقف متناقض، فهم يقرّون بأن الله خالق السماوات والأرض، ثم ينكرون ما هو أيسر من ذلك، وهو البعث من القبور، لأن البداءة للخلق أعسر من الإعادة، وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

موقف الإنسان من النعمة الإلهية أو النقمة

لا يدرك الإنسان إدراكاً كافياً مدى نعم الله تعالى عليه، ولا يقدرها حقَّ قدرها، ولا يشكر ربَّه المنعم بها، وقد يستبدُّ به الغرور والطيش فيطلب نزول العذاب، وربما تكبَّر وبطر وتفاخر وقت النعمة. وإذا تعرَّض لنقمة أو محنة، جحد وجود الإله القادر، وييئس من رحمة الله، إلا القليل من الناس الذين يصبرون في وقت المحنة، ويشكرون الله على أي حال. وهذا هو خلق الإنسان، كما صوَّره القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ[(١)] لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم[(٢)] مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ[(٣)] كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ[(٤)] لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ[(٥)] فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ١١/٨-١١].

تصوِّر هذه الآيات سوء طبع الإنسان، فإنه يجهل سنّة الله وحكمته، ويطلب أن يكون كل شيء على وفق هواه، فتراه كما أقسم الحقُّ سبحانه، إذا أخَّر الله العذاب

(١) طائفة قليلة من الأيام. (٢) حاق: معناه حلَّ وأحاط، وهي مستعملة في المكروه. (٣) شديد اليأس. (٤) نائبة أصابته. (٥) لَبَطِرُ النعمة مغترٌّ بها.

وقتاً من الزمان عن بعض الكفار، بحسب توعُّد الله إياهم، بادر إلى القول استهزاء وتكذيباً: ما يحبس هذا العذاب؟ أي ما الذي يؤخِّره عنّا؟ فأجاب الله تعالى بأنه إذا حان الوقت وحلَّ الأجل الذي حدَّده الله لنزول العذاب الذي يستهزئون به، لم يصرفه عن الكفار صارف، وسيحيط بهم من كل جانب، جزاءً بما كانوا يستهزئون به من العذاب قبل وقوعه. وعلى الجميع أن يعلموا أن وعد الله بالخير كائن حتماً، ووعيده بالجزاء واقع قطعاً، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرَّعد: ٣٨/١٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطُّور: ٥٢/٧-٨].

ومن صفات الإنسان الذَّميمة إلا من رحم ربُّك: أنه إذا منحه الله نعمة من صحة ورزق وأمن وولد بارّ، رحمة منه، ثم سلبه تلك النِّعمة، وأبدله بها نقمة من مرض أو فقر أو خوف أو موت أو كارثة، إذا أنعم الله عليه، ثم تغيَّر حاله، يئس وتحرَّج وسخط، وجحد وكفر، ونسي النِّعمة، ولم يذكر إلا المحنة والمصيبة، ولو تأمل قليلاً، ونظر إلى نعمة الله الباقية عليه في عقله وحواسه وغير ذلك، أو قارن المصاب بغيره، لهان عليه الأمر، ولم يكفر ولم يجحد.

وإذا منح الله الإنسان (أي جنس الإنسان) نعمة من بعد ضرّاء، كشفاء من مرض، وقوة من بعد ضعف، ويسر من بعد عسر، لقال: ذهب ما كان يسؤوني من المصائب، ولن ينالني بعد اليوم ضيم ولا سوء، وأصبح شديد الفرح والبطر بتلك النعمة، وتفاخر وتعاظم على غيره، محتقراً من دونه. فكان في موقفه هذا أيضاً مخطئاً خطأً شديداً، لأنه لا يقابل النعمة بالشكر عليها، بل تفاخر على الناس، وقصر في حقوق الله عليه. والسَّيئات في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ كل ما يسوء في الدنيا. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي متماد في الفرح والبطر، متفاخر على غيره.

وكل من هذين الموقفين خطأ وسوء طبع ومرض شديد، ففي حال المحنة أو النقمة يجب على الإنسان الصبر وطلب الفرج والرِّضا بالقضاء والقدر، لأن الصبر مفتاح الفرج، وفي حال النعمة يلزمه الشكر والاعتراف بالجميل والوفاء بالمعروف، لأن بالشكر تدوم النِّعم، وبالحمد لله والتفويض له يظهر الإيمان، ويتم الإحسان.

ثم استثنى الله تعالى من جنس الإنسان إذا ساء طبعه غالباً جماعة تميَّزوا بالصبر على الشدائد والمكاره، كالجهاد والفقر والمصيبة، وعملوا الأعمال الصالحة، أي الأفعال الطيبة المفيدة، كأداء الفرائض وشكر النعمة، وعمل الخير والإحسان للناس، والتَّقرب إلى الله بصالح الأعمال، أولئك لهم مغفرة لذنوبهم بسبب عملهم الصالح أو بصبرهم على الضُّر، ولهم ثواب كبير في الآخرة على ما عملوا من أعمال الخير، وما أسلفوا في زمن الرخاء، وأقل مراتب هذا الثواب الظفر بالجنة.

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: ١٠٣/ ١-٣].

كل هذا يذكرنا بأن الإنسانية السَّوية والأصول الرشيدة تقتضي من كل إنسان الصبر عند الشدائد ومثابرة عبادة الله، والشكر عند النعم، حتى لا يتعرض المرء للسخط الإلهي أو العذاب الرَّبّاني. والذي يحمل على الصبر هو حبُّ الله وخوف الدار الآخرة. والعمل الصالح لا ينفع إلا مع هداية وإيمان.

تحدي العرب بالقرآن

وقف العرب في مكة من القرآن والنبي ودعوة الإسلام موقف المعاند والمكابر، وحاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم بأساليب ملتوية، والمطالبة بأمور تعجيزية غير مقنعة ولا متفقة مع أصول المنهج العقلاني أو الخصام السياسي الشريف، وتجاوز التمرد

والغلوّ بهم إلى أن يزعموا أن القرآن افتراه محمد من عند نفسه، فكان القرآن يرصد لهم هذه المواقف الشاذة ويتحداهم بالقرآن أن يأتوا بمثله إن صدقوا في افترائهم وزعمهم الباطل أن القرآن كلام بشر.

وهذا تصوير لمواقف التّعنت والاستكبار عند مشركي قريش في الآيات التالية:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١١/ ١٢-١٤].

سبب نزول الآية: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد، اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولاً. وقال آخرون: ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوّتك، فقال: لا أقدر على ذلك، فنزلت هذه الآيات.

ومن أسبابها أيضاً أن كفار قريش قالوا: يا محمد، لو تركت سبَّ آلهتنا وتسفيه آبائنا، لجالسناك واتّبعناك، وقالوا: إيتِ بقرآن غير هذا أو بدِّله، ونحو هذا من الأقوال، فخاطب الله تعالى نبيّه ﷺ على هذه الصورة من المخاطبة، وردَّ على أقوالهم مبطلاً لها، وليس المعنى أنه ﷺ هم بشيء من هذا، فزجر عنه، فإنه لم يَرِد قط ترك شيء مما أوحي إليه، ولا ضاق صدره، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم وبُعْدهم عن الإيمان.

والمعنى: لعلك أيها الرسول تارك بعض ما يوحى إليك أن تلقيه إليهم، وتبلغه إياهم مخافة ردِّهم له وتهاونهم به، بسبب تسفيه أحلامهم والتّنديد بعبادتهم الأوثان، وضائق به صدرك بأن تتلوه عليهم، أو لأجل أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز، أي لا

تتضايق لأجل قولهم: هلا أنزل عليه كنز من ربِّه يغنيه عن التجارة والكسب، ويدلُّ على صدقه. أو هلا جاء ملك من السماء يؤيد دعوته. والقائل: هو عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي.

ثم أوضح الله تعالى بمناسبة الرَّد على المشركين في مطالبهم التعجيزية مهمة النَّبي الرَّسول، وهي إنذار من عصاه بالنار، فليس عليك أيها النَّبي إلا إنذارهم بالوحي، من غير مبالاة بما يقولون، ولا آتٍ بما يقترحون، ولك أسوة بالرُّسل السابقين قبلك، فإنهم كُذِّبوا وأُوذوا، فصبروا حتى نصرهم الله، والله هو الرقيب على أعمالهم، الحفيظ للأمور، فتوكَّل عليه، ولا تبال بهم، فإنه عالم بحالهم، ومجازيهم على أعمالهم.

ثم تحدى الله العرب بالإتيان بمثل القرآن أو سور معدودات منه، ردّاً على موقفهم، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ..﴾ أي بل يقول مشركو مكة: افترى محمد القرآن واختلقه من عند نفسه. والافتراء أخصُّ من الكذب، فهو الزعم بما ليس موجوداً أصلاً. فإن كان ما يزعمون صحيحاً فليأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات، تحاكيه في الفصاحة والبلاغة، وإتقان الأحكام والتشريعات الناظمة لشؤون الحياة. والمختار عند أكثر المفسرين أن القرآن معجز بسبب الفصاحة والمعاني. وطالبهم القرآن وترك لهم المجال بأن يستعينوا بمن استطاعوا من الإنس والجن إن كانوا صادقين في زعمهم أن القرآن مفترى. ولكنهم عجزوا أن يأتوا بمثل أقصر سورة من القرآن، لأن كلام الله لا يشبه كلام المخلوقين.

وبعد هذا التَّحدي إن لم يستجيبوا لكم، أي إن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن القرآن إنما نزل من عند الله وبإذنه وعلمه، وبما لا يعلمه إلا الله من نظم معجز لِلْخَلْق، وإخبار بمغيبات لا معرفة لهم

بها، ووعد ووعيد منجز، ومعان عالية، وتشريع بأمر ونهي لا يبلغون مستواه. وأن الله واحد لا شريك له، فهل أنتم أيها البشر منقادون خاضعون لأمر الله وحكمه، وهل أنتم أيها المسلمون مخلصون في تدينكم وعبادتكم لله؟

من أراد الدُّنيا ومن أراد الآخرة

وازن القرآن المجيد بين جزاء من قصد العمل للدنيا وحدها، من جاه ولباس، وزينة وأثاث، وثروة ومال، وطعام وشراب، وبين من قصد بعمله تعمير الآخرة وبناء مستقبل الخلود. الأول يجازى بعمله وثمرة جهده، فيعيش بمشيئة الله مترفاً منعماً بالصحة والسيادة والرزق الوفير وكثرة الأولاد، وطالب الآخرة يحظى بنعيم الخلود وتأتيه الدنيا مع ذلك صاغرة منقادة له. وما أجمل هذه المقارنة في القرآن بين عامل الدنيا وعامل الآخرة، فقال الله تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ[١] ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ[٢] مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ[٣] مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود: ١١/ ١٥-١٧].

إن سبب معارضة المشركين وتكذيبهم بالقرآن هو الهوى والشهوة، ومحض الحسد والرغبة في حظوظ الدنيا، لذا قارن الله بين قاصد الدنيا وقاصد الآخرة. أما قاصد الدنيا: فهو من كانت إرادته متجهة لحبِّ الدنيا وزينتها ومتاعها، وكان يريد بأعماله

(١) أي لا ينقصون شيئاً من أجورهم. (٢) أي فسد وبطل ولم ينتفعوا به. (٣) شكّ من وعيد النار.

الدنيا فقط، إذ لا يعتقد الآخرة، فإن الله يجازيه على حسن أعماله في الدنيا بالنِّعم والحواس وغير ذلك، فمنهم مضيَّق عليه، ومنهم موسَّع له، ثم حكم عليهم بأنهم لا يحصل لهم يوم القيامة إلا النار، ولا تكون لهم حال سواها. والسبب أنهم استوفوا حقوقهم في الدنيا ثمرة إحسان عملهم، وبقي لهم في الآخرة وزر العمل السيء؛ لأنهم لم يريدوا وجه الله تعالى، والمطلوب في الثواب الأُخروي هو الإخلاص لله عزّ وجلّ.

ولقد أحبط الله في ميزان الآخرة ثواب عمل أهل الدنيا فقط، وتبدد وذهب عنهم أثر عملهم الدنيوي، وبطل ثواب عملهم في الآخرة. وهذا وارد في آية أخرى هي: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٨-١٩].

وأما قاصد الآخرة بعمله فهو على حق وخير من أمره. ومعنى الآية: أفمن كان على نور وبصيرة من الله تدُلهُ على الحق والصواب، ويؤيده شاهد له على صدقه، وهو كتاب الله من إنجيل أو توراة أو قرآن، كمن كان يريد زينة الحياة ومتاعَها؟! وهذا فريق المؤمنين بأنه لا إله إلا الله، المصدقين باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب.

وخصَّ الله تعالى بالذِّكر بعد التعميم كتاب موسى وهو التوراة، لأنه يشبه ما جاء في القرآن من تشريعات وأحكام، ولا يقتصر على مجرد الآداب والأخلاق كالإنجيل.

وأولئك الذين يؤمنون بما في التّوراة من التبشير برسالة محمد ﷺ يؤمنون بالقرآن إيماناً حقّاً عن يقين وإذعان، كما قال النَّجاشي رحمه الله: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة».

ومن يكفر بالقرآن من أهل مكة، ومن تحزَّبوا على الإسلام ونبيّه من جميع الأمم، فالنار مورده، لا ريب في وروده إياها، والمعنى: أن مآله حتماً إلى جهنم، وهو من أهل النار جزاء تكذيبه.

فلا تكن أيها المكلف السامع، في شكٍّ من أمر هذا القرآن، فإنه حقٌّ من الله لا ريب ولا شكَّ فيه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بهذا القرآن، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٢/١٠٣].

والسبب: أن المشركين مستكبرون مقلِّدون زعماءهم، وأن أتباع الأديان حرَّفوا كتبهم ودين أنبيائهم.

والخلاصة: في آية ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ معادلة محذوفة، يقتضيها ظاهر اللفظ، تقديرها: «أفمن كان على بيّنة من ربّه، كمن كفر وكذَّب أنبياءه؟ وإن ثمرة المقارنة أوضحت البون الشاسع بين مريد الدنيا، فيوفى منها، ومن يريد الآخرة فيعطاها وزيادة عليها وهو الدنيا». والقصد من آية ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ ذمّ الحريصين على الدنيا ونسيان الآخرة. والقصد من آية: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الرَّد على منكري نبوّة الرسول عليه السّلام والطعن في معجزاته.

جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين

ليس من المنطق ولا من العدل أن يتساوى المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمحسن والمسيء، وإنما لا بدَّ من جزاء متفاوت لكل صنف، وهذا التفاوت ناشئ من الأعمال الاختيارية الإرادية التي يمارسها كل منهم، فأهل الإيمان هم أهل الجنة خالدين فيها، وأصحاب الجحود والكفر والظلم هم الملعونون في الدنيا، الخاسرون

في الآخرة، المعذبون في نيران الجحيم عذاباً مضاعفاً، وهذا ما أبانه القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ(١) هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا(٢) وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ(٣) فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ(٤) ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ(٥) أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا(٦) إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ١١/١٨-٢٤].

المراد من آية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ..﴾ الرّد على المشركين الذين يزعمون أن الأصنام شفعاؤهم عند الله، وهذا محض الافتراء على الله تعالى، ومعنى الآية: لا أحد أشد ظلماً ممن افترى الكذب على الله تعالى، في صفته أو حكمه أو وحيه، أو زعم وجود شفعاء له من دون إذنه، أو ادّعى أن لله ولداً من الملائكة أو من البشر الأنبياء أو الرُّسل أو الأولياء. أولئك الواقعون في الكفر يعرضون على ربّهم، أي يحاسبهم ربُّهم حساباً شديداً، ويقول الشهود من الأنبياء والملائكة: هؤلاء الذين كذبوا على ربِّهم وافتروا عليه، فلعنة الله على الظالمين، أي إنهم مطرودون من رحمة الله تعالى.

وإن هؤلاء الظالمين يردّون الناس عن اتّباع الحق والإيمان والطاعة، ويريدون أن

---

(١) أي الشهداء أو الشهود من الأنبياء والملائكة. (٢) يطلبونها معوجة. (٣) فائتين من العذاب بالهرب.
(٤) يختلقون من ادّعاء الشريك لله. (٥) أي حقاً وثابتاً أو لا محالة. (٦) أي خشعوا وأخلصوا لله واطمأنّوا إليه.

تكون طريقهم معوجة غير معتدلة، والحال أنهم جاحدون بالآخرة مكذبون بوجودها.

إن أولئك الظالمين الذين يصدون الناس عن سبيل الله الحق، سبيل القيم العليا والحياة الطيبة، لا يعجزون ربّهم أن يعاقبهم بالدمار والخسف، كما فعل بغيرهم، وإنما هم تحت قهره وسلطانه، وهو سبحانه قادر على تعذيبهم، وليس لهم أولياء، أي أنصار ينصرونهم من دون الله، ويمنعون عنهم العذاب، ويضاعف لهم العقاب بسبب إضلالهم غيرهم، كما ضلّوا بأنفسهم، وكانوا صُمّاً عن سماع الحق، عمياً عن اتّباع سبيل الهدى والرَّشاد.

أولئك المتَّصفون بهذه الصفات خسروا أنفسهم وأهليهم، وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون، أي ذهب عنهم ما كانوا يفترونه من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تُجْد عنهم شيئاً، بل ضرّتهم كل الضَّرر: كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/٦].

لا جرم، أي حقّاً إنهم في الآخرة هم أخسر الناس صفقة، لأنهم استبدلوا بنعيم الجنة ودرجاتها عذاب جهنم ودركاتها.

أما المؤمنون المصدقون بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحة، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزّكاة، وأدّوا الطاعات، وتركوا المنكرات، وخشعوا لله وأنابوا إليه، فلهم جنان الخلد ذات النعم التَّليدة، وهم ماكثون فيها على الدوام، لا يموتون ولا يمرضون، ولا تلازمهم نقائص الدنيا وعيوبها، وإنما هم متبرئون منها.

مثل هذين الفريقين المذكورين وهم الأشقياء الكفرة، والمؤمنون البررة، كمثل الأعمى والأصم، والسميع والبصير، أي إن الكافر كالأعمى، لتعاميه عن إدراك الحق، وكالأصم لعدم سماع الحجج والأدلة الدّالة على النّور والهدى. والمؤمن مثل

المبصر السّامع لكل شيء، لاستفادته بما يرى في الأكوان، ويسمع من القرآن، والسمع والبصر، وسيلتا العلم والهدى، وطريقا تكوين العقل والمعرفة، وإقامة الثقافة الصحيحة التي ترقى بالأمة والمجتمع، وبالوطن والدولة.

قصة نوح عليه السَّلام مع قومه

- ١ -

دعوته ونقاش قومه

أورد الله تعالى في قرآنه مجموعة من قصص الأنبياء السابقين للعظة والعبرة، وتمثيلِ الأوضاع لقريش وكفار العرب، والإعلام بأن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرُّسل، وإنما هو كغيره دعا إلى عبادة الله وحده، فعارضه قومه، فناقشهم وجادلهم. وهذا أنموذج من قصة نوح عليه السَّلام أول رسول إلى الناس بدعوة إلهية. أذكر هنا طائفة من القصة، قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ[1] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ[2] وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ[3] إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ[4] أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى

(١) أشراف القوم وزعماؤهم. (٢) ظاهره دون تعمق. (٣) أخبروني. (٤) أي أخفيت عليكم فلم تهدكم.

خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ(١) لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ [هود: ١١/ ٢٥-٣١].

كان قوم نوح عليه السَّلام يعبدون الأوثان ونحوها، فأرسل الله إليهم نوحاً يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده، فقال لهم: إني لكم منذر واضح، أنذركم عذاب الله وبأسه إن أنتم عبدتم غير الله، فآمنوا به وأطيعوا أمره، ولا تعبدوا غيره، ولا تشركوا به شيئاً، إني أخشى عليكم الوقوع في عذاب يوم شديد الألم، هو يوم القيامة.

فأوردوا عليه أربع شبهات:

الشبهة الأولى -بشرية الرسل: قال أشراف القوم وزعماؤهم: ما أنت يا نوح إلا بشر مثلنا، ولست بملَك، فلا مزية لك علينا حتى نطيعك في أمرك.

الشبهة الثانية -أتباعك أراذل القوم. لم يتبعك إلا الأخسّاء أصحاب الحرف الخسيسة كالزُّرّاع والصُّنّاع، وهم الفقراء والضعفاء، في بادئ الأمر وظاهره دون تأمل ولا تفكر ولا تدبُّر في عواقب الأمور، ولو كنت صادقاً لاتَّبعك الأشراف والكبراء.

الشبهة الثالثة -لا فضل لك علينا: ما رأينا لكم علينا امتيازاً في فضيلة أو قوة أو ثروة أو علم أو عقل أو جاه أو رأي، يحملنا على اتِّباعك.

الشبهة الرابعة -نتهمك بالكذب: يترجح لدينا كذبكم في ادِّعائكم الصلاح والسعادة في الآخرة. ويلاحظ أنهم خاطبوه بصيغة الجمع لإشراك أتباعه معه في التُّهم.

أجابهم الله عن شبهاتهم فيما حكاه عن نوح عليه السَّلام قائلاً: أخبروني يا قوم

---

(١) تستحقرهم وتستهين بهم.

عماذا أفعل إن كنت على يقين وحجة ظاهرة فيما جئتكم به من ربِّي، وآتاني رحمة من عنده وهي النُّبوة والوحي، فخفيت عليكم، فلم تهتدوا بها، ولا عرفتم قدرها، أنكرهكم على قبولها، وأنتم لها كارهون، معرضون عنها؟!

ويا قوم، لا أطلب منكم مالاً على نصحي لكم، أي أجراً آخذه منكم، وإنما أجري على الله عزّ وجلّ. وليس من شأني طرد المؤمنين برسالتي، وتنحيتهم من مجلسي. وهذا إعلان المساواة في الكرامة بين الناس من غير امتياز للأغنياء. إن هؤلاء الأتباع سيلقون ربَّهم، ويحاسبهم على أعمالهم، كما يحاسبكم، ويعاقَب من طردهم، وأراكم قوماً جهلة في مطالبتكم بطردهم من مجلسي، فإن المفاضلة بين الناس إنما هي بالعمل الطيب الصالح، لا بالثروة والجاه كما تزعمون.

ويا قوم من ينصرني من عذاب الله إن طردتهم، فذلك ظلم عظيم، أفلا تتعظون وتتفكرون فيما تقولون؟!

وتوابع النُّبوة وتملك الثروة غير متوافرين لدي، فلا أقول لكم بموجب النُّبوة: إني أملك خزائن رزق الله، وأتصرَّف فيها، ولا أعلم من الغيب إلا ما أطلعني الله عليه، ولست أحد الملائكة، ولا أستطيع القول لهؤلاء الذين تحتقرونهم: لن ينالهم خير، وليس لهم ثواب على أعمالهم، الله أعلم بما في صدورهم وبواطنهم من القصد الحسن والنِّية الطيبة، فإن تطابق باطنهم مع ظاهرهم، كان لهم الحسنى، وإن حكمتُ على سرائرهم بغير دليل ظاهر، كنتُ ظالماً قائلاً ما لا أعلم به. والخلاصة: إن نوحاً قصر مهمته على تبليغ الوحي بالنُّبوة، وأخبرهم عن تواضعه أمام الله عزّ وجلّ.

- ٢ -

استعجال العذاب من قوم نوح

يقع أتباع الرُّسل وأقوامهم في الحماقة والطيش حينما يعادون رسولهم، ويصفونه بأوصاف كاذبة، ويلصقون به التُّهم الباطلة، لتسويغ ضلالهم وزيغهم، ومن هؤلاء الحمقى: قوم نوح حينما انهزموا أمام حجته الدامغة، أوردوا عليه أمرين: الأول- أنه أكثر جدالهم، والثاني- مطالبتهم بالعذاب الذي توعدهم به. وأدى هذان الأمران إلى إعلان نوح اليأس من إجابتهم لدعوته، وزعمهم أن نوحاً افترى هذا التوعد بالعذاب، وأراد الإرهاب عليهم بذلك. وهذا ما سجّله القرآن الكريم عليهم في الآيات التالية:

﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ[(١)] (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ[(٢)] هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى[(٣)] وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾ [هود: ١١/ ٣٢-٣٥].

الكلام عن قوم نوح تصوير دائم لأحوال مشابهة للكفرة في كل زمان ومكان، فما صدر من قوم نوح متجسد في أحداث التاريخ، وعقلية الأقوام المتلاحقة، فليست القضية إذن مجرد تاريخ للعبرة، وإنما هي صورة متكررة معادة لدى بعض الناس في أفكارهم وسلوكهم، ما دام خطاب القرآن واحداً.

والمعنى: قال قوم نوح له: قد طال منك هذا الجدال، وهو المراجعة في الحجة ومقابلة الأقوال ومناقشتها حتى تقع الغلبة، فأتنا بما تعدنا به من العذاب والهلاك

---

(١) بفائتين من عذاب الله بالهرب. (٢) يضلّكم. (٣) عقاب ذنبي.

المعجل في الدنيا، إن كنت صادقاً في ادّعائك أن الله يعذبنا على عصيانه في الدنيا قبل الآخرة.

والجدال نوعان: محمود ومذموم مكروه، أما المحمود: فهو ما كان بالحسنى مع إنسان يُطمع بالجدال أن يهتدي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: ١٦/ ١٢٥]. وأما الجدال المذموم أو المكروه: فهو ما يقع بين المسلمين بعضهم مع بعض في طلب علل الشرائع، وتصور ما يخبر به الشرع من قدرة الله. وقد نهى النَّبي ﷺ عن ذلك، وكرهه العلماء.

أجاب نوح قومه عن اتّهامه بكثرة الجدال قائلاً: ليس إنزال العذاب أو العقاب بيدي، وليس لي توقيته، وإنما ذلك بيد الله، وهو الآتي به إن شاء وإذا شاء، ولستم من المنعة بحال من يفلت أو يعتصم لتنجوا، وإنما أنتم في قبضة القدرة الإلهية، وتحت سلطان الملك الإلهي، وليس نصحي بنافع، ولا إرادتي الخير لكم مغنية إذا كان الله تعالى قد أراد بكم الإغواء والإضلال والإهلاك، الله ربّكم، أي خالقكم والمتصرِّف في أموركم، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور، وإليه ترجعون في الآخرة، فيجازيكم بما كنتم تعملون في هذا العالم من خير أو شرّ.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ بيان ربط الأسباب بالمسببات، فمن تسبب في الضّلال والغواية أضلّه الله، وليس معنى الآية: أن الله يخلق الغواية والشقاوة فيهم، فذلك منوط بالعمل والكسب، والنتائج متوقفة على المقدمات.

وقوله سبحانه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ . .﴾ إما اعتراض في قصة نوح، كما ذكر الطَّبري وغيره، وهي في شأن محمد ﷺ مع كفار قريش الذين قالوا: افترى محمد القرآن، وافترى هذه القصة على نوح، فنزلت الآية في ذلك. ويحتمل كون الكلام في شأن نوح عليه السّلام، فإن قومه زعموا أن العذاب الذي توعَّدهم به أمر مفترى

بقصد إرهابهم، فيصبح اتِّساق الآية مطَّرداً غير معترض. فأجابهم الله تعالى بأن النَّبي إن افترى هذا الادِّعاء بنزول العذاب، فعليه تبعة قوله وهو مسؤول عن ذنبه وجرمه، وهو بريء من جرائم قومه وآثامهم، وسيجزيهم الله على أعمالهم، والنبي أعلم بما عند الله من عقوبة المكذبين، وكل إنسان مسؤول عن ذنبه، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ١٠/٤١].

والراجح أن آية ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هو من محاورة نوح لقومه، كما قال ابن عباس، لأنه ليس قبل هذا الكلام ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه، والخطاب منهم ولهم، وهم يقولون: افترى ما أخبركم به من دين الله، وعقاب من أعرض عنه.

والحقيقة أن حكاية هذه الأوضاع ستظل في سجلِّ التاريخ صورة للمعارضين دعوة الأنبياء، وستكون عاقبة المعارضة أو الاتِّهام بالباطل لنبي هي التعرض للعذاب.

- ٣ -

يأس نوح من قومه وصنعه السفينة

تجاوز قوم نوح الحدود المعقولة، وتغالوا في الإعراض عن نوح عليه السّلام، ورفضوا دعوته رفضاً عنيداً، واستبداداً وتكبُّراً، فيئس نوح من هدايتهم وإجابتهم لدعوته، فمهَّد ذلك لإغراقهم وإهلاكهم، بسبب سخريتهم وتهكمهم، وبدأ الإعداد بصنع السفينة لنجاة نوح ومن آمن معه. وهذا ما وصفه القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ[1] بِمَا كَانُوا۟

(١) فلا تحزن.

يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا(١) وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ
﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا
نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ(٢) عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ(٣) قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ
وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا
بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا(٤) وَمُرْسَىٰهَآ(٥) إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ١١/٣٦-٤١].

أخبر الله تعالى بوحيه إلى نوح عليه السّلام أنه لن يؤمن أحد من قومك بدعوتك إلا من قد آمن سابقاً، وهم قلّة قليلة، فلا تحزن عليهم، ولا يهمنك أمرهم، فدعا عليهم نوح بإذن ربّه وبعد هذا الوحي قائلاً: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٧١/٢٦].

واصنع السفينة برعايتنا وحفظنا وحراستنا وبتعليمنا لك ما تصنعه لتنجو بها مع المؤمنين، وكيلا تخطئ، ولا تراجعني يا نوح ولا تدعُني في شأن قومك ودفع العذاب بشفاعتك، فقد وجب عليهم العذاب، وتم الحكم عليهم بالإغراق.

وبدأ نوح عليه السَّلام بصنع السفينة، وكلما مرَّ عليه جماعة من أشراف قومه، استهزؤوا به ومن صناعته، وكذبوا بما توعَّدهم به من الغرق، فقال نوح على سبيل الوعيد والتهديد الأكيد: إن تسخروا منا لصنع هذه السفينة، فإنا سنسخر منكم في المستقبل حين الغرق، كما تسخرون منا الآن، فسوف تعلمون قريباً بعد تمام العمل من يأتيه عذاب يهينه في الدنيا، وهو عذاب الغرق، ويحل عليه عذاب مقيم، أي دائم مستمر.

(١) بحفظنا وكلاءتنا. (٢) ينزل به. (٣) نبع الماء من تنور الخبز المعروف. (٤) وقت إجرائها. (٥) وقت إرسائها.

حتى إذا حان وقت مجيء أمرنا بالهلاك من المطر الغزير، ونبع الماء من التَّنور: موقد الخبز أو وجه الأرض، وارتفع كما تفور القدر بغليانها، وكان ذلك علامة لنوح عليه السّلام، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ٥٤/١١-١٣].

وقلنا لنوح: احمل في السفينة من كل نوع من الحيوان زوجين اثنين: ذكراً وأنثى، حفاظاً على أصل النوع الحيواني، واحمل فيها أهل بيتك إلا امرأتك وابنك: كنعان، وهما من سبق عليه القول واستقرَّ عليه الحكم بأنه من أهل النار، لاختياره الكفر وإبائه الإيمان، لا لتقديره عليه.

وخذ معك من آمن من قومك، وإن لم يؤمن إلا عدد قليل، أو نزر يسير، مع طول المدة واستمرار دعوتهم إلى الإيمان ألف سنة إلا خمسين عاماً. وكان المؤمنون ثمانين نفساً، منهم نساؤهم.

وأخبر الله تعالى نوحاً عليه السّلام أنه قال لمن حملهم في السفينة أن يدعوا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ١١/٤١]. أي باسم الله وبركته يكون جريها على سطح الماء، وباسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رسوها على مرفأ آمن، بتسخير الله وقدرته، إن ربي غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم، فلولا مغفرته لذنوب عباده ورحمته بهم لما نجاكم. وذكر المغفرة والرحمة بعد ذكر حكم الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين هو شأن القرآن في بيان الأضداد والمتقابلات، كما في آية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧/١٦٧]. وآية المغفرة والرحمة في هذا المقام الخطير وقت الإهلاك والغرق في غاية الإشعار بفضل الله ورحمته على عباده المؤمنين الذين نجاهم.

أما الطوفان: ففي ظاهر الروايات وكتب التفاسير أنه نال جميع أهل الأرض المأهولة قديماً، وعم الماء جميع المعمورة، كما ذكر ابن عباس وغيره، ويوجب ذلك أمر نوح بحمل الأزواج من الحيوان، خوف فناء أجناسها من جميع أنحاء الأرض.

- ٤ -

رحلة سفينة نوح

كانت سفينة نوح أول سفينة في التاريخ، وكانت رحلتها أول رحلة بحرية لمسافة طويلة، تكتنفها المخاطر، وتحيط بها الجهالة والغموض، والتّكهنات، لكن أمان الله ووعده بنجاة المؤمنين كان برداً وسلاماً، وحماية من القلق والخوف. وتم أمر الله ومراده ونجت السفينة، وهبطت في مكان آمن، وكان ابن نوح من امرأته مثلاً للجحود والعناد ومحاولة الإفلات من الغرق، فطالته بسهولة إرادة الله، وكان من الهالكين. صوَّر القرآن الكريم هذه الرحلة الأولى لسفينة نوح عليه السَّلام في الآيات التّالية:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ[1] إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ[2] ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي[3] وَغِيضَ ٱلْمَآءُ[4] وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ[5] ۖ وَقِيلَ بُعْدًا[6] لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ

---

(١) سألتجئ. (٢) لا مانع ولا حافظ. (٣) أمسكي عن إنزال المطر. (٤) نقص وذهب في الأرض. (٥) جبل قرب الموصل. (٦) هلاكاً.

عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ١١/ ٤٢-٤٧].

هذه أول رحلة بحرية في التاريخ، تسير بها سفينة نوح عليه السّلام، تمخر عباب البحر، وتشقُّ أوساط الأمواج العظيمة بسبب الرياح الشديدة العاصفة، فسارت بركّابها بإذن الله ورعايته، وهي تجري بهم بسرعة على وجه الماء الذي ارتفعت أمواجه، كالجبال الشاهقة، وطالت قمم الجبال ورؤوسها العالية، ونادى نوح ابنه كنعان -وكان ابن امرأته- وكان في معزل -أي ناحية- عنه، وكافراً برسالة نوح، فطالبه بالإيمان والركوب معه، حتى لا يغرق ويكون مع الكافرين الهالكين.

فردَّ الابن الجاحد العاصي على نوح قائلاً: سآوي وأصير إلى جبل يحفظني من الغرق في الماء، ظنّاً منه أنه ماء سيل عادي، يمكن النَّجاة منه بالتَّحصُّن في مكان عال أو جبل شامخ. فأجابه نوح عليه السّلام: ليس شيء يعصم اليوم من الماء وأمر الله وعذابه الذي يعاقب به الكافرين، لكن يحفظ من رحم الله، ومن رحمه فهو المعصوم. وحال الماء الذي بدأ يرتفع بين الوالد والولد أثناء النقاش، فكان من المغرقين الهالكين.

وتم الحدث الرهيب، وغمر الماء الأرض كلها، ولما تحقق المراد ونجى الله أصحاب السفينة، أمر الله الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تكفَّ عن نزول المطر، ونادى الرَّبُّ عزّ وجلّ: يا أرض ابلعي ماءك الذي تفجر منك، ويا سماء كفِّي عن المطر، فغاض الماء، أي نقص، امتثالاً للأمر الإلهي، وقضي الأمر، أي أنجز ما وعد الله به نوحاً من هلاك قومه الظالمين، واستقرَّت السفينة بمن فيها على جبل الجودي بالجزيرة شمالي العراق، في الموصل، وقيل: هلاكاً وخساراً للقوم الظالمين، وبُعداً من رحمة الله.

وكرَّر نوح سؤال ربِّه قائلاً: ربِّ إن ابني من أهلي، وقد وعدتني بنجاتهم، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فما مصيره؟ وأنت أحكم الحاكمين وأعدُلهم بالحق. وهذه الآية تقتضي أن نوحاً عليه السَّلام ظنَّ أن ابنه مؤمن.

فأجابه ربُّه: يا نوح إن ابنك ليس من ولدك ولا من أهلك الذين وعدت بإنجائهم، إنما وعدتك بإنجاء من آمن، وابنك ذو عمل غير صالح، أي تنكَّر لدعوة الهدى والرَّشاد والصَّلاح، وانضم إلى فئة الكافرين، فلا تطالب مني شيئاً ليس لك به علم صحيح، ولا تعرف مدى صوابه، وأنهاك أن تكون من جماعة الجاهلين الذين يطلبون إبطال حكمة الله وحكمه، فلا تكن من الآثمين. وهذا دليل على أن العبرة بقرابة الدين، لا بقرابة النَّسب، وأن حكم الله في خلقه قائم على السواء والعدل المطلق دون محاباة أحد. وأن المخالف يستوجب التقريع، وأن الجهل كناية عن الذنب.

فقال نوح: ربِّ إني ألتجئ إليك وأستعيذ بك و بجلالك أن أسألك ما ليس لي به علم صحيح، وإن لم تغفر لي ذنب سؤالي هذا، وترحمني بقبول توبتي وإنابتي، أكن من الخاسرين أعمالاً. وهذا طريق الصالحين بالتَّذلل والانقياد لربِّ العالمين، وإن كان العبد نبيّاً أو رسولاً. وفي قصة نوح عبرة وعظة شديدة التأثير لكل من كفر بالله وكذب رسله.

فائدة قصة نوح عليه السَّلام

إن في إيراد قصص الأنبياء السابقين فوائد جليلة وحِكَماً تشريعية ودينية عظيمة، ففيها ربط الماضي بخاتمة الرسالات السماوية، ودفعة قوية دائمة إلى الأمام بالإفادة من تاريخ الأنبياء، ومعرفة مدى مؤازرة الله لهم؛ لأنهم دعاة الحق، والعلم بمواطن العبرة والعظة البالغة من القصة القرآنية التي هي منار الطريق، وبيان السبيل لكل من

أراد الخير للأمة والمجتمع، والإنسان ذاته. وقصة نوح عليه السّلام نبراس القصص القرآني، ومنطلق كل التوجُّهات والتحرُّكات الدَّعوية لعبادة الله وتوحيده، وإعلان هزيمة الشِّرك والوثنية، وإنهاء تاريخ العتاة والطُّغاة وعبدة الأوثان باستئصالهم وتطهير ساحة الأرض من أرجاسهم. لذا أورد القرآن آيات بليغة تصوِّر مواطن العظة والعبرة من قصة نوح عليه السَّلام في الآيات التالية:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ[1] عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ١١/٤٨-٤٩].

بعد أن نجى الله تعالى نوحاً ومن آمن معه برسوِّ سفينته على جبل الجودي في أرض الموصل بالعراق، في ديار بكر، وأهلك الظلمة الوثنيين الكفار بالغرق في الطوفان، أبان تعالى العبرة من القصة، ممثَّلة في أمرين:

الأمر الأول: تكريم نوح عليه السَّلام والمؤمنين معه بالخروج من السفينة بسلام، ثم بالبركة بعدئذ له وللمؤمنين معه.

والأمر الثاني: الإخبار عن أمور غائبة مجهولة عن الناس، تكون بمثابة الإنذار لمن كفر بالله، وبيان فائدة الصبر لأهل الإيمان.

والمعنى: قيل لنوح عليه السَّلام إما بالوحي المباشر من الله تعالى أو بواسطة الملائكة بعد انتهاء الطوفان وحبس المطر وابتلاع الأرض ماءها: اهبط من السفينة إلى الأرض على جبل الجودي بسلام وأمان وحفظ من جهتنا، ومصحوباً ببركات: وهي النِّعم الثابتة والخيرات النامية، والبركات: تغمرك وتعمّ بهذا الوعد جميع

(١) خيرات.

المؤمنين إلى يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾ تعني ذرِّية من معك ومن نسلهم. وقوله سبحانه: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ تعني: وممن معك أممٌ سنمتعهم في الدنيا: وهم الكفار إلى يوم القيامة، وهذا يشمل كل كافر إلى يوم القيامة.

فيصير المعنى: إن السَّلام منا، والبركات عليك وعلى أُمم مؤمنين، ينشؤون ممن معك. وممن معك أمم ممتعون في الدنيا، منقلبون إلى النار.

وكان نوح عليه السَّلام أب الأنبياء، والمخلوقات البشرية بعد الطُّوفان منه وممن كان معه في السفينة. وهكذا عم السَّلام الإلهي والتَّبريك كل المؤمنين، ولله الحمد. لكن سيكون بعض نسل المؤمنين جماعةً آخرين من بعدهم، كفرةً، يمتِّعهم الله في الدنيا بالأرزاق والبركات، ثم يصيبهم العذاب الأليم في الآخرة. ويصير الناس بعد نوح قسمين: قسم مؤمنون صالحون ممتَّعون في الدنيا والآخرة، وقسم ممتَّعون في الدنيا فقط، معذَّبون في الآخرة.

ثم أورد الله تعالى العبرة من قصة نوح بقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ..﴾ أي تلك الأخبار عن نوح وقومه من أخبار الغيبيات التي تقادم العهد عليها، ولم يبق علمها إلا عند الله تعالى، ولا تعلم بها أيها النَّبي، كما لا يعلم بها قومك. ونحن نوحيها إليك لتكون لك هداية وأُسوة فيما لقيه غيرك من الأنبياء، وتكون لقومك مثالاً وتحذيراً، لئلا يصيبهم إذا كذَّبوك مثل ما أصاب هؤلاء وغيرهم من الأُمم المعذَّبة.

فاصبر على تكذيب قومك وأذاهم لك، واجتهد في تبليغ رسالتك، وجِدَّ في إيضاح الرسالة القرآنية، واصبر على الشدائد، كما صبر نوح عليه السَّلام على أذى الكفار، واعلم أن العاقبة والنصر والنجاة لك، كما كانت لنوح في هذه القصة، كما أن النصر يكون من بعدك لأهل التقوى الذين يطيعون الله، ويتجنَّبون المعاصي. وهذه سنّة الله الدائمة بنصر المرسلين على أعدائهم الكافرين، كما أخبر الله تعالى في

قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٤٠/٥١].

هود عليه السَّلام مع قومه

- ١ -

دعوته إلى عبادة الله

هذه قصة عجيبة أخرى تثير الوجدان والضمير بعد قصة نوح عليه السَّلام أبي البشر الثاني وأول رسول إلى الناس، وهي قصة هود عليه السَّلام أول من تكلم بالعربية من ذرِّية نوح، وفي القصَّتَين تشابه غريب، ففي كل منهما تبليغ القوم الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده، وردّهم على رسولهم أسوأ ردّ، ونهاية متشابهة وهي إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين. قال الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ(١) ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا(٢) وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ(٣) بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى(٤) جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ(٥) ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ(٦) ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ١١/ ٥٠-٥٦].

---

(١) خلقني. (٢) غزيراً متتابعاً. (٣) أصابك. (٤) احتالوا في كيدي وضُرِّي. (٥) لا تمهلوني. (٦) مالكها وقادر عليها.

وكما أرسلنا نوحاً إلى قومه، أرسلنا هوداً إلى قبيلة عاد العربية التي كانت تسكن الأحقاف (شمالي حضرموت وغربيّ عُمان) وكانت ذات قوة وبأس وزراعة وماشية، وزادهم الله بسطة في الجسم والمال، وهم خلفاء قوم نوح.

دعاهم هود عليه السَّلام إلى نوعَيْن من التكاليف:

النوع الأول- دعاهم إلى عبادة الله وتوحيده، مبيِّناً لهم بالدليل أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فلا تعبدوا وثناً ولا صنماً، ولا تشركوا به شيئاً، مالكم من إله غيره، هو الخالق والرّازق، وما أنتم إلا مفترون على الله الكذب باتّخاذ الشُّركاء لله وأنها شفعاء لكم.

ويا قوم، لا أطلب على دعوتي إياكم لعبادة الله وترك عبادة الأوثان أجراً أو مالاً ينفعني، فما أجري أو ثوابي إلا على الله الذي خلقني على الفطرة السليمة -فطرة التوحيد- أفلا تعقلون قول من يدعوكم إلى صلاحكم في الدنيا والآخرة، وتدركون أنه ليس غير الله الفاطر الخالق إلهاً.

والنوع الثاني من التكاليف التي دعا إليها هود: الاستغفار والتوبة. والاستغفار: طلب المغفرة بالإيمان، والتَّوبة: الاعتراف بالذَّنب والنَّدم عليه والرجوع عنه. وإيمان الكافر: هو توبته من كفره، لأنه هو نفسه رجوعه عنه.

يا قوم، اطلبوا المغفرة على الشِّرك والكفر والمعاصي السابقة، وأخلصوا التوبة له، فإذا استغفرتم وتبتم، يرسل الله عليكم مطراً غزيراً متتابعاً -وكانوا بأشد الحاجة إلى المطر بعد منعه عنهم ثلاث سنين، لأنهم أصحاب زروع وبساتين- ويزدكم قوة إلى قوتكم بالأموال والأولاد، وعزّاً إلى عزِّكم -وقد كانوا أقوياء أشدّاء يهمهم التَّفوق على الناس- ولا تعرضوا عن دعوتي، مصرِّين على إجرامكم وآثامكم، فلا تتولوا عن الحق ولا تعرضوا عن أمر الله تعالى.

فأجابه القوم بمطالب أربعة: وهي تقديم البيِّنة على صدق قوله، والإصرار على عبادة الأصنام الآلهة المزعومة بالرغم من قوله ودعوته، وعدم التَّصديق برسالته (أي رسالة هود) حفاظاً على الموروثات والتقليد، وما نقول إلا أن بعض الآلهة لما سَبَبْتَها وضَلَّلتَ عبدتها، أصابك بجنون، وفسد عقلك.

فأجابهم هود معتصماً بالله ربِّه: أُشهد الله واشهدوا على أني بريء من شرككم ومن عبادة الأصنام. وإذا كنت بريئاً من جميع الأصنام التي تشركونها مع الله، فاجْمَعوا كل ما لديكم من أنواع الكيد لي، ولا تمهلوني طرفة عين، إني فوَّضت أمري كله لله ربِّي وربِّكم، وتوكَّلت عليه، مع ضعفي وانفرادي، وقوتكم وكثرتكم، إنه هو الذي يمنعني منكم، ويحجز بيني وبينكم.

ثم وصف قدرة الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾، والتعبير بالنَّاصية لأنها في العرف حيث يسيطر عليها المالك، أي ما من دابَّة تدبُّ على الأرض إلا وهي تحت سلطان الله وقهره، فهو مصرف أمرها ومسخِّرها، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور، إنَّ ربِّي على صراط مستقيم، أي على الحق والعدل. وهذا الجواب من هود عليه السَّلام فيه تحدٍ وقلّة مبالاة بالقوم لعدة أمور؛ هي: البراءة من الشِّرك، وإشهاد الله على ذلك، وإشهادهم على براءته من شركهم، وطلبه المكايدة له، وإظهار قلة المبالاة بهم، وعدم خوفه منهم ومن آلهتهم المزعومة.

- ٢ -

نهاية قبيلة عاد وقوم هود

إن نهايةالطُّغاة الذين يعارضون دعوة الرُّسل عليهم السَّلام نهاية وخيمة، لأنهم هم الذين يحجبون الخير والصلاح عن أمتهم، ويبقونها في حالة من المذلَّة والتَّخلف

والهوان. وما كان أسعدهم وأنفعهم لمجتمعهم لوأخذوا بأيديهم نحو القيم العليا، فأقرّوا بتوحيد الله، والتزموا الأخلاق السوية، وتسبّبوا في إمداد الله لهم بالنِّعم الوفيرة، والخيرات الكثيرة، فاستحقّوا البقاء والعزّة والتّفوق، وكانوا أمثولة الأُمم والشعوب.

وفي القرآن الكريم بيان لنهاية أقوام عتاة، تمرَّدوا على أنبيائهم، ومن أشهرهم قبيلة عاد قوم هود، الذين عادَوْا رسولهم وأعرضوا عن دعوته، قال الله تعالى واصفاً موقفهم العنيد ونهايتهم السَّيئة:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ(١) ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ(٢) عَنِيدٍ(٣) ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ(٤) قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: ١١/٥٧-٦٠].

يمتلئ قلب النَّبي عادة بعاطفة الحبِّ لقومه، مريداً لهم الهداية، ويكون مهموماً مغموماً إذا أعرضوا عن رسالته، منكَّد العيش، كاسف (عابس) الوجه، حزين البال (القلب أو الحال). وهذا ما نراه في نفس هود عليه السَّلام فإنه قال لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ..﴾ أي إن تتولّوا وتعرضوا عما جئتكم به من عبادة الله ربّكم وحده لا شريك له، فقد بلَّغتكم رسالة ربِّي التي بعثني بها إليكم، وبقدرة الله أن يهلككم ويستخلف قوماً غيركم في دياركم وأموالكم، ويكونون أطوع لله منكم، ولا تضرّونه شيئاً بتولِّيكم وكفركم، بل يعود وبال ذلك عليكم، ولا تضرّونه شيئاً، وإنما تضرّون أنفسكم، إن ربِّي على كل شيء رقيب، مهيمن عليه، فما تخفى عليه أعمالكم، ولا يغفل عن مؤاخذتكم.

(١) شديد. (٢) متعاظم. (٣) معاند للحق. (٤) هلاكاً لهم.

وتحقق ما توعَّدهم به هود، ونزل العذاب بهم، ولما حان وقت نزول أمر الله بالعذاب، ووقع العذاب فعلاً، وهو تدميرهم بريح صرصر عاتية، نجى الله هوداً والمؤمنين معه من عذاب شاق شديد، برحمة من الله ولطف، وأهلك الله القوم الظالمين، فجعل ديارهم عاليها سافلها، ودمَّرت الريح كل شيء من منازل القوم وممتلكاتهم.

وأسباب ذلك العقاب الشامل ثلاثة أمور: هي جحود عاد دلائل المعجزات على صدق نبيِّهم هود، وأدلَّة المحدثات المخلوقات على وجود الصانع الحكيم، وعصيان رسولهم، ومن عصى رسولاً واحداً، فقد عصى جميع الرُّسل، لذا قال تعالى: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ﴾. وتقليدهم رؤساءهم واتِّباعهم أوامر كل جبّار عات، عنيد مكابر.

ولم يقتصر العقاب على الإهلاك والتدمير، وإنما أُتبعوا في الدنيا وفي الآخرة لعنة دائمة، واللعنة: الإبعاد والخزي، فلحقتهم لعنة الله وعباده المؤمنين في الدنيا كلما ذكروا، وتجوز لعنة الذين ماتوا على الكفر، ولا يلعن معين حي، لا من كافر ولا من فاسق ولا من بهيمة، كل ذلك مكروه بالأحاديث. وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الخلائق: ألا إن عاداً كفروا بربِّهم وبنعمه، وجحدوا بآياته، وكذبوا رسله، ألا بُعداً وطَرداً من رحمة الله لعاد قوم هود. فعلّة لعنهم هي كفرهم بربِّهم، وهذا دعاء عليهم بالهلاك والدّمار والبعد عن الرحمة.

لو علم هؤلاء قبل هذه النهاية الوخيمة ما يحلُّ بهم، لفكّروا وراجعوا حسابهم، وأصلحوا أمورهم، وصحّحوا عقائدهم، واستقاموا على أمر الله ربّهم. وإذا لم يفعلوا كانوا حمقى، ولم يكونوا مأسوفاً عليهم، لقد طواهم التاريخ، وأنهى ذكرهم إلا من طريق التذكير والاعتبار للأجيال اللاحقة بهم، حتى لا يتورّطوا بمثل ما فعلوا، فيعاقبوا بمثل ما عوقبوا. وهذه هي الفائدة والعبرة التي نستفيدها من تكرار تلاوة الآيات القرآنية في شأنهم إلى يوم القيامة، لنعلم علم اليقين أن الجزاء العادل

حق وواجب، حقّ للضعفاء، وواجب على الأقوياء الذين تسبَّبوا إضلال أتباعهم، وإنهاء وجودهم في الحياة.

وفائدة قوله تعالى: ﴿لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ هو تعيين عاد القديمة، تمييزاً لهم عن عاد التي هي إرم ذات العماد، فهما قومان مختلفان، ومتشابهان في عقاب الدنيا.

صالح عليه السَّلام مع قومه

- ١ -

دعوته إلى عبادة الله

إن دعوة الأنبياء والرُّسل عليهم السّلام لأقوامهم واحدة الجوهر، متشابهة الرَّد والقبول، متماثلة في الغايات والنتائج، مقرونة بالمعجزات الدَّالة على صدقهم بترتيب الله تعالى وإذنه. ومن هؤلاء الرُّسل: صالح عليه السّلام دعا قبيلة ثمود في مساكن الحجْر بين الحجاز والشام إلى عبادة الله وتوحيده، فقاوموه وعادوه بالرغم من تأييد الله له بمعجزة النّاقة، فاستحقّوا عقاب الله وتعذيبه. وهذا مضمون دعوته الأصلية، قال الله سبحانه:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ(١) ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ(٢) إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ(٣) ﴿٦٣﴾﴾ [هود: ١١/ ٦١-٦٣].

---

(١) موقع في الريبة . (٢) أخبروني . (٣) خسران إن عصيته .

هناك تشابه في النَّظْم بين قصة هود وقصة صالح عليهما السَّلام، إلا أن صالحاً لما أمر قومه بالتوحيد في مساق إيراد القصة هنا ذكر دليلين على وجود الله ووحدانيته: هما الإنشاء من الأرض، والاستعمار فيها، أي جعلهم عماراً لها. ومعنى الآيات: وأرسلنا إلى قبيلة ثمود الذين كانوا يسكنون الحجْر بين تبوك والمدينة المنورة رجلاً منهم، أخاهم في النَّسب والقبيلة، وهو صالح عليه السَّلام، فأمرهم بعبادة الله وحده، فلا إله غيره، وأقام لهم دليلين على توحيد الإله:

الدليل الأول -قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ابتدأ خلقكم منها، إذ خلق منها أباكم آدم عليه السَّلام، فهو أبو البشر، ومادة التراب هي المادة الأولى التي خلق منها آدم، ثم خلقكم أنتم من سلالة من طين بوسائط النطفة والعلقة والمضغة، وأصل النطفة من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء إما من نبات الأرض أو من اللحم الذي يرجع إلى النبات.

والدليل الثاني -قوله: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي جعلكم عُمّاراً تعمرونها وتستغلونها بالزراعة والصناعة والبناء والتَّعدين، فتكون الأرض قابلة للعمارة النافعة للإنسان، وكون الإنسان قادراً عليها دليل على وجود الصانع الحكيم الذي قدَّر فهدى، ومنح الإنسان القدرة على التَّصرف، والعقل على تنظيم الإدارة والاستثمار.

وإذا كان الله هو المستحق للعبادة وحده، فاستغفروه لسالف ذنوبكم من الشِّرك والمعصية، ثم توبوا إليه بالإقلاع عن الذنب في الماضي، والعزم على عدم العودة إليه، والنَّدم على ما حدث.

إن ربِّي قريب من خلقه بالرحمة والعلم والسمع، ومجيب دعوة الدّاعي المحتاج المخلص، بفضله ورحمته. كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٦].

فأجابه قومه جهلاً وعناداً بقولهم: يا صالح قد كنت فينا مرجوّاً، أي مُسوَّداً، نؤمل فيك أن تكون سيِّداً من الأكابر، قبل دعوتك هذه، فهي محل تعجُّب لأنك تنهانا عن عبادة الآباء والأسلاف، وهي عبادة الأوثان والأصنام، وإننا نشك كثيراً في صحة ما تدعونا إليه من عبادة الله وحده، وترك التَّوسُّل إليه بالشُّفعاء المقرَّبين عنده.

والشَّك: التَّوقف بين النَّفي والإثبات. والمريب: هو الذي يظن به السوء. والمقصود التزام التقليد ومتابعة الآباء والأجداد في عبادة الأوثان. فأجابهم صالح عليه السَّلام مبيِّناً ثباته على منهج النُّبوة بقوله: كيف أعصي الله في ترك ما أنا عليه من البيِّنة، أخبروني عماذا أفعل، إن كنتُ على برهان وبصيرة ويقين فيما أرسلني به إليكم، وآتاني منه رحمة، أي نبوّة ورسالة تتضمن وجوب تبليغ ما أوحى الله به إلي.

وبما أنني نبي مرسل من عند الله، فانظروا من الذي ينصرني ويمنعني من عذاب الله إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره؟ وإذا تابعتكم وتركت دعوتكم إلى عبادة الله وحده، لما نفعتموني، ولما زدتموني حينئذ غير الوقوع في الخسارة والضلال، بأخذ ما عندكم، وترك ما عند الله الذي يريد الخير لكم.

إن الفرق واضح في الأسلوب بين القوم والنَّبي، فالقوم ثمود قابلوا صالحاً عليه السّلام بما يفيد التوبيخ والاتِّهام، ويدلُّ على التصميم على الكفر، والنَّبي صالح يتلطَّف بهم ويحاول إقناعهم بصحة دعوته إلى توحيد الله، معتمداً على أسلوب النِّقاش العقلي الهادئ، والمثير كوامن التفكير والتأمل فيمن هو أجدر بالعبادة، أهي الأصنام الصَّماء التي لا تضرُّ ولا تنفع، أم الإله الخالق الرّازق، الممكِّن عباده من الانتفاع بخيرات الأرض وثمارها؟! إن العاقل البصير هو الذي يختار عبادة الأحقّ والأنفع، وترك غيره مما لا يشبهه في شيء من صفاته.

- ٢ -

معجزة النّاقة

علم الله تعالى ما في طبع البشر من العناد والاستبداد، والمطالبة بالدليل على صدق الدعوة، فأيّد رسله وأنبياءه الكرام بالمعجزات لتدلّ على صدقهم، والمعجزة: هي الأمر الخارق للعادة والإمكانات البشرية المألوفة. ومن غرائب المعجزات: ناقة صالح عليه السّلام، سواء في طريقة إيجادها، أم في نتاجها ولبنها، فهي بخلق مباشر من الله تعالى من غير تناسل ولا توالد، وتدرُّ لبناً غزيراً لا ينفد ولا ينقطع، تكفي جميع أبناء القبيلة الذين يحلبون منها ما شاؤوا، دون أن يجفَّ الضّرع أو ينضب اللبن. وهذا ما أخبر به القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ[1] فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ[2] فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ[3] ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ[4] أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ[5] ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ١١/ ٦٤-٦٨].

هذه معجزة النّاقة. رُوي أن قوم صالح طلبوا منه آية تضطرهم إلى الإيمان، فأخرج الله جلّت قدرته لهم النّاقة من الجبل. وخرجت عُشَراء، ووضعت بعد خروجها، فمنحها صالح عليه السّلام لهم قائلاً:

هذه آية على صدقي ناقة الله، التي تتميز عن سائر الإبل بأكلها وشربها وغزارة

---

(١) معجزة دالّة على نبوّتي. (٢) صوت مهلك. (٣) ميتين لا حراك لهم. (٤) لم يقيموا فيها طويلاً برغد.
(٥) هلاكاً لهم.

لبنها، كما في آية أخرى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٢٧-٢٨].

فاتركوها تأكل ما شاءت في أرض الله من المراعي، دون أن تتحملوا عبء مؤنتها، وإياكم أن تمسّوها بسوء من أي نوع كان، فيقع بكم عذاب عاجل، لا يتأخر عن إصابتكم، فقالوا: عياذاً بالله أن نفعل ذلك.

فلم يسمعوا نصحه، وكذّبوه وعقروا النّاقة، عقرها بتواطؤ معهم أشقاهم وهو قُدار بن سالف، كما قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٢٩]. فقال لهم صالح: تمتعوا بالعيش في بلدكم (دياركم) مدة ثلاثة أيام، أي هذا ميعاد ثلاثة أيام للعذاب، ذلك وعد صادق مؤكد غير مكذوب فيه.

ثم وقع ما أوعدهم به، فلما حان وقت أمر الله بالعذاب والهلاك، ونزلت الصاعقة، نجى الله تعالى صالحاً والمؤمنين معه، برحمة سابغة منه، نجاهم من عذاب شديد، ومن ذلٍّ ومهانة حدثت يومئذ، أي يوم وقوع الهلاك: يومَ التعذيب. والخزي: الذُّلّ العظيم البالغ حدّ الفضيحة، إن ربَّك هو القوي القادر الغالب على كل شيء، العزيز، أي الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وأصبح أمرهم أنه أخذتهم صيحة العذاب، وهي الصاعقة ذات الصوت الشديد المهلك، التي تزلزل القلوب، وتصعق عند سماعها النفوس، فصعقوا بها جميعاً، وأصبحوا جثثاً هامدة ملقاة على الأرض.

وكأنهم لسرعة هلاكهم لم يوجدوا في الدنيا، ولم يقيموا في ديارهم، بسبب كفرهم وجحودهم بآيات ربّهم، ألا إنهم كفروا بربّهم، فاستحقّوا عقابه الشديد، ألا بُعداً لهم عن رحمة الله، وسحقاً لثمود، وهلاكاً لهم ولأمثالهم. وقوله سبحانه: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟﴾ من غنِيَ في المكان: إذا أقام فيه في خفض عيش، وهي المغاني.

قد يتعجب سائل فيسأل: كيف يهلك قوم من أجل قتل ناقة؟ والجواب: أن المعادلة أو المساواة لا يصح أن تكون هي أساس الحكم هنا، لأن تواطؤ قبيلة ثمود وأمرهم أشقاها بعقر الناقة دليل على الإصرار على الكفر، والتَّمسُّك بعبادة الأوثان والأصنام، ورفض دعوة الأنبياء والمرسلين هداة البشرية إلى الحقِّ والنُّور والخير، فاذا قورنت هذه المساوئ ممثَّلة بعقر النّاقة مع ما تؤول إليه من خسارة اجتماعية كبرى، ومأساة إنسانية عامّة، هان الأمر، وأدرك الناس عن وعي وتقدير أن معاداة الرسالات الإلهية تنبئ عن معان مثيرة ومواقف مدهشة، وأوضاع قلقة مليئة بالفوضى والمنازعات، فيكون عقر الناقة موجباً لمثل هذا العذاب الاستئصالي ليدرك البشر أن الحقَّ والخير في دعوة الأنبياء، ولا يصلح لأحد الوقوف أمامها وتحدِّيها.

بشارة إبراهيم عليه السّلام بولد عند الكبر

تتعدد مظاهر قدرة الله في خلق الإنسان، فإما أن يخلقه الله مباشرة من غير أب ولا أم كآدم عليه السَّلام، وإما أن يخلقه من غير أب كعيسى عليه السَّلام، وإما أن يخلقه من غير أُم كحواء أم البشرية، وإما أن يحدث الخلق في الوقت المعتاد زمن الشباب كأغلب الناس، أو يحدث الخلق في حال العجز والشيخوخة والكبر، كخلق يحيى وإسحاق عليهما السَّلام. وتصف لنا آي القرآن المجيد كيفية ولادة إسحاق من أبوين كبيرين عجوزين هما إبراهيم عليه السَّلام وامرأته سارَّة الآيسة من الحيض، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(١) ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ(٢) وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً(٣) قَالُوا۟ لَا

(١) مشوي بالحجارة المحماة في حفرة. (٢) أنكرهم ونفر منهم. (٣) أحسّ في قلبه منهم خوفاً.

تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ
إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ
﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ(١) ﴿٧٣﴾
فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ(٢) وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ
أَوَّٰهٌ(٣) مُّنِيبٌ(٤) ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ
مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ [هود: ١١/ ٦٩-٧٦].

لما ولد لإبراهيم أبي الأنبياء عليه السَّلام إسماعيل من هاجر، تمنَّت زوجته الثانية أن يكون لها ابن، وأيست لكبر سنِّها، فبشّرت بولد يكون نبيّاً، ويلد نبيّاً، وكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها.

والقصة في الآيات التي معناها: تالله لقد جاءت رسلنا الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، أو عزرائيل ملَك الموت إلى إبراهيم الخليل تحمل له البشارة بولده إسحاق، فلما دخلوا عليه قالوا له: سلاماً عليك، قال: سلام عليكم. وهذا أحسن مما حيّوه، لأن صيغة الرفع تدلُّ على الثبوت والدوام. فما لبث، أي أبطأ وذهب سريعاً، فأتاهم بالضيافة بعجل حنيذ، أي مشوي يقطر ماؤه على الحجارة المحماة. فلما رأى إبراهيم عليه السَّلام هؤلاء الأضياف لا تمتد أيديهم إلى الطعام، أنكر ذلك منهم، وملأه الذعر والخوف، إذ أدرك أنهم ليسوا بشراً، وربما كانوا ملائكة عذاب. قال ابن عطية: وفي هذه الآية من أدب الطعام أن للمضيف أن ينظر نظرة لطيفة غير محددة النظر إلى ضيفه، هل يأكل أم لا؟

قالوا له: لا تخف، فنحن لا نريد سوءاً بك، وإنما أرسلنا لإهلاك قوم لوط، وكانت ديارهم قريبة من دياره. ونحن نبشِّرك بولادة غلام عليم لك، يحفظ نسلك،

(١) كثير الإحسان والخير. (٢) الخوف. (٣) كثير التأوُّه خوفاً من الله. (٤) راجع إلى الله تعالى.

ويبقي ذِكْرك، وهو إسحاق، ويلد من بعده يعقوب الذي من ذرِّيته أنبياء بني إسرائيل، ويسمى ولدُ الولدِ الولدَ من الوراء.

وكانت امرأة إبراهيم ابنة عمه (سارّة بنت هارون بن ناحور) واقفة تخدم القوم، وراء ستار، بحيث ترى الملائكة وتسمع محاورة إبراهيم مع أضيافه، فضحكت سروراً بزوال الخوف ونشر الأمن. قال الجمهور: وهو الضحك المعروف، وكان الضحك من البشارة بإسحاق. بشَّرتها الملائكة بولد هو إسحاق، وسيلد له ولد هو يعقوب، فقالت لما بشرت بالولد: عجباً كيف ألد، وأنا عجوز كبيرة عقيم، وزوجي في سنِّ الشيخوخة لا يولد لمثله، إن هذا الخبر لشيء عجيب، غريب عادة. وكلمة ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا﴾ أُضيف الضمير إلى الله تعالى، وإن كانت البشارة من فعل الملائكة؛ لأن ذلك بأمر الله ووحيه. ورُوي أن سارّة كانت في وقت هذه البشارة بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مئة سنة.

فأجابتها الملائكة: كيف تعجبين من قضاء الله وقدره بأن يرزقكما الله الولد وهو إسحاق، فإن الله لا يعجزه شيء في الكون، وهو على كل شيء قدير. ورحمة الله الواسعة وبركاته الكثيرة عليكم يا أهل بيت النُّبوة، وقد حدث توارث النُّبوة في نسل إبراهيم إلى يوم القيامة، إنه تعالى المحمود في جميع أفعاله وأقواله، المستحقّ لجميع المحامد، الممجَّد في صفاته وذاته، فهو محمود ماجد.

ولما ذهب الخوف من الملائكة عن إبراهيم عليه السَّلام حين لم يأكلوا، وبشَّروه بالولد، وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يجادل الملائكة وهم رسل الله في هؤلاء القوم، وجعلت مجادلتهم مجادلة لله؛ لأنهم جاؤوا بأمره، وينفذون الأمر، وجداله لأن إبراهيم حليم غير متعجل بالانتقام من المسيء إليه، كثير التأوُّه مما يسوء الناس ويؤلمهم، ويرجع إلى الله في كل أموره، فهو رقيق القلب، مفرط الرحمة. فأجابته

الملائكة: يا إبراهيم أعرض عن الجدال في أمر قوم لوط، إنه قد جاء أمر ربِّك بتنفيذ القضاء والعذاب فيهم، وإنهم آتيهم عذاب غير مصروف ولا مدفوع عنهم أبداً، لا بجدال ولا بدعاء ولا بشفاعة ونحوها.

قصة لوط عليه السلام مع قومه

انتقل الملائكة الرسل المكلفون بتعذيب قوم لوط أضيافُ إبراهيم عليه السلام من عند إبراهيم إلى قرى قوم لوط، وهم أهل سدوم وما جاورها من القرى في غور الأردن، وبينهم وبين بلد إبراهيم ثمانية أميال، ولما وصلوا بدأت مأساة عجيبة من قوم لوط بالنسبة لهؤلاء الملائكة الحسان، فأرادوا بهم سوءاً، قال ابن عباس: انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط (ابن أخي إبراهيم) وبين القريتين أربعة فراسخ، ودخلوا عليه، على صورة شباب مُرْد من بني آدم، وكانوا في غاية الحسن، ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله. كما لم يعرفهم إبراهيم عند أول مقدمهم. وصف القرآن العظيم ماذا حدث في هذه الآيات التالية:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ(١) وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا(٢) وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ(٣) ﴿٧٧﴾
وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ(٤) وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ
أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ(٥) أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ
مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ(٦) وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ
شَدِيدٍ(٧) ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ(٨)
وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ

(١) نالته المساءة بمجيئهم. (٢) ضعف عن تدبير خلاصهم. (٣) أي شديد في الشر. (٤) يسرعون.
(٥) لاتفضحوني في ضيفي. (٦) من حاجة. (٧) أنضم إلى جانب حصين. (٨) ببقية من الليل.

بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ(١) ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً(٢) عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ١١/ ٧٧-٨٣].

قدم وفد الملائكة إلى بلد لوط، بعدما أعلموا إبراهيم بهلاك قوم لوط في ليلة قريبة، وكانوا في أجمل صورة بهيئة شباب حسان الوجوه، ابتلاء من الله، فساء لوطاً عليه السلام مجيئهم، وضاقت نفسه بسببهم؛ لأنه خاف عليهم شذوذ قومه الجنسي، وخبثهم، وعجزه عن مقاومتهم، وقال: هذا يوم عصيب، أي شديد البلاء والشر، مشيراً إلى ما كان يتخوفه من تعدي قومه على أضيافه، واحتياجه إلى المدافعة، مع ضعفه عنها.

وجاء قوم لوط حينما سمعوا بقدوم الضيوف، بإخبار امرأته إياهم، مسرعين مهرولين من فرحهم بذلك، لارتكاب الفاحشة معهم، وكانوا قبل مجيئهم يعملون السيئات، ويرتكبون الفواحش، وشهد عليهم لوط بقوله: أشهد بالله لهم شرُّ قوم في الأرض، وعدَّدت آية أخرى جرائمهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٩].

فقام لوط إليهم مدافعاً وقال: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ أي بنات القوم ونساؤهم جملة، إذ نبي القوم أب لهم، والنبي للأمة بمنزلة الوالد. وهن أكرم وأطهر لكم، أي تحت طلبكم وأحلُّ لكم. و ﴿أَطْهَرُ﴾ هنا ليس على سبيل المفاضلة، وليس معناها أن إتيان الرجال شيء طاهر، وكذلك مثل قولنا: أحمر، وأسود، أي ذو حمرة، وسواد. فاخشوا الله، وخافوه، واقبلوا ما آمركم به من التمتع بالنساء دون الرجال بعقد الزواج، ولا تفضحوني أو لا تخجلوني في ضيوفي، فإن إهانتهم إهانة لي، أليس منكم رجل ذو رشد وحكمة وعقل وخير، يرشد إلى الطرق القويم.

---

(١) من طين متتابع. (٢) لها علامة خاصة عند ربك.

قالوا: لقد علمت سابقاً ألا حاجة لنا في النساء ولا نميل إليهن، فلا فائدة فيما تقول، وليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأي فائدة في الوعظ؟ قال لوط لقومه متوعداً: لو كان لدي قوة تقاتل معي، أو عشيرة تؤازرني، لقاتلتكم ومنعتكم من تحقيق مرادكم السيّئ. والمراد بالركن الشديد: العشيرة والمنعة بالكثرة بحسب العرف، يعاجلهم به، وهو يعلم أن الله تعالى من وراء عقابهم.

قالت الملائكة بعد هذا الحوار الشديد: يا لوط، إنا رسل ربك، أرسلنا إلى نجاتك من شرهم، وإهلاكهم، ولن يصلوا إليك بسوء، فاخرج مع أهلك بجزء من الليل يكفي لتجاوز حدودها، ولا ينظر أحد منكم إلى ما وراءه أبداً، حتى لا يصيبه شيء من العذاب. امض بأهلك إلا امرأتك. فلا تأخذها معك، إنه مصيبها ما أصابهم من العذاب، لكفرها وخيانتها بدلالة قومها على المنكر. إن موعد عذابهم هو الصبح، من طلوع الفجر إلى شروق الشمس، أليس موعد الصبح بموعد قريب؟ واختيار هذا الوقت لتجمعهم فيه في مساكنهم.

فلما جاء أمر الله بالعذاب، عند طلوع الشمس، ونفذ قضاؤه في قوم لوط، جعل ديارهم وهي قرى سدوم عاليها سافلها، وخسف بهم الأرض، وأمطر عليهم حجارة من طين متحجر، منظم متتابع، معْلِمة للعذاب، عليهم علامة خاصة عند ربك، أي في خزائنه، وليست هي من الكفار الظالمين أي قريش ونحوهم بمكان بعيد، فهي تشمل كل ظالم، ويمرون على تلك الديار في الأسفار، ويشاهدون آثار الدمار والخراب، سواء في الليل أو في النهار.

شعيب عليه السلام مع قومه

- ١ -

دعوته لعبادة الله والإصلاح الاجتماعي

في وسط غنّاء من الحدائق والثمار، والزروع والأشجار، والأرزاق والأنهار، قام النّبي شعيب عليه السّلام خطيب الأنبياء في مَدْين قرب معان بين الحجاز والشام بدعوة قومه إلى عبادة الله وتوحيده، وإلى إصلاح الحياة الاجتماعية بإقامة القسط والعدل في الموازين والمكاييل، والحفاظ على الحقوق، وترك الإفساد في الأرض، واستئصال سبب المنازعات والخلافات بين الناس، وإشاعة المحبة والمودة بينهم. وهذه صفحة مشرقة من حياة هذا النّبي مصورة في الآيات التالية:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ(١) ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا(٢) النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا(٣) فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ(٤) خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ(٥) إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ١١/ ٨٤-٨٨].

هذا مقطع من قصة شعيب عليه السلام في تبليغ دعوته لأهل مدين، ومناقشتهم له وردّه عليهم. والمعنى: ولقد أرسلنا إلى مدين أخاهم في القبيلة شعيباً، الذي كان

(١) مهلك. (٢) لاتنقصوا. (٣) لاتفسدوا بشدة. (٤) ماأبقاه لكم من الحلال. (٥) أخبروني.

من أشرفهم نسباً، فقال: يا قوم، اعبدوا الله وحده لا شريك له، وإياكم نقص الناس حقوقهم في المكيال والميزان، فلا حاجة لكم للظلم، وأراكم بخير، وهذا عام في جميع نعم الله تعالى، أي أراكم بثروة وسعة في الرزق ورفاه في المعيشة، تغنيكم عن الطمع والدناءة في بخس الناس حقوقهم، وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله تعالى، وأخشى عليكم عذاب يوم يحيط بكم جميعاً، فلا يترك أحداً منكم، وهو إما عذاب الاستئصال في الدنيا، وإما عذاب الآخرة في نار جهنم.

ويا قوم، وفّوا الكيل والوزن بالعدل، أخذاً وعطاء، والأمر بالإيفاء زيادة على النهي عن البخس (أي إنقاص الحقوق) للتأكيد والتنبيه على أنه لا يكفي الامتناع عن تعمد التطفيف، بل يلزمهم الإكمال والإيفاء ولو بزيادة قليلة.

ثم نهاهم شعيب عليه السّلام عن النقصان في كل شيء، بإلحاق الظلم والجور في حقوق الناس، كما نهاهم عن السعي في الفساد في أمر الدنيا والدين، مثل قطع الطريق، وقوله بعد النهي عن الإفساد ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ تكرار على جهة التأكيد، أو قصد الإفساد.

وعلل شعيب دعوته إلى إيفاء الحقوق بأن بقية الله خير لهم، أي ما يبقى لهم من الربح الحلال بعد إيفاء الكيل والميزان خير لهم من الحرام، وأكثر بركة، وأرجى عاقبة مما يأخذونه بطريق الحرام، بشرط أن يكونوا مؤمنين، لأن تحقيق الخيرية وثمرتها إنما يكون في حال الإيمان، لا في حال الكفر، والإيمان حافز باعث على الطاعة. ثم قال لهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ أي لست عليكم برقيب على أعمالكم، ولا مستطيع منعكم من القبائح، فالأمر ينبغي أن يصدر عن قناعة ذاتية منكم، ولست أنا إلا ناصحاً أميناً، فافعلوا ما فيه الخير لذاته، لا ليراكم الناس.

فردَّ أهل مدين على شعيب عليه السّلام عما أمرهم به، أما الرَّد على عبادة الله

وحده فقالوا: ﴿يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾ أي هل صلاتك التي تكثر منها تأمرك بترك عبادة آبائنا وأجدادنا، وهي عبادة الأوثان والأصنام، وهذا منهم على سبيل الاستهزاء والسخرية، فهم مصرّون على تقليد أسلافهم في الوثنية.

وأما الرّد على ترك البخس (النقصان) في الكيل والميزان فقالوا: ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ أي وهل صلاتك تأمرك أن نفعل في أموالنا ما نريد فعله؟ ومقصودهم أن مطلبه بالعدل وأداء الزكاة مناف لسياسة تنمية المال وتكثيره، وهو حجر وتقييد لحريتهم الاقتصادية. وهذا هو الفكر المادي الذي لا يميز بين الحلال والحرام، والإفراط في الطمع المادي. وأكّدوا سخريتهم وهزءهم بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي إنك لصاحب الحلم والأناة، والرشد والاستقامة، وأرادوا بذلك وصفه بأضداد هذه الصفات من الجهالة والطيش والغواية.

أجابهم شعيب بما يحسم أطماعهم بقوله: أخبروني يا قوم إن كنت على بصيرة من ربي فيما أدعو إليه، ورزقني منه رزقاً حسناً، وهو النُّبوة والحكمة، ولا أنهاكم عن الشيء وأقع في المنهي عنه، ولا أريد إلا إصلاحكم بمقدار استطاعتي، وليس توفيقي في إصابة الحق فيما أريده إلا بالله وهدايته وعونه، وعليه توكلت في جميع أموري، ومنها تبليغ رسالتي، وإليه أنيب وأرجع. وهذا دليل على ثبات شعيب على المبدأ وإخلاص الدعوة، دون أن يخشى من قومه سوءاً.

- ٢ -

إنذار شعيب قومه بالعذاب ووقوعه بالفعل

لم تُجْدِ وسائل الإصلاح اللينة والكلمة الطيبة بقوم شعيب، فتحول أسلوبه من ليِّن القول إلى الإنذار بالعذاب، وطلبِ المغفرة من الله والتوبة إليه، فازداد تعنُّتهم

وإعراضهم، وأمهلهم ليصلحوا شأنهم أو يترقبوا إنزال العقاب بهم، فلم يبدِّلوا حالهم، فكانت النتيجة عقابهم بالصيحة التي دمَّرتهم، وإنجاء المؤمنين. وهذا ما سجَّله القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ[1] أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ[2] لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ[3] إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ[4] إِنِّى عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟[5] إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ[6] فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ[7] ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ[8] أَلَا بُعْدًا[9] لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ[10] ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ١١/ ٨٩-٩٥].

اشتدَّ حال المعارضين المعاندين لدعوة شعيب، فأنذرهم بالتعرُّض للعقاب قائلاً: يا قوم، لا يحملنكم خلافي معكم، ولا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب غيركم وأمثالكم من العذاب والنقمة، كإغراق قوم نوح، وإهلاك قوم هود بالرِّيح الصَّرصر العاتية، وقوم صالح بالرَّجفة أو الزَّلزلة، وقوم لوط بالصيحة المدمرة، وهذا ليس ببعيد عنكم زماناً ولا مكاناً.

---

(١) لا يحملنكم عداوتي وبغضي. (٢) جماعتك وعشيرتك. (٣) منبوذاً خلفكم. (٤) غاية تمكنكم من أمركم. (٥) انتظروا العاقبة. (٦) صوت مهلك. (٧) ميتين لا يتحركون. (٨) لم يقيموا فيها بنعمة ورفاه عيش. (٩) هلاكاً. (١٠) هلكت من قبل.

واطلبوا المغفرة من ربّكم على سالف الذنوب من عبادة الأوثان و بخس المكيال والميزان، ثم توبوا إليه فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة، وارجعوا إلى طاعته، فإن ربي رحيم بمن تاب إليه وأناب، كثير الود والحب، يحب التائب ويرحم المذنب. وهذا يدل على أن الاستغفار والتوبة يسقطان الذنوب.

لم ينفعهم هذا الأسلوب أيضاً، فلجؤوا إلى الإهانة والتهديد، قائلين: يا شعيب، ما نفهم كثيراً من قولك، مع أنه خطيب الأنبياء، وأنت واحد ضعيف، ولولا رهطك أو عشيرتك وقرابتك لرجمناك بالحجارة، وليس لك معزّة ولا تكريم. والرَّهط: الجماعة من الثلاثة إلى العشرة.

فأجابهم شعيب عليه السَّلام بحلم وأناة قائلاً: يا قومي أرهطي أعزُّ وأكرم عليكم من الله القوي القادر القاهر، واتَّخذتموه وراءكم ظهريّاً، أي تركتموه خلفكم، لا تطيعونه ولا تعظمونه، ولا تخافون بأسه وعقابه، إن ربي محيط علمه بعملكم، عالم بأحوالكم، فلا يخفى عليه شيء منها، وسيجازيكم على أفعالكم.

ولما يئس شعيب عليه السلام من إجابتهم دعوته، حسم الموقف قائلاً: يا قوم، اعملوا على طريقتكم، واعملوا كل ما في وسعكم وطاقتكم من إلحاق الشَّرِّ بي، فإني عامل أيضاً على طريقتي بما آتاني الله من القدرة، أي فأنتم ثابتون على الكفر والضَّلال، وأنا ثابت على الدعوة إلى عبادة الله والثقة بقدرته. ولسوف تعلمون من ينزل به عذاب يخزيه ويذله في الدنيا والآخرة، ومن هو كاذب في قوله مني ومنكم، وانتظروا ما أقول لكم من إيقاع العذاب، إني معكم رقيب منتظر. وهذا وعيد وتهديد لمن يفهم ويدرك المقال.

وبعد نفاد كل محاولات الإصلاح لأهل مدين، نزل بهم العقاب على كفرهم وفسادهم، فلما جاء أمر الله بعذابهم، ونفذ قضاؤه فيهم، نجى الله تعالى رسوله

شعيباً عليه السلام ومن آمن معه، برحمة إلهية خاصة بهم، وأخذت الظالمين الصيحة: وهي صوت من السماء، شديد مهلك مرجف، فأصبحوا قعوداً ميتين لا يتحركون. كأنهم لم يقيموا في بلادهم طويلاً في رغد عيش، ولم يعيشوا فيها قبل ذلك، وصدر بحقهم الدعاء المرجّى تنبيهاً للسامع في كلمة: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أي ألا هلاكاً ودماراً لهم، كما هلكت ودمرت من قبلهم قبيلة ثمود، وكانوا جيرانهم بقرب منهم في الدار، وبينهم تشابه في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم.

هذه هي نهاية الظالمين العتاة، الذين أفسدوا الدين والحياة الاجتماعية، فكانوا عبرة للأجيال. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يعذب الله تعالى أُمَّتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح، فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم.

عافانا الله من البلاء، وجعل نفوسنا لينة لأمر الله، واعية دروس الماضي، وعبرة الأمم السالفة، وهذا درس بليغ لا يتغير أثره ونفعه في كل زمان ومكان.

إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون

كان من أخطر وأعقد مهام الأنبياء والرسل بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون ملك مصر وطاغيتها ومدَّعي الأُلوهية فيها، ولم تختلف هذه البعثة عن غيرها من البعثات، فمضمونها الدعوة إلى وجود الله تعالى ووحدانيته، وترك عبادة الأصنام والأوثان أو تأليه البشر، وغايتها بيانُ العبرة والعظة بإنجاء المؤمنين، وإهلاك الظالمين الذين أعرضوا عن دعوة رسلهم. وهذا ما أوجزته الآيات التالية:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ

﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ(١) يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ(٢) وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ(٣) ٩٨ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ(٤) ٩٩﴾ [هود: ١١/٩٦-٩٩].

تأكيد وقسم تضمنته هذه الآيات للدلالة على عظمة المهمة، وتأييد صاحبها بما يؤيد رسالته ويدعو إلى تصديق دعوته. والمعنى: تالله لقد أرسلنا موسى بآيات تسع، أي بعلامات ظاهرة، وسلطان مبين، أي برهان وبيان في الحجّة، دالّ على توحيد الله وعبادته، إلى فرعون ملك القبط في مصر وملئه: أشراف قومه وأتباعها. وتلك الآيات والأدلة والبراهين المؤيدة بالحس المشاهد والواقع القائم كافية في إثبات صدق نبوة موسى ورسالته، بالإيمان بالله تعالى. والآيات التسع: هي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات، والسنون القاحلة.

وكان المصريون الأقباط والملأ: أشراف القوم قد اتَّبعوا أوامر فرعون ومناهجه، وصدَّهم عن الإيمان بالله، وكفروا، ولم يكن أمر فرعون وتصرفه ومنهجه برشيد، أي ليس بمصيب ولا معقول ولا بعيد عن السفاهة، وإنما هو محض الجهل والضلال.

لذا أخبر الله تعالى في هذه الآية: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ عن فرعون أنه يأتي يوم القيامة متقدماً قومه وقائداً لهم إلى نار جهنم، فيدخلهم فيها، لأنه كما اتبعوه في الدنيا، وكان مُقَدَّمهم ورئيسَهم، كذلك هو يقدم يوم القيامة إلى النار، فأوردهم إياها، وله فيها الحظ الأوفر من العذاب الأكبر، وبئس المورد (موضع الورود) الذي يردونه، وهو ورود الدخول، والمدخول فيه وهو النار؛ لأن وارد الماء يرده للتبريد وإطفاء حرّ الظمأ، ووارد النار يزداد احتراقاً بلهبها ويتلظى بسعيرها. وسبب ذلك

(١) يتقدمهم. (٢) أدخلهم فيها. (٣) المُدْخَل والمكان المدخول فيه وهو النار. (٤) العطاء المعطى لهم وهو اللعن.

عصيان فرعون وقومه، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ٧٣/١٦].

وفرعون القائد إلى النار يضاعف له العذاب، وهو أول من تلتقطه ألسنة النار يوم القيامة في المحشر الرهيب؛ لادّعائه أنه إله من دون الله، ومضاعفة العذاب هو شأن المتبوعين من كل أمة، يحملون راية العذاب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٣٨].

وثبت في القرآن الكريم أيضاً أن آل فرعون يعذبون أيضاً في الدنيا قبل الآخرة في قبورهم، منذ ماتوا وإلى يوم القيامة، صباحاً ومساء، كل يوم، كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٠/٤٥-٤٦].

ومن ألوان تعذيب آل فرعون تتابع لعنة الله عليهم في عالم الدنيا والآخرة معاً، لقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ أي ألحق الله بهم زيادة على عذاب النار لعنةً عظيمة في الدنيا، من الأمم الآتية بعدهم، وكذلك في يوم القيامة، يلعنهم أهل الموقف جميعاً، وهم من المقبوحين. وقوله: ﴿فِى هَٰذِهِۦ﴾ يريد دار الدنيا. وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يلعنون أيضاً بدخولهم جهنم. قال مجاهد: فهما لعنتان. أي في الدنيا والآخرة فوق عذابهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٢٨/٤٢].

ومعنى قوله سبحانه بعدئذ: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي قبح وبئس العون المعان والعطاء المعطى هذه اللعنة اللاحقة بهم في الدنيا والآخرة، فقد سميت اللعنات رفداً تهكُّماً بهم. والرِّفد في كلام العرب: هو العطية، قال ابن عباس مبيناً المراد من هذه الجملة: هو اللعنة بعد اللعنة.

إن تجنُّب سوء المصير لكل إنسان أمر يسير، وهو إعلان الإيمان بالله تعالى، فذلك ليس أمراً صعباً ولا محرجاً، وأما التسبب في العذاب فهو طيش وحماقة، وما أشد عذاب المتكبرين الرافضين دعوة الإيمان بالله ربّاً هادياً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ١٩-٢٢].

العبرة من قصص العذاب الشامل

لا بد لكل نظام من مؤيدات مدنية وجزائية، حتى يُحترم النظام، وتسود كلمته وتعلو هيبته، لأنه ليس كل الناس يستجيبون لنداء الحق والضمير، والوعي والعقل والتفكير، فيكون الجزاء الرادع مرهباً ومؤدباً العصاة، وحاملاً مجموع الناس على الالتزام بقواعد النظام. وهذا هو المنهج المتَّبع في كل تشريع إلهي أو وضعي بشري. لذا اشتمل القرآن الكريم على قصص الأمم السابقة الذين رفضوا دعوة الإيمان بالله تعالى، وآذوا الرسل والأنبياء، واتبعوا الأهواء والشهوات، وكان في إيراد هذه القصص عبرة واضحة وعظة بليغة. قال الله تعالى مصوراً هذه الغاية:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ(١) ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ(٢) ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١١/ ١٠٠-١٠٢].

(١) لا أثر له كالزرع المحصود. (٢) التتبيب: أي الخسران والهلاك.

ذكر الله تعالى في سورة هود سبع قصص للأنبياء: وهي قصة نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم السلام، ثم عقبها ببيان جلي لما فيها من العظة والعبرة. وهي دليل على صدق نبوة محمد ﷺ لإخباره عن تلك القصص الغائبة أو المجهولة، من غير مطالعة كتاب، ولا مدارسة مع معلم، وهي معجزة عظيمة تثبت النُّبوة، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ..﴾ [يوسف: ١٢/ ١١١].

ومعنى الآيات: ذلك النبأ المذكور عن العقوبات النازلة بالأمم المتقدمة، -والأنباء: الأخبار- مقصوص عليك أيها النَّبي، لتخبر به الناس، ويتلوه المؤمنون إلى يوم القيامة، تبليغاً عنك. ومن تلك القرى الظالمة المهلكة ماله أثر باق قائم كالزرع القائم على ساقه كقوم صالح، ومنها ما اندرس وباد، حتى لم يبق له أثر كالزرع المحصود، مثل قرى قوم لوط.

هذا وصف لأوضاع تلك القرى، وأعقبه بيان مبدأ العقاب الجوهري: أنه قائم على العدل وعدم الظلم، فذكر الله تعالى أنه ما ظلمناهم بإهلاكهم من غير ذنب، ولكن ظلموا أنفسهم بتكذيبهم الرسل وكفرهم بهم، وشركهم وإفسادهم في الأرض، وادّعائهم أن آلهتهم المزعومة تدفع عنهم المخاوف والمخاطر المستقبلية، ولكنها في الواقع ما نفعتهم شيئاً، ولا دفعت عنهم بأس الله، بل ضرَّتهم أوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها من دون الله، إنها لم تنقذهم من الهلاك.والمراد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى يَدْعُونَ﴾ أي التي كانوا يعبدون من دون الله، حينما جاء أمر ربك بالعذاب، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ أي ما زادتهم عبادة الأصنام غير الوقوع في العنَت والخسران والهلاك؛ لأن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتِّباعهم تلك الآلهة الباطلة، فخسروا الدنيا والآخرة.

ومثلُ ذلك الأخذ بالعذاب وإهلاك الأمم الظالمة المكذبة لرسل الله، كذلك نفعل أي الإله بأشباههم، فنأخذ القرى ونهلكها، وهي في حالة الظلم الشديد، إن أخذ ربِّك وجيع شديد، لا يرجى منه الخلاص، وهو إنذار وتحذير من سوء عاقبة الظلم في الدين والانحراف عن مقتضى اليقين بالله تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ ظَـٰلِمَةٌ﴾ أي إن أهل تلك البلدان ظالمون، مثل قوله سبحانه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ١٢/٨٢] أي أهلها. ومعنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي إن عقابه لأهل الشِّرك موجع شديد الألم.

ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

فالقرآن والسُّنة النَّبوية مجمعان دالان على أن الظلم المقترن بالشرك والكفر، موجب للعقاب والعذاب في نار جهنم. وقد يمهل الله تعالى عقاب بعض الكفرة، وأما الظلمة في الغالب فمعاجلون، وإن أملى الله لبعضهم وأجَّل عذابهم فهو لحكمة: وهي ترك الفرصة لهم أن يتوبوا ويصلحوا أحوالهم، ويقلعوا عن ظلمهم وشركهم، وذلك بمقتضى الرحمة الإلهية الشاملة، وهو منهاج التربية الأقوم.

الاعتبار في قصص القرآن بعذاب الآخرة

الاعتبار والاتِّعاظ في بيان قصص الأمم الظالمة السابقة وما حلَّ بها مفيد في الدنيا، ومفيد أيضاً في تربية الإنسان واهتدائه للخوف من أمر الآخرة، والترهيب من عصيان الله والكفر به، لئلا يكون الإنسان من الأشقياء الذين يَصْلون النار. وفيه أيضاً الترغيب بالإيمان بالله وطاعته، ليكون المؤمن التَّقي الطائع مع السعداء الذين

يتمتعون بالجنة. وهذه آيات تحدد بدقة موضع العبرة بالنسبة للآخرة وتبين مصير السعداء والأشقياء:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ(١) ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ(٢) وَشَهِيقٌ(٣) ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ(٤) ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود: ١١/١٠٣-١٠٩].

معنى الآيات: إن في بيان قصص أمر أهل القرى الظالمة وما تعرضت له من عقاب لعبرة وعلامة اهتداء لمن خاف أمر الآخرة، وتوقع أن يناله عذابها، فنظر وتأمل. يعلم بعد نظره أن وعد الله صادق في مجيء الآخرة، وأن ما أخبر به الأنبياء من البعث والجزاء حقّ مؤكد لا شك فيه. وأن من عذّب الظالمين في الدنيا قادر على أن يعذبهم في الآخرة. وأن ما أصاب المجرمين في الدنيا ما هو إلا شيء يسير بالنسبة لعذاب الآخرة.

ذلك اليوم يوم عذاب الآخرة يجمع فيه الناس جميعاً، أولهم عن آخرهم، ليحاسبوا عن أعمالهم، ثم يجازوا عليها، وذلك يوم مشهود، تحضره الخلائق جميعاً، من الإنس والجنّ والدّواب، وتحضره الملائكة والرسل، ويحكم فيه الملك العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها.

(١) أي يشهده جميع الخلائق. (٢) إخراج النفَس من الصدر. (٣) رد النفس إلى الصدر. (٤) أي غير مقطوع عنهم.

وما تأخير يوم القيامة وما فيه من أهوال وعذاب إلا لمضي مدة محددة في علم الله تعالى، لا زيادة عليها ولا نقص، وهي عمر الدنيا، لإعطاء الفرصة الكافية للناس لإصلاح أعمالهم، وتصحيح عقيدتهم، كما هو قانون الله وسنّته في صريح قرآنه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/٥٨].

ثم وصف الله المهابة يوم القيامة، وذهاب العقل، وهول القيامة، وذلك في قوله سبحانه: يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله تعالى، فهو صاحب الأمر والنهي المطلق، ويكون أهل المحشر صنفين: شقي معذب لكفره وعصيانه، وسعيد منعّم في الجنان لإيمانه واستقامته، كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٤٢/٧]. فمن اختار الغواية والشّر فهو من أهل الشقاوة، ومن أراد الهداية والخير، فهو من أهل السعادة، وكلٌّ ميسَّر لما خلق له.

وأحوال الفريقين ما يلي: فأما الأشقياء فهم مستقرون في جهنم، بسبب اعتقادهم الفاسد وعملهم السيّئ، ولهم من الهمّ والكرب وضيق الصدر وشدة العذاب زفيرٌ تنفُّسهم، شهيقٌ نَفَسهم، على عكس المعتاد، لما يعانون من العذاب. وهم ماكثون في النار على الدوام مدة بقاء السماوات والأرض، وهذا مجرد تمثيل لإفادة التأبيد ونفي الانقطاع. والمراد بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ بيان أن الخلود في النار بمشيئة الله تعالى، لا يخرج فيها شيء عن إرادته ومشيئته. قال ابن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم دوام السماوات والأرض، وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف الليل والنهار. أو أن الله يبدل السماء والأرض يوم القيامة، ويتأبد ذلك.

إن ربّك يفعل ما يشاء، على وفق علمه ومقتضى حكمته.

وأما أهل السعادة أتباعُ الرُّسل، فمأواهم الجنة، ماكثين فيها أبداً، مدة دوام السماء والأرض بمشيئة الله، والمراد الأبدية، ونعيمهم فيها عطاء غير منقطع ولا ممنوع، ولكنه ممتد إلى غير نهاية: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٢٥]. ثم خاطب الله نبيَّه، والمعنى له ولأُمَّته، موجِّهاً إنذاره الدائم، ومضمونه: فلا تكن يا محمد وكل سامع في شك في عاقبة ما يعبد المشركون وفي نهايتهم، فكل ما يعبدون باطل وجهل وضلال، وتقليد للأسلاف من غير وعي، وعذابهم محقق لا شك فيه، والله موفِّيهم نصيبهم من العذاب غير منقوص منه شيء، وهو العقوبة التي تقتضيها أعمالهم. وهذا وعيد وتهديد.

سبب الاختلاف في التوراة وطريق الاتِّفاق

أراد الله تعالى التَّسرية عن هموم النَّبي ﷺ بسبب إعراض قومه عن دعوته، من طريق إيراد سوابق تاريخية من سيرة الأنبياء عليهم السّلام، ومنها ما تعرَّض له موسى عليه السّلام من صدود وإعراض قومه عن دعوته، فلا يعظم عليك أيها النَّبي أمر من كذَّبك، فهذه هي سيرة الأمم، فقد جاء موسى بكتاب، فاختلف الناس عليه. ثم حدَّد القرآن سبيل إنقاذ الأمة من طريق الاستقامة والعمل بأوامر الله تعالى، فقال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(١) ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟(٢) ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

(١) موقع في الرِّيبة. (٢) لا تُجاوزوا الحدود.

وَلَا تَرْكَنُوٓا۟(١) إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ [هود: ١١/ ١١٠-١١٣].

والمعنى: والله لقد آتينا موسى الكتاب الذي هو التوراة، فاختلف فيه بنو إسرائيل من بعده، ظلماً وبغياً، وتنازعاً على الزعامة والمصالح المادية، فآمن به قوم، وكفر به آخرون. مع أن الكتاب الإلهي نزل لتوحيد الكلمة وجمع الناس على منهج واحد، فلا تبال أيها النَّبي محمد باختلاف قومك في القرآن، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك أُسوة، فلا تحزن ولا تهتم لتكذيبهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لولا سبق القضاء والقدر بتأخير العذاب إلى أجل مسمى، لقضي بينهم في الدنيا، بإهلاك العصاة، وإنجاء المؤمنين، كما حدث لأُمم آخرين. وإن المكذِّبين لفي شكٍّ موقع في الريبة والقلق، سواء أكانوا من قوم موسى أم من قوم محمد عليهما الصّلاة والسّلام. والكلمة من ربك هنا: عبارة عن الحكم والقضاء. وقوله تعالى: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لفصل بين المؤمن والكافر بنعيم هذا وعذاب هذا.

وإن كلاً من المؤمنين والكافرين المختلفين في كتاب الله، ليوفينَّهم الله جزاء أعمالهم، وما وعدوا به من خير أو شرّ؛ لأنه خبير بتلك الأعمال كلها، ولا يخفى عليه شيء منها. وهذا تهديد ووعيد لقوم النَّبي ﷺ وكل مكذب برسالته.

وبعد هذا التهديد والتقريع للمختلفين في توحيد الله والنُّبوة، أمر الله رسوله ﷺ، ويقصد بالخطاب الأمر بالدوام والثبات، أمره بالاستقامة مثلما أمر بها غيره، والاستقامة شاملة كل ما يتعلق بالعقيدة والعلم والعمل والأخلاق.

---

(١) لا تطمئنوا وتميلوا بالمحبة .

والمعنى: فالزم وثابر يا محمد ومن آمن معك على طريق الاستقامة في الاعتقاد والأعمال، وتطبيق أوامر القرآن في العبادات والمعاملات، وهي درجة تتطلب جهاد النفس، والترفعَ عن الأهواء والشهوات. ولا يعني أمر الرسول ﷺ بالاستقامة أنه لم يكن مستقيماً، وإنما كان على العكس في غاية الاستقامة، وإنما المقصود كما ذكرتُ في هذا الموضوع: هو الدوام والاستمرار على ما هو عليه، وذلك طريق النصر على الأعداء. وفي هذا دليل على وجوب اتِّباع النصوص الشرعية من غير تصرُّف ولا انحراف، ولا تقليد وعمل برأي فاسد غير صحيح، ومن حاد عن ذلك زاغ وأزاغ. والتزام جادة الاستقامة ليس بالأمر الهيِّن، وإنما يتطلب جهاداً متواصلاً.

روى الطبراني في الكبير في حديث صحيح عن عقبة بن عامر وأبي جحيفة: أن النَّبي ﷺ قال: «شيَّبتني هود وأخواتها» فقال له بعض العلماء: فما الذي شيَّبك من هود؟ قال له: قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾.

وبعد الأمر بالاستقامة، نهى الله تعالى عن ضدِّها وهو الطغيان، وهو البغي وتجاوز حدود الله في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي إن الطغيان مزلقة إلى الهلاك، والله تعالى بصير بأعمال العباد، لا يخفى عليه شيء، فيجازي عليه. وهذا تحذير واضح من الانحراف والمخالفة.

ثم نبَّه الله تعالى إلى خطر الميل مع الظالمين، فقال: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي ولا تميلوا مع الظالمين بمودة أو مداهنة أو رضاً بأعمالهم، أو استعانة بهم، أو اعتماد عليهم، فتصيبكم النار بركونكم إليهم، فذلك ظلم، وليس لكم من غير الله أنصار أبداً ينفعونكم، ويمنعون العذاب عنكم، ثم لا ينصركم الله في حال الظلم، لأن الله سبحانه لا يحب الظلم لأحد، ولا ينصر الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٠]. وقال أيضاً: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧١، فاطر: ٣٥/ ٣٧].

الأمر بالصلاة والصبر

الطريق لتقوية الإيمان والإرادة، وامتثال أوامر الله وتكاليفه شيئان مهمّان، يَقْرِن القرآن بين الأمر بهما أحياناً، وهما إقامة الصلاة، والصبر في الحياة. أما الصلاة فهي معراج المؤمن، وصلة الوصل بالله عزّ وجلّ، والاستمتاع بالتوجُّه نحو الذات العليّة في أوقات منتظمة. وأما الصبر فهو فولاذ الإرادة الحازمة، وإعداد القوة اللازمة للتغلب على مصاعب الحياة ومتاعب الدنيا، وبغير الصلاة لا تسعد النفس، وبغير الصبر لا يكتب النجاح. لذا أمر القرآن الكريم بهما في مناسبات متعددة، منها في سورة البقرة: [الآية ٢/ ١٥٣]. ومنها في سورة هود:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ(١) إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١/ ١١٤-١١٥].

سبب نزول هاتين الآيتين: ما رواه البخاري ومسلم وابن جرير عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ فقال الرجل: إلي هذه؟ قال: لجميع أمتي كلهم. وتكررت روايات أخرى في معنى ذلك.

موضوع الآيتين الاستعانة بالصلاة والصبر. أما ما يتعلق بالصلاة فالآية الأولى في تحديد أوقاتها الخمسة، ولا خلاف في أن المراد بها الصلوات المفروضة. والمعنى: أقم الصلاة أيها النبي وكل مؤمن تامة الأركان والشروط والأوصاف، باعتبارها صلة بين العبد وربه، مطهرةً للنفس، مرضاةً لله، مانعة عن الفحشاء والمنكر، في جميع أجزاء اليوم. فقوله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ يشمل ثلاث صلوات:

---

(١) أجزاء منه قريبة من النهار.

وهي الصبح، والظهر والعصر، وقوله تعالى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ يشمل صلاتي المغرب والعشاء. فتكون الآية شاملة جميع أوقات الصلاة.

وتنوع فرضية الصلاة في الليل والنهار تعليم لضبط الوقت، وربط المؤمن بالله تعالى في جميع أجزاء الوقت العامل المتحرك، لا في حال السكون والنوم. وفائدة الصلاة بانت بعد تحديد الأوقات في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي إن فعل الخيرات ومنها الصلوات الخمس تكفّر الذنوب السالفة الواقعة في جميع أجزاء النهار، وتغسل آثار السيئات الصغائر، كالنظر الحرام والقبلة والضرب باليد أو الرجل. والحسنات: جميع الأعمال الصالحة، والسيئات: الذنوب الصغائر، أما الكبائر فلا يكفرها إلا الحد (العقوبة المقدرة) أو التوبة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣١].

ويؤكد مدلول الآية الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفّراتٌ ما بينهن، إن اجتنبت الكبائر» . قال جمهور أهل السنة في شرط: «إن اجتنبت الكبائر» هو شرط في معنى الوعد كله، أي إن اجتنبت الكبائر، كانت العبادات المذكورة كفارة للذنوب، فإن لم تجتنب لم تكفّر العبادات شيئاً من الصغائر. والأولى أن يقال: الشرط موضح أن الصلاة تسقط الذنوب الصغائر بشرط اجتناب الكبائر، بدليل حديث خروج الخطايا مع قطر ماء الوضوء وغيره. ويعدّ الإصرار على الصغائر من الكبائر.

ثم قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي إن أداء الصلوات، والنصح بفعل الحسنات، والاستقامة على أمور الدين، وعدم الركون إلى الظلمة عظة للمتعظين الذين يعقلون الأحداث، و يخشون الله عز وجل.

والأمر الثاني هو الصبر، ومعنى الآية: والزم الصبر على الطاعة ومشاقّها، وعن المعصية ومغرياتها، وابتعد عن المنكر والمحرَّمات، وفي حال الشدائد والمصائب، فإن الله لا يهدر ثواب المحسنين أعمالاً، الصابرين على مراد الله وقدره. وهذا دليل على أن الصبر إحسان وفضيلة.

والصبر مطلوب في الصلاة وسائر الطاعات، لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ٢٠/١٣٢]. وقال النبي ﷺ فيما رواه أبو نعيم والبيهقي من حديث ضعيف: «الصبر نصف الإيمان، واليقين: الإيمان كله» . وجاءت هذه الآيات في أواخر سورة هود في نمط واحد، أعلم الله نبيه أنه يوفي جميع الخلائق أعمالهم، المسيء والمحسن، ثم أمره بالاستقامة والمؤمنين معه، ثم أمره بإقامة الصلوات ووعد على ذلك، ثم أمره بالصبر على التبليغ والمكاره في ذات الله تبارك وتعالى، ثم وعد بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

سبب هلاك الأمم السابقة

لا ظلم ولا جور في حكم الله تعالى على الإطلاق، وإنما العدل الذي تطوقه الرحمة أساس القضاء في شرع الله، وذلك لأن الله غني عن العالمين، ولا مصلحة له مع أحد، وهو ربُّ العباد جميعاً، ولا يخشى أحداً من الخلائق حتى يحابيه على حساب غيره، ولا حاجة له لبشر أبداً حتى يتقرب إليه في حكمه، وإنما خير القضاء وعدل الحكم يرجع إلى العباد أنفسهم. وقد ذكر الله سبحانه سبب إيقاع عذاب الاستئصال وهلاك الأمم السابقة، وهو أمران:

الأول -أنه لم يكن فيهم قوم ينهون عن الفساد في الأرض.

والثاني -أن الظالمين اتَّبعوا طلب الشهوات واللذات، واشتغلوا بتحصيل

الرياسات والزعامات. والظالمون: هم مقترفو المنكر، تاركو المعروف. قال الله تعالى مبيِّناً هذين السببين:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ(١) مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ(٢) يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ(٣) وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ(٤) كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١/١١٦-١١٩].

حضَّ الله بكلمة ﴿لَوْلَا﴾ التي هي للتحضيض والحثّ على الفعل على وجود جماعة من الأقوام والجماعات الماضية التي أهلكها الله بسبب ظلمها، يتصفون برجاحة العقل والرأي، والبصيرة والخير، والحزم والثبات في الدين، ينهون أقوامهم عما كان يقع منهم من فساد في الأرض، وهو الكفر وما اقترن به من المعاصي. والآية تنبيه لأمة محمد وحضّ على تغيير المنكر، والنّهي عن الفساد.

ثم استثنى الله تعالى القوم الذين نجاهم مع أنبيائهم، وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم، أي لكن قد وجد قليل من المصلحين، نهوا عن الفساد في الأرض. وهذا كما يقول اللغويون: استثناء منقطع.

والأكثرية هم الظالمون الذين اتَّبعوا أنفسهم وشهواتهم، وما أُترفوا فيه من نعيم وعزة وسلطان. والمترف: الذي أبطرته النعمة وسعة العيش. والذين ظلموا: هم تاركو النهي عن المنكر. واتِّباعهم التَّرف: اشتغالهم بالشهوات والمال واللذات

---

(١) القرون هنا الجماعة المقترنون في زمان طويل أكثره مئة سنة. (٢) أصحاب خير وعقل. (٣) ما أُنعموا فيه من الخصب. (٤) وجبت.

والرياسات، واستمرارهم على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، وعدم التفاتهم إلى إنكار المصلحين منهم والناصحين لهم.

والحال أنهم كانوا مجرمين، أي ظالمين، فالله تعالى لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١١/١٠١]. وفي الآية إشارة إلى أن الترف مدعاة إلى الإسراف، والإسراف يفضي إلى الفسوق والعصيان، والظلم والانحراف.

ثم أوضح الله تعالى قانونه العام وسنته في البشرية بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أي ليس من شأن الله تعالى أن يهلك أهل القرى ظالماً لها، وأهلها قوم مصلحون، تنزيهاً لله تعالى عن الظلم، وإعلاماً بأن إهلاك المصلحين من الظلم. والمراد أن الله تعالى لا ينزل عذاب الاستئصال على مجرد كون القوم مشركين أو كافرين، بل إنما ينزل العذاب إذا أساؤوا في المعاملات، وسعوا في الإيذاء والظلم، كما فعل قوم شعيب في مدين، وقوم هود في الأحقاف شمال حضرموت، وقوم فرعون في مصر، وقوم لوط في ديار سدوم في الأردن، وقوم صالح في الحجْر بين الحجاز والشام. ويؤيد ذلك أن الأمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم.

وهناك قانون إلهي عام آخر وهو أن الله تعالى قادر على جعل الناس على ملة واحدة من الإيمان أو الكفر، ولكنه سبحانه ترك لهم الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق، وبعضهم الباطل، فوقع الانقسام والاختلاف بينهم، وظلوا مختلفين متنازعين في الدين والاعتقاد والمذهب والرأي بسبب من أنفسهم، إلا من رحم ربُّك، أي إلا أناساً هداهم الله ولطف بهم وهم أتباع الرسل، فاتفقوا على دين الحق، غير مختلفين فيه.

ولذلك المذكور من تمكين الناس من ممارسة حرياتهم، والاختيار الذي كان عنه الاختلاف، خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره كما قال الزمخشري في الكشاف. وذكر أهل السُّنة أن اللام في قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ليست لام التعليل، فليس الاختلاف والرحمة علة الخلق، وإنما هي لام الصيرورة، أي خلقهم ليصير أمرهم إلى الاختلاف، وإن لم يقصد بهم الاختلاف، فهذا تعبير عن ثمرة الأمر ومقتضاه.

وسبق في قضاء الله وقدره لعلمه التّام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد من أن يملأ جهنم من الجنّ والإنس أجمعين، وهم الذين تمردوا وعصوا أوامر الله، ولم يهتدوا بما أرسل الله به الرسل من الآيات والأحكام.

فائدة القصة القرآنية للنَّبي ﷺ

بعد أن أخبر الله تعالى في سورة هود بقصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، ذكر فائدة تلك القصص بالنسبة للنَّبي ﷺ، وحصرها في فائدتين:

الأولى -تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى.

والثانية -بيان ما هو حق وعظة وذكرى للمؤمنين.

ثم ختم الله تعالى السورة بما بدأها به وهو الأمر بالعبادة والتوكل على الله، وعدم المبالاة بعداوة المشركين.

وهذه هي الآيات المبينة لهذه الأهداف:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ

وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ[1] إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١١/ ١٢٠-١٢٣].

والمعنى: وكلاً من السورة والآيات التي ذكر فيها قصص الأنبياء المتقدمين نقصُّها عليك أيها النَّبي بقصد تحقيق فائدتين:

الفائدة الأولى -ما به يقْوى الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى؛ لأن الأنبياء السابقين من قبلك تحملوا في جدال أقوامهم الأذى الكثير، فصبروا على ما كُذِّبوا به، فنصرهم الله، وخذَل أعداءهم الكافرين، فلك بالمرسلين السابقين أُسوة حسنة وقدوة تقتدي بها.

الفائدة الثانية -وتُبيِّن لك في هذه السورة وفي قصص الأنبياء ما هو الحق والصدق واليقين: وهو وحدانية الله وعبادته وحده، وإثبات البعث، وفضل التقوى والأخلاق الكريمة. كما أن في تلك الأنباء عظة وعبرة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

وخصَّ الله هذه السورة -سورة هود بوصفها بالحق -والقرآن كله حق- لأن ذلك يتضمن الوعيد للكفرة والتنبيه للناظر، لما فيها من أخبار الأنبياء ووصف الجنة والنار وبيان المستحق لكل منهما.

والحقّ: ما تضمنت سورة هود من وعيد الكفرة وبيان الأدلة الدّالة على التوحيد والعدل والنُّبوة. والموعظة: التنفير من هيمنة الدنيا ومتاعها على النفس وإيثارها على الآخرة وسعادتها. والذكرى: الإرشاد إلى الأعمال الصالحة الباقية.

وبعد هذه التذكرة المشتملة على الترغيب والترهيب، ذكر الله آية وعيد، وهي:

(١) غاية تمكنكم من أمركم.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ . .﴾ الآية، أي وقل أيها الرسول للكافرين الذين لا يؤمنون بما جئتَ به من ربِّك، على سبيل التهديد: اعملوا على حالاتكم وطريقتكم التي أنتم عليها من كفركم، وافعلوا ما تريدون من إيقاع الشَّرّ بي، فنحن أيضاً عاملون على طريقتنا ومنهجنا وهو الإيمان الصحيح والدعوة إلى الخير، وهذه مقولة تشبه مقالة شعيب عليه السّلام لقومه في مدين. وانتظروا بنا نهاية أمرنا، إما بموت أو غيره مما تأملون، إنا منتظرون عاقبة أمركم، وما ينزل بكم من عقاب نزل بأمثالكم، إما من عند الله بالاستئصال الشامل، أو بأيدي المؤمنين بالحروب والمعارك. وانتظار مصير الفريقين له شبيه بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٥].

وألفاظ هذه الآية تصلح للموادعة، وتصلح أن تقال على جهة الوعيد المحض والحرب قائمة.

ثم ختم الله تعالى سورة هود بآية تدلُّ على انفراد الخالق بالعظمة وبما لا يمكن للبشر معرفته، وهو علم الغيب، وتبيين أن الخير والشَّر وجليل الأشياء وحقيرها، متعلِّق بأحكام المالك الحقيقي: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ أي إن الله تعالى مختص بعلم الغيب في السماوات والأرض في كل زمان من الماضي والحاضر والمستقبل، ومرجع جميع الخلائق والكائنات إلى الله تعالى؛ لأنه مصدر الكل ومبدأ الكل، وصاحب القدرة الشاملة، والمشيئة النافذة.

وإذا كان الله هو المتّصف بما ذكر، فاعبده وحده ومن معك من المؤمنين، وفوِّض أمرك كله لله، وثق به تمام الثقة في كل شيء، وليس بخفي على الله كل ما يعمل به المكذِّبون والمصدقون، وما عليه أحوالهم، وما تصدر عنه أقوالهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك الله أيها النَّبي على أعدائك، ويكتب لرسالتك ودعوتك الخلود والفوز، فلا تبال بهم.

تفسير سورة يوسف

الوحي القرآني

يظل الوحي القرآني الإلهي حجة الله تعالى على خلقه، ومنار السبيل إلى عباده، وطريق الإنقاذ من الضلالة والرَّدى إلى الهداية والحياة السوية. وتميز هذا الوحي بالبيان العربي الواضح المشرق، وبالثروة المعرفية الخصبة التي تزداد نموّاً واتِّساعاً كلما تقدم العلم والمدنية، وكلما ازداد التأمل والتفكر في عظمة البيان الإلهي واتِّساعه وشموله، وخلوده مع ممرّ الزمان، وإعرابه وإفصاحه عن أسرار الكون والإنسان والحياة. ولقد تبدلت حياة الأمة العربية تبدُّلاً جذريّاً وشاملاً بالهدي القرآني والبيان الرَّباني الرفيع، فقال الله تعالى مبيِّناً خواص هذا التبدل السريع في مطلع سورة يوسف المكية على المعتمد:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ[1] عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ١-٣].

روى ابن جرير عن ابن مسعود: أن أصحاب رسول الله ﷺ مَلّوا مَلَّةً، فقالوا: لو قصصت علينا يا رسول الله، فنزلت هذه الآية: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ

(١) نخبرك ونبيِّن لك .

بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ ثم ملّوا ملّة أخرى، فقالوا: لو حدثتنا يا رسول الله، فنزلت: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّمر: ٣٩/ ٢٣].

سمي القرآن قرآناً؛ لأنه يقرأ، وهو اسم جنس يقع على القليل والكثير، وقال أبو عبيد: سُمِّي قرآناً؛ لأنه يجمع السور، فيضمُّها.

وسميت سورة يوسف بأنها أحسن القصص لأسباب ذكرها العلماء، منها: أن كل من ذكر فيها كان مآله إلى السعادة، يتبين ذلك من أحوال يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز والملك والساقي مستعبر الرؤيا. ومنها: انفراد السورة بما فيها من أخبار لم تتكرر في غيرها، ومنها أنها ذكرت جملة من الفوائد التي تصلح الدنيا والدين، كالتوحيد، والفقه، والسِّير، والسياسة، والمعاشرة، وتعبير الرؤيا، وتدبير المعاش.

ومعنى الآيات في مطلع سورة يوسف: التنبيه بحروف ﴿الٓرۚ﴾ إلى إعجاز القرآن، وتحدِّي العرب بالإتيان بمثله، ما دام مكوناً من الحروف نفسها التي تتألف منها لغتهم، ويصوغون بها بيانهم الفصيح خَطابة وشعراً ونثراً. والآيات التي أنزلت عليك أيها النَّبي في هذه السورة آيات ظاهرة الإعجاز، وهي آيات القرآن البيِّن في نفسه، الظاهر في إعجازه، الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرُها ويبيِّنُها، ويوضح الحلال والحرام، والحدود والأحكام، والهدى والبركة والنور.

يقرر الله تعالى أنا أنزلنا هذا القرآن على النَّبي محمد العربي الهاشمي، بلغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، لتتعلموا ما لم تكونوا تعلمون من قصص وأخبار، وآداب وأخلاق، وأحكام وتشريعات،

ومناهج سياسة واجتماع واقتصاد، ولتتدبروا وتتأملوا ما فيها من معان وأهداف، تبني الفرد والجماعة على أقوم بنيان، وأثبت أساس.

قال ابن كثير: فلهذا أنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرُّسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة، فكمل من كل الوجوه.

ثم يتابع الله إخباره لنبيِّه بأنا نحن نخبرك بأحسن الأخبار، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن، الذي جاء تامّاً كاملاً، مفصّلاً كل شيء، وجاءت قصة يوسف كاملة تامة، مفصلة، ذات أهداف سامية، وعبَر كثيرة، وإن كنت من قبل ما أوحينا، أي من قبل إيحائنا إليك، من الغافلين عما عرَّفناك به من القَصص وأعلمناك من شؤون الأمم، أي من الجاهلين به، فلا علم لك به قط، شأنك شأن قومك، لا يعلمون من قصص الماضين وأخبارهم شيئاً.

إن قصة يوسف قصة جامعة، شاملة للدين والدنيا، والحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والأدبية الخلقية، الملأى بالعبر والعظات، ومن أهمها الصبر على الأذى، والعفو عند المقدرة.

رؤيا يوسف عليه السّلام

قد تكون الرؤيا المنامية الروحانية عجيبة جداً، لا مثيل لها في الكتب المدونة، ويصعب تصورها في اليقظة والوجود الواعي، ومن الرؤى ما هو إخبار عن مَشاهِد ستقع حتماً، أو تصورات عن كوارث مستقبلية، يستغربها الرّائي والسامع، ويتخوف منها صاحبها، إذ يرى ما لا تتصوره العقول البشرية أو الأفكار العلمية؛ لأنها غير خاضعة لموازين الحس الواقع أو الأمر المشاهد. ومن غرائب الرؤى ما رآه يوسف

عليه السّلام في طفولته ليلة القدر، ليلة الجمعة، ثم تحققت رؤياه بعد أربعين سنة أو بعد ثمانين سنة.

أخبر القرآن الصادق: كلام الله اليقيني عن رؤيا يوسف في هذه الآيات، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ[١] رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ[٢] وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٤-٦].

تتحدث هذه الآيات عن رؤيا يوسف الطفل، وقد نزل بها وحي دائم لما فيها من العظات والعبر للأمم والآباء والأبناء، لذا بدئت بالتذكير، فاذكر أيها الرسول محمد لقومك قصة يوسف حين قال لأبيه يعقوب عليه السّلام: إني رأيت في منامي أن أحد عشر كوكباً أو نجماً، والشمس والقمر تسجد لي، سجود احترام وتقدير، لا سجود عبادة وتقديس، والأحد عشر كوكباً تبيَّن فيما بعد: أنهم إخوة يوسف الأحد عشر نفراً، والشمس والقمر أبوه وأمه، لأن الكواكب لا تسجد في الحقيقة، فيحمل الكلام على الرؤيا، لذا قال يعقوب عليه السّلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾. وقد أخبر نبيّنا عليه الصلاة والسلام بتعليم جبريل عن أسماء هذه الكواكب التي طالب يهودي ببيان أسمائها.

والظاهر الراجح أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء، لما وقع منهم من صفات لا تتفق مع عصمة الأنبياء، كالحسد الدنيوي، وعقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك والقتل. وبما أن هذه الرؤيا غريبة عجيبة، وتحتاج إلى وقت طويل لتحققها في

---

(١) يصطفيك لمهام عظام. (٢) تعبير الرؤيا وتفسيرها.

الواقع، وهو أربعون سنة أو أكثر، قال يعقوب لابنه يوسف حين قصَّ عليه ما رأى: لا تخبر إخوتك بما رأيت، حتى لا يحسدوك، ويحتالوا لك حيلة توقعك في مكروه، فإن الشيطان عدوّ واضح العداوة للإنسان. وقد أدرك يعقوب من هذه الرؤيا أنه سيكون ليوسف شأن عظيم، ويسود قومه حتى أباه وأمه وإخوته، فحذر يوسف من التحدث بهذه الرؤيا.

روى الإمام أحمد وغيره عن معاوية القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رِجْل طائر ما لم تُعبَّر، فإذا عُبِّرت وقعت».

وأضاف يعقوب مبشراً ابنه يوسف ببشارة عظيمة، وهي النُّبوة وتعبير الرؤيا، فقال له: وكما اختارك ربُّك، وأراك هذه الكواكب، مع الشمس والقمر ساجدة لك، يختارك لنفسه ويصطفيك لنبوَّته على آلك وغيرهم، ويعلِّمك تعبير الرؤيا. والرؤيا: وإن كان مصدراً في الأصل، لكن كثر إطلاقه على المُتَخَيَّل في النوم، فجرى مجرى الأسماء. وتعبير الرؤيا: الإخبار بما تؤول إليه في الوجود، وتعليم الله يوسف التأويل: إلهامه الصواب فيها، أو صدق الفراسة.

والله سبحانه يتم نعمته عليك يا يوسف، بإرسالك رسولاً، وجعلك نبياً وإيحائه إليك، ويتم هذه النعمة أيضاً على آل يعقوب وأسرته، وهم أبوك وإخوتك وذريتك، فآل الإنسان: أهله، وهو خاص بمن لهم مجد وشرف، وإتمام هذه النعمة على آل يعقوب، كإتمامها من قبل هذا الوقت على جدِّك إسحاق وجدِّ أبيك إبراهيم، وقدَّم إبراهيم في البيان الإلهي على إسحاق؛ لأنه الأشرف وأبو الأنبياء، إن ربَّك عليم بخلقه وبمن يستحق الاجتباء والاصطفاء، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، إن ربَّك حكيم في صنعه وتدبيره، يفعل الأشياء على ما ينبغي ويتفق مع المناسبات والأوضاع الصحيحة.

والنعمة على يوسف: تخلصه من السجن وعصمته، والملك الذي نال، وعلى إبراهيم: اتّخاذه خليلاً، وعلى إسحاق: فِدْيته على قول ضعيف بالذِّبح العظيم، مضافاً ذلك كله إلى النُّبوة.

مؤامرة إخوة يوسف

إن ضعف الإنسان وعجزه، وقلقه ومخاوفه، وحرصه على حبِّ الذات والظفر بأعظم المغانم وأكثرها، يجعله يقع في أحوال لا تتفق مع أصول الأخلاق، ولا تنسجم مع الطبائع السوية. وهكذا كانت تصرفات إخوة يوسف معه مثلاً غريباً في الكيد والحسد والتآمر الدنيء، فلم يتورعوا أن عرَّضوا أخاهم للموت البطيء، أو القتل بالتسبب، فتآمروا على إلقائه في بئر، فإما أن يموت أو يلتقطه مسافر، فيجعله عبداً خادماً لسيِّده، وينتهي في كلا الحالين وجوده. وهذا تصوير المؤامرة، قال الله تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ[١] إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ[٢] ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا[٣] يَخْلُ لَكُمْ[٤] وَجْهُ أَبِيكُمْ[٥] وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ[٦] يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ[٧] إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف: ١٢/ ٧-١٠].

والمعنى: تالله، لقد كان في قصة يوسف مع إخوته لأبيه آيات وعبر وعظات للسائلين الذين سألوا عنهم، دالّة على قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء، ودالّة

---

(١) جماعة أكفياء للمحافظة عليه. (٢) خطأ بيِّن في إيثاره علينا. (٣) ألقوه في أرض بعيدة. (٤) يخلص لكم حبه. (٥) توجهه وإقباله عليكم. (٦) ما غاب من قعر البئر. (٧) المسافرين.

على صدق الرسول يوسف وغيره، وموضحة عاقبة البغي عليه وصدق رؤياه وصحة تأويله، فذلك خبر عجيب يستحق الإخبار عنه.

قال إخوة يوسف: والله ليوسف وأخوه بنيامين شقيقه أحبّ إلى أبينا منا، وهما صغيران، ونحن رجال عشرة، جماعة تضرُّ وتنفع، وتحمي وتخذل، أي لنا كانت تنبغي المحبة والمراعاة، إن أبانا لفي خطأ واضح، مجاف للصواب، بإيثار يوسف وأخيه علينا بالمحبة، وتركه العدل والمساواة في المحبة، فكيف يفضِّل ولدَيْن صغيرَيْن ضعيفَيْن، لا كفاية فيهما ولا منفعة، على رجال أشداء، وكيف يحب الاثنين أكثر من الجماعة؟!

وهذا خطأ منهم؛ لأن يوسف وأخاه صغيران يتيمان، ماتت أمهما، والأب عادة يعطف على الصغير حتى يكبر، وعلى المريض حتى يشفى، وعلى الغائب حتى يعود. فهم لم يدركوا أسباب هذه العاطفة، وبيَّتوا مؤامرة.

وهي أن بعضهم قال: اقتلوا يوسف حسماً للمشكلة، أو أبعدوه وانبذوه في أرض مجهولة عن العمران، فلا يستطيع الرجوع إلى أبيه، وتتمحض محبَّة أبينا لنا، ونكون بعد قتله أو طرحه أرضاً قوماً تائبين إلى الله من جنايتنا عليه، وهذا هو الأظهر من اللفظ، وهو قول الجمهور في أن المراد من قولهم: ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ معناه التوبة.

فقال أكبرهم سناً وهو روبيل، أو أحلمهم وهو يهوذا، أو أشجعهم وهو شمعون: لا تقدموا على قتل يوسف، فإن القتل جريمة عظيمة، وهو أخوكم، ولكن ألقوه في أسفل البئر، يلتقطه بعض المسافرين الذين يسيرون في الأرض للتجارة، فتستريحوا منه بهذا، ويتحقق غرضكم وهو إبعاده عن أبيه، ولا حاجة إلى قتله، إن كنتم فاعلين، أي عازمين على ما تقولون، وفاعلين ما هو الصواب، فهذا هو الرأي.

تمثّل هذه المؤامرة الطبيعة البشرية الدنية، فهؤلاء الإخوة دفعهم البغض والحسد والغيرة، على الإقدام على جريمة القتل أو التعريض للخطر، حرصاً على المصلحة الذاتية، علماً بأن الأب يعقوب عليه السّلام لم يفضِّل يوسف وأخاه إلا في المحبة، والمحبة أمر قلبي ليست في طاقة البشر، فيكون معذوراً فيها غير ملام عليها.

وأخطأ الإخوة إذ قالوا: نرتكب الجناية ثم نتوب، على شاكلة ما يفعله بعض الجهلة الطائشين الذين يقدمون على المعصية عمداً، ثم ينوون التوبة، وهذا عمل طائش وفعل يعدُّ مهزلة واستهزاء وتهوراً؛ لأن قبول التوبة لا يكون لمن صمم على الجناية، وتوغَّل في سُوئِها وفحشها، وتعمد ارتكابها.

وأخطأ الإخوة أيضاً حين اتفقوا على قطيعة الرحم، وقسوة الفعل بأخيهم، وقلة الرأفة، وعقوق الوالد، وهم يعلمون أن أباهم يعقوب من الرسل الكرام، وربما يطلعه الله على فحش فعلهم وسوء صنيعهم. إنهم في الواقع كانوا متهورين، عمياً عن تقدير النتائج، قصيري النظر، سُذَّجاً في التفكير، بل كانوا قساة القلوب، عصاة للرَّب، مسيئين للوالد الشيخ الكبير إساءة بالغة.

تنفيذ إخوة يوسف مؤامرتهم

تدارس إخوة يوسف فيما بينهم في أسلم الطرق التي ينجحون فيها في تنفيذ مؤامرتهم، حول أخيهم يوسف عليه السَّلام، والحاجز الوحيد أمامهم هو كيفية خداع أبيهم يعقوب عليه السَّلام، فتظاهروا مكراً بمحبته ومؤانسته لأخذه معهم، وأظهروا استعدادهم للحفاظ عليه، وقوتهم في الدفاع عنه، وأنهم قادرون على حراسته وحمايته من الذئب المفترس. ولما ألقوا يوسف في البئر وعادوا، زعموا أن الذئب أكله، ولطّخوا قميصه بدم كذب، فما انْطَلَت الحيلة على أبيهم يعقوب،

وادَّرع بالصبر واستعان بالله تعالى على ما وصفوا من أكاذيب. قال الله تعالى مصوِّراً هذه الفعلة الشنيعة:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ[١] وَيَلْعَبْ[٢] وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۝١٣ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ۝١٤ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا[٣] أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ[٤] وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ[٥] وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ۝١٧ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ[٦] لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [يوسف: ١٢/ ١١-١٨].

هذا النَّص القرآني واضح كل الوضوح، ولكنا نستلهم منه مواقف معينة وأخلاقاً بشرية ملتوية، لا يرضاها أحد من البشر الأسوياء، وتُسخط المولى عزّ وجلّ. أظهر إخوة يوسف أنهم ناصحون لأخيهم مشفقون محبّون للخير، فلِمَ لا يرسله أبوه معهم للهو والتسلية، وتناول طيبات الفاكهة والبقول. وكان هذا التظاهر بالحبِّ والشفقة وإعطاء العهد بالمحافظة عليه، في مقابل معرفتهم أن أباهم يحبُّ يوسف، وأن هذا الحبَّ يغضبهم، فما كان يطمئن لهم، وهم يعرفون حرص أبيهم على يوسف.

فبادرهم الأب الشيخ الكبير بإبداء المخاوف وإظهار الحزن على أخذهم يوسف للنزهة والاستجمام، واحتمال أكل الذئب له، فأجابوه بأساليب المكر والخداع بأنهم

(١) يتوسع في المآكل الطيبة . (٢) يسابق ويلهو بالسهام ونحوها . (٣) عزموا . (٤) في قعر البئر .
(٥) نتسابق في رمي السهام . (٦) زيَّنت وسهَّلت .

جماعة عشرة من الرجال الأشداء الأقوياء، فكيف يعجزون عن مقاومة الذئاب والوحوش الضارية؟!

تضمن اعتذار يعقوب عليه السّلام أمرين: أن فراقه يوسف مما يحزنه، وخوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه أثناء لهوهم. وكأنه لقّنهم الحجة والجواب، فلا يليق بهم التفريط بأخيهم، ولو حدث ذلك لكانوا خاسرين أي هالكين عاجزين، لا خير فيهم ولا نفع.

ولكنهم غفلوا عن إحاطة علم الله بأحوالهم، وحدثت المفاجأة أنهم لما صمموا على إلقاء يوسف في الجبّ، أي البئر المعروف لديهم، أوحى الله ليعقوب أنه ليخبرنهم بما فعلوا، وهم لا يشعرون بما أوحى الله لنبيّه، لهول الموقف، وقِصَر نظرهم، وقلّة وعيهم ومعرفتهم.

وينتهي المشهد المخزي والمفضوح، ويعود الإخوة الجناة في آخر اليوم إلى أبيهم، منتحلين الأعذار الكاذبة والواهية معاً، فتباكوا في العِشاء بالدموع الكاذبة، وكذبوا على أبيهم يعقوب أنهم أثناء لعبهم وتسابقهم وتركهم يوسف حارساً عند أمتعتهم، ودلّت أقوالهم بنحو سافر على كذبهم وسخفهم، وزعموا أن الذئب المفترس أكل أخاهم، وأحسّوا ضمناً بالكذب حين قالوا لوالدهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ -أي مصدق- لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ قال المبرد: كأنهم أخبروا عن أنفسهم أنهم صادقون في هذه النازلة، فهو تمادٍ منهم في الكذب.

وزادوا في التدليس والتمويه أنهم كما روي: أخذوا سخلة (ولد ضأن) أو جَدْياً، فذبحوه ولطّخوا به قميص يوسف، وقالوا ليعقوب: هذا قميصه، فأخذه ولطّخ به وجهه وبكى. ثم تأمّله، فلم يرَ خَرْقاً ولا أثر ناب، فاستدلّ بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان الذئب حليماً، يأكل يوسف، ولا يخرق قميصه؟ وهذا دليل على أن

القرائن والأمارات معتبرة في الفقه والقضاء. وقوله تعالى: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي بدم ذي كذب، أو مكذوب عليه.

فقال يعقوب لهم: بل زيَّنت لكم أنفسكم السَّيئة أمراً منكراً غير ما تصفون وتذكرون، فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتَّفقتم عليه، وأستعين بالله على وصفكم، حتى يأتي الفرج ويزول الكرب. وهذا تسليم لأمر الله تعالى وتوكل عليه. والصبر الجميل: هو الذي لا شكوى معه. والصبر مفتاح الفرج، وطريق التغلب على المصاعب والمشاق والأزمات.

نجاة يوسف من الهلاك في البئر

يخطئ البشر كثيراً حين يظنون أن تدابيرهم وخططهم لا تصطدم بشيء أقوى منهم، وبتدبير أحكم وأنفذ، فإن قدرة الله وإرادته وتدابيره تحيط بكل شيء، ولا يتحقق أمر في الكون إلا بمراد الله، فإرادته هي النافذة، ومشيئته هي الغالبة، وتدبيره هو المحكم؛ لأنه القابض المهيمن على مقاليد السماوات والأرض. وهكذا خَطَّطَ إخوة يوسف للتخلص نهائياً من أخيهم، فباؤوا بالخيبة والفشل؛ لأن الله تعالى هو الإله القادر المنفِّذ لما يريد، قال الله تعالى واصفاً كيفية نجاة يوسف عليه السَّلام من الموت في البئر المظلمة العميقة:

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ(١) فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ(٢) فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ(٣) قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً(٤) وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ(٥) بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ(٦) دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ

(١) رفقة مسافرون من مدين لمصر. (٢) الوارد: هو الذي يأتي الماء ليسقي منه لجماعته، وهو إما واحد أو جماعة. (٣) أرسلها في البئر ليملأها ماء. (٤) أخفوه عن الرفقة، وجعلوه بضاعة للتجارة أي متاعاً. (٥) باعوه. (٦) منقوص.

وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ(١) وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ(٢) آتَيْنَاهُ حُكْمًا(٣) وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ١٩-٢٢].

قدَّر الله تعالى ألا تطول غربة يوسف ومأساته ووحشته في البئر، فمرَّت سيارة، أي قوم مسافرون معاً من مدين إلى مصر، وأشدّ ما يحتاج إليه المسافرون عبر الصحراء والمسافات البعيدة هو الماء، فأرسلوا من يستقي لهم الماء من بئر وجدوها في الطريق في الأردن، على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب (أي حوالي ١٥ كم)، فألقى دَلْوه في البئر لِيَملأها، فتدلى بها يوسف وتمسَّك بالحبل، وصعد مع حبل الدلو، فقال الوارد المستقي المُدْلي مبشِّراً نفسه وقومه: يا بشارتنا العظمى، يا بشراي، هذا غلام، وكان يوسف يومئذ ابن سبع سنين، فحملوه مع قافلتهم، وأخفوا أمره عن الرفاق المسافرين، جاعليه متاعاً للتجارة، والله عليم بأفعالهم، لم يخفَ عليه إسرارهم في أنفسهم أنهم يتّخذونه بضاعة لأنفسهم. وفي ذلك تنبيه على إرادة الله تبارك وتعالى ليوسف، وسوق الأقدار بحسب بناء حاله، كما قال النَّبي ﷺ كما جاء في حلية الأولياء ٨/ ٣٣٩: «يقدِّر المقدرون، والقضاء يضحك». وفي ذلك إيناس أيضاً للنَّبي ﷺ عما يجري عليه من جهة قريش، فإن العاقبة التي هي للمتقين هي المراعاة والمنتظرة.

وباعوا الغلام الجميل الحدث في مصر بثمن قليل ناقص عن ثمن المثل من الدراهم المعدودة عدّاً، لا وزناً، وكانوا لا يَزِنُون إلا ما بلغ الأوقية (أربعين درهماً) فما فوقها. وكانوا في هذا البيع من الزاهدين، أي الراغبين عنه الذين لا يعرفون قدره،

(١) لا يغلبه شيء. (٢) منتهى القوة والجسم وهو سنّ الأربعين. (٣) نبوة وحكمة: وهي الفهم ومعرفة الأسرار.

ويودّون التّخلص منه بأي حال، دون أن يعلموا منزلته عند الله تعالى، وقد اشتراه عزيز مصر رئيس الشرطة، واسمه (قطفير) كما قال ابن عباس.

وقال العزيز الذي كان والياً على خزائن الأرض، والذي اشتراه من مصر، لامرأته زليخة: أكرمي مقامه عندنا، بجعل مقامه حسناً مكرّماً، أي أحسني تعهده، فلا يكون عبداً، عسى أن ينفعنا في ثروتنا ومصالحنا، أو نتبنّاه ولداً، لأنه كان عقيماً، لما تفرَّس به من الرشد وملامح النجابة والذكاء.

وإرادة الله ورعايته تحوط يوسف عليه السلام، فكما نجاه الله من القتل والبئر، وعطَّف عليه قلب العزيز، مكَّن له في أرض مصر، وجعل له مكانة رفيعة فيها، حتى تولى الحكم فيها إدارياً ومالياً، وعلَّمه أيضاً كيفية تأويل الأحاديث، أي الرؤيا في النوم، والله سبحانه هو الغلاّب القهّار، لا يعجزه شيء فلا يُمنع عما يشاء، ولا ينازع فيما يريد.

ولما بلغ يوسف أشدّه، أي استكمل القوة والرجولة وتناهت بنيته، وكملت قواه الجسدية والعقلية، وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين، آتاه الله حكماً، أي حكمة وعلماً، وسلطاناً في الدنيا، وحكماً بين الناس بالحق، ومثل ذلك الجزاء الحسن، يجزي الله الذين يحسنون لأنفسهم أعمالهم، وهذا دليل على أن يوسف عليه السَّلام كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة الله تعالى، فإحسان الجزاء له، جزاء على إحسانه في عمله، وتقواه في حال شبابه، فإن للإحسان والاستقامة تأثيراً في صفاء النفوس والعقول، كما أن للإساءة تأثيراً واضحاً في تعكير النفوس وسوء فهم الأمور.

وما أجمل هذه الجملة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ففيها وعد للنَّبي ﷺ، فلا يهتم بفعل الكفرة به وعتوهم عليه، وفيها البشارة لكل محسن بعاقبة طيبة حسنة، فالله تعالى يصنع للمحسنين أجمل صنع، ويتوّجهم بفضله وكرمه، ويفيض عليهم من خيراته ونعمه وإحسانه.

قصة يوسف مع امرأة العزيز

لقد أُوتي يوسف عليه السّلام نصف الجمال، فكان بهي الطلعة، جميل الوجه، جذاب الشخصية، حسن القامة والهيئة، ففتنت به امرأة عزيز مصر، وغازلته ولاطفته للوصول إلى غرض معين، ولكن الله عصم نبيَّه يوسف من الوقوع في الفاحشة، ونجاه من الافتراء وسوء الاتِّهام، وحماه من تلفيق التهمة، وأبعده عن مظانّ السوء، والتصقت التهمة بامرأة العزيز، وثبت الخطأ عليها. وهذا ما عبَّر عنه القرآن المجيد بصورة قاطعة وبرهان حسِّي عقلي، فقال الله تعالى:

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ(١) ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ(٢) قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ(٣) إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ(٤) إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ(٥) ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ(٧) وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا(٨) لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ(٩) مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: ١٢/٢٣-٢٩].

تعرَّض يوسف عليه السلام لمحنة خطيرة أشدّ من محنة إخوته ومؤامرتهم عليه بالقتل أو الإبعاد والضياع، وتلك المحنة هي مراودة زليخة امرأة سيده العزيز وولي نعمته، والمراودة: الملاطفة في التوصل إلى هدف أو غرض معين، والمراد بها هنا:

---

(١) حاولت أن يواقعها . (٢) أسرع . (٣) ألتجئ إلى الله مما دعوتني إليه . (٤) إقامتي وتكريمي .
(٥) المختارين لطاعتنا . (٦) تسابقا إليه . (٧) قطعته . (٨) وجدا زوجها . (٩) صبي في المهد أنطقه الله .

دعوته إلى مخالطتها ومواقعتها، فبعد أن أغلقت الأبواب عليه، قالت: هيتَ لك، أي هلم أقبل وتعال وبادر إلى الوقاع، فقال مستعيناً بربِّه: معاذ الله، أي أعوذ بالله، وألتجئ إليه أن أكون من الجاهلين، إن سيدي ومالكي قطفير أحسن منزلي ومقامي، فلا أقابله بالخيانة، إنه لا يفلح الظالمون، الذين يقابلون أو يجازون الإحسان بالإساءة، والمعروف بالنكران، فلا يصلُح أن أخونه وقد أكرم مثواي وائتمني، ومن حفظ حق الآدمي لإحسانه، فهو أحرى أن يحفظ ربَّه، فلا يعصيه ولا يخالف أمره.

ولقد همت زليخة في أن يواقعها يوسف، وأما يوسف الذي لم يكن نبيّاً في وقت هذه الحادثة، فلم يهمّ بها بسوء، لرؤيته برهان ربِّه: وهو قانون الله تعالى في تحريم الزنى، والعلم بما يستحق الزاني من العقاب، والتفكُّر في عذاب الله ووعيده على المعصية، فلولا رؤيته برهان ربِّه، لفعل أو لارتكب المعصية، فذلك هو الذي منعه من هم السوء، لأن خشية الله الحقيقية تعصم الإنسان من الانزلاق والانحراف. ومثل ذلك التثبيت على العفة أمام المغريات ودواعي الفتنة، ثبتناه ووقيناه من السوء والفحشاء في جميع أموره، إن يوسف من عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم لوحيه ورسالته، فلا يتمكن الشيطان من إغوائهم.

وحدثت المفاجأة المخجلة، وقدم زوج زليخة عزيز مصر، وتسابق يوسف وهي إلى الباب، يوسف يريد الفرار، وهي مسرعة لمنعه من الخروج. ولحقته في أثناء هربه، وقطَّعت أو مزَّقت قميصه من الخلف. ثم بادرت إلى الافتراء عليه، قائلة لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإنه يستحق إما السجن أو التعذيب المؤلم.

فقال يوسف مدافعاً عن نفسه: هي التي راودتني عن نفسي، وشهد شاهد من أهلها إما إنسان خارج المكان، أو حال القميص وتخريقه، فإن كان شقّ القميص من

قدّام أو أمام، فهي صادقة وهو كاذب، وإن كان من خَلْف أو وراء فهو صادق، وهي كاذبة، وهذا دليل على الأخذ بالقرائن والأمارات في القضاء والحكم، ولما كانت القرينة في صالح يوسف وأنه بريء وتحقق الزوج من كذب امرأته، قال: إن هذا الاتهام من جملة كيدكن أيتها النسوة، إن كيد النساء ومكرهن شديد التأثير في النفوس، غريب لا يفطن له الرجال، وقد تنطلي الحيلة عليهم. وأما أنت يا يوسف فأعرض عن الكلام أو التَّحدث في هذه الواقعة، واكتم خبرها عن الناس، واستغفري أيتها المرأة من ذنبك، إنك كنت من الخاطئين أي الآثمين المذنبين. ولم يقل (من الخاطئات) لأن الخاطئين أعم وأشمل للجنسين.

هذه محنة عظيمة مرَّ بها يوسف الشاب قبل النبوة، فحفظه ربّه، لأنه حفظ الله: «احفظ الله يحفظك» رواه الترمذي عن ابن عباس والله أراد له التطهير وكمال العفة والشرف، إعداداً له لشرف النبوة والرسالة، وإظهاراً للعالمين أن الطاعة للرَّب أمر ممكن غير مستحيل، وأن هذا المثل الرائع هو المثل الذي ينبغي أن يعتبر به الشباب والرجال والنساء، فإن العاقبة الحسنة والسمعة الطاهرة الخالدة إنما هي للمتقين المحسنين.

موقف نساء مصر من امرأة العزيز

تأبى الفطرة السوية وقوانين العفة والعرض والشرف أن ينزلق الرجل أو المرأة في مزالق الفاحشة، ويزداد الاستهجان إذا كان الانحراف من نساء القادة والزعماء؛ لأن رفعة المناصب ترفع من مواقف أصحابها، وتجعلهم يترفعون عن الدّنايا وسفساف الأمور؛ لأنهم المثل الرفيع للناس الذين يتبعونهم. فكلما علا الإنسان وازدادت مرتبته، كبُر خطؤه، وامتهنت كرامته. لذا استنكرت نساء مصر شيوع الخبر عن سقطة زليخة امرأة العزيز، فأرادت تسويغ فعلها ودفع الملامة عنها، وأبى يوسف

عليه السّلام إلا الزّج به في قيعان السجون تخلُّصاً من فتنة النِّساء. وصف الله تعالى هذه المواقف في قوله سبحانه:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا(١) إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا(٢) وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ(٣) وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ(٤) وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ(٥) مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ(٦) وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ(٧) إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٣٠-٣٥].

قال أربعة من النِّسوة: امرأة خبّاز الملك، وامرأة ساقيه، وامرأة حاجبه، وامرأة بوّابه: عجباً ودهشةً، امرأة الملك تراود فتاها الشاب عن نفسه، وتحاول مواقعته لها، قد استولى حبّه على سويداء قلبها، فلم تفكر بالعواقب، إنا لنراها أنها في صنيعها هذا لفي خطأ واضح، وبعد عن الصواب، وجهل يتنافى مع مكانتها. وهذا أمر معقول ومنتظر.

فلما سمعت زليخة امرأةُ الملك باغتياب النساء، وسوء مقالتهن وطعنهن بها، دعتهن إلى ضيافتها في جلسة كريمة هادئة، وأعدّت لهن ما يتكأ عليه من فُرُش ووسائد، وهيّأت ألوان الفاكهة والطعام والشراب، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً

---

(١) أحبّته حبّاً شديداً. (٢) هيّأت لهنّ ما يتكئن عليه. (٣) دهشن بجماله. (٤) خدشنها بالسكاكين.
(٥) تنزيهاً لله. (٦) امتنع بشدة. (٧) أمل إلى إجابتهن.

لقطع الأترج ونحوه من اللحم والفاكهة، وأمرت يوسف بالخروج عليهن، بعد إخفائه في مكان قريب، واستغلت وقتاً مناسباً هو وقت انشغالهن بالأكل والقطع.

فلما خرج ورأينه، دهشن لجماله الفائق وحسنه الرائع، وجعلن يقطّعن أيديهن، اندهاشاً برؤيته، وقلن على الفور: حاشا لله، أي تنزيهاً له عن العجز، وتعجباً من إبداع الخلق لجميل مثلِ يوسف، ما هذا بشراً، إنْ هذا إلا ملك كريم من الملائكة، تمثَّل في صورة بشر، والمقصود إثبات الحسن العظيم له، إذ ليس في تصور الإنسان أجمل من الملائكة، ولا أقبح من الشيطان، فالتَّشبيه بالملَك من قبيل التشبيه بالمستعظمات، وإن كانت لا ترى، روي عن النَّبي ﷺ أن يوسف أُعطي نصف الحسن(١).

فقالت امرأة العزيز، وقد نجحت في انبهارهن بجماله الفتّان: فذلكن الذي وجهتن اللوم إلي بسببه، وعِبْتن علي فعله. ثم توعدت يوسف بالعقاب قائلة: أنا راودته عن نفسه، فامتنع، ولئن لم يفعل ما آمره به في المستقبل القريب، ليزجنَّ به في السجن، وليكونن من الأذلاء المقهورين. وهذا دليل على أن حبَّه أعماها عن كل شيء.

قال يوسف: يا ربِّ أنت ملاذي وملجئي، إن السجن الذي تُوُعِّدْتُ به، أحبّ إلي مما يدعونني إليه هؤلاء النِّسوة من الفاحشة وارتكاب المعصية. وإن لم تُنْجني أنت هلكتُ، وإن لم تصرِفْ عني كيدهنَّ ومكرهنّ، أمِلْ إليهن، وأكن من الجهلة الطائشين. وهذا استسلام لله تبارك وتعالى، ورغبة إليه، وتوكُّل عليه، وشكوى إلى الله من حاله مع النِّسوة، والدعاء إليه في كشف بلواه.

فأجابه ربُّه إلى إرادته، وحقَّق دعاءه، وصرف عنه كيدهن، في أن حالَ بينه وبين

---

(١) أخرجه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم عن أنس بلفظ ((أعطي يوسف وأمه شطر الحسن)) .

المعصية، والله سميع لدعاء المخلصين الملتجئين إليه، عليم بصدق إيمانهم وبأحوالهم وما يصلحهم.

وماذا كانت النتيجة في المستوى الرسمي، لقد ظهر للملك وامرأته من المصلحة والرأي بعد شيوع الخبر والاتهام، وبعد معرفة براءة يوسف، وظهرت الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، ظهر لهم بعد كل هذا أن يسجنوه لأجل غير معلوم، لإسكات الفتنة ونسيان التهمة التي لوّثت بها امرأة الملك. وكان هذا الخير تمهيداً لعودة يوسف ملكاً لمصر وحاكماً لها، والله يفعل ما يشاء و يختار.

قصة رفاق يوسف في السجن

إن مسرح الأحداث الجسام التي يتعرض لها الأنبياء لا يكاد يوجد له نظير في التاريخ، فهذا يوسف عليه السّلام يزجُّ به في غياهب السجون، وهو العفُّ البريء البعيد عن التُّهمة، ويعيث الجناة المردة الفساد في الأرض، ويناصرهم بعض الناس؛ لأنه مع الأسف يكثر أعوان الشَّر، ويقلُّ أعوان الخير. وكان سجن يوسف سبباً قويّاً في دعوة السجناء إلى عبادة الله وحده وترك الوثنية، مستعيناً بما عليه من الصلاح والتقوى، ومعبّراً الرؤيا لمن رآها، فتأتي مطابقة للواقع، فيزداد المسجونون ثقةً به وحبّاً وإكباراً، وهذه هي قصة رفاقه في السجن، قال الله تعالى:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ(١) وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى

(١) عنباً يؤول إلى الخمر عن طريق المجاز .

تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ[1] وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ١٢/٣٦-٤٠].

رأت سلطة مصر المصلحة في سجن يوسف، فسجنوه، ودخل معه السجن فتيان مملوكان للملك، أحدهما ساقيه، والآخر خبّازه، لتمالؤهما على سمه في طعامه وشرابه، فرأيا رؤيا، فقال السّاقي: إني رأيت في المنام أني أعصر عنباً ليصير خمراً، وقال الخبّاز: إني رأيت أني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه، فقالا ليوسف: أخبرنا بتأويل ما رأينا، وهل يقع ذلك؟ إننا نعلم أنك من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، فدعاهما يوسف لتوحيد الإله، وترك عبادة الأصنام أولاً.

ثم قال لهما قولاً يدلُّ على أنه نبي صادق: لا يأتيكما طعام في يومكما إلا أخبرتكما به قبل وصوله إليكما، وهذا من تعليم الله إياي بالوحي لا بالكهانة والتنجيم، وسبب الوحي أنني اجتنبت ملّة الكافرين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وهم الكنعانيون وأمثالهم في فلسطين، والمصريون عبدة الآلهة كالشمس والعجل وفرعون. واتّبعت ملّة آبائي الأنبياء والمرسلين: إبراهيم وإسحاق ويعقوب الدُّعاة إلى التوحيد الخالص. وكلامه عن ترك الكفر واتّباع مبدأ التوحيد اشتغال عن شدة مصير رائي الخبز، وأن رؤياه تؤذن بقتله.

ثم قرر يوسف منهج الأنبياء عامة، فقال: ما صح لنا وما ينبغي لنا معشر الأنبياء

(١) المستقيم .

أن نشرك بالله، أي شيء كان، من ملَك أو إنس أو جنّ، ذلك الإقرار بتوحيد الله وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هو من فضل الله علينا، حين هدانا إليه، ومن فضل الله على الناس بإرسالنا إليهم، ننبِّههم إلى الصواب ونرشدهم إليه، ونبعدهم عن طريق الضلال، ولكن أكثر الناس لا يشكرون نعمة الله وفضله، فيشركون بالله إلهاً آخر، ولا يقدِّرون نعمة إرسال الرُّسل إليهم، فمعنى قوله: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي الشكر التام الذي فيه الإيمان.

يا رفاق السجن، هل القول بتعدد الآلهة والأرباب المتفرقين في الذوات والصفات خير وأجدى وأنفع، أو الإيمان بالله الواحد الأحد الغلاب القهار، الذي لا يحتاج لغيره، ويقهر بقدرته وإرادته كل شيء.

إن تلك الآلهة التي تعبدونها هي مجرد أسماء فارغة، حين سميتم أصنامكم آلهة، فليست عبادتكم لإله إلا باسم فقط، لا بالحقيقة والواقع، ولم ينزل الله بها حجة أو برهاناً، وما الحكم والتَّصرف النافذ والمشيئة والملك كله إلا لله، وليس لأصنامكم التي سميتموها آلهة من الحكم والأقدار والأرزاق شيء، فكيف تصح عبادتها وإطاعة الناس لها، إنها تسمية لا دليل عليها من عقل ولا نقل سماوي. والله سبحانه الخالق الرازق المهيمن القادر هو الذي أمر ألا تعبدوا وتطيعوا إلا إياه سبحانه، وهذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبُّه ويرضاه.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك هو الدين الحق، الذي لا عوج فيه، ولهذا كان أكثرهم مشركين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٢/١٠٣].

وإن أهل الحق من الأنبياء والمصلحين هم المصرّون على توحيد الله وعبادته والتزام منهجه في العبادة والمعاملة والأخلاق القويمة.

أمثلة من تأويل يوسف الرّؤيا

كثر تعبير يوسف عليه السلام الرؤيا في السجن، وأبرز تلك التأويلات تعبير رؤيا صاحبيه في السجن، وتأويل رؤيا ملك مصر.

أما تأويل رؤيا صاحبي يوسف في السجن، فهو كما قال الله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ[1] فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٤١-٤٢].

نادى يوسف عليه السلام بقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ استعداداً لسماع الجواب، فقال للسّاقي الذي رأى أنه يعصر عنباً يؤول إلى الخمر: إنك تسقي سيدك الخمر كما كنت تفعل قبل السجن بحسب العادة، وهذا دليل على براءته من تهمة الاشتراك في تسميم الملك.

وأما الآخر: وهو الخباز الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، فتأكل جوارح الطير كالنّسر والعقاب من رأسه، أي إنه يقتل ويصلب.

ثم أخبرهما يوسف عليه السلام عما علمه بتعليم الله تعالى: أن الأمر قد قضي، ووافق القدر، ولا مناص منه. وقوله: ﴿تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ أي تسألان عن المشكل، والفتوى جوابه.

(١) أي سيّدك .

ثم قال يوسف عليه السلام خفية للذي ظنَّ أي تيقَّن أنه ناج وهو السّاقي، دون علم الآخر: اذكر قصَّتي عند سيِّدك وهو الملك، لعله يخرجني من السجن بعد علمه ببراءتي، وهذا من قبيل الأخذ بالأسباب الظاهرية المطلوبة عادة وشرعاً، للنجاة والإنقاذ وإطلاق السراح. فأنساه الشيطان تذكير الملك بقصة يوسف، لئلا يخرج نبي الله يوسف من السجن، فيدعو إلى عبادة الله وتوحيده ومطاردة وساوس الشيطان، فلبث يوسف في السجن منسياً بضع سنوات، أي من الثلاث إلى التِّسع، وكل ذلك ليتم مراد الله، فبقي في السجن سبع سنين، وعوقب من الله بخمس أخرى لقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ فكانت مدة سجنه اثنتي عشرة سنة.

ثم رأى ملك مصر رؤيا أخرى كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام معزَّزاً مكرَّماً، حكى القرآن الكريم هذه الرؤيا بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ(١) وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ(٢) ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ(٣) وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ(٤) بَعْدَ أُمَّةٍ(٥) أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا(٦) فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ(٧) ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ(٨) وَفِيهِ يَعْصِرُونَ(٩) ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٤٣-٤٩].

---

(١) أي هزيلة ضعيفة. (٢) تعلمون تأويلها. (٣) أي مجموع أخلاط من الأحلام الزائفة الكاذبة. (٤) أي تذكر. (٥) أي بعد مدة من الزمان. (٦) أي متتابعة. (٧) تخبئونه من البذور. (٨) يمطرون. (٩) ما شأنه أن يعصر كالزيتون ونحوه.

هالت الملك الأعظم في مصر هذه الرؤيا، فطلب تفسيرها، ومضمونها أن سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس، أكلتهن سبع بقرات هزيلات، وسبعَ سنبلات خضر انعقد حبُّها، غلبتها سبع أُخر يابسات آن حصادها، فالْتَوت عليها.

فقال الملك للملأ من الكهنة والعلماء: عبِّروا علي هذه الرؤيا، إن كنتم تعلمون تعبير الرؤيا، وبيان معناها. فقالوا: هذه شوائب وأخلاط من الخواطر والخيالات تتراءى للنائم في عقله، ولا معنى لها، ولسنا عالمين بتأويل أمثالها لو كانت صحيحة.

وحينئذ تذكَّر ساقي الملك الذي نجا من الموت من صاحبي يوسف في السجن، وكان تذكُّره بعد نسيان، فقال للملك والملأ أشراف القوم: أنا أخبركم بتأويل هذا المنام، فابعثوني إلى يوسف الصِّدِّيق الموجود حالياً في السجن. فأرسلوه فجاء فقال: يا يوسف، أيها الرجل الكريم المصداق في أقواله وأفعاله، الصدوق العالم الخبير بتعبير الأحلام: أفتنا في رؤيا الملك، لعل الله يجعل لك مخرجاً. فقصَّ عليه خبر البقرات الهزيلات اللاتي يأكلن البقرات السِّمان، وسبع سنبلات خضراوات وأُخر يابسات، لعلي أعود إلى الناس ليعلموا حقيقة هذه الرّؤيا.

فأجابه يوسف من غير لوم ولا عتاب، ومن غير اشتراط للخروج من السجن: بأنه يأتيكم سبع سنوات خصبة متوالية، فما حصدتم فاتركوه في سنبله لئلا يأكله السوس، إلا القدر القليل الكافي للأكل الضروري، فهذه السنوات السبع هي البقرات السِّمان والسَّنابل الخضراء السَّبع. ثم يأتي بعد ذلك سبع سنين جدباء يأكل أهلها كل مدَّخرات السنوات السابقة إلا قليلاً مما تدَّخرون للبذر.

ثم يأتي من بعد تلك السنوات الأربع عشرة عام يهطل فيه الغيث وهو المطر، وتكثر الغلال، ويعصر الناس ألوان العصير من زيت الزيتون وسكر القصب وشراب العنب والتمر ونحوها.

وهذا الإخبار من مغيبات المستقبل من وحي الله وإلهامه، لا مجرّد تعبير للرّؤيا، فهو بشارة في العام الخامس عشر بعد تأويل الرّؤيا بمجيء عام مبارك خصيب، كثير الخير، غزير النِّعم، وهو إخبار من جهة الوحي الإلهي. ولا يكون ذلك إلا لنبيٍّ أو رسول، فتكون النُّبوة والرِّسالة خيراً عظيماً للبشر في الدين والدنيا.

طلب الملك مواجهة يوسف عليه السّلام

بعد أن عبَّر يوسف عليه السّلام المقصود من رؤيا ملك مصر، كانت النتيجة الطبيعية المنتظرة عند عقلاء الناس وحكمائهم أن يطلب هذا الملك مواجهة يوسف السجين الذي له هذه المقدرة الفائقة في تعبير الأحلام، فلم يستجب يوسف عليه السّلام للطلب، وأراد إعلان براءته وعفَّته وتعرُّضه للظلم في السجن مدة سبع سنوات، تلاها خمس أخرى عقاباً من الله لقوله لساقي الملك: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ فصارت مدّة سجنه اثنتي عشرة سنة، فطالب بفتح ملفّ النِّسوة اللاتي قطّعن أيديهن وإظهار الحق في هذه القضية. وهذا ما تحدثت عنه الآيات التالية:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ(١) إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ(٢) مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ(٣) أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٥٠-٥٢].

طالب الملك بإحضار يوسف من السجن، حتى يتحقق بنفسه صدق ما تشير إليه

(١) أي ما شأنكن وأمركن العظيم. (٢) تنزيهاً لله وتعجُّباً من عفّة يوسف عليه السّلام. (٣) أي ظهر الحق وثبت واستقر

الرؤيا، لأنه ليس الخبر كالعيان. وهذا الطلب يدل على فضيلة العلم وعلى منزلة العلماء الذين يستشارون في مهام الأمور، فكان مقابل هذا مطالبة يوسف عليه السّلام التحقيق في تهمة امرأة العزيز له، وسبب الزَّج به في السجن.

امتنع يوسف من الاستجابة لرسول الملك بمواجهته وإخراجه من السجن، وإحضاره له، وقال له: ارجع إلى سيدك، فاسأله عن حال النِّسوة اللاتي جرحن أيديهن، لأني لا أريد أن آتيه، وأنا متَّهم بمسألة سجنت من أجلها، واطلُبْ من الملك أن يحقق في تلك القضية قبل أن آتيه، ليعرف حقيقة الأمر، إن ربي عزّ وجلّ العالم بخفايا الأمور عليم بكيد النساء وتدبيرهن وما دبَّرن لي من كيد.

فجمع الملك النِّسوة اللاتي قطَّعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن، وهو يريد امرأة العزيز وزيره الأول: ما شأنكن وخبركن حين راودتن يوسف عن نفسه، يوم الضيافة، قلن: حاشا لله، أي معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء أو يكون متَّهماً، والله ما علمنا عليه سوءاً في تار يخه الطويل.

وقالت امرأة العزيز حينئذ: الآن تبيَّن الحق وظهر بعد خفائه، أنا راودت يوسف عن نفسه، لا هو، فامتنع واستعصم، وإنه لصادق في قوله، لم يكذب أبداً. ثم أردفت قائلة: ذلك الاعتراف مني بالحق، ليعلم يوسف أني لم أخنه أثناء غيبته بأن أكذب عليه، أو أرميه بذنب هو بريء منه، والمراد أن توبتي وإقراري ليعلم أني لم أخنه بالغيب، وليعلم أن الله تعالى لا يهدي كيد الخائنين، أي لا يسدده ولا يُنجحُه، بل يُبطله ويبدد أثره، فهذا من كلام امرأة العزيز.

وقال جماعة من أهل التأويل في آية: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ : هذه المقالة هي من يوسف عليه السّلام، أي، ذلك ليعلم العزيز سيدي أني لم أخنه في أهله، وهو غائب، وليعلم أيضاً أن الله تعالى لا يهدي

كيد خائن، ولا يرشِّد سعيه، أي لا يكمله، ولا يمضيه على طريق إصابة أو صواب. وفي هذا تعريض بامرأة العزيز في خيانتها أمانة زوجها، وتعريض بزوجها في خيانته أمانة الله، حين ساعدها بعد ظهور الآيات المصدقة له على حبسه.

وعلى أي حال، سواء أكانت المقالة من يوسف عليه السّلام أم من امرأة العزيز، فهي تقرِّر مبدءاً عظيماً أو قاعدة صلبة: وهو أن الواجب يقضي بحفظ الأمانات والعهود، وصون حرمة الغائب، سواء كان زوجَ المرأة وهو عزيز مصر، أو كان يوسفَ عليه السّلام، فإن الدفاع عن الغائب في مجلس أمر توجبه المروءة والحق وحفظ العهد والميثاق، والمبدأ الثاني: هو أن الله تعالى لا يسدِّد عمل خائن، ولا يكمله ولا يحقق غاية أو هدفاً، وهذا تطمين لأولئك المظلومين أو المستضعفين المقهورين، الذين يتولى الله تعالى مناصرتهم والدفاع عنهم، وحمايتهم من الظلم والسوء في النهاية، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج: ٢٢/٣٨].

تولِّي يوسف عليه السّلام قيادة الحكم في مصر

أدانت زليخة امرأة العزيز نفسها، واعترفت بالحق والواقع الذي صدر منها، وهذه فضيلة وصراحة وجرأة، وتبيَّن للملك براءة يوسف وعفَّته وسجنه بغير حق، كما تبيَّن له أمانته، وصبره وجلده، وتيقن حسن خلاله، وطيب فعاله، فولاه مقاليد الأمور في مصر، وهذا دليل الحكمة والوعي والرشد، وكان ذلك تمهيداً لارتقاء يوسف أعلى المنازل وتحقيق مراد الله تعالى في خضوع إخوته له واحتياجهم إليه. قال الله تعالى مبيِّناً هذه الأحوال:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ

ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ(١) ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا(٢) حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف: ١٢/٥٣-٥٧].

توّجت امرأة عزيز مصر أقوالها واعترافاتها أمام الملك بقولها المعبِّر عن ضعف الإنسان وتورُّطه بالمساوئ، وهو أنني لئن برَّأت يوسف، فما أُبرئ نفسي من الزَّلل والخطأ، إن النفس ميّالة بالطبع إلى الشهوات والأهواء. وهو اعتذار عن وقوعها فيما يقع فيه البشر عادة من الشهوات، كأنها قالت: وما هذا ببدع ولا ذلك بنكير على البشر، فأبرئ أنا منه نفسي، والنفوس أمّارات بالسوء، مائلة إليه، إلا النفوس التي يرحمها الله، فيحميها من التورُّط في الفواحش، وإن الله ربِّي غفّار للذنوب، رحيم بالعصاة إذا تابوا وأنابوا إلى الله.

هذا قول جمهور المفسِّرين، ويرى بعضهم أن هذا من قول يوسف عليه السّلام، لتذكُّره ما كان هم به.

وأمام هذا الإعلان الصريح أمام الملك، قال: ائتوني بيوسف من السجن، أجعله من خلصائي ومستشاريّ، فلما خاطبه الملك واختبره، ورأى فضله وعلمه، ولمس أدبه وخلقه، قال له: إنك اليوم عندنا ذو مكانة ومنزلة، وموضع ثقة وأمانة، تؤتمن على كل شيء في شؤون الحكم وإدارة البلاد.

فقال يوسف للملك: اجعلني أيها الملك على مخازن الأرض التي تخزن فيها الغلال، أشرف عليها وأتصرَّف بها، فأنقذ البلاد من المجاعة التي تهدِّد أهلها، إني خازن أمين، ذو علم وبصيرة بما يتولاه. وهذا دليل على جواز المطالبة بالعمل،

---

(١) أي ذو مكانة ومنزلة ومؤتمن على كل شيء. (٢) يتخذ منها مباءة ومنزلاً.

حرصاً على انتشار العدل من يوسف عليه السّلام، وإنقاذاً لأوضاع البلاد وتحقيق مصالح العباد. والخزائن: لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره.

فأجابه الملك إلى طلبه، وجعله وزير المالية والخزانة، وأطلق له سلطة التصرف في شؤون الحكم، لرجاحة عقله وخبرته وحسن تصرُّفه.

وتنفيذاً لأمر الله وتقديره ومراده، وبياناً لجميل صنع الله بعباده وبنبيِّه يوسف، ومثل هذا الإنعام الذي أنعم الله به على يوسف في تقريبه إلى قلب الملك، وإنجائه من السجن، أقدره الله على ما يريد، وجعل له مكانة ومنزلة في أرض مصر، وانتقل من حال العبودية إلى المُلْك والسلطان، والنفوذ والتفوق، يتبوأ في بلاد مصر المكانة العالية، والله سبحانه يصيب برحمته وإحسانه ونعمه من يشاء من عباده، ولا يضيِّع في الدنيا والآخرة ثواب الذين يحسنون أعمالهم.

ولكن ثواب الآخرة للمؤمنين الأتقياء، وهو الظفر بجنان الخلد، خير وأعظم وأكثر من خير الدنيا وما فيها من مظاهر العزّ والسُّلطان، والمال والزينة والرفعة. وهذا يدلُّ على أن ما ادَّخره الله لنبيِّه يوسف عليه السّلام في الآخرة أعظم مما أنعم عليه من التَّصرف والنفوذ في الدنيا. ومن جمع الله له السعادتين في الدنيا والآخرة، كان فضل الله عليه أكثر، وعطاؤه أتم، للقيام بالطاعة، وترك المعصية.

ويدلُّ هذا أيضاً على أن إحسان الإنسان لعمله، والتزامه الطاعة لا يضيع عند الله، ولكن حال الآخرة أحمد، وأحرى أن يتخذ غرضاً ومقصداً، وحال يوسف في الآخرة خير من حاله العظيمة في الدنيا.

وكل ذلك مرهون بالتَّقيُّد بالإيمان الصحيح، والتقوى والاستقامة، لأن الإيمان أساس لقبول العمل الصالح. والتقوى برهان الصدق، وثمرة الإيمان. والاستقامة دليل الرشد والعقل والحكمة. ومن كان ذا إيمان واعتقاد سليم، واتقى الله ربّه

بالتزام ما أمر واجتناب ما نهى، واستقام على هذه الحال، كان أسعد الناس في الدنيا والآخرة. وفضل الله ورحمته وعدله وإحسانه شأن عام على كل العباد، وله مزيد من الخصوصية لأولياء الله الذين امتلأت قلوبهم خشية لله، وتفانت في إرضاء الله بالإقبال على الطاعة، وامتنعت من جميع أوضاع الانحراف والتقصير، واستمرت على هذا المنهج الحكيم. ولا غرابة في أن يهيئ الله لبعض عباده عزّاً وسؤدداً في الدنيا، بعد مهانة ومذلّة، وأن يمتّعهم بأفضال إلهية لا تنقطع في الآخرة، فتتحقق لهم سعادة الدارين، وتلك هي النعمة العظمى.

شراء القمح من مصر

في السنوات السّبع الثانية التي عم فيها القحط والجدب، لا مصر وحدها، وإنما بلاد الشام أيضاً، لم يجد أولاد يعقوب عليه السّلام، إخوة يوسف بُدّاً إلا التوجُّه لأرض مصر لشراء القمح والقوت منها، لما بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه. فسافروا إلى مصر ليتم اللقاء بين يوسف وإخوته، قال الله تعالى واصفاً هذا اللقاء الأول:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ[(١)] قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ[(٢)] فِى رِحَالِهِمْ[(٣)] لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٥٨-٦٢].

---

(١) أي أوفى لهم الكيل وحملهم الطعام، أي القمح الذي جاؤوا لطلبه من عنده. والجَهاز: ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع وكل ما يحمل. ومنه جهاز العروس وجهاز الميت. (٢) ثمن ما اشتروه. (٣) أوعيتهم.

قال السدي وغيره: سبب مجيئهم أن المجاعة التي أنذر بها يوسف أصابت البلاد التي كان بها يعقوب. روي أنه كان في العربات من أرض فلسطين بغور الشام.

لقد قدم أولاد يعقوب من فلسطين إلى مصر، فلما دخلوا على الوالي يوسف، وهو في مكانته ومنزلته العالية، عرفهم حين نظر إليهم؛ لأن ملامح الكبار لا تتغير كثيراً، وهم له منكرون، لا يعرفونه، لمفارقتهم له وهو صغير، وباعوه لقافلة السَّيارة العابرة المسافرين، والملامح في حال الصِّغر تتغير كثيراً مع النمو والكِبَر، ولأنهم قدَّروا هلاكه، ولم يفكِّروا لحظة أن يوسف سيصير في هذه المنزلة، وهذه توقُّعات منتظرة بحسب التقدير البشري العاجز الذي ينسى فيه الإنسان أن لله تعالى القدرة على صنع العجائب، وإيجاد ما لم يكن في الحسبان.

وأكَّد هذا التَّجاهل وعدم معرفة يوسف من إخوته: الكلام الذي دار بين يوسف وإخوته، حيث سألهم عن سبب مجيئهم وهو القدوم للميرة وحمل الطعام، وسألهم عن بلادهم وأهلهم وأبيهم وجميع أولاده، فأخبروه بأنهم اثنا عشر ولداً، هلك أصغرهم في البرية، وبقي شقيقه عند والده ليتسلى به ويعينه على أحوال المعيشة، فأمر يوسف بإنزالهم منزلاً كريماً، وبإكرامهم كرماً عظيماً.

ولما أوفى لهم الكيل، وحملهم من القمح عشرة أحمال، وزادهم حملين لأبيهم وأخيهم، قال: ائتوني في المرة القادمة بأخيكم من أبيكم وهو بنيامين، ألا ترون أني أتم لكم الكيل الذي تريدون دون بخس، وأزيدكم عليه، وأنا خير المنزلين المُضيفين للضيوف. وكان قصده من ذلك ترغيبَهم في الرجوع إليه.

وأخبرهم سلفاً أنه إن لم تأتوا بأخيكم بنيامين في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرة طعام، ولا تدخلون بلادي. وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ نهي لفظاً ومعنى، معناه ألا يقربوا له بلداً ولا طاعة.

فأجابوه: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ أي سنجتهد في طلبه من أبيه، ونحاول إقناعه بذلك برفق، وإنا لفاعلون ذلك لا محالة بمشيئة الله، ونحن حريصون على مجيئه إليك بكل إمكاناتنا، لتعلم صدقنا فيما نقول.

رُوي أن يوسف عليه السّلام استوفى في تلك السنين الجدباء أموال الناس ثم أملاكهم، فلم يبق لأحد في أرض مصر ومزارعها ملك. وظاهر كل ما فعله يوسف مع إخوته أنه بوحي وأمر إلهي، وإلا فكان برّ يعقوب يقتضي أن يبادر إليه ويستدعيه، لكن الله تعالى أعلمه بما يصنع، ليكمل أجر يعقوب ومحنته، ويتبين سبب محبَّته ليوسف، وتتفسَّر الرّؤيا الأولى، بسجود أحد عشر كوكباً له.

وقال يوسف لفتيانه، أي لغلمانه وخدمه: ﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ﴾ أي اجعلوا البضاعة التي اشتروا بها الطعام، وقدموا بها للميرة، معاوضة أو بيعاً، في أمتعتهم التي لهم من حيث لا يشعرون، لعلهم عند رجوعهم إلى أهلهم وبلادهم يعرفون حق ردّها وتكرمتها، فيرغبون فينا، ويرجعون إلينا حينئذ، أي بعد العودة إلى أهلهم وفتح أمتعتهم. والإنسان عادة يسرُّ بأخذ الشيء مجاناً، وبردِّ البضاعة التي دفعها ثمناً. وهذا إغراء واضح بالعودة، وتحقيق للغاية الكبرى، وهي لقاء يوسف مع جميع أسرته، أبيه وخالته وإخوته. وهو أسلوب ناجح، وعمل طيب ازدان به حسن الاستقبال والضيافة الكريمة، والوداع المؤثر الذي لا ينسى، من قِبَل يوسف عليه السّلام لإخوته الكبار، الذين أساؤوا إليه بإلقائه في البئر، فقابل الإساءة بالإحسان، وهو خلق الأنبياء والأصفياء والأولياء الكرام.

بنيامين مع إخوته إلى مصر

محنة جديدة يتعرَّض لها يعقوب عليه السّلام بإرسال ابنه الآخر بنيامين شقيق يوسف عليه السّلام مع إخوته إلى مصر في الرحلة الثانية لجلب الطعام، وربما كانت هذه المحنة أشدّ على يعقوب؛ لأنه فقَدَ الأنيس الجليس والحبيب الأثير من أولاده، ولكن ليتم مراد الله وقدره والتسليم لحكمه، ويتمهّد الطريق للقاء الأسرة الكريمة في بلاد مصر. وهذا ما قصّه القرآن الكريم في حديث مؤثِّر محزن، قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا(١) إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ(٢) وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى(٣) هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا(٤) وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ(٥) لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ(٦) فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(٧) ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٦٣-٦٦].

عرض إخوة يوسف على أبيهم في هذه المرة ما حدث معهم بكل أمانة وصدق مع عزيز مصر حين شراء القمح، فقالوا له: يا أبانا منع عنا عزيز مصر إعطاء الطعام وكيله لنا في المستقبل، فإن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، لا نكتل، فأرسلْه معنا لجلب الطعام بقدر عددنا، وإنا له لحافظون من كل مكروه وسوء في الذهاب والإياب، فلا تخف عليه، فإنه سيرجع إليك بمشيئة الله، ونوفي للعزيز الذي أكرمنا بما شَرَط علينا.

قال يعقوب الشيخ الحزين عليه السّلام المتألِّم من فراق بنيامين، لِمَا رأى من المصلحة: كيف أئتمنكم عليه؟ وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، وعاهدتموني

---

(١) أي إخوة يوسف. (٢) رحالهم. (٣) ما نطلب من الخير والإحسان بعد ذلك؟ (٤) نجلب لهم الطعام من مصر. (٥) عهداً مؤكّداً باليمين. (٦) تُغلبوا. (٧) مطلق رقيب.

وضمنتم حفظه، ولكني مع قلة طمأنينتي، أفوض أمري إلى الله ربّي، وأثق به، وأتوكَّل عليه، وهو أرحم الرّاحمين بي، وسيرحم كِبري وضعفي وتعلُّقي بولدي، وأرجو الله أن يرحمني بحفظه، وأن يردَّه علي، ويجمع الشّمل. وهذا استسلام من يعقوب عليه السّلام وتوكُّل عليه، وذلك موقف الأنبياء النابع من الإيمان العميق والاطمئنان لربِّ العالمين، وهو موقف يتأسى به أهل الإيمان.

وزاد الإغراء بإرسال بنيامين أن الإخوة لما فتحوا أمتعتهم وأوعية طعامهم، وجدوا بضاعتهم من النقود ثمن الطعام قد رُدَّت إليهم، وتلك فعلة يوسف عليه السّلام الذي أمر بوضعها في رحالهم، وقالوا على الفور: يا أبانا ماذا نريد زيادة على هذا الإكرام والإحسان من ملك مصر، كما حدّثناك، فما تعدَّينا، فكذبنا على هذا الملك، ولا في وصف إجماله وإكرامه، هذه البضاعة مردودة، ونأتي بالميرة (الطعام) إلى أهلينا من مصر، ونحفظ أخانا، بنيامين بعنايتنا ورعايتنا، فلا تخف عليه، ونزداد مكيال بعير لأجله، وذلك الحمل الزائد أمر يسير على هذا الحاكم السَّخي، الرَّحيم إذا أخذنا أخانا معنا.

قال يعقوب مريداً التّوثق من أولاده، وقد تذكر ماضي يوسف ومحنتَه: لن أرسل بنيامين معكم حتى تعاهدوني عهداً موثّقاً باليمين، لتعودُنَّ به على أي حال كنتم، إلا في حال يمتنع ذلك عنكم بأن تهلكوا وتموتوا أو تُغلَبوا على أمركم وتقهروا جميعاً، ولا تقدرون على تخليصه، فقوله سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ لفظ عام لجميع وجوه الغلبة والقسر، أي تعمّكم الغلبة من جميع الجهات، حتى لا تكون لكم حيلة ولا وجه تخلُّص، وكأن هذا استشعار من بُعْد عما يتم، ولكن لا بآلة، وإنما بفيض النُّبوة.

فلما آتوه، أي عاهدوه وأعطوه موثقهم، أي عهدهم المؤكد باليمين، قال

يعقوب: الله على ما نقول جميعاً وكيل، أي شهيد رقيب، حفيظ مطَّلع، وأُفوض أمري إليه.

ويلاحظ أن يعقوب عليه السلام قد توثق في هذه القصة، وأشهد الله تعالى، ووصَّى بنيه، وأخبر بعد ذلك بتوكُّله على الله، ولكنه توكُّل مقترن بالأسباب واتِّخاذ الاحتياط والقيام بالواجب والسعي الداخل في حدود القدرة البشرية، وتلك هي غاية التوكُّل الصحيحة، ومردّ الأمر في النهاية بعد السَّعي إلى الله فاعل الأشياء ومحقِّق النتائج بحكمة وإرادة وعدل.

وصيّة يعقوب لأولاده عند الدخول على حاكم مصر

تظلُّ وصايا الأنبياء وسيرتهم نبراساً للقدوة الحسنة والسيرة العملية في حياة الإنسان، لأنهم لا يفعلون شيئاً إلا بوحي أو إلهام من الله تعالى، ولا يكون توجيههم وتبليغهم دعوة الله وشرعه إلا لخير الإنسان وإسعاده، وتحقيق أكبر نفع أو مصلحة له، ولو على المدى البعيد، فلا يكون النفع آنياً، كما أن في هذا التوجيه النَّبوي حماية للإنسان من ألوان المكاره والسوء، وتجنُّب الوقوع في المهاوي والعثرات والمزالق، وهذا لون مرغوب من الوصايا، وهو وصية يعقوب لأولاده، وهي الدخول من أبواب متفرقة، ليروا مدى العناية والاستقبال لكل واحد منهم من حاكم مصر، أو لئلا يحسدهم الحسّاد، وترمقهم الأعين معجبين بالعدد الكثير من الإخوة والرجال. قال الله تعالى مخبراً عن هذه الوصية:

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ
مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ
أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ

وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٦٧-٦٨].

رُوي أن أولاد يعقوب، لما ودَّعوا أباهم، قال لهم: «بلِّغوا ملك مصر سلامي، وقولوا: إن أبانا يصلِّي عليك، ويدعو لك، ويشكر صنيعك معنا». والصلاة معناها هنا الدعاء بالرِّفعة والمنزلة العالية وبالمغفرة والفضل الإلهي.

وقال يعقوب لأولاده: يا بَنِيَّ لا تدخلوا مصر من باب واحد، وادخلوا من أبواب متفرقة؛ لأنهم كانوا أهل جَمال وكَمال، لئلا تصيبهم العين، والعين قد تكون سبباً في المهالك.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح: «العين حقّ» أي شيء ذو أثر موجود عند الناس، وفي خبر آخر: «إن العين لتدخل الرجل القَبْر، والجمل القِدْر»(١) . والعين لا تضرُّ إذا برّك العائنُ، فيقول: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه. وإذا أصاب العائن ولم يبرك، يؤمر بالاغتسال، ويجبر على ذلك إن أباه.

وتابع يعقوب وصيته ومفادها: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ . .﴾ الآية، أي وما أدفع عنكم بوصيتي وتدبيري من قضاء الله شيئاً؛ لأنه لا يغني حذر من قدر، وإن كنا مأمورين باتِّخاذ وسائل الحيطة والحذر، لقوله تعالى: ﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النِّساء: ٤/ ١٠٢] أخذاً بالأسباب العادية الظاهرية، وليس دفعاً للقدر، وتحدِّياً للقضاء. ويظل إنفاذ الحكم وتدبير الأمر لله وحده، لذا قرن يعقوب كلامه السابق: بأن الحكم لله وحده، وعليه وحده توكَّلت، وبه وثقت، وعليه تعالى فليتوكل المتوكلون، دون أن يعتمدوا في تحقيق النتائج على أنفسهم وأمثالهم من البشر ذوي الإمكانات المحدودة والقدرات البسيطة أمام قدرة الله الفائقة.

(١) ذكره ابن حبّان في المجروحين والقيسراني في تذكرة الموضوعات .

ولما دخل أولاد يعقوب مصر التي كان لها أبواب أربعة، من حيث أمرهم أبوهم، من أبواب متفرقة، ما كان توجيه يعقوب على هذا النحو يفيدهم شيئاً قطّ، إذا أصيبوا بسوء، ولا يردُّ عنهم قدراً؛ لأنه لو قضي أن تصيبهم عين، لأصابتهم مفترقين أو مجتمعين. وإنما طمع يعقوب أن تصادف وصيته ورجاؤه قَدَر السلامة، فوصَّى، وأن يظهر شيئاً في نفسه، وهي شفقته عليهم، وتلك رغبة أو حاجة ذاتية في نفس يعقوب أراد إظهارها.

ثم أثنى الله عزّ وجلّ على يعقوب بأنه لُقِّن ما علَّمه الله من هذا المعنى، وهو يعلم بأن الحذر لا يمنع من القَدَر لتعليم الله إياه بالوحي، ولكن أكثر الناس وهم المشركون والكفار لا يعلمون ذلك، أي لا يعلمون مثل ما علم يعقوب عليه السّلام، ولا يدركون كيف أرشد الله أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة، ومن تلك العلوم: الأخذ بالأسباب الظاهرة، وتفويض الأمر لله تعالى.

والخلاصة: نحن البشر مأمورون باتخاذ الاحتياطات والأسباب الظاهرية، ونفوِّض الأمر في تحقيق النتائج إلى الله تعالى، مع ثقتنا التامَّة بعدله وفضله ورحمته وإحسانه، ومع توكلنا عليه سبحانه في إنجاز الأمور وتفويض المشيئة لله تعالى.

لقاء الأخوين يوسف وبنيامين

لم يطلب يوسف عليه السّلام الإتيان بأخيه بنيامين إلا لإبقائه عنده، تمهيداً لجمع الشّمل ولَمِّ الأسرة، والعيش مع الشيخ الكبير يعقوب عليه السّلام الذي اعتصر الأسى قلبه بفقد يوسف، ثم تلاه بنيامين. وتمت الخطة بكيد يسَّره الله ليوسف عليه السّلام، واستسهل الأمر على ما فيه من رمي أبرياء بالسرقة، وإدخال الهمّ على

يعقوب عليه السّلام وعليهم، لما علم في ذلك من الصلاح في الآجل، وبوحي لا محالة، وإرادة من الله محنتهم بذلك. وهذا محكي في القرآن، قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ[١] قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ[٢] بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ[٣] فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ[٤] أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ[٥] إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ[٦] ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ[٧] ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ[٨] مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ[٩] إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ١٢/٦٩-٧٦].

هذا ما حدث في الرحلة الثانية لأولاد يعقوب من فلسطين إلى مصر لجلب الطعام، فقد ضمَّ يوسف عليه السّلام أخاه بنيامين واختلى به، وأطلعه على شأنه، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس أي لا تأسف ولا تحزن على ما صنعوا بي، وأمره ألا يطلع إخوته على ما أسرَّ به إليه، وتواطأ معه أن يبقيه عنده معزَّزاً مكرَّماً.

فلما جهَّزهم يوسف بجهازهم، أي لما أعدَّ لهم الطعام، وحمّلَ لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتيانه (غلمانه أو خدمه) أن يضع السّقاية (الصّواع أو مكيال الطعام من فضة أو ذهب) في رحل أخيه بنيامين، دون علم أحد.

---

(١) ضمَّ إليه شقيقه بنيامين. (٢) فلا تحزن. (٣) المراد به مكيال الطعام، وهو صواع الملك. (٤) نادى منادٍ. (٥) القافلة. (٦) مكياله. (٧) كفيل. (٨) أي علمناه الحيلة وأوحينا إليه طريقة أخذ أخيه. (٩) أي قانونه ونظامه.

ثم أذَّن مؤذِّن، أي نادى منادٍ حينما عزموا على الخروج: أيتها العير، أي يا أصحاب العير، إنكم قوم سارقون، فقفوا، فبُهتوا وذُهِلوا. ثم التفتوا للمنادي، وقالوا: أي شيء تفقدونه؟ فأجابوهم: نفقد صواع الملك الذي يكيل به، ولمن أتى به حِمْل بعير من القمح، وأنا به زعيم، أي كفيل ضامن. مما يدلُّ على مشروعية الجعالة أو الوعد بالجائزة.

قال إخوة يوسف بعد اتِّهامهم بالسرقة: والله لقد خبرتمونا في المرة الأولى، وعلمتم علم اليقين أننا ما جئنا لنفسد في أرضكم بالسرقة أو غيرها من التَّعدي على حقوق الناس، ولم نكن يوماً ما سارقين، فليست سجايانا على هذه الصفة.

فقال فتيان يوسف: فما جزاء السارق إن كان فيكم، إن كنتم كاذبين في نفي التُّهمة عنكم؟ فأجابوا: جزاؤه في شرعنا أخذ من وجد في رحله، ومثل هذا الجزاء نجزي الظالمين للناس بسرقة أموالهم في شريعتنا أن يُسْتَرَقّوا، أي أن يُتَمَلَّكَ السّارق كما تملك هو الشَّيء المسروق. وهي شريعة إبراهيم ويعقوب عليهما السّلام، وهذا مراد يوسف. وإتماماً لتنفيذ الخطة، بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه للتورية وحتى لا يُتّهم، ثم استخرج السِّقاية من وعاء أخيه بنيامين، فأخذه منهم بمقتضى اعترافهم، وإلزاماً لهم بمقتضى شريعتهم.

ومثل ذلك الكيد، أي التدبير الخفي، كدنا ليوسف، أي دبَّرنا له في الخفاء، وأوحينا إليه أن يفعل لأخذ أخيه، وهذا من الكيد المشروع، لما فيه من المحبة والمصلحة المطلوبة، وهي حيلة مشروعة، يترتب عليها خير ومصلحة في المستقبل، دون إضرار أحد. ولولا هذا التدبير ما كان يتمكَّن يوسف عليه السّلام من أخذ أخيه في نظام أو قانون ملك مصر، الذي لا يبيح استرقاق السارق، وكان يوسف يعلم بشريعة يعقوب، فما كان ليأخذ أخاه في نظام الملك في حال من الأحوال إلا في حال

مشيئة الله، فإنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه، مما يدلُّ على أن تلك الحيلة مشروعة مأذون بها من الله العلي الحكيم.

وفوق كل عالم من هو أعلم منه، والمعنى: أن البشر في العلم درجات، فكل عالم لا بدّ من وجود من هو أعلم منه، فإما من البشر، وإما الله عزّ وجلّ. قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عزّ وجلّ. فإذا كان إخوة يوسف علماء، فإن يوسف كان أعلم منهم.

الحوار الحادّ
بين يوسف وإخوته، وبينهم وبين أبيهم

تفجّرت الأزمة الخانقة بين أولاد يعقوب في مصر، وبينهم وبين أبيهم في فلسطين، ووقعوا في كمين أو فخ شائك، وظهرت الطبائع على حقيقتها، بالرغم من كون الأولاد أبرياء من السرقة، والملك يعرف ذلك. لكن الحادث أغاظهم، وبدأت الاتّهامات الباطلة ومخاوف اللقاء مع الأب، وما يتعرَّض له من ألم وأسى جديد حين عودتهم من دون بنيامين. فماذا فعلوا في ساحة الاتّهام؟ قال الله تعالى واصفاً وقائع الحوار وصدمة يعقوب وشكواه إلى الله وصبره.

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ[١] أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ[٢] خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ[٣]

---

(١) نعتصم بالله . (٢) يئسوا من إجابته . (٣) انفردوا عن الناس يتناجون ويتشاورون .

قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى
يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ
إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ
حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ(١) ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ
بَلْ سَوَّلَتْ(٢) لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ(٣) عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ(٤) مِنَ
ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ(٥) ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ(٦) تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا(٧) أَوْ
تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى(٨) وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ(٩) مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ(١٠)
إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ [يوسف: ١٢/ ٧٧-٨٧].

عبَّر إخوة يوسف عن طبعهم ونظرتهم السَّيئة نحو يوسف، فاتَّهموه بالسَّرقة وهو صغير، وأن الأخوين سارقان، فقالوا: إن يسرق بنيامين الصواع، فقد سرق أخوه يوسف من قبل، فهما في العادة والطبع سواء. وقصة سرقة يوسف في الصغر: أن عمته ربته، فلما شبَّ أراد يعقوب أخذه منها، فولعت به، وأشفقت من فراقه، فأخذت مِنْطقة إسحاق المتوارثة عندهم، فنطَّقته بها من تحت ثيابه، ثم صاحت وقالت: إني قد فقدت المنطقة، ويوسف قد خرج بها، ففُتِّش فوجدت عنده، فاسترقَّته -حسبما كان في شرعهم- وبقي عندها حتى ماتت، فصار عند أبيه.

فأسر يوسف الحزازة التي حدثت في نفسه من قولهم، ولم يظهر ما في نفسه من مؤاخذتهم بمقالتهم، بل صفح عنهم، وقال لهم في نفسه دون إعلان: أنتم شرٌّ مكاناً

(١) القافلة. (٢) زيَّنت. (٣) يا حزني الشديد. (٤) أصابتها غشاوة. (٥) مملوء غيظاً على أولاده. (٦) لا تفتأ ولا تزال. (٧) مشرفاً على الهلاك. (٨) أشدّ غمي. (٩) تعرفوا عنه. (١٠) رحمته وفرجه.

ومنزلة ممن تتهمونه بالسَّرقة؛ لأنكم سرقتم أخاكم من أبيكم، وطرحتموه في البئر، لإهلاكه والتخلص منه. والله أعلم بما تذكرون وتصفون.

ثم استشفعوا لدى يوسف قائلين: يا أيها العزيز، إن له أباً شيخاً كبيراً، هرماً، يحب هذا الولد حبّاً شديداً، فخذ أحدنا بدله، إنا نراك من المحسنين لنا في عطائنا وضيافتنا، بل وفي جميع أفعالك معنا ومع غيرنا.

قال: نعوذ بالله ونلجأ إليه أن نأخذ غير من وجدنا الصواع عنده، فإنا إن فعلنا ذلك كنا من جملة الظالمين، لأن ذلك أخذ بريء بمتهم. والمراد أن الله أمرني بما فعلت، واحتبست بنيامين لمصلحة في ذلك.

فلما يئس إخوة يوسف من إطلاق سراح أخيهم بنيامين الذي التزموا وعاهدوا أباهم أن يردوه إليه، اعتزلوا الناس يناجي بعضهم بعضاً، فقال كبيرهم شمعون رأياً وتدبيراً وعلماً، وإن كان روبيل أسنَّهم: ألم تعاهدوا أباكم بردِّ بنيامين، وكنتم سابقاً قد فرطتم بيوسف، فلن أغادر أرض مصر أبداً، حتى يأذن لي أبي، أو يحكم الله لي بأن يمكنني من أخذ أخي بنيامين، والله خير الحاكمين بالحق والعدل، ارجعوا إلى أبيكم، وقولوا له: يا أبانا لقد سرق ابنك صواع الملك، فاسترقّه عزيز مصر، وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه وشاهدناه، ولم نعلم بالغيب أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق بردِّه. واسأل يا أبانا أهل القرية التي كنا فيها وهي مصر، واسأل أصحاب العير الذين كانوا يأتون بالميرة (الطعام) معنا، ونحن صادقون فيما أخبرناك به.

قال يعقوب: بل زيَّنت لكم أنفسكم أمراً آخر أردتموه، وكيداً جديداً فعلتموه، فأصبر صبراً جميلاً: وهو الذي لا جزع ولا شكاية فيه لأحد غير الله، لعل الله أن يأتيني بأولادي الثلاثة جميعاً، إن الله عليم بحالي، حكيم في فعله وقضائه وقدره. وأعرض بوجهه عن أولاده وجعل يتفجع ويتأسَّف، وأصيبت عيناه بغشاوة بيضاء

حجبت الرؤية بسبب الحزن الشديد، ولكنه كظم غيظه، وحبس همه في نفسه وصدره، فقال أولاده له: والله لا تزال تذكر يوسف، حتى تقع في مرض مشرف على الهلاك، أو تكون من الهالكين الميتين. قال: لا أشكو بثّي أي ما انطوت عليه نفسي، وحزني إلا إلى الله وحده، وأعلم من الله ما لا تعلمون، أي أرجو منه كل خير وفضل. يا أولادي، اذهبوا إلى مصر، وتعرَّفوا أخبار يوسف وأخيه بنيامين، ولا تيأسوا من رحمة الله وفرجه، إنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون الجاحدون قدرة الله وحكمته ورحمته.

لقاء التَّعارف الفريد

لقد نجحت خطة يوسف عليه السّلام في استدراج مجيء إخوته وأسرته مرة بعد مرة، فهو بتعليم الله له وإرشاده، يسير على خطة محكمة، ومنهج متقن، وإخوته لجهلهم وتفريطهم وتآمرهم السابق على يوسف، لم يدركوا شيئاً من هذه الخطة إلا في مرة ثالثة قدموا بها من فلسطين إلى مصر، وبعد أن رقَّ قلب يوسف لاستعطافهم واسترحامهم، وحدثت المفاجأة العجيبة حيث عرَّفهم يوسف بنفسه، وتم اجتماع الإخوة الاثني عشر في بيت يوسف وسلطانه، فاعترفوا بالذنب السابق، وقابلهم يوسف النَّبي بالعفو والصفح عنهم، وتجدد الحبّ الأخوي، وتهيأ الجو لاستقبال الوالد يعقوب عليه السّلام. قال الله تعالى واصفاً هذا اللقاء الأخوي والتعارف الفريد في التاريخ:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ(١) وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ(٢) فَأَوْفِ

(١) الهزال من شدّة الجوع. (٢) بأثمان رديئة كاسدة.

لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ
وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ
مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ
تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ[١] عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ[٢] عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ
يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ
بَصِيرًا[٣] وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٨-٩٣].

أمر يعقوب عليه السلام أن يذهب أولاده إلى أرض مصر التي جاؤوا منها، وتركوا أخويهم: بنيامين وروبيل، وأن يستقصوا أخبار يوسف وأخيه، فساروا من أرض الشام ووصلوها، فلما دخلوا على يوسف عليه السّلام أرادوا اختباره وإثارة عواطفه بذكر سوء حالهم وتضرُّعهم له، وكان أبوهم يرجح أن هذا العزيز في مصر هو يوسف، فقالوا له: أيها العزيز العادل الرحيم، قد مسَّنا وأهلَنا الضُّرُّ، أي الجوع والمسغبة التي كانوا بسبيلها، ووضع أخيهم الذي أَهَمّ أباهم وغَمّ جميعهم، وجئنا ببضاعة مزجاة، أي قطعة من المال ناقصة غير تامة، يُتسامح في أخذها، وهي قليلة لا تروج إلا بالدفع وطول العرض وحسنه. فإن الدراهم المدفوعة إذا كانت نازلة القدر تحتاج أن يعتذر معها ويشفع لها، فهي مزجاة، فأتم لنا الكيل كما كنت تفعل، فقد عودتنا الجميل، وتصدَّق علينا بالزائد، إن الله يجزي المتصدقين، ويكافئهم على أعمالهم. وكانت الصدقة بالفرق بين الدراهم الجياد وهذه المزجاة. وقالوا هذا تجوُّزاً واستعطافاً منهم في البيع.

فقال يوسف عليه السّلام لما أخبروه بما مسّهم وأهلَهم الضُّرّ، واستعطفوه، فرقّ قلبه ورحمهم، قال لهم مستفهماً عن استقباح فعلهم السابق بيوسف: هل علمتم قبح

(١) فضّلك الله علينا. (٢) لا لوم عليكم. (٣) مبصراً من شدّة السرور.

ما فعلتم بيوسف وأخيه بنيامين من التفريق بينهما في الصِّغر، وألقيتم يوسف في البئر وعرضتموه للهلاك، وما عاملتموه به من معاملة خشنة قاسية، حال كونكم جاهلين قبح ما فعلتم، من عقوق الوالدين، وقطيعة الرحم والقرابة، وذلك جهل المعصية، أو جهل الشباب وقلّة الحُنكة، وكأنه ببشره وتبسُّمه لقَّنهم الجواب، وقرَّبهم من الظَّن القوي أنه يوسف.

فخاطبوه مستفهمين استفهام تقرير وتثبُّت ومعرفة: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ فقد عرفوه بعلامات كانت فيه. فقال على الفور: أنا يوسف المظلوم العاجز الذي نصرني الله، وحفظني، وصيَّرني إلى ما ترون، وهذا أخي بنيامين الذي فرَّقتم بيني وبينه، فكان مظلوماً أيضاً كما كنت، ثم صار منعماً عليه من قِبَل الله تعالى، كما ترون. قد أنعم الله علينا بالاجتماع، بعد الفرقة وبعد طول المدة، وأعزّنا في الدنيا والآخرة، إنه من يتقِ الله في ترك المعصية، ويصبر على المحن التي يتعرَّض لها كالرَّمي في البئر والسجن، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً في الدنيا والآخرة. وهذه شهادة من الله عزّ وجلّ بأن يوسف من المتقين الصابرين المحسنين.

أجابوه إعلاناً للحق واعترافاً له بالفضل: والله لقد فضَّلك الله علينا، وآثرك بالعلم والحلم والخلق، والسلطان والسعة، والنُّبوة والرِّسالة، وإن كنا مخطئين مذنبين في حقِّك، فقال يوسف بعد هذا الاعتذار والتوبة، معلناً الصفح والعفو عنهم: لا لوم ولا تعيير ولا توبيخ أو تأنيب لأحد منكم فيما صنعتم، يغفر الله لكم ذنوبكم وظلمكم، وهو أرحم الراحمين لمن تاب إليه وأناب إلى طاعته. وهذا مثل عالٍ في العفو الجميل والصفح الكريم، فعل نبينا عليه الصَّلاة والسّلام مثله مع أهل مكة بعد فتحها، مستشهداً بقول يوسف نفسه.

ثم جاءت معجزة القميص، قال يوسف لإخوته: اذهبوا بقميصي هذا، فألقوه على

وجه أبي، يعُدْ بصره إليه بعد أن عَمِي بسبب شدة الحزن، وأتوني بجميع أهليكم من الرجال والنِّساء والأولاد، وكانوا سبعين رجلاً وامرأة وولداً. وكان هذا كله بوحي وإعلام من الله تبارك وتعالى. ويروى أن هذا القميص كان لإبراهيم عليه السّلام، حين كساه الله إياه بعد خروجه من النار.

معجزة القميص

يختلف أُفق النُّبوة غير المعتاد عن الأحوال المعروفة المعتادة للناس، فإن في النُّبوة أعمالاً خارقة للعادة، تسمى معجزات، وكانت معجزة قميص يوسف من أبهر المعجزات النَّبوية في تاريخ الرُّسل، وكان الخبر العجيب من يعقوب عليه السّلام أنه يشمّ ريح يوسف ابنِه المفقود من زمان طويل. وتحقَّقت نبوءة يوسف وأبيه يعقوب، وتمت الفرحة الغامرة باكتشاف وجود يوسف عليه السّلام، وأنه ما زال حيّاً، وأنه ذو مكانة وسلطان، وعمت البهجة والسرور أرض مصر وفلسطين معاً، وكان البشير المبشر بهذا هو الابن الأكبر ليعقوب، وهو يهوذا الذي اعتصم بمصر، والذي كان قد جاء بقميص الدم. وصف القرآن المجيد هذه المعجزة في قوله سبحانه:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ[1] قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ[2] ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ[3] ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

[يوسف: ١٢/ ٩٤-٩٨].

---

(١) فارقت القافلة العريش في مصر . (٢) أي تنسبوني إلى الفَند: وهو ضعف العقل أو الخرف، أي تسفهوني أو تكذبوني . (٣) انحرافك عن الصواب .

أحسَّ يعقوب عليه السّلام برائحة يوسف ابنه الحبيب، وأشعره الله به، حين أقبل به إليه ابنه الأكبر يهوذا من مسيرة ثلاثة أيام أو ثمانية، إذ حملته إليه ريح الصَّبَا، فلما خرجت إبل أولاده من مصر، وانفصلوا عنها، قال يعقوب -وهو النَّبي الرسول الصادق- لأهله: إني لأشمُّ رائحة يوسف وقميصه، لولا أن تنسبوني إلى الفَنَد (أي الخرف وضعف العقل) والكبر.

أخرج عبد الرزاق عن ابن عباس قال: لما خرجت العير، هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ فوَجَد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. قال الإمام فخر الدين الرازي: والتحقيق أن يقال: إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات؛ لأن وصول الرائحة من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة، فيكون معجزة ليعقوب عليه السّلام على الأظهر أو الأقرب.

وهذا هو الراجح بتقدير الله وإرادته وقدرته حيث يطلع أنبياءه على عجائب الأمور على سبيل إظهار المعجزات على أيديهم.

قال الحاضرون في مجلس يعقوب له: والله، إنك لفي ضلالك القديم أي حيرتك أو خطئك القديم الذي طال أمده، بظنِّك أن يوسف حيٌّ يُرزق، ويرجى لقاؤه.

وليس هو بالضّلال الذي هو في العرف ضدّ الرشاد؛ لأن ذلك من الجفاء الذي لا يسوغ لهم مواجهته به. وكان حزن يعقوب قد تجدَّد بقصة بنيامين، فلذلك يقال له: ذو الحزنين.

فلما أن جاء البشير المبشّر، وهو يهوذا، يحمل قميص يوسف، مبشِّراً له ببقائه حيّاً، هو وأخوه بنيامين، ألقاه على وجه يعقوب، فانقلب فوراً بصيراً كما كان، من شدّة الفرح. وتلك معجزة أخرى، وقال يعقوب حينئذ لمن حوله: ألم أقل لكم يا

أولادي، إني أعلم من الله أشياء لا تعلمونها. ألم أقل لكم حين ذهبتم إلى مصر: ابحثوا عن يوسف، ولا تيأسوا من رَوْح الله ورحمته، وإني لأعلم يقيناً أن الله تعالى سيردُّ يوسف إلي.

وحين ذاك قال الأولاد لأبيهم يعقوب مترفِّقين معتذرين: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ أي اطلب من الله أن يغفر لنا ذنوبنا، فإنا كنا مذنبين عاصين، وقد تبنا وندمنا على ما فعلنا معك ومع أخوينا: يوسف وبنيامين.

روي أن يوسف عليه السّلام لما غفر لإخوته، وتحقَّقوا أيضاً أن والدهم يعقوب يغفر لهم، قال بعضهم لبعضٍ: ما يغني عنا هذا، إن لم يغفر الله لنا، فطلبوا حينئذ من يعقوب أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى، واعترفوا بالخطأ.

فقال لهم يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ أي في المستقبل القريب، في وقت السَّحَر آخر الليل، لأنَّ ربي غفور ستّار للذنوب، رحيم بالعباد. وهذا الوقت -وقت السَّحر- هو وقت يُجاب فيه الدعاء، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧/٣]. وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي والموطأ والإمام أحمد (أي الجماعة ما عدا النّسائي) عن النّبي ﷺ قال: «ينزل ربّنا كل ليلة إذا كان الثلث الآخر -أي من الليل- إلى سماء الدنيا، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يستغفرني فأغفر له؟». وروى ابن عباس -فيما أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ- عن النّبي ﷺ قال: «أخَّرهم يعقوب، حتى تأتي ليلة الجمعة». والتوفيق بين الرَّأيين: أنه أخَّرهم لسحر ليلة الجمعة، ووافق ذلك ليلة عاشوراء، وهو رأي أكثر المفسِّرين.

اللقاء المبارك لأسرة يعقوب كلها

كانت قصة يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته من العجائب، وتمت فصولها ومشاهدها على مدى طويل، لتعليم الناس وإرشادهم إلى ضرورة التصديق أولاً بأخبار الأنبياء الذين يخبرون عن الله بالوحي، وإلى لزوم الاعتصام بالإيمان بالله عزّ وجلّ، وبالصبر الجميل على الأحداث، وإلى تفويض الأمر لله تعالى دون تعجيل بالثأر أو الانتقام أو اقتراف الخطأ والذنب، كما حدث من إخوة يوسف. وأدّت فصول هذه القصة إلى الهدف المرجى، وهو لقاء الأسرة اليعقوبية لقاء كريماً مباركاً فيه، وذلك في المرة الرابعة من رحلات أولاد يعقوب إلى مصر، وتم في هذا اللقاء تأويل رؤيا يوسف من قبلُ بسجود أحد عشر كوكباً له، وهم أهله وإخوته، قال الله تعالى موضحاً هذا التأويل وذلك اللقاء العظيم:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ(١) وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ(٢) مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ(٣) بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

[يوسف: ١٢/٩٩-١٠٠].

بعد أن طلب يوسف عليه السّلام من إخوته أن يأتوه بأهله أجمعين، فرحلوا من بلاد كنعان -فلسطين- إلى مصر، للإقامة معه فيها، فحضر يعقوب أبوه وخالته وإخوته وأُسرهم، فلما أخبر يوسف عليه السّلام باقترابهم من أرض مصر، خرج لتلقّيهم ومعه الأُمراء وأكابر الناس، فلما دخلوا على يوسف في أُبهة الملك

---

(١) ضمهما إليه. (٢) البادية. (٣) حرّش وأغرى.

والسلطان، ضمَّ إليه أبويه وعانقهما، على ما رجح ابن جرير، أو أباه وخالته؛ لأن أمه كانت قد ماتت، فتزوج يعقوب بهذه الخالة.

وقال يوسف لأسرته جميعاً: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أي تمكّنوا واسكنوا واستقرّوا في بلاد مصر، بمشيئة الله، آمنين على أنفسكم وأموالكم وأهليكم، لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

ورفع يوسف أبويه على سرير ملكه، بأن أجلسهما معه، تكريماً لهما، وسجد له الإخوة الأحد عشر والأبوان سجود تحية وإكرام له، لا سجود عبادة وتقديس، وكان سجود الانحناء هو تحية الملوك والعظماء في زمنهم.

وبعد هذه التحية قال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ أي إن هذا السجود هو تأويل رؤياي القديمة حال صغري، وهي: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٤]. وتأويل رؤياي: ما آل إليه الأمر.

إن تلك الرؤيا العجيبة الغريبة، أصبحت حقيقة واقعة، وصحيحة صدقاً؛ فإن رؤيا الأنبياء حقٌّ ثابت، فكما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده إسماعيل، صارت سبباً لوجوب ذلك الذبح عليه في اليقظة والواقع، فكذلك صارت هذه الرؤيا ليوسف سبباً لوجوب ذلك السجود: سجود التَّحية.

وأضاف يوسف قائلاً: وقد أحسن الله تعالى إلي وأفاض علي من نعمه وأفضاله، وعبَّر بقوله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ أي أوقع وناط إحسانه بي، إذ أطلق سراحي من السجن، ورزقني الملك، وجاء بكم من البادية، وكانوا أهل بادية وماشية وشظف عيش، فنقلكم من الشقاوة إلى النعمة، ومن البادية لسكون الحاضرة والمدينة ذات الترف والسعة والرفاه.

ولم يذكر يوسف قصة إخراجه من البئر، تكريماً لإخوته، وحفظاً لحيائهم،

وحدث كل هذا من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي، أي فعل فعلاً أفسد به، وأغوى وأساء العلاقة بيني وبين إخوتي، ونسب النَّزغ للشيطان؛ لأنه سبب الإفساد. وإنما ذكر يوسف هذا القدر من أمر إخوته ليبيِّن حسن موقع النِّعم؛ لأن النعمة إذا جاءت إثر شدة وبلاء، فهي أحسن موقعاً. وأما نزغ الشيطان فهو حقيقة واقعة لقول النَّبي ﷺ -فيما يرويه البخاري عن أبي هريرة -: «لا يُشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري، لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار».

والمعنى: يرمي به في يده ويحقق ضربته. ومن رواه «ينزغ» فمعناه الإغراء، أي يزيِّن له الشيطان تحقيق الضربة.

ثم قال يوسف: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي إن الله إذا أراد أمراً، قيَّض له أسباباً، وقدَّره ويسَّره، إنه هو العليم بمصالح عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده.

نهاية قصة يوسف والعبرة منها

تضمنت قصة يوسف عليه السّلام مجموعة من المبادئ الاعتقادية والأخلاقية والدينية، كوَّنت همزة وصل وجسور التقاء بين رسالة يوسف ورسالة النَّبي محمد ﷺ، أساسها شكر النعمة لخالق الأرض والسماء، ومبناها الإيمان بالغيب، وفيها براهين لإثبات وجود الله تعالى وتوحيده تقوم على أساس التَّفكر والتأمل في آيات الله الكونية، وتتضمن وصف أكثر الناس بعدم الإيمان، وتهديدهم بإتيان العذاب أو مجيء القيامة، مما يجعل دعوة خاتم الأنبياء تقوم على هذه الأُسس القديمة القويمة، وعلى الإقناع والعقل والتبصُّر في الأمور، وإثبات توحيد الله، ورفض الشِّرك والوثنية. وصف الله تعالى هذه الجسور بين رسالات الأنبياء بقوله تعالى:

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ[1] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ[2] وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ[3] فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ[4] مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً[5] وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠١-١٠٨].

ختمت قصة يوسف بخاتمة مؤثرة تصلح عبرة للملوك والحكام، حيث جمع الله ليوسف بين الملك والسلطة، والنُّبوة، وأنعم عليه بنعم كثيرة نقلته من السجن والبئر إلى عزّة الإدارة والحكم والسلطة في مصر، فبادر إلى شكر ربِّه، بهذا الدعاء الجامع الذي سأل الله فيه أن يُجزل له ثواب الآخرة كما أجزل له العطاء في الدنيا. فقال: يا ربّ، قد آتيتني ملك مصر، وعلَّمتني بعض التأويلات للأحاديث وتعبير الرّؤيا، ومعرفة أسرار كلامك. يا ربّ يا فاطر السماوات والأرض (أي خالقهما ومبدعهما في أبدع نظام وأحكم ترتيب) أنت ناصري ومتولِّي أمري في الدنيا والآخرة، توفَّني مسلماً خاضعاً لك منقاداً لأمرك، وألحقني بالصالحين من آبائي: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، فأنت الرحيم الكريم، القادر على كل شيء.

ذلك الإيراد لقصة يوسف عليه السّلام وأخباره من أخبار الغيب التي أوحاها الله لنبيه محمد ﷺ، ولم يكن موجوداً في وقت أحداثها، ولا مشاهداً لها، حين عزم

---

(١) يا مبدع. (٢) عزموا على الكيد ليوسف. (٣) كم من آية أي كثير. (٤) أي نقمة تغشاهم أو عقوبة تحيط بهم. (٥) فجأة.

إخوة يوسف على إلقائه في البئر، وهم يمكرون به، أي يدبِّرون شيئاً به وبأبيه، وإنما ذلك من تعليم الله تعالى له.

علماً بأنه ليس أكثر الناس بمصدِّقين بدعوتك ورسالتك يا محمد، ولو كنت حريصاً على إيمانهم، لتصميمهم على الكفر وعنادهم. وما تسأل منكري نبوّتك يا محمد على تبليغ الرسالة ونصحهم ودعوتهم إلى الخير والرُّشد أجراً ولا عوضاً، وإنما تفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وإفادة خلقه، فما عليهم بعد هذا البيان إلا قبول دعوتك، فإن هذا القرآن الذي أرسلك به ربُّك هو محض تذكير وموعظة لكل العالمين من الجنّ والإنس.

والسبب في أن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين: أنهم في غفلة عن التفكُّر في الآيات الكونية والدلائل الدّالة على وجود الله الصانع وتوحيده، وكمال علمه وقدرته، في أنحاء السماوات والأرض من الكواكب والنجوم، والجبال والسهول، والبحار والنباتات والأشجار، والأحياء والأموات، يمرون على تلك الآيات والدلائل ويشاهدها أكثرهم، وهم غافلون عنها، لا يتفكرون بما فيها من عِبَر وعِظات، وكلها تشهد بوجود الله ووحدانيته.

وما يكاد يؤمن أو يصدِّق أكثر المشركين بوجود الله إلا وهم ملازمون للشِّرك، عاكفون على عبادة الأصنام والأوثان. هذه الآية نزلت بسبب قول قريش في الطَّواف والتَّلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. فأنذرهم الله بقوله: أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتشملهم، أو يأتيهم يومُ القيامة فجأة، وهم لا يحسّون أو لا يشعرون بذلك. وهذا كما في آية أخرى فيها إنذار وتوبيخ وتهديد: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ

أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/٩٧-٩٩].

ثم أمر الله نبيَّه أن يعلن مضمون دعوته للثَّقلين: الإنس والجنّ بأن طريقته التي يتَّبعها، ودعوته إلى توحيد الله، يدعو فيها هو أتباعه على تبصُّر ويقين، وتأمُّل وإقناع، وبرهان ساطع وحجة دامغة، وسبحان الله، أي أُنزِّه الله وأُقدِّسه من أن يكون له شريك أو نظير، وأنا بريء من جميع المشركين على اختلاف أنواعهم. والخلاصة: إن آية ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ إشارة إلى دعوة الإسلام والشريعة الإلهية بأسرها.

العبرة من القصة القرآنية

يتذرَّع أعداء الرِّسالات الإلهية بذرائع واهية وشبهات قديمة من أجل تسويغ ضلالهم وكفرهم، والتماس العذر لسلوكهم ومنهاجهم، ومن شبهاتهم إنكارهم بشرية الرُّسل، وأن الرسول في زعمهم ينبغي أن يكون ملَكاً نورانياً، كما حكى القرآن عنهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصِّلت: ٤١/١٤]. ونسوا ما يرون في الكون من آيات دالّة على صدق الرُّسل، وثبوت الوحي الإلهي لهم. فإذا ما أصرّوا على كفرهم جاءهم العذاب الشامل. وعلى الناس أن يدركوا أن في إيراد القصص القرآنية عبرة وعظة لذوي العقول، وليس حديثاً مفترىً أو مكذوباً. وهذا ما أبانته الآيات التالية:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ(١) ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ(٢) أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ(٣) جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا(٤) عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ(٥) لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ(٦) وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١٢/١٠٩-١١١].

الآية الأولى: ﴿. . إِلَّا رِجَالٗا . .﴾ تتضمن الرَّد على مستغربي إرسال الرُّسل من البشر، كالطائفة التي قالت: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٧/٩٤] ، وكالطائفة التي اقترحت ملَكاً وغيرهما. والمعنى: وما أرسلنا يا محمد من قبلك رُسلاً إلا رجالاً، لا ملائكة ولا إناثاً، فهم من العنصر البشري القوي الكامل، وكانوا من أهل المدن مدنيِّين، لا أعراباً من البوادي، وكنا ننزل عليهم الوحي والتشريع. وهذا يدلُّ على أن الرُّسل من البشر، لا من الملائكة، ومن أهل المدن المتحضِّرين لا من البدائيين، ومن الذُّكور الرجال، لا من النِّساء، فلم تكن امرأة قطّ نبيّاً ولا رسولاً، ولم يبعث الله رسولاً من أهل البادية، لأن فيهم عادةَ الجهل والجفاء، ولتتبعهم المدن الأخرى، ولأن أهل المدن أرقُّ طبعاً وأكثر خبرة وتلطُّفاً من أهل البوادي.

ثم هدَّد الله المشركين على تكذيبهم بالرسول محمد ﷺ، أفلم يسر هؤلاء المكذِّبون لك يا محمد في الأرض، فينظروا ويروا كيف كان مصير الأُمم المكذِّبة للرُّسل، كيف دمَّر الله عليهم، كقوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السَّلام، وللكافرين أمثال تلك الألوان من العذاب، فإن عاقبة الكافرين الهلاك، وعاقبة المؤمنين النَّجاة. ثم حضَّ الله تعالى على العمل للدار الآخرة والاستعداد لها، فهي خير للذين خافوا لقاء الله، فلم يشركوا به ولم يعصوه، فهي أفضل من دار الدنيا لأولئك المشركين المكذِّبين

(١) يئسوا من النَّصر . (٢) توهَّم الرُّسل . (٣) كذبهم رجاؤهم النَّصر في الدنيا . (٤) عذابنا . (٥) عظة.
(٦) يُختَلق.

بالرُّسل، أجهلتم أيها الناس الضَّالّون المكذِّبون بالآخرة، فلا تعقلون مصائركم، فإنكم لو عقلتم ذلك، لآمنتم واستقمتم.

ثم بشَّر الله نبيَّه بالنَّصر بإخباره بسنّة إلهية دائمة: وهي مجيء النصر الإلهي للرُّسل عليهم السّلام، عند اشتداد الأزمة وانتظار الفرج الرَّباني، وتيقن الرُّسل أن المشركين كذبوهم تكذيباً لا إيمان بعده، وصمموا على ذلك، وألا انحراف عنه، وتكون العاقبة هي الإتيان بنصر الله فجأة، فينجِّي الله من يشاء، وهم النَّبي والمؤمنون معه، ويحلُّ العقاب بالمكذِّبين الكافرين، ولا يردّ بأس الله، أي لا يمنع عقاب الله وبطشه عن القوم الذين أجرموا، فكفروا بالله، وكذّبوا رسله. وهذا تهديد ووعيد لكفار قريش وأمثالهم، لإعراضهم عن الإيمان بالنَّبي ﷺ وبدعوته، وبما أنزل الله من القرآن المجيد؛ لأن في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا وعيداً بيِّناً، وتهديداً صريحاً لمعاصري محمد عليه الصَّلاة والسّلام.

ثم أبان الله تعالى الهدف العام من قصص القرآن الكريم، فلقد كان في سرد أخبار الأنبياء المرسلين مع أقوامهم، وإنجاء المؤمنين، وإهلاك الكافرين عبرة وعظة وذكرى لأُولي العقول السَّوية، والأفكار الصحيحة، ولم يكن هذا القرآن المبين لقصة يوسف وغيرها حديثاً مختلَقاً مكذوباً من دون الله؛ لأنه كلام أعجز البلغاء والفصحاء، وإنما هو كلام الله من طريق الوحي والتَّنزيل، لتصديق ما تقدمه من الكتب السماوية في صورتها الأولى الصحيحة، كالتّوراة والإنجيل والزَّبور، أي تصديق ما جاء فيها من عند الله من الصحيح والحق، ونفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، فالقرآن مصدق أصولها الصحيحة، وهو أيضاً مهيمن عليها، وحارس لها. وفي القرآن أيضاً تفصيل كل شيء من العقائد والأحكام والحلال والحرام، والمحبوب والمكروه، والأمر والنَّهي، والوعد والوعيد، وهو أيضاً هدى وإرشاد للعالمين إلى طريق الحق والاستقامة، وهو كذلك رحمة عامّة من الله ربِّ العالمين للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

تفسير سورة الرَّعد

أدلّة قدرة الله تعالى

تعدَّدت البراهين الدّالة على قدرة الله تعالى من إنزال القرآن المجيد، وإبداع السماوات والأرض، وتدبير الْخَلْق، وتسخير الشمس والقمر، وإيجاد أنواع الجبال والأشجار والزروع والثمار وكروم العنب وبساتين النّخيل ذات الطعوم والألوان المختلفة. وهذه أدلّة حسّية مشاهدة تثبت القدرة الإلهية لمن كان له عقل أو فكر أو سمع أو بصر، أشار إليها القرآن في آيات ومناسبات متعددة، كما في مطلع سورة الرَّعد المدنيّة:

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ(١) تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ(٢) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ(٣) وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ(٤) ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى(٥) ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ(٦) يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ(٧) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرَّعد: ١٣/ ١-٤].

(١) بغير دعائم. (٢) بسطها في مرأى العين. (٣) جبالاً ثوابت. (٤) نوعَيْن. (٥) يغطي الليل ضوء النهار. (٦) أي نخلات من أصل واحد، أو من أصول مختلفة، متماثلات وغير متماثلات. (٧) الثَّمر والحبّ.

افتتحت هذه السورة كسورة البقرة بأحرف هجائية للتّنبيه والتّحدي والدّلالة على إعجاز القرآن المتكوّن من حروف هجائية هي مادّة لغة العرب التي يتفاخرون أنهم سادة البيان فيها. وآيات هذه السورة وآيات القرآن كلها آيات عظام القدر والشّأن، أنزلها الله تعالى على قلب نبيّه محمد ﷺ، وهي حقٌّ لا شكَّ فيه، تمثّل جميع الشريعة القرآنية، ولكن أكثر الناس لا يصدِّقون بالمنزل إليك من ربّك، ولا يقدرون ما في القرآن من سمو التشريع والأحكام، ورعاية المصالح المناسبة لكل عصر وزمان. وهذا إخبار واقعي عن علم إلهي غيبي دالٌّ على إعجاز القرآن، ينبئ عن أحوال الناس. وإنزالُ القرآن مظهر من مظاهر القدرة الإلهية.

ومن مظاهر قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه: أنه سبحانه هو الذي خلق السماوات بغير أعمدة نشاهدها بالعين المجردة، ثم استوى الله على أعظم المخلوقات وهو العرش استواء يليق به، وسخَّر أي ذلَّل الشمس والقمر، وجعلهما طائعين لما أُريد منهما من المنافع للناس، من دوران وضياء، وظهور واختفاء، وكل منهما كغيرهما من الكواكب السَّيارة يجري لأجل مسمى، أي لمدة معينة، هي نهاية الدنيا ومجيء القيامة، أو أن الشمس تتم دورتها في خلال سنة، والقمر في أثناء الشهر، قال الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٥].

يدبِّر الله أمر الكون ويصرِّفه على وفق إرادته ومقتضى حكمته، فيحيي ويميت، ويعزُّ ويذلُّ، ويغني ويفقر، ويهيِّئ الأسباب للنتائج والمسبَّبات، يفصِّل الآيات، أي يبيِّن الدلائل الدّالة على وجوده تعالى، ووحدانيته، وقدرته، وحكمته وعلمه ورحمته، رجاء أن تتيقّنوا أيها الناس، أو لتعلموا علم اليقين أن القرآن حقٌّ، وأن الله قادر على البعث والإعادة، والحساب والجزاء يوم القيامة. فالذي قدر على خلق السماوات والأرض وما بينهما، ودبَّر نظام الكون والحياة وشؤون الخلق بدقّة

فائقة، قادر على إحياء الموتى، وإعادة الأرواح إلى أجسادها مرة أخرى، وحساب أصحابها.

والله تعالى أيضاً هو الذي بسط الأرض وفرشها ومهّدها، وجعل فيها رواسي، أي جبالاً شامخة، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، لسقاية ما فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والرّوائح. وجعل في كل صنف من أصناف الثمار زوجين اثنين، أي ذكراً وأُنثى، ليتم التّلاقح وحمل الثمرات، يغطّي الله ضوء النهار بظلمة الليل، ويطرد ظلام الليل بنور النهار، كما في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النّبأ: ٧٨/ ٩-١١]، إن في مخلوقات الله، وعجائب خلقه لدلائل وبراهين لمن يتفكّر فيها، ويتأمّل في عظمتها، فيستدلُّ بها على وجود الله تعالى، وقدرته، وكمال علمه وإرادته.

ومن الآيات الأرضية أجزاءٌ فيها يجاور بعضها بعضاً، ويقترب بعضها من بعض، تربتها واحدة، وماؤها واحد، وهي مع تجاورها مختلفة متغايرة الخواص، فيها بساتين الأعناب، والزروعُ المختلفة ذات الحبوب المتنوعة للإنسان والحيوان، وفيها أنواع النّخيل المتماثلات وغير المتماثلات ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ يسقى كله بماء واحد، ويتغذى بغذاء واحد، ويتفاضل بعضها على بعض في الأشكال والطُّعوم ومذاق الأكل، إن في هذا التّفاوت مع وجود مصادر التّشابه لأدلةً باهرة على قدرة الله، لقوم يتدبّرون ويفكّرون فيها ويعقلون أنَّ لها خالقاً أوجدها ورتّبها. والتّفضيل في الأكل يشمل الأذواق والألوان والملمس وغير ذلك.

إنكار البعث

من المشكلات الكبرى عند الماديين والملحدين والمشركين إنكار وجود عالم آخر بعد عالم الدنيا، لظنهم أن الإنسان مخلوق مادي بالطبيعة، وينتهي وجوده من العالم بالموت، والموت فناء لارجعة بعده في زعمهم، قائلين كما حكى القرآن عنهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٣٧].

ونسوا أن الله الذي خلقهم أول مرة قادر على إعادة خلقهم وإحيائهم مرة أخرى، كما جاء في قول الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٣].

وتعددت ألوان التقريع والتهديد بالعذاب والاستغراب في آي القرآن من مواقف هؤلاء المنكرين ليوم البعث، كما جاء في الآيات التالية:

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ(١) فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ(٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٥-٧].

المؤمن في هذا العالم مطمئن مستقر مرتاح، والكافر قلق متردد يحس بالضيق ويشعر بالمرارة والتأنيب الداخلي، فلا عجب أن يصدر من الكفار حماقات ومكابرات وألوان من العناد، فتراهم كما تصور هذه الآيات، بالإضافة لإنكارهم البعث والقيامة، يستعجلون العذاب والانتقام في الدنيا، ويطالبون بآيات تعجيزية.

(١) القيود أو أطواق الحديد. (٢) أي عقوبات أمثالهم من المكذبين.

لذا بدئت هذه الآيات بأنه إن تعجب أيها الرسول النبي من تكذيب المشركين لك، وعبادتهم مالا يضر ومالا ينفع من الأصنام، مع مايشاهدونه في واقعهم من آيات الله الكونية الدالة على قدرته التي لاحدود لها، فالأدعى للعجب والأغرب تكذيبهم بالبعث والقيامة، وقولهم: هل تمكن الإعادة بعد الفناء، أو التفتتِ تراباً؟ وهل يمكن أن نعود لخلق جديد؟! فحكم الله تعالى عليهم بأحكام ثلاثة لانجدها في غير هذه الآيات:

الحكم الأول: أنهم أولئك الكافرون الذين جحدوا بربهم وكذبوا رسله، وتمادوا في عنادهم وضلالهم، لأن إنكار قدرة الله تعالى إنكار لوجوده ووحدانيته.

والحكم الثاني: وصف لأحوال عذابهم، فهم أولئك المقيدون بالسلاسل والأغلال، يسحبون بها سحباً في غاية القهر والذل والمهانة.

والحكم الثالث: زجهم في نار جهنم، فأولئك هم أصحاب النار خالدون فيها في الآخرة، ملازمون لها، يمكثون فيها على الدوام، لايحولون عنها ولا يزولون، بسبب كفرهم، وإنكارهم البعث وتكذيبهم الرسول.

ولم يقتصر إنكارهم على عذاب الآخرة، وإنما تهكموا وأنكروا أيضاً عذاب الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي ويستعجلك هؤلاء المكذبون بالعقوبة في دار الدنيا، وهذا غاية الحماقة والتحدي والإمعان في الكفر، فهم يكذبونك أيها النبي بالعذاب الذي أنذرتهم به استهزاء، قبل الحسنة من الإمهال أو الإيمان، والسلامة والعافية من البلاء.

علماً بأن هناك أمثلةً واقعية يعرفونها، فقد خلت من قبلهم المثلات، وأوقعنا أنواع النقم، وشدائدَ العقاب بالأمم الخالية، وجعلناهم عبرة لمن اعتبر، وعظةً لمن اتعظ. وهذا تبيين لخطئهم في أن يتمنوا المصائب، ويطلبوا إنزال أو إسقاط جزء من

السماء، أو إرسال حجارة تمطر عليهم، ولو كان ذلك لم يحدث قط، لكان لهم العذر.

ثم فتح الله لهم باب الأمل، ورجّاهم بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي إن الله تعالى صاحب عفو وصفح وستر للناس على ذنوبهم في الآخرة، مع أنهم ظلموا أنفسهم، وأخطؤوا بالليل والنهار، ولكن الله حليم رؤوف بالناس، فهو سبحانه يمهل مع ظلم الكفرة، ويعفو عند التوبة، وهو أيضاً شديد العقاب للعصاة الذين أصروا على الكفر والعصيان . قال ابن المسيب: لما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله لما تمنى أحد عيشاً، ولولا عقابه لاتكل كل أحد» . وقال ابن عباس: «وليس في القرآن أرجى من هذه الآية».

ثم ازداد إمعان المشركين في الكفر والعناد، فطلبوا معجزات مادية على وفق هواهم، وميولهم، وقالوا: لولا يأتينا محمد بآية حسية من ربه، كما أرسل الأولون، مثل عصا موسى، وناقة صالح، ومائدة عيسى، فيجعل لنا جبل الصفا ذهباً، وأن يزيح عنا الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً. فرد الله عليهم متجاوزاً مطالبهم، بأن النبي مجرد منذر لقومه من العذاب، وهادٍ للخير والسداد، ولكل قوم داعية من الأنبياء، يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى الدين الحق، وسبيل الخير والرشاد، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٤].

علم الغيب

هناك صفات تختصُّ بالله عزّ وجلّ، لا يعلم بها البشر، ولا يقدرون على علمها، بسبب كون عقولهم محدودة، وأفكارهم قاصرة، ومن أهم تلك الصفات التي تحدّى الله بها البشر، وأثبت عجزهم وضعفهم: هو علم الغيب في المستقبل القريب أو

البعيد، فالله سبحانه عالم الغيب (ما وراء الطبيعة) والشهادة (عالم المحسوسات المرئية والمسموعة) ليكون ذلك دليلاً على أُلوهية الله ووحدانيته، دون شريك ولا منافس أو معارض أو شبيه ونظير، قال الله تعالى مبيِّناً بعض مظاهر علمه الغيبي:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ(١) وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ(٢) ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ(٣) ٱلْمُتَعَالِ(٤) ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ(٥) بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ(٦) مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ(٧) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ(٨) ﴿١١﴾﴾ [الرَّعد: ١٣/٨-١١].

أبانت هذه الآيات تمام علم الله تعالى وعلمه بدقائق الأشياء وعظائمها، فهو سبحانه يعلم ما في بطون الأجنّة من ذكورة وأُنوثة، ووحدة وتعدُّد، وأوصاف وخصائص، وآجال لها، وكل ما يطرأ على ما في الأرحام من بدء تخلُّق الحمل، وولادة، وهو ما تغيض به الأرحام، أي ما تنقصه في زمن أو جسم، وما تزداد من نموّ الجنين ومدة مكثه في البطن ووقت ولادته، وكل شيء يدخله التقدير، عند الله تعالى، بأجل معيَّن، وبمقدار محدد، لا يزيد عنه ولا ينقص. وجمهور المتأوِّلين على أن غيض الرحم إرسال الدّم على الحمل. وقال الضَّحاك: غيض الرّحم: أن تُسقط المرأة الولد، والزيادة: أن تضعه لمدة كاملة، تامّاً في خَلْقه. ودلَّ الإحصاء العلمي على أن الجنين لا يزيد بقاؤه في بطن أمه عن ٣٠٥ أو ٣٠٨ أيام.

والله سبحانه عالم الغيب، أي ما غاب عن الإدراكات، وعالم الشهادة: ما

---

(١) ما تنقصه. (٢) بقدر لا يتعدّاه. (٣) العظيم الأعظم. (٤) المستعلي على كل شيء. (٥) ظاهر ذاهب.
(٦) أي له تعالى ملائكة تتعاقب على حفظ الإنسان ورعايته وكتابة أقواله وأفعاله. (٧) أي بأمر الله وتقديره.
(٨) ناصر أو ولي أمر.

شوهد من الأمور، وهو الكبير الأكبر من كل شيء، المتعال على كل شيء، قد أحاط بكل شيء علماً، أي شمل علمه كل شيء، وقهر كل شيء، فخضعت له الرِّقاب، وذلَّ له العباد طوعاً وكرهاً.

والآية تشمل علم الله بالجزئيات والمفردات والدقائق، وتشمل علم الله بمقادير الأشياء وحدودها، وما يتخصص به كل شيء من أوصاف، ويعلم أشياء خفية لا يعلمها إلا هو، وهو ما غاب عن الحس، وما حضر من المحسوسات.

والله تعالى عالم علماً تامّاً بأحوال جميع مخلوقاته، سواء ما أسرّوه منها وأخفوه، أو ما أعلنوه وأظهروه، وما هو مختف في ظلام الليل في قعر البيت وجوانبه، وما هو ظاهر ماشٍ بسرعة في ضوء النهار، فإن كلاهما في علم الله على السواء. فكل ما هو بالليل في غاية الاختفاء، وما هو متصرِّف بالنهار، ذاهب لوجهته، سواءٌ في علم الله تعالى وإحاطته بهما.

ولله تعالى وسائل تخزين للمعلومات والمعارف وهم الملائكة الحفظة على العباد أعمالهم، والحفظة لهم، فمن حكمته ورحمته تعالى أن جعل للإنسان ملائكة حفظة، يتعاقبون على حفظ الإنسان في الليل والنهار، لحمايته وصونه من المضارّ والطوارئ الجسام، وملائكة آخرون يتعقَّبون أعمال العباد ويتَّبعونها بالحفظ والتَّدوين وكتابة كل ما يصدر عنهم من خير أو شرّ. فالمعقِّبات: الجماعات التي يعقُب بعضها بعضاً، وهم الملائكة. روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربُّهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلّون، وأتيناهم وهم يصلّون».

ثم أوضح الله تعالى مبدءاً إلهيّاً عظيماً: وهو أنه لا عقاب بدون جريمة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ . ﴾ أي إن الله لا يُبدِّل ما بقوم من

نعمة وعافية، وراحة وسلامة، فيزيلها عنهم إلا بتغيير ما بأنفسهم، بأن يصدر منهم الظلم والعصيان والفساد وارتكاب الشرور والآثام.

وإذا أراد الله تعالى بقوم سوءاً من فقر أو مرض أو احتلال وغير ذلك من أنواع البلاء، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم، وما لهم من غير الله تعالى ناصر يلي أمورهم، ويدفع عنهم الضَّرر، فلا أحد يجلب لهم النفع، ويدفع عنهم الضُّرّ. وهذا دليل واضح على أن الله قادر على كل شيء، ومتمكِّن من إيقاع العذاب بالناس في أي زمن ومكان، فليس من الحكمة والمصلحة في شيء استعجال العذاب، فلكل أجل كتاب، ولكل عمل ميعاد. والشّر والخير بمنزلة واحدة، إذا أرادهما الله بعبد لم يُرَدّ، وهذا تخويف وإنذار.

قدرة الله تعالى

أقام الله تعالى في قرآنه أدلّة واضحة قاطعة على قدرته وحكمته، منها نعمة وإحسان أحياناً، ومنها عذاب ونقمة وقهر أحياناً أخرى، والتَّردد بين الحالين: حال النعمة وحال النقمة دليل على الشمول والعموم، لكل حال من الأحوال، ليعرف العبد أن الله ربّ العالمين صاحبُ السلطان المطلق، والإرادةِ النافذة التامّة في كل أمر من الأمور، وفي كل شأن من الشؤون. والتذكير بهذا لفت نظر إلى أن الله تعالى لا يغيب وجوده وتأثيره عن أي شيء. قال الله تعالى مبيّناً هذا التّلازم بين الوجود الإلهي في جميع الأشياء وبين مختلف الأشياء:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ[1] ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ

(١) المحملة بالماء.

ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ(١) ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ(٢) وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ(٣) مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ(٤) وَٱلۡأٓصَالِ(٥) ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرّعد: ١٣/ ١٢-١٥].

هذه ألوان ملموسة محسوسة من مظاهر وآثار القدرة الإلهية، وتنبيه عليها وتذكير بها، فالله بإرادته وتدبيره يري الناس ظاهرة البرق والرَّعد، تخويفاً وتحذيراً، أما البرق: فهو ما يُرى من النُّور اللامع ساطعاً من خلال السحاب، بسبب تقارب سحابتين في الشحنة الكهربائية، فيحدث الخوف من صواعق البرق، ويظهر الطمع في المطر. والله سبحانه هو الذي يوجد السُّحب المحملة المترعة بالماء، فهي ثقال ببخار الماء وما يعقبه من أمطار.

وأما الرَّعد: فهو الصوت المسموع خلال السحاب بسبب احتكاك الأجرام السماوية، وتصادم سحابتين مختلفتي الشحنة الكهربائية. والرعد بصوته الهادر المخيف يسبح الله تعالى وينزهه، ويعلن بلسان الحال خضوعه لله، وانقياده لقدرته وحكمته. وتسبِّح الملائكة ربّهم وتنزهه عن الصاحبة والولد، لما يرون من جلال الله وهيبته. روى الإمام أحمد والبخاريّ في الأدب وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النّبي ﷺ : أنه كان إذا سمع الرَّعد قال: «اللهم لا تهلكنا بغضبك، ولا تقتلنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك» . فالرَّعد والبرق إما بشير خير أو نذير شرّ.

والله تعالى يرسل الصواعق للتَّنبيه على القدرة والتَّذكير بالنقمة، ينتقم الله بها

(١) أي القوة وأخذ الأعداء . (٢) لله دعوة الحق وهي كلمة التوحيد . (٣) ينقاد ويخضع . (٤) أول النهار .
(٥) آخر النهار .

ممن يشاء. وسبب الصواعق: أن السُّحب قد تمتلئ بكهربة شديدة، والأرض بكهربة أخرى مخالفة، فإذا قاربت السُّحب من الأرض، حصل احتكاك كهربائي تنشأ عنه صاعقة، إذا صادفت شيئاً أحرقته. فالله يصيب بالصواعق من يشاء، وعلى الرغم من هذه الأدلة الدالة على قدرة الله وأُلوهيته، يجادل الكفار، ويشكّون في عظمة الله تعالى وفي توحيده، والله سبحانه هو شديد المحال، أي شديد القوة والأخذ، وهو قادر على مكايدة الأعداء، وعلى إنزال العذاب في أي وقت يشاء.

ولله وحده دعوة الحق، أي لا إله إلا الله أي التوحيد، وله دعوة العباد بالحق، ودعوة الصدق والدعاء والتَّضرع، لا لغيره من الأصنام والأوثان، والملائكة والبشرِ الذين اتَّخذهم الناس آلهة، فدعاء غير الله من الأوثان باطل.

والذين يدعون الأصنام والأوثان والمعبودات الباطلة: لا يجيبونهم إطلاقاً، ولا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء، ولا يحقِّقون لهم نفعاً، ولا يدفعون عنهم ضرّاً. وما استجابتهم إلا كاستجابة الماء لمن بسط كفَّيْه إليه من بعيد، ليشرب منه وهو عطشان فهو لا يبلغ فمه أبداً. وليست عبادة الكافرين الأصنامَ إلا في خسار وضياع وبطلان؛ لأن دعاءهم لهم غير مجاب، كما أن دعاءهم الله غير مجاب أيضاً؛ لأنهم مشركون، وتكون إجابة الأصنام ونحوها والانتفاع بها غير واقعة.

ومن كمال الله وقدرته وتسخير الأشياء له فقط أنه يسجد له أي يخضع وينقاد له كل شيء طوعاً من المؤمنين والملائكة في حال الشِّدة والرَّخاء، وكرهاً من الكافرين في حال الشِّدة، بل كل شيء في الكون خاضع منقاد لله الخالق الموجد، طواعيةً واختياراً أو قهراً وإكراهاً. وكذلك تسجد وتخضع لله ظلال الأشياء كلها بالغدوّ والآصال، أي في الصباح الباكر، وفي المساء المتأخِّر.

والسُّجود لله دالٌّ على الرُّبوبية، فلا يستحقُّ العبادة سوى الله تعالى. قال مجاهد:

«ظلُّ الكافر يسجد طوعاً وهو كاره» وقال ابن عباس: «يسجد ظلُّ الكافر حين يفيء عن يمينه وشماله».

وجود الله ووحدانيته

لا سبيل للعقلاء إلا الإقرار أو الاعتراف بوجود الله وتوحيده، فلو تأمَّل الإنسان بفكر هادئ، وموازنة بسيطة بين الأشياء، وحال الكون، لأدرك في النهاية الحتمية، أن الله موجود متصرِّف في العالم، قادر على كل شيء، واحد لا إله غيره، ولا سلطان في السماوات والأرض لأحد سواه. وعلى الرغم من أن الله تعالى يسجد له جميع من في السماوات والأرض و يخضع لقدرته وعظمته، فإن عبدة الأصنام ينكرون الوحدانية، فناقشهم القرآن لإثبات وحدانية الألوهية والرُّبوبية، حتى لا يجدوا مناصاً من إعلان التصديق بها، قال الله تعالى واصفاً هذا النقاش:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرَّعد: ١٣/ ١٦].

إن من أبسط الأمور والبدهيات أن الله وحده هو خالق السماء والأرض وما فيهما، وكل شيء في الوجود يعلن أنه مربوب لله، خاضع لسلطانه. ومع هذا جاء السؤال للتقرير والتثبيت، يأمر الله رسوله بسؤال المشركين، من خالق السماوات والأرض؟ وبما أن السؤال عن أمر وتقرير الجواب عنه واضح كل الوضوح، لا مجال لأحد بدفعه والجدال فيه، وإلزام الحجة به، جاء الجواب من غير انتظار: الله هو ربُّ السماوات والأرض، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٥]. وقل لهم: آن لكم إذن أن تقولوا:

الله خالقهما وربُّهما ومدبِّرهما، وهو الإله الواحد فيهما لا ندَّ له ولا شريك ولا نظير.

ثم أمر الله رسوله أن يقول للمشركين بعد هذا التقرير وإثبات ألوهية الله ووحدانيته: فلِمَ اتَّخذتم لأنفسكم من دون الله معبودات جوفاء هي جماداتٌ، لا حركة فيها ولا عقل ولا وعي، ولا تفعل شيئاً، ولا تمنع شيئاً؟ ومع ذلك تجعلونها أنصاراً؟!

وإذا كانت تلك الآلهة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضَرّاً، فهي لا تملك لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضرّاً. فهل يستوي مَن عبَدَ هذه الآلهة المزيفة مع الله الخالق القادر، ومَن عبد الله وحده لا شريك له، فهو على نور من ربّه، وهو البصير المتفتح على الأشياء، المدرك حقائق الأمور. وأما مَن عبدَ غير الله فهو أعمى القلب والبصيرة، فاقد العقل والوعي، وهو في ظلمات يتخبَّط، وفي متاهات يدور.

وكيف يتساوى الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يدرك الحق، ويهدي الأعمى إليه، وهل يعقل أن تتساوى الظلمات الدامسة العمياء، والنّور الأبلج الواضح، وما مثل الكافر إلا كالأعمى والكفر كالظُّلمات، وأما مثَل المؤمن فهو كالبصير المدرِك، والإيمان كالنّور المبين الذي يضيء الآفاق ودروب الحياة.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ أي بل جعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرَّبّ وتماثله في الخلق، فيتشابه خلق الشركاء بخلق الله، وهذا محض الباطل، ومجرد الوهم القاتم، فإن معبودات المشركين إذا زعموا أنها تخلق شيئاً، وهم يعبدونها، فإنهم ضالّون مخطئون، إنهم لا يخلقون شيئاً، وهم يُخْلَقون، فكيف يشركونها في العبادة؟ أفمن يخلق كَمن لا يخلق أفلا تذكرون. هل رأوا خلقاً لغير الله، فحملهم ذلك ودعاهم اشتباهه بما خلق الله، على أن جعلوا إلهاً غير الله؟!

ليس الأمر كما زعموا، فإن الله تعالى لا يشبهه شيء من خلقه، ولا يماثله شيء، ولا ندَّ له ولا وزير، ولا نظير ولا شبيه، ولا والد له ولا ولد ولا صاحبة، وهؤلاء المشركون عبدوا آلهة مزيَّفة عاجزة، وهم معترفون أنها مخلوقة لله، وهم عبيد له، بإقرارهم وقولهم كما حكى القرآن عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: ٣٩/ ٣]. ثم أمر الله نبيَّه محمداً عليه الصَّلاة والسَّلام أن يعلن بكل فصاحة عن صفات الله تعالى في أنه خالق كل شيء، خالق السماء والأرض، والإنسان والحيوان، والأشياء الحيّة والجامدة، وهو الإله الواحد، الغالب على كل شيء، فكيف تعبدون أصناماً لا تنفع ولا تضرّ؟!

مثل الحقّ والباطل

على الرغم من أن الحقّ قوي واضح ومطابق للواقع، والباطل واه ضعيف مغاير للواقع، فإن بعض الناس -جهلاً وحماقة منهم أو ضعف إدراك أو مكابرة وعناداً، أو تأثُّراً بأهواء وميول ومصالح معينة- يتنكرون للحق والإيمان وأهل كلٍّ منهما، ويؤازرون الباطل والضَّلال والشَّك في الدين والإيمان وحقائق كلٍّ منهما بسبب سوء الاستعداد وتأييد الانحراف والميل مع أهواء الشيطان. ولقد أحسن القرآن العظيم حين جعل مثل الحق وأهله في ثباته وبقائه وشبَّهه بالماء النازل من السماء، الذي ينفع الأرض والناس، وشبّهه أيضاً بالمعدن الذي ينتفعون به في صياغة الحلي المعتاد واتِّخاذ الأواني والآلات المختلفة، وجعل مثل الباطل في اضمحلاله وفنائه وسرعة زواله وانعدام منفعته، وشبَّهه بزبد السَّيل أو رغوته الذي يرمي به، وزبد المعدن أو شوائبه، الذي يطفو فوقه إذا أُذيب. قال الله تعالى:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا[١] فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ[٢] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ[٣] مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ[٤] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ[٥] ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ١٧-١٩].

هذه الآيات مثال واضح للحقِّ والباطل، والإيمان والكفر، والشّك في الشّرع واليقين به، والحقُّ هو القرآن والإيمان في ثباته ونفعه، والباطل هو الكفر في الاضمحلال والفناء. ومثل الحق كالمطر النازل من السماء الذي تسيل منه الأودية غزارة وضعفاً بحسب صغرها وكبرها أو مقدارها، والقلوب كهذه الوديان تتفاوت في استيعاب الإيمان سعة وضيقاً، وهذا هو الثابت النافع، وأما زبد السَّيل الطّافي فوقه، فهو مثل الباطل في زواله وانعدام نفعه.

والمثل الثاني: هو أن الحقَّ كالمعدن النافع من ذهب أو فضّة ونحوهما من المعادن التي يستفاد منها فوائد كثيرة، والباطل: هو ما يعلو تلك المعادن من شوائب وأخلاط طافية عند انصهارها أو إذابتها في النار.

وعقَّب الله تعالى على المثلَين بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾ أي إن التشبيه المذكور مثل الحقّ والباطل إذا اجتمعا، فالحق في استقراره ونفعه كالماء المستقرّ النافع، وكالمعدن النَّقي الصّافي. والباطل في زواله وعدم نفعه كالرغوة التي يقذفها السَّيل على جوانبه، وكشوائب المعدن التي يطرحها ويتخلّص منها عند انصهاره،

(١) بمقدارها. (٢) الزَّبد: الرَّغوة. ورابياً: مرتفعاً. (٣) الخبث الطّافي عند إذابة المعادن. (٤) مرمياً به مطروحاً. (٥) بئس المستقرّ جهنم.

فيبقى الحقُّ ويثبت، ويزول الباطلُ ويتبدَّد. وما أجمل وأحكم هذا التشبيه وبيان النتائج، فأما الزَّبد الطّافي فوق الماء فيزول ويقف على جانبي السَّيل وفوق قدور المراجل، وأما النافع من الماء والمعدن فيبقى مستقرّاً في الأرض، فيشرب الإنسان والحيوان والنبات والزرع من الماء، وتستفيد البشرية من المعادن الصافية بالحلي والصناعات المختلفة.

وعقَّب الله تعالى على استقرار النافع وتبدُّد الضّار بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي إنه تعالى كما بيَّن لكم هذه الأمثال، فكذلك يضربها بيِّنات واضحات، لإيضاح الفارق المتميِّز بين الإيمان والكفر، والحق والباطل.

والقرآن الكريم يجسِّد الحق ونور الإيمان بإحياء القلوب، كما يحيي الماء الأرض بعد موتها ويبسها، وكما ينفع المعدن النَّقي الناس في منافع كثيرة. وأما الكفر والضَّلال والشِّرك، فهو عديم النفع سريع الزوال، يتبدّد فوراً. وما ضرب هذا المثل إلا لخير الإنسان الذي كرَّمه الله بالعقل ليختار النافع وهو الإيمان، ويترك الضَّارّ المتلاشي وهو الكفر، فيكثر أهل الحق والإيمان بالحق والنُّور، ويضعف أهل الضلال والكفران بالباطل والظلام.

ثم ذكر الله تعالى مصير أهل الحق وأهل الباطل، ومآل السعداء والأشقياء، ترغيباً وترهيباً، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي إن الذين يطيعون الله ورسوله، وينقادون لأوامره، ويصدِّقون أخباره، لهم الجزاء الحسن ونعيم الجنة، والخلود الأبدي في دار النعيم. والذين لم يستجيبوا لربِّهم، فلم يطيعوا الله ورسوله، لا ينفعهم الفداء في الآخرة بجميع ما في الدنيا من أموال وأضعاف ما فيها، فلا يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه. ولو كان لهم كل ما في الدنيا، وقدَّموا فداء من العذاب، لا يتقبَّله الله منهم على الإطلاق. أولئك الذين

لم يطيعوا الله، لهم سوء الحساب والعذاب، ومرجعهم إلى النار ومستقرّهم فيها، وبئس المستقرّ والفِراش تلك النار الموقدة التي تفوق بحرارتها كل ما عرفته البشرية من أفران عادية وذرِّية عالية التَّوتر تصهر كل شيء.

بعد هذا البيان الرهيب والواضح سلفاً لا يستوي من يعلم أن المنزل إليك من ربِّك يا محمد هو الحقُّ الثّابت الذي لا شكَّ فيه، فأخباره وشرائعه كلها حقٌّ وعدل، لا يستوي هذا ومن لم يصدِّق برسالتك يا محمد، وكان أعمى لا يبصر الحق ولا يدرك المصلحة الحقيقية، ولا يختار ما فيه خير وهداية، وسعادة وإنقاذ. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٠].

الأوصاف الاجتماعية لأُولي الألباب

عُني القرآن الكريم بتربية الفرد والجماعة تربية فاضلة متماسكة، يعود خيرها وانعكاساتها على الناس جميعاً، لأن القرآن والإسلام رسالة إصلاح وإنقاذ، وتقدُّم وبناء، وعطاء وإحسان. وكل من يسهم في هذا البناء الاجتماعي للأمة فهو ترجمان القرآن والإيمان الصحيح، وكل من يشذُّ أو ينحرف أو يسيء لأسرته ومجتمعه، فهو تلميذ الشيطان وعدو الأمة، لذا وصف الله أهل الإيمان والاستقامة بأنهم أولو الألباب والعقول الرشيدة، ووصف أهل الضَّلال والانحراف بأنهم ذوو الجهالة والحماقة، فقال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟

مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ(١) بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(٢) ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرَّعد: ١٣/ ٢٠-٢٤].

يصف الله تعالى في هذه الآيات أولي الألباب الذين يسّرهم للإيمان برسالة النّبي والقرآن، واعتقدوا أن ما أنزل الله هو الحقُّ بالصفات التالية:

١- الوفاء بالعهد: فالمؤمنون الصادقون يوفون بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بربوبيّته وبالمواثيق والعهود كلها بينهم وبين ربّهم، وهي أوامر الله ونواهيه التي وصّى بها عبيده، وهذا يشمل جميع الفرائض والواجبات والشرائع والأحكام والآداب والأخلاق، والامتناع عن جميع المخالفات والمعاصي.

٢- عدم نقض الميثاق: أي إنهم يلازمون أداء الأوامر واجتناب النَّواهي مدى الحياة، ولا يُخلّون بواجبات العهد والتزاماته، ولا ينقضون أي بند من بنود العهد الإيماني مع ربّهم، ولا بالعقود التي يبرمونها مع الناس من بيع وشراء وإيجار واستئجار وشركة ونحوها، على عكس ما نشاهده اليوم أن كثيراً من الناس، يبرمون العقود مع غيرهم، ويتَّفقون على الشروط، ثم يتحلَّل الواحد منهم من العقد كله أو بعضه، ضارباً بكلامه الذي التزم به عُرض الحائط. وهذا اللون من نقض العقد أو فسخه ينقلهم من حديقة الإيمان ونور الحقّ والقرآن إلى دائرة النفاق الاجتماعي، قال عليه الصَّلاة والسَّلام -فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما-: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

٣- صلة ما أمر الله بوصله: من حقوق الله ومؤازرة النّبي والقرآن، وحقوق العباد التي من أهمها وأولاها: صلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران، والمحتاجين

(١) يدفعون. (٢) عاقبتها المحمودة وهي الجنات.

والفقراء؛ لأن من شأن المؤمن أن يعمَّ خيره ويدوم نفعه، ويؤدي واجبه نحو غيره لإرضاء ربِّه، دون أن يقصد نفعاً مادِّياً لنفسه أو طمعاً في مال أو جاه أو وظيفة، فإن الله ربَّ العباد هو الميسِّر للخير والمانع من الشَّر، والعبد مجرد أداة ووسيلة.

٤- الخوف من الله وخشية عذابه: أي إن أُولي الألباب هم الذين يخافون ربَّهم فيما يأتون، وما يتركون من أعمال، ويراقبون الله في السِّرِّ والعلن، يخلصون النِّية والقصد لوجه الله، ويَحْذَرُون من شدّة العذاب، وسوء الحساب في الآخرة؛ لأن عاقبة ذلك وخيمة وهي الزَّج في نيران جهنم.

٥- الصَّبر: يصبر العاقل الرشيد على طاعة ربِّه، واجتناب معصيته؛ لأن في الطاعة عزّ النفس ونجاتها، وفي المعصية الذُّلّ والانكسار، والندم والخسران. ويشمل الصبر لوجه الله جميع الأحوال من الرّزايا والأسقام والعبادات.

٦- إقام الصّلاة المفروضة: فالعقلاء هم الذين يؤدّون ما أوجب الله عليهم من الصلاة كاملة الأركان تامّة الشروط والأوصاف، مع خشوع القلب لله، وخضوع النفس لربِّ العباد.

٧- الإنفاق في وجوه الخير: إن المؤمنين الصادقين هم الذين ينفقون بعض أموالهم في السِّر والعلن في مرضاة الله، من غير قصد الشهرة والرِّياء، والتَّباهي والسُّمعة، ويفعلون ذلك بقصد التقرب إلى الله، وحب الخير، والرفاه لعباد الله جميعاً، من غير تفرقة بين مؤمن وغير مؤمن؛ لأن الإنسان يتخلَّق بأخلاق الله في إمداد العباد بالرِّزق، سواء آمنوا أو كفروا. وذلك هو السُّمو بذاته والرِّفعة بعينها.

٨- مقابلة الإساءة بالإحسان: إن المؤمن الصادق هو الذي يترفَّع عن الأخذ بالثّأر والانتقام، ويردُّ السَّيئة ويدفعها بالحسنة، فيقابل الجهل بالحلم، والأذى بالصبر، والضَّرر بالنَّفع، والإساءة بالعفو والصَّفح وكظم الغيظ.

هؤلاء العقلاء (أولو الألباب) الموصوفون بالصفات السابقة، هم لا غيرهم لهم العاقبة الحسنة والسعادة في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا ينتصرون على الأعداء، وفي الآخرة يدخلون الجنة بفضل من الله وإحسان. تلك العاقبة الحسنى هي الظفر بجنان الخلد، التي يقيم فيها الصالحون والأنبياء والمرسلون، يدخلونها هم وصالحو المؤمنين من آبائهم وأجدادهم وفروعهم وذرِّياتهم، يتنعَّمون بخيراتها. وتدخل عليهم الملائكة من أبواب الجنة المختلفة تحييهم وتسلِّم عليهم قائلين لهم: سلام دائم عليكم، ورحمة سابغة من ربِّكم، بسبب صبركم في دنياكم على الطاعة، وتجنُّب المعصية، والرِّضا في المصاب بالقضاء والقدر، والحمد والشكر على نعم الله، فنعم عقبى الدنيا الجنة. وما أسعد العمال الذين أحسنوا العمل، وأتقنوا الصنعة، إذا ظفروا بالجزاء الحسن: من تقدير وحبّ، وسمعة واحترام، ومكافأة مجزية، تجعلهم راضين رضاً كاملاً في نفوسهم، مطمئنين مرتاحي البال والضمير؛ لأن غيرهم قدَّر عملهم.

أوصاف الأشقياء

واقع الحياة الدنيا وأحوال الناس فيها عجيب غريب، فمنهم أهل الحق والاستقامة وهم السعداء بالفعل، ومنهم أهل الباطل والانحراف، وهم الأشقياء بالفعل، وكل امرئ بما كسب رهين، و بحسب ما يزرع كل إنسان يحصد في الدنيا والآخرة، فمن زرع نباتاً طيِّباً، استفاد منه وأفاد الآخرين، ومن زرع نباتاً خبيثاً، أضرَّ نفسه وأضرَّ الآخرين، ولا غرابة بعدئذ أن يجازى المحسنون أعمالهم بجنان الخلد، ويجازى الأشرار والفجّار بنيران الجحيم، وذلك هو مقتضى العدل. وقد وصف الله تعالى أهل الشقاوة بما يأتي:

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي

ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ[١] ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ[٢] وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ[٣] ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ[٤] ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ[٥] وَحُسْنُ مَـَٔابٍ[٦] ﴿٢٩﴾﴾ [الرّعد: ١٣/ ٢٥-٢٩].

وصف الله تعالى في الآية الأولى الأشقياء بصفات ثلاث وهي:

١- نقض عهد الله: أي إنهم ينكثون بعهد الله الذي ألزم عباده به وأمرهم بفعله، سواء فيما يتعلق بالإيمان بوجود الله ووحدانيته وقدرته وعلمه وإرادته، أو بالإيمان بالأنبياء والرُّسل والكتب المنزلة من عند الله، أو يتعلق بحقوق الناس.

٢- قطع ما أمر الله به أن يوصل: أي قطع كل ما أوجب الله وصله، من الإيمان بالله وبرسله وكتبه، وقطع الرحم والقرابة، وعدم صلة المؤمنين وأصحاب الحقوق. روي: «إذا لم تمش إلى قريبك برجلك، ولم تواسه بمالك، فقد قطعته».

٣- الإفساد في الأرض: أي ويفسدون في الدنيا بأعمالهم الخبيثة، من الظلم والجور، والدعوة إلى غير دين الله، وخيانة الأمانة، وتخريب الديار، وإفساد الأخلاق، وإثارة الفتن والضّلالات، وإيقاد نيران الحروب ظلماً وعدواناً.

أصحاب هذه الصفات يستحقون اللعنة، أي الطَّرد من رحمة الله والإبعاد من خيري الدنيا والآخرة، ولهم سوء العاقبة والمآل، وهو عذاب جهنم.

ثم أبان الله تعالى أن تقدير الأرزاق في الدنيا بين العباد منوط بإرادة الله وحكمته، لأن الدنيا دار امتحان، وليس لها قيمة تذكر عند الله تعالى، فقد يبسط

(١) عاقبتها السيئة هي النار. (٢) يضيّقه على من يشاء. (٣) المتاع: ما يتمتع به مما لا يبقى. (٤) رجع بقلب إلى الله. (٥) عيش طيب. (٦) مرجع.

الله الرِّزق للكافر، ويقتِّره على المؤمن، وذلك لا يدلُّ على تكريم الكافر وإهانة المؤمن، فإن سعة الرزق قد تكون دليلاً على التَّورُّط والاستدراج والإضرار، وتضييق الرزق قد يكون زيادة في الأجر والثواب. والمعنى إن هذا كله بمشيئة الله، يَهَبُ الكافر المال ليهلكه به، ويقدره على المؤمن ليعظم بذلك أجره وذخره. لهذا عاب الله الأغنياء الأشقياء وحقَّر شأنهم وشأن أموالهم، فلا يصح لهم أن يفهموا أن زيادة الرزق والغنى ووفرة المال لكونهم يستحقون ذلك، وإنما قد يكون ذلك تعذيباً لهم، فإذا فرح المشركون والكافرون فرح بطر وتكبُّر بالحياة الدنيا ومُتَعها، وجهلوا ما عند الله من الخير الدائم الخالد في الآخرة والسعادة الأبدية، فإن فرحتهم يعقبها الغصّة والألم، لأن الحياة الدنيا في ميزان الآخرة مجرد متاع زائل، وشيء قليل ذاهب، يزول بسرعة كالبرق الخاطف، لمن تأمل ووعى. روى الإمام أحمد ومسلم وغيرهما أن النَّبي ﷺ قال: «ما الدّنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بِمَ يَرجع، وأشار بالسَّبابة».

وقد يتمادى أهل الثروة والطغيان فيطالبون بمطالب مادِّية تعجيزية لا فائدة منها، مثلما فعل مشركو مكة الذين اغتروا بمتع الحياة الدنيا، وطمست المادة وحبّ الدنيا قلوبهم ومشاعرهم، فاقترحوا على النَّبي ﷺ إنزال آيات مادِّية غريبة كإسقاط السماء عليهم كِسَفاً، أي قطعاً، أو تسيير جبال مكة من أماكنها، وجعل البطاح محارث وبساتين ومغارس، وإحياء الماضين والأسلاف، علماً بأن مثل هذه المقترحات لا تكون عادة إلا إذا أراد الله تعذيب قوم، فردَّ الله عليهم بأن نزول هذه الآيات لا يؤدي بالضرورة إلى إيمانهم ولا هداهم، وإنما الأمر بيد الله يضلُّ من يشاء بسبب علمه بفساد الضّال، ويهدي من يشاء إلى طاعته والإيمان به بسبب إيمانه بالآيات الدّالة على حقيقة الإيمان، وإنابته لطاعة الرحمن.

إن هؤلاء الذين يستحقون الهداية هم الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، وسكنت قلوبهم إلى توحيد الله ووعده، وسُرّوا بذكر الله واطمأنت قلوبهم إلى ربّهم، ورضوا بالثواب الإلهي والفضل والإحسان الرّبّاني، ولم يشكّوا بشيء من أصول الإيمان، ولم يتبرموا أو يتسخَّطوا على مراد الله وقدره، وتلك هي السعادة الحقيقية: سكون القلب، وهدوء البال، والبُعد عن القلق والاضطراب مصدر أكثر الأمراض، ألا بذكر الله تطمئن القلوب وتهدأ، وتلتزم باليقين ويستقرُّ فيها الإيمان الكامل، وتفيض بنور الإيمان، وتشعر براحة النفس.

إن هؤلاء المؤمنين الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان الصحيح وبرد اليقين، وعملوا صالح الأعمال بأداء الفرائض وترك المعاصي لهم العيش الطيب الهنيء، والنعمة والخير، وحسن المرجع والثواب، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٩] . والمآب: المرجع والمآل. وكلمة (طوبى) إما اسم أو مصدر، فهي اسم شجرة في الجنة، أو هي بمعنى الخير والنعمة والغبطة والعيش الطَّيب للمؤمنين.

النَّبي ﷺ والقرآن الكريم

إن علاقة الرُّسل عليهم السّلام بأقوامهم علاقة صعبة وشائكة ودقيقة، لأن أولئك الأقوام قوم عتاة أشداء، وتوارثوا عادات معينة، وألفوا البدائية والفوضى وممارسة الأهواء والشهوات، والأنبياء والرُّسل ذوو رسالة إصلاحية شاملة في العقيدة والشريعة والآداب القويمة، يريدون أن ينقلوا الأقوام من همجيات أفعالهم إلى نور المعرفة والإيمان والمدنية والنور، وذلك الانتقال يحتاج لجهود كبيرة وتضحيات جسيمة، فيقع الصِّراع والتَّحدي بين النَّبي وقومه، وهكذا كانت الحال مع رسول

اللهﷺ ومشركي قريش في مكة المكرمة: حال قائمة على الصِّراع الحادّ والتَّحدي، كما وصف الله في الآيات التالية:

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ(١) ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ(٢) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ(٣) أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ(٤) لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

[الرَّعد: ١٣/ ٣٠-٣٢].

لقد أبان الله تعالى في هذه الآيات قيمة وأهمية إرسال النَّبي ﷺ وقيمة ما أرسل به وعظمة القرآن الكريم المنزل عليه، فمثل ذلك الإرسال للأنبياء السابقين أرسلناك أيها الرسول محمد إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات، كما قال الزمخشري، ومهمتك في هذا الإرسال واضحة، أرسلناك بكتاب تبلِّغه للناس وتقرؤه عليهم، كما أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبلك، ولما كُذِّب الرُّسل، انظر كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم، ولأتباعهم في الدنيا والآخرة. وأما المرسل إليهم فكانوا يكفرون بالرّحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، لا يقرّون به، ولا يشكرون نعمه وفضله، وأخطر ما يقولون: إن لله شريكاً، فكان الرَّد المأمور به عليهم: قل لهم أيها الرسول: إن الرَّحمن الذي تكفرون به، أنا مؤمن به معترف، مقرٌّ له بالرُّبوبية والأُلوهية، فهو متولِّي أمري وخالقي، لا إله غيره ولا معبود سواه، توكَّلت عليه في جميع أموري، وفوَّضتها إليه، وإليه أرجع وأُنيب، فإنه لا يستحقُّ ذلك أحد سواه.

---

(١) إلى الله مرجعي. (٢) يعلم ويتبين. (٣) داهية تقرعهم بالبلايا. (٤) أمهلت.

ثم بيَّن الله تعالى عظمة القرآن وفضله على سائر الكتب المنزلة قبله، فلو كان هناك في الكتب الماضية كتاب تسيَّر بتلاوته الجبال عن أماكنها، أو تقطَّع به الأرض وتشقق وتجعل أنهاراً وعيوناً، أو تكلّم به الموتى في قبورهم لإحيائهم بقراءته، لكان هذا القرآن هو المتَّصف بتلك الصفات، دون غيره، بل هو الأولى، لما فيه من الإعجاز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لاشتماله على الآيات الكونية الدّالة على وجود الله، والشرائع والأحكام المنظمة لعلاقات الناس، والكفيلة بإسعادهم في الدّارين.

وكان هذا الوصف ردّاً على مشركي قريش الذين طالبوا بآية تعجيزية مادِّية تثبت نبوّة النَّبي ﷺ. روى ابن أبي شيبة وابن المنذر عن الشعبي قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ : إن كنت نبيّاً كما تزعم، فباعد جبلي مكة أخشبيها (جبلين فيها) هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة، فإنها ضيقة، حتى نزرع فيها ونرعى، وابعث لنا آباءنا من الموتى، حتى يكلمونا و يخبرونا أنك نبي، أو احملنا إلى الشام أو اليمن أو إلى الحيرة، حتى نذهب ونجيء في ليلة، كما زعمت أنك فعلته، فنزلت هذه الآية.

ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ أي بل مرجع الأمور كلها إلى الله عزّ وجلّ، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو صاحب الأمر والإرادة في إنزال الآيات المادِّية وغيرها، وهو القادر على كل شيء.

﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ أي ألم يعلم (أي أن ييأس في لغة هذيل بمعنى يعلم) المؤمنون أن الله قادر لو شاء على هداية الناس جميعاً إلى الإيمان بالقرآن، أو أن ييأس بمعناها المعروف من اليأس، والمعنى: أفلم ييأس المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة، مع العلم بأن الله لو شاء لهدى الناس جميعاً.

ثم أخبر الله تعالى عن كفار قريش والعرب أنهم لا يزالون تصيبهم قوارع من

سرايا رسول الله ﷺ وغزواته، من القتل والأسر وأخذ الأموال، أو تحلُّ القارعة الدّاهية قريباً من ديارهم، فتصيب من حولهم ليتّعظوا ويعتبروا، حتى يأتي وعد الله أي حتى ينجز الله وعده لك أيها الرسول فيهم، بنصرك عليهم، إن الله ينجز وعده الذي وعدك به حتماً، ولا يخلف الله الميعاد، بالنصر عليهم. وهذه هي حال الكفار أبداً إلى يوم القيامة، حتى يتّعظوا ويقلعوا عن كفرهم.

ثم أورد تعالى آية تأنيس ومواساة للنَّبي ﷺ، مفادها: لا يضيق صدرك يا محمد بما ترى من قومك وتلقى منهم، فليس ذلك ببدع ولا نكير، فإن كذَّبك بعض قومك، واستهزأ بك المشركون منهم، وطلبوا آيات منك عناداً ومكابرة، فاصبر على أذاهم، فلك في الرُّسل المتقدمين أُسوة، حيث أنظرتُ أولئك الكافرين وأجَّلتهم مدة من الزمان، ثم أوقعتُ بهم العذاب، فانظر كيف كان عقابي لهم حين عاقبتهم. وقوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ تقرير وتعجيب، وفي ضمنه وعيد للكفار المعاصرين لمحمد عليه الصّلاة والسّلام، ولكل من جحد برسالته وأعرض عن دعوته إلى يوم القيامة.

من الأحقُّ بالعبادة؟

إن الحرب المركزة والعنيفة الشعواء على الشِّرك والوثنية في منهج الإسلام وجميع الأديان، إنما كانت من أجل إنهاء هذه الظاهرة الشاذة التي لا تتفق مع العقل السّوي والكرامة الإنسانية، ولتوجيه الإنسان نحو ما ينفعه ويدفع عنه الضُّرّ بالفعل، وليترفع عن عبادة ما لا ينفع ولا يضرّ بحال من الأحوال، وهذا يحقق سموّ الإنسان. لذا وبَّخ القرآن الكريم أولئك المشركين الوثنيين الذين عبدوا جمادات صماء، لا حركة فيها ولا حياة، ولا تفيد شيئاً، ولا تمنع شرّاً، فقال الله سبحانه:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ[(١)] ﴿٣٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ[(٢)] وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرَّعد: ١٣/ ٣٣-٣٥].

هذا لون من النِّقاش والحجاج الهادئ مع المشركين يتضمن توبيخاً لهم وتعجيباً من عقولهم، ونفي الدليل النقلي والدليل العقلي على استحقاق تلك الشركاء أي لون من العبادة. والمعنى: إن الله مطَّلع على كل نفس، عالم بما يكسب كل إنسان من أعمال الخير والشَّر، ولا يخفى عليه خافية، قادر على كل شيء، فكيف يجعلون القادر العالم، كمن لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرّاً، وكيف يتّخذونه ربّاً يطلبون منه النَّفع ودفع الضَّرر، والمراد نفي المماثلة المطلقة. وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ معناه: أفمن هو هكذا أحقُّ بالعبادة أم الجمادات التي لا تضرُّ ولا تنفع؟!

كيف يقبل الوثنيون بشيء من التَّفكر والتّأمل عبادة الأوثان، وكيف يتخذون شركاء لله، عبدوها معه، من أصنام ونحوها، عاجزة مخلوقة لا شيء لديها من مقومات الفاعلية والحركة؟!

وهذا يستتبع توبيخاً وتحدِّياً لهم، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ ..﴾ أي صفوهم لنا، وأعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يُعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم، وليسوا أهلاً للعبادة، لعدم تصوُّر أي نفع منهم أو دفع ضرّ أو جلبه منهم، ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يراد به: أتخبرونه بشركاء معبودين لا وجود لهم؛ لأنه

(١) حافظ. (٢) ثمرها المأكول دائم لا ينقطع.

لو كان لها وجود في الأرض، لعلمها الله الذي لا تخفى عليه خافية، وهذا نفي لوجودها، والاستفهام استفهام توبيخ. وهو إضراب عن قولهم وتقرير مضمونه: هل تُعلمون الله بما لا يعلم؟! وكلمة ﴿أَمْ﴾ بمعنى ﴿بَلْ﴾ وألف الاستفهام، على مذهب سيبويه.

بل أتسمّونهم شركاء بظنّ ظاهر أجوف من القول أنهم ينفعون ويضرّون، أم بباطل من القول، والمعنى: إنما عبدتم هذه الأصنام بظنّ منكم أنها تنفع وتضرّ، وسميتموها آلهة، وهو ظنّ فاسد، ووصف باطل، وتصوُّر خطأ محض، لا أساس له من الصحة والواقع. هل يريدون تجويز ذلك بظاهر من الأمر؟ لأن ظاهر الأمر فيه التباس وموضع احتمال؟ وما لم يكن إلا بظاهر من القول فقط، فلا شبهة له.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ الواقع أنه لا فائدة من نقاش المشركين ومحاجتهم، فإنهم قوم زُيِّن لهم كفرهم وكيدهم وسخفهم، وهو ما هم عليه من الضّلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار. و ﴿مَكْرُهُمْ﴾ لفظ يعمّ أقوالهم وأفعالهم المناقضة للشرع .﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وتأكيد للواقع أنهم صرفوا عن سبيل الحقّ وسبيل الله والدِّين الأقوم، بما زيِّن لهم من صحة ما هم عليه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ ومن يخذله الله لكفره وعصيانه وضلاله، فماله من أحد يوفقه إلى الهداية وسلوك طريق النجاة والسعادة.

ثم جاءهم الوعيد الإلهي الرهيب والإنذار بالجزاء الشديد، وهو أن لهم عذاباً مؤلماً في الدنيا بأيدي المؤمنين، بالقتل والأسر والذُّلّ والدَّمار، والبلاء ألوان: المصائب في أجسامهم وغير ذلك، ولهم عذاب الآخرة وهو الاحتراق في نيران الجحيم الذي هو أشدّ وأصعب وأنكى من عذاب الدنيا، وليس لهم ساتر يقيهم أو يحميهم من ذلك العذاب.

وأما أتقياء المؤمنين المبتعدين عن كل ألوان الشِّرك، فلهم ثواب الجنة ذات الجمال المطلق والراحة الأبدية، ونعت الجنة أو وصفها الذي يشبه المثل في الغرابة، تلك الجنة التي وعدها الله للمتقين ذات أنهار تجري في أنحائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجِّرونها تفجيراً، ويوجِّهونها حيث أرادوا، ما يؤكل فيها من المطاعم والمشارب دائم مستمر لا ينقطع، وكذلك ظلّها دائم، لا ينسخ ولا يزول، فليس فيها شمس ولا حرّ ولا برد، تلك الجنة هي عاقبة ومصير أهل التقوى، وعاقبة الكافرين النار، بسبب كفرهم وذنبهم. والمراد أن ثواب المتقين منافع خالصة عن الشوائب، موصوفة بصفة الدوام. والآية إطماع للمؤمنين المتّقين، وإقناط للكافرين، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٦٣]. وقال سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزُّخرف: ٤٣/ ٧١].

موقف أهل الكتاب والمشركين من نبوّة محمد ﷺ

كان المعارضون لدعوة النَّبي ﷺ فريقين: فريق المؤمنين المؤيدين، وفريق الجاحدين المنكرين الذين يتمسكون بشبهات واهية وأعذار ساقطة، لتسويغ انحرافهم بتأويلات لا يمكن قبولها أو الحماس لها، فاستحقت أن تطوى من تاريخ الفكر والعلوم. وهكذا أصبحت أفكارهم منقولة على سبيل التعجب من انحدار العقل البشري، والاتِّعاظ من آفة الضلال التي تعصف بأصحابها وتهوي بهم في دركات الجحيم. قال الله تعالى واصفاً موقف بعض أهل الكتاب والمشركين المعترضين على تصرُّفات النَّبي ﷺ وأحكام دينه:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ

أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ[١] ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ[٢] ﴿٣٩﴾

[الرَّعد: ١٣/ ٣٦-٣٩].

هذه الآيات وصف لأحوال المعاصرين للنَّبي ﷺ، فهناك مؤمنو أهل الكتاب الذين يفرحون بما ينزل على النَّبي ﷺ في القرآن من تصديق شرائعهم وما يألفونه من أحكام ربِّهم، وهم جماعة من اليهود كعبد الله بن سَلام وأصحابه، وسلمان الفارسي وجماعة، من نصارى الحبشة واليمن ونجران، وعددهم ثمانون رجلاً.

وهناك جماعة أخرى من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمجوس الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ، مثل كعب بن الأشرف اليهودي والسيد والعاقب أسقفَي نجران وأتباعهم، هؤلاء ينكرون بعض ما جاءك أيها النَّبي من الحقّ، وهو ما لم يوافق شرائعهم أو ما حرَّفوه منها.

فجاء الرَّد الإلهي عليهم، وأمر الله تعالى رسوله أن يطرح اختلافهم، وأن يصدع بأنه إنما أُمر بعبادة الله، وترك الإشراك والدعاء إليه، واعتقاد المآب إليه، وهو الرجوع عند البعث إلى الله يوم القيامة. وهذا إعلان صريح بأن دعوة الإسلام تقوم على مبدأ التوحيد ورفض الشِّرك، وإثبات البعث والحساب يوم القيامة.

ثم أوضح الله تعالى منهج القرآن وأسلوبه في الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله، بأسلوب عربي فصيح، واضح، سهل الفهم، وقريب التَّلقي. فكما أرسلنا قبلك المرسلين أيها النَّبي، وأنزلنا عليهم الكتب، كذلك سهَّلنا عليهم في ذلك وتفضَّلنا في

---

(١) إلى الله مرجعي للجزاء . (٢) اللوح المحفوظ وعلم الله الواسع .

تفصيل أصول الاعتقاد، فأنزلنا عليك القرآن الكريم محكماً لا زيغ فيه، معرباً بلسان قومك: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ..﴾ ليسهل عليهم فهمه وحفظه، ويبين لهم الأمور، ويفْصِلَ بين الحقِّ والباطل، فيوضحَ الحلال والحرام، والشرائع والأحكام والأنظمة المؤدية لسعادة الدنيا والآخرة. والحكم في قوله تعالى: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ : ما تضمنه القرآن من المعاني بلغة العرب الفصحى.

ولئن اتَّبعت يا محمد -على سبيل الافتراض- آراء تلك الفرق الضّالة، وهذا يتناول المؤمنين إلى يوم القيامة، مثل مجاملتهم في باطل عقائدهم وأهوائهم، بعدما عرفت الحق، وجاءك العلم الصحيح، فليس لك ناصر ينصرك من الله، ولا حافظ ولا مانع يمنع عنك العقاب، وينقذك من العذاب. وهذا وعيد شديد لأهل العلم أن يتَّبعوا سبيل أهل الضّلالة، بعدما عرفوا الدين الحق، وهو أيضاً حسم وقطع لأطماع المعارضين الكفرة في إقرار ما هم عليه، وتهييج للمؤمنين للثبات على دينهم.

ثم ردَّ الله تعالى على طعن اليهود والمشركين بتعدُّد زوجات النَّبي ﷺ ومضمون الرَّد: كما أرسلناك يا محمد رسولاً بشراً، كذلك جعلنا الأنبياء المرسلين قبلك من البشر، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ويتزوجون النساء، ويُنْجبون الذُّرِّية والأولاد، فليس شأنك بدعاً جديداً، فقد تقدّم هذا في الأمم، ثم زجر المقترحين من قريش بإنزال الملائكة، المتعجبين من كون الرسول بشراً، بأنه ليس في وسع النَّبي محمد وغيره أن يأتي بمعجزة خارقة للعادة إلا بإذن وتمكين من الله، ليس ذلك إليه، بل إلى الله عزّ وجلّ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولكل حادث أو كتاب أو كائن وقت معين وزمن محدد، ولكل وقت حكم يقرر على العباد، بحسب المصالح والأحوال ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي يبدل في الأشياء وينقلها كغفر الذنوب بعد تقريرها، ونسخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها، وعند الله أصل الكتاب

الدائم: وهو اللوح المحفوظ وعلم الله الشامل الذي لا يتغير في حقِّه، وإن تبدَّل في حقِّ بني آدم، فتلك الأشياء المقدرة في الأزل، التي دونت في أُم الكتاب، لا يصح فيها محو ولا تبديل؛ لأن القضاء سبق بها؛ وهي ما استقرَّ في نهاية الأمر، وإن تغيَّرت مسيرته. فأُمّ الكتاب: هو ديوان الأمور المخزونة التي سبق القضاء فيها بما هو كائن من غير تبديل.

الأمر بتبليغ الرِّسالة

لكل رسول من الرُّسل الكرام مهمة واضحة ووظيفة محددة، من أجل صالح البشرية، وتصحيح مسيرتها، ووضع الأنظمة الملائمة لحياتها، وإذا تحققت هذه المهمة أو الوظيفة، أصبح مضمونها حجة على البشر، ووجب عليهم العمل بها، والتزام ما جاء فيها، لخيرهم وإسعادهم. وفي عالم الآخرة: الحساب والجزاء على ما يقدمه الناس من خير أو شرّ، ولا ينفع مكر أو كيد، أو إنكار وإهمال، أو هروب من المسؤولية. قال الله تعالى:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ(١) وَهُوَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ
ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا
بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرَّعد: ١٣/ ٤٠-٤٣].

يحدِّد الله تعالى في هذه الآيات موقف الرسول ﷺ من ألوان طلبات المشركين

(١) لا رادّ ولا مبطل له .

العنادية، تبياناً للواقع، وتهدئة لنفس النَّبي، ووعداً بنصره. وهذا الموقف يتجلى في أنه إن أريناك يا محمد في حياتك بعض وعيد المشركين من خزي ونكال، أو توفيناك قبل إرادتك ذلك، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربِّك، فمهمتك تبليغ رسالة الله، وقد فعلت ما أمرت به، وليس عليك تحقيق النتائج والتوصل إلى صلاحهم، وعلينا حسابهم ومجازاتهم على ما قدموا من خير أو شرّ. وقوله سبحانه: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ بتخصيص البعض بالذِّكر: مفهومه أن الأعمار تقصر عن إدراك جميع ما تأتي به الأقدار، مما يُوعَد به الكفار، وأن فتوحات المسلمين تأتي في المستقبل.

ألم ير أولئك المشركون في مكة أن الله يأتي إلى أرض الكفر، فينقصها شيئاً فشيئاً، ويفتحها المسلمون تدريجاً، أرضاً بعد أرض، ويتحقق لهم النصر، وتتسع أرض الإسلام على التوالي، حتى يعمَّ الدنيا. والله يقضي القضاء المبرم، ولا يردّ حكمه النافذ، وليس لأحد أن يتعقَّب أحكام الله، أي ينظر في أعقابها، فيناقشها أو يبطلها، وينظر أهي مصيبة أم لا؟ والله محاسب عباده قريباً في الآخرة، وعقابه آتٍ لا محالة، فلا تستعجل عقابهم أيها النَّبي، فإن الله محاسبهم ومعذِّبهم في الآخرة بعد أن عذَّبهم في الدنيا بالقتل والأسر والهزيمة. وسرعة حساب الله واجبة؛ لأنها بالإحاطة والشمول، وليست بعدد قليل أو كثير.

وأما مكائد قومك قريش أيها النَّبي فاصبر عليها ولا تأبه بها، فلقد مكر الكفار السابقون برسلهم، وأرادوا طردهم من بلادهم، وعذَّبوهم، كما فعل النمرود بإبراهيم، وفرعون بموسى، واليهود بعيسى، وكما فعلت عاد وثمود وإخوان لوط، فمكر الله بهم، أي أحاط بمكرهم وأحبط خططهم وتدابيرهم. والمكر: ما يُتمرَّس بالإنسان، ويُسعى عليه، سواء علم بذلك أو لم يعلم. وقوله سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ

جَمِيعًا﴾ أي العقوبات التي أحلَّها بهم، وسماها مكراً على ما عرف: تسمية المعاقبة باسم الذنب، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥].

وفي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ تنبيه وتحذير في طيّ إخبار، والمعنى: أن الله تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزي كل عامل بعمله، فينصر أولياءه، ويعاقب الماكرين. ثم توعَّدهم الله سبحانه بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي سيتحقق الكفار لمن تكون العاقبة المحمودة والنهايةُ الحسنة من الفريقين: المؤمنين والكافرين، حيث تكون تلك العاقبة لأتباع الرُّسل في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا النصر، وفي الآخرة الجنة.

ثم ردَّ الله على منكري نبوّة محمد ﷺ بقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا . .﴾ أي يقول الجاحدون النُّبوة: لست نبيّاً مرسلاً من عند الله، تدعو الناس لعبادة الله وحده، وهجر الأصنام والأوثان، وترك الظلم والفساد. فقل يا محمد: حسبي الله وكافيني أنه شاهد لي بصدق رسالتي، ومؤيد دعوتي، بما أنزله علي من القرآن المعجز، ومن الآيات البيِّنة الدالة على صدقي. وكفاني أيضاً بعد شهادة الله: شهادة علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى كعبد الله بن سَلام اليهودي وأصحابه وتميم الداري وسلمان الفارسي، بما وجدوه لديهم في التوراة والإنجيل من بشارة برسالتي، وأوصاف لا تنطبق على من سواي.

تفسير سورة إبراهيم

نعمة القرآن ولغة كل رسول

إنزال القرآن الكريم أعظم نعمة على الإنسانية في تاريخها الطويل؛ لأنه كلام الله تعالى، ودستور العقيدة والشريعة ومنهاج الحياة والآداب والأخلاق، ولولا هذا القرآن لكان الناس في عَماية (غواية) وضلال وجهالة، فبالقرآن وحده عرف كل إنسان ربَّه، وثاب إلى رشده، وتربَّت النفوس في مدرسة القرآن، فصارت من طراز آخر على منهج الحق واليقين والإحسان.

وكان من فضل الله على العرب أن أنزل القرآن المجيد بلغتهم العربية، كما أرسل كل رسول بلسان قومه، ليفهموا رسالته ويتّبعوا دعوته، قال الله تعالى مبيِّناً هذه النعمة العظمى في مطلع سورة إبراهيم المكّية:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ(١) إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ(٢) ٱلۡحَمِيدِ(٣) ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ(٤) لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ(٥) ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ(٦) أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١-٤].

---

(١) بتوفيقه لهم . (٢) الغالب . (٣) المحمود المثنى عليه . (٤) هلاك . (٥) يختارون ويؤثرون . (٦) يطلبونها معوجة.

افتتحت هذه السورة بالحروف المقطعة كسورة البقرة وأمثالها للتّنبيه والتّحدي وتذكير العرب بأن هذا القرآن كلام من عند الله، بدليل أنه مكوَّن من حروف لغتهم ومادة كلامهم، وهم عاجزون عن الإتيان بمثله.

والقرآن كتاب كريم أنزله الله رب العالمين، على رسوله الأمين، لإخراج الناس من ظلمات الضلال والجهل إلى نور الإيمان الحق والهدى والرشاد، بتوفيق الله وتيسيره وإذنه، وبواسطة الداعية والمبلِّغ له، وهو النَّبي ﷺ، يبلِّغ شريعة الله، ويرشد إلى الطريق القويم، طريق الله القوي الغالب القاهر المدرك، المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وخبره.

فحقيقة الهداية: إنما هي راجعة لله بالاختراع والإيجاد، والرسول مشارك في التوجيه والإنذار والدعوة إلى سبيل الهداية. وقوله سبحانه عن نبيِّه ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ تشريف للنَّبي ﷺ. وعم ﴿ٱلنَّاسِ﴾ إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق والعالم كله، فبعثته عامة للأحمر والأسود، كما ثبت بالتواتر وبآيات كثيرة من القرآن، وبما شاهده الصحابة وآل البيت الكرام.

وكلمة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ استعارة للكفر، وكلمة ﴿ٱلنُّورِ﴾ استعارة للإيمان وطريق طاعة الله ورحمته، على سبيل التشبيه والمماثلة. وكلمة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بعلمه وقضائه وتمكينه لهم.

وإنزال القرآن من عند الله العزيز الحميد، وهما صفتان لائقتان في هذا الموضع، للدلالة على قدرة الله، واستيجاب الحمد على نعمة الإنزال على العالم كله، في هدايتهم، ومن أدلة القدرة الإلهية: أنه سبحانه له كل ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً وعبيداً وتصريفاً وتدبيراً، وويل، أي هلاك وعذاب شديد يوم القيامة للكافرين برسالتك أيها النَّبي، الذين جحدوا بوحدانية الله. وهذا وعيد وإنذار وتهديد.

ووصف الله تعالى هؤلاء الكافرين الجاحدين بالرسالة النَّبوية بصفات ثلاث:

- فهم الذين يحبّون الدنيا ويؤثرونها على الآخرة، ويعملون للدنيا ومتعها فقط.

- وهم الذين يمنعون من اتِّباع الرُّسل ويعرقلون مسيرة الإيمان بالله والقرآن والنَّبي.

- وهم يحبّون أن تكون سبيل الله معوجة مائلة عن الحق، لتوافق أهواءهم.

وسبيل الله: طريقة هداه وشرعه الذي جاء به رسوله ﷺ.

أولئك الجاحدون الموصوفون بتلك الصفات السابقة في ضلال بعيد عن الحق، وفي جهل عميق، لا يرجى منهم عودة إلى الصلاح والفلاح.

وإذا كانت مقاصد القرآن هذه وهي التنوير والهداية، فإن الله يسَّر سبيل معرفتها للعرب حاملي رسالة الإسلام لتبليغها للعالم بجعل القرآن بلغتهم العربية لفهمه وإدراك غاياته ومعرفة شرائعه وأحكامه، كما أن من لطف الله وإحسانه أن يرسل كل رسول بلغة قومه، ليقع التَّكلم بالبيان والعبارة المفهومة، ثم يكون غير أهل تلك اللغة أتباعاً في التبيين لأهل اللسان، وهذه ضرورة متعيِّنة إذ لا يعقل كون الكتاب الإلهي بكل لغات العالم.

وبعد هذا البيان وإقامة الحجة على الناس، يكون الناس فريقين: فريق الضّلال لإصراره على الكفر واجتراح السَّيئات، وفريق الهداية لمبادرته إلى الإيمان، وتقتصر مهمة الرّسول على التَّبليغ والبيان، وأما إيجاد الهداية والوقوعُ في الضّلال فهو بيد الله، ينفذ فيه سابق قضائه، ويعمل بمقتضى حكمته التي لا تعلَّل، ولا يعترض عليها، ولا يفعل الله شيئاً إلا بسابق علمه بحال كل إنسان، فيوفِّقه للهداية أو يحجبه عنها، وهو سبحانه القوي الذي لا يُغلَب، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو الحكيم في صنعه وأفعاله.

وما أوضح وأحكم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ أي إن الإرسال للبيان، لا للإضلال أو الإيقاع في المتاهات.

مهمة موسى عليه السلام

الأنبياء والرُّسل عليهم السلام هم الصفوة المختارة، والفئة العليا من البشر، وهم أشدّ الناس إخلاصاً لربِّهم، وحبّاً لأقوامهم، فيحرصون أشد الحرص على هدايتهم، وإنقاذهم وتصحيح عقائدهم وأخلاقهم، وتقويم طبائعهم وتهذيب نفوسهم، فاستحقّوا من الله الرِّضوان، وبوّأهم أعلى منازل الجنان. وكان موسى عليه السّلام أحدَ الخمسة أولي العزم، الذي دأب على إرشاد قومه إلى طريق الحق والاستقامة على طاعة الله، وذكَّرهم بنعم الله الكثيرة عليهم ليتَّعظوا، وحذَّرهم من عاقبة المخالفة والعصيان، وأعلمهم أن منفعة الطاعة تعود عليهم، وأن الله غني عن العالمين. قال الله تعالى واصفاً جهود موسى في أداء رسالته:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ(١) سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ(٢) وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ(٣) مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ(٤) رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٥-٨].

هذه لوحة مشرِّفة لقافلة الإيمان ومسيرة الحق، يتصدَّرها موسى عليه السّلام،

---

(١) يذيقونكم. (٢) يبقونهم أحياء للخدمة. (٣) اختبار. (٤) أعلم من غير شبهة.

موصولة النَّسب والمتابعة إلى نبيِّنا محمد عليه الصلاة والسلام، فكما أرسل الله نبيَّه محمداً بالهدى ودين الحق، وأنزل الله عليه القرآن لإخراج الناس من الظُّلمات إلى النُّور، كذلك أرسل نبيَّه موسى إلى بني إسرائيل بالآيات التِّسع[1] لإخراجهم من الظُّلمات إلى النُّور، داعياً إياهم إلى الخير، والانتقالِ من دائرة الظُّلمة والجهل إلى نور المعرفة والهدى والإيمان الحق.

وذكَّرهم ووعظهم بأيام الله، أي وقائعه ونقمه التي أحلَّها بالأُمم الكافرة الظالمة قبلهم، وبتعديد نعم الله عليهم وعلى غيرهم من أهل طاعة الله، إن في ذلك التذكير لدلائل واضحة على وحدانية الله وقدرته، وبيِّنات وعبراً لكل كثير الصبر على الطاعة والبلاء، مؤمن ناظر لنفسه، شكور في حال النعمة والرخاء. والتعبير عن النِّعم والنِّقم بأيام الله: تعظيم لهذه الكوائن المذكَّر بها.

ألحَّ موسى عليه السلام على قومه الإسرائيليين أن يتذكروا عظائم النِّعم الإلهية عليهم، ونجاتهم من النِّقم، حيث أنجاهم من ظلم آل فرعون وما كانوا يذيقونهم من ألوان وآلام العذاب والإذلال، وتكليفهم بالشّاق من الأعمال، وكانوا فوق ذلك يذبِّحون أبناءهم المولودين الصِّغار، خوفاً من ظهور ولد إسرائيلي يكون سبباً في تدمير ملك فرعون، بحسب تفسير رؤيا فرعون مصر، وكانوا يتركون الإناث أحياء ذليلات مستضعفات، للمتعة والخدمة والمهانة، وفيما ذكر اختبار عظيم من الله لهؤلاء القوم الأشرار، سواء في حال النقمة، أو في حال النعمة، ليعرف مدى شكر الإنسان منهم ومدى كفره وجحود نعمة الله عليه، كما قال الله تعالى في بيان منهاج اختبار البشر: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٥].

(١) الآيات التِّسع: هي الطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدَّم، والعصا، ويده البيضاء، والسنون القاحلة في بواديهم، والنقص في الثمرات في قراهم.

وأبان موسى عليه السّلام لقومه منهاج الإله الحق في إمداد البشر بالنِّعم، وإرهابهم بالنِّقم، وإنذارهم بالعذاب، فلقد أعلم الله علماً مقترناً بإنفاذٍ وقضاءٍ قد سبقه: أنكم يا بني إسرائيل أي وغيركم، لئن شكرتم نعمة الله عليكم ليزيدن لكم النِّعم، ويديمها عليكم، ولئن جحدتم النِّعم وسترتموها، فلم تؤدّوا حقَّها من الشكر، ومقابلتها بالوفاء والطاعة، فإن عقاب الله أليم، شديد التأثير والألم، في الدنيا بزوال النِّعم وسلبها عنكم، وفي الآخرة بالعقاب على كفران النعم. جاء في الحديث الثابت الذي رواه الحاكم عن ثوبان: «إن العبدَ ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه».

ثم هدَّد موسى قومه ووبَّخهم بقوله: إن تجحدوا نعمة الله عليكم أنتم وجميع من في الأرض من الثَّقلين: الإنس والجنّ، فإن الله غني عن شكر عباده، وهو المحمود بكل حال، حتى وإن كفر به من كفر، كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزُّمر: ٣٩/ ٧].

وإيراد هاتين الصِّفتين لله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ اللتين وصف بهما نفسه تبارك وتعالى في آخر الآية: يتضمن بيان عظمة الله تعالى، وتحقير المخاطبين العصاة وتوبيخَهم على المخالفة وجحود النِّعمة، فالله متَّصف بصفة توجب المحامد كلها دائماً، كذلك في ذاته، لم يزل ولا يزال، وكُفْر بعض الناس بإله هذا حاله: غاية التَّخلف والخذلان، وإغراق في الضَّلال والبُعد عن الحق.

بعض ألوان التَّذكير بأيام الله

أغلب الناس لا يكتفون بالأمور النظرية، والتهديدات الشفهية، وإنما يحتاجون إلى الأدلة الحسِّية والأمثال الواقعية، والتجارب الفعلية، لذا لم يكتف القرآن الكريم والرُّسل المصلحون بتوجيه الإنذارات، وإنما من أجل التصديق بواقعيتها يقيناً

وحسّاً، قُرن هذا التوجيه بالتذكير بأيام الله ووقائعه في الانتقام من الأمم الكافرة الظالمة، فقال الله سبحانه مبيّناً خطابه العام لقوم النّبي ﷺ وسائر الأمم:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ (١) وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٢) ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ (٣) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ (٤) مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٩-١٢].

هذا تذكير بأحوال الأُمم السابقة الذين كذبوا بكل وقاحة وجرأة برسالات الرُّسل، وتذكير أيضاً بدور هؤلاء الرُّسل في محاولة إقناع أقوامهم بتوحيد الله وقدرته وسلطانه وتصرُّفه في كل شيء، و بحاجة البشر إلى التوكُّل على الله والتفويض لمشيئته.

ومفاد هذا التذكير والخطاب العام: ألم يأتكم يا أهل مكة وأمثالكم خبر الأقوام السابقين من قبلكم، وهم قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأُمم المكذِّبة للرُّسل، مما لا يحصي عددهم إلا الله عزّ وجلّ. قال ابن عباس: «كان بين زمن موسى وبين زمن نوح قرون ثلاثون لا يعلمهم إلا الله».

جاءت هذه الأقوامَ رسلُهم بالمعجزات والأدلة الواضحة على توحيد الله وصدق

(١) عضوا أناملهم تغيُّظاً. (٢) موقع في الريبة. (٣) أي مبدعها على أكمل نظام. (٤) حجة تدلُّ على صدقكم.

رسالاتهم، ولكن هؤلاء الأقوام اغتاظوا من الرسل وعادوهم وبالغوا في تكذيبهم والنفرة منهم، وقالوا للرُّسل تعنُّتاً وعناداً وتبجُّحاً: إنا كفرنا بما أرسلتم به من الآيات الدالة على صدق رسالتكم.

فقالت لهم رسلهم: أفي وجود الله ووحدانيته شك؟ إن الفطرة والعقل يقرّان بذلك، والواقع والحسّ يؤيّدان هذا، فكيف تشكّون بالله؟ والله هو مبدع السماوات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق.

والله تعالى عدا كونه خالقاً موجداً هو كامل الرحمة، يدعوكم إلى الإيمان الكامل به، من أجل أن يغفر لكم في الآخرة ذنوبكم، ويؤجِّلكم في حياتكم إلى وقت محدد في علم الله تعالى، وهو منتهى العمر، إن آمنتم، وإلا عاجلكم بالهلاك والعذاب على كفركم، فردَّ الأقوام على رسلهم بردود وشبهات ثلاث وهي:

١- ما أنتم أيها الرُّسل إلا بشر مثلنا في البشرية، ولا فضل لكم علينا، فلِمَ تختصون بالنُّبوة دوننا؟ وفي هذا استبعاد لبعثة البشر.

٢- وأنتم أيها الرُّسل تريدون أن نترك ما وجدنا عليه آباءنا، بهذه الدعوة غير الصحيحة.

٣- فأْتونا بسلطان مبين، أي بحجة واضحة ظاهرة على صدق نبوّتكم، فنحن لا نؤمن إلا بالحسِّيات.

فأجابهم الرُّسل: لسنا نحن إلا بشر مثلكم، نأكل ونشرب ونمشي في الأسواق، واختصاصنا بالنُّبوة أمر متروك لله يتفضَّل بها على من يشاء من عباده، وتقليدكم للآباء لا يتفق مع العقل والكرامة الإنسانية، ولا نستطيع الإتيان بمعجزة أو دليل حسّي لإثبات نبوّتنا إلا بإذن الله وإرادته ومشيئته، وعلى جميع المؤمنين الاتّكال على الله في كل أمورهم، لدفع الشَّر أو جلب الخير أو الصبر على العداوة.

وكيف لا نتوكَّل على الله نحن معاشر المؤمنين؟! وقد هدانا إلى سبل المعرفة والحق والخير والرشاد، ولنصبرن على ألوان أذاكم لنا بالقول أو بالفعل، وليستمرّ المؤمنون، ويثبتوا على توكُّلهم على الله، وليثقوا به، وليتحملوا كل أذى في سبيل مرضاته، ففي ذلك الخير كله والنَّجاة الأبدية في عالم الآخرة.

تهديد الأقوام لرسلهم

لقد تعرَّض الرُّسل الكرام في التاريخ من أقوامهم المرسلين إليهم لأسوأ أنواع المعاملة، وأقسى الكلام، والتهديد بالطرد أو الإبعاد من البلاد أو الإعادة إلى الوثنية الموروثة والجاهلية الفوضوية، معتمدين في هذا التهديد على ماهم من قوة وسلطان ونفوذ، إما بسبب الكثرة العددية والأتباع أو الثروة والمال، أو الجاه والظلم الطبقي، ويستغلون ضعف الدُّعاة إلى الله وقلّة أتباعهم، إلا أن العبرة بالنتائج، ففي نهاية الأمر تكون الغلبة والتفوق والنصر لأهل الحق والإيمان، والهزيمة والمذلّة لأهل الكفر والباطل والضلال. وهذه صورة الفريقين في القرآن الكريم:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ[1] وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ[2] عَنِيدٍ[3] ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ[4] ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ[5] وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ[6] وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ

(١) استنصر الرُّسل بالله على الظلمة. (٢) خسر كل متعاظم متكبّر. (٣) معاند للحق. (٤) ما يسيل من أجساد أهل النّار. (٥) يتكلف بلعه لحرارته. (٦) يبتلعه لشدة كراهته.

﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾(١) لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٣-١٨].

حينما انهزم أهل الضَّلال في النِّقاش والحجاج العقلي أمام رسلهم، لجؤوا إلى التهديد والوعيد والإيذاء بالقول والفعل، وتوعَّد الرُّسل إما بالطَّرد والإبعاد من بلادهم، وإما بالعودة إلى الوثنية الملّة الموروثة عن الآباء والأجداد، فأوحى الله لرسله قائلاً لهم: لنهلكنَّ الظالمين المشركين، ولنسكننكم أنتم وذرِّيتكم أرضهم وديارهم من بعد هلاكهم، عقوبة لهم على تهديداتهم، ذلك الإعلان للحكم الموحى به بإهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم، لمن خاف موقفه بين يدي ربِّه، وهاب وعيده بالعذاب والعقاب.

ثم أبان الله تعالى بقوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ أي إن الرُّسل سألوا إنفاذ الحكم بنصرهم وتعذيب الكفرة، فأجابهم ربّهم لما طلبوا، ولم ينجح كل جبّار، أي متعظم في نفسه، لا يرى لأحد عليه حقّاً، معاند للحق، منحرف عنه، فهو عنيد، أي يعاند ولا ينقاد للحق، ولا ينصاع لنداء الله بالإيمان.

وكان أمام هذا الجبار العنيد جهنم بانتظاره، بعد حذره وتحفظه، ويسقى في النار من ماء صديد، أي مما يسيل من أجساد أهل النار من قيح ودم، فهو ليس بماء في الحقيقة، وإنما ماؤه هذا الصديد المتغير الذي يخرج من الجوف. يتحسّاه جُرْعة بعد جُرْعة، ولا يكاد يبتلعه، لكراهته، وسوء طعمه ولونه وريحه، مما يدل على التألم حين ابتلاعه، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٥]. ويروى أن الكافر يؤتى بالشربة من شراب أهل النار، فيتكرهها، فإذا أدنيت منه، شوت وجهه، وسقطت فيها فروة رأسه، فإذا شربها قطَّعت أمعاءه.

(١) شديد الهبوب .

ويأتيه ألم الموت، وشدة نزع الروح من كل مكان، من غير إبقاء شعرة في بدنه، ولا يُراح بالموت، فلا يموت، كما جاء في آية أخرى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٥/٣٦].

وله من وراء ذلك كله عذاب غليظ، أي شديد صعب مؤلم، أشد غلظة مما سبقه، وهو دائم غير منقطع.

ويتأسف الكفار على أعمالهم الصالحة في الدنيا التي ضاعت هدراً، ولم تنفعهم في الآخرة، ويكون لهم مَثَلٌ أو صِفَةٌ عجيبة، فالذين كفروا أعمالهم الصالحة من صدقات وصلة أرحام وبرّ والدين، كَمَثَل الرماد الذي اشتدت به الريح العاصفة، في يوم عاصف، أي ذي ريح شديدة قوية عاتية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد، في يوم القيامة، ذلك هو الضلال البعيد، أي ذلك السَّعي والعمل على غير هدى ولا استقامة ولا إيمان: مغرق في البعد عن الحق والنجاة، حتى فقدوا ثوابه، لفقدهم شرط قبوله: وهو الإيمان. وشُبِّهت أعمال الكفار ومساعيهم-في فسادها وقت الحاجة وتلاشيها- بالرماد الذي تذروه الرياح وتفرقه، لشدّتها حتى لا يبقى لها أثر، ولا يجتمع منه شيء. وتبديد ثمرة أعمال الكفار مقرر في القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٣].

حوار أهل النار

أوضح الله تعالى في قرآنه صورة متوقعة بين أهل النار وهي الجدال والحوار الحادّ بين الضعفاء والمستكبرين، وبين الأتباع والسادة، يدلُّ على النّدم الشديد والتّأسف العميق، لما آل إليه الفريقان من عذاب شديد، بسبب قصر النظر وضعف الإدراك

وقلّة الوعي، واتِّباع الأهواء والشهوات، على الرغم من إقامة الأدلة القاطعة على وضوح الرؤية والمصير، وعلى قدرة الله ووجوده ووحدانيته، وتتابع التحذيرات والتهديدات بتبدُّل الأوضاع وانقلاب الأحوال. قال الله تعالى واصفاً هذا الوضع:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟[(١)] لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ[(٢)] ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/١٩-٢١].

أخبر الله تعالى عن قدرته في إعادة الأرواح للأبدان وبعث الناس أحياء من القبور يوم القيامة، بدليل قدرته على خلق السماوات والأرض وما فيها من كواكب ومجرَّات ونجوم ذات أحجام تبلغ مئات الملايين من المساحات. فمن قدر على هذا الخلق البديع، قادر على إفناء الناس والإتيان بِخَلْق جديد، ومخلوقات ذات صفات مختلفة. ومعنى كون السماوات والأرض مخلوقة بالحق، أي بما يحق في وجوده، من جهة مصالح عباده، وإنفاذ سابق قضائه، للإدلال على وجود الخالق وعلى قدرته. ثم توعَّد الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي إن يرد الله يعدمكم ويطمس آثاركم، ويأت بمخلوقات أخرى جديدة من بني آدم أو غيرهم، وليس ذلك على الله بممتنع.

وبعد جمع الناس في المحشر وبعثهم من القبور، وبروزهم أمام الله جميعاً في ساحة واحدة، وموقف حساب واحد، تظهر الحقيقة الناصعة، ويبدو الندم الذي يأكل الأكباد، ويشتدّ الحوار والجدال بين أهل النار، فيقول الضعفاء، أي الأتباع، للسادة القادة المستكبرين في الرأي والمواقف المعاندة والتَّنكُّر لعبادة الله: إنا كنا لكم

(١) خرجوا من القبور للحساب. (٢) أي منجى ومهرب.

تابعين، مقلّدين في الأعمال، نأتمر بأمركم، ونفعل فعلكم، فكفرنا بالله، وكذّبنا الرُّسل، وهجرنا كلام الله متابعة لكم وتأثُّراً بآرائكم، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء، أي هل أنتم تدفعون عنا اليوم بعض عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنّوننا؟!

فأجابهم المستكبرون القادة: لو هدانا لله لدينه الحق، ووفقنا لاتّباع أوامره، وأرشدنا إلى الخير، لهديناكم وأرشدناكم إلى سلوك الطريق الأقوم، ولكنه لم يهدنا، فحقت كلمة العذاب على الكافرين.

ثم أعلنوا يأسهم من النجاة فقالوا: ليس لنا خلاص ولا منجى مما نحن فيه، سواء صبرنا على العذاب، أو جزعنا وتضجرنا منه، فيكون الصبر والجزع سواءً، فلا نجاة لنا من عذاب الله تعالى.

عن محمد بن كعب أن أهل النار يقولون: إنما نال أهل الجنة الرحمة بالصبر على طاعة الله تعالى، فلنصبر، فيصبرون خمس مئة سنة، فلا ينتفعون، فيقولون: فلنجزع، فيضجّون ويصيحون، ويبكون خمس مئة سنة أخرى، فلا ينتفعون، فيقولون هذا القول الذي في الآية: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

وظاهر الآية أنهم يقولون ذلك في موقف العرض، وقت البروز، بين يدي الله تبارك وتعالى.

ويتكرر هذا الحوار بعد دخول الكفار في النار، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٠/٤٧-٤٨].

وإيراد هذا الحوار سلفاً في الدنيا ليكون حافزاً على العظة والعبرة، وتحذيراً للناس من الوقوع فيه قبل أن يفوت الأوان، وييأس كل واحد من النجاة.

حوار آخر بين الشيطان وأتباعه

يجري حوار حاد يوم القيامة بين فئتين من أهل الضلال: بين الضعفاء الأتباع، وبين المتبوعين السادة، كما تقدم، وبين الشيطان وأتباعه من الإنس، نبَّه الله تعالى سلفاً في قرآنه على بنود هذا الحوار بنوعيه ليحذر العاقل، ويتجنّب الانزلاق من دعاة السوء، وهذا الحوار الثاني أضعف من الحوار الأول؛ لأنه يشتمل على تبرؤ الشيطان من وساوسه، أما الحوار الأول فيتذرع فيه السادة خطأ بأن الله لم يهدهم إلى سواء الصراط. ويستوي الفريقان بتبرؤ المتبوعين من الأتباع. وصف القرآن الكريم مضمون حوار الشيطان مع أتباعه:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ(١) إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(٢) وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ(٣) إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٢-٢٣].

هذا تصريح خطير بضعف كيد الشيطان ووساوسه، وبكذبه وخيانته في الدنيا، واعترافه بتحمُّل أتباعه مسؤولية ذنبهم وخطيئتهم، فإنهم هم الذين استجابوا لدعوة الشيطان من غير وجود سلطان له عليهم، فهو أي إبليس يقوم خطيب السوء، ولكنه

(١) تسلط . (٢) بمغيثكم من العذاب . (٣) بمغيثي من العذاب .

صادق بهذه الآية فيما يقول يوم القيامة. على عكس حوار البشر الضعفاء مع سادتهم، كان للسادة نوع من السلطة والنفوذ على أتباعهم، وكانوا أيضاً مخطئين في الفهم والإدراك.

والمراد بالشيطان هنا: إبليس الأقدم نفسه، قال لأتباعه بعد أن تم القضاء بين العباد، فأدخل الله المؤمنين الجنة، وأسكن الكافرين النار: إن الله وعدكم بالبعث والجزاء وعد الحق الثابت الأكيد على ألسنة رسله، وأما أنا فوعدتكم ألا بعث ولا جزاء، ولا جنّة ولا نار، فأخلفتكم موعدي، إذ لم أقل إلا باطلاً من القول وزوراً. ولم يكن لي عليكم فيما دعوتكم إليه سلطان، أي غلبة وقدرة وملك، أي ما أكرهتكم على شيء ولا خوّفتكم بقوة مني، بل عرضت عليكم شيئاً، فأتى رأيكم عليه. فلا تلوموني، أي لا ذنب لي، ولوموا أنفسكم في سوء نظركم وقلة تثبتكم، فإنكم إنما أتيتم وصرتم أتباعي عن بصيرة منكم وتكسب ومصلحة، فأنتم الذين أسرعتم إلى إجابتي باختياركم، فيكون الذنب ذنبكم، لكونكم لم تسمعوا إلى دعاءربكم الذي دعاكم دعوة الحق بالحجج والبينات، فخالفتم مقتضى العقل والحكمة والبرهان الداعي إلى الصواب.

ما أنا بمصرخكم ولا أنتم بمصرخي، أي ما أنا بمغيثكم ولا نافعكم ولا منقذكم من العذاب، وما أنتم بمغيثيّ ولا نافعيّ بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال.

ويتابع الشيطان إبليس خطابه لأتباعه بقوله: إني كفرت، أي إني أنكرت وجحدت اليوم إشراككم إياي من قبل في الدنيا مع الله تعالى في الطاعة التي ينبغي أن يفرد الله بها. إن الظالمين، أي الكافرين في إعراضهم عن الحق، واتباعهم الباطل، لهم عذاب مؤلم.

والمقصود كما تبين: تنبيه الناس إلى تبرؤ الشيطان من وساوسه في الدنيا، وحضهم على الاستعداد ليوم الحساب، وتذكر أهوال الموقف يوم القيامة. وهذا حال الأشقياء.

وتذكيراً بأحوال السعداء، أتبع الله تعالى ذلك ببيان ما يلقونه من فضل إلهي في موقف الحساب والجزاء بين يدي الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ..﴾ أي ويدخل الملائكةُ الذين صدّقوا بالله ورسوله، وأقروا بوحدانيته، واتبعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، يدخلونهم جنات (بساتين) فيها الأنهار الجارية في كل مكان، وهم ماكثون فيها إلى الأبد، لا يحوَّلون عنها ولا يزولون منها، بإذن ربهم، أي بتوفيقه وفضله وأمره. وتحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم، والإذن هنا عبارة عن القضاء والإمضاء. وتحية السلام من الملائكة تكريم للمؤمنين والمؤمنات، كما جاء في آيات أخرى، منها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٣].

والسلام: رمز الأمان والاطمئنان، والإشعار بالنعمة والاستقرار، وإفادةُ الرضا والقبول من الله، والإظلالُ بالرحمة والفضل الإلهي.

الكلمة الطَّيِّبة والكلمة الخبيثة

الكلمة أمانة، والمقصد الأسمى من التشريع الإلهي والوحي الرَّباني: هو تهذيب الإنسان وتربيته، بالقول والفعل، فقوله أو كلامه ينبغي أن يكون طيِّباً ليِّناً مجاهراً بالحق، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وفعله يلزم أن يكون صالحاً حسناً، يتفق مع أوامر الله تعالى، ويكون للكلمة الطيبة تأثير السِّحر في النفس، ومفعولها دائم شامل، يصدر عنها كل فضيلة وخير وإحسان، وأما الكلمة الخبيثة فلها مردود

عكسي وتأثير سلبي، تضرُّ ولا تفيد، وهي كالوباء، ولا خير فيها ولا بقاء. والله سبحانه يثبِّت أهل الحق، ويضلُّ أصحاب الظُّلم والجور، قال الله تعالى واصفاً ومقارناً بين الكلمة الطيِّبة كلمة الحق، والكلمة الخبيثة: كلمة الباطل ومبيِّناً مثل كلٍّ منهما:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا(١) كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ(٢) مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ(٣) ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٤-٢٧].

هذه مجموعة من المعارف المتعلقة بالكلام وضرب الأشباه والأمثال لكل نوع منه، سواء أكان كلاماً حسناً وحقّاً ثابتاً، أم كلاماً سيِّئاً وباطلاً زائلاً. وهو تشبيه المعنويات بالحسِّيات المشاهدات، لترسيخ المعاني في الأذهان، كما هو الشأن في بيان القرآن الوصفي البليغ المحكم. والمعنى:

ألم تعلم أيها المخاطب العاقل كيف ضرب الله لك مثل الكلمة الطيِّبة ومثل الكلمة الخبيثة، إن الكلمة الطيِّبة وهي كلمة الحق والتوحيد والإسلام ودعوة القرآن كالشجرة الطيبة وهي النخلة ذات الأوصاف الأربعة:

- فهي شجرة طيبة الرائحة والطعم والمذاق، جميلة المنظر والشكل. وطيبة المنفعة، يستلذُّ بها الآكل، وينتفع بها الإنسان نفعاً شاملاً.

- وأصلها ثابت، أي راسخ باقٍ متمكِّن في الأرض، لا ينقلع، يدوم صيفاً وشتاء.

(١) تعطي ثمرها المأكول. (٢) اقتلعت من أصلها. (٣) استقرار.

- وفرعها في السماء، أي شامخة مرتفعة في الجو الأعلى، بعيدة عن العفونات الأرضية، خالية عن الشوائب.

- تؤتي أُكُلها كل حينٍ بإذن ربِّها، أي تثمر في أدوار متعاقبة، كل وقت وقَّته الله لإثمارها، بإرادة ربِّها وإيجاده، وذلك في كل عام مرة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الكلمة الطَّيبة: هي (لا إله إلا الله) مثَّلها الله بالشجرة الطَّيِّبة، وهي النَّخلة في قول أكثر المتأوِّلين، فكأن هذه الكلمة أصلها ثابت في قلوب المؤمنين، وفضلها وما يصدر عنها من الأفعال الزكية، وما يتحصل منها من عفو الله ورحمته، هو فرعها يصعد في السماء من قِبَل العبد، ويتنزل منها من قِبَل الله تبارك وتعالى، وهي نافعة في كل وقت.

وهكذا يضرب الله الأمثال للناس، فإن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير، وعظة، وتصوير للمعاني، وما أرسخ تشبيه المعنويات والمعقولات بالحسيات المشاهدة.

وبعضهم جعل المؤمن هو مثل الشجرة الطَّيبة، فهو في جميع أيامه في عمل، وإذا كانت الشجرة لا تخلّ بالإتيان بالأُكل أو الثمر في الأوقات المعلومة، فكذلك هو المؤمن لا يُخلّ بما يُسِّر له من الأعمال الصالحة. وهذا مقبول فأصحاب الكلمة الطَّيبة هم المؤمنون.

ومثل الكلمة الخبيثة، أي صفتها وهي كلمة الكفر وما قاربها من الكلام السوقي في الظلم ونحوه، كشجرة خبيثة وهي شجرة الحنظل أو الثوم، وتتصف بأوصاف ثلاثة هي:

- أنها خبيثة الطعم، ضارّة الرائحة.

- وأنها اقتلعت واستؤصلت، وليس لها أصل ثابت ولا عرق دائم.

- وليس لها استقرار ولا دوام، وتقلبها الريح بعد اقتلاعها.

وأصحاب الكلمة الخبيثة هم الكافرون والعصاة، فالكافر لا يستقر بيده شيء، ولا يغني عنه كفره، كهذه الشجرة التي يظن من بُعْد أنها شيء نافع، وهي خبيثة الثمرة، غير باقية.

وأصحاب الكلمة الطَّيبة: هم الفائزون بمرادهم في الدنيا. والله تعالى يثبِّت أهل الإيمان بكلمة الإخلاص والنجاة من النار: (لا إله إلا الله) والإقرار بالنُّبوة، يثبِّتهم الله في الدنيا، أي مدة حياة الإنسان، ووقت السؤال في القبر بأن يخلق الله للإنسان في قبره إدراكات وتحصيلاً. وفي يوم القيامة يثبِّتهم عند العرض على الله. والتثبيت بحمايتهم من التَّعرض للفتنة في دينهم في دار الدنيا، وبالتصريح بصحة المعتقد دون تلعثم ولا تحيُّر من أهوال الحشر يوم القيامة. وكل هذا جائز في قدرة الله تعالى.

ويضلُّ الله الظالمين أي يمنع الله الكافرين عن الفوز بثوابه، أو يتركهم وضلالهم لعدم استعدادهم للإيمان، وتجاوبهم مع الأهواء والشهوات.

ولله المشيئة المطلقة في الفريقين، يفعل الله ما يشاء، من هداية بعض وإضلال بعض، عملاً بماله من حق الملك والسلطان.

والخلاصة: إن الآيات دعوة قوية صريحة للإيمان، وتحذير ورفض للكفر والضّلال.

أفعال الكفار والمؤمنين ومصير كلٍّ

إن رسالة القرآن رسالة تصحيح وتقويم، ونصح وإرشاد، وتحذير وترهيب، فترى آيات القرآن تحمل حملة عنيفة شديدة على الكفر وأهله، وما يصدر عنهم من أفعال ضارّة بأنفسهم وأمَّتهم، وما يستحقونه من عذاب وعقاب في النار، وفي الواجهة

الأخرى تمدح الإيمان والمؤمنين، وتزكّي أعمالهم الصالحة، وتدعوهم دائماً إلى فعل الخير الفردي والجماعي، وتَعِدهم بجنان الخلد والعاقبة الطيبة، وهذا أنموذج للحالتين، قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ(١) ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا(٢) وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا(٣) لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ(٤) ﴿٣١﴾﴾ (٤) [إبراهيم: ١٤/٢٨-٣١].

هذا في الآية الأولى تنبيه على مثال عملي من الظالمين، حيث بدّلوا شكر نعمة الله كفراً، كقوله سبحانه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٨٢].

ونعمة الله المشار إليها في هذه الآية: هو محمد عليه الصّلاة والسّلام ودينه. أنعم الله به على قريش، فكفروا النعمة، ولم يقبلوها، وتبدّلوا بها الكفر، والمراد بالذين كفروا: قريش جملة، بحسب ما اشتهر من حالهم.

الآيات دعوة إلى التعجب من أمر كفار مكة وأمثالهم، الذين صدرت منهم أفعال عجيبة غريبة:

أولها- أنهم بدّلوا شكر نعمة الله كفراً وجحوداً، وتسبّبوا في إنزال قومهم الذين شايعوهم وأطاعوهم في الضّلال والتّبديل دار البوار، أي الهلاك في الآخرة الذي لا مثيل له، وهو إصلاؤهم وإدخالهم في نار جهنم، وبئس المستقرّ قرارهم.

وثانيها- أنهم جعلوا لله أنداداً، أي اتّخذوا لله شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى عبادة الشركاء من الأصنام والأوثان.

---

(١) دار الهلاك. (٢) يدخلونها. (٣) أمثالاً يعبدونها. (٤) الخلال: المخالّة والصّداقة. من خالّك: إذا وادّ وصافى.

وثالثها- أنهم اتَّخذوا الشركاء ذات الصفة الوثنية، لتكون عاقبة أمرهم وصيرورته إضلالَ من شايعهم واتَّبعهم، وصَرْفَهم عن دين الله، وإبقاءَهم في مستنقع الكفر والضّلال.

والأنداد جمع نِدّ: وهو المِثْل والشَّبيه المناوئ، والمراد الأصنام. واستوجب هذا كله أن يهدِّدهم الله ويتوعَّدهم بقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي استمتعوا بما قدرتم عليه من نعيم الدنيا، فإن جزاءكم ومصيركم إلى النار، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/٢٤].

ونظير هذه الآية في التهديد: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصّلت: ٤١/٤٠] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزُّمر: ٣٩/٨].

وبعد هذا التهديد للكفار، أمر الله نبيَّه بأن يبلِّغ الناس ويأمرهم بإقام الصلاة التي هي صلة بين العبد وربِّه وأجلّ العبادات البدنية، ويأمرهم أيضاً في سبيل المجتمع بالإنفاق في سبيل الله الذي هو عبادة مالية، وذلك مما رزقهم الله، بأداء الزكوات، والنفقة على الأقارب، والإحسان إلى الأباعد، والتَّصدق على المحتاجين.

وإقامة الصلاة: أداؤها مستكملة الأركان والشروط، مع المحافظة على وقتها، والخشوع لله في جميع أجزائها.

ويكون الإنفاق مما رزق الله، في السّر (أي في الخفاء) وفي العلانية جهراً، قال البيضاوي: والأحب إعلان الواجب (أي في النفقة) وإخفاء المتطوع به.

وتكون المبادرة للصلاة والإنفاق وغيرهما من الطاعات، للخلاص بالأنفس والنَّجاة من الهلاك، من قبل أن يأتي يوم القيامة، الذي لا بيع فيه ولا تجارة ولا فدية، ولا تنفع فيه صداقة ومخالَّة، للصَّفح والعفو والإنقاذ من العذاب، بل إنه يومٌ

تكون فيه العدالة المطلقة والقسط، والقصاص من الظَّلَمة وإنصاف الحقوق وردّها إلى أصحابها، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٥] وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٣].

وكل ما فيه مسارعة إلى الطاعة والتَّقرب من الله ومرضاته: فيه الخير والسعادة للإنسان. وكل تباطؤ أو تقصير أو إهمال أو ترك لعبادة الله وطاعته: شرٌّ للإنسان ودمار وهلاك وتضييع للمصلحة بالخلود الأبدي في جنّات النَّعيم.

التَّذكير بآلاء الله والتَّنبيه على قدرته

يتعهَّد الله تعالى بفضله ورحمته عباده بين الفينة والأخرى، فيذكِّرهم بما أنعم عليهم من نِعَم كثيرة لا تعدُّ ولا تحصى، ليحملهم على الشكر والطاعة، وينبِّههم على قدرته التي فيها إحسان إلى البشر، لتقوم الحجة عليهم من وجهين. وهذا كله دليل قاطع على وجود الله ووحدانيته، وسلطانه وتصرُّفه في الكون والأنفس، مما يوجب على العباد الإيمان بربِّهم، والثِّقة بوعده، وشكر إحسانه ونِعَمه. قال الله تعالى معدِّداً آلاءه ومذكِّراً بقدرته:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ(١) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ(٢) إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٢-٣٤].

(١) دائمين. (٢) لا تطيقوا عدَّها.

أورد الله تعالى في هاتين الآيتين عشرة أدلة على وجوده وقدرته وهي:

- خلق السماوات: فالله هو خالق السماوات سقفاً محفوظاً مزيَّناً بالكواكب.

- وخلق الأرض فراشاً ممهَّداً للعيش، وأقام فيها المنافع الكثيرة.

- وأنزل المطر من السَّحاب، فأحيا به الأرض بعد موتها، وأنبت به الزرع والشجر، وأخرج الأثمار والأرزاق المختلفة ذات الألوان والطُّعوم والرّوائح والمنافع المتباينة. والتذكير هنا بالثمار النافعة، أما ما كان منها سُمّاً أو ضارّاً فيسقط، وهذا أيضاً نعمة أخرى.

- وسخَّر لكم الفلك، أي ذلَّل لكم السفن، بتعليم صنعها، وتسييرها على وجه الماء من بلد لآخر للركوب والحمل، بإذن الله ومشيئته.

- وسخَّر لكم الأنهار، أي فَجَّر لكم ينابيع الماء الجاري في الأنهار، ويسَّر توزيعها وتفرعها لسقي أكبر مساحة من الأرض والشجر والزرع.

- وسخَّر لكم الشمس والقمر دائبين، أي ذلَّلهما وجعلهما يسيران في حركة دائمة، لدوام الخدمة والعمل. فهما دائمان في الطلوع والغروب وما بينهما من توفير منافع للناس لا تحصى كثرة، يفيدان على الدوام لإصلاح حياة الإنسان والحيوان والنبات والزروع والأشجار والثمار.

- وسخَّر لكم الليل والنهار، أي جعلهما يتعاقبان ويتعارضان في وصال دائم، فمرة يطول الليل، كما في الشتاء، ومرة يطول النهار، كما في الصيف، ويقصر الآخر، وعلى العكس، وفي هذا التعاقب والتفاوت طولاً وقصراً في الليل والنهار تحقيق الفائدة والخير للإنسان، فالليل للنوم والسكن فيه، وللراحة وقطع الأعمال، والنهار للسَّعي والكسب والمعاش والتَّقلب في شؤون الدنيا.

- وآتاكم من كل ما سألتموه، أي أعطاكم يا جنس البشر سؤلكم وحقّق مطلبكم، من كل ما شأنه أن يسأله الإنسان وينتفع به، ولا يطرد هذا في واحد من الناس، وإنما تفرقت هذه النعم في البشر، فهم الأسرة الكبرى الذين ينتفعون بنعم الله، موزعة بحكمة إلهية، ونِسَب حسابية على وفق المصلحة التي يعلم بها الله لكل إنسان.

ومقتضى هذا أن النِّعَم كثيرة ومتنوعة ومتجدِّدة أيضاً، في الزمان والمكان. وهذا ما نشاهده في عصرنا الحاضر حيث امتلأت ساحات الحياة بألوان من النِّعَم في النفس والمنزل والشارع ومجالات العمل المختلفة.

لذا قال الله تعالى بعدئذ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي إن أردتم أيها البشر تعداد نِعَم الله المنعَم بها عليكم لا تستطيعون حصرها وتحديدها وإحصاءها لكثرتها، وعِظَمِها في الحواس والقوى، وإيجادِها من العدم، إلى هداية الإيمان، ومدد الأرزاق المتواصلة.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ : أي إن الإنسان مع الأسف لا يقدِّر النعمة ويظلمها بإغفال شكرها، والجحود بها، وعدم مقابلتها بالوفاء والعرفان. وهاتان الصفتان: الظلم والكفر موجودتان في الوسط الإنساني، قائمتان في كل إنسان، فإن كانت هذه الخلال من جاحد فهي بصفة، وإن كانت من عاص فهي بصفة أخرى، كما ذكر العلامة ابن عطية في تفسيره العظيم، فيكون الناس متفاوتين في اقتراف الظلم والكفر، فهناك من يلازم هاتين الصِّفتين، وهناك من يصدر منه نسبة معينة منهما، والسعيد من تخلَّص منهما بصفة نهائية تامّة.

دعاء إبراهيم عليه السّلام في البيت الحرام

يلجأ الإنسان عادة للدعاء إما لدفع ضرر أو لجلب نفع، وهذا دليل على حاجة الإنسان لربّه، وإقرار بعبوديته له، واعتراف بربوبية الله وتوحيده، وإشعار بعظمة الله وقدرته، وتوجُّه من الضعيف العاجز إلى صاحب السلطان المطلق والهيمنة التامة على المخلوقات. لكن قد يكون الدعاء تشريعاً كدعاء إبراهيم عليه السّلام وهو مستقبل البيت الحرام، الذي كان فيه دلالة على مكانة البلد الحرام مكة، وسوء عبادة الأصنام، وإبانة لحقيقة الاعتقاد، وشكر على نعم الله، وطلب المغفرة منه لنفسه ووالديه والمؤمنين. وهذا إظهار للإخلاص، ومحبة أهل الإيمان، وتعظيم أماكن الشعائر الدينية. قال الله تعالى مدوِّناً على الدوام شمول هذا الدعاء:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى[1] وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ[2] إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٥-٤١].

تكرَّرت كلمة ﴿رَبِّ﴾ في هذا الدعاء لإبراهيم الخليل عليه السّلام ثلاث مرات، للدلالة على الصِّلة الخاصة بالله والعجز والضعف أمام الله، وشدّة الحاجة إليه.

---

(١) أبعدني . (٢) تسرع إليهم شوقاً .

وتكرَّرت كلمة ﴿رَبَّنَا﴾ في هذه الآيات أربع مرات لتعظيم الله وتقديسه. وكان هذا الدعاء الشامل تشريعاً وتعليماً، وتذكيراً من الله تعالى للمؤمنين والمشركين في مكة وغيرها بمكانة مكة والبيت الحرام فيها، وبوجوب تطهيرها من الأصنام والأوثان، وقيام ذرِّية إبراهيم فيها بإقام الصلاة، والالتفات إلى تهيئة الأرزاق والثمرات فيها للانصراف للعبادة وشكر النعمة الإلهية، والله عليم بأحوال عباده كلها، السِّري منها والعلني، وكانت الخاتمة طلب إجابة الدعاء، والمغفرةِ الشاملة لأهل الإيمان. أول صيغة هذا الدعاء: طلب إبراهيم عليه السَّلام جعل مكة بلداً ذا أمان واطمئنان واستقرار لتصفو للعبادة، وكيلا يسفك فيه دم، ولا يظلم فيه أحد. وقد أجاب الله الدعاء، فكانت مكة بلداً آمناً على الدوام للإنسان والطير، والنبات والشجر.

والطلب الثاني في هذا الدعاء: جعل العبادة خالصة لله تعالى على منهج التوحيد، واجتناب عبادة الأصنام، والأصنام هي المنحوتة على خِلْقة البشر، وما كان منحوتاً على غير خِلْقة، فهي أوثان. وكانت هذه الأصنام سبباً للضلال، وعرضة للإضلال والغي، وسوء الأعمال وانحدار مستوى الكرامة الإنسانية. فمن صدَّق إبراهيم عليه السَّلام في دينه واعتقاده وسار على منهجه في الإيمان بالله والتوحيد الخالص لله، فإنه على سنّة إبراهيم وطريقته. ومن خالفه وعصاه فهو ليس على ملّة إبراهيم، وأمره إلى الله الغفور الرحيم، وهذه شفاعة في العصاة غير الكفار.

وفي الطلب الثالث: إعلامٌ من إبراهيم عليه السّلام أنه أسكن بعض ذرِّيته عند البيت الحرام، في واد غير ذي زرع، لإقامة الصلاة، وجعله محرَّماً ليتمكَّن أهله من العبادة، فاجعل يا ربّ بعض القلوب تحنُّ إليه، وتهفو وتميل إلى رؤيته، وأمِدَّهم برزق الثمار الموجودة في سائر الأقطار، حتى لا يلتفتوا إلى شيء منها، ويكون ذلك

عوناً لهم على طاعة الله والتَّفرغ لها، فيكون ذلك سبباً لشكر الله على جزيل نعمته وفيض فضله ورحمته.

وإبانةً لعنصر الإخلاص ضمّن إبراهيم عليه السلام دعاءه بإظهار أن ربَّه عليم بقصده في دعائه، وهو التوصل إلى رضاه والإخلاص له، وأن الله يعلم بجميع أحوال العباد ومصالحهم، ويعلم بالأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليه شيء منها في الأرض ولا في السماء، فلا حاجة لتحديد المطالب الجزئية، وإنما ندعو الله لإظهار العبودية لله، وبيان الافتقار لرحمته والحاجة لفضله.

والطلب الرابع في الدعاء: إظهار الحمد والشكر لله على إنعامه بولدَيْن لإبراهيم: إسماعيل وإسحاق، في وقت الكبر، علماً بأن الله سامع الدعاء من كل داع، مجيب مَن تضرَّع إليه.

والطلب الخامس في هذا الدعاء: التوفيق لإقامة الصلاة من إبراهيم عليه السّلام ومن ذرِّيته، ورجاء إجابة هذا الدعاء كله.

والطلب السادس في دعاء إبراهيم: طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات في يوم الجزاء والحساب على الأعمال كلها خيرها وشرها، وهذا دليل المحبة لجميع أهل الإيمان.

وكل هذه الأدعية تعليم لنا بأن ندعو بها، ونداوم على التوجُّه بها إلى الله ربِّنا.

التَّذكير بأهوال القيامة

لا شكَّ في عقيدة أهل العقل والإيمان بوجود عالم آخر بعد الدنيا، هو عالم القيامة، المشتمل على أحداث جسام وأهوال عظام، وتصفيةٍ للحساب الشامل

للعباد، فيكون التذكير بيوم القيامة وما فيه من مشاهد ضرورةً دينية تشريعية، ينبغي أن يشتمل القلب عليها، ويستعدَّ العبد للقاء ربِّه في هذا اليوم الرهيب. وهذا ما تفضَّل الله ببيانه في هذه الآيات الشريفة:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ(١) ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ(٢) مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ(٣) لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ(٤) ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٢-٤٦].

هذه الآيات بجملتها فيها وعيد للظالمين، وإيناس للمظلومين. وتتضمن قراراً حتمياً بأن الله مطَّلع على أعمال الظالمين الكافرين، غير غافل عنها، وإنما هو يمهلهم ويؤخِّرهم للحساب على أعمالهم في الوقت المناسب، وفي اليوم الحاسم الموصوف بالصفات الآتية:

- أنه يؤخِّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، أي شديد الأهوال، ومن شدَّتها تظل فيه الأبصار مفتوحة، لا تطرِف ولا تُغْمِض، من شدة الفزع والحيرة والدهشة.

- ويأتي الناس فيه من قبورهم مهطعين، أي مسرعين إلى المحشر بالذُّل والهوان، لشدة خجلهم من سوء الاعتقاد والأفعال والأقوال.

- ويكونون فيه أيضاً مقنعي رؤوسهم، أي رافعي رؤوسهم، ينظرون في ذلٍّ وخشوع، ولا يلتفتون إلى شيء، كأن رؤوسهم يابسة محنَّطة.

---

(١) ترتفع دون أن تطرِف. (٢) مسرعين إلى الدّاعي بذلّ. (٣) رافعيها ناظرين للأمام. (٤) خالية من الفهم.

- ولا يرتدُّ إليهم طرفهم، أي لا يرجع إليهم تحريك الأجفان، بل تظل أبصارهم شاخصة، مفتوحة، تديم النظر، لا يطرفون ولا يُغْمِضون، لشدة الهول والفزع. والمراد دوام الشخوص والنظر.

- وتكون أفئدتهم هواء، أي تصير قلوبهم خاوية خالية، لا شيء فيها من القوة، مضطربة، لكثرة الخوف. والمراد أن قلوب الكفار في يوم القيامة تكون خالية من الخواطر والآمال والسرور، لعظم الحيرة والدهشة، لما رأوه من عقاب، وما ينتظرهم من عذاب.

ثم جاء الإنذار الإلهي المقصود به تلافي الأسباب المؤدية للعذاب، ومضمونه: وخوِّف أيها النَّبي الناس جميعاً من أهوال عذاب القيامة، حين يأتي العذاب، ويقول الذين ظلموا أنفسهم حين معاينة العذاب هلعاً واضطراباً: ربَّنا ردَّنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى وقت قريب آخر، قريب العودة إليك، نتدارك فيه ما فرَّطنا في الدنيا، من إجابة دعوتك إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لك، واتِّباع رسلك فيما أرسلتهم به.

فردَّ الله تعالى عليهم موبِّخاً: أوَ لم تكونوا حلفتم من قبل هذه الحالة، حينما كنتم في الدنيا: أنكم إذا متم لا زوال لكم عما أنتم عليه، وأنه لا بعث ولا معاد ولا جزاء، فكنتم تنكرون القيامة والحساب، وتزعمون أنه لا انتقال لحياة أخرى.

والحال أنكم سكنتم أو أقمتم في مساكن الظالمين أنفسهم المفسدين في الأرض، ورضيتم بأفعالهم، وصاحبتم الظالمين الكافرين، وسرتم مسيرتهم، ورأيتم ما فعلنا بهم من الإهلاك والعقاب لتكذيبهم وجحودهم وصدودهم عن دعوة الحق، وعاينتم آثار عذابهم، وضربنا لكم الأمثال والعِبَر، وهو أن الله قادر على الإعادة، كما قدر على ابتداء الخلق، وهو قادر على العذاب المؤجل، كما قدر على العقاب المعجَّل، ولكنكم لم تتعظوا ولم تعتبروا.

والحال أيضاً أنه لم تتغير حالكم عن حال من سبقكم، فإنهم مكروا مكرهم جهد طاقتهم في إبطال الحق وتقرير الباطل ومعارضة الرُّسل، وعند الله العلم بمكرهم وتدبيرهم، وأن الله سيجازيهم على مكرهم، الجزاء العادل، والحساب الشديد، وإن كان مكرهم شديداً، أي كافياً لتذهب به عظائم الأمور، ويصلح لزحزحة الجبال عن أماكنها. ومعنى الآية: تعظيم مكرهم وشدته.

الجزاء العادل يوم القيامة

إن وجود يوم القيامة من أجل إقامة الحق المطلق والعدل الشامل، فإذا تشكك المشككون بوجود هذا اليوم، فإنهم مخطئون؛ لأنهم يعارضون الحقيقة، ويصادمون الحكم العقلي الصائب في أنه لا بد من يوم يتحقق فيه التناصف، فيعاقب الظالم وينتصف المظلوم، لذا أنذر الله تعالى الناس قاطبة بهذا اليوم الذي ينتظرهم، ليُجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وهو يوم تتغير فيه معالم السماوات والأرض. قال الله تعالى واصفاً هذا اليوم:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ(١) فِى ٱلْأَصْفَادِ(٢) ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم(٣) مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ(٤) وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ(٥) وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٧-٥٢].

هذه الآيات تثبيت للنَّبي ﷺ ولغيره من أمَّته، ولم يكن النَّبي ممن يحسِب مثل

(١) مقروناً بعضهم مع بعض. (٢) القيود. (٣) ثيابهم. (٤) تغطيها. (٥) تبليغ كافٍ في العظة.

هذا، ولكن خرجت العبارة هكذا؛ لأن النَّبي قائد الأمة، فيبدأ بخطابه. والمراد بها الزجر واستئصال الشَّك في مجيء القيامة. والمعنى: لا تظنَّن أيها الرسول أن الله مخلف رسله وعده، بل هو منجز لهم ما وعدهم به. ويراد بهذا الخبر زرع الثقة بوعد الله بنصر المؤمنين وتعذيب الظالمين، كما جاء في آية أخرى ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢١]. وبعبارة أخرى:

لا تحسب يا محمد -أنت ومن اعتبر بالأمر من أمّتك- وغيرها أن الله لا ينجز وعده في نصرِ رسله، وإظهارِهم على أعدائهم، ومعاقبةِ من كفر بهم في الدنيا والآخرة، فإن الله عزيز قوي لا يمتنع منه شيء، ذو انتقام من الكفرة، ولا سبيل إلى عفوه عنهم.

ثم أخبر الله تعالى عن وقت انتقامه من أعدائه، وهو اليوم الذي تبدَّل فيه الأرض غير الأرض، فتصبح على غير الصفة المألوفة، وتبدل أيضاً السماوات غير السماوات. أما الأرض الحالية فتصبح كالدخان المنتشر، وأما السماوات فتتبدَّد وتزول كواكبها وشمسها وقمرها، وتسقط وتتلاشى. وفي ذلك اليوم يبرز الناس في فضاء واحد، وتخرج الخلائق جميعها من القبور، انتظاراً لحكم الله الواحد، الذي قهر كل شيء وغلبه، كما في آية أخرى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ٤٠/ ١٦] وفي هذا تهويل وتخويف.

ولما وصف الله تعالى ذاته بكونه قهاراً، وصف عجز الناس أمامه، وذكر من صفاتهم:

- كون المجرمين مقرنين في الأصفاد، أي جعل الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم مقيَّدين بعضهم إلى بعض في الأغلال أو القيود، يجمع الله بين النظراء المتماثلين في الجرم، كل صنف مع نظيره.

- وسرابيلهم من قطران، أي قُمُصهم وثيابهم وجلود أهل النار تطلى بالقطران، حتى تصبح الجلود كالسرابيل.

- وتغشى وجوههم النار، أي تحيط النار بأجسادهم. وإنما ذكرت الوجوه؛ لأنها أشرف الأعضاء وأعزّها.

وأُنفذ على المجرمين هذا العقاب، ليكون في ذلك جزاء المسيء على إساءته، ويجازى المحسن أيضاً بإحسانه خيراً. وفي هذا عدل تام، حيث يجازى كل شخص بما يليق بعمله وكسبه من خير أو شرّ، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النّجم: ٥٣/ ٣١].

والله سريع الحساب، يحاسب جميع العباد بسرعة فائقة، وذلك في قدر نصف نهار من أيام الدنيا، كما جاء في الحديث؛ لأن الله تعالى محيط علمه بدقيق أمور الخلائق وجليلها، لا إله غيره. قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسبُ الله العباد في وقت واحد مع كثرتهم؟ قال: كما يرزقهم في وقت واحد.

هذا القرآن والوعيد الذي تضمنه: تبليغ للناس وكفاية في الموعظة، ومعنى الآية: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾: هذا ذو بلاغ للناس، وهو ليكون منذراً للناس بالعقاب، ومحذِّراً من العذاب، وليستدلّوا بما في القرآن من حجج ودلالاتٍ على أنه لا إله إلا هو، وليتذكر ويتّعظ به ذوو العقول، فيكون لهذا البلاغ ثلاث فوائد: وهي التخويف من عذاب الله، والاستدلال به على وجود الخالق ووحدانيته، والاتعاظ به وإصلاح شؤون الإنسان. سئل بعضهم: هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم، قيل: وأين هو؟ قال: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٥٢].

تفسير سورة الحجر

لا عقاب قبل البيان الإلهي

ليس في ميزان الشَّرع والعقل عقاب أحد قبل بيان التَّكليف، والإنذار قبل العذاب؛ لأن المكلف بشيء يحتاج لفترة يتمكن بها من تنفيذ الخطاب التكليفي، وفي تلك الفترة يظهر كونه طائعاً أو عاصياً. وهذا منهاج القرآن في كل أمّة، لم يهلكها بسبب فواحشها قبل إنزال كتاب إلهي، يطالبها بأن تفعل الخير، وتتجنب الشَّر، وتعمل المعروف، وتحذر المنكر. وهذا ما نجده واضحاً في مطلع سورة الحجْر في قوله تعالى:

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا[1] يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ[2] يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ[3] مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ١-٥].

ابتدأت سورة الحجر كغيرها من بعض السور بالحروف المقطعة ﴿الٓرۚ﴾ بقصد التَّنبيه وتحدِّي العرب أهل البلاغة والفصاحة بأن يأتوا بمثل القرآن أو بعضه، علماً بأنه مكوَّن من هذه الحروف الهجائية التي تتركَّب منها لغتهم.

---

(١) ربّ للتقليل و (ما) زائدة. (٢) اتركهم. (٣) أجل مقدَّر.

لذا اقترنت هذه الحروف غالباً بالكلام عن القرآن: لتلازم الأمرين معاً، فأخبر سبحانه أن آيات القرآن الكريم في هذه السورة وغيرها، هي آيات الكتاب الكامل في كل شيء، وآيات البيان الفصيح المعجز، مما يدلُّ على أن القرآن المبين هو الكتاب الجامع للكمال، والغرابة في البيان، كما قال الزمخشري رحمه الله.

ولكنَّ الكفار والمشركين سيندمون حتماً يوم القيامة على ترك الإيمان بالقرآن، وعلى ما كانوا عليه في الدنيا من كفر وضلال، ويتمنّون لو كانوا في الدنيا مسلمين مؤمنين، كما في آية أخرى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/٢٧].

فعند دخول الكفار النار، ومعرفتهم بدخول المؤمنين الجنّة، يودّون لو كانوا مسلمين، فينجون النجاء الذي مانعه أن لم يكونوا مسلمين. فإن النجاة في الآخرة بالإيمان والإسلام وحده دون غيره.

وإذا كان هذا حال الكفار، فهم بأشد الحاجة إلى التذكير والتنبيه، فكان مناسباً إيراد الوعيد والتهديد، فقال الله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ أي اترك يا محمد الكفار في ملاهيهم وتمتُّعهم باللذات في دنياهم، يأكلون كما تأكل الأنعام، وتلهيهم الآمال عن التوبة والإنابة، أو عن الآخرة، وأجل الموت، فسوف يعلمون عاقبة أعمالهم وأمرهم، ثم ختمت الآية بوعيد ثان، وهو قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قال بعض العلماء كما ذكر الطبري: الوعيد الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة، فكيف تطيب حياة بين هذين الوعيدين؟!

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي يشغلهم أملهم في الدنيا، والتزيد فيها عن النظر والإيمان بالله ورسوله.

ثم جاء البيان الإلهي العظيم، والإعلام بأنه لا عقاب قبل بيان، ولا عذاب قبل

إنذار وكتاب إلهي، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤﴾ أي لا تستبطئن هلاكهم، فليس من قرية أهلكت إلا بعد قيام الحجة عليهم، وإبلاغهم طريق الرُّشد والحق، ولم يكن الهلاك إلا بأجل مقرر محدود، وكتاب واضح الشرائع والأحكام، وإنذار سابق بالعذاب، حتى تترك الفرصة لهم بالعدول عن عصيانهم، ومبادرتهم إلى سلوك جادة الاستقامة.

والمقصود بالآيات: أنه لو شاء الله، لعجَّل العذاب للكفار المستكبرين، ولكن اقتضت حكمته إمهالهم لعلهم يتوبوا، فإن لكل أمّة أجلاً معيَّناً، لا تأخير فيه ولا تقديم، والله تعالى يمهل ولا يهمل.

وهذا تنبيه وتحذير شديد لأهل مكة وأمثالهم، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشِّرك والعناد والإلحاد الذي يستحقّون به الهلاك، كما قال ابن كثير.

وأما الناس اليوم وربما في المستقبل، على الرغم من تقدم العقل البشري ونضجه، واكتشاف آفاق العلوم والمعارف الكونية، فإنهم فيما يتعلَّق بالدين ما يزالون متأثِّرين بالتقاليد الموروثة، وبالبيئات المعايشة، وبما يوجِّههم إليه رجال الدين وسدنة الإرث القديم. ولكن التَّمسك بالتقليد وإهمال دور العقل مرفوض في ميزان الحق والمسؤولية والحساب الإلهي في الدنيا والآخرة.

الرَّد على مطاعن المشركين بالنَّبي ﷺ

على الرغم من أن انتقادات المشركين وهم كفار قريش حول القرآن والرسول واهيةٌ ساقطة وسخيفة، فإنها كانت خطيرة تستوجب الإبطال والرَّدع والتّوبيخ، لأنها لا تستند إلى منطق صحيح، ولا لحجة مقبولة، فضلاً عن أنها تصادم الآداب والأعراف والواقع المشاهد، فهم يتّهمون النَّبي ﷺ بالجنون والسفاهة، ويطالبون

بإنزال الملائكة، ويستهزئون بكل رسول جاءهم، فكانوا في هذا كله أغبياء حيارى عُميَ البصر والبصيرة. وهذا ما حكاه القرآن العظيم في قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا(١) تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ(٢) وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ(٣) ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ(٤) وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ(٥) ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ(٦) فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ(٧) ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ(٨) ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا(٩) بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ(١٠) ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٥/٦-١٥].

القائلون هذه المقالة من كفار قريش: هم عبد الله بن أبي أمية، والنضر بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة من صناديد قريش. إنهم قالوا استهزاءً وتهكُّماً: يا أيها الذي تدَّعي نزول القرآن عليك، إنك متَّصف بالجنون، حينما تدعونا إلى اتِّباعك، وترك ما وجدنا عليه آباءنا، فلا نقبل دعوتك.

لوما بمعنى لولا، أي لو كنت ما تدَّعيه حقّاً وصدقاً، فهلا تأتينا بالملائكة يشهدون لك بالصدق وبصحة ما جئت به، وتأييد إنذارك، إن كنت صادقاً في ادِّعاء النُّبوة.

فأجابهم الله تعالى بأننا لا ننزل الملائكة إلا بحق وحكمة ومصلحة نعلمها، أي كما يجب ويحقُّ من الوحي والمنافع التي نراها للعباد، من رسالة أو عذاب، لا

---

(١) هلا تأتينا. (٢) على وجه الحكمة. (٣) مؤخَّرين. (٤) القرآن. (٥) أي فِرَق وجماعات السابقين. (٦) ندخله مستهزأً به. (٧) مضت عادة الله بإهلاك المكذبين. (٨) يصعدون. (٩) سدت ومنعت عن الرؤية. (١٠) أصابنا محمد بسحره.

بحسب اقتراح الكافر، ولا باختيار معترض. وعادة الله في الأمم أنه لم يأتهم بآية اقتراح إلا ومعها العذاب في أثرها إن لم يؤمنوا، وكأن الكلام: ما ننزل الملائكة إلا بحقّ واجب، لا باقتراحكم، ثم لو نزلت الآية لم يُنظَروا أو لم يمهلوا بعد ذلك بالعذاب، أي لم يؤخَّروا. وهذا ردٌّ على مقالة المشركين الأولى المطالبة بإنزال الملائكة. ثم ردَّ الله تعالى على مقالتهم الثانية التي تتضمن اتِّهام النَّبي بالجنون، بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

أي إن الله تعالى هو الذي أنزل القرآن على الرسول النَّبي محمد ﷺ، ونحن نحفظه ونصونه من التَّبديل والتغيير الذي جرى في سائر الكتب المنزلة، وهو تبديل اللفظ، لا مجرد التأويل. وهذه الآية بمعنى قوله تعالى عن القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصّلت: ٤١/٤٢].

ثم آنس الله تعالى نبيَّه وسرّى عنه وعرض له أسوة، وهي لا يضق صدرك يا محمد بما يفعله قومك من الاستهزاء واتِّهام الجنون وغير ذلك، فقد تقدم منا إرسال الرسل للأمم الماضية في شيعها وطوائفها وفِرقها، وكانت سيرتهم الاستهزاء بالرسل والتكذيب والكفر برسائلهم الإلهية.

وهذا الاستهزاء أو الشّرك ونحوه من التكذيب أجراه الله في قلوب المجرمين الذين عاندوا، وتكبَّروا عن اتِّباع الهدى، ومثل ذلك التكذيب والكفر الذي أدخلناه في قلوب المجرمين السابقين، ندخله في قلوب المجرمين الجُدُد، وهم لا يؤمنون بالرُّسل، وأصبح ذلك سنّة وعادة متَّبعة في الماضين على هذه الوتيرة، التي استوجبت تدمير كل من كذب الرُّسل، وإنجاء الأنبياء وأتباعِهم في الدنيا والآخرة، وسنفعل بالمجرمين اللاحقين كما فعلنا بالسابقين.

ثم أخبر الله تعالى عن شدة عناد قريش وكفرة العصر بأنه لو فتحنا على هؤلاء

المعاندين باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، أو تصعد فيه الملائكة، لما صدَّقوا بذلك، بل قالوا: إنما مُنعت وسُدَّت أبصارنا من الرؤية والإبصار، وقد شُبِّه علينا، واختلطت الأمور في أذهاننا، وأصبحنا لا نرى إلا أخيلة، كالقوم المسحورين، سحرنا محمد بآياته، كما في آية أخرى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: ٦/٧].

وخلاصة المعنى: بلغ من عناد المشركين في مكة وأمثالهم أنهم لو صعدوا في السماء حقيقة، ورأوا الآيات عياناً، لقالوا: هذه أوهام وأخيلة، وقد سحرنا محمد، وهذا منتهى العناد والإعراض. وتشير الآية إلى وجود الظلام في الفضاء الخارجي.

بعض مظاهر قدرة الله تعالى

يتكرر التَّذكير ببعض مظاهر قدرة الله تعالى في آيات القرآن، لا سيما في حال وصف عناد الكفرة والمشركين وتهديدهم بالعذاب، وإنذارهم بالعقاب، فإن الله قادر على كل شيء، وهذا يدعو العقلاء إلى التزام جادة الاستقامة، والزحزحة عن مواقف الكفر وتكذيب الرُّسل، ففي الكون أرضه وسمائه عِبَرٌ منصوبة تدعو للإيمان. وكُفْر الكافرين وإعراضهم عنها، أي عن العبر والآيات إصرار منهم وعُتُوّ، قال الله تعالى مبيِّناً بعض آيات قدرته:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا(١) وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ(٢) ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ(٣) فَأَتْبَعَهُۥ(٤) شِهَابٌ مُّبِينٌ(٥) ۝١٨ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا(٦)

(١) منازل للكواكب السَّيارة. (٢) مطرود من الرحمة. (٣) سرق المسموع من السماء. (٤) أدركه ولحقه. (٥) شعلة نار ظاهرة للعيان. (٦) بسطناها للانتفاع بها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ[١] وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ[٢] ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ[٣] وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ[٤] وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ[٥] فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر: ١٥/١٦-٢٥].

هذه آيات تذكِّر الكافرين بكمال قدرة الله تعالى، وأدلةِ وحدانيته في السماوات والأرض، وهي مبدوءة بالقسم الإلهي، أي والله لقد أوجدنا في السماء نجوماً عظاماً من الكواكب الثوابت والسيارات، ذاتِ بروج: أي منازل، والمراد هنا منازل الشمس والقمر والنجوم السَّيارة، وزيَّنا السماء للناظرين المتأمِّلين فيها. ومنعنا الاقتراب من السماء، كل شيطان رجيم، أي مرجوم بالشُّهب، كما دلَّت الأحاديث الصِّحاح. لكن من استرق السمع وحاول معرفة الأسرار الإلهية، فإنه يدمَّر بشهاب واضح، أي بجزء منفصل من الكوكب، وهو نار مشتعلة، فتحرقه. ودلَّت الأحاديث على أن الرجم كان في الجاهلية، ولكنه اشتدَّ في وقت الإسلام، وحفظت السماء حفظاً تامّاً.

وجعل الله تعالى الأرض في مرأى العين ومن أجل التمكن من الانتفاع ممدودة الطول والعرض، ممهدة للانتفاع بها، وثبَّت الله الأرض بإلقاء الجبال الرواسي في جوانبها المختلفة، كيلا تضطرب بالإنسان، وأنبت الله في الأرض الزروع والثمار المناسبة، المقدرة بميزان معلوم، فقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي أوجدنا فيها كل شيء مقدَّر بقدر معلوم، موزون بميزان الحكمة، مقدَّر محدَّد بقصد وإرادة.

(١) جبالاً ثوابت . (٢) مقدر بحكمة . (٣) أرزاقاً للعيش . (٤) مصادر إمداده . (٥) حوامل للسحاب وملقحات للأشجار .

وجعل الله في الأرض معايش، أي أعدَّ للناس أسباب المعيشة والحياة الملائمة، من غذاء ودواء، ولباس وماء ونحو ذلك، وجعل فيها أيضاً الخدم والدَّواب والأنعام التي لستم أيها العباد برازقين لها، وإنما يرزقها الله وإياكم.

ثم أخبر الله تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء يسير سهل عليه، وعنده خزائن الأشياء من جميع الأصناف، من نبات ومعادن، ومخلوقاتٍ لا حصر لها، فكل ما ينتفع به الناس في الكون، الله قادر على تكوينه وإيجاده، ولا يعطيه ولا يمنحه إلا بمقدار معلوم.

وأرسل الله الرياح الخيِّرة تحمل السُّحب المشبعة بالرطوبة لإنزال الأمطار، وجعل الرياح واسطة لتلقيح الأشجار، بنقل طلع الذكور ولقاحها للإناث، ليتكون الثمر، كما يسوق الله الغيوم بالرياح لإنزال الأمطار التي تسقى بها الزروع والثمار والمواشي، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٠]. ومن أعظم النِّعم أن الله تعالى خازن الأمطار في السُّحب وجوف الأرض، وليس البشر بخازنين ولا حافظين له، وينزله الله ويحفظه في الأرض، ويجعله ينابيع، ولو شاء الله تعالى لغوَّره وذهب به في أعماق الأرض، ولكن من رحمته أبقاه للناس طوال السنة.

ومن عظيم قدرة الله: إحياء الخلق من العدم ثم إماتتهم ثم بعثهم أحياء، وينفرد الله حينئذ بإرث الأرض ومَن عليها، والله يعلم كل من تقدَّم وهلك من لدن آدم عليه السّلام، ومن هو حيّ، ومن يتأخر وجوده إلى يوم القيامة. ثم إن الله يحشر الناس ويجمعهم إليه جميعاً يوم القيامة، ليحاسبهم، إنه سبحانه حكيم يضع الأشياء في محالّها ويتقنها، واسع العلم، أحاط علمه بكل شيء. وكل ذلك دليل على قدرة الله تعالى وتوحيده وإيجاب عبادته.

بدء خلق آدم عليه السَّلام وتكريمه

أقام الله تعالى أدلّة حسّية مشاهدة على قدرته وتوحيده وعبادته، منها خلق السماوات والأرض، كما تقدَّم، ومنها خلق الإنسان من طين، حين بدأ خلقه بآدم عليه السّلام، ومنها خلق الجنّ من النّار. وتكريماً للجنس الإنساني أمر الله تعالى الملائكة جميعاً وإبليس بالسجود لآدم سجود تحية وتعظيم، لا سجود عبادة وتأليه، وهذا دليل التكريم والتقدير، قال الله تعالى مبيِّناً تلك القصة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ(١) مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ(٢) ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ(٣) ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ(٤) أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٦-٣٣].

هذا دليل آخر على قدرة الله تعالى، فكما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما، بدأ خلق الإنسان، أي جنسه من طين، والمراد: آدم عليه السّلام، والأهم الأعظم هو نفخ الروح وإبداع الخلق، وأما المادة التي دبَّت فيها الحياة بالروح فهي التراب الذي عبَّر الله عنه مرة بالطين ومرة بالصلصال كالفخار، ومرة بالطين اللازب، للدلالة على مراحل الخلق، فقد بدأ الله خلق آدم أولاً من تراب، ثم من طين، ثم من صلصال، أي من طين جاف يابس، ومن حمأ مسنون، أي من طين أسود متغير منتن.

ودليل آخر على القدرة الإلهية: أن الله تعالى خلق الجنّ أي جنس الشياطين من نار شديدة الحرارة، هي نار السَّموم، قبل خلق آدم. قال ابن مسعود: هذه السموم

(١) أي من طين يابس. (٢) أي من طين أسود متغير. (٣) هي النار الشديدة الحرارة. (٤) امتنع تكبُّراً.

جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجانّ. وقالت عائشة فيما روى مسلم وأحمد: «خُلِقت الملائكة من نور، وخُلقت الجانّ من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وُصِف لكم». وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرّحمن: ٥٥/ ١٤-١٥].

وهذا إشارة إلى برودة طبع الإنسان، وحرارة طبيعة الجنّ. والمراد بهذه الخلقة: إبليس أبو الجنّ. سئل وهب بن منبِّه عن الجنّ، فقال: هم أجناس، فأما خالص الجنّ فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون، ومنهم أجناس تفعل هذا كله، منها السعالي والغول وأشباه ذلك.

ثم أراد الله تعالى تشريف آدم أبي البشر عليه السّلام وإكرامه، فأمر الملائكة بالسُّجود له: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ومعنى الآيات: اذكر أيها الرسول لقومك حين أمرت الملائكة الموجودين قبل خلق آدم بالسجود له، بعد اكتمال خلقه وإتقانه وتسوية أجزائه على ما يجب، من طريق إحيائه بنفخ الروح من الروح التي هي لي، فقوله: ﴿مِن رُّوحِى﴾ إضافة خلق وملك إلى خالق مالك، أي بدأت خلقه من روحي، ولفظ الروح هنا للجنس، ولفظة ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ تقوّي أن سجود الملائكة إنما كان كالمعهود من السجود عندنا، لا أنه خضوع وتسليم وعبادة.

وامتثل الملائكة أمر الله، فسجدوا كلهم جميعاً، أي مجتمعين دفعة واحدة، لم يبق منهم أحد، وجميعهم سجد في موضع واحد، إلا إبليس فإنه تخلّف عن السجود لآدم، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل؛ لأنه في زعمه خلق من نار تتصف بالسُّمو والارتفاع، وآدم خلق من تراب موصوف بالركود والخمود والانخفاض. وأدى به الغرور إلى عصيان الأمر الإلهي بأنه خير من آدم، فإنه خلق من

النار، وآدم من الطين، والنار أشرف من الطين، والأعلى لا يعظم الأدنى، وذلك قياس فاسد؛ لأن خيرية المادة لا تعني خيرية العنصر، بدليل أن الملائكة من نور، والنور خير من النار. وغرور إبليس مشتمل أيضاً عدا الكبر على جهل بأن آدم امتاز باستعداد علمي وعملي لتلقي التكاليف، وتقدم الكون وعمارة الأرض.

لذا عاقبه الله بالطرد والإخراج من الجنة، كما سيأتي بيانه، وسجَّل إبليس على نفسه المعصية الدائمة، وكأنه قال: «وهذا جور» وأحسَّ بالنزعة الطبقية، وبأن هناك تفاوتاً في درجات المخلوقين، منهم الفاضل، ومنهم المفضول، ولكن الله تعالى سوّى بين جميع المخلوقات في الفضائل، فكلهم أمام الله سواء، والرَّب سبحانه وتعالى وحده هو المتميِّز الأعلى من الجميع.

قصة طرد إبليس من الجنّة

كان الجزاء العادل من الله تعالى على عصيان إبليس أوامر ربِّه، وإصرارِه على ذلك: هو الطَّرد من الجنّة دار النعيم؛ لأنه لا يعقل أن يحظى أحد بالخلود في دار النعيم، مع تمرُّده وعصيانه ومخالفته أمر المنعم عليه. وأدمن إبليس على المعصية ومعارضةِ الله، فأصرَّ على إغواء البشر وإضلالهم بسبب غَوايته وضلاله، فصار ممثلاً عنصر الشَّر المحض، وعدو الإنسان إلى يوم القيامة. وهذا ما سجَّلته الآيات التالية:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ[1] ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ[2] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ[3] إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ

(١) مطرود من رحمة الله. (٢) الإبعاد مع السّخط. (٣) أي أمهلني.

رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ(١) أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ(٢) ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ(٣) إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ(٤) ﴿٤٤﴾ ﴾[الحجر: ١٥/ ٣٤-٤٤].

استحقَّ إبليس بعصيان أمر الله الطرد والإبعاد من الجنة، وهي وإن لم تذكر في هذه الآية، فالقصة تتضمنها، أمره الله بالخروج منها، وجعله مرجوماً، أي مطروداً مبعداً، لا يستحق الإكرام والمنزلة العالية. وصبَّ الله تعالى عليه اللعنة، أي الطَّرد من رحمته إلى يوم القيامة، فهو آخر من يموت من الخلق.

فلما تلقى إبليس هذا الجزاء، طلب الإمهال إلى يوم البعث من القبور، وحشرِ الخلق ليوم الحساب، إمعاناً في الكيد لآدم، وحسداً له ولذرِّيته. فأجاب الله طلبه، وأخَّره إلى يوم الوقت المعلوم، وهو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق. وقوله المتكرِّر: ﴿رَبِّ﴾ إقرار بالرُّبوبية والخلق.

فلما تحقق إبليس الانتظار ليوم البعث قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي أقسم بالإغواء الذي قدرته علي وقضيت به، لأُزينن لذرِّية آدم الشّهوات والمعاصي والأهواء في الأرض، وأُحبِّب لهم المعاصي، وأُرغِّبهم فيها أجمعين دون أن أترك أحداً، إلا المخلصين من عبادك، الذين أخلصوا لك في الطاعة والعبادة والتقوى والإيمان بك وبرسولك.

ردَّ الله تعالى على إبليس مهدِّداً ومتوعِّداً بقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الطريق في العبودية أو الإخلاص إلي مستقيم، يؤدي إلى كرامتي وثوابي، والعرب

(١) لأوقعنهم في الغَواية والضّلال. (٢) الذين أخلصتهم لطاعتك. (٣) تسلُّط وقدرة. (٤) فريق معين.

تقول: «طريقك في هذا الأمر على فلان» أي إليه يصير النظر في أمرك، وهذا خبر يتضمن وعيداً.

ثم ابتدأ الله الإخبار عن سلامة عبادة المتَّقين من إبليس، وخاطبه الله تعالى بأنه لا حجة له عليهم، ولا سلطان ولا قدرة، فإن عبادي المؤمنين المخلصين أو غير المخلصين، الذين قدَّرت لهم الهداية، لا سلطان لك على أحد منهم، ولا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، لكن الذين اتَّبعوك يا إبليس من الضَّالِّين المشركين باختيارهم، فلك عليهم سلطان، بسبب كونهم منقادين لك في الأمر والنَّهي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النَّحل: ١٦/ ١٠٠].

وإن جهنم موعد جميع من اتَّبع إبليس، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١١/ ١٧]. ثم أخبر الله سبحانه أن لجهنّم سبعة أبواب، قد خُصص لكل باب منها جزء مقسوم وعدد معلوم من أتباع إبليس، يدخلونه، لا محيد لهم عنه، وكل واحد يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر عمله. وفي تفسير الأبواب السبعة قولان: قول: إنها سبع طبقات، بعضها فوق بعض، وتسمى تلك الطبقات بالدَّركات، والأبواب السبعة كلها في جهنم على خط استواء، وقول آخر: إنها سبعة أقسام، ولكل قسم باب، أعلاها جهنم، ثم لظى، ثم الحُطَمة، ثم السَّعير، ثم سقر، ثم الجحيم، وفيه أبو جهل، ثم الهاوية، وتكون الأبواب على هذا القول بعضها فوق بعض، أي إن النار إما ذات أجنحة وأقسام، والأبواب متوالية صعوداً ونزولاً، أو إن النار قسم واحد ذو دركات، وأبوابها السبعة مداخل لها، عافانا الله من النار، وتغمَّدنا برحمته بمنِّه وكرمه.

جزاء المتَّقين يوم القيامة

سار المنهج القرآني في تربية الأفراد والشعوب على أساس الجمع بين الترغيب والترهيب، ومن أمثلة هذا المنهج: أن الله تعالى يذكر عادة ماأعد لأهل الجنة، وما أعد لأهل النار، ليظهر التّباين، ويقارن الإنسان العاقل بين العاقبتين، فيقبل على العمل الصالح المؤدي للجنة، ويجتنب العمل السيّئ المؤدي للنار، والخير في الحالتين للإنسان. فهل بعد هذا عذر لمقصّر أو عاص أو مسيء؟! قال الله تعالى مبيِّناً جزاء المتقين بعد بيان جزاء الفاسقين والعصاة من أتباع الشيطان:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ(١) إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ(٢) وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

[الحجر: ١٥/ ٤٥-٥٠].

نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ فيما أخرجه الثعلبي عن سلمان الفارسي: أنه لما سمع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فرَّ ثلاثة أيام هارباً من الخوف، لا يعقل، فجيء به للنّبي ﷺ، فسأله فقال: يا رسول الله، أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فوالذي بعثك بالحق، لقد قطَّعت قلبي، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾.

وأما آية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ فنزلت في أبي بكر وعمر، اللذين كانا بين قبيلتيهما بني هاشم وبني عدي عداوةٌ وغلٌّ الجاهلية. وهذا في شأن الدنيا.

هذه الآيات تصوِّر لنا مصير المتَّقين، وهم الذين اتَّقوا عذاب الله ومعاصيه،

(١) حقد وعداوة. (٢) أي عناء وتعب.

وأطاعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، فلم يتأثروا بوساوس إبليس، جزاؤهم أنهم في جنّات، أي بساتين ذات ثمار دائمة، وظلال وارفة، وتتفجر من حولهم عيون هي أنهار أربعة: من ماء، ولبن، وخمر غير مسكرة، وعسل مصفى، دون تنافس عليها. ويقال لهم من الملائكة: ادخلوا هذه الجنات سالمين من الآفات، آمنين من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء.

ويتفضَّل الله على عباده المتَّقين، فينزع كل ما كان في صدورهم في الدنيا من حقد وعداوة، وضغينة وحسد، حالة كونهم إخواناً متحابِّين متصافين جالسين على سرر متقابلين، لا ينظر أحدهم إلا لوجه أخيه، ولا ينظر إلى ظهره، فهم في رفعة وكرامة وطمأنينة ومحبة. ونزع الغل والحقد في الآخرة: إنما يكون بعد استقرارهم في الجنة، كما جاء في بعض الأحاديث.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾».

ومن أفضال الله ورحمته أيضاً أنه لا يصيب المؤمنين في الجنات تعب ولا مشقة، ولا أذى؛ لأنه لا حاجة لهم إلى السَّعي والتَّعب في جلب المعايش، لتيسير كل ما يشتهون أمامهم دون جهد.

وهم كذلك ماكثون في الجنات، خالدون فيها أبداً، لا يُخرجون منها، ولا يُحوَّلون عنها. جاء في الحديث الثابت: «يقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحّوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تطغوا أبداً».

وتتلخص هذه النِّعم والمنافع بثلاثة أشياء: الاطمئنان والتكريم، والصفاء من الشوائب المؤذية ماديّاً ومعنوياً، والدوام والخلود بلا زوال. ولا بدّ أن يعلم الناس

أن الله سيجازي بالمغفرة والرحمة، كما يجازي بالعذاب، فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾.

أخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال: مرَّ رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه يضحكون، فقال: «أتضحكون، وذِكْر الجنّة والنار بين أيديكم، فنزلت هذه الآية: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾.

أي أخبر يا محمد عبادي أني ذو مغفرة ورحمة، وذو عذاب أليم. وهذا جمع بين مقامي الرجاء والخوف، فالله تعالى يستر ذنوب من تاب وأناب، فلا يفضحهم ولا يعاقبهم، وإنما يرحمهم فلا يعذِّبهم بعد توبتهم، وهذا يشمل المؤمن الطائع والعاصي. والعذاب المؤلم الشديد الوجع لمن أصرَّ على الكفر والمعاصي، ولم يتب منها. وهذا تهديد وتحذير من اقتراف المعاصي، بعد الوعد بالجنة، لمن آمن وتاب وعمل صالحاً.

قصة ضيف إبراهيم عليه السّلام

يتلقّى الأنبياء عليهم السّلام الوحي عن ربِّ العزة إما بواسطة جبريل عليه السّلام، وإما بالرّؤيا الصادقة في النوم، وإما عن طريق ملائكة مع جبريل يأتون بصفة بشر، يتعرَّف عليهم النَّبي بعد حوار وسؤال وجواب ليعرف حقيقة القادمين عليه. وهذا التنويع في إنزال الوحي إيناس للنَّبي، وتسهيل عليه في معرفة الحكم أو الخبر الإلهي. ومن هذه الأحوال مجيء وفد من الملائكة، بصفة ضيوف على إبراهيم الخليل عليه السّلام، يتراوح عددهم بين ثلاثة واثني عشر ملَكاً، منهم جبريل عليه السّلام لتبشير إبراهيم في سنِّ الكبر بغلام عليم، ولإخباره بإهلاك قوم لوط، ولوط ابن أخي إبراهيم عليهما السّلام. وصف الله تعالى هذه الضيافة بقوله:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ[١] ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ[٢] ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ[٣] ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٥١-٥٦].

تتضمن قصص الأنبياء أخباراً عديدة، منها الوعد والوعيد، ومنها زفُّ البشارة بأمر كريم أو عجيب، وهذه إحدى القصص الطريفة للملائكة الكرام ببشارة إبراهيم عليه السّلام حال الكبر بإنجاب غلام عليم، أي ذي علم كثير إذا بلغ، هو إسحاق، لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: ١١/ ٧١].

بدأ الخطاب الإلهي في هذه القصة بأمر النّبي ﷺ بإخبار قومه عن قصة ضيف إبراهيم، أي عن أصحاب إبراهيم؛ لأن كلمة (ضيف) هنا مصدر وُصف به وفد الملائكة، وتطلق على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد، أو أن هذا المصدر عومل معاملة الأسماء، ككلمة (رهن) ونحوه. والمراد بالضيف هنا: الملائكة الذين جاؤوا لإهلاك قوم لوط، وبشَّروا إبراهيم عليه السّلام بالولد الجديد حين الكبر، وكان إبراهيم يكنى (أبا الضيفان) فقالوا حين دخلوا عليه: سلاماً، أي سلاماً من الآفات والآلام والمخاوف.

فقال إبراهيم للضيوف: إنا خائفون منكم، لدخولهم عليه بلا إذن، أو لامتناعهم من الأكل، حين قدَّم لهم عجلاً سميناً حنيذاً (أي مشوياً بالحجارة المحماة) فلم يرَ أيديهم تمتدُّ للأكل، وكان عندهم العلامة المؤمِّنة هي أكل الطعام، وتلك هي علامة دائمة في الدهر أَمَنَةٌ للنّازل والمنزول به. فيكون الامتناع من الطعام دليلاً على أن

---

(١) أضيافه الملائكة. (٢) خائفون. (٣) الآيسين من الولد أو الخير.

الضيوف يبيّتون شرّاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ١١/ ٧٠].

فأجابوه بقولهم: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ أي لا تخف، إنا نبشّرك بغلامٍ عليم، أي أتينا لبشارتك بميلاد غلام ذي علم وفطنة وفهم لدين الله؛ لأنه سيكون نبيّاً، وهو إسحاق عليه السّلام، وذلك بعد مولد إسماعيل بمدة، وقول إبراهيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٩].

أجاب إبراهيم متعجّباً مستبعداً من مجيء ولد حال كبره وكبر زوجته، ومتحقّقاً من الوعد: أبشّرتموني بذلك بعد أن أصابني الكِبَر، فبأي أُعجوبة تبشّرونَ أو تبشّرونني، فذلك غير متصوَّر في العادة، وليس ذلك نفياً لقدرة الله تعالى في خلق العجائب.

فأجابه الملائكة مؤكّدين بشارتهم: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي إننا بشّرناك بما هو حقٌّ ثابت، فأبشر بما بشِّرتَ به، ودع غير ذلك، فهو صنع الله، ووعده الذي لا يتخلف، فلا تكن من القانطين اليائسين، فالذي أوجد الإنسان من التراب من غير أب ولا أم، قادرٌ على إيجاد الإنسان من أي شيء أراد، كأبوين عجوزين.

ردَّ إبراهيم عليه السّلام مؤكّداً إيمانه بقدرة الله تعالى وأنه ليس قانطاً يائساً، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك، ولا يقنط ولا ييأس من رحمة الله إلا القوم الضّالون، أي المخطئون طريق الصواب. والقنوط: أتم اليأس.

هذه القصة تعلّمنا أدب الضيف، وأسلوبه في الأخبار، وزفّ البشرى، وأن الله قادر على كل شيء، فهو الخالق القادر على تمكين الزوجين من الإنجاب، حتى في سنّ الكبر وفي الوقت غير المعتاد.

إخبار الملائكة إبراهيم بإهلاك قوم لوط

الصِّلة النِّسبية معروفة بين إبراهيم ولوط عليهما السّلام، فلوط هو ابن أخي إبراهيم، وكان بينهما تعاون في الدعوة إلى توحيد الله وهجر عبادة الأصنام، لذا أراد الله إخبار إبراهيم أولاً بما جرى به الحكم والقضاء الإلهي، من إهلاك قوم لوط، لارتكابهم الفواحش وتكذيبهم رسولهم لوطاً عليه السّلام، وتم هذا الإخبار عقب تبشير الملائكة إبراهيم بولادة ابنه إسحاق في سنِّ الشيخوخة والكِبَر، قال الله تعالى واصفاً مضمون الخبر بإهلاك الفاعلين فعل قوم لوط:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ(١) أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ(٢) إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ(٣) ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ(٤) ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ(٥) ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ(٦) ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ(٧) وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر: ١٥/٥٧-٦٥].

بعد أن تأكّد إبراهيم عليه السّلام من كون ضيوفه ملائكة أثناء بشارتهم له بولادة إسحاق حال الكبر، سألهم عن أمرهم بسبب مجيئهم مختفين، وإحساسه بأنهم جاؤوا لأمر خطير، فقال: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. والخطب لفظة تستعمل في الأمور الشداد، أي ما شأنكم وما الأمر الذي أرسلتم به غير البشرى بالولد أيها الملائكة المرسلون، كأنه فهم من قرائن الأحوال أن لهم مهمة أصلية غير البشرى؛ لأن البشرى كما حدث لزكريا ومريم يكفيها واحد.

فأجابوه بأنا أُرسلنا إلى قوم مجرمين مشركين هم قوم لوط لإهلاكهم، وهم أهل

---

(١) فما شأنكم. (٢) قضينا. (٣) أي الباقين في العذاب. (٤) الآل: القوم الذين يؤول أمرهم إلى المضاف إليه. (٥) لا أعرفكم. (٦) يشكّون. (٧) بطائفة منه.

مدينة سدوم الذين بعث فيهم لوط عليه السّلام، والذين كانوا يتعاطون المنكر، ويأتون الرجال شهوة من دون النساء، فاستحقّوا أن يوصفوا بالمجرمين، والمجرم: الذي يجرُّ الجرائم ويرتكب المحظورات.

ثم أخبر الملائكة إبراهيم أنهم سينجُّون آل لوط جميعهم من بينهم، إلا امرأته، أي امرأة لوط التي كانت متواطئة مع قومها، فإنها ستكون من الغابرين، أي الباقين مع الكفرة الهالكين، فإنا مخلّصو جماعة لوط المؤمنين من العذاب -عذاب الاستئصال- وقوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَآ﴾ أي بتقدير الله تعالى أن امرأة لوط من الباقين في العذاب، ونسب الملائكة ذلك لأنفسهم، باعتبارهم المنفِّذين لأمر الله تعالى.

ثم بعد إبراهيم ذهب الملائكة إلى لوط عليه السّلام، فلما وصلوا إليه، أخبروه بأنهم مرسلون لعذاب قومه، فلم يعرفهم لوط لأول وهلة كما حدث لإبراهيم، فقال لهم: إنكم قوم منكرون، أي غير معروفين لدي، تنكركم نفسي، وأخاف أن تباغتوني بشرّ، فمن أي الأقوام أنتم؟ فأجابوه: لقد جئناك بما يسرُّك، وهو عذاب قومك وإهلاكهم وتدميرهم، الذي كانوا يشكّون في وقوعه بهم، ويكذبونك فيه قبل مجيئه.

ولقد أتيناك بالأمر المحقَّق واليقين والأمر الثابت الذي لا شك فيه، وهو تعذيب قومك، وإننا لصادقون فيما أخبرناك به من هلاكهم، ونجاتك مع أتباعك المؤمنين.

وبما أن إيقاع العذاب المدمر ليس أمراً سهلاً، أكَّد الملائكة قولهم للوط بثلاثة تأكيدات، فقالوا: إنا جئناك بما كانوا فيه يمترون أي يشكّون، وأتيناك بالحق، وإنا لصادقون في هذا الخبر.

وتمهيداً لتنفيذ العذاب، قال الملائكة للوط عليه السّلام: سِرْ بأهلك بعد مضي جزء من الليل، وأهله: ابنتاه فقط، وامش وراء أهلك ليكون أحفظ لهم ولا يبقى

منهم أحد، ولا يلتفت منكم أحد إلى الوراء إذا سمعتم الصيحة بالقوم، حتى لا يشفقوا على بلادهم وأقوامهم حين معاينة ما جرى على القرية في رفعها وطرحها، وسيروا بأمر ربّكم غير ناظرين وراءكم، إلى بلاد الشام؛ فإنها مأمنكم ومكان نجاتكم.

وتصوير هذه الإنذارات والإعدادات للعذاب يغني عن رؤية حالة الدمار والهلاك الواقع، ويزرع في القلب الخوف والهلع الشديد، ويوجب على النّاجين مزيد الحمد والشكر، ويردع أهل الجريمة مما يساورهم من صنوف الإجرام، إذا عرفوا ما يحلُّ بالمجرمين في دار الدنيا قبل عذاب الآخرة.

العذاب الواقع بقوم لوط

يغفل أهل الإجرام عادة عن الجزاء والعقاب الذي يلقونه، بسبب انغماسهم في الشهوات والأهواء، وظنهم أن العذاب لن يطالهم، وأنهم سيفلتون من العقاب، وكل ذلك من وسواس الشيطان وضعف الوعي وقلة الإدراك، والحماقة وسوء التقدير، لكن العقاب حق وعدل يأتي في الوقت المناسب بعد اليأس من الصلاح، وهذا ما حدث لقوم لوط، فإنهم أفرطوا في ارتكاب الفواحش، وبالغوا في تكذيب الرسول لوط، وأصرّوا على الغلوّ في الكفر والضلال، فكان التقدير الإلهي لهم بالمرصاد، وهذا ما وصفه القرآن الكريم للعبرة والاتّعاظ، قال الله تعالى:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ[١] ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ[٢] مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ[٣] ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾

(١) أي أوحينا إلى لوط عليه السّلام أمر الهلاك . (٢) آخرهم أي جميعهم . (٣) داخلين في الصباح .

قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ(١) إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ(٢) إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(٣) ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(٤) ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ(٥) ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ(٦) ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٦٦-٧٧].

هذا حكم الله وقضاؤه، وتدبيره وعقابه الحقّ العادل، لقوم دأبوا على الفحش وقلّة الحياء، ومعاداة الرُّسل والأنبياء. وهو تدبير سريع التنفيذ، لذا أخبر الله نبيّه لوطاً وأوحى إليه أن أمر هلاك قومه مقضي قضاءً مبرماً، وهو ماضٍ حتماً، وأن العذاب يشمل أول القوم وآخرهم، وهو عذاب الاستئصال في وقت الصباح. وألفاظ الآية: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ دالّة على الاستئصال والهلاك التّام.

ومما زاد في أمر جريمة فاعلي اللواط في سدوم فحشاً واستهجاناً: أنهم حين علموا بأضياف لوط الرائعي الجمال، المتميزة وجوههم بالصباحة والإشراق، جاؤوا مسرعين مستبشرين بهم فرحين، أملاً وطمعاً في ارتكاب الفاحشة معهم.

فقال لهم لوط: إن هؤلاء ضيوف، فلا تفضحوني بارتكاب ما يؤدي إلى العار معهم، والضيف يجب إكرامه، واتّقوا الله ولا تخزوني، أي وخافوا عذاب الله، ولا تذلّوني وتخجلوني بإذلال ضيفي، وإهانته، فإن الإساءة إليه وإهانته إساءة وإهانة لي.

فأجابوه قائلين: ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة، ونهيناك أن تضيف أحداً؟!

فأجابهم لوط مرشداً لهم: تزوجوا بنساء الأمّة اللاتي أباحهن الله لكم، وتجنّبوا إتيان الرجال، إن كنتم فاعلين ما آمركم به، منتهين إلى أمري. والمراد بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ

(١) أي نساء الأمة من طريق الزواج. (٢) قسم من الله بالنّبي. (٣) أي يتردّدون. (٤) أي وقت شروق الشمس. (٥) طين متحجّر. (٦) المعتبرين المتأمّلين.

بَنَاتِى﴾ ليس إباحة البنات مطلقاً، وإنما المراد التَّزوج بنساء قومه؛ لأن الرسول في القوم كالأب لهم. ومن فسَّر كلمة ﴿بَنَاتِى﴾ ببنات صلبه، أراد ذلك على طريق المجاز، كما تقول لإنسان تراه يريد قتل آخر: «اقتلني ولا تقتله». فإنما ذلك على جهة التشنيع عليه، واستدعاء الحياء منه، وحمله على العدول عن إجرامه، وهذا كله من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب.

ثم أقسم الله بقوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي أقسم بحياتك وعمرك أيها الرسول -وفي هذا تشريف عظيم للوط- إنهم في غوايتهم يتحيَّرون، وفي ضلالتهم يتردّدون أو يلعبون.

فنزلت فيهم صيحة جبريل عليه السّلام، وهي ما جاءهم من الصوت القاصف المرعب، عند شروق الشمس، فجعلت القرية أو المدينة عاليها سافلها، أي انقلبت في الأعماق، وانقلب القوم فيها، وأنزل الله تعالى عليهم حجارة من طين متحجر طبخ بالنار وهو السِّجيل. لقد اقتلع جبريل عليه السّلام المدينة بجناحه ورفعها، حتى سمعت ملائكة السماء صراخ الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها، فمن سقط عليه شيء من ردم المدينة مات، ومن أفلت منهم أصابته حجارة من سجِّيل: وهي الحجارة المطبوخة من الطين كالآجُرّ ونحوه.

إن في هذا الصنيع بقوم لوط من الهلاك والدمار، وإنجاء لوط وأهله المؤمنين لدلالةً وعبرة للناظرين المتأمِّلين المعتبرين، وإن مدينة سدوم التي أصابها هذا العذاب لهي طريق واضحة للمسافرين المارِّين بها، فما تزال آثارها باقية إلى اليوم، في وادي الأردن. وفي ذلك أيضاً لدلالة واضحة للمؤمنين بالله ورسله بأن العذاب انتقام من الله لأنبيائه.

قصّة أصحاب الأيكة وأصحاب الحجْر

تتوالى الإنذارات والتحذيرات للناس حتى يؤمنوا، ويتخلّوا عن الكفر، وتتكرر أحداث قصص الأنبياء مع أقوامهم الغابرين، ليعلم الجاحدون الكافرون أن العذاب والعقاب الدّنيوي والأُخروي سينزل بهم دون شفقة ولا هوادة، وليتّعظ العقلاء من تلك الأحداث الرّهيبة، فيبادروا إلى إعلان إيمانهم بالله الواحد الأحد، ويستقيموا على الجادة المستقيمة، فيظفروا بعزّ الدنيا وسعادة الآخرة. وهاتان قصّتان متعاقبتان بعبارات موجزة لتحقيق العبرة من أقرب الطرق، وهما قصّتا أصحاب الأيكة قوم شعيب، وأصحاب الحجر قبيلة ثمود قوم صالح. قال الله تعالى:

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ(١) لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ(٢) ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ(٣) ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ [الحجر: ١٥/٧٨-٨٦].

القصة الأولى في هذه الآيات: قصة أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب علماً بأن مدين وأصحاب الأيكة بعث الله إليهما شعيباً عليه السّلام، لقد كان هؤلاء القوم ظالمين بشركهم ووثنيتهم، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فعاقبهم الله، وانتقم منهم جزاء كفرهم وظلمهم، بيوم الظُّلّة: وهو تسليط الحرّ عليهم سبعة أيام، ثم أرسل الله عليهم سحابة، فاستظلّوا تحتها، فاضطرمت عليهم ناراً،

---

(١) الأيكة: الغيضة والشجر الملتف المخضرّ، من شجر السِّدْر ونحوه. (٢) أي بطريق واضح، وإنهما: يعود الضمير على قرى قوم لوط والأيكة. (٣) أصحاب الحجر: هم ثمود، والحجر: واد بين المدينة والشام، كانوا يسكنونه.

فأحرقتهم. قال الطبري: بُعث شعيب إلى أُمَّتين كفَرَتا، فعذَّبهم الله بعذابين مختلفين: أهل مدين عُذِّبوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة عُذِّبوا بالظُّلَّة.

وإن كلاً من قرى قوم لوط، وبقعة أصحاب الأيكة، لبطريق واضح، يسلكه الناس في سفرهم من الحجاز إلى الشام. وكلمة (إمام) أي الشيء الذي يهتدى به ويؤتم، كخيط البناء، والطريق، والكتاب المفيد، أو قياس الصانع، أو الرجل المقتدى به.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ أي إنَّ، فكلمة (إنْ) هنا هي المخففة من الثقيلة على مذهب البصريين.

والقصة الثانية في هذه الآيات: هي قصة أصحاب الحجْر، والحجْر مدينتهم، وهي ما بين المدينة وتبوك، لقد كذبوا رسولهم ثمود، وعبّر عنه بكلمة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأن تكذيبَ رسول واحد تكذيبُ الجميع؛ لاتِّفاق أصول دعوتهم في التوحيد وعبادة الله، ومكارم الأخلاق والفضائل، وتجنُّب الرَّذائل.

وكان قوم ثمود ممن أنعم الله عليهم، فأعطاهم من الآيات والدلائل ما يدلُّهم على صدق نبوّة صالح عليه السّلام، كالناقة التي أخرجها الله من صخرة صماء، بدعاء صالح عليه السّلام، فأعرضوا عنها، ولم يعتبروا بها، وبادروا إلى عقرها. وكانت لهم بيوت ينحتونها في الجبال، صاروا بها آمنين من الأعداء، من غير خوف، لقوّة إحكامها، وهي ما تزال مشاهدة على الطريق إلى تبوك.

فلما عتوا عن أمر ربهم، وبغوا، وعقروا الناقة، أخذتهم صيحة الهلاك في وقت الصباح، من اليوم الرابع للإنذار بالعذاب، كما قال الله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ١١/ ٦٥].

فما نفعتهم الأموال والديار حين حلَّ بهم العذاب، ولم يستفيدوا من مكاسبهم

وزروعهم وثمارهم، ولكنَّ هؤلاء المكتسبين للدنيا، الذين لم يغنِ عنهم اكتسابهم، ليسوا في شيء، فإن السماوات والأرض وجميع الأشياء لم تخلق عبثاً ولا سُدًى، وإنما خلقت بالحقِّ، ولواجب مقصود، وأغراض لها نهايات، من عذاب ونعيم. وإن الساعة (القيامة) آتية على جميع أمور الدنيا، فلا تهتم يا محمد بأعمال قومك، فإن الجزاء لهم بالمرصاد، فاصفح عن أعمالهم، من غير عتب ولا تعرُّض، وهذا يقتضي مهادنة.

ثم آنس الله نبيَّه وسرَّى عنه في آخر الآيات بأن الله تعالى يخلق ما شاء لمن شاء، ويعلم تعالى وجه الحكمة في ذلك، لا هذه الأوثان التي تعبدونها. وهذا تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة (القيامة) فإنه سبحانه خالق كل شيء، عليم بكل أجزاء الأجساد المتفتتة، والجميع صائرون إليه، محاسبون بين يديه.

توجيهات إلهيّة للنَّبي ﷺ في تبليغ الدَّعوة

اقتضت حكمة الله وخطَّته أن يصفح النَّبي ﷺ صفحاً جميلاً عن أذى قومه ويعاملَهم معاملة سلمية وادعة آمنة، بالرغم من كثرة المضايقات، واستدامة الإيذاء والإضرار، ومقابل هذا الصفح الجميل: إنعام الله على نبيِّه بألوان النِّعم الكثيرة المتوَّجة بإنزال السَّبع المثاني (الفاتحة) والقرآن العظيم عليه، فهو المعجزة الخالدة والمفخرة الدائمة، قال الله تعالى واصفاً هذه النِّعم وواضعاً توجيهات للنَّبي المصطفى ﷺ في تبليغ دعوته:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي[1] وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ

(١) هي الفاتحة، التي تثنى وتكرَّر قراءتها.

أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ(١) لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ(٢) ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ(٣) ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٧-٩٣].

يمتن الله تعالى على نبيِّه، فيذكُر له، تالله لقد أعطيناك وأنزلنا عليك أيها الرسول السَّبع المثاني والقرآن العظيم. والسَّبع المثاني على الراجح: هي الفاتحة المكونة من سبع آيات، تثنى وتكرر في كل ركعات الصلاة، والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصَّ الله أهل القرآن بها.

أخرج البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمُّ القرآن هي السَّبع المثاني والقرآن العظيم». وخرَّج التِّرمذي من حديث أبي هريرة بلفظ آخر: «الحمد لله: أُمُّ القرآن، وأُمُّ الكتاب، والسَّبع المثاني».

وترتيباً على هذا العطاء الإلهي السَّخي العظيم لا تطمح أيها الرسول إلى ما متَّعنا به أصنافاً من الناس: وهم الأغنياء بزينة الحياة الدنيا ومُتَعها، فمن وراءِ ذلك عقاب شديد، واستغنِ بما آتاكَ الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية، وفاخر بما أُوحي إليك، وقدِّر عظمة نعمة الله عليك، ولا تنظر إلى الدنيا وزينتها، ولا تتأسَّف على المشركين إذا لم يؤمنوا، لِتقوية الإسلام والمسلمين، ولا لهلاكهم، وألن جانبك وتواضع للمؤمنين، ولا تجافهم ولا تَقْسُ عليهم، واصرف وجهك وعنايتك لمن آمن بك، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩].

ثم أمر الله نبيَّه بإعلان مهمته وهي الإنذار المبين، فقال له: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ

---

(١) تواضع. (٢) هم في قول: أهل الكتاب الذين فرَّقوا دينهم، وجزَّؤوه أعضاء، آمنوا ببعض وكفروا ببعض. (٣) أي جعلوه أقساماً وأعضاء.

ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ أي قل يا محمد للناس: إني منذر ومخوف من عذاب أليم شديد الوجع، أُنذر كل من كذَّب برسالتي وأعرض عن دعوتي، وتمادى في غيِّه وضلاله، حتى لا يتعرَّض لانتقام وتعذيب من الله كما فعل بالأُمم المتقدمة.

وحدَّد الرسول ﷺ جهة الإنذار وعيَّن المنذَرين، وهم أهل الكتاب الذين فرَّقوا دينهم، واقتسموا القرآن إلى أجزاء، فآمنوا ببعضه الموافق للتوراة والإنجيل، وكفروا ببعضه المخالف لهما، فاقتسموه إلى حقٍّ وباطل، وهم أيضاً القرشيّون الذين اقتسموا طرق مكة، يصدُّون الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ ، وعددهم حوالي أربعين، أو ستة عشر رجلاً، بعثهم الوليد بن المغيرة أيام موسم الحج، فاقتسموا طرق مكة يقولون لمن يسلكها: لا تغتروا بالخارج منّا، والمدَّعي للنُّبوة، فإنه مجنون، وكانوا ينفِّرون الناس عنه واصفين إياه: بأنه ساحر، أو كاهن، أو شاعر، فأنزل الله تعالى بهم خزياً، فماتوا شرَّ ميتة، هؤلاء الفريقان: الكتابيّون والقرشيّون هم الذين جعلوا القرآن عِضين، أي أجزاء متفرِّقة، آمنوا ببعض وكفروا ببعض. وجعلوا القرآن سحراً وشعراً وكهانة، أي صيَّروه بألسنتهم ودعواهم.

وكان جزاؤهم وعيداً محضاً، يأخذ الله كل أحد منهم بحسب جرمه وعصيانه، يسألهم الله سؤال توبيخ وتأنيب عن أقوالهم وأعمالهم، ويجازيهم على أفعالهم الجزاء التّام. فالكافر يُسأل عن (لا إله إلا الله) وعن الرُّسل، وعن كفره وقصده. وكذلك يُسأل المؤمن العاصي عن تضييع القرآن، ويُسأل الإمام عن رعيَّته، وكل مكلف عما كُلِّف القيام به، فيكون الضمير في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ ضميراً عامّاً يشمل جميع الناس المؤمنين والكافرين، كلٌّ بحسب جرمه وعمله. ويكون الإنذار أيضاً لجميع الناس، سواء من اقتسم الكتاب الإلهي وجزَّأه، فآمن ببعضه وكفر بالبعض الآخر، ومن ضيَّع القرآن، فأخذ ببعضه وترك البعض الآخر.

الجهر بالدَّعوة الإسلامية

كانت الدعوة الإسلامية في مبدأ الأمر سرِّية إلى حدٍّ ما، خشية الأذى، وتخلُّصاً من مضايقات القرشيين في مكة، الذين وقفوا بالمرصاد أمام نشر الدعوة الجديدة، وتفنَّنوا في أنواع الأذى بالمؤمنين المستضعفين، ثم أمر الله نبيَّه بالجهر بدعوته، وإعلانها، مهما كانت الظروف والصِّعاب؛ لأن الله تعالى عاصم نبيّه من السوء، وكافٍ له من شرور المعادين المستكبرين، وملحق الدمار والهلاك بالآفات بكل من قاوم الدعوة، وحاول تطويقها وصدّ الناس عنها، قال الله تعالى واصفاً هذه المرحلة الجديدة من إعلان الدعوة:

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ(١) وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ(٢) ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٤-٩٩].

نزلت آية: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ كما أخرج البزار والطّبراني عن أنس بن مالك قال: مرَّ النَّبي ﷺ على أُناس بمكة، فجعلوا يغمزون في قفاه، ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي ومعه جبريل، فغمز جبريل بأصبعه، فوقع مثلُ الظفر في أجسادهم، فصارت قروحاً حتى نتنوا، فلم يستطع أحد أن يدنوَ منهم، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

صبر النَّبي ﷺ كثيراً على أذى قومه وعداوتهم، ولكن الله تعالى الذي أمره بإنذار هؤلاء الجاحدين، وهدَّدهم بالحساب العسير، أمره بعدئذ بالجهر بتبليغ دعوته للجميع، ومواجهة المشركين دون أي تحسُّب من أذى أو صدود، أو تخوُّف منهم،

---

(١) فاجهر به. (٢) الموت المتيقن وقوعه.

فإن الله عاصمه وحافظه منهم. وما عليه إلا الإعراض عن زمرة صناديد المشركين الذين يريدون الصَّدّ عن آيات الله تعالى. وهذا لون من المهادنة.

ثم أعلم الله تعالى نبيَّه أنه كفاه المستهزئين به من كفار مكة ببوائق ومهالك من الله أصابتهم، لم يَسْع بها محمد ﷺ، ولا تكلف فيها مشقّة. وكان المستهزئون العتاة خمسة نفر: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس من خزاعة وأُمّه غيطلة.

وكان هؤلاء المستهزئون مشركين، فوصفهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي إنهم الذين يتّخذون إلهاً آخر مع الله، زوراً وبهتاناً، فيشركون به من لا يضرّ ولا ينفع، فسوف يجدون عاقبة أمرهم، ومآل شركهم، ومصير كفرهم. وهذا تهديد ووعيد لهم بسوء المصير، لعلهم يرتدعون، ويؤمنون بالله الواحد الأحد.

ثم واسى الله نبيَّه عما يصيبه من أذى المشركين، فأوحى إليه: إنا لنعلم يا محمد أنك تتأذى من سخرية المشركين وشركهم، ويحصل لك ضيق صدر وانقباض، فلا يمنعْك ذلك عن إبلاغ رسالة ربِّك، وتوكَّل عليه، فإنه كافيك وناصرك عليهم، ولا تأْبَه بما يقولون، فإن صاحب الرسالة يتجاوز العقبات، ولا يأْبه بالصِّعاب مهما كانت قاسية.

وتقويةً لنفس النَّبي ﷺ وتعزيزَ صلته بربِّه، أمره الله بمواظبة السُّجود والعبادة التي هي الصلاة والأذكار، من تسبيح وتحميد وتهليل، فذلك كفيل برفع المعنويات، وثبات القلب، وقوة العزيمة، ومواصلة الجهاد الدَّعوي إلى الله وحده، والأمر بمتابعة العبادة حتى يأتيه اليقين، أي الأمر المتيقَّن وقوعه وهو الموت، وهذه الغاية معناها مدة الحياة.

ولقد ذكر الله من أجزاء الصلاة: حالة القرب من الله تعالى وهي السجود، فهو أكرم حالات الصلاة وأجدرها بنيل الرحمة. جاء في الحديث الثابت الذي رواه الإمام أحمد: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلّى» أي فزع إلى الصلاة عند اشتداد الأمر، وهذا منه عليه الصّلاة والسّلام أخذ بهذه الآية.

وتدلُّ الآية على أن علاج ضيق الصدر، وتفريجَ الهموم والكروب والمصائب: هو التسبيح، والتقديس، والتحميد، والإكثار من الصلاة، روى الإمام أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا بن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار، أكفك آخره».

إن الصلاة تقوّي الصِّلة بالله، وتعزِّز الإيمان واليقين، وتزرع في القلب الطمأنينة والسكون: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ . .﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٠].

تفسير سورة النَّحل

إثبات القيامة ونزول الوحي

يقوم الدين الإلهي على إثبات عقائد جوهرية ضرورية: هي التوحيد لله، والبعث أو القيامة، والوحي، والنُّبوة أو الرِّسالة، أما التوحيد فهو أساس الاعتقاد بالله ربّاً واحداً وإلهاً فرداً لا شريك له، وأما البعث أو القيامة فهو عالم الغيب، ومستقبل الدهر، ومجمع الناس ليوم الحساب، وأما الوحي الإلهي فهو همزة الوصل بين الله والعباد لتصحيح مسيرة الإنسان ووضع دستور الحياة للفرد والأمة، وأما النُّبوة أو الرسالة، فهي وسيلة التَّلقي للوحي الإلهي وإبلاغه للناس، ومجادلتهم، وإقناعهم بأصول العقيدة، ومنهج العبادة، وتصحيح المعاملة، والتزام الأخلاق الكريمة. وفي مطلع سورة النَّحل التي تسمى سورة النِّعم بسبب ما عدَّد الله فيها من نعمه على عباده، وهي مكِّية: تصريح وجيز بوقوع القيامة حتماً، وتوحيدِ الله وتقواه، وإنزالِ الوحي على الرُّسل بوساطة الملائكة، قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ[١] عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ[٢] مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾ [النَّحل: ١٦/ ١-٢].

(١) تعاظم بذاته وصفاته. (٢) بالوحي.

سبب نزول هذه الآية: أن المشركين كانوا يستعجلون ما أوعدهم الرسول ﷺ من قيام الساعة، أو إهلاك الله تعالى إياهم، كما فعل يوم بدر استهزاء وتكذيباً، ويقولون: إن صحَّ ما يقوله، فالأصنام تشفع لنا، وتخلِّصنا منه، فنزلت. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ ذعر أصحاب رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ فسكنوا.

موضوع الآية الأولى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾: إعلان أن الأمر الموعود به، وهو قيام الساعة، متحقِّق حادث لا محالة، وأنه تعالى منزه عن الشريك والولد، فهو إله واحد لا شريك له. وموضوع الآية الثانية: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾: الإخبار بأن نزول الوحي بوساطة الملائكة، والتَّنبيه على التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمال القوة العملية، وأن النُّبوة عطاء إلهي محض. والمراد من قوله سبحانه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ معرفة الحق لذاته، وأما المراد من قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فهو معرفة الخير لأجل العمل به.

لقد استعجل الكفار المشركون ما وُعِدوا به من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم استهزاء وتكذيباً بالوعد، فقيل لهم: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ قال فيه جمهور المفسرين: إنه يريد القيامة، وفيه وعيد للكفار. وعبَّر عن وقوع القيامة بلفظ الماضي ﴿أَتَىٰٓ﴾ على جهة التأكيد أي للدلالة على التَّحقق وثبات الأمر كأنه لوضوحه والثقة به وقع، وصار من الأحداث الماضية. ولم يكن هناك استعجال إلا ثلاثة أمور: اثنان منها للكفار في القيامة والعذاب، والثالث للمؤمنين في النصر وظهور الإسلام.

والمعنى: لما لم تقع القيامة بنحو سريع كما أخبر النَّبي المصطفى ﷺ قومه المشركين، نسبوه إلى الكذب، فأجابهم الله تعالى: قد حصل أمر الله وحكمه، ووجد من الأزل إلى الأبد، وتحقَّق بنزول العذاب، إلا أن تنفيذ الأمر بإقامة القيامة

لم يحصل، لأن الله تعالى خصَّص له وقتاً معلوماً بمقتضى علمه وحكمته وإرادته. وهذا الخبر يتضمن تهديداً للكفار على كفرهم، وإعلاماً لهم بقرب العذاب والهلاك.

فما عليكم أيها الناس إلا أن تؤمنوا بوجود الله ووحدانيته، سبحانه وتعالى عما يشركون، أي تنزه الله، وتعاظم عما ينسبون له من الولد والشَّريك، وعبادة الأوثان والأنداد، وهذا إبطال لما عقدوا عليه الآمال من شفاعة الأصنام، فهو وهم خادع وسراب فارغ.

وعليكم أيضاً أيها البشر ألا تستعجلوا القيامة، ولا تكذبوا النَّبي ووعده ولا تستهزئوا بما قال، فإن نبوّة النَّبي ثابتة يقيناً، والله تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره، أي بالوحي المأمور به، على من يشاء من عباده الذين اصطفاهم واختارهم للرسالة وهم الأنبياء والرسل، ولا يكون نزول الوحي إلا بأمر الله تعالى، وأنه يحصل بوساطة الملائكة. ومهمة الرُّسل إنذار الكفار وإعلامهم بأنه لا إله إلا الله، فهو الإله الواحد الذي لا شريك له ولا ندّ ولا نظير، فاتَّقوا أيها الناس عقاب الله، ومخالفة أمره، وعبادة غيره.

لقد أجابت هاتان الآيتان عن شبهات ثلاث للمشركين: قيام الساعة، ونزول العذاب، والشِّرك والشُّركاء، والنُّبوة والوحي.

براهين قدرة الله تعالى

هناك في الكون المشاهد أدلة قاطعة على صفات الربوبية، فمن اتصف بها ثبتت له صفة الألوهية، ومن خلا منها لم يستحق وصفه بالرب أو الإله، وإننا لأول وهلة أو نظرة متأملة نجد أن من اتصف بالحياة والعلم والقدرة والإرادة النافذة يحق له أن يخلق و يخترع ويعيد، وهذه هي صفات الرب، عز وجل، بخلاف الشركاء المزعومين

تألهاً، لا يحق لهم شيء من صفات الربوبية، لانعدام صفة الحياة الدائم والعمل الشامل والقدرة الكاملة والإرادة النافذة، وهذا ما نجده مصرحاً به في آيات القرآن التالية:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ(١) فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ(٢) مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ(٣) خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ(٤) وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ(٥) حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(٦) ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ(٧) إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ(٨) إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً(٩) وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ(١٠) وَمِنْهَا جَآئِرٌ(١١) وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٣-٩].

هذه مظاهر الإبداع الإلهي، أبدع الله تعالى العالم العلوي وهو السماوات والعالم السفلي وهو الأرض ومحتوياتها، فذلك تنبيه على قدرة الله تعالى، خلقها الله بالحق، أي بالواجب اللائق، وبالحكمة والتقدير المحكم، لاعبثاً، ولا مصحوبة بالخلل والنقص، فتنزه الله عن المعين والشريك، لعجز ما سواه عن خلق شيء، فلا يستحق العبادة إلا هو، ولا الربوبية سواه.

وأبدع الله تعالى خلق الجنس الإنساني، وكان هناك فارق واضح بين بدء الخلق واكتماله، ليظهر الفرق بينهما بقدرة الله، خلق الله الإنسان من نطفة مهينة ضعيفة، ثم صار خصماً واضح الخصومة لربه، فتراه يجادل في توحيد الله وشرعه ويقول: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٨] نزلت هذه الآية لقول أبي بن خلف،

(١) مني. (٢) شديد الخصومة بالباطل. (٣) الإبل والبقر والغنم والمعز. (٤) ما تتدفئون به من البرد.
(٥) تجمل وتزين. (٦) وقت الرواج مساء ووقت التسريح صباحاً. (٧) أمتعتكم الثقيلة. (٨) بمشتقها.
(٩) بفعل مقدر أي وجعلناها زينة. (١٠) بيان الطريق القويم. (١١) من السبيل مائل عن الحق.

حين جاء إلى النبي ﷺ بعظم رميم، فقال: أترى يحيي الله هذا بعدما قد رمّ -أي بلي-؟ وقوله سبحانه في وصف الإنسان: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى تعديد نعمة الذهن والبيان على البشر.

ومن مظاهر قدرة الله الشاملة وإنعامه على عباده أنه سبحانه خلق لهم الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، وكان للناس فيها جمال في النظر وزينة حين سروحها إلى المراعي، ووقت رواحها ورجوعها عِشاء منها، وهي بأصوافها وأوبارها وجلودها واسطة الدفء أي السخونة، وفيها منافع كثيرة أخرى بالأكل من ألبانها ولحومها، وبعون الإنسان بركوبها ونقل الأحمال على بعضها.

فهي تحمل أثقال الناس، أي أمتعتهم من مكان إلى آخر، حيث توجهوا بحسب اختلاف أغراضهم، ويعجزون عن نقلها وحملها إلى بلد آخر، لا يبلغونه إلا بشق الأنفس، أي بمشقة شديدة وعناء كبير، إن ربكم الذي سخّر لكم هذه الأنعام وذلّلها لكم كثير الرأفة والرحمة بعباده، حيث جعل هذه الأنعام لكم مصدر خير كبير ورزق وفير، وأداة نفع وجلب مصلحة.

ومن مظاهر قدرة الله أيضاً أنه خلق الخيل[1] والبغال والحمير للركوب عليها والتزيّن والمفاخرة بها، ويتجدد الخلق كذلك، فهو سبحانه يخلق للناس غير هذه الحيوانات ويلهمهم صناعة وسائل نقل كثيرة مما نشاهده من النِّعم الحديثة من قطارات وطائرات وسفن وسيارات وغيرها. مما لا يعلم به الإنسان، فإن مخلوقات الله تعالى من الحيوان وغيره لا يحيط بعلمها بشر، بل ما يخفى عنه أكثر مما يُعلم، وقد رُوي أن الله تعالى خلق ألف نوع من الحيوان، منها في البر أربع مئة، وبثّها بأعيانها في البحر، وزاد فيه مئتين ليستا في البر.

(١) سميت الخيل خيلاً لاختيالها في المشية .

ثم قال الله تعالى مضيفاً نعمة أخرى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ[١]﴾ وهذه من أجلّ نعم الله تعالى، أي على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه، بإقامة الأدلة، وبعث الرسل، وذلك تفضُّل وتكرم من الله ببيان الطريق الواضحة الموصلة إلى الحق والخير، ومن الطرق المخلوقة للعبرة والامتحان طرق جائرة حائدة عن الاستقامة، مؤدية إلى الضلالة، وعلى العاقل أن يكون حذراً منها، غير متورط بها.

ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه، أي لو شاء لخلق الهداية في قلوب جميع الناس، ولم يضل أحد. ولكن الله سبحانه لم يفعل ذلك لترك الحرية للبشر، يختارون الطريق التي يرونها، فيكون الحساب على هذا الاختيار والعمل بموجبه.

براهين أخرى على قدرة الله تعالى

لم يكتف القرآن الكريم بإيراد بعض الأدلة على قدرة الله تعالى، وإنما من أجل تقرير العقيدة وتمكينها في القلب، أورد الله سبحانه أدلة وبراهين أخرى كثيرة على قدرته الخارقة، لإثبات ألوهيته وربوبيته ووحدانيته، كيلا يبقى عذر لأحد في إنكار وجود الله، وسلطته الشاملة، وتفرده بإمداد النعم، والأفضال على بني الإنسان. وهذه الآيات: آيات كونية فيها تعداد نعمة الله في المطر والزرع والنبات والثمار، وتبيان منافع الليل والنهار والكواكب والنجوم، وخلق أشياء كثيرة في الأرض اليابسة وفي البحار والمحيطات المائية، وتسخير السفن التي تجري فيها، وإلقاء ثوابت الجبال في الأرض وتفجير الأنهار فيها، وفتح الطرق في أنحائها وإقامة الأمارات والعلامات والنجوم على السير ليلاً في آفاقها، قال الله تعالى:

(١) السبيل : تذكر وتؤنث .

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ[١] ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ[٢] فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ[٣] فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ[٤] أَن تَمِيدَ[٥] بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٠-١٦].

هذه جملة عظيمة من النعم الإلهية تدل على وجود الله ووحدانيته وقدرته وفضله وكرمه، وأول هذه النعم: إنزال المطر من السماء، أي السحاب، يستقي منه الإنسان والحيوان شراباً عذباً سائغاً، ويسقي الأرض، فينبت عن هذا السقي الشجر والنبات مطلقاً، لرعي الأنعام. يُنبت الله بالمطر الزرع وشجر الزيتون والنخيل والعنب، ومن كل الثمار المختلفة اللون والنوع والطعم والمذاق والرائحة، إن في ذلك المذكور من إنزال الماء والإنبات لدلالةً واضحة على وحدانية الله، لقوم يتفكرون في تلك الأدلة؛ لأنه لا مبدع ولا موجد لها غير الله الخالق الأحد.

وهناك أدلة أخرى على قدرة الله من الآيات الكونية المشاهدة، وهي تعاقب الليل والنهار للاستراحة والعمل، ودورانُ الشمس والقمر، للإنارة والنفع، وتزيين السماء بالنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السماوات، نوراً وضياء، أي إن هذه المخلوقات مسخرات مذللات على نحو ينتفع به البشر من السكون في الليل، والمعايش

(١) أي ترعون . (٢) خلق . (٣) جواري فيه . (٤) جبالاً ثوابت . (٥) أي خوف أن تضطرب وتميل بكم .

والمكاسب بالنهار، ومنافع الشمس والقمر للإنسان والنبات أكثر من أن تحصى، والنجوم هداياتٌ وأضواء، إن في ذلك المذكور لدلالاتٍ واضحات لقوم يعقلون أسرارها، ويدركون فوائدها.

وفي الأرض عجائب، خلق الله فيها للناس أشياء مختلفة الألوان والأشكال والمنافع والخواص، من نباتات ومعادن وجمادات وحيوانات، إن في ذلك المذكور لدلالات على قدرة الله لقوم يتذكرون آلاء الله ونعمه، وأفضاله ومواهبه، فيشكرونه عليها. ومن نعم الله تعالى أيضاً تذليلُه البحر للناس، وتيسيره للركوب فيه، وإباحته الأسماك المختلفة المستخرجة منه، واستخراج الحلي واللآلئ منه للبس والزينة، والاستفادة من المرجان، وعبور الفُلْك (السفن) فيه جيئة وإياباً، وطلب فضل الله ورزقه بالتجارة فيه، مما يوجب شكر نعمه وإحسانه على الناس بما يسّره لهم في البحار. وفي الأرض نعم كثيرة، أهمها ثلاث:

وهي تثبيت الأرض بالجبال الراسيات، كيلا تضطرب الأرض وتتحرك بأهلها، وإجراء الأنهار على وجه الأرض لتيسير الانتفاع بها، ففيها حياة الإنسان والحيوان والنبات، وإيجاد الطرق والمسالك التي تسهّل العبور والانتقال من أرض إلى أخرى، ومن بلد إلى غيره.

وفي الأرض أيضاً علامات مخصوصة ومعالم طرق تشير إلى المواقع والبلدان، وهي الجبال والهضاب والرياح ونحوها التي يستدل بها المسافرون براً و بحراً، ويهتدي الناس في ظلام الليل بالنجوم. قال ابن عباس: العلامات: معالم الطرق بالنهار، والنجوم هداية بالليل.

وفي الجملة، أثبتت الآيات وجود الله ووحدانيته أولاً بأجرام السماوات، وثانياً ببدن الإنسان، وثالثاً بعجائب مخلوقات الحيوان، ورابعاً بعجائب طبائع النباتات،

وخامساً بأحوال العناصر وأولها عنصر الماء، وسادساً بعالم البحار والمحيطات وما فيها من عجائب، وسابعاً بالجبال والأنهار والطرق في الأراضي، وثامناً بالنجوم المضيئة في الظلمات.

الله الخالق العالم

تظل قوى البشر وعلومهم مهما كانت عاجزةً ضعيفةً محدودةً أمام قدرة الله، وعلمه الشامل للسر والعلن، والظاهر والباطن، فالله سبحانه هو المبدع الخالق الموجد للأشياء من العدم دون أن يسبق بشيء موجود، وأما الإنسان فقدرته لا تتجاوز تركيب الأشياء الموجودة والاستفادة من خواص المادة القائمة، والله عز وجل يعلم السر وأخفى الحاضر والمستقبل، ويعلم جميع ما في السماوات والأرض من أحوال الكائنات، وعِلْم الإنسان مقصور على بعض الظواهر المحيطة به، وعلى ما هو حاضر غير غيبي، وتفرُّدُ الله بالقدرة الخلاقة المطلقة والعلم الذي لا حدود له دليل على ألوهيته، وعلى أن العاجز عن الخلق لا يستحق التأليه ولا العبادة، وهذا ما صرحت به الآيات التالية:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا[1] إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ[2] أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٧-٢٣].

---

(١) لا تحصروها. (٢) أي حقاً أو لا محالة.

إن خواص الألوهية: هي الخلق والإبداع، وعلم السر والعلن، والحياة الأبدية دون أن يسبق الإله بشيء، ولا ينتهي عند حد، وهذه الآيات تذكُر هذه الخواص، للإدلال على عظمة الله، وأنه لا يستحق العبادة والتقديس سواه، دون ما عداه من الأصنام والأوثان وغيرها التي لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة، أفمن يخلق الأشياء كمن لا يخلقها ويعجز عن إيجادها، أفلا تعتبرون وتتعظون أيها الناس؟! فإن معرفة ذلك لا تحتاج إلى تدبر وتفكر ونظر. ويستمر خلق الأشياء للناس بإيجاد النعم وأنواع الإحسان، وإن أردتم أيها البشر تعداد نعم الله وحسابها، لم تستطيعوا إحصاءها وضبط عددها، فإن نعم الله كثيرة دائمة، وفضله لا ينقطع في كل دقيقة من الأحوال، وهو سبحانه كثير المغفرة يتجاوز عن السيئات وعن التقصير في شكر النعمة، رحيم بالعباد، ينعم عليهم مع استحقاقهم للحرمان بسبب جحودهم وكفرهم.

إن قدرة الله على الخلق والإبداع هي أولى خواص الإله الحق، ودليل وجود الله، والخاصية الثانية هي أن الله يعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، والظاهر والباطن.

وأما الأصنام وأمثالها من المخلوقات، فلها ثلاثة أوصاف، هي أنها لا تستطيع خلق شيء، بل هي مخلوقة، وهي جمادات لا أرواح فيها ولا حياة لها أصلاً، أما الإله فهو الحي الدائم الذي لا يطرأ عليه موت أصلاً، وتلك الأصنام لا تدري متى يبعث عَبَدتها من القبور، ومتى تقوم الساعة، فكيف يرتجى منها نفع أو تستطيع منع ضرر ما؟!

وإذا كانت الأصنام وجميع المخلوقات لا تستحق التأليه لفقدها خواص الألوهية،

فإن الله تعالى هو إلهكم جميعاً أيها الناس، وهو إله واحد، لا إله إلا هو، وهو المعبود الذي يستحق العبادة والطاعة بحق، ولا شريك له ولا ندّ ولا نظير، والإله يوم القيامة واحد أيضاً. وفي هذا توعّد، فالذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرون وجودها، ولا يؤمنون بوحدانية الله، قلوبهم منكرة لتوحيد الله، وهم مستكبرون عن رفض معتقدهم فيها، وترك طريقة آبائهم في عبادتها، وهم يجمعون بين التكذيب بالله تعالى وبالبعث، لأن من صدّق بالبعث من القبور، فمحال أن يكذِّب بالله تبارك وتعالى.

وختم الله هذه الآيات التي تسفّه عقول المشركين وتوبّخهم على شركهم بتهديد ووعيد على أعمالهم، فقال الله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي حقاً؛ إن ربك القدير العليم يعلم ما يُسرّ هؤلاء المشركون وغيرهم وما يعلنون، ويعلم إصرارهم على كفرهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، إنه سبحانه يمقت ويجازي المستكبرين عن التوحيد، بل وكل مستكبر، إنه يعاقبهم ويجازيهم على أعمالهم، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ وعيد عام في الكافرين والمؤمنين، يأخذ كل واحد منهم بقسطه. جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن ابن مسعود: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من كِبْر..».

صفات المستكبرين

إن كل من يتنكر لعبادة الله جل جلاله، ويعرض عنها هو ممن اتصف بالاستكبار والغرور، والحماقة والجهل، وشأن المستكبرين البعد عن دائرة الحق والخروج عن دواعي المنطق والعقل، والاسترسال في الغواية والأهواء، ومصادمة الحقائق، ولو تأمل المستكبرون من كفّار مكة وأمثالهم حقيقة القرآن، وترفعوا عن

الغرور، لكان خيراً لهم، ولو تفكروا في مستقبل الحياة بشيء من التعقل وبُعْد النظر، لبادروا إلى الإذعان لأوامر الله وعبادته وإعلان وحدانيته. قال الله تعالى مبيناً أمراض هؤلاء المستكبرين وشبهاتهم الباطلة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ(١) ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ(٢) كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ(٣) فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ(٤) وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ(٥) فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ(٦) ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ(٧) عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ(٨) مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ(٩) ﴿٢٩﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٢٤-٢٩].

تذكر هذه الآيات شبهات الذين لا يؤمنون بالآخرة، وينكرون النبوة، وهم مكذبون مستكبرون، والشبهة الأولى الخطيرة هي طعنهم في القرآن بأنه أساطير الأولين، أي أباطيل وترّهات القدماء. فإذا قيل لهؤلاء المتكبرين المكذبين الكافرين بالآخرة، وهم كفار مكة وأمثالهم: أي شيء أنزل ربكم؟ قالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الكلام المتلو علينا أكاذيب وخرافات المتقدمين.

والسائل هو من بعض المشركين كالنضر بن الحارث وأمثاله من أعداء القرآن. إنهم بوصفهم القرآن بالأساطير يؤول أمرهم ويصير قولهم لتحمّل أوزارهم وآثامهم كاملة غير منقوصة يوم القيامة، وتحمل أوزار الذين يتّبعونهم جهلاً بغير علم، فلا يعلمون

(١) أباطيلهم المسطرة في كتبهم. (٢) آثامهم. (٣) الدعائم. (٤) يذلهم بالعذاب. (٥) تخاصمون وتعادون الأنبياء فيهم. (٦) الذل والهوان. (٧) العذاب. (٨) أظهروا الاستسلام. (٩) مأواهم.

أنهم وقعوا في الضلال، بتقليدهم زعماء الكفر، ألا بئس شيئاً يحملونه من الذنب ذلك الذي يفعلون. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس حديثاً نصه: «أيما داعٍ دعا إلى ضلالة، فاتُّبع، فإن عليه مثلَ أوزار من اتّبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء، وأيما داعٍ دعا إلى هدى، فاتُّبع، فله مثل أجورهم، من غير أن ينقص من أجورهم شيء».

وهناك شبه بين الكفار القدامى والكفار الجدد في عصر النبوة، فلقد مكروا جميعاً لدين الله ورسله، واحتالوا لإطفاء نور الله، فأهلكهم الله تعالى في الدنيا، بتدمير مبانيهم من قواعدها، وإسقاط السقوف عليهم من فوقهم، وإبطال كيدهم، وإحباط أعمالهم، وإطباق العذاب عليهم من كل جانب، من حيث لا يحسون بمجيئه ولا يتوقعون حدوثه، قال ابن عباس: الإشارة بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ إلى نمرود الذي بنى الصرح ليصعد به إلى السماء على زعمه، فلما أفرط في علوه، وطوّله في السماء فرسخين-على ما حكى النقاش-بعث الله عليه ريحاً فهدمه، وخر سقفه عليه وعلى أتباعه، وهذا أيضاً يشمل جميع من كفر من الأمم المتقدمة ومكر، ونزلت به عقوبة من الله تعالى.

هذا عذابهم في الدنيا، ولهم عذاب آخر وهو أنه يوم القيامة يخزيهم، ويظهر فضائحهم، ويذلّهم إذلالاً دائماً، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى تقريعاً لهم وتوبيخاً: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ أي أين شركائي في زعمكم، أين آلهتكم التي عبدتموها من دوني وكنتم تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم؟ أحضروهم ليدفعوا عنكم العذاب.

قال العلماء المقرّون بالتوحيد لله: إن الذل والفضيحة والعذاب محيط اليوم بالكافرين الذين كفروا بالله، وأشركوا به ما لا يضرهم ولا ينفعهم. وهؤلاء

الكافرون تتوفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم، حالة كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والمعاصي والتعريض للعذاب، ولكن لما حضرهم الموت وعاينوا العذاب، أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ما كنا مشركين بربنا أحداً، وما كنا نعملُ شيئاً من السيئات، فكذبهم الله في قولهم ورد عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي لقد عملتم السوء كله وأعظمه، والله عليم بأعمالكم، فلا فائدة في إنكاركم، والله يجازيكم على أعمالكم، فادخلوا أبواب جهنم للاستقرار فيها، وذوقوا عذاب إشراككم بربكم، وأنتم خالدون ماكثون فيها إلى الأبد، وساء المقر مقر دار الهون، ومقام المتكبرين عن آيات الله تعالى واتباع رسله.

صفات المتقين وجزاؤهم

بعد أن ذكر الله تعالى صفات المكذبين بالقرآن، المستكبرين عن آياته، ذكر للمقارنة والموازنة صفات المؤمنين الذين يصدقون بالوحي الإلهي، وبالجزاء المرتقب في الدنيا والآخرة، بالإسعاد في الحياة، والظفر بمنازل الخيرات ودرجات السعادة في جنان عدن، والأشياء تتميز بأضدادها، فإذا كان جزاء المتكبرين عن عبادة الله والتصديق بما أنزل على رسله هو نيران جهنم، فإن جزاء المتقين الممتثلين أوامر الله هو نعيم الجنان، فيظهر الفرق جلياً بين الفريقين، ويتميز المحسنون من الأشرار، وهذا ما أبانته الآيات التالية:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل: ١٦/ ٣٠-٣٢].

لما وصف الله تعالى مقالة الكفار الذين قالوا عن القرآن: إنه أساطير الأولين، عادل ذلك ببيان مقالة المؤمنين أصحاب النبي ﷺ ، وأوجب لكل فريق ما يستحق، لتباين المنازل بين الكفر والإيمان.

وإذا قيل لأهل التقوى والإيمان بالله ورسوله والمحسنين أعمالهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ﴾ قالوا: أنزل الله في الوحي على نبينا خيراً، من أحسن في الدنيا بالطاعة فله حسنة في الدنيا، ونعيم في الآخرة، بدخول الجنة، ودار الآخرة خير من دار الدنيا، ونعمت الدار دار المتقين الذين أطاعوا الله واجتنبوا نواهيه.

أخرج الإمام أحمد ومسلم عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويُجْزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيعطى بحسناته في الدنيا، فإذا لقي الله عز وجل يوم القيامة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً».

والسائل للمتقين: هم الوافدون من المشركين على المسلمين في أيام المواسم والأسواق، فكان الرجل يأتي مكة، فيسأل المشركين عن محمد وأمره، فيقولون: إنه ساحر وكاهن وكذاب، فيأتي المؤمنين، ويسألهم عن محمد وما أنزل الله عليه، فيقولون: أنزل خيراً.

ثم وصف الله دار المتقين بأنها جنات عدن، أي إقامة، تجري بين أشجارها وقصورها الأنهار، ونعيمها دائم ميسّر غير ممنوع، وللمحسنين في الدنيا ما يتمنون ويطلبون في الجنات، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٧١] وهذا جزاء التقوى والمتقين، ومثل ذلك الجزاء الطيب، يجزى الله كل من آمن به واتقاه، وتجنَّب الكفر والمعاصي، وأحسن عمله، وهذا حث على ملازمة التقوى، وإغراءٌ للمتقين بالاستزادة من أعمال الخير.

وحال المتقين عند الاحتضار أو الموت على عكس حال الكفار والمشركين، تقبض الملائكة أرواحهم طاهرين طيبين من الشرك والمعصية وكل سوء، وتسلّم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة عند قبض الأرواح، تقول لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي سلام عليكم من الله، وأمان لا خوف، وراحة لا مكروه، ادخلوا الجنة التي أعدها لكم ربكم بسبب أعمالكم الطيبة وأفعالكم الخيرة الحسنة، ولما بشرتهم الملائكة بالجنة، صارت الجنة كأنها دارهم، وكأنهم فيها، وهي خاصة بهم، لا يشاركهم فيها غيرهم، وهذا مثل الوارد في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ عبارة عن صلاح حالهم واستعدادهم للموت، وهذا بخلاف ما قال الله تعالى في الكفرة: ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي بالكفر والشرك والضلال. و(الطيب): هو الذي لا خبث معه، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٣].

وقوله سبحانه: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تعبير عن قانون العدل، حيث جعل الله الأعمال أمارة لإدخال العبد الجنة، ولا يتعارض هذا مع الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما: «لا يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» . فهذا تعبير عن مقتضى الرحمة التي هي فوق العدل، ومن الرحمة أن يوفق الله العبد إلى أعمال برّة. والقصد من الحديث نفي وجوب ذلك على الله تعالى بالعقل، كما ذهب إليه فريق من المعتزلة، وإنما دخول الجنة بمحض فضل الله وإحسانه وتعميم رحمته.

تهديد المشركين بالعقاب

لقد كان مشركو مكة في أشد حالات العناد ومقاومة دعوة الرسول، والتحدي لأمره، دون مبالاة بعذاب إلهي، أو عقاب خطير، وكأنهم لم يتعظوا بأحداث الأقوام الغابرة الذين أنزل الله بهم ألواناً من عذاب الاستئصال، للعبرة والعظة، وحاولوا تعطيل إرادتهم ودورهم في اختيار الإيمان، ونسبوا الشرك لإرادة الله، وهو مجرد وهْم وافتراء، ونسبة للأمور لغير مصدرها الصحيح، وهذه آيات كريمة تصور مواقف المشركين وتماديهم في الباطل:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ[1] بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٣٣-٣٥].

هدد الله تعالى بهذه الآيات المشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا، ومضمون التهديد: ما ينتظر كفار مكة وأمثالهم في التصديق بنبوة النبي محمد ﷺ إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ظالمي أنفسهم، أو أن يأتيهم أمر ربك بعذاب الاستئصال في الدنيا، كإرسال الصواعق أو الزلازل، أو قيام الساعة، وما يتعرضون له من الأهوال. وهذا وعيد شديد، يقصد به حثهم على الإيمان بالله ورسوله قبل نزول العذاب. وهذا الموقف المعاند له شبيه بفعل أسلافهم من الأمم، الذين عوقبوا بحق، وليس ظلماً بوضع العقاب في غير موضعه، ولكنهم هم الذين

(١) أحاط.

ظلموا أنفسهم، بكفرهم بالله تعالى، وميلهم لعبادة الأصنام والأوثان. إنهم ظلموا أنفسهم، أي آذوها بفعلهم نفسه، وإن كانوا لم يقصدوا ظلمها ولا إذايتها.

لقد أصابهم جزاء عملهم في الدنيا والآخرة، ونزل بهم العقاب، وأحاط بهم العذاب، جزاءً بما كانوا به يستهزئون، بالسخرية من الرسل حين توعدوهم بعقاب الله تعالى. فقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فيه محذوف، يدل عليه الظاهر من الكلام، تقديره: جزاءً بما كانوا يكسبون أو يستهزئون.

والآية تتضمن شبهة أخرى لمنكري النبوة الذين طالبوا بإنزال ملَك من السماء، يشهد على صدق رسالة محمد ﷺ ، بعد شبهة الزعم بأن القرآن أساطير الأولين. ثم أجاب الله تعالى عن شبهة ثالثة لمنكري النبوة، تصور جدلاً من الكفار، وذلك أن أكثرهم كانوا يعتقدون وجود الله تعالى، وأنه خالقهم ورازقهم، ولكنهم زعموا أن شركهم بإرادة الله، فقالوا: يا محمد، نحن من الله بمرأى في عبادتنا الأوثان، واتخاذها زلفى تقرب إلى الله، ولو كره الله فعلنا لغيّره منذ مدة، إما بإهلاكنا، وإما بهدايتنا، ولو شاء الله الإيمان لآمنا، فكلٌّ من الإيمان والكفر من الله، ولا فائدة في مجيء الرسول، ويكون القول بالنبوة باطلاً، ومقصودهم بهذا الطعنُ بالنبوة.

وهذا الزعم أعلنه المشركون حينما لزمتهم الحجج الدامغة، وأفلسوا عن إيراد الجواب المعقول، وأضافوا قائلين: لو شاء الله ما حرّمنا بعض المواشي، كالبحيرة والسائبة والوصيلة وغير ذلك مما حرّموه، فيكون قولهم شاملاً أمرين: أنهم لو شاء الله ما عبدوا هم ولا آباؤهم غير الله، ولا حرموا شيئاً حال كونه من دون الله، والمراد ما حرموا شيئاً مستقلين بتحريمه.

ثم جاء الرد القاطع من الله على هذا الموقف الذي لا يتفق مع العقل والحقيقة في شيء، ومضمون الرد: هو أن الله تعالى ينهى عن الكفر ولا يرضاه لعباده، وقد

تذرع مَنْ قَبلَهم من الأمم بهذه الذريعة، وسبقهم إلى هذه النزعة الأولون من الكفار، والأمر ليس على ما ظنّوه من أن الله تعالى إذا أراد الكفر لا يأمر بتركه، بل قد أقام الله الأدلة لعباده، على صحة الإيمان والاعتقاد، وأرسل الرسل منذرين، وليس عليهم إلا البلاغ الواضح، وليس عليهم الهداية، والله تعالى لا يجبر أحداً على الهداية أو الضلالة، وإنما يختار الإنسان لنفسه ما يريد، والله سبحانه خلق للإنسان قدرة الاختيار، فلا يصح الاحتجاج بمشيئة الله، بعد أن خلق للناس من قدرة الاختيار ما يكفي.

إن التذرع بمشيئة الله لتسويغ الشرك والانحراف والعصيان شيء باطل، وعلم الله بوقوع الكفر وإرادته في وقوعه من إنسان شيء آخر لا صلة له بأصل الاختيار، فإن كل إنسان مسؤول عما يفعل و يختار، وهو يجهل مراد الله، فكان عليه التزام أوامر الشريعة واجتناب نواهيها، ولا يصح له الادعاء بأن الكفر والضلال داخل في مراد الله وعلمه.

مهمة الرسل في الأمم

تعدد إرسال الرسل في الأمم المختلفة، لمهمة مشتركة جوهرية، هي الدعوة إلى عبادة الله، وترك عبادة الأوثان، والإيمان بالبعث واليوم الآخر، وقد جاهد الأنبياء والرسل في إثبات هذه الأصول والمعتقدات، وبيان الأمور المختلف فيها، وتقرير الإرادة الإلهية النافذة التي توجد كل شيء بأمر الله وكلمته التكوينية، وهي: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

فآمن جماعة بهذه العقائد وضل آخرون، فخسروا الدنيا والآخرة.

قال الله تعال واصفاً هذه الأحوال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا

اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ(١) فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ(٢) عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ(٣) لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٣٦-٤٠].

أبانت هذه الآيات عموم بعثة الرسل لكل الأمم، فكانت سنة الله في خلقه إرسال الرسل إليهم، وتضمنت رسالاتهم الدعوة لعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة الطاغوت: وهو كل ما عبد من دون الله من الأوثان والأصنام، والبشر والكواكب، والشيطان وغيرها. فمن الأقوام من آمن وهداهم الله إلى الحق، ووفّقهم لتصديق الرسل، ففازوا ونجوا، ومنهم من كفر بالله وكذبوا رسله، وضلّوا الطريق، فعاقبهم الله تعالى. أما من هداه الله، فإنه نظر ببصيرته وسار في طريق الخير، وأما من حقت عليه الضلالة، وهي المؤدية إلى النار حتماً أو إلى عذاب الله في الدنيا، فإنه أعرض عن الحق وكفر واختار طريق الشر.

ثم أحال الله في توجيه علم الفريقين على الطلب في الأرض، فاسألوا أيها البشر عمن خالف الرسل، وكذب الحق، كعاد وثمود، كيف أهلكهم الله بذنوبهم، وانظروا كيف كان مصير المكذّبين رسلهم، لتعتبروا بعاقبتهم.

ثم آنس الله تعالى رسوله وواساه عما يقابل من جحود قومه، فقال له: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي: إن حرصك على هداية قومك لا ينفع، فإنها أمور محتومة، ولا يفيدهم حرصك إذا كان الله قد

---

(١) كل معبود باطل . (٢) ثبتت . (٣) أوكدها .

أراد إضلالهم بسوء اختيارهم، والله لا يهدي من قضى بإضلاله، وأساء الاختيار، وليس لمن اختاروا الضلالة ناصرون ينقذونهم من عذاب الله وعقابه؛ لأن أساس الحساب على الإيمان والكفر هو الاختيار، لا الإكراه والإلجاء.

ثم رد الله تعالى على شبهة خطيرة لمنكري النبوة، وهي إنكار البعث والحشر والنشر والحساب، فلقد أقسم المشركون كفار قريش، واجتهدوا في الحلف، وأغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت، أي إنهم استبعدوا البعث، وكذبوا الرسل في إخبارهم إياهم به، لأن الميت يفنى ويزول. ذكر أن رجلاً من المسلمين جاور رجلاً من المشركين، فقال في حديثه: «لا والذي أرجوه بعد الموت» فقال له الكافر: «أو تُبعث بعد الموت؟» قال: «نعم» فأقسم الكافر مجتهداً في يمينه أن الله لا يبعث أحداً بعد الموت، فنزلت الآية بسبب ذلك. وقوله تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ معناه بغاية جهدهم.

ردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ فأوجب بذلك البعث، وقرر وقوعه ثم أكده بمصدرين مؤكدين بقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي بلى، سيكون ذلك، ووعد به وعداً حقاً لا بد منه، ولكن أكثر الناس لجهلهم بقدرة الله خالفوا الرسل، ووقعوا في الكفر، وأكثر الناس في هذه الآية: هم الكفار المكذبون بالبعث. والبعث من القبور مما يجوّزه العقل، وأثبته خبر الشريعة على لسان جميع النّبيين.

وحكمة الله في البعث والمعاد هي ليبين الله للناس الحق الذي يختلفون فيه، ويقيم العدل المطلق، فيميز بين الخبيث والطيب، والعاصي والطائع، وقوله سبحانه: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ متعلق بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي بلى يبعث ليبين، وليعلم الكافرون الذين أنكروا البعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين في أيمانهم وأقوالهم وادعائهم أنه لا يبعث الله من يموت.

وقضية البعث سهلة مرجعها لقدرة الله تعالى الشاملة لكل شيء، فالله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، إذا أراد شيئاً من بدء الخلق والإعادة وبعث الأموات والمعاد، فإنما يتم بالأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء الله، دون عناء ولا تردّد، ولا بطء ولا تكلف، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٥٠].

حال مؤمني مكة في بدء الدعوة (المهاجرون إلى الحبشة)

كان الصراع شديداً وعنيفاً في مكة المكرمة في بدء الدعوة الإسلامية، بين كفار مكة الذين أقسموا أن الله لا يبعث من يموت، وبين مؤمني مكة المعارضين لهم، وهم الذين هاجروا إلى الحبشة، إيثاراً للسلامة، وبعداً عن الأذى والاضطهاد، فالكفار أنكروا البعث والقيامة، والمؤمنون آمنوا بكل ما جاء به الإسلام، وصبروا على إيذاء المشركين، وضحوا بأنفسهم وأموالهم وديارهم من أجل إعلاء كلمة الله. وقد أشاد القرآن بهم في الآيات التالية:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ(١) فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً(٢) وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ(٣) وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٤١-٤٤].

(١) لننزلنهم. (٢) الحسنة: عامة في كل أمر مستحسن يناله ابن آدم، ويشمل النصر على العدو، وفتح البلاد وتحقيق الآمال. (٣) كتب الشرائع.

الصحيح في سبب نزول هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ..﴾ في المهاجرين إلى أرض الحبشة في المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية، لأن هجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية، وتشمل الآية كل من هاجر أولاً وآخراً.

ومما لا شك فيه أن هؤلاء النخبة العالية من السابقين إلى الإسلام، لهم فضل كبير ومنزلة عظيمة، لمبادرتهم إلى الإيمان بدعوة النبي ﷺ في مبدأ الأمر، حيث قل الأتباع، وكثر الأعداء، واستبد الأقوياء بالضعفاء، وألجؤوهم إلى الفرار بدينهم، والهجرة من أوطانهم، انتصاراً لمبدأ التوحيد، وإعلاءً لكلمة الله، لذا استحقوا الخلود في تاريخ الأمة، وهو المراد بكلمة الحسنة عند بعض المفسرين، فهي لسان الصدق الباقي عليهم في غابر الدهر.

وكان جزاء هؤلاء المهاجرين عند ربهم إنزالهم في الدنيا منزلة حسنة، وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب، فتكون الحسنة التي أنعم الله بها عليهم: هي المنزلة الطيبة، والمسكن المرضي، والموطن الأصلح وهو المدينة، كما قال ابن عباس والشعبي وقتادة. وقال مجاهد: هي الرزق الطيب، قال ابن كثير: ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم، فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله، عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك أصبحوا سادة العباد والبلاد. ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾. أي: وثوابهم في الآخرة على هجرتهم أعظم مما أعطاهم الله في الدنيا، لأن ثوابه هو الجنة ذات النعيم الدائم الذي لا يفنى، ولو علم الكفار أن الله يجمع لهؤلاء المستضعفين المهاجرين، في أيديهم، الدنيا والآخرة، لرغبوا في دينهم.

لقد استحق هؤلاء المهاجرون هذه المنزلة العالية؛ لأنهم صبروا على أذى قومهم، وعلى مفارقة الوطن المحبوب، وهو حرم الله مكة، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في

سبيل الله، وعناء السفر ومتاعب الغربة، وتوكلوا على ربهم، وفوضوا أمورهم إليه، فأحسن عاقبتهم في الدنيا والآخرة.

وكان من بين هؤلاء المهاجرين إلى الحبشة أشرافُ المسلمين: عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت الرسول ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول، وأبو سلمة ابن عبد الأسود، في جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صدّيق وصدّيقة رضي الله عنهم وأرضاهم.

ثم رد الله تعالى على شبهة كفار قريش في بشرية الرسل، حيث استبعدوا أن يكون البشر رسولاً من الله تعالى، فأعلمهم الله مخاطباً رسوله محمداً ﷺ أنه لم يرسل إلى الأمم إلا رجالاً أوحى إليهم، ولم يرسل ملَكاً ولا غير ذلك. وقل لهم يا محمد: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أسألوا أحبار اليهود والنصارى الذين لم يسلموا، فإنهم يخبرون بأن الرسل من البشر.

لقد أرسل الله الرسل بالحجج والدلائل التي تشهد لهم بصدق نبوتهم، وبالكتب المشتملة على التشريع الرباني، وهي الزُّبر، أي الكتب، وكما أنزلنا الكتب إلى من قبلك يا محمد، أنزلنا إليك القرآن، لتبين للناس ما أُنزل إليهم من ربهم من الشرائع والأحكام والحلال والحرام وقصص الأنبياء والأمم الماضية التي أبيدت لتكذيبها الرسل، ومن أجل أن يتفكروا وينظروا في حقائق الكون وأسرار الحياة وعبر التاريخ، فيهتدون ويفوزون بالنجاة في الدارين.

وهذه حقيقة تشريعية وواقعية، فإن من آمن برسل الله الكرام، وبالكتب الإلهية المنزلة، وعمل بما أنزل الله، حظي بسعادة الدنيا والآخرة، وتلك هي النعمة العظمى والغاية الكبرى للإنسان العاقل.

تهديد الله أهل مكة الذين عادوا الإسلام

لا يتعجل الله سبحانه عادة بعقاب الكفار على كفرهم وظلمهم، وإنما يعطيهم الفرصة الكافية للنظر والتأمل، ومراجعة الحساب، وامتثال أوامر الله، فينذرهم مرة، ويحذرهم تارة، ويذكّرهم بمصير الظلمة العتاة الذين سبقوهم، وكل ذلك من أجل الحرص على صلاحهم وهدايتهم وتمكينهم من العودة القريبة لجادة الاستقامة وسلوك الطريق الأقوم، وهذا المنهج تقرره الآيات الكريمة التالية:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ(١) ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ(٢) فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ(٣) ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ(٤) فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ(٥) يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ(٦) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ(٧) وَهُمْ دَٰخِرُونَ(٨) ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾

[النحل: ١٦/ ٤٥-٥٠].

هذه آية تهديد لأهل مكة، في قول الأكثرين، ومعناها: أفأمن الكفار العصاة الذي يعملون السيئات ويمكرون بالناس في دعائهم إلى الضلال، ويسيئون إلى الرسول ﷺ، ويحاولون صد الناس عن الإيمان بدعوته، وهم أهل مكة، هل أمنوا أحد أمور أربعة؟

- أن يخسف الله بهم الأرض، كما فعل بقارون.

- أو أن يعجل الله لهم العذاب فجأة من حيث لا يشعرون به، كما صنع بقوم لوط.

---

(١) يغيّب. (٢) أسفارهم. (٣) فائتين من عذاب الله بالهرب. (٤) أي مع تخوف وتوقع للبلايا، أو تنقص في الأموال والأنفس والثمرات. (٥) جسم له ظل. (٦) تنتقل من جانب لآخر. (٧) منقادة لحكم الله. (٨) أي صاغرون منقادون.

- أو يأخذهم في تقلّبهم في الليل والنهار وفي أسفارهم ومتاجرهم واشتغالهم بالمعايش والمكاسب والملهيات، فلا يُعجزون الله على أي حال كانوا عليه.

- أو يأخذهم على جهة التخوف: وهو التنقص في الأموال والأنفس والثمرات، فإن الله تعالى لم يعجل بعذابهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة؛ لأنه رؤوف رحيم بعباده، فترك لهم فرصة يتمكنون من تلافي التقصير، واستدراك الأخطاء، والعدول عن الضلال. جاء في الحديث الصحيح: «لا أحدَ أصبرُ على أذىً سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم».

وهذه الإنذارات تتطلب التذكير بقدرة الله الشاملة والخارقة، لذا جاء التذكير بإبداع المخلوقات السماوية والأرضية، وهي ألم ينظر هؤلاء الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من شيء له ظل، من جبل وشجر وبناء وجسم قائم، تتميل ظلاله(١) من جانب إلى جانب، ذات اليمين وهو المشرق، وذات الشمال وهو المغرب، بكرة وعشياً، أي في الغداة أول النهار، وفي المساء آخر النهار، وتلك الظلال ساجدة لأمر الله وحده، والسجود: الانقياد والاستسلام، وهم صاغرون خاضعون منقادون لله، لأن الظلال تتحول من جهة المشرق إلى جهة المغرب، وهذا الانتقال دليل على القدرة الإلهية، وبعبارة أخرى: أو لم ينظروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال، متفيئة عن أيمانها وشمائلها، أي عن جانبي كل واحد منها وشقّيه، ترجع الظلال من جانب إلى جانب، منقادة لله، غير ممتنعة عليه، فيما سخرها له من التفيؤ، كما أن الأجرام المادية في أنفسها صاغرة منقادة لأفعال الله، لا تمتنع.

وهذا في الجمادات، ثم ذكر الله سجود الأحياء، فلله يسجد كل ما في السموات

(١) يتفيأ ظلاله في قراءة الجمهور، وقرأ أبو عمرو وحده: ((تتفيأ)). قال أبو علي الفارسي: إذا تقدم الفعل المسند إلى مثل هذا الجمع، فالتذكير والتأنيث فيه حسنان .

والأرض من الدوابّ والملائكة، والحال أنهم لا يستكبرون أبداً عن عبادته، وعن أي شيء كلفوا به، فهم في تذلل دائم وخضوع لله تعالى. يخاف هؤلاء الملائكة والدواب الأرضية المخلوقة ربهم المهيمن عليهم من فوقهم بالقهر والغلبة، ويفعل الملائكة كل ما يؤمرون به، فهم مثابرون على طاعته تعالى، وامتثال أوامره، وترك زواجره، وكذلك المؤمنون يأتمرون بأوامر الله بحسب الشرع وواجب الطاعة، وأما غير المؤمنين من الحيوان فيأتمرون بالتسخير والقدر الذي يسوقهم إلى أمر الله.

والمراد بالفوقية: علو الرتبة والشرف، والقدرة والهيمنة.

إن المقصود من هذه الآيات: هو أنه على أهل مكة الماكرين بالنبي وبالمؤمنين أن يحذروا عقاب الله، فإن الله قادر على تعذيبهم عاجلاً أو آجلاً، ودليل قدرته وعظمته وكبريائه خضوع كل شيء له في السماوات والأرض، من جماد ونبات وحيوان وإنس وجنّ وملائكة.

وإن تبدل أحوال الكائنات وتغير أوضاعها من زيادة ونمو ونقص، وارتفاع وانخفاض، واتساع وضيق، دليل على أن الله الذي كونها على هذا النحو، أراد بذلك التذكير بالمتصرِّف فيها، والمبدِّل لأحوالها، وليكون ذلك لخير الإنسان وتمتعه بأوصاف الكمال والجمال الإلهي، لأن ثبات الشيء على حال واحدة مملّ وممجوج، وفي التغير حركة مسلّية وتذكير بقيمة الوقت وحقائق الأشياء.

النهي عن تعدد الآلهة

الدعوة إلى توحيد الله، والنهي عن الشرك والإشراك بالله هو جوهر الدعوات التي جاء بها النبيون في مراحل التاريخ المتعاقبة؛ لأن الشرك باطل ومنافٍ للواقع، وهو وكر الخرافات والأوهام والأباطيل، ويتنافى مع كرامة الإنسان وعزته وصلته

بربه، فالواجب عبادة الله وحده واتقاؤه، والتماس الخير والنفع، ودفع الشر والضرر منه وحده دون غيره، ولا سيما في أوقات الأزمات والمحن، مع الحفاظ على نعمة الشكر لله دون كفران النعمة بعد توافرها، قال الله تعالى مبيناً هذه الأصول:

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ(١) أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ(٢) ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٥١-٥٥].

هذه الآيات نهي صريح قاطع من الله تبارك وتعالى عن الإشراك به، وتقرير واجب لمبدأ توحيد الله، والالتزام بمقتضياته من عبادته وحده، وشكره على نعمه وأفضاله. ومعناها: لا تتخذوا إلهين اثنين، وكلمة ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ تأكيد للتنفير من التعدد، أي لا تتخذوا لي شريكاً، ولا تعبدوا سواي، فمن عبد مع الله إلهاً غيره، فقد أشرك به، إنما الله إله واحد، ومعبود واحد، فإياه فارهبوا أيها البشر، وخافوا عقابه بالإشراك وعبادة سواه. ويكون المبدأ الأصيل في الدين: هو أن لا إله إلا الله، وأن العبادة لا يستحقها غيره.

ولما كان الإله الحق واحداً، والواجب لذاته في العبادة واحداً، كان كل ما سواه من الأشياء مما يعقل وما لا يعقل، حاصلاً بخلقه وتكوينه وإيجاده، فلله جميع ما في السموات(٣) والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً، فهو خالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم، وهم عبيده ومملوكوه، وله الدين واصباً، أي له الطاعة والانقياد والملك والعبادة على سبيل الدوام والاستمرار، وبعد أن عرفتم أن إله العالم واحد، وعرفتم

---

(١) أي له الطاعة والإخلاص دائماً واجباً خالصاً. (٢) أي تضجون بالدعاء. (٣) السموات هنا: كل ما ارتفع من الخلق في جهة فوق، فيدخل فيه العرش والكرسي.

أن كل ما سواه محتاج إليه في وقت إحداثه وفي وقت بقائه وحياته، فكيف يتقى غير الله أو يرهب غير الله تعالى؟!

وإذا كان الواجب ألا يتقى غير الله، فالواجب ألا يشكر غير الله، لأنه ما من نعمة بنا من إيمان وسلامة جسد وعافية، ورزق ونصر ونحو ذلك، إلا وهي من الله عز وجل، ومن فضله وإحسانه.

ومفاد الآية: أن على العاقل ألا يخاف ولا يتقي أحداً إلا الله، وألا يشكر أحداً بحق إلا الله تعالى، لأن جميع النعم من الله عز وجل.

وإذا تعرض الناس لسوء أو ضرر في النفس من مرض أو خوف أو مشقة ونحو ذلك، فإلى الله يلجؤون ويضجون بالدعاء والسؤال لتفريج الكرب وإزالة الهم، للعلم بأنه لا يقدر على إزالته إلا الله تعالى.

فإذا كشف الله الضر، وزال الخوف، وتحققت السلامة والنعمة، وانقسم الناس فريقين، فريق منهم بقي على الإيمان والشكر لله، وفريق نسي النعمة، فأشرك بالله غيره في العبادة. وهذا الفريق هم المشركون الذين يرون أن للأصنام أفعالاً من شفاء المرضى وجلب الخير ودفع الضر، فهم إذا شفاهم الله مثلاً من أمراضهم، عظموا أصنامهم، وأضافوا ذلك الشفاء إليها، وهذا مثار عجب واستغراب، فهم في الشدة يضرعون إلى الله، وفي الرخاء ينسون جانب الله سبحانه.

ويصير أمر هؤلاء المشركين الوقوع في الكفر والضلال، وإن لم يقصدوا بأفعالهم تلك أن يكفروا، والأظهر أن الكفر هنا كفر النعمة، لذا استحقوا الوعيد والتهديد، فقال الله لهم: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي اعملوا بما شئتم، وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً في الحياة الدنيا، فسوف تعلمون عاقبة تمتعكم، وما ينزل بكم من العذاب، وتدركون حينئذ سوء ما أنتم عليه. وهذا الأمر المراد به التهديد كثير في آيات القرآن

الكريم، مثل آية: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ١٨/٢٩] وآية: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ [الإسراء: ١٧/١٠٧] وليس هذا على سبيل التخيير، وإنما يراد به الوعيد والتهديد. ومعنى التمتع في هذه الآية: «فتمتعوا» الاستمتاع والانتفاع بالحياة الدنيا التي مصيرها إلى الفناء والزوال.

والغاية من الآيات: الإقرار الدائم بوحدانية الله، لأنه هو الخالق ومالك السماوات والأرض، فيستوجب العبادة لله وحده، والشكر له وحده، لأنه ما من نعمة على المخلوق إلا والله هو المنعم المتفضل بها، وما من محنة إلا والله هو المفرج للكرب منها، فهو الرؤوف الرحيم بعبده.

عقيدة المشركين في الأصنام والملائكة والبنات

إذا ساء الاعتقاد بالشيء ساء التصرف، وإذا حسن الاعتقاد حسن التصرف، ودليل هذا القانون أن المشركين الوثنيين الذين يعبدون الأصنام والأوثان لا تستند عقيدتهم فيها إلى منطق أو رأي مقبول، وكل ما يستندون إليه هو تقليد الآباء، فهانت أنفسهم وتصرفوا تصرفات بدائية عجيبة لا يدركون فيها سوء فعلهم وانتفاء النفع من أعمالهم، أما المؤمنون الذين آمنوا بالإله الخالق المنعم، فتراهم يفعلون الأفعال بما ينبئ عن حسن التّصرف، ويتّفق مع المنطق والحكمة والواقع، وقد أورد القرآن دليل الشقّ الأول من هذا القانون في الآيات التالية:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ[١] ﴿٥٦﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا

(١) تكذبون على الله.

وَهُوَ كَظِيمٌ(١) ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ(٢) مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ(٣) أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٥٦-٥٩].

هذه الآيات تبين فضائح العرب المشركين، وأعمالهم السيئة التي لا يقرها المنطق السوي، لعلهم يرجعون ويثوبون إلى رشدهم، وهنا ألوان ثلاثة من أقوالهم وتصرفاتهم القبيحة:

أولاً -أنهم من غير حجة ولا برهان صحيح مقبول يجعلون للأصنام، أي للجمادات نصيباً من رزق الله، حيث يذبحون لأصنامهم، ويُهدون إليها الهدايا، ويقسمون لها من الغلات والنتاج، فهم لا يدركون أن الأصنام لا تضر ولا تنفع، وهم بهذا أجهل الجاهلين، مما اقتضى الإنكار عليهم لمصلحتهم في آيات قرآنية كثيرة، منها ما ذكر هنا، ومنها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٦].

ثم توعدهم الله تعالى على أفعالهم هذه وأمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يُقسم لهم أنهم سيسألون عن افترائهم الباطل، وسيجازون عليه أتم الجزاء في نار جهنم، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٢-٩٣].

ثانياً- من قبائح قول الكفار أنهم يقولون: «الملائكة بنات الله» وعبدوها مع الله سبحانه، أي تنزه عن الولد والشريك، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ١٩] فأخطؤوا خطأ كبيراً إذ نسبوا إليه تعالى

(١) أي ممتلئ غماً وحزناً. (٢) يستخفي. (٣) أي هوان وذل وبلاء.

الولد، ولا ولد له، ثم أعطوه أخسّ القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، لإيثارهم نسبة الذكور إليهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٥٣/٢١-٢٢]. أي جائرة. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي إنهم يختارون لأنفسهم البنين، ويأنفون من البنات التي نسبوها إلى الله تعالى.

ثالثاً- ومن قبيح أفعال المشركين أنه إذا بشر أحدهم بولادة الأنثى، ظل وجهه مسوداً، أي كئيباً عابساً من الهم، وهو كظيم، أي ساكت من شدة الحزن والهم. يتوارى من القوم، أي يكره أن يراه الناس، من سوء ما بشّر به وهو الأنثى، وهو متردد بين أمرين: أيمسك المولود الأنثى على هوان وذلّ وعار وكراهة فقر، لأنها لا تغزو كالولد الفتى، أم يدفنها في التراب وهي حيّة، وذلك هو الدس في التراب أو الوأد المعروف المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨١/٨-٩]. ألا بئس ما قالوا، وما قسموا وما نسبوا لله تعالى، فإن رزق جميع الأولاد والمخلوقات على الله تعالى. والتبشير في أصل اللغة: هو الخبر الذي يؤثر في تغير بشرة الوجه، سواء في حال السرور أو في حال الحزن، وعرفاً يستعمل في الخبر السار.

هذه هي الألوان الثلاثة من سوء أفعال المشركين وحكمهم: وهي عبادة الأصنام والتقرب إليها بالذبائح، ونسبة البنات إلى الله، والتبرم والتسخط بولادة الأنثى، وهي نماذج من عقيدة الشرك التي تؤدي بأصحابها إلى مثل هذه القبائح والأحكام الجائرة التي تتنافى مع أصول الحضارة الإنسانية، وتدلّ على انحدار الفكر، وضعف العقل، وفساد الرأي. لذا جاء الإسلام بشرعه يهدم هذه الأفكار، ليقيم بذلك حضارة صحيحة تقوم على التوجه نحو الله وحده لا شريك له، وتحترم الإنسان أياً كان، ذكراً أم أنثى.

اتصاف المشركين بصفة السوء

على الرغم من انحطاط مستوى الشرك والمشركين، يوازن الله تعالى بين ما هم عليه من أوصاف السوء والشَّبه القبيح، وبين ما عليه الرب ذاته من الوصف الأعلى والكمال المستقر المتنزه عن أي شريك أو شبيه أو ولد، ومع هذه المقارنة، يحلم الله على الظلمة من الناس، الذين يكفرون به فلا يعجل بإنزال العقاب عليهم، وإنما يؤخرهم لأجل آخر معين في علمه وتقديره، وحينئذ يأتي العذاب الشديد بعد الإمهال وفوات الأوان من غير استفادة من الفرص الفائتة، وهذا ما وصفته هذه الآيات الكريمة:

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ[1] وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ[2] لَا جَرَمَ[3] أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ[4] (٦٢)﴾ [النحل: ١٦/ ٦٠-٦٢].

تصف هذه الآيات مواقف المشركين في الجملة، فهم بعدم تصديقهم بالآخرة وما فيها من حساب وعقاب وجنة ونار، لهم مثل السوء، والصفة التي لا أسوأ منها في القبح، فضلاً عن نسبتهم البنات لله تعالى، وكراهة الإناث ووأدهن خشية الفقر أو الإملاق، والإقرار على أنفسهم بالشح البالغ. ولله تعالى الصفة العليا والكمال المطلق، فهو الإله الواحد المنزه عن الولد والوالد والشريك، وهو الغني عن العالمين، والمنزه عن صفات المخلوقين، وهو الجواد الكريم، والبَرّ الرؤوف الرحيم، وهو سبحانه العزيز، أي القوي الذي لا يُغلَب، الحكيم في صنعه الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة السديدة، ووضع الأمور فيما يناسبها.

---

(١) صفته القبيحة. (٢) أي: الجنة. (٣) حقاً أو لا محالة. (٤) أي: متروكون في النار، مقدَّمون إليها.

واقتضت رحمته تعالى أن يمهل الكفار، ولا يعاجلهم بالعقاب، ويحلم على سوء تصرفاتهم وظلمهم، فلو أنه يؤاخذهم بذنوبهم ومعاصيهم ويعاقبهم على جرمهم على الفور، ما ترك على ظهر الأرض من دابة، وأهلك جميع دواب الأرض، تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكنه جل جلاله ستّار غفور رحيم، يؤخرهم إلى أجل مسمى، فلا يعجل لهم العقوبة، لأنه لو فعل ذلك بهم، لما أبقى أحداً.

روى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: بلى والله، حتى إن الحُبَارى لتموت في وكرها بظلم الظالم.

فإذا حان أجل العقاب والهلاك والعذاب، وذلك بحسب مقتضى الحكمة، فلا يستأخرون ساعة، ولا يتقدمون قبله، حتى يستوفوا أعمارهم. روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذُكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة، يرزقها الله العبد، فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر».

ثم يؤكد الله تعالى سوء فعل المشركين حين ينسبون إلى الله ما يكرهون لأنفسهم من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيد الله، وهم يأنفون أن يكون لأحدهم شريك في ماله. ويكذبون في دعواهم أن لهم العاقبة الحسنة في الدنيا، وفي الآخرة، وهي الجنة على هذا العمل. روي أنهم قالوا: إن كان محمد صادقاً في البعث، فلنا الجنة بما نحن عليه، فردّ الله عليهم مقالهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي حقاً أن لهم النار التي تحرقهم، وأنهم متروكون فيها، أو معجل بها إليهم، وهم في العذاب باقون.

ومعنى الآية بإيجاز: يجعلون لله المكروه، ويدّعون مع ذلك أنهم يدخلون الجنة،

كما تقول لرجل: أنت تعصي الله، وتقول -مع ذلك-: إنك تنجو، أي إن ذلك لبعيد مع هذا.

إن مثل هذا التفكير هو شأن المغرورين الحمقى الذين نجدهم في كل زمان ومكان، إنهم مقصرون في طاعة الله تعالى، متجاوزون للحد في معاصي الله، ثم يتأملون أنهم في الجنان، وأنهم ناجون غير محاسبين، وهذه صفة الأبله والأحمق الذي لا يدرك ما يقول.

وعيد المكذبين للرسل

لم يهمل الله أمة من الأمم في بيان طريق إسعادها واستقامتها، فأرسل لهم الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين، ومرشدين إلى الحق والطريق الأقوم، ولكن الأمم في الغالب كذبوا الرسل وعادوا منهج الإصلاح، وصبر الأنبياء في تبيان مهامهم وإيضاح وحي ربهم وكتبه، وردِّ الشبهات التي يوردونها، ومجادلتِهم بالحسنى وإقناعهم بالكلمة الطيبة، ولم يختلف منهج رسولنا محمد ﷺ عن هذه الخطة، وكان له أسوة بمن سبقه، قال الله تعالى مبيناً موقف الأمم من الرسل وتبليغ الرسل وحي الله تعالى:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٦٣-٦٤].

هذه الآية لضرب المثل بالأمم الماضية، تتضمن الوعيد والتهديد لهم ولمن سار على منوالهم، وهي أيضاً تأنيس للنبي ﷺ بعقد المقارنة أو الموازنة بين موقف قومه ومواقف الأمم السابقة، فلا داعي لإيقاع نفسه في دائرة الهموم والأحزان بسبب صدود قومه عن رسالته، وجهالتهم وعنادهم.

والمعنى: والله، لقد أرسلنا رسلاً إلى الأمم الخالية من قبلك، فكذبت الأمم رسلها، وحسَّن لهم الشيطان أعمالهم من الكفر وعبادة الأوثان، فيكون الشيطان ولي الكفرة المشركين في اليوم المشهود، وهو يوم القيامة وقت الحاجة والفصل، أي إنه قرينهم في النار في هذا اليوم، ويكون للشيطان وأتباعه عذاب مؤلم شديد بسبب اشتراكهم في عصيان الله. والسبب في ذلك: أن أعداء الرسل والهداية الربانية في الأمم السابقة اتخذوا الشيطان ناصراً لهم في الدنيا، بحسب زعمهم، وحسبوا أن الشيطان ينقذهم من العذاب وهو في الواقع يغرهم و يخدعهم ويسوقهم إلى العذاب، فلا تنفعهم ولايته ونصرته.

والعبرة من حكاية هذا الواقع للأمم الماضية تأنيس النبي عليه الصلاة والسلام، فلا يحزن على تكذيب قومه له، فله أسوة بالمرسلين من قبله، وعليه أن يترك المشركين الذين كذبوا الرسل في غيّهم وضلالهم، فإنما وقعوا فريسة لتزيين الشيطان لهم ما فعلوه.

ولكن العدل الإلهي والرحمة الربانية اقتضيا ألا يكون هلاك وعقاب في الدنيا إلا بعد بيان الحجة وإقامة البرهان على الاعتقاد الحق والإيمان الصحيح، فقال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ ..﴾ أي: إنما أنزلنا عليك القرآن لهدف واضح، وهو أن تبين للناس الذي يختلفون فيه في العقائد والعبادات، فيعرفوا الحق من الباطل، والقرآن العظيم هو كلمة الفصل، والقرار الحاسم بين الناس فيما يتنازعون فيه، وهو هدى للقلوب الحائرة، والرحمة الشاملة لقوم يصدقون به، ويتمسكون بتعاليمه وشرائعه، ويلتزمون منهجه في الحياة والآداب والأخلاق، ولا يحيدون عن توجيهاته، والعمل في فلكه ومقاصده وغاياته، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِى لِلَّتِى هِىَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ

يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝١٠﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩-١٠].

إن مجيء الرسل وإكمال مهمتهم برسولنا وما أنزل الله معهم من الكتاب والحكمة، والشريعة والمنهج، كان الكلمة الفاصلة، والقرار الحاسم في قسمة الناس إلى فريقين: الفريق الأول الذين كذبوا الرسل، لتأثرهم بوساوس الشياطين وإغواءاتهم، وهؤلاء خسروا الدنيا والآخرة.

والفريق الثاني الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وأحسنوا العمل، واستقاموا على أمر الله ومنهاجه، وهؤلاء هم أهل السعادة والطمأنينة، في الدنيا براحة النفس، وفي الآخرة بالخلود الأبدي في جنات النعيم. جعلنا الله من هذا الفريق، وهدى الذين أعرضوا عن هداية الله إلى ما فيه خيرهم ونجاتهم. وهذا يدل على أن الأنبياء جميعاً يدعون إلى ناحية الخير والروح في الإنسان، والشيطان دائماً يعاند ويستغل ناحية المادة في الإنسان.

ألوان النعم الإلهية

في سورة النحل سورة النِّعم عدّد الله تعالى ألواناً من النّعم العظيمة من أجل خير الإنسان وانتفاعه بثمرات الكون، وتضمن هذا التعداد الإرشاد لبيان مظاهر قدرة الله سبحانه، وإثبات وجوده وتوحيده، لأن خلق النّعم وسائر الأفعال الصادرة عن الإنسان إنما هي من الله تعالى، لا من الأصنام وطواغيت الأوثان والمعبودات من دون الله، فهي مخلوقة لا خالقة، وعاجزة غير قادرة على شيء من الإبداع والخلق، قال الله تعالى مبيناً هذه البراهين على ألوهيته:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ۝٦٥ وَإِنَّ

لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً(١) نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ(٢) مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ(٣) وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا(٤) وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا(٥) وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(٦) ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ(٧) يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٦٥-٦٩].

هذه طائفة جليلة من النعم الإلهية لإثبات أمرالربوبية:

وأولها نعمة المطر التي هي أبين العِبَر، وهي مِلاك الحياة، وفي غاية الظهور، لا يخالف فيها عاقل، فالله سبحانه أنزل المطر من السماء، ليكون سبباً لحياة الأرض بإنبات الزرع والشجر والثمر، بعد أن كانت الأرض هامدة غبراء غير مُنْبتة، فهي كالميت، فتصبح كالحي بالمطر منبتة مخضرة مهتزة رابية، وهذا واضح ظاهر، لذا ختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي إن الأمر لا يحتاج إلى تفكر، ولا نظر قلب، أو تأمل، وإنما يحتاج الإنسان المنبَّه إلى أن يسمع القول فقط.

والنعمة الثانية: هي خلق الأنعام، وهي أصناف أربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز، ففيها عبرة وعظة دالة على قدرة الله تعالى، ورحمته، ولطفه بعباده، حيث سخر للبشر هذه الأنعام، يستقون من ألبانها الخالصة من الشوائب، والسائغة الشرب في الحلق، دون غصص، وهي غذاء كامل، لذيذ الطعم، سهل الهضم، خلقها الله، أي الألبان مميزة، غير مختلطة بما جاورها من فرث (زبل يملأ الكرش والأمعاء) ودم محيط بها. كما أن في الأنعام فوائد أخرى كثيرة حيث يستفاد من

(١) لعظة ودلالة على قدرة الله. (٢) أي بطون الأنعام، فالضمير عائد على الجنس، وعلى المذكور، والأنعام: الإبل والبقر والضأن والمعز. (٣) الفرث: خلاصة المأكول في الكرش والأمعاء. (٤) خمراً ثم حرمت بالمدينة. (٥) أوكاراً. (٦) مما يبني الناس من الخلايا. (٧) مذلّلة مسهلة.

أوبارها وأصوافها، ويتخذ بعضها وسائط للركوب والحرث (شق الأرض) ويؤكل لحمها بعد الذبح.

والنعمة الثالثة: هي ثمرات النخيل (التمور) والأعناب التي تؤكل طازجة، ويتخذ منها الدبس والخل، والنبيذ (الخشاف). أما المسكر منه فحرام، فيما استقر عليه التشريع القرآني، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٠].

فقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أصبح منسوخاً بآية المائدة المذكورة، وصار جميع ما يسكر حراماً، قليله وكثيره، ويحد شاربه، وختمت الآية بما يدعو للتأمل والتفكر وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن في تلك الأشربة والمآكل لآية واضحة على عظمة الإله الخالق، لقوم يستخدمون عقولهم في النظر والتأمل في الآيات، حيث يحتاج الإنسان إلى وعي وإدراك لعظمة فعل الله، من تحويل الأكل المهضوم إلى لبن سائغ الشراب، وإلى ظهور ثمرة النخيل والعنب من التراب والماء؟!!

والنعمة الرابعة: هي نعمة غذاء العسل وشرابه، فالله سبحانه ألهم النحل وركّز في غريزتها وطبعها كيفية بناء الخلايا العجيبة، ذات الأشكال السداسية الهندسية البديعة والمتناسقة، في كهوف الجبال، وأحضان الشجر، وعرائش البيوت والكروم، ثم قيامها بامتصاص رحيق الأزهار والثمار العديدة التي تتجاوز مليون زهرة لصنع كيلو عسل مثلاً، وبعد قيامها بهذه العملية تسلك الطريق التي ألهمها الله في صنع العسل، وطلب الثمار المناسبة، والعودة بسلام في طرق تختارها ولا تخطئها لتصل إلى الخلايا، وهي تسير ذُلُلاً، أي مطيعة منقادة لما يُسِّرت له. والعسل شراب مختلف الألوان، فمنه الأبيض والأحمر والزهر والأصفر، وفيه شفاء للناس من كثير من

الأمراض، إن في ذلك الصنيع لدلالة واضحة على قدرة الله وعجيب خلقه لقوم يتأملون ويتفكرون في صنع الخالق.

أحوال الناس الدالة على قدرة الله

أقام الحق سبحانه وتعالى أدلة كثيرة على وجوده وقدرته ووحدانيته، منها نعمة المطر، وتسخير الحيوان، وإيجاد الزروع والثمار، وخلق النحل لصنع العسل، كما تقدم، ومنها عجائب أحوال الناس من الإيجاد بعد العدم، والشيخوخة والهرم، والإماتة بعد الإحياء، والبعث بعد الموت، والتفاضل في الأرزاق، وشح الناس في إخراج الزكاة للفقراء والمحتاجين، وخلق الزوجات من جنس الأزواج، وإنجاب الذرية والأولاد والأحفاد، ورزق الطيبات، وجحود نعم الله والإيمان بالباطل. قال الله تعالى واصفاً هذه العجائب من أحوال الناس:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ[1] ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ[2] أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً[3] وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٧٠-٧٢].

إن تغير العالم وما نشاهده من أحداث وتقلبات كونية وإنسانية لدليل واضح على قدرة الله وألوهيته، وهذا مشهد آخر في الإنسان ذاته، بعد مشهد المطر والنبات والحيوان، يدل على عظمة الله وقدرته وتوحيده، وللإنسان أحوال عجيبة:

(١) أردئه وهو الخرف والهرم. (٢) أي فهم في الرزق مستوون. (٣) أولاد أولاد.

أولها: تفاوت مراتب عمره وتدرّجه من مرحلة الطفولة والشباب إلى مرحلة الكهولة والشيخوخة، فالله سبحانه أوجد الناس جميعاً، وهم كلهم بنو آدم، بعد أن لم يكونوا شيئاً، ثم يتوفاهم حين انتهاء الأجل، ومنهم من يهرم ويصير في أرذل العمر، وهو حال الخرف وقلة الحفظ والعلم، وقد يفقد كل شيء من العلوم التي تعلمها، ويصبح جاهلاً كما كان وقت الطفولة، إن الله واسع العلم بكل شيء، عظيم القدرة على كل شيء، فلا يغيب شيء عن علمه، ولا يعجزه شيء أبداً، ورُبَّ من يكون ابن خمسين سنة، وهو في أرذل العمر، ورُبَّ ابن مئة أو تسعين وهو كامل الذاكرة والعقل، وليس في أرذل عمره.

والحال الثانية للإنسان بعد تفاوت الأعمار: هي التفاوت في الأرزاق، فالله تعالى لحكمة جليلة ومصلحة للإنسان نفسه جعل الناس متفاوتين في الأرزاق، فمنهم الغني والفقير والمتوسط، وهذا التفاوت اختبار الأغنياء، وقيامهم بواجب التكافل والتعاون ومساعدة الفقراء، ولكن مع الأسف يحرص الناس على الشح والبخل، فما الذين فضلوا بالرزق وهم السادة الملاك بجاعلي رزقهم شركة على قدم المساواة بينهم وبين أتباعهم، وإذا لم يرضوا بالمساواة، مع غيرهم، وهم أمثالهم في الإنسانية، فكيف يسوون بين الخالق والمخلوق، وبين الخالق وهذه الأصنام التي يجعلونها شركاء مع الله؟! إنهم بهذا يتنكرون للحقائق، ويجحدون النعم الإلهية، فكيف يليق بعقولهم أن يشركوا بالله بعبادة الأصنام، ويجحدون نعم الله عليهم؟! فمن أثبت شريكاً لله، نسب إليه بعض النعم والخيرات، فكان جاحداً لكونها من عند الله تعالى؟!

والحال الثالثة للإنسان: وجود التزاوج بين الذكر والأنثى، جاعلاً الله الزوجات من جنس الأزواج، لتحقيق الأنس والانسجام والائتلاف، وقضاء المصالح،

وجاعلاً الله للزواج ثمرة مباركة محببة لكل إنسان: وهي نعمة إنجاب الأولاد والأحفاد، وأنعم الله على جميع خلقه بطيبات الرزق في الدنيا، من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومركب ونحوها مما يكون لذيذاً من الأشياء التي تطيب لمن يُرْزَقها.

ولكن العجب من الإنسان حيث يصدق بعضهم بالباطل، وهو أن الأصنام شركاء لله في النفع والضرر، وأنها تشفع عنده، وأن الطيبات التي أحلها الله لهم كبعض المواشي حرام عليهم، حلال للأصنام، وبعض المستخبثات كالميتة والدم ولحم الخنزير والمذبوح على الأصنام حلال لهم، وهذا يقتضي التوبيخ على تلك الأحكام الباطلة، وهم في هذا كله يجحدون نعم الله الجليلة، وينسبونها إلى غير خالقها من صنم أو وثن، ويسترون نعم الله عليهم، فهم كفرة نعمة وكفرة دين.

مثلان حسّيان للأصنام والأوثان

كانت حملة القرآن الكريم على الأصنام والأوثان عنيفة شديدة، لأنها لا تتفق مع كرامة الإنسان، ولا تنسجم مع العقل السوي، وينبغي تصفيتها من معجم البشرية، والاتجاه نحو عبادة ما ينفع ويمنع الضر، وهو الله الإله الواحد الذي لا شريك له ولانِدّ ولا نظير، لذا استحق الكفار الوثنيون التوبيخ والتأنيب على عبادة الأصنام، كما أنزل الله تعالى في كتابه في الآيات التالية:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ
(٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا
يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ[1] لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ[2] عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٧٣-٧٦].

هذه آيات تقريع للكفار وتوبيخ، وإظهار لفساد نظرهم، وتركيز على مورد الحياة، ورزق الناس، وعلى ما يتوجه سعيهم إليه، واهتمامهم به، فهذه الأصنام لا تملك توفير الرزق لعبدتها، فلا تستطيع إنزال المطر ولا إنبات النّعمة، وعبدة الأوثان يعبدون مع الأسف أشياء من دون الله، لا تملك إنزال رزق من السموات، ولا إخراجه من الأرض، ولا تستطيع فعل شيء، فآية ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ نفي الملك وتحصيل الملك، ومن لا يملك شيئاً وهي الأصنام، ليس في استطاعتها تحصيل الملك، أي: إنها لا تملك شيئاً ولا تستطيع تمليك شيء.

والنتيجة لذلك أنكم أيها الوثنيون، لا تجعلوا لله أنداداً وأشباها وأمثالاً، ولا تشبّهوه بخلقه، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لا تمثّلوا لله الأمثال. وإن الله يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم أيها البشر الوثنيون بجهلكم تشركون به غيره.

وبعد أن نهى الله تعالى عن الإشراك، ذكر مثلين حسيين للأصنام:

الأول -﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا . .﴾ المثال هنا عَبْدٌ بهذه الصفة مملوك لسيّده، لا يقدر على شيء من المال، ولا من أمر نفسه، وإنما هو مسخّر بإرادة سيده، مدبَّر، وفي مقابل هذا العبد: رجل موسَّع عليه في المال، فهو يتصرف فيه بإرادته، وينفق منه سراً وعلانية، والعبد العاجز: هو مثل الصنم العاجز، والرجل الميسور صاحب المال مثل الإله القادر، وبما أنه لا يستطيع أن يسوّي أحد بين الشخصين: العبد والحر، ولا يجهل الفرق بينهما، إلا كل غبي، فكيف يسوَّى بين الإله القادر

(١) أخرس خلقة . (٢) عبء وعيال .

على الرزق والإنفاق، وبين هذه الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء أصلاً؟ إن التسوية بينهما ضرب من الحماقة والجهل والاستحالة، لذا قال الله تعالى بعدئذ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي الحمد التام الكامل لله، والثناء الشامل لله، والشكر الجزيل لله المنعم، ولكن أكثر أولئك الكفار الذين يعبدون الأصنام لا يعلمون الحق فيتبعوه، ولا يعرفون المنعم الحقيقي، فيخصونه بالتقديس والعبادة..

والمثل الثاني -﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ..﴾ هذا مثل آخر يؤكد الأول وهو أن الله تعالى ضرب مثلاً لنفسه وللوثن وغيره من الآلهة المعبودة مثل رجلين:

أحدهما -أبكم لا ينطق ولا يتكلم بخير ولا بشيء، ولا يقدر على شيء متعلق بنفسه أو بغيره، وهو عالة على مولاه الذي يعوله، أينما يوجهه لا يحقق خيراً مطلقاً، لعدم فهمه ما يقال له، ولا إفهام غيره.

والثاني -رجل كامل المواهب والحواس، ينفع نفسه وغيره، يأمر بالعدل، ويسير على منهج الحق والطريق القويم والدين الصحيح، هل يستوي هذان الرجلان؟ الأول-عديم النفع، وهو كالصنّم لا يسمع ولا ينطق، والثاني-كامل النفع، وهو كالإله الواحد الذي يدعو إلى الخير، ويأمر بالعدل، ويلتزم العدل، وينفع الآخرين، ويمنع الشر والضرر عنهم. وإذا كان هذان الرجلان لا يتساويان بداهة، فلا تساوي أصلاً بين الله تعالى، وبين ما يزعمون أنه شريك له سبحانه.

الله العالم بالغيب والخالق

إن من أهم الخصائص الإلهية علم الغيب وخَلْقَ الإنسان والحيوان والطير، فمن كان متصفاً بهاتين الصفتين، كان هو الإله الحق، ومن فقد إحدى هاتين الصفتين أو كليهما، انعدم وصفه بالألوهية، والواقع أن كل من عدا الله تعالى من المخلوقات

الكونية، السماوية والأرضية، والإنس والجن، والجمادات والحيوانات والأشياء، لا علم له بالغيب، ولا قدرة له على شيء من الْخَلْق والإبداع، والإيجاد والتكوين، قال الله تعالى مبيناً بعض خصائصه وصفاته:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ[1] هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

[النحل: ١٦/٧٧-٧٩]

يتحدث الله تعالى في هذه الآيات عن نفسه حديثاً مفحماً لكل من عبد غير الله تعالى، ويقرر الله في ذلك قراراً حسمياً لا مجال لإنكاره، وهو أن لله وحده غيب السموات والأرض، وهذا التعبير يفيد الحصر، فالغيب لله وحده، يملكه ويعلمه، وليس لأحد سواه، ولا قدرة أصلاً لأحد على المغيبات، إلا أن يطلعه الله تعالى على شيء مما يشاء، وهذا إخبار بكمال علم الله تعالى. أردفه بإخبار آخر وهو القدرة الشاملة، وفي ذلك إقامة الحجة على الكفار، فالله سبحانه هو الذي يأمر بالقيامة فتوجد، وما أمر القيامة وهي وقت الساعة التي تقوم بها القيامة، في الإيجاد والإقامة في قدرة الله تعالى إلا أن يقول لها: ﴿كُن﴾.

وتشبه في السرعة بالنسبة للبشر أنها كلمح البصر، أي كطرف العين أو هي أقرب من ذلك، إن الله تام القدرة على كل شيء، ومن قدرته: إقامة الساعة في أسرع من

---

(١) أو: هنا على بابها للشك، وقيل: هي للتخيير، أو للإبهام، وكل ذلك بالنسبة للبشر لا بالنسبة لله، ولمح البصر: هو وقوعه على المرئي، ومعناه كخطفة بالبصر.

لمح البصر أو غمضة العين. قال النبي ﷺ فيما يرويه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين السبابة والإبهام».

ومن مظاهر قدرته: الخلق والإبداع، فالله أخرج الناس من بطون أمهاتهم، لا يعلمون شيئاً، وخلق لهم طرق العلم وسبل الإدراك وهي السمع والبصر والفؤاد، لمعرفة أحوال البيئة التي يعيش فيها، وجعل الله العقل للإنسان مفتاح الفهم وتمييز الخير من الشر، والنفعِ من الضرر، والله أمدكم أيها الناس بهذه النعم لتشكروا نعم الله عليكم، باستعمال كل عضو فيما خلق من أجله، ولتتمكنوا من عبادة ربكم، وتطيعوه فيما أمركم، وليس الشكر مجرد تردد التعبير باللسان، وإنما امتثال لحكم الله وأمره.

وأقام الله تعالى دليلاً آخر على كمال قدرته وحكمته، وهو خلق الطيور مسخرات بين السماء والأرض، والطير علَّم الإنسان اختراع الطائرة، فلننظر كيف جعل الله الطير يطير بجناحيه في جو السماء، ما يمسكه عن الوقوع إلا الله عز وجل، فإنه لولا تمكين الله الطيور من التحليق والارتفاع في الجو والنزول إلى الأرض، وخلق الهواء الحامل للطيور والطائرات، لولا ذلك لما أمكن الطيران، فإنه سبحانه وتعالى أعطى الطير جناحاً يبسطه مرة ويضمه مرة، كما يفعل السبّاح في الماء، وأوجد له الذيل ليساعده على الهبوط، بحركات يستفيد بها من الهواء في الارتفاع، والتخلص من ثقل الهواء بحركات أخرى من أجل الهبوط، ولولا ذلك لما كان الطيران ممكناً.

ولنذكر أن أول طيار جرّب الطيران هو العربي المسلم عباس بن فرناس، لكنه لم يتنبه لفائدة الذيل، فعند هبوطه تكسرت رجلاه. إن الله هو المسك للطيور في الجو بواسطة الهواء، وهو الملهم للطيور وغيرها كيفية الهبوط، من دون ضرر ولا أذى، إن في ذلك وهو خلق جناحي الطير، وتسخير الهواء في الجملة، والإلهام الرباني،

لدلالاتٍ على قدرة الله وتوحيده، لمن يؤمن أو يصدّق بالله، وليس للأصنام والأوثان وجميع المعبودات غير الله شيء من هذه القدرة، فلا تستحق تأليهاً ولا عبادة ولا طاعة، ونظير الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ١٩].

نعمة السكن واللباس والظل

تفضل الله على عباده بنعم كثيرة لا تعدّ ولا تحصى، منها نعمة المطر والنبات والحيوان، ومنها نعمة الخلق والإيجاد من العدم، وتزويد الإنسان بطرق المعرفة والعلم والإدراك، ومنها نعمة الطيران، كما تقدم. ومنها نعمة الإيواء في المساكن، والتستر بالألبسة المصنوعة من الأصواف والأوبار والأشعار ونحوها، ونعمة التظلّل بالظلال من الحر والبرد والاستفادة من كهوف الجبال، وكل هذه النعم تستدعي الوفاء بحق المنعم بها، وشكرها، ولكن أكثر الناس يجحدون نعمة الله، وهذا ما وصفه القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا(١) يَوْمَ ظَعْنِكُمْ(٢) وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا(٣) وَمَتَاعًا(٤) إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا(٥) وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا(٦) وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ(٧) تَقِيكُم بَأْسَكُمْ(٨) ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٨٠-٨٣].

---

(١) تجدونها خفيفة. (٢) يوم ترحالكم. (٣) متاعاً للبيوت كالفرش. (٤) تنتفعون به في المعايش والتجارات.
(٥) أشياء للاستظلال كالشجر. (٦) مواضع تستكنون فيها. (٧) ثياباً. (٨) دروعاً للوقاية في الحروب.

روى ابن أبي حاتم عن مجاهد: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ، فسأله، فقرأ عليه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا..﴾ قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ..﴾ قال: نعم، ثم قرأ عليه كل ذلك، وهو يقول: نعم، حتى بلغ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ فولّى الأعرابي، فأنزل الله: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾

هذه الآيات تعداد لنعمة الله على الناس في البيوت وغيرها.

فذكر أولاً، بيوت التمدن، وهي الصالحة للإقامة الطويلة، وهي أكثر بيوت الإنسان، فالله يسّر للناس طريق الإيواء في هذه البيوت والسكن فيها وإليها، ثم ذكر الله تعالى البيوت المتنقلة: بيوت النقلة والرحلة للأعراب الرُّحَّل، وهي بيوت الأدَم (الجلود) وبيوت الشعر، وبيوت الصوف، لأن هذه من الجلود، لكونها ثابتة فيها، وهي خفيفة الحمل والنقل من مكان لآخر يوم الظعن (السفر) ويوم الإقامة، وهي الخيام والقباب المعروفة، يخفُّ حملها في الأسفار، فقوله تعالى: ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفافاً. وجعل الله سبحانه للناس من أصواف الغنم، وأوبار الإبل، وأشعار المعز، ما يتخذ أثاثاً للبيوت، والأثاث: متاع البيت، ويتخذ وسيلة للتمتع والانتفاع به في الغطاء والفراش، لمدة من الزمان في علم الله، فقوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ يريد به: وقتاً غير معين، وهو بحسب كل إنسان، إما بموته وإما بفقد تلك الأشياء.

ثم عدَّد الله تعالى نعماً أخرى على الناس: وهي أنه جعل لكم أيها الناس من الأشجار والجبال وغيرها ظلالاً تستظلون بها من شدة حر الشمس، وشدة عصف الرياح، وجعل لكم من الجبال حصوناً ومعاقل ومغارات وكهوفاً ونحوها، تأمنون فيها من العدو والحر والبرد، وجعل لكم سرابيل، أي ثياباً من القطن والكتان

والصوف ونحوها، تقيكم شدة الحر والبرد، وجعل لكم دروعاً من الحديد ونحوه تقيكم بأسكم، أي شدة القتال والطعن وضرب الرماح والسيوف والنبال وشظايا القنابل وغيرها. وهكذا تتوالى نِعم الله تعالى عليكم أيها الناس، للاستعانة في أموركم وحوائجكم، وإطاعة ربكم وعبادته، لتدخلوا في دين الإسلام، وتؤمنوا بالله وحده، وتتركوا الشرك وعبادة الأوثان، فتدخلوا الجنة، وتأمنوا العذاب والعقاب.

فإن أعرض الناس بعد هذا البيان وتعداد النعم، فليس عليك أيها النبي شيء من المسؤولية والحرج، ولست بقادر على خلق الإيمان في قلوبهم، إنما عليك فقط تبليغ رسالتك بوضوح، وتبيان أصول دعوتك، ومقاصد الدين، وأسرار التشريع، وسبب هذا الإعراض، هو التنكر للجميل والمعروف، فهم يعرفون أن الله تعالى هو المنعم بهذه النعم عليهم، وهو المتفضل بها عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك بأفعالهم، ويعبدون معه غيره، ويسندون الرزق والنصر إلى غيره، وأكثرهم الكافرون كفر نعمة وعقيدة، أي الجاحدون المعاندون، وأقلهم المؤمنون الصادقون.

الشهادة على الأمم من أنفسهم يوم القيامة

كل جان أو مخطئ في الغالب لا يجرؤ على الاعتراف بذنبه، سواء في قضاء الدنيا أو في قضاء الآخرة، ويحتاج الأمر حال الإنكار إلى إثبات بالشهود، لأنه لا يصدر الحكم القضائي عادة من غير أدلة كافية في الإثبات كالإقرار والشهادة والقرائن واليمين. ويحتاج الأمر لبيان جنايات العصاة يوم القيامة، فيبعث الله الشهود من الأمم نفسها أو من غيرها، وفي هذه الآيات التالية إثبات الجرم من الأمم ذاتها بشهادة الشهود، قال الله تعالى واصفاً ذلك وردود الفعل من المشركين والكفرة:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ(١) ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(٢) ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ(٣) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٨٤-٨٩].

هذه آية وعيد للكفار يوم القيامة، مفادها: اذكر أيها النبي يوم نبعث من كل أمة شاهداً عليهم، بالكفر أو الإيمان، والشهيد: الشاهد، وهو نبيهم يشهد عليهم بما أجابوه عما بلّغهم عن الله تعالى، إما بالإيمان، وإما بالكفر والعصيان، ثم إذا شهد عليهم نبيهم لا يسمح لهم بالاعتذار والدفاع عن أنفسهم، لأنه لا حجة لهم، ولأنهم يعلمون كذبهم في الاعتذار، ولأن أحكام الله عادلة عدلاً مطلقاً، ولا يطلب منهم العتاب، لأنه: لا فائدة في العتاب، مع سخط الله وغضبه، فإن الرجل يطلب العتاب من خصمه إذا كان جازماً أنه إذا عاتبه رجع إلى صالح العمل، والآخرة دار جزاء، لا دار تكليف وعمل، ولا أمل في الرجوع إلى الدنيا.

وأما ردود الفعل من الكفار الظلمة بعد صدور الأحكام، فهي الإحباط واليأس والحيرة؛ لأنهم إذا رأوا العذاب وعاينوا العقاب، فلا ينجو منهم أحد، ولا يخفف عنهم من شدته ساعة واحدة، ولا هم يُنْظَرون، أي لا يمهل عقابهم، ولا يؤخر عنهم، بل يؤخذون بسرعة من موقف الحساب وتوزيع الصحف التي يعلن فيها قرارهم النهائي.

(١) لا يطلب منهم إرضاء الله. (٢) يمهلون. (٣) الاستسلام لحكم الله.

ويزداد المشركون حيرة وارتباكاً، فإنهم إذا رأوا يوم القيامة بأبصارهم الأوثان والأصنام وكل معبود من دون الله -لأنها تحشر معهم توبيخاً لهم- إذا شاهدوها، أشاروا إليهم، وقالوا: هؤلاء شركاؤنا الذين كنا نعبدهم من دون الله، قاصدين بذلك إدخالهم في المعصية والحساب، فترد عليهم الشركاء المزعوم ألوهيتها قائلين: كذبتم، لم نأمركم بعبادتنا، أو إنكم لكاذبون، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا، فمن كان من المعبودين من البشر تكلم بلسانه، وما كان من الجمادات تكلم بقدرة الله، بتكذيب المشركين في وصفهم بأنهم آلهة وشركاء لله.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي استسلم العابد المشرك والمعبود، وأقروا لله بالربوبية، وبالبراءة عن الشركاء والأنداد، وذلّوا واستسلموا لله جميعاً، وغاب وذهب عنهم افتراؤهم بنسبة الشركاء لله، وأنها أنصارهم وشفعاؤهم، أي: إنه حل بهم عذاب الله، وباشروا نقمته.

ثم فسّر الله نوع العذاب، فأخبر أن الذين كفروا ومنعوا غيرهم من الدخول في الدين، وسلوك سبيل الله، زادهم الله عذاباً فوق العذاب العام لجميع الكفار، عقوبة على إفسادهم وصدِّهم الناس عن دين الله وشرعه وعبادته.

وهذه إشارة واضحة إلى أن من دعا غيره إلى الكفر والضلال، ضوعف عذابه، واشتد عقابه، كما أن من دعا إلى دين الله الحق، ضوعف ثوابه، وعظم قدره عند الله تعالى.

وتدلنا الآية أيضاً على تفاوت الكفار في العذاب، كما يتفاوت المؤمنون في درجات الجنان، وكما جاء في قول الله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٨]. روي في ذلك عن ابن مسعود أن الله تعالى سلّط عليهم عقارب وحيّات لها أنياب كالنخل الطوال. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن لجهنم

سواحل فيها هذه الحيات وهذه العقارب، فيفر الكفار إلى السواحل من النار، فتتلقاهم هذه الحيات وهذه العقارب، فيفرون منها إلى النار، فتتبعهم، حتى تجد حرّ النار، فترجع.

شهادة نبينا على الأمم وأمته

تتأكد الشهادة الصادرة من الأنبياء السابقين على أممهم بشهادة نبينا عليهم الصلاة والسلام؛ لأنه لا أصدق في الشهادة من الأنبياء المعصومين من الخطايا والذنوب، فتكون شهادتهم حقاً مطلقاً، وعدلاً صرفاً، لا مجال للطعن فيها من أحد، فتكون طريقاً مقطوعاً أو متيقناً لإثبات الجرم أو الخطأ، ويكون الحكم الإلهي العادل حاسماً في الموضوع، وكل هذا تهديد ووعيد، ينبغي على العقلاء التفكر فيما ينتظرهم من عقاب، لا سبيل إلى التخلص أو النجاة منه، قال الله تعالى واصفاً شهادة نبينا ﷺ على الأمم، وتأكيد مفاد الشهادة بالقرآن الكريم:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا(١) لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٨٩].

تتضمن هذه الآية الكريمة وعيداً وتهديداً للكفار الذين لا يؤمنون برسالات الرسل والأنبياء، مضمونها: واذكر أيها النبي يوم نبعث في كل أمة شاهداً عليها قطعاً للحجة والمعذرة، وهو رسولها الذي شاهَدَ في الدنيا تكذيبها وكفرها، وإيمانها وهداها، ويجوز أن يبعث الله شاهداً من الصالحين مع الرسل. قال بعض الصحابة: إذا رأيت أحداً على معصية فانهه، فإن أطاعك، وإلا كنت شهيداً عليه يوم القيامة.

(١) هذا منصوب على الحال، أو مفعول لأجله.

ويكون الشاهد الأصلي هو من الأمة نفسها في اللسان والسيرة وفهم الأغراض والإشارات، حتى يتحقق الهدف المقصود، فلا يتمكن من ذلك من كان غريباً عن الأمة، فلذلك لم يبعث الله نبياً قطّ إلا من الأمة المبعوث إليهم.

ثم يكون النبي محمد ﷺ شاهداً على الأنبياء والأمم، تأكيداً لشهادة الأنبياء، ولأن نبينا حكم عدل في القضاء بين الأمم وأنبيائها، من طريق الأخبار الواردة في القرآن بأن كل نبي بلَّغ أمته رسالة الله وتكاليفه. ويؤيد هذا المعنى آية أخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

ويرى أكثر المفسرين أن قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يراد بهؤلاء: الأمة التي أرسل لها نبينا ﷺ، والقصد من هذه الشهادة: أنه أزاح عنهم علتهم فيما كُلِّفوا به، وهو ما جاءهم به من عند الله، فلم يبق لهم حجة ولا معذرة، ودل على ذلك تتمة الآية: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ..﴾ أي: نزَّلنا على التدرج عليك أيها الرسول هذا القرآن، تبياناً واضحاً لكل شيء من العلوم والمعارف الدينية والإنسانية، مما يحتاج إليه الناس في حياتهم، وهدًى للضالين، ورحمة لمن صدّق به، وبشرى لمن أسلم وجهه لله، فأطاعه وأناب إليه، بشرى بجنان الخلد والثواب العظيم.

فالقرآن الكريم شفاء لما في الصدور، ودواء ناجع لكل أمر صغير وكبير، وفيه حكم كل شيء مما نحتاج إليه في الشرع، ولا بد منه في الملة، كالحلال والحرام، والدعاء إلى الله، والتخويف من عذابه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٨].

وتبيان كل شيء في القرآن، إما نصاً على حكمه صراحة، وإما إحالةً على السنة النبوية، حيث أمر الله باتباع رسوله وطاعته، في قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ

أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٤/ ٨٠] ، وإما اعتماداً على الإجماع في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ٤/ ١١٥] وإما عملاً بالاجتهاد أو القياس، وإما ببيان القواعد الكلية والمبادئ والمقاصد العامة، وأصول التشريع، فكان القرآن بهذه الأصول والقواعد تبياناً لكل شيء. قال النبي ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي: «إني أوتيت القرآن ومثله معه».

والواقع أن عموم القرآن وشموله لكل نواحي الدين والدنيا والقيادة والعبادة، وأنظمة الحياة الاقتصادية، والسياسية، والحربية، والاجتماعية، إنما جاء من طريق جعله دستور الحياة الإسلامية الصالح لكل زمان ومكان، والدستور عادة يكون بوضع الأصول والمبادئ العامة والأنظمة الكلية في الجملة، وبأسلوب مرن.

أجمع آية للخير والشر

امتاز التشريع القرآني ببيان الإيجابيات والسلبيات، وإيضاح المحاسن وأصناف الخير، والتحذير من المساوئ وألوان الشر، وكان منهجه ليس مجرد وضع قوانين جامدة، وإنما التنصيص على قواعد العدل، مع قرنها بالإحسان، وبناء الحياة بقواعد المعروف، والتنبيه إلى معاول الهدم بمقاومة المنكر والبغي، والعدل والإحسان يحتاج احترامهما إلى الوفاء بالعهد، وتحريم الخيانة والغدر، ومنع نقض الأيمان والعهود، قال الله سبحانه مبيناً هذه الأصول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ(١) وَٱلْإِحْسَـٰنِ(٢) وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ(٣) وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ(٤) يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا

(١) بالاعتدال والتسوية في الحقوق . (٢) إتقان العمل . (٣) الذنوب القبيحة . (٤) الظلم والتجبر على الناس .

نَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا(١) إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ(٢) أَنكَٰثًا(٣) تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ(٤) أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ(٥) مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ(٦) وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠-٩٢].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أجمع آية في كتاب الله آية في سورة النحل، وتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾

وروى ابن جرير الطبري عن بُريدة، في بيان سبب نزول آية: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ..﴾ قال: نزلت هذه الآية في بيعة النبي ﷺ. وروى ابن جرير أيضاً: أن الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ ، كان من أسلم، يبايع على الإسلام، فقال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ..﴾ الآية، فلا تحملنكم قلة جند محمد وأصحابه، وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام، وإن كان في المسلمين قلة، وفي المشركين كثرة.

وروى ابن أبي حاتم في سبب نزول: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ قال: كانت سعيدة الأسدية مجنونة، تجمع الشعر والليف. فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾.

ومعنى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ العدل: هو فعل كل مفروض، من عقائد وشرائع، وسِيَر مع الناس في أداء الأمانات، وترك الظلم، والإنصاف وإعطاء الحق.

والإحسان: فعل كل مندوب إليه، أي فهو زائد على العدل، كالرحمة التي هي

(١) شاهداً ورقيباً وضامناً . (٢) إبرام وإحكام . (٣) جمع نِكْث ، وهو ما ينكث بمعنى منكوث وهو المنقوض . (٤) أي مكراً وخديعة . (٥) أي أكثر عدداً وأقوى . (٦) يختبركم للوفاء بالعهد .

فوق القوة، وإن الله يأمر عباده بالعدل والإنصاف مطلقاً في كل شيء في التعامل والقضاء والحكم، وشؤون الدين والدنيا، حتى مع نفسه ومع غيره، وفي الاعتقاد، فلا يعبد بحق وعدل غير الله الخالق الرازق، النافع، ويأمر الله أيضاً بالإحسان في العبادة وإلى المسيء، وإلى القرابة والجيران وإلى الناس قاطبة. ويأمر سبحانه بإيتاء ذي القربى، أي بصلة الأرحام بالزيادة، والمودة، والعطاء والصدقة، والنفقة. هذه أمور ثلاثة يأمر بها.

وينهى عن ثلاثة أيضاً: الفحشاء: أي الشيء المحرم كالزنى والسرقة وشرب المسكرات، وأكل أموال الناس بالباطل. وينهى عن المنكر: وهو ما قبحه الشرع والعقل الرشيد كالقتل، والأذى، واحتقار الناس. وينهي عن البغي: وهو ظلم الناس، والاعتداءُ عليهم. فالمأمورات الثلاثة: العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى. والمنهيات الثلاثة: الفحشاء والمنكر والبغي. وكلها تجاوز حدود الشرع والعقل الرشيد. وتأكيداً للأمر والنهي، قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي يأمركم بالخير، وينهاكم عن الشر لتتعظوا وتتذكروا، وتعملوا بما فيه مرضاة الله تعالى.

ثم خصص الله بالذكر بعض المأمورات: وهو الوفاء بالعهد والميثاق، والحفاظ على الأيمان المؤكدة، وعهد الله: كل ما يجب الوفاء به، من التزام أحكام الإسلام، والوعود، وتنفيذ العقود والمشاركات والالتزامات. وأكد الله أمره بالوفاء بالعهد بالتحذير من نقض العهود وأيمان البيعة على الإسلام بعد توثيقها باسم الله، إن الله يعلم ويطلع على كل ما نفعله في العهود، من البِرّ بها أو نقضها، أو محاولة تعديلها والالتفاف على بنودها بالحيل.

ولا تكونوا أيها المؤمنون المعاهِدون في إبرام الحلف أو العهد أو نقضه كالمرأة

الحمقاء التي تغزل غزلها وتفتله محكماً، ثم تنقضه بعد فتله وإبرامه، فهو ليس من فعل العقلاء. تجعلون أيمانكم على الوفاء بالعهد خديعة ومكراً وتغريراً بالطرف الآخر، وتحلفون للناس إذا كانوا أكثر أو أقوى منكم، ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم، غدرتم. إنما يعاملكم الله معاملة المختبر، بأمره إياكم، بالوفاء بالعهد، لينظر أتغترون بالكثرة والقلة أم تراعون العهد، وسوف يبين الله لكم بياناً قطعياً يوم القيامة ما كنتم تختلفون فيه، من أمر الإيمان والكفر، والوفاء بالعهد والنقض، فيجازي كل عامل بعمله، من خير أو شر، وهذا إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام ونقض العهود.

حرية الإنسان واختياره

الشرع والعقل يقضيان بأن الإنسان حر الاختيار في الطاعة والمعصية، وفي سلوك سبل الخير أو السير في طريق الشر، و يختبر الله عباده بالأوامر والنواهي، ليذهب كل إنسان إلى ما يُسِّر له، والتيسير من الله عمل بمقتضى حق الملك، ولا يسأل عما يفعل، ولو شاء الله، لكان الناس كلهم في طريق واحدة، إما في هدى وإما في ضلالة، ولكنه تعالى شاء أن يترك حرية الاختيار للناس، وليظهر أثر الاختيار، في انقسام الناس فريقين: فريق الطاعة وأهل السعادة وفريق المعصية وأهل الشقاوة، قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا(١) بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا

(١) أي مكراً وخديعة.

إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ(١) وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٣-٩٦].

هذه الآيات الكريمة تقرر الحد الفاصل في القضية الكبرى: وهي حرية الاختيار للإنسان، التي على أساسها يكون الحساب والجزاء، والثواب والعقاب، فالله قادر على أن يجعل الناس على ملة واحدة أو دين واحد بمقتضى الفطرة والخَلْق، فقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ معناه يخلق ذلك في القلوب، خلافاً لقول المعتزلة، كما ذكر ابن عطية في تفسيره. ورتب الله تعالى على حرية الاختيار التوعّد في آخر الآية، بسؤال كل أحد يوم القيامة عن عمله، وهذا سؤال توبيخ وحساب، وليس ثَمَّ سؤال تفهّم، وهو المنفي في آيات.

ويقتضي الاختيار: أن يسلك الإنسان بموجب هداية الله وعقله مسلك أهل الصلاح والاستقامة في المعاملات والعلاقات الاجتماعية، فلا يصح الانحراف والخداع والمكر، لذا نهى الله عن اتخاذ الأيمان وسيلة خداع، ونهى عن نقض العهود والأيمان: أيمان البيعة على الإسلام مع النبي ﷺ فإذا اتخذت الأيمان وسيلة مكر وخديعة، فتزلّ قدم في الضلال بعد ثبوتها على جادة الاستقامة والإيمان. وهذا مثل لمن كان على الاستقامة، فحاد عنها، وزلّ عن طريق الهدى بأيمان حانثة، مشتملة على الصدّ عن سبيل الله، ومن انحرف أو زلّ، ذاق السوء، أي تحمل العذاب السيئ الأليم، وهو القتل والأسر في الدنيا، بسبب الصدّ عن سبيل الله، وله العقاب الشديد في الآخرة، جزاء المخالفة والانخراط في سلك الأشقياء الضالين.

والمقصود من الآية: إن نقضتم العهد أيها الناس، وقعتم في مفاسد ثلاثة: تركِ الاستقامة، وتحملِ شقاء الدنيا وعذابها، وعقاب الآخرة وجزائها.

---

(٢) يفنى ويزول .

ثم حذّر الله تعالى من نقض العهد بأخذ الأعواض المالية التافهة مقابل ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تعتاضوا عن الأيمان المحلوفة بالله عرض الدنيا وزينتها، فإنها قليلة مؤقتة، وما عند الله من الفضل والثواب العظيم خير لمن رجاه وآمن به، وخير من عرض الدنيا الحقير، وذلك إن كنتم أيها المخاطبون، تعلمون مدى التفاوت العظيم بين خيرات الدنيا وخيرات الآخرة. قال ابن عطية عن هذه الآية: هذه آية نهي عن الرّشا وأخذ الأموال على فعل ما يجب على الآخذ تركه، أو ترك ما يجب عليه فعله، فإن هذه هي التي عهد الله إلى عباده فيها.

ووجه الخيرية واضح، فإن ما عندكم من متاع ونعيم دنيوي عرضة للنفاد والزوال، وإن طال الأمد، وما عند الله من ثواب ونعيم في الجنة ومواهب الآخرة باق خالد، لا انقطاع له ولا نفاد، وإنما هو دائم لا يحول ولا يزول، أي إن الدنيا فانية، والآخرة باقية دائمة.

والله بفضله وعدله يجزي بالخير والثواب الطيب الذين صبروا على أذى المشركين، وأعداء العقيدة، وعلى القيام بواجبات الإسلام وأحكام الشريعة، التي توجب الوفاء بالعهد وتنفيذ العقد، وكذلك بالصبر عن الشهوات، وعلى مكاره الطاعة، يجازيهم الله بأحسن أعمالهم، والتجاوز عن سيئاتهم، وهذا هو الثواب العظيم، وهو الوعد الحسن بغفران الذنوب، ومحو الخطايا، وهذه الآية إشارة إلى الصبر عن شهوة كسب المال بالوجوه المنكرة أو المحرمة، من الرّشاوى، وأخذ الأموال على ترك الواجبات، وفعل القبائح والمحظورات، فإن كل عاقل ينفر من الحرام، ولا يتقبل العفيف الشريف تلويث مكاسبه بالمحرمات والشبهات.

أجمع آية للعمل الصالح

لا تفرقة في أصول التشريع الإسلامي وإعطاء فرص العمل بين الرجال والنساء، فللمرأة أن تنافس الرجل وتسبقه في ميدان القربات إلى الله تعالى، والمبادرة إلى العمل الصالح والقول الفاضل، وكم شهد التاريخ الإسلامي مواقف ومشاهد مشرفة وسبّاقة للمرأة، تميزت بالوعي والحكمة، وإدراك آفاق المستقبل، واستطاعت بها المرأة أن تثبت جدارتها، وتفوّقها أحياناً على الرجال في النواحي الاجتماعية، فاستحقت بهذا بطاقة سامية من الحب والتقدير، والوفاء والجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى مبيناً مبدأ تساوي النّساء والرجال، في مجالات العمل البنّاء الطيب:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ١٦/٩٧].

العمل الصالح: يشمل جميع أعمال الطاعة والخير والإحسان، وهو في ميزان الثواب والحسنات والجزاء الأخروي لا ثمرة له ولا قيمة من دون تقييده بالإيمان، أي التصديق بالله وملائكته وشرائعه المنزلة على أنبيائه ورسله وكتبه، وباليوم الآخر المنتظر للحساب والجزاء، وبالقدر خيره وشره، فإذا لم يقترن العمل الصالح بالإيمان بأركانه المذكورة، لم يحقق الأثر الخالد والمنزلة الحسنة في عالم الآخرة.

وهذه الآية وعد صريح من الله تعالى بالحسنى والمنزلة الكريمة في الآخرة لمن عمل صالحاً، سواء أكان ذكراً أم أنثى، والعمل الصالح: هو المطابق لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بأداء الفرائض، والمندوبات، وفعل الخير، وكان قلب العامل مؤمناً بالله ورسوله.

ويكون الجزاء لمن آمن وعمل صالحاً في الدنيا هو الحياة الطيبة: وهي التي تشمل

وجوه الراحة المختلفة، من رزق حلال طاهر، وسعادة غامرة، وطمأنينة نفس، وهدوء بال، ورضا وقناعة، قال ابن عطية: ظاهر هذا الوعد بالجزاء الحسن: أنه في الدنيا، وإن طيب الحياة اللازم للصالحين، إنما هو بنشاط نفوسهم ونُبلها وقوة رجائهم، والرجاء للنفس أمر ملذّ، فبهذا تطيب حياتهم، وبأنهم احتقروا الدنيا، فزالت همومها عنهم، فإن انضاف إلى هذا مال حلال، وصحة، أو قناعة، فذلك كمال. فيكون قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ معناه: لنعطينه ما تطيب به حياته: وهو القناعة والرضا.

ودليل شمول الحياة الطيبة لكل هذا: الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً، وقنّعه الله بما آتاه» . وروى الإمام أحمد أيضاً ومسلم عن أنس بن مالك: قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة، يعطى بها في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً».

وحكى الطبري عن أبي صالح أنه قال: نزلت هذه الآية بسبب قوم من أهل المِلَل تفاخروا، وقال كل منهم: مِلّتي أفضل، فعرّفهم الله في هذه أفضل الملل.

وأما جزاء من آمن وعمل صالحاً في الآخرة: فهو الأجر والثواب بأحسن ما كانوا يعملون، أي بقدر أحسن ما كانوا يعملون، وهذا وعد بنعيم الجنة، وهو أحسن جزاء لمن أحسن العمل في الدنيا، وهو حسبما يُفعل بالصابرين.

ويكون قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ كما ذكر الألوسي رحمه الله إشارة إلى درء المفاسد، وقوله سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى جلب المصالح. فتكون ثمرةُ العمل الصالح من الرجل والمرأة على السواء، هي

تحقيق سعادة الدارين: الدنيا والآخرة، وما أطيبها وما أجلّها ثمرة أو فائدة؟! ويدل هذا: على أن من فقد الإيمان، أو من لم يعمل عملاً صالحاً، وإنما كان عمله فساداً، فإنه يحرم من الحياة الطيبة في الدنيا، ويحجب عنه نعيم الآخرة، وهو الجنة، ويكون معذباً في نفسه بشقاء الدنيا، وفوات المصلحة في الآخرة، أي إنه يكون بعيداً عن السعادة الحقة، وإن ظهر سعيداً بماله وأولاده أو جاهه وسلطانه.

تعظيم القرآن والغاية من تنزيله

ليس هناك في الدنيا أعظم ولا أشرف ولا أقدس من القرآن الكريم، لأنه كلام رب العالمين، ودستور البشرية، وطريق النجاة والسعادة في الآخرة والدنيا، لذا وجب على المسلم والمسلمة تعظيم القرآن، فلا يتلو أحد منه شيئاً، قبل الاستعاذة من الشيطان الرجيم، وعليه أن يتقبل كل ما أنزله الله فيه، سواء قُصد به التشريع لفترة زمنية معينة، أم أُريد به الاستمرار والديمومة، والغاية منه تثبيت المؤمنين على الإيمان، وهدايتُهم للطريق المستقيم، وتبشير من أطاع بالجنة، وإنذار من عصى بالنار، وليست الهداية الإلهية والتوفيق لمن لا يؤمن بآياته، قال الله تعالى مبيناً هذه الأصول:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ[1] بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ[2] عَلَى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ
مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ
مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ[3] مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ

(١) فاعتصم به تعالى . (٢) تسلط . (٣) جبريل عليه السلام .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ
بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ(١) إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾
[النحل: ١٦/٩٨-١٠٣].

تبين الآيات مبدأ تعظيم القرآن، فإذا أخذت في قراءة القرآن، أيها النبي وكل مؤمن، فاستعذ بالله، أي الجأ إلى الله من وساوس الشيطان المرجوم، الملعون المطرود من رحمة الله، حتى لا تلتبس عليك القراءة أو التلاوة، ولتتدبر معاني القرآن، والتعوذ مندوب إليه بالإجماع، كما حكى ابن جرير وغيره من الأئمة. علماً بأن جنس الشيطان ليس له قوة ولا حجة، ولا تسلط على المصدّقين بلقاء الله، والمتوكلين عليه المفوضين أمورهم إليه. إنما تسلط الشيطان بالغواية والإضلال على الذين يطيعونه، ويتخذونه ولياً ناصراً لهم من دون الله، والذين هم أشركوا بالله غيره في العبادة والطاعة. وفي الآيات رد على شبهتين لمنكري النبوة، المتأثرين بوساوس الشيطان:

الشبهة الأولى -أن الله تعالى إذا نسخ لفظ آية بلفظ آخر أو بدَّل معناها وإن بقي لفظها، والله أعلم بما ينزله من القرآن، قالوا: لو كان من عند الله لم يتبدل، وإنما هو من افتراء محمد، فهو يعدل عن الخطأ إلى الصواب، فأخبر الله أنه أعلم بما يصلح للعباد برهة من الدهر، ثم ما يصلح لهم بعد ذلك، وأنهم لا يعلمون هذا، ولا يدركون ما في التبديل من حكمة ومصلحة للناس.

نزلت هذه الآية حين قال المشركون كفار مكة: إن محمداً، عليه الصلاة والسلام، سخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غداً، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم، وما هو إلا مفتر يقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله تعالى هذه الآية والتي بعدها.

(١) يميلون وينسبون إليه أن يعلّمه .

وتضمنت الآية التي بعدها الرد على شبهتهم الواهية، ومضمونه: قل لهم يا محمد: لقد نزّل القرآن المتلو عليكم جبريل روح القُدس (أي المطهر) عليه السلام، من ربك بالحق، أي حقاً، مقترناً بالصدق والعدل والحكمة، واجباً لمعنى المصلحة أن ينزّل، والنسخ من جملة الحق. والغاية من تنزيله: تثبيت الذين صدّقوا بما أنزل الله أولاً، وآخراً، وتطمين قلوبهم، وهدايتهم وإرشادهم للطريق الأقوم، وتبشيرهم بالجنة إذا أسلموا وأطاعوا الله، وتحذيرهم من العذاب إذا عصوا أوامر الله.

والشبهة الثانية -أن الله أقسم على أنه يعلم علماً تاماً ما يفتريه المشركون على محمد، فهم يقولون جهلاً وافتراء: إنما يعلّم هذا القرآن بشر آدمي، وليس وحياً من عند الله، ويشيرون إلى رجل أعجمي اللسان، لا يعرف العربية، غلام لبعض القرشيين، وكان بيّاعاً عند الصفا، كان الرسول ﷺ يمرّ عليه، ويكلمه بعض الشيء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان في مكة غلام أعجمي لبعض قريش، يقال له بلعام، فكان رسول الله ﷺ يكلمه ويعلّمه الإسلام ويرومه عليه، فقالت قريش: هذا يعلّم محمداً من جهة الأعاجم، فنزلت الآية بسببه. والأعجمي: هو الذي لا يتكلم بالعربية.

فرد الله عليهم افتراءهم، وأبان كذبهم بأن لسان الذين يميلون إليه ويشيرون إليه أعجمي لا عربي، والقرآن كلام عربي واضح البيان، فكيف يتعلم محمد القرآن من شخص عاجز عن البيان، لا يحسن التعبير العربي؟! وهذا كذب حسي مشاهد، وافتراء مفضوح.

عقاب الكفرة والمرتدين

لقد قطع الذين لا يؤمنون بآيات الله صلتهم بربهم الذي خلقهم، فحرموا من هداية الله وتوفيقه في الدنيا، وعرّضوا أنفسهم للعذاب الشديد في الآخرة، ودأبوا على الافتراء والكذب، حتى اشتهروا بصفة الكذابين، وهناك فئة أخرى أسوأ منهم وهم المرتدون عن الإسلام، وتاركو الإيمان، فاستحقوا غضب الله وعذابه، وحجبوا قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم عن نور الهداية الربانية، وكانوا حقاً هم الخاسرين. قال الله سبحانه مبيناً أوصاف هاتين الفئتين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟[1] ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ[2] أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٤-١٠٩].

الكلام في هذه الآيات عن فئتين: فئة المفترين الكاذبين، وفئة المرتدين عن الإسلام.

أما المفترون فهم المشركون المعروفون بأنهم الذين لا يؤمنون بآيات الله، ولا يصدقون بما أنزل الله على رسوله ﷺ، وهؤلاء لا يهديهم الله، ولا يوفقهم للحق والإيمان بالله وبما أنزل على رسله، لفقد استعدادهم لذلك، ولاقترافهم السيئات والمنكرات، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع، وهم الكاذبون المفترون، وليس

(١) اختاروا . (٢) حقاً أو لا محالة .

المفتري محمداً ﷺ، وينحصر الكذب حصراً تاماً في هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله، وكرر الله هذا المعنى وإلصاق صفة الكذب بأولئك المشركين، في قوله: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ إذ الصفة بالشيء أبلغ من الخبر به، لأن الصفة تقتضي الدوام أكثر مما يقتضيه الخبر، فبدأ الله في هذه الآية بالخبر، وهو افتراء الكذب في قوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ وإنما: حاصرة أبداً، ثم أكده بالصفة وهي ثبوت صفة الكذب للمشركين وملازمتها لهم.

وأما المؤمن فشأنه الصدق والبعد عن الكذب، وتأكد هذا تاريخياً، فحينما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن صفات النبي محمد ﷺ، أجابه بأنه صدوق، وكان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل.

وأما الفئة الثانية في الآيات فهم المرتدّون، وهم الذين كفروا بعد الإيمان، وهؤلاء عليهم غضب من الله ولعنته وطردهم من رحمة الله، ولهم عذاب شديد في الآخرة، لعلمهم بالإيمان، ثم عدولهم عنه، ولأنهم استحبوا وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على الردة، ولم يثبتوا على الإيمان والدين الحق، فتسبّبوا في حجب قلوبهم عن هداية الله، والطبع أو الختم على أفئدتهم وصرفها عن طريق الهدى، بحيث لا ينفذ إليها نور الله، ووصفوا بصفة دائمة بأنهم الغافلون غفلة تامة بعيدة عما يراد بهم من سوء المصير، وكانوا من الذين لا يعقلون شيئاً ينفعهم. وما أسوأ مصير الإنسان إذا انسدّت طرق الحواس لديه، فصارت لا تنفع في شيء، ولا اعتبار لديه ولا تأمّل، وكانوا حقاً في الآخرة هم الخاسرين خسارة مطلقة.

والخلاصة: لقد حكم الله على المرتدين بستة أحكام: أنهم استوجبوا غضب الله، واستحقوا العذاب الأليم، واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، لأنهم قوم

مادّيون، وحرمهم الله تعالى من الهداية للطريق القويم، وطبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وجعلهم الله من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة.

واستثنى الله بعض المتظاهرين بالكفر، وهم الذين كفروا بألسنتهم ووافقوا المشركين على مرادهم بالإكراه بسبب الضرب والأذى، ولكن قلوبهم مطمئنة بالإيمان بالله ورسوله، كما فعل عمار بن ياسر حينما عذبه المشركون، فنال من النبي في ظاهر لسانه.

فقد أخذ المشركون بلالاً وخبّاباً وعماراً بن ياسر، فأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تقية، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ، حدثه فقال: كيف كان قلبك حين قلت: أكان منشرحاً بالذي قلت؟ قال: لا، فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ ونفى بعض المفسرين كابن عطية نزول الآية في شأن عمار قائلاً: فإنه أرفع من طبقة هؤلاء، وإنما هؤلاء من باب: فمن شرح بالكفر صدراً، فتح الله عليهم باب التوبة في آخر الآية.

ثواب المهاجرين الصابرين

اقتضت رحمة الله وفضله أن يفتح باب التوبة لبعض المؤمنين الذين جاملوا الكفار المشركين في مكة، ووافقوهم على مرادهم، وإظهار الكفر، والاعتصام بالإيمان في حقيقة الأمر وباطن القلب، وهؤلاء كانوا مستضعفين بمكة، وشأن الضعيف المعذب عادة المجاملة في القول، والإقرار بما يرضي الظلمة، غير أن المعوّل على ما في القلب من إيمان ورضا واطمئنان، قال الله تعالى مبيناً فضله على هذه الفئة:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا[1] ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾ [النحل: ١٦/ ١١٠-١١١].

بعد أن أبان القرآن الكريم في الآيات السابقة الجزاء المستحق للمشركين المفترين الكاذبين، وللمرتدين عن الإسلام، فتح باب التوبة والأمل أمام فئة المعذَّبين المستضعفين بمكة، من بعد ما فتنهم المشركون أو الشيطان، فوافقوا عتاة الشرك الظلمة، فيما أرادوا منهم من النطق بالكفر، والرجوع عن الإسلام ثم تمكنوا من الخلاص، بالهجرة إلى المدينة المنورة، تاركين بلادهم وأهليهم، ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا في الله حق جهاده في صف الإيمان، ضد جند الكفر وأعوان الشيطان، وصبروا على الأذى والبأس والشدة في المعارك، فأخبر الله تعالى أنه من بعد تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة، لغفور لهم، رحيم بهم يوم المعاد. والله دائماً يقبل توبة التائبين، ويعفو عن المقصرين، ويرحم المسترحمين والضعفاء الأذلين. ويكون المقصد من الآية: أن من يفتن في دينه، فيتكلم بكلمة الكفر مكرهاً أو مضطهداً، وصدره غير منشرح للكفر، إذا صلح عمله، وجاهد في سبيل الله، وصبر على المكاره، فالله غفور له، رحيم به. وعبر الله تعالى عن هذه الفئة بكلمة: (ثم) لبيان بُعْد مرتبة هؤلاء الذين فتنوا في دينهم، وجاهدوا وصبروا، عن مرتبة المفتونين في الدين، ولم يصبروا، ولم يجاهدوا.

ثم نبّه الله على ما يتعرض له كل إنسان مؤمن أو كافر يوم القيامة من محاولة الدفاع عن نفسه، والجدال: وهو الاعتذار عن أموره وأقواله وأفعاله، إنه اليوم الذي تأتي فيه كل نفس تجادل عن نفسها أو ذاتها، كلٌ يقول: نفسي نفسي، كما جاء في آية

(١) اختُبروا وعذبوا لإسلامهم.

أخرى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ٣٧]. وفي ذلك اليوم الرهيب تعطى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، والناس كلهم لا يظلمون، أي لا ينقص أحد من ثواب الخير، ولا يزاد على جزاء الشر، ولا يتعرض أحد لظلم مهما قل، صغيراً كان أم كبيراً.

وسبب نزول آية المغفرة للمفتونين: هو ما روى ابن سعد في (الطبقات) عن عمر ابن الحَكَم قال: كان عمار بن ياسر يعذّب، حتى لا يدري ما يقول، وكان صهيب يعذب، حتى لا يدري ما يقول، وكان أبو فكيهة يعذب حتى لا يدري ما يقول، وبلال وعامر بن فُهيرة وقوم من المسلمين، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن قتادة: أن عياشاً رضي الله عنه (وكان أخا أبي جهل من الرضاعة) وأبا جَنْدل بن سهيل، وسَلَمة بن هشام، وعبد الله بن سلمة الثقفي، فتنهم المشركون، وعذّبوهم، فأعطوهم بعض ما أرادوا، ليَسْلَمُوا من شرهم، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا، وجاهدوا، فنزلت فيهم هذه الآية.

تدلنا السيرة المشرفة لهؤلاء على أن الصمود في وجه الظلم والظلمة الذين يفتنون الناس عن دينهم، والتمسك بجوهر العقيدة في مواقف المحنة، هو واجب المؤمن والمؤمنة، فلا تخور عزيمته، ولا يرتد عن دينه، مهما كانت الصعاب.

عاقبة الكفر بالنعم

يحذّر الله تعالى عباده دائماً من إهمال شكر النعمة الإلهية، وينذرهم بما قد يتعرضون له من عاقبة وخيمة، بسبب جحود النعم وإنكار فضل الله تعالى، وضرب الله لنا المثل بمكة المكرمة قبل مجيء الإسلام، حيث كانت آمنة مطمئنة، فلا يغزوها

ولا يغير عليها أحد، وكانت الأرزاق الوفيرة تجلب إليها، وأنعم الله عليها برسوله ﷺ، فلما كفرت بهذه النعم، تعرضت لآفات الدنيا من الوقوع في الجوع والخوف، وهذا المثل عبرة دائمة للأجيال، في أحب البلاد إلى الله تعالى، قال الله سبحانه:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١١٢-١١٣].

هذا مثل صريح ضربه الله عبرة للأمم والبلاد، والجماعات.

والقرية المضروب بها المثل: هي مكّة، كانت بهذه الصفة التي ذكر الله، آمنة من غارات الأعداء، مطمئنة مستقرة ليس فيها مخاوف ولا مشكلات أمنية أو اقتصادية، يأتيها رزقها رغداً، أي هنيئاً سهلاً واسعاً، من سائر البلاد، فكفر أهلها بنعم الله، وجحدوا بها، فعمَّهم الله بالجوع والخوف، وبُدِّلوا بأمنهم خوفاً، وبغناهم جوعاً وفقراً، وبسرورهم ألماً وحزناً، وذاقوا مرارة العيش بعد السعة، بسبب أفعالهم المنكرة، وعبادتهم الأوثان، وتنكرهم للقرآن والشرع والهداية. ومن أتم النعم الإلهية عليهم: أنه جاءهم رسول كريم من جنسهم، عربي قرشي هاشمي، فكذبوه فيما أخبرهم به من أنه رسول إليهم، مبلِّغ عن ربه، بأنه يعبدوه ويطيعوه، ويشكروه على النعمة، فجاءهم العذاب بسبب ظلمهم.

لقد أصابتهم السنون أي المحل والقحط، وتعرضوا للخوف، وهاجمتهم سرايا رسول الله ﷺ، بسبب الكفر والتكذيب، جزاء لسوء صنيعهم وظلمهم.

---

(١) منصوب على الحال، أي طيباً واسعاً.

وإذا كانت مكة في رأي ابن عباس ومجاهد وغيرهما هي التي ضربت مثلاً، فإنما ضربت لغيرها مما يأتي بعدها، ليحذر أهلها أن يقعوا فيما وقعت هي فيه.

والراجح عند الرازي وابن عطية أنه قصد بذلك قرية غير معينة، جعلت مثلاً، فغير مكة مثلها، فهو عبرة لكل قرية، وجاء الكلام على معنى التحذير لأهلها ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة.

والهدف من هذا المثل الذي أرشدت إليه الآية: هو وجوب الإيمان بالله وبالرسل، والتوجُّه نحو عبادة الله وحده، وشكرُه على نعمة وآلائه الكثيرة، والمعرفة الثابتة بأن العذاب الإلهي لاحقٌ بكل من كفر بالله وعصاه، وجحد نعمه الله عليه.

وهذا إنذار ووعيد لأهل كل قرية اتصفوا بالظلم، أي بالكفر والعصيان، إذ لا ظلم أشد من ظلم الكفر والمعصية، في حق الله تعالى.

والعذاب الإلهي من جنس العمل، سواء في الدنيا، أو في الآخرة، فإن أهل هذه القرية لما بطروا بالنعمة، بُدِّلوا بنقيضها، وهو محقها وسلبها، ووقعوا في شدة الجوع بعد الشبع، وفي الخوف والهلع بعد الأمن والاطمئنان، وفي انعدام موارد العيش بعد الكفاية.

ونوع هذا العذاب يختلف بحسب تحديد المراد بالقرية التي جعلت مثلاً، فإن كان المراد بها مكة، فالعذاب: هو الجوع والقتل ببدر، والعيش بقلق بسبب ظهور الإسلام وقوته، واستعداد المسلمين لشن الهجوم على مكة وأهلها. وإن كان المراد بالقرية أي قرية أو مدينة قديمة غير معينة، فالعذاب هو الدمار والاستئصال وتخريب العمران وغير ذلك، كمدينة شعيب وقرى قوم لوط.

وأكثر المفسرين على أن المراد بهذه القرية: مكة وأهلها، فإنها كانت آمنة من الحروب، مطمئنة برغد الحياة، فجحدت نعم الله، وأعظمها بعثة النبي محمد ﷺ

فأذاقها الله شدة الجوع والخوف، وابتلوا بالقحط، حتى اضطروا إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة والعَلْهز (وبر الإبل المخلوط بالدم).

المأكول الحلال والحرام

أحل الله تعالى لنا الطيبات النافعة، وحرم علينا الخبائث الضارة، فكان تشريع الإسلام متفقاً مع الصحة والاعتدال، دون تعسف ولا إرهاق وإعنات، وكانت دائرة الحلال في الإسلام أوسع بكثير من دائرة الحرام، فلم يحرم الله علينا شيئاً إلا لما فيه ضرر في الصحة والجسد والدين، ولا يجوز لإنسان أن يحلل أو يحرم شيئاً برأيه ومزاعمه، كما كان عرب الجاهلية يفعلون. وكان تحريم بعض الأشياء على بني إسرائيل بسبب ظلمهم وبغيهم، قال الله تعالى مبيناً الحلال والحرام من الأطعمة وجعله من أصول العبادة والشريعة والعقيدة:

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ
(١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ[١] فَمَنِ
اضْطُرَّ[٢] غَيْرَ بَاغٍ[٣] وَلَا عَادٍ[٤] فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ
أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ
بِجَهَالَةٍ[٥] ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩)﴾ [النحل:
١٦/ ١١٤-١١٩].

---

(١) ذكر عند ذبحه اسم غير الله. (٢) ألجئ إلى التناول منه. (٣) غير طالب للمحرم للذة. (٤) ولا متجاوز مايسد الرمق. (٥) بجهل وحماقة.

هذه الآيات تأمر المؤمنين بالتزام شرع التحليل والتحريم الإلهي، فيباح لكم أيها المؤمنون الأكل مما رزقكم الله حلالاً طيباً أي مستلذاً، وعليكم أن تشكروا الله على تباين حالكم من حال الكفرة، وإن كنتم تعبدونه حقاً، وتطيعونه فيما أمر، وتنتهون عما نهى. وسبب نزول هذه الآية أن الكفار المشركين كانوا قد سنّوا في الأنعام سنناً معينة، فأحلّوا بعضاً وحرموا بعضاً، فأمر الله المؤمنين بأكل جميع الأنعام التي رزَقها عباده. وآخر الآية ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تحريض للنفوس على التزام شرع الله، كما تقول لرجل: إن كنت من الرجال فافعل كذا، على معنى تحريض نفسه.

وحصر الله تعالى بكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ المفيدة للحصر المحرمات وقت نزول الآية بالميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير والمذبوح على غير اسم الله، ثم نزلت المحرمات بعد ذلك، لكن من اضطر أو أكره أي دعته الضرورة وألجأته، من غير بغي ولا عدوان أي غير مستعمل لهذه المحرمات مع وجود غيرها، ولا متجاوز حدود الله فيها، فلا مانع من تناول هذه المحرمات، ويرخص له أكلها، ويرفع عنه الإثم حال الضرورة، فيغفر الله فعله، ويرحمه فلا يعاقبه على مثل ذلك.

ثم رد الله على المشركين الذين حرموا البحائر والسوائب ونحوها من كل ماحرّموا، وأحلوا ما في بطون بعض الأنعام وإن كان ميتة، فنهى الله المؤمنين عن سلوك سبيل المشركين بالتحليل والتحريم بآرائهم، فلا يجوز لكم أيها المشركون أن تحللوا وتحرموا بالرأي والهوى والجهالة، من دون اتباع شرع الله، ولمجرد وصف ألسنتكم الكذب من غير دليل ولا حجة، وذلك لتصير عاقبة أمركم إسناد التحليل والتحريم إلى الله كذباً، من غير إنزال شيء فيه، فإن من حلل أو حرم شيئاً برأيه المحض، دون دليل أو وحي من الله، كان من الكاذبين على الله سبحانه. وهناك

وعيد على الكذب والكاذبين، فإن الذين يختلقون الكذب على الله، لايفوزون بخير في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فيتمتعون متاعاً قليلاً زائلاً، وأما في الآخرة فلهم عذاب مؤلم جداً.

ثم أخبر الله تعالى بما حرم على اليهود، فلقد حرمنا على اليهود ماقصصناه عليك في سورة الأنعام، وهو ذوات الأظفار كالأوز والبط، وشحوم الدواب ماعدا السّنام، والمجاورَ للأمعاء (الحوايا) والمختلط بالعظام، وما كان التحريم بظلم من الله، ولكن كان بسبب ظلم ارتكبوه، وذلك الظلم: هو عصيان أوامر الله، ومعاداة الرسل ومعاندتهم، وتجاوز حدودهم، فعوقبوا بما حرمه الله عليهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ٤/ ١٦٠] أي إن التحريم كان صراحة بسبب الظلم والبغي، عقوبة وتشديداً، ووضعاً للعقوبة في موضعها.

وعلى الرغم من كون التحريم على اليهود، بسبب ظلم ارتكبوه، فإن الافتراء على الله ومخالفة أمره، لايمنع من التوبة وحصول المغفرة والرحمة، فإن ربك غفار ستار، رحيم بالذين افتروا عليه التحريم والتحليل، وعملوا السوء؛ وهو كل مالا ينبغي من الكفر والمعاصي بسبب الجهالة، أي تعدي الطور، وركوب الرأس، ويُخْرَجُ من الجهالة المتعمد، ثم تابوا وأنابوا إلى الله، وأصلحوا الأعمال على وفق مراد الله ورسوله، فإن الله يغفر الذنب للتائب، ويرحمه في الآخرة والدنيا، أي إن المغفرة والرحمة مرتبطان بالتوبة والإنابة والندم على الأفعال، وإصلاح الأعمال.

اتباع ملة إبراهيم عليه السلام

إن مضمون الرسالات الإلهية الاعتقادية والأخلاقية هو واحد غير مختلف، فإن جميع الأنبياء والرسل دعوا إلى عبادة الله وحده دون إشراك، وإلى نبذ الوثنية وعبادة الأصنام. وإلى الأخلاق الكريمة كالصدق والإحسان والوفاء بالعهد، وكان إبراهيم الخليل أبو الأنبياء عليه السلام شديد الدعوة إلى هذه الأصول المشتركة، فجاء القرآن يلزم نبينا ﷺ باتباع ملته والاقتداء به، لاتصافه بصفات تسع هي ما يأتي في هذه الآيات:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً[1] قَانِتًا لِّلَّهِ[2] حَنِيفًا[3] وَلَمْ يَكُ[4] مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ[5] وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ[6] حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ[7] عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٠-١٢٤].

لما كشف الله فعل اليهود وتحكّمهم في شرعهم، بذكر ما حرَّم عليهم، أراد أن يبين بُعْدهم عن شرع إبراهيم والافتخار به، وأن يصف حال إبراهيم، ليبين الفرق بين حاله وحالهم وحال قريش أيضاً.

وصف الله تعالى في هذه الآيات إبراهيم إمام الحنفاء وأب الانبياء بتسع صفات وهي:

١- أنه كان أمة، أي رجلاً جامعاً للخير والصفات الحميدة ومعلماً الخير، كالناس الكثير.

(١) رجلاً جامعاً ومعلماً للخير. (٢) مطيعاً. (٣) مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق. (٤) حذف النون من ((لم يك)) لكثرة الاستعمال، كحذف الياء من: لا أبالِ ولا أدرِ. (٥) اختاره للنبوة. (٦) شريعته وهي التوحيد. (٧) فرض تعظيمه.

٢- وكان قانتاً لله، أي خاشعاً مطيعاً لله تعالى.

٣- وكان حنيفاً، أي مائلاً عن الشرك والباطل، وداعياً للتوحيد ومؤمناً به.

٤- ولم يكن من المشركين، بل كان من الموحدين في الصغر والكبر.

٥- وكان شاكراً لأنعم الله عليه، أي جميع نعم الله عليه، قليلها وكثيرها.

٦- اجتباه ربه، أي اختاره واصطفاه للنبوة.

٧- وهداه الله إلى صراط مستقيم، أي وفقه في الدعوة إلى الله إلى طريق قويم.

٨- وآتاه الله في الدنيا حسنة، أي حببّه إلى جميع الخلق، فكل أهل الأديان يقرون به، ويعظمونه، سواء المسلمون واليهود والنصارى. فالحسنة: لسان الصدق وإمامته بجميع الخلق.

٩- وإنه في الآخرة في زمرة الصالحين، تحقيقاً لدعائه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وبعد تعداد هذه الصفات التسع لإبراهيم الخليل، عليه السلام، أمر الله نبيه محمداً ﷺ باتباعه، لكماله وصحة توحيده وطريقته، وبعده عن الشرك، وكونه لم يكن من المشركين، واتباع ملة إبراهيم إنما هو في أصول الدعوة، أي الدعوة إلى توحيد الله، وفضائل الأخلاق والأعمال، والوحي إلى محمد ﷺ باتباع ملة إبراهيم: من جملة الحسنة التي آتاها الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ومن حسنات إبراهيم: تعظيمه يوم الجمعة واختياره للعبادة، كما اختاره نبينا عليه الصلاة والسلام، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، وتمت فيه النعمة على العباد.

أما تعظيم اليهود السبت واختيارهم إياه؛ فلأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً

من المخلوقات، وفرغ فيه من خلق مخلوقاته، وإنما شرع تعظيمه عند اليهود الذين اتفقوا على ذلك أخيراً، وأُلزموا به إلزاماً قوياً، فذلك عقوبةٌ من الله لهم، حيث إنهم لم يثبتوا على تعظيمه، بل عصوا فيه وتعدوا، فشدد الله عليهم، وأعنتهم في هذا التكليف، ولم يكن تعظيمه من ملة إبراهيم.

وكان باقي الآية وعيداً لهم، فالله يفصل بين الفريقين من اليهود فيما اختلفوا فيه في شأن اتباع موسى وعيسى، ويجازي كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب. وظل اليهود متمسكين بتعظيم السبت، حتى بعث الله عيسى عليه السلام، فحولهم إلى يوم الأحد، كما تحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة. ثم عدلوا عن تحويل عيسى، وعادوا إلى ما كانوا عليه.

وهناك اختلاف آخر بيّن اليهود، غير الاختلاف المذكور في الآية، ذكره نبينا ﷺ في الحديث، حيث قال فيما رواه الشافعي والبخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بَيْد أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا، وأُوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم يومُ الجمعة، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد».

يظهر من إبراز هذه الاختلافات مراد واضح لله عز وجل وهو أن تتحد الأمم والشعوب، والجماعات والأفراد على عقيدة واحدة وعبادة واحدة، وأخلاق ومعاملات واحدة، وعادات ومناهج واحدة، وحينئذ يعم الخير، ويسود السلام، وتنتهي المنازعات إلى يوم القيامة.

أسلوب الدعوة إلى الله

النجاح المحقّق والدائم في الأعمال يتوقف على الأسلوب الناجح والمنهج المعقول، والخطة السليمة، وبما أن غرس العقيدة في القلب ليس أمراً سهلاً، فيحتاج ذلك إلى حكمة في الخطاب، وإثارة العاطفة، وإقناع العقل، وتنبيه الفكر، وإذا استخدمت هذه الوسائل، ولم تحقق الهدف المطلوب، كان الموقف من المخاطَبين متسماً بالعناد وركوب الرأس، والتأثر بالأهواء والمصالح أو لعوامل أخرى كالتبعة إلى سيد أو قائد، والمهم التزام الأسلوب الحسن، كما قال الله تعالى في الدّعوة إلى دين الله تعالى:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ[1] مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥-١٢٨].

اشتملت الآيات على بيان أسلوب الدعوة إلى الله تعالى، وعلى العدالة والمماثلة في العقاب، وعلى الصبر في المحن والمصائب.

وسبب نزول الآية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ..﴾ فيما روى الحاكم والبيهقي والبزار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة حين استشهد، وقد مُثّل به، فقال؛ لأمثلنّ بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل، والنبي ﷺ واقف، بخواتيم سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ..﴾

(١) مضايقة وحرج.

إلى آخر السورة، فكفّ رسول الله ﷺ، وأمسك عما أراد. أي من الانتقام والأخذ بالثأر لحمزة.

فهذه الآية نزلت في شأن التمثيل بالحمزة رضي الله عنه في يوم أُحد . وقيل لهرم ابن حِبان حين احتضر: أوص، فقال: إنما الوصية في المال، ولا مال لي، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ الآيات.

والمعنى: ادع أيها النبي الناس إلى دين الله وشريعة ربك، وهي الإسلام، بالحكمة: أي بالقول المحكم، والموعظة الحسنة، أي بالعبرة والتوجيه والكلمة المؤثرة في القلوب، والتلطف بالإنسان، بإحلاله وتنشيطه، ليحذر الناس بأس الله تعالى، ويحققوا لأنفسهم النجاح، وجادلهم بالتي هي أحسن، أي وحاججهم محاجة تتصف بالحسن، والإقناع، وبالرفق واللين، ولطف الخطاب، والصفح عن المسيء، وقابل الإساءة بالإحسان، واقصد من الجدال الوصول إلى الحق، دون رفع الصوت أو السبّ أو التعيير أو التهكّم والاستهزاء، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٦].

ثم ذكر الله تعالى علة الأمر بالمجاملة في القول: وهي أنه سبحانه علم الشقي والسعيد من الناس، ومن حاد أو انحرف عن سبيل الله والحق، وهو مجازيهم على ضلالهم واهتدائهم حين لقاء ربهم، فله وحده الجزاء والحساب، لا لأحد من البشر ولو كان نبياً.

والعقاب ينبغي أن يكون بالمثل، فإن عاقبتم أحداً من الناس على إساءته أو جرمه، فعاقبوه بمثل فعله، فذلك هو موجب العدل، ولئن صبرتم على الأذى وصفحتم عن المسيء، فالصبر والعفو خير للصابرين أو العافين من الانتقام، لأن انتقام الله أشد، وعقابه أعظم. فهذه الآية كما تقدم بإجماع المفسرين مدنية نزلت في

شأن التمثيل بحمزة رضي الله عنه يوم أحد. ولتأكيد مضمونها أمر الله نبيه بقوله: اصبر أيها النبي على ما أصابك من أذى في سبيل الدعوة، وما صبرك إلا بعون الله وتوفيقه ومشيئته، ولا تجزع أو لا تحزن على إعراض المشركين والمخالفين المعادين، فإن الله قدّر ذلك، ولا تحزن على قتلى أحد، فترك الحزن مما يستعان به على الصبر، ولا تكن في غم وضيق صدر من مكرهم وتدبيرهم الكيد لك، ومحاولتهم إلحاق السوء والأذى بك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك.

إن الله مع المتقين الذين تركوا المحارم، واجتنبوا المعاصي، إنه تعالى معهم بالنصر والعون والتأييد، والله مع المحسنين أعمالهم برعاية الفرائض والمندوبات في فعل الخير، والقيام بالطاعة، وأداء الحقوق، وفعل الواجبات. والصبر: من التقوى والإحسان. إن هذه المعية لله مع المتقين والمحسنين معية خاصة، يراد بها الإعانة والتأييد والهداية.

تفسير سورة الإسراء

معجزة الإسراء

تقترن نبوة النبي أو إرسال الرسول عادة بمعجزة: وهي الأمر الخارق للعادة، لإثبات النبي أو الرسول صدقه أمام قومه، وأنه نزل عليه الوحي من ربه، ومن المعروف أن الله تعالى أيّد نبينا محمداً ﷺ بمعجزات مثل معجزات الأنبياء قبله، وقد ينفرد بمعجزة لا يماثله فيها نبي سابق، مثل انشقاق القمر، والإسراء والمعراج. وكان حادث الإسراء قبل الهجرة بعام أو بعام ونصف، وكان ذلك في رجب، والنبي ﷺ ابن إحدى وخمسين سنة وتسعةِ أشهر وعشرين يوماً، والمتحقق أن ذلك كان بعد شقّ الصحيفة: وثيقة مقاطعة قبائل قريش لبني هاشم وبني المطلب. وافتتح الله تعالى سورة الإسراء بخبره الموجز في الآية التالية من سورة الإسراء المكية:

﴿سُبْحَٰنَ[1] ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ[2] بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا[3] ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾ [الإسراء: ١٧/ ١].

لفظ الآية يقتضي أن الله عز وجل أسرى بعبده: وهو محمد ﷺ. والمعنى: تنزه الله تعالى من كل سوء أو عجز أو نقص أو شريك أو ولد، فهو كامل الصفات تام القدرة، فهو الذي أسرى بعبده محمد بواسطة الملائكة، في جزء من الليل، وبشخصه

---

(١) تنزيهاً لله وتعجيباً من قدرته. (٢) سار به ليلاً بالبراق. (٣) وهو مسجد بيت المقدس، سمي ((الأقصى)) في ذلك الوقت؛ لأنه كان أقصى بيوت الله الفاضلة من الكعبة.

جسداً وروحاً، في تمام اليقظة، لا في المنام، من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى، في بيت المقدس، وعاد إلى بلده في ليلته؛ لأن الله تعالى قادر قدرة تامة على فعل العجائب والمعجزات.

وأكثر المفسرين اتفقوا على أن الإسراء حدث بالجسد والروح، المعبر عنه بكلمة «عبده» وهو مجموع الروح والجسد فركب على البراق يقظة، لا في الرؤيا والمنام، ولو كان مناماً لقال الله تعالى: بروح عبده، ولم يقل: «بعبده» ولو كان مناماً، لما كانت فيه آية ولا معجزة. ثم عُرج بالنبي ﷺ إلى السموات وإلى ما فوق العرش، حيث فرضت في المعراج الصلاة على المؤمنين، وكانت بحق معراج المؤمن، وصلة بين العبد وربه، ولا خلاف أن في الإسراء والمعراج فرضت الصلوات الخمس على هذه الأمة.

ووصف الله تعالى ما حول الأقصى بالبركة من ناحيتين:

إحداهما- النبوة والشرائع وإرسال الرسل الذين كانوا في ذلك القطر، وفي نواحيه ونواديه.

الناحية الثانية- النِّعَم من الأشجار والمياه والأرض الخصبة ذات الأنهار والأشجار والثمار، التي خص الله الشام بها. روى ابن عساكر عن زهير بن محمد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى بارك ما بين العريش والفرات، وخص فلسطين بالتقديس» وهو ضعيف.

وكان القصد من الإسراء: هو ما قاله الله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي لنري محمداً بعينيه آياتنا الكبرى في السماوات، والملائكة، والجنة، وسدرة المنتهى وغير ذلك. مما رآه تلك الليلة من العجائب. وقوله تعالى في نهاية الآية: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وعيد من الله تبارك وتعالى للكفار على تكذيبهم محمداً ﷺ في أمر الإسراء، فهي إشارة لطيفة بليغة إلى ذلك، معناها: إن الله هو السميع لما تقولون، البصير

بأفعالكم، يسمع الله أقوال المشركين وتعليقاتهم على حادث الإسراء واستهجانَهم لوقوعه، واستهزاءهم بالنبي ﷺ في إسرائه من مكة إلى القدس، والله يبصر ما فعل أولئك المشركون، وبما يكيدون لنبي الله ورسالته.

وقد تواترت بذلك الأخبار والأحاديث النبوية في مصنفات الحديث الثابتة، وروي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام، حيث روي عن عشرين صحابياً. وجُلُّ العلماء على أن الإسراء كان بشخصه ﷺ ، وأنه ركب البراق من مكة، ووصل إلى بيت المقدس وصلّى فيه. والحديث مطوّل في البخاري ومسلم وغيرهما. والبراق كما جاء في كتاب الطبري: هو دابة إبراهيم عليه السلام الذي كان يزور عليه البيت الحرام.

والإسراء بكامل شخص النبي ﷺ هو الصحيح، ولو كانت الحادثة منامية، ما أمكن قريشاً أن تُشنِّع، ولا فُضِّل أبو بكر رضي الله عنه بالتصديق، لأنه كان أول المصدِّقين، ولا قالت له أم هانئ: لا تحدث الناس بهذا، فيكذبوك. وأما المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٠]. فهي رؤيا بصرية لا منامية، لأنه يقال لرؤية العين: رؤيا. وأما ما نقل عن عائشة رضي الله عنها بأن الإسراء رؤيا منامية، فهو لم يصح، لأن عائشة كانت صغيرة، لم تشاهد الحادث، ولا حدّثت بذلك عن النبي ﷺ.

إنزال التوراة على موسى عليه السلام

إن من أصول الإيمان في ديننا: هو الإيمان بالكتب السماوية المنزلة على الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، وهي مئة وأربعة كتب: صحف شيث ستون، وصحف إبراهيم ثلاثون، وصحف موسى قبل التوراة عشر، والتوراة والزبور

والإنجيل والفرقان، وقد أخبر الله تعالى في أوائل سورة الإسراء بإنزال التوراة على موسى عليه السلام أحد الأنبياء والرسل الخمسة أولي العزم، فقال سبحانه:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا(١) ۝٢ ذُرِّيَّةَ(٢) مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢-٣].

عطف الله تعالى بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا﴾ على حادث الإسراء في قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ لعقد الصلة بين الخبرين، كأنه سبحانه قال: أسرينا بعبدنا وأريناه آياتنا، وآتينا موسى كتاب التوراة، فلقد أكرم الله تعالى موسى عليه السلام، قبل محمد ﷺ، بالكتاب المنزل الذي آتاه أو أعطاه إياه، وهو التوراة الذي جعله الله هداية لبني إسرائيل، يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب، من ظلمات الجهل والضلال والكفر، إلى نور العلم والمعرفة والدين الحق. وقد جعلنا ذلك الإنزال لئلا تتخذوا يا ذرية نوح من دون الله وكيلاً تفوضون إليه أموركم، فقوله سبحانه: ﴿وَكِيلًا﴾ أي ربّاً تكِلون إليه أموركم.

والمقصود: لا تتخذوا رباً تفوضون إليه أموركم، فأنتم من ذرية أو بني نوح لصلبه، لأن نوحاً عليه السلام، آدم الأصغر، وأبو البشر الثاني، وكل من على الأرض من نسله، وتلك الذرية: هم الذين نجاهم الله من الغرق مع نوح، وهداهم إلى طريق التوحيد والحق والخير، وتعداد هذه النعم على الناس في الإنجاء المؤدي إلى وجودهم، يقتضي قبح الكفر والعصيان منهم، كما أن أصلهم وهو نوح كان عبداً شاكراً لأنعم الله وكثير الشكر في أحواله، يحمد الله في كل حال، وعلى كل نعمة، على المطعم والمشرب والملبس وقضاء الحاجة ونحو ذلك. فما على الذرية إلا أن يقتفوا أثر نوح، ويتبعوا منهجه وسنته في توحيد الله وعبادته، والاقتداء به.

---

(١) رباً تكِلون إليه أموركم. (٢) منصوب بفعل: تتخذوا، فهو مفعول به ثانٍ، أي ألاّ تتخذوا بشراً إلهاً من دون الله، أو منصوب على الاختصاص أو على النداء، أي أخص ذرية أو يا ذرية.

ووصْف نوح بكونه (عبداً)، ووصف نبينا محمد أيضاً بأنه (عبد الله) دليل واضح على مرتبة الأنبياء، وهي مرتبة العبودية الخالصة لله تعالى، فإن معجزة الإسراء والمعراج الخارقة لنبينا، لا يصح وصفها بغير حقيقتها، ولا إنزال النبي في منزلة تتجاوز موضعه الحقيقي، وهو كونه عبداً لله، أي خاضعاً لعزة الله وسلطانه.

وإن إنزال التوراة على موسى عليه السلام إنما هو من أجل الالتزام بأحكامها والاهتداء بهديها، والتقاء أتباعها مع دعوة الحق، ودعوات الأنبياء جميعاً، ومنهم نوح عليه السلام وخاتم النبين محمد ﷺ. وهذا المنهاج الموحد للأنبياء: هو الذي ينبغي أن يقتدي به الناس، فإن الدعوة إلى توحيد الله وعبادته واحدة في كل الشرائع، ولا يصح أن يكون بين أتباع الأنبياء اختلاف وأحقاد، وكراهية وعداوة، فذلك شأن من لا يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وتوحيد هذا المنهاج يفهم مما ربط الله تعالى به النهي عن الإشراك واتباع ذرية نوح الموحدة لله، والمراد الحمل على التوحيد لله، بذكر إنعامه تعالى عليهم المتضمن إنجاء آباء البشرية من الغرق في سفينة نوح عليه السلام، حين لم يكن لهم وكيل يتوكلون عليه، سوى الله تعالى.

وينبني على منهج التوحيد لله رب العالمين ألا يتخذ البشر أحداً منهم إلهاً من دون الله، أو أرباباً من دون الله، فإن المنعم الحقيقي هو الله تعالى، والناس بسبب ضعفهم وحاجتهم إلى الله سبحانه أجدر بهم أن يتجهوا نحو ربهم الذي خلقهم وهداهم وأنعم عليهم، وهو وحده الذي يحاسبهم في الدار الآخرة على كل ما قدموه من خير أو شر.

إفساد الإسرائيليين وتشريدهم مرتين

إن جزاء الأمم في ميزان العدل الإلهي يكون بحسب الطاعة أو العصيان، ولا يكون عقاب من الله تعالى لأحد إلا بسبب جرمه وجحوده، أو تحديه وعناده ومعارضته دعوة الرسل، وخروجه عن هدي الله تعالى. وهكذا كان الحال مع بني إسرائيل في التاريخ، أفسدوا في الأرض، فشردوا فيها مرتين بسبب فسادهم، ويتكرر العقاب أو الثواب عادة بتكرر سببه. قال الله تعالى واصفاً هذه الأحوال:

﴿وَقَضَيْنَآ(١) إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ(٢) عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا(٣) بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ(٤) شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ(٥) وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ(٦) عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا(٧) ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟(٨) وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا(٩) ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا(١٠) ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤-٨].

هذه الآيات: إخبار عن أحوال بني إسرائيل وتاريخهم القديم، ومضمون الخبر: أن الله أعلمهم في التوراة على لسان موسى، وقضى عليهم في أم الكتاب أنهم سيفسدون في الأرض التي يحلّون فيها مرتين، و يخالفون مخالفتين: مخالفة ما جاء في التوراة وتغييرها، وقتل بعض الأنبياء مثل أشعيا وزكريا ويحيى، ويتكبرون عن طاعة

---

(١) علمناهم بما سيقع منهم من الإفساد مرتين . (٢) تتجاوزنّ في الظلم والعدوان . (٣) يجوز أن يقع الوعد في الشر بمعنى العقاب الحالّ . (٤) ذوي قوة . (٥) الديار: هي المنازل والمساكن . (٦) الغلبة . (٧) أكثر عدداً من عدوكم . (٨) أي بعثناهم ليسؤوا، فهي لام ((كي)) . (٩) ليدمروا ما استولوا عليه . (١٠) مهاداً .

الرسل، ويطلبون في الأرض العلو والفساد، ويظلمون من قدروا على ظلمه، وهذا مطابق لما هم عليه الآن.

فإذا حان موعد المرة الأولى من الإفساد والشر، وحل وقت العقاب، سلط الله عليهم جنداً أولي بأس شديد، أي قوة وشدة، فتوغلوا في بلادهم وتملكوها، وقاموا بتخريب مدنهم، وإحراق التوراة، وسبي كثير منهم، وكان هذا وعداً حتمي الوقوع، نافذ المفعول، بسبب تمردهم عن طاعة الله، وقتلهم الأنبياء.

ثم رد الله تعالى لهم القوة، وأهلك أعداءهم، وجعلهم أكثر نفيراً أي عدداً من الرجال، وأمدهم الله بالأموال والأولاد، في حال الطاعة والاستقامة على أمر الله. وتبدُّلُ هذه الحال للعبرة والعظة.

وبما أن شرع الله وقانونه عادل، فإن الله سبحانه أوضح لهم أنه إن أحسنوا العمل، وأطاعوا الله، واتبعوا الأوامر، واجتنبوا النواهي، فإنهم يحسنون لأنفسهم؛ لأن الطاعة تنفعهم، وإن أساؤوا بفعل المحرّمات، أساؤوا لأنفسهم، لأن وباء المعصية يضرهم، ويمنع عنهم الخير، ويؤدي إلى تسلط الأعداء في الدنيا، وإيقاع العذاب في الآخرة.

وإذا حان موعد الإفساد الثاني، وحل أجل العقاب عليه، بعث الله عليهم الأشداء، وتعرضوا لإظهار الإساءة في وجوههم بالقهر والإهانة من أولي البأس الشديد، ودخول مسجد بيت المقدس قاهرين مفسدين، كما حدث في المرة الأولى، ولتدمير وتخريب ما ظهروا عليه تخريباً وهلاكاً شديداً، بإزالة آثار الحضارة والعمران، وإبادة السكان، وإتلاف الحرث والزرع والثمر.

ثم يفتح الله تعالى باب الأمل أمام المفسدين من بني إسرائيل، ومضمونه: لعل الله أن يرحمهم، ويعفو عنهم بعد انتقامه منهم في المرة الثانية من تسليط الأعداء، إن

تابوا وأقلعوا عن المعاصي، فإن عادوا إلى الإفساد والعصيان في مرة ثالثة، أعاد الله عليهم تسليط الأعداء، وإنزال العقاب بهم، بأشد مما مضى سابقاً، مع ادخار العذاب لهم أيضاً في الآخرة.

والله تعالى جعل جهنم للكافرين مستقراً وسجناً لا محيد عنه، كما جعلها مهاداً ومستقراً لهم، ومحطة تشوى فيها جباههم وجنوبهم وظهورهم، وهذا تصوير لشمول العذاب لهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤١] أي أغطية.

وتكون العبرة في سرد وقائع التاريخ الإسرائيلي في القرآن واضحة، وهي أن التنكيل والعذاب شأنهم في الدنيا إذا أدمنوا الفساد والإفساد، والإنقاذ والرحمة كغيرهم يشملهم إذا استقاموا على طاعة الله والتزموا أوامره.

الغاية من إنزال القرآن

لكل شيء حكمة وغاية، وأفعال الله تعالى تهدف إلى تحقيق غاية، وترشد إلى مصلحة، وتدعو إلى ما فيه خير، وتمنع كل ما هو شر، وإنزال القرآن الكريم والدعوات الإلهية والرسالية أو النبوية من أجل تحقيق غايات كبرى وأهداف سامية، لمصلحة البشرية جمعاء، وللمسلمين والمسلمات بصفة خاصة، وأهداف القرآن: عامة وخاصة، وعمومها: الهداية للطريق التي هي أقوم، وخاصة: تبشير الطائعين بالجنة، وإنذار العصاة بالنار، قال الله تعالى مبيناً هذه الأهداف:

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ

أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا(١) لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٩-١١].

هذه الآيات دعوة صريحة قاطعة مقنعة للناس جميعاً، للإيمان بالقرآن الكريم الذي أنزله الله على رسوله، لإنقاذهم من الظلمات إلى النور، وإسعادهم في الدنيا والآخرة، وأسباب هذه الدعوة ثلاثة:

أولاً -إن القرآن الكريم يرشد ويدعو للحال والطريقة التي هي أقوم وأصلح، وأسدّ وأحكم، وهي الدين القويم، وملة التوحيد الخالص لله: (لا إله إلا الله) والأقوال والأفعال السديدة الرشيدة.

ثانياً -إن القرآن العظيم ذو هدف إصلاحي جذري في الحياة الإنسانية، فهو يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات من فرائض ومندوبات وأعمال خيِّرة، يبشرهم بالثواب العظيم أو الأجر الكبير وهو الجنة يوم القيامة، جزاء عملهم. وعمل الصالحات إنما هو لكمال الإيمان، وترجمة المصداقية والانسجام مع العقيدة.

ثالثاً -إن القرآن المجيد ينذر الذين لا يصدقون بوجود الله وتوحيده، ولا بوجود البعث والآخرة، والثواب والعقاب، ينذرهم بالعذاب الشديد الموجع أو المؤلم، جزاء ما قدموا من سوء الاعتقاد وفساد الأعمال.

فيكون للقرآن هدف إيجابي وسلبي معاً في آن واحد، فهو يبشر المؤمنين العاملين عملاً صالحاً بالجنة، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم، وفي هذا التوجه المزدوج مسرّة لأهل الإيمان، ووعيد للكفار والعصاة.

ولكن الإنسان ظالم لنفسه عادة، ويتعجل النتائج، مما استدعى أن تكون هذه

(١) أعتدنا: معناه أحضرنا وأعددنا .

الآية: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ ذامّة لما يفعله الناس من الدعاء على أموالهم وأولادهم في وقت الغضب والتضجر، فهم يدعون بالشرّ في ذلك الوقت، كما يدعون بالخير في وقت التثبت، فلو أجاب الله دعاءهم في وقت الشر لأهلكهم، ولكن الله تعالى يصفح ولا يجيب دعاءَ الضَّجِر المستعجل.

إن الله لطيف بعباده، لا يجيب دعاء المتعجل بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة، كما يدعو ربّه بالخير، أي بالعافية والسلامة والرزق، ولو استجيب دعاؤه لهلك، ولكن الله بفضله ورحمته لا يستجيب دعاءه، كما قال الله سبحانه في آية أخرى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١٠/ ١١].

وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا تَدْعو على أنفسكم، ولا على أموالكم، أن توافقوا من الله ساعة إجابة، يستجيب فيها».

والذي يحمل الإنسان على ذلك مع الأسف: هو قلقه وعجلته، وطمعه وحرصه، كما صوَّر القرآن هذا الطبع في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي يتعجل تحصيل المطلوب، دون تفكير في عواقبه.

وكلمة: (الإنسان) في الآية يراد بها الجنس (وهو أيّ إنسان) بحسب ما في الْخَلْق من ذلك. وما على الإنسان إلا أن يتعقل ويصبر ولا يتعجل، ويفوض الأمر للخالق البارئ المقدر، ويهتدي بهداية القرآن في الإرشاد لما فيه حسن الختام والعاقبة، ولما يتفق مع الواقع، فليست الحياة جنة طافحة بالنعم والخير، وإنما فيها الشر والشدة أحياناً، كما أن فيها الخير واليسر والسعة أحياناً أخرى.

المسؤولية الشخصية

الحياة ابتلاء واختبار، والإنسان يتقلب في المعاش والكسب مستفيداً من ظرف الليل والنهار، وما فيهما من فوائد تدل على قيمة الوقت وحساب الزمان، ومقتضى العدل والحق أن يستقل كل إنسان في عمله والمسؤولية عنه، لأن له ثمرته، وعليه تبعاته، ويكون حسابه في الدنيا والآخرة حساباً فردياً شخصياً، لا يسأل عن عمل غيره، وهو الذي يسطّر لنفسه النتائج، فمن اهتدى إلى الحق والخير، وعمل بموجبها، كان نفع الهداية لنفسه، ومن تنكر للحق وسلك طريق الشر، كان وبال الضلال على نفسه، فالمسؤولية شخصية، ولا ثواب ولا عقاب إلا بعد البيان والإنذار، قال الله تعالى مبيناً هذه القواعد:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ[١] وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً[٢] لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ[٣] إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ[٤] وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا[٥] ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ[٦] وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٢-١٥].

هذه الآيات تبين بعض نعم الحياة الدنيوية، وهي أيضاً تدل على قدرة الله العظمى وحكمته البالغة، فالله سبحانه جعل الليل والنهار علامتين دالتين على قدرته وبديع صنعه، وفي تعاقبهما تحقيق مصلحة الإنسان والحيوان والنبات، أما الليل وظلامه، ففيه الراحة والسكون، وأما النهار وضوؤه بالشمس، ففيه التقلب في أنحاء

---

(١) جعلنا القمر مطموس الضوء . (٢) جعلنا الشمس مضيئة . (٣) وكلّ: منصوب بفعل مقدر تقديره أوجدنا . (٤) أي ألزمناه عمله من خير أو شر . (٥) حاسباً أو محاسباً . (٦) لا تحمل نفس آثمة .

الدنيا للعمل والعيش والكسب، والضوء يناسبه الحركة والانتقال وإتقان الأعمال، والظلام في الليل يناسبه هدوء الأعصاب، وراحة الجسد، ومتعة العقل والفكر. وفي تعاقب الليل والنهار ابتغاء الرزق والتمكن من التخطيط ليلاً، وإنجاز العمل نهاراً.

وفي دوران الليل والنهار تعريف بحساب الزمان ومرور الأيام والشهور والأعوام، والتعرف على المصالح في الدورات الزراعية، وتحديد الآجال والأعمار، والديون والمعاملات، ومعرفة حساب وقت العبادات من صلاة وصيام، وحجّ وزكاة، ولو لم يتغاير الليل والنهار لما تحققت الراحة، ولما عرف مقدار الوقت، وعاش الإنسان في عماية وجهالة، أو في تعب وعناء، لحساب الأشياء وتقدير الأزمان.

ومن كرم الله وفضله: أنه سبحانه أبان للإنسان كل شيء به حاجة في مصالح الدين والدنيا والآخرة، وعرّفه طريق الحياة، ودستور المعيشة، وأسلوب المعاملة، بتفصيل دقيق، وبيان واف.

وجعل الله عمل كل إنسان ملازماً له، بخيره وشره، فيكون المراد بقوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ هو عمله، فالطائر: هو العمل الصادر عن الإنسان، وملازمته له كملازمة الطائر لصاحبه.

قال ابن عباس: (طائره): ما قدِّر عليه وله. وخاطب الله العرب في هذه الآية بما تعرف من عادة زجر الطير تيامناً وتشاؤماً؛ وسيخرج الله لكل إنسان يوم القيامة كتاباً يراه، ويستقبله منشوراً أمامه، فيه جميع أعماله خيرها وشرها. ويقال له حين تلقّي الكتاب: اقرأ كتاب عملك في الدنيا، كفى بنفسك حاسباً تحسب أعمالك وتحصيها. قال الحسن البصري: قد عدل، والله فيك، من جعلك حسيب نفسك.

وإذا كان كل واحد مختصاً بعمل نفسه، فمن اهتدى إلى الحق والصواب، واتبع

شرع الله وهدي النبوة، فإنما ينفع نفسه، ومن ضل في عمله، وحاد عن شرع الله، وجحد به وبرسله، فإنما يضر نفسه. نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة حين قال: يا أهل مكة، اكفروا بمحمد، وإثمكم علي.

وأعلن الحق سبحانه مبدأ عظيماً من مفاخر الإسلام وهو أنه لا تتحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، بل على كل نفس إثمها دون إثم غيرها، وهذا مبدأ المسؤولية الفردية أو الشخصية، وهو رد على أهل الجاهلية والأمم السابقة الذين يوجهون المسؤولية لغير الجاني أو المخطئ.

ومبدأ آخر نص عليه القرآن عملاً بمقتضى العدل والحكمة والرحمة وهو أنه لا عقاب ولا عذاب إلا بعد بيان وإنذار، وإرسال رسول، سواء في الدنيا والآخرة، وهو المبدأ القانوني المشهور: لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص. وهذا يتطابق مع معنى آية أخرى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٥/٢٤].

أسباب الهلاك والدمار

لقد بعث الله الرسل والأنبياء لمهمة إنسانية سامية: وهي الإرشاد للدين الحق، فأرسل الله آدم عليه السلام بالتوحيد، وغرس المعتقدات الدينية في بنيه، وأقام الله الأدلة الكثيرة الدالة على الإله الصانع. فإذا توافر البصر الصحيح والعقل السديد، وجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدد ذلك على يد نوح عليه السلام، بعد غرق الكفار، ثم تتابع الرسل الكرام إلى خاتم النبيين بالدعوة إلى توحيد الله وطاعته، وتجنب الشرك ومعصية الله، فإذا قابل الناس هذه الدعوة بالرفض، استحقوا الدمار والهلاك، وتلك سنة الله تعالى المعبر عنها في هذه الآيات:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا[١] فَفَسَقُوا۟ فِيهَا[٢] فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا[٣] ﴿١٦﴾ وَكَمْ[٤] أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ[٥] مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

[الإسراء: ١٧/١٦-١٧].

المعنى: إذا دنا وقت إهلاك قوم بعذاب الاستئصال، أمر الله المترفين (أي المتنعمين) بالطاعة والخير أمراً فعلياً، فإذا عصوا ذلك الأمر وفسقوا، وخرجوا عن حدود الطاعة وتمردوا، وجب عليهم العذاب جزاءً وفاقاً لعصيانهم فدمرهم الله تدميراً، وأبادهم إبادة تامة. وخص الله المترفين لأنهم الواجهة، وأنهم أولى بالشكر من غيرهم ولأن فسقهم هو المؤثر في فساد القرية، وسواهم تبع لهم، وفي قراءة أخرى: ﴿أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي ملّكناهم على الناس، وليس المراد إمارة المُلْك، وإنما جعلهم يأمرون ويؤتمر لهم. وقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي وعيد الله الذي قاله رسولهم، وهو التدمير: أي الإهلاك مع طمس الآثار وهدم البناء.

ثم أنذر الله تعالى كفار قريش وأمثالهم في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ، بأن كثيراً من الأمم وجب عليهم العذاب بذنوبهم، ومفاد الآية: كثيراً ما أهلكنا أمماً من بعد نوح عليه السلام، إلى زمانكم، لما بغوا وعصوا، وجحدوا آياتِ الله، وكذَّبوا رسله، كما أنتم الآن معشر قريش، وأنتم أيها المكذبون، لستم أكرم على الله منهم، وقد كذَّبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وألزم.

وهذا وعيد لمكذبي الرسول ﷺ في كل زمان بشديد العقاب، وفيه دلالة على أن القرون التي مضت بين آدم ونوح، كانت على الإسلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. ثم ذكر الله تعالى مامعناه:

---

(١) أمرنا متنعميها بطاعة الله . (٢) فتمردوا وعصوا . (٣) استأصلناها . (٤) كم: في موضع نصب بـ ((أهلكنا)) . (٥) الأمم .

وكفى بالله خبيراً بذنوب خلقه، مطلعاً عليها، يحصي عليهم أعمالهم ومعاصيهم، فلا يخفى عليه شيء من أفعال المشركين وغيرهم، وهو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية. والخبير: العليم بأحوال الناس، والبصير: الذي يبصر أعمالهم. وفي هذه الآية تنبيه واضح على أن الذنوب: هي أسباب الدمار والهلاك، لاغير، وأن الله عالم بها، ومعاقب عليها.

وهذه الآيات تحضّ العقلاء على العمل الصالح النافع في الدنيا والآخرة، وتدفعهم إلى الجدّ وترك الكسل، والجهاد في سبيل الله حقّ جهاده.

إن العلاقة بين الله تعالى وبين الناس أمرها عجب، فالناس ينسبون إلى الله تعالى الشرك، وهو سبحانه يرزقهم ويعافيهم.

قال النبي ﷺ فيما يرويه أحمد وغيره: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنه يشرك به، ويجعل له الولد، ثم هو يعافيهم ويرزقهم»(١) . وفي رواية أخرى: «ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى، إنهم يجعلون له نداً، ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم»(٢).

والإحسان والرزق يقتضيان مقابلة المعروف بمثله، إلا أن الإنسان مع الأسف يتنكر للمعروف، ولا يقابل الإحسان بمثله، جاء في أثر إلهي: «ابن آدم، خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفّلت برزقك فلا تتعب، ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتّك فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء».

ويحلم الله على الإنسان، فلا يعجل له العقاب، حتى يترك له الفرصة الكافية للتوبة والإصلاح، وهو سبحانه يمهل ولا يهمل، وجعل الله سنوات العمر متدرجة

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٨٠٤ . (٢) رواه مسلم ، وأحمد في مسنده رقم ٤٣٩٥ .

بين الضعف والقوة، ثم الهرم والشيخوخة، ليتذكر الإنسان ويعتبر، ويعود إلى جادة الاستقامة وإصلاح شؤونه وأعماله من أقرب الطرق، فإذا استبد العناد والجحود بالإنسان، ووقف موقف التحدي، استحق الجزاء العادل.

أهل الدنيا وأهل الآخرة

تتجه الهمم والعزائم بحسب المقاصد والنيات والأغراض إما إلى الدنيا ومحبتها وإيثارها على كل شيء، وهذه هي طبيعة الماديين وعشاق المال والثراء والجاه، وإما إلى الآخرة وتفضيلها على الدنيا لأنها النعيم الأبدي الخالد، وحذراً من الجحيم والعذاب الدائم، ويكون الجزاء بمقتضى العدل الإلهي أن يُجازى كل امرئ بما كسب، ويكون هذا الجزاء من جنس العمل، وهذا ما أوضحته الآيات الآتية، قال الله في كتابه العزيز:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا[١] مَذْمُومًا مَّدْحُورًا[٢] ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا[٣] وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ[٤] هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا[٥] ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/١٨-٢٠].

تُصنِّف هذه الآيات الناس صنفين، وتجعلهم فريقين: فريق يعمل للدنيا وحدها، وفريق يعمل للآخرة في الغالب، أما الفريق الأول أهل الدنيا العاجلة: فهم يقصرون جهدهم وعملهم على تحصيل ملذات الدنيا وشهواتها وينسون المستقبل والآخرة، ولا يؤمنون بها، فتكون النتيجة أن الله تعالى يعجل لمن يريد الدنيا

(١) يدخلها. (٢) مطروداً من رحمة الله. (٣) أي أعطاها حقها من السعي بالأعمال الصالحة. (٤) نزيد من العطاء مرة بعد مرة. (٥) ممنوعاً.

مرادهم، ويعطي من أراد الله ما يشاء بحسب علمه وحكمته، أي إن العطاء بحسب مشيئة الله، لا بحسب محبة العبد، ولمن يشاء الله، لا لكل من أراد الدنيا، ثم يجعل الله جهنم لجميع من يريد العاجلة وهو كافر بالله وبالآخرة، سواء من أعطاه فيها ما يشاء، ومن حرمه، فأهل الدنيا لا يعطون كل ما يريدون، وإنما يعطون بعض ما يتمنون. ومن يُحرم من نعيم الدنيا يجمعْ بين فقر الدنيا وفقر الآخرة. إنهم أي أهل الدنيا يُصْلَوْن، أي يدخلون جهنم، مذمومين، أي ملومين، مدحورين، أي مطرودين من رحمة الله تعالى، فيكون عذابهم متصفاً بصفات ثلاث: الدوام، والإذلال، والطرد من رحمة الله.

وأما الفريق الثاني: فهم المؤمنون الأتقياء أهل الآخرة، الذين يعملون لها ما استطاعوا من القُرَب والطاعات، وهم مؤمنون مصدِّقون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهؤلاء أهل الكمال المشكورون على طاعتهم المثابون على أعمالهم من ربهم، بسبب ملازمتهم أعمال الخير، والتزام حكم الشرع وطرقه. هذا هو قانون الجزاء الأخروي، أما الرزق في الدنيا فلا يرتبط بالإيمان أو الكفر، وإنما يرزق الله تبارك وتعالى في الدنيا مريدي الآخرة المؤمنين، ومريدي العاجلة الكافرين، ويمدهم بعطائه منها، وإنما يقع التفاضل والتباين في الآخرة، لأنها خير من الدنيا وأدوم وأخلد، أما الدنيا فهي فانية، ولا شأن لها عند الله تعالى، فيكون الرزق المادي فيها لجميع العباد، ولا يضيق رزق الله عن مؤمن ولا عن كافر، فلينظر الإنسان كيف يمدّ الله تعالى بعطائه الدنيوي كلا الفريقين: مريدي الدنيا ومريدي الآخرة، فيمنحهم الله المال والأولاد والصحة والشرف والجاه، والزينة والحظ، والعز في الدنيا، لأنّ الدنيا عند الله تعالى لا تساوي جناح بعوضة.

غير أن الرزق والعطاء الدنيوي متفاوت، متفاضل، يُفضَّل بعض الناس على بعض في الرزق والمتاع، فقد يعطي الله المال والثروة لكافر، ويمنعه عن كافر آخر،

ويحجبه عن مؤمن، لحكمة بالغة، ومصلحة للعبد نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٢] أي ليخدم بعضهم بعضاً، وقال الله سبحانه أيضاً: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٧].

ثم أخبر الله تعالى أن التفضيل الأكبر والتفاوت الأعظم بين المؤمنين إنما يكون في الآخرة، فتكون الدرجات أكبر، والتباين أعظم، أخرج ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن قتادة قال: «إن بين أعلى أهلِ الجنة درجةً، وأسفلِهم، كالنجم يُرى في مشارق الأرض ومغاربها» وكذلك التفاوت كبير بين أهل النار، فهم في دركات، بعضها أسفل من بعض، أي إن النار دركات، والجنة درجات، وفي الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين، كما بين السماء والأرض، قيل: وقد رضّى[1] الله الجميع، فما يغبط أحدٌ أحداً، ولا يتمنى عن ذلك بدلاً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

التوحيد وبر الوالدين

يعلِّمنا القرآن الكريم الأدب الجم، والوفاء للجميل ورد المعروف، وتقدير النعمة، فليس هناك للإنسان مصدر للنعمة سوى الله تعالى، فهو المتفضل المحسن، والوالدان بحكم عاطفتهما يبذلان أقصى ما في وسعهما لتربية الأولاد والحفاظ على حياتهم وصحتهم، وإمدادهم بكل ما يحتاجون، حتى إن الوالدين يفضلان مصلحة

(١) أي أرضى.

الولد على أنفسهما، فكان مقتضى هذا الإحسان والتضحية مقابلة الولد لوالديه بالبر ورد الجميل، والأدب والرعاية ولا سيما في سنّ الكبر والشيخوخة، أو المرض، أو الحاجة، قال الله تعالى قارناً بين الأمر بتوحيده وعبادته، وبر الوالدين:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا(١) ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ(٢) رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ(٣) وَلَا تَنْهَرْهُمَا(٤) وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ(٥) غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٢-٢٥].

خاطب الله نبيه محمداً ﷺ باعتباره نبي الإنسانية بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ..﴾ والمراد: جميع الخلق، فلا تجعل أيها الإنسان المكلف شريكاً مع الله تعالى في ألوهيته وعبادته، وأنما أفردِ الله بالألوهية والعبادة، فلا إله غيره، ولا رب سواه، ولا معبود بحق إلا هو، فإن جعلت أيها الإنسان مع الله إلهاً آخر، كنت ملوماً على الشرك، مذموماً من الله وكل عاقل، مخذولاً لا ينصرك ربك الذي خلقك، والذم من الله ومن ذوي العقول في أن يجعل الإنسان عوداً أو حجراً أفضل من نفسه، ويخصّه بالتكريم، وينسب إليه الألوهية، ويشركه مع الله الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه.

ولذا أمر الله تعالى، أي ألزم أو أوجب عليكم أيها البشر عبادة الله، والاقتصار على عبادته، دون إشراك غيره فيها، وأمركم أيضاً ببر الوالدين والإحسان إليهما إحساناً تاماً في المعاملة.

---

(١) غير منصور من الله. (٢) حكم وألزم. (٣) كلمة تضجر وكراهية. (٤) لا تزجرهما عما لا يعجبك.
(٥) للتوابين.

وإذا بلغ الوالدان أو أحدهما سن الكبر، أو صارا في حال ضعف وعجز، فعلى الولد واجبات خمسة، وهي:

أولاً -ألا تقول لهما أفّ: وهي كلمة تضجر وتبرم، فلا تسمعهما أدنى مراتب القول السيئ، بتوجيه كلمة إيذاء مكونة من حرفين، تدل على التضجر والمضايقة فتلك الكلمة الصغيرة ذات إساءة بالغة، حتى ولو صدر منهما ما يضايق.

ثانياً -لا تنهرهما بفعل قبيح، والنَّهر: الزجر والغلطة، والانتهار: إظهار الغضب في الصوت واللفظ، أما التأفف فهو الكلام الرديء الخفي، ويراد به المنع من إظهار الضجر، وأما الانتهار فيراد به المنع من إظهار المخالفة في القول، بالردّ أو التكذيب.

ثالثاً -وقل لهما قولاً كريماً، والقول الكريم: الجامع للمحاسن، من اللِّين وجَوْدة المعنى، والتوقير والتعظيم والحياء، ويلاحظ أن الله تعالى قدم النهي عن المؤذي، ثم أمر بالقول الحسن والكلام الطيب.

رابعاً -وتواضع لهما بفعلك، وألن الجانب لهما، وقف معهما موقف الخاشع المتذلل، كحال الطائر إذا ضم إليه فرخه، فيخفض له جناحه، وينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في حال ذلّة، في أقواله وسكناته ونظره، من غير حملقة أو نظرة غاضب، رحمة بهما وشفقة عليهما، تنبع تلك الرحمة من النفس، لا من أجل امتثال الأمر، وخوف العار والنقد فقط.

خامساً -واطلب لهما الرحمة من الله في حال الكبر وبعد الوفاة. وهذا الأدب الخامس دليل على أن بر الوالدين لا يكون بالأقوال فقط، بل بالأفعال أيضاً، وهو الدعاء لهما بالرحمة الجامعة لكل الخيرات في الدين والدنيا، وليقل الولد في دعائه: ﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ أي أفض عليهما فيض الرحمات، كالرحمة التي شملتني

بتربيتهما لي في حال الصغر. وهذا التذكير بتربية الصغر مما يزيد الإنسان إشفاقاً وحناناً عليهما.

ثم حذر الله تعالى من التهاون في بر الوالدين، فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي إن المطلوب من الولد هو البر ظاهراً وباطناً، حقيقة وفعلاً، لا رياء ومجاملة ظاهرية، والعبرة بما في القلب من الإخلاص في الطاعة، لأن الله مطلع على ما في النفوس، وهو سبحانه أعلم بأحوال الولد في البر، والوعد للأولاد بغفران الذنوب في حال البر: مشروط بشرط الصلاح والرجوع (أو الأوبة) إلى طاعة الله، فإنه سبحانه كثير المغفرة للتائبين الراجعين إلى الخير، العادلين عن المعصية إلى الطاعة، وإلى ما يحبه الله ويرضاه، والمقصود من الآية: التحذير من ترك الإخلاص.

منهاج الإنفاق
على القرابة والمحتاجين والأسرة

الإسلام دين التوسط والرحمة والاعتدال في النفقة على النفس والقريب والأهل والمحتاجين، فلا يصح البخل والتقتير، ولا الإسراف والتبذير، وليعتمد الإنسان على رزق الله الذي لا ينقطع ولا ينفد، وليتكل على الله الذي لا يضيع أحداً من خلقه وعباده، إذا أحسنوا العمل وقاموا بالكسب والسعي، ولم يعطلوا مواهبهم في الإنتاج والبحث واكتشاف خزائن الأرض، والإفادة من خيرات السماء، قال الله عز وجل مبيناً دستور الإنفاق على القرابة والمحتاجين والأهل جميعاً:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا

فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً(١) إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ(٢) فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا(٣) ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ(٤) إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٦-٣٠].

نزلت الآيات في كل من كان يسأل النبي ﷺ من المساكين، وتأمره بالإنفاق من غير تقتير ولا بسط يد، فموضوعها الإحسان إلى ذوي القرابة والمساكين وأبناء السبيل، والاعتدال في الإنفاق من غير إقلال ولا إسراف.

ومطلع الآية الأولى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ وصية للناس كلهم بصلة قرابتهم، خوطب بذلك النبي ﷺ ، والمراد الأمة. وإيتاء حق القرابة: ما يتعين له من صلة الرحم، وسدّ الخُلَّة، والمواساة عند الحاجة بالمال، والمعونة بكل وجه. وعُطف على القرابة: المسكينُ ومثله الفقيرُ، وهما لا يجدان الكفاية، وابنُ السبيل وهو هنا يعم الغني والفقير، إذ لكل واحد منهما حق، وإن اختلفا في مدى العطاء، وابن السبيل في آية الصدقة أو الزكاة: أخص.

وتنهى الآية عن التبذير: وهو إنفاق المال في وجوه الفساد، أو الإسراف في المباحات، فالإسراف مذموم، والمطلوب: التوسط والاعتدال في الإنفاق، وهي سياسة الإسلام المالية والاجتماعية والدينية، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٧].

ثم نبّه الله تعالى على قبح التبذير، جاعلاً المبذرين المنفقين أموالهم في المعاصي يشبهون الشياطين، فهم قرناء المبذرين في الدنيا والآخرة، في الصفة والفعل، وكان الشيطان لنعمة ربه جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه، ولم يعمل بطاعته، بل أقبل

(١) كناية عن الشح . (٢) كناية عن التبذير والإسراف . (٣) نادماً . (٤) يضيقه على من يشاء .

على معصيته ومخالفته، والتبذير كما ذكرت: النفقة في معصية، لا في مباح، قال مجاهد: لو أنفق الإنسان ماله كله في حق لم يكن تبذيراً، ولو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية، إذا سأله أحد من المساكين وبني السبيل، فلم يجد عنده ما يعطيه، واستحى من التصريح بالرد بسبب الفقر والقلة، وأعرض عنه تأدباً منه، في أن يرده تصريحاً، وانتظاراً لرزق من الله تعالى يأتي، فيعطي منه، ويعده وعداً حسناً، ويؤنسه بالقول الميسور: وهو عقد الرجاء على فضل الله، والتأنيس بالميعاد الحسن، والدعاء بتوسعة الله تعالى وعطائه. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول كما ذكر القرطبي ١٠/ ٢٤٩ بعد نزول هذه الآية -إذا لم يكن عنده ما يعطي -: «يرزقنا الله وإياكم من فضله» . فالمراد من الرحمة في آية ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ : الرزق الحسن.

وسياسة الإنفاق من الأموال: هي القصد والاعتدال، فلا تجعل أيها النبي، وكل إنسان، يدك مغلولة إلى عنقك، أي تمسكها عن الإنفاق، وتبخل على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات، ولا تسرف ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً، فتعطي فوق طاقتك، فتقع في الملامة والحسرة والندم، حين لا تجد في يدك شيئاً.

ثم أبان الله تعالى منهاج المدد الإلهي ورزق العباد، مخاطباً رسوله: كن أنت يا محمد على ما رُسم لك من الاقتصاد والاعتدال، ولا يهمنك فقر من تراه فقيراً، فإنه بمرأى من الله وبمسمع وبمشيئة، فإنه تعالى يبسط الرزق لمن يشاء، ويضيِّقه (يقدر) على من يشاء، ويغني من يشاء، ويفقر من يشاء، لما له من الحكمة في ذلك، يعلم مصلحة قوم في الفقر، ويعلم مصلحة آخرين في الغنى.

يوضح ذلك ما جاء في الحديث الذي ذكره السيوطي في الجامع الكبير[١]: «إن من عبادي المؤمنين لمن لا يُصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيتُه لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لَمن لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته، لأفسدت عليه دينه»

فقد يكون الغنى استدراجاً إلى النار، والفقر عقوبة، وقد يكون المؤمن الصالح فقيراً، فليس تضييق الرزق على بعض الناس لسوء حالهم عند الله تعالى، ولا الإمداد والتوسعة على آخرين لحسن حالهم.

تحريم القتل والزنى وأكل مال اليتيم

لقد صان القرآن الكريم حق الحياة العزيزة الكريمة، من أجل بقاء النوع الإنساني الطاهر النظيف، وجعل الاعتداء على الأولاد والأنفس جريمة، ووأد البنات عاراً ورذيلة، ووصف العلاقات غير المشروعة بأنها فاحشة وسبيلٌ سيئ، وطريق محفوف بالمخاطر والعواقب الوخيمة، وجعل أكل أموال اليتامى ظلماً وعدواناً، والوفاء بالعهد أو العقد فضيلة ومحل مسؤولية ومطالبة، قال الله تعالى مبيناً هذه القواعد:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ[٢] نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا[٣] ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا[٤] فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ[٥] وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣١-٣٤].

---

(١) وهو المسانيد ٢/ ٢٦٧ . (٢) خوف فقر . (٣) إثماً عظيماً . (٤) تسلطاً على القاتل بطلب القصاص أو الدية . (٥) قوته على حفظ ماله .

نهى الله تعالى في هذه الآيات عن ثلاثة أشياء: وهي القتل إلا بالحق، والزنا، وقربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وابتدأ الله تعالى بالنهي عن قتل الأولاد، وهو وأد البنات في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ [التكوير: ٨١/٨] يقال: كان جهل بعض العرب يبلغ أن يعز واحد منهم كلبه ويقتل ولده. نهى القرآن عن الوأد الذي كانت العرب تفعله، خشية الإملاق (أي الفقر وعدم المال) فإن رازق الأولاد وآباءهم هو الله تعالى، وقتلهم إثم عظيم وذنب كبير، وهذا دليل على أن تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه نهى عن قتل الأولاد.

جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود: «قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً، وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك».

ثم حرم الله الزنا(١) وحذَّر من الاقتراب منه ومن تعاطي أسبابه ودواعيه، لأن تعاطي الأسباب مؤد إليه، والزنا فعلة فاحشة شديدة القبح، وذنب عظيم كقتل الأولاد، وساء طريقاً ومسلكاً، لأن فيه هتكَ الأعراض، واختلاطَ الأنساب، واقتحامَ الحرمات، والاعتداءَ على حقوق الآخرين، وتقويضَ دعائم المجتمع بهدم الأسرة، ونشر الفوضى، وانتشار الأمراض الفتاكة، والوقوع في الفقر والذل والهوان.

ثم حرم الله تعالى قتل النفس المعصومة المصونة إلا إذا وجد حق أو مسوغ للقتل، وهو أي الحق ما فسَّره النبي ﷺ في قوله: «لا يُحلّ دمَ المسلم إلا إحدى ثلاث خصال: كفرٌ بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس أخرى». فالقتل بغير حق جريمة عظمى، لأنه اعتداء على حق الحياة، وإفساد، والله تعالى لا يحب الفساد.

(١) قال ابن عطية: الزنى يمدّ ويقصر، والقصر لغةُ جميع كتاب الله تعالى.

ومن قُتل ظلماً وعدواناً بغير حق يوجب قتله، فقد جعل الله لمن يلي أمره من قريب كأب أو أخ، أو سلطان حاكم عند عدم وجود القريب الوارث، سلطة على القاتل، فيختار أحد أمرين: إما القصاص بعد إصدار حكم قضائي وبإشراف القاضي، وإما العفو عنه على الدية أو مجاناً، والسلطة لولي الدم مقيدة بألا يسرف في القتل، بأن يُمثّل بالمقتول، أو يقتل غير القاتل، أو يقتل أكثر من واحد من قبيلة القاتل، ووَعد الله قريب القتيل بالعون والنصر على القاتل، فلا يسرف في القتل، فإن الله تعالى أوجب له القصاص، ويعوضه الله خيراً في الدنيا والآخرة بتكفير الخطايا، وتعذيب القاتل في النار. ويكون الأولى ترك القصاص، وأخذ الدية أو العفو مجاناً.

ثم حرم الله تعالى أكل مال اليتيم، أو إتلافه، فلا يجوز الاقتراب من مال اليتيم إلا لفائدة أو مصلحة، وهي الطريقة الحسنة بحفظ ماله وتثميره وتنميته والأكل منه حال الفقر أو الحاجة، حتى يبلغ رشيداً، ويبلغ أشده، أي يبلغ مبلغ الرجال، وحينئذ يسلّم له ماله. وهذا خطاب للأوصياء المشرفين على أموال اليتامى. والمراد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾: إلا بأحسن الحالات.

وانتهت الآية بالأمر بالوفاء بالعهد، وهو لفظ عام يشمل كل عهد ووعد وعقد بين الإنسان وربه، أو بينه وبين المخلوقين في طاعة، فالوفاء بالعهد وتنفيذ شروط العقد من الإيمان، وإن تنفيذ العهد مطلوب ممن عوهد أو عُهد إليه، هل وفّى به أم لا؟

إن الوفاء بالعهد أو العقد: معناه تنفيذ مقتضاه، والحفاظ عليه على الوجه الشرعي، و بحسب التراضي الذي لا يصادم أصول الشرع، خلافاً لمن يتهاون بالعقود ويتخلص منها وينقضها إذا تبدل وجه المصلحة، فذلك ذنب عظيم وجرم كبير، يتساهل به من لا دين له ولا خلق ولا كرامة.

إيفاء الكيل والميزان والتثبت من المعلومات والتواضع

نظّم الله تعالى العلاقات الاجتماعية المالية، على أساس من الحق والعدل، والثقة والأمانة، وصحة المعلومات والبيانات، والتواضع في القول والكلام والفعل، حتى لا تنشأ مشكلات، أو تثار منازعات وخصومات، ولا يفتئت أحد على حقوق الآخرين، ولا يُلحق به ضرراً أو شراً، في معارفه، أو أخلاقه، وكرامته. وتلك أصول الحياة السوية، وميزان المبادلات والمعاملات الصحيحة، قال الله تعالى موضحاً هذه الأصول:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ[1] ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا[2] ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ[3] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا[4] إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا[5] ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٥-٣٩].

بعد أن أمر الله تعالى بالوفاء بالعهود والعقود والشروط الصحيحة، أمر بثلاثة أشياء أخرى، هي الوفاء بالحق، والصدق في القول، والتواضع وترك التكبر.

أمر الله تعالى في هذه الآية أهل التجارة والوزن والكيل أن يعطوا الحق في كيلهم ووزنهم، فيجب إتمام الكيل وإتمام الوزن، من غير نقص، وأخذ الحق بالعدل دون جور أو زيادة، فإذا كال التاجر أو وزن لغيره، فلا ينقص المكيال والميزان، وإذا كال الإنسان لنفسه أو وزن فلا يزيد في الكيل أو الوزن، ولا مانع حينئذ من النقص عن الحق، فإن عاقبة العدل في الكيل والوزن خير للناس في الدين والدنيا في المعاش

(١) أي الميزان السويّ العادل كالقبّان وغيره من الموازين الصغيرة أو الكبيرة. وقيل: القسطاس: العدل.
(٢) أي مآلاً وعاقبة. (٣) لا تتبع. (٤) بطراً واختيالاً. (٥) مبعداً من رحمة الله.

والمعاد، وأحسن وأجدى مآلاً وعاقبة في الآخرة، فلا يكون هناك اتهام بالخيانة أو مؤاخذة أو عقوبة يوم القيامة. ويرغب الناس في معاملة أهل العدل والإنصاف، ويثنون عليهم، فتكثر زبائنهم، وتصير سمعتهم طيبة، ويُقبل الناس عليهم، وذلك أفضل من نقص لا يبارك الله فيه، أو زيادة ظالمة لا خير فيها، والغرض من الكيل والوزن: تحرّي الحق، ولا يضر التطفيف الشاذ أو اليسير، أو غير المقصود، فذلك لا إثم فيه.

ثم أمر الله تعالى بالتثبت من المعلومات والأخبار والأحاديث، ونهى أن يقول الإنسان شيئاً غير صحيح أو غير ثابت، أو يتتبع شيئاً معتمداً على مجرد التخمين وسوء الظن، فهذا عيب في السلوك، وتشويه للحقائق، وإضرار بالآخرين عن غير حق، وإهدار لقدسية العلم والمعرفة والحقيقة. فيكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ألا يحكم الإنسان على الأشياء حكماً غير صحيح، أو يعتمد على معلومات لا دليل عليها. وهذا يشمل المشركين الذين يعتقدون اعتقاداً فاسداً في الإله أو النبي أو الآباء والأجداد، ويتبعون الهوى. ويشمل أيضاً شهادة الزور وقول الزور، وقذف المحصنات (العفائف) بالأكاذيب والاتهامات الباطلة، والطعن في الآخرين بسوء الظن وتتبع العورات، وتزييف الحقائق العلمية والأخبار وغير ذلك، فلا يقول الإنسان ما لا يعلم أو يعمل بما لا علم له به، أو يذم أحداً بما لا يعلم الحق فيه.

ومن أجل كل ذلك وصحة المعلومات والمعارف، جعل الله تعالى مفاتيح العلوم والمعارف من السمع والبصر والقلب، يسأل عنها صاحبها يوم القيامة، وتسأل عنه، فإذا سمع الإنسان حراماً أو أبصره أو قرره في قلبه، كان مسؤولاً عنه معاقباً عليه.

ثم أمر الله تعالى بالتواضع وحرَّم الكِبْر والخيلاء أو التبختر في المشي، فمن مشى

متكبراً متعاظماً، فإنه لن يستطيع خرق الأرض أو نقبها بقدمه، ومن تطاول على الناس لن يصل بتطاوله وتمايله وتفاخره إلى قمم الجبال، وهذا تهكم بالمتكبر والمختال.

كل ما تقدم من الخصال المكروهة القبيحة المفهومة من أضداد الأوامر، واقتراف النواهي، كان قبيحه وخبيثه مكروهاً ومبغوضاً عند ربك، ومنهياً عنه، ومعاقباً عليه.

وكل ذلك الذي أمرناك به يا محمد من الأخلاق الحميدة، ونهيناك عنه من الخصال الرذيلة، هو مما أوحينا إليك من الأفعال والأصول المحكمة التي تقتضيها حكمة الله تبارك وتعالى في عباده، وخَلْقه لهم محاسن الأخلاق. وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ هي قوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة.

ولا تتخذ أيها النبي وكل من سمع من البشر إلهاً آخر شريكاً مع الله، فتلقى في جهنم، ملوماً من نفسك وربّك والخلق قاطبة في الآخرة، مطروداً مبعداً من رحمة الله تعالى ومن كل خير، والمدحور: المهان المبعد. وهذا غاية الإذلال والإهانة.

نسبة الولد والشريك لله تعالى

ليس هناك في تاريخ البشرية أعظم فرية ومنكراً وكذباً من نسبة الولد والشريك لله عز وجل، فقد تجاوز الناس حدودهم، وأفرطوا في الزعم والوهم، وحكموا حكماً باطلاً لا يستند إلى أي دليل أو شبهة دليل، سوى ما قاسوه على أنفسهم، ولم يدركوا حقيقة الفرق الكبير والبون الشاسع بين الإنسان المخلوق العاجز المحتاج إلى الولد والصاحبة والمشارك، وبين الإله القادر الخالق المستغني عن الصاحبة والولد والشريك، قال الله سبحانه مبطلاً هذه الافتراءات:

﴿أَفَأَصْفَٰكُمْ رَبُّكُم(١) بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا(٢) فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا(٣) ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟(٤) إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ(٥) وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٠-٤٤].

هذه الآيات تنبيه وتقريع على ما تصوَّره المشركون من نسبة الولد أو البنات أو الشريك لله تعالى، والآية الأولى: ﴿أَفَأَصْفَٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ خطاب للعرب التي كانت تقول: الملائكة بنات الله، وكان الرد مفحماً ومنطقياً في غاية البساطة: كيف تقبلون أيها المشركون هذه النسبة، لكم الأعلى من النسل وهم الذكور، ولله البنات؟! كيف يصح أن يجعلكم الله أصحاب الصفوة بإعطاء البنين، ويتخذ لنفسه الملائكة إناثاً، وأنتم تئدون البنات ولا ترضونهن لأنفسكم، فكيف ترضون نسبتهن إلى الله؟ إنكم بهذا تقولون على الله قولاً عظيماً إثمه، ومعاقباً عليه، بنسبة الضعيف للقوي، والقوي للضعيف.

ولقد بينا في هذا القرآن الحجج والبينات، وحذرنا وأنذرنا ليتعظوا وينزجروا عن الافتراء والظلم، وهم في غاية الغرابة، ما يزيدهم التذكير إلا نفوراً عن الحق، وبُعْداً عنه.

ثم أبطل الله تعالى افتراءً آخر: وهو نسبة الشريك لله، والمعنى: قل لهم يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يجعلون لله شريكاً في الألوهية: لو كان الأمر كما تقولون، لاحتاج هؤلاء الشركاء إلى التقرب إلى الله، وطلبوا من ذي العرش القربة إليه بطاعته

(١) أفخصكم ربكم. (٢) كررنا القول بأساليب مختلفة. (٣) تباعداً عن الحق. (٤) لطلبوا. (٥) سبحانه: مصدر لفعل متروك إظهاره، بمعنى التنزيه، وموضعه هنا موضع: تنزه.

للحاجة إليه، فاعبدوا الله وحده، كما يعبده هؤلاء الشركاء المحتاجون لإنقاذ أنفسهم وسلامة وجودهم، لأنهم ضعفاء فقراء إلى ربهم.

تنزه الله، وتعاظم وعلا علواً شاسعاً عما يقول هؤلاء المشركون المعتدون، الزاعمون أن مع الله آلهة أخرى، بل هو الله الإله الواحد، الذي لم يتخذ شريكاً ولا صاحبةً ولا ولداً.

تُقدسه وتنزهه السماوات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات، عما يقول هؤلاء المشركون، ويشهدون له بالوحدانية في الربوبية والألوهية، وما من شيء إلا يسبِّح بحمد الله تعالى، أي يشهد ويدل بخلقه من غيره على وجود الخالق الواحد، وينزه الله ويمجّده عن هذه المقالة التي لكم، والإشراك الذي تعتقدون به. والتسبيح من الناس: هو قولهم: سبحان الله، وهذا حقيقة، ومن الجمادات ونحوها: معناه الدلالة على تنزيه الله عز وجل، فكل شيء تبدو فيه صنعة الصانع الدالة عليه، وهذا مجاز، فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المعتبر المتعظ. وقال جماعة: هذا التسبيح من الشجر والجمادات حقيقة، ولكن لا يسمعه البشر ولا يفهمونه.

ولكن لا تفهمون أيها البشر معاني تسبيحهم؛ لأنه بخلاف لغاتكم. إن الله تعالى كان وما يزال حليماً على الناس، لا يعاجل بالعقوبة من عصاه، وإنما يمهل ويؤجل، ويغفر لمن تاب منكم. وهذا فضل من الله وإحسان.

فإذا كانت الأكوان كلها من السماوات والأرض وما فيها من المخلوقات تسبح الله وتنزهه، إقراراً بوجوده وتوحيده، فإن البشر أولى بمداومة التسبيح والتنزيه، فعليهم الإذعان لعظمة الله واعتقاد وحدانيته، والتفرغ لعبادته، من غير أي لوثة في الاعتقاد، أو تأثر بصنع المشركين.

إن الشرك، أي إسناد وجود شريك لله هو دليل القصور والتخلف العقلي،

وسيطرة الخرافة والوهم على الذهن البشري، فأجدر به أن يصحو من غفلته، ويستيقظ من جهله وسباته العميق.

أخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عمر: أن النبي ﷺ قال: «إن نوحاً عليه السلام، لما حضرته الوفاة، قال لابنيه: آمركما بسبحان الله و بحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يُرْزَق كل شيء».

وعلى الإنسان أن ينتهز الفرصة قبل فوات الأوان، وأن يعلم أن الله حليم عن ذنوب عباده، كثير المغفرة للمؤمنين في الآخرة إذا تابوا وأنابوا إليه.

حماية النبي ﷺ من الأذى

تعددت ألوان الأذى من الكفرة أهل مكة التي ارتكبوها في حق النبي ﷺ، فلم تقتصر مؤذياتهم على شخصه وصدّ الناس عن دعوته، وإنما كانوا يؤذونه في أخص أحواله الشخصية، في وقت قراءته القرآن وصلاته في المسجد الحرام، ولكن الله تعالى حماه من كيدهم وضررهم، وأنقذه في أحيان كثيرة من إصابته بسوء، أو النجاح في ثنيه عن رسالته وتبليغ وحي ربه، ولننظر إلى آي القرآن تحدثنا عن بعض هذه المؤذيات، قال الله سبحانه:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا(١) ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً(٢) أَن يَفْقَهُوهُ(٣) وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا(٤) وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ(٥) إِذْ يَقُولُ

(١) أي ساتراً لك عنهم، فلا يرونك، ولا يبصرون ببصائرهم نور القرآن وهدايته. (٢) أغطية، مفردها كنان. (٣) أي كراهة أن يفقهوا القرآن. (٤) صمماً وثقلاً في السمع. (٥) متناجون في أمرك فيما بينهم.

﴿ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا(١) ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٥-٤٨].

أخرج ابن المنذر عن ابن شهاب الزهري قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا القرآن على مشركي قريش، ودعاهم إلى الكتاب، قالوا يهزؤون به: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ٥] فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآيات.

وآية ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ قيل: نزلت حينما دخل ملأ قريش على أبي طالب يزورونه، فدخل رسول الله ﷺ، فقرأ ومرّ بالتوحيد، ثم قال: «يا معشر قريش قولوا: لا إله إلا الله، تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم، فولّوا» فنزلت هذه الآية.

والمعنى: أن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ أنه يحميه من مشركي مكة الذين كانوا يؤذونه، في وقت قراءته القرآن وصلاته في المسجد الحرام، ويريدون مدّ اليد إليه، فلا تخف أيها النبي، فإنك إذا قرأت القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالآخرة، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً، أي حائلاً حاجزاً يمنع قلوبهم من فهم القرآن وتدبر آياته، ومستوراً على أعين الخلق، فلا يدركه أحد برؤية كسائر الحُجُب بقدرة الله وكفايته.

وجعلنا على قلوبهم أغطية، بحيث لا يتسرب إليها فهم مدارك القرآن ومعرفة أسراره وغاياته، وجعلنا في آذانهم ثقلاً، أو صمماً يمنع من سماع الصوت، وهذه كلها استعارات للإضلال الذي حفّهم الله به، فعبّر عن كثرة ذلك وعِظَمه بأنهم بمثابة من غُطّي قلبه، وصُمّت أذُنه، والإضلال بسبب الضلال الذي سلكوه، وساروا في فلكه بغياً وعناداً.

(١) مغلوباً على عقله بالسحر .

وإذا وحدّت الله في تلاوتك آيات القرآن، وقلت: لا إله إلا الله، ولم تقل: واللات والعُزّى، ولّوا على أدبارهم نفوراً، أي رجعوا على أدبارهم نافرين نفوراً، تكبّراً من ذكر الله وحده، لإدمانهم على الشرك وعبادة الأوثان، فهذه الآية تصف حال الفارّين عن النبي ﷺ في وقت توحيده في قراءته القرآن. وهذا أولى المعاني وأوفق للفظ.

نحن يا محمد أعلم بالنحو الذي يستمعون به آيات القرآن، حين يستمعون إليه هزءاً واستخفافاً وإعراضاً، ونحن أعلم بما يتناجى به كفار قريش ويتسارّون حين وصفوك بأنك رجل مسحور أو مجنون أو كاهن، أي كأنه قال: نعم نحن أعلم بالاستخفاف والاستهزاء الذي يستمعون به، أي هو ملازمهم، يفضح الله بهذه الآية سرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ الظاهر فيه أن يكون من السحر، فشَبَّهوا الخبال الذي عنده، بزعمهم وأقوالهم الوخيمة برأيهم، بما يكون من المسحور الذي قد خبَّل السحر عقله، وأفسد كلامهم.

تأمل يا محمد، كيف مثّلوا لك الأمثال، وأعطوك الأشباه، وضربوا لك المثل وهو قولهم: مسحور، ساحر، مجنون، متكهّن؛ لأنه لم يكن عندهم متيقَّناً بأحد هذه، فإنما كانت منهم على جهة التشبيه، فحادوا عن سواء السبيل، ووقعوا في الضلال، وحكم الله تعالى عليهم به، فصاروا لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى والنظر المؤدّي إلى الإيمان، ولا إلى إفساد أمرك وإطفاء نور الله، بضربهم الأمثال لك. وهنا وعيد لهم وتسرية وإيناس لرسول الله ﷺ.

حكى الطبري: أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه. فقد رأى الوليد أن أقرب الأمور على تخيل الطارئين عليهم: هو أن النبي ﷺ ساحر، كذبوا ورب الكعبة وضلوا ضلالاً مبيناً.

إنكار المشركين البعث

كانت عقائد المشركين كفارِ مكة فاسدة ملوثة، منها نسبة الشريك والولد والصاحبة لله، عز وجل، تشبيهاً لله بمخلوقاته، ومنها إنكار البعث أو اليوم الآخر، تأثراً بالنزعة المادية، وتصورهم أن المادة إذا صارت فانية كالتراب، لا تحتمل العودة إلى الحياة، وبسبب نقص إدراكهم لقدرة الله الخارقة، وتمكّنه من إحياء الأشياء بمجرد الأمر الإلهي التكويني: ﴿كُن﴾. وتحكي لنا هذه الآيات إنكارهم للبعث، واستغرابهم حدوثه لضعف عقولهم، قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا(١) أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ(٢) فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ(٣) أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ(٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٩-٥٢].

تصوِّر هذه الآيات شبهة المشركين الماديين الوثنيين في إنكار البعث أو القيامة، ويرد الله عليهم رداً مفحماً فيه غاية التحدي، فهم يقولون على جهة التعجب والإنكار، والاستبعاد حين سماع القرآن تقرير أمر المعاد: أئذا كنا عظاماً بالية في قبورنا، ورفاتاً، أي أشياء مرّ عليها الزمن، حتى بلغت غاية البلى، وصارت أقرب شبهاً بالتراب أو الغبار، أئنا لمبعوثون عائدون يوم القيامة خلقاً جديداً، بعدما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر؟! وترددت آيات القرآن في هذا المعنى المحكي عن المشركين، مثل: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴿١٢﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ١٠-١٢].

---

(١) أجزاء مفتتة أو تراباً. (٢) يعظم عن قبول الحياة كالسموات. (٣) خلقكم وأبدعكم. (٤) أي سيحركونها تعجباً واستهزاء.

ومثل آية: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٣٦/٧٨-٧٩].

أجابهم الحق سبحانه آمراً نبيه أن يقول لهم: إن إعادة الميت إلى الحياة أمر سهل يسير، وهو في تصور البشر وعقولهم أهون على الله من الخلق أول مرة بحسب عقولنا، أما بالنسبة لقدرة الله، فلا فرق في الحالين لأن الله القادر على الخلق بإيجاد الروح في الأشياء الجامدة، قادر على الإعادة والتكوين، فالعبرة إذن بالقدرة الإلهية.

ولو فرض أنكم أيها المشركون كأشد الأشياء صلابة من حجارة أو حديد، فإن الله قادر على إحيائه، ونفخ الروح فيه، فيصير حياً متحركاً، لأن الله قادر على إيجاد كل الممكنات، وإحياء الأشياء المادية، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وهذا على سبيل المبالغة، وربط الأشياء بأقصى التصورات في الدلالة على قدرة الله على الإحياء والإعادة.

وبعبارة أخرى: قل لهم يا محمد: كونوا إن استطعتم هذه الأشياء الصعبة الممتنعة التأتّي في تصوركم، فلابد من بعثكم. وفعل (كونوا) هنا هو الذي يسميه المتكلمون: التعجيز، والأدق أن يقال: كونوا بالتوهّم، والتقدير كذا وكذا.

وبعد أن استبعد المشركون الإعادة من جديد، استبعدوا حدوثها ولم يؤمنوا بالقادر على الإحداث، قائلين: من يعيدنا إلى الحياة إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً، مما يكبر أو يعظم في صدوركم وعقولكم كالسماء والأرض، فالله قادر على بعثه وإحيائه من جديد، والباعث أو الخالق: هو الذي فطركم، أي أوجدكم وخلقكم أول مرة، فهو قادر على إعادتكم وإحيائكم للبعث والجزاء والحساب.

ثم إن المشركين بعد هذا يحركون رؤوسهم تعجباً واستهزاء وتكذيباً، ويقولون:

متى هذا البعث والإعادة، كما في آية أخرى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٥].

قل أيها النبي لهم: عسى أن يكون وقت البعث قريباً، فإنه سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آتٍ قريب، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٦-٧].

ويكون ذلك البعث الحتمي يوم يدعوكم الرب تبارك وتعالى من قبوركم بالنفخ في الصور لقيام الساعة، فتستجيبون له من القبور، حامدين طائعين، منقادين بالقيام والعودة والنهوض نحو الدعوة والداعي، إجابة لأمره سبحانه، وطاعة لإرادته، وتحسبون عند البعث أنكم ما لبثتم في الدنيا إلا زمناً قليلاً، فقوله تعالى: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ معناه: بأمره، كما قال ابن عباس وابن جريج، وقال قتادة: بطاعته ومعرفته. وهذا مبالغة في انقيادهم للبعث. والواقع أن المراد من الحمد هنا: هو إعلان الحمد على صدق الحادث وهو القيامة، أي تقومون من القبور، بخلاف ما تعتقدون الآن، وذلك بحمد الله تعالى على صدق خبره وإعلامه نبيه بوجود البعث.

الأسلوب الأفضل في الجدال

المسلمون أصحاب حق، ودعوة سامية، ورسالة شاملة للبشرية جمعاء، وهذا يقتضيهم أن يَسَعُوا الناس بأخلاقهم اللطيفة، وأقوالهم الحسنة، ومعاملاتهم الطيبة؛ لأن من شأن الداعية الناجح أن يكون على جانب عظيم من الحلْم والعلم واللين واللطف، ولأن للكلمة الطيبة جاذبية وسحراً يؤثران في القلوب، فإذا انضم إلى ذلك الفكر الصحيح، والعقل السديد، والرأي الحكيم، أدّى إلى إقناع المخاطب، وتحقّق

الهدف من النصح وهو الانضمام لراية التوحيد والقرآن المجيد، قال الله تعالى مبيناً أسلوب الخطاب مع المخالفين:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟(١) ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ(٢) بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا(٣) ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٥٣-٥٥].

روي أن المشركين أفرطوا في إيذائهم رسول الله ﷺ، فنزلت الآية: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وروي أن عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفرة، فسبّه عمر وهم بقتله، فكاد أن يثير فتنة، فنزلت الآية.

يأمر الله تعالى رسوله بأن يبلّغ عباد الله المؤمنين: أن يقولوا في مخاطبات المخالفين من المشركين وغيرهم أثناء حوارهم الكلام الأحسن. والتي هي أحسن: هي المحاورة الحسنة، والكلمة الطيبة: وهي التي لا تختلط بالشتم والسب والأذى، كما جاء في آيات أخرى، مثل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥] ومثل: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٦]. والآية هي ما بين العباد المؤمنين وكفار مكة وأمثالهم.

فيكون المطلوب إلانة القول، وحسن الأدب، وخفض الجناح؛ لأن الشيطان يؤجج نيران النزاع، ويثير الفتنة والشر، ويوقع الخصام، ويغري بالمقاتلة، فلا يتحقق المطلوب، وتخيب المساعي، وتقع العداوة، وهو المراد بنزغ الشيطان

---

(١) جواب لفعل مقدر وهو ((قولوا)) أي قل لعبادي: قولوا التي هي أحس، يقولوها. أو ((إنك إن تقل لهم: يقولوا)) على مذهب سيبويه، أنها جواب شرط مقدر. (٢) يفسد ويهيج الشر. (٣) كتاباً فيه أذكار ومواعظ.

للإنسان، وسبب ذلك: أن الشيطان عدو ظاهر العداوة للإنسان، منذ القديم. ومعنى النزغ: حركة الشيطان بسرعة، ليوجب فساداً.

وعلة الأمر باتباع الطريق الأحسن والمحاورة الحسنة في منهاج الدعوة الذي رسمه الله: هو أن ربكم أيها الناس أعلم بمن يستحق منكم الهداية والتوفيق للإيمان ومن لا يستحق، فإن شاء رحمكم فأنقذكم من الضلالة، ووفقكم للطاعة والإنابة إليه، وإن شاء عذبكم، فلا يهديكم للإيمان، فتموتوا على الشرك. فكأن الله عز وجل أمر المؤمنين ألا يخاشنوا الكفار في الدين، ثم قال للكفار: إنه أعلم بهم، ورجّاهم وخوَّفهم. ومعنى: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ إن يرد الله يرحمكم بالتوبة من الكفر. وهذه الآية تقوِّي أن الآية التي قبلها هي ما بين العباد المؤمنين وكفار مكة.

ثم قال الله لنبيه: فإنما عليك البلاغ، ولست بوكيل على إيمانهم، ولا بد، وإنك غير موكل بأمرهم، وليس لك السلطة في حسابهم على أعمالهم، وإنما عليك الإنذار والتبشير فقط، وترك النتائج لله تعالى، فتلطف في دعوتهم، ولا تُغلظ عليهم، ودارهم.

وقال الله أيضاً لنبيه: وربك أعلم بجميع من في السماوات والأرض، وهو الذي فضّل بعض الأنبياء على بعض، بحسب علمه فيهم، والتفضيل بحسب المزايا والكتب والخصائص، كاتخاذ إبراهيم عليه السلام خليلاً، وموسى عليه السلام كليماً، ومحمد ﷺ خاتم النبيين، وآتى الله داود عليه السلام كتاب الزبور. وهذا بالمعنى المراد تعريض بقريش، أي لا تنكروا أمر محمد، وأنه أوتي قرآناً، فقد فُضِّل النبيون، وكان لكل نبي فضيلة، فموسى أعطي التكليم، وعيسى: الإحياء، وإبراهيم: الخُلّة (خليل الله)، ومحمد القرآن وختم النبوات، وداود: أوتي الزبور، فالله أعلم حيث يجعل رسالاته. ونظير الآية: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٣].

وآية: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ تنبيه على فضل الزبور وشرفه. وفي الآية إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين بالقرآن الكريم، وبالإسراء والمعراج، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام.

ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن الخمسة أولي العزم منهم أفضلهم: وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام. ومزية هؤلاء الرسل: أنهم أصحاب رسالات كبرى ومزايا عظيمة. وقوله سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ لا يقتضي حصر علم الله بهذا، وإنما يعلم الله بذلك وبغيره، وتكون الباء في (بمن) متعلقة بفعل تقديره: علم بمن في السماوات، لأنه لو عُلّق بـ (أعلم) لاقتضى أنه ليس بأعلم بغير ذلك. ونظير هذا قولك: زيد أعلم بالنحو، لا يدل هذا على أنه ليس أعلم بغير النحو من العلوم.

عبدة البشر والأوثان والملائكة

يتدنى العقل الإنساني أحياناً فيعظِّم البشر ويقدسه، أو يعبد الوثن ويؤلهه، وكلا الفريقين ليسوا عقلاء، لأن أبسط مبادئ الفكر والعقل أن يكون الإله من غير جنس المخلوقات، ويتميز بصفات تفوق قدرات البشر، ومن أهم هذه الصفات: الخلق والإبداع، والقدرة النافذة على جلب الخير ودفع الضر والشر، وإذا كان المعبود خالياً من هذه الصفات ونحوها لم يستحق جعله إلهاً، ولا اتخاذه رباً يعبد، ولكن مع الأسف وجد في الدنيا من يعبد البشر أو يعبد الأوثان أو يعبد الملائكة، وهذا ما دوّنه القرآن في هذه الآيات الكريمة:

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا[١] ﴿٥٦﴾

---

(١) نقلاً لغيركم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ(١) أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٥٦-٥٨].

أخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجنّيون، واستمسك الآخرون بعبادتهم، فأنزل الله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ..﴾ الآية.

وعلى الرغم من هذه الرواية، اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي في عَبَدة العُزير والمسيح وأمه ونحوهم. وقال ابن عباس أيضاً وابن مسعود: هي في عبدة الأوثان والقمر والكواكب وعُزَير والمسيح وأمه، وأي ذلك كان. وقال ابن عباس أيضاً وابن مسعود: هي في عبدة الملائكة. وقال ابن مسعود أيضاً: هي في عبادة شياطين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، فأسلم أولئك الشياطين، وبقي عَبَدتهم يعبدونهم، فنزلت الآية في ذلك.

وفي الجملة: هذه الآيات في عبادة غير الله عز وجل، والمعنى: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله، كالأصنام وغيرها، هل يجيبونكم؟ واطلبوا منهم كشف الضرّ عنكم: من فقر ومرض وقحط وغير ذلك! وانتظروا هل يستطيعون كشف الضر عنكم، أو تحويلَه أو تبديلَه من مكان لغيره، أو من واحد إلى آخر؟ إنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فلا يقدرون على ذلك لغيرهم. وإنما الذي يقدر عليه: هو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر. أولئك المعبودون من دون الله يطلبون التقرب إلى الله، والتزلف إليه، بالعبادات والطاعات، وهذه حقيقة حالهم، إنهم يبتغون الوسيلة إلى الله وهي

(١) القربة بالطاعة والعبادة.

القربة وسبب الوصول إلى البُغْية، ويطلب من هو أقرب منهم الوسيلة إلى الله تعالى، فكيف بغير الأقرب؟ فكل من الكفار العابدين والمعبودين ينتظرون أن يكونوا أيهم أقرب، ويرجون رحمة ربهم، و يخافون عذابه، فلا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف يبتعد الإنسان عن المعاصي، وبالرجاء يُكثر من الطاعات، وعلة الخوف من العذاب: أن عذاب ربك كان مخوفاً لا أمان لأحد منه، فينبغي أن يحذره جميع العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم، فكيف أنتم؟

ثم أخبر الله تعالى بخبر عام قهر جميع الخلائق بواسطة ألا وهي الموت والهلاك، ففي قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ..﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية: أنه ليس مدينة من المدن إلا هي هالكة قبل يوم القيامة بالموت والفناء، وأخذِها جزءاً جزءاً. وقيل: المراد: كل مدينة ظالمة فهي مهلكة، أو معذبة عذاباً شديداً بقتل أو ابتلاءٍ، لا ظلماً، وإنما بسبب ذنوب أهلها وظلمهم، كان ذلك الحكم حكماً عاماً، ثابتاً، مدوَّناً في علم الله أو في اللوح المحفوظ، أخرج الترمذي عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب المقدّر، وما هو كائن إلى يوم القيامة».

وعلى أي حال، سواء كان التهديد بالإهلاك لكل قرية أو أهلها عموماً، أو قرية ظالمة، فإن الخطر ينتظر الجميع، والمسؤولية والجزاء يعمان الكل، وهذا كافٍ في تخويف الناس وحملهم على التزام الطاعة، والبعد عن المنكر والمعصية، لأن من علم أنه مسؤول ومعرَّض للعقاب، اقتصد في إسرافه في المعاصي، وأقبل على ساحات الطاعة، حتى ينجو من العذاب الأليم. والهلاك الدنيوي إما أن يكون بسبب القحط والخسف غرقاً، وإما بالاقتتال بالفتن أو بهما معاً، وصور الهلاك كثيرة لا يعلمها

إلا الله تعالى، فأما الإهلاك بالفتنة، فبسبب الظلم من كفر، أو معاص، أو تقصير في دفاع، وأما القحط أو الخسف فيصيب الله به من يشاء، كما نلاحظ في كل زمان ومكان.

طلب الآيات التعجيزية

إن الإصرار على التكذيب أو الإفراط في الكفر والعناد هو الذي يدفع المكذبين والمعاندين إلى المطالبة بشيء بعيد الحصول أو غريب المنال، تمشياً مع مواقفهم المتصلبة، وعقولهم الجامدة، وتحدياتهم السافرة، وهذا شأن قريش في صدر الدعوة الإسلامية، طالبوا نبي الله ﷺ بتحقيق أشياء لا قدرة له عليها، ليظلوا على موقفهم المتعنّت وضلالهم المتأصّل، وهو لا يعد تسويغاً لكفرهم، أو نصراً لضلالهم، وإنما يدل ذلك على خروجهم عن الأصول العقلية، واليأس من إيمانهم وصلاحهم، وهذا ما حكاه القرآن ليسجل عليهم هذا الإصرار والعناد، وليسقطوا من حساب العقل وميزان التاريخ، على مدى الزمان، قال الله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً(١) فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ(٢) وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ(٣) وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ(٤) فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا(٥) كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٩-٦٠].

سبب نزول الآية الأولى: أن قريشاً اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، واقترح بعضهم أن يزيل عنهم الجبال حتى يزرعوا الأرض، فأوحى

(١) آية بينة . (٢) فكفروا بسببها . (٣) علماً وقدرة . (٤) شجرة الزقوم . (٥) أي تجاوزاً للحد في كفرهم .

الله تعالى إلى محمد ﷺ : إن شئت أفعلُ ذلك لهم، فإن تأخروا عن الإيمان، عاجلتهم العقوبة، وإن شئتَ استأنيت بهم، عسى أن أجتبي منهم مؤمنين، فقال رسول الله ﷺ: «بل تستأني بهم يا رب».

فأخبر الله تعالى في هذه الآية: أنه لم يمنعه من إرسال الآيات المقترحة من قريش إلا التمهل أو الاستيناء، لأن عادة الله في الأمم السالفة هي تعجيلهم بالعقاب، بعد أن جاءتهم الآية المقترحة، فلم يؤمنوا.

والمعنى: ما صرفنا عن الإتيان بما يقترحونه من الآيات إلا تكذيب المتقدمين الأولين بأمثالها، فإن أتينا بها، وكذب بها أهل مكة وأمثالهم، عجلنا لهم العذاب، ولم يؤخروا، كما هي سنة الله في خلقه. وسمى الله تعالى سبق قضائه بتكذيب من كذَّب وتعذيبه منعاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾ أي ما منَعَنا الإرسالَ إلا التكذيبُ.

ومن أمثلة تلك الآيات المقترحة من السابقين الأولين وتكذيبهم بها: ناقة صالح عليه السلام لثمود، فلما عقروها وكذبوا نبيهم، عاجلهم الله بعذاب الصيحة، وبقيت آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم، يبصرها الذاهب والعائد، كما قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: وأعطينا قبيلة ثمود الناقة حجة واضحة دالة على وحدانية خالقها، وصدق رسوله. وقوله ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي حجة بيِّنة، أو ذات إبصار يدركها الناس، أو معها إبصار لمن ينظر، وهذا عبارة عن بيان أمرها ووضوح إعجازها.

﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي كفروا بها، ومنعوها حظها من الشرب، وقتلوها، ووضعوا الفعل غير موضعه، أي بعقرها، فأبادهم الله جميعاً.

وهذا للعبرة يقاس عليها، لذا قال الله تعالى بعدئذ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي ولا نبعث بالآيات غير المقترحة إلا تخويفاً للناس من نزول العذاب

العاجل، وهي آيات معها إمهال كالكسوف والرعد والزلزلة وقوس قزح وغير ذلك، لعلهم يعتبرون ويتعظون ويتذكرون.

ثم بشر الله نبيه بأنه في حياطة الله ومنعه وحفظه، في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ بإقداره أي واذكر إذا أوحينا إليك أن الله قادر على عباده، وأنك محفوظ من الكفرة الأعداء، آمنٌ من القتل أو الإصابة بمكروه عظيم، فلتبلّغ رسالة ربك، ولا تتهيب أحداً من المخلوقين، وهذا توطئة لما بعده، وهو:

وما جعلنا الرؤيا البصرية في اليقظة والمعاينة الحقيقية، وهي ما رآه رسول الله ﷺ في ليلة الإسراء، وما أطلعه الله عليه، إلا اختباراً وامتحاناً للناس، لمعرفة المؤمنين الصادقين، والكافرين المكذبين، معرفة ينكشف بها حالهم أمام الناس، لا بالنسبة لله عز وجل، فالله على علم سابق بكل ما سيحصل، والواقع مطابق لما في علم الله، فقد كذب بالإسراء قوم وكفروا، وصدّق به آخرون.

وما جعلنا أيضاً الشجرة الملعونة في القرآن وهي شجرة الزقوم التي هي في أبعد مكان من الرحمة، إلا فتنة للناس، أي اختباراً لهم، مثل حادث الإسراء والمعراج، فمنهم من ازداد إيماناً، فكثير من الأشياء لا تحرقها النار، ومنهم من ازداد كفراً كأبي جهل وعبد الله بن الزِّبعرى، وقالوا متهكمين متحدين: وما الزقوم إلا التمر والزُّبد؟ فجعلوا يأكلون ويتزقمون. قال النقاش: إن في ذلك نزلت.

ونخوِّف الكفار بالوعيد والعذاب والتنكيل في الدنيا والآخرة، فما يزيدهم التخويف إلا تمادياً في الطغيان، وإمعاناً في الضلال، وهو كفرهم وانهماكهم فيه، فكيف يؤمن قوم، هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات؟!

أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام

ليس هناك أعظمُ تكريماً للإنسان بأصله وجنسه من أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام، ليعلم البشر علو منزلتهم، ورفعة مكانتهم عند الله، فيتجاوبوا مع هذا التكريم، ويكونوا على مستوى حسن الظن بهم، والعمل بما يرضي الله من أفعالهم وأقوالهم، وقد تكرر الإخبار بهذا الأمر الإلهي في بدء الخليقة في القرآن سبع مرات للتذكير والعظة، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ(١) هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ(٢) إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ(٣) مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ(٤) عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ(٥) وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا(٦) ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦١-٦٥].

هذه مشكلة البشرية، إنهم في جهاد وكفاح، أمام وسوسة الشيطان وإغوائه. بدأت المشكلة حين أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية ومحبة وتكريم، لا سجود عبادة وخضوع، فسجدوا كلهم إلا إبليس أبى واستكبر عن السجود، افتخاراً على آدم، وتعالياً عليه، قائلاً: أأسجد له وهو طين، وأنا مخلوق من عنصر أسمى وأعلى وهو النار؟! وهو في ذلك لجأ إلى القياس فأخطأ حيث رأى الفضيلة لنفسه من جهة أن النار أفضل من الطين، وجهل أن الفضائل في الأشياء لا بأصولها، وإنما بما خصصها الله به. وقال أيضاً بجرأة وكفر: أخبرني عن هذا الذي

---

(١) أخبرني. (٢) أي لأستأصلنهم بالإغواء إلا قليلاً، لا أقدر على مقاومتهم. (٣) استخف واستعجل.
(٤) صح عليهم وسُقهم. (٥) بكل راكب وماشٍ في معاصي الله. (٦) باطلاً وخداعاً.

فضّلته: لِمَ كرّمته علي، وأنا خير منه؟ وكأنه ينسب الجور لربه، قسماً لئن أبقيتني إلى يوم القيامة لأستأصلن ذريته بالإغواء، ولأستولين عليهم بالإضلال إلا قليلاً منهم، وهم العباد المخلَصون الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٢] أي إن عبادي الصالحين لا تقدر أن تغويهم، فأجابه الله لطلبه لحكمة يعلمها، وأخره قائلاً له: امض لشأنك الذي اخترته لنفسك خذلاناً وتخلية، فمن أطاعك واتبعك منهم، فإن جهنم مقركم، ومأواكم، جزاء موفراً محفوظاً، كاملاً لا ينقص منه شيء.

واستخِفّ واستنفر من تريد من العباد بدعوتك إلى المعاصي، بكل ما أوتيت من قوة وإغراء ووسوسة، والمراد بقوله: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي بدعائك إلى معصية الله تعالى واجمع عليهم جندك فرساناً ومشاة، وهذا تمثيل يراد به: التسليط عليهم بكل ما تقدر عليه من القوة، واجمع لهم كل مكايدك، ولا تدخر وسعاً في إغوائهم، مستخدماً كل الأتباع والأعوان.

وشاركهم في الأموال والأولاد بتحريضهم على كسب المال وإنفاقه في المعاصي، من لهو ومجون وربا، وخمور، وفواحش، وقتل وتخريب، ونحو ذلك، وقوله سبحانه ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ عام لكل معصية يصنعها الناس بالمال، فذلك هو حظ إبليس. وقوله عز وجل ﴿وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ عام لكل ما يصنع من أمر الذرية في المعاصي، بالإنجاب الحرام كالزنى وغيره، وبالوأد للبنات الذي كانت بعض العرب تفعله، وصبغ الأولاد في ملل الكفر والضلال.

وعدهم المواعيد الكاذبة الباطلة، من شفاعة الآلهة المزعومة، ومنِّهم بما لا يتم لهم، وبأنهم غير مبعوثين، فهذه مشاركة في النفوس. ثم أخبر الله تعالى أنه إنما يعدهم الشيطان غروراً منه، أي كذباً وباطلاً في صورة الحق، فمواعيد الشيطان كلها خدعة وتزيين كاذب، لأنه لا يغني عنهم شيئاً.

ثم قال الله لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي إن عبادي المؤمنين المخلصين الصالحين لا تقدر أن تغويهم، فهم محفوظون محروسون من الشيطان الرجيم. وكفى بالله حافظاً ومؤيداً وقيماً على الهداية، ونصيراً للمؤمنين الصالحين المتوكلين عليه، الذين يستعينون به على التخلص من وساوس الشيطان، وهذا دليل على أن المعصوم: من عصمه الله، وأن الإنسان بحاجة دائماً إلى عون الله جل جلاله.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الإضافة للتعظيم، فتدل على تخصيص العباد بالمخلصين، علماً بأن العباد اسم عام لجميع الخلق، وذلك بقصد تشريفهم والتنويه بهم، كما يقول رجل لأحد بنيه، إذا رأى منه ما يحب: هذا ابني. على معنى التنبيه والتشريف له. ومنه قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «هذا خالي، فليُرني امرؤ خاله»[١].

إن هذا الاختبار والامتحان بين إبليس وآدم، وبين الشيطان وذرية آدم كفيل بمعرفة أهل العزم والجهاد الذين يتخلصون من وساوس الشيطان، وأولئك الذين ينقادون لشياطينهم، فيخسرون الدنيا والآخرة خسراناً مبيناً.

نعمة الإبحار

الكرة الأرضية قسمان: بر و بحر، يابس وماء، أودع الله تعالى في كل قسم نعماً وفيرة وأفضالاً سابغة كثيرة، ففي البر: المعادن السائلة والجامدة، وخيرات الزروع والثمار، وفي البحر: النفط واللؤلؤ والمرجان والأسماك وغيرها، ويسر الله للإنسان الإبحار في البحار بوسائط السفن المسيَّرة قديماً وحديثاً بالرياح وهي السفن الشراعية، وحديثاً بالسفن المعتمدة على الطاقة البخارية أو الكهربائية أو الذرية والمحركات

(١) أخرجه الترمذي في المناقب .

الآلية، ليتيسر للناس عبور البحر ونقل الركاب والبضائع والنفط وغير ذلك، وهذا يدعو لشكر نعمة الله عز وجل، والإقرار بالخالق الموجد الذي يحقق مصالح البشر، فقال الله سبحانه:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى(١) لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ(٢) بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا(٣) ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ(٤) فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا(٥) ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٦٦-٦٩].

المعنى: الله ربكم أيها البشر كافة: هو الذي يسيِّر لكم السفن في الماء الكثير، عذباً كان أو مِلْحاً، للانتقال السياحي والارتزاق في أنحاء الدنيا بالتجارات المختلفة، إنه سبحانه بهذا التيسير كان متفضلاً عليكم، رحيماً كثير الرحمة بكم جميعاً أيها العباد.

ومن رحمته تعالى وفضله العظيم: أنه إذا أصابكم أيها الناس المسافرون في البحر ضر وخوف غرق أو شدة، أو جهد ومشقة، ضلَّ من تدعون إلا إياه، أي غاب، عن أذهانكم وتصوراتكم وخواطركم دعاء أحد وطلب نجدته إلا الله تعالى، فلا تتذكرون إلا الله، ولا تلجؤون لكشف الضر عنكم إلا لربكم الذي خلقكم ورزقكم من فضله.

ولكن مع الأسف تقابلون عادةً ذلك الفضل الإلهي بالجحود والإنكار، لا الشكر

---

(١) يسوق برفق ويسيّر، والإزجاء: سوق الثقيل السير، وإزجاء الفلك: سوقه بالريح اللينة والمجاديف وغيرها. (٢) يغوّر ويغيّب بكم. (٣) أي يرميكم بالحصباء والحجارة كقوم لوط. (٤) عاصفاً شديداً. (٥) ناصراً أو مطالباً بالثأر.

وعرفان الجميل، فإذا أمنتم ونجوتم ووصلتم إلى البر والسلامة، نسيتم من دعوتموه فأنقذكم، وأعرضتم عن جانب الله الذي نجاكم، وعدتم إلى الشرك والكفران، وكان الإنسان بطبعه شديد الجحود والإنكار ونسيان نعمة الله تعالى.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ أي جنس الإنسان، فكل واحد لا يكاد يؤدي شكر الله تعالى كما يجب، وكل إنسان مهما عمل مقصر في حق الله تعالى.

أفأمنتم أيها المعرضون الناسون الشِّدَّة، حين صرتم إلى الرخاء والأمن، أن يخسف الله بكم مكانكم من البر وناحية من الأرض، أو يزلزل الأرض من تحتكم أو يرسل عليكم حجارة من السماء، ثم لا تجدوا بعد ذلك ناصراً تكِلون إليه أموركم، وينقذكم منه؛ لأنكم في قبضة القدرة الإلهية في البر وفي البحر. فقوله سبحانه: ﴿أَن يَخْسِفَ﴾ الخسف: انهيار الأرض بالشيء، وقوله تعالى ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ الحاصب: المطر العارض الرامي بالبَرَد والحجارة ونحو ذلك.

فهل أمنتم أيها الراكبون في البحر إذا نجاكم الله من الغرق، وأمنتم من أهوال البحار، أن يأتيكم في البر بعذاب آخر من خسف وزلزال أو تفجير بركان أو مطر مصحوب بالحصباء، أي الحجارة الصغار؟! إنها لفتة نظر شديدة التأثير، وتنبيهٌ للعقول والأفكار أن ألوان العذاب مختلفة متنوعة، منها الإغراق في البحار، ومنها الزلازل والبراكين، ومنها الأمطار المحمّلة بالحجارة، ومنها الريح العاتية التي تدمر كل شيء، وترمي بالحصى كل إنسان.

أو هل أمنتم أيها المعرضون عن ربكم بعدما لجأتم إلى الله للإنقاذ من الغرق في البحر أن يعيدكم إلى البحار مرة ثانية، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح، والقاصف: الذي يكسر كل ما يُلْقي ويقصِفُه، فيغرقكم في أعماق الماء بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى، ثم لا تجدوا لكم علينا تبيعاً، أي نصيراً متابعاً يطلب ثأراً، أو دَيْناً أو

نحو هذا، والمراد: لا تجدون من يتبع فِعلنا بكم، ويطلب نصرتكم وإنقاذكم مما أوقعناكم فيه.

إن الذي يتأمل بهذه الإنذارات والتهديدات بألوان العذاب في البر والبحر، يدرك إدراكاً صحيحاً، أن قدرة الله الشاملة لا مفر منها ولا مهرب، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا في البر ولا في البحر، فالله رحيم بالطائعين الشاكرين الحامدين، ولكنه أيضاً غضوب شديد العذاب للجاحدين وجوده، المنكرين وحدانيته، المعرضين عن أوامره، المتنكرين لفضله وإحسانه، وكل امرئ يختار لنفسه ما يحلو، فإن أراد السلامة والنجاة من الويلات، عفّ وقنِع، وأطاع واستقام، وإن ارتكب طريق الحماقة والطيش، واستبدت به الأهواء والشهوات، وأعرض عن منهاج الحق والإله، أوقع نفسه في مهاوي الردى والهلاك.

تكريم الإنسان

تشمل الرعاية الإلهية الإنسان من جميع أحواله المادية والمعنوية، فالله سبحانه ينجّي الإنسان المسافر من مخاطر البحر والبر، وهو سبحانه يصون كرامة الإنسان، ويحمي حقوق الإنسان، ويجعله خليفة الأرض، ويسخر له جميع ما في السماوات والأرض من منافع وخيرات، وذلك ما لم يحظ به مخلوق آخر ولا جنس آخر، وتلك فضيلة تميز بها الإنسان، وجعلته يختص بخصائص لا مثيل لها، وتظهر ثمار هذه الخصائص في تمكين الإنسان من الإفادة من خيرات الكون، وفي تفضيل البشر على سائر المخلوقات يوم القيامة، إنها النعمة العظمى والفضل الإلهي العميم، قال الله سبحانه مبيناً مبدأ التكريم للإنسان:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ

كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[1] ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠-٧٢].

لم تقتصر أفضال الله على الإنسان في الدنيا، وإنما في الآخرة أيضاً، ففي الدنيا كرم الله بني آدم، بخلقهم على أحسن صورة وهيئة، ومنحهم السمع والبصر والفؤاد للفهم والإدراك، وميزهم عن سائر الحيوان بالعقل الذي يدركون به حقائق الأشياء، ويهتدون به إلى جميع المنافع المادية، وإلى معرفة اللغات، والتمييز بين الخير والشر، والنفع والضرر.

وفي الدنيا حمل الله البشر في البر على الدواب وسائر وسائل النقل والركوب ورزقهم من طيبات الرزق، من زروع وثمار، ولحوم وألبان، وجمّلهم بالمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة، وفضلهم على كثير من المخلوقات، وكل ذلك لنفي النقصان، لا التكريم بالمال.

واختصاص الإنسان بالعقل وتفضيله به على سائر الحيوان إنما هو من أجل معرفة الله تعالى، وفهم كلامه، والتوصل إلى نعيمه، وإعمال الفكر في مكنونات الكون، والإفادة من ذخائر الأرض ودفائنها، ومحاولة إدخال التعديل والتطوير عليها، وكل ذلك إنما يتم بتوفيق من الله ورضوانه، وإلهام وإحسان من الله على عباده.

وارتأى بعض المفسرين أن هذه الآية تقضي بفضل الملائكة على الإنس من حيث هم المستثنون، والواقع لا يفهم من الآية شيء من هذا، بل التفضيل بين الإنس والجن لم تتعرض له الآية، ويحتمل أن الملائكة أفضل، ويحتمل التساوي، وفضلت

(١) قدر الخيط في شق النواة، من الجزاء.

الملائكة بأدلة أخرى من الشرع، والظاهر تفضيل الملائكة، فإن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ هو ما سوى الملائكة.

والمعوّل في الحقيقة على ما يقدِّم الناس من أعمال يوم القيامة، لذا أردف الله آية تكريم الإنسان بما يذكّره من المقصود الجوهري والغاية الأصلية من خلقه، فخاطب الله نبيه بقوله فيما معناه: اذكر أيها النبي اليوم الذي نحاسب فيه كل أمة متجمعةٍ مع إمامهم وقائدهم، فيقال مثلاً: يا أمة محمد، يا أمة موسى، يا أمة عيسى، يا أمة فرعون وأتباعه، يا أمة النمروذ، يا أتباع فلان وفلان من زعماء الكفر، وفي ذلك الحساب تصفّى القضايا، فمن أعطي من هؤلاء المدعوين كتابه بيمينه علامة على القبول، فأولئك يتفاخرون، ويقرؤون كتابهم بفرح وسرور، بما تضمنه من العمل الصالح، ولا يظلمون فتيلاً، أي لا ينقصون أدنى شيء من جزاء أعمالهم الصالحة، ومن ثوابهم لا أقل ولا أكثر من الفتيل. وعبر عن ذلك بالفتيل: وهو الخيط المستطيل في شق النواة، للقلة في عرف الناس وعادتهم. وقوله: ﴿يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ﴾ عبارة عن السرور بكتابهم، أي يرددون القراءة ويتناقلونها.

ومن كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن حجج الله وبيناته وآياته التي أبانها في الكون، فهو يكون كذلك أشد حيرة وأعمى البصيرة والقلب في الآخرة، لأنه قد باشر الخيبة، ورأى مخايل العذاب، لا يجد طريق النجاة، بل وأضل سبيلاً من الأعمى في الدنيا.

والأعمى لفظ مستعار لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة، أما في الدنيا فلتركه إعمال الفكر والنظر، وأما في الآخرة فلأنه لا ينفعه الاهتداء إلى الحق، لأن الآخرة دار جزاء وثواب وحساب، لا دار تكليف وأعمال وأفعال بدنية أو مالية.

ما أدهش ذلك المنظر وتلك الحقيقة حين تتطاير الصحف أو الكتب في الجو

وتوضع في الأيمان لأهل الإيمان، وفي الشمائل لأهل الكفر. أما المذنبون المخطئون من المؤمنين فيتسلمون كتبهم بأيمانهم، فيستفيدون منها أنهم غير مخلّدين في النار، ويستفاد من الآيات: أن من عمي عن شكر نعم الله والإيمان بُمسديها ومعطيها، فهو في الآخرة وشأنها أعمى بعيد عن نوال ثمرة الإيمان والشكر على أفضال الله تعالى. وإنما جعل الكافر في الآخرة أضل سبيلاً، لأنه في الدنيا ممكن أن يؤمن فينجو، وفي الآخرة لا يمكنه ذلك، فهو أضل سبيلاً، وأشد حيرة، وأقرب إلى العذاب.

محاولات المشركين فتنة النبي ﷺ وطرده من مكة

ظن المشركون الوثنيون في مكة أنهم بمكائدهم وممارسة ألوان خداعهم يتمكنون من صرف النبي محمد ﷺ عن شريعة الله وأحكامه من أوامر ونواه، ووعد ووعيد، وحمله على تعديل وحي الله، واختراع ما لم ينزله الله، وإقرار ما هم عليه من عبادة الأوثان والأصنام، فلما خابوا وفشلوا، توعدوا نبي الله بالطرد والإجلاء من موطنه مكة، فلم يفلحوا في النهاية، وكانت الهزيمة والدمار عليهم، والنصر والنجاح للنبي وأتباعه، قال الله تعالى معبِّراً عن هذه المحاولات الخائبة:

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ[1] عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ[2] وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ[3] إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ[4] وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ[5] لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا[6] ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٣-٧٧].

---

(١) ليوقعونك في الفتنة وليصرفونك عن الوحي. (٢) لتختلق. (٣) تميل إليهم أدنى ميل. (٤) عذاباً مضاعفاً في الحياة. (٥) أي يزعجونك لإخراجك من أرض مكة. (٦) تغييراً.

نزلت الآية الأولى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ في شأن قريش أو ثقيف، لأنهم قالوا للنبي: لا ندعك تستلم الحجر الأسود حتى تمسّ أوثاننا، وتلمَّ بآلهتنا، فنزلت الآية تنهاه عن ذلك.

ونزلت الآية الثانية: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ في اليهود الذين قالوا: إن كنت نبياً فالحق بالشام، فإن الشام أرض الحشر، وأرض الأنبياء، قاصدين بذلك إجلاءه من مكة أو المدينة، فنزلت الآية تهددهم بالإبادة، ونفّذ الله عليهم الوعيد في أنهم لم يلبثوا خلف النبي إلا قليلاً، وهو يوم بدر.

والمعنى: همّ المشركون وحاولوا فتنة النبي ﷺ عن دينه، وإقرار وثنيتهم، وحينئذ لو اتّبع النبي ما يريدون، وفعل ما يطلبون لاتخذوه خليلاً: صديقاً لهم، وأظهروا للناس أنه موافق على ما هم عليه من الشرك. ولولا تثبيت الله لنبيه على الحق، وعصمته إياه من الضلال والانحراف لقارب الميلَ لخداعهم ومكرهم ميلاً قليلاً.

وإذا فعل ذلك، عاقبه الله بعقوبة مضاعفة في الدنيا والآخرة، وهو المراد بضِعْف الحياة وضِعْف الممات، أي ضعف عذاب الدنيا، وضعف عذاب الآخرة، لأن ذنب القائد أو العظيم ذنب شديد، يستحق عقاباً أشد وأعظم، وإذا عوقب لن يجد أحداً يناصره ويدفع عنه الأذى، لأن السلطان المطلق في الحساب والعذاب إنما هو لله جل جلاله.

ولقد قارب أهل مكة واليهود أيضاً أن يزعجوك يا محمد بعداوتهم ومكرهم، ويخرجوك من أرضهم التي أنت فيها، وهي أرض مكة أو أرض المدينة، وإذا طردوك وأخرجوك، لا يبقون بعد إخراجك إلا زماناً قليلاً، فإن الله مهلكهم، ومدمرهم بسرعة، ونُفِّذ هذا الوعيد عليهم، فقد أهلكهم الله في موقعة بدر بعد إخراجه بقليل، وهو ثمانية عشر شهراً هجرية.

وعبر الله تعالى عن فرحة القرشيين بالإجلاء والطرد للنبي ﷺ بقوله سبحانه في آية أخرى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٨١] وهو الفرح الذي يسبق العاصفة أو العذاب.

ثم قرر الله تعالى حكماً عاماً، وأعلمنا بسنة دائمة، فذكر سبحانه: أن من عادة الله وسنته ومنهجه في الذين كفروا برسله، وآذوهم، أن يأتيهم العذاب، بخروج الرسول من بينهم، فكل قوم أخرجوا رسولهم من أراضيهم، فسنة الله أن يهلكهم، ولولا أنه ﷺ الرحمة المهداة لجميع الخلائق، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لاقِبَل لأحد به، ولا تغيير لسنة الله، ونظامه أو قانونه، وعادته، ولا خُلْف في وعده.

لقد أحبط الله مساعي المشركين الوثنيين في مكة في محاولة فتنة النبي ﷺ عن رسالته ووحي ربه ودينه، ومحاولة تغيير الوحي الإلهي، وهو إنذار لكل من يهادن أئمة الضلال والكفر ويجاملهم في ضلالهم وغيهم، أو يحاول تبديل كلام الله وشرعه، وإعلانٌ لعصمة النبي ﷺ عن التقصير في شيء. والمشركون حين تم لهم إبعاد النبي ﷺ من مكة وإخراجه منها، لم يضمنوا لأنفسهم السعادة والاستقرار والهناءة، وإنما توالت هزائمهم، في بدر والحديبية وفتح مكة وغيرها، وسقطت ألوية الوثنية وراياتها، وتعرضوا للعذاب والتدمير، والقتل والتشريد، ومن آمن منهم برسالة النبي ﷺ سَلِمَ ونجا.

تشريع الصلاة وإعلان الحق

إن تماسك الأمة الإسلامية على عقيدتها وتوجهها نحو الله خالقها إنما هو بإقامة الصلاة، والتزام منهج الحق وطرقه، ومقاومة الباطل وجنده، وهذه المقومات الأساسية تجعل من المسلم والمجتمع والأمة قوة صلبة في دينها، وصادقة في عزيمتها

وتوجهاتها، وما أحوجنا في كل زمان ومكان إلى صلابة الرجال، وصدق العزائم، والخشوع لله جل جلاله في الصلوات، والابتهالات والقربات، قال الله تعالى موضحاً هذه الخطة:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ[1] ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ[2] وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ[3] إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ[4] نَافِلَةً لَّكَ[5] عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا[6] ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ[7] صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ[8] ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٧٨-٨١].

إن تربية شخصية المسلم تعتمد على وصله بربه، وتقوية ثقته بخالقه مصرِّف الأشياء، ومدبّر الكون، لذا من أجل صبر الرسول ﷺ على أذى قومه ومحاولاتهم الخائبة لفتنته واستفزازه وطرده، أمره الله بالإقبال على عبادة ربه، وألا يشغل قلبه بهم، فأمره بالصلاة. وآية: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ بإجماع المفسرين إشارة إلى الصلوات الخمس المفروضة. ومعناها أدِّ أيها الرسول الصلوات المكتوبة عليك وعلى أمتك تامة الأركان والشروط في أوقاتها الخمسة، من بعد زوال الشمس (ظهراً) إلى ظلمة الليل، وذلك يشمل صلوات الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، وأقم صلاة الفجر المتميزة بإطالة التلاوة للقرآن الكريم، إن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل والنهار، وتشهدها الجماعة الكثيرة، وسميت صلاة الصبح قرآناً وهو القراءة، لأنها ركن؛ كما سميت الصلاة ركوعاً وسجوداً وقنوتاً. روى أحمد والترمذي وغيرهما عن

(١) أي زوالها عند الظهر . (٢) ظلمته . (٣) صلاة الصبح . (٤) صل صلاة الليل . (٥) فريضة زائدة خاصة بك . (٦) مقام الشفاعة العظمى . (٧) إدخالاً مرضياً . (٨) زال .

أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار».

وفرض آخر على النبي ﷺ وهو صلاة التهجد، فقم للصلاة أيها النبي في جزء أو وقت من الليل، وهو أول أمر للنبي بقيام الليل، زيادة على الصلوات المفروضة الخمس. وقوله سبحانه: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي زيادة لك في الفرض، وكان قيام الليل فرضاً على النبي ﷺ. ويحتمل أن يكون هذا على جهة الندب في التنفل، ويكون الخطاب للنبي ﷺ ، والمراد هو وأمته، كخطابه في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ والظاهر أن هذا هو الراجح، لأنه يبعد تسمية الفرض بالنفل.

افعل هذا المأمور أيها النبي، لعل ربك يمنحك المقام المحمود أي المكان المرموق: وهو الذي يحمدك فيه الخلائق كلهم، وخالقهم تبارك وتعالى، وهو مقام الشفاعة العظمى الذي يتدافعه الأنبياء حتى ينتهي إلى النبي عليه الصلاة والسلام يوم الحشر وأهوال القيامة. ويستفيد من هذه الشفاعة العالم أجمع مؤمنهم وكافرهم، لذا قال ﷺ فيما يرويه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر..».

وتمهيداً للأمر بالهجرة من مكة إلى المدينة، قل يا محمد داعياً: رب أدخلني في الدنيا والآخرة مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، وهو دعاء في أن يحسِّن الله حال نبيه في كل ما يتناول من الأمور، ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتصر من تصرفات المقادير في الموت والحياة، أي أدخلني إدخالاً مرضياً حسناً، لا يكره فيه ما يكره، يوصف صاحبه بأنه صادق في قوله وفعله كدخول المدينة والخروج من مكة. واجعل لي في هذا حجة بينة تنصرني على من خالفني، أو ملكاً وعزاً قوياً، ينتصر فيه الإسلام على الكفر.

روى الترمذي وغيره عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فنزلت عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾

وقل أيها النبي للمشركين: جاء الحق من الله الذي لا شك ولا مرية فيه، وهو الإسلام في جملته، وما قارنه من شعائر الإسلام والإيمان والعلم النافع، وزال الباطل وهو الشرك واضمحل، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق، ولا بقاء للشرك مع الإيمان، إن الباطل كان مضمحلاً لا قرار له، وغير ثابت في كل وقت.

وقد تلا النبي ﷺ هذه الآية حين كسّر الأصنام حول الكعبة المشرفة وغيرها حينما فتح مكة المكرمة، وذلك إعلان بهزيمة الشرك والوثنية، وانتصار راية التوحيد لله والإيمان الخالص به.

القرآن والروح

أخبر الله تعالى عن مهمة القرآن الكريم بأنه شفاء ورحمة لأهل الإيمان، وخسران لأهل الظلم والكفر، غير أن الإنسان ظلوم لا يقدّر المعروف ويتنكر للطاعة، وييأس ويتشاءم عند الشر. وأخبر الله أيضاً عن حقيقة الروح بأنها من عند الله وحده، وهي دليل على نقص علم الإنسان، فعلمه قليل، محصور بالحسّيات، ويجهل ما وراء ذلك من الغيبيات، ولا قدرة له عليها، وهذا ما أوضحته الآيات الآتية، في قول الله تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ(١) مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا(٢) ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ(٣) وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا(٤) ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ

---

(١) يصح أن تكون ((من)) لابتداء الغاية، ويصح أن تكون لابتداء الجنس. (٢) هلاكاً بسبب كفرهم.
(٣) لوى جانبه تكبراً. (٤) شديد اليأس من رحمتنا.

يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ[1] فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٢-٨٥].

هذه الآية بيان خاصية القرآن، فالله يقول عن نفسه: وننزل عليك أيها النبي قرآناً فيه شفاء، فكل شيء نزل من القرآن، فهو شفاء للمؤمنين يزدادون به إيماناً؛ لأنه يزيل الريب، ويكشف غطاء القلب لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى، المقرِّرة لشرعه، بل فيه الشفاء من الأمراض، والرُّقى والتعويذ من الشيطان[2]، وهو أيضاً رحمة لمن آمن به وصدَّقه واتّبعه، لأنه يرشد إلى الإيمان والحكمة والخير، فيؤدي إلى دخول الجنة والنجاة من النار، ولا يزيد سماع القرآن الكافرَ الظالمَ نفسَه إلا بُعْداً عن الإيمان وكفراً بالله، لتأصل الكفر في نفسه.

غير أن الإنسان ناقص إلا من عصمه الله، فتراه إذا أمده الله بنعمة من مال وعافية، ورزق، ونصر، وحقق مراده، أعرض عن طاعة الله وعبادته، ونأى بجانبه، أي لوى جانبه، وولى ظهره، قاصداً الاستكبار والتباعد؛ لأن ذلك عادة المتكبرين، وهو عبارة عن التحير والاستبداد.

وإذا أصابه الشر وهو المصائب والحوادث، كان يؤوساً قنوطاً من رحمة الله ومن الخير بعدئذ. وقل أيها النبي: كل أحد يعمل على طبيعته وطريقته، وناحيته وعلى ما ينوي من الهدى والضلال، والله وحده أعلم بمن هو أرشد سبيلاً وأقوم طريقاً واتباعاً للحق، وسيجزي الله كل عامل بعمله، وفي الآية تهديد ووعيد بيِّن للمشركين.

أما الحديث عن الروح: فهو قديم ومتجدد في كل عصر، ويسألك يا محمد المشركون عن حقيقة الروح التي تحيي الأبدان، فقل: الروح من شأن ربي، يحدث

---

(١) مذهبه الذي يشاكل حاله. (٢) الرق جمع رقية: وهي التعويذة التي يُرقى بها المريض. والتعويذ: الاعتصام من الشيطان، والمؤمن لا يتعوذ إلا بالله تعالى.

بتكوينه وإيجاده، وقد استأثر بعلمه، فلا يعلمه إلا هو، ولا يستطيعه إلا هو، وما أوتيتم أيها الناس من العلوم والمعارف إلا علماً قليلاً، محصوراً بالمحسوسات والمرئيات، أما ما وراء ذلك فلا قدرة لكم عليه، ولا اطلاع لأحد على حقيقته.

وسبب نزول هذه الآية: هو ما روي عن عبد الله بن مسعود: أنه كان مع رسول الله ﷺ، فمرَّ على حرث (بستان) بالمدينة -ويروى: على خَرِب- وإذا فيه جماعة من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فإن أجاب فيه، عرفتم أنه ليس بنبي. فالآية نزلت في اليهود، وهي مدنية، وهذه رواية البخاري.

وفي رواية أخرى تدل على أن الآية مكية كسائر سورة الإسراء، وهي ما أخرج الترمذي عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود، علمونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ والمراد: الأرواح التي في الأشخاص الحيوانية.

قال ابن كثير: يجمع بين الحديثين بتعدد النزول، فقد يكون السؤال من قريش، بتعليم اليهود في مكة فتكون الآية مكية، وقد يتكرر السؤال من اليهود أنفسهم في المدينة، فتكون الآية مدنية. والراجح هو الرأي الأول، فقد حرض اليهود المشركين المكيين على هذا السؤال للتحدي والاستبداد والعناد.

والمهم بيان كون الله مصدر الأرواح جميعاً. فهو المانح للروح والقابض لها، وعلم الناس محدود قاصر، لا يدركون إلا ظواهر الأشياء، من وجود حركة الإنسان الجنين في بطن أمه، حينما تدبّ فيه الروح، فيحيا الجسم ويُحس ويتحرك.

وذلك أنه كان عندهم في التوراة: أن الروح مما انفرد الله بعلمه، ولا يطلع عليه أحداً من عباده، فتطابق ما جاء في القرآن مع ما جاء في التوراة، مما يدل على صدق نبوة النبي محمد ﷺ.

إعجاز القرآن الكريم

ما من نبي أو رسول إلا وهو بحاجة لإثبات صدق نبوته، وطريق التصديق: إظهار المعجزة (وهي الأمر الخارق للعادة) على يده، لأن الإنسان العادي لا يستطيع الإتيان بالمعجزات، فتكون المعجزة طريقاً للتحقق من صدق النبي أو الرسول، ومعجزات الأنبياء كثيرة متنوعة بحسب كل زمان، مثل العصا التي تنقلب حية واليد البيضاء لموسى عليه السلام في وقت ساد فيه السحر، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه (المولود أعمى) والأبرص بإذن الله لعيسى عليه السلام، في وقت تقدم فيه الطب، ومعجزة النبي ﷺ الخالدة هي القرآن الكريم أفصحُ الكلام، وأبلغُ البيان، وأروعُ الأساليب، في وقت كان فيه العرب يتفاخرون بالبلاغة والفصاحة وروعة الأسلوب. وهذه المعجزة تحدثت عنها الآيات الآتية:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا[1] ﴿٨٦﴾ إِلَّا[2] رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[3] ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ[4] فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن[5] كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ[6] أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا[7] ﴿٨٩﴾﴾

[الإسراء: ١٧/٨٦-٨٩].

امتن الله على النبي ﷺ بالنبوّة والوحي، و بجعل القرآن شفاء للناس، وبإبقائه محفوظاً خالداً إلى يوم القيامة، رحمة بالناس. فما على الرسول إلا التسليم لله، وتفويض التعليم إليه بما شاء، فالله تعالى يُعْلم من علمه بما شاء، ويدع ما شاء،

(١) من يتعهد بإعادته إليك . (٢) استثناء منقطع . (٣) معيناً . (٤) رددنا بأساليب متنوعة . (٥) من: لابتداء الغاية . (٦) رفض . (٧) جحوداً للحق .

ولئن شاء لذهب بالوحي الذي آتاه الله لنبيه، ثم لا يجد ناصراً له من الله، أو وكيلاً. والوكيل: القائم بالأمر في الانتصار، أو المخاصمة ونحو ذلك من وجوه النفع.

لكن رحمةً من ربك، يُتْرَك القرآن، ولا يذهب به من صدر نبيه محمد، وهذا امتنان من الله تعالى على جميع العلماء ببقاء القرآن، إن فضل الله عليك أيها الرسول عظيم وكبير، بإرسالك للناس بشيراً ونذيراً، وباختصاصك بالنبوة، وحمايتك من المشركين، وبإنزال القرآن عليك، وحفظه في صدرك وفي المصاحف إلى يوم القيامة.

ثم تحدى الله العرب بأن يأتوا بمثل القرآن الكريم، فقل يا محمد متحدياً: والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته، وحسن نظمه وبيانه، ومعانيه وأحكامه، وفيهم العرب أرباب البلاغة وفرسان الفصاحة، لعجزوا عن الإتيان بمثله، حتى ولو كان الجميع متعاونين متآزرين، بعضهم لبعض ظهير، أي معين ومساعد.

وسبب نزول هذه الآية: أن جماعة من قريش قالت لرسول الله ﷺ: يا محمد، جئنا بآية غريبة غير هذا القرآن، فإنا نقْدر نحن على المجيء بمثل هذا، فنزلت هذه الآية المصرِّحة بالتعجيز، المُعْلِمة بأن جميع الخلائق إنساً وجِنّاً، لو اجتمعوا على ذلك، لم يقدروا عليه.

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس: أن جماعة من اليهود جاؤوا للنبي ﷺ، فقالوا: كيف نتّبعك وقد تركت قبلتنا؟ وإن هذا الذي جئت به، لا نراه متناسقاً، كما تناسق التوراة، فأنزل علينا كتاباً نعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به، فأنزل الله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ..﴾ الآية.

والعجز عن معارضة القرآن: إنما وقع في النظم ورصف المعاني، وعلة ذلك:

الإحاطة التي لا يتصف بها إلا الله تعالى، والبشر عاجزون بسبب الجهل والنسيان، والغفلة، وأنواع النقص.

وكذلك التحدي بالعشر السور، والتحدي بالسورة الواحدة، إنما وقع ذلك كله على حد واحد في النظم خاصة.

ثم نبّه الله تعالى على فضله في إنزال القرآن على العالم، ووبخ الكفار على قبيح فعلهم، وترك إيمانهم بالقرآن، فالله بيّن للناس في القرآن بياناً متردداً ومكرراً على وجوه مختلفة، وألوان متعددة، وعبارات متنوعة، مرة بالإيجاز، وتارة بالإطناب، وأوضح الحجَج والبراهين القاطعة الدالة على وحدانية الله وصدق نبيه، وأبان الحق، وأتى بالآيات والعبر، ورغّب ورهّب، وأمر ونهى، وشرّع وأحكم، وأتى بالقصص، وأخبر عن الجنة والنار والقيامة، للعظة والعبرة وهذا معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي من كل معنى، هو كالمثل في الغرابة والحسن، وأتى الله في القرآن بألوان التنبيه والعِبَر، من كل مثل ضربه، فأبى أكثر الناس، أي أهل مكة وأمثالهم إلا جحوداً وإنكاراً للحق، ورداً للصواب، وبقاء على الكفر، وإعراضاً عن الإيمان.

طلب المشركين آيات تعجيزية

لقد عانى النبي ﷺ من قومه في مكة معاناة شديدة، حينما بدأ بدعوتهم إلى توحيد الله تعالى، وهجر عبادة الأوثان، فآذوه وآذوا المستضعفين إيذاء شديداً، وبلغ بهم العناد والاستبداد والتحدي أن طالبوا نبي الله بإحدى ست آيات تعجيزية، كلها غير مقدورة للبشر، حدث هذا في مكة حينما اجتمع عُتبة وشيبة ابنا ربيعة، وعبد الله بن

أبي أمية والنضر بن الحارث وغيرهم من مشيخة قريش وساداتها، وعرضوا على النبي ﷺ أن يملّكوه -إن أراد- المُلْك، ويجمعوا له كثيراً من المال -إن أراد الغنى- أو يُطِبُّوه إن كان به داء، ونحو هذا من الأقاويل، فدعاهم رسول الله ﷺ عند ذلك إلى الله، وقال: إنما جئتكم من عند الله بأمر فيه صلاح دينكم ودنياكم، فإن سمعتم وأطعتم فحسن، وإلا صبرت لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم بما شاء، فقالوا له حينئذ: فإن كان ما تزعمه حقاً، ففجِّر ينبوعاً ونؤمن لك، ولتكن لك جنة (بستان) إلى غير ذلك مما كلفوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: هذا كله إلى الله، ولا يلزمني اقتراح هذا ولا غيره، وإنما أنا مستسلم لأمر الله تعالى[1]. هذا هو معنى الحديث في سبب نزول الآيات الآتية:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا[2] ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[3] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا[4] ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ[5] أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٠-٩٣].

لم يكتف المشركون بإعجاز القرآن لإثبات كونه كلام الله، وإثبات نبوة محمد ﷺ، وبعد أن أفحمتهم الحجة، وعجزوا عن الجواب المقنع، اقترحوا إنزال إحدى ست آيات من النبي ﷺ:

- فقال زعماؤهم كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي جهل وأبي سفيان والوليد بن المغيرة

---

(١) الحديث طويل، رواه الطبري وابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما. وذكره المفسرون كابن جرير والقرطبي والسيوطي في الدر المنثور وابن كثير. (٢) عين ماء. (٣) قطعاً. (٤) مقابلة وعياناً. (٥) ذهب.

والنضر بن الحارث وأمية بن خلف وأبي البُخْتري: لن نصدق برسالتك حتى تفجِّر لنا من الأرض ينبوعاً من الماء يتدفق، وهو العين الجارية، فإنا في صحراء.

- أو تكون لك جنة (أي بستان) من النخيل والأعناب وبقية الثمار، تتدفق فيها الأنهار وتسقى بها الزروع والأشجار.

- أو تُسقط السماء علينا كِسَفاً، أي قِطَعاً قِطَعاً، كما زعمت أن ربك يفعل ذلك إن شاء.

- أو تأتي بالله والملائكة معاينة ومواجهة، فيحدثونا بأنك رسول من عند الله. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي مقابلة وعياناً، أو ضامناً وزعيماً بتصديقك.

- أو يكون لك بيت من زخرف، أي من ذهب. فإنك يتيم فقير. والزخرف: هو ما يتزين به، من ذهب أو غيره. والمراد به هنا: الذهب.

- أو ترقى (أي تصعد) في السماء على سلّم تضعها، ثم ترقى عليها، ونحن ننظر، ولن نصدق لارتقائك حتى تأتي لنا بكتاب نقرؤه، فيه تصديقك أنك رسول من عند الله .وقائل هذه المقالة: هو عبد الله بن أبي أمية فإنه قال لرسول الله ﷺ : إنا لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب، أي كتاب له، فيه: من الله عز وجل إلى عبد الله بن أبي أمية. وطلبت جماعتهم مثل هذا الطلب.

فأمر الله نبيه أن يقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي تنزيهاً لله من الإتيان إليكم، مع الملائكة قبيلاً، ومن أن يخاطبكم بكتاب، كما أردتم، ومن أن أقترح على الله هذه الأشياء، وهل أنا إلا بشر منكم أرسلت إليكم بالشريعة، فإنما عليَّ التبليغ فقط.

وليس للرسل أن يأتوا بشيء إلا بما يظهره الله على أيديهم بحسب الحكمة الإلهية

وتوافر المصلحة للناس، وما سألتموه أو طلبتموه أمره إلى الله عز وجل، إن شاء أجابكم، وإن شاء لم يجبكم.

والواقع أنهم قوم معاندون مكابرون، لن يؤمنوا برسالة النبي ﷺ، ولو جاءت الآيات كما اقترحوا، كما ذكر الله تعالى في آية أخرى وهي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩٦-٩٧].

وهكذا وضحت قضية هؤلاء المعاندين المشركين في مكة وغيرها، فإن من شرح الله صدره للإيمان لا يحتاج لهذه الأسباب، كلها أو بعضها، عافانا الله من التكبر والعناد.

استغراب المشركين من كون الرسل بشراً

المشركون الذين لم يجدوا حجة أو مسوغاً مقبولاً لشركهم وعنادهم، كلما حوصروا وأفحموا منطقياً وواقعياً، لجؤوا إلى تصيد الشبهات والذرائع لتسويغ شركهم ووثنيتهم، يتخبطون في دياجير الظلام، ويسقطون في متاهات الضلال، ومن شبهاتهم الواهية: أن الرسل لا يصح كونهم بشراً، وإنما ينبغي أن يكونوا ملائكة، وهذا يجافي العقل والمنطق، لأن من أهم شروط الرسول المبلِّغ رسالةً أو الناقل كلاماً أن يكون من جنس المرسل إليه، حتى يأنس به ويفهم كلامه. وتحكي لنا الآيات الآتية شبهة بشرية الرسل، والرد على أفّاكيها:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ

ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ(١) زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا(٢) ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٤-٩٧].

هذه الآيات واردة على سبيل التوبيخ والتعجب من النبي ﷺ كأنه يقول مستغرباً متعجباً من المشركين: ما شاء الله كان، ما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا هذه العلة التافهة (النَّزْرة) وهي كون الرسل بشراً، وهذا ليس أمراً بدعاً ولا غريباً، فكون الرسل بشراً من جنس المرسل إليهم هو الأمر الصحيح، ليقع الإفهام وتحدث المناقشة المنطقية، والتمكن من النظر، فلو فُرض أن في الأرض ملائكةً يسكنونها مطمئنين، أي وادعين فيها مقيمين، لكان الرسول إليهم من الملائكة، ليحدث الإفهام بلغة المخاطبين، ولو بعث للبشر مَلَك، لنفرت طبائعهم من رؤيته، ولم تحتمله أبصارهم، وإنما أجرى الله الأمر على حسب المعتاد والمصلحة، واللطف والرحمة بالعباد.

وهذا ما أمر الله به نبيه أن يقول: إن مقتضى الحكمة ومنطق الأشياء والرحمة بالناس المدعوين للإيمان: أن يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليناقشهم ويخاطبهم، ويفهموا منه، فليس إرسال الرسول لمجرد إلقاء الموحى به إليه، ولو كان الرسول ملكاً لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه، فإن الشيء يألف جنسه ويأنس به، فطبيعة المَلَك لا تصلح للاجتماع بالبشر، وعقد حوار معهم حول أحكام التشريع، وتبيان أصول العقيدة، وأداء الرسالة.

بل إن إرسال الرسول من البشر نعمة وحكمة ومنّة عظمى، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٤] أي من جنسهم.

ثم أرشد الله تعالى إلى حجة أخرى في الموضوع حين قال المشركون للنبي: فمن

---

(١) سكن لهيبها . (٢) زدناهم توقداً ولهباً .

يشهد لك بصدق نبوتك؟ وتلك الحجة هي أن القول الفصل بيني وبينكم هو أن الله شاهد علي وعليكم، والحاكم بيني وبينكم، وهو العالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً لانتقم مني أشد الانتقام، إن الله سبحانه عالم تامُّ العلم بأحوال عباده الظاهرة والباطنة، وخبير بمن يستحق الهداية، ومن هو باقٍ في الضلالة، فهم لا يذكرون شبهة بشرية الرسل وغيرها إلا حسداً وحباً للزعامة، وإعراضاً عن دعوة الحق وقبولها. وفي ذلك تهديد ووعيد وإيناس للنبي ﷺ فيما يلقاه من صدود قومه وعنادهم.

ثم ذكر الله تعالى قانون الهداية والضلالة، ومضمونه: من يهده الله للإيمان فهو المهتدي إلى الحق، ومن يضلل الله بسبب بعده عن الهداية، فلن تجد لهم أنصاراً يهدونهم من دون الله إلى الحق والصواب، ونحشر (نجمع) يوم القيامة في موقف الحساب هؤلاء الضالين عُمْياً لا يبصرون بقلوبهم الحق، بُكماً لا ينطقون، صماً لا يسمعون، أي فكما أنهم كانوا في الدنيا معطّلين هذه الحواس عن الانتفاع بها، فهم في الآخرة لا يبصرون طريق النجاة الذي يقر الأعين، ومصيرهم إلى جهنم، كلما سكن لهيبها، وفرغت النار من إحراقهم، زدناهم لهباً ووهجاً وجمراً، فيثور اللهب من جديد، ويتكرر الإفناء والإعادة، زيادة في عقابهم وتحسرهم، فتلك زيادة السعير، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن عطية: فالزيادة في حيِّزهم، وأما جهنم فعلى حالها من الشدة، لا يصيبها فتور.

إنكار المشركين البعث

تتركز عقيدة المشركين الوثنيين على أمرين: نسبة الشريك لله تعالى زوراً وبهتاناً، وإنكار البعث واليوم الآخر، بسبب تصوراتهم المادية المقصورة على الدنيا، وضعف عقولهم، وعدم إدراكهم لقدرة الله تعالى العظمى التي تختلف كل الاختلاف عن

قدرات البشر وإمكاناتهم، وهم ينسون سبب وجودهم وخلقهم في عالم الحياة، فالله هو الذي خلقهم وسوّاهم، وهو كذلك قادر هيّن عليه أيضاً إعادتهم إلى الحياة، حتى وإن صاروا عظاماً بالية، ورفاتاً بقايا قديمة، وتراباً منثوراً، قال الله تعالى مبيناً فساد عقيدة المشركين في إنكارهم القيامة والبعث:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا[1] أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا[2] ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٩٨-١٠٠].

إن الجزاء الإلهي في الدنيا والآخرة عدل مطلق، وحق تام، فلا يعذب الله أحداً، من دون سبب، ولا يعاقبه من غير وجه مشروع، لذا قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا..﴾ أي إن ذلك الجزاء المشار إليه في الآية السابقة، وهو: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ وذلك الوعيد المتقدم بجهنم، بسبب كفر أولئك المشركين وتكذيبهم بآيات الله وبالدلائل والحجج التي جاء بها محمد ﷺ، ويعم ذلك آيات القرآن الكريم وما تضمن من خبر وأمر ونهي.

ومن أسباب تعذيبهم بنحو خاص: إنكارهم البعث، ووجه تخصيصه مع أنه داخل في عموم الكفر بآيات القرآن: التعظيم له، والتنبيه على خطر الكفر به وإنكاره. وكيف أنكروا البعث؟

قالوا: أئذا كنا عظاماً بالية، ورفاتاً، أي بقايا صيّرها البلى إلى حالة التراب المنتشر، نعود خلقاً جديداً آخر، أبعد ما صرنا إلى البلى والهلاك والتناثر والتفرق في أنحاء الأرض، نعاد أو نبعث مرة ثانية إلى الحياة؟!

---

(١) أجزاء مفتتة. (٢) أي بخيلاً منوعاً.

والبعث: تحريك الشيء الساكن، وهذا الاستفهام منهم على جهة الاستبعاد للمحال بزعمهم، فرد الله تعالى عليهم فيما استبعدوه من البعث، والرد مأخوذ مما اعترفوا به، فهم لا ينكرون أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهما من البشر وغيرهم، فكيف يصح لهم أن يقروا بخلق الله لكل هذه الأشياء، ثم ينكرون إعادة بعضها؟ إن الله قادر على البعث بدليل خلقه السماوات والأرض.

ألا يرون في قلوبهم أن الله الذي أوجد السماوات والأرض من العدم، على غير مثال سابق، قادر على أن يخلق أمثالهم، ويعيد أبدانهم، وينشئهم نشأة أخرى، كما بدأهم، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٤٠/٥٧].

ألا يرون رؤية القلب أيضاً أن الله جعل للبشر أجلاً محتوماً لا شك فيه، وذلك الأجل إما يوم القيامة، وهو الأجل العام، وإما أجل الموت وهو الأجل الخاص بكل نفس مخلوقة، والتقدير بالأجل فيه بيان قدرة الله عز وجل ومُلكه لخلقه، فمن قدّر الآجال وجعل للمخلوقات نهاية حتمية، كان هو القادر على إحياء الموتى، وإيقاع البعث من جديد، حين يشاء، لا إله إلا هو، وعلى الرغم من بيان هذا الواقع، أبى الكافرون الظالمون أنفسهم إلا كُفوراً، أي تمادياً في الباطل والضلال، وجحود الثابت الصحيح، وإنكار البعث.

وسبب عدم إجابة المشركين لمقترحاتهم من إيجاد القصور والجنات وعيون الأنهار: هو الشح والبخل المتمكن في نفوسهم، لذا قل لهم أيها النبي: لو أنكم ملكتم التصرف في خزائن أرزاق الله، لبقيتم على الشح والبخل، ولأمسكتم عن الإنفاق، وهو الفقر، وكان الإنسان قتوراً، أي بخيلاً منوعاً ممسكاً، فلو أنهم ملكوا مفاتيح

الزرق، لأمسكوا عن النفقة، بسبب فقرهم وعجزهم، ولما أعطوا أحداً شيئاً بسبب خوفهم من النقص وعدم المال.

والمراد بقوله تعالى: ﴿خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾ أي خزائن المال والنعم التي تصرف في الأرزاق، والإنفاق المعروف: هو إذهاب المال، وهو مؤد إلى الفقر، فكأن المعنى: تبخلون خشية عاقبة الإنفاق، وكان طبع الإنسان ومنتهى نظره أن الأشياء تتناهى وتفنى، فلو ملك خزائن رحمة الله لأمسك خشية الفقر.

الآيات التسع لموسى عليه السلام

كان الحجاج عنيفاً والصراع قوياً على أشده، بين موسى عليه السلام وفرعون ملك مصر، وخَلْفية هذه الصراع واضحة: هي أن فرعون أراد الحفاظ على ملكه وسلطانه ونفوذه في مصر، وخشي أن ينافسه موسى عليه السلام السلطة، ويحدّ من هيمنته، وتسلّطه على المصريين، وكان لا بد لموسى من إثبات صدقه في ادعاء النبوة، فآتاه الله تسع آيات مشهورة، وآيات أخرى بلغ مجموعها أكثر من أربع وعشرين، وخص الله تسعاً منها بالذكر، ووصفها بالبيان ولم يعينها، وهي الخمس المذكورة في سورة الأعراف، وهي: الطوفان، والجراد، والقُمّل، والضفادع، والدم، والأربع الأخرى كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي السنون (القحط) في بواديهم، ونقص الثمرات في قراهم، واليد، والعصا. قال الله تعالى مبيناً تأييد رسوله موسى بهذه الآيات التسع:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي

لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا(١) ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ(٢) وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا(٣) ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم(٤) مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا(٥) ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠١-١٠٤].

في معرض جواب المشركين عن اقتراحهم ومطالبتهم بالآيات التعجيزية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ..﴾ أي: لقد أمددنا موسى عليه السلام، وأعطيناه تسع آيات بينات، أي دلائل قاطعة على صدق نبوته، وتصديقه فيما أخبر به، حين أرسلناه إلى فرعون وقومه، فلم يؤمنوا بها، فاسأل أيها النبي محمد بني إسرائيل المعاصرين لك كعبد الله بن سلام وصحبه سؤال تأكد وتوثق، حين جاءهم موسى بتلك الآيات، فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مسحوراً، أي سحرك الناس، فكلامك مختل، وما تأتي به غير مستقيم، وصرت مختلط العقل.

قال موسى لفرعون: لقد علمت علم اليقين أن هذه الآيات التسع ما أنزلها خالق السماوات والأرض إلا طرائق يهتدى بها وحججاً وأدلة على صدق ما جئتك به، فهي تهدي الإنسان إلى الطريق الحق، وأنها من عند الله، لا من عند غيره.

وإني لأظنك يا فرعون مغلوباً مُهْلَكاً. وهذا رد مفحم على اتهام فرعون موسى بأنه قد سُحر، ففسد نظره وعقله وكلامه، ومضمون الرد: أن موسى يعلم آيات الله تعالى، وأنه ليس بمسحور، بل محرِّر لما يأتي به.

فأراد فرعون أن يستفزهم، أي أن يخرج موسى وقومه بني إسرائيل من أرض مصر

(١) مغلوباً على عقله بالسحر. (٢) أي طرائق يهتدى بها، وبينات. (٣) المثبور: المُهلك. (٤) يستخفهم.
(٥) أي جمعاً مختلطاً قد لُفَّ بعضه ببعض، فلا تمييز بين القبائل.

بالقتل أو الطرد، فأغرقناه ومن معه جميعاً، أي فأهلكناه وجنوده جميعاً بالإغراق في البحر.

ونجينا موسى وقومه بني إسرائيل، وقلنا لهم بعد هلاك فرعون: اسكنوا الأرض(١) التي أراد فرعون إخراجكم منها، وهي أرض مصر. فإذا جاء يوم القيامة، جئنا بكم أنتم وعدُوّكم جميعاً، جمعاً مختلطاً أنتم وهم، ثم نحكم بينكم وبينهم، وحكم الله عدل مطلق، وحق ثابت دائم.

ويلاحظ أن الله تعالى في هذه الآيات ذكر من قصة موسى مع فرعون طرفي القصة، في البدء والنهاية، فقد أراد فرعون غلبة الإسرائيليين وقتلهم، وهذا كان بدءَ الأمر، فأغرقه الله تعالى مع جنوده، وهذا كان نهاية الأمر.

وتقرير بداية هذه القصة ونهايتها بإيجاز يملأ النفس رهبة ورعباً، ويوقظ أحاسيس العبرة والعظة في المتأملين المفكرين المتعظين، لأن نبي الله موسى الكليم يدعو إلى الحق، وتوحيد الله، وترك الظلم الغاشم للرعية، وفرعون المتسلط يتمسك بعز السلطة وكبرياء الحكم، ويترفع عن التنزل لمستوى موسى وقومه، ولكن الله بالمرصاد ينصر رسله وأنبياءه وأتباعهم أهل الإيمان، ويهزم و يخذل أعداء الرسل وقواعد الظلم وعروش الظلمة، وهذه هي سنة الله في عباده، يؤيد الحق وأهله، ويمحق الباطل وأعوانه وجنده، وأكد التاريخ هذه السنة، حيث يبقى أهل الصلاح والاستقامة، وتُطوى من التاريخ صحف المفسدين الظالمين المتكبرين.

(١) متى ذكرت الأرض عموماً، فإنما يراد بها ما يناسب القصة المتكلم فيها، وقد يحسن عمومها في بعض القصص.

إنزال القرآن ونزوله بالحق

يعلم الله تعالى حاجة البشرية لكتاب ودستور إلهي دائم، يرشد للخير والتوحيد والسعادة، ويحذر من الشر والشرك والشقاوة، ويأمر بالعدل ومكارم الأخلاق، وينهى عن الظلم وقبائح الأقوال والأفعال، لذا أنزل الله القرآن العظيم قائماً على الحق والسداد، ومتضمناً الحق في أوامره ونواهيه وأخباره، وملازمةُ الحق والثبات على الحق أهم خاصية للدوام والخلود، والبعد عن التنازع والخلافات والخصومات، وهذا ما عبّرت عنه الآيات القرآنية التالية:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ[١] لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ[٢] وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن[٣] كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠٥-١٠٩].

المعنى: إننا أنزلنا القرآن بالحق، أي بالواجب الذي هو المصلحة والسداد للناس، وبالحق الثابت في نفسه، ونزل القرآن بالحق في أوامره ونواهيه وأخباره، فيكون تكرار اللفظ لمعنى مختلف غير الأول، وذهب الطبري إلى أنهما بمعنى واحد، أي بأخباره وأوامره، وبذلك نزل. هذه خاصية القرآن.

وأما خصيصة النبي ﷺ فالله أبانها أنه ما أرسل نبيه محمداً إلا مبشِّراً لمن أطاعه من المؤمنين بالجنة، ونذيراً مخوفاً لمن عصاه من الكافرين بالنار.

وأما كيفية نزول القرآن، فكان منجّماً، أي مقسطاً بحسب الوقائع والمناسبات، لذا وصف الله تلك الكيفية بأنه أنزله مفرقاً في مدى ثلاث وعشرين سنة، على وفق

---

(١) أنزلناه مفرَّقاً. (٢) على تؤدة وتمهل. (٣) إنْ في هذه الآية هي عند سيبويه: المخففة من الثقيلة، واللام بعدها: لام التأكيد.

المناسبات وأحوال الوقائع والحوادث، وعلى ما تقتضيه الحكمة والمصلحة النافعة في الدنيا والآخرة. ومعنى ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ بيّناه وأوضحناه وجعلناه فرقاناً.

وذلك لتبلّغه أيها النبي الرسول للناس وتتلوه عليهم على مَهْل وتطاول في المدّة وتأنٍ أو ترسّل في التلاوة، ونزلناه إليك تنزيلاً، أي شيئاً بعد شيء، وقوله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ بعد قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ لبيان كون التنزيل على حسب الحوادث.

ثم بعد هذا البيان القرآني، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ . .﴾ وهذه آية تحقير للكفار وتوعد، أو أنها للوعيد دون التحقير، والمعنى: أنكم لستم بحُجّة، فسواء علينا آمنتم أو كفرتم، وإنما ضرر ذلك على أنفسكم، وسترون ما تجازون به، وإنما الحجة أهل العلم من قبله، كما سيأتي.

وإن علماء أهل الكتاب الصالحين كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل ونحوهما الذين تمسكوا بكتابهم، ولم يبدلوه ولم يحرفوه، إذا يتلى عليهم هذا القرآن، يسجدون على وجوههم تعظيماً لله عز وجل، وشكراً على ما أنعم به عليهم، وعلى بيانه الحق. وقوله سبحانه: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي لناحيتها. والأذقان: أسافل الوجوه حيث يجتمع اللَّحْيان، وهي أقرب ما في رأس الإنسان إلى الأرض، ولا سيما عند سجوده. وهذا مبالغة في الخضوع والخشوع لله تعالى والخوف منه.

ويقولون في سجودهم: (سبحان ربنا) أي تنزه الله تعالى وتعاظم، وإن وعد الله آتٍ، والله لا يخلف الميعاد، إن وعده لمنجز، واقعٌ، آتٍ لا محالة.

وصفة سجودهم: أنهم يخرون ساجدين باكين، خاشعين، خاضعين لله عز وجل، من خشية الله، وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله ويزيدهم السجود خشوعاً، أي إيماناً وتسليماً، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ١٧].

وهذه الآية: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ عطف بزيادة صفة.

وقد امتدح النبي ﷺ البكاء أي الذي لا يظهر معه الصوت والكلام في أحاديث كثيرة، منها: ما رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسّهما النار: عين بكت من خشية الله تعالى، وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى».

وقوله سبحانه: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي يزيدهم القرآن تواضعاً لله تعالى. وهذه مبالغة في صفتهم، ومدح لهم، وحض لكل من توسم بالعلم، وحصّل منه شيئاً أن يصل إلى هذه الرتبة، وهي رتبة الخشوع والخضوع لله عز وجل.

والواقع أن العبادة لله تعالى ينبغي أن تكون بقلب خاشع، ونفس خاضعة ذليلة لله عز وجل، يظهر منها معنى العبودية الخالصة لرب العزة، ويتجلى بها استحضار عظمة الله وهيبته التي تملأ النفس محبة لله، وخوفاً منه، فيصير الإنسان صالح القول والعمل، بالعبادة المرضية لربه تعالى.

الدعاء بأسماء الله الحسنى

تمجّد الله وتعاظم، فله الأسماء الحسنى والصفات العليا، ويصح الدعاء بأي اسم من أسماء الله الحسنى التي هي في الأعم الأشهر تسعة وتسعون اسماً، أخرج ابن جرير الطبري، والبخاري في التوحيد والشروط والدعوات، ومسلم في الذكر، والترمذي، وابن ماجه في الدعوات: «إن لله تسعة وتسعين اسماً كلهن في القرآن، من أحصاهن دخل الجنة».

وقد أخبر القرآن في الجملة عن تسمية الله بالأسماء الحسنى في الآيات الآتية: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ

بِهَا[1] وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١٠-١١١].

نزلت الآية الأولى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ كما روى الطبري عن ابن عباس أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعو: يا الله، يا رحمن، فقالوا: كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد، وهو يدعو إلهين.

ونزلت آية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ كما أخرج أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن عباس في حال اختفاء الرسول ﷺ بمكة، في بدء الدعوة، وكان المشركون إذا سمعوا القرآن، سبّوا القرآن ومن أنزله، ومن جاء به، فقال الله عز وجل لنبيه: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون، فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك، فلا يسمعون، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

ونزلت آية: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فيما أخرج ابن جريج عن محمد بن كعب القرظي قال: إن اليهود والنصار قالوا: اتخذ الله ولداً وقالت العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذلّ، فأنزل الله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . .﴾ الآية.

رد الله تعالى على اتهامات المشركين ومواقفهم المتعنتة، والرد الأول: أن العرب لما عجزوا عن معارضة القرآن، وحملته على إثبات توحيد الله ورفض تعدد آلهتهم، عدلوا إلى رميه ﷺ بأن ما نهاهم عنه من التعدد رجع إليه، وغاب عنهم أن تعدد الأسماء والصفات غير تعدد الذوات.

فهم أنكروا إطلاق اسم الرحمن على الله عز وجل، فأمر الله نبيه أن يقول

(١) لا تُسرّ بها .

للمشركين: لا فرق في دعاء الله باسم الله أو باسم الرحمن، فإنه تعالى ذو الأسماء الحسنى، وتعدد الأسماء غير تعدد المسمى، فادعوا الله باسم الله، أو باسم الرحمن، فأي اسم تدعونه به فهو حسن، وتقدير الآية: أيّ الأسماء تدعو به فأنت مصيب، له الأسماء الحسنى. وأسماء الله توقيفية، لا يصح وضع اسم لله تعالى إلا بتوقيف من القرآن والحديث النبوي، وقد رُوي كما تقدم عند الترمذي وغيره بسند صحيح: «إن لله تسعة وتسعين اسماً..» الحديث.

ثم أرشد الله تعالى إلى كيفية التلاوة والدعاء، وهي القراءة الوسط بين الجهر والإسرار: لا تجهر بقراءة صلاتك، حتى لا يسمع المشركون فيسبوا القرآن، ويسبوا من أنزله، ومن جاء به، ولا تخافتْ أو تُسِرّ بها عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك، وابتغ بين الجهر والمخافته سبيلاً وسطاً، فهذه هي الطريقة المثلى في القراءة، وهي الحد الوسط بين الجهر بالصوت، والإسرار والإخفات فيه، ففي الجهر حتى لا يتفرقوا عنه، ويأبوا أن يسمعوا منه، أو يسبوا القرآن، وفي الإسرار ليسمع من أراد السماع، فينتفع به.

ثم علّمنا الله كيفية حمده وشكره، فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي وقل: لله الحمد والشكر على ما أنعم به على عباده، وهو سبحانه الموصوف بالصفات الثلاث الآتية وهي:

- أنه لم يتخذ ولداً: فهو تعالى غير محتاج إليه، واتخاذ الولد من صفات المخلوقين، لا من صفات الله الخالق، فهو منزه عنها.

- وليس لله شريك في الملك والسلطان؛ لأنه أيضاً غير محتاج إليه، ولو احتاج إلى شريك لكان عاجزاً، ولأن تعدد الآلهة يؤدي إلى الفساد والنزاع واضطراب الأحوال، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٢].

- ولم يكن لله ولي من الذل، أي ليس الله بذليل حتى يوالي أحداً لمذلة، من ولي أو وزير أو مشير، بل هو سبحانه خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدّرها بمشيئته.

ومجموع هذه الصفات مجموعة في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ١-٤].

ثم قال الله سبحانه في ختام الآية: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ ، أي عظمه وأجلّه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً. وهذه اللفظة (الله أكبر) أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال، وقد أكدها الله بالمصدر تحقيقاً لها، وإبلاغاً في معناها. روى مطرّف عن عبد الله بن كعب، قال: «افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام، وختمت بخاتمة هذه السورة» أي سورة الإسراء، وهو ما ذكرناه هنا.

تفسير سورة الكهف

مهام القرآن العظيم وغاياته

في مطلع سورة الكهف، في منتصف القرآن الكريم تحديد الغايات والأغراض التي من أجلها نزل القرآن، رداً على أسئلة قريش التعجيزية، وتحددت هذه الغايات: في إنذار العصاة والمخالفين المشركين بالبأس الشديد من الله تعالى إذا استمروا في عنادهم، وتبشير المؤمنين الذين يعملون صالح الأعمال بالثواب الحسن الجزيل والتأبيد في جنان الخلد، وهذا ما دوَّنته الآيات الآتية من سورة الكهف المكية مبتدئة بحمد الله منزل الكتاب على عبده:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا[1] ۝١ قَيِّمًا[2] لِّيُنذِرَ بَأْسًا[3] شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً[4] تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: ١٨/ ١-٥].

سبب هذه البداءة في هذه السورة: أن رسول الله ﷺ لما سألته قريش عن المسائل الثلاث: الروح، والكهف، وذي القرنين -حسبما أمرتهم به يهود- قال لهم رسول الله: «غداً أخبركم بجواب سؤالكم» ولم يقل: «إن شاء الله» فعاتبه الله تعالى بأن أمسك عنه الوحي خمسة عشر يوماً، فأرجف به كفار قريش، وقالوا: إن محمداً قد

---

(١) انحرافاً عن الحق. (٢) مستقيماً معتدلاً. (٣) عذاباً. (٤) عظمت كلمة.

تركه رئيّه[١] الذي كان يأتيه من الجن، وقال بعضهم: قد عجز عن أكاذيبه، إلى غير ذلك.

فشق ذلك على رسول الله ﷺ، وبلغ منه الجهد، فلما أن قضي الأمر الذي أراد الله تعالى عتاب -محمد ﷺ- عليه، جاء الوحي من الله تعالى بجواب الأسئلة وغير ذلك، فافتتح الوحي بحمد الله الذي أنزل على عبده الكتاب، أي بزعمكم أنتم يا قريش، كما تقول لرجل يحب مساءتك، فلا يرى إلا نعمتك: الحمد الله الذي أنعم علي وفعل بي كذا، على جهة النعمة عليه، والتذكير بها.

والمعنى: الشكر والثناء بالجميل على الفعل الجميل الصادر بالاختيار من الله تعالى، والله سبحانه محمود على كل حال، ويحمد نفسه في فاتحة بعض السور وخواتمها، لتعليم العباد كيف يحمدونه على نعمه الجليلة التي أنعم بها عليهم، ومن أهمها نعمة الإسلام، وما أنزل على عبده ونبيه محمد ﷺ من الكتاب وهو القرآن سبب النجاة والفوز للعالم أجمع.

وليس لهذا الكتاب القرآن اعوجاج عن جادة الاستقامة، وإنما هو قويم معتدل مستقيم، فالله تعالى لم يجعل لقرآنه (كتابه) عوجاً، ولكنه جعله قيماً، أي مستقيماً قائماً على الحق والسلامة من الزيغ والانحراف، من أجل تحقيق غاياته، وهي تتلخص في تخويف الذين كفروا بالكتاب من البأس، أي العذاب الشديد في الدنيا، ومن عذاب الآخرة، ونارِ جهنم، وذلك الإنذار من لدن الله تعالى، أي صادراً عنه سبحانه.

وللقرآن غاية أخرى تقابل الإنذار وهي تبشير المؤمنين بالقرآن، الذين يعملون صالح الأعمال، أن لهم ثواباً جميلاً عند الله تعالى، وهو الجنة دارُ المتقين الأبرار،

---

(٥) يقال: به رَئِي من الجن أي مسّ.

ودار الخلود الأبدي للمحسنين الأخيار، فهم يمكثون أو يستقرون في ذلك الثواب عند الله، وهو الجنة، إلى الأبد، أي إنهم خالدون في النعيم الأبدي، من غير زوال ولا نقصان ولا انقضاء.

والغاية الثالثة: أن القرآن يحذر الكفار الذين زعموا أن لله ولداً وهم مشركو العرب، الذين قالوا: نحن نعبد الملائكة بنات الله، وأمثالهم من الكفرة الآخرين الذي يزعمون أن لله ابناً هو كذا أو كذا، كجعل العزير ابناً لله، أو المسيح ابناً لله تعالى.

وليس لهؤلاء الزاعمين وجود ولد لله ولا لأسلافهم دليل علمي ثابت على هذا القول المفترى، وهو اتخاذ الولد لله، وإنما قولهم صادر عن جهل مفرط، وتقليدٍ للآباء، ومن وساوس الشيطان.

كبُرت فريتهم كلمةً، وعظمت تلك الكلمة التي ينطقون بها، و يخرجونها من أفواههم، متجرئين على النطق بها، وهي كلمة الكفر، فليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم، فما يقولون إلا قولاً مجرد كذب وزور وبهتان، ولا حقيقة له أصلاً، فقوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون إلا كذباً.

هذه حملة شديدة على كلمات الكفر والشرك والوثنية، فهي مجرد كلمات يرددها أصحابها، من دون عقل ولا وعي، ولا حجة ولا برهان، وتضمنت هذه الجملة تبيان أوصاف القرآن التصحيحية لكلمات الناس، وهي تبشير المؤمنين بالجنة وإنذار الكافرين بنار جهنم، ولا سيما الذين يزعمون أن لله ولداً، وبئست وعظمت تلك الكلمة المفتراة الصادرة من الأفواه، من غير إدراك ولا وعي ولا علم صحيح، وإنما بسبب الجهل التام المسيطر على أصحاب ذلك الكلام المفترى. لذا آن الأوان لتخرس

ألسنة السوء والكذب، وتتجه للنطق بالحق والواقع، وهو الإقرار بوحدانية الله تعالى.

تقوية الروح المعنوية للنبي ﷺ

إن المخلصين في دعوتهم يتحرقون ألماً على تباعد الناس عن رسالتهم، التي هي محض إسعاد ونجاة للمؤمنين بها، وفي طليعة المخلصين نبينا محمد ﷺ الذي كان يحرص أشد الحرص على هداية قومه قريش ومن جاورهم، لأنه يسعد بسعادتهم، ويتألم لآلامهم، فإذا ظهر منهم الإعراض عن دعوة القرآن والإسلام، خيّم الحزن والأسى والألم على قلبه، وتلك مشاركة وجدانية عاطفية عالية المستوى، ولكن الله تعالى الرؤوف بعبده ونبيه كان يسرّي خواطره ويؤانسه ويبين عذره، ويحمله على الرضا بما قضى الله وقدّر، وبما حدث من كفر وعناد، وذلك كما في هذه الآيات:

﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ[١] نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا[٢] ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ[٣] أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا[٤] ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا[٥] ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٦-٨].

هذه آية تسرية وإيناس للنبي ﷺ من إعراض قومه عن دعوته، وابتعادهم عن قداسة الإيمان وعظمته بالقرآن المجيد الذي هو دعوة إنقاذ وتحرر، وإصلاح وتقدّم، وعزة ومجد وسؤدد.

والمعنى: فلعلّك أيها النبي قاتل نفسك ومهلكها بسبب عدم إيمان قومك بهذا القرآن، أسفاً وحسرة عليهم، وهذا تقرير بمعنى الإنكار على النبي، أي لا يكن ذلك

(١) أي مهلكها وَجْداً وحزناً على أمر ما ، فالباخع : المهلك نفسه . (٢) حزناً عليهم . (٣) لنختبرهم . (٤) أفضل عملاً بطاعتنا . (٥) تراباً أجرد لا نبات فيه .

منك بسبب إدبار قريش وتباعدهم عن الإيمان بالله والقرآن، وإعراضهم عن الشرع، فكأنهم من فرض إدبارهم قد بعدوا، فهو عليه الصلاة والسلام في آثار توليهم وإعراضهم عن دعوته في ألم شديد وأسىً وحزن عميق. والأسف في هذا الموضع: الحزن، وذلك كما ورد في آيات كثيرة مشابهة، مثل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٧]. ومثل: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٣]. ومن ذلك: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ .[فاطر: ٣٥/ ٨].

ثم أخبر الله تعالى عن حقيقة الدنيا، وأنها دار فناء وزوال واختبار، لا دار بقاء وقرار، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا..﴾ الآية، وهي توغل وبسط في الإيناس والتسرية، أي لا تهتم للدنيا وأهلها، فأمرها وأمر قومك وأمثالهم أقل، لفنائه وذهابه، فإنا إنما جعلنا ما على الأرض زينة ومفاتن زائلة، كما أن أهلها زائلون، لنعاملهم معاملة المختبَرين المتحَنين، ليُعرف المحسنُ عمله من الفاسد، فنجازي المحسن بالثواب، والمسيء بالعقاب، ومحسن العمل: الزاهد في الدنيا، وتارك الاغترار بها، وجاعلها وسيلة وجسراً للآخرة، وذلك كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظرُ كيف تعملون».

وأراد بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ أن كل ما على الأرض زينة، وليس شيء إلا وفيه زينة، من جهة خلقه وصنعته وإحكامه. ومعنى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي لنختبرهم، وفي هذا وعيد ما.

قال سفيان الثوري: أحسنهم عملاً: أزهدهم فيها. والواقع أن حسن العمل: يشمل الأخذ بحق، والإنفاق في حق مع الإيمان، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، والإكثار من المندوب إليه.

وسبب هذا التوجيه للنبي بالإعراض عن الكفار ما قاله سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ أي وإنا لنصيّر الأرض وما عليها بعد الزينة، إلى الخراب والدمار، والصعيد: وجه الأرض، والأرض الجرز: التي لا شيء فيها من عمارة وزينة، وهي البلقع، أو الأرض البيضاء التي لا نبات فيها ولا ينتفع بها، بعد أن كانت خضراء معشبة.

والمقصود من الآية إيناس النبي ﷺ والقول له: لا تحزن، فإنا سنهلكهم ونبيدهم، وإذا كان هذا هو المصير المحتوم لعالم الدنيا وما فيها من عمائر فخمة، وألوان زاهية، ومباهج فاتنة، فلا تحزن أيها النبي، فإنا سنهلكهم وندمر وجودهم وديارهم. وهذا أقسى تهديد لمن يعقل المصير، ويستعد لتلقي العقاب الذي لا منجاة منه إلا بالإيمان بالله ورسوله وقرآنه وشرعه.

أسباب قصة أهل الكهف

تتعدد مظاهر قدرة الله تعالى في الكون والحياة والإنسان، فمنها المعتاد المألوف المحسوس من خلق الأشياء وولادة الإنسان، وإماتته، ومنها النوم المتكرر الذي هو الموتة الصغرى، ومنها حالات غير مألوفة، مثل السبات الذي يستمر عشرات أو مئات السنوات، كحالة أصحاب الكهف، لإظهار قدرة الله وسلطانه التام على الإنسان وغيره. وكانت سورة الكهف كلها تذكيراً باليوم الآخر والمعاد والحساب وبقدرة الله على البعث. وهذه هي قصة أصحاب الكهف، مطلعها في بيان أسباب القصة، قال الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ(١) وَٱلرَّقِيمِ(٢) كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ(٣) إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا(٤) ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ(٥) لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا(٦) ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ(٧) إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا(٨) ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: ١٨/٩-١٥].

تعجب المشركون وغيرهم من قصة أصحاب الكهف، وسألوا عنها الرسول ﷺ على سبيل الامتحان، فذكر الله تعالى: أم حسبت، أي بل أحسبت، إضراباً عن الحديث الأول، واستفهاماً عن الثاني، أظننت أنهم كانوا من آياتنا العجاب فقط، فلا تحسبن ذلك، فإن آياتنا كلها ذاتُ عجب، فليست قصة أصحاب الكهف وإبقاءُ حياتهم في حال النوم مدة طويلة، أعجب من حال الدنيا، فإن من قدر على تزيين الأرض، ثم جعلها تراباً، وعلى خلق السماوات والأرض ثم إبادتها، قادر على كل شيء، ومن قدرته أن يحفظ طائفة من الناس من دون طعام وشراب زماناً معلوماً.

اذكر أيها الرسول حين لجأ فتية إلى الكهف، وهم الذين فروا من قومهم بدينهم، وكانوا من الروم على دين عيسى عليه السلام، هربوا لئلا يفتنوهم عن دين التوحيد، ودخلوا في غار جبل، ليختفوا عن قومهم عبدة الأصنام، فقالوا حين ولجوا إلى الغار المتسع طالبين الرحمة واللطف: ربنا هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها، وتسترنا عن

---

(١) النَّقْب المتسع في الجبل وإلا فهو غار. (٢) الرقيم: لوح حجري كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم. أو هو الوادي بين عسفان وأيلة في رأس خليج العقبة. (٣) التجؤوا هرباً. (٤) اهتداء إلى الحق. (٥) أيقظناهم. (٦) مدة. (٧) أي أنمناهم نوماً عميقاً ثقيلاً بحيث لا يسمعون. (٨) أي قولاً ذا شطط، أي إفراطاً في الكفر إن دعونا إلهاً غير الله على سبيل الافتراض.

قومك، واجعل عاقبة أمرنا رشداً، بأن توفر المصلحة لنا، وتجعلنا راشدين غير ضالين، مهتدين غير حائرين.

فألقينا النوم الثقيل عليهم بحيث لا يسمعون أي صوت، وناموا في الكهف سنين كثيرة طويلة الأمد معدودة.

ثم بعثناهم وأيقظناهم من رقدتهم تلك، للتعرف عن أي الطائفتين المتنازعتين فيهم أو الفريقين أحصى مدة لبثهم وغاية بقائهم نياماً، فيظهر لهم عجزهم، ويعرفوا ما صنع الله بهم، فيتيقنوا من كمال قدرة الله على البعث وغيره.

نحن نخبرك خبرهم على وجه الصدق، إنهم شباب صدّقوا بتوحيد الله، وزدناهم توفيقاً للهداية بالإصرار على العقيدة والإقبال على الله، وإيثار العمل الصالح، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ أي يسّرناهم للعمل الصالح والانقطاع إلى الله عز وجل، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا.

وأعطيناهم شدة عزم، وقوة صبر وإصرار، على عقيدتهم حين قالوا: ربنا رب السماوات والأرض، وهو توحيد الألوهية الذي يقرُّ به عبدة الأصنام، ولن ندعو من دون الله إلهاً: وهو توحيد الربوبية الذي ينفيه عبدة الأصنام، فإننا إذا دعونا غير الله، لقد قلنا شططاً، أي باطلاً وكذباً وبهتاناً، والشطط في اللغة: مجاوزة الحد، والبعد عن الحق، فإن دعونا غير الله لقد قلنا إذن قولاً شططاً خارجاً عن الحق والصواب، ووقعنا في الجور وتعدي الحد.

ثم ندّد هؤلاء الفتية بعبادة قومهم الأصنام، فقالوا: هؤلاء قومنا الذين كانوا في زمان (دقيانوس) الملك الكافر، كانوا يعبدون الأصنام، فهلا يأتون بسلطان بيّن، أي بحجة بيّنة على صحة ما يفعلون، من عبادة تلك الآلهة الباطلة المزعومة، وهلاّ

أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟! فلا أحد أشد ظلماً من افتراء الكذب على الله، ونسبة الشريك إليه فهم قوم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك.

وكان من لطف الله بهم: أن ملكهم، بعد أن هددهم وتوعدهم، أمهلهم. لينظروا في أمرهم، لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه، فوجدوها فرصة مواتية، وهربوا فراراً بدينهم من الفتنة.

قال ابن كثير: وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس: أن يفرّ العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء في حديث البخاري وأبي داوود عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غَنَماً يتبع بها شَعَف الجبال، ومواقع القَطْر، يفرّ بدينه من الفتن» . ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجُمَع.

اعتزال أصحاب الكهف قومهم

حين يشتد الأذى بفئة التوحيد والإيمان، لا سبيل إلى النجاة إلا باعتزال القوم الكفرة المؤذين، عزلة مادية بترك الديار والبلاد، وعزلة معنوية بمخالفتهم في دينهم وترك معبوداتهم المزعومة، والاستقلال بعبادة الله وحده. وهذا كان منهج أهل الكهف، تركوا ديار قومهم، ولجؤوا إلى كهف في الجبل، فراراً بدينهم من الفتنة، وقد حمد الله تعالى فعلهم، وحفظهم، وجعلهم مثلاً في التاريخ، قال الله تعالى واصفاً هذه العزلة الإيمانية:

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا[١] ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ[٢] عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ

(١) أي ما ترتفقون به، أي تنتفعون من غداء وعشاء . (٢) أي تميل عنه .

﴿ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ[(١)] ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ[(٢)] مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ[(٣)] لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا[(٤)] ﴿١٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١٦-١٨].

كان الخطاب في بدء قصة أهل الكهف للنبي ﷺ، وفي هذه الآيات اتجه الخطاب لأهل الكهف أنفسهم، والمعنى: واذكروا يا أهل الكهف حين تذاكرتم، فاعتزلتم قومكم عزلة مادية بمفارقة الأبدان والديار، وعزلة معنوية بمخالفة قومكم في مذهبهم واعتزالكم معبوداتهم غير عبادة الله تعالى. فالجؤوا إلى الكهف: وهو الغار المتسع في الجبل، وأخلصوا العبادة لله تعالى، يبسط لكم ربكم من آثار رحمته الواسعة، فيستركم عن قومكم، ويسهل لكم من أموركم أمراً ترتفقون به وتنتفعون، أي إنكم قررتم أن تجعلوا الكهف مأوى وتتكلوا على الله تعالى، وحينئذ يبسط لكم ربكم رحمته، وينشرها عليكم.

ثم عاد الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى: وترى أيها الرسول وكل مشاهد الشمس حين طلوعها تميل عن كهفهم جهة اليمين، بتقليص شعاعها بارتفاعها، حتى لا يبقى منه شيء عند الظهيرة في ذلك المكان، وتراها تبتعد عنهم حين الغروب وتتركهم، لا تقربهم، وتعدل عنهم جهة الشمال، وهم في متسع الكهف ووسطه، فيأتيهم الهواء بارداً لطيفاً، أي إن الله تعالى حجب أشعة الشمس عنهم حتى لا تؤثر في رطوبة أبدانهم، ويكونوا في برودة لطيفة، وفي ذلك صلاح لأجسامهم، بإيجاد حاجب من الشمس من جهة الجنوب، ومن جهة الغرب، وهم في متسع الكهف ووسطه، أي إن الشمس تجيء من الكهف أول النهار عن يمين، وآخره عن شمال، فيكون باب

(١) أي تتركهم وتتجاوز عنهم. (٢) متسع من الكهف. (٣) أي بفِناء الكهف ومساحته. (٤) خوفاً.

الكهف بمثابة وجه إنسان، ومكان الكهف مختلف فيه إما في واد قريب من أيلة في رأس خليج العقبة، أو عند نينوى في الموصل شمال العراق، أو في جنوب تركيا من بلاد الروم سابقاً.

إن بقاء هؤلاء الفتية نياماً في الكهف سنين عديدة آية من آيات الله العجيبة الكثيرة، الدالة على كمال قدرة الله وسعة علمه، وعلى أنه تعالى يصون المخلصين من عباده، وأن التوحيد دين الحق، وأن كل ما عداه من المذاهب والأديان باطل وضلال، ثم قال الله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ..﴾.

أي إن من يوفقه الله تعالى للاهتداء بآياته وحججه، ويدله دلالة مؤدية إلى الحق، ويوفقه إلى ما يحبه ويرضاه، كأهل الكهف، فهو المهتدي إلى طريق الحق والصواب، الفائز بالحظ الأوفر في الدارين، ومن يضلل الله، أي يحجب عنه سبل الهداية والتوفيق لآيات الله، لسوء اختياره واستعداده، وإمعانه في الانحراف، فلن تجد له أبداً حليفاً أو ناصراً مُعيناً يرشده ويهديه إلى الخير وطرق الصلاح في الدنيا والآخرة، والمقصود: أن الله هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية والثبات على ملة التوحيد.

وتظنهم أيها الرائي المشاهد إذا رأيتهم أنهم أيقاظ لانفتاح أعينهم، وهم في الواقع نيام، لئلا يتسارع إليها البلى، فكأنهم ينظرون إلى من يشاهدهم ونقلّبهم تقليباً دورياً مرة في ناحية اليمين، ومرة في ناحية الشمال، حتى لا تؤثر الأرض برطوبتها في أجسادهم، ولكي تتعرض جلودهم للهواء، وتسلم من التقرحات. إن الرائي يحسبهم أنهم أحياء في اليقظة، لشدة الحفظ الذي كان عليهم، وقلة التغير.

وكان كلبهم الذي تبعهم بإلهام من الله للحراسة باسطاً ذراعيه بفناء الكهف أو ببابه يحرسهم، وهو كلب حقيقة، كان لصيد أحدهم فيما روي، أو لراع مروا عليه، فصحبهم.

لو نظرت إليهم لأدبرت منهم فراراً وهرباً، ولملئت منهم خوفاً وفزعاً؛ لأن الله تعالى ألقى عليهم المهابة والوقار، بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم، إلى أن انتهى أجل لبثهم راقدين، وأقام الله فيهم الدليل الحسي المادي على قدرته على البعث والإعادة.

قال أبو الفضل بن الجوهر على منبر جامع مصر سنة (٤٦٩ هـ) بمناسبة تبعية الكلب لأهل الكهف: إن من أحب أهل الخير، نال من بركتهم، كلب أحب أهل فضل وصحبهم، فذكره الله تعالى في محكم تنزيله.

بعثة أهل الكهف من رقدتهم

يستغرب الإنسان عادة الأشياء غير المألوفة لديه، ويحكم عليها بحسب المعتاد والقدرات والإمكانات المتاحة لديه، فلا يتصور أحد أن إنساناً ينام مدة ثلاث مئة وتسع سنوات، ثم يستيقظ، ويعود إلى الحياة مرة أخرى، وهذا ما حدث فعلاً لأصحاب الكهف، لإقامة الدليل الملموس على قدرة الله على بعث الأموات وإحياء الأنفس، وتلك هي العبرة من قصة أصحاب الكهف، قال الله تعالى مبيناً هذا الحدث الغريب:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ
بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ[١] هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ
فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا[٢] فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾
إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾
وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا[٣] عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ

---

(١) بدراهمكم الفضية. (٢) أحل وأجود. (٣) أطلعنا الناس عليهم.

بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ١٨/١٩-٢١].

هذه هي العبرة من قصة أصحاب الكهف، مفادها: كما أبقيناهم أحياء من غير أكل ولا شرب مدة طويلة من الزمان، في تقلب مستمر وهم نيام، فكذلك بعثناهم، أي أحييناهم من تلك النومة التي تشبه الموت، لنعرّفهم مدى قدرتنا وعجيب فعلنا من الناس، وليتبصروا في أمرهم، وليتساءلوا بينهم، أي ليؤول الأمر أو يصير إلى هذا اللون من التساؤل، فقال قائل منهم: كم لبثتم، أي كم رقدتم في نومكم؟ فأجاب بعضهم قائلاً: لبثنا في تقديرنا يوماً كاملاً، أو جزءاً من اليوم؛ لأن دخولهم إلى الكهف كان في أول النهار، وإيقاظهم كان في آخر النهار، فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

وأجاب بعض آخر من أهل الكهف: ربكم أعلم بأمركم وبمقدار لبثكم، أي فالله أعلم منكم، وأنتم لا تعلمون مدة لبثكم.

ثم لما أحسّوا بحاجتهم إلى الطعام والشراب قالوا: أرسلوا أحدكم بدراهمكم هذه إلى المدينة، وهي طرسوس كما ذكر الرزاي، وهي المدينة التي خرجوا منها. فليبصر أي الأطعمة أجود وأنفع وأطيب وأيسر سعراً، فليأتكم بمقدار مناسب منه، من رزق الله الذي يرزق به الناس، وليتلطف، أي وليكن لطيفاً رفيقاً في الطلب، وفي الدخول والخروج من المدينة وفي الشراء، ولا يخبرن ولا يعلمن أحداً من أهل المدينة بمكانكم. لأن أصحاب الملك (دقيانوس) إن اطلعوا على مكانكم، يقتلوكم بالرجم بالحجارة، أو يكرهوكم على العودة إلى دينهم-دين الوثنية وعبادة الأصنام، وإن وافقتموهم على العود إلى ملتهم أو دينهم، فلا فلاح لكم أبداً في الدنيا والآخرة.

وكما أنمناهم ثم بعثناهم، أطلعنا الناس عليهم وعلى أحوالهم، وهم أولئك الذين تشككوا في قدرة الله على إحياء الموتى وفي البعث وفي القيامة، فإن بعث أهل الكهف حجةٌ واضحة على قدرة الله على البعث والإحياء، وليدركوا ويتيقنوا أن وعد الله بالبعث حق وصدق وأمر ثابت الوقوع، وأن مجيء الساعة، أي القيامة أمر لا شك فيه، فمن شاهد أهل الكهف بعد مكثهم نياماً ثلاث مئة وتسع سنين، علم صحة الخبر بصدق وجود البعث، لأن بعثهم من نومهم، كبعثهم من موتهم. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي كما بعثناهم أعثرنا عليهم، والإعثار: إعلام الناس بخبرهم، وسمي ذلك إعثارٌ، لأن من غفل عن شيء ثم عثر به، نظر إليه وتعرف عليه، فكان الإعثار سبباً في العلم بهم وبمعرفة أحوالهم.

لقد أطلعنا عليهم أهل زمانهم حين كانوا يتنازعون مع بعضهم في أمر القيامة، فمنهم المثبت لها ومنهم المنكر، ومنهم المؤمن بها ومنهم الكافر، فجعل الله إطلاع الناس على أصحاب الكهف حجة لأهل الإيمان، وفرح الملك وشعبه بآية الله على البعث، وزال الخلاف في شأن القيامة.

ثم انقسم القوم في شأن أهل الكهف، فقالوا بعد أن أماتهم الله وحين تنازعهم: ابنوا عليهم بنياناً يسد باب كهفهم، لئلا يدخل الناس عليهم، حفاظاً عليهم واحتراماً لأجسادهم، والله أعلم بشأنهم، وهذه الجملة المعترضة للرد على المتنازعين في عقيدة أهل الكهف وفي أنسابهم وأسمائهم ومدة لبثهم، ثم قالت الطائفة الغالبة على الأمر والرأي في مواجهة الذين أرادوا طمس معالم الكهف، وتلك الطائفة وهم المؤمنون والملك قالوا: لنتخذن على باب الكهف مسجداً يصلي فيه المؤمنون، ويتبركون بمكانهم.

عدد أهل الكهف ومدة نومهم

كان حال أصحاب الكهف مثار تساؤلات عديدة، وجدال وتنازع حول عددهم ومعرفة مدة بقائهم نياماً، وهذا أمر طبيعي، لأن الإنسان شغوف بالتعرف على ما حوله من أحداث ووقائع، وأحوال وأوصاف، وهذا من متممات المعارف والمعلومات التي يحرص الناس على معرفتها، كحرص الباحثين اليوم على معرفة مكان الكهف ومآله بعد زمان طويل. وقد أجاب القرآن الكريم عن عدد أهل الكهف ومدة نومهم في الآيات الآتية:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ[1] وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ[2] إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا[3] وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا[4] ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٢-٢٦].

اختلف الناس بعد حادثة أهل الكهف في عددهم وزمان نومهم، فنزلت الآية إخباراً ببيان عددهم، من خلال القول: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فإنه سبحانه وتعالى سكت عن التعقيب على هذا العدد، خلافاً للأعداد السابقة حيث عقب عليها بأن ذلك مجرد رجم بالغيب.

قال بعض الناس ممن عاشوا بعد هذه القصة: هم ثلاثة ورابعهم كلبهم، وقال

(١) قذفاً بالظن. (٢) أي لا تجادل أهل الكتاب في شأنهم. (٣) بمجرد تلاوة الكتاب في أمرهم.
(٤) هداية وإرشاداً للناس.

آخرون: هم خمسة وسادسهم كلبهم، وكلا الفريقين يقول قولاً بلا علم، ومجرد ظن وتخمين لا دليل عليه، للتعقيب على القولين بقوله سبحانه: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾.

وقال جماعة آخرون: إنهم سبعة وثامنهم كلبهم، ولما سكت الله عن التعقيب على هذا القول الثالث، دل على أنه قول صحيح، وأنه واقع قائم فعلاً.

وقل يا محمد النبي: ربي الله أعلم بعدد أهل الكهف، ما يعلمهم إلا قليل من الناس، وأكثر المتكلمين من أهل الكتاب الذين ذكروا أعدادهم: هم على ظن وتخمين. والأفضل والأسلم: تفويض الأمر ورد العلم في عددهم إلى الله تعالى، فليس المهم معرفة العدد، وإنما المهم الاعتبار أو الاتعاظ بالقصة، والإيمان بقدرة الله على البعث والإعادة. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «أنا من ذلك القليل، أي الذين يعلمون بعدة أهل الكهف، وكانوا سبعة وثامنهم كلبهم».

ثم نبّه الله تعالى رسوله إلى أمر آخر، وهو: فلا تجادل أيها النبي أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدلاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو الاقتصار على ما حكاه القرآن، أو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك وحسب، دون زيادة، من غير تجهيل لهم، ولا تعنيف في الرد عليهم، ولا تسأل أحداً عن قصتهم سؤال متعنت، لأن ذلك خلاف ما وصيتُ به من المداراة والمجاملة، ولا سؤال مسترشد، لأن الله قد أرشدك، بأن أوحى إليك قصتهم.

ثم لفت الله تعالى نظر نبيه إلى سبب القصة وترك التفويض إلى مشيئة الله، فلا تقولن أيها الرسول لشيء عزمت على فعله في المستقبل: إني سأفعل ذلك غداً، إلا بالاقتران بمشيئة الله عز وجل، فتقول: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾. واذكر مشيئة ربك إذا نسيت، وقل: إن شاء الله. أي إذا نسيت تعليق الأمر بمشيئة الله، ثم تنبهّت، فتدارك ذلك بذكر الله، طال الوقت أو قصر، ولو بعد سنة ما لم تحنث في اليمين،

وتلك هي السنة ومنهاج العقيدة. وقل أيها الرسول: عسى أن يوفقني ربي لشيء آخر بدل المنسي أو أقرب خيراً ونفعاً، فإذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله تعالى فيه، وتوجّه إليه في أن يوفقك للصواب والرشاد في ذلك.

وأما مدة بقاء أهل الكهف نياماً فهي مقدار ثلاث مئة سنة وتسع سنوات هلالية، وهذه المدة تعادل ثلاث مئة سنة شمسية، فإن التفاوت ما بين كل مئة سنة قمرية ومئة سنة شمسية هو ثلاث سنين.

وإذا سئلت عن مدة لبثهم، ولا علم لك في ذلك فقل: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا تعالى أو من أعلمه به من خلقه، فلا تتعجل بالأخبار، ما لم يكن عندهم دليل عليها، فلله غيب السموات والأرض، وهو العالم بكل شيء، وأعلم من الذين اختلفوا في مقدار مدة لبثهم، وإن الله تعالى لبصير بأحوال الناس، سميع لهم، ما للناس من دون الله متولٍ يلي أمورهم، وليس له وزير ولا نصير، ولله سبحانه الخلق والأمر، لا معقّب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا مشارك له في القضاء وليس له شريك ولا نظير ولا مشير.

القضاء على الامتيازات

لم تكن شرائع الإسلام وأحكامه ومبادئه مجرد شعارات ونظريات غير قابلة للتطبيق أو غير محترمة في واقع الناس، وإنما كل ما جاء به الإسلام كان نابعاً من الواقع وقائماً على الواقع ومطبقاً تطبيقاً فعلياً في الواقع العملي، ومن أهم ما نادى به الإسلام وقرره: وجود المساواة الفعلية بين الناس، والقضاء على جميع مظاهر الامتيازات والفوارق الاجتماعية في العبادات والمعاملات والقضاء والحكم

والسياسة، والآداب والأخلاق الاجتماعية، وهذه صورة عملية لتصفية الامتيازات التي كانت جائمة في تصور بعض العرب، قال الله تعالى:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا(١) ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ(٢) نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ(٣) تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ(٤) عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا(٥) ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٧-٢٨].

في سورة الكهف جملة من التوجيهات الإلهية للنبي ﷺ فيها عتاب أحياناً مثل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٣-٢٤]. وفيها أحياناً أخرى توجيه منهجي للمستقبل، وهو الأمر باتباع القرآن والتزام آدابه وأحكامه، وهو قوله سبحانه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ . .﴾ الآية.

أي اتبع أيها النبي في جميع أعمالك منهج الوحي الإلهي، واسرد بتلاوتك ما أوحي إليك من كتاب ربك، واعمل بكل ما جاء فيه من أمر ونهي، فإنه لا نقص في قول ربك، ولا مبدل ولا مغير لكلمات الله وأحكامه، من وعد الطائعين ووعيد العصاة، وليس لك سوى الله جانب تميل إليه وتستند، فإن لم تعمل بأمر الله، وقعت في الوعيد، ولن تجد بعدئذ ملجأ أو جانباً يمال إليه، ويستعان به في المؤازرة أو المناصرة على شؤون الحياة. فالتوجيه الأول: تلاوة القرآن والعمل بمقتضاه.

ثم أمر الله نبيه بمداومة مجالسة الفقراء والمساكين، والصبر على إرشادهم وتعليمهم وتوجيههم، وسبب نزول هذه الآية: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

(١) ملجأ وموئلاً. (٢) اصبر: أي احبس واثبت. (٣) لا تصرف عيناك النظر عنهم. (٤) جعلناه غافلاً ساهياً. (٥) إسرافاً في أعماله.

رَبَّهُم﴾ هو أن عظماء الكفار من أهل مكة جاؤوا، فقالوا لرسول الله ﷺ: لو أبعدت هؤلاء الفقراء والضعفاء عن نفسك، لجالسناك وصحبناك، يريدون: عمار ابن ياسر، وصهيب بن سنان، وسلمان الفارسي، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم من الفقراء كبلال الحبشي ونحوه، وقالوا: إن ريح جِبابهم (أثوابهم الواسعة أو السابغة) تؤذينا، فنزلت الآية بسبب ذلك.

وروي أن رسول الله ﷺ خرج إلى هؤلاء المستضعفين، وجلس بينهم، وقال: «الحمد لله الذي جعل من أمتي من أُمرت أن أصبر نفسي معه» . وروي أنه قال لهم: «مرحباً بالذين عاتبني فيهم ربي».

ومعنى الآية التي صفّيت فيها الامتيازات العربية بين الزعماء والأتباع هو: جالس أيها الرسول الذين يذكرون الله ويحمدونه ويسبحونه، ويكبّرونه، ويسألونه ويدعونه في الغداة (صباحاً) وفي العشي (مساء) أي داوم على مجالستهم في كل وقت، سواء أكانوا فقراء أم أغنياء، إنهم يريدون وجه الله، أي طاعته ورضاه.

ولا تجاوز بصرك ونفسك إلى غيرهم، فتطلب بدلهم أصحاب الثروة والنفوذ، وأبناء الدنيا والملابس من الكفار، والقصد: النهي عن احتقارهم لسوء حالهم وفقرهم. وإياك أن تطيع من وجدناه غافلاً، وشُغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، وكان مسرفاً مفرطاً في أعماله غاية الإسراف والتفريط، متبعاً شهواته، وهذا يشير إلى أن سبب البعد عنهم التعاظم عن اتباع أمر الله بمفاتن الدنيا وزينتها، هذا هو التوجيه الثاني.

ومفاده إعلان القرار الحاسم بأن المساواة الفعلية بين الناس، أغنيائهم وفقرائهم، وسادتهم وأتباعهم، وحكامهم ومحكوميهم، هو منهج الإسلام ومبدؤه الذي لا يقبل المساومة أو المفاوضة في التنازل عن شيء منه. فإن الأوصاف الطارئة من غنى وثراء،

وزعامة ونفوذ، وتفوق وإعجاب، لا يصح ولا يقبل أن تكون سبباً للتفرقة بين الناس جميعاً، فالناس كلهم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى أو بعمل صالح.

إعلان منهج الحق القرآني

ركّز القرآن الكريم على تبيان الصفة البارزة الناصعة لرسالة الإسلام، وهي أنه دين الحق الثابت، وطريق الحق الذي لا محيد عنه، وجوهر الحق الذي لا خلاف فيه، فإذا اختلف الناس في توصيف الأشياء، وجدوا الصواب والسداد في آي القرآن الكريم وأحكامه، وإذا ابتغوا السلامة والنجاة والسعادة، لم يجدوها في غير التزام العمل الصالح والإيمان الكامل. والسعادةُ الحقة: هي المؤدية للخلود الأبدي في نعيم الجنان، والتفيؤ بظلال الرحمن، والحظوة من الله بنعمة الرضوان، قال الله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا[(١)] وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ[(٢)] يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا[(٣)] ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ[(٤)] وَإِسْتَبْرَقٍ[(٥)] مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩-٣١].

هذا توجيه ثالث في سورة الكهف للنبي ﷺ، ومفاده: قل أيها النبي: هذا الذي

---

(١) السرادق: كل ما أحاط بالشيء. (٢) كدُردي الزيت أو كالمذاب من المعادن. (٣) متكأ أو مقراً، والمرتفق: الشيء الذي يرتفق به أي ينتفع به، وهو الشيء الذي يطلب رفقه باتكاء وغيره. (٤) رقيق الديباج (الحرير). (٥) غليظ أو سميك الديباج.

جئتكم به من ربكم وهو القرآن، هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، وهو النظام الأصلح للحياة، فمن شاء آمن به، ومن شاء كفر به، فأنا في غنى عنكم، ومن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، ثم يحاسبكم ربكم على أعمالكم. وفي هذا تهديد ووعيد.

ونوع الوعيد المهدد به: هو ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ أي إنا هيأنا وأعددنا للكافرين بالله ورسوله وكتابه نار جهنم الذي أحاط بهم سورِها أو جدارها من كل جانب، حتى لا يجدوا مخلصاً منها.

وإن يطلب هؤلاء الظالمون المعذبون في النار إغاثة ومدداً وماء، لإطفاء عطشهم، بسبب حرّ جهنم، يغاثوا بماء غليظ كثيف كعكر الزيت أو كالدم والقيح، يشوي جلود الوجوه من شدة حره، بئس هذا الشراب شرابهم، فما أقبحه، فهو لا يزيل عطشاً، ولا يسكّن حراً، بل يزيد فيها، وساءت جهنم مرتفقاً، أي متكأ وموضعاً للانتفاع. وجاء وصف سرادق النار في آية أخرى هي: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٣٠-٣٣].

وقوله سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ توعد وتهديد، وليس على سبيل التخيير بين متساويين، والمراد: فليختر كل امرئ لنفسه ما يجده غداً عند الله عز وجل.

وأما جزاء أهل السعادة والإيمان فهو الجنة، إن الذين آمنوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، و بجميع المرسلين في كل ما جاؤوا به، وعملوا الأعمال الصالحة التي أمر الله بها، فلا يُضيع الله أجرهم على إحسانهم العمل. والجمع بين الإيمان والعمل الصالح دليل على أنه لا يصح أحدهما دون الآخر.

وأوصاف نعيم المؤمنين العاملين أربعة:

الأول -أن لهم جنات إقامة دائمة، تجري فيها الأنهار من تحت غرفهم ومنازلهم.

الثاني -يلبسون في الجنان حلية فيها أساور من ذهب.

والثالث -ويلبسون أيضاً ثياباً خضراء من السندس: وهو رقيق الحرير، والاستبرق: وهو غليظ الديباج، أو الحرير المنسوج بالذهب، والحرير الأخضر ترتاح العين عند إبصاره.

والرابع -وهم متكئون في الجنان على الأرائك، أي الأسرّة، شأنهم شأن الملوك والعظماء، وأصحاب السعادة الحقيقية.

ومن حظي بهذه الألوان من النعيم، كان حقاً محل اغتباط وسرور، لذا قال الله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم، وحسُنت منزلاً ومقراً ومقاماً، كما في آية أخرى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٧٦].

وحكى مكي والزهراوي وغيرهما حديثاً مفاده أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الآية، نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله تعالى عنهم. سأل أعرابي رسول الله ﷺ عن الآية، فقال النبي ﷺ للأعرابي: «أعلم قومك أنها نزلت في هؤلاء الأربعة» وهم حضور[١].

(١) ذكره الماوردي بلفظ آخر مقارب، وأسنده النحاس في معاني القرآن عن البراء بن عازب، وأسنده السهيلي في كتاب الأعلام.

قصة صاحب الجنتين

في القرآن الكريم أمثلة واقعية حسية ذات تأثير بالغ، وعبرة عظيمة، قصد بإيرادها تصوير المواقف، وتثبيت الإيمان أو غرسه، واستئصال الكفر وآثاره، والرد على الطائفة المتحيرة من كفار مكة الذين أرادوا من النبي ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي على الدوام، والتنويه بأهل الإيمان المقرين بالربوبية أمثال بلال وعمار وصهيب وأقرانهم. ومن هذه الأمثلة: قصة رجل جاحد كان له جنتان (أي بستانان) فافْتُتن بجمالهما، وأنكر البعث والآخرة، قال الله تعالى واصفاً حال هذا الرجل:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ(١) مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا(٢) بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا(٣) وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا(٤) وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا(٥) ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ(٦) فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا(٧) ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ(٨) هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا(٩) ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٢-٣٦].

ظاهر هذا المثل أنه وصف لأمر واقع موجود، روي في ذلك أنه كان هناك أخوان من بني إسرائيل، ورثا أربعة آلاف دينار، فصنع أحدهما بماله ما ذكر وهو بستانان، واشترى عبيداً وتزوج وأثرى، وأنفق الآخر ماله في طاعة الله تعالى حتى افتقر، والتقيا، ففخر الغني ووبّخ المؤمن، فجرت بينهما هذه المحاورة.

والمقصود بالمثل طائفتان، إذ الرجل الكافر صاحب الجنتين هو بإزاء متجبري قريش أو بني تميم، والرجل المؤمن المقر بالربوبية هو بإزاء بلال وعمار وصُهيب وأقرانهم.

---

(١) بستانين. (٢) أحطناهما. (٣) ثمرها المأكول. (٤) لم تنقص من ثمرها. (٥) أجرينا وشققنا. (٦) أموال كثيرة مثمرة. (٧) أقوى أعواناً. (٨) تهلك وتفنى. (٩) مرجعاً وعاقبة.

وتصوير المثل كما حكى القرآن: واضرب أيهاالرسول مثلاً لهؤلاء المشركين بالله الذين طلبوا منك طرد المؤمنين من مجلسك، ذلك المثل هو حال رجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب، محاطين بنخيل، وفي وسطهما الزروع والأشجار المثمرة.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا..﴾ أي أخرجت ثمارها، ولم تنقص منه شيئاً في كل عام. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي وشققنا وسط الجنتين نهراً، تتفرع عنه عدة جداول، لسقي جميع الجوانب.

وكان لصاحب البستانين أنواع أخرى من الثمار والأموال النقدية والعينية التجارية، فقال لصاحبه المؤمن الفقير، وهو يجادله و يخاصمه ويحاوره الحديث، ويفتخر عليه: أنا أكثر منك ثروة، وأعز نفراً، أي أكثر خدماً وحشماً وولداً، وأقوى عشيرة ورهطاً يدافعون عني.

ودخل هذا الثري بستانه المتعدد البقاع والجنبات، فقال اغتراراً منه، وظلماً وكفراً واستكباراً: ما أظن أن تفنى هذه الجنة (البستان) أبداً، وما أظن أن يوم القيامة آتٍ، وكان في الحالين مخطئاً ظالماً لنفسه، إذ قرر عدم فناء بستانه، وأنكر وجود القيامة. وأفرد كلمة الجنة من حيث الوجود، إذ لا يدخلهما معاً في وقت واحد، وظلمه لنفسه: كفره وعقائده الفاسدة في الشك في البعث.

ثم أقسم هذا المترف على أنه إذا رجع إلى ربه-على سبيل الافتراض-ليجدن في الآخرة عند ربه خيراً وأحسن من حظ الدنيا أو منقلباً، أي مرجعاً وعاقبة حسنة، تمنياً على الله، وادعاء لكرامته ومكانته عنده، على الزعم المغلوط: أن من كان حسن الحال في الدنيا، فهو حسن الحال في الآخرة، كأنه من شدة العجب ببستانه وسروره به، أفرط في وصفه، ثم قاس حال الآخرة على الدنيا، وظن أنه في تقلبه بالعيش

الهنيء في الدنيا، لم يكن إلا لكرامة يستوجبها في نفسه، فإن كان ثَمَّ رجوع أو بعث كما يزعم صاحبه المؤمن، فسيكون حاله أحسن وأفضل، وهذا القول من هذا العاصي لم يقصد به الحقيقة، بل قصد الاستخفاف على جهة التصميم على التكذيب.

غير أن موقف هذا المغرور الكافر موقف خاسر، وتصور ساذج، فإن موقفه وحاله آيل في الواقع إلى الدمار والإفلاس، لكفرانه بنعم الله، وعصيانه ربه، وهذا شأن كل غني مغرور، مفتون بماله، لا يحترم أحداً إلا إذا كان غنياً مثله، وتراه يتقلب في المعاصي والملاهي والمنكرات والنوادي والخدينات، ويرائي الناس ويتظاهر متفاخراً بماله وقصوره، ومفروشات منزله، ويتطاول على الآخرين، ولكنه في النهاية من الأخسرين أعمالاً، ومن الهالكين.

موقف المؤمن الواعي من صاحب الجنتين

الجدال والنقاش قائم في الدنيا دائماً على قدم وساق بين الكافر والمؤمن، وبين العاصي الفاجر والمستقيم الصالح، الأول يغتر بماله ونفسه ودنياه، والثاني يستمسك بإيمانه وينظر لمستقبل عمره، ويدرك فناء الدنيا مهما عظمت، ويتأمل الخير فيما عند ربه، وهكذا كان حال المؤمن في مواجهة الكافر صاحب الجنتين (البستانين) وذي الثراء الواسع، حكى القرآن الكريم هذا اللون من الجدل الهادئ الصادر عن غاية الإيمان والحكمة والعقل:

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠[1] هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ

(١) لكن أنا أقول.

لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا[١] مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا[٢] ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا[٣] فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ[٤] فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ[٥] عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا[٦] وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ[٧] لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا[٨] ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٧-٤٤].

لقد أجاب الرجل المؤمن صاحبه المفتون ببساتينه وثرواته حينما كان يحاوره، واعظاً له، وزاجراً عما هو فيه من الكفر والاغترار، فقال: أكفرت بمن خلقك في أصل الخلقة من تراب، لأن خَلْق آدم أبي البشر من تراب خَلق لذريته، وكذلك الغذاء من النبات، وغذاء النبات من الماء والتراب، ثم يتحول هذا الغذاء دماً، يتحول بعضه إلى نطفة، تكون وسيلة للإنجاب، ثم خَلْق البشر السوي التام الأعضاء.

لكني أنا لا أقول بمقالتك، بل أقر لله بالوحدانية والربوبية، ولا أشرك به أحداً، بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

وهلا إذا أعجبتك جنتك (بستانك) حين دخلتها، قلت: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، أي الأمر ما شاء الله، والكائن: ما قدره الله.

أتستصغرني إذ كنت أقل منك مالاً وثروة، وأولاداً وعشيرة، في هذه الدنيا الفانية، فإني أتوقع انقلاب الحال في الآخرة، وأرجو أن يعطيني الله خيراً من جنتك (بستانك) في الدار الآخرة، ويرسل على جنتك في الدنيا حسباناً من السماء، أي عذاباً كالبرد الشديد والصقيع أو الطوفان أو الصاعقة المحرقة، فتصبح جنتك خالية

(١) عذاباً كالصواعق. (٢) تراباً مزلقة. (٣) غائراً في الأرض. (٤) أهلكت أمواله. (٥) كناية عن الندم.
(٦) ساقطة على سقوفها. (٧) النصرة لله وحده. (٨) عاقبة لأوليائه.

من أي شجر أو نبات، وخاوية على عروشها، أو تصير صعيداً (أي وجه الأرض) زلقاً: لا يثبت فيها قدم، يعني أن تذهب الأشجار والنباتات، وتبقى أرضاً يابسة، قد ذهبت منافعها، حتى منفعة المشي، فهي وحل لا تُنبت، ولا تَثْبت فيها قدم؛ أو يغور ماؤها ويذهب، ولن تتمكن من طلبه وإعادته مرة أخرى.

ثم أخبر الله تعالى بما حل من العذاب بحال هذا الجاحد الممثَّل به، وصفة هذا العذاب: أنه أحاط العذاب والفساد والاستئصال بثمار البساتين ونزلت الجائحة بالأموال، فدمّرتها، فأصبح ذلك الرجل المفتون بها نادماً متحسراً على ضياع نفقته التي أنفقها عليها، وتمنى أن لم يكن قد أشرك بربه أحداً، وصارت جنته خاوية على عروشها، أي سقطت عرائشها على الأرض.

ولم يجد أحداً يناصره ويؤازره من عشيرة أو ولد، كما كان يفتخر ويتباهى، ولم يعد منتصراً، أي ممتنعاً بقوته عن انتقام الله تعالى منه.

وفي هذه الحال من الشدة والمحق والمحنة، تكون النصرة لله وحده، ويؤمن فيها البَرُّ والفاجر، ويعود كل إنسان طوعاً أو كرهاً إلى الله وحده، وإلى موالاته والخضوع له، حينما وقع العذاب. فقوله سبحانه: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أي حينئذ يكون السلطان والملك والنصرة والحكم لله الإله الحق المبين.

والله سبحانه هو خير ثواباً وخير عقباً، أي خير جزاءً، وأفضل عاقبة لأوليائه المؤمنين، فينصرهم ويعوضهم عما فقدوه في دار الدنيا، وتكون الأعمال الخالصة لله ذاتَ ثواب عظيم، وأثرٍ طيب أو عاقبة حميدة رشيدة، كلها خير من سابقاتها في الدنيا. وهذا دليل واضح على أن الله يجزي بالحسنة خيراً منها، ويضاعف الله كرماً وفضلاً ثواب الحسنة إلى ما شاء سبحانه، مما يحمل كل عاقل على الطمع في فضل الله وإحسانه، والإقبال على طاعته ومرضاته؛ لأن ما عند الله خير وأبقى.

صفة الدنيا الفانية

جرت العادة أن تكون الاستعدادات للأحوال المؤقتة بسيطة وقليلة، وأن تكون الاستعدادات للأوضاع الدائمة والخطيرة كثيرة ومتنوعة، وهكذا ينبغي النظر باستمرار لحال الدنيا والآخرة؛ لأن الدنيا فانية منتهية، والآخرة باقية خالدة، فما على المؤمن إلا أن يتخذ الدنيا جسراً للآخرة، وأن يتزود بالأعمال الصالحة، ويقدم المزيد من الخير لمستقبله، حتى يحقق لنفسه السعادة والنجاة، لذا زهّد القرآن الكريم بالدنيا، ورغّب في نعيم الآخرة الخالد، فقال الله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[١] تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ[٢] وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٥-٤٦].

اذكر أيها النبي مثلاً لأهل مكة وأمثالهم الذين افتخروا بأموالهم وأتباعهم على فقراء المسلمين، يبين ذلك المثل أو الصفة زوال الدنيا وما فيها، والمراد حياة الإنسان بما يتعلق من نعم وثروة، فإن الدنيا بعد الخضرة والبهجة تصبح عابسة لا جمال فيها ولا زهو، إنها في تحولها وتبدلها تشبه حال نباتٍ سقي بماء السماء، واختلط النبات بعضه ببعض، بسبب الماء، وصار أخضر جميلاً، ثم تحول بعد الخضرة فأصبح هشيماً، أي يابساً، تذروه الرياح، أي تفرقه وتنثره ذات اليمين وذات الشمال.

والله قادر على كل شيء من الإنشاء والإحياء، ثم الدمار والإفناء، واليبس والهلاك، فلا ينبغي لعاقل أن يغتر بإقبال الدنيا أو يتفاخر بها، وعليه أن ينظر إلى مآلها ونهايتها الحتمية.

---

(١) يابساً متفتتاً. (٢) تَنسِفُه.

ومعنى هذا المثل تشبيه حال المرء في حياته وماله وعزته، وزهوه وبَطَره بالنبات الذي له خضرة ونُضْرة، بسبب المطر النازل، ثم يعود بعد ذلك هشيماً متبدداً، ويصير إلى عدم. فمن كان له عمل صالح يبقى في الآخرة، فهو الفائز، فكأن الحياة بمثابة الماء، والخضرة والنضارة بمنزلة النعيم والعزة ونحوه. ويدل هذا المثل على سرعة زوال الدنيا وفنائها.

ثم أخبر الله عن حقيقة المال والأولاد، فذكر أن الأموال والبنين والبنات هي من زينة الحياة الدنيا، وليست من زينة الآخرة الدائمة، فهي سريعة الفناء والانقراض، فلا ينبغي لعاقل أو متأمل الاغترار بها والتفاخر بمظاهرها، ولا يصح للناس أن يُتْبعوا أنفسهم زينة الدنيا وجمالها، وعليهم أن ينتفعوا بها مجرد انتفاع، دون تعلق نفس وإيثار، أو تعظيم وتفضيل، لأن كل ذلك إلى فناء.

والباقيات الصالحات خير، أي إن أعمال الخير وأفعال الطاعة، كالصلاة والصيام والصدقة والجهاد في سبيل الله، ومساعدة المحتاجين، وذكر الله: أفضل ثواباً، وأعظم قربة عند الله، وأبقى أثراً، لأن ثوابها عائد على صاحبها، وهي خير أملاً، حيث ينال صاحبها في الآخرة كل ما كان يؤمله في الدنيا.

فسر ابن عباس وغيره الباقيات الصالحات بأنها الصلوات الخمس، وفسرها جمهور المفسرين بأنها الكلمات المأثور فضلها وهي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقال ذلك أيضاً ابن عباس. ورجح الطبري والقرطبي ما قاله ابن عباس في رواية ثالثة: الباقيات الصالحات: كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة.

وقول الله سبحانه: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ معناه: صاحبها ينتظر الثواب، وينبسط أمله على خيرٍ من حال ذي المال والبنين، ودون أن يعمل عملاً صالحاً.

ويكون المقصود من الآية عقد مقارنة بين الزائل والدائم، أما الزائل فلا قرار له، وأما الدائم فهو الثابت بنحو مستمر، والاستمرار إنما يكون ببقاء الأثر، والعمل الصالح الشامل للأقوال والأفعال الطيبة المرضية لله تعالى: هو الذي يحقق دوام الأثر، وفضيلة الثواب، وزهرة الآمال اليانعة التي يحلم بها الإنسان، وتحقق له دوام السعادة، ومتعة الحياة، والجمال الذي لا يزول، والفضل الإلهي الشامل، وجنة الخلد اليانعة، التي غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

مشاهد القيامة الحاسمة

مهما تعرض الإنسان للأحداث والمحن الدنيوية، فإنها تكون هينة صغيرة أمام أحداث القيامة الرهيبة، لأن أحداث الدنيا يعقبها دائماً أو غالباً انفراج وزوال للكروب، أما أحداث الآخرة، فهي حاسمة شاملة لا أمل فيها بالتغير ولا الانفراج أو احتمال الزوال، لذا تكاد النفس أو الروح تنخلع من الجسد، ويشتد الضيق والألم، حينما يشاهد المرء ما يتعرض له الكون من تدمير وخراب، ويتسلم صحيفة عمله التي هي بمثابة الحكم القضائي المبرم الذي يتلقاه المتهم في محاكم الدنيا، ثم يزجُّ به في غياهب السجون، لتنفيذ مقتضى ذلك الحكم. قال الله تعالى واصفاً هذه المشاهد المفزعة والمخيفة:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً[1] وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا[2] ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ[3] مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا[4] مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ

(١) ظاهرة. (٢) وقتاً لإنجاز الوعد بالبعث. (٣) خائفين. (٤) يا هلاكنا.

صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ(١) وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٧-٤٩].

المعنى: اذكر أيها الرسول يوم تذهب الجبال من أماكنها، ونبددها فتصير كالسحاب هباء منثوراً، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٥].

وتنظر أيها الإنسان إلى الأرض، فتراها ظاهرة بادية، لا جبال فيها ولا وديان، جميع الخلق على صعيد واحد، صافون صفوفاً أمام ربهم، لا تخفى على الله منهم خافية.

فهذان حدثان كبيران: تسيير الجبال، وتسوية الأرض، مما يغير حال الدنيا. والحدث المنتظر للخلائق جميعاً أن الله يجمع الأولين والآخرين للحساب في موقف واحد، من غير أن يترك الله منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٤٩-٥٠]. فقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي أقمناهم من قبورهم وجمعناهم لعرضة القيامة.

وفي هذا العرض يعرض البشر قاطبة أمام الله صفاً واحداً، يأتون جميعاً أحياء، كهيئتهم يوم خلقهم أول مرة في الدنيا، حفاة عراة، لا شيء معهم، لقد جاؤوا إلى ربهم كما خلقهم في المرة الأولى، وفي هذا تقريع وتوبيخ للكفار والمنكرين للبعث، وإثبات لقضية العرض والحساب على الله تعالى، لذا خاطب الله هؤلاء المنكرين بقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ ، أي بل ظننتم أنه لا لقاء لكم مع الله، وأنه لا ميعاد لهذا اللقاء.

(١) عدّها وضبطها .

ثم يتلقى الناس الأحكام الصادرة في حقهم، في صحف تتطاير وكتب توزع، حتى تصل إلى أيدي أصحابها، فيضع الله (الكتاب) أي فتوضع كتب الناس التي أحصتها الحفظة لكل واحد، ويكون لكل إنسان كتاب واحد، يظهر فيه ما دُوِّن من أعمال الناس، من خير أو شر، صغير أو كبير، دون أن يترك الكتاب شيئاً، ويقول المجرمون شاكِين من دقة الإحصاء، لا من وجود ظلم أو حيف، يا حسرتنا ويا ويلنا على ما فرطنا وقصرنا من أعمال، فلا يترك هذا الكتاب ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلا ضبطه وحفظه، فهو شامل لكل شيء، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ٥٠/١٧-١٨]. والآية تدل على إثبات الصغائر والكبائر من الذنوب.

ويجد الناس ما عملوا في الدنيا مثبتاً في كتابهم، من خير أو شر، صغير أو كبير، قال ابن عباس: الصغيرة: الضحك.

وليس في حكم الله أي ظلم لأحد من الْخَلْق، لأن العدل الإلهي المطلق شامل للثواب والعقاب، حتى يكافأ المحسن، ويجازى المسيء، بل إن الله تعالى قد يغفر ويرحم، وإذا حكم، فإنه يعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويكون جزاءُ الكفرة الخلود في نار جهنم. وأمر المغفرة والعقاب متروك لمشيئة الله تعالى، ويتنازع الأمرين: العدل الإلهي المطلق، والرحمة الشاملة السابغة، لكن تغلب الرحمة الغضب كما جاء في الحديث النبوي الثابت: «سبقت رحمتي غضبي».

تقريع الكفار في موالاتهم العدو غير الله

كل عاقل مخلص يلتمس الخلاص لنفسه بمناصرة أو موالاة المحسن إليه، والمنعم عليه بالنعم الكثيرة، وكل جاهل خائن قصير النظر يوالي أعداء الله من الشياطين، على أمل تحقيق الخير أو دفع الشر، وهو أمل خادع، ثم يترك موالاة المنعم المتفضل عليه بكل نعمة، صغيرة أو كبيرة، وهو لون من الحماقة والطيش ونسيان المعروف، وهذا اللون من التوجه يجنح إليه أصناف الجاحدين والكافرين، فقال الله تعالى واصفاً حالهم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا[(١)] ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا[(٢)] ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا[(٣)] وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا[(٤)] ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٠-٥٣].

هذا تنبيه للناس على عداوة إبليس وذريته لهم، ولأبيهم من قبلهم، وتقريع لمن اتبع الأبالسة الأعداء، وخالف الخالق الناصر، ومفاده: واذكر أيها النبي حين أمرنا الملائكة بالإلهام بأن يسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام، تكريماً للنوع الإنساني، كما ذكر ذلك مراراً في القرآن الكريم.

فسجد جميع الملائكة، كلهم في وقت واحد، وكان هذا السجود في قول جماعة إيماءً منهم نحو الأرض، لأن السجود في كلام العرب: عبارة عن غاية التواضع.

(١) أعواناً. (٢) أي حاجزاً أو مَهْلَكاً لهم. (٣) واقعون فيها. (٤) مَعْدلاً ومنصرفاً.

وهذا جائز بتكليف الله وأمره، وأبى إبليس السجود لآدم، لاغتراره بأصله وعنصره وهو خلقه من نار، وآدم من تراب، وسبب عصيان إبليس أنه كان من عنصر الجن، فلم يعمل مثلما عملوا، وقوله سبحانه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ دليل على أن للشيطان ذرية من صلبه.

وخرج الشيطان عن طاعة الله، وصار فاسقاً، لذا استحق التعنيف على عصيانه، وكان أثر هذا هو التعجب البالغ ممن يطيع إبليس وجنده في الكفر والمعاصي، وتحذير الناس من اتباع وساوس إبليس، وتوبيخ من اتبعه وأطاعه، متخذاً له ولجنده أنصاراً من دون الله، وبدلاء عنه.

بئس البدل للكافرين الظالمين أنفسهم، وهو اتخاذ إبليس وذريته أولياء وأنصاراً من دون الله. وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ معناه: خرج عن أمر ربه إياه، أي فارقه.

ثم سلب الله تعالى بصفة نهائية الولاية والنصرة عمن دونه من الشركاء والأبالسة، فقال: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ..﴾ أي ما أشهدت الذين اتخذوا الشياطين والشركاء أولياء خلق السماوات والأرض، ولا أشهدت بعضهم خلق بعض، فهم عبيد كبقية عبيد الله، لا يملكون شيئاً، ولم يكونوا موجودين عند خلق السماوات والأرض، ولم يتخذ الله الضالين المضلين أعواناً وأنصاراً، فلا يصح لأحد اتخاذهم نصراء، وفي ذلك كله تحقير لأهل الشرك والشركاء المزعومين.

ثم أخبر الله تعالى عما يخاطب به المشركين يوم القيامة، تقريعاً لهم وتوبيخاً، فقال: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ..﴾، أي يقول الله للكافرين على سبيل التأنيب أمام الخلائق والوعيد: نادوا لنصرتكم من زعمتم أنهم شركائي، لينقذوكم مما أنتم فيه، فدعوهم، فلم يجيبوهم بشيء، ولم ينفعوهم في شيء، وجعلنا

بين المشركين وآلهتهم المزعومة مكاناً سحيقاً، وموضعاً للهلاك، هو نار جهنم، أو واد في جهنم، فالموبق كما قال ابن عمر وأنس ومجاهد: هو واد في جهنم يجري بدم وصديد.

وشاهد المجرمون الكفرة في القيامة نار جهنم، فظنوا أنهم مواقعوها، أي تيقّنوا وعلموا لا محالة أنهم داخلون فيها حتماً، ولم يجدوا عنها مصرفاً، أي معدلاً. والمراد: ليس لهم طريق ولا مكان يعدل بهم عنها، ولا بُدّ لهم منها، لإحاطتها بهم من كل جانب، ولشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها.

ذكر ابن جرير الطبري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الكافر ليرى جهنم، فيظن أنها مواقعتُه، من مسيرة أربعين سنة».

وفي الجملة: هذه الآيات توبيخ شديد لمن يوالي أو يناصر غير الله تعالى، فإن الاستعانة بغير الله أو طلب النصرة من أحد غير الله، جنٍّ أو إنسٍ ضلال وبهتان وانحدار عن مستوى العقل البشري والكرامة الإنسانية، فمن أعمل عقله بوعي، وأصغى لنداء القرآن، عرف أن الملجأ الوحيد للإعانة والمساعدة والإنقاذ والنجاة في الدنيا والآخرة إنما هو الله وحده لا شريك له.

بيان القرآن ومهام الرسل

تميز البيان القرآني بالواقعية، والجدية الحاسمة، وضرب الأمثال القريبة للذهن والحس، حتى لا يبقى عذر أو مانع لأحد من الاستجابة السريعة لنداء الحق، وانضم إلى هذا البيان قيام الرسل والأنبياء بمهام التبشير والإنذار، وإيضاح منهاج الحق الإلهي وبيان السلوك القويم للبشرية، ولم يعد بعدئذ سوى المكابرة والعناد والنقاش الساقط، والجدال بالباطل، والإعراض عن آيات الله والاستهزاء بها، من

غير وعي ولا برهان صحيح، قال الله تعالى واصفاً بيان القرآن، ووظائف الرسل المبلغين وحي الله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا(١) فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا(٢) ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟(٣) بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا(٤) ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٤-٥٦].

لم يترك الحق تعالى وسيلة للبيان والترغيب والترهيب إلا أتى بها، وهذا مصداق ذلك، فالله سبحانه يحكي ويقسم قسماً مؤكداً بأنه خوّف ورجّى وبالغ في البيان، ووضّح كل ما يحتاج إليه الناس من أمور الدين والدنيا، كي يعرفوا الحق وطريق الهدى، ولا يضلوا عنه. ومن ألوان البيان الإلهي: تنويع الأمثال النافعة لأداء الغرض المقصود بها، وهو الهداية إلى أقوم السبل وأسلم مناهج الإيمان.

ومع هذا البيان الشافي والإيضاح الكافي، فإن الإنسان كثير الجدل والخصام ومعارضة الحق بالباطل، وهو أكثر جدلاً من كل من يجادِل من ملائكة وجِنّ وغير ذلك إن فرض، إلا من هدى الله وبصّره بطريق النجاة والسداد.

وما منع المشركين أهل مكة وغيرهم من الإيمان بالله، والاستغفار من الذنوب، حين شاهدوا البينات والأدلة الواضحة على وجود الله تعالى وتوحيده، إلا طلبهم أحد أمرين:

- إما أن تأتيهم سنة أو عادة الأولين القدماء، من إحاطة العذاب بهم وإبادتهم، وهو عذاب الاستئصال.

(١) كررنا بأساليب متنوعة . (٢) أي أنواعاً وألواناً وعياناً . (٣) ليبطلوا . (٤) استهزاء .

- وإما أن يروا العذاب عياناً مواجهة ومقابلة.

والمعنى: إن المشركين والكفرة لا يقدمون على الإيمان عادة إلا عند نزول عذاب الاستئصال، فيهلكوا، أو أن تتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا. ومجيء العذاب من عند الله لا من عند الرسل قادة الإصلاح.

ومهام الرسل عليهم السلام: التبشير والإنذار، تبشير من آمن برسالاتهم بثواب الطاعة وهو الجنة وعزها، وإنذار من كذب وخالف بعقاب المعصية وذلّها، فربما يغريهم الثواب بالهداية، وربما يرهبهم العذاب، فيبادروا إلى الإيمان طوعاً واختياراً.

وعلى الرغم من البيان الإلهي الكافي وإرشاد الرسل، يصدر من الكفار الجدال بالباطل، والبعد عن الحق، ليحاولوا طمس معالم الحق وإبعاد الناس عنه، فتراهم مثلاً يقترحون الآيات بعد ظهور المعجزات، ويقولون للرسل: إن أنتم إلا بشر مثلنا، لا مزية لكم علينا، ولا فضل يؤهلكم للمتابعة والقيادة.

ويزداد موقفهم عناداً وشططاً، فهم يهزؤون بالرسل وأتباعهم المؤمنين، ويتخذون آيات الله والحجج والبراهين وخوارق العادات (أي المعجزات) التي بعث بها الرسل، وإنذارات الرسل، وتخويفهم من العذاب الشديد في الآخرة، يتخذون كل ذلك استهزاء وسخرية، وهو أشد الكذب، وكل ذلك يدل على استيلاء الجهل والقسوة، والاستبداد والغلظة، وهذا ليس من صفات أهل الرشد والحكمة، ولا هو من منهاج أحد من أهل العلم والمعرفة، أو عقلاء البشر وإن لم يكونوا علماء. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ توعد. والهزو أو الهزء: السخر والاستخفاف.

إن هذه الآية تأسُّف على هؤلاء المعاندين، وتنبيه على فساد حالهم، فهم يعتقدون أنهم مصيبون، لكنهم في الحقيقة مخطئون، فكان حالهم يقتضي التأسف عليهم، وهذا

دليل على أن أهل الهداية والإيمان يحبون الخير للناس أكثر مما يحبونه لأنفسهم في واقع الأمر.

صفات المجادلين بالباطل

وصف الله تعالى الكفار المجادلين بالباطل بصفات موجبة للخزي والخذلان، تقوم على الجور والإرهاب الفكري، فهم قوم ظلمة، وعلى الرغم من ذلك فإن رحمة الله اقتضت ألا يعاجلهم بالعقوبة، ليترك لهم الفرصة الكافية على العدول عما هم عليه من العصيان، وإعلان التوبة عن سوء الاعتقاد والفِعال، وهذا هو منهاج التوازن والاعتدال، فليست دائماً الرحمة فوق العدل، ولا العدل فوق القوة، وإنما الرحمة والعدل والقوة صفات متوازنة ومتلازمة، يستعمل الواحد منها في محله، وتلك هي الحكمة والوسطية، قال الله تعالى مبيناً صفات المجادلين بالباطل:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً[1] أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا[2] وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا[3] ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم[4] مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ١٨/٥٧-٥٩].

ليس هناك أحد أظلم ممن أعرض عن آيات الله، بعد الوقوف عليها بالتذكير، وينسى ويطرح كبائره ومعاصيه التي أسلفها، وهذا غاية الإهمال. ونسبة السيئات إلى اليدين: ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من حيث كانت اليدان آلة التكسب في الأمور الجرمية، فجعلت كذلك في الأمور المعنوية أو المعاني، على سبيل الاستعارة.

(١) أي أغطية . (٢) أي ثقلاً في السمع . (٣) منجىً وملجأ . (٤) لهلاكهم .

وإن دعوت أيها النبي هؤلاء المشركين إلى دعوة الحق والهداية والاستقامة، فلن تجد لهم استجابة، ولن يهتدوا بهدايتك: هدي القرآن، أبداً، مهما قدَّمت من الأدلة، وتأملت الخير منهم. وجعل الأغطية أو الأكنة على القلوب، وصَمُّ الآذان عن السماع، والبكم من غير نطق بالحق، كلها استعارات تعبر عن بعد الناس عن الهداية.

وذلك كله لفقدهم الاستعداد لقبول الإيمان والرشاد، بما أصروا عليه من الكفر والعصيان.

ومهما بغى أهل الكفر وتنكبوا طريق الهداية، فإن الله تعالى غفار ستار، ذو رحمة واسعة، لو يؤاخذ الناس فوراً على ما اقترفوا من الخطايا والسيئات، لعجل لهم العذاب في الدنيا، على حسب أعمالهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٥]. و يختص الله المؤمنين بالمغفرة والرحمة، لأنه تعالى الغفور ذو الرحمة، والغفران والرحمة بترك معاجلة العقاب.

وإذا اقتضت الحكمة الإلهية عدم التعجيل بالعقوبة، فذلك لا يعني الإعفاء من العقاب، فإن الله تعالى جعل للعذاب موعداً حدده وهو إما يوم القيامة، وإما يوم العذاب الشديد من ألوان عذاب الدنيا كالحروب والصواعق والزلازل والبراكين والسموم القاتلة والأمراض الفتاكة وغير ذلك.

وتلك القرى أو المدن البائدة وأهلها مثل عاد وثمود ومدين وقوم لوط، أهلكهم الله لما ظلموا وكفروا وعاندوا، وجَعَل لهلاكهم موعداً لا محيد عنه، ومدة معلومة لا تزيد ولا تنقص، لن يجدوا عنه ملجأ أو منجى، وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا ما أصابهم، فقد كذبتم رسولكم، ولستم بأعز علينا منهم، والمهلك: الإهلاك أو

وقته. والموعد: وقت العذاب. والمراد: إنا عجلنا هلاكهم، ومع ذلك حددنا له وقتاً، رجاء أن يتوبوا.

هذه الآيات الكريمة تتضمن علاقة الإنسان بربه، فهي علاقة ودّ، ومغفرة، ورحمة إن أحسنوا العمل، وآمنوا بالله ورسوله وكتبه واليوم الآخر، وكذا إن تلكؤوا عن الإيمان، فيمهلهم الله، وإن الله يمهل ولا يهمل.

والعقاب مبدؤه وغايته: الإصلاح والهداية، والناس هم الظلمة لأنفسهم إذا عطّلوا وسائل الإيمان والهداية والمعرفة، فلم تتفتح قلوبهم لنور الهداية القرآنية، وأصاخوا السمع والأذن لآيات الله الكونية والحياتية.

والدليل من التاريخ: واقعٌ وملموس، فقد أهلك الله أهل المدن الظالمة الذين لم يستجيبوا لدعوة الرسل، واقتضت الرحمة الإلهية إمهالهم لموعد معين، حتى يؤمنوا، وذلك منتهى العدل والفضل الإلهي.

لقاء موسى عليه السلام مع الخضر العبد الصالح

في التاريخ عجائب الحوادث والقصص، ومن هذه العجائب: قصة موسى عليه السلام مع الخضر العبد الصالح، التي تُعلِّمنا كيف يتعلم الأكبر والأعلم من الأصغر والأقل منه رتبة، فإن موسى عليه السلام كليم الله، مع كثرة علمه وعمله، أمره الله أن يصحب العبد الصالح وهو الخضر، في رحلة استطلاعية وجولة ميدانية، تدل على أن التواضع خير من العُجْب والكبر. وهذه هي بداية القصة في الآيات التالية:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ (١) أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا (٢)

(١) ملتقاهما. (٢) الحقُب: جمع حقبة، وهي زمان من الدهر غير محدود، أي أسير زماناً طويلاً.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ... ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا(١) ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ
لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا(٢) ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ(٣) إِذْ أَوَيْنَآ(٤) إِلَى
ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا(٥)
﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ(٦) فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا(٧) ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ
ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا
عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا(٨)
﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن
شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف:١٨/ ٦٠-٧٠].

سبب هذه القصة فيما روي عن النبي ﷺ لدى البخاري ومسلم: أن موسى عليه السلام جلس يوماً في مجلس لبني إسرائيل، وخطب فأبلغ، فقيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله تعالى إليه: بلى، عبدنا خضر، فقال: يا رب، دلّني على السبيل إلى لُقيّه(٩)، فأوحى الله تعالى إليه أن يسير بطول سيف البحر، حتى يبلغ مجمع البحرين، فإذا فقدت الحوت، فإنه هنالك، وأُمر أن يتزود ويرتقب زواله عنه، ففعل موسى ذلك، وقال لفتاه على جهة إمضاء العزيمة: لا أبرح السير (أي لا أزال). وإنما قال هذه المقالة، وهو سائر.

ومجمع البحرين: إما في أرض فارس من وراء أذربيجان، وإما عند طنجة أو بأفريقية أو حيث يجتمع بحر ملح و بحر عذب.

هذه قصة ثالثة في سورة الكهف بعد قصة أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين والأموال، وكلها تلتقي في التزهيد بالدنيا ونبذ الافتخار والإيمان بالله واليوم الآخر.

---

(١) السرب: كالنفق. (٢) تعبا وعناء. (٣) أخبرني. (٤) التجأنا. (٥) اتخاذاً يتعجب عنه. (٦) الذي كنا نطلبه. (٧) رجعا يتبعان آثارهما. (٨) الخُبْر: العلم بالشيء، والخبير: العالم بخفايا الأمور. (٩) أي لقائه واستقباله.

ومضمونها: اذكر أيها النبي حين قال موسى لفتاه: لا أزال سائراً حتى أصل إلى المكان الذي فيه مجمع البحرين، ولو سرت حُقُباً، أي دهراً من الزمان، ثمانين أو سبعين سنة، والمراد: زماناً غير محدود. وموسى: هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل، وفتاه: هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام، وكان خادماً لموسى، ومجمع البحرين في رأي الأكثرين: بحر فارس والروم، أي ملتقى البحر الأحمر بالمحيط الهندي عند باب المندب.

فلما وصل موسى وخادمه (فتاه) مجمع البحرين، مكان اللقاء بالعبد الصالح، نسيا حوتهما (وهو السمك) حيث عاد الحوت حياً، واندس في سَرَب (نفق) من الماء، فكان لموسى وفتاه عجباً، وكانت عودة الحوت حياً معجزة لموسى عليه السلام. ولما تجاوز موسى وفتاه يوشع مجمع البحرين، حيث نسيا الحوت فيه، وسارا بقية اليوم والليلة، وفي ضحوة الغد أحس موسى بالجوع، فقال لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا تعباً من ذلك السفر.

فأجابه فتاه: أرأيت، أي أخبرني عما حدث لي، حين لجأنا إلى الصخرة في مجمع البحرين؟ فإني نسيت أن أخبرك بما حدث من قصة الحوت، فإنه اضطرب، وعاد حياً، وسقط في البحر، وما أنسانيه ذكر ذلك إلا الشيطان، واتخذ الحوت مسلكه في البحر عجباً.

قال موسى: هذا هو الذي نطلب؛ لأنه علامة الفوز بما نقصد. فرجعا على طريقهما يقصان آثار مشيهما، فوجدا عند الصخرة في مجمع البحرين عبداً صالحاً من عباد الله، وهو الخضر في رأي الأكثرين. وكان مسجّى بثوب أبيض. فسلّم عليه موسى، وكان قد علّمه الله من لدنه علماً من غير وساطة معلم بشر.

فطلب موسى من الخضر أن يصحبه ويرافقه ليتعلم منه شيئاً يسترشد به في أمره،

من علم نافع وعمل صالح. والرشد: الصواب. فأجابه الخضر: إنك لن تقدر على مصاحبتي، ولن تطيق صبراً على ما تراه مني؛ لأني على علم من الله علمنيه لا تعلمه، وأنت على علم من الله، علمكه لا أعلمه، وكل منا مكلف بأمر من الله، فلا تقدر على صحبتي، وكيف تصبر على شيء لم تعلم وجه الحكمة فيه وطريق الصواب. فقال موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً على ما أرى من أمورك، ولا أخالفك في شيء، فقال الخضر مشترطاً على موسى: إن سرت معي، فلا تسألني عن أمر يحدث، حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

أحداث قصة موسى مع الخضر

في مرحلة الاختبار الصعبة لموسى عليه السلام، لمعرفة مدى صبره على ما قام به العبد الصالح: الخضر، وقعت أحداث غريبة ثلاثة، لا تنسجم مع أصول المعرفة والشريعة الموسوية، مما جعل موسى عليه السلام يستنكر كل حادث منها، ناسياً العهد الذي التزمه مع الخضر بألا يعترض على شيء حتى يبين له الأسباب الخفية وما وراء الظواهر، وهذه الأحداث قصها القرآن الكريم علينا فيما يأتي:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا[1] ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى[2] مِنْ أَمْرِى عُسْرًا[3] ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا[4] ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ

(١) إمراً، أي أمراً عظيماً منكراً. (٢) لا تحمّلني. (٣) صعوبة ومشقة. (٤) أي ينكره الشرع والعقل.

ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا(١) أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ(٢) فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٧١-٧٨].

أحداث هذه القصة ثلاثة هي السفينة، والغلام، والجدار.

أما قصة السفينة: فحينما انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر، يطلبان سفينة، فمرت بهما سفينة، فكلَّما أصحابها أن يركبوا (موسى وفتاه والخضر) فيها معهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير أجر، تكرمة للخضر، فلما سارت بهم السفينة في وسط أمواج البحر، قام الخضر بخرقها بفأس، فقلع لوحاً من ألواحها، ثم رقَّعها. فقال موسى للخضر منكراً عليه: أخرقتها لتغرق أهلها؟ أي ليؤول أمرهم إلى الغرق، لقد جئت شيئاً منكراً عظيماً. فقال الخضر لموسى: ألم أقل لك سابقاً: إنك لن تتمكن من الصبر معي على ما ترى مني من أفعال. فاعتذر موسى للخضر قائلاً: لا تؤاخذني بنسياني، وتركي وصيتك أول مرة، ولا تكلفني أمراً شاقاً عسيراً علي.

وأما قصة الغلام: فتمت حينما خرج موسى وفتاه والخضر من السفينة، وسار موسى والخضر على الساحل، فأبصر الخضر غلاماً وضيئاً حسن الهيئة لم يبلغ الحلم يلعب مع الغلمان، فقتله الخضر باقتلاع رأسه أو ذبحه، فقال موسى: أتقتل نفساً زكية طاهرة من الذنوب، طيبة لم تخطئ، بغير قتل نفس، أي قصاص، لقد أتيت شيئاً منكراً لا يقره الشرع، فأجابه الخضر مؤكداً إنكاره عليه وتذكيره بعهد الرفقة: ألم أقل لك لن تتمكن من احتمال ما أفعله، ولن تسكت على ما أقوم به. فاعتذر موسى عليه السلام مرة أخرى قائلاً: إن اعترضتُ على شيء يحدث بعد هذا الفعل أو

---

(١) امتنعوا . (٢) ينهدم .

هذه المرة، فلا تتخذني صاحباً لك، قد أعذرت إليَّ مرة بعد أخرى، حيث خالفتك مرتين إلى الآن، وهذا كلام يدل على شدة الندم.

روى ابن جرير الطبري عن أبي بن كعب قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً، فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: رحمة الله علينا وعلى موسى، لو لبث مع صاحبه، لأبصر العجب، ولكنه قال: «إن سألتك عن شيء بعدها، فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذراً».

وأما قصة الجدار: فهي أن موسى والخضر مشيا بعد الحدثين السابقين، حتى إذا وصلا إلى قرية هي أنطاكية، طلبا من أهلها إطعامهما وسد جوعتهما، فرفضوا الضيافة، وذلك إخلال بالمروءة، و بخل وشح. فوجد موسى والخضر في تلك القرية حائطاً آيلاً إلى السقوط، فرده الخضر كما كان، ونسبة إرادة السقوط للجدار: على سبيل الاستعارة، فقال موسى للخضر: ليتك تطلب أجرة على إصلاح الجدار، لأن أهل هذه القرية لم يضيفونا، فلا يستحقون العمل مجاناً، فأجابه الخضر: هذا الإنكار أو الاعتراض الثالث سبب الفراق بيننا، بحسب الشرط الذي بيننا، وسأخبرك ببيان أسباب الأفعال التي أنكرتها علي، ولم تصبر عليها، وهي خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار. وهذا الموقف من الخضر عتاب لموسى، ولوم له على عدم الصبر.

قال ابن عطية في تفسيره: ويشبه أن تكون هذه القصة أصلاً للآجال في الأحكام التي هي ثلاثة أيام، وأيام التلوم ثلاثة، فتأمله.

والواقع أن موسى غليه السلام كان معذوراً في اعتراضاته، لأنه بحسب قواعد الشريعة مطالب بإنكار المنكر، وأما الخضر فكان أيضاً على حق؛ لأنه يفعل بإلهام من الله، وتنفيذ لمراد الله تعالى.

أسباب أفعال الخضر عليه السلام

كانت أفعال الخضر في الأحداث الثلاثة غير مقبولة في الظاهر، سواء فيما يتعلق بخرق السفينة، أو قتل الغلام، أو هدم الجدار وبنائه مجاناً، ولكنها أجيزت شرعاً بإلهام من الله تعالى، وارتكاباً لأخف الضررين وأهون الشرين، وزال الإشكال في عقلية موسى عليه السلام، بعد أن قام الخضر ببيان أسباب ما قام به من أفعال غريبة، لم يصبر عليها موسى لأول وهلة، وهذا البيان جاء في الآيات القرآنية التالية:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا[١] طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً[٢] وَأَقْرَبَ رُحْمًا[٣] ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا[٤] وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٧٩-٨٢].

هذا تفسير الوقائع والأحداث التي قام بها الخضر عليه السلام بحضور موسى عليه السلام، ولم يستطع تقبلها والصبر عليها، لمخالفتها شريعته في الظاهر، لكن الشرائع مبنية كلها على الظواهر العامة، والله وحده من وراء السرائر.

أما حادث خرق السفينة: فكان بقصد تعييبها، من أجل حمايتها والحفاظ عليها؛ لأنها كانت مملوكة لضعفاء أيتام، ليس لهم شيء ينتفعون به غيرها، ولا يقدرون على مقاومة من أراد ظلمهم، وكانوا يُكرون تلك السفينة لركاب البحر، ويأخذون الأجرة، فقام الخضر بخرقها ونزع لوح خشبي منها ليعيبها، لأنه كان أمام الركاب

(١) يكلفهما. (٢) طهارة من السوء. (٣) رحمة عليهما. (٤) قوّتهما وشدتهما.

ملك ظالم، يأخذ كل سفينة صالحة غير معيبة، اغتصاباً وظلماً من غير وجه حق، فكان عمل الخضر حماية لهذه السفينة، وصونها لأصحابها الضعفاء، فهو من قبيل ارتكاب أخف الضررين لدفع أعظمهما. والمراد من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي أمامهم، كقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ١٠] وقالوا: «وراء» من الأضداد. وعبر الله عن أصحاب السفينة بلفظ «فكانت لمساكين» أي ضعفاء إشفاقاً على حالهم التي كانوا عليها.

وأما حادث قتل الغلام: فلأنه كان كافراً، وكان أبواه مؤمنين يحبانه، فكانت هناك خشية من متابعته في الكفر والوقوع في الظلم والعصيان، حينما يكبر، لأن حب الولد غريزة، ومجاملته من أبويه قد تقع، فكان قتله حماية على عقيدة والديه، من قبيل سد الذرائع، أي منع الوسيلة المفضية إلى ممنوع شرعاً.

قال الخضر: أراد الله أن يرزق هذين الوالدين ولداً آخر بدلاً عنه وخيراً منه في الصلاح والعقيدة، وبر الأبوين والعطف عليهما. روي عن ابن جريج: «أنهما بُدّلا غلاماً مسلماً».

وأما حادث بناء الجدار مجاناً: فكان في بلدة أنطاكية، وكان آيلاً للسقوط، وكان تحته كنز لغلامين يتيمين في تلك المدينة، وكان أبوهما وهو الجدُّ السابع رجلاً صالحاً، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز مدفوناً محفوظاً للغلامين حتى يرشدا، فأمر الله الخضر بإصلاح ذلك الحائط، إذ لو سقط لاكتشف الكنز وأخذ، فهدمه الخضر ثم أعاد بناءه ليحفظ الكنز للغلامين حين الكبر والرشد، أو بلوغ الأشد، فإذا ما كبرا استخرجا الكنز، وانتفعا به، وفي هذا مصلحة واضحة، لا يقدم عليها أحد إلا من آتاه الله علماً لَدُنيّاً، وإلهاماً ربانياً صادقاً.

وكان الخضر في هذه الأفعال ينسب الفعل لنفسه، إلا في حادث بلوغ الحلم الذي

لا يقدر عليه أحد إلا الله، عملاً بمقتضى الأدب، الذي يقضي بإسناد الخير إلى الله، والشر إلى العباد.

وكان الكلام الأخير للخضر قراراً حاسماً، يلقي الطمأنينة والسكينة في قلب موسى عليه السلام، ومضمونه: أن الخضر لم يفعل هذه الأمور الثلاثة باجتهاد ورأي شخصي، أو تجرؤ على المخالفة، وإنما فعل ذلك بأمر الله وإرشاده وإلهامه؛ لأن الاعتداء على المال والنفس والقيام بإصلاح الجدار مجاناً، إنما كان بدليل قاطع، وهو الإلهام الذي هو أشبه بالوحي، وذلك هو تفسير ما ضاق صبر موسى عنه، ولم يطق السكوت عنه، ولكن موسى عليه السلام بعد بيان سبب تلك الأفعال ومعرفة الحكمة فيها، اطمأن قلبه، وهدأ غضبه، وزال ما ثار في نفسه من ضرورة إنكار المنكر في ظاهر الأمر، والله هو الموفق إلى سواء الصراط.

قصة ذي القرنين وبلوغه المشرقين

فيما قبل الميلاد، كان هناك رجل صالح أعطاه الله ملكاً واسعاً فبلغ مشرق الشمس ومغربها، وهو الملّقب بذي القرنين أي صاحب الضفيرتين من الشعر، وهو كالخضر لم يكن نبياً، وقد ذكر الله تعالى قصته بعد إيراد ثلاث قصص في سورة الكهف، كانت مثار إعجاب واستغراب معاً في توقعات البشر، ولكنها هينة سهلة في تقدير الله وقدرته. وتضمنت قصته إيراد ثلاثة أحداث عجيبة، أذكر هنا منها حدثين، قال الله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ(١) قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) ملك صالح أعطي العلم والحكمة.

وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا(١) ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا(٢) ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ(٣) وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا(٤) ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا(٥) ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا(٦) ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا(٧) ﴿٩١﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٣-٩١].

هذه هي القصة الرابعة من قصص سورة الكهف . وهي إحدى المسائل الثلاث التي سأل عنها المشركون المكيون بتوجيه من اليهود، بقصد الإحراج والامتحان.

والمعنى: ويسألك المكيون القرشيون عن خبر ذي القرنين، سؤال اختبار وتعنّت، لا سؤال تأدّب وتعلّم، فقل لهم: سأخبركم عنه خبراً مذكوراً في القرآن، بطريق الوحي الثابت المنزل عليّ من ربي.

إن الله تعالى مكّن لذي القرنين، وآتاه ملكاً عظيماً بلغ المشرق والمغرب، وأعطاه من كل ما يتعلق بمطلوبه طريقاً (سبباً) يتوصل به إلى ما يريده، ويحقق أهدافه، فاتبع طريقاً من الطرق المؤدية إلى مراده. حتى إذا وصل نهاية الأرض من جهة المغرب، ولم يبق بعدها إلا البحر المحيط، وهو المحيط الأطلسي، وسار في بلاد المغرب العربي، فوجد الشمس تغرب في عين ذات حمأة أي طين أسود، ووجد في أقصى الغرب عند تلك العين الحمئة قوماً كفاراً وأمة عظيمة من الأمم، فقال الله له بالإلهام: أنت مخير بين أمرين: إما أن تعذب هؤلاء بالقتل إن أصروا على الكفر، وإما أن تحسن إليهم وتصبر عليهم، بدعوتهم إلى الحق والهداية الربانية، وتعليمهم الشرائع والأحكام.

---

(١) طريقاً موصلاً للغاية . (٢) سلك طريقاً إلى المغرب . (٣) عين حمئة: أي عين ذات طين أسود . (٤) تدعوهم إلى الحق . (٥) نكراً ، أي منكراً شديداً . (٦) ساتراً من اللباس والبناء . (٧) هو العلم الشامل .

قال ذو القرنين لبعض حاشيته: أما من ظلم نفسه بالإصرار على الشرك، ولم يقبل دعوتي إلى الحق والخير، فسنعذبه بالقتل في الدنيا، ثم يرجع إلى ربه في الآخرة، فيعذبه عذاباً منكراً شديداً، في نار جهنم.

وأما من آمن بالله رباً واحداً لا شريك له، وعمل العمل الصالح الذي يقتضيه الإيمان، فله الجزاء الحسن، وهو الجنة، وسنطلب منه أمراً ذا يسر وسهولة، ليرغب في دين الله والتزام أوامره.

ثم أتبع ذو القرنين سبباً آخر، أي سلك طريقاً آخر، متجهاً من المغرب إلى المشرق، حتى إذا وصل لمكان شروق الشمس من المعمورة، وَجَد الشمس تطلع على قوم حفاة عراة، لا شيء يسترهم من حر الشمس، ولم يجد عندهم بيوتاً، وإنما يعيشون في مفازة أو بيداء، لا مأوى فيها، ولا شجر، يعتمدون في المعيشة على السمك وما جاء به البحر.

ومثل ذلك البلوغ للمشرق والمغرب، علَّمْنا ذا القرنين علوماً نافعة، وأطلعناه أو أخبرناه عن إحاطته بجميع ما يحتاجه من المعارف والخبرات والأفعال، دون أن يخفى على الله منها شيء، وهذا من أجل تحقيق الطمأنينة، والرضا، والله سبحانه عالم الغيب والشهادة، لا يعرف الإنسان شيئاً من تلك الغيبيات إلا بتعليم الله وإلهامه وإرشاده. وهذا تصوير لأحوال الأقوام البدائية، وبيان أن الأنبياء والصلحاء والعلماء هم الذين يتمكنون من نقلة هؤلاء البدائيين إلى أرقى مدارج العز والمدنية والحضارة.

بلوغ ذي القرنين ما بين السدّين

لم تنته رحلة الرجل الصالح ذي القرنين في سبيل الله ومرضاته، فهو لم يترك مكاناً إلا زاره، حاملاً أصول الحضارة والمدنية والأخلاق، ومبلّغاً الناس ما يؤمن به،

ومصلحاً ما يمكنه إصلاحه في دائرة ملكه الواسع العريض، وقائماً بما منحه إياه ربه من مقتضى الحكمة والعلم النافع، فبعد أن وصل المشرق والمغرب، اتجه من الشرق إلى الشمال، فاستنجد به أقوام الشمال، فأعانهم مخلصاً لله من غير أجر ولا عوض.

وهذه الرحلة الثالثة أخبر عنها القرآن الكريم في الآيات الآتية، قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ(١) وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ(٢) مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا(٣) عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا(٤) ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ(٥) حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ(٦) قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا(٧) ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ(٨) وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا(٩) ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ(١٠) وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٩٢-٩٨].

هذه تتمة الرحلة الشاقة لذي القرنين سلك الطرق المؤدية إلى مقصده، لأنها سبب الوصول، فكان -كما ذكر المؤرخون- يدوس الأرض بالجيوش الثقال، والسيرة الحميدة، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة، ولا مرَّ بمدينة إلا دانت له، ودخلت في طاعته وكل من عارضه جعله عظة وآية لغيره. ثم وصل بين السدين (الجبلين العظيمين) بين أرمينية وأذربيجان، فوجد من ورائهما قوماً من الناس شرقي البحر الأسود، وهم الصقالبة (السلاف) لا يكادون يفهمون كلام غيرهم، لغرابة لغتهم، وقلة فطنتهم ونباهتهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجبلان اللذان بينهما السّدّ: أرمينية

(١) جبلين عاليين . (٢) قبيلتين من ذرية يافث بن نوح . (٣) أي جُعْلاً من المال نتبرع به، وهو الخراج .
(٤) حاجزاً حصيناً . (٥) أي قطع الحديد . (٦) أي جانبي الجبلين . (٧) أي نحاساً مذاباً . (٨) يعلوا عليه .
(٩) خرقاً . (١٠) مدكوكاً .

وأذربيجان. فقال سكان السد بين الجبلين: إن يأجوج ومأجوج (وهما قبيلتان من بني آدم) يفسدون في أرضنا بالتخريب والقتل والظلم ونحوه من مفاسد البشر.

فهل توافق على أن نعطيك جُعْلاً من المال، على أن تقيم بيننا وبين هؤلاء المفسدين حاجزاً منيعاً يمنعهم من الوصول إلينا؟

قال لهم ذو القرنين: ما بسط الله لي من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم، ولكن أعينوني بقوة الأبدان، وبعمل الأيدي، أعطوني قطع الحديد، حتى إذا حاذى بالبنيان رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً، قال للعمال المساعدين: انفخوا بالكير على هذه القطع الحديدية، حتى اشتعلت النار المتوهجة، ثم صبّ النحاس المذاب على الحديد المحمى والحجارة، فصار كله كتلة متلاصقة وجبلاً صلداً، وانسدت فجوات الحديد. فما قدر المفسدون من يأجوج ومأجوج أن يصعدوا فوق السد، لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا نقبه من الأسفل، لصلابته وشدته، وأراح الله منهم القبائل المجاورة، لفسادهم وسوئهم.

وقال ذو القرنين بعد إقامة السد المنيع الحصين لأهل تلك الديار: هذا السد نعمة، وأثر من آثار رحمة ربي بهؤلاء القوم الضعفاء، فإذا حان أجل ربي وميعاده بخروجهم من وراء السدّ، جعله ربي مدكوكاً منهدماً، مستوياً ملصقاً بالأرض، وكان وعد ربي بخرابه، وخروج يأجوج ومأجوج، وبكل ما وعد به حقاً ثابتاً لا يتخلف، كائناً لا محالة.

إن تطواف ذي القرنين في أنحاء الأرض ذو أثر كبير في التاريخ، فهو تطواف مؤيد بمعونة الله، من أجل مقاومة الفساد الخلقي والفوضى الاجتماعية، وغرس أصول الإيمان والحق والخير، وحمل الناس على منهاجه السديد وخطته الإصلاحية، وبها يعرف ما لذي القرنين الرجل الصالح من آثار طيبة وأعمال صالحة، تشبه أعمال الرسل والأنبياء، وتدل على حب الخير للإنسانية جمعاء.

أسباب الكفر وجزاؤه

إن ميزان العدل الإلهي في غاية الدقة والاعتدال، فأهل العصيان والكفر إنما يعاقبون في الآخرة عقاباً أليماً بسبب ضلال سعيهم في الحياة الدنيا وإشراكهم، وتعاميهم عن الحق، وكفرهم بآيات ربهم ولقائه يوم القيامة، واتخاذهم آيات الله هزواً وسخرية، وهذه الأسباب الأربعة مجتمعة هي التي أدت إلى العقاب الشديد في الآخرة للكافرين المعاندين، وذلك حق وعدل مطلق، قال الله تعالى مبيناً السبب والجزاء للكفر وأهله:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ(١) فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ(٢) فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ(٣) عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا(٤) ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(٥) ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ١٨/٩٩-١٠٦]

من علامات الساعة خروج يأجوج ومأجوج (قوم من البشرية) ففي زمن قبل يوم القيامة: يترك الله الناس يضطرب بعضهم و يختلط مع بعض آخر، فيكثر القتل، وتُفسد الزروع، وتُتلف الأموال، وذلك قبل نفخ الصور، فإذا اقترب موعد القيامة نفخ في الصور: (وهو القرن الذي ينفخ فيه للقيامة).

وهي النفخة الثانية نفخة الصّعق، ويجمع الله الناس جمعاً، بأن يحييهم الله بعد تلاشي أبدانهم وصيرورتها تراباً، ويحضرهم إلى المحشر والحساب جميعاً. والنفخات

(١) يختلط . (٢) نفخة البعث . (٣) غشاء كثيف . (٤) منزلاً . (٥) تقديراً واعتباراً .

ثلاث، أسند الطبري، رحمه الله، إلى أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «الصور: قرن عظيم، ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية- نفخة الصّعق، والثالثة -نفخة القيامة»[1].

ويعرض الله بعد الحشر جهنم ويبرزها إبرازاً واضحاً لكل من كفر بالله، بعد النفخة الثانية أو الثالثة في الصور، حتى يشاهدوا أهوالها، يوم جمعهم لها.

وأوصاف الكفار وأسباب عقابهم أربعة:

أولاً -التعامي عن سماع الحق واتباعه، وترك نظرهم في آيات الله، وعدم تفكرهم فيها، حتى يتوصلوا إلى توحيد الله واتباع أوامره، ولأنهم كانوا لا يطيقون سماع ذكر الله الذي بيَّنه لهم في كتابه، أي إنهم يعطلون وسائل المعرفة، من مشاهدة آيات الله بالأبصار، ويعرضون عن سماع الأدلة المذكورة في كتاب الله تعالى.

ثانياً -عبادة معبودات من دون الله، باتخاذهم أولياء ونصراء ومعبودات من غير الله، كالملائكة والشياطين وبعض البشر، ظناً منهم أن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم العذاب، ونسوا أن الله تعالى أعد لهؤلاء الكافرين العابدين غير الله جهنم منزلاً ينزلون به، كما يعدّ النزل للضيف، بسبب اتخاذهم أولياء (أي معبودين) من دون الله. وهذا تهكم بهم وتخطئة لحساباتهم.

ثالثاً -الجهل والغباء بظنهم أنهم أحسنوا في الدنيا أعمالهم، وهم في الواقع أخسر الناس أعمالاً، وهم الذين ضل سعيهم وعملهم في الدنيا، فعملوا الأعمال الباطلة على غير شريعة مقبولة، وأتعبوا أنفسهم فيما لا نفع فيه، فضيعوا ثمار أعمالهم. وهذا توبيخ شديد لهم وتقريع لهم على سوء اختيارهم.

---

(١) وفي حديث عند البخاري ومسلم أنه ينفخ في الصور المرة الأولى، فيصعق من في السماوات والأرض، ثم ينفخ فيه أخرى .

رابعاً -كفرهم بآيات ربهم ولقائه يوم القيامة، فهم الذين جحدوا في الدنيا بآيات الله التنزيلية، والتكوينية الدالة على توحيده، وهم الذين كذبوا بالبعث والحساب ولقاء الله وما بعده من أمور الآخرة، فحبطت وضاعت أعمالهم التي عملوها، ظانين أنها حسنة، ولا يقام لتلك الأعمال وزن، ولا يكون لها قدر، ولا يعبأ بهم.

ونتيجة لهذه الأسباب الأربعة، كان جزاؤهم الدخول في نار جهنم، بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله، وسخريتهم من رسل الله، ومن معجزاتهم، فإنهم استهزؤوا بهم، وكذبوهم أشد التكذيب، والهزء: الاستخفاف والسخرية.

والخلاصة: إن جزاء الكافرين هو: بسبب إنكار البعث والحشر، والإشراك بالله والجهل، والكفر بآيات الله، والاستهزاء بالرسل والآيات الكونية والتنزيلية، والجزاء أنواع ثلاثة: إحباط أعمال الدنيا، وإهدار الكرامة والاعتبار، والعذاب في نار جهنم.

جزاء المؤمنين وأسبابه

في مقابلة بيان أسباب الكفر وجزاء الكافرين، أورد الله تعالى جزاء المؤمنين وأسبابه، وفرق واضح بين الجزاءين وأسبابهما، فجزاء الكفر كما تقدم: الخلود في نيران جهنم، وجزاء الإيمان والعمل الصالح: الخلود في جنان الخلد. وبواعث الإيمان كثيرة أهمها إدراك شيء من عظمة الله وسعة علمه. وجوهر الإيمان: توحيد الله، فمن رجا لقاء الله، عمل العمل الصالح، وعبد الله وحده، دون أن يشرك به أحداً. قال الله تعالى موضحاً هذه الأسس الخالدة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ(١) نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا(٢) ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا(٣) لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى(٤) لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ(٥) قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا(٦) ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٧-١١٠].

يتميز منهج القرآن الكريم ببيان المتقابلات وعقد الموازنة بينها، لتكون الصورة متكاملة والرؤية واضحة، ويظهر الحق من الباطل، ويتخير المرء ما يروق له، فيكون إما جالباً الخير لنفسه ومعتقها من النار، أو جالباً الشر لذاته وموبقها في النار، وهكذا هنا، بعد أن أوضح الله سبحانه ما أعد للكافرين والأخسرين أعمالاً، ذكر ما أعدّ للمؤمنين، ليظهر التباين، وتقبل النفوس على الحسن، وهذه الآية الواردة في حق المؤمنين، تبيِّن أن أهل السعادة هم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا بما جاء به المرسلون، وعملوا صالح الأعمال، من إقامة الفرائض والمندوبات، ابتغاء رضوان الله، فيكون لهم جنات الفردوس (وهي أعلى الجنة وربوتها وأفضلها) منزلاً معدّاً لهم، مبالغة في إكرامهم.

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة».

ويبقى المؤمنون في الجنة خالدين فيها مقيمين بصفة الدوام، لا يرغبون عنها بديلاً ولا يريدون عنها تحولاً. ثم أخبر القرآن عن سعة علم الله، فقل لهم أيها الرسول: لو كُتبت كلمات علم الله وحكمته، وكان ماء البحار حبراً، والقلم يكتب، لنفد ماء البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك، ولو جيء بمثل البحر بحر آخر وآخر، فإن كلمات

---

(١) أفضل الجنة. (٢) أي تحولاً إلى غيرها. (٣) أي حبراً. (٤) معلوماته. (٥) فني. (٦) عوناً.

الله وأسراره لا تنفد، ولا تضبطها أقلام. ثم حضَّ القرآن على صفة التواضع وإعلان العبودية لله تعالى، فذكر: قل أيها النبي للمشركين في مكة وأمثالهم: ما أنا إلا بشر مثلكم في البشرية، ليس لي صفة الملكية أو شيء من الألوهية، ولا علم لي إلا ما علمني ربي، وعلم الله واسع محيط بكل شيء، لا يحده حد، فمن آمن بلقاء الله وطمع في ثواب الله على طاعته، فليتقرب إلى الله بصالح الأعمال، وليخلص له العبادة، وليجتنب الشرك والوثنية، بعبادة أحد غير الله، فإن الإله المعبود بحق هو الله لاشريك له.

والشرك مرفوض بنوعيه: الشرك الظاهر كعبادة الأوثان، والشرك الخفي كفعل شيء رياءً أو سمعة وشهرة، والرياء: هو الشرك الأصغر، كما جاء في حديث الإمام أحمد عن محمود بن لَبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا، هل تجدون عندهم جزاء».

وسبب نزول آية: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى..﴾ هو ما رواه الحاكم وغيره عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه: فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ وقالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة، فقد أوتي خيراً كثيراً، فنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

وسبب نزول آية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ الآية. هو ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن طاوس قال: قال رجل: يا رسول

الله، إني أقف أريد وجه الله، وأحب أن يُرى موطني، فلم يردّ عليه شيئاً، حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

ضمت الآية بشارة المؤمنين الصالحين بجنان الفردوس العليا، وأخبرت عن سعة علم الله وإحاطته بكل شيء، وعن بشرية محمد والرسل، وعن توحيد الله في الألوهية والربوبية، وحضّ الناس المؤمنين بلقاء الله على العمل الصالح وتجنب الشرك الظاهر والخفي.

تفسير سورة مريم

قصة زكريا عليه السلام

الرغبة في الذرية والإنجاب منزع فطري طبيعي، لأن محبة الولد عاطفة متأصلة في النفس الإنسانية، وقد يكون ذلك أيضاً لمصلحة من أجل وراثة جهد الأب، والعون على شؤون الحياة ومصالح العمل، وقضايا الزراعة، ومتاعب العجز والمرض والشيخوخة. لذا رغب زكريا، عليه السلام، في إنجاب الولد، لا لمصلحة دنيوية، وإنما من أجل وراثة النبوة والعلم الإلهي، والتخوّف من العصبات غير المستقيمين على أمر الله وشرعه وآدابه، فدعا زكريا ربه أن يخلفه ولد من أجل هذا، قال الله تعالى حاكياً هذه القصة في مطلع سورة مريم المكية:

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا[(١)]
۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ[(٢)] مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيًّا[(٣)] ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ[(٤)] مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا[(٥)] فَهَبْ لِي مِن
لَّدُنكَ وَلِيًّا[(٦)] ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا[(٧)] ۝٦﴾ [مريم: ١٩/ ١-٦].

كان لزكريا عليه السلام شركة في خدمة الهيكل، وكانت مريم البتول عليها السلام

(١) دعاء لم يسمعه أحد. (٢) ضعف. (٣) خائباً في وقت ما. (٤) الموالي: هم عصبة الرجل، أقاربه من جهة الأب. (٥) أي لا تلد. (٦) ابناً يلي الأمر بعدي. (٧) مرضياً عندك.

التي نذرتها أمها لخدمة الهيكل من نصيب كفالة زكريا فهو زوج أختها، فلما رأى إكرام الله تعالى لمريم ورزقها من حيث لا تحتسب، دعا أن يرزقه الله تعالى الولد، وهذه هي القصة.

افتتحت سورة مريم بالأحرف المقطعة (كهيعص) للتنبيه لما يذكر في هذه السورة، وتحدي العرب بالإتيان بمثل القرآن، ما دام الكلام القرآني مركباً من حروف الهجاء العربية التي هي مادة تركيب الجملة والكلام العربي نثراً وخطابة وشعراً، فوجود هذه الحروف لمعان معينة، وليس في كتاب الله ما لا يفهم، ثم أعقبت هذه الأحرف بما يلي:

هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك عبده زكريا، الذي كان أحد الأنبياء العظام لبني إسرائيل، وزوجته خالة (عيسى). والمراد بذكر الرحمة: بلوغها وإصابتها وإجابة الله دعاء زكريا. وذلك حين نادى زكريا، أي نادى بالدعاء والرغبة، في حال من إخفاء النداء، لأن الأعمال الخفية أفضل وأبعد عن الرياء، ومنه قول النبي ﷺ فيما رواه أحمد وغيره: «خير الذكر الخفي».

وقال بعض العلماء: يستحب الإخفاء بين العبد ومولاه في الدعاء الذي هو في معنى القبول والمغفرة؛ لأنه يدل من الإنسان على أنه خير، فإخفاؤه أبعد من الرياء، وأما دعاء زكريا وطلبه، فكان في أمر دنيا، وهو طلب الولد، فإنما أخفاه لئلا يلومه الناس في ذلك، وليكون على أول أمره، إن أجيب نال بُغيته، وإن لم يجب لم يعرف أحد بذلك. ويقال: وصف بالخفاء؛ لأنه كان في جوف الليل.

قال زكريا، عليه السلام، في دعائه الخفي: يا رب، لقد صرت فاتر العظام، ضعيف البنية والقوى، هرماً كثير الشيب، ولم أعهد منك إلا إجابة الدعاء، ولم تردني قطّ فيما سألتك، فما كنت خائباً، بل كنت كلما دعوتك استجبت لي. وإني

خفت أقاربي العصبات من بني العم ونحوهم إهمال أمر الدين وتضييعه من بعد موتي، فطلبت ولداً نبياً من بعدي، يحرس بنبوته شأن الدين والوحي، وكانت زوجتي عاقراً لا تلد.

فكانت مسوغات الدعاء ثلاثة: ضعف البدن مع عقم امرأته، وكونه مستجاب الدعاء، وخوفه من ورثته من ضياع الدين بعد موته. ولم يكن خوفه من إرث المال، لأن الأنبياء لا يُورَثون، جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركناه صدقة» . وفي رواية: «نحن معشر الأنبياء لا نورث».

فامنحني وأعطني من جنابك وواسع فضلك ولياً يلي أمر الدين، يكون ولداً من صلبي، يرثني النبوة، ويرث ميراث آل يعقوب، وهي وراثة العلم والنبوة، على الراجح، لا وراثة المال، فيرث ما عندهم من العلم، ويقوم برعاية أمورهم في الدين، واجعله يا رب برّاً تقياً مرضياً عندك في أخلاقه وأفعاله، ترضاه وتحبه أنت، ويرضاه عبادك ويحبونه، ليكون أهلاً لحمل رسالة الدين، وتعليمه وتبليغه، وإقامة شعائره.

وأما يعقوب فهو إسرائيل، وكان زكريا متزوجاً بأخت مريم بنت عمران، ويرجع نسبها إلى يعقوب.

ولهذه الآية نظائر في القرآن الكريم، مثل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/٣٨]. ومثل: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٩] ،

ويلاحظ أن زكريا عليه السلام لما رأى من حاله، إنما طلب ولياً أي ناصراً، ولم يصرح بالولد، لبعد ذلك بسبب عقم المرأة، وكبر سنه. ووصف الولي بأن يكون وارثاً، يرث من آل يعقوب الحكمة والعلم والنبوة، والميراث في هذا كله استعارة.

والخلاصة: إن طلب زكريا وجود ولي يرث العلم والنبوة في غاية السمو والإخلاص والحرص على دوام الخير والفضل الإلهي.

قصة يحيى عليه السلام

من العجائب أو خوارق العادات والمعجزات: ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، وولادة يحيى بن زكريا عليه السلام: من أم عاقر، وأب شيخ كبير، وهذا بحسب توقعات البشر المعتادة والقدرات الشائعة، أما على قدرة الله تعالى العظمى فإن الأمر يهون؛ لأن الخلق والأمر والإرادة الإلهية فورية الأثر، لا يتأخر شيء عن مراد الله إذا شاء، حتى ولو كان المعتاد خلاف ذلك، وهكذا ولد يحيى عليه السلام ببركة دعاء أبيه زكريا، مع أنه كان شيخاً هرماً، وامرأته عاقر لا تلد، قال الله تعالى واصفاً هذا الحادث:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ[١] لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا[٢] وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا[٣] ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا[٤] ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ[٥] فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا[٦] ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٧-١١].

استجاب الله تعالى دعاء زكريا عليه السلام طلب ولي يرثه العلم والنبوة، فقيل له بإثر دعائه: إنّا نبشرك بغلام يولد لك اسمه (يحيى) لم يسبق أحد تسميته بهذا الاسم. قال قتادة: سمي يحيى؛ لأن الله تعالى أحياه بالنبوة والإيمان. وقال بعضهم: سمي،

---

(١) كيف ومن أين يكون؟ (٢) العاقر من النساء: التي لا تلد من غير كِبَر. وكذلك العاقر من الرجال.
(٣) حالة لا تداوى. (٤) سليماً من غير علة. (٥) المصلى أو المعبد. (٦) طرفي النهار.

لأن الله أحيا به الناس بالتدين. وقوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ معناه في اللغة: لم نجعل له مشاركاً في هذا الاسم، أي لم يُسمَّ قبلُ بيحيى. وقال ابن عباس: «لم تلد العواقر قبله مثله».

فتعجب زكريا النبي الرسول من هذه البشارة حين أجيب دعاؤه، وفرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها، مع كبرها وكبر زوجها. وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ معناه: انتهى سنه، وكبر ونحل عظمه، وفقد القدرة على جماع النساء.

قال الله تعالى عن طريق المَلَك مجيباً زكريا عما تعجب منه: الأمر كما قلتُ، سنهب لك ولداً، على الرغم من العقم والهرم، هو علي سهل ميسور، إذا أردتُ شيئاً قلت له: (كن) فيكون، وقد خلقتك ابتداء، وأوجدتك من العدم المحض، ولم تكُ شيئاً قبل ذلك، فإيجاد الولد وتهيئة الرحم، من طريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه.

وهذا دليل على القدرة الإلهية التي لا نظير لها، فإن الله تعالى يسهل عليه كل شيء، وأمر الخلق من العدم أو من طريق التوالد ولو مع وجود الكِبر والعقم، سواء في شأن القدرة الخالقة.

فقال زكريا متعرفاً أمارة أو وقت البشارة بالمولود: يا رب اجعل لي علامة، ودليلاً على وقت وجود الغلام المبشر به، وهو حمل امرأتي، لتستقر نفسي، ويطمئن قلبي بما وعدتني، لأن الحمل كما هو معروف خفي المبدأ، ولا سيما ممن انقطع حيضها في الكبر.

فأجابه الله تعالى مرة أخرى وحقّق مطلبه قائلاً بواسطة المَلَك: علامتك على

وقوع المطلوب المسؤول، وحصول البِشْر فعلاً من الله سبحانه بحمل امرأتك بابنها يحيى: أن يُعتقل لسانك، ويحبس عن الكلام، فلا تقدر على تكليم الناس، ومحاورتهم مدة ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي الخلق، ليس بك آفة أو مرض أو بَكَم أو علة تمنعك من الكلام. وذلك كما جاء في آية أخرى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٤١].

وقوله تعالى: «ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً» معناه صحيح الخلق، سوي من غير مرض ولا علة.

فخرج زكريا على قومه من المحراب: وهو مصلاه الذي بُشّر فيه بالولد. وكان الناس ينتظرونه للصلاة في الغداة والعشي، فأشار إليهم إشارة خفية سريعة، ولم يستطع أن يكلمهم بذلك، مضمونها: أن يقولوا في الصباح والمساء في صلاتي الفجر والعصر: سبحان الله، وأن يذكروا الله، شكراً لله على ما أولاه، وقد كان أخبرهم بما بُشِّر به قبل ذلك. وفي الجملة: إن تعجب زكريا بهذه البشارة في قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ ليست شكاً في قدرة الله تعالى على خلق الأشياء من غير مثال سابق، ولا إنكار لما أخبر الله تعالى به، وإنما كان ذلك على سبيل التعجب والانبهار من قدرة الله تعالى من ولادة ولد من أم عاقر وأب عجوز كبير.

نبوة يحيى عليه السلام في عهد الصِّبا

لا تكون النبوة أو الرسالة والتكليف بمهامها عادة إلا بعد سن الأربعين، ليكتمل العقل والوعي، والنضج الفكري، والكمال الجسدي والعاطفي، واستثناء من هذا المبدأ العام قد تكون النبوة ممنوحة من بداية الحياة، مثل عيسى، عليه السلام، إذ

جعله الله رسولاً، وهو في مهد الطفولة، ويحيى عليه السلام الذي آتاه الله النبوة في عهد الصبا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

لذا بدأ يحيى، عليه السلام، ممارسة مهام النبوة وهو صغير، فكان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب، وكان يعمّدهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا، وقد أخذ النصارى طريقته، وسموه: (يوحنا المعدان).

قال الله تعالى محدداً تكليف يحيى بالنبوة منذ الصغر: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا(١) مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ(٢) وَكَانَ تَقِيًّا(٣) ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ(٤) وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا(٥) ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٩/١٢-١٥].

بعد أن ولد يحيى المولود السعيد الأسعد المبشر لزكريا عليه السلام في سن الشيخوخة، قال الله للمولود: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ﴾ خاطبه الله تعالى بعد أن بلغ المبلغ المقبول أو المعقول الذي يخاطب به الإنسان، فقال له: يا يحيى خذ التوراة المتدارسة، والتي يحكم بها النبيون، والتي هي نعمة على بني إسرائيل، بجد واجتهاد، وعزيمة، وحرص على العمل بها.

ثم أورد الله تعالى ما أنعم به من نِعَم على يحيى عليه السلام وعلى والديه ووصفه بسبع صفات وهي:

- آتيناه أو أعطيناه الحكم والفهم للكتاب والفقه في الدين، والإقبال على الخير، وهو صغير حدث، دون سبع سنين.

- وحناناً من لدنا، أي رحمناه رحمة من عندنا، وأشفقنا عليه وأحببناه، أو تعظيماً من لدنا كما قال عطاء، أو جعلناه ذا حنان، أي رحمة وشفقة ومحبة.

---

(١) رحمة. (٢) بركة. (٣) مطيعاً غير عاص. (٤) كثير البر والإحسان إليهما. (٥) متكبراً، مخالفاً أمر ربه.

- وزكاة أي وجعلناه ذا زكاة، أي تطهير وتنمية في وجوه الخير والبر، أي مطهراً من الدنس والرجس والآثام والذنوب.

- وكان تقياً، أي متجنباً المعاصي، مطيعاً الله تعالى.

- وبراً بوالديه، أي وكثير البر والطاعة لوالديه، متجنباً عقوقهما قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً، فهو مطيع لله ولأبويه.

- ولم يكن جباراً عصياً، أي لم يكن متكبراً على الناس، بل كان متواضعاً لهم، ولم يكن مخالفاً عاصياً ما أمره به ربه، روى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا». وفي رواية أخرى عند الحاكم وغيره عن عبد الله بن عمرو: «كل ابن آدم يأتي يوم القيامة، وله ذنب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا صلوات الله عليه».

وتكميلاً لهذه الأوصاف العالية السامية ليحيى عليه السلام، كان جزاؤه الحسن من الله تعالى هو: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ أي له الأمان من الله في هذه الأحوال الثلاثة: أمان عليه من الله يوم الولادة، فقد أمن مسّ الشيطان له في ذلك اليوم، ويوم الموت، حيث أمن عذاب القبر، ويوم البعث إذا أمن أهوال يوم القيامة وعذابه.

قال سفيان بن عيينة: أوْحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم ولد، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت، فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم، فأكرم الله يحيى بن زكريا، فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾.

قال ابن عطية: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأشبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له، فيبقى العصيان عنه.

نعمت هذه الخصائص لسيدنا يحيى بن زكريا عليه السلام، فإنه انفرد بها، وعَظُم بين الناس بسببها في حال حياته، وبعد استشهاده، لأن اليهود قتلوه مع أبيه زكريا، وهو الملقب بيحيى الحصور، روي أنه لم يواقع معصية صغيرة ولا كبيرة.

قال قتادة رحمه الله: (إن يحيى بن زكريا، عليه السلام، لم يعص الله قطُّ بكبيرة ولا صغيرة، ولا هم بامرأة).

وقال قتادة أيضاً: وكان طعام يحيى صلوات الله عليه العُشْب، وكان للدمع في خدِّه مجارٍ ثابتة.

وكان يحيى ابن خالة عيسى عليهما السلام، وقد التقيا، فقال يحيى لعيسى: «ادع لي، فأنت خير مني، فقال له عيسى: بل أنت ادع لي، فأنت خير مني، سلّم الله عليك، وأنا سلَّمت على نفسي».

حمل السيدة مريم بعيسى عليه السلام

إذا كان خلق يحيى عليه السلام من أبوين كبيرين محل تعجب واستغراب، فإن هناك خلقاً أعجب للناس، هو خلق عيسى عليه السلام الطاهر النقي من غير أب، والخَلْق الأعجب من الأمرين: هو خلق آدم عليه السلام أبي البشر من غير أب ولا أم، وكل ذلك داخل في مضمون قدرة الله الخارقة، الشاملة لإحداث الأشياء وإيجادها من غير مثال سبق، والحديث الآن عن الحالة الثانية وهي حمل السيدة مريم بابنها عيسى عليه السلام من غير أب، قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ(١) مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ

(١) اعتزلت .

حِجَابًا(١) فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا(٢) فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا(٣) ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ
إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ
لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا(٤) ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ
وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا
قَصِيًّا(٥) ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ١٩/١٦-٢٢].

كل قصة في القرآن الكريم محل تأمل وإعجاب، وموضع تجليات لأيادي الرحمن، فيزداد أهل الإيمان إيماناً، بما أخبر الله، ويزداد أهل الشقاوة شقاء، بسبب انعدام التصديق والإيمان بكلام الله وخبره.

وهذه قصة عجيبة، افتتحت بمطالبة نبينا محمد ﷺ بأن يذكر للناس قصة مريم العذراء البتول عليها السلام، الطاهرة المطهرة من الدنس والرجس والفسق، حين اعتزلت الناس وأهلها، وابتعدت عنهم إلى مكان شرقي بيت المقدس، لتتفرغ للعبادة والابتهالات الربانية، والتضرع بإخلاص وخشوع وفراغ قلب لله عز وجل. ومن أجل اتجاه مريم لمكان شرقي اتخذ المسيحيون قبلتهم نحو الشرق.

فاستترت من الناس، واتخذت حاجزاً بينها وبينهم، لئلا يروها حال العبادة، فأرسل الله إليها روح القدس جبريل عليه السلام، أمين الوحي، متمثلاً بصورة إنسان تام الخلقة، لتأنس بكلامه، ولئلا تنفر من محاورته في صورته الملَكية، فظنت أنه يريدها بسوء، كما رُئي جبريل في صفة دحية الكلبي في حوار النبي ﷺ، وفي سؤاله عن الإيمان والإسلام.

قالت مريم للملك الذي تمثل لها بشراً، لما رأته قد خرق الحجاب الذي اتخذته، فأساءت به الظن: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت ذا تقى. قال أبو وائل: علمت أن

---

(١) سِتْراً . (٢) جبريل عليه السلام . (٣) إنساناً تام الخلق . (٤) فاجرة . (٥) بعيداً من أهلها .

التقي ذو نُهْية[1]. سلكت معه مسلكاً ليناً يعتمد على العقل والتقوى والحكمة، فخوَّفته أولاً بالله عز وجل، والاستعاذةُ والتخويف لا يؤثران إلا في التقي. وهذا دليل على عفافها وورعها، حيث تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفاتنة.

فأجابها جبريل بالأسلوب الهادئ نفسه، مهدئاً رَوْعها، ومزيلاً مخاوفها: لست أريد بكِ سوءاً، ولكني رسول من عند الله الذي استعذتِ أو استجرتِ به، بعثني إليك لأهب لك غلاماً زكياً، أي طاهراً من الذنوب، ينمو على النزاهة والعفة. وقد نسب الهبة لنفسه: ﴿لِأَهَبَ﴾ لإجراء الأمر على يده، وبواسطته بأمر الله تعالى. وكأن نفخ الروح الذي فعله مجرد تعاط للأسباب، والحقيقة: أي ليهب لك الله.

فتعجبت مريم مما سمعت، وقالت لجبريل: كيف يكون لي غلام، وعلى أي صفة، يوجد هذا الغلام مني، ولست متزوجة ولم يقربني زوج، ولا يتصور مني الفجور، ولم أك يوماً بغياً، أي زانية، أو مجاهرة مشتهرة بالزنى، وأنا العذراء البتول، والقائمة بعبادة الله قياماً مستقلاً متفرغاً.

فأجابها جبريل الأمين: إن الله قال: سيُوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك زوج، ولا من طريق الفاحشة، وليجعله الله آية أو علامة للناس على قدرته، حيث خلَق آدم من غير ذكر وأنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلَق عيسى من أنثى فقط، وخلق أغلب الناس من الزوجين: الذكر والأنثى. وليكون هذا الغلام رحمة من الله يبعثه لعباده، وطريق هدى لعالم كثير، فينالون الرحمة بذلك، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وكان هذا الأمر قد أبرم به القضاء الإلهي، وقدَّره الله في سابق علمه، لا يتغير ولا يتبدل، أي إن الأمر قد قضي وانتجز، ولا مرد منه.

روي أن جبريل عليه السلام -حين قال لها هذه المقالة- نفخ في جيب درعها

(١) النهية: واحدة النُّهى وهي العقول؛ لأنها تنهى عن القبيح.

(فتحة قميصها) فسرت النفخة بإذن الله تعالى، حتى حملت منها. قال وهب بن منبِّه وغيره:

فحملت الغلام بعد هذه النفخة الروحانية، فلما أحست مريم عليها السلام بذلك، وخافت تعنيف الناس، وأن يظُنّ بها البشر سوءاً، انتبذت، أي تنحّت مكاناً بعيداً حياء وفراراً، على وجهها.

ومكث الحمل في بطن السيدة مريم كالمعتاد الغالب، وهو تسعة أشهر قمرية، ليتغذى الطفل من دم أمه، ويتنشأ بعواطفه محباً غيوراً عليها، متمسكاً بانتمائه إليها، معتزاً بارتباطه بها، يملأ جوانحه عاطفة الأمومة.

ولادة عيسى عليه السلام

إننا لنقدر عالياً تلك المشاعر الجياشة المؤلمة التي أحسّت بها السيدة مريم العذراء البتول، حين اقتراب ميعاد وضع حملها المبارك، وهي المرأة المنقطعة للعبادة، القائمة بحقوق الله تعالى على أتم وجه، وهي من بيت كريم ونسب شريف، إن الناس لا يعذرون من كان أقل شأناً أو رتبة من السيدة مريم، إذا ظهر عليها الحمل، وهي بكر، فما بالك بمريم؟! لقد عانت معاناة شديدة من ظهور بوادر المخاض، فماذا تعمل؟ إنها اعتصمت بالصبر، وادرعت بالإيمان المتين، وفوضت الأمر لله ربها، وتوكلت عليها، وهذه المشاعر الأليمة صوَّرتها لنا الآيات التالية:

﴿فَأَجَآءَهَا[١] ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا
مَّنسِيًّا[٢] ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا[٣] ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ

(١) أجاء: تعدية جاء، معناه: اضطرها. (٢) شيئاً متروكاً مهملاً. (٣) أي نهر ماء صغير.

بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا[١] ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا[٢] فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ١٩/٢٣-٢٦].

بعد اكتمال مدة الحمل بعيسى في بطن أمه، اضطرها المخاض وألجأها وجع الولادة وألم الطَّلْق إلى الاستناد إلى جذع نخلة، لتسهيل الولادة، فتمنت الموت قبل ذلك الحال، أو تكون شيئاً متروكاً محتقراً، أي جعلها في عداد المنسيين حيث لم تخلق ولم تك شيئاً، استحياء من الناس، وخوفاً من ظن السوء بها، ديناً وخلقاً وسمعة وسلوكاً، وقد تظاهرت الروايات أنها ولدته لثمانية أشهر استثناء وخصوصية لعيسى عليه السلام خلافاً للمعتاد أنه لا يعيش ابن ثمانية أشهر.

قال ابن كثير: فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها-أي مريم-عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناسُ أمرها فيه على السداد، ولا يصدّقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية.

في هذه الأزمة والتعرض لآلام المخاض واستناد مريم لجذع نخلة بالٍ يابس ناداها من تحتها عيسى المولود -في رأي مجاهد والحسن وابن جبير وأُبّي بن كعب- أو ناداها جبريل عليه السلام، في قول ابن عباس، من تحت الأكمة أو النخلة، قائلاً لها: لا تحزني، فقد جعل ربك تحتك جدولاً أو نهراً صغيراً، أجراه الله لتشربي منه.

والأصح أن عيسى هو المنادي، ليكون ذلك آية لأمه، وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله فيها مراد عظيم، فإنه يتبين به عذر مريم، ولا تبقى به استرابة، فلذلك كان النداء ألا يقع حزن.

---

(١) صالحاً للاجتناء. (٢) طيبي نفساً.

وأضاف المنادي قائلاً: حركي جذع النخلة، تُسقط عليك رطباً طرياً طيباً، صالحاً للاجتناء والأكل، من غير حاجة إلى تخمير وصناعة، وهذه آية أخرى، بقدرة الله.

قال الزمخشري: كان جذعَ نخلة يابسة في الصحراء، ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة، وكان الوقت شتاء. فكلي من ذلك الرطب، واشربي من ذلك الماء، وطيبي نفساً، ولا تحزني، وقري عيناً برؤية الولد النبي، فإن الله قادر على صون سمعتك، والإرشاد إلى حقيقة أمرك. قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

وتابع المنادي قائلاً: فإن رأيت إنساناً يسألك عن أمرك وأمر ولدك، فأشيري له بأنك نذرت لله صوماً عن الكلام، أي صمتاً، بألا أكلم أحداً من الإنس، بل أكلم الملائكة، وأناجي الخالق.

ومعنى الآية: أن الله تعالى أمر مريم -على لسان جبريل أو ابنها عليهما السلام- بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها في ذلك ليرتفع عنها خجلها، وتتبين الآية والمعجزة، فيظهر عُذرها. وظاهر الآية أنها أبيح لها أن تقول هذه الكلمات التي في الآية: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

كان هذا الصوم صوماً عن الطعام والكلام، لظرف خاص، فإن السكوت يوحي بوجود لغز في الموضوع، يستدعي استغراب الناس، ثم إدراك سبب الصيام عن الكلام بالذات. قال جماعة: أمرت مريم بهذا ليكفيها عيسى الاحتجاج.

أما في الأحوال العادية فلا يجوز في شرعنا الصوم عن الكلام، ولا يجوز في شرعنا أن ينذر أحد صوماً عن الكلام، وكان ابن مسعود يأمر من فعل ذلك بالنطق والكلام.

لكن من آداب الصوم الشرعي الإمساك عن الكلام القبيح، قال النبي ﷺ فيما يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «إذا كان أحدكم صائماً، فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه، فليقل: إني صائم».

كلام عيسى عليه السلام في المهد

ظهرت معجزة عيسى عليه السلام حينما نطق بعد ولادته، وهو مولود صغير، ما يزال في المهد والفراش، وكان ذلك خير دليل ألقى الطمأنينة في قلب أمه المحتارة والقلقة على هذا الحدث، فإنها علمت أن هذا الطفل يكفيها مهمة الحجاج والدفاع عن سمعتها، وأنه سيُعرف عذرها، فتشجعت على المجيء لقومها وبلدها، وفي وسط اجتماعي عام نطق الطفل كالخطيب الفصيح، وهذا ما توضحه الآيات التالية:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا(١) ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ(٢) صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى(٣) وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٢٧-٣٣].

روي أن مريم عليها السلام لما اطمأنت بما رأت من الآية الباهرة، وهو نطق ابنها الوليد الطفل، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القَصِي الذي انتبذت فيه. وروي أن قومها خرجوا في طلبها، فلقوها وهي مقبلة.

أتت السيدة مريم بطفلها الوليد إلى قومها، بعد أن استسلمت لقضاء الله وأمره،

(١) عظيماً منكراً. (٢) رضيعاً في مضجع الأولاد. (٣) محسناً إليها.

وبعد أن برئت من نفاسها، منتقلة من المكان القصي البعيد، فلما رأوا الولد معها، حزنوا وأعظموا الأمر واستنكروه بشدة، وقالوا: يا مريم، لقد فعلت أمراً فرياً عظيماً شنيعاً؛ خارجاً عن المألوف، وهو الولادة بلا أب، وكانوا أهل بيت صالحين.

يا أخت هارون أخي موسى، لأنها كانت من نسله، كما تقول لرجل من قبيلة: يا أخا فلانة. أو يا شبيهة هارون في العبادة، فليست مريم إذن أختاً معاصرة لهارون أخي موسى، لأن بينهما في المدة ست مئة سنة. كيف تأتين بهذا؟ فلم يكن أبوك فاجراً عاصياً، ولم تكن أمك زانية بغياً.

والمعنى: ما كان أبوك ولا أمك أهلاً لهذه الفعلة، فكيف جئت بها أنت؟ فأشارت مريم إلى عيسى الطفل الوليد أن يكلمهم، مكتفية بالإشارة لأنها نذرت الصوم عن الكلام، فقالوا لها متهكمين بها، ظانين أنها تهزأ بهم وتحتقرهم: كيف نكلم طفلاً صبياً ما يزال في المهد، أي فراش الرضيع؟

وحينئذ ظهرت المعجزة الكبرى بنطق الرضيع، كأنه خطيب الجماهير، فوصف نفسه بتسع صفات، وهي:

- قال عيسى: إني عبد تام العبودية لله الكامل الصفات، الذي لا أعبد غيره، وهذا أول اعتراف بعبوديته لربه.

- آتاني الكتاب، أي أعطاني التوراة أو التوراة والإنجيل، وقدّر لي في الأزل أن أكون ذا كتاب.

- وقدّر لي أن أكون نبياً، وفي هذا تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة، لأن الأنبياء عادة أطهار، ليسوا أولاد زنا.

- وصيرني الله مباركاً، أي نافعاً، قضّاء للحوائج، معلماً للخير، هادياً إلى الرشاد في أي مكان وجدت.

- وأوصاني، أي أمرني بأداء الصلاة التي تصل العبد بربه، وبإيتاء الزكاة التي هي طهرة للمال، وعون للفقير والمسكين، ما دمت على قيد الحياة.

- وجعلني باراً بوالدتي مريم، وأمرني ببرها وطاعتها والإحسان إليها بعد طاعة ربي؛ لأن الله كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين. وهذا أيضاً دليل واضح على نفي الزنا عنها، إذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعظم مأموراً بتعظيمها. وقوله: (بوالدتي) بيان لأنه لا والد له، وبهذا القول برّأها قومها.

- ولم يجعلني الله جباراً شقياً، أي متعاظماً مستكبراً عن عبادة ربي وطاعته وبر والدتي، فأشقى بذلك.

- والسلام علي، أي والسلامة والأمان علي من كل سوء، يوم الميلاد، فلم يضرني الشيطان في ذلك الوقت، ولا أغواني عند الموت، ولا عند البعث، فأنا في أمان لا يقدر أحد على ضري في هذه الأوقات الثلاثة. وهذه الصفة أيضاً إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق، من جملة خلق الله، الذي يحيا ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكنه موصوف بالسلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد.

وفي قصص هذه الآية -عن ابن زيد وغيره- أنهم لما سمعوا كلام عيسى عليه السلام، وهو في المهد، أذعنوا، وقالوا: إن هذا لأمر عظيم.

وروي أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية، ثم عاد إلى حالة الأطفال، حتى نشأ على عادة البشر.

حقيقة عيسى عليه السلام

تتفاوت أنظار الناس عادة في العظماء والقادة، فمنهم المبالغ الخارج عن الحق والحقيقة، إما بحسن نية أو بسوء نية، أو بغباء وجهل، ومنهم المعتدل في كلامه وإصدار أحكامه، وهذا شأن العلماء والعقلاء وأصحاب النظر السوي، حتى لو كانوا من العوام. ومن بين أولئك السادة الكبار الذين اختلف الناس في شأنهم عيسى عليه السلام، وها هو القول الحق فيه، من غير خروج على الواقع والمألوف، ويتبين ذلك في الآيات التالية:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ(١) ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا(٢) فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ(٣) لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ(٤) وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ(٥) إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٣٤-٤٠].

المعنى: قل يا محمد لمعاصريك من أهل الكتاب: ذلك الذي هذه قصته المتصف بالأوصاف المذكورة في الآيات السابقة، هو عيسى ابن مريم، والكلام فيه هو القول الحق والوصف الصادق الذي لا شك فيه، وبه تتبين حقيقة عيسى عليه السلام، فهو بشر، لا إلهٌ، ولا ابنُ الإله، ولا ثالثُ ثلاثة، كما جاء في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ٤/ ١٧١].

ولا يصح ولا يستقيم عقلاً وفعلاً أن يكون لله ولد، لأنه إله، لا حاجة له

---

(١) أي يشكون و يختلفون. (٢) أراد إحداثه. (٣) أي فهلاك وعذاب. (٤) أي ما أسمعهم وأبصرهم !!
(٥) الندامة الشديدة.

للولد، وهو حي أبداً لا يموت، تنزه وتقدس الله عن مقالتهم هذه، وعن كل نقص من اتخاذ الولد وغيره، إنه إذا أراد شيئاً أوجده فوراً، فإنه يأمر به، فيصير كما يشاء، بقوله: (كن) فيكون. فمن كان بصفة الألوهية الخالق المبدع، كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ لأن ذلك من أمارات النقص والحاجة.

ولقد أمر عيسى عليه السلام أتباعه وقومه وهو في المهد بقوله: إن الله ربي وربُّكم، فاعبدوه وحده لا شريك له، وهذا الذي جئتكم به عن الله هو الطريق القويم، الذي لا اعوجاج فيه، ولا يضل سالكه، من اتبعه رشد وهُدي، ومن خالفه ضل وغوى.

ثم أخبر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ عما آل إليه أمر عيسى عليه السلام، وهو أن بني إسرائيل اختلفوا أحزاباً، أي فرقاً، في عيسى، بعد بيان أمره وإيضاح حاله، وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه. فويل، أي هلاك وعذاب شديد للذين كفروا بحقيقة عيسى، من مشهد يوم عظيم، هو مشهد يوم القيامة، حيث يجتمع الناس فيه، فيهلك الكافر الظالم، وينجو المؤمن العادل في نظرته وعقيدته.

وفي مشهد القيامة، ما أقوى سمع الكفار وأشد بصرهم، يوم يأتون إلى ربهم للحساب والجزاء، ويرون ما يصنع بهم من العذاب، فإن إعراضهم يومئذ يزول، ويقبلون على الحقيقة، حيث لا ينفعهم الإقبال عليها، وهم في الدنيا صمٌ عمي، إذ لا ينفعهم النظر مع إعراضهم، ولكنّ هؤلاء الظالمين الكافرين يعرفون الحق في الآخرة، أما في الدنيا فهم في ضلال مبين، أي في متاهة واضحة وجهلٍ مسلك بيِّن في نفسه، وإن لم يتبين لهم.

ثم أمر الله نبيه بإنذار الكفار لهدايتهم وتحقيق مصلحتهم، ومفاد الإنذار: أنذر أيها الرسول الخلائق من المشركين وغيرهم، يوم الحسرة، أي التحسر فيه، فالمسيء

يتحسر على إساءته، والمحسن على عدم استكثاره من الخير، حين يقضى الأمر، أي يفرغ من الحساب، وتطوى الصحف، ويُفصل بين أهل الجنة وأهل النار، فيصير الأولون إلى الجنة، والآخرون إلى النار، ولكنهم الآن في الدنيا غافلون عما أنذروا به من أهوال يوم الحسرة والندامة، وغافلون عما يعمل بهم في ذلك اليوم، وعما يلاقونه من أهوال، وهم لا يصدِّقون بالقيامة والحساب والجزاء. وعند ذلك تصيب أهل النار حسرةٌ لا حسرة مثلها، فيكون يوم الحسرة: هو يوم القيامة، ويكون الكفار من أول أمرهم في سخط الله وأمارته. وأعلمهم أيها الرسول بأن الله يرث الأرض ومن عليها، فلا يبقى بها أحد من أهلها، يرث الأموات ما خلّفوه من الديار والمتاع، ثم إلى الله يردون يوم القيامة، فيجازي كل واحد بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وإذا أدرك الناس أن سلطان الحساب والجزاء ينفرد به الله تعالى، وجب عليهم أن يعملوا في الدنيا بما وجههم إليه في القرآن الكريم، ولا يبقى هناك في الآخرة أمل لأحد في الإنقاذ والنجاة من غير طريق الله تعالى.

قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه

الصراع بين الأنبياء والرسل وبين أقوامهم من أجل إبطال عبادة الشرك والوثنية قديم من عهد نوح عليه السلام، وكان للرسل مواقف متعددة وأساليب مختلفة في الدعوة لتوحيد الله تعالى، والتخلص من عبادة الأصنام والأوثان؛ لأنها عبادة باطلة لا تتفق مع الكرامة الإنسانية، ولا مع مقتضيات العقل والفكر السديد. وكان لإبراهيم أبي الأنبياء موقفان مشهوران في هذا الصدد: موقف مع قومه حيث دمر لهم الأصنام، وموقف مع أبيه حيث ناقشه بالحسنى، والسبب في تنبيه القرآن لهذين

الموقفين أن إبراهيم أبو العرب، وكانوا معترفين بملته ودينه، فوّجه القرآن قريشاً ومن على شاكلتهم إلى منهج إبراهيم في دعوته للتوحيد، من خلال حجاجه مع أبيه آزر، كما توضح الآيات التالية:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا(١) ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا(٢) ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا(٣) ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا(٤) ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٤١-٤٦].

هذه هي القصة الثالثة في سورة مريم بعد قصة زكريا ويحيى، وعيسى ومريم عليهم السلام، وهي قصة إبراهيم في جداله العقلي مع أبيه الوثني، ذكرت القصة لأهداف كثيرة، تفيد في تأييد دعوة النبي ﷺ قومه في مكة لتوحيد الله، ونبذ عبادة الأصنام.

وفاتحة القصة: واذكر يا محمد الرسول إبراهيم الصدّيق النبي، خليل الرحمن، وأب الأنبياء، فإنه امتاز بقوته في الحق وتصديقه بآيات الله وصدقه في دعوته ورسالته. اذكره واتل خبره في القرآن في موقفه العظيم حين قال بلطف وعقل، وتقديم برهان مفحم لأبيه آزر: يا أبي، وإن كنت ابنك وأصغر سناً منك، قد بلغني من العلم القاطع والدليل الساطع من الله تعالى ما لم يبلغك، ولم تطلع عليه، فاتبعني في دعوتي لتوحيد الله رب العالمين، وترك الشرك والوثنية، أرشدك طريقاً سوياً مستقيماً، موصلاً لنيل المطلوب، منجياً من كل مكروه.

يا أبي العزيز، لا تطع الشيطان في عبادتك الأصنام، فإنه داع لعبادتها، وهو كثير العصيان لربه، مخالف أمره، مستكبر عن عبادته، حين ترك أمر الله في السجود لأبينا

---

(١) طريقاً مستقيماً. (٢) كثير العصيان. (٣) قريناً تليه ويليك في النار. (٤) اجتنبني.

آدم عليه السلام، وقد لعنه الله وطرده من رحمته، وأبقاه لفتنة الناس، ليعرف المجاهد المؤمن المتخلص من وساوسه، والمنقاد لأباطيله.

يا أبي، إن أخشى أن يصيبك عذاب من الله على شركك وعصيانك لما أطلبه منك، فتكون بذلك موالياً للشيطان، وقريناً معه في النار، بسبب موالاته، وهذا تحذير شديد من الابن لأبيه من سوء العاقبة والمصير، وإنذار بالشر، حيث يتبع وساوس الشيطان وإغراءاته، ولا يكون له مولى ولا ناصر إلا إبليس، مع أنه لا سلطان له على شيء، ولا يستطيع حماية نفسه ولا غيره من عذاب الله، فيكون اتباع الشيطان مجلبة للضلال، وموقعاً في العذاب، كما جاء في آية أخرى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾ [النحل: ١٦/ ٦٣].

وعلى الرغم من هذا الأدب الجم وإيراد البراهين الدالة على بطلان عبادة الأوثان في نقاش إبراهيم لأبيه، أجاب الأب ابنه جواباً حاداً متسماً بالإصرار والعناد، ومهدداً بالقتل، فقال له: أمعرض أنت عن آلهتي الأصنام إلى غيرها يا إبراهيم، فإنك إن لم تنته عن ذلك الموقف وعن السب والشتم والتعييب، لأرجمنك بالحجارة أو لأشتمنك، وفارقني زمناً طويلاً أو مدة من الدهر، روي أن آزر كان ينحت الأصنام وينجزها بيده ويبيعها ويحض عليها، فأقر ابنه إبراهيم أولاً على رغبته عنها، ثم أخذ يتوعده.

لقد قابل الأب ابنه بالعنف، فلم يقل: يا بني، كما قال إبراهيم: يا أبت، وقابل وعظه الرقيق وبرهانه المقنع بالتهديد والوعيد بالقتل، أو الضرب بالحجارة، وفي ذلك إيناس للنبي ﷺ عما يلقاه من أذى قومه، وغلظة عمه أبي لهب، وعنجهية أبي جهل فرعون هذه الأمة.

وهذا الموقف الإيجابي من إبراهيم والسلبي من أبيه: له فائدته الكبرى في حساب التاريخ، ولا سيما في عصرنا حيث تخلص أغلب البشر من رجس الوثنية والشرك، وظهر الحق، وبطل الباطل.

اعتزال إبراهيم عليه السلام قومه

لما يئس إبراهيم الخليل من استجابة أبيه آزر لدعوة التوحيد وترك عبادة الأصنام، وعد أباه بالاستغفار له بناء على موعد سابق بالإيمان، واعتزل قومه، فوهب الله له ولدين نبيين إسحاق ويعقوب، رحمة من الله وفضلاً، واستمر في هداية آخرين، لأن الرسول النبي لا يتوقف عن دعوته والقيام بواجبه، وهذا ما دونته الآيات الآتية:

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا[1] ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ[2] عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٤٧-٥٠].

بعد أن هدد آزر ابنه إبراهيم عليه السلام بالرجم بالحجارة، وطلب هَجْره والبعد عنه، قال إبراهيم قولاً لطيفاً ليناً: سلام عليك سلام مسالمة ومفارقة أو وداع وترك، لا سلام تحية، فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، لحرمة الأبوة، سأدعو الله تعالى في أن يهديك، فيغفر لك بإيمانك، إن ربي متلطف بي، يكرمني، ويجيبني إذا دعوته، وإنما استغفر له إما قبل أن يوحى إليه أن الله لا يغفر لكافر، وإما لوعد سابق من الوالد أن يؤمن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٤].

(١) الحفي: المتلطف المبالغ في الإكرام. (٢) اللسان في كلام العرب: القالة الذائعة، كانت في خير أو شرّ.

وتبين له أنه عدو لله إما بموته على الكفر، كما روي، وإما بأن أوحى الله إليه الختم على قلبه.

وقول إبراهيم عن ربه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ شكر من إبراهيم عليه السلام لنعم الله تعالى عليه.

ثم قرر إبراهيم عليه السلام الهجرة إلى بلاد الشام، وأعلن أنه يعتزل قومه ويبتعد عنهم، ويهاجر بدينه عنهم وعن معبوداتهم، حين لم يقبلوا نصحه، وأعلن أيضاً أنه يعبد ربه وحده لا شريك له، ويجتنب عبادة غيره، وقوله: ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تعبدون. وأضاف قائلاً: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أي لعلني لا أشقى بدعاء ربي، وفيه تعريض بشقاوتهم في دعاء آلهتهم وعبادتها. وقوله: (عسى) على سبيل التواضع وهو ترجّ، في ضمنه خوف شديد.

ثم أخبر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ عما عوَّض به إبراهيم عليه السلام لمّا رحل عن بلد أبيه وبلد قومه، ومضمون الخبر: لما اعتزل إبراهيم الخليل أباه وقومه، وترك أرضه ووطنه، وهجر موطن عبادة غير الله، وهاجر في سبيل الله من أرض نينوى بالموصل إلى أرض بيت المقدس، حيث يقدر على إظهار دينه، لما قام بهذه الهجرة أبدله الله خيراً من قومه، ووهب له ابنه إسحاق، وحفيده يعقوب بن إسحاق، وجعل الله كل واحد من إسحاق ويعقوب نبياً أقر الله بهما عينيه، فكل الأنبياء من سلالتهما، وكل الأديان تحترم إبراهيم وتحبه، وتحب إسحاق ويعقوب.

لذا أخبر الله تعالى عن مزيد فضله لآل إبراهيم، فقال: وأعطيناهم من فضلنا ورحمتنا النبوة والمال والعلم والمنزلة، والشرف في الدنيا والنعيم في الآخرة، كل ذلك من رحمة الله، وجعلنا لهم لسان صدق علياً، أي حققنا لهم الثناء الباقي عليهم آخر الأبد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. وذلك إجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام

الذي قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٤]. وإنما قال: (علياً) لأن جميع الملل والأديان والأمم والشعوب يثنون عليهم، ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وبما أن العرب من سلالة إبراهيم عليه السلام، وتدعي أنها على دين إبراهيم، ذكر الله تعالى لهم قصته، ليعتبروا ويتعظوا.

والتاريخ حافل بآثار إبراهيم وآل إبراهيم في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وتعظيمه، وفي حمل الناس على مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال. وعلى الرغم من مجابهة الأقوام لإبراهيم، فإن الله تعالى نفعه وعوّضه أولاداً أنبياء، وذلك من أعظم النعم في الدنيا والآخرة.

خصائص موسى وإسماعيل عليهما السلام

الأنبياء والرسل الكرام: هم الصفوة العليا المختارة من البشر، ليكونوا قدوة حسنة طيبة للناس في العقيدة والعبادة والأخلاق والسلوك والسمعة، وهذه القدوة لها تأثيرها البالغ في ترغيب الناس بدعوتهم، والانضمام تحت رايتهم، وقد ذكر الله تعالى صفات بعض الأنبياء في سورة مريم بنحو موجز، وهم موسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام، ثم أبان ما تميزوا به من نعمة الله عليهم، وهذه آيات كريمة توضح لنا الصفة البارزة لموسى وهارون وإسماعيل عليهم السلام، فقال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا[1] وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ

---

(١) مصطفىً مختاراً .

ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا[1] ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٥١-٥٥].

هذه نبذة طريفة عن خواص بعض الأنبياء، لتكون أنموذجاً رائداً للقدوة الطيبة للعرب الجاهليين، بعد الحديث عن إبراهيم الخليل أبي الأنبياء وعن ذريته، ليحملهم هذا الوصف على اتباع خط النبوة ومنهج الأنبياء كلهم في توحيد الله، وترك عبادة الأصنام.

بدأ الحق تعالى هذه الآيات بذكر موسى بن عمران أحد الأنبياء أولي العزم، صلوات الله عليه، على جهة التشريف، وفي الآية أمر من الله تعالى بالحديث عن موسى، يتضمن: واذكر يا محمد الرسول في الكتاب المنزل عليك، واتل على قومك ما تميَّز به موسى بن عمران من صفات خمس وهي:

- إنه كان مخلَصاً، أي مختاراً مصطفىً، ومطهراً من الآثام والذنوب، كما قال الله تعالى في شأنه: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٤].

- وكان نبياً رسولاً، اجتمع له الوصفان من الرسل أولي العزم، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وآلهم وسلم، والرسول: كل من أوحى الله إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي: كل من أوحي إليه بشرع يخبر به عن الله قومه، وليس معه كتاب كيوشع عليه السلام.

- وكلمناه تكليماً من جانب جبل الطور في سيناء عن يمين موسى وهو الأصح أو عن يمين الجبل نفسه، أثناء مجيئه من مدين متجهاً إلى مصر، فهو كليم الله بعدئذ، وصار رسولاً نبياً، وأنزلنا عليه كتاب التوراة.

---

(١) مناجياً لنا .

- وقربناه نجياً: هو التقريب بالتشريف بالكلام والنبوة، أي أدنيناه إدناء تشريف وتقريب منزلة حتى ناجيناه أو كلمناه، فقوله تعالى ﴿نَجِيًّا﴾ من المناجاة في المخاطبة، جعلته في العالم الروحي قريب المنزلة من الله تعالى.

- ومنحناه من فضلنا ونعمتنا، فجعلنا أخاه هارون نبياً لكونه أفصح لساناً وألين عريكة، حين سأل موسى ربه أن يجعله نبياً قائلاً: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٢٩-٣٢]. وفي آية أخرى طالب به حين إرساله لفرعون: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٣٤].

قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾. قال ابن عباس: كان هارون أكبر من موسى بأربع سنين.

ثم أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يذكر في القرآن للعرب خبر وصفات إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام، الذي هو والد عرب الحجاز كلهم، وأب العرب اليوم، وهم اليمنية والمضرية، وصفاته أربع جعلته أيضاً من بركة لسان الصدق والشرف المضمون بقاؤه على آل إبراهيم عليه السلام، وهو الذبيح في قول الجمهور:

إنه كان صادق الوعد، مشهوراً بالوفاء بالعهد والوعد، فما وعد وعداً مع الله أو مع الناس إلا وفّى به، فكان لا يخالف شيئاً مما يؤثر به من طاعة ربه. وصف بصدق الوعد؛ لأنه كان مبالغاً في ذلك. روي أنه وعد رجلاً في موضع، فجاء إسماعيل عليه السلام، وانتظر الرجل يومه وليلته، ثم جاء الرجل في اليوم الآخر، فقال له: ما زلت في انتظارك هنا منذ أمس.

- وكان رسولاً نبياً جامعاً بين هذين الوصفين كأبيه إبراهيم، وكموسى عليهم

السلام، فكان رسولاً إلى قبيلة جُرْهم في مكة، لتبليغهم شريعة إبراهيم، وإخبارهم بما أنزل الله تعالى. وهذا دليل على أنه لا يشترط إنزال كتاب مستقل لكل رسول.

- وكان إسماعيل يأمر أهله وأمته وعشيرته بالصلاة والزكاة، فهما فريضتان جوهريتان في كل ملة، فالصلاة لأداء حق الله تعالى، والزكاة لأداء حق العباد المحتاجين.

- وكان إسماعيل عند ربه مرضياً، أي رضياً زاكياً صالحاً، مرضي العمل غير مقصر في طاعة ربه، فعلى المؤمن الاقتداء به.

صفة إدريس وبعض الأنبياء الآخرين

أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بأن يذكر لقومه العرب المكيين صفة إدريس وصفات بعض الأنبياء الآخرين من ذرية آدم ونوح، وإبراهيم وإسرائيل، ليعلموا ما امتاز به هؤلاء الصفوة المختارة من طاعة الله وعبادته ومبادرتهم للخضوع لعظمة الله والسجود له، وكثرة البكاء والنحيب خوفاً من ربهم. وهذا وحده كاف لحمل الناس على التشبه بهم، والتزام منهجهم وطاعتهم، في رسالاتهم المكلفين بتبليغها، من أجل إسعاد البشر، وتحقيق الخير لهم. قال الله تعالى واصفاً خصائص هؤلاء الأنبياء:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا(١) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا(٢) ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ١٩/٥٦-٥٨].

إدريس عليه السلام: هو من أجداد نوح عليه السلام، وهو أول نبي بُعث إلى

(١) اصطفينا للنبوة . (٢) باكين .

أهل الأرض، فيما رُوي، بعد آدم صلوات الله عليه، وهو أول من خط بالقلم، وكان خيَّاطاً، ووصفه الله تعالى بالصدق.

أمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يذكر في القرآن صفة إدريس عليه السلام، ووصفه ربه بصفات ثلاث، وهي:

- إنه كان صدِّيقاً،أي كثير الصدق، قوي التصديق بآيات الله تعالى.

- وكان رسولاً نبياً، جامعاً بين الوصفين، موحى إليه بشرع، وأمر بتبليغه إلى قومه، وقد أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة، كما في حديث أبي ذر.

- ورفعه الله مكاناً علياً، أي أعلى قدره، وشرَّفه بالنبوة، وجعله ذا منزلة عالية، روى مسلم في صحيحه في حديث الإسراء والمعراج: «أن رسول الله ﷺ مرّ به في ليلة الإسراء، وهو في السماء الرابعة». وسبب رفع مكانته: أنه كان كثير العبادة، يصوم النهار، ويتعبد في الليل. قال وهب بن منبِّه: كان يرفع لإدريس عليه السلام كل يوم من العبادة مثلما يرفع لأهل الأرض في زمانه. لقب إدريس بذلك لكثرة درسه.

وبعد أن قص الله تعالى في سورة مريم قصص زكريا ويحيى وعيسى ومريم وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس، أخبر الله سبحانه أن أولئك المذكورين في هذه السورة، وجميع الأنبياء: أنعم الله عليهم بنعمة النبوة والقرب منه، وعظم المنزلة لديه، واختارهم واجتباهم من بين عباده، وهداهم وأرشدهم ليكونوا المثل الأعلى للبشرية، والأسوة الحسنة للناس جميعاً، في عبادة الله وطاعته، والتأسي بطريقتهم ومنهجهم وأخلاقهم.

وأولئك الأنبياء: هم من ذرية آدم عليه السلام أبي البشر الأول، ومن ذرية أولئك الفئة المؤمنة الذين حملهم نوح أبو البشر الثاني معه في السفينة، ما عدا إدريس

عليه السلام الذي كان سابقاً على نوح، ومن ذرية إبراهيم وهم إسحاق وابنه يعقوب، وإسماعيل عليهم السلام، ومن ذرية نبي الله إسرائيل (أي يعقوب) وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم عليهم السلام.

وهم أي الأنبياء أيضاً من جملة من هداهم الله إلى الإسلام الذي هو الدين الحق المشترك بين جميع الأنبياء، وممن اختارهم للنبوة والكرامة والاصطفاء. وكانوا إذا سمعوا آيات الله المتضمنة حججه ودلائله وبراهينه وشرائعه المنزلة، سجدوا لربهم خضوعاً لذاته، وانقياداً لأمره، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، وهم باكون خشية من الله ومن عذابه. والبكي: جمع باكٍ.

وإذا كان جميع الأنبياء قد سجدوا لله تعالى، كان السجود مشروعاً عند قراءة هذه الآية، لذا أجمع العلماء على شرعية سجود التلاوة هنا، اقتداء بالأنبياء، واتباعاً لهم.

قال رسول الله ﷺ فيما رواه ابن ماجه: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا».

حقاً كان هؤلاء الأنبياء جميعاً قدوة رفيعة صالحة، وأسوة حسنة للبشرية في سلامة العقيدة، وكثرة العبادة، وصحة الدين، ونقاوة الأصل، وطهارة النسب والمعدن، واستقامة المنهج والطريق، ورفعة الشأن والخلق.

ألا يجدر بالبشر العاديين أن يكونوا أتباعاً لهؤلاء الأنبياء، لا لغيرهم في صحة الاعتقاد، وتقويم الخلق والسلوك، وتقديم أصلح النظريات لتقدم البشرية على منهج النبوة ووحي الإله.

أحوال أتباع الأنبياء

كان الناس إزاء دعوات الأنبياء بأحوال مختلفة ومواقف متباينة، فمنهم من آمن برسالاتهم واتبع دعوتهم، ومنهم من جحد بها وعارضها، ومنهم المتوسط الذي آمن ولم يعمل، وصدّق ولم يلتزم. وهؤلاء هم العصاة والفسّاق، وهذا التنوع في اتّباع الأنبياء دليل على صدقهم؛ لأن رسل الإصلاح لا يلقون عادة الاستجابة من جميع الناس، وهذا ما أبانته الآيات الكريمة:

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ(١) أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا(٢) ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا(٣) ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا(٤) إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم: ١٩/٥٩-٦٣].

بعد أن وصف الله تعالى الأنبياء بالإنابة والطاعة والسجود لله والبكاء خوفاً من الله، ذكر موقف الناس من هؤلاء الأنبياء، فإنهم لم يكونوا جميعاً على المستوى المطلوب، لقد جاء خلْف سوء من بعد الأنبياء عليهم السلام، مخالفون وكافرون، ومقصرون وفسّاق، تركوا الصلاة المفروضة عليهم، وآثروا اتباع شهواتهم وأهوائهم بارتكاب المحرمات، على طاعة الله، فاقترفوا الزنى، وشربوا الخمر، وشهدوا شهادة الزور، ولعبوا القمار، بل وتأولوا النصوص عبثاً ولهواً وجهلاً، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها. فهؤلاء لهم جزاء شديد، إنهم سيلقون غياً، أي شراً وخيبة وخساراً يوم القيامة، لارتكابهم المعاصي، وإهمال الواجبات، فالغي: هو الخسران، والوقوع في الورطات، وإضاعة الصلاة: الكفر والجحود بها أو إهمالها وتأخيرها عن أوقاتها.

---

(١) الخلف: بسكون اللام إذا كان الآتي مذموماً. وبفتح اللام: القرن الذي يأتي بعد آخر يمضي. (٢) جزاء الغي. (٣) آتياً منجزاً. (٤) فضولاً من الكلام.

لكن هناك استثناء، فمن هؤلاء المقصرين: من تاب مما فرط به من ترك الصلوات، واتباع الشهوات، فرجع قريباً إلى طاعة الله، وآمن به إيماناً قوياً ثابتاً، وعمل عملاً صالحاً، فأولئك يدخلون جنة ربهم، وتغفر لهم خطيئاتهم، لأن «التوبة -أو الإسلام- تجبُّ ما قبلها» ولا ينقص من أجورهم شيء، وإن قل العمل، وتقدّمت السن، فضلاً من الله ورحمة.

وأوصاف الجنات التي يحظى بها التائبون من ذنوبهم ثلاثة:

- إنها جنات عدن، أي إقامة دائمة، وعد الرحمن بها عباده بظهر الغيب، دون أن يروها، إن وعد الله لآتٍ منجز لا يُخلَف. وقوله سبحانه: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾. أي أخبرهم من ذلك بما غاب عنهم، وفي هذا مدح لهم على سرعة إيمانهم وقرارهم إذ لم يعاينوا. والمأتي: اسم مفعول مثل محكي. وقال جماعة من المفسرين: هو مفعول في اللفظ بمعنى: آتٍ. والنظر الأول أصوب، كما قال ابن عطية.

- ولا يسمع العباد الأبرار أهل الجنة في الجنة لغواً، أي كلاماً ساقطاً، أو تافهاً لا معنى له، أو هذراً لا طائل تحته. لكن يسمعون سلاماً: وهو تحية الملائكة لهم في كل الأوقات، والسلام يشعرهم بالأمان والاطمئنان، وهما منتهى الراحة والسعادة.

- وللعباد الأبرار رزق دائم في الجنة، يأتيهم ما يشتهون من الطعام والشراب مرتين في مقدار اليوم والليلة من الزمان، لأنه ليس هناك ليل ولا نهار، وإنما بمقدار طرفي النهار في الدنيا، أي بكرةً وعشياً، وهو وقت الغداء صباحاً، والعشاء مساء.

وقال مجاهد رحمه الله: «ليس بُكرة ولا عشياً، ولكن يؤتون به، على ما كانوا يشتهون في الدنيا». والتعبير بالبكرة والعشي لإفادة الدوام في الأوقات المرغوبة، وهذا خطاب بما تعرفه العرب وتستغربه من رفاهة العيش. وجعل ذلك عبارة عن أن

رزقهم يأتي على أكمل الوجوه، وكثير من العرب كان يجد الطعام المرة في اليوم، وهي غايته، وكان أكثر عيشهم من شجر البرية، ومن الحيوان ونحوه.

تلك الجنة -والإشارة بتلك للتعظيم- بهذه الأوصاف الرائعة: هي التي يورثها الله الكريم عباده المتقين، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء، أي نجعلها حقاً خالصاً لهم كملك الميراث، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١-١١].

والخلاصة: إن تخصيص الجنة للمتقين الصالحين الأبرار هو بمثابة الميراث، حيث يتملك الورثة ما يؤول إليهم من التركة. والاختصاص بالشيء هو أغلى ما يتوقعه الإنسان.

الوحي والأمر بيد الله

الله تعالى صاحب الإرادة والمشيئة المطلقة، وبيده الأمر كله، يعلم الماضي والحاضر والمستقبل، ويفعل عادة ما فيه الخير والمصلحة للعباد، ولا يملك أحد من البشر إنزال الوحي أو تنزيله، وإنما تنزل الوحي بأمر الله سبحانه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، يأمر الملائكة بالأمر المعين فيفعلونه، وليس للملائكة سلطان في تنزيل شيء، فهم يعملون وقتاً بعد وقت، بما يريد الله ويشاء، على ما تقتضيه حكمته، وهذا موضوع الآيات التالية، قال الله تعالى:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ١٩/ ٦٤-٦٥].

أخرج أحمد والبخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: أبطأ جبريل في النزول أربعين، فذكر نحوه.

هذه الآيات تبين سبب تأخر الوحي أحياناً على النبي ﷺ، جاءت بطريق الحكاية على لسان الملائكة. فبعد أن استبطأ رسول الله ﷺ نزول جبريل عليه السلام، أمر الله جبريل أن يقول: وما نتنزل نحن الملائكة بالوحي على الأنبياء والرسل، إلا بأمر الله بالتنزيل، على وفق الحكمة والمصلحة، وخير العباد في الدنيا والآخرة. ولا يتنزل القرآن إلا بأمر الله تبارك وتعالى في الأوقات التي يقدرها.

إن لله تعالى التدبير والتصرف في الكون، وأمر الدنيا والآخرة، وما بين ذلك من الجهات والأماكن والأزمنة الماضية والحاضرة والمستقبلة. فلا يقدُم أحد من الملائكة على أمر إلا بإذن الله. والتنزل هنا: النزول على مهل، وقتاً بعد وقت، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ خطاب جماعة لواحد، وذلك لا يليق إلا بالملائكة الذين ينزلون على الرسل. كأن جبريل عنى نفسه والملائكة.

وما كان ربك يا محمد ناسياً لك، وإن تأخر عنك الوحي، ولا ينسى الله شيئاً، ولا يغفل عن شيء، وإنما يقدم ويؤخر لما يراه من الحكمة. وهذه الآية تشبه مطلع سورة الضحى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ٩٣/ ١-٣].

روى ابن المنذر وغيره عن أبي الدرداء مرفوعاً قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرمه فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾

وكيف ينسى الله شيئاً، فهو سبحانه تام العلم، مالك كل شيء، فهو خالق

السماوات والأرض ومالكهما وما بينهما، وهو المدبر والحاكم والمتصرف الذي لا معقّب لحكمه، فاثبت أيها النبي وكل مؤمن على عبادة ربك، واصطبر على العبادة والطاعة، وما فيهما من المتاعب والشدائد، ولا تنصرف عنها بسبب إبطاء الوحي، هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً، يكون أهلاً للعبادة؟! فهو سبحانه الخالق والمدبر والرازق، والمنعم بأصول النعم وفروعها، من خَلْق الأجسام والحياة والعقل، وما يحتاجه الإنسان وغيره من الحاجات الدائمة والمؤقتة والمتكررة، فإنه لا يقدر على ذلك أحد سوى الله سبحانه، ولا يتمكن أحد من تلبية الحاجات كلها إلا من كان دائم الذِّكْر والعلم، من غير نسيان شيء أو تضييع صالح كل شيء، وكفى بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي لم يكن الله ممن يلحقه نسيان لإرسال أو تنزيل شيء على النبي في وقت المصلحة إليه، فإنما ذلك عن قدر له، أي فلا تطلب يا محمد الزيادة أكثر مما شاء الله.

والمراد بقوله سبحانه من نفي العلم: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ نفي الشريك على أي وجه، والاستفهام للإنكار، وهل بمعنى (لا) أي لا تعلم.

قال ابن عباس: ليس أحد يسمى (الرحمن) غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه.

والخلاصة: إن الله تعالى نفى النسيان عن نفسه مطلقاً، أما الترك فلا ينتفي مطلقاً، ألا ترى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ١٨/ ٩٩].

وقول الله سبحانه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أمر بحمل تكاليف الشرع وإشعارٌ بما فيها من صعوبة، كالجهاد والحج والصدقات، فهي شريعة تحتاج إلى اصطبار، أعاننا الله عليها.

شبهة المشركين في إنكار البعث وجزاؤهم

يقدّر الإنسان الأشياء ويفهمها بمجرد عقله المحدود وبقدر طاقته وإمكانه، فيقع في الضلال والخطأ، ولا ينظر بمنظار أقوى أو أوسع من علمه وقدرته، وهذا في الواقع سبب إنكار المشركين البعث، لأنهم نظروا للأشياء نظرة مجردة، وضعيفة، وعاجزة، فرأوا أن تفتت الأجساد وصيرورتها مثل التراب، هل يتصور إعادتها ذاتها خلقاً جديداً، ونسوا أن أصل خلق الإنسان من تراب، وأن الله على كل شيء قدير. وهذا ما تحكيه الآيات الآتية من شبهة المشركين في إنكار البعث مرة أخرى:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا[1] ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا[2] ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا[3] ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا[4] كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ١٩/٦٦-٧٢].

روي أن سبب نزول هذه الآية: هو أن رجالاً من قريش كانوا يقولون هذا ونحوه. وروي أن القائل: هو أُبي بن خلف، جاء إلى النبي ﷺ وقيل: إن القائل: هو العاص بن وائل.

والمعنى: ويقول الإنسان (اسم للجنس يراد به الكافرون) أي يقول الكافر المشرك منكر البعث متعجباً، مستبعداً حصوله بعد الموت: هل إذا متّ وأصبحت تراباً، سوف أخرج حياً من القبر، وأُبعث للحساب؟! وأسند الكلام لكل مشرك كافر، وإن لم يقله إلا بعضهم، لرضاهم بمقالته.

(١) باركين على ركبهم. (٢) عصياناً. (٣) دخولاً. (٤) مارّ على الصراط الممدود عليها.

رد الله تعالى على هذا التساؤل، وأثبت بالدليل إمكان الإعادة فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾. أي ألا يتفكر هذا الجاحد في أول خلقه ومبدئه، فقد خلقناه من العدم، دون أن يكون شيئاً موجوداً، فيستدل بالابتداء على الإعادة، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة.

ثم هدد الله منكري البعث تهديداً من وجوه قائلاً:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾. أي فوالله -وهو قسم من الله بذاته الكريمة- لا بد من أن يحشر الله جميع الإنس والجن والشياطين الذين كانوا يُعبدون من دون الله، بأن يخرجهم ربهم من قبورهم أحياء، ويجمعهم إلى المحشر مع شياطينهم الذين أغووهم وأضلوهم، ثم ليحضرنهم حول جهنم بعد طول الوقوف، جاثمين قاعدين على الرُّكب، لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٤٥/٢٨].

- ثم لننتزعن ونأخذن من كل فرقة دينية، أو طائفة غي وفساد أعصاهم وأعتاهم، وأكثرهم تكبراً وتجاوزاً لحدود الله، وهم قادتهم ورؤساؤهم في الشر.

ثم لنحن أي (والله) أعلم بمن يستحق من العباد إصلاءه نار جهنم، وولوجه فيها، وتخليده في أنحائها، وأعلم بمن يستحق مضاعفة العذاب، كما قال سبحانه: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٣٨].

ثم أخبر الله تعالى عن نبأ عام: وهو ورود جميع الناس نار جهنم فقال: ما منكم من أحد من الناس إلا سوف يرد إلى النار، وهو المرور على الصراط، وهو حد فاصل بين الجنة والنار، كان ذلك المرور أمراً محتوماً، قضى الله تعالى أنه لا بد من وقوعه لا محالة.

روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: «يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم:

قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعَدْو الرجل، حتى إن آخرهم مروراً رجل نوره على موضع إبهامي قدميه، يمر فيتكفأ به الصراط، والصراط دحض مزلة[١]، عليه حسك كحسك القتاد[٢]، حافتاه ملائكة، معهم كلاليب من نار، يختطفون بها الناس».

وبعد أن تمر الخلائق كلهم على الصراط والنار، ينجي الله الذين اتقوا دخول النار ولو بشق تمرة، واتقوا الكفر بالله ومعاصيه، ينجيهم ربهم من الوقوع في النار، ويُبقى الكافرين والعصاة في النار، جاثين على الركب، لا يستطيعون الخروج.

شبهة المشركين بحسن الحال في الدنيا

يتهرب المشركون الوثنيون من مواجهة الواقع، لأغراض وأهواء ذاتية، فمرة يحتجون بفناء الدنيا وإنكار الآخرة، ومرة يعتمدون على شبهة كون الرسل بشراً، وأحياناً يزعمون أن حسن الحال في الدنيا، دليل على حسن الحال في الآخرة، فجاء الرد الإلهي القاطع بأن الكفار السابقين كانوا أحسن حالاً في الدنيا وأكثر مالاً، ولكن الله تعالى أهلكهم بعذاب الاستئصال، فليس نعيم الدنيا قرينة على محبة الله تعالى، ولا سوء الدنيا علامة على غضب الله تعالى، كما أن نعم الدنيا لا تنقذ الكافرين من عذاب الآخرة، قال الله تعالى واصفاً شبهة حسن الحال في الدنيا:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ

---

(١) دحض مزلة: هو الموضع الذي تزل فيه الأقدام. (٢) أي عليه شوك كشوك نبات السعدان في نجد.

نَدِيًّا(١) ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ(٢) هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا(٣) ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ(٤) لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا(٥) ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا(٦) ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٧٣-٧٦].

سبب نزول هذه الآية: أن كفار قريش، لما كان الرجل منهم يكلم المؤمن في معنى الدين، فيقرأ المؤمن عليه القرآن، ويبهره بآيات النبي ﷺ، كان الكافر منهم يقول: إن الله إنما يُحْسن لأحب الخلق إليه، وإنما ينعم على أهل الحق، ونحن قد أنعم علينا، فنحن أغنياء وأنتم فقراء، ونحن أحسن مجلساً وأجمل شارةً، فهذا المعنى ونحوه هو المقصود بالتوقيف، في قوله تعالى: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾

وزعيم هذه المقالة: هو النضر بن الحارث وأشباهه من قريش، حينما رأوا أصحاب النبي ﷺ في خشونة عيش، ورثاثة ثياب، وهم في غضارة العيش، ورفعة الثياب.

ومعنى الآيات: وإذا تليت على الكفار المشركين آيات القرآن الكريم، واضحة الدلالة والبرهان، بينة المقصد والغاية، أعرضوا عن ذلك، وقالوا مفتخرين على المؤمنين: أي الفريقين (المؤمنين والكافرين) خير منزلاً ومسكناً، وأكبر جاهاً وأكثر أنصاراً؟ وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي مجلساً، وهو مجتمع الرجال للحديث.

فرد الله تعالى عليهم شبهتهم بأنه كثيراً ما أهلكنا قبلهم من الأمم السابقة المكذبين رسلهم بكفرهم، وكانوا أحسن من هؤلاء متاعاً ومنظراً.

---

(١) الندي والنادي: مجلس القوم. (٢) أمة أو جماعة. (٣) أي منظراً حسناً. وأثاثاً: متاعاً من المفروشات والثياب ونحوها. (٤) يمهله استدراجاً. (٥) أقل أعواناً. (٦) مرجعاً وعاقبة.

وقوله تعالى: ﴿أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ أي أكثر وأجمع مالاً من الإبل والغنم والبقر ومتاع البيوت، وأحسن منظراً في نظر الناس من حيث الأبدان والألبسة وتنعمها ورفاهيتها. والمعنى: أن مظاهر الثراء والنفوذ والكرامة عند الناس لا تدل بحال على حسن الحال عند الله، فقد أهلك الله المترفين، ونجّى الفقراء الصالحين. وهذا تهديد ووعيد لكل متوهم من العوام أن حسن الحال في الدنيا دليل على رضا الله وحسن الحال في الآخرة.

ثم أكد الله تعالى التهديد والوعيد بجواب آخر وهو: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم، المدّعين أنهم على الحق، وأنكم على الباطل: من كان في الضلالة منا ومنكم، ومن كان يخبط في الدنيا على هواه، فإن الله تعالى جعل جزاءه أن يتركه في ضلاله وطغيانه، ويمهله فيما هو عليه، ويمده ويستدرجه بالنعم، ليزداد إثماً، حتى يلقى ربه وينقضي أجله. حتى إذا ما شاهدوا رأي العين ما يوعدون به، إما العذاب في الدنيا بالقتل والأسر، كما حصل يوم بدر، وإما مجيء القيامة بغتة أو فجأة، وما يشتمل عليه من العذاب الأخروي، فحينئذ يعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنوداً، على عكس ما كانوا يظنون في الدنيا من خيرية المقام وحسن المجلس. أي إنهم سيصطدمون بالحقيقة وهي أنهم شر مكاناً وأضعف جنداً.

ثم قابل الله زيادة الضلال لأهل الضلالة، مع زيادة الهدى للمهتدين، وهو أن الله يزيد المهتدين إلى الإيمان توفيقاً وهدى للخير؛ لأن الخير يدعو للخير. وهذه مقارنة واضحة بين مصير المؤمنين وسعادتهم في الدنيا والآخرة، ومصير الكافرين وشقاوتهم في الدارين.

والباقيات الصالحات: كل عمل صالح يرفع الله به درجة عامله من الفرائض وغيرها. ورُوي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنها الكلمات المشهورات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

مقالة منكر البعث استهزاء

قد يحمل العناد والاستبداد بعض المستكبرين، فيحملهم على طمس الحقائق، ومصادمة المنطق والواقع، ومجابهة أهل الحق والخير، ثم سرعان ما يتبدد غرورهم، وتنتهي أباطيلهم، وتنكشف أمامهم وفي أنظار غيرهم مواقفهم المزيفة، وتدمغهم الحقيقة، ويُزْهَق الباطل، قال الله تعالى مبيناً قصة أحد أكابر مجرمي مكة في تحديه لرسالة النبي ﷺ وإنكاره البعث والحشر استهزاء وطعناً في الدين:

﴿أَفَرَءَيْتَ[١] ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ[٢] أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا[٣] ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم: ١٩/٧٧-٨٠].

سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) وغيرهم عن خبّاب بن الأرتّ قال: كنت رجلاً قيناً-حداداً-وكان لي على العاص بن وائل دَيْن، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا، والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا والله، لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث، قال: فإني إذا مِتّ ثم بعثت جئتني، ولي ثَمَّ مال وولد، فأعطيك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا..﴾ الآية. هذا هو سبب النزول في رأي جمهور المفسرين، إنها نزلت في العاص بن وائل السهمي.

والمعنى: ألا أخبرك بقصة هذا الكافر الذي تجرأ على الله، وقال: لأُعطيّن في الآخرة مالاً وولداً، وثروة وعزاً، وحرساً وحفظة.

وليس لهذا الأفاك المشرك أي دليل من الغيب أو عهدٌ من الله، ودعواه إنما تصح إن اعتمد على أحد أمرين: إما علم الغيب، وإما عهد من الله، فهل اطلع على

---

(١) أخبرني . (٢) أعلم الغيب . (٣) نطوّل له .

الغيب حتى يعلم أنه في الجنة، أو أخذ العهد الموثق من الله بذلك؟ وعهد الله: أن يُدخل المؤمن الجنة إذا قال: لا إله إلا الله، وعمل الصالحات. وقوله سبحانه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ إشارة إلى أن الحصول على علم الغيب أمر صعب شاق؛ لأن الله لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول.

ثم هدد الله تعالى هذا الكافر وأمثاله بقوله: كلا، وهي كلمة ردع وزجر لما قبلها، وتأكيد لما بعدها، ولم ترد في النصف الأول من القرآن، وهذه في سورة (مريم) أول ذكر لها. وقوله: (سنكتب) مع أنه يكتب من غير تأخير، لمحض التهديد من المتوعد.

والمعنى: ليس الأمر كما قال العاص بن وائل وأمثاله، بل سنحفظ ما يقول، فنجازيه في الآخرة، ونزيده عذاباً فوق عذابه، ونمده بالعذاب مداً في الدار الآخرة على قوله ذلك، وكفره بالله في الدنيا، مكان ما يطلبه من المدد بالمال والولد، جزاء عمله، وسوف نميته ونرثه المال والولد الذي يقول: إنه يؤتاه، ونسلبه إياه، ويأتينا يوم القيامة فرداً، لا مال له ولا ولد، مما كان معه في الدنيا؛ لأنا نسلبه منه، فكيف يطمع أن نعطيه مالاً وولداً؟!

وهذا المعنى مقرر في آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٤].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي هذه الأشياء التي سماها، وقال: إنه يؤتاها في الآخرة، يرث الله ماله منها في الدنيا، بإهلاكه وتركه لها، فالوراثة معنوية، ويحتمل أن تكون خيبته في الآخرة كوراثة ما أمّل. وقال أبو جعفر النحاس: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ معناه: نحفظه عليه فنعاقبه، ومنه قول النبي ﷺ فيما أخرجه ابن

النجار عن أنس رضي الله عنه: «العلماء ورثة الأنبياء»[١] وقوله سبحانه: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ يتضمن ذلته.

وفي الجملة: إن الاعتزاز القائم في الدنيا بالمال والولد لبعض الكفار لا ينفع في الآخرة أبداً، ويتبدل هذا الحال إلى حال أخرى وهي الذلة، والخراب، والفقر، والضياع؛ لأن الإنسان في الآخرة لا يستفيد شيئاً من مال الدنيا، وليس لابن آدم في الآخرة من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدَّق فأبقى، يعني أن فائدة المال في الآخرة محصورة فيما قصد به وجه الله من الإنفاق في سبيل الله، أو التصدق به على المحاويج.

تعدد الآلهة عند المشركين

أخطأ المشركون خطأ بالغاً حين اعتقدوا بتعدد الآلهة، وأن الأصنام والأوثان تكون لهم شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من الهلاك، ومن أسوأ نتائج الشرك والتعدد: أن هذه الآلهة المزعومة ستكون أعداء لعبدتها، ومنشأ هذا الاعتقاد الفاسد: وسوسة الشيطان، ومع ذلك ترك الله تعالى الفرصة الكافية لهؤلاء المشركين، فلم يعجل لهم العذاب حتى يتداركوا الموقف، ويصححوا الاعتقاد، قال الله تعالى واصفاً هذه العقيدة الوثنية:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا[٢] ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا[٣] ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا[٤] ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ

(١) رمز له السيوطي بأنه ضعيف، والواقع له طرق وروايات ترفعه إلى مرتبة الحسن. (٢) شفعاء وأنصاراً.
(٣) ليسوا أعواناً لهم. (٤) أي تهيجهم وتحركهم تهييجاً وتحريكاً نحو الكفر والضلال.

عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا(١) ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا(٢) ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٨١-٨٧].

المعنى: اتخذ عبدة الأوثان آلهة من الأصنام وكلِ ما عبد من دون الله تبارك وتعالى، ليكونوا لهم أنصاراً وأعواناً وشفعاء عند ربهم يقربونهم إليه، ويحققون لهم المنفعة وغير ذلك من وجوه الخير.

ولكن ليس الأمر كما زعموا ولا كما طمعوا، كلا: زجر وردع وردّ، إن هذه الآلهة المزعومة ستتنكر لعبادة عبدتها الكفار، يوم يُنطقها الله، وتتبرأ من العابدين، وتكون أعداء وأضداداً لهم وأعواناً عليهم، لا لهم، بخلاف ما ظنوا، فيقولون: ما عبدتمونا، كما جاء في آية أخرى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٣] وقوله سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٦].

هذه حال الكفار مع الأصنام، ثم ذكر الله تعالى حال الكفار مع الشياطين في الدنيا، فإنهم يسألونهم وينقادون لهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾، أي ألم تعلم أننا سلطنا الشياطين على الكفار، وخلينا بينهم وبينهم، ومكناهم من إضلالهم، فهم يحركونهم إلى فعل المعاصي، ويهيجونهم إلى الكفر والضلال ويغوونهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٤].

فلا تتعجل يا محمد على هؤلاء، بأن تطلب تعذيبهم وإهلاكهم، بسبب تصميمهم على الكفر والضلال، إنما نعد لهم أوقاتاً معدودة، ونؤخرهم لأجل معدود مضبوط،

---

(١) وافدين وفداً. (٢) عطاشاً كالتي ترد الماء.

هو انتهاء آجالهم، وهم صائرون إلى عذاب الله ونكاله حتماً، فليس بينك وبين عذابهم إلا أوقات محصورة ومعدودة، وكل آتٍ قريب، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٢].

ثم وازن الله تعالى بين المتقين وبين المجرمين في وقت الحشر، وأبان أنه يفصل بين الفريقين فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك يوم نحشر جماعة المتقين وافدين ركباناً، إلى جنة الله ودار كرامته. والوفد: القادمون ركباناً، مراكبهم من نور، من مراكب الدار الآخرة.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ أي ونحمل المجرمين المكذبين على السير العنيف طرداً إلى جهنم، مشاة عطاشاً، كالإبل ترد الماء.

لا يملك أحد عند الله الشفاعة لغيره إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً: وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها، بأن كان صالح الاعتقاد والقول والعمل، وكان في الدنيا هادياً مصلحاً. أما شفاعة الآلهة المزعومة: فهي مجرد أمنيات زائفة، وأوهام فارغة، فهي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً.

أي إن من كان له عمل صالح مبرَّز يحصل به في حيز من يشفع. وقد تظاهرت الأحاديث: أن أهل العلم والفضل والصلاح يشفعون فيشفَّعون، روى الإمام أحمد عن عبد الله بن قيس عن النبي ﷺ أنه قال: «في أمتي رجل يُدخل الله بشفاعته الجنة أكثر من بني تميم».

نسبة الولد لله تعالى

إن من أكبر الجرائم وأعظم الآثام جريمةَ الشرك باتخاذ شريك لله تعالى، ونسبة الولد لله عز وجل، فهذا من الإفك والقول المفترى، ومما يتصادم مع عظمة الله

سبحانه وألوهيته وتنزهه عن الصاحبة والولد والشريك، وإذا كان الإله هو الخالق المبدع لجميع الأكوان والمخلوقات، فلا يعقل أن يكون لله ولد، إذ لا حاجة له إليه، إلا أن العقل الوثني وقع في هذا الإثم، فقال بعض مشركي العرب: الملائكة بنات الله، وزعم بعض الناس من الطوائف الدينية أن نبياً أو ولياً صالحاً هو ابن الله.

قال الله تعالى واصفاً هذا الشذوذ المفترى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا[١] ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ[٢] مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا[٣] ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٨٨-٩٥].

المعنى: وقال بعض أهل الكتاب: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وقال كفار من العرب: الملائكة بنات الله، هذان الفريقان زعموا أن لله ولداً، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، ورد الله عليهم: لقد جئتم شيئاً إدّاً، أي شيئاً منكراً عظيم الجرم والإثم.

تقارب السماوات أن تتشقق من هذا القول، وأن تتصدع الأرض وتتناثر أجزاؤها، وتسقط بصوت مرعب شديد، وتتهدم الجبال هدماً خطيراً تتضعضع منه، لشدة نكرانه، إعظاماً للرب وإجلالاً له؛ لأنهن مخلوقات على توحيد الله، وأنه إله واحد لا شريك له، ولا ندّ ولا نظير له، ولا ولد ولا مثيل،ولا صاحبة ولا زوجة له.

ويروي ابن جرير الطبري في تفسيره عن مجاهد، عن النبي ﷺ : أن هذه المقالة

---

(١) أي داهية ومنكراً عظيماً . (٢) أي يتشققن مرة بعد أخرى، على رتبة غير مقصودة . (٣) الهدّ: الانهدام والتفرق في سرعة .

أول ما قيلت في العالم شاكَ الشجر، واستعرت جهنم، وغضبت الملائكة. وقال محمد بن كعب: لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾.

إن سبب هذه المقالة الخطيرة جداً أنهم نسبوا الولد إلى الله، ولا يصلح له ولا يليق به اتخاذ الولد، لجلال الله وعظمته، فإن هذا نقص، تعالى الله وتنزه عنه، لأن جميع الخلائق عبيد له.

وتأكيداً لإنكار هذه الفرية وإبطالها: كل واحد من الخلق من الملائكة والإنس والجن، لا بد له من أن يأتي إلى الله يوم القيامة عبداً خالص العبودية لله، مقراً بالحقيقة، خاضعاً ذليلاً، معلناً أنه مملوك لله، فكيف يكون أحد المخلوقات ولداً لله؟!

قد علم الله عدد الخلائق، منذ خلقهم إلى يوم القيامة، وعدّ أشخاصهم وأحوالهم كلها، فهم تحت قهره وسلطانه وتدبيره، وكل واحد يأتي لربه في الآخرة بمفرده، لا ناصر له ولا مال معه، ولا مجير له إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وحكمه عادل عدلاً مطلقاً، لا يشوبه شيء من الظلم، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وقوله سبحانه ﴿عَدًّا﴾ في قوله ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ توكيد للفعل وتحقيق له. وقوله عز وجل: ﴿فَرْدًا﴾ في قوله: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ يتضمن معنى قلة النصير والحول والقوة، فلا مجير له، مما يريده الله به.

إن هذه الآيات تقرر مبدأ جوهرياً في العقيدة: وهو مبدأ توحيد الله، ونفي اتخاذ الله ولداً على جهة التنزيه لله عن ذلك. وتلتقي هذه الآيات في موضوعها مع سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن، وهي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ ومع حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري حيث قال هذا الصحابي: قال رسول الله ﷺ:

«يقول الله تبارك وتعالى: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحداً».

وفي حديث آخر عند الشيخين والترمذي عن معاذ، حيث كان رديف النبي ﷺ على حمار فقال له: «يا معاذ، تدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً. قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا».

القبول لأهل الإيمان والصلاح

إن أساس الرضا والقبول، والود والمحبة هو شيء واحد، هو الطاعة، فالطاعة أساس لكل علاقة طيبة، كعلاقة الآباء بالأبناء، وعلاقة الأبناء بالوالدين، وعلاقة الزوجين، وعلاقة السادة والخدم، والعلاقات الاجتماعية. وكذلك تكون الطاعة من باب أولى مجلبة لرضا الله تعالى، وقبول الأعمال، وعقد أواصر الود والمحبة بين الله وعباده. و يخطئ كثير من الناس حين يزعمون: أن الله يحبهم أو أنهم يحبون الله ورسوله، ثم تجدهم مبتعدين عن ساحة الطاعة لأوامر الله والرسول، فكيف يصح هذا عقلاً وشرعاً؟ هذا ما عبرت عنه الآيات الكريمة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا[1] ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ

(١) مودة ومحبة .

بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا[١] ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ[٢] هَلْ تُحِسُّ[٣] مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[٤] ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم: ١٩/ ٩٦-٩٨].

هذه خاتمة سورة مريم التي ذكر فيها قصص عدد من كبار الأنبياء المشهورين كزكريا ويحيى وعيسى وموسى وهارون عليهم السلام، وذكر فيها أحوال الكفار والمشركين في الدنيا والآخرة، وتُوِّجت هذه السورة ببيان أحوال المؤمنين الصالحين، وهي ما يأتي:

إن الذين آمنوا وصدقوا بالله ورسله، و بخاتم النبيين محمد عليهم الصلاة والسلام، وعملوا صالح الأعمال: من أداء الفرائض والتطوعات، وأحلوا الحلال، وحرموا الحرام، وفعلوا ما يرضي الله تعالى، سيغرس الله محبتهم في قلوب الصالحين، ويضع القبول في النفوس لمن يحبه الله من عباده.

روى أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً، نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبه، فينادي في السماء، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض. وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل: إني قد أبغضت فلاناً، فينادي في السماء، ثم ينزل له البغضاء في الأرض».

التقت الآية والحديث في غرس أصل الود والمحبة في القلوب في الأرض والسماء لأولئك المؤمنين أهل الصلاح والتقوى والعمل الصالح. وطريق الصلاح والاستقامة: هو اتباع منهج القرآن وحكمه، ومعرفة ما في القرآن من آداب، وأحكام وشرائع: سهل يسير، لسهولة تلاوته وفهم مضمونه. وقد يسر الله القرآن للنبي بإنزاله على قلبه بلغة قومه: وهي اللغة العربية، وفصّله وسهّله، لتبشير المتقين

(١) أي شديد الخصومة والجدال بالباطل. (٢) أمة. (٣) تجد. (٤) أي صوتاً خفياً.

المستجيبين لله في أمره ونهيه، والمصدقين لرسوله، بأن لهم الجنة بالطاعة والخضوع، وللقرآن مهمة أخرى: وهي إنذار القوم الألداء، المتميزين بشدة الخصومة والجدل بالباطل، المنحرفين عن جادة الحق، الوالغين في مستنقع الباطل، بأن لهم النار بالكفر والعصيان. وبكلمة موجزة: إنهم قوم لدّ، أي فجرة ظلمة، جاء في حديث عائشة عند البخاري: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصِم» وهو الذي يخاصمك ويجادلك بالباطل.

ومن أجل حمل الناس على طاعة الله ورسوله، أخبر الله تعالى عما فعل بالأقوام الظالمين، الذين عصوا الله والرسل، واتبعوا أهواءهم، فكثيراً ما أهلك الله قبل مشركي العرب من الأمم والجماعات من الناس لكفرهم بآيات الله وتكذيب رسله، فهل تجد أو ترى منهم أحداً أو تسمع لهم صوتاً بعد هذا الإهلاك. وقوله سبحانه «من قرن» القرن: الأمة. والركز: الصوت الخفي دون نطق بحروف ولا فم، وإنما هو صوت الحركات وخشفها، والخشف: الحركة والحس.

إن وصف الله تعالى معارضي القرآن الكريم بأنهم قوم لدّ: أشداء في الخصومة والجدال بالباطل، يدل على غاية السوء والإنكار، فهذه صفة سوء بحكم الشرع والحق، لذا قسا الله عليهم بالوعيد، والتمثيل بإهلاك من كان أشدَّ منهم، وألدّ وأعظم، قدرَ ما كان يسرهم في أنفسهم من الوصف بكلمة «لُدّ» فإن العرب بجهالتها وعتوها وكفرها كانت تتمدح باللَّدَد، وتراه إدراكاً وشهامة، وهو في الواقع قسوة وهمجية، فمثّل الله لهم بمثل ليعتبروا ويتعظوا بإهلاك من قبلهم، ليحتقروا أنفسهم، ويتبين صغر شأنهم.

إن إهلاك من قبلهم من العتاة الأشداء كان إبادة تامة، عبّر عنها القرآن الكريم بأنهم لم يبق لأحد منهم كلام أو تصويت بوجه من الوجوه، فهل يعتبر كفار قريش وغيرهم إذا بقوا على معارضة النبي ﷺ في دعوته ورسالته؟!

تفسير سورة طه

صفة القرآن ومُنزله

أنزل الله تعالى القرآن الكريم تذكيراً للبشرية وتقويماً لاعوجاج الناس، وحملاً لهم على التزام جادة الاستقامة، والذي أنزل القرآن: هو خالق الأرض والسماء، وهو الرحمن صاحب العرش الأعظم، وله السلطان المطلق على جميع ما في السموات والأرض وما بينهما، له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، الإله الواحد الأحد، العالم بالسر والعلن، وبما هو أخفى من السر: وهو حديث القلب والنفس، ومن كان بهذه الصفات، كان جديراً بالناس المخاطبين بكلامه التزام أمره ونهيه، والعمل بدستوره لإسعاد أنفسهم، قال الله تعالى مبيناً هذه المعاني في أوائل سورة طه المكية:

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ[1] ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ[2] ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى[3] ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١-٨].

اختصت كلمة ﴿طه﴾ بأقوال تختلف عن بقية حروف المعجم التي بدئ بها بعضٌ من سور القرآن، منها: أن ﴿طه﴾ اسم من أسماء محمد ﷺ، وهو قول مقبول، لأن ما بعد ﴿طه﴾ لا يصح أن يكون خبراً عنها (طه): حروف ط، ها. واختصت أيضاً

(١) لتتعب تعباً شديداً في تبليغ دعوتك . (٢) ما واراه التراب من الكنوز وغيرها . (٣) حديث النفس .

بأن أكثر فواصل الآيات (أواخرها) جاءت بالألف المقصورة، وأحياناً بالياء المنقوصة، وهذا من سمو البلاغة، وللتأثير القوي على النفوس.

وسبب نزول هذه الآية: إنما هو ما كان عليه رسول الله ﷺ، يتحمله من مشقة الصلاة، حتى كانت قدماه تتورمان، وتحتاجان إلى الترويح، فقيل له: طأ الأرض، أي لا تتعب حتى لا تحتاج إلى الترويح (أي الوقوف على قدم وإراحة الثانية من التعب).

يا طه، لم ننزل القرآن عليك لتتعب نفسك بسبب تأسّفك عليهم وعلى كفرهم، فإن إيمانهم ليس إليك، بل أنزلناه لتبلّغ وتذكّر، فحسبك التبليغ والتذكير، ولا تلتفت بعدئذ لإعراض المعاندين، ولا ترهق نفسك وتتعبها بحملهم على قبول دعوتك.

وما أنزلناه إلا تذكرة لتذكّر به من يخاف عذاب الله، وينتفع بما سمع من كتاب الله الذي جعلناه رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة، وليس عليك جبرهم على الإيمان، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٢/٤٨] ، وآية ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/٢٢].

وفي هذا إيناس للنبي ﷺ على إعراض قومه عن دعوته، وضيق نفسه على تصميمهم على الكفر.

وهذا القرآن المنزل عليك يا محمد: إنما هو تنزيل من خالق الأرض والسموات العلى، والمراد جهة السفل والعلو، الأرض بانخفاضها وكثافتها، والسماوات في ارتفاعها ولطافتها. والمراد بالآية: إخبار العباد عن كمال عظمة منزل القرآن، ليقدروا القرآن حق قدره.

ومنزل القرآن: هو الرحمن المنعم بجلائل النعم ودقائقها، وهو الذي استوى على العرش، وهو استواء نؤمن به من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل، ولا تحريف ولا تأويل، وبلا كيف ولا انحصار.

والله منزل القرآن هو أيضاً مالك السماوات والأرض وما بينهما من الموجودات، ومالك كل شيء ومقدِّره، ومدبّره ومتصرف فيه، ومالك ما تحت التراب من الكنوز والمعادن وبقية الأشياء، فله الكون كله ملكاً وتدبيراً وتصرفاً.

والله تعالى عالم بالجهر والسر، وما أخفى منه مما يخطر بالبال، أو يجري من خواطر القلب وأحاديث النفس، فالله عالم بكل ذلك، وعلمه سواء، لا يختلف فيه السر عن الجهر.

وإن صفات المجد والكمال المتقدمة: هي لله المعبود الحق، الذي لا إله غيره ولا رب سواه، وله أحسن الأسماء والصفات الدالة على كل الكمال، والتقديس والتمجيد.

ومن كانت هذه صفاته، وجب تعظيمه وتقديسه، وإفراده بالعبادة، والطاعة، والتزام أمره ونهيه، لأنه سبحانه لا يريد ولا يفعل إلا الخير والمصلحة لعباده، فما أجدرهم بتقبل وجه المصلحة، والبعد عن المضرة والمفسدة.

مناجاة موسى ربه

اختص كل نبي ببعض المعجزات الخارقة للعادة لتكون دليلاً على صدقهم، منها معجزات مادية وأخرى معنوية أدبية، وقد اختص موسى عليه السلام بصفة كونه كليم الله في عالم الدنيا في الوادي المقدس طوى، وهي صفة عظيمة بتقدير الله وإحسانه وإعداده، والله إذا أراد شيئاً هيّأ أسبابه، ووطّد أركانه ودعائمه، لذا حقّ أن تذكر هذه الحادثة العظيمة، ليتأمل بها أعداء الأديان، وتبقى أثراً حياً موقظاً للإيمان في قلوب المؤمنين ومشاعرهم، وهذا ما نصت عليه آي القرآن الآتية:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا[1] لَّعَلِّىٓ

(١) أبصرتها.

ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ(١) أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى(٢) ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠
رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ(٣) طُوًى(٤) ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾
إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ
أُخْفِيهَا(٥) لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ
فَتَرْدَىٰ(٦) ﴿١٦﴾﴾ [طه: ٢٠/٩-١٦].

هذا الاستفهام: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾ تنبيه النفس إلى ما يُورد عليها، وهذا كما تبدأ الرجل إذا أردت إخباره بأمر غريب، فتقول: أعلمت كذا وكذا؟ ثم تبدأ تخبره. فالبدء بالاستفهام لتثبيت الخبر وتقريره في نفس المخاطب. أي وهل بلغك خبر موسى وقصته مع فرعون وملئه، وكيف كان ابتداء الوحي إليه، وتكليمه إياه؟ وذلك حين رجع موسى إلى مصر بعد زواجه بابنة شعيب عليه السلام ورعيه أغنامه عشر سنوات.

هل أتاك خبر موسى حين رأى ناراً، وكانت رؤيته للنار في ليلة مظلمة، لما خرج مسافراً من مدين إلى مصر. فقال موسى لزوجه وولده وخادمه مبشراً لهم: امكثوا في مكانكم، إني رأيت ناراً من بعيد، لعلي أوفيكم منها بشعلة مضيئة أو بشهاب أو جذوة من النار، كما في آية أخرى، لعلكم تستدفئون بها، بسبب وجود البرد، أو أجد عند النار من يهديني إلى الطريق ويدلني عليها.

فلما أتى موسى النار التي آنسها، واقترب منها، نودي من قبل الله تعالى: يا موسى، إن الذي يكلمك و يخاطبك هو ربك، فاخلع حذاءك؛ لأن ذلك أبلغ في التواضع، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن الأدب، إنك بالوادي المطهر المسمى، (طوى) من أرض سيناء.

---

(١) بشعلة نار . (٢) هادياً إلى الطريق . (٣) المطهّر أو المبارك . (٤) اسم الوادي . (٥) أقارب سترها من نفسي . (٦) فتهلك .

وأنا الله الذي اخترتك للرسالة والنبوة، فاستمع سماع قبول واستعداد ووعي لما ينزل عليك من الوحي. إنني أنا الله الذي لا إله غيري، فوحّدني وقم بعبادتي من غير شريك، لأن اختصاص الألوهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة.

وأدّ يا موسى الصلاة المفروضة المأمور بها كاملة الأركان والشروط، لتذكرني فيها، وتدعوني دعاء خالصاً إلي. وخَصَّ الصلاة لله بالذكر، لكونها أشرف طاعة، وأفضل عبادة.

أخرج الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها، فإن الله قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾».

وملتقى جميع الجهود البشرية والبشر هو يوم القيامة، لذا أعقب الله تعالى إعلان التوحيد وإيجاب الصلاة بالإخبار عن مجيء الساعة، أي القيامة، فذكر أن الساعة قائمة لا محالة، وكائنة لا بد منها، أكاد أخفيها من نفسي، فكيف يعلمها غيري، فاعمل لها الخير، من عبادة الله والصلاة، ولأن مجيء الساعة أمر حتمي لازم، لأجزي كل عامل بعمله، ولتجزى كل نفس بما تسعى فيه من أعمالها.

والله أخفى الساعة، أي القيامة، وأخفى أجل الإنسان، ليعمل الإنسان بجد ونشاط، ولا يؤخر التوبة، ويترقب الموت كل لحظة، فكلمة ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ أي أقارب، و (أكاد) زائدة لمعنى، أي إن الساعة آتية أخفيها لحكمة تقتضي ذلك.

أشهر معجزتين لموسى عليه السلام

كان موسى عليه السلام من الرسل أولي العزم وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وقد أيد الله موسى لإثبات نبوته أمام قومه بني إسرائيل بمعجزات كثيرة، أهمها انقلاب العصا حية، واليد البيضاء التي تشع

كالشمس، والمعجزات أمور خارقة للعادة، أحدثها الله على أيدي الأنبياء، استثناء من خواص الأشياء، وطبائع المادة العادية. وهاتان أشهر معجزتين لموسى عليه السلام، قال الله تعالى:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا(١) وَأَهُشُّ بِهَا(٢) عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ(٣) ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ(٤) ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ(٥) تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ(٦) ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه: ٢٠/١٧-٢٣].

معجزة العصا لموسى عليه السلام: هي البرهان الأول الخارق للعادة الدال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل. وبدأ إظهار المعجزة بسؤال الله لموسى سؤال تقرير؛ لأن الله عليم بكل شيء، للتنبيه على كمال قدرة الله، والتأمل بما يحدثه من خوارق العادات، وليتأكد موسى وغيره أن ما بيد موسى عصا حقيقية يعرفها، قال الله له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ..﴾ أي قال موسى: هي عصاي، ثم ذكر فائدتين لعصاه استمتاعاً بمتعة الكلام الإلهي.

وهاتان الفائدتان: أن عصاي أعتمد عليها في حال المشي، وأخبط بها الشجر وأهزه، ليسقط منه الورق، لتأكله الغنم، ولي في هذه العصا مصالح ومنافع أخرى غير ذلك، كحمل الزاد والسقي وطرد السباع عن الغنم.

قال الله تعالى لموسى: ألق هذه العصا التي في يدك يا موسى. فألقاها موسى على الأرض، فإذا هي قد صارت في الحال حية عظيمة، تتحرك بسرعة، وتمشي وتضطرب، وتلتقم الحجارة.

---

(١) أتكئ عليها. (٢) أخبط بها الشجر لإسقاط الورق. (٣) حاجات. (٤) إلى حالتها السابقة. (٥) تحت العضد الأيسر. (٦) من غير داء.

ثم أمر الله تعالى موسى بالعودة إلى مكانه، فرجع موسى وهو شديد الخوف من تحركات الحية المخيفة، وهذا شأن البشر، فإنهم يخافون من الثعابين. فقال الله له: خذ هذه الحية بيمينك، ولا تخف منها، سنعيدها بعد أخذها إلى حالتها الأولى التي تعرفها قبل ذلك. وكان موسى يكرر إلقاء العصا فتصير حية، ثم يمسك بها فتعود عصا كما كانت.

ثم أمر الله تعالى موسى أن يضم يده إلى جناحه، أي إلى جنبه، وهو الجناح استعارة ومجازاً. يا موسى اضمم يدك اليمنى إلى جنبك تحت العضد، واجعلها تحت الإبط الأيسر، تخرج بيضاء لامعة ذات نور ساطع، يضيء بالليل والنهار، كضوء الشمس والقمر، من غير سوء، أي من غير بَرَص ولا أذى ولا شين ولا مُثلة، علماً بأن جلد موسى كان أسمر، وهذه معجزة أخرى غير العصا.

ثم رد يده بعد وضعها على جنبه، فعادت كما كانت بلونها الأسمر المعتاد، وإذا حاول السحرة إبطال معجزة العصا، فإنه لم يحاول أحد إبطال معجزة اليد.

كان موسى عليه السلام يكرر أيضاً هذه المعجزة، فإذا أدخل يده في جيبه، ثم أخرجها، تخرج تتلألأ، كأنها فلقة قمر، قال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل.

ثم قال الله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ أي فعلنا هذا بك لنريك بهاتين الآيتين بعض دلائل قدرتنا على كل شيء، في السماوات والأرض، والمخلوقات الموجودات، وقد وصف الله تعالى الآيات بالكبرى، على ما تقدم من قوله، لمناسبة أواخر الآيات: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ و﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ ونحوه، ويحتمل أن يريد تخصيص هاتين الآيتين بأنهما أكبر الآيات، كأنه قال: لنريك الكبرى من آياتنا، فهما معنيان.

والخلاصة: لما أراد الله تبارك وتعالى أن يُدرِّب موسى على تلقي النبوة وتكاليفها،

أمره بإلقاء العصا، فألقاها، فقلب الله أوصافها وأغراضها، وكانت عصا ذات شعبتين، فصارت الشعبتان لها فماً، وصارت حية تسعى أي تنتقل وتمشي، ومن أجل إزالة رعب موسى، أمره الله بضم يده إلى جنبه، وهذا ما يفعله كل مرعوب من ظلمة أو نحوها، فتصير يده بيضاء تضيء كالشمس.

بدء بعثة موسى عليه السلام

لكل نبي في بدء بعثته، نبياً أو رسولاً، ظروف وأحوال مثيرة، وعجائب مدهشة، تتناسب مع العصر الذي يعيش فيه، وتتميز البعثة النبوية بالتكليف الإلهي الحاسم في تبليغ كل رسول رسالة ربه، ودعوته إلى عبادة الله، فهي صميم الرسالة وجوهر الدعوة، وفي هذه البداية طلَبَ موسى من ربه في الجملة، أربعة أمور: شرح صدره، وتيسير أمره، وحل عقدة لسانه، وجعل أخيه هارون نبياً ووزيراً له، لتقوية أمره وتعاونه معه في أداء مهمته، ومشاركته في ذكر الله وعبادته، وصار مطلوب موسى بالتفصيل ثمانية أمور، أربع منها وسائل، وأربع أخرى هي غايات. قال الله تعالى واصفاً هذه المطالب:

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى[1] (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا[2] مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي[3] (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾ [طه: ٢٠/ ٢٤-٣٥].

هذه مطالب ثمانية لموسى عليه السلام من ربه، طالب بها لما أمره الله تعالى

---

(١) تجاوز الحد في الاستعلاء. (٢) معيناً. (٣) ظهري أو قوتي.

بالذهاب إلى فرعون، وعلم أنها بدء الرسالة، وفَهِم قدر التكليف، فدعا الله لمعونته، إذ لا حول له ولا قوة إلا بربه. فإنه سمع بتعاظم فرعون وغطرسته وادعائه الألوهية، فأمره الله أن يدعو فرعون إلى توحيد الله وعبادته، وأن يحسن إلى بني إسرائيل.

ولما أمر الله موسى بالذهاب لفرعون، وأدرك مشقة التكليف، سأل ربه ثمانية أمور، وختمها ببيان علة سؤال تلك الأشياء.

١- قال موسى: رب اشرح لي صدري، ووسّع مداركي، وأزل عني الضيق فيما بعثتني به، لفهم ما يرد علي من الأمور.

٢- وسهّل علي القيام بما كلفتني به، من تبليغ الرسالة، وقوّني على أداء مهمتي، فإن لم تكن أنت عوني ونصيري، فلا طاقة لي بما كلفتني به.

٣- واحلل عقدة من لساني، أي وأطلق لساني بالنطق، وأزل ما فيه من العقدة والعي، ليفهموا قولي وكلامي بتبليغ الرسالة. والعقدة التي دعا في حلّها: هي التي اعترته من الجمرة التي جعلها في فمه، حين جرّبه فرعون، وهو صغير، فأخذ الجمرة وترك التمرة، ووضعها على لسانه، فأحدثت فيه لكنة، وزالت العقدة بهذا الدعاء، وأما تعيير فرعون له فبسبب حالته القديمة.

٤- واجعل لي وزيراً عوناً ومساعداً لي في بعض أموري، من أهل بيتي هارون أخي، اجعْله رسولاً، ليتحمل معي أعباء الرسالة ونشر الدين. والوزير: المعُين القائم بوزْر الأمور، وهو ثقلها.وكان هارون عليه السلام أكبر من موسى عليه السلام بأربعة أعوام.

٥، ٦- يا رب أحْكِم بأخي هارون قوتي، واجعله شريكاً في أمر الرسالة، حتى نؤدي المطلوب على الوجه الأكمل، ونحقق أفضل الغايات. فكان طلب موسى على

معنى الدعاء في شد الأزر، وتشريك هارون عليه السلام في النبوة، والأزر: الظهر، كأنه قال: شُدَّ به عوني، واجعله مُقَاومي فيما أحاول من الأمور.

٧، ٨- أدعوك يا رب أن تؤازرني بأخي هارون لكي ننزهك ونسبحك كثيراً عما لا يليق بك من الصفات والأفعال، ونذكرك كثيراً وحدك، دون أن نشرك معك غيرك، قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وقوله ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ نعت لمصدر محذوف، تقديره: تسبيحاً وذكراً كثيراً.

إنك يا رب كنت بنا بصيراً، أي عليماً بأحوالنا وأحوال غيرنا، في اصطفائك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وخبيراً ببعثتك لنا إلى عدوك فرعون الطاغية الجبار الذي ادعى الألوهية، فنمتثل أمرك ولك الحمد على نعمك الجليلة التي لا تعد ولا تحصى.

لقد كانت غاية موسى عليه السلام من مطالبه الثمانية لنعم الله تعالى غاية سامية، وسبباً يُلزمه ويحمله على كثرة العبادة والاجتهاد في أمر الله تعالى. وهذا مطمح أولياء الله المقربين وصفوته المختارين، إنهم حين يدعون ربهم، لا يرغبون في تحقيق مطامع الدنيا ولذاتها، وإنما يرغبون في زيادة العون على القيام بمرضاة الله والإكثار من عبادته، وشكره على نعمه الكثيرة، فهو أكثر الناس تقديراً لهذه النعم، وأحرص الناس على شكر المنعم المتفضل، وهو الله عز وجل.

نعم الله على موسى عليه السلام قبل النبوة

أجاب الله تعالى دعاء موسى ومطالبه الثمانية في شرح الصدر وتيسير الأمر وحلّ العُقدة وغيرها، إما بنحو كامل أو على قدر الحاجة في الأفعال، وذلك منّةٌ من الله عز وجل، ثم قرن الله إليها تذكير موسى بقديم منّته عليه، وهي ثماني نعم أنعم بها

عليه قبل النبوة، ليعظم اجتهاده، وتقوى بصيرته. وجاء اقتران النعم الجديدة بعد النبوة وقبلها في الآيات الآتية، قال الله تعالى:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ[(١)] يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ[(٢)] فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ[(٣)] ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ[(٤)] فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا[(٥)] وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ[(٦)] فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ[(٧)] يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي[(٨)] ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٢٠/٣٦-٤١].

تضمنت الآيات ما امتن الله تعالى به على موسى عليه السلام من إجابة دعائه، وتذكيره بما أنعم الله عليه قبل النبوة، أما إجابة الدعاء فكان كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي قد أعطيتك ما سألته من الأمور الثمانية، من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وحل العقدة، ونبوة هارون، وشد الأزر به، وإشراكِه في أمر الرسالة، والتمكين من التسبيح الكثير، والذكر الكثير لله عز وجل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ أي وتالله لقد أحسنا وتفضلنا عليك بنعم ثمانٍ أخرى قبل النبوة وهي:

١- حين ألهمنا أمك لإنقاذك من فرعون أن تضعك في تابوت (صندوق من خشب أو غيره) ثم تلقي هذا التابوت في البحر، أي نهر النيل، ثم أمر الله النيل بإلقائك على الشط قبالة منزل فرعون، فأخذك فرعون عدو الله، وسيصير عدوك في المستقبل.

٢- وألقيت عليك محبة كائنة مني في قلوب العباد، لا يراك أحد إلا أحبك،

---

(١) أعطيت طلبك. (٢) في النهر. (٣) لتربى بمراقبتي. (٤) من يضمه إليه. (٥) تسرّ بلقائك.
(٦) خلّصناك من المحن. (٧) على وفق الوقت المقدر لإرسالك. (٨) اخترتك لرسالتي.

فأحبك فرعون، وزوجه آسية، وتلك المحبة كانت من الله وكانت سبب حياة موسى عليه السلام، والراجح الأقوى أن المراد بالمحبة: هو القبول الذي يضعه الله في الأرض لخيار عباده، وكان ذلك حظ موسى عليه السلام.

٣- ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، أي ولتربى بمرأىً مني، وفي ظل رعايتي.

٤- واذكر حين خرجتْ أختك تمشي على الشاطئ، تسير بسير التابوت، تتابعه بنظراتها لترى في أي مكان يستقر، فوجدت فرعون وامرأته يطلبان لك مرضعة، فقالت: هل أدلكم على من يربيه ويحفظه؟ فجاءت بأمك، فقبلْتَ ثديها، وكنت لا تقبل ثدي أي مرضعة أخرى غيرها، فرددناك إلى أمك بألطافنا، ليحصل لها السرور برجوع ولدها إليها، بعد أن طرحته في البحر، وعظم عليها فراقه.

٥- وقتلت نفساً هو القبطي حين استغاث بك الإسرائيلي، وكان قتلاً خطأ، فنجيناك من الغم الحاصل عندك من قتله، خوفاً من العقوبة، وذلك بالفرار إلى أرض مدين، فنجوت من الحبس والقتل أو التعذيب.

٦- ﴿وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾ أي اختبرناك مرة بعد مرة، بما أوقعناك فيه من المحن المذكورة، قبل أن يصطفيك الله لرسالته، حتى صلحت للقيام بالرسالة لفرعون ولبني إسرائيل.

٧- فأقمت سنين مع أهل مدين، بأرض العرب، على بعد ثماني مراحل من مصر، عانيت فيها من الفقر والغربة الشيء الكثير، وعشت راعياً لغنم شعيب مدة عشر سنين، كانت مهر امرأتك.

ثم أتيت في وقت سبق في قضائي وقدري لأكلمك وأجعلك نبياً، وهذا معنى الآية: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ﴾.

٨- واخترتك برسالاتي وبكلامي لإقامة حجتي، وجعلتك رسولاً بيني وبين

خلقي لتبليغ الدين، والهداية إلى التوحيد والشرع القويم، فقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ معناه: جعلتك موضع الصنيعة ومقر الإجمال والإحسان وقوله ﴿لِنَفْسِى﴾ إضافة تشريف. وعبر بالنفس عن شدة القرب وقوة الاختصاص.

هذه نعم عظيمة أنعم الله بها على موسى عليه السلام قبل البعثة النبوية، وهي كلها إعداد له لتحمل الرسالة، والقيام بالدعوة إلى توحيد الله، وعبادته، وشكره، وإقرار شرائعه في العالمين.

ذهاب موسى وهارون إلى فرعون

لقد كان تكليف موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى توحيد الله وعبادته تكليفاً شاقاً صعباً، تكتنفه احتمالات كثيرة كالتعرض للقتل والتعذيب، أو الطرد والتخويف، وقلَّ من يجرؤ على ذلك إلا إذا كان نبياً رسولاً، ذا جرأة وشجاعة منقطعة النظير، فإن فرعون جبار طاغية يدعي الألوهية، وموسى شخص ضعيف لا يملك قوة كبيرة ولا حماية بشرية. ولكن أقسى الصعاب تهون أمام قدرة الله وتدبيره، فتم المراد، كما جاء في الآيات الآتية:

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى(١) ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ(٢) أَوْ أَن يَطْغَىٰ(٣) ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه: ٢٠/٤٢-٤٨].

(١) لا تفترا في تبليغ رسالتي. (٢) يعجل علينا بالعقوبة. (٣) يزداد طغياناً وعتواً.

هذه جملة من الأوامر والنواهي الصادرة من الله لموسى وأخيه هارون. مضمونها: اذهب يا موسى مع أخيك إلى فرعون وقومه بآياتي ومعجزاتي الدالة على وجودي وقدرتي ووحدانيتي، التي جعلتها لك آية وعلامة على النبوة، وهي الآيات التسع التي أنزلت عليك، ولا تضعفا ولا تفترا أو تبطئا عن ذكر الله، ولا عن تبليغ الرسالة إلى فرعون وملئه. وخاطب موسى وحده بقوله: ﴿اذْهَبْ أَنتَ﴾ تشريفاً له. وآياتي: علاماتي التي أعطيتكما من معجزة وآية وحي وأمر ونهي كالتوراة.

اذهبا إلى فرعون، وأبطلا ألوهيته بالحجة والبرهان، لأنه تجاوز الحد في الكفر والتمرد والطغيان، والتجبر والعصيان، وبدأ بفرعون؛ لأنه الحاكم الذي إذا آمن، تبعه الناس.

فقولا له كلاماً ليناً رقيقاً لا خشونة فيه، لعله يتذكر حقيقته أو يخشى ربه، وهذا الأسلوب من اللين واللطف: هو شأن الرسول الداعية الناجح، حتى لا ينفر فرعون وأمثاله من دعوة موسى إلى تمجيد الله وتوحيده، فإن العبارة اللطيفة أجلب للمراد.

فأجاب موسى وهارون بقولهما: يا ربنا، إننا نخاف من فرعون وبطشه إن دعوناه لتوحيدك وعبادتك، أن يشتط في الغضب ويمعن في عقوبتنا أو يتجاوز الحد في التجبر والطغيان، والأذى والاعتداء، فقوله: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ معناه: أن يحمله حامل على التسرع إلينا بمكروه.

قال الله لموسى وهارون: لا تخافا من فرعون، فإنني معكما بالنصر والتأييد، والحفظ والعون، وإنني سميع لما يجري بينكما وبينه، ولست بغافل عنكما، وأرى كل ما يقع، فأصرف شره عنكما، فقوله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ أي بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون. و ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عبارة عن الإدراك الذي لا تخفى معه خافية، تبارك الله رب العالمين، والمراد أن الله تعالى حث موسى وهارون على التبليغ بجرأة وحكمة.

فأتيا فرعون، فأعلماه أنكما رسولان إليه، وقولا له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ وهذا إشارة إلى الرب الحقيقي وهو الله، والتحقير لفرعون، إذ كان يدعي الربوبية بما لا معنى له.

ثم أمر الله موسى وهارون بدعوة فرعون إلى أن يبعث معهما بني إسرائيل، ويخرجهم من خدمة القبط، أي أطلق سراحهم، وخلّ عنهم، ولا تعذبهم بتذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم، وتكليفهم ما لا يطيقون من السخرة في أعمال البناء والحفر ونقل الأحجار. وتعذيب بني إسرائيل كان ذبح أولادهم وإذلالهم.

لقد كانت دعوة موسى وهارون لفرعون كاملة، تضمنت شيئين: الدعوة إلى الإيمان بالله ووحدانيته، وإرسال بني إسرائيل. والظاهر أن رسالة موسى إلى فرعون ليست على حد إرساله إلى بني إسرائيل: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ﴾ على بمعنى اللام، أي السلامة لمن اتبع الهدى.

لقد أتيناك بآية على رسالتنا وهي العصا واليد، والسلامة والتحية والأمن من سخط الله وعذابه على من اتبع هدى ربه، فآمن برسله، واسترشد بآياته الداعية إلى الحق والخير وترك الظلم والضلال. وفي هذا توبيخ لفرعون وقومه، وإشعار بأن فرعون لم يكن مهتدياً إلى الصواب.

إننا قد أوحي إلينا من ربنا: أن العذاب الحق الخالص لمن كذب بآيات الله، وبما ندعو إليه من توحيده، وتولى عن طاعته، وذلك كما جاء في آية أخرى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٣٧-٣٩]. وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ٩٢/ ١٤-١٦].

هذه المهام في رسالة موسى وأخيه هارون إلى فرعون وقومه، في غاية الوسطية

والاعتدال، والتنبيه إلى الواقع، فإن فرعون لم ولن يكون إلهاً أو رباً، وإن استمرار الظلم منه لبني إسرائيل لن يحالفه النجاح، وسيكون هو الخاسر الذي لا يجد فرصة أخرى بغير الإيمان لجبر خسارته، والنجاة بين يدي ربه.

حوار موسى وفرعون حول الربوبية

اشتد أوار الحوار بين موسى وفرعون حول إثبات الربوبية لله الخالق، وإبطال ربوبية فرعون المزعومة، فقد سأل فرعون موسى عن حقيقة رب موسى وهارون، فكان جواب موسى ضرورة الانصراف عن البحث في الذات الإلهية إلى التأمل بصفات الله التي تمنع تشريك فرعون في الألوهية بأي وجه كان، حقيقي أو مجازي. وذلك سلب مطلق لألوهية بشر، وإثبات قاطع حاسم لألوهية الله وربوبيته، والإذعان لخالق الأرض والسماء، قال الله تعالى واصفاً بنود هذا الحوار:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ[1] ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ[2] ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا[3] وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا[4] وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا[5] مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ[6] ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ[7] ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٢٠/٤٩-٥٥].

يوجد كلام مضمر محذوف قبل هذه الآيات، يدل عليه ظاهر الكلام، تقديره: فأتيا فرعون يا موسى وهارون، فقولا له ما أمرتكما به، فلما قالا جميع ما أمرا به، قال لهما فرعون: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ خاطب فرعون موسى وحده، لتخصيصه

(١) صورته اللائقة به. (٢) فما شأن وحال الأمم؟ (٣) كالفراش للصبي. (٤) طرقاً. (٥) أصنافاً. (٦) مختلفة الصفات. (٧) لأصحاب العقول.

بالجواب، لأن موسى كان صاحب القسط الأعظم من الرسالة، والقائم بإظهار الآيات والمعجزات الدالة على صدق النبوة.

والمعنى: إذا كنتما رسولي ربكما إلي، فأخبراني: من ربكما الذي أرسلكما؟ ومن هذا الرب الذي بعثك يا موسى؟ فإني لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيري.

أجاب موسى بقوله: ربنا هو الذي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يليق به، وأوجد الآلة المناسبة لكل منفعة، كاليد للبطش، والرِّجل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع، ثم أرشد الله ووفق إلى طريق الانتفاع بما أعطى، فانتفِعُوا بكل شيء فيما خلق له، إما اختياراً كالإنسان والحيوان، وإما طبعاً كالنبات والجماد.

قال فرعون: إذا كان الأمر كذلك، فما بال القرون الأولى، أي فما حال وشأن الأمم الماضية، لم يعبدوا ربك يا موسى، بل عبدوا غيره من الأوثان وغيرها من المخلوقات؟!

فأجاب موسى قائلاً: إن كل أعمالهم محفوظة عند الله، مثبَّتة عنده في اللوح المحفوظ، يجازي بها، لا يخطئ الله في علم شيء من الأشياء، ولا ينسى ما علمه منها، فعلْمُ الله محيط بكل شيء.

ثم ذكر موسى ثلاثة أدلة خاصة على وجود الله لا يمكن لفرعون أن يدعيها له وهي: الأول: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي إن ربي هو الذي جعل الأرض ممهدة كالفراش، تعيشون فيها بيسر وسهولة، وقراراً تستقرون عليها وتنامون على أجزائها.

الثاني: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وجعل الله لكم في الأرض طرقاً تسلكونها، وسهّلها لكم لتعيشوا فيها براحة وأمان.

الثالث: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً..﴾ أي وأنزل من السحاب مطراً، أخرج به أنواعاً من أصناف النبات المختلفة، من زروع وثمار ذات طعوم مختلفة وألوان وروائح شتى، بعضها للإنسان، وبعضها للحيوان، وقوله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي على تقديرِ كون الكلام من موسى، وهو: يقول الله عز وجل: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ والراجح أنه إخبار من الله لنبيه محمد ﷺ، والأزواج من النبات: أي الأنواع، وشتى: أي مختلفات.

وإذا كانت النباتات خلقها الله للإنسان والحيوان، فكلوا منها أيها البشر، وارعوا أنعامكم فيها، أي هي صالحة أن يؤكل منها وترعى الغنم والمواشي فيها، إن في ذلك المذكور لدلالات وبراهين على وجود الله ووحدانيته لأولي النهى، أي ذوي العقول السليمة، الناهية عن القبائح.

وهذه المنافع للأرض والسماء إنما هي وسائل إلى منافع الآخرة، فكانت الأرض ذات منافع كثيرة، منها خلقناكم، أي من الأرض والتراب مبدؤكم في أصل الخلق حين خلق أباكم آدم من تراب، ومصيركم بعد الموت إلى الأرض، حيث تدفنون فيها وتختلط أشلاؤكم بالتراب، وسوف نخرجكم من قبوركم في الأرض مرة أخرى بالبعث والنشور، والغرض من هذه الآية هنا: تنزيه الرب نفسه، وتذكير فرعون بأصله، وأنه من تراب عائد إليه، فلا يغتر الإنسان بدنياه وملكه، وليعلم أن أمامه يوماً شديد الأهوال، يسأل فيه عن كل شيء، ويحاسب على أعماله.

اتهام موسى عليه السلام بالسحر

حينما أفلس فرعون في إيراد الحجة والبرهان على مزاعمه الباطلة من التأله وغيره، وكذَّب بكل الأدلة، اتهم موسى بالسحر، وطلب المبارزة مع السحرة، وتحديد مكان اللقاء وزمن الاجتماع، والتوجهُ لهذا المسار من المبارزة يدل على أن

أمر موسى عليه السلام قد كان قوي، وكثر متّبعوه من بني إسرائيل، ووقع أمره في نفوس الناس. قال الله سبحانه واصفاً رجحان ميزان القوة لصالح موسى عليه السلام في أرض مصر:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ[1] ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى[2] ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ[3] وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٢٠/٥٦-٥٩].

هذا إخبار من الله تعالى لمحمد ﷺ عن فرعون، والمراد جميع الخلق لإعلامهم بهذه الآيات المنبّه عليها. والمعنى: وتالله لقد بصّرنا فرعون وعرّفناه آياتنا الدالة على قدرتنا وتوحيدنا وعلى نبوة موسى، أي إن الله أراه آيات كثيرة: وهي العصا واليد والطمس على القلوب وغير ذلك من الآيات التسع ونحوها من الحجج والبراهين، فعاين فرعون ذلك أو بصره، ولكنه كذّب بها، وأبى الاستجابة للإيمان والحق، كفراً وعناداً وبغياً. وكانت رؤية فرعون لهذه الآيات مستوعبة، يرى الآية كلها كاملة، كأنه قال: لقد أريناه آياتنا بكمالها، وأضاف الآيات إلى ضمير العظمة الإلهية تشريفاً لها، ولكن فرعون أبى إدراكها واستيعابها، وكلمة (أبى) تدل على تكسب فرعون، وهو الذي يتعلق به الثواب والعقاب.

ثم ذكر الله تعالى شبهة فرعون وصفة تكذيبه، فقال لموسى مستنكراً معجزة العصا واليد: هل جئت يا موسى من أرض مدين لتخرجنا من أرضنا مصر بما أظهرته من السحر، وهو قلب العصا حية، توهم الناس بأنك نبي يجب عليهم اتباعك، حتى تتوصل بذلك إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها. وإنما ذكر فرعون الإخراج من

(١) امتنع عن الإيمان. (٢) أي وسطاً، يتساوى فيه الطرفان بالمجيء إليه. (٣) يوم الزينة: هو يوم عيد كان لهم.

الأرض لتنفير قومه من إجابة موسى، وتحريضهم على السخط عليه، والعمل على طرده من مصر.

ثم أعلن فرعون عن معارضته السحر بالسحر، فلنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر، فإن عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه.

فحدد لنا يوماً معلوماً ومكاناً معلوماً، نجتمع فيه نحن وأنت، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر، لا نخلف ذلك الوعد من قِبَل كل منا، ويكون المكان وسطاً بيننا وبينك، حتى لا يعذر أحد في التخلف، فقوله تعالى: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي مكاناً قريباً منا، قُرْبه منكم.

ثم قال موسى عليه السلام: موعد الاجتماع يوم الزينة، أي يوم عيد النيروز الذي يتزين فيه الناس عادة، وفي وقت الضحى، ليكون الاجتماع عاماً، في يوم يفرغ فيه الناس من أعمالهم، ويجتمعون جميعاً، ويتحدثون بنتيجة المبارزة، فتظهر الدعوة إلى الله، وتعلو كلمة الحق، ويزهق الباطل، وليكون الضوء غالباً، وفي نشاط أول النهار، فلا يشكّوا في المعجزة، ويشاهدوا قدرة الله على ما يشاء، ويتعرفوا على معجزات الأنبياء، ويظهر تفوقها على مزاعم السحرة، وبطلان معارضة السحر لخوارق الأحوال النبوية.

و «الحشر»: الجمع، ومعناه: نحشر الناس لمشاهدة المعارضة، والتهيؤ لقبول الحق حيث كان.

واختيار هذا الموعد من موسى عليه السلام دليل على الثقة بالنصر، وسبيل لإيضاح الحجة.

رُوي أن يوم الزينة كان عيداً لأهل مصر، ويوماً مشهوداً، وصادف يوم عاشوراء، وكان يوم سبت.

إن يوم المبارزة بين موسى عليه السلام والسحرة يوم حاسم في تاريخ الأنبياء وتاريخ الإنسانية، فقد سُلطت الأضواء على هذا اليوم، وانتظر فرعون وملؤه الأشراف أن تنتهي محاولات موسى ودعوته إلى ربه، ويتفوق السحر على المعجزة، حيث جمع فرعون أساطين السحرة، ولكن الله غالب على أمره، فانقلبت المعايير والحسابات والاحتمالات، وظهر أمر الله والحق، وخسر هناك المبطلون.

جمع السحرة في عهد فرعون

كان اغترار فرعون بسلطانه وملكه شديداً، وظن أن كل شيء يكون بتفوق المال والثروة والسلطة، وأنه سيقضي على موسى ودعوته في مهدها، بعمل جماهيري سريع، وتفوق علمي باهر، وأن سحر السحرة سيبطل مساعي موسى، ويظل له المجد والتفوق والسلطان، فبذل أقصى جهده لجمع أمهر السحرة من بلاد مصر، وردَّد السحرة ما يقول فرعون: ما هذان الرجلان: موسى وهارون إلا ساحران يريدان إخراج المصريين من بلادهم، فلا بد من إحكام الخطة، والتفنن في الإتيان بأشد ألوان المكر والكيد، وصف القرآن الكريم هذه المحاولة الخائبة من فرعون في جمع السحرة، فقال الله تعالى:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ(١) ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم(٢) بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّجْوَىٰ(٣) ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا
بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ(٤) ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ(٥) ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ(٦) ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ
﴿٦٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٦٠-٦٤].

---

(١) سحرته الذين يكيد بهم. (٢) يستأصلكم. (٣) أخفوا التناجي. (٤) بسنتكم الفضلى. (٥) أحكموا سحركم. (٦) فاز.

أقدم فرعون مصر على إبطال آيات الله التي أتى بها موسى، بالسحر، وانصرف غاضباً جاداً كل الجد، فجمع ما يكيد به من السحر والحيلة، والأتباع والأنصار، وكان السحر شائعاً في زمنه في أنحاء مصر، ثم أقبل في الموعد المحدد، وجلس في مكان خاص به مع كبار أعوانه وحاشيته. وجاء موسى وأخوه هارون، وأقبل السحرة ووقفوا صفوفاً، وبدأ فرعون يحرِّض السحرة ويعدِهم بوعود براقة، فطلبوا منه الأجر، كما حكى القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ .[الشعراء: ٢٦/ ٤١-٤٢].

قال موسى لفرعون والسحرة: الهلاك والعذاب لكم إن اختلقتم على الله كذباً وزوراً، فتزعموا أن ما جئتُ به ليس بحق، وأنه سحر، فيستأصلكم الله بعذاب شديد من عنده، وقد خسر وهلك من افترى على الله، أي كذب أي كذبة كان. وهذه مخاطبة محذِّر، فإنه ندب السحرة إلى قول الحق إذا رأوه، وألا يأتوا بكذب.

فلما سمع السحرة كلام موسى عليه السلام، تناظروا وتشاوروا فيما بينهم في الأمر، وتناجوا سراً في شأن موسى وأخيه، والنجوى: السر والمسارّة، أي كان كل رجل يناجي من يليه.

وقالت السحرة بعد المشاورة والمداولة: ما موسى وهارون إلا ساحران يريدان إخراجكم أيها المصريون من أرضكم مصر، بصناعة السحر، كما يريدان التغلب، للاستيلاء على جميع المناصب، ولتكون لهما الرياسة في كل شيء، ويذهبا بسيرتكم ومملكتكم والحال التي أنتم عليها ويزيلا طريقتكم المثلى، أي الفاضلة الحسنة.

وأقوالهم هذه مستمدة من آراء فرعون ومزاعمه وإشاعاته، مستخدمين أساليب ثلاثة للتنفير من موسى وأخيه: وهي تكذيب نبوتهما ووصفهما بالسحرة، والكشف

عن نواياهما في المستقبل بطرد السكان الأصليين من أرضهم مصر، والاستيلاء على جميع المناصب والرياسات. وأضاف السحرة قائلين: يجب علينا الوقوف صفاً واحداً أمام هذا الخطر، فاعزموا على تقديم أعلى الخبرات وجميع المهارات، ولا تتركوا أقصى ما تستطيعون عليه من الكيد والحيلة، وقفوا مصطفين صفاً واحداً، وألقوا ما لديكم دفعة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتعظم هيبتكم، وتغلبوا هذين الرجلين، فإنه فاز اليوم بالمطلوب من غلب منا ومنهما.

وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض، بقصد التحريض وشدِّ العزائم، لبذل أقصى الجهود للفوز بالمطلوب. وتداعوا إلى هذا؛ لأنه أهيب وأظهر لهم، و(أفلح) ظفر ببغيته، و (استعلى): طلب العلو في أمره، وسعى سعيه.

لقد انهارت كل مساعي الكيد من فرعون وسحرته، وأصيبت بالإحباط وخيبة الأمل، أمام معجزة النبوة معجزة موسى: وهي إلقاء العصا، وانقلابُها حية، ثم أكلت جميع الحبال والعصي والأسلاك التي ألقاها السحرة، لأن قدرة الله فوق كل قدرة، وتدبيره فوق كل تدبير، ولأن المعجزة أمر خارق للعادة، فوق الأحداث العادية، لا بتدبير وصنع بشر، وإنما يجريها الله استثناء من قانون العادات، على يد النبي المبعوث بدعوة واضحة لهداية الناس إلى التوحيد والحق والعدل.

المبارزة بين موسى عليه السلام والسحرة

لقد كانت المبارزة والمعارضة بين موسى عليه السلام وسحرة مصر أشهر وأعظم مبارزة في التاريخ القديم، فإنها كانت بين طرفين غير متكافئين: موسى وأخوه هارون في جانب، وسحرة مصر وجمعُهم الغفير في جانب آخر، وبدأت المبارزة في ظاهرها ودّية هادئة خيَّر السحرةُ فيها موسى ببدء الإلقاء أو تأخره، فوافق موسى على أن يبدأ

السحرة، وسيطر الخوف على قلب موسى من تحرك الحبال والعصي، فأوحى الله إليه أنه سيكون الفائز الغالب. وهذا ما حكته الآيات الآتية:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ(١) فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ(٢) مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٦٥-٦٩].

خيَّرَ السحرة موسى عليه السلام في أن يبتدئ بالإلقاء أو يتأخر بعدهم، وكان عددهم بالآلاف، والروايات في تحديد عددهم متفاوتة بين خمسة عشر ألف وتسع مئة ألف، وكان مع كل رجل منهم حبل وعصيّ، قد استعمل فيها السحر.

وهذا التخيير لموسى من السحرة أدب حسن وتواضع جم، ألهمهم الله به، ورُزقوا الإيمان ببركته، فقابلهم موسى عليه السلام أدباً بأدب. وقال لهم: بل ألقوا أنتم أولاً، لنرى سحركم وتظهر حقيقة أمركم، ولتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هُم ما معهم، فإذا ألقى عصاه تبتلع كل ما ألقوه، وليظهر عدم المبالاة بسحرهم.

فألقى السحرة ما معهم من الحبال والعصي، فتوهم موسى ومن رآهم من الناس أنها تتحرك بسرعة كالأفاعي. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ..﴾ إذا للمفاجأة، كما تقول: خرجت، فإذا زيد. وهي التي تليها الأسماء.

والظاهر من الآيات والقصص في كتب المفسرين: أن الحبال والعصي كانت تتحرك وتنتقل بحِيَل السِّحر، وبدسّ الأجسام الثقيلة المباعة فيها، وكان تحركها كتحرك من له إرادة كالحيوان.

---

(١) أضمر. (٢) تبتلع بسرعة.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ أي تملّكه الخوف، وهو عبارة عما يعتري نفس الإنسان إذا وقع ظنه في أمر على شيء يسوؤه. وظاهر الأمر كله الصلاح، وكان خوف موسى عليه السلام على الناس أن يضلوا لهول ما رأى. وخاف في الجملة، وبقي ينتظر الفرج، إنك يا موسى أنت الغالب على من ناوأك في هذا المقام، إنك أنت المستعلي عليهم بالظفر والغلبة.

وألق يا موسى العصا التي في يمينك، تبتلع أو تتلقف بعد صيرورتها جميع ما صنعوه من الحبال والعصي، ولا يفوز الساحر حيث أتى من الأرض، أو حيث احتال، ولا يحصل مقصوده بالسحر، خيراً كان أو شراً. وأبهمت العصا ولم تذكر هنا في الآية تهويلاً لأمرها، وأنها ليست من جنس العصي المعروفة، فبعد أن ألقاها وصارت ثعباناً، مدّ موسى عليه السلام يده إليها، فرجعت عصا كما كانت. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وظهر الحق، وبطل السحر، ودهش الناس الذين ينظرون، ونظر السحرة وعلموا الحق، ورأوا ضياع وابتلاع الحبال والعصي، وأن هذا خارج عن طاقة البشر، وهو من فعل الإله الخالق، فآمنوا بالله رباً إلهاً واحداً، رضي الله عنهم.

وكان إيمانهم المفاجئ أخطر من المبارزة نفسها. وبُهت فرعون وقومُه، وأحسوا بالإفلاس والخسارة وهزيمة المعارضة بين موسى والسحرة، فطاش صوابه، ولجأ إلى تهديد السحرة ووعيدهم، معتمداً على إرهابه وسلطته، ولكنه خاب وفشل مرة أخرى؛ لأن إيمان السحرة زُرع في قلوبهم كالجبال الرواسي، وهان عليهم العذاب من أجل مرضاة الله ولقائه وهو عنهم راضٍ.

لقد تغير وجه التاريخ بهذه المبارزة، وبدأ صوت الإيمان يعلو في أرجاء مصر، وبدأ عرش فرعون في اهتزاز واضطراب، والله يؤيد بنصره من يشاء. والواقع أن

احتمال غلبة أحد المتبارزين على الآخر أمر محتمل في كل منافسة أو مبارزة، لكن الذي لم يتوقعه أحد إنما هو إيمان السحرة برب موسى وهارون، وهذه معجزة إلهية تدل على أن الله غالب على كل شيء.

إيمان السحرة برب موسى وهارون

حينما ألقى موسى عليه السلام عصاه وانقلبت حية، والتقمت كل ما جاء به السحرة من الحبال والعصي، ثم رجعت إلى حالتها، أيقنوا بنبوة موسى عليه السلام، وأن الأمر ليس سحراً، وإنما الأمر من عند الله تعالى، وهذا كان له تأثير الصاعقة على فرعون وحاشيته، فلجأ إلى تهديد السحرة بتقطيع الأيدي والأرجل والتصليب في جذوع النخل، فما كان منهم إلا أن أعلنوا تحديهم لفرعون، وآثروا عليه السلامة والنجاة، لما رأوا من حجة الله تعالى وآياته البينات، قال الله تعالى واصفاً هذا الحدث الجلل:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا(١) فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٧٠-٧٣].

في خلال هذه الآية تقدير وحذف يدل عليه ظاهر القول، وهو: فألقى موسى عصاه، فالتقمت كل ما جاء به السحرة، فلما رأوا ذلك أيقنوا بنبوة موسى عليه

(١) أوجدنا وهو الله تعالى.

السلام، وأن الأمر من عند الله تعالى، فانكبوا على وجوههم ساجدين لله، وآمنوا برب موسى وهارون، مفضّلين الآخرة على الدنيا، والحق على الباطل. وقوله: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ بتقديم (هارون) قبل (موسى) لتستوي رؤوس الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٢/٢٠] ، فتأخير (شتى) لتعتدل رؤوس الآي. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٩] ، فتأخير قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ إنما هو لتستوي رؤوس الآي. وإنما قالوا: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ولم يقولوا: (برب العالمين) لأن فرعون ادعى الربوبية وادعى الألوهية، فلو أنهم قالوا: آمنا برب العالمين فحسب، لقال فرعون: إنهم آمنوا بي، لا بغيري، فاختاروا هذه العبارة لإبطال قوله.

قال فرعون الذي أصر على كفره وعناده ومكابرته الحق بالباطل: أصدَّقتم موسى وقوله واتبعتموه، من غير إذن مني لكم بذلك؟ فلم تؤمنوا عن بصيرة وتفكير، إنما أنتم أخذتم السحر عن موسى، فهو معلّمكم الكبير، وأنتم تلامذته، وتواطأتم معه علي وعلى رعيتي، لتظهروه وتروِّجوا لدعوته.

فهدّدهم ونفّرهم عن الإيمان بقوله: أقسم أني لأمثّلن بكم، فأقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، أي بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو على العكس، ولتعلمنّ هل أنا أشد عذاباً لكم أو رب موسى؟! وهذا من فرعون تحدّ لقدرة الله، وتحقير لشأن موسى، وإظهار لما لفرعون من بأس وسلطة.

فازداد السحرة بعد هذا التهديد تمسكاً بإيمانهم، وهانت عليهم أنفسهم من أجل رضوان الله، فقالوا: لن نختارك يا فرعون على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحات من عند الله تعالى، والمعجزات الظاهرة، كانقلاب العصا ثعباناً، واليد نجماً مشعاً، وعلى ما حصل لنا من الهدى واليقين، فافعل ما شئت، واصنع ما أنت

صانع، إنما لك تسلط ونفوذ علينا في هذه الدنيا الزائلة، بتهديدنا بالقتل، ولا سبيل لك علينا فيما بعدها، ونحن قد رغبنا بالآخرة.

إننا صدقنا بالله ربنا المحسن إلينا، ليغفر لنا خطايانا ويعفو عن سيئاتنا، وعلى ما أجبرتنا عليه من عمل السحر، لمعارضة آيات الله ومعجزات نبيه، والله خير لنا منك جزاء، وأدوم ثواباً، مما كنت وعدتنا، وأبقى منك عذاباً.

وكان رؤساء السّحرة اثنين وسبعين، فقالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً، فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بساحر، الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى فرعون إلا أن يعارضوه.

والظاهر أن فرعون نفّذ تهديده للسحرة بالقتل والتصليب، لقول ابن عباس: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء بررة.

التهديد بالجزاء والترغيب بالثواب في كلام السحرة

تابع السحرة الكلام مع فرعون بعد إصرارهم على الإيمان، واستخفافهم بتهديداته وإنذاراته، فحذروه من نقمة الله وعذابه الدائم، ورغّبوه في ثوابه الأبدي الخالد، وهذه صفة أهل الإخلاص والإيمان، فإنهم كما أحبوا الخير لأنفسهم، أحبوا الخير لغيرهم، وإذا هابوا الشر حتى لا يصيبهم السوء، هابوا امتداد شراراته لإصابة الآخرين وهذا الموقف المشرِّف، دوّنه القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٧٤-٧٦].

قالت فرقة من المفسرين: هذه الآية بجملتها هي من كلام السحرة لفرعون على جهة الموعظة له، والبيان فيما فعلوه. وهذا هو المتبادر للذهن. وقالت فرقة أخرى: بل هي من كلام الله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ، تنبيهاً على قُبح ما فعل فرعون، وحُسن ما فعل السحرة، وموعظةً وتحذيراً. وقد تضمنت القصة حالة المجرم الذي اكتسب الجرائم والخطايا.

والمعنى: إن من يلقى الله يوم القيامة، وهو مجرم في حق نفسه وربّه، فعذابه في جهنم، لا يموت فيها ميتة مريحة، ولا يحيا حياة كريمة، فهو يألم كما يألم الحي. وهذا القول: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ مختص بالكافر، فإنه معذب عذاباً ينتهي به إلى الموت، ثم لا يجهز عليه فيستريح، بل يُعاد جِلْده، ويجدّد عذابه، فهو لا يحيا حياة هنيّة، وأما من يدخل النار من المؤمنين بالمعاصي، فهم قبل أن تخرجهم الشفاعة، في غمرة، قد قاربوا الموت، إلا أنهم لا يجهز عليهم، ولا يجدَّد عذابهم. فهذا هو الفرق ما بينهم وبين الكفار. وفي الحديث الصحيح: أنهم أي عصاة المؤمنين يموتون إماتة. والواقع أنهم يقتربون من الموت، فهذا معنى الإماتة، لأنه لا موت في الآخرة.

هذا هو مصير الكفرة أهل النار. وأما أهل الإيمان والصلاح، فإنهم يلقون ربهم يوم المعاد، قد آمنت قلوبهم، وصفت نفوسهم وتطابق قولهم وعملهم مع قرارة ضمائرهم، وأدوا الطاعات، وخافوا ربهم، فأولئك لهم بإيمانهم وعملهم الصالح الجنة ذات الدرجات والمنازل العالية الرفيعة، والغرف الآمنة، والمساكن الطيبة.

لهم الدرجات العلى وهي القرب من الله تعالى. ومن المعلوم أن الجنة درجات، والنار دركات، روى الإمام أحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله تعالى، فاسألوه الفردوس».

وورد في الصحيحين: «إن أهل عِلّيين ليرون من فوقهم، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا بالله، وصدقوا المرسلين» وفي السّنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما».

تلك الدرجات العلى في جنات عدن، أي إقامة دائمة، تجري من تحت غرفها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، وذلك الفوز الذي أحرزوه جزاء من طهَّر نفسه من دنس الكفر والمعاصي الموجبة للنار، واتّبع المرسلين فيما جاؤوا به من عند الله العلي القدير. فليهنأ سحرة فرعون، إنهم آمنوا في جو من الإرهاب، وفي ميادين التعذيب والجَلْد والتقطيع، وإيمان كهذا له منزلته العظمى، وهو دليل على قوته وثباته، وأنه لا يخامره أي شك أو شبهة، فاستحقوا بذلك الدرجات العلى.

إغراق فرعون وجنوده في البحر

إن أكبر عظة للمتغطرسين المتألهين: ما حدث لفرعون الطَاغية الذي ادعى الربوبية والألوهية، فكان مصيره الإغراق هو وجنوده في البحر، وإنجاؤه بجسده، ليراه الناس، ويكون لمن خلفه عبرة وعظة، وكان الإغراق حدثاً عجباً، لم يكن بإغراق باخرة، ولا بدَحْر جيش، وإنما تم استدراجه بطريق يبس أوجده الله لموسى وقومه، فنجوا، فتبعهم فرعون وجنوده فيه، فأطبق عليهم الماء، وهلكوا جميعاً. قال الله تعالى مبيناً هذا الحادث العجيب:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ[١] بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا[٢] لَّا تَخَٰفُ

(١) سر بهم ليلاً من مصر. (٢) جافاً.

دَرَكًا(١) وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم(٢) مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ(٣) وَٱلسَّلْوَىٰ(٤) ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟(٥) فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ(٦) غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ(٧) ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٧٧-٨٢].

لما انقضى أمر السحرة، وغلب موسى وقوي أمره، وعده فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، فأقام موسى عليه السلام على وعده، حتى غدر به فرعون، ونكث وعده، وأعلمه أنه لا يرسلهم معه، فبعث الله تعالى الآيات على فرعون وقومه، وهي الجراد والقُمَّل وغيرها، وبعد هذا الآيات أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يخرج بني إسرائيل من مصر، في الليل سارياً. والسُّرى: سير الليل. والآيات تدوِّن هذه المسيرة. ومفادها: ولقد أوحينا إلى النبي موسى أن يسير ببني إسرائيل من مصر ليلاً، دون أن يشعر بهم أحد، وأمرناه أن يتخذ لهم طريقاً في البحر (البحر الأحمر) يابساً، لا ماء فيه ولا طين، وقلنا له: أنت آمن، لا تخاف دركاً، أي إدراكاً ولحوقاً بكم، ولا تخشى أن يغرق البحر قومك، وكان هذا الإنقاذ حينما كان قوم موسى قوماً صالحين، لذا عبر عنهم بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾.

فتبعهم فرعون وجنوده في الطريق اليابس في أرض البحر بقدرة الله، فغشيهم من البحر ما غشيهم، حيث أطبق عليهم ماء البحر، وتكرار (غشيهم﴾ للتعظيم والتهويل.

وأضل فرعون قومه عن سبيل الرشاد، وما هداهم إلى طريق النجاة، حينما سلك

(١) لا تخشى إدراكاً ولحاقاً. (٢) علاهم. (٣) مادة حلوة كالعسل. (٤) الطائر المعروف بالسُّماني. (٥) لا تكفروا بالنعم. (٦) فيقع عليكم ويلزمكم. (٧) هلك.

بهم في الطريق ذاته الذي سلكه بنو إسرائيل في وسط البحر. ثم عدد الله نعمه الكثيرة على بني إسرائيل وذكر هنا ثلاث نعم كبرى وهي:

١- قلنا: يا بني إسرائيل، قد أنجيناكم من عدوكم فرعون الذي كان يذبِّح أبناءكم، ويستحيي نساءكم، وأقررنا أعينكم حين أغرقت أعداءكم، وأنتم تنظرون إليهم، فإنهم غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينجُ منهم أحد، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٥٠].

٢- وجعلنا لكم ميقاتاً وهو جانب جبل الطور الأيمن في سيناء لتكليم موسى بحضرتكم، وإنزال التوراة ذات الشريعة المفصلة، وأنتم تسمعون الكلام الذي يخاطبه به رب العزة. قال المفسرون: ليس للجبل يمين ولا يسار، بل المراد أن طور سيناء عن يمين من انطلق من مدين إلى مصر.

٣- ونزلنا تنزيلاً عليكم المن والسلوى، وأنتم في التيه. أما المن: فهو حلوى كانت تنزل عليهم من الندى من السماء، من الفجر إلى طلوع الشمس، على الحجارة وورق الشجر، وأما السلوى: فهو طائر السُّماني الذي تسوقه ريح الجنوب، فيأخذ كل واحد منكم ما يكفيه.

وقلنا لكم: تنعموا بالأكل من تلك الطيبات المستلذات من الأطعمة الحلال، ولا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز، ولا تجحدوا نعمة الله فتكونوا طاغين، فينزل بكم غضبي وعقوبتي. ومن ينزل به غضبي فقد شقي وهلك. وإني لغفار وستّار لمن تاب من الذنوب، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولمن عمل عملاً صالحاً أمر به الشرع وحسَّنه، ثم اهتدى واستمر في منهجه، واستقام على ذلك الطريق حتى يموت. والمطلوب هو الاستمرار على منهج الحق والاستقامة؛ لأن المهتدي في الحال لا يكفيه للنجاة حتى يستمر عليه في المستقبل. فقوله تعالى بعد الإيمان

والعمل الصالح: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ معناه: ثم مشى في عقائد الشرع وشرائعه وأحكامه على طريق قويم، فلم يخالف الحق في شيء من المعتقدات.

عبادة اليهود العجل

ينحدر مستوى الفكر الإنساني أحياناً، فيؤله الطبيعة المخلوقة العاجزة أحياناً، أو يؤله الحجر والمعدن باتخاذ الأصنام والأوثان، أو يؤله الحيوان، كما فعل موسى السامري الذي اتخذ عجلاً من ذهب، وجعله إلهاً أثناء غيبة موسى في الميقات المحدد لتكليم ربه، وكان موسى عليه السلام قد استخلف أخاه هارون عليه السلام على بني إسرائيل، فرضوا بعبادة العجل، وكانوا قد طلبوا من موسى عليه السلام أن يصنع لهم تمثالاً ليعبدوه: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٨]. قال الله تعالى واصفاً كيفية اتخاذ العجل إلهاً لدى بني إسرائيل:

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ(١) عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا(٢) قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا(٣) قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا(٤) وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا(٥) مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا(٦) لَّهُۥ خُوَارٌ(٧) فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٣-٨٩].

تعجل موسى عليه السلام الذهاب إلى ميقات ربه حباً في مكالمته وإعطائه

---

(١) ما الذي دعاك إلى العجلة؟ (٢) ابتليناهم. (٣) حزيناً. (٤) بقدرتنا. (٥) أثقالاً. (٦) مجسّداً (أحمر من ذهب). (٧) صوت كصوت البقر.

الألواح، وسبق السبعين رجلاً الذين صحبهم لهذه المهمة، فسأله ربه: ما الذي حملك على أن تسبق قومك بني إسرائيل، والمراد بهم النقباء السبعون؟ وكانت المواعدة بين الله وموسى أن يوافي موسى وجماعة من وجوه قومه إلى جبل الطور، فاختار منهم سبعين رجلاً، فسار بهم، ثم عجّل في المسير من بينهم، شوقاً إلى ربه، وسماع كلامه، لما قرب من جبل الطور.

وهذا الإنكار من الله لعجلة موسى إنكارٌ للعجلة في ذاتها، لما فيها من عدم العناية بصحبه، وهو تعليم للأدب الرفيع في المصاحبة، وحسن المرافقة.

فأجاب موسى قائلاً: هم أي النقباء المختارون بالقرب مني، واصلون بعدي، وما تقدمتهم إلا بخُطىً يسيرة، وسارعت إليك ربي لتزداد عني رضا، بمسارعتي إلى الوصول إلى مكان الموعد، امتثالاً لأمرك، وشوقاً إلى لقائك، أي أن موسى عليه السلام اعتذر عن الخطأ في اجتهاده. قال الله تعالى: إنا قد اختبرنا قومك بني إسرائيل من بعد فراقك لهم، وأضلهم موسى السامري، باتخاذهم العجل من ذهب إلهاً. فعاد موسى عليه السلام إلى قومه بني إسرائيل بعد انقضاء أربعين ليلة، شديد الغضب والأسف والحزن.

قال موسى لقومه: يا قوم أما وعدكم ربكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة، وحسنَ العاقبة، من إنزال كتاب التشريع العظيم، والنصر على عدوكم، وتملككم أرض الجبارين وديارَهم، والثواب الجزيل في الآخرة لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، ثم اهتدى.

هل طال عليكم الزمان في انتظار وعد الله ونسيان نعمه، ولم يمض على ذلك من العهد غيرُ أربعين يوماً؟ بل أأردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم غضب ونقمة وعقوبة من ربكم؟ فأخلفتم موعدي، إذ وعدتموني أن تقيموا على طاعة الله عز

وجل، إلى أن أرجع إليكم من جبل الطور، والمراد: هل طال العهد عليكم، فنسيتم أو أردتم المعصية فأخلفتم؟!

أجابوه قائلين: ما أخلفنا عهدك ووعدك، باختيارنا وإرادتنا، بل كنا مضطرين إلى الخطأ، وذلك أننا حُمِّلنا أثقالاً من زينة القوم، أي الأقباط المصريين، حين خرجنا من مصر معك، وأوهمناهم أننا نجتمع في عيد لنا أو وليمة، وسميت الحلي أوزاراً، أي آثاماً، لأنه لا يحل لهم أخذها.

فأخرج السامري لبني إسرائيل من الحلي الذهب الملقى في النار جسد عجل، لا روح ولا حياة فيه، له خوار العجول، بتصنيعه بطريقة فنية، حيث عمل فيه خروقاً، وألقى فيه رملاً من أثر جبريل الأمين، فكان إذا دخلت الريح في جوفه خار، والخوار: صوت البقر.

فقال السامري ومن فتن به لبني إسرائيل: هذا هو إلهكم وإله موسى، فاعبدوه، ولكن موسى نسي أن يخبركم أن هذا إلهكم، أفلا يعتبرون ويتفكرون في أن هذا العجل لا يجيبهم إذا سألوه، ولا يكلمهم إذا كلموه، ولا يَقْدِر أن يدفع عنهم ضرراً، أو يجلب لهم نفعاً، فكيف يتوهم أنه إله؟!

عتاب موسى لهارون والسامري على تأليه العجل

اشتد غضب موسى عليه السلام على اتخاذ قومه العجل إلهاً من دون الله، فعاد بعد مكالمة ربه وتلقيه الألواح إلى قومه، فوبخهم واستهجن فعلهم، وعاتب أخاه هارون على سكوته على بني إسرائيل في عبادتهم العجل، وهدد موسى السامري بعقاب الله في الدنيا والآخرة، ونبْذه من القوم، وألقى موسى عليه السلام العجل في البحر، وأعلن أن الله وحده هو الإله الحق، الذي وسع علمه السماوات والأرض،

وليس الجماد أو الحيوان الذي لا يضر ولا ينفع، وهذا ما دوَّنته الآيات التالية، قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ(١) إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ(٢) يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ(٣) بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا(٤) وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ(٥) لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ(٦) ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ(٧) فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٩٠-٩٨].

هذا حوار حادّ بين موسى وهارون عليهما السلام وموسى السامري الذي اخترع عبادة العجل، وكان هارون في أثناء غيبة أخيه موسى، قال لقومه الذين تورطوا في عبادة العجل أول الأمر: إنما هو فتنة وبلاء وتمويه من السامري، وإن ربكم الرحمن الذي له القدرة والعلم والخَلْق والاختراع، فاتبعوني إلى الطور الذي واعدكم الله تعالى إليه، وأطيعوا أمري فيما ذكرته لكم.

فقال بنو إسرائيل حين وعظهم هارون عليه السلام، وندبهم إلى الحق. لن نبرح عابدين لهذا الإله، عاكفين عليه، أي ملازمين له حتى يعود إلينا موسى. والعكوف: الانحناء على الشيء من شدة ملازمته.

(١) ما حملك . (٢) ما شأنك الخطير . (٣) علمت بالبصيرة . (٤) ألقيتها في الحلي المذاب . (٥) زيّنت .
(٦) لا تمسّني ولا أمسك . (٧) ندمرنه .

قال موسى لهارون حين رجع بعد تكليم ربه في الميقات: ما الذي منعك من اتباعي إلى جبل الطور، واللحوق بي مع الباقي من المؤمنين، فتخبرَني بهذا الأمر، أول وقوعه؟ كيف خالفت أمري لك بالقيام لله، ومنابذة من خالف دينه؟ وكيف أقمت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً؟ قال هارون مجيباً أخاه موسى عليهما السلام: إني خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يقتتلوا ويتفرقوا، فتقول: إني فرقت جماعتهم؛ لأنه لو خرج لتبعه جماعة منهم، وتخلَّف مع السامري عند العجل آخرون، وربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم، وحينئذ تقول: لَمْ تعمل بوصيتي لك فيهم ولم تحفظها، وهي قوله المتقدم: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ﴾.

ثم كلم موسى عليه السلام موسى السامري رأس الفتنة، موبخاً ومستنكراً: ما شأنك، وما الذي حملك على ما صنعت؟ قال السامري: رأيت جبريل الرسول حين جاء لهلاك فرعون على فرس، فأخذت قبضته من أثر فرسه -والقبضة: ملء الكف بأطراف الأصابع، وكان ذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار حياً- فطرحتها في الحلي المذابة المسبوكة على صورة العجل، فصنعت لهم تمثال إله، حينما رأيتهم يطلبون منك أن تجعل لهم إلهاً كإله المصريين عبدة الأصنام. وكما زينت لي نفسي السوء، زينت لي وحسَّنت هذا الفعل بمحض الهوى.

فأخبره موسى بجزائه في الدنيا والآخرة فقال: اذهب يا سامري، فعقوبتك في الدنيا أن تصير منبوذاً، وتذهب من بيننا وتخرج عنا، وأن تقول ما دمت حياً: لا مساس بيني وبين أحد. وعقوبتك في الآخرة: أن لك موعداً للعذاب، لا يخلفه الله، بل سينجزه، وهو يوم القيامة.

وأما إلهك المزعوم الذي اتخذته معبوداً ولازمت عبادته: لنحرقنه تحريقاً بالنار، ثم لننسفنّه في البحر، وننسفه نسفاً شديداً.

ثم قال موسى لقومه: إن هذا العجل الذي فتنكم به السامري ليس بإله، إنما إلهكم الله، الذي لا إله إلا هو، فهو سبحانه المستحق للعبادة، ولا تصح العبادة إلا له، فكل شيء مفتقر إليه، وعبدٌ له، وهو عالم بكل شيء، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

جزاء المعرضين عن القرآن الكريم

القرآن العظيم: هو كتاب حق وهداية، ونورٍ وإسعادٍ للبشرية، فمن عمل به فاز، ومن أعرض عنه خاب وخسر، وتعرَّض لألوان العذاب والعقاب يوم القيامة؛ لأن الله تعالى خالقَ الخلق ورازق الأمم والأفراد أراد أن ينظم لهم حياتهم، فأنزل القرآن من أجل التنظيم الحياتي والحياة السعيدة، ويكون المعرضُ عن القرآن مؤثراً الحياة الفوضوية، والأهواء التي لا تؤدي في النهاية إلا إلى الدمار والخراب. قال الله تعالى واصفاً جزاء المعرضين عن آي القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا(١) ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا(٢) ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ(٣) بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً(٤) إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ٢٠/٩٩-١٠٤].

هذه الآيات الشريفة مخاطبة للنبي محمد ﷺ، أي كما قصصنا عليك نبأ بني إسرائيل في خبر العجل وعبادتهم له، كذلك نقص عليك أخبار الأمم السابقة، كما

(١) عقوبة ثقيلة. (٢) أي سود الألوان زُرْق العيون والأجساد، وهي غاية في التشويه، لأنهم كلون الرماد.
(٣) يتسارّون. (٤) أعدلهم وأفضلهم رأياً.

وقعت، من غير زيادة ولا نقصان، لتكون عبرة وعظة، وذات فائدة في فهم ظروف الأحداث الجديدة، وأحوال الأمة في معاداة رسولها. وقد أعطيناك من عندنا ذِكْراً، وهو القرآن المجيد، لتتذكر به على الدوام، ولأنه لم يُعط نبي من الأنبياء قبلك مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمعُ لخبر المتقدمين غيره، وفيه صلاح الدين والدنيا والآخرة، ويكون المراد من كلمة (الذكر) القرآن.

وكل من كذب بالقرآن وأعرض عن اتباعه، فلم يؤمن به، ولا عمل بشرائعه وأحكامه، وابتغى الهدى في غيره، فإن هذا المعرض يتحمل إثماً عظيماً، ويتعرض لعقوبة ثقيلة يوم القيامة، بسبب إعراضه عن كتاب الله، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١١/ ١٧].

والإعراض عن القرآن يشمل كل من بلغه هذا الكتاب، من العرب والعجم من أهل الكتاب وغيرهم من الوثنيين والماديين، وأصحاب النِّحلات والملل، والمذاهب الفاسدة، والعقائد الباطلة.

ويكون أولئك المعرضون عن القرآن خالدين ماكثين على الدوام في الجزاء الأخروي، وهو النار، لا محيد لهم عنه، وبئس الحمل الذي حملوه حِملهم من الأوزار والأثقال، جزاء إعراضهم.

إن يوم القيامة: هو اليوم الذي ينفخ فيه في الصور النفخة الثانية، نفخة البعث التي يحشر الناس بعدها للحساب، وفي هذا اليوم يُجمَع المجرمون أيضاً: وهم المشركون والعصاة، سود الألوان، زُرْق العيون والأبدان، كلون الرماد، وهذا غاية التشويه والإساءة، علامة على سوء أحوالهم، وانذارهم بسوء الحساب والعقاب، وما يتعرضون له من الأهوال العظام.

هؤلاء المجرمون المحشورون على أسوأ حال ولون يتخافتون، أي يتسارون فيما

بينهم، في مدة البقاء في الدنيا، فيقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا قليلاً بمقدار عشرة أيام أو نحوها، إنهم يجدون مدة بقائهم في الدنيا أو القبور قصيرة جداً، إذا قورنت بأيام الآخرة، فقوله تعالى عن المجرمين: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾ يتسارُّون، والمعنى: أنهم لهول المطلع وشدة ذهاب أذهانهم وأفكارهم، قد عزَب عنهم قدر المدة التي لبثوها في الدنيا ومدة العمر. وعبَّر الله تعالى عن قصر المدة بالعشر؛ لأن القليل في مثل هذا الموضع لا يعبر عنه إلا بالعشر.

ثم يقول الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ..﴾ أي نحن أعلم بما يتناجون، وبما يقولون في مدة لبثهم أو مكثهم، حين يقول أمثلهم طريقة، أي أعدلهم قولاً، وأكملهم رأياً وعقلاً، وأعلمهم بالحقيقة: ما لبثتم إلا بمقدار يوم واحد، لأن دار الدنيا كلها، وإن طالت في أنظار الناس، كأنها يومٌ واحد: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٧].

وهذا يدلّنا على أن معايير الزمن ومقاييسه، تتغير عند الله في الآخرة، فليس اليوم أو السنةُ من أيام وسنين الدنيا شيئاً يذكر بالنسبة للآخرة، فهو كالساعة أو اللحظة، وفي هذا رهبة وإثارة خوف وفزع، والحق أن أهوال الآخرة تلجم الألسنة، وتخرس الأفواه، وتشتت الأذهان والأفكار، وتوقع النفوس في الحيرة والقلق والدهشة، فتصير الموازين مختلة، والحسابات مضطربة.

تغير أوضاع الدنيا يوم القيامة

قد يظن بعض الناس من الطبعيين والماديين أن نظام الكون من الأرض والسماء يدوم على هذه الحال في عالم القيامة، وهذا خطأ بيِّن؛ لأن اختلاف الأشياء يستتبع اختلاف الأحوال، فلا نشاهد يوم القيامة عالم السماء الحالي، ولا نظام الأرض

القائم في الدنيا، مما فيه من جبال ووديان، وسهول وأنهار، كل ذلك يتغير ويتبدل، وتزول الجبال من أماكنها، وتتبدد الكواكب والنجوم والمجرّات، وتملأ الرهبة النفوس، وتخشع الأصوات، وتحتبس الأنفاس، وتخضع الوجوه للحي القيوم، القائم بكل شيء ومدبره، وهذا ما دوّنته الآيات التالية:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا[1] ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا[2] صَفْصَفًا[3] ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا[4] وَلَآ أَمْتًا[5] ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ[6] وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا[7] ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ[8] ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا[9] ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ٢٠/١٠٥-١١٢].

روى ابن المنذر عن ابن جريج قال: قالت قريش: يا محمد، كيف يفعل ربك بهذه الجبال، يوم القيامة؟ فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ..﴾ الآية. وقيل: إن رجلاً من ثقيف سأل رسول الله ﷺ عن الجبال، ما يكون أمرها يوم القيامة؟. هذه أسئلة غير المؤمنين بالحشر والقيامة حول الجبال والأرض. إن المشركين يسألونك أيها النبي الرسول عن حال الجبال يوم القيامة، هل تبقى أو تزول؟ فقل: يزيلها الله ويذهبها عن أماكنها، ويدكها دكاً ويجعلها هباء منثوراً.

روي أن الله تعالى يرسل على الجبال ريحاً، فيدكّها، حتى تكون كالعهن المنفوش، ثم تتوالى عليها حتى تعيدها كالهباء المنبث، فذلك هو النسف.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ **أي فيترك مواضع الجبال بعد نسفها أرضاً ملساء**

(١) يقتلعها. (٢) أرضاً ملساء. (٣) أرضاً مستوية. (٤) مكاناً منخفضاً. (٥) أي انخفاضاً وارتفاعاً.
(٦) لا يعوج له مدعو. (٧) صوتاً خفياً. (٨) أي خضعت وانقادت. (٩) نقصاً من ثوابه.

مستوية، بلا نبات ولا بناء، ولا انخفاض ولا ارتفاع، فلا تجد مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، ولا وادياً ولا رابية أو هضبة. فكلمة (قاعاً) أي مستوياً من الأرض، المعتدل الذي لا نَشَزَ (مرتفع) فيه. والصفصف نحو القاع في المعنى، أي أرضاً ملساء مستوية.

وحينئذ يوم تتبدل أوضاع الأرض، يتّبع الناس داعي الله إلى المحشر، مسارعين إلى الداعي، حيثما أُمروا بادروا إليه، لا معدل لهم عن دعائه، فلا يقدرون أن يميلوا عنه، أو ينحرفوا عنه، بل يسرعون إليه.

وسكتت الأصوات رهبة وخشية، وإنصاتاً، لسماع قول الله تعالى، فلا تسمع إلا همساً، أي صوتاً خفياً.

في ذلك اليوم يوم الحشر والجمع لكل البشر، لا تنفع شفاعة أحد إلا من أذن له الرحمن أن يَشْفع، ورضي قوله في الشفاعة؛ لأن الله تعالى هو المالك المتصرف في الخلق جميعاً في الدنيا والآخرة.

والسبب في تقييد الشفاعة بالإذن والرضا الإلهي أن الله تعالى يعلم جميع أحوال عباده، مما يلقونه يوم القيامة، وما خلفوه أو تركوه من أمور الدنيا، ولا تحيط علوم الخلائق بذات الله تعالى ولا بصفاته ولا بمعلوماته.

وذلّت الوجوه وخضعت، واستسلمت النفوس والخلائق كلها للإله الأحد الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، وهو قيّم على كل شيء يدبره ويحفظه، فهو سبحانه قائم بتدبير شؤون خلقه وتصريف أمورهم، وقد خسر من حمل شيئاً من الظلم والشرك. وخص الوجوه بالذكر، لأن الخضوع بها يبين، وفيها يظهر.

هذا حال الظالمين الجاحدين، وأما المؤمنون الموحدون الذين يعملون الأعمال الصالحة من الفرائض المطلوبة والواجبات المشروعة، وهم يقرنون بعملهم الإيمانَ الثابت الصحيح بالله رباً، وبالرسل مبلّغين، وبالكتب للبيان، واليوم الآخر

للحساب وإحقاق الحق، هؤلاء لا يخشون ظلماً ولا هضماً لحقوقهم، فلا يزاد في سيئاتهم بأن يعاقبوا بغير ذنب، ولا ينقص من ثواب حسناتهم.

والفرق بين الظلم والهضم: أن الظلم أعم من الهضم، وهما متقاربان في المعنى، ويتداخلان، وهما يشملان ميدان الحسنات والسيئات، أما الحسنات فلا ينقص منها شيء، وأما السيئات فلا تُعْظَم ولا تُكْثَر أكثر مما يجب.

إنزال القرآن عربياً

كانت رسالة الإسلام في أرض العرب، فكان منطقياً أن يكون الرسول عربياً من جنس قومه، وأن يكون الكتاب المنزل عليه عربياً، ليتمكن العرب من فهمه وتبليغه للناس، وأن يفخر العرب إلى يوم القيامة بأن يكون كلام الله ووحيه عربياً، فجدير بالأمة العربية أن تنصاع لهدي القرآن المجيد، الذي كانت ألفاظه وتراكيبه، وتشبيهاته واستعاراته، وحقائقه ومجازاته، من محور العربي بُنْيَةً وتركيباً، وأن يحملوه لأنحاء العالم مبشرين ومنذرين، وأن يحافظوا عليه دستوراً أبدياً للحياة، بكل وسيلة لحفظ وجودهم وكيانهم، قال الله تعالى واصفاً لغة القرآن:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا[1] فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ[2] وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ٢٠/١١٣-١١٤].

روى ابن أبي حاتم عن السُّدِّي قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن، أتعب نفسه في حفظه، حتى يشق على نفسه، فيخاف أن يصعد جبريل، ولا يحفظه، فأنزل الله عليه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ الآية.

---

(١) كررنا فيه أساليب مختلفة. (٢) أن يفرغ ويتم إليك.

وجاء في الصحيح أن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من الوحي شدة، فكان يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية. يعني أنه ﷺ كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية، قالها معه، من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه، لئلا يشق عليه.

والمعنى: كما قدَّرنا أحوال الخليقة، وجعلنا أمور الآخرة حقيقة أمام العباد، كذلك حذّرنا هؤلاء أمر القيامة، وأنزلنا القرآن عربياً، وتوعدنا فيه بأنواع من الوعيد، لعلهم-بحسب توقع البشر وترجيّهم-يتقون و يخشون عقابه، فيؤمنون ويتذكرون نعم الله، وما حذّرهم من أليم عقابه، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي أو يُكسبهم شرفاً، ويُبقي عليهم إيمانهم، وذِكْراً صالحاً في الغابرين، فيكون القرآن خيراً للعرب، إنه نزل بلغتهم مبشراً ومحذراً، وكان وسيلة وسبباً لرفع شأنهم وإعلاءِ منزلتهم، على ممر الدهر والتاريخ.

وناسَب تعظيم شأن القرآن إبانةُ ما يلازمه: وهو تعظيم منزل القرآن، وهو الحق سبحانه وتعالى، لذا قال الله بعدئذ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي تقدس وتنزّه الله الملك، المتصرف بالأمر والنهي، الثابتُ الذي لا يزول ولا يتغير، تعاظم وتنزه عن إلحاد الملحدين، وعما يقول المشركون، فإنه الملك حقاً، الذي بيده الثواب والعقاب والسلطان كله. وحقه وعدله تعالى: ألا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه، لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

والمناسبة واضحة بين هذه الآية وما قبلها، لأنه سبحانه لما أبان صفة سلطانه يوم القيامة، وعِظَم قدرته، وذلة عبيده وتلطفه بهم، ختم ذلك بهذه الكلمات، بوصف الله أنه صاحب الملك والسلطان، وهو الإله الحق الثابت، الذي لا يزول، ولا ينازعه أو ينافسه أحد في ألوهيته.

وحفاظاً على القرآن المجيد، وتثبيتاً له من المحو والنسيان، طبعه الله في قلب نبيه محمد كالنقش في الحجر، بحيث لا يزول ولا ينسى، وتكفَّل الله بهذا، ونهى نبيه بألا يتعجل أو يبادر إلى قراءة القرآن قبل أن يفرغ جبريل من إنزال الوحي، حرصاً منك على ما ينزل عليك، بل أنصت، فإذا فرغ الملَك من قراءته عليك، فاقرأه بعده، وكان النبي يقرأ قبل أن يستتم جبريل عليه السلام الوحي، فنُهي عن ذلك كما جاء في آية أخرى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٦-١٩].

وزيادة في إلقاء الطمأنينة على قلب النبي، أوحى الله إليه أنه سيعلّمه علم ما لم يعلم، وأنه ينمي له علومه ومعارفه على الدوام، لذا علّمه بأن يطلب دائماً الاستزادة من المعلومات والمعارف، قائلاً له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي اطلب واسأل ربَّك زيادة العلم، روى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم انفعني بما علّمتني، وعلّمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار».

قصة آدم في الجنة

خلق الله تعالى آدم عليه السلام وأسكنه في جنة الخلد، واقتضت إرادة الله وحكمته أن ينزل آدم إلى الأرض، وبدأت القضية في توجيه الأمر الإلهي لآدم ألا يأكل من شجرة معينة امتحاناً له في الطاعة وتنفيذ أمر الله، وكرم الله آدم بأن تسجد له الملائكة جميعاً، فسجدوا إلا إبليس، فحذر الله تعالى آدم من عداوة الشيطان له ولزوجه، ومحاولة إخراجهما من الجنة، فنسي آدم هذا التحذير، ووسوس له

الشيطان أن يأكل من شجرة الخلد، فأكل منها هو وزوجه، وعصى أمر الله ووحيه، وغوى وحاد عن طريق الرشد والهداية، قال الله تعالى مبيناً هذه الأحوال:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ[1] إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ[2] فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ[3] ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ[4] ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ[5] ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ[6] عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ[7] رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ[8] ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١١٥-١٢١].

يقسم الله تعالى في هذه الآيات بأنه قد عهد إلى آدم، أي وصّاه بألا يأكل من الشجرة في الجنة (شجرة معينة) فنسي ما عهد الله به إليه، وترك العمل بمقتضى العهد الإلهي، فأكل من تلك الشجرة، ولم يكن عنده قبل الأكل عزم وتصميم على ذلك، فإنه على العكس قد صمم على ترك الأكل، ثم فتر عزمه، وعندما وسوس إليه إبليس بالأكل، فلم يصبر عن أكل الشجرة.

والمراد بعهد الله: أمره أو نهيه، ويراد به هنا ألا يأكل من الشجرة ولا يقربها، ولكنه النسيان الذي هو من شأن البشر قد يكون سبباً للمعصية، والتذكر وقوة العزم سبب الخير والرشد، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠١].

وعلى الرغم من نسيان آدم أمر ربه، ذكّر الله نبيه وطالبه أن يقص الخبر على قومه، وهو أنه تعالى أمر الملائكة كلهم بالسجود سجود انحناء وتحية، لا سجود

(١) أمرناه. (٢) امتنع من السجود تكبراً. (٣) لا تتعرض لعُرْي. (٤) لا تبرز للشمس. (٥) لا يزول.
(٦) أخذا يُلصقان. (٧) خالف النهي سهواً أو متأولاً. (٨) ضل عن مطلوبه.

تعظيم وعبادة، تكريماً وتشريفاً لآدم، فسجد الملائكة كلهم جميعاً إلا إبليس أبى واستكبر، ورفض السجود، لأنه كان حسوداً جحوداً.

فقال الله: يا آدم، إن إبليس عدو لك ولزوجك، فلم يسجد لك وعصاني، فلا تطيعاه، ولا يكونن سبباً لإخراجكما من الجنة، فتتعب في حياتك الدنيا في الأرض، في تحصيل وسائل المعاش كالحرث والزرع، أو لا يقع منكما طاعة للشيطان في إغوائه، فيكون ذلك سبب خروجكما من الجنة، وسبباً للشقاء، أي التعب من عناء الزرع وغيره.

إن لك في الجنة تمتعاً بأنواع المعايش، فلا تجوع ولا تتعرى، ولا تعطش في الجنة، ولا يؤذيك الحر ولا تتعرض لأشعة الشمس الحادة، كما يكون لسكان الأرض، ويتبين الفرق بين النعيمين، نعيم الجنة خالد دائم لا عناء فيه، ونعيم الدنيا مؤقت مقرون بأنواع المتاعب والمخاطر.

فوسوس الشيطان لآدم، أي كلمه خُفية: ألاَ أرشدك إلى شجرة الخلد: وهي الشجرة التي من أكل منها لم يمت أصلاً وكان ملَكاً مخلداً، وألا أدلك على مُلك دائم، لا يزول ولا يفنى.

فأكل آدم وحواء من الشجرة التي منعهما الله منها، فانكشفت عورتهما، وسقط عنهما لباسُهما، فشرعا يلصقان عليهما من ورق الجنة كالتين وغيره مما هو كبير الورق، فيجعلانه على سوآتهما: عوراتهما، وعصى آدم ربَّه، أي خالف أمر ربه، بالأكل من الشجرة المنهي عن الأكل منها، فضلَّ عن الصواب، وفسد عليه عيشه.

ومما لا شك فيه أن مخالفة الأمر الواجب من الله أو من غيره معصية، وأن الجزاء حق وعدل على المعصية، لكن معصية آدم من نوع خاص، بترتيب وتدبير وإرادة من الله عز وجل. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن

النبي ﷺ قال: «حاجّ موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك، وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى: أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله علي، قبل أن يخلقني، أو قدّره الله علي قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فحجَّ آدم موسى».

إن معصية آدم وغوايته، أي بعده عن الرشد، لم تكن بتصميم وعزم، وإنما صدرت منه في حال النسيان للأمر الإلهي، ليترتب على ذلك الإخراج من الجنة، وتوالُد البشرية، وعمارةُ الكون بالناس.

إنزال آدم إلى الدنيا

رحمة الله تعالى بعباده تسبق دائماً غضبه، فالإنسان يخطئ ويصيب، بسبب نسيانه وضعفه وتغلب شهواته عليه، ولكن المؤمن العاقل سرعان ما يبادر إلى التوبة والإنابة، والاستقامة والاستغفار من سوء فعله، وتورّطه في مخالفة أمر ربه، والله تعالى بلطفه وكرمه وفضله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وهكذا حدث لآدم عليه السلام، عصى ربه نسياناً لا عمداً، ليتم تقدير الله، ولكن كان جزاؤه بالحق والعدل، ثم اجتباه ربه وهداه لصالح الأقوال والأفعال، وأنزله من علياء الجنان إلى قيعان الدنيا ومعكراتها، وهذا ما وصفته الآيات التالية:

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ[1] رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا[2] وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ

(١) اصطفاه للنبوة. (٢) ضنكاً أي معيشة ضيقة ومعاناة.

كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٢-١٢٧].

تضمنت هذه الآيات لآدم عليه السلام أموراً ثلاثة: الرجوع به من حال المعصية إلى حال الندم، وهدايته لصالح الأقوال والأعمال، وإمضاء عقوبته عز وجل في إهباطه من الجنة إلى عالم الدنيا. وفي الدنيا إنذار لآدم وذريته، فحواه أن المستقيم على أمر الله يلقى السعادة، والمعرض عن ذكر الله يتلقى ألوان المعيشة الشديدة المتعبة.

والمعنى: لقد اصطفى الله تعالى آدم عليه السلام وقرّبه إليه، بعد أن تاب من المعصية (وهي الأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها) وطلَب المغفرة من ربه، وأقر بأنه قد ظلم نفسه، فتاب الله عليه من غلطته، وهداه إلى التوبة وإلى سواء السبيل.

ثم قال الله تعالى لآدم وزوجه حواء: انزلا من الجنة إلى الأرض معاً، بعضكم يا معشر البشر في الدنيا عدو لبعض، في شأن المعاش وتنافس الدنيا وأطماعها، مما يؤدي إلى وقوع الخصام والاقتتال.

فإن يأتكم أيها البشر مني هدىً، بوساطة الأنبياء والرسل، وإنزال الكتب المنذرة والمبشرة، فمن اتبع هدى ربه وآمن به، فإنه لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

ومن أعرض عن ذكر الله وكفر به، فإن له معيشة ضنكاً، أي معيشة نكدة شاقة في المنازل، أو في الحروب ونحوها، ووقت هذه المعيشة في عالم الدنيا قبل يوم القيامة.

والمعنى: أن المعرض عن ذكر الله وهو الكافر، وإن كان متسع الحال والمال، فمعه من ألوان الحرص والقلق والهموم والتعذيب النفسي في أمور الدنيا أو في البرزخ في القبر، ما يصيِّر معيشته ضنكاً وشدة، فتكون العبرة بسعادة النفس وراحة البال والاطمئنان. ثم نحشره ونبعثه في الآخرة أعمى البصر والبصيرة، تائه الدرب، متخبطاً في ألوان العذاب يوم القيامة.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي أشد وأبقى من كل ما يقع عليه الظن والتخيل، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/٩٧].

قال المعرض عن ذكر ربه: يا رب، لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً، أي لماذا بعثتني أعمى البصر، وقد كنت مبصراً في دار الدنيا؟

فأجابه الله تعالى: مثلَ ذلك فعلت أنت، فكما تركت آياتنا وأعرضت عنها ولم تنظر فيها، تتركُ الآن في العمى والعذاب في النار، ونعاملك معاملة المنسي، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٧/٥١] فإن الجزاء من جنس العمل.

وهكذا نجازي ونعاقب المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة، وكما وصف الله من أليم الأفعال، نجزي المسرفين المخالفين، ولعذاب الآخرة في النار أشدّ ألماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم، فهم مخلَّدون فيه، كما جاء في آية أخرى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٤].

إن جزاء المسرفين المعتدين الكافرين بالله عز وجل جزاء ثابت في الحياتين الدنيوية والأخروية، وهو حق وعدل؛ لأن الله تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله، وأبان شرائعه ونظمه، ليسير الناس على نهجها، ويلتزموا بها، فإن كذبوا وأعرضوا عن بيان الله، استحقوا العقاب الأليم والجزاء الشديد، وذلك منطق العدل والحكمة والمصلحة.

العبرة من إهلاك بعض الأقوام

في التاريخ القديم والحديث عبر وعظات، وتوجيه للأنظار بأن ما حدث للماضين بسبب تكذيب الرسل والأنبياء، قد يحدث للأقوام الآتية بعدهم، إذا ساروا في

مسيرة من تقدمهم، وتقديم الإنذار لأهل العقل والإدراك والوعي يعدّ أسلوباً إعلامياً مفيداً ومؤثراً، إذا اتعظ به القوم، وإذا لم يتعظوا فما على أهل الفكر والوعي والإيمان إلا الإصرار على عقيدتهم، والصبر على أذى قومهم، واللجوء إلى الصلاة التي تقوّي العزائم، وتعتصم بالصلة القوية بالله تعالى والاتكال عليه، وطلب النجدة والعون منه، وهذا ما وجَّهت إليه الآيات التالية:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ(١) لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ(٢) يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ(٣) ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى(٤) ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ(٥) بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ(٦) فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا(٧) مِّنْهُمْ زَهْرَةَ(٨) الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ(٩) وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ٢٠/١٢٨-١٣٢].

هذه حملة توبيخ وتقريع لقريش وأمثالهم من مكذِّبي رسالة النبي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فإنهم لم يتبين لهم خبر من أهلكهم الله من الأمم السابقة؟ حالة كونهم يمشون في منازلهم التي دُمّرت، وصارت خاوية على عروشها، ولم يبق من الطوائف التي كانت قريش تمر على بلادهم إلى الشام وغيره، كعاد وثمود، وأصحاب الأيكة وقوم لوط، أثر ولا عين: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٢٧/٥٢]. أفلم يهد لهم أو يتبين ما جعل الله لهم من الآيات الواضحات للعظة والعبرة، إن في ذلك لعلامات واضحات لأولي النهي والعقل. والمتأمل بما حدث يتعظ وينزجر، ويبادر إلى تغيير عقيدته الفاسدة، وترك ضلالته الخاسرة، كما جاء في

(١) أي يُبين. (٢) أي الأمم الماضية. (٣) لأولي العقول والبصائر. (٤) يوم القيامة، معطوف على: كلمة. (٥) صلّ. (٦) ساعاته. (٧) أصنافاً من الكفار. (٨) زينتها. (٩) لنجعله فتنة لهم.

آية أخرى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٢٢/٤٦].

ولقد أخّر الله العذاب المستحق لمكذبي الرسل، والسبب في تأخير العذاب عنهم هو صدور وعد سابق من الله سبحانه بتأخير عذاب أمة النبي ﷺ إلى الدار الآخرة، ولولا هذا التأخير النافذ، لكان عقاب ذنوبهم لازماً لهم، لا يفارقهم بحال. ثم نهى الله نبيه عن الافتتان بمظاهر الدنيا، فلا تنظر أيها النبي إلى ما عند هؤلاء المترفين من ألوان النعيم ومتع الدنيا، من أجل اختبارهم بها، والتعرف على شاكريها، لقد يسر الله لك رزقك في الدنيا، فالله رازقك، وثواب الله وفضله في الآخرة خير من رزقهم وأدوم وأخلد.

ثم آنس الله نبيه، وأمره بالصبر على ما يقول هؤلاء المكذبون بآيات الله من أنك ساحر كذاب، أو مجنون، أو شاعر ونحو ذلك من أباطيلهم ومطاعنهم، لا تأبه بهم، فإن لعذابهم وقتاً معيناً لا يتقدم، واشتغلْ بتسبيح ربك، أي تنزيهه وشكره وأداء الصلوات المفروضة قبل طلوع الشمس، أي صلاة الفجر، وقبل غروبها، أي صلاة العصر والظهر، ومن ساعات الليل، أي صلاة العشاء والمغرب وقيام الليل، وفي أطراف النهار، أي صباحاً عند الفجر ومساء عند الغروب، وتأكيداً لهاتين الصلاتين الواقعتين طرفي النهار، سبِّحْه في هذه الأوقات، رجاء أن تنال عند الله تعالى ما ترضى به نفسك من الثواب، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ٩٣/٥].

وأمر أيها الرسول أهل بيتك لإنقاذهم من العذاب بإقام الصلاة واصبر أنت وهم على فعلها، لا نطلب منك رزقاً ترزق نفسك وأهلك بل تفرغْ للعبادة والتقوى، فنحن نرزقك ونرزقهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٨]. والعاقبة المحمودة وهي الجنة لأهل التقوى والطاعة. فإذا أقمت الصلاة مع أهلك،

أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٦٥/٢-٣].

أخرج مالك والبيهقي عن أسلم قال: كان عمر بن الخطاب يصلي من الليل ما شاء الله تعالى أن يصلي، حتى إذا كان آخر الليل، أيقظ أهله للصلاة، ويقول لهم: الصلاةَ الصلاةَ، ويتلو هذه الآية.

وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأْ صدرك غنىً، وأسدّ فقرك، وإن لم تفعل ملأتُ صدرك شُغْلاً، ولم أسدّ فقرك».

طلب المعجزات المادية من المشركين

إذا أفلس الناس في مجال المنطق والبرهان العقلي والدليل الفكري، لجؤوا عادة على سبيل المكابرة والتحدي إلى المطالبة بالمعجزات المادية غير المعقولة، وتمسكوا بالمستحيل من أجل إظهار الضعف وإبطال المبدأ وإخراس كلمة الحق والهداية والرشاد، وهذا ما فعله كبار المشركين من قريش في مكة، تمسكاً بعبادة الوثنية، وتحدياً للنبوة ورسالة السماء، وإصراراً على أبهة الزعامة والرياسة في أرجاء مكة وأمام العرب قاطبة، وإحراجاً لنبي الله الذي هو بشر يؤيده الله بما شاء من المعجزات، وهذا التعنّت والعناد دوَّنته آيات من القرآن الكريم لإظهار موقف المكابرين والمعاندين وإبطالاً لأقوالهم، وتجميداً لمواقفهم وأفعالهم، قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟[(١)] لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن

(١) أي مشركو مكة.

نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ(١) ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ(٢) فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ(٣) وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٣-١٣٥].

هذا لون من أباطيل قريش وأقاويلهم الفارغة، فإنهم كذبوا بالقرآن المعجزة، الخالدة الساطعة، على الرغم من تحديهم به وطلب معارضتهم له، فزعموا أن القرآن ليس بحجة ولا معجزة تدل على صدق نبوة محمد ﷺ، وطالبوا بمعجزات أخرى، قائلين: هلاّ يأتينا محمد بآية بيِّنة من ربه، ذات صفة مادية، تدل على صدقه في أنه رسول الله، مثل المعجزات المادية للأنبياء السابقين، كعصا موسى، وناقة صالح، وإحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فردَّ الله تعالى عليهم موبخاً لهم: ألم تأتهم بيِّنة الصحف الأولى يعني التوراة، فإنها أعظم شاهد وأكبر آية لمحمد، تدل على صدقه، حين بشَّرت به، وذكرت أوصافه الدالة عليه. ألا وإن أعظم آية أو معجزة تصدِّق محمداً ﷺ في نبوته ورسالته، إنما هي القرآن العظيم.

ثم أخبر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام: أنه لو أهلك هذه الأمة الكافرة قبل إرساله إليهم وإنزال القرآن، لقالوا يوم القيامة: يا ربنا هلا كنت أرسلت إلينا رسولاً في الدنيا، حتى نتَّبع آياتك التي يأتي بها الرسول عادة، من قبل أن نذلّ بالعذاب في الدنيا، ونخزى بدخول النار في الآخرة؟ وهذا دليل واضح على أن التكليف الإلهي والعقاب على التقصير أو المخالفة لا يكون قبل مجيء الشرع من عند الله رب العالمين.

والحق أن هؤلاء المكذبين للرسول في مكة متعنتون معاندون، لا يؤمنون ولو جاءتهم الآيات تتوالى.

فقل لهم أيها النبي: كل واحد منا ومنكم منتظر لما يؤول إليه الأمر، فانتظروا

(١) نفتضح في الآخرة. (٢) أي منتظر ما يؤول إليه الأمر. (٣) الطريق المستقيم.

أنتم، فستعلمون عن قريب في عاقبة الأمر، من هو على الطريق الحق المستقيم، أنحن أم أنتم، وستعلمون من المهتدي على طريق الحق والاستقامة، البعيد عن مهاوي الغواية، السائر على نهج السداد والصواب.

وهذا لون من التوعُّد والتوبيخ على خطأ منهج المشركين، وكأنّ هذه الآية قسمت الفريقين: أي ستعلمون هذا من هذا.

أخرج أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يَحْتَجُّ على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة: الهالك في الفترة[١]، والمغلوب على عقله، والصبي الصغير، فيقول المغلوب على عقله: ربِّ، لِمَ لم تجعل لي عقلاً؟ ويقول الصبي نحوه. ويقول الهالك في الفترة: يا ربّ، لِمَ لم تُرسل إلي رسولاً؟ ولو جاءتني لكنتُ أطوع خلقك لك، قال: فتُرفع لهم نار، ويقال لهم: رِدُوها، قال: فَيردُها من كان في علم الله أنه سعيد، ويكعّ عنها الشقي، فيقول الله تبارك وتعالى: إيايّ عصيتم، فكيف برسلي لو أتتكم؟».

أما الصبي والمغلوب على أمره فهما غير مكلفين، وهما في الجنة بفضل الله ورحمته من غير حساب ولا عمل ولا عقاب إلا من علم الله شقاوته وهو المعترض. وأما صاحب الفترة: فليس ككفار قريش ممن علم وسمع عن نبوة ورسالة في أقطار الأرض، وإنما هم الذين لا علم لهم برسالة أو نبوة صحيحة، فهؤلاء ناجون، فهم الذين لم يصل إليهم أن الله تعالى بعث رسولاً ولا دعا إلى دين، وهؤلاء قليلون في الدنيا، وأهل الفترة ناجون من العذاب إلا من أخبر رسول الله أنه في النار، وربما يكون اعتراض هؤلاء الأصناف الثلاثة حينما يعلمون أنهم في النار، ثم ينجي الله تعالى من علم أنه سعيد فيما لو جاءه رسول.

---

(١) أي في الفترة ما بين زمني نبيين كما بين عيسى ومحمد عليهما السلام.

تفسير سورة الأنبياء

الغفلة عن الحساب

كثير من الناس غافل عن المستقبل ومخاطره، ولا ينتظر ولا يفكر إلا في حاضره، بل قد يتغافل عن الماضي لنفسه أو لغيره، وهذا دليل القصور والعجز وقلة الوعي والإدراك، فإن النابه اليقظ هو الذي يحسب للمستقبل ألف حساب، ولا يغفل عما قد يتعرض له من مخاطر واحتمالات. وهذا ينطبق على مسألة الغفلة عن الحساب يوم القيامة، فالناس في لغو ولهو وطرب وهوى لا يفكرون في الآخرة، لذا أنذرهم القرآن، وحذّرهم من مسؤوليات الحساب الأخروي، فقال الله تعالى في مطلع سورة الأنبياء المكية:

﴿ٱقْتَرَبَ(١) لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى(٢) ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ(٣) بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١-٦].

نزلت الآية الأخيرة كما يلي: أخرج ابن جرير الطبري عن قتادة قال: قال أهل

---

(١) قرب ودنا . (٢) بالغوا في إخفاء تناجيهم . (٣) أخاليط أحلام .

مكة للنبي ﷺ: إن كان ما تقول حقاً، ويسرّك أن نؤمن، فحوِّل لنا الصّفا ذهباً، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان، ثُم لم يؤمنوا، لم يُنْظَروا، وإن شئت استأنيتَ بقومك، قال: بل أستأني بقومي، فأنزل الله: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

نبّه الله تعالى في مطلع هذه السورة (سورة الأنبياء) على اقتراب وجود الساعة (القيامة) ودنوّها، وصور لنا هذا بصيغة الماضي، مبيناً أنه قد بات في حكم المقطوع به، المقرر القائم، أنه قرب زمان حساب الناس على أعمالهم في الدنيا، وهو اقتراب الساعة، ولكن الناس في حياتهم ساهون غافلون، لاهون معرضون عن التأهب للحساب، والتفكر في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ عام في جميع الناس، وإن كان المشار إليه في وقت نزول الوحي بهذه السورة كفار قريش، بدليل ما بعده من الآيات، وقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ يريد الكفار.

ودليل غفلة الناس: أنه ما يأتي الكفار من قريش وأشباههم من قرآن جديد إنزاله، ينزل سورة سورة، وآية آية، على وَفْق المناسبات والوقائع إلا استمعوه، وهم لاهون ساخرون مستهزئون، متشاغلة قلوبهم عن التأمل وتفهُّم معناه، وهذا ذم صريح للكفرة، وزجر لأمثالهم عن تعطيل الانتفاع بما يسعدهم، وقوله تعالى: ﴿مُّحْدَثٍ﴾) يراد به الصوت المسموع فهو حادث بلا شك، وأما أصل القرآن الذي هو كلام الله فهو قديم بقدم الله تعالى.

وكان حال الكفار عند نزول القرآن: هو التناجي وإخفاء الكلام فيما بينهم، مرددين: هل هذا الرجل محمد إلا بشر كغيره من الناس في عقله، وتفكيره، وتكوينه، فكيف يختص بالرسالة دونكم؟!

أفتتبعونه، فتكونون كمن يأتي السحر، وهو يعلم أنه سحر، أو أتصدقون بالسحر، وأنتم تشاهدون أنه سحر؟! فهم يتهمون النبي ﷺ بأنه ساحر.

قال الرسول بتعليم الله: لا تُخفوا ما تقولون، فإن الله ربي وربُّكم يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية من أمر السماء والأرض وما يحدث بينهما من أقوال وأفعال، وهو الذي أنزل القرآن العظيم، وهو السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

ثم اشتط مشركو قريش فقالوا عن رسول الله: إن ما يحدث به عن الله مجرد تخاليط أحلام، رآها في المنام، بل إنه افتراه واختلقه من عند نفسه. ولما فرغوا من ترداد هذه المزاعم قالوا: إن كان محمد صادقاً في أنه رسول من عند الله أو أن القرآن كلام الله، فليأتنا بآية مادية غير القرآن، كناقة صالح، وعصا موسى، وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى من عيسى.

ثم كشف الله حقيقة ادعاءاتهم ومطالبهم: أنهم يصدرون عن غير إيمان، فما أتينا أهل قرية أو مدينة بعث إليهم رسول من آية، فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكهم الله بكفرهم، أفهؤلاء أهلُ مكة يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟! إنهم جماعة مكابرون، لا يؤمنون بشيء مهما جاءتهم الآيات.

بشرية الرسل

كانت اتهامات الرسل من أجل التهرب من الإيمان برسالاتهم غريبة وعجيبة، فمرة يُوصفون بالسحر أو الجنون أو الكهانة، ومرة يستنكر كونهم من البشر حين رؤيتهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وحين يفلس المكابرون والمعارضون الألداء من صدّ الناس عن الإيمان برسالة الرسول، يلجؤون إلى التهديد بالقتل أو

الطرد والإبعاد من البلد أو الوطن، ليستريحوا من محاولاته أسلمة الناس وجهوده في إقناعهم بتوحيد الله، والتزام أوامر الله، واجتناب نواهيه ومحظوراته. وهذا الاستغراب من بشرية الرسل دوَّنته آيات القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا(١) لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ(٢) أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٧-١٠].

هذه الآيات الكريمة رد على فرقة من العرب، كانت تستبعد أن يبعث الله من الناس رسولاً يتميز على غيره من البشر، بقدْر من الفضل بسبب الرسالة أو النبوة، فكان الرد تقريرَ ظاهرة عامة في الرسل: أنهم من نوع البشر، ليستطيعوا التفاهم مع أقوامهم، ونقاشهم في معتقداتهم، فسنة الله تعالى اقتضت إرسال رجال من البشر أنبياء. إن هذه الظاهرة: هي أن جميع الرسل الذين تقدموا محمداً ﷺ كانوا رجالاً من البشر، ولم يكن فيهم أحد من الملائكة، فإن كنتم أيها المستبعدون لهذه الظاهرة البشرية للرسل في شك من كون جميع الرسل بشراً، فاسألوا أهل العلم من الأمم السابقة، كاليهود والنصارى وسائر الأمم: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ ويوجَّه السؤال لعلماء الكتب السابقة فهم أهل الذكر، لتزول الشبهة، ويستقر الأمر في العادة أن رسل الله الموحى إليهم كانوا دائماً بشراً، ولم يكونوا ملائكة كما زعموا.

وإنما كانوا بشراً ليتمكن الناس من تلقي الوحي عنهم، والأخذ بما نزل عليهم، وهذا نص صريح في كون الرسل بشراً، وفي كونهم رجالاً، لا نساء.

(١) أجساداً. (٢) شرفكم وصيتكم.

وأكد الله تعالى على بشرية الرسل، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ أي لم نجعل الأنبياء ذوي جسد غير طاعمين كالملائكة، بل كانوا أجساداً عاديين يتناولون الطعام كغيرهم. وما كُتب لهم الخلود والبقاء في الدنيا.

وهذا نفي قاطع لاعتقاد بعض المشركين من ترفع الرسل عن الحاجة إلى الطعام، فهم كسائر البشر يأكلون الطعام، ويتصفون بصفات الإنسان ذاتها، ويتعرضون للمشاعر الإنسانية، من حزن وسرور، ومرض ونوم، ويقظة وانتباه، وحياة أو موت، فلا خلود ولا بقاء لهم في الدنيا.

ويذكر الله بقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ بأنه سبحانه يصون حياة الرسل وكراماتهم، ويصدُقهم في الوعد الذي واعدهم به، ألا وهو النصر على أعدائهم، وإنجاؤهم من العذاب، هم ومن يشاء الله من أتباعهم المؤمنين، ويهلك المكذبين منهم، المسرفين على أنفسهم بالكفر والمعصية، والمكذبين بما جاءت به الرسل.

وإثبات بشرية الرسل للرد على المشركين، يناسبه الحديث عن شرف القرآن وفضله، ونفعه للناس، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي تالله لقد أعطيناكم هذا القرآن المشتمل على دستور الحياة الإنسانية الفاضلة، وفي هذا الكتاب عظة وتذكير بمحاسن الأخلاق، ومكارم الشيم، أفلا تعقلون، أي تتدبرون أمركم، وتقدِّرون هذه النّعمة، وتتلقونها بالقبول، وتتفكرون بما اشتمل عليه هذا القرآن من العظات والعبر، فتأخذوا بما فيه، وتتجنبوا ما حذّركم منه، أو نهاكم عنه، وهذا حث شديد على تدبر أحكام القرآن، وتعقلِ ما جاء فيه من أمور الدين والدنيا والحياة.

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ بيانُ رفعة العرب، وإعلاءُ شأنهم ومنزلتهم بين أبناء العالم كله، والرفعة أو العزة لا تعني الأفضلية أو الطبقية أو

الاستعلاء العنصري، وإنما بيان لحسن السيرة والسمعة، والمركز الأدبي للعرب بين الأمم قاطبة؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، والرسول محمد من جنسهم وقومهم، فلا يصح منهم ولا يعقل أن يتركوا الإيمان أو يعارضوا رسول الله، أو يخرجوا عن دائرة طاعته وتوجيهاته وشرائعه التي تحقق لهم السعادة الأبدية الشاملة للدنيا والآخرة، فكان لا بد من تدبر آياته، وتفهم أنظمته السديدة.

الإنذار بعذاب الاستئصال

توعد الله تعالى مكذبي الرسل بعذاب الاستئصال على النحو الذي عذَّب به الأمم الماضية لحملهم على الإيمان الطوعي أو الاختياري، وترك العصيان والكفر بالله، ومن المبادئ المعروفة: أن ما جرى على المثيل أو النظير يجري على مثيله ونظيره، للاستواء في سبب العقاب، وتعاطي المنكرات ذاتها التي كانت موجبة للعذاب، قال الله سبحانه مبيناً هذه السنة الإلهية:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا[١] مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ
بَأْسَنَآ[٢] إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ[٣] ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ[٤] وَمَسَٰكِنِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ
حَصِيدًا[٥] خَٰمِدِينَ[٦] ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ
لَهْوًا[٧] لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ[٨] عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ[٩]
فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ[١٠] وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ[١١] مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ

(١) كثيراً ما أهلكنا. (٢) أدركوا عذابنا. (٣) يهربون مسرعين. (٤) نعِّمتم فيه. (٥) كالنبات المحصود بالمناجل. (٦) ميتين. (٧) ما يتلهى به من صاحبة أو ولد. (٨) نرمي. (٩) يمحقه. (١٠) ذاهب. (١١) الهلاك.

لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ(١) ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ(٢) ﴿٢٠﴾﴾

[الأنبياء: ٢١/ ١١-٢٠].

المعنى: وكثيراً ما أهلكنا من أهل المدن والقرى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله وتكذيب الرسل، وأوجدنا بعد إهلاكهم قوماً آخرين. وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ معناه: أهلكنا أهل القرى في اليمن وغيرها، فلما تيقنوا أن العذاب واقع بهم فعلاً لا محالة، كما توعدهم نبيهم، إذا هم يفرّون هاربين منهزمين من قريتهم، لما أدركتهم مقدمات العذاب.

ويقال لهم تهكماً واستهزاء حينئذ: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة التي أبطرتكم، وإلى مساكنكم التي اغتررتم بفخامتها، لتُسألوا عما كنتم فيه، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، لماذا وقع بكم هذا العذاب؟!

وفي الجواب اعتراف بالسبب صراحة، إنهم اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك. فما زالوا يرددون اعترافهم بالظلم، حتى جعلهم الله مثل الحصيد خامدين بلا حركة. أي لم ينطقوا بغير التأسف. والحصيد يشبّه بحصيد الزرع بالمنجل، أي ردّهم الهلاك كذلك، وخامدين: أي موتى دون أرواح، مشبهين بالنار إذا طفيت.

وإنزال هذا العقاب بهم حق وعدل، فكل ما يصدر عن الله عدل وحق، فالله ما أوجد السماوات والأرض إلا بالحق، أي بالعدل والقسط، لا للهو والعبث، فإنه سبحانه خلق السماء والأرض، لتكون دليلاً على معرفة الخالق لها، ولمنافع أخرى دنيوية، وليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

---

(١) لا يكلّون . (٢) لا يسكنون عن نشاطهم .

ولو أراد الله أن يتخذ لهواً من زوج وولد ونحوهما، لا تخذه من الملائكة والحور العين، إن قَصَد اللهو واللعب، ولكنه سبحانه منزه عن صفات المخلوقين.

والله من أجل إعلاء كلمة الحق، أبان الحق، ليدحض به الباطل ويزيله، فإذا هو زائل مبدَّد، ذاهب مضمحل، فإذا كان هذا من شأن الله، فكيف لا يبيِّن الحق، وينذرَ الناس؟ حتى لا يكون لاهياً لاعباً، ولكم أيها الزاعمون أن لله ولداً الويل، أي الهلاك والدمار، والعذاب الشديد، لوصفكم ربكم بما ليس من صفته، وافترائكم عليه أنه اتخذ صاحبة أو زوجة، وولداً.

وكيف يكون لله شريك خاص؟ وهو مالكُ جميع من في السموات والأرض، وكيف تتنكرون لطاعته؟ وله جميع المخلوقات ملكاً وخلقاً وعبيداً؟ كل الخلق ومنهم الملائكة طائعون خاضعون لله، دأبهم الطاعة ليلاً ونهاراً.

وجميع من عند الله من الملائكة لا يترفعون عن عبادته، ولا يعيون ولا يتعبون ولا يملون. وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ العندية ليست مكانية، وإنما هي عندية مكانة وتشريف. وتخصيص الملائكة بالذكر هنا، لإبانة رفعة شأنهم.

إن ملائكة الله الكرام يسبحون الليل والنهار، أي يعبدون الله وينزهونه في الليل والنهار، فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، لا ينقطعون عن الطاعة، ولا يفترون عنها ساعة، كما جاء في آية أخرى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦٦/ ٦].

وكل هذا الخَلْق الأعظم وعبادةِ الملائكة المستمرة لله دليل على استغناء الله تعالى عن طاعة الكفار؛ لأن الله هو المالك لجميع المخلوقات، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية.

مساوئ القول بتعدد الآلهة

إن أخطر آفة أصيب بها العقل البشري: هي القول بتعدد الآلهة، فهي فضلاً عن أنها انحدار في مستوى التفكير الإنساني، وسذاجة في التصور، وفساد في الاعتقاد، هي أيضاً ذات مساوئ خطيرة في نظام الكون، سمائه وأرضه، لأن تعدد السلطات يؤدي عادة إلى الخلاف والمنازعة، ويترتب على الخلاف والنزاع فساد نظام الأرض والسماء، واضطراب النواميس الكونية والقوانين المحكمة التي بها يصلح النظام الكوني، وقد نبّه القرآن العظيم لمساوئ هذه الظاهرة الوثنية الخطيرة في الآيات الآتية:

﴿أَمِ[1] اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ[2] ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٢١-٢٤].

هذه الآيات تفنيد لمزاعم المشركين القائلين بتعدد الآلهة، من غير دليل ولا برهان، وتعرية لمواقفهم المضطربة، وإظهار لحقيقة أمرهم، لقد وقفهم الله تعالى على الحقيقة الماثلة في أذهانهم وعلى ضعف الموقف الذي وقفوه، وهو: هل اتخذوا آلهة يُحيون و يخترعون؟ الحق أنه ليست آلهتهم كذلك، فهي غير آلهة إذن، لأن من صفة الإله: القدرة على الإحياء والإماتة، وآلهتهم لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه؟!

وهذا تذكير بخواص الألوهية التي منها إحياء الموتى من قبورهم، فإن المشركين بادعائهم الألوهية للأصنام ونحوها، يثبتون لها تلك الصفة، ووصف تلك الآلهة

(١) بمعنى بل مع ألف الاستفهام. (٢) أي يحيون الموتى من قبورهم.

بأنها من الأرض: إشارة إلى أنها من الأصنام المعبودة في الأرض، وهذا تهكم بهم، وتوبيخ، وتجهيل لهم.

ثم أبان الله تعالى مساوئ القول بتعدد الآلهة، فإنها لو وجدت لبغى بعضهم على بعض، وذهب كل إله بما خلق، فأحدهم يرى مثلاً تحريك جِرْم سماوي، والآخر يرى تسكينه، فمحال أن تتم الإرادتان، ومحال ألا تتما جميعاً، فلو كان في السماوات والأرض آلهة غيرُ الله لخربتا وفسد نظامهما. أما إن اتفقا في التصرف في الكون، فلا داعي للتعدد حينئذ، لأنه يؤدي إلى وجود الخلق والأمر والمقدورات من خالقين قادرين على مخلوق واحد، وهذا محال، لأنه يجعل وقوع المقدور بإرادة الاثنين، لا بإرادة واحد منهما، وهذا لا يصح، لأن لكل منهما إرادة مستقلة بالتأثير، فلا يعقل وقوع مخلوق لخالقين.

لذا تنزه الله تعالى وتقدس عن الذي يفترون ويقولون: إن لله ولداً أو شريكاً، وتعاظم عما يأفكون تعاظماً كبيراً.

وتأكيداً لهذا التنزيه، لا يسأل الله تعالى عن أفعاله، فهو الحاكم الذي لا معقّب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وإحاطة علمه وروعة حكمته وشمولها، وإنما يسأل خَلْقه عن أفعالهم، ما عملوا، وما سيعملون.

أيصح بعد هذه الأدلة أن يتخذوا آلهة من دون الله، ويصفوا الله بأن له شريكاً، فإن ادعوا الشريك، فليأتوا ببرهانهم على ذلك، إما من العقل وإما من الوحي، ولن يجدوا كتاباً من كتب الأولين كالإنجيل والتوراة إلا وفيه تقرير لتوحيد الله وتنزيهه عن الشركاء، كما أن العقل كما تقدم يرفض وجود إلهين.

هذا الوحي الوارد بتقرير توحيد الله ونفي الشركاء عنه، هو ما نزل على النبي محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء السابقين، فهو ذِكْر، أي عظة للذين مع النبي، أي أمته،

وعظة للذين من قبله من الأمم السابقة ممن عاصر النبي، فاتفق القرآن وجميع الكتب الإلهية السابقة على مبدأ توحيد الله ورفض الشرك.

بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعرفون الحق، ويعرضون عنه، ولا يميزون بين الحق والباطل، فلا تنفع معهم الأدلة والبراهين، فهم لجهلهم معرضون عن قبول الحق وعن النظر المؤدي إليه. وهذا دليل على أن الجهل أو عدم العلم: هو أصل الشر والفساد كله، وأنه يترتب على عدم العلم الإعراض عن استماع الحق وطلبه.

عقيدة التوحيد متفق عليها بين النبوات

توحيد الله تعالى وأنه رب واحد لا شريك له: هو الأصل العتيد والجوهر المطلق في العقيدة الدينية، وفي الفكر الإنساني السوي، فلم تختلف النبوات والرسالات الإلهية في الدعوة إلى توحيد الرب تعالى، ولم يتقبل العقل البشري السديد مبدأ الشرك وتعدد الآلهة، الذي أصبح مرفوضاً بأدنى نظرة عقلية رشيدة، وكانت نظريات الفلاسفة والحكماء الإلهيين الأصيلة تؤكد مبدأ وحدانية الخالق، وجاء القرآن الكريم مبيناً اتفاق الأنبياء في دعوتهم إلى توحيد الله، فقال الله سبحانه:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ[1] ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٥-٢٩].

(١) خائفون.

أكّد القرآن الكريم مضمون الوحي الإلهي الواحد لجميع الأنبياء، وإعلامه أنه ما أرسل رسولاً قط إلا أُوحي إليه أن الله تعالى فرد صمد، إله واحد، لا رب غيره، ولا معبود سواه، فكان لزاماً على البشر أن يعبدوا الله مخلصين له العبادة، وأن يتجهوا إليه وحده في جميع مطالبهم وتوسلاتهم، دون وسيط ولا شريك، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦/١٦] أي ابتعدوا عن كل ما عُبد من غير الله. وهذا تنزيه مطلق لله تعالى عن الشركاء.

ثم ضم الله تعالى إلى هذا التنزيه نفي اتخاذ الولد، فلقد كان العرب في الجاهلية مع اتخاذهم آلهة، يقرون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، إلا أن بعضهم قال: اتخذ الله الملائكة بنات، وبعض الناس اتخذوا نبيهم أو وليَهم الصالح ابناً لله، فردّ الله تعالى على جميعهم: بأن الله لم يتخذ ولداً، وأنه منزه عن مقالة الكفرة، فليس الملائكة بنات الله، بل هم عباد مخلوقون لله، مقربون لديه، والعبودية تنافي الولادة وتتعارض معها، فعبيد الله ليسوا أولاداً له، كل ما في الأمر أن الملائكة مفضلون على سائر العباد، لتميزهم بالخصائص الآتية:

١- ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله، وهذا دليل على حسن طاعتهم وعبادتهم ومراعاتهم لامتثال الأمر.

٢- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي إن الله تعالى يعلم علماً تاماً وشاملاً كل ما تقدم من أفعال الملائكة وأعمالهم، سواء المتقدم منها والمتأخر، والظاهر منها والباطن.

٣- ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أي إن الله أخبر أن الملائكة لا يجرؤون أن

يشفعوا بأحد من الناس إلا لمن ارتضى الله أن يُشفع لهم، وكان أهلاً للشفاعة، فليس لبشر أن يتعلق بشفاعة غير الله، فإن الشفاعة مرتبطة بإذن الله ورضاه.

٤- ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ أي إن الملائكة أنفسهم خائفون حذرون من هيبة الله وجلاله، مراقبون ربهم، مبالغون في الخوف من مصائرهم عند ربهم.

وإذا كان هذا شأن الملائكة مع الله، فالناس أولى بالخوف والخشية والحذر من الله، لتورطهم في المعاصي، لذا استحقوا الإنذار الإلهي بالوعيد الشديد، والتهديد الكبير، فمن يدعي من البشر أنه إله من دون الله، أي مع الله، كإبليس الذي دعا إلى عبادة نفسه، وفرعون الذي ادعى الألوهية والربوبية، فجزاؤه الحتمي جهنم على ادعائه الباطل، أما الملائكة فلم يقل واحد منهم: إني إله غير الله.

ومثل ذلك الجزاء للمتأله المستكبر، يجزي الله بالنار كل جائر ظالم نفسه، خارج عن حدوده وإمكاناته، والظالمون: هم المشركون، فإذا كان الله تعالى يجازي مدعي الألوهية، فهو يجازي الظالمين: وهم كل من أشركوا مع الله إلهاً آخر، ووضعوا الألوهية والعبادة في غير موضعها. أفبعد هذا النفي الشديد لتعدد الآلهة، وبعد هذا الإنذار الرهيب لمن تورط في الشرك والوثنية يكون لعاقل أن يزعم لنفسه صفة من صفات الله تعالى التي تفرّد بها؟! ومن صفات الله: الجلال والعظمة والكبرياء، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، والتدبير المطلق، والإرادة النافذة، والعلم المحيط بكل شيء.

والخلاصة: «كذلك نجزي الظالمين» معناه كجزائنا هذا القائل المدعي الألوهية جزاؤنا الظالمين.

أدلة توحيد الله تعالى

هناك براهين ملموسة، وأدلة حسية كثيرة مشاهدة، على توحيد الله الإله القادر، وتلك الأدلة واضحة في عظمة هذا الكون، وإحكام صنعه، وإتقان وجوده، وما على الإنسان إلا أن يتأمل تأملاً واعياً ودقيقاً، فيما اكتشفه العلماء، وما أرشدوا إليه من ثوابت الكون، وآفاقه الرحبة الشاسعة، وقيام كل جزء في الكون بوظيفته التامة، دون تصادم ولا تعارض، ولا شذوذ ولا تعطل، وهذه آيات من القرآن العظيم تورد ستة أدلة على وجود الله ووحدانيته، قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا(١) فَفَتَقْنَاهُمَا(٢) وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ(٣) أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ(٤) وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا(٥) لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا(٦) وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٧) ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٠-٣٣].

تضمنت هذه الآيات ستة أدلة على وحدانية الله تعالى، وهي ما يأتي:

أ- فصل الأرض عن السماوات بعد أن كانتا كتلة نارية أو غازية ملتهبة، قالت فرقة: كانت السماء ملتصقة بالأرض، ففتقها الله بالهواء، وقال فرقة: كانت السماء ملتصقة بعضها ببعض والأرض كذلك، ففتقها الله سبعاً سبعاً. والتصاق الأرض بالسماء في كتلة نارية واحدة هي نظرية السديم المعروفة عند العلماء. وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على أي قول: هي رؤية القلب، لا رؤية البصر، إذ لم يكن الكفار على ظهر الحياة حين الفتق.

---

(١) كانتا ملتصقتين، والرتق: الملتصق بعضه ببعض، الذي لا صَدْع فيه ولا فتح. (٢) ففصلناهما.
(٣) جبالاً ثوابت. (٤) لئلا تضطرب. (٥) طرقاً مسلوكة. (٦) مصوناً من الوقوع. (٧) يدورون.

٢- خلق الله كل حيوان من الماء، أي جعل الله من الماء الذي أوجده بفَتْق السماء عن الأرض، حياة الكائنات الحية، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٢٤/٤٥]. وهذا يوافق قول بعض العلماء: إن كل حيوان خلق أولاً في البحر، ثم انتقل بعض الحيوان إلى البر، وتطبع بطباع البر مع مرور الزمن. وختم الله الآية بقوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ألا يتدبرون هذه الأدلة، وهم يشاهدون كيفية خلق الأشياء، فيؤمنون بالخالق، ويتركون الشرك؟!

٣- إلقاء الجبال الراسيات في الأرض، لئلا تضطرب بالناس وتتحرك، فلا يحصل لهم قرار عليها، ويروى أن الأرض، كانت تكفأ بأهلها، حتى ثقّلها الله بالجبال، فاستقرت.

٤- إيجاد الفجاج، أي الطرق مسالك بين الجبال أو بين أجزاء الأرض، يسلكها الناس عادة بسهولة من مكان إلى آخر، ليهتدوا بها إلى مقاصدهم المعيشية في البلاد. والاهتداء إلى الغاية الدنيوية في الحياة، يذكّر بضرورة الاهتداء إلى العقيدة والطريقة المستقيمة المرضية لله تعالى، لذا ختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي لكي يهتدوا في مسالكهم وتصرّفهم. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ الضمير إما أن يعود على الجبال الرواسي، أو يعود على الأرض، وهو كما قال ابن عطية في تفسيره: أحسن.

٥- جعل السماء سقفاً محفوظاً، أي جعل السماء بمثابة المظلة أو السقف والقبة على الأرض، وذلك السقف محفوظ من الوقوع والاضطراب، ومحفوظ من الشياطين التي تحاول استراق السمع-سمع الأسرار الإلهية. فالحفظ هنا عام في الصون من الشياطين ومن التصدع والسقوط وغير ذلك من الآفات.

وعلى الرغم من هذه الأدلة الدالة على وحدانية الإله، الناس غافلون عنها، لذا

استحقوا اللوم والتوبيخ بنهاية الآية، فقال الله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي إن الناس عن آيات السماء معرضون غير متأملين ولا مفكرين، وآيات السماء: كواكبها وأمطارها، والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك مما يشبهه.

٦- خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، نعمةً من الله، ودليلاً على عظمة سلطانه، عن طريق دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، ودوران القمر حول الأرض، والشمس والقمر كل منهما يدور ويسبح في فلك خاص معين له، لا يفارقه، والفلك: الجسم الدائر دورة اليوم والليلة، فالكل في ذلك سابح متصرف، وإيجاد الليل لمنافع كثيرة كالراحة والنوم والاستقرار، وإيجاد النهار للتقلب في معايش الدنيا، وخلق الشمس والقمر للإضاءة، وإفادة الزروع والثمار.

الموت نهاية كل حي

لا خلود لأحد من المخلوقات في عالم الدنيا، سواء من الجن والإنس، والملائكة والبشر والحيوان، فمصير الجميع إلى الموت، ثم يأتي يوم القيامة فجأة لحساب الخلائق، ومعرفة المصلح من المفسد، والمؤمن من الكافر، والبَرّ من الفاسق والفاجر، فتسود العدالة المطلقة، ويتحقق التناصف بين المخلوقات في الآخرة، بعد أن ملئت الأرض جوراً وظلماً، وهذا ما أعلنه القرآن المجيد في الآيات الآتية:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم(١) بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ

(١) نختبركم مع علمنا بحالكم.

﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ(١) عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً(٢) فَتَبْهَتُهُمْ(٣) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ(٤) ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ(٥) بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٤-٤١].

سبب نزول هذه الآيات: أن بعض المسلمين قال: إن محمداً لن يموت، وإنما هو مخلّد، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأنكره، ونزلت هذه الآية. وفي رواية أخرى: نزلت هذه الآية، لما قال الكفار: إن محمداً سيموت قائلين: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٥٢/ ٣٠].

والمعنى: قضى الله تعالى ألا يُخلِّد في الدنيا بشراً ولا نفساً، فلن يكتب الخلود لأحد، فلا نخلد أحداً، ولا أنت نخلّدك أيها النبي، وقد قدِّر لك أن تموت كسائر الرسل المتقدمين قبلك، فهل إذا مت أيها الرسول يبقى هؤلاء المشركون بربهم؟ لا، بل الكل ميتون، فلا أمل في أن يعيشوا بعدك. وهذا رد على المشركين الذين كانوا يتمنون موت رسول الله ﷺ، وكانوا يقدِّرون أنه سيموت، فيشمتون بموته، فلا محل لهذه الشماتة؛ لأن الموت نهاية طبيعية لكل حي، حتى الملائكة والجن يموتون، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٦-٢٧].

ثم أكد الله تعالى موت الأنفس بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ أي كل مخلوق إلى الفناء، وكل نفس ذائقة مرارة الموت، قبل مفارقتها الجسد، فيكون المراد بالنفس هنا: كل نفس مخلوقة.

(١) لا يمنعون. (٢) فجأة. (٣) تحيرهم. (٤) يمهلون. (٥) أحاط.

والحياة مسرح للابتلاء أو الاختبار بالبلاء والنعمة، وبالشدة والرخاء، وبالشر والخير، ومرجعكم ومصيركم في النهاية إلى حكم الله وحسابه وجزائه، فنجازيكم بأعمالكم، وفي هذا وعد بالثواب، ووعيد بالعقاب، وهذا إخبار من الله عز وجل عن الرجعة إليه، والقيام من القبور، بعد أن كانوا على أحوال مختلفة في الدنيا، كما قال الله تعالى في تقسيم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٢]. والابتلاء بالخير والشر هنا: كل ما يصح أن يكون فتنة وابتلاءً، وذلك خير المال وشره، وخير البدن وشره، وخير الدنيا في الحياة وشرها. وأما الهدى والضلال، فغير داخل في هذا، كما لا تدخل الطاعة والمعصية، والأوامر والنواهي؛ لأن من هُدي فليس نفس هداه اختباراً، بل قد تبين خبره.

ثم ذكر الله تعالى استهزاء بعض المشركين بالنبي ﷺ، كأبي جهل بن هشام وأمثاله، فليس لهم همّ إلا السخرية من النبي، واتخاذه مهزوءاً به، وقالوا تعجباً واستنكاراً: أهذا الذي يعيب آلهتكم ويسفّه أحلامكم؟! والحال أنهم كافرون بالله الذي خلقهم وأنعم عليهم، وإليه مرجعهم، فهم يعيبون على النبي ذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع، مع أنهم كافرون بالرحمن الذي هو المنعم الخالق، المحيي والمميت.

روي أن أبا سفيان وأبا جهل بن هشام رأيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد، فاستهزءا به، فنزلت الآية بسببهما . وظاهر الآية يعم معناها جميع كفار قريش وعظمائهم الذين كانوا ينكرون موقف الرسول من آلهتهم. فرد الله عليهم بأنهم أحق بالملام، وهم المخطئون، حيث كفروا بذكر الله، واستمتعوا بذكر الأصنام، وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ معناه بما يجب أن يذكر به. والمقصود بالرحمن: هو الله تعالى، رداً عليهم حين قالوا: ما نعرف الرحمن إلا باليمامة.

ثم مهدت الآية للرد على المشركين في استعجالهم العذاب، وطلبهم آية مقترحة، فهي مقرونة بعذاب مجهَّز إن كفروا بعد ذلك، ومضمون الآية: أن الإنسان خلق متعجلاً الأمور، وكأن هذا جزء من تكوينه وفطرته، كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١] أي في الأمور، فإن المشركين يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى الإيمان والإقرار بالعبودية، وبرسالة محمد ﷺ.

روي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث الذي استعجل العذاب الذي هدد به النبي قومه، إنهم يستعجلون العذاب، ويقولون على سبيل الاستهزاء بالنبي وصحبه المؤمنين: متى وقت حدوث عذاب النار الذي تهددوننا به، إن كنتم صادقين في وعدكم وقولكم؟! والمراد نهيهم عن الاستعجال، وزجرُهم.

لو يعلم الذين كفروا نوع العذاب المنتظر في الآخرة في الوقت الذي لا يتمكنون من منع العذاب عن وجوههم وظهورهم، ولا يجدون ناصراً لهم ينجيهم، لو يعلمون لما قالوا ذلك، ولم يستعجلوا العذاب.

بل تأتيهم النار أو الساعة فجأة، فتدهشهم وتحيرهم، فلا يستطيعون صرفها عن أنفسهم، ولا هم يؤخرون لتوبة أو اعتذار.

ولقد استهزأ الكفار الماضون بالرسل السابقين من قبلك أيها الرسول، فأحاط بالذين سخروا واستهزؤوا برسلهم العذاب الذي أنذرتهم به الرسل، جزاء استهزائهم.

الحراسة المطلقة لله من البأس والشدة

يتعرض الإنسان أحياناً للأحداث الجسام والوقائع العظام بقضاء الله وقدره ولحكمة بالغة، قد تكون قصاصاً في الدنيا، وقد تكون تنبيهاً وتحذيراً، وقد تكون عبرة وابتلاء واختباراً، ولكن في غالب الأحوال يكون الإنسان عادة في كلاءة الله

وحراسته وحفظه، تحميه من الموت، وتمنعه من السوء أو المكروه، وليس للآلهة المزعومة من الأصنام وغيرها قدرة على حفظ شيء من الضرر، أو جلب شيء من النفع، وهذا لون من المقارنة، لحمل المشركين الوثنيين على الإيمان بوحدانية الله وقدرته، وترك عبادة من لا قدرة ولا إرادة له أصلاً، قال الله سبحانه:

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم(١) بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ(٢) ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٢-٤٤].

هذا لون من تقريع المشركين الذين لا يتفكرون بأدلة الإيمان، ولا يتركون عبادة الأصنام، فقل يا محمد لهؤلاء الكفرة المستهزئين بك وبما جئت به، الكافرين بذكر الرحمن، الجاهلين به، قل لهم على جهة التقريع والتوبيخ: من يحفظهم؟ ومن الذي يحرسهم بالليل في نومهم، وبالنهار في عملهم، من بأس الله وعذابه إن أتاهم؟ بل إن هؤلاء المشركين -على الرغم من وجود الأدلة الكثيرة العقلية والمادية الدالة على فضل الله ونعمته بالحفظ- معرضون عن تلك الأدلة.

ثم و بخهم الله سبحانه على عبادتهم آلهة لا تضر ولا تنفع، فهم يظنون أن آلهتهم العاجزة عن كل شيء، تمنعهم من عذاب الله، والواقع لا يمنعهم أحد من بأس الله إلا الله، وتلك الآلهة لا يتمكنون من نصر أنفسهم، ولا دفع الضر عنهم، ولا هم يُجارون ويمنعون، بل يخضعون لسلطان الله فيهم، لأنهم في غاية العجز والضعف، فكيف ينصرون غيرهم، ويدفعون الضر عنهم أو يجلبون النفع لهم؟!

بل إن الذي غرهم وأوقعهم في الضلال أن الله متّع المشركين بالنعم الكثيرة، في

(١) يحفظكم. (٢) ينصرون ويُمَنعُون.

الدنيا كما متَّع آباءهم، حتى طال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء، والحقيقة أنهم مع مرور الزمان في غفلة، حتى اغتروا بنعم الله، ونسوا شكرها، ثم وعظهم الله بعظة بليغة تتعلق بمواضع العبرة في الأمم والبشر، وهذه العظة مضمونها: أفلا يرون رأي العين التي تتبعها رؤية القلب ما يتعرض له بعض معمور الدينا وأطرافها من خراب، وحال بعض البشر من نقص وموت، فيكون المراد حينئذ أهل الأرض. وحقيقة توبيخهم هي: أهم يَغْلِبون من غلب جميع أهل الأرض، وقَهَر الكل بسلطانه وعظمته؟ أي إن ذلك محال بيّن، بل هم مغلوبون مقهورون.

وفي قوله تعالى: ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ إشارة واضحة إلى التقلبات والأحداث التي تطرأ على أحوال الدنيا، أو تصف وجود الكرة الأرضية، أما التقلبات: فهي التي تحدث في أثناء الفتوحات، حيث تمتد رقعة شعب، وتضيق رقعة شعب آخر، ففي الماضي كانت تتقلص أراضي المشركين المعتدين بفتح المسلمين لها، واتساع نفوذهم، فيكون المسلمون بإرادة الله وقوته هم الغالبين، والمشركون هم المغلوبين وفي هذا عبرة للمعتبر. وأما حال الأرض: فهي كما أثبت العلماء المعاصرون غير تامة التكوير والاستدارة، وإنما هي مفلطحة، وهو ما يعبر عنه بالخط الإهليلجي في القطب الشمالي والجنوبي، مما يدل على وجود صانع مدبر، هو الإله ذو القدرة النافذة، والسلطانِ المطلق، يتحكم في الأرض أثناء دورانها، و يخلق الله ما يشاء، ويحكم بما يريد.

وليتأمل الإنسان قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ معناه بالقدرة والبأس، والأرض عامة في الجنس. كما يتأمل ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي من جوانبها لا من وسطها، ويراد به: إما ما يخرب من المعمور، فذاك بعض الأرض، وإما أن

يراد به موت البشر، فهو تنقص للقرون، ويكون المراد حينئذ أهل الأرض، كما ذكر ابن عطية رحمه الله.

الإنذار بالوحي والحساب

تتكرر في آي القرآن الكريم إنذارات المشركين وتهديداتهم، لحملهم على الإيمان، ويكون الإنذار أحياناً بالتذكير بإهلاك القرون والأمم الظالمة السابقة، وأحياناً بقوارع الوحي والتهديد بالعذاب الشامل، وتارة بالحساب الشديد على صغائر الأمور وكبائرها، ليعلم البشر أن الإله القادر محيط بكل شيء من أحوال الدنيا، والهيمنة على مصائر المخلوقات في الدنيا بالقهر والغلبة، وفي الآخرة بالحساب الدقيق الذي لا يفلت منه أحد، ويكون المصير المشؤوم لبعض الناس. قال الله تعالى مبيناً كل هذا:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ[١] مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ[٢] لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ[٣] مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٥-٤٧].

المعنى: قل أيها الرسول النبي: يا أيها المقترحون المتشططون من أهل الشرك، إنما أنذركم بوحي يوحيه الله إلي، وبدلالات على العبر والعظات التي أقامها الله تعالى لِيُنظر فيها، كنقصان الأرض من أطرافها وغيره، وإنما أنا مبلّغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال، فلا تظنوا أن ذلك من قِبَلي، بل الله آتيكم به، وأمرني

---

(١) نصيب . (٢) العدل أي ذوات العدل . (٣) أي وزن حبة

بإنذاركم به، وعملي: هو مجرد التبليغ لا الإلزام بالقبول، ولم أبعث بآية مطّردة ولا بما تقترحونه، فإن لم تجيبوا دعوتي، فعليكم الوبال والنكال، لا علي.

ولا يجدي هذا الوحي من أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه، وما مَثَل المعرضين عن آيات الله إلا مثل الصُّمّ الذين لا يسمعون شيئاً أصلاً، فليس الغرض من الإنذار مجرد السماع، بل الإصغاء لما يسمع، والتمسك به، بالإقدام على فعل الواجب، والتحرز عن المحرَّم، ومعرفة الحق، فإذا لم يتحقق هذا الغرض، فلا فائدة في السماع.

ولئن مسَّ أو أصاب هؤلاء المكذبين شيء من عذاب الله يوم القيامة، ليبادرن إلى الاعتراف بذنوبهم، ويقولون: يا هلاكنا، إنا ظلمنا أنفسنا في الدنيا، بتقصيرنا في الطاعة، وإعراضنا عن الإيمان الحق بالله تعالى، وبعبارة أخرى: ولئن مسّ هؤلاء الكفرة صدمةُ عذاب في دنياهم، ليندَمُنَّ وَلَيُقِرُّنَّ بظلمهم. وفي هذا إشارة إلى شدة عذاب الله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ١٢].

وبعد أن توعدهم الله بنفحة من عذاب الدنيا، عقَّب ذلك بتوعّد بوضع الموازين الدقيقة للحساب في الآخرة، والمعنى: ونضع الموازين العادلة التي تُوزن بها صحائف الأعمال في يوم القيامة، أو لحساب يوم القيامة، أو لحكم يوم القيامة، فقوله تعالى: ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بتقدير حذف مضاف، فلا يلحق نفساً أي ظلم، فهم إن ظلموا أنفسهم في الدنيا، فلن يظلموا في الآخرة، حتى وإن كان العمل أو الظلم زنة حبة الخردل، فنجازي عليه الجزاء الأوفى، حسناً أو سيئاً، وكفى بنا محصين لأعمال العباد، فلا أحد أعلم بأعمالهم منا، ولا أحد أضبط ولا أعدل في تقويم الأعمال منا. وفي هذا تحذير شديد، ووعيد أكيد للكفار والعصاة على تفريطهم أو تقصيرهم فيما يجب عليهم نحو الله تعالى؛ لأن الإله العالم الذي لا يشتبه عليه شيء، القادر الذي لا يعجزه شيء، جدير بأن يكون الناس في أشد الخوف منه.

وجمهور المفسرين على أن الميزان في يوم القيامة إنما هو ميزان واحد، بعمود وكفتين، توزن به الأعمال، ليبيِّن الله للناس المحسوس المعروف عندهم. والخفة والثقل متعلقة بأجسام يقرنها الله تعالى يوم القيامة بالأعمال، فإما أن يكون الموزون صحف الأعمال، أو مثالات تخلق، أو ما شاء الله تبارك وتعالى، فهي موازين حقيقية، توزن بها الأعمال.

والمقصود من الوزن: إقامة العدل المطلق الدقيق بين الخلائق؛ لأن الناس عادة لا يثقون إلا بالمحسوسات المشاهدة لهم، فإذا شاهدوا ما يوجد في كفتي الميزان من حسنات وسيئات، اقتنعوا بأم أعينهم بما يشاهدون، وأدركوا حصيلة ما قدموا من أعمال صالحات أو سيئات.

إنها إذن موازين حقيقية توزن بها الأعمال بعد تجسيمها، ولا مانع على قدرة الله أن توزن بهذه الموازين الأمور المعنوية كما توزن الأمور الحسية، كموازين الضغط والحرارة والحركة والاستشعار من بعد.

خصائص التوراة والقرآن

إن منهاج الكتب الإلهية واحد، وغايتها واحدة، فمنهاجها الدعوة إلى توحيد الله، وإنارة الطريق أمام البشر، وتذكير أهل التقوى بالعمل الصالح، وغايتها إصلاح البشرية، ووحدة الأمة، واستمرار الأصالة الإيمانية، دون تعثر ولا انحراف، ولا تغير أو تبدل، وحينئذ تلتقي مسيرة الإيمان في درب واحد، ذروتها الإخلاص لرب العالمين، وجذع شجرتها الإقرار بوجود الله ووحدانيته، وأغصانها الأعمال الصالحة المتميزة بخشية الله، وثمارها إسعاد الناس في الدنيا والآخرة. وهذا

ما دوَّنته آيات القرآن الكريم التي تربط بين هدي التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، وهدي القرآن المجيد المنزَّل على محمد ﷺ، قال الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ(١) ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

[الأنبياء: ٢١/٤٨-٥٠].

وصف الله تعالى التوراة المنزلة على موسى وهارون بصفات ثلاث، ووصف القرآن الكريم بصفة واحدة، أجملت صفات التوراة. أما صفات التوراة الثلاث فهي:

لقد أعطى الله تعالى موسى وهارون كتاب التوراة المشتمل على أحكام الشريعة الموسوية، وميزاتُه: أنه الفارق بين الحق والباطل، وبين الحلال والحرام، وأنه أيضاً المنار الذي يستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة، للتوصل إلى طريق الهداية والنجاة، وهو كذلك عظة وتذكّر يعظ الله به المتقين المتصفين بالصفتين الآتيتين:

وهما: أنهم أي المتقون يخشون الله في حال الغيب والخلوة، حيث لا يطلع عليهم أحد، و يخافون عذاب ربهم، فيأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، حيث لا رقيب ولا شهيد يشاهد أعمالهم، وخشية الله في السر كخشيته في العلن من أصول الإيمان وثوابته، كما جاء في آيات أخرى قرآنية، مثل قوله تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٥٠/٣٣] وقوله سبحانه في بيان جزاء أهل الخشية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ٦٧/١٢].

والصفة الثانية للمتقين: الخوف الشديد من الساعة، أي القيامة، والإشفاق على النفس من أهوالها، وسائر ما يحدث فيها من الحساب والسؤال، والإشفاق: أشد الخشية.

(١) خائفون.

ويكون الخوف المزدوج من لقاء الله، في السر، ومن أهوال القيامة علامة على الإيمان الحق، والتقوى (التزام الأحكام) التي هي ملاك أمر الدين.

والقرآن العظيم مثل التوراة في بيان أحكام الشريعة، وتعليم الناس مناهج الحق والعقيدة، والفضيلة والسيرة الحميدة، يصل الماضي بالحاضر والمستقبل، و يختم رسالات الأنبياء، ويبين مضمون الوحي الإلهي المتميز بزاخر المنافع، ووافر العطاء. ثم عبّر الحق سبحانه عن القرآن بقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ يجمل به خصائص التوراة الآنفة الذكر، أي إن القرآن الكريم المنزل على النبي ﷺ تذكر وتذكير، وتدبر وعظة، وبركة وخير، فيه منافع كثيرة، وخيرات غزيرة. وقوله سبحانه عن القرآن: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ إما بمعنى أثبتناه، أو أنزلناه بواسطة جبريل أمين الوحي، ليكون دستور الحياة الإنسانية إلى الأبد. ثم وبخ الله مشركي مكة على إعراضهم عن القرآن، مخاطباً إياهم بما معناه:

أفمثل هذا الكتاب المنزل من عند الله، مع كثرة منافعه وخيراته، كيف يمكنكم يا مشركي مكة وأمثالكم إنكاره والتصدي له والحيلولة دونه، وكيف تنكرونه، وهو في غاية الجلاء والوضوح؟ وهل يصح لكم إنكار بركته ونفعه، وما فيه من الدعاء إلى الله تعالى وإلى صالح العمل؟

وأنتم تعلمون في قرارة نفوسكم أنه كتاب من عند الله وأنه كلام الله، بدليل أنه معجز لا يبارى ولا يجارى، لاشتماله على النظم العجيب، والبلاغة العالية، والأدلة العقلية، وبيان الشرائع والأحكام. فكيف تنكرون إنزاله من عند الله، وأنتم أيها العرب خير من يقدر روعة الكلام، وجزالة البيان، وفصاحة اللسان، وإحكام النظم والمعنى؟

تهديد إبراهيم الخليل بتدمير الأصنام

لقد عانى الأنبياء والرسل عليهم السلام معاناة شديدة في حمل أقوامهم على رفض عبادة الأصنام، بدءاً من تصدي نوح عليه السلام لها، ومروراً بالجهاد العظيم من إبراهيم عليه السلام للقضاء عليها، وتتويجاً لحملة محمد ﷺ لتصفية معاقل الشرك والوثنية وإنهاء هذه الأسطورة من العالم، أما إبراهيم الخليل فكان النبي الجريء في تحطيم الأصنام وتكسير الأوثان، مضحياً بنفسه، ومعرِّضاً حياته للخطر في إقدامه على هذا الفعل الجليل، قال تعالى مصوراً هذا الموقف الصامد والجسور لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ(١) ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ(٢) ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ(٣) وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا(٤) إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٥١-٥٨].

المعنى: والله لقد آتينا إبراهيم رشده من عهد الصبا: وهو هدايته إلى رفض الأصنام، ونبذ عبادة الكوكب والشمس والقمر، والتزام جادة الخير والصلاح، والتوفيق لمتطلبات النبوة فما دونها، واعتقاده توحيد الله تعالى، وكان الله تعالى عالماً علماً تاماً بحال إبراهيم، وهذا مدح له عليه السلام، وكل ذلك من قَبْل مجيء موسى وهارون عليهما السلام، فهو بحق يستحق ما أهّل له، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٤].

(١) الأصنام المصنوعة بأيديكم. (٢) مقيمون على عبادتها. (٣) خلقهن. (٤) قِطعاً صغاراً.

لقد آتينا إبراهيم رشده، أي النبوة فما دونها، حيث قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل، أي الأصنام التي كانت على صورة إنسان، والتي أنتم مقيمون على عبادتها وتعظيمها؟ وفي هذا القول تنبيه إلى ضرورة التأمل في شأنها، وأنها لا تغني عنهم شيئاً، لكنهم لم يفعلوا، وأصروا على تقليد أسلافهم قائلين:

لا حجة لنا سوى تقليد الآباء واتباع الأسلاف، لقد رأيناهم عابدين لها، عاكفين على عبادتها وتعظيمها. وهذا تقليد لا يعتمد على منطق صحيح ولا فكر سليم.

قال إبراهيم مجيباً على هذا التقليد: لا فرق بينكم وبين آبائكم، فأنتم وهم في ضلال مبين واضح، والضلال: الانحراف والضياع، والوقوع في متاهة وخطأ.

فتعجبوا من قوله، وقالوا: ما هذا الكلام الصادر عنك، أتقوله لاعباً هازلاً، أم محقاً جادّاً فيه، فإنا لم نسمع به قبلك؟ فأجابهم إبراهيم رافضاً الأصنام: إني جادٌّ في كلامي، لا هازل، وإن الرب الحقيقي المستحق للعبادة هو مالك السماوات والأرض، ومدبرها، وخالقها على غير مثال سابق، وأنا أشهد شهادة واثق مطمئن أنه لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

ووالله لأجتهدن في تكسير أصنامكم، وفي تحطيمها وإزالتها، بعد أن تذهبوا إلى عيدكم خارج البلد، منطلقين ذاهبين. روي أنه حضرهم عيد لهم، فعزم قوم منهم على حضور إبراهيم عليه السلام معهم، طمعاً منهم أن يستحسن شيئاً من أخبارهم، فمشى معهم، فلما كان في الطريق عزم على التخلف عنهم، وقال لهم: إني سقيم، فمرّ به جمهورهم، ثم قال في خلوة من نفسه: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ فسمعه قوم من ضَعَفتهم، ممن كان يسير في آخر الناس.

ثم انصرف إبراهيم عليه السلام إلى بيت أصنامهم وحده، فدخل ومعه قدُوم، فوجد الأصنام واقفة، بترتيب، الأكبر منها فالأصغر، وقد وضعوا أطعمتهم في

ذلك اليوم بين يدي الأصنام تبركاً بها، ليأكلوها بعد عودتهم من العيد، فانقضّ عليهم إبراهيم ضرباً بذلك القدوم، وهشّمها، حتى أفسد أشكالها كلها، حاشا الكبير، فإنه تركه بحاله، وعلّق القدوم في يده، وخرج عنها، لعل هؤلاء الوثنيين يرجعون إلى الكبير الذي يلجأ إليه عادة، وقد علَّق القدوم في يده، فيتبين لهم أنه عاجز لا يستطيع فعل شيء، وأنهم بعبادة الأصنام مغرورن جاهلون.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ ونحوه من الكلام الذي يخاطب به العقلاء: معاملة للأصنام بحال من يعقل، من حيث كانت تُعبد، وتنزل منزلة من يعقل. وضمير ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ الأظهر أنه عائد على إبراهيم عليه السلام، أي فعل هذا كله توخياً منه أن يعقب ذلك منهم رَجْعة إليه وإلى شرعه، ويحتمل كما تقدم عودة إلى الكسر المتروك، أو إلى الصنم الأكبر.

الحوار الحاد بين إبراهيم وقومه بعد تكسير الأصنام

من الطبيعي أن يغضب قوم إبراهيم عبدة الأصنام على ما حدث من كارثة تكسير الأصنام التي يعتقدون أنها الآلهة، ويعبدونها من دون الله، فجاؤوا إلى إبراهيم الخليل عليه السلام حاقدين غائظين، ليسألوه عن حقيقة الأمر، ولإنكار ما حدث، والانتقام مما وقع، وهذا موقف في غاية الحرج والضيق من قوم عتاة، لكنهم سذَّج بسطاء، وجهلة حمقى. تصوّر لنا هذه الآيات الكريمة هذا المشهد في جو من النقاش المتأزم، والحوار الساخن، قال الله تعالى:

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾

فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ(١) لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٥٩-٦٥].

معنى الآيات: لقد انصرف الناس: عبدة الأوثان -النمروذ وأتباعه، من عيدهم، فرأوا ما حدث بآلهتهم، فأكبروا ذلك، وقالوا على سبيل البحث والإنكار والتهديد: من الذي كسَّر هذه الآلهة، إن فاعل ذلك لمن الظالمين أنفسهم، المتعرض للإهانة والنكال والعقاب.

قال بعضهم ممن سمع تهديد إبراهيم: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾: سمعنا شاباً يعيبهم، ويذكرهم بسوء، يقال له إبراهيم، فهو إذن الذي فعل بهم هذا. وظاهر الآية يدل على أن هؤلاء القائلين جماعة، لا واحد.

قال النمروذ وحاشيته: فأتوا به على مرأى ومسمع من الناس في الملأ الأكبر، حتى يروه ويشهدوا عليه، أي على فعله أو قوله، وكان هذا الحضور في المحفل الجمهوري موافقاً لرغبة إبراهيم في تبيان جهالة القوم وسوء إدراكهم.

فلما أتوا به، قالوا له: أأنت الذي كسّرت هذه الأصنام؟ فأجابهم: «بل فعله كبيرهم هذا» أي بل الذي فعل هذا هو الصنم الأكبر الذي ما زال باقياً لم يكسّر، فاسألوا هذه الأصنام عمن كسّرها، إن كانوا آلهة ينطقون. وفي هذا تنبيه لهم على عقم عبادة الأصنام، ويرجعوا إلى أنفسهم بالملامة، ونسبة التقصير إليها، فقال بعضهم لبعض: إنكم أنتم الظالمون في ترككم لها مهملة، لا حافظ عندها.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي أطرقوا في الأرض للتأمل والتفكير، والإغراق في الحيرة، فقالوا: فما بالك تدعو إلى ذلك؟ إنك تعلم ونحن نعلم أن هؤلاء لا

(١) رجعوا إلى الباطل والمعاندة.

ينطقون، فكيف تطلب منا سؤالهم إن كانوا ينطقون؟! أي إنهم احتجوا على إبراهيم بما هو الحجة لإبراهيم عليهم، بسبب الحيرة التي أدركتهم.

وحينئذ وجد إبراهيم عند هذه المقالة موضع الحجة، فوبخهم على عبادتهم تماثيل، لا تنفع بذاتها ولا تضر.

ولقد احتج إبراهيم عليه السلام على قومه بحجتين عقليتين مقبولتين وهما: الأولى: قوله ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ فلو كانت الأصنام تعقل، أو تتمكن من حماية نفسها وغيرها، لكان شأن الكبير حماية الأتباع والصغار.

الثاني: قوله ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ ليقولوا على الفور: إنهم لا ينطقون، ولا ينفعون ولا يضرون، فيقول لهم: فلم تعبدونهم إذن؟ فتقوم الحجة عليهم.

لقد حقق إبراهيم عليه السلام مأربه بالاعتذار بقوله: «إني سقيم» وهذه في الظاهر كذبة، لكنها من أجل المصلحة، وهي كذبة في ذات الله تؤدي إلى خزي قوم مشركين وثنيين، والحديث الصحيح يقتضي ذلك، وهو قول النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، قوله: «إني سقيم» وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا» وقوله للمليك: «هي أختي»[(١)]». أي قوله للملك الذي أراد زوجته، فحماها الله منه، بقول إبراهيم: «هي أختي»، أي إنها أخت له في الإسلام والإنسانية، والحقيقة: هذه الحالات هي كذبات في الظاهر، لكنها في الحقيقة والواقع لتحقيق مصلحة كبرى تتعلق بالحفاظ على الدين أو النفس أو العرض.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

نجاة إبراهيم عليه السلام من النار المحرقة

لقد بذل النمروذ وأتباعه أقصى ما في وسعهم من التنكيل بإبراهيم الخليل عليه السلام، من أجل التخلص منه، بإلقائه في نار عظيمة شديدة الإحراق، بسبب فعله الخطير في تقديرهم وهو تكسير الأصنام، ونقاشُه الجادّ الذي يؤكد فعله، ويرمي به إلى إقناعهم بعدم جدوى عبادة الصنم من حجر أو غيره، وأن على القوم أن يفكروا تفكيراً جدّياً صحيحاً في شأن عبادة الأصنام، فيرفضوها، ويبادروا إلى اتباع ملة إبراهيم الحنيفية، ملة التوحيد الخالص لله عز وجل. ولكنهم لم يُصْغوا لنداء العقل، وظلُّوا في عنادهم، فأعدوا النار العظيمة لإحراق إبراهيم عليه السلام، ولكن الله عز وجل نجاه منها، وحماه من تأثيرها، فخرج منها كالخارج من الحمام، قال الله تعالى واصفاً هذا الحدث العظيم:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ[1] لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٦٦-٧٠].

أعلن إبراهيم عليه السلام موقفه الصريح بعد جدال قومه له في حادثة تكسير الأصنام، وقال لهم لما اعترفوا بأن تلك الآلهة لا تنطق: أتعبدون بدلاً عن الله أشياء لا تنفعكم في الواقع إذا تأملتم بها خيراً، ولا تضركم شيئاً إذا عاديتموها أو خفتم منها؟!

﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ أي تبّاً لكم، وقبحاً لآلهتكم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر، الذي لا يدين به إلا كل جاهل ظالم فاجر.

---

(١) كلمة تضجر وتبرم.

لقد استغل إبراهيم عليه السلام موضع الحجة حينما قالوا: إن الأصنام لا تنطق، فكلمهم موبخاً على عبادتهم تماثيل لا تنفع بذاتها ولا تضر، ثم حقّر شأنها، وأزرى بها حين قال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾. وهذه لفظة تقال عند المستقذرات من الأشياء، فيستعار ذلك للمكروه من المعاني، كهذا وغيره.

ولما تفوق إبراهيم عليه السلام بحجته الدامغة على قومه، وظهر الحق، وبان زيف الباطل، لجؤوا إلى الإيذاء والإضرار، والتخلص من إبراهيم جسدياً، فقال بعضهم لبعض، والقائل هو نمروذ بن كنعان، أو رجل من أتباعه: احرقوا إبراهيم بالنار، وانصروا آلهتكم إن كنتم ناصريها حقاً، فجمعوا حطباً كثيراً، ورموا إبراهيم من أعلى منجنيق، بعد أن شُدّ برباط، ووضع في كفة المنجنيق، ثم ألقي في النار.

ولكن الله غالب على أمره، وقاهر كل شيء، وحافظ رسوله ونبيه، فحماه وعصمه من أذى النار، وسلب تأثير النار فيه، وقال: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي كوني برداً غير ضار، فكانت النار وسطاً لا حامية ولا باردة، ولو قال: «كوني برداً» فقط، ولم يقل: «وسلاماً» لكان بردها أشد عليه من حرها. وبرودتها حدثت بنزع الله عنها طبعها من الحر والإحراق، بعد أن احترق الحبل الذي ربط به إبراهيم فقط، وبقيت إضاءة النار وإشراقتها واشتعالها كما كانت، والله على كل شيء قدير. قال بعض العلماء: إن الله تعالى لو لم يقل: «وسلاماً» لهلك إبراهيم من برد النار.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن إبراهيم لما ألقوه في النار، قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا (أي المشركون): ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٣].

إن الصحيح في قصة إحراق إبراهيم هو ما أخبر عنه القرآن، لا تلك الحكايات والقصص الإسرائيلية غير الثابتة. والذي أخبر عنه الله تعالى: أن إبراهيم ألقي في النار، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، فخرج منها سالماً، وكانت أعظم آية.

وانتهت القصة: أن قوم إبراهيم أرادوا به مكراً، وتدبيراً يؤذيه ويقتله، فجعلهم الله المغلوبين الأسفلين، ونجّاه الله من النار.

وهذا درس بليغ في الإيمان بعظمة الله تعالى، وعبرة وعظة لذوي الأفهام، وتعليم أن إرادة الله فوق كل إرادة، وسلطانه فوق كل سلطان، فما أراده الله كان، وما لم يشأ الله لم يكن.

نجاة إبراهيم ولوط عليهما السلام

لم يبق مجال أمام إبراهيم الخليل عليه السلام بعد محاولة إحراقه إلا الهجرة من أرض قومه وتركهم في ضلالتهم يعمهون. روي أن إبراهيم عليه السلام، لما خرج من النار، أحضره النمرود وكلمه، وأعلن إصراره على الكفر، وقال لإبراهيم: يا إبراهيم، أين جنود ربك الذي تزعم؟ فقال له: سيريك فعل أضعف جنوده، فبعث الله تعالى على نمرود وأصحابه سحابة من البعوض، فأكلتهم عن آخرهم، ودخلت منها بعوضة في رأس نمرود، فكان رأسه يضرب بالعيدان وغيرها، ودام تعذيبه بها زمناً طويلاً، وهلك منها، وخرج إبراهيم عليه السلام وابن أخيه لوط عليه السلام من تلك الأرض في العراق مهاجرين، وهي كَوثا من بلدة فاران آرام بالعراق، ومع إبراهيم ابنة عمه سارّة زوجُه، وفي تلك السفرة لقي إبراهيم الملك الجبّار الذي رام أخذها منه، فحماها الله منه، وقال له إبراهيم: إنها أخته، ووصل إلى أرض الشام، وهي الأرض التي بارك الله فيها، قال الله تعالى واصفاً هذا الحدث:

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً(١) وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧١-٧٣].

المعنى: ومن نِعَم الله تعالى على إبراهيم عليه السلام: أن الله تعالى نجاه ولوطاً عليهما السلام إلى الأرض المباركة، بالهجرة من العراق إلى بلاد الشام-الأرض المقدسة، التي بارك الله فيها بكثرة ما بعث فيها من الأنبياء، وانتشار الشرائع بين العالمين، وإخصاب الأراضي وكثرة أشجارها وأنهارها، فاجتمع فيها خير الدنيا والآخرة.

ومن النعم الإلهية على إبراهيم عليه السلام: أن الله تعالى منحه إسحاق ولداً، ويعقوب ولد إسحاق، نافلة، أي عطية زائدة على ما سأل. وجعل الله كلاً من الأربعة: لوطٍ وإبراهيم وإسحاق ويعقوب أهل خير وصلاح، يطيعون ربهم، ويتجنبون محارمه، وهذا دليل على عصمة الأنبياء.

وصيَّر الله تعالى هؤلاء الأنبياء الأربعة أئمة وقادة يقتدى بهم، ودعاة يدعون إلى دين الله بإذنه، وإلى الخيرات بأمره، وفي هذا دلالة على أن من صلح للقدوة في دين الله، فهو موفّق مهدي للدين الحق وطريق الاستقامة، ومن استقام كان ملازماً للهداية والخير.

وأوحى الله سبحانه إلى هؤلاء الأنبياء آمراً لهم أمراً عاماً أن يفعلوا الخيرات وهي الأعمال الصالحات، من إقامة الفرائض والطاعات، وترك المحرمات والمحظورات. ويرشد هذا إلى أن الله سبحانه خصهم بشرف النبوة، وتبليغ الوحي الإلهي الناظم لحياة القوم المبلَّغين. وأمر الله تعالى بوحيه لهؤلاء الأنبياء أمراً خاصاً بأن يقيموا

(١) عطية، وزيادة عما طلب .

الصلاة ويؤتوا الزكاة المفروضتين. وخص الله تعالى هاتين الفريضتين بالذكر من سائر العبادات، لسمو مرتبتهما وخطورتهما، لأن الصلاة أشرف العبادات البدنية، وشرعت لذكر الله تعالى، والزكاة أشرف العبادات المالية، وشرعت لدفع حاجة الفقراء، وفي كلتا العبادتين تعظيم أمر الله تعالى.

وبعد تعداد هذه النعم على هؤلاء الأنبياء الأربعة: إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب، ووصفهم من الله سبحانه بالصلاح أولاً، ثم بالإمامة، ثم بالنبوة وشرف الوحي ثالثاً، بعد هذا وصفهم الله بصفة رابعة: وهي أنهم كانوا لله عابدين، أي خاشعين خاضعين، طائعين فاعلين ما يأمرون به الناس، مخلصين لله إخلاصاً تاماً في عبادتهم. وفي هذا دلالة واضحة على أنهم كانوا أوفياء لإحسان الله ونعمه عليهم، فلما أكرمهم بالنعم العظيمة، وأمدهم بفضله من أنواع الإحسان، كانوا أوفياء له بالعبودية، وهو الطاعة والعبادة، وكانوا هداة يرشدون غيرهم لأوامر الله وشرائعه وأحكامه. وكل ما يفعلون إنما هو بأمر الله، وبما أنزله عليهم من الوحي. وهذا دليل على أن الإمام الهادي يجب أن يكون مهدياً بطبعه، مصلحاً لنفسه أولاً، ثم يصلح غيره، حتى يتحقق فيهم وصف القدوة الحسنة.

قصة لوط ونوح عليهما السلام مع قومهما

اقترن بيان قصة لوط ونوح عليهما السلام في موضع واحد من القرآن، بالرغم من الفارق الزمني بينهما، للعبرة والعظة المتشابهة، وتطمين أهل الإيمان والثقة بالله بأن رب العزة نجّى هذين الرسولين من عذاب القوم الفاسقين الذين أبوا الإيمان برسالة هذين النبيين، تحدياً وعناداً واستكباراً، وكانت نجاة الرسولين مع المؤمنين بسبب الصلاح والاستقامة، والثبات على العقيدة، والصبر على تبليغ الرسالة، قال الله تعالى:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ[1] فَٰسِقِينَ ۝٧٤ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٧﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧٤-٧٧].

هذه مقابلة ومقارنة بين رسولين صالحين، وبين وصف مشترك لأقوامهما، وهو أنهم كانوا أهل سَوْء فاسقين، بسبب الكفر برسالة الأنبياء.

أما لوط عليه السلام: فقد آتاه الله تعالى النبوة والحكمة (وهي ما يجب فعله) والعلم والمعرفة، والحكم: وهو حسن الفصل في الخصومات بين الناس. وكان علمه علم النبوة الشامل لشؤون العقيدة والعبادة وطاعة الله تعالى، بعثه الله إلى أهل «سدوم» وتوابعها من القرى السبع، فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمرهم، كما أخبر سبحانه في مواضع من القرآن المجيد، والنبوة والحكمة كانتا نعمتين عظيمتين على لوط عليه السلام، وهناك نعمتان أخريان وهما:

أن الله سبحانه نجى لوطاً من العذاب الذي عذب به أهل سدوم الذين ارتكبوا خبائث الأعمال، ومنها ما يسمى باللواط، فكانوا جماعة سوء وقبح، خارجين عن جادة الطاعة لله تعالى، منغمسين في الرذيلة والمعصية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾.

والنعمة الرابعة على لوط عليه السلام: أنّ ربه أدخله في رحمته، وجعله من أهل جنته؛ لأنه كان من الذين يعملون صالح الأعمال، ويؤدون فروض الطاعة لله تعالى، فيمتثل الأوامر، ويجتنب النواهي.

---

(١) فساد وأفعال منكرة.

وأردف الله تعالى ذلك بإيراد خبر نوح عليه السلام، للعظة والعبرة المتشابهة أيضاً، وهو أنه أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يذكر لقومه حين نادى نوح ربه مستنصراً به، داعياً على قومه لما كذبوه، كما حكى القرآن عن نوح: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر: ٥٤/ ١٠].

وفي آية أخرى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح: ٧١/ ٢٦]. وكان ذلك قَبْل رسالة خاتم النبيين وقبل إبراهيم ولوط فاستجاب الله دعاءه، ونجاه وأهله المؤمنين من الغرق بالطوفان، والشدة والأذى، وهو الكرب العظيم الذي تعرضت له الدنيا، بغمرة الطوفان والغم الشديد، والعذاب النازل بأهل الشرك والكفر، وتكذيب نوح، وإيذائه إيذاء شديداً، بعد أن لبث فيهم يدعوهم إلى توحيد الله ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يؤمن به إلا قليل.

لقد صار الماء الذي هو مصدر الحياة، مصدرَ الفناء، فهو إذا كثر يصبح دماراً، كالريح الهوجاء العاتية، يكون الهواء اللطيف أساس الحياة، فإذا اشتد كان ضرراً. ولم يكن تعذيب قوم نوح بالطوفان إلا حقاً وعدلاً من الله تعالى، فإنهم لما كذَّبوا بآيات الله سبحانه، وكانوا قوم شر وسوء، وفسق وعصيان، أغرقهم الله جميعاً، لاجتماع الأمرين: تكذيب الحق ورسالة النبي، والإغراق في الشر، ولم يجتمع هذان السببان في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى، وذلك جزاء الظالمين.

فهل يعتبر أهل مكة الوثنيون وأمثالُهم بقصة قوم نوح ولوط، وما أصابهم من العذاب الشديد، وكيف كان النصرُ للمؤمنين، والعذابُ الشامل للكافرين.

إن طريق العظة: هو الإيمان بالله رباً واحداً لا شريك له، وبالاستقامة على درب الإيمان ولزوم الطاعة لله عز وجل، والبعد عن المعاصي والمنكرات.

نعم الله تعالى على داود وسليمان عليهما السلام

لن ينسى التاريخ الإنساني الدور القيادي العظيم والجهاد والتضحيات للرسل والأنبياء عليهم السلام، فلولاهم لكان الناس في حيرة وضلال، ونزاع مستمر واقتتال، ربما أدى إلى انقراض النوع البشري، وكان من فضل الله وإنعامه: أنه أعدّ هؤلاء الصفوة القادة إعداداً رائعاً خاصاً، ليكونوا أهلاً للقيادة، وأسوة حسنة للبشرية، وأمدهم بنعم كثيرة، فضلاً عن نعمة النبوة والرسالة، منها الحكم والقضاء بين الناس، والعلم والمعرفة السديدة، وعزة النفس وقوة الإرادة، ووسائل الكسب الشريف، قال الله تعالى مبيناً نوعاً من هذه النِّعم على داود وسليمان عليهما السلام:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ(١) إِذْ نَفَشَتْ(٢) فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ(٣) صَنْعَةَ لَبُوسٍ(٤) لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ(٥) فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً(٦) تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ(٧) وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧٨-٨٢].

المعنى: وآتينا وأعطينا النبوة والحكم بين الناس داود وسليمان، عطفاً على آية سابقة: ﴿وَنُوحًا﴾ ومن أنواع الأقضية المهمة التي حكم بها هذان النبيان الرسولان: هي قضية الحكم في رعي راعٍ زَرْعَ قوم، في جنح الليل، وكان الله عالماً تام العلم بالقضاء والمقضي فيه، شاهداً بما حكم به داود وسليمان، لا تخفى عليه خافية. وكان

(١) أي الزرع عامة. (٢) أي رعت الزرع ليلاً. (٣) أي علمنا داود عليه السلام. (٤) أي صناعة الدروع خاصة. (٥) لتحفظكم من حرب عدوكم. (٦) شديدة الهبوب. (٧) الغوص لاستخراج النفائس.

القضاء صادراً من الأب داود، والابن سليمان، اللذين كان كل منهما مِلكاً عدلاً، نبياً، يحكم بالحق بين الناس.

واتجه كل من داود وسليمان في حكمه وجهة معينة من النظر السديد، فإن داود عليه السلام قضى بتملك الغنم لصاحب الزرع، وسليمان عليه السلام قضى بتسليم الغنم مدة عام إلى صاحب الحرث (الزرع) ينتفع بألبانها وأولادها وأصوافها، وتسليم الزرع للراعي، يستفيد مما تنتجه الأرض، ويتعهدها بالسقاية والخدمة، حتى يعود الزرع إلى ما كان عليه قبل الرعي، وكان قضاء سليمان أولى وأرفق وأحكم.

لذا قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي أفهمناه القضية وملابساتها، والحكم الأسد والأصوب، وإن كان حكم داود أيضاً سديداً وصحيحاً؛ لأنه وجد قيمة الغنم تساوي قيمة الزرع، وكل من داود وسليمان آتاه الله نعمة النبوة وسداد الحكم القضائي، والعلم بأحوال القضاء وغيره، لكن حكم سليمان أفضل؛ لإبقاء كل من الراعي والزارع على ملك متاعه، وطيب نفسه بذلك.

ثم عدد الله تعالى نعمه على كل من داود وسليمان عليهما السلام، أما نعم داود، فالله تعالى سخّر أو ذلّل له الجبال والطيور مسبِّحات مقدسات الله، تتجاوب مع أصداء صوته الجميل، بتلاوة كتاب الزبور، فكان إذا ترنم، وقفت الطيور تتناغم مع تراتيله، وتردد الجبال تسبيحاته. وكان الله قادراً فعالاً على هذا الفعل وتجاوب الطير والجبال، وإن تعجب منه الناس.

وعلّم الله داود عليه السلام صناعة الدروع، ليلبَسها المتحاربون، وقاية لأجسادهم من ضربات السلاح من سيوف وحراب وسهام، فهل يبادر الناس لشكر

نعمة الله عليهم؟ وهذا الاستفهام تحريض لهم على الشكر، أي اشكروا الله على هذه النعمة والصنعة.

وأنعم الله على سليمان عليه السلام بتسخير الريح له وركوبه بساط الريح كالطيران اليوم، فإن الله تعالى جعل الريح الشديدة العاصفة طائعة، منقادة له، مع كونها ريحاً رخاء لطيفة لينة، فهي تجري بأمره وتنقله إلى الأرض التي بارك الله فيها بركة معنوية بالأنبياء، وحسية بكثرة الخيرات والثمار، وكان الله وما يزال عالماً بكل شيء، ومدبراً له، ومهيئاً الأسباب، ومانحاً الملك والنبوة لمن يشاء.

ومن النعم على سليمان أن الله سخر له فئة من الجن والشياطين يغوصون له في أعماق البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان والجواهر ونحوها، ويعملون له أعمالاً أخرى كصناعة التماثيل والمحاريب، وكان الله وما يزال حافظاً لأعمال الشياطين من إفساد ما صنعوه وتخريب ما عمروه.

محنة أيوب عليه السلام

لا يخلو أحد من البشر من التعرض لمحنة من المحن أو مصيبة من المصائب في عمره، سواء طال به العمر أو قصر، وسواء في مقتبل العمر أو في نهايته أو وسطه؛ لأن الله تعالى أقسم على ابتلاء الإنسان واختباره في قوله سبحانه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾ ليعرف أهل الصبر وأهل الجَزَع، ففي البلاء والأزمات تختبر أخلاق الناس، ويظهر في المحنة صدق الإيمان، والثبات على العقيدة، وأشد الناس ابتلاء هم الأنبياء، ثم العلماء والصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، وتميز أيوب عليه السلام بأنه كان في قمة الصابرين على بلاء الله والمرض، وكان في غاية الأدب مع الله تعالى والحياء من ربه،

فلم يُظهر شكواه إلا بعد طول العهد، واستمرار الضر والمرض، وحينئذ تضرع إلى ربه فكشف الله عنه البلاء، وعوّضه خيراً، قال الله تعالى واصفاً هذه الحال:

﴿وَأَيُّوبَ(١) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٣-٨٤].

كان أيوب عليه السلام من بني إسرائيل المثل الأعلى والمشهور بين الأنبياء والناس في الصبر على المحنة وشدة البلاء، حتى ضرب به المثل، فقيل: مثل صبر أيوب. وأثبت القرآن الكريم هذا المعنى في هذه الآيات، ومعناها: واذكر أيها الرسول محمد للعبرة والعظة خبر أيوب الذي أصابه البلاء في ماله وولده وجسده، ففسد ماله، وتفرق عنه أهله، وأصابه المرض، وأساء له ذريته، فكان كلما أُخبر بشيء من ذلك، أو تعرض له، حمد الله تعالى، وقال: هي عاريّة استردها صاحبها، والمنعم بها، ولم يبق معه بشر حاشا زوجته، ويقال: كانت بنت يوسف الصدِّيق، واسمها رحمة. ومكث أيوب عليه السلام صابراً مدة طويلة من الزمان، لم يَدْعُ ربه في كشف ما به، حتى شمت به قوم، فتألم لذلك، ودعا ربه حينئذ قائلاً: «ربِّ إني مسّني الضُّر وأنت أرحم الراحمين» وكان مرضه في جلده، ولكن خلافاً لما نجده في الروايات الإسرائيلية لم يكن مرضه منفِّراً؛ لأن شرط النبي السلامة عن الأمراض المنفرة طبعاً.

فأجاب الله دعاءه، وعافاه من مرضه بالاستحمام في ماء معدني والشرب منه، ورفع عنه الضر، ورد الله عليه أهله وزيادة مِثْل آخر، وعوضه عما فقد في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ مختلف فيه في وقت الإيتاء. فقيل: أوتي جميع ذلك في الدنيا من أهل ومال، وهذا هو الظاهر. وقيل: إيتاء الصحة

(١) منصوب بفعل مضمر تقديره: واذكر أيوب.

والولد بأعيانهم في الدنيا، وأما المضاعفة أو إيتاء المثل، فكان عدة وثواباً له في الآخرة.

وكان هذا الثواب أو الإيتاء الذي أنعم الله به على أيوب عليه السلام، والتعويض عما فقد من الأهل والولد والمال، ومعافاة الجسد، رحمة من الله به، وتذكيراً للعابدين بالاقتداء به، والصبر كما صبر، ليثابوا كما أثيب، وحتى لا ييأس مؤمن من عفو الله ورحمته، وفضله وإحسانه، ولا يطمع مؤمن في أنه لا يصاب بسوء أو مكروه في دنياه، فالدنيا دار ابتلاء وامتحان.

روى الإمام أحمد والبخاري والترمذي وابن ماجه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: عن النبي ﷺ أنه قال: «أشد الناس بلاء: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً، اشتد بلاؤه».

ولا يشترط أن يكون البلاء بسبب ذنب أو معصية أو ترك مطلوب شرعي، وإنما قد يكون الابتلاء عاماً أو خاصاً، ولو كان الإنسان صالحاً تقياً، وبَرّاً مؤمناً، فالمؤمن يزداد بابتلائه درجات، وغير المؤمن يكون الابتلاء خيراً له في تذكيره بالعودة لربه واستقامة حاله.

أوصاف إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام

إن جميع الرسل الكرام المذكورين في القرآن الكريم وهم خمسة وعشرون رسولاً تجب معرفتهم تفصيلاً، والإيمان بهم عن علم ومعرفة، وهم جميعاً كانوا المثل الأعلى للأمم والأفراد والجماعات، في الدعوة إلى توحيد الله تعالى، واحترام القيم الأخلاقية والفضائل الرفيعة، واتباع أوامر الله سبحانه، واجتناب كل ما نهى الله عنه، فاستحقوا تخليد ذكراهم، والتعرف على قصصهم وأخبارهم، ولكن من مصدر

علمي موثوق، وهو القرآن الكريم وحده-كلام رب العالمين، وهذا تبيان وجيز لأخبار ثلاثة عظماء من هؤلاء الرسل: وهم إسماعيل وإدريس وذو الكفل عليهم السلام، قال الله في كتابه العزيز:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ[1] كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٥-٨٦].

واذكر أيها النبي محمد لقومك خبر إسماعيل وإدريس وذي الكفل، كل منهم كان كأيوب عليه السلام من الصابرين المحتسبين، الذي صبروا على البلاء والشدائد، وعلى طاعة الله وعن معاصيه.

فاستحقوا إكرام الله، وجعلهم من أهل الرحمة بالنبوة، والظفر بجنان الخلد، والتمتع برضوان الله وثوابه، لأنهم أهل صلاح وتقوى، وأنبياء معصومون، وصلاحهم لا يخالطه شائبة من شوائب الفساد.

أما إسماعيل: فهو ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو أبو العرب المعروفين اليوم، وقد تعرض مع أمّه للعيش في مكان قفر في بطاح مكة الجرداء، والتي لا ماء فيها ولا خضرة، وأُعدّ للذبح في رؤيا أبيه إبراهيم عليه السلام، ورؤيا الأنبياء حق وصواب، لا مجال فيها للشك والتكذيب، فصبر على الإقامة في بلد لا زرع فيه ولا مورد عيش كريم، وصبر في بناء البيت الحرام مع أبيه إبراهيم، وصبر على الانقياد للذبح، قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠٢].

وأما إدريس فهو خنوخ، وهو أول نبي بعث الله من بني آدم، وروي أنه كان

---

(١) قيل: هو إلياس عليه السلام، والأصح أنه ابن أيوب عليه السلام، من أنبياء بني إسرائيل .

خيّاطاً صابراً على مهنته، يسبِّح الله عند إدخال الإبرة، ويحمده عند إخراجها، دعا قومه لعبادة الله وحده، فأبوا، فأهلكهم الله وأبادهم. وكان أول من اتخذ السلاح عُدَّة للحرب.

وأما ذو الكِفْل: فإنه صبر على صلاة الليل حتى يصبح، وعلى صيام النهار فلا يفطر، ويقضي بين الناس فلا يغضب، ووفّى بذلك وبما ضمن على نفسه، سمي «ذا الكفل» لأنه تكفّل بأمر، فوفى به، أي إنه صبر على تحمل أخلاق الناس والدين، وعلى موجِبات مرضاة الله تعالى.

روي أن «الْيَسَع» جمع بني إسرائيل، فقال: من يتكفّل لي بصيام النهار، وقيام الليل، وألا يغضب، وأُولّيه النظر للعباد بعدي؟ فقام إليه شاب، فقال: أنا لك بذلك، فراجعه ثلاثاً في ذلك، يقول: أنا لك بذلك، فاستعمله، فلما مات «اليسع» قام بالأمر، فجاء إبليس ليغضبه -وكان لا ينام إلا في القائلة: منتصف النهار- فكان يأتيه وقت القائلة أياماً، فيوقظه، ويشتكي ظلامته، ويقصد تضييق صدره، فلم يضق به صدراً، ومضى معه لينصفه بنفسه، فلما رأى إبليس ذلك، أبلس عنه، أي نأى وأيس، وكفاه الله شرّه. وهذا هو ذو الكفل.

إن سيرة إسماعيل وإدريس وذي الكفل المترعة بالصلاح والتقوى، وبالصبر والجهاد والمصابرة، تصلح درساً للرجال الأشداء الذين شحذوا عزائمهم، وجدّوا في الطاعة، وعاشوا عباداً صالحين قانتين لربهم، يصلون ويصومون، ويتحملون ألوان الأذى ومكاره العيش، ويصبرون على أخلاق الناس وطبائعهم، فسلام من الله ورحمته عليهم، ومتّعهم الله بجنات الخلود.

مأساة يونس عليه السلام

صدرت معجزات خارقات لقانون العادة والعرف السائد من الأنبياء عليهم السلام، تعجب منها العقل البشري، بحكم المألوف المعروف لديه، ولكنها أحوال استثنائية، خالدة على ممر الزمان، بتقدير الله تعالى وتدبيره، وإجرائه إياها على أيدي الأنبياء، لتكون معجزة مصدقة لدعوتهم، وادعائهم النبوة. وتعدّ مأساة ذي النون يونسٍ عليه السلام من أغرب المعجزات حيث ابتلعه الحوت، لعدم استئذان ربه في هَجْر قومه وتركهم، ولكن الله حماه من أن تهضمه معدة الحوت الضخم، فقذفه على الشاطئ، بعد أن سبح في بطن الحوت وأقر بخطئه، وأعاده الله إلى قومه الذين ألهمهم الله الإيمان، ليكون النبي وغيره على جانب عظيم من التأدب، أمام جلال الله وعظمته، وتفويض الأمر له وحده، قال الله تعالى واصفاً حدث يونس عليه السلام الغريب:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ(١) إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا(٢) فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ(٣) فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٧-٨٨].

ذو النون، أي ذو الحوت، وصاحبه يونس بن متّى عليه السلام، التقمه الحوت على الحالة المعروفة، وهو نبي من أهل نينوى، وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ -فيما أخرجه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه-: «من قال: أنا خير من يونس بن متّى، فقد كذب».

وفي حديث آخر لدى البخاري ومسلم وأبي داود وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى».

---

(١) صاحب الحوت يونس عليه السلام. (٢) غضبان على قومه لكفرهم. (٣) لن نضيق عليه بجزاء ما.

ومعنى الآيات: واذكر أيها الرسول محمد قصة يونس بن متى ذي النون: أي صاحب الحوت، حين بعثه الله إلى أهل قرية نينوى بأرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى وإلى توحيده وطاعته، فأبوا، وعاندوه، وتمادوا في كفرهم، فخرج من بينهم غضبان، وتوعدهم بالعذاب بعد ثلاث ليال.

فلما تحقق القوم منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء، وتضرعوا إلى الله عز وجل، فرفع الله عنهم العذاب، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩٨].

وأما يونس عليه السلام، فإنه ذهب، وركب في سفينة، فاضطربت بهم، وخافوا الغرق، فأجروا قرعة بينهم لتخفيف الحمولة، فوقعت القرعة على يونس، في المرات الثلاث، كما قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٤١]. فألقوا يونس في البحر، فالتقمه على الفور حوت كبير.

لقد ذهب يونس تاركاً قومه، وظاناً أن لن يضيّق الله عليه في بطن الحوت، وأن لن يقضي الله عليه بالعقوبة، فنادى من خلال الظلمات الثلاث الكثيفة: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل: «لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين» أي تنزيهاً لك يا رب، أنزهك عن كل نقص وعيب، أنت الإله وحدك لا شريك لك، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، لا يعجزك شيء في الأرض ولا في السماء، إني كنت من الظالمين نفسي، بالخروج دون إذن منك. وهذا تصرف يعدّ خلاف الأولى من الأنبياء.

فأجاب الله دعاءه الذي أظهر به الندم والتوبة، ونجاه الله وأخرجه من بطن

الحوت وتلك الظلمات، وكما أنجاه الله من الكرب والشدة المطبقة، ينجّي الله أيضاً كل المؤمنين الصادقين إذا استغاثوا بربهم، وطلبوا إنزال الرحمة الإلهية عليهم.

روى البيهقي وغيره عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «دعوة ذي النون في بطن الحوت: (لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين) لم يَدْعُ بها مسلم ربه في شيء قط، إلا استجاب له».

الحق أن العبد إذا صدق في مناجاة ربه بخشوع وخضوع، وأدب وإخلاص، صدق الله معه، ونجاه من الكروب العظام في الدنيا والآخرة.

قصة زكريا ويحيى ومريم عليهم السلام

لقد جمع الله تعالى بين زكريا ومريم على الخير والعبادة، حينما كان يتردد عليها في المحراب، ويجد عندها الأرزاق الوفيرة والغريبة، وفي إطار هذا التلاقي، أحب زكريا عليه السلام أن يخلفه من بعده خلَف صالح، يقوم بأعباء النبوة والدعوة إلى الله تعالى، وأراد الله سبحانه أن تنجب السيدة مريم البتول، العذراء الصالحة ولداً مقدساً، تظهر على أيديه سحائب الخير، ودعوة الناس إلى الاستقامة، وتم مراد الله، فدعا زكريا ربه أن يرثه وارث صالح، فتحقق ذلك بإنجاب يحيى الحصور عليه السلام، وأنجبت مريم ابنها عيسى عليه السلام، للقيام بالدعوة إلى توحيد الله والحق والخير، قال الله تعالى واصفاً هذه الأحداث الغريبة:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ

وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا(١) وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ(٢) ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا(٣) فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٩-٩١].

في موكب الأنبياء العظماء اذكر أيها الرسول النبي لقومك خبر زكريا عليه السلام، حين نادى ربه نداء خفياً، وطلب أن يهبه الله ولداً، يكون من بعده نبياً، لحمل رسالة النبوة والخير والإصلاح، وقال: رب لا تتركني وحيداً، لا عقب لي ولا ولد، ولا وارث يقوم من بعدي في دعوة الناس إلى توحيد الله وعبادته وطاعته، وأنت يا رب الباقي بعد فناء خلقك، فإن لم ترزقني من يرثني، فلا أبالي، فإنك خير وارث، وسيقوم بحمل عبء الرسالة من عبادك من تختاره وترتضيه، وأنت حسبي ونعم الوكيل.

فأجاب الله دعاءه، ولبى نداءه ومطلبه، ووهبه ولداً صالحاً اسمه يحيى، وأصلح له امرأته بكل وجوه الإصلاح، وفيها إزالة كل موانع الحمل والولادة، فحاضت وحملت وولدت بعد أن كانت عاقراً لا تلد، وكبيرة السن لا يتوقع عادة وجود الحمل والولادة منها.

إن هذه الكوكبة النيرة من الأنبياء المذكورين في سورة الأنبياء عليهم السلام، ومنهم زكريا وزوجه كانوا يبادرون إلى الخيرات، والقيام بالطاعات، والتقرب إلى الله بالقربات، وعمل الصالحات. وكانوا أيضاً يدعون ربهم رغَباً ورَهَباً، أي رغبة في رحمة الله وفضله، وخوفاً من عذابه وعقابه، في الرخاء والشدة، وكانوا متواضعين متذللين متضرعين، والمعنى أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين:

(١) رجاء في الثواب، وخوفاً من العقاب. (٢) متذللين خاضعين. (٣) حفظته من الحرام والحلال.

الأول- الفزع إلى الله تعالى، رغبة في ثوابه، ورهبة من عقابه.

والثاني- الخشوع والإنابة: وذلك هو المخافة الثابتة في القلب. فهم في وقت تعبدهم كانوا بحال رغبة ورجاء، ورهبة وخوف في حال واحدة؛ لأن الرغبة والرهبة متلازمتان، والرغب لتحقيق المطلوب، والرهب لدفع المضرة.

ثم قرن الله تعالى بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام، لارتباطهما بشيء مشترك، فإن إنجاب زكريا من امرأة عاقر في سن الكبر، أعجب منه إنجاب مريم العذراء ولداً من أنثى بلا أب، فاذكر أيها الرسول خبر مريم بنت عمران التي حصَّنت نفسها من الرجال، وخصصت نفسها للعبادة، فنفخ جبريل الروح الأمين في بطنها، أي أحيا ولداً في جوفها، وهو عيسى عليه السلام، وجعل الله أمر مريم وابنها عيسى وهو الحمل من غير أب آية ومعجزة خارجة عن العادة وعبرة لمن اعتبر في ذلك، من العالمين. أي لمن عاصر الحادث فما بعد ذلك، وذلك دليل على قدرة الله الباهرة، فهو سبحانه على كل شيء قدير، وإن ذِكْر مريم هنا وإن لم تكن من الأنبياء فلأجل عيسى ابنها النبي الرسول عليه السلام.

وحدة الأديان السماوية

أرسل الله تعالى الرسل، وأنزل الكتب، لتحقيق مضمون واحد، والوصول إلى مصير واحد، أما وحدة المضمون: فهي الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، والعمل بمرضاته، والبعد عن مساخطه، وأما وحدة المصير: فهي عرض جميع الخلائق على ربهم في عالم الآخرة، مما يقتضيهم التزامَ أمر الله، واجتنابَ نهيه، فتحقق لهم السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، ولا داعي بعدئذ للتفرق والاختلاف في الدين، وهذا ما صرح به القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ(١) أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم(٢)
بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ(٣) عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ(٤) ﴿٩٥﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ(٥) يَنسِلُونَ(٦) ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ
ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا
بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٢-٩٧].

المعنى: إن دين الله والإنسانية دين واحد، قائم على ملة التوحيد الخالص لله، والإيمان بالله تبارك وتعالى وعبادته، وتلك هي الملة الواحدة التي دعا إليها جميع الأنبياء والشرائع، إنهم جميعاً متفقون على منهج واحد، وغاية واحدة، وما على البشر إلا توحيد الدين، والإنابة لرب العالمين، فهو الإله الواحد الذي لا إله غيره، فليعبده كل الناس، ولا يشركوا به أحداً من المخلوقات والأشياء الكونية.

إلا أن الأمم والشعوب اختلفوا مع الأسف، على الرسل بين مصدّق لهم ومكذب، وكان منهم المحسن ومنهم المسيء، وتقطّعوا أمر الدين الواحد، وتفرقوا فرقاً شتى، وكل فرقة منهم سيرجعون إلى الله تعالى يوم القيامة، فيجازى كل واحد بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ثم حوّل الله الخطاب إلى الغيبة للالتفات إلى مخالفات دين الله الواحد.

فمن عمل عملاً من الصالحات، وهو مؤمن بالله، فهو بسعيه يجازى، ولا جحود لمسعاه، ولا إبطال لثواب عمله، ولا إضاعة لجزائه، وكل شيء قدمه فهو مدون محفوظ. والآية دليل واضح على أن أساس قبول الأعمال الصالحة عند الله: هو

---

(١) ملتكم وهي الإسلام. (٢) تفرقوا في دينهم فرقاً. (٣) ممتنع. (٤) إلينا بالبعث والجزاء. (٥) مُرتفع من الأرض. (٦) يسرعون المشي في الخروج.

الإيمان الحق الذي يشمل التصديق بالله ورسله و بجميع ما أنزل الله في كتبه، وبما شرّع من شرائع وأحكام، وهذا هو المحسن، وقد ذكّره الله بالوعد الحسن وبالمصير المحمود.

ثم ذكّر الله المسيء بالوعيد في قوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ﴾ أي ومحظور ممنوع على أهل قرية، حكم الله بإهلاكها، رجوعهم إلى الدنيا فيتوبون ويُستعتبون، أو رجوعهم عن الكفر إلى الإيمان والإسلام، والعودة إلى الرشد والاستقامة، فأولئك لا يؤمنون أبداً بسبب سوء اختيارهم وعنادهم، وتحجر طبائعهم.

وكلمة «لا» في قوله سبحانه: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ زائدة للتأكيد، وهو شيء مألوف في لغة العرب.

ويستمر عدم رجوع القوم المهلكين إلى قيام الساعة وظهور أماراتها وهو خروج يأجوج ومأجوج، وهم الناس جميعاً، يخرجون من قبورهم، ويقبلون على ساحة الحساب من كل مكان، مسرعين، فقوله تعالى: ﴿يَنسِلُونَ﴾ معناه: يسرعون في تطامن، أي سكون أو انخفاض. والحدب: كل مسنّم من الأرض كالجبل والقبر ونحوه.

فإذا خرجت الأمم من القبور، وقرب الوعد الحق، أي يوم القيامة، ترى أبصار الكافرين شاخصة، أي مرتفعة الأجفان، جامدة لا تتحرك، ولا تكاد تنظر من أهوال القيامة وشدة أحداثها. يقولون: «يا ويلنا» أي يا هلاكنا، قد كنا في الدنيا غافلين لاهين. بل كنا في الواقع ظالمين لأنفسنا، بتعريضها للعذاب، لقد كانت بنا غفلة عما وُجدنا عليه الآن، وتبينّا من الحقائق، ونصرح بأننا نحن الظلمة. وهذا اعتراف واضح بما كانوا عليه من تعمّد الكفر وقصد الإعراض.

إن أمر الساعة الوعد الحق سريع الحدوث، رهيب الوقوع، روى ابن جرير الطبري عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

رجلاً اقتنى فِلْواً، بعد خروج يأجوج ومأجوج، لم يركبه حتى تقوم الساعة».
والفِلْو: المهر أو الجحش يفطم أو يبلغ السنة.

جزاء الكافرين والمؤمنين

من المعلوم بداهة أن الجزاء من جنس العمل، وأن النجاح والرسوب بحسب الاستعداد للامتحان، فمن أحسن العمل، وأتقن الصنعة، وآمن إيماناً صحيحاً، لقي الرضوان، وفاز بالجنان، ونجح في الامتحان. ومن أساء العمل، وأفسد المسعى، وكفر بالله وخالقه ورازقه، تلقى الهوان والسخط والغضب، وباء بالنيران، وخاب في النتيجة. وهذا منهج القرآن وكل كتاب إلهي، وهو حكم العقل الصحيح، قال الله تعالى مبيناً هذا المنهاج:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ(١) أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ(٢) ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا(٣) وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ(٤) وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا(٥) وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ(٦) وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٨-١٠٣].

مطلع الآيات: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ مخاطبة لكفار مكة، مفادها: إنكم أيها المشركون بالله عبدةُ الأصنام والأوثان، مع أصنامكم: حصبُ جهنم، أي وقود النار، تدخلونها جميعاً، وتخلدون فيها، والورود في هذه الآية: ورود الدخول، وحرق الأصنام بالنار، على جهة التوبيخ لعابديها.

---

(١) حطبها ووقودها. (٢) فيها داخلون. (٣) ما دخلوا جهنم. (٤) تنفس شديد. (٥) صوت اللهب.
(٦) أهوال القيامة.

وقد نزلت الآية التي بعدها حينما اعترض عبد الله بن الزِّبعرى على رسول الله ﷺ، قائلاً: إن عيسى وعزيراً ونحوهما قد عُبدا من دون الله، فيلزم أن يكونا حصباً لجهنم، فنزلت آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾.

وأكد الله تعالى قبل بيان نجاة أهل الإيمان على إحراق الأصنام للتوبيخ، بأنه لو كانت هذه الأصنام آلهة صحيحة، تضر وتنفع كما يدعي عبدتها، ما دخلوا النار، لأن أبسط شيء في الفكر: أن الذات أو النفس تدفع الضر عن حالها، وكل تلك الآلهة المزيفة المعبودة من دون الله، مخلدة في نيران جهنم، دائمة العذاب فيها، لا مخرج لهم منها.

وللمعذَّبين من شدة العذاب أنين وزفير، والزفير: صوت المعذب، وهو كشهيق الحمير وشبهه، إلا أنه من الصدر، وهم في النار لا يسمعون فيها خبراً مفرحاً، ولا شيئاً سارّاً من القول، بل يسمعون صوت الزبانية الذين يتولون تعذيبهم.

أما أهل السعادة: فليسوا من المعذَّبين؛ لأنهم لم يرضوا بعبادتهم أنفسهم، ولا دعوا إليه، فهؤلاء سبقت لهم من الله الحسنى، أي تقرر في علم الله أنهم بسبب التزامهم الإيمان وصالح الأعمال في الدنيا، مبعدون عن دخول النار، وهم مبشّرون بالجنة والثواب العظيم، وموفّقون للعمل الصالح، كما قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: ١٠/٢٦]. فسقط بذلك اعتراض عبد الله بن الزبعرى على ظاهر الآية السابقة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ..﴾ فإن المعبودين من غير علم منهم ولا رضا بعبادتهم من قبل الجاهلين هم ناجون من العذاب، وأوصاف نعيم السعداء أربعة: هي أنهم لا يسمعون حسيس النار، أي صوتها وحريقها في الأجساد وشررها، وهم ماكثون أبداً على الدوام في الجنان، يتمتعون بما اشتهت أنفسهم من نعيم الجنة ولذائذها، ولا يحزنهم الفزع الأكبر، أي

لا تخيفهم أهوال القيامة، بعد قيامهم من قبورهم للحساب، إلى أن يصلوا إلى الجنة، وتستقبلهم الملائكة بالسلام عليهم، والتبشير لهم، قائلين لهم: هذا يومكم الذي وُعدتم فيه الثواب والنعيم، إنه يوم المسرة الأكبر، ويوم الثواب والفرحة الأعظم، ويوم الحسنى، والحسنى: الرحمة وحتمية التفضيل.

ألا ما أعظم الفرق الشاسع بين مصير هؤلاء السعداء، فهم المخلّدون في النعيم، المتمتعون بأطيب وأحسن الأحوال، وأما أولئك الأشقياء فعلى العكس من ذلك تماماً، إنهم مخلدون في الجحيم، وفي أسوأ الأحوال، وأتعس الأوصاف والأوضاع.

طي السماء وإرث الأرض

في يوم القيامة تتبدى عجائب، وتظهر أحوال خطيرة، تنبئ عن عظمة القدرة الإلهية، وتَذْهل منها العقول والأفكار، من هذه العجائب تبدُّد السماوات وطيّها كطي سجل الكتاب، وتغيّر الأرض تغيراً غير منتظر، وسرعة الحساب، وتقرير مصير الخلائق على نحو غريب، وسوقُ الناس إلى مصائرهم سوقاً سريعاً، إما إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وإما إلى نار محرقة تتلظى بها الجلود، وتحترق بها الأكباد والقلوب، وهذا ما أخبرت عنه الآيات الآتية:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ(١) لِلْكُتُبِ(٢) كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ(٣) مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ(٤) أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا(٥) لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٤-١٠٦].

(١) الصحيفة. (٢) على ما كتب فيها. (٣) الكتب المنزّلة. (٤) اللوح المحفوظ. (٥) كفاية.

إن الملائكة الكرام تستقبل وفود أهل الإيمان، وتتلقاهم مبشرين مهللين، يوم يطوي الله تعالى السماء، بواسطة مَلَك كما يُطوى السجل، أي الصحيفة المخصصة للكتابة، وهذا الطي كائن حتماً، يوم يعيد الله الخلائق بالبعث خلقاً جديداً، كما بدأهم في أول مرة، والله وحده هو القادر على إعادتهم، إنه وعد لا يتخلف، والله قادر على فعل ذلك الطي بيسر وسهولة، كما جاء في آية أخرى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾ [الزمر: ٣٩/٦٧].

أما تبدل السماوات والأرض، فجاء الخبر عنه في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٨].

وقوله سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ يحتمل معنيين كما ذكر ابن عطية في تفسيره:

أحدهما: أن يكون خبراً عن البعث، أي كما اخترعنا الخلق أولاً على غير مثال، كذلك ننشئهم تارة أخرى، فنبعثهم من القبور.

والثاني: أن يكون خبراً عن أن كل شخص يُبعث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها إلى الدنيا.

ثم أخبر الله تعالى عما قضاه وقدره لعباده الصالحين من سعادة الدنيا والآخرة ووراثة الأرض، فذكر سبحانه أنه قضى قضاء محتماً في كتاب الزبور، بعد التوراة أو القرآن: أن وراثة الأرض في الدنيا والآخرة لا تكون على الدوام والاستقرار إلا لعباد الله الصالحين وهم المؤمنون العاملون بطاعة الله تعالى. والذكر: إما التوراة كما قالت فرقة، أو القرآن وهو قول ابن عباس، أو اللوح المحفوظ، والزبور: إما ما

أنزله الله على داود عليه السلام، أو أنه اسم يعم جميع الكتب المنزلة، لأنه مأخوذ من «زبرتُ الكتاب»: إذا كتبتَه.

والأرض: إما أرض الجنة بقول فرقة، لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزُّمَر: ٣٩/ ٧٤]. وإما أرض الدنيا في قول فرقة أخرى، أي كل ما يناله المؤمنون من الأرض، لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٢٤/ ٥٥].

إن في هذا المذكور في سورة الأنبياء أو في القرآن بجملته، من الأخبار والوعد والوعيد، والمواعظ المؤثرة، لإبلاغاً كافياً ومنفعة تامة لقوم عابدين: وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبّه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات الأنفس.

والعبادة التي يتصف بها العابدون تتضمن الإيمان بالله تعالى، واجتماع أوصاف العبادة التامة من الإيمان، وطاعة الله والخشوع له، مؤهلة أصحابها للتمكن في الأرض في الدنيا، والظفر بالجنة في الآخرة.

النبي ﷺ رحمة للعالمين

ختمت سورة الأنبياء بعد إيراد سيرتهم وقصصهم ببيان الغاية السامية من بعثة خاتم النبيين محمد صلوات الله وسلامه عليه، والتي هي في جوهرها أنه رحمة للعالمين في الدين والدنيا والآخرة، أما في الدين فبإنقاذهم من الجاهلية والضلالة إلى العلم والنور والهداية، وأما في الدنيا فهو لتحقيق العزة والنصر، والتخلّص من الذِّلة والمهانة، فإن آمن الناس برسالة النبي محمد ﷺ سعدوا وصعدوا وارتقوا، وإن أعرضوا وتنكروا، فما على هذا الرسول إلا البلاغ المبين، قال الله تعالى واصفاً خاصية رسالة النبي ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ(١) عَلَىٰ سَوَآءٍ(٢) وَإِنْ أَدْرِىٓ
أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾
وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ(٣) لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ
ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧-١١٢].

المعنى: وما أرسلناك أيها النبي محمد بشريعة القرآن وهديه وأحكامه ودستوره إلا لرحمة جميع العالم من الإنس والجن، في الدنيا والآخرة. أما رحمته للمؤمنين: فهي بيِّنة تتجلى في تحقيق إسعادهم في دنياهم، ونجاتهم في أخراهم، وأما رحمته للكافرين: فتظهر في أن الله تعالى رفع عن مختلف الأمم أنواع العذاب الشامل المستأصل، كالطوفان وغيره.

وجوهر رسالة هذا النبي تتمثل في قوله لقومه أهل مكة وكل إنسان: ما يوحى إلي شيء إلا أن الله إله واحد لا شريك له، فاعبدوه وحده، فهل أنتم مطيعون، خاضعون لأوامر الله؟!

فإن أعرضوا وتركوا ما دعاهم إليه هذا الرسول، فقل لهم: أعلمتكم أني حرب لكم، وأنتم حرب لي، وأخبرتكم خبراً نتساوى في العلم به، وهذا عدل في الإعلام والإخبار: وهو أنني بريء منكم، وأنتم بريئون مني، وقد عرفتكم إنذاراتي، وأردت أن تشاركوني في معرفة ما عندي من الخوف عليكم من الله تعالى.

وأعلمكم بأنني لا أعرف وقت عقابكم، وإنما هو مترقب في القرب والبعد، فما توعدون به من العذاب، وتغلُّبِ المؤمنين عليكم هو واقع كائن لا محالة، والله هو العالم بتحديد وقته.

---

(١) أعلمتكم ما أُمرت به . (٢) مستوين في الإعلام والعلم به . (٣) امتحان لكم .

إن الله تعالى يعلم الغيب كله، ويعلم ما يظهره الناس وما يسرون، ويعلم ما يطعنون به في الإسلام، وما يضمرونه من الحقد والكيد على المسلمين، وسيجزيكم الله على قليل ذلك وكثيره.

وما أدري لعل تأخير العذاب عنكم ابتلاء واختبار لكم، وتمتع باللذات والمنافع الدنيوية إلى أجل مسمى، ليُنظر ماذا تعملون. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ﴾ الضمير يعود على الإملاء والإمهال لهم، والفتنة: الاختبار والابتلاء، والمتاع: ما يستمتع به مدة الحياة الدنيا.

ثم أمر الله نبيه أن يقول على جهة الدعاء: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذِّبين بالحق والعدل، فإنك لا تحكم إلا بالحق، ولا تحب إلا الحق. وفي هذا الدعاء توعد، أي إن الحق هو نصرتي عليكم.

ثم علّم الله نبيه كيفية التوكل عليه، والاستعانة بالله تعالى، أي إن الله ربنا هو المستعان، ويُطلب منه العون على وصف الشرك والكفر، والكذب والباطل، ومفاد قولهم المزعوم: أن لله ولداً، وأن محمداً ساحر شاعر، وأن القرآن شعر، وأنهم طامعون في الانتصار على المسلمين، بحيث تكون الشوكة والغلبة لهم.

وهذا الطلب والاحتكام إلى الله: إنذار للمشركين، وإظهار للحق، وتوعد للكفرة، وتهديد بالهزيمة والاندحار أمام جندِ الحق والإيمان، وأنصار الرحمن والقرآن، وقد تحقق هذا الإنذار، فإن الله نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا هو الحي القيوم. وهذا دليل آخر على صدق محمد ﷺ في دعوته، وأنه رسول من عند الله تعالى لخير البشرية.

تفسير سورة الحج

التقوى وسببها

إن مهمة المربي المخلص الترغيبُ في الاستقامة، والتحذير من الانحراف، وإلا لم يكن مربّياً صدُوقاً، ولا معلماً ناجحاً، لذا عني القرآن الكريم من أجل النجاح في التربية بالحض على تقوى الله تعالى التي تشمل الجانبين الإيجابي والسلبي، بالتزام المأمورات التي تحقق الخيرات والفلاح، واجتناب المنهيات التي تؤدي إلى الشر والخسران، وهناك سبب آخر للأمر بالتقوى: وهو النجاة في عالم الحساب يوم الآخرة، ففي الآخرة الرعب والرُّهب، ولا أمان من مخاوف هذا اليوم، والنجاة من أهواله، إلا باستقامة الإنسان، وقد أمر الله تعالى صراحة بالتقوى لتنفع صاحبها في عالم القيامة، فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ(١) شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ(٢) كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ(٣) ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٢٢/١-٤].

هذا مطلع سورة الحج المدنية النزول، وصدر الآية يتضمن تحذيراً لجميع العالم

(١) أهوال القيامة . (٢) تغفُل . (٣) عاتٍ متمرد .

لتفادي أهوال القيامة، فيا أيها البشر، احذروا عذاب الله، بطاعته، والبعد عن معصيته، ثم أكد الله هذا الأمر بأمر زلزلة القيامة، حين حدوثها، قبل قيام الناس من القبور، لقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ١-٢]

وتلك الزلزلة: هي إحدى شرائط القيامة، وسميت الزلزلة حين نزول القرآن شيئاً، وهي حينئذ معدومة، لأن تيقن وجودها يجعلها شيئاً موجوداً، أي هي إذا وقعت شيء عظيم، فيكون المعنى أنها إذا كانت، فهي شيء عظيم جداً، والزلزلة: التحريك العظيم، وذلك مع نفخة الفزع ومع نفخة الصعق حسبما تضمن حديث أبي هريرة من ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث. وأوصاف يوم القيامة الرهيبة هي:

١- يوم تُذهل الزلزلة كل مرضعة عن وليدها الرضيع. والذهول: الغفلة عن الشيء بطارئ من هم أو وجع أو خوف.

٢- وتسقط الحامل جنينها من بطنها من شدة الخوف والفزع.

٣- وتجد الناس كالسُّكارى من الخوف، وهم في الواقع غير سكارى من الشراب، ولكن شدة العذاب أفقدتهم وعيهم.

ومع هذا التحذير الشديد ووصف هذه الأهوال العظام، يجادل بعض الناس في المغيبات بغير علم، كالمجادلة في صفات الله وأفعاله، وقدرته على البعث وغيره، ويتبع في جداله بالباطل خطوات كل شيطان متمرد عاتٍ، فهو لا يجادل بالحق، وإنما يجادل بالباطل .قال ابن جريج: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث وأُبي بن خلف. وقيل: في أبي جهل بن هشام. وكان النضر كثير الجدال، يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بلي وصار تراباً.

والآية تتناول كل من يتصف بهذه الصفة، أي الجدال بالباطل، وهي كما قال الزمخشري في الكشاف عامة في كل من تعاطى الجدال، فيما لا يجوز على الله، وما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم، ولا يتّبع حجة ولا برهاناً صحيحاً، فهو يخبط خبط عشواء، غير فارق بين الحق والباطل، وتدل الآية بمفهومها على جواز المجادلة بالحق، وهي المجادلة مع العلم، ومن أجل التعلم والتعرف على الحقيقة، لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥]. وأما المجادلة بالباطل: فهي المرادة من قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥٨].

ثم أبان الله مصير الذي يتبع الشيطان، وهو أنه قضي على من اتبع الشيطان، وجعله ولياً ناصراً له: أن يوقعه في الضلال، ويهديه إلى النار، أي يدله على طريق ذلك. والمقصود أن اتباع الشيطان يؤدي إلى الضلال في الدنيا، وإلى عذاب النار في الآخرة، وهذا وعيد واضح لمن اتبع الشيطان، وتحذير من الانسياق مع وساوسه وأباطيله.

بعض أدلة البعث

أقام الله تعالى أدلة كثيرة على إثبات البعث واليوم الآخر، منها في أوائل سورة الحج خَلْق الإنسان، وخلق النبات، فالله تعالى خلق الإنسان من تراب، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾. وخلق النبات من زرع وشجر، كما في قوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾. وبعد إيراد الأدلة على قدرة الله على البعث، لا يُلتفت إلى إنكار منكر له، ويكون الإنكار نوعاً من العبث والمكابرة والعناد الذي لا يعتمد على عقل ولا فكر صحيح. قال الله تعالى مبيناً موقف هذا المنكر المكابر والرد عليه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ(١) ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ(٢) ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ(٣) مُّخَلَّقَةٍ(٤) وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ(٥) ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ(٦) لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً(٧) فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ(٨) وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ(٩) ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٥-٨].

هذا لون صريح من مباشرة الحوار الرباني مع الناس، فيا أيها البشر، إن كنتم في شك من إمكان البعث ومجيئه، يوم القيامة، فانظروا إلى بدء خلقكم، فمن قدر على البدء قدر على الإعادة، بدليل مراحل خلق الإنسان السبع الآتية وهي:

١- إننا خلقنا أصلكم آدم من التراب، وخلقنا الغذاء من التراب.

٢- ثم بدأ تخلّق الإنسان بحسب الأحوال المعتادة، ببدء تكون النطفة.

٣- ثم تحولت النطفة بإذن الله إلى علقة، أي قطعة دم متجمد بعد أربعين يوماً.

٤- ثم صارت العلقة مضغة، أي قطعة لحم، مخلّقة أي متممة البنية، وغير مخلّقة: غير متممة البنية، أي التي تسقط، وقد خلقناكم على هذا النحو من التدرج لنبين لكم كمال قدرتنا وحكمتنا، ولتستدلوا بها على إمكان البعث، فإن من خلق الإنسان على هذا النحو من التدرج والتباين الظاهر، قدر على إعادة ما بدأه، بل هذا أهون في تقدير الناس، وإن كان لا فرق في القدرة الإلهية بين الحالين.

---

(١) مني . (٢) قطعة دم متجمد . (٣) قطعة لحم . (٤) واضحة الخلقة . (٥) كمال قوتكم وعقلكم .
(٦) الخرف والهرم ، فهو أخس العمر . (٧) ميتة يابسة . (٨) انتفخت وارتفعت . (٩) صنف حسن .

٥- ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً ضعافاً في البدن والعقل والحواس.

٦- ثم تمرون في مراحل العمر، فتبلغوا أشدكم في عنفوان الشباب، وتتكامل قواكم البدنية والعقلية.

٧- وبعضكم يتوفاه الله في مرحلة مبكرة من العمر، وبعضكم تتأخر وفاته، ويعيش حتى يصل إلى سن الشيخوخة والهرم، وضعف العقل والقوة والفهم، وتلك هي مرحلة الخرف، التي يعود بها الإنسان إلى حال الطفولة، هذا هو الدليل الأول على قدرة الله على البعث، يعتمد على التأمل في مراحل خلق الإنسان.

والدليل الثاني على إمكان البعث من الله: هو خلق النبات المشابه لخلق الإنسان، فإذا تأمل المرء أحوال الأرض، يراها أولاً ميتة يابسة لا نبات فيها ولا زرع، فإذا أنزل الله عليها المطر تحركت بالنبات، ودبت فيها الحياة، وارتفعت وانتفخت بالماء والنبات، ثم أنبتت من كل صنف من النبات والزرع ما هو جميل المنظر، طيب الرائحة، متناسق الألوان أو مختلفها، لاختلاف ألوان الثمار والزروع والطعوم والروائح، والأشكال والمنافع، كما يلاحظ كل إنسان في فصل الربيع والصيف وغيرهما.

ذلك المذكور من خلق الإنسان والحيوان والنبات بسبب أن الله هو الحق الموجود الثابت الذي لا شك فيه، وأنه الإله القادر على إحياء الموتى كإحياء الإنسان والحيوان والنبات، وأنه تعالى القادر على كل شيء، فمن قدر على هذه الممكنات، فهو قادر على إعادة الأجسام إلى أرواحها.

ولتعلموا أن من قدر على إحياء الموتى قادر على الإتيان بالساعة، أي يوم القيامة، فالساعة كائنة واقعة لا شك فيها، ولتتيقنوا أن الله سيبعث أهل القبور، بعد أن بليت أجسادهم، وصاروا رمماً، وسيعيدهم الله مرة أخرى أحياء، ليوم الحشر والحساب، والثواب والعقاب.

أحوال الناس من الهداية الإلهية

تختلف أحوال الناس من الهداية الإلهية، على ثلاث فئات، فئةُ دعاة الضلال، وفئة أهل الشك والنفاق، وفئة الأبرار السعداء، ولكل فئة سلوك ومنهاج، وتفكير ونظام، وتسطر كل فئة بيدها خطوط مستقبلها، فلا يكون بعدئذ مجال للاعتراض، أو ادعاء لظلم، أو مفاجأة بواقع المصير، وقد أخبر القرآن الكريم عن هذه الفئات الثلاث في الآيات الآتية:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ(١) لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ(٢) وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ(٣) فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ(٤) وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ(٥) ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

[الحج: ٢٢/٨-١٤].

هذه أحوال ثلاث فئات من الناس. أما الفئة الأولى: فهم دعاة الضلال وأئمة الكفر، وهم الذين يجادلون في توحيد الله وأفعاله وصفاته بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي المحض والهوى الخاص. إنهم يجادلون مستكبرين عن الحق وقبوله، بقصد إضلال الناس عن سبيل الله، سبيل الحق والعدل والتوحيد، فيكون عقابهم في الدنيا الخزيَ، أي الهوان والذل، وفي الآخرة الزجَّ بهم في عذاب

---

(١) أي معرضاً عن القرآن كفراً وتعاظماً . (٢) ذل وهوان . (٣) أي على شك وضعف في الإيمان والعبادة .
(٤) الناصر . (٥) الصاحب المعاشر .

النار، وبئس العذاب. وسبب هذه النهاية الوخيمة: هو ما قدموا من الكفر والعصيان، واتباع وساوس الشيطان، فيكون جزاؤهم حقاً وعدلاً، وليس الله بظالم أحداً من عبيده، وإنما هم الظالمون لأنفسهم. فقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ عبارة عن المتكبر المعرض.

وقد نزلت هذه الآية في أبي جهل، أنذره الله بالخزي (الذل والهوان) في الدنيا، فقتل يوم بدر، أو نزلت في النضر بن الحارث الذي قتل أيضاً يوم بدر.

وأما الفئة الثانية: فهم أهل الشك والنفاق والمنفعة، والانتهازيون: وهم الذين يعبدون الله على شك وضعف في العبادة، فإن أصابهم خير مادي من غنيمة ومال، وكثرة نتاج في الماشية، رضوا عن هذا الدين، وإن أصابهم مرض أو فقر أو ضعف نتاج من الماشية، ارتدوا وكفروا، فخسروا أو ضيعوا الدنيا والآخرة، فلم يحصلوا من الدنيا على شيء، من عِزّ وكرامة وغنيمة، ولا استفادوا من ثواب الآخرة، لأنهم كفروا بالله العظيم، وذلك هو الخسران البيِّن الذي لا خسران مثله. وتأكيداً لعظم تلك الخسارة، ترى هؤلاء المنافقين يعبدون من غير الله آلهةً من الأصنام، يستغيثون بها، ويستنصرون، ويسترزقون، وهي لا تضرهم إن لم يعبدوها، ولا تنفعهم في الآخرة إن عبدوها، ذلك الارتداد وعبادة الأصنام: هو الضلال الموغل في البعد، وتراهم أيضاً يعبدون من ضرره في الدينا أقرب من نفعه فيها، وضرره في الآخرة محقق متيقن، لبئس المولى: الناصر هو، ولبئس العشير: الصاحب هو.

وأما الفئة الثالثة: فهم الأبرار السعداء الذين آمنوا بقلوبهم وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم وعملوا صالح الأعمال، فيكون جزاؤهم إدخالهم جنات تجري من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار، إن الله يفعل ما يريد بإكرام أهل الطاعة والإنابة، ويهين أهل المعصية، ويحرمهم من فضله، يفعل على وفق مراده وإرادته ومشيئته

المطلقة، فلا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، إنه سبحانه يدخل المؤمنين الجنة بحق وعدل، ويدخل الكافرين النار بحق وعدل، المؤمنون بسبب إطاعتهم لله تعالى، والكافرون بسبب عصيانهم أوامر الله تعالى.

إن بيان أحوال هذه الفئات الثلاث والموازنة بينهم، يكون خير ترجمان عن واقع الناس، وعن مصائرهم يوم القيامة، فهل من تفكير بإيمان صحيح، وهل من مسعى حميد نحو الطاعة، والفرار من المعصية؟

مناقشة اليائس من النصر

جرت العادة أن كل رسول أو سفير عن غيره يكون محمياً ومؤيداً بقوة وسلطان من أرسله، ليتمكن من أداء مهمته على الوجه الأكمل، ويعود سالماً غانماً إلى مقره ووطنه، والله تعالى أشد غيرة وأعظم سلطاناً وتأييداً لرسله الذين بعثهم لهداية البشرية، فيحميهم من أعدائهم، وينصرهم على مخالفيهم في نهاية الأزمة والمحنة، لذا وبخ الله تعالى أولئك الفئة من الناس وهم ضعاف الإيمان أو عديمو الإيمان على ما طرأ عليهم من القلق، وعلى ظنهم أن الله تعالى لن ينصر محمداً عليه الصلاة والسلام وأتباعه، وأبان الله لهم أنه سبحانه أمر نبيه ومن آمن معه بالصبر وانتظار الوعد الإلهي، وأنزل على رسوله الآيات البينات التي يبلغها لقومه، وللناس أجمعين، فقال الله تعالى:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ(١) فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ(٢) إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ(٣) فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ(٤) مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ(٥) يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ١٥-١٦].

---

(١) ينصر الله رسوله . (٢) بحبل . (٣) الجمهور على أن القطع هنا هو الاختناق . (٤) صنيعه بنفسه .
(٥) في موضع خبر الابتداء، والتقدير: والأمر أن الله يهدي من يريد .

أبان الله تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين أمرين مهمين: وهما نصرته رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، لييأس المجادلون الانهزاميون العابدون الله على حرف (أي شك وضعف في العبادة) الظانون أن الله تعالى لن ينصر رسوله.

والأمر الثاني: إنزاله القرآن آيات واضحات ترشد إلى الحق والصواب.

والمعنى: يقول الله تعالى: نحن أمرنا رسولنا والمؤمنين بالصبر على الدعوة إلى الله، وانتظار وعدنا، فمن ظن غير ذلك، وأننا لن ننصر محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب إلى السماء، أي بحبل إلى سقف بيته، وليختنق به، ولينظر وليتأمل في نفسه: هل يُذهب بذلك غيظه من نصرة رسول الله ﷺ؟ كلا، وهذا الكلام على جهة المثل السائر، وهو قولهم: «دونك الحبل فاختنق» يقال ذلك للذي يريد من الأمر ما لا يمكنه. وسمي الاختناق قطعاً؛ لأن المختنق يقطع حياته. وسمي فعله وهو نصب المشنقة «كيداً» استهزاء، لأنه لم يَكِد به محسوده، وإنما كاد به نفسه، ولم يقدر على غيره.

والمراد من هذا المثل المتحدى به: أن الله تعالى ناصر بالتأكيد دينه وقرآنه ورسوله، لا محالة من ذلك، فليفعل أهل الغيظ ما شاؤوا.

قال ابن عطية رحمه الله: أبين وجوه هذه الآية أن تكون مثلاً، ويكون النصر هو النصر المعروف، والقطع: الاختناق، والسماء: الارتفاع في الهواء بسقف أو شجر أو نحوه.

ثم أردف الله تعالى بيان ذلك المثل ببيان آخر، حول القرآن العظيم، والمعنى: وكما وعدنا رسولنا بالنصر، وأمرناه بالصبر، كذلك أنزلنا القرآن آية بيِّنة واضحة، لمن نظر واهتدى، يتعظ بها المعتبر، ويتأمل بها الواعي المتعظ، لا ليُقترح معها شيء آخر، ويُستعجل القدر، فإن إنزال كل شيء بحكمة وميعاد، وفي الوقت المناسب

بحسب مراد الله، لا بحسب مراد البشر، والضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ عائد على القرآن، وجاءت هذه الضمائر هكذا، وإن لم يتقدم لها ذِكْر، لشهرة المشار إليه، نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٨/ ٣٢]. والأمر أن الله يهدي من يريد، أو لأن الله يهدي بالقرآن ويوفق الذين يعلم أنهم يؤمنون، ومستعدون للإيمان بما أنزل، ويريد الله هدايتهم. وهداية الله تبارك وتعالى: هي خلقه الرَّشاد والإيمان في نفس الإنسان.

حسمت هاتان الآيتان أمرين أحدهما شخصي متعلق بالنبي ﷺ، والآخر عام متعلق بطبيعة بيان القرآن، وهداية الله البشر. إن أمر انتصار النبي ﷺ على مخالفيه حقيقة ثابتة في مضمار العقيدة، ومصداقية التاريخ، وقد تم ذلك بنحو واضح، إلا أن مصائر الأمور تتعلق بالحكمة الإلهية والعلم الرباني، فقد يتأخر النصر، لترك الفرصة أمام الجناة، لتصحو ضمائرهم، وتتفتح عقولهم، وتتدبر أمر الوحي الإلهي.

وإن بيان القرآن الكريم القطعي الذي لا غبار عليه ولا شك في دلالاته وأخباره، ومهامه وغاياته، هو الذي خلّده وأبقاه أبد الدهر، وسيظل منارة الهدي الإلهي، ومفتاح صفحة الكون الذي تستضيء بهديه نفوس الحائرين، ولن تجد أقوم ولا أعدل، ولا أحكم ولا أصلح، ولا أفضل منه، وإن هداية الله وتوفيقه بالقرآن وغيره مستمرة، ومرتبطة بإرادة الله، وإرادة الله الهداية تقع في محلها حسبما يعلم الحق من كان أهلاً للهداية وجديراً بها.

العدل الإلهي بين الفِرَق

انقسمت الشعوب والأمم إزاء الهدي الرباني إلى فرق وأحزاب، وفئات وجماعات، بحسب أهوائهم ونزعاتهم واستعداداتهم، فمنهم أهل الإيمان بالنبي محمد ﷺ وغيره من الأنبياء، ومنهم من لم يؤمن بالأنبياء جميعاً، ومنهم من آمن ببعض

الأنبياء دون البعض الآخر، والله تعالى عالم بكل هؤلاء، يَفْصل بينهم فصلاً قائماً على العدل يوم القيامة، والله قادر على كل شيء، يهدي من علم أنه أهل للهداية، ويعذب من يستحق العذاب، ومن هداه الله فلا مضل له، ومن يُهنه ويعذبه فلا مكرم له، سبحانه وتعالى، يفعل ما يريد، قال الله تعالى واصفاً أحوال الأمم ومبيناً مصائرها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ(١) وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ(٢) ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ١٧-١٨].

أخبر الله تعالى في هذه الآيات عن فعله العادل، بجميع الفرق الدينية المختلفة، من المؤمنين بالله ورسله، واليهود، والنصارى، والصابئين: (وهم فرقة بين اليهود والنصارى، أو قوم يعبدون الملائكة، ويستقبلون القبلة، ويوحدون الله، ويقرؤون الزبور) والمجوسِ: وهم عبدة النار والشمس والقمر، والمشركين: وهم عبدة الأوثان، يعبدون مع الله إلهاً آخر. هؤلاء جميعاً يحكم الله بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإن الله تعالى شهيد مطلع على جميع أعمالهم، حفيظ لأقوالهم وأفعالهم، عليم بسرائرهم، وما تنطوي عليه ضمائرهم.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي عالم به: خبر مناسب للفصل بين الفِرَق، وفَصْل الله تعالى بين هذه الفرق: هو بإدخال المؤمنين الجنة، والكافرين النار.

وهذا أمر هين سهل على الله تعالى، فإن الله قادر على كل شيء، بدليل أن الله

(١) عبدة الكواكب أو الملائكة. (٢) ثبت ووجب عليه.

يخضع ويسجد له كل شيء طوعاً وكرهاً، وهذه آية إعلام بتسليم المخلوقات جميعها لله تعالى وخضوعها، وقد ذكر الله في الآية كل ما عبدَ الناس، وهناك في المخلوقات أعظم مما ذكر كالبحار والرياح والهواء، يسجد لله جميع من في السموات وهم الملائكة، وجميع من في الأرض، ممن عُبد من الإنس (الناس) والجن، وتسجد لله الشمس والقمر والنجوم العُلْوية، وكانت حِمْير وهم قوم بلقيس تعبد الشمس، وكانت كنانة من العرب تعبد القمر، وكانت قريش تعبد الشِّعرى، وكانت أسد تعبد عطارد، وكانت تميم تعبد الدَّبران، وكانت لَخْم تعبد المشترى، وكانت طي تعبد الثُّريا، وكانت ربيعة تعبد المرزم.

والأشجار والجبال والدواب كلها تسجد لله أيضاً، وإن عبدها بعض الناس، فمن الجبال أصنام الحجارة، ومن الشجر: النار والخشب، ومن الدواب: البقر وغير ذلك مما عبد من الحيوان كالديك ونحوه.

والسجود من هذه المخلوقات غير العاقلة: يراد به الخضوع والانقياد للأمر. وكثير من الناس حق له الثواب وهم من أطاع الله، وكثير منهم حق عليه العقاب: وهم من امتنع من طاعة الله وأبى واستكبر.

ومن يهن الله، فيشقيه ويضله لسوء فعله، وسوء استعداده للإيمان، فلا يقدر أحد على دفع الهوان عنه، ولا يُسعده أحد، لأن الأمر بيده تعالى، يوفق من يشاء، ويخذل من يريد، بمقتضى الحكمة الإلهية القائمة على العدل المطلق، والعلم الشامل بأحوال الخلائق، فلا شقاء لأحد من دون فعله السيّئ، وعتوه وتمرده، وخروجه عن جادة الطاعة والاستقامة، وإن الله يفعل ما يشاء في عباده من الإهانة والإكرام، والتعذيب والإنعام، حسبما سبق في علمه الأزلي، والناجي: من سجد لله وخضع وانقاد للأمر، والهالك من عتا وتكبر عن طاعة الله تعالى.

جزاء الكافرين والمؤمنين

الناس مهما اختلفوا في العقائد، فإنهم في النهاية صنفان: مؤمنون وكفار، الأولون آمنوا بالله ربهم، واهتدوا بشرعه وملته، والآخرون جحدوا بالله، وكفروا بما أنزل على رسله، وتنكروا للشرع الإلهي، وكل من هذين الفريقين ينتظر مصيراً معيناً بحسب عمله، وما أعظم الفرق بين الجزاءين، وهذا ما أبانته الآيات التالية:

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ(١) ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ(٢) مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ(٣) مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج: ٢٢/١٩-٢٤].

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي ذر قال: نزلت هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ في حمزة وعبيدة وعلي بن أبي طالب، وعتبة وشيبة والوليد ابن عتبة. أي الفريقين المتبارزين في بدء معركة بدر الكبرى، إنهم ستة: حمزة وعبيدة وعلي من جانب المسلمين، وعتبة وشيبة والوليد من جانب المشركين.

والآية في الواقع ليست مقصورة على هؤلاء الستة، وإنما الإشارة فيها إلى المؤمنين والكفار على العموم، فهما الخصمان المختصمان في دين الله وصفاته.

والمعنى: أن الإيمان وأهله، والكفر وأهله خصمان مذ كانا إلى قيام الساعة، بالعداوة والجدال والحرب. والمراد بالخصمين: الطائفتان، أو الفريقان المتميزان:

---

(١) الماء الشديد الحرارة. (٢) يُذاب به. (٣) مطارق.

فريق المؤمنين، وفريق الكافرين، تنازعوا في شأن ربهم وفي دينه، وكل منهم يعتقد أنه على الحق، وأن خصمه على الباطل.

فالذين كفروا بالله ربهم: مصيرهم واضح، قطّعت لهم ثياب من نار، أي تحيط بهم النار إحاطة شاملة، يُصَبّ على رؤوسهم الحميم، أي الماء البالغ أقصى درجات الغليان، فيذيب جميع ما في بطونهم من أحشاء، ويشوي جلودهم فيحرق الباطن والظاهر، وقوله سبحانه: ﴿يُصْهَرُ﴾ معناه: يذاب أو يعصر.

ولهم مقامع من حديد، أي لهم مضارب، تضرب بها رؤوسهم، فتنكشف أدمغتهم، فيصب الحميم حينئذ عليها. وكلما أرادوا الخروج أو الهروب من جهنم بسبب شدة العَذاب والغم، أي الحزن الشديد، أعيدوا فيها كما كانوا، ويقال لهم: ذوقوا العذاب المحرق، وهو عذاب النار الشديد، والمعنى: أنهم يهانون بالعذاب قولاً وعملاً، فإذا ارتفع لهب رفعهم، فيصلون إلى أبواب النار، فيريدون الخروج، فيضربون بالمقامع، وتردهم الزبانية.

ويعادل هؤلاء الفريق فريق أهل الإيمان بالله تعالى، ومصيرهم واضح أيضاً، إن الله يدخل المؤمنين الذين يعملون الصالحات، أي الطاعات والقربات، ويتجنبون المنكرات، جنات عالية رفيعة، تجري الأنهار من تحت أشجارها وجوانبها وقصورها.

وحليتهم التي يلبسونها: أساورُ الذهب في أيديهم، وتزين هاماتهم ورؤوسهم باللؤلؤ: وهو في الدنيا ما يستخرج من جوف الصدف، والأشهر أنه اسم للجوهر، ويرتدون على أجسادهم الحرير الذي كان محرماً لباسه على الرجال في الدنيا، في مقابلة ثياب أهل النار التي فصِّلت لهم. روي عن النبي ﷺ أنه قال -فيما يرويه البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه -: «من لبس الحرير في الدنيا، لم يلْبسه في

الآخرة» . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لا تُشْبه أمور الآخرة أمور الدنيا ، إلا في الأسماء فقط ، وأما الصفات فمتباينة.

وأُرشد أهل الجنة إلى القول الطيب : وهو كلمةُ التوحيد : لا إله إلا الله ، وما جرى معها من ذكر الله تبارك وتعالى وتسبيحه وتقديسه ، وسائرُ كلام أهل الجنة من محاورة شيقة وحديث طيب ، فإنها لا تسمع فيها لاغية.

وأُرشد أهل الجنة أيضاً إلى الصراط الحميد : وهو طريق الله تعالى الذي دعا عباده إليه ، فهو طريق الحق والاستقامة ، المحمود في نفسه أو عاقبته وهو الجنة.

فهل بعد هذه المقارنة بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين يبقى أدنى شك في ضرورة الحذر من أفعال الكافرين ، والرغبة في أفعال المؤمنين؟!

المسجد الحرام ومكانته

إن من نعم الله الكبرى على المسلمين اتخاذ الكعبة الشريفة قبلة ورمزاً موحِّداً لاتجاهات مسلمي العالم ، لترتبط قلوبهم بإله واحد ، وتتجه أنظارهم نحو رب واحد ، ويعملون من خلال وحدة العقيدة على بناء وحدة السياسة والمنهاج ، والعمل المشترك. فمن صدّ المؤمنين عن البيت الحرام. وحال دون العبادة فيه ، ارتكب أعظم الظلم ، وناله أفدح الإثم ، لأنه قطع عنهم مهوى القلوب ، وحجب مثوى أهل الإيمان عن ممارسة الشعائر والعبادات فيه ، قال الله تعالى مبيناً مكانة هذا البيت الحرام وأغراضه :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ

سَوَآءً(١) ٱلْعَٰكِفُ(٢) فِيهِ وَٱلْبَادِۚ(٣) وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ(٤) بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا(٥) لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٥-٢٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب وأصحابه، حين صدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن المسجد الحرام، وقد كره عليه الصلاة والسلام أن يقاتلهم، وكان محرماً بعمرة، ثم صالحوه على أن يعود في العام المقبل.

نزلت هذه الآية إذن عام الحديبية عام (٥ هـ)، حين صُدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المسجد الحرام؛ لأنه لم يُعلم لهم صدّ قبل ذلك الجمع.

والمعنى: إن هؤلاء الذين كفروا بالله ورسوله، معذبون وهم المشركون في مكة، ويصدون عن سبيل الله صداً دائماً مستمراً، وعن دخول المسلمين إلى المسجد الحرام، الذي جعله الله للناس جميعاً مقراً لصلاتهم وعباداتهم وطوافهم، وأداء شعائرهم ومناسكهم، يستوي في شأن تعظيمه المقيم فيه، والبادي، أي من كان من أهل البادية وغيرهم ممن قدموا إليه.

ومن يرد فيه انحرافاً عن أمر الله، ظالماً غير متأول، عامداً السوء، نذقه يوم القيامة من العذاب المؤلم. قال مجاهد: «﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ أي يعمل فيه عملاً سيئاً»، وعلى هذا تكون الآية عامة، تشمل كل أنواع المعصية، و يختص الحرم بعقوبة من همّ فيه بسيئة، وإن لم يعملها. ويراد بالآية جعل البيت الحرام مفتوحاً لجميع الناس المؤمنين، من غير فرق بين حاضر مقيم وبادٍ: آت من البادية، أو مقيم

(١) مفعول ثان لـ (جعل)، أو حال من الضمير في ((جعلناه)) وهو مصدر بمعنى: مستوٍ. (٢) المقيم فيه.
(٣) الطارئ فيه غير المقيم. (٤) بميل عن الحق إلى الباطل. (٥) بيّنا.

وطارئ. وكلمة «بإلحاد» أي ميل، تشمل جميع المعاصي الصغيرة والكبيرة، من الكفر إلى الصغائر، فتعظيماً لحرمة المكان توعد الله تعالى على نية السيئة فيه، ومن نوى سيئة، ولم يعملها، لم يحاسب بذلك إلا في مكة.

ثم أبان الله تعالى مكانة البيت الحرام عند أهل الإيمان، ووبخ من أشرك فيه بالله تعالى، فاذكر أيها النبي محمد للناس وقت أن جعلنا لإبراهيم مكان البيت، أي أوحينا إليه القيام ببناء له، وعيَّنا له موقع البناء، والبيت: هو الكعبة، وقيل له: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أي ابنه على اسمي وحدي، ولا تشرك بي شيئاً من خلقي، في العبادة والتعظيم، وطهِّر بيتي من الشرك والأوثان والأصنام وجميع الأنجاس والدماء أن تطرح حوله، واجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، وهم الطائفون القائمون بالعبادة، الركّع الساجدون. فالطائف حول الكعبة الشريفة يخص العبادة بالله تعالى، لا يفعل ذلك ببقعة من الأرض سواها، ويذكّره وجود هذا البيت بإخلاص العبادة والتوحيد لله تعالى، والقائم في الصلاة والدعاء إلى الله يدعو ربه وحده، دون أي شيء سواه، والراكع الساجد لله تعالى في عبادة، تخضع هامته ويذل رأسه، ويجمع جميع جسده معبراً عن تمام الانقياد والخضوع لله رب العالمين.

إن مئات الناس وآلاف البشر تراهم حول الكعبة في غاية الخشوع والتضرع والإنابة، باكين نادمين، يطلبون من رب العزة خيري الدنيا والآخرة، والمكان مكان إجابة للدعاء، فتذرف الدموع، وتصفو النفوس، وتخضع لخالق الأرض والسماء، وتتجرد من الأهواء، وتتجه نحو الله لمغفرة الذنوب والتطهر من السيئات. فما أسعد لقاء المؤمن بربه حول البيت الحرام، إنه تمهيد للقاء الله يوم القيامة.

فريضة الحج

الحج إلى البيت الحرام وأداء بقية المناسك: أحد أركان الإسلام، التي فيها الخير للمسلمين، وصلاح الدنيا والآخرة، وهو عبادة قديمة، وقد جعل الله تعالى البيت الحرام -فيما روي- متعبَّداً لآدم عليه السلام، ثم دُرِس بالطوفان وغيره، فلما كان عهد إبراهيم الخليل عليه السلام أمره الله تعالى ببنائه، في موضعه الحالي الذي أمره الله به بواسطة ريح كَشَفَتْ له عن أساس آدم، فرتب قواعده عليه. ثم أمر الله إبراهيم بمناداة الناس إلى أداء الحج لتحقيق منافع لهم، دنيوية وأخروية، كما قال الله تعالى في الآيات الآتية:

﴿وَأَذِّن[1] فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا[2] وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ[3] يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[4] ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ[5] فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ[6] وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٢/٢٧-٢٩].

أخرج ابن جرير الطبري عن مجاهد قال: كانوا لا يركبون، فأنزل الله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ فأمرهم بالزاد، ورخص لهم في الركوب والمتجر.

والمعنى: ناد يا إبراهيم في الناس بالحج، داعياً لهم إلى الحج إلى البيت الحرام، يأتوك راجلين ماشين، وراكبين على كل بعير ضامر مهزول، من كل طريق بعيد. وقوله: ﴿وَأَذِّن﴾ من الأذان والتأذين: وهو الإعلام برفع الصوت، على نحو ما يكون للصلاة. رُوي أن إبراهيم عليه السلام لما أُمر بالأذان بالحج قال: يا رب، وإذا ناديتُ فمن يسمعني؟ قيل له: ناد يا إبراهيم، فعليك النداء، وعلينا البلاغ،

(١) نادِ وأعلم. (٢) أي راجلين ماشين على الأقدام. (٣) بعير مهزول. (٤) طريق بعيد. (٥) الإبل والبقر والغنم والمعز. (٦) التفث: الوسخ، والمراد هنا تقصير الشعر أو حلقه، وقص الظفر، ونتف الإبط.

فصعد على جبل أبي قُبيس ونادى: أيها الناس، إن الله قد أمركم بحج هذا البيت فحجّوا.

وجاء قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ بالتأنيث، عوداً إلى معنى ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾ وفعل غير العقلاء كفعل المؤنث، لكنه يتضمن معنى الجماعات أو الرفاق.

ثم أوضح الله تعالى حكمة الحج بقوله: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أي ادعهم إلى الحج ليحضروا منافع لهم، دينية بالظفر برضوان الله والجنة، ودنيوية بتحقيق منافع البدن والذبائح والتجارات، وتعارف المسلمين، وليذكروا اسم الله، أي يحمدوه ويشكروه، ويثنون عليه بالتكبير والتسبيح، على ما رزقهم من بهيمة الأنعام (وهي الإبل والبقر والغنم) وذلك في أيام معلومات هي أيام النحر الأربعة، أو عشر ذي الحجة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الأيام المعلومات: هي أيام العشر ويوم النحر وأيام التشريق.

واذكر اسم الله على الذبائح، وكلوا من لحومها، وأطعموا البائس الذي أصابه بؤس، أي شدة، والفقير المحتاج، أي يباح الأكل من الذبائح، لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من نسائكهم. واستحب أهل العلم للرجل أن يأكل من هديه أو ضحيته، مع التصدّق بأكثرها. مع تجويزهم الصدقة بالكل، وأكل الكل. والبائس: الذي قد مسّه ضُرّ الفاقة وبؤسها، والمراد في هذه الآية: أهل الحاجة.

ثم أمر الله تعالى بالنظافة وإيفاء النذر والطواف حول الكعبة، فهذه واجبات ثلاثة: هي إزالة الأوساخ العالقة بالأجساد، بقص الأظفار، وحلق الأشعار ونحوه من الأغسال، وإيفاء النذور التي نذروها تقرباً إلى الله تعالى من أعمال البر، والطواف حول البيت الحرام وهو طواف الإفاضة أو طواف الزيارة (الركن) وقيل: طواف الوداع، والبيت العتيق: القديم، فهو أقدم بيت للعبادة، وأول بيت وضع للناس.

والتفث في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ : ما يفعله المحرم عند حِلّه، من تقصير شعره وحلقه، وإزالة شعث ونحوه من خصال الفطرة. روى الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) ومالك في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس من الفطرة: قص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، والاستحداد، والختان».

الغاية من تعظيم حرمات الله

تتجلى في موسم الحج تضحيات عديدة، تتمثل في مفارقة الأهل والأوطان، واجتماع المؤمنين على صعيد واحد، والالتفافِ نحو شعائر واحدة ومناسك موحدة، تتطلب تعظيمها في نطاق مبدأ توحيد الله وقصد التقرب إليه، ورفضِ كل مظاهر وألوان الشرك والوثنية، وذبح الهدايا والقرابين إرضاء لله تعالى، وغرس جذور التقوى في القلوب، وإطعام الفقراء والمحتاجين من الهدايا في موسم التجمع العام، قال الله تعالى مبيناً هذه الأغراض والغايات السامية:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ[1] ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ[2] مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ[3] ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ[4] غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ[5] فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ[6] ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ[7] فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ[8] إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ[9] ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٠-٣٣].

---

(١) شرائعه من مناسك الحج وغيرها . (٢) النجس وهو الأوثان . (٣) قول الباطل والكذب . (٤) مائلين عن الباطل إلى الدين الحق . (٥) تُسْقطه . (٦) موضع بعيد . (٧) الأنعام المهداة للبيت الحرام . (٨) مكان نحرها . (٩) أرض الحرم كله .

بعد أمر الله تعالى إبراهيم الخليل بالنداء للحج والأمر به، أوضح الله ثواب تعظيم أحكام الله ومناسك الحج، وذلك هو المأمور به من الطاعات في أداء مناسك الحج، وتعظيم حرمات الله: وهي كل ما لا يحل هتكه، ومن يعظم أحكام الله بتعلمها واجتناب المعاصي والمحرَّمات، والتزام المأمورات فله الثواب الجزيل، الشامل أمرين: فعل الطاعة في حد ذاتها، واجتناب المحظور الحرام. وتعظيم شرائع الله خير محض للإنسان.

وشرائع الإسلام تتفق مع منهج الاعتدال والعقلانية والواقعية، لذا أباح شرع الله ما كانت العرب تفعله من تحريم أشياء برأيها كالبحيرة والسائبة، فأذهب الله جميع ذلك، وأحل للمسلمين جميع الأنعام من الإبل والبقر والغنم إلا ما استثني وتلي في آية المائدة مما فيه ضرر على الصحة والجسد: وهو الأربعة المعروفة: الميتة بأنواعها والدم ولحم الخنزير، وما أهل، أي ذبح لغير الله. وفي هذه الذبائح التي كانت للأوثان ضرر يمس العقيدة، كما يمس الصحة الإنسانية تماماً، لذا أمر الله باجتناب الرجس، أي القذر من الأصنام، وسميت رجساً تنفيراً منها وتقبيحاً لها، والمراد اجتناب عبادتها وتعظيمها، وأمر الله أيضاً باجتناب قول الزور والابتعاد عنه، والزور: لفظ عام يشمل الكذب والكفر وكل ألوان الباطل، لأن كل ما عدا الحق: فهو كذب وباطل وزور، ومنه شهادة الزور. روى أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «عدلت شهادة الزور: الإشراكَ بالله» قال ذلك ثلاثاً، وتلا هذه الآية.

وبعد اجتناب أنواع الكلام الزور، أمر الله بأن يكون الناس حنفاء لله، أي مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل، مستقيمين أو مائلين إلى الحق: وهو توحيد الله ونبذ الشرك بالله، فإن الشرك جرم عظيم، ومن يشرك مع الله إلهاً آخر، ويعبد

غيره، فقد خسر خسراناً عظيماً، وهلَك هلاكاً مبيناً، وهو في شركه شبيه بمن سقط من جو السماء، فتتخاطفه الطيور، وتقطّعه وتمزقه في الهواء، أو تعصف به الريح في مكان بعيد مهلك، لا خلاص له منه ولا نجاة.

وسبب تعظيم شعائر الله (وهي كل شيء، لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم) أنه دليل على وجود التقوى المهيمنة على القلوب، والانصياع لأوامر الله، واتباع أحكامه وتوجيهاته. ومن هذه الشعائر: ذبح البُدْن أي النوق والجمال، ففي البدن: منافع دنيوية من اللبن والصوف والركوب عليها، وغير ذلك، وفيها منافع أخروية إذا قدمت هدياً مبعوثاً لموسم الحج، فإذا بعثها صاحبها هدياً، فذلك هو الأجل المسمى، أي موعد نحرها، والتصدق بلحومها والأكل منها. ومكان نحرها وانتهاؤه أو محله عند البيت العتيق، أي الكعبة والحرم كله، لأن الحرم كله في حكم البيت الحرام، كما قال الله تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٥].

وسمي البيت الحرام بالبيت العتيق لأنه قديم، إذ هو أول بيت وضع للناس، كما تقدم، إلا أن الزبير قال: سمي عتيقاً؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة بمنعه إياه منهم، أو لأنه لم يُملك موضعه قط، فتحرر من الملكية الخاصة.

أماكن النسك لكل أمة

التقرب إلى الله تعالى بالذبائح والقرابين مشروع في كل أمة، وطريق لتخلص الإنسان من هواجس الذنوب والمعاصي وتعكيرها النفس والوجدان، فإذا أريق دم الذبيحة أحس المرء بالراحة النفسية، واطمأن إلى ذاته، وكأن هناك ارتباطاً بين القلق النفسي وبين إراقه دماء الذبائح، لذا كانت شريعة القرآن الكريم كغيرها من الشرائع محددة لمواضع النُسك والعبادة وذبح القرابين، كما جاء في الآيات الآتية:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا[١] لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ[٢] ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ[٣] قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٤-٣٥].

المعنى: جعلنا لأهل كل دين سابق منسكاً، أي موضع نسك وعبادة، يذبحون فيه الأنعام، تقرباً إلى الله تعالى، وذلك ليس خاصاً بأمة محمد ﷺ ، وإنما هو في كل الملل.

وقد شرع الله وحدد أماكن الذبح: ذبح الأنعام، لكي يذكروا اسم الله حين ذبحها، أي حين الشروع في الذبح أمرناهم بذكر الله، وأن يكون الذبح له، لأنه هو الرزاق، ويشكروا الله على نعمه التي أنعم بها عليهم، وتلك هي السنة في إراقة دم الذبائح.

وينبغي أن يتجه الذابح إلى الله الذي سخر للإنسان هذه المواشي، والله المقصود هو المعبود الواحد، وإن تنوعت الشرائع، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهذه هي العلة في تخصيص الذبح باسم الله، وإفراده بالذكر، لأن تفرد الله بالألوهية يقتضي ألا يذكر على الذبائح غير اسمه تعالى. ومتى كان الإله واحداً، فله أسلموا، أي استسلموا وانقادوا لأمره وجميع أحكامه، وبشر أيها النبي بشارة على الإطلاق المخبتين، أي المتواضعين الخاشعين من المؤمنين برضوان الله، إذا اتصفوا بالصفات الأربع الآتية:

أولاً- ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي إن الخوف والخشوع يهيمن على قلوبهم ومشاعرهم عند ذكر الله، لما يتصف به من العظمة والجلال.

---

(١) مكاناً للنُسُك والعبادة وذبح القرابين . (٢) المتواضعين لله تعالى . (٣) خافت هيبةً .

ثانياً- ﴿وَالصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي إن المخبتين الخاشعين هم الذين يصبرون على أحداث الدنيا ونوازلها، وعلى ما قد يجدونه من المشاق في طاعة الله.

ثالثاً- ﴿وَالْمُقِيمِى الصَّلَوٰةِ﴾ أي هم الذين يؤدون الصلاة في أوقاتها تامة الأركان والشروط، بخشوع قلب لله تعالى، وإخلاص وشعور بالغبطة في أداء الصلوات المفروضة وغيرها.

رابعاً- ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي إنهم الذين ينفقون من بعض ما آتاهم الله من طيب الرزق، على الأهل والقرابة وأهل الحاجة، مع إحسان في القول، ومحافظة على حدود الله وشرائعه.

هذه الصفات الأربع للمخبتين الخاشعين مثال شريف من خلق المؤمن الهيِّن اللّيِّن، إنهم المطمئنون بأمر الله تعالى، المتصفون بالخوف والوجل عند ذكر الله سبحانه، لقوة يقينهم ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه. ولهم صفات عظيمة دينية وخلقية واجتماعية، فهم الذين يقيمون الصلاة، ويداومون على إقامتها، ويصبرون على المحن والضراء، ويمنحون غيرهم من الفقراء والمحتاجين بعض أموالهم التي رزقهم الله بها. إن هذه الصفات والمعاني هي صفات أهل الإيمان بحق، وقد ترددت في آي القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢]. ومثل قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٣].

ما يطلب عند ذبح الإبل

إن تسخير الأنعام من إبل وبقر وغنم للإنسان وتمكنه من الانتفاع بها من أعظم النعم على البشر، لذا يطلب تعظيم الله حين ذبحها والتسمية عليها، والأكل منها، سواء الذابح والمسكين والمحتاج، وإن الله لا ينتفع من أعمال العباد بشيء، ولكن النفع يعود على الإنسان ذاته، فما يقدّمه من قرابين وهدايا للحرم المكي أو أضاحي أو نذور، فإنما يقصد به تربية الإنسان، وغرس جذور التقوى في نفسه، وأداء واجبه وشكر نعمة الله عليه، وتكبيره على هداية الله إياه، وإحسانه القول والعمل، قال الله تعالى مبيناً ما يطلب حال ذبح الإبل:

﴿وَٱلْبُدْنَ[1] جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ[2] لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ[3] ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا[4] فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ[5] ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٢٢/٣٦-٣٧].

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية يضمخون البيت الحرام بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب النبي ﷺ: فنحن أحق أن نضمخ، فأنزل الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا..﴾ الآية.

يمتن الله تعالى على عباده أن يسّر لهم الإبل يتقربون بها بالإهداء إلى البيت الحرام، فيذكر سبحانه أننا جعلنا لكم الإبل ومثلها البقر من علائم دين الله وأدلة طاعته، والبدن جمع بَدَنة: وهي ما أُشعر من ناقة أو بقرة، ففي ذبحها في الحرم ثواب كبير في

---

(١) البدن : الإبل . (٢) أعلام شريعته في الحج . (٣) أي قائمة معقولة . (٤) سقطت مقتولة على جنوبها .
(٥) الذي لا يسأل ، والمتعرض للسؤال .

الآخرة، ونفع عظيم بلحومها للفقراء في الدنيا وبالركوب عليها، وأخذ لبنها. فقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ الصواب عمومه في خير الدنيا والآخرة.

فلتذكروا اسم الله عليها، حال نحرها، وكونها صافات أطرافها، قائمات معقولة، بأن تقولوا: بسم الله، والله أكبر، اللهم منك وإليك.

فإذا وجبت جنوبها، أي سقطت على الأرض مقتولة ميتة، فيباح لكم الأكل منها، وعليكم الإطعام منها للفقراء، سواء المتعفف عن السؤال وهو القانع، والمتعرض للسؤال بالسؤال أو السكوت وهو المعتر. من أجل هذا المذكور من الخير في ذبح الأنعام والأكل منها وإطعام الفقراء، ذللناها لكم مع عظمتها وقوتها، وجعلناها منقادة لكم، خاضعة لرغباتكم ومشيئتكم بالركوب والحلب والذبح، لكي تشكروا الله على نعمه، بالتقرب إليه، والإخلاص في العمل. فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي من أجل توجيه الشكر والحمد منكم لربكم على نعمه وأفضاله، فهي بمعنى «كي».

والغاية من ذبح الأنعام ليس إيصال لحومها ودمائها إلى الله، فلله الدنيا والآخرة، والله غني عن العالمين، وإنما الغاية تحقيق التقوى والإخلاص، وأداء الأعمال الصالحة، وهذا الغرض التهذيبي يعود نفعه في مدى الحياة على الإنسان ذاته، فبصلاحه يصلح له قلبه وصحته، وجسده وسائر حواسه.

ثم كرر الله تعالى التذكير بالنعمة وتذليلِ الأنعام للناس، لأن في إعادة التذكير حثاً وحضاً على القيام بواجب شكر المنعم، والثناء على الله بما هو أهله، فمن أجل تلك الغاية المذكورة من ذبح الأنعام وهي غرس التقوى في القلوب ذلَّل الله البُدْن (الإبل) ليعظم الناس الله، ويشكروه على ما أرشدهم إليه، من الدين الحق والشرع القويم، وكل ما يحبه ويرضاه، والإبعاد عما يكره، واجتناب ما يضر، ثم وعد الله تعالى

المهديين الراشدين بالبشارة الكريمة بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي وبشر أيها النبي بالجنة والرضوان أهل الإحسان في العمل، القائمين بحدود الله، المتبعين ما شرع الله، الطائعين أوامر الله، المصدقين رسول الله فيما بلّغهم، وحذرهم وأنذرهم، وكل ما جاءهم به من عند الله عز وجل.

رُوي أن قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والآية التي قبلها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ (٣٤) نزلت في الخلفاء الراشدين الأربعة رضي الله تعالى عنهم، لكن ظاهر اللفظة يقتضي العموم في كل محسن، متواضع خاشع لله رب العالمين.

الإذن بالقتال ضد الأعداء

إن المنهج الرباني في علاج الأمور الشاذة والانحرافات الخطيرة قائم على غاية الحكمة والاعتدال، والتأني والإمهال، فلم يعجل الله البدء بقتال المشركين أنصار الوثنية والضلال، وإنما صبر عليهم مدى خمسة عشر عاماً، ليكون للعقل والفكر وإعمال الرأي والقناعة الدور المهم في القضايا، ولتبدأ الأمة الإسلامية قوية ناشطة، معذورة في كل ما تؤديه من واجبات، لأن لغة السيف وقعقعة السلاح إنما تكون حين استفحال العدوان، واليأس من الصلاح والاستقامة، وهذا المنهج هو الذي نجده في ساحة التشريع الإلهي بالإذن بمشروعية القتال، بعد طول الصبر والمصابرة، والدفع بالحكمة والحسنى، فقال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ[1] كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ

(١) خائن للأمانة.

إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ(١) وَبِيَعٌ(٢) وَصَلَوَٰتٌ(٣) وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٢٢/٣٨-٤١].

نزلت آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾ بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة، وآذاهم الكفار، وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة، وأراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار، ويغتال ويغدر ويحتال، فنزلت هذه الآية.

ونزلت آية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ كما روى أحمد والترمذي وغيرهما عن ابن عباس قال: خرج النبي ﷺ من مكة، فقال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إن لله وإنا إليه راجعون! ليهلكُن، فأنزل الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

والمعنى: إن الله يدفع الشر عن عباده المصدقين بوجوده ووحدانيته، وبما أنزل على رسوله الكريم، الذين توكلوا عليه حق التوكل، وإن الله سبحانه يسخط على خائن العهد والأمانة، وجاحد النعمة والفضل. وكلمة «يدافع» في مواجهة من يتعرض للمؤمنين بالأذى، فيكون فعل الله مدافعة عنهم. وقيل: إن «دفاع»: مصدر دفع، والحساب: مصدر حسب.

وقد أبيح أو رُخص للمؤمنين المعتدى عليهم بممارسة القتال، ضد ظلم المشركين إياهم، بإخراجهم من ديارهم وأموالهم، واستمرار إيذائهم، واضطهادهم، ومبادرتهم بكل أنواع التعذيب والمضايقة، وإن الله وحده قادر على نصر أهل الإيمان، إذا التزموا سبيل الطاعة.

(١) معابد الرهبان . (٢) كنائس النصارى . (٣) معابد اليهود .

إن هؤلاء المؤمنين بالله ورسوله المعتدى عليهم: هم الذين أخرجهم المشركون من مكة إلى المدينة بغير حق، وهم محمد ﷺ وأصحابه، ولم يكن منهم إساءة إلى قومهم، ولا ذنب إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له، فيكون أول أسباب مشروعية الجهاد أو القتال في الإسلام: هو الطرد من الأوطان بغير حق، ثم الدفاع عن حرية العبادة في الأرض، وحماية المقدسات.

ثم ذكر الله تعالى السُّنة الثابتة للإله: وهي سنة التدافع، من أجل الحفاظ على مبدأ التوازن بين البشر، فلولا أنه تعالى يدفع بقوم عن قوم، ويكف شرور جماعة بآخرين، ولولا تشريع القتال دفاعاً عن الوجود المؤمن والحرمات الإلهية، لهدّمت مواطن العبادة، سواء أكانت معابد لليهود أم النصارى أم للمسلمين.

ثم أكد الله تعالى صنعه أنه ليؤيدن بنصره الذين يقاتلون في سبيل إعلاء كلمة التوحيد، ورفع لواء الدين الحق، إن الله سبحانه هو القوي القادر على نصر أهل طاعته، المجاهدين في سبيله، العزيز المنيع الذي لا يقهر، ولا يغالب، فمن غالبه غلبه، ومن عاداه خذله وقهره.

والجديرون بالنصر: هم الذين إن مكنّهم الله في الأرض، وحقق لهم السلطة على الناس، ومنحهم النفوذ والهيمنة، قاموا بأمور أربعة: وهي إقامة الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل، وإيتاء الزكاة الواجبة، والأمر بالمعروف (وهو فعل كل ما أمر به الله شرعاً، وحسن عقلاً) والنهي عن المنكر (وهو اجتناب كل ما حُظر شرعاً، وقبح عقلاً) فدعوا إلى توحيد الله وإطاعته، ونهوا عن الشرك وقاوموا أهله، والمرجع في الأمور كلها إلى حكم الله العلي القدير، وإلى تقديره في منح الثواب، وتنفيذ العقاب على ما عملوا، وفي هذا تأكيد لوعد الله تعالى بنصر أوليائه، وإعلاء كلمته، وخذلان أعدائه.

الاتعاظ بإهلاك الأقوام الغابرين

إن معرفة أحداث التاريخ وتحليل الوقائع والأسباب له فائدة كبرى في علاج أمراض الشعوب والأمم، فالعقلاء: هم الذين يتأملون بما حدث، ويفكّرون بما وقع، ويدرسون الأسباب والنتائج دراسة متأنية قائمة على البحث والتمحيص، للحذر مما وقع، ولرسم سياسة المستقبل، في ضوء مجريات الأمور. وهذا ما جعل القرآن الكريم يُعنى بقصص الأقدمين، ليَعرِف من يأتي بعدهم سبب الداء والدواء، وطريق الحذر واليقظة، ومن هذه المذكّرات للمشركين المكيين وأمثالهم: ما حدَّثنا به القرآن من أحوال الغابرين، فقال الله تعالى:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ(١) وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ(٢) لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ(٣) ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ(٤) أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا(٥) وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ(٦) وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ(٧) ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ(٨) لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٢-٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ : هذه آية إيناس للنبي ﷺ ووعيدٌ لقريش، فهم كالأمم المكذِّبة المعذَّبة. والمعنى: إن يكذبك أيها النبي قوم قريش، فهذا له سابقة

---

(١) قوم شعيب عليه السلام . (٢) أمليت: أمهلت وأخرت عنهم العقوبة، ويكون الإمهال بنية المعاقبة مع العلم بالفعل . (٣) إنكاري عليهم بالعقوبة . (٤) فكثير من القرى . (٥) ساقطة حيطانها على سقوفها . (٦) متروكة . (٧) مرفوع البنيان . (٨) أمهلتها .

تاريخية، لقد كذبت قبلهم أقوام نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقوم إبراهيم ولوط، وأصحاب مدين قوم شعيب، وجماعة الأقباط الذين أرسل إليهم موسى، بما معه من الآيات البينة والدلائل الواضحة، فأخرت العذاب عن أولئك الكافرين، إلى وقت معلوم عندي (عند الله) ثم أخذتهم بالعذاب الشديد وأهلكتهم، فانظر كيف كان إنكاري عليهم، بتدميرهم وعقابي لهم، وقوله سبحانه ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ بإسناد فعل بعلامة التأنيث، لأنه سبحانه أراد بالقوم: الأمة والقبيلة. والعبرة من الإخبار بهذا: الإنذار لقريش بأن ما جرى على المثيل يجري على مثيله.

وأسباب الإهلاك: هو ما أخبر به الله سبحانه، فكم من قرية أهلكها الله، وهي ظالمة، أي مكذبة رسلها، والمراد أهل القرية، والظالمة: معناه: الظلم بالكفر، وبالإهلاك تصبح ديار القرية ساقطة حيطانها على سقوفها، وتتعطل مرافقها وآبار مياهها المنتفع بها، وتتهدم قصورها المشيدة، أي المبنية بالشِّيد: وهو الجصّ.

ثم أثار الله في القرشيين نوازع الفكر والتأمل، وحثهم على النظر والتفكر، فهلا سافروا وتنقلوا في البلاد، فيتأملوا بما حدث من مصارع القوم، ويفكروا بعقولهم في الأسباب والنتائج، ويسمعوا الأخبار بآذانهم، ليطّلعوا على الحقائق، ويدركوا الأسرار، فيتعظوا بما شاهدوا، ويقلعوا عما هم فيه من الشرك وتكذيب الرسول، ولكنهم مع الأسف لم يفكروا، ولم يعتبروا ولم ينظروا، لا بسبب عمى البصر، ولكن بسبب عمى البصيرة، فإن أبصارهم سليمة، ولكنهم عطلوا قدراتهم الفكرية وعقولهم الواعية، فلم يدركوا حقائق الأمور، ولم يتعمقوا في فهم الأحداث. ذكر الرازي في تفسيره: أن الآية تدل على أن العقل هو العلم، وأن محل العلم هو القلب، أي أداة الوعي.

ويتعجل القرشيون إيقاع العذاب الذي تنذرهم به أيها الرسول، فليطمئنوا فإن

العذاب آتٍ لا محالة، وإن الله لا يخلف وعده الذي أوعدهم به، وهو مجيء القيامة، والانتقام من أعدائه.

وحلم الله واسع، فهو حليم لا يعجَل، ومن حلمه: أن يوماً واحداً عند الله كألف سنة مما تعدون، أي إن يوماً من أيام العذاب الأخروي بمثابة ألف يوم من أيام الدنيا، لشدة عذابه وطول مقامه، فأين هم من عذاب ربك؟! وكثيراً من القرى، أي أهلها أمهلها الله، وأخر عنها العذاب والهلاك، مع أنها قائمة على الظلم، مستمرة على الكفر والعصيان، فاغتروا بذلك التأخير، ثم أخذها الله فأنزل العذاب بأهلها، ثم كان المرجع النهائي إلى الله، فيكون تأخير العذاب من قبيل الإمهال لا الإهمال.

تعيين مهمة الرسول ﷺ

إن مجيء الرسل للأمم والشعوب رحمة وفضل، وإن إيضاح مهامهم أمر طبيعي، ليدرك الناس السر والمنفعة العائدة عليهم من بعثة الرسل وبعثة نبينا عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين، بعثه ربه إلى الخلائق للإنذار والتخويف، والتبشير والترغيب، فاستهزاء قومه به لا يمنعه من أداء مهمته، ولا من القيام بواجبه، فهو رحمة للعالمين، وبشرى للمحسنين، وإنقاذ للعتاة الظالمين، فمن وعى الكلام واعتبر نجا، ومن أقفل عقله ولم يتعظ هلك وضل، قال الله تعالى مبيناً ومحدداً مهمة النبي محمد ﷺ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ[1] أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج: ٢٢/٤٩-٥١].

(١) متوهمين أن يُعْجِزونا بالهرب .

إن استعجل القرشيون المكيون عذاب الله، فقل لهم يا محمد: إنما أنا لكم نذير من عذاب الله، أي مجرد منذر ومحذر واضح المقصد، ليس لي أن أعجل عذاباً، ولا أن أؤخّره عن وقته، أرسلني الله إليكم لأحذركم من الوقوع في العذاب الشديد، وليس إلي من حسابكم شيء، بل أمركم إلى الله: إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخّره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وهو سبحانه الفعال لما يريد و يختار، ومهمتي كما تتضمن الإنذار والتخويف، تتضمن التبشير بالجنة والترغيب، لفتح باب الأمل أمام المقصرين، وتدارك أخطاء الماضي، وعلاج الأحداث. فالناس صنفان: صنف المؤمنين، وصنف الكافرين.

أما الصنف الأول: فهم الذين صدقت قلوبهم بوجود الله وتوحيده، وصدقوا الرسول وما أُنزل عليه من الكتاب، وآمنوا بالملائكة واليوم الآخر، وقرنوا بإيمانهم أعمالهم الصالحة من أداء الفرائض، والتقرب بالقربات، وإحسان القول والفعل، وهؤلاء يغفر الله لهم سيئاتهم، ويثيبهم على عملهم الصالح، ويرزقهم رزقاً حسناً في الدنيا، ورزقاً كريماً في الآخرة وهو الجنة التي وصفها تعالى بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٧١] وأيد ذلك وصف الرسول ﷺ لها بما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

ووصف الرزق بالكريم: «رزقٌ كريم» لنفي المذام، كما تقول: ثوب كريم، ومنزل كريم.

وأما الصنف الثاني: فهم الذين كفروا بربهم وبآياته المنزلة في قرآنه، وكانوا معاجزين، مجاهدين في إبطال آيات الله، وردِّ دعوة الدين والتكذيب بها، وثبّطوا

الناس عن متابعة النبي ﷺ ، ظناً منهم أنهم يعجزون ربهم، ويتفلتون من أمره، وأن ربهم لا يقدر عليهم، وهم في الواقع أهل النار الشديدة الإحراق، الكريهة العذاب والنكال، المقيمون فيها على الدوام، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ معناه: تحيلوا وكادوا، من السعاية. والآيات: آيات القرآن الكريم، أي كادوا بالتكذيب وسائر أقوالهم. والمعاجزين: الظانين أنهم يغلبون الله تعالى. وقوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: أي هم الكفرة لا غيرهم أهل النار، وشبّههم بالصاحب المالك: من حيث الدوام على العذاب في نيران الجحيم.

إن هذه الموازنة الدقيقة بين الصنفين في دار الدنيا قبل مجيء الآخرة تقتضي من العقلاء الحريصين على مصالحهم ونجاتهم أن يفكروا ملياً في الأمر، قبل صدمة المفاجآت، وانقسام الناس قسمين: أبرار أخيار في الجنان، وفجار فساق كفار في النيران.

صيانة الوحي عن الشياطين
قصة الغرانيق

لا يمكن أن يقبل عقل أو يصدق إنسان، بتدخل الشياطين في الوحي الإلهي، لأن الله القادر على كل شيء يمحق كل إفك، ويحجب كل افتراء، ولو جاز شيء من هذا، لارتفع الأمان عن شرع الله، وبطلت الأحكام والشرائع، إذ لا فرق في العقل بين نقصان الوحي أو زيادته، أو تشويه معالمه، وهذا يبطل ما يسمى بقصة الغرانيق أي الأصنام، التي زعم الوثنيون أن النبي محمداً أشاد بها في القرآن فقال: (تلك

الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى). وهذه آيات كريمة تميط اللثام عن إفك هذه القصة المكذوبة المفتراة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ(١) أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ(٢) فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ(٣) فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ(٤) لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٢-٥٤].

إن قصة الغرانيق (الأصنام) موضوعة مكذوبة، وضعها الزنادقة، وهذه الآيات تبطل إفك الأفاكين، ومعناها: وما أرسلنا يا محمد قبلك رسولاً ولا نبياً إلا إذا تمنى، أي قرأ، ومعناها المشهور: أراد وأحب، فإذا رغب الرسول مقاربة قومه واتباعهم له، وجد الشيطان السبيل، فألقى في أوهام المشركين أن محمداً قال في سورة النجم في مسجد مكة بعد آية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ١٩-٢٠]. قال: «تلك الغرانقة العلى، وإن شفاعتهن لترتجى» فقال الكفار: هذا محمد يذكر آلهتنا بما نريد، وفرحوا بذلك، فلما انتهى في آخر النجم إلى السجدة، سجد الناس أجمعون إلا أمية بن خلف، فإنه أخذ قبضة من تراب، فرفعها إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا، إن ما وسوس به الشيطان من مثل هذه الأباطيل والكلمات والخرافات التي تعلّق بها بعض الكفار، يزيله الله، ثم يجعل آياته محكمة محصنة، مثبّتة، لا تقبل التشويه والتزييف، أو الزيادة والنقصان، والله عليم بكل شيء، وبما أوحى إلى نبيه، حكيم في تقديره وخلقه، وأمره وأفعاله، له الحكمة التامة، والحجة البالغة، فيجازي المفتري بافترائه، ويظهر الحق للمؤمنين.

---

(١) قرأ. (٢) ألقى الشُّبه. (٣) فيما يقرؤه. (٤) فتطمئن وتخشع.

ليجعل الله ما يوسوس به الشيطان فتنة، أي ابتلاء واختباراً للمنافقين الذين في قلوبهم شك وشرك ونفاق، وللمشركين واليهود المعاندين وقساة القلوب، حين فرحوا بوساوس الشيطان، وظنوا أنه صحيح، وهو محض وسواس الشيطان. وقوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ﴾ اللام متعلقة بقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ والفتنة: الامتحان والاختبار. و﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم عامة الكفار، و﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فئة خاصة كأبي جهل، والنضر بن الحارث، وعتبة، وإن هؤلاء الظالمين أنفسهم لفي شقاق بعيد، أي في بُعد عن الخير، وضلال، و«بعيد» معناه أنه انتهى بهم إلى نهاية الانحراف، وتعمّق الضلال فيهم، فأصبحت رجعتهم منه إلى الحق غير مرجوة.

وهذا الإبطال لوساوس الشيطان، لكي يعلم أهل العلم النافع الذين يفرقون بين الحق والباطل، والمؤمنون بالله ورسوله وهم أصحاب النبي محمد ﷺ: أن ما أوحيناه إليك أيها النبي هو الحق الثابت الصحيح من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه، وصانه من اختلاط غيره به، فيصدقوا بالله تعالى، وينقادوا له، فتخبت له قلوبهم، أي تتطامن وتخضع وتخشع له نفوسهم، وتعمل بأحكامه وشرائعه وآدابه.

وإن الله تعالى لمرشد المؤمنين بالله ورسوله إلى طريق قويم، في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، بتأويل المتشابه تأويلاً سليماً، وتفصيل المجمل تفصيلاً واضحاً. ثم في الآخرة يهديهم ربهم إلى الطريق القويم الموصل إلى جنان الخلد، ونعيم المصير.

قال القاضي عياض في كتاب الشفاء: لقد أجمعت الأمة على أن النبي ﷺ، فيما يبلغه عن ربه، معصوم من الإخبار عن شيء، بخلاف ما هو عليه، لا قصداً ولا عمداً، ولا سهواً ولا غلطاً.

شك الكفار في القرآن

ما دام الكفر وسوء الاعتقاد في القلب، يظل الشك في أصول الإيمان وتنزيل القرآن قائماً في نفوس الكفرة، ومن الصعب اقتلاع الشكوك من نفوس أناس أدمنوا على الضلال، واستمروا في العصيان، فإن ذلك يوجد ما يسمى «الران» أو الغطاء على القلب، فيحجب عنه كل أشعة الخير، وأضواء الهداية الربانية، وهكذا يظل الظلام الدامس جاثماً في المكان حتى يبدده ضوء النهار، فإذا أحكم الإنسان إغلاق المنافذ، وحرص على إبقاء التعتيم، أمكنه ذلك، وهذا هو الفعل ذاته الذي يفعله الكافر الجاحد في قلبه، يُحكم إغلاقه، ولا يدع شيئاً مضيئاً ينفذ إليه، وهذه هي حال عتاة الكفار من أهل مكة وأمثالهم، كما تصوِّر هذه الآيات:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ(١) حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً(٢) أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ(٣) ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٥-٥٧].

تقرر الآيات حكماً دائماً مستمراً: وهو أنه ما يزال الكفار في شك وريبة من هذا القرآن أو من محمد ﷺ، أو مما ألقى الشيطان من وساوس وترهات، حتى تأتيهم الساعة، أي يوم القيامة فجأة من غير أن يشعروا، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، أي يوم متفرد بالشدة، وهو في الدنيا يوم بدر في الآخرة يوم القيامة، وسمي يوم القيامة أو يوم الاستئصال والقتل عقيماً، لأنه لا ليلة بعده ولا يوم. وجملة هذه الآية توعد لأهل الكفر، فهم ما يزالون على كفرهم لا يؤمنون، حتى يهلكوا.

---

(١) مرية أي شك بالقرآن . (٢) أي تأتيهم القيامة فجأة . (٣) أي منفرد عن سائر الأيام لشدته .

ويظل المُلك، أي السلطان والتصرف لله الواحد القهار، يوم القيامة يوم الجزاء والثواب والعقاب، حيث لا ملك فيه لأحد، يقضي الله بين الناس بالحق، وهو الحكم العدل جل شأنه، كما قال الله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ١/ ٤]. وقال سبحانه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ۝٢٦﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٦].

وتصدر أحكام الله قاطعة يوم القيامة، في حق الفريقين من الناس:

- فالذين آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله والقرآن، وعملوا صالح الأعمال من تنفيذ الأوامر، واجتناب النواهي، هم في جنات النعيم المقيم، الذي لا يزول ولا يتغير، وهذه هي حالهم القائمة، المبنية على حالهم في الدنيا من الإيمان الصحيح والعمل الصالح.

- والذين كفرت قلوبهم بالحق وجحدته، وكذبوا بالقرآن وبالرسول، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم، فلهم عند ربهم عذاب مذلّ مُخزٍ، مقابل استكبارهم عن اتباعهم الحق، وإعراضهم عن القرآن المجيد، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠]. أي صاغرين ذليلين، وهذه الحال أيضاً: متفرعة عن حال هؤلاء في الدنيا من الكفر الصريح، والضلال، والانحراف عن هدي الله وشرائعه وأحكامه.

لا يملك الإنسان أمام هذا اللون من المقارنة بين مصير المؤمنين الصادقين، والجاحدين المتمردين، إلا أن ينصاع لصفّ الفريق الأول-فريق أهل الإيمان، وتمتلئ نفسه رهبة وخشية وخوفاً، من سوء الفريق الثاني-فريق الكفر والضلال، وتزداد الرهبة حين يسمع ويرى عظمة القاضي الأوحد، والإله الأعدل، حيث يظهر إفلاس

الكافرين، وتنهار آمال الظالمين، ويبدأ تنفيذ الأحكام القطعية الصادرة عن الحق سبحانه وتعالى، فلا يجد الإنسان ملاذاً ولا ملجأ، ولا نصيراً سوى الله جل جلاله.

ثواب المهاجرين

لقد قام دين الله وانتشرت دعوة محمد بن عبد الله في الآفاق بفضل جهاد النبي ﷺ، وبفضل تضحيات أصحابه وأتباعه وأنصاره، فهم الذين سطروا لأنفسهم بحروف من نور صفحات الخلود، وتركوا الأوطان، وهجروا السوء والضلال، من أجل إرضاء الله تعالى والعمل المخلص لله عز وجل، ومن هنا سجل القرآن المجيد موقف الفخار والاعتزاز للمهاجرين الأولين من مكة إلى المدينة، لنصرة رسول الله وتأييد دعوته، وجهاد أعدائه، ودفع شر المعتدين، قال الله تعالى مبيناً مدى إحسانه وفضله على الذين هاجروا في سبيل الله:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ[(١)] وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ[(٢)] لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/٥٨-٦٠].

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري عن مقاتل أن آية: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ..﴾ نزلت في سرية بعثها النبي ﷺ، فلقوا المشركين لليلتين من المحرَّم، فقال المشركون بعضهم لبعض: قاتلوا أصحاب محمد، فإنهم يحرِّمون القتال في الشهر الحرام، فناشدهم الصحابة، وذكّروهم بالله: أن لا يتعرضوا لقتالهم، فإنهم لا

(١) الجنة . (٢) ظلم بإعادة العقاب .

يستحلون القتال في الشهر الحرام، فأبى المشركون ذلك، وقاتلوهم، وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، ونُصروا عليهم، فنزلت هذه الآية.

هذا وعد كريم من الله تعالى للمهاجرين المجاهدين. فلما مات بالمدينة عثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد، قال بعض الناس: مَنْ قُتل من المهاجرين، أفضل ممن مات حتف أنفه، فنزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ مسوِّية بينهم في أن الله تبارك وتعالى يرزق جميعهم رزقاً حسناً، وليس هذا بقاض بتساويهم في الفضل.

وظاهر الشريعة: أن المقتول في الجهاد أفضل. والجنة درجات. ويستوي جميع المهاجرين في الرزق الحسن وهو الجنة، فالذين خرجوا مهاجرين في سبيل الله وتركوا أوطانهم ابتغاء مرضاة الله، ثم قتلوا في الجهاد، أو ماتوا قضاء وقدراً من غير قتال، ليمنحنهم الله الجنة، وليرزقنهم رزقاً حسناً، من فضله وكرمه، إن الله هو خير الرازقين، يرزق من يشاء بغير حساب، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٤/١٠٠].

إن هذا الرزق الحسن: هو إدخال هؤلاء المهاجرين المجاهدين في سبيل الله موضعاً كريماً، يرضون عنه، وهو الجنة، أو رزق الشهداء عند ربهم في البرزخ، وإن الله لعليم تام العلم بمن هاجر وجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك، فهو عليم بحسن النيات والمقاصد، وحليم يحلم ويصفح عمن هاجر إلى الله وتوكل عليه.

ذلك الأمر المخبر به من إنجاز الوعد للمهاجرين الذين قتلوا أو ماتوا: هو لأنهم ضحوا في سبيل الله، وقاوموا أهل الظلم، فمن عاقب من المؤمنين من ظَلَمه من الكفرة، أو من اعتُدِي عليه، وقوتل ظلماً، ومن بُغي عليه بإلجائه إلى الهجرة ومفارقة الوطن، لينصرنه الله نصراً مؤزراً، إن الله ليصفح عن المؤمنين، ويغفر لهم خطأهم

إذا تركوا ما هو الأولى بهم، وهو العفو عن المسيء، وفيه حض على العفو عن الجاني، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٣]. وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠] وقال عز وجل: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧].

وفي هذا دلالة واضحة على أن القادر على العفو، قادر على العقوبة، فليس العفو عن ضعف وعجز، وإنما العافي هو الذي يقدر على ضده.

من أدلة القدرة الإلهية

يقرن الله تعالى عادة إنجاز وعده بالنصر لأوليائه أو بعثه العباد بعد الموت، بأنه صاحب القدرة المطلقة التي لا حدود لها، ويضرب الأمثال على ذلك، ويقيم الأدلة الحسية المشاهدة في الكون على قدرته سبحانه من السمع والبصر، وإيلاج الليل في النهار وعلى العكس، وأنه الحق الثابت، وإنزالِه المطر من السماء، وملكِه جميع ما في السماوات والأرض، وتسخيرِ ما في الأرض والسفن للناس، وإمساك السماء من وقوعها على الأرض، وإحياء الأنفس، وإماتتها، ولكن الإنسان قصير النظر، جاحد النعمة، لا يقدّر عادة نعم الله عليه، قال الله تعالى موضحاً هذه الأدلة القاطعة على قدرته:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ[1] ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ

---

(١) يدخل.

ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٦١-٦٦].

يورد الله تعالى في هذه الآيات طائفة من البراهين والأدلة على قدرته الفائقة، وعلمه الشامل، ومن اتصف بهذه القدرة العظيمة، كان قادراً على نصر أوليائه، ومنها ما لا يُدَّعى لغير الله تعالى، وهذه الأدلة:

١- تقصير الليل وزيادة النهار وعكسها، وعبر عن ذلك بكلمة إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، تشبيهاً وتجوزاً، وذلك بسبب أن الله سميع لكل قول وهمسة، بصيرٌ بكل فعل وحال، لا يخفى عليه شيء مطلقاً، وأن الله هو الحق، أي الموجود الثابت الواجب الوجود لذاته، من غير مثيل ولا شريك، أي أنه مصدر الوجود، وأنه المعبود بحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولأن الله هو المتعالي على كل شيء، بقدرته وعظمته، الكبير عن أن يكون له شريك، فهو العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا شيء أعلى منه شأناً، الكبير الذي لا أكبر منه. فكيف يصح لعبدة الأصنام والأشخاص عبادة من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً؟!

٢- إنزال المطر من السماء فتصير به الأرض ذات خضرة بالنباتات والأزهار ذات الألوان البديعة، والأشكال الرائعة، بعد يبسها وجمودها، إن الله رحيم لطيف بعباده، يدبّر لهم أمر المعاش والمعاد، خبير بمصالح خلقه ومنافعهم وأحوالهم، لا تخفى عليه خافية.

٣- ملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، فجميع ما في السموات وما

في الأرض لله سبحانه خلقاً وملكاً وعبيداً، فكل شيء مملوك له، خاضع لأمره، وهو غني عما سواه، محمود على كل حال.

٤- تسخير ما في الأرض والفلك وإمساك السماء: فإن الله سبحانه ذلّل لكم أيها الناس جميع ما اشتملت عليه الأرض في ظاهرها وباطنها، من حيوان وجمادات ومعادن وزروع وثمار، لتنتفعوا بها في مصالحكم المختلفة، وذلّل لكم السفن جارية في البحار، لنقل الركاب والبضائع والأشياء بإذن الله، ويحفظ السموات من سقوطها على الأرض إلا بإذنه وأمره، ويحدث ذلك يوم القيامة حيث تتساقط الكواكب والنجوم، وتتصدع السموات وتزول، إن الله تعالى رؤوف رحيم بالناس على ظلمهم، لا يعاملهم بما يعملون.

٥- الإحياء والإماتة في ثلاث مراتب منصوص عليها في غير هذه الآية، فكنتم أيها الناس أمواتاً، ثم أحياكم بالولادة، ثم يميتكم عند انتهاء الأجل، ثم يحييكم يوم القيامة. وقد عبر الله في هذه الآية أولاً بلفظ الماضي ﴿أَحْيَاكُمْ﴾ لأن الإحياء قد تم وحدث، ثم عبّر بلفظ المضارع ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للدلالة على المستقبل وهو الموت في الدنيا، ثم البعث والحياة الجديدة في الآخرة. إن الإنسان جحود نعم الله تعالى، فلم يقدّر تلك النعم، ولم يهتد بها إلى عبادة الله وتوحيده، وهجر ما عداه من الآلهة المزعومة.

وقد تكررت الآيات الدالة على هذه المراحل، مثل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨/٢]. إن المرور بهذه المراتب الثلاث مؤذن بعوامل التغير، وأن الله قديم أزلي لا يتغير، وأنه هو القادر الذي جعل الإنسان يمر في هذه المراحل، حتى يظل مرتبطاً بالإله الخالق، ويفوض الأمر إليه.

اختلاف المناسك والعبادات بين الأمم

اقتضت الحكمة الإلهية أن تتعدد مظاهر العبادة والشرائع بين الأمم والملل المختلفة، وليس هذا التعدد إلا شكليات وأحوالاً، جوهرها واحد، وغايتها واحدة، وهي الاتجاه إلى الله الخالق الذي يعبده جميع الناس، فلا يصح أن يكون التفاوت في هذه العبادات سبباً للاختلاف والحوار والعداء والخصام، وإنما ينبغي الاتفاق والاتحاد في المضمون، وتفويض الأمر إلى الله المعبود، وتصفية النفوس من الأحقاد والبغضاء، والحسد والعصبية، فإن لم يتحقق هذا كان الحساب عسيراً، والحكم بين العباد يوم القيامة شديداً، ولا يغيب عن الله شيء في الأرض ولا في السماء، ومعلومات الخلائق كلها مدوَّنة في اللوح المحفوظ، وإحضارها وجمعها وحفظها يسير على الله، قال الله تعالى مبيناً هذا الاختلاف في المناسك:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا[1] هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٧-٧٠].

أخبر الله تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً، أي عبادة وشريعة، يتعبدون بها، ويسيرون على منهاجها، بحسب ظروف الزمان المكان، ومقتضيات التدرج والتطور، ونضج الفكر والعقل، فأنزل الله التوراة على موسى عليه السلام فيها لون من الشدة تتفق مع طبائع بني إسرائيل، ثم أنزل الله الإنجيل على عيسى عليه السلام لتخفيف حدة المادة والطقوس والشكليات وضرورة العناية بالجوهر والروحانيات، وإشاعة

(١) المنسك: مصدر بمعنى العبادة والشريعة، وهو أيضاً موضع النسك، والأول هو المراد هنا.

المحبة واللطف بين الناس، ثم أنزل الله القرآن الكريم جامعاً بين منهج المادة والروح، منسجماً مع العلم والعقل، واضعاً كل ما يحقق تقدم الحضارة الإنسانية، فكان تشريع القرآن معتدلاً، ووسطاً بين الشرائع، وصالحاً لكل زمان ومكان.

وإذا كان هذا هو شأن التدرج في الشرائع، فلا يصح لمعاصريك يا محمد أن ينازعوك في أمر الدين والكتاب والشريعة، فلكل أمة شريعة خاصة، تناسب الزمان الذي جاءت فيه، ولا تتأثر أو تنزعج أيها النبي بمنازعتهم لك، واثبت على دينك الحق ثباتاً، لا يتزعزع ولا يلين.

وادع هؤلاء المنازعين والمسالمين، أي كل الناس إلى سبيل ربك ودينه الحق، فإنك على طريق واضح مستقيم، موصل إلى المقصود، وهو سعادة الدنيا والآخرة، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٧].

وإن لم يُصْغِ الناس إلى دعوتك الموحدة هذه، وجادلوك بالباطل، بعد أن ظهر الحق، فقل لهم على سبيل التهديد والوعيد: الله عليم بما تعملون وبما أعمل، ويجازي كل امرئ بما عمل، كما قال الله سبحانه في آية أخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٤١].

وقل لهم أيضاً متوعداً ومحذِّراً: الله يقضي بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة، فيما اختلفوا فيه من أمر العقيدة والدين، والقضاء مقدمة للجزاء الحاسم، المتردد بين الجنة والنار، والثواب والعقاب، الجنة والإثابة لمن قبل بدعوة القرآن، والنارُ والعذابُ لمن رفض هذه الدعوة، وبه يتبين الحق من الباطل، والمحق من المبطل.

ثم أخبر الله تعالى عن كمال علمه بالمخلوقات والكائنات كلها قبل خلقها، وبما يستحقه كل من المحسن والمسيء، فلقد علمت أيها الرسول وكل مؤمن برسالتك أن

علم الله محيط بجميع ما في السماء وما في الأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة فيهما، ويعلم بالكائنات قبل وجودها، وكل ذلك مسطّر مسجّل في اللوح المحفوظ، ففيه كل ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وشمول علم الله، وحكْمُه في الاختلاف بين الناس يسير سهل على الله تعالى، والسر في إيراد هذه الآية المتعلقة بسعة علم الله للإخبار بأن عند الله علم كل شيء، ليقع الحكم في معلوم معروف.

عبادة المشركين الأصنام

لقد انحدر العقل البشري والفكر الإنساني انحداراً لا مثيل له، حين أقدم المشركون الوثنيون مع الأسف الشديد، على عبادة الأصنام والأوثان، على الرغم من قيام الأدلة الواضحة على وحدانية الله تعالى، وعلى القدرة الإلهية، وعلى علم الله الشامل المحيط بكل شيء، وعلى عدم وجود حجة مقبولة سمعية نقلية أو عقلية على صحة هذه العبادة الباطلة، وعلى ظهور الأدلة الحسية على أن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع، فلم يبق هناك مجال إلا للحكم بأن أولئك الوثنيين أغبياء جهلة، سذّج وسطحيون، وهم مع كل هذا إذا تلي عليهم القرآن اغتاظوا وغضبوا، وهموا بالبطش بمن يتلو ويذكّر، وها هو القرآن المجيد يصف هذا النحو من سلوك المشركين الشاذ، قال الله تعالى:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا(١) وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن
نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ
يَكَادُونَ يَسْطُونَ(٢) بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ

---

(١) حجة وبرهاناً . (٢) يبطشون غيظاً .

وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٧١-٧٣].

هذه ألوان من أباطيل المشركين الدالة على جهلهم وكفرهم وسخفهم، فهم يعبدون آلهة من غير الله، ليس لهم دليل نقلي ولا عقلي على صحة عبادتها، والله سبحانه لم يُنزل حجة ولا برهاناً من السماء، يدل على إباحة عبادتها، وليس لديهم دليل عقلي مقبول يسوغ هذه العبادة، فيكونون ظالمي أنفسهم بتلك العبادة، وليس للظالمين ناصر ينصرهم، أو محام وكيل يدافع عنهم إذا نزل بهم العقاب أو العذاب.

- وإذا تليت على المشركين آيات القرآن، ودلائله الواضحة على توحيد الله، وعلى صدق رسله الكرام، ظهرت على وجوههم علامات الغيظ والغضب، وطفحت قلوبهم بالحقد والنفور.

إنهم يوشك أن يبطشوا بالذين يتلون عليهم آيات الله وسور القرآن، مما يشير إلى امتلاء قلوبهم بالكفر، وتسلط الجهل والعناد عليها، حتى صاروا ميئوساً من علاجهم، وعودتهم أصحاء الفكر والعقيدة.

قل أيها النبي محمد لهؤلاء المشركين على جهة التوعد والتقريع: أأخبركم بشرٍّ من ذلكم السطو على المؤمنين، وغيظكم الذي ملأ قلوبكم؟ وكأن قائلاً قال له: وما هو؟ قال: النار، أي نار جهنم وعد الله بها الكافرين، فعذابها أشد وأعظم مما تهددون به المؤمنين في الدنيا، وبئس المصير، أي بئس النار موئلاً ومُقاماً لكم، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٦]. والمصير: مَفْعل من «صار»: إذا تحول من حال إلى حال.

ثم ذكر الله تعالى مثلاً يدل على حقيقة الأصنام وفساد عبادتها، وسخف عابديها،

فخاطب جميع العالم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قاطبة، ضرب الله تعالى مثلاً لهذه الأصنام، فاستمعوا لهذا المثل، وتفهموا حال تلك المعبودات، فإذا أدركتم حالها، وبقيتم على عبادتها، كنتم أسوأ منها. إن ما تعبدون من غير الله من الأصنام والأنداد، لن يقدروا على خلق أتفه شيء، ولو ذبابة واحدة أو بعوضة، حتى ولو اجتمع لهذه المهمة جميع تلك المعبودات وعابديها، وكما أنها عاجزة عن خلق ذبابة واحدة، فهي عاجزة عن مقاومة الذباب والانتصار منه، فإن يسلبها الذباب شيئاً مما عليها من الطيب الذي كانوا يضمخون به أوثانهم، لم يقدروا على استنقاذه منها، علماً بأن الذباب أضعف مخلوقات الله، لذا قال تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ أي عجز الطالب وهو الإله المعبود من دون الله، أي الصنم، من استنقاذ الشيء المسلوب من الذباب المطلوب، أو ضعف عابد الصنم والصنم المعبود.

وعلى أي من القولين دلَّ ضعف الذباب المحسوس، وضعف الأصنام الملموس، على أن الأصنام في أحط رتبة، وأخسّ منزلة، ومن عبدها كان على شاكلتها، بل أسوأ منها، لأن كرامة الإنسان وارتقاءه أشرف من أن يذل لحجر أو معدن أو هيكل فارغ المحتوى والمعنى.

تعظيم الله وتوحيده واختياره

الإله المالك الخالق الرازق المنعم المتفضل، يتطلب طبعاً وعقلاً الإقرار بعظمته، وتوحيده، وإفراد الأمر إليه في اختيار ما يشاء، وإرادة ما يريد، سواء في الإحياء والإماتة، أو الرزق والنعمة، أو إرسال الرسل، واختيار الملائكة، وإنزال الكتب، فهو العليم بالمصلحة، وإليه المرجع والمآب، لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه. غير

أن الناس إما في غفلة عن هذه الواجبات، أو في جحود وإنكار، فيكون القرآن العظيم هو الدواء الناجع لعلاج التقصير، والمذكّر بما يجب على الإنسان نحو ربه، قال الله تعالى واصفاً أحوال الجاحدين:

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ[1] حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٤-٧٦].

تتضمن الآيات المذكورة موضع الإلهيات والنبوات، أما الإلهيات: فإن الكفار يعبدون ما لا حجة لهم فيه ولا علم، فهم أي الكفار ما قدروا الله حق قدره، أي ما عرفوا حقيقة قدر الله وعظمته وجلاله، وما عظّموه حق التعظيم الواجب لذاته، حين عبدوا معه غيره، من الجمادات التي لا تعقل، ولا تمنع الضرر عن نفسها، ومن الأشخاص الذين هم بأشد الحاجة إلى من يعينهم على شؤون الحياة، والله وحده هو القوي القادر، الذي بقدرته خلق كل شيء، العزيز الذي عزَّ كل شيء وقهره، فلا يغالَب ولا يمانَع، لعزته وعظمته، فهو الجدير بالعبادة والتعظيم.

ومن أجدر بذلك منه تعالى، فهو مصدر الوجود والخلق، ومصدر الخير والرزق والنعمة، والغني عن كل شيء، والقوي القاهر القادر على كل شيء.

ثم انتقل البيان القرآني من أوصاف الألوهية وما يجب لها، إلى أمور النبوة، فأفاد سبحانه أنه يختار من الملائكة رسلاً لتبليغ الوحي إلى الأنبياء، و يختار من الناس رسلاً لإبلاغ الرسالة إلى العباد، حسبما يشاء، وعلى وفق ما يريد، ويناسب الحكمة والمصلحة، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٤].

---

(١) ما عظّموه وما عرفوه.

وقد نزلت آية ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ حينما قال الوليد بن المغيرة: أَوَأنزل عليه الذكر من بيننا؟ فنزلت الآية.

وختمت الآية بتقرير بعض صفات الله عز وجل، وهي كونه تام السمع لأقوال عباده، وتام البصر والاطلاع على أحوالهم وأمورهم، وعليماً كامل العلم والإحاطة بمن يستحق اختياره للرسالة، فقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ هم الأنبياء المبعوثون لإصلاح الخلق، الذين اجتمعت لهم النبوة والرسالة.

إنه سبحانه يعلم علماً تاماً بأحوال الملائكة والرسل والمكلفين، ما مضى منها وما يأتي، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، وقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ﴾ عبارة عن إحاطة علمه بهم، وحقيقتها: ما قبلهم من الحوادث وما بعدهم. ويؤيدها آيات كثيرة في معناها، منها قوله سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٦-٢٨].

وختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي وإليه يوم القيامة مرجع الأمور كلها، فلا أمر ولا نهي لأحد سواه.

وهذا تنبيه إلى القدرة التامة المهيمنة على كل شيء، وإلى تفرد الله سبحانه بالألوهية والحكم. وقوله سبحانه: ﴿يَعۡلَمُ﴾ وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ يتضمن مجموعهما الزجر عن الإقدام على المعصية، وضرورة الإقبال على ساحة الطاعة والامتثال.

لقد آن للعقل البشري أن يستفيق من غيه، وللإرادة الإنسانية أن تعود سريعاً إلى ما يدل على أقل واجبات الوفاء نحو الله جل جلاله، وإلى المبادرة بالقيام بالفرائض والطاعات، قبل أن تغرب شمس العمر الإنساني، ويفجأ الموت بشدته وجود الإنسان.

أصول الفرائض الإسلامية

إن برهان الولاء للحق سبحانه: هو العبادة الخالصة لله، لذا أمر الله تعالى بعبادته، وجعل أصول العبادة متمثلة بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والاعتصام بالله وبالقرآن، والجهاد في سبيل الله، وفعل الخير والمعروف. وهذه هي جملة الشرائع الإلهية المحققة للعبودية الشخصية لرب العزة، والمحافِظة على عزة المؤمنين، وتقوية الصلات الاجتماعية فيما بينهم، ومسوغات هذه الواجبات كثيرة أهمها ثلاثة: هي اجتباء واختيار المسلمين لها، وكون هذه الشرائع هي شريعة إبراهيم عليه السلام، وتسميتنا مسلمين في القرآن الكريم والكتب السابقة، وهذا ما أوضحته الآيات التالية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ[1] وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ[2] مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٧-٧٨].

هذه جملة الأوامر التشريعية اليسيرة في القرآن الكريم، أولها الأمر بعبادة الله تعالى، وخَصَّ الله الركوع والسجود بالذكر تشريفاً للصلاة، فيا أيها المؤمنون المصدقون بالله ورسوله، صلوا الصلاة المفروضة عليكم، المشتملة على الركوع والسجود، واعبدوه بسائر ما تعبدكم به من حج وصيام ونحوهما، وأقبلوا على فعل الخير الذي يرضي ربكم، ويقربكم منه، بأداء الطاعات وصلة الأرحام، والتحلي

---

(١) اختاركم لدينه. (٢) ضيق ومشقة.

بمكارم الأخلاق. وفعل الخير يشمل التكاليف كلها، والأمر بها لتفلحوا وتفوزوا بما عند الله من الثواب والرضوان.

وحفاظاً على جماعة الإيمان، جاهدوا في سبيل نصرة دين الله، ومن أجل إرضاء الله، جهاداً حقاً خالصاً لوجهه الكريم، والجهاد ثلاثة أنواع: جهاد النفس والهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الأعداء، ويكون الجهاد باللسان والنفس والمال. أخرج الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم».

وأسباب الجهاد ثلاثة:

أولاً- إن الله تعالى اجتباكم واختاركم أيها المسلمون من بين سائر الأمم للقيام بهذه المهمة السامية، وخصكم بأكرم الرسل، علماً بأنه تعالى لم يجعل الدين ضيقاً حرجاً شاقاً، وإنما جعله سهلاً يسيراً، فلم يكلفكم ما لا تطيقون، وإنما الجهاد لرد الاعتداء أمر ميسور، تقتضيه ضرورات الدفاع عن الوجود والحرمات والكرامات، والديار والأوطان، والعقيدة والشريعة الحق.

ثانياً- جعل الله ملتكم هي كملة إبراهيم الخليل أبيكم العظيم، وهي ملة الحنيفية السمحة، القائمة على التوحيد ونبذ الشرك والوثنية.

ثالثاً- إن الله تعالى أو إبراهيم الخليل هو الذي سماكم المسلمين، أي المنقادين لأمر الله، من قبلُ أي في الكتب القديمة، وفي هذا أي في القرآن، والراجح أن الضمير في قوله سبحانه: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يعود إلى الله تعالى، بدليل قوله: ﴿وَفِى هَـٰذَا﴾ أي في القرآن، فهذه اللفظة تضعف قول من قال: الضمير لإبراهيم. وهذه التسمية تؤول وتكون عاقبتها أن تتصف أمة الإسلام بالوسطية والاعتدال، عند جميع الأمم، فتتأهل أن يكون الرسول محمد ﷺ شهيداً على أمته بتبليغها ما

أُرسل به إليهم، وليكون المسلمون شهداء على الناس في أن الرسل بلّغتهم رسالة ربهم، وشهادة الرسول على أمته علة في الحكم وهو تسميتها أمة مسلمة. وقبول شهادة المسلمين على غيرهم فيه تشريف للأمة.

وإذا كانت الأمة الإسلامية لها هذه المكانة، فعلى المؤمنين مقابلة هذه النعمة الجليلة بشكرها، وشكرها بإقامة الصلاة وأدائها تامة الأركان والشرائط بخشوع كامل، وخضوع تام لله، وإيتاءِ الزكاة التي هي طهرة للنفس والمال، والاعتصام بالله، أي الثقة به والالتجاء إليه، والاستعانة بقوته الفائقة على دفع كل مكروه، وهو ناصركم على من يعاديكم، فنعم المولى، أي الحافظ والناصر والمالك والخالق، المتولي أمور الخلائق، ونعم الناصر المعين وهو الله تعالى.

تفسير سورة المؤمنون

صفات أهل الإيمان

عُني التشريع المكي في مبدأ الإسلام بغرس أصول الإيمان والعقيدة الحقة، وتخلق المؤمنين بمحاسن الأخلاق وأكرم الشيم والآداب، وذلك من أجل بناء الفرد المسلم، وتسلحه بقواعد الإسلام والتزامه بأركان هذا الدين الإلهي، ونجد هذا الاتجاه واضحاً في السور القرآنية المكية، ومنها سورة «المؤمنون»: التي هي مكية بإجماع. وقد افتتحت ببيان خصال سبع للمؤمنين، وثم تبشرهم بالفلاح والفوز بجنان الفردوس إن اتصفوا بها اتصافاً ملازماً، والتزموا بها التزاماً صحيحاً، قال النبي ﷺ فيما رواه عبد الرزاق وغيره: «أُنزل علي عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①﴾ قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ(١) ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ(٢) ② وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ(٣) مُعْرِضُونَ ③ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ④ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ(٤) ⑦ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ⑧ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ(٥) هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ⑪﴾

[المؤمنون: ٢٣/١-١١].

---

(١) فازوا وسعدوا . (٢) متذللون . (٣) ما لا يحمد من القول والفعل . (٤) المجاوزون الحلال إلى الحرام .
(٥) الفردوس : أعلى الجنان .

كان الصحابة يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة -كما روى ابن أبي حاتم عن ابن سيرين مرسلاً- فنزلت آية: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾.

وهذه صفة أساسية في الصلاة، لأن الصلاة من غير خشوع وتضرع وتوجه بالقلب إلى الله لا معنى لها. وهذه الآيات تصف المؤمنين بصفات سبع وهي:

١- أنهم أهل التصديق التام بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر والقضاء والقدر من الله تعالى. روي عن مجاهد أن الله تعالى لما خلق الجنة وأتقن حسنها قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾. ثم وصف الله تعالى هؤلاء المفلحين بما يلي:

٢- أنهم الخاشعون في صلاتهم، أي الممتلئة قلوبهم بالخشوع، أي الخوف والسكون والوقار، وطمأنينة الأعضاء، والخشوع: صفة ضرورية لإدراك معاني الصلاة، ومناجاة الرب تعالى، وتذكر الله، والخوف من حسابه ووعيده. والخشوع: شرط لتحصيل الثواب من الله سبحانه وتعالى. قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد والنسائي عن أنس: «حُبِّب إلي الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة».

٣- وأنهم معرضون عن كل ألوان اللغو: وهو الساقط من الكلام وكل ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، فيشمل الكذب والهزل والسب والطعن واللعن وفحش الكلام، وجميع المعاصي.

٤- وهم فاعلون للزكاة المفروضة، مبادرون لإخراجها إلى مستحقيها، وكان أصل الزكاة واجباً في مكة، وربما يكون المراد زكاة النفس من الشرك والأدناس، والتحلي بالفضائل ومكارم الأخلاق، والظاهر أن المراد: هو الحق الواجب في الأموال خاصة.

٥- والمؤمنون أهل العفة والصون، فهم الذين يحفظون فروجهم من التلوث بالحرام، من كل أنواع الزنا والفواحش، ويقتصرون في علاقاتهم بالنساء، على

الزوجات التي أحلّها الله بعقد الزواج، ويقوم ملك اليمين الذي يتملك به السيد الرقبة أو الذات مقام العقد على الحرائر. فمن التزم الحلال، فلا حرج عليه ولا لوم بعدئذ، ومن طلب غير ذلك من الزوجات والإماء (الرقيقات في الماضي) فأولئك هم المعتدون، المتجاوزون حدود الله، فكلمة «العادون» يراد بها الظالمون.

٦- والمؤمنون ذكوراً وإناثاً يحافظون على العهود والأمانات، فيؤدون الأمانة إلى أهلها، ولا يخونون، وإذا عاهدوا غيرهم وفّوا بشروط المعاهدة، فأداء الأمانة، والوفاء بالعهد صفة أهل الإيمان. أما الخيانة والغدر فهما صفة أهل النفاق. ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة وغيره: أن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

٧- والمؤمنون والمؤمنات يحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها، مع أداء جميع أركانها وشرائطها، وتمثل عظمة الخالق فيها، والخشوع في كل حركة وسكنة وأذكار فيها. جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال: «سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: برّ الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله».

بدء خلق الإنسان

أورد الله تعالى في أوائل سورة «المؤمنون» بعد بيان أوصافهم أربعة أدلة على وجوده وقدرته سبحانه وتعالى: وهي خلق الإنسان، وخلق السموات السبع، وإنزال الماء من السماء، وخلق أنواع الحيوان لمنافع بشرية، والمتأمل في هذه الأدلة والبراهين يجدها شاملة للكون الفسيح العظيم، وهي كلها من أجل خير الإنسان، سواء في بدء تكوينه وخَلْقه، أم بعد وجوده، لينتفع بخيرات السماء والأرض،

وليكون دائماً حامداً لله شاكراً، مقراً بالعبودية لربه، والدينونة لخالقه. وأذكر هنا الدليل الأول في التذكير بخلق الجنس الإنساني متمثلاً بآدم أبينا عليه السلام، قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ(١) مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ(٢) ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً(٣) فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً(٤) فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ(٥) فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ(٦) أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ(٧) ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٢-١٦].

هذا إخبار عن ابتداء خلق الإنسان، والمراد اسم الجنس، وأراد به الله تعالى آدم عليه السلام، لأنه استل من الطين، فلقد أوجده الله من خلاصة سُلّت من طين صافٍ، لا كدورة فيه، وأوجد الله ذرية آدم من صفوة الماء، يعني المني.

وكان تكوين الذرية البشرية بجعل نطفة المني في أصلاب الذكور، ثم قذفها وإيداعها في قرار مكين، أي في أرحام الإناث، في حرز مستقر متمكن حصين، من ابتداء الحمل إلى انتهاء الولادة، كما جاء في آية أخرى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٠-٢٣].

ثم حوَّل الله تعالى النطفة المشتركة بين ماء الرجل والأنثى عن صفاتها إلى صفة العلقة: وهي الدم المتجمد العريض، ثم صيَّر الله سبحانه الدم الجامد مضغة، أي بُضعة أو قطعة لحم، قدر ما يمضغ، لا شكل فيها ولا تخطيط.

وسمي التحويل خلقاً، لأن الله يفني بعض الصفات، ويُوجد صفات أخرى. ثم يصيِّر الله المضغة عظاماً مشكَّلة ذات تقاطيع وأجزاء، من الرأس واليدين

(١) خلاصة. (٢) مستقر. (٣) دماً متجمداً. (٤) قطعة لحم. (٥) بنفخ الروح فيه. (٦) فتعالى وتكاثر خيره. (٧) أتقن الصانعين.

والرجلين، تشتمل على العظام والأعصاب والعروق. ثم يغطي الله تعالى العظام المخلوقة أولاً بما يسترها ويشدها ويقويها، وهو اللحم، لأن اللحم يستر العظم، فجعل اللحم كالكسوة للعظم. ثم ينشئ الله تعالى الجنين خلقاً آخر، أي مبايناً للخلق الأول، بأن ينفخ الله فيه الروح، فيتحرك، ويصير خلقاً آخر ذا سمع وبصر، وإدراك وحس، وحركة واضطراب.

فتبارك الله أحسن الخالقين، أي تعالى شأنه في قدرته وحكمته، وتنزه وتقدس الله أحسن المقدِّرين المصوِّرين. وكلمة «تبارك» مطاوع «بارك» كأنها بمنزلة «تعالى وتقدّس» من معنى البركة. وهذه الآية يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما سمع صدر الآية، إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ قال فيما رواه الطيالسي وغيره عن أنس: «فتبارك الله أحسنُ الخالقين» فقال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت. وقوله سبحانه: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ معناه: أحسن الصانعين، ولا صانع ولا خالق غير الله تعالى، وخلقه وصنعه أقوم صنع وأحسنه وحسنه، فهو حسن وأحسن، ولا يراد بذلك التفاضل بينه وبين غيره تعالى، وإنما الدلالة على كمال الْخَلْق وحسنه وتمام إبداعه وتكوينه.

وبعد تمام الخلق والولادة والحياة في الدنيا، إنكم أيها البشر بعد النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت. ثم تبعثون من قبوركم أحياء للنشأة الآخرة، للحساب والجزاء ثواباً وعقاباً، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠/٢٩] يعني يوم المعاد. وهذا خبر بالبعث والنشور.

وانتقال الإنسان بموتتين: الأولى قبل وجوده والثانية بعد موته، ثم انتقاله بحياتين: حياة الدنيا وحياة الآخرة: دليل واضح على قدرة الله عز وجل، لأن هذا الانتقال في صورتين متتاليتين يحتاج إلى مبدع خالق، ألا وهو الله أحسن الخالقين.

خلق السماوات وإنزال الماء وإيجاد الحيوان

الأدلة والبراهين الحسية القطعية على وجود الله وقدرته كثيرة متنوعة، أهمها خَلْق الإنسان والحيوان، وإبداع السماوات، وإنزال المطر، وكل نوع من أنواع الخلْق هذه عجيب ومدهش، يَغْرِس في عقل الإنسان ووعيه وقلبه الإيمان بوجود الخالق وتميزه بالقدرة الإبداعية المطلقة، وإذا تناسى الإنسان هذه الظواهر الدالة على الحق سبحانه، بسبب اكتمالها وبقائها، فإن الله تعالى لا ينسى شيئاً من التذكير ببديع صنعه، وأنه غير غافل عن الاستمرار في الخلق وإتقان الصنع، كما لا يغفل عن مصالح المخلوقين وعن أعمالهم. وهذا تنوير للعقل الإنساني بدوام الوجود الإلهي والقدرة الإلهية، قال الله تعالى مبيناً لنا ألواناً ثلاثة من الخَلْق:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ[1] وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ[2] فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً[3] تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ[4] وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ[5] ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ[6] لَعِبْرَةً ۖ[7] نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٧-٢٢].

هذه دلائل ثلاث أخرى بعد خلق الإنسان على قدرة الله عز وجل، وهي خلق السموات السبع، وإنزال المطر من السماء وإنبات النبات به، وإيجاد الأنعام (الإبل والبقر والغنم) للانتفاع بكل مشتملاتها من اللحم واللبن والصوف والركوب عليها، من أجل خير الإنسان وبقائه. يقسم الله تعالى للتأكيد والتعظيم، لتحريك مشاعر

---

(١) سبع سموات طباقاً. (٢) بمقدار الحاجة. (٣) هي شجرة الزيتون. (٤) فيها الدهن. (٥) إدام لهم.
(٦) الإبل والبقر والغنم والمعز. (٧) لعظة ودليلاً على القدرة.

الإنسان وتحريك جذوة الإيمان في قلبه: بأنه سبحانه خلق لكم أيها البشر فوقكم سبع سماوات طباقاً، أو طرائق، أي كل ما كان من طبقات بعضه فوق بعض، ولم نكن مهملين أمر جميع المخلوقات، التي منها السماوات، بل نحفظها ونتقنها لضمان استمرارها، ونعلم كل ما يحدث فيها من صغير أو كبير، فقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ نفي عام، أي في إتقان خلقهم، وعن مصالحهم، وعن أعمالهم.

والدليل الآخر على القدرة الإلهية بعد دليل خلق الإنسان وخلق السماوات: أننا أيها البشر أنزلنا من السحب السماوية أمطاراً بقدر الحاجة والكفاية للشرب والسقاية، فكل ذلك بمقدار وحكمة، فليس المطر كثيراً يُغرق الإنسان، ويفسد الأرض والعمران، وليس هو قليلاً لا يكفي الإنسان والزرع والثمار، وهذا يشمل الأنهار والبحار، قال مجاهد: ليس في الأرض ماءٌ إلا وهو من السماء.

ومن فضل الله ورحمته: أن الله تعالى يحفظ الماء في الأرض، فيتغذى النبات والحب، وتنبع منه الأنهار والينابيع والآبار. ولو شاء الله بقدرته لأذهب هذا الماء وصرّفه وغوّره عن الناس، ولكنَّ لطف الله وسعة رحمته جعلت للماء خزانات في الأرض، يأخذ منها الناس عند الحاجة، فيسقون زروعهم وثمارهم وأنفسهم ودوابهم، وينتفعون به بسائر أوجه الانتفاع، من غسل، وتطهر، وتنظيف، وتبرد وغير ذلك.

وأخرج الله بماء السماء أو المطر جناتٍ، أي بساتين من النخيل والأعناب، وسائر الفواكه الكثيرة المتنوعة، للأكل والانتفاع، والرزق والعيش الكريم. و يخرج الله أيضاً بالمطر شجرة الزيتون التي تأتي بالدهن، أي الزيت، ويتخذ إداماً يأتدم به الآكلون.

وإن في خلق الأنعام (الإبل والبقر والغنم) عبرةً وعظة عظيمة، ونعمة وفيرة،

تستحق الشكر والحمد، والاستدلال بها على قدرة الله تعالى، حيث يشرب الناس من ألبانها النقية، غير المختلطة بأخلاط البطن، وينتفعون بمنافعها الكثيرة، من أصواف وأوبار وأشعار، للباس والفرش، ويأكلون من لحومها بعد ذبحها، ويركبون على ظهورها، ويحملون عليها الأحمال، كالسفن التي تشق عباب البحار والأنهار.

دعوة نوح عليه السلام إلى التوحيد

تعرضت البشرية مع الأسف الشديد لظاهرة الانحراف في العقيدة والوثنية والشرك من عهودها الابتدائية الأولى، في عصر نوح عليه السلام أبي البشر الثاني، فكانت دعوة نوح القوية إلى توحيد الله، والابتعاد عن الشرك وعبادة الأوثان، لتتخلص الإنسانية من هذا المرض الخطير، واستمر تذكير الناس و بخاصة قبيلة قريش في عهد النبي ﷺ بمصير قوم نوح الذين كفروا وأشركوا، فأبيدوا وأهلكوا، وفي هذا وعيد شديد بأن يحل بهم بلاء، مثلما حل بأولئك، والعاقل من اتعظ بغيره، ونوح عليه السلام أول نبي أرسل إلى الناس، وإدريس عليه السلام أول من نبِّئ ولم يُرسَل. وهذا ما أخبر به القرآن في شأن نوح وقومه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟[(١)] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ[(٢)] عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ[(٣)] فَتَرَبَّصُوا۟[(٤)] بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢٣-٢٦].

المعنى: تالله لقد أرسلنا نوحاً عليه السلام إلى قومه، فدعاهم إلى عبادة الله وحده

---

(١) أشراف القوم وسادتهم . (٢) يترأس عليكم . (٣) به جنون . (٤) انتظروا .

لا شريك له، فليس لكم إله غير الله، ألا تتقون؟ أي ألا تخافون من الله بإشراككم به شريكاً آخر؟ فإن الله هو الخالق القادر، وينتقم ممن عاداه، ونسَب إليه الشريك.

فقال الملأ أي أشراف القوم وسادتهم الذين كفروا من قومه وعبدوا الأوثان: ما نوح إلا بشر مثلكم، ورجل منكم، يريد أن يتميز ويترفع عنكم بادعاء النبوة، ولا ميزة له من علم ولا خلُق، فكيف يكون نبياً يوحى إليه دونكم وهو مثلكم؟!

ويمنع نبوته ثلاثة أشياء بحسب زعمهم:

١- لو أراد الله أن يبعث نبياً، لبعث أحد الملائكة من عنده، لأداء رسالته، ولم يكن بشراً، وهذا إنكار لكون النبي بشراً، وتصور بأن النبوة تكون من عنصر أسمى من البشر وهم الملائكة. وهذا يناقض حقيقة الرسالة، فإن الرسول طبعاً وعقلاً ينبغي أن يكون من جنس المرسل إليه، حتى يتفاهم معه، ويناقشه في الإلهيات والنبوات.

٢- ما سمعنا ببعثه: البشر في عهد الآباء والأجداد في الأزمان الغابرة، وهذا يكون بسبب تبعتهم في التقليد للأسلاف، وإهمال دور العقل والوعي، والإصرار على الكفر والجحود من غير برهان مقبول.

٣- وقالوا وما نوح إلا رجل مجنون، فيما يزعم أن الله أرسله إليكم، وخصه بالوحي والنبوة دونكم، وهذا اتهام رخيص يصدر من مفلس الحجة، وسطحي التفكير، والمتصف ببلاهة العقل، فإن العوام السطحيين لا يجدون لتسويغ انحرافهم غير اللجوء إلى تسفيه العقلاء، والتشكيك في حكمة الحكماء، ثم إنهم بعد هذا الاتهام يتواصون فيما بينهم بأن ينتظروا الموت لنوح، في زمن قريب، فيستريحوا منه ومن دعوته.

وقولهم: ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي انتظروا هلاكه إلى وقت. ولم يعيِّنوه، وإنما أرادوا إلى وقت يريحكم القدر منه.

ولما يئس نوح من إجابة دعوته إلى توحيد الله وهجر عبادة الأوثان، على الرغم من صبره على هذه الدعوة ألف سنة إلا خمسين، فلم يؤمن معه إلا القليل، لما يئس أوحى الله إليه أن يدعو ربه لِنَصْره عليهم، فقال نوح: يا ربي انصرني على هؤلاء القوم الضالين، وأهلكهم بسبب تكذيبهم إياي، وهذا يقتضي طلب إنزال العقوبة بهم، وهو آخر الدواء، ووسيلة الخلاص من وباء الشرك والوثنية، كما قال الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ١٠].

صناعة السفن في عهد نوح عليه السلام

حينما يئس نوح عليه السلام من هداية قومه، وإرشادهم إلى توحيد الله تعالى، وترك عبادة الأوثان، أوحى الله تعالى إليه بالدعاء بنصره عليهم، فدعا عليهم، وأوحى الله إليه أيضاً الإعداد لنجاته مع أهله الذين آمنوا بدعوته عن طريق صناعة سفينة يركبونها، ويتخلصون من الطوفان الذي يغرق القوم الكافرين، ويمحو آثارهم، وكان نوح عليه السلام نجاراً، علّمه الله بالوحي والإلهام، كيف يصنع في صنع السفينة، لتكون أداة صالحة، يتحقق بها النجاة والأمن والسلام، وهذا ما تصرح به الآيات التالية:

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ(١) بِأَعْيُنِنَا(٢) وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ(٣) فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا(٤) مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(٥) ﴿٣٠﴾﴾[المؤمنون: ٢٣/ ٢٧-٣٠].

(١) الفلك هنا مفرد، لا جمع. (٢) برعايتنا. (٣) تنور الخبز. (٤) إنزالاً. (٥) لمختبرين عبادنا.

من أجل إنجاء نوح عليه السلام ومن آمن معه، أمره الله أن يصنع السفينة بحفظ الله ورعايته، وتعليمه وإرشاده، فكان جبريل عليه السلام يقول له: اصنع كذا وكذا، لجميع عمل السفينة، وما يحتاج إليه، فاستجنّ الكفار نوحاً لادعاء النبوة، وسخروا منه لعمله السفينة على غير العادة الجارية، أو لكونها أول سفينة، فقوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ يراد به الإدراك.

فإذا جاء أمرنا، أي حان وقت قضائنا بالعذاب والهلاك، ونبع الماء من تنور الخبز، الذي جُعل أمارة كانت بين الله تبارك وتعالى وبين نوح عليه السلام، فاحمل في السفينة زوجين مزدوجين: ذكر وأنثى من كل صنف من الحيوان والنبات والثمر وغير ذلك، واحمل فيها أيضاً أهل بيتك، وكل من آمن معك، إلا من سبق عليه القول من الله بالهلاك: وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، وهو كنعان وأمه. فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي إهلاكنا للكفرة. وقوله: ﴿فَٱسْلُكْ﴾ معناه: فأدخل.

وقوله: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ الزوجان: كل ما شأنه الاصطحاب من كل شيء، كالذكر والأنثى من الحيوان والنِّعال وغير ذلك، والمراد به في الحساب العددي: الاثنان.

ثم نهى الله تعالى نوحاً عن الاسترحام بقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي..﴾ أي ولا تسألني، ولا تتشفع في الذين كفروا، ولا ترأف في قومك، فإني قضيت أنهم مغرقون، بسبب كفرهم وطغيانهم.

فإذا استقرَّ بك وبمن معك من المؤمنين المقام في السفينة، فقل معهم: الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، أي أنقذنا من هؤلاء الكافرين المشركين الظلمة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان في السفينة ثمانون إنساناً، نوح وامرأته سوى التي

غرقت، وثلاثة بنين: سام وحام ويافث، وثلاث نسوة لهم، واثنان وسبعون إنساناً، فكل الخلائق نسل من كان في السفينة.

ثم أمر الله تعالى نوحاً أن يدعو ربه بعد خروجه من السفينة، دعاء مقروناً بالثناء والشكر، وهو: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أي وقل عند النزول من السفينة: ربّ أنزلني إنزالاً مباركاً أو مكاناً مباركاً، يُبارك لي فيه، وأُعطى الزيادة في خير الدارين، وأنت خير من أنزل عباده المنازل الطيبة، لأنك تحفظ من أنزلته في سائر أحواله، وتدفع عنه المكاره، وتزلل له الصعاب.

إن في هذا الصنيع: وهو إنجاء المؤمنين، وإهلاك الكافرين، لدلالات نيرات واضحات على صدق الأنبياء، فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وإن كنا لمختبرين عبادنا بهذه الآيات البينة، لننظر من يعتبر ويتعظ. وهذا خطاب لمحمد ﷺ مدلوله: إن فيما جرى على هذه الأمم لعبراً، أو دلائل لمن له نظر وعقل. ثم أخبر الله تعالى أنه يبتلي عباده زمناً بعد آخر، على جهة الوعيد لكفار قريش بهذا الإخبار. وقوله تعالى: «مبتلين» معناه مصيبين ببلاء، ومختبرين اختباراً يؤدي إلى ذلك.

دعوة هود عليه السلام إلى التوحيد

لم تقتصر المأساة على قوم نوح وإغراقهم بالطوفان، وإنما تكررت في قوم آخرين هم عاد قوم هود عليه السلام، دعاهم هود كنوح إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وحذّرهم وأنذرهم، ورغبهم في الاستقامة والتقوى. فعاداه الأشراف والكبراء والسادة، واستصغروه ورأوا مثل قوم نوح تماماً أن هوداً عليه السلام مجرد بشر، مثلُ غيره من الناس، وشأن النبي أو الرسول في زعمهم أن يكون من الملائكة فإن أطاعوا بشراً مثلهم، كانوا من أهل الضياع والخسران، وهذا ما ذكرته الآيات الآتية:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا[1] ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ[2] فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٣١-٣٤].

المراد بهذه الآيات في اتجاه أكثر المفسرين: عاد قوم هود عليه السلام، فهم أقدم إلا أنهم لم يهلكوا بصيحة، لذا قال الطبري رحمه الله: إن هذا القرن هم ثمود ورسولهم صالح عليه السلام.

والمعنى: ثم أوجدنا من بعد قوم نوح المهلكين قوماً آخرين، هم قبيلة عاد قوم هود عليه السلام، فإنهم كانوا مستخلفين بعد قوم نوح عليه السلام، فأرسل الله تعالى فيهم رسولاً منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوه وخالفوه، ورفضوا اتباعه، فقال لهم: أفلا تتقون؟! أي ألا تخافون عذاب الله بعبادتكم غيره من الأوثان والأصنام، فإن العبادة لا يستحقها إلا الله الواحد الأحد الذي لا شريك ولا ند ولا نظير له. قال الملأ، أي أشراف قوم هود المتصفون بثلاث صفات شريرة، وهي: الكفر بالخالق أو إنكار وحدانيته، والجحود بيوم القيامة، أو التكذيب بالبعث والجزاء والحساب، والانغماس في متع الحياة الدنيا التي أنعم الله بها عليهم، فإن الله أترفهم في الدنيا، أي نعّمهم، وبسط لهم الآمال والأرزاق، لكنهم جحدوا النعمة وبطروا واستكبروا، وقالوا: ما هود الذي يدعي أنه رسول إلا بشر عادي مثلكم في الصفات والحال، لا ميزة له عليكم، فهو يأكل من طعامكم، ويشرب من شرابكم الذي تشربون منه، فكيف يدّعي الفضل عليكم، ويزعم النبوة والرسالة من الله إليكم؟!

---

(١) أي قوماً أو أمة أو جماعة مجتمعة في زمان واحد، سموا بذلك لتقدمهم على من بعدهم تقدم القرن على الحيوان. (٢) نعّمناهم فبطروا.

إنهم بهذه المقالة يستبعدون بعثة البشر، ويتطلبون إرسال أحد الملائكة للنبوة والرسالة، فهم تماماً مثلُ قوم نوح الذي أنكروا نبوته تحت ستار البشرية الآدمية، لا الملائكية العلوية.

وأقسم قوم هود لبعضهم: لئن أظهرتم الطاعة لبشر مثلكم، واتبعتموه، إنكم حينئذ تخسرون عقولكم، وتغبنون في آرائكم، وتضيعون مجدكم بترككم آلهتكم، واتباعكم إياه من غير فضيلة له عليكم.

وبشرية الرسل: كانت هي الشبهة الأولى لإنكار عاد قوم هود، ولإنكار قوم نوح قبلهم، ولكنها شبهة واهية، لأن أبسط مبادئ السفارة أو الرسالة الإلهية وغيرها أن يكون السفير أو الرسول من جنس المرسل إليه، وليس من جنس آخر فوقه، حتى يتحقق التفاهم على المهمة المرسل بها، ولا يبقى لأحد عذر في اتباع هذا الرسول الذي يؤيده الله تعالى بالمعجزة الخارقة للعادة، لتكون دليلاً على صدقه في ادعائه النبوة، كقيام المعجزة على العرب قوم النبي ﷺ وهي معجزة القرآن، وقيام المعجزة لعيسى عليه السلام على الأطباء، ومعجزة موسى عليه السلام على السحرة في عهد فرعون المتأله الجبار، فقامت الحجة على هؤلاء وعلى جميع من وراءهم، ومن المعلوم أن العقاب لا يتعلق بأحد إلا بعد تركه الواجب عليه، وبعد قيام الحجة المفحمة أو المقنعة، ولقد أعذر من أنذر، وأقام الدليل على صحة مهمته وصدق دعوته.

وتأكد صدق الأنبياء على مدى التاريخ بآثارهم الطيبة، في غرس شجرة الإيمان في القلوب، وإهلاك الذين كذبوا برسالتهم، وعارضوا وقاوموا دعوتهم.

إنكار قبيلة عاد البعث

لقد بلغت الأقوام العاتية المكذبة برسالات الرسل منتهى درجات العتو والتمرد، والعناد والمقاومة، فأنكروا صحة النبوة والرسالة، وإنزال الوحي الإلهي على البشر، وآذوا النبي والرسول إيذاء شديداً، وطعنوا في مقدراته العقلية وطاقاته الفكرية، وسخروا منه أشد السخرية، وأشركوا بالله شريكاً آخر، وأنكروا وجود البعث والقيامة، أو العودة إلى الحياة الأخروية مرة أخرى بعد الموت وبِلى العظام، وصيرورتها تراباً متفتتاً. وهذه هي قواعد الكفر ومحطاته الأساسية، قال الله تعالى مبيناً شبهة قبيلة عاد في وجود القيامة، بعد إنكارهم بشرية الرسل:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ[١] هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ[٢] بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً[٣] فَبُعْدًا[٤] لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٣٥-٤١].

أنكرت قبيلة عاد قوم هود عليه السلام كون النبي الرسول بشراً مثل بقية الناس، ثم أنكروا البعث والقيامة، وهذه هي الشبهة الثانية لهم، فقال الأشراف لقومهم: كيف يعدكم هود أنكم تخرجون أو تبعثون من قبوركم أحياء بعد موتكم، وصيرورتكم تراباً وعظاماً بالية؟ وقرنوا بهذا الإنكار الاستبعاد الشديد لوقوع ما يدعيه هود عليه السلام، قائلين: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي بعُد بعُد ما توعدون به أيها القوم، من حدوث البعث الجسدي، وعودة الحياة مرة أخرى،

---

(١) بَعُد وقوع ذلك . (٢) العذاب بصوت مهلك . (٣) الغثاء: ما يحمله السيل من زَبَده ومعتاده الذي لا ينتفع به . (٤) هلاكاً .

للحساب والجزاء، بعد حياة الدنيا، وقوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ استفهام على جهة الاستبعاد، وبمعنى الهزء بهذا الوعد.

ثم أكدوا نفي احتمال وقوع البعث بقولهم: ما هي إلا حياتنا الدنيا، أي ما الحياة إلا واحدة، وهي حياة الدنيا، فالبعض يموت، والبعض يحيا، ولا إعادة ولا حشر ولا بعث، أي لا وجود لنا غير هذا الوجود، ولا قيامة، وإنما تموت منه طائفة فتذهب، وتجيء طائفة أخرى، وهذا كفر الدهرية.

وبعد أن طعنوا في صحة الحشر، بنوا عليه الطعن في نبوة هود عليه السلام، فقالوا: وأما هذا الرجل هود الذي يدعي النبوة ويثبت وقوع البعث، فهو مجرد رجل اختلق الكذب على الله تعالى، فيما جاءكم به من الرسالة والإنذار، والإخبار بالمعاد، ولسنا نحن بمصدقين له فيما يدّعي ويزعم.

ولما يئس هود عليه السلام من إيمان قومه على هذا النحو المذكور، قال داعياً ربه: ربي انصرني على قومي نصراً مؤزراً، وعاقبهم، وأهلك الأعداء، بسبب تكذيبهم إياي في دعوتي لهم إلى الإيمان بك، وتوحيدك، وإثبات لقائك.

فأجاب الله دعاءه، وأخبره أنه ليَصيرنّ قومك بعد زمن قليل نادمين على ما فعلوا، حين ظهور علامات الهلاك، وإنذارهم بالعذاب، إنهم عما قليل يندمون على كفرهم، حين لا ينفعهم الندم.

وكان الجزاء أن أخذتهم الصيحة: وهي صوت شديد مهلك لجبريل عليه السلام، أدى إلى الصعقة والموت، فأصبحوا بسبب كفرهم وتكذيبهم رسولهَم صرعى هلكى، كغثاء السيل: وهو الشيء الحقير التافه الذي لا يُنتفع بشيء منه. ومن أجل ذكر الصيحة: ذهب الطبري إلى أنهم قوم ثمود، لأن من المعلوم أن قبيلة عاد أُهلكوا بريح

صرصر عاتية، قال ابن كثير في تفسيره: والظاهر أنه اجتمعت عليهم الصيحة، مع الريح الصرصر العاصفة القوية الباردة.

فبعداً من الرحمة وهلاكاً، وسحقاً وتدميراً للقوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم، وطغيانهم، وعصيان رسولهم، وهذا قانون الإله العادل: وهو أنه لا يعذِّب إلا بحق، ولا ينتقم إلا بالعدل، وسنته في جميع البشر واحدة، قال الله تعالى مبيناً هذه السنة الثابتة الدائمة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٧٦].

وفي هذا القول: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ غاية المهانة والذلة لهم، وإظهار قدرة الله عليهم، وإنذار السامعين أمثالهم بأن من كذب الرسول سيصيبه من العذاب مثلما أصاب هؤلاء الظالمين.

الأمم الأخرى ورسلها

على الرغم من تكذيب قوم نوح وعاد قوم هود رسلهم، وإهلاكهم بكفرهم، استمر العطاء والفيض الإلهي بإرسال رسل آخرين، وإيجاد أقوام متتابعين، كل قوم لهم تاريخهم وزمنهم، وكل رسول له مهمة وجهودٌ في محاولة إصلاح البشر وتقويم الاعوجاج، وتجاوز اليأس في مسيرة التاريخ، لينتصر الحق في النهاية، وتعلو كلمة الدين والتوحيد فوق كل المعوقات والعراقيل، ويندحر الباطل وجنده، وينهزم الكفر وأشياعه. وقد تحقق ثبات الدعوة إلى وحدانية الله، وأدرك العقلاء زيف الدعوات الباطلة إلى الشرك والوثنية، قال الله تعالى مبيناً هذه السنة الثابتة بإيجاد الأقوام والرسل في الأجيال المتلاحقة:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ(١) ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا(٢) كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ(٣) فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٤٢-٤٤].

هذه الآيات إجمال لقصص ثُلَّة رفيعة من الأنبياء والمرسلين، وهم صالح ولوط وشعيب وغيرهم عليهم الصلاة والسلام، ووجودهم تابع لإيجاد أقوامهم وأممهم، كل أمة مع رسولها في فترة زمنية معينة، وفي وقت مقدّر لا يتجاوزونه، ومفاد الآيات:

أخبر الله تعالى عن أنه أنشأ وأوجد بعد هلاك قوم نوح وعاد قومِ هود أمماً وخلائق أخرى، كقوم صالح ولوط وشعيب وأيوب ويوسف وغيرهم عليهم السلام، ليقوموا مقام من تقدمهم في عمارة الدنيا وتقدم الحياة. وكل شيء بميعاد وفي كتاب لا يتعداه في وجوده، فلا تتقدم أمة مهلكة من تلك الأمم وقتها المقدَّر لهلاكها أبداً، أو المؤقت لعذابها إن لم يؤمنوا، ولا تتأخر عن الأجل المحدد، والمراد أن وقت الهلاك محدد معلوم في علم الله، لا يتقدم ولا يتأخر، فلا يتعجل أحد العذاب، لأن كل شيء عند الله بمقدار، والموت مرتبط بأجل الإنسان لا يتقدم ولا يتأخر، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٦١].

ثم أخبر الله سبحانه عن أنه أرسل رسلاً آخرين في كل أمة، يتبع بعضهم بعضاً، وهذا هو المراد بكلمة «تترى» فهو مصدر بمنزلة فِعْل، من تواتر الشيء، لا فعل بمعنى متواترين متتابعين، وإرسال الرسل سنة دائمة في البشرية، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ [النحل: ١٦/ ٣٦].

---

(١) أمماً أخرى. (٢) متتابعين. (٣) مجرد أخبار للتعجب.

وكلما جاء الرسول لأمة، بتكليفهم بالشرائع والأحكام، كذَّبه جمهورهم وأكثرهم، سالكين في تكذيب أنبيائهم مسلك من تقدمهم، ممن أهلكهم الله بالغرق أو الريح الصرصر العاتية، أو الصيحة، أي الصوت الشديد المهلك لجبريل عليه السلام، كما جاء في آية أخرى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٣٠]. فكان الجزاء المرتقب أن الله سبحانه أتبع بعض الأقوام بعضهم الآخر بالهلاك والتدمير، يأتي بعضه إثر بعض، حين كذبوا الرسل، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٧]. وذلك الإنذار باقٍ دائم ليوم القيامة.

وتصبح نتيجة الهلاك: أن تلك الأقوام يجعلهم الله أحاديث وأخباراً للناس، يتحدثون عن أحوالهم، تلهياً وتعجباً، كما قال الله سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٩].

وخاتمة الإهلاك ما قاله الحق سبحانه: ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي هلاكاً وتدميراً وبعداً عن رحمة الله، لقوم لا يصدقون به ولا برسوله، وهذا كلام وارد على سبيل الدعاء، والذم والتوبيخ والوعيد الشديد لكل كافر أو جاحد وجود الله، وهو ترسيخ لمبدأ ثابت: وهو أن تلك الأقوام العاتية كما أهلكوا عاجلاً، فإن الهلاك لأمثالهم يأتي آجلاً.

موسى وهارون وعيسى عليهم السلام

هذه أنباء مهمة عن ثُلّة أو كوكبة أخرى من كبار الأنبياء والرسل: وهم موسى وهارون وعيسى عليهم السلام. أما موسى وهارون: فكانت مهمتهما خطيرة، ومخيفة، في بلاط فرعون المتأله الجبار، وقومه المستكبرين الفجار، وذلك من أجل

الإعذار والإنذار، وإقامة الحجة والبيان، فإن أعرضوا كان عقابهم في محراب العدالة حقاً، وأما عيسى وأمه عليهما السلام فكانا في موقف صعب، وتحدٍّ وإنكار واتهام، لكن إرادة الله وحكمته، وبيان آفاق قدرته فوق كل التحديات، ومحبطة لكل ألوان الاتهامات، ومعلنة للبراءة والسمو والعفة والطهر على مدى التاريخ، قال الله تعالى في بيان هذه الأخبار:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ(١) ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ(٢) إِلَىٰ رَبْوَةٍ(٣) ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ(٤) ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٤٥-٥٠].

يتابع البيان القرآني سرد أخبار فئة عليا من الأنبياء، بحسب الترتيب الزمني، وهنا يخبر الله تعالى أنه أرسل موسى وأخاه هارون بالآيات الدامغة الدالة على صدق نبوتهما لفرعون وملئه (قومه). وتلك الآيات تسع، منها اليد والعصا اللتان اقترن بهما التحدي، وهما «السلطان المبين» أي الحجة الواضحة، وبقية الآيات كالبحر الذي أُغرق فرعون وجنوده فيه، والمرسلات الست: وهي أرسلها الله على فرعون وقومه، وذكرها الله في سورة الأعراف، وهي الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدَّم، والرِّجز أي القحط والسنون العجاف. وأما غير ذلك مما جرى بعد الخروج من البحر، فليست تلك لفرعون، بل هي خاصة ببني إسرائيل.

أيد الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بهذه الآيات والمعجزات في مواجهة الطاغية فرعون وملئه، أي الأشراف وغيرهم، فاستكبروا عن الإيمان بموسى وأخيه

---

(١) برهان بيّن . (٢) ضممناها . (٣) الربوة: المكان المرتفع من الأرض . (٤) المعين: الماء الجاري المرئي بالعيون .

عليهما السلام، لأنهم أنفوا من ذلك، وكانوا قوماً عالين، أي قاصدين العُلوّ بالظلم والكبرياء.

وكانت شبهتهم هي قولهم: كيف ننقاد لأمر موسى وأخيه هارون، وقومهما بنو إسرائيل خدمنا، وعبيدنا المنقادون لأوامرنا. ومقصودهم أن الرسالة الإلهية تتنافى مع صفة البشرية، ولا تتفق مع كون قوم موسى وهارون أذلة لفرعون وقومه. وهذه نظرة مادية، ينظر بها الماديون الذين لا يؤمنون بالقوى المعنوية، ولا بالذات الإلهية، ويقيسون عزة النبوة وتبليغ الوحي عن الله تعالى على أوضاع الرياسة أو الزعامة الدنيوية المعتمدة على الجاه والسلطة والمال.

وأدى هذا الشعور بالأنفة والاعتزاز إلى أمرين: الأول: تكذيب فرعون وقومه النبيَّين الرسولَين موسى وهارون، وأصروا على الكفر والعناد، فأهلكهم الله بالغرق في البحر الأحمر، في يوم واحد أجمعين، كما أهلَك المستكبرين المتقدمين من الأمم، بتكذيبهم رسلهم.

والثاني: أيد الله موسى عليه السلام بأمر آخر غير الآيات التسع، وهو إنزال التوراة عليه، المشتملة على الأحكام الدينية، والأوامر والنواهي، بعد إغراق فرعون وقومه، لعلَّ بني إسرائيل يهتدون بها إلى الحق، بامتثال ما فيها من المعارف، والأحكام، والحكمة الإلهية.

ثم يخبر الله تعالى عن خبر مهم آخر: وهو أنه سبحانه جعل عيسى وأمه آية للناس دالة على قدرته تعالى، حين خلقه من غير أب، وولادة أمه إياه من غير رجل، ليكون ذلك دليلاً على القدرة الإلهية الفائقة كل قدرة. وجعل الله تعالى مأواهما في مكان مرتفع من الأرض، صالح لاستقرار السكان، فيه الزروع والثمار، والماء الجاري

الظاهر للعيون والذي لا ينضب. والراجح أن الربوة في بيت لحم من بيت المقدس، لأن ولادة عيسى عليه السلام كانت هناك، وحينئذ كان الإيواء والاستقرار.

مناهج الحياة

الهدي الإلهي يُعنى عناية شديدة بتحقيق العزة والاستقرار، والقوة وتقدم المجتمعات، فيشرع للناس من أجل هذه الغايات الجوهرية العناية بقوة الأجساد وصحتها، من طريق تناول الطيبات المستطابات المباحات، ونقاء الحياة بعمل الصالحات، وتماسك البنية الاجتماعية، وتكتل الأمة المؤمنة من طريق الوحدة والتعاون والعمل المشترك، سواء في مجال الاقتصاد، أو السياسة، أو الاجتماع، أو العلاقات الخارجية. ويدفع الوحي الإلهي كل تفريط أو تقصير أو تهاون في تحقيق هذه الغايات الكبرى. قال الله سبحانه مبيناً مناهج الحياة السوية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ(١) أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم(٢) بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ(٣) كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ(٤) حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ(٥) مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥١-٥٦].

يوصي الحق تبارك وتعالى أهل الإيمان بجملة مبادئ في الحياة: وهي الأكل من الحلال، والعمل بصالح الأعمال، ووحدة الدين والأمة، ولا يسمح شرع الله بالفُرقة والتمزق، فذلك سبيل الشيطان، والطريق إلى الخسارة والضياع.

أما الأكل الحلال: فهو قوام الأبدان السوية، فيأمر الله به الرسل مبتدئاً في رأي

(١) ملتكم وشريعتكم. (٢) تفرقوا في دينهم. (٣) أي قطعاً وأحزاباً مختلفة. (٤) جهالتهم. (٥) ما نجعله مدداً لهم.

جماعة بعيسى عليه السلام وانتهاء بمحمد ﷺ للصلة القريبة بينهما، وتتابع مهمتهما، وكون أحدهما أتى مباشرة بعد الآخر، أمرهما بالأكل من الطيبات: الحلال بلذة وبغير ذلك، والمشهور أن عيسى عليه السلام كان يأكل من بقل البرية. والخطاب في الراجح وإن كان في هذه الآية لمحمد ﷺ، فيراد به التنبيه إلى أن هذه المقالة قد خوطب بها كل نبي، أو هي طريقتهم التي ينبغي لهم البقاء عليها، كما تقول لتاجر: يا تجار ينبغي أن تجانبوا الربا، فهو خطاب له بالمعنى.

وأردف الله الأمر بالحلال بالأمر بالعمل الصالح، لا لأن الأنبياء كانوا مقصرين بالعمل الصالح، وإنما للإفادة بأنهم ملازمون للعمل الصالح، فيقتدي بهم الناس. والعمل الصالح: اتباع الفرائض واجتناب النواهي.

وأما في مجال الأفق الديني والسياسي: فإن الله أمر الناس بوحدة الدين والملة والسياسة، لأن دين الأنبياء دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وهذا شيء متفق عليه بين جميع الأنبياء، وأما اختلاف الفروع والجزئيات من شرائع وأحكام فرعية، فهو بحسب اختلاف الزمان والحال، وهذا لا يسمى اختلافاً في الدين. وأما الاختلاف الواقع بين أتباع الدين والأنبياء فإنما نشأ من أنفسهم، فهم الذين فرّقوا أمر الدين، وقطّعوه ومزّقوه، وصاروا فرقاً وأحزاباً، كل حزب بما لديهم فرحون، أي معجبون بما هم عليه، معتقدون أنه الحق الأسدّ، وأنهم مهتدون راشدون. وهذا ذم صريح للتفرق، وتوبيخ وتوعد عليه. لذا أمر الله نبيه بقوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي دعهم واتركهم في جهالتهم وضلالهم إلى حين موتهم ورؤيتهم أمارات العذاب، كما جاء في آية أخرى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٣].

وزيادة في اللوم، يعاتب الله تعالى هؤلاء المفرِّقين دين الأنبياء، ومضمون ذلك

العتاب: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من مال وأولاد، من أجل تكريمهم وإعزازهم ورضا الله عنهم؟ كلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٥]. إنهم أخطؤوا الفهم وتقدير الأمور، فإنما نفعل ذلك الإنعام عليهم استدراجاً لهم، وأخذاً بهم إلى مهاوي العذاب إن لم يتوبوا. إننا نقدم لهم الخيرات من الأموال والبنين فتنة لهم، فترقَّبْ بهم أيها النبي وكل متأمل مصيرهم السيّئ المحتوم، ثم ختمت الآية بالوعيد والتهديد، بقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي إنهم لا يُحسّون بأن الأوضاع والأحوال تسير في غير صالحهم، فعليهم استدراك خطأ المسيرة، وسوء العمل، وضلال التوجه إلى غير مرضاة الله تعالى.

المسارعون في الخيرات

تتكرر الحملة القرآنية لإصلاح النفوس بعقد مقارنة أو موازنة بين الأمور والأحوال، والصفات المتقابلة، فبعد أن فرغت الآيات في سورة «المؤمنون» من ذكر الكفرة وتوعدهم، عقّب الله تعالى بذكْر المؤمنين ووَعْدِهم، وأبان ذلك بأبلغ صفاتهم، وهي صفات تجمع بين صحة العقيدة، وأداء الحقوق، سواء أكانت حقوقاً لله تعالى، كالعبادات المحضة من صلاة وصيام وزكاة وحج وكفارة، أم حقوقاً للناس، كالودائع والديون، مع خوف القلوب من التقصير، وعدم قبول الأعمال منهم. قال الله تعالى مبيناً صفات المسارعين في عمل الخير:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ(١) ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا(٢) وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ(٣) أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾

---

(١) خائفون . (٢) يُعْطون ما أعطوا . (٣) خائفة .

أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ(١) وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/٥٧-٦٢].

تضمنت هذه الآيات صفات المسارعين في الخيرات أي المبادرين إلى فعل الخيرات، وأبانت بعدئذ حكمين من أحكام الأعمال. أما صفات أهل الخير فهي أربع:

١- خشية الله تعالى: فهم الذين يخافون من عذاب ربهم، يشفقون من الوقوع في شدة العذاب. والإشفاق: أبلغ التوقع والخوف، ويبتدئ الإشفاق من عذاب الله. فكلمة «من» في قولنا هذا: «من عذاب الله» لابتداء غاية. والوجل في قوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ بمعنى الإشفاق والخوف.

٢- الإيمان بالآيات الإلهية: فهم الذين يصدقون تصديقاً تاماً لا شك فيه بآيات الله الكونية والدينية القرآنية. أما الآيات الكونية: فهي المتعلِّقة بالكون الدالة على وجوب النظر والتأمل، كإبداع السماوات والأرض وخلق الإنسان والحيوان والنبات، وأما الآيات الدينية القرآنية: فهي المتعلقة بأخبار الأنبياء كخبر زكريا ويحيى وخبر مريم وابنها عيسى عليهم السلام، أو المتعلقة بالشرائع والأحكام، فكل ما أمر الله به فهو محبوب له راضٍ عنه، وكل ما نهى عنه فهو مكروه له ومعيب.

٣- تجنب الشرك: فهم الذين لا يعبدون مع الله إلهاً آخر، بل يوحدونه ويعظمونه، ويعتقدون بوحدانيته المطلقة: «لا إله إلا الله» ولا يقدسون سواه، جل جلال الله.

والجمع بين ضرورة الإيمان بآيات الله ورفض الشرك، يوجب أمرين هما: توحيد

(١) قدر طاقتها من الأعمال.

الربوبية، وتوحيد الألوهية والعبادة، فإن المشركين كانوا يعترفون بوحدانية الرب، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥/٣١] ولا يقرون بوحدانية الألوهية والعبادة، فإنهم عبدوا الأصنام والأوثان.

٤-العمل مع الخوف من الله تعالى: فالمسارعون في الخيرات يؤدون الواجبات، ويعملون صالح الأعمال بمقدار أقصى الجهد، ولكن مع الخوف من الله، فهم يفعلون ما فعلوا، مع وجود الخوف بألا يتقبل الله منهم أعمالهم، إنهم الذين يصلون، ويصومون، ويتصدقون، ولكنهم يخافون الله عز وجل، لأنهم راجعون إليه وحده. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ لا يقتصر على العطاء المادي من زكاة أو صدقة، وإنما يشمل كل حق يلزم إيتاؤه، سواء كان من حقوق الله تعالى كالعبادات، أو من حقوق بني آدم كالودائع والعدل بين الناس. وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ تنبيه على الخاتمة، فإن التقي التائب يخاف من الخاتمة وما يطلع عليه بعد الموت، وعدم النجاة من عذاب الله.

وأما الحكمان المتعلقان بأعمال العباد: فهما أن منهاج الشرع: اليسر والسماحة وترك التكليف بالشاق من الأعمال، والتكليف بقدر الطاقة، وهذا دليل الرحمة والعدل، فهما متلازمان في شرائع الله في قرآنه.

والحكم الثاني: أن لدى الله تعالى كتاب إحصاء الأعمال الذي ينطق بالحق والعدل، والتطابق مع واقع عمل الناس. ويكون الحساب الإلهي بفضل من الله ورحمة، فإن الناس لا يُظلمون، أي لا ينقص في جزائهم من الخير شيء، بل يثابون على قليل العمل وكثيره، ولا يزاد في العقاب لأحد غير ما يستحق، بل يعفو الله عن كثير من السيئات.

بعض أعمال الكفار

لم تكن أعمال الكفار قبل مجيء الأنبياء ولا بعد مجيئهم، على نحو مرضٍ، ولا على أساس سليم من الاعتقاد، وإنما هم كسابق عهدهم في ضلال وجهالة وحيرة، وانحراف عن جادة الاستقامة. وربما كانت أحوالهم بعد بعثة نبي لهم أسوأ مما كانوا عليه، بسبب مقاومتهم رسالة الحق والتوحيد والخير، وتحديهم الرسل، وإصرارهم على الباطل، وعنادهم وتصلبهم في تغيير المواقف. وهذا حال كفار قريش الذين ماتوا على الكفر والضلال، وضموا سوءاً إلى كفرهم، كالشرك والطعن بالقرآن، والسخرية من النبي ﷺ، وإيذاء أهل الإيمان. قال الله تعالى واصفاً أعمالهم:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ(١) مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم(٢) بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ(٣) ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ(٤) ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ(٥) ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ(٦) ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٦٣-٧٠].

هذه نماذج من أعمال الكفار والمشركين في مكة بعد البعثة النبوية، فهم في غمرة، أي حيرة وضلال من بيان القرآن، ومن الأعمال الصالحة التي يعمل بها المؤمنون. ولهم أعمال سيئة غير الكفر والجهل، عاملون لها قطعاً في المستقبل القريب: وهي الطعن في القرآن، وإيذاء النبي ﷺ والمؤمنين. وهذا من دائرة علم الله تعالى المدون في اللوح المحفوظ، وعلم الله لا يتغير. وحتى: حرف ابتداء، فإن الله تعالى إذا أوقع

(١) أي حيرة وترك الفكر العميق. (٢) منعّميهم البطرين. (٣) أي يضجون ويستغيثون. (٤) أي ترجعون وراءكم. (٥) أي تتكلمون جماعة سماراً بالليل بالهوس وسوء الكلام في القرآن والنبي. (٦) أي جنون.

مترفيهم وهم أهل النعمة والبطر في العذاب الشديد والبأس والنقمة، صرخوا وضجوا واستغاثوا صائحين، مما يدل على ضعفهم. ويقال لهم يوم حلول العذاب بهم: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي تقول لهم الملائكة: لا فائدة ولا جدوى من هذا الصراخ والعويل اليوم، فلا يدفع عنكم العذاب الذي وجب عليكم، ولن تجدوا ناصراً ينصركم، ويحول بينكم وبين العقاب الأليم.

وأسباب حجب النصر عنهم ثلاثة وهي:

١- أنهم كانوا إذا تليت عليهم آيات القرآن نفروا منها، وأعرضوا عن سماعها وعن تاليها، أي إنهم يعرضون عن الحق، وإذا دعوا إليه أبوا.

٢- وهم في حال نكوصهم أو إعراضهم عن الحق، تراهم مستكبرين متعالين على الحق، ممتهنين الحق وأهله. وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ الضمير يعود على البيت الحرام، أي الحرم والمسجد، فهم يعتقدون أن لهم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل عند الله، فهم مستكبرون لذلك. وليس الاستكبار من الحق، كما أن سماع الآيات يحدث لهم كفراً وطغياناً.

٣- وهم سمّار في الليل أو النهار حول البيت الحرام، يتكلمون بسوء القول، ويطعنون بالقرآن والنبي. قال سعيد بن جبير فيما يرويه ابن أبي حاتم: كانت قريش تسمر حول البيت، ولا تطوف به، ويفتخرون به، فأنزل الله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ والهُجر: الهذيان والفحش.

وبواعث هذه الأحوال المَرَضِيَّة السيئة لكفار قريش أربعة:

أ- أنهم لا يتدبرون القرآن، أي لا يفهمون المراد منه، ولا يدركون غاياته وأهدافه السامية، مع أنهم لمسوا عظمة بيانه، وفصاحة تعبيره، وقوة مضمونه.

٢- وأنهم عرفوا أن الرسل الذين تتابعوا في الأمم كانوا مؤيدين بالمعجزات، ومع ذلك لا يدعوهم هذا إلى تصديق رسولهم النبي العربي الهاشمي.

٣- وهم عرفوا من سيرة هذا النبي قبل البعثة أنه الصادق الأمين، ومع كل هذا كذّبوه وآذوه، وعادوه عداء شديداً. وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ توبيخ، والمعنى: ألم يعرفوه صادقاً مدة عمره، ولم ينكروا قط وجه هذه المعرفة لمحمد ﷺ.

٤- وأكثر من هذا وصفوا هذا الرسول بالجنون، مع أنه أرجح الناس عقلاً، وأصوبهم رأياً. ويتلخص سبب رفضهم الإيمان ببعثة النبي محمد ﷺ: بأنه على الرغم مما جاءهم من الحق الثابت الأبلج: وهو توحيد الله، والتشريع الأفضل المحقق للسعادة، فإن أكثرهم كارهون لهذا الحق. وإنما قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ لأن بعضاً منهم تركوا الإيمان أنفة واستعلاء، وتخوفاً من توبيخ القوم وتعييرهم، لا كراهة للحق ذاته.

الحق واحد لا يتعدد بحسب الأهواء

لقد قامت السماوات والأرض بالحق والعدل، لضمان البقاء واستمرار النظام، وتحقيق حياة الاستقرار للبشرية جمعاء، وطبيعة الحق الثابت أنه جوهر واحد، لا يتعدد بحسب الأهواء والنزوات، حتى يظل له هيبته وقدسيته، وحتى لا يفسد نظام الكون في السماء والأرض، ومن أصالة الحق: أن دعوة الأنبياء إلى الله وعبادته دعوة خالصة محضة، لا جزاء عليها من أحد، فلا نظير ولا عوض أو مقابل للدعوة المخلصة، ودعوة رسولنا ﷺ كغيره من دعوات الأنبياء إلى الحق الثابت والطريق القويم، وذلك بخلاف مناهج غير المؤمنين، فإنهم يجافون الحق والحقيقة، ويتنكرون للصراط المستقيم، قال الله تعالى مبيناً منهج القرآن ومناهج غير المؤمنين:

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ(١) فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا(٢) فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ(٣) ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٧١-٧٤].

الحق: هو الشيء الثابت والصواب الدائم، المقابل للباطل، فهو ذو حقيقة ناصعة، لا يتغير ولا يتذبذب، ويتفق مع الواقع والصدق، فلو ساير الحق أهواء الناس، لانقلب باطلاً، ولذهب ما يقوم به العالم. وعليه، فإن الحق لا يتبع الهوى، بل الواجب على الإنسان ترك الهوى، واتباع الحق، فإن اتباع الأهواء يؤدي إلى الفساد الشديد، والمراد: لو جاء القرآن مؤيداً الشرك بالله والوثنية، مبيحاً الظلم مقراً النهب والسلب والفواحش، مهملاً الأخلاق والفضائل، لاختل نظام العالم، وشاع الفساد والدمار، وتخلفت المدنية، وبادت الحضارة.

بل إن القرآن العظيم جاء العرب والإنسانية بما يعظهم ويهذب طبائعهم ويبين لهم طريق الخير من الشر، غير أن الناس أعرضوا عن هذا البيان الشافي. ثم إن النبي محمداً ﷺ كان في غاية الإخلاص لدعوته، ولم يكن لديه أطماع في مال أو جاه أو زعامة أو متعة شخصية، فلم يطلب من قومه أجراً ورزقاً على تبليغ الرسالة، والإرشاد إلى قانون الهداية، حتى لا ينفر أحد من دعوته، أو يتلكأ في الإيمان برسالته، والمراد أن العرب وغير العرب ليسوا معذورين في ترك الاستجابة لرسالة النبي ﷺ، التي هي محض الخير والصلاح والاستقامة ورفع مستوى الحياة وإعزاز الأمة.

---

(١) أي بوعظهم والبيان لهم. (٢) أي أجراً ورزقاً. قال الأصمعي: الخرج: الجُعْل مرة واحدة. والخراج: ما تردد لأوقات ما. وهذا في الاستعمال، أما في اللغة فهما بمعنى واحد. (٣) أي عادلون عن طريق الرشاد.

وأما دعوة هذا النبي فهي أقوم الدعوات، فإنك يا محمد النبي لتدعو الناس قاطبة، ومنهم مشركو قريش إلى الطريق المستقيم، والدين القيم الصحيح، وهو الإسلام، من أجل تحقيق العزة والسيادة، وتوفير الخير والكرامة، وإن دعوة الإسلام قائمة على العدل والوسطية والاعتدال، جمعت بين خيري الدنيا والآخرة، وحققت الانسجام بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين الآخرين، وربطت الإنسان بالله ربه، ربطاً متيناً لا مجال فيه للالتواء والتعثر، ولا للانحراف والضياع.

وأما المكذبون بالآخرة الذين لا يصدقون بالبعث بعد الموت، لمنحرفون عن هذا الطريق، لأن طريق الاستقامة واحد، وما يخالفه تتعدد طرقه، وتتشابك قضاياه.

والخلاصة: إن رسالة الإسلام تقوم على المعاني الخيرة، والقيم الثابتة، والحق الأبلج الذي لا يهادن الباطل، ولا يعرف الانحراف أو الالتواء، وإن جهود النبي رسول الإسلام كلها جهود مباركة وخيّرة ومشكورة، قصدُه إعلاء كلمة الله والحق، وإعلان عقيدة التوحيد لله تعالى، والإرشاد إلى الطريق الصحيح. وأما الكافرون برسالته فهم سدنة الباطل، وأنصارُ الهوى والضلالة، وأتباعُ الطرق الملتوية، المنافية لمنهج الطريق المستقيم.

إصرار المشركين على الشرك

قد تحتجب الرؤية الصحيحة عن العين والقلب بسبب الغَبَش أو الظلام، فيعذر الإنسان حين ذاك، ويحتاج إلى المساعدة والمعونة من الآخرين، أما إن كانت الرؤية واضحة، والحق بيّناً، والشمس طالعة، فلا يعذر أحد بترك العمل بما يتضح لديه، والإذعان للحق، والسير في ضوء النهار، غير أن هناك فئة من الناس يكابرون في المحسوسات، ويعاندون الحق، ويحاربونه على الرغم من ظهوره، وقوة حجته،

وسطوع بيانه، وهذه الفئة تتمثل بمن عرفوا بالمشركين الوثنيين، إنهم يرون الحق ويعرفونه، ومع ذلك يعارضونه ويبتعدون عنه، فلا ينفعهم ترغيب أو تذكير بنعمة، ولا يرهبهم عذاب أو عقاب، حتى وإن رأوا أماراته واقتربت ساعاته، قال الله تعالى موضحاً موقف المشركين المكيين من دعوة النبي ﷺ وإصرارهم على الشرك، وترك دعوة الحق:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ[(١)] يَعْمَهُونَ[(٢)] ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا[(٣)] لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ[(٤)] ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ[(٥)] ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٧٥-٧٧].

هذا وصف دقيق لحال غريبة هي حال المشركين في مكة، فإنه لا حق لهم على الإطلاق في معاداة دعوة النبي محمد بن عبد الله ﷺ وكفرهم به، وبالقرآن الذي أنزل عليه، تشريفاً لهم وتكريماً، وهداية لهم، ونوراً، وتبياناً.

وهم في أسوأ موقف، لا ينفعهم الترغيب والإنعام، ولا يرهبهم التهديد بالعذاب، فقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم لو أزال عنهم القحط، ومنّ عليهم بالخصب، ورحمهم وأمدهم بالنعم، وأفهمهم القرآن، لما آمنوا به، ولما انقادوا له، ولتمادوا في ضلالهم، واستمروا في عنادهم وطغيانهم، وظلوا متحيرين مترددين، لا يعرفون ماذا يصنعون. كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٣].

وهذه الآية نزلت في المدة التي أصابت فيها قريشاً السنون الجدبة والجوع الذي دعا به رسول الله ﷺ في قوله: اللهم سبعاً كسني يوسف، وهو متفق عليه بلفظ «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف».

---

(١) لتمادوا في ضلالهم. (٢) يتحيرون. (٣) فما خضعوا. (٤) ما يتذللون لله تعالى. (٥) يائسون متحيرون.

أخبر الله تعالى عن المشركين أنهم أيضاً لا يرهبهم التهديد بالعذاب، فلقد ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ونالهم من الجوع والقحط، فظلوا في استكبارهم وطغيانهم، فما تركوا الكفر والمخالفة، وما عدلوا عن غيهم وضلالهم، وما خشعوا لربهم ولا خضعوا له ولا تواضعوا لعظمته، وما دَعَوْا ولا تذللوا، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ هو الجوع والجدب الذي نزل بهم، حتى أكلوا الجلود وما جرى مجراها، وقوله سبحانه: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ معناه: ما انخفضوا وتواضعوا، أي فما طلبوا أن يكونوا لربهم أهل طاعة، وعبيد خير. روي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: «إذا أصاب الناس من قِبَل الشيطان بلاءٌ، فإنما هي نعمة، فلا تستقبلوا نعمة الله بالحميَّة، ولكن استقبلوها بالاستغفار، واستكينوا وتضرعوا إلى الله» وقرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

ثم أخبر الله تعالى بخبر ثالث عن المشركين، فذكر أنه إذا جاءهم أمر الله، وجاءتهم الساعة فجأة، فنالهم من العذاب ما لم يكونوا يحتسبون، أيسوا من كل خير، ومن كل راحة، وانقطعت آمالهم، وخاب رجاؤهم. والمبلسون: الآيسون المتحيرون الذين لا يدرون ماذا يصنعون.

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ذكر بعضهم أنه يوم بدر حيث انهالت عليهم السيوف، والصواب: أنه توعد بعذاب غير معين، لأن إصابة قريش بالمجاعة والجدب إنما كان بعد وقعة بدر.

وهذه الأخبار الثلاثة التي تضمنتها الآيات الكريمة تصور ألوان العناد والاستكبار الذي استبد بعقول قريش، فإنه لا يفلح معهم أي لون من ألوان التربية،

لا بالخير والإحسان، ولا بالشر والانتقام، فتراهم إذا أنعم الله عليهم ورحمهم، تمادوا في طغيانهم، ولو كشف الله ما بهم من ضر، أي قحط وجوع، لتمادوا في ضلالهم أيضاً، ولقد تعرضوا للعذاب بالجوع والمرض والحاجة، فما خضعوا لربهم وما خشعوا له، وما تضرعوا بالدعاء لله تعالى في الشدائد التي تصيبهم، إنهم قوم متمردون، وأناس مستبدون، وقوم مصرون على الكفر والشرك والضلال، فلا غرابة إن عذّبوا أشد العذاب.

التذكير بالنعم الإلهية

تتعدد الأساليب التربوية التي انتهجها القرآن الكريم في حمل الناس على الإيمان بالله وحده لا شريك له، وترك عبادة الأصنام والأوثان، وتتكرر بين حين وآخر المذكّرات بألوان النعم التي هي في الوقت نفسه دليل باهر على عظيم قدرة الله تعالى، وأن هذه القدرة لا يعظم عنها أمر البعث، وجَمْعُ المخلوقات في محشر واحد، للحساب والجزاء، ونصب ميزان العدالة المطلق بين الناس جميعاً، من غير بخس ولا زيادة، ولا حرص على العذاب والانتقام، وإنما من أجل إحقاق الحق، وإبطال الباطل، قال الله تعالى في تعداد نعمه على الناس وموقف الناس منها، وإنكارهم قدرة الله على البعث:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ(١) فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا

(١) خلقكم .

لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ[1] ﴿٨٣﴾﴾

[المؤمنون: ٢٣/ ٧٨-٨٣].

هذان موقفان متباينان غريبان: موقف الإله المنعم المتفضل بالمدد والعطاء الدائم، وموقف الكفرة في مواجهة ذلك بإنكار قدرة الله على البعث وإقامة القيامة العظمى.

أما الموقف الإلهي: فمستمد من الواقع المحسوس، حيث يذكّر الله عباده بالنعم القريبة منهم، الحسية المشاهَدة لهم: وهي إقدارهم على السمع والبصر والفؤاد، أي العقل والفهم، لتمييز الأشياء، والاعتبار بما في الكون من آيات وعبر تدل على قدرة الله ووحدانيته، وأنه الفاعل المطلق لما يشاء. وأما موقف البشر: فهو موقف غريب عجيب، لا يتفق مع أفضال الله ونعمه.

لقد أمدكم الله أيها البشر بنعمة السمع لسماع الأصوات، والبصر لرؤية الأشياء، والفؤاد، أي العقل لفهم الأمور، وإدراك الحقائق المؤدية إلى تحقيق المنافع الدنيوية والأخروية، وخص الله تعالى هذه النعم الثلاث بالذكر، لأنها مفاتيح المعرفة، وطرق الاستدلال بها على وجود الله وقدرته. غير أن الشاكرين من الناس قليلون، فإنهم لم يشكروا الله على نعمه العظيمة، وقابلوها بالجحود والإنكار، وقابلوها بالإعراض والابتعاد.

وقوله سبحانه: ﴿ٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ يراد بها القلوب أداة الوعي، وهي إشارة إلى النطق والعقل، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: شكراً قليلاً ما تشكرون.

ومن أدلة قدرته تعالى: أنه ذرأكم في الأرض، أي خلقكم ووزعكم في أجزاء الأرض بالتناسل، لعمارتها وتحضرها، وجعلكم متميزين مختلفين في الأجناس

---

(٢) أكاذيبهم المسطورة في كتبهم .

والألوان، واللغات والصفات، ثم يوم القيامة يجمعكم جميعاً بعد التوزع والتشتت لميقات يوم معلوم، فلا يترك صغيراً ولا كبيراً إلا أعاده كما بدأه، وله سبحانه الحكم وحده، لا راد لفعله، ولا معقب لحكمه. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي إلى حكمه وقضائه، وهذه آية البعث.

ومن الأدلة على قدرة الله سبحانه: أنه هو الذي يحيي الإنسان والحيوان والنبات بعد العدم، ويميت الكائنات الحية بعد الحياة، وهذا أمر ملموس مشاهد، فيكون ذلك دليلاً قاطعاً واضحاً على إحياء الناس من القبور، والانتقال إلى دار الثواب، بالإعادة أحياء مرة أخرى للجزاء، كما أحياهم بعد الإماتة للعمل والاختبار.

ومن الأدلة على القدرة الإلهية أن الله يجعل اختلافاً بين الليل والنهار، والاختلاف هنا: التعاقب والكونُ خلفه، وذلك بنظام دقيق وزمان محدد. أفلا تتفكرون أيها الناس في هذه الأشياء، وتدركون حقيقة قدرة الله ووحدانيته.

ولكن الواقع خلاف ذلك: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي ليس لكفار مكة وأمثالهم نظر في هذه الآيات، وقالوا كمن تقدمهم من الأولين كعاد وثمود، فأنكروا البعث واستبعدوه، وقالوا: هل إذا متنا، وصرنا تراباً وعظاماً بالية، نعود إلى البعث والحياة؟!

لقد وُعدنا بالبعث، كما وُعد أسلافنا من الآباء والأجداد مثل هذا الوعد في الزمان الغابر، على لسان الأنبياء السابقين، ولم يتحقق هذا الوعد مع طول العهد، فما يكون هذا الوعد بالبعث إلا أكاذيب وأباطيل المتقدمين، لقد توارثناها تقليداً وعادة، دون وعي للحقيقة، ولا دليل يثبت صحتها، وهذا بحسب زعمهم، وكأن هذا لغباوتهم يحدث في دار الدنيا، أي أن الإعادة سريعة وقائمة في حال الحياة التي يحيونها دون انتظار أجيال أخرى.

مناقشة المشركين في عقائدهم

دحض القرآن الكريم ببيانه البليغ، وحجته القاطعة، مزاعم المشركين في إنكار البعث، وردَّ على شبهاتهم ببراهين ثلاثة، مستمدةٍ من إقرارهم بأشياء معينة، يلزم من الإقرار بها أن يؤمنوا بباريء هذه الأشياء، وأن يذعنوا لشرعه ورسالة رسوله. وهذه الأشياء ركيزة الأدلة هي من الواقع المشاهد المتعلق بالأرض التي يعيش عليها الإنسان، والسماوات السبع المحيطة بالأرض، و بحقيقة مالك الأشياء والمتصرف بها ومدبرها أحسن تدبير. قال الله تعالى ذاكراً هذا اللون من النقاش الهادئ المثير:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ(١) كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ(٢) وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ(٣) إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ(٤) ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٨٤-٩٠].

هذه مناقشات لعقائد المشركين، تتضمن الرد عليهم لإثبات البعث والقيامة وهي:

١- قل أيها النبي الرسول لمنكري الآخرة: مَنْ مالك الأرض ومالك من فيها من الحيوان والنبات والثمرة، وغير ذلك من المخلوقات الأرضية، إن كنتم من أهل العلم بذلك؟ وقوله سبحانه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ توبيخ لهم، واستهانة بهم، وإعلان لجهلهم.

إنهم سيقرون على الفور و بحسب دلالة العقل بداهة بأن ذلك كله لله وحده ملكاً وخلقاً وتدبيراً.

---

(١) الملك الواسع . (٢) يغيث ويمنع . (٣) أي يمنع غيره ، ولا يُمنع منه . (٤) فكيف تخدعون عن توحيده.

فإذا أقروا بذلك، فقل لهم أيها الرسول: أفلا تتعظون وتتدبرون أن من خلق هذا ابتداءً، قادر على إعادته انتهاء، وأنه لا تصح العبادة إلا للقادر على الخَلْق والإحياء، والإماتة والإنهاء!!

٢- وقل أيها النبي الرسول أيضاً لهم: من خالق السماوات السبع وما فيها من الكواكب النيرة، ومجموعات النجوم العظيمة، والملائكة في كل أنحائها، ومن خالق العرش العظيم ومن ربُّه والمهيمن عليه؟ فالعرش يجمع بين صفتين: العظمة والكبر اتساعاً وعلواً، والحسن والبهاء في الجمال.

إنهم سيعترفون على الفور وبالفطرة بأن ذلك كله لله وحده، ولا جواب سواه. فقل لهم حينئذ: إذا كنتم تعترفون بذلك، أفلا تخافون عقاب الله، وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره، وإشراكِكم به سواه؟! وهذه الآية تدل على أن المشركين يعترفون لله بالربوبية، وأنه واحد فيها، ويشركون معه غيره في الألوهية، حتى عبدوا معه غيره مما لا نفع له ولا ضر.

وبما أن العالم العلوي والسفلي لله تعالى، فهو مدبر شؤونهما، فقل لهم أيها الرسول الكريم: من بيده الملك والتصريف والتدبير لشؤون الكون سمائه وأرضه، وبيده ملك كل شيء، وهو سبحانه يحمي ويجير، ويغيث ويمنع الآخرين، ولا يُجار ولا يمنع منه، لأنه صاحب السلطان الأعظم، والمهيمنُ الأكبر، والسيد المطلق في الأكوان.

وكلمة ﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الملكوت: مصدر في بنائه مبالغة كالجبروت والرهبوت.

والمراد من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ أنه تبارك وتعالى إذا منع أحداً فلا يُقدر عليه، وإذا أراد أحداً فلا مانع له، وكذلك في سائر قدرته، وما نفذ

من قضائه، لا يُعارضُ ذلك شيء، ولا يحيله عن مجراه، إنهم سيقرون بلا تردد بأن المالك المدبر للكون هو الله، لا غيره، فقل لهم مستغرباً موبخاً: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي فكيف تخدعون عن توحيد الله وطاعته؟! والخادع: هو الشيطان والهوى.

والواقع: ليس الأمر كما يقولون من نسبتهم إلى الله تعالى ما لا يليق به، فلقد جئناهم بالقول الحق، والدليل القاطع، والإخبار الصادق الثابت بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الدليل الصحيح على ذلك كله، ولكنهم مع كل ذلك لكاذبون فيما ذكروا لله تعالى من الصاحبة والولد والشريك، وفي إنكار الحق، وفي عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على مزاعمهم الباطلة وعقائدهم الملوثة، إنهم حيارى تائهون، وجهلة بعيدون عن المنطق والعقل، وذلك كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٧]. فهؤلاء المشركون لا دليل على صحة عقائدهم، وإنما هم قوم مقلدون عن غير وعي ورشد، آباءهم وأسلافهم الضالين.

نفي اتخاذ الله ولداً

وقع العقل الوثني بسبب الوثنية في ألوان مختلفة من الخرافات والأوهام، ومن أخطرها نسبة الولد والصاحبة والشريك لله، وهذا فضلاً عن كونه يتنافى مع حقيقة الألوهية والعقل والحكمة، هو مدعاة للفساد والخراب في العالم، لأن سلطان الألوهية يضعف ويفسد، وتنهار معه النظم الكبرى، وتتداعى المشكلات المدمرة إذا قلنا بتعدد الآلهة، لذا كان جوهر الرسالات الإلهية والنبوات والكتب السماوية إقرارَ مبدأ توحيد الإله، ورفضَ كل أنواع تعدد الآلهة ومزاعم الوثنية، قال الله تعالى معلناً مبدأ وحدة الألوهية والربوبية:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٩١-٩٢].

هذه الآية نفي قاطع، وتنزيه واضح لله تعالى عن أمرين: هما اتخاذ الولد، واتخاذ الشريك، فلم يجعل الله لنفسه ولداً، كما زعم بعض المشركين، حين قالوا: الملائكة بنات الله.

ولم يكن مع الله إله آخر يشاركه في الألوهية أو العبادة، لا قبل خلق العالم، ولا بَعْد خلقه، كما تصور الوثنيون، حين اتخذوا الأصنام آلهة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ دليل التمانع، فلو افترض احتمال تعدد الآلهة، لا نفرد كل واحد منهم بما خلق، واستقل بما أوجد، وتميز ملك كل واحد منهم عن ملك الآخر، لأن استمرار الشركة مستحيل، لأنه يكون همّ كل واحد منهم أن يغلب الآخر، ويطلب قهره والتسلط عليه، لإظهار قوة القوي على الضعيف، كما هو حال ملوك الدنيا.

ولو حدث هذا التغالب وانقسام السلطة، لاختل نظام الوجود، ولفسدت السموات والأرض ومن فيهن، كما قال الله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٢]. ولو اختلف إلهان في إدارةٍ، فمحال نفوذهما، ومحال عجزهما، فإذا انفردت إرادة الواحد، فهو العالي، والآخر ليس بإله.

والمشاهَدُ دقةُ نظام الكون وكمالُه وانسجامه، وارتباط العالم العلوي بالعالم السفلي دون تصادم ولا اضطراب، كما قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٦٧/ ٣]. وهذا دليل على وحدة الإله صاحب السلطان الواحد.

وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ إذن: جواب لمحذوف تقديره لو كان معه إله إذن لذهب كل إله بما خلق.

ولما ثبت عقلاً ومنطقاً كون التعدد في الآلهة مستحيلاً، وبطل قول المشركين في الأمرين معاً: وهما اتخاذ الولد واتخاذ الشريك، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه الله الحق الواحد الأحد عما يقول الظالمون المشركون المتجاوزون الحدود في ادعائهم الولد أو الشريك لله.

وقوله تعالى ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ اتباع لقوله قبل ذلك: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ قال الأخفش: والجرّ أجود ليكون الكلام من وجه واحد. وقرئ «عالمُ الغيب» والمعنى: الله هو عالم الغيب والشهادة، يعلم ما غاب عن إدراك الخلق من الأشياء، ويعلم ما يشاهدونه وما يرونه وما يبصرونه، فهو يعلم الأمرين معاً على حد سواء، وهذا دليل آخر على نفي الشريك، لأن غير الله، وإن علم الشهادة، أي العالم المشاهد والموجودات المرئيات أمامه، فلن يعلم معها الغيبيات غير المرئيات، وهذا دليل النقص، والله متصف بالكمال، فلا يكتمل النفع بعلم الشهادة وحدها، دون العلم بالغيب، والغيب: ما غاب عن الناس، والشهادة: ما شهدوه.

وإذا كان الله تعالى عالم الغيب والشهادة على حد سواء ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي فتعالى وتقدس وتنزه الله عما يقول المشركون المفترون، الذين يشركون مع الله إلهاً آخر، وهذه الخاتمة تقديس مطلق لله عز وجل عن أي نقص من صاحبة أو ولد أو شريك، وإطلاق التقديس هو مضمون الألوهية الحقيقية.

الدعاء بالنجاة من عذاب الظلمة

تعهدت العناية الإلهية النبي ﷺ بأتم أنواع الحماية من شرور الظلمة ومن أجل تماسك الشخصية، وإرساء معالم الدعوة إلى الله بالتزام موقف الصلابة، في صراع الأهواء، والاستعاذة من وساوس الشياطين، ومقابلة الإساءة بالإحسان، وتلك

إرشادات عالية، وتوجيهات وأوامر قويمة، لتحقيق النجاح في ممارسة أساليب الدعوة إلى الدين، وتحصين المسيرة الإيمانية من التعثر والانحراف، قال الله تعالى مبيناً هذه الإرشادات والأوامر:

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا[(١)] تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ[(٢)] فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ[(٣)] مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ[(٤)] ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٩٣-٩٨].

هذه طائفة من الأوامر والتوجيهات الإلهية إلى النبي ﷺ معناها: قل أيها الرسول: يا رب إن أريتني ما تعد هؤلاء القوم المشركين من عذاب الدنيا والآخرة، فلا تجعلني فيهم، ونجني منهم، ولا تعذبني بعذابهم، لأنه قد يصيب العذاب غير أهله، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٥].

إن هذا التوجيه بأن يدعو النبي لنفسه بالنجاة من عذاب الظلمة، إن كان قضي أن يُرى ذلك، هو المنهج الذي أنفذه الله تعالى في أنبيائه ورسله حين يُنزل العذاب بأقوامهم. والإرشاد إلى هذا الدعاء ليعظم أجر النبي، وليكون دائماً ذاكراً ربه، ومعلماً إيانا الاعتصام بالله تعالى في وقت المحنة والشدة.

ففي هذا الدعاء مصلحتان: استصحاب الخشية من الله، والتحذير من الأمر المعذَّب من أجله، ونظيره لسائر الأمة دعاء في جودة الخاتمة. ويتضمن هذا الدعاء إعلاماً بقرب العذاب من قريش، كما كان في يوم بدر.

---

(١) إما مكونة من ((إن شرطية)) و ((ما)) زائدة، وتريني: جزم بالشرط، لزمته النون الثقيلة . (٢) قوله ثانياً ((رب)) اعتراض بين الشرط وجوابه . (٣) أعتصم بك . (٤) وساوسهم .

ويؤكد الله تعالى اقتراب العذاب من هؤلاء، فيخبر سبحانه: لو شئنا لأريناك ما نوقعه بهم من النقم والبلاء والمحن، ولكنا نؤخره لوقت معلوم، لأن بعض ذرياتهم سيكون من المؤمنين الأصفياء.

والتوجيه الثاني: مقابلة الإساءة بالإحسان، فقابل أيها النبي السيئة بالحسنة، وتحمل ما تتعرض له من أنواع أذى المشركين وتكذيبهم، وادفع بالخصلة التي هي أحسن، بالصفح والعفو، والصبر على الأذى، والكلام الجميل، كالسلام، أي إنه أُمر عليه السلام بالصفح ومكارم الأخلاق، لأن الله أعلم بحال القوم الضالين، وبما يصفون ربهم من الشرك والتكذيب. وهذا وعد للنبي ﷺ، معناه اشتغل أيها النبي بدعوتك، وكِلْ تعذيبهم والنقمة منهم إلينا.

والتوجيه الثالث: الاعتصام بالله، ومضمونه اعتصم بالله والتجئ إلى الله تعالى من وساوس الشياطين المغرية بالسوء والعصيان ومخالفة الأوامر، وتعوذ بالله وتحصن من حضور الشياطين في شيء من الأمور، فإنهم إذا حضروا كانوا معدّين للهمز، وهذا توجيه للتحصن من الشيطان في كل أمر وفعل، سواء في الأحوال العادية أو في سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه، فإن النزعات وسورات الغضب هي من الشيطان. وهذه هي الحالة التي كانت تصيب المؤمنين مع الكفار، فتزيد الحمية من تعقيد الأوضاع، فإن كان هناك اعتصام بالله، والتجاء إليه وتعوذ من الشيطان، خَفَّت الأزمة، وبرزت الحكمة، والهمزات: جمع همزة، والهمز: النخس والدفع والإثارة، أو الوخز باليد وغيرها.

وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يلتزم هذا التوجيه في كل الأحوال، أخرج أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم ومن الغَرَق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان

عند الموت» . وفي مصنف أبي داود ومسند الإمام أحمد: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان: همزه ونَفْخه ونَفْثه» . قال أبو داود: وهمزُه: المُوتَة وهي الجنون، ونفخُه: الكِبْر، ونَفْثُه: السِّحر.

إن هذه التوجيهات للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدعاء من النجاة من عذاب الظلمة، ومقابلة الإساءة بالإحسان، والتعوذ من الشيطان لطرده في كل حال، توجيهات لأمة النبي أيضاً ولكل من أراد الخير لنفسه ولغيره.

موازين الحساب يوم القيامة

الحياة في الدنيا: هي مجال العمل والاختبار والتسابق في الخيرات، وفيها ما يحقق النجاة أو الهلاك، وأما الآخرة فهي دار الجزاء والحساب على الأعمال خيرها وشرها، وكما يزرع الإنسان يحصد، ولا مجال لتعديل الأحوال، وإعطاء الفرصة لإصلاح الأعمال في عالم الآخرة، فإن ميزان النجاة قائم على الحق والعدل المطلق، فمن رجحت حسناته على سيئاته، كان من المفلحين، ومن طغت سيئاته على حسناته، كان من الهالكين الخاسرين، وليس هناك ميزان للعدالة أدق ولا أعظم ولا أفضل من هذا الميزان، قال الله تعالى مبيناً سلفاً للناس هذه الأحوال:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ
إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ[1] إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ[2] فَلَآ
أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾

(١) حاجز دون الرجعة . (٢) الصور: بوق ينفخ فيه نفختان: الأولى ليموت الناس، والثانية ليعودوا أحياء .

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ(١) وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ(٢) ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/٩٩-١٠٤].

«حتى» ابتداء كلام وإخبار عن حال جديدة: هي حال المحتضر عند الموت من عصاة المؤمنين والكافرين الجاحدين. والمعنى: إذا دنا أجل الإنسان الكافر أو العاصي المفرط في حقوق الله تعالى، ورأى ما ينتظره من العذاب، طلب الرجوع إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ويتدارك ما فاته من خير، وما قصّر فيه من الأعمال الصالحة.

فيأتيه الردع والزجر من الله بكلمة «كلا» أي لا إجابة لطلبه، وتلك كلمة لا بد من أن يقولها كل محتضر، تعبيراً عن الندم، لأنه لا فائدة من الرجعة، فلو رُدّ لعاد لما كان عليه، وكذب في هذه المقالة، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٢٨] ويكون أمام هؤلاء الظلمة برزخ، أي حاجز مانع ما بين الدنيا والآخرة، يمنع من العودة إلى عالم الدنيا. وهذا تهديد ووعيد بعذاب البرزخ، والمراد من البرزخ هنا بإجماع المفسرين: المدة التي بين موت الإنسان وبين بَعْثه، وجملة ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ إشارة إلى أن المحتضر لو رُدَّ لعاد، فتكون الآية آية ذمّ لهم.

وإذا نفخ في الصور (القرن الهائل) النفخة الثانية، وهي نفخة النشور، وقام الناس من القبور، فلا تنفعهم الأنساب والأحساب والقرابات، على الرغم من وجود التعاطف والتراحم والنسب، لاستيلاء الدهشة والحيرة عليهم، ولا يتمكن القريب أو الصديق من سؤال قريبه أو صديقه، وهو يبصره. لأن هول المطلع يشغل كل امرئ بنفسه، فلا أنساب نافعة، وإنما النافع: هو العمل الصالح.

(١) تحرق . (٢) كالحون: عابسون متقلّصو الشفاه عن الأسنان .

وميزان الحساب واضح، فمن رجحت حسناته على سيئاته، ولو بحسنة واحدة، فأولئك الذين فازوا بالمطلوب، فنجوا من النار، وأدخلوا الجنة. ومن ثقلت سيئاته، وطغَت على حسناته، فأولئك الذين خابوا وهلكوا، وباؤوا بالخسران، بأن صارت منازلهم للمؤمنين، وكان عذابهم ذا صفات ثلاث:

إنهم في جهنم ماكثون على الدوام، مقيمون فيها إلى الأبد، وهذا دليل تخليد الكفار في النار، وتحرِق النار وجوههم، وتأكل لحومهم وجلودَهم، وهم في النار عابسون، متقلصو الشفاه عن الأسنان. والموازين: هي الأعمال، ومعنى الوزن: إقامة الحجة على الناس بالمحسوس على حسب عادتهم وعرفهم، ولفح النار: إصابة الوجوه بالوهج والإحراق. والكَلَح: انكشاف الشفتين عن الأسنان، وهذا يعتري الإنسان عند المباطشة وعند الغضب.

إن تصوير العذاب بهذه الصورة الشنيعة للجاحدين الكافرين تقشعر منه الأبدان، وتضطرب له فرائص[١] الإنسان، ويرهبه كل امرئ مهما كان، ولو من الجبابرة العتاة، لأن مثل هذا العذاب لا يضارعه أي عذاب في الدنيا مهما اشتد وقسا، ومهما عظم وامتد. فهل من متعظ معتبر، وخاشع يتدبر الأمر قبل وقوعه؟!.

تقريع أهل النار على كفرهم

لا يقتصر حال أهل النار على العذاب الشديد المؤلم، وإنما يقرّعون ويوبخون على كفرهم ومآثمهم، وتراهم إذا سمعوا هذا التقريع، أذعنوا، وأقروا على أنفسهم، فيَدْعون ربهم بأن يخرجهم من النار، فلا يجابون لدعائهم، فيقعون في اليأس

(١) الفرائص: جمع فريصة وهي لحمة بين الجنب والكتف، تُرعد عند فزع الإنسان.

والإحباط، ويتلخص أمرهم في أنهم سخروا من أهل الإيمان، وابتعدوا عن تذكير القرآن، فوقعوا في حمأة العذاب، وفاز المؤمنون الأتقياء بجنان الخلد ورضوان الله، وجوزوا على صبرهم على الطاعة، والبعد عن المعصية، وهذا ما وصفه لنا القرآن الكريم قبل أن يقع تماماً على هذا النحو في الآيات التالية:

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا[1] وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا[2] وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا[3] حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ[4] هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠٥-١١١].

في مطلع هذه الآيات محذوف تقديره: يقال لأهل النار: ألم تكن آياتي أي آيات القرآن تتلى عليكم في الدنيا، للتذكير والاتعاظ، فتكذبون بها، وتعرضون عنها؟! وهذا استفهام تقرير وتوبيخ لهم. والمعنى: قِرّوا بهذا واعترفوا، فهو أمر واضح، لا ينكره أحد.

فكان جوابهم بقولهم: يا ربنا غلب علينا شقاء أنفسنا بشهواتنا وملذاتنا، بحيث صارت مؤدية إلى سوء العاقبة، وأخطأنا طريق الحق والهدى، وكنا من القوم الضالين. ثم تدرَّجوا من الإقرار إلى الرغبة والتضرع. فقالوا: يا ربنا أخرجنا من عذاب النار، وردّنا إلى الدنيا، فإن عدنا إلى مثل ما كنا عليه، فنحن ظالمون، نستوجب العقوبة.

فأجيبوا بحسب ما تحتم عليهم من العذاب و بحسب علم عز وجل: امكثوا في النار، خاسئين أذلاء صاغرين، واسكتوا ولا تطلبوا مثل هذا الطلب، فإنه لا رجعة

---

(١) شقاوتنا . (٢) انزجروا. (٣) أي استهزاء . (٤) أي لأنهم .

إلى الدنيا. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ بلفظ نهي، وهم لا يستطيعون الكلام، على ما رُوي، فهذا مبالغة في المنع. ويقال: إن هذه الكلمة إذا سمعوها يئسوا.

ثم أخبر الله تعالى عن سبب عذابهم بما يفيد بأنه كان جماعة من عبادي المؤمنين يقولون: يا ربَّنا صدَّقنا بك وبرسلك، وبما جاؤوا به من عندك، فاستُرْ ذنوبنا، وارحم ضعفنا، فأنت خير الراحمين.

فما كان منكم إلا أن سخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي، حتى حملكم بغضهم والهزء بهم على نسيان ما ذكّرتكم به مما ينفعكم، ولم تلتفتوا لمقتضى التذكرة، ولم تخافوا العقاب، وكنتم تضحكون استهزاء من صنيعهم وعبادتهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ٢٩-٣٠]. أي يلمزونهم استهزاءً. والفريق المشار إليه ممن هزئوا به: كل مستضعف من المؤمنين، وقد نزلت الآية في كفار قريش الذين كانوا يهزؤون بصهيب وعمار وبلال رضي الله عنهم ونظرائهم. ولكنها عامة فيمن جرى مجراهم قديماً، وبقية الدهر.

ثم أخبر الله تعالى عما جازى به عباده الصالحين بأنه جازاهم في يوم القيامة بسبب صبرهم على أذى الكفار واستهزائهم بهم، وكان الجزاء هو الفوز بالسعادة والسلامة، والنعيم المقيم في الجنة، والنجاة من النار، كما جاء في آية أخرى وهي: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ٣٤-٣٦].

والجزاء المعطى للمؤمنين: هو الجنة والرضوان الإلهي، والفائزون: هم المنتهون إلى غايتهم التي كانت أملهم، ومعنى الفوز: النجاة من هلكة إلى نعمة.

تتبين عظمة القرآن، وأفضال الله ونعمه: في أن الحق سبحانه وتعالى بيّن لعباده

سلفاً في هذه الدنيا، كل ما يلاقون في عالم الغيبيات، ومصير كل فريق: إما في الجنة وإما في النار.

عمر الدنيا قصير

مهما طال العمر بالإنسان، فإن عمر الإنسان قصير، بل وعمر الدنيا كلها قصير، وذلك رحمة من الله بعباده، لأن الدنيا دار امتحان واختبار، ودار تكليف ومسؤولية، والمسؤولية تقتضي التخفيف وعدم الإطالة، فكما زاد العمر ثقلت المسؤولية، فكان من الرحمة أن يقصَّر الأجل منعاً من تزاحم المسؤوليات وإطالتها، لذلك اقترن الإخبار عن قصر الدنيا بالتذكير بالمسؤولية فيها، وأنها ليست دار العبث واللهو، وإنما هي جسر للآخرة التي يكون فيها الحساب، والمحاسب: هو الله صاحب العزة المطلقة، والْمَلِكُ الحق، وذو السلطان الأكبر، وهو رب العرش الكريم، فكيف يصح لعاقلٍ عبادة غير الله؟ ومن عبد إلهاً غير الله خاب وخسر، ومن عبد الله وحده لا شريك له فاز ونجا، قال الله تعالى مبيناً هذه المعاني والمبادئ:

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى(١) ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٢-١١٨].

---

(١) تنزه عن البعث .

ينبِّه الله تعالى في هذه الآيات على أمور ثلاثة: قصر العمر في الدنيا، وإناطة التكليف والمسؤولية فيها بعنق الإنسان. وإفراد الحساب بالله عز وجل.

أما الأمر الأول: فيسأل الله الكافرين والمقصرين سؤال تقريع وتوبيخ: كم مكثتم في الدنيا؟ فأجابوا لعظم الأهوال وشدة العذاب: مكثنا يوماً أو بعض يوم، فاسأل الحاسبين وهم الملائكة، والمراد توقيفهم على أن أعمارهم قصيرة، لكن الكفر في الدنيا أداهم إلى عذاب طويل.

فأجاب أحد الملائكة الحفظة: ما مكثتم إلا زمناً يسيراً، على أي تقدير، سواء كان المكث في الدنيا أو في القبور، وذلك بالنسبة إلى العذاب الطويل في الآخرة، ولكنكم كنتم لا تعلمون الحقيقة، ولو علمتم فعلاً بها لعملتم بما يرضي ربكم. ثم لبيان الأمر الثاني وهو التذكير بالتكاليف، وبخهم الله على غفلتهم، بما مفاده: أظننتم أنما خلقناكم عبثاً، أي لعباً وباطلاً، بلا قصدٍ كريم، ولا غاية معينة؟! وهل ظننتم أنكم لا تعودون إلينا في الآخرة للحساب والجزاء؟! وهذا هو الأمر الثالث الدال على تفرد الله بالحساب. لقد تنزه الله صاحب الملك الواسع، الثابت الذي لا يتغير ولا يزول، أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه سبحانه الملك الحق المنزه عن ذلك، وهو ذو العرش العظيم البهي، الشامل في تدبيره نظام الكون الرحيب.

ثم توعد الله جلت قدرته عبدة الأوثان: بأنه من يعبد إلهاً آخر مع الله دون حجة ولا دليل، فحسابه عند الله، إنه لا يفوز الكفار بشيء من النعيم وإنما مصيرهم إلى الجحيم، وهذا تأكيد أن الكافر لا يبلغ أمنيته، ولا ينجح سعيه.

وقل أيها النبي الرسول: يا رب اغفر لي ذنوني واستر عيوبي، وارحمني بقبول توبتي، ونجِّني من العذاب الأليم، فإنك صاحب المغفرة الشاملة والرحمة الواسعة.

وأَمْر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالدعاء بالمغفرة والرحمة وذِكْر الله بأنه

أرحم الراحمين: تعليم لأمته، وإرشاد إلى أن الرحمة الحقيقية والشاملة إنما هي لله سبحانه، وما رحمة كل راحم بغيره إلا جزء من مئة من رحمة الله تعالى، فإن الله تعالى أنزل ووزّع في العالم رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعة وتسعين. أخرج البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه والدارمي عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلَقها مئة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلِّهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب، لم يأمن من النار».

تفسير سورة النور

عقوبة الزناة

حرص الإسلام من أجل طهر المجتمع ونقائه، وقوته وبقائه على إشاعة الفضيلة، ومحاربة المنكر والرذيلة، وصيانة العلاقات الإنسانية من المعكرات والأمراض الضارة، ووضع حد ونظام متين لمجتمع يحيا حياة طيبة، وجيل نظيف خال من الشوائب والأخلاط، لذا حرَّم الإسلام الفواحش، وحارب كل اعتداء على الأعراض والأخلاق والأنساب، ووفر الحرية الكريمة والحياة السوية للناس جميعاً، قال الله تعالى في مطلع سورة النور المدنية:

﴿سُورَةٌ(١) أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا(٢) وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [النور: ٢٤/ ١-٣].

المعنى: هذه هي السورة الموحى بها إلى النبي ﷺ والمفروض فيها أحكام تتعلق بالأسرة، وفيها دلائل واضحة وعلامات بيِّنة على توحيد الله وكمال قدرته، لتتذكروها، فتعتقدوا وحدانيته وقدرته تعالى.

---

(١) خبر مبتدأ مضمر تقديره: هذه سورة، أو مبتدأ وخبره مفهوم، تقديره: فيما يتلى عليكم. (٢) أوحينا أحكامها.

والمقصود بكلمة ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أثبتناها وقررناها، فهي أشبه بالفرض في الإلزام، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي على توقع البشر ورجائهم.

ومن هذه الأحكام الأساسية في كيان المجتمع المسلم: أن عقوبة الزناة الأبكار غير المتزوجين هي الجلد مئة لكل من الزاني والزانية في دار الإسلام أياً كان. ولا يحملنكم العطف والرأفة على ترك هذا الحد، فهو حكم الله تعالى، والواجب تنفيذه، والغيرة على حرمات الله، ما دمتم مؤمنين مصدقين بالله وبالآخرة التي يجري فيها الحساب والجزاء، وهذا حث شديد على تطبيق حدود الله وتنفيذها. وتكون إقامة الحد علانية أمام فئة من الناس المؤمنين، تحقيقاً للزجر والردع، وبعداً عن التورط في الفاحشة، وتقريعاً وتوبيخاً لمن تدنّس بها.

والطائفة التي تشهد على إقامة الحد: أقلها واحد، وقيل: اثنان فأكثر، وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنين، أي نفر من المسلمين، ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً.

ثم ذكر الله تعالى قبح مستنقع الفواحش، وأنه يجب تطويقه وعزله عن المجتمع، فأخبر خبراً خرج مخرج الغالب، من غير قصد التحريم الاصطلاحي، وإنما التنزه والابتعاد والترفع عن وسط الزناة، والمعنى: الشأن في الزاني الفاسق الفاجر ألا يرغب إلا في نكاح أمثاله من النساء الزانيات الفاسقات، فهو في العادة لا يرغب إلا في الزواج بأمثاله من الفواسق الخبائث أو المشركات، ممن لا يهتم بعرض ولا يأبه بتعفف، وذلك الزواج بأهل الفسق والبغايا، كان محرماً على أهل الإيمان، فلا يتزوج زانٍ إلا زانية، ولا يتلوث بذلك مؤمن. وهذا التحريم يراد به المبالغة في التنفير والتنزه والتعفف، بدليل إباحة الزواج بأي امرأة لا زوج لها، وهي الأيم وجمعها أيامى، لقول الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢/٢٤] فإنه يتناول البغايا.

وفي الجملة: إن الفاحشة أو الزنا قبيح شرعاً وفي العقل السليم، والفواحش: طريق لتدمير الأمم والشعوب بإشاعة الانحراف، وتحطيم سياج الأعراض والأخلاق، وقد حُرِّم الزنا في كل الأديان، وازداد تحريمه والتشنيع عليه، وتبشيع أمره في القرآن الكريم، وجُعل الزنا في مرتبة الشرك، وصُنِّف الزناة مع المشركين، ومن المعلوم أن الشرك أعظم المعاصي، فما يقترن به يكون قبيحاً مثله. هذا فضلاً عن أن تعاطي الفاحشة يعرِّض صاحبها لألوان الاعتداءات والجنايات المختلفة، بل ويمهد للإصابة بأخطر الأمراض الفتاكة التي لا علاج لها، ومنها مرض فقد المناعة (الإيدز) فإن ٩٠٪ من حالاته بسبب الشذوذ أو الانحراف الجنسي..

عقوبة القاذفين

لقد طوَّق التشريع القرآني مصادر الجريمة، وعمل على استئصال أسبابها، وحارب كل الوسائل المؤدية إليها، لأن المزالق والأساليب هي مبدأ التوجه نحو الغايات، فإذا أُوصد الباب في وجه الوسيلة، امتنع تحقيق الغاية، وإذا حرَّم الإسلام أمراً لقبحه وضرره، حرَّم كل الوسائل المؤدية إليه، لأنها منافذ الخطر. وعلى هذا النهج ترى القرآن الكريم يحرم الزنا لفحشه وضرره البالغ، ويحرم كل ما أدى إليه، وسهَّل إليه من كلام الفحش، وقذف الأعراض، وخدش الكرامات والخلوة بالمرأة، فتكون كلمة القذف، أي النسبة إلى الزنا من غير إثبات بالبينة أو الإقرار حراماً وموجباً لحدٍ مكمل لحد الزنا يسمى حد القذف. قال الله تعالى مبيناً مقدار هذا الحد وطريق التخلص منه بالتوبة الصادقة:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ[1] ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً

(١) يقذفون العفيفات بالزنا.

أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [النور: ٢٤/ ٤-٥].

نزلت هذه الآية في القاذفين، فبعد أن نفّر الله من نكاح الزانيات، وإنكاح الزناة، نهى الله تعالى عن القذف: وهو الرمي بالزنا، أي إلصاق التهمة بعفيف أو عفيفة من دون حجة ولا برهان، وهذا الاتهام وإن ظن بعض الناس أنه لا يستحق عقاباً، فإنه في الواقع أمر خطير ربما يؤدي إلى القتل، أو تدمير كيان الأسرة، أو الإساءة الدائمة للسمعة، بسبب الاستفزاز وإثارة الأحقاد، وإيجاد العداوة والبغضاء، واحتدام السخط والغضب، والغالب أن الغضوب بعيد عن دواعي العقل والحكمة والرشد، فيسارع إلى اتخاذ موقف متهور، يؤدي إلى نتائج خطيرة، بسبب كلمة عابرة أو تهمة كاذبة. لذا طلب القرآن مزيداً من التثبت أو الإثبات للتهمة بأربعة شهود.

والمعنى: إن الذين يتهمون النساء العفيفات الحرائر المسلمات بالزنا، ولم يتمكنوا من إثبات التهمة بأربعة شهود، رأوهن متلبِّسات بالزنا، أي لم يقيموا البينة على صحة القذف الذي تورطوا به، هؤلاء لهم عقوبات ثلاث:

أولها: أن يجلدوا، أي القذفة ثمانين جلدة.

وثانيها: أن تردَّ شهادتهم أبداً، وتسقط عدالتهم، فلا تقبل شهادتهم بعدئذ في أي شيء، مدة العمر.

وثالثها: أن يصيروا فسقة فجرة، ليسوا عدولاً، لا عند الله ولا عند الناس، سواء كانوا صادقين في القذف لكنهم لم يُثْبتوه، أو كاذبين، والفسق: الخروج عن طاعة الله تعالى. وهذا دليل على أن القذف إحدى الكبائر، لما يؤدي إليه من التشنيع، وهتك حرمة أعراض المؤمنات.

وقد ذكر الله تعالى في الآية قذف النساء لأنه أهم، وأكثر إثارة، وأبشع للنفوس. وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى، وإجماع الأمة على ذلك، كالنص القرآني على لحم الخنزير، ودخول شحمه وغضاريفه ونحو ذلك بالمعنى وبالإجماع. وذكر الزهراوي: أن المعنى: الأنفس المحصنات، فهي تعم بلفظها الرجال والنساء. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٤/ ٢٤]. والمحصنات في هذا الموضع: العفائف، لأن هذا هو الذي يجب به جلد القاذف. والعفة أعلى معاني الإحصان، وفي طيه الإسلام والحرية، ونزلت الآية في الحرائر، فيشترط في القاذف أن يكون من أهل التكليف، أي بالغاً عاقلاً مختاراً عالماً بالتحريم، وأن يكون المقذوف محصناً، وهو المكلف (البالغ العاقل) الحر، المسلم، العفيف عن الزنا.

ثم استثنى الله تعالى من تاب وأصلح من بعد القذف، فوعدهم بالرحمة والمغفرة، فمن رجع عن قوله، وندم على فعله، وأصلح حاله وعمله، فلم يعد إلى قذف المحصنات، فيسترد عدالته، ويرتفع عنه صفة الفسق، فإن جمهور العلماء قالوا: الاستثناء المذكور عامل في رد الشهادة، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته، وتوبته: إما بتكذيب نفسه في ذلك القذف الذي حُدّ فيه في رأي جماعة، وإما بالاقتصار على إصلاح نفسه وتحسين حاله، وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب.

قذف الرجل زوجته واللعان

لما نزلت آية رمي المحصنات، تناول ظاهرها الأزواج وغيرهن، مما أوجد الحرج في العلاقات الزوجية، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله، إن وجدت مع امرأتي رجلاً أُمهله حتى آتي بأربعة (أي شهداء)؟ والله لأضربنّه بالسيف غير مُصْفَح عنه، فقال رسول الله ﷺ : «أتعجبون من غَيرة سعد، لأنا أغير منه، والله أغير مني؟». ثم

وقعت حادثتان: الأولى: اتهم هلال بن أمية زوجته بالزنا، وسأل عويمر العجلاني النبي ﷺ عمن وجد رجلاً مع امرأته، كيف يصنع به؟ فنزلت آية اللعان، والمشهور أن واقعة هلال قبل، وأنها سبب الآية الآتية:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا(١) عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [النور: ٢٤/٦-١٠].

الأزواج في هذا الحكم يعم جميع الزوجات مسلمات وغير مسلمات، وإماء، وحرائر، فكلهن يلاعنهن الزوج لنفي الحمل، ويرفع القاذف الحر حد القذف عن نفسه باللعان، أي يلاعن امرأته لرفع حد القذف عن نفسه، فيكون حكم اللعان فرجاً عن الأزواج.

والمعنى: إن الأزواج الذين يقذفون زوجاتهم بالزنا، ولم يتمكنوا من إحضار أربعة شهود، يشهدون بصحة قذفهم، فالحكم الواجب أن يَشْهد الواحد منهم أربع شهادات بالله، إنه لصادق فيما رمى زوجته من الزنا، والشهادة الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما اتهمها به. واللعن: الطرد من رحمة الله. فإذا أدى هذه الشهادات الخمس، بانت منه زوجته، وحرمت عليه حرمة مؤبدة بهذه الأيمان المسماة بأيمان اللعان، ويعطيها مهرها، ويَسْقط عنه حد القذف، وينفى الولد عنه إن وجد، ويتوجه عليها حد الزنا إذا لم تلاعن.

(١) يدفع عنها .

ويدرأ أو يدفع عن الزوجة حد الزنا بأن تحلف بالله أربعة أيمان: أن زوجها كاذب فيما رماها به من الفاحشة، والشهادة الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً فيما يقول.

وجعلت اللعنة للرجل الكاذب في يمينه الخامسة، لأنه مفتر مباهت بالقول، فأبعد باللعنة، وجعل الغضب الذي هو أشد على المرأة التي باشرت المعصية بالفعل، ثم كذبت وباهتت بالقول، وسبب التفرقة بين الرجل بتخصيصه باللعنة، وتخصيص المرأة بالغضب: هو التغليظ عليها، لأنها سبب الفجور ومنبعُه عادة، بإطماعها الرجل في نفسها.

والعدول عن حد القذف إلى أيمان اللعان بين الزوجين في حال الاتهام بالزنا: تخفيف ودفع للحرج عن الأزواج، وفضل ونعمة ورحمة من الله، إذ جعل اللعان للزوج من غير حاجة إلى إثبات قوله بأربعة شهود طريقاً لتحقيق مراده، وللزوجة سبيلاً إلى درء العقوبة عن نفسها، لذا عقب الله تعالى على حكم اللعان (أيمان الملاعنة بين الزوجين) بأنه لولا ما خصكم الله به من مزيد فضله ونعمته، وإحسانه، ورحمته ولطفه بهذا التشريع المخرج من الشدة والضيق إلى الأيسر والأخف، لولا ذلك لوقعتم في الحرج والمشقة في كثير من الأمور، وعوجلتم بعقاب حد القذف، ولكن الله ستركم، وأنقذكم من التورط بتهمة الزنا، بطريق شهادات أو أيمان اللعان، وذلك لأن من الصفات الذاتية لله سبحانه: أنه كتب الرحمة على نفسه، وأنه هو التواب الكثير القبول لتوبة عباده، وإن كان ذلك بعد الأيمان المغلظة، وأنه حكيم فيما يشرعه، ويأمر به، وينهى عنه، فإنه على الرغم من أن أحد الزوجين كاذب في يمينه، فإن عقاب الحد الدنيوي يُدْرأ عنه، ويستحق ما هو أشد منه وهو العقاب الأخروي. وعبَّر الله تعالى في نهاية الآية بكلمة «حكيم» وليس بكلمة «رحيم» مع أن

الرحمة تناسب التوبة وقبولها، لأن الله أراد الستر على عباده، بتشريع اللعان بين الزوجين.

وهكذا يجب اللعان بين الزوجين حين وجود الاتهام برؤية جريمة الزنا، أو من أجل نفي الحمل، فيسقط حد القذف عن الزوج، ويفرق بين المتلاعنين، فلا يجتمعان أبداً ولا يتوارثان.

إدانة المتورطين بقصة الإفك

الإفك: الزور والكذب، والأفّاك: الكذاب، والإفك: قلب الحقيقة عن حالها بالأقوال، وصرفها عن جهة الصواب، وبذلك شبّه بالكذب. وهو في الواقع اختلاف الكذب. وقد أنزل الله تعالى في سورة النور ست عشرة آية لتبرئة السيدة عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها، وما اتصل بذلك من أمر الإفك.

والقصة تدور على استغلال تخلف السيدة عائشة لقضاء حاجتها عن ركب الجند، وعودتها للبحث عن عِقدها الذي أضاعته في غزوة، بني المصطلق سنة خمس من الهجرة، وهي غزوة المريسيع، والمريسيع: ماء لبني المصطلق، من ناحية قُدَيد إلى الساحل ناحية البحر الأحمر. وكان قائد الفتنة الذي أشعل نارها: هو زعيم المنافقين عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، وتورط معه ثلاثة، وهم حسان بن ثابت، ومِسْطح بن أُثاثة، وحَمْنة بنت جحش. وقد استغل المنافق ابن أُبي هذه الحادثة ليلصق التهمة بعائشة حين وجد صفوان بن المُعَطّل السُّلَمي يقود راحلته التي أركب عليها عائشة. فنزلت الآيات التي تبرئ السيدة عائشة، وتلوم مروجي الإشاعة الكاذبة، وتؤدب الصحابة بآداب عظيمة في مثل هذه الحادثة . قال الله تعالى مبيناً إدانة المتورطين بهذه التهمة الخطيرة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ(١) عُصْبَةٌ(٢) مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ(٣) مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ(٤) فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النور: ٢٤/ ١١-١٤].

هذه الآيات الكريمة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، ودحض الافتراء الشنيع، وهي تبدأ في بيان القصة من أولها، وأولها: إن الذين فعلوا هذا الفعل جماعة محسوبون على المؤمنين، وهؤلاء الجماعة أتوا بأبلغ الكذب، وأعظم الافتراء، وهو الإفك، الذي كان وراءه ثلاثة بزعامة منافق، وهو عبد الله بن أبي، فإنه هو الذي اختلق الكذب على السيدة عائشة رضي الله عنها، وتواطأ مع جماعة صغيرة لترويج الخبر بين الناس، وإشاعته قريباً من شهر، حتى نزل القرآن الكريم مبيناً أسبابه ودروسه ونتائجه.

واسى الله تعالى أسرة أبي بكر في هذه التهمة المفتراة فقال: لا تظنوا يا آل بكر بأن ذلك الافتراء شر محض لكم، وإساءة إليكم، بل هو خير لكم في الدنيا والآخرة، لإظهار مدى العناية بعائشة بنت الصدّيق رضي الله عنها، حين برأها الله في القرآن العظيم، وجعله حكماً ونصاً يتلى إلى يوم القيامة، ومن أجل كسبكم الثواب العظيم به في الدار الآخرة.

وأما دعاة الفتنة فلكل واحد تكلم في هذه الفرية ورمى أم المؤمنين عائشة بالفاحشة، فله نصيب من العذاب الشديد، بقدر ما خاض فيه.

(١) أقبح الكذب. (٢) عصبة: أي جماعة بدل من الضمير في ((جاؤوا))، وجملة ((لا تحسبوه)) خبر ((إن)) والتقدير: إن فعل الذين. (٣) تحمل معظمه وهو رأس المنافقين. (٤) خضتم فيه.

والذي تحمل معظم الإثم منهم: هو عبد الله بن أبي زعيم المنافقين، له عذاب عظيم في الدنيا والآخرة، فإنه أولُ من اختلق هذا الخبر، ومعظم الشرّ كان منه، أما عذابه في الدنيا: فبإظهار نفاقه ونبذه من المجتمع، وأما في الآخرة: فهو في الدرك الأسفل من النار.

ثم أدّب الله تعالى المؤمنين بمناسبة هذه القضية وزجَرَهم بتسعة أشياء: أذكر منها هنا أدبين وأمرين خالفوا بهما أحكام التشريع الأساسية. وهما: هلا حين سمعتم أيها المؤمنون كلام الأفاكين في أم المؤمنين عائشة، ظننتم بها خيراً بمتقضى الإيمان الذي يحمل على حسن الظن! وهلا بادرتم إلى القول صراحة: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ أي كذب مختلق، واضح مكشوف على أم المؤمنين رضي الله عنها! فإنها جاءت راكبة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش كله يشاهد ذلك، ولو كان فيه شيء من الريبة، لما تم الأمر هكذا جهاراً نهاراً.

وهلا أتى الأفاكون على ما قالوا بأربعة شهود، يشهدون على ثبوت التهمة، وصحة المعاينة، فحين لم يأتوا بالشهود لإثبات التهمة، فأولئك في حكم الله كاذبون فاجرون، وهذا من الزواجر، ومن التقصير في القيام بعبء الإثبات، عملاً بالقاعدة الكبرى: «البيِّنة على من ادعى، واليمين على من أنكر».

تأثيرات قصة الإفك في المؤمنين

إن الاتهام الرخيص سرعان ما يتبدد ويزول أثره، ولا سيما إذا تولى الله تعالى بنفسه الدفاع عن سمعة المؤمن، وحماه وبرَّأه، وقد كان لقصة الإفك أبعاد أو أحكام تنفيذية سريعة: وهي أن زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي أرجئ عذابه، فكان العذاب المتوعد به هو عذاب الآخرة، وأن حسّان ومِسْطحاً وحَمْنة بنت جحش أقيم عليهم

حد القذف، وأن الذين أشاعوا الخبر لامَهم الله تعالى لوماً شديداً، ووبخهم توبيخاً مهيناً، وهدَّدهم بالعذاب، وعلّمهم الوحي الإلهي وجوب الالتزام بآداب معينة، أذكر منها هنا ستة، كلها ذات وقع شديد، وتتضمن التهديد والوعيد، قال الله تعالى مبيناً هذه التأثيرات لقصة الإفك:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا[1] وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ[2] عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور: ٢٤/ ١٤-٢٠].

المعنى: لولا تفضل الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي منها الإمهال للتوبة، ولولا رحمته بكم في الآخرة بالعفو والمغفرة، لعجّلتُ بكم العقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك، وهذا من الزواجر أيضاً.

- ولولا فضل الله عليكم لمسكم العذاب حين تلقيتم أو تلقفتم بألسنتكم حديث الإفك وسؤال بعضكم عنه، وإكثار الكلام فيه، وقولكم ما لا تعلمون، وظنكم ذلك أنه أمر سهل يسير، وهو في حكم الله عظيم الخطر، ومن الكبائر. وهذا من الزواجر كذلك وعتاب على تناقل الأخبار، والإفاضة في الحديث، وإشاعة الكلام.

- وهلا حين سمعتم ما لا يليق من فحش الكلام وخبث المقال قلتم: ما ينبغي وما يصح لنا ولا يحل أن نتفوه بهذا الكلام، ونخوض في عرض النبي ﷺ، فالعقل

(١) تظنونه سهلاً. (٢) كذب محيّر.

والدين يمنعان الخوض في مثل هذا، وهذا تأديب جم، وعتاب لجميع المؤمنين؛ بأنه كان ينبغي عليهم إنكار هذا المقال وترك حكايته ونقله، وأن يحكموا عليه بالبهتان: وهو أن يقول الإنسان في غيره ما ليس فيه. ويحذر الله المؤمنين من العود لمثله، أي ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا في المستقبل، ما دمتم أحياء مكلفين، وكنتم من أهل الإيمان بالله وشرعه، وتعظيم رسوله ﷺ، ويوضح الله لكم الأحكام الشرعية والآداب الدينية والاجتماعية، والله تام العلم بما يُصلح عباده، وكامل الحكمة في شرعه وقدره وتدبير شؤون خلقه، وهذا من الزواجر العظام.

- وإن الذين يُشيعون الفاحشة عن قصد وإرادة في أوساط المؤمنين لهم عذاب مؤلم في الدنيا، وهو حد القذف، وفي الآخرة لهم عذاب النار، والله يعلم بحقائق الأمور علماً تاماً، فردوا الأمر إليه ترشدوا، وأنتم بسبب نقص علمكم لا تعلمون تلك الحقائق.

- ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم، لكان أمر آخر، أي لهلكتم أو لعذبكم الله واستأصلكم، ولكنه تعالى رؤوف بعباده، رحيم بهم، فتاب على التائبين من هذه القضية، وأرشد إلى ما فيه الخير، وهدى إلى الطريق القويم، وأبان خطر هذا الفعل الشنيع، وهو الطعن بعرض بيت النبوة.

لقد تضمنت هذه الآيات في بدايتها وخاتمتها بيان سبق الرحمة الإلهية، وإسباغ الفضل الإلهي على الفئة التي تورطت في ترداد الأخبار الملفقة، وتناقل الحديث من لسان إلى لسان، وما بين البداية والنهاية لوم وتقريع، وعتاب وتوبيخ، وأن مجرد التحدث في عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إيذاء كبير للنبي وزوجه ولآل أبي بكر. فيكون الخوض في مثل هذا ممنوعاً، ويحتاج مثله إلى التثبت والروية، وتبيُّن الحقيقة، كما قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أو «فتثبتوا» [الحجرات: ٤٩/٦].

التحذير من آثار قصة الإفك

كان لآثار قصة الإفك آثار تربوية عظيمة، ونتائج إنسانية سامية، وأهمها ثلاثة: التحذير من اتباع خطوات الشيطان أو وساوسه، وتدنيس سيرة المتورطين في هذا الذنب وإساءة سمعتهم، وحث أبي بكر على مواصلة مسطح ابن خالته، على الرغم من اشتراكه في ترويج أباطيل زعيم المنافقين: عبد الله بن أُبي، وتجاوز هذه الآثار كان بفضل من الله ومغفرة وعفو عن المسيئين، وبه تنتهي فتنة ابن أُبي التي روَّجها بين المسلمين، فقال الله تعالى معدداً هذه الآثار:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ(١) وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم(٢) مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ(٣) أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ(٤) مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ(٥) أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: ٢٤/ ٢١-٢٢].

- هذا خطاب لجميع المؤمنين، مطلعه التحذير من وساوس الشيطان، ومضمونه لا تمشوا في سبل الشيطان وطرقه وأفعاله الخبيثة، ولا تسمعوا لوساوسه، فإن من يتبع وساوس الشيطان خاب وخسر، لأن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء (وهو ما أفرط قبحه) والمنكر (ما أنكره الشرع وحرمه وقبحه العقل ونفر منه) فلا يصح لمؤمن إطاعة الشيطان، وهذا نهي لكل المؤمنين في كل زمان، وخوطب المؤمنون بهذا ليتشددوا في ترك المعاصي، ولئلا يتشبهوا بحال أهل الإفك.

- وكرر الله تعالى تأكيد منّته وفضله على عباده، فلولا تفضل الله على المؤمنين

---

(١) طرقه ومذاهبه. (٢) ما تطهر من الذنوب. (٣) أي لا يحتلف من الأليَّة: وهي اليمين. (٤) أهل التدين والإحسان. (٥) الغنى.

بالنعم ورحمته السابغة، بالتوفيق للتوبة الماحية للذنوب، ما طهَّر أحداً من ذنبه، ولا خلّصه من أمراض الشرك والفجور، والأخلاق المزدولة، وإنما عاجله بالعقوبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ١٦/ ٦١].

ومن فضل الله تعالى أنه يطهر من يشاء من ذنبه بقبول توبته، وتوفيقه إلى ما يرضي ربه، ومن ذلك قبولُ توبة حسان ومسطح وغيرهما من أهل الإفك، والله سميع لأقوال عباده، عليم بمن يستحق الهدى والضلال، و بجميع الأقوال والأفعال، وهذا حث على التوبة المخلصة من كل الذنوب.

وآية ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ﴾ نزلت في أبي بكر حيث حلف على ألا ينفق على قريبه ابن خالته الفقير مسطح، وقد كان يتيماً في حِجْره، وكان ينفق عليه وعلى أقاربه. والمعنى: لا يحلف أصحاب الفضل في الدين والخُلُق والإحسان، وأصحابُ السعة في المال والثراء: ألا يعطوا أقاربهم المساكين المهاجرين، كمسطح ابن خالة أبي بكر الذي كان فقيراً مهاجراً من مكة إلى المدينة، وشهد بدراً، وهذا حث على صلة الرحم، وتلك الصلة عمل إنساني كريم مبارك.

وليعف الأغنياء والأقوياء عن المسيء، وليصفحوا عن خطأ المذنب، فلا يعاقبونه ولا يَحْرمونه من عطائهم، فإن من أخطأ مرة لا يشدد عليه في العقاب.

ألا تريدون أن يغفر الله لكم، أي يستر عليكم ذنوبكم، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما يغفر الإنسان ذنب المذنب يغفر الله له، وكما يصفح المرء عن المسيء يصفح الله عنه، والله تام الرحمة، وواسع المغفرة لذنوب عباده الطائعين التائبين، رحيم بهم، فلا يعذبهم بزلة حدثت، ثم تابوا عنها. وهذا ترغيب في العفو والصفح، ووعد كريم بمغفرة ذنوب التائبين، لذا بادر أبو بكر الصديق إلى القول: «بلى والله، إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا» ثم أعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه، وقال: «والله لا أنزعها منه أبداً».

جزاء القاذفين في الآخرة

إن الذين يقدحون في أعراض أهل العفة والصون من المؤمنات والمؤمنين يرتكبون جرماً عظيماً، وإثماً كبيراً، يستحقون بموجبه العقاب في الدنيا والآخرة، وجاء الوعيد على ذلك بمناسبة قصة الإفك، وتورط بعض الناس بقذف السيدة عائشة رضي الله عنها، والوعيد لا يقتصر عليها، بل يشمل جميع أزواج النبي ﷺ، غلّظ الله أمر رميهن لمكانهن من الدين، فلعن قاذفهن، ولم يقرن بآخر الآية توبة. وقال جماعة من العلماء: بل هي في شأن عائشة رضي الله عنها إلا أنه يراد بها كل من اتصف بهذه الصفة، قال الله تعالى مبيناً خطورة القذف، أي رمي النساء كذباً بالفاحشة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ[1] وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٢٣-٢٦].

هذا وعيد شديد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات المؤمنات العفيفات، خرج مخرج الغالب، ويشمل أيضاً من رمى المحصن المؤمن العفيف.

والمعنى: إن الذين يتهمون النساء الحرائر، العفيفات، البعيدات عن المعاصي والفواحش، النقيات من كل تهمة باطلة، المؤمنات بالله ورسوله، لعنوا في الدنيا والآخرة، أي طردوا من رحمة الله في الآخرة، وعُذِّبوا في الدنيا بحد القذف، جزاء جرمهم وافترائهم. وهذا دليل على أن القذف من الكبائر. أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

(١) جزاءهم الثابت لهم.

«اجتنبوا السبع الموبقات..» وذكر منها: قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وهذا العقاب في الدرجة الأولى لزعيم المنافقين عبد الله بن أُبي وأشباهه.

قال الإمام الزمخشري: «ولو قلَّبت القرآن كله، وفتّشت عما أوعد به العصاة لم تر الله عز وجل قد غلظ في شيء تغليظه في الإفك، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم، وأنه يوفيهم جزاء الحق الذي هم أهله حتى يعلموا أن الله هو الحق، فأوجز وأشبع، وفصّل وأجمل، وأكدّ وكرر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة».

ثم أخبر الله تعالى أن عذاب القاذفين يوم القيامة يكون بشهادة أعضائهم عليهم، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما عملوا في الدنيا من قول أو فعل، بأن يُنطقها الله بقدرته، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ٢١].

في ذلك اليوم الرهيب يوفيهم الله حسابهم، أو جزاءهم على أعمالهم، ويعلمون أن وعد الله ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

ثم سنّ الله قانوناً عاماً يدل دلالة مادية حسية على براءة السيدة عائشة رضي الله عنها، وهو أن النساء الزواني الخبيثات للخبيثين من الرجال، والخبيثين الزناة من الرجال للخبيثات من النساء، فاللائق بكل واحد أمثاله، فشأن الخبيثات تزوج الخبيثين، وشأن الطيبين تزوج الطيبات. أولئك الطيبون والطيبات كصفوان بن معطّل المتهم البريء، وعائشة الصديقة التي هي أسمى وأرفع من التهمة، بعيدون مبرؤون عما يقوله أهل الإفك والبهتان، ممن تميزوا بالخبث والدنس والتلوث بالمنكرات.

وأولئك المبرؤون من التهم الباطلة لهم مغفرة عن ذنوبهم بسبب ما قيل فيهم من الكذب، ولهم رزق كريم عند الله في جنات النعيم.

إن هذه الآية تضع حداً فارقاً بعيد الجانبين، بُعْد السماء عن الأرض بين حكم عبد الله بن أُبي وأشباهه من المنافقين، وبين حكم النبي ﷺ وفضلاء الصحابة رضوان الله عليهم، وأمته، أي إن النبي ﷺ طيب، فلم يجعل الله له إلا كل طيّبة، وأولئك خبيثون، فهم أهل النساء الخبيثات.

آداب الاستئذان

الساحة الإسلامية ملأى بالآداب والأخلاق الرفيعة ذات المعاني الحضارية السامية، والمقومات الأساسية لبناء المجتمع الفاضل، وإشاعة المودة والمحبة بين الناس، والحفاظ على الروابط الأسرية والاجتماعية، والقصد من تشريع هذه الآداب صون قاعدة الحرية، والاحتفاظ بالأسرار الشخصية، والترفع عن المباذل والدناءات وسفسافِ الأمور، ووضعُ الحواجز والموانع التي تمس العورات والأعراض، وتتعلق بخصوصيات الإنسان. قال الله تعالى مبيناً حكم الاستئذان عند الدخول إلى بيوت الآخرين، وآدابه وضوابطه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا(١) وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ(٢) وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ(٣) أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ(٤) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٢٧-٢٩].

---

(١) تستأذنوا . (٢) أطهر لكم من الريبة . (٣) إثم . (٤) منفعة ومصلحة لكم .

المعنى: يا أيها المصدقون بالله ورسوله لا تدخلوا بيوت غيركم حتى يؤذن لكم، وحتى تسلّموا على أهل البيت، حتى لا تقعوا على عورات غيركم، ولا تنظروا إلى ما لا يحل النظر إليه، ولا تفجؤوا الساكنين أو تزعجوهم، فيحدث النفور والكراهية. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ معناه: حتى تستعلموا من في البيت وتستبصروا وتستكشفوا الأمر، وتحصلوا على الإذن. ويكون الاستئذان ثلاث مرات فقط كما ورد في السنة الثابتة.

وحكمة الاستئذان واضحة: وهي توفير حرمة المسكن وحرية السكان، لذا قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي إن الاستئذان خير وأفضل للطرفين، المستأذن وأهل البيت، فهو خير من الدخول فجأة، وخير من تحية الجاهلية، وهي: أنعم صباحاً، أو مساء، وقد أنزل الله عليكم هذا الأدب، وأرشدكم إليه، لتتذكروا وتتعظوا، وتعملوا بالأصلح لكم. فإن لم تجدوا في بيوت غيركم أحداً يأذن لكم، فلا تدخلوها حتى يأذن لكم صاحب الدار، فلا يحل الدخول في هذه الحالة، لأنه تصرف في ملك الغير بغير إذنه، ولأن للبيوت حرمة، وهي محل السكن الخاص والطمأنينة الشخصية، والراحة والوداعة.

وإن طلب منكم صاحب البيت الرجوع بعد الاستئذان، فارجعوا، فإن الرجوع هو خير لكم وأطهر في الدين والدنيا، ولا يليق بكم أيها المؤمنون الإلحاح في الاستئذان والوقوف على الأبواب، ففي ذلك ذل ومهانة. والله عليم بنياتكم وأقوالكم، وأفعالكم ونظراتكم.

ولا إثم ولا حرج عليكم من الدخول إلى بيوت لا تستعمل للسكنى الخاصة، كحوانيت التجار والحمامات العامة، والأماكن المخصصة للتسلية البريئة، وذلك إذا كان لكم فيها مصلحة أو انتفاع كالمبيت فيها، وتخبئة الأمتعة، والمعاملة بالبيع والشراء وغير ذلك.

والله تعالى عليم بما تظهرونه من استئذان عند الدخول، وما تضمرونه من قصد سيء، وتدخُّل في شؤون الآخرين، وحب الاطلاع على عورات الناس وخصوصياتهم وهذا وعيد لأهل الريبة الذين يدخلون البيوت للتلصص، واستراق السمع، ومعرفة الأسرار.

يتبين من هذه الآية أنها تشتمل على حكمين:

الحكم الأول: وجوب الاستئذان حين الدخول إلى بيوت الآخرين المسكونة.

والحكم الثاني: السماح بالدخول إلى البيوت غير الآهلة بالسكان، وليس فيها أحد، إذا كان للداخل متاع فيها، وذلك بغير إذن، كالمضافة العامة، والنُزُل المخصصة للمسافرين والعابرين.

والمهم في الاستئذان: هو تجنب النظر إلى ما يؤذي أهل البيت، فقد قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن سهل بن سعد: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر». وذلك للبعد عن المضايقات، وتربية الإنسان على الخلق الكريم، والحياء والأدب الجم، ورقابة الله في السر والعلن، فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

غض البصر والحجاب

لقد نظم الشرع الحنيف العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس من الثقة والحياء والاحترام المتبادل، وترك الاسترسال في التفكير بالخصوصيات المتعلقة بكل منهما، والتي تحتاج إلى وجود مسوغ شرعي واضح ودائم، وبعيد عن ساحات الحياة العامة والأنظار الشائعة، ليكون كل شيء في وضعه السليم، وفي موضعه الملائم، لذا أمر الشرع بغض البصر من الجنسين، وبستر ما يجب ستره، منعاً من التشبه بالبدائيين،

وحفاظاً على الأعراض والحرمات والكرامات، قال الله تعالى مبيناً حكم النظر والحجاب، وذلك من قبيل سد الذرائع ومنع الوسائل إلى الحرام:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ(١) وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ(٢) بِخُمُرِهِنَّ(٣) عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ(٤) وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ(٥) أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ(٦) مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا(٧) عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٠-٣١].

نزلت هذه الآية في رجل وامرأة تبادلا نظرات السوء، زاعمين أنهما نظرا إلى بعضهما إعجاباً وإعظاماً، بفعل وسوسة الشيطان، ولكن الحقائق أقوى من الوسواس، والله لا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

لذا أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول للمؤمنين: كفّوا أو غضوا أبصاركم، فلا تنظروا إلا إلى ما أبيح النظر إليه. والمعنى: قل لهم: غضوا يغضوا. والغض لبعض الأبصار، لتوبيخ من يكثر التأمل في الحرام. ومع غض البصر حفظ الفروج من ارتكاب الفواحش، فإن غض البصر وحفظ الفرج خير وأطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، فإن الله تام العلم بكل ما يصدر عن الناس من أفعال. وهذا تهديد ووعيد.

وخلافاً للمعتاد في أن خطاب الرجال يتناول النساء، أفرد الله النساء أيضاً

---

(١) يكفوا من نظرهم إلى الحرام. (٢) وليلقين. (٣) أغطية رؤوسهن. (٤) على صدورهن وما حولها.
(٥) لأزواجهن. (٦) أصحاب الحاجة للنساء. (٧) لم يطلعوا.

بالأمر بغض الأبصار في النظر إلى الرجال، و بحفظ الفروج من الفواحش والشذوذ، حفاظاً على الحرمات والأعراض، وتوفيراً للحرية المنظمة أو المنضبطة، وإبعاداً عن تلويث السمعة، وحفظاً للصحة والكمال الإنساني.

ثم أعقب الله ذلك الأمر المشترك بين الرجال والنساء ببيان أحكام خاصة بالنساء وهي:

١- ألا تُظهر النساء شيئاً من مواضع الزينة للأجانب غير المحارم، إلا ما جرت العادة بظهوره: وهو الوجه والكفان والثياب الظاهرة. وهذا دليل على أن الوجه والكفين ليسا بعورة إذا لم تحدث فتنة.

٢- وعلى النساء ستر الرأس وكامل الجسد، ولا سيما أجزاء الصدر لستر الشعر والعنق ونواحي الصدر. وسبب هذه الآية: أن النساء كن في الجاهلية إذا غطين رؤوسهن بالأخمرة سدلنها من وراء الظهر.

٣- ولا تظهر النساء زينتهن الخفية إلا للمحارم ونحوهم وهم الأزواج وآباء الأزواج، والآباء والأبناء والبنات، وأبناء الأزواج والإخوة وبنو الإخوة وبنو الأخوات، والنساء من جنسهن، والمماليك من الرجال والنساء، والأطفال الصغار دون العاشرة، والتابعون غير أولي الرغبة أو الحاجة إلى النساء.

وتدل الآية على أن المرأة مأمورة بألا تبدي زينتها لغير المحارم وغير الأزواج والأتباع، وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، إلا ما غلب عليها، فظهر بحكم ضرورة حركة لا بد منها أو إصلاح شأن ونحو ذلك، فهذا الذي يظهر للضرورة من المعفو عنه، وغالب الأمر أن الوجه والكفين يكثر منهما الظهور، وهو الظاهر في الصلاة، ويحسن الاحتياط ومراعاة فساد الناس، واستتار الحسنة الوجه إلا من ذي رحم محرم.

ولا يجوز للمرأة أن تلفت النظر إليها أثناء المشي، فلا تدق الأرض برجلها،

ليعلم الناس صوت خلخالها، لأنه مظنة الفتنة والفساد، ولفت النظر وإثارة المشاعر غير الشريفة، وما أوقع وأحكم خاتمة الآية، فهي تأمر جميع الناس بالتوبة الخالصة، وبطاعة الله، والإنابة إليه، ليتحقق الفوز والفلاح وسعادة الدنيا والآخرة.

الترغيب في الزواج والاستعفاف

مامن نهي عن شيء ضار في الإسلام إلا ويقابله الأمر بممارسة شيء نافع، فقد نهى الله تعالى عما لا يحل، مما يؤدي إلى الفاحشة من إرسال البصر والتلوث بالمنكر، ثم أعقبه ببيان طريق الحل وهو الزواج المؤدي للعفة والصون، وبقاءِ النوع الإنساني، وحفظ الأنساب، ودوام الألفة والمحبة، وبناءِ الأسرة القويمة، لذا رغب الشرع الحنيف بالزواج والاستعفاف، وحذر من البغاء، وحض على تحرير الأرقاء، وإعتاق العبيد، والتخلص من ظاهرة الرق الشاذة، وندب إلى مكاتبة ملك اليمين على عوض مقسط، إذا احتاج السيد لذلك، ورغّب الموسرين في مساعدة المكاتبين على أداء بدل الكتابة للتحرر السريع، قال الله تعالى مبيناً هذه الأمور المتعلقة بالزواج والعفة وتحرير الأنفس:

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ[١] مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ[٢] مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ[٣] إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا[٤] لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٢-٣٣].

---

(١) من لا زوج لها، ومن لا زوجة له. (٢) يطلبون المكاتبة من مماليككم. (٣) الزنا. (٤) تعففاً.

هذه الآية خطاب للأولياء المأمورين بتزويج من لا زوج له ومن لا زوجة له، والمعنى: زوِّجوا أيها الأولياء الأيامى: وهم كل رجل أو امرأة لا زوج لهما، وزوِّجوا الصالحين من الأولاد والإماء للزواج، وهذا الأمر للندب والاستحسان. والصلحاء: هم القائمون بأوامر الدين، المبتعدون عن النواهي والمحظورات، وظاهر الآية: أن المرأة لا تتزوج إلا بولي، سواء كانت صغيرة أو كبيرة.

ولا يتعلل الأولياء بفقدان المال، فالله تبارك وتعالى وعد بإغناء الفقراء المتزوجين، طلباً لرضا الله عنهم، واعتصاماً من معاصيه، فلا تنظروا إلى مشكلة الفقر، فقر الخاطب أو المخطوبة، فإن في فضل الله ما يغنيهم، والله غني ذو سعة، لا تنْفَد خزائنه، ويبسط الرزق لعباده على وفق الحكمة والمصلحة، ويخص الأزواج بمزيد من العطاء، لاستمرار الحياة الزوجية، قال عمر رضي الله عنه: عجبي ممن لا يطلب الغنى بالنكاح، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾. وأخرج ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ، كلهم حق على الله عونه: المجاهد في سبيل الله، والناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء».

ثم أمر الله تعالى كلّ من يتعذر عليه الزواج، ولا يجده بأي وجه تعذّر: أن يستعفّ، حتى يتيسر له الغنى، ويتفضل الله عليه بالإغناء، ولا يقنط من رحمة الله وفضله، فإن الله واسع الغنى، تام العلم بأحوال الناس، خَلَق الخلْق وتكفل برزقهم، وإذا كان الإنسان محاطاً بعلم الله، ومزوداً بنعم الله، فلماذا يعصي ربه؟

ثم أمر الله تعالى المؤمنين كافة أن يكاتب السادة مماليكهم، وعقد الكتابة: الاتفاق على أداء مال معين في مدة معينة، يتحرر المملوك بعدها. فإن طلب المملوك الكتابة، وعلم سيده منه خيراً، فيستحب له الموافقة على مكاتبته.

وسبب نزول الآية: أن غلاماً لحويطب بن عبد العُزّى سأل مولاه الكتابة، فأبى عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكاتبه حويطب على مئة دينار، ووهب له منها عشرين ديناراً، فأداها، وقتل يوم حنين في الحرب.

ورغب القرآن الكريم السادة في ترك شيء للعبد المكاتب من أقساط الكتابة بقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قال المفسرون: هو أمر لكل مكاتِب أن يضع للعبد من مال كتابته. واستحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يكون ذلك ربع الكتابة. وهذا مروي عن النبي ﷺ حيث روى عبد الرزاق وغيره عن علي عن النبي ﷺ قال: «يُترك للمكاتب الربع».

ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن الكسب الحرام، فذكر: لا تجبروا إماءكم على الزنا، سواء أردن التعفف عنه أو لا، بقصد الحصول على أعواض مادية، وأما قوله سبحانه: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ فهو قيد لحكاية الحال التي كانت قائمة، وبيان الواقع الذي نزلت الآية بسببه، لما أخرجه ابن مردويه عن علي رضي الله عنه: أنهم كانوا في الجاهلية يُكرهون إماءهم على الزنا، ليأخذوا أجورهن، فنُهوا عن ذلك في الإسلام، ونزلت الآية .

وكان عبد الله بن أُبي بن سلول يأمر أمته مُسَيكة أو معاذة بالزنا والكسب به، وإذا كان تشغيل الأمة في البغاء لعوض مالي محرماً شرعاً، فمن باب أولى أن يكون طلب البغاء مجاناً ممنوعاً أيضاً. وقوله تعالى: ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في هذه الآية: الشيء الذي تكتسبه الأمة بفرجها.

ومن يقدم على إكراه الإماء على البغاء من غير رضاً منهن، فإن الله تعالى بعد إكراههن غفور لهن، رحيم بهن، كما أنه سبحانه غفور للمكرِهين إن تابوا وأنابوا.

تنوير النفوس والكون

لقد كانت وما زالت مهمة القرآن العظيم بيان نعم الله تعالى على عباده قاطبة، فالله سبحانه وتعالى أنزل القرآن آيات منيرات للنفوس، وهو عز وجل منوِّر السموات والأرض بأنواره الذاتية، ليكون الناس على بيِّنة من أمرهم، فإذا قدَّروا نعمة الله، وتدبّروا آيات الله في قرآنه، وعرفوا مدى فضل الله في تنوير الكون سمائه وأرضه، وجب عليهم طبعاً وعقلاً وأدباً، شكر المنعم وعبادته وطاعته في كل ما أمر به ونهى عنه، لأن القصد من التنوير: هو هداية أهل السماوات والأرض، تلك الهداية التي بلغت الغاية في الظهور والجلاء، قال الله تعالى موضحاً نعمته في التنوير أو الهداية:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ(١) وَمَثَلًا(٢) مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ٱللَّهُ نُورُ(٣) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ(٤) فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ(٥) يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٤-٣٥].

هذه هي آيات التنوير الحسي والمعنوي، المادي والقلبي، فلقد وصف الله تعالى في الآية الأولى القرآن الكريم بصفات ثلاث وهي:

أولاً- لقد أنزلنا في هذه السورة - سورة النور وغيرها آيات مفصّلات الأحكام والحدود والشرائع التي يحتاج الناس إليها، وموضحات الحق ومعالمه ودروبه.

ثانياً- أنزل الله في قرآنه أيضاً أمثلة من أخبار الأمم المتقدمة، وضرب للناس من أمثال الماضين من الأمم، ليقع التحفظ والحذر مما وقع أولئك فيه.

---

(١) أي بينت الحق وأوضحته. (٢) أي قصة عجيبة من قصص الأمم الغابرة. (٣) منورهما ومدبرهما.
(٤) أي كُوَّة أو طاقة مغلقة غير نافذة من الخلف. (٥) مضيء.

ثالثاً- وأنزل الله سبحانه مواعظ وزواجر لمن اتقى الله وخاف عذابه فتلك الآيات الموضّحة، والأمثلة المؤثرة، والمواعظ الزاجرة هي لخير الإنسان، وهي نعمة جليلة من نعم الله على المؤمنين، وهذه هي آيات التنوير الحكمي أو المعنوي. وسبب ذلك أن الله تعالى ذو نور السموات والأرض، فهو منورهما، فبقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، وقامت مصنوعاتها، فهو مصدر النور، وخالق النور، وماحي الظلام، ومدبر الكون بنظام دقيق، وهذا هو النور الحسي. وتقريباً لأذهان الناس وتصوراتهم المحدودة، شبَّه الله نوره بنور مصباح في زجاجة موضوعة في كوة أو طاقة غير نافذة من الخلف، لينبعث النور في اتجاه معين نحو المنزل مثلاً، وكل ذلك منير، فكأن زجاج هذا المصباح في إضاءته وصفائه كوكب عظيم من الكواكب السيارة، وزيت المصباح مستخرج من زيت زيتون من شجرة مباركة كثيرة المنافع، زرعت في جبل عال أو صحراء، ليست فقط متعرضة لنور الشمس وقت شروقها، ولا وقت غروبها، بل هي في مكان وسط، تتعرض للشمس وقت الطلوع ووقت الغروب، ومن أول النهار إلى آخره.

ويكاد زيتها لصفائه وبريقه يضيء بنفسه، قبل إضاءته ومسّ النار له، لأن الزيت الصافي يرى من بعيد كأنه ذو شعاع، فإذا مسَّته النار، ازداد ضوءاً على ضوء، ومثل ذلك قلب المؤمن، يعمل بالهدى الإلهي قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم، ازداد نوراً على نور، وهداية على هداية، لأن الله تعالى هو الذي أبدع الموجودات، وخلق العقل نوراً هادياً، فالعاقل يدرك عظمة المخلوقات، ويهتدي إلى خالقها، فإذا اكتملت الهداية بالكتاب الإلهي المنزَّل، واستنار الإنسان بإرشادات الرسول المرسل، وضحت الأمور وضوح الشمس.

وهكذا مثل المصباح بالزيت الصافي: هو نور متضاعف، اجتمعت المشكاة

(الطاقة) والزجاجة، والمصباح، والزيت، فالمشكاة تحصر النور في اتجاه واحد كحزمة الضوء الصادر من ضوء السيارة مثلاً، وبهاءُ الزجاجة يزيد النور تألقاً، والقنديل مصدر الإشعاع قوي كاف لتوجيه الإنارة، وصفاء الزيت يساعد على توافر تمام الإضاءة، فهي عوامل أربعة.

ويرشد الله تعالى لهدايته، ويوفق عباده لاختيار الصواب، بهذه الأمثلة كلها، وتتضح الرؤية للحق بالنظر والعقل وإعمال الفكر.

ويبين الله تعالى للناس الأمثلة الموضحة، ودلائل الإيمان، ووسائل الهداية الكافية، لترسيخها في الأذهان، من طريق تصوير المعاني بصور المحسوسات المألوفة، والله عالم تام العلم بكل الأشياء المعقولة والحسية، الباطنة والظاهرة، يمنح الهداية لأهلها، ويوفق للخير والحق المستعد لتلقيها.

المنتفعون بنور الله تعالى

الأنوار الإلهية الهادية إلى الحق وإلى صراط مستقيم ترشد العباد إلى ما يحقق لهم الخير والسعادة، فيكون هناك تلازم وتواصل بين النور والمنوَّر عليهم، وإذا تحققت الاستنارة من الناس انتفعوا بالنور الإلهي، وبادروا لإعمار بيوت الله عمارة معنوية بالصلوات والأذكار وتلاوة القرآن، وأولئك هم الصفوة المختارة الباقية على منهج الحق إلى يوم القيامة، فهم لا ينشغلون بزينة الحياة الدنيا، و يخشون ربهم، ويبادرون إلى طاعة الله تعالى، ليقدِّموا لآخرتهم أحسن الأعمال، ويستمتعوا بأفضال الله وكرمه، ويدوم عليهم إدرار الرزق والعطاء من غير انقطاع ولا مِنّة ولا زوال، قال الله تعالى واصفاً أحوال المهتدين بالنور الإلهي:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ[1] وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[2] ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[3] ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٦-٣٨].

مطلع هذه الآية ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلقة بما قبلها، تقديره كمشكاة كائنة أو مصباح كائن في بيوت أمر الله برفعها بالبناء أو التعظيم، وتطهيرها من النجاسات الحسية كالقذر، والمعنوية كالشرك والوثنية. أو هي متعلقة بمتأخر وهو يسبّح، أي يسبح الله ويقدس له المسبحون في بيوت. والبيوت: هي المساجد المخصوصة لله تعالى التي من عادتها أن تنوَّر بذلك النوع من المصابيح. والمعنى: ينزه الله تعالى ويقدسه في الصلاة في المساجد في أوائل النهار وأواخره بكرة وعشياً، صباحاً ومساء، والمراد في كل وقت، وفي مجالس الوعظ والذكر، وقراءة العلم، والتفكر والتأمل في ملكوت الله وعظمته.

وقوله سبحانه: ﴿تُرْفَعَ﴾ معناه تُبْنى وتعلَّى، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٧] ، وقال رسول الله ﷺ فيما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وبقية الكتب الستة والدارمي: «من بنى مسجداً من ماله بنى الله له بيتاً في الجنة».

ثم وصف الله تعالى المسبحين، بأنهم لمراقبتهم أمر الله تعالى، وطلبهم لرضاه، لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا، فهم رجال ليسوا ماديين نفعيين، بل هم قوم ذوو همة عالية، وعزيمة صادقة، لا تشغلهم تجارة، ولا بيع عن ذكر الله وتقديسه، بل يذكرون الله تعالى، ويقيمون الصلاة جماعة في المساجد،

(١) أن تعظّم . (٢) أول النهار وآخره . (٣) بلا نهاية للعطاء .

ويؤتون الزكاة، يخافون عقاب يوم القيامة، الذي تضطرب فيه القلوب والأبصار، من شدة الفزع والهول. ومقصد الآية: هو وصف هول يوم القيامة. ففي ذلك اليوم الرهيب تكون القلوب والأبصار مضطربة قلقة، متقلبة من حذر هلاك إلى حذر، وذلك كما في آية أخرى، مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٢] ، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الدهر: ٧٦/١٠].

وذلك ليجزيهم الله الجزاء الأحسن، أي إن كلمة «ليجزيهم» متعلقة بفعل مضمر تقديره: فعلوا ذلك، من أجل أن يثيبهم الله ثواباً يكافئ حسن عملهم، فقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ فيه حذف مضاف، تقديره: ثواب أحسن ما عملوا.

ثم وعدهم الله عز وجل بالزيادة من فضله على ما تقتضيه أعمالهم، فأهل الجنة أبداً في مزيد، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٠/٢٦]. وقال الله تعالى في الحديث القدسي -فيما رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

ثم ذكر الحق تعالى أنه سبحانه واسع الفضل والإحسان، يرزق من يشاء، و يخصه بما يشاء من رحمته، دون حساب ولا تعديد، وكل تفضل لله فهو بغير حساب، وكل جزاء على عمل فهو بحساب، والله على كل شيء قدير، يمنح من غير حدود، ويعطي من يشاء بلا قيود، وهذه النعمة من صفات الله عز وجل، لأن العطاء غير المحدود لا يكون من أحد من البشر أو من المخلوقات، وإنما يكون ممن اتصف بالألوهية، فهو وحده الذي لا تنفد خزائنه، ولا تفنى مصادر غناه.

والخلاصة: إن هاتين الآيتين لتبيان حالة الإيمان والمؤمنين وتنوير الله قلوبهم.

الذين لا ينتفعون بنور الله تعالى

في كثير من الأحيان يعتمد الأسلوب القرآني عقد موازنة أو مقارنة بين المتقابلات، ليتبين الخير وأهله ومصيرهم، والشر وأهله وعاقبتهم، فبعد أن ذكر الله تعالى أحوال المؤمنين وحالة الإيمان، وتنوير قلوبهم بنور القرآن، ذكر الله الكفرة وأعمالهم في الدنيا والآخرة، فحال أعمالهم في الآخرة غير نافعة ولا مُجْدية، وحالها في الدنيا أنها في غاية الضلال والغُمَّة، مثل حالة تناهي الظلمة وحيرة المترددين فيها، وهذه عاقبة وخيمة، لا يرتضيها عاقل لنفسه، وصف الله سبحانه أحوال الكفار بقوله:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ(١) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ(٢) يَغْشَاهُ(٣) مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٩-٤٠].

نزلت الآية في عتبة بن ربيعة بن أمية، قد كان تعبّد في الجاهلية، ولبس المسوح، والتمس الدِّين، فلما جاء الإسلام كفر. أو إنها نزلت في شيبة بن ربيعة، وكلاهما مات كافراً.

هذه حالة الكافرين الجاحدين: ضلال وحيرة واضطراب في الدنيا، وخسارة شديدة في الآخرة، ولهم تمثيلان كما ذكر ابن عطية:

الأول منهما: يقتضي حال أعمالهم في الآخرة من أنها غير مجدية ولا نافعة.

(١) السراب: ما ترقرق من الهواء في شدة الحر في فيافي الأرض المنبسطة، وأوهم الناظر إليه من بعيد أنه ماء . سمي بذلك لأنه ينسرب كالماء، فكذلك أعمال الكافر، والقيعة: جمع قاع، كجار وجيرة . والقاع المنخفض من الأرض . (٢) عميق كثير الماء . (٣) يغطّيه .

والثاني: يقتضي حالها في الدنيا من أنها في غاية الضلال والغُمَّة التي مثالها تناهي الظلمة في قوله سبحانه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾.

أما حال أعمال الكفار في الآخرة وهو المثل الأول، فإن أعمالهم الصالحة شبيهة بسراب يراه الإنسان العطشان من بعيد في فلاة من الأرض، فيحسبه ماء، فيأتيه، فلا يجد ما رجاه. والقيعة: هي المنبسط من الأرض، أو جمع قاع، وهكذا حال الكافرين يحسبون أعمالهم نافعة لهم في الآخرة، منجِّية من عذاب الله، فإذا جاء يوم القيامة، وقوبلوا بالعذاب، فوجئوا بأن أعمالهم الصالحة مثل صلة الرحم والإحسان إلى الفقراء ونحو ذلك لم تنفعهم، وإنما يجدون زبانية جهنم تأخذهم وتسوقهم إليها سوقاً عنيفاً، فهم يجدون عذاب الله الذي توعد به الكافرين ينتظرهم، والله سريع الجزاء على العمل السيئ في الدنيا، وهو الكفر بالله، وعصيان أوامر الله، والانغماس في المنكرات.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ يراد به: شيئاً نافعاً في العطش، أو شيئاً موجوداً، على العموم، أي فكذلك الكافر يوم القيامة يظن عمله نافعاً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وقوله سبحانه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ مجاز، وعنده عائد على العمل. وفي ذلك توعد وبيان لسرعة الحساب. والمراد: أن الكفار سوف يصطدمون بالخيبة والخسارة في الآخرة، فلا يجدون ما ينفعهم ولا ما ينجيهم.

وأما المثل الثاني: وهو حال الكفار وأعمالهم في الدنيا: فهو أن مَثَل أو صفة أعمالهم التي يعملونها في الدنيا، مثل ظلمات ثلاث متراكمة، في بحر عميق بعضها فوق بعض، وهي ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب، أي إنهم من الضلال في العقيدة ونحوه في مثل هذه الظلمة المجتمعة من هذه الأشياء، وهم في الواقع في ظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد الباطل، وظلمة القول الساقط، وظلمة العمل الفاسد.

والمقصود من هذا المثل: بيان أن الكافر تراكمت عليه أنواع الضلالات في الدنيا، فصار قلبه وبصره وسمعه في ظلمة شديدة كثيفة، لم يعد بعدها قادراً على تمييز طريق الصواب ومعرفة نور الحق. وتراكم هذه الظلمات بعضها فوق بعض في غاية الظلمة، وهو يقتضي مبالغة الظلمة، حتى إن الإنسان إذا مدَّ يده، وهي أقرب شيء إليه، لم يكد يراها، فضلاً عن أن يراها، ومعنى ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾: لم يقارب الوقوع، والذي لم يقارب الوقوع، لم يقع، وهذا يقتضي نفي الرؤية جملة.

ومن لم يهده الله لنوره، ولم يوفقه لهدايته، فهو هالك جاهل خاسر، في ظلمة الباطل لا نور له، ولا هادي له. والمراد أن من لم يهده الله في الدنيا لم يهتد، ويلزم منه أنه في الآخرة لا يجد رحمة من الله ولا عفواً، وهذا لا يقتضي الجبر والإكراه، لأن الإنسان في مثل هذا مخيّر، وإنما الضلال وما ينتج عنه من خسران بسبب اختيارٍ وإرادةٍ من الإنسان ذاته.

البراهين الكونية على وجود الله تعالى

أورد القرآن الكريم عدة أدلة على وجود الله، منها الخلق والإيجاد والإعدام للإنسان والحيوان، ومنها أفعال الموجودات في السماء والأرض، ومنها إنزال المطر، وتقليب الليل والنهار، وذلك كله لإقناع الإنسان وهدايته، وتوصله إلى الإقرار بوجود الله وتوحيده، ومعرفة عظمته وقدرته. ولولا فضل الله ورحمتُه بالناس جميعاً، لما نبّه القرآن كلامُ الله على هذه الأدلة، واقتصر على تشريع الحلال والحرام، إلا أن القرآن العظيم شمل كل شيء من شؤون العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة، وأرشد إلى أصول تنظيم المعاملات والعلاقات الاجتماعية، وحالة الوصية والميراث بعد الوفاة، قال الله تعالى مبيناً أدلة أربعة على وجوده، منها ثلاثة في هذه الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ(١) كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي(٢) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا(٣) فَتَرَى الْوَدْقَ(٤) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا(٥) بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٤١-٤٤].

هذه بعض أدلة وجود الله وتوحيده وقدرته، أولها: تسبيح المخلوقات. والمعنى: ألم تعلم بالدليل الواضح أيها النبي وكل مخاطب أن الله ينزهه ويقدسه كل من في السماوات والأرض، من العقلاء وغيرهم، من الملائكة والإنس والجن والجمادات، والطير باسطاتٍ قابضات أجنحتها حال طيرانها في جو السماء كيلا تسقط. والجمهور على أن تسبيح الطير والجمادات تسبيح حقيقي، ويراد به التعظيم والتقديس، وذلك بأسلوب يتفق مع طبيعة هذه المخلوقات، وكل واحد مما ذكر قد علم الله صلاته وتسبيحه، أي أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل، والله تام العلم بجميع ذلك، ولا يخفى عليه شيء من أفعالهم، وهو مجازيهم عليها.

والله تعالى مالك جميع ما في السماوات والأرض، وهو الحاكم المتصرف فيهما، بالخلْق والإماتة، وإليه وحده مصير الخلائق ومعادهم يوم القيامة.

الدليل الثاني: إنزال المطر، ألم تعلم أيضاً أيها النبي وكل إنسان مخاطب كيفية تكوين المطر وإنزاله، إن الله تعالى يسوق السحاب بقدرته، ثم يجمع ما تفرق من أجزائه في وحدة متضامة، ثم يجعل بعضه متراكماً فوق بعض، حتى يتكون منه

---

(١) باسطات أجنحتها في الهواء. (٢) يزجي: يسوق. (٣) الركام: الذي يركب بعضه بعضاً ويتكاثف.
(٤) الودق: المطر. (٥) ضوء برقه.

سحاب عالٍ في طبقات الجو الباردة برودة شديدة، فإن الطائرة مثلاً التي ترتفع في الجو (٣٥) ألف قدم تكون البرودة حينئذ (٥٠) درجة تحت الصفر. ثم يسوق الله ذلك السحاب بالرياح اللواقح إلى المكان الذي يريد إنزال المطر فيه، ثم ينزل المطر من خلال السحاب، أي من شقوق بين أجزائه.

وينزِّل الله من السماء مطراً وبرداً من سحب كثيفة متراكمة تشبه الجبال، فيصيب الله بالمطر من يشاء من عباده رحمة لهم، ويحجبه ويمنعه عمن يشاء، ويؤخر الغيث عمن يريد، إما نقمة وإما رحمة حفاظاً على الأزهار والثمار والزروع. وجبال البرد إما حقيقة. وإما مجاز يراد به وصف كثرته.

والعجب في هذا خلق الشيء من ضده، وهو النار من البارد، حتى ليكاد برق اصطدام الغيوم من شدته، يخطف الأبصار إذا نظرت إليه، نظرة تحديق. وسنا برقه: يراد به ضوء ذلك البرق الذي في السحاب. ويذهب بالأبصار: فيه تقدير أي يُذهب النفوس بالأبصار.

والدليل الثالث: اختلاف الليل والنهار، أي إن الله عز وجل يتصرف في الليل والنهار بزيادة أحدهما ونقص الآخر، وتغير أحوالهما بالحرارة والبرودة، وتعاقبهما بنظام ثابت دقيق. إن في ذلك لدليلاً على عظمة الله الباهرة، وعظةً لمن تأمل من ذوي العقول والألباب. والتنبيهُ على تعاقب الليل والنهار واختلافهما طولاً وقصراً وارد في كثير من الآيات، مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم -فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: «قال الله تعالى: يؤذيني ابنُ آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلِّب الليل والنهار».

هذه الأدلة الحسية البسيطة، يستطيع كل إنسان معرفتها، وإدراك ما فيها من عظمة، ودقة، وإرشاد إلى وجود الله، والتعرف على قدرته.

ضلال المنافقين والكافرين

من العجب الواضح أن بعض الناس يصرون على ضلالهم وكفرهم، على الرغم من الآيات الكونية الحسية والمعنوية الدالة على وجود الله وقدرته وتوحيده، وهؤلاء هم المنافقون وبعض الكافرين، فإن خَلْق الإنسان والحيوان وخلق الكائنات دليل ساطع على وجود الله وتوحيده، ومع ذلك ترى المنافقين يرفضون في أعماق قلوبهم الإقرار الصادق بالدين الحق، ويتظاهرون بالإسلام، ويبطنون الكفر والعداء، قال الله تعالى واصفاً مرض أولئك المنافقين:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ(١) ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ(٢) اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٤٥-٥٠]

الدليل الرابع على وجود الله وتوحيده: خلق أنواع الدواب من الماء، الذي هو أصل الخلقة الأول، وتوقف حياة الحيوان عليه، وأن خلقة كل حيوان فيها ماء، وللدواب أنواع، فمنها ما يمشي زحفاً على بطنه كالزواحف، ومنها ما يمشي على

---

(١) منقادين مطيعين. (٢) أن يجور.

رجلين كالإنسان والطير، ومنها ما يمشي على أربع كالأنعام، والله سبحانه يخلق بقدرته ما يشاء، إن الله قادر على خلق كل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن﴾ تذكير الضمير لتغليب العقلاء، وبنى على تغليبهم في الضمير التعبير بـ «مَنْ» الواقعة على من يعقل. وظاهر بعض العبارات يشعر باعتبار التغليب في «كل دابة» وليس بمراد، بل المراد أن ذلك لما شمل العقلاءَ وغيرهم على طريق الاختلاط، لزم اعتبار ذلك في الضمير العائد عليه وتغليب العقلاء فيه[1].

ثم عقب الله تعالى على خلْقه الأشياء بأنه سبحانه أنزل في القرآن آيات مفصلات، واضحات دالة على وجود الخالق المدبر للكون، وهي كل ما نصب الله تعالى من آية وصنعة للعبرة، وفي كل آية تنبيه وتذكير، والله يرشد إلى تفهم الآيات وتعقلها جميع أولي الألباب والبصائر، ويدلهم إلى الطريق القويم الذي لا اعوجاج فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ..﴾ نزلت في بعض المنافقين في بِشْر المنافق الذي أبى أن يحتكم لرسولِ الله في أرض، وأراد الاحتكام لكعب بن الأشرف، وخصمه اليهودي جعل يجرّه إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما.

والمعنى: يقول المنافقون أمام الناس: صدقنا بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وأطعنا الله فيما قضى، والرسولَ فيما حكم به، ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكمه، فيناقض قولُهم عملَهم، وهم في الواقع ليسوا من المؤمنين، وإذا طُلبوا إلى تحكيم كتاب الله واتباعه هديه، وإلى الرسول ليحكم بينهم في خصوماتهم، أعرضوا عن قبول حكم الله والرسول، واستكبروا عن اتباع حكمه، وهذا يدلنا على أن حكم الرسول ﷺ هو حكم الله القائم على الحق.

---

(١) تفسير الألوسي ١٨/ ١٩٣ .

وإذا كان الحكم في صالح المنافقين جاؤوا لرسول الله سامعين مطيعين، لعلمهم بأنه لا يحكم إلا بالحق، فهم جماعة إذن نفعيون انتهازيون، فهم يعرضون عن حكم النبي ﷺ حينما عرفوا الحق لغيرهم أو شكّوا، ويَقْبلون حكم النبي ويرضون به، إذا عرفوا أن الحكم لصالحهم. وقوله: «مذعنين» أي مظهرين للانقياد والطاعة، وهم إن فعلوا ذلك فهو حينما أيقنوا بالنجاح.

إن تردد المنافقين بين الإسلام والكفر لأحد الأسباب الآتية: وهي إما أنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق، والمرض ملازم لهم، وإما أنهم شكوا في الدين وفي نبوته ﷺ، وإما أنهم يخافون أن يجور الله تعالى ورسوله عليهم في الحكم. وترداد هذه الأسباب توبيخ لهم، ليقروا بأحد هذه الأسباب.

وأياً كان السبب فهو كفر محض، والله عليم بكلٍ منهم وبصفاتهم، لذا قال الله تعالى: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي بل إنهم، أي المنافقون هم الظالمون الفاجرون الفاسقون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم، لا أنهم يخافون أن يحيف أو يجور الرسول ﷺ، لمعرفتهم بأمانته وعدله في حكمه، وصونه عن الجور، والحيف: الميل.

أما الرسول عليه الصلاة والسلام، فإنما يحكم دائماً بأمر الله وشرعه، ولا يحيد عن الحق مقدار أنملة، سواء كان الحق لمنافق أو ليهودي أو لغيرهما.

الطاعة المتناهية عند المؤمنين

إن معرفة الله تعالى بوجوده ووحدانيته ونعمائه وأفضاله، تتطلب حبه حباً جماً متناهياً، يفوق كل حب، ويسمو فوق كل حب، ويتجرد عن الهوى والمصلحة، والنفعية وتحقيق المطالب، والحب والمعرفة يتطلبان إقراراً وبرهاناً واقعياً عليهما، ومحاولة التقرب من الله المحبوب حباً ذاتياً، وطاعة هذا المحبوب، وامتثالاً لأوامره

واجتناباً لنواهيه، وتفانياً مستمراً في الطاعة والامتثال، وحباً للطاعة ذاتها بحيث تَقَرُّ بها العين، وتحلو للفؤاد، وتتناغم في أعماق النفس الإنسانية، وتتفاعل مع أصداء الأفعال والأقوال الصادرة عن الإنسان المحب لربه، وهذا كله يجسده معنى الإيمان الحق بالله عز وجل، لذا يصف الله المؤمنين بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ(١) لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ(٢) إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٥١-٥٤].

هذه هي صفة المؤمنين المميزة لهم بحق، قورنت مع صفة المنافقين في آيات سابقة، أما المؤمنون فإنهم قولاً وفعلاً، ظاهراً وباطناً، يسمعون ويطيعون، وأما المنافقون فطاعتهم مجرد تصنع وتظاهر بالطاعة، مع خلو القلب والنفس من معاني الطاعة الحقيقية.

إن شأن أهل الإيمان الصادقين في إيمانهم: أنهم إذا طالبهم أحد إلى حكم الله ورسوله في منازعاتهم وإلى شرع الله ودينه أن يبادروا إلى القول: سمعنا وأطعنا، فاستحقوا الوصف بالفلاح والنجاة، ونيلِ الآمال المطلوبة، والسلامة من المرهوب وكل مخيف.

وأكد الله تعالى بشارة المؤمنين بالفلاح في الآخرة والدنيا، بالفوز بكل خير، والأمن من كل شر، في الدنيا والآخرة، فكل من يطيع الله ورسوله في كل ما أمر به وتركِ ما نهى عنه، وخاف الله فيما مضى من ذنوبه، واتقاه في مستقبل أيامه، فأولئك

(١) أي قدر طاقتهم من الأيمان . (٢) طاعتكم معروفة وهي اللسان .

هم الذين فازوا فوزاً ساحقاً، في حياة الدنيا وحياة الآخرة. والمفلحون: هم البالغون آمالهم في دنياهم وآخرتهم، وهم أيضاً الفائزون في قصب السبق والتنافس مع الآخرين.

ثم قارن الله تعالى حال المؤمنين هذا، بحال المنافقين في كل زمن، فلقد كان أهل النفاق يحلفون للرسول ﷺ مغلّظين الأيمان، مبالغين فيها إلى غايتها أو نهايتها، ومضمون حلفهم: لئن أمرتهم أيها الرسول بالجهاد، والخروج لمواجهة الأعداء، ليخرجن كما طلبت، فكذبهم الله تعالى في هذه الأيمان الكاذبة بقوله:

قل يا محمد لهم: لا تحلفوا، فإن المطلوب منكم طاعة معروفة: هي الصدق باللسان، وتصديق القلب والأفعال، طاعة تُعرف منكم، وتظهر عليكم في الظاهر والباطن، هي المطلوبة منكم، أما طاعتكم التي تتظاهرون بها، فهي رَدِيّة كاذبة لا قيمة لها، وأيمانكم كاذبة، واضحة الكذب، فكلما حلفتم كذبتم، كما قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٩٦].

إن الله مطلع على أعمالكم الظاهرة والباطنة، خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي، يعلم بأيمانكم الكاذبة، وبكل ما في ضمائر عباده من الكفر، والنفاق، وخداع المؤمنين، فيجازيكم على كل عمل سوء، وهذا تهديد ولوم ووعيد.

ثم فتح الله باب الأمل لهم، ورغّبهم ورهّبهم، فقل لهم أيها النبي: اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله، والآية مخاطبة مباشرة لأولئك المنافقين وغيرهم من الكفار، وكلِّ ممتنع عن أمر رسول الله ﷺ. وثمرة الطاعة الصادقة معروفة، فإنكم إن تطيعوا هذا الرسول، فيما أمركم به ونهاكم عنه، تهتدوا إلى الحق، لأنه يدعو إلى صراط مستقيم، وليس للرسول سلطان الإكراه والإجبار لأحد، فما على الرسول إلا التبليغ

البيّن الواضح لأوامر الله ووحيه، وما تحتاجون إليه في مسيرة الحياة، وهذا هو شأن الرسول، كما جاء في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٠]. وقوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢١-٢٢].

تحدد هذه الآيات مهمتين أساسيتين للرسول وللناس، أما مهمة الرسول التي حمّله الله تعالى أمانتها وأوجبها عليه: فهي التبليغ لوحي الإله، ومحاولة إصلاح الناس بالرسالة الإلهية، وإعماله الجهد في إنذارهم وتحذيرهم من مغبة العصيان والمخالفة، وأما مهمة الناس: فهي السمع والطاعة لأمر الله ورسوله، واتباع الحق، وتجنب الظلم والباطل.

وإن الله تعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فإنه سبحانه يعلم علماً دقيقاً تاماً، بأحوال الأيمان الصادرة عن الإنسان، أهي صادقة معبرة عن الحقيقة والواقع أم كاذبة مناقضة لهما؟ ولا تفيد الأيمان الكاذبة شيئاً، وإنما تكون وبالاً على حالفيها لأنهم كاذبون، وللكذب جزاء مؤكد، كما لترك الإيمان ومعاداة رسالة الرسول ﷺ جزاء آخر، وعقاب أليم في الدار الآخرة.

مقومات أهل الإيمان في الحكم

يتميز المؤمنون الصالحون بأنهم في جميع أحوالهم رسلُ هداية، ودعاة صلاح وإصلاح، يعبدون ربهم عبادة خالصة لا يشوبها شيء من الإشراك والضلال، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون رسول الحق والهداية، والعدلِ والفضيلةِ، ويتجنبون كل فساد وإفساد، وتخريب، وإهانة، وإذلال، أو امتهان لكرامة الإنسان. وهذه المقومات هي التي مكّنت للمؤمنين في الأرض، وعزّزت بقاء

عقيدة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، قال الله تعالى مبيناً هذه الخصائص ليعيها سلاطينهم وحكامهم على الدوام:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٥٥-٥٧].

سبب نزول هذه الآيات: هو ما رواه الحاكم والطبراني عن أُبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابُه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: تُرون أنَّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله، فنزلت آية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ..﴾ الآية.

لا يصح للمؤمنين المجاهدين أن يضجروا من مكافحة الأعداء، ولا ييأسوا من الحظوة بمظلة الإيمان، والبعد من الخوف على أنفسهم، حتى وإن استمروا في حمل السلاح، لأنه في النهاية ستتحقق لهم الثمرة اليانعة، وهي الاستخلاف في الأرض، فقد وعد الله الذين آمنوا بحق، وعملوا صالح الأعمال أن يستخلفهم في الأرض، واستخلافهم: هو أن يملّكهم البلاد، ويجعلهم أهلها، كما جرى في الشام والعراق وخراسان والمغرب، بدءاً من خلافة الخلفاء الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، لأنهم أهل الإيمان وعَملِ الصالحات.

وذلك كاستخلاف الذين سبقوهم في الإيمان والصلاح على الأرض، كداود وسليمان عليهما السلام، وقد تحقق هذا الوعد الإلهي، لأن وعد الله منجَّز،

ففتحت الفتوحات الواسعة، في البلاد المختلفة، في مسيرة الفتح الإسلامي الظافر، ووعد الله المؤمنين أيضاً التمكين لدينهم الذي ارتضاه لهم، وهو جعل دين الإسلام مكيناً ثابتاً في الأرض، قوياً عزيزاً، مهيباً في كل مكان، مرهوب الجانب من الأعداء، منصوراً على الأعداء.

ووعد ثالث: هو تحقيق الأمن ونشرُ ألوية السلام في ربوعهم، وتغيير حالهم من الخوف إلى الأمن والاستقرار، والسعة والرخاء.

ثم ذكر الله تعالى أحوال أمة القرآن بعد تحقيق العزة والسيادة والأمن، وأول هذه الأحوال: أنهم يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا يخالط إيمانهم أيُّ لون من الشرك الظاهر أو الخفي، أما من كفر النعمة، وجحد فضل الله، بعد هذه النعم، فأولئك هم المتصفون بالفسق البعيدون عن الرحمة، الغارقون في الضلال والعصيان.

وثاني أحوالهم في سلطانهم: أنهم يؤدون الصلاة في أوقاتها تامة الأركان والشروط، ويعطون الزكاة المفروضة عليهم، حتى يكون الجميع أقوياء غير فقراء، ويطيعون الرسول فيما أمر به أو نهى عنه، وذلك كله ليرحمهم ربهم، وينجِّيَهم من عذاب شديد الألم. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي في حقكم ومعتقدكم، وإطاعة الرسول عامة لجميع الطاعات.

وأما المتنكرون لطاعة الله ورسوله، فهم في خطر وخسران ومصير سيء، فلا تظنن أيها الرسول أن الذين جحدوا برسالتك وكذبوك، يُعجزون الله، ويفرون من سلطانه إذا أراد إهلاكهم، بل الله قادر عليهم، ومصيرهم إلى النار الحامية، وبئس هذا المصير مصيرهم، وقبح أو ساء هذا المرجع والخاتمة أو القرار والمهاد مرجعهم، وقوله تعالى: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ معناه فائتين غير مقدور عليهم. والمصير: المرجع.

وهذا تنبيه وتقريع للكفرة، فإنهم ليسوا بمفْلتين من عذاب الله تعالى خلافاً لما يظنون أو يتوهمون.

استئذان أفراد الأسرة الواحدة

للإنسان أحوال من صَحْوٍ وانتعاش، وجدية وانهماك في العمل، واسترخاء وإيثار للراحة من بعد العناء، ولا شك أن حال الإنسان وقت العمل يختلف عن حالته وقت الراحة والنوم، ويؤثر كل إنسان عنده حياء وإيمان ألا يطلع عليه أحد ولو من أولاده، على حالته الخاصة، وظرفه غير المعتاد، لذا أمر الله تعالى الأولاد سواء في حال الصغر أو بعد بلوغ الحلم أن يستأذنوا على آبائهم وأمهاتهم في أوقات ثلاثة: في وقت النوم والراحة قبل صلاة الفجر، وأثناء القيلولة في الظهيرة، وبعد صلاة العشاء، وخفف الله تعالى عن العجائز بترك ارتداء الثياب الظاهرة في البيت. قال الله تعالى مبيناً هذه الأحكام:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ(١) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ(٢) وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ(٣) بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ(٤) مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ(٥) بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [النور: ٢٤/٥٨-٦٠].

نظَّم الله تعالى في هذه الآيات علاقات أفراد الأسرة الواحدة فيما بينهم، فأمر بالاستئذان عند دخول بعضهم على بعض في البيوت، فيجب على الخدم في المنازل من

(١) أي الذين لم يحتلموا أو لم يبلغوا بعد، فإن البلوغ مناط التكليف يكون إما بالاحتلام أو ببلوغ سن الخامسة عشرة. (٢) وقت الظهر. (٣) حرج في الدخول بلا إذن. (٤) العجائز. (٥) مظهرات للزينة الخفية.

الرجال أو النساء ومنهم العبيد والإماء، وعلى الأطفال الصغار قبل البلوغ، أن يستأذنوا عند الدخول على بيوت الآباء والأمهات، ثلاث مرات في اليوم، من قبل صلاة الفجر، لأنه وقت انتهاء النوم في الفراش ليلاً، وحين القيلولة أو الاستعداد للنوم وقت الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء، لأنه وقت بداية النوم وخلع الثياب.

إن هذه الأوقات المذكورة هي ثلاث عورات، والعورة: كل ما يجب ستره، ولا يجوز النظر إليه، ولا إثم ولا حرج في ترك الاستئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة، وإنما الأمر على الإباحة، تيسيراً للتطواف وأداء الخدمات، فإن هؤلاء الخدم والأطفال الصغار يطوفون عليكم معشر الوالدين في الخدمة وغير ذلك، ويترددون عليكم في الإيناس والمعاشرة، وقضاء الحاجات.

ومثل ذلك التبيين لهذه الأحكام السامية المقصد، يبين الله لكم الشرائع والأنظمة في آياته البينة الواضحة الدلالة على المعاني والمقاصد، والله عليم بأحوال عباده وبما يصلحهم وما يفسد أحوالهم، حكيم في تدبير أمورهم، وتشريع الأصلح لهم.

ويجب أيضاً على الأطفال البالغين أن يستأذنوا في المرات الثلاث الآنفة الذكر، سواء مع الأباعد أو الأقارب، وكما بيّن الله هذه الآداب والأحكام بياناً شافياً كافياً، يبين لكم معشر المسلمين أحكاماً أخرى، لتحقيق الطمأنينة والاستقرار، والبعد عن المنغصات والأكدار، والله عليم بأحوال عباده، حكيم في معالجة أوضاعهم، وهذا تأكيد لإتمام النعمة من الله بتشريع هذه الأحكام، وتوكيد لمضمون الآية السابقة في حكمها السديد.

ثم أبان الله تعالى حكماً خاصاً بعجائز النساء في المنازل، وهو أنه لا إثم ولا حرج على كبيرات السن، اللاتي انقطع حيضهن، ويئسن من الولد، ولم يبق لديهن رغبة في الزواج، لا إثم عليهن في تخفيف الملابس، وترك ارتداء الثياب الظاهرة، كالجلباب والرداء والقناع

فوق الخمار، إذا لم يقصدن إظهار الزينة الخفية، كشعر ونحر وساق، وهو التبرج: أي الظهور والتكشف، ولم يكن فيهن جمال أو حسن ظاهر، ولكن الاستعفاف، والاحتياط بالستر، وإبقاء الثياب المعتادة خير وأفضل لهن، والله سميع لأحاديثهن، وكلامهن مع الرجال، عليم بمقاصدهن، ولا تخفى عليه خافية من أمورهن.

رفع الحرج عن ذوي الأعذار في الجهاد وغيره

لا تكلّف ولا مشقة في شرع الله ودينه، وإنما الطاعة بقدر الطاقة، وتزول الكلفة بالألفة أو المحبة، والقرابة والصداقة، سواء في الأكل من البيوت بلا إذن، أو تناول الطعام جماعة أو فرادى، والتحية المتبادلة: عنوان المحبة والسلام والاطمئنان، حتى في حال الدخول إلى منزل الإنسان، وتلك شريعة الخلود وشريعة أحكم الحاكمين التي تنبئ عن التسامح والتيسير، والتآلف وحسن الظن، وإشاعة المحبة، ودفع الحرج والمشقة التي قامت عليها الشريعة الإسلامية. قال الله تعالى مبيناً هذه الآداب:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا[1] ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٦١].

(١) أي فرادى متفرقين.

جمعت الآية بين مبدأ دفع الحرج عن أصحاب الأعذار، وبين إباحة المطاعم بين الأقارب والأصدقاء، وبين إفشاء التحية المباركة الطيبة، وتلك آداب كريمة عالية، في المباحات التي لا تتصل بالعقائد والعبادات.

وسبب النزول كما اختار ابن جرير الطبري: قال سعيد بن المسيب: أنزلت هذه الآية في أناس كانوا إذا خرجوا مع النبي ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا إلى ذلك، وكانوا يتقون أن يأكلوا منها ويقولون: نخشى ألا تكون أنفسهم بذلك طيبة، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾.

وظاهر الآية وأمر الشريعة: أن الحرج مرفوع عن ذوي الأعذار (الأعمى والأعرج والمريض) ولا سيما في القيام بواجب الجهاد، والأكل من بيوت الأقارب والأصدقاء من غير استئذان.

والمعنى: ليس على الأعمى والأعرج والمريض إثم ولا ذنب في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم، وتعذر الإسهام بشيء من واجبات الجهاد في ساحات الوغى ومواجهة الأعداء، كما أنه لا إثم عليهم في الأكل من بيوت القرابات والأصدقاء، في حال غيبتهم عن دُورهم، وائتمان أحد هؤلاء على المفاتيح ونحوها.

كذلك لا إثم على الناس في الأكل من بيوتهم الخاصة، ويشمل ذلك بيوت الأبناء، وإن لم يرد ذكر لها في الآية، لأن بيت ابن الرجل بيته، ومال الولد بمنزلة مال أبيه، ولا حرج أيضاً على الأصحاء في أن يأكلوا مع أصحاب الأعذار، مواساة لهم، وتواضعاً معهم، وإشعاراً بأنهم سواء مع غيرهم دون وجود نظرة ترفع أو تأفف أو تخوف من المرض وغيره.

وأباح الله تعالى الأكل من بيوت أحد عشر موضعاً: وهي بيوت الآباء،

والأمهات، والإخوة، والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، والذين استأمنوا ذوي العذر على المفاتيح، أي جعلوا مفاتيح بيوتهم في أيديهم وحفظهم، فيعد ذلك إذناً لهم في الأكل من غير ادخار ولا حَمْل، في حال عدم الأجر على العمل، وكذا بيوت الأصدقاء لارتفاع الكُلْفة بينهم، وتصافي الود والتعامل معهم.

وأباح الله سبحانه أيضاً تناول الأكل مجتمعين على طعام واحد، أو فرادى متفرقين. روى ابن ماجه عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا جميعاً، ولا تفرقوا، فإن البركة مع الجماعة».

ويستحب للداخل على بيته: السلام على أهل البيت الذين هم بمنزلة الداخل في الدين والقرابة، فتكون التحية بركةً عليهم، لأنها تحيةٌ ثابتة بأمر الله تعالى، مشروعة من لدنه، مباركة، أي يرجى منها زيادة الخير والثواب، وطيبةٌ، أي يطيب بها قلب المستمع وتهدأ نفسه، والتحية: دعاء بالسلامة والأمن، والخير، وزيادة الرزق للمسلّم عليه.

وكما بيّن الله تعالى بياناً شافياً شرائعه وأحكامه في الاستئذان عند الدخول وغير ذلك من الآداب الإسلامية، يبين ويفصل لكم أيها المؤمنون الآيات التي تُحل الحلال، وتوضح المأذون فيه، لكي تتدبروها وتفهموها وتعقلوا حكمتها التشريعية.

الاستئذان عند الخروج أو الوداع

أحاط الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بهالة من الهيبة والتشريف والتقدير، لأنه رسول الله، فأدّب المؤمنين في خطابه والتحدث معه، فلا يخاطب باسمه بأن يقال: يا محمد، وإنما يقال: يا رسول الله، ويُغَضُّ الصوت أثناء مكالمته، فلا يجهر المتحدث فوق

صوته، ولا يكون الكلام معه كالكلام المعتاد بين الناس، ويلْزم المؤمن اتباع ما أمر به الرسول واجتناب ما نهى عنه. وإذا غادر الجالس مجلس النبي، فعليه الاستئذان منه قبل الخروج لرفع الظن السيئ به. وهذه آداب للجماعة الإسلامية، تُطلب مراعاتها على وجه الإلزام، للأمر الإلهي بها، قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ(١) لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ(٢) بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ(٣) فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ(٤) أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ(٥) أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٦٢-٦٤].

نزلت هذه الآيات أثناء حفر الخندق حول المدينة المنورة، بجهد النبي ﷺ وتعاون أصحابه، فكان الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة، من الحاجة التي لا بد منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللحوق لحاجته، فيأذن له، وإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ. .﴾.

ونزول آية ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ. .﴾ نزلت حينما كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فأنزل الله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

(١) أي أمر مهم يحتاج للتشاور. (٢) نداءكم له ﷺ. (٣) أي يخرجون خفية، متسترين بعضهم ببعض. (٤) معرضين. (٥) أي بلاء ومحنة وامتحان في الدنيا.

تضمنت الآيات الكريمة ثلاث آداب إلزامية اجتماعية وهي:

أولاً- استئذان النبي عند الخروج: إنما المؤمنون كاملو الإيمان إذا كانوا مع رسول الله ﷺ في أمر اجتماعي ذي مصلحة عامة، كصلاة جمعة أو جماعة أو عيد، أو مشاركة في قتال عدو، أو تشاور في أمر خطير، فعليهم استئذان النبي، حين انصرافهم من مجلسه كالاستئذان عند الدخول، فأولئك المستأذنون هم المصدقون حقاً بالله ورسوله، فأدب الإسلام اللازم في ذلك ألا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه. فإذا استأذنوك لبعض شؤونهم أو مهامهم، فأذن لمن تشاء منهم، على وفق الحكمة والمصلحة، فقد استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في غزوة تبوك في الرجوع إلى أهله، فأذن له. ومع الإذن للمستأذن اطلب أيها الرسول من الله تعالى أن يغفر للمؤمنين ما قد يصدر عنهم، من زلات أو هفوات، إن الله واسع المغفرة لذنوب عباده المؤمنين التائبين، وواسع الرحمة بهم، فلا يعاقبهم بعد التوبة.

ثانياً- أدب الخطاب مع النبي: أيها المؤمنون لا تَدْعوا رسول الله في خطابه باسمه بأن تقولوا: يا محمد، يا ابن عبد الله، ولكن عظمّوه، وقولوا له: يا نبي الله، يا رسول الله، مع التوقير والتعظيم، والصوت المنخفض والتواضع، فإن الله تعالى يعلم يقيناً -وقد في الآية: للتحقيق- أولئك الذين يتسللون من المسجد أو غيره، أي يخرجون خفية، واحداً بعد الآخر، دون استئذان من النبي، يتستر بعضهم ببعض أو بشيء آخر، لأن الله تعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. وسبب ذلك أنه إذا استأذن مسلم للخروج، قام المنافق إلى جنبه يستتر به، فأنزل الله الآية.

ثالثاً- التحذير من المخالفة: ليحذر أو ليخش من خالف شريعة رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً، وليحذر كل إنسان مخالفة أمر الرسول وطاعته، فمن خالف أمر الله ورسوله، تعرض لعذاب الله ونقمته، وهذا عام لكل مخالف.

ثم ختم الله تعالى سورة النور وهذه الآيات المشتملة على الآداب الاجتماعية بأن الله تعالى مالك السموات والأرض، وعالم الغيب والشهادة، يعلم كل ما لدى العباد من سر وجهر، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين، وإن حاولوا سترها وكتمانها. وإن الله تعالى يخبر عباده يوم القيامة، بما أبطنوا من سوء الأعمال، وسيجازيهم جزاء أوفى بما قدموا وما أخروا، والله محيط علمه بكل شيء من الأشياء، ويوفره و يخبر به عباده يوم الحساب الأكبر وفصل القضاء الأعظم.

تفسير سورة الفرقان

العبودية لله وحده

ليس في هذا الوجود إلا خالق ومخلوق، والخالق: هو المبدع منزل الشرائع، ومالك السموات والأرض، وخالق الأشياء كلها، والقادر على الضر والنفع، والإحياء والإماتة والبعث والنشور، والمخلوق: هو العاجز الموجود من قِبَل خالقه الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فكان بأمس الحاجة إلى الخالق، وإذا كان الخالق وهو الله تعالى هو المالك الموجد الرازق، والمخلوق: هو المحتاج الفقير إلى ربه، كان لا بد له من الإذعان لخالقه في عبادته وحده لا شريك له، وأنه لا معبود بحق في الوجود سوى الله سبحانه، وهذا ما تقرره وتوضحه الآيات الآتية في مطلع سورة الفرقان المكية:

﴿تَبَارَكَ[(١)] ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ[(٢)] عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا[(٣)] ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا[(٤)] ۝٣﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١-٣].

في فاتحة هذه السورة يصف الحق تعالى نفسه بالجلال والجمال والكمال، والتنزيه

---

(١) تمجد وتنزه وكثر خيره . (٢) القرآن الفاصل بين الحق والباطل . (٣) هيأه لما يصلح له . (٤) بعثاً بعد الموت .

عن صفات النقصان، في قوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ﴾ ومعناه: تزايد خيره وكثرت بركاته ونعمه، وهو فعل مختص بالله تعالى، لم يستعمل في غيره. ومن بركات الله تعالى وأعظمها: إنزال كتابه الذي هو الفرقان الفارق بين الحق والباطل، على عبده محمد الرسول، ليكون نذيراً منذراً للعوالم كلها من إنس وجن بسوء المصير إذا خالفوه وعارضوه. وهو أيضاً بشارة للمؤمنين الصالحين بحسن العاقبة، والخلود في الجنان إذا هم اتبعوه وعظموه وكلمة ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ : هو رسول الله. والفرقان: هو القرآن الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحضارة والفساد، و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عام في كل إنسي وجني، وهو دليل على عالمية شريعة القرآن، وأنها تشمل جميع الأجناس البشرية، ولا تختص بالعرب وحدهم.

وهذه الآية رد على مقالات قريش حين قالوا: «إن القرآن افتراء محمد، وإنه ليس من عند الله». ثم أكد الله تعالى انفراده بإنزال القرآن ببيان اتصافه بصفات الجلال والعظمة وهي أربع:

١- إنه المالك المطلق لجميع ما في السموات والأرض، يملك الخلق والإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة، والأمر والنهي على منهج الحق وعلى وفق الحكمة والمصلحة. وهذا دليل وجود الله تعالى ووحدانيته في الخلق والتدبير وهي وحدانية الربوبية، ووحدانيته في وجوب العبادة لله وحده وهي وحدانية الألوهية.

٢- ليس لله ولد مطلقاً، ولم يتخذ ولداً، لعدم حاجته إليه، فهو المنزّه عن الوالد والولد، والصاحبة، لاتصافه بالكمال، وتنزهه عن صفات النقصان.

٣- وليس لله أيضاً شريك في ملكه وسلطانه، فهو وحده المعبود بحق، والجدير بالعبادة، والمتفرد باستحقاق العبودية، والتوجُّه بهذه العبودية لله تعالى يشعر الإنسان بالعزة والكرامة، ويملأ النفس خوفاً من المتصف بالعظمة والجلال، ويجعل الرجاء

والأمل بالله المعبود، فينشر في النفس الطمأنينة، ويزرع فيها الثقة، ويتوقع بها كامل الرحمة والفضل الإلهي بالنعمة الشاملة.

وهذا رد على فئة الثنوية القائلين بوجود إلهين اثنين: وهما النور والظلمة، وعبدة النجوم والكواكب من الصابئة، وعبدة الأوثان من مشركي العرب وغيرهم الذين عبدوا مع الله إلهاً آخر ليقربهم إليه زلفى.

٤- وخلق الله كل شيء، وهذا عام في كل مخلوق، وأوجده بتقدير معين، متناسب الأجزاء، وتقدير الأشياء: هو حدّها بالأمكنة والأزمان والمقادير، والمصلحة، والإتقان، فسبحان من أبدع الخلق بنظام متناسق متناسب بديع.

وأما الوثنيون وأمثالهم: فإنهم اتخذوا من دون الله آلهة مزعومة، لا تستحق الألوهية لأسباب أربعة: وهي أنها عاجزة عن خلق شيء، والإله بحق هو الخالق الموجد، وهي مخلوقة، والمخلوق محتاج، وهي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، والإله هو القادر على الضر والنفع، وهي لا تملك الإماتة والإحياء، ولا النشور، أي إعادة الأجساد حية من القبور، فالنشور: هو الإحياء بعد الموت للحساب، أو بعث الناس من القبور، والمخلوق: لا يملك ذلك.

ومن المعلوم أن الأصنام مخلوقة، يخلقها البشر بالنحت والتصوير، وهذا أشد إبداءً لخساسة الأصنام.

إن الفرق واضح إذن بين الخالق المستحق وحده للعبادة وهو مالك السموات والأرض، وخالق جميع الأشياء بتقدير دقيق وتناسب بديع، وبين المخلوقات الضعيفة بنفسها، العاجزة عن جلب الخير ودفع الضر، التي لا تستطيع فعل شيء، ولا سلب شيء.

الطعن في القرآن والنبي

يتسرع الجهلة والأغبياء عادة في الحكم على الأشياء، فيصفونها بصفات باطلة، معتمدين على مجرد الأوهام، جامدين على ما هم عليه من انحراف وضلال. وهكذا كان شأن كفار قريش حين ظهور دعوة الإسلام وتنزل الوحي على قلب النبي ﷺ، تسرعوا في وصف القرآن الكريم الموحى به من الله تعالى بأنه مختلق مكذوب وأسطورة، وتورطوا في وصف النبي عليه الصلاة والسلام بأنه مجرد ناسخ، انتسخ القرآن وأخذه عن علماء أهل الكتاب، فهو يملى عليه في الصباح وفي المساء. فرد الله تعالى على هاتين الشبهتين ببيان كون القرآن كلام الله المنزل على رسوله الأمين، وليس هو مفترى من عند محمد ﷺ. أخبر الله تعالى عن هذه الشبهات، وطريق الرد عليها، فقال سبحانه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ[١] وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ[٢] ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا[٣] ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ[٤] فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾﴾

[الفرقان: ٢٥/ ٤-٦].

نزلت الآية كما ذكر ابن عباس في النضر بن الحارث الذي قال: القرآن أساطير الأولين، وردَّد مشركو قريش مقالته، فقالوا: كل ما في القرآن من ذِكْر أساطير الأولين، فإنما هو بسبب النضر بن الحارث المشهور في ذلك، ثم رَمَوْا محمداً ﷺ بأنه اكتتبها.

والآيات تضمنت بيان شبهتي قريش والرد عليهما. أما الشبهتان فهما:

---

(١) كذب اخترعه. (٢) أكاذيبهم المسطورة في كتبهم. (٣) أول النهار وآخره، أي دائماً. (٤) يعلم الخفي عنا.

أولاً- قال كفار قريش: ما هذا القرآن إلا كذب واختلاق، اختلقه محمد (ﷺ) واستعان على جمعه بقوم آخرين من أهل الكتاب الذين أسلموا فيما بعد. فأجابهم الله تعالى بأنهم أتوا بما هو ظلم بيِّن، وقول باطل مكذوب مفترىً على ربهم، وهذا أشبه بمنطق الصبية الذين يعجزون عن مقاومة الشيء، فيصفونه بأنه وَهْم فاسد، وزور محض، وكلام ساقط، والحقيقة الساطعة عكس ذلك.

ثانياً- قال كفار قريش أيضاً: إن هذا القرآن مجرد أكاذيب المتقدمين، وأحاديث السابقين المسطرة في كتبهم، اكتتبها محمد عن طريق أهل الكتاب: وهم في قول مجاهد: قوم من اليهود، وفي قول ابن عباس: عبيد من الفرس كانوا للعرب، أحدهم أبو فُكَيهة مولى الحضرميِّين، وجبر، ويسار، وعدَّاس، وغيرهم، فهي تقرأ عليه صباح مساء، أي دائماً، وخفية، ليحفظها، ثم يعلنها، فأخبر الله تعالى أنهم ما جاؤوا إلا إثماً وزوراً، أي ما قالوا إلا بهتاناً وزوراً، والزور: تحسين الباطل، فإنهم عرفوا محمداً في صغره وشبابه بأنه الصادق الأمين، لا يصدر عنه شيء من الافتراء والأباطيل.

ثم أجابهم الله تعالى بأمر نبيه أن يقول لكفرة قريش رداً على أباطيلهم: لقد أنزل الله تعالى القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين، وذلك بصدق وواقعية، لا مجال لأحد من البشر في الإتيان به، والله الذي أنزل القرآن، يعلم السرائر كلها مهما دقَّت أو خفيت، كما يعلم بالظواهر، وإن الله الذي أنزل القرآن رحمةً بالعباد: هو المتصف بالمغفرة الواسعة والرحمة الشاملة. والإتيان بهذين الوصفين: «الغفور الرحيم» لفتح باب الأمل والتوبة، ليرجع الجاحدون عن جحودهم، ويتوبوا على تقصيرهم، ويتجنبوا كل آفات ضلالهم. وهذا شأن المصلح والمربي الناجح، لا يلجأ لأول وهلة للعقاب المادي، وإنما يترفع ويسمو عن أخطاء الأدنياء، فيتحقق النجاح

المنشود في الإصلاح والإبقاء، والبعد عن الإفناء والتدمير، وقد تكرر هذا المنهج التربوي الرفيع في آيات القرآن الكريم، مثل قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٥/٧٣-٧٤].

وهذا إعلان واضح بأن التوبة الصادقة تسقط الذنوب السابقة، لأن الله غفار لمن تاب، رحيم بمن أناب.

طعن آخر بالنبي

تابع المشركون في بطحاء مكة طعونهم بالنبي محمد ﷺ، جحوداً برسالته، وتنفيراً عن اتباعه، فتصوروا أن الرسول النبي ينبغي أن يكون ملكاً من الملائكة، ولا يصح أن يكون مجرد بشر عادي يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، وإذا كان الرسول من البشر، فلماذا يكون فقير الحال؟ ولِمَ لا يكون مؤيداً بالحرس والأعوان، يعيش في قصر شامخ، وبستان مثمر ممتع، وتكون يده ملأى بالكنوز المترعة، والأموال الوفيرة؟

حكى القرآن الكريم هذه الأخبار، ورد عليها رداً مفحماً، يقطع ألسنة الجاحدين المستكبرين، فقال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا(١) وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا(٢) ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ

---

(١) بستان مثمر يتعيش منه . (٢) غلب السحر على عقله .

فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧-١٠].

ذكر ابن إسحاق وغيره أن سادة قريش كعتبة بن ربيعة وأبي سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وغيرهم قالوا: يا محمد، إن كنت تحبُّ الرياسة، ولَّيناك علينا، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا، فلما أبى رسول الله ﷺ رجعوا في باب الاحتجاج عليه، وقالوا: مالك وأنت رسول من الله تأكل الطعام، وتقف بالأسواق تريد التماس الرزق؟ أي من كان رسول الله فهو مستغنٍ عن جميع ذلك. ثم قالوا له: سلْ ربك أن يُنزل معك مَلَكاً يُنذر معك، أو يلقى إليك كنز من الذهب تنفق منه، أو يَرُدُّ لك جبال مكة ذهباً، أو تُزال الجبال، ويكون مكانها جناتٌ تجري فيها الأنهار، فنزلت هذه الآية.

المعنى: هذه خمس شبهات أخرى حول النبي، وجهها المشركون، تتعارض في زعمهم مع صفة النبوة، وهي:

١- قال المشركون: لا ميزة لهذا النبي الذي يدعي الرسالة علينا، فهو يأكل الطعام كما نأكل، ويحتاج لما نحتاج إليه، أي إنه ينبغي أن يكون ملكاً.

٢- وهذا النبي يمشي في الأسواق كما نمشي، طلباً للتكسب والرزق، فلا فضل له علينا، وهو مثلنا، فمن أين يكون تميزه علينا؟

٣- وهلا أنزل عليه مَلَك من عند الله، فيشهد على صدق ما يدعيه، ويرد على من خالفه؟!

٤- وهلا ألقي عليه كنز من السماء، فينفق منه، فلا يحتاج للتردد على الأسواق، لطلب الرزق والمعاش؟!

٥- وإن لم يكن له كنز، فهلا يكون له بستان يأكل منه، ويعيش من ثمراته وغلاله؟!

وهذه الأوصاف المادية مستمدة من صفات أهل السلطة والنفوذ من الملوك والأمراء والحكام. وفاتهم أن الرسالة الإلهية شيء آخر فوق البشرية، ثم طعنوا في عقلية النبي ﷺ، فقالوا أي كفار قريش:

٦- ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، مختل العقل، لا يدرك ما يقول، فكيف يطاع فيما يأمر؟!

أجاب الله تعالى عن هذه الشبهات ببيان التعجب من طرحها، قائلاً: انظر أيها النبي مسرياً عن نفسك، ومتعجباً لما يقول هؤلاء المشركون، وتأمل بتلك الأمثلة والأشباه، فهي أقوال باطلة، وأوصاف مفتراة، فلا يجدون طريقاً للهدى والاستقامة ومعرفة الحق. إنهم أخطؤوا الطريق فلا يجدون سبيلاً لهداية، ولا يطيقونه لتلبسهم بضده من الضلال.

إن شبهات مشركي مكة حول النبي ضعيفة ساقطة، لا تستحق الرد العلمي عليها، وجوابها إجمالاً ما سبق، وأما تفصيلاً فهو:

تعاظم الله وتكاثر خيره، فهو سبحانه إن شاء وهب لك في الدنيا خيراً مما اقترحوا أو طلبوا، وهو أن يعجل لك مثلما وعدك به في الآخرة من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، ومن القصور الشامخة النادرة، وأن يؤتيك خيراً مما يقولون في الدنيا، ويكون أفضل وأحسن. ولكن الله تعالى ادخر لك العطاء في دار الآخرة الخالدة، لا في الدنيا الزائلة، حتى لا تشتغل بالدنيا عن الدين، وأداء مهمة تبليغ الرسالة، وما عند الله خير وأزكى، وأدوم وأبقى.

إنكار المشركين القيامة

إن من أهم الأسباب التي كانت وراء تكذيب النبي ﷺ من قومه قريش إنكارَهم يوم القيامة وعدمَ فهمهم للحق، فهذا أساس كفرهم، فلو أنهم آمنوا بالبعث يوم القيامة، وقدروا خطورة المساءلة والحساب، لدفعهم الإيمان إلى التصديق برسالة هذا النبي وبما أنزل الله عليه في القرآن، وترتب على هذا التكذيب للرسالة الإلهية وإنكار القيامة استحقاقهم للعذاب الشديد في الآخرة، في نار السعير ذات التغيظ والزفير، قال الله تعالى واصفاً هذه الأحداث الغيبية:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ(١) وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا(٢) ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ(٣) دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا(٤) ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١١-١٦].

ليس المهم في تكذيب المشركين لرسالتك أيها النبي مَشْيك في الأسواق، بل إنهم كفرة رافضون الحق، منكرون يوم القيامة، فذلك هو الذي يحملهم على أقوالهم الساقطة، لأن من لا يؤمن بالقيامة وبالحساب والجزاء فيها، يتسرع في التورط بتكذيب الوحي الإلهي، من غير تقدير للعواقب، ولقد هيأنا لمن كذب بالقيامة وما فيها من حساب وجزاء ناراً شديدة الاستعار أو الالتهاب. وأهوال نار القيامة ذات صفتين غريبتين:

الأولى: إذا كانت النار في مرأى الناظر من بعيد، سمعوا صوتَ غليانها الدال على

(١) الساعة: القيامة. (٢) التغيظ: صوت غليان، والزفير: الصوت الشديد. (٣) مشدودة بالأغلال.
(٤) ثبوراً: أي هلاكاً.

التغيظ، لشدة التهابها، وصوتَ الزفير: وهو صوت ممدود كصوت الحمار المرجّع في نهيقه، والتغيظ: احتدامات في النار كنار الدنيا.

الصفة الثانية: إذا ألقي الكفار في النار في مكان ضيق، مقرّنين، أي مربوط بعضهم إلى بعض، صاحوا واستغاثوا قائلين: يا ثبورنا أي يا ويلنا، ويا هلاكنا احضر، فهذا وقتك، والمقصود بالمكان الضيق من النار: التضييق عليهم من المكان في النار، وذلك نوع من التعذيب. قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن أبي حاتم: «والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار، كما يُستكره الوتد في الحائط» أي يدخلون كرهاً وعنفاً. وقوله تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ الثبور: الهلاك أو الويل، وهو مصدر، ومفعول: «دعوا» محذوف، تقديره: دعوا من لا يجيبهم. لذا قال الله تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ أي يقال لهم على معنى التوبيخ والإعلام بأنهم مخلّدون: لا تقتصروا على حُزْن واحد، بل احزنوا كثيراً، لأنكم أهل لذلك. وإنكم إن وقعتم في الهلاك، فليس هو هلاكاً واحداً، وإنما أنواع كثيرة من الهلاك، إما لتنوع ألوان العذاب، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدِّلوا غيرها. والمقصود تيئيسهم من الخلاص من العذاب بالهلاك، والتنبيه إلى أن عذابهم أبدي، لا خلاص منه.

وإذا كانت هذه أوصاف العذاب الأخروي للكفار، فقل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين سيتعرضون لهذه الأحوال من النار، على جهة التوبيخ واللوم، والتوقيف والتهكم والتحسر: أهذا العذاب الذي وصفت لكم أفضل وأكرم أم نعيم جنة الخلد الذي يدوم إلى الأبد، وقد وُعدها المتقون الأبرار، الذين أطاعوا الله فيما أمر به، وانتهوا عما نهى عنه، وكانت تلك الجنة لهم جزاء طاعتهم في الدنيا، ومصيرهم أو مآلهم الحسن.

وللمتقين في جنة الخلد ما يشتهون من الملاذ المادية من طعام وشراب ومسكن ومركب ومنظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ورضوان من الله أكبر من كل ذلك، وهم في النعيم خالدون إلى الأبد، بلا انقطاع ولا زوال، وهذا دليل على تحقيق الرغبات كلها. وكان تحقيق هذا الجزاء الذي تفضل الله به عليهم، وأحسن به إليهم وعداً منجزاً من الله، لا بد من وقوعه، ووعداً واجباً، وجديراً بأن يسأل ويطلب، كتبه الله على نفسه، وحق لنا طلبُ إنجازه، كما قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٤].

حشر المشركين مع آلهتهم

إن أصعب شيء على الإنسان في تحقيق مراده هو خيبة الآمال، وانقطاع الرجاء، وانعدام النصراء لتحقيق المطلوب، ويؤدي ذلك إلى نوع من القلق والحيرة، والتعذيب النفسي، والإحباط ومحاولة البحث عن البديل، وكان من الإنصاف والإخبار بالحق: أن الله تعالى أخبر عن مفاجأة الكفار بالإحباط يوم القيامة، حيث يحشرون مع آلهتهم المزعومة، لمناقشتهم أمامهم عن الذي أضل الآخر، فيتبرأ المعبودون المتبوعون من العبدة الأتباع، ويفاجأ العابدون بأنهم لن يجدوا بديلاً ولا نصيراً لهم، قال الله تعالى مصوراً هذا الموقف المؤلم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن

مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا[١] ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا[٢] وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

[الفرقان: ٢٥/ ١٧-١٩].

هذا مشهد من مشاهد القيامة، يتميز بالمواجهة الفعلية بين العابدين والمعبودين، ويتم فيه تقريع الكافرين في عبادتهم غير الله تعالى.

والمعنى: اذكر أيها النبي الرسول لأولئك المشركين يوم يجمعهم الله مع معبوديهم من الإنس، والملائكة، والأصنام التي ينطقها الله، فيقال للمعبودين على سبيل التقرير والتثبيت: أأنتم أوقعتم عبادي في الضلال حقاً، أم هم ضلوا السبيل الصحيح بأنفسهم، وعبدوكم من أنفسهم، دون توجيه أو دعوة منكم لهم؟!

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يراد به كل شيء عُبد من دون الله، فغلّب العبارة عما لا يعقل من الأوثان، لأنها كانت الأغلب وقت المخاطبة.

وظاهر السؤال: «أأنتم» من الله تعالى، ويحتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى. فأجاب المعبودون بلسان المقال أو الحال على طريق التعجب مما سئلوا عنه: «سبحانك».

أي تنزيهاً لك يا رب مما نسبه إليك المشركون، وما كان يصح لنا بحال أن نتخذ أنصاراً من دونك، فنحن الفقراء إليك، وليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، فنحن ما دعوناهم إلى عبادتنا، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن أبرياء منهم ومن عبادتهم، ولكن طال عليهم العمر، وانشغلوا بالتمتع باللذات والشهوات، هم وآباؤهم، حتى نسوا ما أنزلته إليهم على

---

(١) بوراً: هلكى، من البوار أي الهلاك. (٢) دفعاً للعذاب.

ألسنة الرسل من الدعوة لعبادتك وحدك لا شريك لك، وكانوا قوماً لا خيراً فيهم، وهلكى لا نجاة لهم.

فقال الله تعالى للعابدين: لقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء مناصرون، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى، فلا يقدرون، أي الآلهة المزعومة على صرف العذاب عن العابدين، ولا الانتصار لأنفسهم بحال من الأحوال. وذلك كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٥-٦].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ معناه: لا تستطيعون أيها العابدون غير الله ردَّ التكذيب أو العذاب، ولا مناصرة أنفسكم بنصير ما.

ثم خاطب الله الكفار بقوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ..﴾ أي ومن يشرك بالله، لأن الظلم هو الشرك، والظالمون: هم المشركون كما جاء في آية سابقة (الفرقان ٨) وقد يشمل اللفظ أهل الفسق، فيكون المعنى: من يشرك بالله أو يكفر أو يفسق، نذقه يوم القيامة عذاباً شديداً، لا يعرف قدره، وعذاباً أكبر من أي عذاب آخر. وقد استعمل الظلم في الإشراك في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٣] واستعمل في الفسق في قول الله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١١].

إن أدنى نظرة تأمل وتعقل في هذا المشهد يدل لأهل العقول السليمة على أن عبادة غير الله أو مع الله: ضلالٌ وانحراف وعديمة الجدوى، وأن عقد الآمال على شفاعة الآلهة المعبودة من غير الله سرابٌ خادع، وضلال واضح.

الرسل بشر لا ملائكة

إن أبسط مبادئ الرسالة أو السفارة أن يكون الرسول أو السفير من جنس المرسل إليهم، لتحقيق أهداف الرسالة من أيسر الطرق، وتمكين الرسول والمرسل إليه من النقاش والحوار المؤدي للغاية، لذا كان الأنبياء والرسل من جنس البشر المرسل إليهم، بل من أقوامهم وإخوانهم، أو من بني جلدتهم وعشيرتهم، حتى يكون اللقاء أو الخطاب مثمراً، ولكن المشركين من عهد نوح عليه السلام إلى عهد خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ اشتبه عليهم أمر الرسالة، وظنوا أن الرسول ينبغي أن يكون من جنس أسمى أو أعلى من المرسل إليه، فأنكروا بشرية الرسل، وطالبوا بأن يكون النبي المرسل أحد الملائكة، أخبر القرآن الكريم عن هذه التطلعات في قول الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً[(١)] أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ[(٢)] عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٠-٢١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما فيما أخرجه الواحدي وابن جرير الطبري، لما عير المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة، وقالوا: «ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق» حزن رسول الله ﷺ، فنزل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ﴾ ومفعول «أرسلنا» محذوف، يدل عليه الكلام، تقديره: رجالاً أو رسلاً، وعلى هذا المفعول المحذوف المقدّر، يعود الضمير في قوله: ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ﴾.

والمعنى: إن جميع الرسل المرسلين من عند الله كانوا بشراً يأكلون الطعام، للتغذي

---

(١) اختباراً ومحنة. (٢) تجاوزوا الحد في الطغيان.

به، ويمشون في الأسواق للتكسب والاتجار، ولا يغض ذلك من شأنهم ولا يمسّ أقدارهم، ولا يتنافى مع أحوالهم ومناصبهم، ولقد اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم الطائع من العاصي، أي إن الله سبحانه أراد أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض في الجملة في جميع الناس، مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الشاكر فتنة للغني، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس الكفار في عصره، وكذلك العلماء وحكام العدل، إن هذا التقابل مدعاة للعبرة، لأن الأشياء تتميز بأضدادها، لذا قال الله تعالى: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ أي هل تصبرون أيها المؤمنون أو لا؟ اصبروا على ما أراده الله لكم، وكان ربك أيها الرسول بصيراً بمن يصبر وبمن يجزع، وبمن يستقيم وبمن ينحرف ويضل.

قال مقاتل: إن الآية نزلت في أبي جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، والعاص ابن وائل وغيرهم من أشراف قريش حين رأوا أبا ذر، وعبد الله بن مسعود، وعماراً، وبلالاً، وصهيباً، وسالماً مولى أبي حذيفة، قالوا: أنسلم فنكون مثل هؤلاء؟! فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء المؤمنين: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾؟ أي على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر، والجهد والإيذاء، كأنه تعالى جعل إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين.

ورتب المشركون على إنكار بشرية الرسل بديلاً فقالوا: هلا أنزل علينا الملائكة، كما تنزل على الأنبياء، فنراهم عياناً، فيخبرونا بأن محمداً صادق في ادعائه النبوة، أو نرى ربنا جهاراً علناً، فيخبرنا بأنه أرسله إلينا، ويأمرنا بتصديقه واتباعه. ولما تمنت كفار قريش رؤية ربهم، أخبر الله تعالى أنهم عظموا أنفسهم، وسألوا ما ليسوا له بأهل.

والله لقد تكبروا واستكبروا عن الحق، وتجاوزوا الحد في الظلم والكفر تجاوزاً

بلغ أقصى الغاية، فهم لم يجسروا على هذا القول إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو. وقوله ﴿عَتَوْا﴾ معناه: صعبوا على الحق واشتدوا. وهم في الواقع والحقيقة لن يؤمنوا، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١١].

أهوال القيامة

مهما حاول الإنسان، على الرغم من أخبار القرآن الغيبية أن يتصور أهوال يوم القيامة، وما يتعرض له من المخاوف والأحداث الجسيمة، فإنه لن يستطيع إدراك الواقع الرهيب الذي يقرع النفس ويرهب القلب، ويحير أرباب الفكر والعقول، لأن دور الملائكة الشداد في العذاب، وظهور الغمام، وتغير معالم الكون فوق كل تصور. وحينئذ يكون المجرمون والظالمون في بأس شديد، وندم عظيم، ويكون أهل الجنة في خير مقام، وأحسن مكان. وهذا ما نراه واضحاً في الآيات التالية:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا(١) ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً(٢) مَّنثُورًا(٣) ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا(٤) ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ(٥) السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ(٦) وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا(٧) ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا(٨) ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٢-٢٩].

---

(١) أي يقول الكفرة أو الملائكة: منعاً ممنوعاً. (٢) كالهباء (كالذرات المرئية في ضوء الشمس). (٣) مفرَّقاً.
(٤) مكان قيلولة وراحة. (٥) تتفتح. (٦) السحاب الأبيض الرقيق. (٧) طريقاً للهدى أو النجاة.
(٨) كثير الترك لمن يواليه.

هذه أخبار تتضمن تهديداً شديداً لأهل الضلال والظلمة والمجرمين، فإن هؤلاء المشركين في مكة الذين تمنوا نزول الملائكة لا يعرفون ما قدَّر الله تعالى في ذلك، فإنهم يوم يرون الملائكة لا يرونهم في حال خير، وإنما في حال شر وسوء، ولا بشرى لهم بما يُفرح، وإنما تبشرهم الملائكة بالنار وغضب الجبار، ولهم الخسار ولُقيا المكروه، ويومئذ لا خير ولا بشرى، ويقول الملائكة: «حجراً محجوراً» أي منعاً ممنوعاً عليكم البشرى، أي حراماً محرَّماً، أو يقول الكفرة المجرمون هذا القول كما تقول العرب ذلك إذا كرهوا شيئاً. والراجح أن هذا من قول الملائكة لهم، يراد به: حرام محرم عليكم البشرى بالمغفرة والجنة، وبما يُبشر به المتقون.

ثم أخبر الله تعالى عن إحباط أعمال الكفار، حكاية عن يوم القيامة، والمعنى: قصدنا في بيان حكمنا وإنفاذنا إلى محاسن أعمال الكفار في الدنيا، التي هي في الحقيقة لا تزن شيئاً، إذ لا نية معها، ولا ركيزة لها من الإيمان، فجعلناها مبدَّدة، لا نفع فيها ولا خير، كالغبار المتناثر الذي لا جدوى معه ولا فائدة، والمراد: وصيرناها هباء منثوراً، أي شيئاً لا تحصيل له، ولا تعدل شيئاً، لفقدانها شرط القبول: وهو الإخلاص لله، ومتابعة شرع الله عز وجل.

وفي مقابل هذه الصورة القاتمة لمصير أعمال الكافرين، يخبر الله تعالى عن حال أهل الجنة المؤمنين الصالحين، فهم خير مأوى ومنزلاً، وأتم استقراراً، في مكان ثابت مستقر، يعني أن مستقر أهل الجنة خير من مستقر أهل النار.

وفي خبر ثالث تضمنته الآيات يأمر الله نبيه بأن يذكر يوم تتشقق السماء عن الغمام وتتفتح عنه، ويكون الملك الحق الثابت المبين للرحمن، ويتبدل نظام الكون، وهو يوم القيامة عند انفطار السماء، ونزول الملائكة، ووقوع الجزاء بحقيقة الحساب، فتنزل الملائكة، وفي أيديهم صحائف أعمال العباد، لتكون حجة وشاهداً

عليهم، ويكون ذلك اليوم شديداً على الكافرين. والغمام: سحاب رقيق أبيض جميل لم يره البشر بعد إلا ما جاء في تظليل بني إسرائيل. وذلك كما جاء في آية أخرى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٠]. وكان ذلك اليوم يوم القيامة على الكافرين يوماً شديداً صعباً، لأنه يوم عدل وقضاء فصل أي محاكمة حاسمة، كما في آية أخرى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٧٤/ ٩-١٠].

وفي خبر رابع، اذكر أيها الرسول يوم القيامة الذي يعض المشرك وكل ظالم على يديه ندماً وحسرة، وأسفاً على ما فرط في حياته، يقول: يا ليتني اتخذت مع رسول الله محمد ﷺ طريقاً إلى النجاة والسلامة. يا ويلتي، أي يا هلاكي احضر، فهذا أوانك، ليتني لم أتخذ فلاناً الذي أضلني خليلاً، أي صديقاً حميماً، أرداني اتباعه، وصرفني عن الهدى، وأخذ بي إلى دائرة الضلال.

لقد أضلني وحرفني عن ذكر الله والإيمان والقرآن، بعد بلوغه إلي، وكان من شأن الشيطان أن يخذل الإنسان الكافر عن الحق، ويصرفه عنه، ويدعوه إلى الباطل، ويستعمله فيه.

وآية ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ..﴾ نزلت في عقبة بن أبي معيط، حين مال إلى الإسلام أو أسلم، لكن خليله الذي صادقه وهو أُبي بن خلف قد نهاه عن الإسلام، فقبل نهيه. وأبيٌّ هذا قتله الرسول ﷺ بيده يوم أحد، فنزلت الآية في عُقْبة وأُبيّ، فالظالم: عقبة، وفلان: أبيّ، في قوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

والظاهر أن كلمة «الظالم» لفظ عام، وأن مقصد الآية تعظيم يومٍ، يتبرأ فيه الظالمون من خلّانهم الذين أمروهم بالظلم، وكلمة «فلان» معناه واحد من الناس، وليس من ظالم إلا وله في دنياه خليل يعينه، ويحرضه على الظلم في الأغلب.

هجر المشركين القرآن

لقد أصيب مشركو مكة بالذعر الشديد، والاضطراب الكبير حين نزول القرآن وإعلان النبي ﷺ دعوته، تمسكاً بهيمنتهم وسلطانهم في مكة، ولفرض نفوذهم على الحجيج وعلى القبائل العربية، وأداهم ذلك كله إلى التخبط والحيرة، فكانت ردود أفعالهم متفاوتة ومضطربة، فمرة يرفضون ما جاء به القرآن، ومرة يتأثرون ببلاغته، فينصاعون لنداءاته، ثم أدى بهم الصلَف والتكبر إلى هجر القرآن كلياً، ومواجهة الدعوة الإسلامية مواجهة عنيفة، وطالبوا بمطالب تعجيزية أو جعلِ الوحي القرآني يتنزل على وفق أهوائهم ورغباتهم دفعة واحدة حتى يروا رأيهم، فلا يكشف القرآن مواقفهم، وإنما يحبط مساعيهم في مفاجأته، ونزوله التدرجي، قال الله تعالى واصفاً هذه المواقف لقريش:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا[1] ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ
عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ
جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا[2] ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا
جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا[3] ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٣٠-٣٤].

ينزعج الإنسان عادة كل الانزعاج إذا خاب ولم يحقق نجاحاً في مهمته ورسالته، وكان هذا شأن النبي ﷺ كغيره من الأنبياء، لقد بذل أقصى جهده في هداية قومه فأعرضوا عنه، واستكبروا عن قبول الحق، فشكا الرسول إلى ربه سوء أفعال قومه المشركين، قائلاً في الدنيا: يا رب، إن قومي قريشاً تركوا الإصغاء لهذا القرآن، ولم يؤمنوا به، وأعرضوا عن الإيمان به واتباع هديه، وهجروه وتركوا تصديقه.

---

(١) متروكاً مهملاً. (٢) فرّقناه آية بعد آية أو بيّناه. (٣) أصدق بياناً.

وربما كما ذكر ابن زيد تكون الآية تنبيهاً للمؤمنين على ملازمة المصحف، وألا تكون الغَبَرة تعلوه في البيوت، ويشتغلون بغيره.

وجاء بعد هذه الشكوى إيناسٌ من الله تعالى لنبيه بأن غيره من الرسل كذلك امتُحن بأعداءٍ في زمنه، فلا تحزن يا محمد، فتلك عادة الأقوام مع أنبيائهم، فكما جعلنا لك أعداء من المشركين يتقولون عليك الأباطيل، ويهجرون القرآن، جعلنا لكل نبي من الأنبياء المتقدمين أعداء من المشركين الظالمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم. لكن النصر والغلبة في النهاية للرسول النبي ﷺ، لذا وعد الله تعالى نبيه بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي اكتف بربك، فإنه هو الهادي إلى الحق، وهو الناصر على أعدائك في الدنيا والآخرة.

ثم أخبر القرآن عن شبهة أخرى لمشركي مكة، رُوي عن ابن عباس وغيره رضي الله عنهم أن كفار قريش قالوا في بعض معارضاتهم: لو كان هذا القرآن من عند الله تعالى، لنزل جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، فنزلت هذه الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ والمعنى: إذا كنت تزعم أيها الرجل أنك رسول من عند الله، أفلا تأتينا بالقرآن جملة واحدة، كما أنزلت التوراة جملة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود؟! أي لو كان القرآن من عند الله حقاً، فلِمَ لم ينزل على محمد ﷺ دفعة واحدة، كما أنزلت الكتب الإلهية المتقدمة؟!

فأجابهم الله تعالى عن مقالتهم: لقد أنزلناه منجَّماً متفرقاً بحسب الوقائع والمناسبات في مدى ثلاث وعشرين سنة، لتثبيت فؤاد محمد ﷺ، وليحفظه لكونه أمياً، وليتطابق مع الأسباب المؤقتة، فيكون ذلك أدعى للإيمان به، ولدفع الحرج عن المكلفين بتكليفهم بجملة أحكام في زمن واحد، ولمراعاة مبدأ التدرج في التشريع والتناسب مع مقتضيات التربية، والانتقال من حال سيئة إلى حال أحسن بتهيئة

الظروف والأجواء، وجعله مرتلاً شيئاً فشيئاً، والترتيل: التفريق بين الشيء المتتابع.

ثم أخبر الله تعالى أن هؤلاء الكفرة في مكة لا يجيئون بمثل يضربونه على جهة المعارضة، كتمثيلهم في هذه المسألة بالتوراة والإنجيل إلا جاء القرآن بالذي هو حق، ثم هو أحسن تفسيراً، أو أفصح بياناً وتفصيلاً.

ثم أوعد الله تعالى الكفار بما ينزل بهم يوم القيامة، من الحشر على وجوههم إلى النار، إذلالاً وخزياً وهواناً، وأولئك الظلمة هم شر مكاناً وهو جهنم، شر من أهل الجنة، وأضل سبيلاً، أي طريقاً عن الحق، والمقصود منه الزجر عن طريقهم ومنهجهم الخطأ، والمشي على الوجوه إما حقيقة بإقدار الله تعالى، كإقدارهم المشي على أقدامهم، أو مجاز عن سوء الحال ودفعهم دفعاً إلى جهنم، من غير وعي منهم ولا احترام لهم.

التأسي بقصص الأنبياء

يربط الوحي الإلهي أحداث الزمان بعضها ببعض، قديمها وحاضرها، لتحقيق وحدة شمولية، ومقارنة الأشياء ببعضها، والانتهاء بعدئذ إلى نظرة واحدة من خلال تشابه الوقائع. وهكذا نجد القرآن الكريم يتعرض لأحوال المشركين في مكة، ثم يعرض بعدها أحوال الأقوام السابقين، ومواقفهم مع أنبيائهم الذين أرادوا لهم الخير والإسعاد والنجاة والإنقاذ، ومصداق هذا التوجه نجده في إيراد مجموعة أخبار هنا تتعلق بالأنبياء السابقين وأقوامهم المعارضين، قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا(١) ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ
أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ
ٱلرَّسِّ(٢) وَقُرُونًۢا(٣) بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا(٤)
﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا
يَرْجُونَ نُشُورًا(٥) ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٣٥-٤٠].

هذه الآيات التي تتحدث عن أخبار الأمم الماضية هي تمثيل للمشركين العرب، وتوعد بأن يحل بهم ما حلّ بأولئك المعذبين. بدأ الله تعالى بإيراد جانب من قصة موسى عليه السلام، مفادها: تالله لقد آتينا موسى التوراة، وجعلنا معه أخاه هارون نبياً وزيراً، يؤازره ويعاونه ويناصره.

فقال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي قلنا لهما: اذهبا إلى فرعون وقومه لتبليغ الرسالة، ومضمونها إعلان توحيد الإله، وتوحيد الربوبية. فلا إله غير الله، ولا معبود بحق سواه، وهو مفاد توحيد الألوهية، والله وحده هو الخالق المدبر الرازق، الموجِّه، وهو المقصود بتوحيد الربوبية.

فلما كذب فرعون وقومه برسالة موسى وهارون، ولم يقروا بوحدانية الله تعالى وتوحيد عبادته، أهلكهم الله إهلاكاً، فانظروا يا مشركي مكة عاقبة الكفر والضلال وتكذيب الرسل.

ثم أورد الله تعالى جزءاً من قصة نوح عليه السلام مفادها: اذكر يا محمد لقومك

(١) أهلكناهم. (٢) أصحاب البئر الذين رسّوا أي دسوا نبيهم في البئر. (٣) أمماً. (٤) أي أهلكناهم إهلاكاً. (٥) لا يتوقعون بعثاً.

ما فعله قوم نوح، حين كذبوا رسولهم نوحاً عليه السلام، الذي مكث فيهم يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، ويحذرهم من عقابه ونقمته ألف سنة إلا خمسين، فما آمن به إلا قليل، فأغرقناهم بالطوفان، وجعلناهم عبرة وعظة للناس يعتبرون بها، وأعددنا وهيأنا عذاباً مؤلماً في الآخرة لكل ظالم كفر بالله تعالى، ولم يؤمن برسله، وسلك سبيلهم في تكذيب الرسل. وفي هذا تهديد لكفار قريش بأنه سيصيبهم من العذاب مثلما أصاب قوم نوح.

وجاء الوحي بخبر ثالث، أمر الله نبيه بإعلان، مفاده: اذكر أيها الرسول أيضاً لقومك قصة عاد الذين كذبوا رسولهم هوداً عليه السلام، وقبيلة ثمود الذين كذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام، وأصحاب الرّس أي البئر: وهم قوم من عبدة الأصنام بعث الله لهم شعيباً أو غيره، فدعاهم إلى توحيد الله والإيمان به وبرسالته، فكذبوه، فخسف الله بهم الأرض، واذكر أيها الرسول أمماً كثيرة بين قوم نوح وعاد وأصحاب الرسّ، لما كذَّبوا الرسل، أهلكناهم جميعاً، وكلاً من هؤلاء الأقوام بيَّنا لهم الحجج وأوضحنا لهم الأدلة، وأزلنا الأعذار والشبهات عنهم، فلم يؤمنوا، وإنما كذبوا، فأهلكناهم إهلاكاً شديداً.

والقرون جمع قرن، والقرن في الأظهر: هو الأمةالمتعاصرة في الزمن الواحد، وجملة ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ إيهام لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى.

وقصة رابعة هي قصة قوم لوط، فلقد مرّ مشركو مكة على ديار قوم لوط، أثناء تجارتهم إلى الشام في رحلة الصيف، وبخاصة على سَدُوم أعظمِ قرى قوم لوط التي أهلكها الله بمطر السوء: وهو المصحوب بالحجارة من سجّيل (جهنم) أفلم يروا ما حل بتلك القرى من عذاب الله ونكاله، بسبب تكذيبهم رسولهم، ومخالفتهم أوامر الله؟! إنهم أي العرب يرون ذلك عياناً، ولكنهم لم يعتبروا، لأنهم لا يتوقعون

النشور، أي البعث أحياء من القبور يوم القيامة، فكفرهم إنما أوجبه فساد معتقدهم في أمر الآخرة، وأنهم لا يرجون البعث، ولا يخافونه.

إن هذه الزواجر وأخبار العذاب كفيلة بردع الظالمين المشركين لو تأملوا وتفكروا واتعظوا.

استهزاء المشركين بالنبي ﷺ

على الرغم من إنذارات المشركين العرب بتعرضهم لسخط الله تبارك وتعالى، ورؤيتهم العبرة من تدمير مدينة قوم لوط، وهي سَدُوم بالشام، فإن هؤلاء المشركين تابعوا استهزاءهم بالنبي محمد ﷺ واحتقارهم له إذا رأوه، واستبعدوا أن يبعثه الله تعالى رسولاً، وأصروا على الوثنية، وتعدد الآلهة، وغالوا في ذلك حتى سموا دعوته إضلالاً، وتابعوا تحذيرهم من تأثير دعوته الجديدة وآيات القرآن التي كادت تؤثر فيهم وتجرفهم إلى الإيمان، وترك عبادة الأوثان، قال الله تعالى مصوِّراً هذه المواقف:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ[1] مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا[2] ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤١-٤٤].

نزلت الآية الأولى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ..﴾ في أبي جهل، فإنه كان إذا مرَّ رسول الله ﷺ مع صحبه، قال مستهزئاً: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾.

---

(١) أخبرني. (٢) حفيظاً من عباده.

إن مواقف التصدي والتحدي والمعارضة لدعوة النبي ﷺ كثيرة، منها: إذا رآك أيها النبي المشركون الكافرون بالله ورسوله، ما يتخذونك إلا موضع هزء وسخرية. ويقولون على سبيل الازدراء: أهذا هو المبعوث من عند الله رسولاً إلينا؟! قبحهم الله، فلم يكن رسول الله ﷺ إلا المثل الأعلى للأنبياء، والصفوة المختارة من البشر، وأول عظماء التاريخ في أحواله وأخلاقه الخاصة، وفي معاملاته الاجتماعية، وفي تضحيته بأغلى ما لديه لإعلاء كلمة الله، وفي رحمته بقومه وبالبشرية قاطبة، وفي قيادته الناجحة نجاحاً باهراً، فهو حريص على هداية قومه وإسعادهم.

ومن مواقفهم المهينة: أنهم قالوا: قارب محمد أن يثنينا عن عبادة الأصنام، وترك ديننا إلى دين الإسلام، لولا أن صبرنا على تلك العبادة الموروثة، فردّ الله تعالى عليهم من نواحٍ ثلاث:

الأولى: وعيد وتهديد شديد لهم، إنهم حين يشاهدون العذاب المنتظر الذي لا مفر لهم منه، يدركون من أخطأ الطريق، أهم أم المؤمنون مع نبيهم وقائدهم؟!

الثانية: تنبيه على عدم الجدوى من دعوتهم إلى الدين الحق، فإنهم اتخذوا أهواءهم آلهة، فأطاعوهم، واستولى عليهم التقليد، أفأنت أيها النبي تكون عليهم وكيلاً يتولى أمورهم، ويحفظ شؤونهم، وهم غارقون في الضلال؟! فإن من جعل إلهه هواه برأيه المحض، لن ينفع معه نصح ولا إرشاد، كما لا ينفع شيئاً من جعل هواه مطاعاً فصار كالإله، والهوى قائد إلى كل فساد، والنفس أمّارة بالسوء، وإنما الصلاح إذا ائتمرت النفوسُ العقلَ، وأصغت إلى الهدى بوعي، والوكيل: القائم على الأمر الناهض به.

الثالثة: بل (وهي للإضراب عما سبقه من الكلام من اللفظ دون المعنى) أي أتظن أن أكثرهم يسمعون سماع تدبر وفهم، أو يتعقلون ويفكرون فيما تتلو عليهم، وترشدهم إليه من الفضائل والأخلاق الحميدة، فتجهد نفسك في إقناعهم بصدق

رسالتك وصحة دعوتك؟! فما حالهم إلا كالأنعام السائمة، بل هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، وأشد خطأ في طريقهم منها، فإن تلك الأنعام تفعل ما هو خير لها ونفع، وتتجنب الضارّ بها، أما هؤلاء فلا يجلبون الخير لأنفسهم، وإنما يوقعونها في وهاد الضرر والضياع والضلال، وفي مستنقع الكفر والانحراف، يقذفون بأنفسهم في المهالك، وهذا يدل على فقدهم الإدراك الصحيح والوعي السليم، وتعطيلهم مفاتيح المعرفة الصحيحة، وارتمائِهم في بؤرة التقليد الأعمى، ومتاهات الأهواء الجامحة، ولو تعقلوا قليلاً لبادروا إلى الإيمان برسالة القرآن، ودعوةِ النبي العربي الهاشمي القرشي الداعية لإنقاذهم من ضياع الجاهلية، والناقلة لهم إلى عزة السيادة، وسمو الكرامة، وصدارة القيادة.

مظاهر الكون الدالة على الله تعالى

ما أكثر البراهين الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته، وهي براهين كونية حسية مشاهدة، لا تحتاج لكثير من التفكر والتأمل والتعقل، وإنما تحتاج للانتباه لها، وفهم مدلولاتها، وما تؤديه من فوائد عظيمة أوجدها الخالق، لنفع الإنسان، والاهتداء بها إلى الله تعالى، وهي في آيات متوالية أدلة خمسة: وهي مدّ الظل وقبضه، وإيجاد الليل والنهار، وإرسال الريح لإنزال المطر، وإيجاد الفاصل في أعماق الماء بين البحر الملح والبحر العذب، وخلق البشر من الماء المهين، أذكر هنا الأدلة الثلاثة الأولى وهي في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ[(١)] وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا[(٢)] وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا[(٣)]

(١) بسطه بين الفجر وطلوع الشمس. (٢) ساتراً بظلامه. (٣) أي قطعاً للأعمال وراحة للأبدان.

وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا(١) ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا(٢) بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤٥-٤٩].

تَلْفِتُ هذه الآيات النظر للاهتداء إلى الخالق، وذلك في بدئها بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي انتبه، والرؤية هنا: رؤية القلب.

أ- والمعنى: ألم تنظر أيها النبي وكل مخاطب من البشر بقلبك ووعيك إلى صُنْع الله في خلق الظل للتفيؤ به، في مواجهة حرارة الشمس الساطعة، من طلوعها لغروبها، كيف جعله الله تعالى متفاوتاً في ساعات النهار والفصول الأربعة، لإفادة الإنسان كضبط الوقت، والاستمتاع بالظل بعد التعرض لشدة الحر، فيكون الظل متراوحاً بين مدّ وقبض، فيمتد الظل صباحاً من أول الإسفار إلى بزوغ الشمس، ومساءً من بعد مغيب الشمس مدة يسيرة، ففي هذين الوقتين ظل ممدود على الأرض، مع أنه نهار، وفي سائر النهار ظلال متقطعة، والمد والقبض مطّرد في كل يوم، فالظل الممدود يكون من الفجر إلى طلوع الشمس، وإن كان في بقايا الليل في غير نهار.

ولو شاء الله لجعل الظل ثابتاً دائماً على حال واحدة لا يتغير طولاً وقصراً، ويكون غير متحرك ولا منسوخ.

ثم يجعل الله طلوع الشمس علامة على الظل، فلولا طلوعها لما عرف الظل، فكل شيء يتميز بضده، ثم يحسر الله تعالى الظل ويحوّله بالتدرج بحسب سير الشمس وارتفاعها، حتى لا يبقى منه إلا قليل تحت سقف أو تحت شجرة ونحوها. والقبض اليسير: إما اللطيف أو السهل القريب التناول.

---

(١) أي ذا انتشار، ينتشر فيه الناس لمعاشهم. (٢) مبشرات بالرحمة.

٢- والله هو الذي جعل ظلام الليل ساتراً كاللباس، وجعل النوم كالموت قاطعاً للحركة وتوفير الراحة، وجعل النهار ذا انتشار في الأرض، لابتغاء الرزق وغيره، والانتشار واليقظة يشبه البعث والإحياء، في مقابلة الإماتة والتوفي اللذين يتضمنهما النوم والسبات.

٣- والله هو الذي أرسل الرياح مبشرات بمجيء السحاب وهطول الأمطار والإنبات وتسيير السفن، وأنزل من السماء، أي السحاب ماء طاهراً مطهِّراً، يُتطهر به في تنظيف الأجسام والملابس والأشياء المختلفة، والانتفاع به في الطعام والشراب وسقي النباتات والحيوانات. وأنزل الله المطر لإحياء الأرض التي لا نبات فيها، وطال انتظارها للغيث، فتصبح بعد ريّها مزدهرة بأنواع النباتات والزهر والشجر، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٢٢/٥] ، والرياح جمعاً إذا وردت في القرآن فهي للمطر والرحمة، وإذا وردت مفردة فإنما هي للعذاب، والطهور وصف مبالغة في «طاهر» فهو طاهر مطهِّر.

وأنزل الله المطر أيضاً ليشرب منه الإنسان ومختلف أنواعه، والحيوان بفئاته، للحاجة الشديدة إليه، وإبقاء الحياة، وازدهار الأرض بالخضرة، كما ذكر في آية أخرى، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٤٢/٢٨].

فظهر بهذا أن منافع الماء شيئان:

١- إحياء النبات، لقوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ووصف البلدة بالميت لأنه جعله كالمصدر الذي يوصف به المذكر والمؤنث، أو تكون البلدة بمعنى البلد.

٢- وإحياء الحيوان والإنسان لقوله سبحانه: ﴿أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ والأناسي: جمع إنسان، أو جمع إنسيّ. وقدم الله الأنعام وأخر الإنسان لشدة حاجة الحيوان،

وعجزه عن التعبير عن مراده، ووصف الأنعام والأناسي بالكثرة لملاحظة أحوال الماشية البعيدة عن منابع الماء وأهل البوادي الذين يعيشون بالمطر، أما أهل البلدان فيقيمون عادة بقرب الأنهار ومنابع الماء. فتكون رحمة الله بالمطر عامة شاملة.

مظاهر أخرى ذات دلالة على الله تعالى

هناك أدلة أخرى على وجود الله تعالى وتوحيده: وهي إيجاد حاجز بين الماء الملح والماء العذب في وسط البحر، وخَلْق الإنسان من ماء مهين يكون سبباً لبقاء النوع الإنساني، وتنوع العلاقات الإنسانية بالأنساب والمصاهرات، وقد أورد الله تعالى هذين الدليلين بعد بيان نعمة إنزال المطر، وتفريقه أو توزيعه في أنحاء الأرض وبين أهلها توزيعاً، يلتقي مع الحاجة والحكمة الإلهية، فقال الله تعالى موضحاً كل ذلك:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ(١) بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا(٢) ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ(٣) هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ(٤) وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ(٥) وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا(٦) وَحِجْرًا مَّحْجُورًا(٧) ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا(٨) وَصِهْرًا(٩) وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٠-٥٤].

لقد كان توزيع الأمطار بنسب متفاوتة بين البلاد وأهلها بفعل الله تعالى، وبمقتضى حكمته البالغة، وهذا هو المراد بالآية الأولى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ..﴾ أي ولقد فرقنا المطر وحولناه من جهة إلى أخرى، فأمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسُقْنا السحاب من مكان إلى آخر، ليتذكروا نعمة الله ويعتبروا، ولكن أكثر الناس

(١) أنزلناه على مواضع مختلفة. (٢) جحوداً. (٣) أي خلاهما وأرسلهما متجاورين. (٤) شديد العذوبة. (٥) شديد الملوحة. (٦) أي حاجزاً. (٧) أي حداً محدوداً. (٨) ذوي نسب ذكوراً. (٩) ذوات صهر إناثاً.

يجحدون النعمة، وينسبون ذلك التوزيع لغير الله من الطبيعة أو الأنواء والكواكب، فيقولون: مطرنا بنَوء كذا وكذا، أي من النجوم الساقطة أو الطالعة في المشرق والمغرب، وفي إنزال المطر والتحكم فيه من الله تعالى دليل على وجوده وقدرته وحكمته. وهذا يقتضي شكر المنعم، كما ينبغي شكره على إرسال الرسول محمد ﷺ بالقرآن العظيم، ولو شاء الله لبعث في كل بلدة رسولاً منذراً يخوِّف الناس من عذاب أليم، ولكن اكتفى الله ببعثة محمد ﷺ إلى الثقلين: الإنس والجن، وإلى جميع أهل الأرض المعمورة، وأمره ربّه بتبليغ القرآن كما جاء في آية: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٢/٧]. فإياك أيها النبي أن تتبع الكفار فيما يدعونك إليه، من مجاملات لآرائهم ومذاهبهم، وجاهدهم بكل سلاح مادي وهو السلاح المعروف، أو بياني إعلامي وهو اللسان مشافهة أو كتابة، أو بالنفس والمال، أو بالسلاح العقلي: وهو القرآن الكريم، جهاداً شاملاً، لا هوادة فيه.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ الضمير يعود على القرآن أو الإسلام.

ثم ذكر الله تعالى الدليل المتعلق بالبحار، فهو سبحانه الذي جعل البحرين المتضادين متجاورين متلاصقين لا يمتزجان، هذا ماء زلال عذب فرات، أي مفرط العذوبة، وهذا ملح شديد الملوحة، ولكن لا يختلط أحدهما بالآخر، كأن بينهما حاجزاً منيعاً، وحداً محدوداً. وهذا دليل آخر على وجود الله وقدرته الباهرة ووحدانيته في الكون.

والدليل الأخير على وجود الله: أن الله سبحانه هو الذي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسوّاه وعدّله، وجعله كامل الخلقة، ذكراً أو أنثى كما يشاء الله، وقسم النوع الإنساني قسمين: ذكوراً تنسب إليهم الأنساب، وإناثاً يصاهر بهن، وكان الله الخالق قديراً بالغ القدرة، يفعل ما يشاء من هذا وغيره، يخلق ما يريد، على وفق

الحكمة والعلم القديم، وتظل إرادته وقدرته وحكمته هي الغالبة في إيجاد الذكر والأنثى. كما جاء في آيات أخرى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٩-٥٠].

وهذا دليل آخر على قدرة الله تعالى، فهو الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأمده بالقوة، وأعانه في حياته على تحمل ظروف المعيشة، وسخّر له جميع منافع الكون، رحمة منه وفضلاً، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ كان: يراد بها الدوام قبل وبعد، لا أنها تعطي مضياً فقط.

ومن يتأمل في الظواهر الكونية، بادر طوعاً أو كرهاً إلى الإقرار بوجود الله ووحدانيته، إلهاً حكماً عدلاً، رحيماً، قديراً، رازقاً، مهيمناً، عليماً بكل شيء، وفوق كل شيء، وخلق كل شيء فقدره تقديراً.

وثنية المشركين وإيمان الموحدين

لم يذعن المشركون لنداء القرآن العظيم بالإيمان بوحدانية الله، على الرغم من الأدلة الكونية الكثيرة المتقدمة في آيات سابقة، الدالة على وجود الله وقدرته وتوحيده، وإنما بقوا في مستنقع الوثنية، وظلوا يعبدون الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وليس الرسول مكلفاً بحملهم على الهداية، وإنما دوره مقصور على التبشير والإنذار من غير طلب عوض أو مقابل من الأجور، وفي مواجهة ذلك، أمر الله نبيه والمؤمنين برسالته بإفراد الله بالعبادة، وتفويض الأمور إليه، لأنه مالك السموات والأرض وما بينهما، وخالقُ الشمس والقمر وبروج الكواكب، وجاعلُ الليل والنهار متعاقبين، قال الله تعالى مبيناً منهج الفريقين:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا[١] ﴿٥٥﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا[٢] مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ
رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ[٣] وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ
خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ
ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا
وَزَادَهُمْ نُفُورًا[٤] ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا[٥] وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا
﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً[٦] لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

[الفرقان: ٢٥/ ٥٥-٦٢].

المعنى: ويعبد المشركون الوثنيون من غير الله تعالى آلهة لا تنفعهم عبادتها، ولا يضرهم هجرها وتركها، وكان الكافر على معصية ربه معيناً غيره من الكفرة، ومعيناً الشيطان بأن يطيعه. وهذا عام في جنس الكافر. وسبب نزول هذه الآية: هو أبو جهل بن هشام، ولكن اللفظ عام لجنس الكفار كلهم.

ثم سرّى الله عن نبيه وخفف عنه أحزانه بمعارضة قومه دعوته، فأبان له: لا تهتم بهم، ولا تذهب نفسك حسرات عليهم، حرصاً عليهم، فإنما أنت رسول تبشر المؤمنين بالجنة، وتنذر الكافرين بالنار، ولست بمطالب بإيمانهم جميعاً.

ثم أمر الله رسوله بأن يحتج على المشركين لإزالة وجوه التهم بقوله ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا أطلب مالاً ولا نفعاً يختص بي، لكن مسؤولي ومطلوبي: هو إيمانكم بالله، فمن شاء أن يهتدي ويؤمن ويتخذ إلى رحمة ربه طريق نجاة، فليفعل. أو

(١) أي مظاهراً ومعيناً الشيطان بإطاعته، ومعيناً بقية الكفرة. (٢) هذا استثناء منقطع. (٣) نزهة عن النقائص مع الحمد والثناء. (٤) تباعداً عن الإيمان. (٥) البروج منازل الكواكب السيارة. (٦) أي كل منهما يأتي بعد الآخر.

لا أسألكم إلا إنفاق المال في سبيل الله، فهذا هو المسؤول، وهو السبيل إلى الرب، والتأويل الأول أظهر.

واستمرَّ أيها النبي في التبشير والإنذار، وتوكل على الحي الذي لا يموت، فهو المتكفل بنصرك في كل أمرك، وسبح بحمده، أي قل: سبحان الله و بحمده، أي تنزيه واجب، و بحمده أقول، وكفى بالله عالماً خبيراً بذنوب عباده ومعاصيهم الظاهرة والخفية، يعلم كل شيء منها، وهو محصيها عليهم، ومجازيهم عليها بالخير خيراً، وبالشر شراً.

والله الخبير العليم بكل شيء: هو الذي أوجد أو أبدع السموات السبع والأراضي السبع وما بينهما من المخلوقات، في ستة أيام، بقدرته وسلطانه، ثم استوى الله على العرش أعظم المخلوقات استواء يليق بعظمته وجلاله، فاسأل أيها السامع من هو خبير به، عالم بعظمته، فاتبعه واقتد به، أي اسأل جبريل والعلماء وأهل الكتب المنزلة سابقاً.

وأما الكفار: فقابلوا الشكر والتوكل بالكفر والاعتماد على النفس، فإذا طُلب منهم السجود لله أو للرحمن وحده، فقالوا سائلين سؤال مغالطة: وما الرحمن؟ استفهام عن مجهول عندهم. فقد كانت قريش لا تعرف هذا الاسم في أسماء الله تبارك وتعالى، وقالت: إن محمداً يأمر بعبادة رحمن اليمامة، أي مسيلمة الكذاب الذي تسمى بالرحمن، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: أنسجد لمن أمرتنا بالسجود له، لمجرد قولك، من غير أن نعرفه، وزادهم هذا الأمر بالسجود نفوراً وإعراضاً وبعداً عن الحق والصواب.

ولما كان سؤال قريش عن الله تعالى وعن اسمه الآخر الذي هو الرحمن سؤالاً عن مجهول، نزلت هذه الآية مصرحة بصفاته تعالى التي تعرَّف به، وتوجب الإقرار

بألوهيته. وصفاته: أنه تعاظم حين جعل في السماء بروجاً، أي منازل للكواكب السيارة وغيرها، وجعل في السماء سراجاً: وهي الشمس الساطعة، وقمراً منيراً. والله هو الذي جعل الليل والنهار متعاقبين، يخلف أحدهما الآخر، ويأتي بعده، توقيتاً لأوقات العبادة، وترويحاً للنفوس، وتهدئة في الليل للمشاعر، وتيسيراً للرزق في النهار، لمن أراد أن يتذكر ما يجب عليه، ويتفكر في عجائب صنع الله، ويشكر ربه على نعمه التي لا تعد ولا تحصى.

صفات عباد الرحمن

- ١ -

تميز القرآن الكريم بالعناية بالإيجابيات أكثر من السلبيات، وبالبناء التشريعي والعقدي والخلقي أكثر من الهدم والفوضى والانحلال، وبالأوامر الحاملة على التهذيب والفضيلة أكثر من النواحي التي تمنع من الانحراف والرذيلة، لذا تجد آيات القرآن تصف ضلال الكافرين والجاحدين، وتوبخهم وتؤنبهم، ثم تعود للعناية بتربية جيل الإيمان، ووفد العقيدة، وموكب النور والحضارة، لأن الإنذار وبيان العيوب ينبه العقلاء إلى وهاد الشر والفساد، أما التبشير والترغيب: فيأخذ بأيدي الصلحاء إلى جادة الحق ومنهج الاستقامة، وهكذا نجد ذم المشركين في آيات سابقة، ثم العودة السريعة لوصف عباد الرحمن بصفات جليلة ودائمة، قال الله تعالى في بيان هذه الصفات:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا(١) وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا(٢)

---

(١) بسكينة ووقار. (٢) قولاً سديداً فيه أمان وسلام من الأذى.

﴿٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا[١] ٦٥ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟[٢] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا[٣] ٦٧﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٣-٦٧].

هذه خمس صفات من تسع لعباد الرحمن -وهم المؤمنون حقاً- تجمع بين غُرر الأخلاق أو الآداب، وبين مصداقية العبادة، واعتدال النفقة، حتى لا يقع المؤمن في ضائقة، قد تصرفه عن واجباته نحو الله تعالى، أو توقعه في قلق وحيرة، وضرر وشدة.

١- أما الصفة الأولى من هذه الصفات: فهي التواضع وسمو النفس، فإن عباد الرحمن هم الذين يمشون في الأرض بسكينة ورفق ووقار، من غير ترفع ولا تعاظم، ويعاشرون الناس معاشرة حسنة لينة، من غير غلظة ولا قسوة، مع الاحتفاظ بسمو النفس وعزتها، وترفعها عن الدنايا، ومن غير استضعاف ولا ذلة، وإذا أساء إليهم الجهلة، لم يقابلوهم بالإساءة، وإنما عفوا وصفحوا، ولم يقولوا إلا خيراً، وإنما يقولون للجاهل: سلاماً، من السلامة لا التسليم، أو يقولون قولاً سديداً.

وقد كان رسول الله ﷺ يتكفأ في مشيه، كأنما يمشي في صَبَب[٤]، و يخاطب الناس برفق وترفع عن الخطأ والإيذاء.

٢- والصفة الثانية لعباد الرحمن: الحلم والأناة أو الإعراض عن الجاهلين، فإذا سفه عليهم الجهال بسوء القول، لم يعاملوهم بالمثل، بل عفوا وصفحوا، وتكلموا بخير، من غير غيظ ولا غضب، ورجح سيبويه أن المراد من قولهم: «سلاماً» السلامة، لا التسليم. وتكون هاتان الصفتان الأولى والثانية: هما ترك الأذى، وتحمل الأذى.

٣- والصفة الثالثة: هي التهجد ليلاً، فهم في ليلهم حيث ينام الآخرون

(١) لازماً ممتداً. (٢) لم يضيّقوا. (٣) وسطاً بين الحالين. (٤) أي مكان منحدر.

يستمتعون بلذة المناجاة مع الإله الخالق، يصلون صلاة الليل، ويذكرون ربهم ساجدين قانتين، قائمين طائعين، لأن العبادة تحلو في جوف الليل، وتكون دليلاً على الإخلاص والصدق، وحب التقرب من الله تعالى، كما جاء عن عبادة الليل في آية أخرى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ٧٣/ ٦]. وكل إنسان مكلف بالتهجد بقدر الاستطاعة.

٤- والصفة الرابعة: هي الخوف من عذاب الله في جهنم، فهم يَدْعون ربهم بصرف عذاب النار عنهم، حتى يكونوا دائماً في حذر وخوف مع الرجاء، وحيث يكون ذلك دليلاً على صحة عقيدتهم وإيمانهم، وتطابق أعمالهم مع اعتقادهم، وعلة الدعاء على هذا النحو: أن عذاب جهنم ملازم للإنسان العاصي، ثقيل على النفس، وإن جهنم بئس المستقر أو المكان هو، وبئس موضع الإقامة هو أيضاً.

٥- والصفة الخامسة: هي الاعتدال في الإنفاق أي ترك الإسراف والتقتير. فإن شأن المؤمنين إذا أنفقوا على أنفسهم لم يكونوا مبذِّرين في النفقة، فلا تزيد عن الحاجة، ولا بخلاء مقترين، فيقصرون في أداء الحق والواجب، وإنما ينفقون أموالهم بنحو عدل وسط، بقدر الحاجة. والقصد من هذه الصفة: هو جعل نفقة الطاعات في المباحات من غير إفراط ولا تفريط، فلا يسرف حتى لا يُضيع أو يُهدر ثروته في وقت قصير، ولا يقتّر فيضيع حقاً آخر أو يهمل عياله وأهله، أو يُجيعهم ويفرط في الشح والبخل، والحُسْن في ذلك: هو القوام أي العدل، والقَوَام في كل واحد: بحسب عياله وحاله، وبمدى قدرته أو جلده وصبره على الكسب، وخير الأمور أوساطها، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٩].

أما النفقة في العبادة التي توهم غير المراد منها: فهي أمر قد حظرت الشريعة قليله وكثيره، وكذلك التعدي على مال للآخرين.

صفات عباد الرحمن

- ٢ -

لم يقتصر الحق تعالى في بيان صفات عباد الرحمن -وهم المؤمنون حقاً- على الاتصاف الإيجابي بصفات السداد والاعتدال، والعبادة والدعاء، وإنما عليهم تجنب الحرام والاعتداء على الحرمات في النفس والمال والعرض، وإهدار حقوق الآخرين وتزوير الحقائق. ويظلون على هذا مع قبول الموعظة الحسنة للاستزادة من التحلي بالفضيلة، والطلب من الله تعالى باستمرار حسن الحال، في النفس والزوجة والذرية، والقدوة لجميع الأتقياء، لتبقى قافلة الهدى والصلاح سائرة في مسيرتها الظافرة، ويكون المصير حسناً بالتمتع في جنان الخلد، وخلود النعيم والرضوان الإلهي، علماً بأن ثمرة الطاعة والاستقامة تعود لصاحبها، ولا تنفع الله طاعة، ولا تضره معصية، قال الله تعالى مبيناً هذه الخصال:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا[١] ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا[٢] مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ[٣] مَرُّوا كِرَامًا[٤] ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ[٥] وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ[٦]

---

(١) عقاباً في الآخرة. (٢) الاستثناء هنا في الظاهر متصل بما قبله، وقال أبو حيان: الأولى عندي أن يكون منقطعاً، أي لكن من تاب فلا يضاعف له العذاب. (٣) ساقط القول الذي لا نفع فيه. (٤) مكرمين أنفسهم. (٥) مسرّة وفرحاً. (٦) أي أعلى منازل الجنة وأفضلها، لأن الغرفة: الدرجة العالية أو الرفيعة.

بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ[1] بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ[2] فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا[3] ﴿٧٧﴾﴾

[الفرقان: ٢٥/ ٦٨-٧٧].

نزلت آية ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ﴾ فيما أخرجه الشيخان عن ابن عباس في أناس من أهل الشرك أكثروا من القتل والزنا، فسألوا النبي ﷺ عن كفارة لأعمالهم السابقة، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآيات.

وكذلك آية ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ نزلت فيما أخرجه البخاري عن ابن عباس بعد الآيات السابقة، حينما قال مشركو مكة: قد قتلنا النفس بغير حق، ودعونا مع الله إلهاً آخر، وأتينا الفواحش، فنزلت: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية.

هذه تتمة صفات عباد الرحمن وبيان جزائهم في الآخرة، لنفعهم المحض، لا لله المعبود.

٦- الصفة السادسة للمؤمنين عباد الرحمن: هي اجتناب الشرك والقتل والزنا، فهم لا يعبدون مع الله شريكاً آخر، ولا يقتلون النفس عمداً إلا بحق كالقصاص وعقوبة الرجم وعقاب المرتد. ومن يفعل إحدى هذه الجرائم الثلاث، يجد في الآخرة عقاباً شديداً مضاعفاً ضعفين: أحدهما على الكفر، والآخر على المعصية الكبيرة، ويخلد في نار جهنم إلى الأبد مع الإهانة والإذلال، إلا أن التائب من المعصية ولو كانت قتلاً، تكون توبته بالإقلاع عنها والندم عليها، والتصميم على تركها في المستقبل، والتصديق بالله ورسوله وآخرته، وفعل الأعمال الصالحة، وحينئذ يمحو الله عنه بالتوبة سيئته، ويبدل مكانها حسنة، ويغفر الله له ويرحمه. وتبديل السيئات بالحسنات معناه: أن يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة، فيكون ذلك سبباً

(١) ما يكترث. (٢) عبادتكم لله. (٣) ملازماً لكم.

لرحمة الله عز وجل إياهم. ثم أكد الله تعالى أمر التوبة، فذكر: ومن تاب، فإنه قد تمسّك بأمر وثيق، أي فيقبل الله توبته، لرجوعه إلى ربه رجوعاً مرضياً.

٧- والصفة السابعة: هي اجتناب شهادة الزور وهي الكذب على غيره متعمداً، لأن الزور هو الكذب، والمعنى لا يشهدون الزور، فهي من الشهادة، لا من المشاهدة. وهم أيضاً لا يحضرون مجالس الزور، وهو كل باطل مزور ومزخرف، وإذا صدف مرورهم بذلك، مرّوا غير متدنسين منه بشيء. فيكون المراد من هذه الصفة: ترك حضور الزور وكل بهتان وإثم، وأعظمه الشرك.

٨- والصفة الثامنة: هي قبول الموعظة، فإن عباد الرحمن إذا ذكّروا بآيات ربهم، حرصوا على استماعها، وأقبلوا على تلقيها بآذان صاغية، وقلوب واعية، وأبصار متفتحة.

٩- والصفة التاسعة: الابتهال إلى الله، فعباد الرحمن: هم الذين يبتهلون إلى ربهم، داعين الله أن يرزقهم زوجات صالحات، وأولاداً أتقياء، وأن يكونوا قدوة حسنة، وأئمة يقتدى بهم في الخير واتباع الدين.

ثم ذكر الله تعالى جزاء عباد الرحمن وهو أنهم يجزون بالدرجات العالية في الجنان ويتلقون التحية والسلام والإكرام، بسبب صبرهم على الطاعة، وعن المعصية. وهم خالدون في النعيم الأبدي الذي لا ينقطع، وحسُن ذلك المقر والمقام.

ثم ختم الله تعالى سورة الفرقان وبيان صفات عباد الرحمن بإعلان واضح: مفاده أن الله غني عن عباده، فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، ولا يبالي الله بهم لولا إقبالهم على دعائه ومناجاته. وأما أنتم يامعشر الكافرين فإنكم كذبتم رسلي، ولم تؤمنوا بلقائي، فسوف يكون تكذيبكم سبباً ملازماً لعذابكم.

تفسير سورة الشعراء

تهديد المشركين لإعراضهم عن القرآن الكريم

كان موقف المشركين المعارض لدعوة النَّبي ﷺ سبباً في أمرين: تأكيد العناية والحرص على سلامة النَّبي من الأذى، وتطمين نفسه، وإزالة ما به من القلق، وتهديد أهل الشِّرك صراحة بإنزال آية من آيات العذاب الكبرى، فتبيد آثارهم، وتجعلهم عبرة للمعتبر، لأنهم كذبوا الرسول وآيات القرآن، ولم يشكروا نعمة الله عليهم، مما أوجده في الأرض من أصناف كريمة للخير والرزق الحسن، وهم مع ذلك يظل أكثرهم غير مؤمنين، والله هو الغالب القاهر الرحيم بالتائبين منهم. قال الله تعالى واصفاً هذه الأحوال في مطلع سورة الشعراء المكِّية:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ[1] أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ[2] ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشُّعراء: ٢٦/ ١-٩].

افتتحت هذه السورة بأحرف ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ للتنبيه، وتحدِّي العرب بالإتيان بمثل القرآن الكريم، باعتباره متكوِّناً من مادة لغتهم وحروفها الأبجدية، وهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة والبيان. فإذا عجزوا عن ذلك دلَّ على أنه كلام الله الموحى

(١) أي قاتلها ومهلكها بالهمّ والغمّ. (٢) صنف حسن نافع.

به إلى نبيِّه. وهذه هي آيات القرآن الواضحة الدالّة على تمييز الحق من الباطل، والهدى من الضّلال.

ولعلك أيها النَّبي بسبب تكذيب المشركين لدعوتك قاتل نفسك ومهلكها بالهَمّ حُزْناً على عدم إيمانهم. وهذا إيناس له عما كان فيه من القلق والحرص على إيمانهم.

إننا إن شئنا ننزل عليهم آية سماوية تلجئهم إلى الإيمان وتقسرهم عليه، فتصبح رقابهم خاضعة ذليلة لما نريد، ولكنا لا نفعل ذلك، لأننا نريد أن يكون الإيمان عن طواعية واختيار ورضا تام، لا بالإكراه.

لكن هؤلاء الكفار، كلما جاءهم كتاب من السماء يذكِّرهم به الرَّحمن بضرورة الإيمان وترك الشِّرك، أعرضوا عنه، وكلما أنزل الله موعظة تذكِّرهم، جدَّدوا الإعراض والتكذيب. والقصد من قوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ أي محدث الإتيان، والمراد أن مجيء القرآن للبشر كان مجيء شيء بعد شيء.

فإنهم كذبوا القرآن والحق، ثم بادروا إلى الاستهزاء، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب والاستهزاء، في مستقبل الزمان.

ولما كان إعراضهم عن النظر في الإله الصانع أعظم كفرهم، وكانوا يجعلون الأصنام آلهة، ويرفضون كل تذكرة، نبَّه الله تعالى على قدرته وأنه الخالق المستحق العبادة بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أوَ لم ينظروا إلى الأرض التي أوجدها الله، وأنبت فيها من كل صنف ونوع حَسَن مُتْقَن، كثير النفع، من الزروع والثمار، فيستدلّوا بذلك على عظمة سلطان الله، وعظيم قدرته. ويشمل ذلك كل ما به قوام الحياة والأمور، والأغذية والنباتات، ويدخل في ذلك الحيوان، لأنه عن إنبات، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [سورة نوح: ١٧/٧١]. قال الشعبي: الناس: من نبات الأرض.

إن في ذلك الإنبات للأشياء لدلالة على قدرة الخالق للأشياء، وقدرته على البعث والإحياء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره، واقترفوا نهيه ومعصيته.

وإن ربّك أيها الرسول النَّبي لهو القادر على كل ما يريد، القاهرُ الغالب، الذي قهر كل شيء وغلبه، الرَّحيم بخلقه ولا سيما التائبين منهم، فلا يعجل انتقامه من العصاة، بل يمهلهم ويؤجلهم، لعلهم يرجعون عن غيِّهم وضلالهم، ثم إن لم يرجعوا يأخذهم بالعقاب أخذة فجأة وألم وحسرة. والمراد من آية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ أنه عَزَّ في نقمته من الكافرين، ورحم مؤمني كل أمة، وفي لفظة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ وعد كريم من الله بإضفاء رحمته على أهل التوبة والإيمان، ووعد الله منجز، وفضله سابغ شامل.

قصة موسى عليه السّلام مع فرعون

- ١ -

تذكير فرعون بتربية موسى

إن محنة الأنبياء عليهم السلام شاقة وصعبة، لا سيما إذا كان تبليغ دعوتهم لمثل فرعون المتألِّه الطاغية الجبّار، ولكنهم ملزمون بتنفيذ الأمر الإلهي، فقد أمر الله موسى بدعوة فرعون إلى عبادة الله وحده، وإرسال بني إسرائيل معه ومع أخيه، فعاتبه فرعون على فَعْلته الخطأ بقتل مصري، وامتن عليه بتربيته عنده صغيراً، ولكن موسى عليه السّلام اعتذر عن فَعْلته بأنها خطأ محض، وكانت قبل النُّبوة، وقابل الامتنان بالتربية بأن فرعون فعل ما هو أخطر وأسوأ وهو استعباد قومه بني إسرائيل. وهذا ما قصَّه علينا القرآن الكريم، ليظلَّ عبرة لمن يتذكر أو يخشى، فقال الله سبحانه:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ(١) ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ(٢) ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ(٣) ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ(٤) بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٠-٢٢].

التقدير في بدء الكلام: واذكر إذ نادى ربُّك موسى، وسوق هذه القصة تمثيل لكفار قريش لتكذيبهم محمداً ﷺ، وإيناس للنَّبي ﷺ عما يلقاه من صدود قومه وتكذيبهم له. والمعنى:

اذكر أيها الرسول لقومك حين نادى الله موسى من جانب الطور الأيمن بالوادي المقدس طُوى، وناجاه، وجعله رسولاً، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه الظّالمين أنفسهم بتأليه فرعون، واستعباد بني إسرائيل، وقال له: قل لهم: ألا يتقونني ويخافون انتقامي في الآخرة؟! والعبارة: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ جمعت بين معنى نفي التقوى عنهم، وأمرهم بالتقوى.

فقال موسى مجيباً ربَّه: يا ربّ، إني أخشى تكذيبهم لي، فأقع في ضيق الصدر، وعدم انطلاق اللسان، تألُّماً بما يعملون، فاجعل معي أخي هارون رسولاً نبيّاً مثلي، يعينني ويؤازرني، وكان هارون عليه السّلام وزيراً فصيحاً، واسع الصدر.

ثم أبدى موسى مخاوفه من فرعون وقومه، ومنها خوف القبط من أجل ذَنْبه، وهو

---

(١) أن: إما مفسّرة لا موضع لها من الإعراب، بمنزلة (أي) أو مصدرية في موضع نصب. (٢) الجاحدين لنعمتي. (٣) أي من المخطئين، أو من الجاهلين، وليس من الكافرين. (٤) اتّخذتهم عبيداً لك.

قتله الرجل الذي وكزه، فخشي أن يُقتصَّ منه، فقال الله له ردّاً لقوله: ﴿كَلَّآ﴾ لا تخف من شيء، فإني متكفِّل بتغلُّبك ونصرك. وأمره ربُّه أن يذهب مع أخيه هارون بآيات الله: وهي جميع ما بعثهما الله تعالى به، وأعظم ذلك: العصا، ثم اليد، إننا سامعون ما يقولون وما يجيبون. وقال لهما: اذهبا إلى فرعون، فقولا له برفق ولين: إننا رسولان من ربِّ العالمين، فأطلق حرية الإسرائيليين وأرسلهم معنا إلى الأرض المقدسة، ليعبدوا الله بحرية، وكانت بعثة موسى إلى فرعون بأمرين: أحدهما: إرسال بني إسرائيل وإزالة ذلّ العبودية والغلبة عنهم، والثاني: أن يؤمن فرعون ويهتدي مع قومه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ وارد على جهة التعظيم والجبروت الذي لله تبارك وتعالى، وليس المراد من ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ طلب الاستماع، وإنما إظهار الاهتمام لإيناس موسى عليه السّلام.

فكان موقف فرعون متميِّزاً بالإعراض والازدراء، والتقريع والعتاب بأمرين:

الأول: قوله -أي فرعون- لموسى: ألم نُربِّكَ في قصورنا صغيراً، ولم نقتلْك كبقية الصِّبية، ومكثت معنا مدة من السنين، قيل: إنها ثلاثون سنة. ثم تُقابِلُ الإحسان بجحود النعمة، وتُبادرنا بالقول الغريب؟!

الثاني: فعلت فعلتك الشنيعة وهي قتل الرجل المصري القبطي الذي وكزته، فقضيت عليه، وهو من رعيَّتي وأتباعي. والفَعلة: المرة من الفعل.

وكانت الفترة بين قتل القبطي وبين رجوع موسى إلى فرعون نبياً: أحد عشر عاماً غير أشهر، كما ذكر ابن عطية.

فأجابه موسى: فعلتُ تلك الفَعلة السَّيئة وهي قتل القبطي، وأنا من المخطئين غير المتعمِّدين، قبل أن يوحى إلي بالرسالة والنُّبوة. فولَّيتُ هارباً منكم إلى أرض مَدْين،

خوفاً من بأسِكم، فوهب لي ربي الحكم، أي الفهم والعلم والنُّبوة. وأما الامتنان بالتربية فلم تكن تربية حسنة، وإنما أسأتَ إلى قومي بني إسرائيل، حين استعبدتهم، فجعلتهم عبيداً وخدماً أذلاء، فهل الإحسان إلى رجل واحد منهم له اعتبار إذا قورن بالإساءة إلى مجموع قوم، قتَّلت أبناءهم، واستبقيت نساءهم أحياء للخدمة؟! إنها ليست بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلني وألا تقتلهم، وألا تستعبدني ولا تستعبدهم بالقتل ولا بالخدمة وغير ذلك. فحاجّه موسى في الأمرين.

- ٢ -

النِّقاش الدائر حول إثبات وجود الله بين موسى وفرعون

استمرَّ الجدل والحوار مدة من الزمان بين موسى عليه السّلام وفرعون حاكم مصر، وقد ابتدأ الحوار حول التاريخ الماضي لموسى في مصر، في عهد الطفولة والشباب، ثم دخل الحوار في أمر جوهري حول إثبات وجود الله تعالى، والتعرف على حقيقته وذاته، فكان جواب موسى صارفاً البحث عن حقيقة الذات الإلهية، إلى بيان المهم والمفيد: وهو بيان الأفعال والآثار الدّالة على الله تعالى. وهذا ما أوضحته الآيات الآتية:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشُّعراء: ٢٦/ ٢٣-٣١].

حينما لم يجد فرعون فائدة في الجولة الأولى من المبارزة أو الجدل مع موسى عليه

السّلام حَوْل التربية وترك القتل، اتَّجه إلى معارضة موسى في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فاستفهمه استفهاماً عن مجهول من الأشياء، كما يستفهم عن الأجناس الغريبة، فقال فرعون: وما حقيقة ربّ العالمين الذي أرسلك؟ وهل هناك إله غيري؟ فأجابه موسى عليه السّلام: الله: هو خالق السماوات والأرض ومالكهما ومدبِّرهما، والمتصرِّف فيهما، والمهيمن على ما بينهما من مخلوقات، كلهم خاضعون لله طوعاً أو كرهاً، وذلك إن كنتم موقنين بضرورة إسناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود لذاته، فاعلموا أنه هو الله، ولا يمكن تعريفه إلا بأفعاله وآثاره.

فقال فرعون الذي لم يعجبه الجواب، لمن حوله من حاشيته، على سبيل التَّهكُّم والاستهزاء وتكذيب موسى: ألا تعجبون من جوابه، وألا تستمعون لمواربته وبُعده عن الجواب الحقيقي؟ أسأله عن حقيقة ربِّ العالمين، فيذكر أفعاله وآثاره.

فأجاب موسى بجواب آخر أخصّ مما سبق وأدلّ على المقصود، لأنه واقع محسوس مشاهد لهم: إن الله تعالى هو خالقكم وخالق آبائكم المتقدمين، فهو الذي أحدثهم وأوجدهم، وهو الواجب لذاته، الباقي بعد فناء خلقه، لا أول له ولا آخر. فلم يرضَ فرعون أيضاً بهذا الجواب. وقال لقومه: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لا عقل له، ولا يفهم السؤال، وإنه لمجنون يخلط في كلامه.

فأجاب موسى عليه السّلام بجواب ثالث أوضح: إن الله تعالى هو ربُّ المشرق الذي تشرق منه الشمس في الصباح، وربُّ المغرب الذي تغرب فيه الشمس في المساء، ومثلها سائر الكواكب والنجوم الثوابت والسَّيارة، مع انتظام دورانها في مداراتها. وهذا الجواب يبين مدى عجز فرعون الذي لم يكن له إلا مُلك مصر، وأما الله سبحانه فله ربوبية المشرق والمغرب. وذلك إن كنتم تعقلون هذا الكلام وتفكِّرون في قدرة الله تفكيراً سليماً.

ثم اتَّجه فرعون إلى الملاذ الأخير للتَّغلب على موسى عليه السّلام: وهو التَّهديد باستخدام القوة والقهر، والطَّرد أو السجن، فقال لموسى: لئن اتَّخذت إلهاً غيري، لأجعلنك في عداد المسجونين في غياهب السجون، وتبقى فيها حتى تموت، وكان سجن فرعون أشدّ وأسوأ من القتل.

فقال موسى عليه السّلام قولاً يناسب التهديد والوعيد: أتفعل هذا وهو السجن، ولو أتيتك بحجة واضحة على صدق دعواي النُّبوة؟ وهي المعجزة الخارقة للعادة، الدالةُ على وجود الله تعالى.

قال فرعون: فأْتِ بهذا الشيء الذي يشهد لك، ويدلُّ بوضوح على صدق رسالتك إن كنت صادقاً في دعواك ومؤيَّداً في قولك.

يلاحظ من هذا الحوار المثير أن هناك بُعداً شديداً في وجهات النظر والمواقف بين موسى النَّبي، وبين فرعون الحاكم، وليس هناك استعداد لدى فرعون بالاستجابة لهدي النُّبوة والرِّسالة الإلهية، لأن غرور السلطة والجبروت يحجب فرعون عن التفكير السديد، ويجعله أسير الاعتماد على الحكم الغاشم وادِّعاء الأُلوهية.

- ٣ -

معجزة موسى عليه السّلام

من المعلوم أن كل نبي يحتاج عادة لبرهان غريب لإثبات صدقه في ادِّعائه النُّبوة والرِّسالة، وذلك يتم بما هو معروف بالمعجزة: وهي الأمر الخارق للعادة، أي بما لا يستطيعه البشر العاديون بحسب المعتاد. وكانت معجزة كل نبي تتناسب مع عصره. وتفوق مألوفات العصر، فموسى عليه السّلام كانت معجزته العصا واليد التي أحبطت عمل السَّحرة، وفاقت السِّحر كله، وعيسى عليه السّلام كانت معجزته إبراء

الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، مما فاق عمل الأطباء وخبراتهم، ومحمد ﷺ كانت معجزته القرآن الكريم أرقى مستوى بلاغي في الفصاحة والبيان، فلم يستطع العرب الفصحاء مجاراته والإتيان بمثله. قال الله تعالى مبيناً معجزة موسى عليه السّلام:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ(١) فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ(٢) حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ(٣) وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ(٤) ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾
[الشّعراء: ٢٦/ ٣٢-٤٢].

عرض موسى عليه السّلام على فرعون إثبات صدق ادِّعائه النُّبوة والرسالة بالمعجزة الخارقة للعادة، بتأييد الله وإيجاده، فقبل فرعون الطلب، مضمراً إبطاله أو خرقه والتهوين به، فألقى موسى عصاه التي كان يتوكّأ عليها، فانقلبت ثعباناً واضح الملامح، ظاهر الحركة، من غير لَبس ولا تمويه، والثعبان أعظم الحيّات، ثم عادت عصاً كما كانت.

ونزع موسى يده من جيبه، فإذا هي تتلألأ للناظرين كأنها قطعة من الشمس، فلما رأى فرعون ذلك هاله، ولم يجد مدفعاً له، غير أنه بادر إلى رميه بالسحر، وطمع - لعلوِّ علم السِّحر في ذلك الوقت وكثرته- أن يجد في السِّحر سبباً لمقاومة موسى عليه السّلام. ثم حاول فرعون تشويه وضع موسى، والتحريض عليه، وحمل قومه على تكذيبه، فذكر أموراً ثلاثة:

(١) أخرجها من جيبه. (٢) للأعيان والأشراف. (٣) أخِّر أمرهما. (٤) جامعين السَّحرة من طريق الشُّرَط.

١- قال لحاشيته من القادة والأشراف: إن هذا الرجل لبارعٌ في السِّحر، وفعله هذا نوع من السِّحر.

٢، ٣- وإنه يريد إخراجكم من بلادكم، والتَّغلب عليكم بسحره، وإثارته الفرقة بينكم، فأشيروا علي ماذا أصنع به؟ وأغراهم به، وحرَّضهم على إبعاده، والتَّخلص منه.

فأشاروا عليه بتأخير أمره وأمر أخيه، وجَمْعِ السحرة لمقاومته، من طريق طلب مهرة السَّحرة وأساطينهم، وتجميعهم من أنحاء البلاد، فيأتونك بكل خبير ماهر في السِّحر، فيقابلون موسى بنظير ما جاء به. ولم يشيروا بقتله؛ لأن حجّته نيِّرة، وضلالتهم في ربوبية فرعون واضحة، فخشوا الفتنة بالمناظرة، وطمعوا بحجَّة تُقنع العوام. والسَّحّار: بناء للمبالغة لكلمة ساحر. وكان ذلك تدبيراً وإلهاماً إلهيّاً لتظهر حجة موسى عليه السّلام، ويتغلَّب على كل من ناوأه أو عارضه.

فجمعت السَّحرة في موعد يوم معلوم: هو يوم الزينة: وهو يوم عيدٍ شهير عندهم. وكان السَّحرة أسحر الناس وأعلمهم وأعرفهم بفنِّ السِّحر، وكانوا فئة متنوِّرة مثقَّفة بين الناس، وجمعاً كبيراً.

وطلب فرعون من الناس الاجتماع، وحثَّهم أي فرعون على الحضور، لمشاهدة المبارزة بين الجانبين، ظنّاً من فرعون بالغلبة، وأراد القوم ذلك الموقف، ورغب موسى عليه السّلام في هذا التَّجمع، لتعلو كلمة الله، وتتغلب حجة الله على حجة الكافرين.

وقال قائلهم: إنا لنرجو أن يتغلب السَّحرة، فنستمرَّ على دينهم، ولا نتَّبع دين موسى. ولما قدم السَّحرة إلى مجلس فرعون، قالوا: هل لنا من أجر مالي أو غيره إن انتصرنا على موسى؟ قال: نعم، لكم الأجر، وزيادة على ذلك أجعلكم من المقرَّبين

عندي ومن جلسائي، ويلاحظ أنهم ابتدؤوا بطلب الجزاء؛ وهو إما المال وإما الجاه، فبذل فرعون لهم كلا الأمرين.

ولكن تدبير الله فوق كل تدبير، وكان الفوز لموسى عليه السّلام في صميم الحال العامة التي توقع فيها فرعون وقومُه إنزال الهزيمة الساحقة بموسى، وإنهاءَ شأن دعاويه ومحاولاتِه حمل القوم على رسالته، ولكن قد يؤتى الحذِر من مأمنه، وهكذا حدث.

- ٤ -

المبارزة بين موسى عليه السّلام والسَّحرة

كانت الحسابات المتوقعة في منطق القوة التي لا تعتمد على شيء من الإيمان أن موسى عليه السّلام سينهزم، وأن السَّحرة سيتغلَّبون، ولكن في منطق الإيمان بالله ربِّ العالمين تتغيَّر كل الحسابات، وتنقلب الموازين، وكان لترتيب المبارزة أثر كبير في قلب الأوضاع، حيث أدَّت مهارة موسى عليه السَّلام وتوفيقه من ربِّه، بتقديم فعل السَّحرة أولاً، وتأخُّر فعل موسى، إلى نجاح كبير، وحدث ما لم يتوقعه أحد، وهو إيمان السَّحرة بربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون. وفي ذلك النجاح الباهر حدث كبير، يهزُّ مشاعر النفوس المؤمنة، ويدفع أهل الإيمان إلى شدّة الثبات على العقيدة وزيادة الإيمان، كما يخدش كبرياء المتغطرسين الذين يفتقدون معيار الإيمان، ولا يدركون معناه. قال الله تعالى مبيِّناً هذا المشهد العجيب:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ[1]

(١) بقوته .

إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ(١) مَا يَأْفِكُونَ(٢) ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ(٣) إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشُّعراء: ٢٦/٤٣-٥١].

ابتدأ الحوار بين موسى عليه السَّلام والسَّحرة عن أيهما البادئ بالفعل، فقدَّمهم موسى، قائلاً لهم: ألقوا ما تريدون إلقاءه من العصي والحبال، ثقةً وإيماناً منه بأن الله غالبه ومؤيِّده، ويجعل ما يُلْقونه طعمة لعَصاه الثعبانِ المبين. فألقوا ما معهم من الحبال المطلية بالزِّئبق والعصي المحشوة به، وقالوا: بعزّة فرعون -أي بقوته وجبروته- إنا لنحن الغالبون.

ولما حميت الشمس، تحركت العصي والحبال، وخُيِّل إلى موسى أنها تسعى، وسحروا أعين الناس، واسترهبوهم، وجاؤوا بسحر عظيم.

ثم ألقى موسى عصاه، فانقلبت ثعباناً عظيماً، فابتلعت كل ما وجدته في حلبة المبارزة من عصي وحبال. و﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ معناه: تبتلع ما يكذبون معه وبسببه.

فخرَّ السَّحرة ساجدين لله تعالى بلا مبالاة ولا شعور، لأنهم أدركوا أن ما فعله موسى فوق قدرة البشر، وأنه من فعل الله تعالى ربِّ موسى وهارون، وأما فعلهم: فهو مجرد تمويه وتزييف وتخييل. ونائب فاعل ﴿أُلْقِىَ﴾ هو الله عزّ وجلّ. ورأوا أن الغنيمة هي الإيمان والتَّمسُّك بأمر الله عزّ وجلّ، فسجدوا كلهم لله تعالى مقرِّين بوحدانيته وقدرته، ووصلوا إلى إيمانهم بسبب موسى وهارون عليهما السّلام، وقالوا: صدَّقنا واعترفنا بالله ربِّ العالمين، وأكّدوا ذلك بأنه هو ربُّ موسى

(١) تبتلع بسرعة . (٢) يكذبون ويغيرونه بالتمويه . (٣) لا ضرر علينا فيما نتعرَّض له .

وهارون، غير آبهين بعزة فرعون وجبروته. وهذا دليل على إسقاط أُلوهية فرعون وربوبيته.

ولما رأى فرعون والملأ إيمان السَّحرة، وقامت الحجة بإيمان أهلِ علمهم ومظنّة نصرتهم، وقع فرعون في الورطة العظمى، فوقف موبِّخاً لهم على إيمانهم بموسى قبل إذنه، وقال: أتؤمنون بموسى قبل استئذاني، وكيف تعصون أمري، وأنا الحاكم المطاع؟

وأضاف فرعون قائلاً: وإنكم فعلتم ذلك بتواطؤ بينكم وبينه، ولم تقوموا بمقتضى السِّحر، ليتغلَّب موسى. وهذا تلبيس على القوم، لئلا يعتقدوا أن إيمان السَّحرة حقّ.

ولسوف تعلمون وبال فعلكم، ومدى عقابكم. وهذا تهديد ووعيد.

وإني لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، بقطع اليد اليمنى، والرِّجل اليسرى، ولأصلبنكم في جذوع النَّخل بعد ذلك. فأجابوه قائلين: لا ضير، أي لا حرج ولا ضرر علينا من ذلك، ولا نبالي به، فكل إنسان ميت ولو بعد حين، ومرجعنا إلى الله عزّ وجلّ، وهو سبحانه لا يضيع أجر المحسنين. وهذا لبُّ الإيمان وإخلاص اليقين الذي لا شائبة فيه من رغبة في نفع، أو رهبة من عقاب، والمراد: فلا يضيرنا ذلك مع انقلابنا إلى مغفرة الله ورضوانه: وروي: أن فرعون أنفذ فيهم ذلك الوعيد، وصلبهم على النيل.

وأضاف السَّحرة قائلين: وإننا نرجو أن يغفر الله لنا ذنوبنا وسيِّئاتنا بفعل السِّحر، لأجل كوننا أول أفواج أهل الإيمان الذين شهدوا هذا الموقف، من القبط وصنيعتهم.

وهذا الموقف المشهود لإيمان السحرة سيظل مبعث تخليد وتقدير، فرحم الله سحرة فرعون ورضي الله عن أولئك الذي انقلبوا في مشهد رهيب قادة أهل الإيمان، وقمة الشهداء البررة في سبيل العقيدة الحقّة بالله عزّ وجلّ.

- ٥ -

نجاة موسى وإغراق فرعون

دقَّ ناقوس الخطر بعرش فرعون ونهاية عهد الفراعنة بمصر، بعد انتشار الطغيان والفساد، وتأليه الظالم الجبار فرعون، لأنهم اعتمدوا على القوة البشرية الذاتية، ناسين الله وقدرتَه وتدبيره. وتهيأ الأمر لإنجاء بني إسرائيل، بعد أن ظلوا رَدَحاً من الزمان عبيداً وخدماً لقوم فرعون. وانتشر الرُّعب والخوف من إدراك جيش فرعون للإسرائيليين الفارِّين من مصر، وظهر صوت الحق والإيمان على لسان موسى عليه السّلام، وحدثت المعجزة الغريبة بانفلاق البحر لقوم موسى وإنجائهم، ثم إطباقِ البحر على فرعون وجنوده وإغراقهم، فهل من مصدِّق؟ نعم، ليس أدلُّ على التصديق من الواقع المشاهَد الذي وصفه القرآن العظيم في الآيات الآتية:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ(١) بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ(٢) ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(٣) ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ(٤) ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ(٥) إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ(٦) فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ(٧) كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ(٨) ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا(٩) ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشُّعراء: ٢٦/ ٥٢-٦٨].

---

(١) أي سِرْ بهم ليلاً . (٢) أي جامعين العساكر ليتبعوهم . (٣) أي لجمع قليل محتقر . (٤) محترزون .
(٥) كلا: كلمة ردع وزجر، أي ثق بالله واترك الخوف . (٦) انشقَّ اثني عشر فِرْقاً . (٧) قطعة من البحر .
(٨) كالجبل الضخم. (٩) قرَّبنا هنالك آل فرعون من البحر .

لما أراد الله تعالى إنجاء بني إسرائيل وإغراق فرعون، أمر موسى عليه السّلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً باتِّجاه البحر، وأخبره أنهم سيُتبعون من أعدائهم فرعون وقومه، فخرج موسى وقومُه.

فلما علم فرعون في الصباح بخروج بني إسرائيل، اغتاظ وغضب، فأرسل في مدائن مصر من يحشر الجند (يجمعهم) مستخدماً أسلوب التعبئة المعنوية والمادية لتحريض قومه على الخروج معه، واصفاً الإسرائيليين بأنهم جمع قليل محتقر، وإنهم مصدر نكد وإغاظة لنا بأخذهم المال وهروبهم ليلاً، فإنهم قد ذهبوا بأموالنا باستعارة حلي القبط وأموالهم، وإننا قوم نحذر المخاطر، ونستعدّ لإبادتهم بالسلاح.

وألهم الله قوم فرعون بضرورة الخروج، وأخرجهم مما كانوا يتمتعون به من بساتين خضراء، ورياض غنّاء، وأنهار وعيون جارية الماء، وكنوز ذهبية مخزونة، ومنازل عالية. وكان هذا الأمر حقّاً، وكان إخراج الله لهؤلاء كما وصف سبحانه، وورَّث بني إسرائيل ثرواتهم، فتابع قوم فرعون الإسرائيليين، ولحقوا بهم مشرقين عند شروق الشمس على خليج السويس من البحر الأحمر.

فلما رأى كل من الجمعين صاحبه، قال الإسرائيليون: إن القوم لحقوا بنا، وسيقتلوننا، ولن يبقى منا أحد. فهدّأ موسى عليه السلام نفوسهم قائلاً: كلا، لن يحدث ما تتوقعون من الهلاك، ولن يدركونا، وإن معي ربِّي بالحفظ والنصر، سيهديني إلى طريق النَّجاة والخلاص منهم. وهذا موقف إيماني بارز يدعو للإيمان التام بوجود الله وقدرته على كل شيء.

وأوحى الله بأمره إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه بها، فانفلق بقدرة الله تعالى واختراعه، اثني عشر طريقاً، وصارت كل قطعة من الماء المحجوز المتجمد عن الحركة كالجبل الشامخ، وجفَّف الله الطرق والممرات البحرية بالشمس والهواء،

بعدد أسباط بني إسرائيل وفِرَقهم، لكل سِبْط منهم طريق. وأزلفنا، أي قرَّبنا من البحر هنالك القوم الآخرين، وهم فرعون وجنوده، فتبعوهم.

وأنجينا موسى وبني إسرائيل أجمعين بخروجهم إلى الضفة الأخرى من البحر في يوم عاشوراء، ثم أغرقنا فرعون وجنوده في الماء، بإطباق البحر عليهم.

ونبَّه الله على موضع العبرة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن في هذا الحدث العجيب لعظة دالّة على قدرة الله تعالى وتوفيقه، وصدق موسى عليه السّلام، بإنجاء المؤمنين، وإهلاك الكافرين.

ولم يكن أكثر الباقين في مصر من القبط من أهل الإيمان بالله تعالى، وأما بنو إسرائيل: فعلى الرغم مما أنعم الله عليهم من النَّجاة والتَّحرر والتَّملك، فإنهم كذّبوا بحقائق الدين، واتَّخذوا العجل إلهاً، وطلبوا رؤية الله جهرة. وإن الله تعالى لَمُنتقم من أعدائه، ولقد عَزّ في نقمته من الكفار، ورحم المؤمنين من الأمة. وهذا امتحان لبني إسرائيل، وبشارة بنصر النَّبي ﷺ في مستقبل الأيام القريبة، فما بعد الشدة إلا الفرج، وسيلقى مشركو مكة سوء المصير، وينجي الله المؤمنين بدعوة نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه.

قصة إبراهيم عليه السّلام

- ١ -

مجادلته قومه حول عبادة الأصنام

هذه قصة أخرى عقب إيراد قصة موسى مع فرعون، يراد بحكايتها تثبيت النَّبي ﷺ وأهل الإيمان، وإشعار النَّبي ﷺ بضرورة التَّخلي عن الهمّ والْحُزْن لإعراض المكّيين عن الإيمان بالقرآن الكريم، والإعلام بأن معارضة الرُّسل من أقوامهم حالة قديمة،

لا يستدعي تجددها شيئاً من القلق والضيق. فلقد جادل إبراهيم عليه السّلام قومه في عبادة الأصنام جدال الرجل العاقل الجريء القوي الحجة، بتفنيد شبهاتهم، وإعلامهم بضرورة التّخلي عن الأصنام، والتّوجه نحو الله عزّ وجلّ، بالإقرار بوجوده ووحدانيته، وقدرته وعظمته، قال الله تعالى واصفاً هذا اللون من الجدال القوي:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم (١) مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشّعراء: ٢٦/٦٩-٨٢].

هذه القصة تضمنت الإعلام بغيب، لم يكن محمد ﷺ يعرفه، وإنما جاء خبره في الكتب المتقدمة، لتعتبر قريش في نظرتها إلى الأصنام، ولكن لم يكن فيها تكذيب وعذاب، خلافاً لأغلب القصص الأخرى. والصنم: ما كان من الأوثان على صورة بني آدم، سواء كان من حجر أو خشب أو غير ذلك.

والمعنى: واتل يا محمد على قومك خبر إبراهيم عليه السّلام، ليقتدوا به في عبادة الله تعالى وحده، وفي التّبري من عبادة الأصنام، وإبطال تلك العبادة بالحجج العقلية الساطعة، ومنافاتها لناموس الفطرة السوية. فإن إبراهيم عليه السّلام منذ صغره، آتاه الله رشداً وحكمة، وفوجئ في حال شبابه بعبادة قومه الأصنام، فقال لهم، أي لأبيه وقومه: ما الذي تعبدونه؟ فأجابوه بأننا نعبد هذه الأصنام، ونبقى قائمين على عبادتها على الدوام، ملازمين لها في كل وقت وزمان.

(١) أفكرتم فعلمتم.

ناقشهم إبراهيم الخليل عليه السّلام بأن تلك الأصنام لا تتصف بمقتضى العقل بصفات الإله، فإنهم لا يسمعون دعاءكم حين تدعون، ولا ينفعونكم بشيء، ولا يدفعون عنكم ضرراً. فأجابوه متمسكين بالتقليد الموروث الأعمى: لقد وجدنا آباءنا يفعلون ذلك، أي لا حجة ولا برهان من العقل على عبادتها، وإنما هو مجرد تقليد، وهو في الواقع أقبح وجوه التقليد، لأنه على ضلالة، ويناقض الواقع، ويرفضه الفكر الصحيح، ولا حجة فيه.

فتبرأ إبراهيم عليه السّلام من جميع ما عُبد من دون الله تعالى، وعداوته له، وعبَّر عن بغضه وعداوته لكل معبود سوى الله عزّ وجلّ، وقال: أخبروني عن حال ما تعبدونه، أنتم وأسلافكم الأقدمون في غابر الزمان إلى الآن، هل حققت هذه العبادة شيئاً، وهل لهذه الجمادات أي تأثير؟ وأتحدّاها بأن تجلب إلي ضرراً أو سوءاً، فهي كلها عدوّ لي لا أعبدها، ولكن أعبد الله ربّ العوالم كلها من إنس وجنّ، فهو الذي أوجدني ورزقني، وهو الذي يرشدني لطاعته، ويهديني دائماً للخير والصلاح في الدنيا والآخرة، وهو الذي يرزقني الطعام والشراب وغيرهما من أنواع الرزق المتجدِّد والدائم.

وإذا تعرضتُ لمرض، فهو الإله المنعم الذي يشفيني من كل داء، وهو الذي يحييني ويميتني، لا يقدر على ذلك أحد سواه، لأنه المبدئ والمعيد. وهو الذي أرجو أن يغفر لي سيِّئاتي، ويستر ذنوبي يوم القيامة، ولا يقدر على غفران الذنوب سواه.

هذه أوصاف خمسة للإله الذي يستحق العبادة وحده دون غيره، ويلاحظ أن إبراهيم عليه السّلام أسند المرض إلى نفسه بقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ﴾ وأسند الشِّفاء إلى الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ وهذا من حسن الأدب في العبارة، مع أن الكل من عند الله.

وطمع إبراهيم في المغفرة، وهذا دليل على شدة خوفه من ربِّه، مع علوّ منزلته، واتِّصافه بالخُلَّة، فهو خليل الرَّحمن، وإمام الحنفاء، وأبو الأنبياء.

وطلب إبراهيم من ربِّه غفران خطيئته، مريداً بذلك كِذباته الثَّلاث: وهي قوله للملك: «هي أُختي» في شأن سارّة، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصّافات: ٣٧/ ٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٦٣]. وهي في الواقع ليست كذبات في الحقيقة، وإنما ذلك من قبيل التورية وتوجيه الكلام لمعنى آخر، ومن أجل أغراض أخرى قصدها تتعلق بنشر دعوته. والأظهر أن إبراهيم أراد بالخطيئة اسم الجنس من غير تعيين في كل أمره.

– ٢ –

دعاء إبراهيم عليه السّلام

الدُّعاء مخُّ العبادة، ودليل الإخلاص وحبِّ الله تعالى، وصدقِ التَّوجه إليه، يحتاج إليه كل مؤمن في كل حال، تتردَّد به شفاه المكروب والحزين، ويلجأ إليه المريض المتألِّم، ويلوذ إليه الخائف المضطرب، ويضرع به المسافر، ويستعين به للتَّغلب على العدو، والتَّخلص من وساوس الشيطان، ويستمتع به المتنعِّم لطلب رضوان الله، والخلود في جنان النَّعيم، والاستعاذة من العذاب الأليم. فهو سَلْوة المكروب، ورجاء الطامع، وأمل الصّالح، ولا يستغني عنه حتى النَّبي المرسل، لذا عبَّر إبراهيم الخليل عليه السّلام في دعائه عن حرارة الشَّوق إلى الله، وإمداده بفضل الله ورحمته في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ[1] فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾

(١) ثناء حسناً.

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي(١) يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا(٢) مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٣-٨٩].

تضمَّن دعاء إبراهيم الخليل مقوّمات القدوة الحسنة، والصفوة المختارة، والقرب من الله تعالى، لتعليم الآخرين والاقتداء به، وهي ستة مطالب أراد بها معنى التَّثبيت والدوام.

١- يا رب أعطني الحُكْم، أي الحكمة والنُّبوة، والفهم والعلم، لإنارة سبيل الحياة، والتَّعرف على صفاتك العليا، وقد أُوتي النُّبوة ويقين الإيمان.

٢- ووفقني لطاعتك، لأكون في زمرة الصالحين في الدنيا والآخرة، وقد أجاب الله دعاءه، كما في آية أخرى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٧].

٣- واجعل لي ذِكْراً جميلاً بعدي، وسمعه طيبة، في الدنيا، بتوفيقي للعمل الصالح، والاقتداء بي في الخير، ولسان الصدق: الثَّناء الجميل وتخليد المكانة، وأجاب الله دعاءه كما جاء في آية أخرى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠٨-١١٠]. وهو محترم ومحبوب لدى جميع أهل الأديان. وكل ملّة تتمسك به وتعظِّمه، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد ﷺ.

٤- واجعلني من ورّاث الجنة وأهلها الذين ينتفعون بخيراتها ونعيمها، كما يتمتع الوارث بإرث مورثه في الدنيا. وهو يقيناً من أهل الجنة، لأنه رسول، ويلاحظ أنه لما فرغ من مطالب الدنيا، طلب سعادة الآخرة، وهي جنّة النعيم، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٦٣].

---

(١) لا تفضحني ولا تذلني. (٢) الظاهر أن الاستثناء منقطع، أي لكن من أتى الله

٥- واغفر لأبي ذنبه، ووفقه للتوبة والإسلام، فإنه ضال عن طريق الهدى، أي مشرك. واستغفاره لأبيه في هذه الآية قبل أن يتبين له بموته على الكفر: أنه عدوّ لله، أي محتوم عليه سوء اعتقاده بإصراره على الشِّرك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٤].

٦- ولا تفضحني بعتابٍ على ما فرَّطت، أو بنقص منزلة عن وارث، واسترني من الخزي والهوان يوم القيامة، وهذا مبالغة منه عليه الصّلاة والسّلام في تحرِّي الكمال والسلامة والنَّجاة، في يوم شديد الأهوال. فكلمة ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ إما من الخزي: وهو الهوان، وإما من الخزاية: وهي الحياء. وهذا سيتحقَّق بفضل الله، لأنه إمام الحنفاء، وأبو الأنبياء.

ثم وصف يوم القيامة الذي يخاف منه بأنه يوم لا ينفع الإنسانَ فيه مال ولا بنون، ولا يقيه شيء من عذاب الله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، إلا من أتى الله بقلب سليم من الشوائب، فينفعه سلامة قلبه. والقلب السليم لله: هو الخالص السليم من الشِّرك والمعاصي، ومتاع الدنيا ولو كان مباحاً، كالمال والبنين. ومما لا شك فيه أن الأهم والأخطر لسلامة القلوب: هو تخلُّصها من الشِّرك والنِّفاق، والكفر والضَّلال، لأن الشَّك والشِّرك والنِّفاق هي أمراض القلوب، كما قال الله تعالى في وصف المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠]. وكان إبراهيم عليه السّلام ذا قلب صاف من كل معكرات الإيمان، وذا فطرة سليمة من جميع شوائب الضلال.

وفي السُّنة النَّبوية الصحيحة أدعية مأثورة يشبه بعضها ما جاء في هذا الدُّعاء. منها: «اللَّهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلُم بها شَعَثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكِّي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وتردّ بها أُلفتي، وتعصمني بها من كل سوء».

- ٣ -

أوصاف القيامة في دعاء إبراهيم عليه السّلام

وصف إبراهيم الخليل يوم القيامة في دعائه بأوصاف فيها الحسم وتقرير المصير الأبدي، من جنة واسعة، ونار ملتهبة، وأحوال الغاوين المعذَّبين فيها، من إبليس وجنوده، واختصام حادّ في أنحائها، ويأس من الشفيع والصديق الحميم، والتّأمل في العودة لدار الدنيا، لإعلان الإيمان الحق بالله تعالى، وفي ذلك آية وعبرة، وعظة وذكرى. قال الله تعالى مبيِّناً هذه الأحوال:

﴿وَأُزْلِفَتِ(١) ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ(٢) ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ(٣) ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟(٤) فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ(٥) ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ(٦) ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً(٧) فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٩٠-١٠٤].

هذه أوصاف ثلاثة ليوم القيامة، وردت في دعاء سيدنا إبراهيم الخليل عليه السّلام، تتضمن العلم بأحوال الغيب باختصار، وتتطلب الاستعداد لهذا اليوم الرهيب.

أ- في يوم القيامة قُرِّبت الجنة وأُدنيت لأهل التقوى السعداء، الذين قضوا حياتهم الدنيوية في التزام الأوامر الإلهية، واجتناب النّواهي الرَّبانيّة، فعمروا دنياهم بالتّقوى. وفي ذلك اليوم أُظهرت الجحيم وهي النار لأهل الغَواية والضّلال، البعيدين عن الحقِّ والهداية، الغارقين في الشقاء والانحراف.

(١) قُرِّبت . (٢) أظهرت . (٣) الضَّالّين . (٤) أُلقوا على وجوههم . (٥) نجعلكم والله سواء في العبادة .
(٦) قريب يُعنى بنا . (٧) رجعة إلى الدنيا .

٢-وقيل في ذلك اليوم للمشركين: أين آلهتكم التي عبدتموها من دون الله، من أصنام وبشر وكواكب وغيرها، هل ينفعونكم بنصر لكم، أو يمنعونكم من عذاب شامل لكم؟

وألقي في تلك النار الآلهة المزعومة وعبّادها، وأصحاب الغواية والضّلال، والقادة إلى النار والأتباع، ومعهم جميع جنود إبليس وأتباعه.

٣- قال أهل الغواية وهم في حال الغيظ الشديد من الآلام والحجاج بينهم وبين الآلهة المعبودة والشياطين الداعية لتلك الآلهة: والله لقد كنا في ضلال بعيد عن الحق، وواضح المبنى والمظهر، حين نجعلكم أيها الأصنام والملائكة والبشر وغيرهم متساوين في استحقاق العبادة، وإطاعة الأمر، مع ربِّ العالمين من الإنس والجنّ.

والحقُّ أنه ما أضلّنا وحرفنا عن الحقِّ والهدى إلا السّادة المجرمون من الشياطين والقادة الضّالّين.

فليس لنا اليوم شفيع يشفع، ولا صديق ودود يتوجَّع، ولا قريب يتحنَّن، كما جاء في آية أخرى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّخرف: ٤٣/ ٦٧].

فليت لنا رجعة إلى الدنيا: فنؤمن بالله وحده لا شريك له، ونؤمن بكتبه ورسله واليوم الآخر، ونعمل صالحاً غير الذي كنّا نعمل، إلا أن هذا مجرد مراوغة وكذب محض، كما أخبر القرآن الكريم عنهم في آية أخرى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٨].

إن في ذلك المذكور من قصة إبراهيم، ومحاجّة قومه في عبادة الأصنام، والتغلب عليهم بالحجة القاطعة، وفي بيان وصف الجنة والنار، ومخاصمة أهل النار، لعظة وعبرة، ودلالة واضحة على: أن لا إله إلا الله، ولا معبود بحقٍّ سواه، ولا ربَّ غيره. ولم يكن أكثر الناس بمصدِّقين بالله ورسوله.

وإن ربَّك أيها النَّبي محمد الذي أحسن إلى العرب وغيرهم بإرسالك لهم لهدايتهم، لقادر على الانتقام منهم، وهو الرَّحيم بهم إذ لم يعجِّل عقابهم وإهلاكهم، بقبول توبتهم، كما أنه رحيم بأهل الإيمان الذين أطاعوا الله والرسول، وعملوا بما يرضي الله، ولم يعرضوا عن شيء مما جاء في كتاب الله ووحيه.

دعوة نوح عليه السّلام إلى الإيمان

لقد استضاءت الحياة الإنسانية-منعاً لتعثُّرها وانحرافها-بموكب النُّور الإلهي من القديم، وعبر التاريخ، وإلى يوم القيامة، متمثِّلاً ذلك بإنزال الكتب الإلهية والصُّحف، وبإرسال الرُّسل والأنبياء، وكانت دعوتهم واحدة، تنحصر في إثبات وجود الله وتوحيده، (الإلهيات) والإقرار بالوحي والنُّبوة (النُّبوات) والإيمان بعالم الغيب (القيامة) بخبر الصادق المصدوق، وبدأت رسالة نوح عليه السّلام هذا الموكب بالدعوة إلى توحيد الله وعبادته وطاعته، وهجر عبادة الأصنام والأوثان، فما آمن به إلا قليل، وترفَّع الأكابر والأشراف، واتَّهموا أتباعه بأنهم أخسّاء أراذل سفلة. حكى القرآن الكريم هذا الواقع في الآيات التالية:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ[1] (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧)

(١) الأدنياء من الناس.

فَٱفْتَحْ(١) بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ(٢) ٱلْمَشْحُونِ(٣) ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشُّعراء: ٢٦/ ١٠٥-١٢٢].

هذه قصة أول رسول بعثه الله إلى النّاس، بعد أن عبدوا الأصنام والأوثان، وهو نوح عليه السّلام الذي مكث يدعو قومه لعبادة الله ألف سنة إلا خمسين، فكذَّبه قومه، حيث ذكر الله سبحانه: كذب قوم نوح رسل الله، والمراد نوحاً عليه السّلام، لأن من كذَّب رسولاً واحداً، فقد كذَّب جميع الرُّسل، وذلك حين قال لهم أخوهم إخاء جنس في الإنسانية والقومية: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟!

ثم وصف نوح عليه السّلام نفسه بصفتين بقوله: إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني الله به لكم، فخافوا عذاب الله وانتقامه، وأطيعوني فيما آمركم به من توحيد الله وعبادته وطاعته. ولا أطلب منكم أجراً أو جزاء على نصحي لكم، إن ثوابي على الله ربِّ العوالم كلها من إنس وجنّ. فاتَّقوا الله باتِّباع أوامره واجتناب نواهيه، وكرَّر ذلك للتوكيد، لأن التقوى والطاعة أساس الدين، وكلمة جامعة للدِّين كله.

فأجابوه مستكبرين بعنصرية وترفُّع: كيف نصدِّقك، وقد اتَّبعك الأراذل السَّفلة في المجتمع؟ وكيف نتأسى بهم، فإنهم ضعاف الناس وأدنياؤهم وفقراؤهم، أي هم أهل الصنائع الخسيسة، ونحن السّادة أصحاب النُّفوذ والثَّراء.

فأجابهم نوح عليه السّلام: لا علم لي بأعمال هؤلاء وصنائعهم، ولا أبحث عن شؤون معيشتهم وأساليب حياتهم، وليس في نظري وعلمي بأعمالهم ومعتقداتهم فائدة، فإنما أتعامل مع ظواهرهم، ويبقى حسابهم على الله تعالى، فإن كنتم ذوي

---

(١) فاحكم. (٢) السفينة أو السُّفن. (٣) المملوء.

مشاعر مرهفة وأحاسيس صادقة، ويا ليتكم تشعرون بهذا الشعور، وتعلمون أن حسابهم على ربّهم، لما عيَّرتموني بصنائعهم. والقصد من ذلك: الإنكار عليهم بتسمية المؤمنين أراذل، بسبب الفقر ودنوّ الصنعة.

وليس من شأني طرد هؤلاء المؤمنين الضُّعفاء من مجلسي، وإنما بعثت نذيراً واضح الإنذار، فمن أطاعني كان مني وأنا منه، شريفاً كان أو وضيعاً. فلجأ القوم إلى التهديد قائلين: لئن لم تنته يا نوح عن دعوتك إيانا إلى دينك، لنرجمنَّك بالحجارة، أي القتل بها.

فقال نوح: يا ربِّ، إن قومي كذَّبوني في دعوتي إياهم إلى الإيمان بك، فاحكم بيني وبينهم حكماً عدلاً، تنصر به أهل الحق، وتدفع الباطل وتبيده، ونجني من العذاب، مع من آمن برسالتي، وصدَّق بدعوتي.

فأجاب الله دعاءه، وأنجاه مع من آمن بدعوته، وأنقذهم بالسفينة المملوءة بالناس، والمتاع، وأصناف الحيوان، حفاظاً على أصول النوع الحيواني. وكان النّاجون ثمانين، أربعين رجلاً، وأربعين امرأة.

إن في إنجاء المؤمنين، وإغراق الكافرين، لعبرةً وعظة لكل مَن صدَّق أو كذَّب بالرُّسل. وإن ربَّك لهو القويُّ الغالب المنتقم ممن كفر به، وخالف أمره، الرَّحيم بمن أطاعه وأناب إليه، فلا يعاقبه.

دعوة هود عليه السّلام

تشابهت دعوة هود مع دعوة نوح عليهما السّلام، إلى عبادة الله وحده، وتقواه وإطاعتِه، والتَّهديد بسوء العاقبة والمصير، إن كذَّبوه وعارضوه، وانفرد هود عليه السّلام بالتَّنديد بجبروت قومه، واعتمادهم على المصانع والمباني الموهمة بالخلود.

وانتهت القصّتان بإعلان أن الفئة المؤمنة قليلة، وأن الله ذو العزّة والقوة الغالبة، والرَّحمة أيضاً، وذلك بعبارة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وهي العبارة نفسها التي انتهت بها سابقاً قصة موسى مع فرعون، وقصة إبراهيم مع قومه، وتنتهي بها أيضاً قصص الأنبياء الآخرين: وهم صالح مع قومه ثمود، ولوط مع قومه، وشعيب مع أصحاب الأيكة. وهذه آيات تخبر عن قصة هود مع قومه:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ
بِكُلِّ رِيعٍ(١) آيَةً(٢) تَعْبَثُونَ(٣) ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ(٤) لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم
بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم(٥) بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم
بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ
عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ(٦) ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ
﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشُّعراء: ٢٦/ ١٢٣-١٤٠].

افتتحت هذه الآيات في خبر هود عليه السّلام بما افتتحت به الآيات في خبر قوم نوح بعبارات ست متشابهة هي: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ الآيات، و ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ الآيات، وعاد: قبيلة عربية عاتية، كانوا يسكنون الأحقاف: وهي جبال الرمل قرب حضرموت في بلاد اليمن، وهم في الزمان بعد قوم نوح.

لقد كذَّبت عاد رسولها هوداً عليه السّلام، حين قال لهم أخوهم في النَّسب القبلي: ألا تتّقون عذاب الله، إني لكم رسول أمين على رسالتي من عند الله، فاتّقوا الله فيما

(١) الرّيع: المرتفع من الأرض. (٢) بناء شامخاً كالعَلَم. (٣) ببنائها. (٤) حصوناً. (٥) أنعم عليكم.
(٦) عادتهم.

أمر به، وانتهوا عما نهى عنه، وأطيعوني فيما آمركم وأنهاكم عنه، يَصْلُحْ حالُكم، وتسعدون سعادة في دنياكم وآخرتكم، ولا أطلب منكم على تبليغ رسالتي أجراً أو عوضاً، ولا أطلب جاهاً، إن ثوابي وجزائي على الله، لو علمتم ذلك، ولكنهم كذَّبوه وآذوه. وهذه العبارات بذاتها جاءت على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، للتنبيه على وحده الهدف، ووحدة رسالات الأنبياء، في الدعوة إلى توحيد الله وطاعته، وترك عبادة ما سواه. ثم عاب هود عليه السّلام قومه في أمور ثلاثة وهي:

- أتعمرون بكل مكان مرتفع بنياناً شامخاً، علامة على العزّة والقوة، وتفعلون ذلك عبثاً لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، لا للحاجة إليه.

- وتتَّخذون مباني مصنَّعة ومتقنة البناء، من قصور مشيدة، وحصون منيعة، على أمل الخلود فيها، ورجاء السكنى والانتفاع بها على الدوام، مع أنكم مرتحلون عنها.

- وإذا بطشتم بغيركم في تعاملكم معهم، والبطش: الأخذ بقوة وسرعة، بطشتم بطش الجبابرة، أي المتكبّرين العتاة.

فاحذروا عقاب الله الذي أمدَّكم بما تعلمون من النِّعم الوفيرة، ورزقكم بالأنعام (الإبل والبقر والغنم) والأولاد الكثيرة، وأوجد لكم البساتين الغنّاء، والعيون الجارية بالماء العَذْب، فاجعلوا مقابل هذه النِّعم عبادة الله المنعِم بها، لتكونوا أوفياء للمعروف.

وإني أخشى عليكم إن كذبتم، وخالفتم، وأصررتم على الكفر عذاب يوم شديد الأهوال.

فأجابه قومه: يستوي عندك وعظك لنا وتحذيرك إيانا، وعدم الوعظ، فإنا لا نفارق ما نحن عليه. وما جئت به من دعوة ما هو إلا اختلاق السابقين، وافتراؤهم وكذبهم، فأنت على منهاجهم، ولسنا نحن بمعذَّبين أبداً، خلافاً لما تقول.

فكان الموقف النّهائي أنهم كذّبوا هوداً عليه السّلام، فيما أتى به، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، أي شديدة الهبوب، وذات البرد الشديد، إن في إهلاك عاد بسبب التكذيب لرسولهم، لعبرة واضحة لكل الأقوام، فيما أتاهم به رسول الله، ولم يكن أكثر هؤلاء المهلكين بمؤمنين في سابق علمنا، وإن ربّك لهو صاحب العزّة المطلقة، ينتقم من أعدائه، والرَّحيم بعباده المؤمنين، إن تابوا وأصلحوا أعمالهم.

إن الاتّعاظ بإهلاك قبيلة عاد الشديدة العاتية أمر واجب على أهل الإيمان والعقل الراجح، فيكون الجزاء لأمثالهم المكذّبين واحداً، لاتّحاد سبب الجزاء.

دعوة صالح عليه السّلام

استمرَّ نهر العناية الإلهية متدفّقاً بإرسال الرُّسل المصلحين لأقوامهم الضّالّين، من أجل تضافر الجهود للقضاء على بذرةالوثنية، وبناء صرح الدعوة إلى الإله الواحد، وعبادته، وإصلاح مسيرة الحياة الإنسانية، وتوجيه النفوس نحو حقيقة معبودها الخالق البارئ المصوِّر، الرّازق عباده برزق وفير، والراحم أهل التقوى والاستقامة المنيبين إليه. وكان التركيز في الإصلاح الإلهي على أهل العالم القديم في بلاد الشام وشبه جزيرة العرب، مثل قبيلة عاد في اليمن، وثمود في مدينة الحجْر التي بين وادي القرى والشام، على طريق المدينة، ومساكنهم معروفة مشهورة. قال الله تعالى واصفاً دعوة صالح إلى قومه ثمود:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا(١) هَضِيمٌ(٢) ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ(٣) ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ(٤) ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ(٥) وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ [الشُّعراء: ٢٦/ ١٤١-١٥٩].

لقد بادرت قبيلة ثمود إلى تكذيب رسولها وهو صالح عليه السّلام، حين قال لهم صالح: ألا تتّقون عقاب الله، فتؤمنوا به وحده وتعبدوه، وتطيعوني فيما بلّغتكم من الرّسالة، فإني رسول من عند الله تعالى، أمين على رسالته التي كلفني بتبليغها، ولا أطلب على نصحي لكم عوضاً ولا جزاءً، فما جزائي إلا على الله الذي أرسلني: وهو ربُّ العوالم كلها، من إنس وجنّ.

ثم ذكّرهم صالح عليه السّلام بنعم الله عليهم، ونهاهم عن الفساد في الأرض، في موضوعات ثلاثة:

الأول- أتظنّون أنكم مخلّدون في نعيم الدنيا، تتمتعون في البساتين وعيون الماء، والزروع والثمار، والنخيل ذات الثمار اللينة الهضم، وهو الرُّطب.

الثاني- وتتخذون في الجبال بيوتاً، حاذقين في نحتها وبنائها فارهين. أي جاعليها ذات منظر جيد، ونوع قوي الكمال، متنافسين في عمارتها، من غير حاجة إلى السُّكنى فيها.

(١) الطلع: أول مايطلع من ثمرة النخل. (٢) رُطَب نضيج. (٣) حاذقين بنحتها. (٤) المغلوب على عقولهم بالسحر. (٥) نوبة أو نصيب من الماء.

الثالث- ولا تطيعوا أمر الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي، وارتكاب الخطايا والتَّرف والمجون، ويفسدون في الأرض فساداً خالصاً، ليس معه شيء من الصلاح. وقال: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ بعد قوله: ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ لبيان أن فسادهم تام خالص.

فأبى قوم ثمود نصيحة نبيِّهم صالح عليه السّلام ودعوتَه إلى عبادة ربِّهم عزّ وجلّ، وبادروا إلى اتِّهامه بأنه مغلوب على عقله بالسحر، أي قد سُحرت، فأنت لذلك مخبول، لاتنطق بكلام قويم.

وإنك مجرد بشر مثْلِنا، لم ينزل عليك وحي من الله دوننا، كما جاء في آية أخرى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: ٥٤/٢٥-٢٦]. وإن كنت صادقاً فيما تدَّعي من النُّبوة، فأْتِ بعلامة تدلُّ على صدقك. روي أنهم اقترحوا خروج ناقة من جبل من جبالهم.

فلما خرجت الناقة بدعاء صالح عليه السّلام أن يجيبهم ربه إلى سؤالهم، قال: هذه آيةٌ دليلٌ على صدقي، وهي معجزة لا يستطيعها غير نبي، بإذن الله وإيجاده؛ ترِد ماءكم يوماً فتشربه كله، وتردونه يوماً آخر أنتم، وتحلبون منها ما شئتم.

وإياكم أن تصيبوها بأذى من ضرب أو قتل أو عقر، أو غير ذلك، فيصيبكم عذاب شديد. ووصف اليوم بصفة ﴿عَظِيمٞ﴾ للدلالة على عظم أهواله، فعقروا النّاقة، أي ذبحوها بعد أن قطعوا قوائمها بالسيف، بفعل قدار الأحمر. ونسب العقر إلى جميعهم لأنهم اتَّفقوا معه على ذلك رأياً وتدبيراً، فنزل عليهم عذاب من الله: وهو الزلزال الشديد، والصيحة التي اقتلعت القلوب من مواضعها.

إن في ذلك المذكور من قصة صالح عليه السّلام، وتكذيب قومه لرسالته، وذبحهم الناقة التي هي معجزة من عند الله، لعبرة وعظة لمن اعتبر واتَّعظ، ولم يكن أكثرهم

مؤمنين بالله ورسله، وإن ربَّك لهو المنتقم من أعدائه، الرَّحيم بأوليائه المؤمنين إن تابوا وأنابوا إليه.

وقد ختمت القصة بهذه الخاتمة كغيرها من قصص إبراهيم ونوح وهود ولوط وشعيب لتأكيد العظة والاعتبار بحال المكذبين.

دعوة لوط عليه السّلام

لم تختلف دعوة لوط عليه السّلام عن دعوات الأنبياء الآخرين، المتقدمين والمعاصرين قبل دعوة النَّبي ﷺ، وكان قومه يسكنون في سَدُوم من أعمال غور الأردن، وهي عمورة وثلاث مدائن أخرى، بجوار البحر الميت (بحيرة لوط) وجوهر دعوته هي المطالبة بعبادة الله عزّ وجلّ، وحده لا شريك له، وإطاعة الرُّسل، والنَّهي عن المعاصي، ولا سيما الفواحش التي اقترفوها دون غيرهم. وكان مصيرهم كغيرهم من الأمم الأخرى التي كذَّبت الرُّسل، فدمَّرهم الله تعالى عن آخرهم بعذاب شديد: هو إنزال حجارة ممطرة من السماء عليهم، فأهلكتهم وأبادتهم. وهذه آيات مجيدة تصف أفعال هؤلاء القوم وعقابهم، قال الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ[1]
﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ[2] ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ[3] ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ[4] ﴿١٧١﴾ ثُمَّ

(١) متجاوزون الحدّ في المعاصي. (٢) أي المطرودين. (٣) أي المبغضين لفعلكم أشدّ البغض. (٤) أي الباقين في العذاب.

دمّرنا(١) ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ [الشّعراء: ٢٦/ ١٦٠-١٧٥].

المعنى: كذب قوم لوط نبيهم المرسل إليهم، وهو لوط عليه السّلام، حين قال لهم أخوهم في القبيلة والنَّسب: ألا تخافون عذاب الله بترك معاصيه، فإني رسول لكم مؤتمن على تبليغ رسالة ربي، فاتقوا الله بفعل ما أمركم به، وتركِ ما نهاكم عنه، وأطيعوني فيما آمركم به من عبادة الله عزّ وجلّ وحده، والتَّزوجِ الطَّبيعي بالعقد الشَّرعي بالنِّساء، وتركِ إتيان الذكور والفواحش. ولا أطلب منكم أجراً أو جزاء على تبليغ رسالتي، فما جزائي إلا على الله ربِّ العوالم كلها من الإنس والجن. وهذه مقالة اشترك فيها جميع الأنبياء في بلاد الشام وبلاد العرب.

ثم وبّخهم لوط على فعلتهم الشنيعة وهي إتيان الذكور، قائلاً: كيف تقدمون على شيء شاذّ طبعاً وعقلاً، وهو وطء الرجال والصبيان، ولا سيما الغرباء. وتتركون ما خلق الله لكم بنحو سليم ومفيد: وهو إتيان النساء بالزواج، للمتعة، وإنجاب الذُّرِّية، وبقاء النوع الإنساني، بل أنتم قوم متجاوزون الحدّ في الظلم، وفي جميع المعاصي.

فقال له القوم أولو القبائح: لئن لم تنته يا لوط عن ادِّعائك النُّبوة، وعن الإنكار علينا فيما نمارسه من إتيان الذكور، لنطردنك من هذه البلدة التي نشأتَ فيها، ونبعدنك كما أبعدنا من قبلك، فأجابهم: إني لمن المبغضين أشدّ البغض لعملكم، فلا أرضاه ولا أُحبّه، وإني بريء منكم ومن عملكم، وإن هددتموني بالطَّرد.

ثم دعا لوط عليه السّلام ربَّه قائلاً: يا ربِّ نجني وخلِّصني وأهلي الصالحين مما يعملون ومن عقوبة معاصيهم، ومن شؤم عملهم.

---

(١) أهلكناهم .

فأجاب الله دعاءه، ونجاه وأهل بيته المؤمنين الصالحين، وكل من آمن برسالته، ليلاً، وأنقذهم من العقاب الجماعي الذي أنزله بالقوم، إلا امرأة عجوزاً هي امرأته، وكانت عجوز سوء، لم تؤمن بدين لوط، وتدلُّ القوم على ضيوفه، بقيت مع القوم، ولم تخرج، فهلكت، كما في آية أخرى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ١١/٨١] لرضاها بسوء أفعالهم، ونقل الأخبار إليهم.

ثم أهلك الله القوم الآخرين الباقين الذين انغمسوا في المنكرات، وكفروا بالله، ولم يؤمنوا برسله. وأمطر الله عليهم حجارة من سجِّيل منضود، فبئس هذا المطر مطرُ المهلكين المنذَرين بالهلاك. وكان عقابهم في الجملة زلزالاً شديداً، جعل بلادهم عاليها سافلها.

إن في تلك القصة -قصة لوط مع قومه- لعبرة وعظة لكل متأمل، حيث أهلك الله العصاة، وهم أهل اللواط، ولم يكن أكثرهم مؤمناً بالله ورسله، وإن ربّك لهو القوي الغالب القاهر المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه المؤمنين أهل التوبة والغفران. فما أشدّ هذا العذاب في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى.

رسالة شعيب عليه السّلام لأصحاب الأيكة

أصحاب الأيكة، أي غيضة الشجر الملتفّ: هم أهل بلدة قرب مَدْين، بعث الله إليهم وإلى مَدْين شعيباً عليه السّلام، ولم يكن أخاهم في النسب، وإنما هو أخوهم من حيث هو رسولهم، وآدمي مثلهم، أي أخوهم في الإنسانية، بعثه الله إليهم بصفة مصلح اجتماعي، لتصحيح أوضاعهم من بخس الكيل والميزان وتطفيفه، والإفساد الشديد في الأرض، فكذّبوه، فأهلكهم الله بعذاب يوم الظُّلّة، أي سحابة الغضب

التي أمطرتهم ناراً، فاحترقوا جميعاً. وهذه آيات شريفة، تدوّن مشاهد القصة ونهايتها، لتكون عبرة للمعتبر، قال الله تعالى:

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ(١) ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ(٢) ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟(٣) ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟(٤) فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ(٥) ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا(٦) مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ(٧) إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٧٦-١٩١].

هذه آخر قصة من القِصص السَّبع المذكورة في سورة الشعراء، بقصد إيناس النَّبي ﷺ، عما لقيه من إعراض قومه عن دعوته، وما أصابه من هَمّ وحُزْن، ومفادها:

كذَّب أصحاب الأيكة، أي الغيضة: وهي الشجر الكثير الملتف، رسولهم شعيباً عليه السّلام حين قال لهم: ألا تتّقون عذاب الله وغضبَه، إني لكم رسول، مؤتمن على رسالة الله، فاتَّقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، وأطيعوني فيما آمركم وأنهاكم. وما أطلب منكم أجراً أو عوضاً على تبليغ رسالة ربِّي، وإنما ثوابي على الله ربِّ الإنس والجنّ. هذه نصائح عامة.

ثم نصحهم بنصائح خاصة تتَّفق مع سوء أحوالهم، وهي أربع نصائح:

---

(١) أصحاب الغيضة الكثيفة. (٢) من الناقصين لحقوق الناس. (٣) لا تنقصوا. (٤) لا تفسدوا فساداً شديداً. (٥) أي ذوي الجبِلَّة وهي الخلقة والطبيعة من أهل القرون. (٦) أي قِطعاً وجوانب. (٧) أصل الظُّلة: ما يظلل الإنسان، والمراد هنا سحابة الغضب التي أمطرتهم ناراً، والعذاب الذي أهلكهم.

١- إيفاء الكيل والميزان، أي إذا بعتم فأتموا الكيل والميزان، ولا تنقصوا أو تبخسوا الناس حقوقهم، وإذا اشتريتم فلا تزيدوا في الوزن والكيل، طمعاً بأخذ أموال الناس بغير حق، كما لو بعتم، فإن الظلم يكون على السواء في الأخذ والعطاء. وزنوا بالميزان العادل السّوي. وهذا هو معنى تطفيف الكيل والميزان، في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطفّفين: ٨٣/١-٣].

٢- ترك الظلم: أي لا تنقصوا الناس أموالهم أو حقوقهم في أي شيء مكيل أو موزون، مزروع أو معدود، فشمل جميع المقادير، وجميع الحقوق الأدبية والمعنوية.

٣- الإقلاع عن الفساد والإفساد، أي ولا تفسدوا في الأرض بقطع الطريق، والإغارة، والنَّهب والسَّلب، والقتل وإتلاف الزرع وغير ذلك من ألوان الفساد.

٤- اتِّقاء الله، أي وخافوا بأس الله الذي أنعم عليكم بالإيجاد والخَلْق، وأوجد من تقدُّمكم من ذوي الخلقة المتقدمين، وقوله: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ معناه القرون والخليقة الماضية.

فطعنوا برسالة شعيب قائلين كقوم صالح: إنما أنت من المغلوب على عقولهم، المسحور المخبول، فلا يُسمع قولك ولا يُؤبه لنصحك. ويغلب على الظَّن أنك تتعمَّد الكذب، ولست رسولاً من عند الله، وإنما أنت بشر مثلنا لا ميزة لك علينا.

ثم استخفّوا بالتهديد، مطالبين بقولهم: إن كنت صادقاً في تهديدك ووعيدك لنا بالعذاب، فأنزل علينا قطعاً من السحاب، فيها نوازل العذاب. فأجابهم شعيب عليه السّلام: ربِّي أعلم بعملكم، فيجازيكم عليه، إمّا عاجلاً وإما آجلاً.

فعادوا إلى تكذيبه وأصرُّوا عليه، فأنزل الله عليهم عذاب يوم الظُّلّة، أي يوم العذاب، وهو تعرُّضهم لحرٍّ شديد، فخرجوا إلى البرية، فأظلّتهم سحابة، وجدوا لها برداً ونسيماً، فتجمَّعوا تحتها، فأمطرت عليهم ناراً، فاحترقوا جميعاً.

إن في تلك القصة البليغة لعظة وعبرة لأهل مكة وغيرهم من المشركين، ولم يكن أكثرهم مؤمنين، وإن ربَّك أيها النَّبي لهو القوي القادر القاهر الغالب، الرحيم بعباده المؤمنين.

إنزال القرآن من عند الله بالعربية

القرآن الكريم كتاب الكون الأكبر، والحياة الشاملة العامة ليوم القيامة، والدستور الإلهي المحكم في مختلف جوانب الحياة العقدية والتَّعبُّدية والتَّعاملية، وهو حجة الله على خلقه، شفاء لما في الصدور، وربيع القلوب، وجلاء الأحزان والهموم، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن نطق به هدي إلى صراط مستقيم. وهو المعجزة الدائمة على صدق نبوات الأنبياء وخاتم النَّبيين، وآية التَّكريم والإعزاز للعرب قاطبة، لنزوله بلسان عربي مبين، وأبلغ وأفصح ما في اللغة العربية من بيان، فهو يتحدى البشرية كافة بأن يأتوا بمثله، ولن يستطيعوا، لأنه كلام رب العالمين، كما تقرر الآيات الآتية:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ(١) ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ(٢) فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً(٣) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ(٤) ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الشُّعراء: ٢٦/ ١٩٢-٢٠٤].

---

(١) أي في كتب السابقين كالتّوراة والإنجيل. (٢) أدخلنا التكذيب بالقرآن. (٣) فجأة . (٤) ممهلون لنؤمن .

هذا ردٌّ قاطع مفحم على أولئك العرب الذين زعموا أن القرآن من عند محمد، أو أنه كِهانة أو سحر، وإنما هو من عند الله تبارك وتعالى، وكان تنزيله تدريجاً من ربِّ العالمين، نزل به جبريل الأمين على الوحي، على قلبك أيها النَّبي، أي على روحك المدركة الواعية، وأفهمك إياه، سالماً من كل شائبة أو نقص أو زيادة، لتنذر به قومك والعالم كله بأس الله وغضبه على من خالفه، وتبشِّر به المؤمنين بالجنة، وكان إنزالُه بلسان عربي، فصيح، بيِّن، واضح، قاطع للعذر.

وإن الحديث عن هذا القرآن مذكور في الكتب المنزلة القديمة، تنبِّه عليه، وتشير إليه، كما جاء على لسان عيسى عليه السّلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصَّفّ: ٦١/٦]. والزُّبر: هي الكتب، جمع زبور، ومنها زبور داود عليه السّلام، أي كتابه.

هذا هو البرهان الأول على صدق نبوّة محمد ﷺ، والبرهان الثاني: أوَ ليس يكفيهم شاهد على صدقه أن علماء بني إسرائيل يجدون الكلام عن هذا القرآن مذكوراً في كتبهم التي يدرسونها من التوراة والإنجيل؟! فهم كانوا يعلِّمونه حقَّ العلم، كعبد الله بن سَلام ونحوه. وهذا احتجاج عليهم بأنهم كان ينبغي أن يُصحح عندهم أمره .ولقد حكى الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال: إن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النَّبي ﷺ، فقالوا: هذا زمانه، ووصفوا بَعْثه، ثم خلطوا في أمر محمد ﷺ، فنزلت الآية في ذلك .وذكر علماء بني إسرائيل فعلاً أن في التوراة صفة النَّبي ﷺ.

غير أن المشركين لا تنفعهم الدلائل والبراهين، فلو فرضنا أننا أنزلنا هذا القرآن العربي على بعض الأعاجم، وهم كل من لا ينطق باللغة العربية، فقرأه أعجمي على

مشركي العرب، لم يؤمنوا به، لعدم استعدادهم لفهمه، وتكذيبهم به، ولأنه قد تحتم عليهم الكفر بسوء اختيارهم، فلا سبيل إلى إيمانهم، فهم أي قومك أيها النَّبي لا يؤمنون بالقرآن، حتى يروا العذاب الأليم محدقاً بهم، فجأة من غير إنذار، وهم لا يشعرون به. والفاء التي في الآية ﴿فَقَرَأَهُۥ﴾ ليست للترتيب الزمني، بل للترتيب الرّتبي. والمراد لا فرق بالنسبة للمشركين العرب، سواء أنزل الله هذا القرآن على رجل عربي اللسان، أو أعجمي وهو كل من لا يفصح، وإن كان عربيّاً، فإنهم يكفرون به، لعنادهم وتعنُّتهم.

ثم أكَّد الله تعالى موقفهم المتعنِّت من القرآن فيما معناه: بأننا مكَّنّا الكفر في قلوبهم، فمثل إدخالنا التكذيب بالقرآن في قلوبهم، لو قرأه عليهم أعجمي، أدخلناه في قلوب المجرمين كفارِ مكة. والمقصود: أنه مهما فعلنا من إنزال القرآن على أعجمي أو عربي، فلا سبيل لإيمانهم، وتغيير جحودهم وإنكارهم، فإن الكفر والتكذيب للقرآن متمكِّنٌ في قلوبهم، فلا ينفعهم في اقتلاع الكفر من نفوسهم أية وسيلة من العلاج والإصلاح.

ثم زاد الله الأمر تأكيداً وتوضيحاً، بأنهم يظلّون كافرين غير مؤمنين بالقرآن والحقِّ الذي من عند الله، حتى يعاينوا العذاب المؤلم أشدّ الإيلام، وإن هذا العذاب الآتي يأتيهم فجأة، دون أن يشعروا بمجيئه، فيتمنّون حينئذ تأخير العذاب قليلاً، ليتداركوا ما فاتهم، فيقولوا: هل نحن ممهلون؟! ومع هذا كله هم جماعة حمقى، كيف يطلبون تعجيل العذاب؟ وهم حين يرون نزول العذاب يطلبون التأخير والإمهال، فهم قوم متناقضون.

تمتُّع الكفار بالدُّنيا وشكّهم بالقرآن

إن أهم سبب لبعد الكفار عن الإيمان بالقرآن ونبي الإسلام: إنما هو حبُّ الدنيا وزخارفها، والحرص على المصالح المادِّية فيها، واتِّباع الأهواء، وحبُّ النُّفوذ والتَّسلُّط، وفي دائرة التأثُّر بهذا السبب تتعدد أساليب الإنكار والطعن بالقرآن، وكلها في الواقع في نظر الطاعن غير مقنعة ولا مقبولة، ولكن ذلك وسيلة الهروب من المواجهة في تحدِّي القرآن ونبيِّه. وسرعان ما ينكشف الأمر، ويفاجأ الطاعن بالمصير المشؤوم، بعد تمتُّعه بنعم الدنيا مدة قصيرة من الزمان، وهذا ما أطلعنا عليه القرآن الكريم في الآيات الآتية:

﴿أَفَرَءَيْتَ(١) إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشُّعراء: ٢٦/ ٢٠٥-٢١٢].

هذه دعوة سريعة في هذه السورة إلى توبيخ قريش على استعجالهم عذاب الله تعالى في طلبهم سقوط السماء كسفاً وغير ذلك، وقولهم لمحمد ﷺ: أين ما تعدنا؟ أي أنه لا ينبغي لهم ذلك، لأن عذابنا بالمرصاد ينتظرهم إذا حان حينه. ثم خاطب الله تعالى محمداً ﷺ بإقامة الحجة عليهم في أن مدة الإرجاء والإمهال لا يعني منع نزول العذاب بعدها ووقوع النقمة، وذلك في هذه الآيات.

ومعناها: لو طال نزول العذاب وتمتُّع كفار قريش بنعم الدنيا طوال سنين، ثم جاءهم العذاب الموعود به فجأة، فلا يجدي عنهم أي شيء، ولا ما كانوا فيه من

(١) أخبرني.

النعيم، ولا يخفف من عذابهم، ولا يدفعه، أي النعيم عنهم، لأن مدة التمتع في الدنيا قليلة، مهما طالت، ومدة العذاب في الآخرة دائمة.

عن ميمون بن مِهْران أنه لقي الحسن البصري في الطواف بالكعبة، فقال له: عِظْني، فلم يزد على تلاوة هذه الآية، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت.

ثم أبان الله تعالى قانونه العام القائم على العدل التام في تعذيب الناس، وهو أنه لا يعذِّب قوماً إلا بعد إنذار، ومفاده: وما أهلكنا من قوم في قرية أو بلد إلا بعد إرسالنا رسلاً إليهم ينذرونهم من عذابنا على كفرهم، ويبشِّرونهم بالنعيم إن آمنوا وأطاعوا، وذلك تذكرة لهم، وتنبيه إلى ما يجب عليهم القيام به، ولم نكن في أي حال ظالمين لهم في عقابهم، وإنما إهلاكهم في حال إصرارهم على الكفر، وعبادة غير الله، وتحدِّي ما أنزل الله. إنه سبحانه وتعالى يخبرنا أنه لم يهلك أهل بلد أو قرية إلا بعد إرسال من ينذرهم عذاب الله تعالى، ذكرى لهم وتبصرة، وإقامة حجة، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ٤/١٦٥]. وفي هذا عدل استوجب أن ينفي الله عزّ وجلّ عن جهته الظلم، إذ هو مما لا يليق به.

ثم ردَّ الله تعالى على المشركين في مكة وأمثالهم القائلين: إن هذا القرآن كهانة، فكذَّبهم الله تعالى بأن هذا القرآن العظيم لم تتنزل به الشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة، ولا يتيسَّر لهم ولا يسهل ولا يتمكنون من ذلك، فهم عن سمع الملائكة التي تنزل بالوحي مرجومون بالشهب، معزولون عن استماع كلام أهل السماء، إن إنزال القرآن ممتنع على الشياطين لأسباب ثلاثة:

أولها: أنه ليس هو مبتغى لهم ولا مطلوباً منهم، لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وفي القرآن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والقرآن هدى ونور، فلا تلتقي أهدافه مع مقاصد الشياطين.

الثاني: أنه لو تمكّنت الشياطين من القرآن لما استطاعوا تحمله، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢١].

الثالث: لواستطاعت الشياطين حمل القرآن، لما تمكّنوا من الوصول إليه لأنهم معزولون عن سماع القرآن، ومطرودون من مقاعد السمع، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسوله، فلم يتمكّن أحد من الشياطين من استماع حرف واحد من القرآن، لئلا يشتبه الأمر ويضيع الهدف.

أصول الدعوة إلى الله تعالى

لقد كان النجاح الباهر في اتّباع أساليب الدعوة الإسلامية منطوياً على مقومات وأصول وآداب كثيرة، تُوِّجت بالبدء بإثبات وجود الله تعالى وتوحيده، ثم التركيز أولاً في ممارسة الدعوة على العشيرة الأقارب، والتَّحبُّب إلى الآخرين بإظهار الاحترام والتواضع لهم، وإعلانِ البراءة منهم ومن أعمالهم إن أصرّوا على المخالفة، ثم تفويض الأمر إلى الله تعالى والثقة به وبنصره وتأييده، والاعتماد عليه، ففي التوكل على الله تعالى بعد اتّخاذ الأسباب والقيام بالواجب نجاة وإيمان، وحبّ لله وإعظام، وإثبات أن الأمر كله لله،يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويحقّق ما يتفق مع الحكمة، ومع علمه الشامل بمدى استعداد الإنسان لقبول الهداية، والخروج من دائرة الكفر والجحود، قال الله تعالى مبيّناً أصول الدعوة إليه:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ[1] لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾

(١) تواضع.

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ(١) ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشُّعراء: ٢٦/٢١٣-٢٢٠].

أخرج ابن جرير الطبري عن ابن جريج قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ بدأ بأهل بيته وفصيلته، فشقَّ ذلك على المسلمين، فأنزل الله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

وصّى الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ بالثَّبات على أمر الله تعالى، وأمره بأربعة أوامر:

الأول- اعبد الله وحده لا شريك له، وادع إلى توحيده وعبادته دون سواه، وإياك أن تعبد معه إلهاً آخر، فإن العبادة لا تكون إلا لله سبحانه، وإذا دعوت إلى عبادة غير الله سبحانه، فتكون من جملة المستحقِّين للعذاب. وهذا الخطاب للنَّبي ﷺ يراد به خطاب أمته، وبما أنه قدوة المسلمين، بدأ الله تعالى بتوعُّده إن دعا مع الله إلهاً آخر.

الثاني- أمر الله نبيّه بالبدء بإنذار أقاربه في العشيرة بأس الله وعذابه لمن أشرك به سواه، إذ العشيرة -وهي قرابة الرجل- مظنّة المقاربة والطواعية، فيكون البدء بهم أولى، ترفُّعاً عن المجاملة والمهادنة، ولأن تحصين الإنسان بقرابته وعنايته بهم أولى من غيرهم، وهذا التخصيص داخل في جملة الأمر العام بإنذار العالم .وقد حقّق النَّبي ﷺ مقتضى هذا الأمر، فجمع عشيرته مرتين، فدعاهم إلى توحيد الله وأنذرهم ووعظهم، ونادى عمه العباس، وعمته صفية وفاطمة ابنته رضي الله عنهم قائلاً فيما رواه الطبراني وغيره: «لا أغني عنكم من الله شيئاً، إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». ثم نادى على جبل الصفا أو أبي قبيس: «يا بني عبد مناف، واصباحاه»،

---

(١) يرى تنقُّلك في الصلاة مع المصلِّين .

فاجتمع إليه الناس من أهل مكة، فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان»، حتى أتى على بطون قريش جميعاً ثم قال لهم: «أرأيتم لوأخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد الغارة عليكم، أكنتم مصدِّقي؟» قالوا: نعم، فإنّا لم نجرِّب عليك كذباً، فقال لهم: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال له أبو لهب لعنه الله: ألهذا جمعتنا؟ تبّاً لك سائر اليوم، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ①﴾ السورة.

الثالث- يأمرك الله أيها النَّبي بخفض الجناح، أي لين الكلمة وبسط الوجه والبِرّ، والرِّفق بمن آمن بدعوتك، فذلك أطيب لقلوبهم. فإن عصاك أحد ممن أنذرتهم من عشيرتك وغيرهم، فقل: إني بريء من أعمالكم التي ستجازون عليها يوم القيامة.

الرابع- فوِّض أمورك كلها أيها النَّبي إلى الله القوي القاهر الغالب القادر على الانتقام من أعدائه، الرَّحيم بأوليائه ونصرائه، الذي يراك حين تقوم للصلاة بالناس، ويرى أحوالك في العبادة متقلِّباً من قائم إلى قاعد، وراكع إلى ساجد، فيما بين الساجدين أي المصلِّين، وعبَّر عن الصلاة بالسجود، لأن العبد أقرب ما يكون من ربِّه، وهو ساجد. فقوله تعالى: ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي في أهل الصلاة، أي صلاتك مع المصلِّين. وقيل: أراد تقلُّبك في المؤمنين، أو أنه أراد تقلُّبك كتقلُّب غيرك من الأنبياء.

إن الله ربّك هو السميع لأقوال عباده، العليم بأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم ونواياهم. وختم الله الآية بهذا: لإرشاد الناس وإخبارِهم بأن الله سميع لكل ما يصدر عنهم، عليم بكل أفعالهم وأقوالهم.

تنزل الشياطين على الأفّاكين

إن افتراءات المشركين ومزاعمهم بأن النَّبي ﷺ كاهن أو شاعر: واضحة لا تحتاج إلى إبطال أو دحض، ومع ذلك جاء القرآن الكريم مبيِّناً أسطورة تنزل الشياطين على

النَّبي، لإزالة كل ما قد يَعْلَق في الذهن من مزاعم وأباطيل، ولإحقاق الحقِّ وإظهار نصاعته وقوّته في صراع الباطل، وبقائه أمراً ثابتاً خالداً على ممرِّ الزمان. وبالمناسبة أبان الله تعالى دور الشياطين في أخيلة الشعراء الذين يتَّبعونهم ويستمعون لإيحاءاتهم، ما عدا أهل الإيمان والصلاح الذين يعتدلون في إنشاد أشعارهم وإبداع قصائدهم، فيبتعدون عن المبالغات، ويلتزمون سداد القول. قال الله تعالى في الرَّدِّ على افتراءات مشركي مكة وأمثالهم:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ[1] أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ[2] ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٢١-٢٢٧].

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه، وهم السُّفهاء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ الآيات.

ومعنى الآيات يتضمن الرَّد على افتراءين للمشركين حول القرآن والرسول، وهما الكهانة والشعر. فليس القرآن من جنس ما تتلقّاه الكهنة عن الشياطين، وليس هو من الشعر في شيء، كما أن الرسول ﷺ ليس كاهناً ولا شاعراً.

أما الرَّد على الفرية الأولى فمضمونه: هل أخبركم خبراً حقيقيّاً نافعاً لكم، ألا وهو: من الذي تتنزل عليه الشياطين؟ إنه استفهام وتقرير. تتنزل الشياطين على كل

---

(١) كثير الكذب. (٢) يخوضون.

أفّاكٍ، أي كذّاب، آثم، فاجر فاسق، من الكهنة المتنبِّئين، وهم الذين كانوا يتلقّون من الشيطان الكلمة الواحدة التي سمعت من السماء، فيخلطون معها مئة كذبة، فإذا صدقت تلك الكلمة، كانت سبب ضلالة لمن سمعها. إن الشياطين يُلْقون السمع المسموع من الملائكة، ويكذِّبون فيما سمعوه، وأكثر الشياطين كاذبون فيما يوحون به إلى الكهنة، لأنهم يُسمعونهم ما لم يسمعوا، فتكون أخبار الكهنة مبنية على الإفك والكذب. وهذا يقتضي نفي كلامهم عن كلام الله تعالى، فإن ما يقول الشياطين ليس هو كلام الله سبحانه.

وكذلك الشعراء يبتعد كلامهم عن كلام الله تعالى في القرآن، إذ قال بعض الكفرة في القرآن: إنه شعر مثل شعر الجاهلية.

إن الشعراء هم القادة إلى النار، يتّبعهم الضّالّون من الإنس والجنّ، المنحرفون عن جادة الحقِّ والاستقامة، ويأخذ بأقوالهم المستحسنون لأشعارهم، المصاحبون لهم.

ألم تعلم أيها النَّبي وكل سامع أن الشعراء يخوضون في كل فنٍّ من الكلام، ويتناقضون مع أنفسهم، إنهم يمدحون الشيء بعد أن ذمّوه، ويذمّون الشيء بعد أن مدحوه. وأكثر قولهم الكذب، فهم يقولون ما لا يفعلون، ويدَّعون ما لم يكن حادثاً، ويبالغون في الوصف، ويقولون ما مبعثه محض الخيال، البعيدُ عن الواقع.

ثم استثنى الله تعالى فئة من الشعراء هم صادقون، لاتِّصافهم بصفات أربع وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والذِّكر الكثير لله تعالى، والانتصار على الظلم والظالمين، وهؤلاء هم شعراء الإسلام كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة.

أما الإيمان: فهو التَّصديق بالله ورسوله، وأما العمل الصالح: فهو الجهاد في

سبيل الله ونصرة النَّبي والإسلام، والتزام الفرائض والأحكام وأعمال الخير، وأما ذكر الله: فهو أنهم يذكرون الله في أشعارهم كثيراً، وذلك خُلُق لهم وعادة وعبادة، كما قال لبيد حين طلب منه شعر: «إن الله أبدلني بالشعر القرآن خيراً منه». وأما الانتصار: فهم يدافعون عن الإسلام والقرآن، ويهجون الظلمة الذين يعارضون عقيدة الإسلام. وهذا إشارة إلى ما قاله شعراء الإسلام من الشعر وغيره في قريش. ثم ختمت الآية بوعيد الظَّلمة كفّار مكة، وتهديدهم، فإنهم سيَرَون عاقبة ظلمهم، وإعراضهم عن تدبُّر هذه الآيات.

إن هذه الآية يدخل فيها كل شاعر في الإسلام يهجو أو يمدح بغير حقّ، ويقذف الناس ولا يرتدع عن كل قول دنيء، كما يدخل فيها في الاستثناء كل تقي من شعراء الإسلام يكثر من ذكر الله ويمسك عن كل ما يعاب.

تفسير سورة النَّمل

مقاصد القرآن الكريم

إن جوهر رسالة القرآن العظيم إصلاحُ الناس وهدايتهم وإسعادهم، وتبشيرهم بجنان الخلد إن استقاموا على أمر الله، وإنذارهم سوء العذاب والخسران إن انحرفوا عن جادة الهدى، وأنكروا وجود يوم القيامة. ومصدر القرآن المجيد: هو الله الحكيم العليم الذي يضع الأمور في نصابها وموضعها الصحيح، ويشرع للناس ما يتفق مع علمه الشامل بأحوالهم وطبائعهم، ناقلاً لهم من الأدنى إلى الأعلى، وآخذاً بأيديهم من وهاد الشَّرّ والفساد إلى قمم الخير والصلاح. وهذا ما دوَّنته الآيات الكريمة التالية في مطلع سورة النَّمل المكِّية:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ[(١)] ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النَّمل: ٢٧/ ١-٦].

ابتدأت هذه السورة كبعض السّور الأخرى بالحروف المقطعة الأبجدية وهي ﴿طسٓۚ﴾ للدلالة على أدوات أو حروف تكوين القرآن، وأنه بلغة العرب لتحدِّيهم

(١) أي يتردَّدون ويتحيَّرون فيها .

بالإتيان بمثله، وإثبات كونه من عند الله سبحانه، وللتّنبيه إلى مضمون هذه السورة، وإذا ذكرت هذه الحروف يعقبها عادة الكلام عن القرآن ودلالاته ومقاصده. فهذه الآيات المنزلة على النّبي ﷺ هي آيات القرآن وآيات الكتاب الواضح، والقرآن لأنه اجتمع وجمع في النهاية، والكتاب لأنه دوّن أو سطّر وكتب، وعَطْف الكتاب على القرآن للدلالة على صفتي الكلام المنزل من عند الله، ثم أبان الله تعالى ليكون هذا القرآن هادياً للناس من الضلالة إلى النور، ومبشّراً المؤمنين الطائعين بالجنّة، وبرحمة الله ورضوانه.

ثم وصف الله تعالى المؤمنين بالأوصاف الخليقة بهم، فهم الذين يقيمون الصلاة، أي يؤدّونها كاملة الأوصاف من أداء أركانها وشروطها، واستحضار عظمة الله في أثنائها، وفي مناجاة الحقّ بما يتلى فيها، ويذكر الله فيها متّصفاً بالعظمة والجلال من خلال تكبيره وتسبيحه في الركوع والسجود، وإدامةِ الصلاة على وجهها المقرَّر شرعاً، فتكون الصلاة وسيلة لمناجاة الله وعقد الصِّلة به.

والمؤمنون أيضاً يؤدّون الزكاة المفروضة عليهم، والتي تطهِّرهم من النقائص، وتحملهم على ملازمة مكارم الأخلاق. وهم كذلك يوقنون على وجه الجزم واليقين بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها.

وأما الذين يكذِّبون بالآخرة، ويستبعدون وقوعها بعد الموت في أجلها المتعلِّق علمه بالله وحده، فيزين الله لهم أعمالهم، أي يحسِّنها لهم، فهم غرق في الضّلالة، يتيهون ويتردَّدون في ضلالهم، جزاء على ما كذَّبوا به من وقوع القيامة. وتزيين الأعمال: تحبيب الشِّرك إليهم، وخلقه في نفوسهم، واكتسابهم الكفر.

أولئك المكذِّبون الضّالّون لهم جزاء شديد، وهو العذاب السيئ، في الدنيا بالهزيمة والإذلال، وفي الآخرة بالخسارة الشديدة، لأن عذابهم فيها دائم لا ينقطع، وخسرانهم في الآخرة أشدّ من خسرانهم في الدنيا.

ثم ردَّ الله تعالى على كفّار قريش في قولهم: إن القرآن من تلقاء محمد بن عبد الله، ومضمون الرَّد: أنك أيها الرسول تتلقَّى القرآن وتتعلَّمه من عند أو من جهة حكيم في أمره ونهيه، وتدبير خلقه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، وبأحوال خلقه وما فيه خيرهم، وخبره تعالى موافق للصدق المحض، وحكمه: هو العدل التام، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٥].

إن أدنى نظرة وأبسط تأمُّل من كل إنسان يدرك تمام الإدراك أن القرآن من عند الله تعالى، لأن عظمته وإعجازه وبلاغته تثبت كونه كلام الله. ومن آمن بالقرآن، بادر إلى اتِّباع ما جاء فيه، فعمل لما بعد الدنيا، وبنى لنفسه جسور القبول والنجاة بالإيمان بالله وآخرته، وبالعمل الصالح، وأداء العبادات من صلاة وصيام وحجّ وزكاة. ومن جحد بالقرآن، ظلَّ فريسة الضلالة والضياع والدمار، ولم يهتد إلى حقٍّ أو خير، فكان من عدل الله مكافأةُ الفريق الأول: أهل الإيمان بالجنّة ونعيمها، وتعذيبُ الفريق الثاني: أهل الجحود والكفران بنيران الجحيم وأهوالها.

خبر موسى عليه السّلام بالوادي المقدَّس

قصَّ الله تعالى علينا خبر موسى عليه السلام في القرآن الكريم في سور كثيرة، للتذكير بقصته والاعتبار بما جاء فيها من عِبَر وعظات، والتأكيد على تأييده في بدء الوحي عليه بالمعجزات الباهرة لتصديقه، فقوبل بالجحود والإنكار، مع استيقان القوم بها، فاستحقّوا العقاب الأليم، وفي هذا إيناس للنّبي ﷺ بسبب صدود قومه أهل مكة عن دعوته، وتوبيخ للمفسدين، وإنذارٌ للجناة الذين يقابلون دعوة الحق بالرَّفض، وهذا ما ذكرته الآيات الآتية:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا(١) سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ(٢) لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(٣) ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ(٤) مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ(٥) كَأَنَّهَا جَآنٌّ(٦) وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ(٧) يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ(٨) فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ(٩) تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً(١٠) قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ(١١) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

[النَّمل: ٢٧/٧-١٤].

المعنى: اذكر أيها النَّبي وقت قول موسى لأهله: زَوْجِه بنت شعيب، في أثناء مسيره من مدين إلى مصر، بعد قضاء الأجل المضروب بينه وبين شعيب، وذلك في الوادي المقدَّس طوى، في ليلة باردة عاصفة، فقال لأهله حين اشتداد الظلمة عليهم، وضلالهم الطريق، ورؤيته ناراً من بعيد: إني أبصرت ناراً، سآتيكم منها بخبر عن الطريق، أو آتيكم منها بشعلة نار لتستدفئوا بها في هذه الليلة الباردة. والخبر الذي رجاه موسى: هو الإعلام بالطريق.

فلما وصل إلى موضع النار بعدت منه، وكان ذلك نوراً من نور الله عزّ وجلّ، وناداه الله عند ذلك، وسمع موسى عليه السّلام النِّداء من جهة الشجرة، وأسمعه الله تعالى كلامه، فتعجب موسى مما رأى، فنودي: أن بورك من في مكان النار ومن حول مكان النار، والمراد بمن في النار في رأي ابن عباس وجماعة: هو الله عزّ وجلّ

(١) أبصرتها. (٢) بشعلة نار ساطعة. (٣) تتدفؤون بها من البرد. (٤) قدِّس وطُهِّر الذي بدا فيه النور. (٥) تتحرَّك بشدة. (٦) حيّة خفيفة. (٧) لم يلتفت أو لم يرجع على عَقِبه. (٨) من غير داء. (٩) فتحة القميص لدخول الرأس. (١٠) واضحة. (١١) استكباراً عن الإيمان بها.

نفسه، بمعنى بورك من قدرته وسلطانه في النار، والمراد بمن حول النار موسى والملائكة المطيفون به. والأولى أن يراد بمن في النار: من في مكان النار، ومن حول مكانها، أي تبارك من في النور.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تنزه الله الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المباين لجميع المخلوقات، وربّ العوالم كلها من إنس وجنّ.

يا موسى إن الذي يخاطبك ويناجيك: هو الله الذي عزّ كل شيء وقهره عليه، الحكيم في أقواله وأفعاله.

والله يؤيِّدك يا موسى بالمعجزات، وأولها إلقاء عصاك، فلما ألقاها انقلبت في الحال حيّة عظيمة هائلة، في غاية الكبر وسرعة الحركة معاً، فلما رآها تتحرَّك هكذا، كأنها جنّي، ولّى هارباً منها، خوفاً على نفسه، ولم يرجع على عقبيه، ولم يلتفت وراءه من شدة خوفه.

فقال الله له: يا موسى لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطفيك رسولاً، وأجعلك نبيّاً وجيهاً، ولا يخاف عندي الرُّسل والأنبياء إذا أمرتهم بإظهار المعجزة.

لكن من ظلم نفسه أو غيره، ثم تاب إلى الله من سوء ذنبه، فإن الله يقبل توبته، لأنه بدَّل بتوبته عملاً حسناً بعد سوء.

والمعجزة الثانية لموسى: بياض اليد وإشعاعها، فأدخل يدك في جيب قميصك، تخرج بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف، من غير آفة مرضية ونحوها.

وهاتان المعجزتان من جملة تسع آيات أخرى أؤيدك بها إلى فرعون وقومه، لأنهم كانوا قوماً عصاة خارجين عن الحق، بتأليه فرعون.

فلما جاءت فرعون وقومه الآيات التِّسع بيِّنة واضحة ظاهرة، دالّة على صدق موسى وأخيه هارون، أنكروها، وقالوا: هذا سحر واضح ظاهر.

وأنكروا الآيات وكذَّبوا بها في الظاهر، وتيقَّنوا في الحقيقة والباطن في أنفسهم أنها حقٌّ من عند الله، ظلماً من أنفسهم واستكباراً عن اتِّباع الحقِّ، فانظر أيها الرسول كيف كان عاقبة أمر فرعون وقومه في إهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة. وفي هذا تحذير شديد لمكذِّبي الرُّسل الذين أرسلهم الله لهداية البشر، فليتَّعظ المكذِّبون بدعوة محمد ﷺ، فإنه سيصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم بالأولى.

أفضال الله تعالى على داود وسليمان عليهما السّلام

تتعدَّد أغراض القصة المحكيّة عن الأنبياء السابقين مع أقوامهم، والغالب منها التحذير والإنذار، حتى لا يتعرَّض معارضو دعوة النَّبي ﷺ للعقاب المشابه لمن تقدَّمهم، وقد يكون الهدف من القصة تعداد النِّعم التي أنعم الله بها على بعض الأنبياء، فشكروها حقَّ الشكر، وأدّوا حقَّ الله فيها، مثل بيان نعم الله على داود وسليمان عليهما السَّلام، وهذا ما أوردته الآيات الآتية:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ[1] وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ[2] ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ[3] سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ[4] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

---

(١) فهم أغراضه من صوته . (٢) يردّ أولهم إلى آخرهم ويكفون . (٣) لا يكسرنكم . (٤) ألهمني .

ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ [النمل: ٢٧/ ١٥-١٩].

المعنى: تالله لقد أعطينا كلاً من داود وسليمان علماً نافعاً، هو علم الشرائع والأحكام وفصل القضاء بين الناس، وعلَّمنا داود صنعة الدروع، وقال كلٌّ منهما: الحمد لله الذي فضَّلنا على كثير من عباد الله المؤمنين الصالحين بهذه العلوم والمعارف المفيدة في الدنيا والآخرة.

وخلف سليمان أباه داود بعد موته في ميراث النُّبوة والعلم والمُلْك، أي صار إليه ذلك بعد موت أبيه، ويسمى ميراثاً تجوُّزاً. أما ميراث المال: فلم يقع، لأن الأنبياء لا تورث أموالهم، قال النَّبي ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» .وفي رواية أحمد عن أبي هريرة: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركتُ بعد مؤنةِ عاملي، ونفقةِ نسائي: صدقة».

وقال سليمان متحدِّثاً بنعمة الله عليه: يا أيها الناس عَلَّمنا الله منطق الطير والحيوان إذا صَوَّت، وأُعطينا خيراً كثيراً من كل شيء في الدين والدنيا، من مُلْك وثروة، أي أُعطينا ما يصلح لنا ونتمنّاه، ولا يراد به العموم، إن هذا المؤتى من الخيرات والنِّعم من النُّبوة والمُلْك والحكم لهو الفضل الإلهي الظاهر البيِّن الذي لا يخفى على أحد، وهو فضل الله علينا، فإن فهم المعاني من أصوات الطير، التي في نفوسها أمر يحتاج إلى الشكر، وهذا نحو ما كان عليه نبيّنا محمد ﷺ يسمع أصوات الحجارة بالسّلام. وسمع سليمان أن البلبل قال: «أكلت نصف تمرة، فعلى الدنيا العفاء».

ومن نِعَم الله على سليمان: أنه جمع الله له جنوده من الجنِّ والإنس والطير، فكان ملكه عظيماً ملأ الأرض، وانقادت له المعمورة كلها، وكان كرسيّه يحمله

أجناده من الجنّ والإنس، وكانت الطير تظلّله من الشمس، ويبعثها في الأمور، وكان هؤلاء الجنود يُجمعون بترتيب ونظام، بأن يوقف أولهم ليلحق بهم آخرهم، ويردّ أولهم على آخرهم، لئلا يتقدم أحد عن منزلته ومرتبته، حتى لا يتخلّف أحد منهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ من الوزع، أي الكفّ والمنع، والمعنى: يردّ أولهم على آخرهم ويكفّون.

ومن النِّعم أيضاً على سليمان: فهم كلام النَّمل، فبينا كان سليمان وجنوده مشاة على الأرض، أتَوْا على وادي النَّمل إما بالشّام أو غيرها من البلاد، ونادت نملة هي ملكة النَّمل: يا أيها النَّمل، ادخلوا بيوتكم، حتى لا يكسرنكم سليمان وجنوده، من غير أن يشعروا بذلك.

فتبسَّم سليمان ضاحكاً من قولها، وتعجُّباً من تحذيرها، وقال داعياً ربَّه في أن يُعينه الله تعالى ويفرغه لشكر النِّعمة، وهذا معنى إيزاع الشكر، يا ربِّ ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديَّ، وأن أعمل عملاً صالحاً ترضاه وتحبُّه، واجعلني بعد الوفاة في الجنة، في زمرة الصالحين من الأنبياء والأولياء الصلحاء. وهذا دليل على أن نعمة العلم وحدها تستوجب الشكر، وأن برَّ الوالدين والدُّعاء لهما بعد موتهما مطلوب مرغوب فيه.

هذا سليمان الملك العظيم يطلب من ربِّه التَّفرُّغ للشكر، كما يطلب من ربِّه أن يوفِّقه للعمل الصالح الذي يرضيه، وأن يتغمَّده برحمته وفضله في الجنة بإذن الله، التي هي دار المتَّقين، ودار السّلام والأمان والسعادة المطلقة. فهو لم يغترّ بعمله ولا بسلطانه، بل طلب الزيادة والمعونة والفضل حتى يدخل في عداد الصالحين. وهذا دليل على تواضع العظماء والعلماء، وأن كل إنسان بأمسِّ الحاجة إلى رحمة الله في الدنيا والآخرة، وأن فضل الله دائم لا ينقطع، يغمر الجميع ويحتاج إليه الجميع.

قصة الهدهد

من أعاجيب النِّعم الإلهية على سليمان عليه السّلام تعليمه منطق الطير ولغة الحيوان، واستخدام الجنّ، والطيران في الهواء على بساط الريح، وكان مع ذلك في غاية الحمد والشكر لربّه، والاعتراف بفضله وإحسانه، من غير بطر ولا أشر، وكان يستعين بالطير في مهام بريدية واستكشافية للماء، والتَّعرف على أخبار الأمم والشعوب والممالك الأخرى، وهذا قبل أن توجد الاختراعات الحديثة من تحليق الطيران وسرعة الاتِّصال بالوسائل المختلفة، مما يدلُّ على أن معجزة القرآن الكريم وقدرة الله الخارقة تظهر متحدِّية البشر في كل زمان ومكان، وصف الله تعالى قصة الهدهد مع سليمان عليه السّلام في الآيات الآتية:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ(١) فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ(٢) فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النَّمل: ٢٧/ ٢٠-٢٨].

تفقَّد سليمان عليه السّلام جميع الطير ومنها طير الهدهد بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك والتعرف على دقائق الأحداث، وكان له علم بمنطق الطير، وكانت الطيور مسخَّرة له كالرِّيح وغيرها، فقال متعجِّباً: كيف لا أرى الهدهد؟ علماً بأنه لم

(١) يظهر المخبوء. (٢) تنحَّ عنهم قليلاً.

يأذن له بالغياب، بل هو من الغائبين دون علم منه. وإنما طلب الهدهد لاحتياجه في مفازة إلى معرفة الماء ومدى عمقه في الأرض، وكان الهدهد يرى بطن الأرض وظاهرها، كانت تشفُّ له، فكان يخبر سليمان عليه السّلام بموضع الماء، ثم كانت الجنّ تخرجه في ساعة يسيرة، وتستنبطه من غير آلات.

وحينما تثبَّت سليمان عليه السلام من غياب الهدهد، هدَّده بالذَّبح أو التعذيب كنتف ريشه إلا أن يأتي ببرهان واضح يدلُّ على قبول عذره. فغاب الهدهد زماناً غير طويل الأمد، ثم جاء، فسأله سليمان عن سبب غيابه، فقال لسليمان: علمت علماً تامّاً ليس في علمك، وجئتك من بلاد سبأ بخبر متيقّن موثوق، ومضمون الخبر ثلاثة أمور:

أ- إني وجدت في بلاد سبأ مملكة عظيمة ذات مجد، تحكمهم امرأة هي بلقيس بنت شراحيل، وأعطيت من متاع الدنيا الشيء الكثير من حوائج المملكة من ثراء وغنى، وملك وأبهة، وجيش مسلَّح بأنواع العتاد والعُدّة، ولها عرش عظيم، أي سرير هائل مزخرف بالذَّهب، وأنواع الجواهر.

٢- وجدت هذه الملكة وقومها يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله، لأنهم كانوا زنادقة، أو كانوا مجوساً يعبدون الأنوار.

٣- وزيَّن لهم الشيطان قبيح أعمالهم، فصاروا يرون القبيح حسناً، ومنعهم الشيطان عن طريق الحق وعبادة الله وحده، فصاروا غير مهتدين.

ألا يعرفون سبيل الحقِّ والرَّشاد بإخلاص العبادة لله وحده، دون ما خلق من الكواكب وغيرها، وهو الخالق المبدع الذي يخرج المخبوء الخفي من الأمور في السماوات والأرض، كالنبات والمعادن، ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال.

فإن الله هو الإله الواحد الذي لا شريك له، ولا معبود سواه، وهو ربُّ العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه، فالعرش أعظم المخلوقات، وما عداه فهو في ضمنه وفي قبضته.

فأجاب سليمان عليه السّلام طير الهدهد عن دفاعه واعتذاره، بأننا سنتعرَّف على مدى صحة قولك، أصادقٌ في إخبارك هذا أم أنت كاذب في مقالتك، لتتخلَّص من الإنذار والوعيد الذي أوعدتك به؟!

اذهب أيها الهدهد بكتابي هذا إلى بلقيس وقومها، الذي يتضمن الدعوة إلى الإيمان بالله وحده، وألقِ هذا الكتاب إليهم، ثم ابتعد عنهم قريباً، وانظر ردّ الفعل، وماذا يقولون ويتشاورون ويتناقشون. فعمد الهدهد إلى كُوَّة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها، إشارة لمعنى عبادتها إياها، فدخل منها، ورمى الكتاب على بلقيس، وهي فيما يروى نائمة، ثم انتظر الجواب. وقامت بلقيس بجمع أهل مملكتها وأعيانهم، واستشارتهم في الأمر.

قصة الملكة بلقيس

في تأريخ القرآن الكريم ألوان من القصص المثيرة المحرِّكة لمشاعر الإيمان، والتي تعدُّ من حوافز العقيدة، لصلتها المباشرة بالفيض الإلهي، والإرادة الرَّبانية، وأحداث قصة الملكة بلقيس مثل يحتذى من الدبلوماسية الرشيدة، وإعمال الفكر والأناة، والظفر بتحقيق النتائج السلمية، وصون البشرية من إراقة الدماء، وحفظ الأنفس، لأن البعد عن الأهواء والشهوات وعن الغطرسة يؤدي إلى اتِّخاذ موقف الحكمة والسَّداد، قال الله تعالى واصفاً قصة بلقيس مع سليمان عليه السّلام:

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ

ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ(١) عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(٢) ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ
قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ(٣) ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ(٤) شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا
تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ
يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ
أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا(٥) وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ(٦) ﴿٣٧﴾ [النمل: ٢٧/ ٢٩-٣٧].

المعنى: قالت بلقيس لأعيان قومها ومستشاريها: أيها الأشراف، إني أُلقي إلي كتاب كريم، مرسل من نبي الله سليمان، وهو ملك كريم، مضمونه: إن هذا الكتاب من النَّبي سليمان، مبدوء ببسم الله الرَّحمن الرَّحيم، وفي البسملة دلالة على إثبات وجود الله وتوحيده، وقدرته ورحمته، وفيه نهي عن التَّرفع الذي يحجب وصول الحقِّ إلى النفوس، ويصرف عن اتِّباع الأهواء، ويأمر باعتناق الإسلام، والإسلام كلمة جامعة لأصول الفضيلة، ومعالم الدين، والإقرار بوجود الله وتوحيده.

فأفتوني أيها المستشارون في هذا الأمر، ومضمون هذا الكتاب، ما كنت قاطعة أمراً ولا قاضية في شيء، حتى تحضرون وتشيرون فيه. وهذا موقف يدلُّ على عقل ورشد، وحكمة في السياسة، وبُعْد نظر في الأمور.

فأجاب أشراف القوم (الملأ): نحن أصحاب قوة جسدية وعددية، وذوو قوة وبأس، وشجاعة في الحروب، ومستعدّون للدفاع والقتال، فانظري في شأن إعلان الحرب على سليمان.

فقالت بلقيس لهم حين استعدّوا للصمود معها ومحاربة سليمان: إن الملوك إذا

(١) لا تتكبَّروا علي. (٢) منقادين. (٣) تحضرون. (٤) أصحاب نجدة وقوة في الحرب. (٥) لا طاقة لهم.
(٦) ذليلون بالأسر.

دخلوا بلدة قهراً، خرَّبوها ودمَّروا ديارها وأموالها، وأذلّوا أعزّة أهلها بالقتل والأسر، ويفعلون ذلك وأمثاله، وهي عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير. وهذا من بلقيس تقدير للمخاطر، وتحذير من محاربة سليمان، ثم رجَّحت اللجوء إلى الوسائل الودِّية، وإلى المصالحة والمفاوضة، فقالت: إني أقوم بهذه التجربة، وهي إرسال هدية لسليمان، لاختباره أهو نبي أم ملِك؟ ثم أنظر في جوابه بعدئذ، فلعله يقبل ذلك منا، ويكفّ عنا، أو يفرض علينا أتاوة مالية نرسلها له في كل عام، فنأمن جانبه. وكانت الهدية عظيمة مشتملة على ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك من الغلمان والجواري بزيّ واحد، لتجرِّبه في التفريق بينهم.

فلما وصلت الهدية إلى سليمان عليه السّلام، لم ينظر إليها، وأعرض عنها، وقال منكراً عليهم: أتمدّونني بمال؟ ولا حاجة لي به، ولا أقبله بدلاً من بقائكم على الشِّرك وعبادة الكواكب.

إن الله أعطاني خيراً كثيراً مما أعطاكم، وهو النُّبوة، والملك الواسع العريض، والمال الوفير، فلا حاجة لي بهديتكم، وهذا شأن سموّ النُّبوة، وترفُّع النَّبي عن أعراض الدنيا الحقيرة. وإنما أنتم الذين تنقادون لمؤثرات الدنيا وزخارفها، وتنقادون للهدايا وسحرها، وتفرحون بها، ولست طالباً للدنيا الزائلة، وإنما أطالبكم بتوحيد الله والإقرار بوجوده، وترك عبادة الشمس، ولا أقبل منكم إلا الإسلام الذي هو الخضوع لله تعالى، أو الاحتكام إلى الحرب والقتال.

ارجع أيها المبعوث إليهم بهديتهم، فإننا سنأتينَّهم بجنود أشدّاء لا طاقة لهم بقتالهم، ولنخرجنَّهم من بلدتهم أذلّة، وهم مهانون مدحورون، إن لم يأتوا مسلمين منقادين لله ربِّ العالمين.

وإن وعيد سليمان لقوم بلقيس مقترن بدوامهم على الكفر، فهو رمز التَّحدي والفوضى والعناد الذي يجرُّ على صاحبه الخسارة والحسرة.

إسلام بلقيس وزيارتها لسليمان عليه السّلام

حينما ردَّ سليمان عليه السّلام هدية بلقيس، أدركت أنه نبي مرسل من الله، وليس ملكاً طامعاً بالسلطة والنفوذ وجمع الأموال، فبادرت لإعلان إسلامها، وقبولها دعوة سليمان عليه السّلام، فأقبلت إليه مع حرسها، معظمة سليمان، متابعة له في الإسلام، فأعلن سليمان بهجته وسروره بقدوم بلقيس وأشراف قومها، ثم بادر إلى الاستعانة بالجنّ لرفده بأخبارهم وأحوال وفدهم، وكان إحضار سريرها من اليمن إلى بلاد الشام معجزة نبويّة باهرة، تدلُّ على صدق نبوّة سليمان وتأييد الله له، مما أدهش بلقيس وتأكّدت مصداقية النُّبوة، وصحّة الموقف الذي اتّخذته، قال الله تعالى واصفاً هذا الحدث العظيم في تاريخ الدعوات إلى الله تعالى:

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠
ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ(١) مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠
ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ(٢) فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ(٣)
ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟(٤)
لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ
كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ
كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ(٥) فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً(٦) وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ

(١) ملك من الملائكة أو جبريل . (٢) نظرك . (٣) ليختبرني . (٤) غيّروا . (٥) القصر . (٦) ظنت صحنه ماءً .

صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ(١) مِّن قَوَارِيرَ(٢) قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ [النّمل: ٢٧/٣٨-٤٤].

حينما اقترب موكب الملكة بلقيس من بلاد الشام، جمع سليمان عليه السّلام جنوده من الجنّ والإنس، فقال للملأ من الجنّ والإنس: يا أيها الملأ السّادة الأعوان، من منكم يأتيني بعرش (سرير) بلقيس قبل وصولها إلينا مع وفدها منقادين طائعين، ليكون ذلك دليلاً على صدق النُّبوة والرِّسالة، ومعجزة إلهية تدرك منها أن مملكتها صغيرة أمام عجائب صنع الله وروائع قدرته؟

قال مارد من الشياطين: أنا أحضره إليك قبل الانتهاء من مجلس القضاء والحكم، وكان يمتدُّ إلى منتصف النهار، وإني قادر على ذلك غير عاجز، أمين عليه غير خائن، لا آخذ منه شيئاً.

فقال سليمان: أريد أسرع من ذلك، لبيان عظمة ما وهبه الله من الملك، وتسخير الجنّ، وكثرة الجند ممن لم يسبقه إليه أحد. فقال أحد علماء أسرار الكتاب الإلهي وهو جبريل أو غيره: أنا أحضره في لمح البصر، قبل أن يرجع إليك نظرك، وقبل أن تُغمض عينيك وتفتحهما، فلما فعل، ورأى سليمان وجماعته أمامه وجود سرير بلقيس الذي حمله من بلاد اليمن إلى بلاد الشام قال: هذا من نِعَم الله علي ليختبرني، هل أشكر فضله علي، الذي آتاني من غير حول مني ولا قوة، أو أجحد فأنسب العمل لنفسي. ومن شكر النعمة، فإن نفع شكرها عائد إليه، لا إلى الله المنعِم، لأنه بالشكر تدوم النِّعَم، ومن جحد النعمة فلم يشكرها، فإن الله غني عن عباده وعن عبادتهم وشكرهم، لا يضرُّه كفرانهم، كريم في نفسه، عزيز في ذاته، وإن لم يعبده أحد، لا يزيل النِّعمة عن عباده إذا أعرضوا عن شكره.

---

(١) مملَّس . (٢) من زجاج شفاف .

قال سليمان لأتباعه: غيِّروا هيئة عرش بلقيس وصفته، لنختبر حالها وننظر في قدراتها وتأمُّلاتها، فهل تهتدي إلى الحقِّ والصواب ومعرفة عرشها، أو تكون غير مهتدية إليه، وعاجزة عن التأكُّد منه؟!

فلما قدمت، عرض عليها عرشها (سرير ملكها) وقد زيد فيه ونقص، وقيل لها: أهكذا عرشك؟ فقالت: كأنه هو، أي يشبهه ويقاربه. وكان جوابها ينم عن براعة وذكاء وحُنكة.

وهنا قال سليمان معدداً نعم الله عليه وعلى آبائه: لقد أوتينا العلم بإسلامها، ومجيئها طائعة قبل وصولها، وكنا في كل حال موحِّدين خاضعين لله تعالى.

وكانت بلقيس قد منعها عن عبادة الله ما كانت تعبد من غير الله، وهو عبادة الشمس، فإنها كانت من قوم وثنيين، كانوا يعبدون الشمس، وكانوا كافرين بوجود الله. قيل لبلقيس: ادخلي هذا الصرح: القصر المشيد العالي، فلما رأت مدخله الفخم، ظنَّت وجود ماء كثير فيه، فكشفت عن ساقيها، فقال سليمان: إنه قصر مصنوع من المرمر ومن الزجاج الصافي، فقالت: يا ربِّ، إني ظلمت نفسي في الماضي بعبادة غيرك، وأسلمت مع إسلام سليمان لله ربِّ جميع العالمين من إنس وجنّ.

دعوة صالح عليه السّلام

لقد أورد الله تعالى في كتابه أخبار الأنبياء السابقين، وشيئاً من أصول دعوتهم إلى الله تعالى، لتذكير قريش والعربِ وغيرهم بأن كل من تقدَّم من أنبياء العرب كان يدعو إلى إفراد الله بالعبادة وتوحيد الله وتمجيده، ليدركوا خطأ ما هم عليه، وليعلموا أن عبادة الأصنام ضلال وانحراف، وأن شأن الأنبياء جميعهم هو الدعوة

إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فيبادروا إلى اتّباع النّبي محمد ﷺ والإقرار بدعوته ورسالته، قال الله تعالى مذكّراً بدعوة نبي قديم من العرب ألا وهو صالح عليه السّلام:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ(١) وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ(٢) بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ(٣) ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ(٤) يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ(٥) لَنُبَيِّتَنَّهُۥ(٦) وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ(٧) وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ(٨) وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ(٩) بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النّمل: ٢٧/ ٤٥-٥٣].

هذه الآيات على جهة التشبيه أو التمثيل بالأمثال الغابرة لقريش، مفادها: وتالله لقد بعثنا إلى قبيلة ثمود العربية في ديار الحجْر أخاهم في النَّسب والقبيلة بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له، فانقسموا فريقين متخاصمين: فريق مؤمن مصدّق برسالته، وفريق مكذِّب بما جاء به من عند ربّه.

فقال صالح عليه السّلام: يا قومي، لِمَ تتعجَّلون نزول العذاب قبل أن تطلبوا من الله رحمته أو ثوابه إن عملتم بما دعوتكم إليه وآمنتم به. هلا تطلبون من الله المغفرة، وتتوبون إليه من كفركم، لكي يرحمكم ربّكم، لأنه إذا نزل العذاب لم تنفعكم التوبة.

فأجابه قومه قبيلة ثمود بغلظة وشدّة: لقد تشاءمنا منك وممن آمن معك، ولم نرَ خيراً فيكم أو من جهتكم، قال صالح عليه السّلام: شؤمكم وتفاؤلكم من شرٍّ أو

---

(١) تشاءمنا. (٢) شؤمكم عملكم. (٣) أي تمتحنون أو تختبرون. (٤) تسعة أشخاص من الرؤساء.
(٥) تحالفوا بالله. (٦) لنقتلنّهم ليلاً فجأة. (٧) هلاكهم. (٨) أهلكناهم. (٩) خالية خربة.

خير هو من قدر الله أتاكم به، وهو مكتوب عند الله، والله يجازيكم على ذلك، فهو إن شاء رزقكم، وإن شاء حرمكم، وهو مقدر مكتوب عند الله، ويجازيكم الله على ذلك، بل إنكم قوم تختبرون بالطاعة والمعصية، حين أرسلني الله إليكم.

أما طغاة ثمود ورؤوسهم وفساد مدينتهم، فكان في مدينة ثمود تسعة نفر، تغالوا في الفساد الذي لا صلاح فيه، دعوا قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح، وتواطؤوا على عقر الناقة وعلى قتل صالح ومن آمن به.

فقال بعضهم لبعض: احلفوا أو اقسموا أننا لنباغتنَّه وأهله الذين آمنوا معه ليلاً، فنقتلنَّهم، ثم نقول لأوليائه وأقاربه في الدّم أو القصاص: ما حضرنا مهلكهم أو هلاكهم، ولا ندري من قتلهم، وإنا لصادقون في قولنا، بأننا لم نحضر هلاك أحد الفريقين: صالح وأهله، وإن فعلوا الأمرين معاً. ولكن الله أحبط مؤامرتهم وجعل الدائرة عليهم، فإنهم دبَّروا مؤامرةً، أي مكيدة وخديعة، ولكن الله مكر بهم، أي جازاهم وعاقبهم وأهلكهم، فانظر أيها الرسول وكل منصف كيف كان مصير تآمرهم: أنا أهلكناهم وقومهم جميعاً. وقد سمى الله تعالى عقوبتهم باسم ذنبهم وهو مكرهم على سبيل المشاكلة أو المشابهة لفعلهم.

وكان من آثار تعذيبهم أن أصبحت مساكنهم خالية بسبب ظلمهم أنفسهم، إن في هذا العقاب الدنيوي المدمر لعبرة وعظة لأناس أهل معرفة وعلم، يعلمون سنّة الله في خلقه، وبأن النتائج مترتبة على الأسباب. إن تخريب بيوتهم الذي أخبر الله به: هو قانون كل الشرائع أن الله إنما يعاقب الظلمة. جاء في التوراة: «ابنَ آدم، لا تظلم، يخرّب بيتك».

وفي مقابل إهلاك الظالمين للعبرة، نجى الله من العذاب صالحاً عليه السّلام ومن

آمن به، حين ساروا إلى بلاد الشام، ونزلوا بالرملة في فلسطين، لأن الإيمان واتِّقاء عذاب الله بطاعته سبب النَّجاة والمعافاة في الدنيا والآخرة.

إن في إيراد هذه القصة تذكيراً لقريش والعرب الوثنيين بأنهم إن استمرّوا في كفرهم وعنادهم، تعرَّضوا للعذاب، كما عُذِّب أمثالهم.

دعوة لوط عليه السّلام

لقد تورَّط بعض الناس المنحرفين بألوان من الشُّذوذ والضَّلال والبُعْد عن الفطرة الإنسانية السَّوية، وكانوا في شذوذهم هذا مثل سَوْء، وعنوان تدمير وخراب لأنفسهم ولغيرهم ومجتمعهم، فاستحقّوا العقاب الأليم الاستئصالي، لعل غيرهم ممن جاء بعدهم يتَّعظ ويعتبر، ويَحْذر ويتأمَّل، ويعود إلى البصيرة، والاستقامة، فلا يتلوّث بما وقع به غيره، من انحراف وسقوط في قيعان المنكر، وهؤلاء قوم لوط، اقترفوا الفواحش، وانغمسوا في المعاصي الكبيرة والمنكرات الفظيعة، فسخط الله عليهم وعذَّبهم في الدنيا بمطر السوء، وكان تاريخهم مضرب الأمثال، قال الله تعالى واصفاً حال قوم لوط ودعوة رسولهم إليهم:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ[١] ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا[٢] مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ[٣] ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [النَّمل: ٢٧/ ٥٤-٥٨].

---

(١) يحاولون التَّنزه عما نفعل . (٢) حكمنا عليها . (٣) بجعلها من الغابرين .

والمعنى: واذكر أيها الرسول النَّبي لوطاً عليه السّلام، وقصته أو دعوته الإصلاحية، حين أنذر قومه نقمة الله عليهم، بإتيانهم الفاحشة العظيمة، قائلاً لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ؟! أي أترتكبون فاحشة اللواط، وأنتم تبصرون بقلوبكم أنها خطيئة وفاحشة، وتعلمون قبحها وسوءها.

كيف تقدمون على إتيان الرجال من دون النِّساء؟ فهذا شذوذ مفرط، ونكسة في الطبع، وترك للأفضل والأكرم والأولى، ولكنكم في الواقع قوم تجهلون عاقبة هذا الأمر الشنيع، ولا تميزون بين الحسن والقبح، وتُؤْثرون الرذيلة على الفضيلة، وتتركون المباح من النساء، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشُّعراء: ٢٦/ ١٦٥-١٦٦]. أي معتدون متجاوزون الحدود.

لقد أعرض قوم لوط عن دعوته، ولم يسمعوا نصحه وتحذيره، ولم يكن جوابهم إلا الإصرارَ على ممارسة الفاحشة المنكرة، وأجابوه بعد التشاور فيما بينهم: أخرجوا لوطاً وأهله من بلدنا، فإنهم لا يصلحون للعيش معنا، إنهم يتحرَّجون من أفعالنا، ويترفعون عن صنعنا، ويتنزهون عن أعمالنا. إنهم بهذا تركوا طريق الحجة والمنطق وإيثار السلام، وأخذوا سبيل المغالبة والمعاندة، فتآمروا بإخراجه وإخراج من آمن معه من بلدهم، ثم ذمُّوهم وتهكَّموا عليهم بمدحة: وهي التَّطهُّر من هذه الدَّناءة التي هم أدمنوا عليها.

فكان من عدل الله ورحمته تدمير الظالمين، وإنجاء المؤمنين الصالحين، وهذا ما أفادته الآيات الآتية:

لقد أنجينا لوطاً ومن آمن معه برسالته من أهله لإقرارهم بتوحيد الله تعالى،

وطاعته، والاستقامة على أمره، واجتناب محظوراته ونواهيه. لكن امرأة لوط ﴿قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي جعلناها وحصلناها من الباقين في العذاب، لأن من رضي بالمنكر، وإن لم يفعله، فهو مقرٌّ به، فله جزاء الفاعلين المنغمسين في الإثم والمنكر.

وأنزلنا على قوم لوط حجارة من سجّيل[1] من جهنم، وهو الحاصب، فأهلكت جميعهم، وأبادتهم وخسفت الأرض بهم، فبئس المطر مطر المنذَرين بالعذاب، الذين قامت عليهم الحجة، ووصلهم الإنذار الإلهي، فخالفوا الرسول وكذّبوه، وهموا بإخراجه من قريتهم، وتلك هي عاقبة القوم الظالمين الفاسقين.

وهذه الآية أصل لمن جعل من الفقهاء الرَّجم في اللوطية، لأن الله تعالى عذَّب قوم لوط على كفرهم به، وأرسل عليهم الحجارة لمعصيتهم وتعاطيهم الفاحشة، ويؤيد ذلك قول النَّبي ﷺ عن اللائط وشريكه: «اقتلوا الفاعل والمفعول به» (أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد). إن التَّخلص من وباء اللواط وفاعليه ضرورة صحية واجتماعية، لأن هذا الوباء يؤدي إلى فَقْدِ المناعة (الأيدز) وإلى الموت والهلاك.

إثبات الواحدانية والقدرة الإلهيّة

لم يعتبر الوثنيون المشركون بأصناف العذاب النازلة بمن كذبوا الرُّسل، ولم يستجيبوا لدعوة الحقّ والتوحيد، والنداء الإلهي لتصحيح العقيدة، والتَّخلص من الوثنية، ولقد أدى رسل الله الكرام أقصى ما في وسعهم من أداء الواجب،

(١) السِّجِّيل: حجارة من طين طبخت في نار جهنم.

فاستحقّوا من النَّبي محمد خاتم النَّبيِّين أن يحمد الله تعالى على تلك النعمة، والسلام على الأنبياء المجاهدين قاطبة، لأدائهم أمانة التبليغ لرسالة ربّهم على أكمل وجه. ومع هذا الإنذار بالتّعرض لعذاب مماثل لعذاب الأمم المتقدمة، أقام الحق تعالى البراهين القاطعة على وحدانيته وعظمة قدرته في السماء والأرض، ومن خلال خلق المخلوقات المختلفة الدّالة بوضعها على حاجة الخلق إلى الله تعالى، قال الله عزّ وجلّ مدلِّلاً على هذه القضايا:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ[1] مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ[2] ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا[3] وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ[4] وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ[5] أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦٤﴾ [النَّمل: ٢٧/ ٥٩-٦٤].

يأمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يعلن حمده لله تعالى وشكره على نعمه المختلفة، وعلى صفاته العليا وأسمائه الحسنى، وأن يسلِّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم لتبليغ رسالته.

هل الله المتصف بالقدرة والعظمة والإنعام خير أمّا يشركون به من الأصنام؟

---

(١) بساتين ذات حُسن. (٢) ينحرفون عن الحق إلى الباطل. (٣) مستقرّاً بالتسوية. (٤) جبالاً ثوابت.
(٥) فاصلاً مانعاً من الاختلاط.

وهذا استفهام إنكاري على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى. والمقصود به: التنبيه على إغراقهم في الضلال والجهل.

ثم أورد الله تعالى عدداً من الأدلة الكونية على وحدانيته وقدرته على كل شيء، وهذه الأدلة:

١- أعبادة الأوثان والأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع خير، أم عبادة الذي خلق السماوات في ارتفاعها وعظمتها وجمالها، وأنزل من السماء أو السحاب مطراً، فأنبت به الحدائق الغنّاء، ذات الجمال الباهر، ليس لديكم القدرة على إنبات شجرها وإخراج ثمرها، فهو الله المتفرِّد بالخلق والرِّزق، فهل يصح بعدئذ وجود إله مع الله يُعبد؟ إنهم قوم ينحرفون عن الحق والصواب إلى الباطل والخطأ، حين يجعلون مع الله إلهاً آخر نظيراً له وشريكاً. والحدائق: مجتمع الأشجار من العنب والنخيل وغير ذلك. والبهجة: الجمال والنُّضرة.

٢- أعبادة الأوثان والأصنام العديمة النفع والضرر خير، أم عبادة الإله الذي جعل الأرض مستقرّاً للإنسان وغيره، لا تتحرك بأهلها، وجعل فيها جبالاً ثوابت شامخة، لتثبيت الأرض حتى لا تتحرك، وجعل بين المياه العذبة والملحة حاجزاً، أي مانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بذاك، وتبقى التفرقة بينهما قائمة. هل يوجد مع الله إله آخر أبدع الكائنات؟ بل في الواقع أكثر هؤلاء المشركين لا يدركون الحق والصواب فيتبعونه.

٣- إن الله الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه، ويدفع عنه الضرر ويرفع عنه السوء من فقر أو مرض أو خوف ونحو ذلك إذا لجأ إليه، ويجعل الناس خلفاء الأرض وورثتها، يخلف بعضهم بعضاً في جلب المنافع، وسكنى الديار، وزراعة الأرض، والتصرف بالمملوكات، هل مع الله إله آخر، يَقْدِر مثله على ذلك؟ ولكن ما أقل تذكُّر الناس نعم الله عليهم، وإرشادهم إلى الحق والطريق القويم.

٤- إن الله تعالى هو الهادي إلى الحق والخير، يدلُّ الناس على مواضع غاياتهم، في ظلمات البر والبحر، ويتناقلون ذلك بالتعليم، ويرسل الرياح القوية تبشِّر بنزول الأمطار، وتمهِّد للتعرف على رحمة الله، هل مع الله إله آخر، يفعل مثل فعله، تنزه الله عما يشركون من عبادة أشياء أخرى مع الله الواحد الأحد المستحق وحده للعبادة؟

علم الغيب

إن أفق الإنسان محدود، وعقله مقصور على معرفة أشياء معينة، فهو لا يعلم المستقبل، ولا يستطيع أن يتنبأ نبوءة جازمة عن أمور غيبية مستقبلية، وإنما يتوقع ويخطط، ويدع التنفيذ وإصابة الهدف لله عزّ وجلّ، لذا كان لا بدَّ له بعد اتِّخاذ الأسباب المرعية والقيام بالواجب من التوكل على الله، أي تفويض الأمر وتنفيذه لله تعالى، فالزارع يبذر الحبّ في الأرض، ويكِل أمر النبات لله سبحانه، والتاجر يخاطر في البيع والشراء، ويترك أمر تحقيق الربح لله ربّه، والطالب يجتهد ويكدّ ذهنه، ويدع النتائج والنجاح لله سبحانه، والعامل يبذل ما في وسعه، ثم يفوِّض الأمر في سلامة عمله وسَتْره لله المدبِّر، وهكذا الناس كلهم قاصرون محتاجون في الاطِّلاع على أمور المستقبل إلى الله تعالى، قال الله عزّ وجلّ مبيِّناً حصر علم الغيب بذاته العليّة:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ(١) فِي ٱلْآخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ(٢) ﴿٦٦﴾﴾ [النّمل: ٢٧/ ٦٥-٦٦].

إن من مقتضيات الألوهية ولوازمها اختصاصَ الإله بعلم الغيب، وإدراك مكان

(١) تكامل واستحكم علمهم بأحوالها، وهذا تهكُّم بهم. (٢) عُمْي البصائر.

وزمان وكيفية وقوع الأشياء، حسبما يتفق مع حكمة الله وتقديره وعلمه. وقد نزلت هذه الآية لأن الكفار سألوا، وألحّوا عن وقت القيامة التي يعدهم بها النّبي ﷺ، فنزلت هذه الآية بالتسليم لأمر الله تعالى، وترك التحديد، وأعلم الله عزّ وجلّ أنه لا يعلم وقت الساعة سواه، فجاء بلفظ يعمّ السامع وغيره، وأخبر عن البشر أنهم لا يشعرون متى يبعثون؟

وبهذه الآية احتجّت عائشة رضي الله تعالى عنها على قولها: «ومن زعم أن محمداً يعلم الغيب، فقد أعظم على الله الفِرية» (أخرجه أحمد والشيخان والتِّرمذي والنَّسائي وغيرهم). لذا بدئت الآية بأمر النّبي أن يقول: قل يا محمد: لا يعلم أحد الغيب من أهل السماوات والأرض، إلا الله عزّ وجلّ، فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤].

ثم أكّد الله تعالى اختصاصه بعلم الغيب وكون القيامة تأتي بغتة، فما يدري أهل السماوات والأرض بوقت الساعة، كما قال الله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٧] أي ثقل علمها على أهل السماوات والأرض، ولم يدركوا حقائقها، فلا يشعر أي واحد من الناس، متى وقت البعث والحساب والجزاء، وإنما تأتيهم القيامة فجأة.

وأكّد الله تعالى أمراً آخر وهو جهل الناس بيوم القيامة حين قال: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي تدارك، بمعنى تناهى وتتابع علمهم بالآخرة، إلى أن يعرفوا لها مقداراً فيؤمنوا، وإنما لهم ظنون كاذبة، فهم عاجزون عن معرفة وقت حدوث القيامة، وعلمهم بذلك معدوم، وإنما هي تنبؤات وتخرصات لا قيمة لها.

ثم وصفهم الله تعالى بالحيرة والاضطراب والقلق في الآخرة فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي بل جنس الكفرة في شك من وجود الآخرة ووقوعها، وهم في حيرة شديدة من تحقق وجودها، كما قال الله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٨] أي لن نجعل للكافرين منكم موعداً.

ثم كشف الله حقيقتهم وهي التَّعامي عن التفكر والتأمل أو التدبر في أمر الآخرة، فقال: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي بل هم في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها، لا يفكرون فيها في أعماق نفوسهم، فهم عُمْي البصيرة لا البصر، وهذا أسوأ حالاً من الشَّك.

إن هذه الإضرابات الثلاثة بكلمة (بل) تدرّج في وصف منكري البعث، فهم أولاً لا يشعرون بوقت البعث ولا يعلمون متى يكون، ثم إنهم يتخبطون في الشكوك فلا يزيلونها، والإزالة مستطاعة، ثم هم عُمي البصيرة لا يدركون الحقائق، وهذا غاية الحطّة والدُّنو.

استبعاد المشركين بعث الأجساد

استمرَّ مشركو العرب وأمثالهم في استبعاد أن تبعث الأجساد والرِّمم من القبور، وتلك حلقة من سلسلة اعتقاداتهم الفاسدة، التي فنَّدها القرآن الكريم، وردَّ عليها، وأبان زيفها، لأن الشك في أمر المعاد لا ينشأ إلا من الشك في كمال القدرة الإلهية أو في كمال العلم، وبما أن المنطق الحسي، والاستقرار الفطري يدلان على عظمة القدرة الإلهية، وتمام العلم الإلهي وإحاطَته، فإن كل امرئ عاقل يؤمن بوجود يوم العدالة المطلقة، وإنصافِ الخلائق، وهو يوم القيامة، فكان لا بدَّ من صحة الاعتقاد

بالحشر والمعاد وبعث الأجساد، قال الله تعالى واصفاً إنكار البعث من فئة أهل الشِّرك:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ[١] ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ[٢] مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ[٣] لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ[٤] صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النَّمل: ٢٧/٦٧-٧٥].

ردَّ الله تعالى في هذه الآيات على إنكار المشركين البعث واستبعاد إعادة الأجسام أحياء من القبور. فقالوا: أنخرَج من قبورنا أحياء بعد مماتنا، وبعد أن بليت أجسادنا وصارت تراباً؟!

ما زلنا نسمع كثيراً بهذا، ووعدنا نحن وآباؤنا من قبل بإتيان القيامة، ولكن لا نلمس له حقيقة ولا وقوعاً، ولم نشاهد قيام أحد من قبره بعد موته، فما هذا الوعد بإعادة الأجساد كما زعموا إلا أسطورة أي خرافة وأكذوبة، يتناقلها الناس بعضهم عن بعض، إنهم هم السطحيون الخرافيون، وليسوا أولئك المؤمنين بالبعث والمعاد والحساب.

أرشد الله تعالى هؤلاء المنكرين للآخرة إلى صواب الاعتقاد، فقل لهم أيها الرسول: سيروا في بلاد العرب كلها وغيرها، فانظروا مصير من سبقكم من

(١) أكاذيبهم المسطرة في كتبهم . (٢) حرج . (٣) لحقكم . (٤) ما تخفي .

المكذبين، إنهم اغتروا بدنياهم، وفتنوا بزخارفها، وكذَّبوا الرُّسل، وأنكروا القيامة، فأهلكهم الله بذنوبهم، فانظر كيف عاقبة المجرمين، الذين أجرموا في عقائدهم الفاسدة.

فلا تحزن يا محمد على إعراض هؤلاء المكذبين عن رسالتك، ولا يضقْ صدرك بهم حزناً وأسفاً على مكائدهم وتآمرهم عليك، فإن الله ناصرك وعاصمك من الناس.

ثم أخبر الله تعالى عن إنكار أمر آخر من المشركين غير البعث، وهو إنكار عذاب الله يوم القيامة، حيث يقولون: متى وقت هذا العذاب الذي تعدنا به، إن كنتم أيها النَّبي ومن آمن معك، من الصادقين في ادِّعائكم وقولكم؟

أجابهم الله تعالى مرشداً نبيّه: قل لهم يا محمد، عسى أن يكون قد لحقكم وتبعكم، أو اقترب منكم بعض الذي تستعجلون وقوعه من العذاب، وهو القتل والهزيمة، والتنكيل والمذلَّة يوم بدر. فكلمة (ردف) بمعنى قرُب وأزف.

وسبب تأخير العقاب منوط بحكمة الله وتقديره، فإن الله هو المنعم المتفضِّل على عباده كلهم، مع ظلمهم أنفسهم، فإنه سبحانه يضع الأمور في مواضعها المناسبة، ويؤخر العقاب مع استعجالهم إياه، لإعطائهم فرصة للعودة عن ضلالهم، ولكن أكثر الناس لا يشكرون نعم الله عليهم، الظاهرة منها والباطنة.

وإن ربَّك ليعلم علماً تامّاً وشاملاً ما تكنُّه ضمائرهم وسرائرهم، كما يعلم ظواهرهم، والمقصود من هذا: التنبيه إلى أنه تعالى عالم بمكائد المشركين لرسولهم، وسيجازيهم على ذلك.

ثم أعلن الله تعالى عن حقيقة عامة وهي: ما من شيء غائب مخفي في السماوات والأرض إلا وهو موجود معلوم في اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه الله تعالى كل ما

كان وما يكون إلى يوم القيامة. فهو سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة، يعلم الغائب والظاهر الموجود المشاهد للناس، وكل ذلك مدوّن في كتاب واضح لا لَبْس فيه، كما جاء في آيات كثيرة أخرى منها: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٠].

القرآن والنُّبوة

عُني القرآن الكريم بإثبات ثلاثة أمور عقدية: وهي التوحيد، والنُّبوة، والمعاد، أما التوحيد: فأدلته كثيرة يقتنع بها كل عاقل رشيد، ومنها خلق السماوات والأرض، وتسيير نظام الكون بانسجام وانتظام.

وأما النُّبوة: فدليلها قيام المعجزة، ومنها التَّحدي بالإتيان بمثل القرآن العظيم، ومنها إيراد القرآن تفاصيل قصص عجيبة لم تعرف بغير القرآن، وأما المعاد يوم القيامة: فدليله الإيمان بالغيب وضرورة إنصاف الخلائق على ما بدر منهم في عالم الدنيا من مظالم. وهذه آيات كريمة تبين لبني إسرائيل ما اختلفوا فيه، وترشد إلى أن القرآن المجيد هداية ورحمة، وأن الله يحكم بين خلقه، فإذا أعرضوا عن هدي القرآن، فهم كالموتى صمّ، عمي، بُكم، لن تفلح معهم هداية أخرى، قال الله سبحانه واصفاً هذا:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٧٦-٨١].

إن القرآن العظيم نبَّه إلى أنه أخبر بني إسرائيل بأخبار أكثر الأشياء، التي كان فيما بينهم اختلاف في صفتها، فجاءت في القرآن مطابقة للواقع، وخلافات بني إسرائيل كثيرة، ومن أهم اختلافهم في شأن عيسى عليه السّلام، فحسم القرآن الخلاف، وأبان أن عيسى عبدٌ لله ورسول من عنده، مثله كمثل بقية الأنبياء المرسلين، من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام، ولا داعي بعدئذ للمبالغة في وصف نبي من الأنبياء بغير صفة العبودية لله عزّ وجلّ، والنُّبوة ذات المهام المشتركة بين الأنبياء: وهي تبليغ وحي الله وأحكامِه وشرائعه.

ومهمة القرآن الكريم: تبيان الحقائق الناصعة، وإزالة الخلافات الواقعة، فهو هادٍ إلى طريق الرّشاد، ورحمة لأهل الإيمان بما اشتمل عليه من تشريعات تتعلق بالعقيدة، كتوحيد الله تعالى، وإثبات المعاد والحشر، والنُّبوة والوحي، وإبانة صفات الله الحسنى، ووضع الأنظمة الصالحة لحياة الناس العملية، من عبادات ومعاملات، تتفق مع الحاجة، وتلتقي مع المصلحة.

ثم وجَّه الله تعالى الناس إلى ضرورة الاعتقاد الجازم أن كل ما يقع بين الناس من خلافات وغيرها، فهو كله بقضاء من الله تعالى، وهو حكم قضاه فيهم وبَيْنهم، إنه قضاء عادل، وحكم صائب، والله سبحانه هو العزيز، أي القوي القادر على الحكم والعقاب، العليم بأفعال العباد وأقوالهم، يقضي بينهم بالصواب والحق المطابق للواقع.

كما وجَّه الله سبحانه النَّبي والناس بعد هذا القضاء الإلهي إلى ضرورة الاتّكال على الله والثِّقة به، والاعتماد عليه، وتفويض جميع الأمور إليه، فما عليك أيها النَّبي إلا تبليغ رسالتك، وأحكام ربك، وترك الالتفات إلى أعداء الله تعالى، فإنك على الحق الأبلج، والنور الأعظم، وكل من خالفك فهو على الباطل ومن أهل الشقاوة. وإنك أيها النَّبي الجدير بالنصرة وظهور السمعة والأثر.

وإنك أيها النَّبي أيضاً لا تستطيع إسماع الأعداء الذين هم كالموتى، ولا يمكنك إسماع كلام الله، لأنهم كالصُّم، فلا أمل في سماعهم، وكالعمي الذين لا يبصرون طريقهم إلى الرشاد، وكيف تسمعهم ما تريد، وهم يولّون عنك مدبرين هاربين؟ إنهم فقدوا الاستعداد للهداية، لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون، ومن حجب عن نفسه شعاع الشمس كيف يستفيد من حرارتها وإنارتها؟!

ثم أكّد الله تعالى قراره في المخالفين والمعادين إيناساً لنبي الله، وهو أنك أيها الرسول لست بمستطيع هداية العمي وإبعادهم عن ضلالتهم، وردَّهم عن انحرافهم، إلى دائرة الحق والخير والنور، لحجبهم عن السماع والتَّبصر، ولا تستطيع إلا إسماع الذين علم الله أنهم يؤمنون بآيات الله، أي يُصدِّقون بها، فهم مسلمون مخلصون التوحيد لله، خاضعون لربِّ العباد، ولا يستجيب لك إلا كل بصير القلب، يستخدم سمعه وبصره في إدراك الوجه الصحيح للأمور، ويستعد لقبول الحق الخالص.

إن المعرض عن دعوة النَّبي ﷺ أشبه بالموتى حيث لا فائدة من خطابه، وكالأصمّ والأعمى حيث لا أمل في إدراك الكلام، أما المستعد لقبول دعوة النَّبي فهو متفتِّح القلب والبصيرة. قال العلماء: الميت من الأحياء: هو الذي يلقى الله تعالى بكفره.

علامات القيامة

إن وقوع القيامة أمر حتمي لا بد منها، فهي عالم الحساب والثواب والعقاب، وسيجد الناس أمارات أو علامات لها في عالم الدنيا قبل النهاية العامة، ولا مجال لتكذيب هذه العلامات، لأنها غريبة الوصف، باهرة التأثير، عجيبة الوضع. والعلامات للقيامة إما صغرى وإما كبرى، وهي إما بمثابة الإنذار لوقوع شيء

غريب، وإما تصاحب القيامة نفسها كنفخ الصور، ومجيء القيامة مختص علمه بالله تعالى، ومرتبط بالحكمة الإلهية، التي تتطابق مع ما آل إليه أمر الناس من شر وسوء، وتقصير وخمول، وفوضى وجهالة، ويأس عام وبُعْد من الاستقامة. قال الله تعالى مبيناً بعض علامات القيامة التي هي بمثابة الإنذارات:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ[1] عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا[2] مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ[3] ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النّمل: ٢٧/ ٨٢-٨٦].

في آخر الزمان عند فساد الناس، وتخلِّيهم نهائيّاً عن أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق، وتنجيز وعد عذابهم الذي حتَّمه الله عليهم وقضاه فيهم، وذلك قبيل قيام الساعة، في ذلك الوقت يُخرج الله دابّة من الأرض إما من جبل الصَّفا بمكة، وإما من مسجد الكوفة من حيث فار تنّور نوح عليه السلام، وتلك الدابّة سميت الجسَّاسة في بعض الأخبار أو الآثار المروية في كتب السُّنة الصِّحاح، ولكن لم يرد وصف معين لهذه الدابَّة، فيكون الله أعلم بها، وتنطق هذه الدابّة بلسان فصيح: إن الناس كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى. روي أن هذه الدابّة مبثوث نوعها في الأرض، فهي تخرج في كل بلد وفي كل قوم.

واذكر أيها النّبي: -وهذا تذكير بيوم القيامة- أننا نحشر، أي نجمع يوم القيامة جماعة من رؤساء كل أمة، من الظالمين المكذبين بآياتنا، فهم يوزعون، أي يحبس أولهم على آخرهم، أو يُكفّون في السوق.

---

(١) اقتربت الساعة . (٢) جماعة . (٣) فيها معنى المنع، أي يمنع أولهم ويوقف حتى يتلاحقوا ويجتمعوا .

فإذا جاء هؤلاء الجماعة الموقوفون يوم القيامة، يسألهم الله تعالى سؤال توبيخ: فيقال لهم: كيف كذَّبتم بآياتي الدالّة على تحقيق هذا اليوم ولقائه، غير ناظرين بما أعلمتكم به علماً تامّاً؟ بل ماذا كنتم تعملون، أي بماذا كنتم تَشْغلون أنفسكم، أو تعملون فيها من تصديق أو تكذيب؟!

إنهم حيارى تائهون، لا يجدون جواباً مقنعاً، ولا سبيلاً للنجاة.

ثم أخبر الله تعالى عن وقوع القول عليهم، أي نفوذ العذاب، وحتم القضاء، وأنهم لا ينطقون بحجة مقنعة، لفقدانهم إياها. حين يحلُّ العذاب بأولئك المكذبين بآيات الله، وذلك بسبب ظلمهم، أي تكذيبهم وكفرهم، فيشغلهم عن النطق والاعتذار، كما جاء في آية أخرى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٣٥-٣٦]

ثم أوضح الله تعالى دليلاً يثبت التوحيد الإلهي، والحشر، والنُّبوة وهو: ألم يعلم هؤلاء المكذِّبون بآياتنا أنا خلقنا الليل للسكن والنوم والراحة، وخلقنا النهار مضيئاً للعمل، وتقلُّبِ الناس في جلب معايشهم وأرزاقهم، إن في ذلك الإبداع أو الْخَلْق لدلالاتٍ وآيات بيِّنات على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وإنجاز البعث بعد الموت، للجزاء والحساب، وعلى توحيد الله تعالى، لقوم يصدقون بالله ورسله.

فمن تأمَّل في ظاهرة تعاقب الليل والنهار، والانتقال من حال شبيهة بالموت إلى حال الحركة والحياة، أدرك أن القيامة كائنة، وأن الله سيبعث من في القبور.

وهذه الآية موجهة لجميع المؤمنين والكافرين، فهي في الخطاب لهم جميعاً، وفي مجال الانتفاع بها مخصوصة بالمؤمنين، لذا خصَّهم الله بالذكر، وجعلهم قدوةً حسنة في قبول النصيحة والموعظة، ليكونوا أمام المنكرين والمعاندين مُثُلاً عملية وتجربة رائدة، فهم استعدّوا للإيمان، وتبصَّروا بآيات الله، وأيقنوا بوعد الله ووعيده،

وانتفعوا بالمذكِّرات والعظات، فاستحقّوا النَّجاة والإسعاد، وكانوا كوكبة منيرة تنير للناس سبيل الإنقاذ، والاعتقاد بدين الحق.

فالحمد لله والشكر له أن جعلنا من عباده المؤمنين، وألهمنا رشدنا، ووفَّقنا للعمل بما يحبُّه ويرضاه.

نفخة الصور

إن العلامة الأولى كما تقدم ليوم القيامة قبله بيسير: هي ظهور دابَّة من الأرض في آخر الزمان، وانتشار الفساد، تُكلِّم الناس أنهم لا يوقنون بآيات الله، والعلامة الثانية المصاحبة لقيام القيامة: هي النفخة الأولى في الصور، أي القرن أو البوق العظيم حين ينفخ إسرافيل، فيموت جميع الناس، وفي ذلك من الرهبة والخوف والذُّعر ما لا يوصف، وتقوم القيامة بنفخة أخرى يبعث بها الناس من قبورهم. وقد أخبر الله تعالى عن هاتين النفخيتن، وهنا الحديث عن النفخة الأولى وما يعقبها، قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ[1] مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ[2] ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٧-٩٠].

هذا يوم حاسم في تاريخ البشرية، إنه يوم يقضى به عليها بعد وجودها في الدنيا،

(١) خاف خوفاً شديداً. (٢) أي صاغرين ذليلين.

فاذكر أيها الرسول للناس هول ذلك اليوم، حيث ينفخ إسرافيل في الصور: وهو القرن في قول الجمهور، فيعمّ الفزع الشديد جميع أهل السماوات والأرض، ويعقب الموت ذلك الفزع، بنفخة الصعق، إلا من شاء الله أن لا يفزع بأن ثبَّت قلبه: وهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ملَك الموت، وكل واحد من الخلائق يأتون إلى الموقف بين يدي الله للسؤال والحساب أذلّة صاغرين، صغارَ مهانة إن كانوا كفّاراً، وصغار هيبة وخشية إن كانوا مؤمنين.

هذه، وهي نفخة الفزع، علامة ثانية ليوم القيامة، وهناك علامة ثالثة: وهي تسيير الجبال وإزالتُها من أماكنها، فانظر أيها الرّائي الجبال تظنّها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تزول بسرعة فائقة عن أماكنها، وتسير كما يسير الغمام بتأثير الريح العاصفة، لأن حركتها الرتيبة لاتكاد تبين. إنه صنع الله وفعله بقدرته العظيمة الذي أحكم وأتقن صناعة كل شيء، وأودع فيه من الحكمة ما شاء، إنه سبحانه خبير بما تعملون من أعمال وما تقولون من أقوال، خيرها وشرِّها، وسيجازيكم عليها خيراً أو شرّاً، وهذه هي علة النفخ في الصور وإيجاد البعث للحساب والجزاء.

وحال الناس بعد وقوع القيامة صنفان:

- فمن جاء بالحسنة أي بالإيمان الصحيح بالله وحده لا شريك له، واقترن بإيمانه العمل الصالح الذي يرضي الله تعالى، فله على ذلك الثواب الجزيل عند ربِّه في جنّات النعيم، بحيث يأمن من الفزع الأكبر، وهو الخوف من عذاب القيامة، كما جاء في آية أخرى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٣] فالحسنة: هي الإيمان، وهو النطق بكلمة (لا إله إلا الله) ويكون للمؤمن خير من هذه الحسنة: أي خير من قَدْرها أو استحقاقها، بمعنى أن الله تعالى تفضّل على المؤمن بما هو فوق ما تستحق حسنته، والمراد بالخيرية: مضاعفة الثواب ودوامه، فليس شيء خيراً من (لا إله إلا الله).

- ومن جاء بالسيئة: وهي الكفر والمعاصي، ممن استحق العذاب باختياره، وحتَّم الله تعالى عليه دخول النار، أي من كان كافراً عاصياً في الدنيا، فيُلقى في النار على وجهه، وإذا كُبّت الوجوه في النار، فسائر البدن أُدخل النار، إذ الوجه موضع الشرف والحواس، فهل هذا إلا جزاء عملكم في الدنيا أيها المنحرفون من شِرْك ومعصية؟ إنكم أيها العصاة الكفرة لا تجزون إلا بما يتَّفق مع العدل والحق، وهو جزاء أعمالكم الصادرة عنكم في الدنيا.

إن هذا المصير المحتوم يقتضي من الناس أن يكونوا إما على أُهبة واستعداد بالإيمان وعمل الصالحات، حتى يدخلوا دار السعادة والسلام وهي الجنة، وإما أن يكونوا على حذر وخوف من الشرك بالله والكفر به، وإنكار وحدانيته، وترك الفرائض، وعصيان الأوامر، فيكونوا من أهل النار دارِ الخلود بالعذاب، ودار الانتقام والبقاء فيها. ومصير هذين الفريقين قائم على محض الحق والعدل، والمنطق، وإنصاف الخلائق.

العبادة وتلاوة القرآن

ختمت سورة النَّمل بخاتمة عظيمة، تدلُّ على مغزى إيجاد الخلق الإنساني، ألا وهو عبادة الله وحده، وترشد إلى طريق الهداية القويمة، ألا وهي تلاوة القرآن العظيم وتدبُّر آياته، والاستضاءة بتوجيهاته في العقيدة والعبادة، والآداب والحياة الإنسانية بكل سلوكياتها وأبعادها ومناهجها، ويجمعها كلَّها منهج الإسلام وعطاؤه للبشرية في كل زمان ومكان. وبعد هذا البيان الشافي، من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن زاغ وانحرف وضلَّ عن السبيل القويم، فضلاله على نفسه، ووباله على حاله، وقد أدى نبي الله الرسالة، وبلَّغ الأمانة، وبشَّر وأنذر، ورغَّب وحذَّر، ولم يبق للناس عذر بالجهل أو الاشتباه. قال الله تعالى مبيِّناً هذه التوجيهات:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النَّمل: ٢٧/ ٩١-٩٣].

حصر الله تعالى مهمة رسوله محمد ﷺ، في مجال علاقته مع قومه بأمور أربعة:

الأول منها- قل أيها النَّبي لقومك: إنما أمرت فقط أن أعبد ربَّ مكة التي حرمها على الناس، فجعلها شرعاً بلداً آمناً حرماً، لا يسفك فيها دم، ولا يُظلم فيها أحد، ولا يُنفَّر صيدها، ولا يعضد شجرها، ولا يُهدَّد الخائف فيها، وقد أضيف فيها التحريم إلى الله تعالى، من حيث كون ذلك بقضائه وسابق علمه. وفي قوله ﴿حَرَّمَهَا﴾ تعديد للنعمة على قريش، في رفع الله تعالى عن بلدهم الغارات والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب في ذلك الزمان.

وبيد الله تعالى الأمر والتدبير لكل شيء، لذا قال: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ معناه بالمُلْك والعبودية، فالله سبحانه مالك الملك، والمخلوقات كلها عبيد لله، فله تعالى كل شيء في الكون خَلْقاً ومُلْكاً وتصرُّفاً، لا يشاركه في ملكه شريك.

الأمر الثاني- وأمرني ربِّي أن أكون من المسلمين، أي الموحِّدين المخلصين، المنقادين لأمره، المطيعين له، لأن كل الخلق خاضع لله تعالى طوعاً أو كَرْهاً، كما جاء في آية أخرى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٣].

الأمر الثالث- وأمرني ربِّي أن أتلو القرآن بجميع ما فيه على الناس، وأن أتلوه وحدي ليلاً نهاراً، لاستبانة أسراره، والتَّعرف على أدلة وجود الله وتوحيده في الكون، فيزداد إيماني، وتشرق نفسي.

وتلاوة القرآن معناها: متابعة قراءة آياته وسردها، وتكون هذه التلاوة سبب الاهتداء إلى كل خير.

فمن اهتدى إلى الحقِّ والإيمان فقد اهتدى لنفسه، أي من تكسّب الهدى والإيمان، ونظر نظراً ينجِّيه، فلنفسه سعيه، وأثر جهده وفكره. ومن آمن برسالة النَّبي محمد ﷺ، واتَّبع هداه، فقد رشد، وأَمِن عذاب الله الحقّ، لانحرافه وتقصيره في التعرف على مضمون الهداية الرَّبانية.

ومن ضلَّ وأخطأ طريق الحق والإيمان والرشاد، وكذَّب بدعوة النَّبي ﷺ التي جاء بها من عند ربِّه، في القرآن المجيد، فعليه وزر ضلاله، ونتيجة تقصيره وانحرافه، وإنما النَّبي من المنذِرين المخوِّفين قومهم عذاب الله، وليس على هذا النَّبي إلا الإنذار والتخويف من عذاب الله تعالى.

فنسبة الهدى والضلال إلى البشر من هذه الأمة، إنما هي بالتكسب والاختيار، والحرص والحال التي عليها يقع الثواب والعقاب، والكل أيضاً من الله تعالى بالخلق والإيجاد والتقدير.

الأمر الرابع- وقل أيها الرسول: لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه والإنذار إليه، ولله الحمد على ما أنعم على النَّبي من النبوة، وعلى ما عَلمه ووفَّقه لتحمُّل أعباء الرسالة والعمل بما أنزل الله عليه، وإنه سبحانه سيريكم آياته الدالّة على عظمته وحكمته وقدرته، وأمارات عذابه وسخطه، وما الله بغافل عما يعمل المشركون وغيرهم، وشهيدٌ على كل شيء، ولكن يؤجل عذابهم إلى أجل معين على حسب إرادته وحكمته. وقوله تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ توعُّد بعذاب الدنيا كبدر والفتح وغيرهما، وتوعُّد بعذاب الآخرة، فمن وعى الكلام تجنَّب الزَّلل والعصيان، واستقام على أمر الله تعالى.

تفسير سورة القصص

مناصرة المستضعفين

إن رسالة الإسلام الخالدة إنما ركزت في مخططها العام على تحقيق العدل ونشره، ومحاربة الظلم وسدنته، والحدّ من غطرسة أهل الاستكبار والبغي، والعمل على مناصرة المستضعفين المظلومين في كل مكان، وكان هذا التَّوجه في العهد المكّي الأول، لذا افتتحت سورة القصص المكّية بإعلان جانب من قصة موسى مع فرعون، موسى عليه السّلام الذي يمثّل الحق والدفاع عن المستضعفين، وفرعون حاكم مصر الذي استعلى في أرضها، وأذل بعض طوائفها، ولكن قدرة الله وإرادته بالمرصاد، فأراد الله المنّ والإنعام على الذين استضعفوا، وجعلهم سادة أئمة، يرثون السلطة والملك، وأراد تعذيب المستكبرين فرعون وهامان وجنودِهما، لبطشهم بالضعفاء، قال الله تعالى مبيّناً هذا القانون الإلهي:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ[١] وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا[٢] يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ[٣] إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ[٤] ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ١-٦].

---

(١) تجبر وطغى في مصر. (٢) أصنافاً في الخدمة. (٣) يبقيهن أحياء للخدمة. (٤) يخافون من ذهاب ملكهم.

سورة القصص مكّية إلا قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [الآية ٨٥ من السورة] ، نزلت هذه بالجُحْفة في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة. افتتحت السورة بالأحرف الأبجدية المقطّعة ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ للتنبيه على إعجاز القرآن، وتحدّي العرب بالإتيان بمثل القرآن الكريم، ما دام مكوّناً من أحرف لغتهم التي يتفاخرون بأنهم فيها أساطين البيان، وفرسان الفصاحة والبلاغة، لذا لا نجد مثل هذه الحروف إلا متبوعة بالكلام عن آي القرآن المجيد. فهذه آيات من الكتاب الواضح الجلي، الكاشف لحقائق الدين وأحكامه. وعبَّر عن الآيات بـ ﴿تِلْكَ﴾ وإن كانت إشارة للغائب والبعيد، وكلمة ﴿هَٰذِهِۦ﴾ للحاضر والقريب، فإنها أي ﴿ذَٰلِكَ﴾ في معنى القريب، بسبب الثقة والتأكد من حصول ما جاء بعدها. إننا نتلو ونَذكُر لك أيها النَّبي خبر موسى وفرعون، حقّاً وصدقاً مطابقاً للواقع، كأنك تشاهد الواقعة، من أجل تعريف قوم يصدِّقون برسالتك وبما أُنزل إليك من ربِّك، فتطمئن به قلوبهم. وخصَّ الله المؤمنين في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ من حيث إنهم هم المنتفعون بذلك دون غيرهم، لأنهم يصدِّقون بالقرآن، ويَعْلَمون أنه من عند الله تعالى، فينتفعون بذلك، أما من لم يؤمن، فلا يصدِّق أنّه حقٌّ، وبالتالي لا ينتفع به.

إن فرعون ملك مصر في عهد الفراعنة استعلى في أرضها واستكبر، وبغى وطغى وتجبَّر، وقهر أهلها وبطش، وجعل أهل مصر فِرَقاً وأحزاباً مختلفة، وسخَّر كل طائفة في مصلحة عمرانية أو زراعية أو غيرها، يجعل جماعة منهم أذلّة خَدَماً مقهورين، وهم بنو إسرائيل، يستأصل بالذَّبح أبناءهم الذكور، ويُبقي إناثهم أحياء، إهانةً لهم واحتقاراً، إنه كان من المفسدين في أرض مصر وملكه، بالعمل والمعاصي والاستكبار.

وأراد الله تعالى إنصاف الضعيف وعقاب المستكبر، فأنعم الله على المستضعفين المؤمنين برسالة موسى عليه السّلام، وخلَّصهم من بأسه، وأنقذهم من ظلمه ومكره.

وجعل الله أولئك الضعاف الأذلة ولاةَ الأمور، ووارثين لِمُلك فرعون وأرضه وما في سلطانه، وجعل لهم السلطة والنفوذ في أرض فرعون. وأرى الله فرعون الطاغية، وهامان وزيره الماكر، وأتباعهما ما كانوا يخافون منه، من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل، وقد أنفذ الله أمره، وحقَّق حكمه، بأن جعل تدمير فرعون وقومِهِ على يد من تربَّى في قصره، بعد أن صيَّره الله رسولاً ونبياً، وأنزل عليه التوراة، ليعلم أن الله وحده هو القاهر الغالب على أمره، ويتم أمر الله فيما أوقعه بفرعون وقومه وجنده فيما خافوه وحَذِروه من جهة بني إسرائيل وتغلبهم.

إرضاع موسى عليه السلام من أُمِّه

خشي فرعون حاكم مصر هلاك ملكه على يد بني إسرائيل، فكان يقتِّل الأبناء، ويُبقي البنات أحياء للخدمة، وشاء الله تعالى أن ينجو من القتل موسى عليه السّلام بعد ولادته وإلقائه في البحر، فالتقطه آل فرعون لتربيته، وإعداده في النهاية لتدمير ملك فرعون من حيث لا يشعرون، ولم تتضرر أم موسى على رمي وليدها في البحر، فمنعه من قبول ثدي أي امرأة أخرى غير ثدي أمِّه، فأرشدت أختُه حاشيةَ فرعون إلى مَن يرضعه، وأعاده الله تعالى لأمِّه سالماً آمناً، وهذه فصول قصة رضاعه، قال الله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ[1] ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ

(١) متعمِّدين الخطأ الموجب للإثم.

قُرَّتُ عَيْنٍ(١) لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا(٢) إِن كَادَتْ لَتُبْدِى(٣) بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا(٤) عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ(٥) فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ(٦) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ(٧) لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا(٨) وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ [القصص: ٢٨/٧-١٣].

كان إقدام فرعون على تذبيح صبيان بني إسرائيل، لأنه -كما قال قتادة- قال له كهنته وعلماؤه: إن غلاماً لبني إسرائيل يفسد مُلْكك، فرأى أن يقطع نسلهم، فصار يذبح عاماً، ويستحيي عاماً، فوُلد هارون عليه السّلام في عام الاستحياء، ووُلِد موسى عليه السّلام في عام الذَّبح، أي إن فرعون-كما قال ابن عطية-طَمِعَ بجهله أن يردّ القدر.

وابتدأت القصة، بذكر نعمة الله على موسى عليه السّلام، فيما معناه: وألهمنا أمّ موسى إرضاعه فترة زمنية، فأرضعته ثلاثة أو أربعة أشهر. كما يقال، فإذا خفت عليه من القتل، فألقيه في بحر النِّيل، ولا تخافي عليه من الغرق والضياع، ولا تحزني على فراقه، إنّا سنردّه عليك لتكوني أنت مرضعَته، وسنجعله نبيّاً مرسلاً إلى قومه بني إسرائيل.

فلما أُلقي موسى في نيل مصر، مرَّ أمام قصر فرعون، فالتقطه آل فرعون (أهله) من أجل معرفة ما في التابوت، وآثروا تبنِّيه وتربيتَه، دون أن يدروا بمصيره، فكانت عاقبة أمره والتقاطه أن يصير موسى عليه السّلام بعد النُّبوة والكهولة عدوّاً لهم،

(١) مسرة وفرح . (٢) خالياً من كل شيء عدا موسى . (٣) لتصرّح ببنوّته . (٤) أي ثبّتناها . (٥) تتبّعي أثره وخبره . (٦) مكان بعيد . (٧) يربّونه . (٨) تسرّ وتفرح بولدها .

بمخالفة دينهم، وإغراقهم في البحر وزوال ملكهم، لتكذيبهم برسالة موسى عليه السّلام. فتكون لام ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ لام العاقبة أو الصيرورة، لا أن القصد بالالتقاط من أجل أن يكون لهم عدوّاً. ولقد كان فرعون ووزيره وأكبر رجاله هامان وجنودُهما متعمدين الخطأ، مصرّين على تكذيب موسى. وبهذا يعلم أن (الخاطئ) متعمّد الخطأ، و (المخطئ): الذي لا يتعمَّده، فعاقبهم الله بأن ربّى عدوّهم عندهم، وكان هو سبب هلاكهم.

وقالت زوجة فرعون له: هذا الطفل قرّة عين لي، أي سلوة لي، تَقَرُّ به عيني، وتفرح به نفسي، فلا تقتلوه، وذلك الإلهام لامرأة فرعون لأن الله تعالى ألقى عليه المحبة، فكان يحبّه كل من شاهده، ولعله يكون سبباً للخير والنفع، أو نتخذه ولداً ونتبنّاه، لما يتمتع به من الوسامة والجمال، ولكن لم يشعر قوم فرعون أن هلاكهم بسبب هذا الطفل وعلى يده.

وأصبح قلب أم موسى بعد إلقاء صندوقه في البحر فارغاً من كل شيء من شواغل الدنيا، إلا من ذكر موسى، وكادت من شدّة حزنها وأسفها إظهار أمر ابنها وأنه ذهب لها ولد، وأنها أمّه، لولا أن ثبَّت الله قلبها وصبَّرها، لتكون من المصدِّقين الواثقين بوعد الله لها، بردِّه إليها.

وقالت أمّ موسى لأُخته ابنتِها الكبرى: تتبَّعي أثره واعرفي خبره، فخرجت لذلك، فعثرت عليه في بيت فرعون، وأبصرته عن بُعْد، والقوم لا يشعرون بها وبمهمّتها، ولا بأنه الذي يفسد الملك على يديه.

ومنع الله موسى من قبول ثدي المراضع غير ثدي أُمِّه، من قبل، أي من أول أمره، فقالت أخته لمن حول بيت فرعون: ألا أدلّكم على أهل بيت يتكفّلون بشأنه وإرضاعه وحضانته، وهم حافظون له، ناصحون للملِك، بخدمته والمحافظة عليه؟!

فأعاد الله الطفل موسى إلى أمه بعد التقاط آل فرعون له، لتقرَّ عينها وتُسرّ بوجوده لديها وسلامته عندها، ولا تحزن عليه بفراقه، ولتتيقَّن أن وعد الله بردِّه إليها حقّ لا شكّ فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكم الله في أفعاله، أي حكمته وتدبيره.

خطأ موسى عليه السّلام

قضى موسى عليه السّلام عهد الشباب في مصر، مع قومه الإسرائيليين، وتعايشه مع فرعون وأتباعه، ولكنه كان ضجراً متألماً لما عليه سوء الحال في مصر، رافضاً ألوهية فرعون، قلقاً من استكباره واستعلائه، وإذلاله بني إسرائيل، وينتظر الفرج القريب، بما آتاه الله من العلم والحكمة والبصيرة في إدراك وحدانية الله تعالى، وهو بهذا يصارع الآلام النفسية، من تألُّه فرعون وجبروته ومظالمه، وهذا ما وصفه لنا القرآن الكريم، للعبرة والعظة في الآيات الآتية:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ(١) وَٱسْتَوَىٰٓ(٢) ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ(٣) فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ(٤) ﴿١٧﴾﴾

[القصص: ٢٨/ ١٤-١٧].

كان تكوين موسى عليه السلام وإعدادُه للنُّبوة وتربيتُه يشبه إعداد جميع الأنبياء، إنهم كانوا قبل النُّبوة على ملَّة التوحيد: ملّة إبراهيم الحنيفية عليه السّلام، فلما نضج

(١) قوة البدن والنّمو. (٢) أي تكامل عقله وحزمه، (٣) ضربه على صدره بيده. (٤) معيناً لهم.

موسى عليه السّلام وتكامل عقله وحزمه، أي استوى، وذلك -عند الجمهور- مع سنّ الأربعين، وقيل: ثلاثين، آتاه الله الْحُكْم، أي الحكمة، والعلم: المعرفة بشرع إبراهيم عليه السّلام، وكما فعل الله ذلك بموسى فعل بسائر الأنبياء، ليجزي المحسنين على إحسانهم، وقد رجح الإمام الفخر الرازي: أن المراد بالحكم هنا: الحكمة والعلم لا النُّبوة، والحكمة والعلم مقدِّمات لنبوة موسى عليه السّلام. والأشد: شدة البدن واستحكام أمره وقوته. واستوى: معناه تكامل عقله وحزمه.

وحدث في هذه المرحلة من العمر: أن دخل موسى عليه السلام مدينة عين شمس، على بُعْد فرسخين من مصر القديمة، في وقت القائلة أو القيلولة، وقت الغفلة، والناس نيام، فوجد فيها رجلين يتخاصمان، أحدهما إسرائيلي من قومه أو شيعته وحزبه، والآخر مصري فرعوني، هو طبَّاخ فرعون، وكان قد طلب من الإسرائيلي أن يحمل حطباً للمطبخ فأبى، فطلب الإسرائيلي المساعدة والعون على عدوه الفرعوني، فضربه موسى بيده على لحيته، فقضى عليه، أي قتله، أي كان الضرب الخطأ مفضياً خطأ إلى الموت، فإن موسى لم يُرد قتل القبطي، لكن وافقت وكزتُه الأجل، ونشأ عنها موته، فندم موسى، ورأى أن ذلك من نزغ الشيطان في يده، وأن الغضب الذي اقترنت به تلك الوكزة، كان من الشيطان ومن هَمزه، فنسب إلى عمله، وقد اقترنت قوته الكبيرة بوقت غضبه، بأكثر مما يقصد، وكان الحادث قبل النُّبوة. فندم موسى على ما فعل، وقال: إن هذا العمل من تزيين الشيطان وإغرائه، إن الشيطان عدوّ للإنسان، موقع له في الضلال والخطأ.

ثم تاب موسى عليه السلام من فعله هذا فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ أي يا ربّ إني أوقعت نفسي في الظلم والإثم بهذا الفعل، وهو قتل نفس بريئة، فاستر لي ذنبي، ولا تؤاخذني بجناية نفسي، وإني نادم على ما فعلت، وأتوب إليك

وأستغفرك، فغفر الله له، وقَبِلَ توبته، إنه سبحانه وتعالى الغفور: السَّتّار لذنوب عباده التائبين المخلصين في توبتهم، الرَّحيم بهم: المنعم عليهم بفيض رحمته، فلا يعاقبهم بعد التوبة المخلصة.

وعاهد موسى ربَّه عزّ وجلّ قائلاً: يا ربِّ، اعصمني من الخطأ، بسبب ما أنعمت علي، من الحكمة والمعرفة بالملّة القويمة وبتوحيدك وتمجيدك، يا ربِّ، بنعمتك علي، وبسبب إحسانك إلي وفضلك، فأنا ملتزم ألاّ أكون معيناً للمجرمين، أي المنحرفين الخارجين عن دائرة الحق والاستقامة. قال القشيري: ولم يَقُل: لما أنعمت علي من المغفرة، لأن هذا كان قبل الوحي، وما كان عالماً بأن الله غفر له ذلك القتل. وأراد بترك مظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه، كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون، وإما بمظاهرة من أدّت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له قتله.

وظلَّ موسى عليه السّلام يتحسس ويتألم من حادثة القتل، مع علمه بأنه قد غُفِر له، حتى في يوم القيامة، كما صحّ في حديث الشفاعة.

قلق موسى عليه السّلام وخوفه وخروجه من مصر

إن النفوس المؤمنة، والسّامية العالية، ينتابها الخوف الدائم والقلق والضجر إذا بدر منها الخطأ، وعكَّر السُّوءُ صفاءها، وجعلها لا تقرّ ولا ترتاح، وهكذا كان شأن موسى عليه السّلام بعد أن وقعت بسببه حادثة قتل خطأ، قَبْل أن يكون رسولاً نبيّاً، ومما زاده ألماً وضيقاً أن الذي نصره من الإسرائيليين يستنجد به مرة أخرى، لضرب رجل آخر، فأبى موسى مناصرته، ثم جاءه رجل يحذِّره من التآمر على قتله من آل

فرعون، فكان ذلك سبباً لخروجه من مصر، واتّجاهه نحو أرض مَدْين، وصف الله تعالى هذه الأحداث في الآيات التالية:

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ(١) فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ(٢) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ(٣) مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ(٤) بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ(٥) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ(٦) يَأْتَمِرُونَ بِكَ(٧) لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢٨/١٨-٢١].

لقد استبدَّ الخوف والقلق في نفس موسى عليه السّلام، فأصبح في المدينة: عين شمس، دائم الخوف في كل أوقاته، فصار يترقَّب مباغتاً يقتله، ويتحسس ويتألم من الناس بسبب القتل، فمرَّ وهو بهذه الحالة القلقة في طريق متخفياً مستتراً، فإذا ذلك الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس على المصري، يطلب منه العون والمساعدة على مصري آخر، فقال له موسى معاتباً ومؤنّباً: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر الغواية، كثير الفساد والشّر والضّلال.

ولما أراد موسى زجر عدوّهما القبطي: عدو الإسرائيلي وعدوه، قال له مستنكراً مستهجناً لعلمه بحادثة القتل بالأمس: أتريد الإقدام على قتلي، كما قتلت نفساً البارحة، ما تريد يا موسى إلا أن تكون من الجبابرة، والجبابرة شأنهم قتل الناس بغير حق؟! فلذلك جعله جبّاراً ونفى عنه الصلاح، أي إنك لا تريد إلا أن تكون سفّاحاً بطّاشاً، كثير الأذى في الأرض، دون أن تتدبَّر في عواقب الأمور، ولا تريد

---

(١) يتوقع مكروهاً. (٢) يستغيثه. (٣) ضال عن الرشد. (٤) يأخذ بقوة. (٥) يسرع. (٦) وجوه القوم.
(٧) يتشاورون في شأنك.

أن تكون من أهل الصلاح والإصلاح الذين يفصلون في خصومات الناس بالحسنى والحكمة، والموضوعية، والرّوية، حتى ولو كان أحد الخصوم من ذوي القربى أو العشيرة.

فأنفذ فرعون إلى موسى من يطلبه من جنده، ويأتي به للقتل، فخرج موسى إلى الطريق الأعظم، أي الشارع العام، فجاءه رجل، يُسرع في مشيه، يقال: إنه مؤمن آل فرعون، ويقال: إنه غيره، في إحدى الطرق الصغيرة، المتشعبة من الطرق الكبيرة، ليصل بسرعة إلى موسى عليه السّلام، وليُخفي أمره، حتى لا يعرِف أحد أنه يريد إبلاغ موسى بالخبر، وقد جاء هذا الرجل الناصح من أبعد مكان في المدينة، فقال: يا موسى، إن فرعون وملأه: أشراف دولته وكبار حاشيته، يتآمرون ويتشاورون في أمرك، وتدبير مكيدة أو مؤامرة قتلك، فاخرج بسرعة من البلد، إني لك ناصح أمين.

فخرج موسى عليه السّلام من مدينة فرعون خائفاً على نفسه، يتلفَّت ويترقَّب متابعة أحدٍ له، وأَفْلت من القوم، فلم يجدوه، وخرج في حال فزعه إلى طريق مَدْين، وهي مدينة قوم شعيب عليه السّلام، وكان موسى عليه السّلام لا يعرف ذلك الطريق، ولم يصحب أحداً، فسار واثقاً بالله تعالى، ومتوكّلاً عليه، وقال في هذه المحنة العصيبة: يا ربِّ، نجني من هؤلاء القوم الظالمين: فرعون وملئه، واحمني من شرِّهم وسوئهم، فاستجاب الله دعاءه ونجاه؛ ووصل إلى مَدْين آمناً على نفسه، بفضل الله وإحسانه، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴿٤٠﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٤٠].

وبَيْن مَدْين ومصر مسيرة ثمانية أيام، وكان مُلْك مدين لغير فرعون، قال السّدّي ومقاتل: روي أن الله تعالى بعث إلى موسى جبريل عليه السّلام، وقيل: ملَكاً غيره،

فسدَّده إلى الطريق. وكل ذلك رعاية وعناية، وحماية وعصمة من الله لموسى، ليعدّه لتحمل عبء الرسالة، ومنصب النبوة، وأخذ التوراة.

زواج موسى عليه السلام

بدأت مرحلة جديدة في حياة موسى عليه السّلام، بعد توجُّهه إلى أرض مدين بفلسطين، تميَّزت بالاستقرار لمدة عشر سنوات، حين تزوج بابنة شعيب عليه السّلام، ورعيه غنمه تلك المدة، وبعد انتهائها وعزمه العودة إلى مصر، حدثت النعمة الكبرىَ على موسى وهي إيتاؤه الرِّسالة والنُّبوة وتلقِّي التوراة. وكان هذا الزواج لما تمتع به موسى عليه السلام من قوة الرُّجولة، وعظمة الأمانة، وهاتان صفتان هما مطمح المرأة وأملها في الرجل الذي تريده زوجاً لها، وليس هناك أجمل ولا أجلى مما صوره القرآن الكريم من قصة هذا الزواج المبارك، قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ[١] قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً[٢] مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ[٣] قَالَ مَا خَطْبُكُمَا[٤] قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ[٥] وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى[٦] ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ[٧] فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ

(١) جهة مدين . (٢) جماعة كثيرة . (٣) أي تمنعان غنمهما عن الماء خوفاً من السُّقاة الأقوياء . (٤) ما شأنكما؟ (٥) ينصرف الرُّعاة عن مورد الماء . (٦) تكون لي أجيراً في رعي الغنم . (٧) أي ثماني سنوات .

سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٢-٢٨].

حينما اتَّجه موسى عليه السّلام جهة مدين، تاركاً فرعون وبلاده، ومن أجل معرفته الطريق، قال داعياً ربَّه: ربِّي اهدني الطريق الأقوم، فامتن الله عليه، وهداه إلى السبيل الصحيح، المؤدي به إلى بلاد مَدْين، وكان بحكم العادة يسأل الناس عن الطريق، فيدلّونه.

ومَدْين: شمال خليج العقبة في فلسطين. وسبب هذا التَّوجه: وجود قرابة بين موسى وأهل مَدْين، فهم من ولد مَدْين بن إبراهيم عليه السلام، وموسى من بنيّ إسرائيل، والإسرائيليون من أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام.

وفصول قصة مدين أولها: أن موسى عليه السّلام لما وصل إلى مَدْين، وورد ماءها، وجد رعاة الماشية يسقون أنعامهم ومواشيهم من بئر فيها، ووجد جماعة من الناس حولهم، ووجد في مكان ناءٍ امرأتين تمنعان غنمهما من ورود الماء مع الرُّعاة الآخرين، لئلا تختلط مع أغنام غيرهما، فسألهما: لماذا لا تسقيان، ما شأنكما وخبركما، لا تَرِدان الماء مع هؤلاء؟ قالتا: لا نسقي غنمنا إلا بعد أن ينصرف الرُّعاة (يصدر) ويبتعدوا من السَّقي، وأبونا شيخ كبير هرم، لا يستطيع الرَّعي والسَّقي بنفسه.

فبادر موسى عليه السّلام لسقي غنم هاتين المرأتين، من بئر مغطاة بصخرة، لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، ثم أعادها إلى موضعها على البئر، ثم انزوى إلى ظلّ شجرة للراحة، مناجياً ربَّه قائلاً: إني لمحتاج إلى الخير من ربِّي، وهو الطَّعام، لدفع غائلة الجوع.

وبعد رجوع المرأتين سريعاً بالغنم إلى أبيهما شعيب عليه السلام، سألهما عن

الخبر والسبب، فقصّتا عليه ما فعل موسى عليه السّلام، فبعث إحداهما إليه، لتدعوه إلى أبيها، فجاءت إحداهما تمشي مستخيية مشي الحرائر الأُباة، فقالت له في أدب وحزم: إن أبي يطلبك ليكافئك على إحسانك لنا. فلما جاء موسى إلى شعيب الشيخ، وقصَّ عليه قصَّته مع فرعون وقومه، قال له: لا تخف واطمئن، لقد نجوت من سطوة القوم الظالمين.

فقالت إحدى ابنتي الشيخ الكبير: يا أبت استأجره لرعي هذه الغنم، فإن خير مستأجَر لها هو، لأنه الرجل الأبي القوي، المؤتمن الذي لا يخون.

قال شعيب: يا موسى، إني أُريد مصاهرتك وتزويجك إحدى هاتين البنتين، فاختر ما تشاء، على أن يكون المهر خدمة من المنافع: وهي رعاية غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين، فهو إليك، وما أريد إيقاعك في شيء من المشقة والحرج، وستجدني إن شاء الله من الصالحين، المحسنين المعاملة، ولين الكلام أو الخطاب، والفعل.

فقال موسى لعمِّه الصِّهر: الأمر على ما قلت في اختيار إحدى البنتين، والوفاء بإحدى المدَّتين: ثماني أو عشر سنين، ولا مجاوزة للحدّ، ولا حرج من اختيار إحدى المدَّتين، أو لا تبعة علي من قول ولا فعل، والاتِّفاق موثق بيني وبينك في ثماني سنوات، والله على ما نقول شاهد قائم بالأمور، وبعد إتمام عقد الزواج أمر شعيب موسى أن يسير إلى بيت فيه عصي، فيأخذ منه عصاً لرعيه الغنم في مدين.

إيتاء موسى عليه السلام النُّبوة في جبل الطُّور

أتم موسى عليه السّلام أكمل المدَّتين عشر سنوات، في رعي غنم شعيب عليه السّلام في مَدْين، ثم عزم على العودة إلى مصر، لزيارة أقاربه، مصحوباً بزوجته، ولكنه في طريق العودة، حدث التحول الجديد الأعظم في حياته، حين كلّمه ربُّه في

جبل الطُّور، وآتاه الله النُّبوة والتّوراة، وجعله رسولاً إلى فرعون وقومه، بني إسرائيل، وكانت معجزته الدّالة على نبوّته انقلاب العصا حيّة عظيمة، وإضاءة يده كالشمس المشرقة، وكلفه الله بتبليغ رسالته إلى فرعون وملئه: القوم الفاسقين، وتلك مهمة شاقّة وعسيرة.

قال الله تعالى واصفاً هذه المرحلة الجديدة في حياة موسى كليم الله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ(١) مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ(٢) لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(٣) ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ(٤) كَأَنَّهَا جَآنٌّ(٥) وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ(٦) يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ(٧) وَٱضْمُمْ(٨) إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ(٩) فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٩-٣٢].

لما أتم موسى عليه السلام أكمل المدّتين برعي غنم شعيب عليه السَّلام عشر سنين، أراد أن يسير بأهله إلى مصر وقومه، وقد أحسَّ لا محالة بالترشيح للنُّبوة، وكان رجلاً غيوراً لا يصحب الرفاق، فسار في ليلة مظلمة باردة، فأخطأ الطريق، واشتدَّ عليه وعلى زوجته البرد، فبينا هو كذلك إذ رأى ناراً، وكان ذلك نوراً، من نور الله تعالى قد التبس بشجرة، من العلّيق أو الزعرور أو السمرة، فقال لأهله: ابقوا في مكانكم أو أقيموا، إني رأيت ناراً، لعلي آتيكم منها بخبر عن الطريق، أين

(١) آنس: أحسَّ بالبصر، وأبصر بوضوح. (٢) عود فيه نار. (٣) تستدفئون. (٤) تتحرك بشدة. (٥) حيّة خفيفة في السرعة. (٦) لم يرجع على عقبه ولم يلتفت. (٧) أي داء برص ونحوه. (٨) ضم إلى صدرك. (٩) ضمّ يدك إلى صدرك يذهب عنك الخوف من الحية.

هو؟ أو بقطعة من النار في عود كبيرة لا لهب لها، أي إنها جمرة، لعلكم تستدفئون من البرد.

فلما أتى موسى ذلك الضوء الذي رآه، وهو في تلك الليلة ابنُ أربعين سنة، نبّئ بالنُّبوة، حيث نودي في مكان النور من بعيد، من جانب الوادي التي هي عن يمين موسى من ناحية الغرب، أو أن الوادي وصف باليُمن، في البقعة المباركة، وابتداء النداء من جهة الشجرة ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا تعريف بالمنادي المتكلم، وهو الله ربُّ جميع العوالم من الإنس والجنّ.

ونودي بأن ألقِ عصاك التي في يدك، فألقاها فصارت حيّة عظيمة تسعى، فتحقق أن الذي يكلمه هو الله تعالى، فلما رأى العصا تتحرك، كأنها جانٌّ من الحيّات (وهي صغير الحيّات) فجمعت هول الثعبان ونشاط الجانّ، ولّى موسى هارباً، ولم يرجع ولم يلتفت إلى ما وراءه، خوفاً منها، بحكم الطبيعة البشرية، فقال الله تعالى له: يا موسى ارجع إلى مكانك أو مقامك الأول، ولا تخف من هذه الحية، فأنت آمن من كل سوء. وهذا من تأمين الله تعالى إياه، ثم أمره بأن يدخل يده في جيبه، وهو فتحة الجبّة من حيث يخرج رأس الإنسان. ومعنى ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أدخل يدك في فتحة قميصك العليا من جهة الرأس، ثم أخرجها، تخرج بيضاء تتلألأ، ولها شعاع، كأنها قطعة قمر ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي من غير عيب ولا مرض ولا برص فيها.

وزيادةً في التأمين، وإزالةً لكثرة الخوف والفزع الذي ألَمَّ بموسى، وإعداداً له لتحمُّل عبء الرسالة بعزم وحزم وهمة عالية، أمره الله بوضع يده على صدره، لإذهاب الخوف كما هي العادة المتّبعة، فهاتان آيتان أو معجزتان: وهما إلقاء العصا وانقلابها حية تسعى، وإدخال يدك في جيبك، فتخرج بيضاء مشعّة من غير سوء ولا مرض، هما دائماً دليلان قاطعان واضحان من ربّك، دالان على قدرة الله وصحّة

نبوّتك، يؤيّدانك في رسالتك إلى فرعون وقومه من الأكابر والرؤساء والأتباع، إنهم كانوا قوماً خارجين عن حدود طاعة الله، مخالفين لأمره ودينه، فكانوا بأمسّ الحاجة إلى إرسالك إليهم، مؤيَّداً بهاتين المعجزتين.

وكانت هذه المكالمة التي أهّلت موسى عليه السلام لوصفه بأنه كليم الله هي بداية التكليف بالنُّبوة والرسالة الإلهية، في أشقِّ مهمة وأعسرها، وهي محاولة هداية فرعون المتألِّه الجبّار، وإرشاده إلى الإقرار بوجود الإله الحقّ الواحد الذي لا إله غيره ولا شريك له.

نبوّة هارون وتكذيب فرعون

حينما أصبح موسى عليه السلام رسولاً من عند ربِّه إلى فرعون وملئه، أحسَّ بمخاوف أخرى، ومحاذير قديمة، بمفاجأته بأنه قتَلَ في شبابه قبطيّاً من قوم فرعون، فطلب من ربِّه تأييده وإعانته بجعل أخيه هارون نبيّاً ورسولاً معه، يؤازره ويصدِّقه خشية تكذيبه، فأجاب الله تعالى طلبه، فسار الاثنان في مظلة الرعاية والحماية الإلهية إلى فرعون وملئه، وكانت النتيجة متوقعة، حيث بادر أولئك الفاسقون إلى وصف رسالة موسى وهارون بالسحر المفترى، وبالأسطورة المختلقة، وكان ردّ موسى واضحاً بأن الذي أرسله هو الله تعالى، وأنه يعتمد على تأييده ونصره، قال الله سبحانه واصفاً هذا اللقاء المثير:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ[1] بِأَخِيكَ

(١) سنقويك .

وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا[1] فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣٣-٣٧].

لما أمر الله تعالى موسى عليه السّلام بالعودة إلى مصر، لهداية فرعون، بعد أن فرَّ من سطوته وبطشه، قال موسى: يا ربِّ، إني قتلت من قوم فرعون نَفْساً، فأخاف إن رأوني أن يقتلوني ثأراً من قتيلهم، فكيف أذهب إلى فرعون وقومه؟!

إن أخي هارون هو أفصح لساناً مني، وأحسن بياناً، وأدرى مني بلهجة المصريين، لأنه لم يترك بلادهم، فأرسله معي معيناً ووزيراً يصدِّقني في قولي وخبري، ويتحمَّل معي عبء الرسالة، إني أخاف أن يكذِّبوني في نبوّتي ورسالتي، فأجاب الله تعالى طلبه، وجعل هارون رسولاً.

وقال الرَّب عزّ وجلّ لموسى: سنعزز جانبك، ونقوِّي شأنك، ونعينك بأخيك الذي سألت أن يكون نبياً معك، وسنجعل لكما السلطان، أي الحجة الغالبة، والتَّفوق على عدوِّكما، فلا يكون للأعداء سبيل للوصول إلى أذاكما، بما نسلِّطكما عليهم بآياتنا البيِّنات، تمتنعان منهم بها، أنت يا موسى وأخوك، ومن آمن بكما، واتَّبعكما في رسالتكما الغالبون بالحجة والبرهان. وقوله تعالى: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ يحتمل أن يتعلَّق قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ إما بفعل ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا﴾ أو بفعل ﴿يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ﴾ وتكون الباء باء السببية، أي بسبب آياتنا لن يتسلطوا عليكما، ويحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أي تغلبون بآياتنا.

فلما جاء موسى عليه السّلام بآيات الله البيِّنات الواضحات، قال فرعون وقومه:

---

(١) حجة.

ما هذا الادِّعاء بالرسالة من عند الله إلا سحر مفترى، وقول مكذوب، وما سمعنا بما تدعونا إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، في عهود آبائنا وأجدادنا الأقدمين، ولم نر أحداً من الأسلاف على هذا الدِّين، ولم نر إلا الإشراك مع الله آلهة أخرى.

فأجاب موسى عليه السّلام فرعون المتألّه وقومه بقوله: الله ربِّي الذي لا إله غيره، خلق كل شيء وأوجده، أعلم مني ومنك بالمحقّ من المبطل، وبمن جاء بالهداية والرَّشاد ومن أرسله بهذه الدعوة، ومن الذي تكون له العاقبة المحمودة في الدنيا بالنصر والظفر والتأييد، وفي الآخرة بالنّجاة والثواب، والرحمة والرضوان، كما جاء في آية أخرى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ، جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [الرَّعد: ١٣/٢٢-٢٣]. وآية: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرَّعد: ١٣/٤٢]. وسيفصل الله بيني وبينكم، إنه لا يفلح ولا ينجح المشركون بالله عزّ وجلّ، ولا يظفرون بالفوز والنجاة، بل يكونون هالكين خاسرين.

وهذا أسلوب أدبي رفيع، فإن موسى عليه السّلام لم يعلن أنه المحقّ وغيره هو المبطل، وإنما فوَّض الأمر لله، ليجعل للعقل في النِّقاش والجدل مجالاً في إصدار الحكم النِّهائي، وتغليب الصواب على الخطأ، فهذه دعوة للرّوية والأناة، والتعقل، وإعمال الحكمة، كما جاء في أسلوب آخر في خطاب نبيِّنا للمشركين، حيث قال ﷺ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٤].

عاقبة الجدل المثير بين موسى عليه السلام وفرعون

بادر موسى عليه السّلام بجولة أخرى من الجدل، والنِّقاش مع فرعون حول ربوبيّة الله تعالى وأُلوهيته، على الرغم من إظهاره آيات الله البيِّنات المؤيِّده لرسالته، وأصرَّ فرعون على إنكار وجود الله، وأعلن للحاشية والأشراف من قومه بأنه هو الإله،

وأنه لم يعلم بوجود إله آخر سواه، وتحدّى ببناء صرح أو برج للبحث عن إله موسى في السماوات، واستبدَّت به المادة الحسِّيّة والأهواء فتصوَّر أن الإله كالبشر، وعلا واستكبر، فجعله الله مع جنوده غرق في البحر، وجعلهم قادة إلى النار، وأتبعهم اللعنة والطَّرد من رحمة الله، وأيَّد الله موسى بالتَّوراة بصيرةً وهدايةً ورحمةً لمن يتذكر ويخشى، قال الله تعالى مبيِّناً هذه الفصول:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا[1] لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ[2] ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ[3] بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

[القصص: ٢٨/٣٨-٤٣].

ثبَّت الله موسى عليه السّلام في محاجّة فرعون، وآتاه الله التوراة هداية ورحمة، ودمَّر فرعون وقومه الذي نادى في قومه: يا أيها الملأ الأشراف والكبراء، لم أعلم بوجود إله غيري، فإله موسى غير موجود، فاصنع لي أيها الوزير هامان آجراً (طيناً مشوياً بالنار) وابنِ لي به قصراً عالياً في الفضاء، حتى أصعد به إلى السماء، فأشاهد إله موسى الذي يعبده، توهُّماً منه بأن الإله جسم مادِّي كالبشر، وإني لأعتقد بأن موسى كاذب في ادِّعائه وجود إله غيري.

واستكبر فرعون وجنوده في أرض مصر، بالباطل والإفك المجافي للحقيقة،

(١) قصراً شاخاً. (٢) المطرودين المبعدين من رحمة الله. (٣) الأمم الماضية المكذبة.

واعتقدوا بأنه لا قيامة ولا حساب ولا عقاب، ولم يدروا بأن الله رقيب عليهم ومجازيهم بما يستحقون. فأغرقهم في البحر في صبيحة يوم واحد، وأفناهم عن آخرهم، فانظر أيها الرسول وكل متأمِّل في قدرة الله وعظمته، كيف كان مصير هؤلاء الظالمين الذي ظلموا أنفسهم؟ لقد أغرقناهم في اليم، أي في بحر القُلْزم (البحر الأحمر).

وضاعف الله عذابهم حين جعل فرعون وأشراف قومه وأتباعه قادة ضلال، وقدوةً لكل كافر وعاتٍ، إلى يوم القيامة، لأنهم قاموا بإضلال غيرهم ودعوتهم إلى النار، فجوزوا بجزاءين: جزاء الضلال، والإضلال، وفي يوم القيامة لا يجدون مناصرين لهم، ولا شفعاء يشفعون لهم، لإنقاذهم من بأس الله وعذابه.

وألزمناهم على الدوام في الدنيا لعنةً وخزياً، وغضباً، على ألسنة المؤمنين والأنبياء المرسلين، كما أنهم يكونون يوم القيامة من المقبوحين، أي الذين يقبح كل أمرهم، قولاً لهم وفعلاً، ومن المطرودين المبعدين عن رحمة الله، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ١١/٩٩].

وتم إنجاء أهل الإيمان بعد إغراق فرعون وقومه، فآتى الله موسى كتاب التوراة بعد إهلاك أهل القرون القديمة من قوم نوح وهود وصالح ولوط، ليكون ذلك الكتاب مصدر هداية ونور وتبصُّر وتدبُّر وتفكُّر، ورحمةٍ لمن آمن به، وإرشادٍ للعمل الطَّيب، وإنارةٍ للقلوب، لتمييز الحق من الباطل، لعل الناس يتذكَّرون به ويتَّعظون، ويهتدون بسببه.

تضمَّن هذا الإخبار أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى، بعد إهلاك فرعون وقومه، وبعد إهلاك الأمم القديمة من عاد وثمود وقرى قوم لوط وغيرها، والقصد من هذا الإخبار التمثيل لقريش وتحذيرهم بما تقدَّم في غيرهم من الأُمم من ألوان العذاب.

إخبار النَّبي ﷺ عن الأقوام السابقين

تواترت الأدلة والبراهين على صدق النَّبي محمد ﷺ، بما أوحى الله إليه في القرآن الكريم المعجزةِ الخالدة أبد الدهر. ، ومن أنباء القرآن: ما قصَّه الله على نبيِّه من أخبار صادقة، عن قوم أو أمم لم يشهدهم، ولم يكن معهم، ولم يدوِّن التاريخ أخبارهم، فلم يبق طريق للمعرفة إلا الوحي القرآني فهو المصدر الصحيح لتلك الأخبار، وفي ذلك عظة وعبرة، وبرهان ساطع على صدق النَّبي ﷺ. ومن أهم تلك الأخبار بعض فصول قصة موسى عليه السلام، وأهمها إنزال التوراة عليه، في جبل الطور في صحراء سيناء، قال الله تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ(١) إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ(٢) وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا(٣) فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٤٤-٤٧].

المعنى: لم تحضر أيها النَّبي هذه الأخبار الغيبية التي نخبر بها، ولكنها صارت إليك بوحينا، وذلك حين أنزلنا التوراة على النَّبي موسى عليه السّلام، وما كنت أيها النَّبي من الحاضرين تلك المناجاة ومكالمة الله تعالى. فكان الواجب على قومك المسارعة إلى الإيمان برسالتك، ولكن تطاول الأمر والزمن على القرون (الأمم) التي أنشأناها، زمناً زمناً، وطال عليها العهد، فاندرست العلوم، وبادت المعارف، وتغيَّرت الشرائع، ونسي الناس شرائع الله وأحكامَه، واستحكمت فيهم الجهالة والضلالة.

---

(١) أي بجانب الجبل الغربي من موسى حين المناجاة مع الله . (٢) أي أنفذنا وصرفنا التوراة . (٣) مقيماً .

وهذا تنبيه على المعجزة، لأن الإخبار عن قصة تاريخية من مئات السنين، دون مشاهدة لأحداثها، دليل واضح على صدق المخبِر: وهو رسول الله ﷺ.

وكذلك لم تكن أيها النَّبي مقيماً بين قوم شعيب في أهل مدين، تقرأ عليهم آياتنا المنزلة، ولكنا، أي ذات الجلالة كنا مرسلين إياك رسولاً للناس، وأوحينا إليك بهذه الأخبار.

ولم تكن أيضاً أيها الرسول موجوداً بجانب جبل الطور، وقت إنزال التوراة إلى موسى، وحين مناداة موسى عليه السّلام وتكليمه ومناجاته، حتى تعرف تفاصيل الخبر، ثم تحدِّث به للناس، ولكن علَّمناك وأخبرناك بأخبار القرآن، وجعلناك رحمة للعالمين، لتنذر قوماً وهم العرب، لم ينذَروا من قبل، تنذرهم بأس الله وعذابه إن لم يؤمنوا بك، لعلهم يهتدون بما جئتَهم به من عند الله عزّ وجلّ، ويتذكرون هذه الإنذارات والتحذيرات.

وأما سبب رسالتك أيها النَّبي محمد: فهي إخبار قومك والعالم كله بمضمون رسالة الله وشرائعه وأحكامه، فإنهم إذا أصابتهم مصيبة العذاب على كفرهم، وما قدمته أيديهم من المعاصي، قالوا: يا ربَّنا، هلا أرسلت إلينا رسولاً يبيِّن لنا صحة العقيدة، ونظام الحياة، فنؤمن بك ربّاً واحداً، ونعمل بشريعتك، ونلتزم بدينك ونتَّبعُ أحكامك، فلولا خشية الاعتذار بالجهل بالأحكام والتعرُّض للمصائب، لما أرسلناك رسولاً. والمصيبة: عذاب في الدنيا على كفرهم. وجواب قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ..﴾ محذوف، تقديره: لما أرسلنا الرسل، أي فيكون إرسال الرسل حجة على الناس في تركهم أحكام الله عن بيِّنة وعلم. وهذا يلتقي مع المبدأ القانوني المعروف: «لا جريمة ولا عقوبة إلا بنصّ».

لذا بعثناك أيها النَّبي رسولاً للبشرية، نذيراً للإنسانية، تقيم عليهم الحجة البالغة،

وتبلِّغهم رسالة ربِّهم في العقيدة والأخلاق ودستورِ الحياة، وتبطل اعتذارهم بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير. وذلك كما جاء في آية أخرى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٦٥].

وهذا الإنزال للقرآن والكتب السماوية السابقة: إنما هو رحمة من الله بعباده، ومن رحمته أنه لا يعذِّب أحداً إلا بعد بيان، ولا يعاقب شخصاً إلا بعد تكليف وإرسال رسول، وبعد التحقُّق من وجود العقل الذي هو مناط التكليف.

إنكار القرآن من قِبَل المشركين

إن عناد الكفّار يحملهم على شتى أنواع الكفر والضلال والتكذيب، ونشاهد هذه الظاهرة جليّة في مشركي مكة، فإنهم بعد إرسال الرسول محمد ﷺ إليهم، ولغيرهم من العالم، وتأييده بمعجزة القرآن، طالبوا بإنزال كتاب عليه مثل التوراة دفعة واحدة، وكانوا قبل ذلك كافرين بالتوراة. وإذا طولبوا بكتاب منزل من عند الله خيرٍ من القرآن، عجزوا وتراجعوا، مما يدلُّ كل ذلك على اتِّباعهم الأهواء. وأما سبب تنجيم القرآن، أي نزوله تدريجاً مقسطاً على حسب المناسبات، فهو تلاؤمه مع الحكمة والحاجة وعلاج النوازل، ومراعاة المصلحة، وتجاوبُه مع مقتضيات كل عصر وأوان، وهذا كله حكاه القرآن الكريم، وسجَّله على هؤلاء الكفرة في قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا[1] وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ

(١) تعاونا وهما التوراة والقرآن.

عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ(١) لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [القصص: ٢٨/٤٨-٥١].

عجباً من شأن كفار قريش، موقفهم لا يتّسم بالمنطق والفكر السديد، فإنهم لما جاءهم الحق الثابت الذي لا مثيل له: وهو القرآن الكريم والنّبي محمد ﷺ، قالوا بتعليم اليهود لهم: لِمَ لايأتي بآية ماديّة باهرة، كالعصا واليد وشقِّ الجبل وغير ذلك مما جاء به موسى عليه السّلام، فردَّ الله تعالى عليهم بأن هذا مجرد عناد ومكابرة وهروب من الإيمان، فإنهم، أوَ لم يكفر أمثالهم من المعاندين بما أُوتي موسى من تلك الآيات العظيمة؟! فإن موقف أهل الكفر واحد، فهم وأمثالهم من اليهود لم يؤمنوا بآيات موسى عليه السّلام، وقال مشركو مكة: القرآن والتوراة سحران تعاونا وتعاضدا، ومحمد وموسى ساحران متآزران متعاونان، تعاونا على الدَّجَل والضَّلال، وصدَّق كل منهما الآخر، وإنّا بكلا الكتابَين والشخصَين كافرون، لا نصدق بما حدّثا أو جاءا به.

فأمر الله نبيَّه بأن يتحدى المشركين في مكة، ويطالبَهم بكتاب خير من القرآن، قل أيها النّبي الرسول: أنتم أيها المكذِّبون بهذه الكتب التي تضمَّنت الأمر بالعبادات وتوحيد الله ومكارم الأخلاق، ونهت عن الكفر والشِّرك والنقائص، ووعد الله تعالى عليها الثواب الجزيل، إن كان تكذيبكم لمعنى، فأتوا بكتاب من عند الله عزّ وجلّ أكثر هداية وأتم إرشاداً من القرآن، أتَّبعُه معكم، إن كنتم صادقين فيما تقولون أو تدَّعون، وتنكرون به الحق، وتؤازرون به الباطل، وهذا تنبيه على عجزهم عن محاكاة القرآن ومعارضته والإتيان بمثله.

---

(١) أنزل القرآن عليهم متواصلاً لهم، أي أتبعنا بعضه بعضاً في الإنزال .

فإن لم يجيبوك عما قلت لهم، ولم يتَّبعوا الحق، ولم يؤمنوا بالقرآن وبرسالتك أيها النَّبي، فاعلم أنهم في عقائدهم الباطلة، يتّبعون أهواءهم بلا حجة ولا برهان، فهم جماعة أهواء وشهوات. والله يعلم أنهم لا يستجيبون، ولكنه أراد سبحانه إيضاح فساد حالهم، وسوءِ مقالهم، وضعف موقفهم.

والواقع أنه لا أحد أضلّ منهم، إذ ليس هناك في البشر أشدّ ضلالاً عن الهدى والرشاد ممن سار مع أهوائه، واتَّبع شهواته، بغير حجة مأخوذة من كتاب الله، وهذا دليل على بطلان التقليد في العقائد، وأنه لا بد لكل إيمان من دلّيل عليه، إن الله لا يوفق للحق أهل الظلم الذين ظلموا أنفسهم بالشِّرك والمعصية وتكذيب الرسل.

وأما سبب إنزال القرآن منجّماً مقسّطاً بحسب الوقائع والمناسبات، فهو أن الله أتبع إنزال القرآن بعضه بعضاً في أزمان متتابعة، ليتّصل التذكير، ويتوافق مع الحكمة، وينسجم مع المصلحة، لعل قريشاً وأمثالهم يتّعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام، أو يتذكّرون محمداً فيؤمنون به، أو يتنبّهون لما فيه خيرهم وصلاحهم، فيؤمنون بالقرآن وبمن أنزله وعلى من أنزله . قال أبو رفاعة القرظي في بيان سبب نزول آية ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ..﴾: نزلت في اليهود في عشرة أنا أحدهم.

وقال جمهور العلماء: المعنى أعم، وهو أننا واصلنا لقريش واليهود نزول القرآن، وتابعناه موصولاً بعضه ببعض في المواعظ والزجر والدعاء إلى الإسلام والحكمة.

المباهاة بإيمان بعض أهل الكتاب

ليس معسكر الشِّرك أو الكفر كله شرّاً أو سوءاً، فقد يتمخّض عن هذا الوسط بعض العناصر الواعية العاقلة، يفكّرون في حقيقة الوحي القرآني، ومشمولات شرائعه وأحكامه، ودعوته إلى عقيدة الحق والتوحيد، والخير والواقع السديد،

فيؤمنون به، ودليل هذا توارد وحدات الإيمان من أفراد وجماعات في كل زمان ومكان، وهذا ما كان واقعاً فعلاً في إبّان نزول الوحي على النَّبي ﷺ، فقد ذكر الله تعالى القوم الذين آمنوا من أهل الكتاب مباهياً بهم قريشاً، وباعثاً لهم على تقليدهم. قال سعيد بن جبير: نزلت آية ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ..﴾ في سبعين من القسّيسين، بعثهم النَّجاشي، فلما قدموا على النَّبي ﷺ، قرأ عليهم: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون، وأسلموا. وهذه هي الآيات:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ[1] بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ[2] أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ[3] لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٢-٥٥].

المعنى: إن جماعة من علماء أهل الكتاب الأصفياء العقلاء، من اليهود والنصارى، الذين عاصروا النَّبي ﷺ، آمنوا بالقرآن، لتوافقه مع كتبهم، وبشارتها بمحمد نبي آخر الزمان، فإنهم أوتوا الكتاب من قبل القرآن، وهم به الآن يصدقون. وهؤلاء الجماعة: إما من اليهود الذين أسلموا، أو بحيرا الراهب، أو النَّجاشي وصحبِه، أو أهل نجران.

إذا يتلى القرآن على هؤلاء الجماعة يقولون: صدّقنا به، وآمنّا بأنه الكلام الحقّ من ربّنا، وكنا مصدِّقين بالله، مُسْلمين له، أي موحِّدين، مخلصين لله، خاضعين لحكمه، مستجيبين لأمره، من قبل نزول هذا القرآن على النَّبي محمد ﷺ. والمراد به الإسلام المتحصَّل لهم من شريعة موسى وعيسى عليهما السّلام. وهذا المعنى هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ فيما يرويه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب السّتة ما عدا أبا

---

(١) يدفعون. (٢) السَّب والشَّتم من الكفار. (٣) سلمتم منا لا نعاملكم بالمثل من الشتم وغيره.

داود) وغيرهم: «ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه وآمن بي، والعبد النّاصح في عبادة ربِّه وخدمة سيِّده، ورجل كانت له أمَة، فأدَّبها وعلَّمها، ثم أعتقها وتزوَّجها».

هؤلاء الذين أسلموا وآمنوا بالقرآن الكريم، من أهل الكتاب، وآمنوا بكتابهم المنزل، لهم الثواب المضاعف مرتين، جزاء صبرهم وثباتهم على الإيمان الراسخ الدائم الموصول النسب، وتحمُّلهم أذى قومهم، وكونهم يقابلون السيئة بالحسنة، فلا يقابلون السيئ بمثله، ولكن يعفون ويصفحون، وينفقون من رزق الله الحلال في النَّفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم من الزكاة والصدقة. ففي هذا مدح لهم من جانبين: الأول: اتِّصافهم بمكارم الأخلاق، حين صبروا على الأذى، وقابلوا من قال لهم سوءاً بالقول الحسن الذي يدفعه، والجانب الثاني: النفقة في الطاعات، وعلى موجب الشرع، وفي ذلك حضٌّ على الصدقات ونحوها.

ومن أخلاقهم العالية: أنهم إذا سمعوا من المشركين أو غيرهم لغو الكلام، وهو الساقط من القول، من أذى وتعيير وسبّ وشتم وتكذيب، أعرضوا عن أهله، ولم يخالطوهم ولم يعاشروهم، بل كانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٢]. وقالوا: في الرّد على السفهاء، على جهة التَّبري: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي نحن المسؤولون عن أعمالنا ثواباً وعقاباً، ولكم أعمالكم، أي تبعاتها ومسؤولياتها، لا نردّ عليكم، سلام عليكم سلام متاركة وتوديع، لا سلام أهل الإسلام، فليس هو التحية المعروفة، لا نبتغي الجاهلين معناه: لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمسابّة، ونؤثر الكلام الطيب.

هذه المهادنة هي لبني إسرائيل، بقصد فتح جسور المودة والتفاهم والقناعة، بصدق الرسالات الإلهية، أوّلها وآخرها، فإذا ما تجرَّدوا عن العصبية والهوى،

وعادوا لنداء العقل الصائب، توصَّلوا إلى وئام أهل الأديان، ووصل الاعتقادات، لأن المصدر واحد، والغاية واحدة، فالله تعالى هو مرسل الرُّسل، ومنزل الكتب كلها، والغرض منها تحقيق السعادة والطمأنينة والنجاة للعالم كله، مما يقتضي اتِّحاد أهل الأديان في العقائد والشرائع.

الهداية من الله تعالى وتفنيد الشُّبهات الشِّركية

الهداية نوعان: هداية دلالة وإرشاد وبيان، وهداية توفيق، أما هداية البيان فهي إلى النَّبي، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورى: ٤٢/ ٥٢]، وأما هداية التوفيق: فهي إلى الله تعالى، لا لرسوله، وذلك كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ في هذه الآيات الآتية. وأما شبهات المشركين من أهل مكة في ترك الإيمان بالقرآن والنَّبي: فمصدرها المخاوف من المجاورين كما زعموا، ولكن هذا غير صحيح، لذا توعَّدهم الله بالقرى المهلكة، فلم يكن إهلاك الأقوام الغابرين إلا بعد إرسال رسول لهم، وليست الدنيا دار مقام واستقرار، وإنما الآخرة هي دار القرار والخير، فلِمَ لا يبادر العقلاء إلى الدائم، ويَغْبرون بالمؤقت في سلام؟! قال الله تعالى مفنِّداً شبهات مشركي قريش:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ[(١)] مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ[(٢)] ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا[(٣)] فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا

---

(١) ننتزع سريعاً. (٢) يجلب إليه. (٣) طغت وتمرَّدت في حياتها.

كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا(١) رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ(٢) ﴿٦١﴾﴾ [القصص: ٢٨/٥٦-٦١].

والمعنى: إنك أيها النَّبي لا تستطيع هداية من شئت، ولكن هداية التوفيق بيد الله تعالى، والله أعلم بمن هو أهل الاهتداء، فما عليك أيها النَّبي إلا البلاغ والدعوة إلى الله، وبيانُ الشريعة.

وقد أجمع أكثر المفسّرين على أن هذه الآية إنما نزلت في شأن أبي طالب عم النَّبي ﷺ، فإنه دخل عليه النَّبي، وطالبه بالإيمان، فأجابه: «يا محمد، لولا أني أخاف أن يعيَّر بها ولدي من بعدي، لأقررت بها عينك، ثم قال أبو طالب: أنا على ملّة عبد المطّلب والأشياخ(٣)، فتفجّع رسول الله ﷺ وخرج عنه، فمات أبو طالب على كفره، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى أبي طالب.

وقال مشركو قريش في تسويغ عدم إيمانهم برسالة النَّبي ﷺ واعتذارهم عنه: إن اتَّبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا ما عليه بقية العرب، خفنا أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، فردَّ الله تعالى عليهم بأمور ثلاثة:

الأول- تأمين الحرم وأهلِه: إن هذا الاعتذار كذب وباطل، لأن الله تعالى جعل قريشاً في بلد آمن، وحرم آمن، ويستمر فيه الأمن حال كفرهم وإيمانهم. أخرج ابن جرير عن ابن عباس: أن أناساً من قريش قالوا للنَّبي ﷺ: إن نتَّبعك تخطَّفنا الناس،

---

(١) عاصمتها. (٢) ممن أُحضروا للنار. (٣) لكن على رأي القائلين بأن أهل الفترة ناجون يكون هؤلاء أصول النبي ﷺ ناجين كغيرهم

فنزلت هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ .والمعنى: إنهم لا يقدِّرون هذه الأرزاق الآتية لهم من كل شيء ومكان، تفضُّلاً من الله ونعمة، ولكن أكثرهم جهلة لا يعلمون الحق والخير.

والثاني- ليعلم هؤلاء المعتذرون من أهل مكة عن الإيمان خوفاً من زوال النِّعم: أن عدم الإيمان هو الذي يزيل النِّعم، فكثيراً ما أهلك الله أهل القرى السابقة، التي كفرت وطغت وجحدت بأنعم الله، وبطروا وتكبَّروا، فأصبحت مساكنهم خاويةً على عروشها، لا يسكنها أحد بعدهم إلا لمدة قليلة، أثناء السفر والعبور، وأصبح الوارث لها هو الله تعالى، لأنها صارت خراباً، لا يخلفهم فيها أحد. وهذا توعُّد من الله تعالى لقريش بضرب المثل بالقرى المهلكة، والمراد: فلا تغتروا أيها المكِّيون بالحرم الآمن، والثمرات التي تجبى لصلاح حالكم وقوام أمركم، فإن الله تعالى مهلك الكفرة بسبب ظلمهم. وهذا دليل على عدل الله في خلقه، فلا عقاب إلا بعد بيان، ولا هلاك إلا بعد ظلم وجحود.

فلم يكن إهلاك أهل القرى من ربِّهم إلا بعد إنذار، حيث يرسل لهم رسولاً في عواصمهم، يبين لهم الآيات الدالّة على وجود الله وتوحيده، حتى لا يبقى لهم حجة بالجهل، ولا عذر بطمس معالم الحق، ثم لا يكون الإهلاك لقوم إلا وهم ظالمون أنفسهم بإنكار الآيات الإلهية وتكذيب الرُّسل.

والرَّد الثالث- هو أن الإيمان بالله لا يضيِّع منافع الحياة الدنيوية، لأن التمتع بها مهيأ لجميع المخلوقات، علماً بأن جميع ما في الدنيا من مال وولد وزينة ومتاع، إنما هو متاع مؤقت وزينة زائلة، لا يجدي عند الله شيئاً منها، وهو لا بد زائل، وزهيد قليل إذا قيس بنعم الآخرة، فإن نعيم الآخرة باقٍ دائم، وهو خير محض في ذاته، وأفضل من متاع الدنيا، أفلا تتفكرون أيها الناس في أن منفعة الباقي الدائم أولى بالإيثار من منفعة المؤقت الزائل؟!

ولا يستوي المؤمن والكافر في الجزاء، وكيف يستوي المؤمن بكتاب الله، المصدِّق بوعده، المتأمِّل فضل الله وملاقيه، والكافر الكذوب، المتمتِّع بحطام الدنيا أياماً قليلة، ثم يُحضره الله يوم القيامة، ليتلقى العذاب المهين؟!

وهذه الآية: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ..﴾ نزلت كما أخرج ابن جرير عن مجاهد في النَّبي ﷺ وفي أبي جهل بن هشام. وقيل: في حمزة وأبي جهل.

أسئلة تقريع للمشركين يوم القيامة

ناقش القرآن الكريم المشركين في عقائدهم الفاسدة، مبيِّناً لهم ما يتعرَّضون له من أسئلة، وهذا غاية الصراحة والإخلاص والبيان السابق، إنهم عبدوا الأصنام والأوثان، فهل تستطيع مناصرتهم؟ ودعوا تلك الآلهة المزعومة لتخليصهم من العذاب، فلم يجيبوا، وسئلوا عن توحيد الله عزّ وجلّ وإجابتهم رسلهم، فلم يجدوا جواباً مقنعاً، فأفلسوا ووقعوا في اليأس والإحباط. إن هذه المناقشة تستدعي التأمل والوعي والتفكُّر، إن كان الوثنيون من ذوي العقل والرُّشد، وأرادوا النَّجاة والخير لأنفسهم، ولكنهم بعدوا عن مقتضى العقل، فخابوا وخسروا. قال الله تعالى واصفاً هذه الحال:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ(١) أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ(٢) يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٢-٦٧].

(١) دعوناهم إلى الغي، فاتَّبعونا. (٢) المراد: فعموا عن الأنباء، فقلب الأسلوب، أي خفيت عليهم.

هذه مواقف ثلاثة مثيرة للخجل والندم، موقعة في العجز والإحباط، مفادها التوبيخ والتأنيب للمشركين في يوم الحساب، والإشارة لقريش:

الأول- اذكر أيها النَّبي يوم ينادي الله المشركين عبّاد الأصنام، إما بواسطة أو بغير واسطة، فيقول لهم: أين الآلهة التي زعمتم أنها شركاء في الأُلوهية؟ بمقتضى قولكم وزعمكم. والمقصود من السؤال: التوبيخ والتقريع، إذ لا جواب عندهم، وكأن ذلك موجّه أصالة للأعيان والرؤوس منهم، الذين أوقعوا غيرهم في الغواية والضّلال، تأكيداً لاستحقاقهم العذاب المضاعف، لكنهم طمعوا في التَّبري من الأتباع، فأجابوا وقد ثبت عليهم مقتضى القول، ولزمهم العذاب: ربّنا هؤلاء هم الأتباع الذين آثروا الكفر على الإيمان باختيارهم وإرادتهم، وهؤلاء أضللناهم كما ضللنا نحن باجتهاد لنا ولهم، وأحبّوا الكفر كما أحببناه، فنحن نتبرأ إليك منهم، وهم لم يعبدونا، إنما عبدوا غيرنا. وهذا يعمّ جميع الكفرة، لكن الجواب من المغوين من الشياطين: الجنّ، ومن الإنس: الرؤساء والسّادة.

الثاني- نداء آخر للكفار لمعرفة ما أجابوا المرسلين الذين دعوهم إلى توحيد الله تعالى، فيقال لهم: ادعوا شركاءكم الآلهة لتخليصكم مما أنتم فيه، كما كنتم ترجون في الدنيا، فدعوهم لفرط الدهشة والحيرة، فلم يجيبوهم عجزاً عن الجواب، وتيقنوا أنهم صائرون إلى عذاب النار، وودّوا حين معاينة العذاب المحيط بهم، لوأنهم كانوا مهتدين إلى الإيمان بالحق والدين القويم. وهذا توبيخ وتقريع آخر، لكشفهم أمام الناس، والله يعلم كل ذلك سلفاً.

الثالث- واذكر أيها النَّبي يوم ينادي الله سبحانه وتعالى أهل الشرك، لمعرفة جوابهم للمرسَلين إليهم، وهل استجابوا لدعوتهم لتوحيد الله تعالى، وإلى أصول الأخلاق، وعبادة الله تعالى، وإصلاح الحياة. ولكن أظلمت الأمور عليهم،

وخفيت الأدلة الدفاعية المقنعة، ولم يجدوا معتصماً غير السكوت، لما اعتراهم من الاندهاش والذهول. وجاء الفعل: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنبَآءُ﴾ بصيغة الماضي، لتحقّق وقوعه، وأنه تعيّن، والماضي من الأفعال متيقّن، فيعبر به عن المستقبل المتيقّن، لتأكيد وقوعه وتقوية صحته. والمعنى: أظلمت جهات الأمور عليهم. ولم يبقَ لديهم أمل في مساءلة بعضهم بعضاً لحلِّ المشكلات، لأنهم قد أيقنوا أنهم جميعاً، لا حيلة لهم ولا مكانة، ولا أمل في النجاة.

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء المشركين الآيسين من رحمة الله أولئك الذين تابوا من كفرهم، وآمنوا بالله ورسله، وعملوا بتقوى الله، فهؤلاء يُرجى لهم من الله الفوز والنَّجاة، والظفر بالنعيم الدائم. إن الذين تابوا من الشِّرك، وصدَّقوا بالله، وأقرّوا بوحدانيته، وأخلصوا العمل لله، وأدّوا الفرائض وغيرها، وآمنوا بالنَّبي محمد ﷺ، هم الفائزون برضوان الله ونعيمه الجنان.

والتعبير بكلمة (عسى) المفيدة للرجاء، دون القطع واليقين بحسب اللغة، يراد بها هنا التأكُّد والتَّيقُّن، لأن (عسى) من الله واجبة التَّحقُّق، كما قال كثير من العلماء. وهذا مستفاد من حسن الظَّن بالله تعالى، المبني على فضله وكرمه، خلافاً لما عليه حال البشر، فإن قولهم مثلاً: «عسى» و «لعل» مجرد ترجٍ وتوقُّع لا يدلُّ على التأكُّد والتحقُّق.

صفات الجلال والجمال والكمال

الجلال التّام، والجمال المطلق، والكمال النّهائي، والإرادة الشاملة، والسُّلطان النّافذ: إنما هو كله لله-وحده، لا لأحد سواه، فهو خالق الأكوان والعباد، وبيده الأمر في البدء والختام، وله الحكم والقضاء النافذ في الدنيا والآخرة، فأين موقف

المعاندين؟ لا يساوي شيئاً، إن الله تعالى خالق الليل والنهار، لحكمة واضحة فيهما، فإن أراد التغيير والتبديل، من يستطيع الحيلولة من ذلك؟ إن الآلهة المزعومة المتخذة شركاء لله في الألوهية لا يصمدون أمام النّقاش في حقيقة الأُلوهية، ولا يجدون برهاناً يقنع، ولا متكأ يعتمدون عليه، تصور هذه الآيات الكريمة هذه المعاني تصويراً دقيقاً، لا لَبْس ولا غموض فيه، قال الله تعالى:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ(١) سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ(٢) صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ(٣) إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا(٤) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ(٥) عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ(٦) ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: ٢٨/٦٨-٧٥].

المعنى: إن الله تعالى هو المتفرِّد بخلق ما يشاء، واختيار ما يريد، ما كان لأحد غير الله القدرة على الاختيار، يختار قوماً لأداء الرسالة، ويصطفي من الملائكة والناس رسلاً لأداء المهمة، تنزه الله وتقدَّس عن إشراك المشركين، وعن منافسة الأصنام وغيرها في خلقه واختياره. سبب نزول هذه الآية الرَّد على تطلُّعات قريش وترقُّبهم إنزال القرآن على غير محمد ﷺ، وهو أحد رجلين: إما الوليد بن المغيرة من مكّة، أو عروة بن مسعود الثَّقفي من الطّائف. فردَّ الله تعالى عليهم أنه سبحانه يختار

(١) الاختيار. (٢) ما تخفي. (٣) أخبروني. (٤) دائماً. (٥) تاه. (٦) يختلقونه من الباطل.

لرسالته من يريد، ويجعل فيه المصلحة، وليس الاختيار للناس في هذا ونحوه، كما أنه تعالى هو الذي يختار الأديان والشرائع، وليس لأحد الميل إلى الأصنام ونحوها في العبادة.

واختيار الله تعالى مبني على علم صحيح ثابت، فهو يعلم ما تنطوي عليه الصدور، وما يعلنه الناس من الأقوال والأفعال.

وعلمه تعالى صادر عن قدرة شاملة وسلطان نافذ، فهو المتفرِّد بالأُلوهية، فلا معبود سواه، وهو القادر على كل الممكنات، المنزه عن النقائص والعيوب، المستحقّ للحمد والشكر والعبادة، المحمود في جميع ما يفعله في الدنيا والآخرة، له القضاء النافذ في كل شيء، وإليه مرجع جميع الخلائق في القيامة.

وأدلة قدرة الله تعالى على كل شيء كثيرة ومتنوعة، فقل أيها الرسول لكل من أشرك بالله إلهاً آخر: أخبروني إن جعل الله وقتكم كله ظلاماً دامساً، وليلاً دائماً متتابعاً إلى يوم القيامة، من الإله المتألّه غير الله يتمكن من الإتيان بضياء النهار، أفلا تسمعون ذلك سماع تعقُّل وتأمُّل؟!

وقل أيها النَّبي أيضاً: أخبروني إن جعل الله زمنكم كله نهاراً دائماً، ونوراً متّصلاً إلى يوم القيامة، دون أن يعقبه ليل، من الإله الذي يستطيع أن يأتيكم بليل، تسكنون فيه سكن الراحة والاطمئنان، أفلا تبصرون هذه الظاهرة الدالة على القدرة الإلهية التامّة؟!

إن من رحمة الله تعالى بكم أيها الناس تعاقب الليل والنهار، وتفاوتهما، لتجعلوا الليل مجالاً للراحة والسكن النفسي، والنهار مجالاً للتبصُّر وتحصيل المنافع، وكسب المعايش، وابتغاء الرزق والفضل الإلهي، والتنقُّل من مكان لآخر، وقضاء الحاجات، فتشكروا الله تعالى بأنواع العبادات على ما يسَّر لكم.

واذكر أيها النَّبي للمشركين مرة أخرى يوم يناديهم الله بواسطة، لأن الله تعالى لا يكلم الكفار كما رجح القرطبي، فيقول: أين الشركاء الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي في الألوهية، ليخلِّصوكم مما أنتم فيه؟ وقد كرَّر الله تعالى هذا المعنى إبلاغاً وتحذيراً، وتوجيه هذا النداء يقصد به توبيخ الكفار وتقريعهم. وأكَّد الله ذلك بالإشهاد عليهم، ليُعلم أن التقصير منهم، والإشهاد: أن يخرج الله من كل أمّة شهوداً عليهم: وهم الرُّسل الكرام، فكل رسول يشهد على قومه بأعمالهم في الدنيا، ويشهد نبيّنا ﷺ على الأنبياء جميعاً. ويقال للمقصِّرين: أحضروا برهانكم على صحة ادِّعائكم أن لله شريكاً، فلم يتمكنوا ولم يجيبوا، فعلموا أن الحقَّ في الألوهية لله وحده، وتاه عنهم وتبدَّد كل ما يفترونه ويكذِّبونه من نسبة الشريك لله تعالى.

قصة قارون

- ١ -

فتنة المال وتأثيره على الإنسان

أورد الله تعالى تفصيلاً واضحاً لقصة قارون الذي كان من قوم موسى، فاغتر بماله وثرواته، وزعم أنه أُوتي ذلك بذكائه ومهارته، وأنه لا حقَّ لأحد له فيه، فجاءه التوجيه الإلهي إلى ضرورة استعمال المال والانتفاع به فيما يحقِّق له النفع في الآخرة، وإصلاحَ شؤون الدنيا، والإحسان في تثميره وتنميته وإنفاقه، وتجنُّب كل مهاوي الفساد والإفساد به في الأرض، ولكنه لم يستجب لهذا التوجيه، وبطر في عيشه وتبختر، فحقَّ عليه الهلاك والدَّمار، قال الله تعالى واصفاً قصة قارون:

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ(١) وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ(٢) أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ(٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ(٤) مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٢٨/٧٦-٧٨].

كان قارون الثّري المترف ابنَ عم موسى عليه السّلام، وهو رجل من بني إسرائيل، كان ممن آمن بموسى، وحفظ التّوراة، وكان من أقرأ الناس لها، وكان عند موسى عليه السّلام من عبّاد المؤمنين، ثم لحقه الزهوّ والإعجاب، فبغى على قومه بأنواع البغي، من ذلك كفره بموسى واستخفافه به، ومطالبتُه له بأن يجعل له شيئاً من المكانة والنفوذ والمشاركة في شؤون السلطة على الناس، وتجاوزَ الحدَّ في بغيه، حتى إنه حاول التشهير بموسى، بامرأة مومس فاجرة ذات جمال، تدَّعي أمام الملأ من بني إسرائيل أن موسى يتعرض لها في نفسها، ويكافئها على ذلك، وتستنجد به، فلما وقفت بين الملأ، أحدث الله لها توبة، وفضحت قارون في محاولاته تلك. وقد آتى الله قارون أموالاً نقدية وعينية كثيرة، يثقل بحمل مفاتيح خزائنها الجماعة أولو البأس والقوة، فنصحه الناس بخمس مواعظ:

- قال له قومه الإسرائيليون: لا تبطر ولا تتبختر بمالك، فإن الله يكره البطرين الأشرين. إنهم نهوه عن الفرح المطغي الذي هو انهماك وانحلال نفس، وأشرٌ وإعجاب، مؤدٍّ به إلى المهالك.

- ثم وصّوه بأن يطلب بماله رضا الله وآخرته، وإنفاق بعض المال في وجوه الخير

(١) ظلمهم . (٢) لتثقل الجماعة الكثيرة . (٣) لا تَبْطر بكثرة المال . (٤) من الأمم .

وطاعة الله، ونفعِ الأمة أو المجتمع، والتَّقرُّب إلى الله بأنواع القربات المحققة للثواب في الدار الآخرة، لأن الدنيا لا تغني شيئاً.

- ولم يقطعوه عن الدنيا، فقالوا له: لا تترك حظَّك من لذّات الدنيا المباحة، من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن وغيرها، لكن لا تضيِّع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك، إذ الآخرة إنما يعمل لها في الدنيا، فنصيب الإنسان: عمره وعمله الصالح، فينبغي ألا تهمله، وطلب الحلال مشروع، مع النظر إلى عاقبة الدنيا.

- وأحسن إلى الخلق كما أحسن الله إليك باللِّين والمعاملة الحسنة وتحسين السمعة وحسن اللقاء، وفي ذلك جمع بين خصلتي الإحسان: الإحسان الأدبي الرفيع، والإحسان المادِّي المقبول، وهذا أمر بصلة المساكين وذوي الحاجة وإتقان الأعمال.

- ولا تقصد الإفساد في الأرض بالظلم والبغي والإساءة إلى الناس، فإن الله تعالى يعاقب المفسدين، ويحول بينهم وبين رحمته وعونه.

لكن قارون أبى سماع هذه المواعظ المتضمِّنة اتِّقاء الله في مال الله، وأخذته العزة بالإثم، فأُعجب بنفسه، وقال لناصحيه: أنا لا أحتاج لما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال، لعلمه بأني أستحقّه، ولمعرفتي وخبرتي ومهارتي بكيفية جمعه، فأنا له أهل، فأجابه الله تعالى بأنه: أوَ لم يدر في جملة ما عنده من الدراية والعلم أن الله تعالى قد دمَّر من قبله من هو أكثر منه مالاً، وأشد قوة، وأعظم مكانة، وأشهر سلطاناً ونفوذاً، ولا يسأل المجرمون عن كثرة خطاياهم وسيئاتهم حينما يعاقبهم، لأنه تعالى عليم بكل المعلومات، مطَّلع على جميع الأقوال والأفعال، فلا حاجة به إلى السؤال سؤال الاستفسار، كقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٣]. وسؤال الاستعتاب، كما قال عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٣٥-٣٦]. لكن لا مانع من سؤال الكافرين والمفرطين سؤال توبيخ

وتقريع، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٢-٩٣]. وقوله سبحانه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٢٤].

- ٢ -

جزاء بغي قارون

استبدَّ البغي والغرور بقارون الثَّري المترف، وسيطر الكبرياء والعُجْب والتَّجبر على نفسه، فأراد إظهار ما لديه من الثراء والقدرة على الملابس والمراكب وزينة الدنيا ومفاتنها، فافتتن أهل الدنيا باستعراضه الفاخر وتمنَّوا أن يكونوا مثله، ولكنَّ أهل العلم والمعرفة المتيقِّظين لحقائق الدنيا ومظاهرها حذَّروا من هذه الفتنة، ووجَّهوا إلى العمل الأُخروي الباقي. وكانت العاقبة كما قدَّروا، فخسف الله بقارون الأرض، ودمَّر دُوره وممتلكاته، واستيقظ الناس على هذا المصير المشؤوم، وأرشدتهم صحوة العقل والدين إلى أن زوال الدنيا سريع، وأن خطر العقاب لكل عاتٍ متمرد قريب، قال الله تعالى مبيِّناً هذه الخاتمة لقارون:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ(١) قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ(٢) ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا(٣) إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ(٤) اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ(٥) لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(٦) ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٩-٨٢].

---

(١) في مظاهر غناه. (٢) الويل: الهلاك أو العذاب. (٣) لا يتلقى المثوبة. (٤) أي بل إن، وكلمة: وي للتعجب، وكأن للتشبيه، والمراد: ألم تر أن الله. (٥) يضيق على من يشاء. (٦) ألم تر أنه لا يفلح.

لقد باهى قارون الناس، فخرج على قومه في موكب بهي، في زينة عظيمة وأُبهة واضحة، وتجمُّل باهر، في الملابس والمراكب، هو وحاشيته، بقصد التَّعالي على قومه، وإظهار التَّرفُّع والمهابة، فاغتر الجهلة أهل الدنيا وزينتِها به وبمظاهره، وتمنّوا ما لديه وقالوا: يا ليت لنا من الثروات والأُبهة ما لقارون، لنتمتَّع بها مثله، فإنه ذو نصيب وافر من الدنيا.

وقال الفريق الآخر، وهم أولو العلم والمعرفة بالله تعالى و بحق طاعته والإيمان به زاجرين الجهلة الذين تمنّوا حال قارون: ويلكم (وهذه كلمة زجر) ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، يَلْقاه في الدار الآخرة، وهو أفضل مما تتمنّون، ويكون حال المؤمن العامل الذي ينتظر ثواب الله خيراً من حال صاحب الدنيا فقط، ولكن لا يتلقّى هذا الثواب العظيم أو الجنة إلا الصابرون على طاعة الله، الرّاضون بقضائه وقدرِه، في كل ما قسم من المنافع والمضارّ، المترفِّعون عن محبة الدنيا المؤثرون لها.

وكان المتوقَّع ما قاله هؤلاء العارفون بالله، وكان العقاب السريع لقارون المتفاخر الباغي: هو الخسف به وبداره الأرض، حيث ابتلعته الأرض، وغاب فيها، جزاءً لبطره وعتوه، فلم يغنِ عنه ماله ولا حاشيته، ولم يجد من يدفع عنه نقمة الله، ولم يكن منتصراً لنفسه، ولا منصوراً من غيره. والفئة: جماعة المناصرة والنجدة.

وبعد هذه الكارثة التي أطاحت بقارون وتبيُّن حقيقة الأمر، صار الذين يتمنّون أن يكونوا مثله يقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي بل إن الله، يوسع الرزق أو العطاء المادّي لمن يريد خلقه، ويضيِّقه على من يريد من عباده، بحسب حكمته ومشيئته، وليس المال المعطى دليلاً على رضا الله ومحبته لصاحبه، ولا منع المال برهاناً على سخط الله وكراهيته لعبده، فإن الله يعطي ويمنع، ويضيِّق ويوسِّع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، جاء في الحديث المرفوع عن ابن

مسعود فيما رواه أحمد والحاكم وغيرهما: «إن الله قسَم بينكم أخلاقكم، كما قسَم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحبّ ومن لا يحبّ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحبّ».

والمعنى: إن الذين فُتِنوا بقارون انتبهوا، فتكلموا على قدر علمهم، فقالوا: على جهة التعجب والتَّندُّم: إن الله يبسط الرزق ويضيِّقه بحسب مراده.

ولولا لطف الله بنا، وإحسانه إلينا، لخسف بنا الأرض، كما خسف بقارون، لأنا تمنَّينا أن نكون مثله، بل إن الله لا يحقق الفوز والنجاح للكافرين به، المكذبين رسله، المنكرين ثواب الله وعقابه في الآخرة، مثل قارون ونحوه من عتاة الناس، وطغاة المال، ومَرَدة العصاة من الإنس والجنّ.

العاقبة للمتَّقين

العبرة في الأفعال والأعمال والتَّصرفات كلها إنما هي في الغاية والهدف، لأن تصرُّفات العقلاء تهدف إلى تحقيق غاية، وإنجازِ مطلوب، وهكذا الشأن بين الدنيا والآخرة، الدنيا مزرعة الآخرة، والآخرة هدف العاملين العاقلين، فمن أحسن العمل في الدنيا، لقي العاقبة الحسنة في الآخرة، ومن أساء العمل في الدنيا، وجد أمامه النتيجة الوخيمة والخسارة المحقَّقة، فلكلٍّ جزاء عمله حقّاً وعدلاً، وثواباً مكافئاً، وعقاباً مناسباً، وتكون موازين الحساب واضحة، والنهاية مؤكدة ومعروفة، لذا كان القرآن الكريم خير واعظ، وأخلص ناصح، يبين الأشياء قبل وقوعها، ويحدِّد الأسباب والغايات المرجوة قبل حصولها، قال الله تعالى مبيِّناً ذلك:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٣-٨٤].

هذا إخبار من الله تعالى لنبيِّه محمد ﷺ بقانونه العام، يراد به حضّ الناس على إحسان العمل وإتقانه، والتحذير من سوء العمل وإفساده، ولوم قارون ونظرائه الذين آثروا الدنيا على الآخرة، فإن الآخرة ليست في حسابات قارون، إنما هي لمن اتَّصف بصفات معينة.

والمعنى: إن تلك الدار الخالدة العظيمة، ونعيمها الأبدي المذلَّل، دون عناء ولا مشقة، يجعلها الله سبحانه وتعالى للذين لا يستعلون على الناس، ولا يتجبَّرون عليهم، ولا يريدون أي لون من ألوان الفساد، والفساد يعمّ جميع وجوه الشَّر، ومنها أخذ المال بغير حقّ، والعاقبة الحسنة: هي لأهل التقوى الملتزمين بأوامر الله، المبتعدين عن نواهيه ومحظوراته.

يدلُّ ذلك على أن التواضع لله والناس أمر محمود، وأن العلو مذموم، وأن فعل الصلاح خير، وأن الفساد والإفساد شرّ ودمار.

وقانون الجزاء الإلهي على الأعمال واضح وقاطع، إما في الدنيا وإما في الآخرة، فمن جاء بالفعلة الحسنة، فله خير منها ذاتاً وقدراً وصفة، ومن عمل صالحاً فله خير من القَدْر الذي ينتظره موازياً لفعله، لأن فضل الله كبير، يضاعف الحسنات، وينمّي الخيرات، ويعطي الثواب الجزيل غير المتوقع بحسب أحوال الدنيا.

ومن جاء بالخصلة السيئة أو الفعلة الشنيعة، المنكرة عقلاً وشرعاً وعادة، فلا يُجزى أصحاب الأعمال السيئة إلا مثلها قَدْراً، دون زيادة أو ظلم، فضلاً من الله ورحمة، ومحبةً وعدلاً، وإبانة لجود الله وسخائه، وسعة خزائنه. وهذا دليل على أن فعل السوء وباءٌ وظلام، وتدمير وضلال، وأن السيئة لا يُضاعف جزاؤها، فضلاً من الإله الغني، ورحمة من الرَّحيم الرَّحمن.

هذا القانون الإلهي بمضاعفة الحسنات، ومقابلة السيئات بمثلها دون زيادة،

يختلف عن قانون البشر ويسمو عنه، فإن الإنسان يعطي إنساناً آخر جزاءً مكافئاً لعمله، وقد ينقصه في الغالب بسببه ظلم الإنسان لأخيه، أما عطاء الله تعالى فلا يحدُّه حدود، ولا يُبخس منه شيء، سواء كان العمل قليلاً أو كثيراً بحسب تقدير الإنسان، لأن ربَّك هو الغني ذو الرَّحمة، وهو واسع المغفرة، غافرُ الذنب، وقابل التَّوب، لا يجاريه أحد في عطائه، ولا يسبقه أحد في جوده وسخائه.

أفليس من واجب الإنسان إذن أن يرغب في العطاء الكثير الدائم، فيعمل عملاً صالحاً يؤهِّله لنيله؟ أوَ ليس من وعي الإنسان وإجراء حسابه أن يَنْفُر ويحذر من سوء العمل الذي يعرِّضه للخسران والضياع؟!

نِعَم وتكاليف نبويّة

النُّبوة أو الرسالة مسؤولية عظمى، وتكليف ثقيل، يقترن عادة بتخصيص النَّبي أو الرّسول بخصائص متميزة، وإمداد بنعم إلهية سامية، لأن ما يتعرَّض له النَّبي الرّسول من صدود قومه عن دعوته، وإعراضهم عن قبول رسالته يحتاج لصبر ومصابرة، وجهاد ومقاومة، لا يتحملها الإنسان العادي. وقد تشابهت ظروف الرسل في أثناء تبليغ دعوة الله إلى توحيده وعبادته وتنفيذ شرعه، ولكن رحمة الله ورعايته تحمي الرسول. وتتطلب الرسالة أيضاً الحزم والعزم في أداء التكاليف، والتَّفاني في القيام بها، والتزام الدعوة إلى توحيد الله الحي الباقي الخالد، الذي لا يفنى، ويتفرد بالحكم والقضاء، والمرجع والحساب يوم القيامة، ويفنى غيره ثم يعيده الله للمساءلة، قال الله تعالى مبيِّناً أموراً تتعلق بنبوة نبيِّنا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا

تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ[١] ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٥-٨٨].

الآية الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ..﴾ نزلت بالجُحْفة حينما هاجر النَّبي ﷺ من مكة إلى المدينة، أخرج ابن أبي حاتم عن الضّحاك قال: لما خرج النَّبي ﷺ من مكة، فبلغ الجُحْفة، اشتاق إلى مكة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. قال ابن عطية رحمه الله في تفسيره: فالآية -على هذا- مُعْلمة بغيب قد ظهر للأمة، ومؤنسة بفتح.

يخبر الله تعالى نبيَّه ويبشِّره بأن الذي أنزل عليك القرآن وأثبته، وألزمك بالعمل به وأدائه للناس، لرادّك إلى بلدك الحبيب: مكة، فاتحاً منتصراً، بعد خروجك منها مهاجراً مطارَداً، وكان فتح مكة هو الفتح الأعظم الذي حُطِّمت به الأصنام، وأُزيلت به معالم الكفر والوثنية. ووعد الله صادق، ومُنجَز، وقد تحقَّق الوعد كما هو معروف في السِّيرة النَّبوية، في السَّنة الثامنة من الهجرة. والمعاد: الموضع الذي يعاد إليه، وقد اشتهر به يومُ القيامة، لأنه معاد للكل.

وقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ..﴾ آية متاركة للكفار وتوبيخ، فقل أيها النَّبي لمن كذَّبك من قومك المشركين: الله هو العالم البصير بالمهتدي، مني ومنكم، وعالم بمن هو غارق في الضلال، ومطَّلع على من جاء بالهدى، وهو الآتي بالقرآن الكريم، وبما يستحقه من الثواب في المعاد، والإعزاز بالإعادة إلى مكة المكرمة.

ثم ذكَّر الله نبيَّه بنعمته العظيمة عليه وهي النُّبوة، فلم تكن أيها النَّبي تتوقَّع إنزال

---

(١) معيناً لمن كفر.

الوحي الإلهي والقرآن المبين إليك، إلا برحمة من الله وفضل، لنفع جميع العباد، وبناء عليه تكون مكلفاً بخمسة أمور، مع خبر سادس بعدها:

١- لا تكن عوناً للكافرين بأي حال، ولكن فارقهم وخالفهم، وكن عوناً للمسلمين، والمراد: اشتد يا محمد في تبليغك، ولا تَلِن، ولا تفشل (تجبن)، فتكون معونة الكافرين يراد بها: بالفتور عنهم.

٢- ولا يمنعنك شيء عن اتباع آيات الله المنزلة إليك، بأقوالهم وكذبهم وأذاهم، ولا تلتفت إليه، وامض لشأنك، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهر دينك على جميع الأديان.

٣- وادعُ إلى عبادة ربِّك وحده لا شريك له، وبلِّغ دينه، وأعلن رسالته دون تردد ولا خوف ولا تمهُّل. وسبب هذه الآية: ما كانت قريش تدعو رسول الله ﷺ من تعظيم أوثانهم.

٤- واحذر أن تكون من فئة المشركين الذين أشركوا بربِّهم، فجعلوا له شريكاً ونظيراً، فتكون من الهالكين. وهذا نهي عما هم بسبيله، بدئ به النَّبي باعتباره القائد والقدوة لأمَّته.

٥- ولا تعبد مع الله إلهاً آخر، ولا تَدْعُ في أي عمل مع الله غيره، لأن العبادة لا تُستحق إلا لله، ولا فائدة من دعاء غيره.

٦- وكل من في الوجود فانٍ أو هالك إلا ذاتَ الله، المعبّر عنها بوجهه، فإن الله هو الباقي وحده بعد فناء خلقه، وله مهمة فصل القضاء وإنفاذه في الدنيا والآخرة، وإليه مصير جميع الخلائق. وهذا إخبار بالحشر والعودة من القبور، لإيقاع الجزاء على الأعمال، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

تفسير سورة العنكبوت

اختبار الناس

لا تستغني الحياة عن الامتحان والاختبار، ليعرف المحسن من المسيء، والعامل والمقصر أو غير العامل، والمستقيم والفاجر، وهكذا حياة البشر أمام الله عزّ وجلّ، لا بدّ لهم من الاختبار، ليتميز المؤمنون الصادقون والكاذبون، ويعرف المجاهدون والمتقاعسون، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. وهذا ما افتتحت به أوائل سورة العنكبوت المكّية:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ[1] ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ[2] سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ[3] لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/١-٧].

مطلع السورة بالحروف الأبجدية المقطعة لتنبيه المخاطب لما يأتي بعدها، وإظهار إعجاز القرآن المتكون من هذه الحروف، ومع ذلك لا يستطيع العرب الإتيان بمثله، تحدّياً لهم.

---

(١) أي لا يختبرون بالشدائد والأحداث. (٢) أن يعجزونا. (٣) الوقت المعين للبعث والجزاء.

والمعنى: أظن الناس بعد إيجادهم أنهم متروكون بغير اختبار بمجرد قولهم: آمنّا بالله ورسله، وهم لا يمتحنون بالتكاليف الشرعية كالجهاد في سبيل الله، والهجرة من مكة إلى المدينة، وأداء الفرائض البدنية كالصلاة، والمالية كالزكاة، والتعرُّض للمصائب في الأنفس والأموال، ومجاهدة أهواء النفس والشيطان، بالامتناع عن المعاصي والموبقات؟! وهذا استفهام إنكاري، معناه أن الله تعالى لا بد من أن يبتلي عباده المؤمنين، للتحقق من مدى صدق إيمانهم وقوة يقينهم. قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية مؤنسة ومعلمة أن هذه السيرة هي سيرة الله تبارك وتعالى في عباده، اختباراً للمؤمنين وقتئذ -وفي كل وقت- ليعلم الله الصادق ويرى ثواب الله تعالى له، ويَعْلَم الكاذب ويرى عقابه إياه. وهذه الآية وإن نزلت لهذا السبب، فهي بمعناها باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حكمها بقية الدهر.

وسببها الخاص إيناس المؤمنين الأولين الذين تعرَّضوا لإيذاء كفار قريش وتعذيبهم على الإسلام، فكانوا يتضايقون بذلك. لكنهم في هذا مطالبون بالصبر كمن أوذي ممن قبلهم.

وهذا ما أبانته الآية الآتية، فتالله لقد امتحنا واختبرنا المؤمنين السابقين، بل والأنبياء المتقدمين بألوان الأذى والشدة والضَّرر، ليعلم الله علم ظهور وانكشاف، بأن يظهر الله علمه فيهم، ويوجد ما علمه أزلاً، لا علماً يسبقه جهل، لأن الله عالم بكل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل، ليعلم الذين وجد منهم الصدق، والقائمين على الكذب. والتعبير بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في حقِّ المؤمنين، وبقوله: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في حقِّ الكافرين، للدلالة في هؤلاء الكفرة على الثبات والدوام. بل أظن الذين يقترفون المعاصي أن يسبقوا عقاب الله تعالى ثم يفوتونه، ويُعجزونه؟! بئس الحكم حكمهم، بأن يعصوا و يخالفوا أمر الله، ثم يفلتون من العقاب، إنه حكم خطأ، يناقض مقتضى العقل والشرع والعدل.

فمن كان قد آمن، وتوقع الثواب والخير في الآخرة، وعمل الصالحات، فإن الله سيحقق له رجاءه، ويوفيه كاملاً غير منقوص، لأن الأجل الذي حدده الله للبعث والمعاد آتٍ لا ريب فيه، والله سميع الدعاء وأقوال العباد، عليم بصير بكل الكائنات، يعلم بكل ما قدموا، ويجازي كل واحد بما عمل، فمن كان على الحق فليوقن بأنه آت، وليزدد بصيرة.

ومن جاهد نفسه وهواه، فقام بالأوامر، واجتنب النواهي، فإن ثمرة جهاده عائدة له، ونفع عمله راجع لنفسه لا لغيره. وهذا إعلام بأن كل أحد مجازىً بفعله الحسن، وأن نفع الطاعة للإنسان ذاته لا لله تعالى، لأن الله غني عن جميع العالمين من إنس وجنّ، لا تنفعه طاعة، ولا تضرّه معصية.

ثم أخبر الله تعالى عن ثواب المؤمنين المجاهدين الذين هم في أعلى رتبة، وهو أحسن الجزاء: يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما عملوا، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب على الحسنة بعشرة أمثالها. والسيئة: الكفر وما اشتمل عليه، وكذلك معاصي المؤمنين مع الأعمال الصالحة واجتناب الكبائر. وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ معناه على حذف مضاف تقديره: ثوابَ أحسن الذي كانوا يعملون. ويدخل في ذلك ثواب الحسن، بإخراج كلمة (أحسن) عن بابها من التفضيل، فليس المراد بها هنا كونها أفعل تفضيل، وإنما المراد أنهم يجزون ثواب الأحسن والحسن. فيكون الجزاء على حسن الأعمال، وأن الحسنة تمحو السيئة.

وصايا أهل الإيمان

في مجال الاختبار والامتحان يوصي الله تعالى المؤمنين بالإحسان إلى الوالدين، ويبشِّرهم بالجنة إن هم أطاعوا، وصبروا على الأذى والفتنة، وفي الامتحان يتبين

للناس مدى صمود المؤمنين، وزعزعة قلوب المنافقين. ويظهر من بيان الله تعالى إحباطُ عروض الكافرين بتحمُّل خطايا المؤمنين إن اتَّبعوا سبيلهم في دينهم المعوج، وإنذارُهم بتحمُّل المسؤولية الثقيلة عن أعمالهم الشنيعة وسوءِ اعتقاداتهم الباطلة، وافتراءاتِهم المضلِّلة، قال الله تعالى موضحاً هذه الوصايا:

﴿وَوَصَّيْنَا(١) ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا(٢) وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ(٣) ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ(٤) وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ(٥) وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ(٦) ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٨-١٣].

هذه طائفة من وصايا أهل الإيمان، تشتمل على نواحٍ ثلاث:

الأولى- الإحسان إلى الوالدين: فلقد أمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه، ببرهما قولاً وعملاً، لأنهما سبب وجوده، إلا في محاولة الحمل على الشِّرك، فإن جاهداك على أن تشرك أيها الولد بالله ما لا علم لك به، ولا وجود بالفعل، فلا تطعهما في ذلك، لأنه كما صحّ في الحديث الذي أخرجه أحمد والحاكم: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». وذلك لأن سبب المخالفة في المعصية رجوعكم جميعاً إلى الله يوم

---

(١) أمرناه. (٢) برّاً بهما وإحساناً. (٣) ما يصيبه من أذاهم. (٤) أوزاركم. (٥) خطاياهم. (٦) يختلقونه من الأباطيل.

القيامة، فيخبركم ربّكم بما عملتم، ويجازيكم على أعمالكم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. وهذا وعيد في طاعة الوالدين، وهو في معنى الكفر.

نزلت هذه الآية كما روي عن قتادة في سعد بن أبي وقاص، حين هاجر، فحلفت أمه ألا تستظلّ بظلّ حتى يرجع إليها، ويكفر بمحمد -ﷺ- فلَجَّ(١) هو في هجرته، ونزلت الآية.

ثم كرَّر الله تعالى التمثيل أو الشبيه بحالة المؤمنين ليحرِّك النفوس إلى نيل المراتب العالية، فالذين آمنوا وعملوا صالح الأعمال، لنجعلنهم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته ونحشرنهم مع أرفع الصالحين، وثمرة الصلاح تتحقق بعدئذ، وجزاؤه الجنة. وقوله سبحانه: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي في زمرة الأنبياء، على سبيل المبالغة.

الناحية الثانية- افتضاح شأن المنافقين: فمن الناس فريق، هم قوم من المكذبين المنافقين، الذين يتظاهرون بألسنتهم بالإيمان بالله، والتصديق بوجوده، ووحدانيته، دون أن يثبت الإيمان في قلوبهم، بدليل أنهم إذا أصيبوا بأذى المشركين من أجل إيمانهم، اعتقدوا بأن هذا من نقمة الله عليهم، فارتدوا عن الإسلام، وصرفهم العذاب عن الإيمان، وإذا تحقق نصر قريب من الله للمؤمنين بالفتح والغلبة والغنيمة قالوا: إنا كنا معكم ردءاً وإخواناً لكم في الدين، أوَ ليس الله بأعلم بما في قلوب العالمين، وما تنطوي عليه من النفاق؟!

وليختبرن الله الناس في السّر والعلن، ليتميز المؤمنون، ويعرف المنافقون، لأن المحنة محكّ الإيمان، فإن صبر المؤمن كان صادقاً، وإن جزع وتبرم، كان كاذباً منافقاً.

نزلت آية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ في المنافقين الذين كفروا لما أُوذوا، قال مجاهد: نزلت في أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاء من الله ومصيبة في أنفسهم افتتنوا.

(٧) أي لازم ما عزم عليه من الهجرة، وأبى أن ينصرف عنه.

الناحية الثالثة- محاولات الكافرين فتنة المسلمين عن دينهم: قال كفار قريش لمن آمن منهم واتَّبع هدى القرآن: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتَّبعوا طريقنا ومنهجنا في التدين، ونحن نتحمَّل عنكم آثامكم إن كانت، ووُجد حساب عليها، والواقع أنهم لا يتحمَّلون شيئاً من ذنوبهم، وإنهم لكاذبون فيما قالوا، لأنه لن يتحمَّل أحد وزر أحد في ذلك العالم، وعاقبةُ هذا القول: أن دعاة الكفر والإضلال يتحمَّلون يوم القيامة أوزار أنفسهم، وأوزارَ غيرهم الذين أضلّوهم من الناس، وسوف يُسألون سؤال توبيخ وتقريع عما كانوا يكذبون على أنفسهم وعلى غيرهم، وعلى ما يختلقون من الافتراء والبهتان في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يريد: ما يلحقهم من أعوانهم وأتباعهم، لتسببهم في إضلالهم.

قال مجاهد: إن الآية نزلت في كفار قريش الذين قالوا لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فاتَّبعونا، فإن كان عليكم إثم فعلينا. روي أن قائل هذه المقالة الوليد ابن المغيرة. وقيل: بل كانت شائعة من كفار قريش.

إن هذه الوصايا واردة بصفة التحذير من عقوق الوالدين فيما هو حقّ وبرّ، وخير وطاعة، والتحذير من أعمال المنافقين فاقدي الإيمان الثابت، حينما أُوذوا كفروا، ومن محاولات الكفار ثني المؤمنين عن إيمانهم وردهم إلى دائرة الشِّرك والوثنية.

رسالة نوح عليه السّلام

تكرَّر إيراد قصة نوح عليه السَّلام مع قومه في مناسبات مختلفة، وسور قرآنية متعددة، بعضها مطوَّل مفصَّل، وبعضها كما هنا موجز مختصر، وأُتبعت هذه القصة في سورة العنكبوت بقصص أنبياء آخرين: وهم إبراهيم، ولوط، وهود، وشعيب، وصالح، لبيان عاقبة المكذبين رسلهم، وإيناسِ النَّبي محمد ﷺ فيما يلقاه من تعنُّت

قومه، وفتنتهم المؤمنين وغير ذلك، وتثبيته على أذى الكفرة، وفي ذلك عبرة ووعيد لكفار قريش بتشبيه أمرهم بأمر قوم نوح، ولتأكيد ما جاء في مطلع السورة من جعل الابتلاء سنة الحياة.

وهذه آيات توجز بيان مهمة نوح عليه السّلام أطول الأنبياء عمراً، وأول رسول للبشرية، وأبي البشر الثاني بعد آدم عليه السّلام، قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ١٤-١٥].

إن إيراد قصص الأنبياء السابقين على هذا النحو من التأكيد والتشديد، ذو مغزى عميق ودلالة واضحة، فمغزاه العبرة والعظة، ودلالته الإنذار والتحذير لكفار قريش وأمثالهم، حين كذبوا رسولهم محمداً ﷺ بأنهم سيتعرَّضون لعقاب مماثل لمن تقدَّمهم من الأقوام الغابرة الذين كذَّبوا رسلهم، فجاءهم عذاب الاستئصال. وتظهر صورة هذا التأكيد في العرض والبيان بقَسَم من الله تعالى على ما جاء في قصة كل نبي.

وهنا يقول الله تعالى ما معناه: وتالله لقد أرسلنا نوحاً عليه السّلام إلى قومه الكافرين العصاة، عبدةِ الأصنام، فبقي فيهم يدعوهم إلى توحيد الله ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يؤمن بدعوته إلا قليل من الناس كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ١١/ ٤٠]، وكذبوه وآذوه، وأفحشوا له القول، فصبر نوح عليه السّلام على أذاهم، ومضى زمان طويل، وهو يدعوهم إلى أن يتركوا عبادة الأصنام، ويؤمنوا بالله الواحد الأحد، وبيوم القيامة والحساب، فلم يفلح، ولم يستجيبوا لدعوته، وأمعنوا في الإعراض والاستكبار، كما جاء في آية أخرى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح: ٧١/ ٢١].

ولما يئس نوح عليه السّلام من إيمان قومه، دعا عليهم بوحي من الله تعالى، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٧١/ ٢٦]. فألهمه الله صنع سفينة ليركبها مع المؤمنين، وترك الكفار في العذاب.

وجاء الأمر الإلهي بالإغراق بعد هذه المدة الطويلة من الصبر والإنذار، فأخذهم الطوفان، وهم ظالمون أنفسهم بالكفر، وأنجى الله نوحاً ومَن آمن معه في الفلك المشحون، التي مخرت عباب البحر، حتى استقرَّت على جبل الجودي، وغرق الكفار جميعاً بطوفان الماء، وجعل الله سفينة نوح آية وعبرة للعالمين، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١١-١٢].

وضمير الفعل: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعود على السفينة المذكورة. وأما الغرق ففي رأي فرقة مقصور على قوم نوح، وقال الجمهور: إنما غرقت المعمورة كلها، أي العالم القديم، والرأي الثاني هو الراجح بسبب إعراض الناس كلهم عنه، أي عن دعوة نوح. فليتَّعظ كفار قريش وأمثالهم بهذه العقوبة الشديدة التي يمكن أن تصيبهم، إذا ظلّوا رافضين لدعوة النَّبي محمد ﷺ، مكذِّبين له، مفترين على دعوته وعلى القرآن وعلى المؤمنين، فإن العاقل من اتَّعظ بغيره.

إن قصة السفينة عبرة وعلامة على قدرة الله تعالى في شدة بطشه، وعقابه عتاة أهل الضلال والتمرد والعصيان، كما أنها نعمة خارقة، في وقت لم يعرف الناس ركوب البحر ولا وجود السُّفن عابرة المياه، فقد نجى الله تعالى نوحاً ومَن آمن معه، حفاظاً على النوع البشري من الانقراض العددي والنوعي، حيث تناسل الناس من ذرِّية هؤلاء المؤمنين، وبدأت حياة جديدة تظهر فيها مآسٍ وألوان أخرى من الفسوق والعصيان، والكفر والطغيان، فتجدد العقاب في أُمم أخرى بعد إرسال رسل آخرين

لهم، دعوا بدعوة نوح عليه السلام إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وبيوم القيامة والحشر والحساب، ويظل الصراع قائماً بين الإيمان والكفر إلى أن يشاء الله تعالى تبديل الأحوال.

دعوة إبراهيم الخليل عليه السّلام

من أعظم قصص القرآن الكريم: قصة نوح وإبراهيم عليهما السّلام، أما نوح عليه السّلام فهو أبو البشر الثاني الذي دعا إلى عبادة الله وحده، فكذَّبه قومه، فأغرقهم الله بالطوفان، وأما إبراهيم عليه السّلام: فهو أبو الأنبياء، وإمامُ الحنفاء، الذي دعا أيضاً كنوح إلى توحيد الله عزّ وجلّ، وهجرِ عبادة الأصنام، وشُكْر الله المنعم، وبيان قدرته على بدء الخلق وإعادته، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وهذا ما أبانته الآيات الآتية في قول الله سبحانه:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
(١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا[١] إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن
تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا
كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)
يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ[٢] (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ[٣] فِي الْأَرْضِ
وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ

(١) أي تقولون كذباً، في تسمية الأصنام آلهة، وادّعاء شفاعتها عند الله، وأنها شركاء لله، والإفك أشدّ الكذب. (٢) تردّون وترجعون. (٣) فائتين من عذابه بالهرب.

ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩/١٦-٢٣].

المعنى: واذكر أيها النَّبي إبراهيمَ ودعوته، وهي كقصة نوح أيضاً تمثيل وتشبيه لقريش، فلقد كان النمرود وأهل مدينته عبدةَ أصنام، فدعاهم إبراهيم عليه السّلام إلى توحيد الله تعالى وعبادته وتقواه، ثم نبَّههم إلى ما هم عليه من الضَّلال، فإن توحيد الله وتركَ الأصنام خير لكم في الدنيا والآخرة، إن كنتم من أهل الوعي والإدراك والعلم، تميزون به بين الخير والشَّر.

وهذان دليلان على التوحيد:

الأول- إن ما تعبدون من غير الله من الأصنام، ما هي إلا أوثان، وأشياء مصنوعة من الأحجار، فلا تضرّ ولا تنفع، وإنما اختلقتم لها أسماء، فسمَّيتموها آلهة، وادَّعيتم أن لها شفاعة لكم عند ربّكم، وإنما هي مخلوقة أمثالكم، فأنتم تختلقون الكذب بوصفها آلهة.

والدليل الثاني- إن تلك الأوثان التي تعبدونها من غير الله، لا تستطيع أن تجلب لكم رزقاً، فكيف تعبدونها؟ فاطلبوا الرزق من عند الله تعالى، لا من عند غيره من الأوثان ونحوها، واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم من الفضل والإنعام، فإنما إليه مرجعكم يوم القيامة، ليحاسبكم على أعمالكم.

ودليل صدق رسالة إبراهيم عليه السّلام في مخاطبة قومه: وإن تكذِّبوني في رسالتي، فلا تضروني أبداً، فقد كذبت الرسلَ أُمم سابقة، وقد بلغكم ما حلَّ بهم، من العذاب والانتقام، ولا يُكلَّف الرسول إلا بتبليغ ما أمره الله تعالى به من الرسالة، تبليغاً واضحاً كاملاً، فاحرصوا على إسعاد أنفسكم بالإيمان بالله تعالى.

وأما دليل الأصل الثالث في عقيدة الإيمان: وهو البعث والمعاد، فهو أن تنظروا

كيف بدأ الله خلق الأشياء والجمادات والإنسان، بعد أن لم تكن، وزوَّد الإنسان بمفاتيح المعرفة والعلم، من السمع والبصر والفؤاد. والذي بدأ إيجاد الخلق على هذا النحو قادر على إعادته، وهو أسهل عليه، وأيسر بحسب تصوراتنا، أما بالنسبة لله تعالى فالبدء والإعادة سواء، وقد خاطبنا الله بما نعقل ونتصور، حين قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرّوم: ٣٠/٢٧].

وعلى صعيد الواقع المشاهد، سيروا أيها المنكرون للبعث في الأرض، فانظروا كيف بدأ الله خلق السماوات وما فيها من الكواكب الثوابت النَّيِّرات، وكيف أوجد الأراضي وما فيها من الجبال الراسيات، ثم الله يعيدكم أحياء مرة أخرى، فإن من قدر على الخلق أول مرة، قادر على الإعادة وإنشاء النشأة الأخرى يوم القيامة، وإن الله قادر تامُّ القدرة على كل شيء، ومنه البدء والإعادة.

والذي يكون بعد البعث والإعادة، إنما هو الحساب والجزاء، فإن الله يعذب من يشاء من الكفار والعصاة، ويرحم من يشاء، من المؤمنين فضلاً منه ورحمة، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وإلى الله مصيركم ومردّكم يوم القيامة بعد الموت، مهما طالت المدة، فيحاسبُ كل إنسان على ما قدَّم وأخَّر، وحسابُه قائم على الحقِّ والعدل والإنصاف، لأنه المالك لكل شيء، فيسوي بين مخلوقاته.

ولستم أنتم أيها الجاحدون الكافرون، بمعجزي الله عن ملاحقتكم وتقديمكم للجزاء، سواء في الأرض والسماء، فإن الله لا يعجزه شيء، ولا يقدر أحد على الإفلات من قبضته، فقبضته السماوات والأرض وما بينهما، وهو القاهر فوق عباده، وليس لكم من غير الله ولّي (نصير) يلي أموركم ويحفظكم ويرعاكم، ولا معين وناصر ينصركم، ويمنعكم من عذابه إن عذَّبكم، فهل بعدئذ تظنّون أنكم بكفركم وعبادتكم غير الله من الأصنام ناجون وسالمون من الجزاء؟!

ثم توعّد إبراهيم عليه السّلام كل كافر، فإن كل الذين كفروا بدلائل وحدانية الله وقدرته وما أرسل به رسله، وكفروا بالمعاد، أولئك لا نصيب لهم من رحمة الله، بسبب كفرهم، ولهم عذاب مؤلم شديد.

موقف قوم إبراهيم من دعوته

لا ينتظر بعد تقديم إبراهيم الخليل مختلف الأدلّة على أصول دعوته من توحيد الله، وإرسال الرُّسل، وبعث العباد أن نجد جواباً مقنعاً لدى القوم الذين استبدّوا واستكبروا، وبغوا وعاندوا، واعتمدوا على التهديد والوعيد، ولكن الله تعالى نجى إبراهيم من النار، فأعاد الكرة عليهم بتوبيخهم على سوء الاعتقاد وعبادة الأصنام، وتفرّق الصّف وتشتّت الأحوال يوم القيامة. ولما نجى إبراهيم من النار، آمن به ابنُ أخيه لوط عليه السّلام، وأنعم الله على إبراهيم بإسحاق ويعقوب، و بجعل النُّبوة والكتب المنزلة في ذرِّيَّته، وإيتاء أجره في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى مبيِّناً هذه المفاجآت.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ[1] فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ[2] وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى الدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى الْءَاخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٤-٢٧].

---

(١) للتّوادّ بينكم . (٢) مكان إيوائكم النّار .

أخبر الله تعالى عن قوم إبراهيم أنه لما بيَّن لهم الحجج، وأوضح أمر الدين، لم يجدوا جواباً مقنعاً، فلجؤوا إلى المغالبة واستخدام القوة والبطش، وتآمروا على قتله وتحريقه بالنار، وأنفذوا أمر التَّحريق، فأنجاه الله تعالى من نارهم، وجعلها عليه برداً وسلاماً، إن في ذلك الإنجاء لإبراهيم من النار لدلالةً على وجود الله الحاضر، وقدرته النافذة، لقوم يصدّقون بالله إذا ظهرت لهم الأدلة والبراهين.

واستأنف إبراهيم عليه السّلام دعوته لتوحيد الله وهجر عبادة الأصنام، حتى بعد إلقائه في النار، فقال لقومه موبِّخاً ومقرِّعاً: إنما اتَّخذتم هذه الأصنام لتجتمعوا على عبادتها، وتقيموا تجمُّعاً ودّياً فيما بينكم في دار الدنيا، كاتِّفاق أهل الأهواء على الباطل والضلال، ثم يقع التنازع والتَّباعد بينكم في الآخرة، فتنقلبُ صداقة الدنيا إلى عداوة وتباغض، فيتبرأ القادة من الأتباع، ويلعن الأتباع القادة، ثم يكون مصير الفريقين إلى النار، ولن يجدوا في الآخرة ناصراً ينصرهم، ولا منقذاً ينقذهم من عذاب الله تعالى، فالكل يستوون في استحقاق العقاب، لأن توادّ الكافرين كان مجافياً للحق والخير والتقوى، قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّخرف: ٤٣/ ٦٧].

هذا مع العلم بأن الوثن: ما اتّخذ من جصّ أو حجر، والصّنم: ما كان من معدن.

وفي الزاوية الأخرى في مواجهة الكفر، نجد أملاً لا ينقطع، ونوراً لا يخبو، فقد آمن بدعوة إبراهيم ابن أخيه لوط عليهما السّلام، وهاجر هو ولوط، إلى بلاد الشام من أرض بابل، وقال إبراهيم عليه السّلام: إني مهاجر من دياركم، متّجه إلى جهة أمرني بها ربّي، فهاجر من سواد العراق إلى حرّان، ثم اتَّجه إلى ديار الشام، فأقام إبراهيم في فلسطين في بلدة الخليل، ونزل لوط بلدة سدوم.

وسبب هذه الهجرة: أن الله سينتقم من عبدة الأوثان، فهو القوي الغالب القاهر

في ملكه، الذي يمنع أصفياءه من الأعداء، وينصرهم عليهم، الحكيم في تدبير شؤون خلقه، فلا يأمر إلا بما فيه الصلاح والرشاد والخير. وهاتان الصفتان البليغتان ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقتضيان استحقاق التوكُّل على الله.

ومكافأةً لإبراهيم على جهاده في تبليغ دعوته، وإبطال الوثنية، أنعم الله عليه بعد ترك قومه الوثنيين بنعم ثلاث:

الأولى- أن الله تعالى وهب إبراهيم في حال الكبر إسحاق بعد إسماعيل الذَّبيح، وكذا يعقوب بن إسحاق نافلة وفضلاً، فقد بشَّر الله إبراهيم بإسحاق، ثم بشَّر بيعقوب من بعده، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٧٢].

والنعمة الثانية- هي جعل النبوة وكتب التوراة والزبور والإنجيل والقرآن، في ذرِّية إبراهيم الخليل عليه السّلام، فكانت الأنبياء كلهم بعد إبراهيم من ذرّيّته، ولم يوجد بعده نبي إلا من سلالته، وكان إنزال الكتب السماوية على هؤلاء الأنبياء الذين هم من ذرِّية إبراهيم، وهم: موسى وعيسى وداود ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم.

والنعمة الثالثة- إيتاء إبراهيم عليه السّلام أجره في حياته الدنيوية بحيث أدرك ذلك وسُرَّ به، والأجر الذي آتاه الله تعالى: هو السّلامة من النار، ومن الملِكِ الجائر، والعملُ الصالح، والثناءُ الحسن، وأن كل أمة تحبّه وتتولاه، قال عكرمة: أهل الملل كلها تدعيه وتقول: هو منّا.

ثم أخبر الله عنه: أنه في الآخرة في عداد الصالحين الذين نالوا رضوان الله تعالى، وفازوا برحمته وكرامته العليا. فإن إبراهيم عليه السّلام يحشر في الآخرة في زمرة الكاملين في الصلاح، الذين لهم الدرجات العليا، والمكانة الرفيعة الأسمى، وكان بهذا قد جمع الله له بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

قصة لوط عليه السّلام

اتّجه لوط عليه السَّلام بعد إيمانه وهجرته مع إبراهيم من العراق إلى بلدة سدوم في غور الأردن، بأمر الله إياه، من أجل دعوة أهلها إلى توحيد الله، وترك الفواحش، ومحاربة الفساد، وقطع الطريق على المارّة، وإتيان المنكر، وكان في دعوته جريئاً قوياً، مجاهراً صامداً، لا يفتأ يحذِّر وينذر، ويوجِّه ويصلح، ولكن القوم الفاسقين غلب عليهم حبّ الفاحشة والمنكر، فلم يستجيبوا لدعوته، وقاوموه وحاولوا طرده، وإبعاده من ديارهم، علماً بأن لوطاً عليه السّلام ليس من هؤلاء القوم، قال الله تعالى واصفاً دعوة لوط عليه السّلام:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ[(١)] ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ[(٢)] وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا[(٣)] وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ[(٤)] ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا[(٥)] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٨-٣٥].

المعنى: واذكر أيها النّبي لوطاً وقصّته مع قومه، حين أرسله الله إلى أهل قرية

---

(١) مقرّ الاجتماع. (٢) اعتراه الغمّ بمجيئهم خوفاً عليهم. (٣) ضعف عن تدبير خلاصهم. (٤) الباقين في العذاب. (٥) عذاباً شديداً.

(سَدوم) فأنكر عليهم فعلهم، وقال لهم محذِّراً ومنذراً: أتأتون الفاحشة، ما سبقكم بها أحد قبلكم من الناس؟ والفاحشة: إتيان الرجال في الأدبار، وهي معصية ابتدعها قوم لوط.

ثم أكَّد لوط الإنكار على جميع أفعالهم القبيحة وهي:

- كيف تأتون الذكران بشهوة من دون النساء؟ فهذا شذوذ في الطبع ودمار لكم.

- ولِمَ تقطعون الطريق على المارّة، وتتعرَّضون لهم بالقتل وأخذ المال والإكراه على الفاحشة؟

- ولماذا ترتكبون في ناديكم أو مجلسكم العام والخاص ما لا يليق بكم من الأقوال والأفعال، من صبغ الأصابع بالحناء، والصفير، وخذف الحصا، ولعب الحمام، والتّضارط، ونبذ الحياء في كل أموركم.

فلما صارحهم لوط ونبَّههم على ترك هذه القبائح، رجعوا إلى التكذيب واللجاج والعناد، وقالوا: عجِّل علينا العذاب الذي تُوعدنا به إن كنت صادقاً فيما تهددنا به، فإن ذلك لا يكون، ولا تقدر عليه، وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصمِّمون على اعتقاد كذبه.

فقال لوط داعياً على هؤلاء القوم المفسدين مستنصراً بربِّه: يا ربِّ، انصرني على هؤلاء القوم المفسدين في الأرض، بابتداع الفاحشة. ولم يصدر منه هذا الدعاء إلا بعد يأسه من صلاحهم، فبعث الله عليهم ملائكة لعذابهم.

ولما جاءت الملائكة رسلُ العذاب، مرّوا على إبراهيم عليه السَّلام في هيئة أضياف، فبشَّروه بولد صالح من امرأته (سارّة) وهو إسحاق ومن ورائه يعقوب، أي حفيده، ثم أخبروه بأنهم أُرسلوا لهلاك قوم لوط عليه السّلام، لأنهم قوم ظلموا

أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسولهم، وتماديهم في الضلال والفساد. ولفظ البشرى في هذه الآية تتضمن أمر إسحاق، ونصرة لوط عليهما السّلام.

فلما أخبروا إبراهيم بإهلاك قرى قوم لوط على ظلمهم، أشفق إبراهيم عليه السّلام على لوط عليه السّلام، فسأل عن مصير لوط وهو رسول، وغير ظالم، فقالت الملائكة الرسلُ: نحن أعلم منك بمن في البلد من المؤمنين والكافرين، وإنا لننجي لوطاً وأهله، وأتباعه المؤمنين به من الهلاك إلا امرأته، فهي من الهالكين الباقين في العذاب.

ولما جاءت الملائكة إلى لوط عليه السّلام على صورة بَشَر حِسان الوجوه، اغتم بأمرهم، وخاف عليهم من فساد قومه، وضاق ذرعاً بهم، أي قصرت طاقته أو قدرته، حفاظاً عليهم وحياء منهم، فقالوا له مطمئنين: لا تخف علينا، ولا تحزن بما نفعله بقومك الأخباث، وإنا منجّوك وأتباعك المؤمنين من العذاب إلا امرأتك، فهي من الباقين في العذاب. وصفة هذا العذاب: أننا سنُنزل على أهل بلاد سدوم عذاباً شديداً من السماء، بسبب فسقهم وعصيانهم، وكان العذاب زلزالاً خسف بهم الأرض، وقلب ديارهم عاليها سافلها.

ولقد تركنا من البلدة بعض آثار منازلهم الخربة أو بعض أخبارهم آيةً: علامة ظاهرة واضحة، وعبرة لقوم يتدبرون الأمور بعقولهم الرشيدة، ويتبصرون بمصائر المجرمين الذين كذبوا رسولهم.

قصص أقوام مدين وعاد وثمود وفرعون

استبدَّ الانحراف والفساد بأقوام سابقين، فانحرفوا عن عبادة الله تعالى وأنكروا الآخرة، وعاثوا في الأرض فساداً، وكذبوا رسلهم، وهم قبائل مدين وعاد وثمود، وأشخاصُ قارون وفرعون وهامان وأتباعهم، فاستحقوا بمقتضى قانون العدالة

وتطهير الأرض من مفاسدهم ألواناً تتناسب مع جرائمهم، إما بالرّجفة أي الزّلزلة، وإما بالرِّيح الحاصب، وإما بالصيحة: الصرخة الشديدة المدمرة، وإما بالخسف أو التدمير، وإما بالإغراق، وغير ذلك، مما استحقوه بسبب ظلمهم وتجاوز الحدّ بالبغي والعناد، وهذا ما دوَّنه القرآن الكريم عبرة لقريش وأمثالهم، فقال الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟[1] فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ[2] فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ[3] ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ[4] ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ[5] ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[6] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ[7] وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٣٦-٤٠].

هذه لمحة سريعة من صواعق أو عناقيد الغضب الإلهي على أقوام عتاة، بلغوا الذروة في الكفر والفساد والظلم، فجوزوا بأشد العقاب. وهم قبيلة مَدْين شمال خليج العقبة، وأصحاب الأيكة غيرهم، أرسل الله إليهم النَّبي شعيباً عليه السّلام، فأمرهم بعبادة الله تعالى، والإيمان بالبعث واليوم الآخر، والخوف من بأس الله وعذابه، ونهاهم عن الفساد في الأرض وعن إنقاص الكيل والميزان، فقابلوه بالهزء والتكذيب، والإصرار على الكفر والعصيان، فأهلكهم الله بالرَّجفة: وهي الزَّلزلة العظيمة، فأصبحوا جثثاً هامدة، ودمَّر الله ديارهم. وهذا نحو من الخسف.

---

(١) لا تفسدوا إفساداً شديداً. (٢) الزلزلة الشديدة بالصيحة. (٣) ميتين بلا حركة. (٤) طالبين التَّبصر والتَّعقل والتَّدبر. (٥) فائتين عذاب الله. (٦) ريحاً شديدة ترميهم بالحصباء. (٧) صوت مهلك من السماء.

واذكر أيها النَّبي عاداً وثمود، أما قبيلة عاد فكانوا يسكنون الأحقاف قرب حضرموت في بلاد اليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السّلام، فنصحهم وأنذرهم، فلم يصدِّقوه وآذوه، فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً، دمَّرت ديارهم وأبادتهم.

وأما قبيلة ثمود: فكانوا يسكنون في الحجْر قريباً من وادي القرى، بين الحجاز والشام، وما تزال مدائنهم ظاهرة إلى اليوم، أرسل الله إليهم النَّبي صالحاً عليه السّلام، فدعاهم مثل هود عليه السّلام إلى عبادة الله وحده، فلم يستجيبوا، وزيَّن لهم الشيطان أعمالاً سيئة، فكفروا بالله تعالى، واجترحوا السيئات، ومنعوا الناس عن الدِّين الحقّ والطريق القويم، وكانوا أهل عقل وبصيرة، لكنهم لم يؤمنوا بربِّهم، ولم ينتفعوا بطاقات فكرهم وقلوبهم، فعاقبهم الله، وأهلكهم بالطاغية أو الصيحة الشديدة، وبادوا، وبقيت آثار ديارهم عبرة لكل مارٍّ عليها.

وأهلك الله تعالى قارون بالخسف وتدمير دياره، وفرعون وهامان وزيره بالإغراق في البحر الأحمر، وقد أرسل الله لهم موسى عليه السّلام، فدعاهم إلى توحيد الله عزّ وجلّ وتركِ عبادة الأوثان، وأتاهم بالآيات الواضحات والمعجزات الظاهرة كالعصا التي تنقلب حيّة عظيمة، واليد التي يُدخلها في فتحة قميصه، فتصير ذات إشعاع كالشمس أو القمر، فاستكبروا عن الطاعة لله وعبادته، ولم يكونوا مفلتين من العذاب والأخذ، ولا قادرين على الهرب من العقاب، بل أدركهم أمر الله تعالى وبطشه، وصاروا عبرة للمعتبر، وعظة لكل ناظر.

إن هؤلاء الأقوام جُوزوا بما يناسبهم من ألوان العذاب، وكانت عقوباتهم إما بالريح العاصفة كقوم عاد التي دمرتهم، وإما بالصيحة أو الرّجفة كقوم ثمود وقوم لوط، وإما بالخسف كقارون الطاغية، وإما بالإغراق في البحر كفرعون المتألِّه الجبّار، ووزيره هامان الماكر، كل عقوبة تطابق ألوان الظلم الصادرة من أصحابها،

وما كان لله العادل عدلاً مطلقاً أن يظلمهم أبداً فيما فعل بهم، ولكنه سبحانه أهلكهم بذنوبهم، وبظلمهم أنفسهم، بكفرهم بربّهم وإنكار وجوده أو نسبة الشركاء له، أو ادّعاء الأُلوهية.

إن هذا الجزاء والدّمار عبرة وعظة لأهل مكة وأمثالهم، ممن ولجوا في العصيان والكفر والشّرك، وتكذيب الرسول محمد ﷺ، وهي للتاريخ مثل مثير، وتذكير للمعتبرين.

حال عبدة الأصنام

عجيب أمر عباد الأصنام، وغريب ما تفكر به عقولهم، ولا أجد مسوغاً لهم في عبادتهم الأصنام إلا محض التقليد الأعمى، فإنهم يبنون في فراغ، ويعملون في الهواء بدون ثبات، لذا شبَّه القرآن حالهم في عبادتهم الأصنام وبنائهم جميع أمورهم على ذلك، بالعنكبوت التي تبني وتجتهد، فإن بناءها ضعيف، يتبدَّد متى مسَّته أدنى هامّة (وهي المخوف من الأحناش) أو دهمته نملة، وكذلك أمر هؤلاء وسعيهم مضمحل، لا قوة له ولا معتمد، وكرَّر القرآن الكريم في مناسبات مختلفة أن هذه العبادة من الوثنيين لا تنفعهم شيئاً، وإذا تركوها لا يصيبهم ضرر، فكيف يليق بهم ترك عبادة الله القادر، والتوجه نحو هذه الأحجار والأوثان؟! وتكون فائدة ضرب الأمثال في القرآن، لتقريب الأشياء إلى العقول والأفهام، كما ذكر الحقّ سبحانه في هذه الآيات الشريفة، قال الله تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ(١) ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن

(١) حشرة معروفة تصنع بيتها بشبكة واهية .

دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤١-٤٣].

المعنى: إن فعل المشركين أو صفتهم في تأليه الأصنام وعبادتها من دون الله، أملاً في نصرتهم ونفعهم، ودفعِ الضُّر عنهم، كصفة العنكبوت في ضعفها، تتخذ لنفسها بيتاً لحمايتها من الأذى، ولكنه لا يفيدها شيئاً، فإنه سرعان ما يتبدَّد بالريح أو بالحشرات المداهمة. فكذلك هؤلاء المشركون لا تفيدهم الأصنام شيئاً، ولا تدفع عنهم شرّاً، وتضيع جهودهم لوضعها في غير موضعها، فهم في عملهم في غاية الضعف، مثل بيوت العناكب التي هي أضعف شيء وأوهاه، يخرّب بأدنى شيء ولا أثر له، فكذلك أعمالهم لا أثر لها، فلو كانوا يعلمون أدنى علم أن عبادة الأصنام لا تنفع، ما فعلوا ذلك، ولأقلعوا عما يعملون، لكنهم في الواقع جهلة أغبياء، لا يعلمون أن هذا مثلهم، وأن حالهم ونسبتهم للحق كهذه الحالة.

ثم توالى تأكيد الله تعالى انعدام فائدة تلك المعبودات، فذكر أن الله سبحانه يعلم أن الذي يعبده الوثنيون من الأصنام أو غيرها من الجنّ والإنس والكواكب ليس بشيء ولا فائدة فيه، وإنما المعبود بحق: هو الله القوي الغالب القاهر، الكبير المنتقم من الكفرة، المشركين مع عبادته إلهاً آخر، الحكيم في صنعه وتدبير خلقه، يعلم ما هم عليه من الأعمال، وسيجزيهم وصفهم، فإنه سبحانه يعلم حالهم، وأنه لا قَدْر لعملهم، ولا قَدْر لما يعبدونه.

ثم ذكر الله تعالى الفائدة الملموسة من ضرب الأمثال والأشباه، وهي أن الأمثال القرآنية والتشبيهات الحسِّية التي يعقدها ويصوِّرها الله تعالى، إنما هي لتقريب الأشياء لأفهام الناس، وتوضيح ما التبس عليهم، ولكن لا يعقلها ويتدبَّر معناها، ويدرك المراد منها إلا أهل العلم والمعرفة، الذين يتجرَّدون من العصبية والتقليد،

ويتأمّلون في مدلولات الأشياء. فإن قرين الشيء وشبيهه يوضح الأمر، ويجلي الحقيقة. قال جابر، قال النّبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾: «العاقل: من عقل عن الله تعالى، وعمل بطاعته، وانتهى عن معصيته».

ومما يؤسف حقّاً أن ينزل مستوى الفكر الإنساني لهذه الدرجة من الدُّنو، فإن عبادة الأصنام مجرد أسطورة أو خرافة، ومحض وهم وخطأ. ومما يزيد في الأسف أنه ما تزال هذه العبادة قائمة في زمننا في بعض البلاد الإفريقية كجنوب السودان وغيره، فإن هؤلاء البدائيين، قد يذهبون لنيل أعلى الشهادات العلمية من أوربا وأمريكا، ثم إذا عادوا لبلادهم، عادوا لتعظيم الأحجار والأصنام، وكأن العقل العلمي غير العقل الديني، وأن العلوم العصرية الحديثة لا تفيدهم شيئاً في الإقلاع عن عادات وسطهم الديني، وبيئتهم الحياتية القائمة، كما حدثني بعض الأفارقة.

عظمة الخلق الإلهي والبيان التشريعي

إن أدنى تأمُّل في هذا الكون الرَّحب، من السماء والأرض والمخلوقات العجيبة فيهما، يرشد الإنسان الحائر إلى العقيدة الحقّة والإيمان الصائب، وإلى العبادة الصحيحة في أسلوبها وجوهرها وغايتها، وتزداد العقيدة تأصُّلاً وتألُّقاً وثباتاً بتلاوة القرآن العظيم الدّال على أن رسل الله الكرام أقاموا الأدلة الكافية على الإيمان بالله تعالى، وعلى توحيده، ووجوب عبادته، وإن أعرض بعض أقوامهم عن دعواتهم، ولم يقلعوا عن عاداتهم الذميمة. وسبيل عقد الصلة بالله تعالى، وإدراك لذّة مناجاته، وحلاوة مناداته: إنما هو بأداء الصلاة التي تنهى صاحبها إن أدّاها بحق عن كل ألوان الفحشاء والمنكر، الذي ينكره الشَّرع والعقل، ومن ذكر ربّه ذكره الله بإفاضة الهدى ونور العلم عليه. وهذا ما أبانته الآيات الكريمة الآتية، قال الله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٤-٤٥].

الأسلوب القرآني الرائع يعتمد على ضرب الأمثال والتشبيهات بالأمور الحسِّية المشاهدة، كما يعتمد على المقارنة أو الموازنة بين الأشياء ليُظهر الحقّ، ويبطل الباطل، وتستقر المعلومات والمعارف في الذهن الإنساني، ومن هذه التشبيهات البليغة كما تقدم: تشبيه عبادة الأصنام ببناء بيوت العناكب، ومن هذه المقارنات اللطيفة: بيان كون خلق السماوات والأرض وما فيهما من كمال وجمال وعظمة، مما يرشد الذهن أو العقل إلى صغر قدر الأوثان وحقارتها، وصغر كل معبود من دون الله تعالى.

لقد أبدع الله السماوات والأرض بالحق، أي بالواجب النيِّر الثابت، لا للعبث واللعب، بل ليدلَّ على قدرته العظيمة وسلطانه الشامل، ويثبِّت شرائعه، ويضع الدلائل لأهلها، ويعمّ المنافع. إن في هذا الخلق والإبداع لدلالة واضحة على أن الله تعالى هو المتفرِّد بالخلق والتدبير والأُلوهية، وعلى وجوب التوجُّه بالعبادة إليه وحده لا شريك له، وعلى ضرورة إعزاز الإنسان وتكريمه، لئلا يعبد مثله أو من دونه، أو ما لا يفيده شيئاً.

ولكن لا ينتفع بهذه الأدلة والبراهين، ولا يدرك أسرار الخلق والإبداع الإلهي إلا المؤمنون المصدِّقون بالله ورسوله، لأنهم يستدلّون بآثار الخلق على وجود الخالق المؤثر فيها، وأنه يستحيل على غير الإله المعبود بحقّ أن يكون له إسهام فيها، أو تطلُّع إلى ادِّعاء شيء من خصائصها وميزاتها الباهرة، فذلك ما لا يستطيعه.

وإذا كان الإله هو خالق السماوات والأرض فإنه تجب العبادة له، وحده،

خالصة نقية من أي شائبة، لذا أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ وكل مؤمن بأمرين مهمَّين يحقِّقان العبودية لله، ويوجِّهان إلى صحة العبادة، وضرورة الخضوع لأمر الله، وهذان الأمران المهمّان:

أولهما- تلاوة القرآن الكريم وحيِ الله عزّ وجلّ لنبيِّه وأُمَّته، فإن القرآن إمام ونور، وهدىً ورحمة، وشفاءٌ لما في الصدور، ونجاة لمن اتَّبعه، وحصن لمن اعتصم به، وعلاج للمحن والأزمات، وتعليم لشؤون الحياة كلها.

والأمر الثاني- إقامة الصلاة بأدائها تامة الأركان والشرائط، وإدامتها في قلب خاشع، وعقل متدبر، ولسان ذاكر، وإشراقة نفس، واستحضار عظمة المعبود، وللصلاة فوائد شخصية واجتماعية كثيرة، فهي تنهى عن ارتكاب الفواحش والمنكرات، وفيها ذكر الله المهيمنِ على كل شيء في السِّرِّ والعلن، وإدامة الذِّكر وترطيب اللسان به يشعر المصلي بكمال عظمة الله، وذكر الله أكبر من كل شيء في هذا العالم على الإطلاق، فالله هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، وجزء الذكر الذي في الصلاة: إنما هو الذي ينهى بالفعل، لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر لله مراقب له، وثواب هذا الذكر: أن يذكر الله تعالى عَبْدَه المصلي، كما جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه: «من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم».

والذكر النافع: إنما هو مع العلم بالله تعالى، وإقبال القلب وتفرُّغه إلا من الله تعالى. وذكر الله تعالى للعبد: هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه. والله عليم بما تصنعون من خير أو شرّ، يعلم بكل قول وفعل، وذلك نوع من التَّوعُّدِ على ترك الصلاة وذكرِ الله، وحثٌّ على مراقبة الله على الدوام.

مجادلة أهل الكتاب

إن تحقيق الأغراض أو الأهداف المنشودة يتطلب حكمة معينة ومهارة فائقة، وذكاء وحصافة، وتخطيطاً ودراسة، وإن دعوة غير المسلمين للإسلام ومحاولةَ إدخالهم في دين الله، من أدقّ الأشياء وأعسرها، لأن توارث العصبيات والأحقاد القديمة، يحجب غالباً رؤية الحقيقة الناصعة، ولأن دوام العقيدة أو غرسها، يتطلب قناعة راسخة، وبرهاناً واضحاً ينسجم مع العقل والمنطق، ومقتضى العلم والمعرفة، لذا كان توجيه القرآن الكريم في شأن جدال أهل الكتاب يتفق مع هذه المسلَّمات، ويأمر باستعمال الكلمة الحسنى، والخصلة الخلقية التي هي أحسن، قال الله تعالى مبيِّناً منهاجه في الدعوة إلى الإسلام:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٦-٤٩].

هذه هي طريقة إرشاد الكتابيين إلى الإسلام، تلتزم أصول المنهج التالي:

أولاً- الجدال بالتي هي أحسن: ينهانا القرآن الكريم أن نجادل أهل الكتاب (اليهود والنصارى) إلا بالطريقة الحسنة، وبالأسلوب الأحسن، فإنهم قوم يؤمنون بوجود الله واليوم الآخر، ويصدِّقون بما أُنزل على موسى وعيسى عليهما السّلام من الكتب السماوية، فكانوا أولى الناس بالالتقاء على هدي الإسلام الذي ضمّ الأديان كلها، والإيمان بخاتم الأنبياء.

لكِن الذين ظلموا أنفسهم، وعادوا للحقّ، وتركوا سبيل الحجة الواضحة، ولم يستعملوا منطق العقل المجرد البعيد عن العصبية والهوى، فإنهم ميئوس من إرشادهم وإصلاحهم، وهم من بقي على كفره منهم.

ثانياً- الإيمان بأصول الأديان: يأمرنا القرآن المجيد أيضاً أن نعلن إيماننا برسالة الإسلام الشاملة التي تعني الخضوع لله تعالى، وبأن الإله إله الجميع، إلهنا وإلهكم واحد، لا شريك له، وإيماننا بما أُنزل إلينا من القرآن، وإليكم من التوراة والإنجيل في أصلهما المنزّلين، ونحن عابدون خاضعون لله، مطيعون أوامره، مجتنبين نواهيه.

ثالثاً- إنزال الكتب على الجميع: مِثْل إنزال الله الكتب على من قبلك من الرسل أيها الرسول النَّبي، إنزال القرآن إليك، فالذين جاءهم الكتاب السابق من اليهود والنصارى إذا نظروا وتأمَّلوا بحق يؤمنون بالقرآن الكريم، ومنهم من آمن به بالفعل، كعبد الله بن سلام اليهودي الأصل، وسلمان الفارسي المتنصر المعروف بسلمان الخير، ونحوهما، وما يكذِّب بآيات الله ويجحد بمضمونها إلا الذين أوغلوا في قيعان الكفر وركنوا إليه.

رابعاً- أُمِّية النَّبي: ولم تكن أيها النَّبي قبل النُّبوة تقرأ شيئاً من الكتب، ولا تعرف الكتابة ولا القراءة، ولا تستطيع أن تخطَّ سطراً من الكتاب بيمينك، فأنت خالي الذهن، لم تتشرب بشيء سابق، ولو كنت قارئاً وكاتباً، لشكَّ المشركون الجهلة فيما نُزِّل إليك، وادَّعوا أنه مأخوذ من كتب سابقة، وإذ لم تكن كاتباً ولا قارئاً ولا سبيل لك إلى التَّعلم، فلا وجه لارتياب كل من عاداك، فأهل الباطل هم المتمسكون بالضلالات الموروثة، والانحرافات الشائعة.

خامساً- القرآن منزل من عند الله تعالى: بل إن هذا القرآن آيات واضحات الدلالة على الحقّ، وذلك أمر مستقر في قلوب العلماء من أهل الكتاب وغيرهم،

ولكن ما ينكر وما يكذب بآيات الله النيِّرة ويبخسها حقَّها، ويردُّها إلا أهل الظلم، وهم المعتدون المكابرون المعاندون، الذين يعلمون الحقَّ ويحيدون عنه، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩٦-٩٧]. إن أصول الجدل العلمي الصحيحة، تميّز بها القرآن الكريم، ولم تكن آياته وإرشاداته إلا منارة للحق، وسبيلاً قويماً لمعرفة الإيمان الحقّ، واتِّباع رسالة الحقّ.

المطالب التعجيزية للمشركين وأشياعهم

آثر المشركون في صدر الدعوة الإسلامية وحين نزول الوحي الإلهي أن يظلّوا على شركهم وعنادهم، فلم يصغوا لنداء المنطق، ولم يستجيبوا بإمعان لدعوة الحق ورسالة الإنقاذ، وآزرهم في هذا الموقف بعض اليهود الذين كانوا يعلِّمون قريشاً هذه الحجة وهي: لم يأتكم محمدﷺ بمثل ما جاء به موسى من العصا وغيرها، فطالبوا بمعجزات مادِّية محسوسة، ولم يكتفوا بإنزال القرآن الكريم المعجزة الأبدية الخالدة، وزادوا في غيِّهم، فاستعجلوا العذاب الذي أوعدهم به القرآن والنَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام، ولم يدروا أن العذاب الأكبر في نار جهنم سيحيط بهم إحاطة تامّة، قال الله تعالى واصفاً هذا الموقف الوثني ومن يؤيِّده:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً
وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً(١) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ(٢) ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٥٠-٥٥].

قالت قريش وبعض اليهود تعنُّتاً وتعجيزاً: هلا أنزل على محمد آية حسِّية مادِّية، كآيات الأنبياء المتقدِّمين، مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليهم السّلام، لإثبات صدقه وأنه رسول الله؟!

فأجابهم القرآن الكريم في قوله تعالى آمراً نبيّه عليه الصّلاة والسّلام أن يُعْلِمَهُم أن هذا الأمر بيد الله تعالى، لا يستنزله الاقتراح والتَّمنِّي، وأن النَّبي بعث نذيراً، ولم يؤمر بغير ذلك، فليقفوا عند حدود الأدب والطاقة.

أوَليس يكفيهم دليلاً على صدق نبوّتك يا محمد إنزال القرآن المجيد عليك، والذي هو أعظم الآيات، وهو المعجز للجنّ والإنس، ويتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار، وفيه أخبار الماضين، وعظة اللاحقين، وإنذار الآتين في المستقبل، وفي ذلك الكتاب من الرحمة والذكرى الكافية للمؤمنين.

حكى الطبري وغيره: أن هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ . .﴾ نزلت بسبب قوم من المؤمنين أتوا النَّبي ﷺ بكتُب، قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود الذين أخبروهم بشيء من التوراة، فأنكر رسول الله ﷺ ذلك، قال: «كفى بهذا ضلالة، قوم رغبوا عما أتاهم به نبيّهم، إلى ما أتى به غيره». ونزلت الآية بسببه . قال ابن عطية: والتأويل الأول أجرى مع نسق الآيات، أي إنهم طلبوا آية بحسب مزاجهم، فأجابهم الله بأن القرآن أعظم الآيات.

---

(١) فجأة . (٢) يحيط بهم .

ثم أمر الله نبيّه ﷺ بالاستناد إلى أمر الله تعالى، وأن يجعله حَسْبه أو كفايته شاهداً وحاكماً بينه وبينهم، بعلمه وتحصيله جميع أمورهم.

إنه تعالى لا تخفى عليه خافية، يعلم جميع ما هو كائن ويكون في السماوات والأرض، ويعلم الذين آمنوا بالباطل: وهو عبادة الأوثان والأصنام من دون الله، وجحدوا بوجود الله أو توحيده، مع توافر الأدلة على الإيمان به، أولئك لا غيرهم هم الخاسرون في صفقتهم، حيث اشتروا الكفر بالإيمان، وسيجازيهم الله تعالى في القيامة على ما فعلوا.

ثم أخبر الله تعالى عن لون آخر من جهل المشركين وحماقتهم، وهم كفار قريش الذين يتعجلون نزول العذاب بهم، على جهة التعجيز والتكذيب، وهو العذاب الذي توعدهم به محمد ﷺ، ولولا كون العذاب محدداً بوقت معلوم، لأتاهم من حيث لا يشعرون، ولسوف يأتيهم فجأة، وهم لا يحسّون بمجيئه، بل يكونون في غفلة عنه.

إنهم يتعجلون العذاب، والعذاب الأكبر واقع بهم حتماً، وهو عذاب جهنم الذي يحيط بهم وبأمثالهم من كل جانب، وهذا توعُّد بعذاب الآخرة.

وصفة تعميم العذاب: أنه يحيط بهم من كل جانب، ويغطّيهم من كل جهة من جهاتهم، ويقول الله تعالى على سبيل التوبيخ والتقريع: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من الكفر والمعاصي. ويُشَبَّه العذاب بالذوق تهكُّماً وتبكيتاً، كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدُّخان: ٤٤/٤٩].

الهجرة عند تعطيل الشعائر

يريد الله تعالى أن يستمرَّ تدفُّق ذكره ومناجاتُه وعبادته وإعلان توحيده والالتزام بشريعة القرآن الكريم والنَّبي العدنان، في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة، ليتصل

نداء الحق، وتستمر الصِّلة الإلهية قوية بالبشر، يؤدي كل جيل ما عليه من واجبات الطاعة والاستقامة، وأداء الأعمال الصالحة التي تؤدي إلى مرضاة الله عزّ وجلّ، والاستقرار في دار المجد والسلام والخلود وهي دار الجنة. وهذا كله تفضُّل من الله تعالى بتوجيه البشر لما فيه خيرهم، وترك ما فيه شرّهم وضررهم، وهذا ما رسمته لنا الآيات بالمبادرة بالهجرة من ديار الكفر إذا تعذَّر على المسلم إقامة شعائر دينه، إلى ديار الإسلام، قال الله تعالى:

﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم(١) مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا(٢) تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ(٣) لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٥٦-٦٠].

الآية الأولى: ﴿يَـٰعِبَادِيَ﴾ نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، كانوا في ضيق من إظهار الإسلام بها.

وهي تحرِّض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأن البقاء في أرض فيها أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن تُلتمس عبادة الله تعالى في أرضه. فيا أيها العباد المصدِّقون بالله ورسوله، إن أرض الله واسعة غير ضيِّقة، يُمْكِنكم الإقامة في أي موضع منها، فإذا تعذَّرت عليكم إقامة شعائر الدين، بسبب أذى الكفار، فهاجروا إلى مكان آخر، تتوافر لكم فيه الحرية والطمأنينة في إقامة شعائر الله، وما عليكم إلا متابعة عبادة الله وحده دون غيره،

(١) لننزلنّهم . (٢) منازل رفيعة . (٣) كثير من الدّوابّ .

وقوله تعالى: ﴿فَإِيَّىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ إياي: منصوب بفعل مقدر يدلُّ عليه الظاهر، تقديره: فإياي اعبدوا فاعبدون، على الاهتمام أيضاً في التقدير.

ولا خوف من الهجرة والانتقال في البلاد، فإن الموت كائن لا محالة لكل نفس، في كل مكان، ثم إلى الله المرجع والمآب، أي إن المكروه لا بد من وقوعه، في داخل الوطن أو خارجه. وهذه الآية ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ..﴾ تحقير لأمر الدنيا ومخاوفها، من أجل أن بعض المؤمنين تخوَّف في حال خروجه من وطنه أن يموت أو يجوع ونحو هذا، فحقَّر الله تعالى شأن الدنيا، والمراد: أنتم لا محالة ميتون، ومحشورون إلى الله تبارك وتعالى، فالبدارُ إلى طاعة الله تعالى والهجرة إليه أولى بالامتثال.

ثم وعد الله المؤمنين العاملين بسكنى الجنة، تحريضاً منه تعالى، وذكَر الجزاء الذي ينالونه، فالذين صدقوا بالله ورسوله، وعملوا صالح الأعمال بالتزام أوامر الله واجتناب نواهيه، ليُنزلنّهم الله منازل عالية في جنات، تجري الأنهار من تحت أشجارها، على اختلاف أصنافها من ماء وخمر غير مسكرة، وعسل مصفى، ولبن، ماكثين فيها أبداً على الدوام، جزاءً لهم على أعمالهم الطيِّبة، نعم هذا الجزاء جزاء العاملين المخلصين.

ثم وصف الله تعالى العاملين بالصبر على أداء الطاعات وعن الشهوات، والتوكُّل على الله وتفويض الأمور إليه في جميع أحوالهم الدنيوية والأُخروية، والصبر والتوكُّل يجمعان الخير كله.

والذي يعين على الهجرة ويحرِّض عليها ضمان الله أرزاق العباد، لأن بعض المؤمنين فكَّر في الفقر والجوع الذي يلحقه في الهجرة، فأبان الله تعالى أن الرزق مكفول بيد الله لكل مخلوق، فكم من دابَّة (كل ما يدبُّ على الأرض) لا تطيق حمل

رزقها لضعفها، ولا تستطيع جمعه وتحصيله، الله ييسّر لها الرزق على ضعفها، وييسّر لكم الرزق أيها الناس، والله هو السَّميع لأقوال عباده، العليم بضمائرهم وأسرارهم. والمعنى: الله يرزقكم أنتم، ففضِّلوا طاعة الله على كل شيء.

نزلت هذه الآية: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ كما روى ابن عباس: أن النَّبي ﷺ قال للمؤمنين بمكَّة حين آذاهم المشركون: اخرجوا إلى المدينة وهاجروا، ولا تجاوزوا الظلمة، قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار، ولا من يطعمنا ولا من يسقينا، فنزلت الآية: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ..﴾ الآية.

إقرار المشركين بالخالق

مهما استبدَّ العناد بأهل الشِّرك والوثنية لا يجدون مناصاً من الاعتراف بربوبية الله وكونه خالق الكون: سمائه وأرضه، كواكبه وشمسه وقمره، برّه و بحره، وأنه منزل المطر من السماء لإحياء الأرض بعد موتها وجفافها، وأنه الرازق المتصرِّف بكل شيء، فإذا كان هذا مستقرّاً في عقيدتهم، مترسِّخاً في أذهانهم، فلم يبق إلا إكمال هذه العقيدة بالإقرار بوحدانية الله تعالى، وأنه لاسواه الأحقُّ بالعبادة، والأولى بالتوجُّه إليه في السّر والعلن، لاستمداد الخير منه، ودفع الشَّر والضَّرر به، قال الله تعالى مبيِّناً هذه الحال السائدة بين المشركين:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ(١) ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ(٢) إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦١-٦٣].

---

(١) فكيف تصرفون عن عبادته؟ (٢) يضيقه على من يشاء.

هذه الآيات إفحام للمشركين القائلين بتعدُّد الآلهة، وإقامة للحجة عليهم، بأنهم إن سئلوا عن الأمور العظام التي هي دلائل القدرة، لم يكن لهم إلا التسليم لله تعالى.

فوالله يا محمد إن سألت المشركين بالله إلهاً آخر: من الذي أوجد أو خلق السماوات وما فيها من الشمس والقمر المسخَّرَين المذلَّلين بأمر الله في مدار معين وبنظام دقيق ينشأ عنهما تعاقب الليل والنهار، وما في السماوات أيضاً من كواكب ونجوم ثوابت وشهب منقضة، وما في الأرض من كنوز ومعادن وجبال وأنهار و بحار ومخلوقات أرضية متعدِّدة، وما تدلُّ عليه من عظمة وقدرة إلهية، لو سألتهم أيها الرسول عن ذلك، لأجابوك بأن الموجد المبدع الخالق هو الله تعالى، فكيف يصرفون عن توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له؟! فإن المعترف بأن الله هو الخالق، ينبغي أن يعترف بوحدانية هذا الإله الذي لا يشاركه في خلقه وتدبيره أحد، والمعنى المراد: أن المقرَّ بتوحيد الرُّبوبية لله، يجب عليه الإقرار بتوحيد الألوهية، فلا إله غيره، سواء من الأصنام والأوثان، أو من الملائكة، أو الكواكب أو غيرها.

والدليل الآخر بعد الاعتراف لله بالخلق والتدبير: هو أن الله تعالى من أجل دوام المخلوقات، تكفَّل برزقها، ويسَّره لها، لكن بحكمة إلهية معينة هي لمصلحة المخلوق، فالله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً واختباراً له، ويضيق الرزق على من يريد ابتلاءً ومحنةً، على وفق مقتضى الحكمة و بحسب المصلحة المستقرة، لأن الله تامّ العلم بكل شيء، من المفاسد والمصالح، فيمنح ويمنع ويوسع ويقتر، بما يراه الأصلح للعباد، كما جاء في آية أخرى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشُّورى: ٤٢/٢٧].

واستمراراً لمدد الرزق، وتقريراً لحقيقة ثابتة يعترف بها المشركون: أنك أيها الرسول لو سألتهم أيضاً عمن ينزل المطر من السماء أو السحاب، فيحيي به الأرض

الجدبة بعد جفافها ويبسها، فتصبح متحرِّكة نضرة بالنبات الأخضر، لأجابوك بأن الله تعالى هو الفاعل لذلك، فإذا قالوا هذا، فقل لهم أيها النَّبي: الحمد لله على قيام الحجة عليكم، وأن الله مصدر النِّعم كلها، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعقلون هذا التناقض الحاصل منهم، فتراهم يقولون بأن الله هو الخالق الرّازق، ثم يقولون بوجود إله آخر معه، فيخالف فعلهم قولهم، وإقرارهم، ويعبدون مع الله تعالى وثناً أو حجراً أو معدناً لا يتمتع بحقائق الأُلوهية، ولا ينفعهم شيئاً، ولا يضرّهم إن تركوا عبادته. إن هذا لون من ألوان الحماقة والخرافة والطيش والبدائية القاتمة.

أحوال الدنيا والكافرين فيها

الإنسان فيما يتعلق بقضايا الدين والدنيا قد يكون قصير النظر، لا ينظر إلى ما وراء هذا العالم، وتقلُّبات الدنيا سريعة وشؤونها لاهية، حتى إذا ما وقع في المحنة الخانقة، تراه يبذل كل ألوان الرجاء والاستغاثة، لاستنقاذ نفسه، وما تعرَّض له من مخاوف الغرق أو الإعصار أو الزلزال، ولا يقدِّر المشرك المقيم في مكة نعمة الأمن الكبرى في البلد الحرام الآمن، مع أن البلادُ المجاورة وغيرها لا أمان فيها ولا اطمئنان. إن الكافر بالله هو الظالم الحقيقي لنفسه، ولا ظلم أشدّ طغياناً من افتراء الكذب على الله أو تكذيبه بالحقِّ الثابت الساطع. أما المؤمن المجاهد نفسه وهواه، فإن الله يوفِّقه للخير وسبيل النجاة، ويؤيِّده ويؤازره لإحسانه العمل، واستقامته في الحياة، قال الله تعالى مبيِّناً أحوال الدنيا والناس فيها.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ(١) لَوْ كَانُوا۟

(١) الحياة الدائمة الخالدة .

يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ(١) فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ(٢) فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ(٣) ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ(٤) ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٤-٦٩].

وصف الله تعالى واقع الدنيا في هذه الآية بأنها لهو ولعب، أي ما كان منها لغير وجه الله تعالى، فإن ما كان لله تعالى فهو من الآخرة، ذلك أن كل ما كان من أمور الدنيا الزائدة على الضروري الذي به قوام العيش والحياة، والتَّقوِّي على الطاعات، فإنما هو لهو يتلهَّى به، ولعب يُتَسلَّ به. وأما الآخرة فهي الحيوان، أي دار الحياة الباقية الخالدة. وهذا الوصف مفيد القوم الذين يعلمون الحقائق، ويدركون المصائر، ومن علم بذلك آثر الباقي على الفاني. والفرق بين اللهو واللعب: أن اللعب إقبال على الباطل، واللهو: إعراض عن الحق. ثم وصف الله المشركين في وقت المحنة:

فإنهم إذا ركبوا في السفينة مثلاً، وتعرَّضوا لخطر الغرق، دعوا الله وحده ناسين كل صنم وغيره، مخلصين النِّية والرغبة إلى الله تعالى، صادقين في توجُّههم، فإذا أمنوا ونجوا من الخطر أو الهلاك، عادوا لشركهم، ونادوا أصنامهم وأوثانهم، كافرين بنعمة النجاة. فقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ معناه يرجعون إلى ذِكْر أصنامهم وتعظيمها.

إنهم في بقائهم على الشِّرك يؤول أمرهم إلى الكفر بما آتاهم الله من نعم، والتمتع بعبادة الأصنام، فتكون لام ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ و ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ﴾ لام العاقبة أو الصيرورة، أو

(١) العبادة والطاعة . (٢) اللام في: ليكفروا، وليتمتعوا: لام التعليل، والمعنى يشركون ليكونوا كافرين، متمتعين بعبادة الأصنام، أو أنها لام الصيرورة . (٣) يؤخذون قتلاً أو أسراً . (٤) مكان الإقامة .

إنها لام (كي) للتعليل على سبيل التهديد، أي يشركون ليبقوا كافرين، منعمين بالوثنية، مثل قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾.

ثم عدَّد الله تعالى على كفرة قريش نعمته، ومنها أمانهم في مكة البلد الآمن الحرام، من غير تعرُّض لقتل ونهب وسلب، فجدير بهم شكر هذه النعمة، مع أن الناس كانوا يتخطَّفون من كل مكان حولهم، ثم قرَّرهم الله على حالهم على جهة التوبيخ، وهي إيمانهم بالباطل وهو الأوثان، وكفرُهم بالله ونعمته، إنه تقرير لواقع ووصف له، لا على سبيل الرِّضا به، وإنما التَّنديد به.

ثم إنهم أظلم الناس، وقد أعلمهم الله أنه لا أحد أظلم منهم، وفي ذلك وعيد شديد، فهم أحقُّ الناس بالعقاب، إذ لا أحد أشد عقوبة ممن كذَّب على الله بالشِّرك، ولزم تكذيب كتابه ورسوله، أليس لهم مقر عقاب؟! أليست جهنم هي مثوى ومأوى جميع الكافرين؟! إن هذا التهديد والوعيد بهذه الألفاظ الموجزة الجامعة للمعاني الكثيرة لا نظير له في عالم التحذير والإنذار، والفحوى بيان عاقبة المشركين الكافرين.

أما عاقبة المؤمنين: فهي الظفر بجنان الخلد والرضوان، فالذين جاهدوا أنفسهم وأطاعوا ربَّهم، ونصروا دين الله وكتابه ورسوله، وقاتلوا المعتدين المكذبين بالحق، إنهم هم الذين هداهم الله ووفَّقهم إلى طريق الجنة، وسبيلِ السعادة والخير، في الدنيا والآخرة، والله دائماً مع المحسنين أعمالهم بالنصرة والتأييد، والحفظ والرعاية.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ أي من أجل إرضائنا وعلى هدي قرآننا. إن هذه المقارنة بين أحوال العصاة والكافرين، وأحوال الأتقياء والطائعين، تبيِّن تباين الحالَيْن، وفرق المصيريْن، إنه فرق شاسع، ووضع متباين، أهلُ الشِّرك والكفر في نيران تتلظَّى بهم، وأهل الإيمان والطاعة في جنان ونعم يتمتعون بها وينعمون في ظلالها، فما أنعم حال السعداء، وما أشقى حال الأشقياء؟!

تفسير سورة الرّوم

تحقيق الغيب المخبر به عن الروم

من وجوه إعجاز القرآن الكريم: الإخبار عن المغيبات سلفاً في المستقبل، ووقوع الأشياء كما أخبر تماماً، ومن هذه الأخبار الغيبية: هزيمة الروم أمام الفرس، ثم انتصار الروم على الفرس، وذلك في حدود بضع سنوات من ثلاث إلى عشر، كما أخبر القرآن، فبعد نزول سورة الروم سنة (٦٢٢ م) ببضع سنين في سنة (٦٢٧ م) أحرز هرقل عظيم الروم أول نصر حاسم للروم على الفرس، في نينوى، على نهر دجلة، وانسحب الفرس لذلك من حصارهم القسطنطينية، ولقي كسرى أبرويز مصرعه سنة (٦٢٨ م) على يد ولده: شيرويه، وهذا ما أرّخه القرآن قبل وقوعه في الآيات الآتية في مطلع سورة الرّوم المكّية:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ(١) ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ(٢) وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ(٣) سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ(٤) لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

[الرُّوم: ٣٠/ ١-٧].

(١) قهرت فارس الروم. (٢) أقربها إلى فارس. (٣) كونهم مغلوبين. (٤) البضع: ما بين الثلاث إلى التّسع أو العشر من السنين.

سبب النزول: ما أخرجه التِّرمذي عن أبي سعيد الخدري قال: لما كان يوم بدر، ظهرت الروم على فارس، فأَعْجَبَ ذلك المؤمنين، فنزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ . وقد كان الفرس هم الغالبين للرومان في بدء الأمر، على مشارف الشام مما يلي بلاد العرب، ففرح بذلك مشركو العرب إذ قالوا: إن الفرس لا كتاب لهم مثلنا، والرّومان لهم كتاب مثلكم، لأنهم نصارى، ولننتصرن عليكم كما انتصر الفرس. وتَراهَنَ أبو بكر مع المشركين على انتصار الروم، في مدة بسيطة، فقال له النَّبي ﷺ: زِد في الرِّهان ومدّ الأجل، ففعل، فانتصر الروم في أثناء الأجل، بعد خمس سنوات، كما تقدَّم، وأخذ أبو بكر الجُعْل وتصدَّق به.

والمعنى: الٓمٓ: هذه حروف مقطعة للتنبيه على ما يأتي بعدها، ولتحدِّي العرب بمجاراة القرآن ومعارضته، مع أنهم فصحاء العرب، وكلامهم مكوَّن من هذه الحروف التي تتركَّب بها الكلمة العربيَّة أو الكلام العربي الذي ينطقون به.

لقد غلبت الفرس الرّوم في أقرب أرض الرّوم إلى بلاد العرب، في أعلى مشارف بلاد الشام، في الجزيرة: وهو موضعٌ بين العراق والشام، فسُرَّ المشركون الكفرة، وأدنى الأرض: أقرب الأرض، فإن كانت الوقعة بأذرعات بحسب قول عكرمة فهي من أدنى الأرض بالنسبة إلى مكّة، وإن كانت الوقعة بالجزيرة بحسب قول مجاهد، فهي أدنى الأرض بالنسبة إلى أرض كسرى الفرس. فبشَّر الله تعالى عباده المؤمنين بأن الروم سيَغْلِبون في بضع سنين، والبضع: من الثلاث إلى التِّسع من السنوات، وذلك من تاريخ الموقعة الأولى. وهذا إخبار عن أمر غيبي في المستقبل، أيّده الواقع، ولله الأمر كله من قبل الغلبة ومن بعدها، فيحقق الله الغلبة لفئة على أخرى، ثم يَحدُث العكس، بأمر الله وإرادته وقدره وقدرته، خلافاً للموازين العسكرية البشرية، فقد يتغلب الضعيف أو القليل على القوي والكثير، بإذن الله ومراده، كما قال سبحانه:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٩]. وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ إخبار بانفراد الله بالقدرة.

ويوم ينتصر الرّوم النّصارى على الفرس الوثنيين، يفرح المؤمنون بنصر الله أهل الدين والإيمان، على من لا دين له ولا كتاب من السماء.

ينصر الله من يريد على الأعداء، لأنه الفعّال لما يريد، والحكيم في إرادته، والقويُّ الذي لا يُغلب، المنتقم من أعدائه، الرَّحيم بعباده المؤمنين.

ذلك وعد حقّ من الله تعالى، وخبر صدق واقع، والله لا يخلف الميعاد، ولا بدّ من وقوعه، لأن في سنّة الله تعالى أن ينصر أقرب الفريقين المتقاتلين إلى الحق، إلا أن يكون ذلك محنة وابتلاء لفئة بفئة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بحكم الله وأفعاله القائمة على العدل والحكمة، لجهلهم بالسُّنن الجارية في الكون، كما قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٨] ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٢].

وعلم الناس، و بخاصة الكفرة الذين لا يعلمون أمر الله وصدق وعده: علم ظاهري بأحوال الدنيا وعلومها المادّية، كتدبير: شؤون المعيشة، واكتساب الأموال من مصادر الثروة المتعددة، من زراعة أو صناعة أو تجارة، أو مهنة حرة أو خدمة ونحوها. وهم مشغولون بعلومهم هذه، لا ينظرون إلى المستقبل، وهم في غفلة تامة أو شبه تامة عن شؤون الآخرة، وما فيها من خوالد الأشياء، ودوام المصير.

هذا الخبر الغيبي له مغزاه وهدفه في تاريخ الدعوة الإسلامية، فلقد ترجّى النَّبي ﷺ ظهورَ دينه وانتشار دعوته، وامتداد تطبيق شريعة الله عزّ وجلّ التي أرسله الله بها، وتغلُّبه على الأُمم والشعوب التي تدين بدين غير سماوي، وتبدُّدَ آمال كفار مكّة بأن يرمي الله نبيَّه بمَلِك يستأصل وجوده، ويريحهم منه، ولكن خسر هنالك المبطلون.

فريضة التَّفكُّر في مخلوقات الله تعالى

لقد أحال القرآن الكريم في إثبات عقيدة الإيمان بوجود الله ووحدانيته على مشاهد حسِّيَّة ملموسة، وهي المخلوقات السماوية والأرضية، فهي ترشد إلى الموجد الخالق، بسبب بدء تكوينها وانتهائها بعد أجل محدد في علم الله تعالى، كما أحال إلى التأمُّل في مصارع الأقوام الغابرين الذين كانوا أشدّ قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، لكنهم حينما أعرضوا عن آيات الله البيِّنة، أهلكهم الله في الدنيا ودمَّرهم، لا بظلم من أحد، وإنما بسبب ظلمهم أنفسهم، ثم كانت عاقبتهم أسوأ العقوبة، وهي جهنم بسبب التكذيب بآيات الله تعالى والاستهزاء بها. هذا ما وصفه القرآن المجيد في إيراد الأدلة والبراهين الحسِّية على وجود الله وتوحيده شريطة التأمُّل والتفكُّر فيها، قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ(١) وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ(٢) أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾

[الرّوم: ٣٠/٨-١٠].

هذه حملة مركزة لإعمال المشركين وغيرهم أفكارَهم وعقولَهم، للتوصُّل في نتيجة التفكير والنظر والتأمُّل، لإثبات وجود الله وتوحيده، أفلا يتفكرون في أنفسهم أو ذواتهم أن ما أوجده الله تعالى من مخلوقات في السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، لم يوجِدْه إلا بالحقّ الثابت، الملازم للحكمة، ولأجل محدد، لا بد من

(١) حرثوها بالفلاحة . (٢) العقوبة الشديدة .

الانتهاء إليه، وهو قيام القيامة، فإذا حلَّ الأجل، تبدَّلت معالم الأرض والسماء، ولكن أكثر الناس، و بخاصة الكفار، هم جاحدون لقاء الله تعالى، منكرون وجود البعث والحساب، لأنهم لم يتفكروا في ذواتهم وحواسّهم، ليستدلّوا بذلك على الخالق المبدع.

المراد من هذه الآية: وصف الكافرين المشركين بالغفلة والإعراض عن أمر الآخرة، ثم توبيخُهم على أنهم قد فكَّروا تفكيراً مغلوطاً أو خطأً، فلم ينفعهم الفكر والنظر، لأنه لم يكن على سداد وصواب.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يراد به بسبب المنافع التي هي حق وواجب، تدلُّ على وجود الله وعبادته وحده على الدوام، والاعتبار بمنافع الأرزاق وغيرها. ثم أخبر الله تعالى عن كفر أكثر الناس بالبعث والنشور المعبَّر عنه بلقاء الله تبارك وتعالى، لأن لقاء الله تعالى هو أعظم الأمور، وفيه النجاة أو الهلاك.

ثم وبَّخ الله تعالى المشركين توبيخاً آخر، وهو أنهم ساروا ونظروا في عواقب الأمم المتقدمة، ولكن ذلك لم ينفعهم، حتى لم يعملوا بحسب العبرة وخوف العاقبة.

إن هؤلاء الجاحدين عطلوا ثمرة النظر والفكر، أفلم يتنقلوا في الأرض، فينظروا بعقولهم وأفهامهم، ويتأمَّلوا بأخبار الماضين، كانوا أشد قوة من أهل مكة ونحوهم، وكانوا أكثر تحضُّراً وتمدُّناً، حيث حرثوا الأرض وزرعوها، وغرسوا فيها الأشجار، أكثر مما فعله المكِّيون، وسائر العرب عند نزول الوحي، وجاءتهم الآيات الدّالَّة على وجود الله وتوحيده، فأعرضوا عنها، فأهلكهم الله بذنوبهم وكفرِهم وتكذيبِهم رسلهم، الذين أرسلهم الله تعالى إليهم، فلم يكن عقابهم جوراً ولا ظلماً، ولكن كانوا هم الظالمين أنفسهم، بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى.

وهناك عقاب أشدّ من عقابهم الدنيوي، فلقد كان مصير المسيئين أسوأ مصير، وعقابُهم أسوأ عقاب، وهو الخلود في نيران جهنّم، بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى

ودلائله الدّالة على وجوده ووحدانيته، وبسبب استهزائهم وسخريتهم منها. فقوله تعالى: ﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي كان عاقبة الذين كفروا هي النار، والتكذيب بآيات الله تعالى لامجرد الاستهزاء بها، فلذلك عدَّد الله تعالى عليهم الفعلين.

إن تعطيل ثمار التفكير الصحيح منشؤه الخلود إلى الكفر والضلال، لأن من أصمَّ سمعه، وأعمى بصره، بسبب ملازمته منهج الكفر وتقليد الآباء والأجداد، يصعب عليه ترك ما أَلِفَ وهجرُ ما اعتاد.

وإن إهمال الاعتبار بأحداث الماضين، الذين تعرَّضوا لعذاب الاستئصال، مع شدَّتهم وقوتهم في السِّلم والإعمار، والحرب والدَّمار، يعدُّ نكسة شديدة في تاريخ الفكر الإنساني.

والعاقل من اتَّعظ، والمفكِّر من اعتبر، وفائدة العظة والعبرة تكمن في سلوك أهل البصيرة وأصحاب الرأي الحرّ المنعتق من رواسب التقليد، ومحاكاة الآخرين من غير حجة ولا برهان.

إثبات المعاد ومخاوفه

الإيمان باليوم الآخر من أصول الاعتقاد في الإسلام، بل هو ضرورة لازمة لإنصاف الخلائق، وإحقاق الحقّ، وإبطال الباطل، لذا أخبر الله تعالى إخباراً عامّاً مطلقاً لجميع العالم بالحشر والبعث من القبور، وأكَّد سبحانه على أنه هو الذي يبدأ الخلق ويوجده، ثم يحييه ويعيده إليه، وفي ذلك اليوم يفرح المؤمنون بما أعدَّه الله لهم من جنّات النعيم، وييأس الكافرون والمجرمون من انقطاع حجّتهم، وإصابتهم بالإحباط وفقد الأمل بالنّجاة، ولا مفرَّ من هذا المصير، ولا أمل في الإنقاذ، وإنما الناس حينئذ فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

قال الله تعالى مبيِّناً أحوال القيامة والناس فيها: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ[(١)] ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ[(٢)] ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ[(٣)] ﴿١٦﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠/ ١١-١٦].

هذه حقيقة العالم في البدء والنهاية، فالله هو المبدئ وهو المعيد، فكما هو قادر على بدء الخلق وإنشائه، هو قادر على إعادته، وإرجاعه، فجميع المخلوقات يعودون إلى الله يوم القيامة، ويبعثون من القبور.

وفي يوم القيامة: ييأس المجرمون من الاهتداء إلى الحجة النافعة لهم، بسبب شدة الأهوال، وعقم الوصول إلى المسوِّغات المقبولة، والأعذار المُرضية.

ولن يجد المشركون لهم شفعاء من الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله، وكانوا بشركائهم وآلهتهم المزعومة جاحدين، متبرئين منهم، فإنهم لن يسعفوهم في وقت الحاجة إليهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٦-١٦٧]. وهذا كله دليل الإفلاس والخسران.

ثم أخبر الله تعالى عن انقسام أهل المحشر قسمين:

ويوم تقوم القيامة يتفرق الناس فُرقة لا اجتماع بعدها، فيؤخذ أهل الإيمان والسعادة إلى الجنان، ويؤخذ أهل الكفر والشقاوة إلى النيران، إنهم يتفرقون في المنازل والأحكام والجزاء.

---

(١) أي ييأس المجرمون من الاهتداء إلى الحجة الناجعة. (٢) يُسَرُّون. (٣) باقون فيه على الدوام.

فأما المؤمنون المصدِّقون بالله ورسوله واليوم الآخر، والعاملون العمل الصالح الذي يرضي الله، والمجتنبون كل ما نهى الله عنه، فهم أهل السرور والحبور، والبهجة والمتعة، إنهم يتمتعون بأكمل أوصاف النعيم، ويتقلَّبون في أعطاف النعمة والمسرّة، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدة: ٣٢/ ١٧]. وقوله تعالى: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي في جنّة يُنَعَّمون ويسرّون. والروضة: أحسن مايعلم من بقاع الأرض، وهي حيث يكثر النَّبت الأخضر.

وأما أهل الكفر والجحود بوجود الله وتوحيده، المكذِّبون رسله وآياته، المنكرون وقوع المعاد أو البعث بعد الموت، فهم خالدون مخلَّدون في عذاب الله في النار، لا يغيبون عن الله أبداً، ولا يَفْتُرون عنه مطلقاً، كما جاء في آية أخرى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحجّ: ٢٢/ ٢٢].

إن يوم القيامة يوم الانقطاع بين عالم الدنيا وعالم الآخرة، وهو يوم الانفصال التامّ بين أهل الإيمان وأصحاب الكفر، إنه يوم لا رجعة فيه إلى الدنيا، ولا أمل بلقاء واقع بين المؤمنين والكفار. إن أهل الإيمان المتميزين بصالح الأعمال: وهو الائتمار بأمر الله، واجتناب نواهيه، يتنعَّمون في رياض الجنة، وينظرون إلى وجه الله الكريم، وأما أهل الشَّقاوة والكفر والجحود، المكذِّبون بآيات الله البيِّنة، والمنكرون لوجود القيامة، فهم في العذاب جاثمون محضرون، أي مُدْخَلون إلى النار، لا يغيبون عن العذاب، ولا يخفف عنهم شيء من عذاب جهنم.

إن هذا الانقسام إلى فريقين في عالم الآخرة، لهو واضح التأثير، فالعاقل المدرك لمصيره، المقدر لمخاطر مستقبله، يبادر إلى الإيمان، ويعمل لما بعد الدنيا، مما ينجيه بين يدي الله، بإيمان صحيح، وعمل صالح خالص من الشوائب، متمحض لله تعالى.

أوقات الأذكار والعبادة

تحقيقاً للصِّلة الدائمة بالله تعالى، وإدامة لرقابة الله عزّ وجلّ في السّر والعلن، وضع الحقُّ تعالى نظاماً متكرِّراً منضبطاً للتسبيح والتحميد والعبادة، وحضَّ على الصلاة في أوقات معينة، وأزمان متكررة، وما أبدع وما أجمل نظام الإسلام بالتذكير بالعبادة عن طريق الأذان الشرعي، الذي هو دعوة دائمة للإيمان والإسلام، بإعلان الشهادتين، والحثّ على أداء الصلاة وتحقيق الفلاح، وإدراك مغزى العبادة، والإيقان بعظمة الله، وأنه أكبر شيء في هذا الوجود. واستحضار عظمة الله، وإحاطة علمه وقدرته، فهو مبعث الهيبة والوقار، والمبادرة إلى الامتثال، والاستقامة وتحقيق المنال، قال الله تعالى آمراً بالعبادة، حاضّاً على الصلاة في أوقات معينة، لأن الإيمان تنزيه بالجنان، وتوحيد باللسان، وعمل صالح يشمل جميع الأركان:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ(١) ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الرّوم: ٣٠/١٧-١٩].

الدنيا مملوءة بالأشياء المختلفة، والمتناقضات والأضداد، تحقيقاً لتكامل الكون، وإدراك الفروق والتفاوت بين المخلوقات، فنجد الكفر مقابلاً للإيمان، والشقاء موازياً للسعادة، والقبح في مواجهة الجمال، والرذيلة تنافس الفضيلة، والنقمة أمام النعمة، والعذاب قرين الرحمة، وكل واجهة من هذه الواجهات تأكيد لحرِّية الإنسان، وتقرير لممارسة حقِّه في الإرادة والاختيار، فهو الذي يُقبل على ما فيه الوصول إلى رحمة الله ورضوانه، وهو الذي يزجّ بنفسه في موجبات العذاب والعقاب.

---

(١) تدخلون في وقت الظهيرة .

إن هذه الآيات تحدِّد أوقات التسبيح والتحميد والتكبير وغيرها من الأذكار، وتعيِّن أوقات الصلاة، والمؤمن يحرص على هذه الأوقات لأداء واجبه وإبراء ذمَّته، فيسبح الله، أي ينزهه عن جميع صفات النقصان، ويثبِّت له كل صفات الكمال، في جميع أوقات الليل والنهار، يسبح الله بأمره حين ابتداء المساء أو الليل، وحين طلوع الفجر أو النهار، ويحمد الله تعالى جميعُ من في السماوات والأرض، من ملائكة وجنّ وإنس، وجماد ونبات، وحيوان، ويسبح الإنسان الله وينزهه أيضاً في وقت العشي أو العشاء، وهو شدة الظلام، وفي وسط النهار وقت الظهيرة.

قال ابن عباس وقتادة وبعض الفقهاء: في هذه الآية تنبيه على أربع صلوات: المغرب، والصبح، والعصر، والظهر. والعشاء الآخرة في رواية أخرى. والواقع أن الآية تشمل أوقات الصلاة الخمسة، لأن العشي وقت العشاء، والمغرب وقت الإمساء، والصبح وقت الإصباح، والظهر والعصر من بعد تحوُّل الشمس إلى جهة الغرب.

والمعنى: نزِّهوا الله تعالى عن صفات النقصان، وصِفوه بصفات المجد والكمال، في جميع هذه الأوقات المتعاقبة، من طلوع الفجر إلى غسق الليل، لأن أفضل الأعمال وأحبّها إلى الله أدومها وأبقاها.

ومما يستدعي تسبيح الله وتنزيهه: ثبوت قدرته الخارقة، فالله هو القادر على الإحياء والإماتة، يخرج الإنسان الحي وغيره من التراب الميت، ثم من النطفة، ويخرج النطفة من الإنسان، والبيضة من الطائر، وكلمة (الحي والميت) في هذه الآية، تستعمل حقيقةً ومجازاً، أما الحقيقة: فهي المني يخرج منه الإنسان، والبيضة يخرج منها الطائر، وهذه بعينها تخرج من حي، ونحو ذلك. وأما المجاز: فهي إخراج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وإخراج النبات الأخضر من الأرض، وإخراج الطعم من النبات.

والله تعالى يحيي الأرض بالمطر، فيُخرج النبات من الحبّ، والحبّ من النبات، ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور أحياء بعد أن كنتم أمواتاً، وذلك على الله يسير. أي إنه تعالى بعد إيراده الأمثلة الواضحة ببعث الأجساد عقلاً، أبان أنه كذلك خروجنا من القبور.

هذه الأمثلة الحسِّية والمقارنات توضِّح للناس طريق الإيمان، وكيفية ارتباط الحياة الدنيوية بالحياة الأُخروية، وما أكثر هذه الأمثلة في القرآن الكريم، ومنها: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٢٢/٥].

بعض أدلة القدرة الإلهية والوحدانية

لقد ذكر الله تعالى مجموعة من البراهين الساطعة العظيمة الدّالة على قدرته الباهرة وعظمته وتوحيده، وهي تشمل بدء خلق الإنسان من تراب، وخَلْق الأزواج من جنس الأزواج، وإيجاد رباط مودة ورحمة بين الزوجين، وخلق السماوات والأرض، واختلاف الألسنة والألوان، والنوم بالليل والنهار، وطلب الرزق من فضل الله، وإراءة البرق، وقصف الرَّعد، وإنزال المطر من السماء، وقيام السماء والأرض بأمره وتدبيره، والاستجابة لأمره بالإعادة أحياء، وملكه جميع من في السماوات والأرض، والتذكير ببدء الله الخلق، ثم إعادتهم أحياء من القبور. وهذا ما أوردته الآيات الكريمة التالية:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ(١) ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ

(١) تتصرَّفون في أحوالكم وأسفاركم.

خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا(١) وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ(٢) ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ(٣) فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ [الرُّوم: ٣٠/ ٢٠-٢٧].

الآية الأولى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ نزلت فيما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: تعجَّب الكفار من إحياء الله الموتى، فنزلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ..﴾.

والمعنى: من آيات الله تعالى الدّالّة على عظمته وتمام قدرته على الخلق والإعدام، أن الله تعالى خلقكم أيها البشر في الأصل والبدء من تراب، وجعل مصدر غذائكم من لحوم الحيوان والنبات من التراب، ثم بعد إنشائكم ووجودكم لإعمار الأرض وتقدُّمها تتوزَّعون فيها لأغراض شتى، من بناء المدائن والحصون، وزراعة الأرض والحقول، والانتقال في الأسفار لكسب المعايش وتحصيل الأرزاق، وجمع الأموال.

وللحفاظ على النوع الإنساني، جعل الله تعالى من العلامات الدّالة على قدرته ورحمته وهيمنته: خلق النِّساء من جنس الرجال، وإيجاد وشائج وصلات وثيقة بين الرجل والمرأة، قائمة على المودّة (أي المحبة) والرحمة (أي الشفقة) ليتعاون الجنسان على

(١) لتميلوا إليها وتألفوها . (٢) مطيعون منقادون له . (٣) الوصف الأعلى في المكان .

تحمُّل أعباء الحياة، وترابط أفراد الأسرة، إن في ذلك الخلق والإيجاد وتكوين جسور المودة والألفة بين الأزواج، للسكن والاستقرار والهدوء، إن في ذلك لآيات أو علامات لقوم يتفكرون ويتأمَّلون في هذا.

ومن آيات الله أيضاً الدّالة على قدرته وعظمته: خلق السماوات والأرض من غير أعمدة ولا قواعد، واختلاف الألسنة واللغات والألوان، إن في ذلك المذكور لآيات دالّة على قدرة الله التامّة لقوم ذوي علم وبصر ومعرفة ترشدهم إلى الحق.

ومن آيات الله الدّالة على قدرته العجيبة: منامكم في الليل والنهار، وطلبكم الفضل والرزق من الله، إن في ذلك المذكور لدلالة لقوم يسمعون سماع تدبُّر واتِّعاظ. ومن آيات الله الدّالة أيضاً على تمام القدرة وثبوت الوحدانية إراءتكم البرق خوفاً للمسافر من الصواعق المحرقة، وطمعاً فيما تحبّون من المطر المحتاج إليه للإنسان والحيوان والنبات، إن في ذلك المذكور لدلالات واضحات لقوم يدركون هذا بعقولهم وأفكارهم.

ومن آياته تعالى الدّالة على قدرته: قيام السماء بلا عمد والأرض بلا قواعد، بأمر الله وتدبيره، ثم إذا دعاكم الداعي للخروج من القبور أحياء، خرجتم من غير انتظار. ولله جميع من في السماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً وتصرُّفاً، وهم جميعاً خاضعون لله، خاشعون لعظمته وهيبته.

والله تعالى هو الذي بدأ الخلق من غير مثال أو أصل سابق له، ثم يميته ويعيده كما بدأه، وذلك أيسر وأسهل عليه، بحسب منطق البشر، فإن الإعادة أهون من الابتداء في تقديرنا، أما بالنسبة لله تعالى، فهما سواء، لا فرق بين البدء والبعث، لأن الله قادر على كل شيء.

ولله تعالى الصفة العليا الكاملة في جميع السماوات والأرضين، وهو القوي في ملكه الذي لا يعجزه شيء، الحكيم في صنعه وتدبيره، وأمره ونهيه.

فساد اعتقاد المشركين بالأصنام

شيئان اثنان هما أخطر شيء على النفس الإنسانية وهما الهوى والجهل، وكلاهما يؤديان للإسراف في القول والعمل، والضلال في التَّصرفات وسوء السلوك، ويكون الإنسان في النهاية هو الضحية، لأنه لم يتدارك تقصيره، ولم يفعل شيئاً لتبديد جهله، ولم يروِّض نفسه على التَّرفع عن أهوائه، وظلَّ أسير التقليد الأعمى، وفريسة الموروثات والأساطير الخرافية. هذا هو شأن عبدة الأصنام، إنهم بدائيون جهلة وثنيون، يسيرون في فلك الأهواء والشهوات، ويسدُّون على أنفسهم باب العلم والتَّبصر، ومحاولة تصحيح التصوُّر والاعتقاد الفاسد، وقد عمل القرآن الكريم على تبصيرهم وتوعيتهم، وتحذيرهم، وإنقاذهم من وهدة الضلال، كما تصوِّر هذه الآيات:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠/٢٨-٢٩].

أخرج الطبراني عن ابن عباس قال -في بيان سبب نزول الآيتين -: كان يلبِّي أهل الشِّرك: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملَك، فأنزل الله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

أبان الله تعالى في الآيتين الكريمتين أمر الأصنام، وأوضح فساد معتَقد من يشركها بالله تعالى، بضرب هذا المثل الحسِّي الواقعي، ومعناه: جعل الله لكم مثلاً أيها المشركون تشهدونه من أنفسكم، وهو: هل ترضون أن يكون لكم شركاء في أموالكم، من عبيدكم يساوونكم في التصرُّف فيها، تخافون أن يقاسموكم الأموال؟ إذا كنتم لا ترضون ذلك لأنفسكم، فكيف تجعلون لله شركاء من عبيده ومخلوقاته؟!

وبعبارة أخرى: إنكم أيها الناس إذا كان لكم عبيد تملكونهم، فإنهم لا تشركونهم في أموالكم ولا في أموركم، وليس من شأنكم السماح لهم في إرث أموالكم أو مقاسمتهم إياها في حياتكم، فإذا كان هذا فيكم في علاقتكم بعبيدكم، فكيف تقولون: إن من عبيد الله ومُلكه شركاء في سلطانه وأُلوهيته، وتثبتون لربّكم ما لا يليق عندكم بأتباعكم؟ إن مثل هذا التفصيل والبيان لإلزام الحجة، نفصّل الآيات ونوضّحها لقوم يفكّرون في عقولهم تفكيراً سويّاً، ويتأمّلون فيما يقال لهم من الأدلّة والبراهين المنطقية.

والواقع أنكم أيها المشركون لا تفكّرون تفكيراً صحيحاً، وإنما تسيرون مع الأهواء والأساطير، ليس لكم حجة فيما فعلتم من جعل الأصنام شركاء مع الله تعالى، بل اتَّبعتم أهواءكم جهالة وشهوة، وقصداً لتحقيق مصالح دنيوية، وسرتم في عبادة الأوثان، من غير عقل ولا وعي، ولا هدى ولا بصيرة.

وحيث بقيتم مصرّين على الشِّرك، ولم تفكّروا في ترك عبادة ما لا يضرُّ ولا ينفع، فإنكم تستحقُّون التوبيخ والتهديد بالعقاب، ولا أمل في هدايتكم إذا تركتم هداية الله لكم، ومن الذي يرشدكم إلى الحق، ويهديكم إلى الخير والسداد وصحة الاعتقاد، إذا أمعنتم في الضلال، واخترتم الكفر على الإيمان؟ وزادكم الله ضلالاً على ضلالكم الذي اخترتموه منهاجاً لكم، واعتمدتم على أنفسكم، فإنكم تستحقون العذاب، ولا يكون لكم حينئذ ناصر ينصركم من بأس الله وعذابه، لأن الله أعذر حين أنذركم. وعَدْله يقتضي التسوية بين أهل الضّلال، كالتسوية بين أهل الإيمان، والتفرقة بين الفريقين.

إن هذه الآية المبدوءة بكلمة ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ﴾ هو إضراب عما يتضمّنه معنى الآية الأولى، كأن الله يقول: لا حجة ولا معذرة لعبدة الأصنام في نسبتهم الشريك لله،

بل إنهم اتَّبعوا أهواءهم جهالة وشهوة. وتكون النتيجة أنه لا ناصر لهم ينقذهم، ولا مخلِّص لهم من العقاب المستحقّ عليهم، فإن العقاب حقٌّ وعدل. لكل جانٍ، سواء في جنايات النفوس والأموال أو في جنايات العقائد والأديان.

الإسلام دين الفطرة والتوحيد

وجَّه القرآن الكريم الناس إلى ما يصلحهم وينفعهم، وينسجم مع فطرتهم البشرية، وحقيقةِ هذا الوجود، الذي يدين طوعاً أو كرهاً، لخالق الأرض والسماء، ويقرُّ بوحدانية الله تعالى على النحو الذي خلق الله عليه كل إنسان، وهوالاعتراف بربوبية الله وتوحيده، ولا مجال بعدئذ لكل ما يشوِّه الفطرة، ويعصف بالإنسان، ويرميه في وهاد الزيغ والضلال والانحراف، أو يجعله في شعاب الفرقة والاختلاف، من غير فائدة ولا مصلحة، وهذا ما نجده صريحاً في أوامر الله تعالى حيث قال سبحانه:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ(١) لِلدِّينِ(٢) حَنِيفًاۚ(٣) فِطْرَتَ ٱللَّهِ(٤) ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ(٥) وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ(٦) وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا(٧) كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠/ ٣٠-٣٢].

أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ باعتباره قدوة الأمّة بأن يقيم وجهه للدين المستقيم، وهو دين الإسلام، وإقامة الوجه: هو تقويم العقيدة، وحمل الإنسان على محمل الجدّ والعزم والحزم في أعمال الدين. والتعبير بإقامة الوجه: لأنه جامع حواس الإنسان

---

(١) سدّده . (٢) دين التوحيد والإسلام . (٣) مائلاً عن الباطل إلى الحق وهو الإسلام . (٤) الزموا دينه وهو الإسلام . (٥) المستقيم . (٦) راجعين إليه بالتوبة . (٧) فرقاً مختلفة الأهواء .

وأشرفها، ويكون المراد بالآية: وجِّه أيها النَّبي نفسك وقلبك لعقيدة الإسلام واتِّباع شرائعه، حنيفاً، أي معتدلاً مقوَّماً مائلاً عن جميع الأديان المحرَّفة المنسوخة، والزمْ أو اتَّبع فطرة الله تعالى، أي خلقة الله، أو افتطر بفطرة الله التي فطر، أي خلق وأبدع وسوى جميع الناس عليها، حيث خلقهم على ملَّة التوحيد، وأن الله واحد لا شريك له، في قرارة كل إنسان، وتحوّل تحوُّلاً تامّاً عن جميع الملل والأديان الباطلة، إلى الدين الحق والملّة القويمة، والفطرة: هي الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل المعدّة أو المهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى، ويَسْتدل بها على ربِّه جلَّ وعلا، ويعرف شرائعه، ويؤمن به، وهذا خطاب للنَّبي ﷺ ولأُمَّته، وهو يدلُّ على أن كل إنسان مخلوق على التوحيد والإقرار بوجود الله ووحدانيته، ولكن تعرض له العوارض، فيزيغ عن سنن الفطرة، وذلك كما قال النَّبي ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم وأحمد: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يُمجِّسانه، كمثَل البهيمة، تُنْتَج البهيمة هل ترى فيها جدعاء» . أي مَثَله كمثل الشّاة تولد سليمة الحواس والأعضاء، لا مقطوعة الأذن أو الأنف.

ولا ينبغي لأحد أن يبدِّل أو يغيِّر فطرة الله، أي الخلقة الأصلية، وهذا خبر في معنى النَّهي، أو الطلب، أي لا تبدِّلوا خلق الله الأصلي ودينه بالشِّرك، فتغيِّروا الناس عن فطرتهم التي خلقهم عليها. وذلك المأمور به من اتِّباع ملّة التوحيد والتمسُّك بالشريعة المطهرة والفطرة السليمة: هو الدين المستقيم الذي لاعِوَج فيه ولا انحراف. غير أن أكثر الناس لا يعرفون ذلك حقَّ المعرفة.

إنكم جميعاً أيها الناس مطالبون باتِّباع دين الله وتوحيده، خاشعين له، مقبلين عليه إقبالاً تامّاً، راجعين إليه رجوعاً كاملاً، وإنكم ملزمون بتقوى الله، أي العمل بأوامره واجتناب نواهيه أو معاصيه، وداوموا على إقامة الصلاة كاملة الأركان

مستوفية الشروط، واحذروا الشِّرك، ولا تكونوا بعد الإيمان بوحدانية الله مشركين به غيره، فلا تقصدوا في عبادتكم غير الله تعالى، بل كونوا موحِّدين مخلصين لله العبادة. والمشركون: هم كل من عبد مع الله إلهاً آخر، من بشر أو جماد أو كوكب أو غير ذلك.

وأوصاف المشركين: هم الذين فرَّقوا دينهم، أي اختلفوا فيما يعبدونه بحسب اختلاف أهوائهم، فبدَّلوا فطرة التوحيد، وصاروا فرقاً مختلفة، وأحزاباً متباينة، كل فرقة وحزب فرحون بما عندهم، مفتونون بآرائهم، مُعْجَبون بضلالهم.

وهذه حملة شديدة على الفِرَق الضَّالَّة والمذاهب المنحرفة، تدعو أهل البصيرة والوعي إلى أن يبادروا إلى توحيد عقيدتهم والعمل بشريعة ربِّهم التي أنزلها على خاتم النَّبيِّين محمد ﷺ.

تناقض المشركين

من المستغرب صُنْع بعض الناس وتناقضهم، فتراهم يقبلون على ربِّهم وقت الشِّدة الخانقة والأزمة المستعصية، فلا يجدون سواه ملجأ لتفريج الكروب، حتى إذا ما رفع عنهم البلاء، وزال عنهم البأس، تنكَّروا لخالقهم المنعم عليهم بدفع النقمة ورفع الشِّدّة، وهذا واضح من فعل عبدة الأصنام وبعض الكافرين الذين يعبدون الله من أجل الدنيا والمنفعة، فإن أُعطوا منها رضوا، وإن مُنعوا منها سخطوا، وعلى هؤلاء أن يدركوا أن مفتاح الرزق بيد الله تعالى، يمنح من يشاء، ويحجب النعمة عمن يشاء، بحسب ما يرى من الحكمة والمصلحة لعباده، وهذا ما أبانته الآيات الآتية:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم

بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا(١)
فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ(٢) وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ(٣) ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ(٤) إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ [الرُّوم: ٣٠/ ٣٣-٣٧].

هذا لوم وتقريع لفئتين من الناس: عبدة الأصنام المشركين بالله تعالى غيره، وبعض الجاحدين الذين يبتغون من وراء عبادة الله تحقيق المنافع ومكاسبِ الدنيا، فإن حصلوا على مبتغاهم اطمأنوا، وإذا حُرموا بعض الخيرات، تبرموا وسخطوا.

إن الفئة الأولى: وهم المشركون الوثنيون كسائر البشر، متى مسَّهم ضُرّ (أي شدة وبلاء) دعوا الله سبحانه، راجعين إليه دون سواه، خاضعين لسلطانه، وتركوا الأصنام مطروحة، فإذا أذاقهم الله رحمته، أي أصابهم أمرُه بها، والذَّوق هنا مستعار لإيصال النعمة والنَّجاء من الشِّدة، عادوا للشِّرك بالله، وعبدوا معه غيره من الأوثان والأصنام. وهذا يقتضي العجب، ويستدعي اللَّوم.

ويلحق بهؤلاء الانتهازيين النفعيين بعض المؤمنين، إذا جاءهم فرح بعد شدة، علَّقوا ذلك بمخلوق، أو بحذق آرائهم ومهاراتهم، أو بغير ذلك، وهذا شرك مجازاً، لأن فيه قلة شكر لله تعالى.

وتكون عاقبة هؤلاء المتناقضين الوقوع في الكفر وجحود فضل الإله وإحسانِه، فاستحقّوا التهديد، ويقال لهم: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي استمتعوا أيها المشركون بمتع الدنيا ورخائها، فسوف تعلمون عذابي في الآخرة على كفركم في الدنيا.

بل في الواقع لا دليل على صحة ما أنتم عليه من الضلال، فهل لكم سلطان، أي

(١) كتاباً وحجة .(٢) بَطِروا وأشِروا . (٣) ييأسون من رحمة الله . (٤) يضيقه على من يشاء بحسب حكمته .

حجة وبرهان من رسول أو كتاب ونحوه لإقرار ما تفعلون، والنطق والشهادة بما تشركون؟! وهذا استفهام إنكاري معناه: أنه لم يكن شيء من ذلك، فلم ينزل الله كتاباً يقرّ الشِّرك، ولا أرسل رسولاً يدعو إليه، إنما هو اختراع منكم.

وفريق آخر كالمشركين من بعض المؤمنين أو الكافرين، وصِفَتُهم: أنه إذا أنعم الله عليهم نعمة فرحوا بها وبطروا، وإذا أصابتهم شدة وبلاء، أيسوا وقنطوا من رحمة الله. وتعرُّضهم للشدة إنما كان بسبب ما اقترفوا من الإثم، وما ارتكبوا من السيئات. وقوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ معناه أن الله يمتحن الناس عند ظهور المعاصي، فقد يصاب أحدهم بسوء، ويعفو الله عن كثير.

التَّشابه قائم بين حال الفريقين أو الفئتين، المشركون يتعرَّضون للرحمة ثم للشِّدة، فلهم في الحالة الأولى تضرُّع وإنابة، ثم إشراك، ولهم في الحالة الثانية فرح وبطر، ثم قنوط ويأس، وكل إنسان يأخذ من هذا الخلق بقسط، فمنهم المقلّ ومنهم المكثر، إلا من غمر الإيمان قلبه، وتأدَّب بأدب الله تعالى، فصبر عند البلاء والضَّرَّاء، وسكن عند السَّراء، ولم يبطر عند النعمة، ولم يقنط عند الابتلاء. والقنوط: اليأس.

ثم ذكر الله تعالى طريق التَّخلُّص من اليأس من رحمة الله على كل حال، وهو أن يعلم كل إنسان أن الله تعالى يخصُّ من شاء من عباده ببسط الرزق، ويحجب أو يقتر الرزق عمن يشاء، للاختبار أو الابتلاء، إن في الحالين حال سعة الرزق وحال تقتير الرزق لأدلة وعلامات على الإيمان الصادق، فالمؤمن الصحيح الإيمان يشكر عند الرخاء، ويصبر عند البلاء، ولا يتغير في الحالين عن الإقبال على ربِّه وعبادته بصدق وإخلاص.

الرزق الحلال والرزق الحرام

الرزق محدود مقنن لكل إنسان في علم الله تعالى، لكن بعض الناس يكون رزقه حلالاً طيباً مباركاً فيه، ينفق منه على نفسه وأهله وأقاربه والمحتاجين من إخوانه، وبعض الناس الآخرين يكون رزقه حراماً آتياً من غير كسب ولا عمل، من الربا أو الفائدة المضمومة إلى القرض، ولكن لا خير فيه ولا بركة، والرازق هو الله تعالى، والبشر وسائط، إما بعملهم وكدّهم وجهدهم، وإما بمساعيهم ووساطتهم، فهم وسائط خير وجسور منفعة، وليس لأحد من غير الله تعالى قدرة على الإطلاق على نفع إنسان أو رزقه، ولا على إلحاق الضر به وحرمانه من الرزق، ومن باب أولى ليس للأصنام والأوثان المتخذة شركاء لله في عقيدة الوثنيين أي دور أو مجال في رزق أحد أو حرمانه منه، قال الله تعالى مبيناً هذه الأحوال:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ(١) ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٨-٤٠].

إذا كان الرزق مصدره من الله تعالى وحده، وأن الرزق محدود لا يزيد ولا ينقص، فيكون التصرف فيه بحسب مرضاة الله، لذا أمر الله تعالى على جهة الندب بإيتاء ذوي القرابة حقوقهم، من صلة المال وحسن المعاشرة، ولين القول، وإعطاء المساكين المحتاجين وأبناء السبيل، أي المسافرين المنقطعين ما هم حظ به، لأنهم إخوة إما في الدين وإما في الإنسانية، وذلك الإيتاء أو الإعطاء لهؤلاء القرابة والمحتاجين

(١) أي المضاعفون ثوابهم، أي يضاعف الله لهم الثواب.

خير محض في ذاته، ونفع عظيم، لكل من يقصد بعمله وجه الله تعالى، و ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ هنا: جهة عبادته ورضاه.

وأولئك المعطون شيئاً من أموالهم على سبيل البر وصلة الرحم، وإنقاذ النفس الإنسانية من الضرر أو الهلاك: هم لا غيرهم الفائزون بُبْغيتهم، البالغون لآمالهم، المحققون الخير لأنفسهم في الدنيا والآخرة. أخرج الترمذي والدارمي في الزكاة عن فاطمة بنت قيس قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في أموالكم حقاً سوى الزكاة».

وأما من أعطى عطية، يود الحصول على أكثر منها، من طريق الهدية أو الربا (الفائدة) في التجارات، فلا ثواب له عند الله تعالى، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: ٧٤/ ٦]. أي لا تعط عطاء تريد أكثر منه، وهذا لا خير فيه ولا ثواب. قال ابن عباس: نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى تمويلهم ونفعهم والتفضل عليهم، وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع لهم.

وأما العطاء الحسن الذي يحقق الثواب لصاحبه، فهو الزكاة، أي من أعطى صدقة، يقصد بها وجه الله تعالى وحده، بقصد عبادته وإرضائه، أو من أعطى زكاة، تنمية لماله وتطهيراً، يريد بذلك وجه الله تعالى، فذلك هو المحقق للثواب الجزيل، وهو الذي يُجازى به صاحبه أضعافاً مضاعفة على ما شاء الله تعالى له[1]. وذلك كما جاء في آية أخرى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٥] وقال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾ [الحديد: ٥٧/ ١١].

(١) ينبغي أن تظل هذه العقيدة معه وقت العبادة وفي كل الأحوال إن كان يعتقد أن الله هو رازقه.

وكل من الزيادة والنماء داخل في رزق الله المحدد لكل إنسان، لأن الله هو الخالق الرازق الذي يرزق الإنسان من تاريخ ولادته حتى وفاته، ثم يميته بعد حياته، ثم يحييه يوم القيامة للحشر والبعث، هل من آلهتكم أيها المشركون، الذين تعبدونهم من دون الله وجعلتموهم شركاء، من يفعل من ذلك شيئاً، أي من الخلق والرزق، والإماتة والإحياء؟! لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، تنزه الله وتقدس، وتعاظم عن أن يكون له شريك أو نظير، أو ولد أو والد، بل هو الله الواحد الأحد، الفرد الصمد. وهذا تقريع وتوبيخ للكفار المشركين.

إن من يعتقد بأن الله وحده لا شريك له هو ربه وخالقه، وهو معبوده بحق، يتجه إليه وقت الشدة والرخاء وفي كل حال، يحقق له آماله ويرزقه من خيراته ما يشاء.

جزاء المفسدين والصالحين

لقد تعقدت الحياة، وظهرت فيها ألوان مختلفة من الفساد والأطماع، وتفنن الناس في ابتداع المنكرات وأصناف الأذى والضرر بأنفسهم وبغيرهم، وبقي أهل الإيمان الحق في حصن حصين من الانزلاق والتردي في الضلالات، وأقبلوا على ساحات الرضا الإلهي بدافع من إيمانهم بربهم، وترقبهم مقابلة خالقهم، والاستعداد لعالم الجزاء والحساب الشديد. واقتضى العدل الإلهي أن يجازي الله المفسدين بإفسادهم سوء العاقبة والمصير، وأن يُكرم الصالحين المؤمنين بأفضاله ومكارمه، والله في حال العقاب ساخط غاضب، وفي حال الإحسان راضٍ عفوٌّ كريم، قال الله تعالى مبيناً قانون الحساب الإلهي:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ(١) ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٤١-٤٥].

لقد عم البلادَ في أرجاء البر والبحر ظهور الخلل والانحراف، وقلة النفع والمطر، وكثرة القحط والجدب أو التصحر، بسبب شؤم المعاصي وكثرة الذنوب، من الكفر والظلم وانتهاك المحرّمات، والتجرؤ على الإنسان، بعد انتشار الأمن وعموم الخير والرخاء، وذلك ليذيقهم الله جزاء بعض أعمالهم وسوءِ أفعالهم من المعاصي والآثام واحتجاب الخير وظهور الشر، وفي ذلك منفعة للناس، لأنه ربما يرجعون عن غَيهم ومعاصيهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٨].

ثم أراد الله لفت نظر الناس والاتعاظ بمصائر الماضين المفسدين، فقل أيها الرسول للمفسدين والمشركين، تقلبوا في البلاد، وتأملوا بمصير من قبلكم، وكيف أهلك الله الأمم السابقة، وأذاقهم سوء العذاب، بسبب كفرهم وقبح أعمالهم، حيث كان أكثرهم مشركين بالله شركاً ظاهراً لا خفاء فيه.

وبادر أيها النبي -باعتبارك قدوة الأمة، ومن تبعك من أهل الإيمان إلى الاستقامة على طاعة الله، وفعل الخير، ووجّه نفسك كلها وبإخلاصٍ للعمل بالدين القويم، وهو دين الإسلام، من قبل مجيء يوم القيامة الذي لا مرد ولا مانع منه، فلا بد من وقوعه، وفي ذلك اليوم يتفرق فيه الناس بحسب أعمالهم، ففريق في الجنة، وفريق في النار والسعير.

وجزاء كل فريق بحسب عمله، ممن كفر بالله وكتبه ورسله، وكذب باليوم

(١) أي يتصدعون ويتفرقون بعد الحساب .

الآخر، فعليه وبال كفره وكذبه، وإثمه ووزرِه، ومن آمن بالله وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وعمل صالح الأعمال، فأطاع الله تعالى فيما أمر، وانتهى عما منعه الله عنه، فإنه يعدّ لنفسه المهاد المريح، والمرتع الخصب الفسيح، والمجال المطمئن. وقوله تعالى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي يُوطّئون ويهيئون، وهي استعارة منقولة من الفُرش ونحوها إلى الأحوال والمراتب.

وسبب التميز في الجزاء: جزاء الباغي أو الظالم ببغيه وظلمه، وجزاء المؤمن المستقيم باستقامته، هو أن الله تعالى يريد إحقاق الحق وإقامة العدل، فيجازي المؤمنين الذين يعملون الصالحات تفضلاً منه وإحساناً بالنعيم المقيم، وجنان الخلد، وفضل الله شامل، وعطاؤه كبير. وأما الكافرون فإن الله يبغضهم ويعاقبهم، عقاب حق وعدل لا جور فيه، وهذا تهديد ووعيد للكفار. وقوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ليس الحب بمعنى الإرادة والعاطفة، ولكن بمعنى: لا يظهر عليهم أمارات رحمته، ولا يرضاه لهم ديناً.

إن تقسيم الفريقين إلى طائعين وعصاة يوم القيامة، كان بسبب أعمالهم في الدنيا، والدنيا مزرعة الآخرة، فهنيئاً لمن وفق للعمل الصالح، والشقاء كل الشقاء لمن انحرف وجحد.

آيات قدرة الله ووحدانيته

عجباً لأمر الناس مع ربهم، ينعم عليهم بشتى النعم و يخلقهم ويرزقهم، ثم لا يهتدون إليه بمحض عقولهم، وسلامة تفكيرهم، حتى إنه سبحانه احتاج إلى إقناعهم بوجوده ووحدانيته، وأقام الأدلة الكثيرة من المحسوسات المشاهدة على ذلك، مما لا يدع أي مجال للشك في هذا، وما أجمل الآيات القرآنية المسوقة من مشاهد الكون على

إثبات القدرة الإلهية، فإن كل إنسان يحسّ بالتفاعل مع الموجودات حوله، ويدرك إدراكاً تاماً، جمال الكون وإبداعه، وما فيه من عجائب الخلق والإبداع الإلهي المرشد إلى المقصود، والدال على المعبود بحق، قال الله تعالى واصفاً هذه المشاهد:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا(١) فَتَرَى ٱلْوَدْقَ(٢) يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ(٣) ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٣٠/٤٦-٥٠].

هذه أدلة حسية تدل على قدرة الله وتوحيده، تقتضي كل عاقل متأمل بأن يدرك أنه لا مشاركة للأوثان فيها، وهي محض السلطان الإلهي، وأنه تعالى المهيمن على كل شيء في الوجود والمسيّر والمحرك له، وأول الأدلة: أن الله تعالى يرسل الرياح مبشرة بالخير ونزول المطر، الذي يحيي الأرض بعد يبسها، ويفيد الإنسان فائدة كبرى، فيذيقه من آثار رحمته بالمطر، فيحيي العباد والأراضي، كما أنه سبحانه يرسل الرياح لتلقيح الأشجار، ولتسيير السفن الشراعية في البحار، ولتمكين المسافرين والتجار من ممارسة التجارة، وطلب الفضل الإلهي والمكاسب المشروعة ببذر بذور الأطعمة وغيرها، وليشكر الناس ربهم على ما أنعم به عليهم من النعم الكثيرة التي لا تحصى.

ثم آنس الله نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بمَثَل من أرسل من الأنبياء السابقين، ثم وعده تعالى ووعد أمته بالنصر على الأعداء، إذ أخبر أنه جعله حقاً عليه

(١) أي قطعاً. (٢) أي المطر. (٣) آيسين من إنزاله.

تبارك وتعالى. فتالله إن كذبك قومك يا محمد، فلست بأول مكذَّب كذبه قومه، فلقد أرسل الله رسلاً كثيرين إلى أقوامهم، فأقاموا الأدلة الواضحة على صدق رسالتهم، فكذبهم قومهم كما فعل قومك، فانتقم الله ممن كذبهم وعارضهم، ممن أجرم وجنى على نفسه ومجتمعه، وهذا هو الذي يحصل من كل مكذِّب عاصٍ، ونجى الله أهل الإيمان، وكان حقاً مستحقاً على الله تحقيق النصر للمؤمنين، العاملين بمقتضى إيمانهم.

أما كيفية إنزال الأمطار: فهي أن الله سبحانه يرسل الرياح على وفق إرادته ومشيئته وحكمته، فتحرك السحب أو الغيوم المنعقدة من ذرات بخار الماء، فتنتشر في السماء كيف يشاء الله، ثم يجعلها قطعاً متفرقة ذات أحجام مختلفة، خفيفة أو كثيفة مشبعة بالرطوبة، فترى أيها الناظر كيف يَخْرج المطر من وسط السحب ومن خلالها المختلفة، وإذا أصاب الله بها من يشاء من العباد إذا هم تغمرهم البهجة والفرحة، والاستبشار بالخير والنعمة السابغة.

وإن كان الناس من قبل نزول هذا المطر قانطين يائسين من نزوله، لتأخر المطر، وبطء نزول الغيث، فتغمرهم رحمات الله تعالى وأفضاله العديدة.

فانظر أيها الرسول ومن آمن برسالتك نظرة تأمل إلى آثار رحمة الله السابغة، كيف يحيي الأرض بالنبات والزرع والشجر والثمر والعشب بعد الجفاف، مما يدل على سعة رحمة الله وإحسانه.

إن الذي أنزل المطر وأنبت النبات قادر على إحياء الأموات، كإحياء الأراضي بعد يبسها بالخضرة، والله تعالى تام القدرة على كل شيء، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والبدءُ والإعادة سواء عنده. وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٧٨-٨١].

جحود النعمة

غريب أمر الإنسان، تراه مع غيره من الناس إذا قدّم له معروفاً، أكبره وشكره، وتذلل بين يديه، ثم يحرص على رد الجميل ومكافأة المعروف إما بالهدية وإما بالثناء باللسان في المناسبات المختلفة على ملأ من الناس. لكن هذا الإنسان مع الأسف جَحُود للنعمة الإلهية، مع أنها أعظم وأدوم، وأبقى أثراً، ولا تحتاج إلا للإقرار بالنعمة والاعتراف بالمنعم وهو الله، وبمقابلة الفضل الإلهي بالإصغاء لأمر الله وطاعته، واجتناب نهيه ومعصيته، وفي الحالين من امتثال الأمر والبعد عن النهي، يعود أثر ذلك على الإنسان بالخير العميم والنفع التام، قال الله تعالى مبيناً سوء حال الكافرين، وتنكرهم لفضل الله وإحسانه:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٥١-٥٣].

أخبر الله تعالى في هذه الآيات عن سوء أحوال الكافرين، وتقلب ابن آدم في أنه بعد الاستبشار بالمطر، إذا بعث الله ريحاً ضارة، فاصفرّ بها النبات، ظل يكفر قلَقاً منه، وقلة توكل على الله، وعدم تسليم لله عز وجل، والمعنى: تالله لئن بعثنا ريحاً سامة، حارة أو باردة، على نبات أو زرع أو ثمر، فرأى الناس ذلك الزرع قد اصفر،

ومال إلى الفساد بعد خضرته، لظلوا من بعد ذلك الفرح والبشر بالمطر، يجحدون نعم الله التي أنعم بها عليهم.

فلا تحزن أيها النبي على إعراض مشركي مكة وأمثالهم عن دعوتك، بعد إيراد أدلة القدرة الإلهية على البعث وعلى توحيد الله، فإنك لا تستطيع إفهام الموتى، أو إسماعهم سماع تدبر واتعاظ، ولا تقدر إسماع دعوتك أهل الصمم عن الحق، إذا أدبروا عنك ولم يَقْبلوا هدايتك، فإنهم أشبه بالموتى في القبور، وبفاقدي حاسة السمع من المعاقين، لسدّهم منافذ الهداية، وفقد الاستعداد لسماع كلمة الحق. وليس في مقدورك أيها النبي هداية أهل العمى عن رؤية الحق، والرد عن الضلالة، فإن الهداية إلى الله تعالى، وهو القادر على إسماع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، وإنه تعالى يفعل ما يشاء، بهداية من يريد، وإضلال من يريد، وليس ذلك لأحد سواه.

وما أنت يا محمد بمسمع إسماعاً ينفع ويجدي إلا من آمن بالله رباً، وبالقرآن إماماً، وبآيات الله برهاناً وحجة، وبتوجيهات الرب إلى أفضل المقاصد وأقوم الطرق، وهؤلاء المؤمنون على هذا النحو هم المسلمون، أي الخاضعون لله تعالى، المطيعون لكل ما أمر ونهى، السامعون إلى الحق سماع إعظام وإكبار، وامتثال واتباع.

ليس في قدرتك إذن يا محمد هداية أحد، ولا عليك أن تَهدي أحداً، ما عليك إلا البلاغ المبين، وإبلاغ الدعوة إبلاغاً حسناً بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهذا كله من إبعاد السماع عن عقول الكفار وقلوبهم يقصد به اليأس من استجابتهم للإسلام والقرآن، بسبب موقفهم المعاند وآرائهم العنيدة، واستكبارهم عن الإذعان للحق. وهذا لا يعارض الثابت في السنة النبوية من سماع الموتى كلام الأحياء، والاستئناس بزوار القبور الذين يمتثلون الأوامر والآداب الإلهية، من غير تبرم ولا تسخط ولا معارضة للقضاء والقدر. فلقد أجمع السلف على هذا، وشرع

السلام على الموتى، روى ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه، ويجلس عنده إلا استأنس به، وردَّ عليه حتى يقوم».

وقد ثبت أن النبي ﷺ زار قبور شهداء أحد، وسلّم عليهم، ودعا لهم بالعفو والعافية من البلاء والعذاب.

أطوار الحياة وأحوال البعث

إن في إحياء الأرض بالأمطار بعد موتها أو يبسها، وفي أدوار خلق الإنسان التي يمر بها من الاجتنان، فالطفولة، فالكهولة، فالشيخوخة، لدلالة قاطعة، وعبرة واضحة على قدرة الله التامة، وعلمه المحيط بكل شيء، والمتصفُ بهذه القدرة التي لا يتصف بها سوى الله عز وجل قادر على إحياء الموتى وبعثِهم من القبور، وإعادتهم للحساب والجزاء، والاصطدام بالحقيقة الكبرى القاطعة، وهي أن الدنيا مثل الساعة التي تمضي، وأن الآخرة دار الخلود والبقاء، وأن الإنسان مغرور مفتون، قاصر النظر حين يستغني بالدنيا الفانية عن الآخرة الخالدة الباقية، وحينئذ لا ينفع الندم، ولا نجاة لمن ظلم، قال الله تعالى موضحاً هذه الأحوال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ(١) ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٤-٥٧].

(١) أي مثل ذلك الصرف عن الواقع في مدة اللبث، كانوا يصرفون في الدنيا عن الحق وهو البعث.

هذه الآيات تبين أيضاً أن الأوثان عاجزة عن الخلق والإيجاد، وأن الله هو الخلاق المبدع، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه. إن الله تعالى هو الذي خلق الإنسان في أطوار متدرجة من الضعف إلى القوة، ثم العجز، خلقه جنيناً في بطن أمه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ثم كوّن عظامه، ثم كسا العظام لحماً، ثم ولد طفلاً جميلاً، وكل هٰذه مراحل ضعف، ثم صار شاباً قوياً، وهذه هي مرحلة القوة والشباب، ثم صار كهلاً فشيخاً عاجزاً ذا شيبة ووقار، وهذه هي مرحلة ضعف من نوع آخر.

وهذا الانتقال المتتابع من طور إلى طور آخر دليل على القدرة الإلهية الخالقة التي لها آثار وبصمات واضحة، على كل مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية، والله يخلق ويبدع ما يشاء من ضعف وقوة، وبدء وإعادة، وهو تام العلم بأحوال مخلوقاته، كامل القدرة على كل ما يشاء. ومن خلق خلقاً قادر على إعادته مرة أخرى. ومصير المخلوقات كلها إلى الجمع والحساب يوم القيامة.

ويوم تقوم القيامة ويبعث الله الناس من القبور، يقسم المجرمون الكافرون الآثمون أنهم ما أقاموا في الدنيا أو في القبور، إلا ساعة واحدة، أي مدة قليلة من الزمان، قاصدين من هذا القسم أنهم لم يدركوا الحقيقة الكبرى، ولم يمهلوا المدة الكافية للتأمُّل والإيمان، والعمل والإحسان، فيعذروا على ما وقعوا فيه من تقصير، ومثل ذلك الصَّرف عن الحقيقة والواقع في مدة المكوث في الدنيا، كانوا يصرفون عن الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذب، والمراد أنهم صاروا كاذبين فيما قالوا: ما لبثنا غير ساعة، وأن إصرارهم على الكفر، صرفهم عن الاعتقاد الصحيح، وعن الإيمان باليوم الآخر.

ثم وصف الله تعالى جواب أهل الإيمان على أولئك الكافرين منكري البعث: وهو لقد لبثتم في علم الله وقضائه مدة طويلة في الدنيا، من يوم خَلْقكم إلى يوم بعثكم.

وإن كنتم منكرين للبعث، فهذا يومه الواقع الذي لا سبيل إلى إنكاره، غير أنكم كنتم تجهلون وقوعه، لتفريطكم في النظر والتأمُّل في المستقبل الموعود.

ففي يوم القيامة لا ينفع أهل الظلم والكفر عذرُهم عما قصَّروا به، ولا تُقبل منهم توبتهم، لأن وقت التوبة هو في دار الدنيا، وهي دار العمل، وأما الآخرة فهي دار الحساب والجزاء، والمراد لا يُقبل منهم العذر، ولا ينفعهم الاعتذار، ولا يعاتبون على ذنوبهم، ولا يُقبل منهم العذر لإزالة العتب، وإنما يعاقبون على ذنوبهم وسيئاتهم، لأن الحال حال قضاء وحكم، وتنفيذ للأحكام الصادرة، وليس المقام مقام اعتذار، فإن وقته قد فات وهو في الدنيا.

موقف الكفار من ضرب الأمثال القرآنية

لقد وقف كفار قريش موقفاً قاسياً عنيداً من القرآن الكريم وبيانه، بسبب قسوة قلوبهم وغلظ طباعهم، على الرغم من تبسيط القرآن البيان، وقوة الإقناع، وإظهار الحق الساطع، وهذا الموقف أدى بهم إلى السقوط من التاريخ، والهزيمة والضياع، وإلى أن تصبح قلوبهم محجوبة عن نفاذ الخير إليها، وناسب ذلك الأمر بالصبر من النبي ﷺ، وقد تحقق وعد الله له بالنصر، وثباتُه على الدعوة إلى ربه إلى أن وافاه الأجل، وأثلج الله صدره قبل ذلك بقدوم الوفود العربية إلى المدينة المنورة تعلن ولاءها للنبي، وإيمانها برسالته، والدفاع عنه دفاع الأبطال. وهذه كانت خاتمة سورة الروم في هذه الآيات الآتية:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٣٠/٥٨-٦٠].

هذا لون من ألوان البيان والإنذار السابق قبل إنزال العقاب وهذه دعوة صريحة هادئة تتجاوب مع العقول المتفتحة قبل الوقوع في ورطة الهزائم المتوالية، ولكن مشركي مكة بما عرفوا به من قسوة الطباع، لم يذعنوا لنداء الفكر، على الرغم من أن الله تعالى أوضح لهم الحق، وضرب لهم الأمثال الدالة على وحدانية الله تعالى، وعلى إمكان البعث وتحقيقه، وعلى صدق النبي ﷺ ، وإخلاصه وتفانيه في تبليغ دعوة ربه.

وتالله أيها النبي لو جئتهم بأي آية تبين لهم الحق، لا يصدقون بها، ويكفرون، ويصفون أهل الحق بالأباطيل، وينعتون الآيات بأنها خُرافة وسحر، وأن النبي ومن آمن معه جماعة مبطلون، يتبعون السحر والباطل.

وترتب على إعراضهم عن الإيمان عناداً واستكباراً أن ختم الله على قلوبهم، وتحتم عليهم الكفر، لسوء استعدادهم، وإصرارهم على تقليد آبائهم وأجدادهم، من غير وعي ولا تبصر، فلم تعد قلوبهم يدخلها النور، بسبب العناد، والجهالة.

وموقف العناد يتطلب الوقوف بحزم وصبر أمام هؤلاء الكفار المعاندين، لذا أمر الله نبيه بأن يعتصم بالصبر على أذى المشركين، وبمتابعة تبليغ رسالته، وقوّى الله نفسه بتحقيق الوعد، فإن وعد الله الذي وعدك به أيها النبي من نصره إياك عليهم، حق ثابت لا شك فيه، ولا بد من إنجازه وإنفاذه.

ثم نهى الله نبيه عن الانفعال والاهتزاز لكلام المشركين، أو التحرك واضطراب النفس لأقوالهم، إذ هم لا يقين لهم ولا بصيرة، فلا يحملنك شيء على الخفة والطيش، والقلق، جزعاً من أقوالهم وأفعالهم، فإنهم قوم ضالون، وتابع أداء رسالتك، فإنها رسالة الحق والنور، والخير، والاستقامة، ولا يستفزنك الذين لا يوقنون بالله ولا باليوم الآخر، فالله ناصرك وحافظك من الناس، وخاذلهم وهازمهم هزيمة منكرة.

وإذا كان هذا الخطاب بالصبر موجهاً للنبي ﷺ، فإن المراد به أمته، فعلى الأمة أن تصبر في تبليغ الدعوة الإسلامية لكل أمم الأرض، وأن تثبت في بيان أصول الدعوة إلى الإيمان، لأن حبل الخير متصل دائم إلى يوم القيامة، وحبل الخير لا يكون إلا بجهود الدعاة إلى الله تعالى.

ولا يضير الداعية إلى ربه أن يقف الكافر الجاحد موقف العناد، والتكبر، أو السخرية والاستهزاء، لأن هذه هي مواقف الجهلة المستبدين، الذين لا يُصغون لنداء العقل والوجدان، والتأمل في مشاهدات الكون، الدالة على وجود الله وسلطانه، وقدرته، وتوحيده، وتفرده بالخلق والإيجاد.

إن إشراقة القلب بالإيمان لا تحتاج إلى جهد كبير، فمن أصغى لنداء العقل الحر السوي، وتأمل في خزائن الكون وأسراره، وحاكم محاكمة عقلية سريعة في ربط الأشياء بأسبابها، سهل عليه الانصياع لقواعد الإيمان الصحيحة، بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ومن وجد حلاوة الإيمان في قلبه، بادر إلى توسيع آفاق المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وسارع إلى طاعة الله في كل مأموراته ومنهياته، وحينئذ يجد السعادة والطمأنينة تغمر قلبه، وتفيض عليه بالفيوضات الإلهية السخية سخاء لا حدود له.

تفسير سورة لقمان

مزايا القرآن وأهل الإيمان

إن أعظم هدية ثمينة للبشرية هي هدية إنزال القرآن الكريم، بما اشتمل عليه من بيان الدستور الإسلامي، والأوامر والنواهي، وأحكام الشريعة، وآداب الإنسان وتربيته تربية قويمة، تصل به إلى شاطئ الأمن والسعادة والاستقرار، والنجاة من العذاب والمهالك. فمن آمن بالقرآن كلامِ الله تعالى، استضاء قلبه بالإيمان، وأدرك أسرار الحياة الصحيحة، وعلم بأحوال المستقبل الذي ينتظره، من غير أن يملك فيه إحداث أي تغيير أو تعديل أو إضافة أو نقص، لأنه يجد في العقل إرشاداً، وفي النفس استجابة وهوى صحيحاً، وفي السلوك والمنهج أصالة وقوة وسداداً، وهذا ما أبانته الآيات في مطلع سورة لقمان، حيث جمع الله في ذلك المطلع بين بيان خصائص القرآن، وصفات المؤمنين به حق الإيمان، قال الله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ١-٥].

سورة لقمان مكية غير آيتين، أولهما -كما قال قتادة- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [٢٧]. والآيات المكية تُعنى بغرس أصول العقيدة الصحيحة، ونشر الفضيلة، ومقاومة الرذيلة، وبيان عيوب المجتمع الجاهلي، من أجل تجاوز انحرافاته وفوضويته، والتخلص من سيئاته وموبقاته.

افتتحت الآيات الكريمة بأحرف ﴿الٓمٓ ۝١﴾ للتنبيه إلى خطورة ما يتلى بعدها، ولتحدي العرب بالإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن، تجمع بين سمو البلاغة والنظم، وبين جلال المعاني والتوجيهات، وتقترن هذه الأحرف في الأعم الأغلب بالكلام عن القرآن الكريم للربط بين هذه الحروف، وبين مادة القرآن كتاب البشرية جمعاء.

تلك هي آيات القرآن المتميزة بالحكمة التي لا خلل فيها ولا عوج، ولا تتناقض ولا تتعارض مع بعضها، وإنما هي آيات بينات واضحات.

والغاية من تنزيل القرآن الكريم: هي أنه هداية للطريق الأقوم الصحيح، وإنقاذٌ من الجهالة والضلالة، وإسعادٌ للبشرية، ورحمةٌ واضحة للذين أحسنوا العمل، وأتقنوا الفعل، واتبعوا الشريعة، وأقاموا فريضة الصلاة في أوقاتها وكيفياتها المشروعة دون زيادة أو نقص، وآمنوا بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء عدل، ورغبوا إلى الله في الثواب، بقصد ابتغاء مرضاة الله تعالى.

هؤلاء المؤمنون الذين أصلحوا العقيدة والعمل: هم وحدهم لا غيرهم أهل الهداية والفلاح من ربهم، وأهل النجاة والفوز في الدنيا والآخرة.

إن الله تعالى وصف المؤمنين بصفة المحسنين، لأنهم أيقنوا بالبعث واليوم الآخر، وآمنوا بما جاء به الرسول ﷺ، وأقاموا الصلاة بخشوع، تامة الأركان والشرائط، وأدّوا الزكاة الفريضة الاجتماعية التي تسهم في تخفيف ويلات الفقر والحرمان، وهذا منهاج يجمع بين العبادة البدنية لإرضاء الله كما يريد في الصلاة المشروعة، وبين العبادة المالية، لسد حاجات المحتاجين، وإنقاذ الفقراء والمساكين. ومن أوصافهم: الإخلاص وعبادة الله تعالى، كما جاء في قول رسول الله ﷺ حين سأله

جبريل عن الإحسان، فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»(١).

يطالب القرآن الكريم العالم المؤمن كله بأن يكونوا من أهل الإحسان في النية والقول والعمل، فبالنية يتحقق الإخلاص لرب العالمين، وبالقول الحسن يتم التعبير عما يكنّ في القلب من إعلان الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبالفعل الحسن تؤدى الصلاة والزكاة على نحو متقن، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٩٨/ ٥].

وصلاح القلب بالنية المخلصة والإيمان الحق، مع صلاح القول، وصلاح العمل يحقق كل ذلك هدف الإسلام الأمثل، لتحقيق استقامة النفس، وتصحيح الكلام والتأدب بالأدب القويم، وتقويم السلوك والأعمال التي هي معيار تقدم المجتمع ورقي البشرية.

أهل اللهو وأهل العمل الصالح

تميزت مجموعات الآيات القرآنية الواردة بإيجازها واختصارها: بعقد موازنة بين الأضداد، وتعارض الفئات، ليعرف الناس ألوان الفِرَق، ويتبينوا الهدى من الضلال، ويعرفوا مصير كل فئة أو فرقة، لأن كل موازنة قرآنية يُعقبها الله تعالى ببيان ثمرات الأعمال والأفعال، والثمرة متفاوتة، فأهل اللهو من الكافرين لهم العذاب الأليم، وأهل الإيمان والعمل الصالح لهم المقام الكريم. والطريق واضح

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

وسهل، فإن البعد عن هداية القرآن يكون بسبب العناد والاستكبار، وهذا داء ليس من الصعوبة التخلص منه. والإقبال على هداية القرآن لا يحتاج لغير الإيمان الصحيح، واستقامة السلوك والعمل بما يرضي الله تعالى، من مأمورات نافعة قليلة، واجتناب منهيات ضارة محدودة، قال الله تعالى مبيناً هذين المنهجين:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا(١) فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا(٢) وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٦-٩].

الآية الأولى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ نزلت -فيما ذكر مقاتل- في النضر بن الحارث، كان يخرج إلى فارس، فيشتري كتب الأعاجم، فيرويها ويحدث بها قريشاً، ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم حديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم حديث رستم واسِفْنديار، وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه، ويتركون سماع القرآن.

والمعنى: بعض الناس يستبدل بالنافع الضرر، وبالقرآن الحكايات والأساطير الفارغة، فيشتري لهو الحديث من غناء وفجور ونحوه، وهو المقترن بالكفر، من أجل صرف الناس عن استماع القرآن، وإضلالهم عن الدين الحق: دين الإسلام، بغير علم صحيح، ويتخذ آيات الله مهزوءاً بها، وأولئك وهم دهاقنة الكفر والضلال، لهم عذاب مؤلم في نار جهنم أشد الإيلام. واللهو: كل باطل ألهى عن الخير.

وهذه الآية التي تذم اللهو الباطل تدل على تحريم مبتدعات الطرقات الصوفية من سماع الطبول والمزامير أثناء الذكر. ومن يشتري لهو الحديث الباطل إذا تليتْ عليه

(١) الوَقْر: أي الثقل الذي يغير إدراك المسموعات. (٢) وعد الله منصوب على المصدر، وحقاً: مصدر مؤكد.

آيات القرآن أدبر وأعرض عنها متكبراً متجبراً، وأصمّ أذنيه عن سماعها، كأن في كلتا أذنيه ثقلاً وصمماً، لأنه يتأذى بها، ولا ينتفع منها.

ومن أجل بيان الفرق بين الأشقياء والسعداء، أوضح الله تعالى أن الذين آمنوا بالله رباً واحداً لا شريك له، وصدقوا رسل الله الكرام من غير استثناء أحد، وعملوا صالح الأعمال بأداء الفرائض والتزام الأوامر الشرعية، واجتناب المناهي والمفاسد، أولئك لهم جنات النعيم، يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والطيبات من المأكل والمشرب والملبس والمراكب وغيرها، وهم فيها مقيمون على الدوام، لا يتحولون عنها ولا يملّون.

وهذا كائن لا محالة، ووعد كريم من الله الذي لا يخلف وعده، فهو وعد حق ثابت، صادر من الله تعالى القوي القاهر الذي لا يُغلَب، الحكيم الذي يتقن كل شيء، ويضعه في موضعه المناسب له، ويصدر عنه كل قول وفعل رشيد، بقصد هداية الناس. وتلك الهداية هي مهمة القرآن الكريم، فهو كتاب حق وإرشاد وتقويم، ومنار لكل خير، وموضع كل عزة ونصر، وقد جاءت هذه الأوصاف للقرآن في آيات كثيرة، منها: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٧].

ويؤكد الله تعالى مهمة القرآن الإصلاحية في مناسبات متعددة، لحمل الناس على الاستقامة والرشاد، كما في قول الله تعالى: ﴿هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٤]. وفي قول الله سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٢].

وأما بعد هذا البيان والإعذار، فيكون المعرضون عن القرآن غير معذورين،

لاختيارهم بأنفسهم طريق الغواية والضلال، ومعاداة هداية الله السابغة. وهذه الآيات لبيان حال الكفرة وتوعدهم بالنار على أفعالهم، ثم بيان أحوال المؤمنين وما وعدهم به الله من جنات النعيم، ليتبين الفرق.

خلق السماوات والأرض

يتكرر في القرآن الكريم إيراد الأدلة والبراهين الحسية المشاهدة على إثبات قدرة الله تعالى ووجوده ووحدانيته، مثل إنزال المطر، وخلق الإنسان ومروره بأطوار معينة، وخلق السماوات والأرض وما بينهما، والخلق والإبداع دليل قاطع على وجود الله وقدرته، لذا تحدى الله به عبدة الأوثان وغيرهم من المشركين لإدراك الفرق الواضح بين أوثانهم العاجزة عن إيجاد شيء، وعن جلب النفع لأحد أو دفع الضُّر عنه، وبين الله القادر على كل شيء، ومنها الخلق والإحياء، والإماتة والبعث، ويؤدي ذلك كله لإثبات الوحدانية لله تعالى، وإبطال الشرك والوثنية، والدعوة لاتباع الحق الذي جاءت به الرسل، قال الله تعالى مبيناً قدرته في خلق السماوات والأرض:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ١٠-١١].

من أدلة القدرة الإلهية الفائقة كل حد أن الله تعالى خلق السماوات السبع بغير أعمدة، مرئية أو غير مرئية، فلا يرى أحد بالعين المجردة ولا بالمكبرات السماوية الدقيقة وجود أعمدة للسماوات، وهي قائمة بقدرة الله تعالى، ويظن الناظر أن السماوات كالأرض في الظاهر مبسوطة، وهي في الحقيقة مستديرة، لقول الله عز

وجل: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣/٢١]. والفلك: اسم لشيء مستدير. وهي على أي حال مخلوقة بقدرة الله تعالى، لا بالمصادفة ولا بالطبيعة، وهي فضاء، والفضاء لا نهاية له، ولا تزول إلا بقدرة الله تعالى.

وجعل الله في الأرض جبالاً شوامخ ثوابت، بُثّت في الأرض وأرستها وثقّلتها، لئلا تضطرب بأهلها، وتغمرها مياه البحار والمحيطات المحيطة بها، ومن المعلوم أن المياه أربعة أخماس الأرض، واليابسة هي الخمس.

ونشر الله في الأرض كل نوع من أنواع الحيوان التي لا يحصى عددها، ولا يعلم أشكالها وأنواعها إلا خالقها، والمخلوقات البحرية كما قرر العلماء أكثر من المخلوقات البرية. وأنزل الله من السماء أو السحاب مطراً يكون سبباً لإنبات كل صنف كريم، أي حسن المنظر، كثير المنفعة، وافر العطاء والخير متقن الصنعة والتحكم.

أمام هذه المخلوقات العجيبة، والأصناف البديعة، والخيرات الإلهية العميمة، كيف يليق بالإنسان جحود خالقها، وترك عبادته، لذا وبخ الله تعالى المشركين الذين يشركون مع الله إلهاً آخر، ونبههم بقوله: هذا المذكور من المخلوقات: هو من خلق الله وفعله وتقديره وحده لا شريك له في ذلك. والخَلْق: بمعنى المخلوق. فأخبروني أيها المشركون: ماذا خلق الذين تعبدونهم من غيره من الأصنام والأنداد والجمادات التي لا نفع فيها ولا ضر؟!

وبعد توجيه هذا التوبيخ وإظهار الحجة: وصف الله أولئك المشركين بالضلال، فهم الظالمون الضالون في إشراكهم مع الله غيره، حيث قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي بل إن هؤلاء المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً آخر، في جهل وعمى، وانحراف وكفر واضح ظاهر، لا خفاء فيه ولا شبهة لكل من تأمله. إنه

تعالى جعلهم في غاية الضلال وأقصاه. والمراد بسؤالهم أن يوجدوا ما خلق الأصنام والأوثان وغيرها ممن عُبد: أنهم لم يخلقوا شيئاً، بل هذا الذي فيه قريش هو ضلال مبين.

إن التحدي بإيجاد شيء وخلقه هو أكبر وأعظم دليل على وجود الله وقدرته، ولا يستوي الخالق وغير الخالق، كما جاء في آية أخرى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٧].

وصايا لقمان الحكيم لابنه

- ١ -

الشكر لله والتحذير من الشرك ومن عقوق الوالدين

إن فساد عقائد المشركين يرشد إليه العقل السديد والحكمة، وإن لم يكن هناك نبوة، بدليل أن لقمان الحكيم بحكمة الله تعالى: وهي الصواب في المعتقدات والفقه في الدين والعمل، أرشده عقله إلى إثبات توحيد الله وعبادته، والتخلق بالخلق الكريم من غير وساطة نبي أو رسول.. ولم يكن لقمان على الراجح نبياً، وإنما كان رجلاً صالحاً كالخضر عليه السلام، قال ابن عمر رضي الله عنهما فيما أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي مسلم الخولاني: سمعت النبي ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسن اليقين، أحب الله فأحبه، فمنَّ الله عليه بالحكمة وخيَّره في أن يجعله خليفة يحكم بالحق، فقال: ربِّ إن خيرتني قبلت العافية وتركت البلاء، وإن عزمتَ علي فسمعاً وطاعة، فإنك ستعصمني».

وكان لقمان قاضياً في بني إسرائيل، نوبياً أسود. وحكمه كثيرة مأثورة، قيل له:

أي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي إذا رآه الناس مسيئاً. وهذه نصائحه في قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ١٢-١٥].

المعنى: تالله لقد أعطينا لقمان الحكمة: وهي العلم النافع والعمل به، ومن مقتضى الحكمة: أن اشكر لله شكراً جميلاً على نعمه ومواهبه، ومن يشكر الله فإنما يشكر لنفسه، أي يحقق النفع والثواب لنفسه، وينقذها من العذاب، ومن جحد نعمة الله عليه، فأشرك به غيره، وعصى أوامره فإنه يسيء إلى نفسه، ولا يضر أحداً سوى ذاته، فإن الله غني عن العباد وشكرهم، لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، محمود، أي مستحق الحمد بصفاته وذاته، فهذا أمر بالشكر.

ثم حذر لقمان ابنه من الشرك بالله، فاذكر أيها النبي حين أوصى لقمان ابنه بوصية أو موعظة، فقال له: يا ولدي، اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، فإن الشرك أعظم الظلم، لتعلّقه بأصل الاعتقاد فهو أعظم جرم، ولكونه وضع الشيء في غير موضعه، فهو ظلم محض لا موجب له ولا سبب لوجوده.

ثم تخلل بين وصايا لقمان وأثناء وعظه اعتراض بآيتين، موجهتين من الله تعالى، لا من كلام لقمان على الراجح، مفاد الآية الأولى: ولقد أمرنا الإنسان وألزمناه ببر والديه وطاعتهما وأداء حقوقهما، ولا سيما أمه، فإنها حملته في ضعف على ضعف،

من الحمل إلى الطلق، إلى الولادة والنفاس، ثم الرضاع والفطام في مدة عامين، ثم تربيته ليلاً ونهاراً حتى صار كبيراً، وأمرناه بشكر الله على نعمته، وبشكر والديه، لأنهما سبب وجوده، ومصدرُ الإحسان إليه بعد الله تعالى.

وطاعة الوالدين لها حدود: وهي الأمر بالمعروف، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وعلى هذا، فإن ألحّ والداك في الطلب على أن تشرك بالله في عبادته غيره مما لا تعلم أنه شريك لله أصلاً، فلا تقبل ذلك منهما، ولا تطعْهما فيما أمراك به من الشرك أو العصيان.

ولكن صاحب والديك الكافرين في الدنيا مصاحبة كريمة بالمعروف، بأن تحسن إليهما بالمال والعلاج، والتودد في الكلام والمحبة والرفق، والوفاء بالعهد وإكرام صديقهما، ما دام ذلك في الدنيا، واتبع سبيل المؤمنين التائبين في دينك، ولا تتبع في كفرهما سبيلهما فيه، ثم إلي مرجعكم جميعاً، فأجازيك أيها الولد على إيمانك، وأجازيهما على كفرهما إن كفرا، وأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر.

نزلت هاتان الآيتان في شأن سعد بن أبي وقاص، وذلك أن أمه: وهي حَمْنة بنت أبي سفيان بن أمية، حلفت ألا تأكل ولا تشرب، حتى يفارق ابنها سعد دينه، ويرجع إلى دين آبائه وقومه، فلجّ[1] سعد في الإسلام. فلما طال ذلك، ورأت أن سعداً لا يرجع عن دينه أكلت[2].

دلت الآيتان على الأمر ببر الوالدين، ثم حكم الله بأن ذلك لا يكون في الكفر والمعاصي لأن طاعة الأبوين لا تراعى في ارتكاب كبيرة، ولا في ترك فريضة عينية، وتلزم طاعتهما في المباحات. ويستحسن في ترك الطاعات الندب، ومنه المشاركة في

---

(١) لازمه وأبى أن ينصرف منه. (٢) أخرجه أبو يعلى والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي عثمان الهندي عن سعد.

الجهاد الكفائي، وإجابة الأم في الصلاة مع إمكان الإعادة، وذلك في حال خوف الهلاك عليها ونحوه مما يبيح قطع الصلاة.

وصايا لقمان الحكيم لابنه

- ٢ -

مجموعة أوامر ونواه أساسية

جمع لقمان الحكيم في وصايا ابنه بين أصول العقيدة وأصول الشريعة والأخلاق، فأمره بأن يقدر قدرة الله تعالى، وأن يقيم الصلاة، ويأمر بالمعروف الذي أمر به الله، وينهى عن المنكر الذي منعه الله تعالى، ويصبر على المصاب، ويحذر التكبر، ويمشي متواضعاً هيناً ليناً، خافضاً صوته، يكلم الناس بلطف، ويبتعد عن غلظة القول ورفع الصوت أكثر من اللازم. وهذه آيات كريمة تحكي لنا هذه الأوامر والنواهي:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ٣١/١٦-١٩].

هذه بقية نصائح لقمان الحكيم لابنه، يقصد في النصيحة الأولى إعلام ابنه بقَدْر قُدْرة الله تعالى، فيا بني، إن الحسنة أو السيئة لو كانت تساوي وزن أصغر شيء، مثل وزن حبة الخردل، وكانت في أخفى مكان، كجوف صخرة، أو في أعلى مكان

كالسموات، أو في أسفل موضع كباطن الأرض، أحضرها الله في يوم الحساب، إن الله لطيف العلم، يصل علمه إلى كل شيء خفي، خبيرٌ ببواطن الأمور. واللطف والعلم: صفتان لائقتان بإظهار غرائب القدرة الإلهية.

ويا بني، الزم إقامة الصلاة: وهي العبادة المخلصة لوجه الله، وأدّها كاملة الأركان والشروط، وأمُر بالمعروف: وهو الذي يقره الشرع الإلهي، وانْه عن المنكر: وهو الذي يمنعه الشرع الإلهي، واصبر على المصيبة والشدائد والأذى، إن ذلك المذكور: من عزائم الأمور، أي مما عزمه الله وأمر به. والصبر هنا للحض على تغيير المنكر وإن نالك ضرر. وهذا إشعار بأن مغيِّر المنكر يُؤذى أحياناً، وهذا على جهة الندب، لا على سبيل الإلزام، وهذه الأوامر تشمل عظائم الطاعات والفضائل أجمع. ويا بني لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلموك تكبراً واحتقاراً، أي بل كن متواضعاً سهلاً هيناً ليناً، منبسط الوجه، مستهل البشر. ولا تَسِرْ في الأرض مختالاً متبختراً، جباراً عنيداً، فإن تلك المِشْية يبغضها الله تعالى، والله يعاقب كل مختال في مشيه، معجب في نفسه، فخور على غيره.

وامش مشياً متوسطاً معتدلاً، ليس بالبطيء المستضعف تزهداً، ولا بالسريع المفرط الذي يثب وثب الشيطان. والمشي مرحاً: هو في غير شغل ولغير حاجة. ومشاة المرح: هم الملازمون للفخر والخيلاء، فالمَرِحُ: مختال في مشيته.

ولا ترفع صوتك رفعاً شديداً لا فائدة منه، واخفضه، فإن شدة الصوت تؤذي آلة السمع، وتدل على الغرور، والاعتزاز المفرط بالنفس، وعدم الاكتراث بالغير. وإن إعتدال الصوت أوقر للمتكلم، وأقرب لاستيعاب الكلام ووعيه وفهمه. وإن رفع الصوت أكثر من اللازم يشبه صوت الحمير، وإن أقبح الأصوات لصوت الحمير، وذلك مما يبغضه الله تعالى، لأن أوله زفير وآخره شهيق. وأنكر الأصوات، أي

أقبح وأوحش وراد بكلمة ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ الصوت: اسم جنس، ولذلك جاء مفرداً.

وفي ذلك دلالة على ذم رفع الصوت من غير حاجة، لأن التشبيه بصوت الحمار يقتضي غاية الذم. وأكد النبي ﷺ ذلك فيما رواه الجماعة عن أبي هريرة قال: «إذا سمعتم صياح الديكة، فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير، فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً».

ويلاحظ الحكمة في توجيه النصائح، فلما نهى لقمان ابنه عن الخلق الذميم، ومستنكر الأخلاق، رسم له طريق الخُلُق الكريم الذي ينبغي له أن يستعمله، من القصد في المشي: وهو ألا يشتط في السرعة، ولا يرائي في الإبطاء، ولا يمشي مختالاً متبختراً، ولا يرفع الصوت أكثر من المعتاد، لأن غض الصوت أوقر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع وفهمه.

إن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالله وبقدرته، وإلى عبادة الله وتوحيده، وإلى إقام الصلاة، والأمر بالفضيلة، ومحاربة الرذيلة، والتواضع واعتدال المشي، تلتقي مع مقتضى الحكمة التي يتوصل إليها الحكماء من خلال التجارب والمعاملة.

توبيخ الكافر على جحود النعمة

إن كفر الكافرين عقدة صعبة، وكارثة خطيرة، ومدعاة للتوبيخ واللوم، لذا وبخ القرآن الكريم أهل الشرك على شركهم، مع مشاهدتهم دلائل التوحيد عياناً وحساً في عالم السموات والأرض، وتسخير ما فيها لمنافعهم، كما وبخهم على جحودهم نعم الله الكثيرة الظاهرة والباطنة، وكل ذلك لحمل المشركين على تصحيح اعتقادهم،

وشكر ربهم، والتوجه نحو ما يصلح أمر آخرتهم ودنياهم، وهذه آيات كريمة تدل على الغضب الإلهي، على سوء أفعال المشركين، فقال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٠-٢١].

هذه آية تنبيه على الصنعة الدالة على الصانع، وهو الله تعالى، وذلك أن تسخير هذه الأمور العظام كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والحيوان والنبات، إنما هو من الله المسخِّر والمالك. لذا نبّه القرآن المشركين لهذا، قائلاً لهم: ألم تعلموا أيها المشركون دلائل التوحيد الناطقة بوحدانية الله تعالى وقدرته على كل شيء، وإنعامه عليكم، فهو سبحانه الذي ذلّل لكم جميع ما في السماوات من شمس وقمر ونجوم، تستضيئون بها في الليل والنهار، ويسّر لكم جميع خزائن الأرض، من معادن وأنهار و بحار، وأشجار وزروع، وثمار، ونحو ذلك من منافع الغذاء والشراب، وأكمل عليكم نعمه الظاهرة والباطنة، أي المحسوسة والمعقولة، ومنها إنزال الكتب وإرسال الرسل. والظاهرة أيضاً: هي الصحة وحسن الخِلْقة والمال وغير ذلك. والباطنة: المعتقدات الصحيحة من الإيمان ونحوه، والعقل أو الفكر الإنساني.

وبعض الناس كالنضر بن الحارث ونظرائه من زعماء الوثنية في مكة وغيرها، على الرغم من إثبات الألوهية بالخلْق والإنعام، يجادلون في توحيد الله وصفاته وإرسال الرسل، بغير دليل معقول، ولا حجة صحيحة، وإنما حجتهم التقليد الأعمى، للآباء والأجداد، واتباع الهوى والشيطان، لأنهم كانوا ينكرون وحدانية الله تعالى، ويشركون الأصنام في الألوهية، وليس عندهم علم واضح من هدى أو كتاب يبين لهم معتقدهم.

وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل في توحيد الله: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، من الشرائع والأحكام الصائبة، لم يجدوا حجة لتركها إلا اتباع الآباء الأقدمين، فيما اعتقدوه من دين، وإلا التقليد المحض بغير حجة، وهذا عجيب، أيتبعونهم بلا دليل؟ ولو كان اعتقادهم قائماً على الهوى وتزيين الشيطان الذي يدعوهم إلى عذاب جهنم، أو عذاب النار المسعّرة، أي فكأن القائل منهم يقول: هم يتبعون دين آبائهم، ولو كان مصيرهم إلى السعير، والله يدعوهم إلى النجاة والثواب الجزيل والسعادة. وهذا استفهام على سبيل التعجب والإنكار، يتضمن التهكم عليهم، وتسفيه عقولهم، والسخرية من آرائهم وأفكارهم.

إن محبة الله لعباده تجعله ينبه على فساد حال الكفرة، وسوءِ الاعتقاد، وقبحِ الأفعال، فهم يسيرون في حياتهم ويعبدون أصنامهم بلا هدى قلب، ولا نورِ بصيرة يقيمون بها حجة، ولا يتّبعون بذلك كتاباً من الله يبشر بأنه وحي، بل ذلك ادعاء منهم وتخرص، وإذا دُعوا إلى اتباع وحي الله تعالى، رجعوا إلى التقليد المحض بغير حجة، فسلكوا طريق الآباء والأجداد.

والعقل والمصلحة يقضيان بضرورة تصحيح الطريق ومنهج الاعتقاد المنحرف، والعودة إلى جادة العقيدة الصحيحة، وإلى العمل بكلام اللهِ تعالى في القرآن المجيد، حتى لا يفجأهم القدر والموت، ويصادمهم يوم القيامة بأهواله ورهَبَاته.

حال المؤمن والكافر

يتفاوت حال المؤمن والكافر تفاوتاً كبيراً لا نظير له في الدنيا والآخرة. أما المؤمن في الدنيا: فهو ناعم البال، هادئ الضمير، مستقر النفس، يسعى في الحياة، ويفوض الأمر في النهاية إلى الله عز وجل، ويستمسك بما يوصله إلى الله، وأما في

الآخرة فهو في نعيم دائم، وجنان تجري من تحتها الأنهار، ورضوان من الله أكبر، وأما الكافر في الدنيا: فهو قلق البال، مضطرب النفس، يعيش في كمد وحسرة، ولا يعمل لهدف، فإن أحسن العمل استفاد فقط من حسن عمله في دنياه، ولم يُفْده شيئاً في آخرته، وأما في الآخرة: فهو في عذاب مستمر، ونيران يتلظى بها، وحميم يصب فوق رأسه، وسخط وغضب من الله عليه. وهذا ما يفهم من الآيات الآتية:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ(١) وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٢-٢٤].

هذا بيان واضح لمصير المؤمن والكافر، ليتبين الفرق، وتتحرك النفوس إلى طلب الأفضل، ومعرفة الأسلم والأحكم. فمن يسلم، أي يخلص وجهه إلى الله تعالى ويستسلم به، أو يخلص العبادة والعمل إلى الله تعالى، ويخضع إلى أمره، ويتبع شرعه، ويتقن عمله، باتباع ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه وزجر، فقد ضمن لنفسه النجاة، وتعلّق بأوثق الوسائل الموصلة إلى رضوان الله تعالى، وسيلقى الجزاء الحسن على عمله، لأن مصير المخلوقات كلهم إلى الله سبحانه، فيجازي المتوكل عليه، المخلص عبادته إليه، أحسن الجزاء، كما يعاقب المسيء بأشد العذاب.

وقوله تعالى: ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾ الوجه هنا: هو الجزء المعروف، مأخوذ من المواجهة استعير هنا للقصد، لأن القاصد للشيء هو مستقبله بوجهه، فاستعير ذلك للمعاني، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ المحسن: هو الذي جمع القول والعمل.

وهو في بيان النبي ﷺ: الذي يعبد الله كأنه يراه. والعروة الوثقى: استعارة للأمر المنجي.

(١) هي استعارة للأمر المنجي الذي لا يخاف عليه استحالة ولا إخلال.

ثم آنس الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام عن أساه وحزنه، لكفر قومه وإعراضهم، فأمره ألا يحزن لذلك، بل يعمد إلى ما كلِّف به من التبليغ، وإرجاع كل شيء إلى الله تعالى، فلا تغتم أيها النبي ولا تجزع على كفر الكافرين، الذين كفروا بالله ورسوله، ودينه وقرآنه، ولا تأبه بهم، ولا تحزن عليهم، فإن مصيرهم إلى الله تعالى يوم القيامة، وفي الدنيا أيضاً، فيجازيهم ربهم بالهلاك والعذاب، ولا تخفى عليه خافية منهم، لأن الله تعالى يعلم السر وأخفى، ويعلم العلانية والظواهر كلها، و يخبرهم بما أضمرته صدورهم. و﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: ما فيها، والقصد من ذلك: المعتقدات والآراء.

ثم أبان الله تعالى مقام الكفار في الدنيا، فذكر أنه سبحانه يمتعهم في عالم الدنيا بزخارفها وزينتها، تمتعاً قليلاً، أو زماناً ضئيلاً، ثم يلجئهم ويلزمهم بعذاب شاقّ، ثقيل شديد عليهم، والمتاع القليل: هو العمر في الدنيا.

والغلظ: يكون في الماديات، واستعير للمعنى، والمراد: الشدة، فيكون معنى (العذاب الغليظ): المغلَّظ الشديد.

إن كل عاقل يتأمل في نفسه قليلاً، وفي مستقبله كثيراً، وفي الواقع المشاهد حوله وفي العبر والعظات المتكررة يومياً، يدرك إدراكاً تاماً أن العاقبة الحسنة، والمصير الأحسن: هو لأهل الإيمان، والإيمان أمر سهل: إنه حركة القلب واتجاهها نحو التصديق التام بالله تعالى، والاستسلام المطلق لأوامره ونواهيه، والتخلص من موروثات العقائد الباطلة، ومؤثرات البيئة الظالمة أو القاتمة، وإن هذا المتأمل والمبادر إلى الإيمان الصحيح بربه يتحرر من التقليد، ويشعر في قرارة نفسه أنه بالإيمان ينتقل من عالم الظلام والجهل، إلى عالم النور والإدراك والفهم، والله يوفق دائماً للخير كما قال سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٥].

دلائل القدرة الإلهية

- ١ -

الخلق والبعث والعلم الشامل

ناقش القرآن الكريم المشركين في ازدواجية عقيدتهم وفي حقيقة تدينهم، إنهم يُقرّون بوجود الله تعالى، ويتضرعون إليه وحده وقت الشدة، ثم يعودون إلى كفرهم بعد النجاة، ويلازمون نسبة الشريك إلى الله، علماً بأن كل شريك عاجز خاسر، والله تعالى هو القادر القاهر المنجي، الخالق لكل شيء، والباعث الأموات من القبور، والتام العلم بكل الموجودات، ولا تُحصر معلومات الله ولا تنفد، ويُطْلع الله يوم القيامة كل إنسان بما قدم وأخر، قال الله تعالى مبيناً أدلة قدرته الفائقة:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم(١) مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٥-٢٨].

الدليل الأول على قدرة الله تعالى: هو الخلق والإيجاد المبتدأ من غير مثال سبق، وهذا يعترف به المشركون، فلئن سألتهم: من الذي خلق السماوات والأرض؟ لأجابوا بأنه هو الله الخالق، فهو في أعماق نفوسهم معترفون بأن الله خالقُ السماوات والأرض، فقل أيها النبي إذن: الحمد لله على اعترافكم، وعلى ظهور الحجة عليكم، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أنه لا يصح لأحد أن يعبد غير الله،

(١) أي لو سألت المشركين .

وأن يتنبه إلى حقيقة المعبود. وعبر بقوله: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ للإضراب عن مقدَّر، تقديره: ليست دعواهم بحق، ونحو هذا. وأكثرهم مشرك، لا كلهم، لأن منهم من بادر إلى توحيد الله تعالى والإقرار بذلك، كزيد بن عمرو بن نُفيل، وورقة بن نوفل، وبعضهم أيضاً معدّ أن يسلم.

ثم أخبر الله تعالى على جهة الحُكْم والفصل المبرم بأن الله عز وجل له ملك السماوات والأرض وما فيهما، ملكاً وخلقاً وعبيداً وتصرفاً، وليس ذلك لأحد سواه، ولا يستحق العبادة غيره، لأنه الغني عما سواه، وكل شيء مفتقر إليه، وهو المحمود في الأمور كلها، بذاته وصفاته. والمراد: وأقوال هؤلاء لا معنى لها ولا حقيقة، لأن المعبود بحق: هو الذي لا حاجة به في وجوده وكماله إلى شيء آخر.

ومن صفات الله تعالى: سعة علمه وأنه لا نفاد ولا حدود لمعلوماته فكلمات الله: المعلومات، فلو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً، أي حبراً، ومُدّ البحر بسبعة أبحر معه، على سبيل المبالغة والاستقصاء والكثرة لا من أجل الحصر، فكتبت كلمات الله الدالةُ على عظمته وجلاله، لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، إن الله قوي لا يغلب، حكيم في صنعه وأقواله وأفعاله. والغرض من الآية: الإعلام بكثرة كلمات الله تعالى، وهي في نفسها غير متناهية، وإنما قرّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى، لأنه غاية الكثرة في علم البشر.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن سبب هذه الآية: أن اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٥] ونحن قد أوتينا التوراة، فيها كلام الله وأحكامه، وعندك أنها تبيان كل شيء؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراةُ قليل من كثير» ونزلت هذه الآية: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ..﴾ قال ابن عطية: وهذا هو القول الصحيح.

ثم ذكر الله تعالى أمر الخلق والبعث: أنه في الجميع وفي شخص واحد بالسواء، فليس خلق جميع الناس وبعثهم يوم القيامة، بالنسبة لقدرة الله، إلا مثل خلق نفس واحدة، الكل هيّن عليه، ولا يحتاج وجود الشيء وعدمه إلى تكرار الأمر وتوكيده، إن الله سميع لأقوال عباده، بصير بأفعالهم، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على إيجاد نفس واحدة.

هذه الآية: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ..﴾ نزلت في أُبي بن خلف وأُبي بن الأسدين، ومنبِّه ونبيه ابني الحجاج بن السبّاق، قالوا للنبي ﷺ: إن الله تعالى قد خلقنا أطواراً، نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم عظاماً، ثم تقول: إنا نبعث خلقاً جديداً جميعاً في ساعة واحدة!! فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

إن إبداع السماوات والأرض، وإحاطة علم الله بجميع الموجودات، والقدرة الشاملة التامة على بعث الناس من قبورهم: هي دلائل على وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته الكاملة، ومن آمن بذلك وعرف صواب هذا الإيمان، هنّأ نفسه ومجتمعه بسلامة الإيمان.

دلائل القدرة الإلهية

- ٢ -

تدرج الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر وتسيير السفن

هذه أدلة أخرى على عظمة قدرة الله تعالى، وتعدادها لسدّ كل المنافذ أمام الشرك والمشركين، وهي تدرج الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، وسائر الكواكب النيِّرات، والتمكين من تسيير السفن في البحار والمحيطات، واللجوءُ إلى الله تعالى

وحده حين التعرض للغرق وارتفاع الأمواج، فلم يبق بعد هذا الاستدلال عذر لأحد بالشرك والإشراك، وعبادة الأصنام والأوثان، وما على كل إنسان إلا أن يبادر إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، فذلك هو الحق والحقيقة، وكل ما سوى ذلك باطل، قال الله تعالى واصفاً هذه الأدلة:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٩-٣٢].

مطلع الآية الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للنبي ﷺ، والمراد به جميع العالم. ومجمل الآية: أن الخالق المخترع هو الذين خلق الليل والنهار متدرجين متعاقبين. والمعنى: ألم تشاهد أن الله تعالى في شأن إيجاد الليل والنهار على هذا النحو من الزيادة والنقص، بحيث يقصُر من أحدهما ويزيد من الآخر، ثم بالعكس، ليدُّلك دلالة على الموجود الخالق، ففي ذلك قسمة الزمان بحكمة بارئ العالم، ليدل على أنه لا رب غيره.

والله تعالى أيضاً في عالم السماء ذلّل لنا الشمس والقمر، مصباحين نيّرين، لمصالح الخلق والمخلوقات ومنافعهم، كل منهما يسير بسرعة إلى غاية محدودة، وأن الله مطلع بدقة على جميع أعمال الناس، خيرها وشرها، ويجازيهم عليها، فالله هو الخالق لجميع الأشياء، والعالم بكل الأشياء.

والغاية من هذا البيان وإظهار الآيات وأدلة القدرة الإلهية: أن يعرف الناس أن

الله هو الحق، أي الموجود الثابت المستحق للعبادة، وأن كل ما سواه باطل زائل، فهو وحده سبحانه الإله، ولا تعدد في الآلهة، وهو الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، وأنه تعالى العلي العظيم الذي لا أعلى منه، المرتفع على كل شيء، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، شامل العزة، وكامل السلطان، وكل شيء في الوجود خاضع له.

ودليل آخر، ألم تعلم أيها النبي أيضاً وكل مخاطب أن الله سخر البحر لتجري السفن فيه بأمره، أي بلطفه وإحسانه، وتهيئته الأسباب، ليرشدكم إلى معرفته، ويظهر لكم بعض آثار قدرته، فإنه تعالى لولا جعله القوة في الماء لحمل السفن، لما جرت بتأثير الرياح وغيرها من الطاقات المخترعة بإلهامه من فحم وكهرباء وذرة. إن في إيراد هذا الدليل وغيره لأدلة واضحة لكل صابر صبور وقت الشدة، وشاكر شكور وقت النعمة، لأن المؤمن يتذكر ربه في كل حال، فيصبر إذا أصابته نقمة، ويشكر إذا أتته نعمة. قال الشعبي: «الصبر نصف الإيمان، والشكر نصفه الآخر، واليقين: الإيمان كله».

غير أن المشركين وأمثالهم قوم متناقضون، فإذا أشرفوا على الغرق، وأحاطت بهم أمواج البحر العالية أو العاتية كالجبال، وخافوا من الموت، عادوا إلى الفطرة، ودعوا الله دعاء خالصاً، مشتملاً على مزيد الضراعة والإنابة، لا يشركون به غيره، ويستغيثون به وحده، فلما نجوا برحمته وفضله ووصلوا إلى شاطئ البحر، ونزلوا إلى البر، فمنهم مقتصد في الكفر، يتجه فوراً إلى توحيد الله تعالى، ومنهم غدار ناقض للعهد، كافر بأنعم الله عز وجل، وما يكفر بآيات الله الكونية والقرآنية إلا كل ختّار أي غدار، قبيح الغدر، كفور، أي جحود بما أنعم الله عليه.

وذلك أن نِعم الله تعالى على العباد كأنها عهود ومِنَن، يلزم عنها أداء شكرها،

والعبادة لمسْديها، فمن كفر بذلك وجحد به، فكأنه ختر وخان، فهان على الله تعذيبه، واستحق جزاء فعله.

والقصد من الآية: تبيان آية للعقول بأن الأصنام والأوثان لا شركة لها في الكون والنعمة ولا مدخل.

تقوى الله وعلم الغيب

إن رأس مال الإنسان المدخر في يوم القيامة: هو تقوى الله تعالى والخوف منه، وخشيته، والتقوى: التزام المأمورات، واجتناب المنهيات، فبالتقوى تصلح الدنيا، وينجو صاحبها في الآخرة، ومن اتقى ربه، عظمت نفسه، فلا يخاف أحداً في الوجود، ولا تذل نفسه لمخلوق، بسبب طمع في رزق أو مال أو جاه أو منصب، لأن التقوى تيسر الرزق، وتحيي الفؤاد وتملأ النفس طمأنينة وثقة بالله تعالى. هذا ما ينبغي على العبد، ويُتْرك علم الغيب إلى الله تعالى، فإن الغيبيات لا يعلم بها أحد سوى الله عز وجل، لا من نبي أو رسول، أو ملَك من الملائكة، أو ولي من الأولياء، أو أحد الناس العاديين، وقد أمر الله بالتقوى، وأخبر عن الغيبيات المختص بها في الآيات الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ **[لقمان: ٣١/٣٣-٣٤].**

هذا خطاب إلهي عام لجميع الناس بالأمر بتقوى الله عز وجل، وذلك بالقيام

بالفرائض والطاعات، واجتناب المناهي والمحظورات، والأمر بخشية الله وعظمته وسلطانه، والخوف من الحساب يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا يغني فيه والد عن ولد، ولا يدفع عنه شيئاً، وكذلك لا يفيد المولود والده شيئاً، حتى لو أراد أن يفديه بنفسه لم يقبل منه، لأنه لا يشفع أحد في غيره إلا بإذن من الله، كما قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥]. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ١٠/ ٣].

ولا يفيد في ذلك اليوم إلا العملُ الصالح المقدَّم في الدنيا.

ولا يشك أحد في حدوث ذلك اليوم، فإن وعد الله بالقيامة والحساب والجزاء أمر منجز ومؤكد الحصول، فلا تخدعنكم أيها الناس زخارف الحياة الدنيا، فتطمئنوا فيها، وتميلوا إليها، تاركين الاستعداد للآخرة، ولا يخدعنكم الشيطان بحلْم الله وإمهاله، والاعتماد على الأماني والتعرض للمغفرة، وعدم الاكتراث بالمعصية، ونسيان الآخرة، كما جاء في آية أخرى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢١]. والغَرور: الشيطان، في تفسير مجاهد والضحاك، أو هو الأمل والتسويف، أو التطميع بما لا يحصل. وقال سعيد بن جبير: معنى الآية أن تَعْمل المعصية وتتمنى المغفرة.

ثم أخبر الله تعالى عن اختصاصه بالعلم بمفاتيح الغيب الخمسة، فلا يعلم بها أحد إلا الله، وإن شاء أعلم بها سواه وهي:

- العلم بتوقيت حدوث يوم القيامة، فلا يعلم أحد وقت ذلك اليوم، لا ملَك مقرَّب، ولا نبي مرسل.

- وإنزال الغيث، أي المطر، فلا يعلم أحد بوقت نزول المطر ومكانه بالضبط، فإن أمر الله به، عَلِمه الملك الموكل بإنزاله وهو ميكائيل أو غيره.

- والعلم بخواص الأجنة في الأرحام من طبائع وصفات وتمام خلقه ونقصها، وأما معرفة الذكورة والأنوثة بالتجربة أو بالتصوير أو بالتحليل الحديث، فلا يغير شيئاً من علم الله بجملة المعلومات المتعلقة بالجنين.

- والعلم بمكاسب النفس وما تجنيه من خير أو شر في يوم غد، في الدنيا والآخرة.-والعلم بموضع موت النفس، في بلدها أو في غيرها من البلاد، وختم الله بيان هذه المواضع الخمسة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ أي إن علم الله علم شامل مطلق، لا يختص بهذه الأمور الخمسة، بل إنه سبحانه عليم بكل ظاهر وباطن، خبير بكل ما يتعلق بالأشياء.

وسبب نزول هذه الآية: هو ما أخرج ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: جاء رجل من أهل البادية هو الحارث بن عمرو، فقال: إن امرأتي حبلى فأخبرني بما تلد، وبلادنا مُجْدِبة، فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمتُ متى وُلدت، فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية.

تفسير سورة السجدة

إنزال القرآن وإبداع الخلق

أثبت الله تعالى كون القرآن كلام الله بكونه معجزاً لا يضارعه شيء، وليس كلام أحد من خلقه، وأقام الأدلة على وجوده وتوحيده وقدرته العظمى بخلق السماوات والأرض، وخَلْقِ الإنسان وغيره في أحسن تقويم، وزوّده بمفاتيح المعرفة من السمع والبصر والفؤاد، ليشكر ربه، ويهتدي إلى خالقه، وليصلح حاله ومجتمعه، وهذا ما افتتحت به سورة السجدة التي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرؤها كل يوم، قال جابر بن عبد الله: «ما كان رسول الله ﷺ ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ، تَنزِيلُ﴾ السجدة، و ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» . قال الله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ١-٩].

افتتحت هذه السورة بالأحرف الأبجدية المقطعة للتنبيه والتحدي وبيان إعجاز القرآن، لذا اقترنت هذه الحروف غالباً بالكلام عن القرآن والإشادة به. لقد أنزل الله هذا القرآن من عنده إنزالاً لا شك فيه، من غير أدنى اعتبار لارتياب الكفرة، فهو تنزيل من رب العالمين: عالَمِ الإنس والجن، ولا شك فيه، من جهة الله تعالى، وليس بسحر ولا شعر ولا سجع كهان.

بل أيقولون زوراً وبهتاناً: اختلقه محمد من عنده، بل هو الحق الثابت، أي هو حق من عند الله رب محمد، أنزله إليه لينذر به قوماً -أي قريشاً ومن جاورهم والعالَمَ كله- بأس الله وعذابه، إن كفروا وعصوا، ولم يأتهم منذر سابق من قَبْل النبي محمد ﷺ، لعلهم يهتدون بإنذاره.

والذي أنزل القرآن الكريم: هو الله تعالى خالق السماوات والأرض ومبدعهما وما بينهما، من غير مثال سابق، في مدة ستة أيام، ليست من الأيام المعروفة، ثم استوى على أعظم مخلوقاته: وهو العرش العظيم استواء يليق بذات الله وجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تحديد بزمان أو مكان، وليس لكم أيها الناس ولا سيما الكفار ولي، أي ناصر ينصركم، ويدفع عنكم العذاب، ولا شافع يشفع لكم عنده إلا بإذنه، بل هو المالك المطلق لكل شيء، أفلا تتدبرون وتتعظون، فتؤمنوا بالله وحده لا شريك له.

إن منزل القرآن: هو الذي يدبر أمر الكون كله، أي ينفذ الله تعالى قضاءه لجميع ما يشاؤه، ثم يرجع اليه خبر أمره وتنفيذِهِ في يوم من أيام الدنيا، مقداره ألف سنة، مما تعدّون في هذه الحياة، لأن ما بين السماء والأرض خمس مئة سنة. والمعنى: أن الأمور تنفَّذ من عنده، ثم يعود إليه عاقبة أمره.

وذلك المدبِّر لأمور الكون: هو العالم بجميع الأشياء، يعلم الغائب عن الأبصار،

وهو المشاهد المعاين لها، وهو القوي الغالب القاهر، الرحيم التام الرحمة بعباده المؤمنين الطائعين التائبين. والرحيم: الراحم غيره، والرحمن: صفة لذات الله تعالى مختص بها لا يسمى بها أحد غيره.

والمدبر للأمور كلها هو الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها، وبدأ خلق الإنسان آدم من طين، والطين من ماء وتراب، ثم جعل الله ذرية الإنسان يتناسلون من امتزاج سلالة متكونة من ماءي الرجل والمرأة، وهو ماء ضعيف: وهو النطفة. والسلالة: ما استل من الشيء، والنطفة: سلالة الإنسان.

ثم بعد خلق الإنسان من تراب، جعله الله سوياً مستقيماً، فقوّم أعضاءه، وعدّلها وأتمها، ونفخ فيه الروح التي هي من أمر الله، ولا يعرف حقيقتها إنسان، وأنعم الله على الإنسان بالحواس المختلفة ليتعايش تعايشاً سليماً مع محيطه، وهي حواس كثيرة، منها السمع الذي تُسمع به الأصوات، والبصر الذي تبصر به المرئيات، والعقل أو الفؤاد الذي يتم به التفكير والوعي والإدراك، والتمييز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر.

لكنكم أيها الناس لا تقابلون هذه النعم بالوفاء والشكر والتقدير، وإنما تشكرون ربكم شكراً قليلاً على هذه النعم التي رزقكم الله تعالى، والشكر: لا يكون باللسان فقط، وإنما باستعمال الحواس في طاعة الله ومرضاته.

إنكار المشركين بالبعث

لقد تلوثت عقائد الوثنيين بأمور ثلاثة: الشرك بالله بأن يعبدوا معه إلهاً آخر، وإنكار النبوة والوحي المنزل على قلب النبي ﷺ، وإنكار البعث أو اليوم الآخر، فتصدى القرآن الكريم لهذه المواقف الباطلة، فأثبت لهم توحيد الله من خلال قدرته

الفائقة، وأثبت لهم النبوة من خلال المواقف المشهودة والمعجزات المؤيد بها النبي، ورد رداً مفحماً على إنكار البعث بأن القادر على ابتداء الخلق قادرٌ على الإعادة، والإعادة أهون عليه، أي في تقدير الإنسان، وهما أي البدء والإعادة سواء بالنسبة لله عز وجل، وهذه آي تحكي باطل المشركين في إنكار البعث، قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٠-١٤].

لقد استبعد المشركون الوثنيون المعاد بعقولهم البسيطة، وقالوا: أئذا متنا وصارت أجسادنا تراباً مفتتاً ذاهباً في الأرض، أيمكن أن نعود خلقاً جديداً بعد تلك الحال؟! وهذا منهم قياس لقدرة الله تعالى الخارقة على قدرة الإنسان المحدودة العاجزة. بل إنهم في الواقع جاحدون لقاء ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء.

فرد الله تعالى عليهم بقوله: قل أيها النبي للمشركين: إن ملَك الموت عزرائيل الموكّل بقبض الأرواح يقبض أرواحكم في الوقت المحدد لانتهاء الأجل، ثم في نهاية الدنيا بعد الموت تعودون أحياء إلى ربكم، كما كنتم قبل الوفاة، وذلك في يوم المعاد.

ثم أخبر الله تعالى عن حال المشركين في يوم البعث والحساب، بأسلوب فيه تعجيب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته من حال الكفرة ومما حلّ بهم، فلو تشاهد أيها النبي حين يقوم المشركون بين يدي ربهم، خافضي رؤوسهم من شدة الحياء والخزي والعار، لرأيت أمراً عجباً. وجواب (لو) محذوف، لأن حذفه أهول،

إذ يُترك الإنسان فيه مع أقصى تخيله. والمجرمون: هم الكافرون، بدليل قولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي إنهم كانوا في الدنيا غير موقنين، وتنكيس الرؤوس: هو من الهول والذل والهم بحلول العذاب. وتراهم يقولون: ربنا نحن الآن نسمع قولك، ونطيع أمرك، لقد أبصرنا الحشر، ونسمع تصديقك للرسل، فارجعنا إلى دار الدنيا، نعمل فيها ما يرضيك من صالح الاعتقاد والقول والعمل، وقولهم: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي ما كنا نُخْبَر به في الدنيا، فكنا مكذبين به.

ثم أخبر الله تعالى عن نفسه أنه لو شاء لهدى الناس أجمعين، بأن يخترع الإيمان في قلوبهم، ويلطف بهم لطفاً يؤمنون به، ولكن ثبت قول الله وقضاؤه، وسبق منه الإعلام أنه لا بد من ملء جهنم من الجن والإنس أجمعين، ولكنهم اختاروا في الدنيا الكفر والضلال، وسوء الاعتقاد والعمل.

لذا يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم بيوم القيامة، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له، والآن نعاملكم معاملة المنسيين، وإن كان الله تعالى لا ينسى شيئاً، وهذا من قبيل المشاكلة لأفعالهم، مثل قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٩] وقوله سبحانه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٦٧].

ويقال لهم أيضاً على سبيل التبكيت والتأكيد: ذوقوا عذاب النار الدائم الذي تخلدون فيه بسبب كفركم وتكذيبكم وسوءِ أعمالكم، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بتكسبكم الآثام، وارتكابكم المعاصي.

إن هذه الإنذارات والأوصاف الرهيبة تستوجب من العقلاء الحذرَ الشديدَ قبل الوقوع في مواقعها أو محطاتها، وقبل التعرض لألوان التوبيخ والتقريع بسبب سوء الاعتقاد والعمل في الدنيا. والسعيد: من اتعظ بغيره، والشقي: من حرم الإفادة من

العبر والأحداث، فإن المصير حتمي، ولا منجاة من أحد الأمرين: إما الجنان، وإما النيران.

جزاء المؤمنين والفاسقين

إن ترجمة الإيمان إنما تكون بالخضوع ساجدين لله تعالى، وبتسبيحه وتحميده وبالإقبال على الرب عز وجل في الصلاة في جوف الليل، ويكون جزاء المؤمنين الجنة. ولا يعقل في ميزان أحد التسوية بين المؤمن والفاسق. والفسق يكون بجحود الله تعالى وإنكار وحدانيته، وإنكار اليوم الآخر، ونبوة خاتم النبيين، ويكون جزاء الفاسقين النار. ومن رحمة الله تعالى تعريضُ الكافرين أو الفاسقين لشيء من العذاب القريب في الدنيا، لعلهم يرجعون عن غيهم وضلالهم. قال الله تعالى مبيناً جزاء الفريقين:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٥-٢٢].

المعنى: إنما يصدق بآيات القرآن والكون والرسل الذين إذا وعظوا بها واستمعوا لها بعد تلاوتها عليهم، سقطوا ساجدين لله على وجوههم، تذللاً وخضوعاً،

وإقراراً بالعبودية، ينزهون الله في سجودهم عن الصاحبة والولد والشريك، ويحمدون الله على نعمه، فهم يجمعون بين التسبيح والتحميد، لا يستكبرون عن طاعة ربهم، والانقياد لأوامره.

وهم أيضاً يصلّون قيام الليل أو التهجد، تترفع وتبتعد جنوبهم أو جوانبهم عن مضاجع النوم والراحة، أي أماكن النوم، يدعون الله خوفاً من العقاب، وطمعاً بالرحمة وجزيل الثواب، وينفقون بعض أموالهم في سبيل الخير والإحسان. فلا تدري نفس على الإطلاق من ملائكة ورسل عظمة ومقدار ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذائذ التي تَقرّ بها الأعين أي تفرح وتسرّ، جزاء عدلاً مقابل صالح أعمالهم، التي عملوها بإخلاص في الدنيا، من غير سمعة ولا مراءاة، ومن أبسط المعقولات في قانون الجزاء الإلهي أو البشري أنه كيف يُسوَّى بين المؤمن بالله ورسوله، المطيع لأمره ونهيه، وبين الكافر الفاسق الخارج عن دائرة طاعة الله تعالى، المكذب رسل الله الكرام، إنهما لا يستويان في ميزان أحد، ولا في ميزان الله يوم القيامة.

عن عطاء بن يسار: أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وذلك أنهما تلاحيا، فقال له علي: اسكت فإنك فاسق، فنزلت الآية .وعليه يكون جزاء الفريقين مختلفاً في الآخرة: أما الذين صدقوا بالله ورسله، وعملوا صالح الأعمال، فلهم جنات المأوى المستقر المريح، التي فيها ألوان النعيم، ثواباً وجزاء على أعمالهم الحسنة. وأصل النُّزل: ما يعدُ للضيف من الطعام والشراب والمبيت، والمراد به هنا: ثواباً وجزاء.

وأما الذين فسقوا، أي كفروا بالله تعالى، وعصوه وعملوا السيئات، وخرجوا عن دائرة الطاعة، فمأواهم النار التي يستقرون فيها، كلما عزموا على الخروج منها لشدة العذاب والأهوال، أعيدوا فيها خاسئين ذليلين، أي صاروا مُخَلَّدين فيها،

ويقال لهم: تذوقوا وتحملوا عذاب النار الذي كذبتم به في الدنيا، فإن الله أعدَّه للظالمين الفاسقين.

ورحمةً من الله بعباده يذكرهم بألوان النقم الدنيوية، فإنه سبحانه يذيق الكفار والعصاة شيئاً من العذاب الأقرب وهو عذاب الدنيا، من المصائب والآفات، كالجوع والقتل والسبي، قبل مجيء العذاب الأشد في يوم القيامة، ليرجعوا عن ضلالهم إلى الهدى والرشاد. والتعبير بكلمة (لعلهم) ليس للترجي، فهو مستحيل على الله تعالى، وإنما معناه: ليرجعوا عما هم عليه من الضلال.

والسبب العام للعذاب: هو الإعراض عن هدي الله تعالى، فليس هناك أشد ظلماً ممن ذكّره الله بآياته القرآنية ومعجزات رسله، ثم أدبر عنها، وهجرها وجحدها، كأنه لا يعرفها، لذا فإن الله سبحانه ينتقم أشد الانتقام من هؤلاء الكفار الذين كفروا بالله، واقترفوا المنكرات والموبقات.

إن القرآن الكريم هدى ورحمة، لما فيه من بيان سابق قبل المفاجأة بألوان العقاب أو العذاب في الآخرة، كما أوضحت هذه الآيات.

توجيهات وأوامر متعلقة بالرسالة

في سورة السجدة إثبات للتوحيد والبعث والرسالة النبوية، وقد ختمت السورة بالتركيز على أمر الرسالة المحمدية بعد نبوة موسى وإنزال التوراة عليه، ليستمر العطاء الإلهي والإرشاد بين جميع الأمم والشعوب، وتتحقق الثمرة المرجوة بصلاح العقائد والأعمال، مع لفت النظر إلى ضرورة الاتعاظ والاعتبار بأحوال الأمم السابقة، وبمشاهد الكون والحياة، وتبشير النبي ﷺ بالنصر الحاسم، والإعراض عن المشركين، وانتظار المصير المرتقب فيهم، قال الله تعالى موضحاً هذه المعاني:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا
مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ
﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[السجدة: ٣٢/ ٢٣-٣٠].

هذه أخبار فيها عظة واقعية، أولها تطمين النبي صلى الله عليه وآله وسلم حول إيتائه الرسالة الكاملة، فلقد آتى الله موسى عليه السلام التوراة. فلا تكن يا محمد في شك من لقائك الكتاب، فإنا آتيناك القرآن كما آتينا موسى التوراة، فأنت كغيرك من الرسل، والصلة قائمة بين الرسالتين، فإن التوراة جعلت هداية وإرشاداً لبني إسرائيل، وكذلك القرآن المجيد هداية لأمتك أيها النبي محمد، والمتأخر ينسخ المتقدم.

والمقصود من الآية: حمل اليهود على التصديق برسالة محمد ﷺ وتحريضُ المشركين أيضاً على التصديق بتلك الرسالة، للتشابه القائم بين الرسالتين والمهمتين، في أصولهما المشتركة، وفي ذات ما أنزل على كل من موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم.

ولقد جعلنا من بني إسرائيل أئمة يقتدى بهم، يدعون إلى الحق والخير والإيمان، بإذننا وتوفيقنا وإعانتنا، لما صبروا على طاعة الله وتنفيذ الدين الحق، وتصديق الرسل واتباعهم، وكانوا بآياتنا الدالة على التوحيد والقدرة الإلهية مصدِّقين موقنين.

إن ربك أيها النبي يقضي يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه من قضايا

الاعتقاد، والدين والحساب، والثواب والعقاب، والعمل، فيثيب الطائع بالجنة، ويعذب العاصي بالنار.

أو لم يتبين لمكذبي الرسل كم، أي كثيراً ما أهلكنا من قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم، مثل عاد وثمود وقوم لوط، يمر المكذبون المشركون في أسفارهم بمساكنهم وديارهم المدمَّرة، إن في ذلك التدمير لدلائل وعلاماتٍ على قدرة الله عز وجل، وعظات وعبراً لقوم يتعظون بها. أولم يشاهد هؤلاء المكذبون بالبعث الوثنيون أننا قادرون على الإحياء، كما نسوق الماء من السماء إلى الأرض اليابسة، فنخرج به زرعاً أخضر تأكل منه أنعامهم، وتتغذى به أجسامهم، وتتقوى به أبدانهم، أفلا يبصرون هذا بأعينهم، فيعلموا أننا قادرون على الإعادة بعد الموت، كإحياء الأرض بعد موتها؟! وهذا دليل على إقامة الحجة على المشركين في معنى الإيمان بالقدرة الإلهية والبعث، بأن نبههم على إحياء الأرض الموات بالماء، والسوق: هو بالسحاب. والأرض الجرز: الأرض العاطشة التي قد أكلت نباتها من العطش.

ويتساءل هؤلاء المشركون عن موعد وقوع العذاب بهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً، قائلين: ومتى يعذبنا الله بسببك، وأنت وصحبك ما نراكم إلا أذلة قليلين؟ إن كنتم صادقين في تهديدكم ووعيدكم.

فوبخهم الله في الجواب بقوله: قل أيها النبي لهؤلاء المكذبين برسالتك: إن يوم الانتقام والقضاء الفصل النافذ: هو يوم القيامة الذي لا ينفع فيه إيمان الكافرين ولا توبتهم، ولا هم يؤخرون فيه بالإعادة إلى الدنيا للتوبة والإيمان والعمل الصالح، لأن قبول الإيمان إنما هو في دار الدنيا، فلا تستعجلوا العذاب، فهو واقع حتماً.

فأعرض أيها النبي عن هؤلاء المشركين، ولا تأبه بتكذيبهم، وتابع تبليغ رسالتك

المنزلة إليك من ربك، وانتظر النصر الحاسم من الله الذي وعدك به، فإن الله سينجز لك ما وعدك به، وسينصرك على من خالفك وعاداك، إن الله تعالى لا يخلف الميعاد، وإنهم منتظرون الغلبة عليك والهلاك، فإن مصير الظالمين آتٍ لا ريب فيه.

تفسير سورة الأحزاب

أحكام إسلامية صرفة

الشريعة الإسلامية في أحكامها الفرعية مستقلةٌ عن الشرائع الأخرى، سواء كانت وضعية أو سماوية، لأنها شريعة خاتمة، تقرر أحكاماً عامة ودائمة، لا تتغير ولا تتبدل، وتتميز بعلاجها لمشكلات وقضايا تعايَشَ معها المجتمع العربي الجاهلي، ولكنها ليست صالحة للاستمرار، على خلاف بعض العادات النافعة، مثل التعاون في تحمل دية القتل الخطأ، والاعتدال في الحياة، كالسخاء والشجاعة، وولاية الولي على القاصر والولاية على المرأة في عقد زواجها، أما الذي لم يرتضه الإسلام فمثل العصيان، والنفاق، والظهار، والتبني، وادعاء تعدد القلب لدى الإنسان، وهذا ما أوضحته سورة الأحزاب في مطلعها حيث قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾
وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ
مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ(١) أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ
يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ

(١) أدعياء جمع دعي: وهو من يدعي لغير أبيه على أنه ابنه، وهو في الواقع ابن غيره.

فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ(١) وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١-٥].

ما أروع مطلع هذه الآية وتأثيرها العميق والبعيد في تربية القيادة الإسلامية والإصرار على المبدأ، والثبات على العقيدة.

وسبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن أهل مكة، ومنهم الوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله، على أن يعطوه شطر أموالهم، وخوّفه المنافقون واليهود في المدينة إن لم يرجع قتلوه، فنزلت الآيات.

أمر الله النبي ﷺ بالتقوى: ومعناه المداومة على التقوى، ومتى أُمر أحد بشيء هو به قائم، فمعناه المداومة، وحذره تعالى من طاعة الكافرين، والمنافقين وهم المظهرون للإيمان، وهم لا يبطنونه. والمعنى: يا أيها النبي اتق الله، أي داوم على التقوى بإطاعة أوامر الله، واجتناب محارمه، ولا تطع أهل الكفر والنفاق في شيء، واحذرهم، إن الله كان وما يزال تام العلم بعواقب الأمور، حكيماً في أقواله وأفعاله، فهو أحق باتباع أوامره وطاعته.

واتبع الوحي المنزل إليك من ربك، فإن الله لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، والظاهر والباطن، ثم يجازيكم على أعمالكم. وفوضْ جميع أمورك وأحوالك إلى الله تعالى، وكفى بالله وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه، فذلك كافٍ مقنع، والوكيل: القائم بالأمر، المغني فيه عن كل شيء.

وللإنسان قلب واحد، ولم يخلق الله فيه قلبين، ولا يجتمع في القلب الواحد

(١) أي أنصاركم وبنو عمومتكم .

الخوف من الله والخوف من غيره، فإذا كان الإنسان مؤمناً بالله ورسوله فلن يكون كافراً أو منافقاً، والمعنى: لا يجتمع في قلب واحد اعتقادان، أو اتجاهان متضادان، يأمر أحدهما بشيء والآخر بضده.

ولم يجعل الله الزوجات المظاهر منهن كالأمهات في الحرمة، بأن يشبه الرجل امرأته بإحدى محارمه، كأن يقول: أنت علي كظهر أمي، فذلك منكر من القول وزور. ولم يجعل الله أيضاً الأدعياء المدعى بنوتهم بالتبني أبناء في الحقيقة، فالولد منسوب لأبيه الحقيقي، لا لمن يدعيه ابناً له، والتبني حرام، لمنافاته الحق والعدل، وهذه الآية لإبطال التبني.

إن المذكور كله في الآية من الأمور الثلاثة: ادعاء القلبين، واجتماع الزوجية مع الظهار، والتبني مع النسب: هو مجرد قول باللسان، لا يغير من الحقيقة، فلا يكون هناك قلبان لأحد، ولا تصبح الزوجة بالظهار أماً، ولا يصبح الولد المتبنى ابناً في الحقيقة، والله تعالى هو الذي يقرر الحق الثابت والصدق والعدل والواقع، ويرشد إلى السبيل الأقوم الصحيح.

وعليكم أن تنسبوا الأولاد الذين تبنيتموهم إلى آبائهم الحقيقيين، فذلك أعدل في حكم الله وشرعه، وأصوب من نسبة الابن لغير أبيه، فإن جهلتم آباء الأدعياء، فهم إخوة في الدين وأنصار لكم وبنو عمومتكم، ولا إثم عليكم بنسبة بعض الأولاد لغير آبائهم خطأ، أي نسياناً في الماضي قبل النهي، وإنما الإثم يحصل بتعمد نسبة الابن لغير أبيه، وهو يدري أنه ابن غيره، وكان الله واسع المغفرة، شامل الرحمة لمن تاب وأناب، أي لما مضى من فعلهم في ذلك، والمغفرة والرحمة صفتان مطّردتان في كل شيء. والخطأ في الآية: بمعنى النسيان، وليس مقابل العمد.

ولاية النبي ﷺ على جميع المؤمنين

النبي ﷺ قائد الأمة ومنقذها، وأبوته المعنوية ورحمته شاملة لجميع المؤمنين، لا يختص بها أحد، وهذا يستدعي محبة النبي أكثر من محبة الإنسان نفسه، وأن يمتثل أوامره، أحبت نفسه ذلك أم كرهته، والنبي كغيره من الأنبياء أو الرسل السابقين ملزم بتبليغ رسالة ربه على الوجه الأكمل، بمقتضى العهد والميثاق الإلهي عليهم، وذلك لينقسم الناس فريقين: فريق الصادقين المصدقين برسالات الأنبياء، وفريق المكذبين الجاحدين الذين يتنكرون لدعوات الأنبياء، ويثيب الله أهل الصدق والإيمان، ويعاقب أهل الكفر والضلال. قال الله تعالى مبيناً هذه الأحكام العامة:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٦-٨].

النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرأف الناس بجماعة المؤمنين وأحرصهم على مصالحهم وإنقاذهم، فهو يدعوهم إلى النجاة، وهم يتجهون إلى الهلاك. قال رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري وابن جرير وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه حين نزلت هذه الآية: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: «من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك ديناً أو ضَياعاً فعلي، أنا وليه، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾». وقد أزال الله تعالى بهذه الآية أحكاماً كانت في صدر الإسلام، منها أن النبي ﷺ كان لا يصلي على ميت عليه دَيْن، فذكر الله تعالى أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وأزواج (زوجات) النبي ﷺ بمثابة الأمهات في الحرمة والاحترام والتعظيم

والتقدير، وفي تحريم الزواج بهن بعد النبي، وفي غير ذلك هن أجنبيات، فلا يحل النظر إليهن، ولا الخلوة بهن، ولا إرثهن ونحو ذلك.

والقرابة ذوو الأرحام أو العصبات أولى بعضهم ببعض في الميراث وغيره، وفي منافع بعضهم، فهم أولى وأحق من بقية المؤمنين المهاجرين والأنصار، وهذا إبطال لحكم التوارث بالنصرة بعد الهجرة الذي كان مقرراً في بداية الأمر، حيث كانت الشريعة تقرر التوارث بأخوة الإسلام وبالهجرة، فإنه كان بالمدينة توارث في صدر الإسلام بهذين الوجهين: الهجرة والنصرة.

لكن إذا ذهب الميراث بالتآخي، بقي حكم الوصية عند الموت، والإحسان في الحياة، والصلة والود، وهذا الحكم وهو توريث ذوي الأرحام حكم من الله تعالى مقرر في اللوح المحفوظ، لا يبدّل ولا يغير.

ثم أخبر الله تعالى عن ميثاق النبيين بتبليغ الرسالة الإلهية، والمعنى: اذكر أيها الرسول أننا أخذنا العهد المؤكد على جميع الأنبياء، و بخاصة أولو العزم منهم، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، أنهم يبلّغون رسالة ربهم إلى أقوامهم. وتخصيص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر للتشريف والتعظيم، لأنهم أصحاب الكتب والشرائع والحروب الفاصلة من أجل التوحيد. وقدَّم الله في الآية ذِكْر محمد ﷺ، على الرغم من تأخر زمانه، تشريفاً خاصاً له أيضاً، وروى ابن جرير الطبري عن قتادة قال: ذُكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول: «كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث» . وكرَّر الله في الآية أخذ الميثاق لمكانته. ووَصْفُ الميثاق بأنه غليظ أي شديد: إشعار بحرمة هذا الميثاق وقوته.

وأخذ الميثاق على الأنبياء في التبليغ بعد بعثتهم، لكي يجعل الله خلقه فرقتين -فاللام في «ليسأل»: لام كي وهو الأصوب من جعلها لام الصيرورة- فرقة يسألها الله عن

صدقها، على معنى إقامة الحجة والتقرير، فتجيب بأنها قد صدقت الله تعالى في إيمانها وجميع أفعالها، فيثيبها الله على ذلك. وفرقة كفرت، فينالها ما أُعد لها من العذاب الأليم. إن إنزال الشرائع بقصد الاختبار، ليعرف المؤمنون الصادقون، ويتميز الكافرون الجاحدون، بعد اختيار كل فريق اتجاهه. والصدق في هذه الآية: إما المضاد للكذب في القول، وإما صدق الأفعال واستقامتها.

والكلام مشعر بضرورة اختيار الأفضل، وهو الإيمان الصحيح لتحقيق النجاة والفلاح، وترك أضداد الإيمان، من الكذب والنفاق والشرك والرياء.

أحداث غزوة الخندق

- ١ -

تجمع الأحزاب والمنافقين

نزلت في سورة الأحزاب آيات بينات في شأن غزوة الخندق وما اتصل بها من أمر بني قريظة في السنة الخامسة من الهجرة، حيث اجتمع حول المدينة عشرة آلاف أو أكثر، وهو أكبر تجمع للمشركين واليهود وأهلِ الكتاب، للقضاء على النبي ﷺ وصحبه، وهي تظاهرة خطيرة، بعد إجلاء يهود بني النضير من المدينة، فخرجوا إلى مكة مستنهضين قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ، وجسّروهم على ذلك، فتجمعت جموع قريش من كنانة وغطفان وبني أسد وأهل نجد وتهامة واليهود، وتحزبوا وأزمعوا السير إلى المدينة بقيادة أبي سفيان بن حرب، فعلم النبي ﷺ بذلك، فحفر الخندق حول ديار المدينة وحصَّنه، وكان أمراً لم يعهده العرب، وإنما كان من أعمال فارس والروم، وأشار به سلمان الفارسي رضي الله عنه، وجاء وصف هذه الغزوة في الآيات الآتية:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ
تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ
زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا
غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ
ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ(١) وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ
أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن
قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٩-١٥].

المعنى: يا أيها المصدقون بالله ورسوله، اذكروا بالشكر والحمد نعمة الله التي أنعم بها عليكم، حين وقعتم في حصار جنود وحشود هائلة من قريش وغطفان واليهود وغيرهم، الذين جاؤوا لإبادتكم، فأرسلنا عليهم ريحاً باردة في ليلة شاتية، وجنوداً ملائكة لم تروها، أرعبتهم، فأكفأت القدور، وقلبت البيوت، وآثروا فك الحصار والنجاة، وكان الله مطلعاً على جميع أعمالكم من حفر الخندق، والتعرض للشدائد، والاستعداد للقتال، والله يجازيكم عليها.

واذكروا حين جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادي جهة المشرق، ومن أسفل الوادي جهة المغرب، ومالت الأبصار عن موازينها، فلم تلتفت لكثرة العدو، وصرتم في حال رهيبة من شدة الخوف والفزع، وتظنون ألوان الظنون الحسنة والسيئة، أي تكادون تضطربون، فمنكم المؤمن الثابت، ومنكم المنافق المتردد المضطرب، وتقولون: ما هذا الخلف للوعد؟ وحينئذ اختبر الله المؤمنين، فظهر المؤمن المخلص، والمنافق الكاذب، واضطربوا اضطراباً شديداً من الفزع وتهديدات العدو.

(١) أي غير حصينة .

واذكروا حين قال المنافقون وضعفاء الإيمان لحداثة عهدهم بالإسلام ما وعدنا الله ورسوله من النصر على العدو إلا خداعاً ووعداً باطلاً زائفاً، لا حقيقة له. والقائل: جماعة من اليهود والمنافقين نحو سبعين رجلاً.

واذكروا أيضاً حين قالت طائفة من المنافقين: يا أهل المدينة، لا مجال لإقامتكم مع محمد وعسكره، ولا قرار لكم هنا، فارجعوا إلى بيوتكم في المدينة، لتسلموا من القتل والاستئصال.

ويَطْلُب في هذه الحال الرهيبة فريق من المنافقين الإذن في العودة إلى بيوتهم في المدينة، قائلين: إن بيوتنا ليست محصّنة، وهذا كذب وليست كذلك، بل هي حصينة خلافاً لما يزعمون، وإنما قصدهم الهرب والفرار.

والواقع أنهم ضعاف الإيمان، فلو دخل عليهم الأعداء من جوانب المدينة، واشتد الخوف الحقيقي، ثم طلب منهم العودة صراحة إلى الكفر، لفعلوا ذلك سريعاً. ولم يمكثوا للجهاد إلا زمناً يسيراً، ممتلئاً بالخوف والذعر. وقوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي محاربة محمد ﷺ وأصحابه. والأقطار: النواحي.

ولقد كان هؤلاء المنافقون، وهم بنو حارثة، عاهدوا الله يوم أحد قبل هذه المخاوف ألاّ يولوا الأدبار، وألا يفروا من الزحف، ولكن الله يسألهم عن ذلك العهد والوفاء به يوم القيامة، ويجازيهم على نقضه. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ معناه مطلوباً مقتضى، حتى يوفى به، وفيه توعد لقريش وأنصارهم.

إن هذا الوصف لأحوال التجمع القرشي حول المدينة، يقتضي تذكر الأهوال وإدراكَ المخاطر، ثم المبادرة إلى الشكر وحمد الله على نعمته وفضله، إذ نجى الله المؤمنين، وهزم الكافرين الأحزاب وحده تعالى.

غزوة الخندق

- ٢ -

توبيخ المنافقين

استحق المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر اللوم والتوبيخ الشديد، وافتضاحَ شأنهم وعلم الله بهم، وبيان صفاتهم السيئة، من البخل، والجبن، وسلاطة اللسان، والإعلام بأنهم في الحقيقة غير مؤمنين، وأنهم من شدة خوفهم ظنوا أن الأحزاب لم يرحلوا ولم ينهزموا، وإن عادوا إلى القتال لتمنوا الخروج من المدينة إلى البادية، وإن قاتلوا مع المؤمنين لم يقاتلوا إلا قتالاً يسيراً، بسبب انهزامهم الداخلي وفقد الثقة بالنفس. وهذه آيات كريمات تبين هذه الأحوال، قال الله تعالى:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/١٦-٢٠].

هذه تهديدات مبطنة وظاهرة، وتوبيخات شديدة لأولئك الذين نافقوا ولم يؤمنوا، أخبرهم أيها النبي أن الفرار لا ينجي من القدر، وأنهم لا يُمتّعون في عالم الدنيا إلا تمتعاً قليلاً، أو زماناً يسيراً بل تنقطع أعمارهم في يسير من المدة. والقليل المستثنى: هو مدة الآجال المقررة.

وقل لهم أيها الرسول، لا أحد يستطيع أن يمنعكم من مراد الله بكم، أو دفع السوء عنكم إذا قدّره الله عليكم، أو جلبِ الخير والنفع لكم إن أراده الله، ولن يجد هؤلاء المنافقون ومؤيدوهم مجيراً ولا نصيراً ينصرهم أو يشفع لهم.

ثم حذرهم الله تعالى بدوام علمه بالخائنين، ووبخهم بإخبار نبيه أن الله يعلم الذين يعوقون الناس عن نصرة الرسول، ويمنعونهم بالأقوال والأفعال، ويعلم القائلين لإخوانهم وأصحابهم من أهل المدينة: تعالوا إلى ما نحن فيه من الإقامة في البساتين تحت الظلال والثمار، واتركوا محمداً والحرب معه، ولا يأتي المنافقون الحرب أو القتال، إلا زمناً قليلاً أو شيئاً يسيراً إذا اضطروا إليه، خوفاً من الموت أو القتل. وهلم: بمعنى أقبل.

وصفات هؤلاء المنافقين الشخصية قبيحة جداً:

فهم أولاً: قوم بخلاء أشحة بأنفسهم وأموالهم وجميع أحوالهم، لا يقدِّمون منفعة للمؤمنين ولا لغيرهم بحق.

وهم أيضاً جبناء، فإذا ظهرت أمارات الخوف من العدو في بدء المعركة والقتال، لاذوا بك أيها النبي، ورأيتهم ينظرون إليك، كما ينظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت، حذراً وخوَراً وضعفاً، فإذا ذهب ذلك الخوف العظيم، بدت منهم سلاطة اللسان وتفاخروا بأنهم أهل النجدة والشجاعة، وهم في ذلك كاذبون مراوغون، وسبب هذه السلاطة أنهم لا خير فيهم ولا منهم، قد جمعوا بين الجبن والكذب ونضوب الخير، فهم جبناء في الحالين: حال البأس أو الشدة، وحين جمع الغنيمة.

وسبب مرضهم الشديد الذي ينخر العظام أنهم فاقدو الإيمان، فهم غير مصدقين بالله ورسوله، وإن لم يظهروا الإيمان لفظاً، فأبطل الله أعمالهم التي كانوا يأتون بها

في الظاهر مع المسلمين، وكان ذلك الإحباط أو الإبطال لثمرة الأعمال سهلاً هيناً عند الله تعالى، بمقتضى عدله وحكمته.

وهذه الصفات القبيحة ملازمة لهم، فهم يظنون من شدة الخوف والفزع الذي ملأ قلوبهم أن أحزاب الكفر من قريش وغطفان وبني قريظة، لم يرحلوا عن المدينة، ولم ينهزموا، وأنهم عائدون إلى الحصار. وإذا استعد الأحزاب لقتال المؤمنين، تمنوا ألا يكونوا حاضرين معهم في المدينة وبين المقاتلين الصامدين، بل يكونون في البادية، يترقبون الهزيمة للمؤمنين، ويسألون عن أخبارهم وما كان من أمرهم مع العدو، شماتةً بهم، وانتظاراً لإيقاع الشر والسوء بهم، وجبناً وخوفاً شديداً، وغرضهم من البداوة: أن يكونوا سالمين من القتال، ولو كانوا موجودين مع المؤمنين في ساحة المعركة ما قاتلوا إلا قتالاً يسيراً، لجبنهم وخوفهم، وهذا إيناس للنبي، وتحقير لشأن المنافقين.

غزوة الخندق

- ٣ -

حال المؤمنين في القتال وغيره

كان أهل الإيمان الحق مثلاً أعلى في الشجاعة والبطولة والصبر على لقاء الأعداء، والصدق في المواقف كلها، والتأسي التام بالنبي ﷺ القدوة الحسنة، ولم تكن الأحداث تزيدهم إلا صلابة في الموقف وإصراراً على تحدي الأعداء، فاستحقوا أفضل الجزاء في الدار الآخرة، كما استحق المنافقون العذاب، والمشركون الهزيمة المنكرة والخيبة والفشل، وقد سجل القرآن العظيم هذه الأحوال المتباينة، وذلك في الآيات الآتية:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ[1] وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢١-٢٧].

أوجب الله تعالى على كل مسلم أن يقتدي بالنبي عليه الصلاة والسلام، حين قاتل وصبر وجاد بنفسه، في وقعة الأحزاب وغيرها، والمعنى: لقد كان لكم معشر المؤمنين، أسوة أي قدوة صالحة يقتدى به وهو رسول الله، فهو مثل أعلى لكم في الشجاعة والإقدام، إذا كنتم تريدون ثواب الله وفضله على العمل الصالح، وتخشون الله وحسابه، وتذكرونه ذكراً كثيراً في جميع الأوقات، حباً به سبحانه وتعظيماً له، وخشية منه، وطمعاً في فضله ورحمته، فإن ذِكْر الله تعالى دافع لطاعته، ومانع من نقمته، والتأسي برسوله. وهذا عتاب للمتخلفين، وإرشاد للتأسي برسول الله. وبما أن ذكر الله من خير الأعمال نبّه عليه الحق سبحانه وتعالى.

وموقف المؤمنين يختلف عن المنافقين، فحينما شاهد المؤمنون فئات الأحزاب وجموعهم الحاشدة قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الاختبار بمجابهة الأعداء ثم يعقبه النصر القريب، وصدق الله ورسوله الوعد بالنصر، وما زاد المؤمنين تجمعُ

(١) حصونهم.

الأعداء وتكاثرهم لحربهم، وصبرهم على البلاء، إلا إيماناً بالله ورسوله، واستسلاماً لقضائه وقدره، وانقياداً لأمره ونهيه. والتسليم: الانقياد لأمر الله تعالى كيف جاء.

و يختلف موقف المؤمنين أيضاً عن المنافقين بالوفاء بالعهد، فهم صدقوا العهد مع الله تعالى، ووفوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر في حال الشدة والبأس، فمنهم من انتهى أجله واستشهد كيوم بدر وأحد، ومنهم من ينتظر قضاء الله والشهادة وفاء بالعهد، وما بدّلوا عهدهم وما غيروه، بخلاف المنافقين الذين ولّوا الأدبار، وبدّلوا الأقوال ونقضوا العهود. وهذا ثناء من الله على عباده المؤمنين الذين عاهدوا الله على الاستقامة التامة، فوفوا نذورهم وعهودهم، قال الحسن: قضى نحبه: مات على ما عهد.

إن تعرض المؤمنين للمحن والبلايا واختبارهم بالخوف وملاقاة الأعداء، من أجل تمييز الخبيث من الطيب، ومكافأة الصادقين في إيمانهم، بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به ومحافظتهم عليه، ولتعذيب المنافقين الذين كذبوا، ونقضوا العهد، وأخلفوا الأوامر واعتذروا بالأعذار الكاذبة، فاستحقوا العذاب واللوم.

إن الله تعالى كان وما يزال كثير المغفرة حيث ستر ذنوب عباده ورحمهم ورزقهم الإيمان، ووفقهم للتوبة، ولم يعاقبهم على ما مضى بعد التوبة الخالصة. وهذا حث على التوبة والإيمان قبل فوات الأوان.

وكانت نهاية معركة الأحزاب أو الخندق تحقيق النصر للمؤمنين، وهزيمة الكافرين، وجلاءهم عن المدينة بعد الحصار الشديد، فقد ردّهم الله تعالى عن المدينة خائبين خاسرين، مع شدة غيظهم، لعدم تحقيق مآربهم، ولم يحققوا خيراً لأنفسهم، لا في الدنيا من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة من الآثام والعذاب وإحباط

الأعمال، بسبب عداوتهم للنبي عليه الصلاة والسلام، ومحاولاتهم التخلص منه، بالقتل أو غيره.

وكفى الله المؤمنين القتال، أي لم يحوجهم إلى قتال ومبارزة، حتى يُجلوا الأعداء عن بلادهم، بل كفاهم الله وحده شرهم، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وكان الله وما يزال صاحب القوة ومصدرها، قادراً على استئصال الأعداء وإذلالهم، لا يغلبه أو يقهره أحد مهما كان قوياً.

وتحقيق هذا النصر الإلهي الواضح على جموع الأحزاب يستدعي الشكر والحمد لله جل جلاله، وزيادة الإيمان بقدرته، لذا كان عليه الصلاة والسلام فيما أخرج الشيخان يقول: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده».

ثم ذكر الله هزيمة بني قريظة الذين تواطؤوا مع قريش في غزوة الأحزاب، فإن الله تعالى أنزلهم من حصونهم وقلاعهم، وأجلاهم عنها، وألقى في نفوسهم الخوف الشديد، لممالأتهم المشركين على محاربة النبي ﷺ، وصار أمرهم أن قتل المسلمون فريقاً منهم، وهم الرجال المقاتلون، وأسروا فريقاً منهم، وهم النساء والصبيان.

وجعل الله أراضيهم المزروعة ومنازلهم المعمورة وأموالهم المدخرة وأرضاً أخرى لم تطأها أقدام المؤمنين في عهد النبوة، وهي التي ستفتح في المستقبل، جعلها الله كلها للمسلمين، مثل خيبر ومكة وفارس والروم، وكان الله وما يزال تام القدرة على كل شيء، ينصر من يشاء، ويذل من يشاء.

مضاعفة الأحكام لزوجات النبي ﷺ

صان الله تعالى بيت النبوة الطاهر صيانة أدبية عالية، وتعهد أمهات المؤمنين بالتربية العالية القائمة على العفة والكرامة، وجعلهن المثل الطيب الذي يحتذى لنساء المؤمنين والمؤمنات على ممر الزمان، واقتضى هذا إعدادهن لمنازل الآخرة العالية، ومضاعفة ثواب أعمالهن، وزيادة عقوبتهن، فالأجر مرتان، والعقاب ضعفان. وهذا دليل على كون القرآن الكريم كلام الله تعالى، حيث لا مجال فيه لتمييز بيت النبوة بمزايا معينة أو بخصوصيات محددة، وإنما كان التشديد عليهن هو الصفة الغالبة، ويقابله زيادة الحسنات بفعل الصالحات، قال الله تعالى مبيناً هذه الأحكام الخاصة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ[1] مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٢٨-٣١].

أمر الله تعالى رسوله بتخيير نسائه بين التمتع بزهرة الحياة الدنيا وزخافها وزينتها وهي المال والبنون، ومتاعها، وبين الآخرة ونعيمها، فإن آثرن الدنيا وأحببنها، فارقهن وأعطاهن متعة الطلاق المستحقة: وهو مال يهدى للمطلقة تطييباً لخاطرها، وطلقهن طلاقاً لا ضرر فيه ولا بدعة.

قال أبو الزبير: نزل ذلك بسبب أن رسول الله ﷺ سأله أزواجه النفقة، وطالبنه منها فوق وُسْعه.

(١) هذه الآية من الجزء ٢٢ .

وإن خَيَّر الزوج زوجته في تطليق نفسها، فقال الإمام مالك: هي طالق ثلاثاً، وليس للزوج الإنكار، بخلاف التمليك. وقال غير مالك: هي طلقة بائنة.

وإن أرادت نساء النبي ﷺ رضا الله ورسوله وثواب الآخرة وهو الجنة، فإن الله أعد للمحسنة منهن ثواباً عظيماً، يفوق زينة الدنيا. ويشير هذا إلى أن من أراد الله ورسوله والدار الآخرة، كان محسناً صالحاً. وحينما خيَّرهن رسول الله ﷺ بين الدنيا والآخرة، اخترن جميعاً الآخرة، فُسرّ بذلك، وشكرهن الله على حسن اختيارهن، وكرَّمهن.

ثم بعد اختيارهن الآخرة خصصهن الله تعالى بمضاعفة الأحكام الشرعية في حقهن، فيا نساء النبي، من يرتكب منكن معصية كبيرة ظاهرة القبح، كالنشوز وعقوق الزوج وسوء الخلُق، يكون عقابها مضاعفاً، لشرف منزلتكن وفضل درجتكن، وكان تضعيف العذاب لَكُنَّ يسيراً هيناً على الله تعالى. ويا نساء النبي، من تطعْ منكن الله ورسوله بسكون وخشوع، وتخشَعْ جوارحها، وتستجب لأمر ربها، وتعمل عملاً صالحاً، يضاعف الله لَكُنَّ الأجر والثواب، بسبب كونكن من أهل بيت النبوة ومنزل الوحي، وأعد الله لكل واحدة منكن زيادة على هذا رزقاً كريماً خالصاً في الجنة، لا عيب فيه ولا نقص. والإعتاد: التيسير والإعداد، والرزق الكريم: الجنة، ويجوز أن يقصد بالرزق: الرزق الدنيوي من حيث هو حلال وطيب.

وأزواج (زوجات) الرسول ﷺ اللواتي نزلت الآية فيهن تسع: خمس قرشيات: وهن عائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية. وأربعة غير قرشيات: ميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حُيَيّ بن أخطب الخيبرية، وزينت بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن أجمعين، فهن مع السيدة خديجة رضي الله عنها أمهات المؤمنين.

ولما نزلت هذه الآية، بدأ النبي ﷺ بعائشة فقال: «إني ذاكر لك أمراً، ولا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك» ثم تلا الآية، فقالت له: وفي هذا أستأمر أبويّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: «وقد عَلِم أن أبويّ لا يأمراني بفراقه» ثم تتابع أزواج النبي ﷺ على مثل قول عائشة رضي الله عنها، فاخترن الله ورسوله. وهذا ثابت في الحديث عند البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن عائشة رضي الله عنها، والرواية على لسانها.

إن هذا الاختيار الموفق من نساء النبي دليل واضح على كمالهن وفضلهن وعلو درجتهن، وعلى مدى تأثير الإسلام العظيم في صوغهن على مراد الله تعالى.

خصوصيات آل البيت النبوي

كان لآل بيت النبوة خصوصيات ومزايا، أولها- كما في الآية السابقة: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (وهي من الجزء ٢٢): مضاعفة الثواب والعقاب، والثانية- الامتياز على سائر النساء بشرط التقوى، والثالثة- الحزم في القول والكلام، والرابعة- القرار في البيوت والنهي عن التبرج، والخامسة- استدامة الطاعة بأداء الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله والرسول، والسادسة- التطهير من الآثام، والسابعة- السمعة الطيبة، والثامنة- تعليم القرآن والسنة.

وفيما عدا هذه الخصوصيات سوّى الله تعالى بين النساء والرجال في ثواب الأعمال والمغفرة. وهذا ما أبانته الآيات التالية:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ

وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٢-٣٥].

هذه مزايا إيجابية عظيمة لنساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مقابل واجبات ألزمن بها، فيا أيها النسوة آل البيت لا شبيه لكنّ بين بقية النساء، فأنتن أفضل النساء، بشرط التقوى، فعليكن إظهار الحزم في القول، وترك اللين في الكلام، وتميز النطق بالجدّ والحزم والقوة، حتى لا يطمع في الخيانة من في قلبه مرض، أي نفاق كما قال قتادة، وقال عكرمة: أي فسق وغزل، وهو الصواب، كما قال ابن عطية، وقلن القول المعروف: وهو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس، البعيد عن ترخيم الصوت وعن الريبة.

وهذه الخصوصية مشروطة بشرط التقوى، لما منحهن الله من صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، وعِظَم المكانة، ونزول القرآن في حقهن.

وأنتن مأمورات بالقرار في البيوت، منهيات عن التبرج تبرج الجاهلية العربية قبل الإسلام، وعليكن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الله ورسوله. وسبب تلك الأوامر والمنهيات والمواعظ: إرادة الله إذهاب الإثم عنكن، والتطهير من المعاصي والمأمورات. والتبرج: إظهار الزينة والتصنع بها، وأهل البيت: كل من لازم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الأزواج والقرابة، بدليل مطلع الآية: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ﴾.

وعلى أهل البيت تذكر تلاوة القرآن في بيوتكن، والحكمة: وهي السنة النبوية،

وتعليم الكتاب والسنة للناس، إن الله كان وما يزال تام اللطف والخبرة، حين علم ما ينفعكم، ويصلحكم في دينكم، وجعل في بيوت آل البيت الآيات والشرائع.

ثم سوّى الله تعالى في عشر صفات بين الرجل والمرأة وهي الإسلام والانقياد لأوامر الله تعالى؛ والتصديق التام بما جاء عن الله من شرائع وأحكام وآداب، والقنوت لله: وهو دوام العمل الصالح، والطاعة في رضا وسكون وخشوع، والصدق في القول والعمل باعتباره علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، والصبر على المصائب، وتحمل المشاق في أداء العبادة وترك المعصية، والخشوع في العبادة، وهو السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار، والتواضع لله تعالى، والتصدق بالمال لمساعدة المحتاجين والضعفاء الذين لا مكسب لهم، وصوم الفرض والنفل لإشراقة الروح وقوة النفس، والتسامي عن الماديات والشهوات، والإقبال على الله تعالى تشبهاً بالملائكة، والعفة وحفظ الفروج عن المآثم والمحرّمات إلا عن المباح بالزواج، وذكر الله تعالى ذكراً كثيراً، أي استحضار عظمة الله تعالى في القلب، وتنزيهه باللسان عن كل نقص، ووصفه بكل كمال في جميع الأحوال.

هؤلاء المتصفون بهذه الخصال العشر هيأ الله تعالى لهم مغفرة سابغة تمحو سيئاتهم وذنوبهم، وأجراً عظيماً لا مثيل له: وهو الجنة بمنازلها العالية وطيباتها، وأنهارها، وجمالها، ونعيمها الدائم.

زواج زيد بن حارثة بزينب

في أسباب نزول بعض الآيات إيضاح لدلالاتها، وبيان للظروف التي تقدمتها، كما أن فيها دفعاً قوياً لامتثال أمر الله تعالى، والتزام توجيهاته، وبيان خطة قضائه وقدره.

من هذه الأسباب للآية (٣٦) من سورة الأحزاب: ما أخرجه الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال: خطب النبي ﷺ زينب، يريدها لزيد، فظنت أنه يريدها لنفسه، فلما علمت أنه يريدها لزيد، أبت، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ..﴾.

وسبب نزول الآية التي بعدها (٣٧): ما أخرج البخاري عن أنس: أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة. وأخرج الحاكم عن أنس قال: جاء زيد ابن حارثة يشكو إلى رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش، فقال النبي ﷺ: أمسك عليك أهلك، فنزلت: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ . **قال الله تعالى:**

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ **[الأحزاب: ٣٣/ ٣٦-٤٠].**

المعنى: ليس لأي مؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله بأمر أن يختاروا أمراً آخر، وإنما عليهم امتثال المأمور الإلهي وتجنب عصيانه، والرسول العربي: هو المبلّغ حكم الله، ومن يخالف أمر الله والرسول أو يعصي نهيه، فقد تاه وانحرف عن طريق الهدى والرشاد، ووقع في الضلال الواضح الذي يستحق عليه الإثم الكبير، وتطبيقاً

لهذا امتثلت زينب بنت جحش بنت أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله أمر النبي لها بزواجها من زيد بن حارثة الذي كان عتيق النبي ومتبناه في مبدأ أمر الإسلام، فكان يُدْعى زيد بن محمد، حتى أبطل الله التبني بآية: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ فصار يدعى: زيد بن حارثة.

واذكر أيها النبي حين قلت لزيد الذي أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعمت عليه بالإعتاق والحرية والتربية: حافظ على زواجك بزينب، واصبر على طبعها، واتق الله في شأنها، ولا تطلقها لتعاليها وأنها من عِلْية قريش، وتخفي أيها الرسول في نفسك ما الله مظهره من الحكم الإلهي: وهو علمك بطلاق زيد لها في المستقبل وتزوجك بها، لإعلام الله لك بذلك، وتحذر انتقاد الناس، والله أولى بأن تحذره أو تخشاه، وتلزم أمره وتمتثل حكمه.

فلما طلّقها زيد، وانتهت حاجته منها ورغبته بها، وانقضت عدتها، أمرك الله تعالى بتزوجها، لرفع الحرج عن المسلمين في التزوج بأزواج أدعيائهم الذين تبنوهم، وليبين الله أن رابطة التبني ليست كحرمة النبوة، فتزوجها النبي ودخل بها، بعد أن أمر النبي زيداً بخطبتها له، فاستخارت الله تعالى وقبلت، ونزل القرآن في قصتها، وكان إنفاذ أمر الله وقدره كائناً لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ فيه حذف مضاف تقديره: وكان حكم أمر الله. قالت زينب: أنا التي زوجني الله من فوق سبع سموات.

ولم يكن على النبي حرج أو مشقة أو عيب فيما أحل الله له وقدّره، فذلك حكْمُ الله وقانونه في الأنبياء قبله، لم يكن الله ليجعل عليهم ضيقاً وإحراجاً، وكان أمر الله الذي قدّره مقدراً في الوقت المناسب له، وواقعاً لا محيد عنه. وهذا رد على

المنافقين واليهود الذين عابوا الرسول فيما فعل بتزوجه بزوجة متبناه في الماضي، وفي تعدد زوجاته لنشر الدعوة الإسلامية.

وقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدر، أي استن بسنة الله، أو على إضمار فعل، تقديره: الزم سنة الله. وأمر الله: أي مأمورات الله، والكائنات عن أمره، فهي مقدرة. وقدراً: على حذف مضاف: أي ذا قدر أو عن قدر.

ثم امتدح الله جميع الأنبياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ..﴾ أي إنهم أولئك الرسل، الذين رفع الله الحرج عنهم فيما أحل لهم، مهمتهم تبليغ رسالات الله وشرائعه إلى الناس، تبليغاً تاماً كما أمر الله تعالى، بأمانة، وهم يخافون الله وحده في ترك التبليغ لشيء من الوحي، ولا يخافون أحداً سواه، وفيه تعريض بمعاتبة النبي بالعتاب الأول في خشيته الناس، ثم رد الله الأمر كله إلى الله تعالى، وأنه المحاسب على جميع الأعمال والمعتقدات، وكفى به أنه لا إله إلا هو.

ثم رد الله تعالى على انتقاد العرب وغيرهم تزوج النبي بزوجة من كان متبنىً له، فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ..﴾ أي لم يكن النبي أباً على الحقيقة لأحد من الناس المعاصرين له، وإنما هو رسول الله لتبليغ رسالته للناس، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا نبي بعده، وكان الله وما يزال تام العلم بكل شيء، ولا يفعل إلا الأصلح.

وسبب نزول هذه الآية: ماأخرج الترمذي عن عائشة قالت: لما تزوج النبي ﷺ بزينب قالوا: تزوج حليلة ابنه، فأنزل الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أراد الله امتحان زينب بزواج زيد، لإلغاء عادة التبني، وجعل الشرف في الإسلام للتقوى لا للأحساب والأنساب.

ذِكْر الله تعالى

ربط الله تعالى قلوب عباده بغرس أصول الإيمان والتقوى فيها، وعلّمهم بسبب تعرضهم للنسيان كيفية تجديد رابطتهم بالله تعالى، من طريق مداومة ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً، من غير تقدير بحد معين، لتسهيل الأمر عليهم، وتعظيم الأجر فيه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يُعْذَر أحد في ترك ذكر الله إلا من غُلب على عقله، وقال: الكثير: ألا ينساه أبداً. وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون».

وفي ترطيب اللسان بذكر الله تعالى واستحضار القلب عظمة الله: إشعار بفائدة الذكر، وبضرورة الارتباط الوثيق بالله تعالى وخشيته، ليستقيم الإنسان على أمر الله، قال الله تعالى آمراً بالذكر، مبيناً فائدته القصوى وثمرته عند الله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤١-٤٤].

الآية تبيان فضيلة الذِّكر، وثواب الذاكرين. فيا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله، اذكروا الله بألسنتكم وقلوبكم ذكراً كثيراً، من غير تحديد وقت، ولا تقدير قَدْر، إنما المطلوب غلبة ذكر الله تعالى في أحوال الإنسان، وضموا إلى الذكر التسبيح في الصباح والمساء، والمراد: في كل الأوقات، التي تبدأ بطرفي النهار والليل، وإنما خص هذان الوقتان بالذِّكر، لكونهما مشهودين بملائكة الليل والنهار. وأكد النبي ﷺ الأمر بمداومة الذكر، روى البيهقي عن مكحول مرسلاً: «إن ذكر الله شفاء، وذكر الناس داء». ورواه الديلمي عن أنس بن مالك بلفظ: «ذكر الله شفاء

القلوب»[١] . وعن قتادة: «قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وخص الأمر بالذكر في المزدلفة عند المشعر الحرام، فقال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٨] وفي أداء مناسك الحج في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٣] وبعد ذهاب الخوف من العدو: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٩] وعند ذبح الأنعام: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٦] وعند الصيد: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٥/ ٤]. ووصف الله المؤمنين بالذاكرين في الأوقات كلها في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩١] وقوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٥].

ثم أبان الله تعالى فضيلة الذِّكر وسببه وثوابه بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي إن الله تعالى الذي تذكرونه وتسبّحونه: هو الذي يرحمكم، وصلاة الله على عباده: هي رحمته لهم، وبركته لديهم، ونشره إلينا الجميل، والملائكة تستغفر لكم، لأن صلاة الملائكة: الدعاء للمؤمنين، وذلك من أجل إرادة هدايتكم، وإخراجكم من ظلمات الضلال والجهل إلى نور الحق والهدى والإيمان، وكان الله وما يزال رحيماً، تام الرحمة بالمؤمنين من عباده، في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإن الله يهديهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، ويبصّرهم الطريق الذي حاد عنه سواهم الى الكفر والابتداع الضالّ، وأما في الآخرة: فيؤمّنهم الله من الفزع الأكبر، ويُظلّهم بمظلته الرحيمة، وتبشّرُهم الملائكة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، رأفةً بهم، ومحبةً لهم.

(١) حديث حسن لغيره .

وسبب نزول هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى﴾ ما أخرجه عبد بن حميد عن مجاهد قال: لما نزلت آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٦] قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما أنزل الله تعالى عليك خيراً إلا أشركنا فيه، فنزلت: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾.

ومن بشائر رحمة الله بعباده استقبالهم بالتحية والسلام، فتحيتهم من الله تعالى بواسطة ملائكته يوم لقائه في الآخرة: هو السلام، وأعد الله تعالى لهم ثواباً حسناً، وهو الجنة وما فيها من ألوان النعيم والمناظر الحسنة، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٥٨]. وقال سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ، سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٣-٢٤].

وظائف النبي ﷺ

إن عبء تبليغ الوحي الإلهي، والقيام بموجب الرسالة ليس بالأمر الهين، فهو بالإضافة إلى اقترانه بظروف عسيرة صعبة، ومقاومة شديدة من القوم، يتطلب إحساساً متقداً من الرسول، وشعوراً كبيراً بالمسؤولية، خشية التقصير في تكليف الله إياه، واطمئنانه إلى تنفيذ مراد الله، ويمكن حصر خصائص أو وظائف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بسبع، تشمل جميع أوجه الوحي الإلهي، وهذا ما أوضحته الآيات الكريمة الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ

ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٥-٤٩].

هذه مهمات أو وظائف سبع للنَّبي ﷺ، ذكرت الآية الأولى منها ثلاثاً: وهي الشهادة على أمته وغيرهم بالتبليغ إليهم، والتبشير، والإنذار، فيا أيها النَّبي المنزل إليك الوحي، إنا كلفناك وأرسلناك شاهداً على أُمَّتك بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأُمم في تبليغ أنبيائهم، ونحو ذلك، وتبشر المؤمنين برحمة الله وبالجنة، وتنذر العصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد. قال ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه ابن أبي حاتم وغيره: لما نزلت هذه الآية، دعا رسول الله ﷺ علياً ومعاذاً رضي الله عنهما، فبعثهما إلى اليمن، وقال: «اذهبا فبشِّرا ولا تُنفِّرا، ويسِّرا ولا تُعسِّرا، فإني قد أنزل علي، وقرأ الآية».

والآية الثانية ذكرت وظيفتين للنَّبي ﷺ، وهما الدعوة إلى الله، وجعلك سراج النور المنقذ من ظلمة الكفر، فيا أيها النَّبي إنا جعلناك داعية الناس إلى الله بأمره في تبليغ التوحيد والأخذ به، ومكافحة الكفر. وجعلناك أيضاً ذا سراج تضمَّنه شرعك لما فيه من النور، لتخرج الناس من ظلمة الكفر إلى نور الحق والتوحيد والإيمان. فقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه، فكأن المهتدين به والمؤمنين يخرجون بنوره من ظلمة الجهالة والكفر إلى الإيمان الحق. ووصف السِّراج بالإنارة، لتميُّزه وإضاءته، لأن بعض السُّرج لا يضيء لضعفه.

ومفاد المهمة السادسة في الآية الثالثة: تبشير المؤمنين المصدِّقين برسالتك بأن لهم فضلاً كبيراً على سائر الأمم، وأجراً عظيماً.

أخرج ابن جرير الطبري في سبب نزول هذه الآية عن عكرمة والحسن البصري قالا: لما نزل: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢]. قال رجال من

المؤمنين: هنيئاً لك يا رسول الله، قد علمنا بما يُفعل بك، فماذا يُفعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ الآية [الفتح: ٤٨/٥]، وأنزل في سورة الأحزاب: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾.

والمهمة السابعة: لا تُطِع أيها النَّبي الكافرين بنبوتك، ولا المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، واترك إيذاءهم وعقابهم، أي اصفح عن زللهم ولا تؤذهم، وفوِّض أمرك إلى الله تعالى في كل ما تعمل وتذر، وثِق به، فإن فيه كفاية لهم، والله هو حافظك وراعيك، وكفى بالله كافياً عبده، وذلك حق مطلق: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمر: ٣٩/٣٦].

ثم عاد البيان القرآني لتفصيل حكم عدة ومتعة المرأة غير المدخول بها، بعد بيان عدة زينب المدخول بها، في حال طلاقها، فيا أيها المصدِّقون بالله ورسوله، إذا تزوجتم النساء المؤمنات، ثم طلقتموهن قبل الدخول (أو البناء) بهن، فليس لكم عليهن عدة تستوفون عددها، ولكن قدِّموا لهنّ بعد الطلاق تطييباً لخاطرهن متعة: وهي كسوة كاملة تليق بكم وبهن بحسب الزمان والمكان، وطلقوهن طلاقاً لا ضرر فيه، بل إنه متّصف بجمال التسريح: وهو ألا يطالبها بما آتاها، ويحسن عشرتها، ويكلمها بكلام طيب دون أذى. فقوله: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ من العَدّ. وتخصيص المؤمنات بالذِّكر: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إرشاد إلى الحرص على الزواج بالمؤمنات، فإنهن أشدّ تحصيناً للدين.

وهذه الآية خَصَّصت آيتين: إحداهما: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٨] فَخصصت هذه الآية من لم يُدخل بها، وكذلك خَصَّصت من ذوات الثلاثة الأشهر: المرأة اليائس من الحيض، والصغيرة التي لم تحض قبل الدخول في آية: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ..﴾ [الطّلاق: ٦٥/٤] فهاتان قبل الدخول لا عدة عليهما.

خصوصيات النبي ﷺ في الزواج

اقتضت ظروف النبوة وأحوال نشر الدعوة الإسلامية اختصاص النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببعض الأحكام في الزواج بالنساء، ومنها هبة المرأة نفسها للنبي من غير مهر، وإعفاؤه من القَسْم بين الزوجات، والاقتصار على زوجات تسع، وهذا ما نصت عليه الآيات الآتية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢)﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٠-٥٢].

أحل الله تعالى لنبيه أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، وأباح له كل النساء بهذا الوجه ضمن قيود معينة، وأباح له ملك اليمين، وأباح له بنات العم والعمة والخال والخالة ممن هاجرن معه، وخصص هؤلاء بالذكر تشريفاً وتنبيهاً. ذكر الله تعالى في الآية الأولى أربع فئات من النساء المباحات للنبي ﷺ، الأولى: النساء المهورات، أي اللاتي أعطيت أجورهن، والأجر في اللغة: المهر، والفئة الثانية: ملك اليمين مثل صفية وجويرية وريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم إبراهيم. والفئة الثالثة: بنات العم والعمة والخال والخالة المهاجرات معه من مكة إلى المدينة. والفئة

الرابعة: المرأة الواهبة نفسها للنبي بغير مهر، إن رغب النبي في الزواج بها، والزواج بلفظ الهبة خصوصية للنبي دون المؤمنين هذه خصوصيات للنبي، وقد علم الله حكم ما أحل من النساء لبقية المؤمنين من الزوجات والمملوكات المسبيات. وإباحة هؤلاء النساء لك أيها النبي لدفع الحرج والمشقة عنك، ولتتفرغ لتبليغ رسالتك، وكان الله وما يزال واسع المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات، ما لا يمكن التحرز عنه، ورحيماً بك وبالمؤمنين، بدفع الحرج والمشقة، وترك العقاب على ذنب تابوا عنه.

وسبب نزول هذه الآية: هو ما أخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن ابن عباس عن أم هانئ قالت: خطبني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاعتذرت إليه، فعذَرني، فأنزل الله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ..﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فلم أكن أحلّ له، لأني لم أهاجر.

وخير الله نبيه في القَسْم بين الزوجات دون إلزام، فلك أن تؤخر المبيت عند من تشاء من زوجاتك، أي هذه الأصناف كلها، وتبيت مع من تشاء، لا حرج عليك من ترك القَسْم لهن، ومن طلبت إلى المبيت معك ممن تركت البيتوتة معهن، فلا إثم ولا حرج عليك في ذلك، كل ذلك أقرب إلى سرورهن وقرة أعينهن، وعدم حزنهن، ورضاهن كلهن بما تفعل، دون قلق ولا عتاب، والله تام العلم بالميل لبعضهن دون بعض، من غير اختيار، وكان الله وما يزال شامل العلم تام الحلم، فلا يعاجل المذنب بعقاب، حتى يتوب.

نزلت هذه الآية كما أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت تقول: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها!! فأنزل الله: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ.﴾ الآية، فقالت عائشة: أرى ربك يسارع لك في هواك.

وبما أن ملك اليمين نادر، فإن نساء النبي سررن بسبب تحريم بقية النساء على

النبي، بنزول هذه الآية. ثم حرم الله تعالى على نبيه التزوج بغير الزوجات التسع اللاتي عنده، فلا يحل لك أيها الرسول النساء بعد هؤلاء اللواتي عندك، جزاء لاختيارهن الله ورسوله، ولا يحل لك أيها النبي الاستبدال بهن غيرهن، بأن تطلق واحدة منهن وتتزوج بأخرى، وإن أعجبك حسنها، إلا ملك اليمين، كمارية القبطية التي أهداها المقوقس لك، وكان الله وما يزال مطلعاً على كل شيء، مراقباً كل ما يكون من أي إنسان، وكل ما يحدث في الكون، فاحذروا مخالفة أوامره، فإن الله يجازي كل امرئ بما كسب.

وسبب نزول هذه الآية: هو ما أخرج ابن سعد في الطبقات عن عكرمة، قال: لما خيّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أزواجه اخترن الله ورسوله، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾.

فهذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضا الله عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيّرهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

آداب دخول البيت النبوي

إن للبيوت عامة حرمةً خاصة، وتزداد هذه الحرمة وتتألق في بيوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لذا شرع الإسلام آداباً عامة في الدخول لبيوت الآخرين والخروج منها، وآداباً خاصة بالبيت النبوي، وفرض الحجاب على نساء النبي، وتحريم الزواج بهن من بعده، ومنع الاختلاط. وقد نزلت آية حجاب زوجات النبي أمهات المؤمنين، كما ذكر قتادة والواقدي، في صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بزينب بنت جحش التي زوّجها الله من نبيه، في ذي القعدة من السنة الخامسة. وهذه هي الآداب في الآيات القرآنية الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ[1] وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٣-٥٥].

تضمنت الآية الأولى حكمين: الأول- الأدب في شأن الطعام والجلوس، والثاني- أمر الحجاب. أما الحكم الأول، فيا أيها الذين آمنوا أوصدقوا بالله ورسوله لا تدخلوا بيتاً من بيوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كل الأحوال إلا بالإذن لتناول طعام، غير منتظرين وقت نضجه، فإذا نضج فادخلوا. فإذا دعيتم فادخلوا، فإذا تناولتم الطعام فانتشروا في الأرض غير مستأنسين أو مشتغلين بلهو الحديث. إن دخولكم بيت النبي واشتغالكم بالحديث قبل نضج الطعام كان يؤذي النبي، وإيذاؤه حرام، وكان النبي يتضايق من ذلك، ويكره أن ينهاكم عن ذلك من شدة حيائه ﷺ، والله لا يستحيي من بيان الحق، وهو الأمر بالخروج من البيت، ومنع البقاء فيه. وهذا أدب عام يشمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسائر المؤمنين.

نزلت هذه الآية فيما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن أنس، قال: لما تزوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم زينب بنت جحش، دعا القوم، فطَعِموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، وقام

(١) أي منتظرين نضجه .

من القوم من قام، وقعد ثلاثة، ثم انطلقوا، فجئت، فأخبرت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم انطلقوا، فجاء حتى دخل، وذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، وأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ..﴾ الآية.

والحكم الثاني: هو حجاب زوجات النبي، فكما نهيتكم عن الدخول إلى بيوت النبي من غير إذن، ودون انتظار نضج الطعام، كذلك نهيتكم عن النظر إلى زوجات النبي ﷺ، فإذا طلبتم منهن شيئاً من الأمتعة، كالمواعين وسائر مرافق الدين والدنيا، فاطلبوه من وراء حجاب ساتر. ذلك الحجاب أطهر وأطيب للنفس، وأبعد عن الريبة، لقلوبكم، وقلوبهن، أي أطهر من الهواجس ووساوس الشيطان.

وذلك لأنه لم يصح لكم أن تؤذوا رسول الله وتضايقوه، كالبقاء في منزله، والاشتغال بالحديث، وانتظار نضج الطعام، ويحرم عليكم أبداً التزوج بنسائه بعد الفراق بموت أو طلاق، تعظيماً له، إن إيذاء الرسول ﷺ وزواج نسائه من بعده ذنب عظيم وإثم كبير. والبعد عن الإيذاء سراً وعلناً مطلوب، فإنكم إن تظهروا شيئاً من الأذى أو تكتموه، فإن الله تام العلم به، يعلم السرائر والخفايا، والظواهر والأحوال كلها.

ثم استثنى الله من حكم حجاب أزواج النبي: المحارم، فلا إثم ولا حرج على زوجات النبي ﷺ في ترك الحجاب أمام الآباء والأبناء، بسبب النسب أو الرضاع، والإخوة وأبناء الإخوة والأخوات، وأمام النساء المؤمنات، والأرقاء من الذكور والإناث، بعداً عن الحرج والمشقة في ذلك بسبب الخدمة. ودخل الأعمام في الآباء. والمرفوع فيه الإثم بهذه الآية: هو الحجاب كما قال قتادة، أي يباح لهذه الأصناف الدخول على النساء دون الحجاب، ورؤيتهن. وقال مجاهد: ذلك في وضع الجلباب وإبداء الزينة. ثم مع الإلزام بالحجاب أمر الله نساء النبي بالتقوى، وتوعد على المخالفة

بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ أي إن الله كان وما يزال مطلعاً على كل شيء، وفي ذلك منتهى التحذير من مخالفة الأمر والنهي الإلهي.

حكم إيذاء النبي والمؤمنين

لقد عظّم الله تعالى نبيه المصطفى ﷺ، فأعلن الصلاة عليه، أي رحمته، وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، وهذا تشريف له، وذكر الله منزلته عنده، وحرَّم إيذاءه بمخالفة أمره، وعصيان نهيه، والطعن في أهل بيته، فإن المؤذين ملعونون في الدنيا، معذبون في الآخرة، وكذلك حرَّم الله تعالى إيذاء أهل الإيمان، وجعل ذلك مستوجباً للإثم الكبير، وهذا ما أبانته الآيات الكريمة الآتية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٦-٥٨].

هذه الآية أظهرت مكانة النبي ﷺ عند الله والملائكة، فإن الله يصلي على نبيه بالرحمة والرضوان، والملائكة تدعو له بالمغفرة وعلو الشأن، لذا فأنتم أيها المؤمنون مأمورون بالصلاة والسلام عليه تسليماً كثيراً مباركاً فيه. والصلاة من الله تعالى: رحمة منه وبركة، وصلاة الملائكة: دعاء وتعظيم، وصلاة الناس: دعاء واستغفار.

وصفة الصلاة على رسول الله: تظهر فيما أخرجه الشيخان وأحمد وغيرهم عن كعب بن عُجْرة رضي الله عنه: قال رجل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قل: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما

صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد».

والصلاة والسلام على النبي واجبة مرة في العمر، عملاً بالأمر المقتضي للوجوب، وهو: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا﴾ وهي حينئذ مثل كلمة التوحيد، لأن الأمر لا يقتضي التكرار، وإنما يدل على الماهية المطلقة عن قيد التكرار والمرة. ويسن الإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله في المناسبات المختلفة ولاسيما في يوم الجمعة وعند زيارة قبره ﷺ، وبعد النداء للصلاة، وفي صلاة الجنازة. أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِم أنف رجل ذُكرت عنده، فلم يصلّ علي..».

وشأن التشريف والتعظيم للنبي من الله وملائكته والأمر بالصلاة والسلام عليه، يستوجب تحريم الأذى والإخلال بقدره، لذا عقب الله ذلك بالتهديد بالعقاب لكل مؤذٍ، فإن الذين يصدر منهم إيذاء الله ورسوله، لعنهم الله في الدنيا والآخرة، وطردهم من رحمته وأبعدهم عن كل خير، وأعد لهم عذاباً ذا إهانة وإذلال وتحقير في نار جهنم. وإيذاء الله معناه: الكفرُ به، ونسبة الصاحب والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به.

أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي قتادة رضي الله عنه في الآية: أن النبي ﷺ قال فيما يروي عن ربه عز وجل: «شتمني ابن آدم، ولم ينبغ له أن يشتمني، وكذبني ولم ينبغ له أن يكذبني، فأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، وأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني»، أي إنه ينكر البعث.

وإيذاء الرسول ﷺ: يكون بما يؤذيه من الأقوال والأفعال، كأن يقال عنه: إنه ساحر، أو شاعر، أو كاهن أو مجنون . وروي عن ابن عباس: أن الآية نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزوجه صفية بنت حيي بن أخطب.

ثم ذكر الله تعالى عقاب المؤذين لأهل الإيمان، فإن الذين يصدر منهم الأذى للمؤمنين والمؤمنات بالأفعال والأقوال القبيحة، والبهتان، والكذب الفاحش المختلق، سواء فيما يمس العرض أو الشرف أو المال، بأن ينسبوا إليهم ما لا علم لهم به ولم يفعلوه، فإنهم تحملوا البهتان أي الفعل الشنيع، أو الكذب الشائن، وارتكبوا ما يوجب الوقوع في الإثم والذنب الواضح.

ومن أشد أنواع الأذى للمؤمنين: الطعن بالصحابة، والغيبة، واستباحة عرض المسلم، والتعييب والتحقير، والإنقاص، والهمز واللمز، والإتلاف والاعتداء على النفس والمال. ويستثنى من ذلك حالة الرعاية والتأديب لأغراض شريفة أو كريمة.

إن صون حرمة المؤمن واجب شرعي، وأدب أخلاقي كريم، لا سيما في أثناء الغيبة.

وإن إيذاء الله بالكفر به، وإيذاء الرسول بالطعن بشيء من تصرفاته، أو الإساءة لأهله، جرم عظيم وفعل شنيع.

الحجاب وجزاء المنافقين

لا يمكن لأحد الادعاء بأن المرأة ليست فتنة للرجل، بشعرها وسواعدها وأرجلها وسائر جسدها، بدليل إدامة النظر إليها ما لم يكن هناك شاغل أو مانع خلقي أدبي أو ديني، والواقع خير شاهد، ولا مكابرة فيه وبرهان ذلك الأمر الإلهي الدائم بغض النظر من الرجل والمرأة، لذا نظم الشرع الحنيف العلاقة بين الرجل والمرأة، فأقامها على الحق والعدل، وصان المرأة من كل ذرائع الافتتان بها أو إيذائها، وذلك بما لا داعي لستره وهو جميع جسدها ما عدا الوجه والكفين، على المعتمد المحقق شرعاً. وأما المنافقون فهم أداة إفساد وتفريق، وداءٌ مرضي ضار، فكان من الطبيعي كشفهم

أمام المجتمع، وزجرهم بما يستحقون، وتهديدهم بالعقاب المناسب، قال الله تعالى مبيناً فرضية الحجاب الشرعي بحدوده المعتدلة وحكم أهل النفاق:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٩-٦٢].

يأمر الله النبي بتبليغ زوجاته وبناته ونساء المؤمنين بإرخاء الستر عليهن وتغطيتهن بالحجاب الشرعي: وهو الجلباب، أي الرداء الساتر لجميع الجسد ما عدا الوجه والكفين، وهو أدب حسن يبعد المرأة عن مظان التهمة والريبة، ويحميها من أذى الفساق، ويميز الحرائر عن الإماء كما كان في الماضي، وكان الله وما يزال واسع المغفرة لما سلف من إهمال التستر، عظيم الرحمة بعباده، حيث أرشدهم إلى هذا الأدب الرفيع فقد كانت عادة العربيات في الجاهلية التبذل في الستر، وكشف مواطن الزينة، فبدل الإسلام بالتبرج: الصون والستر المناسب.

روي أنه كان في المدينة قوم يجلسون على الصَّعَدات[1] (كالمصاطب) لرؤية النساء ومعارضتهن ومراودتهن، فنزلت الآية بسبب ذلك.

ثم توعد الله المنافقين (الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر) فلئن لم يكفوا عما هم عليه من النفاق فلنسلطنك عليهم، هم والذين في قلوبهم مرض (وهو شك وريبة في أمر الدين وحب الزنا) وأهل الإرجاف في المدينة (وهم قوم من المنافقين كانوا يتحدثون بغزو العرب المدينة، بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيُغْلَب،

(١) جمع صَعْدة وهي القناة المستوية المستقيمة .

ونحو هذا مما يضعف نفوس المؤمنين) ثم لا يجاورونك أيها النبي إلا جواراً قليلاً ووقتاً قليلاً.

وهم في حال إقامتهم في المدينة زمناً قليلاً يكونون مطرودين من رحمة الله، منبوذين، أينما حوصروا وقُدر عليهم، أسروا وأخذوا أذلاء، وقتّلوا شر تقتيل، فلم يجدوا أحداً يؤويهم، بل يُنكل بهم ويؤسرون.

وهذا الحكم وهو لعن المنافقين وأسرهم وتقتيلهم وتسليط المؤمنين عليهم وقهرهم، هو سنة الله وطريقته في المنافقين في كل زمن مضى، وهم منافقو الأمم، ولا تبديل ولا تغيير لسنة الله ونظامه، لقيامها على الحكمة والمصلحة وصلاح الأمة، بل هي سنة ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء مدى الزمان. وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدر، أي استنوا بسنة الله تعالى.

يلاحظ من هاتين الآيتين أن الحجاب الشرعي ذا الحدود المعتدلة من غير إفراط ولا تفريط مظهر حضاري كريم، لا يعوق نشاط المرأة، وإسهامها في كل عمل حيوي يفيد المجتمع والأمة.

ويلاحظ أيضاً أن الأوصاف الثلاثة: وهي النفاق، ومرض القلب، والإرجاف موجودة كلها في المنافقين. وهم خطر على الأمة في عقيدتها، وفي سلمها وحربها، فهم كالسوس ينخر في جسم الأمة، وهم في السِّلم جرثومة فتك وأداة تخريب وتفريق، وفي الحرب أداة إضعاف وإشاعة السوء، وزعزعة المقاتلين، وهم في الواقع عَوْن للأعداء على المسلمين، مما يجب التخلص منهم، وعقابهم أشد العقاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٤٥].

جزاء الكفار

اصطدمت الدعوة الإسلامية إبّان ظهورها بحاجز صلب من شرك المشركين الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر، وأنكروا النبوة وإرسال النبي، وجحدوا بوجود يوم القيامة، وأخذوا في توجيه أسئلة التحدي والعناد، والتشكيك بأصول الدين والعقيدة، وحاولوا طمس معالمها، وتوهين بنيتها، فسألوا سؤال مكابرة عن تحديد موعد القيامة، فاستحقوا التهديد والوعيد بالعذاب الأليم، والتعرض لشيِّ الوجوه والجلود بالنار، وبادروا في الآخرة لإظهار الندم على ترك إطاعة الله والرسول، وملازمتهم تقليد الآباء والسادة، وطالبوا بمضاعفة العذاب على سادتهم، وهذا ما صرحت به الآيات الكريمة الآتية:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٣-٦٨].

سئل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة (القيامة) متى هو؟ فلم يجب في ذلك بشيء، ونزلت الآية آمرة أن يُردَّ العلم فيها إلى الله، إذ هي من مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها.

وهذا السؤال والجواب في حال الاستفسار بحسن نية. لكن تساءل الناس المشركون سؤال تهكم وسخرية واستهزاء، ومعهم المنافقون سؤال تعنت وتنطع، ثم اليهود سؤال امتحان واختبار، فأجابهم الله ونبيه بأن علمها محصور بالله تعالى. ثم توعدهم بقربها بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي ينبغي أن تُحْذر، فما

يُعلمك بها، فإنها من المغيبات المختصة بالله تعالى، وربما توجد في وقت قريب. وهذا تهديد للمستعجلين، وتوبيخ لأهل التعنت والتهكم والاختبار. وقوله تعالى: ﴿تَكُونُ قَرِيبًا﴾ القريب: لفظة واحدٍ، تطلق على الجمع والإفراد والتذكير والتأنيث.

ثم توعد الله الكافرين بعذاب لا ولي لهم فيه ولا ناصر، ومضمونه: إن الله تعالى طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته، وهيّأ لهم في الآخرة ناراً شديدة الاستعار والإحراق. وهم في نار جهنم وعذابها خالدون مخلّدون، ماكثون فيه على الدوام، ولا يجدون من يواليهم ويناصرهم وينقذهم أو يخلّصهم من ذلك العذاب.

وأما أوصاف العذاب: فهي رهيبة جداً، إن الكافرين يُجرّون في النار على وجوههم، ويتقلّبون فيها كاللحم المشوي على النار، ويظهرون أشد الندامة قائلين: يا ليتنا أطعنا الله ورسوله فيما أمر ونهى. كما جاء في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٥٤/٤٨]. وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٧].

ثم أعلن الكافرون سبب انحراف اعتقادهم، ولاذوا بالتشكي من كبرائهم في أنهم أضلوهم، فقالوا وهم في عذاب جهنم: يا ربنا لقد أطعنا في الشرك والكفر رؤساءنا وقادتنا وعظماءنا وعلماءنا، وخالفنا الرسل، فأضلونا عن طريق الهدى بما زيّنوا لنا من الكفر بالله ورسوله. يا ربنا عذبهم عذاباً مضاعفاً: عذاب الكفر، وعذاب إضلال غيرهم وإغوائهم إيانا، أي عذبهم عن أنفسهم وعمن أضلوا، وأبعدهم عن رحمتك بعداً كبيراً. وإضلال السبيل: يراد به سبيل الإيمان والهدى، واللعن الكبير: أي العنهم مرات كثيرة.

إذا كان هذا هو مصير الضالين والمضلين في الآخرة، فلِمَ لا يبادر الفريقان إلى

ترك الضلال والإضلال، فالداعي إلى الضلال يقلع عن مساعيه الشريرة في إضلال الآخرة، والمدعو للضلال يتخلص من تأثيرات المضلين، ويبتعد عن أقوالهم وأفعالهم وجميع إغراءاتهم وأضاليلهم، فإذا فعلوا ذلك في الدنيا دار التكليف والاختبار، نجّوا أنفسهم من سوء العذاب وسوء المصير.

تحريم الإيذاء وأداء الأمانات

لقد زخر القرآن العظيم بتوجيهات المؤمنين إلى أقوم السبل، مبتدئاً من التخلي عن الحرام، وذلك بتحريم الإيذاء، ثم تقويم النفوس على هدي الله وتقواه بالتزام الأوامر واجتناب النواهي، ثم تحريض كل إنسان على أداء أمانة التكليف الإلهي على أقوم الوجوه وأسلم الطرق، فيؤول أمر الناس أو يصير إلى إثابة المؤمنين المستقيمين على درب الطاعة، وتعذيب الكافرين والمنافقين والمشركين الوثنيين. وهذه عملية إفراز وعزل، يتميز بها كل فريق عن الآخر، بالمزايا أو الصفات التي تؤهله إلى مصير معين: حسن كريم، أو سيّئ مشؤوم، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا
﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾
لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٩-٧٣].

تميزت هذه الآيات بأدب الخطاب الإلهي، لابتدائها بوصف المخاطبين بالإيمان، فيا أيها المصدقون بالله ورسوله، لا تؤذوا رسول الله ﷺ بالقول أو العمل، مما

يكرهه، فتكونوا كالذين آذوا موسى، وهم قوم من بني إسرائيل، فبرأه الله من اتهامهم الباطل، وكان موسى عليه السلام وجيهاً عند الله، أي مكرم الوجه.

وإيذاء موسى: هو ما تضمنه حديث النبي ﷺ المشهور، الذي أخرجه البخاري، ومسلم بمعناه، قال: «كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة، وكان موسى عليه السلام يتستر كثيراً، و يخفي بدنه، فقال قوم: هو آدر (منتفخ الخصية) أو أبرص (والبرص: بياض يظهر في الجسد لعلّة) أو به آفة (والآفة: كل ما يصيب شيئاً فيفسده، من عاهة أو مرض أو قحط) فاغتسل موسى يوماً وحده، وجعل ثيابه على حجر، ففرَّ الحجر بثيابه واتّبعه موسى يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر (أي اترك ثوبي يا حجر) فمرّ في أتباعه في ملأ من بني إسرائيل فرأوه سليماً مما ظُنَّ به» . فبرأه الله مما قالوا.

هذا هو التوجيه الأول: وهو نهي المؤمنين عن إيذاء الرسول، والتوجيه الثاني هو: الأمر بالتقوى، فيا أيها المؤمنون بالله ورسوله، اتقوا الله في كل الأمور باجتناب معاصيه، والتزام أوامره، وقولوا القول السديد، أي الصواب والحق في كل أموركم، فإذا فعلتم ذلك أصلح الله لكم أعمالكم، وهو قبولها وإثابتكم بالجنة دار الخلود، وغفر لكم ذنوبكم الماضية. وهذا وعد من الله تعالى بأنه يجازي على القول السَّدادِ، بإصلاح الأعمال، وغفران الذنوب، ثم حرَّض الله تعالى على الطاعة، فمن يطع أوامر الله والرسول، ويجتنب النواهي، فقد نجا من النار، وفاز أعظم فوز بالجنة.

ومما لا شك فيه أن المسؤولية عن التكاليف حساسة وخطيرة وثقيلة، فقد عرض الله الأمانة، أي التكاليف الإلهية كلها من فرائض وطاعات ومنهيات على أرجاء السماوات والأرض، فأعرضت عن حمل مسؤوليتها، خوفاً من حملها، وتحملها الإنسان مع ضعفه، ولكنه لم يقدِّر ذلك الحمل، فكان ظلوماً لنفسه، جهولاً بقدر ما

يحمله. والإنسان هو ابن آدم، كما قال جماعة كابن عباس والضحاك وغيرهما. والأمانة: كل شيء يؤتمن الإنسان عليه، من أمر ونهي، وشأن دين ودنيا، فالشرع كله أمانة. ولام ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ﴾ هي لام العاقبة أو الصيرورة. لأن الإنسان لم يحمل الأمانة ليقع في العذاب، ولكن حمل ذلك فصار الأمر وآل إلى أن يعذِّب من نافق أو أشرك، وأن يتوب على من آمن.

وكان من عاقبة التكليف والرضا به هو انقسام الناس إلى فريقين: طائعين وكافرين، فيعذب الله فريق المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، لخيانتهم الأمانة وتكذيب الرسل، ونقض الميثاق، ويثيب الله المؤمنين والمؤمنات بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، العاملين بطاعة الله، وكان الله تعالى وما يزال واسع المغفرة للمقصرين التائبين، كثير الرحمة لخلقه إذا أقبلوا على ربهم، واستدركوا أخطاءهم.

تفسير سورة سبأ

إثبات البعث

يفتتن الناس عادة بالقوة، ويمجدون الأقوياء، ويتعاطفون مع الأبطال، ويتابعون مشاهد بطولاتهم في أعمالهم، وما يُلحقون به غيرهم من هزائم منكرة، ولكنهم مع الأسف الشديد لاهُون، غير متأملين بمن هو مصدر القوة كلها جميعاً في السماوات والأرض. وأبْين دليل على قوة الله وعزته وسلطانه: خلقه السماوات والأرض، والإنسان في أقوم خلقه وأشدِّ تركيب، وأحكم انسجام بين أجزاء جسده. قال الله تعالى مدللاً على قدرته، وإثبات البعث، في مطلع سورة سبأ المكية، إلا قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قيل: هي مكية، والمراد: المؤمنون بالنبي ﷺ، وقيل: هي مدنية، والمراد من أسلم بالمدينة من أهل الكتاب كابن سلام وأشباهه:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ[1] مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ[2] أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ١-٥].

(١) لا يغيب . (٢) الرجز: سيئ العذاب أو أشده، فهو العذاب السيئ جداً .

الشكر والحمد المطلق التام لله مالك السماوات والأرض وما فيهما، والمتصرف بشؤونهما، له الحمد في الآخرة كالدنيا، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة بنعمه الكثيرة، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، يدبّر شؤون خلقه أحكم تدبير، وهو خبير ببواطن الأمور وظواهرها.

والألف واللام في كلمة ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لاستغراق الجنس، أي الحمد بأنواعه المختلفة هو لله تعالى من جميع جهات الفكر.

والصفات التي تستوجب المحامد هي في الآية: مُلكه جميع ما في السماوات وما في الأرض، وعلمه المحيط بكل شيء، وخبرته وحكمته بالأشياء، لخلقه إياها، ورحمته بأنواع خلقه، وغفرانه لأهل الإيمان.

ولله أيضاً كل الحمد في الآخرة، فاللام والألف للجنس أيضاً، وهو خبر يفيد أن لله وحده الحمد في الآخرة، لإنعامه وأفضاله ورحمته، وظهور قدرته، وغير ذلك من صفاته.

والله يعلم كل ما يدخل في الأرض، كالغيث والكنوز والدفائن والأموات، ويعلم ما يخرج من الأرض، كالحيوان والنبات والماء والمعادن. ويعلم ما ينزل من السماء كالملائكة والكتب والأرزاق، والأمطار، والصواعق، وما يعرج فيها كالملائكة أيضاً، وأعمال العباد والغازات والأدخنة ووسائل النقل الجوي، والطيور، والله هو الرحيم بعباده، فلا يعاجل عصيانهم بالعقوبة، الغفور لذنوب التائبين إليه، المتوكلين عليه.

ولكن أنكر الكفارُ قيام القيامة، فقالوا استعجالاً منهم واستهزاءً بالوعيد: لن تقوم الساعة، ولا حساب، ولا حشر، ولا جنة، ولا نار، فرد الله: قل أيها النبي

لهم: بلى والله لتأتينكم بلا شك أو ريب. وهذا في غاية التأكيد، بسبب القسم بالله، وتأكيد الفعل باللام، وبنون التوكيد الثقيلة.

والله القادر على البعث: عالم بالغيبيات، لا يغيب عنه شيء من الموجودات، ولو كان أصغر شيء كالذرة، يعلم الأصغر والأكبر، وكل ذلك ثابت علمه، ومدوّن في كتاب واضح، وهو اللوح المحفوظ، وبما أن العلم بالمغيبات ثابت لله تعالى، فاقتضى إمكان البعث.

وقيام الساعة ضروري للحساب وإحقاق الحق والعدل بين الناس، من أجل إثابة المؤمنين الذي يعملون العمل الصالح: وهو الفرائض وكل ما أُمروا به، واجتناب كل ما نُهوا عنه، وأولئك لا غيرهم لهم المغفرة، أي محو الذنوب، والرزق الكريم: وهو الجنة. وهذا هو الفريق الأول. وهو ضروري أيضاً من أجل عقاب الكفار المعاندين الذين حاولوا إبطال آيات القرآن، وأدلة البعث، ظانين أنهم يفلتون من العقاب، وأولئك لا غيرهم لهم عذاب مؤلم شديد في نار جهنم، وهو أسوأ العذاب وأشده.

إن تصور عالم الآخرة الرهيب الذي لا بد من وقوعه بعلم الله تعالى وقدرته وحكمته، والنظر في مصائر الخلائق، وفصل الحساب بينهم وتصنيفهم إلى أهل الجنة وأهل النار، كل هذا مدعاة للتأمل في هذا المصير المحتوم والإعداد له بحسن الأعمال، وتجنب سوء الأفعال.

موقف المؤمنين والكافرين من البعث والنبوة

تفاوتت مواقف المؤمنين والكافرين من النبوة والبعث تفاوتاً كبيراً، واختلفوا اختلافاً صارخاً، فأهل الإيمان والعلم يرون الوحي المنزل على محمد ﷺ حقاً، وأنه يهدي إلى صراط مستقيم، وأن البعث حق، وأهلُ الكفر والجهل يرون الوحي كذباً،

والبعث مستبعداً غير قائم، وأن إعادة الأجساد أحياءً ضرب من العبث، وتعاموا عن قدرة الله الخارقة، وأنه قادر على خسف الأرض بهم، أو إسقاط شهب نارية من السماء تحرقهم، وهذا ما ذكرته الآيات الآتية:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: ٣٤/٦-٩].

الإيمان: يقين وتصديق واطمئنان في النفس، وأهل الإيمان والعلم يرون رؤية متيقنة أن الوحي الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمدٍ ﷺ حق مؤكد ثابت، وأنه يهدي (أي يرشد) إلى الطريق الأقوم، والحياة السعيدة، ويدركون أن القرآن يرشد المتبعين له إلى طريق الله ذي العزة والقوة والجبروت، وأنه القاهر لكل شيء، والمحمودُ في جميع أقواله وأفعاله وشرائعه وأقداره. والطريق المستقيم: هو الطريق المعتدل، وأراد طريق الشرع والدين القويم.

والكفر: زيغ، وضلال، وانحراف وخطأ محض، ويقول الكافرون على سبيل الهزء والسخرية والتعجب: هل ندلكم على شخص يسمى محمداً يخبركم بخبر غريب، وهو أنكم إذا بليتم وصرتم تراباً، وتمزقت أجسادكم قطعاً متفرقة، تعودون بعدئذ أحياءً كما كنتم مرة أخرى؟!

إن حال هذا الرجل لا يخلو أن يكون إما كذاباً يدَّعي الوحي من ربه، وإما أنه مجنون لا يعقل ما يقول، ويتوهم البعث. وهذا قول الكافرين، الذين قالوا:

﴿أَفۡتَرَىٰ﴾ وهو من قول بعضهم لبعض. والمعنى: أافترى، دخلت ألف الاستفهام على ألف الوصل، ثم حذف ألف الوصل، وبقيت مفتوحة غير ممدودة، فكأن بعضهم استفهم بعضاً عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم أضرب القرآن الكريم عن قولهم، أي قول الذين لا يؤمنون بالآخرة، فكأنه قال: ليس الأمر كما قالوا، بل الذين كفروا ولم يصدقوا بالآخرة: هم في العذاب الدائم في عالم الآخرة، وهم في الدنيا في الضلال البعيد عن الحق. فقوله تعالى: ﴿فِى ٱلۡعَذَابِ﴾ يريد: عذاب الآخرة، لأنهم يصيرون إليه، وقوله: ﴿فِى ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ يريد، أنهم في غاية البعد عن الصواب والطريق الذي ضل منه، بسبب حيرة صاحبه.

واحتاجوا إلى التنبيه على قدرة الله الخلاقة بخلق السماوات والأرض، والتوبيخ على عدم التفكر والتدبر في ذلك الخَلْق، فقيل لهم: أفلم ينظروا أمامهم وخلفهم إلى السماء الناطقة بوجود القادر، والأرض الدالة على وجود الصانع؟! فلو نظروا إلى السماء والأرض، لعلموا أن خالقهما قادر على تعجيل العذاب لهم، فإن يُرد الله يخسف بهم الأرض، كما خسفها بقارون، أو يسقط عليهم قطعاً أو شُهباً نارية من السماء تحرقهم، كما أسقطها على أصحاب الأيكة، فلو شاء الله لفعل ذلك بهم.

إن في ذلك، أي في إحاطة السماء بالمرء، ومماسَّة الأرض له على كل حال، لعلامةٌ قاطعة، ودلالة واضحة على وجود الله وقدرته لكل عبد فطن رجّاع إلى الله تعالى، لأن من قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها، وخلق الأرض في انخفاضها وسعتها، قادر على إعادة الأجساد كما كانت. والمنيب: هو الراجع إلى الله عز وجل.

لقد تكررت الآيات القرآنية المرشدة إلى الإيمان بالبعث وتقدير قدرة الله الفائقة،

مثل قول الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٧]. وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾ [يس: ٣٦/ ٨١].

ما أكثر الأدلة المقنعة على وجود الله وقدرته، وإثباته إمكان البعث وجمع الناس ليوم القيامة، ولكن التعامي عن الحقائق سمةُ أهل الضلال وذوي الأهواء، الذين يؤثرون مصالحهم الذاتية القريبة على الباقي الدائم.

النعم الإلهية على داود وسليمان عليهما السلام

أنعم الله تعالى على داود وسليمان عليهما السلام بنعم عظيمة عجيبة، ما تزال موضع إعجاب وإكبار، وتقدير وإعظام، ولم يتكرر بعضها إلى الآن لأحد من البشر، وقد كان ذلك الإنعام محل شكر وحمد من هذين النبيين الكريمين، لأنهما قدوة للناس. وأهم هذه النعم: ثلاثة على كل من داود وسليمان، وهي تسخير الجبال لداود وتسبيحها معه، ويقابلها تسخير الريح لسليمان، وتسخير الطير لأداء الخدمات لداود ونظيرها تسخير الجن لسليمان، وإلانة الحديد لداود في مقابل إلانة النحاس لسليمان، وهذا ما تبيِّنه في الآيات الآتية:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى[(١)] مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ[(٢)] ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ

(١) أي سبّحي. (٢) القطر: النحاس المذاب.

وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ(١) وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ(٢) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٠-١٤].

منح الله تعالى داود عليه السلام فضلاً منه وكرماً نعماً عظيمة ثلاثاً من خلال الجمع له بين النبوة والمُلك العظيم، أولها: ترجيع الجبال مع ترانيمه وتسابيحه، فكان إذا سبَّح سبّحت معه الجبال، ويسمع صداها. وتسخير الطيور له، يفهم لغتها، ويستخدمها في قضاء حاجاته، وإلانة الحديد له، فيصير في يديه كالعجين، من غير طرق ولا إذابة في النار، ليعمل بها الدروع الواسعة، وينسجها نسجاً محكم الحلقات بحيث تكون حلقها منسجمة متوالية غير متفاوتة، فلا هي ضيقة ولا واسعة ولا ثقيلة، وهذا يحقق حاجة داود حيث كان عصره عصر حروب وقتال مع الملك المعاصر له.

وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي قدر تقديراً سديداً في نسج الدروع المحكمة، بحيث تجمع بين الخفة والمتانة، والتوسط والاعتدال، فلا تكون الحلقات صغيرة ولا كبيرة، وهذه نعم تستحق الشكر، ومردودها على آل داود، لذا قال الله لهم: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أي اعملوا يا آل داود عملاً صالحاً فيما أمدكم الله به من النعم، ثم توعدهم بقوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى علي أمركم، فإني بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى علي شيء منها. وهذا ترغيب في العمل الصالح، وتحذير من التقصير والإهمال.

وكذلك منح الله تعالى نعماً ثلاثاً أخرى لسليمان بن داود عليهما السلام وهي تسخير الريح، أي تذليلها له، بحيث يكون غدوها مسيرة شهر، ورواحها مسيرة

(١) أي قصاع كالحفر الكبيرة. (٢) أي عصاه.

شهر. والغدو: السير وقت الغداة من أول النهار إلى منتصفه، والرواح: الجريان في منتصف النهار إلى الغروب.

ومن يعدل من الجن و يخرج عن طاعة سليمان نذقه بعض العذاب المؤلم. إما في النار بالحريق، وإما في الآخرة بالنار الدائمة، وهذه النعمة كتسخير الجبال لداود.

والنعمة الثانية: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي وأذبنا له عين النحاس، كما ألنا الحديد لداود، فكان يصنع منه ما يشاء، دون نار ولا مطرقة. وسمي عيناً، لأنه سال من معدنه سيلان الماء من الينبوع.

والنعمة الثالثة: تسخير الجن لخدماته، فكانوا يعملون بين يديه ما يشاء من محاريب الصلاة، والتماثيل الكبيرة المباحة في شرعه، والجفان، أي القصاع الكبيرة كالحفر الكبيرة، وهي آنية الأكل، وقدور الطبخ الثابتات في أماكنها، فلا تتحرك عن مواضعها لعظمتها وثقلها.

وهذه النعمة ذات مردود نفعي أيضاً على آل سليمان، لذا قال الله لهم: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي اعملوا يا آل داود بطاعة الله، شكراً له على ما أمدكم به من النعم الدينية والدنيوية، وقليل هو الشاكر من عبادي، والشكر في الحقيقة: ليس مجرد الحمد باللسان، وإنما هو استعمال جميع الحواس والأعضاء المخلوقة للإنسان فيما خلقت له من المنافع المباحة. والشكور: صيغة مبالغة، وهو الذي يشكر الله في جميع أحواله من الخير والضر.

وأخبر الله تعالى بمناسبة تسخير الجن لسليمان عن اختصاص الله بعلم الغيب، حتى إن الله تعالى لما أمات سليمان، ظل ميتاً قائماً، متكئاً على عصاه، ولم تعلم الجن بموته، وبقوا يعملون أمامه خوفاً منه، ولم يدلّهم على موته إلا سوسة العود، أي حيوان الأرض أو الأَرَضة التي نخرت عصاه من الداخل، فلما سقط بوقوع عصاه،

ظهر للجن أنهم لم يكونوا يعلمون الغيب، ولو صح ما زعموا أنهم يعلمون الغيب، لعلموا بموته، وهو أمامهم، ولم يبقوا مدة من الزمان ماكثين في العمل الشاق الذي سخرهم فيه لإنجازه، ظانين أنه حي، والجن القائمون بالعمل المهين، أي المذل من الهوان، لم يكونوا مؤمنين، لأن المؤمن لا يعذب بعذاب مهين.

أهل سبأ وسيل العرم

حذر القرآن الكريم من أمرين خطيرين: وهما الإشراك بالله، وجحود النعم الإلهية، وأبان حال الكافرين بأنعم الله كأهل مكة القرشيين وقت نزول الوحي الإلهي، وأنذرهم بالاعتبار والاتعاظ بقصة أهل سبأ، وأوعد كل من يجحد بنعم الله تعالى بعقاب مماثل. وأنزل الله تعالى آياتٍ تبين قصة سبأ وتدمير بيوتهم بسيل العرم.
وسبب النزول: ما أخرج ابن أبي حاتم: أن فَرْوة بن مُسَيك الغطفاني رضي الله عنه قدم على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عز، وإني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام، أفأقاتلهم؟ فقال: ما أمرت فيهم بشيء بعد، فأُنزلت هذه الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ الآيات. قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ[(١)] وَأَثْلٍ[(٢)] وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ[(٣)] ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا

(١) أي مُرّ بشع. (٢) نبات ينتفع بخشبه، غير مثمر. (٣) نوع معروف من الشجر، له ثمر يؤكل، وهو النبق.

أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾
وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن
سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأٓخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ
﴿٢١﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٥-٢١].

المعنى: لقد كان لقبيلة سبأ في مساكنهم في مأرب باليمن علامة على قدرة الله تعالى بإحياء الأرض بعد موتها، وهي بستانان عن يمين الوادي وشماله، وفيهما جميع الثمار، يقال لهم بلسان الحال أو المقال: كلوا من رزق أو ثمار ربكم في هذين البستانين، واشكروا الله على ما رزقكم من هذه النعم. فهذه بلدة طيبة بطيب أشجارها وثمارها وجمال مناخها، والله المنعم عليكم غفور لذنوب الموحدين التائبين. فأعرضوا عن توحيد الله وعبادته وطاعته وعن شكره على ما أنعم عليهم، ومالوا لعبادة الشمس من دون الله تعالى، فأرسل الله عليهم سيل العرم، أي المياه الكثيرة، فحطمت سد مأرب، فملأ الماء الوادي، وأغرق البساتين، ودمّر البيوت، وأبدلهم الله بتلك البساتين الغناء بساتين لا خير فيها، فيها أشجار ذات ثمر مُرّ وهي الأراك، وأثل: وهو الطرفاء، وسدر، أي نبق ذو شوك كثير وثمر قليل. وسبب ذلك العقاب أو التبديل: هو مجازاة كفرهم أو شركهم بالله، وتكذيبهم الحق، ولا يعاقب الله تعالى إلا المغرق في الكفر، الجحود النعم.

وأنعم الله تعالى عليهم بنعم أخرى: هي جعل قرى مرتفعة عامرة بين قراهم وقرى الشام التي بارك الله فيها بالمياه والخيرات، وجعل فيها محطات متعاقبة ذات مسافات متناسبة، وقيل لهم: سيروا في طرقات تلك القرى ليالي وأياماً آمنين.

فبطروا النعمة وسئموها، وتمنوا طول الأسفار وتباعد الديار، وقالوا: ربنا اجعل بيننا وبين البلاد التي نسافر إليها مفاوز وصحارى، لركوب الرواحل،

والتزود بالماء، ليتميزوا ويتكبروا على الفقراء العجزة، وظلموا أنفسهم بهذا الطلب، فجعلهم الله عبرة للمعتبر، وحديثاً للناس يتحدثون به، وفرَّقناهم في البلاد كل تفريق، فصارت العرب تضرب بهم المثل قائلين: «تفرّق القوم أيدي سبأ» أي مذاهب سبأ وطرقها، إن في ذلك البلاء والتدمير الذي حلّ بهم لعلامات مؤثرة لكل عبد كثير الصبر على المصائب، وكثير الشكر على النعم.

وتالله لقد حقق إبليس فيهم ظنه، إذ أغواهم، فانقادوا له، وعصوا ربهم، وعبدوا الشمس من دون الله، إلا فريقاً منهم انتصروا على وساوس الشيطان، وبقوا طائعين لله تعالى.

ولم يكن لإبليس على هؤلاء القوم حجة وبرهان، ولم يكرههم على الكفر، وإنما كان له الوسوسة والتزيين فقط، والابتلاء بوسوسته، ليظهر للملأ حال من يؤمن بالآخرة وحسابها وجزائها من ثواب وعقاب، من غير المؤمن بها، الشاك في وجودها، وربك أيها النبي رقيب على كل شيء، وسيجازي الكفار على أعمالهم في الآخرة.

إبطال شفاعة آلهة المشركين

يتحدى الحق جل جلاله المشركين ويتهكم منهم في زعمهم الاستعانة بآلهتهم المزعومة من الأوثان والأصنام، ويقيم عليهم الحجة بإقرارهم أن الله الخالق هو الذي يرزقهم، ويهددهم بالحساب العسير يوم القيامة، وبالكشف عن آلهتهم، ويؤكّد لهم عموم الرسالة النبوية، ويرد على استبعادهم وجود يوم القيامة، فإن لهم ميعاداً محدداً من غير تقديم ولا تأخير، قال الله تعالى مقرراً هذه المناقشات والحقائق:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي

ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (١) ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٢-٣٠].

قل أيها النبي للمشركين القرشيين وأمثالهم: نادوا آلهتكم المزعومة من الأصنام لكشف الضر عنكم، في سنوات القحط الذي نزل بكم، أو جلب النفع لكم. والجواب معلوم، فإن تلك الآلهة المزعومة لا يملكون شيئاً أبداً، ولو بمثقال أو وزن ذرة في السماوات والأرض، ولا شراكة لهم أصلاً، وليس لله تعالى منهم شريك أو معين.

ولا تنفع الشفاعة عند الله عز وجل في أي حال إلا بإذن الله لمن شاء، لا من الأصنام ولا من غيرها، من الملائكة والأنبياء والبشر ونحوهم، والذي يحدث بعد انتظار الإذن بالشفاعة أن الناس والملائكة يقفون فزعين خائفين منتظرين الإذن، فإذا أذن للشافعين وزال الخوف من نفوسهم، قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم في الشفاعة؟ قالوا: يقول ربنا القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى، والله هو المتعالي المتكبر العظيم.

وقل أيضاً أيها النبي للمشركين عبدة الأوثان على سبيل التوبيخ واللوم: من

---

(١) أي معين.

الرازق لكم من السماوات بإنزال المطر، ومن الأرض بالنبات والثروات المعدنية ونحوها، وإننا نحن أو إياكم إما مصيب أو مخطئ، والمصيب واحد، والآخر مخطئ أو مبطل، وهذا أسلوب في غاية اللطف والأدب في المحاورة، لاستدراج الخصم إلى النظر في حاله وحال غيره، وهي دعوة إلى الحرية واختيار المخاطب ما يحقق له المصلحة، والاعتراف بخطئه وإصابة غيره. والمراد: أن الخطأ واضح في وصف المخاطبين، كما تقول لمن خالفك في مسألة: أحدنا مخطئ، أي تثبّتْ وتنبَّه.

وقل أيها الرسول أيضاً للمشركين على سبيل المهادنة والمتاركة: لستم أنتم مسؤولين عنا إن أخطأنا أو أجرمنا في عبادة الله وحده، ونحن لا نسأل عما تعملون من خير أو شر، ومعنى هذا التبري منهم، فلستم منا ولا نحن منكم، ودعوتنا واضحة إلى توحيد الله، فإن أعرضتم فنحن برآء منكم.

وقل كذلك يا نبي الله للمشركين: إن ربنا يجمع بيننا يوم القيامة في ساحة الحساب، ويقضي بيننا بالحق والعدل، والله هو القاضي العادل الحاكم بالصواب، العالم بحقائق الأمور، ويجزي كل عامل بعمله.

قل يا نبي الله لهم أيضاً: أروني هذه الآلهة التي اتخذتموها أنداداً ونظراء لله، حتى أشاهدهم، وأشاهد ما يقدرون عليه، الحق واضح، كلا، أي فارتدعوا عن ادعاء المشاركة، فلا شريك لله، بل هو الله الواحد الأحد، الغالب القاهر، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه.

وليعلموا أننا أيها النبي أرسلناك رسولاً للناس قاطبة، العرب والعجم، الأبيض والأسود، مبشراً الطائع بالجنة، ومنذراً العاصي بالنار، لكن أكثر الناس لا يعلمون بعموم الرسالة النبوية ولا بمهمة التبشير والإنذار، ولا بخطورة الضلال. ويتساءل المشركون تهكماً وتعنتاً: متى الوعد الذي تعدنا به وهو قيام الساعة إن كنتم صادقين

في قولكم؟ والجواب: لكم موعد يوم مؤجل محدد لا شك فيه، هو يوم القيامة، لا تتأخرون عنه ساعة ولا تتقدمون عليه.

حوار القادة والأتباع في الآخرة

لم يكن المشركون الوثنيون في مكة وغيرها يؤمنون بالقرآن ولا بما تقدمه من الكتب الإلهية من التوراة والإنجيل والزبور، وكأنهم كذّبوا بجميع كتب الله تعالى، مما أوجب عليهم العقاب الشديد في الآخرة، وتراهم أذلة مهانين، يتخاصمون ويتحاورون فيما بينهم، فيلوم الأتباع سادتهم، ويتبرأ المستكبرون من الأتباع ومن إضلالهم، فيُلزمهم الأتباع بكذبهم، ويستوي الفريقان في العذاب الأليم، يصف الحق سبحانه في قرآنه مشاهد من هذا الحوار في الآيات الآتية:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ[1] يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣١-٣٣].

استبد العناد بالكفار الظالمين المشركين وأصروا على عدم الإيمان، وقال جماعة من مشركي العرب في مكة وغيرها: لن نؤمن بالقرآن ولا بالكتب السابقة، كالتوراة

(١) أي يتحاورون ويتجاورون.

والإنجيل والزبور، فكانت عاقبة أمرهم الخسران والهلاك، فلو نظرت إليهم أيها الرسول حين يكون الكافرون أذلة مهانين، محبوسين في موقف الحساب، يتخاصمون ويتجادلون، ويتبادلون التهم والملامة والعتاب، لرأيت أمراً عجباً.

ولون هذا الجدل: أن يقول الأتباع الضعفاء للسادة المتكبرين في الدنيا: لولا صدّكم لنا عن الإيمان الصحيح، لكنا مؤمنين بالله مصدقين برسوله وكتابه وشرعه، أي لولا أنتم لآمنا نحن واهتدينا، أي أنتم أغويتمونا وأمرتمونا بالكفر.

فأجابهم القادة على سبيل التكذيب: أنحن منعناكم عن الهدى، بعد أن جاءكم من عند الله؟ لا، بل كنتم مجرمين، أي دخلتم الكفر ببصائركم واختياركم وإرادتكم، ودعوتنا لم تكن لازمة لكم، لأنا دعوناكم بغير حجة ولا برهان.

فردَّ الأتباع على الرؤساء: بل كفرنا بسبب مكركم، أي احتيالكم وخديعتكم، في الليل والنهار، حين طلبتم منا البقاء على الكفر بالله، وأن نجعل له أنداداً، أي أشباهاً وأمثالاً في الألوهية والعبادة. وأضاف المكر إلى الليل والنهار من حيث هو فيهما، ولتدل هذه الإضافة على الحرص والدأب والاستمرار.

وأسرّ الفريقان الندامة، أي اعتقدوها في نفوسهم، وأخفوها عن غيرهم، خشية الشماتة، وظهرت علائم الندامة حين واجهوا العذاب المحدق بهم، وتيقنوا حصولهم فيه، وحين تكبيلهم بالأغلال، أي القيود والسلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم في النار.

وكان التساؤل المنطقي القائم على العدل: هل يجازون إلا بعملهم؟ أي إنما نجازي الفريقين وأمثالهم، كل بحسب عمله، وبسبب ما اقترفه من الشرك بالله والإثم، فللقادة عذاب يناسبهم، وللأتباع عذاب آخر يلائمهم، ولا ظلم ولا تحامل، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٦]. إن كفران المشركين بما

أنزل الله على رسله و بخاصة القرآن الكريم الكتاب الخالد يجعلهم في عداد الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، ولن يضروا سوى أنفسهم. وعقابهم شديد وأليم في الدار الآخرة. ومما لا شك فيه أن القادة إلى الضلال أسوأ من الأتباع، فهم الذين يستحقون مضاعفة العذاب وأليم العقاب، ولكن يشاركهم الأتباع في هذا العذاب، لأنهم عطلوا نعمة العقل والوعي، وقلّدوا غيرهم تقليداً أعمى، وكان جديراً بهم أن يتحرروا من ربقة التقليد، فكانت عقائدهم فاسدة، وأعمالهم سيئة كقادتهم، فاستحقوا جميعاً التخليد في عذاب جهنم، وبئس المصير.

موقف المشركين المترفين

يصحب الترفَ والغنى عادة عند المترفين مظاهرُ التكبر والتفاخر بزينة الدنيا ومباهجها، مغترين بالأموال والثروات والأولاد، فيقعون في تصرفات شاذة، وتكون لهم مواقف مستهجنة من الدين والعقيدة والأخلاق، لانهماكهم في الشهوات والمعاصي، وهذا كله يحتاج لحملة قوية، لتصحيح أحوالهم، وثنيهم عن استكبارهم، وهو حال المشركين الوثنيين الذين جاءهم القرآن الكريم بآيات عديدة وأدلة دامغة، ليعودوا إلى جادة الاستقامة، ويَرْعَوُوا عن غيهم وضلالهم، من تلك الآيات الشريفة ما يأتي:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ

يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ[١] أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

[سبأ: ٣٤/ ٣٤-٣٩].

نزلت الآية الأولى وما بعدها فيما أخرجه ابن أبي المنذر وابن أبي حاتم عن أبي رَزين قال: «كان رجلان شريكان، خرج أحدهما إلى الشام، وبقي الآخر، فلما بُعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل، فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس[٢] ومساكينهم، فترك تجارته، ثم أتى صاحبه، فقال: دُلّني عليه، وكان يقرأ الكتب، فأتى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو؟ فقال: إلى كذا وكذا، فقال: أشهد أنك رسول الله، فقال: وما علمك بذلك؟ قال: إنه لم يُبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ..﴾ الآية، فأرسل إليه ﷺ : إن الله قد أنزل تصديق ما قلت».

هذه الآيات مؤانسة من الله لنبيه عما يلقاه من إعراض قومه عن دعوته، والمعنى: لم نَبْعث إلى أهل كل قرية نبياً أو رسولاً، يحذّرهم ويخوفهم عقاب الله إلا قال الأغنياء المترفون منهم: إنا مكذّبون بما أرسلتم به من توحيد الله والإيمان به.

واعتمد هؤلاء الأغنياء على الاغترار بالأموال والأولاد، فقالوا لمن دونهم في الثروة: إن الله فضّلنا عليكم بالأموال والأولاد، وأنتم ضعاف فقراء، مما يدل على تميزنا ورضا الله عنا، وما نحن عليه، ولسنا بمتعرضين للعذاب إطلاقاً، لأن الله الذي تدعونا إليه منحنا هذه النعم، فهو إذن راضٍ عنا.

فقل أيها الرسول في الرد عليهم: إن الله يمنح الرزق أو المال لمن أحب ولمن لم يحب، فيغني من يشاء، ويُفقر من يشاء، ولكن أكثر الناس مثلكم لا يعلمون حقيقة

---

(١) مغالبين . (٢) أي فقراؤهم أو المحتاجون منهم .

سنة الله في خلقه، فقياسكم الآخرة على الدنيا خطأ محض، وليس الأمر كما ظننتم، بل بسط الرزق وتقديره أو تقتيره معلّق بالمشيئة الإلهية، في الكافر والمؤمن، وليس ذلك دليلاً على رضا الله والقرب منه، لأنه قد يعطي الرزق أملاً واستدراجاً، ولأن أساس التقرب من الله هو الإيمان والعمل الصحيح فقط.

وليست كثرة أموالكم وأولادكم دليلاً على محبة الله لكم ورضاه عنكم، ولا هي مما تقربكم إلى رحمتنا وفضلنا، لأن التقريب إنما هو بالإيمان والعمل الصالح، فالمؤمنون بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، الذين يعملون صالح الأعمال من أداء الفرائض والطاعات هم المقربون لله تعالى.

أما الذين يحاولون الطعن بآياتنا مغالبين زاعمين التفوق، فهم جميعاً مقدّمون للعذاب، من غير مهرب ولا إفلات، وبيان حال هؤلاء المؤمنين بعد بيان حال الكافرين وتوضيح جزاء كل فريق، ليظهر تباين المنازل، وتكون المقارنة حافزاً على الاستقامة، وترك الضلالة.

ثم أوضح الله تعالى نظامه في الإمداد بالرزق، فأمر نبيه أن يقول: إن ربي وحده هو الذي يوسع الرزق على من يريد من عباده، ويضيّقه على من يريد، على وفق ما يجده من الحكمة السديدة التي لا يدركها سواه.

وليطمئن كل إنسان على رزقه، فكل ما تنفقونه أيها الناس في فعل الخير، فالله يعوضه عليكم بالبديل في الدنيا، أو بالجزاء في الآخرة، والله هو الرازق في الحقيقة، وما مساعي الناس إلا وسائط وأسباب، وهذا تزهيد في الدنيا، وترغيب في عمل الخير، والإنفاق في مرضاة الله تعالى.

حال الكفار يوم القيامة

إذا لم يستجب الكافر لمنطق العقل ودلالة الحجة والبرهان، كان جاهلاً غبياً، فلا ينفع معه إلا التهديد والوعيد، لذا سلك القرآن الكريم هذا المسلك حينما لم يُصْغِ المشركون لنداء العقل والمنطق، وأصروا على الكفر والضلال، فاستحقوا الوعيد والإنذار، والتخويف بالعذاب الشديد يوم القيامة، لا على مجرد تكذيبهم النبي، بل على افترائهم ووصفهم الوحي والنبوة بالإفك المفترى، أو السحر الواضح، دون أن يكون لهم دليل مقبول على ذلك من كتاب منير، أو منذر مبين، وكانوا مِثْل من تقدمهم من الأقوام الذين كذبوا الرسل، مع أنهم لم يبلغوا في القوة والنعم والتفوق وكثرةِ المال عُشْر معشار من قبلهم، وصف الله تعالى هذه الأوضاع بما يأتي:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ(١) مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٠-٤٥].

هذه آيات وعيد للكفار، فيوم يجمع الله تعالى العابدين والمعبودين، والقادة والأتباع، ثم يسأل الله الملائكة الذين عبدتهم جماعات وثنية: أهؤلاء كانوا يعبدونكم، وأنتم أمرتموهم بعبادتكم؟ وهذا سؤال تقريع وتوبيخ أمام الخلائق،

(١) المعشار: بمعنى العشر، وقيل: عشر العشر أي واحد بالمئة، أو عشر العشير الذي هو عشر العشر، أي واحد بالألف.

ليسمع الآخرون. فقالت الملائكة: سبحانك، أي تنزيهاً لك يا رب عن الشريك وعما فعل هؤلاء الكفرة، نحن عبيدك، وأنت مولانا وناصرنا، ومتولي أمورنا، ونتبرأ إليك منهم، ولم نتخذهم عابدين، بل إنهم كانوا يعبدون الشياطين، أكثرهم مصدِّقون بهم، فيما يُلقون إليهم من الوساوس والأكاذيب. فقولهم ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ يريدون به البراءة من أن يكون لهم علم أو رضاً أو مشاركة في أن يعبدهم البشر.

ثم يعلن الله إفلاس المشركين، ففي يوم القيامة لا يملك أحدهم للآخر نفعاً ولا ضَراً، ولا يتحقق لهم منفعة من الأصنام والمعبودين، ولا يجلبون لهم ضرراً أو سوءاً. وحينئذ يقول الله توبيخاً وتقريعاً للذين ظلموا أنفسهم بالشرك والضلال: ذوقوا عذاب جهنم، الذي كنتم تكذبون بوقوعه في الدنيا، فأنتم الآن في حميم النار، وفي لظى السعير.

وأسباب استحقاق الكفار نار جهنم ثلاثة: الطعن بالنبي ﷺ، وبالقرآن المجيد، وبالإسلام كله.

أما الطعن بالنبي: فإذا تليت عليهم آيات القرآن الواضحة الدالة على إثبات التوحيد، وإبطالِ الشرك قالوا: ما هذا الرجل، أي محمد إلا رجل يريد صرفكم عن دين الآباء والأجداد من عبادة الأصنام.

وأما الطعن بالقرآن: فإنهم يقولون أيضاً: ما هذا الكتاب، أي القرآن إلا إفك مفترى، أي كذب مختلق من قبل محمد، ويدعي أنه من عند الله.

وأما الطعن بالإسلام كله: فإنهم يقولون: ما هذا الدين أو الإسلام إلا سحر ظاهر، بما اشتمل عليه من استجلاب النفوس واستمالة الأسماع. تعالى الله عن أقوالهم، وتنزه شرع الله عن طعنهم.

إنهم يقولون بآرائهم الباطلة هذه الأقوال، من وصف كتاب الله بالسحر أو

الافتراء، وليس لهم دليل أصلاً على مازعموا، فلم ينزل الله عليهم كتاباً قبل القرآن يقرر لهم ديناً، ولم يرسل الله إليهم نبياً قبل محمد ﷺ يدعوهم إلى الحق، ولم يبعث الله لهم منذراً ينذرهم عذاب الله.

ولا قيمة لتكذيبهم وتشنيعهم، فلقد كذَّبت بالرسل قبلهم أقوام كقوم نوح وعاد وثمود، ولم يبلغوا بقوتهم وماليتهم عُشْر ما آتى الله السابقين من ذلك، فلم يمنع ذلك عنهم عذاب الله، وكيف كان إنكاري الشديد عليهم؟

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ تعظيم للأمر، وليس استفهاماً مجرداً، وفي هذا تهديد لقريش، أي إنهم معرّضون لنكير وعذاب مثله، فما جرى على المثيل يجري على مثيله، لتساويهما في سبب العقاب، فيتساويان في الحكم والجزاء.

إن وضع المكذبين لرسول الله مجرد استكبار وعناد، وهم يعرفون الحق معرفة تامة، ولكنهم يحيدون عنه من غير حجة بينة، ولا دليل بيِّن، ولا عذر لهم إلا التقليد المتوارث للآباء والأجداد، وإهمال عقولهم وتفكيرهم ووعي ظروف المستقبل.

الدعوة إلى الإيمان والعبادة والنبوة

أمر الله نبيه بدعوة الناس قاطبة إلى عبادة الله تعالى وطاعته والإخلاص له، والنظر في حقيقة نبوته هو، والإيمان بالقرآن والقيامة والحساب والجزاء، وذلك لإنقاذ أنفسهم من العذاب الأليم، والبعد عن دائرة الكفر ومفاسده، والضلال ومذاهبه، والسير في فلك الحق ونفعه، والبعد عن الباطل وخسرانه، قبل أن يأتي يوم القيامة، فلا ينفعهم إيمان بالقرآن والنبي محمد ﷺ، لأن الآخرة دار الحساب والجزاء، والدنيا دار التكليف والاختبار، وهذا صريح الآيات الآتية:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن

جِنَّةٍ(١) إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ
جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ
فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ(٢) وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ
قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ(٣) مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن
قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم
مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ [سبأ: ٣٤/٤٦-٥٤].

المعنى: قل أيها النبي للمشركين: أحذركم عاقبة السوء، وآمركم بخصلة أو قضية واحدة: وهي التأمل والنظر في حقيقة النبوة، وعبادة الله تعالى، وفي طاعته، إما مثنى (اثنين اثنين) وإما فرادى (واحد واحد) لأن الاجتماع الكثير يشوش الفكر، وينشر الغوغائية، وحينئذ تعلمون أن صاحبكم ليس بساحر ولا مجنون، وإنما هو نبي مؤيد من عند الله بالمعجزات المصدقة له، وأنه منذركم ومخوفكم ما ينتظركم من عذاب شديد على النفوس يوم القيامة.

وقل أيها النبي أيضاً للمشركين: لم أطلب منكم أجراً ولا عطاء على أداء رسالة الله عز وجل إليكم، فما ثوابي أو أجري إلا على الله تعالى، والله مطلع على كل شيء، وعالم به، من صدقي بتبليغ الرسالة، وإعلامكم بالنبوة. وهذا أمر من الله تعالى بالتبري من طلب الدنيا وطلب الأجر على الرسالة، وتسليم كل دنيا إلى أهلها والتوكل على الله في الأجر، والإقرار بأنه شاهد على كل شيء من أفعال البشر وأقوالهم وغير ذلك. إن ربي عالم الغيب والشهادة يصطفي للنبوة من يشاء ويرسل جبريل بالوحي إلى من يشاء من عباده.

---

(١) من جنون. (٢) فلا هروب ولا نجاة. (٣) التناول بسهولة ويسر.

وقل كذلك أيها النبي للمشركين: جاء الدين الحق، وهو الإسلام الذي سيعلو على كل الدنيا، وآيات القرآن، وما يصنع الباطل شيئاً، والباطل: الكذب والكفر ونحوه، استعار له الإبداء والإعادة، ونفاهما عنه.

وقل أيضاً أيها الرسول لأهل الشرك: إن انحرفتُ عن الهدى ودين الحق، فإن إثم انحرافي على نفسي، وإن وُفِّقت للحق، فبسبب ما أوحى إلي ربي من الهداية والتوحيد والاستقامة، إنه سبحانه تام السمع لقولي وقولكم، قريب مني ومنكم، يعلم الهدى والضلالة، ويجازي كل إنسان بما يستحق.

ولو رأيت أيها النبي هؤلاء الكفار حين خافوا عند البعث والنشر من القبور، ثم الحشر، وعند رؤية ألوان العذاب الشديد، لرأيت العجب، فهم لا يتمكنون من الهرب والنجاة، ويؤخذون فوراً من مكان قريب إلى نار جهنم، أي إنهم قريبون من ذلك لتناول القدرة الإلهية لهم حيث كانوا. فتدل الآية على معنى التعجب من حالهم، إذا فزعوا من أخذ الله إياهم، ولم يتمكن أحد منهم من الإفلات.

وقال الكفار حين الأخذ للعذاب: لقد آمنا بمحمد ﷺ وشرعه والقرآن، ولكن كيف لهم تعاطي الإيمان أو نيله، وقد بعدوا عن محل قبوله، أي أنَّى لهم تناول مرادهم، وقد بعُدوا عن مكان إمكان ذلك. وكيف يظفرون بالإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق والقرآن والرسل في الدنيا؟ وكانوا يرجمون بالظن بقولهم: سِحْر وافتراء وغير ذلك، ويتكلمون بلا حجة ولا برهان، ويرمون بظنونهم الرسول وكتاب الله، وذلك غيب عنهم. وحيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا، وبين ما طلبوه في الآخرة، فمنعوا منه. والمراد أنه حيل بينهم وبين الإيمان، والتوبة، والرجوع إلى الأمانة والعمل الصالح، لأنهم اشتهوه في وقت لا تنفع فيه التوبة.

وقد فعلنا بهم ذلك، كما فعلنا بأمثالهم من كفار الأمم الماضية، إنهم كانوا جميعاً في الدنيا في شك وريبة من أمر الرسل، ومطالبتهم بالتوحيد، وإثباتهم البعث والجزاء، والشرائع والأحكام. والأشياع: الفِرق المشابهة لهم من كل أمة، جمع شيعة.

تفسير سورة فاطر

الخَلْق دليل القدرة الإلهية

تكثر ادعاءات المغرورين والمتكبرين المشركين ومزاعمهم بأنهم يملكون قدرة معينة: إما فكرية وإما جسدية وإما إبداعية، وتتبدد كل تلك المزاعم أمام الواقع الأعظم: وهو إيجاد أشياء مادية وروحية حركية معاً، تعمل بفكر منظم ومنطق رتيب. لذا لم نجد حاجة في القرآن الكريم لإثبات وجود الله غير دليل الإيجاد أو الخلق أو الإبداع الإلهي للأشياء بدون سابقة، وهذا وحده كافٍ لتتداعى أمامه كل ألوان الغرور والتكبر والشرك، واستحق هذا أن يُحْمَد الخالق عليه بكل مشتملات الحمد، ويستغرق هذا جميع الأفعال الشريفة، فيثبت الكمال لله وحده، وهذا ما عبَّرت عنه الآيات الآتية في مطلع سورة فاطر:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ(١) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ(٢) ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ **[فاطر: ٣٥/ ١-٤].**

---

(١) أي خالقهما ومبدعهما ابتداء لا على مثال سبق، من الفطر: وهو الشق، أي شق الشيء بإخراج السماء والأرض منه . (٢) أي كيف تصرفون عن الإيمان إلى الكفر ؟

لله تعالى جميع أنواع المحامد والشكر الخالص على نعمه، فكلمة ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ الألف واللام لاستغراق الجنس على أتم عموم، والشكر بعض أنواع الحمد، فيشمله، وحمده تعالى لأنه سبحانه مبتدئ خلق السماوات والأرض، مما يدل على وجوده، وتمام قدرته، واتصافه بالكمال وحده، فهو إذن قادر على إعادة الخلق أحياء مرة أخرى.

والله تعالى جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه لتبليغ رسالاته وغير ذلك، فقد جعلهم رسلاً بالوحي ونحوه من الأوامر، ومنهم جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل، ومنهم الملائكة المتعاقبون المتناوبون لتنفيذ أوامر الله، ومنهم المسدِّدون لحكام العدل وغيرهم، وقد خلقهم الله ذوي أجنحة متعددة، بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، وبعضهم له أكثر من ذلك وهم شذوذ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء. فقوله تعالى: ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ألفاظ معدولة من اثنين وثلاثة وأربعة، فهي ممنوعة من الصرف للعَدْل والتعريف.

وليس هذا بمستغرب أو ببدع في قدرة الله تعالى، فإنه يزيد في خلقه ما يشاء، من أجنحة وغيرها، كَمَلاحة العين، وجمال الأنف، وحلاوة الفم، وحسن الصوت، إن الله تام القدرة في خلق الزيادة المادية الحسية والمعنوية، فلا يعجز عن شيء.

وبالإضافة إلى تمام القدرة الإلهية، فإنه سبحانه نافذ الإرادة والمشيئة والأمر، فما يعطي الله تعالى من خير أو نعمة حسية كرزق، ومطر، وصحة، أو معنوية، كأمن وعلم، ونبوة وحكمة، فلا مانع له، وما يمنع من ذلك، فلا يَقْدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه من الله، بيده الخير كله، والله هو القوي الغالب القاهر، الحكيم في قوله وفعله وتدبيره، يضع كل شيء في موضعه المناسب له. فقوله: ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ عام

في كل خير، يعطيه الله لعباده، جماعة وأفراداً، وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ فيه حذف مضاف، أي من بعد إمساكه.

وبما أنه تعالى مصدر الخلق والرزق والإنعام، فيجب تذكر نعمه والإقرار بتوحيده، فيا أيها الناس كلهم، تذكروا نعم الله عليكم، واحفظوها بمعرفة حقوقها والإقرار بها، ووحِّدوا المنعم بها، فلا خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض، ولا إله إلا هو، فكيف بعد هذا البيان الواضح، تصرفون عن الحق: وهو توحيد الله وشكره، وتعبدون هذه الأصنام؟!

ثم واسى الله رسوله في أنه: إن يكذبك أيها الرسول هؤلاء المشركون ويعارضونك فيما جئت به من توحيد الله تعالى، فقد كُذبت الرسل السابقون من قبلك من أقوامهم، وعارضوهم وآذوهم، ومصير الجميع في نهاية الأمر إلى الله تعالى، فيجازي على ذلك أوفى الجزاء، يجازي رسله ومنهم أنت أيها النبي على الصبر، ويجازي أقوامهم على التكذيب، وكلا الجزاءين حق وعدل، ومصلحة ونفع إما للشخص نفسه في الدنيا والآخرة، أو له في الدنيا لتذكيره وزجره.

التحذير من غرور الدنيا

من الظواهر الواقعية أن الدنيا ملهاة، وتأثيرها بزخارفها على النفوس كبير، والإصغاء إلى وساوس الشيطان خطير، لذا حذر الله تعالى منها، من أجل خير الإنسان، وبسبب عرضه على الحساب في يوم القيامة الذي لا بد منه، فيكون الناس إما في خير وتنعيم، أو عذاب وعقاب وجحيم، أما أهل الإيمان والعمل الصالح، فلهم مغفرة وثواب كبير، وأما الكافرون، فلهم عذاب شديد. ولا مجال للمفاضلة

أو المقارنة بين الفريقين، لعلو درجة المؤمنين، ودنوّ رتبة الكافرين الذين زُيِّن لهم سوء عملهم، وهذا ما أخبر عنه القرآن الكريم في الآيات الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ[1] ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر: ٣٥/ ٥-٨].

أبانت آيات سورة فاطر في مطلعها ثلاثة أصول إيمانية: الأول- التوحيد الإلهي، والثاني- الرسالة النبوية، وهذا مما سبق بيانهما، والثالث- الحشر والبعث، وهذا موضوع الآيات المذكورة هنا.

يعظ الله تعالى جميع العالم، ويحذرهم غرور الدنيا بنعيمها وزخرفها، وينبِّههم إلى عالم المعاد، فإن وعد الله بالبعث والجزاء حق ثابت لا شك فيه، والمعاد كائن لا محالة، بما فيه من خير ونعيم، أو عذاب مقيم، فلا تلتهوا بمغريات الدنيا ولذائذها عن العمل للآخرة، ولا يغرنكم الشيطان بالله، فيجعلكم في أوهام وآمال خيالية، ولا تلهينكم الحياة الدنيوية.

إن عداوة الشيطان لكم أيها البشر عداوة قديمة ظاهرة، فعادوه أنتم عداوة شديدة، وخالفوه بطاعة الله، واجتنبوا إغراءه بمعاصي الله ونواهيه، فعداوته: بالمباينة والمقاطعة، والمخالفة له: باتباع الشرع.

إنما يريد الشيطان إضلالكم حتى يوصلكم معه إلى عذاب النار الشديد. ويدعو

(١) هو الشيطان.

حزبه، أي حاشيته الصاغية له وجماعته الملتفين حوله، ليصيروا من أهل النار، فتكون اللام في ﴿لِيَكُونُوا﴾ لام الصيرورة، لأنه لم يَدْعُهم صراحة إلى السعير، وإنما ترتب على الاستجابة لوساوسه صيرورة أمرهم منه إلى ذلك. والسعير: طبقة من طبقات جهنم، وهي سبع طبقات.

وجزاء فريقي الآخرة معروف، فالذين كفروا بالله ورسوله، وأنكروا الآخرة، واتبعوا وساوس الشيطان، لهم عذاب شديد في نار جهنم، لأنهم أطاعوا الشيطان، وعصوا الرحمن.

والذين صدقوا بالله ورسوله وباليوم الآخر، وعملوا صالح الأعمال من اتباع الأوامر، واجتناب النواهي، لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير، وهو الجنة، بسبب الإيمان والعمل الصالح.

وفَرْق كبير بين الفريقين، فكيف يتساوى المحسن والمسيء وكيف يتماثل الذين حسَّن لهم الشيطان أعمالهم، ظانين أنهم محسنون صنعاً، وأولئك المهتدون على طريق الحق والخير؟ والمراد بمن زُيِّن له سوء عمله: كفار قريش وأمثالهم. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ جوابه محذوف، تقديره: كمن اهتدى. ثم واسى الله تعالى نبيه عن كفر قومه، ببيان أن من شاء الله إضلاله أضلّه، ومن شاء هدايته هداه، بسبب ما يَعْلم الله من استعداد كل واحد لتقبل الخير، أو حُبّ الشر، ويجب التسليم لله تعالى في إضلال من شاء، وهداية من شاء.

وأمر الله نبيه بالإعراض عن أمر قومه، وألا يهلك نفسه أو يوقعها في الغم والحزن، بسبب عدم إيمان قومه، وإصرارهم على الكفر، وبقائهم في الضلال، فالله عليم بأحوالهم واستعداداتهم، وعالم بما يفعلون من المنكرات والقبائح، فيجازيهم بما يستحقون. وهذا وعيد للكفار، وتهديد، وزجر بليغ، والمراد بقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ

نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ ألا تغتم ولا تهتم وتضايق نفسك أو تهلكها متحسراً عليهم، أو حزناً عليهم، لأنهم لم يؤمنوا برسالتك. والحسرات جمع حَسْرة: وهي هَمّ النفس على فوات أمر.

والمطلوب بإيجاز: التأكد من الإيمان بالآخرة. والتحذير من وساوس الشيطان، ومن إغراءات الدنيا، والاستعداد للآخرة والنجاة بالإيمان والعمل الصالح.

الاحتجاج على الكفار في إنكار البعث

إرشادات الحق جل جلاله تحمل كل عاقل على الاستجابة لها، والتفاعل معها، والاقتناع بها، لأنها في الغالب مستمدة من الحس المشاهد أمامه، الملموس لديه، ولا ينصرف أحد عن القناعة بهذه الأدلة والإرشادات إلا بسبب العناد والاستكبار، وتعطيل المواهب والطاقات المودعة عنده. وهذا هو الشأن في الاحتجاج على الكفار في إنكارهم البعث، وهو التأمل بالبلد الميت الذي لا نبت فيه، كيف يَخْضَرّ وينبت بالماء، فتلك حياته، وكذلك إحياء الموتى، أي مثل ذلك ينقلب الميت أو الراكد إلى حياة حركية بإحياء الله، وإعادة الروح لكل إنسان. وهذا ما أرشدت إليه الآيات الآتية:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ[1] ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ[2] ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٩-١١].

(١) النشور: إحياء الموتى من القبور. (٢) يبور: يهلك ويضيع.

هذان دليلان على إمكان البعث والنشور أو إحياء الموتى من القبور، يحتج بهما الله تعالى على الكفار، الذين أنكروا البعث من القبور، ويدلهم على المثال الموازي تماماً.

الدليل الأول- إحياء الأرض بالماء: الله سبحانه وتعالى يرسل الرياح، فتحرك الغيوم حيث يشاء الله، فيقودها إلى بلد ميت لا نبات به، فينزل المطر عليه، فتحيا الأرض بالنبات بعد يبسها، وتصبح مخضرة، تموج بالحركة، وجمال الزرع والشجر، بعد أن كانت تربة هامدة، فكذلك مثله، أي وهذا المثال المعاين أمامكم يكون مثله ويساويه تماماً النشور، أي الإحياء من القبور، فكما يحيي الله الأرض بعد موتها، يحيي العباد بعد موتهم وصيرورتهم تراباً، لكنّ أرواحهم باقية عند الله تعالى.

ومن كان يريد العزة بعبادة الأوثان، ومغالبة الله، فلله وحده العزة الكاملة، أي ليست لغيره، ولا تتم إلا له، وهذا المغالِب مغلوب، كما فسره مجاهد، وهذا رد على الكفار الذين كانوا يطلبون العزة بعبادة الأوثان والأصنام، وعدم إطاعة الرسل، فإن العزة كلها في الحقيقة هي لله تعالى.

ومن مظاهر عزة الله: أنه يسمع كلام الناس، ويقبل طيب الكلام، كالتوحيد والتمجيد والأذكار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعاء، وتلاوة القرآن الكريم، والتسابيح والتهاليل، وغير ذلك، ومن أفضل الأذكار: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وكما أنه تعالى يقبل الكلام الطيب، يرفع العمل الصالح إليه، وهذا أرجح الأقوال، كما ذكر ابن عطية رحمه الله في تفسيره.

وأما الذين يعملون مكائد المكر، وسوء الأعمال في الدنيا، كالتآمر على قتل النبي، أو إضعاف المسلمين، ويوهمون غيرهم أنهم في طاعة الله تعالى، فلهم عقاب

بالغ الغاية في الشدة. ومَكْرُ أو تدبير هؤلاء المفسدين يفسد ويضيع، ولا ينفذ، لأن الله تعالى يحبط مكائدهم، ويفوّت عليهم ألوان مكرهم.

والدليل الثاني على إمكان البعث: بدء خلق الإنسان، والمراحلُ التي يمر بها في أطوار خلقه، فالله تعالى ابتدأ خلق الإنسان من تراب، وهو أبونا آدم عليه السلام، ثم جعل تكاثر ذريته ونسله بواسطة سلالة من ماء مهين، حيث صيَّر التراب نطفة بواسطة الماء، ثم جعل الناس أصنافاً، ذكوراً وإناثاً، هذا التحوّل من تراب لا حياة فيه إلى خلية حية، إلى إنسان سوي: دليل قاطع آخر على إمكان البعث الذي هو إعادة الحياة مرة أخرى بفعل الله تعالى، والإعادة في مفهوم الناس وتقديرهم أهون من الخلق، أما بالنسبة لله تعالى فهما سواء.

ودليل القدرة الإلهية هذا، يصحبه دليل آخر لإتمام الهندسة أو الصنع الإلهي، وهو كمال العلم، فإن الله تعالى عالم بحمل أي أنثى في العالم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، يعلم بدء التخلق، ووقت الوضع ومكانه وكيفيته.

وحال الإنسان وعمره بعد الولادة مختلف، فما يُمَدّ في عمر إنسان، ولا ينقص من عمر آخر إلا وهو مدوّن معلوم في اللوح المحفوظ، سواء كان ذا عمر طويل أو عمر قصير، وذلك النظام المرتّب، والمتفاوت لكل إنسان، سهل يسير على الله تعالى، لديه علمه جملة وتفصيلاً.

ومن المعلوم أن عمر الإنسان محدود، لا يزيد ولا ينقص، وأما ظاهر دلالة الآية على تعمير المعمر ونقص عمر قصير الأجل، فهذا بحسب أحوال الناس وأعرافهم، فإنهم يقولون: فلان قضى عمره، وفلان لم يكمل عمره، والحقيقة: أن لكل واحد عمراً في علم الله لا يزيد ولا ينقص.

من أدلة قدرة الله تعالى وتوحيده

في الوجود أدلة كثيرة على توحيد الله تعالى، وقدرته الفائقة، وإمكانه بعث الناس من القبور مرة أخرى، منها خَلْق الأشياء المتحدة الجنس، لكنها مختلفة المنافع، مثل إيجاد الماء الملح والماء العذب، إما متجاورين في مكان واحد، أو في أمكنة متباعدة، ومثل تداخل الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب المختلفة النيرة في أنحاء السماوات، وكل هذا ونحوه يدل دلالة واضحة على وجود الإله الخالق، المدبر، الواحد، القدير، المهيمن، ويوحي بوجوب الإيمان به عقلاً وفعلاً، قال الله تعالى منبهاً على هذه الأدلة:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٢-١٤].

هذه أدلة أخرى تثبت مقدرة الله العظمى لكل عاقل، وتقطع بأن الأصنام عاجزة عن فعل مثلها.

والدليل الأول: هو أن الله تعالى أوجد البحرين: الملح والعذب، وهما وإن تساويا في الصورة، يختلفان في الطبيعة، فإن أحدهما ملح شديد الملوحة، وهو البحر الذي تسير فيه أنواع السفن ذات الحمولة الكبيرة، والآخر عذب شديد العذوبة، سائغ الشراب، يجري في الأنهار الكبيرة والصغيرة، ويحقق منافع كثيرة.

ويصاد السمك من كل من البحرين الملح والعذب، وتستخرج الحلية الملبوسة

منهما، وهو اللؤلؤ والمرجان، كما جاء في آية أخرى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٢-٢٣] وعلى الرغم من أن الحلْية إنما تخرج من الملح، فإنه يجوز النسبة إلى كل من الملح والعذب، كما في آية: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٠] والرسل: إنما هي من الإنس.

وتشاهد أيها الناظر السفن في البحر والنهر الكبير تمخر عباب الماء، أي تشقُّه، مقبلة مدبرة، حاملة المواد التجارية المختلفة، لتطلبوا بالتجارة وكل سفر الرزق من فضل الله، ولتشكروا الله على تسخير الماء العظيم لكم، وعلى ما أنعم به عليكم من النعم.

والدليل الثاني: على قدرة الله التامة: إدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل، فيكون أطول من الآخر، وما زاد من أحدهما أو نقص يدخل في الآخر، فكأن الزيادة أو النقص دخول أحدهما في الآخر، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتبادلان صيفاً وشتاء.

والدليل الثالث: تسيير الشمس والقمر وبقية الكواكب السيارة، والثوابت، بإرادة الله وقدرته، كل واحد منها يجري بمقدار معين، ومدة محددة، هي زمن مدارها أو منتهاها، تساعد على تعلم عدد السنين والحساب.

ذلكم المذكور الذي فعل هذا من خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان من تراب ونطفة، وغير ذلك: هو الله الرب العظيم، الذي لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، وهو صاحب الملك التام، والقدرة الشاملة، وكل ما عداه عبدٌ له.

وفي مقابل ذلك تجد الأصنام عاجزة عن الخلق والإبداع، وهي متصفة بصفات ثلاث، كلها تدل على بطلانها، أولها- أنها لا تسمع إن دُعيت، والثاني- أنها لا تجيب، ولو سمعت، والثالث- أنها تتبرأ يوم القيامة من الكفار.

إن الذي تعبدونه من الأصنام والأوثان التي هي على صورة بعض الملائكة في زعمكم، لا يملكون شيئاً من الأرض والسماوات، ولو كان ذلك شيئاً حقيراً بمقدار القطمير، أي قشرة النواة الرقيقة.

ودليل عجز الأصنام: أنكم أيها الوثنيون إن دعوتموها من دون الله، لا تسمع دعاءكم، لأنها جماد لا تدرك شيئاً، ولو سمعوا لا يقدرون أن ينفعوكم بشيء مما تطلبون منها، لعجزها عن ذلك، ويوم القيامة يجحدون كون ما فعلتموه حقاً، وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم أو أقروكم عليها، ولا يخبرك عن أمر هذه الآلهة وشأن عبدتها إلا خبير بصير بها: وهو الله تعالى.

أسباب عبادة الله تعالى

العبادة صلة بالمعبود، وملء القلب بحب الله وعظمته وخشيته، وإشعار بمزيد الحاجة إلى الله تعالى، فهي نفع للعبد، والله تعالى لا تنفعه طاعة، وهو غني عن الناس، لذا تنبغي العبادة لله، فهي ذات شأن كبير، وتستحق التهديد على تركها، مع إعلامنا بمسؤولية كل إنسان عن نفسه فقط، وإرشادنا إلى أن التبشير بالخير، والإنذار بالشر، إنما ينفع من خشي الله تعالى بالغيب، وأقام الصلاة، وزكّى وطهر نفسه من دخائل السوء. والمؤمن يحيا في نور، والكافر يعيش في الظلام، ومهمة النبي ﷺ تبشير المطيع بالجنة، وإنذار المخالف بالنار، وهو الواقع في كل أمة، كما أن التكذيب من الأقوام قديم، قال الله تعالى واصفاً كل هذه المعاني والإرشادات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ
مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم

بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ (١) وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٥-٢٦].

هذه مواعظ وإرشادات، فيا أيها الناس جميعاً، أنتم المحتاجون إلى الله تعالى في كل شيء، والله هو الغني الذي لا حاجة به لأحد، وهو المحمود بالإطلاق المشكور على نعمه وعلى جميع ما يفعله ويقوله، ويقدّره ويشرعه.

ودليل غناه وقدرته: أنه لو شاء لأفناكم، وأتى بقوم غيركم، هم أطوع لله منكم، وأقوم وأتم، وليس ذلك بصعب أو ممتنع على الله تعالى، بل هو يسير هيّن عليه، وهذا تهديد ووعيد.

والمسؤولية لكل إنسان شخصية أو فردية، فلا تتحمل نفس آثمة ذنب نفس أخرى، وذلك لا يمنع من مضاعفة العذاب للقادة المضلين. وكلمة ﴿وِزْرَ﴾ معناه تحمل الوزر الثقيل. وهذه الآية متعلقة بالذنوب والآثام والجرائم.

وإن طلبت نفس، مثقلة بالأوزار والمعاصي، مساعدة نفس أخرى في حملها، لتحمل عنها بعض الذنوب، لم تتحمل تلك النفس شيئاً من ذنوب غيرها، حتى ولو كانت قريبة لها في النسب، كالابن والأب، لأن كل إنسان مشغول بنفسه وحاله. وأنت أيها النبي تفيد دعوتك أهل التقوى، وتفيد بوعظك الذين يخافون من عذاب ربهم قبل معاينته، وفي خلواتهم السرية، ويؤدون الصلاة المفروضة عليهم على النحو

---

(١) أي الكتب المكتوبة .

المشروع، تامة الأركان والشرائط، ومن تطهر من الشرك والمعاصي، وعمل صالحاً، فإنما يتطهر لنفسه، لأن نفع ذلك يعود على نفسه، لا على غيره، وإلى الله المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، يجازي كل امرئ بما كسب.

سبب هذه الآية أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين: اكفروا بمحمد، وعليّ وِزْركم، فحكم الله تعالى بأن الأوزار لا يحملها أحد عن أحد.

ثم ضرب الله المثل للمؤمن والكافر، فكما أنه لا يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمة ولا النور، ولا الظل ولا الحرور (شدة حر الشمس) كذلك لا يتساوى الكافر الذي عمي عن دين الله، والمؤمن الذي عرف طريق الرشاد، فاتبعه وانقاد له، ولا تتساوى ظلمات الكفر ونور الإيمان، ولا يتساوى الثواب والعقاب أو الجنة والنار.

ولا يتساوى المؤمنون أحياءُ القلوب والنفوس والمشاعر، والكافرون أموات القلوب والحواس، ومصدر الهداية هو الله تعالى، فإن الله يرشد من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها، والمشركون لا ينتفعون بهداية النبي ﷺ، لأن الكفر سيطر عليهم وأمات قلوبهم، كما لا ينتفع الموتى في قبورهم بالهداية والإرشاد. وهذا تمثيل بما يحسه البشر ويشاهدونه، فهم يرون أن الميت لا يسمع. وما أنت أيها النبي إلا رسول منذر عذاب الله، ليس عليك إلا الإنذار والتبليغ، وأما الهداية فهي بيد الله تعالى.

ولقد أرسلناك أيها الرسول بدعوة الحق الثابت المطابق للواقع، مبشراً أهل الطاعة بالجنة، ومنذراً الكافرين والعصاة بالنار.

ولم تخل أية أمة من الأمم السابقة من نذير منذر، لئلا يكون للناس حجة أو عذر، وإن يكذبْك أيها الرسول قومك فقد كذبت الأمم الماضية أنبياءهم، جاءتهم رسلهم

بالمعجزات والأدلة على صدقهم، وبالكتب المكتوبة، كصحف إبراهيم وموسى، وبالكتاب الإلهي النير الواضح، كالتوراة والإنجيل.

ومع كل هذا، كذبوا وعصوا، فاستوجبوا العقاب والتهديد، لذا أخذ الله الكافرين بالعقاب والتنكيل، فكيف رأيت أيها النبي إنكاري عليهم بشدة وقوة؟!.

أدلة أخرى على قدرة الله وتوحيده

ما أكثر الأدلة الدالة على وجود الله تعالى وقدرته ووحدانيته، ففي الكون مشاهد وألوان مختلفة، منها العلوم الأرضية، كإخراج الثمار ذات الألوان المتعددة بماء المطر، وإيجاد الناس والدوابّ والأنعام المختلفة الألوان، وبها يدرك العلماء عظمة الكون، ويؤمنون بوجود الله تعالى، ويعرف المؤمنون الذين يتلون القرآن الكريم، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة وينفقون من أموالهم في السر والعلانية: أن هذه الأعمال تحقق لهم القبول والثواب من الله تعالى على طاعتهم، بل إنهم ينتظرون المزيد من فضل الله وإحسانه، قال الله تعالى مبيناً هذه الأدلة والبراهين:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ
جُدَدٌ(١) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(٢) ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ
وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ
﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٧-٣٠].

(١) الجدد: الطرق المختلفة الألوان. (٢) أي وطرق سود غرابيب، شديدة السواد.

المعنى: ألم تشاهد أيها الإنسان أن الله خلق الأشياء المتفاوتة من الشيء الواحد، فإنه سبحانه أنزل الماء من السماء، وأخرج به ثماراً مختلفة الألوان والطعوم والأنواع، والرؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ رؤية القلب، وهي المراد في آيات القرآن.

وموضوع هذه الآية مثل آية: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٤]. وجعل الله بين الجبال طرقاً ذات ألوان مختلفة، بيضاء وحمراء وسوداء شديدة السواد، وخلق الله أيضاً الناس والدوابّ والأنعام (وهي الإبل والبقر والغنم) مختلفة الألوان في الجنس الواحد، والنوع الواحد، والحيوان الواحد، كاختلاف الثمار والجبال.

وإنما يخاف اللهَ بالغيب أهل العلم، فهم الذين يتأملون في هذا الاختلاف بين المخلوقات، ويدركون عظمة الصانع، وقدرته على صنع ما يشاء، وفعل ما يريد، فمن كان أعلم بالله، كان أخشى له، ومن لم يخشَ الله فليس بعالم، فالعلم رأس الخشية وسببها، أخرج القضاعي عن أنس: «خشية الله رأس كل حكمة..». وأخرج الحكيم الترمذي وابن لال عن ابن مسعود: «رأس الحكمة مخافة الله». وقال الله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٠]. وقال ﷺ فيما رواه عبد بن حميد وابن أبي ليلى: «أعلمهم بالله أشدهم له خشية» . وقال مجاهد والشعبي: «إنما العالم من يخشى الله».

إن الله قوي قادر قاهر في كل شيء، ومنها انتقامه من الكافرين، وواسع المغفرة لذنوب عباده التائبين المؤمنين. والمراد بالعالم: هو عالم الطبيعة وطبقات الأرض، والحياة، والاجتماع، والفلك ونحو ذلك. وأما العلماء بكتاب الله تعالى: فهم الذين

يتلون آيات القرآن الكريم، ويعملون بما اشتمل عليه من الفرائض والطاعات، كإقامة الصلاة في أوقاتها، والإنفاق من رزق الله وفضله في السر والعلانية، والنفقة: الصدقات ووجوه البر، فالسر من ذلك: التطوع، والعلانية: هو المفروض.

وهؤلاء يطلبون ثواباً جزيلاً من الله على طاعتهم. وقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ معناه يطمعون في تجارة رابحة بما يعملون من عمل، لن تكسد ويتعذر ربحها وهذا إشارة إلى الإخلاص في العمل.

ثم ذكر الله تعالى كيفية إيفائه الأجور، فقال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ..﴾ والفعل ﴿يُوَفِّيَهُمْ﴾ متعلق بفعل مضمر تقديره: وعدهم بألا تبور تجارتهم إن فعلوا ذلك.

والمعنى: إن الله تعالى يوفي المؤمنين العاملين أجورهم كاملة، ويزيدهم من فضله، إما بمضاعفة الحسنات من العشر إلى السبع مئة، وإما النظر إلى وجه الله الكريم، وإما الشفاعة في غيرهم لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٦] ، إن الله تعالى واسع المغفرة لذنوبهم، وافي الشكر لطاعتهم وللقليل من أعمالهم. والغفور: المتجاوز عن الذنوب الساتر لها. والشكور: المجازي على اليسير من الطاعة، المقرب لعبده منه.

إن من أعجب الأدلة وأقواها على وجود الله ووحدانيته وقدرته: عظمة خلق المخلوقات من الجمادات والأراضي والجبال والطرقات، وأنواع الحيوان، والإنسان. وهذه الآية تتعلق بالعلوم العملية الطبيعية، ويقصد بها إقامة الحجة على كفار قريش.

وأما أهل الإيمان والعمل الصالح العاكفون على تلاوة القرآن، المقيمو الصلاة، والمنفقون من طيبات الرزق بأداء الفريضة علناً، وهي الزكاة، والتطوعات والصدقات سراً، فهم الراجون الثواب من الله ومزيد الفضل الإلهي، والله سبحانه

لا يضيع أجر المحسنين، كما جاء في آيات أخرى، منها: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٤/ ١٧٣] ومنها: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ . .﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٧-٣٨].

ورثة القرآن وجزاء المؤمنين

إن الاعتقاد بالقرآن الكريم يوجب التقيد بشرائعه وأحكامه وحلاله وحرامه، إلا أن ورثة القرآن ثلاثة أنواع: إما ظالم لنفسه، وإما مقتصد متوسط، وإما سابق بالخيرات، وجزاء السابقين المؤمنين جنان الخلد، يحمدون المولى على نعمه وفضله، ويجدون فيها النعيم المقيم، والراحة الكبرى من عناء الدنيا ومعكراتها وأحزانها، وتلك غاية كل إنسان في الحقيقة، لكن تحقيق هذه الغاية مرهون بالعمل الصالح المؤدي إلى هذه الغاية، لا بمجرد الآمال والأحلام، قال الله تعالى مبيناً هذه الأمور:

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(١) ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣١-٣٥].

---

(١) النصب: التعب، واللغوب: الإعياء من التعب .

الآية الأولى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ تثبيت من الله تعالى لأمر نبيه وبيان لمنزلة القرآن ومهمته بين الكتب السماوية، فالذي أوحينا إليك أيها النبي وهو القرآن المجيد: هو الحق الثابت الدائم المنزل إليك، مصدقاً ومؤيداً لما تقدمه أو لما بين يديه من الكتب السابقة، وهو التوراة والإنجيل. إن الله محيط علمه بأمور عباده، بصير مطّلع على أحوالهم. وهذا وعيد لمن أعرض عن القرآن وهجره إلى غيره.

ثم توارث معاني القرآن وعلمه وأحكامه وعقائده، بقضاء الله وقدره، جماعة من عباد الله وهم أمة محمد ﷺ اختارهم لتحمُّل عبء الرسالة القرآنية، فكانوا أقساماً ثلاثة:

- فمنهم الظالم لنفسه، أي الذي تجاوز الحد، وهو المفرّط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات، وهو العاصي المسرف.

- ومنهم المقتصد: المتوسط المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وهو المتقي للكبائر، لكنه يرتكب بعض الصغائر، ويترك بعض المستحبات المرغوب فيها.

- ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله: وهو الذي يفعل الواجبات والمستحبات، والمتقي على الإطلاق. وبإذن الله: معناه بأمره ومشيئته فيمن أحب من عباده.

والأصناف الثلاثة في الجنة بسبب الإيمان، وتوريث الكتاب واصطفاء بعض الناس ليكونوا أمة الدعوة أمة محمد وما يكون من الرحمة: هو فضل عظيم من الله تعالى. وأورثنا: معناه أعطيناه فرقة بعد موت فرقة. أخرج الترمذي وحسنه والطبراني والبيهقي في البعث، وغيرهم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «كلهم في الجنة».

وجزاء المؤمنين المصطفين: أن يدخلهم ربهم جنات إقامة دائمة يوم المعاد، يحلّون فيها أساور من ذهب، مرصع باللؤلؤ، ويكون لباسهم حريراً خالصاً، أباحه الله

تعالى لهم في الآخرة، بعد حظره على الرجال في الدنيا. ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «من لبس الحرير في الدنيا، لم يَلْبسه في الآخرة» وقال: «هي لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة».

وقال المؤمنون حين استقروا في جنات عدن: الحمد والشكر لله على ما أذهب عنا من الخوف من المخاطر والمحاذير، وأراحنا من هموم الدنيا والآخرة، إن ربنا صاحب الفضل والرحمة والسعة، فهو غفور لذنوب عباده، متجاوز عنها، ساتر لها، شكور لطاعتهم، مجازٍ على اليسير من الطاعة، مقرِّبٌ لعبده به، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات.

وقالوا أيضاً: الحمد لله الذي أعطانا هذه المنزلة، ومتَّعنا بهذه الإقامة، وبدار المقامة: وهي الجنة، بفضله وإحسانه ورحمته، ولم تكن أعمالنا تساوي ذلك، ولا نتعرض فيها لتعب ولا إعياء، لا في الأبدان ولا في الأرواح، لأنهم واظبوا على العبادة في الدنيا، فصاروا في راحة دائمة في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٢٤].

إن نعيم الجنة نعيم مادي حسي وروحاني معنوي، وهو دائم خالد لا ينقطع ولا يزول، وفيه يتمتع أهل الجنة بما لا يحلمون به، وكل ذلك يستحق تمام الحمد والثناء على الله تعالى، لإدراك هذه الحظوة التي لا مثيل لها، ويغبطهم فيها كل بعيد عنها، محروم منها.

جزاء الكافرين

بعد أن ذكر الله تعالى جزاء المؤمنين في الآخرة في جنان الخلد، ذكر جزاء الكفار لعقد موازنة أو مقارنة بين الجزاءين، فيُقبل العاقل على ما يجعله من فريق المؤمنين

السعداء، ويبتعد عن موجبات جزاء الكافرين الأشقياء، وليتأكد كل الناس أن القرار الحاسم في الحكم الإلهي لا يقبل النقض، ولا يجد الخاسرون أنصاراً ينصرونهم من بأس الله وعذابه، ولا طريق للإنقاذ أو تصور العودة إلى الدنيا، لأن الاختبار واحد والنتيجة واحدة، لا تتكرر، قال الله تعالى واصفاً جزاء الكفار:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٦-٣٩].

أخبر الله تعالى عن حال الذين كفروا، حال الذين اصطفى من عباده لوراثة القرآن، وهذا منهج القرآن في الغالب، لتتضح الصورة من خلال المقارنة والعظة، فأما المصطفون المختارون لإرث القرآن فهم في جنان الخلد، وأما الذين كفروا بالله وبالقرآن، وستروا ما أرشدت إليه العقول للوصول إلى الحق، فلهم نار جهنم، لا يُحكم عليهم بموت ثانٍ، فيستريحوا من العذاب والآلام، ولا يخفف عنهم شيء من العذاب طرفة عين، بل كلما خبت النيران زاد سعيرها، كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٧].

ومثل ذلك الجزاء الشديد، يجزي الله تعالى كل كفور، أي مبالغ في الكفر وحال هؤلاء الكفار المعذبين في جهنم أنهم يستغيثون في النار، رافعين أصواتهم، ينادون قائلين: ربنا أخرجنا منها، ورُدّنا إلى الدنيا، نعمل عملاً صالحاً ترضى عنه، غير ما كنا نعمله من الشرك والمعاصي، فنجعل الإيمان بدل الكفر، والطاعة بدل المعصية.

فيقال لهم على سبيل التوبيخ والتوقيف على الوقائع في الدنيا؛ أولم نترُكْكم في الدنيا مدة من العمر، تكفي للتذكر والاتعاظ إذا أردتم التذكر؟ فتلك مدة كافية للإيمان ومعرفة الحق، وجاءكم الرسول المنذر، وهو النبي محمد ﷺ ومعه القرآن، ينذركم بعقاب الله إن كفرتم وعصيتم، أخرج الحكيم الترمذي والبيهقي في سننه وابن جرير وغيرهم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة نودي: أين ابن الستين؟ وهو العمر الذي قال الله فيه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾».

فذوقوا عذاب جهنم، جزاء على عصيان أوامر الأنبياء لكم في الدنيا، فليس لكم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال، وهو تهكم بصيغة الأمر، مثل قول الله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٤/٤٩].

ثم أوعد الله تعالى الناس جميعاً بإخباره أنه محيط علمه بجميع الأمور والأحوال، فإن الله يعلم كل أمر خفي في السماوات والأرض، ومنها أعمال العباد، لا تخفى عليه خافية، فلو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً، فإن الله تام العلم بحقائق النفوس، وما تكنّه الصدور، وتضمره السرائر، من العقائد والظنون وحديث النفس، وسيجازي كل إنسان بعمله. وهذا ابتداء تذكير بالله تعالى، ودلائل على وحدانية الله وصفاته التي لا تُبتغى الألوهية إلا معها. والغيب: كل ما غاب عن البشر، و﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: ما فيها من المعتقدات والمعاني والأسرار.

وسبب علم الله بالغيب: أن الله جعلكم أيها البشر خلائف في الأرض، يخلف قوم قوماً آخرين قبلهم، لينتفعوا بخيرات الأرض، ويشكروا الله بالتوحيد والطاعة، فمن كفر منكم هذه النعمة، فعليه وبال كفره، وجزاؤه عليه دون غيره. وكلما استمر الكافرون على كفرهم، لم يزدهم ذلك إلا بغضاً من الله، وسخطاً عليهم، وكلما

أصروا على الكفر خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وأصابهم النقص والهلاك والضياع.

وهذا التكرار دليل على أن الكفر يستوجب أمرين: وهما البغض والسخط، والخسران والهلاك. والمقت: احتقارك الإنسان من أجل معصية، أو بغض دينه الباطل الذي يأتيه. والخسار: الخسران. أي خسروا آخرتهم ومعادهم بأن صاروا إلى النار والعذاب.

مناقشة عقائد المشركين

الشرك بالله أعظم البهتان (أسوأ الكذب) والافتراء على الله تعالى، لأنه ينافي الحقيقة على الإطلاق، ويصدر عن بدائية وتخلف، وقصور عقل وضعف نظر، ويؤدي الشرك إلى قلب الموازين، وتغيير المفاهيم، وإضاعة الجهد، وحصر الفكر في غير طائل، ولا دليل عليه من حس أو منطق، وإنما هو مجرد أوهام وخرافة وتأملات فارغة المحتوى. ولو أعمل المشرك عقله بحق، لوجد أن الخالق لكل شيء، والمهيمن على السماوات والأرض: هو الأحق بالعبادة. والشرك أدى إلى إنكار الوحي ورسالة النبي محمد ﷺ، وهذا أيضاً منافٍ للحقيقة وكذب، ومنشؤه التكبر، والمكر السيّئ والحفاظ على المصالح الموهومة، فيستحق المشركون المنكرون للنبوة أشد العقاب، كما جاء في الآيات الآتية:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا[١]

(١) باطلاً من القول.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى
ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ(١)
ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ
لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟
أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ(٢) مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ
وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾

[فاطر: ٣٥/ ٤٠-٤٥].

والمعنى: قل أيها النبي للمشركين: أخبروني عن الشركاء الذين تعبدونهم من دون الله، هل خلقوا شيئاً من الأرض، حتى يستحقوا الألوهية؟ وهل لهم شراكة مع الله في خلق السماوات وملكها والتصرف فيها، حتى تؤلهوهم؟ أم هل أنزلنا عليهم كتاباً يقرر لهم الشرك، يكون لهم حجة في مزاعمهم؟ بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم الخاصة وتبادل الوعود والأماني فيما بينهم، وهي كلها أباطيل لا حقيقة لها تتمثل في قولهم: إن هذه الآلهة تنفعهم وتقربهم إلى الله زلفى، وتشفع لهم.

وبعد بيان فساد أمر الأصنام وإبطال ألوهيتها بالحجة الدامغة، أقام الله تعالى الدليل على عظمته وقدرته، ليتبين الشيء بضده، وتتأكد حقارة الأصنام بذكر الله تعالى، فأخبر سبحانه عن إمساكه السماوات والأرض بالقدرة، فهو سبحانه يمنع زوال السماوات والأرض واضطرابها، ولو قدّر أو فرض زوالهما أو جاء وقت زوالهما، لا يقدر أحد غيره تعالى على إمساكهما وإبقائهما، والله مع عظيم قدرته

---

(١) يحيط . (٢) ليسبقه ويفوته .

حليم غفور، يمهل عقاب المشركين، ويغفر لمن تاب منهم، ويمسك السماء والأرض عن الزوال، وقوله: ﴿أَن تَزُولَاۚ﴾ معناه كراهة أن تزولا، ولئلا تزولا. ومعنى الزوال هنا: الانتقال من مكانها والسقوط من عُلوها. وقوله تعالى ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾: فيه حذف مضاف تقديره: من بعد تركة الإمساك.

وأقسم كفار قريش بالله أغلظ الأيمان أو طاقتها وغايتها: لئن جاءهم من الله رسول منذر، ليكونن أهدى وأمثل من أي أمة من الأمم السابقة، فلما أتاهم الرسول النذير وتحقق ما تمنّوه، وهو رسول الله ﷺ وما أنزل معه من القرآن، ما ازدادوا إلا كفراً، وتباعداً وإعراضاً عن الإيمان، تكبراً عن اتباع آيات الله، ولجوءاً إلى سوء المكر، بصدّ الناس عن سبيل الله تعالى، ولكنهم أخفقوا، فما يعود وبال المكر إلا على أنفسهم دون غيرهم، وعوقبوا على مكرهم وإثمهم العقاب المناسب، فهل ينتظرون إلا عقوبة لهم على تكذيبهم الرسول ﷺ، كعقوبة الأمم الماضية الذين كذبوا رسلهم؟! وتلك سنة الله -أي عادته- وطريقته، التي لا تتغير ولا تتبدل في كل مكذب، ولا تحويل لسنة الله في العذاب من مكذب كافر إلى غيره. والمعنى: أنه لا بد من أن يحيق بهم العقاب، إما في الدنيا، وإما في الآخرة، فعاقبة الفساد تعود لهم. وهذا وعيد بيِّن.

وسبب نزول الآية: أن قريشاً قالوا: لو أن الله بعث منا نبياً، ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها، ولا أسمع لنبيها، ولا أشد تمسكاً بكتابها منا. وبعد هذا التوعد، ذكّرهم الله بما رأوا من آثار التعذيب في طريق الشام وغيره، كديار ثمود ونحوها، أفلم يتنقلوا في الأرض في رحلاتهم إلى الشام واليمن والعراق، فيشاهدوا مصير السابقين الذين كذبوا الرسل، كيف دمّر الله عليهم، على الرغم من أنهم كانوا أشد من قريش قوة، وأكثر عدداً وعُدّة، وأكثر أموالاً وأولاداً، ولم يكن الله ليفوته

شيء إذا أراد حدوثه في السماوات والأرض، إن الله تعالى عليم بجميع الكائنات، لا يخفى عليه شيء منها، تام القدرة لا يصعب عليه شيء.

ثم أبان الله تعالى سبب إمهاله بعض عباده وتأخيره العذاب عنهم: وهو أن الآخرة من وراء الجميع، وفيها يُستوفى جزاء كل أحد، ولو جازى الله تعالى على الذنوب في الدنيا، لأهلك الجميع، أي لو عجل عقاب الناس على معاصيهم لأهلكهم جميعاً، ودمر جميع ممتلكاتهم ولم يترك دابة على ظهر الأرض، ولكن يؤجل عقابهم إلى وقت محدد، وهو يوم القيامة، فيحاسبهم حينئذ، ويوفي كل عامل بعمله، والله بصير بمن يستحق منهم الثواب، ومن يستوجب العقاب، وفيه وعيد للكافرين، ووعد للمؤمنين.

تفسير سورة يسٓ

القرآن والنبي ﷺ وقومه

سورة يس مكية بالإجماع، وهي تتحدث عن رسالة النبي ﷺ، وتذكّر الناس بالبعث والقدرة الإلهية ووحدانية الله تعالى، وتثير المشاعر والأفكار للتأمل بأحداث القيامة، وتتميز هذه السورة بأنها قلب القرآن، وتشفع لقارئها، أخرج الدارمي والترمذي والبيهقي عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل شيء قلباً، وإن قلب القرآن يسٓ».

وأخرج أبو النصر السجزي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن في القرآن لسورة تدعى: العظيمة عند الله، يُدعى صاحبها: الشريف عند الله، يشفع صاحبها يوم القيامة في أكثر من ربيعة ومضر، وهي سورة يسٓ». وأخرج أبو داود وأحمد وابن ماجه وغيرهم عن معقل بن يسار أن النبي ﷺ قال: «اقرؤوا يسٓ على موتاكم» وهو حديث حسن. قال الله تعالى في مطلعها مبيناً موقف النبي من قومه:

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ
ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ[١] ﴿٨﴾

(١) رافعوا الرؤوس غاضو البصر.

وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ[(١)] ﴿١٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ١-١٢].

يسٓ: إما اسم من أسماء محمد ﷺ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ أو إنها حروف مقطعة للتنبيه على أهمية السورة وتحدي العرب بالقرآن بأن يأتوا بمثله، مع أنه متكوّن من الحروف الأبجدية أو الهجائية التي تتركب منها لغتهم. أقسم الله تعالى بالقرآن المحكم بنظمه ومعناه، ذي الحكمة البالغة، بأنك يا محمد لرسول من عند الله، على طريق قويم، ومنهج سليم. وهذا القرآن تنزيل من عند الله ذي العزة والقوة، الرحيم بعباده المؤمنين، ولقد أرسلناك أيها الرسول لتنذر قومك العرب الذين لم يأتهم رسول منذرٌ مِن قبلك، ولم يأت آباءهم الأقربين من ينذرهم ويعرّفهم شرائع الله تعالى، فهم غافلون عن معرفة الحق والشرع.

نزلت هذه الآية فيما أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في السجدة، فيجهر بالقراءة حتى يتأذى به ناس من قريش، حتى قاموا ليأخذوه، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم، وإذا بهم عُمْيٌ لا يبصرون، فجاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: ننشدك الله والرحم يا محمد، فدعا حتى ذهب ذلك عنهم، فنزلت ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلم يؤمن من ذلك النفر أحد.

لقد وجب العذاب على أكثر أهل مكة حين نزول هذه الآيات، وهو ما دوّن في شأنهم في اللوح المحفوظ، أنهم لا يؤمنون بالقرآن والنبي ﷺ، وهم الذين علم الله

(١) أي في اللوح المحفوظ.

أنهم يموتون على الكفر. ومثل تصميمهم على الكفر كمثل المكبَّل في الأغلال لا يستطيع فعل شيء ولا يبصر شيئاً. وهذا المثل: إنا جعلنا أيديهم مشدودة إلى أعناقهم بالقيود، تمنعهم من فعل شيء حتى صاروا مرفوعي الرؤوس، خافضي الأبصار، أي إنهم كالمطوَّقين بالقيود في أنهم لا يلتفتون إلى الحق، ولا يستطيعون توجيه أنظارهم إلى شيء.

وتأكيداً لما سبق في تصوير حالتهم: أنهم بتعاليهم عن النظر في آيات الله جُعلوا كالمضروب عليهم السدّ، المحيطِ بهم من الأمام والخلف، ومنعوا من النظر، فهم لا يبصرون شيئاً، ولا ينتفعون بخير، ولا يهتدون إليه.

أخرج ابن جرير الطبري عن عكرمة قال: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمداً لأفعلن، فأنزل الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو، أين هو؟ لا يبصر . فالآية مستعارة المعنى من مَنْع الله إياهم وحَوْله بينه وبينهم، وهذا أرجح الأقوال، لأنه لما ذكر الله أنهم لا يؤمنون في العلم الأزلي، جعلوا في حالة من المنع، وإحاطة الشقاوة كالمضروب عليهم السد، وتشبه حالهم حال المغلوبين.

ونتيجة لهذا التطويق، يستوي أيها النبي إنذارك لهؤلاء المصرّين على الكفر، وعدم الإنذار، فهم لا يؤمنون، ولا ينفعهم الإنذار.

إنما ينفع إنذارك الذين آمنوا بالقرآن العظيم، واتبعوا أحكامه وشرائعه، وخافوا عقاب الله قبل حدوثه، وقبل رؤية الله، فهؤلاء بشرّهم بمغفرة لذنوبهم، وبأجر كريم وفير على أعمالهم وهو الجنة.

ثم أكد الله تعالى تحقيق الجزاء في عالم الآخرة بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي إننا قادرون على إحياء الموتى، وبعثهم أحياء من قبورهم، ونحن الذين نكتب لهم كل ما قدّموه من عمل صالح أو سيّئ، وكل ما تركه من آثار طيبة أو خبيثة.

وسبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري قال: كان بنو سَلِمة في ناحية المدينة، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ فقال النبي ﷺ: «إن آثاركم تكتب» . فلم ينتقلوا. وفي صحيح مسلم قال: «يا بني سَلِمة، دياركم، تكتب آثارُكم، دياركم تكتب آثاركم» . وهذا لا يمنع من كون الآية مكية، لأن النبي ﷺ احتج عليهم في المدينة، واتفق قوله ﷺ مع الآية في المعنى. والمراد بالآثار: الخطى إلى المساجد.

أصحاب القرية

يتكرر ضرب الأمثال في القرآن الكريم للعظة والاعتبار والتأثر بأحداث الآخرين، وفي سورة يسٓ ضرب الله مثلاً لحال قريش الذين أصروا على الكفر، بحال أهل قرية كذّبوا الرسل، فدمرّهم الله بصيحة واحدة. والقرية، على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، والزهري: أنطاكية. والمرسلون: هم جماعة من الحواريين، بعثهم عيسى عليه السلام قبل رفعه إلى السماء، وقبل صَلْب الذي ألقي عليه شَبَهُه. وهم رسولان دعوا أهل القرية إلى عبادة الله وحده، وإلى الهدى والإيمان، فكذبوهما، فشدّد الله أمرهما بثالث، فصاروا ثلاثة، وقامت الحجة على أهل القرية، وآمن منهم الرجل الذي جاء يسعى، وقتلوه في آخر أمره وكفروا، فأصابتهم صيحة من السماء، فخمدوا وماتوا. فإذا استمر مشركو قريش على عنادهم، كان إهلاكهم يسيراً كأهل هذه القرية، قال الله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن

شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا(١) بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾
قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم(٢) مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ
يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ
لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا
تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ
بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى
مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن
كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ(٣) ﴿٢٩﴾ [يس: ٣٦/١٣-٢٩].

المعنى: اضرب يا محمد مثلاً في الغلو والكفر لقومك بأهل قرية هي أنطاكية في رأي ابن عباس، حين أرسل الله إليهم ثلاثة رجال مرسلين من أصحاب عيسى عليه السلام الحواريين، فكذبوهم. وعدد المرسلين اثنان أرسلهما عيسى بأمر الله تعالى، فكذب القوم رسالتهما، فأيدهما الله برسول ثالث، فقالوا لأهل القرية: إنا مرسلون إليكم من ربكم الذي خلقكم بأن تعبدوه وحده، وتتركوا عبادة الأصنام.

فقال أهل القرية للمرسلين الثلاثة: لستم أنتم إلا بشراً أمثالنا، تأكلون الطعام وتشربون، فمن أين لكم التميز علينا؟ والله الرحمن لم ينزل إليكم رسالة ولا كتاباً مما تدّعون، ويدّعيه غيركم من الرسل، فما أنتم بادعائكم الرسالة إلا قوم كاذبون.

فأجابهم الرسل الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كَذَبة عليه، لانتقم منا أشد الانتقام. ومهمتنا أنه ليس علينا إلا إبلاغكم ما أرسلنا به إليكم، ولا يجب علينا إلا تبليغ الرسالة بنحو واضح.

---

(١) تشاءمنا بكم. (٢) أي شؤمكم معكم وليس منا. (٣) الآيتان الأخيرتان من الجزء (٢٣).

فهدَّدهم أهل القرية بقولهم: لقد تشاءمنا منكم، ولم نر خيراً في عيشنا معكم، ولئن لم تنتهوا عن دعوتكم هذه، لنرجمنكم بالحجارة، وليصيبنكم منا عذاب مؤلم شديد.

فأجابهم الرسل الثلاثة: شؤمكم مردود عليكم، وهو مصاحب لكم، وسببه تكذيبكم وكفركم بربكم، ولسنا نحن، بل أنتم قوم مسرفون في الضلال، متجاوزون الحد في مخالفة الحق.

ثم أيدَّهم الله بنصير من القوم، فجاء رجل مؤمن بالله وبالرسل، من أبعد أطراف المدينة يُسرع المشي لما سمع بخبر الرسل، وهو حبيب النجار في رواية عن أبي مجلز وكعب الأحبار وابن عباس، فقال ناصحاً قومه: يا قوم، اتبعوا رسل الله فيما أتوكم به، لإنقاذكم من الضلال، اتبعوا هؤلاء الذين لا يطلبون منكم أجراً مالياً على إبلاغ الرسالة، فهم مخلصون في عملهم ودعوتهم، وهم جماعة مهتدون إلى الحق والإيمان الصحيح بعبادة الله وحده لا شريك له.

وإني أحب لكم ما أحب لنفسي، وأنا ما الذي يمنعني من عبادة الله الذي خلقني، وإليه رجوعي ومصيري يوم المعاد؟ وفي هذا ترغيب بعبادة الله تعالى وترهيب من عقابه، والدليل على سلامة منهجي في الاعتقاد والعبادة: كيف أتخذ من دون الله آلهة أخرى، لا تضر ولا تنفع، وهي عبادة الأصنام؟ وهذا استفهام إنكار وتوبيخ، فلن أتخذ من دون الله آلهة، فإنه إن أرادني الله الرحمن بسوء أو ضرر، لم تنفعني شفاعة هذه الأصنام التي تعبدونها، ولا تنقذني من أي سوء. إن اتخذتُ هذه الأصنام آلهة من دون الله، فإني في الحقيقة والواقع في خطأ واضح، وانحراف بيّن عن الحق، إني صدَّقت بربكم الذي أرسلكم أيها الرسل، فاشهدوا لي بذلك عنده. فلما قال ذلك، قتله قومه.

فقيل له: ادخل الجنة، لاستشهادك في سبيل إعلاء كلمة الحق، فدخلها، فلما عاين نعيمها، قال محباً لإنقاذ قومه: يا ليت قومي يعلمون بمآلي وحسن حالي، فيؤمنوا بالله مثل إيماني.

ثم خاطب الله نبيه متوعداً لقريش: لم نَحْتَجْ في تعذيب القوم إلى جند من جنود الله كالحجارة والغرق والريح وغير ذلك، بل كانت صيحة واحدة من أحد الملائكة، دمرتهم، لأنهم كانوا أيسر وأهون من ذلك، فصاروا بهذه الصيحة موتى هامدين.

بعض أدلة القدرة الإلهية

عني القرآن الكريم عناية شديدة بإثبات البعث (اليوم الآخر) بإيراد مظاهر أو أدلة على القدرة الإلهية الفائقة، إما بإهلاك الظالمين هلاكاً استئصالياً، من الأقوام الغابرين، ثم يحضرهم الله للحساب، وإما بإحياء الأرض الميتة بالمطر وإيجاد البساتين اليانعة وتفجير الأنهار فيها، وإما بسلخ النهار من الليل، أو بتسيير الشمس والقمر في مدارهما، أو بحمل الآباء والذرية في السفن، حفاظاً على الوجود الإنساني، وغير ذلك، قال الله تعالى موضحاً هذه الأدلة:

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾
وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا
جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ
أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ
أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ

عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ[١] ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ
وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن
مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٣٠-٤٤].

يا حسرة: المنادى محذوف، أي يا جماعة تحسروا حسرة على هؤلاء، أو المنادى: الحسرة نفسها، أي هذا أوانك فاحضري.

والمعنى: يا حسرة العباد على أنفسهم بسبب تكذيبهم الرسل، فلم يأتهم رسول من عند الله، لدعوتهم إلى التوحيد والحق والخير لأنفسهم، إلا استهزؤوا به وكذّبوه، وجحدوا ماأرسل به من الحق. وقوله: ﴿يَٰحَسْرَةً﴾ نداء للحسرة بقصد النُدْبة والتحسر، بمعنى: هذا وقت حضورك وظهورك، والمراد التلهف على العباد والإشفاق عليهم، حين يزج بهم في العذاب. وهذا تمثيل لفعل قريش. ثم عناهم الله تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا..﴾ أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل كعاد وثمود، وأنهم لا رجعة لهم إلى الدنيا، خلافاً لمزاعم الدهرية أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا قبلهم. ثم أعلمهم الله تعالى بوجود الحساب وعقاب الآخرة بعد عذاب الدنيا، فإن جميع الأمم الماضية والحاضرة والمستقبلية سيتم إحضارهم للحساب يوم القيامة، بين يدي الله عز وجل، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها، وهذا يدل على أن من أهلكه الله في الدنيا له حساب وعقاب آخر في الآخرة.

ومن الآيات أو العلامات الدالة على قدرة الله تعالى على البعث وغيره:

---

(١) الشمراخ المعوج، عود النخل.

- إحياء الأرض الهامدة التي لا نبات فيها، بإنزال الماء عليها، وتحركها بالنبات المختلف، وإخراج الحب الذي هو رزق للناس ودوابهم، وهو معظم ما يؤكل.

- ومن الآيات: إيجاد البساتين المشجرة في الأرض، من نخيل وعنب وغيرها، وتفجير الأنهار فيها في مواضع مختلفة، والقصد من ذلك: أن يأكل الناس من ثمار النخيل والأعناب، ويأكلوا مما صنعته أيديهم من نتاج الثمر والزرع أو الحب، كالعصير والدبس والمربيات ونحوها، فهلا يشكرونه على ما أنعم الله به عليهم من هذه النعم الكثيرة!! وهو أمر بالشكر من طريق إنكار تركه.

تنزيهاً لله تعالى عن الشريك الذي لا يخلق شيئاً، والله وحده هو الذي خلق الأصناف كلها من مختلف الأنواع، من الزروع والثمار والنبات، وخلق من النفوس الذكور والإناث، وخلق أشياء لا يعرفونها، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٨].

- ومن آيات قدرته تعالى وهي آية عظيمة لهم: خلق الليل والنهار، وتعاقبهما، وانسلاخ النهار من الليل، فيأتي بالضوء، وتتبدد الظلمة. ونسلخ: نكشِط ونَقْشر، فهي استعارة، و﴿مُظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام فجأة.

ومن الآيات: دوران الشمس في فلكها حول نفسها في مدارها، ومستقرها: كناية عن غيوبها أو آخر مطالعها. ذلك تقدير من الله القاهر الغالب كل شيء، المحيط علمه بكل شيء. وجعل الله للقمر منازل يسير فيها سيراً آخر، وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل في كل ليلة في واحد منها بمعدل ١٣ درجة في اليوم، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وليلة واحدة إن كان تسعة وعشرين، فإذا انتهى الشهر يدق ويصغر حتى يصير كغصن النخلة الأصفر اليابس. ولا يتأتى للشمس أن تدرك القمر، ولا

العكس، ولا أن يسبق الليل النهار، ولكل منهما مدار يدور في فلكه، و﴿يَسْبَحُونَ﴾ معناه: يجرون ويعومون.

وعلامة ودليل لهم على قدرة الله ورحمته: تسخير البحار لسير السفن المشحونة بالركاب والبضائع، وحمل ذرياتهم في الأصح: حمل ذريات جنسهم أو نوعهم، لتوفير القوت والمعاش. وخلق الله للناس مثل تلك السفن سفناً برية وهي الإبل ونحوها، التي يركبون عليها ويحملون أمتعتهم على ظهورها. والأظهر أنه تعالى يخلق لهم مثل الفلك الموجود في زمانهم -زمان بني آدم إلى يوم القيامة. وإن يشأ الله يغرق في الماء الناس الراكبين والسفن الموجودة، أي السفن وحمولاتهم، فلا يجدون مغيثاً يغيثهم أو ينجيهم من الغرق، ولا هم يُنْقَذون مما أصابهم، لكن برحمة من الله نسيّركم أيها الناس في البر والبحر، ونحفظكم من الغرق، وتمتيعاً من الله لكم في الدنيا إلى وقت محدد عند الله تعالى، وهو الموت.

أحوال الكفار
في التقوى والإنفاق والإيمان بالبعث

للناس مواقف نابعة من الأهواء والشهوات حول تقوى الله، وآياته، والإنفاق في وجوه الخير، والإيمان بالبعث، فهم لا يخشون الله لانعدام الإيمان الصحيح به، ويُعرضون عن آيات الله تهكماً واستهزاء ومكابرة، ولا ينفقون من رزق الله شيئاً في سبيل الله ودفع حاجة المحتاجين، وينكرون إمكان البعث، لأنهم جماعة ماديون لا يدركون آفاق المستقبل، ويستبعدون إمكان إعادة الأجساد التي صارت رميمة كالتراب إلى الحياة مرة أخرى، ولكنهم سيجدون كل ذلك حتماً ويوقفون للحساب والجزاء القائم على الحق والعدل. وهذا ما أخبر به القرآن الكريم في الآيات الآتية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ(١) إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ(٢) إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ(٣) ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا(٤) هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٤٥-٥٤].

المشركون في غي وضلال، لا يكترثون بالماضي وما جنوا فيه من آثام، ولا يقدِّرون مخاطر المستقبل الحاصل بعد الدنيا وما فيه من المخاطر، فتراهم إذا قيل لهم: اتقوا الله، أي احذروا عذاب الأمم التي سبقتكم في الزمن، وعذاب الآخرة التي تحدث بعدئذ، إذا صممتم على الكفر حتى الموت، لعل الله يرحمكم باتقائكم ذلك، ويحميكم من العذاب.

وما يصل إلى علمهم من آية دالة على توحيد الله وتصديق الرسل إلا أعرضوا عنها، ولم يلتفتوا لها، ولم يتأملوا بها، لتعطيل طاقة الفكر والوعي عندهم.

ولا يقتصر الأمر على سوء الاعتقاد، فإنهم قساة القلوب على مخلوقات الله، فإذا طلب من قريش الإنفاق أو التصدق بشيء من الأموال والأرزاق التي أنعم الله بها عليهم، أجابوا المؤمنين بطريق الاستهزاء واللامبالاة قائلين: هؤلاء المحتاجون لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه، فهم لا يستحقون النفقة، ونحن نوافق مشيئة الله فيهم، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ ترغيب في الإنفاق، وذم للبخل،

(١) أي ينتظرون. (٢) أي القبور. (٣) يخرجون مسرعين. (٤) مكان نومنا.

وأضافوا قائلين للناصحين لهم: ما أنتم في طلب الإنفاق منا إلا في خطأ واضح، وانحراف عن جادة الهدى والرشاد.

وسبب هذه الآية: أن كفار قريش لما أسلم حواشيهم من الموالي وغيرهم من المستضعفين، قطعوا عنهم نفقاتهم وجميع صلاتهم، فطلب منهم المؤمنون أيام الموادعة أن يصلوهم، وأن ينفقوا عليهم مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ ونسوا واجب التعاطف وتألف الجنس.

وتراهم ينكرون البعث (القيامة) فيقولون للمؤمنين استعجالاً له بطريق الهزء والسخرية: متى يأتي هذا الوعد بالبعث الذي وعدتمونا به، وتهددونا به، إن كنتم صادقين في ادعائكم ووعيدكم؟

فأجابهم الله تعالى، إنهم لا ينتظرون لإيجاد القيامة والعذاب إلا نفخة واحدة في الصور، هي النفخة الأولى: نفخة الفزع التي يموت بها جميع المخلوقات، وهم يختصمون فيما في شؤون المال، والاقتصاد، وعقود المعاملات. وفي تلك النفخة السريعة الأثر التي يعقبها الموت فوراً، لا يستطيع بعضهم الوصية لبعض بأملاكه وديونه، بل يموتون في أماكنهم، ولا يتمكنون من الرجوع إلى ديارهم التي خرجوا منها.

ثم أخبر الله تعالى عن النفخة الثانية: وهي نفخة البعث والانتشار من القبور، فإذا نفخ في الصور نفخة ثانية للبعث والنشور، فإذا جميع المخلوقات يخرجون من القبور، يسرعون المشي إلى لقاء ربهم للحساب والجزاء.

وإذا وجدوا في ساحة البعث والحساب، قال هؤلاء المبعوثون: يا هلاكنا، من الذي بعثنا من قبورنا بعد موتنا؟ وكانوا لا يعتقدون أنهم يبعثون من قبورهم، وقدّروا أنهم كانوا في قبورهم نياماً، ولما جوبهوا بالحقيقة المرّة، والواقع المحفوف

بالمخاطر والأهوال قالوا: هذا الذي وعد به الرحمن، وصدق الرسل المرسلون في الإخبار عنه، أي إنهم أقروا بصدق الرسل في يوم لا ينفع فيه التصديق.

ثم وصف الله سرعة البعث بأنها ما هي إلا صيحة واحدة: وهي صيحة القيامة والنفخة الثانية في الصور، فإذا هم أحياء مجموعون لدى الله بسرعة للحساب والجزاء، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ٧٩/١٣-١٤]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ١٦/ ٧٧].

ثم يكون القضاء العدل الحاسم، ففي يوم القيامة لا تُبخس نفس شيئاً من عملها مهما قلّ، ولا توفوّن أيها الناس إلا ما عملتم من خير أو شر، كما قال الله سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٧].

أهل الجنة وأهل النار

كل عامل يلقى ثمرة عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فلا يستغربن أحد أن نتيجة عمله تلازم العمل، وتكون هي الغاية والهدف، فالمحسن الصالح يتلقى من ربه الكريم ثواباً صالحاً بفضل الله وكرمه ورحمته، والمسيء المفسد يجازى بسوء فعله وقوله وفساده، حقاً وعدلاً، وهذا مثل الطالب الذي يُعدُّ نفسه للامتحان، إن اجتهد وأتقن دراسته، ووعى وفهم وتمثل ما قرأه، وصلح حاله واتقى ربه في كل شؤونه، نجح وتباهى أمام الناس، وإن تكاسل وفرط، ونام، وأضاع وقته في اللهو والفساد، ولم يدرس كتابه دراسة وافية، رسب وذَلَّ وتصاغر أمام الآخرين. وهذا هو قانون الله في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ(١) ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا(٢) أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ(٣) أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٥٥-٦٨].

هذه أوصاف فيها موازنة دقيقة بين جزاءين: جزاء المحسنين وجزاء المسيئين. أما المحسنون: فهم المؤمنون الصالحون المنزلون في روضات الجنات يوم القيامة، المشغولون بما يتمتعون به من النعيم والتفكر عما فيه أهل النار من العذاب. و﴿فَٰكِهُونَ﴾ : فرحون طربون، وليس التمتع مقصوراً عليهم، وإنما هم وأزواجهم في الجنة في ظلال وارفة، يتكئون على الأرائك، أي الوسائد والأسرّة والفرُش الناعمة. والأرائك: السرر المفروشة، وتُقدَّم لهم أنواع الفاكهة، وغير ذلك مما يتمنون ويشتهون. ويحيّون من الله تعالى الرب الرحيم بعباده بالسلام، أي الأمان من كل مكروه، يقول لهم الله: سلام عليكم يا أهل الجنة.

وأما المسيئون: فهم الأشقياء أهل النار الكافرون، فيقال لهم: تميزوا في موقفكم وانفصلوا عن المؤمنين، أيها المجرمون. وهذه معادِلة لقوله تعالى لأصحاب الجنة:

(١) أي يتمنون ويطلبون. (٢) أي خلقاً كثيراً. (٣) نقلبه على رأسه ونغير خلقه من قوة إلى ضعف، ومن نضارة إلى ذبول.

﴿سَلَٰمٌ﴾ وهو توبيخ لهم على عهده إليهم، ومخالفتهم عهده، فيكون سبب تمييزهم وفصلهم أنه كما حكى القرآن: ألم أعهد إليكم، أي آمركم وأوصكم من طريق الرسل أيها البشر: ألا تطيعوا الشيطان، فيما يوسوس به إليكم من المعصية والمخالفة، فإن الشيطان عدو ظاهر العداوة لكم، بدءاً من عهد أبيكم آدم عليه السلام.

وأمرتكم أن تعبدوني وتطيعوني وحدي، فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه، وهذا هو الطريق المعتدل القويم، وهو دين الإسلام.

ولقد أغوى الشيطان خلقاً كثيراً، وزين لهم فعل السيئات، وصدَّهم عن طاعة الله وتوحيده، أفلم تعقلوا عداوة الشيطان لكم؟!

ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: هذه النار التي وُعدتم بها في الدنيا، وحذَّرتكم منها على ألسنة الرسل، فكذبتموهم: ادخلوها وذوقوا حرها اليوم، بسبب كفركم بالله في الدنيا، وتكذيبكم بها. وهو أمر تنكيل وإهانة. ويواجهون بجرائمهم عياناً، ففي هذا اليوم الرهيب، يختم الله على أفواههم، بحيث لا يقدرون على الكلام، وتتكلم أيديهم وأرجلهم، شاهدة على أصحابها بما ارتكبت من آثام في الدنيا. والتكلم للأيدي والأرجل؛ لأن أكثر الأفعال تتم بمباشرة الأيدي، وسعي الأرجل.

وقدرة الله كبيرة، فلو شاء لأذهب أعينهم وأعماهم، فصاروا لا يبصرون طريق الهدى، ولا يعرفون طريق النجاة، فكيف يبصرون وقد ذهبت أبصارهم؟ أي لو شاء ربك لمسح أعين الكفار، حتى أرادوا سلوك الطريق الواضح المعروف لهم لما استطاعوا، فكيف يبصرون حينئذ؟

ولو شاء الله لبدّل خلقهم، وحوّل صورهم إلى صور أخرى أقبح منها كالقردة والخنازير، وهم جاثمون في الأماكن التي ارتكبوا فيها السيئات، فلا يتمكنون من الذهاب أمامهم ولا الرجوع وراءهم، بل يَلْزمون حالاً واحدة، لا يتقدمون ولا يتأخرون.

ومن يُطل الله عمره، يتبدل حاله بقدرة الله، ولا يفعل ذلك إلا الله، فيرده إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط، والبله بعد الفهم، ونحو ذلك، أفلا يدركون ويتفكرون أنهم كلما تقدَّمت بهم السِّن، ضعفوا عن العمل، فإذا أعطاهم الله فرصة أخرى للعمل، فلن يفيدهم طول العمر شيئاً، وفي هذا قطع لأعذارهم بأنه لم تتوافر لديهم الفرصة الكافية للبحث والنظر والعمل.

صفة الرسالة النبوية

ركّز القرآن الكريم في التشريع المكي على إثبات أصول الدين الثلاثة: وهي الوحدانية، كما جاء في آية سابقة في سورة يسٓ: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ والبعث أو اليوم الآخر كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ والرسالة النبوية في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾. وهذه الأصول الثلاثة تنقض عقائد المشركين، وتقيم بدلها ما ينبغي اعتقاده ومطابقته للواقع، فإن تركوا عقائدهم الموروثة، وبادروا إلى الإيمان بأصوله الثوابت، كان لهم عزُّ الدنيا والآخرة. قال الله تعالى مبيناً أوصاف الرسالة النبوية:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٦٩-٧٦].

أخبر الله تعالى عن حال نبيه ﷺ بأنه رسول من عند الله، وليس هو بشاعر، ولا

القرآن شعراً، والشعر: كلام موزون بقوافٍ معينة، ولم يعلّم الله نبيه الشعر، ولا حاجة له به، وكان لا يقول الشعر ولا يرويه ولا يزنه، وإنما يكسر وزنه غالباً إذا نطق به، وينقل المعاني فقط. والقرآن ليس شعراً، وإنما هو ذكر من الأذكار، وموعظة من المواعظ، وكتاب إلهي واضح لمن تأمله وتدبره، واسترشد بنظامه في الحياة.

وإنما منع الله نبيه ﷺ من الشعر ترفيعاً له عما في قول الشعراء من التخيل وتزويق الكلام. أما القرآن الكريم فهو ذكر الحقائق والبراهين فما هو بقول شاعر ولا كاهن ولا ساحر.

وخصائص مهمة الرسول ﷺ: هي إنذار كل من كان حي القلب والبصيرة، ولم يكن ميتاً لكفره، وتثبيت الحقائق والتعريف بها، وليتحتم العذاب على الكافرين، ويجب الخلود لهم في النار، إذا ما أعرضوا عن الإنذار، ولم يذعنوا للحقيقة.

ثم نبّه الله قريشاً حينما أعرضت عن الشرع وعبدت الأصنام، وذكّرهم بإنعامه عليهم، حيث خلق لهم الأنعام (وهي الإبل والبقر والغنم) وسخَّرها لهم، وملّكها إياهم، ولو شاء لجعلها مستعصية عليهم، نافرة منهم، ومنافع الأنعام كثيرة: أهمها أن الله تعالى جعلها مذللة منقادة لهم، فمنها مركوبهم الذي يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال، ومنها ما يأكلون من لحمها.

ولهم فيها منافع أخرى غير الركوب والأكل منها، كالاستفادة من أصوافها وأوبارها وأشعارها، وجعلها مصدراً للشرب من ألبانها، أفلا يشكرون خالقها ومسخّرها وموجدها، وميسر النعم الكثيرة لهم؟! والشكر يكون بعبادة الله وطاعته، وترك الإشراك به شريكاً آخر. وهذا تحريض على شكر الخالق المنعم، والقيام بوفاء النعمة.

ولكنَّ كفار قريش المشركين تنكروا لهذا الواجب، وكفروا بأنعم الله، واتخذوا

الأصنام والأوثان آلهة يعبدونها من دون الله، لعلهم يُنصرون بها، ويشفعون لهم، ويقربونهم إلى الله زلفى، في زعمهم.

ولكن هذه المعبودات لا تحقق فائدة لأحد، فهم لا يقدرون على نصر عبّادها ولا نصر أنفسهم، على الرغم من أنهم جند طائعون لها، أي للأصنام، يخدمونهم ويدفعون عنهم، ويغضبون لهم، أي هم حراس أمناء.

ثم آنس الله نبيه عما يلقاه من صدود قومه عن دعوته وعما يلقاه منهم من ألوان الأذى، فلا تهتم أيها النبي بتكذيبهم لك وكفرهم بالله، وبأقوالهم الباطلة المفتراة حيث قالوا: هؤلاء آلهتنا، وهم شركاء لله في المعبودية، فإننا نحن (الله) نعلم جميع ما هم فيه، نعلم سرهم وجهرهم، ونعلم ما يسرّون لك من العداوة، ومعاقبوهم على ذلك.

إن كل زمرة أو مجموعة قليلة من الآيات تصلح رداً قاطعاً على عقائد المشركين الوثنيين، ولكن الله جلّت حكمته، نوّع الخطاب، وكرَّر المعنى، وأقام الأدلة الكثيرة في مناسبات متعددة، حتى لا يبقى لأحد عذر في البقاء على ضلاله وشركه، وهذه آيات كغيرها تثبت توحيد الله تعالى، وقدرته، وتبيِّن مزيد نعمه على عباده، ليحملهم صنع المعروف على تذكر المنعم، والمبادرة إلى الإقرار بوجوده والإذعان لكلامه في قرآنه المجيد.

الرد على منكري البعث

استبد العناد والتحدي ببعض المشركين، فأعلنوا إنكار البعث واليوم الآخر، فجاء العاص بن وائل، أو أُبي بن خلف إلى النبي ﷺ ، مجاهراً في إنكاره الآخرة، أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففتّه فقال: يا محمد: أيُبعث هذا بعدما أرَمّ؟ قال: نعم، يبعث الله

هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم، فنزلت الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخر سورة يسٓ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة والسدّي نحو الرواية المذكورة وقاله الحسن البصري، وسموا الإنسان أُبي بن خلف، وقال أبو حيان: هذا هو الأصح، لما رواه ابن وهب عن مالك، وهو ما رواه ابن إسحاق وغيره.

وقال ابن جبير: هذه الآيات نزلت بسبب أن العاص بن وائل السهمي جاء إلى النبي ﷺ بعظم رميم[1]، ففتّه، وقال: يا محمد: من يحيي هذا؟ قال الله تعالى واصفاً هذا الحدث وراداً على قائليه:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٧٧-٨٣].

المعنى: ألم يعلم كل إنسان أننا بدأنا خلقه من ماء مهين يحمل نطفة صغيرة، في غاية الضعف، ثم جعلناه إنساناً كاملاً، ثم يتنكر للخالق، فتراه يجادل بالباطل، وهو ناطق فصيح، وذو عقل قوي. أفلم يستدل منكر البعث بهذا البدء في الخلق على إمكان الإعادة والإحياء؟! إن شأن هذا المخلوق أن يشكر النعمة، فيتعرَّف على خالقه القادر، لا أن يجادل بالباطل، ويتشكك في إمكان قدرة الله تعالى على بعثه مرة أخرى.

(١) أي بالٍ مفتّت، وهو الرُّفات.

لقد ضرب هذا المُنْكِر مثلاً بعظم رميم بالٍ على استبعاد البعث، ونسي مبدأ خلق نفسه من العدم، وثم صيرورته إلى الوجود، فقال: من الذي يتمكن من إحياء العظام البالية بعد أن صارت رميماً، أي بالية فانية؟! والنسيان من هذا المنكِر: إما نسيان الذهول أو نسيان الترك.

فأجابه الله تعالى بقوله: قل أيها النَّبي لهذا المشرك المنكِر للبعث: يحيي الله العظام البالية: الذي أنشأها وأبدع خلقها في المرة الأولى، من غير شيء، بل من العدم، ولم تكن شيئاً مذكوراً، والله لا تخفى عليه خافية من الأشياء، سواء أكانت مجموعة أم مجزأة مشتتة في أنحاء الوجود، ولا يخرج عن علمه أي شيء كائناً ما كان، في البر أو في البحر أو في جوف الحيوان أو مختلطاً بالتراب.

ودليل آخر على إمكان البعث: وهو أن الله تعالى خلق هذا الشجر من ماء، حتى صار أخضر نضراً، ثم صيَّره حطباً يابساً، يجعله الناس وقوداً لنيرانهم، فمن كان قادراً على هذا التحويل والتقلُّب من عنصر الرطوبة إلى عنصر الحرارة، فهو قادر على إعادة الرطب يابساً، والحي ميتاً، والميت حيّاً، لأن المعوَّل في ذلك كله على القدرة الإلهية.

ودليل ثالث: وهو أن من خلق السماوات السبع وما فيها من الكواكب السَّيّارة والثَّوابت، والأرضين السَّبع وما فيها من معادن وكنوز وجبال وأنهار، وسهول وهضاب، وهي أعظم من خلق الإنسان، من خلق ذلك، فهو قادر على خلق مثل البشر، وإعادة الأجسام إلى الحياة مرة أخرى، وهي أضعف وأصغر من خلق السماوات والأرض، والله هو الخلاق: أي كثير الخلق، العليم: الشامل العلم.

إن شأن القدرة الإلهية أو شأن الله في إيجاد الأشياء سهل يسير، فإنما هو إذا أراد شيئاً قال له: كن، فإذا هو كائن على الفور، من غير توقُّف على شيء آخر أصلاً.

فتنزيهاً لله تعالى عما لا يليق به من العجز والنقص والسوء، فهو الذي بيده ملكية جميع الأشياء، وله القدرة التّامة على كل الموجودات، يتصرَّف فيها كيفما يشاء، وإليه وحده دون غيره مرجع جميع العباد، بعد البعث في الدار الآخرة، فيجازي كل إنسان بما عمل، فما عليهم إلا أن يؤمنوا بوحدانيته وقدرته، وبإيجاد الآخرة بحسب علمه.

تفسير سورة الصافات

من أدلة الوحدانية والقدرة على البعث وغيره

في الكون عجائب المخلوقات والخَلْق، ففيه الملائكة ذوو الصفات والمهام المتعددة، وفيه السماوات والأرضون، وفي السماء الكواكب الكبيرة والصغيرة التي تُزيّن بها السماء الدنيا، وفي السماوات من الكواكب أكبر بكثير مما نشاهده، وفي البشر أناس أشداء الْخَلق والتكوين، وذلك كله من المظاهر الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وعظمته، والعقلاء: هم الذين يقدّرون هذا ويوقنون به، وهذا ما افتتحت به سورة الصافات المكية النزول، والتي تدل بجملها وتراكيبها الموجزة على إعجاز القرآن وفصاحته، وتأثيره البليغ في النفوس، تأثيراً يهز المشاعر، ويحرّك العواطف، قال الله تعالى:

﴿وَالصَّٰفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ
السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا
مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا[1]
وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ[2] ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ
خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا
يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ[3] ۝١٤ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا

---

(١) أي طرداً وإبعاداً . (٢) أي دائم . (١) أي يطلبون أن يكونوا ممن يسخر، أو بمعنى: يسخر، مثل: (واستغنى الله) فيكون فعِل واستفعل بمعنى واحد .

وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ(١) ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١-٢١].

أقسم الله تعالى في هذه الآيات بالملائكة المتصفين بصفات ثلاث: وهي وقوفهم صفوفاً للعبادة، أو في الهواء تصفّ أجنحتها انتظاراً لأمر الله تعالى، وتزجر السحاب زجراً، أي تسوقه وتحركه سوقاً، وتتلو أو تقرأ ذِكْر الله أي كتبه. وجواب القسم أن الله واحد لا شريك له، وأنه رب السماوات والأرض وما بينهما من سائر المخلوقات، ورب مشارق الشمس وهي أماكن طلوعها بعدد أيام السنة، ولها أيضاً مغارب مماثلة، مفهومة بدلالة الآية، فلكل مشرق ومغرب كما جاء في آية أخرى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤٠].

ثم أخبر الله تعالى عن قدرته بتزيين السماء الدنيا بالكواكب الكثيرة، وانتظم التزيين بجعلها حفظاً وحِرْزاً من الشياطين المردة، وهم مسترقو السمع، فإذا أراد شيطان استراق السمع انقضّ عليه شهاب ثاقب فأحرقه. ولا يقدر الشياطين أن يتسمعوا لحديث الملأ الأعلى: وهم الملائكة، في السماء الدنيا وما فوقها، لأنهم يُرْمَون بالشهب.

ومرادهم أن يسترقوا شيئاً مما يوحيه الله تعالى لملائكته من الشرع والقَدَر. والملأ الأعلى: أهل السماء الدنيا فما فوقها.

فيكون للشهب والكواكب السماوية فائدتان كبيرتان: تزيين السماء الدنيا، وحفظها من مردة الشياطين. والمارد: المتجرد للشر. وحض الله السماء الدنيا بالذكر

(١) صاغرون وذليلون .

لأنها التي تشاهدها أبصارنا، وأيضاً فالحفظ من الشياطين إنما هو فيها وحدها. وحفظاً: منصوب على المصدر.

إن الشياطين يُرْمون بالشهب من كل جانب أو جهة يتجهون إلى السماء منها، إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع. ويبعدون ويطردون طرداً ويمنعون من الوصول إلى مقاصدهم، ولهم في الآخرة عذاب دائم مستمر موجع. والدحور: الإصغار والإهانة حال الطرد، لأن الزجر: الدفع بعنف.

وطرد الشياطين هي الحال الغالبة على جميع الشياطين إلا من شذ، فخطف خبراً أو نبأ، فأتبعه شهاب فأحرقه.

فاسأل أيها الرسول منكري البعث: أيهم أشد خلقاً، أي أصعب إيجاداً، هم أم السماوات والأرض وما بينهما من الأمم والملائكة والشياطين والمشارق والمخلوقات العظيمة؟

وقد نزلت الآية في الأشد بن كَلْدة وأمثاله، سمي بالأشد لشدة بطشه وقوته. والسؤال بقصد التوبيخ والتقريع.

إنا خلقنا أصلهم: وهو آدم من طين لزج يلتصق باليد، فإذا كانوا مخلوقين من هذا الشيء الضعيف، فكيف يستبعدون المعاد؟ وهو إعادة الخلق من التراب أيضاً. واللازب: اللازم، أي يلازم ما جاوره ويلصق به، وهو الصلصاص.

بل في الواقع لا حاجة لاستفتائهم، فهم قوم أهل تكبر وعناد، وأنت يا محمد تتعجب من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، لإيقانك بقدرة الله العظمى، وهم إذا وُعظوا لا يتعظون ولا ينتفعون بالموعظة. وإذا شاهدوا دليلاً واضحاً، أو معجزة أو علامة ترشدهم إلى الإيمان يبالغون في السخرية والاستهزاء، ويتنادون للتهكم والتضاحك.

وهذه الآية نزلت في رُكانة، وهو مكي مشرك، صارعه النبي ثلاث مرات على أن يؤمن، فصرعه، ولم يؤمن، ثم جاء إلى مكة قائلاً: يا بني هاشم، ساحِروا بصاحبكم هذا أهل الأرض، فنزلت الآية فيه وفي نظرائه.

وقالوا: ما هذا الذي تأتينا به من الدلائل إلا سحر واضح ظاهر، فلا يؤبه به، ولا ننخدع به. وتساءلوا منكرين: كيف نبعث أحياء بعد أن صرنا أمواتاً، وتراباً مفتتاً، وعظاماً بالية؟ وهل يبعث معنا أسلافنا القدامى من الآباء والأجداد. فأجابهم الله تعالى: قل لهم أيها الرسول: نعم تبعثون أحياء مرة أخرى، وأنتم ذليلون صاغرون. والأمر سهل جداً على قدرة الله، فما البعث إلا صيحة واحدة من إسرافيل بالنفخ في الصور بأمر الله تعالى للخروج من القبور. وقال منكرو البعث. لنا الويل والهلاك، فقد حل يوم الجزاء والعقاب، على ما قدمنا من أعمال. فأجابتهم الملائكة: هذا يوم الحكم والقضاء المبرم الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، ويعرف فيه المؤمن من الكافر.

مسؤولية المشركين في الآخرة

إن كل إنسان في الآخرة مسؤول عن أعماله خيرها وشرها، وتكون المسؤولية شديدة، وصعبة على المشركين، حيث يحاسبون عن شركهم وضلالهم، وتركهم الواجبات المفروضة عليهم من الإيمان بالله ورسله أولاً، ثم أداء الفرائض، وحيث لا يجدون أحداً يشفع لهم أو ينصرهم، ولأنهم كانوا متكبرين في الدنيا، لا يسمعون لنداء الحق، وكلمة التوحيد، ويتهمون النبي ﷺ بالاتهام الباطل كالقول: بأنه شاعر مجنون، وهذا محض الكذب والافتراء، وصف الله تعالى مسؤولية المشركين وأسبابها في الآخرة، فقال الله تعالى:

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ
﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ
عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾
وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾
فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ
﴿٣٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ
مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٢٢-٣٧].

موقف الحشر في القيامة رهيب وشديد، يأمر الله الملائكة بجمع أصناف ثلاثة في موقف الحساب: وهم الظالمون المشركون، وأمثالهم أو أزواجهم ومعبودوهم الذين عبدوهم من دون الله من الأصنام والأوثان وغيرهم من بني آدم، زيادة في تخجيلهم وتوبيخهم، وحسرتهم وإظهار سوء حالهم. والمقصود بكلمة ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي أنواعهم وأشباههم.

ويقال للملائكة: أرشدوا هؤلاء المشركين وعرِّفوهم طريق جهنم، زيادة في لومهم، واحتقارهم، والتهكم بهم. وقوله: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ أي قوّموهم واحملوهم على طريق الجحيم. والجحيم: طبقة من طبقات جهنم، يقال: إنها الرابعة.

واحبسوهم في ساحة الموقف للحساب والسؤال، عن عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم التي صدرت منهم في الدنيا، ويقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ما بالكم لا ينصر بعضكم بعضاً، كما كنتم في الدنيا؟ بل إنهم اليوم منقادون لأمر الله، لا يخالفونه، ولا يحيدون عنه، لعجزهم عن العذر أو الحيلة.

وفي هذا الموقف يتساءل المشركون مع بعضهم سؤال توبيخ وتقريع وخصام، كما يتخاصمون في دركات النار.

قال الأتباع للقادة: إنكم تأتوننا من جهة القوة والشدة، أي إنكم كنتم تغووننا بقوة منكم، وتحملوننا على طريق الضلالة بمتابعة منكم في شدة، أو كنتم تأتوننا من الجهة التي يحسِّنها تمويهكم وإغواؤكم، ويظهر فيها أنها جهة الرشد والصواب، فأجاب الرؤساء بجوابين: الأول: بل إنكم أنتم أعرضتم عن الإيمان، مع تمكنكم منه، مختارين الكفر. والثاني: لم يكن لنا عليكم من حجة وتسليط نسلبكم به اختياركم وتمكنكم، بل كان فيكم طغيان وتجاوز الحد في الكفر، واختياركم طريق الضلال كان منكم.

فوجب علينا وعليكم حكْم ربنا، ولَزمنا قول ربنا وتعيَّن العذاب لنا، وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٨٥]. فنحن جميعاً ذائقو العذاب حتماً في الآخرة. والذوق هنا: مستعار.

إننا أضللناكم، ودعوناكم إلى ما نحن فيه من الضلالة، فاستجبتم لنا.

ثم أخبر الله تعالى: أنهم، أي التابعين والمتبوعين والقادة مشتركون جميعاً في العذاب، وحصلوا فيه، كما اشتركوا في الضلال والكفر، والجميع في نار جهنم، كل بحسبه، وبمثل ذلك الجزاء نفعل بالمشركين، ويجازى كل عامل بما قدم.

هؤلاء الذين أجرموا، وجهلوا الله سبحانه، وعظّموا أصناماً وأوثاناً، إذا دُعوا إلى كلمة التوحيد: وهي لا إله إلا الله، استكبروا عن القبول، وأعرضوا عن قولها، كما يقولها المؤمنون.

ويقولون: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا لقول شاعر مجنون، قاصدين بذلك النبي ﷺ، فهم بهذا أنكروا أولاً وحدانية الله، ثم أنكروا الرسالة النبوية، وهؤلاء هم جماعة من قريش.

فرد الله عليهم تكذيباً: بل إن النبي جاء بالحق في جميع ما شرعه الله له، وأول

مبادئه التوحيد، وصدَّق في ذلك الأنبياء المرسلين فيما جاؤوا به من التوحيد، والوعد، والوعيد، وإثبات المعاد، ولم يخالفهم في تلك الأصول.

ومن حوادث عرض كلمة التوحيد على غير المؤمنين: أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: «أي عم، قل: لا إله إلا الله، أحاجّ لك بها عند الله» فقال أبو جهل: أيُرغَب عن ملة عبد المطلب؟ فقال آخِرَ ما قال: أنا على ملة عبد المطلب . وبعرضه عليه الصلاة والسلام قول: لا إله إلا الله، جرت السنة في تلقين الموتى المحتضرين، ليخالفوا الكفرة في نهاية العمر، و يخضعوا لكلمة التوحيد.

جزاء المؤمن والكافر

العدل الإلهي المطلق: هو أساس الجزاء والحساب في الآخرة، وليس هناك تميز ولا استئناف، وإنما القرار مبرم حاسم، والتنفيذ محقق وسريع، فمن آمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن دستوراً ومنهاجاً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وبالكعبة المشرفة قبلة، كان من الناجين السعداء في جنان الخلد، ذات النعيم المادي المترف ذي الألوان المختلفة، والنعيم النفسي التام، حيث لا هَمّ ولا قلق، ولا حزن ولا تعب، ومن جحد بالله أو أشرك به، ولم يؤمن برسوله، ولا بالقرآن الكريم، فهو في عذاب مستمر في نيران جهنم، مع المعاناة الدائمة والقلاقل المستمرة، وجزاء الفريق بحسب العمل في الدنيا، قال الله تعالى مبيناً ذلك:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ
سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ(١) ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ(٢) ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ
ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ
فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ(٣) ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ
﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ
﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٣٨-٦١]

يخاطب الله تعالى خطاباً مباشراً للناس بما معناه: إنكم أيها الجاحدون لتذوقن العذاب المؤلم الدائم في نار جهنم، وليس جزاؤكم إلا بالحق والعدل الذي لا ظلم فيه، وهو عقابكم على أعمالكم من الكفر والمعاصي، فهي سبب الجزاء. لكن عباد الله وهم المؤمنون الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه، وهم الطائعون ربهم، المخلصون في عملهم لله تعالى، هم ناجون لا يذوقون العذاب، ولا يناقشون الحساب، ولهم رزق معلوم حسنه وطيبه ودوامه عندهم، ويأتيهم في حين تطلعهم إليه، يشتمل على الفواكه أو الثمار المتنوعة، وبإكرام بليغ متمم للنعم، حيث يخدمون ويرفهون.

ومساكنهم في جنان النعيم الدائم، على أَسِرَّة يتكئون عليها، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض، بسرور وابتهاج. وشرابهم يدار عليهم بآنية من عيون جارية، فيها الخمر التي لا تسكر وغيرها من الأنبذة ونحوها، يطوف بها عليهم وِلْدان مخلدون. وتلك الخمر شديدة البياض، لذيذة الطعم، طيبة الرائحة، ليس فيها أذى أو فساد، ولا تذهب بالعقول، خلافاً لخمر الدنيا. وقوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي من جار مطّرد.

وعندهم زوجات عفيفات، لا ينظرن إلى غير أزواجهن، ذوات عيون واسعة

(١) أي ليس في خمر الجنة أذى، ولا إذهاب للعقول. (٢) أي في الجنة حوريات عفيفات لا ينظرن إلى غيرهن، واسعات الأعين مع الحسن. (٣) أي في وسط الجحيم.

حسان، كأن ألوانهن من البياض المشوب بصفرة خفيفة كالبَيْض المصون المستور الذي لم تمسه الأيدي، ولم يتلوث بالغبار. وأقبل هؤلاء المؤمنون بعضهم على بعض في حال تمتعهم، يتساءلون عن أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا ومعاناتهم فيها، إتماماً لنعيم الجنة.

ومن تساؤلاتهم: قال مؤمن من أهل الجنة: كان لي صاحب كافر بالبعث مقارن في الدنيا يقول: أنحن إذا صرنا أمواتاً وتراباً وعظاماً بالية، أنكون محاسبين بعدئذ على أعمالنا ونجازى عليها؟ ذلك أمر غير ممكن ولا معقول، فهل تصدق هذا؟ ثم قال المؤمن لجلسائه: انظروا معي إلى أهل النار، لأريكم ذلك القرين الذي قال لي هذا القول، كيف يعذب ويجازى؟ فنظر المؤمن إلى أهل النار، بالرغم من كثرتهم، فرأى قرينه يتلظى بحرّ جهنم. قال المؤمن لقرينه الكافر موبخاً: لقد قاربت أن توقعني في الهلاك، ولولا رحمة ربي وعصمته من الضلال، وتوفيقي للحق، وهدايتي للإسلام، لكنت من المحضرين معك في العذاب في النار.

ثم قال المؤمن لجلسائه ابتهاجاً وسروراً بنعيم الجنة: ألسنا مخلَّدين في نعيم الجنان إلى الأبد، فلا نموت إلا موتتنا السابقة في الدنيا، ولسنا بمعذبين كما يعذب أصحاب النار؟

إن هذا النعيم الدائم الخالد، لهو الفوز الأكبر الذي لا يوصف، ولمثل هذا النعيم والفوز، ليعمل العاملون في الدنيا، ليحظوا به، لا أن يعملوا لحظوظ الدنيا الفانية فقط، المقترنة بالمخاطر والآلام، والمتاعب الكثيرة، والمراد: أن المطلوب من كل عاقل هو العمل للآخرة وللجنة الخالدة، لا أن يقتصر العمل على مكاسب الدنيا وشهواتها الفانية المؤقتة، فإن عمل الآخرة هو الباقي الخالد، وعمل الدنيا فانٍ زائل.

ألوان عذاب جهنم

تتنوع ألوان النعيم للمؤمنين الصالحين في الجنان، كما تتنوع ألوان العذاب في جهنم للظالمين المشركين والجاحدين، والتفاوت قائم في كلا الحالين، وبدهي أن النفس ترتاح للنعيم، وتتضايق للعذاب، وقد جاء الوصف القرآني لتعذيب الكفار بما لا يوصف ولا يحتمل، ولكن رحمة الله تعالى قدّمت الإنذار به قبل وقوعه، للاحتراز منه، وتجنب كل الأسباب المؤدية إليه، فلا يبقى بعدئذ عذر لمقصر أو معاند أو جاحد، لأن سبق الإنذار يوجب التعقل، وتقدير الحساب والمخاطر، وهذا ما وصفته الآيات القرآنية الآتية:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ[1] ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٦٢-٧٤].

هذه تساؤلات تقريرية لقريش والكفار، ليست للاستفهام، يراد بها إعلامهم بأن هذا المذكور من أوصاف نعيم الجنة وطيباتها في القرآن خيرٌ ضيافةً وعطاءً، أم شجرة الزقوم ذات الطعم المرّ الشنيع التي في جهنم، وهذا نوع من التهكم والسخرية بهم، فهو طعام أهل النار يتزقمونه. إنا جعلنا تلك الشجرة اختباراً للكافرين، حين افتتنوا بها وكذبوا بوجودها، فقالوا: كيف تكون تلك الشجرة في النار، والنار تحرق ما فيها؟.

---

(١) يستحثهم البرد للذهاب إلى النار، وهذا الفعل ملازم للبناء للمجهول.

وهذا بسبب جهلهم أن بعض الأشياء لا يقبل الاحتراق في النار، وأنهم لم يعلموا أن من قدر على جعل إنسان يعيش في النار، هو أقدر على خلق شجر فيها لا يحترق.

وأوصاف تلك الشجرة: أنها شجرة تخرج أو تنبت في قعر النار وقرار جهنم، أي ملاصق أساسَها الذي لها كالجدران. ويشبه ثمرها في تناهي قبحه، وبشاعة منظره، رؤوس الشياطين، تكريهاً لذكرها. فقد شبه ثمرها بما استقر في النفوس من كراهة رؤوس الشياطين وقبحها، وإن كانت لم تُرَ.

وهذه الشجرة يأكل الكفار من ثمرها القبيح الرائحة والطعم، فيملؤون منها بطونهم، بالإكراه والاضطرار، لأنهم لا يجدون غير هذه الشجرة ونحوها من كل مرّ عسر المذاق.

ثم إن لهم بعد الأكل منها لشراباً من ماء شديد الحرارة يخالط طعامهم، أي إن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول. ثم إن مرجعهم بعد شرب الحميم وأكل الزقوم إلى دار الجحيم، أي إن الحميم يكون في موضع خارج عن الجحيم، فهم يُورَدون الحميم لشربه، كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يردّون إلى الجحيم.

وعلة عذابهم على هذا النحو: أنهم وجدوا آباءهم على الضلال، فاقتدوا بهم وقلّدوهم، من غير تعقل ولا تدبر، ولا حجة ولا برهان، فهم يتّبعون آباءهم في سرعة. وذلك يدل على أن الكفر ظاهرة قديمة، وأتباعه كثيرون، فلقد كان أكثر الأمم الماضية ضالين، يجعلون مع الله آلهة أخرى، وليس قريشاً وحدهم في هذا الضلال.

ولكن رحمة الله تعالى لم تتركهم بدون إنذار، فلقد أرسل الله في الأمم كلها أنبياء ورسلاً ينذرونهم بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به، وعبد غيره، لكنهم تمادوا في تكذيب رسلهم، فأهلكهم الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي فانظر أيها الرسول وكل مخاطب بالرسالة الإلهية كيف

كان مصير الكافرين المكذبين؟ أهلكهم الله ودمرهم وصاروا إلى النار، مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم. ثم استثنى الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي لكن نجى الله عباده المؤمنين الذين اصطفاهم وأخلصهم لطاعته، بتوفيقهم إلى الإيمان والتوحيد، والعمل بأوامر الله سبحانه، ففازوا بجنان الخلد، ونصرهم في الدنيا.

مثّل الله تعالى في هذا المثل لقريش بالأمم التي ضلّت قديماً، وجاءها الإنذار الإلهي، وأهلكها الله بعَدْله. وهو إخبار بأن الله عذَّب الضالين في الدنيا، ولهم عذاب شديد آخر في الآخرة.

دعاء نوح عليه السلام

الأنبياء والرسل عليهم السلام في مرصد العناية والرعاية الإلهية، فهم يقومون بتبليغ دعوة الله تعالى لتوحيده وعبادته، والله تعالى يراقب ردود أفعالهم لدى أقوامهم، فإن تعرضوا لسوء، أو وقعوا في محنة مستعصية لا سبيل إلى تذليلها، دعوا ربهم بوحي منه لإنجائهم، وقهر عدوهم، وإهلاك معارضيهم، وهذا منهج واضح في حياة الرسل، وفي طليعتهم نوح عليه السلام أول رسول إلى قومه، وأبو البشر الثاني، فإنه دعا ربه حين يئس من هداية قومه، كما في الآيات الآتية:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٧٥-٨٢].

المعنى: تالله لقد دعانا نوح عليه السلام واستغاث بنا، ودعا على قومه بالهلاك لما أيس منهم، قائلاً: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٧١/ ٢٦]. بعد أن مضى دهر طويل يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى، فكذبوه وآذوه وهموا

بقتله، ولم يؤمن معه إلا قليل، وذلك بعد ألف سنة إلا خمسين، وتضمن نداء نوح أي استغاثته أشياء: منها الدعاء على قومه، وسؤال النجاة، وطلب النصرة، وفي جميعها وقعت الإجابة، فقد أجاب الله دعاءه، وقوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ يتضمن الإجابة على أكمل ما أراد نوح عليه السلام. وهذه أوجه الإجابة:

١- نجينا نوحاً ومن آمن معه وهم ثمانون من الغم الشديد: وهو الغرق وتكذيب الكفرة.

٢- وجعلنا ذريته وحدهم دون غيرهم هم الباقين على قيد الحياة، وأهلكنا من كفر بدعائه. قال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة: أهل الأرض كلهم من ذرية نوح، وقال الطبري: العرب: من أولاد سام، والسودان: من أولاد حام، والترك والصّقْلب: من آل يافث.

٣- وأبقينا عليه ثناء حسناً فيمن يأتي بعده إلى آخر الدهر.

وقلنا: عليك يا نوح سلام منا في أوساط العالمين من الملائكة وعالمي الإنس والجن، وفي الباقين غابر الدهر، قال الطبري عن هذا السلام: هذه أمَنَة لنوح في العالمين: أن يذكره أحد بسوء. وقال ابن عطية: هذا جزاء ما صبر طويلاً على أقوال الكفرة الفجرة.

وأسباب هذه النعم التي أسبغها الله تعالى على نوح عليه السلام ثلاثة أشياء:

١- مجازاته على إحسانه، وهكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله عز وجل. وهذا ثناء من الله تعالى على نوح بالإحسان، لصبره على أذى قومه، ومطاولته لهم، وغير ذلك من عبادته وأفعاله الطيبة.

٢- وسبب كون نوح محسناً: هو كونه من عباد الله المؤمنين، وهذا دليل على أن الإيمان بالله تعالى وإطاعته أعظم الدرجات وأشرف المقامات.

٣- وإنجاؤه مع المؤمنين برسالته، وإغراق كفار قومه بالطوفان وإهلاكهم، وهذا يقتضي أنه تعالى أغرق قوم نوح وأمّته ومكذبيه، وليس في الآيات نص على أن الغرق عم جميع أهل الأرض، لكن قد قال به جماعة من العلماء، وأُسندت به أحاديث أنه لم يبق إلا من كان معه من السفينة، وعلى هذا، يكون الناس اليوم من ذريته. ومن المعلوم، لم يكن الناس في عهد نوح بهذه الكثرة، لأن عهد آدم عليه السلام كان قريباً، وكانت دعوة نوح عليه السلام ونبوته قد بلَغت جميعهم، لطول المدة واللُّبث فيهم، وكان الجميع كفرة عَبَدَة أوثان، لم ينسبهم الحق إلى نفسه، فلذلك أغرق جميعهم.

إن من مقتضيات الإيمان الصحيح بالله تعالى الإنجاء من المهالك والإسعاد في الدنيا والآخرة، وبقاء الأثر والسمعة الطيبة والذِّكر الجميل إلى آخر الدهر.

وعلى عكس ذلك إن من مقتضيات الكفر بالله تعالى: الإيقاع في أنواع العذاب الأليم، والشقاء في الدنيا والآخرة، وسوء السمعة ومحل العظة والعبرة، والسعيد: من اتعظ بغيره، والشقي: من كان عبرة وأثراً يذكر لغيره.

تحطيم إبراهيم عليه السلام الأصنام

على الرغم من تطهير البشرية من لوثات الشرك والوثنية بإغراق الكافرين في طوفان نوح، وإنجاء المؤمنين، فقد ظهرت نزعة الشر في بعض ذرية نوح عليه السلام، فأرسل الله تعالى إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام أبا الأنبياء وإمام الحنفاء، وسار على منهاج نوح في الدين والدعوة إلى توحيد الله تعالى، فكان الإعراض من قومه عن دعوته، وآل مصيرهم كقوم نوح إلى أن غُلبوا وذلّوا ونالتهم العقوبات الشديدة، ونجى الله تعالى إبراهيم عليه السلام من النار التي ألقي فيها،

كما نجى نوحاً ومن آمن معه من الغرق، وهذه آي تبين جهود إبراهيم في دعوته ومصيره:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ[1] لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ[2] إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٨٣-١٠١].

المعنى: وإن إبراهيم عليه السلام من شيعة نوح عليه السلام، أي على منهاجه في الدين والتوحيد. واذكر أيها النبي محمد حين أقبل إبراهيم على ربه بقلب مخلص سليم من الشك والشرك وجميع النقائص التي تلحق قلوب بني آدم كالغِلّ والحسد والكِبْر ونحوه. وحين قال لأبيه وقومه: ما الذي تعبدونه من هذه الأصنام من دون الله تعالى؟ وهو توبيخ على منهجهم.

أتريدون آلهة من دون الله تعبدونها إفكاً وكذباً، دون حجة ولا دليل، وما ظنكم حين تلقون ربكم أنه فاعل بكم، وقد عبدتم معه غيره؟ وهو استفهام بمعنى التقرير، لا النفي، أي أكذباً ومحالاً آلهة دون الله تريدون؟

ثم أخبر الله تعالى عن نظرة إبراهيم عليه السلام في نجوم السماء، فإنه تأمل في علوم النجوم وفي معانيها، مريداً بذلك إيهام قومه أنه يعلم ما يعملون ويعلمون. روي أن علم النجوم كان عندهم منظوراً فيه مستعملاً، فأوهمهم هو من تلك الجهة،

(١) أي أتباعه وأنصاره في الدين والتوحيد. (٢) أي مال إليها.

وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إلى نظر في النجوم، وبعد أن نظر إبراهيم في النجوم قال لقومه: إني مريض عليل، فتولوا عنه وتركوه مدبرين لكفرهم به واحتقارهم لأمره. وهي في الظاهر كذبة من أجل رضوان الله، وفي الحقيقة إنه مرض قلبي معنوي بسبب عبادة قومه الأصنام والأوثان. ومراعاة للظاهر في أنها كَذْبة، قال النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كَذَبات، ثنتين في ذات الله: قوله: إني سقيم، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٢١/٦٣] وواحدة في شأن سارَّة، قال عنها: هي أختي» أي أختي في الإسلام ليخلصها من اعتداء ملك جبار في مصر.

فمال إبراهيم خفية إلى أصنام القوم، وقد خرجوا خارج البلد في عيد لهم، ووضعوا الطعام للأصنام لتباركه، فقال لها تهكماً وسخرية: ألا تأكلون من هذا الطعام المقدم لكم؟ وذلك على جهة الاستهزاء بعبدة تلك الأصنام، ما الذي يمنعكم من النطق والجواب عن سؤالي؟ ومراده: التهكم والاحتقار، لأنه يعلم أنها جماداتٌ لا تنطق.

فمال عليهم يضربهم بقوة وشدة، حتى حطّمهم إلا كبيراً لهم، فأقبل إليه القوم بعد عودتهم من عيدهم مسرعين، يسألون عمن كسرها، وقد قيل: إنه إبراهيم، وعرفوا أنه هو، فقالوا له: نحن نعبدها وأنت تكسرها؟! فقال: أتعبدون من دون الله أصناماً أنتم تصنعونها من حجر وعود، وتنحتونها بأيديكم؟ والله الذي خلقكم وخلق أعمالكم هو الأحق بالعبادة، وأجدر بالتعظيم، فكيف تعبدون غيره؟ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ دليل على أن الله تعالى هو خالق أفعال العباد وهو مذهب أهل السنة، وهو أن الأفعال خَلْق لله عز وجل واكتساب للعباد. وفي

هذا إبطال مذهب الجبرية والقَدَرية. أخرج الثعلبي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله خالق كل صانع وصنعته» . ولفظ حذيفة عند البيهقي: «إن الله عز وجل صنع كل صانع وصنعته، فهو الخالق، وهو الصانع سبحانه».

فتواطأ قوم إبراهيم على قتله، وقالوا: ابنوا له بنياناً واسعاً، وأضرموا فيه ناراً عظيمة، ثم ألقوه في تلك النار المستعرة. فأرادوا به سوءاً بحيلة ومكر، فأنجاه الله تعالى، وجعل النار برداً وسلاماً عليه، ونصره الله عليهم، وجعلهم مغلوبين أذلة بإبطال كيدهم، ومعاقبين على أفعالهم.

ولما نجا إبراهيم عليه السلام من إحراق النار، وأيس من إيمان قومه، قال: إني مهاجر من بلد قومي الذين آذوني، تعصباً للأصنام، وتكذيباً لرسله، إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه، وسيهديني الله لما فيه صلاح ديني ودنياي، وذلك إلى بلاد الشام المقدسة. رب هب لي ولداً صالحاً عوناً على طاعتك، وإيناساً في الغربة. فبشره الله بغلام متميز بالحلم الكثير، وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بشّر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب.

الذبيح إسماعيل عليه السلام

بعد أن ترك إبراهيم الخليل عليه السلام ديار قومه عبدة الأصنام، وهاجر من أرض بابل حيث كانت مملكة نمرود إلى بلاد الشام، بشره الله بغلام حليم، وهو إسماعيل عليه السلام الابن الأكبر لإبراهيم، ولما كبر إسماعيل وشبّ وبلغ ابن ثلاث عشرة سنة، امتحن الله تعالى الأب إبراهيم والابن إسماعيل بقصة الذبح، وأعقب ذلك الامتحان بشارة أخرى بإسحاق نبياً من الصالحين، مباركاً عليه وعلى إبراهيم،

وجَعْل الاثنين من الأنبياء المرسلين، وإيجاد أكثر الأنبياء من ذريتهما. وهذه الأخبار بالترتيب وردت في سورة الصافات في الآيات الآتية:

﴿فَلَمَّا[١] بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ[٢] ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠٢-١١٣].

هذه آي المحنة لإبراهيم بعد محنته بإلقائه في النار، وكل من المحنتين في غاية القسوة واختبار الإيمان بالله تعالى، فلما كبر إسماعيل عليه السلام قال له أبوه إبراهيم عليه السلام: يا بني، إني رأيت في المنام أني أذبحك، فما رأيك؟ أخبره بذلك ليستعدّ لتنفيذ أمر الله، ويثاب على انقياده وطاعته لربه، وليعلم صبره لأمر الله. فأجابه إسماعيل قائلاً: امض لما أمرك الله من ذبحي، وافعل ما أوحي إليك، سأصبر على القضاء الإلهي، وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. والمراد بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ السعي على القدم، يريد سعياً متمكناً، أو العمل والعبادة والمعونة. وبدأ تنفيذ أمر الله تعالى، فلما استسلم الأب وابنه لأمر الله وطاعته، وأسلما أنفسهما، أي فوّضا إلى الله في قضائه وقدره وألقى إبراهيم على الأرض ابنه على جنبه وجانب جبهته وهو الجبين، ومعنى ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ وضعه بقوة، ونادى الملَك إبراهيم من الخلف بعدئذ. قد حصل المقصود من رؤياك، وتحقق المطلوب،

(١) الفاء هنا: فاء الفصيحة، التي تفصح عن كلام مقدر، يفهم من السياق العام الوارد في القصة.
(٢) أحد جانبي الجبهة.

وصرت صادقاً مصدّقاً بمجرد العزم، وإن لم تذبح. ثم عدَّد الله تعالى نعماً خمساً على إبراهيم وهي:

١- الإحسان إليه: والمعنى: مثلما جازينا إبراهيم بالعفو عن الذبح، نجزي كل محسن على طاعته، وتفريج كربته ومحنته، وإن هذه المحنة أو الاختبار بالشدة لهو الاختبار الصعب الواضح الذي لا يوجد أصعب منه، حيث اختبر الله إبراهيم في مدى طاعته بذبح ولده، فصبر محتسباً الأجر عند ربه.

٢- وافتداء الذبح، فلقد جعلنا لإبراهيم فداء ولده بتقديم كبش عظيم الجثة سمين. والذِّبح: اسم لما يذبح، وهو الكبش، ووصفه بالعظم لأنه متقبَّل يقيناً. ويرى أهل السنة: أن هذه القصة نسخ فيها العزم على الفعل. والمعتزلة تقول: إنه لا يصح نسخ إلا بعد وقوع الفعل، وهو مجرد إمرار الشفرة على العنق فقط، وهو ما رآه إبراهيم في منامه، فظن أنه ذبح مجهز، منفِّذ لذلك، فلما وقع الذي رآه، وقع النسخ.

٣- الثناء الحسن عليه: وأبقينا لإبراهيم في الأمم المتلاحقة ثناء حسناً، وذِكْراً جميلاً، فأحبه أتباع الملل كلها، من اليهود والنصارى والمسلمين، وأهل الشرك قاطبة، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٤-٨٥]. ومثل هذا الجزاء نجزي جميع المحسنين بالفرج بعد الشدة.

٤- البشارة بإسحاق: ووهبنا لإبراهيم ولداً آخر بعد إسماعيل هو إسحاق، وجعلناه نبياً صالحاً من زمرة الصالحين. والبشارة بولادة إسحاق بعد قصة الذَّبح دليل على أن إسماعيل هو الذبيح. وكان الذَّبح بمنى.

٥- مباركة إبراهيم وإسحاق: وجعلنا البركة والنعمة الدنيوية والأخروية في إبراهيم وإسحاق، ومنها كثرة الولد والذرية، وجَعْل أكثر الأنبياء من نسلهما ونسل

إسماعيل. فقوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ أي أفضنا على إبراهيم وإسحاق بركات الدين والدنيا، بأن كثَّرنا نسلهما وجعلنا أنبياء ورسلاً منهما ومن إسماعيل. وبعض ذريتهما محسن فاعل للخيرات، وبعضها ظالم لنفسه بالكفر والمعاصي، واضح الظلم والانحراف.

وهذا دليل على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال، وأن النفع ليس بالوراثة والنسب، وإنما الانتفاع بالأعمال، وأنه لا يعيب الأصول ولا ينتقصُهم سوءُ بعض ذريتهم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٤].

نعم الله على موسى وهارون وإلياس عليهم السلام

امتن الله تعالى على أنبيائه الكرام بنعم كثيرة بسبب تضحياتهم وجهودهم في سبيل نشر الدعوة إلى الله سبحانه، وإصلاح الناس، ومن هؤلاء الأنبياء الصفوة: موسى وهارون عليهم السلام، ومضمون هذه النعم: النبوة وعلوِّ المكانة، ونجاتهم من المآزق والمحن، ونصرُهم على معارضيهم، وهدايتُهم إلى الطريق القويم، وإبقاءُ الثناء الحسن والسمعة العالية والتحية لهم على ممر الزمان إلى آخر الدهر، وبهذا النوع من الجزاء على إخلاصهم وطاعتهم لربهم، يجزي الله تعالى كل المحسنين، وهذا صريح في الآيات الآتية:

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾
وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ
لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

[الصافات: ٣٧/ ١١٤-١٣٢].

تالله لقد أنعمنا على موسى وهارون بالنبوة وغيرها من العطاءات والمنافع التي تؤدي إلى رفع مكانتهما في الدنيا والآخرة. ونجيناهما وقومهما الإسرائيليين من الكرب العظيم، أي الاستعباد الفرعوني ومحاولة قتلهم ومتابعتهم، وإنجائهم من الغرق في البحر. ونصرناهم، أي موسى وهارون وقومهما على أعدائهم، فكانوا هم المتغلبين أصحاب السيادة والسلطة. وأنعمنا على موسى وهارون بالتوراة الكتاب المنظِّم لشؤون الدنيا والآخرة. وأرشدناهما إلى الطريق المستقيم: وهو طريق الشرع والنبوة المؤدي إلى الله تعالى.

وأبقينا لهما من بعدهما ثناء حسناً جميلاً باقياً آخر الدهر. وهذا هو ما تركه الله عليهما في الآخرين، حيث فسره بقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ والمراد به الثناء الحسن في الأمم الباقية المتأخرة. ومثل هذا الجزاء على الإخلاص والطاعة من النبيين الرسولين موسى وهارون نجزي بالخلاص من الشدائد والمحن كل من أحسن عمله، فأطاع الله وانقاد له، لأنهما من فئة عباد الله المؤمنين المصدقين تصديقاً صحيحاً كاملاً.

وإن إلياس بن ياسين الذي هو نبي من أنبياء الله تعالى، والذي ينتهي نسبه إلى أخي موسى عليهما السلام، بعثه الله في بني إسرائيل بعد حِزْقيل عليه السلام، وكان قومه الإسرائيليون قد عبدوا صنماً، يقال له (بعل) فدعاهم إلى توحيد الله تعالى، ونهاهم عن عبادة ما سواه. ومضمون قصته: اذكر أيها الرسول محمد حين قال إلياس لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾. أي هلّا تخافون الله تعالى في عبادتكم غيره، وتتركون ما نهاكم عنه من الشرك والعصيان!

أتعبدون صنماً وهو (بَعْل) الذي صنعتموه بأيديكم، وتتركون عبادة الإله الحق المستحق وحده للعبادة؟ فهو سبحانه أحسن الخالقين، أي إنه هو الخالق المبدع، ولا خالق سواه، وهو الله الذي رباكم بنعمه، بعد أن أوجدكم من العدم، أنتم وآباؤكم وأجدادكم السابقون. وكان إلياس عليه السلام في دعوته هذه حكيماً، فقد عاب قومه أولاً على عبادة غير الله تعالى. ثم صرح بتوحيد الله، ونفي جميع الشركاء عنه. فكذبوا دعوته ونبوته، فصاروا بسبب تكذيبه لمحضرون، أي لمجموعون للعذاب يوم القيامة، ومجازَوْن على ما قدموا من الأعمال المنكرة، والأفعال والعقائد الفاسدة.

ثم استثنى الله تعالى من ذلك الجزاء: من كان مؤمناً فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي إلا عباد الله الذين وحَّدوه توحيداً خالصاً من الشرك وشوائبه، وعبدوه حق العبادة، وأخلصوا العمل لله، فهؤلاء في كل زمان ناجون من العذاب، مثابون ثواباً حسناً على صالح أعمالهم، لا يتعرضون لشيء من عقاب المشركين.

واستحق إلياس النبي عليه السلام مثلما استحق موسى وهارون: أن يُبقي الله عليه ثناء حسناً جميلاً آخر الدهر وعلى ممر الزمان، وهو السلام عليه، سلاماً مباركاً من الملائكة والإنس والجن، لأنه سليم الإيمان بما أمره الله به، وهو الذي قاوم الشرك والوثنية. وإل ياسين: اسم أيضاً لإلياس، فهو اسم واحد له، وهذه لغة، كما يقال: إبراهيم وإبراهام، وإدريس وإدراسين.

ومثل ذلك الجزاء على الإخلاص والطاعة من إلياس، يجازي الله جميع المحسنين أعمالهم لله تعالى، وعلة الجزاء أنه، أي إلياس مؤمن من جملة عباد الله المصدِّقين بوجود الله وتوحيده واتصافه، أي الله بصفات الكمال والجلال والجمال والإحسان.

نعم الله على لوط ويونس عليهما السلام

الفضل الإلهي ذو معيار ثابت واحد، فكما أنعم الله تعالى في آيات سابقة من سورة الصافات على موسى وهارون وإلياس عليهم السلام، أنعم أيضاً على لوط ويونس عليهما السلام، من إنجاء لوط وأهله إلا امرأته من العذاب، وتدمير بقية القوم، وإخراج يونس حياً من بطن الحوت، وحمايته من هضمه، وإنبات شجرة يقطين عليه يحتمي بأوراقها العريضة، وتسخير سبيل إعادة القوة والصحة له، وذلك كله للعظة والعبرة، قال الله تعالى مبيناً هذه النعم:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ[1] ﴿١٣٥﴾
ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ
لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ[2] إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ[3] ﴿١٤١﴾
فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ
أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٣٣-١٤٨].

إن إيراد بعض قصص الأنبياء السابقين من أجل أن يعتبر بها مشركو العرب وقت نزول الوحي، وكذا كل من كفر وعاند ممن يأتي بعدهم، فإن الذين أمعنوا في الكفر بادوا وهلكوا، وبقي الذين آمنوا. إن لوطاً ابن أخي إبراهيم أو ابن أخته أرسله الله من جملة المرسلين إلى أهل سدوم في وادي الأردن، لارتكابهم الفواحش، فنصحهم، فأبوا نصحه، فأهلكهم الله بحاصب من الحجارة المحرقة كالبراكين العاتية، فجعل بلادهم عاليها سافلها، ونجى الله تعالى لوطاً عليه السلام وأهله المؤمنين به إلا امرأته

(١) أي الباقين في العذاب. (٢) هرب بلا إذن إلى السفينة المملوءة. (٣) أي فاقترع فكان يونس من المغلوبين.

التي كانت كافرة، صارت هالكة باقية في العذاب، ولرضاها بفعل القوم، وتواطئها معهم على كل من يأتي إلى لوط عليه السلام. وكفر امرأة لوط: إما أنها كانت مستترة منه، وإما كانت معلنة، وكان نكاح الوثنيات والإقامة عليهن جائزاً.

والغابرون: الباقون، وغبر بمعنى بقي، ومعناه هنا: بقيت في الهلاك.

ثم أهلك الله قوم لوط الذين كذبوا برسالته، وهم أهل الفاحشة الشنيعة (اللواط). ثم خاطب الله تعالى قريشاً بما معناه:

قل لهم يا محمد وإنكم يا أهل مكة لتمرون على منازل قوم لوط التي فيها آثار العذاب وقت الصباح، أي بالنهار ذهاباً إلى الشام، وفي الليل أثناء رجوعكم من الشام، أفلا تتدبرون بعقل واعٍ، وتتعظون بما تشاهدونه في ديارهم من آثار التدمير، وعقوبة الله النازلة بهم، فتخافوا من أن يحل بكم نفس العذاب، وتصيروا مثلهم في مصيرهم المشؤوم، لمخالفتهم رسولهم وتكذيبهم به. وهذا توبيخ لمشركي قريش وأمثالهم.

وأشار الله تعالى إلى الصباح والليل، لأن أكثر مشي المسافر على الدواب في الليل وأوائل النهار.

ثم ذكر الله قصة نبي آخر، وهو يونس بنُ متّى، الذي كان من أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله تعالى إلى قومه أهل نِينَوى بالموصل، ومضمون قصته: واذكر أيها النبي محمد حين هرب يونس من قومه، مغاضباً قومه، إلى سفينة مملوءة بالحمولة، بغير إذن ربه، فتعرضت السفينة للغرق، فاقترع الركاب فيما بينهم تخفيفاً من الحمولة الثقيلة على إلقاء بعضهم في البحر، فأصابت القرعة ثلاث مرات يونس عليه السلام، فألقوه في البحر، والفلك المشحون مفرد أو جمع: السفينة الموقرة.

فابتلعه الحوت الذي كان بجوار السفينة على الفور، وهو الذي أتى ما يلام عليه،

ثم استنقذه الله تعالى من بطن الحوت بعد مدة إما سبع ساعات أو ثلاثة أيام أو سبعة أيام. وجعل الله تعالى استنقاذه بسبب تسبيحه، بعد إنقاذ القدر السابق، والمراد: لولا أنه كان في حياته من الذاكرين الله كثيراً، المنزِّهين إياه، المصلين له، لبقي ميتاً في بطن الحوت إلى يوم القيامة، والتسبيح: صلاة التطوع في وقت الرخاء، نفعته في وقت الشدة، وهذا رأي جماعة من العلماء. وقال ابن جبير. هو قوله في بطن الحوت: سبحان الله إني كنت من الظالمين. فجعل الله الحوت يلقيه، في مكان خال من الناس والنبات، على جانب نهر دجلة، وهو عليل الجسد، سقيم البدن، كهيئة الصبي حين يولد.

وأنبت الله عليه شجرة فوقه، تظلله وهي شجرة القرع، وهي سريعة النمو، وبعد استعادة عافيته، أرسله الله عائداً إلى القوم الذين هرب منهم يائساً من إيمانهم إلى ركوب البحر، وهم أهل نينوى من أرض الموصل، وعددهم مئة ألف فأكثر، حيث وجدهم قد آمنوا بالله ربهم، بعد أن رأوا أمارات العذاب، فمتّعهم الله في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم ومنتهى أعمارهم.

مناقشة عقائد المشركين

بعد أن أورد الله تعالى في سورة الصافات أخبار جماعة من أنبياء بني إسرائيل، من قبيل إعداد المقدمات الموطّئة لمناقشة المشركين المكيين في عقائدهم، وجه الله تعالى إنذاراً يتضمن التوبيخ والتقريع للمشركين على فساد اعتقادهم وإنكارهم البعث، ونسبتهم البهتان إلى الله تعالى، وجعلهم البنات لله تعالى، تنزه الحق عن ذلك، وقالت فرقة منهم هم من بني مدلج قولاً بلغ غاية الإفك والكذب: ولد الله الملائكة، لأنه نكح في سُراة الجن، وهذه آيات مخبرة عن هذه الفصول الغريبة:

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ
﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى
ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ(١) نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾
سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ
بِفَٰتِنِينَ(٢) ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ(٣) ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ
﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ
ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٤٩-١٧٠].

هذه مناقشات للقرشيين المشركين في مكة في عقائدهم، حول إثبات التوحيد، ونفي الشرك، وإثبات البعث يوم القيامة. بدأت بعبارة الاستفتاء أي السؤال بمعنى التوبيخ والتقريع على أقوالهم المفتراة، فاسألهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتأنيب: كيف تجعلون لله البنات، وأنتم تكرهونهن أشد الكره، ولكم البنون الذين تحبونهم وتعتمدون عليهم في الغزو وتقوية القبيلة؟

إنها قسمة جائرة، وتوزيع عجيب غريب، ينسبون لله النوع الذي لا يختارونه لأنفسهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٢١-٢٢] أي جائرة.

بل كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث، وما شاهدوا خلقهم؟ فمثل ذلك الحكم يحتاج لمشاهدة، وهم لم يشاهدوا بدء خلق الملائكة، فلا دليل لهم على مزاعمهم. ألا إن قولهم هذا من محض الكذب والافتراء، الذي لا دليل عليه ولا شبهة دليل، وإن

---

(١) أي الملائكة، سموا بذلك لاستتارهم عن الأبصار، جعلوا بينهم وبين الله مصاهرة وصلة. (٢) بحاملين على الفتنة والإضلال. (٣) أي الداخل النار.

حكمهم في غاية الجور، فأي شيء يجعل الله مختاراً البنات دون البنين؟! مالكم تتورطون في هذا الحكم الظالم؟ أفلا تتدبرون بعقولكم وتتفكرون في أنفسكم، فتتذكروا بطلان قولكم؟!

بل ألكم حجة واضحة على هذا القول، فإن كان لكم برهان، فهاتوا برهانكم على ذلك، إن صدقتم في ادعائكم؟

وتكرار هذه الاستفهامات لتكرار التوبيخ والتبكيت والإنكار الشديد على أقوال المشركين في مكة. ومن أعظم افتراءات بعضهم وهم بنو مدلج أنهم جعلوا مصاهرة ونسباً بين الله تعالى وبين الجِنَّة، أي الملائكة، فقالوا: الملائكة بناتُ الله، ووُصفوا بالجِنَّة، لاستتارهم عن الأبصار. وتالله لقد علمت الملائكة علماً يقينياً أن أولئك المشركين لمجموعون للحساب والعذاب في النار، لكذبهم وافترائهم هذا.

تنزيهاً لله تعالى، وتقديساً له، عن كينونة ولد له، وعما يصفه به الظالمون المشركون، من أوصاف مفتراة.

نزلت هذه الآية كما نقل الواحدي عن المفسرين في قريش وأجناس من العرب: جهينة وبني سلمة وخزاعة، وبني مدلج أو بني مليح قالوا: الملائكة بنات الله . لكن عباد الله المخلصين وهم المتبعون للحق المنزل على رسله الكرام هم ناجون، فلا يُساقون إلى عذاب النار، وهذا استثناء منقطع.

ثم أعلن الله تعالى مدى عجز المشركين عن إضلال أحد، حيث خاطبهم: فإنكم وآلهتكم التي تعبدونها من دون الله لا تقدرون على فتنة أحد عن دينه، وإضلاله، إلا من هو أضل منكم، ممن هو داخل نيران الجحيم، في علم الله تعالى، وهم المصرّون على الكفر.

ثم نزّه الله تعالى الملائكة مما نُسبوا إليه من الكفر بهم والكذب عليهم، حيث أورد الله تعالى ذلك على لسان الملائكة بما قالوه: ليس منا ملَك إلا له مرتبة معلومة

من المعرفة والعبادة والمكان لا يتجاوزها، فهم درجات في طاعة الله تعالى، وإننا لنحن الصافون صفوفاً في مواقف العبادة. أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك قال: كان الناس يصلّون متبددين، فأنزل الله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ فأمرهم النبي ﷺ أن يصفّوا.

ثم أورد الله تعالى ما كان يقوله المشركون قبل البعثة النبوية إذا عُيّروا بالجهل فهم كانوا يقولون: لو كان عندنا كتاب من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل، لأخلصنا العبادة لله، ولم نكفر به، فجاءهم النبي محمد ﷺ بالقرآن المجيد، فكفروا به، فسوف يرون عاقبة كفرهم. وهذا وعيد محض، وتهديد على كفرهم بالله ورسوله وقرآنه، لأنهم تمنوا أمراً، فلما جاءهم الله به، كفروا واستهواهم الحسد.

مناصرة الرسل عليهم السلام

سبق القضاء الإلهي الحاسم، وتقرَّر فصل الأمر بأن الله ناصر رسله المرسلين، وكذلك جنده المؤمنين في الغالب، إذا نصروا دين الله تعالى، واستقاموا على أمره، وابتعدوا عن نهيه، وكلِّ ما يؤدي لسخطه وغضبه. ونَصْرُ أهل الحق والإيمان يقابله هزيمة أهل الكفر والعصيان، والضلال والخذلان، وسيجد كل فريق عاقبته، ونتيجة طريقته، وهذا حق وعدل، وإقرار لما يستوجبه فعل كل إنسان من خير أو شر، وإيمان أو كفر، وإعلان هذا القرار: إعذارٌ وبعد عن أي لوم أو عتاب، قال الله تعالى مبيناً هذا الحكم الأزلي الثابت:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ
فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ

﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٧١-١٨٢].

آنس الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأولياءه بأن القضاء قد سبق، وأن الوعد بالنصر والظفر لرسل الله الكرام على من جحد برسالتهم قد فُرغ منه، سواء في الدنيا أو في الآخرة، ففي الدنيا تكون الغلبة والقهر للرسل العباد: بأسر أعدائهم وتقتيلهم وتشريدهم، أو بإجلائهم، أو بتغلب الحجة والبرهان عليهم ونحو ذلك. وفي الآخرة بالظفر بالجنة والنجاة من النار. وهذا الحكم مقرَّر في الغالب، وإن كان النادر هو العكس. وجند الله: حزبه والمجاهدون في سبيله لإعلاء كلمة الله، وهم الرسل وأتباعهم. والنصر مشروط بنصرة دين الله وشرعه، واتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والعمل بالقرآن والسنة النبوية، لقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٧].

وسَبْق الكلمة: هو في الأزل بأن رسل الله إلى أرضه وجنود الله هم المنصورون على من ناوأهم، المظفَّرون بإرادتهم، المستوجبون الفلاح في الدارين.

فأعرض عنهم أيها النبي، واصبر على أذاهم لك، إلى مدة معلومة عند الله تعالى، فإنا سنجعل لك النصر في النهاية. وهذا وعد للنبي ﷺ، وأمر له بموادعة أو مهادنة المشركين إلى أمد معلوم. والحين أو الأمد: إما يوم بدر، ورجحه الطبري، أو موتهم، أو يوم القيامة.

ووعد آخر للنبي ﷺ ووعيد لهم، مفاده: أمهل هؤلاء المشركين، وانظر ماذا يحل بهم من العذاب بمخالفتك وتكذيبك، كالأسر والقتل. وسوف يبصرون كل ما وعدتهم به من العقاب ويرون عقبى طريقتهم، وما وعدناك به من النصر وانتشار الإسلام، وكرَّر الله تعالى هذا للتأكيد.

ثم وبّخ الله تعالى المشركين على مطالبتهم بتعجيل أو استعجال العذاب، فكيف يجرؤون على استعجال عذاب الله الشديد؟ إنهم يستعجلونه لتكذيبهم وكفرهم بالنبي محمد ﷺ. أخرج جويبر عن ابن عباس قال: قالوا: يا محمد، أرنا العذاب الذي تخوفنا به، عجّله لنا، فنزلت هذه الآية: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

فإن نزل العذاب بساحتهم، أي بفِنائهم أو موضعهم، فبئس ذلك اليوم يومهم، لإهلاكهم ودمارهم، وتعبير النزول بالساحة تستعمله العرب فيما يرد على الإنسان من خير أو شر. وسوء الصباح: يستعمل أيضاً عند العرب في ورود الغارات والرزايا ونحو ذلك.

ثم كرر الله تعالى أمر نبيه ﷺ بالإعراض عن هؤلاء المشركين إلى أجل آخر، يحين فيه هلاكهم، فسوف يرون ما يحل بهم من عقاب. وإعادة الأمر بالتولي أو الإعراض عن المشركين تحقيق لتأنيس النبي والعناية به.

وتنزيهاً لله ربك أيها الرسول تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما يمكن أن يصفه به أهل الضلالات، فالله هو رب العزة المطلقة، والمراد بالعزة هنا: أنه ربُّ العزة المخلوقة الكائنة للأنبياء والمؤمنين. والتحية من الله على المرسلين. وتوفير الثناء الحسن الجميل آخر الدهر، لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته، والحمدُ التام والشكر الكامل لله في الأولى والآخرة في كل حال، فهو سبحانه رب الثقلين: الإنس والجن، دون سواه. وهذا تعليم من الله للمؤمنين أن يقولوا ذلك.

أخرج ابن سعد وابن مردويه عن أنس عن أبي طلحة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلّمتم على المرسلين، فسلِّموا علي، فإنما أنا بشر من المرسلين».

والعزة في هذه الآية: ليست هي صفة الله تعالى، والتي من حلف بها كان ذلك يميناً، وإنما المراد بها عزته التي خَلَق بين عباده، فمن حلف بالعزة المخلوقة الكائنة للأنبياء والمؤمنين، فليس ذلك بيمين.

تفسير سورة صٓ

الرد على عقائد المشركين

أوضحت سورة (صٓ) أصول العقيدة الإسلامية: وهي التوحيد والنبوة والبعث، من خلال مناقشة المشركين في عقائدهم المناقضة لتلك الأصول، وإيراد نماذج من قصص الأنبياء السابقين للعظة والعبرة. ومن أخطر عقائد المشركين القول بتعدد الآلهة، بدليل قولهم في مطلع سورة (صٓ) ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا..﴾

أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب، فجاءته قريش، وجاءه النبي ﷺ، فشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا بن أخي، ما تريد من قومك؟ قال: أريد منهم كلمة، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية، كلمة واحدة، قال: وما هي؟ قال: لا إله إلا الله. فقالوا: إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب، فنزل فيهم: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾. قال الله سبحانه:

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ[(١)] ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم
مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ
﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ

(١) أي في استكبار عن الحق والإيمان به، وخلاف.

ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ
عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا
هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ
وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾
وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ[١] ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا[٢] قَبْلَ يَوْمِ
ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص: ٣٨/ ١-١٦].

افتتحت سورة (صٓ) بهذا الحرف للتنبيه لما يأتي بعدها، وللتحدي وإثبات إعجاز القرآن بأنه متكون من أمثال هذا الحرف، فهل يمكن للعرب معارضته؟ وتالله إن القرآن الكريم كلام الله المعجز، وإن محمداً لصادق في نبوته، وإن القرآن ذو شرف ورفعة باقية خالدة و يختص حرف (صٓ) في هذا الموضع بأن معناه: صدق الله وصدق رسوله محمد.

بل إن الذين أشركوا في استكبار عن قبول الحق والإيمان به، ومخالفةٍ لله ورسوله، ومعاندة ومكابرة، وكثيراً ما أهلك الله من قَبْل مشركي قريش كثيراً من الأمم الخالية، بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من عند الله تعالى، ونادوا حين نزول العذاب بهم طالبين النجاة والغوث، فلم يفدهم النداء وقتئذ شيئاً، لأن الوقت ليس وقت خلاص وفرار من العذاب بعد المعاينة، والقرن: الأمة من الناس في زمن واحد.

وتعجب مشركو مكة من إرسال رسول مبشر ومنذر منهم ومن أنفسهم

---

(١) أي ليس فيها مدة انتظار كالمدة بين الحلبتين أو الرضعتين . (٢) أي قسطنا من العذاب أو كتاب أعمالنا .

وعروبتهم، وقالوا لما رأوا معجزاته الباهرة: هذا ساحر خداع كذاب فيما يدعيه من النبوة. وهذا دليل على أنهم كذبوا الرسول من غير حجة ولا برهان.

ثم رد الله تعالى على شبهات ثلاث للمشركين تتعلق بالألوهية أو التوحيد، وبالنبوة، وبالمعاد. أما توحيد الإله: فلم يؤمنوا به وقالوا: أصير محمد الآلهة إلهاً واحداً، وهو الله؟ إن هذا لشيء غريب عجيب، بالغ النهاية في العَجَب. وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب قائلين: امضوا على ما كنتم فيه، واثبتوا على عبادة آلهتكم، واصبروا على التمسك بها. ما سمعنا بهذه الدعوة إلى توحيد الإله في آخر الملل وهي النصرانية، وما هذا إلا افتراء وكذب، لا حقيقة له، ولا مستند من الوحي والدين السماوي.

وأما النبوة: فأنكروا نبوة محمد قائلين: كيف يَنْزل القرآن على محمد دوننا، ونحن الرؤساء والأشراف؟ بل الحقيقة إنهم في شك من القرآن أو الوحي، وهذا الشك؛ لأنهم لم يذوقوا العذاب الإلهي، فإذا تعرضوا له صدَّقوا بالقرآن، وزال عنهم الشك، ولو ذاقوا العذاب، لتحققوا أن هذه الرسالة حق، أي إنهم لجهالتهم لا يبين لهم النظر، وإنما يبين لهم مباشرة العذاب.

فرد الله تعالى عليهم: بل إنهم باستبعادهم رسالة محمد ﷺ، هل يملكون مفاتيح خزائن الله ونعمه البالغة ورحمته التي فيها الهدى والنبوة وكل فضل، والله هو المانح لهذه النعم الكثير المواهب، حتى يعطوا نعمة النبوة لمن يشاؤون؟ والخزائن للرحمة: مستعارة، كأن المعنى: موضع جمعها وحفظها. بل أهم يملكون السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات والعوالم، فإن فرض أنهم يملكون، فليصعدوا في المعارج التي توصلهم إلى السماء، حتى يحكموا بما يريدون من عطاء ومنع. إنهم حقيرون ذليلون، وما هم إلا جند مغلوبون هنالك حيث يتحزبون فيه على المؤمنين.

وكلمة (أم) فيها معنى الإضراب عن الكلام الأول، والاستفهام، وقدرها سيبويه بـ (بل والألف) كقول العرب: «إنها لإبل أم شاء». والإشارة بـ (هنالك) في قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى الارتقاء في الأسباب، أي هؤلاء القوم إن راموا ذلك هم جند مهزوم، من جملة الأحزاب والأمم المتعصبين في الباطل، والمكذبي الرسل، فأخذهم الله تعالى. و(ما) في قوله ﴿جُندٌ مَّا﴾ زائدة مؤكِّدة، وفيها تخصيص.

ثم قارن الله وضع قريش بأمثالهم الغابرين، فلقد كذبت الرسل قبل قريش، قوم نوح، وقبيلة عاد، وفرعون ذو الأوتاد، أي المباني العظيمة الثابتة، والحكم الراسخ، وقبيلة ثمود قوم صالح، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، أي غيضة الشجر، أولئك الأحزاب، أي الموصوفون بالقوة والكثرة، كمن تحزب عليك أيها النبي عام الخندق بالمدينة.

لقد كذب كل هؤلاء الأقوام رسلهم الكرام، فوجب العقاب الإلهي لهم، جزاء وفاقاً. وما ينتظر كفار قريش إلا عقاباً بنفخة الساعة التي هي النفخة الثانية-نفخةُ الفزع التي ينفخها إسرافيل، فتطال جميع أهل السماوات والأرض إلا من استثنى الله، وليس لتلك النفخة انتظار كالمهلة التي بين الحلبتين، بل هي متصلة حتى مهلكهم.

وقال مشركو مكة وأمثالهم تهكماً واستهزاء حين سمعوا بتهديد العذاب في الآخرة: ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به، ولا تؤخره إلى يوم القيامة. وهذا إنكار من الله على المشركين في مطالبتهم بتعجيل العذاب، وهو يتضمن إنكارهم البعث.

نعم الله على داود عليه السلام وفصله في الخصومة بين رجلين

توالت الأخبار وإيراد قصص الأنبياء السابقين في القرآن الكريم، لتذكّر أحوالهم، والتأسي بهم في صبرهم على أذى أقوامهم، محتسبين الأجر عند الله تعالى. وكان الخطاب فيها للنبي ﷺ ليتأسى بهم، ويهوّن عليه إعراض قومه عن دعوته، فتلك هي سيرة الأقوام الماضين مع رسلهم، وفي تلك القصص بيان أنواع النعم الإلهية التي أنعم الله بها على أولئك الأنبياء في صراعهم مع أقوامهم، وصبرهم عليهم، ثم نجاتهم وتدمير أعدائهم.

وهذه قصة نبي الله داود عليه السلام، وهي قصة مثيرة للعَجَب والعبرة، قال الله تعالى:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ[1] إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ[2] ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً[3] كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ[4] لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٣٨/١٧-٢٦].

---

(١) أي صاحب القوة والجلد. (٢) أي كثير التوبة والرجوع إلى الله. (٣) أي مجموعة. (٤) أي الشركاء.

تضمنت الآيات بيان عشر صفات لداود عليه السلام أنعم الله بها عليه، وهي: اصبر أيها النبي محمد على ما يتقوله قومك من الأقاويل التي يريدون بها الاستخفاف، ولا تلتفت إليها، واذكر عبدنا داود ذا القوة في الدين والصّدع به، فتأسَّ به وتأيد كما تأيد. والأيد: القوة، وهي في داود متضمنة قوة البدن وقوة الطاعة. وهو الأوّاب: الرجاع إلى طاعة الله تعالى في جميع أموره وشؤونه. وهو الصبور على طاعة الله تعالى.

وهو عبد لله محقِّق معنى العبودية بمعنى التذلل والخضوع والانقياد والاجتهاد في الطاعة. وهذه أربع صفات، والخامسة والسادسة: أن الله تعالى سخر الجبال والطير معه وذللها، تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار.

والسابعة: جمع الطيور وجعلها مع الجبال مطيعة له، تسبح الله تبعاً له، حال كون الطيور محبوسة في الهواء، فكلما سبّح داود جاوبته، وهذا يدل على أن داود عليه السلام كان حسن الترتيل، جميل الصوت.

والثامنة: قوة الملك، فقد قوينا ملكه وأيدناه بكل ما وهبناه إياه من قوة وجُنْد ونعمة.

والتاسعة: إيتاء الحكمة، فإنا أعطيناه الفهم والعقل والفطنة وفهم الدين وجودة النظر، والعلم الذي لا ترده العقول، والعدل، وإتقان العمل والحكم السديد.

والعاشرة: حسن الفصل في الخصومات، فإنا ألهمناه حسن الفصل في القضاء بين الناس بالحق، وإصابتَه وفهمَه، وإيجاز البيان، ومنها إيجاب اليمين على المدعى عليه، والبينة على المدعي، وكان إذا خاطب في مسألة، فصّل المعنى وأوضحه، لا يتلكأ، ولا يعجز عن البيان، ولا يعتريه ضعف، فكان كلامه عليه السلام فصْلاً.

ومن قضائه أنه تسلق عليه المحراب في يوم العبادة وفي غير يوم المحاكمة رجلان،

ففزع منهم، فقالا له: لا تخف، نحن متخاصمان جار بعضنا على بعض، فاحكم بيننا حكماً عادلاً، ولا تتجاوز الحق في الحكم ولا تُبعد في الحكم، واهدنا أو أرشدنا إلى طريق الحق والعدل. وسواء الصراط: وسطه والواضح منه.

واستفتحت الآيات بالاستفهام: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ..﴾ تعجباً من القصة وتفخيماً لها. وعبر عن الاثنين بالجمع: ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ و﴿دَخَلُوا۟﴾ و﴿قَالُوا۟﴾ على جهة التجوز في العبارة عن الاثنين، بلفظ الجمع. والمحراب: الموضع الأرفع من القصر أو المسجد، وهو موضع التعبد. وفزعه بسبب دخولهم من غير الباب ودون استئذان.

وموضوع الخصومة: إن هذا أخ لي في الدين والإنسانية، يملك تسعاً وتسعين شاة، وأملِك أنا شاة واحدة، فقال: ملّكنيها، وغلبني في المخاصمة والجدال، والحجة. والنعجة: أنثى الضأن. فقال داود عليه السلام بعد إقرار المدعى عليه بالدعوى: لقد ظلمك بهذا الطلب، وطمع عليك. وإن كثيراً من الشركاء في المال ليعتدي ويستطيل بعضهم على بعض، إلا من آمن بالله وخاف ربه، وعمل صالح الأعمال، وهؤلاء المؤمنون الصالحون قلة، وشعر داود وعلم أنما اختبرناه وامتحناه، بهذه الواقعة، فاستغفر ربه لذنبه وهو سوء ظنه بالخصمين، وأنهما أتيا لاغتياله، لوقوع اغتيالات في أنبياء بني إسرائيل، وخرّ ساجداً، وعبّر بالركوع عن السجود، لأن القصد منهما التعظيم، ورجع إلى الله بالتوبة من ذنبه.

والعرب تعبر بالظن عن المعلومات الناجمة من غير الحواس، ولا يستعمل الظن بمعنى اليقين التام البتّة، كما ذكر ابن عطية في تفسيره.

فغفر الله له سوء ظنه، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، وإن له عند ربه لقربى ومكانة رفيعة وحسن مرجع في الآخرة وهو الجنة.

يا داود إنا جعلناك حاكماً بين الناس في الأرض، فاقض بين الناس بالعدل، ولا

تتبع أهواء النفس أو مطامع الدنيا، فيوقعك ذلك في الضلال والانحراف عن الحق، إن الذين يحيدون عن طريق الحق والعدل، لهم عقاب شديد يوم القيامة، بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم وتركهم الاستعداد له. والمقصود من ذلك تنبيه الحكام والقضاة على الحكم بين الناس بالحق والعدل.

التميز في الحساب بين المصلحين والمفسدين

قد تكون كثرة النعم مُنْسية شكر المنعم، إذا كان الإنسان غارقاً في الأهواء والشهوات، مُمْعِناً في الكفر والضلال، بعيداً عن إشعاعات وأنوار الهدي الإلهي، خاليَ القلب من الإيمان وتوجيهات القرآن، ومن هنا لا غرابة أن يظن الكافرون أن خلق السماوات والأرض إنما هو باطل لا معنى له، كما ينسون النعم الدائمة، المعطاة لهم من أرزاق وخيرات، وقوة وعافية، ووعي وتفكير، وعلم ومعرفة وغير ذلك. ويترتب على هذا أنه لا مساواة في الحساب بين الجاحدين والمفسدين، وبين المؤمنين والمصلحين، وعلى الجميع أن يطلبوا الإيمان والتقوى من كتاب الله العزيز، قال الله تعالى واصفاً هذه الأحوال:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٢٧-٢٩].

هذه الآيات واردة بين قصتي داود وسليمان، عظة لأمة النبي ﷺ، ووعيداً للكفرة بالله تعالى.

أخبر الله تعالى أن الذين كفروا يظنون أن خلق السماوات والأرض وما بينهما، إنما هو باطل لا معنى له، وأن الأمر لا يؤول إلى ثواب وعقاب، فرد الله تعالى

عليهم مكذباً ظنهم، ومتوعداً إياهم بالنار، فالله تعالى لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثاً لا حكمة فيه، أو لهواً ولعباً، وإنما خلق ذلك للدلالة على قدرته العظيمة، ومن أجل العمل فيهما بطاعته وعبادته وتوحيده، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٦].

ثم أخبر الله تعالى عن كذب ظن الكافرين، وتوعَّدهم بالنار، أي إن ظن الذين كفروا بأن هذه المخلوقات العظمى خلقت عبثاً لغير غرض، فلا قيامة ولا حساب، هو ظن خطأ كاذب، فيا هلاك هؤلاء الكافرين في النار يوم المعاد والنشور، جزاء ما قدموا من الشرك والعصيان، وجحود نعم الله تعالى، وإنكار البعث.

وأبان الله تعالى الفرق في الحساب عنده بين المؤمنين العاملين بالصالحات وبين المفسدين الكفرة، وبين المتقين والفجّار، فليس من العدل والمعقول والحكمة التسويةُ بين الفريقين. والمعنى: بل أنجعل الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، وعملوا بفرائضه، وأصلحوا أعمالهم، فأدوا الفرائض والواجبات على وجه متقن، كالمفسدين في الأرض بالمعاصي والجحود، أم نجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين والمنافقين والعصاة؟ ليس ذلك حقاً ولا عدلاً، ولا حكمة ولا نظاماً سوياً.

وفي هذا البيان والتفرقة بين الفريقين حض على الإيمان وترغيب فيه، ووعيد للكفرة والجاحدين. ونظير الآية كثير في القرآن المجيد، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٣٤-٣٦].

ثم أحال الله تعالى في طلب الإيمان والتقوى، على كتابه العزيز بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي هذا كتاب لمن أراد التمسك بالإيمان والقربة إلينا، إن طريق السعادة الأبدية: هو اتباع القرآن الذي أنزله الله هدىً ورحمة للمؤمنين، وهو كثير الخير

والبركة، فيه الشفاء النافع لمن تمسَّك به، والنجاةُ لمن اتبعه، وقد أنزله الله تعالى للناس للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر وإمعان، وليتعظ أهل العقول الراجحة به وببيانه. وقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ أي لتتدبروا آياته.

قال الحسن البصري رحمه الله: والله ما تدبرُّه بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يُرى للقرآن عليه أثر في خُلُق ولا عمل.

وفي هذه الآية اقتضاب وإيجاز بديع، كإعجاز كل القرآن العزيز. ووصف القرآن بالبركة، لأن أجمعها فيه، فهو يُورث الجنة، ويُنقذ من النار، ويحفظ المرء في حال الحياة الدنيا، ويكون سبب رفعة شأنه في الحياة الآخرة.

وظاهر هذه الآية يقتضي أن التدبر من أسباب إنزال القرآن، فالترتيل أفضل من أجل هذا، إذ التدبر لا يكون إلا مع الترتيل، والترتيل وسيلة لفهم المعاني، والاتعاظ بالأحكام، والاسترشاد بالهدي القرآني، وحمل الإنسان على الاتباع والالتزام، وترك هَجْر القرآن، كما عليه حال بعض الناس اليوم.

والآية أيضاً دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، والمعرفة تقود إلى الاتباع، قال الحسن البصري: تدبر آيات الله: اتباعها.

إن من أجلّ مقاصد القرآن إصلاح الحياة الإنسانية، بإصلاح الفرد والجماعة، وإصلاح الروابط والعلاقات في جميع مجالاتها وأنواعها.

نعم الله تعالى على سليمان عليه السلام

أفاض الله فيض نعمه السخية على سليمان، كما أفاض على أبيه داود عليهما السلام، واستمرار هذا الفيض الإلهي يقتضي أن يُشكَر المحسن، ويتعظ المسيء بما

يجده في قصتي داود وسليمان عليهما السلام من عبر وعظات، فإنهما جمعا بين الملك العظيم في الدنيا، والنبوة والرسالة، ولم يمنعهما ذلك الملك من شكر الله وعبادته وطاعته، فهل لقريش وغيرها من الزعامات أن يجدوا في هذه القصة ما يحملهم على شكر المنعم، وعبادته؟ قال الله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ[١] ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ[٢] ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

[ص: ٣٨/ ٣٠-٤٠].

وهب الله تعالى سليمان ولداً لداود عليهما السلام، وأثنى عليه بأوصاف من المدح تضمنها قوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ والهبة والعطية بمعنى واحد، والمعنى: لقد أعطينا داود ابناً نبياً وهو سليمان، وهو عبد لله صالح، لأنه رجّاع إلى الله تواب، كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل في أكثر الأوقات. وذكر الله تعالى واقعتين لسليمان من وقائع توبته.

الأولى- قصة عرض الخيل عليه. والمعنى: اذكر أيها الرسول محمد مادحاً حين عرض على سليمان عليه السلام في مملكته وسلطانه بعد العصر آخر النهار الخيول (الجياد) القائمات على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة[٣]، وهي آلاف تركها له

(١) أي الخيول القائمات. والجياد: السراع في العَدْو. (٢) أي القيود والأغلال. (٣) وهذه علامة الفراهة أي النشاط والحيوية مع الجمال وحسن المنظر.

أبوه، ليتعرف أحوالها، ويستعرضها، كالاستعراضات العسكرية اليوم، فقال سليمان: لقد أحببت هذه الخيل وآثرتها على غيرها حباً حصل بذكر الله وأمره، لابهواي وشغفي، فكانت تركض حتى تغيب عني بسبب الغبار وبُعْد المسافة. وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ معناه: أحببت هذه الخيل حبَّ الخير، أو آثرت محبتها[١]. ومواراتها بالحجاب: بعدها عنه. والمراد: أن حبه للخيل لم يكن إلا امتثالاً لأمر الله بربط الخيل لتكون عدة الجهاد في سبيل الله، وتقوية دينه، ونشره بين الناس.

والخير عند بعضهم: هو الذي عند الله في الآخرة بسبب ذكر ربي. والظاهر أن المراد بالخير: هو المال، لكثرة استعماله في المال عند العرب. وقال أبو حيان: الخير عند العرب تسمى الخيل.

والخلاصة أو المراد: أحببت الجياد الصافنات أو عرضها حباً مثل حب الخير، منيباً لذلك عن ذكر ربي، وليس المراد بالخير هو الخيل فقط.

ثم أعاد سليمان عليه السلام عرض الصافنات أمامه، فقال: أعيدوا هذه الخيل إلي، فلما عادت جعل يمسح بيده سيقانها وأعناقها ونواصيها، تشريفاً لها وتكريماً وتدليلاً، ومحبة لها، وسروراً بها. وطفق: معناه دام يفعل. ولا يصح القول بأن عرضها عليه ألهاه عن صلاة العصر حتى غربت الشمس، أو أنه قطّع قوائم الخيل بالسيف، فذلك من الإسرائيليات. وإنما المراد: اختباره بمحبة الخيل حباً شديداً، لمعرفة مدى تواضعه والبعد عن الاغترار، واشتغاله بالعرض والندم عليه.

والواقعة الثانية: إلقاؤه جسداً على كرسيه: والمعنى: تالله لقد اختبرنا سليمان عليه السلام باختبار آخر، وهو كما قال الرازي الفتنة في جسده، حيث ابتلاه الله

---

(١) وعلى التأويل الأول يكون (حب) منصوباً على المصدر، وعلى التأويل الثاني بتضمين الفعل معنى آثرت.

بمرض شديد في جسمه، حتى نحل جسمه، وأصبح هزيلاً، ثم أناب، أي رجع إلى حال الصحة، وقال: رب اغفر لي ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله، وهذا من باب السمو بتصور الخطيئة، التي لا تَعْدو أن تكون تركاً للأفضل والأولى، وامنحني ملكاً عظيماً لا يحصل لأحد غيري مثله، إنك أنت الكثير الهبات والعطايا، فأجب دعائي. ويكون المراد بإلقاء الجسد على كرسيه: أنه مرض مرضاً كالإغماء، حتى صار على كرسيه جسداً، كان بلا روح. والمراد بقوله ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ أن يتفرد به بين البشر كرامة له.

فأجاب الله دعاءه ومنحه خمس نعم هي:

١- لقد ذللنا الريح، تنقاد لأمره، وتجري لينة طائعة في قوة وسرعة، تحمله حيث اتجه إلى أي مكان أراده.

٢- وذللنا له أيضاً الشياطين تعمل بأمره، إما في بناء المباني العظيمة، وإما في الغوص في البحار، لاستخراج الدرر واللآلئ والمرجان، وإما في أعمال أخرى.

٣- وذللنا له شياطين آخرين، وهم مردة الشياطين، حتى إنه قرنهم في القيود والسلاسل، قمعاً لشرهم، وعقاباً لهم. ومقرنين: موثقين.

٤- وجعلنا له حرية التصرف فيما أعطيناه من الملك العظيم والثروة، والسيطرة على الريح والشياطين، وأذنّا له أن يمنح من ثروته من يشاء، ويمنع من يشاء، بلا حساب عليه في الإعطاء أو الإمساك (المنع) أو يمنّ على من شاء من الجن فيطلقه أو يقيده كما قال قتادة.

٥- وإن له في الآخرة لقربى وكرامة عند الله تعالى، وحسن مرجع وهو الجنة، وفيض ثواب، فهو ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة.

إن هذه النعم العظيمة على سليمان عليه السلام تدل على عظيم فضل الله، وعلى

أن سليمان كان نبياً ورسولاً من الصالحين كأبيه، لم يصدر عنه إلا كل ما هو خير متفق مع مقتضى الرسالة، ودعوة الناس إلى عبادة الله وشكره وليس دعاؤه بطلب ملك يتفرد به مراداً به: أنه لا يعطي الله تعالى نحو ذلك الملك لأحد، وإنما المبالغة في هبة الملك وطلبه.

محنة أيوب عليه السلام

أيوب عليه السلام: هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، من ذرية يعقوب عليه السلام، وهو المبتلى في جسده وماله وأهله، ولكن صبر وسَلِم معتقده ودينه، ولم يكن ابتلاؤه بمرض مُعْدٍ أو منفّر طبعاً، خلافاً لما زعم بعضهم، وإنما كان مرضه جلدياً مضعفاً غير منفر، وبعد أن طال صبره دعا ربه، فأوحى إليه بالاغتسال والشرب من ماء نابع، حفره بقدمه، فشفي وعوفي، ورد الله عليه أهله وزاده مثلهم في الذرية، وافتدى الله يمينه بضرب زوجته بعود فيه مئة قضيب من الشجر الرطب، فيضرب به ضربة واحدة، يبر بها يمينه. وهذه حكاية محنته وبلواه وزوالها عنه. قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ[1] وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا[2] فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٤١-٤٤].

الاعتبار والاتعاظ بقصص الأنبياء السابقين هو غاية إيراد قصصهم، فمنهم كثير

(١) أي بضر ومشقة وتعب. (٢) حزمة صغيرة من حشيش أو شجر رطب.

النعمة كداود وسليمان عليهما السلام، ومنهم من ابتلي وامتحن بالمرض كأيوب عليه السلام، ففي حال النعمة شُكْر وحَمْد، وفي حال النقمة صبر وتفويض لله.

والمعنى: اذكر أيها النبي محمد لقومك مدى صبر أيوب عليه السلام على مرضه مدة طويلة من الزمان، قيل: هي نحو من ثماني عشرة سنة، اذكره حين دعا ربه: بأنني قد مسني الضر، وألحق بي الشيطان الضر والمشقة والألم. ولم يكن مرضه منفِّراً الناس منه، وإنما هو مرض جلدي ظاهري، قابل للشفاء. أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أن أيوب عليه السلام بقي في محنته ثماني عشرة سنة.

فأجاب الله دعاءه، وأمره أن يضرب برجله الأرض، فنبعت عين جارية، فاغتسل فيها، وشرب منها. وقوله: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ الركض: الضرب بالرِّجل. والمعنى اركض الأرض، ولما فعل ذلك عوفي من مرضه.

وأعاد الله له أيضاً أهله وولده الذين تركوه، ووهب له ماله في الدنيا ورد ما هلك من ماشيته، وبارك في جميع ذلك، ووُلد له الأولاد حتى تضاعفت الحال، رحمة من الله به، وتذكرة لأصحاب العقول السديدة، فإن ما بعد الصبر والشدة إلا الفرج، وما بعد العسر إلا اليسر.

وكانت زوجته تتردد عليه مدة مرضه، فيوسوس لها الشيطان ويقول لها: لو سجد هذا المريض للصنم الفلاني لبرئ، ولو ذبح عناقاً (أنثى المعز أو الضأن إلى تمام الحول) للصنم الفلاني لبرئ، ويعرض عليها وجوهاً من الكفر، فكانت ربما عرضت ذلك على أيوب، فيقول لها: ألقِيت عدو الله في طريقك؟ فلما أغضبته بهذا ونحوه، حلف لئن برئ من مرضه ليضربنها مئة سوط.

فلما برئ، أمره الله تعالى أن يأخذ بيده قبضة أو حُزمة كبيرة من القضبان ونحوها

من الشجر الرطب، فيضربها به ضربة واحدة فتبر يمينه. وهذا حكم ورد في شرعنا حيث أخرج أبو داود عن النبي ﷺ مثله في حد رجل زَمِن (مريض مرضاً مزمناً) بالزنى، فأمر رسول الله ﷺ بعِذْق (عدد من النخيل) فيه مئة شمراخ أو نحوها، فضُرب به ضربة. وقال به بعض الفقهاء وهو الإمام الشافعي.

ثم أثنى الله تعالى على أيوب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي لقد وجدناه صابراً على البلاء الذي ابتليناه به في جسده، وذهاب ماله وأهله وولده، نِعْم الرجل العبد لله أيوب، إنه رجّاع إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار، زيادة في حسناته، ورفع درجته، لا بسبب ذنب ارتكبه، فجازيناه بتفريج كربته، مع أنه ليس في الشكوى إلى الله إخلال بالصبر، ولكن إيمان الأنبياء المطلق الذي يستلهمون منه أن الله تعالى عليم بهم، قد لا يطلبون من الله شيئاً، لإذهاب همهم وغمهم، كما فعل إبراهيم عليه السلام حينما ألقي في النار، لم يَدْعُ ربه، وإنما قال: «علمه بحالي يغنيه عن سؤالي».

وروي عن أيوب عليه السلام: أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة: «اللهم أنت أخذت، وأنت أعطيت» وكان يقول في مناجاته: «إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يُلْهني ما ملكت يميني، ولم آكل إلا ومعي يتيم، ولم أبتْ شبعان ولا كاسياً، ومعي جائع أو عُريان».

هذه أمثلة عالية من مواقف أيوب عليه السلام، تعدّ ذخراً عظيماً، وقدوة حسنة للمؤمنين، فلا يصدر عنهم في وقت المرض أو المحنة أو الأذى إلا ما يتفق مع الأدب مع الله تعالى والتفويض إليه.

نعم الله تعالى على إبراهيم وذريته عليهم السلام

هذه أيضاً كما سبق سيرة طيبة عبقة لثُلّة من الأنبياء، يراد بها العظة والعبرة، والتعليم للبشر، والتخلق بأخلاقهم، والعمل بأعمالهم التي من أجلها استحقوا ما أعد الله لهم ولأمثالهم في هذه الآيات الآتية من الثواب الجزيل والنعيم العظيم. تضمنت الآيات أمر النبي محمداً عليه الصلاة والسلام أن يذكر للعبرة والعظة صبر إبراهيم حين ألقي في النار، وصبر إسحاق في دعوة بني إسرائيل إلى الرشاد، وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره، وصبر إسماعيل للذبح، وصبر اليسع وذي الكفل على أذى بني إسرائيل، قال الله تعالى واصفاً كل ذلك بإيجاز بديع:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ(١) ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ(٢) أَتْرَابٌ(٣) ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ(٤) ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٤٥-٥٤].

هذه أخبار سارّة عن فضائل الأنبياء والمرسلين، اذكر أيها الرسول محمد عمل وصبر مجموعة من عبادنا المرسلين: إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي القوة في العبادة والبصيرة النافذة، فإنهم دأبوا على الطاعة، وقوّيناهم على العمل الصالح المرضي.

وذلك لأننا خصصناهم بميزة خالصة، وهي العمل للآخرة، والتزام الأوامر، واجتناب النواهي، لتذكرهم الآخرة، وإيمانهم المطلق بها، وذلك شأن الأنبياء والرسل.

---

(١) أي المختارين الخيّرين. (٢) حابسات نظرهن على الأزواج. (٣) أي لدات في سن واحدة. (٤) أي انقطاع وفناء.

وقوله: ﴿ذِكۡرَى﴾ مصدر، و﴿ٱلدَّارُ﴾ منصوبة بـ (ذكرى) على معنى: أخلصناهم بأن خلص لهم التذكير بالدار الآخرة، ودعوا الناس إليها، وحضوهم عليها.

وإنهم عند الله لمن المختارين من أبناء جنسهم، الخيّرين، المطبوعين على حب الخير وفعله، فلا يميلون للأذى، وليس في قلوبهم شيء من الضغينة والحقد والحسد والبغض لأحد، ولا يقترفون منكراً، ولا يرتكبون معصية، فهم أخيار مختارون من الله تعالى.

واذكر أيضاً أيها النبي الرسول محمد صبر إسماعيل واليسع وذي الكفل وأعمالهم الصالحة، فكل منهم أيضاً من الأخيار المختارين للنبوة وأداء الرسالة الإلهية. ثم أخبر الله تعالى عن الهدف من إيراد هذه الأخبار النبوية، فهذه الآيات القرآنية التي تعدّد محاسن هؤلاء الأنبياء تذكُّر لهم وتنويه، وذكر جميل في الدنيا، وشرف يُذكرون به أبداً، وإن لهم وللمتقين أمثالهم لحسن مرجع، يرجعون فيه في الآخرة إلى مغفرة الله ورضوانه ونعيم جنته. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞ﴾ إشارة إلى القرآن، أي هو ذكر للعالم.

ثم فسّر الله تعالى المقصود بالمرجع وحسن المآب: وهو أن لهم جنات إقامة دائمة، مفتَّحة لهم الأبواب، فإذا قدموا فتحت لهم أبواب الجنة، إكراماً لهم، تفتحها الملائكة ليدخلوها مكرمين. وفي هذا إيماء بتخصيصاتهم وبسعتها وبهائها.

تراهم متكئين في الجنات على الأرائك والأسرّة، يطلبون ما لذّ وطاب مما شاؤوا من أنواع الفاكهة الكثيرة، وأنواع الشراب الكثير العذب الطيب وغير ذلك، فمهما طلبوا وجدوا، وأُحضر كما أرادوا.

ولهم زوجات قاصرات حابسات طرفهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهن،

وهم لدات: متساويات في السن والحسن والجمال، يحب بعضُهن بعضاً، فلا تباغض ولا غيرة عندهن في نفوسهن.

وهذا المذكور من صفات الجنان: هو الذي وعد الله به تعالى عباده المتقين، وهو الجزاء الأوفى الذي وُعدوا به، وأجّل ليوم الحساب في الآخرة، بعد البعث والنشور من القبور.

وصفة هذا النعيم: الدوام، فهذا الذي أنعمنا به عليكم لرزق دائم لا انقطاع له ولا فناء أبداً، كما جاء في آيات أخرى، منها: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٦]. ومنها: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١١/ ١٠٨] ومنها: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٢٥] أي غير منقطع. ومنها: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٥].

إن الترغيب بالنعيم محبَّب لدى النفوس البشرية، مما يجعلهم طامعين بتحصيله، حريصين على الوصول إليه، فهو من جملة البواعث والدوافع، إلى الطاعة والتأسي بالأنبياء الكرام، تنزلاً في تحقيق الرغبات لمستوى طبائع البشر وتطلعاتهم، لا أن الله ناصب نفسه لتلبية الأهواء، فهذ طبع للبشر، قصد به الترغيب.

عقاب الطغاة

كلما تلا الإنسان آيات العذاب الشديد وألوان العقاب للكافرين الطغاة، اقشعر بدنه وارتعدت فرائصه، وخاف أن يناله شيء من ذلك، لشدة الوصف، وقسوة العذاب، وتصويره كأنه واقع ماثل أمامه، يراه ولا يطيق تحمله، وحدوث هذا التأثر، والتفاعل مع الوصف، يحمل المؤمن على تفادي الأسباب، والبعد عن

موجبات العذاب، والبحث عن موجبات الرحمة والمغفرة، والنجاة والتخلص من آفات العقاب وويلاته في الآخرة.

وهذه آيات تصف ما يستحقه أهل الكفر والطغيان، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٥٥-٦٤].

المعنى: الأمر المذكور في آيات سابقة وهو جزاء المؤمنين هذا، وهذا واقع أو قائم، وإن للطغاة الكافرين الخارجين عن حدود الطاعة الإلهية، المكذبين لرسله، لسوء مصير، وشر مآب أو مرجع. ذلك المصير: هو إصلاؤهم في نار جهنم وإحراقهم، فبئس الفراش الذي مهدوه لأنفسهم، أي كأن ما تحتهم من النار كالمهاد أو الفراش. والطاغي: المفرط في الشر، والطغيان المراد هنا: هو الكفر، والمآب: المرجع، وجهنم بدل من قوله: ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ ويصلونها: يباشرون حرها وحرقها، والمهاد: ما يفرشه الإنسان ويتصرف به.

الأمر هذا فليذوقوه، أو هذا حميم: وهو الماء الحار فليذوقوه، وهذا هو الغساق: صديد أهل النار السيال بتجرعونه.

ولهم عذاب آخر كالحميم والغساق، أشد كراهية وإيلاماً كالزقوم، وتلك ألوان من العذاب المختلفة المتضادة.

وتقول الطائفة الأولى التي تدخل النار مع زبانية جهنم: هذا فوج أي جمع كبير أو كثير داخل معكم، لا مرحباً بهم، أي لا كرامة لهم، إنهم داخلو النار كما دخلناها.

وقوله تعالى: ﴿مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾ أي من مثله وعلى شاكلته. و ﴿أَزۡوَٰجٌ﴾ أي أصناف وأجناس. و ﴿مُّقۡتَحِمٞ﴾ داخل فيها بشدة.

فيقول الأتباع لقادتهم: بل أنتم لا مرحباً بكم، أي لا كرامة لكم ولا خير تلقونه ولا سعة مكان، وأنتم أحق بهذا منا، إنكم بإغوائكم أسلفتم لنا ما أوجب هذا، فكأنكم فعلتم بنا هذا، فبئس المقر جهنم لكم ولنا.

فيقول الأتباع أيضاً للرؤساء: يا ربنا كل من أوردنا هذا المورد، في النار، فزده عذاباً مضاعفاً في جهنم عقاباً على الكفر والإضلال.

وقال جماعة من زعماء الكفر تحسراً وتعجباً: ما لنا لا نجد في النار رجالاً كنا نعدهم في الدنيا أشراراً لا خير فيهم؟! يريدون بذلك ضعفاء المؤمنين، كعمار وخباب وصهيب وبلال وسالم وسلْمان. والزعماء القائلون هذا في عهد النبي ﷺ: هم أبو جهل بن هشام، وأمية بنُ خلف، وأهل القليب (أهل البئر الذين دفنوا فيه من زعماء المشركين في بدر). ويريدون بقولهم: «كنا في الدنيا نعدُّهم أشراراً لا خلاق لهم» أنهم في زعمهم سيكونون في النار. هل لأننا سخرنا منهم أو سخرناهم في أعمال الدنيا، فلم يدخلوا النار، أم مالت عنهم الأعين والأبصار، وهم في الجنة؟! أمفقودون هم أم زاغت عنهم الأبصار؟ والمعنى: أليسوا معنا، أم هم معنا ولكن أبصارنا تميل عنهم فلا نراهم؟!

ثم أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤﴾ أي إن ذلك الذي حكاه الله عن قادة الكفر: هو حق قائم ثابت، لا بد منه، ولا بد أن يتكلموا به، فإن تخاصم أو تنازع أهل النار أمر حتمي واقع يوم القيامة، وتخاصم بدل من قوله: ﴿لَحَقٌّ﴾

إن هذا الحوار الحامي يقع بين الرؤساء والأتباع، رؤساء الضلالة والإضلال،

والدعوة إلى الكفر والجحود الذين يترقبون لقاء فئة المستضعفين المؤمنين في النار معهم لذنوهم، ويسخرون من أتباعهم، وأتباعهم يقابلونهم بأسوأ الردود، ويدعون ربهم أن يضاعف لهم العذاب بسبب إغوائهم ودعايتهم للفساد والإفساد.

التصديق بالقرآن والتكذيب به

أخبر الله تعالى في كتابه عن أسباب الدعوة إلى الإيمان بالقرآن الكريم والتصديق به، لاشتماله على تبيان أصول العقيدة الثابتة: وهي توحيد الله عز وجل، وإثبات نبوة الرسول محمد بن عبد الله ﷺ، وإثبات المعاد أو اليوم الآخر، فيكون التكذيب بهذه الأصول العقدية جُرْماً عظيماً، وبعداً عن الحقيقة والواقع، فمن كذب بذلك جنى على نفسه، ومن آمن بتوحيد الله تعالى، وصدق نبيه محمداً، وأيقن بوجود القيامة، فهو العاقل الناجي، قال الله تعالى موضحاً هذه الأخبار:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٦٥-٧٠]

أخبر أيها النبي عن مهمتك ورسالتك، وقل للكفار المشركين في مكة، وغيرها المكذبين بما جئت به: إنما أنا مخوف لكم من عقاب الله وعذابه، مبلّغ ما يتعرض له المنكر الكاذب من أحوال السوء، بسبب الإعراض عن دعوتي ورسالتي. إن القرآن الكريم وجميع ما تضمنه من دعوة التوحيد والإيمان بالمعاد حق وصدق وواقع.

ليس لي من أغراض أو أهداف إلا الإنذار والتخويف من سوء المصير، وشدة العذاب، وفداحة العاقبة لكل من كذب برسالتي، وأنكر وجود الله تعالى ووحدانيته، فليس هناك في الوجود على الإطلاق إلا إله واحد لا شريك له، فهو

الإله الجبار القهار لكل شيء سواه، وهو مالك جميع السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات، والمدبر لها والمتصرف في شؤونها، وهو القوي العزيز الغالب الذي لا يُغلب ولا يقهر، وإنما يغلب كل ما سواه، وهو غفار الذنوب لمن أطاعه والتجأ إليه.

والتصديق بالقرآن وبوعد الله نجاة، والتكذيب به هلكة وخسران وضياع.

ثم توعد الله المخالفين أمر الله والرسول، المعرضين عن القرآن، فقل أيها الرسول للمشركين: إن هذا الذي أخبرتكم به من كوني رسولاً منذراً، وأن الله واحد لا شريك له، وأن القرآن كلام الله ووحيه أنزله علي: هو خبر عظيم خطير، لكنكم أنتم معرضون عما أقول، لا تتفكرون فيه. وفي هذا توبيخ شديد لهم وتقريع، لإعراضهم عن دعوة الرسول محمد ﷺ.

والنبأ في كلام العرب: بمعنى الخبر، والقرآن: أوثق الأخبار وأعظمها. ثم أخبر الله تعالى بما يدل على نبوة محمد ﷺ، ومضمون الخبر: الإعلان من النبي: أنه لم يكن له قبل الوحي القرآني أي علم بأحوال الملأ الأعلى، وما دار بينهم حين اختلفوا في شأن آدم عليه السلام وذريته، وجعلهم في الأرض، وامتناع إبليس عن السجود له، فلولا الوحي لم يكن النبي يعلم بتلك الغيبيات. فالدليل على صدق هذا النبي: أنه يخبر قومه بغيوب ومعلومات قديمة لم تأت إلا من عند الله تعالى، ومنها أنه لم يكن له علم بالملأ الأعلى وقت خصومتهم في شأن آدم عليه السلام، لولا أن الله تعالى أخبره بذلك.

والملأ الأعلى هنا: الملائكة أشراف الخلق عدا البشر.

ومما أوحى الله لنبيه أن يخبر قومه: أنه ما يوحى إليه إلا للإنذار الواضح، والتبليغ البيّن القاطع، لا لأمر آخر من تسلط أو ملك، أو تحقيق أي مصلحة أخرى.

لقد تجسَّدت رسالة النبي محمد ﷺ في الإخبار عن أمور عظيمة: وهي الخبر بتوحيد الله، وقدرته، وتدبيره، وقهره وغلبته، وصدق الوحي والقرآن وكونه كلام

الله تعالى، وحصر مهمة النبي في الإنذار والتخويف من سوء العذاب، وقبح العقاب، وإحقاقُ الحق، وإبطال الباطل، وإعلان النجاة لمن صدق بالقرآن، والهلاك والخسران لمن كذب به أو أعرض عنه.

خلق آدم عليه السلام وتكريمه

تكرر الإخبار عن قصة خلق آدم عليه السلام وإكرامه، في القرآن الكريم مرات كثيرة، لأن في بيان تلك القصة إيحاء واضحاً على تكريم الإنسان بتكريم أصله، وذلك بأمر الملائكة بالسجود له سجود تحية وتقدير، لا سجود عبادة وتأليه وتقديس. وكان جميع المأمورين مطيعين أمر الله تعالى ما عدا إبليس الذي اغتر بعنصريته، وأنه خلق من نار، وآدم خلق من تراب، وعنصر النار المرتفع أقوى وأسمى، من عنصر التراب الخامد الراكد. وهذا ما صرحت به الآيات القرآنية الشريفة الآتية التي ختمت بها سورة صٓ:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ[١] وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي
فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾
قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ
﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ[٢] ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ

---

(١) أي أكملت خلقه. (٢) أي أنا الحق، فهو أي الأول خبر لمتبدأ محذوف تقديره: أنا الحق، أو المراد به القسم أي فوالحق، والحق الثاني منصوب بأقول.

أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٧١-٨٨].

المعنى: اذكر أيها النبي قصة خلق آدم، حين قال الله تعالى للملائكة: إنني موجد بشراً مخلوقاً هو آدم من طين، أي تراب مخلوط بالماء، فإذا أتممت خلقه، بعثت فيه الحياة وأوجدته بأن نفخت فيه من روحي، فاسجدوا له سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتأليه وتقديس.

وقوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِى﴾ إضافة مِلْك إلى مالك، لأن الأرواح كلها هي ملك لله تبارك وتعالى، وأضيف ذلك إلى الله تشريفاً. والنفخ من الروح تمثيل لإفاضة ما تكون به الحياة، فليس هناك نافخ ولا منفوخ.

فامتثل الملائكة أمر الله تعالى، وسجدوا لآدم بأجمعهم لم يبق أحد منهم، وفي آن واحد، لا متفرقين إلا إبليس امتنع متكبراً متعاظماً عن السجود، وكان بهذا الرفض أو الامتناع كافراً، من فئة الكافرين، لمخالفته أمر الله تعالى، والخروج عن طاعته.

فقال الله تعالى على سبيل التوبيخ والإنكار: يا إبليس ما الذي منعك من السجود لآدم، الذي توليت خلقه بنفسي، من غير أب ولا أم، هل استكبرت عن السجود الآن، أو كنت من القوم المتعالين عن ذلك في الماضي؟ والمراد: إنكار الأمرين معاً، وهما رفض السجود والتعالي عن السجود.

قال إبليس: إنني خير من آدم، فإني مخلوق من نار، وآدم مخلوق من طين، والنار خير وأشرف من الطين في زعمه، لارتفاعها وعلوها، ولأن التراب عنصر راكد هابط، لا ارتفاع فيه. وهذا توهم أن النار أفضل من الطين، وهو قياس فاسد، لا يصلح أمام النص أو الأمر الإلهي بالطاعة والسجود لآدم.

فقال الله تعالى: فاخرج يا إبليس من الجنة أو من السماء، فإنك مرجوم

بالكواكب، مطرودٌ من رحمة الله ومن إحسانه، وتنصبّ عليك لعنتي الدائمة وسخطي إلى يوم القيامة. فأُخرج من جنة الخلد: وهي الجنة الحقيقية المخلوقة من القديم جنة السماء، كخلق النار، وأهبط إلى الأرض، بلا خلاف.

والرجيم: المرجوم بالقول السيئ، واللعنة: الإبعاد، ويوم الدين: يوم القيامة، والدين: الجزاء. والمراد بأن اللعنة على إبليس مستمرة دائمة، مخلّدة. وإنما قيدت بيوم الدين: ليبين له طريق التوبة قبل يوم القيامة، وما بعد يوم القيامة واضح أنه لا تقبل التوبة، إذ الآخرة ليست دار عمل.

فطلب إبليس قائلاً: رب أمهلني في الحياة، ولا تحكم علي بالموت إلى يوم البعث، بعث الأجساد من القبور، فأمهله الله وجعله باقياً إلى يوم الوقت المعلوم: وهو عند النفخة الأولى. وقد طلب إبليس الإمهال إلى يوم البعث، ليتخلص من الموت، وذلك إلى وقت الصعق لا إلى وقت البعث وهو الآن حي مغو مضل. فلما أمن من الموت تمرَّد وطغى، وتحدى قائلاً: أقسم بعزتك، أي سلطانك وقهرك: لأغوين وأضللنّ بني آدم بتزيين الأهواء والشهوات لهم، إلا عبادك منهم الذين أخلصتهم لطاعتك، وعصمتهم من الضلال.

فأجابه الله قائلاً: فالحق الثابت أنا، وأقول الحق، لأملأن جهنم منك ومن أتباعك جميعاً، ممن أطاعك وتبع إغواءك. والإغواء: تزيين المعاصي.

وقل أيها الرسول للمشركين من قومك: لا أطلب منكم أجراً على تبليغي رسالة الله إليكم، ولست من المتقولين على الله، حتى أقول ما لا أعلم أو أدعو إلى غير ما أمر الله تعالى. والتكلف: التصنّع والاختلاق. وما هذا القرآن إلا تذكرة لجميع العوالم من الإنس والجن، ولسوف تعرفُنَّ خبره وصدق نبأه بعد زمان قريب: إما بعد الموت وإما يوم القيامة.

تفسير سورة الزُّمَر

تنزيل القرآن وغاياته

تفضل الله تعالى على عباده بأعظم هدية وأكرم منحة خالدة: ألا وهي تنزيل القرآن الكريم تدريجاً في مبدأ الأمر والوحي الإلهي إلى أن اكتمل وحفظ حفظاً تاماً في الصدور والكتابة، من غير زيادة ولا نقص فيه، ولا تعديل ولا تبديل لشيء فيه، وسيظل محفوظاً بكفالة الله وتعهده إلى يوم القيامة، لأنه منهاج الحياة السديدة، في العقيدة، والعبادة، والمعاملة، والأخلاق، والعلاقات الإنسانية والاجتماعية. أنزله الله بالحق والميزان، فأبطل عقائد المشركين الوثنية، ونفى اتخاذ الله ولداً، وشرع شرائع الشرائع، وأبان الحلال والحرام، ونظم أصول الحياة والآداب والفضائل، لينقذ الله به العالمين من الضلالة إلى النور، ومن الزيغ والانحراف إلى طريق الهداية والاستقامة، قال الله تعالى مبيناً مصدر القرآن، ومحدداً غاياته وأهدافه في مطلع سورة الزمَر:

﴿تَنزِيلُ[1] ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٣٩/١-٤].

(١) مرفوع بالابتداء، والخبر قوله: (من الله) أو أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا تنزيل.

هذا الكتاب العظيم وهو القرآن الكريم تنزيل من الله تعالى، العزيز: في قدرته الذي لا يغلب، الحكيم في إبداعه وصنعه، فهو الكتاب الإلهي الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، إنا أنزلنا أيها النبي الرسول القرآن مقترناً بالحق، متضمناً إياه، أي الحق فيه وفي أحكامه وفي أخباره، فكل ما فيه حق، من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع الأحكام والتكاليف الشرعية، ولم ننزله مشوباً بالباطل الكاذب الذي لا قرار له.

فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأخبرهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده، وأنه ليس له شريك ولا نظير.

والإخلاص: أن يقصد العبد بعمله وجه الله تعالى ورضوانه، ولا يقصد شيئاً آخر. والدين: العبادة والطاعة، وأساس توحيد الله، وتنزيهه عن الشريك والنظير.

ألا لله العبادة والطاعة الخالصة من شوائب الشرك والرياء وغيره، وأما ما سواه من الدين، فليس بدين الله الخالص الذي أمر به.

ومعنى الآية: الأمر بتحقيق النية لله في كل عمل. والدين هنا: يعم المعتقدات وأعمال المكلفين العضوية التي يمارسونها. وقوله سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ بمعنى: من حقه ومن واجباته، لا يُقبل غيره.

وأما المشركون الذين والوا غير الله تعالى، وعبدوا سواه، وهي الأصنام أو الكواكب أو الملائكة أو بعض البشر، وقالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله تقريباً، ويشفعوا لنا عنده في حوائجنا، فهم في أسوأ عاقبة، وأقبح مصير، لذا هددهم الله بقوله: إن الله يحكم بين أهل الأديان يوم القيامة، ويفصل في خلافاتهم، ويجزي كل عامل بعمله، فيدخل الموحدين الجنة، ويُدخل المشركين النار.

قال ابن عباس: أنزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ في

ثلاثة أحياء: عامر وكنانة وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون: الملائكة بناته، فقالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

ثم أخبر الله تعالى بما معناه: إن الله لا يهدي الكاذب الكفّار في حال كذبه وكفره، وعناده وإعراضه ومبالغته في الكفر والجحود، ولا يوفقه للاهتداء إلى الحق، فهو كاذب مفترٍ على الله، في زعمه أن لله ولداً، وأن تلك المعبودات الباطلة تشفع لعابديها، وتقربهم إلى الله تعالى.

ثم رد الله تعالى على زعم المشركين اتخاذ ولد لله، بقوله فيما معناه: لو شاء الله اتخاذ ولد، وهو لا يحتاج لذلك، لاختار من جملة خلقه موجوداته ومحدثاته ما يشاء أن يختاره، ولكان الأمر على خلاف ما يزعمون، فيختار أكمل الأولاد وهم الأبناء، لا البنات كما زعموا، والواقع أنه لا موجود سوى الله، ولا أحد غير الله إلا وهو مخلوق لله، ولا يصح أن يكون المخلوق ولداً للخالق. وقوله: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي من موجوداته ومحدثاته.

ثم نزّه الله تعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع الشركاء، فأخبر بقوله: تنزه الله وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي يفتقر إليه كل شيء، والذي قهر الأشياء والمخلوقات كلها، فدانت لعظمته، وخضعت لسلطانه وهيبته.

عظمة القدرة الإلهية

في مناسبات مختلفة، يورد الله تعالى البراهين والأدلة الحسية القطعية على وحدانيته، وقدرته، واستغنائه عن مخلوقاته، ليقتنع اللادينيون من الملاحدة والمشركين بأن الله تعالى هو وحده الإلهُ الحق، وأنه القادرُ على كل شيء، وأنه

مستغن عن جميع مخلوقاته وموجوداته، وتلك الأدلة والبراهين محسوسة مشاهدة، منها خلق السماوات والأرضين وما فيهما من العوالم، وخلق الإنسان من نفس واحدة، وخلق الأنواع الثمانية من الأنعام، وهذه آي كريمة تعبر بجلاء واضح عن هذه الموجودات:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ(١) يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ(٢) ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥-٧].

هذه أدلة ثلاثة على وحدانية الله وقدرته، في كل دليل منها ثلاثة أدلة:

الدليل الأول- من عالم السماء والأرض: أبدع الله تعالى عالم السماء والأرض إبداعاً بالواجب الواقع موقعه، الجامع للمصالح، فليس في هذا الخلق باطل وعبث، من غير استعانة بأحد، فهو وحده الإله الموجود الذي لا شريك له ولا نظير، التامُّ القدرة، الكامل الاستغناء عن غيره.

يلف الليل على النهار، ويلف النهار على الليل أو يولج أحدهما في الآخر، ويعيد من هذا على هذا، بنسب متفاوتة تتفق مع أحوال الزيادة والنقصان، دون الاستمرار

(١) أي بما يتفق مع الواجب، القائم على المصالح، الواقع موقعه المناسب. (٢) أي نزل الأمر بخلقها وإيجادها من عند الله، والعادة تقضي بأن نعم الله ورحمته وأمطاره هي من السماء، فعبر عن خلقها بالإنزال.

على مقدار واحد، وهو دليل على كروية الأرض، لأن التكوير: اللف على الجسم المستدير، وعلى دوران الأرض حول نفسها مرة ثانية، لأن تعاقب الليل والنهار لا يتم من غير دوران. ويجعل الله الشمس والقمر مذللين لأمره بالطلوع والغروب، يسير كل منهما في فلكه إلى منتهى معيَّن، وإلى وقت محدد في علم الله تعالى وهو انتهاء الدنيا وقيام القيامة، أو انتهاء دورة القمر كل شهر، ودورة الشمس كل سنة. ألا إن هذا التدبير والخلق من إله غالب قادر، ساتر لذنوب عباده بالمغفرة.

والدليل الثاني- من خلق الإنسان والأنعام، فإنه سبحانه خلقكم أيها الناس على اختلاف أجناسكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، هي آدم عليه السلام، ثم جعل حواء من جنسه أو من طينته، أو خلقها من ضلعه-ضلع آدم القصير، ثم تكاثر الخلق منهما.

وأمر الله تعالى بخلق أو إيجاد ثمانية أصناف من الأنعام: وهي الإبل والبقر والغنم والمعز، جاعلاً من كل صنف ذكراً وأنثى، ويبتدئ الله خلق الناس في بطون الأمهات في مراحل متدرجة من الخلق والإبداع، حيث يكون بدء تكون الجنين من نطفة ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم تتكون العظام، ثم تُكْسَى باللحم والعروق والأعصاب. ومراحل الخلق هذه في ظلمات ثلاث: هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة والأغشية. هذا الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق الإنسان: هو الرب المربي لكم، الذي له الملك المطلق في الدنيا والآخرة، وهو الإله الواحد الذي لا إله غيره، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟!

وثمرة هذه العبادة تعود للناس، فإن تكفروا بالله أيها المشركون، بعد توافر هذه الأدلة على وجود الله وتوحيده وقدرته، فإن الله هو الغني عما سواه من المخلوقات، ويغضب الله من كفر بعض عباده، ويرضى ويحب شكرهم على نعمه وآلائه، ويثيبهم

به خيراً، أي يقبله منهم. والشكر الحقيقي يتضمن الإيمان. وبعبارة أخرى: لا يقع الكفر إلا بإرادة الله تعالى، إلا أنه بعد وقوعه لا يرضاه الله ديناً لعباده. واستغناء الله عن خلقه هو الدليل الثالث على قدرته.

قال ابن عباس عن هذه الآية: ﴿إِن تَكْفُرُواْ . .﴾ هذه الآية مخاطبة للكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم. وكلمة ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ هم المؤمنون. ويحتمل أن تكون الآية مخاطبة لجميع الناس، لأن الله غني عن جميع الناس.

والمبدأ في المسؤولية أمام الله: إنما هو المسؤولية الشخصية أو الفردية، فلا تحمل نفس إثم أو ذنب نفس أخرى، والوزر: الثقل، وإنما كل إنسان مطالب بأمر نفسه، من خير أو شر. والجزاء على قدر العمل، فإن مصيركم جميعاً أيها الخلائق إلى ربكم يوم القيامة، فيخبركم بأعمالكم من خير أو شر، إنه سبحانه وتعالى خبير بما تخفيه النفوس من أسرار، فلا تخفى على الله خافية.

وهذا خبر يتضمن الحض على أن ينظر كل أحد في خاصة أمره وما ينوبه في ذاته، كما يتضمن أيضاً أن مرجعهم في الآخرة إلى ربهم، أي إلى ثوابه أو عقابه، فَيُطْلع كل أحد على أعماله، لأنه تعالى المطلع على نيات الصدور وسرائر الأفئدة.

الإنسان في وقت المحنة

الإنسان في منهاج حياته لا يسير على منوال واحد، ما دام مستكبراً معانداً مكابراً الحقائق، فتراه يصر على الكفر بالله بفلسفات بالية وعقائد موروثة ساذجة، حتى إذا ألم به ضرر، أو تعرض لأزمة أو محنة، بادر إلى الاستعانة بالله تعالى، والتضرع إليه، إذ لا يجد في أصائل نفسه طريقاً للفرج إلا الله القوي القادر الذي يكشف الضر، ويدفع الشر، وهذا دليل على تناقض الكافر، يضرع إلى الله تعالى وقت الشدة،

ويهمله ويعرض عنه وقت الرخاء، أما المؤمن فمنهاجه سواء، إن أصابه سراء ونعمة شكر، وإن تعرض لضراء ونقمة صبر، فكان خيراً له في كلا الحالين، مما يدل على ثبات إيمانه، وصلابة يقينه وتمسّكه بالمبدأ الذي لا يحيد عنه. قال الله تعالى واصفاً الإنسان:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا[١] إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ[٢] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا[٣] لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ[٤] هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٣٩/٨-٩].

هذه موازنة واضحة بين الكافر والمؤمن في وقت الرخاء والشدة، أما الكافر فهو متناقض مضطرب، إذا أصابته شدة من مرض أو فقر أو خوف، تضرع إلى ربه، تائباً إليه، مستغيثاً به لتفريج كربه، ثم إذا أنعم الله عليه بنعمة أو خير، وصار في حال رخاء، نسي دعاء الله في حال الضرر، أو نسي الله سبحانه وتعالى مطلقاً، ورجع إلى كفره، وجعل الشركاء والنظراء أو الأمثال من الأصنام وغيرها شركاء لله، يعبدها، ليؤول أمره إلى الوقوع في دائرة الضلال، وإضلال غيره عن جادة الحق، وطريق الإسلام والتوحيد.

والإنسان في هذه الآية: يراد به الكافر، بدلالة ما وصفه به آخراً من اتخاذ الأنداد لله تعالى، ولقوله سبحانه موبخاً ومهدداً إياه: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾. وتخويل النعمة: إما في كشف الضر المذكور، أو يريد أي نعمة كانت، واللفظ يشمل الأمرين.

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يقول للكفار -على سبيل التهديد- قولاً، يخاطب به

(١) أي تائباً مقارباً مراجعاً بصيرته. (٢) خوله: ملّكه وحكمه فيها ابتداء منه، لا مجازاة. (٣) الأنداد: الأمثال التي تضادّ وتزاحم ويعارض بعضها بعضاً. (٤) الأظهر أن الألف في (أمّن) ألف تقرير واستفهام.

واحداً واحداً منهم: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ أي تلذّذ به، واصنع ما شئت مدة قليلة: وهي مدة عُمْر ذلك المخاطب، فإنك في النهاية يوم القيامة مصيرك أن تكون من أصحاب النار، أي من سكانها والمخلَّدين فيها. وهذا أمر يراد به التهديد.

ثم ذكر الله تعالى على جهة المقارنة حال المؤمن المخلص، والمعنى: أذلك القانت خير أم هذا المذكور الذي يتمتع بكفره قليلاً، وهو من أصحاب النار؟ الجواب واضح وهو أن المؤمن خير. والقانت: الطائع الخاشع، المصلي لله في أوقات الليل، ساجداً خاضعاً لربه، وفي حال قيامه، يخاف الآخرة، ويرجو رحمة ربه، جامعاً بين الخوف والرجاء، وتلك هي حقيقة العبادة الكاملة، التي يفوز بها صاحبها. وهذا دليل على فضل قيام الليل وأنه أفضل من قيام النهار.

وكما لا يستوي القانت المطيع الخاشع، والكافر الجاحد، لا يستوي أهل العلم والجهل، إنما يتعظ بآيات الله ويتدبرها أهل العقول السليمة والأفكار السديدة، لا الجهلاء الأغبياء، الذين لا يقدِّرون الأمور حق قدرها، ولا يتأملون في مصير المستقبل.

نزلت هذه الآية ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ إما في عثمان بن عفان أو في عمار بن ياسر، أو ابن مسعود أو سالم مولى أبي حذيفة.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين: العلم والعمل، كما قال أبو حيان في البحر المحيط، فكما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي، والمراد بالعلم هنا: ما أدى إلى معرفة الله تعالى، ونجاة العبد من سخطه.

وهذه المقارنة في معنى مقارنة آتية في السورة نفسها (سورة الزمَر) في قول الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٢].

والقنوت يطلق على الدعاء، والطاعة، أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت، فهو الطاعة».

وعن ابن عباس قال: «من أحب أن يهوِّن الله عليه الوقوف يوم القيامة، فليُرَه الله في سواد الليل ساجداً وقائماً».

طريق الخلاص في الآخرة

إن طريق الخلاص والنجاة في عالم القيامة محصور في أمور ثلاثة: تقوى الله وطاعته، وإخلاص الدين لله، واجتناب الطواغيت، أي الأوثان وكل ما عُبد من دون الله، فإذا ملأ الإنسان قلبه خوفاً من الله تعالى، وبادر لأداء الفرائض والواجبات، وأخلص النية والعمل لله، واجتنب كل ألوان الشرك والوثنية، كان ناجياً مطمئناً، مستقراً في جنان الخلد، عند مليك مقتدر، وهذا وعد إلهي منجز، وسبيل متعين للنجاة، قال الله تعالى مبيناً هذا التوجه الصحيح وأصوله:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ(١) وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ(٢) وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ(٣) أَن يَعْبُدُوهَا

(١) الحسنة في الآخرة: الجنة والنعيم، وفي الدنيا: العافية والطهور وولاية الله تعالى أي نصرته، والمراد هنا الحسنة الأخروية. (٢) الظلل: طبقات النار. (٣) الطاغوت: كل ما عُبد من دون الله.

وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ(١) مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ(٢) ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٠-٢٠].

المعنى: قل أيها النبي: يا عباد الله الذين آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً، اتقوا عذاب ربكم: باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، فللمحسنين أعمالَهم حسنةٌ في الدنيا: وهي الصحة والعافية والنصر والسلطان، وإذا لم تتمكنوا من ممارسة مقتضيات التقوى في بلد، فهاجروا إلى بلد آخر، حيث تمكن طاعة الله، فإن أرض الله واسعة غير ضيقة، فسيحةٌ غير مغلقة، إنما يوفي الله الصابرين في عملهم ثوابهم بغير مكيال ولا وزن، وبما لا يقدر على حسابه حاصر وحاسب، وهذا حض على الهجرة. وهذا وعد من الله تبارك وتعالى على الصبر على المكاره، والخروج عن الوطن، ونصرة الدين، وجميع الطاعات، ومفاد الوعد أن الأجر يوفّى بغير حساب، أي بغير حصر ولا عدّ، بل جزافاً، وهذه استعارة للكثرة التي لا تُحصى، وهذا رأي جمهور المفسرين . يروى أن هذه الآية نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة.

ثم أمر الله تعالى بعد الأمر بالتقوى بالإخلاص في العبادة والطاعة، فقل أيها النبي: إنما أمرت أن أعبد الله وحده، بإخلاص خال من الشرك والرياء وغير ذلك، وأمرت بأن أكون أول المسلمين المنقادين لله الخاضعين له، من هذه الأمة، في مخالفة دين الآباء الوثنيين.

وقل للمشركين الوثنيين: إني أخشى إن عصيت ربي بترك التقوى وإخلاص العبادة

---

(١) الغرفة: الحجرة . (٢) وعد الله: منصوب على المصدر تقديره: وعدكم الله وعداً .

لله وتوحيده: أن أتعرض لعذاب شديد الأهوال في يوم القيامة. وأمرني ربي أن أعبده وحده لا شريك له، وأن يكون تعبّدي خالصاً لله غير مشوب بشرك ولا رياء ولا غيرهما.

ثم قال لهم على سبيل التهديد والوعيد: اعبدوا ما أردتم عبادته من غير الله، من الأوثان والأصنام، فسوف تجازون بعملكم.

ثم قل لهم أيها الرسول: إنما أهل الخسارة التامة: هم الذين خسروا أنفسهم بالضلالة والشرك والمعاصي، وخسروا أتباعهم من الأهل حيث أوقعوهم في الضلال، وعرّضوهم للعذاب الدائم يوم القيامة، وذلك هو الخسران الواضح، ولا خسران أعظم منه.

ونوع الخسران: أن لهم طبقات متراكمة من النار الملتهبة، من فوقهم ومن تحتهم، ومن كل جانب، ذلك العذاب الشديد الذي يخبر به الله خبراً كائناً لا محالة، ليرهب به عباده، فيا عبادي خافوا بأسي وعذابي واتقوا غضبي. ووعد المؤمنين: هو أن الذين تجنبوا عبادة الأوثان والشيطان وكل ماعُبد من دون، ورجعوا إلى الله، لهم البشارة بالثواب الجزيل: وهو الجنة، فبشر أيها الرسول بالجنة عبادي المؤمنين الذين يستمعون القول الحق من كتاب الله، وسنة رسوله، فيفهمونه، فيتبعون أحسن ما يؤمرون به، ويعملون بما فيه. أولئك المتصفون بهذه الصفة هم الموفقون للصواب في الدنيا والآخرة، وهم ذوو العقول الصحيحة والآراء السديدة.

وآية ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ نزلت في رجل من الأنصار أعتق سبعة مماليك، ليعتق نفسه من أبواب النار السبعة، وآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ نزلت في ثلاثة نفر موحدين الله في الجاهلية، وهم زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي.

ثم واسى الله رسوله على إعراضهم عن دعوته بما معناه: إنك لا تقدر على هداية

من وجب عليه قرار العذاب، ولا تتمكن من إنقاذه من النار. لكن أولئك الذين اتقوا عذاب ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، لهم في الجنة غرف مبنية محكمة البناء، تجري من تحت تلك الغرف والقصور أنهار عذبة الماء، وذلك وعد محقق من الله تنفيذه، ووعد الله حق ثابت، لانقض فيه ولا رجوع عنه.

حال الدنيا الفانية وتوجيه الهداية

رغّب القرآن الكريم بالآخرة لخلودها ونعيمها التام، ونفّر من الدنيا لفَنَائها وسرعة زوالها، فهي أشبه بزرع اخْضرَّ بماء السماء، ثم اصفر وتهشم، وأوضح القرآن سبيل الهداية للدين الحق والنور الإسلامي، فمن استضاء قلبه بالإسلام، فهو على نور من ربه، ومن استنار بتعاليم القرآن، ولان جِلْده وقَلْبه لذكر الله تعالى، فهو على طريق مستقيم. ومن أعرض عن هدي القرآن، وانغمس في المعاصي والمنكرات، فقد عرّض نفسه لسوء العذاب، واستحقاق الخزي في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى واصفاً أحوال الدنيا وحال انشراح الصدر بالقرآن:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا
أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾
أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ(١) لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ
أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ
ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن
يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

(١) الويل: كلمة عذاب أو واد في جهنم.

وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ(١) فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢١-٢٦].

المعنى: ألم تشاهد أيها النبي وكل بشر أن الله أنزل من السحاب مطراً، فأدخله وأسكنه في الأرض، ثم أخرج منها عيوناً متدفقة بالماء، ثم تسقى به الأرض، فيُخرج بذلك الماء من الأرض زرعاً مختلفاً أنواعه، من الحنطة والشعير والحبوب الأخرى والخضروات وغيرها، ثم ييبس ويجف، فتراه مصفراً بعد خضرته، ثم يتكسر ويتهشم، إن في ذلك المذكور من إنزال المطر وإخراج الزرع به موعظة ينتفع بها أهل العقول الصحيحة.

هذا مثال لحال الدنيا الفانية، متاعها زائل، وبهجتها ذاهبة، وكل مفكر تفكيراً صحيحاً يدرك أن سرعة زوال الدنيا يدل على قصر عمر الإنسان، وأنه مهما طال، لا بد له من الانتهاء، كما جاء في آية أخرى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٨].

ولا يكون الانتفاع بهذه المواعظ إلا إذا شرح الله الصدور للإسلام، ونوَّر القلوب بالإيمان، ولا يستوي هذا ومن حُجب قلبه عن الأنوار الإلهية. أفمن وسَّع الله صدره، فقبله واهتدى بهديه، فأصبح مستنير القلب بنور الله، وهو نور المعرفة، والاهتداء إلى الحق، كمن قسا قلبه لسوء اختياره وغفلته وجهالته؟! أي لا يستوي المهتدي للإسلام والحق، ومن هو قاسي القلب، البعيد عن الحق، فالعذاب الشديد لمن تحجرت قلوبهم عند سماع ذكر الله، ولم تخشع لصوت الحق الإلهي، أولئك قساة

(١) الخزي: الذل والهوان .

القلوب في ضلال واضح عن الحق، ولا يفهم الكلام إلا بمحذوف يدل عليه الظاهر، تقديره كالقاسي القلب والمعرض عن ذكر الله.

ذكر الواحدي في أسباب النزول: أن هذه الآية نزلت في علي وحمزة رضي الله عنهما، وأبي لهب وابنه، وهما اللذان كانا من القاسية قلوبهم.

و﴿شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ استعارة لتحصيله للنظر الجيد والإيمان بالله تعالى. و﴿ٱلنُّورِ﴾: هداية الله، وهي أشبه شيء بالضوء. قال ابن مسعود رضي الله عنه فيما أخرجه ابن مردويه: قلنا: يا رسول الله، كيف انشراح الصدر؟ قال: إذا دخل النور القلب انشرح الصدر، قلنا: وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت» . والقسوة: شدة القلب.

ثم وصف الله القرآن الذي يشرح الصدر بأن الله نزل أحسن الأحاديث وهو القرآن، لما فيه من الخيرات والبركات والمنافع العامة والخاصة، وهو كتاب يشبه بعضه بعضاً، في جمال النظم وحسن الإحكام والإعجاز، وقوّة المباني والمعاني، وبلوغ أرقى درجات البلاغة، وتثنى فيه القصص، وتتكرر فيه المواعظ والأحكام من أوامر ونواهٍ، ووعد ووعيد، ويثنى في التلاوة، وتقشعر من عظمة آياته وأمثاله ومواعظه جلود الخائفين من الله، ثم تسكن وتطمئن الجلود والقلوب عند سماع آيات الرحمة، ذلك القرآن الذي هذه صفته هو هداية الله، يهدي به من يشاء هدايته وتوفيقه للإيمان، ومن يخذله الله عن الإيمان بالقرآن من الفسّاق والعصاة والفجار، فلا مرشد له . عن ابن عباس: أن قوماً من الصحابة قالوا: يا رسول الله، حدثنا بأحاديث حسان وبأخبار الدهر، فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

وسبب التميز بين المهتدي والضال يظهر في هذه المقارنة، وهي: أفمن يتقحّم نار جهنم، فلا يتمكن من اتقاء العذاب الشديد يوم القيامة، كمن هو آمنٌ لا يتعرض

لشيء من المخاوف والمكروهات؟ وحين يقال للكافرين: ذوقوا جزاء ظلمكم وكسبكم من المعاصي في الدنيا. لقد كذب بعض الأقوام السابقين لقومك رسلهم، فأتاهم العذاب من جهة لا يترقبون إتيان العذاب منها، فأذاقهم الله الذل والهوان في الدنيا بما أنزل من العذاب والنكال، كالخسف والمسخ والقتل، والأسر، ولعذاب الآخرة أشد وأعظم مما أصابهم في الدنيا.

ضرب الأمثال في القرآن

من حكمة الله تعالى ورحمته وفضله: إيراد الأمثال والأشباه الحسية لتوضيح المجملات، وتقريب البعيد، وإقناع الناس، تخويفاً وتحذيراً، وهذه إحدى خواص القرآن الكريم، ومن خواصه أيضاً أنه قرآن متلو إلى يوم القيامة، وأنه عربي اللسان، وغير ذي عوج، أي إنه بريء وبعيد عن التناقض والتعارض. وفيه مثل عجيب للمؤمن الموحد، والمشرك، في أهم الأمور وأعظمها خطراً: وهو التوحيد، يدل على فساد مذهب المشركين، وبُعْدهم عن المنطق، فهم إن كانوا يرفضون الشركة في عبد مملوك لهم، فكيف يجعلون لله الشريك؟! قال الله تعالى موضحاً هذه الخواص:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ(١) وَرَجُلًا سَلَمًا(٢) لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٧-٣١].

ضرب الله الأمثال المجملة للناس في القرآن الكريم، والمراد بضرب المثل: تطبيق

(١) أي متنازعون مختلفون لسوء طباعهم وأخلاقهم. (٢) أي سالماً خالصاً.

حالة غريبة على حالة تشبهها، والمثل يقرِّب المعنى إلى الذهن، وذلك لعل الناس يتعظون ويعتبرون. ثم وصف الله القرآن بصفات ثلاث: هي كونه قرآناً، أي مقروءاً متلواً في المحاريب إلى يوم القيامة، وكونه عربياً بلسان عربي مبين، أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته، وكونه غير ذي عوج، أي براءته وبعده عن التناقض والتضاد. وقدّم الله تعالى التذكر على الاتقاء، لأن من اتعظ بشيء وفهم معناه، أقبل على ساحة التقوى: بالتزام المأمورات واجتناب المنهيات والاحتراز من المعاصي والمنكرات.

ثم مثَّل الله تعالى الكافر العابد للأوثان والشياطين بعبدٍ لرجال عِدّة، في أخلاقهم شكاسة ونقص وعَدَم مسامحة، فهم لذلك يعذِّبون هذا العبد، لأنهم يتضايقون في أوقاتهم، ويضايقون هذا العبد في كثرة العمل، فهو أبداً دائب متعب، فكذلك عابد الأوثان، أي ضرب الله مثلاً للمشرك في صنعه، لا في معبوده، الذي يعبد أكثر من إله، بحالة رجل عبد مملوك يملكه عدد من الرجال، مختلفون فيما بينهم، متنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، متعاسرون، لسوء أخلاقهم وطباعهم، كل له رأي وحاجة، فإذا طلب كل واحد من السادة من هذا العبد شيئاً أو حاجة، فماذا يفعل، وكيف يُرضي جميع الشركاء؟ كذلك المشرك في عبادته آلهة متعددة لا يتمكن من إرضاء جميع تلك الآلهة، فهو معذب الفكر بها، ومتى أرضى صنماً منها بالذبح له في زعمه، تفكّر فيما يصنع مع الآخر، فهو أبداً في تعب وضلال.

ومثَّل الله تعالى المؤمن بالله تبارك وتعالى وحده، بعبد لرجل واحد يكلفه شغله، فهو يعمله على تؤدة، وقد ساس مولاه، فالمولى يغفر زلَّته، ويشكره على إجادة عمله، أي ضرب الله مثلاً آخر للمؤمن بحالة رجل آخر مملوك لشخص واحد، لا يشاركه فيه غيره، فإذا طلب شيئاً منه لبَّاه دون ارتباك ولا حيرة، وهذا كالمسلم الذي لا يعبد إلا الله، ولا يسعى لإرضاء غير ربه، فهل يكون في طمأنينة أو في حيرة؟.

الحمد لله على إقامة الحجة على عبدة الأوثان، وعلى أن الحمد لله لا لغيره، وعلى التوفيق للإسلام والحق، بل أكثر الناس لا يعلمون هذا الفرق، فيشركون مع الله غيره. وبما أن أكثر الناس جاهلون بالحق، لا ينتفعون بهذا المثل، هدد الله تعالى بالموت، فمصير جميع الخلائق إلى الله، وهو الذي يفصل بينهم في مظالمهم، والموت عاقبة كل حي، فإنك أيها النبي ميت، وهم سيموتون، ثم يكون التقاضي عند الله تعالى فيما اختلفتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك، فينجي الله المؤمنين الموحدين، ويعذِّب المشركين المكذبين.

والتخاصم في الآخرة ليس خاصاً بين المؤمنين والكافرين، وإنما هو حادث بين كل متنازعين في الدنيا، فإنه تتكرر المنازعة في الآخرة. وهو دليل على أن النبي محمداً ﷺ سيخاصم قومه، ويحتج عليهم بأنه بلّغهم الرسالة، وأدى الأمانة، وأنذرهم وبشرهم، وهم يخاصمونه ويعتذرون بما لا معنى له، وهذا توعد للمشركين: بأنهم سيتخاصمون يوم القيامة في ردهم شريعة الله، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ.

أخرج الإمام أحمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة: جاران».

وعيد المكذبين ووعد المصدقين

ليس هناك بعد الشرك بالله أسوأ من الكذب، وإن الذين يفترون الكذب لا يفلحون، والكذب أخس صفة تؤدي إلى الطعن بالرجولة، وتدل على فقد الثقة بالنفس، وضعف الإنسان، وتورطه بالنفاق، لذا كان أسوأُ اعتقاد المشركين تكذيبَ الله تعالى بإثبات ولد له أو شريك، وتكذيبَ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد إثبات صدقه في نبوته، بالأدلة القاطعة والمعجزات الباهرة، فاستحقوا الوعيد في نار

جهنم، ويقابل ذلك وعد الصادقين المصدقين بالله ورسوله بمنحهم عند ربهم كل ما يشاؤون من الجنة والنعيم والرضوان، وإثابتهم أفضل الثواب، ليقترن الوعد بالوعيد، وتظهر التفرقة بين الحالين، قال الله تعالى مبيناً هذا التفاوت:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى(١) لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ(٢) وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٢-٣٧].

من أقبح خصال المشركين: أنهم يكذبون الله ورسوله، فلا أحد أظلم ممن كذب على الله، فزعم أن له ولداً أو شريكاً، أو صاحبة، وحرَّم وحلل من غير أمر الله، وكذَّب بما جاء به رسول الله ﷺ من دعوة الناس إلى التوحيد، والأمر بإقامة فرائض الشرع، والنهي عن المحرّمات، والإخبار بالبعث والنشور والحساب والجزاء.

وهؤلاء في الواقع يستحقون أشد العذاب، أليس في نار جهنم الواسعة مقام ومستقر لهؤلاء الكافرين؟! وفيه دلالة على علة كذبهم وتكذيبهم، وهو الكفر.

وفي مقابل هذا الوعيد: يأتي الوعد للمؤمنين، فالذي جاء بالصدق والقول الحق: وهو رسول الله ﷺ، والذين صدقوا به، وآمنوا بأنه رسول من عند الله، وهم أتباعه المؤمنون، أولئك لا غيرهم هم الذين اتقوا الله وخافوه، وتجنبوا الشرك وعبادة الأوثان.

---

(١) أي مقام لهم . (٢) أي يكفيه وعيد المشركين .

وثواب هؤلاء الصادقين المصدقين: أن لهم ما يطلبون عند ربهم في جنان الخلد، من رفع الدرجات، ودفع الضرر، وتكفير السيئات، وذلك جزاء الذين أحسنوا في أعمالهم.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة: الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ، والذي صدّق به: هو أبو بكر رضي الله عنه. وقال قتادة وابن زيد، الذي جاء بالصدق: هو محمد ﷺ، والذي صدّق به هم المؤمنون. وقال مجاهد: هم أهل القرآن.

وعلة هذا الجزاء: تكفير السيئات، والمجازاة بأحسن أفعالهم، أي وعدهم الله تعالى بالجنان ونعمها من أجل تكفير سيئ عملهم، وإثابتهم بمحاسن أعمالهم، وإذا غفر الله لهم أسوأ أعمالهم، غفر لهم ما دونه بطريق أولى. والحسن الذي يعملونه: هو الأحسن عند الله تعالى.

وكذلك يكفي الله المؤمنين في الدنيا ما أهمهم، ويمنع عنهم ما يخيفهم، أليس الله يكفي من عَبَده وتوكل عليه؟ فيدفع عنه الويلات والمصائب، ويحقق له جميع رغائبه. والمراد بعبده: النبي ﷺ وجميع عباد الله. وهذا تقوية لنفس النبي ﷺ، لأن كفار قريش كانوا خوّفوه من الأصنام، وقالوا: أنت تسبّها وتخاف أن تصيبك بجنون أو علة، فنزلت الآية في ذلك. أي إن المشركين يخوّفونك أيها النبي بالذي يعبدون من دون الله . وروي أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى كسر صنم العُزّى، فقال سادنها[1]: يا خالد، إني أخاف عليك منها، فلها قوّةٌ لا يقوم لها شيء، فأخذ خالد الفأس، فهشم به وجهها وانصرف[2].

ثم قرر الله تعالى: أن الهداية والإضلال من عنده بالخلْق والاختراع، وأن ما أراد

(١) خادمها والقائم على حمايتها . (٢) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن جرير عن قتادة .

من ذلك لا رادّ له، ثم توعد الله المشركين بعزته وانتقامه، فكان ذلك والانتقام يوم بدر وما بعده.

أي إن من حقَّ عليه القضاء بضلاله لسوئه وعناده ومكابرته، ماله من هاد يهديه إلى الرشد، و يخرجه من الضلالة، ومن يوفقه الله إلى السعادة والإيمان لاستعداده لهما، فلا مضل له أبداً. أليس الله بغالب لكل شيء، قاهرٍ له، ينتقم من عصاته بعذاب شديد؟ فهو سبحانه منيع الجانب، قوي البطش، شديد الانتقام من أعدائه المشركين المكذبين رسوله وأمينه عليه الصلاة والسلام.

مناقشة عبدة الأصنام

الإسلام دعوة الإصلاح الكبرى الشاملة لجميع أبناء البشر، لذا كان حريصاً بصراحته ورحمته واعتماده على العقل الحر والمنطق الرشيد، هداية الناس جميعاً حتى الوثنيين البدائيين إلى الدين الحق والعقيدة الصحيحة القائمة على توحيد الله عز وجل، وإبطال عبادة كل ما لا خير فيه ولا نفع، ولا دليل من الواقع عليه، واعتمد القرآن الكريم في مناقشة عبدة الأصنام على أساسين واضحين:

الأول- أن المشركين لو سئلوا عن خالق السماوات والأرض لأقروا بأنه الله تعالى.

الثاني- أن أصنامهم التي يعبدونها عاجزة عن تحقيق الخير أو دفع الشر.

روي عن مقاتل: أن النبي ﷺ سألهم، فسكتوا، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وقال بعض المشركين: لا تدفع هذه الأصنام شيئاً قدَّره الله، ولكنها تشفع، فنزلت هذه الآيات الآتية:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ(١) إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر: ٣٩/٣٨-٤٠].

هذا ابتداء احتجاج على المشركين بحجة حاسمة، مفادها أن القرآن الكريم انتزع منهم الإقرار بالخالق المخترع الموجد: وهو الله عز وجل، وحينئذ لم يبق لهم في الأصنام غرض إلا أن يقولوا: إنها تضر وتنفع.

فقيل لهم: إذا أراد الله أمراً، هل للأصنام قدرة على نقضه؟

والجواب واضح: وهو أنه لا قدرة للأصنام على شيء من ذلك.

وتقرير الأمرين أو الأصلين يتبين في معنى هذه الآيات.

لئن سألت أيها النبي أو أي إنسان المشركين عن خالق السماوات والأرض، لأقروا على الفور وبصراحة: بأنه هو الله الخالق، مع أنهم يعبدون الأصنام.

فإذا أقررتم بأن الله تعالى خلق الأشياء كلها، فأخبروني عن هذه الآلهة المزعومة: إن أراد الله بأحد شيئاً من الضُّر، أي الشدة والبلاء، هل تستطيع هذه الأصنام أن تمنع ما أراده الله من شدة، وإن أراد الله بأحد منحه شيئاً من الخير والنعمة والفضل والإحسان، هل تقدر هذه الأصنام حجب رحمة الله عنه؟ وإذا كانت لا تمنع شراً، ولا تجلب نفعاً، فكيف تجوز عبادتها وتعظيمها؟!

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يصدع بالاتكال على الله تعالى، وأنه حسبه وكافيه من كل

(١) أي على ما رأيتموه متمكناً لكم، وعلى حالاتكم التي استقر رأيكم عليها.

شيء ومن كل ناصر، وأنه هو وحده لا غيره الذي يجب أن يتوكل عليه المتوكلون، ويفوض إليه جميعَ الأمور المؤمنون، ويلجأ إلى الاستعانة به كل البشر أجمعون.

ثم أمر الله نبيه بأن يتوعد المشركين في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي: قل أيها النبي: يا قوم، اعملوا ماشئتم، وافعلوا ما أنتم عليه من هذه الحال والطريقة التي أنتم عليها، من معاداة رسالتي، والاعتماد على القوة والشدة والثروة، واجتهدوا في استعمال مختلف أنواع المكر والكيد، فإني على حالتي ومنهجي وطريقتي التي أدعو بها إلى توحيد الله، ونشر دينه في الآفاق، ولدى جميع الناس، فسوف تعلمون وبال ذلك وعاقبته الوخيمة، وتأملوا فيمن سيأتيه عذاب يذله ويهينه في الدنيا، بعد تفاخره وعناده واستكباره، فيظهر حينئذ المبطل من المحق، وسيتعرض لعذاب دائم مستمر، لا محيد عنه في الآخرة: وهو عذاب النار يوم القيامة.

وقوله سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ لفظ أمر بمعنى الوعيد والتهديد، والعذاب المخزي: هو عذاب الدنيا يوم بدر وغيره من الهزائم المنكرة التي تلحق بالمشركين، والعذاب المقيم: هو عذاب الآخرة.

إن النظرة العاجلة السريعة التي يتبين خطؤها عما قريب: هي التي تحمل أهل الشرك والكفر والضلال على البقاء على ما هم عليه، وإن النظرة المتأنية المعتمدة على المنطق السديد والعقل الرشيد هي التي تغيّر المواقف، وتحوّل أصحاب العقول السوية من طريق الغواية والانحراف إلى طريق الرشاد والاستقامة.

مظاهر القدرة الإلهية والوحدانية

مظاهر وحدانية الله تعالى وسلطانه ومقدرته الفائقة تتعدد في الكون والإنسان والحياة وما بعد الممات في عالم الآخرة، وأول المظاهر الكبرى للوحدانية والقدرة

الإلهية: إنزال القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ وبيان علو مكانته واصطفاء ربه عز وجل له، ثم الإعلامُ بقدرة الله على قبض الأرواح بانتهاء آجالها، وملكةُ الشفاعة التي لا تتم إلا بأمره وإذنه. وهناك مظاهر ثلاثة متممة أخرى، وهي كون الله مبدع السماوات والأرض، واتصافه بعلم الغيب والشهادة، علم الاخرة والدنيا المشاهدة، وإظهار أنواع من العقاب غير معروفة ولا محسوبة، وبيان آثار السيئات والمعاصي التي يرتكبها الناس، قال الله تعالى مبيناً ذلك:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا
يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ
فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا
يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا
ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ
ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤١-٤٨].

المعنى: يقرر الله تعالى أنه أنزل القرآن الكريم بالحق، أي متضمناً الحق في أخباره وأحكامه، أو أنزله بالواجب من إنزاله وبالاستحقاق لذلك، لما فيه من مصلحة العالم وهداية الناس. وهذا بيان لإقامة الحجة على العباد، ولم يبق إلا اختيارهم وإقدامهم على الأخذ به، فمن عرف الحق وسلك طريقه واتبعه، فاهتداؤه ومعرفته

لخير نفسه، ومن حاد عن الحق وتنكر له، فضلاله على نفسه، ووباله على ذاته، وما أنت أيها الرسول بموكل على الناس أن يهتدوا ولا يمكنك حملهم على جادة الهداية، وإنما عليك إبلاغ الرسالة. ومن المعلوم أن إنزال القرآن هو أول مظاهر قدرة الله وفضله وتوحيده.

والمظهر الثاني: أن الله تعالى هو الحاكم المطلق على الناس بالموت، فهو الذي يقبض الأرواح من طريق الملائكة حين انتهاء آجال أصحابها، وهي الوفاة الكبرى، فيمسك تلك الأرواح، أي لا يردها إلى الجسد الذي كانت فيه، ويرسل روح النفس الأخرى التي نامت إلى أجسادها حين اليقظة، بأن يعيد إليها إحساسها، ويبقيها على قيد الحياة، إلى أجل معين: هو وقت الموت. إن في ذلك التوفي التام، وإرسال الروح مرة أخرى لعلامات باهرة على قدرة الله ووحدانيته، من قوم يتفكرون ويتأملون في ذلك. أما الروح فلا يعلم حقيقتها إلا الله، ولا سلطان عليها لأحد غير الله، لا بتحضير الأرواح أو التنويم المغناطيسي ولا بغير ذلك: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥].

بل اتخذ المشركون من دون الله آلهة شفعاء تشفع لهم عند الله؟ لا ينبغي لهم ذلك، وقل لهم أيها النبي للرد عليهم: كيف تتخذون تلك الأصنام شفعاء لكم، وهم لا يملكون شفاعة ولا غيرها، ولا يعقلون شيئاً من شفاعة ولا غيرها، ولا تدرك تلك الأصنام شفعاء لكم، وهم لا يملكون شفاعة ولا غيرها، ولا يعقلون شيئاً من شفاعة ولا غيرها، ولا تدرك تلك الأصنام أن الناس يعبدونها. وقل أيضاً يا نبي الله: إن الله تعالى هو مالك جميع أنواع الشفاعة، وليس لأحد منها شيء فالله هو مالك جميع السماوات والأرض وكل ما يحدث فيهما، ثم إليه مصائر جميع الناس بعد البعث، فيحاسبهم على جميع أعمالهم، وفي هذا تهديد ووعيد لمن يعتمد على غير الله في أي شيء.

ومن قبائح المشركين: إذا ذكر الله وحده، وأنه لا إله سواه، انقبضوا وانزعجوا،

لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، وإذا ذكرت الأصنام كاللات والعزى، إذا هم يفرحون ويسرّون.

قال مجاهد: نزلت هذه الآية في قراءة النبي ﷺ سورة النجم عند الكعبة، وفرحهم عند ذكره الآلهة، أي عند قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ١٩].

ثم رد الله تعالى عليهم بقوله: ادع الله أيها النبي فقل: يا خالق السماوات والأرض، ويا عالم الغيب والشهادة (ما غاب عن البشر وما شاهدوه) أنت تحكم بين عبادك في كل ما اختلفوا فيه. وهذا دليل على العلم التام لله عز وجل.

ثم توعد الله المشركين بأمور ثلاثة:

أولها: لو أن هؤلاء المشركين ملكوا جميع خزائن الأرض ومثلها معها، لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب يوم القيامة.

وثانيها: وظهر لهم من أنواع العقاب والعذاب المهيأ لهم ما لم يكن في حسابهم ولا خطر في بالهم.

وثالثها: وظهر لهم جزاء وأثر سيئاتهم التي اكتسبوها في الدنيا، وأحاط بهم من العذاب ما كانوا يستهزئون به في دار الدنيا، ومن إنذارات النبي ﷺ.

سوء الطبع عند الإنسان

من قبائح طبائع المشركين والكافرين: تنكرهم للنعمة الإلهية حال الرخاء، ولجوؤهم إلى الله تعالى حين الشدة والبلاء، زاعمين بأن الإنقاذ والنعمة يحدثان بمهارتهم وجهدهم، مع أن الله تعالى وحده هو مصدر الخير والنعمة والرزق، وليس جمع الثروة بمهارة الإنسان وفطنته وخبرته، ولا ضعفها ولا قلتها بغبائه وخموله،

وإنما أمر الرزق بيد الله تعالى بشرط السعي والعمل، فقد يكون الجهد الكثير، ولا يحصل سوى الرزق القليل، وقد يكون العجز والضعف، ويسوق الله الرزق الوفير لصاحبه، على وفق مراد الله تعالى وحكمته، وهذا ما دوّنته الآيات الآتية:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ(١) نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ(٢) وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ(٣) ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ(٤) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٩-٥٢].

إن طبع الإنسان غريب، فتراه إذا كان كافراً أو مشركاً، وأصابه ضرّ من فقر أو مرض أو غيرهما، تضرَّع إلى الله تعالى، واستعان به لكشف الضُّر عنه، حتى إذا منحه الله نعمة من صحة وعافية وسلامة أو ثروة ومنصب وجاه، أو غير ذلك، زعم أنه وصل لذلك بخبرته ومهارته بأوجه المكاسب والعمل، أو لأنه يستحق ذلك، والحقيقة أن الحياة بأوضاعها كلها ابتلاء وخبرة للناس وامتحان لهم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، ولا يدركون أن كلاً من النعمة والنقمة اختبار وامتحان، ففي حال الإنعام ليُعرَف الشاكر من الجاحد، وفي حال الإفقار ليُعلم الصابر والمؤمن من الْجَزِع والجاحد، والجزع: ضدّ الصبر.

وهذه المقالة من المشركين، قالها الذين سبقوهم، فزعموا هذا الزعم، وادَّعوا هذه الدعاوى مثل قارون وغيره، فما صحّ قولهم، ولم يُفِدْهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئاً، ولا نفعهم جمع المال الكثير.

---

(١) أي أعطيناه وملكناه. (٢) أي اختبار وابتلاء. (٣) أي مفلتين وناجين بأنفسهم. (٤) أي يضيِّق.

ترتَّب على هذا الموقف المباين للصواب والسداد أن يحلَّ بهم جزاء المعاصي والسيئات التي اكتسبوها من الأعمال، فعوقبوا في الدنيا بعقوبات شتى كخسف الأرض بقارون، وتدمير عاد وثمود وقوم لوط، ولهم أشدّ العقاب أيضاً في الآخرة، وكذلك هؤلاء الظالمون الكافرون من مشركي مكة حين نزول الوحي وأمثالهم في كل زمان، سيصيبهم وبال كسبهم منكراتِ الأعمال، وسوءَ الاعتقاد، كما أصاب من قبلهم، من القحط والقتل والأسر والقهر، وما هم بمفلتين ولا ناجين بأنفسهم من سلطان الله تعالى، بل مردّهم ومرجعهم إليه، في قبضته وهيمنته، يصنع بهم ما يشاء من العقوبة.

إن هؤلاء المعاندين لرسالة الأنبياء والمعارضين لدعوة الإصلاح، لا يغني عنهم كسبهم وجمعهم للأموال، ولا يغني أمثالَهم، والجميع يستحقون التوعُّد، فأولئك الغابرون، أصابهم جزاء ما كسبوا، وكذلك الذين ظلموا بالكفر من هؤلاء المعاصرين للنَّبي محمد ﷺ سيصيبهم ما أصاب المتقدِّمين.

ثم قرَّر الله تعالى القرار الحقيقي في أمر الكسب والرزق وسعة النِّعم، وطريقةِ قسمته بين الناس على وفق الحكمة والمصلحة للعباد أنفسهم، وهذا القرار هو: أَوَ لم يعلم المشركون وأمثالهم أن الله هو الذي يبسط الرزق لقوم، ويضيِّقه على قوم بمشيئته وسابق علمه، وليس ذلك لمهارة أحد ولا لعجزه، إن في ذلك لدلالاتٍ واضحاتٍ وعلامات قاطعات لقوم يؤمنون بالله وحده، ويصدِّقون بسلطانه وقدرته الخارقة والشاملة.

وقد خصَّ الله تعالى المؤمنين بأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات ويدركون ذلك، ويقدرون مواقفهم السديدة في مواجهة الحقّ تعالى، ويبين هذا أيضاً آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٧].

إن في هذا البيان الإلهي تقريراً لأمرين: الأول-أن الله تعالى هو لا غيره الرازق المتكفِّل بأرزاق المخلوقات من بدء الحياة إلى الموت. والثاني-أن قسمة الرِّزق بيد الله تعالى، لا تكون مرتبطة بالمهارات وضدِّها من العجز، ولا بالإيمان ونقيضه، ولا بالاستقامة والطاعة وعكسها.

طريق التجديد والإصلاح

من المعلوم أن الإنسان مركب على النقض، معرَّض للأخطاء، فالخطأ ملازم لكل إنسان، لكن لا يجب ولا يصح استمرار الخطأ، وإنما العلاج سهل ويسير، والتخلص من آثار الزلات والانتكاسات أمر ليس بالعسير ولا بالشاق، ألا وهو العودة إلى الله تعالى، وتجديد الحياة، وتصحيح المسيرة بالتوبة الخالصة بين الإنسان وربه، وإخلاصه العمل له سبحانه، والتوجه الصحيح في فهم حقيقة الوجود، وضرورة الإيمان لكل إنسان، والالتزام بأصول الحق والسداد والاستقامة. قال الله تعالى مبيناً هذا المنهاج ليفتح لنا باب الأمل والرجاء:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ[١] لَا تَقْنَطُوا۟[٢] مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً[٣] وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ[٤] وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

---

(١) أي تجاوزوا الحد وأفرطوا. (٢) لا تيأسوا، والقنوط أعظم اليأس. (٣) أي فجأة وعلى غير موعد.
(٤) أي في تضييع شريعته والإيمان به.

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣-٥٩].

نزلت هذه الآية فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتَلوا فأكثروا، وزنَوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، أو تخبرنا أن لنا توبة، أو أن لما عملنا كفارة؟ فنزلت الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٨-٧٠] ونزل: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ . . ﴾ وهذه الآية عامة في جميع الناس إلى يوم القيامة، تشمل الكافر والمؤمن.

المعنى: قل أيها النبي لقومك: يا عباد الله الذين أسرفوا أو تجاوزوا الحد في المعاصي، واستكثروا منها، لا تيأسوا من مغفرة الله تعالى، فإن الله تعالى يغفر جميع الذنوب إلا الشرك الذي لم يتب منه صاحبه، كما في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨].

إن الله كثير المغفرة واسع الرحمة، فلا يعاقب بعد التوبة، فإن توبة الكافر تمحو كفره، وتوبة العاصي تمحو ذنبه، ومقتضى ظواهر القرآن: أن الذنب مغفور بالتوبة ولا بد، لكن الشرك ليس بمغفور إجماعاً، وكل مغفرة أو عمل مقيد بمشيئة الله.

لكن المغفرة تتطلب أمرين: التوبة الخالصة لله تعالى، وإخلاص العمل لله سبحانه، لذا أمر الله بالإنابة إليه بالتوبة والطاعة، واجتناب المعاصي، وتسليم الأمر لله عز وجل، والرضا بحكمه وبأمره، من قبل مجيء عذاب الدنيا، والوقوع في الهزيمة المنكرة. ومعنى قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ : ارجعوا وميلوا بنفوسكم.

وإخلاص العمل لله لا يكون إلا باتباع القرآن الكريم بإحلال حلاله، وتحريم حرامه، والتزام طاعته، وتجنب معصيته. ومعنى قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ

إِلَيۡكُم. .﴾ أي التزموا طريق التفهم والطاعة، واتبعوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه، فهو أحسن من أن يسلك الإنسان طريق الغفلة والمعصية، وهذا هو المعنى المقصود بـ (أحسن) وليس معناه أن بعض القرآن أحسن من بعض، من حيث هو قرآن، وإنما وجه الأحسنية: هو بالإضافة إلى أفعال الإنسان وما يجد من عواقبها، فما يأمرُ به الله خير مما يفعله الإنسان بهواه وعقله، قال السّدي: الأحسن: هو ما أمر الله تبارك وتعالى به في كتابه.

واتباع أوامر الله: مطلوب قبل مجيء العذاب فجأة من غير موعد، والناس غافلون عنه لاهون، لا يشعرون به، وهذا تهديد ووعيد.

وهذا منهج الحكمة والعقل، فإن المبادرة إلى التوبة والعمل الصالح أمر مطلوب قبل فوات الأوان، وذلك قبل الندم، وقبل أن تقول نفس مفرطة في التوبة: يا حسرتاه على التقصير في الإيمان والطاعة، و تدبّر القرآن والعمل بأوامره وإرشاداته، فلقد كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ بدين الله وكتابه وبرسوله وبالمؤمنين، غير مصدِّق بالله وحسابه. أو قبل أن تقول نفس: لو أن الله أرشدني إلى دينه، لكنت ممن يتقي الله ويجتنب الشرك. فهذه الجملة ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ هي من قول الكافر، مفادها الندامة على استهزائه بأمر الله، والسُّخر: الاستهزاء. أو قبل أن تقول حين معاينة العذاب: ليت لي رجعةً أخرى إلى الدنيا، فأكون من المؤمنين بالله، الموحّدين له، المحسنين في أعمالهم. ثم رد الله تعالى على أصحاب هذه التأملات بأنه قد جاءت آيات الله في قرآنه تنذر وتحذر، فكذبوا بها، وتكبروا عن اتباعها، وكانوا من الجاحدين بها، الكافرين بمضمونها.

إن هذه التحذيرات من سوء العاقبة مفيدة في الدنيا، لا في الآخرة، فإن الدنيا: هي دار التكليف، والآخرة هي دار الحساب والجزاء، وفي الآخرة لا ينفع الندم، ولا مجال لإصلاح العمل أو العودة للدنيا لتصحيح الأعمال.

الوحدانية والخلق والجزاء

يجمع الله تعالى في بضع آيات موضوعاتٍ متعددة، يساند بعضها بعضاً، وتحقق الغاية منها لإصلاح الإنسان، وتحذيره من الانحراف والعصيان، فيكون الوعد بجوار الوعيد، والنهي يقابل الأمر، والترغيب مع الترهيب، والإخبار بسوء مصير المكذبين بآيات الله، ونجاة المتقين في عالم القيامة، واقتران التذكير بأن الله خالق كل شيء، مع التفرد بالسلطان والحساب والجزاء، والتحذير من إحباط الشرك جميع الأعمال، والأمر بعبادة الله وشكره، وهذا اللون من الجمع بين المتقابلات يتميز به أسلوب القرآن المتميز بالإعجاز، وارتقاء المستوى البلاغي والفصاحة إلى أرقى الحدود؛ لأن الأشياء تتبين بأضدادها، قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١) ﴿٦٢﴾ لَّهُ مَقَالِيدُ(٢) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ(٣) عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٤) وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٠-٦٧].

هذه ألوان من الأخبار المتضمنة للوعيد والتحذير والإنذار لمعاصري النبي محمد

(١) أي قائم على الأمر، موفٍّ كل شيء على التمام والكمال. (٢) أي مفاتيح، وهذه استعارة يراد بها بيان قدرة الله على كل شيء وتصرفه بكل شيء. (٣) أي يبطل ويفسد. (٤) هذه استعارة لكمال العظمة والقدرة.

ﷺ ومن يأتي بعدهم، تتضمن بيان خواص الألوهية والوحدانية، وكمالِ العظمة والسلطان والقدرة الإلهية.

أول هذه الخواص: أن الله تعالى هو المتفرد بالخلق والإبداع وإيجاد جميع الأشياء في الدنيا والآخرة، وأنه القائم على جميع الأمور المستقل بها، الموكل بحفظها وتدبيرها، والمتولي إكمالها وتتميمها، وهذا دليل على أن الله هو الخالق لجميع أعمال الناس.

وأخبر أيها النبي بخبر مهم جداً: وهو أنك وكل إنسان ترى المشركين يوم القيامة، الذين كذبوا على الله في ادعائهم شريكاً لله، وجوههم مسودة مظلمة بكذبهم وافترائهم، لما شاهدوه من مآسٍ وأحزان، وعذاب وسخط، إن في جهنم مسكناً ومقاماً للمتكبرين عن طاعة الله، الذين أبوا الانقياد للحق والطاعة.

وأخبر في مقابل هؤلاء الجناة للمعادلة والموازنة عن حال المتقين الذين اتقوا الشرك والمعاصي، فإن الله تعالى ينجيهم من النار، ويدخلهم الجنة، ويحميهم من السوء والكدر، ومن الحزن والألم، فهم آمنون من كل فزع.

وثاني خواص القدرة الإلهية: أن الله تعالى هو المتصرف والمتحكم في شؤون السماوات والأرض، وبيده خزائن الخيرات فيهما: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ وهذه استعارة يراد بها بيان قدرة الله تعالى المطلقة وتحكم الله في مخزونات الكون حفظاً وتدبيراً، ومنحاً ومنعاً، أو عطاء وحرماناً، لكن الذين جحدوا بآيات الله الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته، في أنحاء السماوات والأرض، أولئك لا غيرهم هم الذين خسروا أنفسهم، واستحقوا الخلود في النار، جزاء كفرهم.

وإذا كان الله تعالى هو المتميز بالوحدانية والقدرة المطلقة، فيستحق المشركون التوبيخ على ترك عبادة الله، والتوجه نحو عبادة الأصنام، فقل أيها الرسول لكفرة

قومك وأمثالهم: كيف تأمروني أيها الجهال بعبادة غير الله تعالى؟ بعد قيام الأدلة القطعية على تفرده بالألوهية، فهو خالق الأشياء ومدبرها ورازقُ الأحياء، فلا تصلح العبادة إلا له تعالى.

وسبب نزول هذه الآية: هو كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن المشركين من جهلهم، دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، وأن يعبدوا معه إلهه، فنزلت هذه الآية: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

ثم قرَّر الله تعالى مبدأ إعلان الوحدانية الدائم في قوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ..﴾ أي إن أمر المشركين المساومين عجيب، فلقد أوحي إلى النبي محمد وإلى كل نبي عليهم الصلاة والسلام: لئن أشركت مع الله إلهاً آخر، ليبطلنَّ عملُك، ولتكونن من الذين خسروا أنفسهم، وأضاعوا دنياهم وأخراهم. وهذا دليل على أن الشرك يحبط الأعمال، ويضيعها هباء منثوراً، ولو كانت خيراً.

ثم أكد الله تعالى مقتضى الوحدانية بأمر النبي ﷺ بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وأن يكون من الشاكرين نعم الله بالهداية والرسالة النبوية.

أما المشركون: فلم يقدروا الله حق قدره، أي لم يعظموه حق تعظيمه، حين عبدوا معه إلهاً آخر، فإن الأرض كلها تحت سلطان الله وتصرفه وملكه والسماوات خاضعة لقدرته وسلطانه ومشيئته، تنزه الله عما يشركون به من الشركاء. والمراد باليمين والقبضة في الآيات: أنها عبارة عن القدرة والقوة.

وسبب نزول هذه الآية كما روى الطبري: هو الرد على رهط من اليهود حين أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، هذا الله خلق الخلق، فمن خلقه؟ فغضب النبي، ثم جاءه الجواب عما سألوا عنه بنزول سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ فلما تلاها عليهم النبي قالوا: صف لنا ربك، كيف خَلْقه، وكيف عضده، وكيف

ذراعه؟ فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول، ثم ساورهم، فأتاه جبريل فقال مثل مقاله، وأتاه بجواب ما سألوه عنه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية.

نفخة الصور وتوابعها

لكل شيء مخلوق نهاية، والدوام والخلود ابتداءً وبقاءً هو لله تعالى، والنهاية الحتمية للمخلوقات جميعها تكون يوم القيامة، وهي أمر سهل على الله تعالى، لأن من ملك البدء في الخلق، أمكنة الإعادة، وهما سواء بالنسبة للخالق عز وجل، ونهاية الكون تكون بنفخات ثلاث: الأولى صعقة الفزع، وهي ليست مذكورة في الآيات الآتية، ثم نفخة الصور للإماتة، ثم نفخة البعث من القبور، وهاتان النفختان مذكورتان في الآيات الآتية، ويتبع ذلك فصل الخصومات أو المنازعات بين الناس، على منهج الحق التام والعدل المطلق، ثم إيصال الحق لصاحبه. قال الله تعالى واصفاً هذه الأحداث الجسام:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ[1] فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ
أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ
وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا
يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ
قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا

---

(١) الصور: القَرْن أو البوق الذي ينفخ فيه قبل القيامة.

وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٨-٧٥].

من تمام مظاهر قدرة الله تعالى: النفخ في الصور ليُصعَق الأحياء من أهل الدنيا والسماء، والنفخات ثلاث كما ذكرت: نفخة الفزع[1]، ولم تتضمنها هذه الآية، فاذكر أيها النبي حين ينفخ إسرافيل في الصور للإماتة، والصور قرن أو بوق، فيخرّ ميتاً جميع أهل السماوات والأرض، إلا من شاء الله ألّا يموت حينئذ كجبرائيل وميكائيل وإسرافيل حيث يموتون بعد ذلك، ثم ينفخ إسرافيل نفخة أخرى للبعث من القبور، فيقوم الناس أحياء من قبورهم، ينظرون أهوال يوم القيامة، وينتظرون ماذا يُفعل بهم، بعد أن كانوا عظاماً بالية، ورفاتاً مفتتة كالتراب.

رُوي أن بين النفختين أربعين سنة أو شهراً أو يوماً أو ساعة، لا يدري الراوي أبو هريرة ذلك، كما روى البخاري.

وتكون أحوال القيامة على النحو التالي:

١-٤: تضيء الأرض في المحشر بتجلي الحق للخلائق لفصل القضاء، ويوضع سجل أو صحائف الأعمال لبني آدم بين يدي أصحابها، إما باليمين أو بالشمال ويجاء بالأنبياء إلى الموقف ليُسألوا عما أجابتهم به أقوامهم، ويجاء أيضاً بالشهود الذين يشهدون على الأمم، من الملائكة الحفظة التي تقيّد أعمال العباد. والشهداء: جمع شاهد، والمراد بالشهود: أمة محمد ﷺ الذين جعلهم الله تعالى شهداء على الناس.

(١) ثبت في بعض الأحاديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن قبل صعقة الموت صعقة الفزع

وتكون توابع الحشر والنشر والحساب والجزاء كما يلي:

٤-أ: يقضي الله بين العباد بالحق والعدل والصدق، ولا يظلم ولا ينقص شيء من ثوابهم، ولا يزاد في عقابهم، ويكون الجزاء على قدر أعمالهم، وتوفى أو تعطى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر، والله أعلم من كل أحد بما يفعل العباد في الدنيا، من غير حاجة إلى كاتب أو حاسب أو مسجل، ولكن وضع الكتاب أو صحفِ الأعمال وشهادة الشهود والأنبياء لإلزام الناس بالحجة وقطع المعذرة. ثم أبان الله تعالى حال الأشقياء وحال الأتقياء.

فيساق الكافرون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد إلى جهنم، جماعات متفرقة، حتى إذا وصلوا إليها، تفتح لهم أبوابها السبعة، ليدخلوها ويعاقبوا فيها. وتقول لهم خزنة النار من الملائكة، على وجه التقريع والتوبيخ: ألم يأتكم رسل من جنسكم تأخذون عنهم، ويتلون عليكم آيات الله التي أنزلها لإقامة الحجة على صحة ما دعوكم إليه، ويحذرونكم شر هذا اليوم، فأجابوا بقولهم: بلى، جاؤونا وأنذرونا، ولكن كذبناهم وخالفناهم، ووجبت كلمة العذاب على من كفر بالله وأشرك. فتقول لهم الملائكة: ادخلوا في أبواب جهنم التي فتحت لكم، مقدَّراً لكم فيها الخلود والبقاء والدوام إلى الأبد، فبئس المقر الدائم جهنم، بسبب تكبركم في الدنيا عن اتباع الحق.

وأما الأتقياء الذين اتقوا الشرك، وهم كل من يدخل الجنة من المؤمنين: فتسوقهم الملائكة إلى الجنة بإعزاز وتكريم، جماعات متعاقبة، حتى إذا وصلوا إلى أبواب الجنة الثمانية، بعد تجاوز الصراط فتفتح لهم أبوابها الثمانية، والواو في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ واو الحال، للدلالة على فتح الأبواب سابقاً، وعلى الترحيب بهم، ولاستعجال السرور قبل الدخول إذا رأوها مفتوحة، وصيانة لهم عن المذلة التي يلقاها من يجد الباب مغلقاً في وجهه. وتقول لهم خزنة الجنة: سلام لكم من كل آفة ومكروه، طابت أعمالكم وأقوالكم وسعيكم في الدنيا، فادخلوا الجنة ماكثين فيها على الدوام.

وقال هؤلاء المؤمنون الأتقياء: الحمد لله الذي أنجز لنا وعده على ألسنة الرسل، وجعلنا ورثة جنان الخلد، ننزل فيها أي مكان شئنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا ونعم أجر العاملين: وهو الجنة.

وترى أيها السعيد أن الملائكة تحيط بالعرش المجيد، ينزهون الله عن أي نقص أو شبيه، ويمجدونه ويعظمونه، ويفصل بينهم فصلاً بالحق والعدل، ويقولون: سبحان الله و بحمده، فهو رب جميع العالمين من إنس وجن.

تفسير سورة غافر

مصدر القرآن الكريم

لقد أدرك الكافرون من العرب والمؤمنون أن القرآن العظيم كلام الله تعالى، لاختلافه التام عن كلام البشر من أدب وشعر، ونثر وخطابة، ولتفوقه في البلاغة والفصاحة، ولسموه في النظم والمعنى والانسجام، إلا أن من لم يؤمن به عاند وتحدى، حفاظاً على المراكز والمصالح، ومن بادر إلى الإيمان به، استجاب لنداء العقل والحكمة، واختار لنفسه طريق السعادة والنجاة، وحمى نفسه من التردي والضياع والخسران. وهذا ما قررته الآيات الشريفة الآتية بكل ثقة وبداهة في أول سورة غافر أو المؤمن التي هي مكية:

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ
ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ(١) لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ
وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟(٢) بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ
كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ (٦)﴾

[غافر: ٤٠/ ١-٦]

---

(١) أي مصدر الإنعام صاحب النعم والفضل والغنى، فالطول: السعة والغنى. (٢) أي ليبطلوا ويزيلوا به الحق.

هذه الآيات تبين مصدر إنزال القرآن: وهو أنه من عند الله، وتناقش الكفار الذين جادلوا بالباطل، لدحض الحق، فاستحقوا التهديد بالعذاب في النار.

حمٓ: حروف مقطعة للاستفتاح والتنبيه لخطر ما بعدها، وللتحدي بالإتيان بمثل آي القرآن في الفصاحة والبلاغة، والإحكام في النظم والمعنى، لأنه لم يخرج تركيبه عن الحروف العربية، مثل هذين الحرفين: حمٓ، ثم إن تنزيل القرآن الكريم على قلب النبي محمد ﷺ من الله الغالب القوي القاهر، الواسع العلم بخلقه وبكل أقوالهم وأفعالهم، فأنت أيها النبي صادق في قولك: إنك رسول الله، وإن القرآن من عند الله. والله منزِّل القرآن: هو غافر الذنب الصادرِ من الإنسان، وقابلُ التوبة الخالصة منه، وشديد العقاب لمن عاداه، وذو الفضل والسعة والنعمة والمن بكل نعمة، ينعم بمحض إحسانه، وهو الإله الواحد الذي لا شريك له ولا نظير، وإليه مرجع الخلائق كلهم. هذه ست صفات لله عز وجل تضمنت وعيداً بين وعدين، وعيداً بالعقاب، ووعداً بمغفرة الذنب وبالإمداد بالنعم، وهكذا رحمة الله تعالى تغلب غضبه. قال عمر رضي الله عنه: «لن يغلب عسر يسرين» مشيراً لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٩٤/ ٥-٦].

ولا يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها إلا الذين كفروا بالله، فهم يجادلون بالباطل، أي جدالاً باطلاً، فلا تغتر أيها النبي أو تظن أن وراء تقلبهم وإمهالهم خيراً لهم، ولا يغتروا بإملاء الله تعالى لهم، أي ولا تنخدع بتصرفهم وتمتعهم بالمساكن والمزارع والأسفار، وتنقلهم في بلاد الله للتجارة وتحقيق الأرباح، وجمع الأموال، فإنهم معاقبون عما قليل، وعاقبتهم في النهاية: الدمار والهلاك.

ثم ذكر الله تعالى أن لهم مثلاً بمن تقدمهم من الأمم السابقة، فكما حل العقاب بأولئك، كذلك ينزل بهؤلاء، فلقد كذبت قبل جماعة قريش قوم نوح والأحزاب

(الجماعات) الذين تحزبوا على الرسل من بعد قوم نوح، كعاد وثمود وأهل مدين وأصحاب لوط، وقوم فرعون وغيرهم، فإنهم جاهروا بتكذيب الرسل، فعوقبوا أشد العقاب.

وعزَمتْ كل أمة من تلك الأمم المكذبة برسولهم المرسل إليهم على أخذه، لحبسه وتعذيبه، أو قتله، أو طرده، وجادلوا الرسل بالشبهة المزيفة، وبباطل القول وزخرف الكلام، لرد الحق، وإبطال الإيمان الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ معناه: ليهلكوه، والأخيذ: القتيل أو الأسير، فأخذهم الله، أو أهلكهم ودمرهم.

فانظر كيف كان عقابي الذي عاقبتهم به؟ فإنه كان مهلكاً مستأصلاً. فيكون قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ تعجيب وتعظيم، وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر.

ثم أكد الله تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ..﴾ أي وكما أخذت أولئك المذكورين وأهلكتهم، فكذلك حقت كلماتي، ووجب عذابي على جميع الكفار، من تقدّم منهم ومن تأخر، أنهم أهل النار وسكانها. وهذه كلها عبارة عن تحتم القضاء عليهم، فما دام السبب واحداً أو العلة واحدة، فإن الجزاء أو العذاب واحد، وهو استحقاقهم النار.

إن عدالة القرآن الكريم، وبيانه البديع، وقانونه الحق المبرم يتطلب كل ذلك الإذعان لدعوته وامتثال أمر الله وطاعته، والحذر من مخالفته وعصيانه، ولو لم يكن ذلك منهج القرآن الذي يسوّي بين جميع البشر في الحساب والجزاء، لما أيقن أهل الإيمان بقدسيته، ولما جعلوه بمثابة الروح والقلب والدم في نفوسهم، بل الذي لا يعلوه شيء ولا يتقدم عليه شيء.

استغفار الملائكة للمؤمنين

كرَّم الله تعالى أهل الإيمان بأنواع متعددة من التكريم والتشريف، سواء في الدنيا أو في الآخرة، ومن ذلك أن الملائكة حملة العرش والذين هم حول العرش وهم أفضل الملائكة يستغفرون للمؤمنين، ويسألون الله تبارك وتعالى لهم الجنة والرحمة. وما أحوج الإنسان إلى رحمة الله وفضله!! وما أكرم المؤمن الذي يحظى بدعاء الملائكة، وبقبول الله لهذا الدعاء المخلص المجاب من رب العزة، كما جاء في بعض الآيات: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ٢٥/١٦]. أي سألته الملائكة فأجيبوا. وجاء تفسير مجمل هذا الدعاء في آية أخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤٢/٥]. وهذا الدعاء والتكريم الملائكي للمؤمنين: هو مضمون الآيات الآتية:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٤٠/٧-٩].

المعنى: إن الملائكة حملة العرش ومن حول العرش وهم الكروبيون أفضل الملائكة ينزهون الله تعالى عن جميع النقائص، ويحمدونه على نعمه البالغة، ويصدِّقون بوجود الله ووحدانيته، ولا يتكبرون إطلاقاً عن عبادته، ويطلبون المغفرة السابغة للذين آمنوا بالله وبالغيب، لا للذين كفروا بالله ومغيباته، إذ لا يجوز الاستغفار للكفار إلا بمعنى طلب هدايتهم والمغفرة لهم بعد ذلك، كاستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه. واستغفار رسول الله ﷺ للمنافقين: معناه أن يهديهم الله ثم يستقيموا.

والعرش: أعظم المخلوقات، وهو مركز تدبير العالم وهو حقيقة، الله أعلم به. ومضمون دعاء الملائكة بالاستغفار هو:

يا ربنا الذي وسعتْ رحمتك وعلمك كل شيء، اغفر واستر واصفح عن المؤمنين الذين تابوا عن الذنوب، واتبعوا سبيلك ودينك في القرآن، واحفظهم من عذاب الجحيم-عذاب النار.

ربنا وأدخل المؤمنين جنات عَدْن، أي جنات الإقامة الدائمة التي وعدتهم بها على ألسن الرسل، وأدخل معهم من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم المؤمنين الصالحين، اجمع بينهم وبينهم، تكميلاً لنعمتك وفضلك، إنك أنت القوي الغالب الذي لا يقهر، الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك.

روي عن سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية: أن الرجل يدخل الجنة قبل قرابته، فيقول: أين أبي؟ أين أمي؟ أين زوجتي؟ فيلحقون به لصلاحهم، ولتنبيهه عليهم وطلبه إياهم، وهذه دعوة الملائكة.

ولم يقتصر دعاء المؤمنين على طلب إدخال الجنان، وإنما شمل طلب الحماية من العذاب أو العقاب، فيا ربنا احفظ المؤمنين من ألوان العقاب والعذاب وجزاء المعاصي التي ارتكبوها، بأن تغفر لهم، ولا تؤاخذهم بشيء منها، واحمهم من آثار السيئات، فمن وقيته من السيئات يوم القيامة، فقد شملته برحمتك، وأنجيته من عذابك، وذلك هو الفوز الأكبر الذي لا فوز أفضل منه. وقوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ يحتمل معنيين:

الأول: يحتمل أن يكون الدعاء في أن يدفع الله عنهم السيئات نفسها حتى لا ينالهم عذاب من أجلها.

الثاني: ويحتمل أن يكون الدعاء في رفع العذاب اللاحق من السيئات، أي وقهم جزاء السيئات، فهو على هذا على حذف مضاف.

إن فائدة استغفار الملائكة للمؤمنين التائبين الصالحين هي زيادة الكرامة والثواب، وتحقق الإجابة لهذا الدعاء، لأن دعاءهم وسؤالهم بوعد من الله تعالى، لا خُلْف فيه.

ومن مزيد فضل الله وتكريمه: إخباره في قرآنه المجيد عن هذا العون والمدد: بأن الملائكة تستغفر لأهل الإيمان، كما تستغفر أيضاً لطلاب العلم، كما جاء في الحديث النبوي الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي عن أبي الدرداء الذي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتانُ في الماء..».

أهوال الحساب يوم القيامة

لا يتصور إنسان تصوراً واعياً مدى المخاطر والأهوال والمخاوف التي يتعرض لها الكفرة في عالم الحساب يوم القيامة، ولولا القرآن الكريم الذي رسم صورة مرعبة لحال الكفار في ذلك اليوم الرهيب، لما أدركنا تلك الأهوال أو تصورناها، وإشفاقاً على هذا الإنسان المتمرد في الدنيا عن الإيمان بربه والعمل بأوامر الله، كيف يتحمل تلك الأهوال وألوان العذاب والهزات والآلام الشديدة؟! ولكن العلاج سهل وتفادي الويلات المرتقبة أمر يسير جداً، وهذه مهمة القرآن الكريم في الإنذار والتحذير، كما ترسم هذه الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ(١) ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ(٢) ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ(٣) مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ(٤) ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

[غافر: ٤٠/ ١٠-١٧].

هذه أحوال الكافرين، ذكرت عقب بيان أحوال المؤمنين من التكريم بدعاء الملائكة لهم، ليتبين الفرق، وتتبين المعادلة أو الموازنة بين الفريقين على نحو واضح كالشمس، وهذه الفوارق هي ما يلي:

- تنادي الملائكة الكفار يوم القيامة، وهم يعذبون في نار جهنم: بأن تعذيب الله وغضبه عليهم في الآخرة أشد وأكبر من مقت أنفسهم ولومها على ما قدموا من سوء الأعمال في الدنيا حين أعرضوا عن الإيمان بالله تعالى، ودُعوا إليه، فكفروا وتمردوا.

- فيجيب الكفرة مستغيثين مستنجدين قائلين: يا رب، لقد أمتنا مرتين حين كنا نُطفاً في الأصلاب، وذرات في عالم الذر، وحين صرنا أمواتاً بعد حياة الدنيا، وأحييتنا مرتين أيضاً: حياة الدنيا، وحياة البعث والنشور من القبور، فاعترفنا

---

(١) المقت: أشد أنواع البغض، والمراد به التعذيب والغضب. (٢) مرتفع الصفات، منزه عن مشابهة المخلوقات. (٣) أي الوحي الإلهي. (٤) يوم اجتماع الخلائق للحساب بين يدي الله تعالى.

بذنوبنا التي اقترفناها في الدنيا، من تكذيب الرسل، والتورط في الشرك، وإنكار البعث والحساب في عالم الآخرة، فهل لنا طريق للخروج من النار والرجوع إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل؟!

فأجابتهم الملائكة: ذلكم المقت لأنفسكم، وتعرضكم للعذاب الذي أنتم فيه على النحو القائم في وضعكم: لا تغيير فيه ولا تبديل، ولا رجعة إلى الدنيا، بسبب أنكم كنتم إذا دُعيتم لتوحيد الله عز وجل في دنياكم، كفرتم به وتركتم توحيده باستمرار، وإن يشرك بالله غيره من عبادة الأصنام ونحوها، تُصدِّقوا بالشرك وتجيبوا الداعي إليه، فالحكم لله وحده دون غيره صاحب العظمة والجلال، والتعالي عن المثيل في ذاته وصفاته، الأكبر من كل شيء في الوجود.

ومن كمال عظمة الله وقدرته: أنه سبحانه هو الذي يظهر لكم دلائل توحيده، وعلامات قدرته في آيات الكون العظيمة، الدالة على مبدعها وخالقها، وينزل لكم من السماء المطر، يكون سبباً في الرزق والنماء، ونتاج الزروع والثمار، ولكن لا يتعظ بتلك الآيات إلا الراجع إلى ربه، الخاشع المطيع، فأخْلِصوا لله وحده العبادة والدعاء، ولو كره الجاحدون المنكرون منهجكم ذلك.

ومن صفات الله العالية: أنه رفيع الصفات، منزه عن مشابهة المخلوقات، صاحب العرش والسلطان المطلق، ينزل الوحي على من يريد من عباده ويصطفيه، لينذر بهذا الوحي الناس من العذاب، يوم اجتماع الخلائق للحساب في محشر القيامة.

ومن صفات القيامة: أن يوم التلاق أو اجتماع الناس للحساب هو اليوم الذي يكونون فيه ظاهرين للعِيان، أي مرئيين بالعين المجردة، لا يسترهم شيء لاستواء الأرض وهم خارجون من قبورهم، ويكون فيه الملك المطلق والسلطان الشامل لله

الواحد الأحد، صاحب القهر والغلبة والقدرة، لا لأحد سواه من ملَك أو رسول أو نبي.

إن يوم القيامة: هو يوم الجزاء والحساب والعقاب والثواب بحسب عمل كل عامل، من خير أو شر، صالح أو سيئ، ولا ظلم في الحكم فيه على أحد، فلا زيادة في العقاب، ولا نقص من الثواب، وإن الله في هذا الموقف سريع الحساب لعباده على أعمالهم في الدنيا، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كما جاء في آية أخرى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨/٣١]. وهذا نص واضح على أن الثواب أو العقاب على اكتساب العبد وعمله، وعلى إحاطة الله بالأشياء علماً.

إنذارات من مخاوف القيامة

حرص الحق سبحانه وتعالى في قرآنه على تقويم الإنسان وضمان حياة السعادة والنجاة له، فقدّم له الإنذارات المتتالية، والتحذيرات المتعاقبة، ولا سيما من أهوال القيامة ومخاطرها، وهو يوم الآزفة، ليبادر الناس جميعاً للإيمان، ويتجنبوا الشرك والعصيان، فإن فعلوا حققوا الخير لأنفسهم، وإن تمردوا وعصوا، جلبوا الدمار والهلاك لذواتهم، ولا يغنيهم أي شيء قدموه أو يقدمونه عن الجزاء العادل، والحساب الرهيب عن سوء أعمالهم، وفحش منكراتهم. وإذا كان الأمر خطيراً تفادينا أسبابه، والسبب النافع يحقق ثمرة طيبة، والسبب العقيم يؤدي إلى نتيجة وخيمة، قال الله تعالى واصفاً إنذاراته:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ(١) إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ(٢) مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ

---

(١) أي يوم القيامة، سميت بذلك لقرب وقوعها. (٢) أي ممتلئين غماً شديداً، والحناجر: جمع حنجرة وهي الحلقوم.

وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ[1] ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر: ٤٠/١٨-٢٢].

المعنى: خوِّف أيها الرسول أهل الكفر من يوم القيامة، ليؤمنوا ويتركوا الشرك والضلال، حيث تكون القلوب في ذلك اليوم كأنها زائلة عن مواضعها من الخوف، وترتفع حتى تصير إلى الحلوق، ويكون أصحابها ممتلئين كرباً وغماً شديداً، ولا يكون للظالمين الكافرين قريب ينفعهم، ولا شفيع يشفع لهم، أو تقبل شفاعته بهم. وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ معناه عند الحناجر، قد صعدت من شدة الهول والجزع.

وهذا يصور حال الرعب والخوف أو الذعر الذي يكون عليه الكفار يوم القيامة، والله تعالى يعلم النظرة الخائنة، التي ينظرها الإنسان إلى ما حرَّم الله عليه، أي يعلم الاختلاسة التي تختلس النظر إلى المحرَّم وتسارقه، ويعلم الله أيضاً كل ما تُسِرّه الضمائر من أمور خيّرة أو شريرة،. وما تخفيه الصدور من الرغبات والنوايا والخواطر.

والنظرة الخائنة: هي النظرة الثانية، وما تخفي الصدور: أي عند النظرة الأولى التي لا يمكن للمرء دفعها. وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ متصل بقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لأن سرعة حسابه تعالى للخلق، إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رؤية وفكرة، ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون. والله يحكم بالحكم العادل، ويجازي كل

(١) أي حافظ يدفع عنهم السوء أو العذاب .

إنسان بما يستحقه من خير أو شر. وأما الذين يعبدون الأصنام من غير الله، فإن أصنامهم لا يتمكنون من القضاء بشيء، أو فلا يحكمون بشيء، ولا يملكون شيئاً، لأنهم لا يعلمون شيئاً، ولا يقدرون على شيء، وإن الله هو السميع لكل شيء من الأقوال والبصير بالأفعال، فيجازي عليها أصحابها يوم القيامة. وهذا وعيد شديد، وتحذير رهيب على أقوالهم وأفعالهم.

ثم أنذر الله تعالى الكافرين، وخوّفهم من عقاب الدنيا، بعد أن حذّرهم من عذاب الآخرة، فأرشدهم إلى الاعتبار والاتعاظ بغيرهم، أفلم يمش هؤلاء المكذبون برسالتك أيها النبي محمد، فينظروا مآل الغابرين المكذبين أنبياءهم، وما حلّ بهم من عذاب الاستئصال والانتقام، مع أنهم كانوا أشد قوة من قومك أهل مكة وأمثالهم، وأبقى آثاراً، بما عمروا في دنياهم من حصون وقصور، وأشادوا من مدن وقلاع، فأهلكهم الله بذنوبهم ومنكراتهم، ولم يكن لهم من الله من واقٍ، أي ساتر مانع يقيهم السوء، ويدفع عنهم العذاب. وهذا تحذير شامل للكافرين في كل زمان، حيث يجب عليهم أن ينظروا بما حل بالأقوام الغابرين.

وعلّة هلاكهم وتدميرهم أو أخذهم وإماتتهم: بسبب أن رسلهم كانوا يأتونهم بالحجج الواضحة على الإيمان الحق، فكفروا بما جاؤوهم به، فأهلكهم الله، ودمر ديارهم عليهم، إن الله ذو قوة شديدة، وبطش كبير، وذو عقاب مؤلم جداً، يفعل كل ما يريد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل من متعظ؟

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى أخذ الله الكفار بذنوبهم، وإن لم يكن لهم منه واق أو حافظ مانع. وسبب إهلاك الماضين هو ما عليه قريش في عصر النبي ﷺ، حيث جاءهم رسول من الله تعالى، مؤيد بالمعجزات والبراهين، فكفروا به، فأهلكهم الله، وقد وصف الله نفسه بالقوة وشدة العقاب، وكل ذلك وعيد لقريش وأمثالهم.

موقف فرعون من رسالة موسى عليه السلام

إن الصراع الحاد بين الخير والشر، وبين دعوة الإصلاح ومعارضيها أمر قديم في الإنسان، ولكن مهما كانت المقاومة شديدة، فإنه لا يأس ولا قنوط، فقد يهتدي بعض الراشدين العقلاء، ويظل أولو النفوذ والسلطة والمصلحة على غيهم وضلالهم وتمسكهم بمواقفهم، على الرغم من معرفة الحق وقوته، وضعف الباطل وجهالته، وهذا موقف من هذه المواقف التي تتصادم فيها دعوة المصلحين مع مصالح المتسلطين، وهو موقف فرعون من رسالة موسى عليه السلام، وصف الله تعالى هذا الموقف بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ[1] وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ[2] بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

[غافر: ٤٠/ ٢٣-٢٧].

هذه قصة عجيبة في تاريخ الدعوة إلى الله تعالى، فيها للنبي ﷺ إيناس وتثبيت وأسوة، وفيها لقريش والكفار وعيد وتخويف وإرهاب أن يحل بهم ما حلّ بأولئك من النقمة، وفيها للمؤمنين وعد، ورجاء بالنصر والظفر وإدراك عاقبة الصبر.

تبدأ القصة بقسَم الله تعالى أننا: لقد أرسلنا موسى بالمعجزات الدالة على صدقه، وأيدناه بحجة بينة واضحة، مضمونها تحدي فرعون بالعصا واليد وغيرهما من الآيات

---

(١) أي أبقوهم أحياء. (٢) أي استجرت واستعنت واستعذت.

التسع. أرسلناه إلى فرعون ملك مصر، وإلى هامان وزيره، وإلى قارون كبير الأثرياء في زمانه، فقالوا عنه: إنه ساحر مخادع مجنون، كذّاب فيما زعم أن الله أرسله وخُص هؤلاء الطغاة بالذكر، لأنهم رؤساء القوم، وغيرهم تابع لهم، وشأن المتسلطين المستكبرين ألا يذعنوا لكلمة الحق والهداية، حفاظاً على مراكزهم وقواهم ومكانتهم بين الأتباع.

فلما أتى موسى عليه السلام بالحق، أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله أرسله إلى فرعون وقومه، بمعجزاته الظاهرة، قال الطغاة: عودوا إلى قتل الذكور. وترك النساء أحياء، لئلا يكثر جمعهم، ويضعف شأنهم، وما مكر الكافرين وقصدهم تقليل خصومهم إلا في ضياع وذهاب سدى، لا فائدة منه.

وقال فرعون لقومه: دعوني أقتل موسى، وليدع ربه الذي يزعم أنه أرسله إليهم، فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك.

وسبب القتل: أني أخشى عليكم يا شعب مصر أن يغير منهاج دينكم الذي أنتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام، ويدخلكم في دينه الذي هو عبادة الله وحده، أو أن يوقع بين الناس الخلاف والفتنة والإفساد، فتكثر الخصومات والمنازعات.

والظاهر من هذا الموقف لفرعون: أنه بُهر بآيات موسى ومعجزاته، وانهدّ ركنه، واضطربت معتقدات أصحابه، فلجأ إلى التهديد بالقتل. وهذا سلاح الجبّارين المتمكنين من إنفاذ أوامرهم. فإذا اعتز فرعون بجبروته وبطشه وقوته، فإن موسى عليه السلام اعتصم بالله تعالى، وقال داعياً ربه لما سمع قول فرعون وتهديده له بالقتل لأنه كان معه في مجلس واحد: إني استجرت بالله، وعُذْت به من شره وشر أمثاله من كل متعاظم متعال مستكبر عن الإذعان للحق، كافر مجرم لا يؤمن باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء.

واستعاذة موسى من فرعون الذي جمع بين الاستكبار وبين التكذيب بيوم الآخرة والجزاء والحساب، بسبب الجرأة على الله تعالى وعلى عباده. وقول موسى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لحث قومه على مشاركته في الاستعاذة بالله من شر فرعون وملئه.

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم».

إن هذه المواجهة الكلامية الساخنة غير متكافئة في عرف الناس، فإن فرعون الملك الحاكم الجبار يعتمد على قوى كثيرة، وجند مدججين بالسلاح، وأما موسى بمفرده أو مع أخيه هارون لا يملكان مثل تلك القوى الظاهرة المادية، ويحكم الناس عادة على الضعيف بالهزيمة، ويغيب عنهم أن الضعيف يتقوى بقوة الله تعالى، فيتغلب على جميع القوى بتأييد الله تعالى.

دفاع مؤمن آل فرعون عن موسى عليه السلام

لقد طاش عقل فرعون وصوابه أمام معجزات موسى عليه السلام، فلجأ إلى التهديد بقتل موسى عليه السلام، وزاد من ارتباكه واضطرابه مقالة رجل مؤمن من قومه وما صدع به، فدافع عن موسى بأوجه ثلاثة:

الأول- استنكار قتل موسى المؤمن بربه.

الثاني- تحذير القوم بأس الله في الدنيا والآخرة بتكذيب الرسل.

الثالث- تذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف عليه السلام، من تكذيب رسالته ورسالة من جاء بعده.

وهذا الدفاع من رجل هو من آل فرعون أو من أبناء عمه، كان يكتم إيمانه بالله تعالى، كان له شأنه البعيد في إحباط خطط فرعون، وهو موقف تاريخي خلّده القرآن الكريم، فرضي الله عن هذا المؤمن وأمثاله في سجل الخالدين. قال الله تعالى واصفاً قصة مؤمن آل فرعون:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ[١] كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ[٢] فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ[٣] ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ[٤] قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ[٥] ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ[٦] أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٤٠/٢٨-٣٥].

هذا موقف خالدٌ لرجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، أثبته الله في المصاحف، لكلام قاله في مجلس من مجالس الكفر، وأثنى عليه إلى الأبد، لقد قال هذا الرجل: كيف تقتلون رجلاً لا ذنب له إلا أنه قال: الله ربي؟ والحال أنه قد جاءكم

(١) متجاوز الحد في المعاصي. (٢) غالبين متفوقين على بني إسرائيل. (٣) مثل أيام الأمم الماضية أي وقائعهم. (٤) مثل عادة وجزاء ما كانوا عليه من الكفر. (٥) يوم القيامة، ينادي فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة. (٦) حجة قوية.

بالمعجزات الواضحات الدالة على صدق نبوته ورسالته، فهذا لا يستدعي القتل، فتوقف فرعون عن قتله.

وأضاف الرجل حججاً ستاً أخرى لتأييد كلامه وهي:

١- إن كان هذا الرجل، أي موسى كاذباً في دعوته، كان وبال كذبه عليه، فاتركوه، وإن كان صادقاً في دعواه يصبكم بعض الذي يعدكم به إن خالفتموه من العقاب الدنيوي والأخروي، فاتركوه أيضاً في دعوته.

٢- لو كان موسى مسرفاً متجاوزاً الحد في قوله، كذاباً في ادعائه النبوة، لما هداه الله إلى المعجزات المؤيدة له، ولخذله الله وأهلكه.

٣- يا قومي، قد أنعم الله عليكم بهذا الملك الواسع، وأنتم الغالبون على بني إسرائيل في مصر، فمن الذي يمنعنا من عذاب الله إن حل بنا؟!

فقال فرعون مجيباً الرجل المؤمن: ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي، وما أدلكم إلا طريق الصواب الذي يحقق الفوز والغلبة، وهو قتل موسى.

٤- وقال المؤمن: إني أخشى عليكم إن كذبتم موسى أن يصيبكم مثل ما أصاب الأقوام الذين تحزّبوا على أنبيائهم، وكذبوا رسلهم من الماضين، مثل عادة قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم كقوم لوط، فقد حل بهم عذاب الله تعالى، ولم يجدوا ناصراً لهم ينصرهم، ولا عاصماً يحميهم، ولا يريد الله إلحاق ظلم بعباده، فلم يهلكهم بغير جرم شديد أو كبير. وهذا تخويف بالعذاب الدنيوي.

٥- ثم خوفهم العذاب الأخروي بقوله: يا قومي، إني أخشى عليكم عذاب يوم القيامة، حين ينادي الناس بعضهم بعضاً للاستعانة والاستنجاد، وحين تفرّون هاربين من النار، لا تجدون واقياً ولا عاصماً مانعاً يعصمكم من عذاب الله ويحميكم منه، ومن يضلّه الله، فلم يوفقه للرشد والصواب، فلا مرشد له غيره.

٦- وأذكركم بأن تكذيب الرسل موروث لديكم من الأسلاف، فلقد بعث الله لآبائكم يوسف بن يعقوب بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه، فكذبتموه وكذبتم بمن جاء بعده من الرسل، وما زلتم في شك مما أتاكم به، حتى إذا مات أنكرتم بعثة رسول من بعده، فكفرتم به في حياته وبعد موته، ومثل هذا الضلال وسوء الحال، يضل الله كل إنسان لإسرافه في المعاصي وتجاوزه الحدود، وارتيابه في دين الله. وهؤلاء المرتابون الذي يجادلون في آيات الله الكونية والدينية ليبطلوها، بغير حجة واضحة، كبر أو عظم ذلك الجدل بغضاً عند الله وعند المؤمنين، لأنه جدال بالباطل، لا أساس له، أما مقت الله: فهو العذاب والغضب، وأما مقت المؤمنين: فهو هجر الكفار وترك التعامل معهم.

وكما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين بالباطل المسرفين، فكذلك يطبع أو يختم على جميع قلوب المتكبرين الجبارين.

تحديات فرعون
وإصرار الرجل المؤمن في الدفاع عن موسى

احتدم الجدال بين فرعون والرجل المؤمن من قومه وأتباعه حول شأن موسى عليه السلام، فلجأ فرعون إلى التحدي الحسي، وإقامة برج شاهق في السماء للاطلاع على إله موسى، مقراً به أولاً، ثم مكذباً به ثانياً، وصمم الرجل المؤمن على موقفه المدافع عن موسى عليه السلام، ونصح قومه ودعاهم إلى الإيمان بالله وحذَّرهم من الاغترار بالدنيا، وحثهم على العمل للآخرة لدوامها، وقارن بين دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى طريق النجاة، وبين دعوتهم إياه لعبادة الأصنام طريق الهلاك والعذاب، وهذا في الآيات الآتية:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ابْنِ لِي صَرْحًا(١) لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ(٢) ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ(٣) ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ(٤) أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٠/٣٦-٤٦].

المعنى: نادى فرعون وزيره هامان والناظر في أموره قائلاً: يا هامان ابن لي قصراً مشيداً عالياً، لعلي أصل إلى طريق السماء، فأبحث عن إله موسى، وهو لا يريد بذلك إلا الاستهزاء منه وإنكار رسالته، وإني لأظن موسى كاذباً في ادعائه بأن له إلهاً غيري.

ومثل ذلك التزيين المفرط في الحماقة والبلادة، زُين لفرعون الجبار سوء عمله وقُبح صنعه، من الشرك والتكذيب، فتمادى في الغي والطغيان، وحُجب عن طريق الهدى والعدل والصواب، ولم يكن كيده أو مكره إلا في خسار وضياع، ثم تابع

(١) الصرح: كل بناء عظيم رفيع القدر. (٢) أي الطرق. (٣) خسار وهلاك. (٤) أي حقاً، أو لا جرم: بمعنى ثبت ووجب.

مؤمن آل فرعون مواعظه لقومه، فقال: يا قومي، اتبعوني فيما أقول لكم وأدعوكم إليه، أدلكم على طريق الرشاد والخير والسداد: وهو اتباع دين الله وأمره. ثم حذرهم من فتنة الدنيا وزهّد فيها، فقال: يا قومي، ليست هذه الحياة الدنيا إلا مجرد متاع يُستمتَع به قليلاً، ثم يزول وينتهي بالموت، وإن الآخرة هي دار الاستقرار والبقاء والخلود، أي إن الدنيا شيء يتمتع به قليلاً، وعلى المرء الرغبة في الآخرة.

من ارتكب معصية، فلا يجزى في الآخرة إلا مثلها، عدلاً من الله، ومن عَمِل العملَ الصالح: وهو اتباع أمر الله واجتناب نهي الله، وهو مصدق بالله وبرسله، فهؤلاء هم لا غيرهم أهل الجنة التي يرزقون فيها رزقاً وفيراً بغير عدّ وتقدير، ولا مقصور على حجم العمل، فضلاً من الله ونعمة، أي إن جزاء السيئة مثلها فقط، وجزاء الحسنة لا يقتصر على المثل، بل يتجاوزه لما شاء الله.

ويا قومي، أخبروني عنكم، ما بالي أدعوكم إلى النجاة من النار ودخول الجنة، بالإيمان بالله تعالى وعبادته وطاعته وتصديق رسله، وتدعونني إلى عمل أهل النار، وهو الشرك وعبادة الأصنام؟! أي إن الدعاء إلى طاعة الله وعبادته وتوحيده: هو الدعاء إلى سبب النجاة، ودعاؤهم إياه دعاء إلى سبب دخول النار. ثم فسر الفرق بين الدعوتين في أن الواحدة كفر وشرك، والأخرى دعوة إلى الاعتزاز بالله تعالى وغفرانه.

إنكم تدعونني لأمر خطير: وهو الكفر بالله والإشراك به، مما لم يقم أي دليل على صحته وقبوله، وأنا أدعوكم إلى الإيمان بالمتصف بصفات الألوهية الحقة، من العزة الكاملة، والعلم الشامل، والإرادة التامة، والمغفرة الواسعة، والتعذيب الشديد، فآمنوا به يغفرلكم ويعزكم. وحقاً إن دعاءكم لعبادة الأصنام والأنداد ليس لها أي دعوة مستجابة، فلا تجيب الداعي، سواء في الدنيا والآخرة، والواقع المتحقق أن مرجعنا ومصيرنا إلى الله بالموت، ثم بالبعث في الآخرة، فيجازى كل إنسان

بعمله، وأن المسرفين المتجاوزين الحد في المعاصي: هم أهل النار الذين يصيرون إليها.

وسوف تتذكرون وتدركون صدق قولي لكم من الالتزام بأوامر الله ونواهيه وثمرة نصحي وإرشادي، حين ينزل بكم العذاب، وإني أفوض أمري إلى الله وأستعين به ليعصمني من كل سوء، فإن الله مطلع على أمور عباده، خبير بهم، فيهدي مستحق الهداية المستعد لها، ويضل مستحق الضلالة الحريص عليها.

وأما مصير الرجل المؤمن من آل فرعون: النجاة، حيث حفظه الله، وحماه في الدنيا، من سوء مكرهم، وتآمرهم على قتله، وأحاط سوء العذاب بآل فرعون في الدنيا بالغرق في البحر، وسيعذبون في الآخرة.

ويعرض آل فرعون بأرواحهم في قبورهم على النار في الصباح والمساء من أيام الدنيا إلى قيام القيامة، أي إنهم يعذبون في القبور، ويقال للملائكة يوم القيامة: أدخلوا آل فرعون في جهنم، حيث يكون العذاب فيها أشد وأعظم، قال الهذيل بن شرحبيل والسدي: إن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود، تروح بهم، وتغدو إلى النار.

الجدل بين أهل النار

يبادر الإنسان حينما يقع في فخ الحقيقة والجزاء إلى تقاذف المسؤولية ولوم الآخرين، وينسى نفسه وتقصيره، وذلك في الدنيا، أو في حال العذاب في نار الآخرة، وهذا واقع قائم بين السادة والأتباع، حيث يشتد الجدل بينهم في ذلك المقر، ويحاول كل فريق إلصاق التهمة بغيره والتملص من المؤاخذة، ولكن لا جدوى ولا فائدة من هذا الجدال، ولا يقبل عذر من المقصرين والظلمة، ويكون الفوز

والنصر المحقق والمؤكد لأهل الإيمان، سواء في الدنيا أو في الآخرة، وصف الله تعالى لنا هذا اللون من الجدال الذي سيحدث بين أهل النار في الآيات الآتية:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ(١) فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟(٢) لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟(٣) إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ(٤) ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر: ٤٠/٤٧-٥٥].

المعنى: اذكر أيها النبي لقومك على سبيل العظة والعبرة وقت تخاصم وتجادل الكفار في النار، ومنهم فرعون وقومه، فيقول الأدنياء والأتباع للرؤساء والأشراف والكبراء: إنا كنا تابعين لكم، وقد أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، فهل أنتم تدفعون عنا جزءاً من العذاب أو تتحملون عنا بعضه!

فأجابهم المستكبرون: إننا جميعاً في جهنم، وإن الأمر قد انجزم بحصول الكل منا ومنكم فيها، وإن حكم الله تعالى قد نفذ واستمر بذلك، فكيف نغني عنكم؟ فلو قَدَرنا على دفع شي من العذاب، لدفعناه عن أنفسنا، إن الله قضى قضاءه العادل المبرم بين العباد، بأن فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير.

---

(١) أي يتخاصمون ويتجادلون. والمحاجة: التحاور بالحجة والخصومة. (٢) أي في القدر والمنزلة في الدنيا.
(٣) أي أشراف الكفار وكبراؤهم. (٤) جمع شاهد.

ولما يئس الضعفاء من السادة، طلبوا من خزنة جهنم تخفيف العذاب، فقالوا لهم: ادعوا الله ربكم لعله أن يخفف عنا مقدار يوم من العذاب. وذلك لأنهم علموا أن الله تعالى لا يستجيب لهم ولا يسمع دعاءهم.

فرد خزنة جهنم عليهم على سبيل التوبيخ والإلزام بالحجة: أما جاءتكم الرسل في الدنيا بالحجج والأدلة القاطعة على توحيد الله تعالى، والتحذير من سوء العاقبة؟! قالوا: بلى قد جاءتنا الرسل، فكذبناهم، ولم نؤمن بهم، ولا بما جاؤوا به من الأدلة والمعجزات على صدقهم.

فقالت لهم الخزنة تهكماً: إذا كان الأمر كما ذكرتم، فادعوا أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لمن كفر بالله، وكذّب رسله، بعد مجيئهم بالحجج القاطعة، وليس دعاء الكافرين بالله ورسله إلا في ضياع وبطلان، لا يقبل ولا يستجاب. والمراد: فادعوا أيها الكافرون الذين لا معنى لدعائكم، وليس دعاؤنا إلا لأهل الحق والإيمان والطاعة.

ثم أخبر الله تعالى أن ينصر رسله عليهم السلام والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويوم يقوم الشهود من الملائكة والنبيين وصالحي المؤمنين، للشهادة بأن الرسل قد بلّغوا الرسالة، وأدّوا الأمانة.

وقيام الشهود يكون حين تقوم القيامة، حيث لا تنفع معذرة الظالمين المشركين، ولا تقبل منهم فدية، لأن عذرهم واهٍ، وشبهتهم زائفة، وهم مطرودون مبعدون من رحمة الله، ولهم شر ما في الآخرة: وهو النار والعذاب فيها.

ثم أخبر الله تعالى عن إرسال الرسل، فليس محمد ﷺ وحده مرسلاً، وليس هو ببدع من الرسل، فلقد أرسل الله موسى عليه السلام بالتوراة والنبوة، تأنيساً لمحمد عليه السلام، وتذكيراً بما كانت العرب تعرفه من أمر موسى عليه السلام. وكانت

التوراة هادية لقوم موسى بالشرائع والأحكام، وأورث الله بني إسرائيل التوراة، فهو إمام ونبراس لهم، وهداية وإرشاد، وتذكير لأهل العقول السديدة بما فيها من أحكام، فكأن بعضهم يرث التوراة عن بعض.

وإذا كان النصر مقرراً في النهاية للرسل وأتباعهم، فاصبر أيها الرسول محمد على أذى المشركين، كما صبر الذين من قبلك من المرسلين، فإن عاقبة الصبر خير، ووعد الله بالنصر حق ثابت لا يخلفه أبداً، ودوام على الاستغفار لذنبك، من ترك الأولى والأفضل، أو أن المراد أمته، أي إنه إذا أمر هو بالاستغفار فغيره أولى، وستكون عاقبة أمرك كعاقبة أمر موسى، ونزِّه الله تعالى عن كل شريك ونقص، مقترناً تسبيحك بحمد الله وشكره، على الدوام، في أوائل النهار وأواخره.

أسباب المجادلة في آيات الله وتفنيدها

يلجأ بعض المتشككين إلى الجدل في آيات الله، بقصد التشكيك ومحاولة الدفاع عن الباطل، بغير حجة مقبولة، ولا برهان سليم، وقد يكون الجدل حول إنكار البعث والقيامة، كشأن الماديين الملحدين، ويتعامى هؤلاء جميعاً عن حقائق الأشياء وأسباب وجودها، وعن الأدلة الكونية الدالة على ضرورة الإيمان بوجود الله وقدرته وحكمته، وقد ذكر الله تعالى في الآيات الآتية عشرة أدلة على وجوده ووحدانيته وقدرته، لإثبات وجود القيامة، منها: خلق السماوات والأرض، فلا يوجد شيء بالصدفة بدون موجد، ومنها تعاقب الليل والنهار، وجعل الأرض قراراً والسماء بناء، وخلق الإنسان في أحسن صورة، ورزقه من الطيبات، واتصاف الله تعالى بالحياة الأبدية الذاتية والوحدانية، وهذا ما تضمنته الآيات الآتية بمناسبة الأمر بعبادة الله وطاعته:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ(١) فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ(٢) ٦٠ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ(٣) ٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٦٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾

[غافر: ٤٠/٥٦-٦٥].

أخبر الله تعالى عن أولئك المشركين الكفرة الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان، وهم يريدون بذلك طمسها، أنهم ليسوا على شيء فلا حجة لهم ولا سلطان أو برهان مقبولاً لهم، ليس في صدورهم وضمائرهم إلا التكبر والتعاظم عن قبول الحق، وحسد النبي محمد ﷺ على ما آتاه الله من الفضل والنبوة، ولا يستطيعون بلوغ آمالهم بسبب ذلك الكبر، ولا محققي إرادتهم في أن تكون لهم الرياسة والنبوة بعد النبي ﷺ، فاستعذ بالله أيها النبي والتجئ إليه في كل أمورك، من كل

---

(١) أي إن في نفوس قريش كبراً وأنفة على النبي حسداً منهم على فضل الله عليه، وليسوا ببالغي آمالهم وإرادتهم فيه. (٢) صاغرين أذلاء. (٣) أي تصرفون.

مستعاذ منه، ومن شرورهم، لأن الله يسمع أقوالك وأقوال مخالفيك، وهو بصير بمقاصدهم ونياتهم، ومجازٍ كل واحد بما استوجبه.

ثم وبخ الله تعالى هؤلاء الكفار المتكبرين على ضلالهم، وذكَّرهم بعظمته وقدرته، بأدلة كثيرة، منها أن خلق السماوات والأرض وما فيهما أكبر بكثير من خلق الناس، بدءاً وإعادة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بعظيم قدرة الله، ولا يتأملون بهذه الحجة الدامغة الدالة على قدرة الله تعالى.

ومثل المجادل بالباطل في مواجهة المحق والمتفكر والمتعظ كمثل الأعمى والبصير، ولا يتساوى الاثنان، فلا يتساوى المجادل بالباطل أو الكافر الذي لا يتأمل بآيات الله الكونية، ولا المجادل بالحق أو المؤمن الذي يتفكر في آيات الله ويتعظ بها. وكذلك لا يستوي المحسن بالإيمان والذي يعمل الصالحات من أداء الفرائض والطاعات، والمسيء بالكفر والعاصي الذي يُغفل دور الآيات ويتنكر للطاعات، فما أقل ما يتذكر كثير من الناس ويتعظ بهذه الأمثال!

ثم أخبر الله تعالى عن وقوع القيامة حتماً، فإن يوم القيامة آت لا ريب في مجيئه ووقوعه، فآمنوا أيها الناس به إيماناً قاطعاً، لا شك فيه، ولكن مع الأسف أكثر الناس لا يؤمنون ولا يصدقون بالآخرة.

وطريق النجاة في الآخرة واضح وهو طاعة الله وعبادته، وقال الله: من دعاه أجابه، فالدعاء مخ العبادة، وإن الذين يتكبرون ويتعاظمون عن دعاء الله وعبادته وحده، سيدخلون حتماً جهنم صاغرين أذلاء.

ومن أدلة قدرة الله على البعث وغيره: أنه سبحانه أوجد تعاقب الليل والنهار وجعل الليل للسكن والهدوء والراحة، وجعل النهار مضيئاً منوَّراً لإبصار الحوائج، وطلب المعايش، ومزاولة الصناعة والتجارة والزراعة وغيرها من الحِرَف والمهارات

والخبرات، وإن الله تعالى بهذه النعمة وغيرها هو المتفضل على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون النعم.

والله وحده هو الرب المتصرف في كل شيء المدبر لكل أمر، خالق الأشياء كلها، لا إله ولا معبود في الوجود غيره، فكيف تُصرفون أيها المشركون عن عبادته؟! ومثل هذا الانصراف عن عبادة الله، يصرف الجاحدون بآيات الله، المنكرون توحيده.

والله هو الذي جعل الأرض محل استقرار وثبات، والسماء مبنية بناء محكماً لا خلل فيه، ولا يتهدم ولا يتصدع، وخلق الناس في أحسن صورة، وأجمل نظام وتقويم، ورزقهم من طيبات الرزق ولذائذه، ذلكم المتصف بهذه الصفات الجليلة: هو الله رب العالمين من الإنس والجن، المنزه عن جميع النقائص. والله هو الحي الباقي الدائم الذي لا إله غيره، فاعبدوه مخلصين له الطاعة والعبادة، موحدين له، صاحب الحمد، المستحق للشكر والثناء، رب العالمين من الملائكة والإنس والجن.

النهي عن عبادة غير الله

حاول المشركون الوثنيون في مكة استمالة النبي ﷺ لمناهجهم، وتخفيف حملاته على دين الآباء والأجداد، والتوصل إلى أوساط الحلول.

فقال الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة -فيما رواه جويبر عن ابن عباس -: يا محمد، ارجع عما تقول بدين آبائك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

قررت هذه الآية الكريمة النهي الشديد عن عبادة الأصنام والأوثان، وبيّنت الآيات الآتية بعدها سبب النهي: وهو البينات التي جاءت النبي ﷺ من ربه، من دلائل الآفاق والأنفس، قال الله تعالى واصفاً ذلك:

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ(١) لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/٦٦-٦٨].

جاءت هذه الآيات الشريفة بعد بيان صفات الله تعالى، بأنه الحي القيوم، وذلك يقتضي فساد حال الأصنام، وأنها موات جماد هامدة، ليس فيها شيء من صفات الله تعالى، التي منها صدور الأمر من لدنه، وإيجاد الأشياء، وتدبير الأمر كله، وعلمه بالكل، مما يدل دلالة قاطعة على أنه حي لا إله إلا هو.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ بعد هذا: أن يصدع بأنه نُهي عن عبادة الأصنام التي عبدها الكفار من دون الله سبحانه وتعالى، وأمر بعدها بالإسلام الذي هو الإيمان والأعمال.

قل أيها الرسول لمشركي قومك المكيين: إن الله تعالى ينهاني عن عبادة أحد من غير الله تعالى من الأصنام والأنداد والأوثان، حين جاءتني الأدلة القاطعة من آي القرآن والبراهين العقلية الدالة على التوحيد، وأمرت بالإسلام لله والانقياد لأوامره، وإخلاص الدين له، وإعلان الإيمان وأداء الأعمال المفروضة، والاستسلام لرب العالمين من إنس وجن، والخضوع له بالطاعة، والرضا بما أمر ونهى.

ثم ذكر الله تعالى أربعة أدلة من دلائل الآفاق والأنفس تدل على وحدانية الله وهي:

---

(١) أنقاد لله تعالى.

أولاً- إن الله تعالى خلق أبا الإنسانية الأول آدم عليه السلام من التراب، وجعل ذريته أيضاً من تراب، لأن كل مخلوق من المني ناشئ من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء من النبات، والنبات من الماء والتراب، فكان كل إنسان متكوناً من التراب، ثم تكاثر النوع الإنساني بما هو معروف من النطفة المنوية، ثم من العلقة (قطعة الدم المتماسكة) ثم من المضغة (قطعة اللحم المتجمدة) ثم ينفخ فيها الروح، ويتم ولادة الأطفال، ثم يبلغ الولد مرحلة النضج واكتمال العقل والقوة: وهي بلوغ الأشّد، ثم الصيرورة إلى مرحلة الشيخوخة والهرم، وقد يتوفى الله بعض الناس قبل مرحلة الشيخوخة، إما في الكهولة أو الشباب أو الطفولة، وكل هذه المراحل ليتوصل كل إنسان إلى أجله المحدود المقدَّر له: وهو وقت الموت، ثم وقت القيامة، ولعلكم أيها الناس تفكرون في هذه المراحل، وتدركون ما تتطلبه كل مرحلة من عناية إلهية.

وقوله تعالى بعد سرد مراحل أو أطوار الخلق الإنساني: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ يراد به: هذه الأصناف كلها مخلوقة ميسرة من الله، ليبلغ كل واحد منها أجلاً مسمى لا يتعداه ولا يتخطاه، وليكون معتبراً متعظاً، ولعلكم أيها البشر تعقلون الحقائق إذا نظرتم في هذا، وتدبرتم حكمة الله فيه، ففي هذا الانتقال والتدرج أو التطور في الخلق دلالة على وجود الله تعالى.

ثانياً- أي الدليل الثاني-أن الله هو القادر على الإحياء والإماتة، فالله وحده هو الذي يحيي المخلوقات ويميتها، وهو المتفرد بذلك، فإذا قضى وقدر أمراً يريد إنفاذه وإيجاده، وإخراج المخلوق من العدم، فإنما يقول له ﴿كُن﴾ فيكون ويوجد، من غير توقف على شيء آخر، ولا معاناة ولا كُلفة، أي إن كل مخلوق يوجد بإرادة الله وحده، مما يدل على وجوده سبحانه.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ يراد به إنفاذ الإيجاد وإظهار المخلوق، وإيجاد الموجودات هو بالقدرة الإلهية، واقتران الأمر بالقدرة: هو عظمة في الملك، وإظهار للقدرة، وتخضيع للمخلوقات. وبه يتبين أن إيجاد المخلوق يعتمد على أمرين: الأمر الإلهي بالإيجاد، وتلبّس القدرة الإلهية بإيجاده وإظهاره، لا قبل ذلك، ففي حال العدم لا يظهر الشيء إذ لا يوجد الأمر، ولا شي بعد الإيجاد، لأن ما هو كائن، لا يقال له: كن.

جزاء المجادلين بالباطل

الحياة الإنسانية إما أن تزدان وتسمو بمواقف الحق والجرأة والإيمان، وإما أن تهبط وتنحدر بمواقف الباطل والكفر والخذلان، والناس بين هذين الموقفين في مرصد التاريخ، فإن كانوا من أصحاب الموقف الأول، خلّد التاريخ ذكرهم، وكانوا أسوة الأجيال، وإن كانوا من أصحاب الموقف الثاني طواهم التاريخ، ولم يُذْكَروا إلا للعبرة والشماتة، وهكذا كان المعارضون لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته عبرة للتاريخ، فإنهم جادلوا بالباطل في شأن الرسالة النبوية والكتاب الذي جاء به، وكذبوا بهما، فاستحقوا ويلات العذاب، كما تصف هذه الآيات الشريفة:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ[(١)] ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ[(٢)] فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ
وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ[(٣)] ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ

(١) أي يبعدون عن الإيمان بربهم. (٢) أي القيود الموضوعة في الأعناق. (٣) أي يجرون بعنف بالسلاسل إلى النار ويحرقون فيها.

تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ(١) ﴿٧٥﴾
ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا
بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٩-٧٨].

هذا موقف المعاندين أهل الباطل، فانظر إلى هؤلاء المجادلين في آيات الله الواضحة والدالة على الإيمان، والإقرار بالوحدانية والبعث، كيف يصرفون عنها ويتركون الهدى إلى الضلال؟

إنهم هم الذين كذَّبوا بالقرآن، وبرسالات الرسل الداعية إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لله، والشرائع الصالحة لحياة الإنسان، فسوف يعلمون مصائرهم الوخيمة وعواقب السوء المترتبة على مواقفهم.

إنهم سوف يعلمون حين تُجعل القيود في أعناقهم، ويسحبون بالسلاسل في الحميم: وهو الماء المتناهي في الحرارة، فيحرقون ظاهراً وباطناً.

ثم يقال لهم من الملائكة توبيخاً وتقريعاً: أين الأصنام والشركاء التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ قالوا مجيبين: لقد غابوا عنا وذهبوا فلم ينفعونا، بل في الواقع تبينا أننا لم نكن نعبد شيئاً له قيمة وجدوى أو نفع، ومثل ذلك الضلال، يضل الله الكافرين على ممر الزمان، حيث أوصلتهم إلى النار، بضلالهم وتركهم سادرين في هذا الضلال، وعلى هذا اللون من الاختلاط وبيان فساد الذهن والنظر، وهذا

(١) أي تبطرون وتتكبرون، فالمرح: فرح بعدوان ..

الترتيب، بكشف الحقائق ومصادقة الواقع، واضطراب الأقوال، واللجوء إلى الكذب، فيقولون: بل لم نكن نعبد شيئاً.

وذلكم العذاب اللاحق بهم، والإضلال بتركهم في ضلالهم، بسبب ما كنتم تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله، والابتهاج بمخالفة الرسل والكتب الإلهية، وبسبب موقف البَطَر والأَشَر والتكبر، فهذا جزاء الشرك والوثنية. وجزاؤكم أيها المشركون الإدخال في أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم، المؤدية إلى طبقاتها ودركاتها، كما جاء في آية أخرى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٤].

فبئس موضع الإقامة والمأوى الذي فيه الهوان والتعذيب لمن تكبر عن آيات الله وبراهينه القاطعة. ثم آنس الله تعالى نبيه محمداً ﷺ ووعده بالنصر بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي اصبر أيها النبي على تكذيب قومك، فإن وعد الله بالنصر عليهم وإظهار أمرك ودعوتك والانتقام منهم كائن واقع لا محالة، إما في حياتك حيث تراه وتقرّ به عينك، وإما بعد موتك، حيث يصيرون ويرجعون إلى أمرنا وتعذيبنا.

أي إما أن نرينك في حال حياتك بعض ما وعدناهم به من العذاب، كالقتل، والأسر يوم بدر وغيره، وذلك بعض ما يستحقونه، وإما أن نتوفينك قبل إنزال العذاب بهم، فإلينا مصيرهم يوم القيامة. وهذا كما جاء في آية أخرى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤١-٤٢].

ثم رد الله على العرب الذين قالوا: إن الله تعالى لا يبعث بشراً رسولاً، واستبعدوا ذلك، فلقد أرسلنا رسلاً وأنبياء كثيرين، من قبلك أيها النبي الرسول، إلى أقوامهم، منهم من أخبرناك بأخبارهم، وهم أربعة وعشرون، ومنهم من لم

نخبرك عنهم شيئاً، ولم يكن لرسول من الرسل الإتيان لقومه بمعجزة خارقة للعادة إلا بأمر أو إذن من الله له في ذلك، فإذا حان وقت العذاب في الدنيا أو الآخرة، قضي بالعدل فيما بينهم، وخسر كل مبطل، وحصل على فساد آخرته. فتكون الآية توعداً لهم، أو إذا أراد الله إرسال رسول وبعثة نبي، قضى الله ذلك، وأنفذه بالحق، وخسر المبطلون، فتكون الآية على هذا التأويل رداً على قريش في إنكارهم أمر محمد ﷺ.

نعم الله وتهديد أهل الجدل بالباطل

لا يمكن لأحد في العالم عنده مُسْكة من عقل أن ينكر فضل الله ونعمه على الناس، لأن الواقع المشاهد حجة دامغة، ولا يستطيع أحد إنكاره أو تجاوزه، وما أكثر الأدلة الحسية الميدانية من التاريخ في تعذيب المبطلين المكابرين المجادلين في آيات الله تعالى، لذا كان تحدي الواقع سبباً موجباً للتهديد بالعذاب، وإيقاعِه على أولئك المعاندين المغترين بدنياهم، المستهزئين بآيات الله، وإذا وقع العذاب، حدث الندم الشديد، ولم ينفع الإيمان والاعتذار في ذلك الوقت، كما تصور هذه الآيات:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ(١) تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ(٢) بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا(٣) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ

(١) أي السفن. (٢) نزل وثبت وأحاط، وهي مستعملة في الشر. (٣) شدة عذابنا.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٧٩-٨٥].

هذه آيات للعبر، وتعداد النعم، والاحتكام للواقع المشاهد، فالله تعالى جعل لكم أيها البشر الأنعام وهي الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والغنم والمعز. فبعضها في الغالب للركوب كالإبل، وبعضها للأكل وحرثِ الأرض عليها كالبقر، وبعضها للأكل وشرب اللبن كالغنم، وكلها تتكاثر وتتوالد، ويستفاد من أصوافها وأوبارها.

فكلمة (منها) الأولى في قوله ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ للتبعيض لأن المركوب منها هو الإبل خاصة، وكلمة (منها) الثانية ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ لبيان الجنس، لأن الجميع منها يؤكل، ولكم أيها البشر في الأنعام منافع أخرى غير الركوب والأكل من صوف وشعر ووبر، وزُبد وسمن، وجبن وغير ذلك، ولحمل الأثقال على بعضها إلى البلاد النائية بيسر وسهولة، وعلى الإبل وغيرها في البر، وعلى السفن في البحر، تحملون وتنقلون من بلد إلى آخر.

والله تعالى يريكم أيها الناس عياناً هذه الآيات والبراهين في الآفاق والأنفس، والتي هي كلها ظاهرة دالة على كمال قدرته ووحدانيته، مما لا سبيل لإنكاره، فأي آية من آياته الباهرة تنكرون؟ إنها كلها مشاهدة مرئية، لا تستطيعون إنكارها، ففي كل شيء له آية تدل على وحدانيته، لذا فإنكم على سبيل التوبيخ كيف تنكرون آية منها؟

ثم احتج الله تعالى على قريش بما يظهر في الأمم السالفة من نقمات الله، مع أنهم كانوا أكثر عدداً، وأشد قوة أبدان وممالك، وأعظم آثاراً في المباني والأفعال من قريش والعرب. أفلم يسر هؤلاء المشركون المجادلون بالباطل في آيات الله، فينظروا في أسفارهم كيف كان مصير الأمم السابقة التي عصت الله تعالى، وكذَّبت رسلها،

ويشاهدوا آثارهم القائمة في ديارهم نتيجة العقاب والتعذيب، مع أنهم كانوا أكثر من مشركي قريش عدداً، وأقوى منهم أجساداً، وأوسع منهم أموالاً، وأبقى في الأرض آثاراً بالمباني والقصور والحصون والمزارع والسدود، فلما حلَّ بهم العذاب، لم ينفعهم مالهم ولا أولادهم، ولا أغنى عنهم كسبهم ولا حالهم شيئاً، حين جاءهم عذاب الله وأخْذه.

فلما جاءت الرسل بالحجج والبراهين الواضحة الدالة على صدق نبوتهم ورسالتهم، أعرضوا عنهم، ولم يلتفتوا إليهم، وفرحوا بما لديهم من العلوم والمعارف، وهي الشبهات والضلالات الزائفة التي ظنوها علماً نافعاً، وأحاط بهم العذاب من كل جانب، ونزل بهم من العذاب الذي كذبوا به ما كانوا يستبعدون وقوعه، استهزاء وسخرية. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٣٠/ ٧].

ثم أخبر الله تعالى عن حالة بعض أولئك المعذبين الذين آمنوا بعد تلبّس العذاب بهم فلم ينفعهم ذلك. إنهم حينما عاينوا وقوع العذاب بهم، صدقوا بالله ووحّدوه، وكفروا بمعبوداتهم الباطلة التي اتخذوها شركاء لله، وهي الأصنام، فلم ينفعهم إيمانهم شيئاً عند معاينة العذاب وشدة الانتقام، لأنه إيمان اليأس والإلجاء والقهر، فهو إيمان قسري عن إكراه فلا يقبل، لأنه في تلك الحال لا يبقى مجال للتكليف وقبول الإيمان.

ثم ذكر الله تعالى حكمه العام في الأمم، وهو أن هذا العذاب هو حكم الله وطريقته في جميع من تاب عند معاينة العذاب بأنه لا يقبل، وخسر الكافرون وقت رؤيتهم بأس الله ومعاينتهم لعذابه، والكافر خاسر في كل وقت، ولكن يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب.

تفسير سورة فصلت أو السجدة

موقف المشركين من القرآن

عارض المشركون المكيون النبي والقرآن معارضة شديدة، اتسمت بالعناد والاستهزاء والتحدي، فاستحقوا التهديد بقواصف العذاب، وصواعق العقاب، يتبين ذلك من سبب نزول أوائل سورة فصّلت أو سجدة المؤمن، أو المصابيح، التي هي مكية بإجماع المفسرين، يروى أن عقبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ ليُبيِّن له أمر مخالفته لقومه، وليحتجَّ عليه فيما بينه وبينه، وليُبْعد ما جاء به، فلما تكلم عتبةُ، قرأ رسول الله ﷺ ﴿حمٓ ۝١﴾ ومرّ في صدر هذه السورة، حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ فأُرعد الشيخ، وقفّ شعره[1]، وأمسك على فم رسول الله ﷺ بيده، وناشده بالرّحم أن يُمسك، وقال حين فارقه: «والله لقد سمعتُ شيئاً ما هو بالشِّعْر ولا بالسّحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي». وهذه هي بداية هذه السورة:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ[2] مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ[3] وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ

(١) أي أخذته الرعدة، وقام من الفزع. (٢) أي أغطية، جمع كِنان: وهو الجُعْبة: وعاء السهام. (٣) أي صمم.

أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ١-٨].

افتتحت السورة بالحروف المقطعة: ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ للتنبيه ولفت النظر لما يعرض فيها، وتحدي العرب بإعجاز القرآن المتكون من الحروف العربية الأبجدية أو الهجائية، وتقترن هذه الحروف عادة بالكلام عن القرآن، للدلالة على الصلة بينه وبين مكوناته العربية، وذكر هنا أن القرآن الكريم منزل من الله تعالى المتصف بالرحمة الواسعة والدقيقة، فقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتا رجاء ورحمة لله تعالى. وهذا الكتاب فصلت آياته، أي بُيِّنت بياناً كافياً، وفسِّرت معانيه، وتميز حلاله وحرامه، وزجره وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وأنزله الله كتاباً مقروءاً باللغة العربية، موضَحاً لقوم يعلمون أن القرآن منزل من عند الله، ويعلمون معانيه لنزوله بلغتهم، ويعلمون الأشياء، ويعقلون الدلائل ويتأملون بنظر ثاقب بمشتملاته.

وهذا القرآن الذي أنزله الله يبشر المؤمنين بالجنة لاتباعهم له، وينذر الكافرين بالنار لمخالفتهم أحكامه، ولكن أكثر الكافرين أعرضوا عما اشتمل عليه، من الإنذارات والبشائر، لأسباب ثلاثة وهي:

- إنهم قالوا: قلوبنا في أغطية تحجز ما بيننا وبينه، وفي آذاننا صمم، أو ثقل سمع يمنعها من استماعه، ومن بيننا وبينك ساتر يستر عنا رؤيتك، ويمنعنا من إجابتك ودعوتك، فالحجابُ: هو مخالفة النبي إياهم، ودعوته إلى الله تعالى دون أصنامهم، هذه الحواجز الثلاثة تمنعنا من قبول دعوة النبي، فاعمل على دينك وطريقتك، إننا عاملون على ديننا وطريقتنا، ولا نتبعك. فقوله تعالى: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون القول تهديداً، ويحتمل أن يكون متاركة محضة. ثم أمر الله نبيه أن يصدع أو

يجهر بتبليغ التوحيد والرسالة الإلهية: فقل أيها الرسول مجيباً قومك: ما أنا إلا بشر كواحد منكم، لولا نزول الوحي علي، وخلاصة هذا الوحي: العلم والعمل، أما العلم: فأساسه معرفة توحيد الله، لأن الله تعالى بدليل خلق الكون وتسييره واحد لا شريك له، فاستقيموا إليه على محجة الهدى وطريق الشرع والتوحيد، بالعمل الصالح والعبادة الخالصة له، واستغفروه من الذنوب السابقة، وأولها الشرك بالله تعالى.

ثم هدد الله المشركين على موقفهم المعارض، والمناوئ لدعوة التوحيد والحق، ومضمون التهديد والوعيد: ويل: كلمة تهديد أو واد في جهنم، للمشركين الذين أشركوا مع الله إلهاً آخر، ولا يؤدون الزكاة للمحتاجين لكراهيتهم الناس، وهم جاحدون بالآخرة، منكرون لها. والزكاة: إما زكاة المال فهي قنطرة الإسلام، وذلك بالمعنى العام للزكاة، وإما زكاة النفس وهي (لا إله إلا الله) أساس التوحيد، وهذا رأي الجمهور، كما في قول موسى لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ٧٩/ ١٨]. ويرجح هذا التأويل أن الآية من أوائل السور المكية، وزكاة المال نزلت بالمدينة، فهي زكاة القلب والبدن، أي تطهيرهما من الشرك والمعاصي.

وبعد تهديد المشركين، وعَد الله المؤمنين بالنجاة، وذكر الله حالة الذين آمنوا لمقارنتها بحال الكفار المذكورين، ليتبين الفرق. فالذين صدقوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمر الله تعالى وانتهوا عما نهى عنه، لهم عند ربهم ثواب غير منقوص أو مقطوع، أو لا يشتمل على المنّ والأذى، فهو من جهة الله تشريف لا مَنّ فيه، أما أُعطيات البشر: فهي التي يدخلها المَنُّ.

وقال السدّي: نزلت هذه الآية في المرضى والزّمنى (المرضى مرضاً يدوم طويلاً) إذا عجزوا عن إكمال الطاعات، كُتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون.

التوبيخ على الكفر

في مناسبات قرآنية كثيرة، أورد الله تعالى بعض الأدلة على وجوده وتوحيده، وكمال قدرته وحكمته، ومن أهم هذه الأدلة: خلق السماوات والأرض وتقديرها في مدة قليلة، وأتبع ذلك في بعض الآيات كما هنا توبيخ المشركين على كفرهم بخالق الأرض والسماء ومخترعهما، لذا فإنه آن للبشرية أن ينتهي الشرك من ساحتها. ويتخلصوا من العقائد الباطلة، والموروثات الزائفة حتى في عصرنا الحاضر، وهذا ما تضمنته هذه الآيات الكريمة الآتية:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا(١) ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ(٢) مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا(٣) وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/٩-١٢].

قل أيها النبي لقومك المشركين على سبيل التوبيخ والتقريع: كيف تكفرون بالله الذي خلق الأرض في مقدار يومين، وتجعلون له شركاء من الملائكة والجن، والأصنام والأوثان، فذلك الخالق المبدع: هو رب العالمين كلِّهم من إنس وجن، وهو مالكهم وخالقهم ومدبّرهم.

والحكمة في خلق هذه المخلوقات في مدة ممتدة، مع قدرته على إيجادها في لحظة واحدة: هي إظهار القدرة في ترتيب ذلك، حسب شرف الإيجاد أولاً فأولاً، وقال قوم: ليعلّم عباده التأني في الأمور والمَهَل.

---

(١) أي شركاء وأشباهاً وأمثالاً. (٢) الرواسي: هي الجبال الثوابت. (٣) أي جعلها منبتةً للطيبات والأطعمة، وطهوراً إلى غير ذلك من أنواع البركة.

ورتّب الله تعالى أوضاع الأرض لتصلح للعيش عليها، بإيجاد ثلاثة أنواع فيها، وهي إيجاد الجبال الثوابت فيها، لتحقيق الاستقرار والتوازن على سطحها، وحفظها من الاضطراب، ولتخزين المياه والمعادن في باطنها، والإرشاد للطرق في جنباتها، وحفظ الهواء والسحاب لها. ثم جعل الله الأرض مباركة كثيرة الخير، بما أودع فيها من مصادر الثروة المعدنية والمائية والزراعية، وقدّر الله فيها أرزاق أهل الأرض وأقواتهم، وما يصلح لمعاشهم من الأشجار والمنافع، وأتم الله تعالى معايش أهل الأرض في غضون أربعة أيام، مع اليومين المتقدمين للخلق والإبداع، وهذا كما تقول: بنيت جدار داري في يوم، وأكملت جميعها في يومين، أي بالأول، وجعل الله ذلك الخلق في أربعة أيام، مستوية استواء، بلا نقصان ولا زيادة، ومستغرقة بالأعمال، لأجل إجابة سؤال السائلين عن الأمر، والاستفهام عن حقيقة وقوعه، والطالبين ما ينتفعون به، فهم في حكم من سأل هذه الأشياء، إذ هم بحال حاجة إليها.

وكلمة (سواء) مثل كلمة (عَدْل) ترد على المفرد والجمع، والمذكر والمؤنث. وهي مصدر مؤكّد لمضمر هو صفة لأيام، أي استوت استواء أو سواء.

ثم عَمَد الله وقصد بقدرته واختراعه إلى خلق السماوات وإيجادها، حسبما تقتضي الحكمة الإلهية، فقال للأرض وللسماء: كونا مخلوقتين منقادتين، خاضعتين للأمر الإلهي، طائعتين أو مكرهتين، فاستجابتا، وقالتا بلسان الحال أو المقال: أتينا ووُجدنا طائعين، أي ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف. وبه يتبين أن الله تعالى خلق الأرض أولاً، ثم خلق السماء بعدها، ثم بعد السماء، دحا الأرض، أي بسطها بحسب نظرنا، وهذا توفيق بين هذه الآية، وآية: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٣٠].

ثم ذكر الله كيفية تكوين السماوات، وهو أنه تعالى أتم خلق السماوات السبع وأحكمهن، وفرغ منهن في مقدار يومين، فأصبح خلق السماوات والأرض في مقدار

أيام ستة، كما جاء في آية أخرى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤/٧] وغيرها، قال مجاهد: ويوم من الأيام الستة كألف سنة مما تعدّون، والراجح أن هذه الأيام مثل أيام الدنيا.

وأوحى الله في كل سماء أمرها، أي جعل فيها النظام الذي تجري عليه الأمور فيها، وزيَّن سماء الدنيا بكواكب منيرة مضيئة، مشرقة على أهل الأرض، متلألئة كالمصابيح، وجعل المصابيح زينة، وحفظاً من الشياطين الذين يسترقون السمع، ومن الاضطراب في سيرها، ومن اصطدام بعضها ببعض، ذلك النظام البديع هو من ترتيب الله القادر على صنع كل شيء، القاهر كل شيء، والعليم علماً تاماً بمصالح الخلق وحركاتهم وسكناتهم جميعها.

تهديد المشركين بعذاب الدنيا

لم يترك القرآن الكريم وسيلة في خطاب المشركين لإقناعهم بوحدانية الله تعالى، وترك عبادة الأصنام إلا سلكها، ونوّع في عرضها، وأبان ما ينبغي أن يكون عليه العقلاء والسعداء في وجوب المبادرة إلى سماع النصيحة، والإقلاع عن عادة الوثنية وسلوكياتها الضالة، وطرقها الوعرة، وما يترتب عليها من خرافات وأساطير، وحينما لم تُجْد معهم وسائل الإقناع والنقاش، أنذرهم القرآن الكريم بالتعرض لأشد ويلات العذاب وألوان العقاب، مثل الذي أنزله الله بالأمم السابقة العاتية، كما تبين هذه الآيات الشريفة:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً(١) مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم

(١) الصاعقة: الهلاك للإنسان وعذابه.

بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا(١) فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ(٢) لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ(٣) بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ٤١/١٣-١٨].

هذه الآيات من أشد الإنذارات الإلهية لعبدة الأوثان في مكة حين نزول الوحي، ومضمونها: فإن أعرضت قريش والعرب الذين دعوتهم أيها النبي إلى توحيد الله تعالى، عن الإيمان برسالتك وعن هذه الآيات البيّنات، فأعلمهم بأنك تحذرهم من إصابتهم بمثل العذاب الذي أصاب الأمم التي كذبت، كما يكذّبون الآن، وأنهم سيتعرضون لصواعق العقاب والهلاك، كما حدث لعاد قوم هود، وثمود قوم صالح.

وذلك حين أتتهم الرسل المتقدمون في الزمان وبعد اكتمال أعمارهم، والذين بلّغوهم رسالات الله، وأمروهم بعبادة ربهم وحده لا شريك له، فكذبوهم وقالوا لرسلهم: لو شاء ربنا إرسال الرسل، لأرسل إلينا ملائكة، لا بشراً مثلنا، فإنا بما أرسلتم به أيها الرسل جاحدون منكرون، فلا نتبعكم. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي تقدموا في الزمان، وقوله: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي بعد اكتمال أعمارهم، وتقدم وجودهم في الزمن.

ثم فصّل الله تعالى ما حل بقوم عاد وثمود، فأما قوم عاد في الأحقاف في شمال حضرموت من اليمن، فإنهم طلبوا وآثروا ساحة التكبر ووضعوا أنفسهم فيه بغير حق، بل بالكفر والمعاصي، واغتروا بأجسادهم والنعم عليهم، وقالوا: لا أحد

---

(١) أي ريحاً شديدة البرد أو شديدة الحر أو شديدة الصوت . (٢) أي مشؤومات . (٣) أي الهوان . وأما عذاب الخزي فهو عذاب الذل .

أقوى منا حتى يقهرنا، فرد الله عليهم على سبيل التوبيخ: أولم يعلموا، ويتفكروا أن خالقهم الذي أوجدهم هو أشد منهم قوة، فإنه الموجد للشيء، المذهِب متى شاء، وكانوا جاحدين آيات الله، فعصوا الرسل، وأنكروا معجزاتهم وأدلتهم القاطعة المعدَّة للنظر والتأمل، والمنزَّلة من عند الله تعالى.

وعقابهم أن الله تعالى أرسل عليهم ريحاً شديدة التأثير بصوتها، وشديدة البرد والحر، في بضعة أيام مشؤومات متتابعات، لإذاقتهم عذاب الذل والهوان في الدنيا، وعذابُ الآخرة أشد إهانة وإذلالاً من عذاب الدنيا، وهم لا يجدون ناصراً ينصرهم، ولا دافعاً يدفع عنهم العذاب.

وأما قبيلة ثمود في شمال الحجاز نحو الشام إلى وادي القرى، فبيّن الله لهم طريق الحق والهدى والنجاة، فآثروا العمى، أي اختاروا الكفر على الإيمان، وآثروا العصيان على الطاعة، وكذَّبوا رسولهم، وعقروا الناقة معجزة صالح عليه السلام، فأصابهم العذاب الشديد المهلك المهين، بسبب تكسبهم وجناية أيديهم: وهو التكذيب للرُّسل، وجحود رسالاتهم.

وأنقذ الله تعالى من العذاب صالحاً عليه السلام ومن آمن معه برسالته، وكانوا متّقين ربهم، بأداء فرائضه، وترك معاصيه، لم يمسّهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر أو مكروه.

وهذا الإخبار عن مصائر الكافرين الجاحدين من عذاب الهوان والإذلال، وعاقبةِ من آمن واتقى ونجا بإيمانه، ليبين الله الفرق، ويظهر الشيء ويتميز بضده.

ألم يكف هؤلاء المشركين إنذار الله تعالى بسوء العذاب، ألم يفكروا بسوء المصير، ويوازنوا بينه وبين مصير المؤمنين؟! ولكن القوم كانوا عُمي البصيرة، أخذتهم العزة بالإثم، ولم يتفادوا العقاب الإلهي.

تهديد الكفار بعذاب الآخرة

لم يقتصر القرآن الكريم على تهديد الكافرين والمشركين بعذاب الهوان والإذلال في الدنيا، وإنما جاء التهديد فيه بعذاب القيامة الذي هو أشد وأنكى، وأدوم وأبقى، ووصف الله هؤلاء المهدَدين بأنهم أعداء الله، أي الكفار المخالفون لأمره، وذلك ليكون التهديد أتم في الزجر والتحذير، وحمل المعادي على الصلاح والاستقامة، والرشد والهداية، ومن هدَّد أو أنذر فقد أعذر، ولم يبق مجال للوم والندم، ومحاولة العدول عن الشر والضلال، في يوم لا ينفع فيه الندم، ولا يقبل فيه الإيمان والصلاح، وهذا ما أبانته الآيات الشريفة:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(١) ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ(٢) فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى(٣) لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ(٤) ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ(٥) فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٤١/١٩-٢٥].

المعنى: واذكر أيها النبي لقريش حال جمع الكفار الأعداء: وهم المخالفون لأمره، وسوقهم بعنف في يوم القيامة إلى النار، فهم يوزعون، أي يكفّ ويحبس أولهم على

(١) أي يحجز أولهم ليأتي آخرهم ثم يدفعون ويوزّعون على أنواع النار. (٢) أهلككم. (٣) مأوى ومقام.
(٤) أي إن يطلب منهم الاسترضاء، فليس مقبولاً عتابهم. (٥) هيأنا لهم شياطين الإنس والجن.

آخرهم، أي يحجز أولهم حتى يجتمع عليهم آخرهم، ثم يدفعون إلى أنواع النار. وكلمة (يوم يحشر) منصوب بفعل مضمر، تقديره: واذكر يوم.

حتى إذا ما وصلوا إلى النار ووقفوا عليها، يسألون عما فعلوا سؤال توبيخ، فإذا أنكروا شهدت عليهم جوارحهم من السمع والبصر والجلد، بما ارتكبوا من ألوان الشرك والمعاصي، وبما عملوا في الدنيا من سوء الأعمال، وهذا وصف حال من أحوالهم في بعض أوقات القيامة، وذلك عند وصولهم إلى جهنم، فإن الله تعالى سيطلب منهم الإقرار عند ذلك على أنفسهم، ويُسألون سؤال توبيخ عن كفرهم، فينكرون ذلك، ويظنون السؤال سؤال استفهام واستخبار، فيُنطق الله جوارحهم بالشهادة عليهم، فروي عن النبي ﷺ -فيما أخرجه ابن جرير عن عقبة- «إن أول ما ينطق عن الإنسان فخذه اليسرى، ثم تنطق الجوارح، فيقول الكافر: تباً لكِ أيتها الأعضاء، فعنك كنت أدافع».

فيتعجب الناس من نطق جوارحهم، فيقولون على جهة اللوم لجلودهم حين شهدوا عليهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ فقالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء من مخلوقاته، فإنه كما أنطق الألسن في الدنيا، فكذلك أنطق بقية الأعضاء في الآخرة، علماً بأن الله أيها البشر خلقكم في المرة الأولى، وهو قادر على إعادتكم وإرجاعكم إليه، فإليه وحده المصير بعد الموت.

ثم تقول الملائكة بأمر الله سبحانه: لَمْ تكونوا تتصاونون وتحجزون أنفسكم عن المعاصي والكفر، خوف أن يشهد عليكم، أو لأجل أن يُشْهَد، من قِبَل سمعكم وأبصاركم وجلودكم، ولكنكم ظننتم ظناً خطأً أن الله تعالى حال عصيانكم، لا يعلم كثيراً مما تعلمون من المعاصي، فتجرأتم على فعلها.

وسبب نزول هذه الآية: هو ما رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن ابن

مسعود قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر... فتكلموا بكلام، واختلفوا هل يسمع الله كلامهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

ثم خاطب الله نبيه محمداً ﷺ بما معناه: فإن يصبر أعداء الله، لم ينفعهم الصبر، وإن لم يصبروا، فهم في النار في الحالين، وإن يطلب منهم العتبى، وتسويغ أعمالهم، وإبداء أعذارهم، فليسوا ممن يقبل عذرهم، لأنهم فارقوا الدنيا التي هي دار التكليف والطاعة والعمل.

ثم أبان الله سبب بقائهم في الكفر بعد إدمانهم عليه: وهو أن الله سلَّط وهيأ لهم شياطين الجن والإنس وهم القرناء، فحسَّنوا لهم أعمالهم في الماضي والمستقبل، وزيَّنوا لهم أحوال الدنيا التي بين أيديهم وهي كل ما تقدمهم في الزمن، وأمور الآخرة التي هي خلفهم، وهي معتقدات السوء وكل ما يأتي بعدهم من أمر القيامة والبعث، ونحو ذلك مما يقال فيه: «إنه خلف الإنسان» والمراد أمامه. وثبت عليهم العذاب في جملة أمم كافرة مضت قبلهم، مع جملة من الجن والإنس فعلوا كفعلهم، فوجب لهم العذاب نفسه، وكانوا جميعاً متساوين في الخسارة والدمار بسبب تكذيبهم وسوء أفعالهم.

جزاء أهل الكفر
أو التشويش عند سماع القرآن وجزاؤه

تعددت مواقف المشركين المكيين من معاداة النبي ﷺ، وصد الناس عن دعوته، وبخاصة عند سماع القرآن الكريم.

فاتفقوا على التشويش الشديد عند سماع آيات القرآن لصرف الناس عنه، فقال

بعض قريش كأبي جهل وغيره، خشية استمالة القلوب بالقرآن: متى قرأ محمد فلْنُغَطّ نحن بالمكاء[١] والصفير والصياح وإنشاد الشِّعر والأرجاز، حتى يخفى صوته، ولا يقع الاستماع منه، وهذا الفعل منهم هو اللَّغو، فنزلت الآيات الآتية:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ[٢] لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ[٣] ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٢٦-٢٩].

المعنى: قال بعض الكفار لبعضهم: لا تستمعوا لهذا القرآن عند تلاوته، ولا تتأثروا أو تنقادوا له، وعارضوه بالكلام اللغو الساقط الذي لا معنى له، من إنشاد الأشعار ورفع الأصوات والتصفيق والتصفير، والتخليط بالخرافات والأساطير، حتى تغلبوا القارئ على قراءته، وتطمسوا أمر محمد ﷺ وتُميتوا ذِكْره وتصرفوا القلوب عنه.

فهددهم الله تعالى بأنه ليجازين في الدنيا في بدر وغيرها جميع الكفار بعذاب شديد، ومنهم كفار قريش، الذين يحاولون صد الناس عن سماع القرآن، ثم يجازينّهم في الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وهو الشرك. وهذه آية وعيد لقريش. والعذاب الشديد: هو عذاب الدنيا في بدر وغيرها والجزاء بأسوأ أعمالهم: هو عذاب الآخرة.

ثم ذكر الله تعالى صفة ذلك العذاب بأن ذلك الجزاء لأقبح أعمال الكفار وهو دخول النار، هو جزاء أعداء الله الذين كذبوا رسله، واستكبروا عن عبادته، فهم

(١) المكاء: الصفير، والخبر أخرجه ابن جرير عن مجاهد. (٢) اتتوا باللغو عند قراءته، وهو ما لا معنى فيه من سِقْط القول. (٣) أي الأذلين المهانين.

أهل النار، وهي دار الإقامة المستمرة التي لا انقطاع لها، ويجزون ذلك الجزاء بسبب جحودهم كون القرآن من عند الله تعالى. إنهم سيرون عظيم ما حلّ بهم وسوء منقلبهم، وحين يرون العذاب، يطلبون الانتقام ممن أضلوهم وأبعدوهم عن الطريق القويم.

فقال الكفار طالبين من الله تعالى: ربّنا أرنا من أضلنا من فريقي الجن والإنس، الذين كانوا يزينون لنا الكفر والمعاصي، لندوسهم بأقدامنا أو أرجلنا، ليكون الفريقان من الأذلين المهانين، في الدرك الأسفل من النار. والطلب لكلا نوعي المضلين، سواء الذين أضلوا الناس، وأدى بهم الكفر إلى الخلود في النار، أو الذين أوقعوا الناس في المعاصي الكبائر. وكل كافر يطلب إبليس، وكل مرتكب كبيرة يطلبه أيضاً ويطلب أعوانه من الإنس. وقولهم: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾ يراد به: في أسفل طبقة في النار، وهي أشد عذاباً، وهي دَرْك المنافقين.

إن من يحذِّره القرآن بهذا التحذير الذي يملأ النفس رعباً وهَلَعاً، وكان عنده قليل من عقل أو وعي أو تأمل، يبادر إلى البحث عن طريق الإنقاذ، كحال من يتعرض لخطر مشاهد في الدنيا من حريق، أو غرق، أو هدم، أو زلزال أو بركان، إن كل إنسان يبحث عن طريق النجاة، خوفاً من الخطر، وهذا في الدنيا، فكيف بأهوال العذاب الخالد (الدائم) في نيران الجحيم يوم القيامة.

إن الإنسانية التي تريد النجاة الدائمة والحفاظ على وجودها لا يمكنها تحقيق آمالها، وتجنب آلامها ومخاطر المستقبل، إلا بالإصغاء التام لنداءات القرآن العظيم وتوجيهاته ومواعظه السديدة وإرشاداته البليغة، وحين يستجيب الإنسان لهذا النداء الإلهي تصبح الحياة جنة في الدنيا، ويتخلص الجميع من الآلام وألوان الشقاء والعذاب الذي يتعرضون له، فهل من واعٍ أو مدرك لهذا؟!

جزاء أهل الاستقامة

الاستقامة على منهاج الحق والخير وطاعة الله تعالى. دليل على توافر العقل والوعي. والرجولة والشجاعة والعزة والكرامة، والانحرافُ عن ذلك المنهاج أمارة واضحة على الجهالة وقلة الوعي وضعف الإدراك، والجُبْن والمهانة، والانصياع للذَّات والأهواء والشهوات، فما استقام أحد إلا نجا وأفلح، وكان متماسك الشخصية، قوي العزيمة والإرادة، وما ضل أحد إلا هلك ودمَّر نفسه، وكان خائر العزيمة، ضعيف الإرادة. لذا كان الدين سبيلاً لخير الإنسان، وإبعاده عن الشرور والآثام، فجاء القرآن الكريم يحضّ على الاستقامة، ويعد بالجزاء الأحسن في هذه الآيات الآتية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٠-٣٢].

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أن المشركين قالوا: ربنا الله، والملائكة بناته، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، فلم يستقيموا، وقال أبو بكر: ربنا الله وحده لا شريك له، ومحمد ﷺ عبده ورسوله، فاستقام. وأخرج الترمذي والنسائي والبزار وغيرهم عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ قال: «قد قال الناس، ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها، فهو ممن استقام».

هذه الآية واردة إذن في أحوال المؤمنين المستقيمين ونهايتهم، بعد بيان أحوال المشركين ونهايتهم، ليتبين الفرق بين المؤمن والكافر، وبين الطيب والخبيث، وهي وعد للمؤمنين، بعد آيات وعيد المشركين.

فالذين أقروا بربوبية الله تعالى وتوحيده، وأنه الإله الواحد الذي لا شريك له، وواظبوا على مقتضى التوحيد، واستقاموا وثبتوا على أمر الله تعالى، فأطاعوه وتجنبوا معاصيه، حتى ماتوا، تتنزل عليهم الملائكة تبشرهم بالنجاة في أماكن ثلاثة: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث، وتزيل مخاوفهم من أمور الآخرة، وتذهب عنهم الحزن عما فاتهم من أمور الدنيا من خيرات الأهل والأموال والأولاد، وتبشرهم بجنان الخلد التي وُعدوا بها في الدنيا، على ألسنة الرسل، فإنهم واصلون إليها، خالدون في نعيمها، وأول درجات الاستقامة: أمن الخلود في النار بالنطق بالشهادتين، أخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة».

وطريق الاستقامة: أداء الطاعات، واجتناب المعاصي، تلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية وهو على المنبر، ثم قال: استقاموا -والله- لله تعالى بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب. وقال سفيان بن عبد الله الثقفي -فيما رواه أحمد ومسلم والبخاري في تاريخه وغيرهم -: قلت للنبي ﷺ: أخبرني بأمر أعتصم به، فقال: قل: ربي الله، ثم استقم، قلت: ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه، وقال: هذا . أي اللسان، فهو أخوف شيء على الإنسان، يورده المخاطر والمزالق، ويُردي به إلى النار.

وتقول الملائكة للمؤمنين: نحن المتولون لحفظكم ومعونتكم في أمور الدنيا والآخرة، نؤنسكم من وحشة القبور، وعند نفخة الصور، ونؤمّنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، الذي هو جسر دقيق بين الجنة والنار، ونوصلكم إلى جنات النعيم. قال السدي: معنى الآية: نحن -أي الملائكة- حفظتكم في الدنيا، وأولياؤكم في الآخرة.

وأما ألوان نعيم الجنة: فهو ما أخبرت به الملائكة بقولهم: ولكم في الجنة من جميع ما تختارونه، من صنوف اللذات، وأنواع الطيبات، ومهما طلبتم وجدتم، وكل ما تتمنون حصلتم عليه، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي لكم في الجنة ما تطلبون. وكل ذلك حال كونه معدّاً لكم، ضيافةً وعطاء وإنعاماً، من رب غفور لذنوبكم، رحيم شامل الرحمة بأحوالكم، حيث غفر وستر، ورحم ولطف.

ومعنى قوله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾: أنزلناه نُزُلاً، فهو منصوب على المصدر. أي إن الله تعالى أعد هذا النعيم وأنزله إنزالاً على أهل الجنان، فهو جزاء على طاعتهم واستقامتهم. وإعداد هذه النزل دليل على تحقيق السعادة لهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٥٦]. أي يوم الجزاء.

فضل الدعوة إلى الله تعالى

تبليغ الدعوة إلى توحيد الله وطاعته: واجب في الإسلام، والإرشاد إلى الخير والسلامة والأمان: منهاج أهل الحق، المحبين للإنسانية، السالكين مع غيرهم ما يحبونه لأنفسهم، فإن أهل الإيمان يصلحون أنفسهم أولاً، ثم يحاولون إصلاح غيرهم، وتكون مرتبة تربية النفس وإعدادها معروفة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ثم تأتي مرتبة دعوة الآخرين إلى الهدى والخير، ويؤخذ ذلك من هذه الآيات الآتية:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا

يَنزَغَنَّكَ[١] مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٣-٣٦].

أوضح ابن عباس سبب نزول هذه الآية، فقال: هو رسول الله ﷺ ، دعا إلى الإسلام، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه، وجعل الإسلام نِحْلة. وقال أيضاً: هم أصحاب رسول الله ﷺ. والمؤذنون هم أيضاً داخلون في هذه الآية. لأنهم يدعون إلى الله وأداء الصلاة، ولكن ليست الآية نازلة في المؤذنين، خلافاً لما روي عن عائشة وعكرمة ومجاهد وقيس بن أبي حازم، لأن سورة (فصلت) مكية بلا خلاف، ولم يكن بمكة أذان، وإنما شرع الأذان بالمدينة، لكن الأذان من الدعوة إلى الله تعالى.

والآية تعم بلفظها كل من دعا قديماً وحديثاً إلى الله تعالى وإلى طاعته، من الأنبياء عليهم السلام، ومن المؤمنين. والمعنى: لا أحد أحسن ممن هذه حاله. إن أحسن الناس حالاً: هم الدعاة إلى توحيد الله تعالى وطاعته وعبادته، وإلى العمل الصالح: وهو أداء ما فرض الله على الإنسان واجتناب ما حرمه، والذين يتخذون الإسلام ديناً ومنهجاً ومذهباً، ويعمل كل واحد مع إخوته المسلمين على كل ما يشد أواصر الأخوة والتعاون والتناصر معهم.

ومن المعلوم بداهة أنه لا تساوي بين الفعلة الحسنة التي يرضى الله بها ويثيب عليها، وبين الفعلة السيئة التي يكرهها الله ويعاقب عليها. والمداراة: من الحسنة، والغلظة: من السيئة، فادفع أيها الداعية المخلص من أساء إليك بالإحسان إليه، بواسطة الكلام الطيب ومقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، والغضب بالصبر والحلم، وادفع أمورك وما يعرض لك مع الناس، ومخالطتك لهم بالفعلة أو بالسيرة التي هي أحسن الفعلات والسير، ومنها: بذل أو إفشاء السلام، وحسن

(١) أي يصرفنك عن الخصلة الفاضلة صارف ، فاستعذ بالله من وساوس الشيطان .

الأدب، وكظم الغيظ، والسماحة في القضاء والاقتضاء، وغير ذلك. وهذه آية جمعت مكارم الأخلاق، وأنواع الحِلْم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا فعل المؤمن هذه الفضائل، عصمه الله تعالى من الشيطان، وخضع له عدوه، ولا شك أن السلام: هو مبدأ الدفع بالتي هي أحسن. فإذا كان بينك وبين غيرك عداوة، فقابلت الإساءة بالإحسان، صار العدو كالصديق.

وما يتقبل هذه الوصية أو الموعظة ويعمل بها، ويروِّض نفسه على هذه الخصلة: وهي دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على كظم الغيظ، واحتمال المكروه، والصبر شاق على النفوس، والصبر على الطاعات وعن الشهوات جامع لخصال الخير كلها. وكذلك لا يتقبل هذه الوصية إلا ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، وذو حظ في الثواب والخير، والآية مدح للصابرين ووعد لهم بالجنة.

وطريق التغلب على أهواء النفس ونزواتها هو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فإن وسوس إليك الشيطان، وحاول صرفك عن الدفع بالتي هي أحسن، وزيّن لك أن تقابل السيئة بمثلها، فاستعذ بالله من شره، والتجئ إلى الله لكفّه عنك ورد كيده، فالله هو السميع لاستعاذتك منه، والتجائك إليه، العليم بوساوس الشيطان، وبما يعزم عليه الإنسان.

وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول -فيما رواه أحمد والترمذي- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه». ولما انتصر أبو بكر لنفسه من رجل شتمه، قام النبي ﷺ من المجلس وقال لأبي بكر: «إنه أي (حين سكوتك) كان يرد عنك مَلَك، فلما قَرُبتَ تنتصر، ذهب الملَك، وجاء الشيطان، فما كنتُ لأجالسه».

بعض الآيات الكونية الدالة على قدرة الله

تكرر إيراد الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله وقدرته وعظمة خلقه، في آيات متنوعة من القرآن الكريم، لإقناع المشركين بعقيدة الحق والتوحيد والعدل الإلهي، ويمكن لكل إنسان واعٍ إدراك هذه الظواهر الحسية، والاقتناع بدلالاتها وما تومئ إليه، فلا يبقى بعدئذ عذر لأحد في إنكار وجود الله تعالى وتوحيده، وقدرته التي لا تضارع، ولا يرقى لمثيلها إنسان. وهذا ما وجهت إليه الآيات الشريفة:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ[1] ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ[2] إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٧-٣٩].

تضمنت الآيات الكريمة دلائل أربعة فلكية: وهي الليل والنهار والشمس والقمر، وآية أرضية: وهي إنبات النباتات بالأمطار والأنهار، لإثبات قدرة الله تعالى على إبداع الأشياء وخلقها، وعلى إحياء الموتى مرة أخرى، في عالم الآخرة والبعث.

إن من آيات الله تعالى ودلائل قدرته وعظمته: إيجادَ الليل والنهار، وتعاقبَهما، وخلق الشمس المضيئة والقمر المنير، ففي ذلك خير للإنسان ونفعه، وتمكينُه من الحياة البشرية بنحو مريح ومفيد، وبما أن الشمس والقمر مخلوقان خاضعان لسلطان الله وتسخيره، فإياكم أيها البشر من السجود للشمس والقمر وعبادتهما، لأنهما مخلوقان لله، وكل مخلوق عاجز عن فعل شيء، والأولى عبادة الخالق جل جلاله، إن

(١) أي لا يملون عبادته. (٢) انتفخت وعلت بالنبات أو الزرع.

كنتم تريدون عبادة الله، فعبادة الله وحده: هي الواجبة والصحيحة والنافعة، وعبادة من دونه من المخلوقات الكونية: هي باطلة كل البطلان، ولا تفيد شيئاً. وهذا ردّ على الصابئة عبدة الكواكب، وعلى عبدة الشمس الذين يزعمون أنهم يريدون من السجود للشمس والقمر السجود لله تعالى. ويلاحظ أن ذكر الليل والنهار يتضمن ما فيهما من طول وقصر، وتداخل واستواء وتفاوت، وذكر القمر والشمس يتضمن ما فيهما من عجائب وحكمة ونفع؟ فإن تكبر هؤلاء المشركون عبدة الكواكب عن امتثال أوامر الله تعالى وتوجيه رسوله، وأبوا إلا البقاء على شركهم، فلا يهمنك أمرهم أيها الرسول، فإن الذين يعبدون الله بحق كثيرون، فمنهم الملائكة الأشراف ذوو المكانة عند الله، لا المكان أو الموضع، الذين يواظبون على عبادة الله، وتنزيهه في كل وقت، ليلاً ونهاراً، وهم لا يملّون من عبادة الله سبحانه، ولا ينقطعون عن متابعة العبادة، وكلمة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ليست ظرف مكان، وإنما هي بيان المنزلة والقربة.

إن هذه الآية تتضمن وعيد المشركين وحقارة أمرهم، وأن الله تعالى غير محتاج إلى عبادتهم، فأولى بهم إعادة النظر في صرف جهودهم في شيء لا طائل معه ولا نفع، وإنما هو سبب عذاب وغضب وسخط من الله تعالى.

ثم ذكر الله تعالى دلائل أخرى من الأرض وما فيها من أسرار على وجوده وقدرته ووحدانيته، ومن هذه الدلائل: أنك أيها الناظر ترى الأرض هامدة جامدة، لا نبات فيها ولا حياة، فإذا أنزل الله عليها المطر، تحركت بالنبات، وانتفخت وعلت، وأخرجت مختلف ألوان الزروع والحبوب والثمار، وفيها مع ذلك خزائن الثروة المعدنية، النفطية السائلة، والجامدة من معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والفوسفات وغيرها.

إن الذي أحيا هذه الأرض الجدبة بالنبات والزرع، قادر على أن يحيي الأموات،

أي إن الذي ينبغي أن يقاس على هذه الآية في مجال إيجاد الأحياء النباتية، إنما هو إحياء الموتى، فإن الله هو الرب القدير الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. والشيء في اللغة: هو الموجود. وهذا دليل حسي مشاهد، نبّه عليه القرآن الكريم للتوصل إلى الإيمان بقدرة الله على البعث والإحياء بعد الإماتة، والركود في القبور، وإن الذي يجب الانتباه له: هو قدرة الله تعالى الخالق، في ابتداء الخلق، وإعادته وانتهائه، وفي كل وقت وحال.

وبعد هذا البيان الإلهي لا يبقى عذر لأحد في خطأ الاعتقاد، وعبادة غير الله سبحانه، والتماس الخير والنفع من غير الله القادر، أو منع الضرر والشر من عبيد الله ومخلوقاته. ألا إنها عظة وذكرى لمن كان له قلب وعقل ووعي، وألقى السمع وتنبه، وهو شهيد، أي صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وانتبه في سماعها.

الميل والإعراض عن القرآن

عجيب أمر الإنسان، يرى الحق ويشاهده، ويلمس فائدة الاستقامة وجدواها، وطريق النجاة والسلامة، ومع ذلك يعرض عنه، ويميل إلى غيره من ألوان الباطل والانحراف، متأثراً بأهوائه وشهواته، مؤثراً نفعاً عاجلاً في ظنه، ولكنه في الواقع هو عين الهلاك والضياع. وما مثله إلا كمثل المريض الأحمق، ينصحه الطبيب بتناول دواء معين، فيتركه ويهمله، إلى أن يلقى حتفه ونهايته، وهكذا بعض الناس يلحدون في القرآن، أي يميلون عنه وعن توجيهاته، وهو الحق الأبلج، والصواب الأسدّ، ويتجهون إلى غيره، وهو الباطل اللجلج، والخطأ البين. وهذا ما أبانته الآيات الآتية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا(١) لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ(٢) لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾﴾

[فصلت: ٤١/ ٤٠-٤٣].

هذا تهديد لأولئك الضالين الذي يهجرون القرآن العظيم، أي يتركون الحق إلى غيره، ويميلون عن الاستقامة على منهج آيات القرآن بالطعن فيها وتحريفها، وتأويلها تأويلاً باطلاً، لاغين عند سماعها، إنهم لا يخفون على الله، وإنما يعلم بهم وسيجازيهم أشد الجزاء.

وهل أدرك هؤلاء هذا المصير، وهل غفلوا عن الفرق الشاسع بين المؤمن المستقر الآمن في الدنيا والآخرة، وبين الكافر الجبار المتكبر في الدنيا، والذي يُلْقى به في الآخرة في دركات النار؟ فالمؤمن يدخل الجنة، ويطمئن لما فيها من خيرات، والكافر يزجّ به في نيران جهنم، فيبقى في عذابها على الدوام، لا يقول عاقل بالتسوية بين الحالين أو الفريقين. ثم أكد الله التهديد والوعيد بقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ أي اعملوا أيها الضالون المكذبون ما شئتم من الأعمال، فإن الله عالم بكم، وبصير بأعمالكم، ومجازيكم بحسب ما قدمتم من أعمال، خيرها وشرها، وقوله تعالى: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ معناه: فنحن بالمرصاد لهم وسنعذبهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ دليل الوعيد والتهديد.

قال مقاتل: نزلت هذه في أبي جهل، وفي عثمان بن عفان رضي الله عنه. وقيل:

(١) أي يميلون عن الحق والاستقامة. (٢) أي القرآن.

في عمار بن ياسر رضي الله عنه. قال بشير بن فتح فيما أخرجه ابن المنذر: نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر.

والمفاضلة بين الإلقاء في النار والأمن يوم القيامة في كلمة (خير)، وإن كانا لا يشتركان في صفة الخير، إنما هي بسبب كون الكلام تقريراً نهائياً بسوء مصير الكافرين، لا مجرد خبر وحكاية. وذلك مثل آية: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٤]. لأن المقرِّر قد يقرر خصمه على قسمين: أحدهما بيِّن الفساد، حتى يرى جوابه، فإذا اختار طريق الفساد، بانَ جهله وغباؤه.

وتابع القرآن التهديد وتأكيد الجزاء، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي إن الذين كفروا بالقرآن الكريم ذي الذكر العالي والشرف الرفيع، لما جاءهم، نجازيهم على كفرهم، والحال أن القرآن متصف بصفات ثلاث: أولها: أنه كتاب عزيز عن المعارضة أو الطعن، منيع عن كل عيب من أي بشر، وثانيهما أنه لا يتمكن أحد من إبطاله وتحريفه، وليس لأحد أن يبطله من جميع جوانبه، لا في اللفظ ولا في المعنى، ولا في الحكم والأسلوب، ولا في الغرض أو القصة، فلا يكذبه كتاب سابق قبله، ولا فكر أو نظر لاحق بعده، محفوظ من النقص والزيادة، كما في آية أخرى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩].

وثالث الصفات: أنه تنزيل من إله حكيم في قوله وفعله، محمود في جميع أوامره ونواهيه، مشكور على نعمه وأفضاله، فكيف يأتيه الباطل بأي صورة أو باب؟!

ثم أبان الله لرسوله وحدةَ الرسالات، وأنها تهدف إلى التوحيد الخالص، وإثبات الآخرة، وتقرير مبدأ الثواب والعقاب، مبيناً أن ما يقال لك أيها الرسول من هؤلاء الكفار المشركين من وصفك بالسحر والجنون والكذب، وما ينالك من مكروه، ماهو إلا كأقوال الجاحدين لأنبيائهم ورسلهم، الذين تقدموك، فإن أقوامهم كانوا يقولون

لهم مثلما يقول لك هؤلاء، من الأقوال الجارحة المؤلمة، فامض لأمر الله تعالى، ولا يهمك شأنهم، وربك بالمرصاد، فهو غفار ستّار لمن تاب إليه وآمن به إيماناً صحيحاً، ومعاقب بعقاب مؤلم شديد لمن استمر على كفره، ومات على ضلاله كافراً لم يتب. قال ابن عطية: وفي هذه الكلمات الموجزات جُمّاع الزجر والنهي والموعظة، وإليها يرجع كل نظر.

القرآن العربي شفاء وهدى

أكد الله تعالى على أن القرآن الكريم كله عربي اللسان، فصيح البيان، ليس مختلطاً بين العربية والأعجمية، ليؤدي مهمته على أكمل وجه، فهو هداية للحيارى، وشفاء لما في الصدور، مما قد يكون فيها من وساوس وشبهات وضلالات، وليس محلاً للخلاف أو الاختلاف، وهكذا شأن جميع الكتب السماوية، فهذا كتاب موسى- التوراة نزل وحدة متناسقة، ومع ذلك وقع الاختلاف فيه وفي القرآن، من قِبَل المكذبين بهما وهم اليهود وغير المؤمنين، ولكن وبال التكذيب على أصحابه، والإنسان ولي نفسه، فمن آمن وعمل صالح الأعمال حقق الفوز والنجاة لنفسه، ومن أساء الاعتقاد والعمل، أتى بالضرر على نفسه، وليس الله تعالى بظلام لأحد، وهذا ما أبانته الآيات القرآنية الآتية:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ(١) وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى(٢) أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ

(١) أي ثقل في السمع وصمم عن الحقيقة مانع من السمع، وهذا مجاز، فإنهم بتركهم فهم القرآن كانوا كالطرشان. (٢) أي معمى، وهذا أيضاً مجاز، فإنهم لما لم يفهموا القرآن، لتعاميهم عن آياته، جعلوا كالعميان.

مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ(١) ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٤-٤٦].

هذه الآية الكريمة نزلت بسبب تخليط قريش في أقوالهم، من أجل الحروف المعرَّبة في القرآن من كلام العجم، كالسِّجين والاستبرق ونحوه، فقال الله عز وجل: ولو جعلنا هذا القرآن أعجمياً (أي كلاماً لا يبين ولا يفهم ولا يفصح) لقالوا واعترضوا: لولا بُيِّنت آياته بلغتنا حتى نفهمها.

وهذا غير صحيح، فهل يصح أن يكون هذا القرآن العربي بعضه عربياً، وبعضه أعجمياً؟ هذا لا يحسن، وإنما المقصود الدلالة على أن مشركي قريش قوم متعنتون، محاربون للقرآن، بأي لغة أو صفة كان عليها. والواقع أن جميع ما في القرآن عربي، إذا أرادوا الفهم والإفادة منه، ولو نزل بلغة أعجمية لأنكروا ذلك، وغاية القرآن: أن تقول أيها الرسول لقومك المشركين: إنه هداية من الظلمات إلى النور لقلب من آمن به، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والرِّيَب، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٢].

وبعبارة أخرى: أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم: إن هذا القرآن هدى وشفاء للمؤمنين المبصرين للحقائق، وإنه عمىً على الذين لا يصدقون بالله ورسوله، ولا يقلّبون أنظارهم في مصنوعات الخالق، أي إنه معمّىً عليهم، فعلى أعينهم غشاوة، وفي آذانهم صمم أو ثقل في السمع، وعلى قلوبهم أقفال، وهذا من قبيل المجاز المراد به أنهم لا يفهمون ما في القرآن، كالعميان والطرشان، ولا يهتدون إلى ما فيه من البيان ولا يبصرون ما اشتمل عليه من البراهين والمواعظ، لتعطيلهم سبل المعرفة والإدراك.

ثم أكد الله تعالى على عدم استعدادهم لفهم القرآن، فإن حالهم كحال من يُنادى

---

(١) شديد الريبة أو الشك، موقع في الاضطراب.

من مسافة بعيدة، يسمع صوت من يناديه منها، ولا يفهم ما يقال له. وهذا أيضاً استعارة، لقلة فهمهم، حيث شبَّههم بالرجل، يُنَادى من مكان بعيد، يُسمع منه الصوت، ولا تفهم تفاصيله ولا معانيه.

وهذا شأن مستمر بين الأمم المكذبة، فلا تستغرب أيها الرسول موقف قومك، فتلك عادة قديمة للأمم مع الرسل، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة عليهم، كما حدث من بني إسرائيل، فلقد أرسل الله موسى عليه السلام وآتاه التوراة، فاختلفوا في كتابهم بين مصدِّق ومكذِّب، وشأنك أيها الرسول مع قريش، كشأن موسى مع بني إسرائيل، حين جاءهم بالتوراة، ولقد أخّر الله العذاب على الفريقين، ولولا الكلمة السابقة (وهي أن الله حتَّم تأخير عذابهم إلى يوم القيامة) لقضي بينهم، أي لعُجِّل لهم العذاب، كما فُعل بالأمم المكذبة السابقة، وسبب الهلاك قائم فيهم، فإن كفار قريش لفي شك من القرآن، موقع في الريبة والقلق، ولم يكن تكذيبهم للقرآن ناجماً عن تبصر وتأمل، بل كانوا شاكّين فيه وفيما قالوا، غير متحققين لشيء كانوا فيه.

وقانون الجزاء الإلهي واضح، فمن عمل صالح الأعمال بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، فإنما ينفع نفسه، ويجازى بخير عمله، ومن أساء فعصى الله تعالى، فإنما يرجع وبال ذلك عليه، ويعاقب بسوء عمله، والجزاء للفريقين قائم على أساس من الحق والعدل المطلق، فلا يُنقص المحسن شيئاً من ثوابه، ولا يعاقب أحد إلا بذنبه أو معصيته.

العلم بالساعة وطبيعة الإنسان

هناك أمر خطير جداً، مرتقب لا شك فيه: وهو يوم القيامة، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت تجهيله، فلا يعلم به أحد من المخلوقات، واختص الله تعالى وحده بعلم الساعة، كما اختص بالعلم بالأحداث المستقبلة، ليظل الإنسان رقيباً على نفسه،

مهيمناً على شهواته، يعمل الخير حباً فيه، ويبتعد عن الشر كرهاً فيه لذاته، وطبع الإنسان غريب، لا يمل من طلب الخير، وييأس ويقنط من رحمة الله إن أصابه شر. وفي حال النعمة والترف يبتعد عن الله تعالى الذي أمده بالنعم، ويهمل شكر ربه المنعم، ويزعم أن له المكان الحسن عند الله في الآخرة، وإذا أصابه الشر، أقبل على الدعاء، والتضرع لله سبحانه، وإذا تعرض لخير نسي الله ونأى عنه، فهو دائم الطمع، كثير التبدل والتغير، لا يستقر على حال، ولا يثبت على مبدأ، ولا وفاء عنده لمعروف، قال الله تعالى مبيناً ذلك كله:

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا(١) وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ(٢) مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ(٣) ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ(٤) ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ(٥) ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ(٦) ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: ٤١/٤٧-٥١].

المعنى: إن علم وقت القيامة ومجيئها، يردُّه كل مؤمن متكلِّم فيه إلى الله عز وجل، لذا كان جواب النبي ﷺ لجبريل عليه السلام، في الحديث الصحيح المتفق عليه، عن عمر رضي الله عنه: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» **. وفي حديث آخر ثابت:** «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: (إن الله عنده علم الساعة..) » **. الحديث، وهو وارد في آية:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤].

---

(١) أي أوعيتها. (٢) أخبرناك وأعلمناك. (٣) ليس منا أحد يشهد أو شهد بأن لله شريكاً. (٤) أي من مهرب من العذاب. (٥) أي شديد صعب. (٦) أي طويل.

وكذلك يعلم الله تعالى الثمار وخروجها من الأكمام (الأوعية) ووقت ظهورها تماماً، ويعلم ما تحمل الإناث ووقت الحمل والوضع، وذلك أورده الله على سبيل المثال لجميع الأشياء، إذ كل شيء خفي، فهو في حكم هذين الشيئين. وهذا كله مجهول، لا يعلم به أقرب الناس من هذه الأشياء كالمزارع والزوج أو الأنثى. وما قد يقال: إنما هو من محض التخمين، لا من باب العلم بيقين.

ثم رد الله تعالى على المشركين لإبطال شركهم، فاذكر أيها الرسول يوم ينادي الله تعالى المشركين، في يوم القيامة، قائلاً على سبيل التوبيخ والتهكم والتحدي: أين شركائي الذين كنتم تزعمون من الأصنام وغيرها، فادعوهم الآن للشفاعة بكم أو دفع العذاب عنكم؟ فيجيب هؤلاء المعبودون بغير حق: لقد أخبرناك وأعلمناك أن ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك يا رب شريكاً، ونحن لا نشاهدهم أمامنا، بل ضلوا واختفوا عنا، وذهبت تلك المعبودات من الأصنام وغيرها محتجبة في آفاق الغيبة عن العيون، وقد كانوا يعبدونهم في الدنيا، وتيقنوا الآن ألا مهرب لهم ولا ملجأ من عذاب الله. وهذا وعيد وتهديد. وقد استعمل الظن هنا مكان اليقين: وهو كل موضع عُلم علماً قوياً وتقرر في النفس ولم يلتبس بشيء.

ثم نزلت الآيات الآتية في بعض كفار مكة، كالوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة، ومضمونها: أن أولها يتضمن خُلُقاً[1] ربما شارك فيها بعض المؤمنين: وهو أنه لا يمل الإنسان من طلب الخير من ربه، كالمال والصحة والرفعة ونحوها، وإن أصابه الشر من بلاء وشدة، أو فقر أو مرض، كان شديد اليأس والقنوط من رحمة الله، وهذه الصفة الأخيرة (اليأس) من صفة الكافر وحده، والصفة الأولى (طلب الخير في الدنيا) صفة مشتركة، فأما خير الآخرة فهو للمؤمنين.

---

(١) الخلق: مؤنثة، لأنها حال راسخة للنفس.

ثم ذكر الله تعالى ثلاث خصال أخرى للكافر أقبح مما قبلها: وهي أنه لئن آتاه الله الخير بتفريج كربه بعد شدة أصابته، كغنى بعد فقر، وصحة بعد مرض، وجاه بعد ذل، ليقولن: هذا شيء أستحقه على الله، لرضاه بعملي وجهدي، متناسياً فضل الله. والصفة الثانية: هي أنني لا أعتقد أن القيامة ستقوم، كما أخبر الرسل، فلا رجعة ولا حساب.

والصفة الثالثة: هي أنني إن أُعدت إلى ربي -على سبيل الافتراض- فليحسنن إليّ ربي كما أحسن لي في هذه الدنيا، والحسنى: الكرامة والجنة، فأجيب بمفاجأة نقيض ظنه: لنخبرن هؤلاء الكفار يوم القيامة بما عملوا من المعاصي، ولنجازينهم بعذاب شديد صعب. والعيش بالأمل أو الأماني مذموم لكل أحد تارك الطاعة، جاء في الحديث[1]: «الكيِّس: من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الأماني».

ثم ذكر الله تعالى خلقاً ذميماً للإنسان جملة، وهو واضح في الكفار؛ وهي أن الله تعالى إذا أنعم على الإنسان، أعرض عن الشكر والطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله تعالى، وإذا تبدل الحال، وأصيب بشر، من بلاء وجهد، أو فقر أو مرض، أطال الدعاء والتضرع إلى الله تعالى، وهذا خلق ذميم يدل على العمل الانتهازي أو المصلحي المحض. وأما المؤمن في الغالب فإنه يشكر عند النعمة، ويصبر عند الشدة.

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن شداد بن أوس رضي الله عنه.

الإعلام العام بآيات الله

إذا استبد الكفر والعناد ببعض الناس، لم يبق إلا أن يُقْهر على المعرفة، ويُتحدى بالمحسوسات المشاهدة الدالة على الحق، والتي تستأصل كل ريب أو شك في النفس إذا استجاب لهذا الإقناع، ولذا حمل القرآن الكريم على المشركين الذين أغلقوا على أنفسهم نافذة الوصول إلى الحق والخير والهداية، فاستحقوا التهديد والوعيد، وكشف الله باطلهم، وأبان حقيقة أمرهم، وهي أنهم قوم يشكون في الآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب وحساب عسير. وهذا ما أوضحته الآيات الآتية:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ[1] ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ[2] ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ[3] مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٥٢-٥٤].

أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقف قريشاً على هذه الحجة الدامغة، الصادرة من أنفسهم، فقل أيها الرسول: أرأيتم أي أخبروني إن كان هذا الشرع من عند الله وبأمره، ثم خالفتموه أنتم، ألستم على هَلَكة من الله تعالى؟ فلا أحد أضل ممن يبقى على هذه الحال من الغرور من الله، ومجافاة الحق، والوقوف في جانب المخالفة والمشاقّة، والمعاداة البعيدة المدى. وإن كان هذا القرآن من عند الله حقاً، ثم كذبتم به، ولم تقبلوه، أفلا تكونون أعداء للحق والصواب؟ بل في الواقع لا أحد أضل منكم لشدة عداوتكم، وإمعانكم في الكفر والعناد، ومعاداة الحق وأهله. فيكون الضمير في قوله تعالى ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ عائداً على الشرع والقرآن.

---

(١) أي لا أحد أضل ممن يبقى في خلاف كبير معاد للحق، بعد بيان دواعي الإيمان. (٢) أي شاهد على ما يفعله الناس وغيرهم. (٣) أي في شك خطير.

ثم وعد الله تعالى نبيه ﷺ بأنه سيُري الكفار آياته، وهذا يدعو إلى التأمل والتفكر في تلك الآيات، إننا سنظهر لهم دلالات صدق القرآن، وعلامات كونه من عند الله، في أقطار السماوات والأرض والبلاد، وإبداع الأشياء، وفي خلق أنفس البشر، حتى يتضح الحق لكل ذي عينين.

وللمفسرين ثلاثة اتجاهات في إراءة آيات الله تعالى في الآفاق، فقال المنهال بن عمرو، والسّدّي وجماعة: هو وعد بما يفتحه الله تعالى على رسوله من الأقطار حول مكة، وفي غير ذلك من الأرض كخيبر ونحوها. ويكون قوله ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أراد به فتح مكة. قال ابن عطية: هذا التأويل أرجح التأويلات.

وقال قتادة والضحاك ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾: هو ما أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض. ويكون قوله ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يوم بدر.

وقال ابن زيد وعطاء: الآفاق: آفاق السماء، وأراد به الآيات في الشمس والقمر والرياح وغير ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: يراد به اعتبار الإنسان بجسمه وحواسّه، وغريب خلقته، ومراحل تكوينه في البطن ونحو ذلك.

وهذا المعنى الثالث: هو الظاهر لعمومه وانسجامه مع سياق الآيات، فيراد من إراءة الله تعالى آياته في الآفاق: إقناعهم بقدرته وعظمته، وإلزامهم بالحجة المحسوسة الملجمة لهم، ليتبين الحق، ويظهر لهم أن القرآن هو الحق القاطع. وقد أيدت وصدقت القرآن وإشاراته تلك النظرياتُ العلميةُ الصحيحة في المطر والسحاب، وغزو الفضاء، واكتشاف الكواكب وخزائن الأرض، وعجائب خلق الأجنة في الإناث، وغير ذلك من الآيات الدالة على كمال القدرة الإلهية، وتمام الحكمة، وعجائب مصنوعات الله، حتى يظهر أن دين الحق هو ما اشتمل عليه كتاب الحق: وهو القرآن العظيم.

وإذا لم يتأمل الناس ولا سيما العلماءُ بآفاق السماوات والأرض وأسرار الأنفس، كفى بالله شاهداً على أفعال عباده وأقوالهم، من الكفار وغيرهم، وكفى بالله شاهداً على صدق القرآن وأنه من عند الله.

ثم كشف الله تعالى سبب عناد المشركين: وهو أنهم في الواقع في شك خطير من أمر البعث والحساب، والثواب والعقاب، ولا قيمة لهذا الموقف المعادي، فإن الله تعالى أنذر وبشَّر، وأبلغ وأقنع، وأحاط علمه بجميع المعلومات، وشملت قدرته جميع المقدورات، والمخلوقات كلها تحت قدرته وفي قبضته، والأحداث جميعها في تصرفه وعلمه وتدبيره، فبإظهار الله تعالى شرعه ودينه في كل مكان، وفتح البلاد للنبي عليه الصلاة والسلام، يتبين لهم أنه الحق، وتُوِّج كل هذا بوعد الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أنه كافيه وناصره ومدبر أموره كلها، وفي هذا الوعد بإحاطة الله لكل شيء: وعيد للكفار أيضاً. وإحاطته تعالى: هي بالقدرة والسلطان، وقد تحقق الوعد والوعيد مع مرور الزمان.

تفسير سورة الشورى

القرآن وحي الله تعالى

الوحي الإلهي المنزل: له بداية ونهاية، بدأ بعد خلق آدم عليه السلام، حيث أوحى الله تعالى إليه الأحكام الضرورية للحياة البشرية الأولى، وانتهى الوحي بخاتم الأنبياء والمرسلين، حيث أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم ليكون شرعاً دائماً، ومنهاجاً محكماً، وطريقاً واجب الاتباع، إلى يوم القيامة. وقد دلت آيات القرآن الكريم في مناسبات متعددة، ولا سيما إذا افتتحت السور القرآنية بالأحرف الهجائية، على أن القرآن كلام الله ووحيه، ولم يُوحِ به سوى الله تعالى، وكلام الله نزل بلغة العرب، ومن مادة اللغة العربية وحروفها وأبجديتها. وهذا مطلع سورة الشورى المكية النزول بإجماع أكثر المفسرين، لإثبات مصدر القرآن، قال الله تعالى:

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ(١) يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ١-٦].

افتتحت هذه السورة بالحروف الأبجدية للتنبيه على ما يوحى فيها، ولتحدي العرب بالإتيان بمثل القرآن المتكون من الحروف العربية التي ينطقون بها ويكتبون،

(١) الكاف من قوله تعالى: (كذلك) نعت لمصدر محذوف، تقديره الإيحاء إليك كالإيحاء لمن قبلك .

فهل لهم أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل سورة منه؟ فعجزوا وذلك دليل إعجاز القرآن، وإعجازه دليل على أنه من عند الله وحده.

والوحي قديم، فمثل هذا الوحي المنزل عليك أيها الرسول، أوحى الله إلى سائر الأنبياء والرسل، من الصحف والكتب المنزلة، والذي يوحي: هو الله العزيز في ملكه، الغالب بقهره، الحكيم في صنعه، والموحى به متفق في الجوهر والغاية والمضمون. وهو الدعوة لتوحيد الله، وإثبات النبوة، والإيمان بالبعث واليوم الآخر، وما فيه من حساب وعقاب، وثواب وجزاء، والتخلق بمكارم الأخلاق، والبعد عن الرذائل. والله منزل الوحي: له جميع ما في السماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً، وهو العلي الأعلى المتعالي فوق خلقه، المتصف بالعظمة التي لا حدود لها، وبالكبرياء الذي لا يوصف. فقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي المُلْك والخلق والاختراع. و (العلي) من علو القدر والسلطان. وكذلك (العظيم) في معناه. وليس المقصود علو المسافة، ولا عُظم الشيء أو الجِرْم.

ومن دلائل عظمة الله: أن السماوات تكاد تتصدع وتتشقق من سرعة جريهن، خضوعاً وخشية من سلطان الله تعالى، وتعظيماً له وطاعة، والتصدع من الجهة الفوقانية، لقوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي من أعلاهن.

ومن آيات العظمة الإلهية: أن الملائكة الكرام يداومون على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ولا يجوز عليه، قارنين التسبيح (أي التنزيه) بالتحميد، وشكر النعم التي لا تحصى. ومن نعم الله تعالى: أن الملائكة يطلبون المغفرة لعباد الله المؤمنين، ومن أفضال الله: أنه سبحانه كثير المغفرة والرحمة، فهو يقبل استغفار الملائكة، لأنه قرن الرحمة بالمغفرة. وهذا كما في آية أخرى تدل على فضل الله وهي: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ

شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [المؤمن: ٤٠/ ٧] وقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي يقولون: سبحان الله و بحمده. وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ ليس على عمومه، وإنما معناها الخصوص في المؤمنين، فكأنه تعالى قال: ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين، بدليل قوله تعالى في آية (المؤمن): ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إذ الكفار عليهم لعنة الله تعالى والملائكة والناس أجمعين.

ثم توعد الله تعالى أهل الشرك والكفر محذراً لهم، ومؤنساً نبيه عليه الصلاة والسلام، مما يعانيه من إعراض قومه عن دعوته، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي إن الذين اتخذوا الأصنام والأوثان آلهة يعبدونها من دون الله، وأولياء يستنصرون بها من غير الله، الله هو الرقيب على أحوالهم وأعمالهم، والحفيظ عليهم كفرهم، المحصي لأعمالهم، المجازي لهم عليها بعذاب الآخرة، ولست أيها الرسول عليهم بوكيل يلي أمورهم، ولا يسأل عن هدايتهم، ولا يؤاخذ بذنوبهم، ولا يلازم أمرهم حتى يؤمنوا، إنما عليك التبليغ فقط، دون قسر أو إجبار على الإيمان. و (الوكيل) القيم على الأمر.

هذه الطائفة من الآيات، تضع حد المواجهة الساخنة بين الله تعالى صاحب العزة والملك والجبروت، وبين أهل الشرك وعبادة الأوثان.

مقاصد القرآن الكريم

دعا القرآن العظيم المُنْزَل بلسان عربي مبين، إلى وحدة الإله، فهو سبحانه إله واحد، لا يتعدد ولا يقبل التعدد، وإلى طاعة الله عز وجل، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، وإلى الإيمان بالله بطريق الاختيار لا بالجبر والإكراه، والله

قادر على جعل الناس قاطبة على دين واحد، ودعا أيضاً إلى وحدة الفكر والعمل والسلوك، فإذا وقع اختلاف، فمرده إلى الله وكتابه، وأرشد إلى التوكل على الله: خالق السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الخزائن والنعم من المطر والنبات وغيرهما، والرازق لمن يشاء، والمنعم بالحياة الزوجية، وبتسخير الأنعام المزدوجة لعباده، وليس كمثله شيء وهذا ما عبرت عنه الآيات الآتية:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ(١) ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ(٢) وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ(٣) لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ(٤) ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

[الشورى: ٤٢/٧-١٢].

هذه الآيات الكريمات منهاج للمجتمع الإسلامي، تتضمن وعيداً للكفار إذا أعرضوا عما أرسل الله به نبيه، وفيها رفع الحرج عن النبي إن لم يؤمنوا، فما عليه سوى التبليغ للوحي الإلهي فقط، وهذا المنهاج ليس جديداً في الرسالات الإلهية، فمثل الإيحاء إلى الأنبياء بلغات أقوامهم، أوحينا إليك قرآناً عربياً مبّيناً لهم، لتخوف به من عذاب الله، وتنذر أهل أم القرى، أي مكة ومن حولها من العرب وبقية الناس، وتنذر به الناس يوم الجمع، أي يوم القيامة الذي تجتمع فيه الخلائق، حيث

(١) أي نصراء وأعوان. (٢) أي خالق السماوات والأرض ومبدعهما لا على مثال سابق. (٣) يكثّركم، ويخلقكم نسلاً بعد نسل. (٤) أي مفاتيح، وهي هنا استعارة. لوقوع كل أمر تحت قدرته.

يجتمع فيه بنو آدم للعرض والحساب، ويجتمع أهل الأرض بأهل السماء، ذلك اليوم الذي لا شك في حدوثه في نفسه وذاته، ويصير الناس فيه فريقين: فريق في الجنة بسبب إيمانهم بربهم وبرسوله وبكتابه، ولإحسانهم أعمالهم في الدنيا، وفريق آخر في النار، لكفرهم بالله ورسوله وقرآنه.

ولو أراد الله تعالى لجعل الناس جميعاً أهل دين واحد، إما مهتدين، وإما ضالين، ولكنهم باختيارهم، اختلفوا على أديان متغايرة، فمن استقام وجاهد نفسه أدخله الله برحمته في جنته، ومن ظلم نفسه وعصى ربه، أدخله الله في النار. وأهل النار: هم الظالمون المشركون، الذين ليس لهم ولي ناصر يدفع عنهم العذاب، وينصرهم وينجيهم من بأس الله تعالى. وهذا يدل على أن الإيمان والكفر بمشيئة الله، ولكن يؤول اختيار الناس إلى أحد المصيرين: إما إلى الجنة وإما إلى النار. وقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ﴾ خبر مبتدأ مضمر أو محذوف، تقديره: هم فريق في الجنة، وفريق في السعير.

بل في الواقع اتخذ الكافرون آلهة يعبدونها من دون الله، من الأصنام والأوثان وغيرها، زاعمين أنهم أعوان لهم ونصراء، فإن أرادوا الناصر بحق، فالله هو المعين الناصر، لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه الخالق الرازق، والضارّ والنافع لمن أراد، و بحسب ما يعلم من استعداد كل إنسان لمراد معين، ولأنه هو القادر الذي يحيي الموتى، وهو التام القدرة على كل شيء. وهذا دليل على أن الله تعالى هو الذي تنفع ولايته، وأنه هو الذي يحيي الموتى ويحشرهم إلى الآخرة، ويبعثهم من قبورهم. وأنه صاحب القدرة المهيمنة على كل شيء.

ثم وجَّه الله تعالى إلى أن حل الخلافات بيد الله سبحانه، فما اختلفتم فيه أيها الناس من تكذيب وتصديق، وإيمان وكفر وغير ذلك، فالحكم فيه، والمجازاة عليه

ليست إلى النبي ﷺ ولا بيده، وإنما ذلك إلى الله تعالى، وذلكم الحاكم بهذا الحكم: هو الله الرب لكل الخلائق، يتوكل عليه النبي في جميع أموره، ولا يعتمد على غيره، ويرجع إليه وحده منيباً طائعاً.

وأسباب الإنابة إلى الله وحده لا غيره: أمور أهمها: أنه خالق السماوات والأرض ومبدعهما من العدم، وخالق الأزواج للرجال من جنسهم، ليسكنوا إليهم، ويتحقق التكاثر والتوالد، وخالق الأنعام جنسين ذكراً وأنثى، والله هو الذي يكون سبباً للتكاثر وبقاء النوع الإنساني، بخلق نسل بعد نسل، وليس لله تعالى شبيه ولا نظير، وهو تام السمع لأدق المسموعات ومختلف الأصوات وكامل البصر، يبصر الأشياء كلها صغيرها وكبيرها، ظاهرها وخفيها، وبيده مفاتيح الخزائن في السماوات والأرض، أي إن كل شيء يقع بقدرته، يوسّع الرزق لمن يشاء من خلقه، ويضيقه على من يشاء بحسب علمه وحكمته، وهو تام العلم بكل شيء يحدث في هذا الوجود، من إغناء وإفقار وغير ذلك.

وحدة الرسالات الإلهية

مهمة الأنبياء والرسل واحدة، قديماً وختماً بالرسالة المحمدية، وهي تنحصر في الدعوة إلى وحدة الله تعالى، وإقامة الدين والمحافظة عليه، وإطاعة الله، والإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر، ولكن يصعب أو يشق على المشركين ترك الوثنية والانضمام لمبدأ توحيد الإله، ولم يختلف جميع المدعوين إلى الإسلام من وثنيين وأهل كتاب من اليهود والنصارى إلا بعد إقامة الحجة عليهم، ولولا سبق القضاء الإلهي بتأخير العذاب عنهم، لعجلت لهم العقوبات في الدنيا، قال الله تعالى مبيناً هذا:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ

وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: ٤٢/١٣-١٤].

هذا خطاب توحيدي لجميع الأمم في الدين، فإن الله تعالى شرع وأبان لكم أيها المسلمون من المعتقدات وأصول التوحيد ما أمر به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى: أن حافظوا على الدين (وهو توحيد الله، وإطاعة رسله) ولا تختلفوا في شرائع الله، من الحلال والحرام، وإياكم من الوقوع في المهالك بتفرق الآراء والمذاهب. وهذا في أصول الاعتقاد وأصول الشرائع والأخلاق، فإنه لا خلاف فيها، أما الأحكام الفرعية فيمكن وقوع الخلاف فيها بين الشرائع، كما تبين في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨].

ثم أخبر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بصعوبة إقامة الدين ووحدته على المشركين بالله تعالى، العابدين للأصنام، قال قتادة: كبر على المشركين: لا إله إلا الله، وأبى الله تعالى إلا نصرها وإظهارها، أي شق على أهل الشرك الوثنيين القائلين بتعدد الآلهة هذه الدعوة إلى وحدة الدين، وهجر عبادة الأصنام والأوثان، وأنكروا مبدأ الوحدانية، واشتد عليهم مقولة: لا إله إلا الله وحده، وأبى الله إلا أن ينصرها، و يخذل ضدها.

والله يختار لتوحيده والدخول في دينه من يشاء من عباده، ويوفق لدينه وعبادته من يرجع إلى طاعته، ويقبل على عبادته، وينيب تائباً إلى ربه، ويثوب إلى رشده.

وهذا يدل على مزيد فضل الله على عباده المؤمنين: أنه هداهم لدينه، بعد أن أمرهم بالتمسك بمبدأ الدين الواحد الذي اتفقت عليه الرسل كلهم.

وسبب التفرق في الدين، ليس بسبب الدين ذاته، فإن أتباع الأديان لم يتفرقوا في اتباع الحق إلا بعد قيام الحجة عليهم، وبعد أن علموا أن الفرقة ضلالة، وبعد العلم الذي جاءهم: وهو ما كان حصل في نفوسهم من علم كتب الله تعالى، فبغى بعضهم على بعض حباً في الزعامة والرئاسة، وانحيازاً للعصبية وشدة الحمية، وحفاظاً على مراكز القوة والنفوذ والزعامة، والمكاسب المادية، وبغياً وحسداً، وليس بسبب الرسالات والحجج.

ولولا القضاء السابق من ربك بتأخير مجازاتهم إلى الآخرة لعجل لهم الله العقوبة في الدنيا، ولفصل بينهم في الدنيا، وغلب المحق على المبطل، وهؤلاء المتفرقون: هم كل مدعو إلى الإسلام من كفار العرب، واليهود والنصارى وغيرهم. أما العرب: فكانوا يتمنون بعثة نبي لهم، فلما أرسل الله تعالى لهم محمداً ﷺ كفروا به، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٢].

وأما أهل الكتاب: فعبرت آية أخرى أيضاً عن سبب تفرقهم وهي: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: ٩٨/ ٤].

وإن ورثة الكتاب الإلهي المعاصرين لمحمد ﷺ من اليهود والنصارى لفي شك موقع في الريبة والقلق من كتابهم، لأنهم لم يتبعوا الحق، وإنما قلّدوا رؤساء الدين، واتبعوا الأسلاف والآباء بلا دليل ولا حجة وبرهان، وهم في حيرة من أمرهم، فلم يؤمنوا برسالة خاتم النبيين، ووصف الشك بالمريب: مبالغة فيه.

هذه دعوة صريحة لأهل الأديان وغيرهم إلى وحدة الدين الإلهي، ونبذ الفرقة والخلاف، والالتقاء في مظلة واحدة تسعد البشرية جمعاء، وتنشر المحبة والود والإخاء في أنحاء الأرض قاطبة.

الأمر بالاستقامة على الدين الواحد

بعد أن أبان الله تعالى مبدأ وحدة الدين الحق، وأسباب البعد عنه، أمر الله نبيه بالدعوة إلى مبدأ التوحيد، ووحدة الرسالات الإلهية، فليس الدين ملكاً لأحد، وإنما واضع الدين هو الله جل جلاله، وقد ارتضى لعباده ما اتفقت عليه الرسل الكرام، بدءاً من آدم عليه السلام، إلى خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، مما يوجب الإيمان بما أنزل الله تعالى من الكتب كلها، لأنها مبشّرات بالخير والسعادة، قائمة على الحق والعدل والميزان، كما قال الله تعالى:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥].

ودعوة الإسلام على هذا النحو: فيها الخير للبشرية كلها، قال الله تعالى مبيناً أصول هذه الدعوة:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ(١) عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٥-١٩].

---

(١) أي زائلة باطلة .

في الآية الأولى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ وَٱسۡتَقِمۡ﴾ عشرة أوامر ونواهٍ، كل واحد منها مستقل بذاته، أولها أمران: ادع أيها الرسول إلى مبدأ وحدة الدين المتفق عليه، واستمر على هذه الدعوة، واستقم على عبادة الله، وتبليغ الرسالة، فهي شملت جميع الطاعات وتكاليف النبوة، هذا مع العلم بأن النبي بحسب قوته في تنفيذ أمر الله تعالى مطالب بتمام الاستقامة، وهذا ما دعاه أن يقول: «شيبتني هود وأخواتها» لأن فيها ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[١] [هود: ١١/ ١١٢] وأما أمته فقال لهم النبي بحسب ضعفهم: استقيموا ولن تحصوا.[٢]

ثم جاء النهي: وهو لا تتبع أيها الرسول أهواء المشركين فيما افتروه واخترعوه من عبادة الأصنام والأوثان، ووقعوا فيه من شكوك وتحريفات. ثم أمر الله نبيه أن يقول: صدَّقت بجميع الكتب المنزلة من السماء التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله، من التوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم وموسى وشيث.

وأمر الله نبيه أن يعلن أيضا بأن يعدل بين الناس مهما اختلفت أديانهم بالحق والعدل، في القضاء والحكم إذا ترافعوا إليه.

وأمره أيضا أن يقول: ليس الله إلها لشعب دون شعب أو قوم دون قوم، كما يعتقد اليهود بأن الإله هو إله بني إسرائيل، فالله المعبود بحق لا إله غيره، هو إله المسلمين وربهم، وإله غيرهم، وخالقهم وخالق الناس جميعا.

وأخبر الله تعالى أن ثواب أعمال المسلمين وعقابهم خاص بهم، لا يتحملها عنهم غيرهم، وكذلك ثواب أعمال غيرهم وعقابها خاص بهم، ويبرأ كل فريق من الآخر

(١) أخرجه الترمذي. (٢) أخرجه مالك وأحمد وابن ماجه والدارمي عن ثوبان، وقوله: ((ولن تحصوا)) مأخوذ من قوله تعالى ﴿علم أن لن تحصوه﴾ أي لن تطيقوا عده وضبطه .

وأعماله، كما جاء في آية أخرى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٥].

ومن مضمون الخبر أو الأمر: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا خصومة بين الفريقين، لأن الحق قد ظهر كالشمس، والخبر أو الأمر التاسع والعاشر: أن الله يجمع بين الجميع في المحشر يوم القيامة، فيقضي بينهم بالحق في خلافاتهم، فإليه مصير جميع الخلائق.

ثم أوضح الله تعالى بطلان حجة المجادلين في دين الله، وهم الذين يخاصمون في دين الله بعد استجابة الناس له، ودخولهم فيه، حجتهم زائلة باطلة عند ربهم، وعليهم غضب عظيم من الله لمجادلتهم بالباطل، ولهم عذاب شديد يوم القيامة.

نزلت آية ﴿وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى اللَّهِ﴾ حينما قال المشركون بمكة للمؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجاً، فاخرجوا من بين أظهرنا، فعلام تقيمون بين أظهرنا؟!

ثم رد الله تعالى على المجادلين: بأنه سبحانه هو الذي أنزل جميع الكتب السماوية على الرسل إنزالاً ملازماً للحق، مشتملاً عليه، مقترناً به، وأنزل مبدأ الميزان، أي العدل والتسوية والإنصاف، ليُحكَم به بين البشر، وسمي العدل ميزاناً، لأنه آلة الإنصاف والمعادلة، فليعمل كل واحد بقاعدة العدل، قبل الحساب، وما يعلمك أيها الرسول وكل مخاطب أن مجيء القيامة قريب الحصول، فيحاسَب كل امرئ على ما قدَّم.

لكن يتعجل المشركون غير المؤمنين بالقيامة بقدومها، استهزاءً وعناداً وتكذيباً، وأما المؤمنون فهم خائفون من وقوعها، ويعلمون أنها كائنة لا محالة، وأن وقوعها حق ثابت لا محيد عنه.

ألا تنبه أيها السامع بأن الذين يجادلون في مجيء القيامة، و يخاصمون في شأنها مخاصمة شك، لفي بُعْد وجهل ومتاهة عن الحق.

وما أروع ما جاء بعد هذه الآيات لفتح باب الأمل والرجاء والرحمة: وهو بيان أن الله كثير اللطف بعباده، ومن ألطافه أنه يرزق جميع عباده، بحسب مشيئته، لا فرق بين برّ وفاجر، ومن غير ضعف، ولكن الله عظيم القوة، باهر القدرة، يغلب كل شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

العمل للدنيا والآخرة

من أبرز خصائص الإسلام: أنه يحض أبناءه على العمل للدنيا والآخرة، وهذا دليل الوسطية والعدل والوعي. وأنه قضى على الوثنية في شبه جزيرة العرب، بسبب حملته الشديدة على المشركين، ووعيدهم بالعذاب، وإنذارهم به لولا تأخيره في الحكم الأزلي لإعطائهم الفرصة لإصلاح عقائدهم، وأدى ذلك إلى الحكم بإيقاع العذاب بالظالمين، ونجاة المؤمنين وتبشيرهم بجنان الخلد. وفي ثنايا الحملة على أهل الشرك رد قاطع على افترائهم بأن القرآن ليس من كلام الله تعالى، وترغيب لهم ولغيرهم بالمبادرة إلى التوبة والاستجابة لنداء الحق والإيمان، حتى يظفروا بمزيد فضل الله تعالى، ويتعرض الكافرون للعذاب الأليم. قال الله تعالى موضحاً هذه الخصائص:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ[1] نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ[2] لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى

(١) المراد به هنا ثواب الآخرة، وثمرات الأعمال الخالدة، وهذا استعارة حيث شبه ثمرة العمل بالغلال الحاصلة من البذور، وهو يتضمن تشبيه الأعمال بالبذور. (٢) أم: منقطعة بمعنى بل وألف الاستفهام.

الظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ فِي رَوْضَـٰتِ الْجَنَّـٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾[الشورى: ٤٢/ ٢٠-٢٦].

المعنى: من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الآخرة، نقويه ونغنيه، ونجزيه أحسن الجزاء، ومن كان يريد الحصول على شؤون الدنيا وطيباتها، وإهمال شؤون الآخرة، نعطه ما قضت به مشيئتنا، وليس له في الآخرة حظ. والمؤمن الصادق الواعي من يعمل للدنيا والآخرة، كما قال ابن عمر رضي الله عنهما: «احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». وقوله تعالى: ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ وعد منجز.

بل إن المشركين لهم أعوان من الشياطين، شرعوا لهم ما لم يشرعه الله، مثل تحريم بعض السوائم وتخصيصها للأصنام، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار ونحو ذلك من الضلالات.

ولولا القضاء الإلهي السابق بتأخير العذاب في هذه الأمة إلى يوم القيامة، لقضي بين المؤمنين والمشركين، وعجلت عقوبة المشركين، ولكن للظالمين المشركين العذاب المؤلم الشديد في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾[القمر: ٥٤/ ٤٦]. فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّـٰلِمِينَ﴾ استئناف كلام.

ثم ذكر الله تعالى وصف هذا الجزاء الأخروي، وهو أنك ترى بالعين المجردة

الكافرين المشركين خائفين مضطربين يوم القيامة، مما عملوا من السيئات في الدنيا، والجزاء واقع نازل بهم لا محالة، أما الذين صدقوا بالله ورسوله وعملوا صالح الأعمال منهم يتمتعون في روضات الجنان، لهم ما يشتهون عند ربهم، من ألوان النعم والملذات، وذلك هو الفضل الذي يفوق كل فضل في الدنيا. والروضات: المواضع البهية النَّضرة، وهي في الأغلب مرتفعة، وهي ممدوحة عند العرب. وكلمة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ العندية للتشريف والمكانة، لا المكان المادي أي الجوار المحسوس.

وهذا الجزاء للمؤمنين حتمي الوقوع، وهذا الجزاء هو الذي يبشر الله به عباده المؤمنين الذين يعملون صالح الأعمال، أي إن تلك البشارة لمن قرن أو جمع بين الإيمان والعمل بما أمر الله، وترك ما نهى عنه.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالترفع والسمو عن أعراض الدنيا، فيقول لقومه: لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جُعْلاً ولا مكافأة ولا نفعاً مادياً، إلا أن تودوني لقرابة بيني وبينكم، فتكفوا عني أذاكم. قال ابن عباس وغيره: لم يكن في قريش بطن إلا ولرسول الله ﷺ فيه نسب أو صهر. فالآية على هذا هي استعطاف ودفع أذى سلامة منهم(١).

قال قتادة: قال المشركون: لعل محمداً فيما يتعاطاه يطلب أجراً، فنزلت هذه الآية، ليحثهم على مودّته ومودّة أقربائه. والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به ابن عباس فيما رواه البخاري وهو: «إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة» لأن الآية مكية، ولم يكن بين علي وفاطمة زواج إلا بعد بَدْر، من السنة الثانية من الهجرة.

(١) قال مجاهد: إلا أن تصلوا رحمي باتباعي. وقال علي بن الحسن بن علي: المعنى إلا أن تودّوني فتراعوني في قرابتي وتحفظوني فيهم. جاء في حديث ذكره الثعلبي: ((من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ومن مات على بغضهم، لم يشم رائحة الجنة)).

ثم ذكر الله تعالى: ومن يعمل حسنة، نزد له فيها حسناً، أي أجراً وثواباً، وإن الله يغفر الكثير من السيئات، ويكثّر القليل من الحسنات، ويضاعف الثواب للمحسن.

بل أيقولون: افترى محمد على الله كذباً بادعاء النبوة ونزول القرآن، وهذا إفك مفترى، يرد الله عليه بأنك يا محمد لو افتريت على الله كذباً، لطبع على قلبك، فيمحو الله الباطل، ويثبِّت أو يحق الحق بكلماته ويؤيده. إنه سبحانه عليم بما تكنه الصدور من حديث النفس ووساوس القلب.

وللترغيب في الصلاح: أن الله يقبل من عباده التوبة عن الذنوب، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون من خير أو شر. ويستجيب الله للذين آمنوا، وأطاعوا ربهم، ويزيدهم من فضله ونعمته على ما طلبوه منه، وأما الذين كفروا بالله وبنعمته فلهم عذاب شديد مؤلم.

قسمة الأرزاق

لا تغيب العناية والرعاية الإلهية عن المخلوقات طرفة عين، فالله تعالى يقسم الأرزاق بحسب علمه وحكمته، وبتصريف قدرته، فينزل الغيث وينشر رحمته، ويرسل الرياح فتسوق السحب إلى مواضع نزول القطر، ويبث الدواب البرية والبحرية والجوية في أنحاء السماوات والأرض، ويسيِّر الفلك أو البواخر بمشيئته وتوفيقه، ويعلم المجادلين في آيات الله، علماً بأن متاع الدنيا فانٍ، والآخرة خير وأبقى، فلا يغتر أحد بالدنيا، وإنما يعمل بما يسعده في الآخرة، مفوِّضاً أمر النتائج لله عز وجل، وهذه سنة الله في مدده وعطائه، كما تصورها هذه الآيات الشريفة:

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ
﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم
بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ
كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ
﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ
﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
﴿٣٦﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٧-٣٦].

نزلت آية ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ﴾ فيما أخرجه الحاكم وصححه عن علي: في أصحاب الصُّفَّة، وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا، فتمنوا الدنيا والغنى، وقال خبّاب ابن الأرتّ: فينا نزلت هذه الآية -أي في أهل الصفة- وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع، فتمنيناها.

المعنى: لو وسّع الله الرزق على عباده، ومنحهم فوق حاجتهم، لحملهم ذلك على البغي والطغيان، وعصوا في الأرض، كما حدث من قارون وفرعون، ولكنه تعالى ينزّل الرزق لعباده بتقدير معين، على حسب مشيئته، وبمقتضى حكمته، إنه سبحانه خبير بأحوال عباده، بصير بما يصلحهم من توسيع الرزق وتضييقه.

هذا إعلام من الله تعالى: أنه لو جاء الرزق على اختيار البشر واقتراحهم، لكان سبب بغيهم وفسادهم، ولكنه عز وجل أعلم بالمصلحة في لكل إنسان، وله بعبيده خبرة وبَصَر بأخلاقهم ومصالحهم، فرب إنسان لا يصلح إلا بالفقر، وآخر بالغنى.

والغيث سبب الرزق، فينزل الله المطر بعد يأس الناس في وقت حاجتهم إليه، وينشر رحمته، أي المطر على الأراضي، وهو المتولي أمور أو شؤون عباده بالإحسان إليهم، وجلب النفع لهم، ودفع الشر عنهم، وهو المحمود على نعمه الكثيرة.

وكل ذلك يتم بمعيار دقيق من الإله الحكيم القدير، ومن دلائل عظمة الله وقدرته وسلطانه: خَلْق السماوات والأرض على هذا النحو البديع، وما نشر وفرّق في السماوات والأرض من الدواب المتحركة، ويشمل ذلك الملائكة والإنس والجن، وسائر أنواع الحيوان، والله تام القدرة على جمعهم في صعيد واحد، وحشرهم يوم القيامة.

وقد يحتجب الرزق بسبب المعاصي، وما أصابكم أيها الناس من المصائب، كالآلام والأسقام، والقحط والغرق، والصواعق والزلازل ونحوها، فإنما هي بسبب سيئات اقترفتموها، ومعاص ارتكبتموها، فهي عقوبات الذنوب وكفاراتها في الدنيا، ويعفو الله عن كثير من المعاصي، فلا يعاقب عليها.

جاء في الحديث الذي أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وغيرهما عن الحسن البصري: «لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو عنه أكثر».

ولستم أنتم أيها المذنبون الكافرون بمعجزين الله حيثما كنتم، ولا تتمكنون من الإفلات من العقاب، فبنو آدم عجزة قاصرون ضعفاء، وهم في قبضة القدرة الإلهية، ولا يمكنهم الفرار من طلب ربهم.

ومن آيات قدرة الله وسلطانه: إجراء السفن السائرة في البحار كالجبال، سواء أكانت شراعية أم بخارية أم كهربائية أم ذرية، وإن يرد الله إيقاف السفن الجارية، يجعل الرياح ساكنة، والطاقة متعطلة، فتصبح السفن ثوابت رواكد على ظهر البحر، لا تسير ولا تتحرك، إن في أمر إجراء السفن في أعالي الموج والماء لدلالة عظيمة على قدرته تعالى، لمن كان كثير الصبر على الشدائد وعلى طاعة الله، كثير الشكر على النعمة. وإن يشأ الله يهلك أو يتلف السفن بالغرق بما كسب ركابها من البشر، أي

بذنوب البشر، ويعف عن كثير من ذنوبهم، أو عن كثير منهم، فينجيهم من الغرق، ويعلم الله الذين ينازعون في آيات الله، ويكذبونها، ولا يتمكن أحد من الفرار أو المهرب أو النجاة من عذاب الله.

وما أروع ما عقب الله تعالى على هذه الآيات: وهو التحذير من الاغترار في الدنيا، فما أعطيتم من الغنى والسعة في الرزق والجاه والسلطان، فإنما هو متاع قليل في الدنيا، وما عند الله من ثواب الطاعة ونعيم الجنة خير من متاع الدنيا، وأبقى وأدوم، لأنه لا ينقطع ولا ينقص، أما متاع الدنيا: فهو ينقطع أو ينقص بسرعة، وبقاؤه لأهل الإيمان الصحيح بالله ورسوله، وعلى ربهم يعتمدون في كل شؤونهم.

قال علي رضي الله عنه: تصدّق أبو بكر رضي الله عنه بماله كله، فلامه جمع، فنزلت الآية: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ..﴾ جاء في الحديث أنه أنفق ثمانين ألفاً.

صفات أهل الجنة

لم يترك القرآن الكريم شيئاً إلا أوضحه وأعلنه، فذكر صفات أهل النار وأسباب استحقاقهم للعذاب، وذكر صفات أهل الجنة وما أهّلهم للنعيم والثواب، وهذه الصفات الطيبة: هي الإيمان بالله إلهاً واحداً، والتوكل عليه بعد اتخاذ الأسباب، واجتناب الكبائر من الذنوب والعفو عند المقدرة، وإطاعة الله وترك نواهيه، وإقامُ الصلاة، وإيتاء الزكاة، والتشاور في الأمور كلها، والشجاعة والقوة في استرداد الحقوق المغتصبة، وقد نصت الآيات الكريمة الآتية على هذه الصفات، لضرورة الاتصاف بها، قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ

﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٧-٤٣].

نزلت آية ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ﴾ في عمر حين شُتم بمكة. وقيل: في أبي بكر حين لامه الناس على إنفاق ماله، وحين شُتم فحلُم.

وصف الله تعالى أهل الجنة بالإيمان بالله وبالتوكل على الله، وبالصفات السبع الآتية:

- إنهم هم الذين يتجنبون الوقوع في كبائر الذنوب التي أوعد الله عليها وعيداً شديداً، كالشرك والقتل العمد وعقوق الوالدين، ويتجنبون أيضاً الفواحش: وهي كل ما استقبحه الشرع والعقل السليم، كالغيبة والكذب، والزنا والسرقة والمحاربة (قطع الطريق).

- وهم عند الغضب يكظمون الغيظ، ويحلمون على الظالم، ويعفون عن إساءته، لأن الحلم سيد الأخلاق، والعفو والصفح سمة العظماء، وهذا حض على كسر الغضب، والتدرب على إطفائه، إذ هو جمرة من جهنم.

- وهم الذين يستجيبون إلى ما دعاهم إليه ربهم، ويطيعونه فيما أمر به من توحيد الله، ونبذ الشرك، وإطاعة الرسول فيما أمر به وزجر عنه، وهذا مدح لكل من آمن بالله تعالى وقبل شرعه.

نزلت هذه الآية في الأنصار، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان، فاستجابوا وأقاموا الصلاة.

-ويؤدون الصلاة المفروضة في أوقاتها بنحو تام الأركان والشروط، و بخشوع لله وقلب صافٍ مرتبط بالله، والصلاة عماد الدين وأعظم العبادات.

- ويتشاورون فيما بينهم في الأمور الخاصة والعامة، كشؤون الحكم والولاية وإعلان الحرب، وتولية الولاة والقضاة والموظفين وغير ذلك من الشؤون العامة والخاصة.

- وينفقون في سبيل الله وطاعته بعض ما رزقهم الله من أموال وخيرات، لأن الإنفاق قوة للأمة، وعلاج للضعف، وسبيل لإعزاز الأمة، وتحقيق التكافل المطلوب بين الأغنياء والفقراء.

- وهم شجعان أشداء، فإذا تعرضوا للظلم والاعتداء، انتصروا ممن ظلمهم، واستردوا حقوقهم السليبة، وإذا قدروا عفوا، وهذا مدح لمن انتصر على البغي.

ورد الظلم مشروط بتحقيق المماثلة دون تجاوز، فيكون عقاب السيئة مماثلاً لأصل الجناية، والمساواة مطلوبة بين الجريمة والعقوبة، ومن عفا عن الظالم المسيء، وأصلح بالود والعفو ما بينه وبين من عاداه، فثوابه على الله، إن الله يعاقب المبتدئين بالظلم، المتجاوزين حدودهم، وسمي جزاء السيئة سيئة، مع أن المجازاة من الله تعالى ليست سيئة، تسمية للشيء باسم ما يوجبه ويسببه.

ثم أكد الله تعالى على مشروعية دفع الظلم أو البغي، في الآية: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ اللام في (لمن) لام القسم، أي جواب قسم محذوف.

أي تالله إن المنتصر من الظالم بعد ظلمه له، لا سبيل عليه بمؤاخذة أو عقاب، لأن الانتصار بحق، كأن يشرع القصاص في الجنايات العمدية، أو تُضْمَن جنايات الخطأ والإتلافات، ويجوز الشتم والسب معاملة بالمثل، دون اعتداء ولا تجاوز، وهذا في معنى آية أخرى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:

١٤٨/٤] لكن من أتلف مال إنسان لا تجوز مقابلته بالإتلاف، وإنما يطلب الضمان أو التعويض عن الضرر.

نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾ في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد شتمه بعض الأنصار، فرد عليه، ثم أمسك.

وإنما المؤاخذة والعقاب على الذين يبدؤون الناس بالظلم، أو يتعدّون مبدأ المماثلة، ويتجاوزون الحد في الانتقام، ويجنون على النفوس والأموال بغير حق، ويتكبرون بظلم الناس وسلب الحقوق. ويضعون الأشياء في غير مواضعها، من القتل وأخذ المال وإيذاء اليد واللسان، وأولئك البادئون بالظلم أو المتجاوزون الحدود، لهم عذاب مؤلم شديد بسبب اعتدائهم، وهذا توعد بالعذاب في الآخرة. والبغي بغير الحق في الآية: هو نوع من أنواع الظلم، خصه الله بالذكر تنبيهاً على شدته وسوء حال صاحبه.

ثم أكد الله تعالى الترغيب في العفو بالقسم في قوله:﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ أي تالله، إن من صبر على الأذى، وستر السيئة، وغفر خطأ من ظلمه، فذلك الصبر والعفو، لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة، التي يثاب عليها بالثواب الجزيل والثناء الجميل، لمنع الاسترسال وراء الغضب وحب الانتقام، فقوله تعالى:﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي محكمها ومُتقَنها والحميد العاقبة منها، وهذا دليل على قوة الإرادة وتماسك الشخصية.

سوء حال الكفار في الآخرة

لا شيء أصعب على النفس من الاصطدام أمام الواقع، والمفاجأة بنوع العقاب الذي كان يُظَن أنه مجرد تهديد ووعيد، وحينئذ تكون الأحوال شديدة وصعبة، فترى

الكافرين في الآخرة يتمنون الرجوع إلى الدنيا، فيُحتقر شأنهم، ولا يبالي بهم أحد من المؤمنين، ويقفون أمام النار ذليلين خائفين، ويلمسون الخسارة المحققة في الأنفس والأهل، ولا أمل لهم في النجاة، فلا يجدون أنصاراً يخلصونهم من العذاب، ومن أضله الله بسبب ما اكتسب واختار من الإثم، فلا سبيل لنجاته. وهذه آيات كريمة تصور لنا هذا الموقف المخزي:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٤-٤٦].

هذا تبيان حال الكفرة الذين اختاروا الكفر على الإيمان ومالوا إليه، فأضلهم الله تعالى، وتركهم يتيهون في وهاد الضلال، لفقد استعدادهم للإيمان، ومن يضله الله، فماله من أحد يتولى هدايته ونصره، أو إنقاذه إلى طريق الهدى والرشاد. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بيان أنه لا يقع شيء في الكون، من الهدى والضلال وغيرهما إلا بإرادة الله ومشيئته، حتى لا يوصف بالعجز. وليس في هذا القول إجبار على الضلال، وإنما بيان من علم الله أنه يختار الضلال، فيزيده الله ضلالاً.

وأحوال هؤلاء الضالين الظالمين في الآخرة معقدة وشائكة وأهمها ستة:

- ترى: الرؤية هنا رؤية عين، أي تبصر أيها الإنسان المشركين الكافرين بالله، المكذبين بالبعث، حين نظروا إلى النار، وعاينوا العذاب، يتمنون الرجوع إلى الدنيا، من أي طريق. وهذه المقالة المعبرة عن بحثهم عن سبيل النجاة: تدل على سوء ما اطلعوا عليه. والمَرَدّ: موضع الرد إلى الدنيا، قاصدين بذلك استدراك العمل والإيمان.

- وتبصرهم أيضاً يُعْرضون على النار، وهم خائفون أذلاء، يسارقون النظر إليها من شدة الخوف، فقوله تعالى: ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي قليل، والطرف هنا مصدر، أي يطرف طرفاً خفياً.

- وقال أهل الإيمان يوم القيامة حين رأوا الكافرين على هذه الحال: إن أهل الخسارة الكبرى: هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، بدخول النار، والخلود فيها، خسروا أنفسهم بصيرورتهم معذبين في النار، وخسروا أهليهم لأنهم تسببوا في تعذيبهم.

- ألا إن الكافرين في عذاب دائم لا ينتهي، ولا يخرجون منه. وهذا إما من قول المؤمنين، حكاه الله تعالى، أو استئنافٌ من قول الله تعالى، وإخبارٌ لمحمد ﷺ بما يؤول إليه مصير الضالين المكذبين.

- وليس للظالمين أعوان وأنصار من غير الله، ينقذونهم مما هم فيه من العذاب.

ثم أكد الله تعالى اليأس من نجاتهم بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ والمعنى: ليس للكافرين أعوان وأنصار من غير الله، ينقذونهم مما هم فيه من العذاب، وهذا إنحاء على الأصنام والأوثان التي أظهر الكفار ولايتها، واعتقدوا ذلك ديناً، والمراد: فمالهم يُوالون هذه التي لا تضر ولا تنفع، ولكن من يُضْلل الله فماله من سبيل هدى ونجاة، أي من يحجب الله عنه توفيقه إلى الإيمان، بسبب علم الله السابق بما سيختاره ويقترفه من الآثام، فلا طريق له إلى النجاة والجنة. ولا غرابة في وقوع تلك الظواهر، لأنهم قوم ضالون منحرفون عن سبيل الإيمان والحق.

هذا وصف دقيق لسوء أحوال الظالمين الكافرين الذين اختاروا الشرك والوثنية: قلق وحيرة، وحسرة وندامة، والتماس طريق النجاة باقتراح العودة إلى الدنيا، ويتملكهم الخوف والذعر الشديد، ويلحقهم الذل والهوان والتحقير، ويبحثون عن

النصراء والأعوان لإنقاذهم من عذاب الله فلا يسعفهم أحد، إذ إنه ليس للأصنام المعبودة، ولا لبعض المتألهين، أي شفاعة أو مجال ينفعون به غيرهم، لأن الأمر كله بيد الله، وتخيب المساعي كلها في الإنقاذ، لأن عالم الآخرة عالم الحساب، والقضاء، وتنفيذ الأحكام، ولا يقبل من أحد العذر أو التأسف أو الندم، فقد كان مجال هذا في الدنيا، فهي دار التكليف والاختبار، أما الآخرة: فهي دار القرار النهائي، ومقر إصدار الأحكام الإلهية، وتنفيذها من غير اعتراض ولا أمل في نقض حكم أو تغيير قضاء.

الاستجابة لأمر الله تعالى

وجَّه الله تعالى في قرآنه الناس جميعاً إلى المبادرة للإيمان، والإجابة لما يحيي القلوب، ويضيء النفوس، وينقذ الإنسان من عواقب الهلاك والشر، وأسلوبُ التوجيه متعدد، ومتنوعٌ، بالترغيب مرة، والترهيب مرة أخرى، والإطماع بجنان الخلد، والتحذير من أهوال القيامة والحساب الشديد، وبيان تقلب النفس، تفرح عند الرحمة الإلهية، وتجحد النعمة عند التعرض لمصيبة، وإدراك أن ملك السماوات والأرض بيد الله وحده، يهب الذرية للإنسان بحسب مشيئته وعلمه وحكمته، وقد يمنعها عنه، مع أن الله قدير على كل شيء، وهذه الآيات تبين مدى إجابة الإنسان لدعوة الله:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟[١] لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ[٢] يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ[٣] ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا

(١) أي أجيبوا. (٢) أي منجى ينجيكم. (٣) أي إنكار لذنوبكم يومئذ.

ٱلْبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٢/٤٧-٥٠].

يأمرنا الله تعالى بالاستجابة لدعوة الله تعالى وشريعته، والمبادرة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، من قبل مجيء يوم يكون كلمح البصر، لا ملجأ ولا منجى لأحد فيه، ولا يُرَدّ أحد بعده إلى عمل، إنه يوم القيامة، يحذرنا الله تعالى من أهواله ومفاجآته، حيث لا يفيد الإنسان شيء إلا العمل الصالح في الدنيا، ولا إنكار ما ينزل بالناس من عذاب. والنكير: مصدر بمعنى الإنكار، لا بمعنى المنكِر اسم فاعل من فعل «نكِر»، لأن المعنى يصبح بعيداً، لأن (نكِر) إنما معناه لم يميِّز وظن الأمر على غير ما عَهِدَ. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: ٧٥/١٠-١٢].

فإن أعرض المشركون عن إجابة دعوة الله ورسوله، فما أرسلناك أيها الرسول موكلاً بهم، رقيباً عليهم، تحفظ أعمالهم وتحصيها، حتى تحاسبهم عليها، فليس عليك إلا تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وإيصال الحجة.

إلا أن القوم المشركين عتاة أشداء مضطربون، إذا منحهم الله رحمة أو نعمة، وأمدهم بأمن وخير، ووفرة رزق، فرحوا بها واستبشروا، وإن أصابتهم سيئة كجدب أو نقمة، ومرض أو فقر، لاقترافهم المعاصي والذنوب، فإن الإنسان جحود للنعمة، متنكر للمعروف، فإن أصابته نعمة تكبر، وإن تعرّض لمحنة أو مصيبة يئس وأعرض. والكفور: المبالغ في كفران النِّعم.

ثم أخبر الله تعالى عن أدلة قدرته، فهو مالك السماوات والأرض والمتصرف

فيهما بما يريد، وملكه محيط بالْخَلْق، ومشيئته نافذة في جميع المخلوقات، وفي كل أمورهم، فإن الله تعالى وحده يخلق ما يشاء، ويمنع من يشاء، يهب من يشاء البنات فقط، ويرزق من يشاء البنين فقط، ويعطي من يشاء الصنفين معاً ذكوراً وإناثاً، فالتزويج هنا بمعنى الجمع بين البنين والبنات، ويجعل من يشاء عقيماً لا يولد له، لأن الملك ملكه، يتصرف في شؤون خلقه على وفق العلم الشامل، والحكمة الدقيقة، والمصلحة الحقيقية، فإنه سبحانه عليم بمن يستحق كل صنف من أصناف الأولاد، تامُّ القدرة على منح ما يريد أو منع ما يشاء. فقوله تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ معناه أن يجعل في بطن زوجاً من الذرية ذكراً وأنثى. والعقيم: الذي لا يولد له.

وإنما بدأ الله تعالى بذكر الإناث تأنيساً بهن وتشريفاً لهن، وحملاً على العناية بهن، والإحسان إليهن، قال النبي عليه الصلاة والسلام -فيما أخرج البخاري ومسلم والترمذي وأحمد: «من ابتلي من هذه البنات بشيء، فأحسن إليهن كن له حجاباً من النار» . وقال واثلة بن الأسقع فيما حكاه الثعلبي عنه: «من يُمْن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذَّكر؛ لأن الله تعالى بدأ بالإناث». وقال إسحاق بن بشر: نزلت هذه الآية في الأنبياء عليهم السلام، ثم عُمِّمت، فلوط عليه السلام أبو بنات، لم يولد له ذكر، وإبراهيم عليه السلام عكسه، لم يولد له إلا الذكور، ومحمد عليه الصلاة والسلام وُلد له الصنفان، ويحيى بن زكريا عليهما السلام عقيم.

وهذا التوزيع الإلهي في رزق الأولاد، كقسمة الأرزاق بين العباد، نابع من الحكمة الإلهية لخير الإنسان، أو لما يعلم له من أحوال تناسبه أو لمصالح بعيدة المدى.

أنواع الوحي

الوحي الإلهي حقيقة واقعة لا ينكرها إلا كل جاحد منكر للدِّين، وهو فضل من الله تعالى ونعمة، من أجل خير الإنسان ونفعه، وهو واحد وأمر مشترك بين جميع الأنبياء والرسل، ولولا الوحي لضل البشر وبقوا تائهين، تتحكم فيهم الأهواء والشهوات، وتستبد بهم المطامع والمصالح الذاتية، فكان من رحمة الله تعالى أن يجمع الناس على منهج واحد وصراط مستقيم، وذلك بالوحي المنزل على الرسل، سواء ما كان منه مكتوباً أو بالمعنى، وهذه آيات تدل على أنواع الوحي وأغراضه:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا[1] أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا[2] مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥١-٥٣].

سبب نزول الآية الأولى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً، كما كلّمه موسى؟ فنزلت، وقال: لم ينظر موسى إلى الله تعالى.

المعنى: لا يكون لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا ينبغي له، ولا يمكن فيه أن يكلمه الله تبارك وتعالى إلا بأن يوحي إليه بأحد أنواع الوحي: إما أن يكون وحياً مباشراً: وهو الإلهام والإلقاء في القلب يقظة أو في المنام، كرؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام ذبح ولده.

---

(١) الوحي: إلقاء شيء في القلب، يتيقن أنه من عند الله. (٢) الروح يراد به هنا القرآن.

وإما بأن يكون بسماع كلام من وراء ستار أو حجاب، أي من خفاء عن المكلِّم، لا يستطيع تحديده أو تصوره بذهنه، ومن غير واسطة، متيقناً أنه كلام الله من حيث لا يُرى، كما كلم الله موسى عليه السلام من وراء الشجرة المباركة، وكان موسى قد طلب رؤية الله بعد التكليم، فحجب عنها. وإما بأن يكون بوساطة إرسال رسول من الملائكة إما جبريل أو غيره، فيوحي ذلك الملَك إلى الرسول من البشر بأمر الله وتيسيره ما يشاء أن يوحي إليه، وهذا دليل على أن الرسالة من أنواع التكليم.

ثم أوضح الله تعالى تشابه الوحي بين النبي محمد وبين من تقدمه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو أنه مثلما أوحينا إلى سائر الأنبياء. أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن الذي هو من أمر الله عز وجل، وهو بمثابة الروح حياة للأنفس وإنارتها بعد ظلامها وجهالتها، ومبدأ للحضارة والعلم والتقدم، والحد الفاصل بين عهدين: عهد الأمية والجهالة والفوضى، وعهد العلم والمعرفة والنظام، فالروح في هذه الآية: هو القرآن الكريم وهدى الشريعة، سمّاه الله روحاً، لأنه يحيي به البشر والعالم، كما يحيي الجسد بالروح، فهذا على جهة التشبيه. وقوله: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أي واحد من أمورنا أو كلامنا.

وإنزال القرآن على قلب النبي ﷺ دليل على مقدار النعمة، فأنت أيها النبي رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تكن قبل القرآن المنزل عليك تعرف ما القرآن، وما معنى الإيمان، ولا تفاصيل الشرائع، ولكن جعلنا هذا القرآن الذي أوحيناه إليك ضياء ونوراً، نهدي به من نشاء هدايته، أي نرشد، لأنه النور الذي يهتدي به الناس في ظلمات الحياة، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩]. والضمير في جعلناه: عائد على القرآن.

وإنك أيها الرسول لترشد الناس إلى طريق مستقيم، ومنهاج قويم، فقوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني صراطَ شرع الله تعالى ورحمتَه، وطريقَ الله الذي له ملك السماوات والأرض، وربُّهما المتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقِّب لحكمه، والأمور كلها صائرة على الدوام إلى الله تعالى، وليس لأحد غيره، فيحكم بقضائه العدل. وهذا وعد للمتقين، ووعيد للظالمين، وتقريع لمن في ذهنه أن شيئاً من الأمور إلى البشر. قال سهل بن أبي الجعد: احترق مصحف، فلم يبق منه إلا قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

لقد اقترنت جهود النبي ﷺ بنور القرآن وهدايته، وكان هذا الرسول يدعو إلى الخير، ومناصرة الحق، ويستمسك بالقرآن المجيد، ويدعو إلى السداد والطمأنينة، والاعتدال والوسطية وإقامة المجتمع الفاضل، ولا يزال هذا النبي منصوراً بأمر الله. والمقصود هو الإرشاد إلى دين قويم، لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام الذي به ختمت النبوات، وانتهت به الرسالات.

تفسير سورة الزخرف

عربية القرآن وموقف قريش منه

لم يدع الحق سبحانه وتعالى عائقاً أمام العرب لإيمانهم بالقرآن ونبوة محمد ﷺ، فجعل القرآن بلسانهم العربي، وأخبرهم بأنه من كلام الله تعالى ومن عنده، لا من عند محمد عليه السلام، ولم يتركهم الله من دون إنذار أو تذكير، ولو كانوا مسرفين في الملذات والإنكار والتكذيب، عاكفين على الشرك، وحذرهم من تكذيب النبي ﷺ، كما فعل الذين من قبلهم، وظلوا مستهزئين بنبيهم ومكذبين له، فأهلكهم الله تعالى ودمّرهم، فعليهم أن يعتبروا بما حدث لأمثالهم، وهذا ما تضمنته الآيات الآتية في مطلع سورة الزخرف المكية بالإجماع:

﴿حمٓ (١) وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ[١] لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ (٥) وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٧) فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ[٢] (٨)﴾ [الزخرف: ٤٣/ ١-٨].

افتتحت السورة بالأحرف الهجائية: (حم) للتنبيه على خطر ما يأتي في هذه السورة، ولتحدي العرب بالإتيان افتراء بمثل أقصر سورة من القرآن ذات الموضوع الواحد، لأنه بلغتهم ومن أصول مادة كلامهم. لذا كان الغالبُ بعد هذه الأحرف

(١) أي اللوح المحفوظ . (٢) أي صفتهم العجيبة التي تشبه المثل في الغرابة.

الكلامَ عن القرآن، وقد أقسم الله تعالى بالقرآن البيِّن الواضح، الجلي المعاني، الذي أبان طريق الهدى والنور.

فكلمة (المبين) إما من (أبان) أي ظهر، فلا يحتاج إلى مفعول، وإما من (بان) وهذا يحتاج إلى مفعول تقديره: المبين الهدى والشرع ونحوه.

ومن أجل إفهام العرب وتدبر معانيه، جعلناه منزلاً بلسان عربي فصيح واضح، لتتعقلوا آياته، فلا يعسر فهمها وإدراكها، والتعرف على أسرارها وإعجازها، وجعلناه بلسانكم لئلا يبقى لكم عذر، وهذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فهو ترجّ بحسب معتقد البشر، فمن تدبَّر الآيات يرجى منه أن يعقل ويفهم الكلام. وأم الكتاب: اللوح المحفوظ، فإنه أصل جميع الكتب السماوية، وفي هذا تشريف للقرآن وترفيع.

وإن هذا القرآن عند الله رفيع القدر، عالي الشأن في البلاغة والإرشاد وغير ذلك، ومحكم النظم، لا لَبْس فيه، ولا اختلاف أو تناقض، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٨]. وآية: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٨٢].

وهل نترككم أيها العرب وغيركم من غير تذكير، ولا وعظ، ولا أمر ولا نهي، لأنكم مسرفون في الإنكار والتكذيب؟ أو أنهملكم ونبعد الذكر عنكم، ونمسك عن إنزال القرآن لكم، لأنكم تجاوزتم الحدود المعقولة في أعمالكم؟ وقوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ صفحاً: مصدر، مفعول مطلق لنضرب من غير لفظه، مثل: قعدت جلوساً.

ولا تعجب أيها الرسول من إعراض قومك عن رسالتك، فهذه سيرة الأولين الغابرين، فإنه لم يأتهم نبي ولا رسول إلا كانوا به يكذبون ويسخرون، كتكذيب قومك واستهزائهم بك. وقوله: ﴿كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ظاهرة العموم، والمراد به الخصوص، فيمن استهزؤوا، وإلا فقد كان في الأولين: من لم يستهزئ. والآية وعيد لهم وتهديد بأن يصيبهم ما أصاب أشد منهم بطشاً.

لقد أهلكنا قوماً هم أشد قوة من هؤلاء القوم المكذبين لك أيها النبي، وقد سبق إيراد مواقفهم أكثر من مرة، وعرفت سنة الله فيهم. فعليهم أن ينظروا في مصائر المتقدمين، ليحذروا الوقوع في مثل مصائرهم. وكلمة ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ معناها: سنة أو سيرة أو عقوبة المتقدمين، والمعنى: سلَف أمرهم وسنتهم، وصاروا عبرة للأمم. والأولون: هم الأمم الماضية كقوم نوح، وعاد وثمود وغيرهم. والمراد: أننا جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين: أن يصيبهم مثل ما أصابهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥٦].

هذه حملة مركزة على قريش وأمثالهم، حيث لا عذر لهم في ترك إجابة دعوة النبي ﷺ، فقد وضحت أمامهم السُّبُل، وكثر تذكيرهم، وتجاوزوا الحدود في الإسراف والعصيان، وضُربت لهم الأمثال، وجعلت أمامهم العبر والمواعظ، فلم يبق عندهم عذر في معارضة دعوة الإسلام، فلَيْتهم بادروا إلى الإيمان بالله وحده، وترك الاستهزاء، وإذا لم يتعظوا وأصروا على الكفر والتكذيب، استحقوا إنزال العذاب وألوان الخزي والهوان، كما نزل بمن قبلهم من ألوان العقاب والإهلاك والتدمير بسبب كفرهم وتكذيبهم رسولهم، والعاقل: من اتعظ بغيرهم، وأقلع عن المعصية إذا شاهد عقوبة العصاة.

من عجائب الصنع الإلهي

ما أحلم الله تعالى على عباده، وما أصبره على مخلوقاته، يخلقهم ويرزقهم ويُنعم عليهم، ومع ذلك يكفرون به، ويجحدون بوحدانيته، فيتنزل لمستواهم الفكري، ويقيم لهم الأدلة والبراهين الكثيرة على عظمة ذاته وقدرته، ومن أهمها إبداع مصنوعاته وعجائب مخلوقاته، وكثرةُ نعمه وآلائه، وإذا افتقر الإنسان أو أصيب بمصاب، لم يجد غير الله ملجأ، ولا سواه ملاذاً، فيفرِّج كربته، ويكشف أزمته أو محنته، وهذه ثمانية أدلة على وجود الله وتوحيده، مما يلمسه كل إنسان. ويحسّ به من مشاهدات الكون:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا[١] بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ[٢] وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ[٣] ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ[٤] ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٩-١٤].

هذه أوصاف أفعال الله تعالى، وهي نِعَم منه سبحانه على البشر، تقوم بها الحجة القاطعة على كل كافر مشرك بالله تعالى، وهي هنا ثماني صفات:

١-٣- تالله لئن سألت أيها الرسول المشركين بالله: من الذي خلق السماوات والأرض؟ لأجابوا بأن الخالق لهما هو الله وحده لا شريك له، وأن الله هو القوي الغالب مما يدل على كمال قدرته، وأنه الواسع العلم، مما يرشد إلى تمام علمه، وهذا احتجاج على قريش، يدل على تناقضهم في أمرهم، وذلك أنهم يقرون أن

(١) فأحيينا . (٢) أي السفن . (٣) أي مطيقين . (٤) راجعون .

الخالق الموجد لهم وللسماوات والأرض هو الله تعالى، وهم مع ذلك يعبدون أصناماً، ويدّعون أنها آلهة لهم، وهي عاجزة عن كل شيء، وأما الله تعالى فهو الموصوف بالقدرة التامة على خلق جميع الممكنات، لتميزه بالقوة والعلم الكاملين.

٤ً- والله تعالى هو الذي جعل لكم الأرض ممهدة كالفراش والبساط، صالحة للإقامة، والاستقرار عليها، ويُتَصَرَّف فيها بسهولة ويسر.

٥ً- وخلق الله تعالى في الأرض الطرق والمسالك، ليتمكن الإنسان من الاهتداء بسلوكها إلى المقاصد والمنافع، والانتقال بين الأرجاء، للاتجار وطلب الرزق والسياحة ونحوها.

٦ً- والله سبحانه هو الذي أنزل من السحاب المطر بقدر الحاجة، وبمقتضى المصلحة للزروع والثمار والشرب ومصلحة الإنسان، فأحيا به الأرض الميتة، وأخرج منها النبات، وكما أحيا الله الأرض بعد موتها، يحيي الأجساد يوم القيامة بعد موتها، ويبعث الناس من القبور. ومن حكمته تعالى وفضله: أنه لا يُنزل المطر فوق الحاجة، لئلا يؤدي إلى الطوفان والغرق الشامل، وهدم المنازل، وتلف الزروع، ولا يَقْصر عن الحاجة حتى تتحقق الكفاية في النبات والزرع والناس. فكلمة (بقَدَر) أي بمقدار الكفاية.

٧ً- والله تعالى خلق الأزواج، أي الأنواع أو الأصناف كلها من كل شيء، من الزروع، والثمار، والأشجار، والإنسان والحيوان وغير ذلك، مما نعلمه وما لا نعلمه.

٨ً- والله هو الذي خلق وسائل الركوب والحمل من السفن والأنعام: وهي الإبل والبقر والغنم. وفي الأنعام فوائد أخرى من اللحوم والألبان والأوبار والأشعار والأصواف. والله تعالى صرح بكيفية الانتفاع بالسفن والأنعام: بأن

تستقروا على ظهورها، ثم تتذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم، وتقولون بعد الركوب عليها: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي تنزه الله تعالى عن كل نقص وعجز، الذي ذلَّل لنا هذا المركب، وما كنا مطيقين لتسخيره، لولا أن سخره الله لنا، وإنا لصائرون راجعون إليه بعد مماتنا، فيجازي كل نفس بما عملت من خير أو شر. وهذه الآية خاصة في ركوب الحيوان ويقال عند النزول منها: اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين. ويقال عند ركوب الفُلْك بما جاء في آية أخرى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١/١١]. والسنة للراكب إذا ركب أن يقول: الحمد لله على نعمة الإسلام، أو على النعمة بمحمد عليه الصلاة والسلام، أو على النعمة في كل حال.

وفي دعاء الركوب هذا: إقرار واضح بعجز الإنسان، وأمر بالإقرار بالبعث، وترداد القول به.

روى ابن أبي نجيح والنحاس عن مجاهد عن النبي ﷺ: أن الإنسان إذا ركب، ولم يقل ما في هذه الآية ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ جاء الشيطان فقال له: تغنَّه، فإن كان يحسن تغنَّى، وإلا قال له: تَمَنَّه، فيتمنى الأباطيل، ويقطع زمنه بذلك.

من أباطيل الجاهلية وتناقضات المشركين

على الرغم من اعتراف المشركين بأن الله هو خالق السماوات والأرض، صدرت منهم عدة أباطيل ومتناقضات مع ذلك الاعتراف، منها نسبة الملائكة لله وأنها بنات الله، والزعم بأن عبادة الملائكة بمشيئة الله، وأن الملائكة إناث لا ذكور، وإذا نوقشوا في هذا لم يجدوا جواباً إلا أنهم يقلدون الآباء تقليداً أعمى، مثلما يقول المترفون في غابر الزمان، حتى ولو عارض ذلك العقل أو المنطق، أو رأوا أفضل

وأرشد مما كان عند الأسلاف، وحيث أفلس المترفون من كل دليل أو حجة، وأصروا على التقليد الباطل، انتقم الله منهم فصاروا مضرب الأمثال، كما تحكي هذه الآيات الشريفات:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا(١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ
وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ
كَظِيمٌ(٢) ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ
الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ
الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(٣) ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن
قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ(٤) وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم
مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ
أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا
بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

[الزخرف: ٤٣/ ١٥-٢٥].

هذه ألوان من تناقضات المشركين وأباطيلهم، فإنهم على الرغم من إقرارهم بألوهية الله وأنه خالق الأرض والسماء، نسبوا له من عباده ولداً، فقالوا: الملائكة بنات الله، إن الإنسان جحود نعمةَ ربه، بيِّن الجحود، والجحود من أبين الكذب، وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أتى بلفظ الجنس العام، والمراد: بعض الإنسان، وهو هؤلاء المشركون الجاعلون الملائكة بنات الله. وجحودهم بهذا السخف الخالي من الحجة، فالله هو خالق كل شيء، فكيف ينسب إليه شيء من مخلوقاته؟ وذلك

(١) أي ولداً، لأن الولد جزء من أبيه. (٢) ممتلئ غيظاً. (٣) يحدسون ويكذبون. (٤) أي طريقة ومذهب.

يتنافى مع كمال الله عز وجل وتنزيهه عن مشابهة الحوادث. وهم قد زعموا أن كل العباد ليس لله، بل بعضها لله، وبعضها للشركاء، فالآية لإنكار الشريك لله.

لذا أنكر الله تعالى على هؤلاء أشد الإنكار باتخاذ ولد لله، وكيف يصح أن يتخذ لنفسه من خلقه البنات أضعف الجنسين، و يختار لعباده الأفضل وهو الذكور؟ وهذا يعني أن الله تعالى جعل لنفسه المفضول من الصنفين، وللناس الفاضل منهما، مع أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء.

ومما ينكر على المشركين أيضاً: تشاؤمهم من الأنثى، فإذا بشّر أحدهم بها، أنف من ذلك واغتم، وامتلأ غيظاً وكرباً، وتغيّر وجهه، فكيف يأنفون من البنات، ثم ينسبونها إلى الله عز وجل؟!

وأكد الله هذا الإنكار عليهم، في أنه كيف يُجعَل لله من الولد مَنْ صفته أن يتربى في حُليّ الذهب والفضة والزينة والنعمة، وكان في الجدال عاجز البيان، عيي اللسان، لا يقدر على الجدال وإقامة الحجة؟ وهذا دليل على رقة المرأة وضعفها، وغلبة عاطفتها عليها.

ومن مفتريات المشركين: أنهم حكموا بأن الملائكة إناث، ترتيباً على قولهم السابق: الملائكة بنات الله، فأنكر الله عليهم ورد إفكهم وقولهم بأنه: هل حضروا خلق الله للملائكة حتى يشهدوا بأنهم إناث؟ ستكتب وتدوّن شهادتهم الباطلة الزور بذلك في صحف أعمالهم، لمجازاتهم على ذلك، وسؤالهم عنها يوم القيامة.

ومن افتراءات المشركين أنهم قالوا: لو أراد الله ما عبدنا هؤلاء الملائكة، أي إنهم نسبوا عبادة الملائكة لمشيئة الله، والواقع أن المشيئة الحاصلة لا تستلزم الأمر، والله لا يأمر إلا بالخير، فرد الله عليهم: ليس لهم أي دليل علمي على صحة قولهم وحجتهم، وما هم إلا يكذبون فيما قالوا ويتقولون، ويظنون ظناً باطلاً. ثم أبطل

الله تعالى قولهم بالمطالبة بالدليل النقلي: هل أعطيناهم كتاباً قبل القرآن ينطق بما يدّعون، ويتمسكون به ويحتجون به؟ ليس الأمر كذلك إطلاقاً.

نزلت هذه الآية: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ﴾ كما ذكر مقاتل في الوليد بن المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة من قريش، قالوا هذا القول.

ولا حجة لهم إلا تقليد الآباء والأجداد، فإنهم قالوا: لقد وجدنا آباءنا على هذه الطريقة والمذهب في عبادة الأصنام، وإنا سائرون على منهاجهم، ومتبعون آثارهم.

والتقليد الباطل أو الأعمى قديم، فمثلما أرسلنا إليك أيها الرسول أرسلنا إلى من قبلك، فجوبهوا بمثل هذا، وقال المترفون المنعمون: وهم قادة القوم لرسولهم المرسل إليهم لتخويفهم من بأس الله وعذابه: إنا وجدنا آباءنا على هذه الملة أو الطريقة والدين، وإنا على مذهبهم سائرون، ولطريقتهم متبعون.

وعبر هنا بكلمة (مقتدون) لإفادة مجرد الاتباع، وفي الآية السابقة (مهتدون) لإفادة ادعاء الهداية. وهذا يدل على أن التقليد في العقيدة والعبادة ضلال.

وكان جواب الرسل لأقوامهم عن التقليد: أتتبعون آباءكم، ولو جئناكم بدين أهدى من دين آبائكم؟ فأجابوهم معلنين كفرهم صراحة: لا نعمل برسالاتكم، ولا سمع ولا طاعة لكم، وإنا جاحدون منكرون ما أرسلتم به.

فلم يكن بعد الإصرار على الكفر إلا أن انتقم الله من الأمم المكذبة للرسل بأنواع العذاب، كقوم نوح وعاد وثمود، فانظر أيها المخاطب العاقل: كيف كان مصير المكذبين رسلهم، كيف بادوا وهلكوا، وآثارهم موجودة للعبرة والنظر.

إنكار النبوة وحقارة الدنيا

من افتراءات المشركين وتناقضاتهم في التقليد الأعمى وغيره: أنهم يقلدون في عبادة الأصنام، ولا يقلدون أبا العرب إبراهيم عليه السلام في عقيدة التوحيد، وأنهم يطيعون الشيطان ويتلهون بمتع الدنيا عن كلمة التوحيد، ويصفون رسول الله ﷺ بأنه ساحر كذاب، منكرين نبوته، ويدّعون أن الأحق بالنبوة: الزعيم الشريف، والثري الكبير، وصاحب النفوذ. ولكنهم في كل ذلك مخطئون، فإن معايير اختيار النبي ليست كمعايير الدنيا، فاصطفاء النبي يكون بالقيم الثابتة الأدبية والروحانية والمقومات العالية عند الإنسان، والدنيا ومتاعها حقير، فليست دليلاً على السمو والتفوق، والآخرة خير وأولى، وصف الله تعالى هذه الأحوال في الآيات الآتية:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى[1] فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا[2] ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ[3] عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا[4] ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٦-٣٥].

لقد تبرأ إبراهيم الخليل عليه السلام من تقليد الآباء في الدين، فاذكر أيها الرسول لقومك قريش المقلِّدين للآباء: لِمَ لم يقلدوا أباهم إبراهيم الذي تبرأ مما يعبد أبوه

(١) خلقني . (٢) مسخراً في العمل وقضاء الحوائج . (٣) مصاعد أو سلالم . (٤) زينة مزوقة .

(آزر) وقومه من الأصنام، ودعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قائلاً: لا أعبد إلا الذي فطرني، أي خلقني، فإنه تعالى سيرشدني إلى الحق وإلى صراط مستقيم. وكانوا يعرفون الله تعالى ويعظمونه، إلا أنهم كانوا يشركون معه أصنامهم، فكأن إبراهيم قال لهم: أنا لا أوافقكم إلا على عبادة الله الفاطر، أي الخالق.

وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد: وهي عبادة الله وحده، ونبذ عبادة الأوثان هي الكلمة الباقية الدائمة في ذريته، يقتدي به فيها من هداه الله تعالى منهم، ورجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم كأهل مكة. والعقب: الذرية وأولاد الأولاد.

لكن هؤلاء القرشيين ممن بقيت الكلمة فيهم، متّعهم الله تعالى بطول العمر وسعة الرزق، هم وآباؤهم، فاغتروا بالمهلة وإطالة العمر وتوافر النعمة، إلى أن جاءهم الحق: وهو القرآن الكريم، والرسول الذي أبان الحق، وأوضح مبدأ التوحيد بالحجة الساطعة.

ثم تمادوا في ضلالهم، فأخبر الله تعالى على سبيل التوبيخ والتقريع بأنهم قالوا عن القرآن: هذا سحر، وأنهم كفروا به، وصفوا القرآن بالسحر لأنه يفرِّق بين المرء وولده وزوجه، فيؤمن بعضهم ويبقى الآخر كافراً، فهو في زعمهم كالسحر، ولم يدروا أن المؤمن المفارق بالقرآن يفارق عن بصيرة في الدين، والمفارق بالسحر يفارق عن خلل في الدين.

ثم أخبر الله تعالى عن معيار الوثنيين في اختيار النبي، فقالوا: هلا أنزل هذا القرآن على رجل عظيم من أهل مكة أو الطائف، وهما الوليد بن المغيرة ريحانة قريش، ومسعود بن عروة الثقفي زعيم ثقيف، فكل منهما عظيم المال والجاه.

فرد الله تعالى عليهم بثلاثة أوجه: أولها: أيجوز لهم أن يقسموا رحمة ربك وهي النبوة، فيختاروا لها من يريدون؟ نحن الذين نقسم الأرزاق والحظوظ بين العباد في

الدنيا، ونرفع درجة بعضهم على بعض في القوة والضعف، والعلم والجهل، والغنى والفقر، ليتمكنوا من تسيير شؤون الحياة، فيسخّر بعضهم بعضاً في العمل وقضاء الحوائج، بالاستخدام أو الاستئجار، وثانيها: ما أعده الله لعباده الصالحين في الآخرة هو خير مما يجمعونه من الأموال وسائر متاع الدنيا، قال قتادة والسدّي: يعني الجنة، أي في الآخرة، والرحمة في الدنيا: بالهداية والإيمان خير من كل مال. وهذا اللفظ تحقير للدنيا.

نزلت هذه الآية: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ . . . أَهُمْ يَقْسِمُونَ﴾ كما روى ابن المنذر عن قتادة في الوليد بن المغيرة -وكان يسمى ريحانة قريش- لو كان ما يقوله محمد حقاً، لنزل علي أو على أبي مسعود (عروة بن مسعود الثقفي) فقال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني النبوة، فيضعونها حيث شاؤوا؟

وثالث الأوجه: خشية أن يكون الناس كلهم على ملة الكفر، تأثراً بالدنيا، لأعطينا الكفار ثروات طائلة، وجعلنا سقوف بيوتهم ومصاعدهم وأبوابهم وأسرّتهم التي يتكئون عليها من فضة خالصة، ومن الذهب والزينة المزخرفة، ولكن ليس كل ذلك إلا شيئاً يتمتع به تمتعاً قليلاً في الدنيا، لأنها زائلة قصيرة الأجل، والآخرة بألوان نعيمها مخصصة لأهل التقوى: الذين يتقون الشرك والمعاصي، ويؤمنون بالله وحده، ويعملون بطاعته، فإنها الباقية التي لا تفنى، وذات النعيم الدائم الذي لا يزول. فقوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ معناه في الكفر.

الإعراض عن شرع الله تعالى

إن من آفات الاغترار بالدنيا وحب المال: الإعراضَ عن شرع الله تعالى وعما ذكّر به الرحمن عباده، وهذا يستوجب العقاب على الكفر، ويجعل المعرضين عن ذِكْر

الله موصوفين بالصمم والعمى، لكونهم في ضلال مبين. ولم يقدِّر هؤلاء المغترون بالدنيا من عرب قريش منزلة القرآن الكريم الذي هو سبب لرفعة النبي وقومه. وتخليد سمعتهم، ولسوف يحاسبهم الله تعالى عن إهمال القرآن، وترك التوحيد وعبادة الله. والدعوة إلى كلمة التوحيد ونبذ عبادة الأصنام ليست مختصة بالنبي ﷺ، بل كل الأنبياء والرسل كانوا مجتمعين على إنكار الوثنية وعبادة الأصنام، وقد حذَّر القرآن الكريم هؤلاء وأمثالهم من عاقبة الإعراض عن دينه، فقال الله تعالى:

﴿وَمَن يَعْشُ[1] عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ[2] وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ[3] فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٣٦-٤٥].

آية ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ نزلت -كما أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي- في قريش قالوا: قَيِّضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه، فقيَّضوا لأبي بكر طلحة بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوة، فقال أبو بكر: إلام تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللات والعزى، قال أبو بكر: وما اللات؟ قال: ربنا، قال: وما العُزى؟ قال: بنات الله، قال أبو بكر: فمن أمهم؟ فسكت طلحة فلم يجبه، فقال طلحة لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر، أشهد أن لا

(١) يتغافلْ ويتعامَ، وذكر الرحمن: مصدر مضاف إلى الفاعل. (٢) أي إن الشياطين يصدون الغاشين عن طريق الهدى. (٣) أي تبين أنكم ظلمتم أنفسكم ولن ينفعكم أنكم في العذاب مشتركون.

إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ..﴾ الآية.

والمعنى: من يتغافل أو يتعامَ عن النظر في القرآن في القرآن والعمل به، ومن يعرض عن شرع الله تعالى، ويقلّ نظره في تذكير الرحمن الذي ذكّر به عباده، نيسر له شيطاناً يلازمه ويغويه، فيكون له قريناً مصاحباً له على الدوام، أي إن هذا عقاب على الكفر بالطبع على القلب وعدم الفلاح، وهذا كما يقال: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالتزيد في المعاصي، ويُجازي على الحسنات بالتزيُّد في الحسنات، وقد روي هذا المعنى مرفوعاً، ونقيض له شيطاناً: نهيّئ ونضم ونيسر له.

وإن الشياطين الذين يقيضهم الله تعالى لكل معرض عن ذكر الرحمن، ليمنعونهم بالوسواس عن سبيل الحق والرشاد، ويحسب الكفار بسبب تلك الوسوسة أنهم مهتدون إلى الحق والصواب.

ثم يتبرأ الكافر في الآخرة من قرينه الشيطان، فإنه إذا وافى اللهَ يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به، ويتمنى البعد عنه كما بين المشرق والمغرب، فبئس الصاحب الملازم للإنسان شيطانه.

ويقال للكافرين في الآخرة توبيخاً: لن ينفعكم في هذا اليوم شيء، إذ تبين أنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا، ولن ينفعكم اشتراكُكم في العذاب، أي لن يفيدكم مواساة الآخرين في أنكم وهم متساوون في العذاب، إذ التأسي أو المواساة راحة لكل مصاب في الدنيا في الأغلب، فهي أي المواساة تخفف ألم المصابين.

ثم أخبر الله نبيه مواساة له أن دعوته لا تؤثر في قلوب قومه، بالاستفهام، فقال له: أتستطيع أيها الرسول إسماع الصمّ والعمي والغارقين في ضلال واضح؟ وهذه أوصاف ثلاثة بعد وصفهم بالعشا، أي التعامي عن القرآن.

واقتضى هذا الإعراض تهديدهم بالانتقام، فإذا أمتناك أيها الرسول قبل نزول العذاب بهم، فإننا منتقمون منهم في الدنيا أو في الآخرة، وإن أبصرناك الذي وعدناهم به من العذاب قبل موتك، فنحن قادرون عليه أيضاً، ومتى شئنا عذبناهم.

فتمسك أيها الرسول بالقرآن الذي أوحينا لك به، فإنك على الطريق القويم، والمنهج السليم، الذي يوصلك إلى سعادة الدنيا، ونجاة الآخرة وعزها.

ومنزلة القرآن الكريم عظيمة جداً لك ولقومك، فإنه لشرف عظيم لك ولقريش وللعرب قاطبة، لنزوله بلغتهم العربية، وسوف تسألون عن هذا القرآن، كيف عملتم به؟ كما جاء في آية أخرى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠] أي شرفكم وسمعتكم العالية.

ثم أفاد الله تعالى أن الدعوة إلى توحيد الله وترك الشرك أمر قديم فاسأل سلالات من أرسلنا قبلك من الرسل: هل أذن الله بعبادة الأوثان في ملة من الملل؟ فجميع الرسل دَعَوْا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام، ولم يجعل الله آلهة معبودة من دون الرحمن.

الاعتبار بقصة موسى عليه السلام

أنكر الله تعالى في آيات سابقة على المشركين جعلهم الثروة أساس اختيار الأنبياء، وضرب لهم مثلاً حسياً بفرعون الذي قال: إنني غني كثير المال والجاه، وكان جدال موسى عليه السلام له مفحماً، ومعجزاته مبطلة لكل إفك فرعون. وأظهر القرآن الكريم مدى تأثير سلطة فرعون على قومه، فإنه استخف عقولهم حينما دعاهم إلى تكذيب موسى عليه السلام، فأطاعوه لضلالهم، فانتقم الله تعالى منهم أشد

الانتقام، بالإغراق في البحر، مما جعلهم مثلاً قدوة للكفار، وعظة وعبرة لمن يأتي بعدهم. وهذا ما دوّنته آيات القرآن الكريم:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا[١] انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا[٢] وَمَثَلًا[٣] لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٤٦-٥٦].

ساق الله تعالى قصة موسى مع فرعون عظة وسلوى لما حدث بين النبي وقومه، فلقد بعث الله تعالى إلى فرعون وقومه موسى مؤيداً بالمعجزات الدالة على صدقه: وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الإسراء [الآية ١٠١] وغيرها كالطوفان والجراد والقُمَّل والدم والضفادع والقحط، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه من الأشخاص والأصنام، وقال لهم: إني مرسَل إليكم من الله رب العالمين: الإنس والجن.

فلما أتاهم موسى بتلك الآيات الدالة على صدقه، إذا فرعون وقومه يستهزئون ويضحكون ممن جاءهم بها. ويقصد بهذا إيناس النبي ﷺ عن إعراض قومه.

---

(١) أغضبونا بالإفراط في العصيان والعناد. (٢) قدوة لمن بعدهم من الكفار. (٣) عظة وعبرة لمن يأتي بعدهم.

وتوالت آيات التذكير لفرعون وقومه، فما يريهم الله تعالى من آية إلا هي أعظم من سابقتها في الحجية عليهم، والإدلال على صحة الدعوة إلى التوحيد. فلما لم يعدلوا عن ضلالهم، أخذهم الله أخذ قهر بإنزال العذاب عليهم، بسبب تكذيبهم بتلك الآيات، لكي يرجعوا عن كفرهم، ويؤمنوا بالله وحده لا شريك له، ويطيعوا موسى فيما أمر ونهى. وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ترج بحسب معتقد البشر وظنهم. ويرجعون معناه: يتوبون ويقلعون عن معاصيهم.

وكانوا كلما جاءتهم آية وصفوها بالسحر، وقالوا لموسى عليه السلام: يا أيها الساحر العالم -وكانوا يسمون العلماء سحرة- ادع لنا ربك لكشف العذاب عنا بما أخبرتنا به من عهده إليك، فإننا بعدئذ لمؤمنون بما جئت به. فدعا موسى ربه، فكشف عنهم العذاب، فلما رفع عنهم العذاب، نقضوا عهدهم، وعادوا لكفرهم.

وازداد فرعون في عتوه وطغيانه، ولجأ إلى التفاخر بالملك والسلطان والثراء، فقال: يا قوم، أليس لي ملك مصر العظيم، فلا ينازعني فيه أحد، والسلطة المطلقة لي، ونهر النيل وجداوله تجري من تحت قصري وأمامي في بساتيني، أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك؟!

ثم بل أنا خير وأفضل بما لي من الملك والسلطة والغنى والجاه من موسى الضعيف الحقير، الذي لا يكاد يبين الكلام، لما في لسانه من لُكنة أو عقدة، وهذا بحسب علمه الماضي، ولم يدر أن الله تعالى أزال عقدته. ثم قارن فرعون نفسه مع موسى مقارنة الغني المترف المتفاخر بماله، فقال: فهلا حُلّي موسى بأساور الذهب إن كان عظيماً، أو جاء معه وفد من الملائكة مقترنين متتابعين يحرسونه إن كان صادقاً؟

فاستهان فرعون بعقول قومه ورعيته، ودعاهم إلى الضلالة، فاستجابوا له،

وأطاعوه فيما أمرهم به، وكذبوا موسى ورسالته فكانوا فاسقين، أي خارجين عن طاعة الله تعالى.

فلما أسخطوا الله، وأغضبوه بالتمادي في الضلال والعناد، انتقم الله منهم انتقاماً شديداً، بالإغراق جميعاً في البحر، وكان الإغراق مناسباً لتفاخرهم وتباهيهم واغترارهم. وإغضاب الله تعالى: هو أن تعمل الأعمال الخبيثة التي تظهر من أجلها أفعاله الدالة على إرادة السوء بمن شاء.

وبذلك جعلهم الله قدوة لمن عمل بعملهم من الكافرين، في استحقاق العذاب، وعبرة وعظة لمن يأتي بعدهم من الكفار. والسلف: هو الفارط من الأمم، المتقدمُ لهم، أي جعلناهم متقدمين للأمم الكافرة عظة ومثلاً لهم، يعتبرون بهم، أو يقعون فيما وقعوا فيه.

الاعتبار بقصة عيسى عليه السلام

ضرب الله تعالى الأمثال بالأقوام أحياناً، وبأشخاص الأنبياء وسيرتهم أحياناً أخرى، وذلك إما من أجل تبيان أصول العقيدة، أو للإفادة من منهج حياة الإنسان، في مسيرة الأجيال وعلى ممر الزمان، وكان خَلْق عيسى عليه السلام من غير أب، مثار تعجب واستغراب، وهو في الواقع لا يختلف عن خلق آدم بلا أب ولا أم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ . .﴾ [آل عمران: ٣/٥٩]، وكان عند جماعة سبباً للمبالغة المفرطة.

أخرج الإمام أحمد والطبراني عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ قال لقريش: إنه ليس أحد يعبد من دون الله، وفيه خير، فقالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً، وعبداً صالحاً، وقد عُبد من دون الله؟ فأنزل الله هذه الآية وما بعدها:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ(١) ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا(٢) وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ(٣) وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً(٤) وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٥٧-٦٦].

المعنى: لقد انتهز مشركو مكة ولا سيما ابن الزِّبعرى مسألة عيسى ابن مريم الذي عُبد من دون الله تعالى، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما أخبر عنه القرآن الكريم: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٨] وحاولوا أن يقولوا: كل معبود في النار، فأوضح القرآن العظيم أن المقصود الأصنام والأوثان، ولا تتناول الآية عيسى والعزير والملائكة، فهؤلاء كلهم عباد موحدون الله عز وجل. فتبدد ما قالت قريش، بعد أن ضجوا وضحكوا وجادلوا. وقال كفار قريش مجادلين بالباطل: آلهتنا ليست خيراً من عيسى، فإن كان كل معبود من غير الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والعزير والملائكة، ولم يضربوا هذا المثل في عيسى إلا بقصد الجدل بالباطل، فإنهم قوم شديدو الخصومة والجدل. وذلك أنه لما نزلت: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٨] جاء عبد الله بن الزِّبعرى ونظراؤه، فقالوا: نحن نخصم محمداً، آآلهتنا خير أم عيسى؟ وعلموا أن الجواب أن يقال لهم: عيسى، أي ما مثّلوا لك هذا التمثيل إلا جدلاً

(١) أي يضجون ويضحكون. (٢) فلا تشكن فيها. (٣) أي أصول الدين العامة. (٤) أي تأتيهم فجأة.

منهم ومغالطة، ونسوا أن عيسى عليه السلام لم يُعبد برضا منه ولا عن إرادة، وليس له في ذلك ذنب.

ثم أخبر الله تعالى: أن عيسى ما هو إلا عبد من عبيد الله، أكرمه الله، وأنعم عليه بالنبوة والرسالة، وجعله الله آية وعبرة لبني إسرائيل، فخَلْقه أسهل من خلق آدم، ومعجزاته كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله.

ولو يشاء الله أهلك أولئك الكفرة المجادلين، وجعل بدلاً منهم ملائكة في الأرض يعمرونها، يخلفونهم فيها.

وإن نزول عيسى في آخر الزمان وخروجه أمارة على وقوع القيامة، لكونه من علاماتها، لأن الله تعالى ينزله من السماء قبيل الساعة، كما أن خروج الدجال قبله من أمارات الساعة، فلا تشكُّوا أيها البشر في وقوعها، ولا تكذبوا بها، فإنها كائنة لا محالة، واتبعوا هدى الله فيما أمر به من التوحيد وإبطال الشرك.

ولا يصرفنكم الشيطان عن اتباع الحق، بوساوسه التي يلقيها في نفوسكم أيها البشر، إن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة، من عهد أبيكم آدم عليه السلام.

ولما جاء عيسى بالمعجزات الدالة على صدقه، وبالشرائع الإلهية، قال لبني إسرائيل: قد جئتكم بالشرائع الصالحة التي ترغّب في فعل الخير والجميل، وتكف عن الفعل القبيح، وجئتكم بأصول الدين العامة، من توحيد الله والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر، ولأوضح لكم بعض ما تختلفون فيه من أحكام التوراة، فاتقوا الله وخافوه بامتثال أوامره ونواهيه، وأطيعوني فيما آمركم به من توحيد الله وشرائعه وتكاليفه.

إن الله عز وجل هو ربي وربكم، وإلهي وإلهكم، فأخلصوا العبادة له، فإن تخصيص العبادة بالله هو الطريق القويم.

فاختلفت فرق اليهود والنصارى الذين بعث الله إليهم عيسى، في شأنه، أهو ابن الله أو إله؟ وانقسموا فرقاً وأحزاباً، فالويل والهلاك والعذاب الشديد للذين ظلموا من هؤلاء المختلفين في طبيعة المسيح، أهي بشرية أم ناسوتية إلهية؟ وانحرفوا في تقريرها.

فهل ينتظر المشركون المكذبون للرسل إلا مجيء القيامة فجأة، وهم لا يشعرون بمجيئها لانشغالهم بشؤون الدنيا؟

أحوال المتقين والمجرمين يوم القيامة

وصف الله تعالى ألوان نعيم أهل الجنة، وأنواع عذاب أهل النار، أما المتقون: فهم في وداد ومحبة، وطمأنينة في نعيم الجنة، وتمتع بأبهى المراتب وأصناف الترف، جزاء عملهم الصالح في الدنيا. وأما المجرمون: فهم في عذاب دائم، يتمنون الموت فلا يجدونه، بسبب كفرهم ومعاصيهم، وكراهيتهم للحق والعدل، ويفاجأون بأن الله تعالى أحصى عليهم كل ما بدر منهم من قول أو فعل، إقامة للحجة عليهم، وإثباتاً لكل عمل صدر منهم، وهذا ما ذكرته الآيات الآتية:

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ
وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ
وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ(١) ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ(٢) وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ
ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ

(١) يظهر عليهم أثر السرور والإكرام . (٢) نوع من الأواني كالأباريق التي لا مقابض لها

﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ(١) وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ(٢) ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٦٧-٨٠].

نزلت آية ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ في أمية بن خلف وعُقبة بن أبي مُعَيط، كانا خليلين، فتواطآ على إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفعل عقبة ما اتفقا عليه، فنذر النبي قتله، فقتله يوم بدر صبراً (منصوباً للقتل) وقُتل أمية في المعركة.

المعنى: الأصدقاء في الدنيا، المتحابون فيها، يعادي بعضهم بعضاً يوم القيامة، ويتباغضون، لأن كل واحد يرى أن الضرر دخل عليه من قِبَل خليله، إلا المتقين الله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، فإن صداقاتهم تستمر في الآخرة، ويرون أن النفع دخل من بعضهم على بعض. والأخلاء: الأصحاب.

ويقال للمتقين المتحابين في الله: لا تخافوا من عذاب الآخرة، ولا تغتروا بنعيم الدنيا، فإن نعيم الآخرة هو الباقي، والدنيا زائلة.

وهؤلاء المتقون: هم المؤمنون بآيات القرآن، المنقادون لأحكام الله وشرائعه، وأسلموا وجوههم لله وشرعه.

ويبشّرون بالجنة فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات تُكْرَمون، وتُنَعَّمون، وتسعدون السعادة الكاملة.

وألوان نعيمهم: أن لهم مختلف أنواع المطاعم والمشارب، يقدم لهم ذلك بآنية من الذهب، وأكواب من الفضة. والكوب: الكوز الذي لا عروة ولا مقبض له. وفيها

(١) لا يخفف عنهم بجعل العذاب متقطعاً. (٢) آيسون من النجاة، حزينون من شدة البأس.

كل ما تشتهيه الأنفس من الألبسة والمسموعات، وكل ما تهواه النفوس، وتلذ به الأعين من اللذائذ والمشاهد المادية والمعنوية، ففيها مالاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهم فيها ماكثون على الدوام.

وسبب هذا الجزاء: أن تلك الجنة صارت لكم كالميراث، لما قدمتموه من العمل الصالح في الدنيا، وليس المعنى أن الأعمال أوجبت على الله إدخالهم الجنة، وإنما المعنى أن حظوظهم فيها على قدر أعمالهم، وأما دخولُ الجنةِ نفسُه فبفضل الله ورحمته.

ولكم في الجنة غيرَ الطعام والشراب فاكهةٌ كثيرة الأنواع، تأكلون منها مهما شئتم، كلما قطفتم ثمرة تجدد لكم أخرى. هذا حال أهل الجنة وما يقال لهم.

ثم ذكر الله بعدئذ حال الكفرة من الخلود في النار، واليأس من الخروج منها، ليتبين الفرق وتتضح الأمور، فإن المجرمين (أي الكافرين) يخلدون في عذاب النار على الدوام، ولا يخفف عنهم العذاب فترة ليستريحوا منه، وهم مُبْعدون آيسون من الخير ومن النجاة، قائمون في جهنم إلى الأبد.

وذلك لأن الله تعالى لم يظلمهم، أي لم يعذبهم بغير ذنب، ولا يزيد في عذابهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بما ارتكبوا من الذنوب، وبما عملوا من السيئات.

ونادى هؤلاء الظالمون: يا مالك (وهو خازن النار) ليمتنا الله مدة، حتى لا يتكرر عذابنا، فيقال لهم: إنكم ماكثون، أي مقيمون في العذاب، لا خروج لكم من النار. وجواب مالك هذا: إما بعد ألف سنة كما قال ابن عباس أو بعد ثمانين أو أربعين سنة. ونظير الآية كثير مثل: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٦].

وسبب العقاب: لقد بيَّنا لكم الحق، وأرسلنا إليكم الرسل، وكان أكثركم، أي

كلكم كارهين للحق وأهله. بل إن مشركي مكة وأمثالهم دبروا كيداً للنبي ﷺ في دار الندوة بمكة، ليقتلوه أو يحبسوه أو يطردوه، وأحكموا أمر الكيد والمؤامرة، ولكن الله أبرم حكماً لهم بنصره وحمايته وبيَّت لهم جزاء وعقاباً شديداً. قال مقاتل: نزلت هذه الآية ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ في تدبيرهم في المكر بالنبي ﷺ في دار الندوة.

بل أيظنون أنا لا نسمع سرهم وعلانيتهم، سواء ما يضمرونه من شر وكيد، أو ما يتناجون به علانية لحبك المؤامرة وتنفيذها؟ بلى، نحن نسمع ذلك ونعلم به تماماً، والملائكة الحفظة أيضاً يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل.

أخرج ابن جرير الطبري في نزول هذه الآية، عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها: قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال آخر: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع، فأنزلت ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم..﴾ الآية، أي إنها نزلت لأن كثيراً من العرب كانوا لا يعتقدون أن الله تعالى لا يسمع السرار.

نفي الولد والشريك عن الله تعالى

على الرغم من تهديد الكفار بعذاب النار، فإنهم بقوا على الشرك بنسبة الولد والشرك لله تعالى، فنفى الله تعالى ذلك نفياً باتاً، وأوضح أنه المعبود بحق، وأنه الحكيم في صنعه، العليم بكل شيء، ومالك السماوات والأرض، وهو إله السماء وإله الأرض، وأن الآلهة المعبودة لا نفع ولا شفاعة لها، وأن المشركين متناقضون حين أقروا بأن خالق الكون هو الله تعالى، ثم عبدوا غيره، فهم قوم لا يؤمنون، وحسابهم آتٍ لا ريب فيه، كما بيَّنت الآيات الآتية:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا[(١)] وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ[(٢)] ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ[(٣)] ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ[(٤)] يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٨١-٨٩].

قل أيها النبي لقومك الذين أشركو مع الله إلهاً آخر: إن وجد للرحمن ولد -كما يقولون- فأنا أول من يعبده على ذلك، ولكن ليس له شيء من ذلك جل وعلا. وهذا وارد على سبيل الافتراض أو لطيف الخطاب، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٤].

وأكد الله نفي الولد عنه، فقد تنزه وتقدس عما يقولون، من الكذب بادعاء ولد له، فهو رب السماوات والأرض ومالكهما، ورب العرش المحيط بالكون، وهو منزه عما يصفه به المشركون كذباً، من نسبة الولد إليه. وخص الله السماوات والأرض والعرش، لأنها أعظم المخلوقات.

فاتركهم أيها النبي يخوضوا في جهلهم وباطلهم وضلالهم، ويلعبوا ويلهوا في دنياهم، حتى يلقوا يوم القيامة الذي يوعدون به. وهذا تهديد ووعيد، ثم يؤكد الله تنزيه نفسه عن الولد بجملة أمور، وهي ما يأتي:

- الله كائن في جميع الكون، فهو الإله المعبود في السماء، والإله المعبود في الأرض، فلا يستحق العبادة سواه، وهو الحكيم في تدبير خلقه، العليم بمصالحهم.

---

(١) أي اتركهم يعبثوا في باطلهم. (٢) تفاعل من البركة، أي تزايدت بركاته. (٣) أي يصرفون. (٤) أي وقولِه. وهو معطوف على الساعة، أي وعنده علم الساعة وعلم قول النبي ﷺ.

وهذه آية تحكم بعظمة الله وتخبر بألوهيته، والمراد بها: أنه تعالى هو النافذ أمره في كل شيء.

- ولا نفع للأصنام، فقد تعاظم الله وزادت خيراته وبركاته، فهو مالك السماوات والأرض، وما بينهما من الفضاء والهواء، وجميع الموجودات من إنسان وحيوان، وهو خالق كل شيء، وهذا حصر لجميع الموجودات المحسوسة، والله هو المختص بعلم الساعة، أي بتحديد قيامها، ووقتها، وتعيينه وحصره. فهذا مما استأثر الله بعلمه، وإليه مرجع أو مصير الخلائق كلها، فيجازي كل إنسان بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هم المعبودون.

- ولا تملك الأصنام ولا تقدر كأي معبود من دون الله الشفاعة بأحد، كما يزعم عبدتها من أنها تشفع لهم، لكن من آمن وشهد بالحق المنزل من عند الله، عن بصيرة ويقين، وبأن الله وحده لا شريك له، فإن شفاعته مقبولة عند الله بإذنه، وكان هؤلاء المشفعون على علم وبصيرة بما شهدوا به.

- وتالله لئن سألت هؤلاء المشركين بالله، العابدين معه غيره عمن خلقهم؟ لأجابوا بأنه هو الله، فهم يعترفون بأن الله خالق جميع الأشياء، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً، ولا يقدر على شيء، فكيف يصرفون عن العبادة الحقة؟ وهي عبادة الله عز وجل إلى عبادة غيره، ومع وجود هذا الاعتراف، إنهم إذن في غاية التناقض، والجهل، والسفاهة، ومدعاة التعجب. لقد أظهر الله تعالى الحجة عليهم من أقوالهم وإقرارهم بأن الله تعالى هو خالقهم وموجدهم بعد العدم، فلأي جهة يصرفون؟!

- والله تعالى عالم بالساعة، أي القيامة، وعالم بشكوى نبيه ﷺ وقوله: يا رب، إن هؤلاء القوم الذين أرسلتني إليهم قوم لا يؤمنون ولا يصدِّقون بك، ولا برسالتي إليهم.

فأمره الله بالمساحة إلى أجل، وقوله له: اصفح عن المشركين صفح المغاضب المعرض ترفعاً، لا الموافق المجامل، وأعرض عما يقولون وعما يتهمونك به من السحر والكهانة، واصبر على دعوتهم إلى توحيد الله إلى أن يأتي أمر الله. وهذا يتضمن شيئين: وهما تهديد ووعيد من الله لهم، ووعد متضمن بنصر الإسلام والمسلمين عليهم عما قريب، وقد أنجز الله وعده، وأيد رسوله، وهزم أركان الشرك والمشركين، وطهر جزيرة العرب من لوثات الشرك وآثار المشركين.

تفسير سورة الدخان

ليلة إنزال القرآن وتهديد المشركين

أنزل الله تعالى في ابتداء تنزيله القرآن الكريم بعض السور والآيات في ليلة القدر المباركة، رحمة من الله بعباده، وعلماً منه بما يصلحهم، والله سبحانه هو رب كل شيء من السماوات والأرض، وهو الإله الواحد الذي يحيي ويميت، رب الأولين والآخرين، فمن آمن بالقرآن نجا، ومن أعرض عنه هلك، لذا استحق المشركون التهديد بالعذاب، إما في الدنيا بالجوع الشديد والجدب، حتى إن الجائع يرى دخاناً بينه وبين الناس، وإما قبيل يوم القيامة حيث يجيء دخان، يصيب المؤمن منه مثل الزكام، ويشوي رؤوس المنافقين والكافرين، وهذا مقرر في مطلع سورة الدخان المكية بالاتفاق:

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا
يُفْرَقُ[١] كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ[٢] ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ[٣]
يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى[٤] ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا
ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ

---

(١) يفصّل ويبيّن. (٢) أي محكم لا لبسَ فيه. (٣) انتظر. (٤) يحيط بهم من كل جانب.

مَجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان: ٤٤/ ١-١٦].

ابتدأ الله السورة بالأحرف الهجائية للتنبيه على خطر ما فيها، ولتحدي العرب الناطقين بلغة الضاد المتكونة من أمثال هذه الحروف بالإتيان بمثل القرآن أو بمثل بعضه. ثم أقسم الله تعالى بالقرآن الواضح البيّن الشامل لكل أمور الدين والدنيا والمبين هدى الله وشرعه، على أنه أنزل القرآن في ليلة كثيرة الخير، التي هي ليلة القدر، أي إنه تعالى ابتدأ إنزال القرآن في ليلة القدر من ليالي رمضان. وقال العلماء: إن كتب الله تعالى كلها إنما أنزلت في رمضان، التوراة في أوله، والإنجيل في وسطه، والزبور في نحو ذلك، ونزل القرآن في آخر رمضان في ليلة القدر. ومعنى هذا النزول: أن ابتداء نزوله كان في ليلة القدر. وإنه سبحانه كان وما يزال ينذر بهذا القرآن الناس من العذاب الأليم في الآخرة، إذا أشركوا بالله واقترفوا المعاصي.

وفي ليلة القدر يفصّل ويبين الأمر المحكم، ويتخلص عن غيره، فيكتب فيها ما يكون في السنة من الآجال والأرزاق، من خير وشر، وحياة وموت وغير ذلك. قال الحسن البصري ومجاهد وقتادة وغيرهم: في ليلة القدر يفصل كل ما في العام المقبل من الأقدار والآجال والأرزاق وغير ذلك، ويكتب ذلك لهم إلى مثلها من العام المقبل.

أنزل الله القرآن أمراً جازماً من عنده، متضمنا وحيه وشرعه، وأرسل الرسول محمداً والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الناس لتلاوة آيات الله البينات، رحمةً من عند الله وإنقاذاً، لبيان ما ينفعهم وما يضرهم، إن الله هو التام السمع لكل صوت أو قول، الشامل العلم بكل صغيرة وكبيرة.

ودليل السمع والعلم وتنزيل القرآن رحمة: أن الله هو رب السماوات والأرض

وما بينهما من سائر المخلوقات، وخالقها ومالكها وما فيها، إن أردتم معرفة ذلك عن يقين تام، لا شك فيه.

ومنْ صفات الله بعد إثبات الرُّبوبية: اتِّصافه بالوحدانية، فهو الإله الواحد الذي لا إله غيره، وهو الذي يحيي الأشياء والمخلوقات، ويميتها، وهو أيضاً ربُّ الآباء الأوّلين والأجداد الأقدمين، وربُّ الموجودين ومَن يأتي بعدهم ومدبِّر شؤونهم، والرُّبوبية تستحقُّ العبادة، فالله وحده دون غيره يستحقُّ العبادة.

بل هؤلاء المشركون في شكٍّ من أمر البعث والتوحيد، يلعبون ويعبثون. وهذا إضراب عما قبله من الكلام، ينفي ما تقدَّم، كأنه يقول: ليس هؤلاء ممن يؤمن، ولا ممن تنفعه وصية، بل هم شاكّون لاعبون في أقوالهم وأفعالهم.

فانتظر أيها المشرك يوم تأتي السماء إما بدخان حقيقي أو بما يشبه الدخان، والذي يشبهه: هو ما تعرّض له المشركون من شدة الجوع والقحط، حتى كان الرجل يرى من الجدب والجوع دخاناً بينه وبين الناس، والآيات الآتية تقوي هذا التأويل، روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: إن قريشاً لما استعصوا على النَّبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط، حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ..﴾ فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، استسقِ لِمُضَر، فإنها قد هلكت، فاستسقى، فسُقوا، فنزلت.

وطلب الناس قائلين: يا ربَّنا اكشف عنا عذابك، إنا مصدِّقون بالله ورسوله، ولكنهم لم يكونوا صادقين، ومن أين لهم التَّذكر والاتِّعاظ والوفاء بالعهد بالإيمان بعدئذ، وكان قد جاءهم رسول مبيِّن أدلة الإيمان، ثم أعرضوا عنه، وقالوا: إنما يعلِّمه القرآنَ بشرٌ غيره، إنه مجنون لا عقل له.

ورحمة من الله قال: إنا سنرفع عنكم العذاب زماناً قليلاً، لكنكم راجعون إلى الشِّرك، وقد رجعوا فعلاً، وإنكم مؤجَّلو العذاب الشديد والانتقام الأشد في يوم القيامة، إننا نعاقب هؤلاء الكفار حينئذ.

قال البخاري في تتمة الحديث السابق: فلما أصابتهم الرفاهية، عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ..﴾ فانتقم الله منهم يوم بدر.

الاعتبار بقوم فرعون

كان القرشيون أشداء مستكبرين، وأباة أسياداً بين العرب، فلفت القرآن الكريم أنظارهم إلى أن الله تعالى أهلك من هو أشد منهم قوة وبأساً، ومنهم قوم فرعون، الذين أغرقهم الله مع مليكهم بسبب جحودهم وإجرامهم وتكذيبهم رسولهم، مما يوجب عليهم الاعتبار والاتعاظ، والإدراك بأن أموال الظالمين وثرواتهم آلت إلى من بعدهم، ونجى الله المؤمنين بحق برسالة موسى عليه السلام، وأنزل التوراة على رسولهم موسى، ليعملوا بأحكامها وشرائعها، ويشكروا نعم الله التي أنعم بها عليهم، وجعلهم مناط ابتلاء أو اختبار، قال الله تعالى واصفاً هذه الأحوال:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا[١] قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ
أَن تَرْجُمُونِ[٢] ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ[٣]
بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا[٤] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن
جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا

(١) اختبرنا . (٢) ترموني بالحجارة أو تؤذوني . (٣) سر ليلاً . (٤) أي ساكناً كما هو، مفتوحاً .

ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ[(١)] ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ[(٢)] ﴿٣٣﴾ [الدخان: ٤٤/١٧-٣٣].

أي تالله لقد اختبرنا قبل مشركي مكة قوم فرعون (قبط مصر) أرسل الله إليهم، رسولاً كريماً في نفسه، جامعاً لخصال الخير أو المحامد والمنافع، وهو موسى عليه السلام.

وقال موسى لفرعون وقومه: أرسلوا معي عباد الله، وهم بنو إسرائيل، وأطْلِقوهم من العذاب، فإني رسول مؤتمن على الرسالة، غير متهم.

ولا تتجبروا ولا تتكبروا عن اتباع آيات الله، والانقياد لطاعته ومتابعة رسله، فإني آتيكم ببرهان ساطع دال على صدق رسالتي كالعصا واليد والآيات التسع.

وإني أستعيذ بالله وألتجئ إليه، وأتوكل عليه، مما تتوعدوني به من القتل بالحجارة، أو الإيذاء بالشتم وغيره.

وإن لم تصدقوني في نبوتي وبما جئتكم به من آيات الله وشرائعه من عند الله، فاتركوني، ولا تتعرضوا لي بأذى، إلى أن يحكم الله بيننا.

فلما يئس موسى من إيمانهم، دعا ربه، ووصف قومه بأن هؤلاء قوم مكذبون رسلك، مشركون بك. فأمره الله تعالى بأن يخرج ليلاً بعباد الله بني إسرائيل، لأن فرعون وقومه يتّبعونكم، واترك البحر الذي تمر فيه ساكناً مفتوحاً كما هو، لا تضربه بعصاك، حتى يعود كما كان، ليدخله فرعون وجنوده، فإنهم قوم مغرقون في البحر، وهذا بشارة بنجاة موسى وقومه، وإهلاك عدوهم.

ولقد خلّف قومُ فرعون وراءهم كل ثرواتهم، فكثيراً ما تركوا في مصر وراءهم، من بساتين خضراء، وحدائق غنّاء، وزروع نضرة، ومجالس حسنة مرفَّهة، ونِعَم

(١) ممهلين مؤخرين . (٢) اختبار ظاهر .

كانوا يتمتعون بها أو ناعمين بها. والفاكه: الطيب النفس. والنَّعمة -بفتح النون-: غضارة العيش، ولذاذة الحياة. والنِّعمة بكسر النون: أعم من هذا، وقد تكون الأمراض والآلام والمصائب نِعماً، ولا يقال فيها نَعْمة.

كذلك، فكما فعلنا سابقاً بالذين كذبوا رسلنا، نفعل بكل من عصانا، وأورثنا تلك البلاد والثروات للإسرائيليين الذي كانوا مستضعفين.

فما تأسّفَتْ عليهم أوساطُ السماء والأرض، ولم يكونوا ممهَلين، بسبب بغيهم وفسادهم، بل عُجِّلت عقوباتهم، لفرط كفرهم، وشدة عنادهم، ولم يكونوا ممهَلين مؤخَّرين لتوبة، لأنها غير منتظرة منهم. قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ﴾ استعارة تتضمن تحقير أمرهم، وأنه لم يتغير شيء بهلاكهم(١).

وكان في مقابل النقمة: وجودُ النعمة، فلقد خلّصنا شعب بني إسرائيل، من العذاب المشتمل على إهانة، بإهلاك عدوهم، ومما كانوا فيه من الاستعباد، حينما كانوا صلحاء غير مفسدين في الأرض، ونجاهم الله من فرعون الطاغية المسرف في ارتكاب المعاصي، المجاوز كل الحدود. واختار الله الإسرائيليين الصالحين على عالَمي زمانهم، عن علم سابق من الله فيهم، وأنه سينفذ فيهم، وأعطاهم على يد رسولهم موسى المعجزات الظاهرة الدالة على قدرة الله، وآياتِ التوراة وغير ذلك مما فيه اختبار ظاهر، وامتحان واضح لمن اهتدى به، وللنظر فيما يعملون. فإذا بدَّلوا بالإيمان الكفر، وبالصلاح الفساد كما في عصرنا الحاضر، غضب الله عليهم، ولعنهم، وجعل منهم القردة والخنازير، ويعود العقاب لهم كلما عادوا إلى البغي والفساد والاعتداء على حقوق الآخرين.

---

(١) وقال جماعة: ترك البكاء: حقيقة، فإن الرجل المؤمن إذا مات، بكى عليه مِنَ الأرض موضعُ عباداته أربعين صباحاً، ويبكى عليه من السماء موضع صعود عمله.

إنكار البعث والرد على المشركين

المشكلة الحقيقية في كفار قريش بعد وثنيتهم: أنهم كانوا منكري البعث، فلا حياة ولا وجود بعد الموت في زعمهم، ولا دليل على إمكان الإعادة، فتوالت الردود عليهم في القرآن الكريم، وتتابعت التنبيهات والتحذيرات، وألوان الوعيد والتهديد، ومن أخطرها: تحقق العذاب فيهم في نيران جهنم، وتناولهم أشد أنواع الشجر مرارة: وهو شجر الزقوم، فتغلي به بطونهم، وتنهال على رؤوسهم حِمم النار، فتصهرهم، ويتعرضون لكل ألوان الإهانة والذل فتتركهم أذلة مهانين منبوذين، قال الله تعالى واصفاً المشكلة وأسبابها:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ[١] ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ[٢] وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ
﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى
شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ[٣] ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ
شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ[٤] ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ[٥] يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ[٦] إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ[٧] ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ[٨] ﴿٥٠﴾﴾

[الدخان: ٤٤/ ٣٤-٥٠].

تشير هذه الآيات في مطلعها إلى قريش إشارة تحقير، فهؤلاء كفار مكة يقولون ما

(١) أي بمبعوثين أحياء . (٢) ملك حِمْيَري في اليمن والشَّحْر وحضرموت . (٣) القوي الغالب . (٤) هي الشجرة الملعونة في قعر جهنم . (٥) عكر الزيت والقطران . (٦) جُرّوه وسوقوه بعنف وشدة . (٧) وسط الجحيم . (٨) تشكون .

هي إلا الموتة الأولى التي نموتها في الدنيا، ولا حياة ولا بعث بعدها. وإن كنتم أيها المسلمون صادقين في ادعاء البعث، فأعيدوا إلينا آباءنا إلى الدنيا بعد موتهم، لنسألهم عما رأوا في آخرتهم. وهذه حجة واهية، لأن البعث ليس الآن، وإنما في يوم القيامة. فرد الله تعالى عليهم مهدداً، ومنذراً، ومتوعداً بالعقاب:

أهم، أي كفار قريش من عدنان خير في القوة والمنعة، أم قوم تُبَّع الحميري من قحطان، الذين كانوا أقوى جنداً وأعز مكاناً؟ وكذلك الأمم السابقة كعاد وثمود ونحوهم، أهلكناهم جميعاً لكفرهم وإجرامهم، فإهلاك من دونهم أيسر وأقرب. وتُبَّع المشار إليه في هذه الآية: رجل صالح من التبابعة، ذم الله تعالى قومه، ولم يذمّه ونهى العلماءُ عن سبّه.

والدليل على قدرة الله تعالى الشاملة والعظمى: خلق السماوات والأرض، فلم يخلق الله السماوات والأرض وما بينهما، عبثاً ولعباً، وباطلاً ولهواً، وإنما بإبداع لا نظير له. وما خلقهما الله إلا خلقاً ملازماً للحق ولإظهاره وهو الاستدلال على وجود الخالق ووحدانيته، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك، لقلة نظرهم، وضعف وعيهم، فمن أبدع ذلك، أليس قادراً على إمكانه إعادة الخلق؟!

إن يوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين الخلائق: هو موعد جمعهم، ووقت حسابهم وجزائهم جميعاً، إنه يوم لا ينفع قريب قريباً، ولا ناصر منصوراً، ولا يدفع عنه شيئاً من العذاب أو الإغناء، فلا يفيد المؤمن الكافر، ولا ينتصرون من أحد، لكن من رَحِمَهُ الله، فإنه ينتصر وينجو، فإن الله هو القوي الغالب القاهر الذي لا يفلت أحد معتدٍ من عذابه.

وسيلقى المشركون منكرو البعث كلَّ ألوان العذاب والمهانة، فإن طعامهم هو طعام الآثمين قولاً وفعلاً: وهو شجرة الزقوم الشديدة المرار، والذي لا يُشبع.

والأثيم: مبالغة في الإثم، وهذه الشجرة: هي الشجرة الملعونة التي تنبت في قعر جهنم.

وهذا الطعام يشبه عكر الزيت والقطران ومذاب النحاس، لحرارته ورداءته، يغلي غلياناً شديداً في بطون آكليه، كغلي الماء الشديد الحرارة، ويقال للملائكة خزنة النار: خذوا هذا الأثيم، فجرُّوه وسوقوه إلى وسط النار، بعنف وشدة، ثم صُبوا على رأسه الماء الشديد الحرارة، الذي هو أشد الماء الساخن، وقولوا له تهكماً وتقريعاً: ذق العذاب أيها المتعزز المتكرم في زعمك في الدنيا، وإن هذا العذاب هو الذي كنتم تشكّون فيه، حين كنتم في الدنيا، وهو كما جاء في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ١٣ ١٤].

أخرج سعيد بن منصور عن أبي مالك قال: إن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزُّبد، فيقول: تزقموا، فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد، فنزلت: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾

وأخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل، فقال: إن الله أمرني أن أقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣٤-٣٥] فنزع يده، وقال: ما تستطيع لي ولا صاحبك من شيء، لقد علمت أني أمنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم، فقتله الله يوم بدر، وأذلّه وعيَّره بكلمته، ونزل فيه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

حال المتقين في الآخرة

أوضح الله تعالى أحوال الكافرين وما يلقونه من أهوال الآخرة، ثم من أجل الموازنة، ذكر الله تعالى حال المتقين يوم القيامة، وما يحظون به من أنواع خمسة من

النعيم، فلهم جنان الخلد، ويتدثرون بألبسة الحرير، على سرر متقابلين ويتزوجون بالحور العين، ويتفكهون بكل فاكهة آمنين، وحياتهم في الجنة خالدة أبدية، ووُقوا عذاب الجحيم، وذلك بفضل الله أعظم الفوز، وأمكن معرفة ذلك يقيناً بما دل عليه اللسان العربي الفصيح، الذي نزل به القرآن الكريم، ولم يبق إلا إنجاز الوعد. وهذا ما أخبرت به الآيات الآتية:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ[1] مُّتَقَٰبِلِينَ[2] ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ[3] فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٥١-٥٩].

هذه أنواع النعيم الخمسة للمتقين وهي:

- إن الذين اتقوا ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، لهم مساكن ومقامات آمنة مأمونة من جميع المخاوف، طيبة المكان والنفس، لا غَيرة فيه بينهم، في بساتين خضراء، وينابيع متفجرة بالماء. وهذا يقابل ما للكفار من شجرة الزقوم وشرب الحميم، كما في آيات سابقة.

- ملابسهم التي يلبسونها: من حرير رقيق، وخشن أو غليظ، ذي بريق ولمعان، وجمال فريد، متقابلين في جلساتهم للاستئناس، لا يستدبر بعضهم بعضاً في المجالس.

- كذلك أي ومع هذا العطاء وإدخال الجنان يزوجهم، أي يقرنهم الله بالحور البيض، الواسعات الأعين مع عِظَم السواد، ولا يوجد عقود زواج بالحور، وإنما

(١) السندس: رقيق الحرير، والإستبرق: خشنه. (٢) وصف لمجالس أهل الجنة، إقبال من غير إدبار.
(٣) يطلبون الخدمة والتصرف.

المراد قرنهم بهم. وقد وصف الله الحور بأوصاف في آيات، منها: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٥٦-٥٨] ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٧٠-٧٢].

-وهم يطلبون للخدمة والتصرف في الجنة ما شاؤوا من أنواع الثمار أو الفاكهة وهم آمنون من انقطاعها أو امتناعها، وإنما يُحضرها الخدم كلما أرادوا، وهم أيضاً آمنون من الأوجاع والأسقام، ومن الموت والعناء، ووساوس الشيطان. وهذا دليل على التمتع بأنواع اللذة المادية والمعنوية.

- ثم إن حياتهم في الجنة دائمة، لا يتعرضون في الآخرة للموت أبداً، ولا يذوقون طعم الموت فيها مطلقاً، لكن الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا: قد عرفوها وانتهى أمرها، وحماهم الله تعالى من عذاب النار، ونجّاهم منه، والمراد أن الله تعالى نفى عنهم أمرين: ذوق الموت وعذاب النار.

وقدّر قوم معنى (إلا) بـ (سوى) وهو صحيح خلافاً لرأي الطبري، فإن الواضح المفهوم من الآية أنهم كما ذكر الزمخشري وابن عطية لا يذوقون الموت أبداً، إلا الموتة الأولى التي كانت قبل دخول الجنة.

أخرج السِّجستاني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة ينعّم فيها، ولا يبأس، ويحيا فيها، فلا يموت، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه».

وذلك كله: تفضل من الله تعالى عليهم، وإحسان إليهم، ذلك هو الفوز الأكبر الذي لا يعلوه فوز. أخرج الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسدِّدوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يُدخله

عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

وتوّجت خاتمة سورة الدخان بما يدل على وضوح هذه الأخبار، وإنجاز الوعود بها، بسبب كون القرآن الكريم بلسان عربي مبين، فإنما يسّرنا هذا القرآن بلسانك أيها النبي، أي بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأجلاها، والتي هي لغة قومك، وجعلناه، أي القرآن ميسراً للفهم، لكي يتذكروا ويتعظوا ويعملوا بما فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٢٢].

وعلى الرغم من هذا الوضوح والتبيان، كفر بعضهم وخالف، فآنس الله تعالى رسوله، واعداً إياه بالنصر، ومتوعداً من كذّبه بالهلاك، في قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي فانتظر أيها النبي ما وعدناك به من النصر عليهم، وإهلاكهم إن أصرُّوا على الكفر، وماتوا وهم كافرون، فإنهم منتظرون ما يحل بك من السوء، وما ينزل بك من الموت وغيره.

تفسير سورة الجاثية

من آيات الله الدالة عليه

تكرر في القرآن الكريم إيراد الأدلة الدالة على وجود الله تعالى، ومن أدل الأدلة والبراهين: إبداع السماوات والأرضين، وخَلْق الإنسان والحيوان، واختلافُ الليل والنهار وتعاقبُهما، وإنزالُ المطر سبب الرزق، وتقليبُ الرياح في الجهات الأربع، فمن أراد أن يؤمن كفاه ذلك، ومن عاند واستكبر، فلا يجد بعد بيان الله وآياته وهو القرآن، ما يرشده إلى الإيمان بربه، وهذا ما نجده بيِّناً في الآيات الآتية، في مطلع سورة الجاثية:

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ[1] ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ[2] مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ[3] ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/ ١-٦].

افتتحت السورة (الجاثية) المكية بالاتفاق بالحروف المقطّعة، للتنبيه لما يأتي بعدها، ولتحدي العرب بالإتيان بمثل آيات القرآن، ثم أخبر الله تعالى: بأن هذا القرآن تنزيلٌ قاطع من الله القوي الغالب الذي لا يقهر، المُحْكِمُ للأشياء. فقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ معناه عام في شدة أخذه إذا انتقم، ودفاعه إذا حَمَى ونَصر، وغير ذلك.

---

(١) تنزيل: إما مبتدأ أو خبر مبتدأ مضمر. (٢) ينشر ويفرّق في الأرض. والدابة: كل حيوان يدبّ في الأرض أو البحر أو الجو، فيشمل الطير والسمك. (٣) تقليبها وتحويلها.

ومقتضيات العزة والحكمة: إن في خلق السماوات وخلق الأرض، لأدلة قاطعة على وجود الله، ووحدانيته، وقدرته الباهرة. وقد ذكر تعالى الأدلة أو الآيات التي في السماوات والأرض مُجْمَلةً غير مفصلة، فكأنها إحالة على غوامض تثيرها الأفكار، و يخبر الشرع بكثير منها، والذي يستفيد من دلالات هذه الآيات: هم المؤمنون، الذين يعتمدون على العقل الصحيح، والتصديق الواقعي. وهذا دليل من الكون.

ثم ذكر الله تعالى دليلاً من الأنفس، ففي خلقكم أيها البشر من غير وجود سابق، سواء من تراب، أو من طريق التزاوج، وما ينشر في الأرض والبحر والجو من الدواب المختلفة: آيات دالة على وجود الله وتوحيده، لقوم يوقنون، لهم نظر صحيح، يؤديهم إلى اليقين في معتقداتهم، والاطمئنان في قلوبهم.

وكذلك في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بالنور والظلام، وتفاوتهما في الطول والقصر، والحرارة والبرودة، والضياء والظلمة، وفيما أنزل الله من السحاب، من مطر يتسبب في رزق الأنفس وإحياء الأرض بالنبات والزرع، وفي تقليب الرياح وتغييرها من جهة إلى جهة، ومن حال إلى حال، جنوباً وشمالاً، شرقاً وغرباً، برودة وحراً، ضرراً ونفعاً، ليناً وشدة، في كل ذلك دلالات عظيمة على وجود الله سبحانه، ووحدانيته وقدرته التي ينتفع بها عادة أهل العقول الراجحة، ويتأمل بها ذوو الأفكار المتفحصون فيها وفي حقائقها. والرياح جمعاً: هي المبشِّرات بالخير، والريح بالمفرد: هي المنذرة بالعذاب.

والعبرة من كل ذلك أوجزها الله تعالى بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي هذه الدلائل المذكورة من الآيات الكونية والقرآنية، هي حجج الله وبراهينه وبيناته، نتلوها عليك أيها النبي، متضمنة الحق المبين، وهذا على حذف مضاف، أي نتلو شأنها وتفسيرها وشرح العبرة بها. وقوله تعالى ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ معناه بالصدق

والإعلام بحقائق الأمور في أنفسها، ليستفيد منها البشر قاطبة، فبأي بيان أو كلام يا أهل مكة وأمثالكم بعد بيان الله وكلامه، وتفصيل آياته، وهو القرآن الكريم، تؤمنون أو تصدقون؟! والتعبير بكلمة (تلك) إشارة إلى علو مرتبة الآيات، وفي هذا توبيخ وتقريع، وفيه قوة التهديد.

ويلاحظ أن أدلة إثبات وجود الله ووحدانيته، ذُيلت فيها آي القرآن بعبارة ﴿لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ و ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ و ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لإفادة التلازم بين الإيمان الذي هو التصديق، واليقين الذي هو كمال الاقتناع، والعقل الذي هو إعمال الفكر الصحيح، وهذه كلّها ضروريات للمعرفة وتكوين العقيدة، لأنه في ضمن الإيمان العقل، واليقين، والتصديق. ويتوقف الاعتقاد على كل من العقل، وتيقن الشيء، ثم التصديق التام به الذي لا يخالطه أي شبهة أو شك، ولا يصح إيمان من دون هذه الأمور الثلاثة، التي ينبغي استعمال كل منها في موضعه، فيبتدئ المفكر من العقل أو القلب الواعي، ثم ينتقل بالدليل القطعي إلى اليقين، ثم يتحقق التصديق النهائي بالمعتقد الصحيح.

وعيد المكذبين بآيات الله

حينما لا تُجدي الكلمة المخلصة، والموعظة البالغة، ويصرُّ الإنسان على موقف الضلال والعناد، لا يبقى بعد ذلك إلا التهديد والوعيد بالجزاء الحاسم، وهكذا كانت توجيهات القرآن الكريم، مع المشركين المكيين وقت نزول الوحي، لم يترك القرآن وسيلة لتذكيرهم، وإقناعهم بالبراهين الحسية القاطعة على توحيد الله تعالى إلا سلكها معهم، ومع ذلك آثروا الشقاق والخلاف والمعارضة، والإبقاء على عقيدة الوثنية، وتكذيب الرسول ﷺ وبما أنزل عليه من الآيات البينات، فاستحقوا الوعيد

بجزاء النار، علماً بأنه لم تنفعهم أصنامهم شيئاً، ولا منعت عنهم الضرر، وهذا ما نصت عليه الآيات الآتية، لبيان أن القرآن وحده هو الهدى والمنقذ:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ(١) أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ(٢) بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ(٣) وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ(٤) أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/٧-١١].

الهلاك والعذاب. والمصائب من الحزن والشدة، لكل كذاب بآيات الله، كثير الإثم والمعاصي، لأنه يسمع آيات الله تتلى على مسامعه، وفيها الدلالة الواضحة على وحدانية الله وقدرته، ويبقى مُصِرّاً على كفره، ويتكبر ويتعاظم عن الإيمان بالآيات، معجباً بنفسه، وكأنه لم يسمع الآيات، فهو في عدم الالتفات إليها، والإصغاء لمغزاها، يشبه حال غير السامع، فأخبره أيها النبي وبشِّره بعذاب شديد مؤلم. والتعبير عن الخبر المحزن بالبشارة تهكم واحتقار. وقوله تعالى: ﴿يُصِرُّ﴾ أي يثبت على عقيدته من الكفر.

وسبب نزول هذه الآية: ما كان يفعله أبو جهل والنضر بن الحارث وغيرهما، من إصرار على الكفر وعناد. وتعم الآية كل من دخل تحت الأوصاف المذكورة إلى يوم القيامة.

والسبب الثاني لتعذيب أحد هؤلاء: أنه إذا علم هذا الأفاك الكذوب من آيات

(١) الويل: كلمة عذاب، والأفاك: الكذب. (٢) البشارة بشيء هي في الخير والمحابّ، فإذا قيدت بكلمة (العذاب) ونحوها أريد بها التهكم والاحتقار. (٣) أي أنصاراً يتولون أمورهم. (٤) الرجز: أشد أنواع العذاب.

الله شيئاً، أي أُخبر بشيء منها، اتخذها مهزوءاً بها، وموضعاً للسخرية والتندر، أولئك الأفاكون، لهم عذاب مهين، أي مشتمل على المذلة والهوان والافتضاح. وكلمة (أولئك) مشارٌ بها إلى قوله ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ لأنه اسم جنس، له الصفات المذكورة بعده.

وصفة ذلك العذاب: أن أمام أولئك الأفاكين جهنم يوم القيامة، أو أعقاب أفعالهم جهنم، ولا يدفع عنهم شيئاً من العذاب ما كسبوا في الدنيا من الأولاد والأموال، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٣/١٠ و ١١٦] ولا ينفعهم أي نفع، ولا تفيدهم الأصنام التي اتخذوها آلهة، يعبدونها من دون الله، وأعواناً وأنصاراً، يتوقعون منها النفع ودفع الضرر، ولهم عذاب شديد مؤلم في جهنم.

وقوله سبحانه ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ قال بعضهم: معناه: من أمامهم، والواقع لا داعي لهذا التأويل، فكلمة (وراء) في اللغة هي المفيدة لما يأتي خلف الإنسان، وما يأتي بعد الشيء في الزمان فهو وراءه، وجهنم وإحراقها للكفار: يأتي بعد كفرهم وأفعالهم. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني بذلك الأوثان. والفرق بين قوله أولاً: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ثم قوله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أن الوصف الأول يدل على الإهانة مع العذاب، والوصف الثاني يدل على بلوغ العذاب أشده في كونه ضرراً.

ثم وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه طريق النجاة المحققة، وأنه هادٍ إلى الحق، ومرشد إلى الصواب، وناقل الناس من الظلام إلى النور، والذين جحدوا بآيات ربهم في القرآن، سواء الآيات الكونية أو الشرعية، لهم أشد العذاب يوم القيامة. ووصف العذاب سابقاً بوصف (أليم) و (مهين) و (عظيم) يؤدي إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مِّن

رِجۡزٍ﴾ أي عذاب من أشد أنواع العذاب وأكثرها إيلاماً، لأن الرجز: أشد العذاب، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًىۖ﴾ إشارة إلى القرآن، وأنه كامل في كونه هدىً.

هذا التهديد والوعيد لكل أفاك أثيم، أي كذّاب كثير الآثام، مبالغٍ في اقترافها والإصرار عليها، يستدعي وقفة تبصر، وتأمل في المصير المشؤوم، سواء من الأفّاك نفسه، أو من كل سامع، ربما يتصف بهذه الصفات.

ويؤكد ذلك: أن الأفّاكين يتعرضون لخسارة محققة، فلا تفيدهم الأصنام التي عبدوها شيئاً. ويجد المتأمل المتبصر القرآن أمامه هادياً إلى الخير، ومبعداً له عن الشر، وآخذاً بيده نحو الطريق الأفضل، والسبيل الأقوم، فما على كل عاقل إلا أن يقبل على مائدة القرآن، ينهل منها ما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة.

من نعم الله تعالى

لا تفتأ تمر لحظة في حياة الإنسانِ المؤمن وغير المؤمن إلا والله ينعم عليه بنعم كثيرة، في نفسه وأفعاله وتحركاته، وأنشطته الاقتصادية والاجتماعية، وكلاءة هذه النعم ليقوم الدليل الدائم على وجود الله تعالى وفضله وتوحيده، وأنه الإله المعبود بحق، وفي ذلك مدعاة التأمل والتفكر، وضرورة التفويض لله تعالى في شأن عباده، والسمو عن التعصب ونظرة الحقد، ومعاملة الآخرين غير المؤمنين بالسماحة والعفو، والجزاء ينتظر الجميع: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال الله تعالى مقرِّراً هذه الأصول:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ(١) لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ(٢) فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ

(١) ذلّل وهيّأ. (٢) السّفن.

﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟(١) لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/ ١٢-١٥].

هذه باقة مزدهرة من أفضال الله ونعمه العديدة وهي:

- أن الله تعالى هو الذي ذلَّل لكم البحر لجريان السفن فيه بإذنه وتيسيره، وللاتِّجار والتَّكسُّب بين الأقطار، وللصيد، ولاستخراج الدّر واللؤلؤ والمرجان وغيرها من أعماق البحار، وللسفر للحج والجهاد وغيرهما، وليكون ذلك موجباً للشكر على هذه النِّعم بسبب هذا التسخير والتيسير، وتحقيق المنافع لبني آدم.

وهذه آية عبرة في جريان السفن في البحر، لأن الله تعالى سخَّر هذا المخلوق العظيم لهذا المخلوق الضعيف. وقوله ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أناب القدرة والإذن مناب أن يأمر البحر والناس بذلك. والابتغاء من فضل الله تعالى: هو بالتجارة في الأغلب. وتسخير البحر بثلاثة أشياء: توفير الرياح المساعدة على سير السفن، أو التمكين من اختراع الطاقة الكهربائية والذّرية والفحم وغير ذلك، وقدرة تحمُّل الماء لمئات الأطنان والآلاف، التي قد تزيد حمولة السفينة فيها على نصف مليون طن، وإبقاء الخشب والحديد طافياً على وجه الماء دون إغراق.

- وذلَّل لكم أيضاً جميع ما في السماوات من شمس وقمر، وكواكب ونجوم، ومجرَّات ورياح، وملائكة وغيرها، وجميع ما في الأرض، من جبال و بحار وأنهار، ورياح وأمطار، ومنافع أخرى، فضلاً منه ورحمة، إن في ذلك التسخير لدلالات واضحات على قدرة الله عزّ وجلّ وتوحيده وفضله، لقوم يتفكرون فيها، ويستدلُّون بها على التوحيد.

(١) جواب شرط مقدَّر، تقديره: قل للذين آمنوا يغفروا، أو اندب المؤمنين للغَفْر.

وقوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ قال ابن عباس: كل إنعام فهو من الله تعالى. لذا أمر الله بمحاسن الأخلاق، فقل أيها النَّبي للمؤمنين أتباعك بأن يعفوا ويصفحوا عن مؤذيات المشركين الذين لا يتوقعون عذاب الله ونعيمه، لعدم إيمانهم بالبعث، ليجزي الله أولئك المؤمنين، بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة، التي منها الصبر على أذى الكافرين.

نزلت هذه الآية في صدر الإسلام، أمر الله تعالى المؤمنين فيها أن يتجاوزوا عن الكفار، وألا يعاقبوهم بذنب، بل يأخذون أنفسهم بالصبر عليهم والمصابرة لهم. والآية تتضمن الغفران عموماً.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أنزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٥]. قال فنحاص اليهودي: احتاج ربُّ محمد، تعالى الله عزّ وجلّ عن قوله، فأخذ عمر رضي الله عنه سيفه، ومرَّ ليقتله، فردَّه رسول الله ﷺ وقال له: إن ربَّك يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ..﴾ وأيام الله معناه: أيام إنعامه ونصره ونعيمه في الجنة وغير ذلك. ويرجون: بمنزلة (يخافون). وقوله: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ وعيد للكافرين.

ومضمون الآية: أن الله تعالى يجزي قوماً بكسبهم، ويعاقبهم على ذنوبهم وإجرامهم، وأكّد ذلك بقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ..﴾. أي إن كل عمل صالح يعمل به الإنسان، وهو مما أمر الله تعالى به، أو نهى عنه، يعمل به لنفسه ومصلحته، ومن أساء العمل باجتراح السيئات والمنكرات، فعلى نفسه جنى، ثم تعودون أيها البشر إلى الله يوم القيامة، فتُعْرَضون بأعمالكم عليه، فيجزيكم عليها خيرِها وشرِّها. ويلاحظ أنه تعالى عبَّر عن مجيء العمل الصالح باللام، والإساءة بعلى.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ معناه: أنكم جميعاً معشر الخلائق ترجعون إلى قضائه وحكمه. إن هذا البيان الإلهي أجمعُ بيان، وأوجزُه، وأكثره عظة وعبرة، ومعذرة ونفعاً، فجزاء العمل الصالح حقّ وعدل، وجزاء العمل السيئ حقّ وعدل أيضاً، والميزان ميزان التمايز بالأعمال التي يفعلها الإنسان باختياره وإرادته، فيسأل عنها على النحو الصادر منه.

نعمة الشرائع

الشريعة الإلهية: هي النظام الأمثل للحياة البشرية في جميع أنحائها ومشتملاتها، تحقق الحاجة والمصلحة، وترعى الضعيف، وتنصف المظلوم، وتقيم العدل، وتضمن للقائم بها عز الدنيا، وسعادة الآخرة، وكان لبني إسرائيل شريعة في التوراة، لكنها اندثرت وضاعت، واختلفوا فيها بغياً وعدواناً، ثم ختمت الشرائع بشريعة خاتم النبيين، ليلزم بها جميع الناس، فهي عين البصيرة والحق، والهداية، والرحمة الشاملة، وليس من المعقول، ولا من مقتضى العدالة أن يتساوى المحسن والمسيء، والصالح والفاجر، والسعيد والشقي. وهذا ما أوضحته الآيات الكريمة:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ[1] وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا[2]
بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ
شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ
ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ[3] بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ[4] ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ

(١) الفهم والقضاء والحكمة والسنة . (٢) تظالماً بينهم . (٣) أي أنصار وأعوان . (٤) أي نصير المؤمنين .

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟(١) ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ(٢) وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/١٦-٢٢].

المعنى: تالله، لقد آتينا الإسرائيليين كتاب التوراة، والسُّنَّة والفقه والقضاء، وما تكرر فيهم من الأنبياء عليهم السلام كموسى وهارون، ورزقناهم من المستلذَّات الحلال، لتتم النعمة ويحسن تعدادها، مثل المن والسلوى وطيبات الشام بعدُ، إذ هي الأرض المباركة، وفضلناهم على عالَم زمانهم. وآتيناهم بينات من الأمر، أي الوحي الذي فُصِّلت به لهم الأمور، ولكنهم لم يشكروا هذه النعم الست، بل اختلفوا في أمر الدين وأخطؤوا، فلم يكن اختلافهم اجتهاداً في طلب الصواب، حتى يعذروا في الاختلاف، وإنما اختلفوا بغياً وظلماً بينهم، بعد أن تبينوا الحقائق، فتوعدهم الله تعالى بوقف أمرهم على قضائه بينهم يوم القيامة، فإن الله سيفصل بينهم بحكمه العدل يوم القيامة، في شأن اختلافهم في أمر الدين، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ويبين المحق من المبطل، وفي هذا تحذير للمسلمين أن يختلفوا كاختلاف بني إسرائيل.

وأعقب الله تعالى بعد شريعةِ موسى عليه السلام شريعةَ النبي محمد ﷺ، فإياك أيها النبي من الاختلاف، واتبع شريعتك المنزلة عليك: وهي المشتملة على الفرائض والحدود والأمر والنهي، وهي من جملة أمر الله المشتمل على الأوامر والنواهي، ولا تتبع ما لا حجة فيه من أهواء الجهال المشركين، الذين لا يعلمون توحيد الله وشرائعه. والذين لا يعلمون: هم الكفار الذين كانوا يريدون صرف محمد ﷺ إلى إرادتهم.

(١) اقترفوا وأصابوا. (٢) خلقاً ملازماً للحق وبمقتضى الحق.

إن هؤلاء الكفار المشركين الجهلة، لن يدفعوا عنك من الله شيئاً أراده بك، إن اتبعت أهواءهم، وخالفت شريعتك.

ثم حقَّر الله تعالى شأن الظالمين، مشيراً بذلك إلى كفّار قريش، فإنهم يتولى بعضهم بعضاً، والمتقون: يتولاهم الله عز وجل، فخرجوا عن ولاية الله تعالى وعونه ونصره، وتبرأت منهم، ووكل الله تعالى بعضهم إلى بعض.

وهذا القرآن بصائر للناس، أي معتقدات وثيقة منوِّرة للناس طريقهم، وهادية إلى الجنة كل من عمل بها، ورحمة من الله وعذابِه في الدنيا والآخرة، لقوم يوقنون بصحة الشرع وتعظيم ما فيه.

بل ظن الذين اقترفوا الآثام والمعاصي في الدنيا، وكفروا بالله ورسله، وعبدوا غيره، أن نجعلهم كالذين صدَّقوا بالله ورسله، وعملوا الأعمال الصالحة من إقامة الفرائض، واجتناب المحارم، بأن نسوي بينهم في الجزاء والثواب في الدنيا والآخرة، وأن مَحْياهم ومماتهم سواء، فلا يستوي الفريقان حياة وموتاً، ثواباً وعقاباً، لأن المحسنين عاشوا على الطاعة، وأولئك المشركون عاشوا على المعصية، إن زعموا ذلك، ساء الحكم حكمهم، وبئس القرار قرارهم.

نزلت هذه الآية في علي وحمزة وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، وفي ثلاثة من المشركين عتبة وشيبة والوليد بن عتبة، قالوا للمؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقاً، لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أنا أفضل حالاً منكم في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام.

والدليل على صحة مبدأ التفاوت في الآخرة وحكم الله بين المحسنين والمسيئين: أن الله تعالى خلق أو أبدع السماوات والأرض بالحق المقتضي للعدل بين الناس،

فلو لم يوجد البعث والحساب والجزاء، لما كان ذلك الخلق بالحق، بل كان بالباطل، ومن العدل: اختلاف الجزاء بين المحسن والمسيء، فتجزى كل نفس بما قدمت، من عمل صالح أو سيئ، وهم لا يظلمون شيئاً بنقص ثواب أو زيادة عقاب.

الوثنية وإنكار البعث

للمشركين الوثنيين سيئات كثيرة، ومآخذ وعيوب عديدة، من أخطرها عبادة الأصنام، عملاً بالهوى والشهوة، وإنكارُهم البعث، وقولهم: ما يهلكنا إلا الدهر، أو الليل والنهار، وبُعْدهم عن الحق والخير، بسبب كفرهم وعنادهم، واعتمادهم على الأوهام والتخمينات، والتقليد الأعمى، فنبههم القرآن الكريم إلى أدلة قدرة الله وتوحيده، وإمكانه إحياء الناس مرة أخرى، وإلى حسابهم وجزائهم على ضلالهم، ومفاجأتهم بصحائفهم المدوّن فيها أعمالهم وعقائدهم، بالحق والعدل، دون زيادة أو نقص، لتكون شاهدة عليهم، وهذا بيان القرآن لأحوالهم:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ[(١)] وَأَضَلَّهُ[(٢)] ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً[(٣)] فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ[(٤)] مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ[(٥)] كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا

(١) مجاز مرسل بإطلاق الرؤية وإرادة الإخبار من قبيل إطلاق السبب وإرادة المسبب. (٢) خذله الله وزاد في ضلاله لعناده. (٣) هذه كلها استعارات، لأن الضالين لا ينفعهم ما يسمعون، ولا ما يرون. (٤) واضحات. (٥) باركة على الركب أو مجتمعة أو مستوفزة مستعدة للانطلاق.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

[الجاثية: ٤٥/ ٢٣-٢٩].

آسى الله تعالى أو آنس نبيه عن إعراض المشركين عن الإيمان، فطلب منه ألا يحفل بهم، ولا يهتم بأمرهم، فليس فيهم حيلة لبشر، لأن الله بسبب إمعانهم في الكفر أضلهم. ومعنى الآية: أخبرني عن حال هؤلاء المشركين الذين أطاعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم ما يهوونه، فكأنهم جعلوا الهوى إلهاً يعبدونه من دون الله، فلا يهوى أحدهم شيئاً إلا اتبعه، وخذلهم الله، عالماً بضلالهم، لفساد استعدادهم وأحوالهم، وطبع الله تعالى على أسماعهم وقلوبهم، فلا يسمعون الوعظ، وجعل على أبصارهم غطاء، فلا يبصرون الهدى والحق، فمن الذي يرشدهم للصواب بعدئذ؟ أفلا تتذكرون وتتعظون أيها المشركون؟ والهوى: ما تريده النفس وتحبّه.

نزلت كما أخرج ابن المنذر وابن جرير الطبري عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تعبد الحجر حيناً من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه، طرحوا الأول، وعبدوا الآخر، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾. وهذه الآية وإن كانت نزلت في هوى الكفرة، فهي متناوله جميع أهواء النفس الأمّارة بالسوء . وآية ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ. .﴾ قال مقاتل: نزلت في أبي جهل.

وهذه الآية لا حجة للجبرية فيها، لأن التكسب فيها منصوص عليه في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على علم من هذا الضلال، فإن الحق هو الذي يترك ويعرض عنه، فهم معاندون مكابرون.

وقال المشركون الماديون، والدهريون المنكرون للبعث: مافي الوجود إلا هذه الحياة الدنيوية التي نحن فيها، وليست ثَمَّ آخرة ولابعث، وما يهلكنا إلا طول الزمان

أو الدهر، ولا دليل لهم على هذه المقالة من نقل أو عقل، وما مستندهم إلا الظن والتخمين، من غير حجة أصلاً، فهي ظنون منهم وتخرُّصات، تفضي بهم إلى الإشراك بالله تعالى. والدهر والزمان بمعنى واحد عند العرب. أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، فأنزل الله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾

ودليلهم على إنكار البعث ما قالوا: إذا تليت عليهم بعض آيات القرآن، واضحات الدلالة على قدرة الله على البعث والقيامة، قالوا: أحضروا آباءنا الذين ماتوا أحياءً، إن كنتم أيها المؤمنون صادقين في إمكان البعث، لنسألهم عما رأوا، ويشهدوا لنا بصحة البعث.

فأجابهم الله تعالى: قل أيها النبي لهؤلاء المشركين منكري البعث: إن الله أحياكم في الدنيا، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يجمعكم جميعاً يوم القيامة، جمعاً لا شك فيه بعد إماتتكم، بلا ريب في نفسه وذاته، فإن الذي قدر على البداءة، قادر على الإعادة بطريق الأولى، ولكن أكثر الناس، وهم مشركو العرب ينكرون البعث، من غير تأمل ولا تدبر وإمعان فكر.

ودليل آخر على إمكان البعث: قدرة الله الخارقة، فالله مالك السماوات والأرض، والحاكم فيهما، والمتصرف بهما وحده في الدنيا والآخرة، ويوم تقوم القيامة، يخسر المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل، بدخول جهنم، يظهر خسرانهم في ذلك اليوم، لصيرورتهم إلى النار.

ومن أهوال القيامة: ترى كل أمة (جماعة عظيمة من الناس يجمعها معنى أو وصف شامل لها) جاثيةً على الركب، وهي هيئة المذنب الخائف، فهم لشدة الأمر، يجثون على الركب بين يدي الله عند الحساب، وكل أمة تُدعى إلى كتابها المنزل

على رسلهم، أو إلى صحف أعمالهم، وفي يوم القيامة: يجزيكم الله بما عملتم في الدنيا من خير وشر، تجازون فيها، من غير زيادة ولا نقص.

وهذه صحف الأعمال التي أمر الله الملائكة الحفظة بكتابتها، تشهد عليكم، وتذكر جميع أعمالكم، من غير زيادة ولا نقص، إن الله كان يأمر الحفظة أن تكتب أعمال الناس عليهم، وتثبّتها وتحفظها عليهم، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين هم في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة، أي إن الله عن طريق ملائكته يقيد كل ما عمل الناس، ويحدُث تطابق ومراجعة بين ما دوّنته الحفظة، من اللوح المحفوظ، وبين ما يفعله العباد، ثم يمسكونه عندهم، فتأتي أفعال العباد على نحو ذلك، وهذا هو الاستنساخ المذكور في الآية (٢٩).

أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة

أخبر القرآن الكريم عن أحوال المؤمنين وجزائهم الحسن، وأحوال الكافرين وسوء عقابهم، للمقارنة أو الموازنة بين مصير الفريقين، فإن الأشياء تتبين بأضدادها، فيبين الأمر في نفس السامع، ومن أسباب عقاب الكفار: إنكار القيامة، واستبعادهم لها، وتوهم وجودها من غير تحقق ولا تيقن، واستهزاؤهم بها، واغترارهم بالدنيا، وترك استعدادهم للآخرة، بالإيمان والعمل الصالح، مع أن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة، لأنه يملك السماوات والأرض ومابينهما، وهو رب العالمين جميعاً، وهو صاحب العزة والكبرياء، فلا يغالبه أحد، هذا ما وصف القرآن لنا:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ[1] ٱلْمُبِينُ

(١) الفوز: نيل البُغية.

﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا(١) قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ(٢) بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ(٣) ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

[الجاثية: ٤٥/ ٣٠-٣٧].

ذكر الله تعالى حال الفريقين من المؤمنين والكافرين، ليتبين الأمر للمخاطب في نفسه، ويعتبر من المقارنة بين الحالين، من طريق المقابلة وذكر الأضداد. فأما الذين صدقوا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا صالح الأعمال، بأداء الفرائض أو التكاليف، فيدخلهم ربهم الجنة، وذلك الإدخال محقق لنيل البغية والظفر بالمطلوب.

وأما الذين أنكروا وحدانية الله والبعث، فيقال لهم على سبيل التوبيخ: ألم تكن آياتي الكونية والقرآنية تتلى على مسامعكم، فاستكبرتم وأبيتم الإيمان بها، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم، بارتكاب الآثام والمعاصي.

وإذا قيل لهؤلاء الكفار: إن وعد الله بالبعث والحساب حق ثابت، والقيامة حتمية لا شك في وقوعها، فآمنوا بذلك، أجبتم: لا نعرف ما القيامة؟ إن نتوهم بوقوعها إلا توهماً ضعيفاً، ولسنا بمتحققين أن القيامة آتية، أي إن نظن بعد قبول خبركم إلا ظناً ضعيفاً، ولا يعطينا يقيناً.

وظهر لهم حال يوم القيامة وقبائح أعمالهم، وأحاط ونزل بهم جزاء أعمالهم

---

(١) أي لا شك في نفسه وذاته . (٢) أحاط بهم ونزل . (٣) لا يطلب منهم العتبى بإرضاء ربهم بالتوبة والطاعة، لفوات الأوان .

بدخولهم النار، وعوقبوا بما هزئوا به في دار الدنيا: وهو العذاب والنكال. وقوله: ﴿مَّا كَانُوا۟﴾ على حذف مضاف، تقديره: جزاء ما كانوا، أي عقاب كونهم يستهزئون.

والنجاة ميئوس منها. فيقال لهم: اليوم نعاملكم معاملة الناسي لكم، فنترككم في العذاب، كما تركتم العمل لهذا اليوم، وتجاهلتم ما نزل في القرآن، ومستقركم الذي تأوون إليه هو النار، وليس لكم من أنصار، ينصرونكم ويمنعون عنكم العذاب، وبعبارة أخرى: نترُكُكم كما تركتم لقاء يومكم هنا، فلم تستعدوا ولم تتأهبوا له، فسميت العقوبة في هذه الآية باسم الذنب.

والمأوى: الموضع الذي يسكنه الإنسان، ويكون فيه عامة أوقاته.

وأسباب هذا العقاب: أنكم اتخذتم القرآن هزواً ولعباً، وخدعتكم الدنيا بزخارفها وزينتها، فاطمأننتم إليها، فاليوم لا يخرجون من النار، ولا يطلب منهم العتبى، بالرجوع إلى طاعة الله، واسترضائه، لأنه يوم لا تقبل فيه التوبة، ولا تنفع فيه المعذرة، لفوات الأوان، والله وحده هو القادر على البعث، فله الحمد الخالص على النعم الكثيرة لله خالق السماوات والأرض ومالكهما، ومالك ما فيهما من إنس وجن وحيوان، وأجسام وأرواح، وذوات وصفات.

ولله العظمة والجلال في أرجاء السماوات والأرض، وهو سبحانه القوي الغالب القاهر في سلطانه، فلا يغالبه أحد، الحكيم في أقواله وأفعاله. وهذا تحميد لله تعالى، وتحقيق لألوهيته، وإبطال لألوهية الأصنام، جاء في الحديث الثابت الذي أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما، أسكنته ناري» وفي لفظ (قصمته).

الله تعالى هو الجدير بالعبادة، لأنه شامل الملك في السماوات والأرض، وكامل الذات والوجود والأوصاف، والمتنزه عن كل نقص، وله وحده الكبرياء والعظمة، الظاهر آثارهما في السموات والأرض، العزيز الذي لا يُغلب، القادر الذي لا يعجز، الحكيم في كل ما قضى وقدر، فاحمدوه وحده أيها العباد، واعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأطيعوا كل ما أمر. هذه خاتمة سورة الجاثية وهي خاتمة رائعة، والقرآن كله ينطق بالحق والعدل.

تفسير سورة الأحقاف

إثبات وحدانية الله تعالى

إثبات توحيد الله والبعث: هما أساس الخلاف الحادّ مع المشركين، لذا عُنيت آيات القرآن الكريم بالرد على مزاعم هؤلاء المشركين حول تعدد الآلهة، وألوهية الأصنام، ونفي البعث، ومحور الرد يعتمد على إثبات القدرة الإلهية، بخلق السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات، وسلب القدرة الخلاقة على الخلق عن الآلهة المزعومة، ونفي إمكان نفعها لعابديها في الدنيا والآخرة، بل تكون أعداء لعابديها، وهذا هو الكلام الفصل في الآيات الآتية في مطلع سورة الأحقاف المكية:

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ(١) وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ(٢) إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ١-٦].

---

(١) أي بالواجب الحسن الذي قد حق أن يكون. (٢) أي بقية ثابتة من علم صحيح. والأثارة: مصدر كالشجاعة والسماحة: وهي البقية من الشيء وكأنها أثره.

افتتحت السورة بالأحرف المقطعة للتنبيه على ما يأتي في السورة، ولتحدي العرب بالإتيان بمثل القرآن أو آية منه. وتقترن هذه الأحرف غالباً بالتحدث عن القرآن، لإثبات نزوله من عند الله وإعجازه. وتنزيل القرآن الكامل في كل شيء حاصل من الله عز وجل، القوي الغالب لكل من حادّه أو عارضه، المحكم المتقن، الحكيم في تدبيره وصنعه، وأقواله وأفعاله، يضع كل أمر في موضعه المناسب له.

ما أوجدْنا أو أبدعنا السماوات العليا، والأراضي السفلى، إلا بما يتفق مع الواجب الحُسن، الذي حق أن يكون، وإلى مدة معينة لا تزيد ولا تنقص، وهي يوم القيامة. والذين جحدوا وحدانية الله: معرضون عن الإنذار، وإنزال الكتب، وإرسال الرسل، فهم لاهون عما يراد بهم.

ثم ردّ الله تعالى على عبدة الأوثان، آمراً نبيه أن يقول للمشركين الوثنيين: أخبروني عما تَدْعون من غير الله كالأصنام وأهل القبور، بعد التأمل في الكون، وخلق السماوات والأرض وما بينهما، هل تمكّنوا من إبداع أو خلق شيء في الأرض؟ وهل لهم مشاركة في ملك السماوات والتصرف فيها؟ الواقع أنهم عجزة عجزاً تاماً عن خلق شيء، أحضروا لي دليلاً مكتوباً قبل القرآن، مما نزل على الأنبياء كالتوراة والإنجيل، يدل على صحة عبادة الأصنام؟ أو هل لكم بقية من علم الأنبياء السابقين، أو أحد العلماء؟ يرشد إلى صحة هذا المنهج الذي سرتم عليه، ويقتضي عبادة الأصنام، إن كنتم صادقين في ادعائكم ألوهية الأصنام أو الأوثان؟ والمعنى: لا دليل لكم من النقل أو العقل على ذلك، وليس لكم كتاب منزل قبل القرآن، يتضمن عبادة صنم أو وثن.

وقوله تعالى ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من: للتبعيض، لأن كل ما على وجه الأرض من حيوان ونحوه فهو من الأرض.

ثم وبّخ الله تعالى عبدة الأصنام، مبيناً أنه لا أحد أضل ممن هذه صفته، بعبادة الأصنام من دون الله، فإنه يدعو من لا يسمع إلى يوم القيامة، والأصنام غافلون عمن دعاهم، لا يسمعون ولا يعقلون، لكونهم جمادات. والمراد: أنه ليس للأصنام قدرة على شيء، ولا علم لديها بشيء، فهي جمادات، وعبادة الجماد: محض الضلال، فهم لا يتأملون ما هم عليه في دعاءِ مَنْ هذه صفته.

وعبر عن الأصنام بقوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ كخطاب العقلاء، معاملة لها كالعقلاء، في مزاعم أصحابها وعبدتها.

ومما يؤكد نفي العلم الدال على عبادة الأصنام: أنه إذا جُمع الناس الكفار، [والأصنام يوم القيامة في موقف الحساب، كانت الأصنام لهم أعداء، تُظهر التبري منهم والإنكار عليهم، وتصبُّ اللعنة عليهم، وتقول كما حكى القرآن الكريم عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣/٢٨] وكانت الأصنام جاحدين مكذبين بتلك العبادة. وكذلك تتبرأ الملائكة والمسيح عيسى ابن مريم وعُزَير والشياطين ممن عبدوهم يوم القيامة.

إن العقل الإنساني السوي، وعزة الإنسان وكرامته، يأبى كل ذلك الخضوع الإرادي لصنم أو وثن، لا يضر ولا ينفع، ولا يعقل ولا يسمع، ولا يفهم ولا يستجيب لشيء، ومع كل هذه الأدلة القاطعة والبراهين المحسوسة يظل البدائيون في بعض البلاد الإفريقية وغيرها عاكفين على أصنامهم في القرن العشرين، على الرغم من دراساتهم العلمية في الجامعات الأمريكية والأوربية، بعد عودتهم لبلادهم، كما هو مشاهد ومعروف.

شبهات المشركين

حاول المشركون الدفاع عن أفكارهم ومعتقداتهم، بإلقاء الشبهات الفارغة حول القرآن الكريم، والوحي الإلهي والنبوة، فوصفوا القرآن بالسحر، وكذبوا بالنبوة، فزعموا أن محمداً افترى القرآن من عند نفسه، لا بوحي من ربه، وطالبوا بمعجزات مادية عجيبة للتحدي والإرباك، وبأن يخبرهم عن بعض الغيبيات، واستعلوا على فئة الضعفاء، وأنفوا من مجالستهم، وقالوا: لو كان هذا الدين خيراً ما سبقونا إليه، فأبطل القرآن دعاويهم، وأوضح مهمة القرآن من إنذار الظلمة وتبشير المحسنين، وبيان عاقبة المستقيمين من الخلود في الجنان، وإبعاد المخاوف والأحزان عنهم، قال الله تعالى واصفاً ذلك:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ[1] قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ[2] فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا[3] مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ[4] قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/٧-١٤].

---

(١) أي واضحات . (٢) تندفعون إليه وتأخذون فيه . (٣) مبتدعاً ليس له مثيل . (٤) كذب قديم .

المعنى: إذا تليت آيات القرآن الواضحة على المشركين، وصفوا الحق الذي أتاهم وهو القرآن بأنه سحر واضح، وتمويه كاذب، أي إنهم كفروا وافتروا وكذَّبوا.

بل إنهم يقولون: افترى محمد القرآن، واختلقه من عند نفسه، كذباً على الله، فقل أيها الرسول لهم: لو افتريته وكذبتُ على الله، على سبيل الافتراض، لعاقبني الله تعالى أشد العقاب، ولا تملكون أن تعملوا لي شيئاً، أو تسعفوني وتنقذوني. والله أعلم بما تقولون في القرآن وتخوضون فيه، من تكذيبه، ووصفه بالسحر والكهانة، كفى بالله شاهداً صادقاً يشهد لي: بأن القرآن من عند الله، وبتبليغه إياكم، ومع هذا فالله غفور لمن تاب وآمن، وصدق بالقرآن وعمل به، وهو رحيم به، حيث لا يعاقبه على ما سبق منه، وفي هذا جمع بين الوعيد والترهيب، والترغيب لهم في التوبة والإنابة.

وقل لهم أيها الرسول على اقتراح المعجزات: لستُ بأول رسول في العالم، ولا مبتدعاً شيئاً لا مثيل له، بل هناك رسل كثيرون قبلي، ولا أعلم ما يفعل بي ولا بكم في المستقبل، وإنما أتبع الوحي الذي أنزله الله علي في القرآن والسنة، ولا أبتدع شيئاً من عندي، ولست إلا نذيراً لكم، أنذركم عقاب الله وأخوِّفكم عذابه، وأوضح ما جاء من عند الله عز وجل.

ثم أكد الله خسارة المشركين، فقل أيها الرسول لهم: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله في الحقيقة، ثم كفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل، العالمين بالتوراة على صحته وعلى ما قلت، فآمن هذا الشاهد: وهو عبد الله بن سلام الذي أسلم بعد الهجرة، ثم تكبرتم عن الإيمان به، فقد ظلمتم أنفسكم، والله لا يوفق الظالمين إلى الخير.

أخرج البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: في عبد الله بن سلام نزلت

هذه الآية، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾، ثم قال مشركو مكة حينما رأوا إيمان جماعة من الفقراء المستضعفين، كعمار وصهيب وابن مسعود: لو كان هذا الدين خيراً، ما سبقنا إليه هؤلاء، وحين لم يهتدوا بالقرآن ظهر عنادهم، وسيقولون بعدئذ: هذا كذب مأثور عن الأقدمين. نزلت كما أخرج الطبري عن قتادة قال: قال ناس من المشركين: نحن أعز، ونحن ونحن، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان، فنزل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ..﴾ وقال قتادة أيضاً: هي مقالة أشراف قريش، يريدون عماراً وصهيباً وبلالاً ونحوهم ممن أسلم، وآمن بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ومما يدل على أن القرآن حق وصدق، وأنه من عند الله: اعترافكم أيها المشركون بإنزال التوراة على موسى، الذي هو إمام وقدوة يقتدى به في الدين، وهو رحمة لمن آمن به، وهذا القرآن الموافق للتوراة في أصول الشرائع، مصدق لكتاب موسى ولغيره من الكتب المتقدمة، أنزله الله لينذر به النبي من عذاب الله الذين ظلموا أنفسهم، وهم مشركو مكة، ويبشّر به المؤمنين الذين أحسنوا عملاً.

ثم ذكر الله تعالى حال المؤمنين، وجزاءهم الأخروي، فإن الذين جمعوا بين التوحيد والاستقامة على منهج الشريعة، لا يخافون من وقوع مكروه بهم في المستقبل، ولا يحزنون من فوات محبوب في الماضي. والخوف: هو الهمّ بما يستقبل، والحزن: هو الهمّ بما مضى، وقد يستعمل فيما يستقبل استعارة، لأنه حزن لخوف أمر ما.

أولئك المؤمنون الموحدون المستقيمون على أمر الله: هم أهل الجنة ماكثون فيها على الدوام، مقابل ما قدموه من أعمال صالحة في الدنيا، أي إن الجزاء بسبب العمل الصالح في الدنيا، على منهج العدل والحق. وهذا دليل على أن الله تعالى جعل الأعمال أماراتٍ على جزاء الإنسان، لا أنها توجب على الله تعالى شيئاً، لكن لا يكون دخول الجنة إلا بفضل من الله وإحسان.

الإيصاء ببرِّ الوالدين

- ١ -

البارّ بوالديه

الوالدان: سبب وجود الولد، ولهما الفضل بتربيته ورعايته، صغيراً وكبيراً، لذا كانت الوصية من الله تعالى لعباده ببر الأبوين، والإحسان إليهما، وكان برّ الوالدين في الشريعة واجباً بآيات كثيرة في القرآن العظيم، وعقوقهما كبيرة من الكبائر، روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن نبي الله ﷺ كان يقول: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده».

وألزم القرآن الكريم في آياته الأولاد برّ آبائهم وأمهاتهم، ونهى عن عقوقهم، وذكر الله تعالى حق الأمهات على الأبناء والبنات، وجعل الأم في أربع مراتب، والأب في مرتبة واحدة، كما في هذه الآيات:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ[١] ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ[٢] وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ[٣] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/١٥-١٦].

نزلت هذه الآية -كما ذكر الطبري- في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم

---

(١) فطامه وهو الرضاع المنتهي بالفطام. (٢) أي كمل عقله ورأيه وقوته، وأقله ثلاثون سنة. (٣) ألهمني ووفقني ورغبني.

هي تتناول من بعده. وقال السدّي والضحاك: نزلت في سعد بن أبي وقاص، والأولى أنها للعموم الشامل لهاتين الواقعتين وغيرهما.

والمعنى: وصينا الإنسان وأمرناه أن يحسن لوالديه، في الحياة وبعد الموت. والتوصية: الأمر المقترن بالوعظ والإشعار بالعناية بالشيء المأمور به. والإحسان: بالحنو عليهما والكلام اللطيف معهما، والإنفاق عليهما عند الحاجة، والبشاشة عند لقائهما. وذكرت الأم مرة في قوله تعالى: ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ ثم ذكرت في مراتب ثلاث أخرى وهي حمل الأم ثم وضعها، ثم رضاعها الولد الذي عبر عنه بالفصال، وهذا يناسب ما قال رسول الله ﷺ حين جعل للأم ثلاثة أرباع البر، والربع للأب. وذلك حين قال له رجل: «يا رسول الله، من أبرّ؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أباك»[١].

والحمل والوضع بكرهٍ، أي بمشقة. حتى إذا بلغ الولد أشده، أي كمل عقله ورأيه، واشتد ساعده، وذلك: ستة وثلاثون، في أقوى الأقوال، وبلغ أربعين سنة، قال: رب ألهمني ووفقني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها علي، وعلى والديّ، من نعمة الهداية إلى الدين الحق والتوحيد، وغير ذلك من نعم الدنيا، كسلامة العقل والصحة، ووفرة العيش، وكمال الخلقة، وحنان الأبوين في الصغر، وألهمني ووفقني للعمل الصالح الذي ترضاه مني: وهو الصلوات، وأصلح لي في ذريتي بجعلهم أهل طاعة وخيرية، ومعنى الآية: أن هكذا ينبغي للإنسان أن يفعل، وهذه وصية الله تعالى في كل الشرائع.

إني تبت من الذنوب، ورجعت إليك من العيوب، وإني من المنقادين لطاعتك، المخلصين لتوحيدك.

---

(١) رواه البخاري ومسلم، ولفظهما: ((من أحق الناس بحسن صحابتي ؟)) .

وجزاء هؤلاء الصالحين: أن الله تعالى يتقبل من أولئك الموصوفين بالصفات المتقدمة أحسن أعمالهم، وهو ما قدَّموه من صالح العمل، وعمل الخير في الدنيا، المتفق مع أمر الله تعالى، ويعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، لأنها تتلاشى بالحسنات، كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١/ ١١٤]. وهم من جملة أصحاب الجنة، الذين سبقت لهم رحمة الله تعالى، وقد وعد الله أهل الإيمان بالقبول، وعداً صادقاً منجزاً.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بالإشارة إلى البعيد، لبيان علو منزلتهم، وهو إشارة إلى الإنسان المذكور باعتبار الجنس، في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ وجمعه باعتبار أفراد الإنسان، الذين تحقق فيهم ما ذكر من الأوصاف، بمعرفة حقوق الوالدين، والرجوع إلى الله بسؤال التوفيق للشكر، وذلك مشعر بأن هذه الأوصاف: هي أوصاف الإنسان الكامل. وقوله: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي حسن ما عملوا، فيشمل الحسن والأحسن. وقوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد لما قبله، أي وعدهم ذلك وعد الصادق في قوله وفعله، وتنفيذ وعده.

واستفيد من هذه الآية: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ ومن آية لقمان: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٤] أن أقل الحمل ستة أشهر، لأن الرضاع يكون في حولين كاملين في آية: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٣] فإذا كان أكثر مدة الرضاع حولين كاملين، بقي للحمل من الثلاثين شهراً: ستة أشهر. وكان علي رضي الله عنه أول من استدل بهاتين الآيتين، للدلالة على أقل مدة الحمل، وهي ستة أشهر.

- ٢ -

العاق لوالديه

الموازنة أو المقارنة بين الأضداد تظهر الفوارق، وتحمل الإنسان على تبين الاتجاه الأفضل، وترك التوجه الأدنى أو الأسوأ. فإذا كان البارّ بوالديه يتبوأ عند الله المنزلة العالية، ويرضى عنه، ويدخله جنته، فإن العاق لوالديه، في غضب الله وسخطه، وتعرضه لعذاب النار، وتحقق خسارته.

وقد أنزل الله تعالى آيات تفيد العموم في حال البارّ والعاقّ، ولم يصح كون آيات العقوق نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، بدليل قول عائشة رضي الله عنها: والله ما نزل في آل أبي بكر من القرآن غير براءتي، وإني لأعرف فيمن نزلت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ وهذه هي الآيات الآتية في العاق لوالديه:

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفٍّ(١) لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِى وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ(٢) ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ(٣) بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ(٤) ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/١٧-٢٠].

قال ابن عطية: الأصوب أن تكون هذه الآية في أهل هذه الصفات، ولم يقصد بها عبد الرحمن بن أبي بكر ولا غيره من المؤمنين، والدليل القاطع على ذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾ وكان عبد الرحمن

(١) كلمة تفيد التضجر. (٢) أباطيلهم التي سطروها في الكتب. (٣) الهوان والذل. (٤) تخرجون عن طاعة الله.

رضي الله عنه من أفضل الصحابة ومن الأبطال، وممن له في الإسلام غَنَاء، ويكفيه مقامه مع مروان يوم اليمامة وغيره.

والمعنى: والذي قال لأبويه حينما دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر: أفٍّ لكما، أي أتضجر وأتبرم مما تقولانه، أتخبرانني أنني سأبعث من قبري بعد الموت لموعد الله؟ إن هذا البعث مستنكر، فقد مضت الأمم الكثيرة من قبلي، كعاد وثمود، ماتوا ولم يبعث منهم أحد. ووالداه يسألان الله أن يوفقه للإيمان، ويقولان له: ويلك آمن بالله وبالبعث، أي هلاكاً لك، إن وعد الله حق لا خلف فيه، والمراد: الحث على الإيمان، فيقول هذا الولد مكذباً لما قال والده: ما هذا الذي تقولانه من البعث إلا أباطيل السابقين التي سطروها في الكتب، والبعث باطل في زعمه.

فكان جزاء هذا القائل ما ذكر الله تعالى: أولئك القائلون هذه المقالة هم الذين وجب عليهم العذاب، واستحقوا غضب الله، في جملة الأمم الكافرة المتقدمة، فهم منضمون في ذلك إليهم، سواء كانوا من الجن، أو الإنس الذين كذبوا الرسل، وهم من جملة الخاسرين، الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يقتضي أن الجن يموتون كما يموت البشر قرناً بعد قرن.

ثم ذكر الله تعالى مراتب كل من فريقي الإحسان والإساءة، فلكل فريق منهم مراتب ومنازل عند الله يوم القيامة، أما المحسنون الأبرار: فهم في المراتب العليا، وأما المسيئون الأشرار: فهم في المراتب الدنيا. والله يوفي الفريقين جزاء أعمالهم من الخير والشر، ومن أجل ما عملوا منها، وليوفيهم جزاء أعمالهم بنحو تام، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وهم لا يظلمون شيئاً بنقص ثواب، أو زيادة عقاب. فقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ يعني لكل من المحسنين والمسيئين منازل.

وأحوال العقاب وأهوال القيامة شديدة كئيبة، فاذكر أيها النبي لقومك حين

تعرض النار على الكفار، أي يعذبون فيها، . فهو عرض بالمباشرة، فيقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: استوفيتم لذاتكم في الدنيا، وتمتعتم بها، باتباع الشهوات واللذات، وصرفتموها في معاصي الله سبحانه، دون مبالاة بالذنب، ففي هذا اليوم تجازون بالعذاب الشديد الذي فيه مذلة وهوان، بسبب تكبركم عن عبادة الله، والإيمان به وتوحيده بغير حق، وخروجكم من طاعة الله إلى دائرة الفسق والفجور، فقد آثرتم اللذة الفانية على الدائمة.

و(الطيبات): الملاذ. و(عذاب الهون) العذاب الذي اقترن به هوان، وهو عذاب العصاة المواقعين ما قد نُهوا عنه، وهذا واضح في الدنيا، فعذاب المحدود في معصية، كالحرابة ونحوها مقترن بالهوان، وعذاب المقتول في حرب ليس فيه هوان. والهون والهوان: بمعنى واحد.

وهذه الآية، وإن كانت في الكفار، فهي رادعة لأولي العقل (النُّهى) من المؤمنين، عن الشهوات واستكمال الطيبات. ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه: «أتظنون أنّا لا نعرف طيب الطعام؟ ذلك لُباب (خالص) البر (القمح) بصغار المعزى، ولكنا رأينا الله تعالى نعى على قوم أنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا». ذكر هذا في كلامه مع الربيع بن زياد.

العبرة من قصة هود عليه السلام

لقد أورد القرآن الكريم أخبار مجموعة من قصص الأنبياء للعبرة والعظة، على النحو الجماعي والفردي. ومن هذه القصص قصة هود مع قومه عاد، وعاد قبيلة عربية من إرَم، كانوا يسكنون الأحقاف: وادٍ باليمن فيه منازلهم بين عُمَان ومَهْرة، والغاية من هذه القصة تذكير أهل مكة وأمثالهم، بقوم هود وما حل بهم، وقد كانوا

أشد منهم قوة وأكثر جمعاً، وقد أبادهم الله بالريح الصرصر العاتية، فهل من عاقل متعظ؟ هذا ما ذكرته الآيات الآتية:

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ(١) وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا(٢) عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا(٣) مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ(٤) بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ(٥) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ(٦) وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(٧) ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢١-٢٨].

أمر الله تعالى نبيه ﷺ بذكر قصة هود عليه السلام مع قومه عاد، على جهة المثال لقريش وأشباهها. اذكر أيها النبي لقومك أخا عاد: وهو هود عليه السلام، وهذه الأخوة هي أخوة القرابة، لأن هوداً عليه السلام كان من أشراف قبيلته عاد، وليست أخوة في الدين، وذلك حين أنذر، أي خوَّف قومه في وادي الأحقاف بحضرموت، وأخبرهم أن الرسل قبله وبعده أنذروا مثل إنذاره، وهو ألا يعبدوا غير الله تعالى، ولا يشركوا به شيئاً، فإني أخشى أن يحل بكم عذاب شديد عظيم الأهوال، والنذر: جمع نذير، اسم فاعل، أي منذر.

---

(١) واد باليمن كما ذكرت . (٢) لتصرفنا عن عبادة الآلهة. (٣) سحاباً عرض في أفق السماء. (٤) نزل بهم .
(٥) بيّناها لهم . (٦) كذبهم . (٧) أي وافتراؤهم بجعل (ما) مصدرية، أو يفترونه بجعل (ما) بمعنى الذي .

فأجابوه بقولهم: لقد أتيتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة الله، فأتنا بما تعدنا من العذاب العظيم، إن كنت صادقاً في قولك ووعيدك.

فرد هود عليه السلام قائلاً: إنما العلم بوقت نزول العذاب محصور بالله تعالى، لا عندي، وشأني مقصور على أن أبلغكم ما أرسلت به من ربكم من الإنذار والتحذير من العذاب، لا أن آتي به، فليس ذلك في مقدوري، ولكني أراكم قوماً تجهلون المخاطر في المستقبل، إذا أصررتم على الكفر، ولم تهتدوا بما جئتكم به.

وجاءت أمارات العذاب، حيث رأوا سحاباً متجهاً نحو أوديتهم، فقالوا: هذا سحاب ممطر، ففرحوا به واستبشروا، بعد أن امتنع عنهم المطر، فلم يكن مطر رحمة، وإنما مطر عذاب، وهذا هو العذاب الذي تعجلتم بطلبه، وهو ريح سموم فيها عذاب أليم، وهو المذكور في الآية السابقة حين قلتم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وضمير (رأوه) عائد على غير مذكور، دل عليه قوله: ﴿عَارِضًا﴾ وهو الشيء المرئي الطالع عليهم، فصار في حكم المعلوم.

وتلك الريح تخرب وتُهلك كل شيء مرت به، من نفوس وأموال، بإذن الله في ذلك، فأصبح قوم عاد جثثاً هامدة، وبادوا عن آخرهم، ولم تبق لهم بقية، وأصبحوا لا يرى إلا آثار مساكنهم، وهذا الحكم كحكم كل من كذب رسلنا وخالف أمرنا، ومثل هذا الجزاء نجازي كل قوم أجرموا، فلم يؤمنوا بالله، والمقصود: تخويف أهل مكة وأمثالهم.

وقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ ظاهره العموم، ومعناه الخصوص في كل ما أمرت بتدميره.

ولقد مكنا قوم عاد والأمم السالفة في الدنيا، من الأموال والأولاد، وقوة الأبدان، وطول العمر، بمقدار لم نجعل لكم يا أهل مكة مثله ولا نحوه، فقد كانوا

أشد منكم قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأعز جانباً، وأمنع سلطاناً. وإنهم أعرضوا عن هداية الله، على الرغم من منحهم السمع الجيد، والبصر السليم، والفؤاد الواعي، فما أفادهم كل ذلك شيئاً، نعدم إعمال تلك الحواس في المفيد، لأنهم كانوا ينكرون آيات الله، وأحاط أو نزل بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء بقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾.

ومن الواجب على العقلاء الاتعاظ بهذا المصير، فلقد أهلكنا يا أهل مكة ما حولكم من البلاد، من القرى المكذبة بالرسل، مثل قرى ثمود، ومدائن لوط، ومَدْين في جوار الحجاز، وأهل سبأ باليمن، وبيّنا الآيات وأوضحناها، لكي يرجعوا عن كفرهم، فلم يرجعوا.

فهلا نصرتهم آلهتهم التي تقربوا بها إلى الله لتشفع لهم، ودفعت الهلاك عنهم، بل غابوا وذهبوا عنهم، ولم يحضروا لنصرتهم، وعند الحاجة إليهم، وسبب ذلك الضياع وانعدام نفع آلهتهم: هو إفكهم، أي كذبهم، وما كانوا يفترون، أي يكذبون ويختلقون. وفي هذا توبيخ لأهل مكة، وتنبيه إلى أن أصنامهم لا تنفعهم شيئاً، فلو نفعت لأغنت من كان قبلهم.

وِفَادة الجن على النبي ﷺ

الرسول محمد ﷺ رسول لجميع العالمين من الإنس والجن، وقد بلّغ رسالته للفريقين، فكان فيهما من آمن، ومن كفر، فالمؤمن مثاب على إيمانه وعمله الصالح، والكافر معاقب على كفره وجحوده برسالة هذا النبي. أما طريقة التبليغ للإنس فمعروفة، وهي التبشير والإنذار، وإيضاح الدلالات الدالة على وجود الله وتوحيده ووجوب طاعته، بالحجة والإقناع، وأما طريقة تبليغ الجن فمجهولة لدينا، ولا

يدركها العقل، وإنما نؤمن بما جاء في الخبر الصحيح، إما من القرآن الكريم وإما من السنة النبوية. وهذه آي تصف قصة الجن ووِفَادتهم على النبي ﷺ.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا[(١)] مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ[(٢)] وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم[(٣)] مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ[(٤)] أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢٩-٣٢].

أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: إن الجن هبطوا على النبي ﷺ، وهو يقرأ القرآن ببطن نَخْلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، وكانوا تسعة، أحدهم زَوْبعة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ الآية، إلى قوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وهذا تأنيب للمشركين حيث إن الجن آمنوا، وهم كفروا.

والمعنى: اذكر أيها النبي لقومك حين وجهنا إليك نفراً من الجن، لاستماع القرآن والاهتداء به، فلما حضروا تلاوته، قالوا: أنصتوا، لكي يفهموا ويتدبروا، فلما انتهى النبي ﷺ من تلاوة القرآن في صلاة الفجر، عادوا إلى قومهم، مخوفين إياهم من مخالفة القرآن، ومحذرين لهم من العذاب. وكان هذا الوفد: من جن نصيبين أو من نينوى بالموصل، بعد رجوع النبي ﷺ من الطائف لدعوتهم إلى الإسلام، وعددهم تسعة، وذلك في بطن نخلة: على بعد نحو ليلة من مكة، على طريق الطائف.

(١) أي جماعة دون العشرة. (٢) انتهى أو فرغ من الشيء. (٣) يحمكم من عذاب مؤلم. (٤) أنصار يدفعون عنه العذاب.

وفي قولهم: ﴿أَنصِتُوا﴾ تأدب مع العالم، وتعليم كيف يكون التعلم.

وأكدت سورة الجن على هذا، باستماعهم القرآن وإيمانهم به، ومطلعها: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ٧٢/١-٢].

وأدى وفد الجن هذا مهمة تبليغ القرآن ورسالته إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا، إننا سمعنا كتاباً أنزله الله من بعد توراة موسى، مصدقاً لما قبله من الكتب المنزلة على الرسل، يرشد إلى الدين الحق، وإلى طريق قويم نافع في العقيدة والعبادة والمعاملة والخبر.

وخصصوا موسى عليه السلام بالذكر، لأحد أمرين: إما لأن هذه الطائفة من الجن كانت تتدين بدين اليهود، وإما لأنهم كانوا يعرفون أن موسى عليه السلام قد ذكر محمداً ﷺ وبشّر به.

وأضافت الجن قائلين: يا قومنا، أجيبوا داعي الله: وهو رسول الله خاتم النبيين، أو أجيبوا القرآن الداعي إلى توحيد الله وعبادته وطاعته، يغفر لكم بعض ذنوبكم التي هي من حقوق الله، ويحمكم ويمنعكم من عذاب موجع مؤلم، هو عذاب النار، والمؤمن يدخل الجنة، وتحميه الحفظة من النار.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين: الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى، وقرأ عليهم سورة الرحمن التي فيها خطاب الفريقين، فكان النبي إذا قرأ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/١٣] قالوا: لا شيء من آلائك ربنا نكذّب، ربنا لك الحمد. ولما ولّت هذه الجماعة تفرقت على البلاد منذرة للجن، قال قتادة: ما أسرع ما عقل القوم.

وأتم الجن كلامهم لقومهم بعد الأمر بإجابة داعي الله، وبالتحذير من مخالفته،

قالوا: ومن لا يُجب رسول الله ﷺ محمداً إلى توحيد الله وطاعته، فلا يتمكن من الإفلات من الله، ولا يعجز الله أبداً، والمعجز: الذاهب في الأرض، لتعجيز طالبه، وليس له من غير الله أنصار ينصرونه ويمنعونه من عذاب الله، أولئك الذين لا يجيبون داعي الله في خطأ واضح، وانحراف ظاهر عن الحق، وهذا تهديد ووعيد، فجَمَع الجن في كلامهم على طريقة القرآن بين الترغيب والترهيب. ثم توالت وفود الجن إلى رسول الله ﷺ ، وفداً وفداً.

إثبات عقيدة البعث والأمر بالصبر

أثبت الله تعالى بالأدلة القاطعة مسألة المعاد بعد الموت، لأن المشركين الوثنيين كانوا ينكرونها، وذلك في مناسبات مختلفة، ومنها في سورة الأحقاف التي تهدف إلى إثبات أصول العقيدة الثلاثة: وهي التوحيد، والنبوة، والبعث، وناسب هذه الأصول الأمرُ بالصبر في الدعوة إلى هذه الأصول، كما صبر الأنبياء والرسل الكرام في دعوتهم، لتعليمنا وعظتنا. وهذا ما ذكرته الآيات الآتية:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ[1] بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ[2] ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ۚ بَلَاغٌ[3] ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٣-٣٥].

الآية الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ خطاب لقريش، لأنهم قالوا: إن الأجساد لا يمكن أن

(١) ولم يعجز عنه ولم يضعف. (٢) لا تتعجل إنزال العذاب بقومك. (٣) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا بلاغ، فحذف المبتدأ للعلم به.

تُبعث ولا تُعاد، وهم مع ذلك معترفون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض، فأقيمت عليهم الحجة من أقوالهم.

والرؤية في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ رؤية القلب، أي أولم يتفكر القرشيون المنكرون للبعث، ويعلموا أن الذي خلق الكون من السماوات والأرض في ابتداء الخلق، ولم يعجز عن ذلك ولم يضعف عن الْخَلْق، بل قال لها: كوني فكانت، بقادر على أن يحيي الموتى من قبورهم مرة أخرى؟! بلى (جواب بعد النفي المتقدم) أي بل إن الله قادر على ذلك كله، إنه سبحانه وتعالى قادر على أي شيء أراد خلقه، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وبعد لفت النظر هذا، جاء وعيد الكفار من قريش وسواهم، واذكر أيها الرسول لقومك يوم يُعَذَّب الكافرون بالله في نار جهنم، ويعرضون مباشرة عليها، ويقال لهم توبيخاً وتقريعاً: أليس هذا العذاب الذي تُعَذَّبونه حقاً وعدلاً وواقعاً لا شك فيه، وقد كنتم تكذبون به؟ فيجيبون: بلى وربنا، فذلك تصديق حيث لا ينفع. قال الحسن البصري: إنهم ليعذَّبون في النار، وهم راضون بذلك لأنفسهم، فيعترفون أنه العدل، فيقول لهم المحاور من الملائكة عند ذلك: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي يقال لهم على سبيل الإهانة والتوبيخ: ذوقوا عذاب النار، بسبب كفركم به في الدنيا وإنكاركم له.

والداعية الناجح: هو الذي لم يترك سبيلاً للإصلاح والإرشاد إلا سلكه، وتدرَّع بالصبر، ولم يغضب ولم يضجر، لذا أمر الله نبيه بأن يصبر على تكذيب قومه، قائلاً: فاصبر يا محمد على تكذيب قومك كصبر أولي الجد والعزيمة من الرسل، وأنت منهم، وهم أصحاب الشرائع الكبرى: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، ولا تستعجل يا محمد لهم العذاب، فإنه واقع بهم حتماً.

ومفعول الاستعجال محذوف: وهو العذاب، معناه: لا تستعجل لهم عذاباً، فإنهم إليه صائرون.

كأن الكافرين حين يشاهدون الوعيد المحقق بالعذاب، لم يمكثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من الساعات، لاحتقارهم ذلك، ولما يشاهدونه من الأهوال العظام، كما جاء في آية أخرى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٢-١١٣]. وآية: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٤٦]

وهذا القرآن العظيم الذي يتم الوعظ به: تبليغ كافٍ، يقطع حجة الكافرين، والبلاغ: بمعنى التبليغ، فالقرآن بلاغ، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٥٢]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٦].

ولا يُهلِكُ الله بعذابه إلا القومَ الفسقه الخارجين عن الطاعة، المنغمسين في المعصية، وهذا من عدل الله تعالى ألا يعذّب أحداً إلا بذنب. وفي هذه الآية وعيد عظيم وإنذار بيِّن، لأن الله تعالى جعل الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، وأمر بالطاعة ووعد عليها بالجنة، ونهى عن الكفر وأوعد عليه بالنار، قال ﷺ فيما أخرجه مسلم والدارمي وأحمد: «لا يَهلِكُ على الله إلا هالك» . قال الثعلبي: يقال إن قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أرجى آية في كتاب الله تعالى للمؤمنين.

تفسير سورة محمد عليه السلام

الموازنة بين سلوك الكافرين والمؤمنين

كثيراً ما يعقد الحق سبحانه وتعالى موازنة أو مقارنة بين أحوال الكافرين وسلوكياتهم، وبين أحوال المؤمنين الذين يعملون الصالحات واختياراتهم، فيزيدُ الفريق الأول وهم الضالون ضلالاً وحيرة، ويجعلهم مثلاً وعبرة، ويزيد الفريق الثاني وهم المؤمنون صلاحاً وتوفيقاً، ويكفِّر عنهم سيئاتهم، ويعصمهم من المعاصي، ويرشدهم إلى عمل الخير في الدنيا، ويورّثهم نعيم الجنة في الآخرة، وهذا لون بيِّن من هذه المقارنة في الآيات الآتية في مطلع سورة محمد المدنية بالإجماع، علماً بأن التشريع المكي ما كان قبل الهجرة، والتشريع المدني: ما كان بعد الهجرة:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟[1] عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ[2] ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ[3] ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ[4] وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ[5] مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾ [محمد: ٤٧/١-٣].

قال ابن عباس ومجاهد: نزلت هذه الآيات في أهل مكة والأنصار، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾: هم أهل مكة نزلت فيهم. وقوله:

---

(١) أعرضوا ومنعوا غيرهم. (٢) أحبطها وأبطلها. (٣) أصلح شأنهم أو حالهم أو أمرهم. (٤) الشيطان وكل ما يأمر به. (٥) الحق هنا هو الشرع ومحمد ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هم الأنصار، أما أهل مكة فأخرجوا رسول الله ﷺ من بلده، والأنصار أهل المدينة آووه، ثم هي بعد تعمّ كل من دخل تحت ألفاظها.

المعنى: الذين جحدوا توحيد الله وآياته، وعبدوا غيره، وصدّوا غيره عن الإسلام، بنهيهم عن الدخول فيه، وهم كفار قريش، أبطل الله ثواب أعمالهم وأحبطها وضيّعها، ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء في الآخرة، فقوله تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أتلفها، ولم يجعل لها غاية خير، ولا نفعاً. وهذا يشمل جميع أعمال الكفار البرّة في الجاهلية، من صلة الرحم ونحوه، والإنفاق الذي أنفقوه في سفرهم إلى بدر، ومثلها أعمال الكفار في كل زمان. وذلك كما في آية أخرى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٣].

وأما الذين صدّقوا بالله ورسوله وبالقرآن، وعملوا صالح الأعمال، واعتقدوا بالحق المنزل من ربهم، فيكفّر الله عنهم سيئاتهم، ويصلح شأنهم وحالهم في الدنيا والآخرة، ويغفر لهم سيئاتهم، ويرشدهم إلى أعمال الخير في الدنيا، ويمنحهم نعيم الجنة في الآخرة. وهذا يشمل المهاجرين والأنصار وغيرهم من التابعين لهم بإحسان، والمؤمنين الذي يعملون الصالحات: وهي الفرائض والواجبات، وبقية أعمال البر. وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ معناه حالهم، أو أمرهم، أو شأنهم، وأصل معنى هذه اللفظة: أنها بمعنى الفكر، وموضع نظر الإنسان وهو القلب، فإذا صلح ذلك فقد صلحت حاله، فكأن اللفظة مشيرة إلى إصلاح عقيدتهم وغير ذلك تابع.

ثم أوضح الله تعالى أن سبب إضلال الكافرين، وإصلاح وإسعادهم: المؤمنين هو أفعال كل منهم، فالجزاء المتقدم للفريقين بسبب اتباع الكافرين الباطل، من الشرك بالله، والعمل بمعاصيه واختيارهم على الحق، وإصغائهم للشيطان وكل ما

يأمر به، وأما جزاء المؤمنين فبسبب اتباعهم الحق وهو الشرع وكل ما أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان، والعمل الصالح، واتباع ما جاء به النبي محمد ﷺ.

ومثل ذلك البيان الرائع، يبين الله للناس أحوال الفريقين الجارية مجرى الأمثال في الغرابة، ويظهر مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم، فالاتباع المذكور من الفريقين: هو سبب التفرقة بينهما، وجعل ذلك مضرب الأمثال، فكما اتَّبعوا هذين السبيلين، وصار مصيرهم على هذا النحو، يجعل الله ذلك تبياناً لكل الناس، ومعرفة أمر كل فرقة، ليعتبروا ويحتاطوا للأمر.

إن تبيان جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين في الآخرة سلفاً في الدنيا، أمر يتفق مع أصول التجريم والعقاب، فلا جريمة ولا عقوبة إلا بنص، أو لا جزاء إلا بعد إنذار سابق، فإذا عرف الإنسان في الدنيا مصيره في الآخرة، هان الأمر، وظهر الحق والعدل، ولم يبق ما يسوِّغ اللوم والعتاب، وامتنعت المفاجأة بعناصرها المعروفة، وحينئذ يكون المرء مأخوذاً بذنبه أو بما كسبت يداه، ولا ظلم ولا محاباة ولا داعي للاعتراض أو الانتقاد، قال الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٢-١٥]. وقال سبحانه: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٥٢/ ٢١].

أحكام القتال والأسرى

إذا نشبت الحرب بين المؤمنين وغيرهم، وجب على المؤمنين اتباع قواعد حربية معينة أثناء المعركة وبعد انتهائها، لأن الحرب ضرورة، وخاضعة للنظام، حتى لا تبيد البشرية، وتسود الفوضى، ويصعب تلافي الآثار والنتائج المترتبة عليها. والإسلام حريص على السلام والأمن. وانتشارُ دعوته، إنما هو بالحكمة والإقناع

والموعظة الحسنة. وإذا أصرّ العدو على الحفاظ على دينه وأحواله، وجب إبرام المعاهدات التي تنظم العلاقات المختلفة، حتى لا يبغي أحد على أحد، ويطمئن كل طرف إلى وضعه، ومراعاة مصالحه، على قدم المساواة. وهذه آيات تدعو لتنظيم معارك القتال وتسوية آثارها، وتوجيه الطبائع البشرية وجهة صالحة:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ(١) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ(٢) فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ(٣) فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ(٤) ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ(٥) وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ(٦) ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٤-٩].

آية ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال فيها قتادة -كما أخرج ابن أبي حاتم- نزلت يوم أحد، ورسول الله في الشِّعْب، وقد نشِبت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون يومئذ: اعْلُ هُبَل (أكبر أصنامهم) ونادى المسلمون: الله أعلى وأجل، فقال المشركون: إن لنا العُزَّى، ولا عُزَّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم.

والمعنى: إذا واجهتم أيها المسلمون الكفار في القتال، فاحصدوهم حصداً بالسيوف، واضربوا الرقاب ضرباً. وهذا بمثابة قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٩/٥] وهذا حكم في أثناء القتال الناشب إذا توافرت أسبابه أو دواعيه المشروعة، وهو قائم على مبدأ المعاملة بالمثل ومراعاة طبيعة القتال وأدواته

(١) مصدر بمعنى الفعل، أي فاضربوا رقابهم، والمراد: اقتلوهم بأي وجه كان. (٢) أكثرتم القتل فيهم. (٣) الوثاق: الحبل كالرباط، والمراد: فأسروهم. (٤) فلن يحبطها أو يضيعها. (٥) مصدر منصوب بفعل مضمر، أي هلاكاً لهم وخيبة. (٦) أبطلها.

وهي في الماضي: السلاح الأبيض. وهذه الآية محكمة غير منسوخة مبيِّنة لآية ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾. قال ابن عمر، وعمر بن عبد العزيز، وعطاء: إن هذه الآية (آية سورة محمد هنا) محكمة مبيِّنة لتلك (آية سورة براءة).

ثم بيّن الله حكم الأسر وتوابعه وهو:

حتى إذا أكثرتم فيهم القتل، وتحققت الغلبة لكم عليهم، وانتهت الحرب بتحقيق النصر، فأسروهم وأحكموا القيد عليهم لئلا يفلتوا ويهربوا، ومصيرهم بعد الأسر: إما المنّ عليهم بإطلاق سراحهم بعوض أو بغير عوض، وإما الفداء بمبادلتهم بالأسرى المسلمين أو بدفع الفداء: وهو المال الذي يفدي به الأسير نفسه من الأسر. وذلك حتى تضع الحرب أوزارها أي أثقالها وآلاتها: وهذا مجاز عن انتهاء الحرب، أي حتى تنقضي الحرب، بتحقيق الغلبة والنصر.

والمن والفداء ثابت غير منسوخ، صُرِّح به هنا، ولم يصرح به في آية التوبة السابق ذكرها، وقد منَّ رسول الله ﷺ على ثُمامة بن أثال، وفادى أسرى بدر، كما قال الحسن البصري.

وذلك هو الحكم في قتال الكفار، والله قادر على الانتصار من أعدائه، بالانتقام منهم، وإهلاكِهم وتعذيبِهم، بما شاء من أنواع العذاب كالخسف والرجفة، والغرق دون قتال منكم أيها المؤمنون، ولكن الله أمركم بحربهم ليختبر بعضكم ببعض. والذين قتلوا في سبيل الله، أي استشهدوا، فلن يضيع الله تعالى أجرهم، ولا يبطل ولا يحبط أعمالهم كإحباط أعمال الكفار وهذا أحد أنواع ثواب الشهداء.

ومن فضل الله على الشهداء: أنه تعالى يوفقهم قبل موتهم للعمل بما يحبه ويرضاه، وسيهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح شأنهم أو موضع نظرهم وفكرهم وهو القلب. ويرشدهم إلى طريق الجنة التي قد عرّفها وبيّنها لهم، وأعلمهم بها، أي

جعلهم يعرفون منازلهم منها. أخرج البخاري من قوله ﷺ: «.. والذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا».

ثم بشَّرهم الله بالنصر بشرطه: وهو يا أيها المؤمنون بالله والقرآن والإسلام، إن تنصروا دين الله ورسوله، بجِدّكم وإيمانكم، ينصركم الله بخلق القدرة لكم والجرأة وغير ذلك من المعارف.

والذين كفروا بالله ورسوله، فهلاكاً وعثاراً وخيبة لهم، وأبطل الله أعمالهم، فلا ثواب لهم، ولا خير يرتجى منها في الآخرة. وقوله: ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ مقابل تثبيت أقدام المؤمنين المنتصرين، الناصرين لدين الله ورسوله.

ذلك التعس أو الهلاك، وإضلال الأعمال أو إبطالها بسبب كراهيتهم القرآن، أي ما أنزل الله في قرآنه على نبيه المصطفى ﷺ، من التكاليف الإلهية، فهم لا يريدونه ولا يحبونه، فأبطل الله ثواب أعمالهم بذلك السبب. والمراد بالأعمال المحبطة أو الملغاة: أعمال الخير أو الحسنات حال الكفر، لأن عمل الكافر لا يقبل قبل إسلامه، وإنما تفيدهم هذه الأعمال الخيرية في الدنيا. وإذا أسلم الكافر يضاف عمله الخيري إلى حسناته في الإسلام.

الاعتبار بآثار الماضين

رغّب القرآن الكريم في مناسبات مختلفة في النظر في آثار الأمم المتقدمة، والتأمل في أحوال أهل الإيمان وأهل الكفر، للعبرة والاتعاظ، بقصد إصلاح الأفراد والجماعات، حين يعلمون أن الله ناصر المؤمنين، وخاذل الكافرين، ثم يكافئ أهل الإيمان بجنان الخلد، لانحيازهم إلى الحق وإيمانهم به، ويعاقب أهل الضلال أو الكفر

بنيران الجحيم، لاتباعهم أهواءهم في عبادة الأوثان، وهذه آيات تناسب الكلام على فريقي الناس عادة: مؤمنين وكفاراً، قال الله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ(١) عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا(٢) ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى(٣) الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ١٠-١٤].

أفلا يتأمل القرشيون المشركون بمصائر الأمم السابقة، فيسيروا في الأرض، فينظروا كيف كان مصيرهم أو عاقبتهم، مثل أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، ليعتبروا ويروا ما حلّ بهم، كيف دمّر الله عليهم ديارهم، واستأصلهم بالإهلاك، وأتلف ممتلكاتهم وأموالهم، بسبب تكذيبهم رسلهم، وما أداه إليه كفرهم، ولهؤلاء الكافرين المكذبين أمثال عاقبة من قبلهم من الكفرة في الدنيا، مثل هزيمتهم في بدر وفتح مكة، ولهم عقاب أشد في الآخرة.

وهذه الآية توقيف لقريش وتوبيخ، نزلت يوم أحد، ومنها انتزع رسول الله ﷺ ردّه على أبي سفيان بن حرب حين قال له: الله مولانا، ولا مولى لكم.

وسبب هذا العقاب بالتدمير والاستئصال للكافرين، ونجاة المؤمنين: أن الله ناصر عباده الذين آمنوا بالله تعالى، وأطاعوا رسوله، وأن الكافرين المكذبين لرسوله لا ناصر لهم، يدفع عنهم العذاب . قال قتادة: نزلت يوم أحد، والنبي ﷺ في

---

(١) أي أهلكهم مع أموالهم . (٢) أي أمثال تلك العاقبة . (٣) أي ناصرهم .

الشِّعْب، إذ صاح المشركون: يوم بيوم، لنا العُزّى ولا عُزّى لكم، فقال النبي ﷺ: قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم. كما تقدم بيانه.

ثم بيَّن الله تعالى أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة، فقال عن المؤمنين: إن الله يدخل عباده المؤمنين المصدقين بالله ورسوله، والعاملين الأعمال الصالحة جنات تجري الأنهار من تحت قصورها، تكريماً لهم.

وأما الذين جحدوا بوجود الله وتوحيده، وكذبوا رسوله، فيتمتعون أو ينتفعون بمتاع الدنيا الحقير، ويأكلون منها كأكل الأنعام (الإبل والبقر والغنم) لا هَمَّ لهم إلا ملء بطونهم، وإشباع شهواتهم، والنار مقر لهم أو مثوى، أي موضع الإقامة، والتشبيه بأكل الأنعام يراد به الأكل المجرد من الفكر والنظر، أي إن هذا التشبيه وقع فيما عدا الأكل على قلة الفكر وعدم النظر.

ثم هدَّد الله مشركي مكة وتوعدهم بما حدث لأمثالهم، فكثير من أهل المدن والأمم السابقة ذات القوة والنفوذ، كانوا أشد بأساً وقوة، من أهل مكة الذين أخرجوك منها، فأهلكناهم، ولم يجدوا لهم ناصراً ولا معيناً يدفع عنهم العذاب. فإذا أهلك الله تعالى عتاة الأمم الذين كذبوا الرسل. فسيفعل الأمر نفسه بأمثالهم. وإن امتنع عذاب الاستئصال في الدنيا إكراماً لرسول الله ﷺ نبي الرحمة، فإن عذاب الآخرة كائن لهم حتماً.

وسبب التفرقة بين الفريقين في الجزاء هو:

هل من كان على بصيرة ويقين من أمر دينه، وبما جبل عليه من الفطرة السليمة بتوحيد الله، مثل من زُيِّن له سوء عمله، فرآه حسناً، وهو عبادة الأوثان، والإشراك بالله، واقتراف المعاصي، فإنهم اتبعوا أهواءهم في عبادة الأصنام،

وانهمكوا في أنواع الضلالات، بلا شبهة توجب الشك، أو دليل صحيح من المنقول أو المعقول؟ والمعنى: لا يستوي الفريقان.

وهذا توقيف وتقرير على شيء متفق عليه، وهي معادلة بين هذين الفريقين. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ معناه على قضية واضحة، وعقيدة نيِّرة بيِّنة. قال قتادة: الإشارة بهذه الآية إلى محمد ﷺ، في أنه الذي على بيِّنة من ربه، وإلى كفار قريش في أنهم الذين زُيِّن لهم سوء أعمالهم، وبقي اللفظ عاماً لأهل هاتين الصفتين غابر الدهر.

وهذا دليل على خلود معاني القرآن وألفاظه إلى يوم القيامة.

مثل الجنة وموقف المنافقين من القرآن

يختلف المؤمنون والكافرون في الاهتداء والضلال، وفي الجزاء والمآل، فيكون للمؤمنين ألوان النعيم في الجنة، وللكافرين والمنافقين أصناف العذاب الدائم في جهنم، ويزيد الله المهتدين هدىً ويوفقهم للعمل الصالح، ويتعرض الضالون يوم القيامة لعذاب شديد، والله سبحانه إله واحد لا شريك له، وهو المتفرد بالحساب، والعليم بتصرف العباد وسكونهم. وهذا ما عبرت عنه الآيات الآتية:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ[(١)] وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا[(٢)] فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ[(٣)] وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾

(١) غير متغير الرائحة لطول مكثه. (٢) شديد الحرارة والغليان. (٣) ختم على قلوبهم بسبب نفاقهم.

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً[(١)] فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا[(٢)] فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ[(٣)] ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ١٥-١٩].

صفة الجنة الموعود بها للمتقين القائمين بأوامر الله وطاعته ما تسمعون فيها كذا وكذا، فيها أنهار جارية من ماء غير متغير الطعم والريح واللون لطول مكثه، بل إنه ماء عذب فرات متدفق نقي، من شربه لا يظمأ أبداً، وفيها أنهار من حليب طازج، لم يتغير طعمه بحموضة أو غيرها، وفيها أنهار من خمر لذيذة الطعم، طيبة الشرب، ليست مرة أو كريهة الرائحة، ولا تسكر ولا تصدّع الشارب أو تذهب عقله، وإنما هي لذيذة للشاربين، وفيها أنهار من عسل صاف غير مشوب بمادة أخرى، حسن اللون والطعم والريح، ولهم في الجنة مختلف الثمار والفواكه ذات الألوان البديعة، والروائح الذكية، والطعوم الشهية، أساكن هذه الجنان أو أهؤلاء كمن هو خالد في النار إلى الأبد؟ وسُقوا بالإكراه من ماء حار شديد الغليان، فقطّع أمعاءهم وأحشاءهم؟!

والمراد: أمَثَل أهل الجنة، بهذه الأوصاف، كمن هو خالد مقيم دائماً في النار؟ فتكون الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَنْ﴾ مؤكدة للتشبيه. و﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾: في موضع الحال، على هذا التأويل.

ثم ذكر الله تعالى حال المنافقين، فقال:

ومن الكفار الخالدين في النار: منافقون يستمعون كلام النبي ﷺ في خطبه ومجالسه، فلا يدركون منه شيئاً لعدم إيمانهم، فإذا خرجوا من عنده قال بعضهم لأهل العلم الواعين لما سمعوا، على طريقة الاستهزاء والاستخفاف: ماذا قال النبي

(١) فجأة. (٢) علاماتها. (٣) تقلبكم لأشغالكم في الدنيا. ومثواكم: سكونكم إلى مضاجعكم ليلاً.

آنفاً؟ أي في الساعة المتقدمة لهذا الوقت؟ أي ماذا قال قبيل وقتنا؟ والمراد: أنا لم نلتفت إلى قوله، ولم نأبه لكلامه، أو لا معنى لقوله ولا نفع له ولا قدر.

روى مقاتل: أن النبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء: ماذا قال محمد آنفاً؟ قال ابن عباس: وقد سئلت فيمن سئل.

فوصفهم الله بأنهم هم أولئك المنافقون الذين طبع الله على قلوبهم، بسبب نفاقهم، فلم يؤمنوا ولم يهتدوا إلى الحق، ولم ينفذ الخير إلى قلوبهم، واتبعوا شهواتهم وأهواء نفوسهم في الكفر والعناد، أي تركوا اتباع الحق. والطبع على قلوبهم إما حقيقة واقعية، وإما استعارة بتشبيه قلوبهم التي لم يتسرب إليها الخير بالآنية المختومة.

وعلى عكسهم المؤمنون الذين طلبوا الهداية إلى طريق الخير والإيمان، فوفقهم الله تعالى، وشرح صدورهم، فآمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أُمروا به، وزادهم الله هدى بزيادة التفهيم والأدلة، وبالتوفيق للعمل الذي يرضاه، وأعانهم على التقوى، وأعطاهم إياها، أي جعلهم متقين له، والتقدير: تقواهم إياه.

ثم هدد الله المنافقين بما يجدونه في القيامة، وهو: هل ينتظر المنافقون والكافرون إلا مجيء القيامة التي تأتيهم فجأة، وهم غافلون عنها، وقد حدثت أماراتها وعلاماتها، منها بعثة النبي ﷺ، ومن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة (القيامة) حيث لا ينفعهم ذلك، كما في آية أخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٨٩/ ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ إخبار مستأنف، فينبغي الاستعداد والخوف منها لمن حزم أمره ونظر لنفسه. أخرج البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «بعثت والساعة كهاتين» وأشار بإصبعيه.

وبعد هذه المقارنة بين المهتدين والضالين ومصير كل فريق، أمر الله تعالى رسوله بالثبات على منهاجه وعلى استغفار ربه، فإذا علمت أيها النبي حال الفريقين: المؤمن والكافر، من السعادة والشقاوة، وعلمت بمجيء القيامة ومعرفة أشراطها (علاماتها) فاثبت على ما أنت عليه من التوحيد ومراقبة النفس، واعلم أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه، وداوم على الاستغفار من الذنوب الصادرة منك على خلاف الأولى، والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، أي بالدعاء لهم بالمغفرة عن المعاصي، والله يعلم أعمالكم، ومتقلبكم، أي تصرفكم يقظة في أشغالكم نهاراً، وسكونكم ومستقركم ليلاً في منامكم في مضاجعكم وإقامتكم في قبوركم. وإدراك هذه المعلومات سبيل لغرس رقابة الله في النفس، سراً وعلانية، وواجب على كل مؤمن أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات. روى مسلم عن الأغر المازني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ليُغان على قلبي[1] حتى أستغفر الله في اليوم مئة مرة».

حال المؤمنين والمنافقين في الدين

يختلف حال المؤمنين والمنافقين وموقفهم من الدين أو الأحكام العملية، كالجهاد والصلاة والزكاة ونحوها، أما المؤمنون فيجدّون في فهم دين الله تعالى وتنفيذه، ويحرصون على ظهوره وانتشاره في العالم، وأما المنافقون فيتكاسلون في تطبيق الدين ويحرصون على فساده وأهله. وكان المؤمنون يأنسون بالوحي، ويستوحشون إذا أبطأ، والله تعالى جعل للوحي أمداً معيناً ووقتاً محدداً لا يتجاوزه، فمدح الله المؤمنين على حرصهم على انتشار الدين، وذمَّ المنافقين على تقاعسهم في الدين وتبرمهم من أحكامه، وصف الله تعالى في هذه الآيات الآتية حال الفريقين.

---

(١) أي يلبس على قلبي ويغطّى.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ(١) فَأَوْلَىٰ لَهُمْ(٢) ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ(٣) وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٠-٢٣].

يتمنى المؤمنون المخلصون تشريع الجهاد، حرصاً على ثوابه، ونيل درجات المجاهدين، وللدفاع عن أنفسهم وأموالهم، وإظهار عزتهم ورفعتهم، فيقولون: هلا أنزلت سورة يأمرنا فيها ربنا بقتال الأعداء، فإذا أنزلت سورة محكمة، أي دائمة المشروعية، لا يقع فيها نسخ، يأمر الله فيها بالقتال، وصيرورته فرضاً على المسلمين، فرح بها المؤمنون، وشق على المنافقين، ورأيت الذين في قلوبهم شك ومرض(٤) وهو النفاق، ينظرون إليك أيها النبي -بسبب الجبن والخوف من لقاء الأعداء- نظر المحتضر الذي شخص بصره إلى السماء عند الموت، أو المغمى عليه، خوفاً من قتال الأعداء، فالويل أي الهلاك لهم. وفي هذا تهديد للمنافقين، ووعيدٌ بقرب هلاكهم، وافتضاحِ شأنهم.

فلعلكم إن توليتم عن الطاعة والجهاد، وأعرضتم عن القتال وتنفيذ أحكامه، أن تعودوا إلى سيرة الجاهلية، فتسفكوا الدماء وتفسدوا في الأرض بالبغي والنهب، وارتكاب المعاصي، وتقطعوا أرحامكم بالقتل والعقوق، ووأد البنات، ومقارفة سائر مفاسد الجاهلية. وكلمة (عسى) للتوقع، وهي من الله تفيد التحقق.

(١) أي المغمى عليه خوفاً من الموت. (٢) أي فالويل لهم والهلاك لهم، ابتداء وخبر، معناه الزجر والتوعد. (٣) مبتدأ، وخبره محذوف أي أمثل. وحسن الابتداء بالنكرة لأنها مخصَّصة، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر طاعة. (٤) استعارة لفساد المعتقد.

لكن طاعة وقول معروف: أحسن أو أمثل، فذلك هو الأمر المُرضي لله تعالى، فإذا جدّ الحال ووجب، أي وفرض القتال، فلو صدقوا في ذلك القول، وفي القتال، وأطاعوا الله تعالى، وأخلصوا له النية، لكان إظهار الإيمان والطاعة خيراً لهم من المعصية والمخالفة. ثم وبخهم الله تعالى على تقصيرهم، فلعلكم إن توليتم عن الطاعة والجهاد، وأعرضتم عن الإسلام أو عن القتال وتنفيذ أحكامه، أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، فتسفكوا الدماء، وتفسدوا في الأرض بالبغي والظلم، والنهب والسلب وسائر المعاصي، وتقطّعوا أرحامكم بالقتل والعقوق ووأد البنات وارتكاب سائر مفاسد الجاهلية، وبعبارة أخرى: فهل عسى أن تفعلوا إن توليتم غير أن تفسدوا في الأرض، وتقطّعوا أرحامكم؟

ثم صب الله عليهم اللعنة، فقال: أولئك الظالمون، وسفاكو الدماء بغير حق: هم الذين أبعدهم الله من رحمته، وطردهم عنها، فأصمهم في الدنيا عن استماع الحق، وأعمى أبصارهم عن رؤية الحق(١)، وعن النظر في أدلة الكون الدالة على عدالة نظام الله تعالى، وشرعه في عباده، من تحريم الدماء والأموال بغير حق، وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، ويتضمن الأمر بالإصلاح في الأرض، وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: وخلق الله تعالى الْخَلْق، فلما فرغ منه، قامت الرحم، فأخذت بحقوي(٢) الرحمن عز وجل، فقال: مَهْ، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك» قال أبو هريرة

---

(١) هذا استعارة، لعدم فهمهم، فكأنهم عُميٌ وصُمٌّ. (٢) الحَقْو: الإزار أو الخصر، والمراد هنا: أنه مجاز عن شدة التعلق واللجوء إلى الله والاستعانة به.

رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ؟!

أوضحت هذه الآيات موقف المنافقين المخزي من القرآن وتكاليفه العملية أو الواقعية، فهم يخافون من الجهاد، ويتنكرون لقول المعروف وطاعة الشرع الشريف. وهم بطبيعتهم قوم جهلاء، يمارسون أفعال الجاهلية، ويميلون إليها: من الإفساد في الأرض، وتقطيع الأرحام، مما يوجب عليهم الطرد من رحمة الله، ومنع تسرب الخير والفكر الرشيد إلى قلوبهم.

تدبر القرآن الكريم

أمر الله تعالى كل السامعين للقرآن العظيم بتدبر آياته وفهمها، وحذرهم من هجره، ووبخهم على الإعراض عنه، كي تتحقق الفائدة من استماع القرآن، ويبتعدوا عن الموبقات المهلكات التي يقعون فيها إذا لم يفعلوا ذلك. والذين آثروا الكفر وانحازوا إليه، إنما فعلوا ذلك، لا جهلاً بمصداقية القرآن والنبوة، وإنما بعد تبيّن حقيقة الإسلام بالأدلة القاطعة، والمعجزات النبوية الباهرة. وسيلاقُون الأهوال العظام عند الموت، لاتباع أهوائهم، والله قادر على كشف أحوالهم، ولكنه تركهم سادرين في غوايتهم لاختبارهم في الدنيا، وسيجازيهم بما عملوا، كما جاء في الآيات الآتية:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(١) ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم(٢) مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ(٣) لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ(٤) ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا

(١) جمع قفل، والعبارة استعارة للرّين أو الحجاب الذين منعهم الإيمان. (٢) ظهورهم. (٣) زين لهم خطاياهم. (٤) مدّ لهم في الآمال والأماني الباطلة.

لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ(١) ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ(٢) أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ(٣) ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ(٤) وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ(٥) وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ(٦) حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا(٧) ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٤-٣٢].

أفلا يتفهم المنافقون وغيرهم آيات القرآن، فيعملوا بمواعظة، ويقتنعوا بأدلته، أم (بمعنى بل وألف الاستفهام) على قلوبهم أغطية منعتهم الإيمان!! والآية توبيخ لهم، لتركهم هدي القرآن وبيانه.

إن الذين فارقوا الإيمان، ورجعوا إلى الكفر، من بعد تبيُّن الهدى عند الداعي إليه، بالأدلة الواضحة، والمعجزات الظاهرة، زين لهم الشيطان خطاياهم، وسهّل لهم الوقوع فيها، وحسَّن لهم الكفر، وخدعهم بالأماني المعسولة والأمنيات الزائفة.

قال قتادة: إنها نزلت في قوم من اليهود، كانوا قد عرفوا من التوراة أمر محمد ﷺ، ثم ارتدوا عن الهدى. وقال ابن عباس: نزلت في منافقين كانوا أسلموا، ثم نافقت قلوبهم.

ثم أوضح الله مظاهر ضلالهم وهي:

ذلك الارتداد والكفر بعد الإيمان من المنافقين: بسبب كراهية ما نزّل الله تعالى في قرآنه، وقولهم للمشركين واليهود: سنطيعكم في بعض الأمور، كعداوة النبي ومخالفة

---

(١) أبطلها. (٢) شك ونفاق. (٣) أحقادهم. (٤) بعلامتهم. (٥) أسلوبه المعتمد على التعريض بدل التصريح. (٦) لنختبرنكم بالجهاد وسائر التكاليف. (٧) خالفوه.

ما جاء به، والتخلف عن الجهاد معه، والله عالم بتآمرهم سراً، وبكل ما بيَّتوه من مكائد ومؤامرات. وهذا مثل قولهم في آية أخرى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ..﴾ [الحشر: ٥٩/ ١١].

وحالهم عند الموت في غاية السوء، فإن الملائكة عند قبض أرواحهم تستخرجها بعنف وقهر، وتضرب وجوههم وظهورهم، أي إنهم إذا خافوا من فرض القتال وقراع الأعداء، فكيف يكون فزعهم وجزعهم إذا توفتهم الملائكة؟!.

وسبب أهوال موتهم: اتباعهم ما أسخط الله، من الكفر والمعاصي، وتآمرهم مع أعداء الله، على معاداة النبي ﷺ، وكراهيتهم ما يرضي الله من الإيمان الصحيح وتوحيد الله وطاعته، فأبطل الله أعمالهم الخيرية قبل الردة وبعدها كالصدقة وإغاثة الملهوف، لأنهم فعلوها في حال الكفر، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٣].

ثم وبخ الله المنافقين وهددهم بقوله: أيظن هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم شك ونفاق وحقد وعداوة للمؤمنين أن الله لن يكشف أحقادهم وعداوتهم؟ إنهم مخطئون في هذا، فالله عالم الغيب والشهادة، يعلم السر وأخفى.

ولو نشاء أيها النبي لعيَّناهم بالأسماء والتعريف التام ولعرفتهم بعلاماتهم المميزة، ولكنه تعالى لم يعينهم إبقاءً عليهم وعلى قراباتهم، ووالله لتعرفنهم في لحن القول، أي الأسلوب المعتمد على التعريض والتلويح، والمنحى والمقصد، والله يعلم جميع أعمالهم، فيجازيهم عليها من خير أو شر، وهذا وعد ووعيد، روى مسلم وأحمد عن حذيفة ما يدل على أن النبي ﷺ عرّفه بهم أو ببعضهم.

ومنهج الحياة: الاختبار، فلنختبرنكم أيها المنافقون وغيركم بالأوامر والنواهي

أو لنعاملنكم معاملة المختبِر، ومنها الجهاد في سبيل الله، حتى نتبين أو نعلم علم ظهور وانكشاف المجاهدين في سبيل الله بحق، وَالصابرين على دينه ومشاق التكليف، ونظهر أخباركم ونكشفها للناس، ليعرف الطائع من العاصي. وعلم الله تعالى بالمجاهدين قديم أزلي. وإنما المراد إظهار جهادهم إلى الوجود، وتبيان تكسبهم الذي يتعلق به ثوابهم.

إن الذين كفروا بالله ووحدانيته، وصدّوا الناس عن دينه وطريق الحق، بمنعهم من الإسلام واتباع الرسول ﷺ، ومخالفتهم إياه، فكانوا في شق أو جانب والنبي ﷺ في شق، بعد أن تبينوا معالم الهدى عند الداعي إليه، لن يُلحقوا أي ضرر بالله، وسيبطل الله أعمالهم، ويبدد مكرهم، ولا يثيبهم على أعمالهم يوم القيامة.

نزلت في قوم من بني إسرائيل فعلوا هذه الأفاعيل، بعد تبيّنهم أمر محمد ﷺ من التوراة. وقيل: نزلت في قوم من المنافقين، وقال ابن عباس: نزلت في المطعمين في سفرة بدر.

إطاعة الله والرسول

لم يترك القرآن الكريم شيئاً من أمور الدين إلا بيَّنه، فإن الله تعالى أمر المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، وأوضح حكم من مات من الكفار على كفرهم، وأنهم لا يعفون من العقاب، ونهى المؤمنين عن الدعوة إلى السلم أو المسالمة في حال القوة والتفوق، وحرَّضهم على الجهاد بالنفس والمال، ورغبَّهم في الإنفاق في سبيل الله، وحذَّرهم من التقصير بإبدالهم أقواماً آخرين، هم أفضل لإقامة الدين، ونصرة الإسلام، وكل ذلك ظاهر في الآيات الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ(١) أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ(٢) تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ(٣) ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٣-٣٨].

أخرج النسائي والبزار وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هذه الآية (إطاعة الله والرسول) نزلت في بني أسد من العرب، وذلك أنهم أسلموا وقالوا لرسول الله ﷺ: نحن قد آثرناك على كل شيء، وجئناك بنفوسنا وأهلينا، كأنهم منُّوا بذلك، فنزل فيهم ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا . .﴾ الآية [الحجرات: ٤٩/ ١٧]، ونزلت فيهم هذه الآية.

المعنى: يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله، أطيعوا الله وأطيعوا رسوله، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، ولا تبطلوا حسناتكم بالردة، أو بالمعاصي الكبائر، أو بالرياء والسمعة، والمن والأذى، أو بالشك والنفاق، أو بالعجب والتكبر.

وإذا بطلت أعمال المكلف، ففضل الله باقٍ، يغفر له إن شاء، ما لم يمت على الكفر، فإن الذين جحدوا وحدانية الله، ومنعوا أنفسهم والناس عن دين الله، ثم ماتوا وهم كفار، فلا غفران لذنوبهم، بل يعاقبهم الله تعالى.

قال مقاتل: نزلت في رجل سأل النبي ﷺ عن والده، وقال: إنه كان محسناً في حال كفره. أخرج مسلم: أن هذه الآية نزلت بسبب أن عَدِيّ بن حاتم قال: يا رسول الله، إن حاتماً كانت له أفعال برّ، فما حاله؟ فقال رسول الله ﷺ: هو في

(١) لن ينقصكم ولن يضيع عليكم شيئاً من أعمالكم . (٢) يبالغ في طلبكم . (٣) أحقادكم .

النار، فبكى عدي رضي الله عنه وولّى، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال له: أبي وأبوك وأبو إبراهيم خليل الرحمن في النار، ونزلت هذه الآية في ذلك، وظاهر الآية العموم في كل ما تناولته الصفة. ونظيرها آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤/٤٨].

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بترك مسالمة الأعداء، وهم في حال قوة، فلا تضعفوا عن القتال أيها المؤمنون، ولا تَدْعوا الكفار إلى الصلح والمسالمة ابتداء منكم، وإظهاراً للعجز والضعف، ولا مانع من قبول السلم إذا مال إليه الأعداء، أما في حال كونكم أنتم الغالبون القاهرون، فلا تبدؤوهم بطلب الصلح، والله معكم، بالنصر والمعونة عليهم، ولن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم أو جزائها. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ فيه بشارة بالنصر على الأعداء. فأما إن كان الكفار أقوى من المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صَدّه كفار قريش عن مكة. وعملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: ٨/٦١]. فقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ في موضع الحال، أي وأنتم الغالبون والظاهرون.

واحرصوا أيها المؤمنون على جهاد الأعداء، واسترخصوا الحياة الدنيا واطلبوا الآخرة، توهب لكم الحياة، فإن حياة الدنيا لعب ولهو، أي باطل وغرور، لا ثبات له ولا قيمة له، وهذا تحقير لأمر الدنيا، أي فلا تهنوا في الجهاد بسببها. وإن تؤمنوا بالله ورسوله حق الإيمان، وتتقوا ربكم حق التقوى، بأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، يؤتكم ثواب أعمالكم وطاعاتكم في الآخرة، ولا يطالبكم بالتصدق أو الزكاة بجميع أموالكم، بل يطالبكم بإخراج القليل منها.

وسبب الحرص على الدنيا: أن ربكم إن يطلب أموالكم كلها، ويلح في الطلب عليكم، تشحوا وتبخلوا، وتمتنعوا من الامتثال.

وها أنتم أيها المؤمنون المخاطبون: مدعوون للإنفاق في سبيل الله، أي في الجهاد والزكاة ونحوهما، فبعضكم يبخل باليسير من المال، ولا يجيب لدعوة الإنفاق، ومن يبخل في هذا الجانب، فإنما يمنع نفسه من الأجر والثواب بفعله، ويعود عليه وبال أعماله، والله هو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه. وإن تُعْرِضوا عن الإيمان والتقوى، وعن طاعة الله واتباع شرعه، يستبدل قوماً آخرين أطوع لله منكم، وليسوا أمثالكم في التولي عن الإيمان والتقوى، وفي البخل بالإنفاق في سبيل الله. أخرج سعيد بن منصور، وابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ سئل عن هذا، وكان سلمان إلى جنبه، فوضع يده على فخذه، وقال: قومُ هذا، ولو كان الدين في الثريا، لناله رجال من أهل فارس».

تفسير سورة الفتح

صلح الحديبية وآثاره

إن أهم شيء في حياة الشعوب والأمم المعاصرة الاعتراف بهم من الدول أو أنظمة الحكم الأخرى؛ ليصير لهم وجود قانوني دولي، فيصبح التعامل معهم والتبادل وإبرام المعاهدات ذا صفة نظامية قوية، ومن هنا كان صلح الحديبية بين النبي ﷺ وأمته وبين المشركين القرشيين أصحاب الزعامة العربية فتحاً عظيماً سمي فتحاً مبيناً، والفتح الأكبر أو الأعظم في السنة السادسة من الهجرة، تمهيداً لفتح مكة، قال الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه». ونزلت سورة الفتح المدنية (بعد الهجرة) بسببه، بعد انصراف النبي ﷺ من الحديبية، فهي بهذا في حكم المدني.

أخرج الحاكم وغيره عن المِسْوَر بن مَخْرمة ومروان بن الحكم قالا: «نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها» وهذا مطلعها:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا[1] عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ[2] فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ

(١) أي ذا عز ومنعة لا ذلّ فيه. (٢) الطمأنينة .

بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ(١) وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ١-٧].

إنا فتحنا لك أيها النبي فتحاً ظاهراً عظيماً هو صلح الحديبية، عند جمهور الناس، وهو الصحيح، وليس فتح مكة، أي إن ما يسّر الله تعالى لك أيها الرسول في خروجك إلى مكة للعمرة فتح مبين تستقبله، ونزلت سورة الفتح مؤنسة للمؤمنين، لأنهم كانوا استوحشوا من ردّ قريش لهم، ومن تلك المهادنة التي هادنهم النبي ﷺ، فنزلت السورة مؤنسة لهم في صدهم عن البيت الحرام، ومُذهبة ما كان في قلوبهم. ورأى النبي ﷺ أنه هادن عدوه ريثما يتقوى هو، وظهرت على يديه آية الماء في بئر الحديبية، حيث وضع فيه سهمه، وثاب (تفجر) الماء، حتى كفى الجيش، وتمت فيه بيعة الرضوان. وهي الفتح الأعظم، كما قال جابر بن عبد الله، والبراء بن عازب، وأدى ذلك إلى فتح خيبر، وامتلأت أيدي المؤمنين خيراً، ولم يفتتحها إلا أهل الحديبية، ووقعت في تلك السنة ملحمة عظيمة بين الروم وفارس، انتصر فيها الروم، فكانت من جملة الفتح على رسول الله ﷺ، لظهور أهل الكتاب على المجوس، وتخضيد شوكة الكفر الوثني.

ثم عظّم الله تعالى أمر نبيه ﷺ وشرَّفه بأن أنبأه بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أي لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح، والهداية إلى الصراط المستقيم، والنصر العزيز المنيع الذي لا ذل معه، أو الفريد الذي لا شبيه له.

ولكي يُتم الله إنعامه عليك بإعلاء شأن الدين، وانتشار الإسلام، وفتوح البلاد شرقاً وغرباً، وليرشدك إلى الطريق القويم بما يشرعه لك من الشرع العظيم، ولينصرك الله على أعدائك نصراً غالباً منيعاً، لا يتبعه ذل. وإتمام النعمة على النبي:

(١) أي دائرة هي السوء، والمراد: الهزيمة والشر.

هو إظهاره، وتغلبه على عدوه، والرضوان في الآخرة، والنصر العزيز: هو الذي معه غلبة العدو والظهور عليه.

أخرج أحمد والشيخان والترمذي والحاكم عن أنس قال: أنزلت على النبي ﷺ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرْجِعَه من الحديبية، فقال النبي ﷺ: لقد أنزلت على آية أحب إلي مما على الأرض، ثم قرأها عليهم، فقالوا: هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله، قد بيَّن الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حتى بلغ ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

إن الله عز وجل هو الذي أوجد الطمأنينة في قلوب المؤمنين، وهم الصحابة رضي الله عنهم، يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، ليزيدهم الله يقيناً جديداً على يقينهم الحاصل من قبل. ويسمى هذا اليوم: رفع الروح المعنوية للجيش، وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين: هو تسكينها لتلك الهدنة مع قريش حتى اطمأنت، وعلموا أن وعد الله حق. فازدادوا بذلك إيماناً إلى إيمانهم الأول، وكثر تصديقهم. وهذا دليل على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب.

ولله تعالى السلطان على جنوده في السماوات والأرض، من الملائكة والإنس والجن والشياطين، والقوى الكونية في السماء والأرض، من بحار وأنهار وزلازل وبراكين وأعاصير. وكان الله ولا يزال عليماً بمصالح خلقه، حكيماً في صنعه وتقديره وتدبيره، وهذا إشارة إلى تسكين النفوس أيضاً، وأن تكون مسلمة، لأنه ينصر من شاء، متى شاء، وعلى أي صورة شاء، مما لا يدبره البشر. ومن جنده السكينة التي أنزلها في قلوب الصحابة، فثبَّتت بصائرهم.

ثم عرف الله نبيه ما يفعل به وبالمؤمنين والكافرين، فقد دبر الله ما دبر، من تسليط المؤمنين على الكافرين، ليعرفوا نعمة الله في ذلك، ويشكروها، وليدخل

المؤمنين والمؤمنات جنات (بساتين) تجري الأنهار من تحت قصورها، وهم ماكثون فيها على الدوام، وليكفِّر (يستر) عنهم خطاياهم ولا يظهرها، وكان إنجاز ذلك الوعد بإدخالهم الجنة وتكفير سيئاتهم عند الله، وفي حكمه، فوزاً عظيماً كبيراً، ونجاة من كل غم، وظفراً بكل مطلوب.

ولكي يعذب أهل النفاق وأهل الشرك بالهم والغم بسبب ما يشاهدونه، من انتشار الإسلام وانتصار المسلمين، وقهر المخالفين، وبما أصيبوا به من القهر والقتل والأسر في الدنيا، وبما أُعد لهم من العذاب في الآخرة، ولقد أصابهم ما أرادوا بالمسلمين فعليهم دائرة هي السوء، والمراد: الهزيمة والشر، أي دائرة السوء الذي أرادوه بالمسلمين في ظلهم السيئ.

ثم أكد الله تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فلله تعالى تدبير أمر جنوده في هذا العالم كيف يشاء، كما تقدم بيانه، وكان الله وما يزال عليماً بمصالح خلقه، حكيماً في صنعه وتقديره وتدبيره.

مهام النبي ﷺ ومغزى بيعة الرضوان

إن مهمة تكليف الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مهمة عظيمة وشاقة، وتتميز مهمة نبينا ﷺ بمعانٍ أو وظائف تتفق مع كونه خاتم النبيين وإمام المرسلين، فهو الشاهد على أمته والأمم المتقدمة بتبليغ الرسالة الإلهية، وهو المبشر أهل الطاعة برحمة الله تعالى، والمنذر لأهل الضلال من عذاب الله تعالى. والغاية من رسالته التوصل إلى الإيمان الحق بالله ورسوله، وتأييد دعوته، وتنزيه (تسبيح) الله بوصفه بكل صفات الكمال، وتجريده عن كل صفات النقصان. ومعنى بيعته بيعة الرضوان يوم الحديبية على الموت دفاعاً عنه: بيعة لله تعالى ذاته، فمن نقض بنود البيعة عاد

وبال نقضه على نفسه، ومن أوفى بالعهد مع الله، فسيلقى الثواب العظيم. وهذا ما سجلته الآيات التالية:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ(١) وَتُوَقِّرُوهُ(٢) وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(٣) ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ(٤) فَمَن نَّكَثَ(٥) فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ(٦) بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ٤٨/٨-١٠].

إنا أرسلناك أيها النبي لأداء وظائف ثلاث هي: الشهادة على الناس من أمتك وغيرهم، بأعمالهم وأقوالهم بتبليغ شرع الله إليهم، وتبشير المؤمنين الطائعين برحمة الله وجنته، وإنذار الكافرين والعصاة وتخويفهم من عذاب الله عز وجل.

والغرض السامي من إرسالك أيها الرسول: هو أن تؤمن أمتك بالله ورسوله -والخطاب للرسول وأمته- وأن يعظموك ويفخموك، وأن يحترموك ويقدروك، وينزهوا الله تعالى عما لا يليق به من الشريك والولد والصاحبة، والتشبّه بالمخلوقات، وذلك على الدوام، و بخاصة في الصباح والمساء، لقوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي في الغدو والعشي. وهذه هي صلاة البَرْدين، أي صلاة الفجر والعشاء، جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي موسى: «من صلى البردين دخل الجنة». والفعلان: (تعزروه وتوقروه) عند جمهور المفسرين: للنبي ﷺ، وفعل (تسبحوه) لله تعالى. وقال بعض المتأولين: الضمائر في الأفعال الثلاثة هي كلها لله تعالى.

ثم بيّن الحق تعالى عظمة بيعة الرضوان في الحديبية مع النبي ﷺ، وهي بيعة

(١) تعظموه وتفخموه وتكبّروه . (٢) من التوقير: وهو التعظيم والاحترام . (٣) التسبيح: تنزيه الله، وذلك غدوة وعشياً . (٤) استعارة يراد بها اطلاع الله على مبايعتهم، ومجازاتهم عليها . (٥) نقض العهد . (٦) وفّى في مبايعته .

الشجرة حين أخذ رسول الله ﷺ الأُهبة لقتال قريش، لما بلغه مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي أرسله لمفاوضة قريش، قبل أن ينصرف رسول الله ﷺ من الحُديبية، وكان معه ألف وأربع مئة رجل، وبايعهم رسول الله ﷺ على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد، حتى قال سلمة بن الأكوع وغيره: بايعنا رسول الله ﷺ على الموت. وقال ابن عمر وجابر: على ألا نفرّ.

والمبايعة مفاعلة من البيع، لأن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ثم صار اسم البيعة يطلق على معاقدة الخلفاء والملوك. وعلى هذا سمّت الخوارج أنفسها الشُّراة، أي الذين اشتروا بزعمهم الجنة بأنفسهم.

ومعنى الآية: إن الذين يبايعونك أيها الرسول بيعة الرضوان بالحديبية: تحت الشجرة على قتال قريش، إنما يبايعون الله، أي يطيعونه ويعاهدونه على امتثال أوامره، وصفقتهم إنما يمضيها الله تعالى ويمنح الثمن، أي الثواب عليها، فمن بايع النبي في الظاهر، فقد بايع الله في الحقيقة والواقع.

وأكد الله هذا المعنى بقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بأنَّ عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى على السواء، وأن الله حاضر معهم، يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، والله تعالى هو المبايع حقيقة بوساطة رسوله ﷺ، فهو السفير المعبر عن الله، وسفارته بين الله وأوليائه المؤمنين.

فمن نقض البيعة مع النبي ﷺ، فإنما وبال نقضه وضرره على نفسه، لا يجاوزه إلى غيره. ومن وفى بالعهد وثبت عليه، ونفَّذ ما عاهد عليه الرسول ﷺ في البيعة، فسيؤتيه الله ثواباً جزيلاً، ويدخله الجنة، كما عبر الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ٤٨/١٨].

إن هذه البيعة تعد وقفة مشرفة، وتضحية بالغة، وتصميماً عالياً من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، لتحقيق أعظم الغايات، لذا كان هذا الموقف مما يغبطون عليه، وقد أكرمهم الله تعالى بهذا الرضوان الإلهي على مدى الدهر، وجعله قرآناً يتلى، وأنموذجاً عظيماً للأبطال والشجعان، في سجلات اللقاءات والإعداد للمعارك الفاصلة الخالدة.

أوضاع المتخلفين عن الحديبية

تخلف عن الذهاب مع النبي ﷺ في عمرته يوم الحديبية قوم من الأعراب[1]: هم جُهَينة ومزينة ومن كان حول المدينة من القبائل وهم غفار وأشجع والدِّيل، رأوا أنه يستقبل عدواً عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة وهم الأحابيش، ولم يكن الإيمان قد تمكن من قلوبهم، وقالوا: لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة، ففضحهم الله تعالى في الآيات الآتية، وأعلم محمداً ﷺ باعتذارهم في الظاهر قبل أن يصل إليهم، وبطلبهم المشاركة في وقعة خيبر وغنائمها، ودعوتهم إلى قتال قوم أولي بأس شديد. قال الله تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ[2] مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا[3] ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ

---

(١) قال الرّماني: لا يقال أعرابي إلا لأهل البوادي خاصة. (٢) هم المتخلفون عن صحبة النبي. (٣) أي هلكى عند الله بسبب هذا الظن الفاسد.

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ١١-١٧].

هذه أخبار أنبأ الله تعالى بها نبيه قبل وقوعها، أولها اعتذار المتخلفين عن الذهاب معه في عمرته يوم الحديبية، فإنهم سيقولون له بعد عودته: شغلتنا الأموال والأهلون، فاستغفر لنا، لكنهم لم يَصْدقوا في هذا الاعتذار، وإنما قالوا ذلك بألسنتهم في الظاهر، وبما لا يعبر عن حقيقة نواياهم وقلوبهم، في أن محمداً وصحبه سينهزمون أمام قريش وثقيف والقبائل المجاورة لمكة وهم الأحابيش، فقل أيها النبي لهم: من يحمي أموالكم وأهليكم إن أراد الله بكم سوءاً، أو أراد بكم نفعاً، ثم رد الله عليهم بقوله: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ثم فسر لهم علة تخلفهم بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ أي لم يكن تخلفكم تخلف معذور، بل ظننتم أنه لن يعود الرسول ﷺ والمؤمنون معه إلى أهليهم وأوطانهم أبداً، وأن العدو سيقتلهم، وزين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم، فقبلتموه، وظننتم أن الله تعالى لن ينصر رسوله، وكنتم قوماً هلكى أو هالكين عند الله تعالى، بسبب فساد هذا الاعتقاد.

ثم أخبر الله تعالى عن عقاب أهل الكفر: وهو أن من لم يصدِّق بالله تعالى ورسوله، ولم يخلص عمله لربه، كما صنع هؤلاء المتخلفون عن الحديبية، فجزاؤهم ما أعده الله لهم من عذاب السعير المتلظية بهم.

وقدرة الله شاملة، فهو مالك السماوات والأرض، وسلطانه مطلق فيهما، يتصرف فيهما كيف يشاء، يغفر لمن شاء مغفرة ذنوبه، ويعذب من أراد تعذيبه على كفره وعصيانه، وكان الله وما يزال غفوراً لذنوب عباده التائبين رحيماً يرحم جميع خلقه.

وسيقول لك أيها النبي هؤلاء الأعراب المتخلفون عنك في عمرة الحديبية: إذا سرتم إلى خيبر، وظفرتم بمغانمها: اتركونا نتبعكم في السير، ونشهد معكم الموقعة، وهذا دليل آخر على كذبهم في اعتذارهم بعد كشف أمرهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إنهم يريدون في شأن غنائم خيبر تبديل حكم الله ووعده لأهل الحديبية، بتخصيصهم بمغانم خيبر، فقد أمر الله رسوله ألا يسير معه إلى خيبر أحد من غير أهل الحديبية، ووعدهم بمغانمها وحدهم، فقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ معناه: أن يغيروا وعده لأهل الحديبية بغنيمة خيبر.

فقل أيها النبي لهم: لن تسيروا معنا إلى خيبر، وقد قال الله ذلك سابقاً: وهو أن غنائم خيبر لمن شهد الحديبية خاصة، لا نصيب فيها لغيرهم. وحينئذ سيقول المخلفون عند سماع هذا القول: بل إنكم تحسدوننا في المشاركة في الغنيمة، فلذا لم تأذنوا لنا في الخروج، فرد الله عليهم: ليس الأمر أمر حسد كما تزعمون، بل إنكم لا تفهمون إلا فهماً قليلاً، أي لا تفهمون شيئاً من أحكام الدين: وهو جعل القتال من أجل الله تعالى، والإخلاص فيه.

ومع ذلك، ميدان القتال متسع، فإنكم إن أردتم صدق الانتماء للمسلمين، فإنكم ستطالبون إلى قتال قوم أولي شدة وبأس، تخيرونهم بين أحد أمرين: إما القتال وإما الإسلام، لا ثالث لهما. وهذا يشمل مشركي العرب والمرتدين. قال عكرمة وابن جبير وقتادة: هم هوازن ومن حارب رسول الله ﷺ في حُنَين ثم وعد الله وأوعد،

وهو إن تطيعوا فيما تدعون إليه من الجهاد، يؤجركم الله أجراً حسناً، وإن أعرضتم كما فعلتم زمن الحديبية يعذبكم الله.

ثم استثنى الله تعالى أصحاب الأعذار من التكليف بفرضية الجهاد: ليس هناك حرج على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار وهي العمى، والعرج المستمر، والمرض المزمن، أو الطارئ في وقت طروئه، لعدم استطاعتهم. ثم رغب الله في الجهاد وطاعة الله ورسوله، فمن يطع الله ورسوله، يدخله جنات تجري الأنهار من تحت قصورها، ومن يستنكف عن الطاعة، ويعص الله ورسوله، يعذبه الله عذاباً مؤلماً في الدنيا والآخرة.

قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ قال أهل الزمانة: كيف بنا يارسول الله؟ فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ..﴾ الآية.

بيعة الرضوان وآثارها الخيِّرة

كان لبيعة الرضوان عام الحديبية أثر كبير في تاريخ المسلمين، وكانت بركة عليهم، حيث ظفروا برضوان الله تعالى، وبُشِّروا بغنائم كثيرة، يأخذونها، وبهزيمة أعدائهم الكفار، و بحمايتهم من إغارة ثمانين رجلاً مسلحين من جبل التنعيم على النبي ﷺ وعلى أصحابه.

أخرج مسلم والترمذي عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية، هبط على رسول الله ﷺ ثمانون رجلاً في السلاح من جبل التنعيم (موضع في الحل بين مكة وسَرِف) يريدون غِرّة (غفلة) رسول الله ﷺ ، فأخذوا، فأعتقهم أي الرسول، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ..﴾ الآية . **وجاء النص على هذه الوعود والبشائر في الآيات الآتية:**

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ[1] اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح: ٤٨/١٨-٢٤].

تالله لقد رضي الله عن المؤمنين المخلصين، الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة بيعة الرضوان، بالحديبية، على قتال قريش وعدم الفرار، بايعهم النبي على الموت، وكان عددهم في الأصح ألفاً وأربع مئة. وسميت بيعة الرضوان، لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ..﴾.

ورضاه لأنه تعالى عَلِم ما في قلوبهم من الإيمان والإخلاص، والسمع والطاعة، فأنزل الطمأنينة وسكون النفس عليهم، وجازاهم بفتح خيبر، بعد انصرافهم من الحديبية، ثم أتبعه بفتح مكة وسائر الأقاليم المجاورة.

وأثابهم أيضاً مغانم كثيرة يأخذونها، وهي غنائم خيبر، وكان الله وما يزال قوياً غالباً قادراً، مدبراً أمور خلقه، على وفق الحكمة والسداد.

ووعدكم الله أيها المؤمنون مغانم كثيرة من المشركين والكفار، على ممر الدهر، إلى يوم القيامة، ولكن عجّل لكم غنائم خيبر، وكف عن قتالكم أيدي قريش يوم الحديبية بالصلح، وأيدي اليهود أهل خيبر وحلفائهم، من أسد وغطفان، كل ذلك

---

(١) مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله، أي سنَّ الله ذلك سنة .

لتشكروه، ولتكون تلك النعم علامة للمؤمنين، يعلمون بها صدق الرسول ﷺ في جميع ما يَعِدهم به، وليثبّتكم على طريق الهداية إلى الطريق القويم: طريق الحق، وطاعة الله ورسوله. ووعدكم أيضاً غنائم وفتوحات أخرى، غير صلح الحديبية وفتح خيبر، لم تكونوا تقدرون عليها الآن، قد أحاط الله بها علماً، أنها ستؤول إليكم، وتفتحونها وتأخذونها، مثل غنائم هوازن في معركة حنين، وفتوحات فارس والروم، وقد تحقق كل ذلك ولله الحمد، وأنجز الله وعده، وكان وما يزال على كل شيء قديراً مقتدراً، لا يعجزه شيء.

ولو بادركم بالقتال كفار قريش بالحديبية، لنصر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزموا هزيمة منكرة، فارّين هاربين، ثم لا يجدون حارساً وحامياً، يحرسهم ويواليهم على قتالكم، ولا ناصراً معيناً ينصرهم عليكم.

تلك سنة الله الدائمة في نصره جيش الإيمان على جيش الكفر، وإعلاء كلمة الحق وإبطال الباطل، على الرغم من عدم تكافؤ القوى، مثل النصر يوم وقعة بدر، وتلك السنة مستمرة ثابتة، لا تغيير لها.

والله تعالى بكرمه وفضله: هو الذي كف أيدي المشركين عن المسلمين، وأيدي المسلمين عن المشركين، لما جاؤوا يصدّون رسول الله ﷺ وجنوده عن البيت الحرام، عام الحديبية، في داخل مكة وحدودها، حيث هبط ثمانون رجلاً، كما تقدم، على النبي ﷺ من جبل التنعيم، متسلحين بكامل أسلحتهم، يريدون مباغتة النبي ﷺ، فأخذهم المسلمون، ثم تركوهم. وهذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين، بكف المشركين عنهم، وكف المسلمين عن قتال أعدائهم. وكان الله وما يزال بصيراً بأعمال عباده المؤمنين والمشركين، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وكانت هذه الحملة مرسلة من قريش بقيادة عكرمة بن أبي جهل، فلما أحسّ بهم

المسلمون، بعث رسول الله ﷺ في أثرهم خالد بن الوليد، وسماه حينئذ (سيف الله) في جملة من الناس، ففروا أمامهم حتى أدخلوهم بيوت مكة، وأسروا منهم جملة، فسيقوا إلى رسول الله ﷺ، فمنَّ عليهمُ وأطلقهم، فهذا هو كفُّ الله تعالى أيديهم عن المسلمين بالرعب، وكفُّ أيدي المسلمين عنهم بالنهي عن القتال في بيوت مكة وغيرها، وذلك هو (بطن مكة).

أسباب وآثار صلح الحديبية

أوضح الله تعالى في كتابه موقف المشركين من المسلمين قبل صلح الحديبية، من إعلان الكفر وصد المؤمنين عن البيت الحرام، وبيَّن حكمة هذا الصلح، من أجل تعظيم حرمة المسجد الحرام، ونشر الإسلام وسلامة النساء والرجال المؤمنين، والقضاء على الحمية الجاهلية في مهدها، وكانت آثار هذا الصلح عظيمة، بإنزال السكينة والطمأنينة والثبات على قلب الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا(١) أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ(٢) بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ(٣) لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٥-٢٦].

المعنى: لم يكن كفُّ المسلمين عن المشركين عام الحديبية لخير فيهم، فإنهم هم

(١) أي صدوكم وصدوا الهدي (وهو شاة ونحوها من الأنعام) محبوساً عن الوصول للحرم. (٢) مكروه ومشقة. (٣) تميزوا عن الكفار، أو تفرقوا عنهم.

الذين كفروا بالله ورسوله، ومنعوكم أيها المسلمون من الطواف بالبيت الحرام، وأنتم أحق به وأهلوه، وصدوا الهدي (ما يهدى إلى الحرم من الأنعام) محبوساً في مكانه، عن بلوغ محل ذبحه، بغياً وعدواناً، وكان الهدي مئة أو سبعين بدنة (ناقة أو جمل). ومَحِلُّه: موضع نحره الذي يذبح فيه عادة، وهو منى، أو الحرم المكي، فصار محل الإحصار (المنع من دخول مكة) على طريق الرخصة مَحِلاً للنحر، وكان ذلك خارج الحرم. وتم عقد صلح الحديبية بين سهيل بن عمرو مفاوض قريش، وبين النبي ﷺ، على أن يعود الرسول عنهم، ويعتمر من العام القابل، فهذا كان صدَّهم إياه.

وعلة صرف المسلمين عن القتال وعدم تمكينهم من دخول مكة: حمايةُ أهل الإيمان سراً، وهو أنه كان بمكة مؤمنون، رجال ونساء، خفي إيمانهم، فلو استباح المسلمون أرض مكة، أَهْلَكوا أو قتلوا أولئك المؤمنين، فتصيبهم من جهتهم مشقة وأسى أو مكروه، خطأ بغير قصد ولا علم، لوقوع القتل جهلاً، فيقول المشركون: إن المسلمين قد قتلوا أهل دينهم، فدفع الله تعالى عن المشركين ببركة أولئك المؤمنين، وقد يدفع الله تعالى بالمؤمنين عن الكفار.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ أي لولا وطؤكم قوماً مؤمنين، فهي على هذا في محل رفع، أو هو منصوب بدلاً من ضمير ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ أي لم تعلموا وطأهم أنه وطء مؤمنين.

ولكن كفّ الله أيديكم عنهم وحال بينكم وبين قتالهم، ليخلص المؤمنين من أسرهم، وليدخل في رحمته من يشاء، فيدخل كثير منهم الإسلام.

لو تميز الذين آمنوا من الذين كفروا وذهبوا عن مكة، وانفصل بعضهم عن بعض، لعذب الله الذين كفروا عذاباً مؤلماً وهو القتل، بأن نسلطكم عليهم، فتقتلوهم قتلاً شديداً.

ووقت هذا العذاب: حين جعل الذين كفروا في مكة في قلوبهم أنفة الجاهلية التي لا تعرف المنطق والحق والعدل، وهو قولهم: «واللات والعزّى لا يدخلونها علينا» وإباؤهم كتابة البسملة ووصف محمد بأنه رسول الله، في مقدمة صلح الحديبية.

فأنزل الله تعالى الطمأنينة والثبات والصبر على رسوله وعلى المؤمنين، حيث لم يَدْخُلْهم ما دخل أهل الكفر من الحمية، وثبّتهم على الرضا والتسليم، وألزمهم كلمة التقوى: وهي عند الجمهور (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) وتعظيم الحرم، وترك القتال فيه، ولم يستفزهم صنيع الكفرة المشركين، لانتهاك حرمة الحرم.

وكان المؤمنون أهل هذه الكلمة على الإطلاق، في علم الله تعالى وسابق قضائه سبحانه لهم، فهم أهل الحق والاعتقاد الصحيح، على نقيض المشركين ذوي العقيدة الفاسدة، وكان الله وما يزال عليماً بمن يستحق الخير، ممن يستحق الشر، وهذا إشارة إلى علمه تعالى بالمؤمنين الذين دفع الله السوء بسببهم عن كفار قريش، وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحديبية، فيروى أنه لما انعقد هذا الصلح، أَمِن الناس في تلك المدة الحرب والفتنة، وامتزجوا، وعلت دعوة الإسلام، وانقاد إليه كل من كان له فهم من العرب، وزاد عدد المسلمين في تلك المدة أضعاف ما كان قبل ذلك، فقد كان الرسول ﷺ عام الحديبية في ألف وأربع مئة، ثم سار إلى مكة بعد ذلك بعامين في عشرة آلاف فارس.

تحقيق رؤيا النبي ﷺ، وأوصافه وأصحابه

رؤيا الأنبياء حق وجزء من الوحي، ولقد رأى النبي ﷺ في منامه عند خروجه إلى العمرة، أنه يطوف بالبيت الحرام هو وأصحابه، بعضهم محلّقون، وبعضهم مقصرون، وقال مجاهد: أُري ذلك بالحديبية، فأخْبَر الناس بهذه الرؤيا، ووثق

الجميع بأن ذلك يكون في وجهتهم تلك (أي عام الحديبية) ولكن سبق في علم الله أن ذلك ليس في تلك الوجهة، وإنما في عام مقبل، وتحقق ذلك. وكانت مهمة الرسول وما زالت هداية إلى الطريق القويم وإلى الدين الحق. وأوصاف صحابته عجيبة: هي الشدة على الأعداء، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة العبادة، والحرص على الثواب وإرضاء الله، والتميز بالنور، وتوصيفهم في التوراة والإنجيل، وانتقالهم إلى مرحلة القوة والكثرة، ووعدهم من الله بالمغفرة والجنة، كما في هذه الآيات الآتية:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ[(١)] وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ[(٢)] عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ[(٣)] فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ[(٤)] فَآزَرَهُ[(٥)] فَاسْتَغْلَظَ[(٦)] فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ[(٧)] يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ[(٨)] وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٧-٢٩].

أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: أُري النبي ﷺ، وهو بالحديبية أنه يدخل مكة، هو وأصحابه آمنين، محلّقين رؤوسهم ومقصرين، فلما نحر الهدي بالحديبية، قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ..﴾

المعنى: تالله لقد صدق الله تعالى تأويل رؤياه، التي رآها، تصديقاً مقترناً بالحق:

(١) أي لتحقيق إعلائه. (٢) أي قساة، جمع شديد. (٣) علامتهم. (٤) فروعه التي تنبت حول الأصل. (٥) أعانه وقوّاه. (٦) صار غليظاً وشديداً. (٧) أي استقام. (٨) أي المشركين.

أنكم ستدخلون المسجد الحرام بمشيئة الله تعالى، في عام قابل، وليس في عام الحديبية، حالة كونكم آمنين من العدو، محلقاً بعضكم جميع رأسه، ومقصراً بعضُكم الآخر، لا تخافون من أحد.

فعلم الله ما لم تعلموا من الحكمة والمصلحة في تأخير العمرة إلى العام القادم، وانتشار الإسلام ودخول الناس فيه، والحفاظ على من كان من المؤمنين في مكة، فجعل من دون ذلك الفتح فتحاً قريب الحصول: هو بيعة الرضوان، في رأي كثير من الصحابة، أو هو صلح الحديبية فيما روي عن مجاهد وابن إسحاق، أو هو فتح خيبر، وهو الأولى، فهو كالدليل على صدق الرؤيا وتحققها.

وليس الفتح القريب هو فتح مكة، لأن ذلك لم يكن من دون دخول النبي ﷺ وأصحابه مكة، بل كان بعد ذلك بعام، لأن الفتح لمكة كان سنة ثمان من الهجرة. وربط دخول المسجد الحرام بمشيئة الله، لتعليم العباد الأدب، وإرشادهم إلى تعليق كل أمر بمشيئة الله تعالى، سواء كان محقق الوقوع أو محتمل الوقوع.

وأكد الله تعالى تحقيق الرؤيا بتصديق الرسول ﷺ في كل شيء، فالله هو الذي أرسل رسوله محمداً بالهدى، أي بالإرشاد إلى الطريق الأقوم، وإلى دين الإسلام، والعلم النافع، والعمل الصالح، ليحقق إعلاءه وإظهاره على كل الأديان، وإن بقي من الدين الآخر أجزاء. وكفى بالله شاهداً عندكم بهذا الخبر ومُعْلماً به، وبهذا الوعد، من إظهار دينه على جميع الأديان، وهو رد على سهيل بن عمرو سفير أهل مكة لعقد صلح الحديبية، الذي أبى أن يكتب في مقدمة الصلح البسملة وكلمة (رسول الله). فالآية على هذا وعيد للمشركين الذين رفضوا هذه الكلمة، فرد الله تعالى عليهم بهذه الآية.

محمد رسول من عند الله حقاً بلا شك، وهو مبتدأ وخبر، وصحابته الذين معه

يمتازون بالشدة والصلابة على الكفار الذين جحدوا بوحدانية الله، ويتراحمون فيما بينهم. وكلمة: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ مبتدأ، وخبره: أشداء، ورحماء: خبر ثانٍ. ووصف الشدة كما في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٣]. ووصف الرحمة كما جاء في حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد ومسلم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مثَل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والْحُمّى».

وهاتان صفتان لهم، وبقية الصفات هي:

- أنك تشاهدهم يكثرون الصلاة بإخلاص، فتراهم راكعين ساجدين، يطلبون الثواب والرضا من الله، ويحتسبون عند الله تعالى جزيل الثواب: وهو الجنة.

- وعلامتهم المميزة لهم: وجود النور والوقار في الوجه والسمت الحسن والخشوع.

- ذلك الوصف المذكور للصحابة هو وصفهم المذكور في التوراة، والإنجيل، كانوا ضعافاً، فتقوّوا، وصاروا في تكاثرهم مثل الزرع الذي أخرج فروعه على جوانبه، فاشتد وقوي، وأعانه وشدّه، واستقام وقوي على سوقه أو أصله، يعجب هذا الزرع الزُّرّاع لقوته وحسن منظره، وتكاثر ليكونوا غيظاً للكافرين.

و﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ جملة في موضع الحال، فإذا أعجب الزراع، فهو أحرى أن يعجب غيرهم. وقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ ابتداء كلام، قبله محذوف، تقديره: جعلهم الله تعالى بهذه الصفة ليغيظ بهم الكفار، أي المشركين، وعد الله تعالى الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا صالح الأعمال، أي الواجبات، منهم: أن يغفر ذنوبهم، ويجعل لهم ثواباً جزيلاً في الجنة و(من) لبيان الجنس لاللتبعيض.

تفسير سورة الحجرات

تقديم الكتاب والسنة والأدب مع الرسول ﷺ

أمر الله عز وجل بالتزام أحكام القرآن والسنة، ونهى عن تقديم شيء على كلام الله ورسوله، وألزم المؤمنين بتعظيم النبي ﷺ في خطابهم له، من غير رفع الصوت، وفي ترك مناداتهم له كرعاة الشاء باسمه المجرد عن وصف الرسالة بقولهم: «يا محمد، يا محمد» من خارج حجرات (غرف) زوجاته، تأدباً معه بالآداب العالية المشتملة على التوقير والتعظيم، وهذا صريح في الآيات الآتية، في مطلع سورة الحجرات المدنية بالإجماع من أهل التأويل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ[1] بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ[2] كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ[3] أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ[4] أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١-٥].

يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله لا تتقدموا بقول أو حكم قبل حكم الله

(١) أي لا تتقدموه ولا تسبقوه بالقول والحكم. (٢) أي لا تكلموه بصوت مرتفع كالجهر فيما بينكم.
(٣) أي لئلا تبطل أو يضيع ثواب أعمالكم. (٤) أي من خلف أو من خارج الغُرف المحاطة بالحيطان.

ورسوله، فربما أخطأتم، واتقوا الله في كل أموركم، وراقبوه في تجاوز ما لم يأذن به الله تعالى ورسوله، فإن الله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم ونياتكم. وهذا نهي صريح عن مخالفة القرآن والسنة.

نزلت -كما روى البخاري والترمذي وغيرهما- لما قدم وفد بني تميم، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، لو أمّرْتَ الأقرع بن حابس، وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، بل أمِّر القعقاع بن مَعْبد، فقال أبو بكر: ما أردتَ إلا خلافي، فقال عمر: ما أردتُ خلافك، وارتفعت أصواتهما، فنزلت الآية في ذلك.

وأكدّ الله تعالى الأدب السابق بغض الصوت، فيا أيها المؤمنون، إذا خاطبتم رسول الله ﷺ، فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته، لأن ذلك يدل على ترك الاحترام والأدب، وخاطبوه بالسكينة والوقار والصوت الهادئ، خلافاً لعادتكم مع بعضكم برفع الصوت، والجهر غير المعتاد بالقول، ولا تقولوا: يا محمد، ويا أحمد، ولكن: يا نبي الله، أو يا رسول الله، توقيراً له، واحتراماً لرسالته، نهاكم الله عن رفع الصوت المزعج، خشية أن يذهب ثواب أعمالكم، أو وقوعكم في الكفر، من حيث لا تشعرون بذلك . أخرج ابن جرير عن قتادة قال: كانوا يجهرون له بالكلام، ويرفعون أصواتهم، فأنزل الله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ الآية.

ثم رغب القرآن في خفض الصوت، فقال الله تعالى: إن الذين يخفضون أصواتهم أثناء مكالمة النبي ﷺ أو في مجالسه، أخلص الله قلوبهم للتقوى، وجعلها أهلاً ومحلاً لها، أو اختبرها وطهّرها كما يمتحن الذهب بالنار، فيسّرها وهيأها للتقوى، ولهم مغفرة لذنوبهم، وثواب عظيم على تأدبهم بخفض الصوت وسائر الطاعات .نزلت -كما أخرج ابن جرير- في ثابت بن قيس الذي آلى على نفسه ألا يرفع صوته أبداً على صوت رسول الله ﷺ. وقال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾

تألّى أبو بكر ألا يكلم رسول الله إلا كأخي السرار (أي كصاحب السر) فأنزل الله تعالى في أبي بكر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

وروى الإمام أحمد عن مجاهد قال: كُتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين لا يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم ذمّ الله تعالى الذين ينادون رسول الله ﷺ، من خارج حجرات (بيوت) نسائه، كما يفعل أجلاف الأعراب، فقال الله مرشداً لهم إلى ما هو الخير والأفضل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ..﴾ أي إن الذين ينادونك أيها النبي من بعيد، من وراء بيوت نسائك، وهم جفاة بني تميم، أكثرهم جهال، لا يعقلون الأصول والآداب الاجتماعية، ولا يقدّرون ما يجب لك من الاحترام والتعظيم. وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ يراد به في أكثر أحوالهم لا يعقلون أو أكثرهم لا كلهم لا يعقلون.

أخرج الطبراني وأبو يعلى بسند حسن عن زيد بن أرقم قال: جاء ناس من العرب إلى حُجَر النبي ﷺ، فجعلوا ينادون: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ الآية. وفي مصحف ابن مسعود: «أكثرهم بنو تميم لا يعقلون».

وليتهم لو صبروا حتى تخرج إليهم كالمعتاد، لكان لهم في ذلك الخير والمصلحة في الدنيا والآخرة، لما فيه من رعاية حسن الأدب مع رسول الله ﷺ، ورعاية قدره الشريف، والعمل بما يستحقه من الإعظام والاحترام، والله غفور (كثير المغفرة) لذنوب عباده، رحيم (واسع الرحمة) بهم، لا يؤاخذ مثل هؤلاء، فيما فرض منهم من إساءة الأدب، جهلاً وعادة قبيحة، فهم يحتاجون إلى التعليم، وهذا حث على التوبة، وترجية لهم وإعلام بقبول توبة التائب، وغفرانه ورحمته لمن أناب ورجع.

التثبت من نقل الأخبار

تناقل الأخبار آفة المجتمعات، فقد يكون بعضها إشاعة، أو كذباً، وقد يكون هناك كثير من المبالغة في الخبر وتضخيمه، وغالباً ما يكون نقل الخبر بحاجة ماسة إلى الدقة في النقل، وضبط اللفظ، وفهم المراد، وتأويل المسموع، لذا كان لا بد من الكتابة أو التدوين أو التسجيل ليكون الخبر صحيحاً أو مطابقاً للواقع، وقد يكون الخبر كله ملفقاً أو موضوعاً لدوافع سياسية أو مناصرة اتجاه معين أو لبذر بذور الفرقة، وتأجيج نار الخلاف بين الناس، الأقارب أو الأباعد، لذا أوجب القرآن التثبت من الأخبار، تحقيقاً للمصلحة العامة أو الخاصة، ومنعاً من إيقاع الفتنة، وزرع الفرقة، فقال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ(١) بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ(٢) وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ(٣) أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ(٤) ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ [الحجرات: ٤٩/٦-٨].

سبب نزول الآية -فيما أخرجه ابن جرير الطبري وأحمد وغيرهما بسند جيد عن ابن عباس- أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط إلى بني المصطلق مصدِّقاً (جابياً للصدقات) وكان معادياً لهم، فأراد إذايتهم، فرجع من بعض طريقه، وكذب عليهم، وقال للنبي ﷺ: إنهم قد منعوا الصدقة وطردوني وارتدوا، فغضب النبي ﷺ، وهَمّ بغزوهم، ونظر في ذلك، وبعث خالد بن الوليد إليهم، فورد وفدهم

(١) خارج عن حدود الدين والشرع. (٢) لوقعتم في المشقة والعنت أي الجهد والهلاك والإثم. (٣) مخالفة الشرع، والخروج عن الطاعة. (٤) الثابتون على الدين، العاملون لصالح الدين والدنيا.

منكرين لذلك، فنزلت الآية بهذا السبب. وهي وإن نزلت خاصة في هؤلاء القوم، فهي عامة إلى يوم القيامة، ما نسخها شيء.

ومعناها: يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله، إن أتاكم فاجر، لا يبالي بالكذب، بخبر فيه إضرار بأحد، فتبينوا الحقيقة، وتثبتوا من الأمر، ولا تتعجلوا بالحكم حتى تتبصروا في صحة الخبر، لتظهر الحقيقة، خشية أن تصيبوا قوماً بالأذى، وتلحقوا بهم ضرراً لا يستحقونه، وأنتم جاهلون حالهم، فتصيروا على ما حكمتم عليهم بالخطأ نادمين على ذلك.

وفي تنكير (فاسق) و (نبأ) دلالة على العموم في الفساق والأنباء، مما يدل على أن شهادة الفاسق لا تقبل، وأن خبر الواحد العدل حجة.

وعليكم أيها المؤمنون تعظيم قائدكم، فاعلموا أن معكم رسول الله، فعظموه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، ولا تقولوا قولاً باطلاً، ولا تتسرعوا بالحكم على الناس من غير تبيُّن حقيقة الخبر، ولو أطاعكم في كثير من الأخبار التي تخبرونه بها باجتهادكم وتقدمكم بين يديه، لأدى ذلك إلى الوقوع في العَنَت: وهو المشقة والإثم والهلاك.

ولكن الله تعالى أنعم عليكم بنعم كثيرة، فلا تتقدموا في الأمور، واقنعوا بإنعام الله تعالى عليكم، وحبَّب، أي قرَّب الإيمان إلى بعضكم وحسَّنه وخلقه في قلوبكم، وكرَّه إليكم الكفر (جحود الخالق وتكذيب الرسل) والفسوق (الخروج عن حدود الدين) والعصيان (المخالفة وعدم الطاعة) أي جعل هذه الثلاثة مكروهة في قلوبكم، بما وصف من العقاب عليها، هؤلاء الذين قبلوا هذه النصائح واستقاموا على طريق الحق ومقتضى الشرع، وأدب الدين، وشكروا الله على ذلك، هم الراشدون المهديون، الذين لم يتورطوا في اتهام غيرهم دون تثبت. وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة.

وإن تحبيب الإيمان إليكم، وتكريه الأمور الثلاثة المتقدمة تفضل الله بها عليكم تفضلاً وإنعاماً من لدنه، والله عليم بكل الأمور الحادثة والمستقبلة، حكيم في تدبير شؤون خلقه، وفي أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره. وقوله: ﴿فَضْلًا﴾ مصدر مؤكد بنفسه، لأن ما قبله هو بمعناه، إذ التحبيب والتزيين هو نفس الفضل.

كان قتادة رحمه الله يقول: قد قال الله تعالى لأصحاب محمد ﷺ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ وأنتم والله أسخف رأياً، وأطيش أحلاماً، فلْيَتّهم رجل نفسه، ولينتصح كتاب الله تبارك وتعالى.

إن في هذا الأدب وهو التثبّت من الأخبار المنقولة، والروايات المروية، فائدة عظيمة للأفراد والجماعات، فكم من خبر مفترى ولّد أحقاداً ومنازعات، واتهامات باطلة، فيندم ناقل الخبر لتركه التأمل والتأني، قال عليه الصلاة والسلام: «التأني من الله، والعجلة من الشيطان»[1].

فض المنازعات الداخلية (البغاة)

تقع الصراعات أو المنازعات الداخلية المسلحة عادة في كل زمان ومكان، بسبب بعض الشبهات أو التأويلات، من فئات تستبد بها الأهواء أحياناً، أو الجنوح أحياناً، أو مناصرة لحق يرونه، وظلم يبغون رفعه، وتتكبد الأمة خسارة كبيرة في القضاء على الثورات المسلحة والفتن الداخلية، ولو احتكموا إلى القرآن بمعانيه الدقيقة، لما نشب بينهم شيء من الخلاف، وقد أنزل الله تعالى في قرآنه حكماً سديداً في هؤلاء في الآيات الآتية:

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك، وهو ضعيف.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ(١) مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ(٢) إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ(٣) إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ(٤) إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/٩-١٠].

سبب نزول هذه الآية -فيما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وغيرهم- عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنه قيل لرسول الله ﷺ: يا نبي الله، لو أتيتَ عبد الله بن أبيّ، فانطلق إليه على حمار، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سَبِخة، فبال الحمار، فقال: إليك عني، فوالله، لقد آذاني نتَن حمارك، فقال عبد الله بن رواحة: والله، إن بول حماره أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه، وغضب لكل منهما أصحابه، فوقع بينهما حرب بالجريد والأيدي والنعال، فأنزل الله فيهم ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟..﴾

والمعنى: إذا تقاتلت جماعتان من المسلمين، فعلى ولي الأمر الإصلاح بينهما بالنصح والدعوة إلى الله والإرشاد، وإزالة الشبه، ورفع أسباب الخلاف. والتعبير بـ(إنْ) للدلالة على ندرة الواقعة، والخطاب لولاة الأمور، ويفيد الوجوب. وهو يدل على أن المعصية، وإن عظمت-لا تخرج من الإيمان.

فإن اعتدت أو تجاوزت إحدى الجماعتين على الأخرى، ولم تتقبل النصيحة، فعلى المسلمين أن يقاتلوا الطائفة الباغية، حتى ترجع إلى حكم الله وترك البغي، ويكون القتال بالسلاح وغيره، يفعل الوسيط ما يحقق المصلحة، وهي الفيئة، فإن تحقق

(١) الطائفة: الجماعة من الناس. (٢) بغت: ظلمت، والبغي: الظلم وتجاوز الحد. (٣) ترجع إلى الحالة السوية. (٤) اعدلوا في كل الأمور، من الإقساط: وهو الحكم بالعدل، وإزالة القسط وهو الجور، والقاسط: الجائر.

المطلوب سلماً بغير سلاح، كان مسرفاً في الزيادة، وإن تعين السلاح، فعل حتى الفيئة.

فإن رجعت الفئة الباغية عن بغيها، ورضيت بأمر الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، وتؤدي ما يجب عليها للأخرى، حتى لا يتجدد القتال بينهما مرة أخرى، واعدلوا أيها الوسطاء في الحكم بينهما، إن الله يحب العادلين ويجازيهم أحسن الجزاء. وهذا أمر بالعدل في كل الأمور، روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما -فيما أخرج ابن أبي حاتم والنسائي- أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ، بين يدي الرحمن عز وجل، بما أقسطوا في الدنيا».

ثم أمر الله بالإصلاح في كل نزاع، لأن الله جعل بين المؤمنين أخوة في الدين، يجمعهم أصل واحد، وهو الإيمان، فيجب الإصلاح بين كل أخوين متنازعين، وقاعدة الإصلاح قائمة على تقوى الله، لذا أمر الله بعدئذ بالتقوى في هذا الإصلاح وفي كل أمر، بأن يلتزم الجميع بالحق والعدل، والبعد عن الظلم، ورقابة الله وخشيته، فإن المتنازعين إخوة في الدين، والإسلام سوّى بين جميع المؤمنين، لعلكم ترحمون أيها المتخاصمون بسبب التقوى: وهي التزام الأوامر، واجتناب النواهي، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ إنما المفيدة للحصر: تفيد أنه لا أخوة إلا بين المؤمنين، لأن الإسلام هو الرباط الجامع بين أتباعه، وهذا يدل على أن أخوة الدين أقوى وأمتن وأخلد من أخوة النسب، كما ذكر القرطبي وغيره.

وليست الفئة الباغية كافرة، قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أمشركون هم أهل صِفّين والجَمَل؟ قال: لا، من الشرك فرُّوا، قيل: أفمنافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا.

وقال النبي ﷺ: «حَكَمَ الله تعالى في الفئة الباغية ألا يُجهز على جريح، ولا يُطلب هارب، ولا يقتل أسير»(١).

ولا ضمان في أثناء القتال بين الفئتين المتحاربتين، فإذا لم يقع قتال، نفِّذت الأحكام العادية العامة، فيجب القصاص من القاتل عمداً، وتجب الدية في القتل الخطأ، والكفارة.

إن تحكيم كتاب الله والرضا بما فيه، وإفهام المتأولين خطأ تأويلهم هو قاعدة حل المنازعات الداخلية في الإسلام، ولو طبقت هذه القاعدة لما وجدنا اقتتالاً قائماً بين المسلمين.

الآداب الاجتماعية ووحدة الشعوب في الإنسانية

الدين رباط جامع بين العقيدة والعبادة، والمعاملة، والأخلاق أو الآداب، وليست الآداب مجرد صفات ترفيه أو كمالية في الإسلام، وإنما هي من صلب الدين، يحكمها مبدأ الحلال والحرام، والثواب والعقاب، والرضا والسخط، خلافاً لما يظن بعض الناس خطأ أن الأخلاق صفة كمالية لا تخضع للحساب والعقاب، ومن المعلوم أن تقدم المجتمعات ورقيها إنما يكون بالأخلاق السوية والآداب العالية، لذا كانت سورة الحجرات كلها في الأخلاق والمبادئ الاجتماعية والإنسانية، ومنها هذه الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ(٢) قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ(٣) وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ(٤) بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ(٥)

---

(١) ذكره القرطبي. (٢) لا يهزأ ولا يحتقر. (٣) لا يطعن ولا يعب بعضكم بعضاً. (٤) لا تتداعوا بالمكروه من الألقاب. (٥) ساء الاتصاف بالفسق بعد توافر الإيمان بسبب سوء الآداب.

بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟[1] وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ[2] لِتَعَارَفُوٓا۟ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

[الحجرات: ٤٩/ ١١-١٣].

ينهى الله تعالى عن السخرية واحتقار الناس، والنهي يفيد التحريم، فيا أيها المصدقون بالله ورسوله، لا يهزأ رجال من آخرين، فربما كان المهزوء به عند الله خيراً من المستهزئ أو الساخر، ولا تهزأ نساء من نساء أخريات، فلربما كانت المهزوء بها أفضل وأكرم عند الله من المستهزئة، ولا يطعن ولا يعب بعضكم بعضاً بقول أو فعل أو إشارة، ولا تتداعوا بالألقاب التي يسوء الشخص سماعُها، ساء الوصف الذي يوصف به الرجل: وهو الفسق والفجور، بعد اتصافه بالإيمان، فالإيمان فضيلة زاجرة عن ضده وهو الفسق والكفر، ومن لم يتب عما نهى الله عنه من هذه الأوصاف الثلاثة (وهي السخرية، واللمز أو التعييب، والتنابز بالألقاب) فهو من الظالمين أنفسهم وغيرهم، لأن الإصرار على المنهي عنه كفر وظلم.

قال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم الذين نزلت الآية الأولى من سورة الحجرات فيهم، استهزؤوا بفقراء الصحابة، مثل عمار وخبّاب وابن فُهيرة وبلال وصُهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم، لِمَا رأوا من رثاثة حالهم، فنزلت في الذين آمنوا منهم.

وآية ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ نزلت كما قال ابن عباس في صفية بنت حُيَيّ بن

---

(١) لا تبحثوا عن العورات والمعايب ولا تكشفوها . (٢) الشعب: أعظم ما يوجد من جماعات الناس من نسب واحد، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الأسرة والفصيلة، وهم قرابة الرجل الأدنون.

أخطب، أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن النساء يعيِّرْنَني، ويقلن لي: يا يهودية بنت يهوديين!! فقال رسول الله ﷺ: «هلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد» فأنزل الله هذه الآية.

وآية ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ نزلت -كما أخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جبيرة بن الضحاك- قال: كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة، فيدعى ببعضها، فعسى أن يكرهه، فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

ثم أمر الله باجتناب سوء الظن، وحرمه، فيا أيها المصدقون بالله ورسوله، ابتعدوا عن كثير من الظن، فبعض الظن وهو ظن السوء بأهل الخير موقع في الإثم، لنهي الله عنه، وكل رشيد يحترس من سوء الظن ويسد ذرائعه، ثم نهى الله عن التجسس، فلا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم، وتذيعوا أسرارهم ومثالبهم، والتجسس: البحث عما هو مكتوم، من العيوب. والتحسس: البحث عن الأخبار، والاستماع لحديث القوم وهم له كارهون، ثم حرم الله الغيبة: وهي ذكرك أخاك بما يكره، فلا يذكر بعضكم بعضاً في غيبته بما يسيء إليه، صراحة أو إشارة، لما فيه من الأذى بالمغتاب، وهو يتناول كل ما يؤذي الآخرين، سواء في الدين أو الدنيا، في الخلُق أو الْخَلْق، في المال أو الولد أو الزوجة أو الخادمة أو اللباس ونحو ذلك.

وشبه الله تعالى الغيبة بأكل لحم الإنسان الميت للتنفير، وهو ما يكرهه كل إنسان، وإذا كان يكرهه، فالغيبة مثله، فهي كأكل جثة الإنسان، وهذا تنفير وتوبيخ وتقبيح شديد، فضلاً عن كونه محرماً شرعاً، أي إن الغيبة حرام شرعاً، وقبيحة عقلاً وعرفاً وديناً.

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: زعموا أن آية ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ نزلت في سلمان الفارسي، أكل ثم رقد، فذكر رجل أكله ورقاده، فنزلت.

وتجوز الغيبة عند رفع الظلم وفي الشهادة والقضاء والاستشارة والتحذير من الفاسق، ثم جاءت آية الشعوب[١] الإنسانية، فيا أيها الناس -والنداء هنا بصفة الناس وما قبلها بصفة الإيمان- لقد خلقناكم جميعاً من أصل واحد، ومن نفس واحدة، من آدم وحواء، فأنتم متساوون، لأن نسبكم واحد، وأباكم واحد، وأمكم واحدة، فلا تفاخر بالأنساب، فالكل سواء، وقد جعلناكم شعوباً (أمماً كبيرة) وقبائل دونها للتعارف لا للتناكر، ولا للتفاخر بالأنساب، إن أكرمكم وأفضلكم عند الله بالتقوى أو بعمل صالح، فدعوا التناكر والتفاخر، إن الله عليم بكم وبأعمالكم، خبير بأحوالكم وأموركم.

أخرج الترمذي والدارمي وأحمد عن أبي بكر: «قيل: يارسول الله، من خير الناس؟ قال: من طال عمره، وحَسُن عمله».

وحكى الزهراوي: أن سبب نزول هذه الآية غضب الحارث بن هشام، وعتَّاب ابن أسيد، حين أذن بلال يوم فتح مكة على الكعبة.

الإيمان والإسلام

لا تنهض الأمة كلها ولا ترتقي، أو تسمو طفرة واحدة، وإنما تحتاج لفترة زمنية أو تدرج زمني لتشمل التربية جميع أفرادها وجماعاتها، وهكذا كان شأن الأمة الإسلامية في صدر الإسلام، لم يكن الجميع على المنهج الأفضل المطلوب، وإنما هناك تفاوت، فالذين لازموا الرسول ﷺ استناروا بأدبه وأدب القرآن، والذين بعدوا عنه، لم يتنوروا بعد بأخلاق الإسلام، لذا بعد أن حرض القرآن على التقوى، قالت

(١) الشعب: أعظم جماعات الناس من نسب واحد.

الأعراب (جماعة من سكان البادية وهم بنو أسد) أول ما دخلوا في الإسلام: لنا النسب الشريف، فلنا الشرف، فذمّهم الله تعالى، وأوضح ضعف إيمانهم، كما تصور الآيات الآتية:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا(١) قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم(٢) مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟(٣) وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ(٤) عَلَيْكَ أَنْ(٥) أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٤-١٨].

آية ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ نزلت -كما ذكر الواحدي عن مجاهد- في نفر من بني أسد ابن خزيمة، قدموا المدينة في سنة جدبة، وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا مؤمنين في السرّ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنون عليه، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

والمعنى: قال جماعة من الأعراب سكان البادية، وهم بنو أسد أول ما دخلوا الإسلام: صدقنا بالله ورسوله وآمنا في قلوبنا، فقال الله لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي لم تصدقوا بقلوبكم، ولكن قولوا: أسلمنا، أي انقدنا لك يا رسول الله، واستسلمنا،

(١) الإيمان: التصديق بالقلب، والإسلام: إعلان أركان الإسلام فهو أعم. (٢) لم ينقصكم من أعمالكم شيئاً. (٣) لم يقعوا في الشك والتهمة. (٤) يعدون النعم اعتداداً بها وإظهاراً لفضل صاحبها. (٥) إما مفعول به صريح أو مفعول لأجله.

وسالمناك فلا نحاربك، والإيمان بعد لم يدخل في قلوبكم، والله كثير المغفرة لمن تاب وأناب وأخلص العمل، واسع الرحمة فلا يعذب بعد التوبة.

دلت الآية على أن الإيمان: الذي هو التصديق بالقلب مع اطمئنان النفس أخص من الإسلام: الذي هو الاستسلام والانقياد لله تعالى، الذي يعصم أو يحقن الدم. ثم بيَّن القرآن حقيقة الإيمان، إنما المؤمنون الإيمان الخالص: هم الذين صدقوا بالله ورسوله تصديقاً تاماً في القلب، وإقراراً باللسان، ثم لم يشكوا ولم يترددوا في إيمانهم، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض بالحق مع الاطمئنان النفسي، والأمن الذاتي، وجاهدوا بالأموال والأنفس حق الجهاد، من أجل طاعة الله وابتغاء رضوانه، قاصدين بجهادهم وجه الله وإعلاء كلمته ودينه، أولئك المتصفون بهذه الصفات المذكورة هم الصادقون في إيمانهم.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتوبيخهم وبيان حقيقة أمرهم بقوله: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي قل أيها الرسول لهم: أتخبرون الله بما في ضمائركم من الدين، أو بقولكم: ﴿ءَامَنَّا﴾ وهو يعلم منكم خلاف ذلك، لأنه العليم بكل شيء في السماوات والأرض وما بينهما، فكيف يجهل حقيقة ما تدّعونه من الإيمان؟

ثم ذكر الله سبحانه أن إسلامهم لم يكن لله، فإنهم يمتنون بإسلامهم، أي يعدّون إسلامهم مِنّة ونعمة عليك أيها النبي، حيث قالوا: جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، أي إنا آمنّا بك، واتّبعناك ولم نحاربك، كما فعلت مُحارب وحصفة وهوازن وغطفان وغيرهم، فنزلت هذه الآية فيهم، أي في بني أسد، كما حكى الطبري وغيره.

قل أيها النبي: لا تعدُّوا أيها الأعراب إسلامكم مِنَّة علي، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، بل الله يمتن عليكم، حين وفقكم للإيمان، بزعمكم إذ تقولون: آمنا، فقد

لزمكم أن الله تعالى مانٌّ عليكم إن صدقتم في ادعائكم الإيمان. وفي هذا إيماء إلى أنهم كاذبون في ادعائهم الإيمان.

ثم أكد الله تعالى علمه بكل شيء بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ..﴾ أي إن الله تعالى عليم بما ظهر وما غاب في جميع أنحاء السماوات والأرض، ومن جملة ذلك: ما يتره كل إنسان في نفسه، والله مطلع على كل شيء من أعمالكم، فهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشر شراً، وهذه الآية تؤكد الإخبار بعلم الله بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات، ليترسخ ذلك في الأذهان ويستقر في أصائل القلوب.

لقد أوضحت هذه الآيات: أن المؤمنين هم الذين يصدقون بقلوبهم أن الله تعالى هو الخالق والقادر والعالم بكل شيء، والرازق صاحب الفضل، والذي لا أول له ولا نهاية، وكل شيء هالك إلا وجهه، وهم يصدقون برسالة رسول الله وأنه خاتم النبيين، وإمام المرسلين، والمبلغ وحي ربه عليه، وأنه عبد الله ورسوله إلى الناس جميعاً، لا إلى العرب خاصة، ولم يشكّوا في شيء، وإنما كان إيمانهم كالجبال الرواسي راسخاً في القلب، ويقيناً تاماً لا يشوبه شيء، وأنهم يجاهدون في سبيل الله جهاداً بالنفس والمال.

وأما الإسلام: فهو الإعلان باللسان عن أركانه، من النطق بالشهادتين، وتنفيذ واجباته، من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا.

تفسير سورة قٓ

إنكار البعث

تكرر الحديث في القرآن المجيد عن إنكار المشركين البعث، مستهجنين أن إعادة الرفات البالية التي صارت تراباً مشتتاً، كيف يمكن إعادتها للحياة مرة أخرى، وذلك بسبب فقد الإيمان، والجهل بقدرة الله الخارقة والشاملة لكل شيء، وجاء الرد القرآني على هذا الإنكار من نواحٍ ثلاث: أولها: أن الله الذي خلقهم أول مرة قادر على إعادتهم، والإعادة أهون من البدء في مستوى عقل البشر، وثانيها: أن الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات قادر على خلق جديد. وثالثها: أن إنبات النبات والزرع والشجر من التراب الميت في الظاهر، وإحياء الأرض بالمطر، مِثْل إحياء الإنسان بقدرة الله، وقدرة الله تعالى تتجاوز كل التصورات. وهذا ما دوّنته الآيات في مطلع سورة (قٓ) الآتية، وهي مكية بالإجماع وآيات سور كثيرة لإثبات الحشر، قال الله تعالى:

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ[(١)] ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ[(٢)] ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ[(٣)] ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ[(٤)]

(١) رجوع مستبعد . (٢) مختلط مضطرب بين وصفه بالشعر والسحر والكهانة . (٣) شقوق وفتوق تعيبها .
(٤) جبالاً ثوابت .

وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ(١) ⁽⁷⁾ تَبۡصِرَةٗ(٢) وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ⁽⁸⁾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ⁽⁹⁾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ(٣) لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ(٤) ⁽¹⁰⁾ رِّزۡقٗا(٥) لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ⁽¹¹⁾﴾ [ق: ٥٠/١-١١].

افتتح الله السورة بحرف ﴿قٓۚ﴾ للتنبيه لأهمية ما بعده، وأكثر ما يأتي بعد الحروف الأبجدية أو حروف المعجم الإشارة للقرآن، لبيان الإعجاز القرآني وتحدي العرب للإتيان بمثله، ما دام متكوناً من حروف لغتهم التي ينطقون بها ويكتبون.

ثم أقسم الله تعالى بالقرآن الممجَّد المعظم الرفيع الكثير البركة والخير، أنك يا محمد جئتهم منذراً بالبعث، وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده: وهو إثبات النبوة والمعاد.

هؤلاء كفار قريش تعجبوا لأن جاءهم رسول منهم ينذرهم بالبعث، فقالوا: هذا شيء يدعو للعجب: وهو أن ينذرهم رجل منهم، معروف بالأمانة والصدق والعدل.

وشبهة تعجبهم: أنبعث ونرجع أحياء إذا متنا وتفرقت أجزاؤنا في الأرض، وصرنا تراباً منثوراً، وعظاماً بالية؟ ذلك البعث رجوع مستبعد عقلاً، لأنه في عقلهم المحدود والضعيف غير ممكن وغير مألوف عادة. وقوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ﴾ معناه قد عجبوا والضمير عند جمهور المتأولين: هو لجميع الناس، مؤمنهم وكافرهم. أما المؤمنون فنظروا واهتدوا، وأما الكافرون فبقوا على عمايتهم.

فرد الله تعالى عليهم مبيناً مدى قدرته على البعث وغيره، بقوله: لقد علمنا علماً متيقناً ما تنقص، أي تأكل الأرض من أجسادهم حال البلى، ولا يخفى علينا شيء

---

(١) صنف مبهج حسن. (٢) منصوب على المصدر بفعل مضمر. (٣) طوالاً عالية. (٤) ثمر منضود متراكب على بعضه. (٥) منصوب على المصدر.

من ذلك، وعندنا كتاب حافظ شامل لعددهم وأسمائهم وتفاصيل الأشياء كلها، وهو اللوح المحفوظ. إنه تعالى يعلم ما تأكل الأرض من ابن آدم وما تُبقي منه، وأن ذلك في كتاب، وكذلك يعود في الحشر، معلوماً ذلك كله. والحفيظ: الجامع الذي لم يفته شيء.

وسبب كفرهم وعنادهم: أن كفار قريش في الواقع كذبوا بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ الثابتة بالمعجزات، وكان تكذيبهم من غير ترو، ولا تدبر وتفكر، وإنما بمجرد تبليغهم به من قبل هذا الرسول، فهم في أمر مضطرب مختلط من دينهم، يقولون مرة عن القرآن والنبي: ساحر وسحر، ومرة: شاعر وشعر، ومرة: كاهن وكهانة، فهم في قلق واضطراب، لا يدرون ماذا يفعلون.

ثم استدل الله تعالى على قدرته العظيمة على البعث وغيره بدليل حسي مشاهد لهم: أفلم ينظر هؤلاء الكفار نظراً واضحاً إلى هذه السماء المخلوقة العجيبة، فهي مرفوعة بلا عمد، ومزينة بالكواكب، ومبنية بناء راسخاً، ليس فيها شقوق وصدوع وفتوق، ثم ألم ينظروا أيضاً إلى الأرض التي بسطناها ووسعناها، وألقينا فيها جبالاً ثوابت لئلا تضطرب بأهلها، وأنبتنا فيها من كل صنف نباتي ذي بهجة وجمال وحسن منظر.

فعلنا ذلك ليتبصّر العباد والمنيبون الراجعون إلى ربهم وطاعته، ويتفكروا في بدائع مخلوقاته، ويتذكروا هذه الأدلة، وخص الله تعالى بالذكر العبد المنيب وأفرده تشريفاً، من حيث إن هؤلاء العباد هم المنتفعون بالتبصرة والذكرى.

وكيفية الإنبات من التراب التي يشبهها إعادة الخلق أو البعث والحشر: أن الله قال: لقد أنزلنا من السحاب المطر الكثير النفع، المنبت كل شيء من الأشجار في البساتين، ومن الحبوب التي تحصد كالقمح والشعير ونحوهما. وأنبتنا أيضاً به النخيل الجميل الطويل الشاهق في السماء، والتي لها طلع (أول ما يخرج من ثمر النخيل)

منضّد متراكم بعضه فوق بعض، ليكون مصدر رزق وقوت للعباد، وأحيينا بالمطر كل أرض أو بلدة ميتة لا حراك فيها، وإن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء.

وهذه الآيات كلها إنما هي أمثلة وأدلة على البعث. والخروج: هو الخروج من القبور.

سيرة المكذبين الأول وتدوين أقوال الإنسان

ذكّر الله تعالى بما صدر عن الأمم السابقة من تكذيب الأنبياء، مثل قول نوح وأصحاب الرّس (البئر العظيمة باليمامة) وثمود، وعاد، وفرعون، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة (الغيضة الكثيفة قوم شعيب) وقوم تُبّع (الملك الحمْيَري باليمن) وذكّر المولى عز وجل بأنه يعلم كل ما يصدر عن الإنسان من أقوال وأفعال ووساوس النفس، وأخبر بتسجيل الملكين عن اليمين وعن الشمال كل قول أو فعل للإنسان، كما تصوِّر الآيات الآتية:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ(١) وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ(٢) ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ(٣) مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(٤) ﴿١٨﴾﴾ [ق: ٥٠/ ١٢-١٨].

---

(١) الرس: البئر العظيمة، وكل ما لم يُطو من بئر أو معدن أو نحوه فهو رسّ. (٢) أفعجزنا بالإبداع الأول؟ بدء الخلق. (٣) بل هم في شك وحيرة من البعث. (٤) الرقيب: الملك الذي يرقب قوله وعمله، ويكتبه ويحفظه، والعتيد، الحاضر المهيأ لكتابة الخير والشر، ملك الخير عن اليمين، وملك الشر عن الشمال.

هدّد الله كفار قريش بأن يعاقبهم بمثل ما عاقب به الأمم السابقة قبلهم، الذين كذّبوا الرسل، فعذبهم بالطوفان كقوم نوح عليه السلام، أو بالغرق في البحر كفرعون وقومه، أو بريح شديد عاتية كعاد قوم هود عليه السلام، أو بالريح الحصباء وخسف الأرض، كقوم لوط عليه السلام، أو بالصيحة الواحدة من جبريل عليه السلام: وهم ثمود قوم صالح عليه السلام، وأهل مدين قوم شعيب، وأصحاب الرسّ باليمامة، وأصحاب الأيكة، قوم شعيب عليه السلام، أو بخسف الأرض وهو قارون وأصحابه، أو بالإحراق بالنار وهم حمير قوم تُبّع، وتُبّع: اسم لكل من ملك حمير باليمن، مثل كسرى في الفرس، وقيصر في الروم.

كل هؤلاء كذبوا رسلهم الذين أرسلوا إليهم، فوجب عليهم الوعيد، وحقت عليهم كلمة العذاب على التكذيب.

وكان تُبّع (أسعد أبو كرب) أحد التبابعة رجلاً صالحاً، صحب حَبْرين، فتعلّم منهما دين موسى عليه السلام، فأنكر قومه عليه ذلك، فندبهم إلى محاجّة الحَبْرين، فوقعت بينهما محاجَّة عظيمة، واتفقوا على أن يدخل جميعهم النار التي في القربان، فمن أكلته النار فهو المبطل، فدخلوا فاحترق قوم تُبّع، وخرج الحَبْرانِ تعرق جباههما، فهلك القوم المخالفون، وآمن سائر قوم تُبّع بدين الحَبْرين[1]. وذكر الطبري عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «لا تلعنوا تبّعاً فإنه كان قد أسلم».

والدليل على إمكان البعث: أفعجزنا بالخلق المبتدأ الأول (بدء الخلق) حين خلقناهم ولم يكونوا شيئاً، فكيف نعجز عن بعثهم وإعادتهم مرة أخرى؟ بل هم في

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١٣/٥٣٧ وقال: وفي الحديث اختلاف كثير أثبتُّ أصح ذلك على ما في سير ابن هشام.

الواقع في شك وحيرة من خلق مبتدأ جديد أو مستأنف بين مصدق ومكذب، وهو بعث الأموات من القبور.

وكما أن قدرة الله على البعث وغيره تامة، علم الله شامل، وتالله لقد أوجدنا الإنسان (اسم جنس) ونعلم بجميع أموره، ونحن أقرب إليه من حبل وريده، فكيف يخفى علينا شيء مما في قلبه؟ إن الله تعالى يعلم كل ما يصدر عن الإنسان، حتى ما يجول في خاطره، وحتى حديث النفس، وإن كان لا عقاب على حديث النفس، لما رواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدَّثت به أنفسها، ما لم تتكلم به أو تعمل به».

وقوله ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ عبارة عن قدرة الله تعالى على العبد، وكون العبد في قبضة القدرة والعلم، قد أحيط به. والآية حجة على منكري البعث والجزاء، والله تعالى وكل بكل إنسان ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله، إحقاقاً للحق وإقامة العدل، وإلزاماً للحجة.

والله أقرب شيء للإنسان حين يتلقى الملكان الحفيظان ما يتلفظ به وما يعمل به، فيأخذان ذلك ويثبّتانه، عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، والقعيد: من يقعد معك، فملَك اليمين يكتب الحسنات، وملك الشمال يكتب السيئات.

ويحتمل أن يكون العامل في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ فعلاً مضمراً تقديره: اذكر إذ يتلقى. والمتلقيان: الملكان الموكلان بكل إنسان.

والقرب المراد في الآية: بالقدرة والملْك. ويكون هناك إخبارات متوالية: الإخبار بعلم ما في نفس الإنسان، والإخبار بتدوين الملكين ما يصدر عن الإنسان، ثم خبر مجيء سكرة الموت، والنفخ في الصور، ومجيء كل نفس معها السائق والشهيد (أي ملكان أحدهما يسوقه إلى المحشر والآخر يشهد عليه).

قال الحسن البصري: الحفظة (من الملائكة) أربعة: اثنان بالنهار، واثنان بالليل، ويؤيد ذلك الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي، فيقولون: تركناهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون».

ويروى أن ملك اليمين الذي يكتب الحسنات أمير على ملك الشمال، وأن العبد إذا أذنب يقول ملك اليمين للآخر: تثبَّت لعله يتوب.

سكرة الموت وأحوال العذاب الأخروي

الانتقال عن عالم الدنيا يكتنفه مصاعب وأهوال ومخاطر كثيرة، أولها سكرات الموت: وهي ما يعتري الإنسان عند نزعه، والناس فيها مختلفة أحوالهم، لكن لكل واحد سكرة، وكان رسول الله ﷺ يقول -فيما أخرجه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها: «.. لا إله إلا الله، إن للموت سكرات».

ثم يعقب ذلك أهوال، منها: نفخ الصور، ومجيء كل نفس معها سائق يسوقها إلى المحشر وآخر يشهد عليها، وعند الوقوف بين يدي الرحمن للحساب ومعاينة الحقائق يكشف الغطاء عن الإنسان، فيرى ببصيرته أو ببصر عينه ما غفل عنه في الدنيا، ويقوم الحوار بين الكافر وقرينه الشيطان يوم القيامة، ويكون القرار الحاسم إما بالزج في جهنم وإما بدخول الجنة، وهذا ما تذكره الآيات الآتية:

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ

﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ(١) ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ
غِطَآءَكَ(٢) فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ(٣) ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ(٤) ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ
﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ(٥) وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ
هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ(٦) ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ(٧)
﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ(٨) ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا
يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(٩) ﴿٣٥﴾ [ق: ٥٠/١٩-٣٥].

أيها الإنسان، جاءتك في نهاية العمر شدة الموت وغمرته التي تَغْشى الإنسان، وتبين لك بالموت الحق يقيناً، والمراد بقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بلقاء الله تعالى وفقد الحياة الدنيا، ذلك الموت الذي كنت تميل عنه وتفر منه.

ونفخ في الصور نفخة البعث، ذلك الوقت الذي يكون عظيم الأهوال هو يوم الوعيد الذي أوعد الله به الكفار بعذاب الآخرة.

وأتت كل نفس من البشر، بالبدن والروح، معها ملك يسوقها إلى المحشر، وملك يشهد عليها أو لها بالأعمال من خير أو شر.

ويقال للإنسان الكافر أو كل واحد بر أو فاجر حينئذ في المحشر: لقد كنت في الدنيا غافلاً عن هذا المصير أو هذا اليوم، فرفعنا عنك حجاب الغفلة والانهماك في لذائذ الدنيا، فاحتدت بصيرتك أو بصر العين، فصرت ترى ميزانك وغير ذلك من أهوال القيامة، وأدركت ما أنكرته في الدنيا.

---

(١) ملكان: أحدهما يسوقه إلى المحشر والآخر يشهد عليه. (٢) الغطاء الحاجب لأمور المعاد: وهو الغفلة. (٣) مهيأ لجهنم. (٤) شاك في الله وفي أخباره. (٥) أوقعته في الضلال والطغيان. (٦) قربت. (٧) كثير الرجوع إلى الله، كثير الحفظ لحدود الله. (٨) مقبل على الطاعة. (٩) زيادة.

ويقدِّم القرين السائق للإنسان: وهو الملَك الموكل به أو قرينه من زبانية جهنم: هذا ما عندي مهيأ معدّ لجهنم، أو هذا العذاب الذي لهذا الإنسان الكافر حاضر عتيد، أو هذا الذي أحصيته من الأعمال عتيد لدي، وموجب عذابه.

وقال الزهراوي: قرينه: شيطانه، قال ابن عطية: وهذا ضعيف، وإنما أوقع فيه أن القرين في قوله: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ هو شيطانه في الدنيا ومُغْويه بلا خلاف. والواقع أن القرين في الآيتين مختلف. فالقرين الذي في هذه الآية غير القرين الذي في قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ إذ المقارنة تكون على أنواع.

ويقول الله تعالى للسائق والشهيد: اطرحا في جهنم كل من كفر بالله أو أشرك به شريكاً آخر، كثير المنع للخير كالزكاة، معتد ظالم بالأذى والفحش، شاكّ في الله وفي أخباره، الذي جعل مع الله شريكاً إلهاً آخر، فألقياه في النار ذات العذاب الشديد. ويحدث حوار بين الكافر وقرينه الشيطان الذي كان معه في الدنيا، فيقول: القرين الشيطان عن الكافر المقارن له، والمتبرئ منه: يا ربنا ما أضللته أو أوقعته في الطغيان، بل كان هو في نفسه ضالاً، مؤثراً الباطل، معانداً للحق، فدعوته فاستجاب لي، فهو الذي كان في ضلال بعيد الغور، يستحق معه هذا العقاب.

قال الله عز وجل للكافر وقرينه الشيطان: لا تتخاصموا ولا تتجادلوا عندي في موقف الحساب، فإني تقدمت إليكم في الدنيا بوعيدي وإنذاري ولقد قضيت ما أنا قاض، ولا يغير حكمي وقضائي، ولا خلف لوعدي، بل هو كائن لا محالة، ولست بظالم أحداً بغير جرم اقترفه أو ذنب ارتكبه، بعد قيام الحجة.

والعذاب قائم، فاذكر أيها الرسول لقومك حين يقول الله لجهنم: هل امتلأت، من الإنس والجن، فتنطق قائلة: هل من زيادة تزيدونني بها؟ غيظاً على العصاة. وهذا حقيقة في الراجح، وأنها قالت ذلك وهي غير ملأى. والنعيم محقق، حيث قربت الجنة، لأهل التقوى تقريباً غير بعيد، أو في مكان غير بعيد، بل هي بمرأى منهم.

وتقول الملائكة للمنَعّمين: هذا النعيم الذي ترونه من الجنة: هو ما وُعدتم به في كتب ربكم، وعلى ألسنة رسله المرسلين إليكم، وهذا الثواب لكل رجّاع إلى الله تعالى وطاعته بالتوبة عن المعصية وترك الذنب الحافظ لحدود الله، ذلك المحافظ على الحدود فلا يقربها: هو من خاف الله ولم يكن رآه، وجاء بقلب خاشع مخلص في طاعة الله، سليم من أي شبهة أو شك.

ويقال لهم أيضاً: ادخلوا الجنة سالمين من العذاب، ومن زوال النعم، ومن كل المخاوف، ذلك هو يوم الخلود الدائم أبداً. لهؤلاء المتقين الموصوفين بما ذكر ما يريدون من الجنة وتشتهيه أنفسهم، ولدينا زيادة من النعم لم تخطر لهم على بال.

إثبات البعث وتهديد منكريه

أنذر الله تعالى منكري البعث بالعذاب الأليم في الآخرة، ثم هددهم وأنذرهم بعذاب الدنيا المدمر، وبين الإنذارين تبيان حال المتقين في الجنة، للجمع بين الترغيب والترهيب، والإهلاك عظة وتذكير.

ثم أكد الله تعالى دليل إمكان البعث بخلق السماوات والأرض وما بينهما، وأمر رسوله بالصبر على ما يقولون من إنكار البعث، وبتنزيه الله عن كل نقص، فقد اقترب يوم البعث، وسُمع صوت الداعي إليه، والله وحده هو المحيي والمميت، وإليه المصير، وهو سبحانه الأعلم بما يقول المشركون في البعث، وما عليك أيها النبي إلا متابعة مهمتك في الإنذار، والتذكير بالقرآن كلَّ من يخاف وعيد الله وعقابه، كما تذكر هذه الآيات:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ(١) هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ(٢)
(٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ(٣) (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ
السُّجُودِ(٤) (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ(٥) بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ
يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ(٦) الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا
ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ(٧) فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن
يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾ [ق: ٥٠/٣٦-٤٥].

كثيراً ما أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين من قريش ومن وافقهم، كانوا أكثر منهم، وأشد قوة، وآثاراً في الأرض، كعاد وثمود وقوم تُبّع وغيرهم، وقد فتشوا و بحثوا في البلاد، هل لهم من مفر أو مهرب يهربون إليه؟ وهل نفعهم ما جمعوا من أموال؟

إن فيما ذكر من قصة هؤلاء الأمم، وما ذكر في هذه السورة من المواعظ والعبر، لتذكرة وموعظة وعبرة لمن يعتبر بها، من كل ذي عقل واعٍ، أو أصغى سمعه لفهم الحقائق، وهو شهيد، أي حاضر بروحه وعقله لا بجسده فقط.

ودليل إمكان البعث: تالله لقد أبدعنا من غير مثال سابق خلق السماوات والأرض وما بينهما من عجائب المخلوقات، في ستة أيام، وما أصابنا إعياء ولا تعب، فالقادر على خلقها قادر على خلق البشر مرة أخرى. والله قادر على خلقهما في لحظة واحدة.

نزلت رداً على اليهود الذين قالوا: إن الله خلق الأشياء كلها في ستة أيام، ثم

(١) أي أمة وجماعة متقدمة. (٢) بحثوا في البلاد هل من مهرب . (٣) تعب وإعياء . (٤) عقب سجود الصلاة. (٥) صيحة البعث . (٦) تتشقق أي تتفتح . (٧) تجبرهم على الإيمان .

استراح يوم السبت، فنزلت: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي تعب وإعياء . وتظاهرت الأحاديث بأن بدء خلق الأشياء كان يوم الأحد، وعند مسلم وفي الدلائل للبيهقي: أن ذلك كان يوم السبت. وأجمعوا على أن آدم عليه السلام خُلق يوم الجمعة.

ثم أمر الله نبيه بأوامر في مواجهة منكري البعث: وهي اصبر أيها الرسول على ما يقوله المشركون المكذبون بالبعث، وعلى ما يقوله بعض أهل الكتاب: ثم استراح يوم السبت. ونزِّه الله دائماً عن كل عجز ونقص، مقروناً التسبيح بالحمد دائماً، قائلاً: سبحان الله و بحمده، وقت الفجر ووقت العصر، وبعض الليل، وفي أعقاب (أدبار) الصلوات. والمراد بالتسبيح والتحميد قبل طلوع الشمس: صلاة الفجر، وقبل الغروب: صلاة الظهر والعصر، ومن الليل: العشاءان، وأدبار السجود: النوافل بعد الفرائض. وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يراد به أهل الكتاب وغيرهم من الكفرة، وذلك يشمل جميع الأقوال الزائفة من قريش وغيرهم.

واستمع، أي انتظر أيها الرسول صيحة القيامة: وهي النفخة الثانية في صُور إسرافيل عليه السلام، يوم ينادي نداء يسمعه جميع أهل المحشر قائلاً: هلموا إلى الحساب[1]، فيخرجون من قبورهم. وقوله: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ وصفه بالقرب من حيث يسمع جميع الخلائق.

وصيحة البعث كائنة حقاً، وهي يوم سماع النفخة الثانية في الصور التي تنذر بالبعث والحشر والجزاء على الأعمال، وذلك يوم الخروج من القبور. إننا وحدنا نحن الإله نحيي الموتى في الدنيا والآخرة، ونميت الأحياء في الدنيا حين انقضاء الآجال،

(١) أخرج ابن عساكر والواسطي عن يزيد بن جابر عن النبي ﷺ: أن مَلَكاً ينادي من السماء: أيتها الأجساد الهامدة، والعظام البالية، والرمم الواهية، هلم إلى الحشر والوقوف بين يدي الله تعالى .

وإلينا المرجع في الآخرة للحساب والجزاء، فنجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وإلينا مصير الخلائق وقت أن تتصدع الأرض عنهم، فيخرجون من القبور، ويساقون إلى المحشر، مسرعين إلى المنادي الذي ناداهم، ذلك حشر، أي جمع هين علينا، لا مشقة فيه ولا عسر.

ثم هدد الله تعالى المشركين بقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ . .﴾ أي نحن نعلم علماً محيطاً بما يقول لك المشركون، من تكذيب رسالتك أيها النبي، ومن إنكار البعث والتوحيد، وما أنت عليهم بمسلَّط يجبرهم ويقسرهم على الإيمان، إنما أنت مبلِّغ. قال قتادة: نهى الله تعالى عن التجبر، وما أنت عليهم بمتعظِّم، من الجبروت.

فذكّر أيها الرسول بهذا القرآن العظيم، وبلّغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر به من يخاف الله ويخشى وعيده للعصاة بالعذاب، ويرجو وعده وفضله ورحمته، وأما من عداهم فلا تأبه بهم.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المؤمنين قالوا: يا رسول الله، لو خوّفتنا، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ .

تفسير سورة الذاريات

وقوع البعث وحال الكفرة وعذابهم

تابع الحق تبارك وتعالى الكلام عن إثبات البعث والرد على منكريه من المشركين في سورة الذاريات المكية بعد سورة ق، وكلتا السورتين في هذا الموضوع، مع بيان بعض أحوال البعث بين المؤمنين والكافرين في السورة الأولى، والتنبيه على أحداث الأمم السابقة مع أنبيائهم في السورتين، والانتهاء إلى تقرير التوحيد وهدم الشرك، وخطأ موقف الناس من الحياة، وغلبة الطبيعة على المصلحة الحقيقية في المستقبل. وكان مطلع سورة الذاريات قسماً من الرب تعالى على صدق البعث ووجوده، كما في هذه الآيات:

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا(١) ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا(٢) ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا(٣) ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا(٤) ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ(٥) لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ(٦) ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ(٧) عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ(٨) ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ(٩) ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ(١٠) ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات: ٥١/١-١٤].

---

(١) الرياح تذرو التراب وغيره. (٢) السحب تحمل الأمطار، والوقر: الثقل. (٣) السفن الجارية. (٤) الملائكة التي تقسّم أمور العباد والأمطار والأرزاق. (٥) الجزاء. (٦) ذات الطرق. (٧) يصرف عن القرآن من صرف عن الهداية في علم الله. (٨) الكذابون. (٩) مجيء يوم الجزاء. (١٠) يحرقون.

أقسم الله تعالى لتأكيد قضية الإيمان بالبعث: بهذه المخلوقات، وللتنبيه عليها، والتشريف لها، والاعتبار بها، حتى يتوصل الناظر فيها إلى التوحيد، فقال: أقسم لإثبات الحشر بالرياح التي تذرو التراب وغيره وتفرقه، وبالسحب الحاملة الماء الثقيل، وبالسفن الجارية بيسر وسهولة فوق الماء، وبالملائكة التي تقسم الأرزاق والأمطار والآجال بين المخلوقات، بأن الموعود به من الحشر إلى الله تعالى، ووقوع المعاد، صادق واقع، وأن الجزاء بالثواب والعقاب قائم فعلاً حتماً. والحاجة إلى هذا القسم: الإعلام بصدق النبي ﷺ، وجرياً مع اعتقاد العرب أن الأيمان الكاذبة تذر الديار بلاقع (خرائب) وتضر صاحبها، فالحلف لزرع الثقة التامة، و بخاصة أنهم يعلمون أن محمداً ﷺ لا يحلف كاذباً.

والسماء ذات الطرائق والممرات، أو ذات الخلق السوي القوي، إنكم يا جماعة قريش مختلفو الأقوال، مضطربو الكلام، فمرة تقولون في القرآن والرسول: شعر وشاعر، وأحياناً سحر وساحر، وتارة كهانة وكاهن أو مجنون. وإنما يصرف عن هذا القرآن والإيمان به وبرسوله وعن الخير إلى الشر، من صرف في علم الله تعالى.

قبح أو لعن الكذابون أصحاب القول المختلف، المرتابون في وعد الله ووعيده، الذين هم في جهالة تغمرهم، وغفلة في الكفر تخيم عليهم، والغمرة: كل ما ستر الشيء وغطّاه.

يسألك المشركون تكذيباً وعناداً واستهزاء قائلين: متى يوم الجزاء؟ فقل لهم: إنه يوم يعذب الكفار ويحرقون في نار جهنم. وقوله: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ بمعنى يحرقون ويعذبون في النار، يقال: فتنت الذهب: أحرقته لتختبره، وقوله ﴿يَوْمَ هُمْ﴾ منصوب على الظرف من مقدَّر، تقديره: هو كائن يوم هم على النار، أو نحو هذا، كما قال الزجاج.

وتقول لهم خزنة النار: ذوقوا عذابكم أو حريقكم، هذا العذاب الذي كنتم

تستعجلون أو تطلبون تعجيله، استهزاء منكم، وظناً أنه غير كائن، واستعجالهم هو قولهم: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وغير ذلك من الآيات التي تقتضي استعجالهم على جهة التكذيب منهم.

يفهم من هذه الآيات أن وقوع البعث أمر مقطوع به، ولولا التأكيد عليه، لما أقسم الله بهذه المخلوقات، والقسم عليها بغير بدئها بالحروف الأبجدية هو الظاهرة الشائعة في القرآن لإثبات أصول العقيدة: وهي التوحيد، والنبوة، والبعث، فسورة الصافات مثلاً أقسم الله فيها لإثبات توحيد الذات الإلهية، فقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٤]. وسورة النجم والضحى، أقسم الله فيها على صدق الرسول ﷺ، فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ١-٢]. وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ٩٣/ ١-٣]. وبقية السور كان المقسم عليه كما في الذاريات هو البعث والجزاء.

ويلاحظ أيضاً أن الله تعالى أقسم بجموع المؤنث السالم في سور خمس، ففي سورة (الصافات) لإثبات الوحدانية أقسم الله بالساكنات، وفي بقية السور، أقسم بالمتحركات لإثبات الحشر، فقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ لأن في الحشر جمعاً وتفريقاً، وهو يناسب الحركة.

وتعجل العرب المشركين العذابَ، وإصرارهم على كفرهم: هو الذي جعلهم يسألون استهزاء وشكاً في القيامة وعناداً، متى يوم الحساب؟ فكان جواب الخالق: إنه اليوم الذي تحرقون فيه في نار جهنم، وضم إليه التوبيخ والتهكم بهم قائلاً منه أو من طريق الخزنة: ذوقوا عذابكم وجزاء تكذيبكم، ذلك العذاب الذي استعجلتم به في الدنيا.

حال المتقين ونعيمهم

في آيات سابقة في سورة الذاريات ذكر الله تعالى حال الكفرة، وما يلقون من عذاب الله تعالى، ثم أعقب ذلك بيان حال المتقين، وما يلقون من النعيم في الآيات الآتية، ليبين الفرق ويتبع الناس طريق الهدى. وهذا لون بياني رائع للمقارنة أو الموازنة، فيظهر الحق من الباطل، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(١) ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ(٢) هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ(٣) ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ١٥-٢٣].

إن الذين اتقوا ربهم بالتزام أوامره واجتناب نواهيه باتقاء الكفر والمعاصي، هم في الآخرة في جنات (بساتين) فيها عيون جارية، آخذين في دنياهم ما آتاهم ربهم من أوامره ونواهيه وفرائضه وشرعه.

إنهم كانوا في الدنيا محسنين في أعمالهم الصالحة، يراقبون الله تعالى فيها، كما جاء في آية أخرى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٢٤].

ومن إحسانهم في العمل: أنهم كانوا ينامون زمناً قليلاً من الليل، ويصلون أكثره، أي إن نومهم كان قليلاً لاشتغالهم بالصلاة والعبادة، من كل ليلة.

وقوله: ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾ ما عند جمهور النحويين: مصدرية، و ﴿قَلِيلًا﴾ خبر كان، والمعنى: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، والهجوع فاعل (قليلاً).

---

(١) ينامون. (٢) جمع سَحَر وهو الجزء الأخير من الليل. (٣) الذي حرم المال وهو المتعفف عن السؤال.

وكانوا في الجزء الأخير من الليل يطلبون من الله تعالى المغفرة، قائلين: اللهم اغفر لنا وارحمنا، أي إنهم كانوا يحيون أكثر الليل متهجدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار، كأنهم باتوا في معصية.

وجعلوا في أموالهم جزءاً مقسوماً معيناً للفقراء والمحتاجين، على سبيل البر والصلة، والسائل: هو الفقير الذي يسأل. والمحروم: هو الذي حرم المال ويتعفف عن السؤال. وهذا الجزء الذي جعلوه للفقراء: هو على وجه الندب، لا على وجه الفرض، ومعلوم: يراد به متعارف. وكذلك قيام الليل الذي مدحوا به ليس من الفرائض، وأكثر ما تقع الفضيلة بفعل المندوبات.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن الحسن بن محمد بن الحنفية: أن رسول الله ﷺ بعث سرية، فأصابوا وغنموا، فجاء قوم بعدما فرغوا -لم يشهدوا الغنيمة- فنزلت الآية: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾.

وبعد هذا البيان، يوجد كلام مقدَّر تقديره. فكونوا مثلهم أيها الناس، وعلى طريقتهم، فإن النظر المؤدي لهذا التقدير له وجه جيد.

ثم ذكر الله تعالى بعض الأدلة على قدرته الدالة على وقوع الحشر، فقال: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾ أي وفي معالم الأرض من جبال ووديان وقفار ومعادن، وعيون وأنهار و بحار، وأنواع مختلفة من النبات والحيوان والناس، مع اختلاف ألسنتهم وألوانهم، وقدراتهم الفكرية والجسدية وغير ذلك، من عجائب الصنع الإلهي، في ذلك دلائل واضحة، وعلامات ظاهرة على عظمة الخالق وقدرته الباهرة، للذين يوقنون بالله تعالى، لأنهم الذين يعترفون بذلك، ويتدبرون فيه، فينتفعون به.

ومن أدلة قدرة الله وتوحيده: خلق النفوس البشرية، أفلا تنظرون نظرة متأمل

معتبر، ناظر بعين البصيرة. ففي تركيب الجسم بأجهزته المختلفة من جهاز هضم ودم وتنفس، وإحساس في الأعصاب ولمس وذوق، وفي تركيب الدماغ وما يشتمل عليه من عشرات ملايين الخلايا، في ذلك دلالة على الخالق المبدع. والله ضامن الرزق لعباده، ففي السماء تقدير الأرزاق وتعيينها، وفيها ما توعدون من خير وشر، وجنة ونار، وثواب وعقاب، ففي السحاب (السماء) المطر، وفي السماء عوامل الرزق من شمس وقمر وكواكب ومطالع ومغارب تختلف بها الفصول، ويكون تغيرها مناسباً لأنواع النباتات المختلفة التي تسقى بماء المطر، وتسوقها الرياح، وتغذيها الشمس بحرارتها، ويمنحها ضوء القمر قوة ونمواً.

ثم أقسم الله تعالى على أحقية البعث وضمان الرزق فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي فورب العزة والجلال إن ما أخبرتكم به في هذه الآيات، وما وعدتكم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، وتيسير الرزق وضمانه: حق لا مرية فيه، كائن لا محالة، فلا تشكّوا فيه، كما لا تشكّوا في نطقكم وتيسيره حين نطقكم، فهو كمثل نطقكم، شبَّه هذا القول والخبر في التيقن به بالنطق من الإنسان، وهو في غاية الوضوح، ولا لَبْس فيه، خلافاً للرؤية والسمع، قد يقع فيهما اللَّبْس.

قصة ضيف إبراهيم عليه السلام

تكررت قصة إبراهيم الخليل في القرآن بمناسبات مختلفة لكونه شيخ المرسلين، ولأنها ذات موضوعات متنوعة، منها حواره من غير معرفة مع الملائكة الضيوف الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، حتى ينزجر كفار قريش وأمثالهم ما دام هذا القرآن يتلى، وتبين من القصة: مدى كرم إبراهيم، وبشارته من الملائكة بغلام هو

إسحاق بن سارة، في حال الشيخوخة وعقم امرأته. كما تبين أيضاً مدى تأثير العذاب بالحجارة الشديدة الأذى، وإنجاء لوط عليه السلام وأهله إلا امرأته، وذلك في الآيات التالية:

﴿هَلْ(١) أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ(٢) إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ(٣) ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ(٤) إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ(٥) قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ(٦) فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ(٧) ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ(٨) أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً(٩) عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ(١٠) ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً(١١) لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

[الذاريات: ٥١/ ٢٤-٣٧].

هل بلغك أيها النبي وكل مخاطب قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيوفه الملائكة المكرَّمين عند الله تعالى، الذين جاؤوه بصورة بني آدم، في طريقهم إلى قوم لوط، فحين دخلوا عليه سلموا بقولهم: سلاماً، أي نسلم عليك سلاماً، فأجابهم بأحسن من تحيتهم بما يدل على الثبات: سلام عليكم، إنكم قوم لا أعرفكم، فمن أنتم؟

فذهب إبراهيم عليه السلام خفية من ضيوفه، في سرعة، فقدم إليهم عجلاً سميناً مشوياً على الحجارة المحماة، فقال بعد دعوتهم للأكل بتلطف وأدب: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

فلما أعرضوا عن الأكل، لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، أحسّ في نفسه

(١) استفهام تقريري للفت النظر ، فكأنه يجيب: لا . (٢) أي ضيوف ، والضيف يطلق على الواحد والجمع. (٣) مجهولون غير معروفين . (٤) ذهب خفية إلى أهله . (٥) أضمر في نفسه منهم خوفاً . (٦) في صوت أو صيحة . (٧) عاقر لا تلد . (٨) ما شأنكم الخطير ؟ (٩) معلمة . (١٠) المتجاوزين الحدود .

خوفاً منهم، على عادة الناس أن الامتناع عن الطعام يبيِّت شراً، وأن تناول الطعام أمان للمضيف، ودليل على سرور الضيف، فظن إبراهيم عليه السلام أنهم جاؤوا للشر، لا للخير، فقالوا له: إننا ملائكة رسل من الله تعالى، وبشروه بغلام يولد له، بالغ العلم: وهو إسحاق عليه السلام في رأي الجمهور، فأقبلت امرأته سارّة، لما سمعت بشارتهم، صائحة صارخة، وضربت وجهها بيدها، كعادة النساء عند التعجب، وقالت: كيف ألد، وأنا كبيرة السن، وعقيم لا تلد، حتى في عهد الشباب؟!

قالت الملائكة: مثلما قلنا لكِ قال ربكِ، فلا تشكّي في ذلك، ولا تعجبي منه، فنحن رسل الله، والله على كل شيء قدير، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله، العليم بما تستحقونه من الكرامة وبكل شيء في الكون، وكان هذا الحوار مع كل من إبراهيم عليه السلام، وزوجته سارّة.

ثم سألهم إبراهيم عليه السلام قائلاً: فما شأنكم الخطير، وأمركم المبهم؟ وكأنه يقول: ما هذه الطامة التي جئتم لها؟ فأخبروه حينئذ أنهم أرسلوا إلى سَدُوم قرية لوط عليه السلام، بإهلاك أهلها الكفرة العاصين المجرمين، والمجرم: فاعل الجرائم: وهي صفات المعاصي من كفر ونحوه، لنهلكهم بحجارة من طين متحجر، مطبوخ بالنار، كالآجرّ، معلَّمة بعلامتها من السماء، تُعرف بها، كالخواتيم، على كل حجر اسم المضروب به، كما قيل، مخصصة عند الله لهلاك المتمادين في الضلالة، المجاوزين الحد في الفجور.

ولم يكن هذا العذاب عشوائياً يصيب الجميع، وإنما فيه تمييز المؤمنين عن المجرمين، فلما أردنا إهلاك قوم لوط، أخرجنا من كان في تلك القرية المؤمنين برسالة لوط عليه السلام، تنحية لهم من العذاب، فلم نجد غير أهل بيت واحد أسلم وجهه لله تعالى،

وانقاد لأوامره، واجتنب نواهيه، وهو بيت لوط بن هاران بن تارح ابن أخي إبراهيم عليه السلام، آمن أي لوط برسالة عمه إبراهيم، وتبعه في رحلاته إلى مصر، ثم تركه عن تراض، ونزل إلى سَدُوم في الأردن. وكان المؤمنون الناجون ثلاثة عشر، هم لوط وأهل بيته إلا امرأته.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لا تغاير هنا بينهما، لأن أسرة لوط كانوا قوماً مؤمنين ومسلمين، والمقرر عند أهل السنة: أن الإيمان أخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الوصفان هنا، لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال. ودليل التفرقة بين الإيمان والإسلام قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٤].

والعبرة من قصة قوم لوط: ما أخبر الله تعالى عنه: لقد أبقينا في تلك القرى علامة ودلالة لكل من يخاف عذاب الله و يخشاه، وهم المؤمنون، وهي آثار العذاب المدمر المؤلم، فإنها ما تزال ظاهرة بينة، وأثراً باقياً مؤرخاً لا يفنى ذكره. فهو آية (علامة) على قدرة الله تعالى، وانتقامه من الكفرة.

تدمير قوم نوح وفرعون وعاد وثمود

لقد طوى الله عز وجل وجود أقوام غابرين من التاريخ، فاستأصلهم ولم يبق أحداً منهم، وهم قوم نوح وفرعون ولوط وعاد وثمود، وإنما ترك بعض آثارهم للعبرة والعظة، مع بيان جرائمهم ومعاصيهم التي ارتكبوها، لمعرفة أن العذاب أو الجزاء قائم على مبدأ الحق والعدل، فلا ظلم ولا تجاوز فيه، وإنما التجاوز لحدود الله، وتكذيب رسله: كان هو السبب المباشر، ومناط العقاب، مما يثير التفكير ويبعث على التأمل لتفادي الموبقات، وهذا ما دونته الآيات الآتية هنا بإيجاز:

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ(١) إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ(٢) ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ(٣) وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ(٤) وَهُوَ مُلِيمٌ(٥) ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ(٦) ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ(٧) ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟(٨) عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ(٩) وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

[الذاريات: ٥١/٣٨-٤٦].

لقد جعلنا في قصة موسى عليه السلام آية وعبرة، حين أرسلناه إلى الطاغية فرعون الجبار بشيراً ونذيراً، بحجة واضحة هي المعجزات كالعصا واليد وغيرهما.

فأعرض استكباراً ونأى أو تولى بجانبه تفاخراً بجنده، وقال محقرّاً شأن موسى: هو إما ساحر أو مجنون، فكان جزاؤه: أنَّا أخذناه مع جنوده أخذ عزيز مقتدر فألقيناهم في البحر، وفرعون آتٍ بما يلام عليه من الكفر والطغيان وادعاء الربوبية.

وجعلنا أيضاً في قصة عاد عظة وعبرة، حين أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً عاتية، لا خير فيها ولا بركة، لا تلقح شجراً، ولا تحمل مطراً، إنما هي ريح الإهلاك والعذاب، فلا تترك شيئاً مرَّت عليه من النفوس والأنعام والأموال إلا جعلته كالشيء الهالك البالي.

وجعلنا في قصة ثمود كذلك آية وعظة، حين قلنا لهم: عيشوا متمتعين في الدنيا إلى وقت الهلاك. فتكبروا عن امتثال أوامر الله تعالى، فنزلت بهم صاعقة نار من السماء أبادتهم. والصاعقة: الصيحة العظيمة، وهي التي تكون معها النار، وذلك أنهم

(١) أي وجعلنا في قصة موسى آية. (٢) بحجة واضحة. (٣) أي نأى بجانبه. (٤) في البحر. (٥) آت بما يلام عليه. (٦) التي لا تأتي بخير. (٧) كالشيء البالي. (٨) استكبروا عن امتثال أوامره. (٩) نار من السماء نازلة.

انتظروا العذاب ثلاثة أيام، فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع، في غدوة النهار، وهم يعاينون مشاهد الدمار، جزاء لما اقترفوه من كفر ومعاصٍ.

فلم يقدروا على القيام من مصارعهم، والهرب من تلك الصرعة القاضية، بل أصبحوا في دارهم هلكى جاثمين، ولم يكونوا ممتنعين من عذاب الله، ولم يجدوا نصيراً ينصرهم ويدفع عنهم العذاب.

وأهلكنا بالطوفان قوم نوح، من قبل هؤلاء، لتقدم زمنهم على زمن فرعون وعاد وثمود، لأنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله، متجاوزين حدوده.

هذه هي نهاية قوم عتاة طغاة، ظلموا وبغوا، وكذبوا رسلهم وافتروا، وأصروا على الكفر والضلال، وعاندوا وعارضوا كل هداية من الله تعالى، وليتهم أشفقوا على أنفسهم، واتعظوا بأحداث السابقين قبلهم، ولكنهم لم يفعلوا، والقضية سهلة، والتكليف يسير، لا يحتاجون إلى أكثر من إعلان الإيمان بالله تعالى، وأن يستقيموا على أوامره، ويجتنبوا نواهيه، ويصدقوا برسالات الرسل الكرام الذين لا همَّ لهم إلا الإصلاح-إصلاح العقيدة والتصور والعبادة والمعاملة، ولكن قُتل الإنسان ما أكفره!

إن عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين هؤلاء الأقوام، لا تحقق لعابديها نفعاً أو خيراً، ولا تمنع عنهم ضرراً، أو تحميهم من الشر، وغريب أنهم إن انحدر فيهم الفكر على هذا النحو من الطعن والمساس بكرامتهم، ألم يبق أمامهم حقل التجربة والاختبار؟!

وأما توحيد الله تعالى فمصدر كل خير ونفع، والمانع من كل شر وضرر، أفلا يجدر بأصحاب العقول الواعية أن يبادروا إلى الإيمان بوحدانية الله تعالى؟! إن ألوان العذاب في إهلاك الأقوام الوثنيين السابقين، تدل على أن الله تعالى قادر على أن

يعذب أو يفني بما به البقاء والوجود، من عناصر الحياة الأربعة: وهي التراب والماء والهواء والنار، فعذب الله قوم لوط بالتراب، وعذَّب قوم نوح وقوم فرعون بالماء أو الإغراق في البحر، وعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية (الهواء) وعذب قبيلة ثمود بالنار الصاعقة النازلة من السماء، ولا يقتصر الأمر على هذه النماذج، فالله قادر على كل شيء، وابتكار أصناف أخرى من العذاب، ردعاً للظالمين، وتمكيناً لهم من التوبة والعدول عن موجبات العذاب.

وهكذا حُكْم الله وسنته مع جميع الأمم والأقوام والأفراد والجماعات، ولن تجد لسنة الله تبديلاً أو تحويلاً.

إثبات التوحيد وإنذار المكذبين

بعد بيان مصائر الأقوام الغابرين المكذبين برسالات رسلهم، والمنكرين وحدانية الله تعالى، أورد الله سبحانه بعض الأدلة القاطعة الدالة على توحيده وقدرته، وأنذر المشركين المعاندين في بطاح مكة وما حولها من عبدة الأصنام، حتى لا ينالهم مثل عذاب من تقدمهم، وكأن التكذيب للرسل شيء موصول بين الناس، فإذا أرادوا الخير لأنفسهم والنجاة من مثل ذلك العذاب المتقدم، فليس عليهم إلا الإقرار بوجود الله ووحدانية الذات الإلهية، وعبادته وحده، فإن أصروا على موقفهم، فإن العذاب واقع بهم حتماً، كما جاء في الآيات الآتية:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ[١] وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ[٢] ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ[٣] إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا

(١) بقوة ومقدرة. (٢) لقادرون على خلقها وخلق غيرها. (٣) فروا إلى ثواب الله ورضاه بتوحيده وعبادته.

تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ
إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ(١) ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ
﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ
مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ
ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا(٢) مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ(٣) لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي
يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ [الذاريات: ٥١/ ٤٧-٦٠].

لقد بنينا السماء بقوة ومقدرة، وإنا لذوو قدوة وسعة على خلقها وخلق غيرها، فنحن قادرون، لا نعجز عن ذلك، ولا يمسنا تعب، فقوله: ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ نوسع الأشياء قوة وقدرة.

والأرض مهدناها وبسطناها كالفراش، لصلاحية العيش عليها والاستقرار فيها، فنعم الماهدون، أي الباسطون الموطئون، نحن جعلناها مهداً لأهلها ومترعة بالخيرات على سطحها وجوفها.

وأوجدنا من جميع المخلوقات صنفين: ذكراً وأنثى، مصطحبين متلازمين، وهذا إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأشياء كالليل والنهار، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والسماء والأرض، والسواد والبياض، والصحة والمرض، والكفر والإيمان، ونحو هذا. وهذا أدل على القدرة التي توجد الضدين، بخلاف ما يفعل بطبعه فعلاً واحداً كالتسخين والتبريد. خلقنا هذه الأصناف المتلازمة، على هذا النحو لتعلموا وتتذكروا أن الخالق واحد لا شريك له. وكلمة (لعلكم) بحسب خُلُق البشر وعرفهم.

---

(١) متجاوزون الحد في الظلم . (٢) نصيباً من العذاب . (٣) هلاك لهم وشدة عذاب .

فالجؤوا إلى أمر الله، بالدخول في الإيمان وطاعة الله تعالى، فإني لكم منذر واضح الإنذار، ومخوِّف من عذابه وعقابه. ولا تشركوا مع الله إلهاً آخر سواه، فإن الإله المعبود بحق: هو واحد، ولا تصلح العبادة لغيره.

وعبر الله تعالى عن الأمر بالإيمان والطاعة بلفظ الفرار، لينبه على أن وراء الناس عقاباً وعذاباً وأمراً، حقه أن يُفَر منه، فجمعت لفظة (فروا) بين التحذير والاستدعاء.

ثم نهى الله تعالى عن عبادة الأصنام والشياطين، وكل مدعو من دون الله تعالى، وفائدة تكرار قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الإبلاغ وهزّ النفس وتحكيم التحذير.

وكما كذَّبك قومك من العرب أيها الرسول، ووصفوك بالسحر أو الجنون، فعلت الأمم المتقدمة التي كذبت رسلها، فهذا شأن الأمم في القديم، ولست أنت وحدك الذي كُذِّب.

ومن العجب كأن أفراد الأمم أوصى أولُهم آخرهم بالتكذيب، وتواطؤوا عليه، والواقع أنهم لم يتواصوا بذلك لتباعد زمانهم، لكنهم قوم طغاة، جمعهم الطغيان: مجاوزة الحد في الكفر. وهذا توقيف وتعجيب من تواطؤ نفوس الكفرة في تكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مع تباعد أزمانهم، لكنهم فعلوا فعلاً كأنه فعلُ من تَوَاصى. والعلة في ذلك أن جميعهم طاغٍ، والطاغي: المستعلي في الأرض المفسد العاتي على الله تعالى.

فأعرض عنهم أيها الرسول، وكفَّ عن جدالهم، فقد فعلتَ ما أمرك الله به، وبلّغت الرسالة، فما أنت بملوم عند الله بعد هذا؟ وليس عليك إلا البلاغ.

أخرج ابن منيع وابن راهويه والهيثم بن كليب في مسانيدهم عن علي رضي الله

عنه قال: لما نزلت ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة، إذا أُمِرَ النبي ﷺ أن يتولى عنهم، فنزلت ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فطابت أنفسنا، أو فُسرُّوا بذلك.

وغاية إيجاد الخلق: العبادة، فما خلقت الإنس والجن إلا للعبادة، ولمعرفتي، لا لاحتياجي إليهم. والغاية من هذا الْخَلْق سامية، فلا أريد من خلقهم جلب نفع لي، ولا دفع ضرر عني، ولا أريد منهم إطعامي، على عادتهم، إن الله هو واسع الرزق، يرزق جميع مخلوقاته، وهو ذو القوة والقدرة الهائلة، والشديد القوة. وبعبارة أخرى: ما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتي، وليقرّوا لي بالعبودية.

ثم هدد الله مشركي مكة وأمثالهم على وثنيتهم، فإن للظالمين أنفسهم بالكفر والشرك وتكذيب الرسول، نصيباً من العذاب، مثل عذاب أمثالهم القدامى، فلا يطلبوا مني تعجيل العذاب لهم، فإن حظهم من العذاب آتٍ لا ريب فيه.

فهلاك وشدة عذاب: للكافرين في يوم القيامة، الذي كانوا يُوعَدون به.

تفسير سورة الطور

إيقاع العذاب بالكفار يوم القيامة

أقسم الله تعالى ببعض مخلوقاته تنويهاً بشأنها على تمام قدرته وشمولها، في إيقاع العذاب بالكفار يوم القيامة، وهذا القسم عظيم يشمل المقسم به من الجبال، والمدَّونات الإلهية في الصحف، والكعبة المشرفة، والسماء العالية، والبحار المترعة بالماء، والعذاب المذكور يكتنفه أهوال شدائد، ومخاطر مدلهمة محيطة بأهل العذاب، منها اضطراب السماء، ودك الجبال، وذعر أهل الضلال، ودفعهم بعنف إلى نار جهنم وإدخالهم فيها ومقاساة شدائدها، كما تذكر هذه الآيات في مطلع سورة الطور المكية:

﴿وَالطُّورِ[1] ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ[2] ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ[3] مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ[4] ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ[5] ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ[6] ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا[7] ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا[8] ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا[9] فَاصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ٥٢/١-١٦].

---

(١) قال بعض اللغويين: كل جبل فهو طور، فكأنه تعالى أقسم بالجبال، إذ هو اسم جنس. (٢) الكتاب المنزل من عند الله وهو يشمل الكتب الأربعة: التوراة والزبور والإنجيل والقرآن وغيرها. (٣) في جلد رقيق مبسوط. (٤) الكعبة المشرفة. (٥) السماء العالية. (٦) البحر المملوء ماء. (٧) تتحرك وتضطرب. (٨) يدفعون دفعاً عنيفاً. (٩) ادخلوها.

المعنى: أقسم (أنا الحق) بالطور، أي بكل الجبال، والطور اسم جنس للجبال عند أهل اللغة، وبالكتاب المكتوب أسطاراً الذي يشمل الكتب الإلهية المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن وغيرها، في الورق المعد للكتابة، المبسوط غير المطوي، وبالكعبة المشرفة التي تعمَّر كل عام بالحجاج والزوار، وتعميرها للإعلام بشأن الكعبة، وبالسماء العالية التي هي كالسقف، وبالبحر المملوء ماء، المحبوس عن الأرض، إن المقسم عليه وهو عذاب الله لواقع كائن في القيامة لا محالة، لمن يستحقه من الكافرين والعصاة الذين كذبوا الرسل.

ويصاحب وقوع العذاب: اضطراب السماء اضطراباً شديداً، وإزالة الجبال من مواضعها كسير السحاب، وصيرورتها هباء كالصوف المندوف.

فويل، أي هلاك وسوء ومشقة أو وادٍ في جهنم لأولئك الذين كذّبوا الرسل، في ذلك اليوم، من شدة هذا العذاب، وهم الذين كانوا يتخبطون في الأباطيل، فيكذبون بالقرآن، ويستهزئون بالنبي. والفاء في قوله ﴿فَوَيْلٌ﴾ لاتصال المعنى، وهو الإعلام بأمان أهل الإيمان، أما أهل الكبائر من المسلمين فلا يخلّدون في النار، لأنهم لا يكذبون الرسل.

ويكون إلقاء المكذبين في النار بأن يدفعوا إليها دفعاً عنيفاً شديداً، وفي إهانة وتعتعة. وكلمة ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ يوم: بدل من ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً من قبل الزبانية -وهذا كلام محذوف مختصر-: هذه النار التي تشاهدونها هي النار التي كنتم تكذبون بها في الدنيا، والتكذيب بها: تكذيب للرسول الذي أخبر بها من طريق الوحي.

ويقال لهم أيضاً تذكيراً بما كانوا يقولون في الدنيا: أهذا الذي ترون: سحر كما

جزاء المتقين

يقابل جزاء الكافرين الموصوف في الآيات السابقة في سورة الطور جزاءُ المتقين المتميز بروضات النعيم، ليبين الفرق، ويقع التحريض على الإيمان. والمتقون هنا: هم متقو الشرك، لأن مصير كل مؤمن في النهاية إلى الجنات، وكلما زادت درجة التقوى، تأكد تحصيل نعيم الآخرة، وهذا النعيم ذو ألوان مادية ومعنوية كثيرة، والماديات: أطعمة وأشربة وفواكه وألبسة، ونحوها، تزدان بالخدمات المميَّزة، ومن الخدم الغلمان كأنهم لؤلؤ مكنون: وهو أجمل اللؤلؤ. وهذا على خلاف حال الدنيا حيث يكون الخدم في الغالب في قبح وتبذل، لا صون معه ولا جلاء فيه. ويعرف ذلك من الآيات الآتية:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ[1] بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٍ[2] ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم[3] مِّنْ
عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾
يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ[4] ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ
﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ[5] ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ
ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ[6] ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ
﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ١٧-٢٨].

إن أهل التقوى الذين اتبعوا أوامر الله وابتعدوا عن معاصيه، وتجنبوا الشرك هم في جنات (بساتين) نضرة. ويتنعمون فيها بنعيم دائم، خلافاً لما عليه الكفرة من عذاب

(١) فرحين مسرورين. (٢) جمع حوراء: وهي المرأة البيضاء، والعين جمع عيناء: الواسعة العين مع شدة سواد المقلة. (٣) وما نقصناهم بهذا الإلحاق. (٤) اللغو: ما لا خير فيه. والتأثيم: ما يوقع في الإثم. (٥) خائفين من عذاب الله. (٦) اسم النار، والسموم: الريح الباردة أو الحارّة.

كنتم تقولون لرسل الله المرسلة ولكتبه المنزلة؟ بل إنه الحق، ولكنكم أنتم عُمْيٌ وعن هذا، كما كنتم عُمْياً عن الحق في الدنيا، والواقع: أن المرئي حق، ولا عَمَىَ في البصر.

ومما يقال لهم كذلك تيئيساً لهم وقطعاً لرجائهم: ادخلوا النار وتلظوا بحرها، وقاسوا شدائدها، سواء صبرتم عليها أم لم تصبروا، فلا ينفعكم شيء، وعذابكم حَتْم، جزعتم أم صبرتم، فلا بد من جزاء أعمالكم، والجزاء بالعمل كائن، خيراً أو شراً، كان الصبر أو الجزع، لا محيد لكم عن النار، ولا خلاص لكم منها، ولا يظلم ربك أحداً، بل يجازي كل إنسان بعمله.

هذه أخبار موجعة مؤلمة، تدل على تطبيق مبدأ الحق والعدل، كما تدل على القدرة الإلهية الشاملة، وعلى إثبات يوم الحساب، وما يستتبعه من ثواب أو عقاب، وعلى إمكان البعث.

فالعاقل الذي يريد الخير لنفسه وإسعاد ذاته، يبادر إلى الإيمان بما أخبر الله تعالى به من الغيبيات الأخروية، ومن آمن بشيء بذل كل جهده في التوصل إلى مآربه، والظفر برضوان الله تعالى، فيكون الإيمان بيوم البعث دافعاً إلى الخير والعمل الصالح، ومحذِّراً من الشر والمنكر والعمل الضار.

وغير العاقل عقلاً واعياً يسير على وفق هواه وشهواته، ولا يأبه بهذه المواعظ والزواجر، وتراه مضطرب النفس في الدنيا، حائراً تائهاً في مسيرة الحياة، وفي الآخرة أشد توجعاً وقلقاً، ويأساً، وندماً، فهو يجني حصاد ما قدم في دنياه، ويلقى المصير المناسب لعمله.

الجحيم. فاكهين (فرحين مسرورين) بما منحهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ في المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والفُرُش والحور العين وغير ذلك، وحماهم الله من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها، تضم إلى نعمة دخول الجنة، والوقاية من العذاب: تظهر في متقي المعاصي الذي لا يدخل النار. وأما متقي الشرك الذي يعذب على معاصٍ أخرى، فوقاهم ربهم عذاب الخلود في الجحيم.

وتقول لهم ملائكة الرضوان في الجنة مهنئة لهم: كلوا من طيبات الرزق، واشربوا مما لذَّ وصفا وطاب، من غير نكد ولا كدر، بسبب ما قدمتم من أعمال صالحة في الدنيا، تفضلاً من الله وإحساناً.

وأنواع المتع الأخرى أنهم والحال يجلسون على أسرّة مصفوفة، متصل بعضها ببعض، حتى تصير صفاً واحداً، للدلالة على الاطمئنان والراحة وفراغ البال من الشواغل، ويزوجهم ربهم بقرينات صالحات هن الحور العين: ذواتُ البياض في الجسم، وبياضِ العين مع شدة سواد المقلة، وواسعات الأعين.

ومن زيادة النعم والفضل والإحسان: أن الله تعالى يلحق الذرية المؤمنة كباراً وصغاراً على القول الأرجح، بالآباء المؤمنين، والمعنى: يرفع ذرية المؤمن إليه، بشفاعته التي يأذن الله بها. وإن لم يكونوا في التقوى والأعمال كالآباء، فإنه سبحانه يُلحق الأبناء بمراتب أولئك الآباء كرامةً للآباء، جاء في حديث أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل لتقَرَّ بهم عينه» ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية. وقوله: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ : هو في موضع الحال.

ولا ينقص الله الآباء نعمة أو ثواباً لأعمالهم، بإلحاق ذريتهم بهم، وكل إنسان مرتهن يوم القيامة بعمله، فلا يتحمل أحد ذنب شخص آخر، أياً كان أباً أو ابناً،

والمعنى: أن الله تعالى يلحق المقصِّر بالمحسن، ولا يَنقُص المحسن من أجره شيئاً، والرهين: المُرتَهَن. وفي ألفاظ ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ وعيد.

وأصناف النعم المادية على المتقين هي:

- ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾ أي وزودناهم على ما كان لهم من النعيم فاكهة متنوعة، ولحماً مختلفاً من أنواع اللحوم، من كل ما تشتهيه أنفسهم وتستطيبه وتلذ به. ولا كلفة في الجنة، فلا يُتكَلَّف فيها الذبح والسلخ والطبخ. روي أن المُنَعَّم إذا اشتهى لحماً، نزل ذلك الحيوان بين يديه على الهيئة التي اشتهاه فيها.

- ويتعاطون في الجنة كأساً من خمر الجنة، والكأس: الإناء الذي فيه الشراب، ويتجاذبون الكؤوس مع جلسائهم تجاذب سرور ولهو وملاعبة، لشدة فرحهم، وليس في شراب الآخرة ما يدعو إلى اللغو (الكلام الذي لا خير فيه) والتأثيم (الذي يوقع في الإثم) خلافاً لشراب الخمور في الدنيا.

ويطوف (يدور) عليهم للخدمة بالكأس والفاكهة والطعام وغير ذلك فتيان يخدمونهم، كأنهم في الحسن والبهاء لؤلؤ مستور، مصون في الصَّدف.

- وأقبلوا يتحادثون، ويسأل بعضهم بعضاً في الجنة عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وما كان فيها من متاعب ومخاوف.

وأجاب المتحدثون سائليهم: إنا كنا في الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله، فتفضل الله علينا بالمغفرة والرحمة، ووفقنا للعمل الصالح، ووقانا عذاب السموم (عذاب النار). والسموم: اسم من أسماء جهنم. والسموم: الحارّ، الذي يبلغ مسامَّ الإنسان، ويقال للريح الباردة: سموم.

إنا كنا في الدنيا ندعوه، أي نعبده ونسأله المغفرة والرحمة، فاستجاب لنا، إنه سبحانه هو الكثير الإحسان، الواسع الرحمة والفضل.

متابعة نشر الرسالة وإثبات التوحيد

أمر الله تعالى نبيه بمتابعة التبليغ ونشر الدعوة أو الرسالة، مهما كانت الصعاب، والتحديات الباطلة، والاتهامات الواهية، فليس هو بكاهن ولا شاعر ولا مجنون، وإنما أعداؤه قوم طغاة تجاوزوا الحد في الكفر والعناد، ثم أثبت الله قدرته وتوحيده بخلق البشر وخلق السماوات والأرض، مما يدل على إمكان إعادة الخلق والبعث وليس للمشركين دليل مقبول على عقائدهم الزائغة، ولا سلطان لهم على شيء فلا يضر كيدهم رسول الله، وسينصره الله، ويظهر دينه، ولو كره الكافرون، وهذا ما قررته الآيات الآتية:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ(١) وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ(٢) ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم(٣) بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ
قَوْمٌ طَاغُونَ(٤) ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ(٥) بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟
صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا
يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ(٦) ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ(٧) ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ(٨)
مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ(٩) فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ(١٠)
﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٥٢/٢٩-٤٣].

لا تأبه أيها الرسول بمحاولات الصد والإحباط من قومك قريش، واثبت على ما

---

(١) الكاهن: المخبر عن الأمور الماضية بلا وحي. والعراف: المخبر عن أمور المستقبل. (٢) ننتظر به حوادث الدهر. (٣) عقولهم. (٤) ظالمون مجاوزون الحدود بكفرهم وعنادهم. (٥) اختلقه وافتراه من عند نفسه. (٦) القاهرون الغالبون على الأشياء. (٧) بحجة قوية واضحة. (٨) غرم: وهو الالتزام بما ليس عليه. (٩) تدبير مكيدة وشر. (١٠) المغلوبون المهلكون.

أنت عليه من تذكير الناس وموعظتهم، فلست بحمد الله بكاهن تدعي الإخبار عن الماضي بلا وحي، ولا بمجنون: يتخبطه الشيطان من المس.

بل يقولون: إنه شاعر ننتظر به حوادث الأيام ومصائبها، فيموت كما مات غيره، والريب: الشك، وأطلق على الحوادث على سبيل الاستعارة التصريحية، لعدم البقاء والدوام على الحال، والمنون: الدهر، لأنه يقطع الأجل. وهذا إنكار من الله عليهم باتهامهم الرسول مما ليس فيه، ثم هددهم الله: فقل لهم أيها الرسول: انتظروا موتي أو هلاكي، فإني معكم من المنتظرين عاقبة الأمر، وقضاء الله فيكم.

أأنزل عليهم شيء من السماء، أم تأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض، وهو زعمهم أن القرآن سحر أو كهانة، أو شعر، وقولهم في الرسول: إنه كاهن أو شاعر أو مجنون. أم إنهم قوم طغاة تجاوزوا الحد في العناد والضلال عن الحق.

أم إنهم يقولون: إن محمداً اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه، بل في الواقع إنهم لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون بما جاء به رسوله.

فإن صدقوا في زعمهم هذا بأن محمداً افترى القرآن، فليأتوا بمثل هذا القرآن في نظمه وسمو بلاغته، وبديع أسلوبه، وعظمة بيانه. والواقع أنهم لو اجتمعت معهم الجن وجميع الإنس، ما جاؤوا بمثله أو بمثل سورة منه ذات موضوع معين.

ثم أبطل الله شرك المشركين وردَّ على إنكارهم وحدانية الخالق، فهل وُجدوا من غير موجد، أم إنهم أوجدوا أنفسهم؟ وبما أن الأمرين منتفيان عقلاً وواقعاً، فالله هو الذي خلقهم، وهو الإله الواحد.

وهل خلقوا السماوات والأرض وما فيهما من العجائب، وأسباب العيش، ليدعوهم ذلك إلى التكبر، بل في الواقع إنهم غير مستيقنين حقاً بأن الله هو الخالق، خلافاً لإقرارهم، فهم لا يوقنون ولا ينظرون نظراً يؤديهم إلى اليقين. وخص الله من

الأشياء السماوات والأرض لعظمها وشرفها في المخلوقات، وهذا توبيخ لهم على أنفسهم.

أم عندهم الاستغناء عن الله تعالى في جميع الأمور، فهل يملكون خزائن الله من النبوة والرزق والمال والصحة والقوة وغير ذلك من الأشياء، فيتصرفوا فيها كيف شاؤوا، أم هم المسلطون على المخلوقات، يدبرون أمرها كيف يشاؤون؟ الواقع ليس الأمر كذلك، بل الله هو المالك المتصرف في كل شيء وهو الفعال لما يريد.

بل أيقولون: إن لهم سلّماً منصوباً إلى السماء والأماكن العالية يصعدون به، ويستمعون فيه كلام الملائكة وما يوحى إليهم، ويطلعون على علم الغيب؟ فليأت مستمعهم إليهم على صحة ما هم فيه بحجة ظاهرة واضحة، كما أتى محمد ﷺ بالبرهان الدال على صدقه، والواقع لا دليل ولا حجة على ما يقولون.

وبعد رد الله على إنكار الكفرة توحيد الألوهية، ردّ على من نسب البنات من الملائكة إلى الله، وأنها نسبة باطلة ولا عدل فيها. والمعنى: بل أتجعلون لله البنات، وتخصون أنفسكم بالبنين؟ وهذا تهديد ووعيد.

بل أتسألهم أجرة يدفعونها إليك على تبليغ الرسالة، فهم من التزام الغرامة مثقلون بحملها، فهم لذلك يكرهون الدخول فيما يوقعهم في الغرامة الثقيلة؟!

بل أيدّعون أن عندهم علم الغيب، وهو ما في اللوح المحفوظ، فيكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب أو يخبرون بما شاؤوا؟ ليس الأمر كذلك، فلا يعلم الغيب أحد إلا الله تعالى.

بل أيريدون تدبير مكيدة أو مؤامرة كما دبروا في دار الندوة لقتل النبي ﷺ؟ ولكن النتيجة أن الكافرين هم المكيدون أي المغلوبون المهلكون، سمى الله تعالى غلبتهم كيداً، إذ كانت عقوبةَ الكيد، من قبيل المشاكلة والمشابهة لما فعلوا أو دبروا.

ثم نزّه الله تعالى نفسه عما يشركون به من الأصنام والأوثان، والمعنى: بل ألهم إله غير الله يحرسهم من عذاب الله؟ تنزه الله عن الشريك والمثيل والنظير وعن كل ما يعبدون سواه، وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام.

وهذه الأشياء التي ناقشهم الله بها حصرت جميع المعاني والاحتمالات التي توقع في التكبر والعناد، وهي كلها ليست لهم، ولا يبقى شيء يوجب ما هم عليه إلا أنهم قوم طاغون، وذلك سبب عقابهم.

الإعراض عن الكافرين

لم يدع القرآن الكريم وسيلة للإيمان إلا أتى بها، ولا طريقاً للكفر إلا سدّه، وناقش المشركين مناقشة هادئة في عقائدهم، لينقلهم من هذا الداء الخطير إلى الإيمان الصحيح، وحينما استبد العناد بهم، ولم يتزحزحوا عن مواقفهم الضالة، هددهم المولى عز وجل، وأنذرهم بعقاب الدنيا وعذاب الآخرة. وحاولوا الدفاع عن آرائهم، فاقترحوا للتحدي والمعارضة تحقيق بعض المستحيلات، فكان الأمر الإلهي للنبي ﷺ بالإعراض عنهم، والصبر في تبليغ الرسالة وإنذارهم، وانتظار وعد الله، والتزام التسبيح لله وحده حين يقوم من منامه أو من مجلسه، وعقب غروب النجوم في آخر الليل، وهذا ما قررته الآيات الآتية:

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا[1] مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ[2] (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ[3] (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ[4] شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ

(١) أي قطعاً، مفردها كِسْفة وجمعها كِسَف وكِسْف. (٢) متراكم بعضه على بعض. (٣) يموتون أو يقتلون.
(٤) تآمرهم وتدبيرهم.

ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ(١) فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا(٢) وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ٤٤-٤٩].

كانت قريش في جملة ما اقترحت تحقيقه: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٢]. فإن ير هؤلاء المشركون قطعاً من نار السماء ساقطة عليهم لتعذيبهم، لما صدّقوا ولما أيقنوا، ولما انتهوا عن كفرهم، وإنما يقولون: هذا سحاب متراكم بعضه على بعض، نرتوي به، وهذا مثل حسي للمكابرة، لإنكارهم ما تبصره الأعين، مفاده: لو رأوا كِسْفاً ساقطاً حسب اقتراحهم، لبلغ بهم الغلو والبعد عن الحق أن يغالطوا أنفسهم وغيرهم.

فإذا كان هذا شأنهم، ولم يتركوا كفرهم، فدعهم أيها الرسول، ولا تأبه بهم، حتى يأتي يوم مصرعهم أو موتهم أو قتلهم، مثل يوم بدر. والصعق: التعذيب في الجملة.

وذلك اليوم هو اليوم الذي لا ينفعهم فيه مكرهم ولا كيدهم لرسول الله ﷺ في الدنيا، ولا يمنع عنهم العذاب النازل بهم، ولا ينصرهم ناصر، بل هو واقع بهم لا محالة.

وإن للظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي، ومكايدة النبي وعبادة الأوثان، عذاباً دون أو قبل عذاب الآخرة، وهو إما قتلهم يوم بدر والفتح ونحوهما، وإما مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام، وإما عذاب القبر أو الجوع والقحط، غير أن أكثرهم لا يعلمون ما سينزل بهم من العذاب والبأس.وهذا كما في آية أخرى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢١].

---

(١) أي لأمره في الإنذار والتبليغ ، وانتظار وعده . (٢) بحراستنا وحفظنا .

واصبر أيها الرسول على أذى قومك، ولا تبال بهم، وتابع تبليغ رسالتك وإنذارك، وانتظار وعد الله بنصرك عليهم، فكل ما يحكم به الله ويقدِّر هو خير ورحمة، فإنك في حراستنا وحفظنا وحمايتنا، والله عاصمك ومؤيدك، ونزّه الله عما لا يليق به، لإنعامه عليك، تنزيهاً مصحوباً بالحمد، حين تقوم من منامك أو من مجلسك وغيرهم، وحين تقعد، وفي كل تصرّفك، وحين تقوم للصلاة، فتقول: «سبحان الله و بحمده» وقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ معناه بإدراكنا وحفظنا وحيطتنا، وهذه الآية ينبغي أن يقدرها كل مؤمن في نفسه، فإنها تفسح مضايق الدنيا.

والتسبيح والتحميد مرغب فيه في كل وقت، ومنه أداء الصلوات المفروضة، ومنه ما بعد النوم، لما رواه أحمد والبخاري وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من تعارّ من الليل[1]، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي، أو قال: ثم دعا، استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى، قبلت صلاته».

وأخرج أبو داود والنسائي والحاكم وابن مردويه وابن أبي شيبة، عن أبي بَرْزة الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يقول بآخر عمره إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم و بحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

والتسبيح دائم ليلاً ونهاراً لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ أي وإذا قمت من نومك، فسبّحه، واذكره واعبده في بعض الليل، وفي آخر الليل حين غروب النجوم، لأن العبادة حينئذ أشق على النفس، وأبعد عن الرياء، قال الرازي: والظاهر أن المراد من ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وقت الصبح حين يدبر النجم،

---

(١) هب من نومه مع صوت.

ويخفى، ويذهب ضياؤه بضوء الشمس. وحينئذ يكون قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ المراد به النهار، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ ما عدا وقت النوم.

فتكون هذه الآية عامة في جميع الأوقات، في الليل والنهار، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٩].

هذا التوجيه الإلهي بالتسبيح والتحميد يقوّي العزيمة، ويشحذ الإرادة، ويمنح النفس ثقة بالنصر في نهاية الأمر، و يخفف المعاناة والهموم، كلما ضاق الأمر، وحزن الإنسان، وفيه ترويض على الصبر مما يعانيه الداعية إلى الله، حيث وجد الإعراض عن دعوته والصدود، فإن النصر سيكون بمشيئة الله حليفة، لذا صبر النبي ﷺ مدة ثلاثة عشر عاماً على أذى قومه، وتابع نشر دعوته، فتحقق له النصر والظفر، وانتشر دينه في الآفاق.

تفسير سورة النجم

إثبات ظاهرة الوحي

تميزت سورة النجم المكية بالإجماع بأنها أول سورة أعلن بها رسول الله ﷺ، وجهر بقراءتها في الحرم، والمشركون يستمعون، وفي آخرها سجد، وسجد معه المؤمنون والمشركون، والجن والإنس، غير أبي لهب، فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا، روى ذلك البخاري عن ابن عباس، رضي الله عنهما. وأقسم الله تعالى في مطلع هذه السورة بالنجم تشريفاً له لإثبات ظاهرة الوحي على قلب النبي ﷺ، بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام الذي رآه النبي ﷺ على صورته الحقيقية مرة أخرى، وذلك في السماء بعد رؤيته في الأرض، قال الله تعالى:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ[(١)] ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ[(٢)] ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ[(٣)] ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ[(٤)] ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ[(٥)] ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ[(٦)] ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ[(٧)] إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ[(٨)] ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ[(٩)] ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ١-١٨].

---

(١) مال وسقط للغروب . (٢) ما عدل محمد ﷺ عن طريق الحق إلى الباطل، وما جهل بما أوحي إليه . (٣) صاحب القوى الشديدة . (٤) ذو حصافة في العقل واستحكام في النطق، فاستقام على صورته الحقيقية التي خلق عليها . (٥) قرب فتعلق بالهواء . (٦) مقدار قوس أو أقرب من ذلك . (٧) أي جبريل إلى عبد الله. (٨) مرة أخرى . (٩) ما مال البصر وما تجاوز حده .

أقسم الله تعالى بالنجم إذا مال للغروب، تشريفاً له، حتى يؤول ذلك إلى معرفة الله تبارك وتعالى. مثل قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٥].

والمقسم عليه وهو الوحي حق ثابت. فما عدل النبي ﷺ عن طريق الحق إلى الباطل، وما جهل بما أوحي إليه. والضلال: هو الذي يكون بغير قصد من الإنسان. والغي: ما تتكسبه وتريده.

وما يقول هذا النبي قولاً عن هوى وغرض، إن كل ما ينطق به هو وحي أوحاه الله إليه، ويبلّغ جميع وحي الله من غير زيادة ولا نقصان. والمراد بالوحي: القرآن. والوحي: إلقاء المعنى في خفاء.

ومُعَلِّم القرآن الناقل عن رب العزة: هو جبريل عليه السلام، الشديد بقواه العلمية والعملية، وهو ذو قوة وشدة، وذو حصافة في العقل، ومتانة في الرأي، وقد اعتدل على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها، حين كان في الأفق الأعلى، أي في الجهة العليا من السماء، وهو أفق الشمس، فسدّ الأفق حين جاء بالوحي إلى النبي ﷺ أول مجيئه.

ثم قرب جبريل من الأرض إلى محمد ﷺ عند حراء، وتعلق بالهواء، وازداد في القرب من محمد والنزول، فكان فيما بينهما مقدار ما بين قوسين من المسافة أو أقل من ذلك، فأوحى جبريل إلى عبد الله، ما أوحى من القرآن في تلك النزلة، من شؤون الدين والتشريع، وهذا كان في أثناء رؤية حقيقة جبريل، والرسول في الأرض في حراء. ورآه مرة أخرى على حقيقته، والرسول في السماء، ليلة الإسراء، وحينما رآه سدّ الأفق، له ست مئة جناح.

ولم تكن رؤية جبريل خيالاً، وإنما حقيقة معاينة، فما أنكر فؤاد النبي ما رآه من

صورة جبريل، وإنما كان في كامل وعيه، وكان فؤاده صادقاً، فتكون عينه أصدق، فكيف تجادلونه وتكذبونه معشر قريش فيما رآه بعينه رؤية مشاهدة محسوسة؟ وقوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾[1] خطاب لقريش معناه: أتكذبون فتجادلونه على ما يراه معاينة؟ ولم يُرو قط أن محمداً ﷺ رأى ربه عز وجل قبل ليلة الإسراء. ولكن لا مانع من رؤية القلب. أخرج مسلم والترمذي وأحمد: أن أبا ذر سأل النبي ﷺ: هل رأيت ربَّك؟ فقال: «نور أنى أراه».

ولقد رأى محمد ﷺ جبريل نازلاً مرة أخرى على صورته التي خلقه الله عليها، وذلك في ليلة الإسراء، عند سدرة المنتهى التي هي في المشهور: شجرة في السماء السابعة، وعندها الجنة التي تأوي إليها أرواح المؤمنين.

ونحن نؤمن بسدرة المنتهى، على النحو الوارد في ظاهر القرآن الكريم، دون تعيين مكانها وأوصافها.

وتلك السدرة يحيط بها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ما يحيط، مما لا يحصره وصف ولا عدد. وهذا يشعر بالتعظيم والتكثير.

ما مال بصر النبي ﷺ عما رآه، وما تجاوز ما رأى، فرؤية جبريل وغيره من مظاهر ملكوت الله رؤية عين، وليست من خَدْع البصر، وهذا يؤكد أن معراج النبي ﷺ إلى السماء كان بالروح والجسد.

لقد رأى في ليلة المعراج من آيات ربه العظام ما لا يحيط به الوصف، وهو رؤية جبريل على صورته، وسائر عجائب الملكوت و(الكبرى): وصف لـ (آيات). وهذا كما جاء في آية أخرى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١] ولكن دون تحديد المرئي، للإشارة إلى تعظيمه وأهميته.

---

(١) أتجادلونه في شيء رآه وأبصره ؟

قال الألوسي نقلاً عن الكشاف: إن هذه الآيات سيقت لتحقيق أمر الوحي، ونفي الشبهة والشك فيه، ليتأكد الكل أن هذا الوحي ليس من الشعر ولا من الكهانة، فليس للشيطان ولا للجن أي قدرة على تصورهم وإدراكهم صورة جبريل الحقيقية أو غيرها، لأن النبي ﷺ عرفه بقلبه وبصره، ورآه في حالاته المتعددة، ومن ثم لم يكن من المعقول أن يشتبه عليه.

أصنام الجاهلية العديمة الفائدة

حرص القرآن الكريم على أصول ثلاثة في العقيدة: وهي التوحيد، والرسالة أو النبوة، والإيمان باليوم الآخرة، وتقرير التوحيد يتطلب هدم الإشراك بالله، وبيان انعدام فائدة الأصنام، وهذا ما ذكرته الآيات الآتية، بأسلوب استنكاري مع التهكم والتوبيخ، إذ كيف يليق بكرامة الإنسان وحرمة العقل الإنساني، أن يعبد الإنسان حجراً أو معدناً أو شخصاً يجعله إلهاً آخر مع الله؟ وهي لا تستطيع منع الضرر عن أنفسها، قال الله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ[1] ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ
إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ[2] ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ[3]
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ
﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن
يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا

---

(١) هذه أسماء أصنام الجاهلية، اللات صنم ثقيف والطائف، والعزى: معبود غطفان، وهي شجرة ببطن نخلة ثم لما بليت انتقل أمرها إلى صخرة، ومناة: معبود هذيل وخزاعة، وهي صخرة، وكانت هذه الأصنام حول الكعبة . (٢) جائرة لا عدل فيها .(٣) من حجة وبرهان .

لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ(١) عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ [النجم: ٥٣/ ١٩-٣١].

أوضح القرآن عظمة الله وقدرته، ثم أتبع ذلك الكلام عن الأصنام، فقال: أرأيتم هذه الأوثان وحقارتها، وبُعْدها عن القدرة والصفات العلية؟ أنظرتم إلى اللات: صنم ثقيف والطائف، والعزى: شجرة بين مكة والطائف تعظمها قريش، ومناة: صخرة هذيل وخزاعة، وغيرها من الأصنام، إنها حجارة صماء، أو أشجار مستنبتة، فكيف تشركونها بالله، وهي مصنوعة لكم، أو مخلوقة غير خالقة، فمن يستحق العبادة أهي أم الله الخالق القادر؟!

أتجعلون لله ولداً، ثم تجعلونه أنثى، وتختارون الذكور لأنفسكم؟ تلك قسمة جائرة عن الحق، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة الجائرة بين المخلوقين؟!

إن تسمية هذه الأصنام آلهة، مع أنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل ولا تفهم، ولا تضر ولا تنفع، إنها مجرد أسماء سميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم، لا مسميات حقيقية، اتخذتموها آلهة أنتم وآباؤكم، لم ينزل الله بها من حجة ولا برهان تعتمدون به على أنها آلهة.

ما يتّبعون في تسمية الأصنام آلهة إلا مجرد وهم أو ظن لا يغني من الحق شيئاً، ولا يتّبعون إلا ما تهواه نفوسهم وميولهم، من غير نظر إلى الحق الواجب اتباعه، ولقد جاءهم من الله القرآن الكريم الذي فيه الهداية والإرشاد.

---

(١) انحرف ولم يجب دعوة الله .

والقضية ليست تمنيات، بل إن الإنسان يقرر ما يتمنى ويتصور، وليس كل من تمنى خيراً حصل له، وليس لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم وتشفع لهم، فالسلطان ليس لغير الله، وليس للأصنام مع الله أمر ولا شأن في الدنيا ولا في الآخرة، كما جاء في آية أخرى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [النساء: ٤/ ١٢٣].

وطريق الشفاعة هو: كثير من الملائكة الكرام في السماء، مع كثرة عبادتها وكرامتها على الله، لا تشفع لأحد إلا لمن أذن ورضي الله أن يُشفع له، فكيف بهذه الجمادات؟.

ثم أنكر الله تعالى على المشركين جعلهم الملائكة بنات الله ووصفهم بالأنوثة، فالذين لا يصدقون بوجود الآخرة والحساب والعقاب يزعمون أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وليس لهؤلاء المشركين علم صحيح بصدق ما قالوه، ولا معرفة ولا برهان، فإنهم لم يعرفوهم ولا شاهدوهم، وما يتبعون في زعمهم إلا التوهم أو الظن الذي لا أساس له من الصحة، ومثل هذا الظن لا يجدي شيئاً، ولا يقوم أبداً مقام الحق، فأعرض أيها الرسول عمن أعرض عن القرآن أو تذكير الله، ولم يكن همّه إلا الدنيا، وتَرَكَ النظر إلى الآخرة، فاترك مجادلتهم والاهتمام بشأنهم فقد بلّغت ما أُمرت به، وليس عليك إلا البلاغ. وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يدل على إنكارهم البعث والحشر.

إن أمر الدنيا وطلبها هو منتهى ما وصلوا إليه من العلم، فلا يلتفتون إلى ما سواه من أمر الدين، إن ربك هو عالم بمن انحرف عن سبيله، سبيل الحق والهدى، وعالم بمن اهتدى إلى الدين الحق، فأعرض عنهم، لأن الله هو الخالق لكل شيء، وسيجازي كل فريق أو أحد على عمله.

ولله تعالى ملك جميع ما في السماوات وما في الأرض، وهو الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وقد خلق الخلق بالحق، وجعل عاقبة أمر الخلق أن يجزي كلاً من المحسن والمسيء بعمله، يجزي المسيء بإساءته التي عملها، ويجزي المحسن بإحسانه، فتكون لام (ليجزي) لام العاقبة أو الصيرورة.

قال ابن الجوزي في تفسيره: والآية: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إخبار عن قدرته وسعة ملكه، وهو كلام معترض بين الآية الأولى أي: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وبين قوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾ لأنه إذا كان أعلم بالمسيء وبالمحسن، جازى كلاً بما يستحقه، وإنما يقدر على مجازاة الفريقين إذا كان واسع الملك.

صفات المحسنين وتوبيخ بعض المشركين

يدعي بعض الناس أنهم أتقياء بررة، محسنون خيّرون، ولكنهم في الواقع بعيدون عن الإحسان بالمعيار الشرعي الصحيح، فإن المحسنين هم الذين أحسنوا أعمالهم واجتنبوا الكبائر والفواحش، فلا يدعي إنسان ما ليس فيه أو يزكي نفسه بما ليس فيها. وفي مقابل هؤلاء المقصرين كان بعض المشركين كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي، وأبي جهل بن هشام في غاية الجفاء. والبعد عن معايير الشرع والخلق القويم، وهذا ما حكته الآيات الآتية:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ[(١)] وَٱلْفَوَٰحِشَ[(٢)] إِلَّا ٱللَّمَمَ[(٣)] إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ[(٤)] فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ

(١) هي كبائر الذنوب: وهي كل ذنب توعد الله صاحبه بالعذاب الشديد أو ذم فاعله ذماً كثيراً. (٢) هي جرائم الحدود. (٣) صغائر الذنوب التي لا إصرار فيها. (٤) أولاد في البطون.

بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ(١) ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ(٢) ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ
يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَىٰ(٣) ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ
ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٣٢-٤١].

أخرج الواحدي والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبي صغير: هو صدّيق، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «كذبت اليهود، ما من نسمة(٤) يخلقه الله في بطن أمه إلا ويعلم أنه شقي أو سعيد» فأنزل الله عند ذلك هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾

المحسنون: وهم الذين تقدم ذكرهم: ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ فكلمة ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ نعت لكلمة (الذين) المتقدم قبله: هم الذين يبتعدون عن كبائر الذنوب كالشرك والقتل وأكل مال اليتيم، وعن الفواحش كجرائم الحدود من زنا وقذف وسرقة وحرابة وشرب مسكر. والكبائر: كل ذنب توعد الله عليه بالنار وهي السبع الموبقات الآتي بيانها، والفواحش: ما تناهى أو تزايد قبحه عقلاً وشرعاً من الكبائر، ولكن لا يقع منهم إلا اللمم: أي صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال كالنظر إلى المحرَّمات والقبلة، فإن اقترفوا اللمم تابوا.

ورد في الصحيحين عن علي رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات: الإشراك بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

---

(١) أعرض . (٢) قطع العطاء ولم يتمه . (٣) الوازرة: النفس الآثمة، والوزر: الحمل . (٤) أي إنسان.

ثم رغب الله بالتوبة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي إن الله تعالى كثير الغفران للذنوب إذا تاب العبد منها.

والله تعالى بصير بكم حين ابتدأ خلقكم بخلق أبيكم آدم من التراب، وحين أوجدكم أجنة: أولاداً في بطون أمهاتكم، فلا تمدحوا أنفسكم، ولا تبرّئوها عن الآثام، ولا تدّعوا الطهارة عن المعاصي، فالله هو العليم بمن اتقى الشرك والمعاصي. وظاهر الآية: النهي عن أن يزكي أحد نفسه.

ثم ذكر الله تعالى على سبيل التعجب والتقريع خبر بعض المشركين، الذي تميز بسوء فعله، حيث أعرض عن الإيمان، وأحجم عن العطاء، وجهل ما غاب عنه من العذاب.

ومعنى الآية: أخبرني وأعلمني بهذا الذي تولى عن الخير، وأعرض عن اتباع الحق، أعطى قليلاً من المال ثم لم يتمه، ليتحمل عنه غيره وزره، هل عنده علم ما غاب عنه من أمر العذاب؟ أو أَعَلِم من الغيب أن من تحمل ذنوب آخر، فإن المتحمَّل عنه ينتفع بذلك؟

أخرج الواحدي وابن جرير عن مجاهد وابن زيد قال: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتَّبع رسول الله ﷺ على دينه، فعيَّره بعض المشركين، وقال: لِمَ تركت دين الأشياخ وضللتهم، وزعمت أنهم في النار؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شِرْكه، أن يتحمل عنه عذاب الله سبحانه وتعالى، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل ومنعه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال السدي: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت في أبي جهل بن هشام.

ثم ذكَّر الله تعالى هذا المعرض عن الإسلام بأن المسؤولية شخصية، فقال: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ أي بل أإنه لم يخبر بما في أسفار التوراة، وصحف إبراهيم الذي أكمل ما أمر به، وأدى الرسالة على الوجه الأكمل: أنه لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، فكل نفس ارتكبت جرماً من كفر أو ذنب، فعليها وحدها وزرها، لا يحمله عنها أحد. وهو مبدأ المسؤولية الشخصية التي هي من مفاخر الإسلام.

وأنه ليس للإنسان إلا أجر سعيه وجزاء عمله، فلا يستحق أجراً عن عمل لم يعمله، وهو مبدأ كون الجزاء مرتبطاً بالعمل، وهذا متمم للمبدأ السابق، فكما لا يتحمل أحد مسؤولية غيره، كذلك ليس له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، والمراد بيان ثواب الأعمال الصالحة وكل عمل، فالخير مثاب عليه، والشر معاقب عليه.

وأن سعي الإنسان أو عمله محفوظ، يجده في ميزانه لا يضيع منه شيء ويدخره الله له بصفته وسيلة إثبات وإشادة، ولوم للمقصرين، وقوله ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أن يراه الله تعالى ومن شاهد الأمر. وفي عرض الأعمال على الجميع تشريف للمحسنين، وتوبيخ للمسيئين. ثم يجزي الله هذا الإنسان جزاء كاملاً غير منقوص، فيجازي بالسيئة مثلها، وبالحسنة عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء. وهذا وعيد للكافرين، ووعد للمؤمنين.

من مظاهر القدرة الإلهية

تعددت مظاهر القدرة الإلهية في الكون والإنسان والحياة، وتلك المظاهر تصدر عن حكمة إلهية بالغة، وسلطان عظيم شامل، وعدل كامل، ورحمة شاملة، فلا يكون عقاب إلا بعد إمهال، ولا عذاب إلا بعد إنذار، ولم يبق إلا اعتدال الإنسان ووعيه في مراعاة مصلحته واستحضاره عظمة ربه، والاتعاظ بالأمثال والعبر التي

جعلت في تدمير الأمم أو الأقوام الغابرة، وذلك قبل أن يموت الإنسان ويفاجأ بقيام القيامة، وهذا ما أخبر عنه القرآن الكريم في الآيات الآتية:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ(١) ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ(٢) ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ(٣) ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ(٤) ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ(٥) ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ(٦) ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ(٧) ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٤٢-٦٢].

-إن المرجع والمصير إلى الله تعالى يوم القيامة، لا إلى غيره، فيجازي المخلوقات بأعمالهم، وهذا ترهيب للمسيء، وترغيب للمحسن.

- والله هو الذي أضحك من شاء في الدنيا بأن سرّه، وأبكى من شاء بأن غمّه. والمراد أن الله خلق مايَسُرُّ من الأعمال الصالحة، وما يَسوء ويحزن من الأعمال السيئة، وهذا دليل القدرة الإلهية.

أخرج الواحدي عن عائشة قالت: مرّ رسول الله ﷺ بقوم يضحكون، فقال: لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً، ولضحكتم قليلاً، فنزل عليه جبريل عليه السلام بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ فرجع إليهم، فقال: ما خطوتُ أربعين

(١) المرجع والمصير يوم القيامة إلى الله تعالى. (٢) تصب في الرحم. (٣) الخلقة الأخرى بعد البعث. (٤) أعطى المال وأكسب ما يُقتنى كالأثاث وغيره، وقيل: أفقر. (٥) الكوكب المضيء، نجم في السماء، وهما شعريان: الغُميصاء والقبور لأنها عبرت المجرّة، وكانت خزاعة ممن يعبد هذه الشعرى. (٦) قرى قوم لوط قد قلبها وخسف بها. (٧) لاهون وغافلون.

خطوة، حتى أتاني جبريل عليه السلام، فقال: ائت هؤلاء، وقل لهم: إن الله عز وجل يقول: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾.

-وأنه تبارك وتعالى أمات من شاء وأحيا من شاء.

- وأنه هو الذي خلق الصنفين: الذكر والأنثى من كل إنسان أو حيوان، من قطرة ماء يصبّ في الرحم، ويتدفق فيه. ثم ينفخ الله الروح في النطفة فتصير شيئاً حياً.

- وأن على الله تعالى إعادة الأرواح إلى الأجساد عند البعث والنشور والحشر، فكما خلق الله الإنسان من البداءة، هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الأخرى يوم القيامة.

- وأنه سبحانه وحده الذي أغنى من يشاء من عباده، وأفقر من يشاء منهم، بحسب الحكمة والمصلحة للخليقة. وكلمة ﴿أَغْنَىٰ﴾ قال حضرمي: معناه أغنى نفسه. و﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أفقر عباده إليه. وقال الأخفش: أغنى: أفقر. قال ابن عطية: وهذه عبارات لا تقتضيها اللفظة، والوجه فيها بحسب اللغة: أكسب ما يُقْتَنَى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أقنى: أقنع.

-وأنه تعالى رب هذا النجم المضيء الذي يطلع خلف الجوزاء في شدة الحر، وهما شعريان: إحداهما الغميصاء[1]، والأخرى: العَبُور، لأنها عبرت المَجَرَّة، وكانت خزاعة ممن يعبد هذه الشعرى. وأول من سن عبادتها أبو كَبْشَة من أشراف العرب، وكانت قريش تطلق على الرسول ﷺ : (ابن أبي كبشة) تشبيهاً له به، لمخالفته دينهم، كما خالفهم أبو كبشة، وكان من أجداد النبي ﷺ من جهة أمه.

- وأنه تعالى دمر وأفنى قوم هود عليه السلام، وهم عاد القدماء، وهي أول أمة

(١) سميت بذلك لأنها بكت على إثر العَبُور حتى غَمِصَت ، أي صغرت ، وهذا كناية عن قلة ضوئها .

أهلكت بعد نوح، وكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله ورسوله، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، وعاد الأخرى: هي ثمود قوم صالح.

- وأهلك قبيلة ثمود، كما أهلك عاداً، ودمرهم بذنوبهم، فلم يبق منهم أحداً.

- وأهلك الله قوم نوح من قبل هذين الفريقين: عاد وثمود، إنهم كانوا هم أظلم من عاد وثمود، وأشد طغياناً منهم، وأكثر تمرداً وتجاوزاً للحد من الذين أتوا من بعدهم، لأنهم بدؤوا بالظلم.

- وخسف الله مدائن قوم لوط، بجعل عاليها سافلها، أسقطها جبريل عليه السلام بعد أن رفعها، ثم أمطر عليها حجارة من سجيل منضود، فغطاها بالعذاب على اختلاف ألوانه، وهذا أسلوب فيه تفخيم وتهويل لأمر العذاب.

- فبأي نعم ربك أيها الإنسان المكذب تتشكك وتمتري.

- هذا القرآن ورسول الله نذير مخوف محذّر من جملة النذر المتقدمة، لأن القرآن منذر كالكتب السماوية السابقة.

- اقتربت القيامة، ليس هناك أحد قادر على كشفها والإعلام عنها إلا الله تعالى، لأنها من أخفى المغيبات، فاستعدوا لها قبل مجيئها بغتة، وأنتم لا تشعرون.

- كيف تعجبون من صحة القرآن، تكذيباً منكم، وتضحكون منه استهزاء، وتسخرون من آياته، ولا تبكون كما يفعل الموقنون، وأنتم لاهون عنه، غافلون معرضون؟! فاسجدوا أيها المؤمنون شكراً على الهداية، واخضعوا لله، وخصوه بالعبادة، فهو المستحق لذلك.

تفسير سورة القمر

موقف المشركين من دعوة الإسلام

طالب المشركون بتحقيق معجزات مادية، على سبيل المكابرة والعناد، على الرغم مما رأوا من الآيات والمعجزات الباهرة الدالة على صدق نبوة الرسول محمد بن عبد الله ﷺ، ومع الإخبار بأنباء إهلاك الأمم المكذبة رسلها، ليعتبروا ويتعظوا، ومع تحذيرهم مما يتعرضون له في الآخرة من عذاب شديد، ونشر من القبور، ذليلين مهانين، مسرعين إلى الداعي إسرافيل إلى شيء رهيب، وهو موقف الحساب. وهذا ما أطلعتنا عليه أوائل سورة القمر المكية بالإجماع إلا آية واحدة، اختلف فيها أهي مكية أم مدنية، وهي آية: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ :

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ[(١)] وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ[(٢)] ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ[(٣)] ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ[(٤)] ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ[(٥)] إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ١-٨].

أخرج البخاري ومسلم والحاكم -واللفظ له- عن ابن مسعود قال: رأيت القمر

---

(١) أي قربت القيامة، واقتربت أبلغ من قربت، مثل اقتدر أبلغ من قدر. (٢) أي محكم قوي، من المِرَّة: وهي القوة. (٣) ما يزجرهم ويكفهم. (٤) شديد الهول تنكره نفوسهم إذ لا عهد لهم مثله. (٥) مسرعين.

منشقاً شقين بمكة، قبل مخرج النبي ﷺ، فقالوا: سُحِرَ القمر، فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

والمعنى: قربت القيامة ودنت، لكنَّ وقتها مجهول التحديد، أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي، عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «بُعثت والساعة كهاتين» وأشار بالسبّابة والوسطى.

وانشق القمر فعلاً نصفين، معجزة للنبي ﷺ، وآية ظاهرة على قرب القيامة وإمكانها.

أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن أنس: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء (وهو جبل مشهور بمكة) بينهما.

لكن المشركين ظلوا على عنادهم، فإنهم وإن يروا علامة على النبوة وصدق النبي ﷺ، يعرضوا عن التصديق والإيمان بها، ويولّوا مكذبين بها، قائلين: هذا سحر محكم قوي، من المِرّة أي القوة، أو دائم مطرد متماد. وكذبوا بالحق الساطع حين جاءهم، وهو آيات الله الظاهرة، اتبعوا شهواتهم، لا بدليل، ولا بتثبّت، بسبب جهلهم وسخفهم، فهددهم الله ورد على تكذيبهم وأخبرهم بأن كل أمر مستقر، أي كل شيء منته إلى غاية، فالحق يستقر ثابتاً ظاهراً، والباطل يستقر زاهقاً ذاهباً، ومن جملة ذلك أمر النبي ﷺ سينتهي إلى غاية يظهر فيها أنه على حق، وأنهم على باطل.

ثم وبّخهم الله على إصرارهم على الكفر وعلى ضلالهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ أي وتالله لقد جاء مشركي مكة وأمثالهم من أخبار الأمم المكذبة رسلها، وما حل بهم من العقاب والنكال، مما أخبر به القرآن، ما فيه كفاية لزجرهم وكفّهم عما هم فيه من الشرك والوثنية، ويدخل في كلمة (الأنباء) جميع ما جاء به القرآن من المواعظ والقصص وأحداث الأمم الكافرة.

وهذه الأنباء وما فيها من عبرة وعظة وهداية: حكمة بالغة كاملة، قد بلغت منتهى البيان، ليس فيها نقص ولا خلل، فلا تفيدهم الإنذارات شيئاً بسبب عنادهم الذي يصرفهم عن الحق، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠/١٠١] وكلمة (ما) إما نافية، أو استفهامية بمعنى التقرير، أي فما غناء النذر مع هؤلاء الكفرة؟ والحكمة البالغة: هي المؤثرة تأثيراً بالغاً في وعظ النفوس.

فأعرض عنهم يا محمد، ولا تتعب نفسك بدعوتهم، حيث لا يؤثر الإنذار فيهم، بعد هذا العناد والمكابرة، وانتظرهم، واذكر يوم يدعو الداعي فيه وهو إسرافيل، إلى شيء هائل تنكره نفوسهم، استعظاماً له، إذ لا عهد لهم بمثله أبداً، وهو موقف الحساب الرهيب، وما يشتمل عليه من الأهوال والبلايا. وكلمة (نُكُر): منكور غير معروف، ولا يُرى مثله، وهو نعت للأمر الشديد، وهذا وعيد لهم.

وذلك اليوم هو يوم يخرج الناس من قبورهم، ويكون الكفار ذليلة أبصارهم، من الذل والهوان، كأنهم لانتشارهم واختلاطهم إذا توجهوا نحو المحشر والداعي: جراد منتشر موزع في الآفاق، أو مثل الفراش المبثوث، كما في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ [القارعة: ١٠١/٤].

ويكونون مهطعين، أي مسرعين في مشيهم نحو المقصد، إما لخوف أو طمع ونحوه، ويسيرون نحو الداعي لهم وهو إسرافيل دون تلكؤ ولا تأخر، ويقول الكافرون: هذا يوم صعب، شديد الهول على الكفار، ولكنه ليس بشديد على المؤمنين. وشدته لما يرون من مخايل هوله وعلامات مشقته. وذلك كما جاء في آية أخرى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٧٤/٩-١٠].

ويدل ذلك بطريق المفهوم على أنه يوم هيِّن يسير على المؤمنين.

قصة نوح عليه السلام مع قومه

ساق الله تعالى في قرآنه قصص الأقوام السابقين، وعيداً لقريش وضَرْب مثل لهم، ومن أقدم هذه القصص: قصة نوح عليه السلام مع قومه، فإنهم كذبوه، وزجروه عن تبليغ الدعوة بالسب والرد القبيح والتخويف، ووصفوه بأنه مجنون. فاستنجد بربه، فأجابه، ودمَّر القوم بالطوفان. وهذه هي نهاية الظلمة الذين عارضوا الرسل، وقاوموا الدعوة إلى الله ووحدانيته، واتبعوا الأهواء، وصدوا عن سبيل الله، سبيل الحق والعدل وتوحيد الله، فكان لا بد من التذكير بقصتهم للاعتبار والاتعاظ، كما يبدو في هذه الآيات:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ[١] ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ[٢] ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ[٣] ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ[٤] ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ[٥] ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ[٦] ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ٥٤/٩-١٧].

هذه القصة من قصص أربع في هذه السورة وعيد للمشركين حين نزول الوحي، على تكذيبهم رسولهم نوحاً عليه السلام، فلقد كذبت قبلهم قوم نوح بالرسل، حيث كذبوا عبد الله نوحاً عليه السلام، واتهموه بالجنون، وزجروه عن دعوة النبوة وتبليغها بأنواع الأذى والتخويف. قوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ تشريف وتنبيه على أنه هو الذي حقق العبودية لله، فلم يكن على وجه الأرض في وقته عابد سواه، فكذبوه.

---

(١) زجر عن دعوة النبوة بأنواع الأذى من السب والتخويف وغيرهما، وأصله ازتجر، فقلبت التاء دالاً لتناسب الزاي. (٢) منصب متدفق. (٣) على مقدار مقدر. (٤) مسامير تشد بها السفينة. (٥) متعظ، وأصله مذتكر، فقلبت التاء دالاً، ثم قلبت الذال دالاً. (٦) إنذاراتي، فالنذر جمع نذير.

فدعا نوح عليه السلام ربه تعالى قائلاً: إني ضعيف عن مقاومة هؤلاء، فانتصر أنت لدينك، بعد علمك بتمردهم وعنادهم، فأجابه الله: لقد صببنا عليهم ماء غزيراً كثيراً متدفقاً. وكلمة (أبواب السماء) هي تشبيه ومجاز، لأن المطر كَثُر كأنه من أبواب. ومنهمر: شديد الوقوع وغزير.

وجعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة، وينابيع متدفقة، فالتقى ماء السماء، وماء الأرض، على أمر قد قضي عليهم، ورتبةٍ وحالة قد قدرت في الأزل وقضيت، أو على مقادير قد قدرت ورتبت وقت التقائه، وهو وصف الطوفان لعقابهم والانتقام منهم.

وحملنا نوحاً عليه السلام على سفينة ذات ألواح: وهي الأخشاب العريضة، ودُسُر: وهي المسامير التي تشدّ بها الألواح، وهذا الإيجاز من فصيح الكلام وبديعه.

تسير السفينة بمنظر ومرأى منا، وحفظ وحراسة لها، جزاء لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح عليه السلام، لأن إرساله نعمة، وتكذيبه كفران موجب للنقمة. وهذا دليل على ضرورة اتخاذ الأسباب، لتحقيق النتائج المرجوة. فقوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ معناه بحفظنا وكفايتنا وتحت نظر منا لأهلها.

ولقد أبقينا خبر السفينة عبرة للمعتبرين، أو تركنا هذه الفعلة التي فعلناها بهم عبرة وعظة، فهل من متعظ يتعظ بهذه الآية ويعتبر بها؟!

فانظر أيها السامع كيف كان عذابي لمن كفر بي، وكذب رسلي، ولم يتعظ بإنذاراتي التي جاء بها المرسلون، وكيف انتصرت لهم وثأرت لهم، وكيف كانت إنذاراتي؟ وهو إطلاع لقريش على سبيل التوبيخ والتخويف، معناه: كيف كان عاقبة إنذاري، لمن لم يحفل به، مثلكم أيها القوم؟ وجمع النُّذُر: إشارة إلى غلبة الرحمة الغضب، لأن الإنذار وهو الإعلام المتقدم رحمة وشفقة. وقوله: ﴿كُفِرَ﴾ معناه جحد به.

ولقد سهلنا القرآن وقرَّبناه للحفظ عن ظهر قلب، ويسرنا إدراك معناه لمن أراده للتذكر، فهل من متعظ بمواعظه، معتبر بِعِبَرِه؟!

إن الله تعالى يسّر حفظ القرآن وفهم معانيه، بما فيه من حُسْن النظم، وشرف المعنى، فله التصاق بالقلوب مع محبة، وامتزاج بالعقول السليمة مع قناعة. وقوله تعالى في نهاية هذه القصة وبقية القصص الأربع: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ استدعاء وحض على حفظه وتذكر مراميه، لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس. وهي تعداد نعم الله تعالى في أنه يسّر الهدى.

والحكمة من تكرار: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ تجديد التنبيه على الاستذكار والاتعاظ، والتعرف على تعذيب الأمم السابقة، والاعتبار بحالهم. وهكذا كان حكم تكرار آية الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ عند عدّ كل نعمة، وفي سورة المرسلات عند عدّ كل آية، لتكون ماثلة أمام الأذهان، محفوظة في كل أوان، وكذلك تكرار هذه القصص في القرآن بعبارات مختلفة، لتنبيه الغافل على أن كل موضع له فائدة، لا تعرف في غيره.

قصة عاد وثمود

تكرر بعد تكذيب قوم نوح برسولهم تكذيب قبيلتي عاد وثمود برسوليهم هود وصالح عليهما السلام، وكان الجزاء الماحق مثل جزاء من قبلهم، وتشابهت الجرائم وتماثلت العقوبات، من أجل تحقيق غاية واحدة: هي زجر الكافرين عن كفرهم، ونقلهم من ذل الكفر والمعصية إلى عز الإيمان والطاعة. فإذا بقوا على مواقفهم لم يبق بعدئذ عذر لهم، ويكون عقابهم حقاً وعدلاً، وهذا ينبغي أن يكون أمثولة مستحضرة

في أذهان المناوئين والمعارضين لدعوة الإسلام والحق على يد خاتم النبيين المرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، قال الله تعالى مبيناً قصتين بعد قصة نوح عليه السلام:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ[١] فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا[٢] فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ[٣] ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ[٤] ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ[٥] ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ[٦] عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ[٧] ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ[٨] فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ[٩] ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ[١٠] فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ[١١] ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ [القمر: ٥٤/١٨-٣٢].

كذبت قبيلة عادٍ العربية، قومِ هود عليه السلام رسولهم، فانظروا أيها المخاطبون من قريش وغيرهم كيف كان عذابي لهم، وإنذاري إياهم.

وقوله ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ كيف منصوب إما على خبر (كان) وإما على الحال، و(كان) بمعنى وُجِد ووقع في هذا الوجه. والنذر: جمع نذير.

إنا سلطنا عليهم ريحاً شديدة الصوت والبرد، في يوم شؤم عليهم، متتابع أو دائم الشؤم حتى أهلكهم ودمّرهم. قال قتادة: استمر بهم ذلك النحس حتى بلغهم جهنم.

تقتلع الناس من الأرض اقتلاع النخلة من أصلها، أي إنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتاً، وهم جثث طوال عظام، كأنهم بقايا أو مؤخرات نخل منقلع عن

(١) هي قبيلة عاد بالأحقاف في اليمن. (٢) باردة. (٣) شؤم دائم. (٤) أصول نخل مقتلع من مغارسه.
(٥) متاهة وجنون. (٦) الوحي الإلهي. (٧) كذوب في ادعاء الوحي، متكبر بطر. (٨) اختباراً وامتحاناً.
(٩) كل نصيب من الماء يحضره صاحب النوبة. (١٠) اجترأ على عقرها. (١١) تبن صاحب الحظيرة.

مغارسه، أي إن ما تقطّع وتشعب من شخص الإنسان يشبه أعجاز النخل، والنخل: تذكر وتؤنث، فلذلك قال: منقعر. والكاف في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ في موضع الحال.

فانظروا كيفية عقابي وإنذاري، ولقد سهّلنا القرآن للحفظ والاستذكار والاتعاظ، فهل من متذكر متعظ؟! والإنذار بالتخويف وهزّ الأنفس. قال الرّمّاني: لما كان الإنذار أنواعاً، كرر التأكيد والتنبيه. وفائدة تكرار قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ﴾ التأكيد والتحريض وتنبيه الأنفس.

كذبت أيضاً بالنذر، أي الرسل قبيلة ثمود قوم صالح عليه السلام، وهم أهل الحِجْر بين الحجاز والشام، وتكذيب نبيهم صالح عليه السلام تكذيب لجميع الرسل، لاتفاقهم على أصول الدين، فقالوا حسداً منهم لصالح عليه السلام، واستبعاداً أن يفضل نوع من البشر بعضه الآخر: أنكون جميعاً، ونتّبع واحداً؟ وكيف نتبع بشراً من جنسنا، منفرداً وحده، لاتَبع ولا متابع له على ما يدعو إليه؟ لقد خبنا وخسرنا إن أطعنا واحداً منا، وإنا إذا اتبعناه نحن في خطأ وبعد عن الصواب، وفي أمر متلف مُهلك بالإتلاف، وفي احتراق نفس هماً وحنقاً باتباعه، أو في جنون أو عناء.

كيف خُص بالوحي والنبوة من بيننا، وفينا من هو أحق بذلك منه؟ بل هو كذوب متجاوز الحد فيما يدّعيه من نزول الوحي عليه، ومتكبر بطر. والأشر: البَطِر المرِح، أي ليس الأمر كما يزعم، فكأنهم بهذا الوصف اتهموه بأنه أراد الاستعلاء عليهم وأن يقودهم وهم يطيعونه.

فرد الله عليهم مهدداً ومتوعداً بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا..﴾ أي سيعرفون عما قريب في المستقبل وقت نزول العذاب بهم في الدنيا أو في يوم القيامة، وسيتبين لهم

من المفتري الكذاب، البالغ الحد في كونه أشِراً، أصالح في تبليغ الرسالة أم هم في تكذيبهم إياه؟ والمراد أنهم هم الكذابون البطرون المتكبرون.

ولقد أرسلنا لهم الناقة العظيمة التي اقترحوها أن تخرج من صخرة صماء من الجبل، وذلك على سبيل الاختبار والامتحان، فانتظر ما يؤول إليه أمرهم بارتقاب الفرج والصبر.

وأخبرهم أن ماء البئر أو النهر الصغير مقسوم بينهم وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، وكل نصيب من الماء يحضره صاحبه في نوبته، فتشرب الناقة في يوم ويشربون هم في يوم آخر، أو إنهم يشربون من الماء يوماً، ومن لبن الناقة يوماً آخر، فكأنه تعالى أنبأهم بنعمة الله تعالى عليهم في ذلك.

ولكن ثمود ملّوا هذه القسمة، فتجرأ أحدهم وأشقاهم وأجرؤهم بتواطؤ معهم على عقر الناقة، فأهوى بسيفه على قوائمها، فكسر عرقوبها، ثم نحرها. فعاقبتُهم، فانظروا كيف كان عقابي لهم على كفرهم بي، وتكذيبهم رسولي الذي يخوفهم عذاب الله تعالى.

وتعاطى: مطاوع طاوع، كأن هذه الفعلة تدافعها الناس، فتناولها هذا الشقي. إنا أرسلنا عليهم صيحة جبريل، فصاح بهم، فأبيدوا جميعاً، وصاروا كعشب أو تبن صاحب الحظيرة الذي جمعه فيها، أو كالشجر اليابس المتهشم. ولقد سهلنا القرآن للتذكر والاتعاظ، فهل من متعظ؟!

قصة لوط وآل فرعون

من غرائب القصص: قصة قوم لوط، فإن الأمم الأخرى كذبوا الرسل وأصروا على العناد والكفر، أما قوم لوط فقد ضموا إلى ذلك اقترافهم فاحشة خطيرة هي

اللواط، وارتكبوا سفساف الأخلاق وأدناها، وأكثرها إخلالاً بالمروءة، فكان عقابهم -وهو الخسف وقلب ديارهم عاليها سافلها- فريداً من نوعه بين أنواع العقاب الإلهي، تطهيراً للأرض أو البيئة من مفاسدهم وموبقاتهم. وهذا ما أنبأ به القرآن في الآيات الآتية:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا[1] إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ[2] ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ[3] ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ[4] فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ[5] ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٣٣-٤٢].

كذبت بالرسل أيضاً من الأمم البائدة قوم لوط، فإنهم كذبوا رسولهم في دعوته، وكذبوا بالآيات التي أنذرهم بها، واقترفوا الفاحشة، وتكذيب رسول واحد كتكذيب جميع الرسل، لأن مهمتهم واحدة، ولقد أنذر لوط قومه بعذاب الله، فلم يرتدعوا، فعاقبناهم. بأن أرسلنا عليهم ريحاً ترميهم بالحصباء، وهي الحصى أو الحجارة، وشبّه ذلك بالسحاب، فدمرتهم جميعاً إلا لوطاً عليه السلام وآله الذين آمنوا به واتبعوه، فإنا أنجيناهم من الهلاك في آخر الليل قبل الفجر.

وإنجاء هؤلاء الناجين كان إنعاماً من الله عليهم، وتكريماً لهم، ومثل ذلك الجزاء الحسن، نجزي من شكر نعمة الله ولم يجحدها، بأن آمن وأطاع أمر ربه، واجتنب نهيه.

---

(١) ريحاً ترميهم بالحصباء، أو السحاب الرامي بالبَرد وغيره، فشبه تلك الحجارة التي رُمي بها قوم لوط به في الكثرة والتوالي. (٢) أي السدس الأخير من الليل قبل طلوع الفجر. (٣) اي فكذبوا الإنذارات متشاكّين. (٤) صارت أعينهم مطموسة، أو أعميناهم. (٥) متعظ، أصله مذتكر، فقلبت التاء دالاً، ثم قلبت الذال دالاً، وأدغمت في مثلها.

والله تعالى عدل في العذاب، حيث جاء بعد إنذار، فلقد أنذرهم الرسول بطشة الله بهم، أي عذابه الشديد، فتشككوا بإلقاء الشبه والضلال في هذا الإنذار، وكذبوه.

ومن جرائمهم: أنهم أرادوا تمكينهم ممن أتى لوطاً عليه السلام من الأضياف الملائكة، الذين جاؤوا في صورة شباب مُرْد: حسان، ليفجروا بهم، فصيرنا أعينهم مطموسة، قال قتادة: هي حقيقة، جرَّ جبريل عليه السلام شيئاً من جناحه على أعينهم، فاستوت مع وجوههم. وقال ابن عباس والضحاك: هي استعارة، وإنما حجب إدراكهم، فدخلوا المنزل، فلم يروا شيئاً، فجعل ذلك كالطمس.

وقال الله لهم على لسان الملائكة: ذوقوا ألم عذابي وتبعة إنذاراتي.

ولقد نزل بهم العذاب بكرة، أي صباحاً في أول النهار، عند طلوع الشمس، وكان عذاباً متصلاً مستقراً بهم، لم يفارقهم حتى ماتوا، وهم أيضاً معذبون في قبورهم بانتظار جهنم، ثم يتصل ذلك بعذاب النار، فذوقوا جزاء أفعالكم عذابي الشديد، وتحملوا مقتضى إنذاركم المتقدم، وهذا مكرر تأكيداً وتوبيخاً.

ولقد سهَّلنا آيات القرآن للاتعاظ والتذكر، فهل من متعظ معتبر؟! وذكرت هذه الجملة عقب كل قصة من القصص الأربع، للتأكيد والتنبيه، والزجر والاتعاظ.

ووالله لقد جاءت الإنذارات بالعذاب قوم فرعون وأتباعه، على يد موسى وهارون عليهما السلام، ويحتمل أن يريد بـ (آل فرعون) قرابته، وخصهم بالذكر، لأنهم عمدة القوم وكبراؤهم.

كذبوا بآيات الله المتعددة، وبالمعجزات الباهرة التي أجراها الله تعالى على يد موسى، ومنها الآيات التسع كالعصا واليد، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله بالعذاب الشديد أخذ قوي غالب في انتقامه، قادر على إهلاكهم، قاهر لا يعجزه شيء، حيث أغرق فرعون وجنوده بالبحر، ونجى موسى ومن آمن معه.

إن هؤلاء الأقوام العتاة (قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون) بلغوا الحد الأقصى في الضلال والفجور، وتجاوزوا المعتاد والحدود كلها، فكانوا أمثولة العالم، وحديثَ البشرية إلى يوم القيامة، فالله تعالى يعاقب بمثل هذا العقاب كل من اتصف بصفات تلك الأقوام، والجزاء من جنس العمل. وهو سبحانه أيضاً ينجي أهل الإيمان الذين أطاعوا الله ورسوله، ولم يخشوا إلا الله لا صنماً ولا وثناً، ولا حجراً ولا صخرة، ولا كوكباً، ولا شخصاً مهما بلغ في عتوه وضلاله، ويظل البقاء على الدوام لأهل الحق والسداد، ويفنى مع الزمان أهل الباطل والعدوان.

تهديد المشركين وتهنئة المتقين.

بعد أن أورد الله تعالى قصص إهلاك الأمم المتقدمة الذين كذبوا الرسل، وهم قوم نوح وعادٌ وثمود وقوم لوط وآل فرعون في سورة القمر، هدَّد الله تعالى مشركي مكة وأمثالهم، بأن ينزل بهم من العذاب ما نزل بمن تقدمهم، لتشابههم في السبب: وهو الإصرار على الضلال والشرك وتكذيب النبي ﷺ ولهم في الآخرة عذاب أشد وأبقى. ثم بشَّر الله تعالى وهنأ المتقين الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بطاعته بالجنة والأنهار العذبة التي آمنوا بها، وفي مقاعد النور والخير والإحسان التي صدقوا بها، بقرب من الله عز وجل قرب مكانة وتكريم، لا قرب مكان وتعيين، فقال الله سبحانه:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ(١) ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ(٢) ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ(٣) ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ

(١) أي سلامة من العذاب مكتوبة في الكتب. (٢) يهربون إلى الوراء فارين. (٣) أعظم بلية وأشد مرارة.

فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ[١] ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ[٢] ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ[٣] ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ[٤] فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ[٥] ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ[٦] مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٣-٥٥].

هذا خطاب لكفار قريش على جهة التوبيخ، أكفاركم يا مشركي العرب خير من الذين تقدم ذكرهم، ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وجحودهم كتب السماء، أم عندكم براءة: سلامة من العذاب مكتوبة، فيما أنزل من الكتب ألا ينالكم عذاب أو نكال؟ والمعنى: ليس كفاركم معشر العرب خيراً من كفار من تقدمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم، فلستم بأفضل منهم، حتى تأمنوا ما أصابهم من العذاب عند تكذيبهم الرسل. وهذا تهديد وتوبيخ للمصرِّين على الكفر من مشركي العرب.

ثم خاطب الله نبيه محمداً ﷺ: أم يقولون: نحن جميع واثقون بأنا منتصرون بقوتنا، على جهة الإعجاب والاستكبار، على الضعفاء الأذلاء، والاستفهام إنكاري، سيهزمون فلا ينفع جمعهم.

سيهزم جمع المشركين، ويولّون الأدبار هاربين، وهذا من أدلة النبوة، فقد هزموا يوم بدر، وقتل زعماء الكفر .أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا يوم بدر: «نحن جميع منتصر» فنزلت: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ واستشهد رسول الله ﷺ في بدر بهذه الآية.

---

(١) خطأ وبعد عن الصواب، وفي نيران مستعرة . (٢) ذوقوا حرّ النار وألمها . (٣) مقدراً بقدر معلوم .
(٤) أشباهكم في الكفر . (٥) مسطور في اللوح المحفوظ . (٦) العندية عندية مكانة وقربة ورتبة .

ثم تُركت هذه الأقوال وأُضرب عنها، عنايةً بأمر القيامة التي عذابها أشد عليهم من كل هزيمة وقتال، فقال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي بل إن القيامة موعد عذابهم الأخروي، وليس هذا العذاب في الدنيا بالقتل والأسر والقهر، هو تمام ما وُعدوا به من العذاب، وإنما هو مقدمة له، وعذاب القيامة أعظم وأنكى، وأشد مرارة وقسوة من عذاب الدنيا.

ونوع عذاب الآخرة: هو أن المجرمين، أي الكفار-في رأي أكثر المفسرين-في الدنيا في حيرة وبعد عن الهدى والصواب، وفي الآخرة في احتراق وتسعّر، أي في نيران مستعرة.

يوم يجرُّون في النار على وجوههم للإهانة والإذلال، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ذوقوا وقاسوا حرّ النار وآلامها وشدة عذابها. وهذا توعد بالسحب في جهنم. وأكثر المفسرين على أن المجرمين هنا يراد بهم الكفار، وقال قوم: المراد بالمجرمين: القدرية الذين يقولون: إن أفعال العباد ليست بقدَر من الله تعالى.

ثم أوضح الحق تعالى أن جميع ما يحدث في الكون ومنه أفعال الناس كلهم هو مخلوق لله تعالى، فقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ أي إن كل شيء من الأشياء وكل فعل من الأفعال في الكون والحياة، خيراً أو شراً، مخلوق لله تعالى، مقدر بقدر معلوم، وفي هيئة وزمن مخصوص، وهو محكم مرتب بحكمة الله تعالى، وعلى وفق المكتوب في اللوح المحفوظ، ومعلوم لله في الأزل. وهذا المعنى يقتضي أن كل شيء مخلوق، إلا ما قام الدليل العقلي على أنه ليس بمخلوق، كالقرآن وصفات الله تعالى.

وهذه الآية رد واضح على طائفة القدرية الذين ينكرون القدر، ويقولون: المرء يخلق أفعاله . أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خاصمت قريش رسول الله ﷺ في القَدَر، فنزلت هذه الآية.

وأخرج الطبري ومثله البخاري عن علي رضي الله عنه: قال أبو عبد الرحمن السُّلمي: «فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ أفي شيء نستأنفه أو في شيء قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، سنيسره لليسرى، سنيسره للعسرى» .وأخرج النحاس عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «القدرية الذين يقولون: الخير والشر بأيدينا، ليس لهم في شفاعتي نصيب، ولا أنا منهم، ولا هم مني».

ثم أوضح الله نفاذ مشيئته وقَدَره في الخليقة، فقال: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ﴾ أي إن أمرنا بإيجاد الأشياء يكون مرة واحدة، لا حاجة فيه إلى تأكيد ثانٍ، فيكون أمرنا بكلمة واحدة نافذاً حاصلاً موجوداً كلمح البصر في سرعته. ولمح البصر: إغماض العين ثم فتحه.

ثم أعاد الله تعالى التنبيه للحق، فتالله لقد أهلكنا أمثالكم في الكفر يا معشر قريش، من الأمم السابقة المكذبين بالرسل، فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك؟! وجميع ما فعله السابقون وتفعلونه من خير أو شر مكتوب في اللوح المحفوظ وغيره من كتب الملائكة. وكل صغير وكبير من الأقوال والأفعال مسطور في اللوح المحفوظ وغيره من كتب الملائكة، وكل صغير وكبير من الأقوال والأفعال مسطور في اللوح المحفوظ وفي دواوين الملائكة وصحائفهم. ثم أخبر الله تعالى عن جزاء المتقين فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي إن أهل التقوى والإيمان والصلاح في بساتين غناء، وأنهار متدفقة، في المقعد الذي صدَّقوا به، في الخبر به عند الملك العظيم، المقتدر على ما يشاء ويريدون، وهو الله تعالى، والعندية: لبيان الرتبة والقربة. والنَّهَر اسم جنس، ويراد به الأنهار.

تفسير سورة الرحمن

نعمة القرآن والكون

نعم الله تعالى لا تعدّ ولا تحصى، منها الكبرى المستقرة، ومنها الصغرى المتجددة بتجدّد الحياة الإنسانية وغيرها، فعلى كل إنسان شكر هذه النعم اعترافاً بها وإجلالاً لها ووفاء لحق المنعم، وربما كان أدق هذه النعم هو النسبية الكائنة بين الأشياء، بحيث لا يكون هناك زيادة ولا نقص، ونجد الحديث عن هذه النعم الكبرى في مطلع سورة الرحمن التي هي مكية النزول في الأصح.

وإنما نزلت حين قالت قريش بمكة: «وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟». قال الله تعالى:

﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ[١] ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[٢] ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ[٣] وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ[٤] ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ[٥] ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ[٦] ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ[٧] وَالرَّيْحَانُ[٨] ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ١-١٣].

---

(١) المنطق الفصيح عما في القلب. (٢) بحساب دقيق. (٣) النبات الذي يظهر من الأرض. (٤) ينقادان.
(٥) شرع العدل. (٦) جمع كِم: وهو كل ما التفّ على شيء وستره، وهو وعاء الطلع وغطاء النَّوْر.
(٧) ورق الزرع الجاف. (٨) هو كل مشموم طيب الرائحة من النبات.

عدد الله نعمه في هذه السورة مبتدئاً بذاته المقدسة مصدر النعم.

الرحمن: هو الله تعالى المنعم بجلائل النعم الدنيوية والأخروية، وهو اسم من أسماء الله الحسنى. وهو الذي أنزل القرآن وعلّمه الناس. أوجد الإنسان: وهو هنا اسم جنس، وعلّمه النطق والفهم والإبانة عن ذلك بقول.

ومن نعم الله تعالى العلوية مجال التعلم: أن الشمس والقمر يجريان بحساب دقيق منظم، معلوم في بروج ومنازل معلومة، لا يتجاوزانها، ويدلان على اختلاف الفصول وعدد الشهور والسنين، ومواسم الزراعة، وآجال المعاملات وأعمار الناس.

ومن نعمه في عوالم الأرض السفلى: أن النبات الذي لا ساق له، والشجر الذي له ساق ينقادان طبعاً لله تعالى فيما أراد، كما ينقاد الساجدون من المكلفين اختياراً، فيظهران في وقت محدد ولأجل معين، وهما غذاء الإنسان، ومتعة له.

وظاهرة التوازن أو النسبية بين الأشياء: هي في أن الله رفع السماء فوق الأرض، ووضع شرع العدل وأمر به، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٥].

وأمر الله بإقامة العدل على الوجه الصحيح، ومنه إقامة الوزن للأشياء بالعدل، ونهى عن نقص المكيال والميزان، كما قال تعالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٨٢] وذلك بقدر الإمكان. وأما ما لا يقدر البشر عليه من تحرير الميزان وتسويته بدقة، فهو موضوع عن الناس.

وقوله: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟﴾ من أخسر، أي نقص وأفسد.

وهذا لتأكيد الأمر بالعدل، فقد أمر الله سبحانه أولاً بالعدل والتسوية، ثم نهى عن التجاوز والزيادة عند استيفاء الحق، ثم منع الخسران الذي هو النقص والبخس.

ثم ذكر الله تعالى ما في الأرض من نعم كثيرة في مقابل السماء، فالله هو الذي وضع الأرض وبسطها لينتفع بها الناس، وأرساها بالجبال الراسخات ليستقر الناس على وجهها.

ثم أوجد الله طرق المعايش في الأرض، ففيها كل ما يتفكه به من أنواع الثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح، وفيها أشجار النخيل ذات أوعية الطلع وأغطية النَّوْر والزهر الذي يتحول بعدئذ إلى تمر، وفيها جميع ما يقتات الإنسان من الحبوب كالحنطة والشعير والذرة ونحوها، ذات العصف: وهو ورق الزرع الجاف، ويتحول إلى التبن الذي هو رزق البهائم، وفيها كل مشموم من النبات ذي الرائحة الجميلة، وتنكير كلمة (فاكهة) وتعريف كلمة (النخل والحب) لأن الفاكهة تكون في بعض الأزمان وعند بعض الأشخاص، أما تمر النخيل والحب فهو قوت محتاج إليه في كل زمان، متداولٌ في كل وقت، ويحتاج إليه جميع الأشخاص، وكذلك الريحان الذي لا يفارق أغلب النباتات.

فبأي النعم المتقدمة يا معشر الجن والإنس تكذبان؟ فهي من الرب المنعم الذي يتعهد عباده بالتربية والنماء، فيكون هو الجدير بالحمد والشكر على كل حال. والضمير قوله: ﴿رَبِّكُمَا﴾ للجن والإنس. وعرف ذلك إما من قوله: ﴿لِلْأَنَامِ﴾ أي الثَّقَلان، وإما من تفسيرهما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ و ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾. ويقال بعد ذلك: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فَلَكَ الحمد ولك الشكر.

وقد تكررت هذه الآية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة، بعد كل خصلة من النعم، وجعلها الله فاصلة بين كل نعمتين، لتأكيد التذكير بالنعمة، وتقريرهم بها، وللتنبيه على أهميتها، والنعم تشمل دفع المكروه، وتحصيل المقصود.

إن هذه النعم المادية لا شك في أهميتها والحاجة إليها، لكن أعظم نعمة وأول نعمة وأخلدها وأجدها هي نعمة القرآن، كما افتتحت بها السورة، وكما وصف هذا الكتاب في آية أخرى مثل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٦/ ٨٩]. ومثل: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٢].

نعم إلهية أخرى

يذكّرنا الله تعالى بنعمه على الدوام، ليدلنا على قدرته العظمى ووحدانيته الخالدة، فهو سبحانه خلق الإنسان في أصله من الطين اليابس، وخلق أصل الجن من النار، وهو رب المشارق والمغارب، وهو الذي حجز بين البحرين: العذب والمِلْح، وسيّر السفن في أعالي البحار، وأعد كل ذلك لخير الإنسان ما دام في الحياة، ثم يفنى كل شيء، ويبقى الله ذو الجلال والعظمة والإكرام. وهذا ما نصت عليه الآيات الآتية:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ[1] كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ[2] مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ[3] يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[4] لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ[5] فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ١٤-٢٨].

---

(١) هو الطين اليابس الذي له صلصلة أي صوت. (٢) لهب خالص لا دخان فيه. (٣) أرسلهما.
(٤) حاجز بين الأشياء. (٥) السفن الرافعات الشُّرُع في البحر لتتحرك بالهواء كالجبال ونحوها من المرتفعات.

من دلائل القدرة الإلهية: أن الله تعالى خلق أصل الإنسان وهو آدم من طين يابس له صلصلة، أي صوت مثل الخزف: وهو الطين المطبوخ بالنار، ليتماسك ويصير صلباً.

وخلق الله تعالى أصل الجن: وهو إبليس من طرف النار، أي من لهب خالص لا دخان فيه، فبأي نعم الله يا معشر الثقلين: الإنس والجن تكذبان أو تنكران هذا الواقع المشاهد؟

والله تعالى رب مشرقي الشمس في الصيف والشتاء، ورب مغربي الشمس في الصيف والشتاء، وبهما تتكون الفصول الأربعة، وتختلف أحوال المناخ من حر وبرد واعتدال. فبأي نعم الله هذه تكذبان أو تنكران؟! وخص الله تعالى ذكر المشرقين والمغربين بالتشريف في إضافة الرب إليهما، لعِظَمهما في المخلوقات، وأنهما طرفا آية عظيمة وعبرة، وهي: الشمس وجريها. ومتى ذكر المشرق والمغرب: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٧٣/٩] فيراد منهما جنس المشرق والمغرب في الجملة، ومتى ذكر المشارق والمغارب ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤٠] فيراد به مشارق كل يوم ومغاربه، ومتى ذكر المشرقان والمغربان كما هنا فيراد بهما نهايتا المشارق والمغارب، لأن ذكر نهايتي الشيء ذكر لجميعه. وقال مجاهد: هو مشرق الصيف ومغربه، ومشرق الشتاء ومغربه. والله تعالى أرسل البحرين، والمراد بهما نوعا الماء العذب والأجاج، أي خلطهما في الأرض وأرسلهما متداخلين، قريب بعضهما من بعض، ولكن بينهما حاجز يحجزهما ويمنعهما من الاختلاط، فلا يبغي أحدهما على الآخر، بالامتزاج والاختلاط. فبأي نعم ربكما أيها الإنس والجن تكذبان أو تنكران؟

يخرج من أحد البحرين -على حذف مضاف- وهو الأجاج: اللؤلؤ وهو: كبار

الجوهر المتكون في الصدف، والمرجان: صغاره، وهو حجر أحمر. وتتكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر(١) فبأي نعم الله الظاهرة لكم أيها الجن والإنس تكذبان؟ ففي ذلك من دلائل القدرة الإلهية ما لا يستطيع أحد تكذيبه، وخروج هذه الأشياء إنما هو من الملْح، لكنه تعالى قال: ﴿مِنْهُمَا﴾ تجوّزاً.

والله الذي خلق وألهم صنع الجواري: وهي السفن، جمع جارية، الرافعات أشرعتها في الهواء كالجبال الشواهق ونحوها من المرتفعات من الظراب والآكام. ولفظة ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ تعم الكبير والصغير. وقوله ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ هو الذي يقتضي الفرق بينهما هنا. وإنما قال: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ خاصة، مع أن لله السماوات والأرض وما بينهما، لأن أموال الناس وأرواحهم في قبضة قدرة الله تعالى، فبأي نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس؟ لقد خلقت لكم هذه النعم، أيمكنكم إنكار صناعة السفن الضخمة أو كيفية إجرائها في البحر، أو منافعها في تقريب المسافات، ونقل الحمولة وأنواع التجارة والصناعات، ليستفاد منها في بلاد أخرى.

ومما يؤكد كون هذه الأشياء من دلائل القدرة الإلهية: أن وجودها وزوالها بيد الله تعالى، فجميع من على الأرض من الناس والدواب، وجميع أهل السماوات إلا من شاء الله، سيتعرضون للفناء والموت، وتزول الحياة، ولا يبقى إلا الله سبحانه وتعالى، ذو العظمة والكبرياء، وصاحب الفضل والإكرام الذي يسبغ به على من يشاء من عباده، فبأي شيء من نعم الله هذه تكذبان أيها الجن والإنس؟!

والضمير في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ عائد للأرض، ولم يتقدم لها ذكر لوضوح المعنى، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٨/ ٣٢]. والآية تشمل بالفناء جميع الموجودات الأرضية من حيوان وغيره. وغلِّبت عبارة من يعقل في قوله

---

(١) لأن الصدف وغيرها تفتح أجوافها للمطر .

تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ﴾. وقوله ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ الوجه: عبارة عن الذات، لأن العضو منفي عن الله تعالى، وهذا كما تقول: هذا وجه القول والأمر، أي حقيقته وذاته، و﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ صفة لفظة الوجه.

نعم الله وعجائبه يوم القيامة

النِّعم الإلهية موصولة في الدنيا والآخرة، وفي كل نعمة تعجب من صنعها وتيسيرها للناس، وفيها دلالة واضحة على عظمة القدرة الإلهية، وكون كل شيء بخلق الله وإبداعه، حتى إن كل الاكتشافات والاختراعات المادية، وإن صدرت في الظاهر من الإنسان، فإنما هي بإلهام الله وإرشاده وتعليمه، وكذلك غزو الفضاء بالآلات والأقمار الصناعية وسفن الفضاء والصواريخ، إنما تم بتمكين الله وتعليمه. وسيفاجأ الإنسان في الآخرة بغرائب الأحداث والظواهر الكونية خلافاً للمألوف في الدنيا، كانشقاق السماء وتبدُّلها، وتسيير الجبال وإزالتها، وتفرُّد الله بالحساب والجزاء، وكون المسؤولية شخصية أو فردية، وتميُّز المجرمين عمن سواهم، ومشاهدة جهنم المستعرة تغيُّظاً وإرهاباً. قال الله تعالى واصفاً هذه الأحوال:

﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ[(١)] ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ[(٢)] ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ[(٣)] ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ[(٤)] وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ

---

(١) كل وقت يظهر شأن من قدرته التي سبقت في الأزل في ميقاته من الزمن، من إحياء وإماتة ورفع وخفض. والشأن: اسم جنس للأمور. (٢) ستتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة أيها الإنس والجن. (٣) بقوة وقهر، وذلك مستبعد. (٤) لهب خالص لا دخان فيه.

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ[1] ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾
يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ[2] فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ
جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ[3] ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ [الرَّحمن: ٥٥/ ٢٩-٤٥].

المعنى: كل إنسان بحاجة إلى الله تعالى، فجميع من في السماوات والأرض يطلبون حوائجهم من الله تعالى، فلا يستغني عنه أهل السماء والأرض. والسائل الناطق يتكلم، وغير الناطق يعتمد على حاله، فحاله يقتضي السؤال. والله سبحانه يُظهر في كل وقت أو زمن شأناً من شؤون قدرته الأزلية، من إحياء وإماتة، ورفع وخفض وغير ذلك من الأمور التي لا يعلم نهايتها إلا هو جلَّ وعلا. والشأن: اسم جنس للأمور. فبأي نِعَم الله تكذبان معشر الجن والإنس، فإن اختلاف شؤونه في تدبير عباده: نعمة لا تجحد، ولا تكذَّب.

وسنتجرَّد لحسابكم وجزائكم على أعمالكم معشر الجن والإنسان، فبأي شيء من نِعَم الله تكذبان أيها الثقلان. وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾: عبارة عن إتيان الوقت الذي قَدَّر فيه وقضى أن ينظر في أمر عباده، وذلك يوم القيامة. وليس المعنى: أن هناك شغلاً يفرغ منه، وإنما هي إشارة وعيد. والثَّقلان: الجن والإنس، يقال لكل ما يعظم أمره: ثقيل.

أيها الجنّ والإنس، إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض ونواحيهما هرباً من قضاء الله وقدره، فاخرجوا منها، لا تقدرون على النفوذ من حكمه إلا بقوة وقهر، ولا قوة لكم على ذلك ولا قدرة، فلا يمكنكم الهرب.

---

(١) مذابة كالدهن أو كالجلد الأحمر. (٢) علامتهم. (٣) ماء حار.

والمعشر: الجماعة العظيمة. والسلطان: القوة على تحقيق غرض الإنسان، أو الحجة. والأقطار: الجهات. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تنفذوا فتعلموا علم أقطار السماوات والأرض. فبأي نعم الله تكذبان أيها الثقلان: الجن والإنس؟

ولو خرجتم من جوانب السماوات والأرض يسلط عليكم أيها الإنس والجن لهب النار الخالص، ويصبُّ على رؤوسكم نحاس مذاب، فلا تقدرون على الامتناع من عذاب الله. وتثنية ضمير (عليكما) لبيان الإرسال في الجملة على النوعين من الإنس والجن، لا على كل واحد منهما، ولا على الجميع.

ومن أحوال الآخرة والجزاء: أنه إذا جاء يوم القيامة انصدعت السماء، وتبددت وصارت كوردة حمراء، وذابت مثل الدهن، أو بدت كالجلد الأحمر، والمراد أنها تذوب كما يذوب الزيت، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها. فبأي نعم الله تكذِّبان أيها الإنس والجن؟ ففي الخبر بذلك رهبة ورعب.

ويوم تنشق السماء، لا يسأل أحد من الإنس ولا من الجن عن ذنبه، لأنهم يعرفون بعلامتهم عند خروجهم من قبورهم، ولأن الله تعالى أحصى أعمالهم وحفظها عليهم. والآية تقتضي نفي السؤال. وهناك آيات أخرى تفيد إثبات السؤال مثل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٢-٩٣]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن السؤال متى أُثبت فهو بمعنى التقرير والتوبيخ، ومتى نُفي فهو بمعنى الاستخبار المحض والاستعلام، لأن الله تبارك وتعالى عليم بكل شيء.

فبأي نعم الله تكذبان أيها الإنس والجن؟ مما أنعم الله على عباده المؤمنين في هذا اليوم. وسبب عدم السؤال أنه يعرف الكفار (المجرمون) والفجار يوم خروجهم من

القبور بعلاماتهم، وهي كونهم سود الوجوه، زُرْق العيون، يعلوهم الحزن والكآبة، فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم مجموعاً بينهما، وتضمّ الأقدام إلى النواصي. فبأي النِّعم تكذبان؟ فقد أُنذرتم وحذرتم سابقاً.

ويقال لهم، أي للمجرمين يوم القيامة توبيخاً وتقريعاً: هذه نار جهنم التي تشاهدونها وتنظرون إليها، التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة أمامكم. وإنهم يترددون بين نار جهنم وجمرها، وبين حميمها: وهو الماء المغلي في جهنم من مائع عذابها. والحميم: الماء الساخن. فبأي النِّعم تكذبان بعد هذا البيان والإعلام السابق؟!

نِعَم مادية على المتقين في الآخرة

في مقابلة ألوان العذاب على الكفار في الآخرة في سورة الرَّحمن، ذكر الله تعالى بعدها ألوان النعيم المادية من الطعام والشراب والفاكهة، والفرش والنساء الحوريات، ترغيباً في التقوى أو العمل الصالح، وتحذيراً من العصيان والمنكرات، فمن خاف ربَّه انزجر عن معاصي الله، ومن آمن بالله المستحق للعبودية والطاعة لذاته، أقبل على ساحات الرِّضوان الإلهي، وحقق لنفسه السعادة والطمأنينة والهناءة. وأنواع النعيم الأُخروي هي ما يأتي في قوله تعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ[1] ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ[2] ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ[3]

(١) أغصان . (٢) صنفان . (٣) ما غلظ من الدِّيباج .

وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ[(١)] ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ[(٢)]
إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ[(٣)] ﴿٥٨﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ[(٤)] ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾ [الرَّحمن: ٥٥/٤٦-٦١].

لمن خاف قيامه بين يدي ربّه للحساب، بالكفّ عن المعاصي والتزام الطاعات: نعمتان كبريان: روحية ومادية، أما الروحانية: فهي رضا الله تعالى كما في قوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التّوبة: ٩/٧٢]. وأما المادية: فهي جنّتان تشتملان على متع الدنيا في الشكل، لكنها أسمى منها وأفضل، فهما جنّتان لا جنّة واحدة. فبأي نِعَم الله تكذبان أيها الثّقلان؟ فإن نِعَم الجنان لا مثيل لها، فضلاً عن دوامها. وهذا دليل على أن الجن المؤمنين يدخلون الجنة إذا اتّقوا معاصي ربّهم وخافوه.

وللجنتين الماديتين أغصان الأشجار وأنواع الثمار، فبأي نِعَم ربّكما أيها الإنس والجنّ تكذِّبان؟

وقد نزلت آية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ فيما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

وفي كل من الجنتين عين جارية، لسقي الأشجار والأغصان، والإثمار من جميع الأنواع، فبأي نِعَم ربّكما معشر الجنّ والإنس تكذبان؟ فتلك حقيقة قاطعة، وواقع ملموس.

وفي هاتين الجنَّتين من كل فاكهة صنفان، يستَلذّ بكل واحد منهما، أحدهما:

(١) المجتنى أو ثمر الجنَّتين قريب التناول. (٢) لم يفتضهن أحد، مما يدل على أن الجن يفعلون ذلك.
(٣) جواهر كريمة في صفائها وبياضها، والياقوت: حجر أملس صافٍ. والمرجان: الخرز الأحمر. (٤) في الثواب: وهو الجنة.

رطب، والآخر يابس، لا يتميز أحدهما عن الآخر في الفضل والطيب، خلافاً لثمار الدنيا، بل فيهما مما يعلم وخير مما يعلم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فبأي هذه النعم تكذبان أيها الإنس والجنّ؟ وهي نِعَم واقعية وثابتة.

ثم بعد الطعام ذكر الله الفراش، فهؤلاء الخائفون من عصيان الله يتنعمون على فُرُش بطائنها (وهي ما تحت الظهائر) من إستبرق (ما غلظ من الدِّيباج) وثمر الجنَّتين أو المجتنى قريب التناول. فبأي شيء من هذه النِّعم يحصل التكذيب والإنكار؟! وكلمة ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ إما حال من محذوف تقديره: يتنعمون متكئين، وإما من قوله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ﴾. والاتِّكاء: جلسة المتنعِّم المتمتِّع.

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له: بطائنها من إستبرق، فما الظواهر؟ قال: ذاك مما قال الله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السّجدة: ١٧/٣٢] وكذلك قال. والجنى: ما يجتنى من الثمار، ووُصف بالدنوّ لأنه فيما رُوي في الحديث يتناوله الرجل على أي حالة كان، من قيام أو جلوس أو اضطجاع، لأنه يدنو إلى مشتهيه. ثم وصف الله الحور العين في الجنَّتين، فقال:

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ..﴾ أي في الجنَّتين الحور العين اللاتي قصرن ألحاظهن على أزواجهن، لم يَفْتَضِضْهُنّ قبلهم أحد من الإنس أو الجن. ويقال لدم الحيض ولدم الافتضاض: طَمَثْ، فإذا نفي الطمث فقد نُفي القرب منهن على جهة الوطء. والضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ عائد للجنات، إذ الجنَّتان جنات في المعنى. فبأي النِّعم تكذبان أيها الثَّقلان؟! ومعنى قوله: ﴿وَلَا جَآنّٞ﴾ يحتمل أن يكون اللفظ مبالغة وتأكيداً، كأنه تعالى قال: لم يطمثهن شيء. ويحتمل أن الجن قد تجامع نساء البشر مع أزواجهن إذا لم يذكر الزوج الله تعالى، فنفى في هذه الآية جميع المجامعات.

ثم وصف الله نساء الحور بكأنهن الياقوت صفاء، والمرجان بياضاً أو حمرة، فبأي شيء من نعم الله تعالى تكذبان أيها الإنس والجن؟

ثم بيَّن الله سبب هذا الثواب، بقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ..﴾ أي ما جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة، فبأي شيء من نعم الله تكذبان معشر الجن والإنس؟ وهذه آية وعد وبشرى لنفوس جميع المؤمنين، لأنها عامة.

نِعَم أُخرى على المتقين في الآخرة

تابع الله تعالى في سورة الرَّحمن سَرْد أوصاف النعيم المادية للمتقين الخائفين من معاصي الله، المقدمة لهم يوم القيامة، ففي الآيات السابقة بيَّن الحق تعالى أن ثواب الخائفين جنَّتان. وفي هذه الآيات ضُمَّ إليهما جنّتان أُخريان لمن كان دون المتَّقين في الرتبة والفضيلة، ولكنهما خضراوان، وفوَّارتان بالماء، ومشتملتان على أنواع الفاكهة اللذيذة، والخيرات الحسان وهي أفضل النساء، وهن عذارى، وأهل هاتين الجنتين متكئون على وسائد مخضرة وبارعة الحسن والجمال، وكل ذلك من الله تعالى المتَّصف بالعظمة والجلال، المتنزه عن كل ما لا يليق به، ومصدر هذا الإنعام والفضل على عباده، كما تصوِّر لنا هذه الآيات:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ[1] ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ[2] ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ[3] ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ

(١) شديدتا الخضرة من كثرة الرَّي والعناية. (٢) فوّارتان بالماء. (٣) نساء بيض ذات أعين، شديدة بياض العين مع شدة سوادها، محبوسات ومستورات في الخيام.

﴿يَطْمِثْهُنَّ[١] إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ[٢] خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ[٣] حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرّحمن: ٥٥/ ٦٢-٧٨].

ومن دون الجنَّتين المتقدمتين في بيان سورة الرَّحمن في المنزلة والقدر: جنَّتان أخريان. والجنّتان الأُوليان: جنَّتا السابقين، والأُخريان جنَّتا أصحاب اليمين. فبأي شيء من النِّعَم الإلهية تكذِّبان أيها الإنس والجنّ؟

والجنَّتان شديدتا الخضرة، من شدة الرَّي المائي. فبأي نعم الله تكذبان معشر الجن والإنس؟

وفي الجنَّتين عينان فيّاضتان فوّارتان بالماء العذب، فهناك جنَّتان تجريان بالأنهر، وجنَّتان فوّارتان، والجري أقوى من النَّضخ. فبأي نِعَم الله تكذبان أيها الإنس والجن؟

وفي هاتين الجنَّتين نساء جميلات، خيِّرات الأخلاق، حسان الوجوه، فبأي نِعَم الله تكذبان أيها الجن والإنس؟!

وهؤلاء النساء الخيرات، حور شديدات البياض، واسعات الأعين، مع شدة السواد وشدة البياض وصفائه، مخدرات محجَّبات مستورات في خيام الجنّة، المكونة من الدُّر المجوفة. والخيام: البيوت من الخشب، لا يتبذلن في شارع ولا سوق، ولا يخرجن لبيع أو شراء، وهنَّ مقصورات على أزواجهن، لا ينظرن إلى رجال غيرهن. وهذه هي المرأة المحببة للرجال، خلافاً لأذواق المنحلِّين اليوم.

ولم يمسّهن ولم يجامعهن قبل ذلك أحد من الإنس والجن، توفيراً للمتَّقين الخائفين ربهم، فبأي نعم الله تكذبان؟

---

(١) لم يفتض بكارتهن . (٢) وسائد أو ملاءات (شراشف) على ظهور الأسرّة . (٣) بسط منقوشة .

وهؤلاء الأتقياء البررة متكئون على وسائد خضراء، وبسط منقوشة بديعة، فاخرة الصنع، فبأي نعم الله تكذبان أيها الإنس والجن؟! ويلاحظ أن أثاث الجنَّتين الأُولين أرفع من هذه الصفة، فإنه تعالى قال فيهما هناك: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ فبأي شيء من هذه النِّعم تكذِّبان معشر الجنّ والإنس؟!

وختمت الصفات المتقدمة في الجنَّتين الأُولين ببيان سببها وهو: أن استحقاق هذا الفضل والإحسان جزاء الإحسان المتقدم في الدنيا.

وهنا ختمت هذه الصفات والسورة كلها بالإقرار بمصدر هذا الفضل، وهو الله تعالى الذي تنزه عن كل ما لا يليق به، فهو المتفرِّد بصفات العزّة والعظمة، وإكرام عباده المخلصين، وهو أحقُّ بالعبادة والإجلال فلا يعصى، وأن يُكرم فيعبد، ويُشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى. وهذه الخاتمة تدلُّ على بقاء أهل الجنة ذاكرين اسم الله، منزهين له، مستمتعين به. وأما أوصاف نعيم الدنيا فختمت بما يشير إلى فناء كل شيء من الممكنات يوم القيامة مع بقاء الله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

وفي الجملة: هناك لأهل التقوى أربع جنان ذات منازل مختلفة، اثنتان منهما للمقرَّبين السابقين، واثنتان دونهما في المكانة والمنزلة لأصحاب اليمين. والفروق واضحة بين كل من النوعين، وذلك دليل على إقامة صرح العدالة في الثواب والتكريم، فلا يستوي كل فريق مع الآخر، مع تفاوتهما في العمل الصالح، وممارسة كل مظاهر التقوى، وأعمال البر في الدنيا، مما يؤهل كل فريق لما أعدَّه الله له من الإحسان والنِّعم الموافية لعمله.

تفسير سورة الواقعة

قيام القيامة وانقسام الناس فريقين أو ثلاثة

تحدَّثت سورة القيامة على خبر إثبات وقوعها، وكون ذلك الخبر حقيقة ثابتة واقعة، وعلى كون الناس فيها بحسب حظوظهم وأعمالهم فريقين: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، ومن الفريق الأول فئة السابقين وهم الأنبياء المقربون عند ربّهم في جنات النعيم، فيصير الناس ثلاثة أصناف، لكل صنف مكان عند الله، فالسابقون وهم الأنبياء والرُّسل والصِّديقون والشهداء وأمثالهم: في منزلة خاصة هي أعلى المنازل، وأصحاب الميمنة: في منزلة أدنى في الجنة، وأصحاب الشمال وهم الكفار في نيران الجحيم، وهذا ما نجده صريحاً في الآيات الآتية في مطلع سورة الواقعة المكّية بإجماع من يعتدُّ بقوله من المفسرين:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ[١] ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا[٢] ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا[٣] ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا[٤] ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً[٥] ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ[٦] ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ[٧] مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ[٨] ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ١-١٢].

إذا حدثت القيامة، والواقعة اسم من أسماء القيامة، كالصَّاخّة والآزفة والطَّامّة.

---

(١) إذا حدثت القيامة . (٢) حرِّكت تحريكاً شديداً . (٣) فُتِّتت . (٤) متفرقاً . (٥) أصنافاً ثلاثة . (٦) أهل اليمين أصحاب الجنّة . (٧) أهل الشِّمال أهل النار . (٨) الأنبياء ونحوهم السابقون إلى الخير في الدنيا .

وهذه كلها أسماء تقتضي تعظيمها وتشنيع أمرها، ليس لوقوعها صارف ولا دافع، ولا بد من أن تكون، وليس لها تكذيب ولا رد. وكلمة ﴿كَاذِبَةٌ﴾ إما مصدر كالعاقبة والعافية وخائنة الأعين، أي ليس لها تكذيب ولا ردّ، وهذا قول قتادة والحسن، وإما أن تكون صفة لمقدَّر، كأنه تعالى قال: ليس لوقعتها حال كاذبة.

-وهي خافضة أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، فتجعلهم في الجحيم، وهم الكفرة والفسقة، ورافعة أقواماً كانوا في الدنيا مغمورين، فتجعلهم في الجنة، وهم المؤمنون. فقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ خبر لمبتدأ، أي هي خافضة رافعة.

-إذا زلزلت وحرّكت الأرض بعنف تحريكاً شديداً، حتى ينهدم كل ما عليها من بناء وجبال.

- وفُتِّتت الجبال فتّاً، وصارت غباراً متفرّقاً منتشراً أو شائعاً في الهواء، كالهباء[1] الذي يطير في النار. وهذا يدلُّ على دكِّ الجبال وزوالها عن أماكنها يوم القيامة.

- وأصبحتم يوم القيامة منقسمين إلى ثلاثة أصناف: أهل اليمين أصحاب الجنة، وأهل الشمال أهل النار، والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنة والرحمة، وهم الأنبياء والرُّسل والصِّديقون والشهداء.

فأصحاب اليمين: هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذون إلى الجنة، فما أحسن حالهم وصفتهم وأكمل سعادتهم!

وقوله: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم. وقوله: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ مبتدأ، والفاء تدلُّ على التفسير، وقوله: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ ما: مبتدأ ثان، وأصحاب الميمنة: خبر: ما، والجملة خبر المبتدأ الأول.

---

(١) الهباء: ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة، ولا يكاد يُرى إلا في الشمس الداخلة من نافذة.

وأصحاب الشمال: هم الذين يتناولون كتبهم بشمائلهم، ويساقون إلى النار، فما أسوأ حالهم وأتعسهم!!

والسابقون من كل أمة إلى الإيمان والطاعة والجهاد وأعمال البر، وهم: الأنبياء والرُّسل عليهم السّلام، والشهداء والصِّديقون، والقضاة العدول، ونحوهم، إنهم السابقون إلى الجنة والرحمة، وهم المقرَّبون إلى جزيل ثواب الله وعظيم كرامته والمقرَّبون من الله تعالى في جنّة عدن، والمقيمون إلى الأبد في جنات النعيم.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تدلُّ على علو مكانتهم. وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ، و﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الثاني خبر على مذهب سيبويه، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ مبتدأ وخبر، استئناف بياني. وقال بعض النَّحويين: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الثاني: نعت للأول، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ على هذا القول: في موضع الخبر.

وهذه الآية تتضمن أن العالم يوم القيامة ثلاثة أصناف: مؤمنون هم على يمين العرش، وهنالك الجنة، وكافرون وهم على شمال العرش، وهنالك النار. والسابقون إلى الإيمان والطاعة وهم عند الله تعالى في جنة عدن، أو في الفردوس أعلى الجنان وهي أعلى منازل البشر في الآخرة. ذكر الله تعالى أصحاب الميمنة متعجَباً منهم في سعادتهم، وأصحاب المشأمة متعجَباً منهم في شقاوتهم، ثم ذكر السابقين مثبتاً حالهم، فأخبر أنهم نهاية في العظمة والسعادة.

والقول في يمين العرش وشماله أمر تقديري، كالقول في يمين الكهف وشماله في آية: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨/ ١٧] بأن تقدر باب الكهف بمثابة وجه إنسان، فإن الشمس تجيء منه أول النهار عن يمين، وآخره عن شمال.

والسابقون: هم الذين سبقت لهم السعادة، وكانت أعمالهم في الدنيا سبقاً إلى

أعمال البر وإلى ترك المعاصي. أخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها، عن النَّبي ﷺ أنه قال: «أتدرون مَن السابقون إلى ظلِّ الله يوم القيامة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوا بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم».

نعيم السابقين المقرَّبين

السابقون السابقون: هم الذين سبقوا في الدنيا إلى أعمال البر وإلى ترك المعاصي، وهم المقرَّبون عند الله في أعلى منازل البشر في الآخرة، كما تقدم، وهؤلاء الصفوة المتميزة العليا من أهل الجنة، ومن مختلف الأمم إلى يوم القيامة، يتمتعون بأكمل أنواع النعيم المادي والمعنوي في الآخرة، وقد ذكر الله تعالى ألوان نعيمهم في الآيات الآتية من سورة الواقعة:

﴿ثُلَّةٌ(١) مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ(٢) ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ(٣) ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ(٤) ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ(٥) ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ(٦) ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ(٧) ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا(٨) ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/١٣-٢٦].

السابقون المقرَّبون: جماعة كثيرة لا يحصى عددهم، من الأمم، وهم من الأولين

---

(١) الثُلة: الجماعة والفِرقة. (٢) منسوجة بإحكام. (٣) غلمان باقون على حالتهم لا يهرمون.
(٤) الأكواب: الآنية التي لا مقبض لها ولا خرطوم، والأباريق: الأواني التي لها مقبض وخراطيم. والكأس: إناء الخمر فإن خلا من الخمر فهو قدح. والمعين: نهر جار لا ينقطع. (٥) لا يحصل لهم صداع ولا تذهب عقولهم. (٦) واسعات الأعين حسانها. (٧) المستور. (٨) ما يؤثم.

أكثر من الآخرين الذين عُبِّر عنهم بالقليل، والأولون: هم في رأي مكي وغيره الأنبياء الذين كانوا في صدر الدنيا أكثر عدداً. أو هم في رأي الحسن وغيره السابقون من الأمم، والسابقون من هذه الأمة (أتباع النَّبي ﷺ).

أخرج أحمد وابن المنذر، وابن أبي حاتم بسند فيه من لا يعرف عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ شقَّ ذلك على المسلمين، فنزلت: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ولا أرى تعارضاً بين هذه الآيات، فهي في السابقين المقرَّبين، وآية: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فهي في أصحاب اليمين.

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها تأوَّلت أن الفريقين في أمة كل نبي: هي في الصَّدر ثلة، وفي آخر الأمة قليل. وروى سفيان الثوري عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النَّبي ﷺ: «الثُّلَّتان جميعاً من أُمّتي».

وحال هؤلاء المقرَّبين: هم في الجنة متكئون على أسرّة منسوجة بخيوط الذهب، مشبكة بالدُّر والياقوت والزَّبرجد، في حال التقابل، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وهم في حبور وسرور، وصفاء واطمئنان.

- يدور عليهم للخدمة غلمان باقون على صفة واحدة، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يبعد أن يكونوا كالحور العين مخلوقين في الجنة، للقيام بهذه الخدمة.

- يطوفون على أهل الجنة السابقين بأكواب لا عرى لها ولا خراطيم، وبأباريق لها العرى والخراطيم، وبكؤوس مترعة من خمر الجنة الجارية من الينابيع والعيون، ولا تعصر عصراً كخمر الدنيا، فهي صافية نقية من الكحول المسكر، لا تتصدَّع رؤوسهم من شربها، ولا يسكرون منها، فتذهب عقولهم.

- ومعهم ما يختارونه من ثمار الفاكهة، وأنواع لحوم الطيور التي يشتهونها، مما لذَّ وطاب، ومن المعلوم أن لحوم الطيور أيسر هضماً وأعذب طعماً.

- ولهم نساء حوريات بيض، مع شدة سواد العين، وشدة بياضها، واسعات الأعين حسانها، كأنواع اللآلئ والدُّرر المستورة التي لم تمسها الأيدي صفاء وبهجة، وبياضاً ومتعة، وجمالاً من أحسن الألوان، يفعل بهم ذلك كله، مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل.

- وفي الجنة لا يسمعون كلاماً لاغياً لا معنى له، واللغو: الفاحش من القول، ولا كلاماً فيه ما يوقع في الإثم من سبّ أو شتم أو ساقط الكلام. ولكن يسمعون أطيب الكلام، ويتبادلون فيما بينهم التحية وأكرم السلام، كما في آية أخرى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣/١٤]. والمراد أن هذا النعيم ليس مصحوباً بألم، كنعيم الدنيا، وإنما هو خالٍ من الكدر والهمّ، واللغو، والقبح. وحكمة تأخير بيان ذلك عن ذكر الجزاء، مع أنه من النِّعم العظيمة: أنه من أتم النِّعم، فجعله المولى من باب الزيادة والتميز، لأنه نعمة اجتماعية تدلُّ على نظافة أو طهر الوسط الاجتماعي، بعد تبيان النِّعم الشخصية.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دليل على أن هذه الرُّتب والنِّعم هي بحسب أعمالهم، لأنه روي أن المنازل والقِسَم في الجنة هي مقسَّمة على قدر الأعمال. وأما دخول الجنة نفسه: فهو برحمة الله تبارك وتعالى وفضلِه، لا بعمل عامل، كما جاء في حديث صحيح، أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه والدارمي وأحمد، ولفظ البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يُنجِّي أحداً منكم عملُه، قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله

برحمته، سدِّدوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدُّلجة[١]، والقَصْدَ القَصْد تبلغوا[٢]».

وفي البخاري أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «سدِّدوا وقاربوا واعلموا أن لن يُدخل أحدَكم عملُه الجنة، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله، وإن قلَّ».

جزاء أصحاب اليمين

ذكر الله تعالى ألوان النعيم للسابقين المقرَّبين عند الله يوم القيامة، ثم أتبعه ببيان أصناف النعيم لأصحاب اليمين، من الفاكهة الكثيرة، والظلال، والمياه والأنهار الجارية، والفرش المرفوعة، والحور العين العذارى في عمر واحد أو متساويات السِّن: أتراب، ومحبَّبات إلى أزواجهن، وهذا أنموذج إغرائي لمن اهتم بالماديات، قياساً على أحوال الدنيا التي قد تفتقد فيها هذه الأشياء لكثير من الناس، فيجدون الحلم والعوض محقَّقاً في الآخرة، وهذا ما نصَّت عليه الآية التالية:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ[٣] ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ[٤] ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ[٥] ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا[٦] ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ[٧] مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٢٧-٤٠].

---

(١) الدلجة: هو سير الليل، وهو توجيه للمسافرين في السفر. (٢) أي عليكم بالقصد من الأمور في القول والفعل: وهو الوسط بين الطرفين، وهو منصوب على المصدر المؤكد. (٣) السِّدر: شجر النَّبق، والواحدة سدرة، وهو شجر ذو أوراق وأغصان كثيرة، لكن له شوك. والمخضود: مقطوع الشوك. (٤) الطَّلح: شجر الموز، ومنضود: متراكب الثمر. (٥) جار دائم. (٦) العُرُب: النساء المتحبِّبات إلى أزواجهن. والأتراب: متساويات السِّن. (٧) جماعة أو طائفة.

أخرج سعيد بن منصور في سننه والبيهقي في البعث عن عطاء ومجاهد قالا: لما سأل أهل الطائف الوادي يُحمى لهم، وفيه عسل، ففعل، وهو واد معجب، فسمعوا الناس يقولون: في الجنة كذا وكذا، قالوا: يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي، فأنزل الله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ الآيات. وهم أصحاب المرتبة المتوسطة، ومنهم عصاة المؤمنين بعد مجازاتهم على معصيتهم أو العفو عنهم.

المعنى: عطف الله تعالى في بيانه على بيان جزاء السابقين المقرَّبين: ما أعدَّه لأصحاب اليمين الأبرار، الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، فإن منزلتهم دون المقرَّبين، ولكن في درجة عالية في الجنة، فهم أصحاب الميمنة، وما أدراك ما هم، وأي شيء هم، وما حالهم ومآلهم؟! وهذا يشير إلى التفخيم والانتباه للتعرُّف على حالهم، فجاء البيان المفصل لما أبهم من حالهم، فقال الله تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي يتمتعون في جنات فيها شجر يشبه شجر السِّدر: وهو من العضاه له شوك، وأما سدر الجنة فهو على خلقة سدر الدنيا، له ثمر كقلال هجر، طيب الطعم والريح، ووصفه تعالى بأنه مخضود، أي مقطوع الشوك الذي لا أذى فيه.

ولهم أيضاً مثل الطَّلح: وهو كذلك من العضاه شجر عظيم كثير الشَّوك، ولكن طلح الجنة على صفات كثيرة مباينة لحال الدنيا، ومنضود معناه: مركب ثمره، بعضه على بعض من أرضه إلى أعلاه.

أخرج البيهقي عن مجاهد قال: كانوا يعجبون بوَج (واد مخصب بالطائف) وظلالِه وطلحِه وسِدْرِه، فأنزل الله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾

وهم في ظلال وارفة دائمة الظِّل، وحولهم ماء جارٍ لا ينقطع، ويتناولون من أنواع

الفاكهة الكثيرة ما شاؤوا، فهي لا تنقطع أبداً في وقت من الأوقات، كما تنقطع فواكه الدنيا أحياناً، ولا تمنع عمن أرادها في أي وقت، على أي صفة، أعدت لمن أرادها.

ويجلسون وينامون على فرش مرفوعة على الأسرّة، وذات رفعة، والفرش: الأسرّة، جمع فراش: وهو ما يفترش للجلوس عليه أو النوم عليه، وقال أبو عبيدة وغيره: أراد بالفرش النِّساء. والمرفوعة: معناه المرتفعة الأقدار والمنازل. ثم أشار الله تعالى إلى نساء أهل الجنة، والضمير في رأي قتادة عائد على الحور العين المذكورات قبل، أو إلى الفرش المرفوعة، أي النساء في رأي أبي عبيدة مَعْمَر، وإن لم يتقدم لهن ذكر، لدلالة المعنى على المقصد، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٨/ ٣٢].

وهؤلاء النِّساء يتجدد خلقهن، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ أي خلقناهنَّ شيئاً بعد شيء، وأوجدناهنَّ خلقاً جديداً، من غير توالد، وجعلناهن بكارى عذارى لم يفتضهن قبلهم إنس ولا جان. وكلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً، من غير وجع، كما في حديث رواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عُدْن أبكاراً».

وهنّ عرب أتراب، أي متحبِّبات إلى أزواجهن، عشقاً لهم، من غير سابق معرفة، ومتساويات السِّن والشكل والقدّ، حتى يقول الرائي: هم أتراب.

وأصحاب اليمين: هم سالف الأمم، جماعة عظيمة من الأولين، وهم مؤمنو الأمم الماضية، وجماعة من الآخِرين، وهم مؤمنو هذه الأمة، أتباع النَّبي ﷺ إلى يوم القيامة. ويرى ابن عطية رحمه الله: بل جميعهم من هذه الأمة، إلا من كان من السابقين. ورأى آخرون الفرقتين في أمة محمد ﷺ، فالتابعون بإحسان، ونحوهم هم الثُّلة الأولى، وسائر الأمة ثلة أخرى في آخر الزمان.

وذكر أبو حيان في البحر المحيط أنه لا تنافي بين قوله تعالى: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٠﴾ وقوله قبل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٤﴾ لأن قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ هو من السابقين، وقوله: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٠﴾ هو في أصحاب اليمين.

ومردّ كل ذلك إلى الله تعالى، وتعرف الجماعات بمدى إيمانها وعملها الصالح، سواء أكانوا من الماضين أم من اللاحقين، إقامة للعدل بين الجميع.

جزاء أصحاب الشِّمال

اصطلاح الشمال دائماً يدلُّ على مواجهة تعبير اليمين، الأول يدلُّ على الانحراف ومعارضة الفطرة، والثاني يدلُّ على الاستقامة والطاعة لله تعالى. وأهل اليمين يتمتعون بألوان النعيم الأُخروي، المادِّي والمعنوي، النفسي والاجتماعي، وأهل الشمال يتعرضون لمختلف أنواع العذاب الأُخروي، بالسَّحق والإحراق، وتجدُّد العذاب على الدوام، شرابهم صديد أهل النار، والماءُ الشديد الغليان، وطعامهم شجر الزَّقوم الشديد المرار، الذي تعاف مثله الإبل في الدنيا، مع التقريع، والإهانة، والإذلال، والسخرية، كما تصور هذه الآيات:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ[(١)] ۝٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ[(٢)] ۝٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ[(٣)] ۝٤٤ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ[(٤)] ۝٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ[(٥)] ۝٤٦ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٤٨ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٥٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ۝٥١

---

(١) السّموم: ريح شديدة الحرارة. والحميم: الماء الشديد الحرارة. (٢) دخان شديد السواد. (٣) لا بارد كغيره، ولا هو نافع يدفع أذى الحر. (٤) متنعّمين بالحرام. (٥) أي يفعلون ما يوجب الذنب العظيم وهو الشِّرك.

لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ(١) ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ(٢) ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ(٣) ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٤١-٥٦].

هذا بيان جزاء أصحاب الشمال وبيانُ سببه الموجب له، أصحاب الشمال، وما أدراك ما هم؟ وأي شيء هم فيه، وأي صفة لهم حال تعذيبهم في الآخرة؟ وهذا فيه معنى اللوم وتعظيم المصاب. هم في ريح يابسة، لا بلل معها، شديدة الحرارة، ويشربون الماء المغلي، ويتظلّلون بدخان جهنم الشديد السواد، ليس بارداً كالظلال الباردة عادة، ولا حسن المنظر ولا نافعاً، وكل ما ليس فيه خير، فهو ليس بكريم، أي ليس للظلال صفة مدح، فهو سيّئ الصفة، وهم فيه مهانون.

وأصحاب الشمال: مبتدأ، وقوله: ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول.

وأسباب هذا العذاب ثلاثة أشياء:

أنهم كانوا في الدنيا مترفين، أي يتنعمون في سرف وتخوض، وكانوا يصرُّون على الذنب العظيم، وهو الشِّرك والوثنية، وكانوا ينكرون البعث، فيقولون: كيف نبعث بعد الموت، وبعد الصيرورة تراباً وعظاماً بالية أو نخرة؟

والمترف: المنعم في سرف وخوض في الباطل. ويصرّون: معناه يعتقدون اعتقاداً لا ينوون عنه إقلاعاً. والحنث: الإثم، ومنه حديث البخاري ومسلم وابن ماجه والنَّسائي وأحمد: «ما من مسلِمَيْن يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث، إلا كانوا لهما حصناً حصيناً من النار»(٢). أي لم يبلغوا الحلم الذي يتعلق به السؤال عن الآثام.

---

(١) شجر في غاية المرار، كريه الطعم والشكل. (٢) الماء المغلي. (٣) الإبل العطاش. (٢) فقيل: يا رسول =

والمراد بالإثم: هو الشِّرك، وهذا هو الظاهر. وقوله: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ العامل فيه: فعل مضمر، تقديره: أنبعث أو أنحشر؟ ولا يعمل فيه ما بعده، لأنه مضاف إليه.

فردَّ الله تعالى على إنكارهم الآخرة، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ أي قل لهم أيها الرسول: إن المتقدِّمين من الأُمم والعالم كله محشورون مبعوثون ليوم معلوم مؤقت. والميقات: مِفْعال من الوقت، كميعاد من الوعد.

ثم خاطب الله كفار قريش ومن كان على حالهم بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي إنكم معشر الضّالِّين عن الحق، الذين أنكرتم وجود الله وتوحيده، وكذَّبتم رسلَه، ستأكلون في الآخرة من شجر الزقوم الذي هو شجر كريه المنظر والطعم، حتى تملؤوا بطونكم، لشدة الجوع. ثم إنكم سوف تشربون على الزَّقوم عقب أكله، من الماء الحار، لشدة العطش، ويكون شرابكم منه كشرب الإبل العطاش، التي لا تَرْوى لداء يصيبها، حتى تموت. والهيم: الإبل العطاش الظِّماء. وشُرْب بضم الشين: إما مصدر، أي كالشرب الحاصل من الإبل، وإما إنه اسم لما يُشرَب، أي شراب الإبل.

وهذا الذي وصفنا من المأكول والمشروب، من شجر الزقوم، وشراب الحميم هو-على سبيل السخرية والاستهزاء-ضيافتهم عند ربِّهم يوم حسابهم، وهو الذي يعدُّ لهم ويأكلونه يوم القيامة ساعة قدومهم. والنُّزل: أول ما يأكل الضيف. ويوم الدين: يوم الجزاء. وهذا خلافاً لجزاء أهل الإيمان، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٧] أي ضيافة وكرامة.

= الله، فإن كانا اثنين! قال: وإن كانا اثنين، فقال أُبي بن كعب سيِّد القرّاء رضي الله عنه: لم أقدم إلا واحداً، قال: فقيل له: وإن كان واحداً، فقال: ((إنما ذاك عند الصَّدمة الأولى)).

إن سوء هذا المصير لأهل الشِّمال وهم الكفرة الظالمون واضح السبب: وهو انهماكهم في شهوات الدنيا، وشركهم، وإنكارهم البعث أو اليوم الآخر، وهذا الإنكار مصدر كل شرّ، لأن من آمن بالحساب، خافه، ومن كفر بالحساب اقتحم المهالك من غير تقدير العواقب الوخيمة.

من أدلة إثبات القدرة الإلهية على البعث

كلما وصف الله تعالى إنكار المشركين للبعث، أعقبه بإيراد الأدلة الكافية على القدرة الإلهية الخارقة الكافية على تحقيق هذا الأمر، من واقع الناس وأحوالهم التي تحيط بهم، من خلقهم ورزقهم والإنعام عليهم، وخلق السماوات والأرض، وإحياء الأرض بالنباتات. والبعث ما هو إلا إعادة خلق هيِّنٍ على الله تعالى الذي لا يعجزه شيء صغير أو كبير في الأرض ولا في السماوات، فمن لاحظ كل هذا سهل عليه إدراك كيفية البعث الداخل تحت الأمر التكويني السريع: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. وهذه بعض أدلة القدرة الإلهية في الآيات الآتية:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ[١] ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ[٢] ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ[٣] فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا[٤] فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ[٥] ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ[٦] ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ[٧] ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ

(١) الإمناء: إنزال المني. (٢) لا يسبقنا أحد أو لا يغلبنا أحد. (٣) علمتم الخلقة الأولى. (٤) هشيماً متكسّراً. (٥) بقيتم تتعجبون من سوء حاله. (٦) واقعون في الغرم: وهو خسارة النفقة وذهاب الزرع. (٧) ممنوعون رزقنا.

ٱلْمُزْنِ(١) أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا(٢) فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ(٣) ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ(٤) ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٥٧-٧٤].

هذه أدلة واقعية محسوسة على قدرة الله تعالى، فلقد ابتدأنا خلقكم أول مرة، بعد العدم، فهلا تصدقون بذلك تصديقاً مقروناً بالطاعة والعمل الصالح، وتقرون بأن من قدر على الخلق، قادر على الإعادة بطريق الأولى؟

أخبروني عما تقذفون من المني في الأرحام، أأنتم تخلقونه بشراً سوياً، أم نحن الخالقون الموجدون له؟! وهذا حضٌّ على التصديق على وجه التقريع. فلا يخفى على أحد ما يوجد في المني من عمل وإرادة وقدرة.

نحن قسمنا الموت بينكم ووقَّتناه لكل فرد منكم، فمنكم من يموت كبيراً، ومنكم من يموت صغيراً، والكل سواء في الموت، وما نحن بمسبوقين يسبقنا أحد على أن نبدِّل بكم غيركم، فتموت طائفة ونبدِّلها بطائفة، وهكذا قرناً بعد قرن، وننشئكم بأوصاف لا يصلها علمكم، ولا تحيط بها أفكاركم. وهذا وعيد يستوجب العظة والعبرة. وهو دليل على كذب المكذبين بالبعث، وتصديق الرُّسل في الحشر.

ودليل آخر: أنه قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم على مراحل وأطوار، من نطفة، فعلقة، فمضغة، فهيكل عظمي، فإكساؤكم باللحم، وجعل لكم السمع والبصر والفؤاد، فهلا تتذكرون قدرة الله تعالى على النشأة الأخرى، وتقيسونها على النشأة الأولى؟! وهذه الآية نص في استعمال القياس والحضّ عليه.

---

(١) السحب، جمع مزنة: سحابة. (٢) ملحاً لايشرب. (٣) تقدحون نارها. (٤) المسافرين.

ودليل آخر: أخبروني عما تحرثون من الأرض، وتطرحون فيه البذر، هل أنتم أوجدتموه زرعاً ونباتاً كاملاً فيه السنبل والحب، بل نحن الذين ننبته في الأرض ونصيِّره زرعاً تامّاً؟ بل أنت يا ربّ.

لوأردنا أن نجعل هذا الزرع يابساً أو هشيماً متكسّراً لفعلنا، فصرتم تتعجبون من سوء حاله وما نزل به، قائلين: إننا لخاسرون مغرمون. والمغرم: الذي ذهب ماله بغير عوض، أو إننا لهالكون هلاك أرزاقنا.

وبعد المأكول يكون المشروب، أخبروني أيها الناس عن الماء العذب الذي تشربونه لإطفاء العطش، أأنتم أنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون بقدرتنا دون غيرنا، فكيف لا تصدقون بالبعث بعد هذا الإيجاد؟! لوأردنا أن نجعل هذا الماء ملحاً لا يصلح للشرب ولا للزرع، لفعلنا، فهلا تشكرون نعمة الله الذي خلق لكم هذا الماء عذباً فراتاً زلالاً، تشربون منه، وتنتفعون به؟!

ثم ذكر النار أداة الطَّهي والإنضاج، فهل رأيتم النار التي تستخرجونها بالقدح من الزناد، أأنتم أنشأتم شجرتها التي تقدحون منها النار، أم نحن المنشئون لها بقدرتنا دونكم؟

نحن جعلنا هذه النار تذكرة لكم بجرّ نار جهنم الكبرى، ليتّعظ بها المؤمن، وينتفع بها المقوون، أي المسافرون الضاربون في البوادي، والأراضي القَفْر. فَنَزِّهِ الله تعالى القادر على خلق هذه الأشياء أيها النَّبي وكل مخاطب بالقرآن، حيث أوجد هذه الأشياء المختلفة المتضادة، من إيجاد عنصر الرطوبة بالماء، وعنصر الحرارة بالنار، ومادة الملوحة في البحار والمحيطات. أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟ فقال: إنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً».

إثبات النُّبوة والوحي القرآني

أقسم الله تعالى بمساقط أو مواقع النجوم على أن القرآن كتاب كريم، مصون في كتاب محفوظ، وهو اللوح المحفوظ، منزل تنزيلاً من ربِّ العالمين، والشَّك فيه شكٌ ساقط لا قرار له. لذا وبَّخ الله تعالى المشركين على عقيدتهم الباطلة بإنكار توحيد الله وتكذيب رسوله، وإنكار المعاد. ثم ذكر الله تعالى أحوال الأصناف الثلاثة الذين بدئت بهم سورة الواقعة، وهم السابقون المقرَّبون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وجزاء كل فريق يوم القيامة، وهذا هو الحق الثابت الذي لا شك فيه، فيقتضي التوجُّه للآخرة وتنزيه الله عن كل نقص، كما تقرر هذه الآيات:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ[1] ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ
كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ[2] ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾
أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ[3] ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ[4]
﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ
غَيْرَ مَدِينِينَ[5] ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ
وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ
﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ[6] ﴿٩٤﴾ إِنَّ
هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ[7] ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٥-٩٦].

أخرج مسلم عن ابن عباس قال: مُطِر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها

(١) مساقطها للغروب. (٢) محفوظ مصون. (٣) خطاب للكفار، والمراد يلاين بعضكم بعضاً ويتبعه في الكفر. (٤) مجرى الطعام. (٥) أي غير محاسَبين ومجزيين. (٦) فالنُّزُل المعدّ ساعة القدوم ماء شديد الحرارة، واصطلاء بنار جهنم. (٧) إن المذكور في هذه السورة هو.

الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، فنزلت هذه الآيات: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ حتى بلغ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

أقسم الله تعالى بمواقع النُّجوم تعظيماً لشأن القرآن أنه تنزيل من ربِّ العالمين، ومواقع النجوم: مساقطها عند الغروب. وإن هذا القسم عظيم لو تعلمون ذلك.

والضمير يرجع إلى القسم المفهوم، من الكلام المتقدِّم. والمقسم عليه هو أن هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ لكتاب كثير المنافع والفوائد، لما فيه من: العلم والهدى والحكمة والإرشاد إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وجاء القسم هكذا: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ بالنَّفي، والمراد: أُقسم، لأن العرب تزيد (لا) قبل فعل (أُقسم) كأنه ينفي ما سوى المقسَم عليه، فيفيد التأكيد، أي كأنه تعالى يقول: فلا صحة لما يقوله الكفار. فتكون (لا) نافية، في رأي بعض النحويين، وقال بعضهم: هي زائدة، والمعنى: فأُقسم، وزيادتها في بعض المواضع أمر معروف. وقال آخرون: هي مؤكدة، تعطي في القسم مبالغة، وهي كاستفتاح كلام، مثل: (فلا وأبي، أي فَوَأبي).

وبعد أن وصف الله القرآن بأنه كريم، أي كثير المنافع، وصفه بثلاث صفات أخرى وهي: أنه محفوظ في اللوح المحفوظ، لا يطَّلع عليه إلا الملائكة المقرَّبون وهم الكروبيون. ولا يمسُّه في السماء إلا الملائكة الأطهار، وكذلك لا يمسُّه في الدنيا إلا المطهَّرون من الحدثين الأصغر والأكبر، وهو منزَّل تنزيلاً متدرِّجاً من الله تعالى، فليس هو بسحر ولا كهانة ولا شعر ولا قولِ بشر، بل هو الحق الثابت الذي لا مرية فيه. وقال جماهير العلماء: لا يمسُّ المصحف من بني آدم إلا الطاهر من الكفر والجنابة والحدث الأصغر، وفي كتاب رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم -الذي أخرجه عبد الرزاق وأبي داود وابن المنذر، عن عبد الله بن أبي بكر- «ولا يمسُّ القرآن إلا طاهر».

ثم وبّخ الله تعالى الكفار المتهاونين في شأن القرآن، فقال: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ. .﴾ أي أبهذا القرآن الموصوف بالصفات الأربع السابقة أنتم متهاونون، يلاين بعضكم بعضاً، ويتبعه في الكفر؟ وتجعلون شكر رزقكم من السماء: وهو المطر، أو من الأرض: وهو الزرع أنكم تكذبون بنعمة الله وبالبعث وبما دلَّ عليه القرآن، فتضعون التكذيب موضع الشكر؟ وهذا توبيخ للقائلين في المطر: هذا بنوء كذا وكذا، كالأسد والجوزاء وغير ذلك.

وتوبيخ آخر للمشركين، فهلا إذا وصلت الروح الحلق حين الاحتضار، وأنتم ترون بالعين المحتضَر قد قارب فراق الحياة، تنظرون إليه وما يكابده من سكرات الموت، ونحن بالعلم المحيط أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرون ملائكة الموت الذين يتولون قبض روحه. والمراد التأمُّل والنظر في أن الله مالك كل شيء.

فهلا إن كنتم غير محاسبين أو غير مملوكين ولا مجزيين في عالم البعث والحساب، تمنعون موته وترجعون الروح التي بلغت الحلقوم (مجرى الطعام) إلى مقرِّها الذي كانت فيه، إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم لن تبعثوا. وهذه الحال: هي نزاع المرء للموت. والمدين: المملوك في الأصح.

ومصائر الناس عند احتضارهم وبعد وفاتهم أصناف ثلاثة:

أ- فأما إن كان المتوفى من السابقين المقرَّبين: وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبّات، وتركوا المحرَّمات والمكروهات وبعض المباحات، فلهم استراحة ورحمة وطمأنينة وهو الروح، ورزق حسن للبدن وهو الريحان أو الطيب، وجنة نعيم للروح والجسد، أي إن المرء من السابقين يلقى عند موته روحاً (رحمة وسعة)، وريحاناً (وهو الطِّيب) وهو دليل النِّعم، أو هو كل ما تنبسط إليه النفوس.

٢- وأما إن كان المتوفى من أهل اليمين: وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، فتبشرهم الملائكة قائلين: سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، أي ليس في أمرك إلا السّلام والنَّجاة من العذاب.

٣- وأما إن كان المتوفى من المكذبين بالحق والبعث، الضّالّين عن الهدى، وهم أصحاب الشمال، فإن ضيافتهم ساعة لقائِهم ماء شديد الحرارة ثم تصلية في جهنم. إن هذا الخبر لهو محض اليقين وخالصه؛ والحق الثابت الذي لا شكّ فيه، فأعرض عن أقوال الكفار، وأقبل على أمور الآخرة، وعبادة الله تعالى.

تفسير سورة الحديد

عبادة الله وتسبيحه في جميع الأوقات

تسبيح الله تعالى: وهو التَّنزيه عما لا يليق بالله، المعروف في قولهم: «سبحان الله»: هو حقيقة ثابتة مستقرة في الكون والإنسان والحياة، يعلنها الواقع، ويفرضها المنطق، لأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيي والمميت، فيكون التسبيح من السماوات والأرض وما فيهما دائماً مستمراً، لأن الله تعالى هو الحقيقة الأبدية، والمهيمن على كل شيء في الوجود، والعالم بكل شيء في السماء والأرض، وإليه المرجع والحساب، ويسيِّر الكون، ويوجد تعاقب الليل والنهار، وهو على كل شيء قدير. وهذا ما قررته الآيات الآتية في مطلع سورة الحديد المدنيّة بالإجماع:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ[١] مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ[٢] عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ[٣] فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا[٤] وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ[٥] وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ [الحديد: ٥٧/١-٦].

---

(١) التسبيح: التنزيه عن كل نقص، والتقديس لله ووصفه بكل كمال. (٢) هو بالغلبة والقهر المستمرّين بالقدرة. (٣) يدخل. (٤) يصعد. (٥) يدخل أحدهما في زمن الآخر.

أخبر الله تعالى عن تسبيحه، أي تنزيه بعبارة (سُبْحانَ الله) بصيغة الماضي المتضمِّنة إفادة الدوام والاستمرار، والتسبيح حقيقةً وليس مجازاً، وهذا في الجمادات وغيرها من القادرين على التسبيح. والمعنى ينزه الله تعالى عن كل نقص كل شيء في السماوات والأرض، من الجماد والنبات، والإنسان والحيوان، تعظيماً له وإقراراً بربوبيّته، سواء بلسان المقال، كتسبيح الملائكة والإنس والجنّ، أو بلسان الحال كتسبيح الجمادات والنباتات. والله هو القوي القادر الغالب الذي خضع له كل شيء، والحكيم في تدبيره وأمره وخلقه وشرعه.

ولله تعالى المالك المطلق للسماوات والأرض، يتصرَّف فيهما وحده، وله السلطان التام، وهو نافذ الأمر، وهو الذي يحيي من يشاء، ويميت من يشاء، وهو تامّ القدرة على كل شيء، لا يعجزه شيء، كائناً ما كان.

والله هو الأول: الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة، والآخِر: الذي ليس له نهاية منقضية، والظاهر: بالأدلة ونظر العقول في صنعته، والباطن: بلطفه وغوامض حكمته، وباهر صفته التي لا تصل إلى معرفتها على ما هي عليه الأوهام والتصورات، وهو بكل شيء عالم علماً تامّاً، وعموماً شاملاً.

والله هو الذي أبدع السماوات والأرض في ستة أيام، والأصوب أنها من أيام الدنيا، وأكثر الناس على أن بدء الخلق في يوم الأحد. وعند مسلم: أن البداية في يوم السبت. ثم استوى على العرش استواء يليق بذاته، على نحو يريده، مما لا يعلم به إلا هو، بالقهر والغلبة المستمرين بالقدرة، والعرش، أي الكرسي أعظم المخلوقات، وليس فيه تحديد بمكان أو جهة، ويعلم الله كل شيء، يَدْخل في الأرض من مطر وأموات وغير ذلك، و يخرج منها من نبات ومعادن وغير ذلك، وما ينزل من السماء من مطر وملائكة وغير ذلك، وما يصعد إلى السماء من الملائكة وأعمال العباد

الصالحة والسيئة، والدعوات والأبخرة المتصاعدة ونحوها، والله معكم أيها العباد بقدرته وعلمه، وإحاطته وهدايته، أينما كنتم في البر والبحر والجو، والله رقيب عليكم، بصير بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها.

والله مالك السماوات والأرض، والدنيا والآخرة، وترجع إليه جميع الأمور، وهذا خبر يعمُّ جميع الموجودات. وقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ﴾ مكرر مع الآية السابقة للتأكيد. والأمور ليست جمع المصدر، بل هي جميع الموجودات، لأن الأمر والشيء والموجود أسماء شائعة في جميع الموجودات أعراضها وجواهرها.

والله المتصرِّف في الخلق، يقلِّب الليل والنهار، ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل، ويقصر النهار، وتارة على العكس، وتارة يجعلهما معتدلين متساويين، وتتوالى الفصول الأربعة، بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه، وهو سبحانه يعلم السرائر وضمائر الصدور ومكنوناتها، وإن خفيت، لا يخفى عليه من ذلك خافية، سواء الظاهر منها والباطن. وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ تنبيه على العبرة فيما يتفاوت فيه الليل والنهار من الطول والقصر، وذلك متشعب مختلف حسب اختلاف الأقطار والأزمان الأربعة، وذلك بحر من بحار الفكر والتأمل لمن يتأمله.

و ﴿يُولِجُ﴾ معناه: يدخل، و ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ما فيها من الأسرار والمعتقدات، وذلك أغمض ما يكون. وهذا كله حثٌّ على التأمُّل في ملكوت الله، وعلى الشكر على ما أنعم الله، وعلى وجوب تنزيه الله عن كل ما لا يليق بالله.

والخلاصة: هذه الآيات إخبار بتسبيح الله من كل شيء، وبيان موجبات التسبيح وأسبابه، فما أعظم التأمل بالخالق الموجود، وبالكون المخلوق الدّال على الخالق، وما أسعد الإنسان الذي يفكِّر في هذا الوجود ليستدلَّ به على الرَّب المعبود!!

الأمر بالإيمان والإنفاق

بعد أن أثبت الله تعالى في أوائل سورة الحديد وحدانيته وعلمه وقدرته، بمشاهد السماوات والأرض والأنفس، أعقبها بالأمر ببعض الواجبات، فأمر بالإيمان الخالص بالله تعالى وبرسوله، ثم أوجب على المؤمنين الإنفاق في سبيل الله، وحثَّ عليه بمضاعفة الأجر أو الثواب عليه. وأعلمنا بأن آياته الدينية والكونية تُخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وأن أهل الإيمان يسعى نورهم بين أيديهم إلى جنان الخلد التي تبشِّرهم بها الملائكة، كما يتّضح من هذه الآيات:

﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ(١) فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ(٢) لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ(٣) وَقَٰتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ(٤) وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ(٥) ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

[الحديد: ٥٧/ ٧-١٢].

مطلع الآيات: أمر للمؤمنين بالثبوت على الإيمان والإنفاق في سبيل الله، أي صدِّقوا بالله إلهاً واحداً، وبرسوله محمد ﷺ رسولاً من عند الله، وداوموا على الإنفاق من الأموال، مما جعلكم خلفاء في التَّصرف فيه، من غير تملُّكه حقيقة،

---

(١) يخلف بعضكم بعضاً في إرث الأموال والتصرف فيها . (٢) آيات واضحات هي آي القرآن . (٣) هو فتح مكة على المشهور . (٤) أي الجنة . (٥) أي ينفق في سبيل الله تعالى .

فالذين صدقوا بالله ورسوله من أهل الإيمان، وأنفقوا في سبيل الله، لهم ثواب كبير واسع. وقوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ تزهيد وتنبيه على أن الأموال إنما تصير إلى الإنسان من غيره ويتركها لغيره، وليس له إلا ما تضمنه قول رسول الله ﷺ، الذي أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنَّسائي وأحمد عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النَّبي ﷺ، وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر: ١٠٢/١] قال: يقول ابن آدم، مالي مالي، قال: وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدَّقت فأمضيت».

ثم وبَّخ الله تعالى على ترك الإيمان بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ..﴾ أي ما الذي يمنعكم عن الإيمان، والرسول محمد معكم يدعوكم إلى ذلك، فتصدقوا بربّكم، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به، وقد أخذ العهد عليكم في عالم الذّر حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم، إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال، فالآن آمنوا، أو إذا دمتم على ما بدأتم به.

والغاية من إنزال القرآن: أن الله هو الذي أراد بإنزال الآيات الواضحات في القرآن وغيره، أن يخرجكم من ظلمات الجهل والكفر والتناقض، إلى نور الهدى واليقين والسعادة، وإن الله لكثير الرأفة والرحمة بعباده، حيث أنزل الكتب، وبعث الرسل، لهدايتهم.

وأي شيء يمنعكم من الإنفاق في طاعة الله ومرضاته والجهاد لأجل إعلاء كلمته؟ وكل الأموال والثروات صائرة إلى الله تعالى، إن لم تنفقوها في حياتكم، كرجوع الميراث إلى الوارث، ولا يبقى لكم منه شيء، فالمال مال الله، ولا تساوي بين من أنفق في سبيل الله قبل فتح مكة وقاتل، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، أولئك الأولون أعظم درجة من الآخرين، لأن حاجة الناس كانت حينئذ أكثر، والعدد أقل

وأضعف، وكل واحد من الفريقين وعده الله المثوبة الحسنى، وهي الجنة، والله عليم بأعمالكم وأحوالكم الظاهرة والباطنة، فيجازيكم بذلك.

ذكر الواحدي عن الكلبي: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

وثمرة الإنفاق تبدو في مضاعفة الثواب، فمن الذي ينفق ماله في سبيل الله، محتسباً أجره عند ربِّه؟ فإنه كمن يقرضه قرضاً حسناً، والله يضاعف له ذلك القرض، فيجعل له الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، وله بعد ذلك ثواب كثير الخير والنفع، وهو الجنة.

وحال المؤمنين المنفقين يوم القيامة هو: اذكر أيها النَّبي ذلك اليوم حين تنظر المؤمنين والمؤمنات يسعى الضياء الذي يرونه على الصراط يوم القيامة أمامهم، وهو نور حقيقة يعطونه، وتكون كتبهم بأيمانهم، أي أعمالهم الصالحة سبباً لنجاتهم، وهدايتهم إلى الجنة، وتبشِّرهم الملائكة بالجنات (البساتين) التي تجري من تحتها الأنهار، ماكثين فيها على الدوام، تكريماً لهم، وذلك هو النجاح العظيم الذي لا مثيل له. فللمؤمنين نور حقيقة يوم القيامة يمنحهم الله إياه، وهذا النور من جميع جهاتهم، فهو كاف بين أيديهم، وعن أيمانهم، وكائن بسبب إيمانهم على قراءة ﴿إِيمَـٰنِهِمْ﴾.

حال المنافقين في الآخرة

يظهر الفرق واضحاً في الآخرة بين المؤمنين، حيث يعطى كل مؤمن مظهر ومبطن للإيمان نوراً، وبين المنافقين حيث يُطفى نور كل منافق، ويبقى نور المؤمنين، فيلتمس أهل النفاق عون المؤمنين ومساعدتهم لهم، فيجابون بالخيبة واليأس، لأن النار

مأواهم، وهذه هي نهاية أهل السعادة من المؤمنين الأبرار، وعاقبة أهل الشقاوة ممن نافقوا في الدنيا، فأظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر والضلال. وذلك إنذار واضح ووعيد شديد للمنافقين والمنافقات، كما في هذه الآيات الآتية:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا(١) نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ(٢) قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ(٣) لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ(٤) وَتَرَبَّصْتُمْ(٥) وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ(٦) حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ(٧) ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ(٨) وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٣-١٥].

يوم يقول المنافقون: متعلّق بآخر الآية السابقة، فالعامل فيه هو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٩)، كأنه تعالى يقول: إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا وكذا، وهو عند انطفاء أنوارهم، فيقولون للمؤمنين: انتظرونا حتى نتّبعكم ولعلنا نستضيء بنوركم، ونخرج من هذا الظلام الدامس، فيجابون بما يخيب الآمال ويقال لهم من قبل الملائكة أو من المؤمنين:

ارجعوا إلى الدنيا التي تركتموها وراءكم، فالتمسوا النور بما التمسناه به، من الإيمان والعمل الصالح، وهذا تهكُّم بهم واستهزاء بطلبهم. وينتهي الحوار بأن يُضْرب بين المؤمنين وبين المنافقين سور أو حاجز، باطنه، أي جانبه الذي يلي أهل الجنة: فيه الرحمة، وهي الجنة ونعيمها، وظاهره البادي، أي جانبه الذي يلي المنافقين أهل النار، من جهته عذاب جهنم. فالرحمة: الجنة، والعذاب: جهنم.

(١) انتظرونا . (٢) نستضيء بنوركم . (٣) حائط حاجز بين الجنة والنار . (٤) امتحنتموها بالنفاق وأهلكتموها بالمعاصي . (٥) توقعتم الدواهي، وشككتم في أمر الله تعالى . (٦) طول الأمل وامتداد الأجل. (٧) الشيطان . (٨) مكان إيوائكم النار هي أولى بكم . (٩) وقال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٠١: يوم يقول: بدل من: يوم ترى. وهذا اصوب في تقديري .

وينادي المنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في دار الدنيا، نوافقكم في أعمالكم وعباداتكم في المساجد، وأداء مناسك الحج، وحضور معارك الجهاد، والعمل بأعمال الإسلام كلها. فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى قد كنتم معنا في الظاهر، ولكنكم اختبرتم أنفسكم، وأهلكتموها بالنفاق وإبطان الكفر، وتوقعتم الدواهي والمصائب بالمؤمنين، وشككتم في أمر الدين والبعث بعد الموت، ولم تصدِّقوا بما نزل به القرآن، ولا آمنتم بالمعجزات، وخدعتكم الأماني المعسولة الباطلة، حيث قلتم: سيُغفر لنا، وسيهلك محمد هذا العام، ستهزمه قريش، وغرَّكم طول الأمل وامتداد الأجل، حتى فاجاءكم الموت أو الفتح وظهور الإسلام، وخدعكم بالله الشيطان.

ففي هذا اليوم لا يقبل منكم أيها المنافقون فدية تفدون بها أنفسكم من النار أو العذاب، ولا أيضاً من الذين كفروا بالله ظاهراً وباطناً، منزلكم الذي تأوون إليه النار، هي أولى بكم من كل منزل، وبئس المصير الذي تصيرون إليه، وهو النار.

وقوله: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ قال المفسّرون: معناه: هي أولى بكم، وهذا تفسير بالمعنى، وإنما هي -كما قال ابن عطية- استعارة، لأنها من حيث تضمّهم وتباشرهم هي تُواليهم، وتكون لهم مكان المولى، أي الناصر والعون. وعلى هذا، فتكون كلمة ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ ظرف مكان بمعنى أنه مكانكم الذي يقال فيه: إنه أولى بكم.

إن هذا الحوار أو النقاش السابق وصفه في الدنيا قبل الآخرة إعجاز قرآني، وإنذار موجه لخير الإنسان، لأنه يبين نوع الجزاء المؤلم، وسببه الذي أدى إليه، فلا يبقى هناك مجال للوم أو الاعتذار، فمن أنذر فقد أعذر، وأدى ما عليه ليتجنب الأسباب المؤدية إلى الهلاك والخسران، في يوم لا تغيير فيه ولا تبديل في القضاء والحكم الحاسم.

إن النفاق مرض عضال يضرُّ بالأمة والمجتمع، كما يضرُّ بأهله الذين كانوا أغبياء أو حمقى أو ضعيفي نظر ووعي. ولقد عانى المسلمون في الصدر الأول من هذا المرض وأهله الذين كانوا شوكة للطعن من الخلف، لولا تأييد الله ونصره وإحباط مكائدهم.

الحضُّ على خشية الله والصدقات

لا تكفي المقارنة الوصفية أحياناً بين الأشياء والأحوال المتضادّة، مثل وصف جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، لذا كان المولى يتعهد أهل الإيمان بمزيد من التوجيه والنصح والإرشاد والتربية الفاضلة، ليكونوا دائماً عنواناً مشرِّفاً على رسالة الإسلام العظيمة، رسالة الخير والإنقاذ والنجاة للبشرية جمعاء. ومن هذا التوجيه القرآني للمؤمنين: حثُّ المؤمنين على ملازمة الخشوع وخشية القلب لمواعظ الله تعالى، وتحذيرهم من التشبه ببعض قساة القلوب الذين قطعوا صلتهم بأنبيائهم، وأهملوا أوامر دينهم ونواهيه، كما يتبين في هذه الآيات:

﴿أَلَمْ يَأْنِ(١) لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ(٢) قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ(٣) فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ(٤) وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ(٥) ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ(٦) عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد: ٥٧/١٦-١٩].

(١) ألم يحن أو يأت وقته. (٢) تخشى وتخاف وتلين. (٣) الزمن بينهم وبين أنبيائهم. (٤) أصبحت قاسية صلبة. (٥) خارجون عن حدود دينهم. (٦) الذين قتلوا في سبيل الله، وتشهد لهم الملائكة بالجنة.

أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه، عن عبد العزيز بن أبي رواد: أن أصحاب النّبي ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك، فنزلت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ..﴾ الآية.

في هذه الآية معنى الحضّ والتقريع، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن. والخشوع: اللين والذُّلّ لله تعالى، وهو هيئة تظهر في الجوارح (الأعضاء) متى كانت في القلب، فلذلك خصَّ الله تعالى القلب بالذكر. والمعنى: ألم يحن الوقت لكي تلين قلوب المؤمنين وترق عند سماع تذكير الله ووحيه؟ أو لأجل ذكر الله وقرآنه، أو لأجل تذكير الله تعالى إياهم وأمره فيهم، فيفهمون المطلوب ويطيعون الآمر والنّاهي وهو الله تعالى.

ولا يتشبهوا بحملة الكتاب الإلهي من قبلهم قبل نزول القرآن، حين طال عليهم الزمان والفجوة بينهم وبين أنبيائهم، فقست قلوبهم بذلك السبب، حتى صاروا لا يتأثرون بالموعظة، ولا بالوعد والوعيد، وبدَّلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واتَّبعوا أهواءهم، وكثير منهم خارجون عن حدود الله وأوامره ونواهيه، فصارت أعمالهم باطلة، وقلوبهم فاسدة.

ثم ضرب الله المثل في تأثير مواعظ القرآن، وهو كما أن الله يحيي الأرض بالنبات والغيث بعد جدبها، قادر على أن يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد الضلال، ببراهين القرآن وأدلته، فقد أوضحنا لكم الآيات والحجج، كي تتدبَّروها، وتعقلوا ما فيها من المواعظ، وتعملوا بها.

والثواب كبير على الصدقة في سبيل الله، فإن المتصدقين والمتصدقات بأموالهم على ذوي الحاجة والفقر، ودفعوا المال بنيّة خالصة، ابتغاء رضوان الله، يضاعف لهم الثواب، فتكون الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ولهم

فوق ذلك ثواب سخي كثير النفع، حسن العطاء والأثر. فقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ أي إن الذين تصدَّقوا.

والذين أقرّوا بوحدانية الله وصدقوا رسله، هم في منزلة الصِّديقين، قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صدِّيق. والصواب أنهم الذين سبقوا إلى الإيمان ورسخوا فيه. والذين استشهدوا في سبيل الله، لإعلاء كلمته ودينه، ولرفع راية الحق والتوحيد وأهله، لهم الثواب العظيم عند ربِّهم، والنور الموعود به الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم. فقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ خبر عن الشهداء فقط في قول، وخبر عن المؤمنين المذكورين في أول الآية في أكثر الأقوال. وهذا إشارة لصنفين من المؤمنين: وهم الشهداء والصِّدِّيقون، والصّنفان الآخران: الأنبياء والصّالحون، وهؤلاء الأربعة هم المذكورون في آية أخرى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النّساء: ٤/ ٦٩].

والصِّدِّيقون: مبالغة من الصِّدق أو من التَّصديق، وهم الذين سبقوا إلى الإيمان ورسخوا فيه.

والذين أنكروا وجود الله، وجحدوا وحدانيته، وكذبوا آياته وبراهينه الدالة على أُلوهيته الحقّة، وصدقِ رسله، أولئك لا غيرهم أصحاب النار خالدين فيها أبداً. وهذا حال الأشقياء، بعد التعرف على حال السعداء.

حال الدنيا وحقيقة الآخرة

زهَّد القرآن الكريم بالدنيا حتى لا تطغى على العمل للآخرة، ولأنها فانية زائلة، وأوضح حقيقة الآخرة، حتى يُقْبل العالم على الإيمان بها والإعداد لها، ولأنها خلود دائمة، والخالد أبقى وأجدى، فيفضل على المؤقت الزائل، ويحرص العقلاء أهل

الإيمان والتقوى على التنافس في عمل الآخرة، لأنها درجات يتفاضل فيها السعداء، وكلما كان المؤمن في درجة أعلى، والفردوس أعلى الجنان، كان أوفى نعمة، وأكثر غبطة، وهذا ما نجده في الآيات الآتية:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ(١) أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ(٢) نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ(٣) فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ(٤) وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ(٥) ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٠-٢١].

هذه آية وعظ وتبيين لأمر الدنيا وضَعَة منزلتها، والتعريف بحقيقة الآخرة ورفعة مكانتها للمؤمنين العاملين، وشدة عذابها للأشقياء الضّالين.

اعلموا أيها الناس جميعاً أن الحياة الدنيا مجرد لعب ليس فيها جِدّ يدوم، ولهو يتلهى به ثم يزول، وزينة يتزين بها مؤقتاً ثم يذهب، ومفخرة يتفاخر بها، وتكاثر في الأموال والأولاد ثم ينتهي من غير أثر. والحياة الدنيا في هذه الآية: عبارة عن الأشغال والتصرفات والأفكار المختصة بالدنيا، المجردة عن أي عمل صالح للآخرة.

واللعب واللهو شيء واحد، أو إن اللعب: ما لا فائدة فيه، واللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه. والزينة: التحسين الخارج عن ذات الشيء. والتفاخر: التباهي بالأنساب والأموال وغيرها. والتكاثر: هو الرغبة في الدنيا ومظاهرها وألوانها وعُدَدها، ليعتز بها الكاثر على من دونه.

والدنيا بهذه الأوصاف سبب البعد عن الدين، فهي التي يؤثرها ضعفاء النفوس

---

(١) مطر. (٢) الزراع. (٣) يتحرك وينمو. (٤) هشيماً متكسّراً من اليبس. (٥) تمتع الخديعة لمن أقبل عليها ونسي الآخرة.

والعقول على الآخرة، وحبها رأس كل خطيئة، وهي مركب الشيطان، وسبب قسوة القلب، وضعف الذّمة وقلّة التقوى، وكل ما فيها عرض زائل يخدع السُّذج والبسطاء، وما هي إلا كمثل مطر، أعجب الزّراعَ النبات الحاصل به، ثم يجفّ وييبس بعد خضرته، ثم يصير فتاتاً هشيماً متكسّراً بعد يبسه، تعصف به الرياح. والكفار هنا: الزّراع، لأنهم يكفرون، أي يسترون البذر في الأرض.

ونظير الآية كثير في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ. .﴾ [يونس: ١٠/ ٢٤].

ثم حذَّر القرآن من أمر الدنيا، ومن مخاطر ومهالك العذاب في الآخرة، ورغَّب في الاستعداد للظفر بالجنة والمغفرة والرضوان، فليس في الآخرة إلا أمران: إما عذاب شديد لأعداء الله والرُّسل، وإما مغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته. وما الحياة الدنيا إلا مجرد متاع يتمتع به، وخديعة لمن يغتر بها، ولم يعمل لآخرته. وقوله: ﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ معناه الشيء الذي لا يُعظِّم الاستمتاع به إلا مغتر.

والآخرة: مجال التّسابق في الخيرات والمبرات، لذا قال الله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ. .﴾ أي بادروا إلى ما يوجب المغفرة لكم من ربكم من الأعمال الصالحة والإيمان المنجي، وإلى ما يوصل إلى جنة عرضها مثل عرض السماء والأرض معاً، وقد عبَّر عن المساحة بالعرض، ولم يقصد أن طولها أكثر ولا أقل. وهذه الآية حجة عند جميع العلماء في الندب إلى الطاعات. وقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ معناه: كونوا في أول صف المسابقة في الجهاد وغيره من الطاعات والفرائض.

هذه الجنة أعدت وخلقت للذين صدقوا بالله ورسله، وعمل بما فرض الله عليه، واجتنب نَهْيه. وهذا دليل على أن الجنة مثل النار مخلوقة الآن معدَّة لأهلها.

ومن حظي بالجنة والمغفرة فذلك من فضل الله ورحمته، يؤتيه من يريد من عباده، والله صاحب الفضل العميم الواسع، ورحمته سبقت غضبه.

ألا إن الجنة غالية الثمن، وثمنها سهل بسيط وهو الإيمان والعمل الصالح والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، فتلك غراسها الطيبة.

المصيبة والقدر ونظام الحياة

الإسلام دين إيجابي وتنظيمي في آن واحد، وإيجابيته ظاهرة في العقيدة، خلافاً لتصوُّر الجهلة والعوام السُّذَّج، فإن من آمن بالقدر لا يعني اتّكاله على المقدَّر، لأنه يجهل ذلك، وإنما يكون إيمانه بالقدر مبعث الإقدام والجرأة والشجاعة، فلا يهاب الموت إذا قاتل العدو، لأن الموت لا يتقدم ولا يتأخر، وأن الإقدام لا يقتل، وإذا أنفق في سبيل الله، فلا يخشى الفقر، لأنه يوقن بأن الرازق هو الله، وأن الجود أو السخاء لا يفقر. والحياة منظمة بقانون إلهي شامل مبني على العلم والوعي والتخطيط، وإعداد القوة، والعدل في الحكم، ومجاهدة النفس من أجل صلاح النفس والمجتمع، وجهاد العدو الخارجي الذي لا يفهم بغير القوة. وهذه آيات تدلُّ على الإيجابية واحترام نظام الحياة:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ[١] فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ[٢] إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟[٣] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[٤] ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ[٥] وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ

(١) المصيبة لغة: كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، وفي العرف هي الشَّر. (٢) نخلقها. (٣) تحزنوا.
(٤) متكبِّر، مباه بماله أو جاهه. (٥) بالحجج الواضحات والبراهين والمعجزات.

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ(١) لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ(٢) وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٢-٢٥].

لا توجد مصيبة من خير أو شر في الدنيا، سواء في الأرض كالقحط والجدب، أو الغلاء وغير ذلك، أم في الأنفس كالأمراض والموت والفقر، وذهاب الأولاد وغير ذلك، إلا وهي مسطرة أو مدونة في اللوح المحفوظ، من قبل إيجاد الخليقة، إن إثباتها في اللوح المحفوظ مع كثرتها والعلم بها قبل وجودها سهل يسير على الله، غير عسير، لأن الله هو الخالق، وهو أعلم بما خلق، يعلم ما كان وما سيكون وما لا يكون إلى يوم القيامة. وخصّ الكلام بالمصيبة لأنها أهم على البشر، وهي بعض الحوادث، فدلَّ على أن جميع الحوادث خيرها وشرها معلوم عند الله، مدوّن في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، أي إن الكتاب السابق أزلي قبل هذه الأشياء كلها، وإن تحصيل هذه الأشياء كلها في كتاب.

أخبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم في الدنيا، ولا تفرحوا فرح بطر وأشر بما هو آت، فلا تأسوا على ما فاتكم، لأنه لو قدِّر شيء لكان، ولا تفرحوا بما جاءكم أو أعطاكم، فذلك كله من قدر الله ورزقه لكم، إن الله يعاقب كل مختال في نفسه، أي متكبِّر، فخور على غيره، مباه بماله أو جاهه.

والمختال غالباً يكون بخيلاً، لذا ذكر الله خصال البخلاء، فهؤلاء البخلاء الفخورون: هم الذين يبخلون عادة بأموالهم وإيمانهم وغير ذلك، فلا يؤدون حقَّ الله فيها، ولا يواسون فقيراً، بل إنهم يطلبون من غيرهم إمساك المال، ويرغِّبون الناس بالبخل بما يملكون، حتى يجعلوا لهم أشباهاً وأمثالاً، ومن يعرض عن

(١) الكتاب: ما أنزل الله من تشريع. والميزان: العدل. (٢) الحق والتعادل.

الإنفاق وعن أمر الله وطاعته، فإن الله غني عنه، محمود الذات في السماء والأرض عند خلقه، لا يضرّه ذلك، ولا يضرّ البخيل إلا نفسه.

إعراب: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ على مذهب الأخفش: صفة لكلمة كل في قوله: ﴿كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم الذين يبخلون، أو مبتدأ وخبره محذوف معناه الوعيد والذّم، وحذفه للإبهام.

ثم أوضح الله تعالى الغرض من بعثة الرُّسل وهو تنظيم شؤون الحياة، فقال: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ..﴾ أي تالله لقد أرسلنا رسلنا الملائكة إلى الأنبياء بالوحي، وبعثنا الأنبياء بالمعجزات البيِّنة والحجج الواضحات، وأنزلنا معهم الكتاب، أي جنس الكتاب الشامل لكل كتاب سماوي كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن، وأنزلنا معهم الميزان، أي العدل في الأحكام، أي أمرناهم به، ليتبع الناس ما أمروا به من الحق والعدل، وتقوم حياتهم عليه، فيتعاملوا بينهم بالإنصاف في جميع أمورهم الدينية والدنيوية.

وخلقنا الحديد وبقية المعادن، وجعلناه رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، ففيه قوة رادعة، وفيه منافع للناس ينتفعون به في كثير من حاجاتهم ومعايشهم، كأدوات الطعام، ومرافق المنازل وحياة الاقتصاد، وصناعة السلم والحرب وغير ذلك.

وهناك مضمر بعد قوله: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ تقديره: لينتفع الناس، وذلك مقدمة لما أظهره بعدئذ وهو ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ ليدلَّ على أن هذا هو المقصود.

إنما شرع الله ذلك ليعلم علم مشاهدة ووجود من ينصر دينه ورسله بإخلاص، باستعمال الحديد في أسلحة الجهاد ومقاومة الأعداء، إن الله قوي قادر، عزيز قاهر غالب، يستطيع دفع عدوان الظالمين، وينصر رسله والمؤمنين من غير حاجة إليهم.

إن إيجاد دولة قوية معززة بقيمها وأنظمتها وأنشطتها وقوة أبنائها، واعتمادها على ذاتها جهاداً وتضحيةً، وتصنيعاً وزراعة واتِّجاراً، هو ما أراده الله من إنزال الشرائع، وإرسال الرسل، وفيه الخير والعزة والمنعة والحفاظ على الكرامة والحقوق.

وحدة أصول الشرائع

أرسل الله تعالى الرسل بالبيِّنات والمعجزات لمهام عظمى، لإقامة نظام المجتمع القوي المتين الفاضل، بالكتاب الإلهي، والعدل، وصلابة الموقف وازدهار الصناعة، ثم أتبع ذلك ببيان وحدة الرسالات الإلهية والنُّبوات والشرائع في أصولها من عهد نوح وإبراهيم، ثم موسى وعيسى عليهم السّلام، إلى عهد خاتم النَّبيين صلوات الله وسلامه عليه، وهذا واضح في الآيات الآتية:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا(١) عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً(٢) ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ(٣) مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد: ٥٧/٢٦-٢٩].

المعنى: تالله لقد بعثنا نوحاً أبا البشر الثاني إلى قومه، وإبراهيم أبا الأنبياء إلى قوم

---

(١) أتبعنا، أي جعلناهم تابعين متأخرين عنهم في الزمان. (٢) هي المبالغة في العبادة واعتزال الناس.
(٣) نصيبين وحظّين.

آخرين، وجعلنا الرسالة والنُّبوة في ذرِّيتهما، وجعلنا الكتب المنزلة فيهما. والكتاب: يعني الكتب الأربعة، فإنها جميعاً في ذرِّية إبراهيم عليه السّلام. وذكر نوح وإبراهيم تشريف لهما، وبيان نعم الله عليهما، ثم على ذرِّيتهما. ومع ذلك من ذرِّيتهما من فسق وعاند، وهم الكثيرون، ومنهم المهتدون الطائعون. وهذا يدلُّ على أن الانحراف عن جادة الحق، كان بعد التمكُّن من معرفته.

ثم أتبعنا بعدهم في الزمان رسلنا، واحداً بعد الآخر، ثم خصَّ الله تعالى عيسى ابن مريم بالإتباع تشريفاً له، ولشهرته في عصر التنزيل القرآني، وأن الله آتاه الإنجيل، وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه، متضمناً أصول شرعه، ومكملاً للتوراة، وموضحاً حقيقة الشريعة. ومن صفات عيسى عليه السّلام: أن الله جعل في قلوب أتباعه الخلَّص: وهم الحواريون وأنصارهم رقّة في الطبع، ورحمة بالخلق، خلافاً لليهود القساة، لكنهم ابتدعوا الرهبانية من جهة أنفسهم: وهي الانقطاع للعبادة ورياضة الروح واعتزال الناس، ولم يشرعها الله لهم ولم يأمرهم بها، ولكنهم قصدوا من ذلك ابتغاء رضوان الله، وكان مآلهم أمرين: أولهما- أنهم ابتدعوا في دين الله ما لم يأمر الله به، والثاني- أنهم لم يقوموا بحقِّ ما التزموه، ولم يراعوا كونه قربة لله عزّ وجلّ، ولم يرعوه حق الرعاية، بل غيَّروا وبدَّلوا، فأعطينا المؤمنين منهم إيماناً صحيحاً ثوابهم الذي يستحقونه بالإيمان، وكثير من هؤلاء المترهبين فاسقون خارجون عن حدود الله وطاعته، يأكلون الأموال بالباطل، وينحرفون في سلوكهم.

وناسب ماذكر: الاتِّعاظ والاعتبار وبيان ثواب المؤمنين بعيسى ومحمد عليهما الصَّلاة والسّلام، فقال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ..﴾ أي يا أيها الذين صدَّقوا بوجود الله ووحدانيته، وصدَّقوا رسوله من مؤمني أهل الكتاب: اليهود والنصارى، خافوا الله تعالى، بترك ما نهاكم عنه، وأداء ما أمركم به، وآمنوا

برسوله محمد ﷺ، يعطكم الله نصيبين أو ضعفين من رحمته، بسبب اكتمال إيمانكم، ويزيدكم على ذلك أنه يجعل لكم نوراً تمشون به على الصراط، تهتدون به في الآخرة، ويغفر لكم ذنوبكم، والله واسع المغفرة والرحمة.

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: لما نزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٤] فَخَر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النَّبي ﷺ فقالوا: لنا أجران، ولكم أجر، فاشتد ذلك على الصحابة، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ..﴾ الآية، فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب، وزادهم النور.

ثم ردَّ الله تعالى على اليهود الذين زعموا اختصاص النُّبوة فيهم، فقال: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ..﴾ أي اتَّقوا الله وآمنوا، يؤتِكم الأمور الثلاثة المتقدمة (وهي مضاعفة الأجر، وإيتاء النور، وغفران الذنوب) ليعلم ويتحقق الذين لم يتقوا ولا آمنوا من أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على ردِّ ما أعطى الله لرسوله، ولا إعطاء ما منع عنه، وهم عاجزون من أن ينالوا شيئاً من فضل الله الذي تفضَّل به على المستحقين له، كالنُّبوة والرسالة وغيرهما، وأن الفضل محصور بيد الله، ومنه النُّبوة والعلم والتقوى، يعطيه من يشاء، والله واسع الفضل، كثير العطاء والخير لمن يشاء من عباده. والمراد: أن إيمان أهل الكتاب بكتابهم ورسولهم لا يكفي، ما لم يؤمنوا بالنَّبي محمد ﷺ.

أخرج ابن جرير عن قتادة قال: بلغنا أنه لما نزلت: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ حسد أهل الكتاب المسلمين عليها، فأنزل الله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية.

تفسير سورة المجادلة

الظِّهار حكمه وكفّارته

كانت في الجاهلية العربية تشيع عادات وأحكام غريبة، سواء في نظام المجتمع القبلي كعادة الأخذ بالثأر وحبّ الانتقام والتهور في الشجاعة، أو في علاقات الأسرة العربية كأنظمة الزواج الجاهلي المشترك، وحرمان المرأة من الميراث، وتحريم المرأة بالظِّهار تحريماً أبديّاً، فلما جاء الإسلام ألغى بعض الأنظمة، وعدَّل بعضها، وأبقى بعضها مثل تحمُّل العاقلة (العصبة) دية القتل الخطأ، ومن الأحكام التي عدَّلها جعل الظِّهار يفيد التحريم المؤقت وينتهي بالكفارة، لأنه إثم من القول وزور، كما جاء في مطلع سورة المجادلة المدنية النزول بالاتِّفاق، في الآيات الآتية:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ(١) مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ(٢) وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ(٣) ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١-٤].

(١) أي يقولون لنسائهم: أنت علي كظهر أمي. (٢) ذلك قول ينكره الشرع، وكذب وبهتان. (٣) فإعتاق رقيق من قبل العودة للاستمتاع بالمرأة.

أخرج الحاكم وصححه عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خَوْلة بنت ثعلبة، و يخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وتقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثَرت له بطني، حتى إذا كبِرت سنّي، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا..﴾ وهو أوس بن الصامت.

لقد قَبِل الله شكوى المرأة التي تراجعك الكلام أيها النَّبي في شأن زوجها الذي ظاهر منها، قائلاً لها: «أنتِ علي كظهر أُمّي» أي في الحرمة، وتشتكي إلى الله ما أغمها وأحزنها، والله يسمع ما تتراجعان به من الكلام، إن الله يسمع كل مسموع، ويبصر كل مُبْصَر على الوجه الأتم الأكمل، ومن ذلك محاورة هذه المرأة معك نبي الله. والمحاورة: مراجعة القول ومعاطاته. والشكوى: الإخبار عن مكروه أصابك.

ثم وبَّخ الله المُقْدمين على الظِّهار، فالذين يشبِّهون أزواجهم بأُمّهاتهم، بقولهم لهنّ على لسان الواحد منهم: أنتِ علي كظهر أُمي ونحوه، أي في التحريم، ليست نساؤهم بأُمهاتهم، فذلك كذب منهم، لأن الأُمهات في الحقيقة هنّ اللواتي ولدنهم فقط. وإنهم ليقولون قولاً ينكره الشَّرع، ويقبحه، وهو كذب محض وبهتان، وإن الله تعالى واسع المغفرة والعفو لمن تاب وأناب، إذ جعل الكفارة عليهم مخلِّصة لهم عن هذا المنكر. فوصْفُ الزوجة وتشبيهها بالأم خبر مزوَّر مكذوب، لا يغيِّر الحقيقة، وهذا يدلُّ على أن الظِّهار حرام موجب للإثم والمعصية. وقد كان الظِّهار طلاقاً في الجاهلية، يوجب التحريم المؤبّد.

وكفّارة الظِّهار لمن يريد نقضه والعودة لحالته الطبيعية مع زوجته، من إرادة الاستمتاع: هو عتق رقبة كاملة لا بعضها، وهي هنا مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وبه

أخذ الحنفية والظاهرية. وقيّد بقية العلماء الرقبة بوصف الإيمان، كما هو المقرَّر في كفّارة القتل الخطأ حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: ٤/ ٩٢]، من طريق الإلحاق أو القياس، والمسمى في أصول الفقه: حمل المطلق على المقيد، بسبب الاتّحاد في السبب بين القتل والظِّهار، فيتّحدان في الحكم.

وذلك من قَبْل التماس، أي العودة إلى الجماع، والله تام العلم والخبرة بما تعملون. وذلكم، أي الإلزام بالكفارة عظة لكم لتنتهوا عن الظِّهار. وهذا تحذير من التقصير في الكفارة. والمسيس في رأي الحسن البصري والثوري وجماعة: هو الوطء، ويجوز غيره من أنواع الاستمتاع. واتّجه الجمهور إلى تعميم الحكم على منع الوطء والمباشرة بأنواعها من تقبيل ومضاجعة واستمتاع بأعلى المرأة كالحيض، فلا يجوز للمظاهر أن يطأ ولا يقبِّل ولا يلمس بيده ولا يفعل شيئاً من هذا النوع إلا بعد الكفارة.

فمن لم يجد الرقبة في ملكه أو ملك غيره، بأن لم توجد كما في عصرنا، أو لم يجد ثمنها، فيجب عليه صيام شهرين متتابعين متواليين من غير تفريق لا يفطر فيهما، إما بصيام ستين يوماً تباعاً، أو بأن يصومهما بالأهلّة، يبدأ مع الهلال ويفطر مع الهلال، فإن أفطر يوماً أو أكثر بغير عذر، أو جامع المرأة، استأنف من جديد صيام الشهرين في رأي الجمهور، وقال الشافعي وأبو يوسف: لا يستأنف إذا وطئ ليلاً، لأنه ليس محلاً للصوم. ولا ينقطع التتابع عند المالكية إذا أفسد الصوم لعذر غالب كالمرض والنسيان ونحوه، وينقطع عند الحنفية والشافعي في المذهب الجديد. فمن لم يستطع الصوم لشيخوخة أو مرض مزمن أو لمشقة شديدة، فعليه إطعام ستين مسكيناً، لكل مسكين مدّان من القمح (أو نصف صاع من القمح) عند الحنفية،

وصاع(١) من تمر أو شعير كالفطرة، ومُدّ وثلثان من القمح إن اقتاتوه عند المالكية، ومدّ من قمح أو نصف صاع من تمر أو شعير عند الشافعية والحنابلة. والطعام: هو غالب قوت البلد. ومن العلماء من يرى إطعام مدّ بمدّ النّبي ﷺ.

ذلك الترخيص والتسهيل من النقل من تحرير رقبة إلى الصوم والإطعام، وتشريع الكفارة بسبب الظِّهار، لتصدقوا بشرع الله وأمره، وتلك حدود الله، فالتزموها وقفوا عندها، وللكافرين المتجاوزين حدود الشرع عذاب مؤلم شديد على كفرهم، وهو نار جهنم، وعذاب في الدنيا، وهذا وعيد وتهديد.

وعيد المعادين لله ورسوله

امتدح الله تعالى بعد آيات الظِّهار المؤمنين الواقفين عند حدود الله، ثم أتبعه بوعيد المعادين لأمر الله ورسوله بالإهانة في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، إذ لا تخفى على الله خافية منهم، أو حال من أحوالهم في السِّر والعلن، وسوف ينبئهم الله بأفعالهم يوم القيامة والحساب، ويجازيهم على ما قدَّموا من أعمال. فنزلت هذه الآيات في شأنهم، وهم المنافقون وقوم من اليهود كانوا في المدينة يحتكّون بالنَّبي ﷺ، وينتظرون به وبالمؤمنين الشَّر، ويدبِّرون المؤامرات، ويتمنون فيهم المكروه، ويتناجون بذلك، نزلت هذه الآيات بهم إلى آخر النجوى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ(٢) ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ(٣) كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ(٤) وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ(٥) ۝٥ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ(٦) ۝٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا

(١) المدّ: ٦٧٥ غم، والصّاع: ٢٧٥١ غم. (٢) أي يعادون ويشاقون. (٣) أهينوا وذلّوا. (٤) أدلة وعلامات واضحات تدلُّ على صدق النّبي ﷺ. (٥) ذو إهانة وإذلال. (٦) مطّلع لا يغيب عنه شيء.

يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ[١] ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

[المجادلة: ٥٨/ ٥-٧].

إن الذين يعادون، و يخالفون أوامر الله والرسول، ويعاندون الأحكام والشرع، أذلّوا وأهينوا، كما أذلّ المنافقون السابقون من قبلهم من كفار الأمم الغابرة، بسبب معاداة شرع الله تعالى، وفي ذلك تبشير بنصر المؤمنين على من عاداهم، ووعيد لكل من يهجر شريعة الله، وقد أنزلنا في هذا القرآن للناس آيات واضحات، دالّة على صدق الرسول ﷺ، لا يخالفها إلا كل كافر معاند، وللجاحدين بتلك الآيات، المستكبرين عن اتّباع شرع الله والانقياد له: عذاب يهين صاحبه ويذلّه، بسبب كفره واستكباره، وذلك العذاب هزيمة وهوان في الدنيا، ونار جهنم في الآخرة.

والمحادّة: أن يكون كل واحد من المتعاديين في حد أو جهة، والآخر في حدّ أو جهة مغايرة أو مخالفة. وكبت الرجل: إذا بقي حزنان يبصر ما يكره، ولا يقدر على دفعه.

اذكر أيها الرسول ذلك اليوم الذي يأتي فيه العذاب، وهو يوم القيامة، تعظيماً له، وأخبر بأن لهم عذاباً مهيناً يوم يحشرهم الله جميعاً من الأولين والآخرين في يوم الحساب، مجتمعين في حال واحدة، فيخبرهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا، لإقامة الحجة عليهم، فقد حفظ الله وضبط كل ما صنعوا من خير أو شرّ، والله سبحانه مطّلع على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء. وهذا وعيد وإنذار.

ألم تعلم أيها النّبي وكل مخاطب أن علم الله واسع شامل، محيط بكل شيء في

(١) تناجي أو مسارّة .

الأرض والسماء، بحيث لا يخفى عليه شيء مما فيهما، فما يوجد من تناجي أو تسارر ثلاثة أشخاص إلا كان الله رابعهم، مطَّلع عليهم، يسمع كلامهم وسرَّهم ونجواهم، ولا خمسة أفراد إلا كان الله سادسهم بالعلم والقدرة والإحاطة، ولا أكثر من هذا العدد مهما بلغ ولو ملايين إلا كان الله معهم، عليم بهم وبأقوالهم وأسرارهم، في أي مكان وأي زمان، ثم يخبرهم الله بكل ما عملوا يوم القيامة، إن الله واسع العلم بكل شيء، وسع علمه وسمعه وبصره السماوات والأرض وما بينهما.

وكلمة ﴿نَجْوَىٰ﴾ إما أن يكون المراد به جمعاً من الناس، أي أُولو نجوى، ويكون قوله تعالى بعدها: ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ على هذا بدلاً من ﴿نَّجْوَىٰ﴾ أو صفة، أو يكون (النجوى) مصدراً محضاً وهو التناجي، فيقدر قبل (أدنى) فعل، تقديره: ولا يكون أدنى.

والسبب في ذكر الثلاثة والخمسة وإهمال ذكر الاثنين والأربعة: هو إما تصوير الحالة الواقعية التي نزلت الآية بسببها، فإنها نزلت في قوم منافقين، اجتمعوا على التَّناجي مغايظة للمؤمنين، وكانوا على هذين العددين. وإما أن طبيعة المشاورة تتطلب وجود عدد وتر، فيكون الاثنان أو الأربعة وغيرهما من الأرقام الزوجية يمثلان التنازع، والثالث والخامس كالمتوسط الحكَم بينهم، فذكر سبحانه الثلاثة والخمسة تنبيهاً على الأفراد والمجموعات الباقية.

وقد أجمع المفسّرون على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك.

وقد جمعت هذه الآية بين جميع وسائل العلم، فإنه مع علم الله تعالى وسمعه وبصره بكل شيء هو سبحانه وتعالى مطَّلع على جميع أمور خلقه، ومحيط علمه بكل كائن صغير أو كبير، كما جاء في ختام الآية: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا إعلام لمن يتناجون بالسوء والمكر، على سبيل التوبيخ لهم والتبكيت وإلزام الحجة.

قال الإمام أحمد: افتتح الله الآية بالعلم، واختتمها بالعلم. ومن المعلوم أن العالم بالأسرار والقدير على اتخاذ القرار يفعل ما يشاء بالناس، مما يقتضي الحذر والالتزام بمرضاة العالم.

آداب المناجاة

تابع الله تعالى في كلامه عن النَّجوى أو المسارّة بين الأفراد بيان حال الذين نهوا عن النَّجوى وهم اليهود والمنافقون، ثم عودتهم إلى المنهي عنه، وتحيتهم بالسوء للنبي ﷺ قائلين له: السّام عليك، أي الموت، مما أوجب تهديدهم بدخول جهنم. وناسب ذلك التعريف بآداب المناجاة الاجتماعية، من الامتناع عن التناجي بالإثم والعدوان، والإلزام بالتناجي بالبر والتقوى، أي بالخير، وفعل كل ما يقي الإنسان عذاب النار، من فعل الطاعات وترك المعاصي والمنكرات، فقال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ(١) وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ(٢) بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ(٣) جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا(٤) فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٥) ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٨-١٠].

---

(١) الإثم: بالمعصية، والعدوان: الاعتداء على الآخرين. (٢) خاطبوك بالتحية، وهي الدعاء له بالحياة، ومنه التحيات لله: البقاء. (٣) كافيهم عذاب جهنم. (٤) يدخلونها ويصطلون بحرِّها. (٥) تجمعون للجزاء.

الآية الأولى نزلت في قوم من اليهود، نهاهم رسول الله ﷺ عن التَّناجي بحضرة المؤمنين، وإظهار ما فيه ريبة من ذلك، فلم ينتهوا، فنزلت هذه الآية. أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيّان قال: كان بين النَّبي ﷺ وبين اليهود موادعة، فكانوا إذا مرَّ بهم رجل من الصحابة، جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظنّ المؤمن أنهم يتناجون بقتله، أو بما يكرهه، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ الآية. وقال ابن عباس: نزلت في اليهود والمنافقين.

والمعنى: ألم تعلم وتنظر إلى الذين نهيتُهم عن التَّناجي والمسارّة بالسوء، ثم عودتهم إلى ما نهيتهم عنه، وهم اليهود والمنافقون، كما ذكر في سبب النزول. ويتسارّون فيما بينهم بما هو معصية وذنب كالكذب، واعتداء وظلم للآخرين، وعدوان على المؤمنين، وتواصٍ بمخالفة النبي ﷺ.

وإذا أتى إليك بعض اليهود حيّوك بتحية سوء، لم يحيّك بها الله مطلقاً، فيقولون: السّام عليكم يا محمد، والسّام: الموت، يريدون بذلك السّلام في الظاهر، وإنما يعنون الموت في الباطن، فيجيبهم النَّبي ﷺ بقوله: وعليكم، فسمعتهم عائشة رضي الله عنها يوماً، فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما، فقالت: بل عليكم السّام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة، إن الله يكره الفحش والتَّفحش، قالت: أما سمعتَ ما قالوا؟ قال: أما سمعتِ ما قُلتُ لهم؟ إني قلت: وعليكم.

ثم كشف الله تعالى خُبث طويتهم والحجة التي إليها يستريحون، وذلك أنهم كانوا يقولون، أي المنافقون وبعض اليهود الذين تخلّقوا بخلقهم،: نحن الآن نلقى محمداً بهذه الأمور التي تسوؤه ولا يصيبنا سوء، ولا يعاقبنا الله تعالى بذلك، ولو كان نبيّاً لهلكنا بهذه الأقوال، وجهلوا أن أمرهم مؤخر إلى عذاب جهنم، فأخبر الله تعالى بذلك، وأنها كافيتهم، أي إنهم قالوا ذلك المقال، فجاوبهم الله: بأن جهنم تكفيهم، يدخلونها، فبئس المرجع والمآل: وهو جهنم.

ثم ذكر الله تعالى آداب المناجاة، حتى لا يكون المؤمنون مثل اليهود والمنافقين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾ أي يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله -والإيمان يقتضي امتثال أمر الله، والبعد عما ينافي العقيدة- إذا تحدَّثتم سرّاً فيما بينكم، فلا تفعلوا مثلما يفعل الجهلة من اليهود والمنافقين، من التَّناجي بالمعصية والذنب، والاعتداء على الآخرين وظلمهم، وعصيان النبي ﷺ ومخالفته.

وتحدَّثوا بما هو طاعة وترك معصية، وبما فيه خير واتِّقاء الله فيما تفعلون وتتركون، فإنكم إليه تُجمعون يوم القيامة للحساب، فيخبركم بأعمالكم وأقوالكم، ويحاسبكم عليها. وهذه وصية للمؤمنين بألا يكون منهم تناج في مكروه، وذلك عامٌّ جميع الناس إلى يوم القيامة.

ثم ذكر الله تعالى أن التَّناجي والشيطان لا يضرُّ أحداً إلا بإذن الله، أي إنما التَّناجي بالسوء من تزيين الشيطان ووسوسته، للإساءة للمؤمنين وإيقاعهم في الحزن، بإيهامهم أنهم في مكيدة يُكادون بها، وليس الشيطان أو التَّناجي الذي هو منه بتحريضه، بضارّ أحداً من المؤمنين إلا بإذن الله، أي بأمره وقدره، ثم أمر الله تعالى المؤمنين بالتوكُّل على الله ربِّهم، وتفويض الأمر إليه في جميع شؤونهم، والاستعاذة بالله من الشيطان، وترك المبالاة بما يزيِّنه من النجوى. لذا قال الرسول ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث، فإن ذلك يُحزنه».

أدب المجالسة والتصدُّق قبل مناجاة الرسول ﷺ

منع الإسلام من التَّناجي سرّاً أو بالإثم والعدوان، حفاظاً على الثقة والبعد عن الريبة والشك، وتبييت الغدر، والطعن، وأمر في المجالس بالتوسع، للتعاون والمحبة

والودّ واحترام الآخرين. وكل ذلك لإشعار المسلمين أنهم في الواقع إخوة أمناء وأحبّاء، وصف واحد أمام الأعداء، حديثهم واضح لا غش فيه، ومجلسهم قائم على المساواة وتبادل الاحترام، وكان في صدر الإسلام الأمر بالتصدُّق قبل مكالمة النَّبي ﷺ توقيراً له وتعظيماً، ثم رُفع ذلك، دفعاً للحرج وتيسيراً على جميع المؤمنين. وهذا مقرر في الآيات الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ(١) فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ(٢) فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ(٣) أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١١-١٣].

قال زيد بن أسلم وقتادة: نزلت (آية الأمر بالتَّفسح) بسبب تضايق الناس في مجلس النَّبي ﷺ وذلك أنهم كانوا يتنافسون في القرب منه وسماع كلامه والنظر إليه، فيأتي الرجل الذي له الحق والسّن والقَدْم (التقدم) في الإسلام، فلا يجد مكاناً، فنزلت الآية بسبب ذلك.

يا أيها المصدِّقون بالله ورسوله، إذا طلب منكم التوسع في المواضع أو المجالس، فليفسح بعضكم لبعض، وليوسع أحدكم للآخر، يوسع الله لكم في جنته ورحمته. فالسُّنة المندوب إليها هي التفسُّح، أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي

(١) توسَّعوا فيها يوسِّع الله عليكم في رحمته وجنَّته . (٢) انهضوا أو ارتفعوا وتنحّوا عن مواضعكم للتوسعة على القادمين . (٣) أخفتم الفقر من ذلك؟

والدارمي وأحمد، عن أبي هريرة: أن النَّبي ﷺ قال: «لا يُقِم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، فيجلس فيه، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا».

فيكون القيام من المجلس منهيّاً عنه، لهذا الحديث. أما القيام إجلالاً للقادم فجائز بالحديث الذي أخرجه البخاري وأبو داود وأحمد، عن أبي أُمامة بن سهل: أن النَّبي ﷺ حين أقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه قال: «قوموا إلى سيدكم». وواجب على المعظَّم ألا يحبّ ذلك ويأخذ الناس به، لحديث أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن معاوية: «من أحبَّ أن يتمثَّل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار».

وإذا قيل لكم ارتفعوا وقوموا من المجلس، فافعلوا ذلك، وقد نزلت الآية آمرة بالقيام من المجلس، متى فهم ذلك بقول أو فعل، تمكيناً من جلوس آخرين.

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل: أنها نزلت يوم الجمعة، وقد جاء ناس من أهل بدر، وفي المكان ضيق، فلم يُفْسَح لهم، فقاموا على أرجلهم، فأقام ﷺ نفراً بِعُدَّتهم، وأجلسهم مكانهم، فكره أولئك النفر ذلك، فنزلت آية ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

وعلّة الأمر بالقيام للآخرين، وهو جواب الأمر بالنشوز أو النهوض: هو أن الله تعالى يرفع منازل المؤمنين في الدنيا والآخرة، بتوفير نصيبهم فيها، ويرفع أيضاً بصفة خاصة منازل العلماء درجات عالية، في الكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، فمن جمع الإيمان والعمل رفعه الله بهما درجات، ومنه الرفع في المجالس، والله خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه، مطَّلع على أحوال ونوايا جميع عباده، ومجازيهم عليها بما يناسب، من خير أو شرّ.

ثم أمر الله تعالى بالصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ. أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقّوا عليه، فأراد

الله أن يخفف عن نبيّه، فأنزل: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ فلما نزلت، صبر كثير من الناس، وكفّوا عن المسألة، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ الآية.

والمعنى: يا أيها الذين صدّقوا بوجود الله وتوحيده، وصدقوا برسالة رسوله، إذا أردتم مناجاة النَّبي ﷺ أو مساررته في أمر من أموركم، فقدِّموا قبل المناجاة صدقة، تصدّقوا بها، لتعظيم النَّبي ﷺ، والتَّخفيف عنه، ونفع الفقراء. ذلك، أي تقديم الصدقة قبل المناجاة، خير لكم، لما فيه من طاعة الله وامتثال أمره، والثواب الأُخروي، وأزكى لنفوسكم بتطهيرها من الشُّح والبخل وحبّ المال، ونفع الفقراء، فإن لم يجد أحدكم تلك الصدقة، فلا حرج عليكم بالمناجاة بدون صدقة، والله واسع المغفرة والرحمة لأهل الطاعة.

ثم رفع الله تعالى الحكم السابق بقوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ أي أخفتم الفقر من تقديم الصدقات قبل مناجاة نبيّكم ﷺ، قال مقاتل: إنما كان ذلك عشر ليال، ثم نسخ، بما يلي.

ومعناه: وحين لم تفعلوا ما أمرتكم به من الصدقة قبل النجوى لثقلها عليكم، ورخَّص الله لكم في الترك والمناجاة من غير صدقة، فثابروا واثبتوا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإطاعة الله ورسوله، والله خبير محيط بأعمالكم، فمجازيكم عليها.

وليس في الآية ما يدلُّ على وقوع تقصير من الصحابة في تقديم الصدقة، فقد يكون عدم الفعل، لأنهم لم يناجوا. ولا يدلُّ قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ على أنهم قصَّروا، لأن المعنى أنه تاب عليهم برفع التكليف عنهم تخفيفاً، ومثل هذا يمكن التعبير عنه بالتوبة.

موالاة الأعداء

حذَّر القرآن المؤمنين من موالاة غيرهم ممن لا يريد بهم إلا السوء أو الشَّر، وذلك حفاظاً على وحدة الأمة ورعاية مصالحها، وإغلاق المنافذ للنفاذ بين جيوب الصف الإيماني من أجل إفساده وبذر بذور الفتنة والفرقة بين فئاته. وهذا مبدأ أساسي في السياسة الخارجية والداخلية، لا تستغني عنه أمة من الأمم، وكما جاء في كلام الله عزّ وجلّ في هذه الآيات:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً[(١)] فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ[(٢)] ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ[(٣)] عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ[(٤)] هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ[(٥)] ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ[(٦)] ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ[(٧)] مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ[(٨)] ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ[(٩)] ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١٤-٢٢].

---

(١) وقايةً وستراً يتستّر به ويُتّقى المحذور ومنه المِجَن: وهو الترس . (٢) ذو إهانة، من الهوان . (٣) استولى عليهم وغلب على أفكارهم . (٤) أتباعه وأنصاره . (٥) يعادون ويعطون الحدّ من الأفعال والأقوال . (٦) غالب قاهر . (٧) يصادقون ويوالون . (٨) أهلهم وقراباتهم . (٩) بقوة وطمأنينة منه .

الآية الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ نزلت في قوم من المنافقين تولوا قوماً من اليهود وهم المغضوب عليهم.

ومعناها: أخبرني عن حال هؤلاء المنافقين الذين تولوا اليهود ومالؤوهم في الباطن، ونقلوا إليهم أسرار المؤمنين، فموقفهم يدعو إلى العجب. لذا فإن الله سخط عليهم، وهم، أي المنافقون، في الواقع ليسوا من المؤمنين ولا من اليهود، ويحلفون، يعني المنافقين، بالأيمان الكاذبة، وهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، وأنه كذب لا حقيقة له.

هيّأ الله لهم العذاب المؤلم الشديد، وهو عذاب الآخرة، على أعمالهم السيئة المنكرة، ومن أهمها موالاة الكافرين، ومعاداة الكافرين، ساء الفعل القبيح فعلهم في الماضي. اتَّخذوا أيمانهم (جمع يمين) وقايةً وستراً لتغطية نفاقهم، وصون دمائهم، فانخدع بهم بعض الناس، ومنعوا الناس عن الإسلام، بسبب تثبيطهم وتهوين شأن المسلمين، فلهم عذاب مذلّ ذو إهانة في نار جهنم بسبب أيمانهم الكاذبة بالله تعالى.

لن تفيدهم أو تجديهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً من عذاب الله، وأولئك المتصفون بهذه الصفات هم أهل النار، لا يفارقونها، ويمكثون فيها على الدوام، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

اذكر لهم أيها النَّبي حين يبعثهم الله جميعاً من قبورهم أحياء، ويحشرهم يوم القيامة عن آخرهم، فلا يترك أحداً منهم، فيحلفون بالله عزّ وجلّ أنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا، ويظنّون أو يتخيّلون بجهلهم، في الآخرة، أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما ينفع أو يدفع الضُّر وتقبل منهم، كما ظنّوا في الدنيا، ألا إنهم بهذا التَّصور هم الكاذبون أشد الكذب فيما يحلفون عليه . نزلت في شأن منافق قال له النَّبي ﷺ : علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فقال:

ذرني آتك بهم، فانطلق، فدعاهم، فحلفوا له ما قالوا وما فعلوا، فأنزل الله: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا..﴾.

لقد استولى عليهم الشيطان وغلب على عقولهم فأنساهم ذكر الله، فتركوا أوامر الله والعمل بطاعته، أولئك -والإشارة لبعدهم في الغواية والضلال- جنود الشيطان وأتباعه، ألا إن أعوان الشيطان هم الخاسرون الهالكون، لأنهم باعوا الجنة بالنار، والهدى بالضلال.

إن الذين يعادون الله ورسوله، و يخالفون أوامر الله ونواهيه، هم لا غيرهم في عداد الأذلِّين المهانين. وقد قضى الله في الأزل أن الله ورسله هم الغالبون بالحجة وانتشار الإسلام، إن الله قوي على نصر رسله، غالب لأعدائه. وهذا تبشير بنصر المؤمنين على الكافرين.

قال مقاتل: لما فتح الله مكة للمؤمنين والطائف وخيبر وما حولها، قالوا: نرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن أبي: أتظنّون الروم وفارس كبعض القرى التي غَلَبتم عليها، والله إنهم لأكثر وأشد بطشاً من أن تظنّوا فيهم ذلك؟ فنزلت: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾

وشأن المؤمنين أنهم لا يوادّون أعداء الله، فلا تجد قوماً آمنوا بالله واليوم الآخر يصادقون من عادى الله تعالى ورسوله، حتى ولو كان المعادون من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم (قرابتهم أو قبيلتهم) التي ينتمون إليها، أي لا يجتمع في قلب واحد إيمان كامل مخلص مع موادّة الكفار، أولئك الذين يتجنّبون موادّة أعداء الله والرسول، ثبّت الله الإيمان الصحيح في قلوبهم، وقوّاهم بنصره وأفرغ الطمأنينة في نفوسهم، ويدخلهم ربهم جنات تجري من تحت قصورها الأنهار، ماكثين فيها على الدوام، وقد قبل الله أعمالهم ورضي عنهم، وفرحوا بما أعطاهم ربهم، أولئك هم

أنصار الله وجنده الذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه، وينصرون أولياءه، ألا إن هؤلاء الأنصار هم لا غيرهم الفائزون بالجنان والسعادة الأبدية.

قال الرازي: إن الأكثرين اتفقوا على أن قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا . .﴾ نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وإخبارِه أهل مكة بمسير النَّبي ﷺ إليهم، لما أراد فتح مكة.

تفسير سورة الحشر

إجلاء بني النَّضير من المدينة

كان اليهود بطوائفهم الثلاث في المدينة هم الذين بدؤوا بنقض العهد مع النَّبي ﷺ، وتواطؤوا مع المشركين الوثنيين على مكايدة النَّبي والمسلمين ومقاتلتهم، وأظهروا العداوة لهم، فحاصرهم رسول الله ﷺ، ثم صالحهم على الجلاء من المدينة، وكان حصارهم في ربيع الأول-السنة الرابعة من الهجرة.

أخرج الحاكم وصححه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم في ناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلَّت الإبل من المتعة والأموال إلا الحَلْقة وهي السلاح، فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مطلع سورة الحشر المدنية بالإجماع، وتسمى سورة بني النَّضير:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ(١) مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ(٢) مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم(٣) مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟(٤) وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ(٥) يُخْرِبُونَ

(١) نزّهه وقدّسه. (٢) في وقت الجمع الأول، والجمع الثاني: إخراجهم من خيبر إلى الشام. (٣) قلاعهم. (٤) من حيث لم يخطر لهم ببال. (٥) ألقي فيها الخوف.

بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ(١) لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟(٢) ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ(٣) أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ١-٥].

نزَّه الله تعالى عن كل نقص جميع الكائنات في السماوات والأرض، وسبَّحه إما على الحقيقة وذلك بما يتفق مع طبيعة الجمادات، وإما مجازاً، أي إن آثار الصنعة فيها والإيجاد لها كالتسبيح، وهو القوي المنيع الجناب، الغالب القاهر في ملكه، الحكيم في صنعه وقدَره وشرعه، يضع الأشياء في موضعها الصحيح.

ومن حكمة الله وقدرته: أنه سبحامه هو الذي قضى بإخراج الذين كفروا من الكتابيين وهم يهود بني النضير، من ديارهم في المدينة المنورة، في الجمع الأول والجلاء والإخراج، فكان أولُ جلاء من المدينة: هو الذي فعله رسول الله ﷺ، والجلاء الآخر أو الثاني من خيبر إلى الشام: هو الذي فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ما توقعتم أيها المسلمون أن يخرج بنو النضير من ديارهم من المدينة، لقوتهم ومنعتهم، وكانوا أهل حصون وقلاع، وعقارات وبساتين نخيل واسعة، وذوو عدد وعدة، فجاءهم أمر الله وبأسه وعقابه من جهة لم تخطر لهم ببال أنهم لن يُقْدَر عليهم، وهو أن الله أمر نبيَّه بإجلائهم وقتالهم، وألقى الخوف الذي يملأ الصدر في قلوبهم، فلم تكن آمالكم وظنونكم أنهم يخرجون ويتركون أموالهم لكم.

ولما أيقنوا بالجلاء، أخذوا يهدمون بيوتهم من الداخل، كيلا يستفيد منها المسلمون، كما دمَّرها المؤمنون من الخارج، فاتَّعظوا أيها العقلاء بما حدث، واعلموا أن الله يفعل مثل ذلك بمن غدر وخالف أمر الله ورسوله.

---

(١) الخروج الجماعي من الوطن . (٢) عادوه . (٣) نخلة .

ولولا أن قضى الله عليهم بالخروج والجلاء من الوطن على هذا النحو، لعذَّبهم في الدنيا بالقتل والسَّبي، كما فعل ببني قريظة سنة خمس للهجرة، بعد غزوة الخندق، وكما فعل بالمشركين يوم بدر في السنة الثانية، وبيهود بني قينقاع وإجلائهم عن المدينة عقب معركة بدر الكبرى، ولهم في القيامة عذاب شديد في نار جهنم. وسبب إجلاء بني النضير: محاولتهم إلقاء صخرة من فوق سطح على النَّبي ﷺ، مكان جلوسه بجوار جدار، فأطلعه الله تعالى بالوحي على مؤامرتهم، فقام ورجع إلى المدينة، وأمر بالتهيؤ لحربهم وإجلائهم عن المدينة، فحاصرهم ست ليال، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فطلبوا الصُّلح على الجلاء وتحميل الإبل أموالهم إلا السّلاح.

وإنما فعل الله بهم ذلك وهو الطرد والإجلاء، وتسليط المؤمنين عليهم، لأنهم عادَوْا الله ورسوله، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين، من البشارة بمحمد ﷺ، علماً بأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. ومن يعادي الله ورسوله بعدم الطاعة، ويتواطأ مع المشركين، وينقض العهد أو ميثاق الصحيفة على الأمن والسلام والتعايش الديني والاجتماعي، والاقتصادي، فإن الله يعاقبه أشد العقاب، ويعذبه في الدنيا والآخرة.

وفي أثناء الحصار: أمر النَّبي ﷺ بقطع نخل بني النضير وإحراقه، حتى لا يبقى لهم تعلُّق بأموالهم وأمل بالعودة، ونادوا: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيب من يصنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟! فنزل قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا. .﴾ الآية.

أي إن ما قمتم به من قطع النخيل وإحراقه، أو تركه قائماً دون قطع، فهو بأمر الله ومشيئته، وقد أذن بذلك، لإعزاز المؤمنين، وإذلال الرافضين للطاعة، وهم اليهود، ولإخزاء الفاسقين، أي الخارجين عن الحدود، الجاحدين بما أنزل الله تعالى على رسله. واللينة: النخلة.

فالآية ردّ على قول بني النّضير: إن محمداً ينهى عن الفساد، وها هو ذا يُفسد، فأعلم الله تعالى أن ذلك بإذنه، وليخزي الفاسقين من بني النضير.

حكم الفيء (أموال الأعداء)

ترتب على إجلاء بني النضير من المدينة وصلحهم على ترحيل أموالهم إلا السِّلاح: ظهور ما يسمى بالفيء، وهو الأموال التي أخذت منهم صلحاً، فلم تؤخذ بطريق القتال، لأن المقاتلة كانت قليلة، فأجري ذلك مجرى ما لم يحصل فيه قتال أصلاً، وخصَّ الله تعالى بتلك الأموال رسوله، يتصرف فيها بحسب ما يرى من المصلحة، فقسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم أبو دُجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصِّمة.

وهذا في الآيات الآتية المبينة حكم الفيء وطريقة تقسيمه في المصالح العامة:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ[1] عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ[2] وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ
ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ[3] بَيْنَ
ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ
وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو[4] ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن
قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ

(١) ما ردّه الله على رسوله من أموال بني النضير ونحوها، والفيء: ما أخذ من الأعداء بلا حرب. (٢) أي لم تأخذوه بطريق القوة بركوب الخيل، والإبل وهي الركاب خاصة. (٣) متداولاً بين الأغنياء. (٤) الذين سكنوا المدينة ولزموها، وهم مؤمنون.

أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ(١) وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ(٢) فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا(٣) لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩/٦-١٠].

هذا حكم قسمة الفيء، وإعلام أن ما أُخذ من بني النضير ومن فَدَك فهو خاص للنبي ﷺ، وليس على حكم الغنيمة التي تؤخذ من العدو بطريق العنوة أو القتال، وإنما حكمه حكم خمس الغنائم تصرف في المصالح العامة، فما ردّه الله تعالى على رسوله محمد ﷺ وصيَّره إليه من أموال الكفار بني النضير فهو آت من غير قتال، ولكن الله يسلِّط بقدرته وتدبيره رسله على من يشاء من أعدائه، فيأخذون أموالهم دون قتال، والله قادر على كل شيء، يفعل ما يشاء بمن يشاء. وفي ذلك قال عمر رضي الله عنه: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله ﷺ، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكان رسول الله ﷺ ينفق منها على أهله نفقة سنة، وما بقي منها جعله في السلاح والكُراع (الخيل) عُدَّة في سبيل الله تعالى.

ومصارف الفيء: هي أن كل ما ردّه الله تعالى على رسوله ﷺ من كفار أهل القرى، كقريظة والنضير وفدَك وخيبر، صلحاً من غير قتال، ولم ينتزع بإيجاف خيل (وهو السرعة في الجري) ولا ركاب وهي الإبل الخاصة، يحكم الله به بما يشاء، فيكون لرسول الله ﷺ في حياته، يتصرف به بحسب ما يراه من المصلحة، ثم يكون من بعده مصروفاً في مصالح المسلمين العامة. ويقسم خمسة أقسام: سهم الله تعالى ورسوله: هو للرسول في حياته، ولمصالح المسلمين من بعده، وسهم قرابة الرسول ﷺ: وهم بنو هاشم وبنو المطلب، وسهم اليتامى، وسهم المساكين، وسهم ابن السبيل (المسافر المنقطع عن بلده في سفره) والأربعة الأخماس الباقية لمصالح المسلمين

(١) حاجة. (٢) من يحمى ويمنع من بخل نفسه. (٣) حقداً وحسداً.

العامة. أما الغنيمة فيصرف خمسها لهؤلاء الأصناف الخمسة المذكورين في الآية، وآية الغنائم: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ . .﴾ [الأنفال: ٨/ ٤١]، والأربعة الأخماس الباقية للمقاتلين في المعركة.

وعلّة هذا التقسيم وحكمه: ألا يكون تداول الأموال محصوراً بين الأغنياء فقط، ولا يصيب الفقراء منه شيء، فيغلِب الأغنياء الفقراء، ويقسمونه بينهم، وهذا مبدأ إغناء الكل.

وما أمركم به الرسول ﷺ فخذوه، وما منعكم عنه فاتركوه، وخافوا الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، إن الله شديد العقاب لمن عصاه، وخالف أمره، وارتكب ما زجر عنه. ثم بيَّن الله تعالى حال الفقراء المستحقِّين للفيء، فسهم هؤلاء غير سهم الله والرسول، وهم فقراء المهاجرين الذين أُبعدوا من ديارهم وأموالهم، طلباً لمرضاة الله وفضله، وإعلاء كلمة الله ودينه، ونصرة الله ورسوله بجهاد الأعداء، هؤلاء المهاجرون هم الصادقون في إيمانهم، الذين صدَّقوا قولهم بفعلهم.

ثم يعطى سهم للأنصار الذين سكنوا المدينة دار الهجرة، من قبل مجيء المهاجرين، ويحبّون المهاجرين، ويواسونهم بأموالهم، ولا يجدون في أنفسهم حاجة أي حسَداً أو حقداً بسبب ما أُوتي المهاجرون دونهم، بل طابت أنفسهم بذلك، ويقدمون غيرهم على أنفسهم في حظوظ الدنيا، ولو كان بهم حاجة وفقر، ومن كفاه الله داء بخل نفسه ووقي من ذلك، فأدى ما يجب عليه شرعاً من زكاة أو حقّ، فقد فاز وظفر بكل المطلوب. والإيثار على النفس أكرم خلق.

والذين أَتَوْا في الزمان من بعد المهاجرين والأنصار، وهم التابعون لهم بإحسان يقولون: ربَّنا اغفر لنا، ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، وانزع من قلوبنا الغلّ أو الحقد والبغض والحسد للمؤمنين قاطبة، فإنك يا ربّ واسع الرأفة، كثير الرحمة،

فاقبل دعاءنا. قال الإمام مالك: إنه من كان له في أحد من الصحابة قول سوء أو بغض، فلا حظَّ له في الغنيمة أدباً له.

مواقف المنافقين واليهود في القتال

ضمّ التّكتل المعادي للمسلمين في صدر الإسلام فئاتٍ ثلاثاً: هم المشركون الوثنيون، والمنافقون واليهود، وهم الحلف الثلاثي لمعسكر الشّر والكيد، والتّآمر والعدوان، فقد جمعتهم المصالح، لمحاربة أهل القرآن وأتباع النّبي عليه الصّلاة والسّلام، وأظهروا مواقف عدوانية خطيرة، لا بدّ من صدِّها والوقوفِ ضدّها، ولم تمض إلا فترة زمنية قليلة إلا وانفرط عقد هذا الحلف المشبوه، وتبددت قوى أهله، وزال كيد أصحاب الكيد والضَّلال، قال الله تعالى واصفاً مواقف فئتين من هذا التّكتل، وهم المنافقون واليهود:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ[1] ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ[2] بَأْسُهُم[3] بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ[4] ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ[5] وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ[6] أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ١١-١٧].

(١) ليفرُّن هاربين منهزمين. (٢) أسوار، جمع جدار. (٣) حربهم، وشديد: متمكّن بيِّن. (٤) متفرقة متخالفة. (٥) عاقبة كفرهم. (٦) مصيرهما.

أخرج ابن أبي حاتم عن السدِّي قال: أسلم ناس من أهل قريظة، وكان فيهم منافقون، وكانوا يقولون لأهل النضير: «لئن أُخرجتم لنخرجنّ معكم» فنزلت هذه الآية فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ..﴾ نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول، ورفاعة بن التابوت، وقوم من منافقي الأنصار.

والمعنى: ألم تنظر نبي الله إلى هؤلاء القوم من المنافقين كعبد الله بن أبي، وعبد الله بن نَبْتل، ورفاعة بن زيد، وأمثالهم، حين بعثوا إلى يهود بني النضير: أن اثبتوا وتحصّنوا، أو تمنَّعوا، فإننا لا نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم، ولا نطيع في شأنكم ومن أجلكم أحداً ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم كمحمد وأتباعه، وإن طال الزمان، وإن قوتلتم لننصرنكم على أعدائكم، وكانوا كَذَبة فيما قالوا من ذلك، والله يشهد إنهم لكاذبون فيما وعدوهم به من الخروج والنصرة، إما لنيَّتهم المبينة ألا يفوا بما وَعَدوا به، وإما لأنهم لا ينفِّذون ما قالوا.

ثم فصَّل الله تعالى أخبارهم الكاذبة ومواقفهم الخادعة، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟﴾ أي تالله لئن أخرج يهود بني النضير من ديارهم، لا يخرج معهم المنافقون، ولئن قاتلهم المؤمنون لا يقاتلون معهم، ولئن قاتلوا معهم، لفرّوا هاربين منهزمين، ثم لا يصير الفريقان من المنافقين واليهود منصورين بعد ذلك، بل يذلُّهم الله و يخذُلهم، ولا ينفعهم نفاقهم.

إنكم أنتم أيها المسلمون أشدّ خوفاً ورهبة في صدور المنافقين واليهود من رهبة الله، فهم يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، بسبب أنهم قوم لا يعلمون قدر عظمة الله، حتى يخشوه تمام الخشية، ولو فقهوا لعلموا أن الله تعالى أحقُّ بالرَّهبة منه دونكم.

وأسلوب المنافقين واليهود في قتال المؤمنين أنهم لا يواجهون جيش الإسلام مواجهة، ولا يقاتلونهم مجتمعين، وإنما يقاتلونهم من وراء الحصون والقلاع، أو من خلف الأسوار التي يتستَّرون بها، لجبنهم ورهبتهم، وحربهم الدائرة بينهم شديدة، تظنهم جميعاً متوحِّدين، وهم متفرِّقون، لما بينهم من أحقاد وعداوات، ولأنهم قوم لا يعقلون الحق وأمر الله. وبأسهم: أحقادهم وأضغانهم.

ولهم أشباه ونظائر، فهؤلاء اليهود والمنافقون أصابهم مثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر، في السنة الثانية من الهجرة، ومثل ما أصاب من قبلهم من يهود بني قينقاع الذين أجلاهم النَّبي ﷺ من المدينة إلى أذرعات بالشام، بعد سنة ونصف من الهجرة، إنهم ذاقوا في زمان قريب سوء عاقبة كفرهم في الدنيا، ولهم عذاب مؤلم جدّاً في الآخرة. ولهم مثل آخر، فإنهم مثل الشيطان الذي سوّل للإنسان الشَّر، وأغراه بالكفر وزيَّنه له، وحمله عليه، فلما كفر مطاوعةً للشيطان، تبرأ الشيطان منه، وقال على وجه التَّبري من الإنسان: إني أخاف عذاب الله ربّ العالمين إذا ناصرتك، أي إن مثل هاتين الفرقتين من المنافقين وبني النضير كمثل الشيطان والإنسان، فالمنافقون مثلهم الشيطان، وبنو النضير مثلهم الإنسان.

فكان عاقبة الفريقين: فريق المنافقين واليهود، وعاقبة الشيطان الآمر بالكفر والإنسان المستجيب لوسوسة الشيطان: أنهما صائران إلى نار جهنم، خالدان فيها على الدوام، وذلك الجزاء وهو الخلود في النار هو جزاء الكافرين جميعاً.

التذكير بالآخرة

تكرر في القرآن الكريم كثيراً الأمر بتقوى الله التي هي التزام المأمورات، واجتناب المنهيات، وذلك فيما يقارب مئتين وأربعين مرة، إما بالأمر، أو بالخبر،

أو بالوصف والإشادة بالمتّقين، من أجل تربية الإنسان وتصحيح عقيدته وعبادته وسلوكه في الحياة، ورغَّب القرآن في الإعداد للجنّة، وحذَّر من عمل أهل النار، ووصف أهل الجنة المستحقين لها بالفائزين، وأهل النار بالفاسقين. وهذه آيات وعظ وتذكير وتقريب للآخرة. وتحذيرٍ ممن لا تخفى عليه خافية، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ(١) وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ(٢) ٱلۡقُدُّوسُ(٣) ٱلسَّلَٰمُ(٤) ٱلۡمُؤۡمِنُ(٥) ٱلۡمُهَيۡمِنُ(٦) ٱلۡعَزِيزُ(٧) ٱلۡجَبَّارُ(٨) ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ(٩) سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ(١٠) ٱلۡمُصَوِّرُۖ(١١) لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٥٩/١٨-٢٤].

يا أيها المصدِّقون بالله ورسوله، افعلوا ما أمرتكم به، واجتنبوا ما نهيتكم عنه، ولتتأمل نفس واحدة ما أسلفت ليوم القيامة، واتّقوا الله -وكرَّر الأمر بذلك للتأكيد- فإن الله مطَّلع على أعمالكم، ومجازيكم عليها كلها.

واحذروا أن تكونوا كالذين تركوا أمر الله، وأهملوا حقوق الله الواجبة على عباده، ولم يخافوا ربَّهم، فجعلهم ناسين أنفسهم بسبب نسيانهم لربِّهم، فلم يعملوا

(١) أي ليوم القيامة . (٢) المالك المتصرف في ملكه تصرُّفاً تامّاً . (٣) المنزه عن النقص أو الكامل الصفات والأفعال . (٤) ذو السلامة من كل نقص . (٥) المصدِّق رسله فيما بلَّغوه . (٦) الرَّقيب الحافظ لكل شيء . (٧) القوي الغالب . (٨) الذي أجبر خلقه على ما أراد . (٩) البليغ الكبرياء والعظمة . (١٠) الخالق: المقدِّر للأشياء، والبارئ: المنشئ من العدم . (١١) الموجد لصور الأشياء .

الأعمال الصالحة التي تنفعهم في المعاد، وتنجيهم من العذاب، أولئك هم التاركون حقوق الله، الخارجون عن حدود الله وطاعته.

ولا مساواة بين المحسنين والمسيئين، فلا يستوي مستحقّو النار، ومستحقّو الجنّة في حكم الله تعالى في الفضل والمنزلة، أصحاب الجنّة هم الناجون، الظافرون بكل مطلوب. وهذا ترغيب في العمل للجنة، وترهيب من العمل للنار. وهذه الآيات الثلاث كلها لتأكيد الأمر بالتقوى وطاعة الله تعالى.

وللقرآن عظمته البالغة ومواعظه المؤثرة، فلو أنزلنا هذا القرآن على جبل من الجبال، لرأيته مع كونه بالغ الصلابة، في غاية الخشوع والخضوع والانقياد لأمر الله، يكاد يتشقَّق من خوف الله وخشية عذابه، وهذه الأمثال المذكورة نضربها للناس جميعاً، لعلهم يتفكرون فيما يجب عليهم التفكُّر فيه، ويتَّعظوا بالمواعظ. وهذه موعظة بالغة للإنسان، وذمّ لأخلاقه في غفلته وإعراضه عن داعية الله تعالى، مع وجود الأوصاف لله التي توجب لمخلوقاته هذه الخشية.

ولقد عَظُم القرآن الكريم بعظمة صفات منزله، فالله هو الإله الواحد الذي لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، عالم بكل ما غاب عن الأحاسيس، وبكل ما هو مشاهَد محسوس، وهو ذو الرحمة الشاملة الواسعة، المنعِم بجلائل النِّعم ودقائقها.

والغيب: ما غاب عن المخلوقين ومنه الآخرة. والشهادة: ما شهدوه، ومنه الدنيا.

هو الله الواحد الأحد، وكرَّر ذلك للتأكيد والتقرير، والمالك لجميع الأشياء، المتصرِّف فيها على وجه التمام والكمال، الطاهر من كل عيب أو نقص، الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله، السالم من أي نقص وعيب ومن أي جور، أي ذو السّلام، المصدق أنبياءه فيما بلَّغوا، والمصدِّق المؤمنين في أنهم آمنوا، المهيمن، أي الرقيب الحافظ لكل شيء، الأمين عليه، القوي الغالب، ذو العزّة والجبروت فلا يدانيه شيء

ولا يلحق رتبته، والبليغ الكبرياء والعظمة، الذي له التكبُّر حقاً، المنزه نفسَه عن إشراك الكفار به الأصنام التي ليس لها شيء من هذه الصفات، الخالق: المقدر لخلقه على حسب ما تقتضيه حكمته، الموجد خلقه من غير تفاوت مخلّ به، المصوِّر: الموجد صور الأشياء وكيفياتها، له الأسماء الحسنى: الدّالة على محاسن المعاني، ينزهه كل ما في السماوات والأرض، وهو بهذه الصفات القوي الغالب القاهر الذي لا يغالبه مغالب، الشديد الانتقام من أعدائه، الحكيم في تدبير خلقه وشرعه وقدره، وفي كل الأمور التي يقضي فيها، فهو كامل القدرة، تام العلم. أي إن الله واجب الوجود أزلاً وأبداً، الحاضر الذي لا يزول. المعبود بحق، فلا يستحقُّ العبادة أحد غيره، كامل الصفات والأفعال.

فقوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي ذات الحسن في معانيها القائمة بذاته، لا إله إلا هو، وهذه الأسماء هي التي حصرها رسول الله ﷺ بقوله: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئةٍ إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنّة»[١]. وقد ذكرها الترمذي وغيره مسندةً، واختلف الرّواة في بعضها. وأخرج الدَّيلمي عن ابن عباس مرفوعاً: «اسم الله الأعظم في ست آيات من آخر سورة الحشر». فيدعى بها لاشتمالها على الاسم الأعظم. والعبرة في الدعاء بهذه الأسماء: الإخلاص وصفاء النفس والروح، والتوجُّه الصادق لله عزّ وجلّ.

(١) حديث صحيح أخرجه الترّمذي وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تفسير سورة الممتحنة

حكم موالاة الأعداء

في مواطن كثيرة من آي القرآن الكريم حذَّر الله تعالى من موالاة الكفار، ونهى عن اتّخاذهم أولياء، أي أصدقاء، لوجود التهمة وانعدام الثقة بنصحهم وقولهم، ومن أجل الحفاظ على المصالح العامة العليا للأمة، التي إن روعيت تحقق النصر والأمن والمصلحة، وإن أُلغيت أو عبث بها بعض الناس، وقعت الأمة في الهزائم المتوالية، والهزّات، والمحن المتلاحقة، وسورة الممتحنة كلها نزلت -كما أخرج أصحاب الكتب السّتة- في شأن حاطب بن أبي بلْتَعة الذي أخبر قريشاً بكتاب مع امرأة بعزم النّبي ﷺ على حربهم، ونزل جبريل بالخبر، فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً وعَمْراً أو الزبير والمقداد بن الأسود (أي ثلاثاً) والظاهر المشهور أنهم علي والزبير والمقداد، لتخليص الكتاب من المرأة، ففعلوا، وقد أراد حاطب الذي شهد بدراً مصانعة قريش ليحموا له أهله وأمواله، ولم ينافق أو يكفر، فأنزل الله هذه السورة (الممتحنة) التي هي مدنية بالإجماع ومطلعها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى[(١)] وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ[(٢)] تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ[(٣)] وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا

(١) العدو: اسم يقع للجمع والمفرد، والمراد به ههنا كفار قريش، وينطبق على سائر الكفار. (٢) أصدقاء توالونهم السّر. (٣) تُفْضون إليهم بالمودّة، أي النصيحة هنا.

فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ(١) يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١-٣].

يا أيها المصدِّقون بالله تعالى ورسوله، لا تتخذوا عدوي وعدوّكم، وهم هنا كفار قريش، أنصاراً وأعواناً وأصدقاء لكم، تنقلون إليهم أخبار نبيكم والمؤمنين، بسبب المودة التي بينكم وبينهم. وهذا نهي صريح عن موالاة الكفار بأي وجه من الوجوه.

وسبب النَّهي: أنهم كفروا بالله ورسوله، وبما جاءكم من الحق وهو القرآن وهداية الله، وأخرجوا الرسول والمؤمنين من مكة، من أجل إيمانهم بالله تعالى، وعبادتهم إياه، وذلك للدواعي الآتية المتعلقة بكم:

- لا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله وطلب مرضاته.

- وتنقلون إليهم الأخبار، وتسرّون إليهم بمودّتكم لهم، وأنا الله العالم بالسرائر والضمائر والظواهر، وبكل ما تخفون وما تعلنون.

- ومن يوال الأعداء منكم، فقد انحرف وأخطأ طريق الحق والصواب، وحاد عن قصد السبيل التي توصل إلى الجنة والرضوان الإلهي.

وكذلك لأسباب ثلاثة منهم تمنع موالاتهم، وتدلُّ على عداوتهم وحقدهم وكراهيتهم:

- إن يلقوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة والبغضاء، ويكونوا حرباً عليكم.

(١) إن يظفروا بكم.

- ويمدّوا إليكم أيديهم بالضرب والأذى والقتل وغير ذلك من صنوف الاعتداء، وينالوكم بألسنتهم وكلماتهم سبّاً وقذفاً وشتماً وبكل إساءة.

- ويتمنّوا ارتدادكم وكفركم بربّكم ورجوعكم إلى الكفر، فهم يحرصون على ألا تنالوا خيراً، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء الذين يبتدئونكم بالعداوة والسوء؟!

ورابطة الدين والإيمان أنفع لكم من رابطة القرابة والموالاة، فلن تفيدكم يوم القيامة أقاربكم وأولادكم، حتى توالوا الكفار لأجلهم، كما وقع في قصة حاطب ابن أبي بلتعة التي هي سبب نزول هذه الآيات، بل الذي ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار، وترك موالاتهم، وتوثيق صلات الإيمان وأخوة الدين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠]. ففي الآخرة يفرّق الله بينكم، فيُدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار، والله مطّلع على أعمالكم، ومبصر بها، ومجازيكم عليها إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

والقصد من هذه الآية: أن القرابة النَّسَبية لا تنفع شيئاً عند الله تعالى، إن أراد الله بكم سوءاً، ولن تفيدكم القرابة إذا أرضيتموها بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر، فقد خاب وخسر وضلّ عمله، ولو كان قريباً لنبي أو منسوباً لآل البيت الطاهرين، لقوله تعالى في الأ بوين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٥]. هذا في الدنيا.

وأما في الآخرة فيقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠١]. ويقول سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّخرف: ٤٣/ ٦٧].

ألا إن المودّة لا تنفع يوم القيامة إن لم تكن فيما يرضي الله، حبّاً ومعاداة، لانفصال كل اتّصال يومئذ، واعتماد كل إنسان على ما قدَّم لنفسه.

إبراهيم الخليل أُسوة حسنة

الأنبياء الكرام كلهم قدوة للناس، ولا سيما إبراهيم الخليل أبو الأنبياء عليهم السّلام، وذلك في كل ما أمرهم الله تعالى به، ومنه التّبرؤ من الكفار ومعاداتهم، ولو كانوا إخوة أو آباء أو غيرهم، فإذا آمنوا انقلبت العداوة موالاة ومحبة وثقة، ولكن الله تعالى استثنى من التّأسي بأقوال إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام استغفاره لأبيه، الذي كان عن موعدة وعده بها قبل أن يعلم أنه عدوّ لله، ففي هذا لا يستغفر أحد لأبيه إذا كان كافراً، ولا تأسّي بما حدث، كما تصرّح هذه الآيات الكريمة:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ(١) حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ(٢) مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ(٣) أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا(٤) وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ(٥) وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ(٦) إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ(٧) ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم(٨) مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ(٩) وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٤-٩].

لا بدّ لكل أمة من نبراس أو رمز أو قدوة عملية، يعمل الناس بسيرته العملية،

---

(١) قدوة وإمام. (٢) أبرياء لا نعتد بكم وبآلهتكم. (٣) العداوة: ضدّ الصداقة، والبغضاء: الكراهية ضدّ المحبة. (٤) رجعنا وتُبنا. (٥) صلة وقربى. (٦) تحكموا بينهم بالعدل، والإقساط: العدل. (٧) العادلين. (٨) تعاونوا على إخراجكم. (٩) تتخذوهم أولياء أي أنصاراً وأعواناً.

وقد جعل الله للمسلمين من الأنبياء الماضين إبراهيم الخليل عليهم السّلام قدوة طيبة حميدة، يقتدون به وبمن آمن برسالته الداعية لتوحيد الله عزّ وجلّ والمنفّذة للدعوة، حين قالوا لقومهم الكفرة عبدة الأوثان: إننا بريئون منكم، لكفركم بالله وشرككم به، وبريئون من كل ما تعبدون من غير الله من الأصنام، فقد جحدنا بما آمنتم به من الأوثان، وكذَّبناكم في أقوالكم ولم نؤمن بشيء منها.

وعادتنا معكم: أنه قد ظهرت العداوة والكراهية بيننا وبينكم، ما دمتم على كفركم، فنحن نتبرأ منكم إلى الأبد، حتى تظهروا الإيمان بالله وحده لا شريك له، وتعبدوا الله دون غيره، وتتركوا ما أنتم عليه من الشِّرك والوثنية.

ثم استثنى الله تعالى شيئاً لا يتأسّى به بإبراهيم عليه السّلام، ألا وهو استغفاره لأبيه، وقوله له: لا أملك لك من ردّ عذاب الله شيئاً إن أشركت به، فلا تتأسوا به في هذا الاستغفار للمشركين، فإن استغفار إبراهيم لأبيه كان بسبب وعد سابق وعده إيّاه، فلما تبيَّن له أنه عدوّ لله، تبرأ منه.

واعتصم إبراهيم عليه السّلام والمؤمنون به: بتوحيد الله حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم قائلين: يا ربّنا اعتمدنا عليك في جميع أمورنا، ورجعنا وتُبنا إليك، فإليك المرجع والمصير في الآخرة، لا لأحد سواك.

يا ربّنا لا تغلّبهم علينا، فنكون لهم فتنة وسبب ضلالة، لأنهم يتمسكون بكفرهم ويقولون: إنما غلبناهم لأنا على الحقّ وهم على الباطل، هذا قول قتادة، وقال ابن عباس: لا تسلّطهم علينا فيفتنونا عن ديننا، وهذا القول الثاني أرجح، لأنهم إنما دَعَوْا لأنفسهم، وعلى منحى قتادة إنما دعوا للكفار. واغفر لنا ذنوبنا يا ربَّنا، فإنك أنت القوي الغالب القاهر، وذو الحكمة البالغة في أقوالك وأفعالك، وشرعك وقدرك، وتدبير خلقك.

ثم أكَّد الله تعالى المطالبة بالتّأسّي بإبراهيم والمؤمنين معه، فلقد كان لكم في إبراهيم والمؤمنين معه قدوة حسنة، لمن كان يطمع في الخير والثواب من الله، في الدنيا والآخرة، ويتأمَّل النجاة في اليوم الآخر، ومن يعرض عما أمر الله تعالى به، ويوال أعداء الله ويوادّهم، فإنه لا يضرُّ إلا نفسه، فإن الله هو الغني عن خلقه، المحمود: المستحقُّ الحمد من جميع مخلوقاته بما أنعم عليهم.

ولما نزلت هذه الآيات، وصمم المؤمنون على قطع الصِّلات بالكفار وإظهار عداوتهم، تأسَّفوا على قراباتهم أن لم يؤمنوا ولم يهتدوا، حتى يبقى بينهم الودّ والتّواصل، فنزل قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ الآية مؤنسة لهم في ذلك، ومُرَجِّية أن يقع، فأسلموا في فتح مكة، وصار الجميع إخواناً.

والمعنى: ربّما أسلم أعداؤكم، وصاروا من أهل دينكم، فتحوّلت العداوة إلى مودّة، والبغضاء إلى محبة، والله قادر على كل شيء، وغفور لمن أخطأ، فوادّهم، واسع الرَّحمة بهم، فلم يعذِّبهم بعد التوبة.

ثم سامح أو رخَّص الله في مواصلة الكفار الذين لم يقاتلوا المؤمنين ولم يطردوهم من ديارهم، فلا يمنعكم الله من فعل الخير مع الكفار الذين سالموكم ولم يقاتلوكم في الدين كالنساء والضعفاء منهم، ولم يخرجوكم من دياركم، ولا يمنعكم أيضاً من أن تحكموا بينهم بالعدل، إن الله يرضى عن العادلين.

نزلت هذه الآية -كما أخرج أحمد والبخاري ومسلم- في أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، حين استأذنت النَّبي ﷺ في صلة أُمها وإعطائها شيئاً من المال، وهي مشركة، فقال: «نعم، صِلي أُمك»، فأنزل الله فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ..﴾ والقصد من الآية: أن الله تعالى لا ينهى عن برِّ المعاهدين من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، وعلى ألا يعينوا عليهم.

- إنما ينهاكم الله معشر المؤمنين عن موالاة الذين عادوكم، وهم مشركو قريش المردة وأمثالهم الذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم، وساعدوا على إخراجكم، أن تتخذوهم أولياء، أي أنصاراً وأصدقاء، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، لأنهم صانعوا من يستحقُّ العداوة.

اختبار المهاجرات إلى دار الإسلام

تضمن صلح الحديبية بين النَّبي ﷺ ومشركي مكة على أن يَرُدَّ المؤمنون إلى الكفار كل من جاء مسلماً من رجل أو امرأة، فنزلت آية اختبار المهاجرات إلى دار الإسلام إثْر صلح الحديبية، ونقض الله تعالى من ذلك أمر النساء بهذه الآية، وحكم بأن المهاجرة المؤمنة لا تردُّ إلى دار الكفر، بل تبقى عند المسلمين وتستبرأ بحيضة، وتتزوج، ويعطى زوجها الكافر الصداق الذي أنفق، وأمر الله أيضاً المؤمنين بطلب صداق من فرَّت امرأته من المؤمنين، معاملة بالمثل، كما يتبين في هذه الآيات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ(١) وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ(٢) ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ١٠-١١].

أخرج البخاري ومسلم عن المِسْور ومروان بن الحَكَم: أن رسول الله ﷺ، لما

---

(١) مهورهن، ويطلق الأجر على المهر في اللغة والاصطلاح القرآني. (٢) أي ما تعتصم به الكافرات من عقد الزواج.

عاهد كفار قريش يوم الحديبية، جاءه نساء من المؤمنات، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ..﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا، أي صدَّقوا بالله ورسوله، إذا جاءكم النساء اللاتي آمنَّ مهاجرات[1] من بلاد الكفار، فاختبروهن وجرِّبوهن وتعرفوا حقيقة ما عندهن، لتعلموا صدق رغبتهن في الإسلام، واسألوهن عن سبب مجيئهن. وسماهن الله تعالى: ﴿مُؤْمِنَٰتٍ﴾ قبل التَّيقن من ذلك، عملاً بظاهر أمرهن. وقوله: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أمر بمعنى الوجوب، وقيل: بمعنى النَّدب أو الاستحباب.

قال ابن عباس وآخرون في كيفية هذا الامتحان: كان بأن تُسْتَحلف المرأة أنها ما هاجرت لبغض زوجها، ولا بجريرةٍ جَرَّتها، ولا بسبب من أعراض الدنيا، سوى حب الله تعالى، ورسوله ﷺ والدار الآخرة.

ثم حضَّ الله تعالى على امتحانهن، واحتمال الاسترابة ببعضهن، فقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ..﴾ أي إن الامتحان في الظاهر فقط، أما في الحقيقة والواقع فلا يعلم حقيقة حالهن إلا الله تعالى، والله أمركم بالظواهر، وهو يتولى السّرائر، فإن ترجح لكم أو غلب على ظنّكم أنهنّ مؤمنات، فلا تردوهنّ إلى أزواجهن المشركين. وسمي الظنُّ علماً: من باب الظَّن الغالب.

والعلَّة في ألا يُرَدَّ النساء إلى الكفار: هي امتناع الوطء وحرمته، فليست المؤمنات حلالاً للكفار، وإسلام المرأة يوجب فُرقتها من زوجها، وليس الكفار حلالاً للمؤمنات. وهذه الآية هي التي حرَّمت المسلمات على المشركين الوثنيين. وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة، كزواج أبي العاص بن الربيع بزينب ابنة النّبي ﷺ، ثم أسلم سنة ثمان.

---

(١) منصوب على الحال.

وأحكام تسوية زواج المسلمة المهاجرة: هي ما يأتي:

- ادفعوا إلى أزواج المهاجرات من المشركين ما غرموه عليهن من المهور.

- ولا إثم ولا حرج عليكم أيها المؤمنون في الزواج بالمؤمنات المهاجرات إذا أعطيتموهن مهورهن، وبشرط انقضاء عدتهن، وكون الزواج من الولي وغير ذلك.

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ نزلت في أم الحكم بنت أبي سفيان ارتدت، فتزوجها رجل ثقفي، ولم ترتد امرأة من قريش غيرها.

- ويحرم عليكم أيها المؤمنون بعد نزول هذه الآية الزواج بالمشركات الكوافر، واستمرار العصمة الزوجية معهن، فمن كانت امرأته مشركة وثنية، فليست له بامرأة، لانقطاع عصمتها باختلاف الدين.

- وطالبوا بمهور نسائكم إذا ارتددن، وليطالبوا بمهور نسائهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين. ذلكم المذكور من إرجاع المهور من الجانبين، واستثناء النساء من حكم صلح الحديبية: هو حكم الله وشرعه يحكم به بين عباده، والله واسع العلم، بالغ الحكمة في أقواله وأفعاله، فلا يَشْرَع إلا ما تقتضيه الحكمة.

- وإن ذهبت امرأة من أزواجكم إلى الكفار، بأن ارتدت المسلمة ورجعت إلى دار الحرب، فعاقبتم، أي فصِرتم منهم إلى الحال التي صاروا إليها منكم، وذلك بأن يأتيكم شيء من أزواجهن، فأعطوا الذين ذهبت أزواجهن مثل ما أنفقوا من الفيء والغنيمة، إذا لم يردّ المشركون على زوجها مهرها، واحذروا أن تتعرضوا لشيء مما يوجب العقوبة عليكم، وخافوا الله تعالى بتنفيذ حكمه وشرعه، أي إن علة إيجاب التقوى: هي الإيمان بالله تعالى، والتصديق بوحدانيته وصفاته وعقابه وإنعامه.

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ الآية، قال

-كما تقدم-: نزلت في أم الحكم بنت أبي سفيان ارتدت، فتزوجها رجل ثقفي، ولم ترتدَّ امرأة من قريش غيرها.

وفي الجملة: على الكفار ردّ مهر المرأة العائدة إلى دار الكفر، فإن ردّوه تحقَّق المطلوب، وإلا فمن غنائم الحرب العائدة منهم.

بيعة المهاجرات

من المعلوم أن رسالة الإسلام عامة للإنس والجن، للعرب وغيرهم، وللعالم كله، ذكوراً وإناثاً، لإصلاح الحياة البشرية بنمو متوازن، فتعمّ الاستقامة، ولا يبقى فيها زاوية في المجتمع دون ترميم أو إصلاح، لذا كانت بداية دعوة النّبي ﷺ إلى دين الله وتوحيده، موجهة للرجال والنساء معاً، عن طريق البيعة أو المعاهدة، فكانت بيعة الرجال أولاً، ثم بيعة النساء، قبل فرض شريعة القتال، ولما فرغ النّبي ﷺ يوم فتح مكة من بيعة الرجال، أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر أسفل منه يبايع النساء، بأمر رسول الله ﷺ، ويبلغهن عنه. وهذا ما أخبرت به الآيات الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ(١) يَفْتَرِينَهُۥ(٢) بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ(٣) فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ(٤) قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/١٢-١٣].

---

(١) البهتان: أسوأ الكذب، والمراد هنا: أن تنسب المرأة إلى زوجها ولداً ليس له. (٢) يختلقن نسبة الولد إلى الزوج. (٣) المعروف: كل ما ندب إليه الشرع من الحسنات، ونهى عنه من المستقبحات. (٤) عامة الكفار ومنهم اليهود.

نزلت الآية الأولى يوم فتح مكة، فإنه ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال، أخذ في بيعة النساء. أخرج البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت: «أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجرن إليه بهذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ..﴾ الآية، فمن أقرَّت بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتكِ» كلاماً، ولا، والله ما مسَّت يده يدِ امرأة في المبايعة قط، ما بايعهن إلا بقوله: قد بايعتكِ على ذلك».

والمعنى: إذا جاءك أيها النَّبي المؤمنات بالله ورسوله، يعاهدنك ويقصدن مبايعتك على الإسلام والطاعة، فبايعهن على ألا يشركن بالله شيئاً من وثن أو حجر أو ملك أو كوكب أو بشر، ولا يسرقن من أموال الناس شيئاً، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، أي بالوأد وغيره، وهو ما كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات، ولا يُلحقن بأزواجهن أولاداً ليسوا لهم.

ولا يعصينك في أمر معروف: وهو كل ما وافق طاعة لله، أي كل ما أقرَّ به الشَّرع، أو نهى عنه، كالنهي عن النَّوح وتمزيق الثياب، وجزّ الشعر، وشقّ الجيب، وخمش الوجوه، والدعاء بالويل، والخلوة بالأجنبي غير المحرم، فبايعهن، واطلب من الله المغفرة لهن، بعد هذه المبايعة منك، إن الله واسع المغفرة لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم، فلا يعذبهم بما اقترفوه قبل الإسلام.

وكانت بنود بيعة النساء هذه، قد بويع بها الرجال أيضاً. روى البخاري عن عبادة **ابن الصامت قال:** كنا عند النَّبي ﷺ، فقال: «أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا»؟ قرأ آية النِّساء، فمن وَفَى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقب، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عذَّبه، وإن شاء غفر له منها».

لقد أجمع الصحابة على أن النَّبي ﷺ لم تمسَّ يده الشريفة يد امرأة أجنبية، أخرج

البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت -كما تقدم-: فمن أقرَّ بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتكِ» كلاماً، ولا والله ما مسَّت يده يد امرأة في المبايعة قط، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتكِ على ذلك».

وأخرج عبد الرزاق وأحمد والنَّسائي وغيرهم عن أميمة بنت رقيقة: «.. قلن: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أُصافح النساء، إنما قولي لمئة امرأة كقولي لامرأة واحدة». وفي لفظ آخر: «إني لا أُصافحكن، ولكن آخذ عليكن ما أخذ الله».

ثم أكَّد الله تعالى النَّهي عن موالاة الكفار الأعداء كما بدأ سورة الممتحنة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا..﴾ أي يا أيها المؤمنون برسالة الإسلام لا تتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم، ولعنهم، واستحقّوا الطرد والإبعاد من رحمته أنصاراً وأصدقاء، وقد يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عزّ وجلّ، وأصبحوا لا يوقنون بالآخرة، بسبب كفرهم وعنادهم، كيأس ذلك الكافر من الرحمة في قبره، وذلك لأنه قد رِين (غُطِّي) على قلوبهم، وحملهم الحسد على ترك الإيمان، وغلب على ظنونهم أنهم معذَّبون، وهذه كانت صفة كثير من معاصري النَّبي ﷺ. وقوله تعالى: ﴿قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ القوم: إما كفار قريش في رأي ابن عباس، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ كما يئس بقية الكفار في قبورهم من لقاء بعضهم بعضاً، لأن اعتقاد أهل مكة في الآخرة كاعتقاد الكافر في البعث ولقاء موتاه. وإما أن المراد بهم هم اليهود في رأي ابن زيد والحسن البصري ومنذر بن سعيد، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾: كما يئس الكافر من الرحمة إذا مات وكان صاحب قبر.

والآية نزلت، كما أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن عمر، وزيد بن الحارث يوادّان رجلاً من يهود، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية.

تفسير سورة الصَّف

وحدة الصَّف وتطابق القول مع العمل

نظَّم الإسلام المجتمع تنظيماً دقيقاً على أُسس متينة، وأخلاق ومبادئ رصينة، لتكون الأمة كتلة واحدة متراصَّة، فأمر بوحدة الصَّف في القتال، ومواجهة الأعداء، ودعا إلى العمل المطابق للقول، فلا يكون هناك ازدواج أو تنافر بين الكلمة وبين الفعل، لأن ظهور مثل هذه الظاهرة يهدم الثقة، ويزعزع بنية الأمة، ويشيع تصوُّراً كئيباً على عدم الصدق في الإيمان وصحة الاعتقاد، وضعف الفكر وانعدام التخطيط للمستقبل. وهذا ما حذَّر منه القرآن الكريم في الآيات الآتية في مطلع سورة الصَّف، التي هي مدنيّة على الصحيح عند جمهور العلماء:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ
تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا(١) عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا(٢) كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ(٣) ۝٤ وَإِذْ قَالَ
مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا(٤) أَزَاغَ
اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ(٥) مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ(٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

---

(١) المقت: أشد البغض. (٢) صافين أنفسهم. (٣) متراص متلائم الأجزاء. (٤) مالوا عن الحق. (٥) لما تقدمني من الكتب كالتوراة والزبور. (٦) من أسماء النَّبي ﷺ، ومعناه: أنه أحمد الناس لربِّه.

قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصَّف: ٦١/١-٩].

أخرج التِّرمذي والحاكم وصححه والدارمي، عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحبّ إلى الله لعملناه، فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها.

المعنى: نَزَّه الله ومَجَّده لعظمته وقدرته ووحدانيته وجميع صفات كماله: جميع ما في السّماوات وما في الأرض، من العقلاء وغيرهم، وهو في سلطانه وقدرته القوي الغالب القاهر فوق عباده الذي لا يغالب، الحكيم في أفعاله وأقواله، وفي تدبير خلقه وتصريف أمورهم وفي أفعاله كلها.

يا أيها المصدِّقون بالله ورسوله، لأي شيء تقولون قولاً وتخالفون عملاً؟ وهذا إنكار شديد على كل من وعد وعداً أو قال قولاً، ثم لا يفي به.

ثم ذمَّ الله تعالى كل من يخالف فعله قوله: لقد عظم جُرْماً أن تقولوا قولاً، وتفعلون غيره، فإن خُلْف الوعد دليل على حبِّ الذات فقط، وإهدار مصلحة الآخرين وكرامتهم ووقتهم. وكل من يقول ما لا يفعل فهو ممقوت مذموم كذوب غير مخلص. والمقت: البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة، يصنعها الممقوت.

ثم مدح الله تعالى الذين أقدموا على قتال عدوِّهم صفّاً واحداً، حيث ذكر أن الله يرضى عن المقاتلين المتَّحدين صفاً واحداً، وكتلة متراصّة لا تتزحزح من المواقع،

كأنهم بناء راسخ شامخ. وهذا تأكيد لمحبة الله للمقاتلين صفاً. ومحبة الله: هي ما يظهر عليهم من نصره وكرامته. والمحبة: صفة فعل، وليست بمعنى الإرادة، لأن الإرادة لا يصح أن يقع ما يخالفها، والمقاتلون على غير هذه الصفة كثيرون.

ثم ذكَّر الله تعالى بمقالة موسى وعيسى حين كذَّبهما القوم، ليكون ذلك ضرب مثل للمؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون، لأن التكذيب تصادم مع الواقع.

واذكر أيها الرسول لقومك خبر موسى عليه السّلام حين قال لقومه بني إسرائيل: يا قوم لِمَ تلحقون الأذى بي بمخالفة ما آمركم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم، أو لِمَ تؤذونني بالشَّتم والتعييب، وأنتم تعلمون يقيناً صدقي فيما جئتكم به من الرسول، فلما زاغوا، أي تركوا الحقَّ ولم يتبعوا نبيَّهم، أمال الله قلوبهم عن الهدى، والله لا يوفِّق للحق ولا يرشد للهداية القوم الكافرين الذين كفروا بأنبيائهم، وعصوا رسلهم. فاحذروا أيها المؤمنون أن يصيِّركم العصيان وقول الباطل إلى مثل حالهم.

واذكر أيضاً أيها النَّبي لقومك خبر عيسى حين قال: يا بني إسرائيل، إني رسول الله إليكم بالإنجيل، لم آتكم بشيء يخالف التوراة، وإنما أؤيدها وأكملها، فكيف تعصونني؟ وإن التوراة بشَّرت بي، وأنا مبشِّر بمن بعدي: وهو الرسول العربي أحمد، أي أحمد الناس لربِّه، وهو محمد عليه الصَّلاة والسَّلام، فلماء جاء أحمد المبشَّر به في الكتب المتقدمة بالمعجزات والأدلَّة القاطعة، قال الكفار: هذا سحر واضح لا شك فيه. أخرج البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي (أي بعدي) وأنا العاقب» . أي الآخر الآتي بعد الأنبياء.

ولا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله، ويجعل له شركاء، وهو يدعى إلى إسلام القلب لله، وإلى التوحيد والإخلاص، والله لا يرشد للحق والصواب القوم الكافرين الظالمي أنفسهم بالكفر.

إن الكفار يريدون أو يحاولون إبطال دعوة الإسلام، ومنع هدايته، ومقاومة دعوته، والله مظهر دين الإسلام في الآفاق، ولو كره الكافرون ذلك.

إن الله هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى التّام، ودين الحقّ الناصع، المتمثّل بالقرآن والسُّنة، ليجعله متفوقاً على جميع الأديان، ولو كره المشركون ذلك، فإنه كائن لا محالة وهذا تأكيد لأمر الرسالة ومؤازرتها.

حكى الماوردي عن عطاء عن ابن عباس: أن النَّبي ﷺ أبطأ عليه الوحي أربعين يوماً، فقال كعب بن الأشرف: يا معشر اليهود، أبشروا! فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتم أمره، فحزن رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ واتَّصل الوحي بعدها.

وإنما قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أولاً ليتناسب مع كلمة (النُّور) فالكفر أعم من الشرك، والنُّور أعم من الدين والرسول ﷺ.

التجارة الناجحة

إن سبيل الفلاح والنجاح هو في اتِّباع شرع الله ودينه، ولا نجد أحداً يُعرِض عن تعاليم الله تعالى إلا كان خاسراً خائباً، لأنه ورَّط نفسه في المهالك والعقاب الأليم. وحينئذ تكون التجارة الرابحة: هي في إعلان الإيمان بالله تعالى والجهاد في سبيله بالمال والنفس، لتحقيق العزّة والانتصار، والظفر بالسعادة، وتكون مناصرة دين

الله والحق صمام أمان من الضياع، وتحقيق النجاة، كما ناصر الحواريون نبيَّهم عيسى ابن مريم رسول الله عليه السّلام، فيما تقرِّره الآيات الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ(١) تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ(٢) كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ(٣) مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ(٤) مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ(٥) ﴿١٤﴾﴾ [الصَّف: ٦١/ ١٠-١٤].

أخرج ابن جرير عن أبي صالح قال: قالوا: لو كنا نعلم أي الأعمال أحبّ إلى الله وأفضل؟ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ..﴾ الآية، فكرهوا الجهاد، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾

يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله، ألا أرشدكم إلى تجارة نافعة رابحة؟! وهذا أسلوب فيه ترغيب وتشويق، والمراد بالتجارة هنا العمل الصالح، ونوع التجارة: هي أن تواظبوا على الإيمان بالله ورسوله، وتخلصوا العمل لله، وتجاهدوا من أجل إعلاء كلمة الله ونشر دينه بالأنفس والأموال، والأموال مقدمة للإعداد الحربي، لبدء الاستعداد بها.

وكلمة ﴿خَيْرٌ﴾ إما للتفضيل أي خير من كل عمل، أو إخبار أن هذا خير في ذاته ونفسه.

---

(١) التجارة في الأصل: تبادل البيع والشراء لأجل المكسب، المراد بها هنا: العمل الصالح. (٢) أي أنصار دينه ورسوله. (٣) أي خلصاؤه وأصفياؤه، وخلصاء الأنبياء عليهم السلام. (٤) جماعة. (٥) غالبين.

ذلكم المذكور من الإيمان والجهاد خير لكم وأفضل من أموالكم وأنفسكم، ومن أنواع التجارات في الدنيا والعناية بها وحدها، إن كنتم تعلمون الحقائق والغايات. وثمرة الإيمان والجهاد هي: إن فعلتم ما أمرتكم به والتزمتم منهاجي، غفرت لكم ذنوبكم، وأدخلتكم جنات (بساتين) تجري الأنها من تحت قصورها، وفيها مساكن طيبة للنفوس، ودرجات عالية، في جنات إقامة دائمة، لا تنتهي بموت ولا بخروج منها، وذلكم المذكور من المغفرة ودخول الجنات: هو الفوز الأعظم الذي لا فوز بعده. وهذا في الآخرة.

وفي الدنيا تتحقق لكم خصلة أو نعمة أخرى تعجبكم: هي نصر مبين من الله لكم، وفتح عاجل للبلاد، كمكة وغيرها من بلاد فارس والروم، أي إن قاتلتم في سبيل الله، ونصرتم دينه، تكفَّل الله بنصركم. وبشِّر أيها الرسول المؤمنين بالنصر العاجل في الدنيا، وبالجنة في الآخرة.

ثم أمر الله أو ندب إلى النصرة، فيا أيها المؤمنون كونوا على ما أنتم عليه من نصرة دين الله وتأييد شرعه ورسوله، في جميع الأحوال بالأقوال والأفعال، والأنفس والأموال، واستجيبوا لدين الله ورسوله، كما استجاب الحواريون (أصفياء المسيح عليه السلام وخلصاؤه) لعيسى حين قال لهم: من الذي ينصرني ويعينني في الدعوة إلى الله؟ فقال الحواريون: نحن أنصار دين الله، ومؤيدوك فيما أُرسلتَ به، فبعثهم الله مبشِّرين ودعاة إلى دينه في أنحاء بلاد الشام.

فلما بلَّغ عيسى عليه السلام رسالة ربِّه إلى قومه، وآزره الحواريون، اهتدت طائفة (جماعة) من بني إسرائيل إلى الإيمان الحق، وآمنوا بعيسى على حقيقته أنه: عبد الله ورسوله، وضلَّت طائفة أخرى، وكفرت بعيسى، وجحدوا نبوته، واتَّهموه وأمّه بالفاحشة، وهما منها بريئان براءة مطلقة.

فنصرنا المؤمنين على من عاداهم من فِرَق النصارى، وقوّينا أهل الحق منهم بالحجة والتأييد من عندنا على المبطلين، فأصبحوا غالبين عليهم.

وإيراد هذا المثل واضح التأثير، فإن القلة المتمسكة بالحق، الناصرة لدين الله وشرعه، تصبح عما قريب هي صاحبة القوة والمجد، وكما تحقق ذلك في التاريخ المسيحي قبل الإسلام، تحقق كما هو معروف في التاريخ الإسلامي بعد نزول القرآن، ونبوة محمد ﷺ، وذلك في مختلف الأنحاء، في داخل الجزيرة العربية حيث تطهرت من الشرك والوثنية، وفي خارجها حيث دُحِرَت قوى مملكتين عظيمتين، وهما فارس والروم، وحلّت محلهما القوة المسلمة الجديدة التي تنشد الخير والسعادة والنجاة للعالم أجمع.

تفسير سورة الجمعة

فضل البعثة النَّبوية

كانت البعثة النبوية وما تزال خيراً عميماً على العرب والناس قاطبة، لاشتمالها على مقومات الحياة السعيدة الطيبة، وكونها مصدر العلم والمعرفة والبيان، وتتويجها بنزول القرآن الكريم، وتعريف النبي الناس بخصائص القرآن وأسراره، وشرائعه، وإيتاء النبي ﷺ السُّنة الشريفة التي هي الحكمة والميزان، وسميت السُّنة حكمة، وهي سداد القول وصواب العمل، ووضع ذلك في موضعه الصحيح اللائق به، لأن أقواله ﷺ وأفعاله وإقراراته هي عين الحكمة: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ..﴾ [النِّساء: ١١٣/٤] ، وسميت السُّنة أيضاً ميزاناً في قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ۝١٧﴾ [الشورى: ١٧/٤٢] لأن السُّنة النبوية المشتملة على أقواله وأفعاله ﷺ وأحواله ميزان لكل ذلك.

وجاء أيضاً في مطلع سورة الجمعة التي هي مدنية بالإجماع ما ينص صراحة على أن السُّنة هي الحكمة، في الآيات الآتية:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ(١) مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ(٢) ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ(٣) رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ(٤) وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ(٥)

---

(١) ينزه ويقدِّس ويمجِّد الله . (٢) المنزه عما لا يليق به . (٣) العرب الذين لا يقرؤون ولا يكتبون .
(٤) يجعلهم أطهاراً . (٥) السُّنة ومعالم الشريعة .

وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ(١) ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[الجمعة: ٦٢/ ١-٤].

ينزِّه الله ويمجده جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، إقراراً بوجوده ووحدانيته وقدرته، ولأنه مالك السماوات والأرض المتصرف فيهما بأمره وحكمته، المنزه عن جميع النقائص والعيوب، القوي في سلطانه وقدرته، الغالب القاهر الذي لا يغلبه غالب، البالغ العزة والحكمة، المتقن في تدبيره وأفعاله كل شيء.

واللام في قوله ﴿لِلَّهِ﴾يسبح لله: زائدة بقصد التوكيد والتمكين.

والله سبحانه هو الذي أرسل في العرب الأُميِّين، حيث كان أكثرهم لا يقرأ ولا يكتب، أرسل فيهم رسولاً من جنسهم، فهو أُمِّي مثلهم، يتلو عليهم آيات القرآن، ويطهرهم من الشرك، وينمي الخير فيهم، ويعلِّمهم القرآن والسُّنة ومعالم الشريعة، وإن كانوا من قبل مجيئه لفي خطأ واضح، بعيد عن الحق. فالكتاب في الآية: الوحي المتلو وهو القرآن، والحكمة: السُّنة ومعالم الشريعة، أي أحكام الدين والقرآن. وهذه الآية تعديد نعم الله تعالى على العرب فيما أولاهم.

ووصف العرب بالأُميِّين لعدم تمكُّن أكثرهم من القراءة والكتابة، كما جاء في قوله ﷺ -الذي أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنَّسائي -: «إنا أمّة أُمِّية لا نحسب ولا نكتب، الشهر هكذا وهكذا» أي تسعة وعشرون يوماً أو ثلاثون.

وهذا الوصف تأكيد أيضاً لبيان النعمة على العرب بذكر حالهم التي كانت على الضِّد من الهداية، الغارقة في الضلالة. وكلمة ﴿مِّنْهُمْ﴾دالّة على أن النّبي محمداً ﷺ العربي الهاشمي هو من العرب الخلَّص.

(١) أي من قبل مجيء النبي لفي خطأ واضح .

وامتدَّت بركة البعثة النَّبوية إلى جميع طوائف الناس، من الروم والفرس وغيرهم، حيث أعدَّ الله لقبول دينه جماعة آخرين: وهم من دخل في الإسلام بعد الصحابة إلى يوم القيامة، وهم لم يلحقوا بالصحب الكرام في ذلك الوقت، وسيلحقون بهم من بعد، والله هو القوي الغالب القاهر، ذو العزة والسلطان، القادر على التمكين لأمّة الإسلام في الأرض، وهو ذو الحكمة البالغة في شرعه وقدره، وأفعاله وأقواله، وتدبير خلقه. وكلمة ﴿مِنْهُمْ﴾ في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ إنما يراد بها في البشرية والإيمان، كأنه تعالى قال: وآخرين من الناس، سواء من العرب أو من غيرهم هم من الأمة الإسلامية.

وكلمة ﴿ءَاخَرِينَ﴾ إما معطوفة بالنصب على ضمير ﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾ أي يعلِّم العرب وغيرهم، أو معطوفة بالجر على قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي وبعث في الأُمِّيِّين رسولاً منهم، وفي آخرين.

وهذا دليل على عموم بعثة النبي ﷺ إلى جميع الناس، فهي إلى العرب وغيرهم، ويدلُّ على ذلك كتب النبي ﷺ إلى ملوك وأمراء فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوهم فيها إلى الله عزّ وجلّ وإلى اتباع ما جاء به. وقوله: ﴿لَمَّا﴾ نفي لما قرب من الحال، والمعنى: أنهم مزمعون أن يلحقوا بهم. وهي (لم) زيدت عليها (ما) للتأكيد.

هذه البعثة النبوية خير كبير ورحمة وفضل على الأمة العربية والناس جميعاً، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ..﴾ أي ذلك الإسلام والوحي وإعطاء النبوة العظيمة لمحمد ﷺ: فضل من الله يعطيه من يشاء من عباده، والله صاحب الفضل العظيم الذي لا يساويه فضل ولا يدانيه، وهو ذو المنّ العظيم على جميع خلقه في الدنيا، بتعليم الكتاب والحكمة في الدنيا، وفي الآخرة بمضاعفة الجزاء على الأعمال. فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ تبيين لموقع النعمة وتخصيصه إياهم (أي العرب وغيرهم) بها.

وفي القرآن آيات كثيرة أخرى تدل على عموم الرسالة الإسلامية لجميع أبناء البشرية رجالاً ونساء، بل وللجنّ أيضاً كما هو ثابت في سورة الجنّ وغيرها، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨/٧]. وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾ [الفرقان: ١/٢٥].

موقف اليهود من التوراة

زعم اليهود أن النبي محمداً ﷺ بعث إلى العرب خاصة، ولم يبعث لهم، لمفهوم الآية السابقة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ..﴾ فردَّ الله عليهم بأنهم لم يعملوا بالتوراة، وأنهم لو عملوا بمقتضاها وما تضمنته من البشارة بالرسول محمد، لانتفعوا بها وآمنوا به، ولم يقولوا هذا القول. وكذلك ردَّ الله عليهم حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨/٥] بأنه لو كان قولهم حقاً وموثوقاً به، لتمنّوا على الله أن يميتهم، لينقلهم إلى دار كرامته التي أعدَّها لأوليائه، وهم في الحقيقة لا يتمنون الموت أبداً، بسبب ما قدموا من الكفر وتحريف الآيات. وهذا ما صرَّحت به الآيات التالية متضمنة هذين الرَّدَّين:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ(١) ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا(٢) بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ⑤ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ(٣) لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ⑥ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ⑦ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ

(١) أي كلفوا بها . (٢) كتباً علمية عظيمة . (٣) أي أحبّاؤه .

مِنۡهُ(١) فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

[الجمعة: ٦٢/ ٥-٨].

إن مثل اليهود الذين كلفوا العمل بالتوراة والقيام بأوامرها ونواهيها، ثم هجروها وتركوها، كمثل الحمار الذي يحمل الكتب الكبيرة على ظهره، وهو لا يقدِّر قيمتها وأهميتها، ولا الفرق بينها وبين الأحمال الأخرى، لأنه عديم الفهم. وهذا كما حمل الإنسان الأمانة. فهم لم يلتزموا حدود التوراة، حين كذبوا بمحمد ﷺ، والتوراة تنطق بنبوته، فكأن كل خير لم ينتفع به من حُمِّله، كمثل حمار عليه أسفار، لا يميز بينها. والأسفار جمع سِفْر: وهو الكتاب المجتمع الأوراق منضّدَةً.

ما أقبح ما يُمثَّل به للمكذبين الذين كذبوا بآيات الله، وما أشنع هذا التشبيه، وهو تشبيه اليهود بالحمار، فإياكم أن تكونوا أيها المسلمون مثلهم. والله لا يوفق للحق والخير القوم الكافرين، بنحو عام، ومنهم اليهود بالأولى. فقوله: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ معناه وتقديره: بئس المثل مثل القوم.

ثم ذمَّ اليهود ذمّاً آخر، وردَّ على مزاعمهم رداً آخر، قل أيها الرسول: يا أيها اليهود إن كنتم تزعمون أنكم أولياء الله، أي أحباؤه من دون الناس، وأنكم على هدى، وأن المسلمين على ضلالة، فاطلبوا الموت لتصيروا إلى الكرامة أو التكريم في زعمكم، وادعوا بالموت على الضَّال من الفئتين، إن كنتم صادقين في هذا الزعم.

روي أنها نزلت بسبب أن يهود المدينة لما ظهر رسول الله ﷺ خاطبوا يهود خيبر في أمره، فذكروا نبوَّته، وقالوا لهم: إن رأيتم اتِّباعه أطعناكم، وإن رأيتم خلافه خالفناه معكم، فجاءهم جواب أهل خيبر يقولون: نحن أبناء إبراهيم خليلِ الرحمن، وأبناء عُزَير ابنِ الله، ومنا الأنبياء، ومتى كانت النُّبوة في العرب؟ نحن أحقُّ بالنُّبوة

(١) تخافون منه .

من محمد، ولا سبيل إلى اتِّباعه، فنزلت الآية، بمعنى: إنكم إذا كنتم من الله بهذه المنزلة، فقُربه وفِراق هذه الحياة الخسيسة أحبّ إليكم، فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين، تعتقدون في أنفسكم هذه المنزلة.

قال ابن عطية: ثم أخبر الله تعالى أنهم لا يتمنون الموت ولا يريدونه إلا كرهاً، لعلمهم بسوء حالهم عند الله تعالى وبعدهم عنه. وروى كثير من المفسّرين أن الله تعالى جعل هذه الآية معجزة لمحمد ﷺ، وآية باهرة، وأعلمه أنه إن تمنى أحد منهم الموت في أيام معدودة مات وفارق الدنيا. فقال لهم رسول الله ﷺ: تمنّوا الموت على جهة التعجيز وإظهار الآية، فما تمنّاه أحد، خوفاً من الموت، وثقةً بصدق محمد ﷺ.

ثم توعَّدهم الله تعالى بالموت الذي لا محيد لهم عنه، ثم بما بعده من الرَّد إلى الله تعالى، عالم الحس والمشاهدة، وعالم المغيبات المجهولة للبشر، فيخبركم بأعمالكم، ويجازيكم عليها بما أنتم له أهل. إن هذه الرُّدود القاطعة، والتحدِّيات القرآنية السافرة لليهود تدلُّ دلالة قاطعة على أنهم قوم لا يريدون الحق، ويزعمون أنهم شعب الله المختار، وهذا كذب وافتراء، فهم أبعد الناس عن القربى من الله، وعن رضا الله عنهم. إنهم قتلة الأنبياء، وطعنة أعراض وكرامات الأنبياء، وهم أبعد الناس عن التوراة وعن أحكام الله وشرائعه، إنهم أعداء الله والإنسانية على حد سواء، وبخاصة هم أعداء العرب والمسلمين جميعاً.

صلاة الجمعة والعمل بعدها

الإسلام دين جَمَع بين الدنيا والآخرة، والمادة والروح، والعبادة والمعاملة، فهو دين الوسطية والاعتدال، وإعطاء كل ذي حق حقّه، فالعبادة فريضة والجمعة فريضة، يجب احترامها والقيام بها على وجه أتم، من السعي إليها إن كانت جمعة،

والاستماع إلى خطبتها، فلا يجوز الاشتغال عنها بأي عمل آخر من بيع وشراء أو تجارة، أو لهو، أو أداء مهمة. لكن بمجرد الانتهاء منها، طلب الإسلام التَّفرغ للأعمال الأخرى، والسَّعي في توفير المكاسب والمعايش مع ملازمة ذكر الله وخشيته سرّاً وعلانية، وهذا ما أمرت به الآيات الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ(١) مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ(٢) وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ(٣) فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا(٤) وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: ٦٢/٩-١١].

يا معشر أهل التصديق والإيمان بالله ورسوله وبالإسلام الحق، إذا أُذِّن لصلاة الجمعة في يومها المعروف، بالأذان الثاني بعد جلوس الخطيب على المنبر، فيحرم التشاغل بأعمال الدنيا، وعليكم المبادرة إلى أداء الفريضة، من الاستماع إلى ذكر الله، وهو الخطبة، وأداء صلاة الجمعة في المسجد الجامع، وترك البيع وسائر أوجه المعاملات من إجارة وشركة ونحوهما، وذلكم السَّعي إلى ذكر الله وترك البيع خير من فعل البيع وترك السَّعي، لما في الامتثال من الثواب والجزاء الحسن، إن كنتم من أهل الدِّراية والعلم الصحيح بما ينفع. وخصَّ البيع بالذكر، لأنه من أهم ما يشغل الإنسان نهاراً، وفيه إشارة إلى ترك جميع التِّجارات والمهن والحرف في وقت الخطبة والصلاة. أما الأذان الأول فهو تنبيه للإعداد للصلاة والمضي إليها خشية أن يفوت تحقيق المقصد الشرعي من تشريع صلاة الجمعة والاستماع لخطبتها.

(١) النِّداء للجمعة: الأذان الداعي لها . (٢) فامشوا إلى ذكر الله بقصد طيب حسن واتركوا البيع ونحوه .
(٣) أدِّيت الصلاة . (٤) أسرعوا إليها .

والسَّعي في الآية: ليس الإسراع في المشي، كالسَّعي بين الصَّفا والمروة، وإنما المراد إتيان الصلاة بالسكينة والوقار، والسَّعي: هو بالنِّية والإرادة والعمل. والذِّكر: هو وعظ الخطبة.

ويسنُّ لصلاة الجمعة ثلاثة أذانات: ما قبل دخول الوقت بحوالي نصف ساعة أو أقل، والأذان بعد دخول الوقت، وهو الذي زاده عثمان رضي الله عنه لما اتسعت المدينة، على الزوراء (أعلى دار كانت بالمدينة قرب المسجد) ويوصف بأنه الأذان الثاني أو الثالث، والأذان بين يدي الخطيب، وهو الأذان الذي كان على عهد رسول الله ﷺ. وقد شاهدتُ في بلاد المغرب في الرباط وغيرها في وقت واحد أذانات ثلاثة متوالية، قبل شروع الخطيب بالخطبة، وذلك إحياء للسُّنة كما يبدو، ولكن الغريب كونها متعاقبة في زمن واحد، حيث لا يصلُّون السُّنة القبلية.

ويكره البيع تحريماً بعد الأذان عند الحنفية، ويحرم عند الآخرين، لكنه ينفذ ويمضَى ولا يفسخ عند الشافعية، ويفسخ في المشهور عند المالكية ما لم يتم القبض، ولا يصح عند الحنابلة، لأن الجمعة واجبة على الرجال المقيمين الأحرار الذين لا عذر لهم، وترك الجمعة إخلال بالفرض للأمر بها، ولقوله ﷺ فيما يرويه أحمد والحاكم عن أبي قلابة، وأحمد والنَّسائي وابن ماجه والحاكم عن جابر: «من ترك الجمعة ثلاث مرات متواليات، من غير ضرورة، طبع الله على قلبه» إسناده صحيح ورجاله ثقات، كما قال الهيثمي.

والعمل مباح بعد الفراغ من الصلاة وإتمامها، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ..﴾ أي إذا أدّيتم الصلاة وفرغتم منها، فيباح لكم التوزُّع في نواحي الأرض للتجارة وبقية الأعمال، ولكن لا تنسوا في أثناء العمل تذكر الله كثيراً ومتابعة الأذكار، كالتسبيح والتحميد والتكبير والاستغفار ونحو ذلك. وقوله

تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟﴾ ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أمر ومقتضى الأمر هنا الإباحة في طلب المعاش، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: ٥/ ٢].

ثم عاتب الله المؤمنين حين تركوا النَّبي ﷺ وهو يخطب، وخرجوا من المسجد، للاشتغال بالتجارة والاستماع إلى طبولها المعبِّرة عن الفرحة بقدوم التجارة من بلاد الشام أو غيرها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا..﴾ أي إذا رأى المصلّون في الجامع الذين يستمعون إلى الخطبة قافلة التجارة القادمة من الشام، أو رأوا لهواً كقرع الطبول وضجيج المزامير، احتفالاً بزواج وغيره، خرجوا من المسجد، وانصرفوا إلى الملاهي ومتع الدنيا، وتركوك أيها النَّبي قائماً على المنبر تخطب فيهم، لوعظهم وإرشادهم، فقل لهم أيها الرسول: ما عند الله من الثواب العظيم في الدار الآخرة خير من اللهو ومن التجارة التي هي هنا سبب الخروج، والله مصدر الرزق وخير الرازقين، فمنه اطلبوا الرزق، وإليه توسَّلوا بعمل الطاعة، فذلك من أسباب تحصيل الرزق وأعظم ما يجلبه، والله يرزق بسخاء من توكَّل عليه، وطلب الرزق في وقته، وهو سبحانه كفيل برزق العباد، ولن يحرم أحد رزقه أو ينقص منه شيء بسبب الصلاة. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ مناسب لكل من التجارة واللهو الذي هو كالتبع للتجارة.

نزلت هذه الآية بسبب أن رسول الله ﷺ كان قائماً على المنبر، يخطب يوم الجمعة، فأقبلت عير (إبل محملة بالتجارة) من الشام، تحمل مِيرة (طعاماً للسفر ونحوه) وصاحبها دِحْية بن خليفة الكلبي. قال مجاهد: وكان من عُرفهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والمعازف والصياح من ورائها، فدخلت العير بمثل ذلك، فانفضَّ أهل المسجد إلى رؤية ذلك وسماعه، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر، ولم يبق معه غير اثني عشر رجلاً، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أنا أحدهم.

أخرج عبد بن حميد عن الحسن البصري أن النَّبي ﷺ قال في شأن الباقين معه دون خروج من المسجد: «والذي نفس محمد بيده، لو تتابعتم، حتى لا يبقى منكم أحد، لسال عليكم الوادي ناراً».

وتدلُّ هذه الآية على قيام الخطيب. وأول من استراح في الخطبة عثمان رضي الله عنه، وأول من خطب جالساً معاوية رضي الله عنه.

تفسير سورة المنافقون

صفات المنافقين

خصَّص الله تعالى -بعد تعداد خصال المنافقين في مناسبات قرآنية عديدة- سورة لبيان أوصاف المنافقين هي سورة (المنافقون) المدنية بالإجماع، التي نزلت في غزوة بني المصطلق، بسبب أن عبد الله بن أُبَيّ بن سُلول كان منه في تلك الغزوة أقوال غريبة، وكان له أتباع يقولون قوله، ويتصفون بصفاته، فهم كَذَبة في حَلِفِهم وشهادتهم في الظاهر، ونحو ذلك مما تقدم قبل الغزوة كالتحريض على ترك الإنفاق أو التصدق على بعض الأصحاب، وهم قوم مغرورون سواء في الغزوة أو بعدها، بدليل ما أظهروه من كراهية وعداء مثل تحدِّي المؤمنين بأنهم أذلّة وهم أعزّة، والتهديد والتصميم على إخراج المسلمين من المدينة بعد عودتهم من تلك الغزوة، كما تصوِّر هذه السورة ومطلعها:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ[١] إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً[٢] فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ[٣] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ[٤] ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ

---

(١) نحلف. (٢) وقايةً وستراً. (٣) ختم عليها فلا ينفذ إليها الخير والإيمان. (٤) أخشاب مائلة إلى الجدار.

عَلَيْهِمْ⁽¹⁾ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ⁽²⁾ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ⁽³⁾ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ⁽⁴⁾ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون: ٦٣/ ١-٦].

فضح الله تعالى بهذه الآيات سرائر المنافقين، فإنهم إذا جاؤوا لرسول الله ﷺ كابن أبي وأتباعه كذبوا وقالوا: نحلف بأنك رسول الله إلى الناس كافة، وهم في إخبارهم هذا كاذبون، لإخبارهم بضد ما في قلوبهم، والله يعلم بصدق محمد ﷺ في رسالته، وهو ما تضمنه كلامهم، والله يقسم بأن المنافقين لكاذبون في أيمانهم. وقوله: ﴿يَشْهَدُ﴾ ونحوها من أفعال اليقين والعلم بمنزلة القسم.

إنهم جعلوا أيمانهم الكاذبة وقايةً وستراً لحماية أنفسهم من القتل والأسر، وأموالهم من الأخذ، كما يفعل بالأعداء المقاتلين، فاغتر بهم من يجهلهم، وظنوا أنهم مسلمون، وشككوا غيرهم بحقائق الإيمان والجهاد، ومنعوهم من الإسلام والطاعة، إنهم ساء ما عملوا ويعملون. فهم في هذا أجرموا بجرمين كبيرين: الحلف بالأيمان الكاذبة، والصَّد عن الدخول في الإسلام، ومنع الإسهام في الجهاد في سبيل الله، فكانوا أقبح الناس. والمراد: صدّوا غيرهم ممن كانوا يريدون الإيمان بسبب تشكيكهم ودسائسهم المنكرة.

وأسباب هذا الموقف وافتضاح الله لهم وتوبيخهم: أنهم آمنوا نفاقاً، ثم كفروا حقيقة، فختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم، فلا يدخلها إيمان، ولا تهتدي إلى حق،

(١) يظنون أن كل صوت مزعج واقع بهم. (٢) لعنهم وطردهم. (٣) يصرفون عن الحق والإيمان إلى الضلال. (٤) أمالوها.

ولا ينفذ إليها خير، فأصبحوا لا يفهمون ما فيه رشدهم وصلاحهم، ولا يدركون أدلة صدق رسول الله ﷺ في رسالته.

ثم وبَّخهم الله لأنهم كانوا رجالاً فصحاء ووجهاء، فكان منظرهم يخدع، فإذا نظرت إليهم أعجبتك هيئاتهم، وإن تكلموا سمع كلامهم، وظنّ السامع أنه حق وصدق، لفصاحتهم، وذلاقة ألسنتهم، كأنهم في الواقع أخشاب جوفاء منخورة مستندة إلى الحيطان، ومجرد كتل بشرية لا تفهم ولا تعلم.

وهم مع جمال هيئاتهم، ومناظرهم في غاية الجبن والضعف، يظنون كل صوت عالٍ أنه واقع بهم، لفراغهم النفسي وترددهم وقلقهم وخوفهم المسيطر عليهم، وانهزامهم الداخلي، فهم الأعداء الألدّاء، فاحذر مؤامراتهم، ولا تطلعهم أيها النَّبي على شيء من الأسرار، لأنهم جواسيس للمشركين والكفار، لعنهم الله وطردهم من رحمته، وأهلكهم، كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل والضلال. وكلمة (قاتلهم): كلمة ذم وتوبيخ للتعجب، أو إن القتل مستعمل في اللعن والطرد، على سبيل الاستعارة التبعية لعلاقة المشابهة، في أن كلاًّ منهما نهاية الشدائد والعذاب.

وإذا طلب منهم بقيادة زعيمهم عبد الله بن أُبي أن يأتوا لرسول الله ليطلب لهم المغفرة من الله، أعرضوا واستكبروا واستهزؤوا، ورأيتهم يعرضون إعراضاً شديداً، مع إمالة رؤوسهم، ويمنعون عن سبيل الله غيرهم، فلا يتركونهم يؤمنون، وذلك في حال من الاستكبار والأنفة.

أخرج ابن جرير عن قتادة قال: قيل لعبد الله بن أبي: لوأتيت النَّبي ﷺ، فاستغفر لك، فجعل يلوي رأسه، فنزلت فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ..﴾ الآية. وهذا دليل على إعراضهم عن الاعتذار.

والاستغفار في الواقع لا ينفعهم، فسواء استغفرت لهم أيها الرسول أم لم تستغفر

لهم، لن يغفر الله لهم لإصرارهم على الكفر والنفاق، ولا يجديهم الاستغفار شيئاً، ما داموا على النفاق، إن الله لا يوفق الخارجين عن الطاعة، المنهمكين في المعاصي، المظهرين خلاف ما يبطنون، والله لا يغفر لهم دون حدّ في الاستغفار، وذلك ناسخ في رأي بعضهم لآية الاستغفار سبعين مرة[١] بدليل حديث: «لو علمت أني لو زدت غُفِر لهم»[٢].

أخرج ابن جرير عن عروة قال: لما نزلت ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٨٠]. قال النبي ﷺ: «لأزيدن على السبعين» فأنزل الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ[٣] لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية.

وقد حاول عبد الله بن أبي أثناء خروجه لغزوة بني المصطلق إيقاع الفتنة بين المهاجرين لسبقهم إلى ماء بلغوا إليه، وبين الأنصار، فخرج رسول الله ﷺ، فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» فلما أخبر بالقصة قال: «دعوها فإنها منتنة».

من أسباب النِّفاق

النِّفاق مرض عضال خطير بالنسبة للأمة، لأنه يزعزع أوضاع الجبهة الداخلية أو ما يسمى حديثاً بالوحدة الوطنية، أما بالنسبة للمنافقين فهو داء نابع من الجبن والسخف، وضعف الإدراك والملكات العقلية، لأن النفاق لا بد من أن يظهر أثره، ويفتضح شأن صاحبه. ولكن منافقي المدينة في الماضي انضمّ إلى نفاقهم استكبار أو استعلاء، وظنوا أن لهم قوة يتمكنون من تهديد بقية الأمّة، فأعرضوا عن الاعتذار ولم يوافقوا على طلب الاستغفار، وحجبوا المعاونة عن المهاجرين حتى يموتوا جوعاً،

(١) الآية ٨٠ من سورة التوبة. (٢) هذا على رأي مالك القائل بدليل الخطاب أي مفهوم المخالفة.
(٣) الهمزة للاستفهام في الأصل، واستعملت للتسوية، مجازاً.

وصمموا بعد وقعة بني المصطلق (قبيلة من اليهود) على طرد المؤمنين من المدينة، وأحجموا عن الإنفاق في سبيل المصلحة العامة أو الخير، كما يتبين من منطوق الآيات الآتية:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ۗ(١) وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ(٢) وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ(٣) وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ(٤) وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ **[المنافقون: ٦٣/٧-١١].**

أخرج البخاري وأحمد والترمذي وغيرهم عن زيد بن أرقم قال: سمعت عبد الله ابن أُبي يقول لأصحابه: «لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا، فلئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلّ»، فذكرت ذلك لعمّي، فذكر ذلك عمي للنّبي ﷺ، فدعاني النّبي ﷺ، فحدَّثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بنِ أُبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذَّبني، وصدَّقه، فأصابني شيء لم يصبني مثله، فجلست في البيت، فقال عمي: ما أردتَ إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك، فأنزل الله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فبعث إلي رسول الله ﷺ، فقرأها، ثم قال: «إن الله قد صدَّقك».

هؤلاء المنافقون يقولون للأنصار: لا تطعموا أصحاب محمد المهاجرين، حتى يجوعوا ويتفرّقوا عنه. فردَّ الله عليهم بأن الله هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين، وبيده

(١) يتفرّقوا. (٢) الغلبة. (٣) فأتصدّق. (٤) نهاية العمر.

مفاتيح أرزاق العباد، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولكن المنافقين يجهلون أن خزائن الأرزاق بيد الله، فظنّوا أن الله لا يوسّع أو يعوِّض على المؤمنين ما فقدوه أو تركوه من أموالهم في مكة.

والأظهر أن الخزائن أشياء مخلوقة موجودة، يصرّفها الله تعالى حيث يشاء.

هؤلاء المنافقون: هم الذين يقولون-والقائل زعيمهم عبد الله بن أبي -: لئن عدنا من هذه الغزوة -غزوة بني المصطلق- إلى المدينة، ليخرجن الأعزّ (أي نفسه) منها الأذلّ (أي الرسول والمؤمنين)، ولم يلبث بعد أن رجع زعيم النفاق ابن أبيّ إلى المدينة أياماً يسيرة، حتى مات، وردَّ الله على المنافقين: بأن لله وحده القوة والغلبة، ولمن منحها من رسله وصالحِ المؤمنين، لا لغيرهم، ولكن المنافقين لا يعلمون أو لا يدرون ذلك. وفي ذلك وعيد لهم.

ثم حذَّر الله المؤمنين من التَّشبه بالمنافقين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ[١] . .﴾ أي يا أيها المصدِّقون بالله ورسوله، لا تشغلكم الأموال وتدبيرها، عن القيام بذكر الله تعالى من التوحيد والصلاة والدعاء وغير ذلك من تسبيح وتحميد وتهليل، وأداء الفرائض الأخرى غير الصلاة. ومن يتلهى بالدنيا ومتاعها وزخارفها، وينصرف عن الدين وطاعة ربّه، فإنه من الخاسرين، الكاملي الخسران، الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، لأنه باع خالداً بفانٍ زائل، وهذا تحذير وتوعُّد وتخويف. والأظهر أن (ذكر الله)، هنا عام في التوحيد والصلاة والدعاء وغير ذلك من فرض ومندوب.

ثم حثَّ الله المؤمنين على الإنفاق في طاعته ونشر دينه وجهاد عدوه، فقال:

(١) الإلهاء: الاشتغال بشهوة ولَذّة .

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم . .﴾ أي وبادروا إلى الإنفاق من بعض ما رزقناكم، في سبيل الخير العام، شكراً على النعمة، ورحمة بالفقراء، ورعاية للمصلحة العامة العليا، من قبل مجيء أسباب الموت ومشاهدة علاماته، فيقول الواحد منكم: هلا أمهلتني يا ربّ، وأخّرت موتي إلى مدة أخرى قصيرة، فأتصدّق بمالي، وأكن من الصالحين المستقيمين. وهذا دليل على أن كل مفرّط أو مقصّر في عمل الخير يندم عند الاحتضار. وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم . .﴾ الأظهر أنه عام في كل مفروض ومندوب. وكذا قوله: ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ظاهره العموم. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي علاماته وأوائل أمره. وقوله ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ مطالبة بالعودة إلى الدنيا والإمهال.

ولن يؤخر الله تعالى أي نفس عن الموت أو قبض الروح إذا حضر أجلها، وانقضى عمرها، والله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فهو مجازيكم عليها، بالخير خيراً، وبالشّرّ شرّاً. وهذا حضٌّ على المبادرة لعمل الخير، ومسابقة الأجل بالعمل الصالح.

إن النّدم من أي إنسان على التفريط وطلب العودة إلى الدنيا لتدارك التقصير عما فاته، لا يفيد الإنسان شيئاً، فلات ساعة مندم، فقد تم القضاء، ونفذ الأمر، ولا أمل في النجاة إلا بالعمل الصالح.

تفسير سورة التَّغابن

إثبات القدرة الإلهية والرَّد على منكري البعث

قدرة الله تعالى الخارقة واضحة ثابتة بأدنى تأمُّل، في هذا الكون الذي أوجده الله من العدم، حيث لا يوجد شيء عقلاً ولا طبعاً بدون موجد، وأوجد الإنسان وصوَّره في أحسن تصوير، وأحاط علم الله بكل شيء في السموات والأرض. فلا يؤبه بإنكار المشركين وحدانيةَ الله، والنُّبواتِ، وبعثَ الناس من القبور، ومع ذلك أقسم الله تعالى على وجود البعث، وإخبار الناس جميعاً بما عملوا في الدنيا، وذلك أمر يسير على الله، كما في الآيات الآتية في مطلع سورة التَّغابن[1] المدنيّة عند الأكثرين، وقيل: إنها مكّية:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤْمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ[2] فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ٣ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ[3] ٤ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ[4] مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ[5] وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦ زَعَمَ[6] ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التَّغابن: ٦٤/ ١-٧].

(١) هو تغابن الآخرة حيث يغبن (يجده قليلاً) كل إنسان عمله . (٢) أبدع تصويركم أي تخطيطكم وتشكيلكم . (٣) أي حديث النفس والسّر . (٤) خبرهم المهم . (٥) عاقبة أمرهم الثقيلة . (٦) ادعوا العلم بالباطل .

ينزه الله تعالى عن كل نقص وعيب، ويمجِّده جميع المخلوقات في السماوات والأرض، لأنه المالك المطلق وحده، والمحمود المشكور وحده، المستحق للحمد والشكر، من جميع مخلوقاته، على جميع ما يخلقه ويقدِّره، وهو القادر على كل شيء، أي موجود، وفيه عموم التنبيه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ومن آثار قدرته: أنه تعالى هو الذي أوجدكم على هذه الصفة، وصار أمر كل واحد ما اختاره، فمنكم الكافر باختياره وكسبه على نقيض فطرته، ومنكم المؤمن باختياره على حسب فطرته السوية القائمة على التوحيد، والله العالم البصير قبل الخلق بما يؤول إليه أمر كل واحد منكم، الشهيد على أعمال عباده.

- ومن مظاهر قدرته: أنه أوجد السماوات والأرض بالعدل والحكمة البالغة المحققة لنفع العالم في الدين والدنيا، فلم يكن خلقها عبثاً ولا لغير معنى. وأبدع خلقكم أو تصويركم، أي التشكيل والتخطيط في أحسن وجه وأجمل عضو، وإليه في الآخرة مرجعكم ومآلكم، فيجازي كل إنسان بما كسب.

- ومن آثار قدرته: أنه تعالى يعلم جميع ما في السماوات والأرض، فلا تخفى عليه خافية من ذلك، ويعلم ما تخفونه وما تظهرونه، والله محيط علمه بما يضمره كل إنسان في نفسه من الأسرار والعقائد. وقوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾ عطف خاص على عام، فإنه تعالى علم أعظم المخلوقات، ثم تدرج القول إلى أخفى من ذلك، وهو جميع ما يقوله الناس في السّرّ والعلن، ثم تدرج إلى شيء خفي: وهو ما يهجس بالخواطر. و﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: ما فيه من خطرات واعتقادات، والصَّدر هنا: هو القلب.

ألم يبلغكم معشر مشركي مكة خبر الكفار من الأمم الماضية، كقوم نوح وعاد وثمود، وما حلَّ بهم من العذاب والنّكال، بسبب مخالفة الرُّسل والتكذيب بالحق، فقد دعتهم الرُّسل إلى توحيد الله وعبادته، وترك عبادة الأوثان، فعاندوا وأعرضوا،

فأصابهم عاقبة كفرهم وتكذيبهم، ورديء أفعالهم، بعقاب الدنيا، والعذاب المؤلم في الآخرة، وهو عذاب النار.

وذلك العذاب في الدارين بسبب أنه كانت تجيئهم رسلهم بالمعجزات الظاهرة والأدلة الواضحة، فقالوا: كيف يتصور أن يهدينا البشر؟ فكفروا بالرسل وبرسالاتهم، وأعرضوا عنهم وعن الحق والعمل به، ولم يتدبروا فيما جاؤوا به، واستغنى الله عن إيمانهم وعبادتهم الباطلين، حين أهلكهم، وعما ظهر من هلاكهم، وأنهم لن يضرّوا الله شيئاً، فبان أنه كان غنياً أولاً، والله غير محتاج إلى العالم ولا إلى عبادتهم له، محمود من كل مخلوقاته، بلسان المقال أو الحال.

وكلمة ﴿أَبَشَرٌ﴾ اسم جنس، فوصف بالجمع، على أنه مبتدأ، ويهدوننا خبر. ثم أخبر الله عن عقيدة الكفار بإنكار البعث، فقد زعم[(١)] الذين كفروا، يعني قريشاً، ثم يعمُّ كل كافر بالبعث، أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، فردَّ الله عليهم وأخبرهم بأنكم والله ستبعثون وتخرجون من قبوركم أحياء، ثم تخبرون بجميع أعمالكم جليلها وصغيرها، إقامة للحجة عليكم، ثم تجزون به، وذلك البعث والجزاء هيِّن سهل على الله تعالى. وفيه تأكيد البعث على جهة الإخبار والتوبيخ.

وليس في القرآن قسم يقسم به الله بنفسه إلا في ثلاثة مواضع: هذا الموضع: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ وقوله في آية أخرى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ١٠/٥٣]، وقوله في موضع ثالث: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣٤/٣]. والمواضع الثلاثة لإثبات البعث بالقَسَم الإلهي العظيم.

(١) الزعم: عبارة عن الكذب، أو القول الذي انفرد به قائله ويلقيه على الزاعم، أخرج أحمد وأبو داود عن حذيفة حديثاً ضعيفاً هو: ((بئس مطية الرجل: زعموا))

فليس لمؤمن أو عاقل أن ينكر الآخرة وما فيها من حساب، وعقاب وثواب، لإقامة صرح العدالة بين الناس.

الدَّعوة إلى الإيمان بالله ورسوله والتحذير من مفاجآت القيامة

بعد أن أقسم الله تعالى على إثبات وجود البعث، أمر بالإيمان الخالص بالله تعالى وبرسوله، وبالقرآن نور الله الهادي إلى صراط مستقيم، ثم هدَّد وحذَّر من الحساب العسير يوم القيامة وهو يوم الجمع، حيث يغبن كل إنسان عمله، لتركه الاستعداد ليوم الآخرة، وليس هناك أحد أخلصَ من الله وأحبّ لعباده، حيث أمر بما فيه المصلحة لهم، وحذَّرهم من المخاطر، ونبَّههم إلى التسابق في عمل الخير، ووصف لهم أنواع النعيم، وألوان العذاب في الجحيم، ورغَّبهم بالإيمان والطاعة والتوكُّل على الله سبحانه، كما في هذه الآيات:

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ(١) ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ(٢) ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ(٣) وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ(٤) وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [التّغابن: ٦٤/ ٨-١٣].

---

(١) أي القرآن. (٢) هو يوم القيامة، وقوله: (يوم) العامل فيه إما: (تنبؤن) أو (خبير). (٣) يغبن فيه الكافر نفسه بتركه الإيمان، والمؤمن بتركه الإحسان. (٤) إلى الرِّضا بمصيبته والصبر والثبات على الإيمان.

هذا بعد إثبات البعث اليسير على الله: دعوةٌ إلى الله تعالى وتبليغ وتحذير، فصدّقوا بالله ورسوله محمد ﷺ، وبالقرآن الكتاب المنير الهادي إلى السعادة، والمنقذ من الضلالة، والله مطّلع على كل شيء، عالم بكل ما تعملون أو تقولون، ومجازيكم على ذلك خيراً أو شرّاً بحسب عمل كل واحد.

الله خبير ينبئكم بما عملتم يوم يجمعكم أو يحشركم في صعيد واحد للجزاء، يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يظهر فيه الغبن أو النقص، غبن الكافر بتركه الإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان، فتظهر فيه الخسارة الفادحة للفريقين. فإذا وقع الجزاء عيَّر المؤمنون الكافرين، لأنهم يجزون الجنة، ويحصل الكفار في النار.

ومن يصدق بالله تصديقاً صحيحاً، ويعمل العمل الصالح بأداء الفرائض والطاعات، واجتناب المنهيات المنكرات، يمح الله سيئاته وذنوبه، ويدخله الجنات التي تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها على الدوام، وذلك الشرف والإنعام والتكريم: هو الظفر أو الفوز الذي لا يعادله شيء قبله ولا بعده.

وإنما قال: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ بلفظ الجمع، بعد قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ﴾ بلفظ الواحد، لأن ذلك بحسب اللفظ، وهذا بحسب المعنى.

وأما الذين كفروا بالله وكذبوا بآياته القرآنية الدّالة على البعث والقدرة الإلهية، وأنكروا رسالة النَّبي محمد ﷺ، فأولئك هم أصحاب النار، خالدين (ماكثين فيها على الدوام) وبئس المرجع مرجعهم، وساءت النار مثواهم.

وهذه موازنة بيْن الفريقين، تدلُّ على حال السعداء، وحال الأشقياء، لبيان حال التغابن في الآخرة، لا في الدنيا.

ثم أوضح الله تعالى أن كل ما يصيب الإنسان فهو بقضاء الله وقدرته، على وفق السُّنة الكونية، القائمة على العلم الإلهي، والإرادة المدبِّرة، أي إن كل ما يصيب

الإنسان من مصائب ورزايا، ومن خير أو شرّ فهو بإذن الله تعالى، أي بعلمه وإرادته وتمكينه الوقوع، بحسب الحكمة الإلهية، وما على الإنسان إلا العمل بأمر الله، واجتناب ما نهى عنه، لأن الأمر الإلهي غير الإرادة.

ومن يصدق بالله، ويعلم أن ما أصابه من مصيبة أو شرّ أو خير، يهد الله قلبه للرِّضا والصبر والثبات على الإيمان، والله واسع العلم، لا تخفى عليه من ذلك خافية. وبعبارة أخرى: من آمن بالله تعالى، وعرف أن كل شيء بقضاء الله وقدره وعلمه، هانت عليه مصيبته، وسلَّم الأمر لله تعالى.

ثم أمر الله تعالى بالطاعة، أي أيها الناس اشتغلوا بطاعة الله فيما شرع، وبطاعة رسوله فيما بلَّغ، وافعلوا ما به أمر، واتركوا كل ما نهى عنه وزجر، فإن أعرضتم عن الطاعة، وتنكبتم طريق العمل، فإثمكم على أنفسكم، وليس على رسول الله ﷺ إلا التبليغ الواضح. قال الزُّهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. والآية وعيد وتبرئة لمحمد ﷺ إذا بلَّغ.

والله هو الإله الواحد الذي لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، وهو المستحقّ للعبودية والعبادة دون غيره، فوحدوا الله وأخلصوا العمل له، ولا تشركوا به شيئاً، وتوكَّلوا عليه، أي فوِّضوا أموركم إليه، واعتمدوا عليه، لا على غيره. وهذا تحريض للمؤمنين على مكافحة الكفار ومجاهدتهم والصبر على دين الله تعالى، وإرشاد إلى وجوب الاعتماد في كل شيء على الله، وطلب العون الدائم منه، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

إن هذه الإرشادات الإلهية ترشد إلى الصواب في الأمور، وتدلُّ على فلسفة الأحداث، وتعلُّقها بالإرادة الإلهية، وبالعلم الرَّباني، وبالحكمة السَّرمدية، فكل ذلك مرتبط بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء، ويجب على العبد المؤمن الرِّضا

والتسليم، وحسن الظن والثقة بالله، ووجوب الاعتماد على الله بعد اتِّخاذ الأسباب، والقيام بالأعمال المطلوبة شرعاً.

فتنة الأزواج والأولاد والأموال

حذَّر الله تعالى من فتنة الأزواج والأموال والأولاد الذين يكونون سبباً في التقصير بالطاعة، والتورُّط أحياناً في المعصية، وناسب ذلك أن يأمر الله بالتقوى والإنفاق في سبيل الله، لأن ذلك هو رأس مال الإنسان، وسبيل إسعاده في الدنيا والآخرة، فلكل مرض علاج، وعلاج الانحراف المبادرة إلى الاستقامة، والتزام جادة الامتثال والطاعة، كما توضح هذه الآيات الآتية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ(١) وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ(٢) نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ(٣) ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا(٤) يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

[التَّغابن: ٦٤/ ١٤-١٨].

أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ في قوم من أهل مكة، أسلموا، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعوهم (أن يهاجروا)، فأتوا المدينة، فلما قدموا على رسول الله ﷺ، رأوا الناس قد فقُهوا، فهمّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله: ﴿وَإِن تَعْفُواْ

---

(١) اختبار لكم. (٢) الشُّح: البخل مع الحرص. (٣) أي تتصدَّقوا. (٤) بإخلاص وطيب نفس من غير ربا.

﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ الآية، أي إن سبب الآية أن قوماً آمنوا بالله تعالى، وثبَّطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة، فلم يهاجروا إلا بعد مدة، فوجدوا غيرهم قد تفقَّه في الدين، فندموا وأسِفوا وهموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم

يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله، إن بعض أزواجكم وأولادكم عدو لكم عداوة أُخروية، في غير صالحكم، يشغلونكم عن الخير والعمل الصالح المفيد لكم في الآخرة، فاحذروا أن تؤثروا حبَّهم وشفقتكم عليهم على طاعة الله تعالى. ثم رغَّب الله تعالى بالعفو عنهم، فإن تعفوا عن ذنوب أزواجكم وأولادكم، وتصفحوا بترك اللوم عليها، وتستروا الأخطاء تمهيداً لمعذرتهم فيها، فالله واسع المغفرة لذنوب عباده، شامل الرحمة بهم، يعامل الناس بأحسن مما عملوا.

ثم أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة أي موضع اختبار ومحنة، تشغل المرء عن مراشده، وتحمله على إيثار الدنيا على الآخرة، والوقوع فيما لا يحمد عليه، ومنه قوله ﷺ -فيما أخرجه أبو يعلى في مسنده -: «الولد مَبْخَلة مَجْبَنَة» . والله عنده الثواب الجليل لمن آثر طاعة الله تعالى، وترك التورُّط في المعصية، بسبب محبة ولده وماله. وهذا تزهيد في الدنيا، وترغيب في الآخرة. أخرج أحمد والترمذي والحاكم والطبراني عن كعب بن عياض قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل أمّة فتنة، وإن فتنة أمّتي المال».

والتخلُّص من الفتنة: بالتقوى والطاعة، فأمر الله بالتقوى: وهي التزام الأوامر واجتناب النواهي، بقدر الطاقة والجهد، وأمر بالاستماع للأوامر وإطاعتها، والإنفاق من الأموال التي رزق الله بها العباد في وجوه الخير. وقوله: ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ منصوب بقوله: ﴿أَنفِقُواْ﴾. والخير هنا: المال، أو نعت لمصدر محذوف تقديره: إنفاقاً خيراً. ففي الإنفاق خير للأنفس في الدنيا والآخرة.

ومن وقاه الله وحفظه من داء الشُّح (البخل مع الحرص) فأنفق في سبيل الله ووجوه الخير، فأولئك هم الفائزون بما يطلبون. أخرج البخاري في تاريخه وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النَّبي ﷺ قال: «شرّ ما في الرجل: شحٌّ هالع، وجُبْن خالع».

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ(١)﴾ [آل عمران: ٣/١٠٢] اشتدَّ على القوم العمل، فقاموا حتى وَرِمت عراقيبهم، وتقرَّحت جباههم، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر، فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه».

ثم أكّد الله تعالى الحث على النفقة، بقوله: فيما معناه: إن تتصدقوا صدقة حسنة بإخلاص وطيب نفس، يضاعف الله الثواب لكم أضعافاً مضاعفة، ويغفر لكم أيضاً ذنوبكم، والله يجزي الكثير على القليل، تام الشكر، أي يعطي على الطاعة الجزيل بالقليل، وواسع الحلم، أي لا يعاجل بالعقوبة على المعصية. وقوله: ﴿شَكُورٌ﴾ إخبار بمجازاته تعالى على الشيء، وأنه يحط به عمن شاء عظائم الأمور.

ثم رغَّب الله ترغيباً زائداً بالنفقة، وهو أن الله تعالى شامل العلم بما غاب عنكم وما حضر، غالب قاهر، ذو حكمة بالغة، يضع الأمور في مواضعها الصحيحة. إن التحذير من فتنة المال والتعلُّق به، ثم توالي تأكيدات ثلاثة على الإنفاق بأساليب متنوعة، ترويض على اقتلاع داء البخل من النفس، وحمل للنفس على ادِّخار ثواب النفقة في سبيل الخير والمعروف عند الله تعالى الذي لا تضيع عنده الودائع.

---

(١) أي فيما استطعتم، إذ لا يطيع أحد فوق طاقته واستطاعته.

تفسير سورة الطَّلاق

الطَّلاق السني في العدة

كره الإسلام الطلاق، لأنه تبديد الشمل، وقطع الصِّلة، وهدم الحياة الزوجية، وإذا كان لا بدَّ منه، فينبغي اقترانه ببدء العدة، حتى لا تطول مدَّتها على المرأة، وتتضرر فالإضرار بالطلاق حرام، وكيلا يقع الزوج في الندم إذا طلَّق في وقت غير مناسب، فيحرم في وقت الحيض، أو في طهر جامعها فيه، وهذا هو الطلاق البدعي، ويقابله الطلاق السني الذي أمر به في الآيات الآتية من مطلع سورة الطلاق، المدنية بالإجماع:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ(١) وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ(٢) وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ(٣) وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ(٤) فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ(٥) وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ(٦) ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا(٧) ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ(٨) إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ(٩) قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا(١٠) ﴿٣﴾﴾ [الطَّلاق: ٦٥/١-٣].

---

(١) أي مستقبلات مبتدئات عدتهن. (٢) اضبطوها. (٣) ارتكاب ذنب ظاهر كالزنا. (٤) قضين عدتهن.
(٥) أهل عدالة وذمة. (٦) أدوها لوجه الله بلا تحريف. (٧) طريقاً للخروج من المحنة. (٨) كافيه.
(٩) محقق ما يريده. (١٠) تقديراً لا يتجاوزه.

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن أنس قال: طلّق رسول الله ﷺ حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ الآية، فقيل له: راجِعْها فإنها صوّامة قوّامة، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة.

خوطب النّبي في مطلع السورة للتنبيه على سماع القول وتلقّي الأمر، ثم خوطبت أمته، أي إذا طلقتم أنت وأمتك، فيا أيها الرسول والمؤمنون به، إذا أردتم تطليق النساء، وعزمتم عليه، فطلِّقوهن (أي يجب عليكم) مستقبلات لعدتهن، حتى لا تطول العدة عليهن، ولئلا يلحقهن ضرر بتطويل العدة، واضبطوا أيها الأزواج مدة العدة واحفظوها، لتكون عدة كاملة، وهي ثلاثة أقراء (أطهار في رأي، وحيضات في رأي آخر) وضبط العدة واجبٌ، لترتب أحكام فيها، من معرفة وقت الرجعة، والإشهاد عليها، وأداء نفقة المعتدة وسكناها، والتزام بيوتهن، واتّقوا الله الرّب تعالى، فلا تعصوه فيما أمركم، ولا تلحقوا ضرراً بالمرأة، ولا تخرجوا المطلقات من بيوتهن (بيتَ الزوجية) في مدة العدة، فلكل معتدة الحق في السكنى على حساب الزوج، ما دامت في عدتها منه، وليس للزوج أن يخرجها، ولا يجوز لها الخروج من بيت الزوجية: بيت العدة لغير ضرورة ليلاً أو نهاراً، إلا إذا ارتكبت فاحشة ظاهرة ثابتة كالزِّنا.

وهذه الأحكام المتعلقة بالعدة: هي حدود الله التي حدَّها لهم، لا يحلُّ لهم تجاوزها إلى غيرها، ومن يتجاوز هذه الحدود، فقد ظلم نفسه وأضرّ غيره، وأهلكها. وعلّة تحريم تعدي حدود الله: أنك لا تدري أيها المطلق حين ألزمنا بإبقاء المطلقة في منزل الزوج مدة العدة، أن يتراجع الزوجان، ويندم كل منهما على ما حدث، وهذا هو الغالب الواقع، ويؤلف الله بين قلوبهما، ويراجع المطلق زوجته، وتعود الحياة الزوجية كما كانت، بل ربما أحسن مما مضى، لأن الطلاق أمر صعب شاق على كل من الرجل والمرأة.

فإذا اقترب انتهاء العدة، وشارفت المعتدات على انقضاء العدة، أي اقترب وقت انتهاء العدة، فعليكم أيها الأزواج اختيار أحد أمرين: إما الإمساك بالمعروف: وهو الرجعة إلى عصمة الزوج واستمرار الزوجية، مع إحسان الصحبة والمعاشرة بالمعروف كما أمر الله تعالى، وإما المفارقة بالمعروف، أي تركهن إلى انقضاء عدتهن، مع إيفاء حقِّهن واتِّقاء الإضرار بهن، من غير توبيخ ولا مشاتمة، بل تنفصل المرأة على وجه حسن.

ويأمركم الله بالإشهاد على الرجعة أو الفراق من شاهدي عدل، حسماً للخلاف، وإعلاماً للناس حتى لا يطعن بالزوج إن راجع، أو بالمرأة إن تزوجت بزوج آخر، وأدّوا أيها الشهود الشهادة خالصة لوجه الله، دون تحيُّز أو ميل لأحد الخصمين. وهذه الشهادة على الرجعة والفراق مندوبة باتِّفاق المذاهب الأربعة، للإجماع على عدم وجوبها عند الطلاق، فكذلك عند الإمساك.

ذلكم المذكور الذي أمرناكم به من الإشهاد وإخلاص الشهادة لله تعالى، وإيقاع الطلاق على وجه السُّنة، وإحصاء العدة، والكفِّ عن الخروج والإخراج، إنما يأتمر به من يؤمن بالله واليوم الآخر، و يخاف عقاب الله في الآخرة.

ومن يتَّق الله فيما أمره به وترك ما نهاه عنه، ويقف عند حدوده، يجعل له مخرجاً أو مخلصاً مما وقع فيه، ويرزقه ما يطعم أهله ويوسع عليه، على وجه لا يخطر بباله، ولا يكون في حسابه.

ومن يفوِّض أمره لله فيما نابه، فالله كافيه، إن الله يبلغ ما يريده، ويحقق مراده، قد جعل للأشياء قدراً محدداً قبل وجودها، وقدَّر لها أوقاتها. والآية كلها عظة لجميع الناس وحضّ على التوكُّل.

نزلت آية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ كما أخرج الحاكم عن جابر: في رجل من أشجع،

كان فقيراً، خفيف ذات اليد، كثير العيال، فأتى رسول الله ﷺ، فسأله، فقال له: اتَّق الله، واصبر، فلم يلبث إلا يسيراً، حتى جاء ابن له بغنم، وكان العدو أصابوه، فأتى رسول الله ﷺ، فأخبره خبرها، فقال: كلها، فنزلت. وهو حديث منكر له شاهد، أي إن الولد كان أسيراً، فهرب وأخذ من العدو قطيع غنم.

أنواع العِدَد ومقاديرها وحقوق المعتدات

إذا وقع الطلاق في بدء العدة، ولم تقع الرجعة للحائض في العدة (ثلاثة قروء) وجب على المطلقة الاعتداد بثلاثة قروء (حيضات أو أطهار)، إن كانت حائضاً، وأما الآيسة من الحيض، والصغيرة التي لم ترَ الدم، فعدتهما ثلاثة أشهر، وعدة الحامل بوضع الحمل. وللمعتدة الحق في النفقة والسكنى في بيت الزوجية بحسب الوسع والطاقة، ولو في حجرة من بيت الزوج، ومعيار مقدار النفقة هو بحسب حال الزوج يساراً وإعساراً، وتوسُّعاً أو اعتدالاً، فالتكليف على قدر الحال. وهذا ما نصَّت عليه الآيات الآتية:

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ[1] مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ[2] فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ[3] أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ[4] وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖ[5] وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ[6] فَسَتُرۡضِعُ

(١) وقعن في اليأس من الحيض لكبر السِّن. (٢) إن شككتم في عدتهن. (٣) انقضاء عدتهن بالوضع. (٤) من وسعكم وطاقتكم. (٥) تشاوروا في شأن إرضاع الطفل. (٦) تعرضتم للإعسار.

لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ(١) عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطَّلاق: ٦٥/ ٤-٧].

أخرج ابن جرير وإسحاق بن راهويه والحاكم والبيهقي عن أبي بن كعب قال: لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عَدَد من عِدَد النساء، قالوا: قد بقي عَدَد من عِدَد النساء لم يذكرن: الصغار والكبار اللاتي قد انقطع عنهن الحيض، وأولات الأحمال، فأنزلت: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ الآية.

النساء اللاتي أصبحن آيسات من مجيء الحيض لكبرهن، ببلوغهن مثلاً سنّ الخامسة والخمسين أو الستين، عدتهن وعدة الصغيرات اللاتي لم يبلغن سن الحيض: ثلاثة أشهر.

وعدة أصحاب الحمل (الحبالى): بوضع الحمل، ولو بعد الطلاق أو الموت بساعة، في قول الجمهور، لأن النّبي ﷺ أذن لسبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد وضعها حملها بليال، بعد وفاة زوجها: بأن تتزوج، فتزوجت، أي عقدت زواجها وكان زوجها سعد ابن خولة قد توفي في حجة الوداع، ووضعت حملها قبل أربعة أشهر.

وقد نزلت هذه الآية كما ذكر ابن مسعود بعد آية عدة الوفاة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٤].

ومن يخف الله تعالى ويرهب عقابه، فيأتمر بما أمر الله، وينتهِ عما نهى عنه، يسهّل عليه أمره كله في الدنيا والآخرة، وهذا تنويه بفضيلة التقوى.

ذلك، أي جميع الأحكام المتقدمة في الطلاق والعدة: هو أمر الله الذي أمر به عباده، وأنزله إليهم في قرآنه، ومن يخف الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، يمح

---

(١) قتر عليه في الرزق .

عنه ذنوبه من صحائف أعماله، ولا يؤاخذه بها، ويجزل له الثواب على عمله، وكرر الأمر بالتقوى للتأكيد عليها.

وحقوق المعتدة: هي السكنى والنفقة، فأسكنوا المطلقات في مسكن مشابه لما تسكنون فيه بقدر أحوالكم وسعتكم، ولو في غرفة من غرف الدار التي تسكنون فيها، ولا تلحقوا بهنّ ضرراً في النفقة والسكنى، فتضطروهن إلى الخروج من المسكن، أو التنازل عن النفقة.

وإن كانت النساء أصحاب حمل (حبليات) فيجب عليكم بلا خلاف الإنفاق عليهن والسكنى حتى يضعن حملهن. وأوجب الحنفية السكنى والنفقة لكل مطلقة، ولو مبتوتة، وإن لم تكن ذات حمل، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾. ولم يوجب المالكية والشافعية للمطلقة ثلاثاً إلا السكنى فقط دون النفقة، ومذهب الإمام أحمد: ألا نفقة للمطلقة ثلاثاً ولا سكنى، لحديث فاطمة بنت قيس عند مسلم وأحمد، حيث طلقها زوجها ثلاثاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «لا نفقة لك ولا سكنى».

و﴿أُوْلَٰتِ﴾ أي ذوات، جمع ذات، وأكثر أهل العلم على أن هذه الآية تعمُّ الحوامل المطلقات والمعتدات من الوفاة، لحديث سبيعة المتقدم.

ويجب على الزوج دفع الأجرة على الرضاع، فإن أرضعت الأمهات المطلقات أولادكم بعد الطلاق، فأعطوهن أجور إرضاعهن إذا رضين بأجر المثل، وتشاوروا أيها الأزواج والزوجات في إرضاع الطفل، بحسب المعروف، أي بالمسامحة، من غير إضرار ولا مضارّة، وليأمر كل واحد صاحبه بخير.

وإن تضايقتم واختلفتم وأصابكم إعسار في شأن الإرضاع، فأبى الزوج إعطاء الأم الأجر الذي تريده، وأبت الأم إرضاعه إلا بما تريد من الأجر، فيستأجر الأب مرضعة أخرى، ترضع ولده.

ومقدار النفقة: أن ينفق الوالد بحسب طاقته أو سعته، والفقير بحسب ما أعطاه الله من الرزق بقدر سعته أيضاً، ولا يكلف الله نفساً إلا ما أعطاها من الرزق، فلا يكلف الفقير بالإنفاق على الزوجة والقريب ذي الرحم ما ليس في وسعه، كنفقة الغني. والعجز عن النفقة الزوجية يجيز عند الجمهور التفريق بين الزوجين، وقال الحنفية: لا يفرق بينهما.

ثم وعد الله تعالى بالإغناء، فسيجعل الله تعالى بعد ضيق وشدة سعةً وغنى، وهذا وعد من الله تعالى، ووعده حق لا خُلف فيه، وهو بشرى بالفرج بعد الكرب، وباليسر بعد العسر، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الانشراح: ٩٤/ ٥-٦].

وعيد المخالفين ووعد المؤمنين الطائعين

اقتضى بيان أحكام الطلاق والعِدَد وما يجب للمعتدة من نفقة وسكنى والوصية بالتقوى: إنذارَ المخالفين أمر الله ورسوله، بعقاب مماثل لعقاب الأمم الماضية الذين كفروا وكذَّبوا رسلهم، والتذكير بعظيم قدرة الله تعالى، وإحاطَةَ علمه بكل شيء، تأكيداً للتحذير من مخالفة الأوامر بعد تبيان الأحكام الشرعية، وهذا موضح بالآيات الآتية:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ(١) عَتَتْ(٢) عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا(٣) ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا(٤) وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ(٥) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا(٦) ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ

(١) كثير من القرى . (٢) أعرضت، والعتو: ترك الائتمار والقبول. (٣) شديداً منكراً عظيماً . (٤) عاقبته .
(٥) أصحاب العقول النَّيِّرة . (٦) الذِّكر: هو القرآن .

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا[١] ١١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ[٢] لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: ٦٥/٨-١٢].

هذا وعيد لكل مخالفٍ أمْر الله تعالى، مكذبٍ رسله، فكثير من أهل القرى عصوا أمر الله ورسله، ولم يقبلوا شرعه، وتكبروا وتمردوا، فحاسبها الله تعالى بأعمالها المعمولة في الدنيا ولم يغتفر لهم زلّة، بل أُخذوا بالدقائق من الذنوب، وعذب أهلها عذاباً مؤلماً منكراً، في الآخرة، وأما في الدنيا فعذبهم بالجوع والقحط والخسف ونحو ذلك. وعبَّر بالماضي في قوله: ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا﴾ ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا﴾ عن المستقبل، للدلالة على التحقُّق والوقوع، لوعيد الله.

وسبب العذاب: أن أولئك المعذبين لقوا عاقبة أمرهم وشؤم كفرهم، وكان مصيرهم الخسارة والهلاك والنكال في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

وأعدَّ الله لهم في الآخرة عذاباً شديداً مؤلماً، لكفرهم وتمرُّدهم، وهو عذاب النار. فكان قوله تعالى: ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا﴾ الظاهر أنه في الدنيا، بدليل قوله بعدئذ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ الذي يبين خسران عاقبتهم، هو عذاب الآخرة.

ثم ندب الله تعالى أولي العقول إلى التقوى تحذيراً، وأمرهم بها صراحة، وذكَّرهم بما يوجب التقوى أو العمل الصالح بنحو دائم، فاتَّقوا الله يا أولي الألباب (العقول) من هذه الأمة. الذين صدَّقوا بالله ورسله، وأسلموا لله تعالى، وانقادوا لعظمته وحكمه، واتَّبعوا رسولهم محمداً ﷺ، فإن الله قد أنزل إليكم القرآن الكريم تذكرة دائمة، وأرسل لكم رسولاً مذكِّراً بهذا القرآن، فهو الترجمان الصادق، وهو الذي يبلِّغكم وحي الله وشرعه، ويقرأ عليكم كلام الله وآياته في حال كونها بيِّنة واضحة،

(١) جزاء حسناً . (٢) أمر الله وقضاؤه .

يبيّن فيها للناس الشرائع والأحكام، لإخراج المؤمنين بالآيات والرسول من دائرة الظلمات إلى أنوار الهداية الرَّبانية، ومن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا﴾ مختلف فيه، فقال قوم من المتأولين: المراد بالاسمين القرآن، و﴿رَّسُولًا﴾ بمعنى رسالة. وقال آخرون: رسولاً نعت أو كالنعت لقوله سبحانه: ﴿ذِكْرًا﴾ أي ذكراً ذا رسول. وقال آخرون: المراد بهما جميعاً محمد ﷺ، والمعنى: ذا ذِكْر رسولاً، والذكر: اسم من أسماء الرسول عليه الصَّلاة والسّلام، وهذا هو الظاهر، لكن قال ابن عطية رحمه الله: وأبين الأقوال عندي معنىً: أن يكون (الذِّكر) القرآن، و (الرّسول) محمداً ﷺ، والمعنى: بعث رسولاً، لكن الإيجاز اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول، ونحا هذا المنحى السّدي.

ثُمَّ رغَّب الله المؤمنين بالإيمان والعمل الصالح ببيان الجزاء الحسن لهما، وهو أن من يصدِّق بالله، ويعمل العمل الصالح، فيجمع بين التصديق والعمل بما فرضه الله عليه، يدخله الله جنات (أي بساتين) تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبداً على الدوام، وقد وسَّع الله له رزقه في الجنة. والرزق الحسن في الآية: رزق الجنة، لدوامه وتدفُّقه.

ثم أورد الله ما يدلُّ على عظيم قدرته وسعة علمه، وهو أن الله تعالى هو الذي أبدع السماوات السبعَ، والأرضين السبعَ، أي كونها سبعاً مثل السماوات السبع، يتنزل أمر الله وقضاؤه وحكمه بين السماوات والأرض، وقد فعل ذلك لتعلموا كمال قدرة الله، وإحاطة علمه بجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان، فاحذروا المخالفة، لأن الله مطَّلع على كل شيء، واتَّعظوا بمصائر الأمم السابقة، فإن الله تام العلم بأعمالكم كلها، وسيجازيكم عليها، والكل خاضع له سبحانه، وفي دائرة سلطانه، فيكون الله قادراً على إثابة الطائعين، وتعذيب العاصين والمخالفين لأمره.

تفسير سورة التَّحريم

تحريم بعض الأشياء وكفارة اليمين

النَّبي ﷺ بشر، يغضب ويرضى، وغيرة النِّساء من أهم أسباب إغضاب الزوج، وقد تآمرت عائشة وحفصة عليه، فحرَّم على نفسه العسل. أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يحبّ الحَلْواء والعسل، وكان إذا انصرف من العصر، دخل على نسائه، يمكث عند زينب بنت جحش، فيشرب عندها عسلاً، فتواطأتُ أنا وحفصة أنَّ أيَّتنا دخل النَّبي ﷺ عليها، فلتقل له: إني أجد منك ريح مَغافير[١]، أكلت مغافير، فقال: لا، بل شربتُ عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود إليه، وقد حلفتُ، لا تخبري بذلك أحداً» فنزلت الآيات الآتية في مطلع سورة التحريم المدنيّة بالإجماع:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ[٢] ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ[٣] أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ[٤] وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ[٥] عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ[٦] وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ[٧] وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ[٨]

---

(١) المغافير: نبت كريه الرائحة. (٢) شرع. (٣) تحليل الأيمان بالكفارة. (٤) متولِّي أموركم. (٥) لما أخبرت به وأطلعه الله عليه. (٦) مالت قلوبكما عن الصواب، وجمع القلوب من حيث الاثنان جَمْع أو لكراهة اجتماع تثنيتين. (٧) ناصره. (٨) معاونون له.

﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ(١) تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ(٢) ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ [التَّحريم: ٦٦/ ١-٥].

يا أيها الرسول النَّبي، لماذا تمنع نفسك من بعض ما أباح الله لك، قاصداً إرضاء أزواجك، والله غفور لما فرط منك، من تحريم ما أحلَّ الله لك، وما تقدَّم من الزَّلة، رحيم بك، فلا يعاقبك على ذنب تبت منه. وهذا عتاب بطريق التلطُّف، وإشارة إلى أن ترك الأولى بالنسبة له مثل الذنب، وإن لم يكن ذنباً في الواقع.

وقد صحح ابن العربي أن التحريم كان في العسل، وأنه شربه عند زينب. وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه، وجرى ما جرى، فحلف ألا يشربه، وأسرَّ ذلك، ونزلت الآية في الجميع.

وقال ابن عطية: إن الآية نزلت بسبب مارية أصح وأوضح، وعليه تفقه الناس في الآية، ومتى حرَّم الرجل مالاً أو جارية دون أن يعتق أو يشترط عتقاً أو نحو ذلك، فليس تحريمه بشيء. فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أن النبي ﷺ حرَّم على نفسه الاستمتاع بمارية القبطية الجارية التي أهداها المقوقس إليه، حين قضى معها وقت القيلولة، في حجرة حفصة أو في حجرة عائشة، فغضبت بعد أن جاءت، فقال لها الرسول ﷺ: أيرضيك أن أُحرِّمها؟ قالت: نعم، واستكتم صاحبة الغرفة، لئلا تعلم عائشة أو حفصة بالخبر، خوفاً من غضبها.

والكفارة عن اليمين المحلوفة: أن الله تعالى شرع لكم تحليل أيمانكم بأداء الكفارة المقررة في اليمين المنعقدة في سورة المائدة [الآية: ٨٩]، والله متولِّي أموركم وناصركم

(١) مواظبات على الطاعة. (٢) صائمات. وقد ذكرت صفات بلا حرف عطف، لاجتماعها في موصوف واحد، وترك العطف لشدة ارتباطها.

على الأعداء، وهو العليم بما فيه صلاحكم وفلاحكم، الحكيم في أقواله وأفعاله وتدبير الأمور.

واذكر حين أسرَّ النَّبي ﷺ لزوجته حفصة أنه حرَّم العسل على نفسه، أو حرَّم مارية، فلما أخبرت به غيرها، وأطلع الله نبيه على ماحدث منها من إخبار غيرها، عرَّف زوجته (حفصة أو عائشة) بعض ما أخبرت به، وأعرض عن تعريف البعض الآخر.

فحينما أخبرها بإفشائها هذا الحديث، قالت: مَن أخبرك به؟ قال: أخبرني به الله الذي لا تخفى عليه خافية، فهو واسع العلم بالأسرار، وتامّ الخبرة بكل شيء في السماء والأرض.

ثم أمر الله تعالى حفصة وعائشة بالتوبة مع العتاب، فإنكما إن تتوبا إلى الله، فتكتما السِّر، وتحبّا ما أحبّه رسول الله ﷺ، وتكرها ما كرهه، قبلت توبتكما من الذنب، وكان خيراً لكما، فقد مالت قلوبكما عن الصواب والسداد والحق. وإن تتعاونا على ما يؤذي النبي، بسبب الغيرة والرغبة في إفشاء سرِّه، فإن الله يتولّى نصره، وكذلك في الولاية (أو النصرة) جبريل وصالح المؤمنين كأبي بكر وعمر وعلي، والملائكة بعد نصر الله له، ومناصرة جبريل والمؤمنين أعوان له وحراس وحفظة.

ثم حذَّرهما من العواقب، فلله القدرة التامّة، فإن ربَّه عسى[1] إن طلَّقكن أيتها النسوة قادر أن يبدله أزواجاً خيراً وأفضل منكن، قائمات بفروض الإسلام، كاملات الإيمان والتصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله، مطيعات لله سبحانه ولرسوله، تائبات من الذنوب، مواظبات على العبادة متذلِّلات لله، صائمات،

(١) عسى في القرآن يجب تحقق ما بعدها، وليست للرجاء، وتحقق ما بعدها هنا بشرط التطليق.

بعضهن ثيبات (مدخول بهن) وبعضهن بكارى أو عذارى (غير مدخول بهن). والآية تهديد ووعيد على محاولات إيذاء النبي ﷺ، وفيها أيضاً وعد من الله لنبيّه أن يزوجه بما يريد، في الدنيا والآخرة.

أخرج البخاري عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت: عسى ربّه إن طلّقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية.

وليس بعد هذه الموالاة أو المناصرة شيء مثيل لها، مبالغة في تعظيم النبي ﷺ، وتخلُّصاً من المكيدة ومكر النساء وغيرهن، وإحباطاً لكل كيد من المشركين والمنافقين.

اتّقاء النار والتوبة والجهاد

أمر الله المؤمنين بطائفة من المواعظ، هي وقاية النفس والأهل من النار، بترك المعاصي وفعل الطاعات، والمبادرة إلى التوبة النصوح من جميع الخطايا والذنوب، والإقدام على الجهاد-جهاد الكفار والمنافقين، لإقرار عقيدة التوحيد، وتنظيف المجتمع من كل مظاهر الضعف والطعن والتفريق في الداخل، لتبقى الأمة واحدة نقية، كما يتضح في هذه الآيات:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا[١] وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ[٢] شِدَادٌ[٣] لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا[٤] عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا

(١) اجعلوا وقاية بينكم وبين النار. (٢) شداد في الخَلْق والطباع. (٣) أقوياء البدن على الأفعال الشديدة.
(٤) خالصة بالغة في النُّصح، وهي صيغة مبالغة.

يُخۡزِي(١) ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التَّحريم: ٦٦/ ٦-٩].

يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله، روِّضوا أنفسكم وأهليكم، واتَّخذوا لها وقاية من النار، أما بالنسبة للنفس فبحملها على طاعة الله تعالى، وأما بالنسبة للأهل فبالوصية لهم، والحمل على الطاعة أيضاً، حتى لا تصيروا معهم إلى النار الرهيبة، التي تتوقد بالناس والحجارة، كما يتوقد غيرها بالحطب. وهذا دليل على أن المعلِّم يجب أن يكون عالماً بما يأمر به وينهى عنه.

وعلى النار خزنة من الملائكة غلاظ الْخَلْق والطباع، أشداء القلوب والبطش والفظاظة، ذوو قوة هائلة، والشدة: القوة، وعدد زبانية جهنم تسعة عشر، كما جاء في آية أخرى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدَّثر: ٧٤/ ٣٠]. يتميَّزون بالطاعة التامّة لله، فلا يخالفونه في أوامره، ويؤدّون ما يؤمرون.

وفائدة الجملتين: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ أن الأولى لبيان الطواعية في الماضي، والثانية للمستقبل وفورية التنفيذ والامتثال.

ثم أخبر الله تعالى عما يقال للكافرين، ليكون ذلك وعظاً للمؤمنين، يقال لهم عند دخول النار يوم القيامة، تيئيساً لهم: لا تعتذروا عن شيء، فالمعذرة لا تنفعكم، وإنما تجزون بأعمالكم، فلا تلوموا إلا أنفسكم.

ثم أمر الله المؤمنين بالتوبة النَّصوح الخالصة له وهي مبالغة من النُّصح، فيا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله، ارجعوا إلى الله وتوبوا إليه توبة خالصة صادقة، تمحو

(١) لا يفضح ولا يوقعه في مكروه بسبب نقص أو سوء منزلة .

ما قبلها من السيئات: وهي الندم بالقلب على الذنب، والاستغفار باللسان، والإقلاع البدني عن المعصية، والعزم على ترك العودة إلى العصيان، عسى وهي هنا ترجية، أي لعل الله أن يمحو سيئات أعمالكم التي قارفتموها، ويدخلكم بساتين تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، حين لا يوقع نبيّه والمؤمنين أتباعه بالمكروه بترك أو نقص شيء أو سوء منزلة، بل يعزّهم ويكرمهم، وحين ترى نور المؤمنين يضيء لهم طريقهم، ويسبقهم أمامهم، ويجاورهم عن أيمانهم، حال مشيهم على الصراط، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٨]. ويبقى النّبي ﷺ مخصوصاً مفضَّلاً بأنه لا يُخزى.

ويدعو المؤمنون حين يطفئ الله نور المنافقين يوم القيامة، قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ أي أبقِه لنا، وأدِمه علينا، فلا ينطفئ حتى نتجاوز الصراط، واستر ذنوبنا وتجاوز عن سيئاتنا، ولا تفضحنا بالعقاب، واغفر لنا ذنوبنا، وحقِّق رجاءنا، إنك القادر التامّ القدرة على كل شيء.

ثم أكَّد الله تعالى أمر الجهاد وفرضه المتقدِّم، فيا أيها النَّبي القائد، دُمْ على جهاد الكفار بالسيف، وجاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، واضربهم على جرائمهم، وعند قوة الظن بهم، ولكن دون تعيين الله لرسوله منافقاً يقع القطع بنفاقه. وليكن جهادك للفريقين بعنف وقسوة قلب، وشدة وانتهار، وقلة رفق بهم، وشدِّد عليهم في الدعوة إلى الإسلام في الدنيا، ومثواهم جهنم في الآخرة، وساء المرجع مرجعهم. وعذابهم في الدنيا حين التأكُّد من نفاق بعضهم: الطَّرد من المسجد، فقد أمر النَّبي ﷺ بعضهم قائلاً: اخرج يا فلان.

وسيكون مقر الفريقين من الكفار والمنافقين نار جهنم، فلا أمل لهم بعد هذا البيان بالنجاة أو التخلُّص من العذاب.

إن هذه التوجيهات والمواعظ في الدنيا لها أهميتها الكبرى لصلاح النفس والبيئة، ونقاء القلب وطهره وتجرُّده من جميع شوائب المعصية، وإقرار مبدأ توحيد الله وإزالة كل عوائق الكفر في الوقوف أمام نشر دعوة الإسلام.

مثلان من سيرة النِّساء

ضرب الله تعالى مَثَلَين للكفار والمؤمنين، مؤدّاهما: أن من كفر لا يغني عنه من الله شيء، ولا ينفعه ملجأ أو معتصم، ولو كان متعلّقاً أو متأمّلاً بأقوى الأسباب. وأن من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى، ولو كان في أسوأ منشأ وأخس حال. فامرأة نوح وامرأة لوط كانتا في بيت النُّبوة، ولكنهما خانتا زوجيهما في الكفر، فلم تفدهما رابطة الزواج شيئاً من عذاب الله، ولكن ليست الخيانة أخلاقية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وما بغت زوجة نبي قط ولا ابتلي الأنبياء في نسائهم بهذا. وآسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران كانتا في وسط صعب منافٍ للإيمان، فصبرتا على المكروه، فكانتا في منزلة عالية عند الله تعالى، وذلك المثلان في الآيات الآتية:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا(١) لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا(٢) فَلَمْ يُغْنِيَا(٣) عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ(٤) ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا(٥) فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا(٦) وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ(٧) ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ٦٦/ ١٠-١٢].

---

(١) أورد حالة غريبة لمعرفة حال أخرى مشابهة لها. (٢) خانتاهما في الكفر. (٣) لم يفدهما نوح ولوط.
(٤) أي الكافرين. (٥) حفظته. (٦) أي شرائعه. (٧) الطائعين.

جعل الله مثلاً لحال الكفار في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم، أنه لا يغني أحد عن أحد، فكل إنسان مسؤول عن نفسه، ومجرد الخلطة أو النسب أو الزوجية لا فائدة فيها في مجال النجاة عند الله، ما دام الإنسان كافراً، أي مات على الكفر ولم يتب.

وهذا المثل: أن امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام، كانتا في عصمة نبيَّيْن رسولَيْن، وبينهما معاشرة واختلاط بسبب رابطة الزوجية، لكنهما خانتا الرسولَيْن في الكفر وترك الإيمان برسالتهما، وعدم الإيمان بهما، فكانت امرأة نوح (واعلة) تقول عن زوجها لقومه: إنه مجنون، وكانت امرأة لوط (والهة) تدلُّ قومه على أضيافه، بإيقاد النار ليلاً، وبالتدخين نهاراً، فلم ينفعهما الزواج شيئاً من النفع عند الله: نوح ولوط بسبب كونهما زوجتين لهما، ولا تمكنا من دفع العذاب الإلهي عنهما، أو رفع محذور عنهما، مع علوّ مكانة زوجيهما عند الله.

وهذا تعريض بزوجي النبي ﷺ: حفصة وعائشة، لما فرط منهما، وتحذير لهما ولغيرهما بأنه لا يفيدهن شيئاً زواجهن بالنَّبي عليه الصّلاة والسّلام إن عصين الله تعالى.

ثم ضرب الله مثلاً آخر للمؤمنين بامرأتين أُخريين مؤمنتين، على ضدِّ حال المرأتين الكافرتين في المثل السابق.

وهذا المثل الذي ضربه أو جعله الله للمؤمنين: هو حال امرأة فرعون آسية بنت مزاحم، وعمة موسى عليه السّلام، آمنت بموسى، حين سمعت قصة إلقائه عصاه، فعذَّبها فرعون في الشمس بسبب إيمانها، وبعث إليها من يقتلها بالحجر الأعظم، فلم تتراجع عن إيمانها، ونجاها الله حين أحسَّت الشَّر من محاولي قتلها، حين دعت بهذا الدعاء: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ابنِ لي بيتاً قريباً من رحمتك في أعلى درجات المقرَّبين منك، وخلِّصني من بطش فرعون وشروره، وأنقذني من القوم الظالمين، وهم كفار القبط. فقبض الله تعالى روحها. وهذا دليل على صدق إيمانها بالله واليوم الآخر.

والمرأة الثانية في هذا المثل: هي حال مريم ابنة عمران أم عيسى عليهما السّلام، التي صانت فرجها عن الفاحشة، فكانت مثال العفة والطُّهر، فأمر الله جبريل أن ينفخ الروح في فرجها، فحملت بعيسى، وصدَّقت بشرائع الله التي شرعها لعباده وبصحفه المنزلة على إدريس وغيره، وبكتبه المنزلة على الأنبياء، وهي التوراة والإنجيل، وكانت من القوم المطيعين لربّهم، حيث كان أهلها أهل بيت صلاح وطاعة، ومن عداد الناسكين العابدين المخبتين لربّهم، أي كانت من القوم القانتين في عبادتها وحال دينها. وقوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك، كما تقول: بيت الله، وناقة الله، كذلك الروح والجنس كله هو روح الله.

أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خُويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» . وجاء في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري عن النَّبي ﷺ قال: «كَمُلَ من الرِّجال كثير، ولم يَكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

سورة المُلْك

من أدلَّة القدرة الإلهية

أقام الحق تبارك وتعالى في مناسبات عديدة أدلة قاطعة على علمه وقدرته، لإثبات عظمته ووحدانيته ومقدرته على البعث أو القيامة، ليؤمن الكافر، ويزداد المؤمن إيماناً، وتلك الأدلة تتركز حول خَلْق الإنسان، وخَلْق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من كواكب، وخَلْق الموت والحياة، وتعاقب الليل والنهار وغير ذلك. وفي مطلع سورة الملك أو الواقية أو المُنْجية، التي هي مكّية بالإجماع، بعض هذه الأدلّة:

﴿تَبَٰرَكَ(١) ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ(٢) أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا(٣) مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ(٤) ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ(٥) يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا(٦) وَهُوَ حَسِيرٌ(٧) ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا(٨) لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ(٩) ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا(١٠) وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ(١١) مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا(١٢) لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: ٦٧/ ١-١١].

---

(١) تعاظم بالذّات عن كل ما سواه ذاتاً وصفةً وفعلاً. (٢) ليختبركم، أي يعاملكم معاملة المختبِر. (٣) متطابقة بعضها فوق بعض. (٤) شقوق وصدوع. (٥) كرّة بعد أخرى. (٦) صاغراً ذليلاً. (٧) كليل منقطع. (٨) ما يُرجم به. (٩) النار الملتهبة. (١٠) صوتاً منكراً. (١١) تميَّز، أي تتقطع من شدة الغيظ. (١٢) بُعداً من رحمة الله.

تعاظم الله تعالى وتقدَّس وتمجَّد عما سواه، ذاتاً وصفةً وفعلاً، وتبارك أيضاً: تزايد في الخيرات، فهو المالك لكل شيء، وهو تام القدرة على كل شيء، لا يعجزه شيء، يتصرَّف في ملكه كيف يريد، من إحياء وإماتة، ورفع وخفض، وإنعام وانتقام، وإعطاء وحرمان.

فهو الذات الأعظم، والمالك المطلق، والمتصرف كيف يشاء والقادر على كل شيء. ومن آثار قدرته:-أنه تعالى أوجد الموت والحياة، وقدرهما من الأزل، ليعاملكم معاملة المختبر لأعمالكم، فيجازيكم على ذلك، وهو القوي الغالب القاهر، الذي لا يغلبه ولا يعجزه أحد، الواسع المغفرة والسّتر لذنوب عباده. وهذا دليل على أن الموت أمر وجودي، لا عدمي، لأنه مخلوق. والقصد من الابتلاء: إقامة الدليل الحسّي على أفعال العباد، وإظهار كمال المحسنين وإساءة المسيئين. والموت والحياة: معنيان يتعاقبان جسم الحيوان (الكائن الحي) يرتفع أحدهما بحلول الآخر. وقدّم الموت على الحياة في الآية، لأنه أدعى إلى العمل. وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليختبركم في حال الحياة، ويجازيكم بعد الموت.

- ومن مظاهر قدرته: أنه تعالى أوجد أو أبدع السماوات السبع، المتطابقة بعضها فوق بعض، كل سماء منفصلة عن الأخرى، لا تشاهد أيها الناظر المتأمّل في مخلوقات الرحمن تناقضاً وتبايناً أو قلّة تناسب وخروج عن الانسجام، وإن كنت في شك من ذلك، فكرر البصر، هل تشاهد فيها من صدوع وشقوق؟ وهذا دليل على تعظيم خلقها وسلامتها من العيوب. ثم ردد البصر ودقّق مرة بعد مرة، يرتد إليك البصر صاغراً ذليلاً عن رؤية شيء من الخلل أو العيب في خلق السماء، وهو كليل عيي من كثرة التأمل وإعادة النظر.

- ومن مظاهر القدرة الإلهية أيضاً أننا -الله- زيّنا أقرب السماوات إلى الناس

بمصابيح، أي بكواكب أو نجوم ثوابت وسيارات، تضيء كإضاءة السِّراج، وجعلنا بعض تلك الكواكب راجمات لرجم الشياطين، وهيّأنا أو أعددنا للشياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدنيا بالشهب المنقصة عذابَ النار الملتهبة، بسبب فسادهم وإفسادهم.

وهيأنا للذين كفروا بربِّهم، وكذبوا رسله، عذاب نار جهنم، وبئس المرجع وما يصيرون إليه، وهو جهنم. ثم ذكر الله تعالى للنار أربع صفات وهي:

- إذا طرح الكفار في نار جهنم، كما يطرح الحطب في النار العظيمة، سمعوا لها صوتاً منكراً كصوت الحمير أول نهيقها، وهي أيضاً تغلي بهم غليان المرجل.

- تكاد تلك النار، أي تقترب أن تتقطع من شدة غيظها على الكفار. لكن أولاد الأنبياء والمؤمنين قبل البلوغ: هم في الجنة، وكذلك أولاد المشركين بدليل هذه الآية المتضمنة مساءلة الخزنة.

- وكلما طرح فيها فوج، أي جماعة من الكفار، سألهم أعوانها وزبانيتها سؤال تقريع وتوبيخ: أما جاءكم في الدنيا رسول منذر، ينذركم هذا اليوم، و يخوِّفكم منه؟ والآية تقتضي أنه لا يُلقى فيها أحد إلا سُئل على جهة التوبيخ عن النُّذُر.

فأجابهم الكفار: مقرِّين بأنهم جاؤوهم وكذَّبوهم، قائلين: بلى جاءنا رسول من عند الله ربّنا، فأنذرنا وخوّفنا، لكنا كذبنا ذلك النذير، وقلنا له: ما نزَّل الله من شيء على لسانك، ولم يوح إليك بشيء من أمور الغيب، وأخبار الآخرة والشرائع المنزلة، وما أنتم أيها الرُّسل، إلا في متاهة وانحراف عن الحق، وبُعْد عن الصواب. وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة للكفار، ويحتمل أن يكون من كلام الكفار للنذر.

وأجابوا أيضاً بأننا نلوم أنفسنا، فلو كنا نسمع ما أنزل الله من الحق سماع

الواعين والمهديين، أو نعقل عقل من يميز وينظر وينتفع، لم نكن من أهل النار، ولم نكن من الكافرين بالله. فأقرّوا معترفين بما صدر عنهم من ذنوب: وهو الكفر وتكذيب الأنبياء، فبعداً لهم من الله ومن رحمته، فهم أصحاب النار الملتهبة. إنهم اعترفوا بذنبهم في وقت لا ينفع فيه الاعتراف.

وعد المؤمنين ووعيد الكافرين

لا تظهر ثمرة الإيمان إلا بخشية الله تعالى، ولا تتحقق الخشية إلا برقابة الله في السّر والعلن، ولا ينفصل الدين عن العمل للدنيا، والعمل للدنيا أمر مطلوب للتعرُّض لرزق الله تعالى، فإن الرزق مرتبط بالسَّعي. وكيف يأمن الكافرون عذاب الله تعالى في الدنيا كالخسف والزلزال، أو إرسال الحاصب وهي الريح الشديدة التي فيها حصباء لرجم العصاة؟ ألم يعتبر هؤلاء بمن كذب من الأمم الماضية فعوقبوا عقاباً منكراً عظيماً؟ ولِمَ لم يتأمّلوا بمخلوقات الله العجيبة ومنها الطيور سابحات في الفضاء، بإمساك الله وتدبيره؟ كما هو واضح مما يأتي من الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ
إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ[(١)] ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ[(٢)] ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا[(٣)] فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا[(٤)] وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ[(٥)] ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي
ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ[(٦)] بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ[(٧)] ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ
حَاصِبٗاۖ[(٨)] فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ[(٩)] ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ

(١) صاحبة الصدور، أي خواطر النفوس . (٢) المطّلع على دقائق الأمور . (٣) مذلّلة منقادة سهلة . (٤) نواحيها . (٥) الخروج من القبور . (٦) يغوّر أو يغيّب بكم الأرض . (٧) تضطرب بشدة . (٨) ريحاً شديدة تحمل الحصباء، أي الحجارة الصغيرة . (٩) إنكاري أي عذابي الشديد .

يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ[1] وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾
[الملك: ٦٧/ ١٢-١٩].

يصف الله المؤمنين، وهم: إن الذين يخافون ربَّهم بالغيب، أي في خلواتهم، غائبين عن أعين الناس، حيث لا يراهم أحد إلا الله تعالى، أو بالغيب الذي أخبروا به من الحشر والنّشر، والصِّراط والميزان، والجنة والنار، فآمنوا بذلك وخشوا ربَّهم فيه، لهم مغفرة واسعة لذنوبهم، ولهم ثواب جزيل، وهو الجنة.

والله مطَّلع على كل شيء، فسواء أخفيتم كلامكم أو جهرتم به، فالله عليم به، يعلم كل ما في الصدور، أي خواطر النفوس والضمائر. والآية خطاب عامّ لجميع الخلق في جميع الأعمال. قال ابن عباس: نزلت في المشركين، كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فخبَّره جبريل عليه السّلام بما قالوا فيه، ونالوا منه، فيقول بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم، لئلا يسمع إله محمد، فنزلت هذه الآية.

وأدلة سعة علم الله تعالى كثيرة، ألا يعلم الخالقُ خلْقَه فهو الذي خلق الإنسان، وأوجد السِّر ومضمرات القلوب؟ فالله أعلم بمن خلقه، لأن الصانع أعلم من غيره بالمصنوع، وهو سبحانه العليم بدقائق الأمور وما في القلوب، والخبير بما تسرّه أو تضمره من الأمور، لا تخفى عليه من ذلك خافية.

وقوله: ﴿مَنۡ خَلَقَ﴾ مَن: فاعل لفعل (يعلم) كأنه تعالى قال: ألا يعلم الخالق خلقه؟ فالمفعول على هذا محذوف. أو منصوب بفعل (يعلم) كأنه تعالى قال: ألا يعلم الله مَن خلَق؟

وأدلة قدرة الله تعالى كثيرة، منها أنه هو الذي سخَّر لكم الأرض، وذلَّلها لكم،

(١) باسطات أجنحتها ثم قابضات لها .

أي جعلها مذلولة سهلة، لينة، قابلة للاستقرار والحياة عليها، فسيروا في نواحيها وجوانبها، وكلوا مما رزقكم الله وخلقه لكم في الأرض، ومكّنكم من الانتفاع بها، وإليه النشور، أي البعث من قبوركم إلى الله، لا إلى غيره. والآية دليل على قدرة الله ومزيد إنعامه على خلقه، وعلى أن السّعي واتّخاذ الأسباب لا ينافي التوكُّل على الله، وعلى أن الاتّجار والتّكسب مندوب إليه. أخرج الحكيم الترمذي عن معاوية بن قُرَّة قال: مَرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم، فقال: مَن أنتم؟ فقالوا: المتوكِّلون، قال: بل أنتم المتأكلون، إنما المتوكِّل رجل ألقى حَبَّه في بطن الأرض، وتوكَّل على الله عزّ وجلّ.

أتأمنون أن يخسف، أي يغوِّر ويقلع الله بكم الأرض؟ كما خسف بقارون، بعدما جعلها لكم ذلولاً تمشون أو تسعون في جوانبها وطرقها، فإذا هي تضطرب وتتحرك بشدة. والمراد بهذا الاستفهام الوعيد والإخبار بقدرة الله على تعذيب من كفر بالله أو أشرك مع الله إلهاً آخر.

بل هل أمنتم ربّكم الله الذي هو في السماء كما تزعمون، وهل أمنتم قدرة الله على أن يرسل عليكم ريحاً شديدة مصحوبة بالحصى أو الحجارة الصغيرة؟ وحينئذ إذا عاينتم العذاب تعلمون كيف كان إنذاري وعقابي لمن خالف وكذب به.

ولقد كذب الكفار الذين كانوا قبلهم، كذبوا الرُّسل، فكيف كان إنكاري عليهم بما سلَّطت عليهم من العذاب الشديد؟!

أوَ لم ينظروا إلى الطير فوقهم في الأجواء العليا، وهنّ باسطات أجنحتها تارة، وقابضات لها تارة أخرى؟ ما يمسكهنّ في الهواء إلا الله الرّحمن القادر على كل شيء، إنه تعالى عليم بصير بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، لا يخفى عليه شيء من دقائق الأمور وعظائمها.

تحدِّي عبدة الأصنام وإظهار كمال القدرة الإلهية

تحدّى الله المشركين عبدة الأصنام وأبطل اعتقاداتهم في أصنامهم من قوة وجلب خير فيها، ثم أقام تعالى أدلّة أربعة على كمال قدرته وهي تحليق الطيور في الهواء، كما في آية سابقة، وتزويد الإنسان بمفاتيح المعرفة، من السمع والبصر والفؤاد أو العقل، وشعورِه بذاته في الوجود، وضمان تكاثر النوع الإنساني، ورفده بالمدد الإلهي والرزق الدائم، ثم أظهر الله حفظه لنبيِّه حين دعوا عليه بالهلاك، وإعذاره حين طالبوا بتعيين وقت العذاب الذي خوَّفهم به، كما في هذه الآيات وما بعدها:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ[١] ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟[٢] فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ[٣] ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا[٤] عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ[٥] فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

[الملك: ٦٧/ ٢٠-٢٤].

قل يا محمد لهؤلاء المشركين عبدة الأصنام، على جهة الإنكار والتيئيس من تحصيل مبتغاهم من الأوثان: بل مَن هؤلاء الجند من غير الإله الرحمن، أي أعوان المذهب الذين يعينونكم على ما تطلبون، ويمنعونكم من عذاب الله، إن أراد بكم سوءاً؟! ما الكافرون في الواقع إلا في تغرير خادع من الشيطان بأن العذاب غير نازل بهم. والآية ردّ على الكافرين الممتنعين من الإيمان، والمعتمدين خطأ على وجود قوة من جهة الإخوان والأعوان.

- وقل لهم أيضاً: مَن هؤلاء الذين يرزقونكم إن منع الله رزقه عنكم؟ لا أحد

---

(١) تغرير من الشيطان بأن العذاب لا ينزل بهم. (٢) تمادوا واستمروا. (٣) العتو: العناد والكبر، والنفور: البعد عن الحق. (٤) ساقطاً على وجهه من حين لآخر. (٥) خلقكم ووزعكم متكاثرين.

يعطي ويمنع غير الله، ولا أحد يرزق أو ينصر إلا الله عزّ وجلّ. بل إنهم في الواقع تمادوا في غيّهم وعنادهم واستكبارهم، ونفروا أو ابتعدوا عن الحق، وساروا في طغيانهم الفكري وممارساتهم الضّالّة، ولم يتّعظوا ولم يتفكّروا في الحقيقة. والآية واضحة الدلالة على أنه لا ناصر ينصر من عذاب الله، ولا رزاق يرزق غير الله، إن حجب رزقه عن مخلوقاته.

والفرق واضح بين المؤمن والكافر: أرأيتم معشر الناس حال المؤمن والكافر؟! الكافر يمشي متعثّراً في كل وقت، ساقطاً على وجهه من حين لآخر، لا يدري مسلكه وكيفية ذهابه، بل هو تائه حائر ضالّ. أهذا أهدى إلى الطريق القويم، أم ذلك المؤمن الذي هو كمن يسير معتمداً على ذاته، معتدلاً في مشيته، ناظراً أمامه، على طريق مستو، لا عوج فيه ولا انحراف؟ فهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة، سواء في الدنيا والآخرة.

قال ابن عباس وابن الكلبي وغيرهما: نزلت هذه الآية مثلاً لمحمد ﷺ، ولأبي جهل بن هشام. وهي إما إخبار بأحوال الفريقين في الدنيا أو في الآخرة.

وهذا برهان آخر: برهان الرزق بعد تمكين الطير من التحليق، على قدرة الله، وبرهان ثالث: قل: أيها الرسول لهؤلاء المشركين: إن الله ربّكم هو الذي ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، وأوجد لكم حاسة السمع لسماع المواعظ، وحاسة البصر للنظر في بدائع خلق الله، والقلوب والعقول للتأمل والتفكير في مخلوقات الله وإدراك حقائق الأشياء، ولكن قليلاً ما تستعملون هذه الطاقات التي أنعم الله بها عليكم، وقليلاً ما تشكرونه بصرف تلك النِّعم إلى ما أُوجدت لأجله في الخير، والبعد عن التّورُّط في الشّر، فإذا لم تستعمل هذه القوى في طلب مرضاة الله، فأنتم ما شكرتم نعمته مطلقاً. وإنما خصّت بالذكر مواهب السمع والبصر والفؤاد،

لأنها أداة العلم والمعرفة. وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ إما تعبير عن قلّة الشكر، أو إرادة نفي الشكر جملة.

وبرهان رابع على كمال قدرة الله، قل أيها النَّبي أيضاً للمشركين: إن الله هو الذي خلقكم ووزعكم في الأرض على جهة التكاثر، مع اختلاف ألسنتكم ولغاتكم وألوانكم، ثم إليه تجمعون بعد هذا التفرق والتَّشتت، فهو يجمعكم كما فرَّقكم، ويعيدكم كما بدأكم، للحساب والجزاء. فالحشر المشار إليه في الآية: هو بعث القيامة.

إن أدلة إثبات القدرة الإلهية كثيرة، ذُكر منها في هذه الآيات ثلاثة، وفي الآية السابقة عليها ذكر دليل آخر، فتكون الأدلة الأربعة: تمكين الطيور من التحليق في أجواء السماء، ومثلها وعلى نسقها اختراع الطائرات، وإمداد المخلوقات بالرزق من عند الله، دون غيره، وإيجاد المخلوقات، ومن أخصِّها الإنسان، وتزويده بطاقات السمع والبصر والعقل، التي هي مفاتيح المعرفة والعلم والإبداع، وضمان تكاثر النوع الإنساني الموزع في أنحاء الأرض، مع اختلاف الألوان والأشكال، والألسنة واللغات، والعروق والأجناس، وكل قوم راضون بأوطانهم وديارهم، ومتمسكون بأراضيهم للحفاظ على وجودهم، ثم يجمعون يوم القيامة إلى الله في المحشر، لإقامة صرح العدالة، وإنصاف المظلومين من الظالمين، والمحسنين من المقصِّرين أو المسيئين.

العالم بالقيامة وتهديد المنكرين لها

يوم القيامة أو البعث حقٌّ ثابت قطعاً، لا شكَّ فيه، ولكن العلم به وبوقته مختصّ بالله تعالى، ومهمة النَّبي ﷺ مجرد الإخبار والإنذار، وفي ذلك اليوم الرهيب يصطدم الكافرون بأهواله. وتمنِّي الكافرين هلاك النَّبي ﷺ أمل خادع لا فائدة فيه، ولا يبدل

من جزائهم شيئاً، فالعذاب لاحقٌ بهم، ولا ينجيهم إلا الإيمان بالله وحده لا شريك له، ومع هذا الموقف الرافض منهم للإيمان ينعم الله على المخلوقات بلا حساب، ومن نعمه العظمى: رفد الناس بالماء سبب الحياة، كما جاء في الآيات الآتية:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً[1] سِيٓـَٔتْ[2] وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ[3] ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا[4] فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ[5] ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٥-٣٠].

هذا إخبار عن مقالة الكفار الذين يستعجلون أمر القيامة، ويطالبون بالخبر الصادق بها، إن المشركين يقولون تهكّماً واستهزاء وتحدّياً: متى يقع يا محمد ما تعدنا به من القيامة والحشر والعذاب والنار في الآخرة، والخسف ومجيء الريح الشديدة ذات الحصباء، أي الحصى والحجارة في الدنيا، إن كنتم يا محمد ومن آمن معك صادقين فيما تدّعونه؟ فأخبرونا به، وبيّنوه لنا. إنهم يطالبون بتعيين وقت الحشر والعذاب الأُخروي، أو الدنيوي، ولكنهم في هذا مخطئون الطلب، لأن العلم بتوقيت العذاب محصور بالله تعالى. فأجبهم وقل لهم أيها النّبي: إنما علم الساعة ووقتها ووقت العذاب بالتحديد مقصور على الله عزّ وجلّ، وإنما أنا مجرد رسول منذر مخوف لكم تخويفاً واضحاً. فلما رأوا العذاب الموعود به قريباً في الدنيا، وقامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريباً، اسودّت وجوههم، وعلّتها الكآبة والحزن، وغشيتها المذلّة والهوان، وقالت لهم ملائكة العذاب خزنة النار، على

---

(١) لما رأوا يوم القيامة قريباً منهم. (٢) اسودّت وجوههم وأصيبت بالكآبة. (٣) تطلبون وتنادون.
(٤) غائراً ذاهباً. (٥) جارٍ كثير.

وجه التقريع والتوبيخ: هذا هو الذي كنتم في الدنيا تطلبونه، وتستعجلون به استهزاء، وهذا هو جوابكم لرسولكم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢٢].

ثم إن أولئك المشركين تمنّوا موت الرسول ﷺ، روي أن كفار مكّة، كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فنزلت الآية الكريمة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ..﴾

وهذا هو الأمر الثاني الذي حكاه الله عن الكفار المشركين بعد تخويفهم بعذاب الله، إنهم طالبوا أولاً بتعيين تاريخ القيامة، ثم دعوا على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأجابهم الله تعالى من وجهَيْن:

أولاً: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله ربهم، الجاحدين نعمه: أخبروني عن أي فائدة أو نفع لكم، أو راحة فيما إذا أهلكني الله بالإماتة، أو رحمني بتأخير الأجل، أنا ومن معي من المؤمنين، فلو فرض أنه وقع بنا ذلك، فلا ينجي الكافرين أحد من عذاب الله، سواء أمات الله رسوله ومن آمن معه، أو أمهلهم، وإنما الذي ينفعكم هو الإيمان فقط.

ثانياً: قل لهم: إن الذي نجانا نحن هو الإيمان بالله الرحمن، والتوكُّل عليه فقط، والتوكُّل: تفويض الأمر كله لله عزّ وجلّ.

وأما أنتم إذا بقيتم على ما أنتم عليه من الكفر والضلال، فستعلمون غداً، وستدركون من الذي كان في خطأ كبير واضح، منا أو منكم، وستعرفون لمن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة. وفي هذا تعريض بالكفار أنهم يتّكلون على الرجال والأموال.

والدليل الواضح على وجوب التوكُّل على الله لا على غيره: أنه هو مصدر جميع

النِّعم، ومنها نعمة الإمداد بالماء، قل لهم يا محمد: أخبروني إن صار ماؤكم المتدفِّق في الآبار والأنهار والعيون غائراً ذاهباً في أعماق الأرض، بحيث لا يناله أحد، فمن الذي يأتيكم بماء كثير جارٍ غير منقطع؟! إنه لا يأتيكم به أحد، إلا الله تعالى، بإنزال المطر والثلج وإجراء الأنهار، والمقصود بالآية: أن يجعلهم القرآن مقرِّين ببعض نعم الله، ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر والضلال. فإذا أقرّوا بذلك، والإقرار نابع من الواقع، ولا بدَّ من أن يقولوا: هو الله، فيقال لهم حينئذ: فلِمَ تجعلون من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً لله في العبودية والعبادة؟! والآية دليل على وجوب الاعتماد على الله تعالى في كل حاجة، وذلك من فضل الله ومن مظاهر قدرته ووحدانيته.

تفسير سورة القلم (نٓ)

النَّبي ﷺ المثل الأعلى في الأخلاق

يتميَّز الأنبياء عادة بالاتِّصاف بأكرم الصفات وأسمى الآداب والأخلاق، لينشروا دين الله ودعوة التوحيد في الأرض، ويتحمَّلوا صنوف المواجهة والمعارضة، ويحلُموا على الناس ويتوسَّعوا فيهم، ونبيّنا ﷺ هو في قمة الخلق والأدب، وصفوة الناس في مكارم الأخلاق والآداب، لأنه خاتم النَّبيين، والرسول إلى الناس كافة وإلى العرب خاصة، وسمة هؤلاء: القسوة والجفاء، والشدة والغلظة، والنجاح في الدعوة إلى الله يتطلب إلانة القلوب القاسية، وإزالة جفاء النفوس، لذا وصف الله تعالى نبيّه محمداً ﷺ بالخلق العظيم، كما يبدو في الآيات الآتية في مطلع سورة القلم أو نٓ المكِّية على الصحيح:

﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ(١) ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ(٢) ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(٣) ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ(٤) مَّهِينٍ(٥) ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ(٦) ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(٧) ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ(٨) بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ(٩) ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا

(١) غير منقطع. (٢) المجنون. (٣) أي تلين وتجامل وتداهن فيلينون. (٤) كثير الحلف. (٥) حقير الرأي. (٦) طعّان في الناس، يمشي بينهم بالنميمة والسِّعاية بالإفساد. (٧) متجاوز حدود العدل، كثير الإثم. (٨) غليظ جاف. (٩) دعي في قريش، ابن زنا.

تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ[(١)] ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ[(٢)] ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ١-١٦].

نٓ أو نون: حرف مقطَّع في قول جمهور المفسّرين للتنبيه لخطورة وأهمية ما بعدها، وتنبيه المشركين وتحدّيهم بأن القرآن الذي أعجزكم مكوَّن من حروف هجائية هي مادة تكوين لغتكم العربية، التي تنطقون بها، ثم مع هذا عجزتم عن الإتيان بمثله أو مثل سورة منه. ثم أقسم الله تعالى بالقلم وبما يكتب به، أي أُقسم بالقلم أداة الكتابة وبالمكتوب به. لست يا محمد بسبب نعمة النُّبوة بمجنون، كما يزعمون، وإنما أنت ذو مكانة عالية وعقل رشيد وفكر سديد.

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: كانوا يقولون للنَّبي ﷺ: إنه مجنون، ثم شيطان، فنزلت: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾.

وهو جواب القسم، أي إنك بسبب نعمة ربِّك-وهي جملة اعتراضية-لست مجنوناً. والجنون: سَتْر العقل، بمعنى أن كلامه خطأ ككلام المجنون، فنفى الله تعالى ذلك عنه.

ومطلع السورة حيث أقسم بالقلم، وأثره: إشادة بالكتابة التي هي قوام العلوم والمعارف وأمور الدنيا والآخرة، فإن القلم أخو اللسان، وطريق الفطنة، ونعمة عامّة من الله تعالى.

- وإن لك أيها النَّبي لثواباً عظيماً على ما تحمَّلت من مهامّ النُّبوة، وذلك الثواب غير مقطوع، وإنما هو مستمر.

وإنك لصاحب الخلق العظيم الذي أمرك الله به في القرآن، لِمَا تحملت من قومك، ما لم يتحمله أمثالك. وجُمَّاع هذا الخلق يتمثل في قوله الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٩].

---

(١) خرافات القدماء. (٢) سنجعل على أنفه سمة أو علامة يتميز بها.

ثم هدَّد الله المشركين وتوعَّدهم بقوله: ﴿فَسَتُبۡصِرُ . .﴾ أي ستعلم أيها النَّبي، وسيعلم يوم القيامة المشركون الذين كذَّبوك في الدنيا، من المفتون المجنون الضّال، أي في أي فريق منّا أو منكم النوع المفتون؟ ثم أكَّد الله تعالى وعيده ووعده بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ . .﴾ أي إن الله يعلم من هو في الحقيقة الضّال، أنت أم من اتَّهمك بالضلال، ومن هو المهتدي من الفريقين، منكم ومنّا؟! والمعنى: بل هم الضَّالون، لمعارضتهم ما فيه نفعهم العاجل والآجل.

ثم أوضح الله تعالى ما عليه الكفار من الأخلاق الذميمة، مما يقتضي التشدُّد معهم، فداوم أيها النَّبي على مخالفة الكفار المكذِّبين لرسالتك، وتشدد في ذلك.

لقد تمنّوا لو تلين لهم، فيلينون لك، بأن تركن إلى آلهتهم، ولا تهاجمها، فيقرّون بعبادة إلهك. ثم خصص الله تعالى الوليد بن المغيرة أو غيره بالتحذير من طاعته، لاتِّصافه بالصفات المذمومة، والمشهور أنه الوليد، وقيل: إنه الأخنس بن شُريق أو أبو جهل أو الأسود بن عبد يغوث. وظاهر اللفظة: عموم من بهذه الصفة، والمخاطبة بهذا المعنى مستمرة باقي الزمان، لا سيما لولاة الأمور. وهذه الصفات:

- إياك أيها النبي إطاعة كل شخص كثير الحلف بالباطل، حقير الرأي والفكر. وهو أيضاً عيّاب طعّان، يذكر الناس بالشَّر في وجوههم، ويمشي بالنميمة والسّعاية بالفساد بين الناس. روى الجماعة إلا ابن ماجه عن حذيفة: «لا يدخل الجنّة قتَّات» أي نمام.

- وهو منّاع للخير، أي بخيل، يمنع الخير عن الناس من الإيمان والعمل الصالح. ظالم متجاوز الحق وحدود الله من أمر ونهي، كثير الآثام والذنوب. كان للوليد بن المغيرة عشرة بنين، وكان يقول لهم ولأمثالهم: لئن تبع دين محمد منكم أحد، لا أنفعه بشيء أبداً، فمنعهم الإسلام وهو الخير الذي منعهم إياه.

- وهو عدا ما ذكر غليظ جاف الطبع، شديد الخَلْق، دعيّ في قريش، ملصق بالقوم، وليس هو منهم. قال قُرَّة الهمداني: إنما ادَّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة، وبواعث كفره وكبره:

- أيكفُر بالله تعالى ورسوله ﷺ، لأن الله أنعم عليه بالأموال والبنين؟ حيث جعل جزاء النعم الكفر والجحود؟ فذلك لا ينفعه عند ربِّه. وهذا تقريع وتوبيخ على مقابلة النعمة بالكفر بآيات الله والإعراض عنها.

- وإذا تليت عليه آيات القرآن، زعم أنها كذب من أكاذيب وقصص الماضين، وليس هو من عند الله تعالى. لكن عقابه في الدنيا أو الآخرة أننا سنجعل له على أنفه وسماً بالسواد، وبالفعل فإنه قاتل يوم بدر، فَخُطم بالسيف في القتال.

وقوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ العامل في (أن) فعل مضمر، تقديره: كفر أو جحد.

قصة أصحاب الجنّة

ينعم الله تعالى على بعض العباد بالثروة أو المال الوفير، ليُعْرَف هل المنعَم عليه شاكر لربِّه في طاعة الله وشكر نعمة الله، فيزيده من النعمة، أو يكفر بها فيقطعها عنه. وهذا مثل عظيم لأهل مكة وعتاة الكفار وأصحاب الثراء، وهو مثل أصحاب الجنة ذات الثمار والحبوب، طلب منهم أن يشكروا نعمة الله، ويؤدّوا الفقراء حقوقهم، فجحدوا النعمة وحرموا المساكين حظَّهم، فحرمهم الله الثمار كلها. روي أنَّ واحداً من ثقيف، وكان مسلماً، كان يملك ضيعة، فيها نخل وزرع بقرب صنعاء، وكان يجعل من ناتجها عند الحصاد نصيباً وافراً للفقراء، فلما مات، ورثها منه بنوه،

ثم قالوا: عيالنا كثير، والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين، مثلما كان يفعل أبونا، فأحرق الله جنتهم، كما يبدو في هذه الآيات:

﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ(١) كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ(٢) إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا(٣) مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ(٤) ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ(٥) مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ(٦) ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ(٧) إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ(٨) ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ(٩) ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ(١٠) قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ(١١) أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ(١٢) ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ(١٣) إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ(١٤) ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ(١٥) ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ١٧-٣٣].

إنا اختبرنا أهل مكة بالجوع والقحط، كما اختبرنا أصحاب البستان المعروف. وخبرهم عند قريش، حين حلفوا أنهم سيقطعون ثمر البستان عند الصباح، حتى لا يعلم بهم الفقراء، فيأخذون ما كانوا يأخذونه، طمعاً في اقتناء كامل الغلّة والزرع. والقصد من الاختبار: معرفة حالهم، أيشكرون نعم الله عليهم، فيؤمنوا برسول الله المرسل إليهم بشيراً ونذيراً، أم يكذّبونه ويجحدون برسالته، وينكرون حقّ الله عليهم؟ ولا يقولون: إن شاء الله، أو لا يستثنون نصيب المساكين.

فطاف على تلك الجنة (البستان) من عند الله نار أحرقتها، أي أصابتها آفة

(١) عاملنا أهل مكة أو ثقيف معاملة المختبر. (٢) البستان. (٣) ليقطعنها في الصباح. (٤) لا يقولون: إن شاء الله. (٥) طرقها بلاء طارق وهو الهلاك. (٦) كالبستان المقطوع. (٧) مكان الزرع وهو الحقل. (٨) مريدين قطع ثمارها. (٩) يتسارّون فيما بينهم. (١٠) على تصميم على منع المساكين حظّهم. (١١) أعدلهم. (١٢) هلا تنزهون الله من كل سوء. (١٣) يا هلاكنا احضر. (١٤) متجاوزين الحدّ. (١٥) متضرّعون متوجّهون.

سماوية، حتى صارت سوداء كالليل المظلم. والطائف: الأمر الذي يأتي بالليل. والصَّريم: الرَّماد الأسود، بلغة جذيمة.

ولكنهم لم يقدِّروا العواقب، وصمموا على ما أرادوا، فنادى بعضهم بعضاً وقت الصباح، ليذهبوا إلى الجذاذ، أي القطع: أن اخرجوا مبكِّرين في الصباح إلى الثمار والزروع، إن كنتم قاصدين للصّرام أي القطع.

- فبادروا مسرعين إلى حقلهم، وهم يتناجون سرّاً ويقول بعضهم لبعض: لا تمكِّنوا اليوم فقيراً واحداً يدخل عليكم. و (يتخافتون) يتكلمون كلاماً خفيّاً.

- وذهبوا في الغداة مبكِّرين، زاعمين أنهم قادرون على الصِّرام (القطع) ومنع المساكين وحرمانهم. وقوله: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي ظنّوا أنهم قادرون على منع المساكين.

- فلما وصلوا إلى جنَّتهم وشاهدوها وهي على هذه الحالة المؤلمة من الاحتراق والسواد، قال بعضهم لبعض: قد أخطأنا الطريق-طريق بستاننا، وليس هذا.

- ثم لما تأمَّلوا وعلموا أنها جنَّتهم (بستانهم) وأن الله تعالى عاقبهم بإبادة ما فيها، قالوا: بل نحن في الحقيقة محرومون من ثمر جنَّتنا، لعزمنا على منع المساكين حقوقهم.

- قال أعقلهم وأحسنهم رأياً: هل تنزهون الله عن كل عيب أو نقص، وتذكرونه وتشكرونه على ما أنعم به عليكم، وتستغفرون الله من فعلكم، وتتوبون إليه من هذه النِّية التي عزمتم عليها؟

فاعترفوا بذنبهم، وقالوا: تنزيهاً لله عن أن يكون ظالماً فيما صنع ببستاننا، فإنا كنا ظالمين أنفسنا في حرماننا المساكين حقوقهم. ولكنهم أتوا بالطاعة حيث لا تنفع.

ثم لام بعضهم بعضاً على ما كانوا أصرّوا عليه من منع المساكين من حقِّ الْجَذاذ، أي القِطاف، ولم يجدوا أمامهم إلا الاعتراف بالخطأ والذنب. قالوا: يا هلاكنا أقبل، فإنا كنّا معتدين متجاوزين الحدّ، حتى أصابنا ما أصابنا.

ثم دعوا ربَّهم أن يعوِّضهم خيراً عما حلَّ بهم قائلين: لعل الله ربّنا أن يعطينا بدلاً خيراً من جنَّتنا، فإنّا متضرِّعون متَّجهون إليه، راجون العفو والخير منه.

ثم هناك ابتداء مخاطبة للنَّبي ﷺ في أمر قريش في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي مثل ذلك العذاب الذي نزل بالجنّة: العذاب الذي ينزل بقريش بغتة، وهو عذاب كل من خالف أمر الله، وعذاب الآخرة أشد وأعظم من عذاب الدنيا، فلو كان المشركون يعلمون ذلك، لعادوا إلى رشدهم، وبادروا إلى الإيمان برسالة النَّبي محمد ﷺ. وهذا دليل على غفلتهم وجهلهم. قال كثير من المفسّرين: العذاب النازل بقريش المماثل لأمر الجنة: هو الجدب الذي أصابهم سبع سنين، حتى رأوا الدخان، وأكلوا الجراد.

انتفاء المساواة بين الطائعين والعصاة

حذر القرآن الكريم الكافرين من عذاب الدنيا والآخرة، ووعد الله المتقين بجنات النعيم، والجزاء حق وعدل للفريقين، ولا يعقل بل ولا تقرّ العدالة التساوي بين طائع وعاصٍ، ومؤمن ومجرم، وكيف يحكم عاقل بالمساواة بينهما، من غير منطق، ولا كتاب إلهي، ولا وعد من الله تعالى، ولا من الشركاء المزعومين الذين لا وجود لهم، وهذا ما قررته الآيات الآتية:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ(١) ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ(٢) ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ(٣) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ(٤) ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن

(١) كيف نجعل المسلمين كالمجرمين في الدرجة والمنزلة في الجنان؟ (٢) تقرؤون بعناية. (٣) مغلظة مؤكدة.
(٤) كفيل وضامن.

كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ[١] وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ[٢] وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٣٤-٤٣].

أخبر الله تعالى أن المتقين لهم عند ربّهم جنات النعيم، فروي أنه لما نزلت هذه الآية، قالت قريش: إن كان ثَمَّ جناتُ نعيم، فلنا فيها أكبر الحظ، فنزلت آية: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾. وهذا على جهة الإطّلاع والتوبيخ.

والمعنى: إن لكل من اتَّقى الله وأطاعه، في الآخرة، جنات فيها النعيم الخالص الذي لا يزول ولا ينقضي. وحينما زعم المشركون المكِّيون أن لهم الأفضلية في الآخرة، لأفضليتهم في الثروة والنفوذ، أو على الأقل المساواة مع المسلمين، أجابهم الله تعالى بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ . .﴾.

أي كيف يعقل أن نسوِّي بين الفريقين في الجزاء، فنجعل من يلتزم الطاعة كمن هو فاجر مجرم لا يبالي بمعصيته؟ كلا، فلا مساواة بين المطيع والعاصي.

ثم نفى الله تعالى وجود أي دليل عقلي أو نقلي على هذا الزعم فيما يلي:

- كيف تظنون ذلك، وكيف تحكمون هذا الحكم الأعوج، كأن قانون الجزاء مفوض إليكم؟ إن أبسط مبادئ العقل وصحة الرأي يمنع مثل هذا الظن أو الحكم، وهذا نفي للدليل العقلي على المساواة.

أم (بل وألف الاستفهام) أي بل ألكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه، يتضمن حكماً مؤكداً كما تدّعون؟ ومفاد الحكم التسوية بين المطيع والعاصي، وهل في ذلك الكتاب أن لكم في الآخرة ما تختارون وتشتهون؟ وهذا نفي الدليل النقلي.

(١) يوم يشتد الأمر، وهذا مجاز . (٢) تلحقهم ذلّة ومهانة .

- بل ألكم من الله عهد موثق، وأيمان مغلظة مؤكدة، قائمة إلى يوم القيامة، في أن الله تعالى يدخلكم الجنة، ويحقّق لكم رغائبكم كما تريدون وتشتهون؟ وأن لكم إنفاذ الحكم الذي تصدرونه؟ كأنه تعالى يقول: هل أقسمنا لكم قَسَماً فهو عهد لكم بأن ننعّمكم يوم القيامة وما بعده؟

اطلب منهم يا محمد موبِّخاً ومقرِّعاً وقل لهم: من المتضمن المتكفل بهذا، أو أيهم كفيل لهم بذلك، بأن لهم في الآخرة ما للمسلمين فيها؟!

- بل ألهم شركاء لله بزعمهم كالأصنام والأنداد قادرون على أن يجعلوهم مثل المسلمين في الآخرة؟ فإن كان لهم شركاء، فليأتوا بهم لمناصرتهم، إن كانوا صادقين في دعواهم. وهذا نفي التقليد وإبطال اعتقاد المشركين.

ثم تحدّاهم الله بالإتيان بالشركاء يوم القيامة حيث يشتدّ الأمر، وذلك وقت أن يكشف عن الساق، أي يوم اشتداد الأمر، وعِظَم الخطب في القيامة، وحين يدعى هؤلاء المشركون وأنصارهم من الكفار والمنافقين، إلى السجود، توبيخاً لهم على تركه في الدنيا، فلا يتمكنون من السجود، لأن ظهورهم تيبس، وتصبح شيئاً واحداً، فلا تلين للسجود. قال مجاهد في قوله: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ﴾ هي أول ساعة من القيامة، وهي أفظعها.

وتكون أبصارهم خاشعة ذليلة منكسرة، تعمّهم الذِّلة الشديدة، والحسرة والندامة، وقد كانوا في الدنيا مدعوين إلى الصلاة والسجود لله تعالى، فامتنعوا وتمرّدوا، وكانوا سالمين أصحاء، متمكنين من الفعل، ولا يوجد مانع يمنعهم من السجود. قال النخعي والشعبي: المراد بالسجود: الصلوات المفروضة. والواقع أنهم لا يدعون إلى السجود تعبُّداً، وإنما توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا. وبما أنهم تكبروا عن السجود في الدنيا، مع صحتهم وسلامتهم، عوقبوا بنقيض ما كانوا

عليه، بعد قدرتهم عليه، ولا يستطيع أحد أن يسجد، لصيرورة ظهره كتلة واحدة أو طبقة واحدة. وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ يريد في دار الدنيا، وهم سالمون مما نال عظام صدورهم من الاتصال والعُتوّ.

التخويف من قدرة الله تعالى

تخويف للكافرين في القرآن بعد تخويف، لقد خوَّفهم الله تعالى بأهوال القيامة وشدائدها، ثم خوَّفهم وهدَّدهم أيضاً بما في قدرته من القهر، ففيه الكفاية بالجزاء لمن يكذب بالقرآن الكريم. ثم أمر الله تعالى نبيَّه بالصبر، وترك الضجر في أمر التبليغ خلافاً لما فعل يونس عليه السّلام. وليس للنّبي أن يأبه بحسد قومه له، بعد أن صبَّره وقوى معنوياته، وأن الشرف العظيم له، حين جعل القرآن المنزل عليه عظة للجن والإنس جميعاً. وهذا مفاد الآيات الآتية:

﴿فَذَرْنِي(١) وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ(٢) سَنَسْتَدْرِجُهُم(٣) مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ(٤) إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ(٥) ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ(٦) ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ(٧) إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ(٨) ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ(٩) وَهُوَ مَذْمُومٌ(١٠) ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ(١١) رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ(١٢) لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ(١٣) وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٤-٥٢].

هذا وعيد وتهديد من الله تعالى، مفاده: دعني وإياهم، واترك أمر أولئك

(١) اتركني. (٢) القرآن. (٣) سنأخذهم تدريجاً بالإمهال، ثم عقابهم على غفلة. (٤) أمهلهم. (٥) تدبيري قوي محكم شديد. (٦) فهم من غرامة محملون حملاً ثقيلاً. (٧) هو يونس بن متى. (٨) مملوء غيظاً وغماً. (٩) بالأرض الفضاء. (١٠) ملوم. (١١) اختاره. (١٢) ليجعلونك تزلق. (١٣) القرآن.

المكذبين بالقرآن الكريم، فإني أنا أكفيك أمرهم، وأعلم كيف أجازيهم، فإنا سنأخذهم بالعذاب على غفلة، بعد سوقهم إليه درجة فدرجة، حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج، لأنهم يظنونه إنعاماً، وهم لا يشعرون أن الإنعام استدراج.

والاستدراج: يستعمل في الشَّر، ويراد به: النزول بالشخص درجة درجة إلى حيث تريد، لتوريطه فيه، والمراد: إدناؤهم من العذاب تدريجاً بالإمهال وإدامة الصحة، وزيادة النعمة. أخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه، عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١١/ ١٠٢].

وأُمهلهم وأُؤخرهم ليزدادوا إثماً، ويتورّطوا، فإن تدبيري وكيدي لأهل الكفر قوي شديد، فلا يفوتني شيء لكل من خالف أمري، وكذَّب رسلي. وسمي الجزاء كيداً، لكونه في صورة الجرم. فالمراد بالكيد هنا العقوبة: التي تحلُّ بالكفار من حيث هي على كيد منهم، فسمَّى العقوبة باسم الذنب. و(المتين) القوي الذي له متانة.

ثم أخبر الله تعالى عن إزالة أي مانع يمنع المشركين من قبول الإسلام، فقال: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ و (أم) هي التي تتضمن الإضراب عن الكلام الأول، لا على جهة الرفض له، لكن على جهة الترك، والإقبال على ما سواه.

والمراد: بل أتطلب يا محمد منهم أجرة على الإرشاد والهداية وتبليغ الرسالة إليهم، فهم من الغرامة المالية مثقلون بأدائها، لشحّهم ببذل المال. الحقيقة أنك أيها النبي تدعو إلى توحيد الله تعالى بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله

تعالى، وهم مع ذلك يكذبونك في دعوتك. وهذا توبيخ للكفار، لأنه لو سألهم أجراً، فأثقلهم عدم ذلك، لكان لهم بعض العُذْر في إعراضهم وفرارهم.

بل أعندهم علم الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التي يزعمون، ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك؟!

وبعد هذا التفنيد لمواقف الكفار وشبهاتهم، أمر الله رسوله بالصبر على أذاهم وعلى تبليغ رسالته، فاصبر يا محمد على قضاء ربِّك وحكمه فيك، وفي هؤلاء المشركين، وعلى أذى قومك وتكذيبهم إياك، ولا تكن ضجراً متعجلاً مغاضباً مثل يونس عليه السَّلام، حين ترك قومه، وركب البحر، والتقمه الحوت، ثم ندم على ما فعل، فألقاه الحوت على الشاطئ. أي لا تتصف بصفات يونس من الضجر والمغاضبة، فتبتلى ببلائه.

ولولا أن تداركه من ربِّه رحمة ونعمة، بتوفيقه للتوبة وقبولها منه، فتاب الله عليه، لألقي من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات، وهو ملوم بالذنب الذي أذنبه، مطرود من الرحمة والكرامة. فاصطفاه ربُّه واختاره للنبوة، وأتم عليه رسالته، حين أعاده لقومه البالغين مئة ألف أو أكثر، فآمنوا جميعاً.

ثم حذَّر الله تعالى نبيَّه من عداوة المشركين، وترك المبالاة بحسدهم، فإنهم، أي الكفار يكادون يجعلونك بأبصارهم تزلق، وتهلك، لما سمعوا القرآن، وقولهم عنك: إنك مجنون، تنفيراً عنك، وتحييراً في شأنك، والمعنى: أنهم وصفوه بالجنون لأجل القرآن. وما القرآن في الواقع إلا خير وبركة، وموعظة وتذكير للجن والإنس، فلا يتحمله إلا من كان أهلاً له من العقلاء. قال الحسن البصري: دواء الإصابة بالعين: أن يقرأ هذه الآية ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . .﴾ الآية.

تفسير سورة الحاقَّة

التخويف بيوم القيامة وجزاء المكذبين بها

القيامة أو الحاقّة أعظم وأخطر بكثير مما نتصور، وحينما كذبت أقوام بها كثمود وعاد وفرعون وقومه وقرى قوم لوط، دمَّرهم الله تدميراً شديداً، جُعِل عبرة بالغة للأجيال الآتية من بعدهم. وهذا ما تحكيه لنا سورة الحاقَّة المكِّية بالإجماع، التي سمعها عمر رضي الله عنه من النَّبي ﷺ، فقال في أوائلها في نفسه: إنه لشاعر، كما تقول قريش، حتى بلغ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ثم مرَّ حتى انتهى إلى آخر السورة فأدخل الله تعالى في قلبي الإسلام. وهذا مطلع هذه السورة:

﴿ٱلْحَآقَّةُ(١) ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ(٢) ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ(٣) ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(٤) ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا(٥) فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ(٦) كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(٧) ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ(٨) بِٱلْخَاطِئَةِ(٩) ﴿٩﴾

---

(١) القيامة المتحققة الوقوع، وما مبتدأ، والحاقة الثانية خبرها، والجملة خبر الأولى. (٢) القيامة التي تقرع القلوب بالإفزاع. (٣) الواقعة التي جاوزت الحدّ في الشدة وهي الصيحة أو الرجفة. (٤) بريح شديدة الصوت والبرد، شديدة القوة والعصف. (٥) متتابعة. (٦) موتى مطروحين على الأرض. (٧) أصول نخيل ساقطة فارغة. (٨) قرى قوم لوط. (٩) بالخطأ الشديد الفاحش.

فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً(١) ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ(٢) حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ(٣) ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً(٤) وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ(٥) ﴿١٢﴾﴾ [الحاقّة: ٦٩/ ١-١٢].

البعث والقيامة، وما أدراك ما القيامة، وهي التي يتحقق فيها الوعد والوعيد، وسميت بالحاقّة لأن أمور الحساب مثبتة فيها، وحقّقت لكل عامل عمله، ومتحققة الوقوع من غير شك ولا ريب. وكلمة (الحاقّة) اسم فاعل من (حق الشيء يحق) إذا كان صحيح الوجود. وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾ مبالغة في أهوالها وصفاتها.

ونوع العقاب ببعض الأمم السابقة التي كذبت بيوم القيامة، تخويفاً لأهل مكة وغيرهم: هو:

كذبت قبيلة ثمود قوم صالح وقبيلة عاد قوم هود بالقيامة التي هي القارعة التي تقرع الناس بأهوالها. فأما جماعة ثمود فأهلكوا هلاكاً تامّاً بالطاغية: وهي الصيحة أو الصاعقة أو الرجفة التي جاوزت الحدّ في الشدة. قال قتادة: الطاغية: معناه الصيحة التي خرجت عن حدّ كل صيحة. وهذا أولى الأقوال وأصوبها.

وأما قبيلة عاد قوم هود، فأهلكوا هلاكاً ساحقاً بريح شديدة الصوت والبرد، قاسية شديدة الهبوب، جاوزت الحدّ، لشدة هولها، وطول زمنها وشدة بردها، سلّطها الله عليهم طوال مدة سبع ليال وثمانية أيام متتابعة، لا تنقطع ولا تهدأ، وكانت تقتلهم بالحجارة، تحسمهم حسوماً، أي تفنيهم وتُذهبهم. فتشاهدُ إن حضرتَ أولئك القوم في ديارهم موتى مصروعين على الأرض، كأنهم أصول نخل ساقطة أو بالية، لم يُبق الله منهم أحداً، فهل تحس منهم من أحد من بقاياهم؟ بل

(١) زائدة في الشدة . (٢) جاوز الحدّ المعتاد . (٣) السفينة التي تجري في الماء . (٤) عظة . (٥) حافظة لما تسمع .

بادوا عن آخرهم، ولا خلف لهم. ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نصرت بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدَّبور».

وقوله: ﴿مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ إما مبالغة كعلاّمة ونسّابة، والمعنى: من باقٍ، أو من فئة باقية، وإما مصدر، أي من بقاء.

وأتى بالفعلة الخاطئة الطاغية فرعون ومن تقدَّمه من الأمم الكافرة، وأهل المنقلبات (المؤتفكات) قرى قوم لوط، وخطؤهم: الشِّرك والمعاصي الكبائر.

فعصت كل أمة من هؤلاء رسولها المرسل إليها، فأهلكهم الله ودمَّرهم، وأخذهم أخذة أليمة شديدة، زائدة على عقوبات سائر الأمم الأخرى. و (الرّابية) النامية التي قد عظمت جداً.

ثم عدد الله تعالى نعمته على الناس في قصة الطوفان.

إننا لما تجاوز الماء حدَّه وارتفع بإذن الله، وجاء الطوفان في زمن نوح عليه السَّلام، حملنا آباءكم المؤمنين وأنتم في أصلابهم، في السفينة التي تجري في الماء، لتتحقق لهم النجاة من الغرق، ولنجعل نجاة المؤمنين، وإغراق الكافرين عبرة وعظة، تستدلون بها على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه، وشدة انتقامه، ولتحفظها بعد سماعها أذن حافظة لما سمعت ووعت. فقوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ و﴿وَتَعِيَهَآ﴾ عائد إلى الواقعة المعلومة، وهي نجاة المؤمنين، وإغراق الكافرين، أي: من تذكرها ازدجر.

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن مكحول مرسلاً قال: لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال رسول الله ﷺ: «سألت ربِّي أن يجعلها أُذُن عليّ»، قال مكحول: فكان علي يقول: ما سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً قط، فنسيته.

هذا أنموذج من أوصاف العقاب الأليم الذي أوقعه الله ببعض الأقوام الغابرة، اتصفت بأقسى ألوان الشدة في الدنيا، لتكون درساً بليغاً، وعظة بالغة للأقوام

والأفراد والجماعات إذا فعلوا مثل فعلهم، سواء من أهل مكة المشركين في الماضي، أو من أهل الأقطار والبلاد الأخرى. وهذا اللون من العقاب أخفّ بكثير إذا قورن بألوان العذاب الأُخروي. والفرق بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فرق واضح، الأول مؤقت، ومقصور على فئات خاصة، والثاني دائم خالد لا يزول، شامل كل من جحد بالله ومات على كفره.

هول القيامة وحال الأبرار فيها

للقيامة أهوال وأحزان، ومفاجآت وكوارث، تبدأ من نفخة الفزع التي ينفخها إسرافيل في الصور (وهو القرن الذي ينفخ فيه) ومعها يكون الصعق، ثم يعقبها نفخة البعث، وبعد النفخة الأولى تدكّ الأرض والجبال، وتنشق السماء وتنتثر الكواكب والنجوم، ثم يكون الحساب للأبرار والفجّار، أما الأبرار: فهم الذين يُعْطَون كتبهم بأيمانهم، ويهنأون في العيش الرغيد الخالد، في جنات النعيم، وأما الفجار: فهم الأشقياء الذين يعطون كتبهم بشَمائلهم أو من وراء ظهورهم، ويعذَّبون في الجحيم بسبب كفرهم وإحجامهم عن الخير، كما يتضح في الآيات الآتية:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ[1] نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ[2] ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً[3] ﴿١٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ[4] ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ[5] فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ[6] ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا
وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ[7] فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ
أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ[8] ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى

(١) الصُّور: القرن الذي ينفخ فيه. (٢) هي نفخة القيامة التي للفزع والصعق. (٣) أي تصير الأرض والجبال كتلة واحدة. (٤) قامت القيامة. (٥) كناية عن تصدُّعها وتبدُّدها. (٦) مختلة ضعيفة غير متماسكة. (٧) هو مخلوق وأعظم المخلوقات. (٨) خذوا.

عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ(١) ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا(٢) دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ(٣) ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقّة: ٦٩/ ١٣-٢٤].

ذكَّر الله تعالى بأمر القيامة في هذه الآيات، ومبدؤها حين ينفخ إسرافيل النفخة الأولى التي يكون عندها خراب العالم، وحدوث الفزع والصعق. ثم تكون نفخة البعث. وقيل: هي نفخات ثلاث: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ثم نفخة البعث.

وبعد النفخة الأولى ترفع الجبال من أماكنها بقدرة الله، ويضرب بعضها ببعض ضربة واحدة، وتصير مع الأرض كتلة واحدة، وترجع كثيباً مهيلاً، وتتبدد وتتغير. فحينئذ قامت القيامة، ووقعت النازلة. فقوله: ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ معناه: قامت القيامة والطّامّة الكبرى.

وتصدَّعت السماء، فتصير يومئذ ضعيفة مسترخية، غير متماسكة الأجزاء، وتتبدل هي والأرض تبدُّلاً محسوساً واضحاً، ويبرز الناس للحساب بين يدي الله تعالى.

وتكون الملائكة على جوانب السماء وحافاتها على أتم الاستعداد لتنفيذ ما يأمرهم الله به. ويحمل عرش ربِّك فوق رؤوس الملائكة الذين هم على الأرجاء (الجوانب) ثمانية أملاك. وقوله: ﴿ٱلْمَلَكُ﴾ اسم جنس، يريد به الملائكة. وضمير ﴿أَرْجَآئِهَآ﴾ عائد على السماء، أي الملائكة على نواحيها وجوانبها. والعرش في اللغة: سرير الملك، وهو أعظم مخلوقات الله تعالى، نؤمن به، ونفوض الأمر في وصفه لله عزّ وجلّ.

في ذلك اليوم، يعرض العباد على الله تعالى لحسابهم، فلا يخفى على الله من

(١) ذات رضا. (٢) ثمارها قريبة التناول. (٣) الماضية في الدنيا.

ذواتكم وأقوالكم وأفعالكم وأموركم خافية، كائنة ما كانت، فهو تعالى يعلم السّر وأخفى. وهذا تهديد ووعيد.

والناس بعد الحساب فريقان: سعداء أبرار، وأشقياء فجّار.

أما الأبرار: فهم الذين يؤتون كتبهم التي كتبتها الحفظة عليهم من أعمالهم، فيقول السعيد صاحب اليمين لكل من لقيه: خذوا هذا الكتاب فاقرؤوا ما فيه، لعلمه أنه صار من الناجين، بعد أن كان خائفاً مضطرباً كشأن أهل المحشر كلهم، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ أي تيقّنت وعلمت أني ألقى حسابي في هذا اليوم، فيؤاخذني الله بسيئاتي، ولكنه تعالى تفضّل علي بالعفو، ولم يؤاخذني بها. والآية عبارة عن إيمان هذا السعيد بالبعث وغيره. فهو يقول: لقد علمت وأيقنت في الدنيا أني أُحاسب في الآخرة، وأن هذا اليوم كائن لا محالة. قال قتادة: ظنَّ هذا ظنّاً يقينياً فنفعه، وقوم ظنوا ظن شك فشقوا به.

ومصير هذا السعيد: أنه بعد تلقي كتابه بيمينه هو في عيشة مرضية أو ذات رضا، خالية من المكدِّرات، غير مكروهة، في جنة مرتفعة المكان، رفيعة القدر، عالية المنازل، مكاناً وقدراً، دائمة السرور، ثمارها قريبة التناول لكل أحد بحسب راحته، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع. والقطوف: جمع قَطف: وهو ما يجتنى من الثمار ويقطف. ودنوها: هو أنها تأتي طوع التّمني، فيأكلها القائم والقاعد والمضطجع، بفيه، من شجرتها.

ويقال لهؤلاء السعداء من الملائكة الأبرار: كُلوا أيها المتّقون الأبرار في الجنّة من طيباتها وثمارها، واشربوا من أشربتها الهانئة، أكلاً وشرباً هنيئاً، أي لا تكدير فيه ولا تنغيص، جزاء لما عملتم، وبسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الدنيا. و﴿ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ هي أيام الدنيا، لأنها في الآخرة قد خلت وذهبت. و﴿أَسْلَفْتُمْ﴾ قدمتم.

وهذا تفضُّل من الله تعالى عليهم، وامتنان وإنعام وإحسان، لما ثبت في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسدِّدوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يدخلَه عملُه الجنّة، قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل».

إن دخول الجنان بفضل من الله ورحمة وإحسان، أما تفاوت الناس الصالحين في درجات الجنّة، فإنما هو بحسب تفاضلهم في أعمالهم، وهو ما صرَّح به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: ١٦/ ٣٢]. وهذا جمع موفَّق بين الآيات والأحاديث النَّبوية.

حال الفجّار في القيامة

يتميز أسلوب القرآن الكريم بالموازنة أو المقارنة بين الأضداد والمتغايرات، ليختار الإنسان العاقل الواعي بحرِّيته طريق الخير أو طريق الشَّر، ويكون عمله هو سبب جزائه الحسن أو السوء، وقد ذكر الله تعالى في آيات سابقة حال الأبرار الأتقياء من نعيم الجنان، ليستعد الإنسان للعمل بعملهم، ثم أعقبه ببيان حال الأشقياء التعساء في نيران الجحيم، ليتجنَّب المرء مسيرتهم وسلوكهم، لأن الجزاء الواضح في الآخرة مرتبط بنوع العمل، فأهل الإيمان والعمل الصالح هم السعداء، وأهل الكفر والجحود والمعاصي هم الهالكون الخاسرون، بسبب الإعراض عن الإيمان الصحيح بالله ورسالاته وعن أعمال البر والخير، كما يبدو في هذه الآيات:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا

كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ(١) ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(٢) ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ(٣) ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا(٤) سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ(٥) ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ(٦) ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ(٧) ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحاقّة: ٦٩/ ٢٥-٣٧].

المعنى: أما الشَّقي الذي أعطي كتابه بشماله أو من وراء ظهره، فيقول حزناً وكرباً لما رأى من سوء عمله وعقيدته: يا ليتني لم أعطَ كتابي. ولم أعلم شيئاً عن حسابي، لأن كله وبال علي، ليت الموتة التي مُتُّها في الدنيا كانت القاطعة نهاية الحياة، ولم أبعث بعدها، أي ليتها لم يكن بعدها رجوع ولا حياة، فهو يتمنى دوام الموت وعدم البعث، لما شاهد من سوء عمله، وما يجابه في الآخرة من العذاب. جمعت الآيات بين مقابلة العذاب النفسي بتمنّي عدم تلقّي الكتاب، وبين الشعور بالعذاب الجسدي، حين تمنّي الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه، كما قال قتادة.

ويضيف الكافر قائلاً: ما أفادني مالي شيئاً، ولم يدفع عني شيئاً من عذاب الله تعالى، وذهب منصبي وجاهي وملكي وحجتي، والسلطان: هو الحجة، على الراجح، فلم يدفع عني العذاب. قال ابن عطية: والظاهر عندي أن سلطان كل أحد: هو حاله في الدنيا من عَدَد وعُدَد، ومنه الحديث: «لا يُؤَمَنَّ الرجل في سلطانه، ولا يُجْلَس على تكرمته إلا بإذنه»(٨).

هؤلاء الذين يؤتون كتبهم بشَمائلهم: هم المخلَّدون في النار، أهلُ الكفر، فيتمنون

(١) القاطعة لحياتي، فلم أبعث، إشارة إلى موته في الدنيا. (٢) شدّوه في الأغلال. (٣) أدخلوه في نار جهنم. (٤) مبلغ كَيْلها أو طولها سبعون ذراعاً، المراد أنها طويلة، وهي ذراع الملَك. (٥) صديق. (٦) ما يسيل من صديد أهل جهنم. (٧) الآثمون. (٨) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنَّسائي وابن ماجه، وأحمد في مسنده، عن أبي مسعود الأنصاري البدري رضي الله عنه.

أن لو كانوا معدومين لا يجري عليهم شيء، حين لا يجدون شيئاً ينفعهم في الآخرة من مال أو ولد أو حجة مقبولة.

فيأمر الله زبانية جهنم قائلاً لهم: خذوه، أي خذوا هذا الكافر الشَّقي، مكبَّلاً بالقيود والسلاسل والأغلال، بجمع يده إلى عنقه في الغُلّ، ثم أدخلوه الجحيم ليصلى حرَّها، ثم أدخلوه في سلسلة (حلَق منتظمة) طولها سبعون ذراعاً تلفّ على جسمه، لئلا يتحرَّك. وقد جعل الله تعالى في قرآنه السبع مئة، والسبعين، والسبعة، مواقف ونهايات لأشياء عظام، فلذلك مشى العرب وغيرهم على أن يجعلوها نهايات، وهذه السلسلة من الأشياء التي جعل الله تعالى فيها السبعين: نهاية.

وسبب وعيد هذا الشَّقي وعذابه: أنه كان لا يؤمن بالله العظيم، أي كافراً جاحداً، لا يصدق بالله صاحب العظمة والسلطان، ولا يحب الخير ولا يفعله، ولا يحث على إطعام الفقير والمسكين البائس، فضلاً عن أنه لا يبذل المال لمحتاج. أي لا يؤدي حقوق الله من توحيده وعبادته، وترك الشِّرك به، ولا يوفي بحقوق العباد من الإحسان والمعاونة على البر والتقوى. وفي ذكر الحضّ دون الفعل تشنيع على صاحبه، يفيد أن تارك الحض كتارك الفعل. وهذا دليل على أن غير المؤمنين إطلاقاً مطالبون بفروع أحكام الشريعة الإسلامية، من صلاة وصيام وحج وزكاة وغيرها من شرائع المعاملات والأحوال الشخصية.

والعذاب متعين لازم لهذا الشقي، فليس له يوم القيامة قريب ينفعه، أو صديق يشفع له، أو منقذ ينقذه من العذاب. والحميم: هو الصديق اللطيف المودة.

وأما وسائل بقاء الحياة في النار لأهلها، فتتجدد حياتهم كلما عُذِّبوا، وليس لهم طعام يأكلونه إلا أقبح الأشياء، وهو ما يسيل من أجساد أهل النار من صديد ودم وقيح، إنها سموم قاتلة في الباطن، مع العذاب في الظاهر، وهذا الطعام لا يتناوله إلا

الآثمون أصحاب الخطايا والذنوب. والخاطئ: الذي يتعمد الإثم والخطأ وترك الصواب. والمخطئ: الذي يفعله من غير تعمُّد.

نفى الله تعالى في هاتين الآيتين أن يكون للكافر في الآخرة من يواليه، ونفى أن يكون له طعام إلا من غِسلين: ما يسيل من أجساد أهل النار، وذلك غاية القبح.

القرآن تنزيل من الله وتذكرة

ختم الله تعالى سورة الحاقَّة بما يدلُّ على تعظيم القرآن الكريم، وكونه تنزيل ربِّ العالمين، على قلب رسوله الأمين، وأنه تذكرة للمتقين، ولا قيمة لتكذيب المكذبين، وسيبقى حق اليقين الذي لا شك فيه، ومصدر غصة وعذاب وحسرة على الكافرين، وهو الكتاب المعجز الدَّالّ على إخراس ألسنة المتقوِّلين فيه، قال مقاتل: سبب نزول الآيات أي التي يقسم الله فيها على أن القرآن قول الله الذي يبلِّغه رسول كريم: أن الوليد ابن المغيرة قال: إن محمداً ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عقبة: كاهن، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الآيات، أي أقسم. وهذه هي الآيات:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ(١) ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ(٢) قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ(٣) عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ(٤) ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ(٥) ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ(٦) ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ(٧) ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ(٨) ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقَّة: ٦٩/٣٨-٥٢].

---

(١) أي إنه تلاوة وتبليغ رسول كريم إما جبريل عليه السّلام، وإما محمد ﷺ. (٢) الكاهن: من يخبر بالغيب. (٣) تكلف وافترى. (٤) لعاقبناه بقوة. (٥) الوريد: العرق الرئيسي المتّصل بالقلب. (٦) مانعين. (٧) أي اليقين الحق الذي لا شك فيه. (٨) نزّه الله عما لا يليق به.

فلا أقسم: لا إما زائدة أي فأقسم، أو ردّ لما تقدم من أقوال الكفار. والمعنى: أقسم أي أقسم لخلقي بما تشاهدون من المخلوقات الدالة على كمالي في أسمائي وصفاتي، وما لا تشاهدون مما غاب عنكم من المغيبات، إن هذا القرآن هو كلام الله ووحيه وتنزيله على عبده محمد ﷺ، وهو تلاوة وتبليغ رسول كريم: هو جبريل عليه السّلام، أو محمد عليه الصّلاة والسّلام، وعليه الأكثرون، وأضيف القول إليه، لأنه هو الذي تلاه وبلّغه.

وليس القرآن بقول شاعر كما تزعمون، لأن محمداً ﷺ ليس بشاعر، وليست آيات القرآن من أصناف الشعر، وأنتم تؤمنون أو تصدّقون تصديقاً يسيراً، حين تقولون عن الخالق: إنه الله.

وليس هو بقول كاهن: وهو من يدَّعي الغيب ومعرفة أسرار المستقبل، كما تزعمون، فإن القرآن سبّ الشياطين، فلا يعقل أن يكون بإلهامهم، ولكنكم تتذكرون تذكُّراً قليلاً، فيلتبس الأمر عليكم.

بل هو تنزيل من الله ربّ الإنس والجنّ، نزل به جبريل الرّوح الأمين على قلب الرسول محمد ﷺ. ثم أكّد الله تعالى أن هذا النّبي ﷺ لا يستطيع أن يختلق القرآن، فإنه لو افترى القرآن، وجاء به من عند نفسه، ونسبه إلى الله تعالى، على سبيل الفرض، لأخذناه وأهلكناه بالقوة، ولَنِلْنا عقابه بقوة منا، واليمين: القوة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. ثم لبترنا منه الوتين من قلبه، وهو العرق أو الوريد المتصل من القلب بالرأس، إذا قُطع مات صاحبه. وهذا تصوير لإهلاكه بأشنع وأشد ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه.

فليس منكم أحد يحجزنا ويمنعنا منه، أو ينقذنا منه، فكيف يجرؤ على تكلف الكذب على الله لأجلكم؟! وقوله: ﴿حَٰجِزِينَ﴾ جمع روعي فيه المعنى، لأن قوله:

﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ في معنى الجماعة، يقع في النفي العام على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، والمراد: لا يمنعنا أحد عن الرسول أو عن القتل.

وأوصاف القرآن الكريم: هي أنه عظة وتذكرة لأهل التقوى الذين يخشون عذاب الله بإطاعة أوامره، واجتناب نواهيه.

وإنا لنوقن ونجزم أن بعضكم مكذبون بالقرآن، كفراً وعناداً، ونحن نجازيهم على ذلك، وبعضكم مصدِّقون به، لاهتدائه إلى الحق. وفي هذا وعيد شديد للمكذبين.

وإن هذا القرآن سيكون حسرة وألماً وندامة على الكافرين، يوم القيامة، من حيث إنهم كفروا به، ويرون من آمن به ينعّم، وهم يعذّبون.

وإن القرآن هو الخبر الصدق، واليقين الحق الذي لا شك فيه، لكونه من عند الله، وليس من قول أحد من البشر. وقوله: ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ في رأي الكوفيين: من إضافة الشيء إلى نفسه، كدار الآخرة، ومسجد الجامع. وفي رأي البصريين والحذّاق: أن الحقّ مضاف إلى الأبلغ من وجوهه، قال المبرد: إنما هو كقولك: عين اليقين، ومحض اليقين.

ثم أمر الله تعالى نبيّه بتسبيح الله باسمه العظيم، أي نزّه الله تعالى الذي أنزل هذا القرآن العظيم، عما لا يليق به، بقولك: سبحان ربي العظيم. وفي ضمن ذلك: الاستمرار على تبليغ رسالته.

روي أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «اجعلوها في ركوعكم» . واسم الرَّب: كل لفظ يدل على الذات الأقدس أو على صفة من صفاته، كالله والرَّحمن والرَّحيم. وتنزيه الاسم الخاص: تنزيه للذات، فتكون الباء في قوله: ﴿بِٱسْمِ﴾ زائدة.

تفسير سورة المعارج

التهديد بالعذاب الأُخروي

المشركون قوم حمقى، فإنهم طالبوا بإنزال العذاب في الدنيا، واستعجال العذاب الأُخروي تحدِّياً واستهزاء وعناداً، على الرغم من إخبار القرآن بتعذيب من قبلهم ممن هو أشد منهم قوة وجحوداً وثراء وزعامة، فجاءهم إنذار آخر من السماء يهددهم بعذاب واقع، مع وصف مرعب ليوم القيامة وما فيه من شدائد وأهوال وتغيرات غريبة تباين المألوف، مما يزيد في الخوف أو الذُّعر، وذلك في مطلع سورة المعارج المكِّية بالإجماع في هذه الآيات:

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ(١) ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ(٢) ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ(٣) ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ(٤) ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ(٥) ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا(٦) ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ(٧) وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ(٨) ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآۖ(٩) إِنَّهَا لَظَىٰ(١٠) ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ(١١) ﴿١٦﴾ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ١-١٨].

---

(١) سأل بكذا: طلبه، وسأل عن كذا: استخبر عنه اعتناء به. (٢) مانع وواق. (٣) المصاعد والدرجات لصعود العمل الصالح إليه. (٤) مائع الزيت ونحوه من المعادن المذابة. (٥) الصوف المندوف. (٦) صديق صديقه. (٧) زوجته. (٨) عشيرته. (٩) كلمة ردع وزجر للمخاطب عما هو عليه. (١٠) نار ملتهبة. (١١) هي أعضاء الجسم الخارجية أو جلدة الرأس.

أخرج النَّسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ قال: هو النَّضر بن الحارث، قال: «اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء».

دعا داعٍ وطلب طالب بإنزال عذاب واقعي، كائن للكافرين، نازل بهم، لا يمنع ذلك العذاب الواقع أحد إذا أراده الله تعالى. وقوله: ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ بمعنى: على الكافرين، فاللام بمعنى على هنا، أو كأن قائلاً قال: لِمَن هذا العذاب؟ فقيل: للكافرين. وسؤال العذاب من طالبه للاستهزاء والتعنُّت. والسائل كما تقدَّم: هو النضر بن الحارث أو غيره.

والعذاب واقع من جهة الله تعالى، ذي المصاعد الذي تصعد إليه الكلمة الطيبة والعمل الصالح، أو تصعد فيها الملائكة، وقال ابن عباس: المعارج: السماوات تعرج فيها الملائكة من سماء إلى سماء. تصعد في تلك المعارج الملائكة وجبريل عليه السلام، خصصه بالذِّكر تشريفاً، في مدة يوم يقدّر بخمسين ألف سنة من سنوات الدنيا، لو أراد البشر الصعود إليها. وهذا بحسب مواقف القيامة ومواطنها، فيها هذه المواطن، وفيها خمسون موطناً، كل موطن ألف سنة، كما في آية أخرى: هي ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السَّجدة: ٣٢/٥]. وهذا في حقِّ الكافر، أما في حقِّ المؤمن فلا يجدون هذه المسافة لقوله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٤]. والمستقر والمقيل: هو الجنة.

ثم أمر الله نبيَّه بالصبر على مثل هذا السؤال، فاصبر يا محمد صبراً جميلاً، ولا تأبه بسؤالهم العذاب استهزاء وتعنُّتاً وتكذيباً بالوحي، واحلم على تكذيبهم لك.

إن المشركين يرون يوم القيامة ووقوع العذاب فيه بعيداً أو مستحيل الوقوع، والله يراه قريباً، ويعلمه كائناً ممكناً غير متعذر، لأن كل ما هو آت قريب.

وأوصاف ذلك اليوم يوم القيامة: أن السماء تصير كمائع الزيت أو المعادن المذابة، وتكون الجبال كالصوف المنفوش أو المندوف إذا طيَّرته الريح، ولا يسأل قريب قريبه عن شأنه أو حاله في ذلك اليوم، وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره.

ويبصَّر أو يُرى كل صديق صديقه، ويعرَّف به، لا يخفى منهم أحد عن أحد، دون أن يكلم بعضهم بعضاً، ويتمنّى الكافر وكل مذنب ذنباً يستحقُّ به النار: أن يفتدي نفسه من عذاب يوم القيامة الذي نزل به، بأعزِّ ما لديه، من المال والبنين، والزوجة، والإخوة والأخوات، والعشيرة أو الرّهط والقرابة الأدنين، كبني هاشم مع النَّبي ﷺ، وكل من في الأرض جميعهم من الثَّقلَيْن: الإنس والجنّ وغيرهما من الخلائق، ثم ينجيه من هذا الفداء، الذي تضمنه قوله: ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ فهو كالمتقدم الذِّكر. فالفاعل لقوله: ﴿يُنجِيهِ﴾ هو الفداء، أي لا نجاة.

ثم أكَّد الله تعالى رفض قبول الفداء بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ للردع والزجر، فهي ردّ لقولهم وما ودّوه، أي ليس الأمر كذلك. فلا يقبل الفداء من المجرم، إنها جهنم الشديدة الحرّ مأواه، التي تنزع اللحم عن العظم، والأعضاء عن مفاصلها، وجلدة الرأس عنه، ثم يعود كما كان. وتنادي جهنم الكفار وهم كل من أدبر عن الحق والإيمان في الدنيا، وتولى عنه، وجمع المال فجعله في وعاء، فلم ينفق منه شيئاً في سبيل الخير، ومنع حق الله فيه، من الواجب عليه من النفقات وإخراج الزكاة.

وقوله: ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي جعله في الأوعية. وهذا إشارة إلى كفار أغنياء جعلوا جمع المال جُلّ همهم ومقصد حياتهم، فجمعوه من غير حلّ، ومنعوه من حقوق الله تعالى.

ودعاء جهنم لأهلها إما حقيقة، تدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، كما قال ابن

عباس وغيره. وقال الخليل بن أحمد: هي عبارة عن حرصها عليهم، واستدنائها لهم، وما تُوقِعه من عذابها.

والواقع أن غضب الله وسخطه يحيط بجهنم وأهلها، وكل ما فيها وما حولها عذاب في عذاب، وشقاء في شقاء، أعاذنا الله تعالى منها ومن الاقتراب من حرِّها.

طبع الإنسان وعلاجه

على الرغم من أهوال القيامة الموحية بأشد ألوان العذاب، يجمح بالإنسان طبعه وميله إلى الشَّر، بسبب أوصاف الهلع والجزع والمنع التي تؤدي به إلى السوء، لكن تعديل الغرائز وترقية الطباع أمر محتمل. ويمكن ترويض هذه الأخلاق وعلاجها بالحكمة والمجاهدة، وفي ضوء تقدير المخاطر، ومن أجل النجاة من المخاوف التي تحيط بالإنسان في آخرته. والقرآن الكريم نبَّه إلى طرق العلاج لطبيعة الإنسان بأسلوب معقول وواضح، كما يتبين من هذه الآيات:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا[١] ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا[٢] ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا[٣]
﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلْمَحْرُومِ[٤] ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ[٥] ﴿٢٧﴾ إِنَّ
عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ[٦] ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ[٧] ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ
﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج: ٧٠/١٩-٣٥].

---

(١) سريع الحزن، شديد الحرص، قليل الصبر. (٢) كثير الجزع، أي إنه يؤوس قنوط، والجزع: الحزن. (٣) كثير المنع. (٤) المتعرِّض للسؤال، والمتعفف فيحرَم. (٥) خائفون. (٦) من طلبِ غير هذا فهم المتجاوزون الحدود. (٧) يؤدّون الشهادة ولا يكتمونها.

إن الإنسان (اسم جنس يفيد العموم) مجبول على الضجر والهلع: وهو شدة الحرص، وقلة الصبر، فإذا أصابه شرٌّ من فقر أو مرض مثلاً، فهو كثير الجزع، أو الحزن، والشكوى، وإذا أصابه خير من غنى أو منصب وجاه، أو قوة وصحة ونحو ذلك، فهو كثير المنع والبخل. والهلع بعبارة أخرى: فزع واضطراب يعتري الإنسان عند المخاوف وعند المطامع. أخرج الإمام أحمد وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «شرُّ ما في الرجل: شحٌّ هالع، وجبن خالع».

ثم استثنى الله تعالى من اتصف بصفات عشر وهي:

- هؤلاء الناس يتّصفون بصفات الذَّم، إلا المصلِّين الذين يؤدّون صلاتهم، ويحافظون على أوقاتها وواجباتها، ويداومون عليها، وهاتان الصفتان: أداء الصلاة والمواظبة عليها، تساعدان على التخلُّص من صفات الهلع والجزع والمنع، أي إن هذا المعنى يقل فيهم، لأنهم يجاهدون أنفسهم بالتقوى، ويؤثرون الآخرة على الدنيا.

- والذين يكون في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات والبائسين، سواء سألوا الناس أو تعفَّفوا، والسائل: الفقير الذي يتكفَّف فيعطى، والمحروم: الذين يتعفَّف فيحرم. والحق المعلوم: هو الزكاة المفروضة في رأي. وفي رأي آخر أصح هي في الحقوق التي سوى الزكاة، وهي ما ندبت الشريعة إليه من المواساة. وقد قال ابن عمر والثعلبي ومجاهد وكثير من أهل العلم: إن في المال حقّاً سوى الزكاة.

- والذين يوقنون بوجود يوم القيامة يوم الحساب والجزاء، لا يشكون فيه ولا يجحدونه، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب، و يخشى العقاب. وسمي يوم القيامة بيوم الدين؛ لأنه يوم المجازاة، والدين: الجزاء.

- والذين هم خائفون من عذاب الله، إذا تركوا الواجبات، واقترفوا المنكرات، فيكون العذاب واقعاً بهم إلا بعفو من الله تعالى.

- والذين يكفّون فروجهم عن الحرام، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، وهو الزوجة وملك اليمين الذي هو الإماء، حين كان الرِّق قائماً، فلا لوم في الاستمتاع المشروع بهما، فمن قصد المتعة بغير هذين السبيلين: الزواج والتمتع بملك اليمين، فهم المتجاوزون الحدود، المعتدون الضارّون.

وقوله: ﴿غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ معناه أنهم غير ملومين على أزواجهم وما ملكت أيمانهم. و﴿ٱبۡتَغَىٰ﴾ معناه: طلب، وقوله: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ معناه سوى ما ذُكر.

- والذين يؤدّون الأمانات التي يؤتمنون عليها إلى أهلها، ويوفون بالمعاهدات والاتفاقات والعقود المبرمة، ولا ينقضون البيع ولا شيئاً من الشروط المتفق عليها. فإذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، وإذا حدَّثوا لم يكذبوا. وهذه صفات المؤمنين، وأضدادها صفات المنافقين. والأمانات: هي في الأموال والأسرار، وفيما بين العبد وربِّه تعالى، فيما أمره به ونهاه عنه. قال الحسن: الدِّين كله أمانة. والعهد: كل ما تقلّده الإنسان من قول أو فعل أو مودّة. أخرج البخاري في كتاب الأدب: «حسن العهد من الإيمان» . و﴿رَٰعُونَ﴾ جمع راعٍ، أي حافظ.

- والذين يؤدّون الشهادة على الحقوق والمنازعات في محاكم القضاء بحق، ويحافظون عليها دون زيادة ولا نقصان، ودون مجاملة لقريب أو بعيد، أو رفيع أو ذي منصب وجاه، ولا يكتمونها ولا يغيرونها. ولا يكون أداء الشهادة في حقوق العباد إلا بعد طلب لأداء الشهادة، أما في حقوق الله تعالى كمنع منكر وقمع مخالفة فتؤدى حسبة من دون طلب.

- والذين يحافظون على مواقيت الصلاة وأدائها بأركانها وواجباتها ومندوباتها، لا يُخلّون بشيء منها، ولا يتشاغلون بشاغل عنها، ولا يفعلون بعدها ما يتناقض معها، فيبطل ثوابها، وتضيع ثمرتها. وذلك بالدخول فيها في حماس ورغبة بها،

ويفرغون قلوبهم من شواغل الدنيا، ويفكرون فيما يتلون فيها من آيات القرآن، أو يرددون من أذكار التكبير والتسبيح والتحميد، وتكون قلوبهم حاضرة مع الله تعالى، ويتأملون في معاني آيات الله تعالى.

أولئك الموصوفون بالصفات السابقة يُنعَّمون بجنات الخلود، ويكرمون بأنواع التكريم وألوان الملاذّ والمسارّ.

والجزاء بهذه الخاتمة الرائعة يحمل المتَّصفين بهذه الصفات على التخلُّص من أوصاف الهلع والجزع والمنع.

تهديد المكذِّبين بالرِّسالة النَّبوية

أسرع الكفار المكذِّبون بدعوة النَّبي ﷺ إلى الاعتصام بالكفر، وإلى معبوداتهم الباطلة من الأصنام والأوثان، فتوعَّدهم الله بالإبادة والهلاك، وأمر رسوله ﷺ بالإعراض عنهم حتى يوم القيامة، حيث تكون أبصارهم ذليلة، وتغشاهم المذلَّة والهوان بسبب تكذيبهم أيضاً بيوم القيامة.

قال المفسِّرون: كان المشركون يجتمعون حول النَّبي ﷺ يستمعون كلامه، ولا ينتفعون به، بل يكذبون به ويستهزئون ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة، لندخلنها قبلهم، وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾ . والآيات التي قبلها وبعدها هي:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ[(١)] مُهْطِعِينَ[(٢)] ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ[(٣)] ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ

(١) ناحيتك. (٢) مسرعين إليك شاخصين أبصارهم نحوك. (٣) جماعات متفرقين، جمع عِزَة: وهي العصبة والجماعة.

ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ[١] ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟[٢] وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ[٣] سِرَاعًا[٤] كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ[٥] يُوفِضُونَ[٦] ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ[٧] تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ [المعارج: ٧٠/ ٣٦-٤٤].

ما بال هؤلاء الكفار تجدهم مسرعين إلى الكفر والتكذيب والاستهزاء بك، وتراهم عن يمينك أيها النَّبي وعن شمالك جماعات متفرِّقة، موزَّعين مشتَّتين، وقوله: ﴿قِبَلَكَ﴾ معناه فيما يليك، والمهطع: الذي يمشي مسرعاً إلى شيء قد أقبل عليه ببصره. وعزين: جماعات يسيرة، ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة.

نزلت هذه الآية لأن رسول الله ﷺ كان يصلي عند الكعبة أحياناً ويقرأ القرآن، فكان كثير من الكفار يقومون من مجالسهم مسرعين إليه يتسمعون قراءته، ويقول بعضهم لبعض: شاعر، وكاهن، ومفتر، وغير ذلك.

ثم أيأس الله أولئك الكفار من دخول الجنان بقوله فيما معناه: أيطمع هؤلاء المشركون المكذبون برسالة الرسول ﷺ أن يدخلوا جنات النعيم؟! كلا، بل مأواهم جهنم، إنا خلقناكم من الماء المهين الضعيف، أي من خُلق من ذلك، فليس بذات خَلْقه يعطى الجنة، بل بالأعمال الصالحة إن كانت. وهذا تقرير لوقوع المعاد والعذاب الذي هدَّدوا به، وأنكروا حدوثه، أو استبعدوا وجوده.

نزلت هذه الآية كما تقدم: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾ لأن الكفار قالت: إن كانت ثَمَّ آخرة وجنّة، فنحن أهلها وفيها، لأن الله تعالى لم ينعم علينا في الدنيا بالمال والبنين وغير ذلك إلا لرضاه عنا.

(١) بمغلوبين. (٢) يتحدثوا في الباطل. (٣) القبور، جمع جدث. (٤) مسرعين. (٥) أنصاب للعبادة.
(٦) يسرعون. (٧) ذليلة كسيرة.

ثم أنذرهم الله سبحانه بالهلاك إن داموا على الكفر، وهدَّدهم بإيجاد آخرين مكانهم ليؤمنوا، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي فإني أُقسم بمشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها كل يوم من أيام السنة، على أننا قادرون على أن نخلق أمثل منهم، وأطوع لله تعالى ممن عصوه، ونهلك هؤلاء، ولن يعجزنا شيء، ولسنا بمغلوبين إن أردنا ذلك، بل نفعل ما أردنا، لكن اقتضت مشيئتنا وحكمتنا تأخير ذلك. وهذا دليل على كمال قدرة الله تعالى على الإيجاد والإعدام، مؤكداً بالقسم. وهو تهكُّم بهم وتنبيه على تناقض كلامهم، حيث إنهم ينكرون البعث، ثم يطمعون في دخول الجنة، ويقرّون بأن الله هو خالق السماوات والأرض وخالقهم مما يعلمون، ثم لا يؤمنون بأنه قادر على خلقهم مرة ثانية. والمشارق والمغارب: هي مطالع الشمس والقمر وسائر الكواكب، وحيث تغرب، لأنها مختلفة عند التفصيل، فلذلك جمع.

ثم أمر الله تعالى رسول الله عليه الصّلاة والسّلام بالإعراض عنهم حتى يوم البعث، زيادة في التهديد، وهو معنى قوله: اتركهم يا نبي الله يتحدَّثون في باطلهم، ويلهون في دنياهم، ويعاندون في تكذيبهم وإنكارهم البعث، حتى يلقوا يوم القيامة وما فيه من أهوال، ويجازوا بأعمالهم. والآية وعيد، وما فيه من معنى المهادنة منسوخ بآية السيف.

اذكر أيها النَّبي يوم يقومون من القبور بدعوة الله تعالى لموقف الحساب، مسرعين متسابقين، كأنهم في إسراعهم إلى الموقف، كما كانوا في الدنيا يهرولون أو يسرعون إلى شيء منصوب، من عَلَم أو راية. والأجداث: القبور، والنصب: ما نصب للإنسان، فهو يقصد مسرعاً إليه، من عَلَم أو بناء أو صنم لأهل الأصنام. وقد كثر استعمال هذا الاسم في الأصنام حتى قيل لها: الأنصاب.

إنهم في خروجهم من الأجداث (القبور) تكون أبصارهم ذليلة كسيرة، وتغشاهم المذلّة الشديدة، لهول العذاب الذي يواجههم، وفي مقابلة استكبارهم عن الطاعة في الدنيا، ذلك اليوم المشتمل على الأهوال العظام: هو اليوم الذي أوعدهم الله تعالى به، وأنذرهم بملاقاته، وكانوا يكذّبون به، وليتهم آمنوا به، فنجوا من العذاب. وعبر عن مجيء وقت العذاب بلفظ الماضي: ﴿كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ لأن ما وعد الله به يكون آتياً لا محالة.

تفسير سورة نوح

دعوة نوح عليه السَّلام

لقد لقي نوح عليه السّلام من قومه على مدى قرابة ألف سنة ما لم يلقه أحد من الأنبياء، حيث إنهم كذَّبوه وآذوه، وأعرضوا إلا قليلاً جدّاً عن دعوته إلى توحيد الله، وهجر عبادة الأصنام البدائية، واشتطوا في فرارهم منه، على الرغم من وعدهم بالرّخاء وتوالي النِّعم المادية المتنوعة في الأموال والأولاد، ناسين مراحل خلقهم، وتدرج الخلق، حتى صاروا قوماً أشداء، كما توضح الآيات الآتية في مطلع سورة نوح المكّية بالإجماع:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي
لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ
أَجَلٖ مُّسَمًّى(١) إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا
وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ
ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ(٢) وَأَصَرُّواْ(٣) وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا(٤) ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا(٥)
٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ
ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا(٦) ١١ وَيُمۡدِدۡكُم(٧) بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا
١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا(٨) ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ [نوح: ٧١/ ١-١٤].

---

(١) أجل مقدر محدد. (٢) تغطوا بثيابهم الساترة لجميع البدن. (٣) لازموا الأمر وانكبّوا عليه. (٤) تكبّروا تكبّراً. (٥) مجاهرة. (٦) كثير الدرور. (٧) يعطكم على فترات. (٨) عظمةً وتوقيراً.

إنا بعثنا بعثة دعوة نوحاً بن لامك عليه السّلام أول رسول أرسله الله إلى قومه، وقلنا له: أنذر قومك بأس الله وعذابه، قبل أن يجيئهم عذاب شديد الألم، وهو عذاب النار، أو الإغراق بالطوفان، فإن تابوا ورجعوا، رفع عنهم.

قال نوح: يا قومي، إني لكم منذر من عذاب الله ومخوف إياكم، واضح الإنذار والإعلام. ومضمون دعوتي: أني آمركم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن تؤدّوا حقوقه، وتمتثلوا أوامره، وتجتنبوا نواهيه التي توقعكم في العذاب، وتطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه. والتقوى: امتثال الأوامر، واجتناب المحرَّمات.

وثمره التكاليف أمران: أنه تعالى يستر لكم بعض ذنوبكم، ويمدّ في أعماركم، ويؤخر موتكم إلى أمد محدد قدره الله لكم، إن آمنتم وأطعتم. وقوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ من للتبعيض، وهذا وعد كريم على الطاعة والعبادة بشيئين: دفع مضارّ الآخرة وهو غفران الذنوب، وتحقيق منافع الدنيا، وهو تأخير الأجل إلى وقت آخر. ولا يعني هذا خلافاً للمعتزلة من وجود أجلَين للإنسان، وإنما المراد أنه قد سبق في الأزل، أنهم إما ممن قُضي له بالإيمان والتأخير، وإما ممن قضي له بالكفر والمعاجلة، بدليل قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي ما قدره لكم إذا جاء، وأنتم كافرون، لا يؤخر بل يقع حتماً.

قال نوح بعد أن طال عمره، وتحقَّق اليأس من قومه: يا ربِّ إني دعوت قومي إلى ما أمرتني به، بأن أدعوهم إلى الإيمان بوجودك ووحدانيتك، دعاء متواصلاً دائماً في الليل والنهار، من غير تقصير، امتثالاً لأمرك وابتغاء لطاعتك، فلم يزدهم دعائي إلى الله الذات الأقدس إلا فراراً مما دعوتهم إليه، وبُعْداً عنه. وقوله: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ : عبارة عن استمرار دعائه، وأنه لم يتوانَ فيه قط.

وكلما دعوتهم إلى سبب المغفرة، وهو الإيمان بالله والطاعة له، سدّوا آذانهم

برؤوس أصابعهم، لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه، وغطّوا بثيابهم وجوههم لئلا يروني، ولئلا يسمعوا كلامي، واستمروا على الكفر والشِّرك ولازموه، وتكبّروا عن قول الحق تكبُّراً شديداً، أي استنكفوا عن اتِّباع الحق والانقياد له.

ثمّ إنني نوَّعت لهم أساليب الدعوة، فدعوتهم إلى الإيمان والطاعة جهرة بين الناسْ، أي مجاهراً لهم بها، ثم جمعت في الدعوة بين الإعلان بها والإسرار، أي إن نوحاً عليه السلام سلك في دعوته مراتب ثلاثاً: بدأ بالمناصحة في السِّر ليلاً ونهاراً، ففرّوا منه، ثم جهر بالدعوة، لأن النصح العلني تقريع، ثم جمع بين الأمرين: الإسرار والإعلان. وتكرار صفة الدعوة بيان وتأكيد، يدلُّ على غاية الجدّ.

وقلت لهؤلاء القوم: اطلبوا المغفرة من ربّكم لذنوبكم السابقة، بإخلاص النِّية، وتوبوا إلى الله من الكفر والمعاصي، إن ربّكم الذي خلقكم وربّاكم كثير المغفرة للمذنبين.

ثم وعدهم على التوبة من الكفر والعصيان بخمسة أشياء: إرسالِ المطر المتتابع، الكثير الغزارة ليكثر الخير والخصب، والإمداد بالأموال الكثيرة، وإكثار الذرِّية والأولاد بسبب الأمن والرفاه، ومنحهم بساتين نضرة عامرة بالأشجار والثمار، وجعل الأنهار جارية بالماء العذب، ليكثر الزرع والثمر والغلة. والوقار: العظمة والسلطان. فكأن الكلام وعيد وتخويف.

ما لكم لا تخافون من عظمة الله وجلاله، فتوحِّدوه وتطيعوه، في حين أنه هو الذي خلقكم على أطوار أو مراحل مختلفة، وهو كما قال ابن عباس إشارة إلى التدرُّج الذي للإنسان في بطن أمّه من النطفة والعلقة والمضغة، ثم العظام فاللحم، ثم تمام الخلق، وإنشاؤكم خلقاً آخر، تمرّون في دور الطفولة، ثم التمييز، ثم البلوغ والمراهقة، ثم الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة، فكيف تقصرون في توقير من خلقكم على هذه الأطوار البديعة؟

تذكير نوح بأدلة وحدانية الله وموقف القوم منه

لم يَدَع نوح عليه السَّلام دليلاً إلا استدلَّ به لقومه على وجود الله ووحدانيته وقدرته، من خلق السماوات والأرض، وخلق الناس، وإنبات النبات، ولكنهم قوم أغبياء وحمقى، فأصرّوا على ملازمة عبادة الأصنام والضلال والإضلال، فهدَّدهم الله تعالى، وألهم نوحاً الدعاء عليهم وعلى ذرِّيتهم، وطلب المغفرة له ولوالديه ولأهل الإيمان وإهلاك الظالمين المشركين، وذلك في الآيات الآتية:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا(١) ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا(٢) ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم(٣) مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا(٤) ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا(٥) ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا(٦) ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا(٧) ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ(٨) أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا(٩) ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا(١٠) ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا(١١) ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٧١/ ١٥-٢٨].

الآيات الأولى تبيِّن أنواع الدلائل على وحدانية الله وقدرته: ألم تنظروا فوقكم كيف خلق الله السماوات المتطابقة بعضها فوق بعض، وجعل القمر في السماوات منوِّراً لوجه الأرض، من غير حرارة، وجعل الشمس مصدر الضوء كالسِّراج: وهو المصباح المضيء الذي يزيل ظلمة الليل، وينشر الحرارة والدِّفء.

---

(١) متطابقة فوق بعضها. (٢) مصدر إضاءة كالسِّراج. (٣) أنشأكم. (٤) ممهدة منبسطة. (٥) واسعة. (٦) كبيراً للغاية. (٧) أسماء أصنامهم، وكانت في الأصل أسماء رجال صالحين في قومهم. (٨) من أجل خطاياهم. (٩) أحداً في دار. (١٠) شديد الفجور والكفر. (١١) هلاكاً.

- والله تعالى أوجد أباكم آدم من التراب، وجعله ينمو ويكبر كالنبات، وجعل نموكم معتمداً على الغذاء من نتاج الأرض، وتحولها إلى نبات أو حيوان.

وهذه استعارة من حيث أخذ آدم عليه السّلام من الأرض، ثم صار الجميع نابتاً منه. وقوله: ﴿نَبَاتًا﴾ مصدر جارٍ على غير المصدر، والتقدير: فنبتُّم نباتاً.

ثم يعيدكم في الأرض بالدَّفن فيها الذي هو عرف البشر، بعد موتكم، حتى تعودوا تراباً مندمجاً في الأرض، ثم يخرجكم منها بالبعث يوم القيامة، إخراجاً دفعة واحدة، لموقف العرض والجزاء، لا إنباتاً بالتدرُّج كالمرة الأولى.

- ومن نعمه تعالى على الإنسان أنه جعل لكم الأرض ممهدة منبسطة كالبساط، للتمكين من العيش عليها والاستقرار فيها، وثبَّتها بالجبال، وجعلكم تبحثون فيها عن الرزق، وأوجد لكم طرقاً واسعة بين الجبال والوديان والسهول.

- قال نوح داعياً ربَّه: يا ربِّ، إن قومي عصوني، ولم يجيبوا دعوتي، واتَّبع كبراؤهم وأثرياؤهم الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدنيا، وعقوبة في الآخرة، فخسروا الدنيا والآخرة.

ومكروا بالتدبير الخبيث مكراً عظيماً، وهو صدُّ الناس عن دعوة نوح إلى الدين الحق وتوحيد الإله، وإغراء السَّفلة على إيذاء نوح عليه السّلام وقتله.

- وقال الرؤساء للأتباع لمخالفة نوح وعصيان قوله: لا تتركوا عبادة آلهتكم، وتعبدوا ربّ نوح، ولا تتركوا عبادة هذه الأصنام التي انتقلت عبادتها إلى العرب، وهي ودّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسر. فكان وَدّ لكلب، وسواع لهذيل، ويغوث لغطفان، ويعوق لهمْدان، ونسر لحِمْيَر آل ذي الكَلاع، وهي في الأصل أسماء رجال صالحين، من قوم نوح عليه السّلام.

وقد أضلَّ كبراؤهم كثيراً من الناس، فدعا نوح عليهم قائلاً: ولا تزدِ الكافرين إلا حيرةً وبُعداً عن الصواب، فلا يهتدوا إلى الحقِّ والرشاد.

وسبب الجزاء: هو من أجل كثرة سيئاتهم وآثامهم وإصرارهم على الكفر، ثم أُدخلوا نار الآخرة، فلم يجدوا لهم من غير الله أنصاراً يمنعون عنهم العذاب، ويدفعونه عنهم.

وقال نوح لما أيس من إيمانهم: يا ربّ لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً، يسكن الديار. إنك إن أبقيت منهم أحداً، أضلّوا عبادك الذين تخلقهم بعدهم عن طريق الحق، ولا يلدوا إلا كل كافر فاجر في الأعمال، بترك طاعتك، كثير الكفران في القلب لنعمتك، لخبرته بهم.

ثم دعا نوح عليه السلام لنفسه ولوالديه ولأهل الإيمان قائلاً: ربِّ استر علي ذنوبي، واستر على والدي المؤمِنَيْن برسالتي، واغفر لكل من دخل منزلي وهو مؤمن، ولكل المصدِّقين الواثقين بوجودك ووحدانيتك، وكل المصدّقات بذلك من الأمم والأجيال القادمة، ولا تزد الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، إلا هلاكاً وخسراناً ودماراً.

تفسير سورة الجنّ

اشتملت سورة الجنّ المكّية بالإجماع على أشياء وأخبار عجيبة عن الجنّ يمكن تصنيفها بخمسة أنواع:

النوع الأول- الإخبار عن ستة أشياء عن الجنّ منها إيمانهم بالقرآن العظيم وبمُنزله وهو الله تعالى.

والنوع الثاني- حكاية سبعة أشياء عن الجنّ تتعلّق بأسرار السماء وأحوالهم من الإيمان.

والنوع الثالث- عن مكانة المساجد.

والنوع الرابع- عن أصول دعوة النّبي ﷺ.

والنوع الخامس- عن موعد الساعة أو القيامة.

النوع الأول
ستّة أخبار عن الجنّ

نزلت سورة الجنّ حينما كان رسول الله ﷺ ببطن نخلة وهو يريد سوق عكاظ، يصلّي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا،

إنا سمعنا قرآناً عجباً، فأنزل الله على نبيِّه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وإنما أُوحي إليه قول الجنّ. وهذه ستة أخبار عن الجن في مطلع سورة الجن:

﴿قُلْ أُوحِيَ[1] إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا[2] ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا[3] مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا[4] عَلَى اللَّهِ شَطَطًا[5] ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا[6] ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ[7] بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا[8] ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ [الجنّ: ٧٢/ ١-٧].

هذه حكاية أخبار ستة عن الجن:

- أولها إيمان فريق منهم بالقرآن وبمنزله، مضمون هذا الخبر: قل أيها النَّبي مخبراً أُمتك: بأن الجنّ استمعوا القرآن، فآمنوا به وصدَّقوا به وانقادوا له، فقالوا لقومهم حين سماع سورة الجنّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ لما رجعوا إليهم: سمعنا كلاماً مقروءاً مثيراً للعجب في فصاحته وبلاغته، ومواعظه وبركاته. والجنّ: عالم مستتر عنا، لا نعرف عنه إلا ما أخبر به الوحي، وهم مخلوقون من النار.

وهذا القرآن يهدي أو يرشد إلى الحق والصواب ومعرفة الله تعالى، فصدّقنا به أنه من عند الله، ولن نشرك مع الله إلهاً آخر من خلقه، ولا نتخذ إلهاً آخر. وهذا يدلُّ على أن أعظم ما في دعوة النَّبي ﷺ: هو توحيد الله تعالى ومحاربة الشِّرك وأهله.

- وأنه تعاظم جلال ربّنا وعظمته، ولم يتخذ صاحبة وولداً، لاستغنائه عن ذلك، والمعنى: أنهم كما نفوا عن أنفسهم الإشراك بالله، نزّهوا الرَّب تعالى -حين أسلموا

(١) الوحي: ما يلقى إلى الأنبياء والرُّسل من عند الله تعالى. (٢) مثيراً للعجب داعياً للغرابة. (٣) جلال ربّنا وعظمته. (٤) السفيه: الجاهل والذي عنده خفة وطيش. (٥) غلوّاً في الكذب وتجاوزاً حدّ العدل والحق. (٦) شيئاً مكذوباً تبيّنا كذبه. (٧) يطلبون النجاة والعون. (٨) زادوهم طغياناً وكبراً وعتوّاً.

وآمنوا بالقرآن- عن اتّخاذ الصاحبة والولد، فأثبتوا وحدانية الله، وامتناع وجود شريك له، ثم أثبتوا له القوة والعظمة، ونزّهوه عن الحاجة والضعف، باتّخاذ الصاحبة والولد.

- وأن بعض سفهاء الجنّ (الجهلة الطائشين) كانوا قبل إسلامهم يقولون قولاً متجاوزاً الحدّ، بعيداً عن الرشد والصواب، وعن الحق والعدل.

- وأننا حسبنا أن الإنس والجنّ كانوا لا يكذبون على الله، حينما قالوا: بأن له شريكاً وصاحبةً وولداً، فصدَّقناهم في ذلك، ثم لما سمعنا القرآن تبيَّنا كذبهم وبطلان قولهم.

- وكنا نرى أن بعض الإنس كانوا يستعيذون في القفار ببعض الجنّ، أو يطلبون النجاة والعون، فزادوا رجال الجنّ طغياناً وغيّاً، وكبراً وعتوّاً. روى جمهور المفسّرين أن الرجل كان إذا أراد المبيت والحلول في وادٍ، صاح بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادي، إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك. فيعتقد بذلك أن الجنّي الذي بالوادي يمنعه ويحميه. وكانت الجن تقول عند ذلك: ما نملك لكم ولا لأنفسنا من الله شيئاً. قال مقاتل: أول من تعوَّذ بالجنّ قوم من أهل اليمن، ثم بنو حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب. وأضاف قتادة قائلاً: كانت الجنّ لذلك تحتقر بني آدم وتزدريهم، لما يرون من جهلهم، فكانوا يزيدونهم مخافة، ويتعرضون للتخيل لهم بمنتهى طاقتهم، ويغوونهم في إرادتهم، لمّا رأوا رقّة أحلامهم، فهذا هو الرّهق الذي زادته الجنّ بني آدم.

- وأن الإنس بني آدم الكفار ظنّوا كما ظننتم أيها الجن أنه لا بعث ولا جزاء، أو أنه لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً يدعو إلى التوحيد والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر. (وأن) في قوله تعالى: ﴿أَن لَّن يَبۡعَثَ﴾ مخففة من الثقيلة، وهي تسدُّ مسدَّ المفعولين لفعل (ظنّ).

إن هذه الطائفة من الأخبار السّتة عن الجنّ تضمنت أصل العقيدة: وأولها الإيمان بالقرآن الكريم وبمواعظه الهادية إلى أرشد الأمور، والإيمان بوحدانية الله وتنزيهه عن الشِّرك، وعن اتِّخاذ الصاحبة والولد. ثم تضمَّنت معلومات عن إبليس والجنّ قبل إسلامهم من الكذب وتجاوز الحدّ في الظلم، ومعلومات أخرى عن الإنس والجنّ، حيث كان يستعيذ بعض الإنس السُّذج ببعض الجنّ في القفار والوديان ليحموهم من شرِّ أشرار الجنّ، وحيث يصدر الكذب عن بعض الإنس والجنّ في اتِّخاذ الله صاحبة وولداً، ويظن بعض الفريقين أن لا بعث ولا آخرة، ولا جزاء ولا حساب، وهذا ضلال وخطأ بيِّن. فما على كفار قريش إلا الاتِّعاظ بصنيع الجنّ، وأن يبادروا إلى الإيمان الحق كما آمن الجنّ بالقرآن والله والرسول.

النوع الثاني من أخبار الجنّ

هذه هي الطائفة الثانية من أخبار الجنّ، وهي سبعة أخبار، ذكرها القرآن الكريم، تحكي أحوال الجنّ في محاولاتهم استراق السمع لأخبار السماء، قبل البعثة النبوية، ثم منعوا منها بعدها، دون أن يدروا سبب المنع وإقامة الحراسة على السماء، ومن أخبارهم: أن الجن فريقان كالإنس، فمنهم المؤمن والصالح ومنهم الكافر والفاسق، وأنهم علموا بقدرة الله الحاكمة عليهم، دون التمكن من الإفلات منها، وأنهم أدركوا عظمة القرآن وهدايته، فآمنوا به، وكل ذلك يدل على أن طبيعة الجن كطبيعة الإنس، وأنهم مكلفون بدعوة الحق والنبي، كما يتضح من هذه الآيات:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا(١) شَدِيدًا وَشُهُبًا(٢) ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا

---

(١) حرّاساً من الملائكة شداداً . (٢) جمع شهاب: وهو الشعلة من نار ساطعة .

مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ(١) ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا(٢) ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى
ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا(٣) ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا(٤) ﴿١١﴾
وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ
فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا(٥) وَلَا رَهَقًا(٦) ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ(٧)
فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا(٨) ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ
ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا
صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن: ٧٢/٨-١٧].

هذه أخبار الجن الثابتة بحكاية القرآن الكريم لها وهي هنا سبعة كما يلي:

- لما بعث النَّبي ﷺ وأنزل عليه القرآن، طلبنا خبر السماء، كما جرت به عادتنا، فوجدناها ملئت حراساً أقوياء من الملائكة يحرسونها عن استراق السمع، ووجدنا أيضاً نيراناً منقضة من الكواكب تحرق وتمنع من أراد استراق السمع كما كنا نفعل.

- وأننا كنا نقعد في السماء مقاعد لاستراق السمع، وسماع أخبار السماء من الملائكة لإلقائها إلى الكهنة (مدعي الغيب ومعرفة الأسرار في المستقبل) فحرسها الله تعالى عند بعثة رسول الله ﷺ بالشهب المحرقة، فمن حاول الإصغاء لأخبار السماء أو استراق السمع، يجد له الآن شهاباً (شعلة نار) مرصداً له، يحرقه ويهلكه.

- ولا نعلم بسبب هذه الحراسة للسماء، أشرٌّ أو عذاب أراد الله أن ينزله على أهل الأرض، أم أراد بهم ربهم خيراً وصلاحاً، بإرسال نبي مصلح.

- وأخبر الله تعالى عما قال الجن عن أنفسهم، لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان

(١) الاستماع: الإصغاء. (٢) يرصده ويرقبه للانقضاض عليه. (٣) خيراً ورحمة. (٤) ذوي مذاهب متفرقة مختلفة. (٥) انتقاصاً من حقِّه في الثواب. (٦) لا يخاف ظلماً. (٧) الظالمون الجائرون. (٨) طلبوا الأحرى والأهدى من الطريقتين.

برسالة النَّبي ﷺ: كنا قبل استماع القرآن، منا المؤمنون الأبرار الصالحون، ومنا دون ذلك، أي غير صالحين أو كافرين، كنا جماعات متفرقة، وذوي سِيَر أو مذاهب مختلفة، أي إنهم أقسام، فمنهم المؤمن، ومنهم الفاسق، ومنهم الكافر، كحال الإنس تماماً. و(الطرائق): السِّير المختلفة، و(القدد) كذلك هي الأشياء المختلفة، كأنه قد قُدَّ بعضها من بعض، وفصل. وقال ابن عباس وعكرمة وقتادة: ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أهواء مختلفة.

وأننا علمنا أن قدرة الله حاكمة علينا، وأنا لا نفلت من قدرة الله ولا نفوته إن طَلَبنا وأراد بنا أمراً، سواء كنا كائنين في الأرض أو هاربين منه إلى السماء، فإنه علينا قادر، لا يعجزه أحد منا. والظن في الآية: بمعنى العلم.

- وأننا لما سمعنا الهدى وهو القرآن، صدَّقنا أنه من عند الله، ولم نكذب به، كما كذبت به كفرة الإنس، فمن يصدق بربِّه وبما أنزله على رسله، فلا يخاف نقصاناً من حسناته، ولا عدواناً وظلماً وطغياناً بالزيادة في سيئاته. والبخس: النقص نقص الحسنات. والرّهق: الزيادة في السيئات.

وأن بعضنا مؤمنون مطيعون لربِّهم، يعملون الصالحات، وبعضنا جائرون ظالمون حادوا عن طريق الحق والخير ومنهج الإيمان الواجب. فمن آمن بالله، وأسلم وجهه لله بطاعة شريعته، فأولئك طلبوا باجتهادهم طريق الرشاد والسعادة، وطلبوا لأنفسهم النجاة من العذاب، وهذا ثواب المؤمنين. وأما الجائرون الحائدون عن منهج الإسلام، فكانوا وقوداً للنار، توقد أو تسعَّر، كما توقد بكفرة الإنس. ويلاحظ الفرق بين الكلمتين، فالقاسط: الجائر عن الحق، الظالم، أما المقسط: فهو القائم بالعدل، من أقسط، أي عدل.

ثم أوحى الله لنبيِّه أنه لواستقام الجنّ والإنس على طريقة الإسلام، لأسقيناهم ماءً كثيراً، ولآتيناهم خيراً كثيراً واسعاً، لنعاملهم معاملة المختبِر، فنعلم كيف شكرهم

على تلك النِّعم، فإن هم أطاعوا ربَّهم أثبناهم، وإن عصوه عاقبناهم في الآخرة، وسلبناهم النعمة، والاستقامة على الطريقة: على طريقة الإسلام والحق. وقوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ لنختبرهم.

ومن يعرض عن القرآن أو عن الموعظة الحسنة، فلا يأتمر بالأوامر، ولا ينتهي عن النواهي، يدخله ربّه عذاباً شاقّاً، صعباً لا راحة فيه.

وكلمة ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ معناه شاقّاً، تقول: فلان في صَعَد من أمره، أي في مشقّة. هذه أحوال الجن مع رسالة النَّبي ﷺ، تتضمن كونهم أقساماً وفرقاً مختلفة وجماعات متفاوتة، كأحوال الإنس.

النوع الثالث والرابع والخامس من أخبار الجنّ

أخبر الله تعالى في سورة الجنّ عن النوع الثالث والرابع والخامس من أخبار الجنّ، الموحى به، وتتضمن الإعلام بأهمية المساجد لأداء الصلاة، وبأن دعوة النَّبي ﷺ دعوة خالصة إلى الله عزّ وجلّ، وترك الإشراك به، وأنه لا يملك لأحد ضرّاً ولا نفعاً، وأن لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن مهمته مقصورة على تبليغ الوحي المنزل عليه، وأنه لا يعلم وقت تعذيب المشركين، وإنما ذلك مختص بالله تعالى، فهذا غيب، والله تعالى هو عالم الغيب الذي لا يطلع عليه إلا من ارتضى من رسول، وأن مدَّعي الغيب من الجنّ والكهان وغيرهم هم كذبة، لا يعرفون حقيقة أنفسهم، وهذا يتضح في صريح الآيات الآتية:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ(١) لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ

(١) أماكن السجود: أي مواضع العبادة والصلاة.

عَلَيْهِ لِبَدًا[(١)] ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي[(٢)] مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا[(٣)] ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا[(٤)] ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ[(٥)] مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا[(٦)] ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ [الجن: ٧٢/ ١٨-٢٨].

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قالت الجنّ: يا رسول الله، ائذن لنا، فنشهد معك الصلوات في مسجدك، فأنزل الله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ وهو النوع الثالث من الموحى به، على معنى: إن عبادتكم أيها الجنّ حيث كنتم مقبولة.

المعنى: لقد أُوحي إلي أن المساجد مختصة بالله، فلا تعبدوا فيها غير الله أحداً، ولا تشركوا به فيها شيئاً. والمساجد كما قال الحسن البصري أراد بها: كل مكان أو موضع سُجد فيه، سواء كان مخصوصاً لذلك أو لم يكن، إذ الأرض كلها مسجد لهذه الأمة. قال النَّبي ﷺ -فيما رواه البخاري ومسلم والنَّسائي- عن جابر: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» كأنه تعالى قال: الأرض كلها مخلوقة لله تعالى، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها.

والنوع الرابع من جملة الموحى به: أنه لما قام عبد الله النَّبي ﷺ يدعو الله ويعبده،

(١) جماعات، جمع لبدة. (٢) لن ينفعني. (٣) ملتجأ أو حرزاً. (٤) زمناً بعيداً. (٥) يقيم ويبُث.
(٦) حرّاساً وحفظة.

كاد الجنّ يكونون عليه جماعات متراكمين عليه من الازدحام، لسماع القرآن منه، وتعجباً مما رأوا من عبادته، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله.

قل أيها النَّبي لمن تجمعوا حولك لإبطال دينك: إنما أدعو ربِّي، وأعبده وحده لا شريك له، وأستجير به، وأتوكل عليه، ولا أشرك في العبادة معه أحداً.

وسبب نزول هذه الآية، كما ذكر الشوكاني -: أن كفار قريش، قالوا للنَّبي ﷺ: إنك جئت بأمر عظيم، وقد عاديت الناس كلهم، فارجع عن هذا، فنحن نجيرك.

قل أيها النبي أيضاً لهؤلاء القوم: لا يدفع عني أحد من عذاب الله إن أنزله بي، ولا نصيرَ ولا ملجأ لي من غير الله أحد، ولا يجيرني من الله و يخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي، فأبلِّغ عن الله، وأعمل برسالاته، أمراً ونهياً، فإن فعلت ذلك نجوت، وإلا هلكت.

أخرج ابن جرير عن حضرمي أنه ذكر أن جنيّاً من الجنّ، من أشرافهم، ذا تَبَع قال: إنما يريد محمد أن يجيره الله، وأنا أجيره، فأنزل الله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ قال الحسن البصري ما معناه: إنه استثناء منقطع، والمعنى: لن يجيرني من الله أحد إلا بلاغاً، فإني إن بلَّغت رحمني بذلك، والإجارة للبلاغ مستعارة إذ هو سبب إجارة الله تعالى ورحمته. وقال بعض النُّحاة: على هذا المعنى هو استثناء متصل، والمعنى: لن أجد ملتحداً إلا بلاغاً، أي شيئاً أميل إليه وأعتصم به، إلا أن أبلِّغ وأطيع فيجيرني الله. والتقدير كما قال قتادة: لا أملك إلا بلاغاً، فأما الإيمان والكفر فلا أملكه.

وجزاء العصاة الذين لا يمتثلون موجب التبليغ عن الله تعالى: هو أنني أبلغكم

رسالة الله، فمن يعص بعد ذلك، فله جزاء خطير، وهو نار جهنم، ماكثين فيها أبداً على الدوام، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وقوله: ﴿أَبَدًا﴾ دليل أن المراد بالعصيان هنا: هو الشِّرك.

ثم هدَّد الله تعالى بالهزيمة والذُّل المشركين الذين كانوا أقصر نظراً من الجنّ في عدم الإيمان، فإنهم إذا ظلّوا على كفرهم ورأوا ما يوعدون يوم القيامة، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً، أي جنداً ينتصر به، وأقل عدداً، أهم أم المؤمنون الموحِّدون لله تعالى؟ أي بل المشركون لا ناصر لهم إطلاقاً، وهم أقلُّ عدداً من جنود الله تعالى. ثم ذكر الله تعالى النوع الخامس من الموحى به، وهو علم الغيب لإبطال ادِّعاء الجنّ والإنس العلم به: والمعنى: وقل أيها النَّبي: لست أدري أقرب العذاب الذي يعدكم الله به، فما أدري أقريب وقت العذاب أم بعيد، وهل جعل الله له غاية ومدة؟ فلا يعلم موعد يوم القيامة إلا الله وحده.

قال مقاتل: لما سمع المشركون قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾ قال النضر بن الحارث: متى يكون هذا اليوم الذي توعدنا به؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ الآيات.

والله وحده هو العالم بالغيبيات، فلا يطلع على ما غاب عن العباد أحداً إلا من ارتضى من الرسل، فإنه تعالى يطلعهم على بعض المغيبات، ليكون معجزة لهم، ودلالة على صدق نبوّتهم. فمن ارتضى من رسول، فإنه يطلعه على غيبه بطريق الوحي، ثم يجعل بين يديه (أمامه) ومن خلفه حرساً من الملائكة وهم الرّصد، أي يبث الله تعالى حول ذلك المَلَك الرسول حفظة، رصداً لإبليس وحزبه من الجنّ والإنس. والرسول: هو الملك أو صاحب الشريعة السماوية، أي يشمل الرسول الملكي والبشري. والرّصد: الحفظة يحفظون كل رسول من تعرُّض الجنّ والشياطين.

وذلك ليعلم الله علم ظهور وانكشاف واقعي أن هؤلاء الرُّسل قد بلَّغوا الرسالات الإلهية، كما هي، دون زيادة أو نقص، وأحاط الله تعالى علماً بما عند الرصد، من الملائكة، أو بما عند الرُّسل المبلِّغين لرسالاته، وبما لديهم من الأحوال، فهو سبحانه عالم بكل شيء كان أو سيكون، وعالم بكل الأحكام والشرائع، وضبط كل شيء معدوداً محصوراً، دون مشاركة أحد من الملائكة وسائط العلم.

تفسير سورة المزمّل

في بدء نزول الوحي بعد نزول سورة العلق ﴿اقْرَأْ﴾ نزلت سورة المزمّل التي تعالج آثار الوحي الثقيل على قلب النّبي ﷺ، وتحمله على ملازمة عبادة الله تعالى في الليل والنهار، لتقوى روحانيته وصلته بربّه وتكتمل حالة الخشوع والإخلاص لله، وتطالبه بترتيل القرآن ليتمكن سامعوه من تدبُّره وإدراك معانيه، كما تطالبه بكثرة الذكر لله لتستمر الصلة بالله تعالى الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وبالصبر في الدعوة، وتفريغ النهار للدعوة والتبليغ وجهاد المعارضين ومشاغل الحياة واكتساب الرزق، قال ابن عباس: كان نزول المزمّل في ابتداء الوحي إلى النّبي ﷺ، فإنه لما سمع قول المَلَك، ونظر إليه، أخذته الرِّعْدة، فأتى أهله، فقال: «زملوني زملوني» أي غطّوني. وهذا مطلع سورة المزمّل المكّية:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(١) ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ(٢) تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا(٣) ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ(٤) هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا(٥) وَأَقْوَمُ قِيلًا(٦) ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا(٧) طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ(٨) إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا(٩) ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا(١٠) ﴿١٠﴾﴾ [المزمّل: ٧٣/ ١-١٠].

---

(١) المتلفّف بثيابه . (٢) اقرأه بتثبت وتؤدة . (٣) شاقاً شديداً . (٤) قيام الليل بعد النوم . (٥) مواطأة وموافقة، يتوافق فيها القلب مع السمع على تفهم القرآن . (٦) أعدل قولاً . (٧) عملاً كثيراً سريعاً . (٨) انقطع إليه انقطاعاً . (٩) مفوضاً إليه أمورك . (١٠) الهجر الجميل: هو ما لا عتاب معه .

كان وقع الوحي ونظرة النَّبي إلى الملك شديدين على قلب النَّبي ﷺ فأخذه الخوف، وطلب التزمُّل بثيابه أول ما جاءه جبريل عليه السّلام بالوحي خوفاً منه، ثم زال ما به، وخوطب بالنُّبوة والرسالة وأنس بجبريل عليه السَّلام.

فيا أيها النَّبي المتزمِّل المتلفِّف بثيابك، صلِّ صلاة الليل أو صلاة التهجد بمقدار نصف الليل، بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك، وهذا تخيير بين الثلث والنصف والثلثين. والليل: من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. والأمر بقيام الليل في رأي جمهور أهل العلم: هو أمر على جهة النَّدب، قد كان، ولم يفرض قط. وقال بعضهم: كان فرضاً في وقت نزول هذه الآية، إما على الجميع، وإما على النَّبي ﷺ وحده حتى توفِّي، وهذا هو الراجح.

ثم اقرأ القرآن على تمهُّل، مع تبيين الحروف، ليكون عوناً على فهم القرآن وتدبُّره، وقوله: ﴿تَرۡتِيلًا﴾ تأكيد في الإيجاب، وأنه لا بد للقارئ منه، ليستحضر المعاني. والترتيل: أن يبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع، كما كان يفعل النَّبي ﷺ. أخرج الحاكم وغيره عن البراء: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم».

إننا سنوحي إليك القرآن، وسننزله عليك، وفيه التكاليف الشاقة على البشر، والأوامر والنواهي الصعبة على النفس، من الفرائض والحدود، والحلال والحرام، وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه.

إن ناشئة الليل، أي قيام الليل، وهو الذي ينشأ بعد نوم، أشد موافقة ومصادفة للخشوع والإخلاص وتوافق القلب واللسان، فذلك يتجلى في هدوء الليل أكثر من أي وقت آخر، وهو أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهُّمها، وأشد ثبوتاً ورسوخاً، وأقوم قولاً وأثبت قراءة، لأنه بخلو البال من أشغال النهار يوافق قلبُ المرء لسانَه، وفكرُه عبارَته، فهذه مواطأة صحيحة.

هذا في الليل وقت العبادة، وأما في النهار: فلك في وقته تقلُّب وتصرُّف في حوائجك ومصالح الحياة، فلا تتفرغ فيه للعبادة، فصلِّ بالليل.

ولا تنقطع عن ذكر الله في أي وقت ليلاً أو نهاراً، وأكثر من ذكر الله، وداوم عليه إن استطعت ليلاً ونهاراً، وأخلص العبادة لربِّك، وانقطع إلى الله انقطاعاً بالاشتغال بعبادته، والتماس ما عنده إذا فرغت من أشغالك وحوائجك الدنيوية. ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ معناه: انقطع من كل شيء إلا منه، وافرغ إليه.

وسبب الأمر بالعبادة وضرورة التَّبتُّل: أن ربَّك ربّ المشرق والمغرب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة، فأفرده بالتوكُّل، واجعله وكيلاً لك في جميع الأمور. والوكيل: القائم بالأمور الذي تُوكل إليه الأشياء.

والقيام بتبليغ الرسالة يتطلب جهداً متواصلاً، وصبراً دائماً، فاصبر أيها الرسول على أذى قومك، وما ينالك من السَّب والاستهزاء، ولا تجزع من ذلك، ولا تتعرض لهم، ولا تعاتبهم ودارهم. وعلاج الأذى: هو الصبر. والهجر الجميل: وهو أن تجانبهم وتداريهم، ولا تعاتبهم وفوِّض أمرهم إلى الله تعالى. فالهجر الجميل: هو الذي لا عتاب معه.

أرشدت الآيات إلى فرضية التَّهجد على النَّبي ﷺ، خاصة به، وإلى وجوب ترتيل القرآن: وهو قراءته على مهل، وتبيين حروفه، وتحسين مخارجه، وإظهار مقاطعه، مع تدبُّر المعاني. وناشئة الليل، أي العبادة في الليل أشدّ انسجاماً وتوافقاً بين الفكر والقلب، والعقل والنفس، وأسدُّ مقالاً وأثبت قراءة. والنهار لكسب العيش والحاجات الأصلية. ولا يترك ذكر الله باللسان والقلب في جميع الأوقات، والتَّبتُّل: الانقطاع إلى الله بالكلية، بإخلاص العبادة، لا تعطيل أعمال الدنيا، ويطالب المؤمن بإفراد الله بالعبادة، وبالتوكل عليه دون سواه، ولا بدَّ من الصبر على الأذى في سبيل نشر الدعوة إلى الله وتوحيده.

وعيد المكذِّبين بالرسالة

هدَّد الله تعالى وأوعد المشركين على الإعراض عن قبول دعوة النَّبي ﷺ، وخوَّفهم عذاب يوم القيامة وكيفيته وأهواله، وعذاب الدنيا ومخاطره، وأنذرهم بإرسال رسول شاهد على أعمالهم كإرسال موسى عليه السّلام إلى فرعون، ثم وصف الله تعالى عذاب الآخرة، وأنه لشدته يشيب منه الولدان، وتتشقق السماوات منه، وأن هذه تذكرة مؤثرة وعظة بليغة، لمن شاء اتخاذ السبيل القويم إلى ربِّه تعالى. وهذا ما أوضحته الآيات الآتية:

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ[1] وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا[2] ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا[3] وَجَحِيمًا[4] ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ[5] وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا[6] ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا[7] ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا[8] ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ[9] كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمّل: ٧٣/ ١١-١٩].

قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي﴾ روي أنها نزلت في صناديد قريش، ورؤساء مكة من المستهزئين: وهذا وعيد لهم. ومعناه: دعني وأولئك المكذبين المترفين أصحاب الأموال فلا يتمكن أحد من منع العذاب عنهم، فإني أكفيك أمرهم، وأنتقم لك منهم، فلا تأبه بكونهم أرباب الغنى والسعة والتَّرفُّه في الدنيا، وتمهَّل عليهم رويداً وزمناً طويلاً. والمراد: لا تشغل أيها النَّبي بالك بهم وكِلْهم إلي.

---

(١) بالفتح: التَّنعم وغضارة العيش وكثرة المال، وبالكسر: ما يُنْعَم به، وبالضّم: النُّعمة: المسرَّة. (٢) اتركهم زماناً قليلاً برفق وتأنٍّ. (٣) قيوداً ثقيلة. (٤) ناراً محرقة. (٥) يغصّ به فلا يستساغ. (٦) تلاًّ من رمل متجمع بتأثير الريح، ومهيلاً: رخواً ليناً. (٧) ثقيلاً شديداً. (٨) جمع أشيب. (٩) منشق متصدِّع.

وأنواع عذابهم أربعة: هي أن عندنا القيود والأغلال لهؤلاء المكذبين بآياتنا وبرسولنا، وناراً مؤججة مضطرمة، وطعاماً لا يستساغ، ويصعب بلعه، ينشَب في الحلق، فلا يخرج ولا يدخل كالزّقوم والضَّريع، ونوعاً آخر من العذاب المؤلم الشديد، لا يعلم به غير الله تعالى.

والأنكال: جمع نِكْل: وهو القيد من الحديد، ويروى أنها قيود سود من نار. وروي أن النَّبي ﷺ قرأ هذه الآية فصُعق.

وزمان ذلك العذاب الذي يعذب به الكافرون: هو في يوم تضطرب فيه الأرض والجبال، وتتزلزل بمن عليها. والرجفة: الزلزلة الشديدة. وتصير الجبال كالكثيب المهيل، أي الرمل المتجمع السائل، الذي يسيح فيه الإنسان والحيوان، بعدما كانت حجارة صماء، وصخوراً صلبة، ثم تنسف نسفاً، فلا يبقى منها شيء إلا ذهب. والمهيل: هو الذي إذا وطئته القدم زلَّ ما تحتها.

ثم هدَّد الله تعالى مشركي مكة بأهوال الدنيا التي تعرضت لها الأمم المكذبة المتقدمة، وهو: إننا أرسلنا إليكم أيها المشركون في مكة وغيرها، رسولاً هو محمد بن عبد الله ﷺ يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم، وبما يصدر عنكم من إجابة وامتناع، وطاعة وعصيان، كما أرسلنا موسى عليه السَّلام إلى الطاغية فرعون، يدعوه إلى دين الحق والإيمان بالله تعالى إلهاً واحداً لا شريك له، فعصى فرعونُ الرسولَ المرسل إليه، وكذَّبه ولم يؤمن برسالته، فأخذناه أخذاً شديداً ثقيلاً غليظاً، وعاقبناه عقاباً مؤلماً، وأهلكناه ومن معه بالغرق في البحر، فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأنتم أولى بالهلاك والدمار، إن كذبتم رسولكم الذي هو أشرف وأعظم من موسى بن عمران عليه السّلام. وإنما عرَّف كلمة (الرسول) في المرة الثانية، لأنه ينصرف إلى المعهود السابق في الذكر.

ثم أكَّد الله تعالى تخويف المشركين بعذاب الآخرة من وجهين:

كيف تقون أنفسكم، وتنعمون بالأمان والاستقرار إن بقيتم على الكفر، من عذاب يوم يجعل الأطفال شيباً بيض الشعور، لشدة هوله، وهذا كناية عن شدة الخوف؛ وتصير السماء متشققة به متصدعة، لشدته وعظيم هوله، وكان وعد الله بمجيء ذلك اليوم كائناً واقعاً، لا محالة، ولا محيد عنه. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ معناه: كيف تجعلون واقياً لأنفسكم، وكلمة (يوماً) مفعول به لكلمة (تتقون) ويجوز أن يكون ظرفاً، والمعنى: تتقون عقاب الله يوماً. و﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ إما مسند إلى اسم الله تعالى، أو مسند إلى اليوم. و (الولدان) صغار الأطفال. و﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي ذات انفطار وتشقق، كامرأة حائض وطالق. والانفطار: التصدع والانشقاق، على غير نظام يُقْصَد. وضمير (به) إما عائد على اليوم، وإما عائد على الله تعالى.

وهذه الآية لها نظائر، منها: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٥]. أي بالغمام الذي هو ظُلَل، يأتي الله تعالى فيها، والمعنى: يأتي أمره وقدرته. وكذلك ﴿مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي بأمره وسلطانه. وضمير ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ ظاهر أنه لله تعالى. ويحتمل أن يكون لليوم، لأنه يضاف إليه من حيث هو فيه.

إن توالي التهديدات لمشركي قريش، مع وصف ألوان العذاب، يدلُّ على شدة غضب الله تعالى وسخطه على كل من كفر بالله وأشرك، وأن كل أعمال المشركين مرصودة مدونة عليهم مشهود بها من رسولهم عليها، حتى لا تكون مجالاً للإنكار والجحود. وما تقدم في سورة المزمل من الآيات المخوفة موعظة بليغة، فمن أراد اتَّعظ بها واتَّخذ الطاعة طريقاً توصله إلى رضوان الله في الجنة.

تخفيف الله على عباده في قيام الليل

الإسلام كله دين يسر، وسهولة، وتخفيف، قد يفرض أو يطلب فيه شيء لظرف من الظروف في فاتحة الوحي الإلهي، ثم يرفع الفرض أو الندب مثل قيام الليل، وذلك فضل من الله ورحمة، وإحسان ونعمة، ليكون المطلوب على جهة الدوام والاستمرار موصوفاً بصفة اليسر ودفع الحرج والمشقة. وآيات التخفيف متنوعة، منها ما ورد في قيام الليل الذي كان مطلوباً إما على جهة الوجوب أو على الندب، بحسب الخلاف المذكور بين العلماء:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ(١) وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ(٢) فَتَابَ عَلَيْكُمْ(٣) ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ(٤) يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ(٥) ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمّل: ٧٣/ ٢٠].

إن ظروف طروء المرض، والتجارة، والجهاد في سبيل الله اقتضت التخفيف عن النبي وأمته في شأن عبادة الليل، والله محيط علمه بكل شيء.

فإن الله تعالى يعلم أيها الرسول أنك تقوم ممتثلاً أمر ربك، تاركاً النوم والراحة لمدة هي أقل من ثلثي الليل أحياناً، وأحياناً تقوم نصفه أو ثلثه أو أدنى من الثلث، بحسب قدراتهم مع عذر النوم. إما على سبيل الوجوب وإما على سبيل الندب، بحسب الخلاف المتقدم بين العلماء، في أوائل سورة المزمّل. وتقوم معك ذلك القدر في قيام الليل طائفة من أصحابك، والله يجازيكم على ذلك أحسن الجزاء.

---

(١) أي أقلّ منه. (٢) تطيقوه. (٣) يسر عليكم وخفف عنكم. (٤) الضرب في الأرض: هو السفر للتجارة وغيرها. (٥) يطلبون الرزق من الله بالتجارة وغيرها.

ويعلم الله تعالى مقادير الليل والنهار حقيقة، ويعلم القدر الذي تقومونه من الليل، مرة يكثر، ومرة يقلّ، وأما البشر فلا يحصون ذلك، ويعلم الله أنكم لن تطيقوا معرفة حقائق الزمان والقيام بالليل، ولن تتمكنوا من ضبط مقادير الليل والنهار، ولا إحصاء الساعات، فتاب الله عليكم، أي رجع بهم من الثِّقل إلى الخفّة، ومن العسر إلى اليسر، وأصل التوبة: الرجوع.

قال مقاتل: لما نزلت ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ شقَّ ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ، فانتفخت أقدامهم، وامتقعت ألوانهم، فرحمهم الله وخفف عنهم، فقال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ . والمراد بقوله: ﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي لن تطيقوه، لصعوبة الأمر، لا أنهم لا يقدرون عليه.

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ هذا في صلاة قيام الليل، أي صلّوا ما تيسّر لكم من صلاة الليل، فالمراد بالقراءة: الصلاة، من إطلاق الجزء وإرادة الكل. وهذه الآية نسخت المطالبة بقيام الليل.

وأسباب التخفيف: هي أن الله تعالى علم بطروء أعذار ثلاثة على بني آدم تحول بينهم وبين قيام الليل: هي المرض، والسفر، والجهاد، فقد يكون منكم مرضى لا يطيقون قيام الليل، وآخرون يسافرون في الأرض للتجارة وكسب العيش والأرباح، يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه في معاشهم، فلا يطيقون قيام الليل. وقوم آخرون: هم المجاهدون في سبيل الله، لا يطيقون قيام الليل، فوجود هذه الأعذار المقتضية للترخيص سبب لرفع فرضية التهجد عن جميع الأمة، وكذا عن النّبي ﷺ.

وقوله: ﴿عَلِمَ أَن﴾ أن مخففة من الثقيلة، أي أنه يكون. والضرب في الأرض: هو السفر للتجارة.

وفي هذه الآية فضيلة الضرب في الأرض للتجارة، وجعل السفر لها كالسفر للجهاد.

فصلّوا ما تيسَّر، واقرؤوا في صلاتكم الليلة قبيل الفجر ما تيسَّر من القرآن، والمراد بالأمر هنا الإباحة، وقد أعيد الأمر هنا لتأكيد الرخصة وتقريرها، وأدّوا الصلاة المفروضة قائمة بفروضها وأركانها وشرائطها، وملازمة الخشوع فيها، دون غفلة عنها، وأدّوا الزكاة الواجبة في الأموال، وأنفقوا في سبيل الله إنفاقاً حسناً على الأهل وفي الجهاد، وعلى المحتاجين. وإقراض الله تعالى: هو استلاف العمل الصالح عنده مجازاً عن القبول.

ثم أكد الله تعالى طلب الصدقة ورغَّب فيها، فجميع ما تقدِّمونه من الخير المذكور وغير المذكور، ثوابه حاصل لكم، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا، ومما تؤخِّرونه إلى وقت الموت، أو توصون به، لإخراجه من التركة بعد موتكم.

ثم أمر الله تعالى بالاستغفار، وأوجب لنفسه صفة الغفران، لا إله غيره، فأكثروا من الاستغفار لذنوبكم وفي أموركم كلها، فإنكم قد تقترفون بعض الذنوب، والله كثير المغفرة لمن استغفره، كثير الرحمن لمن استرحمه. قال بعض العلماء: فالاستغفار بعد الصلاة مستنبط من هذه الآية، ومن قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ١٧-١٨].

تفسير سورة المدَّثر

إرشاد النَّبي ﷺ في بدء الدعوة

كان تأهيل النَّبي عليه الصّلاة والسّلام لتبليغ الدعوة أمراً مرتبطاً بالوحي الإلهي، وكان يتأثر في مبدأ الوحي إليه بثقل الوحي، ويبادر إلى التَّزمل (التغطي أو التلفف بثيابه) والتدثُّر (بالثياب أو بقطيفة) حتى يزول عنه آثار التعرُّق، مما أدى إلى أنه انقطع عنه الوحي فترة، ثم عاد إليه على شوق وحرص ومحبة إليه، وذلك من أجل سكن نفسه، وهدأة رُوعه.

أخرج الشيخان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: جاورت بحرّاء شهراً، فلما قضيت جواري، نزلت، فاستنبطت الوادي، فرفعت رأسي، فإذا الملَك الذي جاءني بحرّاء، فرجعت، فقلت: دثِّروني، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾.

وهذه أوائل سورة المدثّر المكّية بإجماع أهل التأويل، وهي التي نزلت بعد سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ بنص حديث البخاري المذكور، وهو الأصح:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ(١) ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٢) ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ(٣) ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ(٤) ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ(٥) ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدّثر: ٧٤/ ١-١٠].

(١) لابس الدِّثار، أو المتدثّر بثيابه. والدِّثار: ما يتغطّى الإنسان به من الثياب. (٢) أي طهِّر قلبك ونفسك. (٣) اترك الأسباب والمآثم المؤدية إلى العذاب. (٤) لا تعط شيئاً فتطلب أكثر منه. (٥) نفخ في الصّور.

قال جمهور المفسرين: نودي بالمدثِّر، لما ورد في البخاري من أنه ﷺ لما فرغ من رؤية جبريل عليه السّلام على كرسي بين السماء والأرض، فرعب منه، ورجع إلى خديجة .وهذه توجيهات أولية ضرورية ونافعة للنبي ﷺ بعد بدء الوحي، تشتمل على البدء بالإنذار، وتكبير الله، وتطهير نفسه وقلبه، والتَّرفع عن محقِّرات الأخلاق كإعطاء القليل لأخذ الكثير، والصبر في دعوته لربِّه، وتذكُّر هول يوم القيامة الشديد على الكافرين.

- وأول هذه التوجيهات: بدء التبليغ تبشيراً وإنذاراً، فيا أيها النَّبي الذي قد تدثَّر بثيابه، أي تغطى بها رعباً من رؤية المَلَك عند نزول الوحي أول مرة: انهض بواجب الرسالة، وخوِّف أهل مكة وجميع الخلق من عذاب الله ووقائعه بالأمم، إن لم يسلموا، وهو أمر بترك العزلة، والاستعداد للاختلاط ونشر الدعوة.

- وعظِّم الله وصِفه بالكبرياء، في عبادتك وكلامك وجميع أحوالك، فإنه أكبر من أن يكون له شريك، فالشِّرك كفر وضلال، وسبب لغضب الرحمن، وتوحيد الله تعالى أساس دعوتك.

- وطهِّر قلبك ونفسك من أدران المعصية، وثيابك واحفظها من النجاسات، لأن الإسلام دين الطُّهر والنظافة، والصحة والنقاء، وهو دين الطهارتين: المعنوية الروحانية، والحسِّية الجسدية. والآية دليل على تعظيم الله تعالى، وتنزيهه عما يقول عبدة الأوثان، وعلى نظافة الجسد والثياب، وتحسين الأخلاق، واجتناب المعاصي.

- واترك تركاً أبدياً الرُّجز، أي الأصنام والأوثان، فلا تعبدها، فإنها سبب العذاب، واهجر جميع الأسباب والمعاصي المؤدية إلى العذاب الدنيوي والأخروي. والآية دليل على وجوب الاحتراز من كبائر المعاصي كالشِّرك أو الوثنية، بل وعن جميع المعاصي.

والنَّهي عن جميع ذلك، لأنه القدوة الحسنة العليا، ولا يعني أنه يرتكب شيئاً منها، وإنما يراد به تدوين مبدأ إسلامي عام هو هجر الوثنية، والدوام على الهجران.

ولا تمنن على أصحابك وغيرهم بتبليغ الوحي، مستكثراً ذلك عليهم، وإذا أعطيت أحداً شيئاً من الأعطيات، فأعطها لوجه الله تعالى، ولا تمنّ بعطيتك على الناس، ولا تُعْطِ عطاء لتُعطى أكثر منه. وقال مجاهد: المعنى لا تضعف من الاستكثار من الخير، أو مما حمَّلناك من أعباء الرسالة.

- واجعل صبرك على أذاهم لوجه ربِّك عزّ وجلّ وطلب رضاه، فإنك حملت أمراً عظيماً، ستحاربك العرب والعجم عليه، فاصبر على هذا الأمر لوجه الله، واصبر أيضاً على طاعة الله وعبادته.

- اصبر على أذى قومك وغيرهم من الكفار، وعلى العبادة، وعن الشهوات، وعلى تكاليف النُّبوة، فعاقبة الصبر منك النصر والفرج، وأمام الكفار يوم هائل يلقون فيه عاقبة أمرهم، فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية للبعث من القبور، فوقت النقر يومئذ يوم شديد جدّاً على الكفار، غير سهل عليهم. والناقور: الذي ينفخ فيه، وهو الصّور. ويوم عسير: فيه عسر في الأمور الجارية على الكفار، فوصف الله تعالى اليوم بالعسر، لكونه ظرف زمان له، وكذلك تجيء صفته باليسر.

أخرج ابن أبي حاتم، وابن أبي شيبة وأحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم، وصاحب القرن، قد التقم القرن، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر، فينفخ؟ فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: قولوا: حسبنا الله، ونعم الوكيل، على الله توكّلنا».

لقد جمعت هذه الآيات على وجازتها أمهات الفضائل، حيث جمعت بين أوامر العقيدة وتعظيم الله، وأوامر الدعوة وتبليغها، وأوامر العبادة والطاعة لله تعالى

ومتطلباتها من طهارة القلب والنفس والثياب، ومثلها البدن والمكان من باب أولى، واجتناب الأوثان، وتحرير العقل من الشِّرك، والتَّخلق بالأخلاق الاجتماعية والعادات الإنسانية كترك إعطاء القليل وابتغاء الكثير، وتقويم النفس بكريم الخلق، وإصلاح البدن بهجر المآثم والمحارم. وهذه الأوامر لا تعني أن النَّبي يفعل شيئاً منها، وإنما هو من قبيل الاستمرار والمداومة على ما هو عليه من عبادة الله الواحد الأحد، والتَّحلي بالأخلاق الكريمة، وهجر كل ما يغضب الله تعالى.

وعيد زعماء الشِّرك

في بدء الدعوة هدَّد الله تعالى الوليد بن المغيرة وأمثاله من زعماء الشِّرك، وآنس نبيّه بقوله في سورة المدَّثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ وقوله في سورة المزمِّل: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾، ثم عدَّد سبحانه وتعالى نعمه الوفيرة على الوليد من المال والولد والجاه والرياسة، وكفره بها، ووعيده بنار جهنم لوصفه القرآن الكريم بأنه سحر، بل ومحاولة تحدِّيه بمقاومة الملائكة، زبانية جهنم التسعة عشر. ويتبين ذلك في الآيات الآتية:

﴿ذَرْنِي[(١)] وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا[(٢)] ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا[(٣)] ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا[(٤)] ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا[(٥)] إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا[(٦)] ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ[(٧)] ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ[(٨)] ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ[(٩)] ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ

(١) اتركني أي أنا أكفي عقابه وشأنه كله. (٢) موسعاً كثيراً. (٣) حضوراً. (٤) بسطت له الدنيا بسطاً. (٥) كلمة ردع وزجر. (٦) معانداً لها ومكابراً. (٧) تأمّل في القرآن وهيّأ الأمر في نفسه. (٨) قطّب جبهته، واشتدّ عبوسه، حتى تغيّر وجهه. (٩) يروى ويتعلم.

ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(١) ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ(٢) ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً(٣) لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ(٤) ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ(٥) وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا(٦) كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ(٧) إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ(٨) ﴿٣١﴾﴾ [المدّثر: ٧٤/ ١١-٣١].

أخرج الحاكم وصححه وابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس.. أن الوليد ابن المغيرة جاء إلى النّبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً، لتتعرض لما قِبَله، قال: لقد علمتْ قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، وأنك كاره له، فقال: وماذا أقول؟ فوالله، ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا أعلم برَجزه ولا بقصيده مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لَمُغْدق، وإنه يعلو وما يُعْلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني أفكر فيه، فقال: «هذا سحر يؤثر» يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾

والمعنى: دعني أنا، والذي خلقته حال كونه وحيداً في بطن أمه، لا مال له ولا ولد، أو دعني وحدي معه لا يشركني فيه أحد، فإني أكفيك في الانتقام منه. عرفنا أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، الذي كان يلقب بالوحيد، لأنه لا نظير له في ماله وشرفه في بيته. فذكر الوحيد في الآية في جملة النِّعم التي أعطيها،

---

(١) سأدخله نار جهنم. (٢) تلوح وتظهر لأنظار الناس. (٣) ابتلاءً واختباراً. (٤) ولا يشكّ. (٥) شكّ ونفاق. (٦) المثل: هو القول السائر على ألسن الناس. (٧) أنصاره وأعوانه. (٨) موعظة وعبرة.

ولكن لم يثبت هذا. ومعنى قوله: ﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ معناه: منفرداً ذليلاً، فجعلت له المال والبنين.

وجعلت له مالاً واسعاً كثيراً، وبنين حضوراً معه بمكة، لا يفارقونها ولا يسافرون بالتجارات في البلاد لطلب الرزق، لكثرة مال أبيهم، وبسطت له في العيش وطول العمر والرياسة في قريش، ومع كل هذا يطمع في زيادة المال والولد وغير ذلك، مما يدعو إلى التعجب. وهذا إنكار عليه، لشدة حرصه على الدنيا. فرد الله عليه: كلا: كلمة ردع وزجر، لا أزيده، إنه كان لآيات القرآن معانداً لها، كافراً بها، بعد العلم بصدقها. سأكلفه وأحمله مشقة من العذاب.

و﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾: أكلفه بمشقة وعسر، و﴿صَعُودًا﴾ عَقَبة في نار جهنم.

إنه فكَّر في شأن النَّبي ﷺ وفي القرآن العظيم، وهيّأ من الكلام في نفسه ما يقول، وتروى فيما يصف به القرآن حين سئل عنه، فلعن وعُذِّب، على أي حال قدر ما قدر من الكلام. وهذا كله تعجب واستعظام من موقفه، واستحقاقه مضاعفة العذاب، ثم أعاد النظر والتَّروي والتأمُّل في الطعن بالقرآن، ثم قطّب وجهه، لما لم يجد مطعناً يطعن به القرآن، وتغيّر وجهه، ثم أعرض عن الإيمان، وتكبَّر عن الانقياد للقرآن، فقال: ما هذا إلا سحر ينقل ويحكى، هو قول (كلام) البشر، أي ليس منزلاً من عند الله تعالى. وقوله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ دعاء عليه على معنى تقبيح حاله. و (قُتِلَ) بمعنى لعنه أو عاداه، أو هو بمعنى التعجب من الشيء.

سأدخله النار، وسأغمره فيها من جميع جهاته، وسقر: من أسماء النار، ثم أي شيء أعلمك ما سقر؟ لا تُبقي من الدم واللحم والعظم شيئاً، فإذا أعيد أهلها خلقاً جديداً، فلا تتركهم، بل تعاود إحراقهم بأشد مما كانت، وهكذا أبداً. وهي أي جهنم تلوح للناس حتى يرونها عياناً، وعليها زبانية أشداء، من الملائكة عددهم

تسعة عشر شخصاً، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث وابن مردويه عن البراء: أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النَّبي ﷺ عن خزنة جهنم، فجاء، فأخبر النَّبي ﷺ، فنزل عليه ساعتئذ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

ولم نجعل خزنة النار وزبانيتها القائمين بالتعذيب إلا ملائكةً غلاظاً شداداً، ولم نجعلهم رجالاً تمكن مغالبتهم، ولم نجعل عددهم تسعة عشر إلا اختباراً منّا للناس، وسبب محنة وإضلال للكافرين، حتى قالوا ما قالوا، ليتضاعف عذابهم، وقوله: ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي سبب فتنة للكفار، وفتنتهم: كونهم أظهروا مقاومتهم، والطمع في مغالبتهم، وذلك على سبيل الاستهزاء، فإنهم مكذِّبون بالبعث وبالنار و بخزنتها. وجعل الله هذا العدد ليتيقن أهل الكتاب (وهم اليهود والنصارى) أن الرسول حق، فإنه جاء ناطقاً بما يطابق كتبهم السماوية السابقة، فإن فيها أن عدّة خزنة جهنم تسعة عشر، ولكي يزداد إيمان المؤمنين، ولا يشك أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمؤمنون بالله تعالى ورسوله، في صحة وحقيقة هذا العدد وفي دين الله، وليقول المنافقون الذين في قلوبهم شكٌ وريب، في صدق النَّبي ﷺ، ومعهم الكافرون من أهل مكة وغيرهم: أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل، وما الحكمة في ذكر هذا العدد هنا؟ مثل ذلك المذكور من الإضلال والهداية، يضلُّ الله من يريد، بخذلانه عن إصابة الحق، لسوء استعداده، ويهدي إلى الحق والإيمان من يريد، بتوفيقه إلى الصواب، وليس في ذلك إجبار على الضلالة والهدى، لمنافاته للعدل الإلهي. وما يعلم أنصار الله وأعوانه إلا الله وحده، وما سقر وصفتها إلا تذكرة وعظة للناس، ليعلموا كمال قدرة الله.

روي أن الحارث بن كَلَدة الجمحي قال: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لم نجعلهم رجالاً تستطيعون مغالبتهم.

التَّحذير من إنكار جهنم ووصف أهلها

ردَّ الله تعالى على الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث، وعلى أنواع الطاعنين على الحقِّ وأحوال أهل النار، فإن الجنة حق والنار حق، وكل إنسان مسؤول عن نفسه لا عن غيره، ويتساءل أصحاب اليمين في الجنة عن سبب دخول المجرمين النار، فيُذْكَر لهم السبب من الآن في الدنيا: وهو إعراضهم عن الإيمان وعن أداء الفرائض وعن إطعام المساكين، وإعراضهم ناشئ من التكبُّر والأنفة، وتظل جهنم إنذاراً كافياً لمن أراد التقدم إلى الخير والطاعة، وهذا ما أوضحته الآيات الآتية:

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ(١) ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ(٢) ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ(٣) ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٤) ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ(٥) ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ(٦) ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ(٧) ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ(٨) ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ(٩) ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ(١٠) ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً(١١) ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدَّثر: ٧٤/ ٣٢-٥٦].

قوله: ﴿كَلَّا﴾ ردٌّ على الكافرين والطاعنين على الدين الحق، ومفاد الرَّد: أني أوجه تحذيراً رادعاً لكم أيها الناس، فلا سبيل لإنكار وجود النار في الآخرة، وأقسم بالقمر، وبالليل إذا مضى وولَّى ذاهباً، وبالصُّبح إذا ظهر وأضاء قبل طلوع الشمس

(١) ولى وانصرم. (٢) أضاء وظهر. (٣) لإحدى الدّواهي الكبار. (٤) وثيقة لشيء آخر. (٥) ما أدخلكم في النار؟ (٦) نكذب مع المكذبين. (٧) يوم الجزاء. (٨) الموت. (٩) حمير نافرة من نفسها. (١٠) من أسد. (١١) صحف مبسوطة منتشرة.

بكثير، إن سقر (وهي جهنم) لإحدى الدّواهي العظام، لإنذار البشر وتخويفهم من عقاب الله تعالى على العصيان.

- وإن جهنم إنذار واضح لمن أراد أن يتقدم إلى الخير والطاعة، أو إلى الجنة بالإيمان، أو يتأخَّر عن ذلك إلى الشَّرّ والمعصية أو إلى النار، لإنذار البشر من عقاب الله على العصيان. قال ابن عباس: هذا تهديد وإعلام أن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد ﷺ، جوزي بثواب لا ينقطع، ومن تأخَّر عن الطاعة وكذَّب محمداً ﷺ، عوقب عقاباً لا ينقطع. وقال الحسن البصري: لا نذير أدهى من النار.

ليس لكل امرئ إلا جزاء عمله، فكل نفس مأخوذة بعملها، مرتهنة به، فإن كان العمل خيراً خلَّصها وأعتقها من العذاب، وإن كان شرّاً أوبقها في النار، أي إن المقصِّر مرتهن بسوء عمله.

لكن أصحاب اليمين (والاستثناء هنا منفصل أو منقطع) لأنهم لم يكتسبوا ما هم به مرتهنون. وهم في جنات يتنعمون، يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين في النار، ما الذي أدخلكم في جهنم؟ والمقصود من السؤال: زيادة التوبيخ والتخجيل.

فأجابوا بأن هذا العذاب لأمور أربعة: لم نكن في الدنيا نؤدي الصلاة المفروضة، ولم نحسن إلى أحد، فلم نطعم الفقير المحتاج ما يجب إعطاؤه، وكنا نخالط أهل الباطل في باطلهم، أي كلما غوى غاوٍ غَوْوا معه، وكنا نكذب بيوم الجزاء أي القيامة، حتى أتانا الموت. والتكذيب بيوم القيامة كفر صراح بالله تعالى. فهذه أسباب أربعة لازمتنا طوال حياتنا الدنيوية: ترك الصلاة، والزكاة، والخوض في باطل الكلام أو الغواية، وإنكار البعث والحساب والجزاء. وكون الأمرين الأولين سبب النار دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

فمن كان متَّصفاً بمثل هذه الصفات، فلا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، من ملائكة وأنبياء وصالحين، لأن مصيرهم إلى النار حتماً.

ما الذي حصل لهم حال كونهم معرضين عن القرآن الذي هو التذكرة والموعظة؟ كأنهم في نفورهم عن الحق وإعراضهم عنه، من حمر الوحش إذا فرَّت من رماة يرمونها، أو من أسد يريد افتراسها. وجمهور اللغويين على أن القسورة: الأسد. وقيل: الرجال الأشداء.

أخرج البخاري ومسلم وأحمد حديث الشفاعة، وهو طويل، وفيه: «تشفع الملائكة، ثم النَّبيون، ثم العلماء، ثم الشهداء، ثم الصالحون، فيُشفَّعون، ثم يقول الله تعالى: شفع عبادي، وبقيت شفاعة أرحم الرّاحمين، فلا يبقى في النار من له إيمان».

ومن صور عناد الكافرين: ما وصف الله تعالى: بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب، كما أنزل على النَّبي ﷺ، فهم قد بلغوا من العناد حدّاً تجاوزوا به أقدارهم. كلا (كلمة زجر وردع لهم) على اقتراحهم إنزال تلك الصحف المفتوحة المبسوطة، فلا يُؤتونها، وهم في الحقيقة منكرون للبعث والحساب، لأنهم لو خافوا النار لما اقترحوا الآيات.

وكفاهم القرآن كتاباً، حقّاً إن القرآن تذكرة كافية لهم، فإنه خير تذكرة وموعظة، فمن أراد أن يذكره ويتّعظ به، اتَّعظ واعتبر.

ولا يقع شيء في هذا الكون قهراً عن الله، لأنه المالك وصاحب السلطان، فما يذكرون القرآن ويتّعظون به إلا بمشيئة الله تعالى، الجدير بالتقوى، أي بأن يتّقيه ويخاف منه المتّقون، بترك معاصيه، والعمل بطاعاته. وهو أيضاً الجدير بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب، وبأن يقبل توبة التائبين من العصاة. أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والنَّسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النَّبي ﷺ فسَّر هذه الآية، فقال: «يقول لكم ربّكم جلّت قدرته وعظمته: أنا أهل أن أُتَّقى، فلا يُجْعَل معي إله غيري، ومن اتَّقى أن يَجْعل معي إلهاً غيري، فأنا أغفر له».

تفسير سورة القيامة

إثبات القيامة وما يحدث فيها

أنكر المشركون ثلاثة أمور: وحدانية الله، والنُّبوة، والقيامة، فكان القرآن الكريم معنياً في مناقشاته وردوده بهذه الأمور، لإثباتها، وبما أن القيامة أمر غيبي، لا مجال لإثباته إلا بالخبر الصادق، ومن أصدق من الله حديثاً؟ فإنه سبحانه أخبر عن وجوب الإيمان بالغيب، ومنه يوم القيامة، وأقسم قسماً شديد التأكيد على أنه يوم واقع، وفي مطلع سورة القيامة المكِّية بالإجماع قسم من الله على وقوع القيامة وما فيها من أهوال:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ(١) ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ(٢) ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ(٣) ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ(٤) ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ(٥) ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ(٦) ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ(٧) ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ(٨) ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ(٩) ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ(١٠) ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ(١١) ۝١٥﴾ [القيامة: ٧٥/ ١-١٥].

أُقسم أنا الله بيوم القيامة، و(لا) إما استفتاح كلام، أو صلة زائدة، وأقسم

(١) التي تلوم نفسها أو غيرها . (٢) أطراف الأصابع . (٣) ليذنب بقية حياته . (٤) زاغ وتحيَّر من الدهشة . (٥) ذهب نوره . (٦) ذهب ضوؤهما يوم القيامة . (٧) الفرار . (٨) لا ملجأ . (٩) الاستقرار والسكون . (١٠) شاهد . (١١) أعذاره .

بالنفس اللوامة صاحبها أو غيرها على تقصيره في ترك الطاعة ونحوه، أنكم سوف تبعثون وتحاسبون يوم القيامة.

وجواب القسم محذوف، لدلالة ما بعده عليه. والقسم بالشيء إشارة لتعظيمه وتفخيمه. والنفس في الآية: اسم جنس لنفوس البشر.

وكل نفس متوسطة ليست بالمطمئنة ولا بالأمارة بالسوء، فإنها لوّامة، مرة تلوم على ترك الطاعة، ومرة تلوم على فوت ما تشتهي، فإذا اطمأنت خلصت وصفت.

أيظن الإنسان (الكافر) ألا بعث وألا نجمع عظامه؟! وهذا تقرير وتوبيخ. وهذه الظنون أو الأقوال كانت لكفار قريش. بلى: (وهي إيجاب ما نُفي) أي بلى نجمعها قادرين على جمعه وإعادة تركيب عظامه وأعضائه، وتسوية بنانه، أي أطراف أصابعه. أي إن العظام والأعضاء تجمع ويسوَّى أكثرها تفرقاً، وأدقها أجزاء، وهي عظام الأنامل والمفاصل، وهذا كله عند البعث والنشور من القبور.

ويسأل الإنسان الكافر وغيره سؤال استبعاد وإنكار واستهزاء وتعنُّت متى يوم القيامة؟ ومن لم يؤمن بالبعث ارتكب أعظم الآثام، وبادر إلى انتهاب اللذات غير عابئ بما يفعل. والإنسان: اسم جنس، وهو ابن آدم. بل (وهو إضراب عما سبق لتقرير أمر آخر) يريد الإنسان في الواقع تغليب شهواته، ومداومة فجوره أي فسقه أو كفره، بتكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي القيامة.

وعلامات القيامة ثلاث هي: إذا دهش البصر وتحيَّر من شدة أهوال القيامة، وذهب ضوء القمر كله دون أن يعود، كما يعود بعد الخسوف في الدنيا، وتبدد أو زال ضوء الشمس والقمر جميعاً، فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار، أي إن معالم الكون تتغير كلها.

كلا (كلمة ردع وزجر) لا ملجأ ولا معتصم من الله يعصمكم يومئذ، وإنما إلى الله ربكم المرجع والمصير، في الجنة أو في النار.

وفي ذلك اليوم يوم القيامة، يخبر الإنسان أثناء العرض والحساب بجميع أعماله التي قدمها من خير أو شرّ، قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها.

والإنسان عالم بنفسه، لذا قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ..﴾ أي بل (وهو يفيد الإضراب بمعنى الترك، لا بمعنى إبطال القول الأول) إن الإنسان بعقله وفطرته حجة، وشاهد مبصر على نفسه، عالم بما فعله، فهو حجة كافية بينة على أعماله، ولو اعتذر وأنكر، وحاول تقديم المعاذير أي الأعذار، أي ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه. قال مجاهد: معاذيره: حجته، وقال ابن كثير: والصحيح قول مجاهد وأصحابه، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٣]. وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١٨].

إن هذه الآيات التي يراد بها إثبات يوم القيامة تدلُّ على عظمة الله وقدرته الخارقة، فهو سبحانه قادر على جمع عظام الإنسان المفتتة في أي مكان، وأعضائه المشتتة في أي موضع، وهذا في حدود العقل البشري مستبعد، لكن في مجال علم الله تعالى وقدرته أمر سهل يسير، غير مستبعد، بل هو واقع حتماً.

والمفاجأة بالحقائق أمر صعب على النفوس، فيفاجأ المرء بتاريخه الطويل الذي سجّله في الدنيا، وتكون الكارثة أو النجاة، فإما إلى نار دائمة الاشتعال والتعذيب للكافرين، وإما إلى جنة دائمة النعيم والفضل الإلهي.

ولا مجال للمكابرة أو الاعتذار عن شيء فعله الإنسان، فلا يقبل العذر مهما

كان، ويصطدم الشخص بواقعه الذي هو أعلم به، وهو خير شاهد وحجة على نفسه، حتى ولو أنكر أو اعتذر.

وأي سبيل للإنكار؟ وأعمال الإنسان مدوّنة عليه بوساطة ملك اليمين وملك الشمال، لأن الكتابة لا سبيل لمحوها أو إنكارها، والله أعلم بكل شيء صغير أو كبير، من كل مكتوب أو مقروء أو مقالة.

حفظ القرآن وحال الناس في الدنيا والآخرة

إنزال القرآن الكريم بالوحي على قلب النبي ﷺ شيء عظيم لا يعادله شيء في الدنيا، لذا حرص النبي على تلقّي الوحي وعلى حفظه ومتابعته، وكان يردّده في مبدأ الأمر أثناء التّلقي، فأرشده الله تعالى إلى ضرورة الإصغاء له أولاً، ثم يكون التثبيت والحفظ في القلب من فعل الله تعالى. أما منكر القيامة والبعث فهو معرض عن آيات الله تعالى ومعجزاته، وسبب إنكاره البعث: هو حبّ الدنيا، وترك العمل للآخرة. والناس في الآخرة فريقان: فريق المؤمنين وفريق المشركين الذين يترقبون نزول دواهي العذاب بهم، وهذا ما عبّرت عنه الآيات الآتية:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ[1] ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ[2] ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ[3] ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ[4] ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ[5] ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٧٥/١٦-٢٥].

أخرج البخاري ومسلم وأحمد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا

---

(١) قراءته. (٢) الدنيا وما فيها. (٣) حسنة جميلة مشرقة. (٤) عابسة بشدة. (٥) داهية عظيمة.

أُنزل الوحي، يحرِّك به لسانه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ الآية.

كان رسول الله ﷺ، حرصاً منه على القرآن الموحى به إليه، يبادر إلى حفظه وترداده، ويسابق الملَك في قراءته، ويحرِّك شفتيه ولسانه بالقرآن، إذا أنزل عليه، قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، فنزلت هذه الآية.

ومعناها: لا تحرِّك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي، لتأخذه على عجل، مخافة أن يتفلت منك، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤].

إن علينا جمعه في صدرك، حتى لا يذهب عليك منه شيء، وعلينا إثبات قراءته في لسانك على الوجه القويم. فإذا أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السّلام، فاستمع له وأنصت، ثم اقرأه كما أقرأك، وكرره حتى يرسخ في ذهنك. والقرآن: مصدر كالقراءة.

ثم إننا بعد حفظه وتلاوته، نفسّر لك ما فيه من الحلال والحرام، ونبيِّن أو نوضِّح لك ما أشكل منه، ونلهمك معناه كما أردناه وشرعنا، أي علينا تبيينه وتحفيظه لك.

إن هذه الآيات الأربع اشتملت على أحوال ثلاث: هي جمعه في صدره وحفظه، في الآيتين الأولى والثانية، وتلاوته وتيسير أدائه كما أنزل، في الآية الثالثة، وتفسيره وبيانه في الآية الرابعة. ثم أوضح القرآن الكريم حال منكر البعث، فوبَّخه وقرَّعه على إنكار البعث، وبيَّن له سبب الإنكار، وهو:

كلا (كلمة ردع وزجر) أي أردعكم عما تقولون أيها المشركون من إنكار البعث، فإن الذي يحملكم على التكذيب بيوم القيامة، ومخالفة ما أنزله الله تعالى على رسوله، من الوحي الحق والقرآن العظيم، وسبب إنكاركم، هو محبَّتكم دار الدنيا العاجلة، وتشاغلكم عن الآخرة، وترك العمل لها. وهذه الآية ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾

رجوع إلى مخاطبة قريش، في ردِّهم الشريعة، أي ليس ذلك كما تقولون، وإنما أنتم قوم غلبتكم الدنيا بشهواتها، فأنتم تحبّونها حبّاً تتركون معه الآخرة والنظر في أمرها. ولما ذكر الله تعالى الآخرة، أخبر بشيء من حال أهلها.

وجوه المؤمنين في الجنة حسنة بهية، مشرقة مسرورة، ترى ربَّها عياناً، ووجود الفجّار الكفّار في النار عابسة كالحة كئيبة، توقن أن سينزل بها داهية عظيمة، تكسر فقار الظهر. وجمهور العلماء على جواز رؤية الله تعالى في الآخرة، من غير تحديد بمكان معين. جاء في الصحيحين عن جرير، قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم ترون ربّكم، كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم ألا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، ولا قبل غروبها، فافعلوا».

وللآية نظائر منها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ٣٨-٤٢].

لقد تكفَّل الله لنبيّه ثلاثة أمور لحفظ القرآن: وهي جمعه في صدره عليه الصّلاة والسّلام، وتلاوته، وتفسيره لبيان ما فيه من الحدود والحلال والحرام، والوعد والوعيد، والمشكلات.

وسبب إنكار المشركين البعث والجزاء: هو إيثار الدنيا والتّمتع بنعيمها، وترك العمل والاستعداد للآخرة، وهذا سوء اختيار، لأن نعيم الدنيا زائل، ونعيم الآخرة باق دائم.

ورؤية أهل الإيمان ربَّهم في جنان الخلد، وحرمان الفجّار (الكفّار والعصاة) منها أمر ثابت مقرر لا شك فيه بدلالات الكتاب والسُّنة، جاء في حديث مسلم عن صهيب: أن رؤية الله عزّ وجلّ هي الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٦].

وتكون وجوه الكفّار الفجّار في الآخرة كالحة كاسفة عابسة، مستيقنة أنه سيحلُّ بها عذاب شديد، وداهية عظيمة.

التَّفريط وعاقبته

الناس فريقان: إما عصاة أشرار، وإما طائعون أبرار، وقد أنذر الله تعالى جميع الناس قبل أن يفجأهم الموت، وتطوى صحائف الأعمال، فيبادروا إلى الإيمان بالله والعمل الصالح، وبعد الموت الذي يستوي فيه الكل، يأتي البعث حتماً في وقت لا بد منه، من أجل أمرين: ألا وهما إقامة العدل المطلق بين الخلائق، بالجزاءِ على الأعمال، حتى لا يتساوى المطيع والعاصي، وبيان إنجاز وعد الله تعالى وممارسة قدرته، فكما أن الله تعالى قادر على بدء الخلق، فهو قادر على الإعادة والبعث، بل إن الإعادة أهون في منطق البشر. قال الله تعالى زاجراً ومنذراً من ملاقاة أهوال القيامة:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ[١] ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ[٢] ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ[٣] ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ[٤] ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ[٥] ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى[٦] ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ[٧] ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً[٨] فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ[٩] ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٧٥/٢٦-٤٠].

---

(١) لكل إنسان ترقوتان يميناً وشمالاً من الحلق إلى العاتق. (٢) الذي يتخذ الرقية علاجاً. (٣) مثل لاشتداد الحال. (٤) يتبختر في مشيته. (٥) أسلوب للتهديد، أي ويل لك، أو أولى لك الهلاك. (٦) مهملاً بلا عناية. (٧) ماء قليل يصب في الرحم. (٨) قطعة دم عالقة في جدار الرحم. (٩) أحكم خلقها، وعدلها بتقدير محكم.

زجر الله تعالى قريشاً وأمثالها بأنهم متعرِّضون لموطن من مواطن الهول، وأمر من الله تعالى لا محيد لبشر عنه، وهو حالة الموت والمنازعة التي كتبها على كل حيوان.

ومضمون الزجر: لا تستطيع أيها الإنسان التكذيب بما أخبرت به، حين تجد الحقيقة عياناً أمامك، وهي مفارقة الحياة وتجرُّعُ كأس الموت. فإذا بلغت روحك تراقيك الموازية للحلاقيم، وهي جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النَّحر والعاتق، ولكل أحد ترقوتان، والأفراد في الكثيرين جمع، فالأمر كله كناية عن حال الحشرجة ونزاع الروح. يسَّره الله تعالى علينا.

وقيل حينئذ: مَنِ الطَّبيب المعالج الذي يرقي المحتضر ويشفيه، وأيقن هذا الشخص الذي بلغت روحه التراقي أنها ساعة الفراق من الدنيا والأهل، لنذكر جميعاً هذه الحالة. والمعنى العام: ارتدعوا عن إيثار الدنيا على الآخرة، وتنبَّهوا إذا بلغت الحلقوم أو أعالي الصدر، كناية عن الاحتضار وأهواله، والموت وشدائده.

وفي حالة الاحتضار التفَّت ساق الإنسان على ساقه عند نزول الموت به، فلا يقدر على تحريكها، أي ماتت رجلاه، ويبست ساقاه ولم تحملاه، واجتمع عليه أمران: الناس يجهِّزون جسده، والملائكة يجهِّزون روحه.

وتساق الأرواح بعد قبضها من الأجساد إلى خالقها، ويكون المرجع والمآب إلى حكم ربِّك، فإما إلى جنّة عرضها السماوات والأرض، وإما إلى نار حامية دائمة الإحراق.

وعمل هذا المحتضر المعذب بموته: هو أنه في الدنيا لم يصدق بالرسالة النَّبوية ولا بالقرآن، ولا صلى لربِّه الصلاة المطلوبة منه فرضاً، بل كذَّب بالرسول وبما جاء به، وتولَّى عن الطاعة والإيمان، وزاد على ذلك أنه ذهب إلى أهله بطراً أشراً، يتبختر ويختال في مشيته، افتخاراً بتقصيره. لقد جمع بين إهمال العقيدة الصائبة، وبين إهمال

الفرائض، وبين سوء الخلق بالتكبُّر والتجبُّر والتطاول. وهذا دليل واضح على أن الكافر يستحقُّ العقاب بترك الصلاة والزكاة، كما يستحقه بترك الإيمان الذي هو أساس صحة الصلاة.

وهذا العقاب جدير به هذا الجاحد، كما قال تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ أي ويل لك ثم ويل، أولى لك الهلاك، وهو وعيد ثانٍ، ثم كرر ذلك تأكيداً، والمراد: أولى لك الازدجار والانتهاء، والعرب تستعمل هذه الكلمة زجراً. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ، طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٠-٢١].

أخرج ابن جرير الطبري عن قتادة: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ وعيد على وعيد، زُعم أن هذا أُنزل في عدو الله أبي جهل، ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ بمجامع ثيابه، فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ فقال عدو الله أبو جهل: أيوعدني محمد؟ والله ما تستطيع لي أنت ولا ربّك شيئاً، والله لأنا أعزُّ من مشى بين جبليها.

وأخرجه النَّسائي عن ابن عباس عن قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ أشيء قاله رسول الله ﷺ من قِبَل نفسه أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قِبَل نفسه، ثم أنزله الله.

ثم استدلَّ الله تعالى على البعث بدليلين:

الأول- أيظنُّ الإنسان أن يترك في الدنيا مهملاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يكلف، ولا يحاسب ولا يعاقب بعمله في الآخرة؟ وهذا خلاف مقتضى العدل والحكمة.

الثاني- أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من مني يراق في الرَّحم، ثم صار بعد ذلك علقة، أي قطعة دم عالقة، ثم مضغة، أي قطعة لحم، ثم شُكِّل ونفخ فيه الروح، فصار خلقاً سوياً سليم الأعضاء، ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره؟ أليس الذي أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه بقادر على أن يعيد خلق الأجسام من جديد بالبعث،

كما كانت عليه في الدنيا، بلى، فإن الإعادة أهون من الابتداء. وقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ توبيخ وإقامة حجة.

وقوله تعالى: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ خلق: قَدَّر بقَدَر محكم بأن جعلها مضغة مخلَّقة. و﴿فَسَوَّىٰ﴾ عدل أركانه وأحكم أمره، وأكمل نشأته، وجعل من المني بعد تخليقه صنفي الإنسان: الرجل والمرأة. وهذا استدلال بالخلق الأول على الإعادة، فإن الخالق الأول هو الخالق الآخر، والأمران سواء عليه.

تفسير سورة الدَّهر

خلق الإنسان ومصيره

من أعاجيب الخلق الإلهي: خلق الكون من السماء والأرض، وخلق الإنسان بعد العدم، ثم تكاثر النوع الإنساني، وتكليف الإنسان بالتكاليف الرَّبانيّة المسماة بالأمانة، ثم يمرُّ في أطوار الحياة بعد الولادة، وتبدأ مرحلة البلوغ والخطاب الإلهي له، ليكون موضع اختبار في مدى الحياة أو العمر، ويكون في أعقاب الامتحان إما كافراً جاحداً، وإما مؤمناً شاكراً. ولكلٍّ جزاؤه، فللكافرين السعير والسلاسل والأغلال، وللمؤمنين الأبرار جنان الخلد والنعيم بسبب ما قدموا من صالح الأعمال، وهذا صريح الآيات الآتية في مطلع سورة الدَّهر أو الإنسان المكِّية في رأي بعضهم، والأصح أنها مدنيَّة:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ(١) مِّنَ ٱلدَّهْرِ(٢) لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ(٣) أَمْشَاجٍ(٤) نَّبْتَلِيهِ(٥) فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ(٦) ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا(٧) لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟(٨) وَأَغْلَـٰلًا(٩) وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ(١٠) يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ(١١) كَانَ مِزَاجُهَا(١٢) كَافُورًا(١٣) ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا

---

(١) جزء محدود من الزمان . (٢) زمان ممتد غير محدود . (٣) قليل من الماء . (٤) أخلاط . (٥) نختبره . (٦) بيَّنا له طريق الخير والشَّر وأرشدناه . (٧) هيَّأنا . (٨) قيوداً في الأرجل . (٩) أطواق في الأيدي . (١٠) الذين هم أهل الصدق والطاعة والإخلاص . (١١) إناء الخمر . (١٢) ما تمزج به . (١٣) طيب معروف له رائحة جميلة .

تَفۡجِيرٗا(١) ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا(٢) ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا(٣) ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا(٤) ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ(٥) نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا(٦) ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/ ١-١٢].

هل: في كلام العرب قد تجيء بمعنى قد، مع التقرير، وقال أكثر المتأوِّلين: (هل) تقرير. أي لقد أتى على جنس الإنسان فترة من الزمان، كان فيه منسياً غير موجود ولا مخلوق، ولا مذكورٍ لأحد من الخليقة المتقدمين عليه: وهم الملائكة والجنّ. وهذا إخبار عن فترة ما قبل خلق الإنسان، حيث كان معدوماً لا يذكر. أي إذا تأمل كل إنسان نفسه، علم بأنه قد مرَّ حين من الدَّهر عظيم، لم يكن هو فيه شيئاً مذكوراً، أي لم يكن موجوداً.

ثم أخبر الله تعالى عن بدء تكاثر الخلق، إننا نحن الخالق أوجدنا ابن آدم من ماء قليل من المني، مختلط بين ماءي الرجل والمرأة، من أجل اختباره، بالخير والشَّر، وبالتكاليف الشرعية، بعد البلوغ، وزودناه بطاقات الفهم والوعي والإدراك وهي السمع والبصر، ليتمكن من حمل رسالة التكليف واجتياز مرحلة الاختبار.

ودَلَلنا الإنسان وأرشدناه، وبيَّنا له طريقي الخير والشَّر، والهدى والضَّلال، ويكون حاله إما مؤمناً شاكراً لأنعم الله، مهتدياً بهديه، وإما كافراً جاحداً للنعمة معرضاً عن الطاعة، متنكِّراً للهدي الإلهي. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٩٠/ ١٠]. أي بيَّنا له طريق الخير وطريق الشَّر، فهو باختياره بعدئذ إما شقي أو سعيد.

---

(١) تنبع بحسب أمرهم . (٢) منتشراً فاشياً في كل مكان . (٣) المسكين: المحتاج، واليتيم: من لا أب له، والأسير: المأسور في أيدي الأعداء. (٤) العبوس: شديد الهول، والقمطرير: الشديد الظلمة.(٥) أعطاهم. (٦) حسناً وفرحاً .

وجزاء الفريقين بداهة مختلف في قانون العدل الدنيوي والإلهي. لقد هيّأنا وأعددنا لكل كافر بالله وبنعمه، سلاسل في أرجلهم يقادون بها إلى النار، وقيوداً تشدُّ بها أيديهم إلى أعناقهم، وناراً تستعر وتتوقد، لنعذبهم ونحرقهم بها.

وأما المؤمنون الأبرار الذين جمعوا بين الصدق والطاعة (التقوى) والإخلاص فهم يشربون شراباً ذا رائحة أو كأساً من خمر الجنة، الممزوجة بالكافور (وهو طيب معروف له رائحة جميلة) وهذا الشراب نابع من عين جارية عذبة يشرب منها عباد الله الصالحون، تنبع بأمرهم، ويُجْرُونها إلى حيث أرادوا من منازلهم وقصورهم. وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿كَافُورًا﴾ أو مفعول به لفعل (يَشْرَبونَ) أي يشربون ماء هذه العين من كأس عَطِرة كالكافور.

وأسباب ثواب الأبرار ثلاثة أشياء أو خصال ثلاث: هي الوفاء بالواجب، وخوفهم الحساب، وتخلُّقهم بالخلق الفاضل كإطعام الطعام للمحتاجين.

١-٢- أنهم يُوفون بالنُّذور التي التزموها وأوجبوها على أنفسهم، تقرُّباً إلى الله تعالى. ويتركون المحرَّمات التي نهى الله عنها، خوفاً من عذاب يوم القيامة، الذي تكون شدائده وأهواله منتشرة في كل جهة، وعامة على الناس، إلا من رحم الله. فقوله: ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ أي يوم القيامة الذي كان ضرره متّصلاً شائعاً كاستطارة الفجر.

٣- ويطعمون الطَّعام في حال محبَّتهم إياه لمحتاج فقير عاجز عن الكسب، وليتيم حزين فَقَدَ أباه، ولأسير مأسور عند الأعداء. وخصَّ الطعام بالذكر لكونه إنقاذاً للحياة، وإصلاحاً للإنسان. قال القرطبي: والصحيح أن الآية نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلاً حسناً، فهي عامة.

وهم في حال إطعام الطعام لهؤلاء يقولون وينوون: إنما نطعمكم هذا الطعام

لابتغاء رضوان الله وحده، ورجاء ثوابه، دون مَنٍّ عليكم، ولا ثناء من الناس، ولا طلب جزاء أو مقابل منكم أو من أحد، بل هو خالص لوجه الله تعالى.

إننا مع طلب رضوان الله سبحانه نخاف من أهوال يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدّته، صعب شديد الهول والخطر، وشديد الظلمة.

فجازاهم الله تعالى على إخلاصهم أنه دفع عنهم شرّ ذلك اليوم العبوس، وآمنهم من مخاوفه، وأعطاهم نضرة في الوجوه، وسروراً في القلوب، لطلبهم رضوان الله تعالى.

وكافأهم بسبب صبرهم على التكاليف الشرعية جنة يدخلونها، وحريراً يلبسونه، أي أعطاهم أو منحهم منزلاً رحباً، وعيشاً رغيداً، ولباساً جميلاً حسناً. وذلك كله بتكريم الله وفضله وإحسانه، جعلنا الله من أهل هذا الجزاء الحسن، ومتَّعنا بهذه النعم الجليلة.

نعم أهل الجنّة

إن أغلب الناس تأثُّراً بطبائعهم وشهواتهم المادِّية يتأثَّرون بالإغراءات المادِّية، والمطامع المعيشية من كساء وغذاء وشراب وخدمات الخدم وحلي الدنيا، فكانت إغراءات النعيم في الجنان من هذا الطراز، ليطمعوا في الحصول عليها، ويعملوا العمل الصالح الموصل لها، وهو الجزاء المادِّي، وهناك جزاء معنوي أسمى وأرفع منه وهو الشعور بالرضوان الإلهي، والتمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم الذي لا يعادله شيء من هذه النِّعم، ولكن المسألة في الجنة درجات ومراتب بحسب تفاوت أعمال الناس. وهذه الآيات الآتية تقرر نعيم الأشخاص العاديين:

﴿مُتَّكِـِٔينَ(١) فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ(٢) لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا(٣) ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا(٤) ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ(٥) كَانَتْ قَوَارِيرَا(٦) ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا(٧) ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا(٨) ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ(٩) خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ(١٠) وَحُلُّوٓا(١١) أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا(١٢) ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الدهر: ٧٦/١٣-٢٢].

هذه مظاهر النعيم المادي في الجنة، لقد جزى الله الأبرار جنة الخلود، حيث يتكئون فيها على الأسرّة والفرش والوسائد، ولا يرون فيها الحرّ الشديد والبرد القارس، لاعتدال هوائها، وذهاب ضرورتي الحرّ والبرد عنها. ومسّ الشمس: أشدّ الحر، والزمهرير: أشد البرد.

وظلال الأشجار قريبة منهم، مظلّلة عليهم حيث لا شمس هناك، وأُدنيت ثمارها لمتناوليها تسخيراً.

ويطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وبأكواب الشراب: وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم، وهي من فضة، فاجتمع لها بياض الفضة، وصفاء القوارير، وهي الزجاج، حتى يرى داخلها من خارجها. وشكلها وحجمها حسب إرادة أهل الجنة، بحسب تقديرهم ورغبتهم.

---

(١) حال من الضمير المنصوب في الآية السابقة: . (٢) مستندين بتمكّن وراحة على الوسائد والأسرّة. (٣) برداً قارساً. (٤) سهّلت عناقيدها المقطوفة. (٥) الآنية: صحاف الطعام، والأكواب: آنية الشراب وهي الأقداح المستديرة بلا عروة ولا خرطوم. (٦) أوعية زجاجية. (٧) نبات مطيب لرائحته الجميلة يوضع مع البهارات. (٨) سميت بذلك لسلاسة انسياغها. (٩) حرير رقيق. (١٠) حرير سميك. (١١) أُلبسوا حلية. (١٢) نقيّاً من الشوائب.

ويسقى الأبرار أيضاً في هذه الأكواب في الجنة شراباً ممزوجة بالزنجبيل الحارّ أو بالكافور البارد، ليعتدل الشراب، وأما المقرَّبون فيشربون من كلٍّ منهما صرفاً.

ويسقون شرابهم هذا من عين في الجنة تسمى السلسبيل، سميت بذلك لسلاسة مائها، وسهولة جريها وانحدارها وإساغتها في الحلوق.

وصفة الخدم: أنه يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان، لهم صفة الخلود، لا يتغيرون عن تلك الحال، من الشباب والطراوة والنضارة، ولا يهرمون ولا يمرضون ولا يموتون، إذا رأيتهم في قضاء الحوائج رأيتهم في صباحة الوجوه، وحسن الألوان وجمال الثياب والحلي كأنهم اللؤلؤ المنثور، قال ابن كثير: ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن. شبَّههم بالمنثور، لأنهم سراع في الخدمة، أما الحور العين فشُبِّهن باللؤلؤ المكنون، لأنهن لا يمتهن بالخدمة.

وفي الجملة، يكون نعيمهم أنك إذا نظرت نظراً بعيداً في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها، وما فيها من الجمال والسرور، رأيت نعيماً لا يوصف وسلطاناً عظيماً لا يقدر قدره.

أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: دخل عمر بن الخطاب على النَّبي ﷺ، وهو راقد على حصير من جريد، وقد أثَّر في جنبه، فبكى عمر، فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت كسرى ومُلكه، وهرمز، وصاحب الحبشة ومُلْكه، وأنت رسول الله ﷺ على حصير من جريد، فقال رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

وملابسهم وحليّهم: هي أن الذي يعلوهم من اللباس: هو الحرير الرفيع الرقيق الأخضر، والديباج السميك، وحُلّوا (أُلبسوا الحلية) بأساور من الفضة، وسقاهم

ربُّهم بشراب غير ما سبق، يطهِّر بواطنهم من الحسد والحقد والبغضاء والأذى، وسائر الأخلاق الرديئة، كما روي عن علي رضي الله عنه.

وعلَّة هذا الفضل والنعيم: أنه يقال لهؤلاء الأبرار المتَّعين بالجنان، تكريماً لهم وإحساناً إليهم: إن هذا المذكور من أنواع النعيم، كان لكم جزاء لأعمالكم، أي ثواباً لها، وجزاكم الله تعالى على القليل بالكثير، ويقبل طاعتكم، فَشُكْرُ الله تعالى لعمل عبده: هو قبول لطاعته. وهذا مثل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقَّة: ٦٩/ ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٣].

إنها نعم الله تعالى السابغة العظيمة، الدائمة، فليست نعم الله مقصورة على الدنيا، وإنما برحمة الله تشمل الآخرة، ونِعَم الآخرة أعظم وأكثر وأشمل من نِعَم الدنيا.

تثبيت النَّبي ﷺ في مواجهة أفعال قريش

كان كل رسول يواجه معارضة شديدة لدعوته من قومه أو المرسل إليهم، وكان هذا هو الظاهرة القائمة من أفعال قريش وأحوالهم، حيث نسبوا الرسول محمداً إلى الكهانة والسِّحر، فثبَّت الله تعالى رسوله محمداً ﷺ، وبيَّن للقوم أن القرآن كلام الله ووحيه، وأمره بالصبر على أذى قومه، وبالسُّجود والصلاة، وبذكر ربِّه بكرةً وأصيلاً، فهم قوم يؤثرون الدنيا على الآخرة، وشريعة الله ووحيه تذكرة وعظة لمن أراد النجاة بين يدي الله عزّ وجلّ، بمشيئة الله، وكل شيء من أفعال البشر لا يقع إلا بمشيئة إلهية، كما يتضح من الآيات الآتية:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا(١) أَوْ كَفُورًا(٢) ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(٣) ﴿٢٥﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ(٤) وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا(٥) ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ(٦) وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ(٧) فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الدّهر: ٧٦/ ٢٣-٣١].

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة: أنه بلغه أن أبا جهل قال: لئن رأيت محمداً يصلِّي، لأطأن عنقه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

يقول الله فيما معناه: لقد أنزلنا عليك أيها الرسول القرآن تنزيلاً متدرِّجاً مفرَّقاً، في مدى ثلاث وعشرين سنة، ولم ننزله جملة واحدة، ليسهل حفظه ووعيه والعمل به، ولتثبيت المؤمنين في مواجهة الحوادث.

فاصبر أيها النّبي على قضاء الله وقدره في تأخير نصرك على المشركين، إلى أجل اقتضته حكمته، وفي تبليغ رسالتك من ربِّك، وتحمَّل المشقة، والصبر على الأذى، ليعذر الله تعالى إليهم، ولا تطع أحداً من المشركين أو العصاة، المبالغين في الوقوع في الإثم والعصيان، والجحود والكفر. والآثم: مرتكب المعاصي، والكفور: جاحد النعمة، وبما أن الآية في المشركين، فكل واحد منهم آثم وهو كفور. ومن الآثمين: عتبة بن ربيعة، ومن الكفورين: الوليد بن المغيرة. والآية تقتضي نهي الإمام عن طاعة آثم من العصاة، أو كفور من المشركين.

---

(١) كثير الإثم. (٢) شديد الكفر. (٣) أول النهار وآخره. (٤) الدنيا. (٥) ويتركون أمامهم يوماً شديداً.
(٦) أحكمنا خلقهم. (٧) عظة وعبرة.

ثم أمر الله تعالى نبيَّه بالمداومة على ذكر ربِّه في أول النهار وآخره، وفي جميع الأوقات، بالقلب واللسان، وبالسجود في الليل والتسبيح الذي هو الصلاة.

وصلاة الصبح: هي في أول النهار أو البكرة، وآخره أو الأصيل: صلاة العصر ومعها صلاة الظهر، وصلاة الليل تشمل صلاتي المغرب والعشاء، والتّهجد في آخر الليل، فتكون الآية جامعة فرائض الصلوات الخمس، والتهجد. وهذه أحوال الطائعين. ثم ذكر الله تعالى أحوال الكفار والمتمرِّدين:

إن هؤلاء مشركي مكة وأمثالهم يحبّون الدار العاجلة، وهي الدنيا، ويقبلون على لذّاتها وشهواتها، ويتركون أمامهم يوم القيامة الشديد الأهوال، فلا يستعدّون له، ولا يعبؤون به، وسمي يوماً ثقيلاً، لما فيه من الشدائد والأهوال. والآية فيها توبيخ المتمرِّدين واحتقارهم. وحبُّهم للدنيا: أنهم لا يعتقدون غيرها.

وكيف يتغافل هؤلاء الكفار عن ربِّهم وآخرتهم، ونحن الله الذي خلقناهم وأحكمنا خلقهم بتسوية أعضائهم ومفاصلهم، وربطها بالعروق والأعصاب، ولو شئنا لأهلكناهم، وجئنا بأطوع لله منهم. والأسر: الخلقة واتِّساق الأعضاء والمفاصل. وهذا تعداد النعمة من الله على عباده، في إيجادهم وخلقهم، وفي إتقان بنيتهم وشدِّ خِلْقتهم. وفي آخر الآية توعُّد بالتبديل، فجمعت الآية بين تعديد النعمة، والوعيد، والتبديل، احتجاجاً على منكري البعث، فمن هو قادر على هذه الأمور، فكيف تتعذر عليه الإعادة؟

ثم أرشد الله تعالى إلى فائدة القرآن والشريعة، فهذه السورة أو الشريعة، وما فيها من مواعظ، وترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، عظة وعبرة للمتأمِّلين، وتبصرة للمتبصرين، وتذكير للعقلاء، فمن شاء الخير لنفسه في الدنيا والآخرة، اتخذ طريقاً للتَّقرب إلى ربِّه بالإيمان والطاعة، واجتناب المعصية، ومن شاء اهتدى بالقرآن. وهذا

دليل على أن الإيمان والكفر داخلان في اختيار الإنسان وحريته، ولكن ضمن مشيئة الله، حيث لا يقع شيء في ملكوت الله إلا بمشيئته، وإلا كان المِلِك المطلق المُلْك مقهوراً في سلطانه، وهذا لا يقع بالنسبة لله تعالى.

إن مشيئة العبد داخلة في إطار مشيئة الله، فما تشاؤون أن تتخذوا إلى الله سبيلاً إلى النجاة إلا بمشيئة الله، ولا يقدر أحد أن يهدي نفسه، أو يؤمن أو يجلب نفعاً لنفسه إلا بتوفيق الله، فالأمر إلى الله سبحانه، إن الله تعالى عليم بمن يستحق الهداية، فييسرها له، وعليم بمن يستحق الغواية، فيبقى في دائرة الضلال، وله الحكمة البالغة.

والله يدخل في جنته من يشاء من عباده إدخالهم فيها، فضلاً من الله وإحساناً، ويعذب الظالمين الكافرين الذين ظلموا أنفسهم، عذاباً مؤلماً وهو عذاب جهنم.

تفسير سورة المرسلات

القيامة وقدرة الله عليها وتهديد منكريها

تكرَّر في القرآن الكريم إيراد الأدلّة والبراهين القاطعة على وقوع القيامة حتماً، ومنها قسم الله بذاته كما في سورة التَّغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [الآية: ٧] ، ومنها قسم الله بالقيامة نفسها كما في مطلع سورة القيامة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة: ٧٥/ ١]. ومنها القسم الإلهي بالرِّياح الهادرة المتتابعة، أو بالرُّسل إلى الناس من الأنبياء عليهم السّلام، أو بالملائكة المرسلة، كما في مطلع سورة المرسلات المكِّية، في قول جمهور المفسِّرين:

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا(١) ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا(٢) ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا(٣) ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا(٤) ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا(٥) ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا(٦) ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ(٧) ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ(٨) ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ(٩) ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ(١٠) ۝١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ(١١) ۝١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ

---

(١) الرياح المتتابعة أو الرُّسل إلى الناس من الأنبياء . (٢) الرِّياح الشديدة . (٣) الرِّياح التي تنشر المطر . (٤) الملائكة التي تنزل بالوحي إلى الأنبياء والرُّسل . (٥) الملائكة الملقيات الذِّكر من الوحي . (٦) إعذار من الله للعباد، وإنذار بالعذاب . (٧) ذهب ضوؤها . (٨) تشققت . (٩) تفرَّقت أجزاؤها . (١٠) بَلَغت الوقت المحدَّد لها . (١١) يوم القيامة .

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ(١) ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ(٢) ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ(٣) ﴿٢٢﴾
فَقَدَرْنَا(٤) فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا(٥) ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً
وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ(٦) وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا(٧) ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

[المرسلات: ٧٧/ ١-٢٨].

يقول الله تعالى: أقسم بالرُّسل المرسلين إلى الأنبياء والرُّسل جماعات، إفضالاً على العباد بالبعثة، أو بالرِّياح المتتابعة التي هي نعم، بها الأرزاق والنجاة في البحر، وبالرياح التي ترسل عاصفة لما أُمرت به من نعمة أو نقمة، وبالرياح التي تنشر السحاب وتفرِّقه في آفاق السماء، كما يشاء الله تعالى.

وأقسم بالملائكة الذين ينزلون بأمر الله على الرُّسل بما يفرِّق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، والذين يلقون الوحي إلى الأنبياء والرُّسل، إعذاراً من الله تعالى إلى خلقه، وإنذاراً من عذابه إن خالفوا أمره.

إن ما وعدتم به من مجيء الساعة ونفخ الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، وجزاء كل إنسان بما عمل خيراً أو شرّاً، إن هذا كله لواقع حتماً.

وعلامات وقوعه: إذا ذهب ضوء النجوم، وتشققت السماء وتصدعت، وقلعت الجبال من أماكنها، وصارت في الأجواء هباءً منبثاً.

وإذا الرُّسل جمعت وجعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، ويقال لتعجيب العباد من الهول: لأي يوم عظيم أُخِّرت الأمور المتعلِّقة بهؤلاء الرُّسل؟ وهي تعذيب من كذَّبهم، وتعظيم من صدَّقهم. والجواب من الله تعالى: بأنهم أُجِّلوا

(١) ماء ضعيف حقير. (٢) مستقر حصين وهو الرَّحم. (٣) زمان معين. (٤) هيّأنا وأحكمنا. (٥) جمعاً وضماً. (٦) جبالاً ثوابت عاليات. (٧) عذباً.

ليوم الفصل بين الخلائق، يُفْصَل فيه بين الناس بأعمالهم، ويوزَّعون إما إلى الجنة وإما إلى النار. ثم أعظم الله تعالى شأن ذلك اليوم مرة ثانية، بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾﴾ أي وما أعلمك بيوم الفصل، وأي شيء شدته ومهابته!!

وتهويل ثالث: ويل لهم من عذاب الله غداً، أولئك الذين كذبوا بالله ورسله وكتبه، والويل تهديد بالهلاك، وقد ذكر هذا التهويل في سورة المرسلات تسع مرات، لمزيد التأكيد والتقرير.

وتهديد آخر من سيرة الماضين: ألم نهلك الكفار المكذِّبين للرُّسل المخالفين لما جاؤوا به من الأمم الماضية، من لدن آدم عليه السّلام، كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، إلى زمن محمد ﷺ، بتعذيبهم في الدنيا، ثم نتبعهم بأمثالهم ونظرائهم، وهم كفار مكة حين كذبوا محمداً ﷺ، أهلكهم الله يوم بدر وغيره من المعارك. وهذا وعيد شديد لكل من كفر بالله تعالى.

وتلك سنّة الله لا تبديل لها، فإن سنّتنا في جميع الكفار واحدة، فمثل ذلك الإهلاك للمكذِّبين بكتب الله ورسله، الذين أجرموا في حقِّ أنفسهم، نفعل بكل من أجرم وأشرك مع الله إلهاً آخر. والهلاك الشديد يومئذ للمكذِّبين بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي في المستقبل، قريش وسائر الكفار.

ثم ذكر الله تعالى بعض مظاهر القدرة الإلهية على الناس، ومنها: ألا ترون وتدركون أننا نحن خلقناكم من ماء ضعيف حقير، وهو المني، وجعلناه مجموعاً في مستقر مكين، أي حرز حصين، وهو الرَّحم، ثم أبقيناه في الرَّحم مدة معينة هي مدة الحمل من ستة إلى تسعة أشهر.

نحن الذين مارسنا قدرتنا على الخلق وتقديرنا في تكوين الأعضاء والصفات،

وجعلنا كل حال على الصفة التي أردنا، فنعم المقدِّر وهو الله، أو نِعم المقدِّرون له نحن. والهلاك والعذاب في يوم القيامة لمن كذَّب بقدرتنا على ذلك، وبهذه النِّعم. وهذا تخويف وتوبيخ من وجهين: هما أن النِّعمة كلما كانت أعظم كان كفرها أفحش، والقادر على الخلق الأول قادر على الإعادة.

ثم عدَّد الله تعالى نعمه الثلاث في الآفاق بعد نعمة تكوين الأنفس وهي: ألم نجعل الأرض ضامّة للأحياء على ظهرها في منازلهم، والأموات في بطنها تضمُّهم وتجمعهم؟ وجعلنا في الأرض جبالاً ثوابت عاليات، لئلا تميد وتضطرب بكم، وأسقيناكم من ينابيعها، أو من السَّحاب ماءً عذباً صافياً. وهذا كله أعجب من البعث.

ويل، أي عذاب وهلاك شديد في الآخرة، لمن كذب أو كفر بهذه النِّعم، وويل لمن تأمل في هذه المخلوقات الدالّة على عظمة الله تعالى خالقها، وعلى قدرته الفائقة، ثم استمرَّ على تكذيبه وكفره.

ألوان التهديد والعذاب، وأصناف النعيم

وصف الله تعالى ألوان عذاب الكفار وصفاً تقشعر منه الأبدان، وتشيب منه الغلمان، فهو يشتمل على عشرة أنواع من التهديد والتخويف، أربعة منها في آيات سابقة من سورة المرسلات، وهي: القسم الإلهي على العذاب، والتهديد بعذاب مماثل للأمم الغابرة، واللوم على كفران النعم في الأنفس، وكفران النعم في الآفاق، وستة منها في الآيات الآتية: وهي أولاً قول الملائكة للكفار: انطلقوا لعذاب الآخرة، وله أوصاف أربعة: ألسنة النار وأدخنتها ذات شعب ثلاث، ولا ظل من الحر، ولا يفيد شيئاً في رد الحر، وشرر النار كالقصر، وثانياً بطلان الحجة

وفقد العذر، وثالثاً التعذيب بالتقريع والتخجيل والباقي مضاعفة الحسرة، ووصفهم بالإجرام، وتوبيخهم، قال الله تعالى:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ[1] صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ[2] فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ[3] وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٩-٥٠].

هذه تهديدات متوالية للكفار، يقال لهم من خزنة جهنم: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الآخرة. ذلك العذاب سيروا فيه إلى ظل من دخان جهنم، متشعب ثلاث شُعَب، فإن لهب النار إذا ارتفع وتصاعد دخانه، تشعب إلى ثلاث شعب من شدته وقوته، وليس للنار ظل يمنع الحر ولا البرد، ولا يرد الحر ولا يفيد شيئاً في تخفيف العذاب. واللهب: ما يعلو على النار بعد اشتعالها. وشرر هذه النار متفرق، كل شرارة ترمي بها هي كالقصر (البناء العظيم) في العظم والارتفاع، وكالإبل الصفر في اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة. وهلاك وعذاب وخزي يومئذ في القيامة للمكذبين رسل الله وآياته. ولا عذر ولا حجة لأولئك المعذَّبين فيما ارتكبوا من قبائح ومنكرات، فهم لا يتكلمون في ذلك اليوم، لهول ما يرون، وللحيرة والدهشة التي تعتريهم، ولا يأذن الله لهم بالكلام، فيكون لهم اعتذار، لقيام

(١) جمع جَمَل، وهو أعظم الحيوانات البرية. (٢) مكر أو حيلة. (٣) جمع ظل.

الحجة عليهم، وإنما لم يؤذن لهم في الاعتذار، لأن الله تعالى قدم لهم الإنذار في الدنيا.

وعذاب القيامة للمكذبين بسبب ما أنذرتهم الرسل من العذاب في الدنيا، إن استمروا على الكفر، ومعاداة الرسل. وهذا لون من التعذيب الأدبي.

ويقال لهم من الله أو من ملائكته: هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الخلائق، ويتميز فيه الحق من الباطل، جمعناكم بقدرتنا معشر كفار قريش وأمثالكم على ممر الدهر. و(الأولون) المشار إليهم: قوم نوح وغيرهم، ممن جاء في صدر الدنيا، وعلى وجه الدهر. فإن قدرتم أيها الكفار على مكر أو حيلة أو مكيدة لتتخلصوا من العذاب وتنجيكم، فافعلوها، فإنكم لا تقدرون على ذلك. وهذا نهاية التقريع والتوبيخ، وهو تعذيب روحي. وعذاب يوم القيامة متحقق لكل مكذب بالبعث، لظهور العجز وفقد الأمل بالنجاة.

وأما المتقون في الآخرة: فهم في جنات وظلال وارفة تحت الأشجار والقصور، وتحيط بهم الأنهار والينابيع من كل مكان، ولديهم أنواع من الفاكهة والثمار، بحسب ما تطلبه نفوسهم، وتستدعيه شهواتهم.

ويقال لهم في الآخرة على سبيل الإحسان إليهم والتكريم: كلوا أيها المتقون من طيبات الجنة وفاكهتها، واشربوا شرباً هنيئاً، بسبب ما عملتم في الدنيا، من العمل الصالح. وهذا أمر تكريم، لا أمر تكليف.

هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل، ومثل ذلك الجزاء العظيم لهؤلاء المتقين، نجزي المحسنين في أعمالهم، فلا نضيع لهم أجراً، وعذاب وخزي يوم القيامة للمكذبين بالله ورسله، وبما أخبر الله من تكريم هؤلاء المتقين في الآخرة، حيث صاروا في شقاء عظيم، وصار المؤمنون في نعيم مقيم.

ثم خاطب الله تعالى المكذبين بيوم الجزاء (يوم القيامة) على سبيل التهديد والوعيد والتوبيخ: فيقال لهم: كلوا من مآكل الحياة ولذائذها، وتمتعوا بخيراتها زماناً قليلاً لمدة العمر الباقي، ثم تساقون إلى نار جهنم، لشرككم بالله تعالى، ولأنكم مجرمون. إنه عذاب لأولئك المشركين المكذبين بأوامر الله تعالى ونواهيه، وبما أخبرهم به ربهم أنه فاعل بهم.

وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون، فهم يستكبرون عن طاعة الله تعالى، وهذا ذم على ترك الخشوع والتواضع لله، بقبول وحيه وأمره وتكليفه. وهلاك يوم القيامة ثابت للمكذبين بأوامر الله تعالى ونواهيه.

ومما يدعو للتعجب من صنيع الكفار: أنه إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، وما اشتمل عليه من أدلة وجود الله وتوحيده وصدق نبيه ﷺ، فبأي كلام بعده يصدقون؟ ففي القرآن كل ما يرشد إلى الخير وسعادة الدارين، وهو الكتاب الكامل الذي جمع فأوعى.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة، كان إذا قرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ فقرأ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟ قال: فليقل: آمنت بالله وبما أنزل.

ألا إن الضالين الكافرين لا ينتفعون بمواعظ القرآن وحِكَمه البالغة، ولا يهتدون بنوره، وأما المتقون فهم المتدبرون لكلام القرآن، الملتزمون بهديه ونوره.

تفسير سورة النبأ

إثبات البعث وتعداد النعم الإلهية

لا تكاد تجد سورة مكية (أي نزلت في مكة قبل الهجرة) إلا وفيها حديث عن البعث، إما بالإثبات وغرس اليقين حوله، بالقسم أو بإيراد أدلة عقلية وحسية على إمكانه، وإما بوصف أهواله ومخاوفه وآثاره الخطيرة التي تنحصر في شيئين: دخول الجنان أو الزج بالنيران، لأن التشريع المكي عني غالباً بالعقائد، وأهمها توحيد الله ونبذ الشرك، وإثبات النبوة أو الرسالة والوحي، ووقوع القيامة، ووصف القيامة رهيب كما في مطلع سورة النبأ المكية اتفاقاً:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ(١) ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ(٢) ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا(٣) ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا(٤) ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا(٥) ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا(٦) ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا(٧) ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا(٨) ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا(٩) ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا(١٠) ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ(١١) مَاءً ثَجَّاجًا(١٢) ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا(١٣) ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا(١٤) ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ٧٨/ ١-١٦].

---

(١) عن أي شيء يسأل المشركون مراراً رسول الله؟ (٢) عن خبر البعث. (٣) ممهدة مذللة فراشاً. (٤) كالأوتاد وهي الأخشاب المغروزة في الأرض. (٥) أصنافاً ذكوراً وإناثاً. (٦) راحة لأبدانكم. (٧) كاللباس في الستر. (٨) وقتاً للمعيشة بالكسب والعمل. (٩) قوية محكمة. (١٠) مضيئاً وقاداً. (١١) السحب والغيوم. (١٢) مطراً صباباً كثير الهطول. (١٣) الحب: ما يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير، والنبات: ما تقتات به الدواب. (١٤) بساتين ملتفة الأشجار.

ينكر الله تعالى على المشركين المكيين وجميع العالم تساؤلهم عن القيامة، فعن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً؟ عن الخبر المهم العظيم الشأن، الذي اختلفوا في أمره، بين مكذب ومصدق، وكافر ومؤمن به، ومنكر ومقر، وشاكّ ومُثْبت: وهو يوم البعث من القبور بعد الموت. والمراد من الاستفهام: تفخيم الأمر وتعظيمه. وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ متعلق بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، كأنه تعالى قال: لِمَ يتساءلون عن هذا النبأ؟

كلا: كلمة ردع لهم وزجر، لا ينبغي لهم أن يختلفوا في شأن البعث، فهو حق لا ريب فيه، وليرتدعوا عن التساؤل، فإن جميع العالم سيعلمون عاقبة تكذيبهم أو إنكارهم. وكلمة (كلا) الثانية تأكيد للجملة الأولى. وهذا تهديد ووعيد. والبعث قائم حتماً بقدرة الله، ومن مظاهر قدرته تعالى:

- كيف تنكرون البعث؟ وقد شاهدتم أدلة قدرة الله التامة، من جعل الأرض ممهدة مذللة للخلائق، كالمهد للصبي: وهو ما يمهد له من الفراش، للنوم والراحة، وجعل الجبال الراسيات كالأوتاد للأرض، لتسكن ولا تتحرك، وتهدأ ولا تضطرب بأهلها.

- وأوجدناكم في هذا العالم أصنافاً: ذكوراً وإناثاً، لتحقيق التكاثر وإبقاء النوع الإنساني، وليتم التعاون والأنس بين الصنفين.

- وجعلنا نومكم راحة لأبدانكم، وقطعاً لأعمالكم المتعبة في النهار، فبالنوم تتجدد القوى، وينشط العقل والجسد. والسبات: الانقطاع عن الحركة. وجعلنا الليل المظلم الهادئ سكناً تسكنون فيه، وكاللباس الذي يغطي بظلامه الأشياء والأجسام، فكما أن اللباس يغطي الجسد ويقيه من الحر والبرد، ويستر العورات، كذلك الليل يستتر فيه من أراد الاختفاء لقضاء مصالح لا تتوافر في النهار.

- وجعلنا وقت النهار مشرقاً مضيئاً، ليتمكن الناس من تحصيل أسباب المعيشة، والتكسب، والاتجار، والزراعة والصناعة، وممارسة الخدمات الفنية والعملية وغيرها.

- وبنينا فوقكم سبع سموات قوية الخلق، محكمة البناء، متقنة الصنع، مزينة بالكواكب الثوابت والسيارات المتنقلة، وجعلنا الشمس سراجاً مضيئاً على جميع العالم، ينشر الضوء والحرارة، ويستفيد منه كل الكائنات الحية.

- وأنزلنا من السحب القاطرة، والغيوم المتكاثفة التي تنعصر بالماء، ولم تمطر بعد، مطراً منصباً بكثرة وغزارة، كثير السيلان، لنخرج بذلك الماء الكثير الطيب النافع، حباً يقتات به الناس، مثل القمح والشعير والذرة والأرز، ونباتاً تأكله الدواب، من التبن والحشيش وسائر النباتات، وبساتين وحدائق ذات بهجة وأشجار وأغصان ملتفة على بعضها، وثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة أرضية واحدة، يسقى من ماء واحد، وتتفاضل ثمارها في المأكل والتفكه، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٤].

والثّجاج: السريع الاندفاع، كما يندفع الدم من عروق الذبيحة، ومنه قول النبي ﷺ -فيما أخرجه الترمذي عن ابن عمر-: «أفضل الحج: العجُّ والثجُّ». أي رفع الصوت بالتلبية، وصب دماء البُدْن وإراقتها، والمراد: التضرع بالدعاء الجهير، وذبح الهدي. والحب: جنس الحبوب الذي ينتفع به الحيوان. والنبات: الذي يستعمل رطباً لإنسان أو بهيمة، لذا ذكر الله تعالى موضع المَنْفَعَتَيْن.

صفات يوم القيامة

يوم القيامة يوم عصيب رهيب حاسم، سمي يوم الفصل، وتحدد وقته بأجل معلوم بعلم الله تعالى وحده دون سواه، ولا يتقدم وقته ولا يتأخر، وعلامات ذلك اليوم كثيرة، منها نفخ الصور، وتصدع السماء، وتسيير الجبال عن أماكنها وصيرورتها هباء منبثاً كالهواء. وليس بعد الموت والقيامة إلا أحد شيئين: إما الجنة للمتقين وإما النار للظالمين، كما تقرر الآيات الآتية:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا[١] ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ[٢] فَكَانَتْ سَرَابًا[٣] ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا[٤] ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ[٥] مَـَٔابًا[٦] ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا[٧] ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا[٨] ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا[٩] ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا[١٠] ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٧٨/ ١٧-٣٠]

إن يوم القيامة الذي يسمى بيوم الفصل، لأن الله تعالى يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين، وبين الحق والباطل، كان مؤقتاً بوقت محدد، وميعاد معين، للأولين والآخرين، للحساب والجزاء. والميقات: مفعال من الوقت، كميعاد من الوعد.

وعلاماته ثلاث:

- إنه اليوم الذي ينفخ فيه إسرافيل بالبوق أو القرن، فتأتون معشر الخلائق من قبوركم إلى موضع العرض زمراً زمراً، وجماعات جماعات متميزة، تأتي فيه كل أمة

---

(١) جماعات متميزة. (٢) وتشققت السماء وتصدعت، وأزيلت الجبال من أماكنها. (٣) فكانت كالسراب: وهو ما يظنه الرائي ماء. (٤) موصد رصد. (٥) للظالمين الكافرين المتجاوزين الحد في المعصية. (٦) مرجعاً ومأوى. (٧) مدداً متطاولة، لا نهاية لها. (٨) الحميم: الماء الحار، والغساق: ما يسيل من أجساد أهل النار. (٩) تكذيباً كثيراً. (١٠) إحصاء مكتوباً.

مع رسولها، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ١٧/٧١]. والصور: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل لبعث الناس.

- وفيه تتصدع السماء وتتشقق، فصارت ذات أبواب كثيرة، وطرقاً ومسالك لنزول الملائكة. وقوله: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ معناه تنفطر وتتشقق حتى يكون فيها فتوح كالأبواب في الجدران.

- وفيه تزول الجبال عن مواضعها، وتتبدد في الهواء، فكانت هباء منبثاً كالسراب: وهو ما يتخيله الناظر ماء، أي تدكّ أولاً، ثم تصير كالصوف المندوف، ثم تتقطع وتتبدد وتصير كالهباء، ثم تنسف عن الأرض بالرياح.

والذي يلقاه الكافرون الضالون يومئذ هو النار، إن جهنم كانت في حكم الله وقضائه مرصدة معدة للطغاة الجبارين، ومرجعاً ومأوى لهم، حال كونهم لابثين فيها (ماكثين) مدداً طويلة من الزمان، تتعاقب الأحقاب (المدد) إثر بعضها، إلى الأبد. ومرصاداً: موضع الرصد، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٨٩/ ١٤].

وهذا دليل على أن جهنم كالجنة معدة مخلوقة الآن، لأن (مرصاداً) معناه: معدّة. والأحقاب جمع حُقَب وحِقَب وحُقُب، وهو جمع حِقْبة: وهي المدة الطويلة من الدهر غير محدودة.

-لا يذوق المعذبون في جهنم برداً يقيهم من الحر، أي لا يمسهم ما يستلَذ ويكسر عذاب الحر، فالذوق مستعار، ولا يجدون شراباً يزيل العطش إلا الحميم: وهو الماء الحار الشديد الغليان، وإلا الغسّاق: وهو ما يسيل من أجساد أهل النار من قيح وصديد دائم السيلان.

وهذا الجزاء العدل موافق الذنب العظيم الذي ارتكبوه نوعاً ومقداراً، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار، وقد كانت أعمالهم سيئة، فجوزوا

بمثلها، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠]. وقوله: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦﴾ معناه: لأعمالهم وكفرهم، أي هو جزاؤهم الجدير بهم، الموافق مع التحذير لأعمالهم، فهي كفر، والجزاء نار.

- إنهم اقترفوا الأعمال السيئة، والقبائح المنكرة، لأنهم لا يطمعون في ثواب، ولا يخافون من حساب، لأنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ٢٧﴾ معناه لا يتوقعون ولا يخافون حساباً، أي إنهم كانوا لا يصدقون بالحساب، فهم لذلك لا يرجونه ولا يخافونه، وهو علة التأبيد في العذاب.

وإن الله تعالى يعلم بجميع أعمال العباد، فكتبها أو دوَّنها عليهم سلفاً الحفظةُ من الملائكة كتابة تامة شاملة، ومحصاة إحصاء منضبطاً، ويكون المكتوب المسجل سابقاً، مطابقاً لما تكتبه الملائكة من الأعمال، وسيجزيهم الله تعالى على ذلك جزاء مناسباً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقوله: ﴿كِتَٰبٗا﴾ مصدر وضع في موضع إحصاء. وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾ يراد به: كل شيء شأنه أن يحصى، وفي هذا الخبر ربط لأجزاء القصة بأولها، أي هم مكذِّبون كافرون، والله أحصى ذلك بالقول لهم في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩﴾ قال أبو حيان في البحر المحيط: عام مخصوص، أي كل شيء مما يقع عليه الثواب والعقاب، وهي جملة اعتراضية.

ويقال لهم أثناء التعذيب تقريعاً وتوبيخاً: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ أي يقال لأهل النار، بسبب الكفر والتكذيب بالآيات، وقبح الأفعال: ذوقوا ما أنتم فيه من العذاب الأليم، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، قال عبد الله بن عمرو (وفي البحر المحيط: ابن عمر): لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ أي فهم في مزيد من العذاب أبداً.

إن أوصاف يوم القيامة المرعبة، الفاصلة في مصائر الناس، وما يعقبها من

حساب وجزاء، تنبئ نبأ يقينياً بما يقع في المستقبل في عالم الآخرة، وتكاد تنخلع القلوب من مواضعها من شدة الأهوال، وألوان العذاب في نيران جهنم، علماً بأنه حق عدل مطابق للأفعال والأقوال التي صدرت من الكافرين، وأردت بهم إلى جهنم.

أحوال السعداء يوم القيامة

لما ذكر الله تعالى حال أهل النار، عقّب بذكر حال أهل الجنة، ليتبين الفرق. فهم فائزون ناجون، حيث تخلصوا من النار، وأدخلوا الجنة، فضلاً من الله وإحساناً. والمتأمل في حال الفريقين يجد الفرق واسعاً، فيرغب المؤمنون العقلاء بالجنة، ويرهبون المخالفة والعصيان، والتورط في أعمال أهل النار. وبيان حال الفريقين يشتمل على وعيد الكفار، ووعد المؤمنين الأخيار، كما يتضح من هذه الآيات:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا(١) ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ(٢) وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا(٣) ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا(٤) ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا(٥) ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا(٦) ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ(٧) وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا(٨) لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا(٩) ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا(١٠) ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا(١١) ﴿٤٠﴾﴾

[النبأ: ٧٨/ ٣١-٤٠].

هذا مصير المؤمنين الطائعين، وهو أن للذين اتقوا ربهم بالعمل بأوامره،

---

(١) مكان فوز أو فوزاً. (٢) بدل من (مفازاً) أي بساتين مثمرة الأشجار، مسورة بالجدران. (٣) جمع كاعب: وهي الفتاة المستديرة الثدي، والأتراب جمع ترب: ذوات السن الواحدة كاللدات. (٤) إناءً بلورياً مملوءاً يشرب فيه، والدهاق: الممتلئ. (٥) اللغو: ساقط الكلام، والكذاب: التكذيب. (٦) إحساناً من الله كافياً على قدر أعمالهم. (٧) جبريل. (٨) مصطفين. (٩) قولاً صواباً. (١٠) مرجعاً. (١١) كالتراب لم أخلق.

واجتناب نواهيه، مفازاً أي موضع الفوز، لأنهم زُحزحوا عن النار، وأدخلوا الجنة يتمتعون بالبساتين المسوّرة ذات الأشجار والثمار والأعناب اللذيذة الطعم، و بحوريات الجنة الكواعب النواهد، وذوات الأثداء التي لم تتكسر ولم تتدلّ، المتساويات في السن، ويتناولون الشراب اللذيذ بالكؤوس المترعة المملوءة بخمر الجنة غير المسكرة، وعطف الأعناب على الحدائق: عطف خاص على عام. لا يسمعون في الجنة الباطل من الكلام، ولا يكذِّب بعضهم بعضاً، مما يدل على نظافة البيئة وسموها الأدبي، لترتاح النفوس، ولا تخدش بالكلام الشاذ. جازاهم الله تعالى على إيمانهم وصالح أعمالهم، وأعطاهم ذلك عطاء، تفضلاً منه وإحساناً، وهو كاف وافٍ على قدر أعمالهم، إنجازاً لوعد الله تعالى إياهم.

وهذا الرب المتفضل المجازي جزاء حسناً هو المتصف بالعظمة والجلال، ورب السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، ولا يقدر أحد على ابتداء خطابه إلا بإذنه، لجلاله وهيبته.

لا يملك الناس خطاب الله تعالى يوم يقوم جبريل عليه السلام وجميع الملائكة مصطفين(١) صفوفاً منتظمة، مع رفعة أقدارهم ودرجاتهم، لا يتكلمون أيضاً في يوم القيامة الرهيب إلا بشرطين:

الأول-الإذن من الله بالشفاعة، كما جاء في آية أخرى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥].

والثاني-أن يقول قولاً صائباً: أي موافقاً للحق والصدق إذا كان الإذن للشافع، وأن يكون ذلك المشفوع به ممن قال في الدنيا صواباً، أي شهد بالتوحيد بأن قال: لا إله إلا الله، إذا كان الإذن للمشفوع له.

---

(١) عطف عام على خاص. ويوم ظرف لفعل (لايتكلمون).

والروح: هو جبريل عليه السلام في رأي الأكثرين، لقول الله عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٩٣-١٩٤]. والآية دليل على أن الملائكة وجبريل عليهم السلام أعظم المخلوقات قدراً ومكانة، وعلى عظمة يوم القيامة ورهبته. وعطف الملائكة على جبريل: عطف عام لاخاص.

وذلك اليوم يوم القيامة هو اليوم الحق، أي الثابت الوقوع، المتحقق الذي لا ريب فيه، فمن أراد النجاة، اتخذ إلى ثواب ربه مرجعاً وطريقاً يهتدي إليه، ويقرّبه منه، ويُدْنيه من كرامته، ويباعده من عقابه، بالإيمان الحق والعمل الصالح.

ثم هدَّد الله تعالى الكافرين، وحذّرهم وخوَّفهم من ذلك اليوم يوم القيامة مرة أخرى. إننا ياأهل مكة وأمثالكم من الكفار، حذرناكم وخوفناكم عذاباً قريب الوقوع، وهو في يوم القيامة، فإنه لتأكد وقوعه، صار قريباً، ولأن كل ما هو آت قريب، وفي هذا اليوم القريب الوقوع، ينظر كل امرئ ما قدم من خير أو شر في حياته الأولى في الدنيا، ويقول الكافر من شدة ما يعانيه من أنواع الأهوال والعذاب، كأُبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وأبي جهل، وأبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي: ليتني كنت تراباً كالحيوانات، لم أخلق، فهو يتمنى أن لم يكن إنساناً موجوداً أولاً، ولا مبعوثاً ثانياً أو مرة أخرى. وإنما تصير الحيوانات تراباً بعد الاقتصاص من بعضها لبعض.

وهاتان الآيتان الأخيرتان تدلان على أن الناس يكونون يوم القيامة فريقين: فريق المؤمنين المقربين من ثواب الله وكرامته ورضاه، وفريق الكافرين الجاحدين البعيدين من رحمة الله، الواقعين في صنوف العذاب.

فأي الفريقين أهدى سبيلاً، وأرشد طريقاً، وأسلم عاقبة، وأحسن قدوة؟! لو سئل صبي عاقل دون البلوغ عن الفرق لأجاب، ولما وسعه إلا اتباع أهل الإيمان والنجاة.

تفسير سورة النازعات

إثبات القيامة وأهوالها وتهديد المكذبين بها

أقسم الله تعالى لإثبات البعث ببعض الظواهر الكونية، كالقسم بالرياح المتتابعة، والملائكة في مطلع سورة المرسلات، والحلف بالملائكة التي تنزع الأرواح أو تسبح من السماء، أو تنزل بتدبير بعض الأمور، كما في مطلع سورة النازعات، واشتمل القَسَم على إيراد بعض الأخبار عن أهوال القيامة، وأعقب ذلك تهديد المكذبين بهذا اليوم في الدنيا والآخرة، كما يبدو واضحاً في مطلع سورة النازعات المكية بالاتفاق:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا(١) ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا(٢) ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا(٣) ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا(٤) ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا(٥) ﴿٥﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ(٦) ﴿٦﴾ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ(٧) ﴿٧﴾ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ(٨) ﴿٨﴾ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ(٩) ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ(١٠) ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ(١١) ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ(١٢) ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ(١٣) ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ(١٤) ﴿١٤﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى(١٥) ﴿١٦﴾

---

(١) الملائكة التي تنزع أرواح الكفار بشدة، وقيل: الكواكب الجارية. (٢) الملائكة التي تخرج أرواح المؤمنين برفق، وقيل: الكواكب تخرج من برج إلى آخر. (٣) الملائكة التي تسبح من السماء (تنزل بسرعة) وقيل: الكواكب تسبح في أفلاكها. (٤) الملائكة تسبق بالأرواح إلى مستقرها، أو الكواكب يسبق بعضها بعضاً. (٥) الملائكة تنزل بأمر ربها. (٦) تتحرك الأرض والجبال. (٧) تلحق بها السماء والكواكب. (٨) مضطربة قلقة. (٩) خاضعة ذليلة. (١٠) في الحياة التي كنا فيها. (١١) بالية. (١٢) رجعة فيها خسارة. (١٣) صيحة. (١٤) أحياء على وجه الأرض. (١٥) الوادي المطهر طوى بين أيلة ومصر.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ(١) ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ(٢) ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ(٣) ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ(٤) فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ(٥) ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

[النازعات: ٧٩/ ١-٢٦].

أقسم الله تعالى بالملائكة التي تنزع أوراح الكفار بشدة وعنف، وأرواح المؤمنين بسرعة ولطف، وبالملائكة الذين ينزلون من السماء مسرعين، وتسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وتدبر الأمر بأن تنزل بالحلال والحرام وتفصيلهما، وقال الحسن البصري: المراد بالكلمات الخمس: النجوم والكواكب في جريها وتنقلها بين الأبراج وسيرها في أفلاكها هادئة، أو مسرعة، أو مدبِّرة أمراً بأمر الله تعالى.

وقوله: ﴿أَمْرًا﴾ يراد به الجنس، فيقوم مقام الجمع، وتدبير الأمر في الحقيقة لله تعالى، وإنما أضيف إلى الملائكة لإتيانها به، ولأنها من أسبابه، وجواب القسم محذوف، أي لتبعثن بعد الموت.

حين تتحرك الأرض وتضطرب الجبال، وتتلوها السماء، فتنشق بما فيها من الكواكب وتنتثر.

هناك قلوب تكون يوم القيامة خائفة مضطربة قلقة، لما عاينت من أهوال يوم القيامة، وهي قلوب الكفار، وأبصار أصحابها ذليلة حقيرة، مما عاينت من الأهوال، لموتهم كافرين وإنكارهم البعث، وأقوالهم هي:

يقول المشركون المكيون وأمثالهم: هل نرد إلى حياتنا الأولى، وابتداء أمرنا قبل الموت، فنصير أحياء بعد موتنا. والحافرة: لفظة توقعها العرب على أول أمر رُجع

---

(١) تجاوز الحد. (٢) تتزكى وتطهر نفسك من الآثام. (٣) انقلاب العصا حية. (٤) جمع.
(٥) من أجل عقوبتهما.

إليه من آخره. وهم يقولون ذلك على جهة الاستخفاف والعجب والتكذيب. والمعنى: أئنا لمردودون إلى الحياة بعد مفارقتها بالموت؟!

وكيف يتصور ردنا إلى الحياة، بعد أن صرنا عظاماً بالية متفتتة منخورة؟ إنا إذا رددنا بعد الموت، وصح أن بعثنا يوم القيامة لنخسرن خسارة محققة، لتكذيبنا بمحمد، وهذا قول على سبيل الاستهزاء والتهكم، هذا ما قالوه، فنزلت هذه الآية.

فرد الله عليهم: لا تستبعدوا ذلك، فإنما الأمر يسير، ولا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله، وما هي إلا صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية للبعث من القبور، فإذا هم على وجه الأرض أحياء، والساهرة: أرض الآخرة، وهي أرض بيضاء مستوية، ووصفت بذلك لأنهم لا ينامون عليها حينئذ. وقال جماعة: هي أرض أو جبل بالشام، قريبة من بيت المقدس.

ثم واسى الله نبيه وآنسه عن تكذيب قومه، بقصة موسى عليه السلام مع فرعون الجبار: فقال له: ألم يبلغك قصة موسى عليه السلام مع فرعون، حيث ابتعثه الله إليه، وأيده بالمعجزات، حين ناداه ربه ليلاً، مكلماً إياه، مكلفاً له بالنبوة والرسالة في الوادي المبارك المطهر: وهو طوى: وهو الوادي في جبل سيناء. وقال الله تعالى له مبيناً مَهَمَّته: اذهب إلى فرعون طاغية مصر، فإنه جاوز الحد في العصيان والتكبر والكفر بالله، حيث ادعى الربوبية، واستعبد قومه.

وأسلوب دعوتك، بأن تقول له: هل لك رغبة في التطهر من الشرك والعيوب؟ وأرشدك إلى معرفة الله وتوحيده وعبادته، وإنما أمره الله بلين القول، ليكون أنجع أو أنجح في دعوته، وهذا دليل على أن هدف البعثة: هداية الناس إلى معرفة الله.

ودليل صدق موسى أمام فرعون: معجزته، وهي أنه أظهر له العلامة الكبرى الدالة على صدق نبوته: وهي انقلاب العصا حية، وتحول اليد بيضاء، ومع ذلك كذّب وخالف، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾

أي فكذب فرعون بموسى، وبما جاء به وبالحق، وعصى الله عز وجل فلم يطعه وتولى وأعرض عن الإيمان، وأخذ يسعى بالفساد في الأرض، لإبطال دعوة موسى. وقوله: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ دليل على أنه كذب بالقلب واللسان، وعصى بإظهار التمرد.

فجمع جنوده وأهل مملكته للتشاور، وجمع السحرة للمعارضة، ثم نادى في الجميع: أنا الرب الأعلى، وصاحب السلطان المطلق، فأغرقه الله مع جنوده.

وأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وانتقم منه انتقاماً جعله عبرة ونكالاً لأمثاله المتمردين في الدنيا، وجع له عقوبتي الدنيا والآخرة، بالإغراق والإذلال في الدنيا، وبالإحراق في الآخرة. وكلمة (نكال) منصوب على المصدر.

إن فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويخاف منه، وينزجر، فينظر في أحداث الماضي، ويتعظ للحاضر والمستقبل.

وعيد الكفار المخاطبين برسالة محمد ﷺ

خاطب الله تعالى مباشرة منكري البعث، محتجاً عليهم ببدء الخلق على إعادته، فإن الله تعالى خلق السماوات والأرض والجبال: فهو قادر على إعادة الْخَلْق، بل إن ذلك واقع فعلاً، وسيكون الناس فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، ثم أجاب الله تعالى عن سؤال المشركين: متى الساعة؟ بأن علمها مفوض إلى الله سبحانه، وأن النبي ﷺ مبعوث للإنذار فقط، وأن ما أنكروه سيرونه عياناً، وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار، وهذا موضح في الآيات الآتية:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا(١) فَسَوَّىٰهَا(٢) ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ(٣) لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا(٤) ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ(٥) ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ(٦) ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ(٧) ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ(٨) ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ(٩) ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا(١٠) ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ(١١) ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا(١٢) ﴿٤٦﴾﴾

[النازعات: ٧٩/ ٢٧-٤٦].

هل أنتم يا مشركي مكة وأمثالكم أصعب وأمتن خلقاً، أو خلق السماء أشد متانة؟ لا شك بأن السماء أشد خلقاً، فإن الله تعالى جعل مقدار سَمْكِها (أي ارتفاعها) ما بين سطحها الأسفل الذي يلينا، وبين سطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها، وفي هذه الآية دليل على أن بعث الأجساد من القبور لا يتعذر على قدرة الله تعالى.

وجعل ليل السماء مظلماً، وأبرز ضحى النهار بإضاءة الشمس، وبسط الأرض ومهدها وجعلها مفلطحة كالبيضة، بعد خلق السماء، فإنها كانت مخلوقة غير مدحوة قبل خلق السماء، ثم دحيت بعد خلق السماء. فدل هذا على أن الله تعالى خلق الأرض ولم يَدْحها، ثم استوى إلى السماء، وهي دخان فخلقها وبناها، ثم دحا الأرض بعد ذلك. ودَحْو الأرض: بسطها.

(١) السَّمْك: مقدار الارتفاع، أي جعل الله مقدار ارتفاعها ما بين سطحها الأسفل والأعلى فوقها مديداً. (٢) جعلها مستوية محكمة. (٣) جعله مظلماً. (٤) أبرزه. (٥) بسطها ومهدها للعيش عليها. (٦) الداهية الكبرى يوم القيامة. (٧) ظهرت بارزة معاينة. (٨) تجاوز الحد في العصيان. (٩) مقر الإيواء. (١٠) متى وقت رسوها وحدوثها. (١١) نهايتها. (١٢) طرف النهار أو أوله.

وأعد الله تعالى أثناء دحو الأرض وسائل الحياة والعيش بأن فجَّر من الأرض الماء بالأنهار والعيون والينابيع، وأنبت فيها المراعي والأعشاب والحشائش للدواب، وجعل فيها النبات لبني آدم كالحبوب والثمار، وجعل الجبال كالأوتاد للأرض، لئلا تتحرك بأهلها، ومعنى (أرساها): أثبتها. وجميع هذه النعم إذا تُدُبرّت فهي متاع للناس والأنعام، يتمتعون فيها وبها، وجعل الله كل ذلك منفعة وفائدة لكم أيها الناس ولأنعامكم التي تركبونها وتأكلون لحمها، وهي الإبل والبقر والغنم.

فإذا جاء وقت مجيء الداهية العظمى وهي القيامة، التي تطم على سائر الطامات، وهي يوم القيامة، أو النفخة الثانية للبعث من القبور، وينسى الإنسان كل شيء قبلها في جنبها، ويتذكر أعماله التي سعى بها في الدنيا، وتبرز، أي تظهر واضحة للعيان الجحيم، لمن يشاهدها ويُبْصر ويُحصِّل.

ويأتي الحكم الفاصل في الخلائق بعدئذ، فأما من طغى (أي تجاوز الحدود التي ينبغي للإنسان أن يقف عندها، فكفر وعصى، وتمرد وتكبر) وقدم الحياة الدنيوية على الآخرة، ولم يستعد لها، ولا عمل عملها، فالنار المحرقة هي مأواه ومثواه ومستقره، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة.

وأما من خاف القيام بين يدي الله عز وجل، وخاف حكم الله فيه يوم القيامة، وأدرك عظمة الله وجلاله، ونهى نفسه عن هواها، وزجرها عن المعاصي والمحارم التي تشتهيها، وردها إلى طاعة مولاها، فالجنة مكانه الذي يأوي إليه، ومستقره ومقامه، لا غيرها.

ثم أورد الله تعالى تساؤل المشركين استهزاء عن ميعاد القيامة، يسألك أيها النبي المشركون المكذبون بالبعث عن وقت رسو أو استقرار القيامة، وميعاد وقوعها، متى يأتي بها الله؟ نزلت بسبب أن قريشاً كانت تُلح في البحث عن وقت الساعة التي كان

رسول الله ﷺ يخبرهم بها، ويتوعدهم بأمرها، ويكثر من ذلك. أخرج الحاكم وابن جرير عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يَسْأل عن الساعة، حتى أنزل عليه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾.

أوقف الله تعالى نبيه عليه السلام بقوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ أي في أي شيء أنت من ذكر تحديدها ووقتها؟ أي لست من ذلك في شيء، ولا مصلحة لك في بيانها وهذا تعجب من كثرة ذكره لها، ليس علمها إليك، ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها إلى الله تعالى، فهو وحده الذي يعلم وقتها على التعيين، إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه، وما أنت إلا مخوّف لمن يخشى قيام الساعة، فمن خشي الله وخاف عقابه، اتبعك ونجا، ومن كذب بالساعة وخالفك، خسر وخاب، فدع علم ما لم تكلَّف به، واعمل بما أمرت به من إنذار.

إن هذا اليوم الذي يسألون عنه واقع حتماً، وكأنهم فيه، فإنهم إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر، ورأوا القيامة، استقصروا مدة الدنيا، ورأوا كأنها ساعة من نهار، أو عشية من ضحى يوم. قرّب الله تعالى بهذا أمر الساعة بإخباره أن الإنسان عند رؤيته إياها يظن أنه لم يلبث إلا عشية يوم أو بُكرته، فأضاف (الضحى) إلى (العشية) من حيث هما طرفان للنهار. والمراد تقليل مدة الدنيا في نفوسهم إذا رأوا أهوال القيامة.

تفسير سورة عبس

المساواة في الإسلام
وعظة القرآن

نزلت سورة عبس المكية بسبب عبد الله بن أم مكتوم، أثناء تشاغل النبي ﷺ عنه مع جماعة من قريش، فيهم الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، والعباس، وأبو جهل، لأن الرسول ﷺ كان شديد الحرص على إسلام قريش وأشرافهم، وكان يتحفّى بدعائهم إلى الله تعالى. أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: نزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ، فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله يعرض عنه، ويقبل على الآخر، فيقول له: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا، فنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ وهذا مطلعها:

﴿عَبَسَ(١) وَتَوَلَّىٰٓ(٢) ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ(٣) ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ(٤) ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ(٥) ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ(٦) ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ(٧) ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ(٨) ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ(٩) ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ(١٠) ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ

(١) قطب وجهه. (٢) أعرض. (٣) عبد الله بن أم مكتوم. (٤) يتطهر من الذنوب. (٥) الموعظة. (٦) عن سماع القرآن. (٧) تتصدى، أي تتعرض له بالموعظة. (٨) يسرع في طلب الخير. (٩) تتلهى أي تتشاغل عنه. (١٠) موعظة.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ(١) ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ(٢) ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ(٣) ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ(٤) ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ(٥) ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ(٦) ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ١-٢٣].

قطّب النبي ﷺ وجهه، وأعرض، لمجيء الأعمى عبد الله بن أم مكتوم إليه يسأله، بقوله: «علمني مما علّمك الله» فكره النبي أن يقطع عليه كلامه مع زعماء الشرك، رجاء إيمانهم، فأعرض عنه، فنزلت هذه الآية.

وما يُعْلمك يا محمد أنه لعل هذا الأعمى يتطهر من الذنوب والآثام، بالعمل الصالح، بسبب ما يتعلمه منك، أو يتذكر أو يتعظ بما تعلمه، فتنفعه الموعظة.

ثم عاتب الله تعالى نبيه بصراحة، فقال له: أما من استغنى بماله وجاهه عن القرآن ورسالتك، وعن الإيمان والهداية، فأنت تقبل عليه بوجهك وحديثك، وتتعرض له بالموعظة، ولا شيء عليك في أن لا يسلم ولا يهتدي، ولا يتطهر من الذنوب، فإنه ليس عليك إلا البلاغ.

وأما من أتى إليك مسرعاً بجد لطلب الهداية والإرشاد إلى الخير، والاتعاظ بآيات الله، وهو يخاف الله تعالى، فأنت عنه تتشاغل، وتعرض. وهذا دليل على وجوب المساواة في الإنذار بين الناس جميعاً، لا فرق بين شريف وضعيف ورجل وامرأة.

كلا (كلمة ردع وزجر) زجراً للمخاطب عن الشيء المعاتب عليه، أو عن معاودة مثله، لا تفعل مثل ذلك الفعل مع ابن أم مكتوم، من الإعراض عن الفقير، والتصدي للغني مع كونه ليس ممن يتزكى، وهذه الآيات موعظة وعبرة، جدير بك

---

(١) في صحائف مكتوبة مشرفة عند الله. (٢) رفيعة القدر منزهة عن الشياطين. (٣) جمع سافر، هم الكتبة من الملائكة. (٤) أعزاء على الله، أتقياء مطيعين لله تعالى. (٥) أنشأه في أطوار مختلفة وهيأه لما يصلح له. (٦) أحياه.

العمل بموجبها. وهذا يدل على تعظيم شأن القرآن، سواء قبله الكفار أم لا. قال سفيان الثوري: فكان أي النبي بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم قال: مرحباً بما عاتبني فيه ربي عز وجل، وبسط له رداءه، واستخلفه النبي على المدينة مرتين.

وتلك التذكرة ذات صفتين: إنها تذكرة بينة ظاهرة، مقدور على فهمها، فمن رغب فيها اتعظ بها، وحفظها، وعمل بمقتضاها.

وهي تذكرة مثبتة كائنة في صحف مشرفة عند الله تعالى، لما فيها من العلم والحكمة، وإثباتها في اللوح المحفوظ، وكونها رفيعة القدر عند الله، منزهة، لا يمسها إلا المطهرون، محمولة بأيدي ملائكة وسائط ينقلون الوحي للرسل، لتبليغها للناس، وهم كرام على ربهم، ومترفعون عن المعاصي، أتقياء مطيعون لله عز وجل، صادقون في إيمانهم.

ثم ذم الله تعالى منكر البعث بقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي حقَّ قتل الإنسان الكافر، أي هو أهل أن يُدعى عليه بهذا، أيّ شيء أكفره؟ أي جعله كافراً. والمراد: إرادة إيصال العقاب الشديد للكافر.

قيل: إن هذه الآية نزلت في عتبة بن أبي لهب، وذلك أنه غاضب أباه، فأتى النبي ﷺ، ثم إن أباه استصلحه وأعطاه مالاً، وجهَّزه إلى الشام، فبعث عتبة إلى النبي ﷺ وقال: إني كافر برب النجم إذا هوى. فدعا عليه النبي ﷺ، فأخذه الأسد وأكله بطريق الشام، أخرجه ابن المنذر عن عكرمة.

من أي شيء مهين خلق الله هذا الكافر بربه؟! فلا ينبغي له التكبر عن الطاعة. وهو استفهام على معنى التقرير على تفاهة الشيء الذي خلق الله الإنسان منه. خلق الله هذا الكافر بربّه، وقدره أطواراً وأحوالاً، وسواه وهيأه لمصالح نفسه. وأتم خلقه وأكمله بأعضائه الملائمة لحاجاته مدة حياته، وزوده بطاقات العقل والفهم وبالحواس المدركة، للاستفادة من نعم الله تعالى، فلا يستعملها في إغضابه.

ثم يسر الله تعالى خروج هذا الإنسان من بطن أمه ورحمها، ومكنّه من تحصيل الخير أو الشر، قال مجاهد: أراد السبيل عامة، اسم الجنس في (هدى وضلال) أي يسر قوماً لهذا، وقوماً لهذا. وقال الحسن البصري ما معناه: إن السبيل هي سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان، وتيسيره له: هو هبة العقل.

ثم بعد خلقه له، قبض روحه، وأمر بمواراته في قبر، أي أن يُجعل له قبر. وفي ذلك تكريم، لئلا يطرح كسائر الحيوان، ثم إذا شاء الله أنشره، أي أحياه بعد موته، أو بعثه بعد موته. وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ﴾ يريد: إذا بلغ الوقت الذي قد شاءه، وهو يوم القيامة.

كلا، أي هذا ردع وزجر للإنسان عما هو عليه، فلم يخل إنسان من تقصير قط، إما بالكفر، وإما بالعصيان، وإما بارتكاب خلاف الأولى والأفضل لما يليق بمنزلته، ولم يفعل بما أمره الله إلا القليل، وهذا تعجيب من حال الإنسان.

نعم الإله على الإنسان وأهوال القيامة

ذكر الله تعالى من أجل بيان قدرته نعمه في الأنفس البشرية، ثم ذكر دلائل الآفاق، وعدّد النعم التي يحتاج إليها الإنسان، لقوام حياته، لعله يقابل النعمة بالوفاء والشكر والإيمان، ثم حذره مما يلقاه في الآخرة من أهوال القيامة، التي تملأ النفس خوفاً ورهبة، ليكون ذلك مدعاة إلى التأمل في الدلائل، وفي المبادرة إلى الإيمان بالموجد الخالق، والإعراض عن الكفر، والتواضع لكل أحد، كما يبدو في هذه الآيات:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا

حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا[١] ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا[٢] ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا[٣] ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ[٤] ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ[٥] وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ[٦] ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ[٧] ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ[٨] ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ[٩] ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ[١٠] ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ[١١] ﴿٤٢﴾ [عبس: ٨٠/ ٢٤-٤٢].

ليتأمل الإنسان كيف خلق الله طعامه الذي يتعيش به، وكيف صنعه الله له؟ وهذا منّة بالنعمة المتكررة، واستدلال بإحياء النبات من التراب على إحياء الأجساد بعد البلى. وكيفية إيجاد الطعام: أننا نحن الله أنزلنا الماء من السماء أو السحاب، على الأرض بغزارة وكثرة، وصبُّ الماء: هو المطر، ثم أسكناه في الأرض، ثم أروينا البذور في باطن الأرض بالماء، ثم شققناها بالنبات الخارج منها، فارتفع وظهر على وجهها، فوجدت النباتات المختلفة.

فأنبتنا في الأرض الحبوب المقتاتة التي يتغذى بها كالحنطة والشعير والأرز، والأعناب المتنوعة، وأنواع البرسيم لأكل الدواب وعلفها، قال أبو عبيدة: القضب: الرَّطبة، وأهل مكة يسمون القتَّ القضب، لأنه يُقْضب كل يوم. وقال ابن عطية: إن القَضْب هنا: هو كل ما يُقضب ليأكله ابن آدم، غضاً من النبات، كالبقول والهليون ونحوه، فإنه من المطعوم جزء عظيم، ولا ذكر له في الآية إلا في هذه اللفظة.

وأوجدنا أيضاً بساتين ذات أشجار ضخمة ومتكاثفة كثيرة، وفاكهة: وهي كل ما

---

(١) هو المأكول الرطب كالبقول. (٢) بساتين ضخمة عظيمة، كثيرة الأشجار. (٣) الكلأ والمرعى.
(٤) النفخة التي تقوم بها القيامة. (٥) زوجته. (٦) يصرفه عما عداه. (٧) مضيئة متهللة. (٨) فرِحة.
(٩) غبار. (١٠) تعلوها ألوان السواد كالدخان. (١١) الخارجون عن حدود الدين والعقل.

يتفكه به الإنسان من الثمار، من الفاكهة المعروفة، ومرعى من العشب أو الحشيش للدواب. أي إن (الأبّ) هو المرعى، وقيل: التبن.

وحكمة الإنبات: أننا جعلنا ذلك متعة أو عيشة لكم أيها البشر ولأنعامكم. فإذا جاءت القيامة. ولفظة (الصاخة) في حقيقتها إنما هي لنفخة الصور التي تُصخُّ الآذان، أي تُصِمّها، واستعملت في القيامة، والداهية والصيحة المفرطة من قبيل الاستعارة.

إذا جاءت الصاخة ترى المرء يفرّ من أقرب الناس له، من أخيه وأمه وأبيه وزوجته وولده، ويبتعد عنهم، لشدة الهول والخطب، ولكل امرئ منهم يومئذ حال أو شغل يشغله عن الأقرباء، ويصرفه منهم، ويفرّ عنهم، حذراً من مطالبتهم إياه بشيء يهمهم، ولئلا يروا ماهو فيه من الشدة. روي أن الرسل تقول يومئذ: نفسي نفسي، لا أسألك غيري. و (الشأن الذي يغنيه) هو فكره في سيئاته، وخوفه على نفسه من التخليد في النار. والمعنى: يغنيه عن اللقاء عن غيره. قال النبي ﷺ -فيما أخرجه ابن جرير عن أنس رضي الله عنه- لعائشة رضي الله عنها: «لا يضرُّكِ في القيامة كان عليك ثياب أم لا»، وقرأ هذه الآية.

وأحوال الناس في القيامة فريقان: سعداء وأشقياء، عبر عنهم بما يأتي:

وجوه متهللة مشرقة مضيئة، وهي وجوه المؤمنين أهل الجنة، لأنهم علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم والكرامة.

ووجوه أخرى في القيامة، عليها غبار وكدورة، والقترة: غبار الأرض، لما تراه مما أعدّه الله لها من العذاب، يغشاها سواد، وذلة وشدة، وأصحاب تلك الوجوه المغبّرة: هم الذين كفروا بالله، فلم يؤمنوا به، ولا بما جاء به أنبياؤه ورسله، وهم الذين اقترفوا المعاصي والسيئات، فهم الفاسقون الكاذبون، الذين جمعوا بين الكفر والفجور، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٧١/ ٢٧] أي إن

الكفار هم الفجار، وليسوا أصحاب المعاصي الكبائر. والكفرة وقت نزول الوحي القرآني: هم قريش وأمثالهم قديماً وحديثاً.

إن هذا الوصف المرعب ليوم القيامة يستدعي التأمل والنظر، قبل التورط في هذه المآسي التي لا علاج لها، ولا تبديل، والسبيل لتفادي تلك الأهوال: هو الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر، ويضم العمل الصالح لساحة الإيمان الأصيلة التي هي قاعدة قبول العمل عند الله تعالى، فمن توافر لديه هذان العنصران، نجا وهان عليه الأمر، وضمن السلامة لنفسه.

تفسير سورة التكوير

تبدلات السماء والأرض يوم القيامة

وصف الله تعالى أحوال القيامة وأهوالها بما يثير الرعب والقلق والوحشة، حيث تبدل السماوات والأرض، ويفاجأ الإنسان بعالم جديد، تنقضُّ فيه السماء والنجوم والكواكب، وتزول الجبال من مواضعها وتتبدد، وتحترق مياه البحار، وتعود الأرواح إلى الأموات، وتتطاير الصحف، وتوقد الجحيم وتلتهب، وتقترب الجنة وتتدنى، وتعلم كل نفس ما قدمت من خير أو شر، كما يبين في الآيات الآتية في مطلع سورة التكوير المكية بإجماع المتأولين:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ[١] ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ[٢] ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ[٣] ﴿٣﴾ وَإِذَا
ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ[٤] ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ[٥] ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ[٦] ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ
زُوِّجَتۡ[٧] ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ[٨] ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ[٩] ﴿١٠﴾
وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ[١٠] ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ[١١] ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ[١٢] ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ
مَّآ أَحۡضَرَتۡ[١٣] ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ٨١/ ١-١٤].

هذه كلها أوصاف يوم القيامة، إذا لُفّت الشمس وطويت بأن تُدار ويذهب بها إلى

(١) لُفت وطويت. (٢) تساقطت وهوت. (٣) أزيلت عن مواضعها. (٤) تركت النوق الحوامل مهملة بلا راعٍ وبلا حلب. (٥) جمعت للقصاص بينها. (٦) أوقدت ناراً فاحترقت. (٧) جمعت الأرواح بالأبدان. (٨) البنت المدفونة حية. (٩) صحف الأعمال فتحت وبسطت. (١٠) أزيلت مثل كشط الجلد عن الذبيحة. (١١) أوقدت نارها. (١٢) قربت وأدنيت. (١٣) ما قدمت من خير أو شر.

حيث شاء الله تعالى. وإذا تساقطت النجوم وتناثرت، وإذا أزيلت أو قلعت الجبال عن أماكنها الأرضية، وسيرت في الهواء كالصوف المندوف. وانكدار النجوم: هو انقضاضها وهبوطها من مواضعها.

- وإذا النوق الحوامل، وهي أَنْفَسُ أموال العرب، تركت مهملة بلا راع ولا حلب، لما دهاهم من الأمر. وإذا جمعت الوحوش ليقتص من بعضها لبعض، يقتص للجمَّاء من القَرناء، وإذا البحار أوقدت بالبراكين والزلازل، فصارت ناراً تضطرم، بعد أن فاض بعضها إلى بعض، وصارت شيئاً واحداً.

- وإذا قرنت الأرواح بأجسادها حين النشأة الأخرى، وإذا الفتاة المدفونة في حال الحياة، خوف العار أو الحاجة، سئلت عن أي ذنب قتلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم، فما ظن الظالم حينئذ؟ وهذا على وجه التوبيخ للعرب الفاعلين ذلك، وسؤالها لمساءلة الفاعلين.

- وإذا صحف الأعمال عرضت ونشرت للحساب، في موقف الحساب، فكل إنسان يعطى صحيفته بيمينه، فيكون ناجياً، أو بشماله أو من وراء ظهره، فيكون هالكاً. وإذا أزيلت السماء، كما يكشط جلد الشاة حين تسلخ. وكشط السماء: هو طيّها كطي السِّجل، فلم يبق لها وجود.

وإذا أوقدت النار لأعداء الله إيقاداً شديداً وأضرمت نارها، وقربت الجنة وأدنيت لأهلها المتقين المؤمنين ليدخلوها.

وجواب (إذا) في جميع ما ذكر في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ أي تحققت نفس ما أحضرت من شر فدخلت به جهنم، أو من خير فدخلت به الجنة. ونفس هنا: اسم جنس، أي علمت النفوس. ووقع الإفراد لكلمة (نفس) لينبِّه

الذِّهن على حقارة المرء الواحد، وقلة دفاعه عن نفسه، والآيات من أول السورة إلى هنا شرط، وجوابه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

هذه أوائل مفاجآت البعث، ذكرت بعد مقدماته. وجاء هذا التفصيل، لتفصيل ما أجمل في سورة (قٓ) عند بيان ما يسبق الحساب، فقال الله تعالى في سورة (قٓ): ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٢٠]. وجاء هنا في سورة التكوير: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾.

وعلى العكس من ذلك أجمل في سورة التكوير ما يحصل في يوم الحساب، حيث اكتفي بسؤال الموءودة، وتسعير جهنم، وتقريب الجنة، وفي سورة (قٓ) فصَّل الله كثيراً مما يحدث في الحساب، حيث قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [٥٠/ ٢١]. وماجاء بعدها من الآيات الكريمة الدقيقة الوصف، في تقديم القرين من الملائكة ما أوكل به، وما يحدث من جدل حاد بين المرء وقرينه، من الكفرة الجاحدين، ثم تضمهم جميعاً جهنم، وتتطلب المزيد من هؤلاء.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ إجمال يثير الرعب والقلق والخوف، حيث ينسى الإنسان عادة ما قدم في الدنيا، فيفاجأ بما يجده في صحيفته من تفاصيل الأعمال، ولا أمل في تجاوز المخاطر إلا بأن تطفو الحسنات على السيئات، وبأن تعم الرحمة والفضل الإلهي العباد المقصرين.

إن هذا المشهد من تقلبات الدنيا ومألوفاتها يوم القيامة، يعدّ وحده مثاراً للمخاوف، وهو بإيجازه يحتاج إلى مئات الصفحات لرصد الدقائق وما يترتب على التبدلات من إنذارات بالعذاب.

صدق الوحي والنبوة

تصدى القرآن الكريم للرد المفحم على قول قريش في تكذيبهم بنبوة محمد ﷺ وزعمهم: إنه ساحر وكاهن ونحو ذلك، وتكذيبه يؤدي لتكذيب الوحي الإلهي والقرآن المنزل، على الرغم من إعجاز القرآن وعجز العرب عن محاولة إبطاله أو تفنيده أو محاكاته، مما يدل على أنه كلام الله عز وجل، نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام، على قلب محمد ﷺ، فصار هو قوله المنقول عن رب العزة، ليكون من المنذِرين، بلسان عربي مبين، وهنا إبطال من جانب آخر لكلام العرب ومزاعمهم في شأن القرآن من طريق قسم الله تعالى بالنجوم والكواكب السيارة، وبالليل، وبالصبح، على أن القرآن هو كلام الله الموحى به بوساطة جبريل عليه السلام، كما يتضح من الآيات الآتية:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ[1] ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ[2] ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ[3] ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ[4] ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ[5] ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ[6] عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ[7] ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم[8] بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ[9] بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ[10] ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ[11] ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ[12] لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

[التكوير: ٨١/ ١٥-٢٩].

لا أقسم، أي أقسم، على عادة العرب في كلامهم أنهم إذا أقسموا على إثبات أمر

(١) الكواكب الرواجع أو المستترة وهي جميع الكواكب. (٢) التي تجري وهي السيارة والتي تستتر في أبراجها تحت ضوء الشمس، وتظهر في أفلاكها للعين ليلاً. (٣) أقبل بظلامه. (٤) ظهر وامتد.
(٥) صاحب قوة شديدة. (٦) هذا القرآن قول منقول بواسطة جبريل. (٧) صاحب عزة ومكانة عند الله.
(٨) هو الرسول عليه السلام. (٩) رأى محمد ﷺ جبريل بصورته الحقيقية. (١٠) ببخيل مقصر في التعليم.
(١١) مرجوم ملعون مطرود من رحمة الله. (١٢) عظة وعبرة.

واضح قالوا: لا أقسم، أي لا يحتاج إلى قسم، وقيل: إن الإتيان بـ (لا) في القسم لتعظيم المقسم به.

والمعنى هنا أقسم بالكواكب جميعها التي تخنس، أي تختفي بالنهار تحت ضوء الشمس، وتكنس بالليل، أي تظهر بالليل في أماكنها، كما تظهر الظباء من كُنُسها، أي بيوتها، والمراد بها: الكواكب السيَّارة السبعة: وهي الشمس، والقمر، وزُحَل وعطارد، والمرِّيخ، والزُّهرة، والمشتري. وهو رأي الجمهور.

وأقسم بالليل إذا أقبل بظلامه، لما فيه من الرهبة، والصبح إذا أقبل وامتد وظهر وأضاء بنوره الأفق. وجواب القسم هو:

إن هذا القرآن هو تبليغ ونقل رسول كريم عند الله، وهو جبريل عليه السلام، في قول جمهور الناس، ولجبريل صفات أربع: أنه شديد القوى في الحفظ التام والتبليغ الكامل، وذو رفعة عالية، ومكانة سامية عند الله سبحانه، ومطاعٌ بين الملائكة، يرجعون إليه ويطيعونه، مؤتمن على الوحي والرسالة من ربه، وعلى غير ذلك.

وقوله: ﴿ ثَمَّ ﴾ أي عند الله تعالى. وقوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ متعلق بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ أو متعلق بقوله ﴿مَكِينٍ﴾ ومعناه: له مكانة ورفعة. و﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ معناه: مقبول القول، مصدَّق فيما يقوله، مؤتمن على ما يرسل به ويؤديه من وحي وامتثال أمر.

وليس محمد ﷺ صاحبكم يا أهل مكة بمجنون، كما تزعمون. وقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ وصف بالصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وبأنه أعقل الناس وأكملهم.

وتالله، لقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام على صورته الأصلية، له ست مئة جناح، في مطلع أو أفق الشمس الأعلى من قبل المشرق، بحيث حصل له علم بدهي بأنه ملك مقرَّب، يُطْمأن لنزوله بالوحي عليه، لا شيطان رجيم.

وليس محمد ﷺ على ما أنزله الله عليه، من الوحي وخبر السماء، ببخيل مقصر

في التعليم والتبليغ، ثم نفى الله تعالى عن القرآن أن يكون كلام شيطان، حيث ردَّ الله على ما قالت قريش: إن محمداً كاهن. أي وليس القرآن بقول شيطان يسترق السمع، مُبْعَدٍ مرجومٍ بالكواكب واللعنة وغير ذلك، لأن القرآن ليس بشعر ولا كهانة، كما قالت قريش.

فأيّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم؟ وأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه حقاً من عند الله تعالى؟ فهذا تقرير وتوقيف، على معنى: أين المذهب (مقر الذهاب) لأحد عن هذه الحقائق؟!

ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين، وتذكير لهم بما ينفعهم، وتحذير لهم مما يضرهم، لمن أراد من البشر أن يستقيم على الحق والإيمان والطاعة، فمن أراد الهداية، فعليه بهذا القرآن، فإنه مناجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه. والذكر هنا: مصدر بمعنى التذكرة. وخصص الله تعالى من شاء الاستقامة بالذكر، تشريفاً وتنبيهاً وبياناً لتكسبهم أفعال الاستقامة.

ثم بيَّن الله تعالى أن تكسُّب المرء على العموم، في استقامة وغيرها: إنما يكون مع خلق الله تعالى، واختراعه الإيمان في صدر المرء، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ . .﴾ أي وما تريدون الاستقامة، ولا تقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه، فليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء الله اهتدى، ومن شاء ضل، بل كل ذلك تابع لمشيئة الله تعالى رب الإنس والجن والعالم كله. آمنا بالله وبما يشاء.

روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ قال أبو جهل: هذا أمر قد وُكل إلينا، فإن شئنا استقمنا، وإن لم نشأ لم نستقم، فنزلت: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (١).

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن سليمان بن موسى.

تفسير سورة الانفطار

أمارات القيامة ومصير الناس فيها

سورة الانفطار المكية بالاتفاق كسورتي التكوير والانشقاق تتضمن الكلام على أمارات البعث والتذكير بيوم القيامة، وما فيه من أهوال وتبدلات، وبيان مصير الإنسان: إما إلى الجنة وإما إلى النار، لكن كل سورة تتميز بوصف مظاهر معينة للقيامة، وقد تلتقي السور الثلاث في بيان بعض مصير الظواهر الكونية. وكل سورة من هذه السور تلوم مخالفة الإنسان لربه، مع إنعامه عليه، وتحمله على الاستقامة، لأن كل شيء مدوَّن عليه من الملكين الملازمين له، وذلك قبل أن يتقرر مصيره النهائي في القيامة بتسلم كتابه بيمينه أو شماله. وهذه آي الانفطار، أي انشقاق السماء على غير نظام مقصود:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ[(١)] ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ[(٢)] ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ[(٣)] ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ[(٤)] ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ[(٥)] بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ[(٦)] فَعَدَلَكَ[(٧)] ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ[(٨)] ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ[(٩)]

---

(١) انشقت . (٢) تساقطت . (٣) شققت جوانبها فصارت بحراً واحداً . (٤) قلب ترابها الموضوع على موتاها . (٥) ما خدعك وحملك على معصية الله ؟ (٦) خلقك كامل الأعضاء جميلاً . (٧) صيرك معتدلاً متناسب الخلق . (٨) الجزاء والحساب . (٩) الذين يعلمون البر ويلتزمونه .

لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ(١) لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا(٢) يَوْمَ ٱلدِّينِ(٣) ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١-١٩].

هذه أوصاف يوم القيامة يذكرنا الله بها، وبما يقدمه الإنسان فيها من خير أو شر، ويجازى عليه. إذا انشقت السماء وتصدعت، وتساقطت الكواكب وتناثرت بعدها، وشققت جوانب البحار فصارت بحراً واحداً، ثم أضرمت النار فيها، وهذه أشراط (أمارات) الساعة، وجواب الشرط:

إذا حدثت هذه الأمور المتقدمة، علمت كل نفس عند انتشار صحائف الأعمال ما قدمت من خير أو شر، وما أخّرت من الأعمال بسبب التكاسل والإهمال.

يا أيها الإنسان المدرك نهاية العالم، ما الذي خدعك وجرَّأك على عصيان ربك، الذي خلقك كامل الأعضاء، حسن الهيئة، وصيرك معتدلاً متناسب الخلق، لا تفاوت في أعضائك، مزوداً بالحواس من السمع والبصر، وفيك العقل والعلم والفهم.

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في هذه الآية: ﴿مَا غَرَّكَ﴾ قال نزلت في أُبي بن خلف. وقيل: في أبي الأشد بن كَلَدة الجمحي أو في الوليد بن المغيرة.

لقد ركّبك الله في أي صورة شاءها، من أبهى الصور وأجملها، وأنت لم تختر صورة نفسك.

ثم رد الله تعالى على سائر أقوالهم، وردَع عنها بقوله سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ ثم أثبت لهم تكذيبهم بيوم الجزاء، وهذا الخطاب عام، ومعناه الخصوص في الكفار.

---

(١) العصاة الخارجين عن حدود الله . (٢) يدخلونها ويقاسون حرها . (٣) يوم الحساب والجزاء .

ارتدعوا أيها الكفار وانزجروا عن الاغترار بحلم الله وكرمه، والواقع أنكم تكذبون بيوم المعاد والحساب والجزاء، حيث لا يحملكم الخوف من هذا اليوم على التزام طاعة الله واجتناب معاصيه.

ثم زاد في التحذير من العناد والتفريط: أن جميع الأعمال مرصودة على الناس بالملائكة، إن عليكم لملائكة حفظة كراماً، فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم، ويعلمون جميع أفعالكم. و ﴿وَالْحَافِظُونَ﴾ هم الملائكة الذين يكتبون أعمال بني آدم، ووصفهم الله تعالى بالكرم الذي هو نفي المَذَامّ، و ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ لمشاهدتهم حال بني آدم.

والناس يوم القيامة فريقان نتيجة كتابة الحفظة أعمال العباد:

إن الأبرار وهم الذين أطاعوا الله عز وجل، ولم يقابلوه بالمعاصي يصيرون إلى دار النعيم وهي الجنة. وإن الفجار: وهم الذين كفروا بالله وبرسله، وقابلوا ربهم بالمعاصي، يصيرون إلى دار الجحيم، وهي النار المحرقة، يدخلونها ويقاسون حرَّها، يوم الجزاء والحساب الذي كانوا يكذبون به.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي لا يفارقون الجحيم ولا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف من عذابها، بل هم فيها إلى الأبد، ملازمون لها، كما في آية أخرى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٧]. وهذا تأكيد في الإخبار عن أنهم يصلونها، وأنهم لا يمكنهم المغيب عنها يومئذ.

ثم وصف الله تعالى يوم القيامة بما فيه غاية التهويل، مؤكداً ذلك مرتين، في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ..﴾ أي وما أعلمك وما أعرفك ما يوم الجزاء والحساب وكرر الجملة تعظيماً لشأن يوم القيامة، وتفخيماً لأمره، مما يستدعي التدبر والتأمل.

ثم أعلن الله تعالى قراره الحاسم في شأن الإنسان يوم القيامة، فقال: ﴿يَوْمَ لَا

تَمۡلِكُ نَفۡسٞ . . ﴾ أي إنه اليوم الذي لا يقدر فيه أحد كائناً من كان، على نفع أحد، ولا خلاصه مما هو فيه، إلا بأن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ولا يملك أحد صنع شيء إلا الله رب العالمين، فهو المتفرد بالسلطان والحكم، وبيده الأمر كله، وترجع الأمور كلها إليه. قال قتادة: والأمر، والله اليوم، لله، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد، ولا يمكّن أحداً من شيء كما مكّنه في الدنيا.

وهذا خبر من الله تعالى بضعف الناس يومئذ، وأنه لا يغني بعضهم عن بعض، وأن الأمر له تبارك وتعالى.

وهو رد قاطع على من يزعم: أن أحد الرسل يتولى الحساب وفصل القضاء، فيُدخل من يشاء الجنة، ومن يشاء النار، وهو زعم أقرب إلى السخف والسذاجة والبلاهة منه إلى الجد والحق والعقل.

تفسير سورة المطففين

وعيد المطففين والمكذبين بيوم الحساب وديوان الشر

سورة المطففين المكية في قول الأكثرين تبين قواعد النظام الاقتصادي والاجتماعي في الإسلام، وتحدد مصير بعض الفاسقين الظالمين، بسبب التطفيف في الكيل والميزان، والتكذيب بيوم الجزاء والحساب، ووصف القرآن بأنه أساطير الأولين، وتهدد الفجار بسوء الحساب وإصلاء الجحيم، وتبرز منزلة الأبرار في جنان النعيم، وتبين ألوان النعم التي ينعمون بها، وتذكّر بمواقف الفجار من المؤمنين واستهزائهم منهم في الدنيا، وسيلقى كل فريق جزاءه العادل، كما تبين الآيات الآتية:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ(١) ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟(٢) عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ(٣) ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ(٤) أَو
وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ(٥) ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ(٦) أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ
لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ(٧) ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ(٨)
﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(٩)
﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ(١٠) ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم(١١) مَّا كَانُوا۟

---

(١) ويل: مبتدأ وإن كان نكرة، لوقوعه في موقع الدعاء، وللمطففين: خبره، ومعناه: هلاك وعذاب لمن يأخذون شيئاً بغير حق، إما بزيادة الوزن أو الكيل أو نقصه. (٢) أخذوا حقوقهم بالكيل. (٣) ينالون حقهم كاملاً. (٤) أعطوهم شيئاً بالكيل. (٥) ينقصون الكيل والميزان. (٦) ألا يعلم. (٧) سجل أعمال الفجار. (٨) ظاهر الكتابة. (٩) المعتدي: المتجاوز حدود الشرع. والأثيم: كثير الإثم. (١٠) أكاذيبهم وخرافاتهم. (١١) غطى على قلوبهم بأن اسودت من الذنب.

يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ(١) ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ(٢) ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ١-١٧].

أخرج النسائي وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة، كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

المعنى: هلاك وعذاب وشقاء وحزن دائم للمطففين إيجاباً وسلباً، الذين ينالون حقهم كاملاً، ويعطون حق غيرهم ناقصاً. إذا اكتالوا: أخذوا ما لهم من حق بالكيل، يأخذونه وافياً كاملاً، وإذا كالوهم: أعطوهم شيئاً بالكيل، ينقصون الكيل والميزان، وهذا منافٍ للحق والعدل، فإن الله تعالى يأمر بالوفاء في الكيل والميزان، لأن في ذلك إيفاء للحق واستيفاء له، من غير نقص ولا زيادة. والتصرف في مال الآخرين ظلماً هو حرام بغير شك. ولا بد فيه من التوبة العاجلة.

ثم توعد الله المطففين بأنه: ألا يعلم أولئك المطففون أنهم مبعوثون ليوم رهيب شديد الهول والفزع: وهو يوم القيامة، فيُسألون عما كانوا يفعلون. يوم يقوم الناس من قبورهم أحياء واقفين بين يدي ربهم، للحساب والجزاء. و يختلف الناس فيه بحسب منازلهم، وقد رويت في تقدير مدته آثار، من أربعين سنة، إلى مئة سنة إلى ثلاث مئة سنة، إلى خمسين ألف سنة وغير ذلك، والمعنى: أن كل مدة لقوم ما تقتضي حالهم وشدة أمرهم في ذلك. أما المؤمن فروي أن القيام فيه: هو على ما بين الظهر إلى العصر، أو على بعض الناس على قدر صلاة مكتوبة، والعَرَق أيضاً مختلف في قدره بحسب أحوال الناس، فمنهم من يغمره كله أو إلى أنصاف ساقيه أو إلى فوق، أو إلى أسفل.

---

(١) لممنوعون من رؤية ربهم . (٢) لداخلوها وذائقو حرها .

كلا: كلمة ردع وزجر لهم عما يرتكبونه من التطفيف والتكذيب. فارتدعوا أيها الفجار الظلمة عما أنتم فيه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب، فإن الفجار ومنهم المطففون أعمالهم مكتوبة في ديوان الشر، أو سجل أهل النار، وهو السجين. والسجين: فعِّيل من السَّجْن، كسكِّير وشرِّيب، أي في موقع ساجِن وساكر وشارب، فجاء (سجِّين) بناء مبالغة.

وما أعلمك أنت ولا قومك ما هو السجِّين؟ إنه الكتاب الذي رصدت فيه أسماؤهم، فهو كتاب مسطور بيِّن الكتابة، جامع لأعمال الشر، الصادرة من الشياطين والكفرة والفسقة، وهذا السجل هو السجل الكبير أو العظيم، الذي فيه لكل فاجر صحيفة.

وعذاب وهلاك شديد يوم القيامة لمن كذب بالبعث والجزاء، وبما جاء به الرسل، فهؤلاء المكذبون هم الذين لا يصدقون بوقوع الجزاء، ولا يعتقدون بوجوده، ويستبعدون أمره.

وصفات المكذبين يوم الجزء ثلاث وهي:

لا يكذب بيوم الدين (الجزاء) إلا من كان متصفاً بهذه الصفات الثلاث: وهي كونه معتدياً، أي فاجراً متجاوزاً منهج الحق، وأنه أثيم، كثير الإثم، وهو المنهمك في الإثم في أفعاله، من تعاطي الحرام وتجاوز المباح، وأنه إذا تلي عليه القرآن قال: أساطير الأولين، أي أخبار المتقدمين وأباطيلهم وأكاذيبهم التي افتروها، تلقّاها محمد ﷺ من غيره ممن تقدموه.

وسبب افترائهم على القرآن يستدعي الردع المفهوم من كلمة: كلا، أي ارتدعوا وانزجروا عن هذه الأقوال، فليس الأمر كما زعمتم أيها المعتدون الآثمون، ولا كما قلتم، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله الكريم عليه السلام. وإنما السبب في

افترائهم هو كثرة الذنوب والخطايا التي حجبت قلوبهم عن الإيمان بالقرآن، والتي غطّاها الله، ومنع عنها نفاذ الحق والخير والنور إليها، فأعماها عن رؤية الحقيقة. ثم إنهم في الواقع محجوبون عن ربهم يوم القيامة، لا ينظرون إليه كما ينظر المؤمنون. ويقال لهم على جهة التقريع والتوبيخ من زبانية جهنم: هذا هو العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، فانظروه وذوقوه.

ديوان الخير وأهلُه

في سورة المطففين إخبار عن سجل أو سجّين أو ديوان الشر للكفار والفجار، وعن ديوان الخير للأبرار، وكل ديوان مليء بأعمال أهله، أما ديوان الشر فدليل على عذاب صاحبه وهو في سجل ضخم، فيه سوءات الفجار، وأما ديوان الخير فيدل على نجاة أهله، وهو في سجل ضخم، فيه عمل الأبرار والصالحين من الثقلين، وأصحابه في نعيم، مترع بألوان النعم المادية والمعنوية، ويقتص أهل البر المؤمنون في الآخرة باستهزائهم من الكفار الذين كانوا يستهزئون منهم في عالم الدنيا، وذلك صريح في الآيات الآتية:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ(١) لَفِي عِلِّيِّينَ(٢) ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ(٣) يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ(٤) ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ(٥) ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ(٦) مِن تَسۡنِيمٍ(٧) ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ(٨) ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ

---

(١) جمع بَرّ، وهو ضد الفاجر والأبرار أصحاب اليمين. (٢) ديوان ضخم لتسجيل عمل الأبرار والصالحين. (٣) الأسرة المكللة المغطاة بالكِلَّة. (٤) بهجة النعيم. (٥) الرحيق: أجود الخمر غير المسكرة، مختوم أوانيها. (٦) ما يخلط به. (٧) عين عالية. (٨) هم السابقون كالأنبياء ونحوهم.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ(١) ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ(٢) ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ(٣) ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ(٤) ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ(٥) ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٨-٣٦].

ارتدعوا أيها الكفار عن نظرتكم للأبرار، إن كتاب الأبرار وهم المؤمنون المخلصون العاملون المطيعون في ديوان ضخم مخصص لهم، وموجود في مكان عالٍ، وما أعلمك يا محمد أي شيء هو علّيون؟ وهو تعظيم لشأنه، إنه كتاب مسطور، سطرت فيه أسماؤهم وأعمالهم، وهو السجل الكبير، الذي تحضره الملائكة وتحفظه، كما يحفظ اللوح المحفوظ.

- إن أهل الطاعة والإيمان لفي نعيم عظيم يوم القيامة، وفي جنان الخلد على الأسرّة التي في الحجال (جمع حجلة وهي الكِلّة) ينظرون إلى ما أعده الله لهم من أنواع النعيم في الجنة، وإلى ماهم من الكرامات المادية والمعنوية.

إذا رأيتهم عرفت فيهم آثار النعمة والترف، والسرور، في وجوههم، التي تتلألأ بالنور والحسن والبياض.

يسقون من الخمر التي لا غش فيها، ولا يشوبها شيء من الفساد الذي يفسدها، وقد ختم إناؤها بالمسك، فلا يفكّه إلا الأبرار، وآخر طعمه ريح المسك، وفي ذلك فليرغب الراغبون، وليتسابق المتسابقون بالمبادرة إلى طاعة الله، باتباع أوامره، واجتناب نواهيه. ويخلط ذلك الشراب بماء عين تسمى التسنيم ذات مكان عالٍ، وهي التي يشرب منها الأبرار المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً،

---

(١) يغمز استهزاءً بعضهم بعضاً . (٢) فرحين استهزاء بهم . (٣) منحرفون عن الطريق السوي . (٤) لأعمالهم شاهدين عليها . (٥) جُوزوا على عملهم الدنيوي .

والمقربون في هذا الموضع: الملائكة المقرَّبون عند الله تعالى، أهل كل سماء، كما قال ابن عباس. وكلمة (عيناً) إما منصوب على المدح، أو حال من (تسنيم) أو (يسقون).

ثم وصف الله تعالى أهل الشرك بصفات أربع، وهم أكابر المشركين كأبي جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي، كانوا يضحكون من عمار، وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويستهزئون بهم.

هذه الصفات: هي أنهم أي كفار قريش وأمثالهم كانوا في الدنيا يستهزئون من المؤمنين، ويسخرون منهم. وإذا مرَّ الكفار بالمؤمنين تغامزوا عليهم، محتقرين إياهم، يعيرونهم بالإسلام، ويعيبونهم به، ويتخذونهم هزواً. روي -كما تقدم- أن هذه القصة نزلت في صناديد قريش، وضعَفَة المؤمنين، أو في علي وجماعة معه من المؤمنين مرّوا بجمع من الكفار في مكة، فضحكوا منهم، واستخفّوا بهم عبثاً ونقصان عقل، فنزلت الآية في ذلك.

- ومن صفاتهم: أنه إذا رجع الكفار إلى أهلهم في منازلهم من مجالسهم في السوق رجعوا معجبين بما هم فيه، متلذذين به، يتفكهون بما فعلوا بالمؤمنين، وبما قاموا به من طعن فيهم، واستهزاء بهم.

- وإذا رأى المشركون المؤمنين، وصفوهم بالضلال، لكونهم على غير دينهم وعقائدهم الموروثة، ولاتباعهم محمداً، وتمسكهم بما جاء به، وتركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب، لا يُدْرى: أله وجود أم لا؟ فرد الله تعالى على مواقفهم: بأنه لم يرسل هؤلاء المجرمون من قبل الله، رقباء على المؤمنين، يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم، وإنما كلفوا بالنظر في شؤون أنفسهم.

واقتصاصاً منهم ومعاملة لهم بالمثل، في يوم القيامة يضحك أو يهزأ المؤمنون من

الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين، قد نزل بهم ما نزل من العذاب، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا، معاملة بالمثل، وبياناً أن الكفار الجاحدين هم في الواقع سفهاء العقول والأحلام، خسروا الدنيا والآخرة.

وينظر المؤمنون إلى أعداء الله، وهم يعذبون في النار، والمؤمنون يتنعمون على الأرائك، وهذا وضع دائم خالد، لا يعادله شيء من المؤقت الفاني.

هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين، من الاستهزاء والطعن والتعيير والتنقيص أو لا؟ حقاً، لقد جوزي الكفار أتم الجزاء بما كان يقع منهم في الدنيا من الهزء بالمؤمنين والاستخفاف بهم. وهذا تقرير وتوقيف لمحمد ﷺ وأمته.

تفسير سورة الانشقاق

أهوال القيامة وأحوال الناس فيها

سورة الانشقاق المكية اتفاقاً كسورتي التكوير والانفطار قبلها تصف أهوال القيامة وأحوال الناس فيها، وانقسامهم فريقين: أهل اليمين، وأهل الشمال. وتلك الأهوال الكبرى تثير الرعب والهلع، وتبين مدى ضعف الإنسان، وعجزه، وفقره، في مواجهة المشكلات، حيث لا ينفعه إلا الإيمان والعمل الصالح، فترى هؤلاء الأتقياء في أتم السرور، وترى الأشقياء في أشنع الأحوال وأتم الحزن والكآبة وانتظار الهلاك المتكرر. وذلك واضح في مطلع سورة الانشقاق:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ[١] لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ[٢] ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ[٣] ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا
وَتَخَلَّتۡ[٤] ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ[٥] إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾
فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا[٦] ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا
﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا[٧] ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا[٨] ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ
فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا[٩] ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ[١٠] ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ[١١] إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾﴾

[الانشقاق: ٨٤/ ١-١٥].

(١) امتثلت واستمعت له. (٢) أي وحق لها أن تمتثل. (٣) بسطت واتسعت رقعتها بزوال الجبال. (٤) لم يبق في باطنها شيء. (٥) مجاهد ومجدّ في عملك. (٦) سهلاً. (٧) هلاكاً وموتاً. (٨) يصطلي حر جهنم. (٩) فرحاً فرح بطر وتكبر وترف. (١٠) يرجع إلى الله. (١١) جواب بعد النفي، أي بلى يرجع.

إذا تصدعت السماء وتشققت، مؤذنة بخراب العالم، وأطاعت ربها وامتثلت له فيما أمر ونهى، وحق لها أن تطيع أمره وتنقاد وتسمع.

وإذا الأرض بسطت وسويت واتسعت بزوال الجبال والآكام، ولفظت وأخرجت ما فيها من الأموات والكنوز، وطرحتهم على سطحها، وتخلت عن كل ما فيها، ولم يبق في باطنها شيء.

واستمعت وأطاعت أوامر ربها ونواهيه، وحق لها أن تستمع لما يريد الله منها، لأنها في قبضة القدرة الإلهية، وكررت الجملة للتأكيد.

وجواب (إذا) محذوف، لإرادة التهويل على الناس، تقديره: إذا حدث ما حدث، رأيتم أعمالكم من خير أو شر.

يا أيها الإنسان -والمراد به الجنس الذي يشمل المؤمن والكافر- إنك عامل في هذه الحياة، ومجاهد ومجدّ في عملك، جهاداً وجداً قوياً، لتلقى ربك، وتلقى ما عملت من خير أو شر. والكدح: جهد النفس في العمل حتى تأثرت.

وقوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ عائد في رأي الجمهور على الرب تبارك وتعالى، فالفاء على هذا عاطفة (ملاق) على (كادح).

ثم ذكر الله تعالى أحوال الناس وانقسامهم إلى فريقين يوم القيامة:

الفريق الأول- المؤمنون الموصوفون بقوله: فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه، وهم المؤمنون، فإنه يحاسب حساباً سهلاً، بأن تعرض عليه سيئاته، ثم يغفرها الله، ويتجاوز عنها، من غير أن يناقشه الحساب، فذلك الحساب اليسير، أخذاً بمفهوم الحديث الذي أخرجه أحمد والشيخان وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عُذِّب، قالت، فقلت: أفليس الله تعالى قال:

﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨﴾؟ قال: ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، ومن نوقش الحساب يوم القيامة عُذّب».

وهذا الذي يحاسب حساباً يسيراً بالعرض، يرجع إلى أهله وعشيرته في الجنة مغتبطاً، فرحاً مسروراً، بما أعطاه الله عز وجل، وما أوتي من الخير والكرامة.

الفريق الثاني- الكافرون الموصوفون بقوله: وأما من أعطي كتاب أو صحيفة أعماله بشماله، أي من وراء ظهره، حيث تثنى يده من خلفه، ويعطى كتابه بها، وتكون يمينه مغلولة إلى عنقه، فإذا قرأ كتابه، نادى: يا ثبوراه، أي بالهلاك والخسار، ثم يدخل جهنم، ويصلى حر نارها وشدتها.

يتبين من هذا أن الكافر يؤتى كتابه من ورائه، لأن يديه مغلولتان، وروي أن يده تدخل من صدره، حتى تخرج من وراء ظهره، فيأخذ كتابه بها.

ويقال: إن هاتين الآيتين نزلتا في أبي سلمة بن عبد الأسد، وفي أخيه الأسود، وكان أبو سلمة من أفضل المسلمين، وأخوه من عتاة الكافرين. وقوله: ﴿يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ معناه: يصيح منتحباً: واثُبُوراه واحَزَناه، ونحو هذا مما معناه: هذا وقتُك وأوانك، أي احضرني. والثبور: اسم جامع للمكاره، كالويل.

ثم ذكر الله تعالى سببين لعذاب الكافر وهما:

- إنه كان في الدنيا فرحاً بطراً، لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، وإنما يتبع هواه، ويركب شهواته، تكبراً، لأنه لا يؤمن في الواقع بالآخرة، كما بان في السبب الثاني.

- إن سبب ذلك السرور والبطر: ظنه بأنه لا يرجع إلى الله تعالى، ولا يبعث للحساب والعقاب، ولا يعاد بعد الموت.

فرد الله تعالى عليه ظنه قائلاً: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي بلى، إنه سيرجع إلى الله تعالى، وسيعيده إليه ربه كما بدأه، ويجازيه على أعماله، خيرها وشرها، فإن ربه كان به وبأعماله مطلعاً خبيراً، لا يخفى عليه منها شيء.

وفي هذا دلالة واضحة على أنه لا بد من دار للجزاء غير دار التكليف، لأن ذلك مقتضى العلم التام، والقدرة الشاملة، والحكمة البالغة.

تأكيد وقوع القيامة

أكد الله تعالى بمناسبات مختلفة غرس عقيدة الإيمان بالبعث على وقوع يوم القيامة، وما يتبعها من أهوال، بقسم صادر من الله تعالى، بآيات كونية، منها في سورة الانشقاق: الشفق الأحمر بعد الغروب، والليل، والقمر، على أن هذا اليوم كائن لا محالة، وأن الناس يتعرضون فيه لشدائد الأهوال. ومع الأسف لا يؤمن بعض الناس بالقرآن وبالقيامة، ولا يُصْغون لآي القرآن، عناداً منهم وتكبراً، فيُجازَوْن أشد العذاب، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً، فله الثواب الدائم غير المنقطع، وهذا ما نصت عليه الآيات الآتية:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ(١) ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ(٢) ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ(٣) ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ(٤) ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ(٥) ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ(٦) ﴿٢٥﴾﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ١٦-٢٥].

(١) الحُمرة التي تعقب غيبوبة الشمس، مع البياض التابع لها في الأغلب. (٢) أي جمع وضم. (٣) اجتمع وتكامل بدراً. (٤) لتلاقُنَّ حالاً بعد حال، بعضها أشد من بعض، وهي الموت وما يتبعه من أحوال القيامة. (٥) يحفظونه في قلوبهم من شرك أو عصيان وغيرهما من أمراض القلوب. (٦) غير مقطوع.

المعنى: أقسم، ولا: زائدة، أو لنفي كلام سابق قبل القسم، أقسم بالشفق: وهو الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت العشاء، وبالليل الأسود وما جمع وضم، وستر ما انتشر في النهار، وبالقمر إذا تم واكتمل بدراً، في منتصف كل شهر قمري. والقسم بهذه الأشياء تنويه بعظمتها وعظمة مبدعها. وجواب القسم هو: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا﴾ أي لتصادفن أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدة، بعضها أشد من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها، ثم يكون المصير الأخير: وهو الخلود في الجنة أو في النار.

ثم وبخ الله وأنكر على المشركين استبعادهم البعث، بقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾ أي فأي شيء يمنعهم عن الإيمان بصحة البعث أو القيامة، وبمحمد ﷺ، وبما جاء به القرآن؟! مع وجود موجبات الإيمان بذلك، من الأدلة الكونية القاطعة الدالة على قدرة الله على كل شيء، والمعجزات الظاهرة الدالة على صدق النبي ﷺ، وصدق الوحي القرآني المنزل عليه.

وأي مانع يمنعهم من السجود والخضوع لله تعالى عند قراءة القرآن الذي دل إعجازه على كونه منزلاً من عند الله تعالى؟! ويكون سجودهم تعظيماً للقرآن ومنزله، بعد أن علموا كونه معجزاً، وهم يتذوقون العربية ويدركون فصاحتها وبلاغتها.

والواقع أن الكفار يكذبون بالكتاب المشتمل على إثبات التوحيد والبعث والثواب والعقاب، إما حسداً، وإما خوفاً من ضياع المصالح والمراكز. والله أعلم من جميع المخلوقات بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب، وأعلم بأسباب الإصرار على الشرك أو الكفر، وبجميع الأعمال الصالحة والمنكرة، من أمراض القلوب من حسد وحقد وتكبر وكراهية، وقوله تعالى: ﴿يُوعُونَ﴾ معناه يجمعون من الأعمال والتكذيب والكفر، كأنهم يحملونها في أوعية.

فأخبرهم أيها النبي بما أعد الله لهم من عذاب مؤلم، واستعمل تعبير البشارة بدلاً عن الخبر بالعذاب تهكماً بهم واستهزاء منهم.

ثم استثنى الله تعالى من كفار قريش القوم الذين كانوا سبق لهم الإيمان في قضائه، والمعنى: لكن الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر، وخضعوا للقرآن الكريم، وعملوا بما جاء به، والتزموا صالح الأعمال، لهم في الدار الآخرة أجر أو ثواب غير مقطوع ولا منقوص، ولا يمن به عليهم. كما جاء في آية أخرى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١١/١٠٨]. والاستثناء منقطع في رأي الزمخشري، وقال أكثر المتأولين: معناه إلا من تاب منهم وعمل صالحاً، فله الثواب العظيم. وفي هذا ترغيب بالإيمان والطاعة وزجر عن الكفر والمعصية.

دلت الآيات على أن القادر على تغيير أفلاك السماء من حال إلى حال قادر على البعث وإحياء الإنسان بعد موته، والشواهد والأدلة الكونية ناطقة كلها على قدرة الله على ذلك. إلا أن الكافرين يكذبون بلا حجة ولا برهان، فيكونون جديرين باستحقاق العذاب الأليم، والعذاب حق وعدل، إذ لا يعقل التسوية بين المؤمن الطائع، والكافر العاصي.

وما أجمل الأنس بوعد الله تعالى والتذكير برحمته، حين يجد الإنسان بعد إشاعة جو العذاب والتهديد والوعيد غرس الأمل بالرحمة، لذا كان الأسلوب القرآني في غاية الروعة والبيان، حين يقرن الكلام عن العذاب، بالكلام عن النعيم والرحمة والإحسان، إما قبل أخبار العذاب، أو بعد الإخبار به، فترتاح النفوس وتطمئن القلوب، وتتفتح أبواب الأمل في فكر الإنسان وتذكيره بضرورة العودة إلى جادة الاستقامة والإيمان والتزام العمل الصالح.

تفسير سورة البروج

قصة أصحاب الأخدود

إن الصراع بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر قديم وعويص وخطير، حتى إنك تجد أهل الباطل يرتكبون أكبر الجرائم وأخطرها في سبيل نصرة باطلهم، ولكنهم في النهاية تكون الخيبة والخسارة والدمار عليهم، وينتصر الحق وأهله، ويندحر الباطل وجنده، هذه حقيقة، والحقيقة الثانية: هي أن الناس لا يعتبرون من هذه الأمثلة البارزة والشواهد التاريخية الساطعة، وهذا مثل غريب وهو قصة أهل الأخدود كما تصورها الآيات الكريمة في مطلع سورة البروج المكية بالإجماع:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(١) ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ(٢) ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ(٣) ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ(٤) ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(٥) ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ(٦) إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا(٧) الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ١-١١].

---

(١) أي منازل الكواكب الاثني عشر، أو النجوم العظام. (٢) يوم القيامة. (٣) الشاهد: من يشهد على غيره، والمشهود: الواقعة المشهود بها على المشهود عليه. (٤) الشق المستطيل في الأرض. (٥) حضور على عذاب المؤمنين. (٦) وما عابوا منهم. (٧) ابتلوهم بالإحراق، أي أحرقوهم.

يقول الله تعالى: أقسم بالسماء وبروجها: وهي منازل الكواكب أو نجومها العظام، وهي اثنا عشر برجاً لاثني عشر كوكباً، وهي التي تقطعها الشمس في سنة، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً، وهذا القسم بها تنويه بها وتعظيم وتشريف لها.

وأقسم بيوم القيامة الموعود به، وبمن يشهد في ذلك اليوم، وبالمشهود به على المشهود عليه من الوقائع أو الجرائم التي فعلها، كالشهادة على أصحاب الأخدود. والشاهد: الملائكة الحفظة وغيرهم، والمشهود عليهم: الناس، كما ذكر الترمذي.

لعن أصحاب الأخدود المشتمل على النار ذات الحطب الذي توقد به، وهم قوم من الكفار في نجران اليمن، طلبوا من المؤمنين بالله عز وجل أن يرجعوا عن دينهم وهو توحيد الله، فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً (شقاً مستطيلاً) وأوقدوا فيه ناراً، وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها، وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾ هو جواب القسم، أي لعنوا وطردوا من رحمة الله. وقوله: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾ النار: بدل اشتمال، من كلمة (الأخدود).

كان من قصة هؤلاء: أن الكفار قعدوا على جانب الأخدود، وجُمع المؤمنون، فعرض عليهم الدخول في الكفر، فمن أبى رُمي في أخدود النار فاحترق، روي أنه احترق في النار عشرون ألفاً.

لقد لُعن هؤلاء الكفار الذين عذَّبوا المؤمنين في النيران، حين أحرقوا بالنار، قاعدين على الكراسي عند الأخدود، وهم الملك وأصحابه، يشاهدون ما يفعل بالمؤمنين الذين هم قعود على النار، يحاولون إرجاعهم إلى دين الوثنية ويشهدون بما فعلوا يوم القيامة، حيث تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم.

وهذا يدل على أن قلوب الكفرة الذين أقدموا على إحراق أهل الإيمان قاسية، بل

أشد من الحجارة قسوة، تجردوا من الإنسانية والرحمة، وتمكن الكفر والباطل والضلال منهم.

وسبب هذا التعذيب والإحراق بالنار: أن جبابرة أهل الكفر هؤلاء في نجران اليمن، لم ينكروا ولم يعيبوا شيئاً على المؤمنين إلا إيمانهم، وتصديقهم بالله تعالى الذي لا يُغْلَب، المحمودِ على كل حال، مالكِ السماوات والأرض، وإليه الأمر كله، فهو الحقيق بالإيمان به وبتوحيده، والله شاهد عالم بما فعلوا بالمؤمنين، لا تخفى عليه خافية، وسيجازيهم بالجزاء الأوفى على أفعالهم، وهذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود وأمثالهم، ووعد طيب بالخير لمن عُذِّب من المؤمنين على دينه، فصبر ولم يتراجع في موقف الشدة.

والجزاء يجمع الفريقين، فإن الذين أحرقوا بالنار المؤمنين والمؤمنات بالله ورسله، ولم يتركوهم أحراراً في دينهم، وأجبروهم إما على الإحراق، وإما على الرجوع عن دينهم، ثم لم يتوبوا من قبيح صنيعهم وفحش كفرهم، فلهم في الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم، ولهم عذاب الاحتراق بالنار، لأن الجزاء من جنس العمل، وعذاب الحريق تأكيد لعذاب جهنم، أو أن جهنم والحريق: طبقتان من النار.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ دليل على إصرارهم على الكفر، وأنهم لو تابوا عن سوء فعلهم، وندموا، لغفر الله لهم، ولكنهم لم يفعلوا.

وأما الذين آمنوا وصدقوا بالله رباً واحداً لا شريك له، وبالرسل وباليوم الآخر والملائكة والكتب الإلهية، وعملوا صالح الأعمال باتباع أوامر الله، واجتناب نواهيه، ومنهم الذين صبروا على نار الأخدود، وثبتوا على دينهم، ولم يرتدوا، لهم بهاتين الصفتين: الإيمان والعمل الصالح، جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها

الأنهار، وذلك الثواب والنعيم المذكور هو الفوز أو الظفر الكبير الذي لا مثيل له، جزاء إيمانهم وطاعة ربهم.

ليدرك الإنسان الفرق الواضح بين مصير المصرين على الكفر، والصادقين في الإيمان.

القدرة الإلهية

من كمال فضل الله تعالى وتمام رحمته: أن يذكّرنا دائماً في المناسبات المختلفة بقدرته التي لا حدود ولا نهاية لها، فهي قدرة تامة، قدرة الخلق والإبداع، والمتابعة، والشمول، والدقة، التي لا يقف أمامها شيء، والتذكير بهذه القدرة فيه ترهيب الكافر، وترغيب المؤمن وتثبيته على الإيمان والشدائد، والصبر على المحن والأزمات، والأمثلة على التنكيل بالكافرين كثيرة في تاريخ الأمم السابقة، كفرعون وجنده وعاد وثمود وقوم تُبّع وأصحاب الأيكة ونحوهم، وذلك يتضح في الآيات الآتية:

﴿إِنَّ بَطْشَ[1] رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ[2] ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ[3] ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ[4] ﴿٢٢﴾﴾

[البروج: ٨٥/ ١٢-٢٢].

هذا تأكيد للوعد والوعيد في الآيات السابقة بما يفيد معرفة تمام قدرة الله تعالى على إنقاذ وعيده، وتنفيذ وعده، فإن بطش ربك، أي أخذه بقوة وسرعة، لشديد على المعذبين، عظيم قوي التأثير والنفاذ، مضاعف لمن أراد الله مضاعفة العذاب عليه،

(١) البطش: الأخذ بعنف وشدة. (٢) المحب لمن أطاع. (٣) قادر على التعذيب. (٤) هو اللوح المحفوظ في سدرة المنتهى الذي تكتب فيه مقادير الكائنات.

فإنه سبحانه ذو القدرة الفائقة، الذي ما شاء كان، ويكون لمح البصر أو هو أقرب، وهذا ينشر جو الرهبة أمام كفار قريش وأمثالهم.

ويؤكد تمام القدرة: أن الله تعالى هو الذي بدأ الخلق أول مرة في الدنيا، وهو القادر على أن يعيدهم أحياء بعد الموت، يبدأ الخلق بالإنشاء ويعيد الخلق إليه بالحشر. قال ابن عباس فيما معناه: إن ذلك عام في جميع الأشياء، فهي عبارة عن أنه تعالى يفعل كل شيء، أي يُبْدئ كل ما يُبْدَأ، ويُعيد كل ما يُعاد، وهذان قسمان يستوفيان جميع الأشياء.

ثم أكد الله تعالى الوعد الكريم بإيراد خمس صفات له سبحانه وهي:

أنه بالغ المغفرة وواسع الفضل، يغفر، أي يستر ذنوب عباده المؤمنين، إذا تابوا وأنابوا إليه، وأنه بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه وأصفيائه. والمراد به: إيصال الثواب لأهل طاعته على الوجه الأتم.

قوله: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ صفتا فعل، الأولى سَتْر على عباده، والثاني لُطْف بهم وإحسان إليهم.

وأنه تعالى صاحب العرش العظيم، العالي على جميع الخلائق، وصاحب الملك والسلطان، والعظيم الجليل المتعالي، صاحب النهاية في الكرم والفضل، بالغ السمو والعلو.

وخصص الله العرش بإضافة نفسه إليه تشريفاً للعرش، وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات. والمجيد بالكسر في قراءة جماعة صفة للعرش، وذلك يدل على أن المجد والتمجّد قد يوصف به كثير من الموجودات. وبالرفع في قراءة الجمهور: صفة لله تعالى.

ثم أخبر الله تعالى نبيه بقصة فرعون وثمود للإيناس والتثبيت، فهل أتاك أيها النبي

خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم، والتي جندت جنودها لقتالهم؟ أو هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، لغلوهم في الكفر وتماديهم في الضلال؟ ومنهم: فرعون وجنوده، وقبيلة ثمود من العرب البائدة، قوم صالح عليه السلام، والمراد بحديثهم: ما وقع منهم من الكفر والعناد، وما حلّ بهم من العذاب.

ومعنى الآية: فاجعل هؤلاء الكفرة الذين يخالفونك وراء ظهرك ولا تهتم بهم، فقد انتقم الله تعالى من أولئك الأقوياء الأشداء، فكيف بهؤلاء؟! والجنود: الجموع المعدّة للقتال، والتوجه نحو غرض واحد. وذكر فرعون وحده هنا لأنه هو رأس قومه وآله.

ثم ترك القول بحال فرعون وثمود، وأضرب عنه إلى الإخبار بأن هؤلاء الكفار بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لا حجة لهم عليه ولا برهان، بل هو تكذيب مجرد سببه الحسد، أي إن الواقع القائم أن هؤلاء المشركين العرب في تكذيب شديد لك أيها النبي، ولما جئت به، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار.

ثم توعدهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾ أي إن الله تعالى قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك، قاهر الجبارين لا يفوتونه ولا يعجزونه، فهو مقتدر عليهم، وهم في قبضته لا يجدون عنها مهرباً.

ثم رد الله تعالى على تكذيب قريش بالقرآن، فقال: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾﴾ أي إن هذا القرآن الذي كذَّبوا به شريف الرتبة في نظمه وأسلوبه، حتى بلغ حدّ الإعجاز، متناهٍ في الشرف والكرم والبركة، وليس هو كما يزعمون بأنه شعر وكهانة وسحر، وإنما هو كلام الله تعالى المصون عن التغيير والتحريف، المكتوب في اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب.

إن هذا الكلام إضراب عن تكذيب القرشيين وإبطال له ورد عليه، بالإخبار بأن

هذا الكتاب قرآن مجيد، أي لا مذمة فيه، وهو كلام الله المنزل من اللوح المحفوظ الذي فيه جميع الأشياء. واللوح المحفوظ: شيء أخبرنا الله به، فيجب علينا الإيمان به، كما أخبر الله تعالى، وإن لم نعرف حقيقته، والغيبيات المجهولة عنا كثيرة، الجهل بها ينشر الهيبة، ويشيع الخوف من مفاجآتها.

تفسير سورة الطارق

إثبات البعث وصدق القرآن

في سورة الطارق المكية بالإجماع كسورتي الانشقاق والانفطار: قسم من الله تعالى على إمكان حدوث البعث، وإثباته ثبوتاً قطعياً، وردّ على المشركين المكذبين به، وإخبار بأن الله تعالى هو خالق الإنسان من العدم، والقادر على البدء والإنشاء، قادر على الإعادة بعد الموت، ويوم القيامة يوم مكشوف تنكشف فيه جميع الأشياء من غير أستار ولا غيبيات، ويكون الإنسان محل الحساب والجزاء، دون أن يكون له نصير أو شفيع، أو قدرة على الهرب، والقرآن الذي أخبر بقيام البعث في وقت معين عند الله تعالى هو كلام الله المحكم، الذي فصل بين الحق والباطل، كما تقرر الآيات في مطلع سورة الطارق:

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ(١) ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ(٢) ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ(٣) ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ(٤) ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ(٥) ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(٦) ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ(٧) ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ(٨) ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا(٩) ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ(١٠) الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ٨٦/ ١-١٧].

---

(١) النجم الطالع ليلاً . (٢) المضيء ظلام الليل . (٣) ماء مدفوق، أي مصبوب . (٤) الصلب: عظام الظهر أي فقاره، والترائب: عظام الصدر التي يوضع عليها القلادة، جمع تريبة . (٥) تختبر وتكشف مكنونات الصدور . (٦) المطر الذي يعود للأرض من السماء . (٧) الشق . (٨) فارق بين الحق والباطل . (٩) المكر والتدبير لإبطال الإسلام . (١٠) أنظرهم أو أمهلهم .

المعنى: أقسم بالسماء البديعة، والكوكب المنير البادي ليلاً، وما أعلمك ما حقيقته أيها النبي؟ إنه النجم المضيء ليلاً لتبديد شدة الظلمة، كأنه يخرق أو يثقب حجب الظلام، والقسم بالكواكب للدلالة على أن لها خالقاً مدبراً منظماً لها. والطارق: اسم جنس لكل ما يظهر أو يأتي ليلاً، فسره ما بعده بأنه النجم الثاقب.

وجواب القسم: ما كل نفس إلا عليها من الله حافظ، يحرسها من الآفات، وهم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها، وما تكسبه من خير أو شر. وكلمة (لما) بمعنى إلا، و (إن) على ذلك: نافية، أي ما كل نفس إلا عليها حافظ.

ثم نبّه الله تعالى الإنسان إلى مبدأ خلقه ليتعظ، ويستدل به على إمكان المعاد، في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ أي فعلى الإنسان أن يتفكر في كيفية بدء خلقه، ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث، إنه خُلق من ماء مدفوق مصبوب في الرحم، وهو ماء الرجل وماء المرأة، وقد جعلا ماء واحداً لامتزاجهما. يخرج من ظهر الرجل في النخاع الشوكي الآتي من الدماغ، ومن بين ترائب المرأة، أي عظام صدرها، أو موضع القلادة من الصدر. والولد يتكون من اجتماع الماءين، ثم يستقر الماء المختلط في الرحم، فيتكون الجنين بإرادة الله تعالى.

إن الله تعالى قادر على إرجاع الإنسان إليه، أي إعادته بالبعث بعد الموت، لأن من قدر على البداءة والإنشاء، قادر على الإعادة والإحياء مرة أخرى. وإرجاعه يوم القيامة يوم تختبر وتعرف السرائر، أي مكنونات النفوس والقلوب من العقائد والنيات والأسرار وغيرها.

وليس للإنسان حين بَعْثه من قوة في نفسه أو من غيره، يمتنع بها من عذاب الله،

ولا يجد ناصراً ينصره، فينقذه مما نزل به، أي فليس له قوة ذاتية ولا قوة خارجية من غيره، لإنجاء نفسه من عذاب الله تعالى.

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ قال: نزلت في أبي الأشد بن كَلدة الْجُمَحي، كان يقوم على الأديم (الجلد) فيقول: «يا معشر قريش، من أزالني عنه، فله كذا» ويقول: إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر، فأنا أكفيكم وحدي عشرة، واكفوني أنتم تسعة» فنزلت هذه الآية: ﴿فَلْيَنظُرِ..﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾ أي إنني أقسم قسماً آخر بالسماء ذات المطر الذي يعود إلى الأرض من السماء، أي السحاب، فيحيي الأرض بعد موتها، وينبت النبات، والأرض ذات الصدع: وهو الشق الذي يحدث من تصدع الأرض وتشققها، فيخرج من الأرض النبات والثمار والشجر والمعدن والكنز والثروة النفطية والمائية، وجواب القسم: إن آي القرآن لقول فصل، يفصل بين الحق والباطل، ولم ينزل باللعب واللهو، فهو جد لا هزل فيه، وكلام من الله تعالى ليس هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، تنزيل من حكيم حميد. ثم أوعد الله تعالى المكذبين بالقرآن بقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ﴾.

أي إن صناديد قريش في مكة وأمثالهم يدبرون المكائد للنبي ﷺ لإبطال ما جاء به من الدين الحق، وللصد عن سبيل الله وعن القرآن، بالقول بأن القرآن أساطير الأولين، وبأن محمداً ساحر أو مجنون أو شاعر، ويتآمرون على قتله. ولكن الله تعالى يدبر لهم تدبيراً آخر، يستدرجهم في عصيانهم، ثم يجازيهم جزاء كيدهم.

ثم وعد الله رسوله بالنصر، بقوله فيما معناه: أخر أيها النبي الكافرين وأنظرهم، ولا تدعُ عليهم بهلاكهم، ولا تستعجل به، وارض بما يدبره الله لك في أمورهم، وأمهلهم إمهالاً يسيراً قليلاً أو قريباً، فسترى ما يحل بهم من العذاب والنكال، والعقوبة والهلاك، وهذا تكرار للمعنى بطريق المبالغة.

تفسير سورة الأعلى

التسبيح والتذكير وإيثار الدنيا

كل سورة من سور القرآن الكريم مهما صغرت أو قل عدد آياتها، فيها العقيدة، وأصول العبادة، والأخلاق بتزكية النفس، والتحذير من الاغترار بالدنيا، والتوجيه نحو العمل الصالح للآخرة الباقية. وهذا الاتجاه هو منهج القرآن الكريم والكتب السماوية السابقة وصحف إبراهيم وشيث وموسى. وهذا أنموذج للحياة الإسلامية في سورة الأعلى المكية في قول الجمهور:

﴿سَبِّحِ(١) اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ(٢) ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ(٣) فَهَدَىٰ(٤) ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً(٥) أَحْوَىٰ(٦) ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ(٧) ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ(٨) إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ(٩) ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى(١٠) ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى(١١) النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ(١٢) ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ(١٣) ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(١٤) ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ(١٥) ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

[الأعلى: ٨٧/ ١-١٩].

---

(١) نزه الله عما لا يليق به. (٢) جعله سوياً متناسب الأجزاء متقناً. (٣) قدر لها مقادير مخصوصة. (٤) أرشد وعرف طريق الانتفاع بالمخلوقات. (٥) هشيماً يابساً. (٦) مائلاً للسواد. (٧) نوفقك لأعمال الخير. (٨) عظ وبلّغ الرسالة. (٩) يخاف الله. (١٠) الكافر. (١١) يدخل النار ويحرق فيها. (١٢) فاز ونجا من تطهر من الكفر والمعصية وأصلح نفسه. (١٣) خشع لله. (١٤) تفضلون الدنيا على الآخرة. (١٥) الكتب أو المدونات المنزلة سابقاً.

نزه الله وقدسه ومجده عن النقائص والأغيار المغايرة له جميعاً وعما يقول المشركون، والمراد باسم ربك: المسمى وهو الرب، ويقصد بهذا الأمر: تنزيه الله تعالى مطلقاً، والأعلى الأجل والأعظم من كل ما يصفه به الواصفون، فهو العالي والأعلى كالكبير والأكبر.

وصفات الرب الأعلى: أنه الذي خلق الكائنات جميعها، ومنها الإنسان، وسوّى كل مخلوق في أحسن الهيئات، فعدل قامته، وناسب بين أجزائه، وجعلها متناسقة محكمة، غير متفاوتة ولا مضطربة، فقوله: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ عدَّل وأتقن.

والذي قدر لكل مخلوق ما يصلح له، من المقادير المخصوصة، فأرشده وعرفه وجوه الانتفاع بالأشياء. فقوله: ﴿قَدَّرَ﴾ معناه: التقدير والموازنة بين الأشياء.

والذي أنبت العشب الذي ترعاه الدواب، والنبات والزرع الذي يأكله الإنسان، ثم جعل ذلك المرعى بعد اخضراره بالياً هشيماً جافاً أسود يابساً.

ثم وعد الله نبيه تثبيت القرآن في قلبه، فإنا سنجعلك أيها النبي قارئاً، بأن نلهمك القراءة، فلا تنسى ما تقرؤه .قال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها، فنزلت: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ بعد ذلك شيئاً، فقد كفيتُكه. وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس: فلم ينسَ بعد نزول هذه الآية حتى مات.

إنك ستحفظ القرآن المنزل إليك، ولا تنساه، إلا ما شاء الله أن تنساه، فإن أراد أن ينسيك شيئاً، فعل. قال الحسن البصري وقتادة ومالك بن أنس: هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٦-١٨]. وعده الله تعالى أن يُقرئه، وأخبره أنه لا ينسى نسياناً لا يكون بعده تذكّر فيُذهب الآية، وذلك أن النبي ﷺ كان يحرك شفتيه،

مبادرة، خوفاً منه أن ينسى. وفي هذا التأويل آية للنبي ﷺ في أنه أمي، وحفِظ الله تعالى عليه الوحي، وأمَّنَه من نسيانه.

ثم أكد الله تعالى الوعد بالإقراء وعدم النسيان، بأن الله يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

ثم بشر الله نبيه ببشارة أخرى وهو توفيقه للأيسر في أحكام الشريعة، إنا نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً، ونوفقك للطريقة اليسرى.

والمعنى بإيجاز: نذهب بك نحو الأمور المستحسنة في دنياك وأخراك، من النصر والظفر وعلو الرسالة والمنزلة يوم القيامة، والرفعة في الجنة.

ثم أمره الله تعالى بالتذكير، فعظ أيها النبي الناس بالقرآن، وأرشدهم إلى سبل الخير، واهدهم إلى شرائع الدين، وذلك إن نفع التذكير، وهذا اعتراض على جهة التوبيخ لقريش، أي إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة، سيتذكر ويتعظ من يخشى الله تعالى والدار الآخرة، وهم العلماء والمؤمنون، كل بقدر ما وُفِّق، ويتجنب الذكرى ونفعها من سبقت له الشقاوة فكفر، ووجب له صَلْيُ النار الكبرى، والخلود في عذابها.

إن المخلَّد الذي يدخل النار يبقى فيها على الدوام، فلا يموت فيها، فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياة طيبة هانئة ينتفع بها أو يسعد بها.

لقد فاز ونجا من العذاب من تطهر من الشرك والمعصية، فآمن بالله ووحده وعمل بشرائعه وتعهد نفسه بالتزكية والتهذيب والتطهر من الرذائل والمفاسد.

ثم أخبر الله تعالى الناس: أنهم يؤثرون الحياة الدنيا، فالكافر يؤثرها فلا يؤمن بالآخرة، والمؤمن يؤثرها إيثار معصية وغلبة نفس إلا من عصم الله تعالى، ولكن

الآخرة ونعيمها أفضل وأدوم من الدنيا، وثواب الله في الآخرة خير من الدنيا وأبقى، لأن الدنيا فانية، والآخرة باقية.

ثم أعلم الله تعالى أن الشرائع واحدة في أصولها وآدابها العامة، فإن كل ما ذكر من فلاح من تزكى، وتذكّر الله تعالى، وإيثار الناس الدنيا، ثابت في صحف إبراهيم العشر، وصحف موسى العشر غير التوراة، فقد تتابعت كتب الله تعالى أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا.

تفسير سورة الغاشية

القيامة وأحوال الناس فيها

لن يجد الإنسان مهما تعرض له من محن وأزمات وكوارث وفتن أشد على نفسه من القيامة التي سميت بالغاشية، أي الداهية في سورة الغاشية المكية بالإجماع، فهي تذهل بها النفوس، وترتعد القلوب، وتنهار العزائم، وترى الناس فيها أحد فريقين لا ثالث لهما: فريق الجنة، وفريق السعير، والفرق بينهما كبير جداً، والإخبار القرآني عن القيامة وأهوالها إنذار وتحذير سابق قبل المفاجأة المذهلة، كما يبدو في هذه الآيات في مطلع سورة الغاشية:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ(١) ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ(٢) ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ(٣) ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً(٤) ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ(٥) ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ(٦) ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً(٧) ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ(٨) ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ(٩) ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ(١٠) مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ(١١) مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ(١٢) مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ١-١٦].

---

(١) يوم القيامة، سميت بالغاشية لغشيان الناس بعذابها. (٢) ذليلة. (٣) عاملة تعبة في الدنيا. (٤) تدخل ناراً متناهية في الحر. (٥) من ينبوع الماء الشديد الحرارة. (٦) نوع من الشوك لا ترعاه دابة لشدة مرارته. (٧) لغواً لا فائدة فيه. (٨) ينبوع لا ينقطع. (٩) أسرّة عالية. (١٠) آنية بلا عُرى ولا خراطيم. (١١) وسائد. (١٢) بسط فاخرة.

﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ ؟ إخبار، يفيد في تحريك نفس السامع إلى تلقّي الخبر، فهل أتاك أيها النبي حديث القيامة وعلمت خبره؟ وسميت القيامة غاشية، لأنها تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها وتغييرها لبنية العالم.

وأحوال الناس في القيامة فريقان: أشقياء النار، وسعداء الجنة، ففي القيامة أصحاب وجوه خاشعة ذليلة متغيرة بالعذاب هي وجوه الكفار، عاملة في الدنيا، متعبة فيها، لكن لا ثمرة لعاملها إلا النصب، أي التعب، فتكون خاتمتها النار، لأنها على غير هدى، أي إنهم كانوا يعملون في الدنيا عملاً كثيراً، ويتعبون أنفسهم في العبادة، ولا أجر لهم عليها، لما هم عليه من الكفر والضلال، ولأن الإيمان بالله تعالى ورسوله شرط قبول الأعمال.

وجزاء هؤلاء يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ أي تدخل تلك الوجوه ناراً شديدة الحرارة، وتقاسي حرها، وتعذب فيها، لخسارة أعمالها، وتسقى إذا عطشوا من ماء عين، أي ينبوع، آنية، أي متناهية الحرارة، فهي لا تطفئ لهم عطشاً. فالحامية: المسعَّرة التوقد المتوهجة. والآنية: التي قد انتهى حرها. وليس لهم طعام يتغذون به إلا الضريع: وهو شوك يابس شديد المرارة والضر، يقال له في لغة أهل الحجاز الشِّبْرِق إذا كان رطباً. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة: الضريع شِبْرِق النار.

وهذا الطعام الذين يتغذون به لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور، فلا يُسمن آكله، ولا يدفع عنه الجوع.

وهناك طعام آخر لأهل النار: وهو الغسلين والزقّوم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٣٦]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤٣-٤٤].

ولما ذكر الله تعالى وجوه أهل النار، عقَّب ذلك بذكر وجوه أهل الجنة، ليبين الفرق، فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾.

أي ووجوه يوم القيامة ذات نعمة وبهجة، ونضرة وحسن، يعرف النعيم فيها، أو متنعمة، كما قال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ٢٤]. وهي وجوه السعداء، لما شاهدوا من عاقبة أمرهم وقبول عملهم، فهي لعملها الذي عملته في الدنيا ولطاعتها راضية، أي رضيت عملها، لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها.

ثم وصف الله تعالى دار الثواب وهي الجنة بسبعة أوصاف وهي:

- إن أصحاب الوجوه الناعمة (المتنعمة) وهم المؤمنون السعداء في جنة رفيعة المكان، بهية الوصف، آمنة الغرفات، أي إن علو الجنة: من جهة المسافة والمكان، ومن جهة المكانة والمنزلة أيضاً، لأن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض، كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض.

- ولا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة لغو وهذيان، لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم الله من النعيم الدائم، وحقَّ لهم الحمد والشكر الذي لا يوصف، وجعلنا الله منهم.

وفي الجنة ينبوع أو عين ماء تجري مياهها وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة الصافية، والمراد بها جنس، أي عيون جاريات. وفيها أسرّة عالية مفروشة بما هو ناعم الملمس، كثيرة الفرش، مرتفعة السُّمك، إذا جلس عليها المؤمن، استمتع بها، ورأى رياض الجنة ونعيمها، كما في آية أخرى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٣٤].

- وفي الجنة: أكواب، أي أواني الشرب وأقداح الخمر غير المسكرة، معدّة مرصودة بين أيديها، يشربون منها متى أرادوا، وفيها وسائد مصفوفة، بعضها إلى

بعض، للجلوس عليها أو الاستناد إليها، وفيها بُسْط مبسوطة في المجالس، وطنافس (سجاد) لها خمل رقيق ناعم، مفرّقة في المجالس، كثيرة، تغري بالجلوس عليها، ويستمتع الناظر إليها، وفيها الأبهة والمتعة والجمال والفخامة. والأكواب: أوانٍ كالأباريق لا عُرى لها ولا آذان ولا خراطيم، وموضوعة: معناه؛ بأشربتها معدة، والنُّمرقة: الوسادة، والزرابي واحدتها: زَرْبِيّة، وهي كالطنافس لها خَمْل، وهي ملونات، ومبثوثة: كثيرة متفرقة.

مظاهر القدرة الإلهية

أقام الله تعالى الحجة في آيات كثيرة على منكري قدرته على بعث الأجساد، بأن حدد لهم مواضع العبرة في مخلوقاته، ولفت أنظارهم إلى التأمل في المشاهد الحسية المحيطة بهم، من عظمة السماء وعلوها، وما فيها من كواكب عظيمة، والأرض وما تشتمل عليه من سهول وبقاع مسطحة، يسهل الانتفاع بها والعيش عليها، والجبال الثوابت الراسخات فوقها لتثبيتها، والحيوانات ذات الأحجام المتفاوتة من الإبل الكبيرة إلى الزلاحف الصغيرة، فمن خلق هذه الأشياء وغيرها، فهو القادر على خلق الناس مرة أخرى وإعادتهم أحياء للحساب والجزاء، كما يتضح في هذه الآيات:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ[(١)] ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ[(٢)] ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ١٧-٢٦].

---

(١) بمتسلط مسيطر على الناس، بقهر وتكبر . (٢) رجوعهم .

أخرج ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وعبد بن حميد، عن قتادة قال: لما نعت الله ما في الجنة، عجب من ذلك أهل الضلالة، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾.

هذه طائفة من الأدلة على وجود الله ووحدانيته وقدرته، على الناس أن ينظروا فيها، ويتأملوا بعجيب خلقها، ليهتدوا إلى الإيمان باليوم الآخر. كيف يصح للمشركين إنكار البعث واستبعاد وقوعه؟ وهم يشاهدون الإبل التي هي غالب مواشيهم وأكبر مخلوقاتهم في بيئتهم، كيف خلقها الله على هذا النحو البديع، من عظم الجثة، وقوة الجسد، وجمال الوصف، فهي خلق عجيب، وتركيب غريب. ومع ذلك تلين للحِمْل الثقيل، وتنقاد للولد الصغير، وتؤكل بعد الذبح، وينتفع بأوبارها، وألبانها، وجلودها، وتصبر على الجوع والعطش.

ودليل آخر هو: ألا يشاهدون السماء كيف رفعت فوق الأرض بلا عمد؟! وينظرون إلى الجبال الضخمة العالية المنصوبة على الأرض، فإنها ثابتة لئلا تميد الأرض بأهلها أثناء دورانها.

وينظرون إلى الأرض كيف بسطت ومدت ومهِّدت، ليستقر عليها سكناها، وينتفعوا بما فيها من خيرات ومعادن دفينة، وما تخرجه من نباتات وزروع وأشجار متنوعة، بها قوام الحياة والمعيشة.

وتسطيح الأرض إنما هو بالنسبة للناظر إليها من كثَب (أي قرب)، والمقيم عليها في بعض نواحيها، ولا يعني ذلك أنها ليست بكروية، لأن الكرة -كما ذكر الفخر الرازي- إذا كانت في غاية العظمة، يكون كل قطعة منها كالسطح.

وإنما ذكرت هذه المخلوقات دون غيرها، لأنها أقرب الأشياء إلى الإنسان الناظر فيها.

ثم أمر الله نبيه بالتذكير بهذه الأدلة والبراهين الحسية، فقال ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فذكر أيها النبي الناس بما أرسلت به إليهم، وعظهم وخوفهم، ووجّههم للتأمل بهذه الشواهد الدالة على قدرة الله على كل شيء، ومنها البعث والمعاد، وليس عليك إلا التذكير فقط، فإنما بعثت لهذا الغرض، ولا سلطان ولا سيطرة لك عليهم، لحملهم على الإيمان بالله تعالى رباً واحداً لا شريك له، وتصديقهم بجميع رسالتك، رسالة الخير والإنقاذ والسعادة والنظام، فإن آمنوا فقد اهتدوا، وإن أعرضوا فقد ضلوا وكفروا وشقوا.

لكن من تولى عن الوعظ والإرشاد والتذكير، وكفر بقلبه ولسانه، فيعذبه الله في الآخرة بعذاب جهنم الدائم، عدا عذاب الدنيا من قتل وأسر واغتنام مال، لأنه إذا كان لا سلطان لك عليهم، فإن الله تعالى هو المسيطر عليهم، لا يخرجون عن قبضته وقوته وسلطانه. والعذاب الأكبر: عذاب الآخرة، لأنهم قد عذِّبوا في الدنيا بالجوع والقتل وغيرهما. فقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ الصحيح أن الاستثناء منفصل أو منقطع.

ثم أكد الله تعالى وقوع البعث والحساب والعذاب، سواء اعتقد المشركون ذلك أم لم يعتقدوا، فقرار الله تعالى حاسم، وهو: إن إلينا مرجعهم ومصيرهم، ونحن نحاسبهم على أعمالهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فلا مفر للمعرضين، ولا خلاص للمكذبين من العقاب.

إن توكيد قرار وقوع البعث والقيامة دليل على أنه لا مفر لأحد من تطبيق قانون العدالة المطلق، حتى لا يغبن أحد في عمله، فليس من الحق والعدل والمعقول أن يتساوى المحسنون والأشرار، والمستقيمون والفجار، والمؤمنون والكفار، فمن آمن وأطاع، حق له الإنعام والتقدير والإحسان، ومن كفر وعصى كان بدهياً أن يلقى جزاءه العادل على عمله الذي اختاره في الدنيا.

تفسير الفجر

حتمية العذاب وطبع الإنسان

من قواطع الأحكام الإلهية أن الثواب للمؤمنين حق وحتم، والعقاب للكافرين حق وحتم، إنصافاً للخلائق، واحتراماً للمبادئ، ومصداقية مع الشرائع، وكان من فضل الله ورحمته أن أخبرنا عن أمثلة لعذاب الكفار في الدنيا، ليرتدع الفاجر ويؤمن الكافر، ولكن الإنسان يهمل العبر والمواعظ، ويتعجل الأمور، فإذا أنعم الله عليه نعمة دائمة رضي واطمأن، وإذا حجب الله عنه نعمة أو نزلت به فاقة أو مصيبة، جزع ونقم، وهذا واضح من طبع الإنسان في الدنيا، كما تخبر به الآيات الآتية في مطلع سورة الفجر المكية عند جمهور المفسرين:

﴿وَالْفَجْرِ(١) ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ(٢) ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ(٣) ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ(٤) ④ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ(٥) ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ(٦) ⑥ إِرَمَ(٧) ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ⑧ وَثَمُودَ(٨) الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ(٩) بِالْوَادِ ⑨ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ(١٠) ⑩ الَّذِينَ طَغَوْا(١١) فِي الْبِلَادِ ⑪ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ⑫ فَصَبَّ(١٢) عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(١٣) ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(١٤) ⑭ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ(١٥) فَأَكْرَمَهُ

---

(١) وقت الإصباح. (٢) الليالي العشر الأولى من كل شهر قمري. (٣) الزوج والفرد من الليالي. (٤) أي يسري: يجيء ويمضي. (٥) عقل. (٦) قبيلة من العرب البائدة في الأحقاف جنوبي الجزيرة العربية. (٧) لقب لقبيلة عاد، ذات الأعمدة الرفيعة. (٨) قبيلة من العرب البائدة في الحجر بين الشام والحجاز. (٩) قطعوا الصخر ونحتوه. (١٠) الأبنية الثابتة كالأوتاد. (١١) تجاوزوا الحد. (١٢) أنزل عليهم العقوبة متتابعة. (١٣) نوع عذاب ينزل بهم. (١٤) يرصد ويراقب أعمال العباد. (١٥) اختبره.

وَنَعَّمَهُۥ(١) فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾

[الفجر: ٨٩/ ١-١٦].

المعنى: أقسم بوقت الفجر أو الصبح الذي يظهر فيه النور، لبدء النهار، وبالليالي العشر من بدء كل شهر قمري، ومنها العشر الأوائل من ذي الحجة، وبالزوج والفرد من تلك الليالي ومن كل الأشياء، وبالليل إذا جاء وأقبل، ثم ذهب وأدبر، وجواب القسم: محذوف تقديره: لتبعثن.

أليس في هذا القسم بهذه الأشياء العظيمة قسم كافٍ يقنع كل ذي عقل أو لبّ؟ و(الحجْر): العقل، والمعنى: فيزدجر ذو العقل، وينظر في آيات الله تعالى. ثم ذكر الله تعالى مصارع الأمم الخالية الكافرة، وما فعل بها من التعذيب والإهلاك، لتوعد قريش، وبيان الأمثال لها. ألم تعلم يا إنسان، كيف أهلك الله قبيلة عاد الأولى، التي كانت تسكن في بلاد الأحقاف، في جنوب شبه الجزيرة العربية، والتي لها اسم آخر: هو إرم، وكانت ذات مباني عالية، وهذا كناية عن الغنى وبسط العيش، ولم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد المختلفة، أي في زمانهم. فكلمة (إرم) هي قبيلة عاد بعينها، كان نبيها هوداً عليه السلام.

ثم ألم تعلم أيضاً ما فعل الله بقبيلة ثمود قوم صالح عليه السلام، الذين قطعوا الصخر ونحتوه، وبنوا بالأحجار بيوتاً يسكنون فيها، وقصوراً عظيمة، في الحِجْر: ما بين الشام والحجاز، أو وادي القرى. وما فعل الله أيضاً بالجبار فرعون حاكم مصر في عهد موسى عليه السلام، الذي كان صاحب المباني العظيمة، الثوابت كالأوتاد المغروزة في الأرض، ومنها الأهرامات التي بناها الفراعنة لتكون قبوراً لهم.

هؤلاء الذين ذكرناهم وهم عاد وثمود وفرعون هم الذين تجاوزوا في بلادهم الحد

---

(١) جعله منعماً عليه .

في الظلم والجور، وتمردوا وعتوا، واغتروا بقوتهم، وأكثروا الفساد فيها بالكفر والمعاصي والظلم.

فأنزل الله تعالى على تلك الجماعات بنحو متتابع، نوعاً من العذاب الشديد، يشبه السوط المؤلم الذي يستعمل في تطبيق العقاب. وقوله: ﴿فَصَبَّ﴾ الصب: مستعمل في السوط، لأنه يقتضي سرعة في النزول، وسبب العذاب: جرمهم، فإن الله يرصد ويراقب عمل كل إنسان، فلا يفوته شيء، حتى يجازيه عليه بالخير خيراً، وبالشر شراً، ولا يهمل منه شيئاً مهما قل. والمرصاد والمَرْصد: موضع الرصد، أي أنه عند لسان كل قائل، ومرصد لكل فاعل.

وتكرار قصص هذه الأمم المدمرة للتذكير بها، والاتعاظ والاعتبار بها.

ثم ذكر الله تعالى ما كانت قريش تقوله، وتستدل به على إكرام الله تعالى، وإهانته لعبده، وذلك أنهم كانوا يرون أن مَنْ عنده الغنى والثروة والأولاد فهو المُكْرَم، وبضده المهان، وبما أن هذا هو الغالب على كثير من الكفار، جاء التوبيخ في هذه الآية: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ..﴾ لاسم الجنس، إذ قد يقع بعض المؤمنين في شيء من هذا الطبع.

أي إن الإنسان مخطئ في تفكيره أو اعتقاده: أنه إذا امتحنه الله، واختبره بالنعم، فأكرمه بالمال، ووسّع عليه الرزق، فيقول: ربي أكرمني وفضلني، وآثرني واصطفاني. والمقصود من الآية: أن الله يلوم الإنسان فيما يظنه: أنه إن وسع الله عليه في الرزق ليختبره فيه، كان ذلك إكراماً من الله له، وليس كذلك، بل هو امتحان واختبار، هذا بالنسبة للغني أو الثري.

وأما بالنسبة لما يواجه ذلك وهو الفقر، فإن الفقر والتقتير ليس دليلاً على سخط الله على العبد، فإذا ما اختبر الله العبد بالفقر، وضيق عليه الرزق، ولم يوسعه له،

فيقول: ربي أهانني وأذلني. وهذا خطأ أيضاً، فلا يصح للإنسان أن يعتقد أن حجب الرزق عنه إهانة له، وإذلال لنفسه.

وقوله: ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ معناه: اختبره. و﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ معناه: جعله ذا نعمة.

والخلاصة: إن الإنعام على إنسان بشيء من المال والصحة والجاه والمركز مثلاً ليس دليلاً من الله على الرضا عنه. وليس حجب الرزق أو الفقر والتقتير دليلاً على سخط الله وعقابه، وإنما ذلك ابتلاء، فحق من ابتلي بالغنى أن يشكر ويطيع، ومن ابتلي بالفقر أن يشكر ويصبر. وأما إكرام الله تعالى فهو بالتقوى، وإهانته فبالمعصية.

النفس اللوامة وتقصيرها والنفس المطمئنة ورضاها

ردع الله تعالى الإنسان الذي يخطئ الاعتقاد أو الظن في حالتي النعمة والإكرام، والنقمة والإهانة، وأوضح حقيقة تطلعات الإنسان وتصرفاته، فتراه لا يكرم اليتيم أو المحتاج، ولا يحض على إطعام المساكين، ويبادر إلى أكل الميراث بشدة، ويحب جمع المال، ثم يندم على كل ذلك يوم القيامة، ويلوم نفسه على تقصيرها، ويصطدم بالحقيقة: وهي ألا سلطان في الحساب والجزاء إلا لله تعالى. وهذا هو الغالب. وأما التقي الصالح المطمئن إلى صحة عمله وطاعة ربه، فيعود إلى ربه هادئ النفس، مطمئن البال، راضياً بما عمل، ومرضياً بما يجازى به، فيدخل في جنان الخلد مع عباد الله الأبرار. وهذا ما قررته الآيات الآتية:

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ[1] عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ

(١) لا يحض بعضكم بعضاً على ذلك .

ٱلتُّرَاثَ(١) أَكۡلٗا لَّمّٗا(٢) ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا(٣) ﴿٢٠﴾ كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا
دَكّٗا(٤) ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ
وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ
وَثَاقَهُۥٓ(٤) أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ(٥) ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي
عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ [الفجر: ٨٩/ ١٧-٣٠].

أخبر الله تعالى في هذه الآيات عن أعمال الناس، على جهة الردع والزجر، بقوله: كلا، أي زجراً وردعاً عن مزاعم المشركين، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق الرزق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار على طاعة الله تعالى في الحالين، فإذا كان غنياً شكر، وإذا كان فقيراً صبر.

وهم في الواقع مقصرون في سبل الخير، فلا يكرمون الأيتام ولا يبرونهم، ويدفعونهم عن حقوقهم الثابتة لهم في الميراث، ويأخذون أموالهم منهم، ويأكلون المواريث أكلاً شديداً، وجمعاً من غير تمييز بين الحلال والحرام، ويحبون المال حباً كثيراً فاحشاً، أي إنكم أيها الناس تؤثرون الدنيا على الآخرة، والله يحب السعي للآخرة.

كلا، أي زجراً وردعاً لأقوالكم وأفعالكم هذه، ولا يصح أن يكون عملكم مجرد الحرص على الدنيا، وترك مواساة الآخرين منها، وجمع الأموال فيها بأية كيفية، من غير تحرٍ للحلال وبُعْد عن الحرام.

واستعدوا ليوم الحساب والفصل بين الخلائق، حيث تدك، أي تكسر الأرض وتتحرك تحركاً شديداً، ويجيء الله تعالى للفصل بين عباده، وإصدار أوامره وأحكامه

(١) الميراث. (٢) شديداً من غير تمييز بين الحلال والحرام. (٣) كثيراً. (٤) لا يشد رباطه ولا يتولى عذابه أحد غير الله. (٥) المستقرة في إيمانها بالحق، التي اطمأنت بذكر الله.

بالجزاء والحساب، وإظهار آيات قدرته وسلطانه وقهره. ويقف الملائكة مصطفين صفوفاً للحراسة والحفظ. وتكشف للناظرين جهنم بعد غيبتها وحجبها عنهم، كما في آية أخرى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٣٦].

في ذلك اليوم الرهيب يتذكر الإنسان أنه أخطأ وقصر، وكذب وعصى، وفرط وطغى، ويندم على ما قدم في الدنيا من الكفر والمعاصي، وعلى ما عمل من أعمال السوء، ولكن هل تنفعه الذكرى؟ أي: وأنى له نفع الذكرى؟ لا تنفعه، فقد فات الأوان، وإنما كانت تنفعه الذكرى لو تذكر الحق قبل حضور الموت، ويقول الإنسان الذي عصى في الدنيا: ياليتني قدمت عملاً ينفعني في تلك الحياة الأبدية، وكأنها هي الحياة فقط، يا ليتني قدمت الخير والعمل الصالح لحياتي الأخروية الدائمة الباقية، فهي الحياة الأخيرة الخالدة لأهل النار ولأهل الجنة جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿لِحَيَاتِي﴾ معناه عند جمهور المتأولين: لحياتي الباقية، أي الآخرة، وقال بعض المتأولين: المعنى: لوقت أو لمدة حياتي الماضية في الدنيا، واللام بمعنى الوقت.

وجواب قوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ..﴾ في قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ..﴾ أي في يوم القيامة لا يتولى أحد تعذيب العصاة وحسابهم وجزاءهم إلا الله، ولا يتولى إحكام الوثاق أو الربط بالسلاسل والأغلال للكافر أحد إلا الله، ولا يعذِّب أحد مثل عذاب الله. وفي هذا ترغيب بالعمل الصالح والإيمان، وترهيب من الكفر والعصيان.

فالضمير في (عذابه) و(وثاقه) لله تعالى، والمصدر مضاف إلى الفاعل. وقد جمعت الآية معنيين:

أحدهما- أن الله تعالى لا يَكلُ عذاب الكفار يومئذ إلى أحد.

والآخر- أن عذابه من الشدة في حيِّز لم يُعذَّب قط أحد بمثله في الدنيا، وهذا شأن الإنسان المادي.

وبعد بيان ما يتعرض له هؤلاء المعذبون، ذكر الله تعالى ما عليه نفوس المؤمنين وحالهم، وهم الذين صفت أرواحهم وسمت عن الماديات، فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ والمطمئنة: الموقنة غاية اليقين. والمعنى: يقول الله تعالى للمؤمن مباشرة أو بوساطة ملك: يا أيتها النفس الموقنة بالإيمان والحق وتوحيد الله، التي لا يخالجها شك في صدق عقيدتها، وقد رضيت بقضاء الله وقدره، ووقفت عند حدود الشرع، فتجيء يوم القيامة مطمئنة بذكر الله، ثابتة لا تتزعزع، آمنة مؤمنة غير خائفة، ارجعي إلى ثواب ربك الذي أعطاك، وإلى محل كرامته الذي منحك إياه، راضية بهذا الثواب عما عملت في الدنيا، وبما حكم الله، ومرضية عند الله، فادخلي في زمرة عبادي الصالحين، وادخلي معهم جنتي، فتلك هي الكرامة التي لا كرامة سواها، جعلنا الله من أهلها.

نزلت هذه الآية، كما أخرج ابن أبي حاتم عن بريدة: في حمزة، وقال ابن عباس: نزلت في عثمان حينما اشترى بئر رومة، وجعلها سقاية للناس.

تفسير سورة البلد

متاعب الإنسان وتزويده بمفاتيح الرشاد

الحياة مشحونة بالتعب، والإنسان خلق مغموراً بالتعب والهموم ومكابدة العيش، واغتر بالحياة ومباهجها، وظن أنه السيد على الأرض الذي لا يقدر عليه أحد. ولكن الله تعالى زود الإنسان بطاقات المعرفة، ومفاتيح البحث عن المعلومات، وطرق الوصول إلى الهداية والرشاد، والظفر بأسلوب النجاة، ولكنه قصر وأهمل في اقتحام العقبة، وهي تحرير الرقاب، وإطعام الطعام، وأدى ذلك إلى انقسام الناس فئتين: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، كما يتضح من سورة البلد المكية في قول جمهور المفسرين:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ(١) ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ
فِي كَبَدٍ(٢) ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا(٣) ﴿٦﴾ أَيَحۡسَبُ أَن
لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ(٤) ﴿١٠﴾ فَلَا
ٱقۡتَحَمَ(٥) ٱلۡعَقَبَةَ(٦) ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ(٧) ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي
مَسۡغَبَةٖ(٨) ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ(٩) ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ(١٠) ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) أي أقسم بمكة. (٢) خلقناه مغموراً في مكابدة المشاق والمتاعب، والكبد: المشقة. (٣) كثيراً.
(٤) ذللناه وأرشدناه إلى سبيلي الخير والشر. (٥) دخل بشدة وصعوبة. (٦) الطريق الصعب، أي المشاق المصادفة. (٧) إعتاقها. (٨) مجاعة. (٩) قرابة. (١٠) ذا فقر، أي التصقت يده بالتراب كناية عن فقره.

وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ(١) ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ(٢) ﴿٢٠﴾﴾ [البلد: ٩٠/ ١-٢٠].

المعنى: أقسم بهذا البلد: مكة المكرمة، تنبيهاً على حرمتها، وأنت أيها النبي حلال بهذا البلد، يحل لك فيه قتل من شئت، وكان هذا يوم فتح مكة. فقد جاء أهله بأعمال توجب إحلال حرمته. والمراد: أن مكة عظيمة القدر في كل حال، حتى في حال اعتقاد الكفار القرشيين أنك أيها النبي حلال، لا حرمة لك، وهذا تقريع وتوبيخ لهم. وهذا على رأي شرحبيل بن سعد فيما ذكره الثعلبي: أن معنى ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ أي قد جعلوك حلالا مستحل الأذى والإخراج، والقتل لك لو قدروا.

والمقسم عليه هو: لقد خلقنا الإنسان في كبد أي لقد خلقنا الإنسان اسم الجنس كله مغمورا بالمشقة والمكابدة، أي يكابد أمر الدنيا وأمر الآخرة.

ولكن الإنسان اغتر بقوته، فقيل له: أيظن ابن آدم أن لن يقدر عليه أحد، ولا ينتقم منه أحد، فالله قادر على كل شيء.

نزلت هذه الآية في أبي الأشد بن كَلدة الجمحي، الذي كان مغترا بقوته، واسمه: أسيد بن كَلدة الجمحي، كان يحسب أن أحدا لا يقدر عليه. وقيل: نزلت في غيره، مثل عمر بن عبد ود الذي قتله علي رضي الله عنه خلف الخندق، أو في الحارث بن عامر بن نوفل، فوبخهم القرآن على ذلك.

ثم ذم الله الإنسان على الإنفاق بقصد المراءاة، فإنه يقول يوم القيامة: أنفقت مالاً كثيراً، مجتمعاً بعضه على بعض، وهو الذي يسميه أهل الجاهلية مكارم أو معالي ومفاخر.

---

(١) الرحمة. (١) محيطة بهم.

قال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أذنب، فاستفتى النبي ﷺ، فأمره أن يكفِّر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات، منذ دخلت في دين محمد. وهذا القول منه إما استطالة بما أنفق، فيكون طغيانا منه، وإما أسفا عليه، فيكون ندما منه.

ثم عاب الله الإنسان على جهله، حيث قال الله عنه: أيظن الإنسان ومدعي النفقة في سبيل الله أن الله تعالى لم يطلع عليه، ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه، وأين أنفقه؟

ولكن الله تعالى لم يترك الإنسان سادراً في صنوف الجهالة، بل زوده بما يمكنه من التمييز بين الخير والشر، بخلق مفاتيح المعرفة لديه، من أعين ولسان وشفتين وعقل نيِّر، حيث قال الله تعالى عنه: ألم أمنحك أيها الإنسان الجاهل، المغرور بقوتك عينين تبصر بهما، ولسانا تنطق به، وشفتين تغطي بهما ثغرك، وتستعين بهما على الكلام وأكل الطعام؟

ألم نبين لك وندلك على طريق الخير والشر، وجعلنا لك من العقل والفطرة ما تستطيع به إدراك محاسن الخير، ومفاسد الشر، وتختار لنفسك طريق النجاة؟!

وسبيل النجاة: هو اختيار الأفضل، فهلا نشط الإنسان واخترق الموانع المانعة من طاعة الله تعالى، من وساوس الشيطان واتباع الأهواء؟ وهلا جاهد لاجتياز الطريق الصعب، وأي شيء أعلمك ما اقتحام العقبة؟ إنه يكون بإعتاق الرقبة وتحريرها، أو بإطعام في يوم مجاعة يتيماً فقد أباه ذا قرابة، أو مسكيناً محتاجاً لا شيء له، ولا قدرة على كسب المال لضعفه وعجزه، كأنه ألصق يده بالتراب، لفقد المال.

والمسغبة: الجوع العام، و ذا متربة معناه: مدقعاً قد لصق بالتراب، وبه يتبين أن المسكين أشد فاقة من الفقير.

ثم كان من الذين آمنوا وصدقوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، لأن القربات لا تقبل من دون شرط الإيمان، فكان من جملة المؤمنين العاملين عملاً صالحاً، المتواصين بالصبر على الأذى وعلى طاعة الله تعالى وبلائه وقضائه، وعلى الشهوات والمعاصي. وعلى الرحمة فيما بينهم وعلى خلق الله. والمرحمة: كل ما يؤدي إلى رحمة الله تعالى.

أولئك المتصفون بهذه الصفات: هم من أصحاب اليمين، وهم أصحاب الجنة، وأما أضداد هؤلاء فهم الذين جحدوا بآياتنا التنزيلية والكونية الدالة على قدرتنا، فهم أصحاب الشمال، وعليهم نار مغلقة محيطة بهم.

والميمنة: مفعلة، عن يمين العرش، وهو موضع الجنة، ومكان المرحومين من الناس، والمشأمة: الجانب الأشأم، وهو الأيسر، وفيه جهنم، وهو طريق المعذَّبين، يؤخذ بهم ذات الشمال.

تفسير سورة الشمس

تزكية النفس وعذاب المكذبين

النفس الغريزية تحتاج إلى تعديل الغرائز والتزكية، والتوجيه نحو الأفضل، وجهاد الشيطان والهوى. فإذا جاهد الإنسان هواه وكبح شهواته، كان مؤمناً حق الإيمان، وإذا أهمل نفسه، وتركها تسير على وفق المزاج والأهواء، خاب وخسر، وقد أقسم الله على ذلك. والخيبة والخسران تقتضي التعرض للعذاب، والعذاب واقع على المكذبين حتماً، كما وقع على قبيلة ثمود بسبب طغيانها وكفرها، واعتدائها على رسل الله ومعجزاتهم. أخبر الله تعالى بذلك في سورة الشمس المكية بالاتفاق.

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا(١) ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا(٢) ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا(٣) ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا(٤) ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا(٥) ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا(٦) ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا(٧) ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا(٨) ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا(٩) ١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ(١٠) ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا(١١) ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا(١٢) ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا(١٣) فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ(١٤) رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا(١٥) ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا(١٦) ١٥﴾ [الشمس: ٩١/ ١-١٥].

---

(١) ارتفاع الضوء وكماله . (٢) اتبعها واستمد نوره منها . (٣) كشفها وأظهرها . (٤) يزيل ضوءها . (٥) بسطها ووسعها . (٦) عدّلها وكملها . (٧) أفهمها ما يسبب هلاكها وخسرانها ، وما يحفظها من الهلاك. (٨) طهرها ونماها . (٩) خسر من أهمل تزكية نفسه وتهذيبها . (١٠) بطغيانها . (١١) الذي عقر الناقة . (١٢) شربها الخاص . (١٣) فذبحوها . (١٤) أطبق عليهم . (١٥) سوى عليهم الأرض . (١٦) عاقبتها .

المعنى: أقسم بالشمس المضيئة نفسها، سواء غابت أم طلعت، وبضوئها وضحاها الذي يعم الأفق، لأنه مبعث حياة الأحياء، وأقسم بالقمر المنير إذا تبع الشمس في الطلوع بعد غروبها، أو أقسم برب الشمس والضحى والقمر، والضحى: ارتفاع الضوء وكماله، أو هو النهار كله، أو حر الشمس، والقمر يتلو الشمس من أول الشهر إلى نصفه في الغرب، تغرب هي ثم يغرب هو، ويتلوها في النصف الآخر بنحو آخر، وهو أن تغرب هي فيطلع هو. والواقع أن هذا اتباع لا يختص بنصف أول الشهر ولا بآخره.

وأقسم بالنهار إذا جلّى الشمس وكشفها وأظهر تمامها، ففي اكتمال النهار اكتمال وضوح الشمس. وأقسم بالليل إذا يغشى الشمس ويغطي ضوءها بظلمته، فيزيل الضوء وتغيب الشمس، وتظلم الدنيا في نصف الكرة الأرضية، ثم تطلع في النصف الآخر، وهذا رد على المشركين الذين يؤلهون الكواكب، والثنوية الذين يقولون بإلهين اثنين: النور والظلمة، لأن الإله لا يغيب ولا يتبدل حاله.

ثم ذكر الله تعالى صفات الكون حيث قال: وأقسم بالسماء وبناء الله تعالى لها بالكواكب، وأقسم بالأرض والذي بسطها من كل جانب، وجعلها ممهدة موطأة للسكنى.

وقوله: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ و﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ ما فيهما: بمعنى الذي، أي ومن بناها، لأن (ما) تقع عامة لمن يعقل ولمن لا يعقل، فيجيء القسم بنفسه تعالى، ويحتمل أن تكون (ما) في جميع ذلك مصدرية، كأنه تعالى قال: والسماء وبُنْيَانها.

وأقسم بالنفس الإنسانية، والذي خلقها سوية مستقيمة، على الفطرة القويمة، وتسويتها: إكمال عقلها ونظرها، وإعطاؤها ما تحتاجه لتدبير البدن، وهي الحواس الظاهرة والباطنة، ثم ألهمها وأفهمها ما هو شر وفجور، وما هو خير وتقوى، وما

فيهما من قبح وحسن، لتمييز الخير من الشر. وقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ أي عرفها طرق ذلك.

وجواب القسم في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي لقد أفلح، أي قد فاز بكل مطلوب، وظفر بكل محبوب، من زكى نفسه، فهذبها وطهرها ونماها بالخيرات، وعوَّدها على التقوى والعمل الصالح، وخسر وخاب من أغوى نفسه وأهملها ولم يهذبها، وتركها تنغمس في المعاصي، ولم يتعهدها بالطاعة والعمل الصالح.

أي إن العذاب واقع على المكذبين بالحساب والجزاء الأخرى، لا محالة، فقد كذبت قبيلة ثمود بالحِجْر بين الشام والحجاز نبيها صالحاً عليه السلام بسبب طغيانها وبغيها، فإنه الذي حملها على التكذيب. والطغيان: مجاوزة الحد في المعاصي. وذلك حين قام أشقى ثمود: وهو قُدار بن سالف، بعقر ناقة صالح عليه السلام، بتحريض قومه ورضاهم بما يفعل، فكان عقرها دليلاً على تكذيبهم جميعاً لنبيهم، وبرهاناً على صدق رسالته، حين حل بهم العذاب الذي أوعدهم به.

فقال لهم، أي لجماعة الأشقياء نبي الله صالح عليه السلام: ذروا ناقة الله، واحذروا التعرض لها، أو أن تمسوها بسوء، واتركوها وما تشربه من الماء المخصص لها، بحسب القسمة المتفق عليها، لها شرب يوم، ولكم شرب يوم معلوم.

فكذبوه في تحذيره إياهم من العذاب، ولم يبالوا بما أنذرهم به من العقاب، فعقر الأشقى تلك الناقة، وقومه راضون بما فعل، فنسب العقر إليهم جميعاً، فأطبق العذاب عليهم وأهلكهم الله بذنوبهم، وغضب عليهم، فدمرهم وعمهم بالعقاب، وسوى القبيلة في الهلاك، لم ينج منهم أحد، واستوت العقوبة على صغيرهم وكبيرهم، ولا يخاف هذا الأشقى من عاقبة فعله، فالفاعل يعود على أشقاها المنبعث، ويحتمل أن يكون الفاعل هو الله تعالى، أي فلا تبعة على الله تعالى في فعله

بهم، لا يسأل عما يفعل، ويحتمل أن يكون الفاعل هو صالح عليه السلام، أي لا يخاف عقبى الله تعالى بهذه الفعلة بهم، إذ قد كان أنذرهم وحذّرهم.

وقوله: ﴿فَدَمْدَمَ﴾ معناه: أنزل العذاب مُقْلقاً لهم، مكرَّراً ذلك، وهي الدَّمْدمة.

تفسير سورة الليل

تفاوت أعمال الناس وثوابهم

الناس في مركب الحياة أو سفينة الحياة متفاوتون في هممهم وعزائمهم، وأعمالهم وتصرفاتهم، بسبب اختلاف عقولهم وأفكارهم وأهوائهم، وتفاوتهم في التزام الدين والأخلاق والآداب والأنظمة، أو تجاوز ذلك، وكل واحد في مسيرة الحياة يرصد لنفسه ما يلقاه في مستقبل عمره، وفي آخرته، فأما أهل الاستقامة: فهم موفقون للخصال الحسنة، ويكونون في جنان الخلد، وأما أهل الانحراف والضلال: فهم أيضاً موفقون للخصال السيئة، ويكونون بسبب جناياتهم وسيئاتهم في نيران الجحيم، ولا يغنيهم عن سوء عملهم أهل ولا مال ولا صديق حميم، كما يتبين في سورة الليل المكية في قول الجمهور:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ[١] (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ[٢] (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ[٣]
(٤) فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ[٤] (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ[٥] (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ
(٨) وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ[٦] (١٠) وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ[٧] (١١) إِنَّ عَلَيۡنَا
لَلۡهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ[٨] (١٤) لَا يَصۡلَىٰهَآ[٩] إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى[١٠]

---

(١) يستر بظلامه. (٢) ظهر وانكشف. (٣) مختلف نوعاً وجزاء، جمع شتيت. (٤) بالخصلة الحسنى أو الجنة والثواب. (٥) للخطة الفضلى الميسرة المؤدية للخير. (٦) للخطة أو الحالة السيئة المؤدية للشر. (٧) هوى وسقط. (٨) تتوهج وتتقد، أي تتلظى. (٩) لا يحترق بها. (١٠) ملازم الشقاء.

﴿الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى(١) ﴿١٧﴾ الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ(٢) ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ٩٢/ ١-٢١].

أقسم -أنا الله- بالليل حين يغطي بظلامه كل ما كان مضيئاً، وبالنهار متى ظهر ووضح، لإزالة الظلمة الليلية، وبالذي خلق الذكر والأنثى من جميع الأجناس، من الناس وغيرهم. ولم يذكر مفعول (يغشى) للعلم به ضمناً، أو يغشى النهار. وقوله ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ ما: إما بمعنى الذي، أو مصدرية أي بخلق الجنسين.

وجواب القسم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ السعي: العمل، أي إن جميع أعمال العباد مختلفة متباعدة، ومفترقة جداً، فالفاعل: إما خير أو شر، والعمل: إما هدى أو ضلال، وإما مرضي لله يوجب الجنة أو سخط يوجب النار. والساعون قسمان: فأما من أعطى في وجوه الخير وفي سبيل الله، واتقى محارم الله المنهي عنها، وصدق بالجنة أو الأجر والثواب مجملاً، فسنأخذ بيده ونسهل عليه كل ما كلف به من الأفعال والتروك، والحسنى: الجنة، واليسرى: الحال الحسنة المرضية في الدنيا والآخرة.

نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أخرج ابن جرير والحاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير، قال: كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه (أبو قحافة): أي بني! أراك تعتق أناساً ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالاً جلداء يقومون معك، ويمنعونك، ويدفعون عنك، فقال: أي أبتِ، إنما أريد ما عند الله، فنزلت هذه الآيات فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ السورة.

(١) يُبعد عنها التقي. (٢) تجازى وتكافأ.

وأما من بخل بماله، ولم يبذل منه شيئاً في سبيل الله وطريق الخير، واستغنى عن الله ورحمته بزعمه، واكتفى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة، وزهد في الأجر والثواب وفضل الله، وكذّب بالجزاء الأخروي، فسنأخذ بيده ونسهله للحال الصعبة التي لا تنتج إلا شراً، حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح، ويضعف عن فعلها، حتى يصل إلى النار، ولا يفيده شيئاً ماله الذي بخل به، إذا وقع في جهنم، وإذا جُمع في الكلام بين الخير والشر، جاء التيسير فيهما معاً. والإعطاء والبخل المذكوران: إنما هما في المال. وقوله: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ معناه سقط في جهنم، أي من حافاتها.

قال ابن عباس: آية ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨﴾ نزلت في أمية بن خلف.

ثم أخبر الله تعالى عما قام به من الهداية والبيان، فقال: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢﴾ أي إن علينا أن نبين طريق الخير والشر، وسبيل الهداية والضلال، والحلال والحرام، بوساطة الأنبياء وإنزال الكتب المشتملة على تشريع الأحكام، وتبيان العقائد والعبادات، والأخلاق، وأنظمة العقود والمعاملات.

وإن لنا كل ما في الآخرة، وكل ما في الدنيا، نتصرف به كيف نشاء، فمن أراد شيئاً من الدارين، فليطلبه منا، نهب ونعطي ما نشاء لمن نشاء، ولا يضرنا ترك الاهتداء بهدانا، ولا يزيد في ملكنا اهتداؤهم، بل نفع ذلك وضرره عائدان عليكم أيها الناس.

ثم حذر الله تعالى من سلوك طريق النار بقوله: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ أي لقد خوَّفتكم ناراً عظيمة، تتوهج وتلتهب وتوقد، لا يحترق بنارها إلا الشقي الكافر الذي كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، ومنهم رسول الله ﷺ الذي أنزل الله عليه الفرقان، والمراد بقوله: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ ..﴾ أي لا يصلاها صلي خلود.

وسيباعد عن النار كل تقي اتقى الكفر والعصيان اتقاء بالغاً، وهو الذي ينفق ماله ويعطيه في وجوه الخير، طالباً أن يكون عند الله زكياً، متطهراً نقياً من الذنوب، من غير رياء ولا سمعة. ولا خلاف في أن المراد بالأتقى: أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقوله تعالى: ﴿ يَتَزَكَّىٰ﴾ معناه: يتطهر ويتنمَّى. وظاهر هذا الإتيان: أنه في المندوبات.

وتراه لا يتصدق بماله مقابل نعمة لأحد من الناس عليه، يكافئه عليها. أو ليس إعطاؤه ليَجْزي نِعَماً قد أنزلت إليه، بل هو صادر عنه ابتداء، ابتغاء وجه الله تعالى، العلي الأعلى، وتحقيق رضوان الله ومثوبته، لا لمكافأة نعمة، وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم.

وسبب نزول هذه الآية: أن قريشاً قالوا -لما أعتق أبو بكر رضي الله عنه بلالاً- كانت لبلال يد (معروف) عنده.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ..﴾ مستثنى منقطع، والابتغاء: الطلب. وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ وعد من الله تعالى لأبي بكر بالرضا عنه في الآخرة.

تفسير سورة والضحى

نعم الله على نبيه وإرشاده لبعض الخصال

عدَّد الله تعالى بعض النعم على النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، إظهاراً لمكانته في أعين قريش، ورداً عليهم فيما زعموا بأن الله تعالى بتأخيره إنزال الوحي على نبيه قد قلاه (أبغضه) ربه وأبعده. وتميزت هذه النعم بأنها في الغالب أخلاقية أدبية، لا مادية أو سلطوية اغترارية، ثم أمر الله نبيه بشكر هذه النعم، وبالإحسان إلى الأيتام والسائلين، ليكون مثلاً أعلى للإنسانية، وتسلك أمته سلوكه، وتنتهج نهجه، وذلك في سورة الضحى المكية بالاتفاق:

﴿وَالضُّحَىٰ(١) ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ(٢) ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ(٣) رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ(٤) ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ(٥) ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ(٦) ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ(٧) ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٨) ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ(٩) ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ٩٣/ ١-١١].

أخرج الشيخان وغيرهما عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة، فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾. وأخرج الحاكم عن زيد

---

(١) ضوء الشمس الساطع وعِظَمه في مقتبل النهار أو النهار كله. (٢) سكن وهدأ. (٣) تخلى عنك ولا تركك. (٤) أبغضك. (٥) أسكن. (٦) وفقك لأرشد الأمور. (٧) فقيراً. (٨) فلا تذله. (٩) فلا تزجره.

ابن أرقم قال: مكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه جبريل، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى صاحبك إلا قد ودّعك وقلاك، فأنزل الله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ..﴾ الآيات.

أقسم بالضحى: وقت ارتفاع الشمس أول النهار، والمراد به النهار، لمقابلته بالليل، وبالليل إذا سكن وغطى بظلمته النهار، ما قطعك ربك قطع المودِّع، وما تركك، ولم يقطع عنك الوحي، وما أبغضك وما كرهك.

ثم بشره الله بأن المستقبل أفضل من الماضي، فللدار الآخرة خير لك من هذه الدار، إذا انقطع الوحي وحصل الموت، وكذلك أحوالك الآتية خير لك من الماضية، وأن كل يوم تزداد عزة ومهابة ورفعة وسمواً، ونصراً.

أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «عرض علي ما هو مفتوح لأمتي بعدي، فسرّني» فأنزل الله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ وإسناده حسن.

ثم بشره الله أيضاً بعطاء جزيل، بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ..﴾ أي لسوف يمنحك ربك عطاء جزيلاً، ونعمة كبيرة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فهو الفتح في الدين، وانتشار الإسلام، وأما في الآخرة فهو الثواب، والحوض، والشفاعة لأمتك، فترضى به. وهذا دليل على تحقيق السمو في الدارين. أخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والطبراني وغيرهم، عن ابن عباس قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته كَفْراً كَفْراً -أي قرية قرية- فسُرَّ به، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾.

ثم عدّد الله تعالى نعمه على رسوله قبل البعثة كالحال بعدها بقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ أي ألم يجدك ربك يتيماً لا أب لك، فجعل لك مأوى تأوي إليه، وهو بيت كافلك

جدك عبد المطلب، ثم عمك أبو طالب. حيث مكث بعد وفاة أمه آمنة سنتين عند عبد المطلب، وله من العمر ثمان سنين، ثم كفله عمه أبو طالب إلى أن أتم أربعين سنة حيث بعثه الله نبياً.

ووجدك ربك غافلاً (ضالاً) عن أحكام الشرائع، حائراً في معرفة أصح العقائد، فهداك لذلك، ووجدك فقيراً ذا عيال لا مال لك، فأغناك بربح التجارة في مال خديجة، وبما منحك الله من البركة والقناعة. أخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس».

ثم أمره ربه ببعض الأخلاق الإنسانية المحضة، وطالبه بشكر الله على نعمه، حيث قال: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ أي كما كنت يتيماً فآواك الله، فلا تستذل اليتيم ولا تتسلط عليه بالظلم لضعفه، بل أدّه حقه، وأحسن إليه، وتلطف به، واذكر يتمك. فكان رسول الله ﷺ يحسن إلى اليتامى ويبرهم ويوصي بهم خيراً. ويُتْم النبي ﷺ لئلا يكون عليه حق لمخلوق، كما قال الإمام جعفر الصادق.

وكما كنت مخطئاً في العقيدة، فهداك الله، فلا تنهر السائل المسترشد في العلم والدين أو طلب المال، ولا تزجره، بل أجبه، أو ردَّ عليه رداً جميلاً، والضلال هنا: بمعنى الخطأ والمباينة عما آل إليه في حال النبوة والرسالة، وليس بمعنى الكفر والضلال البعيد، فإنه ﷺ لم يعبد صنماً قط.

وتحدث بنعمة ربك عليك، واشكر هذه النعمة العظمى: وهي النبوة والقرآن، ومضامين الآيات. والتحدث بنعمة الله شكر، فكما كنت عائلاً فقيراً، فأغناك الله، فتحدث بنعمة الله عليك، والمعنى في النبي ﷺ: أنه أغنى الأغنياء بالصبر والقناعة، وقد حُبِّبا إليه.

إن هذه الوصايا الثلاث تتناسب مع النعم الثلاث المذكورة، في كل نعمة وصية مناسبة لها، كما تبين، فيقابل صفة اليتم الوصية باليتيم، ويقابل صفة الخطأ ترك قهر السائل عن العلم والدين، لا سائل المال، ويقابل صفة الفقر شكر النعمة التي أسداها الله عليه.

تفسير سورة الشرح أو الانشراح

نعم أخرى على النبي ﷺ

أنعم الله تعالى على نبيه قبل البعثة وبعدها بنعم كثيرة، منها اجتماعية إنسانية، كما في سورة الضحى، ومنها شخصية ودينية تتعلق برسالته، كما في سورة الشرح المكية بالإجماع، والسورتان ذات موضوع واحد، وترتبط كل منهما بالأخرى، حتى قال بعضهم: إنهما سورة واحدة. ومجملها شرح الصدر: وهو كناية عن السرور، ووضع الأوزار المتقدمة على النبوة، ورفع الذِّكر والسمعة والصيت، وتحقيق اليسر في الدين والدنيا والآخرة، وكل ذلك يقتضي الشكر، والحث على العبادة، والطاعة، والعمل الصالح، كما يبدو في سورة الشرح الآتية:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ[1] لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ[2] ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ[3] ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ[4] يُسْرًا[5] ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ[6] ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب[7] ﴿٨﴾﴾ [الشرح: ٩٤/ ١-٨].

هذه طائفة من النعم التي أنعم الله بها على نبيه محمد ﷺ، أولها: أن شرح الله صدره للنبوة وهيأه لها، وشرح الصدر في رأي الجمهور: تنويره بالحكمة، وتوسيعه لتلقي ما يُوحى إليه. وقال ابن عباس رضي الله عنه وجماعة: هذه إشارة إلى شرح

(١) ألم نوسع ونبسط لك صدرك أيها النبي، وهو كناية عن السرور وانبساط النفس. (٢) حملك الثقيل. (٣) أثقله. (٤) الصعوبة والشدة. (٥) سهولة. (٦) إذا فرغت من تبليغ الرسالة، فأتعب نفسك في الدعاء والعبادة. (٧) اتجه إلى الله.

صدره عليه السلام، بشق جبريل عليه السلام عنه، في وقت صغره، وفي وقت الإسراء، إذ التشريح: شق اللحم.

وحديث شق الصدر أخرجه الإمام أحمد عن أُبي بن كعب: ومضمون الحديث: أن جبريل عليه السلام أتى محمداً ﷺ في صغره، وشق صدره، وأخرج قلبه، وغسّله، وأنقاه من المعاصي، ثم ملأه علماً وإيماناً وحكمة، ووضعه في صدره. وهذا من قبيل إرهاصات النبوة، أي مقدماتها وبشائرها.

وحططنا عنك ما كنت تتصور من وجود ذنوب ومعاصٍ أثقلت كاهلك، وأتعبت نفسك، سواء قبل النبوة أو بعدها، مما هو خلاف الأولى، وهو لا يتفق مع سمو قدرك، ورفعة منزلتك، وعلو شأنك، كالإذن لبعض المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك، وقبول الفداء من أسرى بدر، والعبوس في وجه الأعمى ابن أم مكتوم.

وجعلنا لك ذِكْراً مرفوعاً عالياً في الدنيا والآخرة، بالنبوة وختم الرسالات بك، وإنزال القرآن العظيم عليك، وتكليف المؤمنين بالشهادتين، سواء في الأذان والإقامة أو في التشهد، أو في الخطبة وغيرها. والهدف من تعداد هذه النعم: أنه قد جعلنا لك يا محمد جميع هذا، فلا تكترث بأذى قريش، فإن الذي فعل بك هذه النعم، سينصرك عليهم.

ثم أخبر الله تعالى عن خصيصة مهمة جداً من خصائص رسالة النبي ﷺ، وهي وجود يسرين مع كل عسر، لتقوية رجائه وأمله في تغير أحواله وانتصاره، رداً على المشركين الذين عيّروا النبي بالفقر، والضعف. والمعنى: إن مع كل عسر يسرين بهذه الآية: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ لأن العسر معرَّف للعهد، و(اليسر) منكر، فالأول وهو اليسر غير الثاني، وأما العسر فهو واحد. والعسر المعرَّف واحد، لكن اليسر منكر، فهو اثنان، فيكون مع كل عسر يسران، لما أخرجه

الحاكم، وعبد الرزاق، وابن جرير، والبيهقي، عن الحسن، قال: خرج النبي ﷺ يوماً فرحاً مسروراً، وهو يضحك ويقول: «لن يغلب عسر يسرين، إن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً» . **أي مع ما تراه من الأذى فرج يأتيك.**

وهذه بشارة للرسول ﷺ بأن الله سيبدل حاله من فقر إلى غنى، ومن ضعف إلى عزة وقوة، ومن عداوة قومه إلى محبتهم.

ثم أمر الله تعالى نبيه بمتابعة العبادة والعمل والطاعة، فإذا فرغ من شغل من أشغال النبوة والعبادة، فعليه أن يَنْصب (يتعب) في آخر، والنصب: التعب، فالمعنى: أن يدأب على ما أُمر به ولا يفتر.

إذا فرغت أيها النبي من تبليغ الدعوة، أو من الجهاد، أو من عبادة، أو من أحد مشاغل الدنيا وعلاقاتها، فأتعب نفسك في العبادة، واجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك، وأخلص لربك النية والرغبة، وهذا دليل على طلب الاستمرار في العمل الصالح والخير والمثابرة على الطاعة، لأن استغلال الوقت مطلوب شرعاً، والانتفاع بالزمن ضروري دائماً.

وإذا فرغت من أعمالك الدينية والدنيوية، فأقبل على الله تعالى، واجعل رغبتك إلى الله وحده، وتضرع إليه راهباً من النار، راغباً في الجنة، ولا تطلب ثواب عملك إلا من الله تعالى، فإنه الجدير بالتوجيه والتضرع إليه، والتوكل عليه، فهذا أمر بالتوكل على الله عز وجل، وصرف وجه الرغبات إليه لا إلى سواه.

إن هذه الأوامر بمتابعة العبادة والتضرع إلى الله، والتوكل على الله وحده، تصوغ فكر النبي ﷺ، وتصبغ قلبه بالعبادة الخالصة لله سبحانه، وتجعله إنسان الدعوة الدائمة إلى الله، بلسانه وقلبه وفكره وسلوكه وعمله، فيتهيأ أن يكون الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة للأجيال، على سبيل الوفاء والكمال.

تفسير سورة التين

تقويم الإنسان ثم انحداره إلى النار

الجمال في الخلق والتكوين الإنساني هو الظاهرة الإلهية الإبداعية التي تقتضي شكران المنعم، والوفاء لقدر النعمة بالطاعة والخضوع والامتثال لله، ولكن الناس لا يقومون بحق النعمة، وينحدرون في أخلاقهم وأعمالهم حتى يكونوا من أهل النار الذين هم أسفل السافلين بسبب كفرهم، باستثناء المؤمنين الذين يعملون الصالحات، فلهم الثواب الكبير، وليس لأحد بعد إقامة الدلائل على البعث إنكار القيامة، وإقامة صرح العدالة والقضاء الحق في ذلك اليوم، كما جاء في سورة التين المكية بلا خلاف بين المفسرين:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ(١) ۝١ وَطُورِ سِينِينَ(٢) ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ(٣) ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤) ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ(٥) ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٦) ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ(٧) ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٩٥/ ١-٨].

أقسم -أنا الحق- بالتين الطيب الذي يأكله الناس، وبالزيتون الذي يُعْتَصر منه

---

(١) الشجرتان المعروفتان. (٢) جبل بالشام في صحراء سيناء، كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام. (٣) مكة المكرمة. (٤) أحسن تعديل لصورته وشكله وتكوينه. (٥) جعلناه من أهل النار الذين هم أسفل السافلين. (٦) غير مقطوع. (٧) يوم الجزاء.

الزيت، وبموضعهما، وبجبل الطور الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام، في بلاد الشام، وهو طور سيناء. وبهذا البلد الآمن الأمين وهو مكة المكرمة، لأنه آمن ومأمون فيه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧].

أَقْسَم الله سبحانه بهذه المواضع الثلاثة، لأنها مهابط الوحي الإلهي على الرسل الكرام أولي العزم. والقسم بها تنويه بشأنها. ذكر القرطبي في تفسيره عن أبي ذر: أنه أهدي للنبي ﷺ سل تين، فأكل منه، وقال: «لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة قلت: هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عَجَم (نَوى) فكلوا، فإنه يقطع البواسير، وينفع من النقرس».

وجواب القسم: أننا خلقنا الإنسان في أحسن صورة وأجمل شكل، وأبدع تكوين، والمراد: جمال الخلقة والتكوين والتركيب، والتميز بالعقل والفكر، والتدبير والحكمة، وانتصاب القامة، فجميع هذه الأشياء هو حسن التقويم، وليس المراد الجمال الظاهري.

ولم ير قومٌ الحنث على من حلف بالطلاق أن زوجته أحسن من الشمس أو أجمل من القمر.

ثم جعلناه بعد حسن التركيب إلى النار التي هي أسفل الدرجات إن لم يطع الله ويتبع الرسل، أو أننا رددناه أحياناً في آخر العمر إلى الهرم، وذهول العقل، وتغلب الكِبَر، حتى يصير لا يعلم شيئاً.

وعلى التفسير الأول: يكون قوله تعالى بعدئذ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ..﴾ استثناء متصلاً، وعلى التفسير الثاني: يكون ذلك استثناء منقطعاً.

إن مصير أكثر الناس إلى النار، على التفسير الأول، إلا المؤمنين العاملين عملاً صالحاً، بأن جمعوا بين الإيمان والعمل في حال الاستطاعة، فلهم ثواب جزيل،

ينْجُون به من النار أسفل السافلين، وهو الجنة دار المتقين. وعلى التفسير الثاني وهو قول حسن كما قال ابن عطية: إن في جنس الإنسان من يعتريه الخرف والهرم، لكن المؤمنين المتقين، يكافئهم الله بثواب دائم غير منقطع، بسبب صبرهم على ما ابْتُلوا به من الشيخوخة والهرم، والمواظبة على الطاعات بقدر استطاعتهم، أي إنهم قد يردّون إلى أرذل العمر كغيرهم، لكنْ لهم أجر كبير دائم على أفعالهم، وإن انقطعوا عن العبادة بسبب الضعف والهرم.

ثم وبّخ الله تعالى الكافر على التكذيب بيوم الجزاء والحساب بعد البعث بقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ قال جمهور من المتأولين: المخاطب الإنسان الكافر، أي ما الذي يجعلك كذاباً بالدين، أي بالجزاء في عالم الآخرة، تجعل لله تعالى أنداداً، وتزعم ألا بعث بعد هذه الدلائل؟ لقد عرفت أن الله تعالى خلقك في أحسن تقويم، وأنه بسبب الكفر يردك إلى النار مع أسفل السافلين، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء؟ لقد علمت البدأة، وعرفت أن من قدر على البدأة، فهو قادر على الرجعة بطريق أولى، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد، وقد عرفت هذا؟

وقال قتادة، والفراء والأخفش: المخاطب في قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾؟ هو محمد ﷺ، قال الله تعالى له: فما الذي يكذّبك فيما تخبر به من الجزاء والبعث، وهو الدِّين، بعد هذه العبرة التي يوجب النظر فيها صحة ما قلت؟

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ..﴾ قال: هم نفر، ردوا إلى أرذل العمر، على عهد رسول الله ﷺ، فسئل عنهم حتى سفهت عقولهم، فأنزل الله عذرهم، أن لهم أجرهم الذي عملوا، قبل أن تذهب عقولهم.

ثم أكد الله تعالى إيقاع الجزاء والبعث بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين قضاء وعدلاً، الذي لا يجور ولا يظلم، ومن عدله أن يقيم

القيامة، فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه، ويثيب المستقيم، ويعذب المنحرف والكافر؟

هذا إخبار من الله تعالى لجميع خلقه على أنه سبحانه أحكم الحاكمين، على جهة التقرير والتثبيت. أخرج الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً . «فإذا قرأ أحدكم: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فأتى على آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين.

وأخرج أيضاً عبد بن حميد عن قتادة: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه السورة قال: «بلى وأنا على ذلكم من الشاهدين».

تفسير سورة العلق أو القلم

الأمر بالقراءة والكتابة وموقف الكافر المعاند

سورة القلم أو العلق المكية بالإجماع: هي أول ما نزل من كتاب الله تعالى، نزل صدرها في غار حراء، حسبما ثبت في صحيح البخاري وغيره، تضمنت الأمر بالقراءة مفتاح العلم، وبيان خالق الإنسان وبعض مظاهر قدرة الله على الإنسان، وزجر الكافر الطاغية المعاند، الذي يكون غناه سبباً في طغيانه، وينهى عن الخير والصلاة، مع أنه لو أمر بالتقوى والخير، لكان مستحقاً المثوبة الكبرى في جنة المأوى، ليته يعلم بأن الله يرى كل شيء وكل تصرف منه، ويعلم الغيب والشهادة، وسيجازي كل إنسان على عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولئن لم ينته هو وأمثاله من الكفار عن ضلالهم ليعذبنه الله عذاباً شديداً، كما تبين هذه الآيات في سورة القلم:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ[1] ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ[2] ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ[3] ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ[4]

(١) قطعة دم جامدة. (٢) أكرم من كل كريم. (٣) يتجاوز الحد في العصيان. (٤) نجذبن بشدة شعر مقدم الرأس.

﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ(١) ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ(٢) ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب(٣) ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق: ٩٦/ ١-١٩].

اقرأ مبتدئاً باسم ربك، أو مستعيناً باسم ربك، الذي خلق كل شيء، خلق كل إنسان في مجال التناسل والتكاثر من قطعة دم جامد، وهي العلقة، التي هي أحد أطوار خلق الإنسان، حيث يبدأ من نطفة، ثم يتحول إلى علقة، ثم يكون مضغة: قطعة لحم.

وإنما قال: باسم ربك، ولم يقل: باسم الله، لما في لفظ الرب من معنى التربية وتعهد المصلحة، وذلك مناسب للأمر بالعبادة، وأضاف الله ذاته إلى رسوله، بقوله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ للدلالة على أن فائدة العبادة تصل للرسول، وليس لله تعالى.

افعل ما أمرت به من القراءة، وربك الذي أمرك بالقراءة: هو الأكرم من كل كريم، ومن كرمه: تمكينك من القراءة وأنت أمي. وكرر الله تعالى كلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ للتأكيد، ولأن القراءة لا تتحقق إلا بالتكرار والإعادة. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ لإزالة المانع والعذر الذي اعتذر به النبي ﷺ لجبريل عليه السلام، حين طلب منه القراءة، بقوله ﴿ٱقْرَأْ﴾ فقال: ما أنا بقارئ، أي لست متعلماً القراءة.

ثم قرن الله الأمر بالكتابة مع الأمر بالقراءة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ أي علَّم الإنسان الكتابة بالقلم، فهو نعمة عظيمة من الله تعالى، وواسطة للتفاهم بين الناس، كالتعبير باللسان، ولولا الكتابة لزالت العلوم، ولم يبق أثر للدين وأحكام الشرائع الإلهية وغيرها، ولم يصلح عيش، ولم يستقر نظام، ولا تمكنت الشعوب والأمم من الاستفادة من علوم ومعارف وثقافات الشعوب الأخرى، ولا عرف تاريخ الماضين، ولا تحدد مستقبل البشرية والثقافة في مختلف البلاد.

---

(١) أهل النادي . (٢) الملائكة الموكلين بالإشراف على المعذبين في النار . (٣) تقرب إلى ربك بالطاعة .

ثم أوضح الله تعالى عموم فضله وكثرة نعمه بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ..﴾ أي علّم الله تعالى الإنسان بالقلم كثيراً من الأمور والمعارف، ما لم يعلم بها سابقاً.

ثم ردع الله الإنسان على طغيانه في حال الغنى، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي ردعاً وزجراً لك أيها الإنسان عن كفرك بنعمة الله عليك، وتجاوزك الحد في العصيان، لأن رأيت نفسك مستغنياً بالمال والقوة والأعوان.

أخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن المنذر وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يُعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب، فأنزل الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ الآيات.

وجاء بعد ذلك الإنذار بالعقاب الأخروي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ أي إن الرجوع والمصير إلى الله وحده، لا إلى غيره، أي الحشر والبعث يوم القيامة، فهو الذي يحاسب كل إنسان على ماله، من أين جمعه، وأين أنفقه، والرجعى: مصدر كالرجوع. وقد جاء هذا بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، تهديداً للإنسان، وتحذيراً له من عاقبة الطغيان.

وأحوال الطغاة قبيحة جداً هي: النهي عن الصلاة وغير ذلك، ومعنى الآية: أخبرني عن حال هذا الطاغية المغرور وهو أبو جهل وأمثاله، كيف يجرؤ على أن ينهى عبداً هو محمد ﷺ من أداء الصلاة وعبادة الله، وتحويله إلى عبادة الأوثان، وترك عبادة الخالق الرازق؟!

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي، فجاءه أبو جهل، فنهاه، فأنزل الله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ إلى قوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾.

وأخبرني أيضاً عن حال هذا الطاغية، إن كان سائراً على درب الهدى وعبادة الله تعالى، أو أمر غيره بتقوى الله بدلاً من الأمر بعبادة الأوثان، كما يعتقد؟!

والخطاب في هذين الأمرين للنبي ﷺ، وكذلك في قوله: أخبرني يا محمد عن حال هذا الطاغية أبي جهل إن كذَّب بدلائل التوحيد الظاهرة، ومظاهر القدرة الباهرة، وأعْرَضَ عن الإيمان بدعوتك؟! ثم زجره الله وهدده وتوعده بأساليب مختلفة.

أما علم هذا الطاغية أن الله يراه ويسمع كلامه ويعلم أحواله، لينزجر ويرتدع عن أفعاله، فوالله لئن لم ينته عن مضايقاته ولم ينزجر عن عناده، لنأخذن بناصيته، والناصية: مقدم شعر الرأس، ولنجرنه إلى النار. فليدع أهل ناديه، أي قومه وعشيرته، لمناصرته، وسندعو الزبانية: ملائكة النار الغلاظ الشداد، ليلقوه في جهنم.

أخرج أحمد والترمذي والنسائي عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلي، فجاءه أبو جهل، فقال: ألم أنهك عن هذا؟ فزجره النبي ﷺ ، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾﴾.

كلا، للزجر والردع، إياك أن تطيعه أيها النبي فيما دعاك إليه من ترك الصلاة، وتقرب إلى الله بالطاعة والعبادة، وتابع السجود والتعظيم له، فذلك قوة لك وعزة، وحصن ووقاية.

تفسير سورة القدر

بدء نزول القرآن وفضائل ليلة القدر

لقد شرفت ليلة القدر، أي العظمة، بما اشتملت عليه من أعظم حدث إلهي بشري في التاريخ، ألا وهو بدء نزول القرآن الكريم فيها، فصارت ليلة مباركة، كما تضمنت تنزل الملائكة والروح جبريل فيها بكل أمر من أوامر الله تعالى، وأنها سلام من كل سوء، وأمانٌ، واطمئنان، وعافية، ومستجابُ الدعاء، من بدايتها حتى طلوعها فجر اليوم التالي. أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن الحسن بن علي: أن ليلة القدر خير من ألف شهر، ولكنه حديث غريب ومنكر جداً.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ عملها ذلك الرجل. وهذه هي السورة المكية على الصحيح:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ(١) فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(٢) ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ(٣) فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر: ٩٧/ ١-٥].

---

(١) الضمير يعود للقرآن، وإن لم يتقدم ذكره، لدلالة المعنى عليه. (٢) هي الليلة المباركة ليلة الشرف الرفيع والقدر العالي. (٣) هو جبريل عليه السلام.

إنا نحن الله الذي بدأنا إنزال القرآن الكريم إليك أيها النبي في ليلة القدر، وهي الليلة المباركة، في شهر رمضان، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٣]. وآية: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥]. وسميت بليلة القدر أي ليلة التقدير، لشرفها ورفعتها وتقدير الأشياء فيها لسنة قابلة، لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤]. ثم أتممنا تنزيله بعد ذلك منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الحاجة والمناسبات والوقائع، تمكيناً من استيعابه، وتسهيلاً لتطبيقه، وتثبيتاً لقلب النبي ﷺ والمؤمنين به.

وقد روي أن نزول الملَك في حراء، كان في العشر الأواخر من رمضان، وليلة القدر: هي ليلة خصَّها الله تعالى بفضل عظيم، وجعلها أفضل من ألف شهر، لا ليلة قدر فيها. وخُصت هذه الأمة بهذه الفضيلة، لما رأى محمد ﷺ أعمار أمته، فتقاصرها، ليعوضوا بفضلها من الأعمال ما بلغ به غيرهم من الأمم في أعمارهم الطويلة، فالعمل فيها خير من العمل في ألف شهر.

وفضائل هذه الليلة كثيرة وهي:

- وما أعلمك ما ليلة القدر؟ وهذا لتفخيم شأنها وتعظيم قدرها، وبيان مدى شرفها، وهي خير وأفضل من ألف شهر، لأن العمل فيها خير من العمل في ألف شهر، وألف شهر: هي ثمانون سنة، وثلاثة أعوام، وثلث عام.

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه».

- وفي ليلة القدر تهبط الملائكة وجبريل من السماوات إلى الأرض بكل أمر ومن أجل كل أمر قدّر في تلك الليلة إلى سنة قابلة. ذكر ابن عباس وقتادة وغيرهما: أنها سميت ليلة القدر، لأن الله تعالى يقدّر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العام كلها،

ويدفع ذلك إلى الملائكة لتمتثله. وروي هذا في ليلة النصف من شعبان. ويدل لليلة القدر قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤].

والروح: هو جبريل عليه السلام، خص بالذكر لزيادة شرفه، فيكون من باب عطف الخاص على العام. و (من) لابتداء الغاية، أي نزولهم من أجل هذه الأمور المقدرة وبسببها.

وتكون هذه الليلة في أوتار العشر الأواخر من رمضان، فينبغي لمرتقبها أن يرتقبها من ليلة عشرين في كل ليلة إلى آخر الشهر، أي في الأيام الفردية، وهي العشرون، والحادي والعشرون، والثالث والعشرون، والخامس والعشرون، والسابع والعشرون، والتاسع والعشرون. أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والبيهقي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان..».

- وهذه الليلة المحاطة بالخير بنزول القرآن والملائكة: هي سلامة وأمن وخير وبركة كلها، لا شر فيها، من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، يستمر فيها نزول الخير والبركة، ونزول الملائكة بالرحمة، فوجاً بعد فوج، إلى طلوع الفجر. و﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ أي من كل أمر مخوف، قال مجاهد: لا يصيب أحداً فيها داء. وقال الشعبي ومنصور: ﴿سَلَٰمٌ﴾ بمعنى التحية، أي تسلِّم الملائكة على المؤمنين، فيكون المراد بكلمة ﴿سَلَٰمٌ﴾ إما السلامة فيها من كل أمر سوء، أو بمعنى التحية.

والقائلون بانتهاء الكلام في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ﴾ يرون أن قوله تعالى: ﴿هِيَ﴾ إنما هو إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين من الشهر، إذ هذه الكلمة: هي السابعة والعشرون من كلمات هذه السورة.

أخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «خرج

نبي الله ﷺ، وهو يريد أن يخبرنا بليلة القدر، فتلاحى (تنازع) رجلان من المسلمين، قال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين -فلان وفلان- فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

والمراد: إذا مضت واحدة وعشرون: فالتي تليها التاسعة، وإذا مضى الثلاث والعشرون فالتي تليها السابعة، وإذا مضى خمس وعشرون، فالتي تليها الخامسة.

تفسير سورة البينة أو سورة البرية، أو (لم يكن)

أسباب إنزال القرآن

سورة البينة فيها القرار الحاسم والقول الفصل في أمور أربعة: وهي علة إنزال القرآن وهو التكليف، وبيان أن ماجاء به النبي هو الحق الثابت، والفصل في شأن الكفار، من المشركين وأهل الكتاب، وجزاء أهل الإيمان بالنبي ﷺ، وجزاء الباقين على الكفر وماتوا على ذلك. وليس هناك عذر لمن كفر بعد بيان القرآن وإقامة الحجة القاطعة فيه بالأدلة الكونية والتنزيلية، وهذا ماتضمنته هذه السورة المكية في قول جمهور المفسرين:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ(١) حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ(٢) ﴿١﴾
رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً(٣) ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ(٤) ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ(٥) وَيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ(٦) ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي
نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ(٧) ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ(٨) تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٩٨/ ١-٨].

(١) مفارقين كفرهم. (٢) الحجة الظاهرة. (٣) طاهرة من الزور والبهتان والباطل. (٤) مستقيمة لاعوج فيها. (٥) مائلين عن الباطل. (٦) دين الملة المستقيمة. (٧) الخَلق. (٨) جنات إقامة دائمة. والعدن: الإقامة والدوام.

هذه صيحة الحق تقض مضاجع السادرين وهم المتحيرون الذين لايبالون ولا يهتمون بما يصنعون، لتوقظ فيهم مشاعر الإحساس، وتنبه فيهم مفاتح الإدراك، فليس بعد نزول القرآن عذر لمن بقي على شرك أو كفر، ولا سبب لتقصير أو إهمال.

وقد احترم القرآن ماكانوا عليه في الماضي، إذ لابيان ولا حجة ظاهرة. لذا افتُتحت سورة البينة بهذا الإنذار. لم يكن الذين جحدوا رسالة القرآن والنبي العربي الهاشمي، من اليهود والنصارى، وعبدة الأصنام والأوثان من مشركي العرب وغيرهم، منفكين عن الكفر والضلال، مفارقين كفرهم الموروث، منتهين عما هم عليه من الاعتقاد، حتى تأتيهم الحجة الواضحة، وهي القرآن الكريم، ورسالة الرسول ﷺ. ففي القرآن والرسالة النبوية: بيان الجهالة والضلالة، والدعوة إلى الإيمان.

والمراد من تلك البينة أو الحجة: هو رسول الله ﷺ الذي أرسله ربه رحمة للعالمين، يقرأ عليهم ماتتضمنه صحف القرآن، المطهرة من الخلط والكذب، والشبهات والضلال، والتحريف واللَّبْس. والتي فيها الحق الصريح، وفيها، أي سورة البينة أحكام كتب قيمة، أي قائمة معتدلة، آخذة للناس بالعدل، أي فيها الآيات والأحكام المكتوبة المستقيمة المستوية المحكمة، والصلاح والرشاد، والحكمة والهدى. والمراد من الآية: ماكان هؤلاء القوم ليُتركوا سدى. والبينة: القصة البينة والجلية. و﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ فيه حذف مضاف، تقديره: فيها أحكام كتب قيمة، تقوم بالحق والعدل.

ثم ذم الله تعالى المخالفين بقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ..﴾ أي لاداعي للأسف، فإن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) لم يتفرقوا في أمر محمد ﷺ إلا من بعد مارأوا الآيات الواضحة، وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته، فلما جاء من

العرب حسدوه. أي إن تفرقهم واختلافهم لم يكن لاشتباه الأمر عليهم، بل بعد وضوح الحق والصواب، ومجيء الدليل المرشد إلى الدين الصحيح، وهو محمد ﷺ الذي جاء بالقرآن، موافقاً لما عندهم من الكتاب بنعته وصفته، فلما بعثه الله، تفرقوا في الدين، فآمن به بعضهم، وكفر به آخرون، وكان عليهم الاتفاق على طريقة واحدة، كما كانوا يعتقدون، من اتباع دين الله، ومتابعة رسول الله.

ثم وبخهم الله على انحرافهم عن جوهر الدين: وهو إخلاص العبادة لله، فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي إنهم تفرقوا واختلفوا، مع أنهم لم يؤمروا في جميع كتب الله إلا بعبادة الله وحده، عبادة خالصة، لايشركون به شيئاً، يخلصون العبادة لله تعالى، مائلين عن الأديان كلها إلى الإسلام، ويؤدون الصلاة على الوجه الأتم الذي أراده الله، ويؤتون الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس كل عام، وذلك هو دين الملة القويمة.

ثم وجه الله تعالى الوعيد للكفار، وأصدر الوعد للمؤمنين. إن جزاء الذين كفروا بالله، وخالفوا كتب الله من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمشركين الوثنيين هو نار جهنم المستعرة، يصيرون إليها، ماكثين فيها على الدوام، وهم شر الخليقة مصيراً، لتركهم الحق حسداً وبغياً. ولم يقل: (أبداً) لأن رحمة الله أزيد من غضبه، وقال: ﴿هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ لإفادة النفي والإثبات، أي هم دون غيرهم.

وإن الذين آمنوا بقلوبهم بربهم، وصدقوا بكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا صالح الأعمال من أداء الفرائض والطاعات، هم خير الخليقة، حالاً ومآلاً. وجزاؤهم يوم القيامة عند خالقهم على ماقدموا من حسن الاعتقاد وصلاح العمل: جنات إقامة دائمة (بساتين) تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار، ماكثين فيها على الدوام، رضي الله عنهم لإطاعتهم أوامره وقبولهم شرائعه، ورضوا عنه، بما تفضل الله عليهم من حسن الثواب والجنان، وتحقيق المطالب والآمال والأحلام.

وذلك الجزاء الحسن مخصص لكل من خاف الله واتقاه، ورهب عقابه، وأدى فرائضه. وهذا دليل على أن شرط أداء العبادة كالصوم والصلاة: هو خشية الله والخشوع له.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: سكنى جنات أو دخول جنات.

تفسير سورة الزلزلة

علامات القيامة ونوع الجزاء

سور القرآن الكريم وآياته إنذار بعد إنذار، للتذكير والتحذير، فهذه سورة الزلزال المكية في قول ابن عباس وغيره، والمدنية في قول مقاتل وقتادة، لأن آخرها نزل بسبب رجلين كانا بالمدينة، والظاهر أنها مدنية، وهي تبين علامة يوم القيامة، فقد كان الكفار المشركون يسألون كثيراً عن الساعة ويوم الحساب، فيقولون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٧٥/٦] ونحو ذلك من الآيات، فأبان الله لهم في هذه السورة علامات القيامة فقط، ليعلموا أن علم ذلك عند الله، وليس لأحد معرفة ذلك اليوم، ولا تعيينه للجزاء والحساب. وآي السورة هي:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ[(١)] الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا[(٢)] ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا[(٣)] لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ[(٤)] ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ١-٨].

- إذا حُركت الأرض بعنف من أسفلها حركة شديدة، واضطربت اضطراباً هائلاً، حتى يتكسر كل شيء عليها.

---

(١) حركت وهُزّت اهتزازاً شديداً. (٢) دفائنها وأمواتها. (٣) يخرج الناس من قبورهم إلى موقف الحساب متفرقين متمايزين: فريق للجنة وفريق للسعير. (٤) وزن ذرة، أي هباء أو نملة.

وقوله: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ أبلغ من قوله: (زلزالاً) دون إضافة للأرض، لأن المصدر غير المضاف يقع على كل قدر من الزلزال، وإن قل، وإذا أضيف إليها، وجب أن يكون على قدر ما يستحقه، فهو يفيد إيفاء الشيء حقه.

- وألقت ما في جوفها من الأموات والدفائن، وهي أثقالها، وهذه إشارة إلى البعث، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٣-٤]. وذلك في النفخة الثانية. وقال ابن عطية: وليست القيامة بموطن لإخراج الكنوز، وإنما تخرج كنوزها وقت الدجال.

- وقال كل إنسان مؤمن أو كافر (جنس الإنسان) لمّا يبهره أمرها، ويذهله خَطْبها، ويستهول المرئي: ما لهذه الأرض، ولأي شيء زلزلت، وأخرجت أثقالها؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام -فيما أخرجه أحمد والطبراني في الأوسط والحاكم- عن ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس الخبر كالمعاينة..».

- في ذلك الوقت المضطرب، وقت الزلزلة، تخبر الأرض بأخبارها، وتحدِّث بما عمل عليها من خير وشر، ينطقها الله تعالى، لتشهد على العباد، فإخبار الأرض: هو شهادتها بما عمل عليها من عمل صالح وفاسد، كما قال ابن مسعود والثوري وغيرهما. فالتحديث من الأرض -على هذا المعنى- حقيقة، وكلام بإدراك وحياة يخلقها الله تعالى، وأضاف تعالى الأخبار إليها من حيث وَعَتْها وحَصَّلتها. وقال الطبري وقوم: التحديث في الآية مجاز، والمعنى حينئذ: أن ما تفعله الأرض بأمر الله تعالى من إخراج أثقالها، وتفتُّت أجزائها، وسائر أحوالها، هو بمنزلة التحديث بأنبائها وأخبارها. ويؤيد القول الأول: قول النبي ﷺ الذي أخرجه البخاري والنسائي ومالك وأحمد: «فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنّ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة».

- ومصدر التحديث: بأن ربك ألهمها، أي تحدِّث أخبارها بوحي الله وإذنه لها، بأن تتحدث وتشهد.

- في هذا اليوم المضطرب والخراب المدمر، يصدُر (يخرج) الناس من قبورهم إلى موقف الحساب، متفرقين، مختلفي الأحوال، فمنهم المؤمن الآمن، ومنهم الخائف، ومنهم كافرون، ومنهم عصاة، ومنهم فريق الجنة، ومنهم فريق النار، الكل سائر إلى العَرْض ليريهم الله أعمالهم معروضة عليهم.

ثم أخبر الله تعالى أنه من عمل عملاً رآه، قليلاً كان أو كثيراً، فمن يعمل في الدنيا وزن نملة صغيرة، أو هباء لا يرى إلا في ضوء الشمس، يجده يوم القيامة في كتابه، ويلقى جزاءه، فيفرح به، أو يراه بعينه معروضاً عليه، وكذلك من يعمل في الدنيا أي شيء من الشر، ولو كان حقيراً أو قليلاً، يجد جزاءه يوم القيامة، فيسوؤه.

يرى الخير كله من كان مؤمناً، والكافر لا يرى في الآخرة خيراً، لأن خيره قد عُجّل له في دنياه. وكذلك المؤمن أيضاً له سيئاته الصغار في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها. ويحصل من مجموع هذا: أن من عمل من المؤمنين مثقال ذرة من خير أو شر رآه، وألّا يرى الكافر خيراً في الآخرة. ويؤيد هذا حديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه الإمام أحمد ومسلم وغيرهما: «قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت ما كان يفعل عبد الله بن جُدْعان من البرّ، وصلة الرحم، وإطعام الطعام، أله في ذلك أجر؟ فقال: لا، إنه لم يقل قط: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

وكان رسول الله ﷺ يسمي هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ..﴾ الجامعة الفاذَّة.

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: (ويطعمون الطعام على حبِّه) الآية، كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤجرون على الشيء القليل، إذا أعْطَوْه،

وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة، والنظرة، والغيبة، وأشباه ذلك، ويقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر، فأنزل الله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

وأخرج ابن جرير وغيره: أن هذه السورة نزلت، وأبو بكر رضي الله عنه يأكل مع رسول الله ﷺ، فترك أبو بكر رضي الله عنه الأكل وبكى، فقال له رسول الله ﷺ: يا أبا بكر، ما يبكيك؟ قال: يا رسول الله، أو أُسأل عن مثاقيل الذّرّ؟ فقال رسول الله ﷺ : يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا مما تكره، فمثاقيل ذرّ الشر، ويدخر الله لك مثاقيل ذرّ الخير.

تفسير سورة العاديات

الجحود والبخل عند الإنسان

يغلب على طبع الإنسان صفتان ذميمتان، الكفر بالنعم أو جحود المعروف والفضل، والبخل أو الشح، وينسى الإنسان أنه في عالم الدنيا في موضع الاختبار والابتلاء، فإن أحسن العمل فاز ونجا، وإن أساء العمل ضل وخسر وهلك. والله خبير مطلع على جميع أعمال الناس، ويحصيها عليهم، لتكون أداة أو وسيلة إثبات عليهم، وهذا تهديد بالعقاب الشديد يوم القيامة، وذلك يتبين من سورة العاديات المكية في قول جماعة من أهل العلم، وهو الراجح:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا[(١)] ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا[(٢)] ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا[(٣)] ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا[(٤)] ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا[(٥)] ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ[(٦)] ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ[(٧)] ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ[(٨)] ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾ [العاديات: ١٠٠/١-١١].

أخرج البزار وابن أبي حاتم والحاكم، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً، ولبثت شهراً، لا يأتيه منها خبر، فنزلت: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾

---

(١) أقسم بخيل الجهاد التي تعدو وتسرع، فيصدر منها صوت أنفاس الخيل. (٢) الخيل القادحات التي توري النار، أي تخرجها. (٣) الخيل التي تغير أو تهجم على العدو وقت الصبح. (٤) هيجن بمكان عَدْوهن غباراً، أثناء الحركة. (٥) توسطن بالنقع جمعاً من الأعداء. (٦) كفور جحود نعمة الله عليه. (٧) أخرج ما في القبور. (٨) أظهر ما في الصدور وجمع محصلاً.

المعنى: أقسم بالخيل التي تجري بفرسانها المجاهدين في سبيل الله إلى العدو، ويُسمع لها حينئذ صوت زفيرها الشديد وأنفاسها المتصاعدة، بسبب شدة الجري، وتُخرج شرر النار بحوافرها أثناء الجري لتصادم الحصى بالحصى، وبسبب اصطكاك نعالها بالحجر تتطاير منه النار، وتغير على العدو وقت الصباح. والضبح: تصويت جهير عند العدو الشديد، ليس بصهيل.

فهيَّجن في وقت الصبح أو في ساحة المعركة غباراً يملأ الجو، ثم توسطن بعَدْوهن جمعاً من الأعداء، اجتمعوا في مكان، ففرّقنه أشتاتاً. والنقع: الغبار الساطع المثار، وقوله: ﴿ جَمْعًا﴾ المراد به جمع من الناس هم المحاربون.

- وجواب القسم هو: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ . .﴾ أي إن جنس الإنسان سواء كان مؤمناً أو كافراً كفور بطبعه للنعمة، كثير الجحود لها، أي إن الإنسان لنعمة ربه لكنود، أي كفور أو عاصٍ.

-وإن الإنسان على كونه كنوداً جحوداً لشهيد، يشهد على نفسه بالجحود والكفران، أي بلسان حاله، وظهور أثر ذلك عليه، في أقواله وأفعاله، بعصيان ربه.

- وإن الإنسان أيضاً، بسبب حبه للمال، لبخيل به، أو إن حبه للمال قوي، فتراه مجداً في طلبه وتحصيله، متهالكاً عليه، ويكون هناك معنيان صحيحان للآية:

أحدهما- وإنه لشديد المحبة للمال. والثاني- وإنه لحريص بخيل بسبب حبه المال، أي من أجل حب الخير لشديد، أي بخيل بالمال، ضابط له. والخير: المال في عرف القرآن.

ثم هدد الله الإنسان وتوعده إذا استمر متلبساً بهذه الصفات، فقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي أفلا يدري الجاحد إذا أُخرج ما في القبور من الأموات، وجمع محصّلاً ما في النفوس أو الصدور من النوايا والعزائم، والخير والشر، إن رب هؤلاء المبعوثين من

القبور لخبير بهم، مطلع على جميع أحوالهم، لا تخفى عليه منهم خافية في ذلك اليوم وفي غيره، وهو مجازيهم في ذلك اليوم على جميع أعمالهم أوفر الجزاء، دون أن يظلموا مثقال ذرة. وإذا علموا ذلك ووعوه، فعليهم ألا يشغلهم حب المال عن شكر ربهم وعبادته والاستعداد للآخرة بالعمل الصالح. وتخصيص أعمال القلوب بالذكر، لأنها البواعث على الأفعال العضوية الصادرة من الإنسان.

وهذا إخبار وتعريف بالمآل والمصير، أي أفلا يعلم الإنسان مآله ومصيره فيستعد له؟ وبعثرة ما في القبور: نقضه مما يستره والبحث عنه، وهي عبارة عن البعث. ثم استؤنف الخبر الصادق بأن الله تعالى خبير بهم يومئذ. والله تعالى خبير دائماً، ولكن خصَّص (يومئذ) لأنه يوم المجازاة، فإليه طمحت النفوس، وفي هذا وعيد مصرَّح بما سيحدث.

تدل هذه الآية على أن الله تعالى عالم بالجزئيات الزمانية، لأنه تعالى نص على كونه عالماً بكيفية أحوالهم في ذلك اليوم، ويعد منكر هذا العلم كافراً.

إن القسم الإلهي بخيول الجهاد على توصيف طبع الإنسان، بكونه جحوداً للنعمة، وشهادته بهذا الطبع على نفسه، وبكونه محباً للمال، بخيلاً به بخلاً شديداً، يوجب علينا الحذر من هذا الطبع، ومحاولة تعديله، وجهاد النفس وترويضها للتخلص من هذه الصفات السيئة فينا.

أما الإصرار على هذا الطبع والإبقاء عليه، فهو مدعاة للتهديد والوعيد والإنكار الشديد، لا سيما إذا علم الإنسان أنه سيلقى ربه، ويحاسبه على أعماله حساباً دقيقاً، ويجازيه عليها جزاء وافراً.

وفي ملاحظة هذا الوضع وخطورة المصير، يدرك الإنسان في النهاية: أنه هو الجاني على نفسه إذا قصر في واجباته، وأهمل القيام بما عليه، ولم يتحمس لفعل الخير، ولم يَرْعَوِ عن فعل الشر.

وفي النهاية، إن الإنسان يترك بموته كل ما جناه، ولا يستفيد من ماله إلا ما ادخر فيه الثواب عند الله، بإنفاقه في سبيل النفس والأهل وفي سبيل الله، وذلك يشمل الجهاد وعون المحتاجين.

تفسير سورة القارعة

أهوال القيامة

ما أصعب الإنسان وأقساه، وما أكثره غفلة وأبعده عن العظة والعبرة، وما أشده تورطاً في المخاطر! يرى الخطر جاثماً والضرر قائماً، وتراه يقتحم المخاطر، ويتقحم الأهوال بعينه ولا يبتعد عنها، ألا وإن أخطر وأدهى شيء يجده الإنسان: هو أهوال القيامة، لذا سميت القيامة في القرآن العظيم بالقارعة: وهي القيامة نفسها، لأنها تقرع القلوب بهولها، وزادها القرآن تهويلاً في سورة القارعة المكية بلا خلاف.

﴿ٱلْقَارِعَةُ(١) ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ(٢) ٱلْمَبْثُوثِ(٣) ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ(٤) ٱلْمَنفُوشِ(٥) ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ(٦) هَاوِيَةٌ(٧) ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ(٨) ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ١٠١/١-١١].

القارعة وهي القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها ومخاوفها وأفزاعها، وأي شيء هي، وما أعلمك ما شأن القارعة؟ وهذا تأكيد لشدة هولها، وتعظيم أمرها، وتهويل شأنها.

وأماراتها: يوم يخرج الناس من القبور، يسيرون على غير هدى في كل اتجاه، شأنهم في ذلك كالحشرة الطائرة المنتشرة المتفرقة، والناس في انتشارهم وتفرقهم، كأنهم فراش مبثوث، أي متفرق منتشر.

---

(١) القيامة، لأنها تقرع القلوب والنفوس بأهوالها. (٢) حيوان صغير يتهافت على النار. (٣) المتفرق. (٤) الصوف. (٥) الذي نفش. (٦) ما يأوي إليها. (٧) هي نار جهنم. (٨) ملتهبة مستعرة.

و (يوم) ظرف، العامل فيه (القارعة) قال الزمخشري: شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة، والتطاير إلى الداعي من كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار.

– وتصير الجبال كالصوف ذي الألوان المختلفة، المندوف الذي نُفش بالندف، لأنها تتفتت وتتطاير، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾[التكوير: ٨١/ ٣]. وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾[المزمل: ٧٣/ ١٤].

وهاتان الأمارتان فيهما تخويف شديد للناس وتحذير خطير، ويلاحظ أن التشبيه للجبال بالصوف متلائم، فالصوف منه الأبيض والأحمر والأصفر والأسود، وكذلك الجبال جُدد (طرق) بيض وحمر وصفر وسود. والنَّفش: خلخلة الأجزاء وتفريقها عن تراصّها.

ثم ذكر الله الجزاء على الأعمال وتفرق الناس فرقتين.

فأما من ثقلت موازينه وهي التي في القيامة، بأن رجحت حسناته أو أعماله الصالحة على سيئاته، فهو في عيشة مرضية، يرضاها صاحبها في الجنة.

والعيشة: كلمة تجمع النعم التي في الجنة. والعيشة الراضية: معناه ذات رضاً، على النَّسب. قال جمهور العلماء والفقهاء والمحدثين عن الموازين: ميزان القيامة بعمود وكفَّتين، ليبين الله تعالى أمر العباد، بما عهدوه وتيقّنوه. وجمعت الموازين للإنسان لما كانت له موزونات كثيرة متغايرة، وثِقَلُ هذا الميزان: هو بالإيمان والأعمال، وخِفّته بعدمها وقلَّتها، ولن يخفَّ ميزان مؤمن، أي لايخلّد في النار. وإني لمؤمن بالميزان كما ورد في القرآن، دون معرفة كيفية وزنه وتقديره.

وأما من رجحت سيئاته على حسناته، أو لم تكن له حسنات يعتد بها، فمسكنه أو مأواه جهنم، وسماها أمه: لأنه يأوي إليها، كما يأوي الطفل إلى أمه، وسميت جهنم

هاوية: وهي الهالكة، لأنه يهوي فيها مع عمق قعرها، ولأنها نار عتيقة. روى المبرد: أن النبي ﷺ قال: «لا أمَّ لك» فقال: يا رسول الله، تدعوني إلى الهدى وتقول: لا أم لك؟ فقال: إنما أريد، لا نار لك، قال الله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾

وما أعلمك ما هذه النار؟ والاستفهام للتهويل والتخويف، لبيان أنها خارجة عن المعهود، بحيث لا يُدرى كنهها، إنها النار الملتهبة الشديدة الحرارة والاستعار، القوية اللهب والارتفاع، وهذا دليل على قوتها التي تفوق جميع النيران. قال الزمخشري: ﴿هِيَهْ﴾ضمير الداهية التي دل عليها قوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾أو ضمير هاوية، والهاء للسكت، وإذا وصل القارئ حذفها.

أخرج مالك والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون: جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟ فقال: إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً».

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «هذه النار جزء من مئة جزء من جهنم».

لقد ضمت سورة القارعة صنوي التهويل العظيمين وهما القيامة وأهوالها، والنار الشديدة الحرارة ومخاوفها. والناس أمام هذا المصير فريقان: فريق المحسنين الأبرار، الذين يتمتعون بجنان الخلد، والمعيشة ذات الرضا والاطمئنان، وفريق المسيئين الأشرار الذين يتلظون بنيران جهنم، ويحترقون فيها.

ومن علامات القيامة: تغير المألوف، وزوال المعروف من تكوين السماء والأرض، حيث تتصدع السماوات وتتساقط النجوم، وتتفتت الجبال، وتحترق البحار، وتدك الأرض دكاً عنيفاً، وتتغير معالم الكون، في هذا الجو الرهيب يقف الإنسان حائراً مضطرباً في مواجهة الله تعالى والحساب العسير.

تفسير سورة التكاثر

عاقبة التكاثر في المال والجاه

الناس في لغو ولهو وطرب، ينساقون وراء المال والجاه، والصيت والسمعة، ويحرصون على التنويه بذواتهم في إطار التفوق المادي وجمع المال بأي طريق. ويظل هذا الحرص مهيمناً على مشاعرهم طوال الحياة. فمنهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال. ولقد حذر القرآن الكريم في مناسبات كثيرة من الاغترار بالدنيا وزينتها ومفاتنها، ومن فتنة الأموال والأولاد والأزواج، ولا سيما في سورة التكاثر المكية بلا خلاف:

﴿أَلْهَـٰكُمُ(١) ٱلتَّكَاثُرُ(٢) ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ(٣) ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ(٤) ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ(٥) ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ١٠٢/ ١-٨].

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن بُريدة في قوله: ﴿أَلْهَـٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار، في بني حارثة وبني الحارث، وتفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما، فيكم مثل فلان ابن فلان وفلان؟ وقال الآخرون: مثل ذلك،

(١) شغلكم بلذاته. (٢) التفاخر بكثرة المال والولد. (٣) علماً يقينياً: وهو العلم القطعي الذي نشأ عن اعتقاد مطابق للواقع، عن معاينة أو دليل صحيح. (٤) لتشاهدن النار. (٥) لتشاهدنها حقيقة أو عياناً كأنها اليقين نفسه، فعلم المشاهدة: هو عين اليقين.

تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور، فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبور، ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل.

وأخرج ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال: كنا نشك في عذاب القبر، حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ في عذاب القبر.

لقد شغلكم بلذاته ومفاتنه التفاخر والتباهي بالأموال والأولاد والأعوان، والاعتناء بكثرتها وتحصيلها، شغلكم عن طاعة الله والعمل للآخرة، حتى أدرككم الموت، وأنتم على تلك الحال. وهذا خبر فيه تقريع وتوبيخ وتحسر. والتكاثر: التفاخر بالأموال والأولاد والعدد جملة، وهذا ولع أهل الدنيا ودأبهم وعادتهم، سواء من العرب وغيرهم، لا يتخلص منه إلا العلماء المتقون.

أخرج البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم: أن النبي ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت».

ومعنى ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ مختلف فيه، قال بعضهم بما يناسب سبب النزول: حتى ذكرتم الموتى في تفاخركم بالآباء والسلف، وتكثّرتم بالعظام الرميم، وقال آخرون: المعنى، حتى مُتّم وزرتم بأجسادكم مقابركم، أي قطعتم بالتكاثر أعماركم. وعلى هذا التأويل رُوي أن أعرابياً سمع هذه الآية، فقال: بعث القوم للقيامة، وربِّ الكعبة، فإن الزائر منصرف لا يقيم.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن هذا التكاثر الذي يؤدي إلى

التقاطع والتدابر والأحقاد والضغائن، وإهمال العمل للآخرة، ومراعاة مصالح الأمة وخيرها، وتصحيح السلوك والأخلاق، وستعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة، وهذا زجر ووعيد.

ثم أكد الله تعالى ذلك الزجر والوعيد للاتعاظ، أي ارتدعوا عن هذا اللهو بالدنيا، فإنكم لو تعلمون الأمر الذي أنتم صائرون إليه علماً يقينياً، لانشغلتم عن التكاثر والتفاخر، ولبادرتم إلى صالح الأعمال، ولما ألهاكم التباهي عن أمر الآخرة العظيم والإعداد لها. وهذا زيادة في الزجر واللوم عن الانهماك في الدنيا، والانهماك بمظاهر الحياة الزائلة.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جواب (لو) محذوف مقدر في القول، أي لازدجرتم وبادرتم إنقاذ أنفسكم من الهلكة. واليقين: أعلى مراتب العلم. ثم فسر الله تعالى الوعيد، وأخبر الناس أنهم يرون الجحيم بقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ أي لتشاهدن النار في الآخرة، أي تذوقوا عذابها، وهذا جواب قسم محذوف، وهو توعد بحال رؤية النار، التي إذا زفرت زفرة واحدة، خرَّ كل ملك مقرَّب، ونبي مرسل، على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال الجسام.

ثم أكد الله تعالى ذلك الوعيد بقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ أي ثم لتشاهِدُنَّ الجحيم مشاهدة عياناً هي نفس اليقين، وهي المشاهدة أو الرؤية بأعينكم، فإياكم من الوقوع فيما يؤدي إلى النار من اقتراف المعاصي والسيئات.

ثم أكد الله تعالى المساءلة عن الأعمال، للتحذير، فقال: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ أي إنكم سوف تسألون عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة، وتسألون عن أنواع نعيم الدنيا، من أمن وصحة وفراغ ومأكول ومشروب ومسكن، وغير ذلك من النعيم. قال الزمخشري: ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾ عن اللهو والتنعم

الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه. وقال الفخر الرازي: والأظهر أن الذي يسأل عن النعيم هم الكفار، وفي قول آخر: إنه عام في حق المؤمن والكافر، ويكون السؤال حينئذ في حق المؤمن ليعلم أنه وجَّه هذا النعيم لما فيه الخير، وصرفه فيما يرضي الله تعالى.

تفسير سورة العصر

أصول النجاة

ليست النجاة بين يدي الله عز وجل بالمال أو الجاه، أو العلم، أو الابتكار، أو العمل الدنيوي المحض، أو غير ذلك من زخاف الحياة، ومظاهر العيش التي يتنافس فيها الناس، ويحرصون عليها، وإنما النجاة بين يدي الله إما بموقف كريم يعتمد على قاعدة الإيمان الصحيح بالله ورسوله، وإما بأصول أربعة هي: جسر النجاة في الموازين الإلهية، ألا وهي الإيمان الثابت، والعمل الصالح، والتواصي بالتزام الحق والعدل والخير، والتواصي بالصبر على الطاعة وعلى مصائب الدنيا، وهذا ما حكم به الله سبحانه في سورة العصر المكية عند الأكثرين:

﴿وَٱلْعَصْرِ(١) ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ(٢) ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ(٣) وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ(٤) ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١٠٣/١-٣].

هذه سورة جامعة لأصول الخير والنجاة عند الله تعالى، قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم، لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس، لأنها شملت جميع علوم القرآن.

وأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب عن أبي حذيفة -وكانت له

---

(١) والدهر، وقيل: إنه آخر النهار. (٢) النقصان وسوء الحال. (٣) بثوابت الأمور، أي بالخير المجرد.
(٤) القوة على تحمل المشاق.

صحبة- قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا التقيا، لم يتفرقا، حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة: والعصر ثم يسلّم أحدهما على الآخر.

وفيها إشارة إلى حال من لم يلهه التكاثر، ولذا وضعت بعد سورته.

ومعناها: أقسم بالعصر: وهو الدهر أو الزمان الذي يمر به الناس، لما فيه من العبر وتقلبات الليل والنهار، وتعاقب الظلام والضياء، وتبدل الأحداث والدول، والأحوال والمصالح، مما يدل على وجود الصانع عز وجل، وعلى توحيده وكمال ذاته وقدرته وصفاته. أقسم بذلك على أن الإنسان (أي اسم الجنس) لفي خسارة وهلاك وسوء حال، في المتاجر والأعمال، والمساعي والأفعال، إلا من استثناهم الله فيما يأتي.

وهذا القسم بالدهر دليل على شرفه وأهميته، لذا قال النبي ﷺ -فيما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه-: «لا تسبّوا الدهر، فإن الله هو الدهر» أي خالقه.

والآية، كما ذكر الرازي، كالتنبيه على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والخيبة، وذلك بيِّن غاية البيان في الكافر، إنه خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وأما المؤمن -وإن خسر في دنياه أحياناً، كالتجارة، والهرم ومقاساة شقاء الدنيا- فذلك لا يعد شيئاً في جانب فلاحه في الآخرة، ور بحه الذي لا يفنى.

ثم استثنى الله تعالى من جنس الإنسان من اتصف بصفات أربع، حيث يجمع له الخير كله، وهذه الصفات:

- هي الإيمان الصحيح بالله عز وجل وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر، خيره وشره، حلوه ومره، والشر في المقضي بحسب تقدير الإنسان عاجلاً، أما في المستقبل، أو في علم الله تعالى فلا شر في القدر.

- والمداومة على العمل الصالح: وهو أداء الفرائض وبقية الطاعات، وفعل الخيرات، وترك المحرمات، وترداد الباقيات الصالحات وهي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

- والتواصي بالحق وهو كل أمر ثابت صحيح خلاف الباطل: وهو الخير كله من الإيمان بالله عز وجل، واتباع كتبه ورسله عليهم السلام، في كل عقد وعمل. قال الزمخشري: هو الخير كله. من توحيد الله، وطاعته، واتباع كتبه ورسله والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

- والتواصي بالصبر عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحكم الجبلّة البشرية، والصبر على الطاعات التي يشق على النفس أداؤها، وعلى ما يبتلي الله تعالى به عباده من المصائب.

والصبر المذكور داخل في الحق، وذكره بعده مع إعادة الجار والفعل المتعلق هو به، لإبراز كمال العناية به. والصبر: ليس مجرد حبس النفس عما تتوق إليه من فعل أو ترك، بل هو تلقي ما ورد منه عز وجل بالجميل والرضا به، باطناً وظاهراً.

واستدل بعض المعتزلة بما في هذه السورة، على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، لأنه لم يُسْتثن فيها عن الخسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. إلخ، وأجيب عنه بأنه لا دلالة في ذلك على أكثر من كون غير المستثنى في خسر، وأما على كونه مخلداً في النار، فلا. كيف والخسر عام، فهو إما بالخلود إن مات كافراً، وإما بالدخول في النار إن مات عاصياً، ويبقى بعد ذلك الإحالة إلى مغفرة الله تعالى، فهو سبحانه إن غفر المعاصي لم يخلد، وقد ورد في الحديث الثابت الذي أخرجه البزار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله، مخلصاً؛ دخل الجنة».

تفسير سورة الهُمَزة

جزاء الطعن والتعييب

ليس لأحد أن يدعي الكمال، فالكمال لله وحده، وليس لأحد أن يزعم أنه خالٍ من النقص والعيب، فإن الإنسان مبني على النقص في عقله وتجاربه، وما دام النقص من سمات الإنسان، فلا يصح أن يغفل عن نقائصه، ويوجه انتقاداته وطعونه إلى الآخرين، وإنما عليه العناية بنفسه، فيصلحها، ويحاول إكمال ما فيها من نقائص، وليترك الناس وما هم عليه من عيوب، فإن لم يفعل استحق الويل والهلاك والعذاب، الذي تنص عليه سورة الهمزة المكية بلا خلاف:

﴿وَيْلٌ[(١)] لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ[(٢)] ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ[(٣)] ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ[(٤)] ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ[(٥)] ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ[(٦)] ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ[(٧)] ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ[(٨)] ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ[(٩)] ﴿٩﴾﴾

[الهمزة: ١٠٤/١-٩]

قال عطاء وغيره: نزلت في الأخنس بن شُريق، كان يلمز الناس ويغتابهم، وبخاصة رسول الله ﷺ، وقيل: في جميل بن عامر الجمحي، وقال مقاتل: نزلت في

(١) كلمة هلاك وعذاب يجمع الشر والخزي، وهو مبتدأ وإن كان نكرة لوقوعه في موقع الدعاء، وخبره: الذي جمع. (٢) عياب، طعان نمام. (٣) عده مرات تلذذاً به. (٤) جعله خالداً. (٥) النار الشديدة. (٦) المتقدة المسعَّرة. (٧) تصل إليها. (٨) مغلقة عليهم. (٩) عمد طويلة.

الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويطعن عليه في وجهه، وروي أيضاً أن أمية بن خلف كان يفعل ذلك، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وهذه قاعدة عامة، فهي تتناول كل من اتصف بهذه الصفات.

هلاك وعذاب وخزي لكل همزة لمزة. والهمزة: الذي يهمز الناس بلسانه، أي يعيبهم ويغتابهم، وقال ابن عباس: هو المشاء بالنميم. واللمزة: الذي يغتاب الناس ويطعن في الوجه.

- وسبب همزه ولمزه: إعجابه بما جمع من المال وأحصاه وحافظ على عدده ألا يَنْقُص، وظن أن له به الفضل على غيره، فمنعه من الخيرات ونفقة البر.

- يظن أن ماله يضمن له الخلود، ويتركه حياً باقياً لا يموت، لشدة إعجابه بما يجمعه من المال، فلا يفكر فيما بعد الموت. ويحسب أيضاً أن ماله هو معنى حياته وقوامها، وأنه حفظه مدة عمره ويحفظه.

ثم رد الله تعالى عليه هذه المزاعم والأوهام، وأخبر إخباراً مؤكداً أنه يُنبذ في الحطمة، أي التي تحطم ما فيها وتلتهمه، لينزجر ويرتدع عما يقول، فليس الأمر كما زعم ولا كما حسب، بل ليلقين ويطرحن هذا الأفاك هو وماله في النار التي تحطم أو تهشم كل ما يلقى فيها.

ثم عظَّم الله تعالى شأن النار، وأخبر أنها نار الله الموقدة التي يبلغ إحراقها القلوب ولا تخمد، و(الفؤاد) القلب. وما أعلمك ما هذه النار، وأي شيء هي؟ فكأنها لا تدركها العقول والأفكار، هي النار المستعرة بأمر الله تعالى، التي لا تَخْمَد أبداً.

وفائدة وصف جهنم بالحطمة: مناسبتها لحال المتكبر، المتجبر بماله، المترفع على غيره، فهي تكسر كسراً كل ما يلقى فيها، لا تبقي ولا تذر. وإضافة ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ للتفخيم، أي هي نار، لا كسائر النيران.

ثم وصف الله تعالى النار بأوصاف ثلاثة، وأخبر بها خبراً دائماً عاماً، وهي:

- التي تعلو وتصل إلى القلوب وتغشاها بحرها الشديد، وتحرقهم وهم أحياء، وتتجدد الحياة ويدوم العذاب، والقلوب أشد أجزاء البدن تألماً، وخصت بالذكر، لأنها محل العقائد الزائغة، والنيات الخبيثة، وسوء الأخلاق من الكبر واحتقار الناس، والأعمال القبيحة.

- وهي عليهم مطبقة، مغلقة عليهم أبوابها جميعاً، فلا منافذ، ولا يستطيعون الخروج منها، كما جاء في آية أخرى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ۝٢٠﴾ [البلد: ٢٠/٩٠]. وقال الله تعالى مبيناً استمرار بقائهم فيها: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢/٢٢]. قال علي رضي الله عنه: أبواب النار بعضها فوق بعض.

- وهي أيضاً كائنة ثابتة في أعمدة ممددة طويلة موثّقة، قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم، ثم شدّت بأوتاد من حديد، فلا يفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم رَوْح، قال ابن زيد: المعنى: في عمد حديد مغلولين لها، والكل من نار.

والآية تفيد المبالغة في العذاب، بقوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ أي أنه موضع، له قعر عميق جداً كالبئر، وأن أبوابها لا تفتح ليزيد في حسرتهم، وتغلق إغلاقاً محكماً، للتيئيس من الخروج منها، وممددة في أعمدة دائمة اللهب، فلا أمل في إطفائها أو تخفيف شدة حرارتها.

إن من يشاهد أفران النار للتوتر العالي، أو مراكز الطاقة الذرية المتفجرة، أو البراكين التي تظهر فيها المعادن والحجارة منصهرة كالماء السيّال أو النيران المتآكلة، يفزع كل الفزع، ويهرب من غير وعي ولا عقل، فكيف بنيران جهنم التي هي أشد من جميع نيران الدنيا؟! ونار الدنيا جزء من سبعين أو مئة جزء من نار الآخرة، عافانا الله منها.

تفسير سورة الفيل

قصة أصحاب الفيل

حرمات الله تعالى عظيمة مقدسة، ومنها بيت الله الحرام-الكعبة المشرفة، فمن حاول المساس بتلك الحرمات، رده الله وصده عنها، وحمى حرماته بما يشاء، وسورة الفيل المكية إجماعاً من الرواة نزلت تذكيراً لقريش بنعمته العظيمة، حين أراد أبرهة ملك الحبشة هدم الكعبة، ووجَّه جيشه لهذه المهمة، معهم الفيلة الكثيرة، بقصد توجيه حج العرب إلى بيت بناه أبرهة في اليمن، ولكن قدرة الله القهار فوق كل تقدير واعتبار، فحينما وجه أبرهه جيشه لهدم الكعبة، برَك فيله بذي الْمُغَمَّس (موضع قريب من مكة في طريق الطائف) ولم يمش نحو مكة، على الرغم من أنهم شقوا جلده بالحديد، وكان إذا وجهوه إلى غير مكة هرول. وبينما هم كذلك، بعث الله تعالى عليهم طيراً جماعات سوداً أو خُضْراً من البحر، عند كل طير ثلاثة أحجار، في منقاره ورجليه، كل حجر فوق العدسة، ودون الْحُمُّصة، فرمتهم بتلك الحجارة، وكان الحجر منها يقتل المرميَّ، وتتهرأ لحومهم جرباً وأسقاماً، وانصرف أبرهة بمن بقي معه يريد اليمن، فماتوا في طريقهم متفرقين في كل مرحلة، وتقطَّع أبرهة أُنملة أُنملة حتى مات، وحمى الله بيته، فنزلت هذه السورة مُنَبِّهة على الاعتبار بهذه القصة، ليعلم الكل أن الأمر كله لله تعالى، ويستسلموا للإله الذي ظهرت في ذلك قدرته، حين لم تغن الأصنام شيئاً، فأصحاب الفيل: هم أبرهة الملك ورجاله.

وها هي سورة الفيل:

﴿أَلَمْ تَرَ(١) كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ(٢) ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ(٣) فِى تَضْلِيلٍ(٤) ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ(٥) ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ(٦) ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ(٧) مَّأْكُولٍۭ(٨) ۝٥﴾ [الفيل: ١٠٥/١-٥].

ألم تعلم علم اليقين، وكأنك شاهدت الواقعة، بما صنع ربك العظيم القدير بأصحاب الفيل، حيث دمَّرهم الله، وحمى بيته الحرام، أفلا يجدر بقومك أن يؤمنوا بالله؟! وقد شاهد بعضهم الواقعة بنفسه.

ألم تر أن ربك جعل مكرهم وتدبيرهم وسعيهم في تخريب الكعبة واستباحة أهلها، في تضليل وانحراف عما قصدوا إليه، وفي تضييع وإبطال، حتى إنهم لم يصلوا إلى البيت، ولا إلى ما أرادوا بكيدهم، بل أهلكهم الله تعالى. والكيد: إرادة مضرة بالغير على الخفية. والتضليل: الخسار والتلف.

وحيث إن قومك أيها النبي يعلمون بهذا الأمر، فليخافوا أن يعاقبهم الله بعقوبة مماثلة، ما داموا يصرون على الكفر بالله تعالى، وبرسوله ﷺ، وكتابه الكريم، ويصدون الناس عن سبيل الإيمان بالله تعالى.

وأرسل الله تعالى على أصحاب الفيل جماعات متفرقة من طيور سود أو خضر، جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً، مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، لا يصيب شيئاً إلا دمره وهشمه، وهي حجارة صغيرة من طين متحجر كالحُمُّصة وفوق العدسة، فإذا أصاب أحدهم حجر منها، خرج به الجدري أو الحصبة، حتى هلكوا.

---

(١) ألم تعلم أيها الرسول. (٢) أبرهة الحبشي الملك وجنوده. (٣) لقد جعل مكرهم وتدبيرهم بتخريب الكعبة وتعطيلها. (٤) تضييع وإبطال. (٥) جماعات متفرقة. (٦) طين متحجر. (٧) كورق زرع وحبه وتبنه. (٨) أكلته الدواب، وراثته، أي صاروا طحيناً ذاهباً كورق الحنطة، أكلته الدواب وراثته.

فجعلهم فضلات وبقايا، مثل ورق الزرع أو الشجر إذا أكلته الدواب، ثم راثته، فأهلكهم جميعاً. وحجارة من سجيل: أي من ماء وطين، كأنها الآجر ونحوه مما طبخ، وهي المسوَّمة عند الله تعالى للكفار الظالمين. والعصف: ورق الحنطة وتبنه.

والمعنى: صاروا طحيناً ذاهباً كورق الحنطة، أكلته الدواب وراثته، فجَمع ذلك المهانة والخسة والتلف.

هذه هي قصة أصحاب الفيل الثابتة ثبوتاً قطعياً، أثبتها القرآن، وعاش أحداثها عرب مكة من قريش سنة (٥٧١م)، في العام الذي ولد فيه النبي محمد ﷺ.

وهي قصة عجيبة غريبة، لإظهار مثال من أمثلة قدرة الله تعالى، حيث يغفل الناس عن الأمثلة الكثيرة الواقعية المشابهة، يتبين منها أن الله تعالى بقدرته العظيمة قادر على أن يدفع السوء عن البيت الحرام وعن كل ما يريد حمايته في كل وقت، وهو القادر على أن يعاقب الطغاة المتجبرين، الذين يشركون مع الله إلهاً آخر، ويصدّون الناس عن البيت الحرام للعبادة فيه، وعن الإيمان برسالة الرسول محمد ﷺ.

وكفى بذلك إنذاراً وتحذيراً، وحماية وصوناً، وفضلاً ونعمة، وإعلاماً بأن الله جلت قدرته ينصر من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وعقيدتنا: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٦].

تفسير سورة قريش

نعم الله على قريش

لم يترك الحق سبحانه وتعالى وسيلة إقناعية أو تربوية أو ترغيبية أو تهديدية إلا أقامها وأداها لقبيلة قريش في صدر الإسلام، من أجل حملهم على الانضمام لراية الإسلام، وإعلان عقيدة توحيد الله تعالى، وترك الشرك والوثنية وعادات الجاهلية القبيحة، ومن هذه الوسائل تذكيرهم بما أنعم الله تعالى عليهم، من تيسير الحصول على مكاسبهم وأرزاقهم وتجاراتهم الرابحة، لقطري الشام واليمن، في قوافلهم الشتوية والصيفية، وذلك في سورة قريش المكية بلا خلاف:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ(١) ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ(٢) رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١٠٦/ ١-٤].

أخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: قال رسول الله ﷺ: «فضّل الله قريشاً بسبع خصال أو خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عز وجل عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن، ثم تلا رسول الله

(١) أي فليعبدوا الله وحده بسبب إيلافهم، أي جعلهم يألفون رحلتين في العام. وقريش: ولد النّضر بن كنانة. (٢) بدل من إيلاف قريش. ورحلة: مفعول به لإيلافهم، على تقدير أن يكون من الألفة، ومنصوب بنزع الخافض إذا كان من المؤالفة.

ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ..﴾ (السورة) وهو حديث غريب، كما قال ابن كثير.

هذه السورة نزلت إذن في بيان خصال قريش، وتذكيرهم بنعم الله عليهم. ومعناها: لتعبد قريش (وهم ولد النضر بن كنانة) الله تعالى، شكراً له وإعظاماً، لأجل إيلافهم (جعلهم يألفون) رحلتين في العام، واحدة في الشتاء إلى اليمن، لجلب العطور والبهارات الآتية من الهند والخليج، وهي بلاد حارة، وواحدة إلى الشام في الصيف، لأنها بلاد باردة، لجلب الحبوب الزراعية. وكانت قريش في مكة تعيش بالتجارة. ولولا هاتان الرحلتان لم يتمكنوا من المقام بها، ولولا الأمن بجوار البيت الحرام، لم يقدروا على التصرف، وكانوا لا يُغَار عليهم، لأن العرب يقولون: قريش أهل بيت الله عز وجل وجيرانه.

وكل هذا الاحترام والإجلال لقريش أهل مكة إنما كان من الله عزّ وجلّ، الذي هيّأه ويسّره لهم بفضل البيت الحرام، فكان عليهم الإقرار بهذه النعمة، وإفراد الله بالعبادة والتعظيم.

كما أن النِّعم الأخرى المذكورة في الحديث المتقدِّم، ومن أهمها نعمة صدّ أصحاب الفيل عن هدم الكعبة، تستوجب الإقرار بها وعبادة الله تعالى المنعم. فعليهم عبادة ربّ البيت الحرام الذي كان سبباً في تحقيق مجدهم وزعامتهم وأمنهم واستقرارهم. والله وحده هو المستحق للعبادة، لكونه ربّ هذا البيت، على الرغم من أوثانهم التي كانوا يعظِّمونها حول الكعبة، فميَّز الله تعالى نفسه عنها، وبالبيت تشرَّفوا على سائر العرب، وهم يدركون هذا ويقرّون به. وكانت الإشارة إلى (البيت الحرام) في السورة لإفادة التعظيم.

ويلاحظ كما ذكر الرازي أن الإنعام على قريش بصدِّ أصحاب الفيل إنما هو لدفع الضرر عنهم، ودفع الضرر عن النفس واجب، والإنعام عليهم بالبيت الحرام لجلب

النفع، وهو غير واجب، فجمع الله تعالى بين النعمتين العظيمتين، جمعاً بين الواجب وغيره، لتحقيق الكمال والإتمام، وأمرهم ربهم بعبادته والعبودية له، وأداء الشكر على ذلك، بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾.

والعبادة: هي التذلُّل والخضوع للمعبود على غاية ما يكون، وهي تحقِّق معنى العبودية. ثم ذكر الله تعالى نعماً أخرى على قريش، صادرة من الله تعالى وهي:

- أنه ربّ البيت هو الذي أطعمهم من جوع، ووسَّع لهم في الرزق، ويسَّر لهم سبيله، بسبب هاتين الرِّحلتين، فخلَّصهم من جوع شديد كانوا فيه قبلهما.

- وتفضَّل عليهم بالأمن والاستقرار، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا وثناً، ولا شيئاً آخر مما يعظِّمونه.

قال ابن كثير: ولهذا من استجاب لهذا الأمر، جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝١١٢ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١١٣﴾ [النحل: ١٦/ ١١٢-١١٣].

وكانت العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها بعضاً (يسترقونهم)، فأمنت قريش لمكان الحرم، كما آمنهم الله من خوف الحبشة مع الفيل، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٧].

فمن تأمين الله لقريش كما يبدو في الآية: أنه آمنهم من خوف التَّخطف في بلدهم ومسايرهم، والذي كان ظاهرة شائعة في القبائل العربية الأخرى المجاورة. ومن التأمينات الإلهية لهم أيضاً: تأمينهم من خوف الجذام والطاعون، فلا يصيبهم في بلدهم، فضلاً من الله تعالى ونعمة.

تفسير سورة الماعون

جزاء المكذب بالدين وصفاته

إن من أهم أسباب الشقاء والانحراف والضلال في الدنيا: هو إنكار يوم القيامة أو يوم الجزاء والحساب، فلو صدّق الناس به تصديقاً تاماً، لما تجرأ واحد منهم على العصيان والمخالفة، أو الكفر والجحود، أو إهمال الفرائض الإلهية، وتجاوز الآداب والأخلاق القويمة، لأن الخوف من العقاب والتهديد بالعذاب لا ينفع غير المؤمنين بوجود عالم الآخرة، وتذكير السامع بالتخلص من أمراض العصيان، والقسوة على المحتاجين، ومراءاة الناس، ومنع مساعدة الجيران وحجب وسائل العون عنهم وعن غيرهم، إنما يفيد المصدقين بالقيامة، كما جاء في سورة الماعون المكية:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ(١) ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ(٢) ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ(٣) ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ(٤) لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ(٥) ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ(٦) ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ١٠٧/ ١-٧].

قال ابن عباس: نزلت هذه السورة في العاص بن وائل السهمي، وقال السدي: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل: في أبي جهل، وكان وصياً ليتيم، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه، فدفعه. ويروى أن هذه السورة نزلت في بعض المضطّرين في

---

(١) بالجزاء والحساب ويومه. (٢) يدفعه بعنف عن حقه ويزجره. (٣) لا يحث عليه. (٤) خزي وعذاب وهلاك. (٥) غافلون عنها. (٦) كل ما يستعان به وينتفع منه كالدلو والقدر والفأس ونحو ذلك.

الإسلام بمكة، الذين لم يحققوا فيه، وفُتنوا فافتتنوا، وكانوا على هذا الخلق من الغشم وغِلَظ العشرة، والفظاظة على المساكين، وربما كان بعضهم يصلي أحياناً مع المسلمين مدافعة وحيرة، فقال الله تعالى فيهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾.

وقال ابن جريج: كان أبو سفيان ينحر كل أسبوع جزوراً، فجاءه يتيم، فقرعه بعصاً، فنزلت السورة فيه. وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه -فيما أخرجه ابن المنذر وابن جرير وغيرهما -: سألت النبي ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون، قال: «هم الذين يؤخرونها عن وقتها» يريد ﷺ -والله تعالى أعلم- تأخير ترك وإهمال. وإلى هذا نحا مجاهد.

ويؤكد هذا ما أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ قال: نزلت في المنافقين كانوا يراؤون المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا، ويمنعونهم العاريّة، أي الشيء المستعار.

والمعنى: أأبصرت أيها النبي الذي يكذب بالحساب والجزاء؟! أو بالمعاد والجزاء والثواب؟ وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ وإن كان في صورة استفهام، لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب. وهذا مثال آخر لكون الإنسان في خسر.

هذا الذي يكذب بالقيامة والجزاء، هو الذي يدفع اليتيم عن حقه دفعاً شديداً، ويزجره زجراً عنيفاً، ويظلمه حقه، ولا يحسن إليه، علماً بأن عرب الجاهلية كانوا لا يورّثون النساء والصبيان.

وهذا هو الذي لا يحث نفسه ولا أهله ولا غيرهم على إطعام المسكين المحتاج، بخلاً بالمال، كما جاء في آية أخرى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ [الفجر: ٨٩/ ١٧-١٨].

فويل، أي خزي وعذاب وهلاك للمنافقين الذين يؤدون الصلاة أحياناً تظاهراً، وللغافلين عن الصلاة، الذين لا يبالي أحدهم، صلّى أم لم يصلّ، لا يرجون ثواباً إن صلوا، ولا يخافون عقاباً إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، إهمالاً لها. وإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا. إن هؤلاء هم الساهون عن صلاتهم، أي التاركون لها، أو الغافلون عنها. قال عطاء بن يسار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ ولم يقل: (في صلاتهم).

أولئك الساهون عن صلاتهم: هم الذين يراؤون الناس بصلاتهم إن صلوا، أو يراؤون الناس بكل ما عملوا من أعمال البر، ليثنوا عليهم.

وهم الذين يمنعون الماعون، أي يمنعون الإعارة وفعل الخير. والماعون: كل ما يتعاوره الناس بينهم، من الدلو والفأس والقَدُوم والقدر ومتاع البيت، وما لا يمنع عادة كالماء والملح، مما ينسب مانعه إلى الخسة ولؤم الطبع وسوء الخلق.

إن هؤلا المنافقين وأمثالهم من المشركين، لم يحسنوا عبادة ربهم، ولم يحسنوا إلى الناس، حتى بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه، ورجوعه إليهم، وهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أشد منعاً و بخلاً. روى النسائي وغيره عن عبد الله بن مسعود قال: كل معروف صدقة، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدَّلو والقِدْر.

إن هذه السورة الكريمة تصلح عنواناً بارزاً لكل أنواع التكافل والتضامن الاجتماعي فيما بين الناس، حتى تسود المحبة والود، ويتآلف البشر، ويعم الرفاه والاستقرار أنحاء المجتمع، وتعيش كل جماعة في أمن وعافية وسلام.

تفسير سورة الكوثر

نعم الله على نبيه

سور الضحى والانشراح والكوثر فيها تعداد النعم الإلهية على النبي ﷺ وهي نعم كثيرة، في قمتها في الدنيا: النبوة والرسالة، وفي الآخرة: الكوثر وهو الخير الكثير، ولقد تضمنت سورة الكوثر المكية الخبر بما أعطى الله نبيه وهو الكوثر، وبما طالبه به من الصلاة والصدقة شكراً لله على ماأنعم، وتبشيراً بالنصر، وخذلاناً لأعدائه، وانقطاع أثرهم وذكرهم، وهي أقصر سورة في القرآن الكريم، وهذا هو نصها في ثلاث آيات قصار فقط:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ(١) ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ(٢) ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ(٣) ﴿٣﴾﴾ [الكوثر: ١٠٨/ ١-٣].

سبب نزولها: ما أخرجه البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى هذا المنصبر المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السقاية، وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال: لما أوحي إلى النبي ﷺ، قالت قريش: بتر محمد منا، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) الخير الكثير وأكثر المفسرين على أنه نهر في الجنة. (٢) انحر الأضاحي ونحوها وتصدق على المحاويج.
(٣) مبغضك هو المنقطع عن كل خير، ومقطوع الأثر والذكر.

وهناك روايات أخرى، ومجمل الروايات كلها: أن سبب نزول هذه السورة: هو استضعاف النبي ﷺ، واستصغار أتباعه، والشماتة بموت أولاده الذكور، ابنه القاسم بمكة، وإبراهيم بالمدينة، والفرح بوقوع شدة أو محنة بالمؤمنين، فنزلت هذه السورة إعلاماً بأن الرسول ﷺ قوي منتصر، وأتباعه هم الغالبون، وأن موت أبناء الرسول ﷺ لا يُضعف من شأنه، وأن مبغضيه هم المنقطعون الذين لن يبقى لهم ذِكْر وسمعة ولا أثر، البعيدون عن كل خير، المحرومون من أي فضل.

والمعنى: لقد منحناك الخير الكثير، ومنه نهر في الجنة، جعله الله كرامة لرسول الله ﷺ ولأمته. أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك قال: «أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه متبسماً، فقال: إنه أنزل علي آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ حتى ختمها. وفي الحديث: «هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربي في الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب، إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك».

وكما أعطيناك هذا الكوثر، فداوم على صلاتك المفروضة والنافلة، وأدّها خالصة لوجه ربك وانحر ذبيحتك وأضحيتك، وما هو نُسُك لك، وهو الهدي (شاة أو بعير مقدم للحرم) وغير ذلك من الذبائح لله تعالى وعلى اسم الله وحده لاشريك له فإنه هو الذي تعهدك بالتربية، وأسبغ عليك نعمه دون سواه، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٢-١٦٣].

وهذا على نقيض فعل المشركين، الذين كانوا يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله، فأمر الله نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره لله، وهو أيضاً نقيض فعل المنافقين

المرائين. والمراد: صلاة العيد، ونحر الأضحية، قال ابن كثير: الصحيح أن المراد بالنحر: ذبح المناسك، بدليل ما نص عليه حديث البراء بن عازب عند الشيخين: «كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نُسُكه، ويقول: من صلّى صلاتنا، ونسك نُسُكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له». فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله، إني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم، قال: شاتك شاة لحم، قال: فإن عندي عناقاً هي أحب إلي من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: تجزئك ولا تجزئ أحداً بعدك».

إن مبغضك أيها النبي، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع، والنور المبين: هو الأبتر أي الأقل الأذل، المنقطع عن خيري الدنيا والآخرة، والذي لا يبقى ذِكْره بعد موته، وهذا رد على ما قال بعض المشركين كالعاص بن وائل أو الوليد بن المغيرة أو أبي جهل لما مات ابنه عبد الله من خديجة: إنه أبتر. وقال الحسن البصري رحمه الله: عنى المشركون بكونه أبتر: أنه ينقطع عن المقصود قبل حصوله، والله بيَّن أن خصمه هو الذي يكون كذلك.

تفسير سورة «الكافرون» أو المقشقِشة[1]

البراءة من الشرك

حسم الإسلام بآيات القرآن العظيم قضية الإيمان والشرك، بعد أن أوضح الله تعالى الأدلة الدالة على صحة الاعتقاد، من توحيد الله تعالى، والتصديق بأنبيائه ورسله، وبكتبه وملائكته واليوم الآخر، فلم يبق بعدئذ مجال للوثنية أو الشرك، وجاءت سورة «الكافرون» المكية بالإجماع مبرئة من الشرك والنفاق، ومن عمل المشركين، وآمرة بإخلاص العبادة لله تعالى، فقال الله سبحانه:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١٠٩/ ١-٦].

سبب نزولها: ما أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً، فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد، وتكفّ عن شتم آلهتنا، ولا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ إلى آخر السورة، وأنزل: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٤].

---

(١) هو من قشقش المريض: إذا صح وبرأ، أي المبرئة من الشرك والنفاق.

والجماعة الذين دعوا النبي ﷺ إلى هذا، من تمويله وتزويجه من شاء من كرائم نساء قريش: هم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية ابن خلف، وأُبّي بن خلف، وأبو جهل، وابنا الحجاج، ونظراؤهم ممن لم يُسلم بعد. فنزلت هذه السورة للرد عليهم، ومضمونه:

قل أيها الرسول لقومك القرشيين: يا أيها الكافرون، لا أعبد على الإطلاق ما تعبدون من الأصنام والأوثان، فلست أعبد آلهتكم بأية حال. والآية تشمل كل كافر على وجه الأرض، والبدء بكلمة (قل) لرفع الحرج عن النبي، وبيان أنه مأمور بهذا الكلام، لا من عند نفسه.

لن أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي.

لا أعبد أنا عبادتكم، أي لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، وأنتم لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، لأن عبادة الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين برسالته خالصة لله لا شرك فيها ولا غفلة عن الله الإله المعبود بحق. وهم يعبدون الله بما شرعه. والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن الله بها، فكلها شرك وإشراك، ووسائلها من صنع الهوى والشيطان.

قيل: في الآيات تكرار، والغرض التأكيد، لقطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم.

والقرار الفصل والقول الحسم الذي يجعل الاستقلال لكل فئة أو جماعة بدينها: هو أن لكم إشراككم أو كفركم، ولي ديني ومذهبي وهو التوحيد والإخلاص لله أو

الإسلام، فدينكم الذي هو الإشراك، لكم لا يتجاوزكم إلي، وديني الذي هو التوحيد مقصور علي لا يتجاوزني، فيحصل لكم.

وليست هذه السورة على التحقيق منسوخة بآية القتال: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٩/٣٦] فإن المحققين من العلماء قالوا: لا نسخ لهذه السورة، بل المراد التهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤١/٤٠].

ونظير هذه الآية كثير في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ١٠/٤١].

وهذا الفصل بين أتباع الأديان يريح كل فريق، ويجعل كل إنسان مسؤولاً عما يحب ويختار، ويعتقد ويعمل، إذ لا إكراه في الدين، والدين يقوم على أساس القناعة والحرية والاختيار، وهذا أساس توجيه المسؤولية لكل إنسان عما عمل، وسيرى كل واحد عاقبة فعله واعتقاده وقوله. وإذا لم يُجْد الإقناع وإعمال العقل الحر الطليق من غير تعصب ولا أحقاد ولا موروثات، فإن كل إنسان مطالب بترك غيره فيما اختاره أو اعتقده.

تفسير سورة النصر

التسبيح والتحميد والاستغفار عند الفتوحات

يتميز الإسلام الحنيف، بالربط بين الدنيا والآخرة، وبين الله وعبده، وبين النصر والعزة والفتوح، واللجوء إلى الله قبل وعقب ذلك، حتى لا يترك الإنسان وأهواءه وشهواته، ويظل معتدل المزاج لا يبطر ولا يغتر ولا يفجر، وهذا ما نجده واضحاً من توجيه الله تعالى نبيه وأمره له بعد الفتوح التي فتحت عليه، مكة وغيرها، بأن يسبِّح ربه ويحمده ويستغفره، في سورة النصر المدنية إجماعاً، حيث سئل ابن عباس عن مدلولها، فقال: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله تعالى بقُرْبه إذا رأى هذه الأشياء، فقال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما ذكرت[١]. وهذا الاتجاه الذي ذكر ابن عباس في تفسير هذه السورة هو ما ذكره ابن مسعود وأصحابه، وقتادة، والضحاك. وروت معناه عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ، وأنه ﷺ لما فُتحت مكة، وأسلم العرب، جعل يكثر أن يقول: «سبحان الله و بحمده، اللهم إني أستغفرك» يتأول القرآن في هذه السورة[٢]. وقال لها مرة: «ما أراه إلا حضور أجلي» . هذه السورة هي سورة النصر:

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وابن سعد، والبخاري، وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٢) أخرجه عبد الرزاق وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها .

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ(١) وَٱلۡفَتۡحُ(٢) ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا(٣) ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ(٤) إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر: ١١٠/١-٣].

هذه السورة بشارة بالنصر للنبي ﷺ على العرب قاطبة، ونعي أجله والاستعداد للانتقال إلى الرفيق الأعلى بمداومة التسبيح والتحميد والاستغفار.

إذا تحقق لك أيها النبي نصر الله، وعونه، وتأييده على من عاداك، وهم قريش وبقية العرب، وفتحت لك مكة، وتحققت لك الغلبة، وإظهار دينك وانتشاره، فنزه الله تعالى، حامداً له نعمه وأفضاله عليك، واسأل المغفرة لك ولمن اتبعك، إن الله كثير القبول لتوبة عباده، حتى لا ييأسوا ويرجعوا بعد الخطأ.

و(النصر) الذي رآه رسول الله ﷺ: هو غلبته لقريش وهوازن وغير ذلك. و(الفتح) هو فتح مكة والطائف ومدن الحجاز وكثير من اليمن. قال ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب: لم يمت رسول الله ﷺ ، وفي العرب رجل كافر، بل دخل الكل في الإسلام، بعد حُنَين والطائف، منهم من قدِم، ومنهم من قدم وافده، ثم كان بعده ﷺ من الردة ما كان، ورجعوا كلهم إلى الدين(٥). والمراد بذلك: العرب وعبدة الأوثان.

وفائدة قوله: (نصر الله (مع أن النصر لا يكون إلا من عند الله: هو أنه نصر لا يليق إلا بالله، ولا يليق أن يفعله إلا الله، أو لا يليق إلا بحكمته، والمراد: تعظيم هذا النصر. وقوله: ﴿جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾: مجاز، أي وقع نصر الله.

أخرج الإمام أحمد والبيهقي والنسائي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ قال رسول الله ﷺ : «نعيت إليَّ نفسي» . فإنه مقبوض في تلك السنة.

(١) عونه على تحقيق المطلوب . (٢) تحصيل المطلوب بفتح البلاد في مكة وغيرها . (٣) جماعات كثيفة . (٤) نزه الله تعالى وقدسه، حامداً على نعمه، طالباً المغفرة لك ولأتباعك . (٥) انظر: باب أبي خراش الهذلي .

قال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزلت: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ..﴾ فعاش بعدها ثمانين يوماً، ثم نزلت آية الكلالة فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزلت: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزلت ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فعاش بعدها واحداً وعشرين يوماً.

وكان من علامة ذلك: أنك أيها النبي تبصر الناس من العرب وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به، جماعات، فوجاً بعد فوج، بعد أن كانوا في بادئ الأمر، يدخلون واحداً واحداً، واثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام. وتحقق ذلك في العام التاسع والعاشر عام الوفود حيث تتابعت الوفود العربية إلى المدينة معلنة إسلامها. قال ابن إسحاق: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، إذ كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل عليه السلام، وقادة العرب. فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوّخها الإسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله أفواجاً، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ..﴾ السورة.

لقد جاء الأمر الإلهي للنبي ﷺ بالتسبيح بعد تحقيق الانتصارات العسكرية وانتشار الإسلام. والمعنى: إذا فتحت مكة وانتشر الإسلام، فاشكر الله على نعمه، بالصلاة له، وبتنزيهه عن كل ما لا يليق به، وعن أن يُخلف وعده الذي وعدك به بالنصر. واقرن الحمد بالتسبيح، أي اجمع بينهما، فإن ذلك النصر والظفر يقتضي الحمد لله على عظيم منته وفضله.

واطلب أيضاً من الله المغفرة لك، تواضعاً لله، واستقصاراً لعملك، وتعليماً لأمتك، وكذا اسأله المغفرة لمن تبعك من المؤمنين على ما كان منهم من القلق والخوف لتأخر النصر، فإن الله سبحانه من شأنه التوبة على المستغفرين له، يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم، وهو كثير القبول لتوبة عباده، حتى لا ييأسوا ويرجعوا بعد الخطأ.

تفسير سورة المسد

عقاب أبي لهب وامرأته

كان أبو لهب: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتيبة، وامرأته: من أشد الناس عداوة وإيذاء للنبي ﷺ، وكان أبو لهب في المجالس العامة هو الذي يجابه النبي ويعانده، ويقف في سبيل دعوته وقوف الأعداء الأشداء الألداء.

رُوي في الحديث عن ابن عباس الذي أخرجه البخاري ومسلم: أن رسول الله ﷺ قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤] أي ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صَعِد الصفا، فهتف: يا صباحاه! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب! فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك! أما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة المكية بالإجماع: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾. كذا قرأ الأعمش وعبد الله (ابن مسعود) وأُبيّ، إلى آخر السورة، وقرأ حفص: ﴿وَتَبَّ﴾ أي الأول دعاء عليه، والثاني: خبر عنه. والسورة هي:

﴿تَبَّتْ[1] يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ[2] ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ[3] ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ[4] ۝٥﴾

[المسد: ١١١/١-٥].

المعنى: هلكت يدا أبي لهب (وكنّي بذلك لحمرة في وجهه) وخسرت وخابت، وهو مجاز عن جملته، أي هلك وخسر، وهذا دعاء عليه بالهلاك والخسران. ثم أخبر الله تعالى عنه: ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد وقع فعلاً هلاكه، فقد خسر الدنيا والآخرة، وأبو لهب: عم النبي ﷺ ، واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وقد كان كثير الأذى والبغض والازدراء لرسول الله ﷺ ولدينه، كما تقدم.

وقوله: ﴿تَبَّتْ﴾ معناه: خسرت، والتباب: الخسران والدمار. وأسند ذلك إلى اليدين من حيث كون اليد موضع الكسب والربح وضم ما يملك، ثم أخبر الله عنه أنه قد تب، أي حُتِم عليه ذلك.

ثم أخبر الله تعالى عن حال أبي لهب في الماضي، فقال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ ..﴾ أي لم يدفع عنه يوم القيامة ما جمع من المال، ولا ما كسب من الأرباح والجاه والولد، ولم يفده ذلك في دفع ما يحل به من الهلاك، وما ينزل به من العذاب، لشدة معاداته لرسول الله ﷺ، وصدّه الناس عن الإيمان به. والفرق بين المال والكسب: أن الأول رأس المال، والثاني هو الربح. وهذا إخبار عن أن جميع أحواله الدنيوية من مال وولد لم تُغن عنه شيئاً، حين حُتِم (أوجب) عذابه بعد موته، وهو ما أخبر الله تعالى عنه في المستقبل في الآخرة بقوله: ﴿سَيَصْلَىٰ ..﴾ أي إن أبا لهب سيذوق حر نار جهنم ذات

---

(١) هلك وخسر أبو لهب . (٢) سيذوق حرها ولهبها . (٣) تحمله حقيقة في الدنيا، وهي أم جميل، أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان، وزوج أبي لهب . (٤) في عنقها حبل مفتول من ليف .

اللهب المشتعل المتوقد، قال أبو حيان: والسين للاستقبال، وإن تراخى الزمان، وهو وعيد كائن إنجازه لا محالة، وإن تراخى وقته.

وتصلى امرأة أبي لهب معه أيضاً النار، وهي أم جميل أروى بنت حرب، أخت أبي سفيان، عمة معاوية بن أبي سفيان. وامرأته: معطوفة على الضمير المرفوع فاعل (سيصلى) دون أن يؤكد الضمير، بسبب الحائل الذي ناب مناب التأكيد.

وكانت أم جميل هذه مؤذية رسول الله ﷺ والمؤمنين بلسانها وغاية قدرتها. قال ابن عباس: كانت تجيء بالشوك، فتطرحه في طريق النبي ﷺ وطريق أصحابه ليعقرهم، فبذلك سميت حمالة الحطب. فهي حقيقة كانت تحمل أنواع الحطب والأشواك للإيذاء. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ استعارة لذنوبها التي تَحْطِبُها على نفسها لآخرتها. وقيل: المراد أنها كانت تمشي بالنميمة، فيقال للمشّاء بالنمائم، المفسد بين الناس: يحمل الحطب بينهم، أي يوقد بينهم النائرة، ويورّث الشر. وهذا رأي الكثيرين.

ولون العذاب أوصفته ما عبر الله عنه بقوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾ أي في عنقها حبل مفتول من الليف، من مسد النار، أي مما مسِّد من حبالها، أي فتل من سلاسل النار، وقد صورها الله تعالى في حالة العذاب بنار جهنم بصورة حالتها في الدنيا عند النميمة، وحينما كانت تحمل حزمة الشوك وتربطها في جيدها، ثم تلقيها في طريق النبي ﷺ، لأن كل من أجرم في الدنيا يعذب بما يجانس حاله في جرمه. قال ابن عباس وآخرون: الإشارة إلى الحبل حقيقة، وهو الذي ربطت به الشوك وحَطَبه. قال السدي: والمسد: الليف.

ولما سمعت أم جميل هذه السورة، أتت أبا بكر، وهو مع رسول الله ﷺ في المسجد، وبيدها فِهْر (حجر) فقالت: بلغني أن صاحبك هجاني، ولأفعلن وأفعلنّ،

وأعمى الله تعالى بصرها عن رسول الله ﷺ ، فروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال لها: هل ترين معي أحداً؟ فقالت: أتهزأ بي؟ لا أرى غيرك.

قال سعيد بن المسيب: كانت لأم جميل قلادة فاخرة، فقالت: واللات والعزى لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله حبلاً في جيدها من مسد النار.

هذا اللون من العنفوان والاستكبار، وشدة العناد والإيذاء، الصادر من أبي لهب وزوجته، منشؤه تراكمات الجهالة والوثنية والتقاليد الموروثة، والحرص على الزعامة والسيادة. ولو كان عند أبي لهب وامرأته وأمثالهما عقل واع، وعلم كافٍ، وحظ من التحضر والتمدن، لما كان لهما مثل هذا الموقف من داعية الهدى والرشاد، والإنقاذ والنجاة.

وقد استنبط بعض علماء أصول الفقه من آية ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ جواز التكليف بمالا يطاق، لأن أبا لهب مكلف أن يؤمن بمحمد ﷺ ، ومكلف أن يؤمن بهذه السورة وصحتها، فكأنه قد كلف أن يؤمن، وأن يؤمن بأنه لا يؤمن، قال الأصوليون: ومتى ورد تكليف ما لا يطاق فهي أمارة من الله تعالى أنه قد حتم عليه عذابه، أي عذاب ذلك المكلف، لقصة أبي لهب.

تفسير سورة الإخلاص

التوحيد والتنزيه

إن المبدأ الأساسي في الاعتقاد: هو إعلان توحيد الله وتنزيهه عما لا يليق به، والإقرار باللسان، والتصديق بالقلب، فهذا هو منطلق الإيمان وجوهره، فمن لم يؤمن بوحدانية الله، وأنه الإله والرب الذي لا شريك له، ولا نظير ولا مثيل، لم يكن من أهل الدين على الإطلاق، مهما حاول تعويض ذلك بشيء من الأوهام والطقوس والأقوال. لذا كانت سورة الإخلاص المكية المسماة أيضاً بالأساس معبرة عن ركن العقيدة، وكانت تعدل ثلث القرآن، لأن أصول التشريع الإلهي ثلاثة: التوحيد، وتقرير الحدود والأحكام، وبيان الأعمال، أي العقيدة، والشريعة، والممارسة. أخرج البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ يرددها، فلما أصبح، جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالّها، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن».

ومضمونها يقتضي الإخلاص في عبادة الله وحده والتوجه إليه وحده. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تفكروا في كل شيء، ولا تتفكروا في ذات الله عز وجل». وهذه السورة هي:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ(١) ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ(٢) ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا(٣) أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١١٢/١-٤].

أخرج أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن أُبي بن كعب رضي الله عنه: أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ عن نسب ربه -تعالى عما يقول الجاهلون- فنزلت هذه السورة. وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ، فقالوا له: يا محمد، صِفْ لنا ربك وانْسُبه، فإنه وصف نفسه في التوراة ونسبها، فارتعد رسول الله ﷺ، حتى خرّ مغشياً عليه، ونزل عليه جبريل عليه السلام بهذه السورة: سورة الإخلاص.

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية، وعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: قالت الأحزاب لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأتاه الوحي بهذه السورة.

والمعنى: قل أيها الرسول لمن سألك عن صفة ربك ونسبته: هو الله أحد، أي واحد فرد في ذاته وصفاته، لا شريك له، ولا نظير، ولا عديل، ليس كمثله شيء، وليس مركَّباً ولا متعدداً، و ﴿هُوَ﴾ مبتدأ أول، و﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ثانٍ، و﴿أَحَدٌ﴾ خبره، والجملة: خبر المبتدأ الأول، والتصدير بضمير الشأن ﴿هُوَ﴾ للتنبيه على فخامة الكلام الآتي، وبيان خطورته وروعته، لأن الضمير يدعوك إلى ترقب ما بعده. فإذا جاء تفسيره وتوضيحه، تمكن في النفس تمكناً تاماً، ولم يقل (الله الأحد) لأن المقصود إثبات أن الله جل جلاله واحد، ليس متعدداً في ذاته، فلو قيل: (الله الأحد) لأوهم التعدد، والمقصود نفي التعدد الذي كان المشركون يعتقدونه.

والله هو الصمد: أي المقصود وحده في قضاء الحوائج، لأنه القادر على تحقيقها.

---

(١) واحد في ذاته وصفاته وأفعاله. (٢) المقصود وحده في قضاء الحوائج. (٣) مكافئاً ومماثلاً.

فالصمد: هو الذي يُصْمَد إليه في الحوائج، أي يقصد، وصمد من باب نصر، أي قصد.

والمعنى المراد: هو الله الذي يقصِد إليه كل مخلوق، لا يستغني عنه أحد، وهو الغني عنهم. وهذا لإبطال اعتقاد المشركين العرب وأمثالهم، بوجود الوسائط والشفعاء. قال ابن عباس في تفسير الصمد: يعني الذي تَصْمُدُ إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، وهو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قدكمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته، لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار.

وليس لله مصدر ولا ذرية فهو ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ أي إنه سبحانه لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن شيء، لأنه لا يجانسه شيء، ولأنه قديم غير محدَث، لا أول لوجوده، وليس بجسم. وهذا نفي للشبه والمجانسة، ووصف بالقِدم (الأزلية) والأولية، ونفي الحدوث. بل ونفي النهاية والفناء، كما في آية أخرى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٥٧/٣].

ثم إن الجملة الأولى ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ذات هدف مزدوج، فهي نفي لوجود الولد لله، ورد على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، وعلى اليهود القائلين: عزير: ابن الله، وعلى النصارى الذين قالوا بالتثليث، وبأن المسيح ابن الله، وعلى المانوية القائلين بألوهية النور والظلمة، وعلى الصابئة الذين يعبدون النجوم. وكذلك الجملة الثانية مزدوجة الأثر: نفي لوجود الوالد، وسبق العدم، بمعنى أنه لم يكن غير موجود ثم وجد.

ثم نفى الله تعالى عن ذاته مشابهة الحوادث فقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ أي ليس لله أحد يساويه، ولا يماثله، ولا يشاركه، وهذا متعدد الهدف، فهو نفي لوجود الصاحبة، وإبطال لما يعتقد به المشركون العرب، من أن لله نِدّاً في أفعاله (والند: النظير والمثيل) حيث جعلوا الملائكة شركاء لله، والأصنام والأوثان أنداداً لله تعالى. فهذه السورة تتضمن أن الله واجب الوجود، ويحتاج إليه كل شيء موجود، وهو منزه عن كل ما لا يليق به، وليس كمثله شيء.

ولهذه السورة نظائر أخرى، منها آية: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠١]. أي إنه مالك كل شيء وخالقه، فكيف له من خلقه نظير؟!. جاء في صحيح البخاري: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم».

تفسير سورة الفلق

التعوذ من شر الْخَلْق

الله تعالى ملجأ كل المخلوقات، فهو الذي يمنع الشر والسوء، ويحمي من كل أذى، ويعافي كل مبتلى إن شاء. وقد علّمنا كيفية اللجوء إليه في الأزمات المستعصية، والتخلص من الأوهام والتخيلات، ومن تغوّل مردة الجن والشياطين، وذلك في سورة الفلق المكية في قول، والصحيح أنها مدنية، لأن اليهود سحروا النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة، وكذا سورة الناس مدنية على الصحيح، فبعد أن شرح الله تعالى أمر الألوهية في السورة التي سبقتها وهي سورة الإخلاص، جاء بهذه السورة شرحاً لما يستعاذ منه بالله تعالى، من الشر الذي في مراتب العالم ومراتب مخلوقات الله.

وسورة الفلق والسورة التي بعدها وهي سورة الناس، نزلتا معاً، كما في الدلائل للبيهقي، فلذلك قرنتا مع ما اشتركنا فيه من التسمية بالمعوذتين، ومن الافتتاح بقل أعوذ. أخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «أنزلت علي الليلة آيات لم أر مثلهن قط: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس». وسورة الفلق هي:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ(١) ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ(٢) إِذَا وَقَبَ(٣) ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ(٤) فِى ٱلْعُقَدِ(٥) ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

[الفلق: ١١٣/ ١-٥].

نزلت هذه السورة -كما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها- في قصة سحر لبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله ﷺ. والنفاثات: بناته اللواتي كن ساحرات، فسحرن النبي ﷺ، وعقدن له إحدى عشرة عُقْدة، فأنزل الله تعالى إحدى عشرة آية بعدد العقد، هي المعوذتان، فشفي النبي ﷺ.

والنَّفْث: قيل: هو شبه النفخ دون تفل ريق، والأصح أنه مع الريق. وهذا النفث: هو على عُقَد تعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور، فيُؤذى بذلك.

وقصة هذا السحر: أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ -ولكن لم يؤثر السحر فيه وعوفي منه- سحره في جُفّ (قشر الطلع) فيه مشاطة رأسه ﷺ، وأسنان مشطه، وَوَتَرٌ معقود فيه إحدى عشرة عُقدة مغروز بالإبر، فأنزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد ﷺ في نفسه خِفَّة (نشاطاً) حتى انحلت العُقْدة الأخيرة، فقام، فكأنما نشط من عقال. وجعل جبريل عليه السلام يرقى رسول الله ﷺ، فيقول: «باسم الله أرقيك، من كل شي يؤذيك، من شر حاسد وعين، والله يشفيك».

وأنكر بعض المعاصرين هذه القصة، ورأى أنها من مفتريات اليهود، ليشككوا الناس في النبي ﷺ، وليلصقوا به السحر، لأن الله تعالى يقول عن رسوله: ﴿وَٱللَّهُ

(١) ألجأ إلى الله رب الفلق: كل ما يفلقه الله من النبات وعيون الماء والمطر والولد. (٢) الليل المظلم المشتد ظلامه. (٣) دخل ظلامه في كل شيء. (٤) السواحر، جمع نفاثة، والنفث عادة: النفخ مع ريق. (٥) جمع عقدة: وهي ما يعقد من حبل أو خيط ونحوهما.

يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧] ، ويقول: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٥].

المعنى: قل أيها النبي: ألجأ إلى الله، وأستعيذ برب الصبح، لأن الليل ينفلق عنه، وبرب كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله أو انفلق عن غيره، من الحيوان، والنبات، والحب، والنوى، والمطر، والولد، وكل شيء يفلقه الله. وأعوذ بالله تعالى خالق الكائنات من شر كل ما خلقه الله من جميع مخلوقاته. وفيه إشارة إلى أن القادر على إزالة الظلمة عن وجه الأرض، قادر على دفع ظلمة الشرور والآفات والحسد والسحر والعين ونحو ذلك عن الإنسان.

أخرج الترمذي وحسنه، والبيهقي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين الجان، ومن عين الإنس، فلما نزلت سورتا المعوذتين أخذ بهما وترك ماسوى ذلك».

وأخرج مالك في الموطأ عن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى، يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه، كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده، رجاء بركتهما».

ثم بعد تعميم الاستعاذة من جميع المخلوقات، خص بالذكر ثلاثة أشياء، لأنها أعظم الشرور وهي:

- وأعوذ بالله من شر الليل إذا أقبل، ودخل ظلامه في كل شيء، وغشّى ما يحيط به، لأن في الليل مخاوف ومخاطر من سباع البهائم، وهوام الأرض، وأهل الفسق والفساد.

- وأعوذ بالله من شر النفوس أو شر الساحرات، لأنهن كن ينفثن (أي ينفخن) في عُقد الخيوط، حين يسحرن بها. فالنفاثات: صفة للنفوس رجالاً أو نساء.

والنفث: النفخ مع ريق، كما قال الزمخشري. وقيل هو شبه النفخ، يكون في الرقية، ولا ريق معه، فإن كان بريق فهو تفل، والأول هو الأصح.

-وأعوذ بالله من شر كل ذي شر، ومن شر كل حاسد إذا حسد، والحاسد: هو الذي يتمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود.

قال قتادة: من شر عينه ونفسه، يريد السعي الخبيث والإذاية كيف قدر، لأنه عدو مجدّ ممتحن.

هذه السورة رقية ناجعة تفيد كل إنسان، لوقايته من الشرور، وحفظه من السوء، وتخلصه من الحسد والسحر والعين، وغير ذلك، والله على كل شيء قدير.

تفسير سورة الناس

الاستعاذة من شر الشياطين

على الرغم من تميز الإنسان بالعقل والفكر، والمحاكمة وموازنة الأمور، فإنه لا سيما العامي، يظل ضعيفاً، تتغلب عليه الأهواء، والشياطين من الإنس والجن، فينقاد لها، وتهيمن عليه فيرتجف منها، وتسيطر عليه، فلا يستطيع الفكاك منها إذا لم يلجأ لربه، أو يعتمد على إيمانه وصلته بالله تعالى. وقد علَّمنا الله تعالى طريق الاستعاذة، تفضلاً منه ورحمة في سورة الناس التي هي على الصحيح كالفلق مدنية وليست مكية، قال ابن عباس وقتادة وجماعة عن سورة الفلق: إنها مدنية، قال الألوسي: وهو الصحيح، لأن سبب نزولها سحر اليهود، وهم إنما سحروه عليه الصلاة والسلام بالمدينة، كما جاء في الصحاح، فلا يلتفت لمن صحح كونها مكية، وكذا الكلام في سورة الناس، قال قتادة: هي مكية، والصحيح ما قال ابن عباس وغيره: هي مدنية، وهذا نصها:

﴿قُلْ أَعُوذُ(١) بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ(٢) ٱلْخَنَّاسِ(٣) ④ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ⑤ مِنَ ٱلْجِنَّةِ(٤) وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١١٤/١-٦].

---

(١) ألتجئ وأحتمي. (٢) اسم من أسماء الشيطان، فهو الذي يوسوس للناس في صدورهم أحاديث السوء. (٣) صيغة مبالغة، من عادته أن يخنس، أي يتأخر، وإذا زجر انزجر ورجع. (٤) بيان للوسواس، والجنة: الجن المستتر الذي لا يعلم به إلا الله.

قل أيها الرسول: ألجأ وأستعين بالله مربي الناس ومتعهدهم بعنايته ورعايته وخالقهم، ومدبر أمرهم، ومصلح أحوالهم، مالك الناس ملكاً تاماً، وله السلطان القاهر، وهو الإله المعبود الذي يعبده الناس، واسم الإله: خاص بالله، لا يشاركه فيه أحد. وأما الملك: فقد يكون إلهاً وقد لا يكون.

وهذه صفات ثلاث لله عز وجل: الربوبية، والملك، والألوهية، فهو رب كل شيء، ومليكه، وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له. وإنما قدم الربوبية لمناسبتها للاستعاذة، فهي تتضمن نعمة الصون والحماية والرعاية، ثم ذكر الملَكية، لأن المستعيذ لا يجد عوناً له ولا غوثاً إلا مالكه، ثم ذكر الألوهية، لبيان أنه المستحق للشكر والعبادة دون سواه.

والسبب في تكرار لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هو مزيد البيان والإظهار، والتنويه بشرف الناس، فإنهم مخلوقات الله تعالى. وإنما قال: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ مع أنه رب جميع المخلوقات، فخص الناس بالذكر للتشريف، ولأن الاستعاذة لأجلهم.

- ألجأ إلى الله تعالى وأحتمي من شر الشيطان ذي الوسوسة، الكثيرة الخنوس، أي الاختفاء والتأخر، بذكر الله تعالى، أو الراجع على عقبه المستتر أحياناً، إذا ذكر العبدُ الله تعالى وتعوذ، وتذكّر فأبصر، وإذا لم يذكر الله انبسط على القلب، قال ابن عباس في هذه الآية: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل، وسوس، فإذا ذكر الله خنس.

وتذكر الله يفيد التبصر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠١].

وكذلك يخنس الشيطان بلَمَّة الملَك، والحياء يردع، والإيمان يزجر بقوة، فتخنس العوارض المتحركة، والشهوات العارمة، والغضب يسكن، بذكر الله تعالى. وقد

سلط الله تعالى الشيطان على الناس إلا من عصمه الله، للمجاهدة والفتنة والاختبار، ثبت في الحديث الصحيح أنه: «ما منكم من أحد إلا وكِّل به قرينه، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير».

وموضع وسوسة الشيطان أوضحه الله تعالى بقوله ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ أي الذي يُلقي خواطر السوء والشر في القلوب، وإنما ذكر الصدور لأنها تحتوي على القلوب، والخواطر محلها القلب، كما هو المعهود في كلام العرب.

والذي يوسوس نوعان: جني وإنسي، قال الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أي إن ذلك الموسوس إما شيطان الجن، فيوسوس في صدور الناس كما تفيد الآية المتقدمة، وإما شيطان الإنس، ووسوسته في صدور الناس أنه يُري نفسه كالناصح المشفق، فيوقع في الصدر كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة، فيجعله فريسة وسوسة الشيطان الجني، وهذا يدل على أن الوسواس قد يكون من الجن، وقد يكون من الناس. وقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أي من الشياطين، ونفس الإنسان، ووسوسة الناس: إنما تكون بأن يوسوس البشر بالخداع، والدعوة إلى الباطل، فهو في ذلك كالشيطان.

لكن ينبغي أن ندرك أن وسوسة الشيطان ليست قهرية، وإنما بسبب استجابة الإنسان واختياره لها، فقد يختار الإصغاء لوسوسة الشياطين، وقد يحذر عداوتهم ووسوستهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٥] .